

عدد خاص

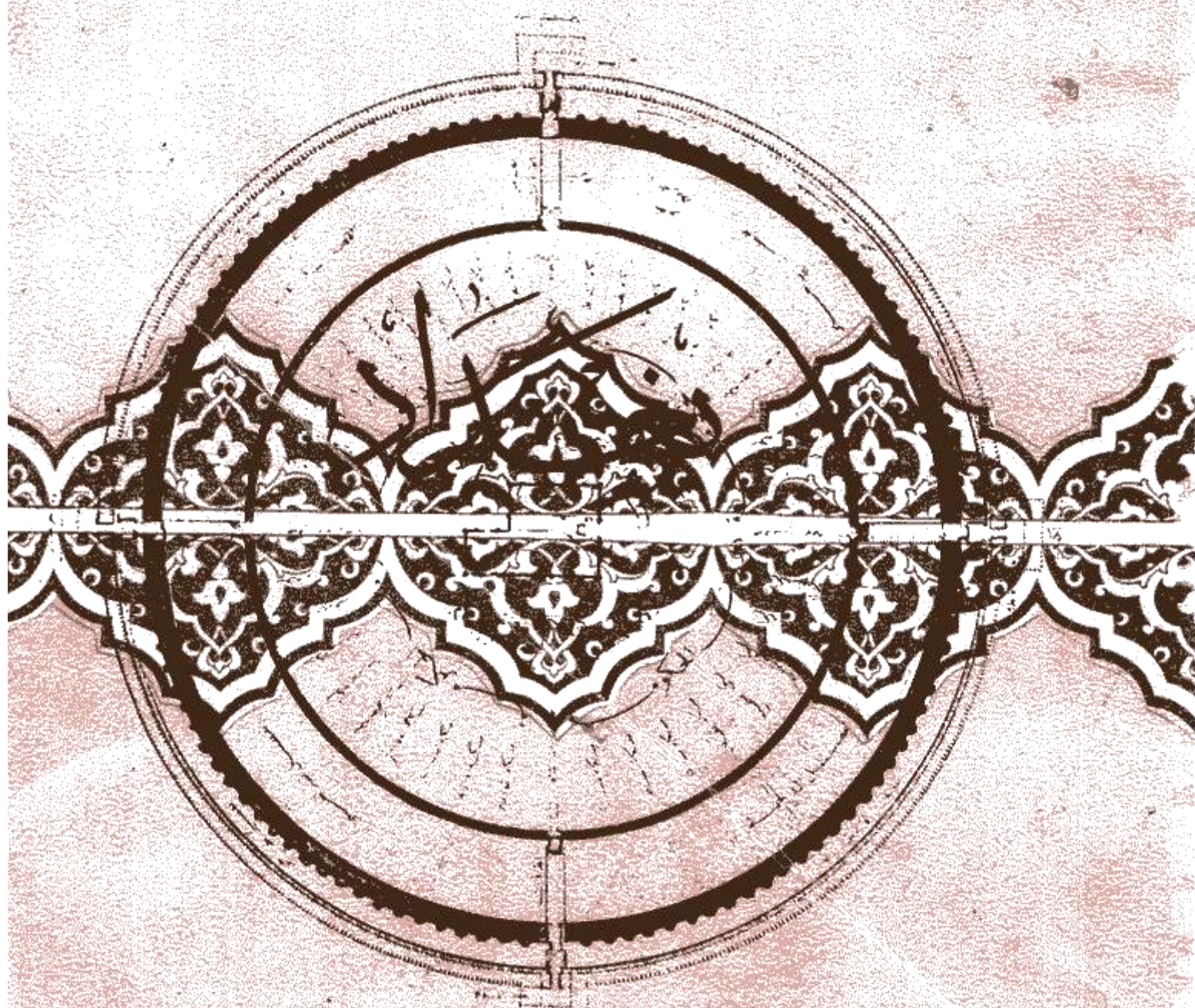
المودك

مجلة رأيية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجناح - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4



عدد خاص

عجالات



مركز بحوث كالمبيوتر علوم اسلامي



المجلد الثامن

شتاء ١٩٧٩

العدد الرابع

دار الحرية للطباعة - بغداد

١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م

كونوا معاصرين شرط أن تكونوا
أصيلين، فالمعاصرة لا تعني ابتداء
انقطاع الجذور.. كما أن استيعابها
لا يعني التفریط بترائنا الثقافى العظمى

احمد حسن البكر

٢٠٤٣٣

ملوك

مجلة تراثية فصلية



تصدرها وزارة الثقافة والاعلام
دار الجاحظ - بغداد
الجمهورية العراقية



مركز تحقيقات كمبيوتر علوم إسلامي

رئيس التحرير: عبد الحميد العلوجي

مدير التحرير: حارث طه الراوي





عنوان المجلة



✻ الاشراف الفني - عباس جبدالله

هدية المنصور الى صدام

بقلم

عبد الحميد العلوجي

رئيس التحرير

حين تنفّست الحياة بين الرّمالِ جادتْ بالمنصورِ أبي جعفرٍ
ليُقدّمَ بغدادَ طاقةَ نرجسٍ الى كلِّ عربيٍّ ..

ومع أسعدِ فجرٍ ، على درّبِ تاريخنا .. تباركَ زَيْنُ
الْخلفاءِ اذْ حاكَ معجزاتِهِ ، بين ذراعيّ دجلةَ ، من قُرى
شَتّى ، فوق عُشبٍ رآه ' يتماوجُ ' بضحكةٍ خضراءَ ..

انّه صنّعَ بغدادَ لتكونَ ، أولاً ، لسانَ تاريخٍ .. ولتكونَ ،
ثانياً ، قوّةً أرضيّةً .. ولتكونَ ، ثالثاً ، نبْعاً ذهبيّاً لحضارةٍ
تنفعُ الانسانَ .

وهو ، بهذا العزمِ ، أراد أن يقولَ للأجيالِ العربيّةِ انْ
العظيمَ ، كمثلِهِ ، خَلِقَ "بمدينةٍ عظيمةٍ كِبغدادَ ... مدينةٍ
قادرةٍ على أن تمنحَ الانسانيّةَ أكملَ حضارةٍ ، وترسّخَ على وُدِّ
خالصٍ مع الأصدقاءِ ، واستطاعةٍ خارقةٍ على دَحْرِ العُداوانِ .

وتزاحمتِ العهودُ ، بعد المنصورِ ، على بغدادَ .. محكومةً
بارادةٍ عربيّةٍ شاعتْ لها امتدادُ معاشٍ بأُسلوبٍ فاضلٍ يَتَفَجَّرُ
عَدْلاً بين شرائعِ السماءِ وقوانينِ الأرضِ . ثم تلاحتْ أقدارُها ،
على حسابٍ عجيبٍ .. اختلَّ ميزانُهُ ، في صمّتٍ ضائعٍ ، مع دواعي
التَّلَفِ والخرابِ . فكانَ للعروبةِ في قلبِ بغدادَ - منذُ اجتياحِ
المغولِ - هواجسُ موصولةٍ ظَلَّتْ تلعنُ جنونَ الغزاةِ وجشعَ
الصوصِ ، وتحنُّ - بلا هوادةٍ - الى نَسَقِها الحضاريِّ الذي
عاشتْ نهارَهُ مكاسبَ تحت الشمسِ ، وليلَهُ مؤانسةً في القمرِ ..
انّها أخذتْ تتلمسُ طريقها الى الخلاصِ ، فشاعتْ أن
تُحطّمَ أغلالها بتاريخٍ جديدٍ .. وعندئذٍ توفّرتْ على أن تبطشَ

— مَشْهُدًا وَغَيْبًا — بالشقاءِ المجلوبِ ، وتهزُّ الضميرَ المخلصَ ،
وتنفضُّ على أوْهامِ المتلكئينَ .. لكَيَّ تُعَاجِلَ الهيمنةَ الامبرياليةَ
بالضربةِ الحاسمةِ ...

انَّها أَرَادَتْ ما كانَ لها .. فكانَ لها ما أَرَادَتْ بِقيادةِ حزبِ
البعثِ العربيِّ الاشتراكيِّ .

ومن حقِّ بغدادَ ، ومن حقِّ الحزبِ ، بعد أن تعارفا بالحزنِ
والفرَحِ ، أن يجتمعا على ثورةٍ ، وأن يتعاونوا على مشاركةٍ
وجدانيَّةٍ .. فهما أدركا ، جيِّدًا ، أنَّهما كانا على مَوْعدٍ مع قَدَرٍ
بارعٍ استوعبَ كلمةَ البعثِ في حروفِ بغدادَ ، وكلمةَ بغدادَ في
حروفِ البعثِ .

واستقرَّ المطافُ ببغدادَ ، عبرَ قائدٍ قائِدٍ ، على « صدام » :
القائدِ الفذِّ الذي استطاعَ بما أُوتِيَ من تواضعٍ وقوَّةٍ ، ومن رَأْفَةٍ
وصرامةٍ ، ومن عفوٍ وغضبٍ .. أن يَسْطِيعَ بين قادةِ العصرِ ..
كما استطاعَ بما أُوتِيَ من حكمةٍ وبصيرةٍ وفطنةٍ وذكاءٍ أن يتألَّقَ
بين العدالةِ والرحمةِ ..

فهُوَ هُوَ مَنْ تَضَرَّعَ في قلبِهِ حبُّ بغدادَ .. وهو هو مَنْ
إذا تكلَّمَ مع بغدادَ ، فأنَّما يتكلَّمُ بلسانِهِ وفؤادِهِ .. وهو هو
مَنْ إذا أَرَادَ من بغدادَ شيئاً مَنَحَها أشياءَ ..

هذا ، وأكثرُ من هذا .. أتاحَ للجماهيرِ أن تنفذَ الى قلبِهِ
الكبيرِ .. تماماً كما نفَّذَ الى قلوبِها .

فهنيئاً لبغدادَ بقائِدِها المقدامِ ...

هنيئاً لها ، في عهدِهِ الأزهريِّ ، أن تكونَ العاصمةَ التي تتزوَّعُ
بِشَدَا الاقحوانِ حيالَ الصداقةِ والوفاءِ ، وأن تكونَ العاصمةَ
التي تتأجَّجُ غضباً حيالَ الأثَمِ والعدوانِ .

ومجلَّةُ الموردِ ، بهذا العددِ البغدادِيِّ ، تهتبلُ هذه المناسبةَ
النَّشَوِيَّ لتقدِّمَ الى السيِّدِ الرئيسِ صدامِ حسينِ ، ما لدارِ
الجاحظِ ، ولأُسرةِ تحريرِ الموردِ من مشاعِرَ نبيلةٍ طافحةٍ بالمحبَّةِ
والولاءِ .. مؤكِّدةً العزمَ على بَدَلِ الأَنْفَسِ في خدمةِ الحزبِ
والثورةِ ، وعلى تحقيقِ الأنفعِ والأَبْقَى على امتدادِ يومٍ وغَدِهِ ..

تخطيط مدينة بغداد

عبر العصور التاريخية « دراسة في التخطيط الحضري »

بقلم الدكتور

صبري فارس الهيتي

كلية التربية - جامعة بغداد

الموسم التجاري (لاحظ الخارطة شكل ١) ، فلما توجه المسلمون الى العراق وفتحوا السواد ، ذكر للمثنى بن حارثة الشيباني امر سوق بغداد فقصدها . (٢) وهذا يستدل منه على وجود بغداد قبل الفتح الاسلامي .

ولكن كيف وقع اختيار المنصور على هذا الموضع لبناء مدينته ؟ تذكر الكتب التاريخية ، على ان المنصور عندما تفحص موضع بغداد القديم فوجده موضع ملائم من الناحية العسكرية قال عنه « هذا موضع معسكر صالح » (٣) كما انه بعث روادا يطلبون له موقعا ، فاستشاروا عددا من الحكماء ومنهم صاحب بغداد الذي اخبر المنصور بميزات موضع بغداد التي اعجب بها المنصور حيث قال له : وانت يا امير المؤمنين « عندما تنزل في بغداد فانك تصير بين اربعة طساسيج (جهات) ، طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي ، فاللذان في الغربي قطربل وبادوريا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكواذي ، فانت تكون بين نخل وقرب الماء ، فان اجذب طسوج وتأخرت عمارته كان الاخر عامرا . وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة من الغرب ، وفي الفرات تجيئك طرائف الشام ومصر وتلك البلدان ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند

ان البحث في تخطيط مدينة بغداد ، هذه المدينة الخالدة التي يمتد عمرها الى اكثر من اثني عشر قرنا ، يحتاج الى الكثير من الجهد والاناة . وذلك لطول الفترة التي مرت على هذه المدينة ، ولتعدد الحكومات التي سيطرت على العراق بشكل عام وبغداد بشكل خاص ابتداء من ايام العباسيين حتى خروج الانكليز من العراق . وما اصاب بغداد من جراء ذلك من بناء وعمران تارة وعنت وتخريب تارة اخرى . ولسبب ذلك فان ما كتب عن هذه المدينة يحتاج الى تمحيص وتدقيق لكي يمكن الخروج منه بمادة دقيقة ومنظمة تعكس تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية . وهذا ما حاولت هذه الدراسة الخروج به .

x x x

اختيار موقع بغداد

بدا الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور في سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م في بناء مدينته المدورة المشهورة (بغداد) على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة ومجرى دجلة شمالا وسماها « مدينة السلام » (١)

وكان اسم بغداد معروفا قبل المنصور ، اذ كانت بغداد في ايام مملكة العجم قرية يقيم بها الفرس في كل سنة سوق عظيمة يجتمع بها في ذلك

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣١ ، ص ٢٥ - ٢٧ .

(٣) طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٦٧ ، ص ١٣٨ .

(١) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد الفصل في خطط بغداد ، مطبعة الجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٨ ، ص ٤٣

حتى تكامل بحضرته من اهل المهن والصناعات الوف كثيرة . ثم اختط خطتها التي رسمها له المهندس العربي (الحجاج بن ارطاة) وجعلها مدورة . (٦)

وقد خطت المدينة اولا بالرماد ثم وضعت على تلك الخطوط كرات من القطن وصب عليها النفط واشعلت فيها النار بغية ابرازها بشكل واضح ، وحفرت اسس السورين والخندق العميق المحيط بها من الخارج بحسب الخطوط الموضوع . (٧) واشتهرت مدينة المنصور في كونها مدورة ، اذ تميز بنائها بكونه مثالا لا قوى المدن المحصنة في القرون الوسطى تتجلى فيها عظمة الدولة العباسية في ادوارها الاولى .

ومع ان العقويبي يذكر بانه لم يعرف اذ ذلك في جميع اقطار الدنيا مدينة مدورة غير مدينة المنصور ، لكن المعتقد ان شكل المدينة كان تقليداً للتصميم البنائي لمدينة الحضر المدورة وذلك من حيث الشكل والمساحة . ولم تكن مدينة الحضر المدورة الوحيدة في الشرق العربي ففي جزيرة العرب مدينة مأرب باليمن كانت مستديرة ايضاً . ومع ذلك فمدينة المنصور كانت فريدة في نوعها في العهد الذي انشئت فيه بالنظر لعظمتها وضخامتها والجهود التي بذلت في انشائها . (٨)

وكانت خطة مدينة بغداد ، هي ادارة خندقاً واسعاً وعدة اسوار حول المدينة . وقد جعل المنصور لتلك الاسوار اربعة ابواب متقابلة ، فسمى الباب الشمالي الغربي « باب الشام » والباب الجنوبي الغربي « باب الكوفة » والباب الجنوبي الشرقي « باب البصرة » والباب الشمالي الشرقي « باب خراسان » وكان يسمى ايضاً « باب الدولة » .

وتعد هيئة مدينة المنصور المدورة ذات الابواب الاربعة المتساوية الابعاد ابتكاراً في الرياسة العربية ، وتبلغ المسافة بين كل باب واخر ما يقارب ٢٥٠٠ ياردة ، ويتبين لنا من ذلك ان مقدار طول قطر الدائرة الخارجية حول الخندق من باب الى باب نحو ٣٢٠٠ ياردة . (٩) وحفر حول المدينة خندق عريض وعميق ، وله مسناة محكمة

والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من ارمنية واذربيجان وما اتصل بها حتى الى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة ودياربكر وربيعة والموصل في دجلة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك عدوك . وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور ، وانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وانت قريب من النهر والبحر والجبل (٤) .

وكانت مدينة المنصور تقع بين الكاظمية من الشمال وقرية الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ جنيد والشيخ معروف الكرخي من الجنوب الشرقي وهي تقابل محلة هبة خاتون في الجانب الشرقي ، وعليه كان موضعها الصحيح قريباً من مقابر قرش (اي الكاظمية) الحالية (انظر الخارطة شكل - ٢) ، وان اكثر مواضعها اصبحت بساتين ومزارع ، ثم جرى عليها تغيير مستدام بسبب تقدم العمران وتكرار الاغراق من فيضان الفرات ودجلة مما ادى الى زوال اثارها منذ قرون عديدة واندثرت معالمها منذ عصور طويلة ، ولم يبق من مبانيها واسوارها وحوائط فصلاها وخندقها ومسناها وابوابها اي اثر . (٥)

تخطيط المدينة :

عندما عزم المنصور على بناء المدينة احضر المهندسين واهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين فمثل لهم صفحتها التي في نفسه ، ثم احضر الفعلة والصناع من التجارين والحفارين والحدادين وغيرهم . فاجرى عليهم الارزاق وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئاً من امر البناء ولم يتبدى في البناء

- (٤) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٨٧٧ ، ص ١١٩ .
- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، لبيدك ١٨٦٦ ، ج ١ ، ص ٦٨ .
- الطبري تاريخ الامم والملوك ، ليدن ١٨٩٠ ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .
- ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، نسخ وتعليق محمد بهجة الاثري ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٢٣ ، ص ٨ .

- (٥) د . احمد سوسة ، د . مصطفى جواد (وجماعتهما) ، بغداد ، مطبعة رمزي ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٢٣ .
د . احمد سوسة ، الفيضان وقرى بغداد في العصر العباسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد العاشر ، ١٩٦٢ ، ص ٣٠ .

- (٦) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
(٧) كي لسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير يوسف فرنسيس ، المطبعة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦ ، ص ٢٥ .
(٨) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد ، ص ٤٤-٤٦ .
(٩) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

دائر وهي منازل اولاد المنصور الاصغر ومنازل القرييين من خدمته وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج (التجهيزات) وديوان الاحشام (الاتباع) وديوان النفقات وديوان الصدقات (الزكاة) (١٢) . (انظر الشكل رقم ٣) .

اسوار المدينة :

ولاهمية اسوار مدينة بغداد باعتبارها احدى المعالم المهمة في المدينة ، ولانها على جانب كبير من الاهمية في اظهار الابداع في الريانة العربية ، نورد الوصف التالي لها وحسبما ورد في كتب المؤرخين والخططين العرب :-

بنيت اسوار بغداد من اللبن الكبير الحجم جداً . وقد كانت مكعبة الشكل ، يبلغ طول الضلع الواحد لبعضها (١٨ عقدة) وتزن الواحدة منها ٢٠٠ رطل ، والبعض الاخر بقدر نصف الاول وزناً وسمكاً . وان المسافات التي بين اللبن في اسوار المدينة لم تكن متصلة ببعضها البعض بالاعمدة الخشبية (على العادة المألوفة عند العرب) بل بحزم القصب . وكان في كل ساف من سافات البناء ١٦٢٠٠٠ لبنة . وكان السور الداخلي اعلى من السورين الخارجيين (١٢) وكان ارتفاع السور الكبير يبلغ ٩٠ قدماً ، وعرض قاعدته ١٠٥ قدماً ويقل سمكه تدريجياً الى ان يبلغ في الاعلى (٣٧/٥) قدماً وتتفق جميع الروايات على ان سمك السور الخارجي الاول اقل من هذا بكثير وربما كان هذا السور الذي ذكر الطبري ابعاده ، فقد ورد عنه ان عرض قاعدته ٧٥ قدماً ويقل سمكه في الاعلى حتى يبلغ ٣٠ قدماً وارتفاعه نحو (٦٠ قدماً) . كما ان الخطيب البغدادي يعطي ابعاداً اخرى للسور الكبير فيقول « وسمك ارتفاع هذا السور الداخلي في السماء ٣٥ ذراع (٥٢ر٥ قدماً) وعرض السور من اسفله نحو ٢٠ ذراعاً او ٣٠ قدماً (١٤) .

وجلب المنصور لابواب مدينته رتاجات من الحديد لا يفلق الرتاج الواحد منها ولا يفتحها الا جماعة رجال لضخامته ، فقد كان الفارس يدخل منه بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل

عالية من جهة المدينة مبنية بالآجر والصاروج وهو مادة بنائية كالسمنت في القوة واللون ، واجري فيه الماء من قناة تأخذ ماءها من نهر (كرخيا) (١٥)

وكانت في وسط المدينة رحبة مدورة واسعة لم يشيّد في بعض جنباتها بادىء الامر غير القصور والجوامع ، الا انها على توالي الايام اخذت تزدهم بالابنية نظير بقية اقسام بغداد . وكانت مساحتها نحو (٢٠٠٠ ياردة) طولاً في مثلها عرضاً يحيط بها السور المدور الداخلي بابوابه الاربعة . (*) وفي وسطها قصر الخليفة الذي بناه بالآجر وسماه (قصر الذهب) وسمى بابيه باب الذهب وانشأ مسجداً واسعاً ملاصقاً له . وكانت مساحة القصر اربعمئة ذراع في اربعمئة ومساحة المسجد مائتين في مائتين ، وكان في صدر القصر ايوان طوله ثلاثون ذراعاً وعلى سطح الايوان مجلس مثله وفوق المجلس القبة الخضراء التي كان على رأسها تمثال فارس بيده رمح ، فاذا ادار التمثال استقبل بعض الجهات ومد رمحه نحوها . وارتفاع الايوان الى اول عقد القبة عشرون ذراعاً وارتفاع المجلس والقبة الخضراء ستون ذراعاً . وقد سقطت تلك القبة سنة ٣٢٩ هـ في يوم مطير فيه ريح ، وكانت تلك القبة علم بغداد وتاج البلد ومآثرة بني العباس . (١١)

اما المسجد فقد انشأه المنصور من اللبن والطين ، وجعل لاروقته اساطين من الخشب ، كانت كل اسطوانة منها قطعتين مقببتين بالقبة والفراء وخبات الحديد إلا خمس اسطوانات اوست كانت عند منارة الجامع .

ولم يكن بالرحبة الوسطى التي فيها قصر المنصور ومسجده بناء ولا دار ولا مسكن لاحد الادارة من جهة باب الشام وسقيفة كبيرة ممتدة على اعمدة مبنية بالآجر والجص ، فكان صاحب الشرطة يجلس في الدار وصاحب الحرس يقيم في السقيفة ، وكان حول الرحبة منازل على خط

(١٠) د . احمد سوسة ، بغداد المصدر نفسه ، ص ١٩ . (*) تقول بعض المصادر بان لبغداد سوران وليس ثلاثة ، وذلك لان السور الداخلي حول الرحبة المركزية لم يكن سوراً متيناً كالتراس ولهذا فلا يعتبر سوراً للمدينة . اما السوران الاخران فهما الخارجيان وكان كالتراسين ولذا كان احدهما هو سور داخلي والاخر سور خارجي ، اما السور الداخلي فليس الا حاجزاً حول رحبة القصر والجامع انظر الخطيب البغدادي ، ج ١ ، ص ٧٢ وفي لسترنج ، ص ٢٦ .

(١١) ذكرى بن محمد بن محمود القزويني اثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢١٤ .

(١٢) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(١٣) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

(١٤) انظر : كي لسترنج ، ص ٢٧ ، البغدادي ص ٧٤ ، ابن الجوزي ، ص ٩ ، الطبري نفس المكان .

ربع دائرة . ويفصل هذه الاقسام الاربعة عن بعضها بعضاً السكك الاتية من الابواب . وكان عرض الفصيل من السور الكبير الى السور الداخلي اقل من ١٥٠ ياردة ، وطول كل ربع من ارباع الفصيل من باب الى باب ميل واحد . ويختلف هذا الفصيل عن الفصيل الخارجي الذي كان خالياً من الدور لوجود الشوارع والدروب فيه . ولم تكن مساحة الارباع الاربعة للفصيل تعدو على ثلث ميل بوجه عام (١٧) وقد بلغت مساحة المدينة ٢٦٢٢ر٣١٤ر٣١٢٦ او ٢٦١٥ مشارة وعلى هذا يكون طول قطر محيطها ٢٦١٥ متراً . وعند بدء السكك التي بين ابواب السور الكبير والسور الداخلي وعند منتهائها ، رحبة خارجية واخرى داخلية ، وعلى جانبي الطريق صفان من الطاقات ، وعلى يمين الداخل الى الرحبة طريق وعلى يساره طريق للوصول الى الشوارع والدروب .

وكانت اسواق مدينة المنصور في الطرق الاربعة وبعد اضع سنين حرقها من داخل المدينة الى ربض الكرخ التي امر ببناؤها (كما سنأتي على ذكره فيما بعد) وجعلها لاصحاب السوق والتجارة ، وهكذا خلت الطاقات من الدكاكين واتخذت مراكز لشرطة المدينة وحرسها .

ولم يسمح المنصور لرجاله ان ينوا دورهم ملاصقة للسور الكبير او سور الرحبة المركزية ، ولهذا فقد كان يلي السور الكبير حلقة عرضها ٢١ ياردة خالية من الابنية تماماً لتكون طريقاً ، كما كان قبل سور الرحبة المركزية ارضاً خالية حوله لتكون طريقاً اخر وتفاق الطرق والشوارع التي في كل ربع من الفصيل بابواب متينة قوية عند الحاجة . (١٨)

وظلت الشوارع تسمى غالباً باسماء اصحاب الدور والبساتين الذين كانوا وقت بناء بغداد ، وبنى الخليفة سجنه الكبير المسمى (المطبق) في الربع الجنوبي للفصيل ، حيث كانت الدور بين طريق باب البصرة وطريق باب الكوفة وباسمه سمي الشارع الذي يقع هذا السجن فيه . وسميت بعض اسماء الشوارع في الارباع الاخرى للفصيل باسماء سكانها وحرفهم مثل

الاول العلم ولا ان يشي الثاني رمحه . وجعل للابواب الاربعة دهاليز اربعة عظيمة كلها ازاج (اي عقود) وطول كل دهليز ثمانون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ، وعقودها من الاجر والجص . وكان إذا دخل احد الابواب وجد الدهليز على يساره ، وكان فوق كل عقد من عقود الدهليز مجلس قبة شاهقة عظيمة ، ارتفاعها خمسون ذراعاً (٢٥ متراً) فيها زخارف ونقوش . وكان يصعد الى القبة وامثالها سيراً أو ركوباً على الدواب لضخامتها وكان يربط عند كل باب الف جند مع قائد هم (١٥) . ومما يروى عن هذه العقود بان علوها غير متساو وان بعضها مبني بالجص والاجر وبعضها الاخر بالطين العظام . وعلى ظهور هذه العقود حتى اعلى السور المصعد ، وبهذا يتم الصعود الى القبة التي فوق الباب . وكانت على المصعد ابواب تغلق ، فوق كل باب من ابواب السور الكبير غرفة عليا « مجلس » تشرف على المدينة ، فيجلس الخليفة هناك اذا احب النظر الى من يقبل من تلك الناحية .

واذا دخل الداخل مدينة المنصور يعبر اولا الخندق الواقع دون السور الخارجي ، ثم يجتاز احد هذه الابواب الاربعة ، ومن كل باب تمند طريق تؤدي الى الرحبة المركزية ، وكان الخندق بعد المسناة قد اجري فيه المياه ، وفي جانب الخندق القريب من السور سدة او مسناة حول المدينة بشكل اقواس كل منها ربع دائرة تصل بين باب واخر ، وجوانب هذه المسناة مبنية بالاجر والصاروج . وكان في السور الخارجي ابراج ، فبين باب الكوفة وباب البصرة ٢٩ برجاً ، وبين كل باب من الابواب الاخرى ٢٨ برجاً فقط ، ومعنى هذا ان كل برج يبعد عن الاخر ٦٠ ياردة بناء على طول السور (١٦) .

استعمالات الارض داخل المدينة المدورة :

اضافة الى قصر الخليفة ومسجده في الرحبة الوسطى ، وقصور ابنائه والمقرين والدواوين لم يكن هناك اي بناء اخر في بادي الامر (كما سبق الاشارة الى ذلك) . اما بقية الابنية والدور فكانت في الفصيل الذي بين السورين الكبير والداخلي الذي حول الرحبة المركزية وكان في الفصيل اربعة اقسام كل منها

(١٥) د . احمد سوسة ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ١٩ .
علي ظريف الاعظمي ، مختصر تاريخ بغداد ، ص ٩ .
(١٦) كي لسترنج ، ص ٣٠ - ٣١ .

(١٧) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٠ - ٧١ .
(١٨) كي لسترنج ، ص ٣٢ .

شارع السقائين وشارع المؤذن وشارع الشرطة (١٩) .

ويمكن فيما يلي اعطاء وصفاً دقيقاً للاستحكامات الحصينة لمدينة المنصور والتي من خلالها نستطيع التأكد من أن تلك المدينة كانت من أمن الحصون العظيمة في الشرق بالقرون الوسطى

فقد كان الشخص إذا جاوز أحد الأبواب عطف على يساره فسير في دهليز أزج معقود بالأجر والجص عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون ذراعاً ، وهذا الدهليز يفضي إلى رجة مفروشة بالحصى طولها ستون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً ، ولها في جانبيها الجنوبي والشمالي حائطان متوازيان ينتهيان عند باب في آخر الرجة وهو البواب الذي يراه انداخل . وفي كل من الحائطين باب يفضي إلى فصيل عرضه مائة ذراع (٥٠ متراً) ، فمن يمين الداخل ويساره فصيلان . وهذا الباب الشاهق هو باب السور الأعظم ولذلك سمي (باب المدينة) ، مع أن الباب الأول هو باب الفصل (٢٠) . فيدخل الداخل من الباب المذكور في دهليز أزج آخر معقود بالأجر والجص أيضاً طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً ويؤدي إلى رجة مربعة عرضها كطولها عشرون ذراعاً في مثلها ، فعلى يمين الماشي (الداخل من باب خراسان مثلاً) يوجد طريق يؤدي إلى باب الشام وعلى يساره طريق يؤدي إلى باب البصرة في فصيل ثان يدور في داخل المدينة كدورة الفصل الأول ، عرضه خمسة وعشرون ذراعاً ، وفي هذا الفصل تكون أبواب سكك مدينة المنصور التي يسكنها سكان المدينة الذين أجاز لهم الخليفة الإقامة فيها ثم يدخل السائر من باب ساج كبير فردين إلى أطواق عدتها ثلاثة وخمسون طاقاً وعرض الواحد منها خمسة عشر ذراعاً وطولها مائتا ذراعاً (٢١) . ثم يخرج من الأطواق إلى رجة مربعة مساحتها عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً فمن يمينه طريق يفضي إلى فصيل ثالث ويؤدي إلى رجة مماثلة لها يسلك إليها من باب الشام ، ورجة باب الشام فيها طريق يؤدي إلى رجة ثالثة يسار إليها من باب الكوفة ومنها إلى نظيرتها الرابعة في طريق باب البصرة ، وفي الفصل الثالث تشرع أبواب لعدة سكك . وإذا خرج السائر من

(١٩) اليمقوبي، البلدان، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٥٧ ، ص ٩ - ١٠ .

(٢٠) د . مصطفى جواد ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٢١) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ - ٧٦ .

الرجة نحو الجنوب دخل في طافات صغيرة ثم دهليز وسور ثالث يخرج منه إلى رجة دائرية حول مقر المنصور المعروف بباب الذهب ومسجد المنصور . (٢٢) (لاحظ شكل رقم ٤) .

محلات بغداد المدورة :

على اثر انشاء العاصمة الجديدة ، اقبل الناس على السكن في جوارها واتسعت قرية الكرخ التي في جنوب المدينة وصارت تعرف باسم محلة (الكرخ) وهي من المحلات الكبيرة بضميرى بغداد ، والكرخ قرية قديمة كانت في بعض مواضع كرخ العباسيين وكان يمر بالقرب منها الصراة ونهر الرخيل . واتصلت عمارة الكرخ واسواقه بقرية (سونايا) الأرمية التي سميت بالعتيقة لتقدمها عصراً على مدينة المنصور ، وعرفت أيضاً بمشهدها المعروف اليوم بمشهد المنطقة بين الكاظمية وبغداد . (٢٣) وقد نقل المنصور في سنة ١٥٧ هـ الاسواق من مدينته المدورة ومدينة الشريعة إلى باب الكرخ وباب الشعر والحول وهي السوق التي تعرف بالكرخ ، وفيها وسع طرق المدينة وارباطها ووضعها على مقدار أربعين ذراعاً ، (٢٤) وذلك بعدما قدم عليه وفد ملك الروم فأمر أن يطاف بهم في المدينة ثم دعاهم فقال للبطريق ، كيف رأيت هذه المدينة ؟ قال رأيت أمرها كاملاً إلا من خلة واحدة قال ما هي ؟ قال عدوك يخرقك متى شاء وانت لا تعلم ، وأخبارك مشوثة في الآفاق لا يمكنك سترها . قال كيف ؟ قال الاسواق . فأمر المنصور حينئذ باخراج الاسواق من المدينة إلى الكرخ وان يبنى ما بين الصراة إلى نهر عيسى . ودعا المنصور بشوب واسع فحد فيه الاسواق ، كل صنف منها في موضعه . (٢٥) فكان لكل تجارة وتجار شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غيره . وكل اهل منفردون بتجارته .

ومهما يكن من امر فإن الكرخ الإسلامية . هذا الرض الواسع كان موجوداً في تخطيط مدينة المنصور . وقبل مرور قرن على ذلك اخذت الكرخ

(٢٢) د . أحمد سوسة ، فيضانات بغداد في التاريخ ، مطبعة الاديب البغدادية ، ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٢٣) د . أحمد سوسة ، الفيضان وغرق بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٣١ .

— د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(٢٤) الخطيب البغدادي ، ص ٧٩ .

(٢٥) ابن الجوزي ، المصدر نفسه ، ص ١٣ .

بالتوسع والامتداد خارج حدود نهر عيسى ، فأمتد هذا الرض الى جنوب النهر واشغل الاراضي الواقعة على جانبي طريق الكوفة مسافة بعيدة خارج بغداد (انظر الخارطة شكل) ويقدر طول الكرخ بفرسخين (الفرسخ ستة اميال) وحدها الاعلى قصر وضاح خارج باب البصرة ، وحدها الاسفل سوق الثلاثاء ، اما عرضها فنحو فرسخ اعتباراً من ضفة دجلة شرقاً الى قطيعة الربيع غرباً . وتقع هذه القطيعة على يمين الاتي من طريق الكوفة بعد مروره بباب الكرخ . (٢٦)

كما انشأت محلات اخرى عديدة من اهمها محلنا باب البصرة وباب الكوفة اللتان كانتا تقعان شمال الكرخ ، اما المنطقة التي في شمال المدينة ففيها عدة ارباض اهمها محلة الحربية في الناحية الشمالية الغربية ومحلة الشارع في الناحية الشرقية ، ومحلة باب التبن والقطيعة والتريدي في اقصى الشمال بالقرب من الكاظمية الحالية . ومن المحلات الاخرى ، محلة باب الشعير وهي فوق مدينة المنصور ، ومحلة المحول التي كانت متصلة بالكرخ وفيها سوق دخان . ومحلة بادوريا وهي محلة مشهورة ، ومحلة براثا في طرف من بغداد في قبة الكرخ (٢٧) ، ومحلة الترجمانية وهي محلة قديمة ، ثم محلة التسترين ومحلة دار القطن بين الكرخ ونهر عيسى . ومحلة الشرقية ومحلة ابو النجم . ثم محلة الشارع وهي محلة تعد من المحلات الاربع الكبرى ، والعتابية وهي محلة مهمة يصنع فيها الثياب العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الالوان (٢٨) . (انظر الخارطة شكل - ٥) .

١٩٦ هـ ٨١٢ م طبق جند المأمون على الامين في بغداد (٢٩) ، ووزح الجانب الغربي تحت ضربات المجانيق ، وتخرّب الجزء الاكبر من نصفها الشمالي المعروف بالحربية . ثم رفع الحصار عنها بعد عامين واصبحت بغداد المزدهرة خرائب ودمار لأول مرة في تاريخها ، فقد دمرت النيران احياء باكملها وأنت على سجلات الدولة . (٣٠)

ولكن يظهر ان المدينة المدورة بقيت قائمة في خلال القرن الذي تلا هذا الحصار الا أن قصر الذهب تهدم سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤١ م ، وبقي الجامع صالحاً للصلاة حتى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعد الحصار المغولي .

كما ان الفرق التكرّر من فيضان دجلة والفرات كان لها اثر في تخريب قسم من مدينة بغداد ، فقد كان يصعب صد تيار الماء في اثناء الفيضان . وقد حصل غرقاً عظيماً في سنة ٣٣٠ هـ انهدمت على اثره الطاقات في المدينة المدورة القريبة من باب الكوفة (٣١) . وفي سنة ٣٠٧ هـ رفعت بقايا قصر الخلد الذي كان في خارج الاسوار .

وفي نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، اختفت معظم مدينة المنصور عن الانظار ، اما الاقسام الباقية منها فقد تداخلت تدريجياً مع الابنية ، فألفت محلات بغداد التي قامت وراء الابواب الاربعة القديمة لمدينة المنصور وحولها .

بغداد الشرقية (الرصافة) :

تأسيسها :

كان المنصور قد عزم ان ينشئ محلة كبيرة في الجانب الشرقي من بغداد شرقي مدينته المدورة ، وقدر ذلك وعزم عليه . وقد بدأت العمارة فيها سنة ١٥٢ هـ / ٧٦٨ م وانتهت سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م . وكان يرى ان هناك ضرورة لجعل مقر ولي عهده (المهدي) وجيشه الخراساني مفصولاً عن مقر الخلافة ، ليكون مستعداً اذا اقتضت الحال لقمع كل نزاع قد ينشب بين هذا الجيش وبين جنده العربي هناك . وكانت تعرف هذه المحلة الجديدة اولاً باسم « عسكر المهدي » ،

(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية ، انتشارات جيهان ، تهران ،

ج ٤ ، ص ٨ .

(٣٠) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٦٤ .

(٣١) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

- كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٤٨ - ٤٩ .

كيف تدهورت المدينة المدورة :

يظهر من الوقائع والكتب التاريخية ان المدينة المدورة بقيت كما تركها المنصور الى وفاة حفيده الرشيد سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م . وبعد عامين من وفاة الرشيد اشتجر الخلاف بين الامين والمأمون ، وحوّرت بغداد لأول مرة في تاريخها ودام الحصار اربعة عشر شهراً . وفي حوالي عام

(٢٦) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢٧) ياسين خير الله العمري ، غاية الرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ، دار البصري بغداد ١٩٦٨ ، تحقيق للمخطوطة في سنة ١٩١٧ لنفس المؤلف ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢٨) محمود شكري البغدادي ، اخبار بغداد وما جاورها من

البلاد ، مخطوطة سنة ١٣٢٠ هـ / ورقة ٨٥ .

الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق د . جابر عبد

العال ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

سوق في الجانب الشرقي فأنشئت على جانبيه المحلات والدروب وفي منتصف القرن الخامس الهجري أنشئت المدرسة النظامية الى الشمال من دار الخلافة ثم أنشئت شمال هذه المدرسة المدرسة المستنصرية في الثلث الاول من القرن السابع. (٢٤)

وفي هذه المرحلة من تطور مدينة بغداد ، أصبح أهم العمران في الجانب الشرقي منتشراً حول دار الخلافة ، فكانت اصلاً لمدينة بغداد الرئيسية التي ظهرت في العهد الاخير . ففي مستهل حكم الخليفة المستظهر ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م شرع في انشاء سور عظيم وخندق عميق يحيطان بهذه المدينة الجديدة . ويضمن داخلها دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي انشأ حولها . وكان هذا السور هو وخندقه الخارجي يبدآن من دجلة شمالاً وينتهيان الى دجلة عند الباب الشرقي الحالي جنوباً .

وكان الشروع في انشاء هذا السور في خلافة المستظهر ، لكنه لم ينجز سوى قسم يسير منه . واكمل انشاؤه في عهد الخليفة المسترشد . فتم بناؤه بناء محكماً سنة ٥١٧هـ ، وجعل عرضه (٢٢ ذراعاً) ، وقد ظل هذا السور قائماً حتى اواخر القرن الثالث عشر للهجرة اي ما يقارب ثمانمائة عام . وفي عهد المقتفي عملت مسنة حول السور لئلا تؤثر مياه الخندق فيه ، ثم اكمل في عهد خلفائه وكان الخندق يتصل بنهر دجلة في بدايته ونهايته . وكان يسد عادة كلما دعت الحاجة الى ذلك للحيلولة دون عبور الغزاة . الا ان المياه كانت تتسرب اليه من جهة البر عندما يفيض نهر دجلة وديالى وتحديث بثوق في السداد التي في الجهة اليسرى لنهر دجلة شمالاً وفي السداد التي في الجهة اليمنى لنهر دجلة شرقاً ، فتجتمع مياه الفيضانات خلف سور المدينة فيمتلئ الخندق بالمياه وتصبح مدينة بغداد الشرقية جزيرة محاطة بالمياه من كل جهاتها .

وقد جعل لهذا السور العظيم اربعة ابواب هي : الباب الاعلى في الشمال الذي سماه الناس (باب السلطان) اي السلطان طغربك لانه دخل بغداد هناك ، وعرف في العصور الاخيرة بـ « باب

ثم سميت « الرصافة » ، والرصافة كانت تطلق على المواضع التي توجد فيها طرق مرتفعة . واول بناء شيد في هذا الجانب هو جامع الرصافة الكبير ، ثم عقب ذلك بناء قصر المهدي في جوار الجامع وأقيمت الدور والقطائع حوله . (٢٢) وقد انشئ حول المعسكر سور يدور حوله خندق عملاً بما تقتضيه الاحوال الدفاعية . وعقد المنصور جسراً فوق دجلة من جهة باب خراسان ليصل به القسم الغربي من مدينته بمحلة الرصافة الشرقية وكان يعرف هذا الجسر باسم الجسر الكبير او جسر الرصافة . (٢٣)

وصارت الرصافة وحدها بقدر مدينة المنصور ، لان من المقطعين من جعلوا قطائعهم بالجانب الغربي بساتين واسواقاً ومستغلات وغير ذلك من المرافق ، وكانت بين القطائع منازل الجند وسائر الناس من الملاكين والتجار . وكان في الجانب الشرقي اربعة الاف درب وسكة (٢٣) .

توسع الرصافة وبناء اسوارها :

كانت بغداد في اواخر القرن الثالث الهجري تشبه حلقة يحيط بها سور المستعين من كل اطرافها ، ثم اخذ العمران ينتشر في الجانب الشرقي منها فامتد جنوب السور على ضفة دجلة الى مسافة زهاء كيلومتر ، حيث اقيمت قصور الخلفاء والبساتين اللحقة بها وكان اهم هذه المنشآت قصر التاج الذي اسسه المعتضد واثم بناءه المكتفي ، ودار الشجرة والدار المثلثة التي جلس فيها الطاغية هولاء عند فتحه بغداد ، والدار المربعة ، ودار الوزارة ، والدواوين وغيرها . وصارت تعرف هذه القصور وملحقاتها باسم (دار الخلافة) . وقد اتخذها الخلفاء العباسيون مقراً لحكمهم بعد عودتهم من سامراء سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م . وقد سورت هذه الدار بسور على هيئة نصف دائرة . وقد وصفها ابن الجوزي بقوله « وهي بنفسها بلد » . وكان للسور الذي يطوقها تسعة ابواب رئيسة أشهرها باب الغربية ، وباب الخاصة ، وباب النوبى ، وباب العامة وباب المراتب . اما تاريخ انشاء سور دار الخلافة ، فهو على الأرجح ان المعتضد شرع ببنائه واثمه الخلفاء المتأخرون . واتصلت العمارات حول دار الخلافة واصبح سوق الثلاثاء اعظم

(٢٢) احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٢٣) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٢٤ .

(٢٤) انظر : كليمان هوار ، خطط بغداد ، تعريب ناجي

معروف ، مطبعة العاني بغداد ١٩٦١ ، ص ١١ - ١٦ .
- د . احمد سوسة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ص ٥٨ .

د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٥١ .

بها ممكناً الا بواسطة الاسلحة الخفيفة ، بينما الابراج العشرة الكبيرة التي في السور كان في كل واحد منها ستة مدافع او سبعة . اضافة الى وجود عدد من الثقوب بين كل ثقب وآخر خطوة واحدة . (٢٦)

محلات الرصافة :

اخذت الرصافة بالنمو والتوسع ، بحيث اصبحت تراحم بغداد الغربية في سعة قصورها وشوارعها واسواقها وعظمتها . وكما جرى للمدينة المدورة حين احاطت بها الارياض التي فيها قطاع رجال بلاط المنصور . كذلك حصل للرصافة في خلال الاثني عشرة سنة من حكم المهدي ، فأصبحت مركزاً لمدينة نشأت من الدور التي شيدها أبناء الجيل الثاني من رجال القصر . واضحت محلات بغداد الشرقية ثلاث : الرصافة والشماسية والمخرم في سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م (لاحظ الخارطة شكل - ٧) .

ومن المحلات الاخرى محلة مشهد الامام ابي حنيفة وكانت مسورة ، وجامع السلطان وهي محلة غير مسورة . وفي جوار محلة ابي حنيفة نشأت محلة باسم (محلة سوق يحيى) . كما نشأت محلتا الخضيرية شمالاً وجوار محلة الشماسية . ومن المحلات الاخرى محلة الشيخ والظفرية والى جانب الاخيرة ، محلة اخرى كبيرة يقال لها قراح ظفر منسوبة الى ظفر الخادم والترجمانية وهي من محلات بغداد المتصلة بالمرأوزة (٢٧) .

حالة العمران في الرصافة :

بعد انتصار المأمون قام بنقل مقر الحكم الى الجانب الشرقي من بغداد واستولى على مقر البرامكة السابق . وفي عهد المعتصم الذي حكم للفترة بين (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م) تنزل بغداد عن مركزها الممتاز باعتبارها حاضرة الدولة ، بسبب قيامه بنقل العاصمة الى سامراء وذلك لمدة خمس وخمسين سنة (٢٨) . وفي عهد المعتد نقل مقر الخلافة الى بغداد ، عندما هجر مقر

المعظم » وقد ظل هذا الباب حتى سنة ١٩٢٣ حيث هدم لكي يتسع الدخول الى بغداد ومحل اليوم بين قاعة الشعب وجامع الازبك على يمين الداخل الى بغداد . والباب الثاني هو « باب الظفرية » في الجنوب وهو الباب المقابل لمحطة الظفرية وما زال قائماً بقرب جامع الشيخ عمر السهروردي . والباب الثالث هو الذي كان يعرف بـ « الباب الوسطاني » و « باب الحلبة » وهو الذي عرف في العصور الاخيرة بـ « باب الطلسم » لأن في اعلى الباب تمثال رجل متربع وعلى كل يمينته ويسرته تمثال افعى عظيمة ، وعد العامة ذلك طلسمه لبغداد تحفظها من الاعداء . وقد اتخذته الاتراك في ايامهم الاخيرة بالعراق مخزناً للبارود ثم اوقدوا النار في البارود ونسفوه ليلة خروجهم من بغداد واخلأهم لها للانكليز في ١١ اذار ١٩١٧ . اما الباب الرابع من ابواب السور فهو « باب البصلية » وسمي في العصور التي قبلت الاخيرة « باب كلواذي » وقد عرف هذا الباب في العصور الاخيرة بـ « الباب الشرقي » وقد هدمته امانة العاصمة سنة ١٩٣٧ ، بعد ان كان كنيسة للانكليز ، واصبح محله في ساحة التحرير قبالة مدخل جسر الجمهورية . وكان عدا الابواب الاربعة الرئيسية هذه عدد من الابواب الاخرى السرية (٢٤) (انظر الخارطة شكل ٦) .

وفي اخر عهد الخلافة العباسية وبامر المستنصر سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م تكامل بناء سور حول الرصافة ، ومن المرجح ان هذا السور كان يقفئ اثر سور المستعين القديم في اكثر اقسامه . والظاهر انه انشئ للدفاع عن منطقة الرصافة بعد ان وصل خبر تهيو عساكر المغول للزحف نحو بغداد . وقد استفيد من هذا السور في الوقاية من خطر الفيضان .

وبعد اكثر من قرنين قام المطراقي الذي كلفه السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤٤هـ برسم السور . وفي القرن السابع عشر الميلادي وصفه تافريته الفرنسي ، وذكر أبراجه والمدافع التي فوقه وذكر ان طوله حوالي ثلاثة أميال . (٢٥)

وفي سنة ١٧٣٢ ذكر الجغرافي التركي (حاجي فلقه) في كتابه (جهاننا) ، ان محيط بغداد الشرقية يبلغ بين ١١٢٤٠٠ و ١٢٤٠٠ ذراع ، وقد ذكر ان السور كان يضم حوالي ١٦٣ برجاً واستحكاماً ، ولكن هذه الابراج لم يكن الدفاع

(٣٦) سعاد هادي المصري ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة ، مطبعة دار المعرفة ، بغداد ، ١٩٥٤ ، ص ١٤ - ١٥ .

(٣٧) محمود شكري البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٨٣-٨٩ . - د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٨ .

(٣٨) دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ - ١١ .

(٣٥) هوار ، المصدر نفسه .

الخلافة وجعل بغداد حاضرة الدولة الاولى سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م .

وعند تولي المستعين الخلافة ، حاول ان يتم السور حول الجانب الشرقي (كما سبق ذكره) ، الا انه قبل ان يتمه فاجاه المعتز على رأس جيش وبدأ الحصار على بغداد ، مما ادى الى ان يصاب الجانب الشرقي باضرار جسيمة وتخرت اهم احيائه كالرصافة والشماسية والمخرم واعيد بناء اجزاء منها فقط بعد ذلك . (٣٩)

وشهدت الفترة التي اعقبت عودة الخلفاء الى بغداد ، وقبل قدوم بني بويه ، بناء القصور العظيمة - على طول ضفة النهر - والجوامع ومنها جامع الخليفة (جامع سوق الفول) والمسجد الجامع المعروف بجامع السلطان . وكانت القصور الى جنوب باب سوق الثلاثاء في سور المدينة الذي اقامه المستعين . وهكذا فقد تضاعفت مساحة بغداد قبل مرور زمن طويل على ذلك ، وانشأت محلات جديدة حول قصر الفردوس والحسني والتاج ، واتصل بعضها بالمخرم . (٤٠) ، وبنى المستنصر بالله عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢-١٢٣٣م المدرسة المستنصرية التي لازالت قائمة وتطل على نهر دجلة .

انهار بغداد ومياه الشرب فيها

كان يروي الجانب الغربي من بغداد نهر واسع يسمى نهر عيسى العظيم ، يتفرع من الجانب الايسر لنهر الفرات شمال الفلوجة ويصب في دجلة جنوب بغداد الحالية . وكان قد انشئ عليه سد من الحجر لرفع مستوى المياه وتحويلها الى جدولين رئيسيين ، شمالي وهو نهر الصراة العظيم وجنوبي يعرف بالرغيل والذي صار يسمى في العهد العربي باسم نهر عيسى . ويتفرع نهر كرخايا من جهته اليسرى . ويتفرع الجدولان من الجانب الايسر للنهر امام السد ، ويجريان متوازيين نحو الشرق وينتهيان الى دجلة فيصان في وسط بغداد الحالية . (٤١) اما الجزء الشمالي من الجانب الغربي فكان يسقى من جدول قديم يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة في جوار بلد الحالية وسمي في العهد العربي باسم نهر دجيل وكان يتفرع من نهر بطاطيا .

ومن الانهار الاخرى ، نهر العلا وهو يستمد مياهه من الخالص . ونهر موسى ونهر القلايين اللذان يجريان في بغداد . ونهر الطابق في محلة تسمى به بالجانب الغربي قرب نهر القلايين شرفا واصل اسمه نهر بابك وماخذه من نهر كرخايا ويصب في نهر عيسى عند دار البطيخ ، ونهر الدجاج عند محلة تسمى به وهو قرب الكرخ (٤٢) . (انظر الخارطة شكل - ٨) .

اما شبكة جداول الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) ، فكان يستقي من نهر واسع يفوق كلا من انهار الجانب الغربي حجماً وطولاً ، وهذا النهر هو الذي عرف (بالنهروان) . وكان يتفرع من الجانب الايسر من نهر دجلة في جوار سامراء فيمتد بمحاذاة نهر دجلة من جهة الشرق مسافة اكثر من مائتي كيلو متر حيث كان اطول نهر عرفه العالم وقتذاك . ثم يلتقى اخيراً بدجلة بالقرب من الكوت الحالية .

وكان فرعان من الفروع لهذا النهر يمدان شبكة الانهار التي كانت تتغلغل في قلب منطقة بغداد الشرقية ، احدهما وهو الشمالي الذي كان يعرف (طسوج نهر بوق) وكانت منطقة الرصافة وما جاورها من قطائع تقع ضمن هذا الطسوج ، وكانت تروى من الانهار التي كانت تتفرع من النهروان فتؤلف شبكة من الجداول تنتشر فروعها في تلك المنطقة . وكان نهر الخالص الفرع الرئيسي الذي يمون هذه الجداول بالمياه والذي يتفرع من نهر الفضل . اما الآخر الجنوبي فكان يسمى (طسوج كواذا ونهر بين) وهو يأخذ من الجانب الايمن لنهر النهروان متجهاً نحو كواذا حيث يصب في دجلة وعليه كان يعتمد جزء من الجانب الشرقي لبغداد (٤٣) (انظر الخارطة شكل ٨) .

اما إرواء مدينة بغداد ، فبالنسبة الى المدينة المدورة ، عندما بنى المنصور مدينته لم يفكر في سحب المياه من جداول لقربها من دجلة فكانت تروتوي بماء الروايا وهي جلود تملأ ماءً فكانت تنقل الى المدينة على بغال ، ولما شعر بصعوبة نقل الماء في الروايا ورأى ما تحدثه البغال من اوساخ . امر رجلين من العالمين بمد القنوات

(٣٩) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٥٥٢ .

(٤٠) كي لسترنج ، ص ٢٧٠ .

(٤١) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٨٦ - ٨٩ .

(٤٢) ياسين العمري ، المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(٤٣) سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٢٣ .

١٦٢٣ م ، حيث استولى عليها الشاه عباس الاول الصفوي . الا ان الاتراك استعادوها مرة ثانية عام ١٦٣٨ بقيادة السلطان مراد الرابع .

وسد مراد باب الطلسم ورمم عدة اضرحة دينية ، وفي هذا العهد هبطت بغداد الى الدرك الاسفل . واستمرت بغداد من جديد مركز ولاية تركية يحكمها هي والبصرة وال واحد في بعض الاحيان . وتميزت ولاية مدحت باشا ١٨٦٩-١٨٧٢ في تاريخ بغداد بانها كانت عهد نهضة اذ تم خلالها فتح عدة مدارس واقامة منشآت ومد خط للترام تجره الخيول بين بغداد والكاظمية .

وفي الفترة الممتدة بين ١٨٧٦ و ١٩٠٩ وهي فترة حكم عبد الحميد لم تشهد بغداد من اعمال الاعمار الذي يهم التخطيط فيها سوى بعض المنجزات البسيطة ومنها انشاء العديد من المباني العامة مثل تأسيس دارين للمطالعة وحصر محلات بيع النفط ، واصلاح بعض الشوارع والازقة التي لم تكن منتظمة بل انها كانت امامرصوفة بالحجارة او طرقات طينية . (٤٦)

وللاحاطة بحالة بغداد العمرانية يمكن استعراض بعض الاقوال التي ذكرها الباحثون في كتبهم ، وكذلك ذكر اهم المعالم الانثارية والحضرية التي لا زالت تحتويها مدينة بغداد .

ففي سنة ١٢٥٨ م ، لم يبق من الجانب الغربي الا محال متفرقة اعمرها الكرخ ، وخرب الجانب الشرقي من الشماسية الى المخرم ، وخرب السور (٤٧) .

وفي سنة ١٣٣٩ م كانت بغداد الشرقية والغربية محاطة بالاسوار ، ولسور المدينة الشرقية اربعة ابواب ويمتد من ضفة النهر الى ضفته في اسفل السور على هيئة نصف دائرة . ولسور الربض الغربي (الكرخ) بابان .

وكانت حالة بغداد بين ١٥٦٣-١٥٧٤ كما شاهدها caesar Federigo وكذلك راوولف ، قليلة البهجة وابنيته ليست مشيدة بصورة جيدة ،

(٤٦) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ - ١٥ .

- عباس الغزالي ، تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ، ١٩٤٩ والجزء الثامن ١٩٥٦ .

- جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميدي ، ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب / جامعة بغداد ، ص ٢٥٤ - ٢٥٨ .

(٤٧) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ، مرصد الاطلاع ، لندن ، ١٨٥٢ ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

بان يمدا قناتين من دجلة الى داخل المدينة . (٤٤) . وامر ايضاً بمد قناة من نهر دجيل وقناة من نهر كرخايا وجرحها الى المدينة في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالاجر والصاروج من اعلاها وكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع فضلاً عن الاربابض خارج المدينة . وتجري صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت من الاوقات . (٤٥)

تخطيط بغداد منذ الفتح المغولي ١٢٥٨ م وحتى الوقت الحاضر :

للاطلاع على حالة التخطيط في بغداد منذ نهاية العصر العباسي ، ودخول المغول وحتى الوقت الحاضر ، لابد من استعراض موجز لحالة الادارة التي كانت في هذه المدينة . ففي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨ م وصل هولاكو وجنوده الترك والمغول الى بغداد ووجد المستعصم نفسه مضطراً الى التسليم دون قيد ففتحها المغول ونهبت المدينة واحرقت ولكنها لم تخرب باسرها كغيرها من المدن التي فتحوها لانهم كانوا يريدون ان يتخذوا منها عاصمة لهم .

وظلت بغداد بعد احتلال هولاكو تتقاذفها امواج الحروب فتتناوبها ايدي الحكم من احتلال الى آخر زهاء اربعة قرون متتالية الى ان احتلها السلطان مراد الرابع في سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨ م . فقد حكم فيها الالبخانيون اخلاف هولاكو ٨٢ عاماً . ثم عقبهم الجلائريون الذين حكموا البلاد ٥٧ عاماً ، وبنيت في ايامهم المدرسة المرجانية . وفي ايامهم استولى تيمورلنك على بغداد مرتين الاولى عام ١٣٩٣ م ولم يلحق بالمدينة ضرر ، والثانية عام ١٤٠٢ م حيث ذبح اهلها وخربت المساكن والمنشآت العامة . ورجع احمد الجلائري عام ١٤٠٥ م الذي احكم الاسوار (بقدر استطاعته) التي دمرها تيمور ، ولم ينقض سوى ست سنوات حتى قتله قره يوسف امير دولة الخروف الاسود التركمانية ، واستولى رجاله على المدينة وظلت بحوزتهم حتى عام ١٤٦٨ م . الى ان انتزعها منهم تركمان الخروف الابيض ، وفي سنة ١٥٠٨ م غزا الشاه اسماعيل الصفوي بغداد وظلت بحوزة الصفويين حتى عام ١٥٣٤ م . حيث احتلها الاتراك بقيادة سليمان الاول ، وظل يحكمها حتى عام

(٤٤) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٥٩ .

- سوسة ، ص ٩٣ - ٩٤ .

- البغدادي ، ص ١١٢ .

(٤٥) محمود شكري البغدادي ، ورقة ٢٢ .

وتظهر فيها الازقة الضيقة والبيوت المتهدمة وكثير من الجوامع الخربة التي استحال لونها الى اسود قاتم نقشت على احجارها الكتابات العربية. ومن الاماكن التي تستحق الرؤية مقر الباشا التركي والسوق الكبير ودكاكين التجار ، اما حماماتها فهي اكثر رداءة من حمامات طرابلس والاسكندرية (٤٨) .

اما في الفترة بين ١٦٣٢-١٦٣٨ ، فان من الذين وصفوا بغداد هو الفرنسي تافرينيه الذي مر بالعراق اثناء ذهابه الى الهند ، وتبين من وصفه ، انها كانت في جانبها الشرقي محاطة بسور من الاجر يبلغ طوله نحو ثلاثة اميال ، وتقدر مساحة الارض التي كانت عليها الدور بالف وخمسمائة خطوة طولاً وسبعمائة او ثمنائة خطوة عرضاً (٤٩) .

اما في الفترة بين ١٧٣٢-١٧٥٠ فقد كتب كارستين عن بغداد إذ ذكر ان مقر الحكومة التركية في الولاية كان في بغداد الشرقية ويحيط السور بالمدينة .

وفي سنة ١٧٦٤ وصف نيبور بغداد الحديثة حيث ذكر ان الازقة لا زالت ضيقة وقذرة ومرتفعة ، وان الدور متألفة من عدة طوابق واطرافها محاطة بالجدران وقد غرس في وسطها بعض النخيل وتؤثر اشعة الشمس النازلة على هذا (الحوش) في مضاعفة الحرارة . فيحتاج المرء هناك الى الغرف الصيفية الباردة والمبنية تحت الارض (السرايب) . وتكون سقف هذه الغرف مغطاة بصورة تامة ومبنية على عمق اربعة او خمسة اقدام تحت الارض وتتصل بواسطة الدهاليز الهوائية المفتوحة على استقامة الشمال ويجري الهواء البارد في هذه الدهاليز وهذه المحلات مفروشة بصورة حسنة .

وكانت استحکامات مدينة بغداد قوية جداً . وكان عدد الجوامع ذات المنائر فيها يبلغ عشرين ، اضافة الى وجود كثير من المساجد الصغيرة . وكان في المدينة وضواحيها حينئذ (٢٢ خاناً) ولكن سنة او سبعة منها فقط كانت مشغولة من قبل التجار الكبار ، كما يوجد فيها كثير من الحمامات العامة (٥٠) .

(٤٨) سعاد العمري ، ص ١٦ - ١٧ .

(٤٩) سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٩٢ .

- العمري ، ص ١٠ .

(٥٠) د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٥٢ .

اما حالة بغداد في عام ١٨٣٠-١٨٣١ ، فقد كانت على الرغم من تعرضها للتهديم ، ذات أسوار احسن حالا من المدن الاخرى في دول مجاورة . اما ازقتها فكانت ضيقة وعرضها على الاكثر تسعة او عشرة اقدام . وكانت ابنيته متصلة وليس فيها شبابيك ، وللبوت ابواب جميلة ، واكثرها لطيفة جداً من الداخل كما فيها الشرفات والاطواق الكثيرة المطلة على الشارع حيث يجلس هناك الناس . وتقع الميادين العامة بالمقاهي الكثيرة حيث يجلس فيها كثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة .

اما بغداد في سنة ١٨٦٤ فكانت تتميز كما وصفها Peterman في كتابه (رحلات في الشرق) بكون القسم الاكبر منها واقع في الجانب الايسر ، ومحاط بسور عال متهدم في كثير من المواقع وفيه خندق عميق وجاف . وتحوي المدينة على الكثير من الجوامع الجميلة ذات القباب والمنائر المزينة بالطابوق الملون اللامع . وتتميز ازقتها بان اكثرها ضيقة وممتلئة بالزوايا المفروشة بالحجر ، بحيث يصعب السير فيها اثناء هطول الامطار ، واسواقها بعضها مسقف .

وكانت الدور تبنى وفق طراز خاص من البناء ، إذ كانت الدار تحتوي على حوش واسع في القسم الايمن مطبق بالكاشي ، وهول مفتوح يسمى (بالايوان) وبجانبه غرفتان تحتتهما سرداب كبير . وفي مدخله باب يصل الى المطبخ عبر (هول) صغير وفي الوسط مقابل باب الدار تقريباً يوجد ايوان ثان كبير (٥١) .

اما حالة المدينة حتى عام ١٩١٧م ، فقد تعرضت المدينة الى فيضانات خطيرة في سنوات ١٨٨٤ و ١٨٩٤ و ١٨٩٦ و ١٩٠٧ و ١٩١٥م . يضاف الى ذلك ضعف الادارة واضطراب الامن . وفقد سور المدينة اهميته وازيلت المسنة لاستعمال حجارتها في الابنية ثم دفن الخندق وبقي السور الترابي ، وصار يعرف بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧ ب (سدة المدينة) .

ثم جاء عهد الاحتلال البريطاني ، فلم تكثر بريطانيا الامر وللخراب الذي اصاب بغداد ، فاستمر الامر على حاله ، ومعه بغداد مستمرة على حماية نفسها بالطرق العلاجية الوقائية باعتمادها على السداد الترابية . وقامت السلطات العسكرية المحتلة بتحكيم السور القديم الذي

(٥١) العمري ، ص ٨٤ - ٨٨ .

صار يعرف باسم (السدة الشرقية) . يضاف الى ذلك انشاء سداد جديدة لحماية المحلات العديدة في بغداد مثل البتاوين والعلوية والكرادة الشرقية والزوية ومعسكر الرشيد والرستمية والزعفرانية . وخلال الفترة الممتدة بين ١٩١٩ و ١٩٥٤ تعرضت بغداد الى تسعة فيضانات غرق قسم من بغداد في بعض منها . (٥٢) اما عن الاهتمام الانكليز بالجوانب العمرانية والتخطيطية لبغداد فلم يكن يذكر لشدة اهمالهم لهذا الجانب وتأكيدهم على امور السيطرة على البلاد وابتنائها .

وفي نهاية هذا البحث ينبغي ان تؤكد على ضرورة الاهتمام الكبير بالموروثات الحضارية التي لازال بعضها شاخصاً حتى الوقت الحاضر في مدينة بغداد ، ومنها البيوت الكبيرة ذات الطراز العربي الاصيل ، والمدارس والجوامع ، والاسواق بحيث يمكن تحويلها الى اماكن سياحية تعكس اصالة الحضارة العربية ، او تلك التي تحتاج الى احياء كما لو انها لازالت قائمة حتى الوقت الحاضر ومنها سور بغداد وابوابه خاصة وان هذا السور توجد عنه العديد من المصورات والرسومات التي

يمكن الاستفادة منها . وفي الخارطة شكل (٩) يمكن ملاحظة بعضاً من هذه المواضع التي توجد فيها بعض تلك الموروثات الحضارية . وذلك لان الاهتمام بها خدمة لامتنا العربية الجيدة ، ومتعة لاجيالنا والسواح الاجانب الذين يرتادون بلادنا . ومما يلاحظ على مدينة بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ، انها شهدت توسعاً كبيراً في العمران . ونمواً مضطرباً في عدد السكان اذ ازداد عددهم من مليون نسمة عام ١٩٥٧ الى حوالي ثلاثة ملايين عام ١٩٧٧ بسبب الهجرة السكانية من جميع المحافظات الى بغداد ، وقد سحب ذلك ظهور احياء جديدة وعلى الاخص بعد فتح قناة الجيش في عام ١٩٦١ ، اذ ادى الاجراء الاخير الى توزيع العديد من القطع السكنية على المواطنين على جانبي القناة التي يبلغ طولها ٢٣٧ كم (٥٣) . يضاف الى ذلك التوسع الافقي الكبير لمدينة بغداد في جانبيها الشرقي والغربي ، مما جعلها مدينة تفتقر الى الكثير من الجوانب التخطيطية التي تتوفر في المدن العالمية الكبرى .

(٥٣) صالح فليح الهيبي ، تطور الوظيفة السكنية لمدينة بغداد الكبرى ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٧ - ١٢١ .

(٥٢) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ١١٨ - ١١٩ .

عِمَارَاتُ بَغْدَادَ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ

خالد خليل الأعظمي

بغداد - الجمهورية العراقية

خصائص مميزة من حيث التصميم والخراج الفني .
ومن حيث الموضوعات والاساليب الزخرفية . وبصورة
عامة نجد ان العمارة وزخرفتها في العصر الاسلامي
قد اتسمت بطابع واضح ينطق بوحدة التعبير الفني
مظهرها وجوها رغم اختلاف الاقطار الاسلامية
وتتابع العصور .

وفي الحقيقة ان العمارة الاسلامية خضعت في
في نشأتها وتطورها الى عوامل كثيرة من اشهرها
وابرزها هي :

- ١ - العوامل الدينية التي تمثلت في تخطيط وعمارة
المساجد والمدارس والاربطة والابنية الاسلامية
ال اخرى ، والتي انبثقت منها نظم تخطيطية
لم تكن معروفة من قبل .
- ٢ - العوامل الجغرافية والطبيعية للاقطار
الاسلامية ، حيث كانت لبعض العماائر اهداف
وفوائد مقصودة ، كبناء الخانات في الطرق
التجارية ، واقامة الاربطة عند حدود الدولة
الاسلامية .

اما بالنسبة لمواد البناء فنجد استعمال
الاجر في الاقطار والاقاليم التي تتوفر فيها مادة
الطمي والطينة الجيدة كما في العراق ومصر
وايران . بينما استعملت الصخور والاحجار
في بلاد الشام والحجاز حيث يمكن الحصول
بسهولة على هذه المادة هناك .

- ٣ - العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .
فقد بنيت عماائر متنوعة تبعا لوضع الدولة
في حالات السلم والحرب ، كبناء المدن والقصور
المحصنة والاسوار والقلاع . وكذلك اقامة

ولدت الفنون الاسلامية ونشأت على اثر ظهور
الاسلام وانتشاره ، وقد نهضت وتطورت في خدمة
هذا الدين الجديد ، والمجتمع الجديد ، والدولة
الجديدة .

كانت هناك فنون عديدة سابقة للاسلام مثل
الفنون الساسانية والبيزنطية والهلنستية والقبطية ،
اقتبس المسلمون منها ما هم بحاجة اليه وما يتناسب
مع دينهم ويلائم ذوقهم الفني ، و اضافوا الى ذلك ما
ابتكروه من عناصر واشكال جديدة ، ومن هنا كانت
من مميزات الفنون الاسلامية تنوع مصادرها تنوعا
كبيرا ، واتساع افق الاقتباس والاشتقاق فيها
اتساعا كبيرا . على ان الفنون الاسلامية عموما تمتاز
في الوقت نفسه بوحدة التعبيرات الفنية التي
مصدرها هو ان المسلمين - عربا أم عجم - اصبحت
لهم قدرة فائقة على تحوير العناصر المشتقة
وتشكيلها باشكال جديدة لم تكن معروفة او متبعة
من قبل ، وادخلوا عليها من الخصائص الفنية ،
وابتكروا من الاساليب ما يطبع بطابع خاص يعبر
عن وحدة الخيال الفني ، ووحدة التفكير والمزاج
والالهام ، وكانت العمارة اول حقل ظهرت فيه تلك
المواهب الفنية عندما نشأت من ذلك البناء البسيط
الذي اقامه الرسول (ص) في المدينة حيث بنى
مسجده الذي اصبحت نظام بنائه نموذجا للمساجد
الاسلامية . ولا يكاد بناء من الابنية الاسلامية الا
ونجد فيه عنصرا من العناصر المتكررة الجديدة .
وكانت الفكرة الاسلامية الانشائية الرئيسية فسي
تخطيط وتصميم العماائر بصفة عامة هي فكرة
الاتساع الافقي وقابلية الامتداد حيث الغضاء الشاسع
الذي تحدده المرتفعات . اما الزخارف المعمارية
الاسلامية فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا واتخذت لها

عمائر لطبقة الاثرياء والحكام تختلف عن ابنية عامة الناس(١) .

يمكننا القول بان العمارة الاسلامية قد اكتملت شخصيتها وبلغت اوج تقدمها خلال العصر العباسي، وهذا ما نلاحظه في الابنية الباقية ببغداد من ذلك العصر . اذ هي رغم قلة عددها لكنها تعكس السمات البارزة للعمارة والزخرفة آنذاك وتدل على خبرة واسعة في التخطيط والبناء ، وعلى مقدرة ودراية في اختيار المواد المناسبة وحسن استعمالها ، وعلى براعة في تكييف تلك الابنية وفق متطلبات الظروف المناخية للقطر . وهي مع ذلك تحتفظ بزخارف تدل على ذوق رفيع وعلى مهارة في ابداع الاساليب الفنية وتنسيق الاشكال الزخرفية .

ان هذا العدد القليل من العمائر الذي وصلنا من الفترة العباسية ليدعو الى الاعتزاز لما تميز به من مظاهر وخصائص جديرة باستلهاام الافكار منها .

ويجدر بنا قبل الكلام عن العمائر العباسية القائمة ببغداد ان نشير ولو بايجاز الى مدينة السلام التي اسسها الخليفة المنصور وجعلها دائرية الشكل، وان نتطرق الى بعض الاشارات التاريخية وما ورد في المراجع العربية عن الابنية البغدادية ، لنستخلص منها بعضا من ميزات العمارة العباسية ببغداد التي لم يصلنا مثال قائم عنها .

اشارت كتب المؤرخين والرحالة بصورة مفصلة الى تاريخ بغداد وتأسيسها وخططها واسوارها ومداخلها ووصفها ، حتى ليستطيع المرء ان يرسم صورة واضحة عنها في عهد مؤسسها المنصور الذي جعلها مدورة لئلا يكون بعض الناس فيها اقرب اليه من البعض الاخر . وقد اصبح اختيار الشكل الدائري لهذه المدينة موضع نقاش طويل بين العلماء والباحثين ، فسار البعض على النهج الذي وضعه معظم المستشرقين في محاولاتهم نسبة كل جديد وكل ابتكار في الحضارة العربية الاسلامية الى العهود القديمة السابقة للاسلام ، فتوصلوا الى امثلة قليلة عن مدن مدورة الشكل تقريبا ، كما توصلوا الى ان هذا التخطيط الدائري له مزايا حربية وفيه اقتصاد في نفقات البناء بالنسبة لاي تخطيط آخر . ولكن الباحث يلاحظ في تلك الاراء امورا لا تؤيدها من ابرزها : ان امثلة المدن المدورة السابقة لبغداد كانت في عهد المنصور جميعها اطلالا مندثرة لا حياة فيها

اضافة الى كونها بعيدة المنال نائية عن موقع الانظار ، ثم ان تلك المدن لم تكن مدورة تماما بل كانت شبيهة بذلك ، هذا بالاضافة الى كونها مدنا محصنة ذات اسوار وابراج فكانت استدارتها من متطلبات فكرة التحصين(٢) .

ان اهمية تخطيط بغداد تكمن في جوهرها اكثر من مظهرها ، وان هذا التخطيط نموذج واضح رائع من اهم نماذج تخطيط المدن التي عرفت في لتاريخ كما انه ليس لهذا التخطيط نظير في أي مدينة سابقة للفتوحات العربية الاسلامية اذ هو تخطيط مبتكر من قبل الخليفة المنصور وحققه ونفذه اتباعه من المهندسين واهل المعرفة(٣) .

ان لفكرة السائدة في انشاء المدن الاسلامية الاولى هي ان يقام في مركزها المسجد الجامع ودار الامارة وبيت المال ثم تبنى المنازل حولها ، وهذا ما سار عليه المنصور ، ولكن الفكرة الجديدة في تخطيط بغداد هو ان يتساوى البعد بين المركز الذي فيه قصر الخلافة وبين جميع اطراف المدينة ، وهذا ما لم يحدث قبل بغداد . والناحية الثانية هي اننا لم نلاحظ في غير مدينة بغداد ان انبثقت من مركزها طرق مستقيمة ممتدة الى الاطراف . والناحية الثالثة هي تقسيمها الى اربعة اقسام متساوية بين كل واحد منها وآخر صفا من الطاقات تمتد من وسط المدينة الى المداخل الاربعة في سورها ، وكل قسم منها قائم بذاته تتناسق فيه الشوارع والدروب والمنازل وهذا مما لم يراعى في اية مدينة اخرى . والناحية الرابعة في مبتكرات تخطيط بغداد هي اكتفاء كل قسم من اقسامها الاربعة اكتفاء ذاتيا ، حيث المساجد والحمامات في كل ناحية ومحلة ، كما ويوجد سوق تجمع التجارات فيها(٤) .

بنى الخليفة المنصور المسجد الجامع في وسط المدينة المدورة وكان بسيط البنين ، حيث استعمل في بنائه اللبن والطين واساطين الخشب . والى جوار

(٢) انظر عن ذلك : يعقوبي : البلدان (العراق - ١٩٥٧) ص ٦ .

الطبري : تاريخ الرسل والملوك (ليدن - ١٩٦٤) ج ١ . ص ٢٧١ - ٢٧٩ .

الغضيب البغدادي : تاريخ بغداد (القاهرة - ١٩٣١) ج ١ ص ٦٦ - ٦٧ .

البلاذري : فتوح البلدان (ليدن - ٨٦٦) ص ٢٨٧ . دائرة المعارف الاسلامية : مادة بغداد (طبعة سنة ١٩٢٣)

(٣) شافعي : المرجع السابق ص ١٨٣ . فكري (الدكتور احمد) : اهمية تخطيط بغداد في تاريخ البلدات ، مجلة الاقلام (بغداد) ج ١ (ايلول - ١٩٦٤) ص ١٠٤ .

(٤) فكري : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(١) شافعي (الدكتور فريد) : العمارة العربية في مصر الاسلامية (عصر الولاة) المجلد الاول ، مصر (١٩٧٠) ص ٢٣١ - ٢٩٢ .

جدارية متنوعة منها جصية ومنها بالالوان المائية ومنها بالواح القاشاني ومنها باحجار الرمرور الخام .

شاركت عوامل كثيرة في خراب واندثار الابنية الكثيرة المشهورة التي اقيمت في بغداد خلال العصر العباسي ، ولم يبق غير قليل منها يرجع تاريخها الى الفترة المتأخرة من العصر العباسي اي الى حوالي القرن السادس والسابع بعد الهجرة (القرن الثاني عشر والثالث عشر بعد الميلاد) ، وهذا العدد القليل هو الاخر لم يسلم من يد الاعتداء والتجاوز وعوامل التخريب والتشويه ، على ان العناية والرعاية قد تداركت ذلك فبذلت جهود كبيرة من اجل المحافظة عليها وترميمها وصيانتها بما يكفل محافظتها على صورتها الاصلية .

ان اقدم الابنية العباسية القائمة ببغداد هو احد مداخل سور الجانب الشرقي ويعرف باسم « باب الظفرية » ومن المعلوم ان هذا السور بني في عهد الخليفة المسترشد بالله الذي حكم في الفترة بين سنة ٥١٢-٥٢٩ هجرية (١١١٨-١١٣٥) ميلادية (١١) . وهو عبارة عن برج اسطواني الشكل ضخم ومرتفع تتصل به قنطرتان احدهما تربطه بالمدينة والثانية تربطه بخارج المدينة ، وقد فتحت في جوانب الجدران واعاليها مزاغل للرماية ، هذا وزينت واجهة المدخل المطل على المدينة بزخارف هندسية ونباتية بينما احاط بالبرج من الخارج شريط من كتابة تذكارية ، ان هذا المدخل يعتبر خير نموذج للمداخل المنحنية التي استخدمت في مدينة المنصور المدورة والتي فقدت آثارها ومعالمها الآن .

ومن الآثار التي تعود الى العصر العباسي ثلاث مآذن كانت تابعة لمساجد مشيدة بجوارها ، واقدمها مئذنة مسجد الحظائر (يعرف حاليا جامع الخفافين) الذي شيد من قبل زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩ هجرية (١٢٠٢ ميلادية) (١٢) ، وقوامها قاعدة مثمثة يعلوها بدن اسطواني الشكل ينتهي بمقرنصات تحمل شرفة لوقوف المؤذن ، ويقوم فوقها عنق المئذنة وهو اسطواني الشكل كذلك لكنه يقل عن البدن في قطره وطوله ، ثم تنتهي المئذنة في أعلاها برأس مدبب او

هذا المسجد بنى المنصور قصره المعروف بقصر باب الذهب او قصر القبة الخضراء حيث اقيم فيه ايوان كبير مرتفع تعلوه قبة على رأسها تمثال فارس بيده رمح (٥) ، ومن المحتمل ان تكون هذه القبة قد كسيت بالواح القاشاني الاخضر او الاجر المزجج باللون الاخضر فاصبحت توصف بذلك .

توسعت بغداد حتى عبرت الى الجانب الاخر من نهر دجلة فسمي الجانب الغربي منها « الكرخ » واطلق على الجانب الشرقي اسم « الرصافة » وازدهرت المدينة بجانيها ، وبنيت فيها قصور وابنية كثيرة ذكرت اسماءها المراجع العربية ولكنها اغفلت وصف عمارتها وزخارفها . على انه وصلنا وصف موجز عن بعضها . وفي قصص الف ليلة وليلة اشارات عديدة عن بعض القصور الفخمة التي زينت جدرانها وسقفها بزخارف ذهبية وملونة والتصاوير المتنوعة (٦) . واشارات، بعض الكتب الادبية السى مجلس انشاء الخليفة الامين ابن هرون الرشيد كان فيه ايوان صورت فيه التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وابوابه ، وجعل كالبيضة بياضا (٧) . وذكر ايضا ان قصر المعتصم ببغداد كان له ايوان منقوش بالفسيفساء وفي صدره صورة عنقاء (٨) . كما وذكر ان احد الاغنياء بنى دارا زينت بالنقوش والصور الذهبية والكتابات التذكارية (٩) ، وأشار الرحالة الى قصر الخليفة المستنجد بالله الذي كان واسع الارجاع فيه الرخام والاساطين المزوقة بالذهب والمزينة بالحجارة النادرة والمنقوشة بالرياسة البديعة تكسو الحيطان (١٠) .

ان هذه الامثلة القليلة التي اوردتها المراجع القديمة تدل على ان الخلفاء والاثرياء من الناس قد تفننوا في بناء العمائر والقصور الفخمة من حيث البناء والزخرفة . وتدل ايضا على استعمال زخارف

- (٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .
- (٦) الف ليلة وليلة ، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة المدوي (مصر - بولاق ١٢٧٩ هجرية) ج ٤ ص ٣٠٢ ، ٣١٤ .
- (٧) ابن المعتز : طبقات الشعراء (القاهرة - ١٩٥٦) ص ٢٠٩ .
- (٨) المرباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (مصر ١٣٤٣ هجرية) ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
- العسكري : الصناعتين : الكتابة والشعر (مصر - الطبعة الثانية) ص ٤١٨ - ٤١٩ .
- (٩) ابن الجوزي : المنتظم (حيدرآباد - ١٣٥٧ هجرية) ج ١٠ ص ٨٠ - ٨٢ .
- (١٠) بنيامين : الرحلة (بغداد - ١٩٤٥) ص ١٢١ - ١٢٢ .

- (١١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٥ . ابن الجوزي : مناقب بغداد (بغداد - ١٣٤٢ هجرية) ص ١٧ .
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ (ليدن - ١٨٧٠) حوادث سنة ٤٨٨ ، ٥١٧ .
- (١٢) جواد (الدكتور مصطفى) : عمارات القرن السادس الصفحة ، مجلة سومر م ٢ (١٩٤٦) ج ١ ص ٦٥-٧٢

قمة تشبه القبة الصغيرة . وهذه المئذنة تمتاز بتناسق اقسامها واجزائها تناسقا بديعا يدل على ذوق رفيع وبراعة في بناء المآذن مما جعلها تترك اثرا بالغا في طراز المآذن البغدادية عموما . والمئذنة الثانية تقع في مسجد الجنائز المعروف حاليا جامع الشيخ معروف وقد كتب عليها تاريخ بنائها في سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ ميلادية) وهي تشبه سابقتها مع اختلاف قليل في شكل المقرنصات وزخارفها اما المئذنة الثالثة فهي مئذنة مسجد قمرية الذي بناه الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٦ هجرية (١٢٢٨ م) (١٢) وهي تختلف عن سابقتها من حيث ارتكازها على قاعدة مربعة ووجود بدن اسطواني ضخم فوقها وبساطة مقرنصات شرفتها ونحافة عنقها بشكل يوحي الى انها قد تعرضت لاصلاحات وترميمات عديدة .

ومن العماائر العباسية التي بنيت خلال فترة نفوذ السلاجقة الابنية التي تقام بجوار اضرحة العلماء والاولياء واصحاب النفوذ والسلطان . ويوجد مثال عن ذلك في بغداد ينسب الى زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله وعرفت تسميته حاليا بالسبت زبيدة زوجة هارون الرشيد وهذا ما لا تؤيده الشواهد التاريخية والادلة الاثرية وعناصر البنيان وشكله (١٤) . والبنية المذكورة عبارة عن حجرة صغيرة مثمثة الاضلاع يقع مدخلها في احد اضلاعها ، ويقوم فوقها قبة مخروطية مقرنصة الشكل ويصل الارتفاع الكلي لها حوالي «١٣» مترا ، وسطوح الجدران من الداخل مغطاة بالجص بينما من الخارج تظهر مزينة باشكال عقود مدببة تعلوها مساحات مزخرفة بالاجر .

وتوجد في بغداد بناية تعرف حاليا بالقصر العباسي تعتبر من روائع التراث العربي الاسلامي في العمارة والزخرفة ، ورغم ان تاريخها وحقيقتها غير معروفين تماما الا انه يوجد اريان بارزان عنها احدهما يقول بانها « دار المسناة » التي بناها الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٦ - ٥٨٠ هجرية = ١١٨٠ - ١١٨٤ ميلادية) والراي الاخر يرى بانها « المدرسة الشرايية » التي بنيت في حدود سنة ٦٢٨ هجرية (١٢٣٠ ميلادية) (١٥) ورغم عدم التوصل

الى نص صريح او ادلة قطعية الا ان الراي الاخير الذي يعتمد على وجود تشابه كبير بين هذه البناية وبين المدارس الاسلامية عامة والعباسية القائمة ببغداد مثل المستنصرية من حيث التخطيط والعمارة والشكل العام والمعزز كذلك بالشواهد التاريخية كل ذلك يجعله مرجحا على غيره . والبنية المذكورة عبارة عن مجموعة من الحجرات ذات طابقين تطل على ساحة مكشوفة في جانب منها بين الحجرات ايوان كبير يقابله مسجد ويقع خلف الحجرات رواق يتقدم قاعات كبيرة مرتفعة ويقع مدخل البناية في الضاع الجنوبي الغربي حيث يؤدي الى ممر افقي طرف منه يؤدي الى القاعات الكبيرة والطرف الاخر الى الساحة الوسطية ، ويتقدم الحجرات الصغيرة المطلة على الصحن رواق مزخرف بمقرنصات بديعة التكوين والنقوش . كما زينت بواطن الايوان والممرات وبعض السقوف بزخارف هندسية ونباتية .

وخير مثال للعمارة العباسية نجده في المدرسة المستنصرية التي شيدها الخليفة المستنصر بالله في سنة ٦٢٥ هجرية (١٢٢٧ ميلادية) واستغرق بناؤها ستة اعوام (١٦) . وهي تتكون من ساحة وسطية مستطيلة الشكل في جهتها الشرقية مدخل له واجهة شاهقة مزخرفة ويبرز في بنائه عن جدران البناية بينما يطل على الساحة بما يشبه الايوان الكبير ، ويحيط بالساحة الوسطية حجرات وغرف من طابقين ، وعلى طرفي الساحة ايوانان كبيران متقابلان ويقابل المدخل مسجد صغير ، وفي الجانب الجنوبي توجد قاعات كبيرة للدرس يتقدمها رواق مرتفع . وكانت في الجانب الشمالي من البناية من الخارج دار القرآن بقي منها ايوانها فقط . هذا وزخرفت جميع الواجهات وبواطن الايوان بزخارف هندسية بديعة تتخللها العناصر الزخرفية النباتية بينما يمتد في اعالي الجدران من الخارج شريط زخرفي من كتابات بعمارتها وزخارفها موضع اعجاب من زارها من تذكارية وتاريخية . وقد كانت هذه البناية الرحالة والمؤرخين خلال تاريخها الطويل .

جواد (الدكتور مصطفى) : القصر العباسي ببغداد ، مجلة سومر (١٩٤٥) ج ٢ ص ٦٥ - ٨٦ .
ناجي معروف : المدارس الشرايية (بغداد - ١٩٦٥) ص ١٥٢ - ١٨٦ .

(١٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (حيدر آباد - ١٩٥٢) ج ٨ ص ٧٣٩ . ابن السامي : مختصر اخبار الخلفاء (مصر ١٢٠٩ هـ) ص ١٢٣ . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٥٣ . السيوطي : تاريخ الخلفاء (مصر ١٩٥٢) ص ٤٦٢ .

(١٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة (بغداد - ١٣٥١ هجرية) ص ٤ ، ١٨٨ ، ٣٩٦ .
(١٤) جواد (الدكتور مصطفى) : العمارات الاسلامية ، مجلة سومر م ٣ (١٩٤٧) ج ١ ص ٢٨ وما بعدها .
(١٥) مديرية الآثار القديمة (العراق) : بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد (بغداد - ١٩٣٥) ص ١ - ٢١ ، ٣٠ - ٣٢ .

التخطيط العام للابنية

جانب ذلك وخاصة في الزخارف الجدارية . وقد استخدمت في العمارة عموما العقود والاقبية ذات الاشكال المدببة في الغالب وخاصة في المداخل والواجهات ، والى جانب ذلك نجد عقودا مفصصة او مقوسة (جزء من قوس دائرة) . وقد تفنن المعمار في بناء الاقبية فجعل بعض السقوف ذات اقبية متقاطعة فتحت في راسها فتحة للضوء والهواء وهذا ما وجدناه في قاعات الدرس الكبيرة في المستنصرية وبنية القصر العباسي . وقد استعين بالمقرنصات في تسقيف الممرات والاروقة .

وسائل الاضاءة والتهوية

ان المصدر الرئيس للضوء والهواء في مختلف العمارات البغدادية هو الساحة الوسطية المكشوفة فكانت معظم مرافق السكن مفتوحة الابواب عليها ، وكان اغلبها عديم النوافذ والشبابيك ، وكانت الجدران الضخمة عاملا مهما في قوة البناء وفي عزله عن الخارج ، كما كانت ذات فائدة كبيرة في تكييف البنية صيفا وشتاء باعتبارها تساعد على احتفاظ المرافق السكنية بجو ودرجة حرارة ثابتة تقريبا وتكون عازلا لها عن الظروف المناخية القاسية . والى جانب ذلك استخدمت طريقة لايجاد جو مناسب في القاعات الكبيرة حيث اقيم رواق مرتفع البناء في اعلاه نوافذ تفتح صيفا فيصبح الهواء المار خلالها لطيفا قبل وصوله الى تلك القاعات والحجرات الموجودة عنده .

الزخارف والنقوش

اوضحت لنا الامثلة القائمة ان العمارات البغدادية لم تخلو من الزخرفة كما ان المراجع التاريخية والادبية فيها الكثير من الاشارات عن الزخارف المتنوعة التي كانت تزين الابنية العباسية ببغداد ، واذا كان الاجر قد لعب دورا كبيرا في زخرفة العمارات التي وصلتنا ، فان الجص والواح الرخام والمرمر والقراميد (القاشاني) كان لها دور في ذلك ايضا .

ان الاجر مادة يسهل تقطيعها وتهذيبها ونحتها ونقش العناصر الزخرفية عليها ومن خصائصه كذلك مقاومته ودوامه مدة طويلة . ومن خلال الزخارف التي وصلتنا تميز ثلاث طرق اتبعت في تكوينها :

١ - تصفيف قطع الاجر باوضاع مختلفة يبرز بعضها عن سطح الجدار مما يكون زخرفة تشبه في شكلها العام حياكة الحصر لذلك سميت بالزخرفة الحصرية .

ان الامثلة القليلة الباقية من العمارات العباسية وما ذكرته المراجع التاريخية والادبية توضح لنا الخصائص المهمة للتخطيط العام للابنية العباسية ببغداد فمدخل سور المدينة المعروف بباب الظفرية يذكرنا بمدخل مدينة المنصور المدورة التي جعلها من النوع المعروف بالمداخل المنحنية او المزورة ، والذي يتميز بكونه اكثر تحصينا ومناعة من سواه من خلال شكله وطريقة اجتيازه والعوائق الموجودة في طريق المقتحمين ووسائل الدفاع المقامة في جدرانه والخندق المحيط به .

اما المآذن فان من مزاياها تقسيمها الى اجزاء متناسقة في الحجم والطول ، فاستخدم لقواعدها الشكل المربع والمضلع ، بينما تميزت ابدانها بالشكل الاسطواناني واقامت شرفة المؤذن فوق طبقات من المقرنصات ذات الوظائفين العمارية والزخرفية . وقد روعي تناسب اقسامها تناسبا يدل على خبرة ومهارة . كما غلب على عمارة المآذن البغدادية طابع البساطة والهدوء في التخطيط والمظهر العام مما جعلها نموذجا يحتذى به حتى الوقت الحاضر .

وابنية المشاهد والقباب التي اقيمت فوق الاضرحة التي وصلنا مثال عنها تتميز باقامة حجرة مضلعة فوقها قبة مقرنصة ذات شكل مخروطي يساعد على ارتفاعها في الفضاء ارتفاعا شاهقا رغم المساحة الصغيرة التي بنيت فوقها مما يجعلها مميزة بارزة .

اما بالنسبة للمدارس فان الساحة الوسطية المكشوفة هي التي تزود الحجرات والغرف المحيطة بها بالضوء والهواء النقي كما انها تستخدم احيانا للصلاة في ايام الجمعة والعيد عندما لا يتسع مسجد المدرسة الصغير الى جمهور المصلين . واقامت في هذه المدارس قاعات كبيرة للدرس تقع في جانب منها واستخدمت الاواوين فيها للاستراحة او للتدريس احيانا . وبنيت لهذه العمارات مداخل ذات واجهات شاهقة مزخرفة وبارزة عن البنية ربما لتكسب المدرسة اهمية وتميزها من العمارات .

البناء والتسقيف

استعمل الاجر كمادة رئيسية في البناء والزخرفة في جميع العمارات العباسية القائمة لامكان الحصول عليه بسهولة وتوفر المادة الاولى الجيدة التي يصنع منها في منطقة بغداد وما يجاورها . على ان المراجع العربية تشير الى استخدام الاحجار والجص الى

العربي وسماء الاجانب باسم الارابيسك (Arabeque) (١٧) .

ومن الزخارف المهمة عنصر المقرنصات الذي كانت وظيفته عمارية فاصبح يؤدي دورا زخرفيا كذلك ، وظهر بأزهى اشكاله في بناية القصر العباسي والمقرنصات تتكون من مجموعة من قطع الحجر تختلف في شكلها وحجمها وتدرج في طبقات او صفوف من حنايا وكتل بارزة تنتهي باشكال نجمية او قباب مضلعة صغيرة ، ومما زاد في رونقها وبهائها تزيين واطننها بالعناصر النباتية .

واستخدمت الكتابات التذكارية كعنصر من العناصر الزخرفية حيث زينت بها الواجهات بشكل اشربة وحقول تمتد في اعلى الجدران او في مداخل العماائر وقد انجزت هذه الكتابات بطريقتين : تارة ذات حروف بارزة كبيرة كل حرف من كلماتها يتكون من عدة قطع من الحجر ، وتارة اخرى تظهر الحروف بارزة فوق مهاد من زخارف نباتية قوامها اغصان وفروع مورقة تملأ الفراغات الموجودة بين الحروف .

ان تلك المزايا والخصائص التي نلاحظها في لعمارة العباسية ببغداد تدل على الجهود الكبيرة المبذولة من قبل المعمار والفنان خلال تلك الفترة التاريخية ، وتوضح لنا مدى الخبرة والمهارة في هذا المضمار ، وكذلك تبين لنا المعالجة العلمية والموضوعية لتقلبات الجو والمناخ في القطر ، وفي ذلك ايضا توضيح لجانب من حضارتنا وتراثنا المتميز بالحيوية والتجديد والابداع والاتقان ، مما يجعلها امثلة تستلهم منها الافكار .

(١٧) فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (مصر ١٩٦٥) ج ١ ص ١٧٦ - ١٩٠ . مرزوق (دكتور محمد عبدالعزيز) : الفن الاسلامي - تاريخه وخصائصه (١٩٦٥) ص ١٨٠ - ١٨٣ .

٢ - تقطيع الحجر الى اجزاء صغيرة ذات احجام واشكال تؤلف في مجموعها شكلا هندسيا ، وتكون تارة بارزة عن سطح الجدار ، او بمستوى سطح الجدار .

٣ - حفر الزخارف على سطوح قطع الحجر بحيث تظهر العناصر الزخرفية بارزة مجسمة وهذا يتمثل في العناصر النباتية بصورة خاصة .

اما بالنسبة للعناصر الزخرفية فاشهرها : الاشكال الهندسية ، الاشكال النباتية ، المقرنصات ، الكتابات .

احتلت الاشكال الهندسية مكانة مرموقة حيث زينت بها معظم العماائر التي وصلتنا ، وقوامها الاطباق النجمية المتنوعة والمضلعات الهندسية . وهذه الاشكال الهندسية تعتمد في اساس تكوينها على الدائرة واقطارها التي تؤلف من تقاطعها والتقاطها الاشكال المطلوبة ، وهذا يدل على ازدهار علم الهندسة ومهارة الفنان ، ومما اضفى حيوية على تلك الزخارف هو تزيينها بالعناصر النباتية .

لعبت الزخارف النباتية دورا بارزا كذلك فقد زينت بها الاشربة والاطارات وارضيات الكتابات وبواطن الاشكال الهندسية والمقرنصات وكان العنصر الرئيس المستخدم فيها هو « المروحة النخيلية » المعروفة باسم (البلمت Palmette) ولكنه ظهر بأنواع واشكال عديدة منها المفصصة والبسيطة . وبصورة عامة تميزت العناصر النباتية بالتنظيم والتقابل والتكرار بصورة توحي الى اتباع نظام خاص في مظهرها وتكوينها كما تميزت بظاهرة النموس والامتداد . وهذا النوع من الزخرفة اثار اهتمام الباحثين نظرا لما كان يشاهد في جميع المجالات الفنية وعلى مختلف التحف والاثار فاطلق عليه الباحثون اسم الزخرفة العربية او زخرفة التوريق

خانات بغداد

من القرن التاسع وحتى مطلع القرن العشرين

بقلم

بهاء نزار محمد علي المنيح

كلية التربية - جامعة بغداد

المقدمة

بصورة عامة ، وذلك عندما غزاها الأعاجم من الفرس والترك ، وما رافق هذا الغزو من عوامل الدمار والتخريب نتيجة الحروب والتي راح ضحيتها الكثير من الأبرياء ، إضافة إلى ما سببته الفيضانات من أوبئة وأمراض وفزع وغلاء في المواد الاقتصادية ، وكانت هذه العوامل أيضاً قد عجلت في زوال واندثار الكثير من المعالم العمرانية والثقافية لمدينة بغداد .

ورغم ذلك فقد ظلت مكانة وأهمية مدينة بغداد تحتل مركز الصدارة بين المدن الإسلامية الأخرى ، لكونها حلقة وصل تربط بين المدن والحواضر في داخل العراق وخارجه ، مما تركز فيها عدد من الخانات الكبيرة منها والصغيرة لتؤدي خدمات أكبر للتجار والمسافرين والزائرين .

أن خانات بغداد - مع الأسف - لم تحظ من قبل الباحثين بدراسة مستفيضة ، كما لم يذكر المؤرخون أشياء يعتمد بها عن هذه الخانات ، واقتصر الأمر على بعض المعلومات البسيطة التي وردت في كتب الرحالة الأجانب ممن مروا بها ، وربما يعود ذلك إلى أنهم كانوا يعنون في مؤلفاتهم بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أو يرون أن الأمور المتعلقة بالجانب العماري والهندسي غير ذات أهمية ولأنهم ليسوا باختصاصيين فيها . ومن هذه الكتب « العراق في القرن السابع عشر » لـ

مدينة بغداد ، هذه الحاضرة العربية العريقة في حضارتها وثقافتها ، والفنية بآثارها وفنونها ومواردها ، يمكن أن نعدّها بحق من أعظم مدن العالم في القرون الوسطى ، لما خلّدت لنا من آثار مادية وفكرية وفنية ، جعلتها تفوق شهرتها - وخاصة في العصر العباسي - شهرة مدن دمشق والقاهرة وقرطبة والقسطنطينية .

ونظراً للتوسع العمراني الذي شهدته هذه المدينة في العصر المذكور آنفاً ، ونتيجة لما حصل لها من التقدم والازدهار والذي شمل جميع مرافق الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والمتمثلة في بناء المدارس والجامعات والمكتبات والمساجد والمراسد الفلكية وبناء المدن والقصور والمستشفيات وشق الطرق والأنهار وإقامة القناطر المائية والجسور والبرك وتشيد الخانات والحمامات وحلبات الخيل ... الخ ، مما جعلها أن تتبوأ مركزاً مرموقاً من التوسع والتنظيم لم تبلغه المدن التي شيدت قبلها أو بعدها .

وقد ظلت مدينة بغداد محتفظة بهذا المركز المرموق حتى الربع الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، حيث أصابها ما أدى إلى تدهور أحوالها صورة خاصة وأحوال العراق

« تافريثيه » و « رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربة سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٩م » و « رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر » و « رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦م » لـ « بكنفهام » و « رحلة ريج الى العراق سنة ١٨٢٠م » و « رحلة المنشء البغدادي » الذي كتبها عام ١٨٢٢م و « رحلات الى العراق » لـ « بدج » (١) .

واقترنت هذه المعلومات على إشارات عابرة ومختصرة ذات صبغة تاريخية خالية من التخطيطات والتحليلات الضرورية التي تتطلبها الدراسات الآثارية العلمية (٢) .

ونظراً لندرة المصادر وما كتب عن الخانات التي شملها البحث فقد تطلب الأمر منا القيام بدراسة الخان من الناحية اللغوية والتاريخية ونشأة خانات بغداد قديماً وحديثاً كخطوة أولى على الطريق للكشف عن جانب من تراثنا العماري والحضاري العظيم .

الأصل اللغوي لكلمة الخان :

أجمعت معظم مصادر اللغويين والمؤرخين القديمة منها والحديثة على أن لفظة « خان » فارسية معربة (٣) ، ومن المرجح أنها اشتقت من

(١) المياح ، (برهان نزر محمد علي) ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، صفحات ٥ - ٦ ، رسالة ماجستير مطبوعة على آلة الطباعة ومقدمة الى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد ، ١٩٧٦م .

(٢) المياح ، نفس المصدر ، ص ٦ .

(٣) العسكري ، (ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن مهران اللغوي) ، كتاب التلخيص في معرفة اسماء الاشياء ، عني بتحقيقه د. عزة حسن ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، مطبعة الترقى ، مطبوعات الجمع العلمي بدمشق ، (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) .

- ابن سيده ، (علي بن اسماعيل) ، المحكم والمحيط الاعظم في اللغة ، تحقيق د. مراد كامل ، ج ٦ ، ص ٢٩٠ ، الطبعة الاولى ، مصر ، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .

- ياقوت الحموي ، (شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي) ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣٤١ ، بيروت ، (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) .

- ابن منظور ، (ابو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الافريقي المصري) ، لسان العرب ، مجلد ١٣ ، ص ١٤٦ ، بيروت ، (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .

- الزبيدي ، (محب الدين ابي الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي) ، تاج المروس من جواهر القاموس ، مجلد ٩ ، ص

الكلمات الفارسية « خانه » (٤) أو « حانه » (٥) أو « خاناه » (٦) ، والتي تعطي جميعها معنى البيت (٧) ، أو الموضع (٨) ، إضافة الى معانٍ أخرى (٩) .

وذهب عدد من الباحثين الى أن كلمة خان هي تحريف لكلمة حانوت الآرامية المشتقة من

١٩٤ ، الطبعة الاولى ، الطبعة الخيرية ، مصر ، (١٣٠٦هـ) .

- بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩ ، بيروت ، (١٨٧٠م) .

- احمد رضا ، معجم متن اللغة ، مجلد ٤ ، صفحات ٤٥٤ - ٤٥٥ ، بيروت ، (١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) .

(٤) ادي شير ، كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ، ص ٥٨ ، الطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، (١٩٠٨م) .

(٥) اللبناني ، (طويبا العنيسي الحلبي) ، كتاب تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه ، عني بنشره وتصحيحه والتعليق على حواشيه الشيخ يوسف توما البستاني ، ص ٢٤ ، الطبعة الثانية ، مصر ، (١٩٣٢م) .

(٦) والجدير ذكره هنا أن هذه الكلمة استعملت مقرونة باسماء البيوت والألقاب السلطانية في زمن المالك بمصر فمثلاً يقال (السلاح خاناه) و (الشراب خاناه) و (الطشت خاناه) ، أي بمعنى البيت والكان ، كبيت السلاح أو مكان السلاح ... الخ . انظر : احمد رضا ، المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٣ ، بيروت ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) .

(٧) ادي شير ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .
- التبريزي ، (محمد حسين بن خلف) ، برهان قاطع ، بتصحيح واتمام محمد عباس ، ص ٤١٦ ، مهرماه يکهزار و سیصد و سی و شش ، جاب بیروز مؤسسه مطبوعات امیر کبیر .

- اللبناني ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- ايوار ، « مادة خان » ، دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة احمد الشنتناوي وآخرون ، مجلد ٨ ، ص ٢١١ ، (بدون مكان وسنة الطبع) .

- احمد رضا ، المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٣ .
(٨) وكلمة « خانه » كما ذكرناها سابقاً تعني البيت أو الموضع سواء اكان هذا البيت أو غيره للسكن أو لراحة المسافرين أو التجار ، وعلى هذا الاعتبار اشتقت منها الكلمة (خان) ، حيث أن الهاء في الاولى للنسبة أو للتصغير .

(د. حسين محفوظ ، حديث شخصي ، ١٩٧٥م) .
(٩) وفي بلاد فارس تعني كلمة « خانه » أيضاً المربع في رقعة الشطرنج .

(ايوار ، « مادة خان » ، دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ٨ ، ص ٢١١) ويذكر أن من معانيها كذلك المرتبة في الامور الحسابية ، والقطعة التي يرفع بها الصوت والاستعملة عند الموسيقين ، وتدل أيضاً على الشطر من المواليات . (بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩) .

كلمة (حنه) العبرانية والتي من معانيها خيمٌ وأقامٌ ونزلٌ وحلٌ (١٠) .

وردد أيضاً ان لفظة خان مرادفة لكلمة (قيروان سراي) التركية الأصل او (كرقان سراي) (Caravansary or Caravanserai) والتي تعني النزل والخان والفندق ، وذلك برغم اختلافها في اللفظ (١١) . وتعني كلمة (خان) أيضاً منزل المسافرين على ما هو معروف في اللغة العربية (١٢) . ومن جملة ما ورد عن أصل الكلمة هو ان كلمة خان ما هي إلا اختصار لكلمة (قاغان) والتي تلفظ بالعربية (خاقان) فيما إذا وردت مرادفة للقب من الألقاب (١٣) .

(١٠) ادي شير ، الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ٥٨ .

- اللباني ، تفسير الألفاظ الدخيلة ، ص ٢٨ .

- رشيد عطية ، معجم عطية في العامي والدخيل ، ص ٥٥ ، دار الطباعة والنشر العربية ، سان باولو ، برازيل ، (١٩٤٤ م) .

ومما تجدر الإشارة اليه ان كلمة الحانوت تعني « بيت الخمر » انظر : العسكري ، التلخيص ج ١ ، ص ٢٦٩ ، وهو المكان الذي يباع أو يشرب فيه الخمر ، كما دلت على بائع الخمر نفسه ، هذا ما ذكره بطرس البستاني في مؤلفه « قطر المحيط » ج ١ ، ص ٥٩٠ ، وعندما شاع استعمال كلمة الخان أصبحت تعني أي مكان تباع فيه السلع أي أنها دلت على ما نسميه بـ « الدكان » انظر : العسكري ، المصدر السابق ، واللباني ، المصدر السابق .

(١١) Porter, R.K., Travels in Georgia, Persia, Armenia, and Ancient Babylonia, during the years, 1817-1820, vol. 1. p. 209, London, (1822).

ويعرف (الخان) بلغة أهل خراسان بـ « تيمك » ومعناها خان التجار . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٦٧ . وعلى هذا الأساس سمي خان مرجان باسم (التيم) وقد جاء هذا الاسم مدونا على واجهة المدخل الرئيس للخان ، وقد ذكر أن كلمة (تيم) تعني نصف سرداب ، أو تعني مكاناً أو طاً قليلاً من مستوى الطريق ، وبهذا تكون هذه الكلمة (تيم) عمادية فارسية . انظر : (ناصر النقشبتي) ، « خان مرجان » ، مجلة النفط ، ص ١٠ العدد ٦٧ ، السنة ١٩٥٧ م .

(١٢) رشيد عطية ، معجم عطية في العامي والدخيل ، ص ٥٥ .

(١٣) بارتلد ، « مادة خان » دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ٨ ، ص ٢٠٤ واستعملت كلمة (خان) لتشير الى لقب من الألقاب للمرة الأولى في العصر الإسلامي حوالي نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، على السكة التي ضربها الأيلخانيون غير أنه لم يتبين الفرق بين كلمة (قاغان) أو (قآن) والتي معناها الحاكم الأعلى ، وكلمة (خان) التي تعني حاكم المدينة الا في العهد المغولي . (بارتلد ،

وأختلف الباحثون في أصل الكلمة إذ أن بعضهم يراه فارسياً - تركيا أو انه تتورياً (١٥) أو تركيا بالأصل فقط (١٦) ، كما ان بعضهم يراه عربياً فارسياً (١٧) ويمكن القول ان أصل كلمة (خان) ، فارسي حوره العرب بالنقص أو الزيادة أو القلب (١٨)

معاني كلمة (خان) :-

ومثلما تعددت الآراء في أصل الكلمة (خان) تعددت المعاني التي تشير اليها ، فهي تعني الحانوت (١٩) ، وربما جاءت من تشابه الأثنين في السعة والوظيفة (٢٠) ، وتدل كلمة خان أيضاً على مالك الحانوت (٢١) ، كما تدل على المتجر (٢٢) ، والمكان الخاص بالتجار أي محل أقامتهم ،

المصدر السابق) وذكر أيضاً أن أول من تلقب بكلمة خان هو (جنكيز خان) ثم لقب بها أول ملوك العثمانيين السلطان (عثمان خان) سنة ٦٦٩هـ/١٢٩٩م ، واستمر هذا اللقب يطلق على رؤساء الدولة الصفوية في زمن الشاه اسماعيل الصفوي وكذلك على رؤساء العشائر الإيرانية . انظر : أحمد رضا ، معجم متن اللغة ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٣ .

(١٤) اللباني ، تفسير الألفاظ الدخيلة ، ص ٢٣ .

(١٥) بطرس البستاني ، « مادة خان » دائرة المعارف ، مجلد ٧ ، ص ٢٢٤ .

(١٦) يعقوب صروف وفارس نمر ، باب المسائل ، « معنى خان » مجلة المقتطف ص ٩٤٧ ، ج ١٠ ، مجلد ٢٦ ، السنة ١٩٠١ م .

(١٧) رشيد عطية ، المصدر السابق .

(١٨) ابراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، اشرف على طبعه عبدالسلام هارون ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، مصر ، مطبعة القاهرة (١٢٨٠هـ/١٩٦٠م) .

(١٩) ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد ١٣ ، ص ١٤٦ .

- الزبيدي ، تاج العروس ، مجلد ٩ ، ص ١٩٤ .

- الفيروز آبادي ، (مجد الدين محمد بن يعقوب) ، القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ ، مطبعة السعادة ، مصر ، (١٣٢٢هـ/١٩١٣م) .

- الشرتوني ، (سميد بن عبدالله الخوري) ، اقرب الوارد في فصيح العربية والشوارد ج ١ ، ص ٣١ ، مطبعة مرسلي اليسوعية ، بيروت ، (١٨٨٩ م) .

(٢٠) فقد وصف الرحالة ابن جبير دكاين وحوانيت إحدى مدن الشام بأنها تشبه الغانات والمخازن اتساعاً .

انظر : ابن جبير ، (ابو الحسن محمد بن أحمد) ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٣ ، بيروت (١٣٨٠هـ/١٩٦٤م) .

(٢١) ابن منظور ، المصدر السابق .

- الزبيدي ، المصدر السابق .

- الفيروز آبادي ، المصدر السابق .

(٢٢) ابراهيم مصطفى وآخرون ، المصدر السابق .

بالذكر انه لم يفرق مؤرخو العصور الوسطى من العرب بين هذه المنشآت العمرانية ، إذ لم يجدوا بينها فروقا واضحة ، بل وجدوها متشابهة من حيث التصميم والوظيفة التي تؤديها للمسافرين والتجار (٢٠) . وقد كتب القريري في هذا الموضوع واستنتج بأنه لا فرق يذكر بين تلك المنشآت المشار إليها (٢١) . ويذكر أن كلمة (الربع) تعني أيضاً الخان أو الفندق (٢٢) .

النشأة التاريخية للخان : -

وفي هذا المجال أهدف الى تبيان فكرة نشأة الخان من حيث البداية الاولى للنشأة وبعض التطورات الحاصلة عليه ، أي التدرج في تنوع المرافق المضافة . ولما كانت المعلومات التي وردت عن نشأة الخان قليلة ، فأعتمدنا على ما هو متيسر في هذا المجال .

لقد اقيم في بلاد وادي الرافدين الكثير من الخانات ، وما بقي من هذه الخانات قليل بالنسبة الى ما ذكره الرحالة والمؤرخون ، بسبب تهدمها واندثارها بفعل زوال بعض الاسباب التي أنشأت من أجلها ، والعوامل الطبيعية ، كما يرجع أيضاً الى تغير طرق المواصلات وابتعادها عنها ، إضافة الى ظهور وسائل النقل الحديثة ، وأماكن أكثر راحة للمسافرين كالفنادق الحديثة مثلاً ، وإن

وتجارتهم (٢٣) ، وتعني أيضاً منزل المسافرين والقوافل (٢٤) ، وكلمة الفندق من المرادفات الأخرى لكلمة خان (٢٥) ، ومما يستحسن ذكره ما أورده الجوالقي المتوفى سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥) ، من أن كلمة الفندق بلغة الشاميين تشير الى معنى خان ينزل به المسافرون ، وموقعه عند الطرق أو في المدائن ، وقد نقل الجوالقي عن الفراء قوله : « سمعت أعرابياً من قضاة يقول (فنتق) للفندق وهو الخان (٢٦) » . وإن من مرادفاتنا أيضاً كلمة الوكالة (٢٧) والسوق (٢٨) (القيسارية) (٢٩) ، والجدير

(٢٣) الجوهري ، (أبو نصر اسماعيل بن حماد) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمد عبدالغفور عطار ، ج ٥ ، ص ٢١١ ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، القاهرة (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .

- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣٣١ .
- ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ٩٢٥ .
- الزبيدي ، المصدر السابق . - الفيروز آبادي ، المصدر السابق .

(٢٤) بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩ .
- التتوي ، (عبدالرشيد) ، فرهنگ رشیدی ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، مطبعة كلكتة ، (١٨٧٢ م) .
- التبريزي ، برهان قاطع ، ص ٤١٦ . - اللبناني ، تفسير الالفاظ الدخيلة ، ص ٢٣ .

(٢٥) ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ٣١٢ .
- الزبيدي ، المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٥١ .
- الفيروز آبادي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ .

(٢٦) الجوالقي ، (ابي منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الغضر) ، العرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، تحقيق وشرح ابي الاشبال احمد محمد شاكر ص ٢٣٩ ، أعيد طبعه بالأوفست ، طهران ، ١٩٦٦ م .
والجدير ذكره أن أصل كلمة فندق فارسي . انظر : ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ٣١٣ .

(٢٧) الوكالة : هي عبارة عن فندق يتكون من عدة شقق صغيرة على عدة طوابق ، فالطابق الأرضي فيها يتكون من مخازن منفصلة تطل على صحن مكشوف ، أما الطوابق العليا فهي مخصصة للإقامة وتطل على الصحن أيضاً ، وتضم جميع الخدمات والمرافق اللازمة . انظر :

توفيق احمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ، المطبعة الفنية الحديثة ، مصر ، ١٩٧٢ م .

(٢٨) توفيق احمد عبدالجواد ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٢٩) القيسارية : هي تحريف لكلمة (قيسرية) المشتقة من اسم (القيصر) امبراطور الرومان . انظر : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٤ ، ص ٤١٣ ، المطبعة الاولى ، المطبعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

(٣٠) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، ص ٢٨٦ ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٩٧٣هـ/١٩٥٣م) .

- توفيق احمد عبدالجواد ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٣١) القريري ، (تقي الدين أبي العباس احمد بن علي) ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط القريرية ، ج ٢ ، صفحات ٩٣ - ٩٤ ، طبعة جديدة بالأوفست ، مكتبة المتن ، بغداد ، (بدون تاريخ) .

(٣٢) وعرفت (الربع) في بلاد مصر لتؤدي نفس الغرض الذي تؤديه الوكالة والخان والفندق ، ولأجل تحقيق رغبات الصناع وصغار التجار فقد صممت على شكل طوابق متعددة ، كان الطابق الأرضي يتكون من محلات وحواليات ومرافق أخرى ، أما الطوابق العليا فكانت تتكون من شقق منفصلة مكونة كل شقة من حجرة أو حجرتين ومطبخ ودورة مياه لعائلات الصناع واصحاب هذه المحلات . ويبدو أن هنالك اختلافاً بين الوكالة والربع والخان ، حيث أن الوكالة والربع استخدمت للإقامة الثابتة ، أما الخان فللاقامة المؤقتة انظر : توفيق احمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

تطور الخان :

وقد كانت الخانات في الشرق ضرورية لتسهيل التنقل بين المدن الإسلامية لأغراض التجارة والحج وزيارة الأماكن المقدسة ، وقد أخذت هذه الخانات تتطور تدريجياً حتى أصبحت ذات إدارة ومرافق متعددة ومطابخ (٢٧) ، هذا إضافة إلى ما تضمنته بعض الخانات من المرافق الأخرى كالمسجد (٢٨) ، والمخازن التي تخزن فيها أنواع السلع وحوض للماء ، كما يوجد في بعضها أماكن لحفظ أموال اليتامى (٢٩) وحضائر للماشية (٣٠) ، إضافة إلى مجموعة من الحمامات والأسواق (٣١) ، كما يوجد أحياناً خارج كل خان ساقية للسبيل وحانات لبيع اللوازم التي يحتاجها المسافر لنفسه ولدايته (٣٢) . ونتيجة لأهمية تلك الخانات فقد كانت بعض المدن تضم عدداً كبيراً منها (٣٣) . ونظراً للتوسع الكبير للخانات في مساحتها فقد زادت مرافقها حتى كان البعض منها يحتوي على غرف عديدة مزودة بمدافئ ومسابط للنوم والجلوس ، إضافة إلى غرف خاصة ، واحدة منها عند المدخل لحارس الخان وأخرى كمقهى وثالثة كمخزن لمصالحى

اندثار الخانات مسألة طبيعية جاءت نتيجة للتطور الحضاري المادي في الحياة (٣٤) .

ولما كانت الخانات ضرورة ملحة لمواصله المسير والتنقل من مكان لآخر ولولاها لتعذر على المسافرين قطع المسافات النائية ، فهي قديمة كقدم التجارة نفسها إذ كان يراد منها تهيئة أماكن تضمن الراحة للإنسان والحيوان على حد سواء بعد قطعهم مسافة طويلة تستوجب عليهم هذه الراحة (٣٥) .

ولعل بداية نشوء الخانات في الأصل منطلقاً من إقامة بئر وسياج يحيط بقطعة من الأرض ، وأخذت تتطور بعد ذلك إلى البنايات المعروفة حيث الأواوين الكثيرة والمرافق المتعددة ، وقد نال الكثير منها التخطيط الدقيق (٣٥) . وهذا يوضح لنا الأصول الأولى لنشأة الخانات وصور تطورها شأنها في ذلك شأن الكثير من المرافق التي تتطور بتطور الحياة .

إدارة الخان :

ومن الناحية الإدارية فقد ذكر بأنه لا يدفع من يحل في الخان أي أجر سوى أن العُرف الجاري يقضي بأن يُكرم النازلون في الخان الشخص المسؤول عن إدارة الخان الذي يُعرف (بالقيم) من المال شيئاً ، نظراً لما يقوم به عادة باستئجار جماعة تلقى عليهم مهمات تنظيف الخان وتنظيمه ، كما يقوم المسؤول عن الخان بتجهيز النزلاء بالحبوب والأطعمة والوقود وكثير من اللوازم التي يحتاجونها على أن تدفع له قيمة هذه المواد وعلى هذا فإن هناك جماعة بضمنهم (القيم) مهمتها إدارة شؤون الخان (٣٦) .

(٣٣) المباح ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، ص ٢٦ .

(٣٤) Pope, Arthur, Upham, "Bridges, Fortifications and Caravanserais," A Survey of Persian Art from Perhistoric Times to the Present, (Editor) Pope, A. U. and (Assistant Editor) Ackerman, Phyllis, Text Architecture, Vol. III, P. 1245. London and New York, (1930).

(٣٥) Texier, C., Description de l'Armenia, la perse et la Mesopotamie, Paris, 1842-52, 11, pp. 110-111,

Pope, A. U.,
Op. Cit., Vol., 111, p. 1246.

(٣٦) أنظر : بدج ، (سر أرنست الفردولس) ، رحلات إلى

العراق ، ج ١ ، ص ١٢٣ نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه فؤاد جميل ، الطبعة الأولى ، مطابع دار الزمان ، بغداد ، (١٩٦٦م) .

(٣٧) Reitlinger, G. "Atower of Skulls," A Journey through Persian and Turkish Armenia, p. 52, London, (1932)

(٣٨) ابن دقماق ، (إبراهيم بن محمد بن أيدير العلاني الشهير بابن دقماق) ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٤ ، ص ٩٠ ، طبع بالمطبعة الكبرى ببغداد (١٢١٠هـ/١٨٩٣م) .

(٣٩) القريني ، الخطط ، ج ٢ ، صفحات ٩٢-٩٣ .
(٤٠) Teixeira, P. The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land, p. 27.

(٤١) وقد قيل أن خان المسافرين (Saffron) في بلاد فارس ، هسو من أكبر الخانات إذ يحتوي على ١٧٠٠ (أبوان) إضافة إلى مجموعة من الحمامات والأسواق داخل أسواره . أنظر

Fraser, J., Narrative of Ajourney in to Khorasan, pp. 383-385, London, (1825).

(٤٢) ابن بطوطة ، (أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة) ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٥٤ ، بيروت ، (١٢٨٤هـ/١٩٦٤م) .

(٤٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ١١٤ .

والدكاكين والحوانيت (٥٣) ، والاربطة (٥٢) ،
والاديرة (٥٤) ، أو الكنائس (٥٥) ، تشبه الخانات من
حيث ضخامتها وبنائها .

تسلسل نشأة خانات بغداد قديماً وحديثاً :-

لم تسعنا المصادر التاريخية القديمة منها
والحديثة عن الخانات التي بنيت في مدينة بغداد
قبل الاسلام ، لكنه ورد أول ذكر لاقامة الخانات
العراقية جاء في ترتيبه خاصة للملك (شولكي)
ثاني ملوك سلالة أور الذي حكم (٢٠٩٤ - ٢٠٤٧
ق . م) ، حيث جاء فيها عن ولع هذا الملك بتعميد
الطرق واقامة البيوت الكبيرة فيها لايواء
المسافرين (٥٦) .

اما عن خانات بغداد المشيدة في العصور
الاسلامية - فللاسف - لم نخبرنا المصادر القديمة
الا النزر القليل منها . فقد اشار ياقوت الحموي الى
وجود خان يعرف (بخان وردان) (٥٧) ، وكان موقعه
شرقي مدينة بغداد ، وهو يعود الى العصر العباسي
الاول (٥٨) . ومن هذا العصر أيضاً ذكر عن وجود
خان في مدينة بغداد ينزله الغرباء من التجار
وغيرهم (٥٩) . وذكر اليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤هـ/
٨٩٧م) خاناً في بغداد أيضاً يعرف (بخان
التجائب) (٦٠) .

اما في اواخر العصر العباسي (٥٥٢ - ٦٥٦هـ
١١٥٧/ - ١٢٥٨م) ، فعلى الرغم من الانحطاط
والتهور الذين حلا بمدينة بغداد في ذلك العصر
فقد كانت فيها الكثير من المنشآت العمرية ، وإن
الاحصاءات التي دونها ياسين العمري في كتابه ،

(٥٢) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٣ .

(٥٣) ناصر خسرو ، المصدر السابق ، صفحات ٤١-٤٠ و ٤٧ .

(٥٤) Teixeira, P., The Travels of P.T. from India to Italy by Land pp. 27 f.

(٥٥) Filmer, H., The Pageant of Persia, P. 217, London, (1937).

(٥٦) Pritchard, James. B., Ancient Near Eastern Text Relating to old Testament, p. 585, U.S.A., (1969).

(٥٧) سمي بهذا الاسم نسبة الى وردان ابن سنان احد قادة الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور .

(٥٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣٤١ .

(٥٩) المدور ، (جميل نخلة) ، حضارة الاسلام ، ص ٢٢ القاهرة (١٩٣٥م) .

(٦٠) اليعقوبي ، (احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب الشهير باليعقوبي) ، البلدان ص ١ ، الطبعة الثالثة ، الطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٥٧ م .

العربات ورابعة كدكان للحدادة ، اضافة الى اسطبل
للحيوانات (٤٤) .

ورغم سعة بعض الخانات وكثرة غرفها
لاهميتها من حيث وقوعها على طرق التجارة القديمة
فأنها تكتظ بالسكان في مواسم معينة مما يضطر
البعض منهم للاقامة في الأماكن القريبة منها (٤٥) ،
علماً ان بعضها كان يستوعب عدداً يتراوح بين
٣٠٠ - ٤٠٠ شخصاً (٤٦) ، وبعضها الآخر يتسع
لعدد يتراوح بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ شخص (٤٧) .

التأثير العماري للخان في المنشآت العمرية الأخرى

وبناءً على كون الخانات مؤسسات قائمة
ومتطورة وذات سمات خاصة اكتسبتها من خلال
تطورها فأنها ولاشك تؤثر في رغبات الناس ،
فيعكس هؤلاء الناس تلك الرغبات في طرز ابنية
أخرى يقيمونها كالمنازل أو المدارس أو المساجد
ومعنى هذا ان هناك تأثيراً متبادلاً بين هذه المنشآت
العمرية والخانات في مجال الشبه العماري (٤٨) .
فقد أشار الرحالة ناصر خسرو في رحلته الى انه
شاهد بعض البيوت التي تشبه الخانات في مدينة
طرابلس بلبان (٤٩) ، كما ان بعض المنشآت العمرية
أيضاً كالاسواق والقلع (٥٠) ، والقصور (٥١) ،

Unsal, B. Turkish Islamic Architecture in Seljuk and Ottoman Times 1071-1923, pp. 48ff, London (1970).

(٤٥) تافرنيه ، (جان باتيست) ، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنيه ، نقله الى العربية وعلق عليه حواشيه بشر فرنسيس وكوركيس عواد ، صفحات ٤٤-٤٥ ، مطبعة المعارف بغداد (١٩٤٤م) .

(٤٦) Teixeira, P., The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land, pp. 27 f.

(٤٧) Cowper, H. S., Through Turkish Arabia, p. 318, London, (1894).

(٤٨) المياح ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، ص ٣٠ .

(٤٩) ناصر خسرو ، (ابو معين) ، « سفر نامه » رحلة ناصر خسرو الى لبنان ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري ، نقله الى العربية د . يحيى الخشاب ، ص ٤٨ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، (١٩٧٠م) .

(٥٠) المشي البغدادي ، (محمد بن احمد الحسيني المعروف بالمشي البغدادي) ، رحلة المشي البغدادي نقلها عن الفارسية عباس العزاوي ، صفحات ٤١-٢٠ ، طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة بغداد ، (١٩٤٨م) .

(٥١) كوتل ، (ارنست) ، الفن الاسلامي ، ترجمة د . احمد موسى ، ص ١٥٦ ، بيروت ، (١٩٦٦م) .

(الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون) للجوامع والمساجد والمدارس والخانات والحمامات... وغيرها من المنشآت المعمارية في مدينة بغداد - قبل أن يحتلها المغول - خير دليل على ذلك ، بل انه لم يكتف بذكر هذه المنشآت بل أورد أيضا عددها ومما يتوجب الإشارة اليه ان عدد خانات بغداد آنذاك تعدادها (٩٨٠) (٦١) خاناً .

ومن القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي يخبرنا ابن الفوطي عن خان في مدينة بغداد يعرف بخان الخليفة ، والذي أمر ببنائه الوالي علاء الدين الجويني ، وكان موقعه بالقرب من نهر دجلة ، ويذكر أن باني هذا الخان هو البناء أبو العباس أحمد بن عبيدالله الاصفهاني (٦٢) . والجدير بالذكر ان هذه الخانات التي اشار اليها المؤرخون آنفاً لا توجد لها آثار شاخصة في الوقت الحاضر .

ومن اشهر خانات بغداد الشاخصة الان هو خان مرجان ، الذي يعود تاريخ انشائه الى سنة (٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م) . وقد أمر ببنائه حاكم بغداد امين الدين مرجان في عهد السلطان أويس بن الشيخ حسن الايلخاني ، وكان يعرف هذا الخان أيضاً (بخان الاورثمة) ، أي الخان المستوف باللفة التركية ، وينفرد هذا الخان بهذه الميزة العمرارية ، عن باقي الخانات الاخرى المكشوفة الوسطى ، ويعتبر خان مرجان من أجمل الخانات العراقية حيث تتجلى فيه روعة عمارته وتخطيطه ودقة زخارفه الاجرية الجميلة ، ورغم سعة وارتفاع هذا الخان ، إلا أنه قد سقف بطريقة عمارية فائقة تنم عن المقدرة الفنية لبناة هذا الخان . ومما يذكر عن هذا الخان أنه قد اوقفت وارداته اضافة الى خانات أخرى ودكاكين ومزارع وبساتين في ضواحي بغداد وخارجها ، الى المدرسة المرجانية والمستشفى ، جاء ذلك في الكتابة التي تعلق باب الخان الرئيس الكائنة في سوق البزازين في محلة (باب الاغا) حالياً . والجدير بالذكر أن هذا الخان يتكون من طابقين ، الأول يحتوي على ٢٢ غرفة ، والثاني على ٢٣ غرفة ، وكان التجار والمسافرون يحتلون غرف الخان ، وكان يجري فيها وفي ساحته عملية البيع والشراء مدة ما بقارب السبع قرون (٦٣) .

- (٦١) نقل بتصريف عن د. مصطفى جواد و د. أحمد سوسة ، دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً ، ص ١٩٤ مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٨ م .
(٦٢) مصطفى جواد واحمد سوسة ، نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .
(٦٣) لمعرفة المزيد عن عمارة وتخطيط هذا الخان . يراجع :-

ومن القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، كان في مدينة بغداد خان يعرف بخان جفان ، وكانت سنة بنائه (٩٩٩هـ / ١٥٩٠م) في زمن حكم السلطان مراد ، وعلى نفقة جفالة زادة سنان باشا والي بغداد (٩٩٩هـ - ١٠٠١هـ / ١٥٩٠ - ١٥٩٢م) ، وكان يُعرف هذا الخان عند العامة بهذا الاسم نسبة لمؤسسه (٦٤) . وقد بقي هذا الخان على حاله حتى سنة ١٩٢٩م حيث هدم وعُمر مكانه اسواقاً ومما تجدر الإشارة اليه ان هذا الخان كانت له بابان شمالي وجنوبي وكانت تعلو مدخله الشمالي كتابة مطولة بالتركية وتحتها بضعة أسطر بالعربية ، وقد شاهد الرحالة نيبور هذه الكتابة عندما زار بغداد عام ١٧٦٦م (٦٥) .

اما القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي وحتى القرن الرابع عشر الهجري/ العشرون الميلادي فقد كانت هناك مجموعة كثيرة من خانات بغداد لم يبق منها في الوقت الحاضر إلا النزر القليل ، حيث لعبت ايادي الزمن والتخريب بها فضاقت معالمها واندرست آثارها وبقيت نكتش عنها في صفحات الكتب علنا نسف بوصفها وأخبارها ، ولم نجد في بطون الكتب ما يشير الى وصفها عمارياً أو زخرفياً ، ولكن اكتفت بذكر عددها وبعض النصف القليلة عنها ، فقد ذكر الرحالة تافرنبيه الى وجود عشرة خانات في مدينة بغداد كانت في حالة غير جيدة من البناء ما عدا اثنين منها يوفران الراحة للمسافرين (٦٦) . أما الرحالة نيبور فقد أشار هو الآخر الى عدد خانات بغداد في القرن الثامن عشر الميلادي والبالغة اثنان وعشرون خاناً ، أربعة منها تقع في ضواحي بغداد والبقية في داخل المدينة ، وقسم منها كبير الحجم يسكنها التجار والقسم الآخر صغيرة (٦٧) . ولم يترك لنا الرحالة بكنفهام في رحلته الى العراق سنة ١٨١٦م أية معلومات تتعلق بخانات بغداد والتي مجموعها آنذاك ثلاثون خاناً ، ما عدا اللّهم إشارة عابرة من أن هذه

- مديرية الآثار العامة ، دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ، القسم الاول ، بغداد ، ١٩٢٨ م .
(٦٤) نظمي زاده مرتضى أفندي ، كلشن خلفاً نقله الى العربية موسى كاظم توري ، صفحات ٢٠٩-٢١ ، النجف ١٩٧١م :
(٦٥) نيبور ، رحلة الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن الألمانية د. محمود حسين الامين ، راجعه وعلق عليه ووضع فهارسه سالم الالوسي ، ص ٣٣ ، بغداد ، ١٩٦٥ م .
(٦٦) تافرنبيه ، العراق في القرن السابع عشر ، ص ٨١ .
(٦٧) نيبور ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

الخانات مشابهة في بنائها للخانات الموجودة في ديار بكر ، وأحد هذه الخانات هو خان مرجان (١٨) .

اشرنا قبل قليل من انه كان في مدينة بغداد عدد كثير من الخانات الكبيرة منها والصغيرة والتي اتخذت اماكن للتجارة والسكن وراحة المسافرين وكان بعض الموسرين من المسلمين وغيرهم يقومون بأعمال ومشاريع خيرية ومنها بناء الخانات ، وكان البعض من الخانات كبيرة والبعض الآخر صغيرة وفيها عدد كثير من الغرف والاواوين والمخازن غالباً ما تكون خالية من الاثاث (٦٩) . وقد بلغ عددها آنذاك حوالي ١١٨ خاناً ، ولكن الاكثر منها خاص (بالمكانية) وايواء الدواب وحفظ الاموال والمهم منها ما كان في الأسواق والتي كانت مشغولة من قبل التجار (٧٠) ومن هذه الخانات هي :-

١ - خان مرجان : وقد مر ذكره في ص ٣٣ .

٢ - خان اللاوند : وكان موقعه في سوق الفضل ، وقد امر ببنائه الوزير داود باشا والي بغداد سنة (١٢٣٢هـ/١٨١٦م) واسكن فيه عسكره (اللواند) والتي كانت مهمته الحفاظ على الوالي . وكانت مساحة هذا الخان واسعة ، ولكن التغيرات التي طرات عليه نتيجة الاهمال والتخريب دعت والي بغداد نامق باشا سنة (١٣١٥هـ/١٨٩٧م) ان يجعل مساحته متنزهاً وبنى في وسطه حوضاً للماء ، وغرس فيه النخيل والاشجار وسوره بسور من الحديد ، وبقي على هذا الحال حتى عزل الوالي وخلفه من خلفه فأهمل امره وقطعت مساحته قطعاً قطعاً فأصبح شبه محلة عامرة (٧١) .

٣ - خان (قابچيلر كهيه سي) اي بمعنى خان رئيس البوابين وموقعه في سوق البزازين على طريق شارع الصفاير ، وقد امر ببنائه

اسماعيل آغا رئيس البوابين ، ووقفه على ذريته ويذكر ان مساحة هذا الخان كبيرة (٧٢) .

٤ - خان دلة الكبير : وكان موقعه في سوق البزازين ، وقد شيده الحاج عبدالقادر دلة ابن اسماعيل سنة (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م) ، وهو خان كبير يتكون من طابقين متين البناء ، وهو الآن محل تجاري (٧٣) .

٥ - خان دلة الصغير : وموقعه في المرادية (السكة خانه) (٧٤) .

٦ - خان جفان : وقد مر ذكره في ص ٣٣ .

٧ - خان النخلة أو خان مخزوم : وكان موقعه في رأس سوق البزازين ، وقد شيده الشيخ محمد المخزوم ابن احمد حافظ باشا سنة (١١١٠هـ) ووقفه على ذريته (٧٥) .

٨ - خان الباجهجي : ويقع باتصال جامع الخفافين من الجهة الشرقية وقد شيده ، الحاج ابو بكر الباجهجي ووقفه على مصالح الخفافين ، وهو الآن محلاً تجارياً ، ويشتمل على طابقين (٧٦) .

٩ - خان كبه الكبير : ويسمى ايضاً بخان الباشا ، وكانت ملكيته تعود لآل كبه وقد اشترى الوزير داود باشا وجعل وقفاً على جامعته ومدرسته . وموقعه في شارع البنوك (٧٧) .

١٠ - خان كبه الصغير : وموقعه في شارع البنوك وهو يسمى ايضاً بخان الباشا الصغير ويشتمل على طابقين وقد اشترى الوزير داود باشا والي بغداد وأوقفه على مصالح جامع الحيدر خانه ومدرسته (٧٨) .

١١ - خان محمد سعيد جلبي الشاندر : ويقع في شارع المستنصر غربي المحكمة الشرعية ويشتمل على طابقين وبنائه جيد وقد شيده سنة ١٣٣٧هـ (٧٩) .

١٢ - خان الدفتر دار : وكان موقعه في شارع

(٦٨) بكنفهام ، (جسي سلك) رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦م ج ١ ، ص ١٩٧ ، ترجمة سليم طه التكريتي ، مطبعة اسعد ، بغداد ، (١٩٦٨م) .

(٦٩) الدروبي ، ابراهيم ، البغداديون اخبارهم ومجالسهم ، ص ٣٩٤ ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) .
(٧٠) الشبخلي ، (محمد رؤوف طه) ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ج ١ ، ص ٦٣ ، مطبعة البصرة ، البصرة (١٩٧٢هـ/١٩٩٢م) .

(٧١) الدروبي ، المصدر السابق ، صفحات ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٧٢) الدروبي ، البغداديون ، ص ٣٩٥ .

(٧٣) الدروبي ، نفس المصدر .

(٧٤) الشبخلي ، المصدر السابق .

(٧٥) الدروبي ، المصدر السابق .

(٧٦) الدروبي ، نفس المصدر السابق .

(٧٧) الدروبي ، نفس المصدر ، ص ٣٩٦ .

(٧٨) الدروبي ، نفس المصدر .

(٧٩) الدروبي ، نفس المصدر .

المستنصر غربي المحكمة الشرعية وكانت ، مساحته كبيرة وقدهدم وشيدت على أرضه بنايات حديثة (٨٠) .

١٣ - خان الحاج ياسين جلبي الخضيري : وموقعه في شارع المستنصر وكان قبلاً دار الحرم والديوانخانه تعود للسيد انور بك بن درويش بك الجديري ، وقد عمره الحاج ياسين الخضيري سنة ١٣٤١هـ ، وهو يشتمل على طابقين وبنائه جيد (٨١) .

١٤ - خان باب المعظم : وموقعه كان على شارع المستشفى (الجمهوري) وهو ذو مساحة كبيرة وبنائه قديم استأجره أحد تجار بغداد ليكون مكاناً لتجارته (٨٢) .

١٥ - خان البرزلي : وكان موقعه في آخر شارع البنوك ، وقد شيده الحاج صالح جلبي البرزلي وقد شيدت على أرضه قبل أكثر من عشرين سنة بناية متعددة الطوابق (٨٣) .

١٦ - خان جني مراد : وموقعه في سوق العطارين حالياً وسوق مرجان قديماً ، ويشتمل الخان على طابقين الطابق الارضي وفيه عشرين غرفة ، أما الطابق العلوي فيحتوي على ثلاث وعشرين غرفة ، وقد شيد هذا الخان الحاج مراد الحاج علي سنة ١٠٩٧ هـ ، وأوقفه على ذريته (٨٤) .

١١٦ - خان الدجاج : وكان موقعه في سوق العطارين وهو من الخانات القديمة العهد في بغداد ، وقد شيدت على أرضه في الوقت الحاضر ابنية ودكاكين جديدة (٨٥) .

١٧ - خان المواصلة : وقد استخدم قسماً من المدرسة المستنصرية كخان لتجار الموصل وذلك سنة (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م) (٨٦) .

١٨ - خان الزرور : وهو من خانات بغداد الشاخصة الآن ، ويقع بالقرب من خان مرجان في سوق الخياطين القديم في الفرع المقابل للمدخل الرئيس لخان مرجان . وقد ثبتت فوق

مدخله كتابة هذا نصها : « السلطان ملك رقاب الا (مم) السلطان سليم بن السلطان سليمان خان فخر آل عثمان عز نصر عبده امير امراء ... » ومن الجدير ذكره هنا أن هذا الخان قد اعلن عن اثريته في الجريدة الرسمية المرقمة ١٧٢٧ والمؤرخة في ١٢/٥/١٩٦٩ (٨٧) .

١٩ - خان القوندرجية : وكان موقعه في سوق القوندرجية (الجوقجية) مقابل جامع الوزير (٨٨) .

٢٠ - خان الذهب الكبير وخان الذهب الصغير : وموقعهما في سوق القزازين (٨٩) .

٢١ - خان فتح الله عبود : وموقعه في بداية سوق باب الآغا في شارع الرشيد وفي شمال جامع مرجان . وكان هذا الخان يُعرف (بخان اللكي) (٩٠) .

٢٢ - خان الكمرك : وكان موقعه عند تلاقي الكمرك مع سوق الصياغ ، وهو صغير الحجم وكان متصلاً بالمدرسة المستنصرية (٩١) .

٢٣ - خان القبلانية : في سوق القبلانية (٩٢) .

٢٤ - خان الوقف : مقابل جامع مرجان (٩٣) .

٢٥ - خان درويش علي وخان الريجي وخان المميز كلها في الشارع المتفرع من سوق الصفاير والنافذ الى الدنكجية (٩٤) .

٢٦ - خان الرماح : في سوق الخردة فروشية (٩٥) .

٢٧ - خان العادلية : يقابل المحكمة الشرعية وبجانب جامع العادلية الكبير (٩٦) .

(٨٧) تقرير ممثل مديرية الآثار العامة في خان الزرور ، رقم الاصابة ٤٠/٥٤٥ .

(٨٨) الشيخلي ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ج ١ ، ص ٦٣ .

(٨٩) الشيخلي ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٩٠) سركيس ، (يعقوب) ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد ... الخ ، القسم الثاني ، صفحات ١٣٥ و ٢٨٤ - ٢٨٥ ، تقديم رفائيل بطي ومير بصري ، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، (١٣٧٤هـ/١٩٥٥م) .

(٩١) سركيس ، نفس المصدر ، ق ٢ ، صفحات ١٨٧ - ١٨٨ .

(٩٢) الشيخلي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٩٣) الشيخلي ، نفس المصدر .

(٩٤) الشيخلي ، نفس المصدر .

(٩٥) الشيخلي ، نفس المصدر .

(٩٦) الشيخلي ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٨٠) الدروبي ، نفس المصدر .

(٨١) الدروبي ، البغداديون ، ص ٣٩٦ .

(٨٢) الدروبي ، نفس المصدر .

(٨٣) الدروبي ، نفس المصدر .

(٨٤) الدروبي ، نفس المصدر ، ص ٣٩٧ .

(٨٥) الدروبي ، نفس المصدر .

(٨٦) الشيخلي ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ، ج ١ ، ص ٥٦ .

مصادر البحث

أ - المصادر العربية

- ١ - إبراهيم مصطفى وآخرون : أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي التجار .
المعجم الوسيط ، شرف على طبعه عبدالسلام هارون ، الجزء الاول ، مطبعة مصر ، القاهرة ، (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م) .
- ٢ - أحمد رضا : (الشيخ)
معجم متن اللغة ، المجلدان الثاني والرابع ، بيروت ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) (١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) .
- ٣ - أدي شير :
كتاب الالفاظ الفارسية العربية ، المطبعة الكاثوليكية ، (١٩٠٨م) .
- ٤ - ابن بطوطة : (أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة) (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٣م) .
رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) .
- ٥ - ابن جبير : (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنايني الأندلسي) (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) .
رحلة ابن جبير ، بيروت ، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) .
- ٦ - ابن دقماق : (إبراهيم بن محمد بن أيمن العلاني الشهير بابن دقماق) (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .
الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزء الرابع ، طبع بالمطبعة الكبرى ، ببلواق ، (١٣١٠هـ/١٨٩٣م) .
- ٧ - ابن سيده : (علي بن اسماعيل) (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م) .
الحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، الجزء السادس ، المطبعة الاولى ، مصر ، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .
- ٨ - ابن منظور : (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور) (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .
لسان العرب ، المجلدان العاشر والثالث عشر ، بيروت ، (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .
- ٩ - ابوار :
(مادة خان) ، دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة احمد الشنتناوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس ، حافظ جلال ، المجلد الثامن ، (بدون مكان وسنة الطبع) .
- ١٠ - بارتلد :
(مادة خان) ، دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة احمد الشنتناوي وآخرون ، المجلد الثامن .
- ١١ - بدج ، (سر ارنست الفردولس)
رحلات الى العراق ، نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه فؤاد جميل ، الجزء الاول ، المطبعة الاولى ، مطابع دار الزمان ، بغداد ، (١٩٦٦م) .
- ١٢ - بطرس البستاني : (المعلم)
فقر الحيف ، الجزء الاول ، بيروت ، (١٨٦٩م) .

٢٨ - خان الصفافير : وهو عند مدخل سوق الصفافير من جهة سوق الجوخه جية (٩٧) .

٢٩ - خان المصبغة : وموقعه عن يمين المتوجه الى شريعة المصبغة يلاصق خان الخفافين من جهاته الداخلية (٩٨) .

٣٠ - خان اللوقنطة : في سوق الموله خانه مقابل سوق القرطاسية (٩٩) .

٣١ - خان الجسر : في آخر سوق القرطاسية .

٣٢ - خان الزئبق في الدنكية (١٠٠) .

٣٣ - خان التمر في الشارع الذاهب الى شريعة خان التمر (١٠١) .

٣٤ - خان الكبابجية (المعضماوي) في سوق الكبابجية (١٠٢) .

وأخيراً لابد من القول وبناءً على ما تحمله الخانات من آثار عمارية وسمات حضارية تروي لنا حقبة من تاريخ العراقيين والمعمارة التي عاشوها في تلك الفترة ومما يؤسف له أن الإنسان عاون الطبيعة في احاطة معظم هذه الخانات بالخراب والانهدام !!

ان الامم تحافظ على تراثها وتبذل كل ما في وسعها لتحقيق هذا الغرض ، وفي اعتقادي أن هذه الخانات جديرة بالرعاية وبأن يتخذ لها ما يلزم من الحفاظ على التراث لأنها بنايات أثرية يحافظ عليها ويؤمها الناس من كل حذب وصوب ليستجلوا روائعها . ونحن نأمل لما بقي من هذه الخانات خيراً في المستقبل القريب بعد أن ساد الشعور في الوقت الحاضر والمتعلق بمسألة الاهتمام بكل ما هو أثري وصدر قرارات قومية ووطنية تحفز المعنيين للأخذ بمبدأ الحفاظ على التراث ومنه المباني العمارية التاريخية المتواجدة في أماكن كثيرة من بلادنا وخير دليل على ذلك اهتمام مؤسسة الآثار والتراث الموقرة الحالي الذي نرجوه أن يعم الخانات أيضاً ، وأرجو أن يكون قد وفقت ومن الله التوفيق .

- (٩٧) الشيخلي ، نفس المصدر .
- (٩٨) الشيخلي ، نفس المصدر .
- (٩٩) الشيخلي ، نفس المصدر .
- (١٠٠) الشيخلي ، نفس المصدر .
- (١٠١) الشيخلي ، نفس المصدر .
- (١٠٢) الشيخلي ، نفس المصدر .

- ٢٦- الشبخلي ، (محمد رؤوف طه) ، **مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها** ، الجزء الاول ، مطبعة البصرة ، البصرة ، (١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) .
- ٢٧- العسكري : (ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران اللغوي العسكري) (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) .
- كتاب التلخيص في معرفة أسماء الأشياء** ، عني بتحقيقه الدكتور عزة حسن ، الجزء الاول ، مطبعة الترقى ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ، (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) .
- ٢٨- الفيروزآبادي: (مجدالدین محمد بن یعقوب الفيروزآبادي) (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) .
- القاموس المحيط** ، مطبعة السعادة ، الجزء الرابع ، مطبعة السعادة ، (١٣٣٢هـ / ١٩١٢م) .
- ٢٩- كولن : (أرنست)
- الفن الاسلامي** ، ترجمة الدكتور أحمد موسى ، بيروت ، (١٩٦٦م) .
- ٣٠- اللبناني : (طوبيا العنيسي الحلبي)
- كتاب تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه** عني بشره وتصحيحه والتعليق على حواشيه الشيخ يوسف توما البستاني ، الطبعة الثانية ، مصر ، (١٩٣٢م) .
- ٣١- المدور ، (جميل نخلة) ، **حضارة الاسلام** ، القاهرة ، (١٩٣٥م) .
- مصطفى جواد واحمد سوسة ، **دليل خارطة بغداد الفصل في خطط بغداد قديما وحديثا** ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، (١٩٥٨م) .
- ٣٢- المباح ، (برهان نزر محمد علي) ، **عمادة وتخطيط الخانات العراقية القائمة على طرق المزارات** ، رسالة ماجستير ، مقدمة الى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد ، مطبوعة على آلة الطباعة ، بغداد ، (١٩٧٦م) .
- ٣٣- مديرية الآثار العامة :
- دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان** ، القسم الاول ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، (١٩٣٨م) .
- ٣٤- المقريري : (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي) (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقرية** ، الجزء الثاني ، طبعة جديدة بالانفست ، مكتبة المثنى ، بغداد ، (بدون تاريخ) .
- ٣٥- المنشئ البغدادي : (السيد محمد بن السيد أحمد الحسيني المعروف بالمنشئ البغدادي) .
- رحلة المنشئ البغدادي** ، نقلها عن الفارسية عباس العزاوي المحامي ، طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، (١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م) .
- ٣٦- ناصر خسرو ، (أبو معين) « سفرنامه » ، **رحلة ناصر خسرو الى لبنان ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري** ، نقله الى العربية د. يحيى الخشاب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، (١٩٧٠م) .
- ١٣- بطرس البستاني : (المعلم)
- محيط المحيط** ، المجلد الاول ، بيروت ، (١٨٧٠م) .
- ١٤- بطرس البستاني : (المعلم)
- (**مادة خان**) ، دائرة المعارف للبستاني ، المجلد السابع ، مطبعة المعارف ، بيروت ، (١٨٨٣م) .
- ١٥- بكنفهام : (جمس سلك)
- رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦** ، ترجمة سليم طه التكريتي ، الجزء الاول ، مطبعة أسعد ، بغداد ، (١٩٦٨م) .
- ١٦- تافرنيه : (جان بابتيست)
- العراق في القرن السابع عشر** ، نقله الى العربية وعلق حواشيه بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ، (١٩٤٤م) .
- ١٧- توفيق احمد عبد الجواد :
- تاريخ العمارة والفنون الاسلامية** ، الجزء الثالث ، المطبعة الفنية الحديثة ، مصر ، (١٩٧٢م) .
- ١٨- الجوالقي: (ابو منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر) (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م) .
- المغرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم** ، تحقيق وشرح ابي الاشبال احمد محمد شاكر ، أعيد طبعه بالانست في طهران (١٩٦٦م) .
- ١٩- الجوهري : (الشيخ ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري) (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) .
- الصاحح تاج اللغة وصحاح العربية** ، تحقيق احمد عبدالغفور عطار ، الجزء الخامس ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، القاهرة ، (١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م) .
- ٢٠- حسن ابراهيم حسن : (الدكتور)
- تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ، الجزء الرابع ، الطبعة الاولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، (١٩٤٨م) .
- ٢١- حسين محفوظ : (الدكتور)
- حديث شخصي ١٩٧٥م .
- ٢٢- الدروبي ، ابراهيم ، **البغداديون اخبارهم ومجالسهم** ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، (١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م) .
- ٢٣- وشيد عطية :
- معجم عطية في العامي والدخيل** ، دار الطباعة والنشر العربية ، سان باولو ، برازيل ، (١٩٤٤م) .
- ٢٤- الزبيدي : (محب الدين ابي الفيض محمد مرتضى الحسيني) (ت ٨١٧هـ / ١٢٠٥م) .
- تاج العروس من جواهر القاموس** ، المجلدان السابع والتاسع ، الطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية ، مصر ، (١٣٠٦هـ) .
- ٢٥- الشرتوني : (سعيد بن عبدالله الخوري) (ت ١٣٣١هـ / ١٩١٣م) .
- أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد** ، الجزء الاول ، مطبعة مرسلو اليسوعية ، بيروت ، (١٨٨٩م) .

4. Peters, Gohn, Punnett, Nippure or Explorations, and adventures on the Euphrates, 2. Vols., New York, and London, (1898).
5. Pope, Arthur, Upham, "Bridges, Fortifications, Caravanserais", Asarvey of Persia Art from perhistoric Times to the present, (Editor) Pope, A. U., and (Assistanteditor) Ackerman, Phylis, Text Architecture, Vol. III, London and New York,
6. Porter, R. K., Travels in Georgia, Persia, Armenia, and Ancient Babylonia during the years 1817-1820 in 2 vols., London, (1822).
7. Pritchard, James. B., Ancient Near Eastern Texts Relating to the old Testament, U.S.A. (1969).
8. Reitlinger, G., "Atower of Skalls," Ajourney through Persian and Turkish, Armenia, London, (1932).
9. Texier, C., Description de l'Armenia, la Perse et la Mesopotamia, Vol. 11, pp. 110-11, Paris, (1842-52).
10. Teixeira, Peter., The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land, London,
11. Unsal, B., Turkish Islamic Architecture in Seljuk and Ottoment Times 1071-1923), London, (1970).
12. التبريزي : (محمد حسين بن خلف)
برهان قاطع ، بتصحيح وانسام محمد عباس ،
مهرماه يکهزار و سيصد و شش ، جاب بيروت ،
مؤسسة مطبوعات امير كبير (باللغة الفارسية) .
13. التنوي : (ملا عبدالرشيد)
فروهنك رشيددي ، الجزء الاول ، طبعة كلكته ،
(باللغة الفارسية) (١٨٧٢م) .

- ٣٧- ناصر النقيبدي :
(خان مرجان) ، مجلة اهل النفط ، العدد
السابع والستون ، (١٩٥٧م) .
- ٣٨- نظمي زادة مرتضى افندي : (ت ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م) .
كلشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس ،
مطبعة الاداب ، النجف الاشرف ، (١٩٧١م) .
- ٣٩- نعيم زكي فهمي :
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب
(اواخر العصور الوسطى) ، مطابع الهيئة المصرية
العامة للكتاب ، القاهرة ، (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) .
- ٤٠- نيبور ، (كارستن) :
رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ،
ترجمه عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين ،
راجعه وعلق عليه ووضع فهرسه سالم الالوسي ،
بغداد ، (١٩٦٥م) .
- ٤١- ياقوت الحموي : (شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن
عبدالله الحموي الرومي البغدادي) ، (ت ٦٣٦هـ /
١٢٢٨م) .
معجم البلدان ، المجلدان الثاني والرابع ، بيروت ،
(١٢٧٥هـ / ١٩٥٦م) ، (١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م) .
- ٤٢- اليعقوبي : (احمد بن يعقوب بن واضح الكاتب المعروف
باليعقوبي) (ت ٣٨٤هـ / ٨٩٧م) .
البلدان ، الطبعة الثالثة ، المطبعة الحيدريية ،
النجف الاشرف ، (١٩٥٧م) .
- ٤٣- يعقوب صروف وفارس نمر ، باب المسائل ، « معنى خان »
مجلة المقتطف ، ج ١٠ ، مجلد ٢٦ السنة ١٩٥١م .

ب - المصادر الاجنبية

1. Cowper, H.S., Through Turkish Arabia, London, (1894).
2. Filmer, H., The Pageant of Persia, London, (1937).
3. Fraser, J., Narrative of Ajourney in to Khorasan, London (1825).

أسواق بغداد

بقلم

عبدالله خير الله

بغداد - حي القاهرة

كثير من المواقع التي يمكن الاستعانة بها على فهم خطط بغداد ، وجرفت معالم مهمة ، يذكر منها المرحوم مصطفى جواد واحمد سوسة في « دليل خارطة بغداد » جرف دجلة قبر عبدالله بن احمد بن حنبل ، ودير القباب ، وشربعة خضر الياس ومعالم أخرى عديدة (٢) .

ولولا بقاء القليل من المعالم القديمة الباقية التي صمدت في وجه الزمن لضاع الكثير وتعرس الفهم وازداد التخليط والتخيل ، من هذه المعالم ، بقايا سور بغداد الشرقية وقرب العهد بنقضه ومراقده الكاظمين وابي حنيفة والمستنصرية والباب الوسطاني ومعالم أخرى .

واسهم العمران الحديث بنصيب كبير في تعفية آثار أخرى ، قد تعيننا على اعطاء صورة أوضح واكمل لبغداد المدورة او الشرقية ، فمنذ القديم والعراقيون ينقضون معالم ليبنوا بأجرها معالم أخرى وهكذا ، كما ان المحلات الجديدة انما قامت في اماكن المحلات القديمة ، ولو قامت دوائر الآثار مثلا بتنقيب في مناطق العطيفية والمنطقة ومحلات أخرى من الكرخ الحالية او الرصافة فما اظنها ستخيب في ايجاد بقايا اثرية تكشف عن غوامض بغداد .

كما دفع الجهل الكثير من العوام والجاهليين الى نسبة البعض من المواقع الى غير أصحابها ، كما ان لتبدل الحكومات وتعاقب الازمان اثرا في تبدل اسماء الأماكن ونسيان اسمائها الاولى بفعل الزمن ،

يلاقي الباحثون في خطط بغداد وتحديد مواقعها متاعب جمة ، اذ تضافرت عوامل عديدة على طمس معالمها القديمة وازالة اثارها .

حتى اذا جاء الباحثون المحدثون وحاولوا نفذ الغبار عن تلك المعالم وقعوا في تشويش كبير ولبس شديد ، فقد زالت آثار بغداد ولم يبق من معين لنا على تحديدها غير اوصاف متناثرة في المصادر العربية التاريخية وكتب البلدان ، ولا يخفى ان الناس لم يكونوا على درجة سواء في ايضاح افكارهم ولا في فهم افكار الآخرين ، وستلمس في ثنايا البحث الكثير من تشويش المحدثين في فهم نصوص القدامى الامر الذي اثر على تحديدهم مواقع بغداد .

وكان لاستعمال اللبن والطين في بناء بغداد المدورة اثره في زوال اثارها ، بالرغم من ان المعمار البغدادي استطاع ان يخرج بغداد بصورة توحى بالسمو والعظمة (١) .

فبغداد تقع بين دجلة والفرات وهما في ثورة وفيضان دائمين ، فكثيرا ما تطفئ وتهدد بغداد الغربية ، اما بغداد الشرقية فلم تسلم من عسف نهري دجلة وديالى ، ونظرة سريعة على كتاب الاستاذ احمد سوسة « فيضانات بغداد » تكفينا تصور حال بغداد وتهديد المياه لها منذ تاسيسها وحتى وقتنا الحاضر .

لقد اسهمت الفيضانات المتلاحقة في تدمير الكثير من معالمها الاثرية .

وغير دجلة مجراه خلال تاريخها ، فاتى على

وكان ذلك في سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة
على قول اكثر الروايات (٨) .

وان كانت ثمة روايات اخرى تشير الى سنين
مختلفة لبنائها ، فذكرت بعضها ان بناءها كان في
سنة تسع وثلاثين ومائة للهجرة وروايات اخرى
حددت سنة اربعين ومائة للهجرة سنة بدء بنائها ،
ورواية اخرى تذكر سنة اربع واربعين ومائة بداية
لبناء بغداد (٩) .

وتكاد تكون الرواية الاولى القائلة بان بناءها
كان في سنة خمس واربعين اقرب الروايات للصحة ،
اعتمادا على حادث مشهور وقع اول بناء بغداد ،
اذ يذكر المؤرخون انه ما ان شرع المنصور ببناء
بغداد حتى قام محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن
ابن علي بن ابي طالب الملقب بـ « النفس الزكية »
بثورته بالحجاز سنة خمس واربعين ومائة للهجرة ،
وذلك ايام اشتغال المنصور ببناء المدينة المدورة ،
وثار اخوه ابراهيم بالبصرة وتوجه يريد الكوفة ،
وكان ان اضطرت هاتان الثورتان المنصور الى ان
يوقف العمل ببناء بغداد حتى فرغ من امر
الشائرين (١٠) .

وكان المنصور قد هيا لبناء بغداد ما يحتاج
اليه من خشب وساج وغير ذلك ، واتاه الخبر
بخروج محمد النفس الزكية ، فاستخلف على اصلاح
ما اعد لذلك مولى له يقال له اسلم ، وبلغ اسلم ان
الغلبة لعسكر النفس الزكية على عسكر ابي جعفر ،
فاحرق ما كان خلفه عليه ابو جعفر من خشب وساج
خوفا من ان يؤخذ منه اذا غلب مولاه ، ولما لام
المنصور اسلم ، اعتذر اليه بخوفه من ان يظفر
بهم ابراهيم فياخذه فلم يقل له المنصور شيئا (١١) .

وبحلول سنة ست واربعين ومائة تقدم البناء
تقدما سمح للمنصور بنقل دواوينه وبيت المال الى
بغداد (١٢) .

واستمر البناء سريعا ، يعمل فيه نحو من مائة
الف عامل حتى تم بناء المدينة المدورة في سنة تسع
واربعين ومائة للهجرة (١٣) .

× × ×

لقد كان بناء بغداد حدثا تاريخيا وهندسيا
ضخما ، دل على تبدل طراز الحكم وتغير مفهوم
الخلافة السياسي الجديد تغيرا جوهريا عن مفهوم
الخلافة ايام الراشدين فتغير مفهوم المدينة تبعاً
لذلك لتصبح حصنا منيعا يذود عن الخليفة ثورات
الثائرين فاصبحت حصنا محاطا بسور ضخيم يمتد
لاكثر من اربعة اميال (١٤) .

من ذلك ما سجله الرحالة الاوربيون في القرنين
السابع عشر والثامن عشر من اسماء تركية اطلقت
على ابواب سور بغداد الشرقية مثلا ، طغت على
اسمائها الاولى (٣) .

كما ان الاسماء الحالية لمواقع بغداد تجر
الكثير الى التصور الخاطيء لاماكن الكرخ والرصافة ،
الذين لم يكونا غير محلتين من محال بغداد القديمة
العديدة بينما يطلق اسم الكرخ حاليا على الجانب
الغربي برمته كما يطلق اسم الرصافة على الجانب
الشرقي (٤) .

ان احياء التراث المخطوط يزيل الكثير من
الابهام الذي يقع فيه الباحثون بسبب شحة المعلومات
التاريخية الخططية ، اذ ان الغالب على تواريخ المدن
ابتدائها بمقدمات خططية شاملة لتلك المدن تليها
تراجم المشاهير من ابنائها .

ويتعذر الجزم بوجود مقدمة خططية في كتاب
تاريخ بغداد لاحمد بن ابي طاهر طيفور (المتوفى
سنة ٢٨٠ هـ) ، لانه لم يعثر على غير الجزء السادس
منه والذي يضم مادة تاريخية بحتة (٥) .

وقد رجح الاستاذ صالح العلي وجود مقدمة
خططية له اعتمادا على قول الحميدي الذي يذكر ان
احمد بن محمد بن موسى الرازي « الف في صفة
قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها كتابا على نحو
ما بدأ به احمد بن ابي طاهر في اخبار بغداد وذكره
لمنازل الصحابة بها . » (٦)

ولو تيسر لنا هذا الكتاب كاملا لكفانا الظن
ولقدم الكثير مما يعين على فهم خطط بغداد
واخبارها .

ان احياء التراث المخطوط كليل بان يلقي
الضوء على ما خفي وابهم على الباحثين ، فحين ترى
وصفا مفصلا لاسوار بغداد المدورة يجابهك وصف
موجز لاسوار اخرى لا يكاد يشفي الغليل ويزيل
الابهام وذلك لشحة ما وصلنا عنها .

بغداد المدورة

وضع ابو جعفر المنصور اول لبنة في اساس
مدينته الجديدة بغداد في احتفال كبير حضره القادة
والعلماء وذوو الرأي ، وقال :

« بسم الله والحمد لله ، وان الارض لله
يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال
للبناء « ابنوا على بركة الله . » وابتدأ البناء (٧) .

« وجعل أبوابها أربعة على تدبير العساكر في الحروب » على قول الطبري (١٥) .

أو « تشبه معسكرا رومانيا » على ما يقول كوك (١٦) .

ويذكر الطبري عن عيسى بن المنصور أنه وجد في خزان أبيه في الكتب أنه [أي المنصور] انفق على مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق والفصلان والخنادق وقبابها وأسوارها أربعة آلاف الف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهما ، ومبلغها من الفلوس مائة ألف ألف فلس وثلاثة وعشرون ألف فلس ، وذلك أن الاستاذ من البنائين كان يعمل يومه بقيراط فضة والروزكاري بحبتين إلى ثلاث حبات (١٧) .

[وانقيراط ١/١٢ من الدرهم والحبة الواحدة ١/٢٤ من الدرهم] (١٨) .

كما يذكر ياقوت أن المنصور انفق على بناء بغداد ثمانية عشر ألف ألف دينار ذهباً (١٩)

ويرى المرحوم مصطفى جواد أن الرقم الذي ذكره ياقوت مبالغ فيه بمالفة ظاهرة (٢٠) .

ومثله لاسنر في كتابه عن خطط بغداد [والذي اكملت ترجمته مع السيد شعلان جاسم] : فهو يرى أن هذا الرقم مبالغ فيه ، فهو يرى أن قيمة الدرهم ١/١٠ من الدينار ، ومهما تبانت هذه النسبة فهي لا تقل عن ١/١٤ من الدينار (٢١) .

والمبالغ كبيرة - على تفاوتها في الروايات المختلفة - وقد نبه الخطيب البغدادي على تفاوتها (٢٢) .

ولا يخفى أن الاتفاق على الأسوار يستأثر بحصة كبيرة من المبالغ المذكورة على بناء المدينة المدورة لضخامة الأسوار وتعددتها وارتفاعها وتحصينها .

x x x

لقد اختلف الخططيون في تحديد المكان الذي شيد عليه المنصور بغداد المدورة بالنسبة لبغداد الحالية ، لاندثار معالم الاولى وزوالها حتى أنه لم يبق من بقاياها حجارة واحدة ولا علامة يستدل بها لتحديد موقعها .

وقد قلد أكثر الخططيين المعاصرين المستشرق الكبير لسترنج في كتابه القيم « بغداد في عهد الخلافة العباسية » وتابعوا خطاه ، ووقعوا في أوهامه التي نبه عليها الاستاذان المرحوم مصطفى جواد والاستاذ أحمد سوسة أكثر من مرة (٢٣) .

ويستدل الاستاذان الفاضلان على وهم لسترنج بنص ينقلانه عن ابن الطقطقي في كتابه « الفخري » يقول فيه « . . . ثم أرسل جماعة من الحكماء ذوي اللب والعقل وأمرهم بارتداد موضع ، فاختاروا له مدينته التي تسمى مدينة المنصور وهي بالجانب الغربي قريبة من مشهد موسى والجواد - عليهما السلام - فحضر إلى هناك ، واعتبر المكان ليلاً ونهاراً فاستطابه وبني به المدينة » (٢٤) .

فمن خلال هذا النص يريان أن مدينة المنصور كانت قريبة من مقابر قريش التي دفن فيها موسى الكاظم ومحمد الجواد ، لا كما يجعل لسترنج حدها قريباً من محلة الرملة في العصر العباسي [الجعيفر الحالية]

وقد جره هذا الوهم إلى الوقوع في أوهام أخرى ترتبت على اختلاله بتعيين المسافات والأبعاد (٢٥)

ثم أن مدينة المنصور التي على الجانب الغربي تقابل الرصافة الواقعة شرقي دجلة ، أن الرصافة مجاورة لمحلة أبي حنيفة النعمان بن ثابت التي بنيت حول مقبرته ، كما يقول ياقوت (٢٦) ، ومقبرة أبي حنيفة لما نزل بآقية ، فبتحديد مكان مقبرة أبي حنيفة نستطيع تحديد موقع المدينة المدورة التي تبدو قريبة من مقابر قريش [الكاظمية الحالية] (٢٧)

كما أن يد العمران امتدت على موقعها لتزيل الكثير من معالمها ، فأصبحت أكثر مواقعها مزارع وبساتين منذ أزمان بعيدة .

وأخيراً فإن الناظر إلى خارطة مجرى دجلة التاريخية وتغيره بين العصر العباسي أيام بناء بغداد وبين أيامنا هذه يدرك أن مجراه طغى على قسم من المدينة المدورة فأصبحت في واديه .

ويرى الاستاذان مصطفى جواد وأحمد سوسة أن الاستاذ هرزفلد قد قارب الصواب في تحديده موقع مدينة السلام (٢٨) .

ويريان أنها تقع بين الكاظمية من الشمال وبرانا والكرخ من الجنوب الغربي ودجلة من الشرق وقرية سوناي [موضع مسجد المنطقة الحالي] ونهر الصراة من الجنوب (٢٩) .

ويرى الاستاذ سوسة أنها كانت تقع بين الكاظمية وقرية الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ الجنيد [مقبرة الشونيزي] والشيخ معروف الكرخي من الجنوب الشرقي وقرية سوناي [المنطقة الحالية] من الشرق (٣٠) .

x x x

صيروا في الساف مائة الف لبنة وأربعين ألف لبنة
الى اعلاه (٢٩) .

ويؤيد لاسنر رأي هرزفلد وكرسويل في صحة
الأرقام التي ذكرها الخطيب بشأن عدد اللبن
المستعمل في البناء ، ولما كان الميل الواحد أربعة
آلاف ذراع أسود وان محيط السور أربعة أميال
أي ستة عشر ألف ذراع ، فيرى هرزفلد ان سمك
الأسوار عند القاعدة يساوي عشرة أذرع ، وبهذا
يكون عدد اللبن المستخدم في بنائها مائة وستين ألف
قطعة يضاف اليها الفين للابراج .

اما المائة والخمسون ألف قطعة المستعملة في
بناء الثلث الثاني [القسم الاوسط] من السور
فتكون سورا سمكه تسعة أذرع وربع الذراع يضاف
اليها الفا للابراج .

وكان سمك الثلث الاعلى من السور ثمانية
أذرع ونصف الذراع ، يضاف اليها أربعة آلاف
قطعة في الاعلى للابراج والشرفات .

ويضيف لاسنر ان هذه الأرقام تبدو مقبولة
ظاهريا على الرغم من كونها لا تتفق وما تذكره المصادر
العربية (٤٠) .

وذكر ان اللبن المستعمل في بناء المدينة المدورة
كان بحجمين كبير وصغير . فالكبيرة مكعبة الحجم ،
طول ضلعها ذراع في ذراع ، [أي حوالي نصف متر
في نصف متر] (٤١)
وتزن الواحدة منها مائتي رطل (٤٢)

وقدر آخرون وزن اللبنة الواحدة منها بزهاء
مائة وسبعة عشر كيلو غراما (٤٣) .

وقد ذكر الخطيب انه هدمت قطعة من السور
مما يلي باب المحول ، فوجدنا فيها لبنة مكتوب عليها
بمغرة [صبغة حمراء] وزنها مائة وسبعة عشر
رطلا . قال فوزناها فوجدنا كذلك (٤٤) .

اما حجم اللبنة الصغيرة فيقدر نصف الكبيرة ،
أي ذراع في نصف ذراع ووزنها مائة رطل على ما ذكر
اليقوبي (٤٥) .

وقد ذكر المؤرخون ان اباحنيفة النعمان بن
ثابت صاحب المذهب المشهور كان يتولى القيام
بضرب اللبن وعده ، حتى فرغ من استتمام بناء
حائط بغداد مما يلي الخندق ، وكان يعد اللبن
بالقصب ، وهو أول من فعل ذلك فاستفاده الناس
منه .

وكان ابو حنيفة قد رفض قبل ذلك طلب

أحاط أبو جعفر المنصور مدينة بغداد المدورة
بسور يحميها وجعل لها أربعة مداخل وحفر حولها
خندقا يحيط بالسور ، فقد ذكر اليعقوبي ان المسافة
بين الباب والاخرى من خارج الخندق خمسة آلاف
ذراع بالذراع السوداء (٣١) ، فيكون طول السور
المحيط بها عشرين ألف ذراع ، وقد اختلف في تحديد
طول الذراع السوداء ، فهي (٢٩٣/٣) مليمتر ،
أي قرابة الخمسين سنتمترا (٣٢) ، فيكون طول
السور قرابة عشرة كيلومترات وبالضبط
« ٩٨٦٦ مترا » .

ويرى آخر أن طول الذراع يساوي نحوًا من
خمس وستين سنتمترا (٣٣) ، وحسب هذا التقدير
يكون طول السور

$$٦٥ \times ٢٠.٠٠٠ = ١٣٠.٠٠٠.٠٠٠ \text{ سم}$$

أي ثلاثة عشر كيلومترا .

ويقدر هنز طول الذراع السوداء بـ « ٥٤٠.٤
سنتمترا » (٣٤) .

فيكون محيط بغداد :

$$٥٤٠.٤ \times ٢٠.٠٠٠ = ١٠.٨٠٨ \text{ مترا .}$$

والتقدير الأول اقرب للصحة وأدق .

ويروي الخطيب عن رباح البناء - وكان ممن
تولى بناء سور مدينة المنصور - أنه كان بين كل
باب من ابواب المدينة والباب والاخر ميل ، وبهذا
يكون طول السور أربعة أميال (٣٥) ، والميل أربعة
آلاف ذراع على ما يقول ياقوت في معجم البلدان .

وفي رواية أخرى للخطيب يقول : « ان المنصور
جعل الطول من باب خراسان الى باب الكوفة
ثمانمائة ذراع ومن باب الشام الى باب البصرة
ستمائة ذراع » (٣٦) .

فالابواب بحسب هذه الرواية متناظرة لا
متعامدة في قطريها (٣٧) .

ويشك لاسنر في كتابه عن خطط بغداد بصحة
هذه الرواية ، لان ذلك يعني ان المدينة غير مدورة
على ما يقول (٣٨) .

[ينظر شكل ١]

× × ×

وبنيت الأسوار باللبن ، اذ يحوي الساف
الواحد من اسواف السور مائة ألف واثنين وستين
الف لبنة من اللبن الجعفري ، حتى اذا جاوز
البناءون ثلث السور لقطوه فصيروه في الساف مائة
الف لبنة وخمسين ألف لبنة ، ولما جاوزوا الثلثين

المنصور بتعيينه قاضيا على المدينة ، لكن المنصور جعله يقبل بعمله في بناء بغداد (٤٦) .

واستعملت جوائز القصب مكان الخشب في بناء السور (٤٧) [والجوائز جمع جائز ، والجائز من البيت الخشبة التي يوضع عليها اطراف الخشب في سقف البيت . لسان العرب] وذكر ياقوت ان المنصور أمر ان يجعل في البناء جرز القصب مكان الخشب [والجرزه الحزمة . لسان العرب] .

وقد اعتاد العرب استعمال روابط من خشب او حديد تشد اسواف البناء الى بعضها (٤٨) .

× × ×

وحفر أبو جعفر المنصور خندقا عميقا حول اسوار المدينة المدورة من خارجها ، واجرى فيه الماء من قناة تستمد مياهها من نهر كرخايا الذي يتفرع من الفرات .

ولحماية السور من تأثير مياه الخندق المحيط به شيد مستاة محكمة عالية من جهة الاسوار مبنية بالآجر والصاروج (٤٩)

[والصاروج : النورة واخلاطها مما تصرج به الاحواض والحمامات . المغرب للجواليقي] . وذكر ابن رسته أن حافتي الخندق بنيتا بالجص والآجر (٥٠) .

واختلفت الروايات بشأن عرض الخندق ، فعرضه عشرون ذراعا في رواية واثنا عشر ذراعا في اخرى (٥١) .

بينما يذكر ابن الفقيه ان عرضه كان اربعين ذراعا (٥٢) .

ويشك لاسنر في صحة هذا الرقم ، اذ يرى انه لو كان عرضه اربعين ذراعا لوجب ان يربط بشاطئ دجلة المقابل له وان تجعل عنده فرضة لوصول السفن اليه (٥٣) .

ولا بد لمن يدخل المدينة من عبور الخندق على قنطرة تصل باب السور الخارجية بخارج المدينة . [ينظر شكل ٢]

× × ×

وبعد الخندق مباشرة يأتي السور الاول الخارجي ، ويعرف بسور الفصيل ، نسبة الى الفصيل الذي يحيط به من الداخل (٥٤) .

وهو اقل ارتفاعا وسمكا من السور الثاني الذي يعرف بالسور الاعظم .

قال الطبري : « وأمر [المنصور] ان يجعل عرضه من اسفله خمسين ذراعا ، وقدر اعلاه عشرين ذراعا . » (٥٥)

ويقدر كرزويل ارتفاعه باربعة وعشرين ذراعا على الاقل (٥٦) .

كما يذكر هرزفلد أن نسبة ارتفاع السورين الاول [الخارجي] الى الثاني [السور الاعظم] هي اربعة الى خمسة ، ويفترض ان ارتفاع السور الخارجي ثمانية وعشرون ذراعا وسمكه ثمانية اذرع (٥٧) .

بينما يرى الاستاذان جواد وسوسة ان احد السورين كان أعلى من الآخر بما يقرب من النصف ، وان ارتفاع السور الاعظم مع الشرفات المدورة ستون ذراعا بالذراع السوداء ، أي ثلاثون مترا على وجه التقريب (٥٨) .

ولم تشر المصادر التي بين ايدينا صراحة الى انه كان لهذا السور دعائم مدورة تدعمه مما يلي الخندق ، وأن كان هرزفلد يرجح وجود دعائم له تزيد من قوته وتدعمه كتلك التي في اسوار سامراء ، ولا يشترط فيها ان تستخدم لغاية حربية (٥٩) .

[ينظر شكل ٣]

× × ×

وفي السور اربعة ابواب بحسب المناطق والبلدان التي ينفذ منها اليها ، وكانت متقابلة ، فسمي الباب الشمالي الغربي باب الشام ، والباب الجنوبي باب الكوفة ، والباب الجنوبي الشرقي باب البصرة والباب الشمالي الشرقي باب خراسان (٦٠) .

والباب الاخير هذا كان يسمى ايضا « باب الدولة » أو « باب الاقبال » لاقبال الدولة العباسية من خراسان (٦١) .

وكان كل باب قد خصصت لاهل مصر من الامصار ، قال الخطيب : « اذا جاء احد من الحجاز دخل من باب الكوفة ، واذا جاء احد من المغرب دخل من باب الشام ، واذا جاء احد من فارس والاهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة ، واذا جاء الجائي من المشرق دخل من باب خراسان » (٦٢) .

كما ذكر الخطيب ان « للمدينة اربعة ابواب ، شرقي وغربي وقبلي وشمالي ، ولكل منها بابين ، بابا دون باب بينهما دهليز ورجبة . » (٦٣) ويفهم

من قوله ان ابواب السور الخارج [وهو السور الاول] كانت ثمانية ابواب .

ويغني كل باب من ابواب السور الخارجي الى دهليز طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً .

قال الخطيب : « فاذا دخل الداخل من باب خراسان الاول عطف على يساره في دهليز ارج معقود بالآجر والحص ، عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون ذراعاً ، المدخل اليه في عرضه والمخرج منه من طوله » (٦٤)

وتختلف مساحة الدهليز في رواية اليعقوبي التي تقول ان المنصور : « جعل لأبواب المدينة اربعة دهليز عظاماً آزاجاً ، طول كل دهليز ثمانون ذراعاً ، كلها معقود بالآجر والحص ، فاذا دخل من الدهليز الذي على الفصيل وافى رجة مفروشة بالصخر ثم دهليزاً على السور الاعظم . » (٦٥)

ويتضح من وصف الخطيب ابواب السور الخارجي ان الباب الخارجي المطل على الخندق والمسنة ليست على استقامة قطر المدينة المدورة المار بمركزها والمخترق ابواب السور الاعظم والابواب المفضية الى الرحبتين والدهليزين ، بل لا بد للمار من الباب الخارجي من ان يستدير نحو اليسار فيتعرض جانبه الايمن لسهام ورماح المدافعين عن المدينة ، لان المقاتل انما يحمل ترسه بيده اليسرى ويحمل سيفه او رمحه بيده اليمنى (٦٦) .

[ينظر شكل ٤]

وتتجلى في هذا التصميم ميزة معمارية خاصة تحقق غاية حربية ، اذ يقول الطبري « وجعل [أي المنصور] ابوابها اربعة على تدبير العساكر في الحروب » ، وتلك الميزة البغدادية تعرف بـ « المحور المنكسر » لداخل الابواب ، وهو تقليد بغدادى اصيل نقله الصليبيون فيما نقلوه عن الشرق ونقلوه في تصميم قلاعهم على ما يذكر رايس (٦٧) .

ومن الأبواب التي طبقت عليها هذه القاعدة الباب الوسطاني ، من ابواب سور بغداد الشرقية ، الا ان الداخل يتجه يمينا لا يسارا كما في سور المدينة المدورة .

[ينظر شكل ٥]

ومن هذه الخاصية اشتق اسم الزوراء ، قال ابن الفقيه وياقوت بعده ان بغداد « انما سميت بالزوراء لان المنصور حين عمرها جعل الابواب انداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة ، اي ليست على سمتها . » (٦٨)

والمسافة بين الباب والاخرى خمسة آلاف ذراع على ما ذكر اليعقوبي (٦٩) ، ولعل القياس مأخوذ من اجهة الخارجية كما يرى لسترنج ، وهي ميل على رواية الخطيب (٧٠) وياقوت (٧١) [والميل اربعة آلاف ذراع] (٧٢)

× × ×

اما ابواب السور الخارجي ، فقد صير المنصور على باب خراسان الخارج [التي على السور الخارجي] باباً جيء به من الشام من عمل الفراعنة ، وصير على باب الكوفة باباً جيء به من الكوفة كان عمله خالد بن عبدالله القسري وامر باتخاذ باب لباب الشام فعمل ببغداد وهو اضعف الابواب كلها (٧٣) .

ولم يذكر الطبري الباب الرابعة التي جعلها المنصور على باب البصرة ولا الجهة التي جيء بها منها (٧٤) .

وعلى كل باب من ابواب السور الخارجي قبة ، وبين الباب والاخرى من ابوابه ثمانية وعشرون برجاً عدا الأبراج التي بين باب البصرة وباب الكوفة فانها تسعة وعشرون برجاً (٧٥)

ويذكر جواد وسوسة ان هذه الابراج كانت للسور الداخلي [الاعظم] (٧٦) .

وليست ثمة اشارة الى ان السور الخارجي كان محصناً بالأبراج ، وان كان هرزفلد يحتمل وجود ركائز صغيرة مستديرة فيه كذلك التي في أسوار سامراء ، تؤدي غاية معمارية لا غاية عسكرية (٧٧) .

وتقدر المسافة بين البرج والاخر بستين ياردة استناداً لمعرفتنا بالمسافة بين الباب والاخرى ولعدد الابراج بينهما (٧٨) .

كما كان ارتفاع كل برج خمسة اذرع فوق السور (٧٩) .

وبعد السور الاول ارض خالية تدور بين السورين الاول والثاني اعدت لحركات الدفاع تسمى « الفصيل » وكأنها تفصل بين السور والعمران (٨٠) .

وينقسم هذا الفصيل الى اقسام اربعة متناظرة متساوية وصفها الخطيب بانها « على نعت واحد وحكاية واحدة » (٨١) .

وقد ذكر اليعقوبي ان عرضه مائة ذراع بالذراع السوداء (٨٢) ، بينما ذكر الخطيب ان عرضه ستون ذراعاً (٨٣) .

وامر المنصور أن لا يسكن تحت السور الطويل
أحد ولا يبنى منزلاً (٨٤) .

يدخل إلى الفصلان الأربعة من رحاب أربعة
بين السورين الخارجي والأعظم ، وهذه الرحاب
مستطيلة طولها ستون ذراعاً [أي بقدر المسافة بين
السورين ، أي بعرض الفصيل ، كما يرى الخطيب]
وعرضها أربعون ذراعاً . ويقتضي أن يكون طولها مائة
ذراعاً [لأنها بقدر عرض الفصيل] كما ذكر
اليعقوبي .

وتكل منها في جانبها حائطان يفصلان الرحبة
عن الفصيل ، وعلى كل حائط باب يؤدي إلى ربع
الفصيل ، فالباب الأيمن يؤدي إلى الفصيل الأيمن
بينما يؤدي الباب الأيسر إلى الفصيل الأيسر (٨٥) .

والرحاب متشابهة متناظرة شأنها شأن الأبواب
والفصلان (٨٦) .

أما السور الثاني فهو « السور الأعظم الذي
يسميه الخطيب بـ « السور الداخل » ، وهو أعلى
من السور الأول واضخم (٨٧) .

وقد ذكر اليعقوبي أن عرض أساسه كان
تسعين ذراعاً بالذراع السوداء ، ثم ينحط حتى
يصير في أعلاه خمسة وعشرين ذراعاً (٨٨) وقال
الخطيب « وعرض السور من أسفله نحو عشرين
ذراعاً » (٨٩)

أما ارتفاعه فقد كان ستين ذراعاً مع الشرفات
على رواية اليعقوبي (٩٠) ، وأنه خمسة وثلاثون
ذراعاً وعليه أبرجة كما يقول الخطيب (٩١)
وبالمقاييس المعاصرة حدده لسترنج فذكر أن ارتفاعه
كان تسعين قدماً وأن عرضه في أعلاه اثنتي عشرة
ياردة ونصف الياردة ، وعليه أبراج كبيرة وصغيرة ،
وأنه كان سوراً متيناً كالمتراس مبنياً بالآجر (٩٢) .

لقد كان هذا السور اضخم من السور الأول
[الخارجي] وأشد احكاماً ، إذ ذكر المؤرخون أن
« للفصيل أبرجة عظام وعليه الشرفات المدورة » (٩٣)

و « ... كل برج منها فوق السور خمسة
أذرع ، وعلى السور شرف » (٩٤) وكان لسترنج قد
ذكر أن على السور أبراجاً كبيرة وصغيرة وأن ارتفاع
الصغيرة سبعة أقدام ونصف القدم أعلى من مستوى
السور (٩٥) .

قال الخطيب « وقد جعل المنصور بين كل
بابين ثمانية وعشرين برجاً إلا بين باب البصرة وباب
الكوفة فإنه كان يزيد واحداً » (٩٦)

وبعملية حسابية بسيطة نستطيع معرفة

المسافة بين برج وآخر ، فالمسافة بين كل باب من
أبواب السور والباب التي تليها أربعة آلاف ذراع ،
[ميل كما ذكر الخطيب] وعرض البوابة أربعون
ذراعاً ، فالمسافة بين الباب والأخرى من السور هي
(٣٩٦٠ ذراعاً) ، وبقسمتها على عدد الأبراج
وهو (٢٩) يكون الناتج (١٣٦٥ ذراعاً) أي حوالي
(٦٨ متراً) وهي المسافة بين البرج والآخر (٩٧) .

ويقدر لسترنج المسافة بين كل برج والذي
يليه بستين ياردة بناءً على طول السور وعدد الأبراج
التي فيه (٩٨) .

ولم تذكر المصادر العربية هيئة تلك الأبراج
ولا وصفها ، إلا أن كرزويل يرى أنها من غير شك
كانت على هيئة نصف مستديرة وأنها تشبه تلك
التي كانت في هرقلية وأبراج قصور وجوامع واسوار
سامراء (٩٩) .

ويقدر هرزفلد ارتفاع كل برج عن الأرض
بمائه ووحيد وأربعين ذراعاً وأن هذه الأبراج لم
تكن مجرد مساند ودعامات بل هي أبراج ذات
تجاويف بارزة وحجرات يكمن فيها الرماة ، وأن هذه
الأبراج يفترض أنها كانت مستديرة كما كان شائعاً
يومذاك (١٠٠) .

لقد منع المنصور الناس من السكن تحته ومن
بناء منزل يلاصقه ، أما من الخارج فقد كان يحيط
به الفصيل الأول (١٠١) .

ومن الداخل كان يحيط بالسور الأعظم شارع
يفضي إلى الأبواب الأربعة ، وكان هذا الشارع -
وعرضه خمسة وعشرون ذراعاً - يخرج من الرحبة
الثانية ويدور تحت السور ومنه تبدأ مداخل
السلك (١٠٢) .

ويدخل إلى السور الأعظم من دهليز أزج
مفقود بالآجر والجص طوله عشرون ذراعاً وعرضه
اثنا عشر ذراعاً (١٠٣) . عليه باباً حديد جليلاً (١٠٤)

قال اليعقوبي : وكان فوق البوابة الرئيسية
في السور الأعظم « قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها
مجالس ومرتفعات يجلس فيها فيشرف على كل ما
يعمل به » (١٠٥)

و « يصعد إلى هذه القباب على عقود مبنية
بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام قد
عملت أزاجاً ، بعضها أعلى من بعض ، فداخل الأزاج
للمرابطة والحرس ، وظهورها عليها المصعد إلى
القباب التي على الأبواب على دواب ، وعلى المصعد
أبواب تغلق » (١٠٦)

وذكر الخطيب أن على كل أزج من أزاج أبواب

السور مجلس له درجة على السور يرتقى اليه منها ، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة في السماء سمكها خمسون ذراعاً مزخرفة (١٠٧) .

تقوم هذه القبة على اعمدة من الساج ، ويرجح انها كانت مغطاة بالقرميد ، وارتفاعها من الداخل خمسة وسبعون قدماً ، أما داخلها فقد كان مزخرفاً بنقوش ذهبية (١٠٨) وكانت القبة خضراء (١٠٩) .

وكانت هذه القبة مجلس المنصور اذا احب النظر الى الماء ، والى من يقبل من ناحية خراسان ، وقبة على باب الشام كانت مجلس المنصور اذا احب النظر الى الارياض وما والاها ، وقبة على باب البصرة كانت مجلسه اذا احب النظر الى الكرخ ومن اقبل من تلك الناحية ، وقبة على باب الكوفة كانت مجلسه اذا احب النظر الى البساتين والضياع (١١٠)

وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره (١١١)

[ينظر شكل - ٦ -]

ابواب مدينة المنصور

وعلى كل باب من ابواب المدينة باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منه فردان (١١٢) .

وهذه الابواب ضخمة يقول اليعقوبي « لا يفلق الباب الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة رجال » (١١٣)

لقد جيء بابواب سور بغداد من اماكن شتى نصبها على السور وجعل احدها على باب القصر . قال الطبري : « وذكر ان ابا جعفر احتاج الى ابواب للمدينة ، فزعم ابو عبدالرحمن الهماني ان سليمان ابن داود كان بنى مدينة بالقرب من موضع بناء الحجاج واسطاً يقال لها الزندورد ، واتخذت له الشياطين خمسة ابواب من حديد لا يمكن الناس اليوم عمل مثلها فنصبها عليها ، فلم تزل عليها الى ان بنى الحجاج واسطاً ، وخربت تلك المدينة ، فنقل الحجاج ابوابها فصيرها على مدينته واسطاً ، فلما بنى ابو جعفر المدينة المدورة اخذ تلك الابواب فنصبها على المدينة ، فهي عليها الى اليوم » (١١٤) .

بينما يذكر الاستاذان جواد وسوسة ان المنصور جلب لابواب مدينته رتاجات لا ابواباً ، لا يفلق الرتاج الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة رجال لضخامته ... فرتاج باب خراسان الخارجي جاء به المنصور من الشام من عمل الفراعنة ، وجاء برتاج باب الكوفة من الكوفة وكان قد عمله خالد بن عبدالله القسري والى الكوفة أيام

هشام بن عبدالملك ، وكان المنصور قد عمل رتاجاً لباب الشام وكان أضعف الابواب ، ويظهر انه وضع في باب البصرة رتاجاً من اربعة خمسة امر بجلبها من واسط كانت على ابواب الحجاج ، وكان الحجاج وجدها على مدينة زندورد التي كانت بازاء واسط (١١٥) .

قال الطبري : « وللمدينة ثمانية ابواب ، اربعة داخله واربعة خارجة ، فصار على الداخلة اربعة من هذه الخمسة [التي نقلها من واسط كما ذكرنا] ، وعلى باب القصر الخارج الخامس منها » (١١٦)

وكانت هذه الابواب مرتفعة يدخل الفارس بالعلم والرمح الطويل من غير ان يميل العلم ولا يشني الرمح (١١٧) .

ولم تتوفر لدينا ارقام تعين حجم هذه الابواب ، الا ان هرزفند يذكر ان طول الرمح الذي يستعمله العربي في العصر الحديث هو عشرة اذرع ولذا فهو يفترض ان ارتفاع قوس الباب كان عشرة اذرع ، وكأنه لم يحسب حساب الحصان ، لقد كانت نسبة طول ابواب سامراء الى عرضها هي نسبة ثلاثة الى اثنين ، وعليه يرى لاسنر ان عرض ابواب بغداد ستة اذرع وثلاث اذراع (١١٨) .

لقد كان نقل الابواب من مدينة لاخرى من الاشياء المتعارف عليها في تلك الايام (١١٩)

ويظن لاسنر ان ذلك كان عملاً رمزياً يعبر عن سلطة الحكام والخلفاء (١٢٠) .

وقد ظلت هذه الابواب طويلاً حتى ذكر الخطيب انه « في سنة تسع وثلاثمائة وقد كسرت العامة الحبوس بمدينة المنصور ، فافلت من كان فيها ، وكانت الابواب الحديد للمدينة باقية ، ففلقت وتبع اصحاب الشرط من افلت من الحبوس فاخذوا جميعهم حتى لم يفلت منهم احد » (١٢١)

وبدخل من الباب الكبير [الذي في السور الكبير] الى دهليز أزج معقود بالجص والأجر ، طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً (١٢٢) .

ويفضي الدهليز الى رحبة مفروشة بالصخر (١٢٣) « مربعة ، عشرون ذراعاً في مثلها ، على يمين الداخل اليها طريق وعلى يساره طريق يؤدي الايمن الى باب الشام واليسر الى باب البصرة ، والرحبة كالرحبة التي وصفنا [في الحديث عن السور الخارجي] ثم يدور هذا الفصيل على سائر الابواب بهذه الصورة ، وتشرع في هذا الفصيل ابواب

المدورة - وعلى ايامه - بناء على نصيحة احد مقربه ، اذ رأى في بقائها داخل المدينة المدورة مصدر خطر ، اذ يدخلها الجواسيس والغرباء وينقلون اسراره بحجة البيع والتجارة (١٣١) ، كما انه بنى في سنة سبع وخمسين مائة للهجرة قصرا جديدا خارج اسوار بغداد المدورة ، على نهر دجلة من جهة باب البصرة سماه قصر الخلد (١٣٢) .

ولم يتوقف العمران ببغداد ، حتى لقد روى ابن الفقيه عن ابن يزيد الحرقي ومحمد بن نصر الدلائل وهما شيخان مستوران قد أسنا « اننا لنركض على حميرنا في حواشي بغداد واواسطها منذ سبعين سنة لدلالة ما يباع من المنازل والعقارات وسائر العقد والمستغلات في الليل والنهار والغدو والآصال ، وانا لنمر في ايامنا بل في الزمان جميعا ببقاع لا عهد لنا بها ، ودور لا معرفة لنا بشيء منها ، وبمسالك لا تحيط بها اوهاطنا ولا سلكتناها قط » (١٣٣) .

وهذا النص يشير صراحة الى استمرار العمارة واتصالها ، وقد اشار اليعقوبي الى ان القطائع والشوارع والسكك قد تغيرت على ما رسمت ايام المنصور ووقت ابتدائها ... ولم تخرب بغداد (١٣٤)

وعلى الرغم من سعة بغداد وبناء الناس خارج اسوار المدينة المدورة الا ان المصادر لم تذكر لنا شيئا عن سور يحيط بالعمران الجديد ، وان كنا نلمس في اثناء النصوص ما يدل على وجود سور وذكر من خلال ذكر بعض الابواب والتي يفترض ان تبنى على سور .

لقد بنى اكثر سور مدينة المنصور باللبس وتعاقبت عليه احداث شتى من فيضانات وهدم اسهمت في خرابه ، من تلك الاحداث الفيضان الذي وقع في سنة ثلاثين وثلاثمائة والذي تسبب بهدم طاقات باب الكوفة وغرق بغداد الغربية ودخول الماء مدينة المنصور [المدورة] ، فقد ذكر الخطيب بان البثق انبثق من قبين ودخل الماء الأسود المدينة وهدم طاقات باب الكوفة وبيوتا كثيرة حتى اضطر البعض الى ترك بيوتهم الى اماكن آمن ، ثم اصلح السور (١٣٥) .

ومر بنا في حوادث الحرب بين الاخوين الامين والمامون أن جيش طاهر بن الحسين حاصر بغداد الغربية ، ورأى طاهر أخيرا وجوب ضرب المدينة المدورة التي دافع عنها رجال الامين بقوة وجلد بعد ان التجأ اليها الامين (١٣٦) .

فاصبحت اسوار المدينة المدورة باضرار جسيمة

السكك ، وعرض كل فصيل من هذه الفصلان من السور الى افواه السكك خمسة وعشرون ذراعا (١٣٤) وامر المنصور ان يبنى في الفصل الثاني مع السور النازل لانه احصن للسور (١٣٥) .

قال الخطيب : « ثم يدخل من الرحبة [الثانية] التي وصفنا الى الطاقات ، وهي ثلاثة وخمسون طاقا سوى طاق ، المدخل اليها من هذه الرحبة ، وعليه باب ساج كبير فردين ، وعرض الطاقات خمسة عشر ذراعا ، وطولها من اولها الى الرحبة التي بين هذه الطاقات والطاقات الصغرى مائتا ذراع ، وفي جنبتي الطاقات بين كل طاقين منها غرف كانت للمرابطة ... ثم يخرج من الطاقات الى رحبة مربعة عشرون ذراعا في عشرين ذراعا ، فعن يمينك طريق يؤدي الى نظيرتها من باب الشام ، ثم تدور الى نظيرتها من باب الكوفة ثم الى نظيرتها من باب البصرة » (١٣٦)

x x x

وبنى الخليفة سجنه الكبير المعروف بـ « المطبق » في الربع الجنوبي للفصل الاول الذي بين باب البصرة وطريق باب الكوفة بين السورين (١٣٧) وقد سميت السكة التي يقع فيها هذا السجن بـ « سكة المطبق » .

لقد ذكر لسترنج ان المنصور شيد سجنه الكبير قبالة باب الشام ، وكان يعرف بسجن باب الشام ، وان العامة كسرتة في فتنة سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة ايام العامل سليمان الطاهري ، فتبعهم اصحاب الشرط حتى امسكهم جميعا (١٣٨) ، وهذا السجن غير سجن المطبق كما ترى من ذكر مكانه .

وكان المطبق متين البناء قوي الاسس بناه المنصور تحت الارض فكان شديد الظلام ، وقد زج فيه الكثير من مناوئيه ، وكذلك فعل من جاء بعده من الخلفاء ، وقد ظل هذا السجن قائما الى ما بعد عهد الخليفة المقتدر بالله (١٣٩) .

x x x

ولم يعط التخطيط الدائري المدينة المدورة اسباب النمو ، فلم تستوعب السكان ، مما اضطر الى اهمال التخطيط الدائري تدريجيا ، فامتد البناء سريعا خارج الاسوار وفي فترة قصيرة عبر الى الجانب الشرقي (١٣٠) .

ورأينا ان المنصور اخرج الاسواق خارج المدينة

يجدوا منها عوضا ، حتى لقد اتصلت العمارة
والمنازل بين بغداد وسامراء (١٤٤) .

وتعود الحياة اليها من جديد فتصبح مسرحا
صاخبا لصراع مرير على الخلافة بين المعتز
والمستعين .

اسوار المستعين

ففي سنة مائتين واحد وخمسين للهجرة
بايع الجند الاتراك بسامراء المعتز بالله خليفه ، ففر
المستعين مع جماعة من رجاله الى بغداد ، وكانت
موافاته بغداد يوم الاربعاء ثلاث ساعات مضين من
النهار لأربعة ايام - وقيل لخمس ايام - خلون من
المحرم من هذه السنة (١٤٥) .

ونزل في دار محمد بن عبدالله بن طاهر والي
بغداد يومذاك ، وكان عوناً للمستعين في حربه ضد
الأتراك الذين تتبعوه واصحابه فحاصروا بغداد
واستمر حصارهم سنة اثنين وخمسين ومائتين (١٤٦) .

ولحماية المدينة ينشئ المستعين سورين حول
المدينة للدفاع عنها ، يحيط الاول بالجانب الشرقي
ويضم محلات الشماسية والرصافة والمخرم من
الشمال الى الجنوب ، ويبدأ من دجلة قبالة قصر
حميد بن عبد الحميد ويمر بسوق الثلاثاء حتى يصل
الى باب ابرز ثم ينحرف الى الشمال الغربي ويسير
بمحاذاة دجلة من الشرق فيجتاز في طريقه باب سوق
الدواب وباب خراسان ثم بمحاذاة نهر السور فيصل
الى باب البردان ومن ثم يميل الى الغرب فيجتاز
باب الشماسية وينتهي الى ضفة دجلة قبالة فرضة
[مرفأ] الخندق الطاهري حيث يبدأ سور الجانب
الغربي من المدينة (١٤٧) .

ويحيط السور الثاني بالمحلات المهمة حول
مدينة المنصور المدورة في الجانب الغربي ، ويتبدى
من ضفة دجلة عند فرضة الخندق الطاهري متتبعا
الجانب الايمن حتى باب الانبار ، ومن ثم ينحرف
الى الجنوب الشرقي متتبعا ضفة نهر عيسى ثم
يلتقي ثانية بدجلة (١٤٨) .

وفهم من حدود السورين الشرقي والغربي
اللذين ذكرهما الاستاذان جواد وسوسة ان
الجانبين المحصنين بالاسوار كانا متقابلين .

ان المصادر العربية القديمة لم تذكر حدود
السورين بوضوح الا ان الاستاذ لسترنج استطاع

نتيجة رمي المنجنيق عليها حيث ان طاهرا احاط
بها ... ونصب المجانيق حول السور .

ووصفها المقدسي البشاري في الربع الاخير من
القرن الرابع للهجرة فقال : « ... اما المدينة فخراب
والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك
الخراب ، أعمر موضع بها قطعة الربيع والكرخ في
الجانب الغربي » (١٣٧) .

على ان ابواب السور الكبير الاربعة ظلت باقية
حتى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وكذلك
الدهاليز (١٣٨) .

وانه في سنة سبع وثلاثمائة كسرت العامة
الجوس بمدينة المنصور فافلت من كان فيها ،
وكانت الابواب الحديد للمدينة باقية ففلقت وتتبع
اصحاب الشرط من اقلت من الجوس فاخذوا
جميعا حتى لم يفلت منهم احد (١٣٩) .

الرصافة

قدم المهدي مع عسكره من المحمدية بالري
الى بغداد في سنة احدى وخمسين ومائة ، فامر
ابوه المنصور ان يعسكر بالجانب الشرقي من بغداد
ويبنى له ولاصحابه دورا ، فبنى له سورا وحفر
خندقا وغرس بستانا وسماها « عسكر المهدي »
اولا ، الا ان اسم الرصافة غلب عليها (١٤٠) .

وكان جامع الرصافة قد أسس قبل ذلك
التاريخ اي في سنة ثلاث واربعين ومائة ، ولم يقم
ال عمران حوله حتى عودة المهدي (١٤١) .

لقد كان الجامع اول بناء شيد في ذلك الجانب ،
وكان الفراغ من بناء الرصافة وبناء جامعها في سنة
تسع وخمسين ومائة للهجرة وهي السنة الثانية من
خلافة المهدي (١٤٢) .

تقع الرصافة مقابل المدينة المدورة على الجانب
الشرقي لدجلة ويربطها بالمدينة المدورة جسر .

وسرعان ما ساوت الرصافة بغداد الشرقية
في المساحة (١٤٣) .

ولم تسعفنا المصادر التي بين ايدينا بما يعين
على وصف سور الرصافة .

× × ×

وينتقل المعتصم الى سامراء في سنة ثلاث
وعشرين ومائتين ، فتصبح عاصمة الخلافة العباسية
طيلة مقامه بها مدة حياته وايام الواصل والمتوكل ،
ولم تخرب بغداد ولا تقضت اسواقها ، لانهم لم

معرفة حدود السورين من تقصيه اخبار الحصار
وهجمات الاتراك وتحصينات المستعين (١٤٩) .

[ينظر شكل - ٧ -]

ويأمر المستعين بحفر الخنادق حول السورين
وانشاء مظلات ياوي اليها الفرسان من الحر
والطر (١٥٠) .

بلغت نفقة بناء السورين وحفر الخنادق واقامة
المظلات ثلاثمائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار (١٥١) .

وتم بناء السور بسرعة عجيبة فقد ذكر الطبري
ان المستعين وافى بغداد لاربعة ايام وقيل لخمسة
ايام مضين من المحرم (١٥٢) ، ثم نجده يقول : « وكان
الفراغ من عمل السور يوم الخميس لسبع بقين من
المحرم » (١٥٣) .

فلا ندري مبلغ هذا السور من التحصين
والمنعة وقد انشيء في ثمانية عشر يوما كما رأينا ،
على ان يد الادامة والاصلاح لم تغفله ، ولعل
المدافعين عنه كانوا مستمرين على اصلاحه وتقويته
والاضافة اليه .

واغفل المؤرخون الحديث عن هذا السور
وتحصيناته وكل ما وصلنا لا يتعدى وصف الطبري
لابوابه ، فقد ذكر ان المستعين جعل على باب
الشماسية خمس شداخات بعرض الطريق فيها
العوارض والمسامير الطوال الظاهرة (١٥٤) .

وجعل للسور ابوابا داخلية واخرى خارجة ،
بينها دهاليز مسقفة يسع كل دهليز مائة فارس
ومائة راجل ، ولم يذكر مساحتها ، وجعل على
الابواب الخارجية المجانيق والعرادات [العرادة
اصغر من المنجنيق] لحمايتها ، اما الابواب الداخلة
فقد جعل من خارجها بابا معلقا بحبل بمقدار الباب ،
ثخين ملبس بصفائح الحديد ، يشد بالحبال ، حتى
اذا هوجمت الابواب ارسلت حباله فسقط وقتل
من يحاول اقتحام ابواب السور من المهاجمين (١٥٥) .

وامر المستعين وقواده بهدم ماوراء سور
الجانب الشرقي من دور وحوانيت وبقطع النخيل
والاشجار المحيطة بالسور لكي لا يتخذها المهاجمون
سترا يتسترون وراءه ولتتسع الناحية على من
يحارب فيها (١٥٦) .

× × ×

روى الحميري عن احمد بن ابي طاهر انه اخذ
الطول من الجانب الشرقي من بغداد للامير الناصر
لدين الله [ابو احمد طلحة الموفق] عند دخوله

مدينة السلام فوجد مائتي جبل وخمسين جبلا
وعرضه مائتي وخمسة اجبل ، ووجد طول الجانب
الغربي مائتين وخمسين جبلا وعرضه خمسين
جبلا (١٥٧) [والجبل ضلع ارض مساحتها جريب ،
والجريب ثلاثة الاف وستمائة ذراع مربع ، فيكون
طول الجبل ستين ذراعا] .

كما ذكر الاستاذ الدوري انه في سنة تسع
وسبعين ومائتين للهجرة كان طول بغداد سبعة
كيلومترات وربيع الكيلومتر وعرضها ستة
كيلومترات ونصف الكيلومتر (١٥٨) .

ولعل في ما ذكرت ما يعين على تقدير اطوال
اسوارها وتصور مقدارها .

ويفهم من اخبار معارك المستعين وحصار
الاتراك له ان لسور بغداد الشرقية عدة ابواب هي
باب الشماسية الى الشمال وباب خراسان الى
الشرق ، اما ابواب السور الغربي فمنها باب قطربل
وباب الحديد وباب الانبار (١٥٩) .

× × ×

وعلى مدار سنة تامة يشتد قتال المهاجمين
ورميهم السور بالمجانيق ، فتعرض سور الجانب
الغربي لتصدع بعض اجزائه وتهدمها ، وسرعان
ما بنى المدافعون ما تهدم منه (١٦٠) .

وينهار سور المستعين تدريجيا ، اذ كيف
يصمد سور شيد في عجالة من الوقت بوجه قتال
ضار وهجوم شديد ، كما ذكر المؤرخون ان فيضان
سنة ثلاثين وثلثمائة اغرق بغداد الغربية فتهدمت
مبان عديدة منها سور المستعين على جانبي
بغداد (١٦١) .

ويعود الخلفاء العباسيون الى بغداد ثانية
فتصبح مركز خلافتهم بعد تركهم سامراء وكان اول
خلفائهم ابو العباس المعتضد بالله (١٦٢) .

وقبل ذلك كان الناصر لدين الله ابو احمد
طلحة الموفق [اخو الخليفة المعتمد] قد ترك
سامراء واقام ببغداد اذ اتخذ منها مركزا لقيادة
حملاته ضد الزنج الثائرين ، وكان ذلك تمهيدا
لانتقال مركز الخلافة الى بغداد (١٦٣) .

وتوسع بغداد في نهاية القرن الثالث الهجري
توسعا كبيرا بالقياس الى ما كانت عليه في اوله ،
ويتجه العمران نحو الجنوب رغبة من الخلفاء في
الابتعاد عن صحب بغداد وزحامها فقد ذكر ابن الجوزي
ان المعتضد كان يقول « كيف يفلح بلد يخالط هواءه
هذا ؟ » وأشار الى الدخان (١٦٤) .

يجاورها فذكر ان ذلك مثل مدينة شيراز (١٧١) وقد قدر ياقوت مساحتها بثلاث بغداد (١٧٢) .

وجميع ما يشتمل عليه السور الدائري يسمى حريم دار الخلافة ويضم دار الخلافة وقصور الخلفاء كما يضم محال واسواقا ودورا كثيرة للرعية (١٧٣) ، وأصل الحريم من حريم البئر وهو ما حولها من حقوقها ومرافقها ثم اتسع فقبل لكل ما يتحرم به ويمنع منه حريم ، وبذلك سمي حريم دار الخلافة ببغداد (١٧٤) .

يجتاز الخارج من دار الخلافة سوراً له ابواب يقع شرقي دار الخلافة ويعزلها عن منازل الرعية ، فدار الخلافة وقصورها تقع بين هذا السور من الشرق ونهر دجلة من الغرب .

وبعد اجتياز تلك الابواب يمر بحريم دار الخلافة (١٧٥) .

ودار الخلافة والحريم يحيط بهما سور دائري ذي تسعة ابواب ، وقد عفت آثار السورين الى حد يصعب تعيين موضعهما ، يضاف الى ذلك ان الخططين اقدمي لم يذكروا علماً ثابتاً صمد على حوادث الزمان يمكن ان يستدل به على تحديد اي منهما ، الامر الذي اوقع العارفين بخطط بغداد ومعاليمها التاريخية في شك وريب ، فينقل المرحوم الدكتور مصطفى جواد عن ياقوت انه عد جامع القصر [الذي من بقاياها جامع سوق الفزل الحالي] من حريم دار الخلافة ، بينما ينقل عن الخطيب ان باب العامة [من ابواب حريم دار الخلافة] ملاصق لجامع القصر ، فاختلط الامر حتى على المرحوم مصطفى جواد فلم يدر ان كان الجامع داخلاً كله في الحريم ام اكثره ام بعضه (١٧٦) .

حريم دار الخلافة

يحيط بحريم دار الخلافة ودار الخلافة سور كهية الهلال او نصف دائرة (١٧٧) يتبدى من ضفة دجلة جنوب محلة سوق الثلاثاء ، عند شريعة السموال (١٧٨) شرق المدرسة المرجانية وينتهي عند دجلة جنوباً عند شريعة المربعة الحالية او نحوها تحت قصر التاج (١٧٩) ، ويصعب ضبط موقع الحد الجنوبي لعدم وجود اثر يمكن اعتماده في تحقيق الموضع ، ويقدر المرحوم مصطفى جواد الحد الجنوبي عند قبر السيد سلطان علي (١٨٠) .

[ينظر شكل - ٨ -]

لقد امتد البناء لمسافات كبيرة خارج اسوار المستعين فبنيت دار الخلافة خارج المخرم وامتدت بساكناتها وابنيها الى نهر بين على بعد فرسخين ، وامتد من دار الخلافة جنوباً الى اعلى الشماسية شمالاً بمحاذاة دجلة على امتداد خمسة اميال (١٨٥) .

ويذكر الاستاذ سوسة ان امتداد العمران في الجانب الشرقي في اواخر القرن الثالث الهجري قد وصل الى زهاء كيلومتر جنوب سور المستعين حيث قصور الخلفاء وبساكناتها (١٦٦) .

دار الخلافة

عاد الخليفة المعتضد بالله الى بغداد فاحتاج الى دار تليق به كخليفة ، فلم يجد افضل من القصر الحسني [الذي بناه الحسن بن سهل] ، وكانت تقيم به ابنته بوران زوج الخليفة المأمون فاستنزلها عنها ، فاستنظرته اياماً في تفريقها وتسليمها ، ثم رمتها وعمرتها وجصصتها وبيضتها وفرشتها بأجل الفرش وأحسنه وعلقت على ابوابها اصناف الستور وربت فيها الخدم والجواري . . . فانقل المعتضد بالله الى الدار ، ثم استضاف اليها ما جاورها ووسعها وعمل عليها سور (١٦٧) .

ويشك الخطيب في صحة هذا الخبر ، اذ يذكر ان بوران توفيت في سنة احدى وسبعين ومائتين ، وقد بلغت ثمانين عاماً ولم تعيش حتى ايام المعتضد ، فلعل هلال بن المحسن النصابي راوية الخبر وهم وأبدل اسم المعتضد فجعله المعتضد (١٦٨) .

وانذي لا شك فيه ان القصر الحسني كان نواة دار الخلافة العباسية وقصورها العديدة التي اضيفت اليها ، فقد شيد المعتضد قصر الفردوس بجوار القصر الحسني في موضع يقع فوقه حيث يصب نهر معلى بدجلة (١٦٩) . كما بنى قصر الثريا ، واخيراً وضع اساس القصر الذي اصبح مركز الخلافة الرسمي واكملة المكتفي بالله وزاد عليه ، وبنى الخلفاء بعده فيها قصور « دار الشجرة » و « الدار المثمرة » و « الدار المربعة » ودار الوزارة والدواوين .

وقد اسهب المؤرخون في وصف عظمة تلك القصور وما تحتويه ، فمن ذلك ما رووه عن طريق معقود بازاج تحت الارض يربط قصر الثريا خاص بالجواري والسراري طوله ميلين (١٧٠) .

× × ×

وذكر الخطيب ان خازن عضد الدولة البويهى طاف دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما

وكان للسور تسعة ابواب هي من الشمال الى الجنوب :

- ١ - باب الغربية
- ٢ - باب سوق التمر [الباب القائي]
- ٣ - باب بدر [باب الخاصة]
- ٤ - باب النوبي [باب العتبة]
- ٥ - باب العامة [باب عمورية]
- ٦ - باب النصر
- ٧ - باب الخاصة
- ٨ - باب الستان
- ٩ - باب المراتب

× × ×

اما باب الغربية فهي اولى ابواب حريم دار الخلافة من جهة الشمال ، وقد سمي بذلك لوجود شجرة غرب نابذة بالقرب منه (١٨١) وباب الغربية في المشرعة التي تسمى الآن « شريعة المصبغة » وعندها يبدأ حريم دار الخلافة (١٨٢) وقربه داخل دار الحريم قصران هما دار خاتون ودار السيدة وكانت لابنة الخليفة المقتدي وشيد المستنجد بالله في محلها قصرًا سماه « دار الريحانيين » نسبة الى سوق الريحانيين [سوق الفواكه والرياحين خارج سور الحريم] الواقع بالقرب منه ، وكانت هذه الدار ذات وجوه اربعة متقابلة سعة صحنها ستمائة ذراع (١٨٣) .

× × ×

وثاني ابواب السور « باب سوق التمر » وهو قريب من باب الغربية ويسمى بـ « الباب القائي » ايضا ، وهو باب شاهق البناء والى جانبه من داخل الحريم الدار القطنية ، وهي قصر يشرف على مشرعه الابرين [الذين يبيعون الأبر] (١٨٤)

وقد ذكر ياقوت أن هذا الباب والدار الملاصقة به اغلقا في اول أيام الناصر لدين الله ، اي بعيد سنة خمس وسبعين وخمسائة للهجرة (١٨٥) ، وقد ذكر القزويني أن المسترشد خرج منه فاصابه ما اصابه فطيروا به واغلقوه (١٨٦) .

× × ×

وعلى مسافة قليلة من باب الغربية وباب سوق التمر باب يعرف بـ « باب بدر » أو « باب البدرية » نسبة الى بدر من ممالك الخليفة المعتضد (١٨٧) ، وكان يسمى « باب الخاصة » في اول امره وذلك لدخول الخاصة من الناس منه الى دار الخلافة ومنهم الأمير بدر (١٨٨) ، ولم يدم

اسم باب الخاصة اذ حل محله اسم باب بدر حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، وقد جدده الخليفة الطائع .

والى جانبه من الخارج دار بدر وسويقه بدر ، وعليه انشأ المستظهر بالله منظره تشرف على ساحة قصور الخلفاء وعلى سوق الريحانيين الواقع خارج السور قريبا منه (١٨٩) .

× × ×

ويعرف الباب الرابع من ابواب السور بـ « باب النوبي » نسبة الى حاجب يجلس عنده اسمه سعيد النوبي ، ويعرف بـ « باب العتبة » ايضا نسبة الى العتبة التي يقبلها الرسل والامراء والملوك ورؤساء الحجاج اذا قدموا بغداد (١٩٠) وهذه العتبة اسطوانة من الرخام الابيض موضوعة امام الباب الداخلي ، ولعل الخليفة الناصر دفن تحتها صليبا من الذهب وكان صلاح الدين الايوبي غنمه فاهداه له ، وقد روى لسترنج نقلا عن أبي شامة أن الناصر لدين الله امر بدفنه تحت باب النوبي (١٩١) .

وفي أيام حرب المسترشد بالله مع السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه، أمر الخليفة ببناء ابواب السور واغلاقها جميعا وابقى باب النوبي وحده دون ان يفلق (١٩٢) .

× × ×

وخامس الابواب « باب العامة » ويعرف بـ « باب عمورية » ايضا وقد ذكر أن المعتصم جلب ابوابه الحديدية الضخمة من مدينة عمورية (١٩٣) . قال القزويني عنه « ولم ير مصراعان اكبر منه » (١٩٤)

× × ×

وبعد باب العامة يأتي « باب النصر » وكان المسترشد بالله قد فتحه وصار يتفاعل به بالظفر حين يخرج للحرب منه (١٩٥) .

× × ×

ويأتي « باب الخاصة » بعد باب النصر ، وكان اسم باب الخاصة يطلق على باب بدر اولا ثم اهمل (١٩٦) .

قال ياقوت « كان باب الخاصة احد ابواب دار الخلافة المعظمة ببغداد احده الطائع تجاه

دار الفيل وباب كلواذي « (١٩٧) [وباب كلواذي تقع جنوبي دار الخلافة] .

وقد نبه المرحوم مصطفى جواد الى وهم لسترنج [في كتابه بغداد ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ من الترجمة العربية] - على جلالته قدره وعظمه - وخطه بين باب الخاصة القديم الذي سمي باب بدر وبين باب الخاصة الجديد (١٩٨) .

× × ×

والباب الثامن « باب البستان » وكانت عليه منظره تشرف على موضع الضحايا حيث كانت تنحر في عيد الاضحى (١٩٩) .

× × ×

وآخر الابواب في السور « باب المراتب » ويقع بالقرب من ضفة النهر في الجنوب .

قال فيه ياقوت « كان من اجل ابواب دار الخلافة واشرفها ، له حاجب عظيم القدر نافذ الامر ، داخل محلة كبيرة كان يسكنها الاكابر والتجار والاشراف ذوو البيوتات القديمة ، وكانت الدور بها غالية لها قيمة ، ثم باد اهلها وانتقلوا عنها ، اما الآن فلم يبق لها قيمة ، واراد اهلها بيعها فلم تشتتر منهم فنقصوها وباعوا انقاضها » (٢٠٠)

وقال ايضا : « وبين باب المراتب وبين دجلة نحو رميتي سهم . » (٢٠١)

ولا يعلم تاريخ بناء السور على التحقيق ، ومن المرجح انه بديء ببنائه في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) واتمه من جاء بعده من الخلفاء (٢٠٢)

اسوار بغداد الشرقية

واتسع عمران بغداد الشرقية سريعا وامتد حول دار الخلافة وحريمها واسوارها وشيد الناس حول اسوارها المحلات والاسواق والدور التي أصبحت اصل مدينة بغداد التي بقيت حتى العصور الاخيرة (٢٠٣) .

وذلك لان حماية الخليفة كانت تمتد الى الحريم كما كانت باب المراتب [الباب الجنوبي الشرقي لدار الخلافة] ملجأ المستعيزين وملاذ الخائفين والمستجيرين ، فازداد العمران ونما سريعا حولها (٢٠٤)

وفي بداية حكم الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) بديء بانشاء سور عظيم وخندق يحيطان بالمدينة والعمران الجديد وبضم دار الخلافة وحريمها واسوارها وما شيد حولها ، وكان الشروع في البناء

في اثنامن عشر من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين واربعمئة للهجرة (٢٠٥) ، فخط الوزير عميد الدولة ابو منصور محمد بن محمد بن جهر السور وقدره ومعه المساح وشرع بجباية الاموال التي يحتاج اليها من عقارات الناس ودورهم ، واذن للناس في التفرج والعمل ، فزينوا البلد وعملوا القباب وجدوا في عمارته (٢٠٦) .

وحمل اهل المحال السلاح والاعلام والطبول ومعهم المعاول والسهل وانواع الملاهي والزمور والحكايات والخيالات ، فعمل اهل باب المراتب من البواري المقيرة على صورة الفيل وتحتته قوم يسيرون به ، وعملوا زرافة كذلك ، واتى اهل قصر عيسى بسميرية كبيرة [السميرية نوع من انواع السفن] فيها الملاحون يجذفون وهي تجري على هاذور [عجلات] ، واتى اهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم في الاسواق ، وعمل اهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب ، واخرج قوم بثرا على عجل وفيها حائك ينسج ، وكذلك السقلاطونيون وكذلك الخبازون جاؤوا بتنور وتحتته ما يسير به والخباز يرمي الخبز الى الناس (٢٠٧) .

فبنوا من السور مائة قامة فقط وحدثت عوائق عن اتمامه ، اهمها النزاع على السلطنة بين الملوك السلاجقة بركيارق ومحمد وسنجر اولاد ملكشاه (٢٠٨) .

وتوفي الخليفة المستظهر في سنة اثنتي عشرة وخمسماية للهجرة وبويع ابنه المسترشد بالله خليفة من بعده .

× × ×

وفي سنة سبع عشرة وخمسماية للهجرة عزم المسترشد بالله على بناء سور لبغداد الشرقية وجبى ما يخرج عليه من الناس ، كما فعل ابن جهر وزير ابيه ، فحصل من ذلك مالا كثيرا ، فاضر ذلك بالناس وشق عليهم ، فلما علم الخليفة كراهة الناس لذلك واعسارهم وضيق ذات يدهم امر باعادة ما اخذ منهم فسروا بذلك (٢٠٩) .

وقيل ان الوزير احمد بن نظام الملك بذل من ماله خمسة عشر الف دينار ، وقال تقسط الباقي على ارباب الدولة (٢١٠) .

وكان اهل بغداد يعملون بانفسهم وكانوا يتناوبون العمل ، يعمل اهل كل محلة منفردين بالطبول والزمور ، وزينوا البلد وعملوا فيه

وفي جنوبي هذا الباب كانت السوق المعروفة بسوق السلطان والتي تقع في الميدان الحالية (٢٢٢) .

وعرف في العصور الأخيرة باسم « باب المعظم » نسبة إلى الامام الاعظم أبي حنيفة ، وقد سمي بذلك لابتداء الشارع المؤدي لمحطة الامام الاعظم منه (٢٢٣) .

وقد ظل هذا الباب حتى هدم في سنة ١٩٣٢م ، ومحله اليوم بين قاعة الشعب وجامع الازبك .

× × ×

والباب الثاني من ابواب سور بغداد الشرقية هو « باب الظفرية » وقد سمي باسمه هذا لانه يقابل محطة الظفرية نسبة إلى ظفر وهو من ممالك الخلفاء العباسيين ، كما كان يعرف بـ « باب خراسان » لبداية الطريق المؤدي إلى خراسان منه (٢٢٤)

وعرف في العصور المتأخرة باسم « الباب الابيض » « آق قابو » ويسمى أيضا بـ « الباب الوسطاني » (٢٢٥)

وما زالت بقايا هذا الانثر قائمة حتى اليوم بالقرب من مرقد الشيخ عمر السهروردي .

ويتكون من برج اسطواني الشكل ضخم يحيط به خندق يمتليء بالماء من الخندق المحيط بالاسوار ، وللبرج بابان مائلان [اي ليسا على سمت واحد] مبنيان بالأجر ، الباب الاول يربط البرج بخارج المدينة ويوصل اليه بقنطرة معقودة مبنية بالأجر ، والباب الثاني يربط البرج بسور المدينة ويوصل اليه بقنطرة معقودة مبنية بالأجر ، وقد اقيم على جانبي هذه القنطرة جداران عاليان فيهما مواضع للرماة تستخدم في صد هجمات الاعداء اذا حاولوا اقتحام الباب الاول وتجعلهم عرضة للرماة فتصيبهم السهام (٢٢٦) .

وقد روعي في تصميم البرج ومداخله المدخل المنكسر الذي ذكرناه في اثناء الحديث عن ابواب المدينة المدورة .

[ينظر شكل ١٢٥]

× × ×

وسمي الباب الثالث من ابواب بغداد الشرقية بـ « باب الحطبة » لقربه من ميدان سباق الخيل وكان موقعه هناك قبل انشاء السور .

وقد عرف في العصور المتأخرة باسم « باب الطلسم » لان في اعلى الباب تمثال رجل متربع وعلى

القباب (٢١١) قال ابن الجوزي : « وكان كل اسبوع يعمل اهل محلة ويخرجون بالطبول والجنكات » (٢١٢)

وكان الابتداء بعمارة السور في صفر من سنة سبع عشرة وخمسائة للهجرة (٢١٣) ، وقيل في يوم السبت النصف من شعبان من السنة نفسها (٢١٤)

وكان السور قويا محكم البناء ليستطيع انقاذ الخلافة من سلطان السلاجقة ، وجعل عرضه اثنين وعشرين ذراعا (٢١٥) .

[ينظر شكل ١٠٩ ، ١٠٩ ، ١١٠]

× × ×

وانشأ الخليفة المقتفي مسناة حول السور وتوفي ولما يكملها ، ثم ولي المستنجد وعمل منها قطعة وتوفي ، وولي المستضيء فعمل بمقدار ما عمل في زمن المقتفي والمستنجد .

ووصف المؤرخون السور في العهد الذي يلي الحصار المغولي فقالوا انه كان من خارج السور مبنيا بالأجر وخندقه مرصوفا بالحجارة على هيئة نصف دائرة طولها ثمانية عشر ألف خطوة يتصل بدجلة من بدايته ونهايته (٢١٦)

وقد ذكر نيبور في رحلته انه كان جافا على ابامه (٢١٧) ، ويمكن ان يغمر بالمياه اذا ضرب الحصار على بغداد (٢١٨) .

وكان عمقه نحو خمس أو ست قامات كما ذكر تافرنيه الذي زار بغداد سنة ١٦٣٢م وسنة ١٦٥٢م كما ذكر او ليفيه ان الخندق كان عميقا جدا ، ففي حصار حافظ باشا لبغداد [١٠٣٥ هـ = ١٦٢٥ م] قطعت الاف النخيل ورميت في الخندق ودفنت في التراب للوصول إلى الخندق وعمل ثغرة فيه (٢١٩) .

وزار ابن جبير بغداد أيام الناصر لدين الله فذكر ان للشرقية أربعة ابواب ، فاولها وهو في أعلى الشط باب السلطان ثم باب الظفرية ويلييه باب الحطبة فباب البصلية ، وهذه الابواب التي هي في السور المحيط بها من أعلى الشط إلى أسفله (٢٢٠)

× × ×

اما الباب الشمالي فيسمى « باب السلطان » نسبة إلى السلطان طغرل بك الذي دخل بغداد من هناك (٢٢١) .

وكان يقع هذا الباب عند باب المعظم الحالي ، في جنوب جامع السلطان علي مسافة قليلة منه ، وجامع السلطان في المخرم [العيواضية الحالية] ،

كل من يمنته ويسرته تمثال أفعى عظيمة ، وقد عد العامة ذلك طلسمه تحمي بغداد من شرور أعدائها (٢٢٧) .

وذكر لسترنج ان هذا الباب كان يعرف قديما باسم « الباب الأبيض » (٢٢٨) .

وقد جدد الخليفة الناصر لدين الله باب الحلبة وذلك في سنة ثمانى عشرة وستمئة كما تدل على ذلك الكتابة التي كانت على الباب والتي نقلها نيبور والتي نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . هذا ما امر بعمله سيدنا ومولانا المفترض الطاعة على كافة الانام ابو العباس احمد الناصر لدين الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين وحجة الله عز وجل على الخلق اجمعين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين ، ولا زالت دعوته الهادية على يفاع الحق منارا ، والخلائق لها اتباعا وانصارا ، وطاعته المفترضة للمؤمنين اسماعا وابصارا ، وافق الفراغ في سنة ثمان عشر وستمئة [كذا] ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين » (٢٢٩)

ومنه دخل السلطان مراد الرابع حين احتل بغداد في سنة ثمان واربعين والى للهجرة بعد ان كانت تحت الاحتلال الفارسي (٢٣٠)

وسماه « برج الفتح » لانه يرى انه دخل منه بغداد فاتحا (٢٣١) .

وسده مراد بعد دخوله بحائط لكي يبقى مقدسا فلا يضع احد قدمه على عتبة احتراماً له . وظل مسدودا حتى نسفه الاتراك العثمانيون عند دخول الانكليز بغداد وانسحابهم منها ليلة الحادي عشر من آذار سنة ١٩١٧ م ، وكان مخزناً للبارود (٢٣٢) .

وائر الفيضان الكبير الذي حصل في سنة ١٠٦٧ هـ ، واصابه التآكل والتصدع ، فرممه الوالي محمد باشا الخاصكي في سنة ١٠٦٨ هـ (٢٣٣)

وكان هذا الباب مبنيا بالآجر ، يوصله بالسور المجاور له جسر محصن على جانبيه برجان منيعان (٢٣٤) .

[ينظر شكل - ١٣ -]

× × ×

ورابع ابواب سور بغداد الشرقية « باب البصلية » ويقع في الجنوب ، وقد سمي باسم محلة البصلية [وكان يزرع فيها البصل] التي تقع الى

جواره والتي انشأها الخليفة المقتدي ، وكان يسمى ايضا « باب كلواذى » لان منه الطريق الى قرية كلواذى (٢٣٥) .

وسمي في العصور التي تلت سقوط بغداد باسم « الباب المظلم » « كارائق قايو » ووهم بعض الرحالة في لفظه اذ سماه نيبور في رحلته باسم « كارولوك » كما سماه تيفنو باسم « كارانلو قايي » (٢٣٦) .

وعرف في العصور المتأخرة باسم « الباب الشرقي » وقد هدمته امانة العاصمة في سنة ١٩٣٧ . على عهد امينها ارشد العمري ، وكان الانكليز قد اتخذوه كنيسة لهم (٢٣٧) .

وعنده اتخذ احد قواد هولاكو مقر معسكره حيث جيء بالخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فكانت نهايته بعد ذلك (٢٣٨) .

وعد هوار « باب الجسر » الباب الخامس في سور بغداد الشرقية ، وهو يفضي الى جسر على ثلاثة وثلاثين قارباً (٢٣٩) .

وذكر الرحالة تافرنيه ان هذا الباب كان يسمى « صوقايي » اي « باب الماء » او « باب الشط » (٢٤٠) .

× × ×

لقد كان سور بغداد الشرقية يحصن بغداد من جميع جهاتها بما في ذلك جهة النهر ويؤيد هذا ما نراه في « خارطة تافرنيه التي تصور بغداد في القرن السابع عشر ، شكل » اذ يبدو السور واضحا فهو يحيط ببغداد من كل جهاتها .

× × ×

ويضاف الى الابواب الخمسة التي ذكرنا عدد من الابواب السرية وكانت آراجا تفضي الى دجلة ، وتسمى « اوغرين قايي » (٢٤١) .

× × ×

لقد ترك الرحالة الغربيون وصفا مفصلا وخرائط وافية الى حد بعيد صورت جوانب مختلفة من سور بغداد ، من ذلك خارطة ووصف نيبور مدينة بغداد ، فقد ذكر ان في السور عشرة أبراج كبيرة وكان في كل منها ستة مدافع او سبعة ، وبين هذه الابراج الكبيرة أبراج صغيرة يدافع عنها بالأسلحة الخفيفة .

وذكر الحاج خليفة عدد هذه الابراج الصغيرة وتوزيعها على نقاط السور المختلفة ، فذكر ان بين

وكذلك ما ذكر عن أسوار دار المملكة البويهية ،
ودار السلطنة السلجوقية ، والدار المعزية في
الشماسية ، والسور الذي حول مشهد الامامين
الكاظمين (٢٤٩)

× × ×

اما الجانب الغربي فقد ذكر ابن جبير ان
الخراب قد عمه واستولى عليه على ايامه وأنه
يحتوي على سبع عشرة محلة ، كل منها مدينة
مستقلة (٢٥٠) .

ونشاهد هذا الجانب في خارطة جونس
وكولينكوود [القرن التاسع عشر الميلادي] وقد
لفه سور ضم محلاته ويقابل القسم المعمور من
الجانب الشرقي ، ولهذا السور أربعة ابواب هي
باب الكريكات في الجنوب وباب الحلة وباب الشيخ
معروف في الشرق وباب الكاظمية في الشمال .

واهملت خارطة سار وهرزفلد [اوائل القرن
الحالي] باب الكاظمية في بغداد الغربية (٢٥١) .

وظل هذا السور يقاوم الزمن ويصد الغزاة
ويحمي المدينة حتى تقضى على عهد مدحت باشا
سنة ١٨٧٠ م باستثناء ابوابه الاربعة والابواب
المتصلة بالقلعة ، وشيد بجارته مباني جديدة
استحدثها .

وامر سري باشا الوالي العثماني في سنة
١٨٨٧ م بهدم ما بقي من هذا السور عدا الابواب (٢٥٢)
ولم يبق للسور وابوابه اثر يذكر غير الباب
الوسطاني فقد اتى العمران الحديث عليه ، واحتلت
السدة المحيطة ببغداد القديمة ما بقي من مواضعه
بين باب الحلة والباب الوسطاني (٢٥٣) .

× × ×

الهوامش

- (١) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٤
- (٢) جواد وسوسة . دليل خارطة بغداد ص ١٠٢
- (٣) مصطفى جواد . بغداد في رحلة نيبور ، في مجلة « سومر »
١٩٦٤ ، مج ٢ ص ٥٠
- (٤) دليل خارطة بغداد ص ٢٤٢
- (٥) كراتشكوفسكي . تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ق ١
ص ١٦٧
- (٦) صالح احمد العلي . مصادر دراسة خطط بغداد ، في
« مجلة المجمع العلمي العراقي » ١٩٦٧ ، مج ١٤ ص ٨
- (٧) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٠ ، الفخري ص ١٦٢
- (٨) تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٦ ، الفخري ص ١٦٢

باب النهر وباب الامام الاعظم اثني عشر برجا موزعة
على مسافة سبعمائة ذراع ، وبين باب الامام الاعظم
والباب الابيض اربعة وثلاثون برجا موزعة على
مسافة الفين وثمانمائة وخمسين ذراعا ، وبين الباب
الابيض والبرج العجمي ستة وعشرون برجا على
مسافة قدرها الفان وخمسون ذراعا ، ومن البرج
العجمي الى الباب المظلم ستة وثلاثون برجا على
مسافة طولها الفان وثمانمائة وخمسون ذراعا ،
ومن الباب المظلم حتى النهر اربعة ابراج على مسافة
قدرها خمسون ذراعا ، ومن ذلك المكان الى الجسر
ثلاثة وثلاثون برجا على مسافة طولها الفان وستمائة
وخمسون ذراعا ، ومن الجسر باتجاه معاكس لمجرى
النهر ثمانية عشر برجا على مسافة طولها الفان
وخمسون ذراعا .

وبذلك يكون المجموع مائة وثلاثة وستين برجا
تتوزع على مسافة طولها « ١٢٤٠٠ ذراعا » ، هي
محيط سور بغداد (٢٤٢) .

× × ×

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية لسور مدينة
بغداد الشرقية برج كبير يسمى « برج العجمي »
نسبة الى صوفي كان يأوي اليه يسميه اهل بغداد
بالعجمي ، ثم اشتهر وعرف بعد ذلك ، وهو الشيخ
عبدالقادر الجيلاني المعروف بالكيلاني .

وعرف هذا البرج ايضا باسم « تايبة
الزاوية » (٢٤٣) ، ويقع هذا البرج بالقرب من باب
الحلة بينها وبين باب البصلية .

وقد وجه هولاء هجومه على بغداد من هذا
البرج لانه اقصر ابراج السور واوهنها ، فتمكن
من هدمه ودخول بغداد منه في التاسع من محرم سنة
ست وخمسين وستمائة (٢٤٤) .

× × ×

على ان هناك اسوارا فردية كانت تحصن
المحلات والقصور الضخمة اقتضتها الحاجة ، ففي
اواخر العصر العباسي وجدنا العديد من محلات
بغداد وامكنتها تحيطها الاسوار الفردية (٢٤٥) من
تلك الاسوار السور الذي كان يحيط بالحريم
الطاهري (٢٤٦) ، وما ذكره ابن جبير في رحلته من ان
محلة الكرخ في الجانب الغربي وانها محاطة بسور (٢٤٧) .

كما ذكر الرحالة المتأخرون ان قلعة بغداد ،
الواقعة في القسم الشمالي الغربي والمحاذية لدجلة
والواقعة ضمن اسوار بغداد ، كانت محاطة ايضا
بسور فردي (٢٤٨) .

(٥٥) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، ناجي معروف . تخطيط بغداد ص ١٢
(٥٦) طاهر العميد . بغداد ص ٢١٨
(٥٧) المصدر نفسه ص ٢١٨
(٥٨) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(٥٩) طاهر العميد ص ٢١٨ [نقلا عن هرزفيلد]
(٦٠) اليعقوبي ص ٢٢٨ ، ابن رسته . ص ١٠٨ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٨ ، لسترنج ص ٣١
(٦١) دليل خارطة بغداد ص ٤٨ ، لسترنج ص ٣١
(٦٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢
(٦٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٦٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٤
(٦٥) اليعقوبي . ص ٢٢٩
(٦٦) ناجي معروف . تخطيط بغداد ص ١٤
(٦٧) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٣
(٦٨) ابن الفقيه ص ٣٦ ، ياقوت . المشترك ص ٢٢٥
(٦٩) اليعقوبي ص ٢٢٨
(٧٠) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
(٧١) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٣
(٧٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨
(٧٣) الطبري ج ٧ ص ٦٥١ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥ ، لسترنج ص ٢٨
(٧٤) لسترنج ص ٢٩
(٧٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١ ، بغداد (ط مهندسين) ص ١٩ ، لسترنج ص ٢٩
(٧٦) دليل خارطة بغداد ص ٤٩
(٧٧) Lassner. p. 241.
(٧٨) لسترنج ص ٢٩
(٧٩) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(٨٠) المصدر نفسه ص ١٩ ، تخطيط بغداد ص ١٢
(٨١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٨٢) اليعقوبي ص ٢٢٩
(٨٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٨٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٣
(٨٥) طاهر العميد ص ٢٢٣
(٨٦) تخطيط بغداد ص ١٢
(٨٧) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٨٨) اليعقوبي ص ٢٢٩
(٨٩) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٩٠) اليعقوبي ص ٢٢٩
(٩١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٩٢) لسترنج ص ٣٠
(٩٣) اليعقوبي ص ٢٢٩ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩
(٩٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٩٥) لسترنج ص ٣٠
(٩٦) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩
(٩٧) طاهر العميد ص ٢٢٥ [نقلا عن كرزويل]
(٩٨) لسترنج ص ٢٩
(٩٩) طاهر العميد ص ٢٣٦ [نقلا عن كرزويل]
(١٠٠) Lassner. p. 240
(١٠١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٣
(١٠٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٣

(٩) حمدان الكبيسي . اسواق بغداد ص ٤٠
(١٠) الطبري ج ٧ ص ٦٢١ ، ابن الفقيه ص ٣٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨١
(١١) الطبري ج ٧ ص ٦٥٠
(١٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٧ ، لسترنج ص ٢٤
(١٣) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٧
(١٤) محمد مكية ص ٢٠٣
(١٥) الطبري ج ٧ ص ٦٥١
(١٦) كوك . بغداد ، ج ١ ص ٢٧
(١٧) الطبري ج ٧ ص ٦٥٥ ، ابن الفقيه ص ٤٠ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠
(١٨) Lassner. The topography of Baghdad. p. 235.
(١٩) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٣ ، لسترنج ص ٤٤
(٢٠) جواد وسوسة . بغداد (ط مهندسين) ص ١٨ Lassner. p. 236
(٢١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠
(٢٢) دليل خارطة بغداد ص ٤٥ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٢٣
(٢٣) الفخري ص ١٦١
(٢٤) دليل خارطة بغداد ص ٤٥
(٢٥) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨٣
(٢٦) بغداد (ط مهندسين) ص ٢٣
(٢٧) المصدر نفسه ص ٢٣
(٢٨) دليل خارطة بغداد ص ٤٨
(٢٩) سوسة . الفيضان ص ٣٠
(٣٠) اليعقوبي . البلدان ص ٢٢٨
(٣١) سوسة . الفيضان ص ٤١
(٣٢) المصدر نفسه ص ٤١
(٣٣) Lassner. p. 235.
(٣٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
(٣٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
(٣٦) دليل خارطة بغداد ص ٦٣
(٣٧) Lassner. p. 235.
(٣٨) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
(٣٩) Lassner. p. 238.
(٤٠) الطبري ج ٧ ص ٦٥٢ ، اليعقوبي ص ٢٢٨
(٤١) لسترنج ص ٢٧
(٤٢) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(٤٣) الطبري ج ٧ ص ٦٥٢ ، ابن الفقيه ص ٣٦ ، تاريخ بغداد . ج ١ ص ٧٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٣
(٤٤) اليعقوبي . ص ٢٢٨
(٤٥) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
(٤٦) الطبري ج ٧ ص ٦١٩
(٤٧) لسترنج ص ٢٧
(٤٨) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩ ، لسترنج ص ٢٩
(٤٩) ابن رسته . الاطلاق النفسية ص ١٠٨
(٥٠) Lassner. p. 239
(٥١) رمزية الاطراف . بناء بغداد ص ١١٠
(٥٢) ابن الفقيه ص ٣٥
(٥٣) Lassner. p. 238
(٥٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤

- (١٠٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٤
(١٠٤) اليعقوبي ص ٢٣٩
(١٠٥) اليعقوبي ص ٢٣٩ ، طاهر العميد ٢٤٠
(١٠٦) اليعقوبي ص ٢٣٩
(١٠٧) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(١٠٨) لسترنج ص ٢١
(١٠٩) ابن رسته ص ١٠٨
(١١٠) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤ ، لسترنج ص ٢٢
(١١١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(١١٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥
(١١٣) اليعقوبي ٢٣٩
(١١٤) الطبري ج ٧ ص ٦٥١ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٤
(١١٥) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(١١٦) الطبري ج ٧ ص ٦٥١
(١١٧) اليعقوبي ص ٢٣٩
(١١٨) Lassner. p. 242
(١١٩) طاهر العميد ص ٢٤٢
(١٢٠) Lassner. p. 243
(١٢١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥
(١٢٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(١٢٣) اليعقوبي ص ٢٣٩
(١٢٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦
(١٢٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٣
(١٢٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٦
(١٢٧) دليل خارطة بغداد ص ٥٢
(١٢٨) لسترنج ص ١١٧
(١٢٩) دليل خارطة بغداد ص ٥٢ [نقلا عن تاريخ سني ملوك الارض لحزمه الاصفهاني ص ١٢٣]
(١٣٠) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٣
(١٣١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٨
(١٣٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١٥
(١٣٣) ابن الفقيه ص ٧٥
(١٣٤) اليعقوبي ص ٢٥٤
(١٣٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦ ، دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ ، لسترنج ص ٤٨
(١٣٦) لسترنج ص ٤٧
(١٣٧) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ [نقلا عن احسن التقاسيم للمقدسي البشاري ص ١٢٠] .
(١٣٨) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨
(١٣٩) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥
(١٤٠) ابن الفقيه ص ٣٩ ، ياقوت . المشترك ص ٢٠٥ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٢٤ ، لسترنج ص ١٦٣
(١٤١) لسترنج ص ١٦٣
(١٤٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨٣
(١٤٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨٣ ، لسترنج ص ١٦٥
(١٤٤) اليعقوبي ص ٢٥٤ ، الحميري . الروض المعطار ص ١١٢
(١٤٥) الطبري ج ٩ ص ٢٨٣
(١٤٦) الطبري ج ٩ ص ٢٤٨
(١٤٧) الطبري ج ٩ ص ٢٨٧ ، دليل خارطة بغداد ص ١١٩ ، سوسة . فيضان ص ٢٨
(١٤٨) الطبري ج ٩ ص ٢٨٧ ، دليل خارطة بغداد ص ١١٩ ، لسترنج ص ١٥٠
(١٤٩) لسترنج ص ١٥٠
(١٥٠) الطبري ج ٩ ص ٢٨٧
(١٥١) المصدر نفسه
(١٥٢) الطبري ج ٩ ص ٢٨٣
(١٥٣) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٥٤) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٥٥) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٥٦) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٥٧) ابن الفقيه ص ٦٠ ، الروض المعطار ص ١١٢
(١٥٨) مكية سلمان . بغداد ص ٢٣
(١٥٩) لسترنج ص ٢٦٥ - ٢٦٦
(١٦٠) الطبري ج ٩ ص ٢٣١
(١٦١) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ ، سوسة . الفيضان ص ٤٩
(١٦٢) مصطفى جواد . في التراث العربي ص ٧٩
(١٦٣) لسترنج ص ٢١١
(١٦٤) ابن الجوزي . المنتظم ج ٥ ص ١٤٤ .
(١٦٥) مكية سلمان ص ٢٢
(١٦٦) سوسة . الفيضان ص ٣٩
(١٦٧) تاريخ بغداد ج ١ ص ٩٩
(١٦٨) المصدر نفسه
(١٦٩) لسترنج ص ٢١٣
(١٧٠) لسترنج ٢١٤
(١٧١) تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٠ ، معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥٥
(١٧٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٥ ، المشترك ص ١٣٩
(١٧٣) المشترك ص ١٣٠
(١٧٤) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥٥
(١٧٥) المشترك ص ١٣٠ ، في التراث العربي ص ٩٦ ، لسترنج ٢٢٥
(١٧٦) في التراث العربي ص ٩٨
(١٧٧) المشترك ص ١٣٩ ، القزويني . آثار البلاد ص ٣١٥
(١٧٨) دليل خارطة بغداد ص ١٥٧ ، يعقوب سرقيس . مباحث عراقية ج ١ ص ١٢٣
(١٧٩) دليل خارطة بغداد ص ١٥٧ ، يعقوب سرقيس ج ١ ص ١٢٣ ، لسترنج ص ٢٢٥
(١٨٠) في التراث العربي ص ٨٨
(١٨١) دليل خارطة بغداد ص ١٥١
(١٨٢) يعقوب سرقيس ج ١ ص ١٢٣
(١٨٣) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨
(١٨٤) المصدر نفسه
(١٨٥) المشترك ص ١٢٩ ، لسترنج ص ٢٢٦
(١٨٦) آثار البلاد ص ٣١٦
(١٨٧) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، لسترنج ص ٢٢٩
(١٨٨) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، في التراث العربي ص ٩٠
(١٨٩) في التراث العربي ص ٩٠ ، لسترنج ص ٢٣٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٥٨
(١٩٠) آثار البلاد ص ٣١٦ ، دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، لسترنج ص ٢٣٢
(١٩١) لسترنج ص ٢٣٣
(١٩٢) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨

- (١٩٣) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩ ، لسترنج ص ٢٢٤
 (١٩٤) آثار البلاد ص ٣١٦
 (١٩٥) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩
 (١٩٦) المصدر نفسه
 (١٩٧) معجم البلدان ج ١ ص ٤٤٤
 (١٩٨) في التراث العربي ص ٩٥
 (١٩٩) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩
 (٢٠٠) معجم البلدان ج ١ ص ٤٥١
 (٢٠١) المشترك ص ١٣
 (٢٠٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، سوسة . الفيضان ص ٤٠
 (٢٠٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، سوسة . الفيضان ص ٥٨
 (٢٠٤) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٩
 (٢٠٥) المنتظم ج ٩ ص ٨٥
 (٢٠٦) المنتظم ج ٩ ص ٨٥ ، ابن الاثير . الكامل ج ١ ص ٢٥١
 (٢٠٧) المنتظم ج ٩ ص ٨٥
 (٢٠٨) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٠٩) ابن الاثير ج ١ ص ٦١٦
 (٢١٠) المصدر نفسه
 (٢١١) ابن الاثير ج ١ ص ٦١٧
 (٢١٢) المنتظم ج ٩ ص ٢٤٥
 (٢١٣) ابن الاثير ج ١ ص ٦١٦
 (٢١٤) المنتظم ج ٩ ص ٢٤٥
 (٢١٥) دليل خارطة بغداد ص ١٦٣
 (٢١٦) دليل خارطة بغداد ص ١٦٣ ، لسترنج ص ٢٣٩
 (٢١٧) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠
 (٢١٨) هوار . خطط بغداد ص ١١
 (٢١٩) هوار . ص ١١
 (٢٢٠) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥
 (٢٢١) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٢٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠
 (٢٢٣) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، هوار ص ١١
 (٢٢٤) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠ ، ٢١١
 (٢٢٥) هوار ص ١٣
 (٢٢٦) تخطيط بغداد ص ١٦
 (٢٢٧) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٢٨) لسترنج ص ٢٤٧
 (٢٢٩) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٠) هوار ص ١٣
 (٢٣١) دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٢) بغداد (ط مهندسين) ص ٦٩ ، ٥٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٦١ ، هوار ص ١٣
 (٢٣٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٤) هوار ص ١٣
 (٢٣٥) دليل خارطة بغداد ص ١٦١ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٣٦) لسترنج ص ٢٥٠ ، هوار ص ١٦
 (٢٣٧) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢
 (٢٣٨) لسترنج ص ٢٤٩
 (٢٣٩) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، هوار ص ١٦
 (٢٤٠) هوار ص ١٦



المراجع

- (٢٤١) هوار ص ١٦
 (٢٤٢) هوار ص ١٩
 (٢٤٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢
 (٢٤٤) الفخري . ص ٣٣٦
 (٢٤٥) لسترنج ص ٢٥١
 (٢٤٦) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٢
 (٢٤٧) رحلة ابن جبير ص ٢٠١
 (٢٤٨) هوار ص ٢٠
 (٢٤٩) لسترنج ١٤٢ ، سوسة . الفيضان ص ٦٠
 (٢٥٠) رحلة ابن جبير ص ٢٠٠
 (٢٥١) بغداد (ط مهندسين) ص ٧١
 (٢٥٢) هوار . ص ٩
 (٢٥٣) هوار ص ١١
 ١ - ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد . الكامل في التاريخ . دار صادر . بيروت ١٩٦٦ .
 ٢ - ابن جبير ، محمد بن احمد . رحلة ابن جبير . دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ .
 ٣ - ابن الجوزي ، عبدالرحمن بن علي . المنتظم . حيدر آباد ، ١٣٥٩ هـ .
 ٤ - ابن رسته ، احمد بن عمر . الاعلاق النفسية ، مطبعة بريل ، لندن ١٨٩١ .
 ٥ - ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا . الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية . دار صادر . بيروت ١٩٦٦
 ٦ - احمد سوسة . الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي . في « مجلة الجمع العلمي العراقي » ١٠ (١٩٦٢) .
 ٧ - الاطرقي ، رموية . بناء بغداد في عهد ابي جعفر المنصور . مطبعة النعمان . النجف ١٩٧٥ .
 ٨ - الحميري ، محمد بن عبدالمنعم . الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، دار القلم ، بيروت ١٩٧٥
 ٩ - الطبري . محمد بن جرير . تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . دار المعارف . القاهرة
 ١٠ - العبيدي ، مكية سلمان . بغداد في القرن الثالث الهجري [رسالة ماجستير مقدمة لجامعة بغداد] . طباعة رونيو ، بغداد ١٩٦٧ .
 ١١ - العلي ، صالح احمد . مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية . في « مجلة الجمع العلمي العراقي » ١٤ (١٩٦٧) .
 ١٢ - العميد ، طاهر مظفر . بغداد مدينة المنصور المدورة . مطبعة النعمان . النجف ١٩٦٧ .

- ١٣- القزويني ، زكرياء بن محمد بن محمود . آثار البلاد واخبار العباد . دار صادر . بيروت ١٩٦٠
- ١٤- الكبيسي ، حمدان . اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي . دار الحرية ، بغداد ١٩٧٩
- ١٥- كراتشكوفسكي تاريخ الادب الجغرافي العربي . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .
- ١٦- كوك ، ريجارد . بغداد مدينة السلام . ترجمة وتقديم وتعليق مصطفى جواد وفؤاد جميل . مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٦٢
- ١٧- لسترنج ، غي . بغداد في عهد الخلافة العباسية . ترجمة بشير يوسف فرنسيس ، المطبعة العربية ، بغداد ١٩٣٦ .
- ١٨- مصطفى جواد واحمد سوسة وناجي معروف ومحمد مكية . بغداد . مطبعة رمزي ، بغداد ١٩٦٩ [نشرته نقابة المهندسين] .
- ١٩- مصطفى جواد . بغداد في رحلة نيبور . في مجلة « سومر » ٢ (١٩٦٤) .
- ٢٠- مصطفى جواد واحمد سوسة . دليل خارطة بغداد . مطبعة المجمع العلمي العراقي . بغداد ١٩٥٨ .
- ٢١- مصطفى جواد . في التراث العربي . [مجموعة ابحاث جمعها عبدالحميد العلوي ومحمد جميل شلش]
- ٢٢- ناجي معروف . تخطيط بغداد . في مجلة « الاقلام » العراقية [ج١ السنة الثالثة .
- ٢٣- هوار ، كليمان . خطط بغداد . ترجمة وتعليق ناجي معروف . دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٦ .
- ٢٤- ياقوت الحموي . المشترك وضما والمفترق صقعا . كوتنجن ، ١٨٤٦ .
- ٢٥- ياقوت الحموي - معجم البلدان . لايزيج ، ١٨٦٦ .
- ٢٦- يعقوب سركيس . مباحث عراقية [مجموعة ابحاث نشرها في المجلات] . القسم الاول . مطبعة شركة التجارة ، بغداد ١٩٤٨ .
- ٢٧- اليعقوبي . احمد بن جعفر بن وهب . البلدان . بريل ١٨٩٢
- ٢٨- Lassner, Jacob. The topography of Baghdad in the early middle ages. Wayne State University, 1970. [وقد اكملت ترجمته مع الزميل شعلان جاسم فياض]



مركز تحقيقات كميوتور علوم إسلامي



حَمَلَتْهُمُ كَوْنٌ عَلَى بَغْدَادَ

٦٥٦ هـ

بقلم الدكتور

رَشِيدُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَمِيلِي

كلية الآداب - جامعة بغداد

الاستمرار بفضل مهارته وحسن قيادته حتى بعد وفاته. (٢)

بدأ جنكيزخان اجتياحه لأقاليم العالم الإسلامي منذ عام ٦١٦هـ/١٢١٩م ، ففي هذه السنة تدفقت جيوشه على دولة خوارزم فسيطر ولده جوجي على القسم الغربي من بلاد ما وراء النهر في نفس الوقت الذي نجح فيه بعض قواده في الاستيلاء على بناكت وخجندة على الرغم من المقاومة التي أبداها أهل هذا الاقليم (٤) أما جنكيزخان نفسه فقد زحف بالجيش الرئيسي نحو بخارى فوصلها في غرة ذي الحجة من سنة ٦١٦هـ فأحدث فيها مجزرة رهيبة تحولت المدينة على أثرها إلى حطام ورماد. (٥) ، ولم تلبث سمرقند أن استسلمت في يوم عاشوراء من سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م بعد حصار قصير ولقي معظم سكانها مصرعهم على أيدي المغول الذين تمت لهم السيطرة على معظم اقليم ما وراء النهر وأصبحت الطريق امامهم ممهدة إلى خراسان وبقية الولايات الغربية. (٦)

(٣) محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٨ - ٩ .

(٤) تاريخ بخارى ص ١٦٦ - ١٦٨ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٩ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، الجوزجاني ، تاريخ آل جنكيز ص ١٤ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٢٣ ، تاريخ بخارى ص ١٧٣ - ١٧٥ محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٣٤ .

عرف المغول قبل عصر جنكيزخان باسم (التتار) ، وقد وردت هذه التسمية في نقوش أرخون في القرن الثامن الميلادي ، وكانوا ينقسمون إلى قسمين : الأول يتألف من تسع قبائل والآخر يتألف من ثلاثين قبيلة. (١)

عاش المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي الممتدة في أواسط جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرقي التركستان ، بين جبال التاي غرباً وجبال جنجان شرقاً ، وقد مارس المغول الرعي والصيد فكانوا ينتقلون في أرجاء هضبة منغوليا سعياً وراء مواطن المياه والكلاء، فيهبطون في الشتاء إلى سهولها ومناطقها الدافئة حيث تتوفر الظروف المناسبة للرعي ، وفي الصيف يستقرون في المرتفعات وأعالي الجبال مدة شهرين أو أكثر حيث البرودة والمياه. (٢)

والواقع أن تاريخ المغول السياسي بدأ مع ظهور جنكيزخان الذي نجح في استقطاب جموع المغول وربطهم بتنظيمات سياسية قدر لها

(١) برتولد ، مادة جنكيزخان - دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية ، ٧٣ ص ١٢٧ الباز العربي ، المغول ص ٢٣ ، بيروت ١٩٦٧ ، أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٢) هوتسمان ، مادة التتار - دائرة المعارف الإسلامية ، ٤٣ ص ٥٧٦ ، حسن أحمد محمود وأحمد الشريف ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص ٦٢٨ .

جلال الدين قد اتاح للمغول التوسع السريع نحو الغرب فوصلوا ديار بكر وآمد وميافارقين وبلغوا الجزيرة وحران ، وتعرضت بلاد الموصل وأربل ودقوقا لهجماتهم ، وأصبح الطريق ممهداً امامهم نحو عاصمة الخلافة بغداد ، فقاموا بعدة حملات استهدفت اشاعة الرعب في النفوس والوقوف على وضع الخلافة من الناحية العسكرية ومدى استعدادها للدفاع عن بغداد ، وقد بلغت هجمات المغول على العراق خلال هذه الفترة وحتى احتلال بغداد ثلاث عشرة حملة . (١٢)

وكانت المرة الاولى التي هاجم فيها المغول اطراف العراق سنة ٦١٨ هـ حين وصلت الاخبار الى بغداد بتقدم المغول من مراغه في اذربيجان نحو اربل ، فبادر الخليفة الناصر لدين الله الى تحصين بغداد وكتب الى امير الموصل وامير اربل يأمرهما بالانضمام الى عساكره في داقوقا ، وخرجت قوات اربل والموصل فعلا لمواجهة الموقف ، وفوجئت هذه القوات بقلّة عساكر الخليفة التي لم تكن تتجاوز ثمانمائة رجل خلافاً لما كان قد وعد به من انه سيرسل عشرة آلاف رجل لمواجهة المغول ، ولم يجسر امير اربل مظفر الدين كوكسوري على مهاجمة المغول الذين شرعوا في الانسحاب ظناً منهم ان قوات الخلافة في اثرهم (١٣) .

وتلا ذلك فترة من الهدوء دامت نحواً من عشر سنوات وذلك بسبب عودة المغول الى بلادهم وما تبع ذلك من وفاة جنكيزخان وتولي ولده اوغوتاي العرش من بعده الذي تمكن من القضاء على آخر مقاومة للخوارزميين بهزيمة جلال الدين منكبرتي في سنة ٦٢٨ هـ ، ثم عاود المغول هجماتهم ضد العراق فوصلت غاراتهم الى اربل والموصل وداقوقا . وتكررت هذه الاغارات عدة مرات حيث تعرضت مناطق اربل والموصل وسنجار وحران وماردين للغزو بين عامي ٦٣٣ هـ و ٦٣٤ هـ واضطر على اثرها امير الموصل بسدر الدين لؤلؤ الى مصالحتهم (١٤) .

ولم تكن الخلافة في هذه المرحلة التاريخية الخطيرة على مستوى المسؤولية ولم تدرك حقيقة الكارثة التي باتت تهدد البلاد ، فكانت تكفي باستنفار المتطوعين من الاطراف وترسل الكتب

وكان خوارزم شاه (علاء الدين محمد) قد غلب عليه الهلع والخوف ففر امام المغول قبل ان يشتبك في معركة فاصلة تاركاً مهمة الدفاع لحكام الولايات فتنقل في هربه من جيحون الى نيسابور الى بسطام ثم الى الري ومنها الى مازندران دون ان يفكر في الوقوف والتصدي للفرق التي أرسلها جنكيزخان لمطاردته ، ثم آل به الامر الى إحدى جزر بحر الخزر حيث قضى هناك بقية ايامه ومات في أواخر سنة ٦١٧ هـ . (٧) أما جنكيزخان فقد عاد الى منغوليا في سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م حيث مات بعد أربعة أعوام ، ولم يتم انتخاب ولده وخليفته اوغوتاي إلا في سنة ٦٢٦ هـ (٨) ، وكان جلال الدين منكبرتي ابن علاء الدين محمد قد رحل من الهند في سنة ٦٢٢ هـ بعد فراره امام جنكيزخان وشرع باعادة تعبئة جيوش ابيه ، ثم إستعد لاعادة سيطرته على جنوب ايران وغربها غير انه انصرف الى محاربة اقوى الاسلامية المجاورة وتعرض لبلاد الخليفة العباسي حتى وصلت طلائع قواته الى بعقوبا وتكرت واستولت على داقوقا (٩) ، غير ان تعرضه لمدينة خلاط في سنة ٦٢٦ هـ قد ادى الى تحالف الملك الاشرف بن العادل الايوبي مع كيقباز بن كيخسرو فتمكن من هزيمته والقضاء على معظم قواته (١٠) ، وقد اطمعت هذه الهزيمة اعداء جلال الدين فأغروا به المغول ، وحين أحس بالخطر المحدق به سعى للتقرب الى الخليفة العباسي والملك الاشرف الايوبي ، كما راسل عدداً من أمراء المسلمين في اقليم الجزيرة وبلاد الشام ، غير ان المغول كانوا له بالمرصاد فلم يتركوا الفرصة له لاعادة بناء قوته العسكرية واسرعوا بمهاجمته في سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ففر الى إحدى قرى ميافارقين ولم يلبث ان سقط صريعاً بيد أحد الاكراد في المنطقة (١١) .

زحف المغول نحو بغداد :

كان سقوط الدولة الخوارزمية واختفاء

- (٧) الجويني ، تاريخ جهانكشاهي ، ج ٢ ص ١١٤ - ١١٧ ، تاريخ بخارى ص ١٧٨/١٧٦ حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٢٧ - ١٣٠ .
- (٨) جعفر خصبك ، الاحتلال المغولي للعراق مجلة كلية الآداب العدد ٣ سنة ١٩٥٨ ص ١١٠ - ١١١ .
- (٩) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٦٣٤ .
- (١٠) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١٥٣ .
- (١١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٦٦٦ ، ابن العربي ، ص ٢٤٧ . القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٥١ .

(١٢) نفس المصدر ، ج ٨ ق ٢ ص ٦٧٣ ، القزاز ، نفس المرجع السابق ص ٥٢ .

(١٣) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(١٤) ابن الفوطي ، العواث الجامعة ص ٨٤ ، ٩٩ ، ابن العربي ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

الى الامراء تستحثهم على النهوض (١٥) ، وسرعان ما تختفي هذه الاجراءات مع ابتعاد الخطر عن اطراف الدولة ، ويعود الناس الى اعمالهم ، في حين كان يتعين على الخلافة تعبئة طاقات الامة وحشد قواها المادية والبشرية لمواجهة التحدي المغولي وان يتولى الخليفة نفسه قيادة القوى المقاتلة لما يترتب على ذلك من رفع للمعنويات وشحن للهمم ، غير ان شيئاً من ذلك لم يحدث فقد كانت سياسة المستنصر بالله (١٦) تقوم على محاولة استرضاء المغول ومصانعتهم ، ثم بلغت الخلافة ذروة ضعفها في عهد المستعصم بالله (١٧) (٦٤٠هـ - ٦٥٦هـ) ، الذي وصفه المؤرخون بالغفلة وضعف الرأي وقلة العزم ، وكان اخطر ما اقدم عليه الخليفة الجديد هو اهماله الجيش وامساكه عن الاتفاق على الجند . (١٨)

والواقع ان اهمال الناحية العسكرية وما ترتب عليها من نتائج سيئة لا يتحمل مسؤوليتها الخليفة وحده بل يشاركه رجال دولته من الوزراء والحجاب وامراء الجيش والحاشية ، فهؤلاء جميعاً يتحملون مسؤولية الكارثة التي حلت بالبلاد (١٩) . فكان بعضهم يهون على الخليفة امر المغول والبعض الآخر ينصح باسترضائهم بالهدايا والاموال ، بالاضافة الى ما تفجر بين هؤلاء الامراء والوزراء من خلافات وصراعات حول السلطة عجز الخليفة عن السيطرة عليها وازالة اسبابها ، فكان ذلك عاملاً من عوامل اشاعة الفوضى والاضطراب في دار الخلافة .

هجوم المغول على بغداد :

استعد هولاء للزحف نحو بغداد في المحرم سنة ٦٥٥هـ بعد ان تم له القضاء على قلاع الاسماعيلية في ايران ، وبعث من همدان انذاراً شديداً الى الخليفة المستعصم بالله دعاه الى تدمير جميع اسوار بغداد والمثول بشخصه امامه او ارسال ثلاثة من كبار رجال دولته نيابة عنه ،

فرفض الخليفة ذلك (٢٠) ، وكتب اليه واصفاً اياه بالفرور ومهدداً بان ملوك الارض سيقفون الى جانبه اذا استمر في الزحف نحو بلاده ، ودعا الى الجنوح للسلم والعودة الى خراسان او الى الحرب ، فلم يأبه هولاء برسالة الخليفة بل استخف بها وأكد اصراره على مواصلة زحفه الى بغداد (٢١) ، ثم ارسل نداء آخر دعا الخليفة فيه الى تحديد موقفه وهدده بانه متوجه الى بغداد « بجيش كالنمل والجراد » . (٢٢) وقد رفض الخليفة هذا الانذار ظناً منه بان الايوبيين في الشام والمالكي في مصر سيسارعون الى الانضواء تحت لوائه متناسياً الظروف السيئة التي كانت تحيط ببغداد في هذه الفترة (٢٣) .

وفي المحرم من عام ٦٥٥هـ تحرك هولاء من همدان فوصل اسد آباد حيث اوفد رسولا الى بغداد يطلب الى الخليفة الحضور امامه بهدف التوصل الى اتفاق لتجنب الحرب ، وترك للخليفة الخيار في الحضور او ان ينيب عنه وزيره ابن العلقمي وقائده الدويدار وسليمان شاه ، غير أن الخليفة لم يكن يملك القدرة على حمل هؤلاء الثلاثة بالخروج للاقاة هولاء ، فاكتمى بارسال شريف الدين ابن الجوزي وخوله بدل الاموال لاقناع الزعيم المغولي بالعودة عن بغداد ، غير ان ذلك لم يجد نفعا . (٢٤)

ولم يجد الخليفة بداً من المواجهة فأمر قائده مجاهد الدين ايبيك الدويدار بالخروج على راس قوات بغداد للتصدي لهولاء على طريق حلوان . (٢٥)

وكان هولاء قد وضع خطة للطباق على بغداد من جميع جهاتها وتقرر أن يزحف قسم من جيشه عبر دجلة ليحيط بالجانب الغربي في حين يتولى بنفسه الالتفاف على القسم الشرقي من المدينة ، ويشير المؤرخ رشيد الدين الى أن جيش هولاء كان يتألف من اربعة اقسام اطبقت على

(٢٠) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢٢ ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٧١ ، ابن العربي ، ص ٢٧١ .

(٢١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ١٢ ج ٢ ص ٢٧١ .

(٢٢) المصدر السابق ، جامع التواريخ ص ٢٧١ .

(٢٣) القزاق ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ص ٣١٣ .

(٢٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٢٢٠ ، ابن العربي ص ٢٧٠ .

(٢٥) جعفر خصباك ، الاحتلال المغولي للعراق مجلة كلية الاداب عدد ٣ سنة ١٩٥٨ ص ١٤٠ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٩٨ ، ١١٠ ، ١١٢ .

(١٦) المستنصر بالله : ابو جعفر منصور بن الظاهر بامر الله ولد في صفر سنة ٥٨٨هـ .

(١٧) المستعصم بالله : ابو احمد عبدالله بن المستنصر بالله ولد في سنة ٦٠٩هـ .

(١٨) ابن الفوطي ، ص ١٦٨ ، ٢٦١ ، ٢٢٠ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٨ .

(١٩) القزاق ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير .

بغداد من جانبيها ، في حين يذكر ابن الفوطي القسمين الرئيسيين لهذا الجيش . (٢٦)

نزل عسكر الخليفة بقيادة الدويدار في باديء الأمر في بعقوبة ، فلما علم بتقدم قوة من المغول نحو الضفة الغربية لدجلة ، سارع بعبور النهر ليتصدى لهم شمال بغداد ، فأدى انسحابه هذا إلى خلو الجهة الشرقية من الجند ، وحاول الخليفة حمل من تبقى من أمراء العسكر على الخروج تحت قيادة مرشد الخصي ، فرفضوا السير تحت لوائه ولم ينفذوا أوامر الخليفة ، مما سهل مهمة هولاكو في الوصول إلى أسوار بغداد (٢٧) والتقى جيش الخليفة بطلانغ المغول بالقرب من قطرة باب البصرة ، وقد اختلف المؤرخون في تقدير حجم القوة المغولية ، فابن كثير يذكر أنها كانت نحواً من عشرة آلاف ، في حين يجعلها ابن الطقطقي ثلاثين ألفاً (٢٨) . ولجأ المغول إلى تطبيق أساليبهم المعروفة في الحرب فتظاهروا بالهرب أمام قوات الخليفة التي كان يقودها الدويدار ، فاندفع وراءهم ولم يستمع إلى نصيحة فتح الدين بن قمر الذي أشار عليه بالثبات في مواقعه ، والاستعداد لمواجهةهم مرة أخرى ، وكان المغول يرمون إلى إبعاد قوات بغداد عن مواقعها في نفس الوقت الذي تقوم فيه فرقة منهم بتدمير السدود المقامة على تفرع نهر بشير من الدجيل لاغراق الأراضي وراء تلك القوات وحصرها فيها ، وقد نجح المغول في تحقيق هذا الهدف حين توقفوا عن التراجع وعادوا للهجوم ثانية حيث انحصرت قوات بغداد في المنطقة الغمرورة بالمياه فهلك معظمها إلا من قلى نفسه في الماء ومن دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام ، وتمكن الدويدار من النجاة ودخل بغداد في عدد قليل من أصحابه (٢٩) .

وفي الحادي عشر من محرم سنة ٦٥٦هـ / ٢٢ كانون ثاني ١٢٥٨م استكمل المغول حشودهم على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وتولى قيادة هذه الحشود ثلاثة من كبار أمرائهم وهم : بايجو ، وبقاتيمور ، وسوجونجق (سونجاق) ، في حين

كان هولاكو وكتبغا يضيقون الخناق على بغداد من من الجانب الآخر ، وبادر المغول إلى إقامة الاستحكامات ، فاقاموا على دجلة بأعلى المدينة وبأسفلها جسرين قائمين على السفن امعاًناً في تضيق الحصار على بغداد وكي لا يدعوا لاهلها الفرصة في الرحيل عن طريق النهر ، واستخدم المغول جذوع النخيل للرمي بالمنجنيق بدلاً من الاحجار التي لم تكن متوفرة حول بغداد حيث كانوا يأتون بها من جبل حميرين وجولاء . (٣٠)

وبدأ المغول الحرب في الثاني والعشرين من المحرم وشدد هولاكو على القطاع الشرقي فتمكن من الاستيلاء على الاسوار المتمثلة في البرج المعروف ببرج العجمي المجاور لباب الحلبة ، وكان لنجاح المغول في الاستيلاء على هذا الجزء الهام من المدينة أثره في معنويات المدافعين وسكان المدينة ، فقرر الخليفة إيفاد وزيره ابن العلقمي وجائليق المسيحيين النساطرة إلى هولاكو لإقناعه بالكف عن القتال وعقد الصلح ، غير أن هولاكو لم يلتفت إلى ذلك ، بل طلب من الوزير أن يصطحب معه الدويدار وسليمان شاه ، إلا أن الوزير حضر في اليوم التالي مع صاحب الديوان وجماعة من أعيان بغداد ، فردهم هولاكو خائبين واستمرت الحرب بين الطرفين . (٣١)

وساءت الأحوال ببغداد وحاول عدد كبير من رجال حاميتها الهرب غير أنهم لم ينجحوا ووقعوا في قبضة المغول فاجهزوا عليهم ، ولم يلبث الخليفة المستعصم أن أعلن الاستسلام والرسول فخر الدين الدامقاني وابن درنوس مع بعض الهدايا لتقديمها إلى هولاكو ، غير أن الأخير لم يأمر بوقف القتال ، كما رفض شفاعته ولدي الخليفة الفضل عبدالرحمن وأبي العباس أحمد اللذين خرجا بعد ذلك مع جماعة من أهل بغداد محملين بالهدايا والتحف . (٣٢) وأصر الزعيم المغولي على ضرورة حضور الدويدار وسليمان شاه اللذين كانا يتوليان قيادة المقاومة ضد المغول ، فقرر الخروج لمقابلة هولاكو في الأول من صفر سنة ٦٥٦هـ ، فطلب اليهما إصدار الأوامر إلى المدافعين عن بغداد بالانضمام إلى الجيش المغولي الذي سيتوجه إلى الشام ومصر ، فاستجابا لذلك ، وخرج عدد كثير من الجند للالتحاق

(٣٠) ابن العبري ، ص ٢٧٣ ، القزاق ، ص ٣٣٥ .

(٣١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ج ٢م ص ٢٨٦-٢٨٧ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، ابن العبري ، ص ٢٧١ .

(٢٦) رشيد الدين ، جامع التواريخ ج ٢م ص ٢٨١ ، ابن الفوطي ، ص ٣٢٠ ، القزاق ، ص ٣٣٤ .

(٢٧) أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٩ .

(٢٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ ، ابن الطقطقي ، الفخري ص ٢٩٣ .

(٢٩) ابن العبري ، ص ٢٧٠ ، العربي ، تاريخ المغول ص ٢١٨ .

بالمغول ، غير أن الموت كان بانتظارهم خارج الاسوار وخرج الدويدار وسليمان شاه في اليوم التالي ولقيا نفس المصير . (٣٣)

ولم يجد الخليفة بدأ من الخروج فاستأذن هولاء في ذلك وخرج معه اولاده وأهله ، فأمر هولاء بانزالهم بباب كواذا ، وطلب الى الخليفة أن يصدر أوامره الى بقية المدافعين عن بغداد بإلقاء أسلحتهم والخروج لإحصائهم فاستجاب لذلك وخرجت جماعات كبيرة منهم ، فحاط بهم المغول وقتلوه عن آخرهم ، ثم دخل هولاء بغداد ليشاهد دار الخليفة وأمر بإحضاره ، فحضر المستعصم ومعه جمع من العلماء والأعيان ، وقدم الى هولاء الجواهر والدرر وأواني الفضة والثياب النفيسة ، ففرقها على الأمراء ، وعنف الخليفة تعنيفاً شديداً وحمله مسؤولية ما وقع من أحداث بسبب تهاونه في الدفاع عن البلاد وأمسكه عن اتفاق أمواله لتقوية الجيش . (٣٤)

واطلق هولاء أصحابه لنهب بغداد فاستباحوها مدة سبعة أيام (٣٥) ، وأمر عساكره المرابطة على الاسوار بالنزول الى داخل المدينة والاشتراك في الاجهاز على السكان ، فلم يفرقوا بين الرجال والنساء والأطفال ، واستجار قسم منهم ببعض المقربين من المغول ، والتجأ بعضهم الى بيوت النصاري الذين كانوا قد حصلوا على الامان والرعاية من المغول ، واشتعلت النيران في أرجاء بغداد ، فاحترق جامع الخليفة ومشهد موسى الكاظم ومرقد الخلفاء ، وكان القتلى في الاسواق والدروب كالتلول وقعت عليهم الأمطار وداستهم الخيول فتفترت صورهم ، ولم يلبث هولاء أن أمر بقتل الخليفة المستعصم مع ولده ابو العباس أحمد ثم ابنه الأوسط ابو الفضل عبدالرحمن ، كما قتل اعمام الخليفة وأقاربه وجماعة من الأعيان ، ثم أمر برفع السيف وأعلن أن من بقي على قيد الحياة أصبح من رعاياه (٣٦)

(٣٣) ابن العبري ، ص ٢٧١ .

(٣٤) نصير الدين الطوسي ، استيلاء المغول على بغداد ص ٢٨ (رسالة بالفارسية ترجمها محمد صادق الحسيني ونشرت في مجلة المرشد البغدادية ج ٤) .

(٣٥) ابن العبري ، ص ٢٧٢ ، ذكر ابن الفوطي أن المغول استباحوا بغداد مدة أربعين يوماً ، الحوادث الجامعة ص ٣٢٩ .

(٣٦) رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ابن الفوطي ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، خصباك ، ص ١٤٣ ، القزاق ص ٣٢٩ .

وقد اختلفت روايات المؤرخين حول تقرير عدد الذين لقوا مصرعهم على ايدي المغول في بغداد ، فذكر ابن الفوطي أنهم كانوا يزيدون على ثمنائة الف سوى من هلك من الاطفال ومن مات في السرايب والآبار (٣٧) ، أما الذهبي فيقدر عدد القتلى بما يزيد على الف الف وثمانائة (٣٨) ، ولاشك أن هذه التقديرات مبالغ فيها اذا ما اخذنا في نظر الاعتبار مساحة بغداد المحصورة بين الاسوار آنذاك ومدى استيعابها للسكان ، بالإضافة الى أن الكثير من أهلها كانوا قد التمسوا النجاة بانفسهم بعد سماعهم باقتراب المغول الذين أشاعوا الخوف والذعر في نفوس الناس ، كما لا يجب أن ننسى الذين لجأوا الى بيوت النصاري أو المقربين من المغول ، ومن ظل مختفياً عن الانظار في المناطق المهجورة ، والدليل على أن المغول لم يجهزوا على جميع السكان اعلان هولاء بان بغداد (أصبحت ملكاً لنا فليستقر الاهالي ولينصرف كل شخص الى عمله) (٣٩) ، وقد قدر المؤرخ الفرنسي جروسية عدد القتلى بتسعين ألفاً مستنداً الى دراسة المصادر الأولية ، ولعل هذا الرقم هو الاقرب الى الواقع . (٤٠)

وبعد أن أعلن هولاء ايقاف القتال أمر بدفن الموتى ورفع جثث الحيوانات من الطرقات والاسواق ، بعد أن فسد الهواء ببغداد وانتشر الوباء في أرجائها ، وقبل أن يغادر معسكره الى همدان أمر بتنظيم الامور في العراق ، وفوض حكومة بغداد الى الامير علي بهادر وجعله شحنة بها ، وأقر الوزير ابن العلقمي في الوزارة وفخر الدين الدماغاني في الديوان ، ونظام الدين عبدالمنعم في القضاء ، كما وزع المناصب الادارية والمالية على نجم الدين عبدالغني بن درنوس ، وتاج الدين علي بن الدوامي ، وفخر الدين مبارك ابن المخرمي ، ثم رحل هولاء في جمادى الاولى من السنة نفسها ٦٥٦ هـ ، وترك على بغداد قائدين من المغول في ثلاثة الاف جندي ، وواصل رحيله الى همدان . (٤١)

(٣٧) ابن الفوطي ، ص ٣٣١ .

(٣٨) الذهبي ، دول الاسلام ج ٢ ص ١٢١ .

(٣٩) رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٢٩٣ ، خصباك ص ٣٢٩ .

(٤٠) ١٤٤ - ١٤٥ ، القزاق ، ص ٣٢٨ .

(٤١) Grousset, L'Empire des steppes. P. 299

(٤٢) خصباك ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، القزاق ، ص ٣٤٠ .

حملات تيمور على بغداد

٧٩٥ - ٨٠٧ هـ / ١٣٩٣ - ١٤٠٥ م

بقلم

نوري عبد الحميد خليل

جامعة بغداد / كلية التربية

احمد ، فقد شهد العالم الاسلامي في عهده موجة مغولية جديدة ، اندفعت من اواسط اسيا بقيادة تيمور (تيمورلنك) (١) .

ينتسب تيمور الى احدى القبائل المغولية - التركية ، وقد نشأ نشأة اسلامية في مدينة كاش في ما وراء النهر (جيحون) ، وصاحب نظراءه من اولاد الامراء والوزراء ، وتدريب على فنون القتال . وقد مكنته شجاعته العسكرية من ضم القبائل المغولية تحت لوائه ، والتخلص من الامراء المنافسين على السلطة واحدا بعد الآخر ، واصبح حاكما على ما وراء النهر سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م ، واتخذ سمرقند عاصمة له . وكانت الاوضاع الاقتصادية المتردية في بلاد ما وراء النهر ، ورغبة تيمور في السيطرة ، وعدم اعترافه بوجود حاكم آخر ، من العوامل المهمة في اندفاعه نحو الغرب ، لا سيما وقد اعتبر نفسه ورثا لاملاك المغول ، والامبراطورية الايلخانية الواسعة التي كانت تضم خراسان وبلاد الجبل والعراق العربي واذربيجان والاحواز وفارس وديار بكر واسيا الصغرى (٢) .

(١) نوري عبد الحميد خليل ، العراق في العهد الجلايري ١٣٢٧ - ١٤١١ م ، رسالة ماجستير - غير منشورة) كلية الاداب - جامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ٢٧ - ٣٠ ؛ وانظر ايضا : شيرين بياني ، تاريخ آل جلاير (طهران ١٣٤٥) ص ١٢ - ١٠٨ ؛ عباس الغزالي ، تاريخ العراق بين احتلالين ٢ (بغداد ١٩٣٦) ص ٢٤ - ٢٦ ،

(٢) جاسم مهاوي حسين ، تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام وآثاره السياسية ١٣٨٥ - ١٤٠٥ م ، رسالة

تجزات المملكة الايلخانية سنة ٧٣٦ / ١٣٣٥ م ، واندلعت الحروب بين الطامعين بالسلطة ، وقد تمكن الشيخ حسن الجلائري ان يستقل بالعراق سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م ، ويؤسس الدولة الجلائرية ، واتخذ من بغداد عاصمة له . وفي سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م تولى الحكم ابنه الشيخ اويس الذي بسط نفوذه على منطقة اذربيجان الغنية ، ونقل عاصمته الى تبريز ، اما العراق فقد اصبح ولاية جلائرية . ولما خلفه ابنه حسين سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م ، وكان صغير السن ضعيفا ، تسلط امراء الجيش على شؤون الحكم ، وانضم فريق منهم الى اخيه الشيخ علي حاكم بغداد ، ومال فريق آخر الى اخيه الثاني احمد ، وكان حاكما على ولاية البصرة . ونشب صراع على السلطة بين الاخوة الثلاثة ، انتهى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م بمقتل السلطان حسين واستيلاء احمد على الحكم في تبريز .

لكن السلطان احمد اساء معاملة اخوته وامراء الجيش ، فهرب اخوه بايزيد الى مدينة السلطانية ، عاصمة الايلخانيين ، لاجئا عند حاكمها الجلائري الامير عادل اغا ، وكان ساخطا على السلطان احمد ايضا ، فاکرم بايزيد واقامه سلطانا هناك . ولجأ قسم من الامراء الى بغداد ، ونصبوا الشيخ علي سلطانا ، وساروا به نحو تبريز على رأس جيش عراقي كبير . وقد تمكن السلطان احمد من قتل اخيه الشيخ علي ، وتشتيت جيش بغداد في السنة التالية ، بمساعدة حليفه قره محمد حاكم التركمان القره قوينلو . غير ان الامور لم تستتب للسلطان

←

السلطان احمد وسياسته التعسفية ، فكاتب بعض اعيانها تيمور يحرضونه على سلطانهم ، ويستحثونه القدوم واحتلال بغداد ، حتى ان بعض موظفي البريد وكشافة الطرق الذين ارسلهم السلطان احمد لرصد تحركات تيمور ، لجأوا الى تيمور ودخلوا في طاعته قبل وصوله الى بغداد(٦) .

اما على الصعيد الخارجي فان السلطان احمد لم يتعاون مع الدول المجاورة للوقوف بوجه تيمور ، وأهمل العرض الذي تقدم به الامير ولي حاكم مازندران لاقامة حلف معه ضد تيمور بالتعاون مع الدولة المظفرية في فارس ، واتسمت علاقته بالدولة الاخيرة بطابع عدائي(٧) . كما اهمل العرض الذي تقدم به تقيتمش ، خان القبيلة الذهبية الحاكمة في جهات القوقاز ، والذي اقلقه اقتراب جيش تيمور من حدود بلاده ، ولما شعر تقيتمش بضعف السلطان احمد ، ارسل في سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م (٥٠) الف فارس للمرابطة عند مدينة دربند (باب الابواب) على بحر الخزر ، تحسبا للطوارئ . وفي الوقت نفسه ارسل الى بغداد وفدا برئاسة قاضي مدينة سراي عاصمة القبيلة الذهبية ، عارضا على السلطان احمد اقامة تعاون ضد عدوهم المشترك ، الا ان السلطان لم يفتنم هذه الفرصة ، بل اساء معاملته احد اعضاء الوفد ، مما ادى الى تردي العلاقة مع تقيتمش(٨) .

لم يدرك السلطان احمد خطر تيمور الا بعد فوات الاوان ، وبعد ان فقد العاصمة تبريز ، فأخذ يفتش عن حليف يساعد على الوقوف بوجه هذا الخطر ، وقد باءت المحاولات التي بذلها للتحالف مع العثمانيين بالفشل ، كما انه لم يحصل على مساعدة المماليك الجراكسة في مصر والشام ، بسبب اضطراب مملكتهم وسوء اوضاعها الداخلية(٩) .

اثارت الانتصارات التي احرزها تيمور في اواسط آسيا وشمال ايران والولايات الايلخانية قلق السلطان احمد في تبريز ، فأمر سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م بوضع حامية عسكرية كبيرة في مدينة السلطانية ، وانسحب الى بغداد ، لكن قوات تيمور داهمت السلطانية ، بعد فترة قصيرة ، واستولت عليها(١٠) . ويبدو ان السلطان اراد تقوية مركزه في تبريز وابقاء سيطرته عليها ، فسار اليها في السنة التالية على رأس جيش عراقي كبير من بغداد ، غير ان قوات تيمور هاجمت المدينة فأضطّر السلطان الى التراجع عنها ، ودخلها تيمور دون مقاومة(١١) .

وبعد ان اخضع تيمور اذربيجان وجورجيا وارمينيا ، كان متوقفا ان يضع العراق ضمن مخططاته التوسعية ، لكونه مفتاحا الى بلاد الشام والحجاز ومصر ، ولأجل تأمين طرق التجارة القادمة من الخليج العربي الى بغداد وتبريز وسمرقند . وكانت الاوضاع السائدة في العراق لا تساعد على المقاومة ، فقد اتسمت سياسة السلطان احمد بضيق الافق ، وعدم تقييمه لقوة تيمور . فلم يتخذ اجراءات عسكرية لدفع خطره ، أو اقامة جبهة داخلية قوية تدعمه ، بل اجهد نفسه في القضاء على خصومه السياسيين ، ففقد خيرة ضباط جيشه . ويقول عزيز الاسترابادي ، وكان نديمه في بغداد : ان السلطان احمد « قتل عددا كبيرا من قادة الجيش واعيان رجال الدولة ، من ذوي الكفاءة والدراية والرأي في تدبير الامور ، وجمع حوله عددا من الاسافل ممن عرفوا بالجهل والحماقة والخمول ، ونصبهم في المناصب العليا . وقد ادى تقصيرهم وسوء تصرفهم الى ايجاد فتور كبير في اعمال الدولة ، فقامت المعارضة والفتن في كل مكان ، وانصرف السلطان الى اقامة مجالس الشراب ، ولم يصرف لحظة واحدة في اعمال الملك والدولة »(١٢) . وتتفق مصادر تيمور الرسمية مع المصادر المصرية على ان سكان بغداد كرهوا

- (٦) تيمور ، تزوكات تيموري ، تحرير ابو طالب حسيني (اكسفورد ١٧٨٣) ص ١٢٤ - ١٢٥ ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين ذريق ونجلاء عز الدين (بيروت ١٩٢٨) ج ٩ ص ٢٤٤ ؛ تقي الدين احمد بن علي المقرئ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، حققه سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة ١٩٠٧) ج ٣ ص ٢٤ ، ص ٧٨٨ .
- (٧) نظري ، منتخب التواريخ ، ص ٢٢٥ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٥ - ٩٦ .
- (٨) حافظ ابرو : ذيل ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ محمد بن برهان الدين خواند شاه الشهير بميرخواند ، روضة الصفا (طهران ١٣٣٩) ج ٥ ، ص ٥٩٥ .
- (٩) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

ماجستير (غير منشورة) كلية الاداب - جامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ٤٤ - ٦١ .

(٣) شهاب الدين عبدالله بن لطف الله بن عبدالرشيد الخوافي المدعو بحافظ ابرو ، ذيل جامع التواريخ رشيد ، (طهران ١٣١٧) ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٤) معين الدين نظري (منسوب له) منتخب التواريخ معين ، (طهران ١٣٣٦) ص ٣٣٠ .

(٥) عزيز ابن اردشير الاسترابادي ، بزم وزم (استانبول ١٩٢٨) ص ١٦ - ١٧ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ١٦٢ .

الحملة الاولى ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م :-

في ١٥ رجب ٧٩٤هـ / ١٣٩٢م زحف تيمور على رأس جيش يبلغ تعداده حوالي مئة الف مقاتل من جهات ما وراء النهر نحو الغرب ، وبعد ان اخضعت هذه القوات فارس وخوزستان وبلاد الجبل واحكمت سيطرتها في السنة التالية على ايران ، تجمعت في الثامن من شعبان ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م في همدان تمهيدا للزحف على بغداد (١٠) .

بعث تيمور رسالة الى السلطان احمد ، ومعها الخلعة والسكة ، وامره باعلان خضوعه ، وان يذكر اسمه على النقود وفي الخطبة ، والاسراع بالمثل بين يديه لتقديم فروض الطاعة (١١) . لكن السلطان رفض ذلك ، واجاب برسالة تهكمية ، اعلن فيها استخفافه بتيمور ، واستغرابه من اعجابه الشديد بنفسه ، فكيف « يصبح الثعلب الضال الذي لا يد له ، ولا رجل ليثا ، وكيف يتقابل الاصل مع الاصيل » معتبرا اياه مجرد (نملة في صحراء) (١٢) .

شرعت قوات تيمور في ١٣ شعبان ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م بسلسلة من الحملات في شمال العراق بقصد اخضاع القبائل الكردية والتركمانية المتحالفة مع انسلطان احمد ، والاستحواذ على المواد الغذائية المتوفرة في المنطقة ، وضبط الطرق الموصلة الى بغداد . وبعد ان احكمت هذه القوات سيطرتها على الطريق الممتد بين همدان وجمجمال ، واخضعت القبائل الكردية والتركمانية المنتشرة على طوله (١٣) وجد السلطان احمد نفسه عاجزا عن مقاومة الجيش الزاحف ، فأراد تدارك الامر باعلان خضوعه وارسل اليه وفدا برئاسة الشيخ نور الدين عبدالرحمن الاسفراييني ، وكان من اكابر مشايخ بغداد ، وحمله رسالة الى تيمور ، معلنا فيها خضوعه اليه ، ومعتذرا عن الحضور بنفسه والمثل امامه ، وابدى ترحيبه به اذا اراد القدوم الى بغداد وارسل معه جملة من الهدايا الثمينة والتحف النادرة من بينها الخيول العربية ذات السروج المذهبة .

قابل الوفد تيمور في قرية اق بولاق ، قرب

شهرزور بين همدان وأربيل ، فاستقبله تيمور بحفاوة واجلال عظيمين ، لكنه رفض استلام الهدايا لان السلطان لم يحضر بنفسه لتقديم فروض الطاعة وبعد ان انعم على الشيخ خلعة وحصانا ثمينين مع كمية من النقود ، اعاده الى بغداد ، واعدا اياه بعدم التعرض لها (١٤) .

لقد اراد تيمور التمويه على السلطان احمد ، فبعد ان عاد الشيخ عبدالرحمن مطمئنا ، امر قواته في ١٣ شوال ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م بالزحف على بغداد . فتقدمت هذه القوات عبر ممرات جبلية ضيقة ، ووصلت بعد خمسة ايام الى مزار الشيخ ابراهيم يحيى المشهور بقبته ابراهيم الك ، قرب الخالص . ولما شاهد اتباع السلطان احمد غبار الجيش طيروا حماسة مع رسالة يخبرون فيها السلطان بوصول جيش تيمور . وحين وصل تيمور وعلم بالامر امرهم في الحال ان يرسلوا رسالة اخرى ، يذكرون فيها ان الغبار الذي شاهدوه لم يكن من اثر جيوش تيمور بل غبار التركمان الذين هربوا منه ، ثم امر قواته بالسير باقصى سرعة (١٥) .

تقدمت قوات تيمور لاحتلال بغداد ، وقد تولى قيادة المقدمة الامير عثمان عباس ، وتولى تيمور نفسه قيادة القلب ، وقاد اليمينه حفيده محمد سلطان ، والميسرة ابنه ميرانشاه ، اما عثمان بهادر فقد قاد المؤخرة (١٦) . فوصلت هذه القوات بغداد في ٢١ شوال / اب ، ونزلت في الجانب الشرقي (الرصافة) . اما السلطان احمد فحين علم بقدوم تيمور نقل امواله وحريمه واسلحته وارسلهم امامه الى الحلة ، ثم قطع الجسر ونقل السفن الى الجانب الغربي (الكرخ) واغرق بعضها واحرق البعض الاخر ، لكي لا يستفيد منها العدو ، وانسحب من بغداد مع عدد من اتباعه (١٧) . وبعد خروج السلطان احمد قام بعض اعيان المدينة بفتح الابواب واستقبلوا تيمور ، وكان على رأس

(١٤) شرف الدين علي اليزدي ، ظفرنامه ، بتصحيح واهتمام محمد عباسي (طهران ١٣٣٦) ج١ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ ؛ عبدالله بن فتح الله الملقب بالفياثي ، التاريخ الفياثي ، دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني (بغداد ١٩٧٥) ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ١٨٥ .

(١٥) اليزدي ، ظفرنامه ، ج١ ص ٤٥٠ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ١٥٥ .

(١٦) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٨ .

(١٧) اليزدي ، ظفرنامه ، ج١ ص ٤٥١ ؛ الفياثي ، ص ١١١ ، ١٨٦ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١١٢ - ١١٧ .

(١١) احمد بن علي بن حجر العسقلاني ، انباء الغمر بابناء العمر ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٩) ج١ ، ص ٤٥٣ ؛ ابي العباس احمد بن علي القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ١٩٦٣) ، ج٣ ص ٣١١ .

(١٢) بياني ، تاريخ آل جلاير ، ص ٨٢ - ٨٣ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(١٣) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١١٧ - ١٢٠ .

المستقبلين الشيخ نظام الدين الشامي الذي دون فتوحات تيمور فيما بعد (١٨) .

عبر بعض اتباع تيمور نهر دجلة سباحة لجلب السفن الراسية في الجانب الغربي من بغداد ، والتي لم يتمكن السلطان احمد من اتلافها . فاستولوا على سفينة السلطان الخاصة المسماة الشمس ، وهي ذات ثلاثين مجدافا ، مع اربع سفن اخرى ، فاستخدم تيمور هذه السفن في العبور الى الجانب الغربي ، والسيطرة على بغداد (١٩) .

من الصعوبة بمكان تحديد حجم الخسارة التي تعرضت لها المدينة من جراء دخول جنود تيمور ، فقد قدر المقريري عدد السكان الذين قتلوا بثلاثة الاف نفس (٢٠) . غير ان مصادر تيمور الرسمية لا تشير الى وقوع خسائر في الارواح لان المدينة استسلمت صلحا . وتذكر هذه المصادر ان تيمور اكتفى بأخذ (مال الامان) ، وهي الضريبة التي اعتاد اخذها من سكان المدن التي تفتح صلحا ، مقابل الحفاظ على ارواحهم (٢١) . وقد اناط مهمة جمعها بأحد امراء السلطان احمد الذين تعاونوا معه والمدعو شرف الدين البليقي مع عدد من اعوانه (٢٢) .

كان امر تيمور ان يجبي من السكان كل حسب مقدرته المالية ، لكن الذين تولوا جمع الضريبة طالبوا الناس باموال كثيرة ، وحملوهم فوق طاقتهم (٢٣) . ويذكر المقريري ان تيمور صادر اهل بغداد ثلاث مرات ، وجمع في كل مرة ١٥٠٠ تومان ، اي ما مجموعه ٤٥ مليون دينار عراقي (الدينار ست دراهم) (٢٤) . وقد رافق عملية الجمع ابشع انواع التعذيب واقساها ، وكان من بين الوسائل التي اتبعها الجند في تعذيب الناس : عصر الاعضاء والمشي على النار وتعليق البعض من

(١٨) نظام الدين الشامي ، ظفرنامه ، بسمي واهتمام وتصحيح فلکس تاور (بيروت ١٩٢٧) ص ١٢٩ ، ابن الفرات ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ق ٢ ص ٢٤٤ .

(١٩) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٤٥١ ؛ الفياثي ، التاريخ الفياثي ، ص ١١٢ ، ١٨٦ .

(٢٠) القريري ، السلوك ، ج ٩ ق ٢ ، ص ٧٩٠ .

(٢١) الشامي ، ظفرنامه ، ص ١٤١ ؛ اليزدي ظفرنامه ، ج ١ ص ٤٥٧ .

(٢٢) الفياثي ، التاريخ الفياثي ، ص ١١٣ .

(٢٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ق ٢ ص ٣٦٢ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ٣٨٦ .

(٢٤) المقريري ، السلوك ، ج ٣ ق ٢ ، ص ٧٩٠ .

الارجل ، كما كانوا يدسون خرقة فيها تراب ناعم بانف المذهب حتى تكاد تخرج نفسه فيخلى عنه كي يستريح ، ثم تعاد العقوبة عليه (٢٥) . وقد مات من اثر التعذيب والعقوبة ععدد كبير من الموسرين والتجار واعيان بغداد وامرائها ، قدرتهم المصادر المصرية بين ٧٠٠ - ٨٠٠ نفس (٢٦) . كما استولى اتباع تيمور على خزائن السلطان احمد ، وصادروا اموال الرؤساء والاعيان والامراء الذين هربوا معه ، منهم قاضي بغداد الشافعي غياث الدين ابن العاقولي ، ومحتسب بغداد وجيه الدين ابن الانباري ، ومحمد بن عبدالقادر الواسطي (٢٧) . وقاموا باذلال الناس باخراج الفتيات والاعتداء على اعراضهن ، ونهبوا كل ثمين يقع تحت ابصارهم من تحف ومجوهرات ، فكانوا يقتلعون الذهب والفضة التي تزين بيوت الاغنياء (٢٨) .

اما الخسارة في الجوانب الحضارية فقد كانت كبيرة جدا ، فرغم الكارثة التي حلت بالحضارة العربية بعد سقوط بغداد على ايدي المغول ، ظلت بغداد مركزا للعلم والصناعة والفن (٢٩) . الا ان تيمور امر بجمع الموهوبين من اصحاب الحرف والصناعات والفنون المختلفة ، ونقلهم الى عاصمته سمرقند . وقد حفظت المصادر أسماء عدد ممن شملهم النقل من امثال الموسيقي المشهور عبدالقادر المراغي (٣٠) ، الذي لازم السلطان اديس واولاده حسين واحمد ، وكان عارفا بجميع الآلات ذوات الاوتار وخاصة العود ، والموسيقي المشهور قطب الموصل ، وكان اعجوبة الزمان واستاذ علم الموسيقى والادوار ، والمصور المشهور عبدالحق البغدادي ، الذي استخدمه تيمور في تزيين بلاطه في سمرقند (٣١) .

(٢٥) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ .

(٢٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ٣١٤ . ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ق ٢ ، ص ٣٦٢ ؛ عبدالرحمن محمد بن خلدون ، المعبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت) ص ٥٢ ، ١٠٨٤ .

(٢٧) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢٨) الاسترابادي ، بزم وزم ص ١٩ ، حسين الغزو التيموري ، ص ١٢٩ .

(٢٩) خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٣٠١ - ٣٢٨ . (٣٠) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٥٦ ، الفياثي ، التاريخ الفياثي ، ص ١٨٨ .

(٣١) احمد بن محمد بن عبدالله بن عرب شاه الدمشقي ، عجائب المقدور في اخبار تيمور ، (لاهور ١٨٦٨) ص ١٥٥ ، ٤٦٩ ، نطنزي ، منتخب التواريخ ، ص ١٦٦ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٨ .

الحملة الثانية ٨٠٣هـ / ١٤٠١م :-

حين هرب السلطان احمد من بغداد لاحقه عدد من اتباع تيمور ، وبعد مطاردات عنيفة قرب كربلاء ، تمكن السلطان ان يهرب مع عدد من اتباعه عبر الصحراء الى مدينة الرحبة على الفرات ، حيث منازل نعيم بن حيار بن مهنا أمير آل فضل ، الذي رحب به وانزله عنده ، ثم سار نحو حلب طالبا اللجوء عند السلطان المصري الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٨٠١هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٨م) ، فطلبه الاخير الى القاهرة ورحب به واكرمه (٢٧) .

اما في العراق فأن مسعود السبزواري لم يتمكن من ضبط بغداد ، بسبب ضعف الحامية التي وضعها تيمور فيها . وقد شعر اتباع السلطان احمد بذلك فتجمعوا على الفرات ، واجتمع معهم ايضا عدد كبير من سكان بغداد الفارين ، وافراد القبائل العربية القاطنة على الفرات بين هيت وعنه ، وطلبوا من السلطان احمد الحضور اليهم ، للرحف على بغداد وطرده نائب تيمور منها (٢٨) . وكان السلطان احمد في هذا الوقت في بلاد الشام ، يشارك السلطان المصري برقوق استعداداته لمجابهة تيمور عند زحفه عليها . فانتهاز هذه الفرصة وبدعم من السلطان المصري ، الذي امدّه بالمال والسلاح والخيول والجمال ، وكتب له تقليدا بسلطنة بغداد ، سار في الاول من شعبان ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م من دمشق الى بغداد (٢٩) . كما امر السلطان المصري كافة اتباع السلطان احمد المقيمين بالشام بالالتحاق بسلطانهم ، اما قوات برقوق فقد بقيت على الحدود ، رصدًا للعدو ، وانتظارا لما يستجد في بغداد (٤٠) .

١٦ ص ٤٥٧ ، ٤٦٩ ؛ حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٨ .

(٣٧) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٩ ق٢ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٩ ، ٣٦٦ - ٣٦٧ ؛ المقرئ ، السلوك ، ج٣ ق٢ ، ص ٧٨٩ - ٨٠١ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٧ .

(٣٨) محمد بن محمد بن صوري ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، حققه ونشره وليم برينر (بركلي) ، جامعة كاليفورنيا ١٩٣٦ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، خليل ، العراق في العهد الجلابري ، ص ٢١١ .

(٣٩) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٩ ق٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٦ ؛ المقرئ ، السلوك ، ج٣ ق٢ ، ص ٨١٤ - ٨١٥ .

(٤٠) ابن صوري ، الدرة المضيئة ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ابن حجر المسقلاني ، انباء ، ج١ ، ص ٤٧٥ ؛ ابن خلدون ، المعبر ، ص ١١٧٥ - ١١٧٦ .

ويذكر ابن عرب شاه الدمشقي ، وكان من جملة من نقلهم تيمور من بلاد الشام ، وعاش في سمرقند عدة سنوات ، ان بلاط تيمور ضم من النقاشين والخطاطين والرسمين وغيرهم من الصنائع ما لا يحصى عددهم ، كان كل منهم علامة دهره واعجوبة عصره ، وقد اخذ عددا كبيرا منهم من العراق (٢٢) . كما امر ايضا بنقل عدد كبير من العلماء والفقهاء والشيوخ ، من امثال نظام الدين الشامي ، الذي اصبح مؤرخ بلاطه ، وصنف بأمره كتابا عن غزواته اسماه (ظفرنامه) اي النصر . وكذلك عبدالقادر الواسطي مدرس النحو والفرائض بالمدرسة النظامية ، والفتية عبدالسلام ابن احمد الحسني ، والنسابة جمال الدين احمد ابن علي بن عتبة الحسني ، والفتية عبدالله بن محمد الحسني ، وابن النسابة محمد بن تقي الدين عبدالله الحسني (٢٣) .

واتخذ تيمور اجراءات اخرى يقصد منها اظهار نفسه بمظهر الحامي للشريعة الاسلامية ، فأخذ يتقرب الى رجال الدين في بغداد ، وقام بزيارة مشاهد الامام ابي حنيفة والشيخ عبدالقادر الكيلاني والامام احمد بن حنبل والامام موسى الكاظم وحفيده الامام الجواد ، ووقف لهذه المشاهد اراض زراعية في بغداد وغيرها ، وخصص الاقطاعات والرواتب للسادات والعلماء والمشايخ والمدرسين (٢٤) . كما امر اتباعه بجمع المشروبات الموصلية والدياربركية الموجودة في قصر السلطان احمد ، مع كافة الخمور الموجودة في المدينة ، واراقتها في نهر دجلة ، وامر ايضا بغلق بيوت اللطف (بيوت الدعارة) (٢٥) .

امضى تيمور في بغداد شهرين يتنزه في قصورها الفخمة ، وبيوت اللهو المطللة على ضفتي نهر دجلة ، تمكنت قواته خلالها من احكام سيطرتها على مدن العراق الجنوبية . ثم عين احد اعوانه المدعو مسعود السبزواري حاكما على بغداد ، وترك معه حامية عسكرية مقدارها ثلاثة الاف فارس ، وسار نحو الموصل لاتمام فتح بقية مدن العراق (٢٦) .

(٢٢) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ص ٤٦٩ ؛ وانظر ايضا البيهقي ، ظفرنامه ، ج١ ، ص ٥٧١ - ٥٧٢ .

(٢٣) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ . (٢٤) تيمور ، تزوكات تيموري ، ص ٣٥٦ - ٣٦٠ ، خليل ، العراق في العهد الجلابري ص ٢٥١ .

(٢٥) البيهقي ، ظفرنامه ، ج١ ، ص ٤٥٧ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ بايسنغري ، بسعي واهتمام فلکس تاور (براغ ١٩٥٦) ، ص ١٠٨ ؛ حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٧٢ .

(٢٦) الشامي ، ظفرنامه ، ص ١٤٥ ، البيهقي ، ظفرنامه ،

وجد مسعود السبزواري انه لا يستطيع المقاومة ، فقرر مغادرة المدينة ، لكنه اراد ان يشاغل الجيش الزاحف نحوه ، وان يتيح لاتباعه فرصة الخروج من بغداد . فأمر بكسر السدود المقامة على نهر دجلة ، فأغرقت المياه مناطق واسعة بصورة اعاققت تقدم القوات العراقية مدة يومين ، تمكن خلالها مسعود السبزواري من الخروج مع اتباعه من بغداد ، وتوجهوا الى شوشتر في خوزستان . ثم دخل السلطان احمد بغداد ، وبدأ باعادة تنظيم جيشه معتمدا في ذلك على العرب والتركمان ، واخذ يعمل على اعادة تعمير المدينة وزراعتها(٤١) .

ان عودة السلطان احمد الى بغداد ادهشت تيمور ، فقرر انهاء حكمه ، واخضاع المدينة بصورة نهائية . ففي صيف ٨٠١هـ / ١٢٩٨م ارسل ابنه ميرانشاه من تبريز على رأس جيش كبير لمحاصرة بغداد ، لكن ميرانشاه اضطر الى الانسحاب بعد يومين من الحصار ، اذ وافته الانباء بقيام حركة تمرد ضده في تبريز(٤٢) . كما فشلت محاولة ثانية قام بها حفيد تيمور المدعو رستم في السنة التالية ، عندما وصلت قواته الى مندلي في جمادى الآخرة سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م ، وبعد ان احتلت المدينة ونهبها استعدت للزحف على بغداد(٤٣) . وفي الوقت نفسه كانت رغبة تيمور هي ان يلقي القبض على السلطان احمد حيا للانتقام منه . فاتفق مع نائبه في خوزستان الامير شروان بن شيخ براق منصور ، على ان يأخذ مبلغا كبيرا من المال ويتظاهر بالهرب منه ويعلن لجوءه مع عدد من اتباعه لدى السلطان احمد . وقد انطلقت الخطة في اول الامر على السلطان ، اذ رحب بشروان ، وجعله احد امرائه المقربين ، واقطعه قريتي القبة وزنكباداد في منطقته دياالى وقرب مرتفعات حميرين .

شرع شروان يدس الاموال سرا الى كبار امراء السلطان احمد واقربائه بقصد استمالتهم ، وتسهيل مهمة القبض عليه . فأعطى لكل امير مبلغا يتراوح بين عشرة الاف الى ثلاثمائة الف

دينار عراقي ، كل حسب رتبته ودوره في المؤامرة . لكن السلطان اكتشف المؤامرة في اواخر ادوارها ، فقد عثر خادمه ، كوره بهادر ، على القائمة التي وردت فيها اسماء المتآمرين والمبالغ التي استلموها من شروان ، في الوقت الذي وصلت فيه قوات رستم مندلي . فأمر السلطان احمد بقتل ابواب المدينة ، وقتل كل من ورد اسمه في القائمة ، بما فيهم شروان ، حتى بلغ عدد القتلى في اسبوع واحد الفا شخص من امرائه واقاربه .

لقد اضعفت هذه المؤامرة قدرة السلطان العسكرية ، وافقدته خيرة ضباط جيشه ، واكفأهم ، ولم تعد له ثقة بهذا الجيش . فترك في احدي الليالي بغداد ، وتوجه سرا الى ديار بكر طالبا المساعدة من حليفه قره يوسف امير التركمان القره قوينلو . فخفف قره يوسف مسرعا مع عدد كبير من اتباعه ، وعسكروا في الجانب الغربي من بغداد ، لتقديم الحماية للسلطان . وفي هذه الاثناء اضطر رستم قائد الجيش الزاحف نحو بغداد الى الانسحاب ، بسبب حدوث تمرد في فارس ، فأطمئن السلطان احمد ، لكنه اضطر الى تقديم مبالغ كبيرة من المال والاقمشة والخيول والسروج المذهبة الى قره يوسف واتباعه مكافئة لهم ، ولمنعهم من التعرض لمدينة بغداد او نهبها ، فعادوا الى موطنهم(٤٤) .

ادرك السلطان احمد ان تيمور لن يتركه يتمتع بحكم بغداد ، لا سيما بعد ان شرعت قواته بالزحف على مدينة سيواس في الاناضول سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م . فاذا استطاعت هذه القوات احتلال المدينة ، فان تيمور سيسد عليه طريق الهرب الى بلاد العثمانيين ، كما ان الاوضاع السياسية في مصر وبلاد الشام اضطربت بعد وفاة السلطان برقوق . لذا قرر ان يسرع في الفرار ، فترك على حكم بغداد احد امرائه المدعو فرج الجلائري ، واخذ اهله وامواله ونفائسه ، وتوجه مع حليفه قره يوسف الى الدولة العثمانية ، فأستقبله السلطان بايزيد بن مراد الاول (٧٩١ - ٨٠٥هـ / ١٣٨٩ - ١٤٠٢م) واقطعه منطقة كوتاهية ليعيش على مواردها(٤٥) .

(٤٤) الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٩ - ١٢٢ ، ١٩٦ ، اليزدي ، ظفرنامه ، ج٢ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٤٥) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ، ميرخواند ، روضة الصفا ، ج٦ ، ص ٣٤٥ .

(٤١) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٨ ، ١٤٩ ، المقرئزي ، السلوك ج٢ ق ٢ ، ص ٨١٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٩ ق ٢ ، ص ٢٨٦ ، ابن حجر العسقلاني ، انباء ، ج٢ ص ٤٦٦ .

(٤٢) اليزدي ، ظفرنامه ، ج٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ، الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٨ .

(٤٣) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٦٧ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٣٤٦ .

وبعد ان اتم تيمور احتلال بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ، وعاد الى ديار بكر ، اعد جيشا كبيرا وامره بالزحف على بغداد ، فوصلوا بعد عدة ايام الى الجانب الغربي ، وعسكروا في القسم الجنوبي من المدينة .

استبسل الامير فرج في الدفاع عن بغداد ، وقرر عدم تسليمها مهما كلف الامر ، وحشد داخلها عددا كبيرا من مقاتلي العرب والتركمان ، وارسل الى امراء وحكام المدن العراقية القريبة ، طالبا منهم الحضور مع قواتهم لمشاركته في الدفاع عن العاصمة . فقدم الامير على قلندر حاكم مندلي ، والامير حيان احمد حاكم بعقوبة ، وعبروا دجلة مع قواتهما من قرب المدائن . وقدم ايضا الامير فرخ شاه حاكم الحلة ، والامير ميكائيل حاكم السيب القريبة من الحلة ، مع قواتهما ، والتقوا جميعا عند قرية صرصر القريبة من الجانب الغربي من بغداد واجتمع معهم حوالي ثلاثة الاف فارس ثم تقدموا جميعا ، واشتبكوا مع قوات تيمور قرب عمارة السلطان احمد في الجانب الغربي ، حيث هزمت القوات العراقية ، وقتل الامير جان احمد مع عدد كبير من الجنود العراقيين ، وغرق قسم منهم في نهر دجلة عندما حاولوا الهرب ، بينما انسحب الباقي الى داخل المدينة (٤٦) .

اصر فرج على المقاومة رغم الخسارة التي تعرض لها اتباعه ، واعلن ان السلطان احمد امره ان لا يسلم المدينة الا عند حضور تيمور بنفسه . وحين بلغ تيمور بالامر ، وكان في الموصل ، خف مع عدد كبير من اتباعه مسرعا عبر آنتون كوبري ، فوصل بغداد في ١٦ شوال ٨٠٣هـ/ ٣٠ ايار ١٤٠١ وعسكر مع اتباعه في الجانب الشرقي من المدينة ، فأحاطت قواته بالمدينة من جميع جوانبها .

امر تيمور باقامة جسر من القوارب الجنوبي بغداد ، بالقرب من قرية العقاب ، ووضع باسفل النهر عددا من الرماة للحيلولة دون هرب اي شخص من المدينة . ثم شرعت قواته بنقب الاسوار ، وفي الوقت نفسه اقامت فرقة من هذه القوات ربوة ونصبت عليها المجنيق لرمي المدينة بالاحجار . وتؤكد تواريخ تيمور الرسمية ان الامير فرج اراد التأكد من وجود تيمور ، فأرسل وفدا

(٤٦) البيزدي ، ظفرنامه ، ج٢ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ ميرخواند ، روضة الصفا ، ج٦ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلائري ، ص ٢٥٧ .

الى معسكره . فاستقبل تيمور الوفود بحفاوة واعاده الى المدينة ، لكن فرج لم يصدق الخبر ، وامر بسجن رئيس الوفد (٤٧) . فاحضر تيمور احد اعيان محلة الامام ابي حنيفة المدعو الشيخ بشر واقترب معه من السور ، فأقسم الشيخ بشر لفرج وللجنود المرابطين على السور ان رفيقه هو تيمور بعينه ، فلم يصدقوه بل رموه بالنشاب (٤٨) .

شدد تيمور الحصار على المدينة ، وتمكنت قواته من احداث عدة حفر في السور واشعلوا فيها النيران ، فسقط قسم من السور . لكن المدافعين سارعوا الى اصلاحه ، وتمكنوا من تأخير فتح المدينة اربعين يوما عانى خلالها السكان من الجوع وارتفاع الاسعار ، بسبب شحة المواد الغذائية . ورغم تفوق جيش تيمور من حيث العدد والعدة ، فان الظروف كانت في صالح الجيش العراقي ، بسبب شدة الحرارة وصعوبة تموين الجيش المهاجم ، لكن اهمال بعض جنود بغداد وتهاونهم ادى الى فتح المدينة . ففي ظهيرة يوم ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣هـ/ ٣٠ حزيران ١٤٠١م نزل الجند المدافعون عن برج العجمي في الجهة الجنوبية من بغداد ، وذهبوا الى منازلهم للاستراحة من شدة الحر ، ووضعوا خوذهم على العصي في الاماكن المخصصة لهم على السور ، الا ان اتباع تيمور اكتشفوا الامر ، فتلصقوا السور بواسطة السلالم ، واحتلوا البرج . وفي الوقت نفسه تمكنت القوات المهاجمة من احداث ثغرات في السور فتم فتح المدينة ، ولم يجد السكان ملاذا من سيوف المحتلين سوى نهر دجلة ، لكن الجنود المرابطين على الجسر قتلوا كل من اقترب منهم . اما الامير فرج فقد ركب مع ابنته قاربا وفر عبر دجلة ايضا ، لكن اتباع تيمور تمكنوا من اغراق القارب ومن فيه ، ثم انتشلوا جثة فرج واوصلوها الى ضفة النهر (٤٩) .

تعرضت بغداد لخسارة كبيرة من جراء هذه الحملة ، فقد امر تيمور باستباحة المدينة ، واجراء مذبحه عامة للسكان ، شملت حتى الشيوخ

(٤٧) الشامي ، ظفرنامه ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ؛ البيزدي ، ظفرنامه ، ج٢ ، ص ٢٥٨ - ٢٦١ .

(٤٨) الفياني ، التاريخ ص ١٢٥ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٤٩) الشامي ، ظفرنامه ص ٢٤١ ؛ البيزدي ، ظفرنامه ، ج٢ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ ؛ الفياني ، ص ١٢٦ .

والاطفال(٥٠) . والزم اتباعه ان يأتيه كل واحد منهم براسين من رؤوس السكان ، فلما عجز الجند عن تحصيل سكان بغداد ، قطعوا رؤوس بعض اسرى الشام ، بل ان بعضهم كان يقطع رأس المرأة ويزيل شعرها ويحفره . وقد قدرت بعض المصادر عدد من قتل بين ٩٠ الف ومئة الف ، واعتقد بعضها الاخر ان القتل شمل سكان المدينة جميعا حتى فني اهلها ، واقامت من جماجم القتلى عدة مآذن لتكون عبرة لمن تسول له نفسه برفع راية العصيان(٥١) . ورغم ما في ذلك من مبالغاته فانه يدل على كثرة من قتل ، وعلى مبلغ القسوة والعنف الذي مارسه اتباع تيمور . ولم يكتف تيمور بهذه المجزرة الرهيبة ، بل امر اتباعه بتخريب المدينة ، وتهديم العمارات والاسواق والخانات والبيوت ، وتحويلها قاعا صفصفا(٥٢) .

لقد تعفن هواء بغداد من نتن جثث القتلى كما يذكر اليزدي ، فتركها تيمور في بداية ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ، وتوجه شمالا نحو شهرزور ومنها الى تبريز(٥٣) . ولم تذكر المصادر شيئا عن الاجراءات الادارية التي اتخذها لضبط المدينة ، ويبدو ان الفوضى عمتها بعد خروجه منها . وعندما بدا زحفه في السنة التالية نحو الاناضول ، انتهز السلطان احمد هذه الفرصة وغادر الاناضول متوجها الى العراق . وقد واصل سيره على امتداد نهر الفرات ، فدخل بغداد دون مقاومة ، واخذ يعمل على اعادة السكان الفارين

وتعمير المدينة وزراعة اراضيها(٥٤) . لكن قوات تيمور داهمت المدينة في الثامن من رجب سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م من الجانب الشرقي ، فاندحش السلطان احمد ، وآثر الفرار الى الحلة ، ومنها الى منطقة الاهوار والمستنقعات في القسم الاسفل من الفرات . الا ان قوات تيمور انسحبت من العراق بعد فترة قصيرة(٥٥) .

ثم نشب صراع حول بغداد بين السلطان احمد وحليفه قره يوسف ، انتهى باستيلاء الاخير عليها ، بعد ان زحف عليها من الحلة ، فتركها السلطان احمد في الخامس من محرم سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م هاربا الى بلاد الشام . اما قره يوسف فلم يتمتع بحكم بغداد سوى ثلاثة اشهر ، اذ قرر تيمور وضع حد لسيطرته ، وضم بغداد الى نفوذه . فأسند حكم العراق لحفيده ابي بكر ، وامره بان يقوم باستمالة السكان وتشجيعهم على بناء دورهم وزراعة اراضيهم ، وان يعمل على اعادة تعمير المدينة واعادتها الى ازدهارها السابق . فتقدمت قوات ابي بكر نحو بغداد ، والتقت مع قوات قره يوسف عند نهر الغنم قرب الحلة ، حيث اندحر قره يوسف وهرب الى بلاد الشام ايضا(٥٦) . ثم دخل ابو بكر بغداد ، غير ان حكمه لم يدم طويلا . فقد مات تيمور في ١٧ شعبان سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م ، واضطربت الاوضاع السياسية في العراق ، فاستغل السلطان احمد ذلك وتوجه من الشام نحو بغداد ، ودخلها في الخامس من محرم سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م وطرد حاكمها التيموري دولة خواجه ايناق(٥٧) .

(٥٠) تيمور ، تزوكان تيموري ، ص ١٥١ ، الشامي ، ص ٢٤١ .
(٥١) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، ابن حجر العسقلاني ، انباء ، ج ٢ ص ١٢٨ ، ٢٠٨ ، الفياني التاريخ الفياني ، ص ١٢٦ ، ٢٠٢-٢٠٣ حين الفسزو التيموري ، ص ٣٦٠-٣٦١ .

(٥٢) تيمور ، تزوكان تيموري ، ص ١٥١ ؛ الشامي ، ظفرنامه ، ص ٢٤١ ؛ اليزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ص ٢٦٦ ، الفياني التاريخ الفياني ، ص ١٢٧ .

(٥٣) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ص ٢٦٦ ، حسين ، الفزو التيموري ، ص ٣٦٨ .

(٥٤) الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

(٥٥) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٧٦-٢٧٧ ، حسين الفزو التيموري ص ٣٧٣-٣٧٤ .

(٥٦) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٦٩-٢٧١ ، ٢٩٣،٢٩١ ، الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ٢٠٦-٢١٠ .

(٥٧) ميرخواند ، روضة الصفا ، ج ٢ ، ص ٥٠-٥٥ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢١٢ .

حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد عام ١٥٣٤ (١)

بقلم الدكتور

حسين محمد الفهولي

كلية الآداب - جامعة البصرة

وعندما تبوأ الشاه طهماسب عرش بلاد فارس بعد وفاة والده الشاه اسماعيل الصفوي عام (١٥٢٤) ، كان قد ورث عداواً مستحكما مع قبائل الازبك في أقصى الشرق من بلاده من جهة ومع العثمانيين المتأخمين له في الغرب من جهة أخرى ، فبادر أولا الى محاربة الازبك ، الا ان السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٠٠ - ١٥٦٦) الذي خلف والده السلطان سليم الاول استغل حرب الشاه مع الازبك واراد السيطرة على طريق تبريز التجاري ، لذا ارسل « اولامه تكلو » (٢) وهو احد اللاجئين اليه من الفرس المعارضين لحكم الشاه الجديد ، على رأس قوة صغيرة الى اطراف اقليم آذربايجان لاستطلاع الاوضاع العسكرية ولاستمالة سكان الاقليم الى جانب الدولة العثمانية قدر المستطاع ، وما ان وصلت منه انباء مشجعة حتى اصدر السلطان اوامره الى صدره الاعظم ابراهيم باشا في ٢ ربيع الآخر (٤) ٩٤٠ هـ / تشرين الاول ١٥٣٣ ليتوجه هو الآخر على رأس جيش كبير قدر ب ٨٠.٠٠٠

(٣) احد امراء قبيلة تكلو ، بدأ حياته ماليا للسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) ولكنه انحاز الى الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠١ - ١٥٢٤) عند ظهوره على مسرح الاحداث الفارسية ، وظل يتدرج في مناصب الدولة الصفوية حتى صار بكثر بكا لاذربيجان وفي عهد الشاه طهماسب عاد ليعلن ولاءه ثانية للدولة العثمانية .
ابراهيم بجوى ، تاريخ بجوى ، جلد اول ، استنبول ، ١٢٨٣ ، ص ١٧٥ .
(٤) ابراهيم بجوى ، تاريخ بجوى ، جلد اول ، ص ١٧٤ .

لقد تردت الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العراق منذ اواخر العهد العباسي (٢) لذلك تهيأت الظروف المناسبة لسلسلة من الغزوات الخارجية التي بدأت بالاحتلال المغولي لبغداد من قبل هولاكو عام ١٢٥٨ ثم الجلائري (١٣٣٦ - ١٤١١) ثم التركماني المتمثل في دولتي « قره قوينلو » (الخروف الاسود) (١٤١٠ - ١٤٦٧) و « آق قوينلو » (١٤٦٧ - ١٥٠٨) ثم الصفوي (١٥٠٨ - ١٥٣٤) حيث اسهم هذا الاحتلال الاخير في تاجيح روح العداة بين الدولة العثمانية وبلاد فارس ، لا سيما بعد محاولة الشاه اسماعيل الصفوي ضم بعض اراضي الاناضول الى ممتلكاته في اعقاب سيطرته على العراق ، الا ان السلطان العثماني سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠) استطاع الحد من توسع الدولة الصفوية وافلح في دحرها في معركة چالديران عام ١٥١٤ ، ونجح في ضم الموصل وشمال العراق الى اراضيه . وتيسر له فتح سورية ومصر في عامي ١٥١٦ و ١٥١٧ على التوالي .

(١) مزيد من التفاصيل عن دوافع هذه الحملة يمكن مراجعة: حسين محمد الفهولي ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٢٤ - ١٦٢٨ ، اطروحة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، بغداد ، ١٩٧٥ .
(٢) للاستزادة في دراسة احوال العراق في الفترة التي سبقت الغزو المغولي وخلال مراحل الاحتلال يراجع : د. جعفر حسين خصبك ، العراق في عهد المغول الايلخاني ، الطبعة الاولى ، بغداد ، ١٩٦٨ .

نية السلطان سليمان مواجهة طهماسب وجها لوجه فانه غادر مصيف اوجان في طريقه الى (سلطانية) (١٥) ، ليحذف منها الى قزوین (١٦) عاصمة الدولة الصفوية آنئذ لدحر الشاه في عقر داره ، الا ان الامطار الغزيرة التي هطلت والثلوج الكثيرة التي تراكت في الطرقات ادت الى هلاك عدد كبير من رجال الحملة العثمانية وولدت تدمرا بين افراد الجيش (١٧) ولكن رغم ذلك استطاع السلطان قيادة جيشه باتجاه قزوین وقد نشرت انباء زحفه الهلع في صفوف الجيش الصفوي وبخاصة اولئك المترددين منهم حيث مال فريق منهم الى تأييد السلطان سليمان ، كما اعلن بعضهم الآخر العصيان في وجه الشاه (١٨) الا ان سوء الاحوال الجوية خدعت الشاه ، فالشيء الذي لم يستطع فعله في مواجهة جيش السلطان سليمان فعله الطقس ، حيث ان الامطار والثلوج الكثيرة التي تراكت خلقت الاحوال في الطرقات وادت الى غوص العربات والمدافع فيها فآثر هذا الوضع على نفسية الجيش العثماني وزاد في تدمره وقلقه واضطرابه لدرجة ان فريقا منه تجرأ

مقاتل للالتحاق باولامه (٥) وقد قصد الصدر الاعظم بعد اعداد الجيش الى مدينة (آمد) (٦) حيث مكث فيها ستة اسابيع للتموين اتجه بعدها الى قلعة (اونيک) (٧) ثم الى قلعة (وان) ثم الى (عادل جواز) ومن هذه الاخيرة توجه الى اطراف آذربايجان حيث امر فيها (اولامه) وجيشه بالتقدم الى اردبيل ، في الوقت الذي زحف هو على مدينة تبريز (٨) ولما سمع الشاه طهماسب بتوغل اولامه في اراضيه وعلم بنجاح ابراهيم باشا في اقتحام تبريز ، بادى الى عقد صلح مع الازبك وبسرعة فائقة توجه الى اقليم الري ومنه ارسل فرقة من « القزلباش » (٩) لمواجهة الحملة العثمانية (١٠) ولما علم ابراهيم باشا بالامر بعث الى السلطان سليمان يستقدمه على جناح السرعة وذلك لعجزه عن مواجهة الشاه طهماسب لوحده (١١) وقد استجاب السلطان لطلب صدره الاعظم واعد جيشا في شهر ذى القعدة من عام ٩٤٠هـ / ماس ١٥٣٤ قاصدا به تبريز (١٢) . وفي ٢٩ ربيع الاول ٩٤١هـ / تشرين الاول ١٥٣٤ وصل مصيف (اوجان) (١٣) في آذربايجان حيث هب ابراهيم باشا فيه لاستقباله (١٤) ، ولما كان في

(١٥) تقع في منتصف المسافة بين ابهر وزنجان وتبعد عن كل منهما خمسة فراسخ وتبعد عن تبريز ٤٦ فرسخا الى الجنوب وتقع الى شمال همدان بحوالي ثلاثين فرسخا وعن بغداد ١١٨ فرسخا ، انشأها ارغون خان واتم بناءها السلطان الجاتسو في سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٥م وجعلها قاعدة الدولة الاخلاصية ، ويخطيها لونكره عندما يجعل سير الحملة من تبريز الى (السليمانية) بدلا من السلطانية التي تشير اليها معظم النصوص الاولى ، وبذلك اوهم بعض الباحثين بان الحملة العثمانية كانت تستهدف بغداد مباشرة .

Hamd Allah Mustawfi of Qazwin, The Geographical Part of The Nuzhat-Al-Qulob, Translated by G. Le Strange, Leyder, 1919, pp. 161-175.

Stephen H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Beirut, 1968, p. 22.

(١٦) لقد غر الشاه طهماسب عاصمته وجعلها قزوین بدلا من تبريز ، كما ان العاصمة انتقلت بعد ذلك الى اصفهان، ثم الى طهران .

(١٧) هدايت ، المصدر السابق ، ص ٥٩ . البديسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

ستيفن هيمسلي لونكره ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، نقله الى العربية جعفر الخياط ، الطبعة الرابعة ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ٣٧ .

(١٨) تركمان ، المصدر السابق ، ص ٦٧ . القرماني ، المصدر السابق ، ص ٣٢٠ . قطب الدين محمد بن اجمد النهرائي ، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، ج ٣ بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣١٦ .

(٥) اسكندر بك منشيء تركمان ، تاريخ عالم آراى عباسي، ج ١، تهران، ١٣٣٤ش ١٩٥٥م ، ص ٦٧ . رضا قليخان ابن هادي طبرستاني (هدايت) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصري ، ج ٨ ، ص ٥٩ .

(٦) مدينة في اقليم ديار بكر .

(٧) تقع على بعد ثمانية فراسخ الى شرق ارضروم .

(٨) موردتمان ، دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ج ١ ، ١٩٣٣ ، ص ٤٦ .

(٩) اي اصحاب العمائم الحمراء ، وكان هؤلاء يحلقون لحاهم في الوقت الذي كانوا يطلقون العنان لشواربهم لتطول ، كما كانوا يحلقون شعر رؤوسهم ويتركون في وسطها خصلة من الشعر فقط . وتطورت الطريقة السلمية للدراوش الصفويين (القزلباش) تدريجيا الى شكل عقائد وتعاليم عسكرية .

(١٠) شرف خان البديسي ، شرفنامه ، ج ٢ ، الفه بالفارسية ، ترجمه الى العربية محمد علي عوني ، راجعه وقدم له يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٦١ .

(١١) ابو العباس احمد بن يوسف الدمشقي القرماني ، اخبار الدول واثار الاول ، طبع حجر ، بغداد ، ١٢٨٢هـ ، ص ٣١٩ .

(١٢) مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة ، المشهور ب (كاتب جليبي) ، تقويم التواريخ ، قسطنطينية ، ١١٤٦هـ ، ص ١١٨ . بجوى ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(١٣) تقع على الجانب الايسر الجنوبي لرافد نهر سراو وتبعد عشرة فراسخ عن تبريز .

(١٤) البديسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

كانت اخبار انتصارات الجيش العثماني تتوارد الى العراق عن طريق رسائل كان يبعثها باستمرار « اولامه تكلو » والصدر الاعظم العثماني الى بغداد بقصد اضعاف معنويات حاكمها ، وقد اذنت تلك الرسائل فعلا الى انقسام ابناء قبيلة التكلو في بغداد الى مجموعتين احدهما تؤيد الشاه والثانية تروم التعاون مع الدولة العثمانية ، وحاول محمد خان اقناع الفريق الثاني بالعدول عن موقفه والتعاون معه لصد الهجوم المتوقع والدفاع عن بغداد وقلعتها بعد ان وصلت رسائل سليمان القانوني وهي تتضمن الاغراء والتهديد ، الا ان هذا الفريق ابي ذلك . وفي هذه الاثناء وصله رسول من قبل الشاه يدعو وافراد حاميته للتوجه الى قزوین ، ولما عرض الامر على قبيلته رفضت الدعوة بل تحصنت في المدرسة المستنصرية واعلنت التمرد ضده وجاھرت بالولاء للدولة العثمانية ، ولما لم يكن في مستطاعه والحالة هذه الدفاع عن بغداد كما لم يكن في مقدوره مغادرتها وحده اتصل بقيادة المعارضين وتظاهر امامهم بأنه قد غير رأيه واخبرهم بموافقته على تسليم بغداد الى السلطان وطلب منهم تنظيم وفد من زعمائهم للذهاب اليه واستقدمه فرحب القادة المعارضون بقراره وهرعوا الى السلطان فرحين لاستدعائه ، عندئذ انتهز خلو المدينة منهم فجمع ماله وحاشيته وعبر نهر دجلة ليسلك الطريق البري فارا الى البصرة . (٢٥)

وعندما تسلم سليمان القانوني مفاتيح بغداد من وفد قبيلة تكلو استبشر وكان آنئذ على مشارف سهل (ماهي دشت) في طريقه الى العراق لذا تحرك على الفور باتجاه مدينة (ماهي دشت) في اول جمادى الاولى ٩٤١ هـ / تشرين الثاني ١٥٣٤ م ثم واصل سيره باتجاه العراق حيث وصل الى « قلعة شاهين » في السادس من الشهر المذكور ، (٢٦) وبعد مغادرته لهذه القلعة هطلت امطار غزيرة اعاقت الجيش عن السير وسببت متاعب كثيرة له (٢٧) . وفي يوم السبت المصادف ٨ جمادى الاولى وصل السلطان وطلّاع

وطالب بالعودة الى الوطن (١٩) ونتيجة لذلك اضطر السلطان الى مغادرة مدينة السلطانية ، ولما كان الرجوع الى اذربايجان في ذلك الفصل يعني مواجهة القحط والجاعة . لذا قرر التوجه الى الموصل عن طريق شهرزور لقضاء فترة الشتاء والعودة بعدها لمواجهة طهماسب في بلاده ثانية عند حلول فصل الربيع . (٢٠)

وفي الوقت الذي عزم فيه السلطان سليمان على التوجه الى الموصل اثناء تورطه في الجبال ، وصله وفد من الحامية الفارسية في بغداد يحمل اليه مفاتيح المدينة (٢١) حيث ان الصدر الاعظم ابراهيم باشا كان قد ارسل في وقت سابق جماعة يحملون رسالة من « اولامه تكلو » الى قريبه محمد خان شرف الدين اغلي تكلو حاكم بغداد ، يستلطفونه ويستميلونه ويدعونه للولاء للسلطان العثماني كبقية ابناء قبيلته . ولكن يبدو ان محمد خان رفض ذلك . وكان رفضه جزء من مناورة لانه لم يظهر العزم الجدي للدفاع عن المدينة الامر الذي دعا الدكتور (ستربلنك) الى الاعتقاد بان محمد خان ربما كان قد قبل الرشوة من وفد السلطان سليمان القانوني لانه هرب من البلاد قبل تقدم العثمانيين باتجاه العراق . (٢٢) كما ان هناك نصوصا تشير الى ان الشاه طهماسب لم يكن مطمئنا الى ولاء محمد خان تكلو ، لذا قرر استدعائه وحاميته الى بلاد فارس (٢٣) في حين يرى كانتمير (Cantemir) ان محمد خان تكلو كان اضعف من ان يقاوم . (٢٤)

والمعروف ان الاوضاع في بغداد كانت قد اضطربت نتيجة فزع الحامية الفارسية حيث

(١٩) هدايت ، المصدر السابق ، ص ٥٩ . البديسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ . لونكريك ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٢٠) تركمان ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٢١) حسن روملو ، كتاب احسن التواريخ ، بسعي وتصحيح جارس نارمن ، سيدن ، كلكتا ، ١٩٣١ ، ص ٢٥٢ .

(٢٢) George William Stripling, The Ottoman Turks and Arabs (1511-1574) Illinois 1942, p. 79.

(٢٣) البديسي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٢٤) Demetrius Cantemir, The History of the Growth and Decay of Ottoman Empire, Translated into English the Author's Own Manuscript by N. Tindal Vols. III, London, 1734, p. 197.

(٢٥) روملو ، المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

Cantemir, op. cit., p. 196.

(٢٦) عباس الغزوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٤ ، بغداد ١٩٤٩ ، ص ٢٥ .

(٢٧) Sir Percy Sykes, A History of Persia, Vol. II Third Edition, London, 1958, p. 164.

من السلب والنهب والهدم ، وهذا ما لم يعهده سكانها في تلك الايام من المحتلين .(*)

ومن الجدير بالذكر ان مدينة بغداد كانت عند دخول السلطان سليمان القانوني محاطة بسور على شكل قوس يتخلله حوالي ١٥٠ برج وفيه اربعة ابواب يدعى الشمالي منها باب الامام الاعظم ، والجنوبي يسمى الباب المظلم ، والشرقي الباب الابيض ، اما الغربي فاطلق عليه باب الجسر ، الذي كان يؤدي الى قلعة انطليور في الجانب الغربي (الكرخ) وكان يحيط السور خندق عميق ، اما المدينة فانها كانت خربة لا اثر لدور العلم والمدارس والمساجد التي اشتهرت بها في العصور السالفة ، فالمدرسة المستنصرية مثلا كانت قد تحولت الى مخزن للبضائع في الوقت الذي اصبحت المدرسة النظامية اثرا بعد عين .(٢٤)

وخلال مكوث السلطان سليمان في بغداد قام ببعض الاعمال العمرانية ، منها توسيع مرقد الامام ابي حنيفة وبناء قبة عليه ومدرسة وجامع وزاوية الى جواره وسور حوله(٢٥) ووضع حامية بقرية لحماية زواره(٢٦) ومن جهة اخرى قصد السلطان مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني وامر المعمار العثماني سنان باشا بتشديد قبة للمسجد ، فانجز هذا القبة البيضاء ودار السبيل(٢٧) وفي اطراف بغداد زار السلطان مرقد الائمة والمشايخ والاولياء وظهر امام العراقيين بمظهر التقى التسامح وكان يقظا في سياسته الدينية والمذهبية ، لذا قصد العتبات المقدسة في النكاظية وكربلاء والنجف واوقف مقاطعات مغللة عليها ، فتجنب بذلك اثار المشاكل المذهبية

(*) للاطلاع على ما عاناه سكان بغداد ابان الاحتلال الصفوي الاول ١٥٠٨ والاحتلال الصفوي الثاني (١٦٢٤) والعثماني الثاني ١٦٢٨ .

يراجع : القهوتي ، المصدر السابق ، ص ٤١ ، ٢٠٤ ، ٢٦٥ .

Par J. De Hammer, Histoire De L'Empire Ottoman Vol. 5 (1520-1547) Paris, 1836 p. 217. (٢١)

(٢٥) النهروالي ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ . البديسي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

احمد بن لطف الله منجم باشي ، منجم باشي تاريخي ، جلد ثالثي ، استانبول ، ١٢٨٥هـ ، ص ٤٩١ .

Cantemir, op. cit., p. 196. (٢٦)

(٢٧) ابراهيم الدروبي ، الياز الاشهب ، في حياة السيد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، بغداد ، ١٩٥٢ ، ص ٣٠.

الجيش العثماني الى « يگني امام » والامطار مستمرة في الهطول ، وفي يوم ٩ منه وصل الجيش الى قصر شيرين وتوجه منها الى نهر شيران فوصلها يوم ١٢ منه من الشهر نفسه(٢٨) ومن الجدير بالذكر ان المرحلة التي تلي قصر شيرين الى الغرب هي خانقين حيث تبعد عنها خمسة فراسخ ومنها الى جلولا خمسة فراسخ ثم الى هارونية خمسة فراسخ اخرى ، واستمر الجيش حتى قارب اولوصو ، اي النهر الكبير(٢٩) وكان النهر في موسم فيضانه الاول مما يصعب عبوره في هذا الوقت وكانت خسارة الجيش في هذه المسيرة كبيرة للغاية(٣٠) وان الفترة الواقعة بين ١٢ جمادى الاولى لغاية ١٩ منه كرس لعبور مجموعة من الجداول والانهار حتى قارب جبل حميرين ودخل قرية شرورين (سورين) اي طاش كوبري وفي ٢٠ من الشهر عبر نهر الخالص وفي ٢٢ منه اجتاز قرية الوندية وفي ٢٣ وصل الى مرقد الشيخ سكران الذي يقع قريبا الى قرية مرقد آخر يسمى مرقد (لقمان الحكيم) وفي يوم ٢٤ وصل الى مرقد الامام ابي حنيفة(٣١) وحينئذ ترجل السلطان عن جواده وزار المرقد ثم دخل بصحبة حاشيته فقط الى مدينة بغداد(٣٢) لقد فتح السلطان سليمان بغداد دون قتال في يوم ٢٤ جمادى الاولى من عام ٩٤١هـ / ٣٠ كانون الاول ١٥٣٤م(٣٣) .

ومن الامور الهامة التي يجب الاشارة اليها ، ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفا من عدم استطاعته كبح جماحه وتلافيا لأعمال النهب والتهتك ، ولو اخذنا بنظر الاعتبار ما صاحب جيش سليمان من متاعب ومجاعة عبر الطريق الشاق الطويل وما عاناه من كثرة هطول الامطار وتراكم الثلوج لاستطعننا تصور حالة بغداد لو سمح للجيش بدخولها ، لذا سلمت المدينة

Huseyin G. Yurdaydin, An Ottoman Historian of the XVIth Century, Nasuh Al-Matrakii and his Beyan-i Menazil-i-Sefer i- Irakyan and its importance for Some Iraqi Cities, p. 10. (٢٨)

بحث قدم الى المؤتمر التاريخي في آذار ١٩٧٣ .

(٢٩) الزاوي ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣٠) بجوي ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .

(٣٢) الزاوي ، المصدر السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

Yurdaydin, op. cit., p. 10. (٣٣)

والاجتماعية التي كان يمكن ان تواجهه آنذاك . ومن اعماله الهامة التي بالغ المؤرخون العثمانيون في اظهارها ، محاولة تعميقه نهر الحسينية الذي يروى مدينة كربلاء وبساتينها . ولكن بعض المؤرخين عرضوا هذا الاصلاح بشكل يوحي ان السلطان سليمان هو الذي حفر هذا النهر لأول مرة (٢٨) ، وليس الامر كذلك ، لأن النهر كان يصل الى المدينة وان الاشجار والبساتين الياقة كانت تضللها قبل هذا التاريخ . وما فعله السلطان سليمان هو تعريض فم النهر وتنظيف فروعه (٢٩) وهو عمل كبير ايضا بالاضافة الى امره ببناء سدة ترابية لانقاذ المدينة من الفرق الذي كان يصيبها في سنوات فيضان نهر الفرات ، ولا تزال هذه السدة تسمى باسمه (روف السليمانية) (٤٠) .

ويبدو لي ان السلطان في توسيعه للنهر اراد ان يبارى الشاه اسماعيل الصفوي الذي حفر ووسع نهر عطا الملك ابان زيارته لمدينة النجف في فترة الاحتلال الصفوي للعراق ، وهي المدينة التوأم لمدينة كربلاء ، التي رغب السلطان ان يترك فيها اثرا ايضا . ومن كربلاء سلك الطريق الصحراوي الى النجف لزيارة مرقس الامام علي بن ابي طالب ومنها قصد الكوفة ثم توجه الى الحلة (٤١) ومنها عاد الى بغداد وخلال

(٢٨) منهم : سيترنك ، لونكر ، العزوي ، نظمي زادة ، ويجوي .

(٢٩) هذه الفروع كانت تتروك في سهود تاريخية مختلفة واتخذت اسماء متعددة وتسمى في الوقت الحاضر بنفس الاسماء التي اشتهرت بها في المهديين الصفوي والعثماني وهي تطلق اليوم على المقاطعات الزراعية في منطقة الحسينية وهي : (١) ابو جردان (٢) ابو سليمان (٣) جعينة (٤) ابو زرنط (٥) الوند (٦) الكعكائية (٧) الحمودية (٨) الهادري (٩) البكرة (١٠) عويرة الكبيرة (١١) عويرة الصغيرة (١٢) ابو عصيدة (١٣) بدعة اسود (١٤) بدعة شريف (١٥) ابو طحين (١٦) جويب (١٧) عميشة (١٨) القرطة (١٩) الكمالية (٢٠) بدعة عيشة (٢١) القاضي (٢٢) حرودي (٢٣) حيدرية (٢٤) الرزارة (٢٥) طويريج (٢٦) ابو صحانة (٢٧) شيطنة (٢٨) الصالحية (٢٩) كريد محمد صالح (٣٠) عسافية (٣١) البتيرات (٣٢) الابراهيمية (٣٣) خير الدين (٣٤) لايح (٣٥) فريجة (٣٦) كربله (٣٧) جنكنة .

(٤٠) لونكر ، المصدر السابق ، ص ٢٩ .

Yurdaydin, op. cit., p. 10.

(٤١)

مكوته فيها أمر باصلاح أسوار وابراج المدينة وقلعتها ، ولكن مع الاسف قام باستبدال باب السلطان الاثرية بباب خشبية من الصاج المضرب بالسامير الحديدية وبيض واجهتها بالحص وبذلك ازال ما كان عليها من كتابة اثرية (٤٢) ومن جهة اخرى قسم البلاد الى وحدات ادارية (٤٣) وادخل نظام الاقطاع الذي كان معروفا في المقاطعات الاخرى من دولته ، ومنح التيمارات والزعامات (٤٤) الى الجنود والقادة الذين اظهروا البطولة في الحملة الاخيرة على بلاد فارس والعراق (٤٥) كما نظم سجلات للاملاك الخاصة والاقواف (٤٦) واوكل ولاية بغداد الى سليمان باشا وعقد عدة اجتماعات للديوان (٤٧) وزود الحاكم الجديد بحامية من حوالي الف جندي مزودين بالاسلحة النارية والفرس وتموين كاف للدفاع عن المدينة ان اقتضت الضرورة امام هجمات الشاه طهماسب المتوقعة في المستقبل (٤٨) وفي بغداد استقبل «السلطان المهين» «بافتح»

(٤٢) محمد صالح السهوردي ، جريدة العراق ، العدد ٢١٧٤ في ١١ ايلول ١٩٣٠ .

(٤٣) لم تتكامل الوحدات الادارية في العراق الا في اوائل القرن السابع عشر ، عندما قسمت الى خمس ايلات هي : بغداد ، الموصل ، شيرزور ، والاحساء .

(٤٤) مصطلحات تخص المقاطعات الزراعية في الدولة العثمانية ، يعتقد بانها مقتبسة من اليونان ، ويطلق على صاحب التيمار اسم (تيمار صاحبي) او تيمار آري ، او تيمار سباهي (والتيمار هي الارض التي تدر دخلا سنويا يتراوح بين ٢٠٠٠ - ٢٠٠٠٠ اقجة . اما الزعامة فهي الارض التي تدر دخلا سنويا يتراوح بين ٢٠٠٠ - ١٠٠٠٠٠ اقجة

الاقجة : عملة عثمانية فضية شاعت في القرن السادس عشر وسماها الاوربيون اسبر Asper وكان وزنها ٤ قمحات من الفضة او ما يساوي ١ غرام .

٤

انظر : (Deny) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٦ ، الطبعة العربية ، ص ١٢١ ، و ج ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٤٥) Hammer, op. cit., p. 220.

(٤٦) انظر السجلات العثمانية للطاوي ، مصور المخطوطات ، كلية الدراسات العليا في كلية الآداب ، جامعة بغداد .

(٤٧) يتألف الديوان من الوزراء وقادة الجيش الكبار ومن رجال الحاشية المقربين من السلطان والوجهاء الآخرين.

Stripling, op. cit., p. 80. (٤٨)

من رجال الدين والوجهاء من انحاء العراق والاقطار العربية المجاورة . (٤٩)

ان احتلال بغداد من قبل السلطان سليمان القانوني وولاء امراء ورؤساء المناطق المجاورة ، مهد السبيل للدولة العثمانية بفرض هيمنتها ومد سيادتها الى الخليج العربي لاسيما بعد ان اقر

(٤٩) قره جلبي زادة ، روضة الابراء المبين بحقائق الاخبار ، مصر ، مطبعة بولاق ، ١٢٤٨ هـ ، ص ٢٥ . مرتضى افندي نظمي زادة ، كلشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس ، النجف الاشرف ، ١٩٧١ ، ص ٢٠٤ .

Huseyin C. Yurdydin, Matrakei Nasuh
Ankara, 1963, p. 60.

ديوانه في بغداد احياء المشروع القاضي بارسال الاسطول العثماني لمواجهة البرتغاليين في الخليج العربي حيث تزايد نفوذهم في منطقة البحار العربية . لذا كلف امراء مصر المرافقين له في الحملة بالعودة فورا الى بلادهم لاعداد الاسطول ووضعه على اهبة الاستعداد لمواجهة الموقف الجديد ، رغبة منه في السيطرة على طريق الخليج العربي التجاري المؤدى الى الهند .

وخلال القرن اللاحق ، غدت البصرة قاعدة للعمليات العسكرية وللنشاط العثماني البحري في ملاحقة البرتغاليين في مياه الخليج العربي والبحار العربية الاخرى .



مركز تحقيقات كميوتير علوم اسلامی



حُملَةُ السُّلْطَانِ مُرَادٍ الرَّابِعِ لِاسْتِعَاذَةِ بَغْدَادِ ١٦٣٨م

بقلم الدكتور

صالح محمد العابد

كلية الاداب - جامعة بغداد

العثمانية انها « ظلت لمدة ثلاثة ايام وثلاث ليلال تهتف محيية الشاه » (٤) . لقد ابدى حافظ باشا شجاعة متناهية في مقارعة الفرس وتقدم قواته في الهجوم على طلائع الجيش الفارسي ونجح في الاستيلاء على اللواء المقدس لهم (٥) . اعقب ذلك مفاوضات فاشلة بين حافظ والشاه . ولكن طول مدة الحصار من جهة ، وما كانت تعانيه القوات العثمانية من نقص في المؤن والذخيرة والخييل من جهة اخرى ، دفع بالانكشارية الى التذمر ومن ثم الى تمردهم على الصدر الاعظم . فاصطدم تصميم القائد العثماني على استعادة بغداد بتطور الموقف الجديد ، مما اجبره على الانسحاب (٦) .

لم توفق المحاولة الثانية ايضا ، والتي بدأت في ١٦٢٩ ، في طرد الفرس من بغداد . كان على رأس القوات العثمانية ، في هذه المرة خسرو باشا « البسنوي الصارم الذي كان عنفه العنيد هسو سياسته الوحيدة » (٧) . لقد ارتكب خسرو خطأ عسكريا كبيرا في عدم توجهه مباشرة الى الهدف المحدد وتركيز مجهوده عليه ، حيث اشغل نفسه

على اثر العصيان المسلح الذي قام به بكر صوباشي ١٠٣١هـ / ١٦٢١م - ١٠٣٣ / ١٦٢٣ وما رافقه من مضاعفات ، تمكن العاهل الصفوي الشاه عباس ، من احتلال بغداد ، التي قدر لسكانها ان يعانون مجددا الوانا من المآسي والفواجع . كما ان استيلاء الفرس على بغداد ، والذي دام خمسة عشر عاما « لم يجلب لهم لا الثروة ولا الجلال » (١) . ولكن الدولة العثمانية ، وعلى الرغم من فترة الضعف التي كانت تمر بها في هذه الفترة ، لم تنثن عن محاولة استعادة بغداد « انبل مدن آسيا » (٢) . فمنذ لحظة فقدانها ، « كانت مسألة استعادتها طموحا ملحا للبلات العثماني » (٣) .

جرت المحاولة الاولى لطرد الفرس في سنة ١٦٢٥ ، وكان على رأس القوات العثمانية المكلفة بهذه المهمة حافظ احمد باشا ، الذي عين بمنصب الصدر الاعظم في السنة الماضية . دام حصار حافظ لبغداد ستة اشهر ، ويعود جانب من تأخره في اقتحام المدينة المحصنة ، الى النقص الذي كانت تعانيه قواته في سلاح المدفعية ، وقد اعطت هذه المدة ، الشاه عباس فرصة للتقدم بجيشه من اصفهان للاحتفاظ بالمدينة ، ولعل مما يدل على ما كانت تعانيه الحامية الفارسية من ضغط القوات

(٤) A. De Lamartine, History of Turkey, translated from the French (New York, 1857), vol. III, pp. 225-6.

(٥) Ibid., p. 226.

(٦) Ibid., pp. 226-8;

انظر أيضا : حسين محمد القهواني ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ، ١٥٢٤ - ١٦٢٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بغداد) ص ٢١٢ - ٢٢٥ .

(٧) Lamartine, op. cit., p. 231.

(١) Stephen H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq (Beirut, new imp., 1968), P. 58.

(٢) Demetrius Cantemir, The History of the Growth and Decay of the Ottoman Empire, translated from the Latin by N. Tindal (London, 1734), vol. I, p. 246.

(٣) Longrigg, op. cit., p. 59.

الحريّة بالمقارنة بالطغيان غير الهادف للعديدين» (١٢) .

كانت مسألة استعادة بغداد بالنسبة للسلطان امرا يحتل أهمية كبرى ، خاصة وان احتلال الفرس لتلك المدينة ، قد شجعهم على مد تحرشاتهم الى بعض المناطق الشرقية في الاناضول . وقبل ان يباشر مراد بمشروع الحملة على بغداد ، قاد جيشه في ربيع سنة ١٦٣٥ متوجها نحو الاقسام الشرقية من آسيا الصغرى لابعاد الفرس من المدن التي كانت ضمن حدود الامبراطورية العثمانية والتي دخلوها مستغلين فترات الفوضى التي عانت منها الدولة . استولى السلطان على اريقان « مظهر الروح الصادقة للسلطين العثمانيين القدماء في العناية بجندسه ، اضافة الى روح الانضباط العالي التي فرضها على القطعات بالنشاط الشخصي والقيادة العسكرية البارعة التي اظهرها » (١٤) . وقد كتب عنه كاتب انكليزي هو ريكاتو Rycout يقول (١٥) « لعدة اشهر لم يستعمل وسادة غير سرجه ولا غطاء سوى ذلك المستعمل لفرسه » . ان استرجاع مدينة ومقاطعة اريقان كانت ماثرة عسكرية هامة ، بالإضافة الى ان زحف مراد في خلال آسيا الصغرى ثم عودته منها ، كان بحد ذاته « تفقدا ملكيا صارما لجميع حكام المقاطعات ، الذين اتهموا ، اوشك في سوء ادارتهم واهمالهم » (١٦) .

ما ان حلت سنة ١٦٣٨ ، حتى شرع مراد بالقيام بآخر واعظم اعماله العسكرية المتمثلة بالحملة لاستعادة بغداد من ايدي الفرس ، وهذا هو موضوع بحثنا هذا .

تحرك الحملة ومراحل الزحف

اشرفت الاستعدادات المتعلقة بحملة استرداد بغداد من ايدي الصفويين على نهايتها في اوائل شهر شوال ١٠٤٧هـ/ شباط ١٦٣٨ ، حيث رفع

Stanley Lane-Pool; Turkey (London, (١٣)
1908), p. 219.

Creasy, op. cit., p. 254; (١٤)
وانظر ايضا :

W. Eton, A Survey of the Turkish Empire (London, 1799), p. 176.

Quoted in : Creasy, op. cit., p. 254. (١٥)

Loc. cit. (١٦)

بأمر عسكري ثانوية (٨) ، بالإضافة الى قيامه بنشر قواته في مناطق واسعة ، فتوغل في شهرزور و اردلان وهاجم همدان (حزيران ١٦٣٠) ، ثم توجه الى درگزير عن طريق قزوین ووصل اليها وخرّبها ، بعد كل ذلك ، وبعد اصرار المجلس العسكري الذي عقد في تلك المدينة على تنفيذ امر السلطان بأن الهدف من الحملة هو بغداد ، آنذاك فقط توجه الجيش نحو العراق ، بعد ان اضاع وقتا ثميناً من جهة ، وانهك قواته واستهلك الجانب الاكبر من ذخيرته من جهة اخرى (٩) .

حاصر خسرو باشا بغداد واستمرت المعارك سجالات بين الطرفين اربعين يوما ، وفي اليوم الاربعين شن القائد العثماني هجوما جريئا على المدينة المحاصرة ، الا ان الهجوم احبط بالرغم من شجاعة خسرو الجنوبية (١٠) . وبعد خمسة ايام من ذلك الهجوم ، قرر المجلس العسكري الانسحاب من امام بغداد ، وقد تم الانسحاب بنظام وحمل الجيش كافة المدافع والمؤن ووصل الموصل في الايام الاولى من سنة ١٦٣١ (١١) .

بعد هذا التاريخ بوقت قصير اخذت الدولة العثمانية تحس بالانتعاش مجددا متمثلا بالشخصية الصارمة لمراد الرابع ، الذي نجح في القضاء على روح التسبب والفتنة في الدولة . وما ان حل شهر مايس ١٦٣٢ « حتى اتم مراد مهمة التخلص من الطغاة العسكريين ليبدأ عهدا من الرعب » (١٢) . حقا ان السلطان « اقام سلطته على الرعب ، ولم تكن هناك قوة تستطيع ان تؤثر على ارادته الفولاذية ، لقد كان يرقب كل اقسام ادارته بعين يقظة متفحصة ، فعاد القانون والعدالة ، النظام والانضباط بشكل لم يعرف منذ ايام سليمان القانوني . طاغية كان ، ولكنه لم يسمح لاي رجل آخر بأن يطفئ . فادرك الناس بان طغيان فرد هو

(٨) امضى مدة سبعة ايام في ترميم الحصن الذي اشاده سليمان القانوني ، والواقع على الحدود بالقرب من مل عنبر Gulanbar والذي لم تكن له تلك الاهمية لاهدار ذلك الوقت الثمين .

Longrigg, op. cit., p. 65.

Ibid., pp. 64-7 (٩) انظر :

Ibid., pp. 66-7. (١٠)

Ibid., p. 67. (١١)

Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks (Beirut, 1961), p. 249. (١٢)

في اسكدار مدة تسعة وعشرين يوما ، تم في اثنائها انجاز مختلف الامور المتعلقة بتحركات الحملة واختيار الطريق الذي ستسلكه القوات ومناطق راحتها ؛ وقد قسم الطريق ما بين اسكدار وهدف الحملة النهائي ، بغداد ، الى مائة واحد وعشرين مرحلة (٢٣) . فكان على القوات ان تسير بمعدل ساعتين الى تسع ساعات يوميا ، في خلال فترة تتراوح ما بين اربعة الى خمسة عشر يوما ، ثم تتوقف للراحة في محطات اعدت مسبقا (٢٤) . ان هذا التخطيط الدقيق ، والذي نفذ بشكل يدعو الى الاعجاب ، ليدل على روح الارادة والتصميم التي كانت من ابرز مزايا السلطان مراد الرابع ، الذي قدر له ان يكون آخر السلاطين المحاربين العظام في قيادة حملة عسكرية بنفسه (٢٥) . كما يبدو ان السلطان قصد من ورائه اضافة الى المحافظة على النظام وروح الضبط في الجيش وعدم ارهاقه لحين الاطباق على الهدف المحدد ، تمهيط ودراسة الاوضاع العامة في مناطق الدولة التي تمر منها قوات الحملة واقرار الامن والاستقرار فيها . وعلى امتداد سير الحملة ، وجهت عناية خاصة لحالة الطرق وتحسينها . وعن هذه الناحية يشير تافرنيسه بقوله (٢٦) « ... والحق يقال ان زحف السلطان عاد بفائدة جريئة على المسافرين في هذا الطريق [الطريق الذي يوصل الموصل ببغداد] » . وكان السلطان في خلال سيره يدقق في تصرفات المسؤولين « بتلك الروح المدققة الصارمة كما فعل من قبل في حملته

« الطوغ الهمايوني » (١٧) امام « الجبخانه » (١٨) في ٨ شوال/ ٢٣ شباط ، كعلامة على بدء التنفيذ العملي للحملة (١٩) . وفي ١٥ شوال/ ٢ آذار ، اي بعد اسبوع واحد ، نقل « الطوغ » الى اسكدار (٢٠) ، انتظارا لوصول السلطان ، الذي وصل في يوم ٢٣ ذي القعدة يرافقه كافة مأموري السراي (٢١) .

دخل السلطان مراد الرابع اسكدار ممتطيا حصانا اسودا وعلى صدره درع من الفولاذ اللامع تحت شال احمر يغطي كتفيه ، وعلى راسه مغفر عليه عمامة من الشال الاحمر حسب الطريقة العربية ، فكان في زيه هذا يحاكي طراز الصحابة الكرام حينما يتأهبون للجهاد (٢٢) . امضى الجيش

(١٧) الطوغ Tug او ذيل الحصان ، راية خاصة تتألف من ذيل حصان معلق في سارية تتوجها كرة ذهبية . وكان هذا شعارا تركيا قديما من المحتمل انه من اصل طوطي . والطوغ في الاصل كان يؤخذ من ذبول الياء لا من الخيل . السنجق بك له الحق في رفع طوغ واحد والبكربك في طوغين . اما الوزراء في البلاط او في الاقاليم فلهم الحق في ثلاثة اطواغ ، والصدر الاعظم بخمسة . اما السلطان نفسه فيتقدم موكب في الحملات الحربية عدد قد يبلغ تسعة اطواغ . انظر :

H.A.R. Gibb and Harold Bowen, Islamic Society and the West (Oxford, 1969), vol. I, pp. 139-140.

(١٨) دار صناعة الاسلحة ، وهي مأخوذة من جبه Cebe التي تعني الدرع أو السلاح . Ibid., p. 66. انظر :

(١٩) هامهر ، دولت عثمانية تاريخي ، مترجمي محمد عطا ، (اوقاف اسلامية مطبعة سي ١٣٣٥ هـ) مجلد ٩ ، ص ٢٢٧ ؛ اما كوك فيحدد خطأ بدء تحرك الحملة بـ ٣٠ آب ١٦٣٧ . انظر :

Richard Coke, Baghdad the City of Peace (London, 1927), p. 204.

حيث يظهر من قوله ان الحملة استغرقت ستة عشر شهرا اذ يؤكد ان القوات العثمانية وصلت الى بغداد في شهر تشرين الثاني من السنة التالية . ويقع في نفس الخطأ شاكر صابر الضابط انظر كتابه : العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران (بغداد ١٩٦٦) ، ص ٢١ .

(٢٠) Halil Sahilloğlu, Dördüncü Murad'ın Bagdat Seferi Menzılnamesi (Belgeler-C. 11-1965 - Sayı - 3-4), p. 13.

(٢١) هامهر ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ . (٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ ، عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٤٩) ج ٤ ص ٢٠٩ ؛ Lamartine, op. cit., pp. 263-4

(٢٣) انظر تفصيل تلك المراحل في :

Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-27;

وهو اذق مصدر في هذه الناحية ، لأن كتابه كان مرافقا للحملة وسجل تفاصيلها بدقة . ولكن كلا من هامر ولامرتني وكريسي ولونكريك يحددون تلك المراحل بمائة وعشر مراحل . انظر : هامهر ص ٢٣٨ ؛

Lamartine, op. cit., p. 264; Creasy, op. cit., p. 255

Longrigg, op. cit., p. 69.

اما العزاوي فيذكر انها مائة وخمس عشرة مرحلة (العزاوي ، ٢٠٩) .

(٢٤) انظر : Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-27.

(٢٥) Creasy, op. cit., p. 254; Lane-Pool, op. cit., p. 255;

Longrigg, op. cit., p. 70.

(٢٦) العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنيسه ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، (بغداد - مطبعة المعارف ، ١٩٤٤) ص ٣٢ . وسنشير الى هذا المصدر منذ الآن باسم (تافرنيسه) .

على اريقان» (٢٧) . ففي كل مرحلة من تلك المراحل، كان السلطان يحقق مع المسؤولين ، مصدرا اوامره الصارمة بحق المقصرين من باشوات وقضاة وحكام وجامعي ضرائب ، والتي كانت في معظم الاحوال احكاما بالموث ، في نفس الوقت الذي كان فيه يكرم بالهدايا والهبات أولئك الذين كان راضيا عن تصرفاتهم (٢٨) . وسنلاحظ انه في خلال التقدم في الطريق المرسوم كانت تلحق بالجيش قطعات عسكرية جديدة ، قام بتحشيدها حكام الولايات العثمانية وبخاصة في الشام ومصر .

تحركت الحملة من اسكدار في يوم الجمعة المصادف ٢٣ ذي الحجة/وبعد خمسة ايام وصلت ازميد ، وهي المرحلة السادسة من مخطط السير، حيث امضى الجيش فيها ثمانية ايام (٢٩) . وهنا استأذن القضاة والمدرسون الذين كانوا في توديع السلطان بالعودة الى العاصمة (٣٠) . ثم تقدمت قوات الحملة فوصلت منطقة الغين ، وهي المرحلة الخامسة والعشرين (٣١) ، وفيها قدم قاضي اسكي شهر الى مقر القيادة وعرض امر المدعين بالمهدية، فأمر السلطان « كتخدا السلحدارية » مع اربعة من البكربكات بالتوجه لضرب حركة الشيخ الدعي ، وكان هذا الاخير قد جمع حوله حوالي اربعة آلاف رجل من سكاريا ومودورني وقديجيني، وخاض معركة مع بكربك اولجيه في الاناضول (٣٢) .

وفي اثناء التوقف في چاقيد خاني ، وهي المرحلة الثانية والاربعين (٣٣) ، التحق بالجيش

(٢٧) Creasy, op. cit., pp. 254-5;
فاد مراد جيشه بنفسه لاستعادة المواقع التي احتلها
الفرس في فترة الفوضى السابقة وطردهم من مناطق آسيا
الصفرى . ففي ربيع ١٦٣٥ زحف مراد باتجاه اريقان ،
عاكسا المثال الطيب لجنوده في المقدرة على التحمل
والصبر وروح العزم الذي لا يلين . فتح اريقان ودمر
طوروس وعاد الى العاصمة في نفس تلك السنة .
انظر :

Elton, op. cit., p. 176; Creasy, op. cit.,
p. 254.

(٢٨) انظر : هامهر ، ص ٢٢٩ - ٢٥٠ ؛

Lamartine, op. cit., p. 260

Creasy, op. cit., pp. 254-5.

Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-14.

(٢٩)

(٣٠) هامهر ، ص ٢٢٩ .

Sahilloğlu, op. cit., pp. 15-6.

(٣١)

(٣٢) هامهر ، ص ٢٤١ - ٢٤٠ .

Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-18.

(٣٣)

بلغار احمد باشا بيك طرابلس السابق (٢٤) .
وواصلت القوات تقدمها فدخلت حلب ، وهي
المرحلة السادسة والخمسين ، في ١١ ربيع
الاول/ ١١ تموز ، حيث استراحت فيها القوات
العثمانية مدة ستة عشر يوما (٢٥) . وفي هذا الموقع
انضم الى قوات الحملة جيش من مصر يقوده
رضوان بك (٢٦) . وقد بلغ عدد هذا الجيش
١٥٠٠ رجل ارسلهم والي مصر قبوجي باشي جوان
محمد باشا المعروف بسلطان زاده ، مساهمة مع
السلطان لاسترداد بغداد (٢٧) .

وصلت القوات الى بيرة چك ، المرحلة
الخامسة والستين ، في ١٩ ربيع الاول/ ١٩ تموز ،
وفيها اتخذت الترتيبات لعبور الجيش نهر
الفرات ، فبنى جسر من اربعين طوافة عبرت عليه
القوات العثمانية ، في حين عبر السلطان الى
الجانب الثاني في زورق خاص يرافقه المفتي يحيى
افندي (٢٨) . وفي خلال فترة التوقف هذه ، تم
صب خمسة مدافع كبيرة ، اثنان منها بحشوة
عشرين اوقية من البارود وثلاثة بحشوة ثمانية
عشر اوقية (٢٩) . كما التحق بالجيش في هذا الموقع
بكربك سيواس واسير بوزاق شمس بك
زاده (٣٠) . وفي موقع قريب ، تم بناء ثمانمائة
زورق لنقل الذخيرة والتموين (٣١) .

بعد اسبوع واحد ، اي في ٢٦ ربيع الاول ،
وصل الجيش الى منطقة جلاب (٣٢) : المرحلة
الستين ، وفيها توفي الصدر الاعظم بيرم باشا ،
وقد تأثر السلطان كثيرا لموته ، وعين لمنصب
الصدارة العظمى والي الموصل ، طيار محمد باشا ،
الذي جرى اعلامه بذلك بواسطة كتخدا البوابين

(٣٤) هامهر ، ص ٢٤٢ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ ، ولو ان هامر يعتبر حلب
المرحلة الخامسة والخمسين ، ولكن انظر :

Sahilloğlu, op. cit., p. 20.

(٣٦) الغزوي ، ص ٢١٠ .

(٣٧) البرالاي اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول
البحار ، (القاهرة - بولاق ١٣١٤) ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ ،
القنواتي ، ص ٢٦٠ .

(٣٨) هامهر ، ص ٢٤٤ ؛ الغزوي ، ص ٢١٠ ؛
Sahilloğlu, op. cit., pp. 20-1

(٣٩) الغزوي ، ص ٢١٠ .

(٤٠) المصدر نفسه .

(٤١) هامهر ، ص ٢٤٤ ؛ الغزوي ، ص ٢١٠ ؛
Lamartine, op. cit., p. 265

(٤٢) يسميها لونكريك دولاب

Longrigg, op. cit., p. 69

الذي ارسله السلطان بأمر التعيين ، وعين بصفة مؤقتة قره مصطفى باشا(٤٢) .

وصل الجيش الى ديار بكر ، وهي المرحلة السابعة والسبعين ، في ٢٣ ربيع الآخر ، وعسكر فيها لمدة تسعة ايام(٤٤) . وفي خلال وجود الجيش في ديار بكر التحق بالسلطان الصدر الاعظم الجديد ، على رأس جيش كبير(٤٥) . وقد جرى له استقبال كبير وانعم عليه السلطان(٤٦) . وقبل التحرك نحو الموصل ، جرى تنظيم السير بحيث يكون كل من « امير الصحراء » ابن ابي ريشة وباشوات حلب وطرابلس الشام على مقدمة الجيش . تحت امرة والي ديار بكر درويش باشا(٤٧) . وفي منطقة حكمية المرحلة الثامنة والثمانين ، وانتي وصلها الجيش في ١٧ جمادى الاولى ، قدم عرب البادية الى مقر القيادة وهم يصحبون خمسمائة اسير من القزلباش اسروا قرب بغداد وقد امر السلطان باعدامهم جميعا(٤٨) . وبعد مرحلتين اي في كفر زمان ، جرى عبور نهر دجلة بدون جسر ، وقد توفي هناك بكثر بك مرعش بيكلي مصطفى باشا(٤٩) .

في ٢٩ جمادى الاولى ، دخل الجيش العثماني مدينة الموصل ، وهي المرحلة السابعة والتسعون ، وعسكرت فيها القوات للراحة واتخاذ الاجراءات النهائية لمدة عشرة ايام(٥٠) . وفي الموصل استقبل السلطان سفيرا من ملك الهند ، وهو يحمل رسالة الى السلطان مع هدايا ثمينة كان من بينها جواهر ثمينة تعادل قيمتها ٥٠٠.٠٠٠ دوكا ذهبيا مع سيف مرصع(٥١) وحزام ثمين

(٤٢) هاممر ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، منجم باشي ، صحائف الاخبار (بالتركية) مطبعة عامرة ، استانبول ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨ م) ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ .

(٤٤) Sahilloğlu, op. cit., p. 22

اما هامر فيقول ان الجيش مكث في ديار بكر عشرة ايام . هاممر ، ص ٢٤٧ .

(٤٥) المصدر نفسه ؛ Longrigg, op. cit., p. 69

(٤٦) العزاوي ، ص ٢١٠ .

(٤٧) هاممر ، ص ٢٤٧ .

(٤٨) Sahilloğlu, op. cit., p. 23

(٤٩) هاممر ، ص ٢٤٨ .

(٥٠) هاممر ، ص ٢٤٨ ؛ Sahilloğlu, op. cit., p. 24

(٥١) Lamartine, op. cit., p. 265

وقد اشار تافرنبيه الى تلك الواقعة بقوله انه في خلال وجوده في البصرة وصل اليها سفير عظيم القبول الذي جاء من بغداد بعد لقائه بالسلطان . انظر : تافرنبيه ، ص ٢٢ .

تعادل قيمته ١٥٠.٠٠٠ قرشا . والى جانب ذلك حمل السفير للسلطان ترسا ثمينا مصنوعا من اذن الفيل ومغطى بجلد الكركدن ، وكان الشائع آنذاك ان هذا الترس لا تؤثر فيه السيوف والاطلاقات النارية(٥٢) ، ولكن مراد الرابع تمكن بضربة واحدة من بلطته ان يخرقه(٥٣) ، وحينئذ وضع في الترس خمسمائة فلوري - عملة ذهبية - واعاده الى السفير(٥٤) . ان السبب في تلك السفارة ، يعود الى سماع ملك الهند بنبا حملة السلطان ضد الصفويين ولاسترجاع بغداد ، ولذا فقد اشار في كتابه المرسل الى السلطان انه بدوره قد حشد قواته لمهاجمة قندهار واستعادتها من الصفويين ، وقد كان لهذا النبأ وقع طيب في القيادة العثمانية ، ذلك ان « عمل الهند مما يشوش الوضع على ايران من مجاوريتها ويسهل فتح بغداد »(٥٥) .

قبل ان تغادر قوات الحملة الموصل ، عقد السلطان مجلسا حربيا لبحث موضوع نقل المدافع الى بغداد(٥٦) . فكان رأى غالبية القادة المجتمعين ان من الافضل نقلها عن طريق النهر ، وذلك بسبب هلاك كثير من الجاموس الذي يسحبها وما متبق منه فانه منهك ، ورأى آخرون افضلية نقلها برا بصحبة الجيش حيث تصل المدافع مع بقية الجيش في وقت واحد الى بغداد . وبعد الدراسة قرر رأى السلطان ان يتم نقل عشرين مدفعا برا مع الجيش ، وان ترسل المدافع الباقية ، وعددها عشرة ، عن طريق النهر(٥٧) . وقد برزت حكمة هذا القرار الذي اتخذه السلطان ، حيث ان المدافع التي نقلت بواسطة النهر لم تصل الا بعد عشرين يوما من بدء حصار الجيش العثماني لمدينة بغداد . وكان من شأن ذلك ، فيما لو وقع ، ان يقلل من فاعلية الحصار(٥٨) . وقبيل الحركة ، امر السلطان بمنح كل فرد من الانكشارية والسباهية مائة اقجة كهبة ، كما وزعت على اصحاب الزعامات والتميمات القنابل لنقلها فيما بينهم ، من اجل ان تكون ذخيرة المدافع مهياة حين الوصول الى الهدف(٥٩) .

(٥٢) العزاوي ، ص ٢١١ .

(٥٣) Lamartine, op. cit., p. 265 - 6.

(٥٤) العزاوي ، ص ٢١٢ .

(٥٥) المصدر نفسه .

(٥٦) هاممر ، ص ٢٤٩ .

(٥٧) المصدر نفسه ، العزاوي ، ص ٢١٢ .

(٥٨) العزاوي ، ص ٢١٢ .

(٥٩) المصدر نفسه ، هاممر ، ص ٢٤٩ .

ايضا انباء نجاح الفارة العثمانية على منطقة شهرزور (٦٧) . ومن جبق كوبري ، عبر الجيش بعقوبة ثم بهرز ، وكانت المرحلة قبل الاخيرة هي مقابل الامام موسى الكاظم ، التي وصلها الجيش في يوم ٧ رجب ، وفي صباح الاثنين ٨ منه / ١٥ تشرين الثاني ، وبعد حركة ساعة واحدة ، ضرب الجيش واقعه امام مقام الامام الاعظم (٦٨) . وبذلك يكون الجيش العثماني قد سلخ مائة وسبع وتسعين يوما منذ مغادرته لاسكدار حتى وصوله الى واقعه في مواجهة اسوار بغداد ، امضى فيها سنا وسبعين يوما للاستراحة (٦٩) .

دفاعات بغداد

تقوم بغداد على الجانب الشرقي من نهر دجلة ، ويبلغ طولها بحسب تقدير تافرنبيه ١٥٠٠ خطوة وعرضها ما بين ٧٠٠ الى ٨٠٠ خطوة ، اما طول محيطها فيبلغ ثلاثة اميال (٧٠) . يحيط بالمدينة سور مبني من الآجر ، قام اوليا جلبي بقياس طوله ، فوجد انه يبلغ ٢٨٨٠٠ خطوة او سبعة اميال (الميل الواحد يساوي ٤٠٠٠ خطوة) في حين ان حاجي خليفة يجعل طوله ١٢٢٠٠ ذراعا او ميلين (٧١) . يكتنف السور خندق عرضه ستين ذراعا ، يستقي مياهه من دجلة (٧٢) ، ويبلغ

(٦٧) المزوي ، ص ٢١٤ .

Sahilloglu, op. cit., p. 27.

(٦٨)

(٦٩) انظر : Ibid., pp. 13-27 ؛ ان دقة المزوي في تحديده لافاق الراحة ب ٧٦ يوما تدعو الى الاعجاب (المزوي ، ص ٢١٥) . اما هامر ، فيذكر ان عدد ايام التوقف بلغت ٨٦ يوما (هامر ، ص ٢٥٠) ، ومن الجدير بالذكر ان باربر يخطئ بقوله ان الرحلة من اسكدار الى بغداد استغرقت مائة وعشرة ايام ، انظر : Noel Barber, The Lords of

Golden Horn from Suleiman the Magnificent to Kamal Ataturk (London, 1974), p. 86.

(٧٠) تافرنبيه ، ص ٧٨ .

(٧١) Quoted in: A.A. Duri, 'Baghdad', The Encyclopaedia of Islam, (new edition, Leiden, 1960), vol. I, p. 904;

نجد ان لامرتين يقدر طول السور ب ١٠٠٠٠ خطوة انظر Lamartine, op. cit., p. 266

ولكن اذا اخذنا بنظر الاعتبار راي مؤرخ حصار بغداد ضياء الدين اوغلي فيكون طول السور ٨١٥٠ خطوة . انظر هامش رقم (٤) ص ٧٩ من هذا البحث .

Duri, op. cit., p. 904.

(٧٢)

نظم سير الجيش حين مفادرة الموصل « للدخول في المنطقة المعادية » (٦٠) ، فعهد بقيادة قوات الطليعة الى والي ديار بكر ، وتألقت مسيرة الجيش من قوات الشام وسيواس ، اما المؤخرة فوضع على قيادتها بكريك مرعش ، محمد علي باشا الكرجي ، وتولى قيادة المدفعية نوغاي باشا زادة والي حلب (٦١) . في يوم ٩ جمادى الآخرة ، غادر الجيش الموصل زاحقا الى بغداد فمر على حمام العليل ثم زاب صوى ، وفي يوم ١٣ جمادى الآخرة ، وعند المرحلة الواحدة بعد المائة وعند مقابلة زاب صوى ، عبر معظم الجيش النهر راجلين في حين اجتاز السلطان النهر على ظهر حصانه (٦٢) . وبعد اربعة ايام ، ١٧ جمادى الآخرة ، وصل الجيش الى آتون كوبري ، وهي المرحلة الخامسة بعد المائة ، فعبرت القوات العثمانية على الجسر (٦٣) . ومن هنا مر الجيش على جوك تبسة وخاصة صوى ثم كركوك ، التي امضت فيها القوات يوما واحدا للراحة ، ثم تحرك الجيش من كركوك في ٢٢ جمادى الآخرة ، فمر على تازة خرماتي وطاووق وطوز خرماتو وكفري ونارين صوى وطاش كوبري (٦٤) . وفي يوم ١ رجب وصل الجيش جبق كوبري ، حيث امر الجيش بالتحشد والراحة ليوم واحد (٦٥) . وهنا وصل الى السلطان خبر انتصار حاكم آخسنة ، سفر باشا ، في حملة روان (٦٦) . فلقد تمكنت القوات العثمانية التي هاجمت روان ، من دحر حاكمها الفارسي كلب خان ، واستولت على ذلك الموقع . كما وصلت

Longrigg, op. cit., p. 70 (٦٠)

(٦١) هامر ، ص ٢٤٩ ، المزوي ، ص ٢١٢ .

Sahilloglu, op. cit., p. 25. (٦٢)

Loc. cit. ؛ اما المزوي فانه يحدد خطأ تاريخ

الوصول الى آتون كوبري بيوم ٢ رجب ، كما يذكر الرواية القائلة بان السلطان في هذا الموضع رفض عبور القنطرة قائلا « دع النهر يجرفك ولا تمر من قنطرة الجبان ، واترك الاسد يختطفك ولا تركن الى ظل ابي الحصين » (المزوي ، ص ص ٢١٣ - ٢١٤) في حين ان من المؤكد مما اورده مرافق السلطان ان العبور تم مر على الجسر . ويبدو ان القهواتي يقع في نفس الخطا بتاييده لرواية المزوي الانفة الذكر (القهواتي ، هامش ٥ ، ص ص ٢٦٢ - ٢٦٣) . ولعل الخطا هنا ناشيء من الالتباس الذي وقع فيه المزوي من كون الجيش العثماني قد عبر في منطقة زاب صوى على الارجل لا في منطقة آتون كوبري .

Sahilloglu, op. cit., pp. 25-6. (٦٤)

Ibid., p. 26. (٦٥)

(٦٦) هامر ، ص ٢٥٠ .

غمق المياه فيه نحواً من خمس قامات (٧٢) . الجزء من السور الذي يحيط بالجهة الشرقية من المدينة كان دائرياً تقريباً ، ويبلغ ارتفاعه ستين ذراعاً وعرضه ما بين ١٠ الى ١٥ ذراعاً (٧٤) . تنتصب أبراج كبيرة في الزوايا الرئيسة من سور بغداد ، اقيمت فيها المدافع النحاسية ، في حين تقوم أبراج اصغر على مسافات قصيرة من بعضها البعض ، ويبلغ عدد هذه الابراج مائة وثمانية عشر برجاً في جوانب السور المظلة على البر و ٤٥ برجاً تشرف على النهر (٧٥) وبحسب ما يذكره مؤرخ حصار بغداد ، ضياء الدين اوغلي (٧٦) ، فقد كانت بين كل برج وآخر خمسون فتحة لاطلاق نيران المدافع والبنادق ، وبين كل فتحة واخرى خطوة واحدة . في الزاوية الشمالية الغربية من السور تقوم القلعة الداخلية التي يطوقها حائط مفرد يسد من باب المعظم الى نهر دجلة ، ترتفع عليه ابراج صغيرة نصبت فيها المدافع (٧٧) . ويحديق بسورها خندق ضيق (٧٨) . وهذه القلعة تضم الشكنات ومخازن الذخيرة والمؤن بالإضافة الى الخزينة ، والى جوارها ، من جهة الجنوب يقوم السراي حيث مقر الوالي (٧٩) . في الاسوار ابواب اربعة ، ثلاثة منها من جهة البر وهي : باب المعظم في الشمال وبعد ٧٠٠ ذراع من دجلة ، الباب المظلم او «باب كلواذة» في الجنوب على بعد ٥٠ ذراعاً من النهر ، والباب الابيض او « الباب الوسطاني » في الشرق ، أما الباب الرابع فهو يواجه النهر ويسمى بباب الجسر (٨٠) . والاخير يربط ما بين بغداد والجهة المقابلة من دجلة حيث تنتصب قلعة الطيور "Kushlar Kalasi" (٨١) .

لا تتفق المصادر في تحديد عدد افراد الحامية الفارسية المكلفة بالدفاع عن بغداد ، وتراوح التقديرات ما بين ١٢٠٠٠ الى ٨٠٠٠٠ رجل .

(٧٢) تافرنيه ، ص ٧٨ .

(٧٤) Duri, op. cit., p. 904.

(٧٥) ; Loc. cit.

أما هامر فانه يجعل عددها مائتين واحد عشر برجاً .

انظر : هاممر ، ص ٢٥١ .

(٧٦) مقتبس في : هاممر ، ص ٢٥١ .

(٧٧) Duri, op. cit., p. 904.

(٧٨) تافرنيه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٧٩) Duri, op. cit., p. 904.

(٨٠) ; Loc. cit. ، هاممر ، ص ٢٥١ .

(٨١) ; Loc. cit.

يحدد العزاوي موقع قلعة الطيور بالقرب من تكية خضر

الياس للبتكاشية . العزاوي ، ص ٢١٩ .

فهامر يذكر ان عدد افراد القوات التي تحت امره بكتاش خان هو ١٢٠٠٠ فارس وبنديقي يقودهم خلف خان (٨٢) . ولكن هذا الرقم هو اقل بكثير مما تجمع عليه المصادر وتدل عليه ظواهر الاحوال . فالعزاوي يقول ان العدد الذي اورده هامر يشمل رماة البنادق فقط الذين التحقوا ببغداد لتعزيزها لحاميتها بقيادة اغا صادق بن مير فتاح (٨٣) . اما بجوي فيقدر عدد تلك القوات بـ ٣٤٠٠٠ قزلباشي (٨٤) . في حين ان منجم باشي يجعلهم ٣٠٠٠٠ (٨٥) . ويستشف مما اورده كانتمير ان العدد يزيد على ما ذكرناه ، ولو انه لم يذكر رقماً محدداً ، لكنه يقول ان عدد القوات الفارسية التي استسلمت للسلطان بلغ عدد افرادها ٣٠٠٠٠ رجل (٨٦) . فاذا اخذنا بنظر الاعتبار القتال الضاري الذي دار بين الحامية والقوات العثمانية المهاجمة فان عدد افراد الحامية يزيد كثيراً على ذلك الرقم . اما لامرتين فانه يقدر عدد الجند الفرس في داخل بغداد بـ ٨٠٠٠٠ رجل (٨٧) . ومهما كانت هذه الاختلافات فان من المؤكد ان الحامية كانت ذات مستوى عددي مناسب نظراً للدفاع العنيف الذي واجهت به القوات العثمانية المستبسة بالهجوم طيلة اربعين يوماً من القتال المتواصل . ويبدو من المؤكد ان الحامية الفارسية قد تلقت تعزيزات كبيرة في الرجال والسلاح والذخيرة قبل ان تطبق عليها القوات العثمانية . ويذكر القهواتي نقلاً عن محمد يوسف (٨٨) ، ان بكتاش خان كان قد علم بزحف السلطان مراد الرابع الى بغداد وذلك عن طريق القوافل القادمة من حلب ، فبعث الى الشاه طالبا امداده بقوات اضافية لتعزيز الحامية ، وكانت استجابة الشاه فورية لهذا الطلب ، اذ سارع باعداد جيش كبير قرر ان يقوده بنفسه ، في نفس الوقت الذي ارسل فيه الى عدد من حكام الولايات طالبا منهم الالتحاق لنجدة الحامية الفارسية ، كما هيأ كميات كبيرة من معدات الحصار والمدافع لارسالها الى بغداد ، وقد

(٨٢) هاممر ، ص ٢٥٢ .

(٨٣) العزاوي ، ص ٢١٧ .

(٨٤) انظر سيد فائق ، تاريخ بجوي (استانبول ، مطبعة العامة ، بدون تاريخ) ، ج ٢ ، ص ٤٥١ .

(٨٥) منجم باشي ، تاريخي (استانبول ، مطبعة العامة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨) ، ج ٢ ، ص ٦٧٤ .

(٨٦) Cantemir, op. cit., p. 248.

(٨٧) Lamartine, op. cit., p. 267

(٨٨) مؤلف كتاب ذيل تاريخ عالم آراى عباسي .

معارك حصار بغداد ٨ رجب - ١٧ شعبان

أقيمت خيمة السلطان مقابل مقام الامام الاعظم ، وبرزت ثقة السلطان بالنصر ، من امتناعه عن زيارة الامام « لانه وجد انه لا يليق به زيارة المقام قبل اتمام فتح بغداد » (٩٦) . وقبل حلول المساء من نفس يوم الوصول ، بوشر بالاستعدادات الفورية للهجوم ، فعقد السلطان مجلسا حربيا ضم بالإضافة الى الوزراء والقادة ، شيخ الاسلام وقاضي العسكر ، وتقرر فيه توزيع القوات على المواقع وارتداء الرجال لدروعهم وقيام افراد « الجبخانه » بتوزيع لوازم الحصار « كالفؤوس ، الكرات » على الرجال (٩٧) . وعلى الفور اخذ الجميع مواقعهم ؛ فالقوة التي كانت تحت قيادة السلطان عسكرت امام باب المعظم (٩٨) . وفي مواجهة الباب الابيض وضع على القيادة الصدر الاعظم طيار باشا يسنده اغا الانكشارية جفال زادة وبكربك الروملي ارسلان اوغلو باشا (٩٩) . وفي مواجهة الاسوار الممتدة الى الجنوب ، ما بين الموقع السابق والباب المظلم ، اخذت قوات عثمانية اخرى مواقعها يقودها القبودان مصطفى باشا وبكربك سيواس والصمصونجي باشي ، في حين عهد لقيادة القوات المكلفة بمواجهة الباب المظلم الى بكربك الاناضول حسين باشا يدعمه بكات كوستنديل وآلونية وقوات مصر واربعون ضابطا آخر مع زغارجي باشا (١٠٠) . وقد جرت اول الالتحامات امام الموقع الاخير (١٠١) .

في اليوم الثاني من الحصار ، الثلاثاء ٩ رجب ، وصلت المدافع التي رافقت الجيش عن طريق البر ، فوزعت على الفور على جميع الجبهات (١٠٢) . تسلم الصدر الاعظم عشرة مدافع والقبودان مصطفى باشا ستة ، وحسين باشا قائد موقع الباب المظلم اربعة مدافع (١٠٣) . ومع

بلغ تعداد تلك الحملة ٢٠.٠٠٠ قزلباشي (٨٩) . ولكن تطورات الحالة في المناطق الشرقية من الامبراطورية الصفوية ، نتيجة تحرشات الازبك ، دفعت بالشاه الى البقاء في قزوین وكلف مير فتاح لينوب عنه في قيادة الحملة الى بغداد (٩٠) .

اما عن عدد افراد القوات العثمانية التي اطبقت على بغداد فغالبية المصادر تغفل ذكر الرقم بشكل محدد ، ويذكر القهواتي تضارب الارقام ، ذاكرا ان التقديرات تتراوح ما بين ١٠٠ الف الى ٣٠٠ الف جندي (٩١) . اما لامرتين فيقدر عدد افراد الجيش العثماني الذي قاده السلطان ب ٣٠٠ الف رجل (٩٢) . ويورد باربر رقما يدل على المبالغة حيث انه يقدر عدد القوات العثمانية التي طوقت بغداد بنصف مليون رجل ، ويصف زحف ذلك الجيش اللجب مشبها اياه « بنهر عظيم كانت الروافد تصب فيه باستمرار اثناء جريانه معززة جبروته بحيث لم يعد بإمكان اية قوة مواجهة المد العارم لنصف مليون رجل » (٩٣) .

تمكنت القيادة العثمانية من الحصول على معلومات مهمة حول خطط الفرس الدفاعية ، فتبين لها منها ان الفرس قد ركزوا اقوى دفاعاتهم في منطقتي باب المعظم والباب المظلم ، ويرجع ذلك الى ان الحملات العثمانية السابقة لاستعادة بغداد ، والتي قادها حافظ باشا وخسرو باشا ، فرضت الحصار على المدينة من تلك الجهتين ، وكل ما احدثته القوات العثمانية من ثغرات في الاسوار ، قامت الحامية الفارسية بترميمه وتحسينه بالإضافة الى اصلاحها ببقية الاسوار ، ولكنها اهملت طرف السور المواجه للصحراء عند الباب الابيض (٩٤) . ويبدو انها لم تتوقع شن الهجوم من تلك الناحية ، وهذا تقصير واضح . لقد احاط السلطان واركان حربه بتلك التفصيلات وهم في الموصل على اثر القاء القبض من قبل القوات العثمانية على احد المسؤولين الفرس المدعو مير محمد ، وكان هذا قد وصل الى تكريت لجمع الضرائب ، وحينما جلب الى السلطان كشف له عن تلك الاسرار في محاولة لانتقاذ حياته (٩٥) .

(٨٩) القهواتي ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٩٠) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .

(٩١) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

(٩٢) Lamartine, op. cit., p. 266.

(٩٣) Barber, op. cit., p. 86.

(٩٤) هاممر ، ص ٢٥١ .

(٩٥) الزاوي ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٩٦) هاممر ، ص ٢٥٢ . وانظر ايضا : الزاوي ، ص ٢١٦ ؛ Coke, op. cit., p. 206 .

(٩٧) Sahilloğlu, op. cit., p. 27.

(٩٨) Coke, op. cit., p. 206.

(٩٩) Sahilloğlu, op. cit., p. 27.

(١٠٠) Loc. cit. ؛ هاممر ، ص ٢٥٢ .

(١٠١) Sahilloğlu, op. cit., p. 27.

(١٠٢) Loc. cit.

(١٠٣) هاممر ، ص ٢٥٢ ، اما بجوي فيورد بان الصدر

الاعظم تسلم ١٢ مدفعا والقبودان مصطفى ٩ مدافع

وحسين باشا ٨ ولدرويش باشا اربعة مدافع . وعليه

فيكون مجموع المدافع التي فتحت نيرانها في الايام الاولى

من القتال ثلاثة وثلاثين مدفعا (بجوي ، ص ٢٢٧) ، اما

في اليوم الثامن من الحصار ، ١٦ رجب ، نجحت القوات المهاجمة في ايصال المتاريس الى قرب الخندق ، في الوقت الذي تهدمت فيه كثير من الابراج بفعل قصف المدفعية العثمانية (١٠٩) . وقد دفع القصف العثماني الكثيف بافراد الحامية الفارسية الى « ارتداء جلود الاغنام عنى رؤوسهم لحمايتها من نيران المدفعية » (١١٠) وقد تمكن كنعان باشا ، بكربك ارضروم ، من اسر بعض القزلباش الذين تم اعدامهم جميعا ، وانعم السلطان على آسريهم (١١١) .

في خلال ايام المعارك هذه والايام التي تلتها ، كان السلطان مراد الرابع في غاية النشاط والحيوية واستطاع ان يجعل من نفسه القوة المحركة وان يخلق ذلك الزخم المطلوب لانتزاع النصر ؛ كان يعمل في المتاريس ويشارك في اختيار مواقع المدافع وتصويبها ، ممضيا معظم الليالي والسرجه له بمثابة الواسطة (١١٢) . لقد كان حماس الجند يصل اقصاه من مشاركة السلطان لهم في اعمالهم المرهقة ، فيذوب الشعور بذلك الارهاق ليتحول الى طاقة لا تعرف الكلل في الوصول الى النصر ، وتزيد حماسهم تلك الكلمات الحماسية التي كان يخاطبهم بها « عليكم جميعا ان تفكروا بانني لم اجد الى هنا لاعداءكم ان استرجع هذا الموقع ، كلا ، لقد جئت على رأس عدد كبير من الجند الصادقي الايمان لافتح او اموت هنا ، فعلى الجميع ، وعلى كل فرد منكم ان يتخذ نفس ذلك القرار . . . » (١١٣) وفي مناسبة اخرى قال محدثا جنوده « ابدلوا جهودكم في سبيل الدين والغيرة الاسلامية ولا تقصروا . هذا يوم السعي وبذل ما في الوسع » (١١٤) . ولم يقتصر السلطان على كل ذلك ، بل كان ينعم على الجرحى ويحسن اليهم « ويطيب القلوب بالانعامات ويعنى بشؤون الجميع » (١١٥) . لقد كان فتح بغداد بالنسبة للسلطان امرا في غاية الاهمية ، فكان كما يقول

(١٠٩) هاممر ، ص ٢٥٣ .

(١١٠) المصدر نفسه .

Sahilloglu, op. cit., p. 28. (١١١)

Barber, op. cit., p. 86; (١١٢)

وانظر ايضا :

Lane-Poole, op. cit., p. 220; Longrigg, op. cit., p. 71.

Coke, op. cit., p. 205. (١١٣)

(١١٤) الغزاوي ، ص ٢٢٠ ، هاممر ، ص ٢٥٣ .

(١١٥) الغزاوي ، ص ٢٢٠ .

بواكير صباح اليوم التالي ، الاربعاء ، انطلقت المدافع من الجبهات الثلاث تقصف الاسوار ، كما فتح الرجال نيران بنادقهم على العدو ، وسقط اول القتلى والجرحى من الطرفين ، وحينما وصلت اول دفعة من الجنود الجرحى امام السلطان استقبلهم مشجعا وانعم على كل منهم مبلغا يتراوح ما بين عشرين الى ثلاثين قرشا (١٠٤) . ويصف شاهد عيان موقف السلطان من جرحاه فيقول (١٠٥) « وقد امر بنصب خيمة الجراحين في الجيش بقرب موقعه وكان يأمر باجراء الاسعافات الفورية للجرحى مشجعا اياهم بكلمات طيبة ومقدما لهم بعض الهبات المالية » .

تواصل القتال في يومي الخميس والجمعة وفي ليلة السبت ، ١٢ رجب اشتد قصف المدفعية من الجانبين ، وفي صباح اليوم التالي جلب اول الاسرى من القزلباشي وعددهم اربعة وثلاثون فردا فصدر الامر باعدامهم واكرم السلطان آسريهم (١٠٦) . وفي اليوم الرابع من القتال عبر السلحدار باشا يرافقه بكربك طرابلس شاهين باشا ، على رأس قوة مؤلفة من ١٢٠٠٠ رجل نهر دجلة مهاجما قلعة الطيور ، وقد نجح الهجوم وتم الاستيلاء على القلعة (١٠٧) . ان اقتحام القوات العثمانية لهذا الموقع ساعد على الاطباق الكلي على الحامية الفارسية ، كما انه من الناحية الاخرى جعل قصف المدفعية العثمانية اكثر تأثيرا لانكشاف جانب القلعة الداخلية المطل على النهر . يقول الغزاوي نقلا عن المحبي « خلاصة الاثر » ان الشاه ارسل رسولا لطلب الصلح في اليوم الخامس من الحصار ، يدعى جانبك سلطان ، وان السفير اجتمع بالصدر الاعظم في ١٣ رجب ، ولكن السلطان وجميع الوزراء والاركان رفضوا عرض الصلح هذا (١٠٨) . وهذا يدل ، في حالة وقوعه ، على شعور الشاه بالعجز عن مواجهة قوات الحملة العثمانية التي صمم قائدوها ، السلطان بذاته ، على عدم القبول باقل من الاستسلام التام لحامية بغداد .

كوك فيذكر ان عدد المدافع التي بدأت القصف في اليوم

الاول من الحصار كانت ستين مدفعا وهذا غير دقيق .

Coke, op. cit., p. 205. انظر :

Sahilloglu, op. cit., p. 27. (١٠٤)

Quoted in : Coke, op. cit., p. 206. (١٠٥)

Sahilloglu, op. cit., p. 27. (١٠٦)

(١٠٧) هاممر ، ص ٢٥٣ ، ولو ان هامر يقول سهوا ان قلعة

الطيور تقع شرقي دجلة ، في حين انها ، وكما سبق

الاشارة بذلك ، تقع غربي النهر .

(١٠٨) الغزاوي ، ص ٢١٨ .

بالاساس على القصف بالمدافع وتبادل نيران
البنادق .

في يوم ٢ شعبان/٩ كانون الاول وصل الى
مقر قيادة القوات العثمانية امير العرب (ابو ريشة)
وهو يقود قافلة مؤلفة من ١٠٠٠ رجل حمل
بالارزاق للجيش (١٢١) ، وجالبا معه عددا من
الاسرى الفرس ، وقد استقبل السلطان ابا ريشة
بترحاب واحترام كبيرين وقدم الخلع لسبعة من
رجاله (١٢٢) . في اثناء ذلك ، ومع ورود الانباء
باقترب الشاه من ديبالى على رأس جيش فارسي
مؤلف من ١٢٠٠٠ رجل ، حاول القادة الفرس
المحاصرون رفع معنويات جنودهم ، ولكن سرعان
ما خاب املمهم في النجدة . فحالما سمع السلطان
بذلك النبأ اصدر امره الى كل من والي حلب محمد
باشا ووالي طرابلس شاهين باشا وامير العرب ابو
ريشة وحيالته ، بالتوجه على الفور الى منطقة
ديبالى للتصدي للقوات الفارسية ، ولكن الفرس
سرعان ما انسحبوا حينما علموا باقترب قوة
التصدي العثمانية هذه (١٢٣) .

تواصل القتال بين الطرفين ولكنه اشتد
« بضراوة لا توصف في الفترة ما بين ٥ و ١٨
شعبان » (١٢٤) ففي صباح الخامس من شعبان وزع
على الجند ٢٦٠٠٠ كيس ، جرى العمل على
ملئها بالتراب والرمال واصبحت مهياة في اليوم
التالي ، وكانت الغاية منها ردم الخنادق (١٢٥) .
وفي الالتحامات التالية استبسل الطرفان وسقط
عدد من القتلى كان من بينهم اغا الفدائيين (سردن
كچدى) والآي بك جرمن ، وكان لاستشهادهم
صدى مؤلم لدى السلطان (١٢٦) . وقد تم افشال
محاولة اغارة قام بها الفرس (١٢٧) .

نجحت القوات المهاجمة في ردم اجزاء كبيرة
من الخنادق بحلول يوم ١٦ شعبان ، وكان السلطان
متحرقا لشن الهجوم العام ، ولهذا فقد وجه لومه

شاهد عيان (١٢٦) « طيلة ايام الحصار التي دامت
تسعة وثلاثين يوما حتى تم الاستيلاء عليها [بغداد]
في اليوم الاربعين ، كان جلالته يقوم بصلاته في كل
يوم وليلة على ركبته ، منكبا وساجدا على الارض
والدموع تتلالا في عينيه » .

وفي احدى المناسبات قدم مراد الدليل
الحاسم على روح الجراءة والشجاعة التي اتصف
بهما ، فعندما ارسل الفرس فارسا عملاقا لتحديد
المحاصرين في مبارزة فردية ، لم يتردد لحظة واحدة
واندفع بنفسه لمواجهة المتحدي ، وبعد صراع عنيف
شق جمجمة ذلك العملاق من الهامة الى الفك في
ضربة واحدة من سيفه (١٢٧) .

في يوم الجمعة ، ٢٦ من رجب ، قامت
مجموعة من القزلباش بهجوم مباغت ، اذ خرجت
من الاسوار امام الجهة التي يقودها حسين باشا ،
في محاولة لتدمير المتاريس العثمانية ، الا ان القوات
العثمانية ردت على هجومهم بهجوم مضاد
فاضطرتهم الى الانسحاب بعد ان خلفوا وراءهم
عددا من القتلى (١٢٨) . وفي صباح اليوم التالي ، ٢٧
منه ، وصلت المدافع العشرة التي سبق ان ارسلت
من الموصل عن طريق النهر فسلمت ثلاثة منها الى
السلحدار باشا وخمسة للصدر الاعظم واثنان
لمصطفى باشا ، واخذت المدافع الجديدة مواقعها
وباشرت بالقصف في فجر اليوم التالي الاحد ٢٨
رجب ، واشتد القصف في هذا اليوم من جانب
الطرفين بضراوة (١٢٩) . لقد تمكنت القوات العثمانية
في هذه الفترة من القتال ، من احداث تدميرات
كبيرة في تحصينات بغداد ، فقد نجح الصدر الاعظم
في هدم برج الباب الابيض ، كذلك تمكن القبودان
باشا من هدم البرج المبني زمن جفالة زادة ، في
الوقت الذي نجحت مدافع حسين باشا في هدم
البرجين الكبيرين الآخرين ، وتهدم تماما جانب من
السور يبلغ ثمانمائة ذراع ، مما دفع بالقيادة
العثمانية الى التفكير بشن هجوم عام من تلك
الشغرة ، ولكنها عدلت عن ذلك بعد تقدير للموقف ؛
اذ تبين لها خطورة ذلك لما ورد لها من وجود
الاستحكامات والمتاريس والخنادق داخل
المدينة (١٣٠) . وتواصل القتال بدون انقطاع معتمدا

(١٢١) المصدر نفسه ؛ Loc. cit.

(١٢٢) المصدر نفسه ؛ Loc. cit.

(١٢٣) المصدر نفسه ؛ الغزوي ، ص ٢٢٢ ؛

Longrigg, op. cit., p. 71; Coke, op.

cit., p. 207

Sahilloğlu, op. cit., p. 28. (١٢٤)

Loc. cit. ؛ هذا مع العلم ان كلا من هامر

والغزوي يذكران ان عدد هذه الاكياس هي ٢٦٠ كيسا !

هاممر ، ص ٢٥٤ ، الغزوي ، ص ٢٢١ .

(١٢٦) هاممر ، ص ٢٥٤ .

(١٢٧) الغزوي ، ص ٢٢٢ .

Quoted in : Coke, op. cit., p. 207. (١٢٦)

Lane-Poole, op. cit., p. 220; Barber, (١٢٧)
op. cit., p. 86.

Sahilloğlu, op. cit., p. 28. (١٢٨)

Loc. cit. (١٢٩)

Coke, op. cit., p. 207. ؛ هاممر ، ص ٢٥٤ (١٣٠)

سابقة (١٣٧) . وعلى الاثر حين السلطان القبودان مصطفى باشا بمنصب الصدرة العظمى ، قائلا له « حقق ثقتي بك ، فبعون الله انت الذي ستفتح بغداد » (١٣٨) . قبل مصطفى باشا الارض بحضرة السلطان قائلا بتأثر « لا اريد الارضك ودعوانك » ، وخرج وعيناه مغرورقتان بالدموع (١٣٩) .

اندفع مصطفى باشا مجددا الهجوم ، والجنود الذين الهب حماسهم تقدم الصدر الاعظم ، اندفعوا وراءه بفدائية عالية . وواصل القائد هجومه بعنف ، وتساقط العديد من اتباعه واصدقائه ولكنه لم يتوقف الى ان استولى على كافة الابراج ، وهكذا سقطت مدينة بغداد في ١٨ شعبان/ ٢٥ كانون الاول ، بعد اربعين يوما من الحصار والقتال الضاري (١٤٠) . وطيلة هذه الفترة « كان القتال يبدو وكأنه مذبة متواصلة ... لم يتوقف فيها اطلاق القذائف وصليل السيوف للحظة واحدة مدمرة الجنود من كلا الجانبين » (١٤١) .

كان بكتاش خان ، الحاكم الفارسي لبغداد ، اول من ادرك عقم المقاومة بعد بدء الهجوم العثماني الشامل واكتساح اهم مواقع الدفاع الايرانية ، فعرض تسليم نفسه الى السلطان وارسل رسولا يحمل ذلك الى مراد الرابع (١٤٢) . وعن هذه الناحية يقول صاحب كلشن خلفا ، ان بكتاش خان قبل ان يقدم على خطوته تلك ، تداول مع القادة خلف خان وعلي يار ومير فتاح ، وانهم جميعا قرروا الاستسلام للقوات العثمانية ، ولكنه يخالف ما ورد في المصادر الاخرى بقوله « وبعدئذ تقدم بكتاش خان نحو السلطان يعرض الخضوع والتسليم وكذلك فعل بقية الامراء الآخرين الا امير القزلباش ابن فتاح فقد امتنع ... » (١٤٣) ولكن الوقائع تشير الى ان بكتاش خان سار وحده الى المعسكر العثماني ، يرافقه الجاويش باشي طوراق اغا ومتصرف نيكدة حسن اغا ، اللذان ارسلوا لجلبه الى مقر القيادة العثمانية (١٤٤) . ومن خيمة الصدر الاعظم سار الوالي الفارسي بين صفين من

الى الصدر الاعظم طيار باشا لتباطئه في شن الهجوم (١٣٨) قائلا « اهذه شجاعتك واقدامك ، ما هذا الانتظار وما معنى هذا التأخير ؟ » فاجاب طيار « انا حاضر لفداء روحي لسلطاني ، فلو مات عبدك طيار فلا قيمة له ، اسأل الله ان يسهل الفتح » (١٣٩) . وقد تقرر القيام بالهجوم العام واختراق مواقع الدفاع الفارسية في صباح اليوم التالي ، وفي تلك الليلة الحاسمة لم ينم العثمانيون وكان تكبيرهم يسمع من مسافة بعيدة (١٤٠) .

ما ان بزغت شمس يوم ١٧ شعبان ، حتى اندفعت جحافل العثمانيين من خنادقها يتقدمهم الوزراء والقادة ، والكل يهتف بصوت عاصف « الله كريم الله عظيم » ، فكان اندفاعهم « كموجة مد عارمة على انقاض الاسوار » (١٤١) . كان في مقدمة القوات المندفعة الصدر الاعظم طيار الذي « اعمل في عدوه السيف وابدى بسالة لا مثيل لها » (١٤٢) . ولكنه اصيب بقذيفة في جبهته ادت الى وفاته (١٤٣) . جيء بجثمان القائد الى خيمة السلطان ، فكان تأثره عميقا وحزنه صميما ومرا (١٤٤) . وقرض نعيما طيار بقوله (١٣٥) « لقد عاش سعيدا ومات شهيدا » . وقد قام السلطان نفسه بامامة الصلاة على روح القائد الراحل (١٣٦) ، ودفن في مقبرة الامام الاعظم بالقرب من قبر والده مصطفى باشا ، الذي كان واليا على بغداد في فترة

(١٣٨) هامبر ، ص ٢٥٤ .

(١٣٩) المصدر نفسه ، المزوي ، ص ٢٢٢ .

(١٤٠) هامبر ، ص ٢٥٤ .

(١٤١) المصدر نفسه ؛ Lamartine, op. cit., p. 266

(١٤٢) المزوي ، ص ٢٢٢ .

(١٤٣) هامبر ، ص ٢٥٤ ؛ نظمي زادة مرتضى افندي ؛

كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، (بغداد ،

مطبعة الآداب ، بدون تاريخ) ، ص ٢٢٢ ؛

Lamartine, op. cit., p. 266; Creasy,

op. cit., p. 255; Longrigg, op. cit.,

p. 72.

(١٣٤) هامبر ، ص ٢٥٥ ؛

Lamartine, op. cit., p. 266

ولو ان المزوي يجعلها « مائة مدينة مثل بغداد »

المزوي ، ص ٢٤٤ . هذا ويخطئ كاتمبر بقوله ان

السلطان قتل بيده وزيره الاكبر لانه ظهر له مهلا !

Cantemir, op. cit., p. 248.

(١٣٥) مقتبس في : هامبر ، ص ٢٥٥ ، اما لامرتين فيقول في

رثائه « ان روحه غادرت قفصها الى الجنة »

Lamartine, op. cit., p. 266

Coke, op. cit., p. 207

(١٣٦)

(١٣٧) هامبر ، ص ٢٥٥ .

(١٣٨) المصدر نفسه 7-266 Lamartine, op. cit., pp.

(١٣٩) هامبر ، ص ٢٥٥ .

(١٤٠) المصدر نفسه ؛ المزوي ، ص ٢٢٤ ؛

Longrigg, op. cit., p. 72

Cantemir, op. cit., p. 248 (١٤١)

(١٤٢) هامبر ، ص ٢٥٦ .

(١٤٣) كلشن خلفا ، ص ٢٢٣ .

(١٤٤) هامبر ، ص ٢٥٦ .

وفي نفس تلك الليلة التجأ كل من مير فتاح ويار علي وخلف الى « قلعة نارين » ، في نفس الوقت الذي كانت فيه الجحافل العثمانية تندفق على المدينة من كل الجهات . وقد صحب دخول القوات العثمانية واستمرار بعض الفرس في المقاومة ، وقوع حوادث فوضى ونهب وقتال (١٥١) . ويقول الكاتب المرافق للحملة عن تلك الليلة « دخل الجيش العثماني الى المدينة ونهبها واخرج ارزاقا عظيمة » (١٥٢) . ولم توفق جهود الصدر الاعظم ، الذي جاء بنفسه ، في ايقاف الفوضى واعادة الامن (١٥٣) .

استمرت الاشتباكات بسبب اصرار بعض الفرس على القتال ، وسقط رئيس الكتاب اسماعيل افندي قتيلا ، كما تعرض السلحدار باشا للاغتيال حينما هجم عليه احد الفرس شاهرا سيفه ، الا ان احد افراد الدلي - قوة من القوات الفدائية - انقذه مضحيا بحياته في سبيل ذلك (١٥٤) . في هذا الوقت قدم الى السلطان احد جنود عسكر الرومالي مطالبا اياه بعدم منح « الامان » وقد استغرب السلطان هذا الموقف من احد جنوده وتساءل عن السبب في هذا الطلب ، فبين الجندي ان والده واخوته واعمامه قد سقطوا قتلى في الحملات المتعاقبة لاستعادة بغداد ، وها ان الفرصة قد حانت للانتقام (١٥٥) . وفي خلال هذا الحديث ، قدم احد مشايخ بغداد وهو يقتاد رجلين من الفرس مربوطين بالسلاسل ، قد غضب مراد ووجه كلامه الى الشيخ متسائلا « اقد اصدرت الامان فلماذا تأسره ؟ » فاجاب الشيخ بأن هؤلاء قد رفضوا الامان المنوح لهم وحملوا السلاح (١٥٦) . ولدى سماع السلطان لهذا القول ، ارسل احد خدمه التتار على فرسه لاستطلاع الحالة في بغداد واعلامه بالموقف ، ولم يلبث الوصيف ان عاد يخبره بان الفرس عند الباب المظلم يقاتلون باستماتة ، وان عددا من الباشوات قتلوا او جرحوا (١٥٧) . وهناك استدعى السلطان حسين باشا بكركيك الروملي ، وامره باجراء قتل عام اذا واصل الفرس المقاومة (١٥٨) .

السلحدارية والسباهية متوجهها الى خيمة السلطان ، الذي كان جالسا على كرسي من الذهب ، معتمرا شالا كشميريا على رأسه معقود بآبرة ذهبية مرصعة ، يحيط به الخدم متمنطقين الاحزمة المرصعة ، والى جانبه شيخ الاسلام والوزراء وسائر اركان الدولة . ان منظر الديوان هذا ، كان مجسما للآية الكريمة « انا فتحنا لك فتحا مبينا » (١٤٥) . اقتيد بكتاش خان الى الموضع الذي جلس فيه مراد ، فقبل رجل السلطان ملتصقا « الامان » فاجابه السلطان لذلك على ان يقوم باخلاء القلعة في نفس ذلك اليوم ، كما وجه اليه اللوم لعدم استسلامه قبل هذا الوقت ، الا انه اردف « لكنك قمت بواجب الخدمة لتبوعك جهد طاقتك ، فانت معذور » (١٤٦) ثم انعم عليه بخلة وخنجر مرصع بالجواهر (١٤٧) . ثم انتهى كلامه بالقول « على كل الخانات والقادة في القلعة الاستسلام ، وهم مخيرين في البقاء عندنا او بالذهاب الى الشاه » (١٤٨) .

وبناء على هذا توجه بكتاش خان الى خيمة الصدر الاعظم ، وهناك كتب رسائل الى كل من مير فتاح ويار علي وخلف وبقية الخانات والضباط الفرس طالبا منهم وجوب تسليم القلعة (١٤٩) . في الوقت نفسه اصدر الصدر الاعظم امره بتفتيش كافة الابراج التي استولى عليها الجيش العثماني خشية من وجود كمائن والغام . الا ان المدافعين رفضوا الانصياع فنشب القتال من جديد (١٥٠) .

(١٤٥) المصدر نفسه .

(١٤٦) المصدر نفسه ؛ الغزوي ، ص ٢٢٥ .

(١٤٧) Sahilloglu, op. cit., 28.

(١٤٨) هامبر ، ص ٢٥٧ .

(١٤٩) المصدر نفسه ؛ في نفس تلك الليلة وجد بكتاش خان ميتا ، وتختلف المصادر في توضيح ظروف ودوافع موته . ويكتفي الكاتب الذي رافق السلطان مراد في حملته على بغداد بقوله « في يوم الجمعة مات بكتاش خان فجأة » (Sahilloglu, op. cit., p. 29)

ومن هذا الرأي لوتريك « مات بكتاش خان مسما بصورة مفاجأة » Longrigg, op. cit., p. 73

ويتهم هامر زوجة بكتاش خان بانها هي التي سمته « لانها رفضت مرافقته الى الاستانة » وقد سلمت القنطرة مع خزنتها الى والدها لور حسين خان حاكم مندلي « (هامبر ، ص ٢٥٩) وينفق صاحب كلشن خلفا وكوك على ان بكتاش خان « انتحر متائرا بالفم الذي اصابه من اغتيال قواته » (كلشن خلفا ، ص ٢٢٣ ؛ Coke, op. cit., p. 208)

(١٥٠) هامبر ، ص ٢٥٧ .

(١٥١) المصدر نفسه .

(١٥٢) Sahilloglu, op. cit., p. 29.

(١٥٣) هامبر ، ص ٢٥٧ .

(١٥٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .

(١٥٥) المصدر نفسه .

(١٥٦) المصدر نفسه .

(١٥٧) Lamartine, op. cit., p. 267.

(١٥٨) هامبر ، ص ٢٥٨ .

قام حسين باشا يرافقه السلحدار بانذار القادة الفرس المستحكمين في قلعة نارين بوجوب الاستسلام . فاستجاب كل من مير فتاح وخلف ويار علي للانذار واعلنوا استسلامهم ، فاقتيدها الى السلطان الذي عهد بهم الى السلحدار لحجزهم ، في حين واصل ولدي مير فتاح القتال (١٥٩) . وعند هذا وجهت المدفعية العثمانية نيرانها الى القلعة فتساقط عدد من القزلباش قتلى وتم اسر كثيرين منهم ، جرى قتلهم أمام خيمة السلطان (١٦٠) . ولم يبق هناك خيار للباقيين من الفرس فاعلنوا استسلامهم وعلى الاثر دخل بكربك الاناضول الى القلعة واخرج الموجودين فيها (١٦١) . ادت تلك المضاعفات والملابسات التي رافقت دخول بغداد الى ان تعم الفوضى ، ولهذا فلم يحفل الجنود العثمانيون بأمر العفو « وبعد تعقب الفرس من زاوية الى اخرى » صدر امر ثان بالامان (١٦٢) .

في هذه الاثناء تمكن عدة مئات من الفرس (١٦٣) من الهرب من الباب المظلم ووصلوا قرب نهر ديالى ، الا ان القوات المصرية التي عهد اليها بمهمة مطاردتهم ادركتهم وقتلت الكثيرين منهم في حين لجأ قسم من هؤلاء الفارين الى داخل قبة كبيرة في شهربان (١٦٤) ، ولكن انهيار تلك القبة ادى الى هلاك اكثرهم (١٦٥) . اما الكاتب الذي رافق الحملة فيورد رواية مغايرة لتلك حيث يذكر ان اثنين من الخانات سلموا انفسهم ومعهم ثمانمائة قزلباشي ، وقد اقتيد هذان الخانات الى حضرة السلطان في حين سلم القزلباش الى بكربك الروملي « وقد جاء بهم هذا الى ديالى حيث اطلق سراحهم هناك » (١٦٦) .

تختلف الروايات في تحديد خسائر القوات الفارسية ، فبجوى الذي حدد عدد افراد الحامية

- (١٥٩) المصدر نفسه .
- (١٦٠) المصدر نفسه .
- (١٦١) المصدر نفسه .

Sahilloglu, op. cit., p. 29.

(١٦٢)

(١٦٣) يقدر لامرتين خطأ عدد هؤلاء الفارين ب ٣٠٠٠ رجل ! Lamartine, op. cit., p. 267.

(١٦٤) يقول المزايي نقلا عن الغرابي ان عدد الذين لجأوا الى القبة كان خمسة وعشرين شخصا فقط نجا واحد منهم فقط . المزايي ، ص ٢٣٠ .

(١٦٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، هامص ، ص Lamartine, op. cit., p. 267. ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛

Sahilloglu, op. cit., p. 29.

(١٦٦)

ب ٣٤٠٠٠ مقاتل يقول (١٦٧) « من غير المؤكد نجاة عشر معشارهم » . اما منجم باشي فيتقارب مع بجوى في تقديراته ، حيث يذكر انه من مجموع ال ٣٠٠٠٠ محارب من الفرس نجا ٣٠٠ جريح فقط « وصلوا اشبه بالاموات الى جيش الشاه ، وفيما عدا هؤلاء فان البقية ابيدوا » (١٦٨) . ويحدد بشكل اكثر دقة تلك الارقام فيقول « قتل منهم في ايام الحصار ١٠٠٠٠ رجل ، وبعد الفتح ذبح ١٩٧٠٠ » (١٦٩) . اما هامر فيقول « من مجموع ٣٠٠٠٠ مقاتل فارسي دافعوا عن بغداد لم يصل منهم الى جيش الشاه سوى ثلاثة آلاف رجل ، فقد قتل منهم ١٢٠٠٠ في خلال معارك الحصار ، في حين جرت عملية قتل عام للبقية يوم التسليم » (١٧٠) . اما كوك فيورد رواية شاهد عيان يظهر فيها المبالغة اذ يقول (١٧١) « كان في بغداد واحد وثلاثين الفا من الجنود وعشرين الف متطوع تم قتلهم جميعا بالسيف ، ولم ينج منهم اي فرد ليحمل نبا ذلك الى مدن فارس » . اما كل من كانتيمر وباربر فانهما يوردان روايتين فيهما مبالغة في محاولة لالصاق صفة الجزار بالسلطان فيقول الأول (١٧٢) « مجموع ال ٣٠٠٠٠ فارسي الذين سلموا انفسهم الى السلطان ، جرى ذبحهم جميعا في حضرته حتى آخر رجل » . اما الثاني فيقول (١٧٣) « امر مراد بمذبحة عامة للحامية ونفذ الامر في يوم واحد من المجازر ومن بين ال ٣٠٠٠٠ فارسي لم ينج سوى ٣٠٠ رجل فقط » . ولكن اقرب الروايات الى المعقول ما اورده الكاتب الذي رافق الحملة حيث يقول (١٧٤) : « لقد قتل من الفرس اكثر من ٣٠٠٠٠ رجل » . وهو في هذا يدمج عدد القتلى الذين قتلوا في الالتحامات باولئك الذين تم اعدامهم بعد الاستيلاء على بغداد .

على اثر سيطرة القوات العثمانية على بغداد والقضاء على المقاومة الفارسية ، صدرت الاوامر بالمحافظة على حياة السكان المدنيين (١٧٥) ، « وعدم نهب ممتلكاتهم ، وان كل من عثر على ماله بإمكانه

(١٦٧) بجوى ، ص ٤٥١ .

(١٦٨) منجم باشي ، ص ٦٧٤ .

(١٦٩) المصدر نفسه .

(١٧٠) هاممر ، ص ٢٥٩ .

Coke, op. cit., p. 210. (١٧١)

Cantemir, op. cit., p. 248. (١٧٢)

Barber, op. cit., p. 86. (١٧٣)

Sahilloglu, op. cit., p. 29. (١٧٤)

(١٧٥) هاممر ، ص ٢٥٩ .

استعدادته « (١٧٦) وعقد السلطان مراد بعد الفتح ديوانا عاما انعم فيه على شيخ الاسلام والوزراء والقادة ، الذين ابدوا بسالة في القتال ، ثم توجه بعد ذلك الى مقام الامام الاعظم لاداء الزيارة المنتظرة (١٧٧) . وارسلت بشارة الفتح الى استانبول بيد خليل اغا (١٧٨) .

قام مراد الرابع بعد انجاز الفتح باتخاذ الترتيبات المقتضية لتنظيم ادارة بغداد ، فعين كجك حسن ، اغا الانكشارية واليا على بغداد (١٧٩) ، كما قرر ترك حامية مؤلفة من ٨٠٠٠ جندي للمحافظة على بغداد ، وعين على قيادتها بكتاش اغا ، كتحدا الانكشارية ، كما عين سلحدار باشا بمنصب القبودان (١٨٠) ، اما منصب قاضي بغداد فقد عهد به الى تذكره جي موسى افندي (١٨١) .

قبل انجاز الاستعدادات الاخيرة لمغادرة بغداد ، قام السلطان وكافة اركان الدولة المراقبين له ، بزيارة مرقد الامام موسى الكاظم ، في يوم الجمعة المصادف التاسع من رمضان (١٨٢) . وفي ذلك اليوم حدث انفجار في « بارود خانه » (١٨٣) بغداد ، ادى الى مقتل عدد من الافراد (١٨٤) مما اغضب السلطان ، فاصدر امره بقتل « البقية الباقية من القزلباش » (١٨٥) . وهناك خلاف في المصادر حول تحديد عدد الذين تم قتلهم نتيجة

(١٧٦) الغزوي ، ص ٢٣٠ .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٧٧)

هاممر ، ص ٢٥٩ . (١٧٨)

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٧٩)

Longrigg, op. cit., p. 73. (١٨٠) هاممر ، ص ٢٦٠ .

اما لامرتين فيقدر عدد افراد الحامية التي تركها السلطان في بغداد ب ١٠٠٠ رجل

(Lamartine, op. cit., p. 268)

في حين ان الغزوي يذكر ان عدد القوات التي كلفت بحماية بغداد بعد ان غادرها السلطان هي ١٢٠٠٠ من الجيش البغدادي و ٨٠٠٠ انكشاري و ١٠٠٠ سباهي (الغزوي ، ص ٢٣٦) .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٨١)

Loc. cit. (١٨٢)

Barudhâna وهي كلمة تركية تعني مخازن البارود . (١٨٣)

Gibb and Bowen, op. cit., p. 68. انظر : (١٨٤)

بلغ عدد القتلى والجرحى من الانكشارية ٨٠٠٠ رجل (Greasy, op. cit., p. 256)

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. ويخطئ كوك (١٨٥)

بذكره ان الانفجار حدث في اليوم الاول من دخول القوات العثمانية الى بغداد . انظر :

Coke, op. cit., p. 208

هذا الحادث . يقول لامرتين « اصدر السلطان امره بان يقوم سكان بغداد بقتل اي فارسي قد يكون لاجئا في دورهم ، وتم اعدام ١٠٠٠ فارسي امامه على ضفة دجلة » (١٨٦) . اما لونكريك وباربر فيذكران ان عدد الذين قتلوا في المذبحة التي اعقبت الانفجار بلغ ٣٠٠٠٠ شخص (١٨٧) ولكن يبدو بصورة عامة ، ان امر القتل قد شمل الرجال من الفرس ، سواء اكانوا من الجنود او من الذين اشتبه باشتراكهم بالقتال في خلال معارك الحصار ثم اعفى عنهم ، فالكاظم الذي رافق الحملة خص بالذكر ، كما مر بنا قبل قليل ، القزلباش ، كما ان صاحب كلشن خلفا يقول بصدد حادثة الانفجار وما تلاها بانها « تدل على انقضاء عهد القزلباش وادبارهم وفعلا صدرت الاوامر بافنائهم ، سواء الذين يسكنون داخل المدينة ام خارجها ، عدا الذين لم يشتركوا في القتال فقد رحلوا من البلاد وانتشر المنادون يعلنون العفو العام في البلدة » (١٨٨) .

اشرفت مهمة السلطان على نهايتها ، واستعد لمغادرة بغداد بعد ان امر الصدر الاعظم بانجاز المهمات التي بدأها هو ، وبخاصة اعادة بناء الاسوار والاستحكامات وتعمير مرقد الامام الاعظم والكيلاني (١٨٩) . وفي ١٢ رمضان غادر المدينة ، ولدى مغادرته تم اغلاق باب الطلسم (١٩٠) . ومن امام مقام الامام موسى الكاظم بدأت مسيرة العودة نحو العاصمة (١٩١) . وفي خلال ذلك وجه مراد تحديا مهينا للشاه قال فيه « لو كنت رجلا لظهرت نفسك . ذلك انه من ينتحل العرش لنفسه لا يجدر به ان يظل متواريا وراء الجدران ، فالذي يخاف من الحصان لا يجب ان يمتطيه ، والذي يبهره وهج الفولاذ ان لا يقرب السيف ، فما كتب منذ الازل لابد وان يتحقق » (١٩٢) .

عودة السلطان الى استانبول

استغرقت رحلة العودة للسلطان حوالي

Lamartine, op. cit., pp. 267-8. (١٨٦)

Longrigg, op. cit., p. 74; Barber, op. cit., p. 86. (١٨٧)

كلشن خلفا ، ص ٢٣٤ . (١٨٨)

المصدر نفسه ؛ الغزوي ، ص ٢٣٤ ؛ (١٨٩)

Cantemir, op. cit., p. 249

Creasy, op. cit., p. 256.

Duri, op. cit., p. 904. (١٩٠)

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٩١)

Quoted in : Lamartine, op. cit., p. 268. (١٩٢)

الجماهير التي كان يعلو صياحها : تبارك الله ،
رامين بانفسهم على الارض » (٢٠١) في نفس الوقت ،
كانت كل السفن الحربية في البسفور تطلق مدافعها
محيية « فبدا وكان البحر يتفجر انفجارا ولهيبا »
وقد كرست سبعة ايام وليال للاحتفال بهذا النصر
العظيم (٢٠٢) .

معاهدة زهاب ١٧ مايس ١٦٣٩

ذكرنا ان الصدر الاعظم ، وبناء على تعليمات
السلطان مراد الرابع ، تخلف في بغداد لانجاز
المهمات التي بداها العاهل العثماني . وقد امضى
مصطفى باشا قرابة الشهرين في بغداد وجه خلالها
اهتماما خاصا لاعادة بناء التحصينات وتحديد
عدد القوات المناسبة للمحافظة على المدينة خشية
من محاولة قد يفكر بها الفرس للهجوم على بغداد
« وبذلت الجهود لبناء المنازل والاسواق واعادة
زرع البساتين وتشجيع كل اولئك الذين غادروها ،
ابان الحكم الفارسي ، على العودة اليها » (٢٠٣) . ولم
يكتف مصطفى باشا بذلك ، بل قرر استثمار النصر
وتأمين المناطق المحيطة ببغداد ، نزولا عند وصية
السلطان له « بان يكون متيقظا وان يتخذ
الاحتياطات الضرورية » (٢٠٤) . تحرك الصدر الاعظم
على رأس قواته ، في اوائل شهر ذي القعدة ،
متجها نحو الشرق بهدف الدخول في المناطق
الفارسية ، ولكن التطورات التي اعقبت تحرك
الجيش العثماني ، وقبل ان يتوغل مسافة واسعة
في المناطق التابعة للصفيين ، قادت بالنهاية الى
عقد معاهدة صلح بين الطرفين في (زهاب)
- الواقعة شمال ايران - في ١٤ محرم ١٠٤٩هـ /
١٧ مايس ١٦٣٩ ، وفيما يلي اهم ما جاء في تلك
المعاهدة الشهيرة (٢٠٥) : « معاهدة السلم والحدود
بين الامبراطورية العثمانية وايران ١٧ مايس
١٦٣٩ » (اعيد اقرارها في ٤ ايلول ١٧٤٦ ، ٢٨
تموز ١٨٢٣ ، و ٣١ مايس ١٨٤٧) .

تبدا بآيات قرآنية عن مزايا السلام وكراهية
الحرب ، ثم يسجل الصدر الاعظم بانه مخول

ثمانين يوما وقسمت الرحلة الى خمس وستين
مرحلة ابتدأت من امام مقام الكاظم في ١٢ رمضان
وانتهت بدخول السلطان اسكدار في الخامس من
صفر (١٩٣) . وقد سلك السلطان في مسيرة العودة
طريقا غير الطريق الذي قدم منه ، ويبدو ان الغاية
من ذلك اكمال تفقد مقاطعات الدولة وتنظيم امور
المناطق التي يمر منها . كانت اهم المناطق التي مر
بها والقوات المرافقة له : سميكة - تكريت - حمام
العليل - الموصل - نصيبين - ماردين - ديار بكر
- ملطية - سيواس - انقره - اسكدار (١٩٤) .

قبل ان يدخل العاصمة ، كان مصمما على ان
يحتفل بانتصاره « بدرجة سيظل السكان يذكرونها
ابدا » ولهذا ، وحينما كان على بعد ايام قليلة من
استانبول ارسل تعليماته باعداد الاستقبال حملها
الحمام الزاجل (١٩٥) .

دخل مراد الرابع استانبول في يوم ١٠
حزيران ١٦٣٩ (١٩٦) ، بموكب حافل ظلت ذكره
عالقة بالاذهان ، لا بسبب روعته واهمية الانتصار
العسكري الذي احرزه الجيش العثماني فحسب ،
بل لكونه كان آخر مشهد قدّر فيه لعاصمة
الامبراطورية ان ترى عاهلها وهو مكلل بالنصر (١٩٧) .
ويصف مؤرخ عثماني شهد المنظر فيقول (١٩٨) « انه
منظر يقف اللسان عاجزا عن الاخبار عنه ويعجز
اي قلم عن وصفه . كانت الشرفات واسطح المنازل
تغص بالناس وهم يهتفون بحماس كبير : ليكن الله
الرحيم معك يا ايها الفاتح ، مرجبا مراد ، لتكن
انتصاراتك مباركة » . وكان مراد يرتدي درعا من
الفولاذ الصقيل المذهب ويغطي كتفيه جلد الفهد
ويعتطي حصانا حربيا رائعا متبوعا بسبعة خيول
عربية ذات سروج مرصعة بالجواهر (١٩٩) . ويسير
الى جانبه اثنان وعشرون من كبار النبلاء الفرس
على اقدامهم وهم مقيدون بسلاسل مذهبة (٢٠٠) في
حين كانت الابواق والصنوج تعزف في مقدمة
الموكب ، وهو ، في مروده ، ينظر بفخر الى كلا
الجانبيين « كالاسد الذي نال بفيتته ، محييا

(١٩٣) Sahilloglu, op. cit., pp. 29-35.

(١٩٤) للمزيد من التفاصيل : Ibid.

(١٩٥) Barber, op. cit., p. 86.

(١٩٦) Eton, op. cit., p. 178.

(١٩٧) Creasy, op. cit., p. 256; Barber, op. cit., p. 87.

(١٩٨) Creasy, op. cit., p. 256.

(١٩٩) Loc. cit.; Barber, op. cit., p. 86.

(٢٠٠) Ibid., pp. 86-7.

(٢٠١) Creasy, op. cit., p. 256.

(٢٠٢) Loc. cit.

(٢٠٣) Coke, op. cit., p. 210.

(٢٠٤) غلشن خلفا ، ص ٢٣٥ .

(٢٠٥) للنص الكامل للمعاهدة يراجع :

J.C. Hurewitz, Diplomacy in the Near
and Middle East (New York, rep.,
1958), vol. I, pp. 21-3.

ستكون من ممتلكاته ايضا السهول الواقعة بين مندلي ودرتنك ، في حين تبقى الجبال تحت سلطة الشاه . وتشكل سرميل Serminil الحدود بين درتنك وديراني . وذلك الجزء من منطقة هاروني Haronia الذي تقطن فيه قبائل الجاف وضياء الدين Zilja Uddin ستكون للسلطان ، في حين تبقى Pezai و Zerdony تابعة للشاه . اما قلعة زنجير Zindjir والتي تقوم على قمة الجبل فيجب ان يتم هدمها ، وتكون في حوزة السلطان كل القرى الواقعة غربها . اما القرى الواقعة الى الشرق منها فانها ستكون من ممتلكات الشاه كالقرى الواقعة على الجبل فوق سالم قلعة Salm Calé بالقرب من شهرزور في حين ان القرى الواقعة الى الشرق تكون من ممتلكات الشاه ، الذي سيحفظ بالاضافة اليها بقلعة اورمان Orman مع القرى التي تعتمد على تلك القلعة . ويعتبر المر الضيق (الشعب) المؤدي الى شهرزور ، خط حدود . ونظرا في حوزة السلطان قلعة قزلجة Kizilidji مع توابعها في حين تكون من ممتلكات الشاه منطقة مهربان Mihreban وتوابعها . وعلى الطرفين القيام بهدم قلاع قوتور Kotur او Cotour وماكو Makoo على حدود وان وقلعة مغازبرد Magazberd باتجاه قارص ووان . ويتعهد الشاه بعدم التحرش والتعرض بقلع أخسكة Akiskha وقارص وشهرزور وبغداد والبصرة والاماكن الاخرى الواقعة ضمن الحدود ، مثل الحصون والقلاع والمقاطعات والاراضي والتلال والجبال وعدم تشجيع حركات التمرد في هذه الاماكن . ومن جانبه ، فان جلالة عاهلنا البجل سيحترم السلام وسوف لن يتحرض او يتعرض بما يناقض المعاهدة في الاماكن التي تقع ضمن حدود الطرف الآخر . وبناء على ذلك ، ومن اجل حرية وسلامة التجار والمسافرين التابعين لكلا الجانبين ، فأنني ، وبقوة ما امتلكه من صلاحية كاملة وسلطة ، كتبت هذه المعاهدة الاولى ذات المحتوى الصادق ، وارسلتها الى جلالة الشاه والى عاهلنا العظيم البجل . وطالما حافظ الشاه على التزامه بهذه

بصلاحية كاملة من قبل السلطان « حامي العقيدة ... وظل الله في الارض ... حامي الاسلام والمسلمين وخادم الحرمين الشريفين » في اقرار ما يراه من حرب او سلام . لقد امرت القوات العثمانية المظفرة بالزحف من وراء بغداد ، وبدأت بالتوجه اماما بهدف الدخول في المناطق الفارسية ، وحين وصولنا الى الموقع المدعو هاروني Haronia وصل اليها المحترم شمس الدين محمد قولي بك Chems Uddin Mehemed Culy Bey وهو مخول بصلاحيات سفير ويحمل رسالة من الشاه البجل « الذي عظمته مساوية لتلك التي لداريوس ... اللؤلؤة الثمينة في بحر الملكية وشمس سماء السيادة ، النسر النبيل في ميدان النبل ... عسى الله ان يعطي رايات قوته من الارض الى السماء » الى ملكنا العظيم ورسالة اخرى لي . وقد طلب السفير ان نعمل على اطفاء نيران الحرب ، وانا بدوري ولرغبتني في تطبيق ما جاء في كتاب الله العزيز « فان جنحوا للسلم فاجنح لها » وافقت من اجل سلامة الجنس البشري على احلال السلام ، وارسلت رسالة الى الشاه طالبا منه ان يرسل شخصا مخولا بصلاحية مطلقة لتحقيق شروط السلام بطريقة مشرفة لكلا الحكومتين . ونتيجة لذلك ، فقد عين الشاه المحترم صاروخان Saroukhan عاهدا له بصلاحية التفاوض لعقد المعاهدة .

وحين وصول صاروخان الى المعسكر الامبراطوري في (زهاب) استقبل بالترحاب . وفي اليوم الرابع عشر من محرم من سنة ١٠٤٩ للهجرة ، عقد اجتماع في المعسكر الامبراطوري حضره الوزراء والميري ميران Miri Miran (٢٠٦) والقادة والاغوات ، اغا الانكشارية وستة اغوات لسته سرايا وضباط آخرون من الجيش . وقدم صاروخان والسفير محمد قولي بك الى الديوان ، وجرت مناقشة المقترحات التمهيدية معهم لوضع الاساس للعلاقات بين الطرفين . وقد جرت كتابة نتيجة المناقشات التي تمت بين الجانبين كما يأتي :

« جسان Tzanan بدرة ، مندلي ، درتنك Dertenk درنة Dernai التابعة لباشوية بغداد ستظل تحت سلطة عاهلنا المهيب ، والذي

(٢٠٦) مير ميران كلمة عربية متركة تقابل البكرلي ، والكلمة « اميري اميران Emiri Emirân » هي تكييف فارسي للكلمة العربية « امير الامراء » . انظر :

Gibb and Bowen, op. cit., p. 139 and fn. 1.

و هي اكمل المعاهدات التي عقدت بينهما حتى ذلك الوقت ، كما انها رسمت حدودا معلومة بين الدولتين ولا سيما المناطق التي كانت مسرحا للنزاع بينهما (٢٠٨) . وقد ظلت تلك الحدود ، على الرغم من عدم دقة رسمها ، غير متغيرة « فيما عدا استثناءات قليلة » لاكثر من قرنين من الزمن (٢٠٩) . وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، وحينما عملت لجان مشتركة على تعيين الحدود بدقة كاملة ، شكلت معاهدة (زهاب) هذه ، نقطة الارتكاز (٢١٠) .

(٢٠٨) الضابط ، ص ٢٤ .
(٢٠٩) Hurewitz, op. cit., p. 21.
(٢١٠) Loc. cit

المعاهدة فان صاحب الجلالة عاهلنا المجل من جانبه سيتصرف وفق الامر الالهي « اوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » .

هذا السلام السعيد سيستمر ويحافظ عليه بمشيئة الله ، الى يوم الدين .

الحمد لله الواحد الاحد والسلام على من لا نبي بعده اولا وآخر .

ختم

مصطفى ، الصدر الاعظم (٢٠٧)

تحتل هذه المعاهدة اهمية خاصة في تاريخ العلاقات بين الدولتين ، العثمانية والفارسية ،

Hurewitz, op. cit , pp. 21-3. (٢٠٧)

٢ - المصادر الاجنبية

- (1) Barber, Noel; *The Lords of the Golden Horn* (London, 1974).
- (2) Cantemir, Demetrius; *The History of the Growth and Decay of the Ottoman Empire*, trans. from the Latin by N. Tindal (London, 1734), vol. I.
- (3) Coke, Richard; *Baghdad the City of Peace* (London, 1927).
- (4) Creasy, Edward S.; *History of the Ottoman Turks* (Beirut, rep., 1961).
- (5) Dury, A. A., 'Baghdad', in : *The Encyclopaedia of Islam*, new edition (Leiden, 1960), vol. I.
- (6) Eton, W; *A Survey of the Turkish Empire* (London, 1799).
- (7) Gibb, H. A. R. and Bowen, H.; *Islamic Society and the West* (Oxford, 1969), vol. I.
- (8) Hurewitz; J. C., *Diplomacy in the Near and Middle East* (New York, rep., 1958), vol. I.
- (9) Lamartine, A. De; *History of Turkey*, trans. from the French (New York, 1857), vol. III.
- (10) Lane-Pool, Stanley; *Turkey* (London, 5th imp., 1908).
- (11) Longrigg, S. H.; *Four Centuries of Modern Iraq* (Beirut, new imp., 1968).

مصادر ومراجع البحث

١ - المصادر التركية

- (١) Sahilloğlu, Halil, Dördüncü Muradin Bagdat Seferi Menzilnamesi (Belgeler-C. 11-1965-Sayi-3-4).
- (٢) فائق ، سيد ، تاريخ بجوى (استانبول ، مطبعة عامرة ، بدون تاريخ) ج ٢ .
- (٣) منجم باشي ، تاريخي (مطبعة عامرة ، استانبول ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨) ج ٣ .
- (٤) هامر ، دولت عثمانية تاريخي ، مترجمي محمد عطا (اوقاف اسلامية مطبعة سي ، ١٣٣٥هـ) ، مجلد ٩ .

٢ - المصادر العربية

- (١) تافرييه ، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرييه ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، (بغداد ، ١٩٤٤) .
- (٢) سرهنك ، المير الاي اسماعيل ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، (القاهرة ١٣١٤هـ) ، ج ٢ .
- (٣) الضابط ، شاكور صابر ، العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، (بغداد ، ١٩٦٦) .
- (٤) القهواني ، حسين محمد ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٣٤ - ١٦٣٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ١٩٧٥ .
- (٥) الغزاوي ، عباس ، العراق بين احتلالين (بغداد ، ١٩٤٩) ، ج ٤ .

حَمَلَتْنَا ذِي شِئَاءٍ عَلَى بَعْضِ كَلْبٍ

بقلم الدكتور

علاء موسى كاظم نورمن

كلية الاداب / جامعة بغداد

والاقتصادية خلال مختلف العصور ، فقد دار صراع متطاوّل بين الفرس والعثمانيين للاستيلاء عليه . ولم يمه الفتح العثماني للعراق سنة ١٥٣٤م هذا الصراع ، فالعراق عاد الى السقوط مرة اخرى بعد ذلك في يد الصفويين (٥) . ولكن اذا كان العثمانيون قد حاولوا اكثر من مرة استرداد بغداد وفشلوا ، الا ان ذلك ما كان ليحول دون معاودة الكرة ، وبقوة اكبر ، اذا تولى العرش سلطان قوي مثل مراد الرابع آخر السلاطين العثمانيين الفاتحين . فقد قام بحملة شاملة على بلاد فارس واسترد العراق في سنة ١٦٣٨م (٦) ، بعد احتلال فارسي دام خمسة عشر عاماً (١٦٢٣ - ١٦٣٨) . ودارت من بعد مفاوضات أدت الى عقد معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩م (٧) ، والتي اصبحت نصوصها أساساً لجميع المعاهدات التالية ، بل كان لها شأن خطير في تحديد العلاقات بين الدولتين العثمانية والفارسية حتى القرن العشرين .

غير ان اطماع الدولة الفارسية التوسعية لم تحل دونها اية معاهدة ، واذا قدر لهذا الصلح ان يدوم فترة طولها ثمانون عاماً ، دون ان يعكسره

كانت العلاقات العثمانية الفارسية ذات طابع خاص محلي ودولي منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي . فقد أدى ظهور الدولة الصفوية في بلاد فارس ، الى احداث انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية فتوقف زحفها في اوربا أو كاد واتجهت اتجاهاً شرقياً في قلب الشرق العربي (١) . وذلك للوقوف بوجه الصفويين الذين كانوا معهم على طرفي نقيض ، والذين أخذت قوتهم تتعاظم بسرعة وأصبحوا يهددون الدولة العثمانية بعد أن امتدت سيطرتهم الى هراة شرقاً وديار بكر وبغداد غرباً (٢) .

ولكن ، كما واجه الساسانيون والفرثيون من قبلهم البيزنطيين والرومان فقد وجد الصفويون أن عليهم أن يتحملوا تبعاً تحدي سلطة الأتراك العثمانيين (٣) ، خاصة وأنه لم يبق للدولة الآق قوينلو الحاجة بينهما أي وجود بعد سقوطها سنة ١٥٠٨م (٤) .

ولما كان العراق مركز الجاذبية السياسية

- (١) محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ٩ ، ص ١٠٠ .
 - (٢) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٧٣ ؛ خليل ادهم ، دول اسلامية ، استانبول ١٣٤٥ ، ص ٤١٢ .
 - (٣) فيليب حتي ، موجز تاريخ الشرق الادنى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٧٢ .
 - (٤) ستيفن لوتريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ط ٤ ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٣٣ .
- وكان الشاه اسماعيل الصفوي قد استطاع في سنة ١٥٠٨م ان ينتزع بغداد من سيطرة القبيلة التركمانية الآق قوينلو التي حكمت العراق منذ سنة ١٤٦٨م .

- (٥) سقطت بغداد ثانية بايدي الفرس سنة ١٦٢٣م في عهد الشاه عباس الكبير .
- (٦) مرتضى نظامي زادة ، كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، النجف ١٩٧١ ، ص ٢٢ ؛ احمد بن لطف الله منجم باشي ، صحائف الاخبار ، ج ٣ ، ص ٢١٢ .
- (٧) انظر نصوص المعاهدة في : تاريخ نعيما ، ج ٣ ، ص ٤٣٠ ؛ معاهدات عمومية مجموعة سي ، ج ٢ ، ص ص ٣١٠ - ٣١٢ ؛ شاكر الصابط ، العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، ص ص ٣٣ - ٣٦ .

العراق ، واستخدموا في سبيل ذلك كل ما في جعبتهم من أسلحة . ثم غزت قواتهم العراق تحت قيادة نادر شاه في سنة ١٧٣٢م ، وهي تعتبر آخر محاولاتهم الخطيرة للاستيلاء عليه ، وكادت بغداد ان تسقط لولا صمودها وتصدي جماهيرها للقوات الغازية .

وكان نادر شاه قد بعث برسالة الى احمد باشا والي بغداد يتوعده فيها وينذره بأنه زاحف نحو بغداد لفتحها حيث خاطبه قائلاً : « ليكن معلوماً لديكم ، يا باشا بغداد ، أننا سائرون حالاً على رأس جيشنا لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ، ولنتسريح في ظل أسوارها » (١٢) .

وقد أسرع احمد باشا بتحصين مواقع الحدود في درنه ومندلي وبدره (١٣) ، وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين . ثم أصلح مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد ، وأخبر الباب العالي بسرعة دنو الخطر (١٤) . وذكر في رسالة بعثها الى القسطنطينية ، بيد مبعوثه عثمان أغا الجوقدار « ... ليس لدينا جيش يعتمد عليه ، اتفقت كلمتنا أن نتخذ الحصار في بغداد ... نطلب الاهتمام للأمر واتخاذ العدة اللازمة من جميع جهاتها » (١٥) . وقد أسرعت الدولة العثمانية بأرسال نجدات كبيرة الى بغداد (١٦) .

أما نادر فقد اقترب بقواته التي تقدر بمئة ألف مقاتل من الحدود العراقية ، وبدأ بمهاجمة المواقع التي قام احمد باشا بتعزيزها ، فاستطاع ان يحتل موقع زهاب بعد أن فاجأ القوات العثمانية

عبدالمتم محمد وابراهيم الشواربي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩٥ ؛

Lockhart, L.: The Fall of the Safavi Dynasty, Cambridge 1958, P. 307.

(١٢) لونكريك ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .
(١٣) محمد حسين قدوسي ، نادرشاه ، خراسان ١٣٢٩ ، ص ٢٢٩ .

(١٤) لونكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ ؛ جعفر الخياط ، صور من تاريخ العراق ، ج ١ ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٢١ .

(١٥) عباس الزاوي ، العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(١٦) السويدي ، حديقة الزوراء ، ق ٢ ، مخطوط ، ورقة ١١٧ ؛ الكركوكلي ، دوحة الوزراء ، ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٢٩ .

قتال جدي بين الدولتين ، فان ذلك يمكن أن يعزى الى انشغال الدولة العثمانية بحروبها الأوربية (٨) ، وانشغال الدولة الفارسية بمشاكلها الداخلية .

وينبغي ان نشير هنا الى ان بلاد فارس شهدت في اوائل القرن الثامن عشر ، تزايد انحلال الاسرة الصفوية ، وسيرها نحو الانهيار بخطى سريعة . وما رافق ذلك من موجات عاصفة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، استفرقت العقود الثلاثة من ذلك القرن ، ووصلت الى مداها بتمزق البلاد الفارسية على أثر سقوط الحكم الصفوي سنة ١٢٧٧م بعد الغزو الاجنبي الافغاني أولاً ، ومن ثم الروسي والعثماني (٩) .

غير أن الفرس بعد أن افاقوا من نكباتهم واستطاعوا اخراج كافة القوى الغازية من بلادهم ، اثر ظهور شخصية نادر شاه (١٠) على مسرح الاحداث في بلاد فارس ، وتزعمه المقاومة ضد الغزاة (١١) ، عادوا مرة أخرى الى التدخل في شؤون

(٨) كانت أبرز حروب الدولة العثمانية في هذه الفترة مع النمسا ، وقد انهزمت خلالها هزائم ساحقة . وفي سنة ١٦٩٩م انتهت الحرب بمعاهدة كارلوفتر ، والتي لم تعد الدولة العثمانية بعدها ذلك الخصم العنيد الذي كان يهدد أوروبا الغربية ، وفدت أوروبا هي التي تهدد وحدة الامبراطورية العثمانية وتماسك اجزائها .

(٩) Sykes, P.: A History of Persia, Vol. II, London 1969, 183, 237;

صالح العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٥٢ .

(١٠) ولد نادر وترعرع في خراسان ، وكانت ولادته في الثاني والعشرين من تشرين الاول ١٦٨٨م (٦ محرم ١١٠٠هـ) ، وبدأ حياته راغياً كاييه ، غير انه اختط سلم النجاش منذ دخوله في خدمة (بابا علي بيك احمدلو) الذي كان حاكماً لمدينة ابيورد ، وزعيماً لقبائل الافشار فيها . وعند موت احمدلو - وبعض الروايات تتهم نادر بتدبير قتله - أصبح نادر حاكماً على ابيورد ، وبدأ نجمه بالظهور على مسرح الاحداث . وفي السابع من تموز ١٧٣٢م (١٧ ربيع الاول ١١٤٥هـ) وضع نادر نفسه وصياً على العرش الفارسي واتخذ لقب (وكيل الشاه) وبعد حوالي اربعة سنوات توج شهاها لبلاد فارس (٨ آذار ١٧٣٦م / ٢٤ شوال ١١٤٨هـ) . للاطلاع على سيرة نادر شاه ، راجع :

Sykes, P.: op. cit., Vol. II, pp. 247-8;
Encyclopaedia Britannica, (U.S.A. 1965), Vol. 15, P. 1146;

محمد حسين ميمندي ، حياة نادر شاه افشار

(١١) دونالد ولبر ، ايران ماضيها وحاضرها ، ترجمة

هناك ، بمهاجمتها ليلاً من جهة غير متوقعة (١٧) . ثم بدأ توغله في الأراضي العراقية ، وبدلاً من أن يتجه مباشرة إلى بغداد تظاهر بأنه زاحف بجيشه نحو كركوك ، على أمل أن يخدع أحمد باشا ويجعله يتحرك من بغداد لملاقاته (١٨) .

وبالقرب من طوز خورماتو (١٩) ، توقف نادر شاه وأرسل قسماً من قواته لغزو كركوك (٢٠) ، ولكن القوات الفارسية واجهت مقاومة شديدة فعجزت عن احتلالها ، وعندئذ قامت بتدمير القرى المجاورة لها (٢١) . وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات فارسية تقدر بثمانية آلاف مقاتل يقودها (نرکز خان) تشن هجوماً على الموصل ، إلا أن واليها حسين باشا الجليلي تمكن من صدها والحاق الهزيمة بها ، فاضطرت إلى التقهقر بعد أن قتل قائدها نرکز خان ، والتحقّت بالجيش الرئيس الذي كان قد اقترب في زحفه من بغداد (٢٢) .

وكان نادر قد واصل تقدمه من طوز خورماتو وتمكن من دحر القوات العثمانية المتواجدة بالقرب من شهربان (٢٣) ، كما حاصر بعد عبوره نهر ديالى من بهرز ، وصار على بعد عدة مراحل من بغداد ، فرقة استطلاع عثمانية كانت قد أرسلت للتصرف على حقيقة العدو ، فقتل وأسر عدداً كبيراً من أفرادها ، كما قتل قائدها محمد باشا حاكم كوي (٢٤) .

وفي أواخر كانون الأول ١٧٣٢م (رجب ١١٤٥ هـ) بدأ نادر بفرض حصاره على الجانب

- (١٧) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، تهران ١٣٣١ ، صص ١٩١ - ١٩٢ ؛ دره نادة ، تهران ١٣٤١ ، صص ٧٣٥ ، لونكرنك ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ .
- (١٨) قدوسي ، المصدر السابق ، ٢٢٩ .
- (١٩) قرية تقع إلى الشرق من الطريق المباشر المار من بغداد إلى الموصل ، وإلى الشمال الغربي من كركوك .
- (٢٠) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، ص ١٩٣ .
- (٢١) صفحة منسية من تاريخ نادر شاه ، نبذة تاريخية كتبها أحد نصارى كركوك المعاصرين لنادر ، ونشرها نرسييس صايفان في مجلة لفة العرب ، الجزء الخامس ، السنة السابعة ، مايس ١٩٢٩ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .
- (٢٢) ياسين العمري ، غاية المرام ، ص ١٨٠ ؛ زبدة الآثار الجليلة تحقيق عماد عبدالسلام ، النجف ١٩٧٤ ، ص ٨٨ ، سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٣ ، ص ٢٧٤ . ومما يجدر ذكره هنا أنه لم ترد أية إشارة في المصادر الفارسية إلى قيام القوات الفارسية بمهاجمته .
- (٢٣) ناحية تابعة للقضاء مركز بمقوبة في محافظة ديالى ، وهي تبعد عن بغداد حوالي ١٠٨ كيلومتر .
- (٢٤) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، ص ١٩٤ ؛ قدوسي ص ١٧١ .

الشرقي من بغداد ، وقد عسكر بالقرب من قصبة الامام الاعظم ابي حنيفة ، وعزم على العبور إلى الجانب الايمن لنهر دجلة ، لتطويق بغداد من جميع جهاتها ، وكان أحمد باشا والي بغداد قد قسام بتحسين هذا الجانب ، لمنع أية محاولة فارسية للعبور (٢٥) . وفي العشرين من كانون الثاني ١٧٣٣م (شعبان ١١٤٥ هـ) ، أحبطت أول محاولة لهم (٢٦) .

غير أن نادر أستعان بمهندس أوربي كان يرافقه في الحملة ، في انشاء جسر عائش من جذوع النخيل على بعد عدة أميال من شمالي بغداد ، وبعد الانتهاء منه ، تمكنت ثلة من القوات الفارسية تعدادها الفين وخمسمائة مقاتل ، يقودها نادر نفسه ، من العبور إلى الجانب الايمن من نهر دجلة ، وذلك في الخامس عشر من شباط (الاول من رمضان ١١٤٥ هـ) ، ثم عبرت بالزوارق قوات أخرى تتألف من ألف وخمسمائة مقاتل ، فتكون من ذلك رتل قوي زحف إلى الكرخ (٢٧) ، فتصدت لهم القوات العثمانية بقيادة قره مصطفى باشا ، وأسرع أحمد باشا في ارسال تعزيزات كبيرة إلى هناك (٢٨) . وقد جرت معركة عنيفة رجحت فيها كفة العثمانيين في أول الأمر ، حتى خاف نادر على حياته ، إلا أن نجدات فارسية عبرت بسرعة ، فتغير الموقف ، وانسحبت القوات العثمانية إلى المدينة بعد أن تكبدت خسائر كبيرة (٢٩) .

وإذ ذاك أمر أحمد باشا سكان جانب الكرخ بالانسحاب العام إلى الجانب الايسر (٣٠) (الرصافة) ، ليكونوا في حماية سوره المنيع ، وقد سحب هذا الانتقال عبر دجلة أهوال ومصاعب كبيرة حيث يذكر الكركوكلي « وكانت السفن لا تكاد تكفي لنقلهم من جانب إلى جانب ، ومن جراء الازدحام هلك خلق كثير من الناس ، بمن فيهم الشيوخ والعجائز والأطفال » (٣١) .

وقد خف نادر لاحتلال رأس الجسر في جانب

- (٢٥) السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ورقة ١١٧ و ١١٨ ؛ المصدر السابق ، صص ٢٢٩ - ٢٣٠ ؛ لونكرنك ، المصدر السابق الكركوكلي ، المصدر السابق ، صص ٢٩ - ٣٠ .
- (٢٦) لونكرنك ، المصدر السابق ، ص ١٧١ .
- (٢٧) ميرزا مهدي خان ، المصدر السابق ، صص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٣١ .
- (٢٨) السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ورقة ١٢٠ ؛ الكركوكلي (٢٩) لونكرنك ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
- (٣٠) نفس المصدر .
- (٣١) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

الكرخ» (٢٢) ، وبعث قسماً من قواته لاحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة والرماحية» (٢٣) .

وبعد أن احكم الفرس الحصار حول بغداد ، أصبح الموقف فيها حرجاً تاماً ، غير أن الفرس سرعان ما أدركوا ضعف مدفعيتهم ، حيث لم تتمكن من أحداث ثغرات خطيرة في سور بغداد ، الذي كان محكماً . ولذا لم يكن امامهم غير الاستمرار في الحصار املاً في أن تستسلم لهم . ولجأ نادر الى الاساليب النفسية في محاولة للتأثير على معنويات جماهير بغداد ، فكان يرسل ارتالاً من جيشه بصورة خفية ليلاً الى اطراف بغداد ، ثم يعودون بوضوح النهار وكأنهم نجدة قادمة الى الفرس» (٢٤) .

والواقع ان الحالة داخل المدينة المحاصرة أصبحت مضطربة ، فقد كان الضيق آخذاً بالاشتداد ، حيث قلت الاقوات ، ويأس الناس من أمل وصول الامدادات العسكرية من الباب العالي ، رغم أن أحمد باشا والي بغداد كان يشرف بنفسه على شؤون الدفاع ومناوشة العدو ، وعلى ادامة المقاومة وبث الروح المعنوية لأطالة أمد الثبات والصمود ، حيث كانت تداع من وقت لآخر وبايعاز منه ، أخبار تنبئ بفرب وصول الامدادات» (٢٥) . لكن ويلات المجاعة أخذت شكلاً مروعاً في المدينة ، بحيث أكل الناس لحم الحمير والكلاب والقطط ، فانتشرت الاوبئة بصورة هائلة ، وبلغت الحالة - كما يصفها الشيخ عبد الرحمن السويدي - أنه أثناء خروجه من مسجد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، بعد انقضاء صلاة الجمعة متجهاً نحو منزله ، شاهد في طريقه امرأة منكبة على جيفة حمار ويدها سكين تقطع لحمه وتضعه في حجرها» (٢٦) .

وفي هذه الاثناء ورد كتاب من مفتي الجيوش الفارسية الى علماء بغداد - بناء على أمر من نادر - يقول لهم فيه :

(٢٧) لونكر ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٢٨) Hammer, J. : Histoire de L'Empire Ottoman, Vol. XIV (14), Paris 1839, P. 287.

وانظر : كامل باشا ، تاريخ سياسي دولت عليه عثمانی ج ٢ ، ص ١٤٥ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٣١ .

(٢٩) لونكر ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٣٠) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٣١ .

(٣١) السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ورقة ١٢١ و ١٢٢ .

« اننا علمنا ما وصلت اليه الحالة بكم ، وعلمنا أنكم تنقصكم الاقوات والعساكر والعتاد ، وأن الناس قد أهلكتهم المجاعة ، فأنتم وحدكم المسؤولون عنهم عند الله . قولوا لأحمد باشا أن لا يلقي الناس الى التهلكة عبثاً ، وأن يستسلم فأنا ذلك أولى له من الدمار التام » (٢٧) .

فلما بلغ الباشا ذلك قال للعلماء اكتبوا له « انني لا أسلم حجراً من أحجار بغداد حتى أقبر في مكاني هذا ، وأن ذخيرتنا كافية ومددنا كثيرة العدد متواصلة المدد ، ولم يكن توقفنا عن مناوشتكم في بعض الايام دون علة او حكمة ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » (٢٨) .

وفي اوائل حزيران ١٧٣٣م (محرم ١١٤٦هـ) وصل مدينة الموصل طوبال عثمان باشا الصدر الأعظم السابق ، على رأس جيش تعداده ثمانون ألفاً ، بعث به السلطان العثماني لفك الحصار عن بغداد» (٢٩) . وبعث طوبال برسالة الى والي بغداد يخبره فيها بأنه قادم لنجدة» (٣٠) ، فاشتدت العزائم ، واستمات المحاصرون في الدفاع» (٣١) .

وعندما تأكد نادر من صحة اقتراب القوات العثمانية ، أصدر أوامره بتشديد الحصار على بغداد» (٣٢) ، وبعث كتاباً الى طوبال عثمان باشا ، الذي كان قد وصل في زحفه الى كركوك ، تمنى له رحلة سريعة نحو حتفه ، وعند اقترابه من سامراء تسلم كتاباً آخر من نادر يعلمه فيه بأنه جاهز للملاقاة في اي وقت ومكان يختاره هو . ثم زحف نادر على رأس قوة كبيرة مؤلفة من خمسين ألف مقاتل» (٣٣) ، لمجابهة القوات القادمة قبل وصولها الى بغداد ، تاركاً اثني عشر ألفاً من قواته لمواصلة حصار بغداد» (٣٤) .

(٣٥) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٣١ وانظر السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ١٢٢ .

(٣٦) السويدي ، المصدر السابق ق ٢ ، ورقة ١٢٢ .

(٣٧) لونكر ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛

Sykes, P. : op. cit., Vol. II, P. 251.

(٣٨) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

(٣٩) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٤٠) نفس المصدر .

(٤١) لونكر ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٤٢) ابراهيم الفندي ، مصباح الساري ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛

←

وهكذا بعد قتال مرير دام تسع ساعات متواصلة ، انتهت المعركة بهزيمة تامة وساحقة للقوات الفارسية (٥١) ، وأرسلت رسائل الظفر من ميدان الموقعة (٥٢) ، الى السلطان العثماني ، وإلى باشا بغداد (٥٣) .

ويمكن أن يعزى صمود العثمانيين الى شخصية قائدهم البطولية وثباته في المعركة ، فقد كان خلالها « يوجه رجاله بحكمة كبيرة وعزم » على حد قول طبيبه الفرنسي الخاص جان نيكوديم في رسالة له الى السفير الفرنسي في القسطنطينية الماركيز دي فيلنيوف مؤرخه في ١٠ آب ١٧٢٣ م . ويستطرد الكاتب الفرنسي في وصفه لطوبال يوم المعركة قائلا : « وبعد أن صلى ، امتطى صهوة جواده ، وهو عمل لم يقم به خلال الحملة ، اذ كان محمولا على محفة بسبب اعتلال صحته ، ولا يمكن ان اعزو القوة التي أظهرها الآن الى شيء سوى روحه العسكرية ، والحماس المتأجج في داخله فقد رأيت ممتطيا جواده كأنه في عنفوان الشباب ، قابضا بيده على سيفه ، فكانت سيماء تبعث في الناظرين اليه الحماسة والنشاط ، وعيناه تتألقان حين يصدر أوامره بخفة مدهشة وفكر متيقظ » (٥٤) .

لقد انقذ النصر الذي أحرزه طوبال عثمان باشا ، بغداد من السقوط بأيدي الفرس ، فقد هرب نادر جريحا ومعه فلول قواته المنهزمة عن طريق بهرز باتجاه الاراضي الفارسية (٥٥) . وقام

(٥١) تاريخ صبحي ، ج ١ ، ص ٩٧ ؛ ابراهيم الفندي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ، أحمد راسم ، عثمانلي تاريخي ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ؛ لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
(٥٢) كان ميدان الموقعة عند قرية الدجيل على ضفاف دجلة ، على بعد (٦٢) كيلومتر الى الشمال من بغداد . انظر : Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, P. 290.

(٥٣) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
(٥٤) انظر نص رسالة نيكوديم الى السفير الفرنسي في : Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, PP. 514-528.

وفي الرسالة وصف مسهب لمعركة التاسع عشر من تموز ١٧٢٣ م (٦ صفر ١١٤٦ هـ) وانظر : لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ ؛

Creasy, E.: History of the Ottoman Turks, PP. 353-4.

(٥٥) ابراهيم الفندي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ، أحمد راسم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ؛ Shay, M.: The Ottoman Empire from 1720 to 1734, Urbana 1944, P. 144.

وعندما علم القائد العثماني طوبال بذلك عن طريق دوريات الجند الاستطلاعية ، التي كان يرسلها لمعرفة تحركات نادر العسكرية ، توقف عن المسير ، وعسكر على ضفاف دجلة بالقرب من سامراء ، وأمر ضباطه بالاستعداد للمواجهة (٥٥) .

وفي صباح اليوم التاسع عشر من تموز ١٧٢٣ م (٦ صفر ١١٤٦ هـ) ، التحمت طلائع القوتين (٥٦) ، في معركة كانت في ضراوتها واحدة من أشد المعارك التي خاضها العثمانيون والفرس (٥٧) ، وتمكنت قوات نادر في بدايتها من دحر خيالة العثمانيين ، الا ان تقدم قوة المشاة العثمانية ، أعاد التوازن الى المعركة (٥٨) . فشن الفرس هجوما عنيفا أرغم خط الدفاع العثماني على التقهقر ، وتم الاستيلاء على قسم كبير من مدفعيته ، فأصبح موقف العثمانيين حرجا ، ولكن طوبال عثمان باشا واجه الموقف الصعب برباطة جأش ، ورفض فكرة مستشاريه الذين اشاروا عليه بالتقهقر ، وزج بقواته الاحتياطية المؤلفة من عشرين ألف مقاتل الى ساحة المعركة ، فاستطاعت الحد من الهجوم الفارسي ، واستعادت المدفعية التي فقدتها (٥٩) ، مما دفع نادر أن ينزل بنفسه الى قلب المعركة ، فسقط مرتين على الأرض ، وهرب حامل لوائه من الميدان معتقدا أن نادر قد قتل ، وبلغ جنده درجة الاعياء من الحر والعطش ، فبالإضافة الى أشعة تموز المحرقة ، لم يكن يوسع الفرس الحصول على الماء للسيطرة العثمانيين على ضفاف دجلة ، فأضطر نادر الى الانسحاب من أرض المعركة ، بعد أن أضاع سيطرته على الفلول المتفرقة من جيشه (٥٠) .

كامل باشا ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣ - ٢٣٤ ؛ الزاوي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٤١ ؛

Sykes, P.: op. cit., Vol. II, P. 251.

اما لوتريك فيقول ان القوة التي تركها نادر لتدعيم الحصار كانت مؤلفة من ثمانية الاف مقاتل . (لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦) .

(٥٥) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٥٦) ابراهيم الفندي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤ ؛

Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, P. 290.

(٥٧) Malcolm, J.: The History of Persia, Vol. II, London 1815, P. 57;

(٥٨) Sykes, P.: op. cit., Vol. II, P. 252.

(٥٩) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٥٠) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ؛ Malcolm, J.: op. cit., Vol. II, P. 57.

أحمد باشا عند وصول أنباء الانتصار ، بمهاجمة القوة الفارسية المرابطة عند أسوار بغداد ، فقتل معظم أفرادها^(٥٦) ، واستطاع الباقون الهرب إلى بلاد فارس^(٥٧) ، فتخلصت بغداد من الحصار الذي عانت منه الولايات طيلة سبعة شهور^(٥٨) .

وقد استقبلت القسطنطينية أخبار انتصار

(٥٦) يبلغ لوتكره حين يقول أن القوة الفارسية أبيدت عن آخرها ولم يسلم منها انسان . (أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ١٧٦) .

(٥٧) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

(٥٨) السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ورقة ١٢٦ .

طوبال عثمان باشا ، وانتهاء حصار بغداد ، بفرح عظيم ، وامتدت الاحتفالات ثلاثة أيام بلياليها ، وانهالت على طوبال الألقاب والتفويضات ، حيث انعم عليه السلطان محمود الأول بلقب (الغازي)^(٥٩) . وتفاخر الصدر الأعظم علي باشا حكيم أوغلو أمام السفير الفرنسي في القسطنطينية الماركيز دي فيلنيوف Villeneuve بأن طوبال عثمان جمع غنائم من الحرب تكفي لتحصين وتسليح مدينة جديدة^(٦٠) .

(٥٩) احمد راسم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .
Shay, M.: op. cit. P. 144. (٦٠)



مركز تحقیقات کاتبی و اسنادی



بغداد ١٩١٧

ترجمة وتعليق الدكتور

محمد طاهر الأدهبي

الجامعة المستنصرية - بغداد

« ان على هؤلاء الذين ينكرون سحر هذه المدينة ان يقفوا على النهر من جهة الشمال وقت الغروب ليشاهدوا الامتداد الرشيق لجهة النهر حيث تصطف المساجد والتارات ذات الاجر الازرق لتمسك بخيوط اشعة الشمس المائلة » .

“Edmond Candler

البريطانيين اليها ، تعيش انحسارا حضاريا تمتد جذوره الى سقوط الدولة العربية الاسلامية حينما احتل الغزاة المغول بغداد سنة ١٢٥٨ م . لذلك فان الوصف الجميل الذي يعرضه كاندلر تحف به ، ولاشك ، بغض الجوانب السلبية التي كانت المدينة تعيشها ، الا ان هذه المظاهر السلبية تكشف في الوقت نفسه الفرق الحضاري بين ذلك الواقع وبين ما كانت عليه بغداد ايام ازدهارها زمن العباسيين وما هي عليه الان في تطورها الحضاري المعاصر . ومع ذلك فان التراث الحضاري تبقى اثاره قائمة في اي زمان ، ولا يمكن لاي شاهد ان يتغاضى عنه . وقد كان كاندلر امينا في وصفه لنا بغداد .

في فصله المتعلق ببغداد المسمى : “First Days in Baghdad” : الايام الاولى في بغداد ، والمنشور في الجزء الثاني من المذكرات ، يبدأ كاندلر بوصف احوال المدينة عند دخول القوات البريطانية المحتلة اليها بعد ان انسحب منها الاتراك دون قتال فيها . لقد انسحب الاتراك من بغداد في الساعة الثانية صباحا من يوم ١١ آذار وبقيت المدينة سائبة لمدة سبع ساعات الى ان دخلها المحتلون الجدد في الساعة التاسعة صباحا من اليوم نفسه من جهة الباب الشرقي في جانب الرصافة : -

ادموند كاندلر هو احد الذين رافقوا قوات الاحتلال البريطاني التي دخلت بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ ، وكتب مذكراته عن هذه الحملة في جزئين نشر عام ١٩١٩ في لندن . اطلق كاندلر على كتابه اسم “The Long Road to Baghdad” : الطريق الطويل الى بغداد - شاهد عيان في بلاد وادي الرافدين - قدم فيه عرضا كاملا للحملة على العراق منذ نزولها الى الفاو ، كما انه قدم وصفا للمدن التي مر بها جيش الاحتلال ، فكان كتابه استعراضا جغرافيا اجتماعيا اكثر منه عرضا للعمليات العسكرية .

توقف كاندلر طويلا عند وصفه لبغداد ، ولم اجد احدا فيما اطلعت عليه من المؤلفات ، قد كتب عن بغداد عند دخول قوات الاحتلال البريطاني اليها مثلما كتبه كاندلر . لقد تعرض الى وصف ثلاثة جوانب رئيسة هي : -

- ١ - حالة العامة من الناس عند دخول القوات المحتلة بغداد .
- ٢ - بغداد كما تركها الاتراك المنسحبون .
- ٣ - جمال البيوت والطبيعة .

ولكي اضع القارئ في الصورة لابد من التنويه الى ان بغداد كانت ، في فترة دخول المحتلين

يطلن من كل شباك من هذه الشبايك ، محجبات وغير محجبات . ان ذلك يعتمد على المحلة فيما اذا كانت مسلمة ام مسيحية او يهودية . ان نقوش الشبايك متآكلة ، اما الابواب فهي مرصعة بالمسامير يحمل كل باب منها مطرقة نحاسية جذابة . في الازقة ، حيث يمكن للشخص ان يمس الحائطين المتقابلين للزقاق عند مد ذراعيه الى الجانبين ، تنفتح بوابة الدار على ساحة عريضة مزروع في وسطها اشجار البرتقال والرمان . وكما في مدن الشرق القديمة فان مجازا ضيقا يفضي الى رحبة الدار هذه .

ان سطوح البيوت تقدم للمغامر والعاشق واللص طريقا تمتد اميالا طويلة ، اما الشبايك فان بإمكان روميو وجوليت ان يتحداثا منها بهمس .
يخرج بنا كاندلر من ازقة بغداد القديمة وبيوتها العريقة ليقدّم وصفا لحياة الشارع :-

« في المقاهي يجلس الناس مجتمعين منهمكين بأحاديثهم أو في التفكير أو يلعبون الطاولة والدومنة ، كان هناك قليل من القهوة للشرب ، وكانت السيكاير شحيحة ، انه جمع كتيب . بعد ساعة من دخولنا لم يعد يبالي الناس بوجود الجيش المحتل . انني اذكر الاسواق التي كانت تمثل حياة المدينة ، لقد اصبح الان منظرها كئيبا : الدكاكين فارغة ومغلقة وقد خرب قسم منها . انها ستحتاج وقتا طويلا كي تمتليء بالبضائع ...

في هذه الطرق ذات الاقواس والسراديب ، والتي ازدحمت بعربات النقل والقوات والاسلحة ، يشاهد الانسان الوانا غريبة : عجلات الجزء الامامي من مدفع زنة ٦٠ باوند هدمت سقف احد السراديب ونزلت فيه لتكشف عن رأس يهودي مفزوع ، فيما قد مد بغل سرية مشاة فمه في صحن حلويات تحمله فتاة مهملة ، بينما تشاهد في مكان اخر متسول فارسي سمين يقف على عتبة احد الدور يولول معبرا عن جوعه .

لقد نسي جنودنا تعب المطاردة الطويلة عندما دخلوا المدينة كان تراب بغداد مسكنا لالام ارجلنا لكنه لم يكن التراب السحري الذي صورته لهم قصة الليالي العربية الساحرة ، انها ليست مدينة هارون الرشيد التي سمعنا بها ، او نبوخذ نصر الذي اردنا مشاهدته .

كانت محطة القطار تقع في جانب الكرخ والذي كان حجمه صغيرا جدا قياسا بجانب الرصافة

« عند تقدمنا نحو بغداد سرنا في طريق لا اسم له ، باتجاه سدة مخربة تنتصب آثار البوابة الجنوبية . ثم درنا يسارا فوجدنا انفسنا قرب النهر بمواجهة طلائع البيوت الكبيرة على ضفة نهر دجلة . ان هذه البيوت تشكل مدخلا مفاجئا للمدينة . دخلنا المدينة وكان هناك جمع كبير من الناس على جانبي الطريق ... كانت الاسواق خالية تقريبا ، فقد صادر الاتراك المون والبضائع وكان اخر قطار تركي قد غادر بغداد في الصباح الباكر من يوم ١١ آذار . لقد قال احد التجار بانهم فقدوا ما قيمته مليونين فرنك من البضائع بين الساعة الثانية صباحا وبين ساعة دخولنا بغداد في التاسعة صباحا ...

عندما تقدمنا في المدينة شاهدنا العديد من اللصوص والسراق يحملون الشبايك والمناضد وهياكل اسرة النوم الثقيلة المصنوعة من الخشب او الحديد . كذلك المقاعد واسيجة الحدائق العامة لقد ازالوا كل شيء كان من السهل ازالته .

تقدمنا في شارع خليل باشا وهو الشارع العريض الوحيد في المدينة . لقد اطلق عليه اسم شارع هندنبرك بمناسبة سقوط الكوت - اندحار القوات البريطانية في حصار الكوت - انه ليس بشوارع جميل او جذاب . لقد كانت عملية تطويره متقطعة واوقات اصلاحه متباعدة . التهديم موجود في كل مكان . ان الجدران والاعمدة ذات الاجر المفتت لا تزال منتصبة في الشارع .

لقد مررت ببغداد قبل تسعة عشر عاما ولم يكن هناك طريق للنقل في الجانب الايسر من النهر كانت هناك بعض الاماكن القليلة للجمال في بعض الشوارع ، كما كانت هناك الحمير البيضاء الصغيرة المتوفرة والتي لا يرفع الاغنياء عن الركوب عليها . اذكر انني ركب في عربة بطيئة تسحبها اربعة بغال من بغداد الى بابل والحلة وبرس نمرود .

يتنقل كاندلر الى وصف محلات وبيوت بغداد والتي كان قد رآها - قبل - منذ تسعة عشر عاما فيقول :-

« على جانبي شارع خليل باشا والذي يمتد داخل المدينة موازيا للنهر ، لم تتغير محلات المسلمين والمسيحيين واليهود ، ان الشوارع الضيقة لا تساعد على مرور حصان ، اما الشبايك المتقوسة الواسعة والتي تغطي عادة واجهات البيوت فهي على وشك ان يلتقي بعضها ببعض . كانت هناك نسوة

— انظر الخارطة — لقد وصلت دوريات التفتيش البريطانية المحطة في الساعة ٥:٠٠ من صباح يوم ١١ اذار ، اي قبل دخول الجيش المحتل بغداد من جانب الرصافة يقول كاندلر الذي عبر الى جانب الكرخ بعد احتلال الرصافة : —

« غادر آخر قطار بغداد في الساعة الثانية صباحا . لقد كان هناك اندفاع نحو دائرة الحجر المهجورة بحثا عن بطاقات سفر الى اسطنبول وبرلين . لقد وجد احد جنود الدورية بيان وقت مغادرة القطار . ان ضبط الـ Blak Watch سيضلون نادمين لانهم لم يحملوا معهم جرس المحطة للذكرى ... كانت محطة الاسلكي قد انجزت لتوها بتكاليف باهضة — في جانب الكرخ — وهي من التأسيسات الضخمة التي بناها الالمان ، وكانت على اتصال مباشر مع برلين . لقد فجر الاتراك جهاز الارسال في الصباح المبكر ليوم ١١ اذار وانهدم سطح المحطة ، كما كانت هناك حفرة عميقة في وسط الارض ، اما الرسالة فقد سقطت على الحيطان المجاورة ، كما فجروا احد السخانات الكبيرة ...

انها لراحة نفسية ان تغادر منظر الخراب العلمي وتعبّر النهر مرة ثانية بواسطة (الكف) المدورة التي عرفت منذ زمن نبوخذ نصر ... في الساعة ٩:٣٠ من صباح يوم ١١ اذار عبرت ثلاث كتائب تابعة للواء ٣٥ من الجانب الايمن الى الجانب الايسر — من الرصافة الى الكرخ وبعد احتلال الرصافة بنصف ساعة — واقامت حامية هناك لقد كان على هذه الكتائب ان تعبر النهر بواسطة (الكف) لان جسر القوارب الخشبي نسف ودمر من قبل الاتراك . كما احتل الكاظمية لواء الفرسان » .

اقام كاندلر في فندق Hotel Tigris ، الذي يصفه بأنه قد اقيم على طراز اوربي على النهر في جانب الرصافة ، ويذكر انه قد تناول عشاءه في الفندق مساء يوم ١١ اذار وقد سأل صاحبه الفندق عن اسم قائد جيش الاحتلال فاخبره به ، وفي اليوم التالي اصبح اسم الفندق Hotel Moude ويبدو لي ان هذا الفندق هو فندق Tigris Palace المعروف اليوم باسم قصر دجلة الذي يقع في شارع الرشيد على جبهة النهر والتي قدم كاندلر وصفا لها حيث قال : —

« لم يكن هناك طريق محاذ لجبهة النهر . لقد بنيت البيوت الرئيسة والقنصليات مباشرة على النهر فوق ارضة متينة تشبه الحصون . ان معظم هذه البيوت لها حدائق صغيرة ذات ادراج حجرية

تنزل الى النهر . في المسافات الفاصلة بين هذه البيوت توجد معمرات ، وفي بعض الحالات تخترق هذه المعمرات اقواسا من تحت البيوت حيث تأخذ النساء الماء من النهر باوعية نحاسية ذات اعناق طويلة محززة . وهناك البلام (*) ينتظر من يؤجره ، وكذلك السقائين الذين يملؤن قربهم بالماء ليحملونها على ظهور حميرهم البيضاء » .

ينتقل كاندلر بعد ذلك الى منطقة السراي في الرصافة فيقدم لنا وصفا دقيقا عما كان عليه السراي الحكومي عند دخول البريطانيين المحتلين اليه : —

« في النهاية الشمالية من المدينة يقع السراي المدني والعسكري ، وهو يغطي مساحة ربع ميل على جبهة النهر . وتقع فيه ثكنات الجنود المشاة ومحكمة العدل ومجلس الولاية وجميع المكاتب الحكومية للولاية العثمانية . توجد هنا مساحة واسعة لجميع القوات التي تحتاجها المدينة للحماية .

الابنية المحيطة بالساحة واسعة وقوية البناء. تتم عملية التهوية في السرداب او المكاتب التي تقع تحت الارض بواسطة فتحات ومدخل تمتد الى السطوح ان درجة الحرارة في السرداب اقل مما هي على سطح الارض بحوالي ٨ — ١٠ درجات ...

ان المرء يحتاج اياما عديدة لاستكشاف ما في بنايات السراي ، فهناك الشيء الكثير الذي يمكن معرفته من النفايات التي تركت في عاصمة تخلت عنها حكومة لم يكن لديها الوقت الكافي للفرار . كنا نفتش الدوائر الحكومية بعد ١٢ ساعة من انسحاب الاتراك . لقد وجدنا في كل غرفة تقريبا اشياء كان الاتراك حتما مترددين في تركها خلفهم لولا صعوبة النقل . لقد وجدنا في احدى الدوائر خرائط مسح وفي الاخرى قوائم بالعائدات التجارية . وفي غرفة ثالثة عثرنا على الحقائق الرسمية وبطاقات العضوية الخاصة بلجنة الدفاع الوطني . اما اوراق قسم الارواء فقد كانت مبعثرة في ساحة تتوسطها حديقة برتقال ، في حين كانت الخرائط والخطط التي رسمها وليم ولكوكس معلقة على الحيطان او منشورة على الارض في احدى الغرف .

في قلعة السراي كانت اكاداس الاسلحة تنمو

* كلمة دخيلة وهي في العامية العراقية بمعنى صاحب الزورق أو الملاح (المود)

وترتفع مع استمرار تفتيش المدينة بيتا بيتا . لقد وجدنا الى جانب البنادق والسيوف والمسدسات كميات كبيرة من المعدات عديمة الفائدة من وجهة النظر العسكرية ، الا انها مثيرة للفضول . فهي تبديء بخراطيش المدافع الفارغة القديمة والتي تعود لزمان السلطان مراد وتنتهي بالبنادق التي تركناها في الكوت في العام الماضي .

لقد نقشت على فوهات المدافع اشكال لجنود محاربين وحيوانات تتوسطها نقوش كتابية بالعربية والفارسية . « نصر من الله وفتح قريب » نقش تحمله احدى هذه المعدات الصلبة يعود تاريخه الى عام ١٥٤٦م . في مكان اخر « الشاه صفوي ملك النصر سيمحي اثر الاتراك . ان هذا المدفع ينفت النار ويقذف اللهب على الاتراك كالتنين » .

يتحول كاندلر الى مكان اخر من بغداد ليصف لنا المقابر في جانبي الرصافة والكرخ والاجواء التي شعر بها عند ارتياده هذه المناطق : -

« ان اللون الوحيد الذي يمكن مشاهدته في بغداد وضواحيها هو اللون الازرق والذهب القديم اللذان يغطيان المساجد والمنارات ان هذه الفسيفساء البراقة تشكل تفييرا مريحا للاعصاب في بلد اختفت ألوانه بسبب التراب الذي يغطي ارض وحيطان وسقوف البيوت ، اضافة الى ذرات الغبار الحارة التي تعوم فوق كل شيء .

كما هو معروف في المدن الاسلامية القديمة فان ابرز ظاهرة في ضواحيها هي المقابر . فسي داخل السدة التي تطوق المدينة - جانب الرصافة - تزدهم المقابر حيث تنتشر رائحة تعفن جافة . اما الطريق الواقعة خلف السدة والتي تعود الى ايران عبر الصحراء فان العلامة البارزة فيها هي الهياكل العظمية والعظام المتكدسة . ان كل علامات الطريق عبارة عن مساجد او قبور .

في الجانب الايسر - الكرخ - ترقد زوجة هارون الرشيد تحت منارة طويلة محززة الحافات وذات نهاية مستدقة ، انها تشبه شجرة التنوب المخروطية الشكل . ان التلة التي تمتد من الضريح الى الجامع تزدهم بالقبور لدرجة انه لا يوجد مكان لدفن جثة طفل عمره شهر واحد . عندما كنا نسير قرب المكان جلب جثمان ملفوف بالشراشف

ومحمول على تخت خشبي ، ولم يكن بالامكان دفنه في هذا المكان المزدحم ، فكان اقرب مكان ممكن هو بستان النخيل المترب المقابل للمقبرة حيث وقف النداب المختص يولول ناثرا التراب الذي كان يتطاير نحونا . انه الشيء الوحيد الذي يعج بالحياة في هذا المكان الميت . واكثرهم موتا زبيدة في قبرها - الشائع ان اسم قبر زوجة هارون الرشيد هو الست زبيدة في حين ان الاسم الصحيح هو زمرد خاتون - لقد ماتت معها رومانيتها واساطيرها ، وذلت وجفت معها كل حيوية اليعاء الرومانسي في هذه الايام الشديدة » .

يقول كاندلر : ان هناك كثيرا من المسائل الانسانية التي تجلب الانتباه في بغداد ، اما بالنسبة لهؤلاء الذين يبحثون عن الاسود في هذه المدينة العريقة المهذمة الان والمليئة بالاوساخ فان من الصعب تصور شعورهم لان ما توقعوا مشاهدته لم يجدهم ، انهم سيصيحون من اوهامهم حالا » .

مكث كاندلر في بغداد الى نهاية مايس وقدمكنه ذلك من مشاركة البغداديين في النوم على السطوح - « في نهاية مايس كانت حرارة الصباح تحتمل الا ان حرارة الشمس قد بدأت ترتفع . تمشيا مع عادة اهل البلاد ، فقد كنا ننام فوق السطوح . في اوائل نيسان كانت جميع سطوح المنازل مهجورة ، الا ان حلول شهر مايس قد دفع كل بغدادي ، رجل وامرأة وطفل ، الى الالتجاء الى السطوح للنوم . عندما يستيقظ المرء في الصباح ويلقي نظرة على سطوح المنازل فانه لا يرى غير بحر من الفرش واسرة النوم . ان افضل طريقة للنوم هي ان تلف سريرك ببرقع شفاف للتخلص من الذباب في الصباح ان الفقراء ينامون على دكة قوية ويلتفون بالحاف . في الدار الصغيرة المجاورة لنا كانت تسكن ثلاثة عوائل لديهم ٢٨ طفلا ينامون في السطح على عشرة اسرة كبيرة مربعة تشبه المناير الخشبية محاطة باسيجة ل تمنع الصفار من السقوط . ان البحث عن الحشرات في الصباح يفترض ان النوم في تلك الليلة لم يكن مريحا . شاهدت على احد السطوح خروفا وفي سطح اخر ديك رومي بينما ينتصب اللقلق على

رأس منارة الجامع المجاور ... كان هذا في نيسان ومايس . عندما عدت الى بغداد في اوائل ايلول لم يكن هناك الخروف والذيك الرومي ، حتى اللقالق رحلت ، الا ان الرجال والنساء ومجموعات الاطفال كانت باقية ، انهم كما يبدو قد ازدادوا .

يذكر كاندلر ان صيف عام ١٩١٧ كان آخر صيف مر على ذلك الجيل حسبما يذكر الناس ، لذلك فانه قد غادر بغداد في شهري تموز وآب وعاد اليها في اوائل ايلول وكان الحر لا يزال شديدا فقد كانت الحرارة في الايام الاثنى عشر الاولى من الشهر مرتفعة ١٠ درجات عن درجة الحرارة الاعتيادية ، وكان الجو رطبا ولزجا . لقد كانت السرايب الملجأ الوحيد لسكان بغداد للتخلص من ذلك القيض الشديد . وقد وصف كاندلر تلك السرايب فقال :

« توجد في معظم البيوت سرايب ، وعمق السرداب ستة اقدام تحت سطح الارض . ان درجة الحرارة في هذه السرايب اقل من حرارة غرف البيوت بحوالي ١٠ درجات ، لذلك فان الهروب

الى السرداب يولد السرور رغم ان الهواء في السرداب محصور وثقيل . تنتهي فتحات التهوية ، التي تمتد من السرداب الى سطح الدار برؤوس تشبه القلنسوة موجهة باتجاه واحد لتمسك برياح الشمال التي تنقل نسائم طيبة تنعم بها السماء »

ينهي كاندلر حديثه الشيق عن بغداد بوصف دجلة عند الغروب : —

« بالرغم من كل الدمار الذي حل ببغداد ، فان انطباعاتي عن هذه المدينة هي صورة لجمال حزين . ان على هؤلاء الذين ينكرون سحر هذه المدينة ان يقفوا على النهر من جهة الشمال وقت الغروب ليشاهدوا الامتداد الرشيق لجهة النهر حيث تصطف المساجد والمنارات ذات الاجر الازرق لتمسك بخيوط الشمس المائلة . ان انعكاسات الضوء الاتي من جهة الشرق تجعل ألوان الامواج من الجهة اليسرى من النهر تتبدد تدريجيا من البرتقالي الى لون قائم متقد ، في حين ترسم النخيل في الجهة القريبة صورة ظليلة بمواجهة سماء صافية ذات لون رمادي داكن » .

مركز تحقيقات كميبيوتر علوم إسلامي

مِلَامِجٌ مِنَ الْحَضَرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي بَغْدَادٍ

بقلم الدكتور

صالح أحمد العلي

كلية الآداب - جامعة بغداد

(١١)

المواصلات والجسور في بغداد

دراسة في توزيع مراكز الحيوية

يحمل الجند والعامّة الامثلة «(٣)». وقد قال « هذا موضع ارضاه : تأتيه الميرة من الفرات ودجلة ومن هذه الصراة »(٤).

وقد اورد الطبري نصا فيه تفاصيل اوفى عن هذه المواصلات ، فقد قال القس للمنصور « وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من المغرب من الفرات وتجيئك طرائق مصر والشام ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط من دجلة . وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل من دجلة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر واخرت القناطر لم يصل اليك عدوك .

وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور »(٥).

ويتبين من النصوص الانفة الذكر ان المنصور فضل هذا الموقع لتوفر المواصلات النهرية فيه ، فنهر دجلة يمر عموديا عليها من الشمال الى الجنوب ، وبالنظر لطوله وموقعها في منتصفه تقريبا فانه يصلها باقاليم ومدن بعيدة ، كما ان اتصاله عند

استهدف المنصور من بناء بغداد ان تكون مركزا له ولجنده والمتصلين به ، وان تتوفر فيها الاحوال التي تمكنها من ان تصبح مركزا حضريا متوسعا ، وهذا يقتضي توفر المواد الفدائية والحاجات الاخرى للسكان وتيسر المواصلات معها . وقد ذكرت المصادر ان المنصور راعى في اختيار البقعة التي شيد عليها عاصمته هذين العاملين بالاضافة الى حسن موقعها الصحي ، فيروي انه عندما جاء منطقة بغداد وسأل عن احوالها ذكر له احد القسس ان من خصائصها المفضلة « ان تنزل اربعة طاسيج ، في الجانب الغربي طسوجين وهما قطربل وبادوريا ، وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهروقي وكلوادي ، فانت تكون بين نخل وقرب الماء ، فان اجذب طسوج وتاخرت عمارته كان من الطسوج الاخر العمارات »(١).

وكان لابد ان يتوفر في الموقع المختار سهولة المواصلات ، لانه اذا اقام « في موضع لا يجلب اليه من البر والبحر شيء غلت الاسعار وقلت المسادة واشتدت المؤونة وشق ذلك على الناس »(٢).

وكان للموقع الجديد مواصلات متيسرة « فانه تأتيه المادة من الفرات ودجلة وجماعة الانهار ولا

(٣) الطبري ٢٧٤/٣ .

(٤) الطبري ٢٧٦/٣ ، ٢٧٧ وانظر بغداد لابن الفقيه ٨١ .

(٥) الطبري ٢٧٥/٣ ، وانظر ايضا ٢٧٣ .

(١) الطبري ٢٧٥/٣ .

(٢) الطبري ٢٧٣/٣ .

المصب بالبحر يربطه ببلاد أبعـد ذات منتوجات لها أهمية خاصة للمجتمع في تلك العصور . ويتميز دجلة أيضا بسعته وعمقه وعدم وجود السدود وقلة وجود الجسور المعرّقة للملاحة ، وبذلك تستطيع السفن والزوارق والكارات من المخور فيه والوصول الى بغداد .

أما الفرات فيتميز بطوله وسعته أيضا ، غير ان اقسامه الجنوبية بعد منطقة الانبار ، تكثر عليها القناطر والسدود والجسور ، كما أنه يتشعب الى انهر كثيرة يكون كل منها حفيرا ، مما تعرقل الملاحة وسير السفن ، وخاصة المتوسطة والكبيرة منها .

وقد اختار المنصور لبناء مدينته منطقتـة زراعية كانت فيها عدة قرى ، كما كان يقام فيها سوق مؤقت للمنتوجات الزراعية للمنطقة . وقد وزع المنصور الاراضي في هذه المنطقة على السكان ، وبذلك تحولت الى اراضي سكنية دون ان يخصص منها اراض للزراعة او يزودها بالماء الكافي لارواء المزارع او حتى لاقامة الارحاء الضرورية لحياة السكان . والواقع انه لم يعرف في اقطاعات الجانب الغربي ما اصبح مزرعة سوى العباسية التي تقع جنوبي المدينة المدورة بين الصراتين ، وكانت عند تأسيس بغداد « مضربا لمبنى مدينة السلام » ثم اقطعها المنصور عمه العباس بن محمد « وكان العباس اول من زرع فيها بالاقلاء ، فكان باقلاءها نهاية ، فقليل له الباقي العباسي ، وربما قيل لها جزيرة العباس لكونها بين الصراتين ، ومن اجل باقلاءها وجودته صار الباقلاء الرطب يقال لسه العباسي » (٦) .

أما الجانب الشرقي فقد قرر المنصور توطین الناس فيه بعد سكن الجانب الغربي بسنوات قليلة، وقد ذكرت المصادر الخططية اسماء عدد قليل مما فيه من الاقطاعات والقصور والاسواق ، كما ذكرت الانهار التي جرت اليه ، وقد وصف اليعقوبي هذا الجانب بأنه « كان اوسع الجانبين ارضا ، لان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الاسواق والتجارات، فلما ابتدئ البناء في الجانب الشرقي امتنع على من اراد سعة البناء » (٧) . وقد ذكرت في الجانب الشرقي عدة بساتين ، غير انه لم تذكر فيه مزارع ، علما بان المعلومات المتوفرة لدينا لا تكفي للجزم بعدم وجود المزارع ، غير انه يمكن القول بان عدم اشارة المصادر الى المزارع في الجانب الشرقي يدل على قلة هذه المزارع ، ان وجدت .

غير ان كلا الجانبين الشرقي والغربي كانت حوله منطقة وفيرة الماء ، خصبة التربة وانتاجها الزراعي وافر ، وهذه المنطقة ذات ميل خفيف نحو الانهار ، ويسقى الجانب الغربي بالانهار الاخذة من الفرات ، اما الجانب الشرقي فكانت انهاره تأخذ من دجلة والقاطول ، اي ان المنطقة تعتمد على عدة انهار وليس على نهر واحد ، وبذلك لا تتوقف مياهها على مصدر واحد قد يهددها الى حادث يؤثر فيه ، وهكذا « فان اجذب طسوج وتأخرت عمارته كان في الطسوج الاخر العمارات » (٨) .

وقد اورد ابن خرداذبة (٩) مقدار الجباية من طساسيج السواد ، ومنها الطساسيج المحيطة ببغداد او قرية منها وهي كما يلي : -

الطسوج	عدد رسائقه	البيادر	الحنطة	الشعير	الورق
بادوريا	١٤	٤٢٠	٣٥٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠.٠٠٠
قطرل	١٠	٢٢٠	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠.٠٠٠
مسكن	٦	١٥٠	٣٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠.٠٠٠
الانبار	٥	٢٥٠	٢٣٠٠	١٤٠٠	١٥٠٠.٠٠٠
كلواذي ونهرين	٣	٣٤	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠.٠٠٠
نهر بوق	—	—	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠.٠٠٠
الراذان	١٦	٣٦٢	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠.٠٠٠
يزرجسابور	٩	٢٦٣	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠.٠٠٠

احوال الجانب الشرقي بالمقارنة مع الجانب الغربي من الناحية العمرانية والسكنية .
(٨) الطبري ٢/٢٧٥ . (٩) المسالك والممالك ٨-٩ ، ١٢ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٣/٦٠١ بغداد لابن الفقيه ٥١ .
(٧) البلدان ٢٥١ . وقد وصفت في مقال نشرته في مجلة سومر بعنوان « ادارة بغداد في المهود العباسية الاولى »

وهذه الأرقام لا تختلف كثيراً عما ذكره قدامة ابن جعفر (١٠) عن هذا الطاسيج ، وهي توضيح أحوال القرن الثالث الهجري ، والراجح أنها تعبر عن معدل إنتاج هذه الطاسيج في العصور الإسلامية الأولى وحتى القرن الرابع الهجري حيث حدثت تبدلات في أوضاع الأنهار أثر في إنتاجية هذه الطاسيج . ولابد أن المنتجات الزراعية لهذه الطاسيج كانت تنقل إلى بغداد لسد حاجة أهلها .

غير أنه بالرغم من كبر مقدار منتوج الطاسيج القريبة من بغداد ، فإنها لم تكف لسد كل حاجات السكان وخاصة أبان ازدهار بغداد التي كانت تستورد أيضاً من منطقتي واسط والموصل «وبغداد تميز نفسها أربعة أشهر ، وتميرها واسط أربعة أشهر ، وتميرها الموصل أربعة أشهر» (١١) .

الفرض :

ويبدو أن كثيراً من منتوجات هذه المناطق الواقعة قرب دجلة كانت تنقل بالنهر وتفرغ على ضفافه فتوزع على بغداد ، ومن هنا نشأت على دجلة الفرض لأفراغ هذه السلع ، ولما كان الجانب الغربي هو الذي عمرت فيه بغداد في أول العهد وكان فيه مقام الخليفة واتباعه ، كما كان مزدحم السكان منذ أوائل انشائه لذلك كان من المنتظر أن تكون فيه نهايات المواصلات ، وأن تنشأ فيه الفرض .

ذكر ياقوت عند كلامه عن باب الشعير « قالوا كانت ترفأ إليه سفن الموصل والبصرة (١٢) » ويظهر من هذه الرواية التي تمثل الأحوال في السنين الأولى من تأسيس بغداد ، وأن لم يصرح بذلك ، أنه كانت في الجانب الغربي فرضة واحدة رئيسة تأتيها السفن الماخرة دجلة من الشمال والجنوب . ومما قد يؤيد كلام ياقوت أن هذه الرقعة تسمى باب الشعير الذي هو أحد المحاصيل الرئيسية التي تستوردها بغداد . وكانت الفرضة في القرن الثالث الهجري قريبة من هذه المنطقة .

وعند باب الشعير عقد المنصور أحد الجسور الرئيسية التي تربط الجانبين الشرقي والغربي (١٣) .

(١٠) نبذة من كتاب الخراج ٢٣٧-٢٣٨ . ويلاحظ أن هاتين القائمتين ، هما الوحيدتين الشاملتين اللتين وصلتنا

وسيكون تحليلهما موضوع مقال آخر .

(١١) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١٢٥ .

(١٢) ياقوت ٤٤٥/١ .

(١٣) الطبري ٣٨٠/٣ . الخطيب ١١٦/١ مناقب بغداد ٢٠ .

ولعل اختار هذه البقعة لجسره بسبب قربها من الفرضة ، ولعل من دوافع اختيار هذه المنطقة لإنشاء الجسر هو تيسير نقل المواد الغذائية من هذه الفرضة الرئيسة إلى الجانب الشرقي الذي لم تكن فيه آنذاك فرضة رغم تزايد سكانه .

وقد ظلت هذه المنطقة مكان الجسر الثاني الرئيس في بغداد ، ويلاحظ عندما أعيد إنشاء جسر ثان في بغداد في سنة ٤٤٨ م كان يمتد من مشرعة الحطابين إلى مشرعة الروايا (١٤) .

ويلاحظ أيضاً أن المنطقة التي تتلو باب الشعير ، هي الكرخ ونهر الدجاج ونهر البزازين ، كانت من أشد مناطق بغداد ازدحاماً بالسكان ، ومن أكبر مراكز النشاط التجاري والاقتصادي فيها ، كما كان يمتد فيها شارع يصل النهر ، وهذا الشارع هو الشريان الرئيس للحياة في تلك المنطقة .

ولا ريب في أن إقامة جسر على دجلة يعرقل ، ولكنه لا يعطل كلياً ، سير الزوارق . ثم أن التوسع الكبير في المدينة اقتضى إنشاء فرض جديدة لا في الجانب الغربي فقط ، بل في الجانب الشرقي أيضاً . فاما الجانب الغربي فقد كان فيه في القرن الثالث الهجري فرضتان ، أحدهما في الشمال ، والآخرى في الجنوب .

فاما في الشمال فإن يعقوبي في كلامه عن القطائع التي في الطرف الشمالي يقول « . . ثم قطعة البغيين أصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحق بن إبراهيم ، ثم السوف على دجلة في الفرضة ، ثم قطعة لجعفر بن أمير المؤمنين صارت لأم جعفر ناحية باب قطرب تعرف بقطعة أم جعفر » (١٥) ولعل هذه هي الفرضة التي يقول الخطيب « جعفر بن أبي جعفر الذي ينسب إليه فرضة جعفر » (١٦) وكانت على دجلة بقرب فرضة جعفر دار أبي عبدالله الموسوي العلوي (١٧) والراجح أن هذه الفرضة كانت ترسو فيها المنتوجات والسلع القادمة من المناطق الشمالية . ويذكر

(١٤) المنتظم ١٦٩/٨ . ومشرعة الروايا عند باب الشعير ، وقد انجزت دراسة مستوعبة لخطط هذه المنطقة في العصر العباسي الأول .

(١٥) البلدان ٢٤٩ .

(١٦) الخطيب ٩٠/١ .

(١٧) الخطيب ١٤٨/٢ المنتظم ٢٩٤/٦ تكملة الطبري ٤/٣ ، والموقع التقريبي لهذه الفرضة عند جسر الائمة الحالي من جهة الكاظمية .

الصولي انه في سنة ٢٢٣ « ضمنت دجلة والمأصر الاعلى بخمسائة دينار» (١٨) ، ولعل هذا المأصر كان عند الفرضة الشمالية .

وقد وردت في المصادر اشارة الى مشرعة باب خراسان (١٩) الذي يقع في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة المدورة ، ولكن الاخبار عنها قليلة ، ولعل ذلك راجع الى انها لم تكن ذات اهمية لوقوعها قرب الجسر .

اما الفرضة الجنوبية فان اليعقوبي يذكر « نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقصة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر ، تصير الى فرضة عليها الاسواق وحوانيت التجار ، لا تنقطع في وقت من الاوقات ، فالماء لا ينقطع » (٢٠) ويفهم من هذا ان نهر عيسى كان يستعمل للملاحة السفن النهرية العظام ، وقد يفهم منه ان الفرضة كانت عليه ، غير اننا نشك في دقة كلام اليعقوبي ، لان كثرة روضع نهر عيسى في منطقة بغداد ، وكثرة القناطر التي عليه لابد انها كانت تعطل ملاحة السفن الكبار . ثم انه لم يرد في اي مصدر وقوع الفرضة على نهر عيسى .

وقد ذكر الخطيب ما يحدد موقع الفرضة اذ انه في كلامه عن انهار الجانب الغربي يذكر « نهر يقال له نهر القلائن حدثنا من أدركه جاريا يلتقي في دجلة تحت الفرضة » (٢١) علما بأنه يذكر في مكان آخر ان نهر القلائن يصب في نهر الدجاج ثم يصير النهر الى نهر طابق ثم يصب في نهر عيسى (٢٢) اي ان نهر القلائن كان بين نهري طابق والدجاج ، وإلى شمالي نهر عيسى . وقد ظلت هذه الفرضة حتى اواخر القرن الخامس ، اذ يذكر ابن الجوزي انه عند بناء النظامية « تقضت الدور التي كانت للناس بمشرعة الروايا والفرضة وباب الشعير ودرج الزعفراني » (٢٣) ويظهر هذا النص ان الفرضة كانت بالقرب من مشرعة الروايا وباب الشعير .

وقد اشار الطبري الى فرضة البصريين (٢٤) ولكنه لم يحدد موقعها .

(١٨) اخبار الرازي والمثني ٢٧٦ .

(١٩) الطبري ٩٢٨/٣ مروج الذهب ٤١٩/٣ .

(٢٠) البلدان ٢٥٠ .

(٢١) الخطيب ٧٩/١ .

(٢٢) الخطيب ١٢٢/١ .

(٢٣) المنتظم ٢٨/٨ مرة الزمان ٢٢١ طبعة سويم .

(٢٤) الطبري ٢٢٥١/٣ .

اما في الجانب الشرقي فقد ذكرت فرضة في باب الطاق ، فيذكر الخطيب فذكر لي غير ابن شاذان ان الجسر الذي كان محاذي 'الميدان نقل الى الفرضة بباب الطاق ، فصار هناك جسران يمضي الناس على احدهما ويرجعون على الآخر (٢٥) وفي هذه الفرضة كانت دار علي بن الجهشيار التي هدم بابها سنة ٣٠٩ وبني موضعه مستغلا (٢٦) .

ويذكر هلال بن الحسن ان « دار الملكة التي باعلى المخرم محاذية الفرضة » (٢٧) ومع ان سياق النص يوحي بوجود فرضة واحدة مشهورة ، الا انه يصعب القول بان هذه الفرضة هي نفس فرضة باب الطاق ، لطول المسافة بين المخرم وباب الطاق ووجود الرصافة بينهما . ولعل هذه الفرضة كانت ترسو فيها السفن التي تمون الرصافة بالبضائع والسلع .

وقد ذكر الخطيب شريعة ابي عبيد الله في الجانب الشرقي عند شارع عبد الصمد (٢٨) وذكر ان هذا الشارع قرب قنطرة البردان (٢٩) .

ومن الشارع التي تردد ذكرها في الجانب الشرقي هي مشرعة الخطابين ، فاما الخطابين فكانت في الجانب الشرقي وعندها دار هلال بن محمد (٣٠) ودار محمد بن عمر القاضي (٣١) ، وكان وراءه المعترض حيث كان ينزل عبدالله بن عمر بن شاهين (٣٢) .

ويذكر مضممار الحقائق « عمرت ام الخليفة مسجدا بمشرعة السقائين على شاطئ دجلة بمشرعة الخطابين » (٣٣) وذكر ابن الجوزي ان « السقائين قريبا من سوق السلاح » (٣٤) .

مراكز العمال :

اسس ابو جعفر المنصور عاصمته ليسكنها الخليفة وحاشيته وحرسه وجنده ، أي ان سكانها الاولين اناس مختارون من ذوي الطابع العسكري بالدرجة الاولى ، ثم الاداري ، ويعتمدون في

(٢٥) الخطيب ١١٦/١ .

(٢٦) المنتظم ١٥٩/٦ .

(٢٧) الخطيب ١٠٥/١ .

(٢٨) الخطيب ٣٥٧/٤ .

(٢٩) الخطيب ٤١١/٤ .

(٣٠) الخطيب ٧٥/٤ المنتظم ١٥/٨ .

(٣١) الخطيب ٣٨١/٣ .

(٣٢) الخطيب ٣٨٦/١ المنتظم ١٣٨/٨ .

(٣٣) مضممار الحقائق ١٧٨ .

(٣٤) المنتظم ٨٧/٧ .

مراكز الصناعة في بغداد :

ان سعة بغداد وغناها وازدهارها المادي يستلزم نمو صناعة محلية لسد بعض حاجات أهلها ، غير ان المصادر لم تذكر الا عددا قليلا من المصنوعات التي اقتصت بها بغداد ، واشارات الى قليل من الاماكن التي تركزت فيها بعض الصناعات ببغداد ، علما بان هذه الاشارات ترجع الى القرن الرابع الهجري فما بعد ، حيث كانت هذه الصناعات قد وصلت مستوى عاليا من الاستقرار والازدهار لم تصل اليه الا بعد مرور زمن طويل عليها . ويمكن ارجاع قلة المعلومات عن المصنوعات البغدادية وعن المناطق التي تركزت فيها الى اعتماد اهل بغداد الكبير على استيراد السلع التي يحتاجونها ، والى ان مراكز الصناعات كانت موزعة وان كثيرا منها كانت « بيتية » فلم تنحصر في منطقة واحدة ، يذكر الهمداني ان بغداد اجتمع فيها ما هو متفرق في جميع الاقاليم من انواع التجارات والصناعات ، ولهم الذي لا يشركهم فيه احد : الثياب البيض المروية والزجاج المحكم من الاقداح والاقحاض والكاسات والطاسات والفضائر الحجرية ولهم الداروش واللكاء (٢٥) . ويذكر ايضا ان الماذرائين والمقاربض الهيثمية والامشاط الطاهرية والسكاكين الكتابية ، وكثيرا مما يصنع من الابنوس والعاج والعام الموجود من العطر والزجاج (٢٦) .

واشتهرت بغداد بالسقلاطونيات والعتابي ، لا يشاركون فيها غير نيسابور (٢٧) كما اشتهرت بالحصر (٢٨) .

وفي المصادر اشارات بعضها صريحة وبعضها ضمنية عن تركيز الصناعات في بغداد فاما صناعات الجانب الشرقي فان الهمداني يصرح انه الداروش واللكاء « فيهما اعجوبة وذلك ان الداروش يتخذ من هذا الجانب واللكاء من ذلك الجانب ، فلو جهد صاحب الداروش ان يتخذ من جانب صاحب اللكاء لأعوزه ، وكذلك لو جهد صاحب اللكاء ان يتخذ من جانب صاحب الداروش لتعذر عليه ذلك ، على انهم قد امتحنوا ذلك وجربوه فقد تعذر عليهم » (٢٩)

وقد ورد في المصادر ذكر للعمامة الرصافية

(٢٥) البلدان ٢٥٢ .

(٢٦) بغداد ٧٣ .

(٢٧) لطائف المعارف ١٩٥ وانظر عن سقلاطون بغداد لطائف المعارف ٥٥ ، ٢٣٥ .

(٢٨) لطائف المعارف ٢٣٦ ، ثمار القلوب ٥٣٨ .

(٢٩) البلدان ٢٥٣ .

معاشهم بالدرجة الاولى على العطاء الذي تقدمه لهم الدولة ، ويسدون حاجاتهم من السلع التي يقتنونها بالشراء ولا يصنعونها بأيديهم ، وهي سلع محدودة وذلك لان حرفة غالبيتهم هي العسكرية . وان دخلهم محدود . الا ان اسرة الخليفة والمتصلين به وحاشيته كان مستوى معيشتهم اعلى ، ومواردهم اكبر ، فكانوا بحاجة الى سلع اكثر تنوعا واغلى ثمنا ، وكان يعوض عن قلة عددهم النسبي زيادة استهلاكهم .

وقد رافق بناء بغداد ونموها نقاط عدد كبير من العمال والصناع واهل السوق لتقيام بما يسد حاجات السكان ، وادرك المنصور هذه الحاجات فانشأ اسواقا محلية في مختلف ارجاء بغداد ، غير انها كانت اسواقا للبيع وليست للصناعة ، وكان النمو العمراني يتطلب عددا كبيرا من اصحاب الحرف كالبنائين والنجارين والحدادين الا انه لم تذكر في بغداد اسواق مخصصة لهؤلاء ، فالاسواق غالبا للبيع وليست للصناعة .

غير ان الجانب الغربي كان اسبق في التشييد ، وشهد توسعا كبيرا منذ فترة مبكرة وهذا ما جعله الجانب الاهم حتى القرن الرابع الهجري حيث اصاب الانحطاط بغداد بجانبها .

اما الجانب الشرقي فقد تأخر استيطانه ونموه عن الجانب الغربي ، ولم تذكر المصادر من الاقطاعات والمساكن التي كانت فيه الا ما كان لعدد قليل من رجال الاسرة العباسية وكبار الموظفين والقواد ، كما ذكرت عددا من القصور ومن الاسواق الضخمة ، ولم تذكر اسماء ما كان في الجانب الشرقي من محلات مما قد يستدل منه على نوع وجنس السكان وزدحامهم فيه . وهذا يرجع ان الجانب الشرقي كان اقل ازدحاما بالسكان ، وان كانت مساحة الرقعة المسكونة فيه كبيرة ولا تقل كثيرا عن نظيرتها في الجانب الغربي . وان كثرة القصور والاسواق الفنية بالامتعة المترفة في الجانب الشرقي ، يدل على النشاط الاقتصادي القائم على بيع السلع الاستهلاكية المترفة .

وكان الجانب الشرقي بحاجة الى العمال والحرفيين اللذين لهما توجه التوسع الكبير والسريع في اعمار المدينة ، ولا بد ان عددا كبيرا من هؤلاء الحرفيين كانوا يقيمون في الجانب الشرقي الذي يعملون فيه ، غير ان هذا لا ينفي احتمال الحاجة الى صناع وحرفيين يومية او موسميون يقدمون من الجانب الغربي ، الامر الذي يساهم في نشاط التنقل بين الجانبين .

التي كان يلبسها الخلفاء(٤٠) وقد يدل اسمها على المكان الذي كانت تصنع فيه ، وهو في الجانب الشرقي من بغداد .

يتردد في المصادر ذكر دار القطن في الجانب الغربي عند قطعة الربيع التي كانت من اكبر المراكز التجارية والنشاط الاقتصادي ، وكان اسمها يطلق على محلة سكنها عدد من الفقهاء وعلماء الحديث ونسبوا اليها . غير ان المصادر لم تذكر سبب نسبتها الى القطن وهل كانت في الاصل محلا لبيعه ام لصنعه ، وما اذا كانت قد ظلت فيما بعد مركزا للقطن الخام او المصنوع(٤١) .

ويذكر الصابي انه في سنة ٣٨٩ « كان ابو نصر سابور قد حاول وضع العشر على ما يعمل من الثياب الابريسمات والقطنيات بمدينة السلام ، فثار اهل العتابين وباب الشام من ذلك وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة . ومنعوا الخطبة والصلاة . واستقر الامر على اخذ العشر من قيم الابريسمات خاصة ، ونودي بذلك بالجانب الغربي من يوم الاحد . وبالجانب الشرقي من يوم الاثنين ، وثبت هذا الرسم ورتب في جبايته ناظرون ومتولون ، وافرد له ديوان على دار بالبركة ووضعت الختوم على جميع ما يقطع من المناسج ويباع ويختم(٤٢) » . وواضح من هذا النص ان اهل باب الشام والعتابين هم الذين كانوا يعملون هذه المنسوجات آنذاك في بغداد .

فاما باب الشام فهو احد الابواب الاربعة لمدينة المنصور المدورة ، وكان يقع في جهتها الشمالية الغربية ، وقد نشأت حوله محلة واسعة سميت باسمه وظلت مزدهرة حتى اواخر العصر العباسي ، ولم تنغمز بالفتن الطائفية التي شاركت فيها كثير من محلات الجانب الغربي .

اما المنطقة الواقعة وراء باب الشام ، اي في الجهات الشمالية الغربية فان ما فيها من قطاعات ومحلات ومعالم خطية ، ذكرته المصادر المؤلفة في اواخر القرن الثالث الهجري ، وقد اورد كل من اليعقوبي في كتاب البلدان ، وابن الفقيه الهمداني في الفصل الذي كتبه عن بغداد وسهراب فيما كتبه عن الانهار التي تأخذ من دجيل وتجري في شمالي

المدينة المدورة(٤٣) ، اسماء كثير من الاقطاعات والمعاليم الخطية في هذه المنطقة ، وأشار اليعقوبي الى ازدهار هذه المنطقة واصول بعض سكانها وفيهم من اهل اليمامة ، والكوفة ، وخوارزم ، ومروالروذ ، وطخارستان وبخارى ، كما يذكر ان عند سوق باب الشام « تمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال ، كل درب ينسب الى اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبتيه جميعا الى ربض حرب بن عبدالله البلخي . وليس ببغداد ربض اوسع ولا اكبر ولا اكثر دروبا واسواقا في الحال منه ، واهله اهل بلخ واهل الختل واهل بخارى واهل اسبشباب واهل اشتاخنج واهل كابل شاه ، واهل خوارزم . ولكل اهل بلد قائد ورئيس »(٤٤) ، وقول اليعقوبي « في الحال » يدل على انه يصف الوضع في زمن كتابة كتابه (اي حوالي سنة ٢٨٠هـ) كما ان قوله ان « لكل اهل بلد قائد ورئيس » قد يدل على انهم كانوا قوة عسكرية ومع ان اليعقوبي يدعي ان « هذه القطائع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في ايام المنصور ووقت ابتدائها » الا انه يصعب موافقته على ان ما ذكره عن هذه المنطقة يرجع الى زمن المنصور (اي حوالي ١٥٠هـ) لانه لا يوجد ما يدل على كثرة اهل هذه المدن في جيش المنصور . والواقع ان اليعقوبي يتابع كلامه فيقول ان هذه الخطط « قد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم ، وجبل بعد جبل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة ٢٢٣ »(٤٥) . ويبدو ان معظم سكان هذه المنطقة استقروا فيها بعد خلافة المنصور ، وربما في خلافة الرشيد او بعده . ولم يرد في المصادر ذكر لقيام الصناعة في هذه المنطقة حتى اوائل القرن الرابع الهجري ، سوى ما ذكره اليعقوبي من ان درب الاقفاص الذي يقع في هذه المنطقة « متصل بدرب القصارين(٤٦) » . غير ان عدم ذكر المصادر للصناعات في هذه المنطقة لا يكون دليلا قاطعا على عدم قيامها آنذاك ، لان مصادرها لم تمن بذكر مراكز الصناعة .

(٤٣) انظر مقالنا « مصادر دراسة خطط بغداد » مجلة المجمع

العلمي العراقي م ١٤ سنة ١٩٦٧ .

(٤٤) البلدان ٢٤٨ .

(٤٥) البلدان ٢٥٤ وقد اعددت دراسة مفصلة عن تطور خطط هذه المنطقة .

(٤٦) البلدان ٢٤٧ .

(٤٠) الطبري ٢٣٦٨/٣ رسوم دار الخلافة ٩٠ .

(٤١) انظر عن اشتهاار بغداد بالقطن : بغداد لابن الفقيه ٧٥ ويذكر الصابي بعض موظفي الجباية في بغداد ومنهم « عامل دار القطن » (الوزراء ١٧٦) .

(٤٢) ذيل مسكويه ٣٦٣/٣ .

لقد ذكرت من قبل قول الصابي ان اهل باب الشام والعنابيين احتجوا على فرض الضرائب على المنسوجات . فاما العنابية التي نسب اليها العنابيون فلم يرد لها ذكر في الكتب التي بحثت في خطط بغداد او اشارت اليها ، مما كتب منها او اعتمد على رواية لها عاشوا عند او قبل بداية القرن الرابع الهجري ، كاليقوبي ، وابن الفقيه الهمداني وابن طيفور ، وسهراب ، ووكيح اللذين اعتمد عليهما الخطيب في مقدمته الخططية . كما اني لم اجد لها ذكرا في الحوادث التي سبقت اشارة الصابي الانفة الذكر . الامر الذي يدل على ان هذه المحلة لم تظهر ، او تشتهر ، الا بعد ذلك التاريخ .

ذكر الخطيب في تراجمه عددا ممن عاش او توفي في شارع العنابيين واقدم الذين ذكرهم هو ابو الحسين بن سمعون الذي توفي سنة ٣٨٧ (٤٧) ، اما الآخرون الذين ذكرهم فكانت وفاتهم بين سني ٤١٩ - ٤٤٥ هـ (٤٨) والواقع ان « العنابيين » يتردد ذكرها بعد هذا التاريخ ، وقد وصفها بعضهم بانها محلة ، وان فيها مسجدا . ولم يذكر أي مصدر اطلعت عليه هوية من نسبت اليه هذه المحلة (٤٩) .

ذكر الخطيب ان شارع العنابيين من مربعة الفرس (٥٠) ، وهي مربعة ذكرتها المصادر المؤلفة قبل القرن الرابع الهجري وكانت تقع بين الانبار وباب الحديد ، وبقرها قطائع الخوارزمية والبخارية والسرخسية والكوفيين واليماميين (٥١) ، غير ان المصادر لم تشر الى تركيز الصناعات والمناسج في هذه المنطقة في الفترة التي سبقت القرن الرابع كما اشرنا من قبل .

لقد ذكرنا من قبل ان مما اشتهرت به بغداد هو النسيج العنابي ، وهو نسيج مخطط ، يشبه

بتخطيطه الحمر (٥٢) ، وبطيخ الشمام (٥٣) ، وهو ينسج ايضا في نيسابور واصبهان (٥٤) ويبدأ ذكره في اخبار الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري حيث يروي ابن الجوزي ان سبكتكين صاحب عز الدولة خلف عشرة الاف ثوب ديبقي وعنابي (٥٥) ، كما روى ان بختيار اهدى ناصر الدولة الحمداني ثوبا عنابيا (٥٦) ، كما اهدى طغرل بك ملك الروم ثيابا منها عنابية (٥٧) ، ويقول ابن جبير ان العنابي نسيج من حرير وقطن (٥٨) .

وبالقرب من العنابية نشأت دار القز ، وهي محلة يدل اسمها على انها كانت مركزا لمعالجة القز ، وربما نسجه ايضا ، فهي مركز صناعي للنسيج كمجاورتها العنابية ، ولكنها ايضا لم تذكر الا في اخبار القرن الخامس الهجري ، مما يدل على ازدهارها فيه ، كما ان عدم ورود ذكرها قبل ذلك التاريخ يدل على تأخر ظهورها .

ويذكر ياقوت ان دار القز صارت كالمدينة وعليها سور ، وانه كان يصنع فيها في زمنه الكاغد (٥٩) ، ولكن لم اجد في المصادر اشارة الى زمن ظهور صناعته في بغداد عموما ، وفي هذه المحلة خصوصا كما لم اجد في انواع الكاغد ما يسمى باسم هذه المحلة (٦٠) . ولعل تركيز صناعة الورق في هذه المحلة وما يجاورها راجع الى توفر المواد الأولية من بقايا القطن ونفاياته في هذه المنطقة .

ويلاحظ ان بالقرب من هذه المحلات كانت تقع دار الرقيق التي يذكر اليعقوبي انها ربض « كان فيه رقيق ابي جعفر الذين يباعون من الآفاق » وكانوا مضمومين الى الربيع مولاه (٦١) . ومن المحتمل ان هؤلاء الرقيق ، او عددا منهم ، كان يستخدم في الصناعات ايضا منذ زمن ابي جعفر ، وان وجودهم

(٥٢) يذكر الرشدي « حمارا عنابيا جسده كخلفة العنابي » (الذخائر والتحف ١٩٣) ويذكر الفرناني ان حمير الزنج كالعنابي المخطط (تحفة الالباب) .

(٥٣) جامع الادوية المفردة ١٠١/١ ، ١١٠/٤ .

(٥٤) لطائف المعارف ١٩٤ ثمار القلوب ٥٤٠ ابن الفقيه ٢٥٤ وعن عتابي نيسابور انظر المقدسي ٣٢٣ ، وعن عتابي اصفهان انظر الاضطغري ٩٩ .

(٥٥) المنتظم ٧٧/٧ .

(٥٦) الذخائر والتحف ٦٦ .

(٥٧) الذخائر والتحف ٨٠ .

(٥٨) الرحلة ٢١٢ (طبعة حسين نصار) .

(٥٩) ياقوت ١٦٧/٢ ، ٥٢٢ . ويذكر ابن حجلة ان دار

القز احد مدن بغداد السبع .

(٦٠) سافرد للكاغد وصناعاته بحثا مستقلا .

(٦١) البلدان ٢٤٨ .

(٤٧) الخطيب ٢٧٧/١ ، ١٥/٨ .

(٤٨) انظر الخطيب ٤٣/٢ ، ٢١٢/٤ ، ٢٩٤ ، ١٥/٨ ، ٤٧ ، ٣٩٨/٩ ، ١٣٨/١٠ ، ٣٨٦ ، ٨٠/١١ .

(٤٩) المعروف باسم العنابي هو الشاعر المشهور كلثوم بن عمرو ، وهو تغلبي قدم بغداد في زمن الرشيد (انظر عنه الاغانى ١٢ / معجم الادباء ٢٦/١٧ الخطيب ٦٩٦١ ولكن لا توجد اشارة او دليل على نسبة المحلة اليه . ويذكر سهراب ان الصراة الصغير يصب عند القنطرة الجديدة ويعرف عند مصبه باسم نهر عتاب (١٣٢) ولكنه لم يذكر هوية من نسب اليه هذا النهر البعيد عن محلة العنابيين .

(٥٠) الخطيب ١٥/٨ .

(٥١) سهراب ١٣٤ الخطيب ١١٤/١ وانظر ايضا بغداد لابن الفقيه ٤٨ ، ياقوت ٤٨٥/٢ ، ٧٥٠/٢ .

في هذه المنطقة كان من العوامل التي ادت الى تركزه نحو الصناعة في هذا القطاع .

ولا بد ان وجود هذه المراكز الصناعية كان من عوامل نمو « الشارع الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة ، وفيه سوق ذات اليمين وذات الشمال » (١٢) .

اما الجانب الشرقي فلم تذكر فيه محلة او منطقة تركزت لصناعة النسيج كالذي حدث في الجانب الغربي ، ولكن المصادر ذكرت عدة قرى في شماليها كان في كل منها صناعة للنسيج مشهورة ومن هذه القرى الحضيرة « ينسج فيها الثياب والكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد » (١٣) « وباقدرا بينها وبين بغداد اربعون ميلا ، وتعمل بها ثياب من القطن غلاظ صفاق يضرب اهل بغداد بها المثل » (١٤) ، ويلاحظ انه كانت في هذه المنطقة عدة قرى مشهورة بالخمور منها القفص (١٥) وصريفون (١٦) .

لم تذكر المصادر غير هذه المراكز الصناعية في بغداد وما يجاورها ويلاحظ انها موزعة بين الجانبين ، ولا يعقل ان استهلاك كل منهما اقتصر على اهل الجانب الذي قامت فيه . وان كثرة الاسواق في بغداد هو مظهر على ازدهار السكان وحاجتهم الى السلع وليس دليلا قاطعا على ازدهار الصناعة وتعدد مراكزها ، اذ ليس من الضروري ان تكون مراكز الصناعة متجمعة في مكان واحد او ان تكون قرب الاسواق . وكل هذا يقتضي تبادل السلع بين الجانبين وضرورة تنظيم المواصلات بينهما .

التجارة بين اقاليم المشرق والمغرب :

لقد ذكرنا ان المصادر ذكرت ان ابا جعفر المنصور عند اختياره موقع عاصمته الجديدة راعى ارتباط هذا الموقع مع الشمال والجنوب بالمواصلات النهرية . غير ان لهذا الموقع اهمية كبيرة في المواصلات بين اقاليم المشرق و اقاليم المغرب . فمن المعلوم ان اقاليم المشرق كانت منذ ازمة قديمة غنية ببعض المحاصيل والمنتجات المهمة للعراق و اقاليم البحر المتوسط ، فضلا عما يمر بها من طرق تصل الصين و اواسط اسيا بالمغرب . وقد ازدادت اهمية الاتصال بين اقاليم المشرق بالمغرب بعد الفتح

الاسلامي الذي وحد اقاليم الشرق الاوسط من اواسط اسيا حتى المحيط الاطلسي تحت ظل دولة واحدة نشرت الامن والاستقرار وازالت الحواجز والعقبات التي وضعتها الدول المتنافسة السابقة بوجه الانتقال ، وكانت الدولة الاسلامية تسير على مبدأ حرية التنقل والتجارة ، وكانت الاحوال فيها تقتضي زيادة هذا التنقل ، لان الاماكن المقدسة الرئيسة في الاسلام كانت في الحجاز الذي عاش فيه الرسول ومارس اعماله وطبق سنته وكان فيه اغلب الصحابة والتابعين الذين صاروا المصدر الرئيس للعلم بالدين والفقه ، ولا يخفى ان الحج الى مكة فريضة اسلامية واجبة .

ثم ان الدولة كانت تعتمد في صدر الاسلام على الجزيرة العربية لتجهيزها بالمقاتلة ولما كانت اقاليم المشرق تكون اطراف الدولة ، فان مقاتلتها الذين كانت بحاجة مستمرة لهم ، كانوا ياتون من الجزيرة الى تلك الاقاليم ، وكثير منهم كان يحتفظ بعلاقته مع عشيرته في الجزيرة ، وادى ذلك الى تزايد اهمية الطرق بين اقاليم المشرق والمغرب لتنقل الجند .

وقد ادى زوال الحواجز والعقبات امام التنقل ، وزيادة موارد اقاليم المغرب وخاصة الحجاز وبلاد الشام ، وارتفاع مستوى معيشة اهلها وتزايد قوتهم الشرائية الى زيادة طلب اهل هذه الاقاليم على سلع ومنتجات اقاليم المشرق وكثرت في الاقاليم الغربية ، ولا بد انه رافقها ازدياد نشاط القوافل وتنقل التجار وربما القيام بنشاطات اقتصادية اخرى .

وترتبط اقاليم المشرق بالمغرب عن طريقين رئيسيين : جنوبي وشمالي ، فاما الطريق الجنوبي فهو الذي يمر بالبصرة وتأتي عنه منتجات اقاليم جنوب الهضبة الايرانية وكابل اما الطريق الشمالي فهو الذي يمر بوسط العراق وتأتي عن طريقه بعض سلع الصين و اواسط اسيا وكذلك سلع اقليم خراسان و الاقاليم التي في شمال ووسط الهضبة الايرانية وكلها اقاليم غنية وثيقة الصلة بالعالم الاسلامي .

والطريق الشمالي قديم الاستعمال ، كانت تسلكه القوافل ، وازدادت اهميته في العصر الروماني وخاصة بعد زمن اغسطوس ، وقد وصفه ايسيدور الكرخي في كتابه المشهور « المحطات الغربية » (١٧) . وكان يدخل العراق من خانقين

(١٧) نشرت ترجمته العربية في مجلة سومر

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) ياقوت ٢/٢٩٢ .

(١٤) ياقوت ١/٤٧٥ .

(١٥) ياقوت ٤/١٥٠ .

(١٦) ياقوت ٣/٢٨٤ .

في فنى تحت الارض(١٩) مما يقطع بانها لم تستعمل للمواصلات .

وقد جعل في المدينة المدورة حوالي خمسين شارعا منتظما تتفرع كلها من الساحة المركزية وتنتهي عند الاسوار ، فهي كمحاور العجلة ولا تتصل بالخارج . اما الارياض التي حول المدينة المدورة فكانت فيها طرق ودروب متعددة تتفرع بشكل غير منتظمة ، ولم تذكر المصادر انه جعل فيها شارعا عريضا وطويلا كالمحور .

وفي خلال السنوات الاولى من بناء المدينة كانت صلة الخليفة بالاقاليم الغربية اقوى ، فكان العراق اغنى اقليم تعتمد عليه الخلافة وتتفاعل معه ، كما حدثت في ارمينية و اقاليم المغرب احدث اثار الخلافة اكثر مما اثارها الاحداث في اقاليم المشرق التي اقتصر في معالجتها على حملة قادها محمد المهدي ولي العهد ، وقضى اربع سنوات في معالجتها متخذا طوالها من الري مركزا له دون ان يحتاج الى امدادات جديدة من بغداد .

لذلك كان الخليفة ومستوطني الجانب الغربي اشد اتصالا بالاراضي والاقاليم الغربية فيعتمدون عليها في سد مطالبهم دون حاجة شديدة الى الجانب الشرقي الذي بالامكان الاتصال به عن طريق القوارب والزوارق .

الصلة بين الجانبين :

غير ان الحاجة الى استيطان الجانب الشرقي ظهرت مبكرة ، فمن المعلوم ان ابا حنيفة وابن اسحق ، وهما من اعظم العلماء الذين عاشوا في بغداد ، توفيا سنة ١٥٠ هـ (٧٠) ودفنا في مقبرة الجانب الشرقي ، ولابد ان دفنهما في تلك المقبرة يرجع الى كونهما كانا عند وفاتهما يسكنان الجانب الشرقي ، وانهما لم يكونا وحدهما في هذه السكنى بل ان عددا آخر يصعب تقديره كان قد استوطن الجانب الشرقي . وتجدر الاشارة الى ان ابا حنيفة هو من اهل الكوفة في الاصل ، وان ابن اسحق هو من اهل الحجاز ، أي انهما من المهاجرة الى بغداد وليسوا من قدماء سكانها .

يذكر الطبري بان الاعمار في الجانب الشرقي بدأ سنة ١٥١ ، وهو يذكر رواية عن الشروي في ان

ويعبر دجلة من جسر المدائن ثم يتجه غربا الى الحيرة ، التي اقيمت قربها الكوفة ، او الى وادي الفرات حيث يذهب الى بلاد الشام . وكانت المدائن تتصل باقاليم شمال العراق و ارمينية وبالمناطق الجنوبية من العراق عن طريق دجلة ، كما تتصل باقليم الشام عن طريق الفرات ونهر الملك . ولما كانت المصادر الاسلامية لم تذكر اي جسر على دجلة غير جسر المدائن ، فالراجح ان هذا الطريق هو الذي كان مستعملا في صدر الاسلام (*) .

غير ان تأسيس بغداد على مسافة ثلاثين كيلو مترا شمالي المدائن كان لابد ان يؤثر في نهايات هذا الطريق ، لكي يرتبط ببغداد بدل ارتباطه بالمدائن . ثم ان الطريق البري الى شمالي العراق ، بما في ذلك سامراء والموصل ، كان يسير على الجانب الشرقي من دجلة .

وكل هذا يؤدي ان يكون الجانب الشرقي من بغداد هو المحطة الرئيسة لطريق خراسان والموصل ويستلزم انشاء جسر في منطقة بغداد لا تيسير ربط الجانب الغربي بالشمال والشرق فقط ، بل ايضا لتأمين تنقل البشر والتجارات بين اقاليم المشرق والمغرب .

الصلات العسكرية بين الشرق والغرب :

اختار ابو جعفر المنصور موقع عاصمته في الجانب الغربي من دجلة ، ووضع بنفسه خطتها واسس تنظيمها ، وكان الجزء الرئيس فيها هو المدينة المدورة التي تقع قرب دجلة والصراة ، يفصلها عنهما رقعة صغيرة من الارض . وكانت لها اربعة ابواب متناظرة ليس فيها أي باب متعامد على دجلة . فالمدينة المدورة لم يتحكم في تخطيطها النهر ، ولم يكن في التخطيط الاول لابي جعفر المنصور ان يجري في المدينة المدورة او ارباضها أي نهر او قناة حتى للشفة والطواحين . وقد ظل هذا الوضع حتى نهج بطريق الروم الى اهمية الماء في تشغيل الطواحين وفي سقي المزروعات التي تضافى على المدينة جمالا (٢٨) . وقد استجاب المنصور للملاحظة البطريق فجر الى المدينة المدورة ترعا تأخذ ماءها من الدجيل في الشمال ومن الصراة في الجنوب ، وكانت هذه الترع صغيرة وتجري في بعض الاماكن

(*) يذكر البلاذري انه عند الفتوح « عبر المسلمون جسرا كان معقودا عند قصر سابور الذي يعرف اليوم بقصر عيسى » (فتوح البلدان ٢٤٨) ، ولكن لم يتردد ذكر هذا الجسر في الاخبار مما يدل على قلة اهميته .
(٢٨) الخطيب ٧٨/١ .

(١٩) الخطيب ٧٩/١ .
(٧٠) من سنة وفاة ابي حنيفة انظر الخطيب ١٢٥/١ ، ٢٢٤/٢ ، ١٧٦/٤ ومن وفاة محمد بن اسحق انظر تاريخ خليفة ١٥٤ الخطيب ٢١٤/١ ، ١٧٦/٤ .

ويتبين من هذا النص ان المنصور هو الذي قرر توطين المهدي وجيشه في الجانب الشرقي وبنى له الرصافة ، وقد يفهم من سياق الكلام ان المنصور هو الذي وضع بنفسه تخطيط الرصافة ، وان محمد المهدي لم يكن له رأى نافذ في ذلك التخطيط ومما يؤيد ذلك ان المهدي لما ولى الخلافة لم يقم طويلا في الرصافة ، بل اقام في قصر الطين ثم في قصر السلامة بعيساباذ (٧٦) .

لم تذكر المصادر مساحة الرصافة او تفاصيل الخطط والمحال والدروب التي فيها كما هو الحال في المعلومات التي اوردوها عن المدينة المدورة في الجانب الغربي . غير ان النص الذي اوردناه اعلاه يبين ان الرصافة تتميز على المدينة المدورة من حيث ان فيها ميدانا وبستانا ونهرا يدخل فيها .

تنقل العمال والصناع والمصلين :

ويبدو ان المنصور لم يهدف من استيطان الجانب الشرقي ان ينشئ مدينة ثانية ، فان الطبري يذكر انه في سنة ١٥٩ « بنى المهدي مسجد الرصافة وفيها بنى حائطها وحفر خندقها » (٧٧) ويذكر الخطيب رواية عن يعقوب بن سفيان ان المهدي بنى المسجد الذي بالرصافة سنة ١٥٩ (٧٨) ، وقد يكون هذا هو المقصود بقول يحيى بن الحسن ان بناء الرصافة استتم سنة ١٥٩ (٧٩) .

لقد كان البناء في الجانب الشرقي اقل منه في الجانب الغربي ، ومع هذا فقد استغرق حوالي تسع سنوات (١٥١ - ١٥٩) مما يدل على بطء العمل فيه ، وعلى انه كان يتم تدريجيا . ونظرا لصغر الجانب الشرقي وبطء العمل فيه ، فان العمال والصناع الذين عملوا في بناء الجانب الشرقي عددهم اقل من عدد من بنى الجانب الغربي . غير انه ينبغي الا نبالغ في قلة عددهم وبالنظر لاتصال البناء واستمراره ، فلا بد ان عددا من هؤلاء العمال والصناع كان يقيم دائما في الجانب الشرقي ، وانهم جلبوا معهم أسرهم وعوائلهم ، كما ان عددا لا يستهان به من غير العمال اخذ يستوطن هذا الجانب الذي صار يوفر مجال الرزق للكسبة .

غير ان عددا آخر ممن عمل في بناء الجانب

الرصافة بنيت على اثر قدوم المهدي من خراسان في تلك السنة ، ورواية اخرى عن محاولته قسمة جيشه كوسيلة للسيطرة عليه ، وافتعاله حادثة لتبرير نقل بعض الجيش الى الجانب الشرقي ، ثم يقول بعد ذلك « وكان ذلك سبب البناء في الجانب الشرقي وفي الرصافة واقطاع القواد هناك » (٧١) غير ان هذا التاريخ قد ينطبق على بدء بناء الرصافة وبدء توزيع الاقطاعات ، أي على الزمن الذي بدأت به الخلافة « رسميا » اعمار الجانب الشرقي ، وهو زمن متأخر عن بدء سكن الناس فيه .

ويروى الطبري عن موسى بن محمد بن ابراهيم العباسي انه « تولى صالح صاحب المصلى القطائع في الجانب الشرقي » (٧٢) ، ويعدد اليعقوبي والخطيب اقطاعات الجانب الشرقي (٧٣) غير ان الاقطاعات التي ذكرها قليلة العدد ، ومعظمها لرجال كان لهم دور بارز في خلافة المهدي او بعده ، مما يدل على ان المعلومات التي اوردناها تعكس احوال فترة متأخرة عن سنة ١٥٠ التي لم يكن لمعظم هؤلاء المقتطعين دور بارز فيها او فيما قبلها (٧٤) .

وذكر اليعقوبي الشوارع والاسواق التي تخترق الجانب الشرقي ، وهي تتفرع من باب الطاق الذي كان عليه الجسر . ويبدو من كلامه ان الجسر كان محور تنظيم الجانب الشرقي ، في حين ان المعلومات والدلائل الاخرى تشير الى ان جسر باب الطاق تأخرت اقامته ، ولا يوجد ما يدل على ان المنصور اراد ان يجعل التنظيم الخططي للجانب الشرقي قائم على الجسر . فالصورة التي تتكون من وصف اليعقوبي تنطبق على احوال فترة متأخرة عن زمن المنصور . كما لا يوجد ما يدل على ان المنصور جعل الجانب الشرقي قائما على تنظيم مقرر كالذي فعل في الجانب الغربي .

ويروى احمد بن محمد الشروى عن ابيه « ان المهدي لما قدم من خراسان امره المنصور بالمقام بالجانب الشرقي ، وبنى له الرصافة ، وعمل لها سورا وخندقا وميدانا وبستانا ، واجرى له الماء ، فكان يجري الماء من نهر المهدي الى الرصافة » (٧٥) .

(٧١) الطبري ٣/٣٦٧ .

(٧٢) الطبري ٣/٣٦٧ .

(٧٣) البلدان ٢٥١-٤ ، الخطيب ١/٩٢ - ٩٦ .

(٧٤) انظر مقالنا ادارة بغداد ومراكزها في المنصور العباسية الاولى سومر م ٣٢ سنة ١٩٧٧ ص ١٢٢ فما بعد .

(٧٥) الطبري ٣/٣٦٤ - ٥ .

(٧٦) انظر مقالنا « منازل الخلفاء وقصورهم في العهد العباسية الاولى سومر م ٣٢ سنة ١٩٧٦ .

(٧٧) الطبري ٣/٤٦٠ .

(٧٨) الخطيب ١/١٠٩ .

(٧٩) الخطيب ١/٨٢ .

الشرقي وأعماراه ، أو وجد فيه الرزق ، ظلت اقامته الدائمة في الجانب الغربي ، فكان عليه ان يعبر النهر للوصول الى محل عمله .

ثم ان مستوطني الجانب الشرقي لم تنقطع صلتهم كليا مع اهل الجانب الغربي ، فقد كان للكثير منهم اقارب ومعارف في الجانب الثاني ، فكان لابد من عبور النهر عند الاتصال بين اهل الجانبين .

ويبدو ان المنصور عندما بدأ في بناء الجانب الشرقي لم يكن يعتزم ان يجعل منه مدينة مستقلة قائمة بذاتها او مركزا خليفيا رسميا . فكانت الرصافة متصلة بما حولها ، ولم يفصلها شيء حتى بنى لها المهدي سورا وخندقا عندما ولى الخلافة كما انها ظلت خالية من مسجد جامع الى ان ولى المهدي الخلافة فبنى الجامع . وقد تطلب وجود جامع واحد في الجانب الغربي للجمعة ان يعبر الحريصون على صلاة الجمعة من اهل الجانب الشرقي الى الجانب الغربي كل جمعة على الاقل . كما ان تركيز الدواوين والمؤسسات الادارية استلزم مستخدميه ومراجعيه من اهل الجانب الشرقي ان يعبروا النهر للوصول اليها .

مراكز الادارة :

ان بناء المهدي على اثر توليه الخلافة ، جامع الرصافة وخندقها وسورها يعبر عن عزمه على جعل الجانب الشرقي مدينة مستقلة عن الجانب الغربي ، وقد ظل جامع الرصافة هو الوحيد في الجانب الشرقي ، وثاني اثنين في بغداد حتى عودة الخلفاء من سامراء في اواخر القرن الثالث الهجري . وقد احتفظ جامع الرصافة باهميته وظل بناؤه قائما عامرا حتى بعد ان اندثرت كافة الابنية حوله في اواخر القرن الرابع الهجري . وكان هذا الجامع من مراكز الحياة الفكرية ، فكان عدد غير قليل من العلماء البارزين يلقون دروسهم فيه ، الامر الذي يحمل من يريد الاستماع لهم او الاتصال بهم من اهل الجانب الغربي الى عبور النهر للوصول الى الجامع .

ان بناء القصر من داخل الرصافة ، واحاطتها بالسور والخندق جعلها مفصولة عن باقي اراضي الجانب الشرقي بحاجز مادي يحددها ويمنع توسعها ، ويؤثر في جعل الحياة فيها معزولة عن الحياة في اطرافها . وقد احتفظ قصر الرصافة بطابعه « الملكي » حتى بعد ان ترك الخلفاء الإقامة فيه ، او انه ظل مسكونا يقيم فيه عدد من كبار

افراد الاسرة العباسية ، وخاصة النساء . وبوجود القصر في وسط الرصافة واحاطتها بالسور والخندق ، اصبحت الرصافة قرية الشبه بمدينة المنصور المدورة في الجانب الغربي ، من حيث انها اصبحت مدينة مسورة في وسطها جامع بلصقه قصر خليفى وحولها ربض مكشوف .

غير ان المهدي لم يقيم طويلا في الرصافة ، ففي سنة ١٦٣ انتقل الى قصر الطين ، وفي السنة التالية انتقل الى قصر السلامة في عيساباذ التي كان فيها مقامه ومقام ابنه موسى الذي تلاه في الخلافة . وفي خلافة الرشيد والامين عاد الخلفاء الى الجانب الغربي ، غير ان المأمون لما عاد الى بغداد استقر في الجانب الشرقي واقام في قصر بناه على بعد من الرصافة ، ولما عادت الخلافة من سامرا استقرت في القصر الحسنى القريب من قصر المأمون ، وقد نما هذا المركز الجديد فاصبح دار الخلافة وظل كذلك حتى سقوط الخلافة العباسية .

يتبين من هذا ان الجانب الشرقي ظل مركز الخلافة منذ زمن المهدي ، الا في فترات محدودة غير ان مقام الخلفاء في الجانب الشرقي لم يكن مستقرا في العهود الاولى ، فقد تنقل من قصر الرصافة الى قصر الطين فعيساباذ فقصر المأمون فالحسنى وكان التنقل نحو الجنوب ، ولكنه عموما لم يبعد عن ضفاف النهر .

ان بناء الجانب الشرقي ونمو الاعمار فيه وتزايد سكانه تطلب قيام مؤسسات ادارية لمعالجة القضايا والمشاكل التي قد تظهر بين اهله ، وخاصة فيما يتعلق بالامن والقضايا الجبائية ويبدو من الاشارات القليلة التي وردت في المصادر ان الادارة ببغداد كان لها مركز واحد في السنين الاولى ، ولم تظهر المؤسسات المزدوجة في كل جانب الا بعد امد غير قصير . وكان وجود مركز واحد للمؤسسات في بغداد يتطلب تنقل ذوي المصالح والموظفين وعبورهم الى الجانب الذي كانت فيه المؤسسات ان كانوا من اهل الجانب الثاني .

حاشية الخليفة وحرسه والدواوين :

غير ان التنقل بين الجانبين كان اشد تأثرا بتنقل مقام الخلفاء ومراكزهم . فالخليفة باعتباره رأس الدولة والمسؤول الاكبر عن ادارتها وعن ما يتصل بها من الدواوين المركزية ، كان يرتبط به شخصا عدد من الجند والحرس والحاشية والاتباع ، فضلا عن الدواوين المتصلة به ، وقد

الشرقي الذي لم يستقر فيه في مكان واحد ، وكان لوزرائه والمقربين اليه اقطاعات في الجانب الشرقي ، الامر الذي يدل على سكنهم في ذلك الجانب قريبا من الخليفة .

اما الدواوين فليست لدينا نصوص واضحة عن مواقعها في زمن المهدي ، والراجح انها انتقلت الى الجانب الشرقي الذي لم يكن يتم بدون عبور النهر . والواقع ان الدواوين اذا كانت قد بقيت في زمن المهدي والهادي في الجانب الغربي فان ذلك كان يتطلب عبور الوزراء والكتاب باستمرار للتوفيق بين الاتصال بالخليفة والاشراف على سير الدواوين اما اذا كانت الدواوين قد انتقلت الى الجانب الشرقي ، فان انتقالها يستلزم نقل الكتاب محل سكنهم ليكونوا بقربها ، او تنقلهم باستمرار اليها اذا ظلوا يقيمون مع اسرهم في الجانب الغربي . ومن المعلوم انه كان يستخدم في الدواوين كتاب يختلف عددهم وتنظيمهم ومقدار رواتبهم باختلاف الدواوين ومراكزهم فيها ، وهم يتميزون بالبستهم وبالتقاليد التي يسيرون عليها في حياتهم وفي اساليب عملهم . وكان عملهم يوميا ومنظما ويخضع الى اشراف دقيق ودخلم محدود ، فكان راتب الرؤساء منهم ثلاثمائة درهم في الشهر ، وراتب الاعتياديين ثلاثين درهما (٨٠) في الشهر وهو مبلغ لا يمكن من حياة مادية مترفة فضلا عما يهددهم من اخطار العزل والبطالة ، وكان هذا يقضي عليهم الاقامة بقرب دواوينهم وان تيسر لهم وسائل الوصول الى دواوينهم .

يتبين من كل ما ذكرنا ان الحاجة الى عبور دجلة لتأمين الاتصال بين الجانبين قد بدأت منذ اوائل تأسيس بغداد في الجانب الغربي ، غير انها اتسعت بعد اعمار الجانب الشرقي ، وازدادت شدة على اثر نقل الخلفاء مراكز اقامتهم من جانب لآخر . وكانت هذه الحاجة شاملة ، ولكن بدرجات متفاوتة ، لانواع متعددة من المنتجات الغذائية والسلع التجارية ، وذلك لاصناف كثيرة من الناس ، وخاصة العمال والصناع واصحاب الاعمال والكتاب والموظفين والحرس والجند . ولا ريب في ان ازدياد عدد المتصلين بالحكومة ممن يتطلب عملهم التنقل بين جانبي بغداد القى على الحكومة مسؤولية تنظيم هذا الانتقال .

عندما اسس المنصور مدينة السلام في الجانب الغربي من بغداد ، لم يضع في تخطيطه الاول لها

(٨٠) الوزراء والكتاب للجيشياري .

ذكرت المصادر التنقلات التي حدثت في مقام الخلفاء الاولين لا بين الجانبين فحسب ، بل وفي عدة اماكن من الجانب الواحد ايضا ، وان هذا التنقل كان يصحبه انتقال المتصلين بالخليفة والمراجعين له تبعا لتنقله . ومن البديهي ان الذين يعيشون في قصر الخليفة من افراد أسرته وخدمه وعبيده وجواريه ، كانوا يتبعون الخليفة وينتقلون بانتقاله ثم يستقرون في سكنهم معه .

والمفروض ان الحرس الخاص للخليفة ينتقلون معه ويقيم في او قرب قصره . غير ان افراد الحرس ، وهم احرار وليسوا رقيقا ، كانت لهم اسر متصلة بهم ، والراجح ان اسر الحرس لم تكن تقيم في قصر الخليفة او قربها لان ذلك يعرض الخليفة الى كشف حياته الخاصة واثارة الحسد واحتمال التجسس على حياته الخاصة ، فضلا عن اثره في تشويه الحياة والجمال حول القصر ، غير ان عدم سكن اسر الحرس في قصر الخليفة او حوله لا يعني انها جميعا ظلت في اماكن سكنها الاولى ، والراجح ان عددا غير قليل منهم انتقلوا الى الجانب الذي كان يقيم فيه الخليفة ، وان عددا اخر ظل مقيما في اماكنه القديمة في الجانب الغربي . وفي كلتا الحالتين ينشط عبور النهر ، اما عند نقل اسر او اثاث افراد الحرس ، او عند تنقل هؤلاء الافراد او اسرهم اذا كان مقام الاسر في غير الجانب الذي تقتضي واجبات الحرس اقامتهم فيه .

وينطبق على الجند المتصلين بالخليفة ما ذكرناه عن الحرس في تنقلهم واسرهم بين الجانبين .

وعندما بنى المنصور المدينة المدورة واعمر الجانب الغربي ، جعل الدواوين في داخل المدينة المدورة ، واقطع من كان عليها قطائع قريبة من دواوينهم خارجها ويبدو ان معظم الكتاب استوطنوا محلة الانباريين على الصراة قرب باب البصرة خارج المدينة المدورة . والراجح ان قرب الدواوين من مقام الخليفة وقرب سكن الكتاب من الدواوين ظل طيلة حياة المنصور ، اما الكتاب الرئيسيين الذين كانوا يقومون بعمل الوزارة ، فكانت لكل منهم اقطاعات في الابواض التي حول المدينة وخاصة في شماليها ، فمساكن هؤلاء « الوزراء » غير بعيدة عن قصر الخليفة ولا يحتاج الاتصال بينهما الى عبور النهر .

غير ان المهدي اقام عندما ولي الخلافة ، في الجانب الشرقي ، في الرصافة اولاً ثم في عيساباذ فيما بعد . اي انه نقل مقام الخلافة الى الجانب

انشاء جسر على دجلة ، فلم تذكر المصادر انه جعل على هذا النهر موقعا تتفرع منه طرق ، او انه شيد عليه ما يمهّد لبناء جسر ، فقد جعل قصره والجامع في وسط المدينة المدورة التي كان يفصلها عن النهر شريط من الارض اقطعه لبعض اولاده وكان يقابل النهر بعض سور المدينة ، ولم يجعل فيه بابا مواجهها لدجلة ، كما لم يسم اي باب باسم دجلة . وكان اثنان من ابواب المدينة الاربعة ، هما باب خراسان وباب الشام لا يقع اي منهما مواجهها للنهر ، بل كانا منحرفين عنه .

ودجلة في المنطقة التي بنيت فيها بغداد مجراه بطيء نسبيا ، وخاصة في مواسم انخفاض الماء التي لا تقل عن تسعة اشهر في السنة ، وشواطئه ترابية رخوة معظمها بطيئة الانحدار ولا تكون جسروفا عالية . ومجرها محصور مستقيم تقريبا ليس فيه التواءات حادة كثيرة ، بل توجد فيه انحناءات تدريجية قليلة ، مما يجعل الاماكن الشديدة التيار فيه قليلة . وكانت فيه بعض الجزر ابرزها جزيرتان اولاهما قريبة من الضفة الغربية عند دار عبدالله ابن طاهر ، وكانت كبيرة ذكرت المصادر انه اجتمع فيها مرة عدد كبير من الناس (٨١) وعسكر فيها بعض الجيش .

والجزيرة الثانية قرب الشاطئ الشرقي عند بستان ام موسى في المحرم ، وقد ذكرها ابو يوسف في كتاب الخراج كمثل للجزر التي تظهر في الانهار ، ونصح بعدم السماح في البناء فيها ، لان ذلك يضر بالابنية التي على شاطئ النهر (٨٢) .

وتقع على شواطئ دجلة بعض القصور التي كان للكثير منها مسنجات ، اي حيطان عمودية تقريبا على النهر لحماية القصر من مياه الفيضان . غير ان الناس عموما لم يفضلوا بناء بيوتهم على الشاطئ ، ولذلك فان معظم قصور وبيوت الكبار والاعنياء كانت بعيدة عن النهر وليست عليه ، ولعل من اهم اسباب ذلك الامن ، اذ ان الدور الشاطئية اذا كانت فيها فتحات وشبابيك فانها تتعرض للسرقه والفرق ، واذا لم يكن فيها ذلك فان فائدة النهر لها تنعدم . وكانت الجوامع الرئيسة والمساجد والدواوين لا تقع على الشاطئ ، الا القليل منها في العهود العباسية المتأخرة . وقد وزع ابو جعفر معظم الاراضي الواقعة على دجلة اقطاعات للعباسيين . وقد اجمل وصف ذلك ابن عرفة فيما نقله عنه الخطيب

بقوله « وأما شاطئ دجلة فمن قصر عيسى الى الدار التي ينزلها في هذا اليوم على قرن الصراة ابراهيم بن احمد فانما كانت اقطاعا لعيسى بن علي - يعني ابن عبدالله بن عباس - واليه ينسب نهر عيسى وقصر عيسى ، وعيسى بن جعفر وجعفر بن ابي جعفر ، واليه ينسب فرضة جعفر . . وأما شاطئ دجلة من قرن الصراة الى الجسر ، ومن حدا الدار التي كانت لنجاح بن سلمة ثم صارت لاحمد بن ابي اسرائيل ثم هي اليوم بيد خاقان المفلحي الى باب خراسان فذلك الخلد ، ثم ما بعده الى الجسر فهو القرار نزله المنصور في آخر ايامه ثم اوطنه الامين » (٨٣) . ويقول في مكان آخر « وأما شاطئ دجلة من الجانب الشرقي ، فاوله بنساء الحسن بن سهل وهو قصر الخليفة في هذا الوقت ، ودار دينار ودار رجاء بن ابي الضحالك ، ثم منازل الهاشميين ، ثم قصر المعتصم وقصر المأمون ، ثم منازل آل وهب الى الجسر كانت اقطاعا لناس من الهاشميين ومن حاشية الخلفاء » (٨٤) .

يظهر مما سبق ان شواطئ دجلة نظرا لتدرج انحدارها وقلة جروفها ورخاوة تربتها تصلح لتكون فيها المشاريع اي الاماكن التي ترسو فيها القوارب والزوارق التي تفضل المياه الهادئة والشواطئ القليلة الانحدار . ولا ريب في ان وجود القصور يعرقل انشاء المشاريع ، لان لمعظم القصور مسنجات ، ولان اصحاب القصور يفضلون ان تكون المشاريع قريبة منهم وليست في دورهم ، ولعل هذا من الاسباب التي لم تسم - بسببه - اية مشرعة في بغداد باسم صاحب قصر او متنفذ ، اللهم الا فرضة جعفر . غير انه يجدر ان نلاحظ ان القصور لم تشغل كل شواطئ دجلة ، فكانت فيها اماكن تصلح للمشاريع .

القناطر والجسور :

مهما كانت الخدمات التي تؤديها والاغراض التي تحققها الزوارق في النقل النهري بين جانبي بغداد فانها لا تكفي للتعويض عن اقامة معابر ثابتة ، حيث ان الكلفة العامة للنقل في هذه المعابر اخص وعدد الايدي العاملة فيها اقل ، ثم انها بتحدد مواقعها وثباتها تكون قاعدة لتنظيم المواصلات وحياة الناس وتنقلاتهم .

والمعابر الثابتة التي يتردد ذكرها في المصادر

(٨٣) الخطيب ٩٢/١ .

(٨٤) الخطيب ٩٨/١ .

(٨١) الطبري ٣ .

(٨٢) الخراج لابي يوسف ٩٢ .

العربية هي اما قناطر او جسور ، فالقنطرة : « ازج يبنى بالاجر او بالحجارة على الماء يعبر عليه » (٨٥) اما الجسر فيبنى عادة من الخشب على قوارب ضخمة تثبت بسلاسل ويصف عليها الواح الخشب ليتيسر السير عليها وعبروها . وقد ورد في اخبار خطط بغداد ذكر عدد من القناطر على الترع والانهار الصغيرة ، بعضها مسماة باسم المحلة التي اقيمت فيها ، او النهر الذي نصبت عليه ، ولكن كثيرا منها سميت باسماء اشخاص لم تذكر الكتب التي اهتمت بذكر رجال السياسة والادارة والحرب ، او العلماء شيئا عنهم ، ولذلك لا نستطيع الجزم بسبب هذه التسميات ، وهل انه راجع الى ان الشخص الذي سميت به القنطرة هو رجل محلي مشهور في المنطقة ، ام انه باني القنطرة .

اما الجسور الكبيرة على دجلة فكلها مما انشأه الخلفاء او اصحاب السلطة في بغداد ، وتكون اقامتها وصيانتها والعناية بها من عمل الدولة نظرا لكلفتها ولتأديتها الخدمات العامة للناس وتحقيقها بعض اغراض الحكومة لنقل الجند ومستخدمي الحكومة . وكانت كلفتها في سنة ٣٠٦ هـ ، وهي الوحيدة التي وصلتنا في ذلك ثلاثمائة دينار في الشهر (٨٦) .

يجري دجلة في منطقة بغداد في ارض تربتها رسوبية رخوة خالية من الصخور والحصى ، ويسير مجراه في منخفض من الارض غير عميق ، وبعض مناطق مجراه عريضة واسعة ، وبعضها ضيقة نسبيا وذات جروف عالية خاصة في فصل الصيف الحار وبذلك تكون اشد ملائمة لنصب الجسور ، وهي مناطق غير قليلة فكانت تنشأ عندها الجسور . ومثل هذه الطبيعة الجغرافية تجعل بالامكان عدم التقيد بنقطة واحدة في انشاء الجسر ، بل الاختيار بين اكثر من بقعة او انشاء اكثر من جسر واحد عبر دجلة ، وان يكون العامل الاساس في انشاء الجسور هو الاحوال الادارية ، او الاجتماعية والاقتصادية .

كان هدف ابي جعفر المنصور من انشاء بغداد واضحا محددا ، وهو ان يتخذ منها مقرا ثابتا لنفسه واهله وحاشيته وحرسه ودواوينه ومع انه ادرك القابلية الجغرافية لهذا الموقع ان يتوسع فيصبح مركزا حضريا كبيرا ذا نشاط اقتصادي واجتماعي واسع ، الا انه اهتم في البداية ان يجعله

مركزا اداريا محصنا مكتفيا بذاته ، وقد وضع بنفسه تخطيط المدينة الجديدة وجعله بالشكل الذي يحقق اغراضه .

وقد اختار المنصور انشاء مدينته في الجانب الغربي ، وكان اهم ما فيه هو المدينة المدورة التي احتوت قصره ودواوينه والمسجد الجامع ومقام شرطته وحرسه ، وهي محاطة بسور محكم له اربعة ابواب تحكمت فيها التخطيطات الداخلية للمدينة ، ولم يجعل فيها شارعا او بابا متعامدا على النهر ، بل كانت المنطقة المواجهة للنهر يمتد فيها سور بين باب البصرة وباب خراسان ، وكلاهما منحرف عن النهر ، ويحصر بين السور وشاطئ النهر شريط ضيق من الارض توزعت ارضه اقطاعات بنى على كل منها قصر لاحد اولاد المنصور ، فلم تنشأ فيها محلة او يقام فيها سوق ، أي انها لم تكن مركزا لنشاط سكاني او اقتصادي قد يستلزم انشاء جسر فيها .

وكان اهتمام ابي جعفر عند انشاء بغداد منصبا على الجانب الغربي ، فعمل على ان يعتمد في معاشه على ما تنتجه المنطقة الواقعة حوله ، أي في الجانب الغربي ، وهي منطقة خصبة غنية بمنتجاتها ومرتبطة بالاقاليم الشمالية والغربية والجنوبية ، ولم يراع في تخطيطه الاعتماد الكبير على الجانب الشرقي . والواقع ان اعمار الجانب الشرقي تأخر عن تأسيس المدينة المدورة ، فلم تكمل الرصافة وجامعها الا في سنة ١٥٩ ، اي بعد ان مر على تحول المنصور الى المدينة الجديدة اربع عشرة سنة حدث خلالها تطورات كبيرة ، حيث نمى الاعمار في الجانب الغربي وازداد سكانه واتسع النشاط الاقتصادي فيه ، وتوسعت علاقاته بالجانب الشرقي ، وبذلك ظهرت الحاجة الى ربط الجانبين وانشاء الجسور بينهما .

الجسور الاولى :

ورد عن الجسور الاولى نص رواه كل من الخطيب ، وابن الجوزي وابن الفقيه الهمداني ، ولكن في رواياتهم بعض الاختلافات .

فاما الخطيب فانه يذكر بسنده عن محمد بن خلف « قال احمد بن الخليل ابن مالك عن ابيه قال :

كان المنصور قد امر بعقد ثلاثة جسور : احدهما للنساء ، ثم عقد لنفسه وحشمه

(٨٥) لسان العرب ٤٣١/٦ .

(٨٦) الصابي : الوزراء ٢٦ .

جسر بين باب البستان وكان بالزندورد جسران عقدهما محمد .

وكان الرشيد قد عقد عند باب الشماسية جسرين .

وكان لابي جعفر جسر عند سوقة قطوطا . فلم تزل هذه الجسور الى ان قتل محمد ، وبقي منها ثلاثة الى ايام المأمون ، ثم عطل واحد (٨٧) وقد نقل ابن الجوزي هذا النص ، وأشار الى نقله اياه من الخطيب ولكنه ذكر ان جسر الزندورد عقدهما المهدي ، كما انه اكتفى من الجملة الأخيرة من النص بقوله : « فلما قتل الامين عطلت » (٨٨)

اما ابن الفقيه فقد روى هذا النص كما يلي : « قال الخليل بن مالك (٨٩) كان المنصور قد امر بعقد ثلاثة جسور ، جسر يعبر عليه ، وجسر يرجعون منه ، وجسر في الوسط للنساء . وعقد بعد ذلك بباب البستان جسرين ، جسر له ولولده ، وجسرا لخدمه وحشمه .

وعقد الرشيد بعد ذلك عند باب الشماسية جسرين . وكان لام جعفر جسر عند مشرعة فرج الرخجي بالقرب من سوقة قطوطا .

فلم تزل هذه الجسور قائمة الى ان قتل محمد بن زبيدة ، ثم عطلت الا الثلاثة التي عند مجلس الشرطة فانها باقية الى وقتنا هذا (٩٠) .

وعند مقارنة الروايات الثلاث يتبين :

١ - لم يذكر الهمداني جسر الزندورد ، ولعل ذلك سقط من النسخ . وذكر ابن الجوزي ان باني هذين الجسرين هو المهدي ، وبذلك ازال الالتباس في نص الخطيب عندما ذكر ان

(٨٧) الخطيب ١١٦/١ .

(٨٨) المنتظم ، مخطوطة ايا صوفيا حوادث سنة ١٤٥ (١٢٨) . (٨٩) ذكر الخطيب « احمد بن الخليل بن مالك بن ميمون بن سعيد ، ابو العباس مولى علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، يمانى الاصل ، ويعرف بجور ، حدث عن ابي بكر بن عياش وابي اسامة وعبدالله بن قريب الاصمعي وزينب بنت بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس » (١٢١/٤) ولم يذكر سنة وفاته ، كما انه لم يترجم لابنه ، ومن الواضح ان جده سعيد هو مولى علي بن عبدالله ، ويبدو من شيوخه ان اياه كان معاصرا لهم ، وانه عاش في اوائل القرن الثالث . (٩٠) بغداد مدينة السلام ٥٥ .

بانيهما هو محمد ، الذي قد يكون المهدي ، او الامين .

٢ - ان كلا من الخطيب والهمداني ذكر ان المنصور بنى خمسة جسور ، اثنان منها في باب البستان ، ولكن نص الهمداني اوسع حيث بين خصائص واغراض كل جسر .

٣ - ذكر الخطيب ان الجسر الذي عند سوقة قطوطا عقده ابو جعفر . اما الهمداني فذكر ان الذي عقده هو ام جعفر ، ولا ريب في ان تنظيم سياق النص يرجح رواية الهمداني .

٤ - ان الخطيب يذكر انه بعد مقتل الامين بقيت ثلاثة جسور ، ثم عطل واحد ، اي انه بقي بعد المأمون جسران .

اما الهمداني فيذكر ان الجسور الثلاثة ظلت الى زمن الخليل بن مالك .

وعند تنسيق روايتي الخطيب وابن الفقيه الهمداني يمكن ان نصنف الجسور الاولى الى المجموعات التالية :

١ - المجموعة الاولى عقدها المنصور ، وتتكون من ثلاثة جسور احدها للذهاب ، والثاني للاياب ، والثالث للنساء . ولم يذكر الخطيب موقع هذه الجسور ، غير انه ذكر انها بقيت بعد ان عطل منها واحد في زمن المأمون . اما ابن الفقيه فذكر ان هذه الجسور الثلاثة المنصوبة القديمة التي عند مجلس الشرطة ، فانها باقية الى وقتنا هذا .

٢ - المجموعة الثانية ، وهي الجسران اللذان عند باب البستان ، احدهما له ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه .

٣ - المجموعة الثالثة وهي الجسران اللذان بالزندورد ، وعقد عقدهما المهدي .

٤ - المجموعة الرابعة وهي جسرا الرشيد عند باب الشماسية .

٥ - المجموعة الخامسة وهي جسر ام جعفر عند سوقة قطوطا .

وجسور كل من هذه المجموعات متقاربة وفي موقع واحد ، وبذلك يمكن اعتبار كل منها « جسرا واحدا » تيسيرا للبحث .

لم يحدد النص بدقة تاريخ انشاء هذه الجسور ، علما بان كلا من المنصور والرشيد ظل

في الخلافة زهاء عشرين عاما ، وان كلا من المهدي والامين ظل في الخلافة زهاء خمسة اعوام .

وبلاحظ ان المجموعة الاولى تتكون من ثلاثة جسور ، وان المجموعة الخامسة تتكون من جسر واحد ، اما المجموعات الثلاث الاخرى فيتكون كل منها من جسرين . وقد حدد النص اغراض كل من الجسور التي عقدها المنصور ، فاما المجموعة الاولى فاحد جسورها للذهاب ، والثاني للاياب ، والثالث وهو الوسط للنساء .

واما المجموعة الثانية فهي جسران احدهما لنفسه ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه . اما جسرا كل من المجموعتين الاخرين فلم يحدد النص الغرض من كل منهما . وصراحة النص تنفي اي زعم بان كل مجموعة كانت جسرا واحدا قسم الى ثلاثة اقسام لغرض تنظيم السير فيه .

غير ان حرفية النص تثير بعض التساؤلات ، ومنها :

١ - ما هي الاسباب التي دفعت الى انشاء جسرين ، او ثلاثة ، في مكان واحد بدلا من انشاء جسر واحد ؟ هل ان ذلك راجع الى قصور في فن بناء الجسور ، كعدم اتقان انشاء قوارب ضخمة تكفي للجسر الكبير ؟ ام انه لاغراض امنية وتنظيمية ، وان ما ذكر عن المجموعة الاولى التي احد جسورها للذهاب والاخر للاياب ينطبق على جسور المجموعات الاخرى ؟

٢ - ان ادعاء النص ان جسري المجموعة الثانية كان احدهما للخليفة ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه ، يعني انها كانت جسورا خاصة للخليفة وتوابعه وليس للعامة ، وهذا لا ينسجم مع الاتجاهات السياسية العامة للخليفة المنصور ، فهل ان النص دقيق ومنطبق على الواقع ؟ وهل ان جسري المجموعتين الثالثة والرابعة كانت لنفس الاغراض ؟ علما بان المجموعة الاولى التي عند درب سليمان لم تذكر المصادر التالية انها كانت ثلاثة جسور ، بل تردد انها جسر واحد . فهل ان هذا يعني ان النص غير دقيق ، ام ان جسور المجموعة الاولى ، على الاقل ، ادخلت عليها تغييرات فيما بعد فصارت جسرا واحدا .

لقد بينا ان نص الخطيب لم يذكر موقع

جسور المجموعة الاولى كما لم يصرح بالمجموعة التي بقيت جسورها بعد المأمون ، اما ابن الفقيه فقد نص ان الجسور عطلت « الا الثلاثة المنصوبة القديمة التي عند مجلس الشرطة فانها باقية الى وقتنا » . ومعنى هذا ان هذه الجسور عند درب سليمان ، وستحدث عنها فيما بعد بتفصيل اوفى .

اما المجموعة الثانية فقد اتفق الخطيب وابن الفقيه على انها كانت في باب البستان ، ويظهر سياق النص ان هذا الموقع كان ثابتا مشهورا في تاريخ كتابة النص ، غير ان النص لم يذكر في اي من جانبي بغداد يقع باب البستان ، ولا اسم المكان الذي امتد اليه الجسر في الجانب المقابل ، ولما كانت المصادر لم تذكر بستانا مشهورا ، او باب بستان في الجانب الغربي (٩١) ، فلا بد ان يكون باب البستان هذا يقع في الجانب الشرقي من بغداد .

اما في الجانب الشرقي فان الخطيب ذكر باب البستان فيه في عدة مواضع من كتابه (٩٢) . غير انه لم يذكر اسم البستان الذي نسب اليه هذا الباب ، كما انه لم يشر الى موقعه بدقة .

وذكرت بعض كتب التاريخ باب البستان وما فيه من معالم . فقد ذكر الصابي ان فيه دار علي ابن عيسى (٩٣) ، وذكر مسكويه ان فيه دارا لابن مقلة (٩٤) . وذكر الصابي في موضع من كتابه ان دار علي بن عيسى تقع في بستان الزاهر (٩٥) ، كما ذكر ابن الجوزي ان دار ابن مقلة في ذلك البستان ايضا (٩٦) ، وهذا يقطع بان البستان الذي نصب الجسر ببابه هو بستان الزاهر . وذكر سهراب موقع بستان الزاهر حيث ذكر ان نهر موسى يمر « ملاصقا لقصر المعتصم الى ان يخرج الى الشارع الاعظم ، ثم يخرج الى شارع عمرو الرومي ، ثم يدخل بستان الزاهر فيسقيه ، ثم يصب في الدجلة

(٩١) ورد ذكر لبستان ام القاسم ابنة المنصور بباب الشام (طبري ٤٤٥/٣) وبستان مؤنسه الذي اتخذها طاهر بن الحسين مقرا عند حصاره بغداد ، وهو بباب الانبار (طبري ٩١٧/٣ ، ٩٢٤ وانظر ايضا ٨٦٧ ، ٩٣٤) غير ان كلا من الموقعين بعيد عن نهر دجلة .

(٩٢) انظر الخطيب ١٢٢/٥ ، ١٤٨ ، ٤٦٨/٩ ، ٥٦/١١ وقد ذكر في المكانين الآخرين المقبرة التي كانت في باب البستان.

(٩٣) الوزراء ٣١١ ، ٣٣٦ تكملة الطبري ٥٠ .

(٩٤) مسكويه ٢٦٥/١ تكملة الطبري ٧٨ .

(٩٥) الوزراء ٢٩١ .

(٩٦) المنتظم ٣١٠/٦ .

التي تنحدر تحتها اللبائع (٢٥٥/٢) وكل هذه الابواب من دار الخلافة وهي بعيدة عن النهر .

من باب الازج الى الشفيعي ، وارضها كلها فواكه
واترج واعناب ، وهي من أجود الاعناب التي تعصر
ببغداد» (١٠١) .

ومن المعلوم ان باب الازج يقع عند مرقند
الشيخ عبدالقادر ، وذلك يقتضي ان يكون موقع
هذا الجسر من الجانب الغربي بين موقع الشواكه
والصالحية ، اي انه جهة جسر الاحرار او جسر
الجمهورية .

يذكر النص ان المهدي انشأ هذا الجسر
لنفسه ، اي لخدمه اغراض محدودة بالخليفة
وليس للاغراض العامة ، خاصة وان اعمار الجانب
الغربي لم يتجاوز في العصور العباسية نهر عيسى
الذي كان يصب قرب جسر الشهداء الحالي ، جعل
فوائده العامة محدودة ، ولعل هذا من اسباب
تعمله بعد فترة وجيزة من عقده ، وانه لم يعقد
مكانه بعد ذلك أي جسر .

اما المجموعة الرابعة فهي جسرا باب
الشماسية اللذان عقدهما الرشيد ، وموقعها
يقتضي ان تكون نهايتها الغربية عند قطعة ام جعفر
أي قرب المحيط في الكاظمية . ولا ريب في ان هذه
المجموعة يمكن ان تخدم اغراضا عامة لانها تصل
بين منطقتين كانتا مزدهرتين ، وهما الشماسية
وقطعة ام جعفر ، كما انها تيسر اتصال الجانب
الغربي بطريق خراسان وطريق سامراء اللذين كانا
يمران بجهة الشماسية .

اما المجموعة الخامسة فهي الجسر الذي
عقدته ام جعفر « عند سوقة قطوطا » في نص
الخطيب ، او « عند مشرعة فرج الرخجي بالقرب
من سوقة قطوطا » في قول ابن الفقيه الهمداني .

فاما سوقة قطوطا فقد ذكر الطبري ما يحدد
موقعها حيث قال في كلامه عن الاضطراب ببغداد
سنة ٢٥٥ « مضى ابن اوس من وجهه الى منزله ،
وكان ينزل في دار لآل احمد بن صالح بن شيرزاد
بالدور مما يلي قصر جعفر بن يحيى ابن برمك ،
وجد اهل بغداد في آثارهم والقواد معهم حتى
تلقوهم ، فكانت بينهم وقعة بالدور .. واعان
ابن اوس جيرانه من اهل سوقة قطوطا واصحاب
الزواريق من ملاحي الدور » (١٠٢) . وواضح من
هذا النص ان سوقة قطوطا تقع قرب الدور التي
فيها دار آل شيرزاد وقصر جعفر البرمكي .

(١٠١) ياقوت ٦٦٥/٢ وهذا النص مفقود من مخطوطة الدبارات
التي نشرها الاستاذ كوركيس عواد .

(١٠٢) الطبري ١٧٢٠/٣ .

اسفل البستان بشيء يسير» (٩٧) . ويتبين من
وصف سهراب لانهار الجانب الشرقي ان بستان
الزاهر يقع اسفل المخرم ، ولما كان موقع المخرم
عند العبواضية الحالية ، فيكون البستان الزاهر
عند موقع مدينة الطب او وزارة الدفاع ويكون
موقع المجموعة الثانية من الجسور ، عند جسر
باب المعظم الحالي .

ذكر يعقوب بن سفيان الفسوي انه في « سنة
١٥٧ ابتنى ابو جعفر قصره الذي يعرف بالخلد ،
وفيها عقد الجسر عند باب الشعر » (٩٨) .

ومن المعلوم ان باب الشعر تقع في الجانب
الغربي ، وهي تقابل بستان الزاهر ، كما حددنا
موقعه اعلاه ، لذلك يمكن القول ان هذا الجسر هو
نفس جسور المجموعة الثانية التي ذكرها الخليل
ابن مالك وبين مواقعها بالنسبة للجانب الشرقي .
وبالنظر لاهمية هذا الجسر الموازية لاهمية سابقه ،
فاننا نرجي الكلام عنه الى ما بعد استكمالنا الحديث
عن جسور المجموعات الثلاث التي ذكرها الخليل
ابن مالك .

لقد ذكرنا ان الخليل بن مالك ، فيما نقله
عنه الخطيب وابن الجوزي ذكر ان الخليفة محمد
المهدي كان له جسران بالزندورد ، وانهما مما تعطل
على اثر مقتل الامين ، ولم يرد ذكر هذا الجسر في
النص الذي رواه ابن الفقيه الهمداني الذي اشار
الى زوال كافة الجسور ما عدا التي عقدها المنصور .

فاما الزندورد التي كان الجسران فيها ، فقد
ورد ذكرها في نصين ، احدهما للخطيب حيث قال
« ان المعتمد والمعتضد والمكتفي ماتوا بالقصور من
الزندورد » (٩٩) فمن المعلوم ان هؤلاء الخلفاء وافاهم
اجلهم في القصر الحسن الذي كانوا يقيمون
فيه (١٠٠) ، وهذا يظهر ان الزندورد هي المنطقة التي
كان فيها القصر الحسن ودار الخلافة التي موقعها
عند شارع البنوك حاليا . اما النص الثاني فهو
الذي رواه ياقوت عن الشابشتي حيث قال
« الزندورد في الجانب الشرقي من بغداد ، وحدها

(٩٧) سهراب ١٢٠ ، الخطيب ١١٥/١ .

(٩٨) المعرفة والتاريخ ١٤٤/١ ، الخطيب ١١٦/١ . وقد ذكر
الطبري هذا النص (٣٨٠/٣) دون سند ولكنه اضاف
في كلامه عن الجسر « وجرى ذلك على يد حميد القاسم
الصيرفي بامر الربيع الحاجب » ولم يذكر مصدره . وقد
اشار الخطيب في موضع آخر (٧٥/١) الى عقد هذا
الجسر .

(٩٩) الخطيب ٦٩/١ .

(١٠٠) انظر ٣١٢٣/٣ و ٢٢٠٦/٣ ، وعن وفاة هؤلاء الخلفاء .

أما مشرعة فرج الرخجي فلم تذكرها المصادر، والراجع أنها كانت قرب دار فرج الرخجي الذي تردد ذكره في المصادر ، فقد ذكر ابن الفقيه الهمداني أنها « فوق سوق يحيى .. وداره اقطاع من الرشيد ، ولم يكن على شاطئ دجلة بناء احكم من بنائها ، ثم هدمت فيما هدم من منازل عمر بن فرج لما قبضت » (١٠٢) وفي قصر فرج التي على دجلة كانت دار طازاد التي نزلها البريدي عندما جاء بغداد سنة ١٠٤٣ (١٠٤) .

وعند قصر فرج كانت بستان الحميري التي بنى معز الدولة سنة ٣٥٠ هـ داره فيها « وهدم ما جاورها من العقارات » (١٠٥) و « قلع الابواب الحديد التي على مدينة المنصور والتي بالرصافة ، ونقلها اليها ، ونقض قصور الخلافة بسر من رأى ، ونزل في المسناة ستة وثلاثين ذراعا ، ولزمه على بنائها ثلاثة عشر الف درهم » (١٠٦) .

ويتبين مما ذكرناه ان جسر ام جعفر كان باقضى أعلى الجانب الشرقي ، اي فوق باب الشماسية ، قرب الدور ، فهو اذا فوق المجموعة الرابعة التي شيدها الرشيد ، ولم تذكر المصادر المعالم الخططية التي كانت في طرف الجانب الغربي من الجسر .

يذكر الطبري ان طاهر بن الحسين عند حصار بغداد « امر بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية » (١٠٧) . ومن الواضح ان الفرض من عقد هذا الجسر هو تيسير نقل الجند بين جانبي بغداد ، اي لاغراض عسكرية وان عقده يدل على ان جسر الرشيد وام جعفر كانا مخربين ، والا لم تكن هناك حاجة الى عقده .

يتبين من العرض الذي قدمناه ان المجموعتين الاوليتين من الجسور وهي التي عقدها ابو جعفر المنصور ، هي الجسور الاساسية التي ظلت مستعملة حقبة طويلة من الزمن ، ولابد ان هذا يرجع الى ان الجسور الاولى ظلت تؤدي خدمات اساسية للحكومة والناس مما اقتضى العناية بها وصيانتها لضمان بقائها ، اما الجسور الاخرى فلم تكن تؤدي مثل هذه الاغراض ، ولم تعقد في اماكن مهمة ولذلك تعطلت منذ ايام المأمون ، اي بعد فترة

قصيرة من تشييدها ولم تجر محاولة لاعادة بنائها . وقد ذكرت المصادر تاريخ عقد الجسر الثاني ، وهو سنة ١٥٧ اي في السنة الاخيرة من خلافة المنصور ، ولم تذكر هذه المصادر تاريخ عقد الجسر الاول ، وهو الشمالي ، الامر الذي يجعلنا نرجح انه عقد قبل الجسر الثاني ، ومع ان المصادر لم تذكر ما يساعد على تحديد زمن عقده ، الا اننا نرجح انه تم حوالي سنة ١٥٠ هـ حين عاد المهدي بجيشه من الري وبدى ببناء الرصافة في الجانب الشرقي .

لقد انشأ المنصور الجسور بعد عدة سنوات من اكمال بناء بغداد وانتقاله اليها ، لذلك يمكن القول انها لم تكن ضمن الخطة الاساسية الواسعة الاولى للمدينة ، وان تأسيسها المتأخر نسبيا يرجع الى ما بعد تأسيس المدينة من حاجات مستجدة كان لابد من العمل على تحقيقها على ان لا يؤثر ذلك في الاسس التي حرص المنصور على السير عليها في تأسيس مدينته ، ولعل من ابرز هذه الاسس هي ان تبقى المدينة المدورة منطقة دفاعية محصنة يقيم فيها مع دواوينه وحرسه ، ولذلك لم يكن في خطته انشاء جسور لربط المدينة المدورة باجزاء اخرى ، فلم يجعل لهذه المدينة شوارع متعامدة على النهر او متصلة بالفرض لتكون منافذ تتصل بالجسور . ويبدو انه عندما اسس مدينته في الجانب الغربي ، وكانت صغيرة نسبيا ، راعى فيها الاعتماد على المناطق والاقاليم الواقعة في غربي دجلة ، فلم يعم بربطها بالجانب الشرقي ، غير انه سرعان ما بدأت تظهر وتزايد اهمية الجانب الشرقي لدرجة انه قرر الاهتمام باعمارها وتوطين الناس فيه ، هذا فضلا عن ظهور اهمية الصلة بالاقاليم الشرقية الواسعة والغنية .

اختار المنصور للجسر في الجانب الغربي رفعة غير بعيدة عن باب خراسان ، اي في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة المدورة ، فهي متصلة بمنطقة باب التبن والحربية والجهات الشمالية التي كانت فيها اقطاعات ومساكن لعدد كبير من الناس اي لمعظم جيشه . حيث ان الجهة الجنوبية كانت في البداية ضيقة الرقعة سكنها العرب والصحابة وكتاب الدواوين ، او ما يمكن اعتبارهم « عليّة القوم » ولم تتفرع عند رأس الجسر شوارع كثيرة ، ولكنه ادى بالتدرج الى نمو شارع كبير هو الوحيد الرئيس الذي يتصل بالجسر . وكانت المنطقة التي قرب بدايته القريبة فيها اقطاعات وقصور اولاده ، ثم انشأ له قصر الخلد ، كما كان فيها بعض المؤسسات العامة كالسجن والشرط . ويلاحظ انه

(١٠٢) بغداد مدينة السلام ٥٦ ، وانظر ياقوت ٥٢٢/٢ .

(١٠٤) مسكويه ٧٨/٢ ، تكملة الطبري ١٤٤ .

(١٠٥) مسكويه ١٨٢/٢ .

(١٠٦) تكملة الطبري ١٧٩ .

(١٠٧) الطبري ٨٩٧/٣ .

لم ينشأ عند هذا الجسر سوق كبير مما يدل على ان الغرض الاول من انشائه هو غرض عسكري ، اي لتيسير نقل الجند بين الجانبين .

اما نهاية الجسر من الجانب الشرقي فقد جعلت على بعد من الرصافة التي استهدف من انشائها ان تكون مقرا محصنا لابنه ، فحاطها بسور وخذق كالذي في المدينة الغربية . ويبدو ان سعة الفسحة امام النهاية الشرقية ، وقلعة الاقطاعات فيها ادى الى اقامة عدة شوارع واسعة صار كل منها سوقا كبيرة فيذكر اليعقوبي عن الجانب الشرقي « وسوق هذا الجانب العظمى التي تجتمع فيها اصناف التجارات والبياعات والصناعات على راس الجسر ، مارا من راس الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من اصناف التجارات والصناعات » ثم ذكر ان طرق الجانب الشرقي خمسة .

١ - طريق مستقيم الى الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع .

٢ - طريق من السوق الذي يقال له سوق خضير وهو معدن طرائف الصين ويخرج منه الى الميدان ودار الفضل بن الربيع .

٣ - طريق ذات اليسار الى باب البردان وهناك منازل خالد بن برمك وولده .

٤ - طريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد والى الموضع المعروف بالدور الى باب بغداد المعروف بالشماسية ومنه يخرج من اراد الى سر من رأى .

٥ - وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتى من الجانب الغربي يأخذ على دجلة الى باب المقير والمخرم وما اتصل بذلك (١٠٨) .

ولا ريب في ان هذه الاسواق ازدهرت بعد عقد الجسر ، وان قيام الجسر كان عاملا فعلا في ازدهارها ، وقد يكون لمروء طريق الى سر من رأى والى خراسان من هذا الجسر اثر في ازدياد اهميته وفي سرعة نمو هذا السوق ، وعلى اي حال فان الاسواق المعمرة في الجانب الشرقي كانت في الشمال ، بعكس الجانب الغربي ، وان كلا من الرصافة والمدينة المدورة ظلت مدينة جامدة تفتقد الحيوية والنشاط .

(١٠٨) البلدان ٢٥٣ - ٤ .

اما الجسر الثاني ، وهو الواقع جنوب المدينة المدورة ، فقد عقده المنصور في السنة الاخيرة من خلافته ، اي بعد ان نقل التجار واصحاب الحرف من المدينة المدورة الى الكرخ التي بدأت تزدهر كمركز للحياة التجارية والاقتصادية ، وقد انشئ هذا الجسر في نفس السنة التي بنى المنصور فيها قصر الخلد واتخذة مسكنا له ، ولا بد انه قصد من عقد الجسر الجنوبي ان ييسر للناس الانتقال بين الجانبين ، مع تحاشي المرور من المدينة المدورة او قربها او المناطق الجنوبية من الجسر الشمالي ، اذ ان هذه الاماكن كانت فيها قصوره وقصور اولاده .

لم يكن هذا الجسر يربط بين المدينة المدورة والرصافة ، بل كان يربط الكرخ بالمنطقة المقابلة لها من الجانب الشرقي ، اي انه يربط بين منطقتين كل منهما جنوب المدينة « الرسمية » وخارجة عنها ، فغرضه تجاري صرف ولخدمة الناس ، وخاصة من التجار والصناع واصحاب الحرف . ويقع طرفه الغربي في باب الشعير وهي محلة كانت قد نمت فيها الحياة التجارية ، ولذلك فان عقده يخدم بالدرجة الاولى المناطق الجنوبية من الجانب الغربي ، اي الكرخ الذي يعتبر باب الشعير احد محاله . ويلاحظ ان هذا الجسر انشئ في الوقت الذي كان الجانب الغربي هو مركز الخليفة والدواوين .

والمنطقة التي ينتهي عندها الجسر في الجانب الشرقي لم تكن مزدهرة انذاك ، اذ كانت فيها قصور متفرقة لعدد من افراد الاسرة العباسية الذين كانوا حريصين على الانتقال الى الاجزاء الجنوبية من الجانب الغربي ومما يدل على ضعف اعمارها انذاك قلة الانهار فيها ، حيث ان الانهار فيها مسماة باشخاص ظهر دورهم بعد زمن المنصور ، كما ان سوق الثلاثاء الذي كان يمتد قربها ، لم يرد له ذكر في المصادر الاولى التي دونت المعلومات في اول القرن الرابع او قبله . لذلك يمكن القول بان الجسر انشئ لتيسير اعمال اهل الجانب الغربي ، وانه ادى الى نحو المنطقة التي ينتهي عندها من الجانب الشرقي .

في ثنايا اخبار القرنين اللذين تليا تأسيس بغداد اشارات غير قليلة تتعلق بجسور بغداد ، وقد وردت في هذه الاشارات تعابير متنوعة ، منها الجسر ، والجسر الشرقي ، والجسرين ، والجسر الاعلى ، و « رجة الجسر » و « ناحية الجسر » و « راس الجسر » و « مجلس الجسر » .

فاما تعبير « الجسر » ، فقد ورد في بعض النصوص دون تخصيص او دلالة على موقعه :

فيذكر الطبري ان طاهر بن الحسين عندما كان يحاصر الامين « امر هرثمة ليقطع الجسور » وانه « وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى بن ماهان على جسر دجلة فقطعاه » (١٠٩) .

ويذكر الطبري ايضا انه عند مقتل ايتاخ « شحن ابراهيم (والي بغداد) الجسر بالجند والساكرية » (١١٠) .

وفي سنة ٢٥٢ هـ حدثت فتنة بين جند بغداد واصحاب محمد بن عبدالله ابن طاهر ، فسار الثوار « ثم مضوا يريدون الجسر في شارع الحدادين ... ودفعوهم عن الجسر حتى صبروهم الى باب عمرو بن مسعدة » (١١١) كما يذكر « الشارع النافذ الى الجسر » (١١٢) .

ويذكر مسكويه انه في سنة ٢٩٨ هـ « غرقت فاطمة القهرمانة في طيارها تحت الجسر » (١١٣) .

ويتردد ذكر الجسر عند الصولي ، فهو يقول : « دفن هارون في داره بقرب الجسر » (١١٤) و « نهبت دار علي بن خلف بن طياب في الجانب الغربي بقرب الجسر » (١١٥) « وان المتقي وابن رائق » .. سار من داره الى الجسر وركب الماء ، وفي الوقت الذي ركب الخليفة الماء من الجسر رجع الى قصره انقطع الجسر وانخلع الكرسي وهو مملوء بالنضارة فغرق خلق كثير من رجال ونساء وصبيان (١١٦) « وانه « صعد ناصر الدولة وقطع الجسر وسار من الجانب الغربي » (١١٧) وان توزون « رحل الى بغداد .. فمضى في شارع المخرم الى الجسر » (١١٨) .

وذكرت المصادر عددا من الولاة « للجسر » .

فيذكر مسكويه ان عبدالله بن طاهر ولى

« اسحق بن ابراهيم امر الجسر وجعله خليفته » (١١٩) ويذكر الطبري انه في سنة ٢٣٥ « كانت وفاة اسحق ابن ابراهيم صاحب الجسر » (١٢٠) وانه كان « محمد ابن عبدالله بن طاهر على الجسر » (١٢١) .

وذكرت المصادر « باب الجسر » اطلاقا دون ان تحدد ، وان كانت تذكر احيانا معالم خطية قد تساعد في تحديده .

فمما ذكره الطبري ان صالح صاحب المصلى تولى القطائع في الجانب الشرقي فله بباب الجسر وسوق يحيى .. مواضع بناء (١٢٢) .

وفي حصار طاهر بن الحسين بغداد « قصد طاهر الى مدينة ابي جعفر فاحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد من لدن باب الجسر الى باب خراسان » (١٢٣) .

وفي سنة ٢٤٩ « اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء ففتحو سجن نصر بن مالك واخرجوا من فيه وفي القنطرة بباب الجسر » (١٢٤) .

وفي سنة ٢٥٢ حصلت فتنة وكان محمد بن عبدالله واليا على بغداد « فامر الحوانيت التي على باب الجسر والتي تتصل بدرب سليمان ان تحرق بمئة ويسره » (١٢٥) .

كما انه يذكر ان العباس بن عبدالله خرج فأتى حسين بن علي « ثم وقف عند باب الجسر » (١٢٦) وانه في سنة ٢٥٠ قتل يحيى بن عمرو واخذ راسه « الى بغداد لينصب بها بباب الجسر » (١٢٧) ، وفي سنة ٢٥١ « صلب الموكل على السور فلم يزل مصلوبا على باب الجسر الى ان انزل مع ما انزل من الرؤوس » (١٢٨) .

وذكر طيفور خبر رجلين تنازعا بباب الجسر (١٢٩) .

(١٠٩) طبري ٩٠٤/٣ ويلاحظ ان الطبري يقول « فقال حسين الخليفة في قطع الجسر » ثم يروي له قصيدة يشير في اولها الى جسر بغداد !

(١١٠) الطبري ١٢٨٥/٣

(١١١) الطبري ١٦٦٥/٣

(١١٢) الطبري ١٦٦٥/٣

(١١٣) مسكويه ٢٠/١

(١١٤) اخبار الراعي والمتقي ٧٥

(١١٥) كذلك ١٤٩

(١١٦) كذلك ٢٢٣

(١١٧) كذلك ٢٤١

(١١٨) كذلك ٢٦٧

(١١٩) مسكويه ٤٥٢ (طبعة كايثاني) .

(١٢٠) الطبري ١٤٠٢/٣

(١٢١) الطبري ٢٠٢٧/٣

(١٢٢) الطبري ٣٦٧/٣

(١٢٣) كذلك ٩٠٦/٣

(١٢٤) كذلك ١٥١٠/٣

(١٢٥) كذلك ١٦٦٥/٣

(١٢٦) كذلك ٩٥٥/٣

(١٢٧) كذلك ١٥٢٢/٣

(١٢٨) كذلك ١٥٧٩/٣

(١٢٩) طيفور ٤٣

سياقها على ان المقصود هو الجسر الذي يربط منطقة باب خراسان بباب الطاق .

فقد ذكر « والرابع من باب الشام الى ربض حرب وما اتصل بربض حرب وشارع باب الشام وما اتصل بذلك الى الجسر على منتهى دجلة .. ومن باب خراسان الى الجسر الذي على دجلة ماذا في الشارع على دجلة الى البغيين » (١٣٩) .

وذكر ايضا « ومن باب الشام في الشارع الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال ، ثم ربض يعصرف بدار الرقيق » (١٤٠) .

ثم يذكر « والرابع من باب خراسان الى الجسر على دجلة ، وما بعد ذلك بازائها الخلد ، وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض ، وقصر يشرع على دجلة .. فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة الجسر ، فاذا جاوزت ذلك فاول القطائع قطعة سليمان بن ابي جعفر » (١٤١) .

ووصف اليعقوبي بعض اماكن الجانب الشرقي من الجسر فقال « طريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد (برمك ؟) والى الموضع المعروف بالدور من باب بغداد المعروف بالشماسية ، ومنه يخرج من اراد من سر من رأى » (١٤٢) .

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه « قصر خزيمة الذي على رأس الجسر » (١٤٣) ، ويلاحظ ان بعض المصادر ذكرت « درب سليمان بقرب الجسر » (١٤٤) او « طرف الجسر » (١٤٥) .

وفي المصادر ذكر لمجلس الجسر ، ومجلس الجسر الشرقي ، ومجلس الشرطة بالجسر . فيذكر الطبري انه في فتنة المستعنيين انتهب مجلس الجسر (١٤٦) . ويذكر ايضا انه لما ولي يعقوب بن الليث الصفار الشرط في بغداد ، كان للشرط « اعلام ومطارد وترسه في مجلس الجسر » (١٤٧) .

واذا كانت المعالم الخططية التي ذكرت في النصوص الاربعة الاولى قد تدل على ان الجسر المقصود هو الذي بين درب سليمان وباب الطاق ، فان الثلاثة الاخيرة ليس فيها دليل قاطع على ذلك .

وذكرت ايضا رحبة الجسر التي اخرج اليها الحلاج عندما قتل ثم « نصبت رأسه يومين على الجسر » (١٣٠) .

وذكر ايضا رأس الجسر اذ كانت « دار عبدالله ابن عبدالله (ابن طاهر) عند رأس الجسر » (١٣١) .

وقد ورد تعبير رأس الجسر في الكلام عن دار خزيمة بن خازم ودار علي بن الجهشيار .

فيذكر اليعقوبي ان خزيمة بن خازم « اقطاعه على رأس الجسر » (١٣٢) ويذكر الخطيب ان « دار خزيمة هي التي صارت لعلي بن الجهشيار » (١٣٣) ويذكر الهمداني في كلامه عن طاق اسماء « وكان في دارها التي صارت لعلي بن الجهشيار - بمشرفة الصخر ، اقطعها اياها الموفق ، ثم اقطعها ازكوتكين بن ساتكين » (١٣٤) .

ويذكر الطبري ان « دار علي بن الجهشيار وكانت في الخراب على باب الجسر الشرقي » (١٣٥) ويذكر غريب ان « اللصوص كبسوا دار صاحب الشرطة محمد بن عبدالصمد ، وكان ينزل الجانب الشرقي في الدار المعروفة لعلي بن الجهشيار » (١٣٦) ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٣٠٩ هـ « هدم دار علي ابن الجهشيار » (١٣٧) ويذكر الطبري « دار ابن ابي ليلى ابن عبدالعزيز ابي دلف وهي دار علي بن الجهشيار على رأس الجسر » (١٣٨) .

ومن المعلوم ان طاق اسماء ، ودار علي بن الجهشيار تقع على رأس الجسر الذي بدايته من الجانب الغربي عند درب سليمان فيكون هو المقصود بهذه النصوص .

وذكر اليعقوبي « الجسر » في نصوص يدل

- (١٣٠) الخطيب ١٢٦/٨ تكملة الطبري ٢٥ .
(١٣١) الطبري ٢١٥٩/٣ .
(١٣٢) البلدان ٢٥١ .
(١٣٣) الخطيب ٩٢/١ .
(١٣٤) بغداد مدينة السلام ٥٥ وانظر ياقوت ٤٨٩/٣ .
(١٣٥) الطبري ١٦٣٢/٣ .
(١٣٦) غريب ٥٦ .
(١٣٧) المنتظم ١٥٩/٦ .
(١٣٨) الطبري ٢١٢٢/٣ .
(١٣٩) البلدان ٢٤٢ .
(١٤٠) البلدان ٢٤٨ .
(١٤١) البلدان ٢٤٩ .
(١٤٢) البلدان ٢٥٣ .
(١٤٣) التاريخ ٢١٠/٣ .
(١٤٤) اخبار الرازي والتقي ٢٠٩ .
(١٤٥) الخطيب ٥٨/١١ .
(١٤٦) الطبري ٢١٢١/٣ .
(١٤٧) الطبري ٢١١٢/٣ .

ويذكر الجهشيارى ان الرشيد « جلس في مجلس الجسر الشرقي وأحرق جثة جعفر بن يحيى البرمكي » (١٤٨) .

ويذكر الطبري ان العامة في فتنة المستعين « هاجموا ابا مالك الموكل بالجسر الشرقي ، فدخل داره وخلاهم فانتهبوا ما في مجلسه » (١٤٩) .

غير انه يذكر ان الموفق امر ان تقطع يد الدويني ورجله من خلاف « فقطع في مجلس الجسر بالجانب الغربي » (١٥٠) .

فاما مجلس الشرطة بالجسر فقد اوردنا من قبل النص الذي جاء في اليعقوبي عند وصفه المعالم الخططية في الجانب الغربي حيث قال : « فاذا جاوز موضع الجسر ، فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة الجسر » (١٥١) .

وذكر طيفور : « وكان صاحب الجسر اذا انصرف عياش من مجلسه جلس في المسجد الذي في ظهر مجلس الشرطة ، وكان الاخر اذا انصرف السندي صار الى مسجد حسنه ام ولد المهدي ، وهو المسجد الذي بباب الطاق في الحدادين ، وهناك دار حسنه » (١٥٢) .

وذكر الصولي انه « وصل ابو بكر بن مقاتل الى مجلس الشرطة من الجانب الغربي فرأى الجسر مقطوعا » (١٥٣) .

وذكر الطبري انه « سار جماعة من الفوغاء والعامة الى المجلس الذي يعرف بمجلس الشرطة في الجسر من الجانب الشرقي .. وتهدم حيطان مجلس الشرطة » (١٥٤) .

ويبدو من سياق الحوادث ، ومن المعالم الخططية المذكورة في هذه النصوص ان « الجسر » المذكور فيها هو الجسر الذي يمتد بين باب خراسان وباب الطاق ، وان تردد ذكره يرجع الى اهمية موقعه في القرن الثالث الهجري ، حيث كان يربط الارياض الشمالية للمدينة المدورة مع المناطق الشمالية للرصافة ، ويمر به طريق خراسان

(١٤٨) الجهشيارى ٢٣٧ .

(١٤٩) الطبري ١٦٣٠/٣ .

(١٥٠) الطبري ٢١٠٩/٣ .

(١٥١) البلدان ٢٤٩ .

(١٥٢) طيفور ٤٣ .

(١٥٣) اخبار الرازي والمثني ٢٠٧ .

(١٥٤) الطبري ١٦٦٤/٣ .

وسامراء ، ولذلك فان تجارات المشرق تمر به ، كما انه وسيلة الاتصال بين الحربية وما حولها بالاطراف الشمالية من الجانب الشرقي وبالرصافة ، التي كانت قد امنت حركة اقتصادية نشطة ، وان وروده في الكتب باسم « الجسر » كاسم علم يدل على اهميته وشهرته ، ولا يستلزم حتما ان يكون دليلا على وجود جسر واحد في بغداد ، ولما كان باب الطاق قد اصبح يطلق على المحلة التي فيها قبر ابي حنيفة فيمكن تحديد موقعه التقريبي بين ساحة عبدالمحسن الكاظمي في الغرب ، وبنية دار المعلمين الابتدائية في الغرب والواقع انه توجد اشارات غير قليلة في المصادر الى « الجسرين » و « الجسر الاعلى » و « الجسر الاسفل » .

فاما تعبير الجسرين فقد ورد منذ ايام الرشيد حيث ان الجهشيار قال ان الرشيد عندما عزم على نكبة البرامكة كان السندي بن شاهك « يلي الجسرين ببغداد » وان السندي قال بعد نكبة البرامكة « فلما امسيت قمت ليلتي بالجسر بالجانب الشرقي .. كتاب الرشيد الي بصلب كل نصف على احد الجسرين » (١٥٤) .

وعند مقاتلة الامين امر طاهر بمحاصرة الجسر ، فقال حسين الخليل :

اناخ بجسرى دجلة القطع والقنا

شوارع والارواح في راحة العضب (١٥٥)

ولما ولي طاهر بن الحسين الشرط استشار الفضل بن الربيع فاختر له « السندي بن يحيى وعياش بن القاسم فولاهما الجسرين » (١٥٦) ، وقد استخلف المأمون هذين الرجلين « على الجسرين » (١٥٧) .

وفي سنة ٢٠٦ هـ ولي عبدالله بن طاهر اسحق بن ابراهيم الجسرين » (١٥٨) .

(١٥٤) الجهشيارى ٢٣٦ ، ويذكر اليعقوبي انه كان « لبغداد يومئذ ثلاثة جسور (التاريخ ١٥٢/٣) .

(١٥٥) الطبري ٩٠٤/٣ .

(١٥٦) طيفور . ويذكر مسكويه ان ابا السرايا عندما اسر

« صلب نصفين على الجسرين في كل جسر نصف

(مسكويه ٢٤) طبع كائتاني) غير ان الطبري يروي انه

صلب نصفين على الجسر ، في كل جانب نصف

(٩٨٢/٣) .

(١٥٧) طيفور ٩٢ .

(١٥٨) الطبري ١٠٦٢ .

وقد صلب بابك في الجانب الشرقي بين
الجسرين بمدينة السلام» (١٥٩) .

ولما سمع اهل بغداد بمقتل عمر بن عبدالله
الاقطع وعلي بن يحيى الارمني في الثغور « هاجوا
ففتحوا سجن نصر بن مالك واخرجوا من فيه وفي
القنطرة بباب الجسر .. وقطعوا احد الجسرين
وضربوا الاخر بالنار ، وانحدرت سفنه » (١٦٠) .

وفي سنة ٢٥٢ هـ احرق ابن طاهر الجسرين لما
راى الجند قد ظهوروا على اصحابه (١٦١) .

ولما اشيع موت الموفق اثار ابو الصقر اضطرابا
« وقطع الجسرين ووقف قوم على الجسر في الجانب
الشرقي يحاربون اصحاب ابي الصقر » (١٦٢) .

وفي سنة ٢٥٥ هـ ولي سليمان بن عبدالله ،
ابراهيم بن اسحق بن ابراهيم « ما كان الحسين بن
اسماعيل يتولاه لعبدالله من امر جسري بغداد
وطاسايج قطربل ومسكن » (١٦٣) .

وفي سنة ٢٨٥ هـ خرج المعتضد من بغداد
قاصدا آمد « واستخلف ببغداد صالحا الامين
الحاجب وقلده المظالم والجسرين » (١٦٤) .

وكانت « نفقات الجسرين وثمان ما يبدل من
سفنهما والفاوس وارزاق الجسارين من جملة
ثلاثمائة دينار في الشهر : عشرة دنائير (في اليوم) »
وذلك في التقدير الذي وضعه علي بن عيسى
سنة ٣٠٦ هـ (١٦٥) .

وفي المصادر ذكر للجسر الاعلى ، وترجع
اول اشارة اليه الى زمن المهدي حيث يقول الطبري
ان المهدي بعد ان قبض على يوسف البرم وجماعته
« صلبهم على جسر دجلة الاعلى مما يلي عسكر
المهدي (١٦٦) » . ثم ينقطع ذكر هذا الجسر حتى
اواسط القرن الثالث ، حيث يتردد ذكره ، فقد
ذكر الطبري ان ابا الاغر جلب اسرى وجثث قتلى
ونصبت الرؤوس على راس الجسر الاعلى والجانب

الشرقي » (١٦٧) كما ذكر ايضا « صلب بدر القرمطي
في طرف الجسر الاعلى ببغداد » (١٦٨) وعند ما ارتاع
اهل بغداد من الزوب في سنة ٣٠٤ اخذ السلطان
حيوانا « فصلب عند راس الجسر الاعلى بالجانب
الشرقي » (١٦٩) .

ويبدو ان « الجسر الاعلى » هذا هو نفس
« الجسر » المشهور بين باب خراسان وباب الطاق،
فقد ذكر الخطيب « درب سليمان بن جعفر حيال
الجسر الاعلى » (١٧٠) ، وذكر الطبري ان الجند
تقدموا في بعض احداث فتنة المستعين « وصاروا
الى درب اسد بن مرزبان فشحنوا الشارع النافذ
الى درب الرقيق .. ووكلوا بباب درب سليمان بن
ابي جعفر جماعة ، ثم مضوا يريدون الجسر في
شارع الحدادين .. ودفعوهم عن الجسر حتى
صروهم الى باب عمرو بن مسعدة . وكان ابن
طاهر قد اعد سفينة شوك وقصب ليضرم النار
ويرسلها الى الجسر الاعلى ، ففعل ذلك ، فاحرقت
عامة سفنه وقطعته الى الاخر ، فادركها اهل الجانب
الغربي ففرقوها واطفاوا النار التي تعلقت بسفن
الجسر .. واحرق ابن طاهر الجسرين لما راى الجند
قد ظهوروا على اصحابه ، وامر الحوانيت التي على
باب الجسر التي تتصل بدرب سليمان ان تحرق
يمنة ويسره ، ففعل ، فاحترق فيها للتجار متاع
كثير (١٧١) » .

ان موقع الجسر الاعلى عند درب سليمان
يدل على انه هو نفس الجسر المشهور ، كما يدل
نص الطبري على انه كان بقرب جسر اخر ، لعله
الاسفل الذي سنذكره في الفقرة التالية ، كما ان
نص الطبري يدل على ان الجسرين كانا متقاربين ،
لان النار التي احترقت عامة سفن الجسر الاعلى
سرعان ما صارت الى الاخر . وقد يدل هذا على
ان احد الجسرين كان للذهاب ، والاخر للاياب .

وقد ورد في طيفور ذكر للجسر الاسفل ، اذ
ذكر ان المأمون ضرب اعناق اربعة « فلما كان
بالغداة صلبهم على الجسر الاسفل » (١٧٢) ثم قال

(١٦٧) الطبري ٢١٩٢/٣ .

(١٦٨) الطبري ٢٢٤٦/٣ .

(١٦٩) مسكويه ٣٩/١ المنتظم ١٣٩/٦ .

(١٧٠) الخطيب ٢٨٨/١٢ .

(١٧١) الطبري ١٦٦٤/٣ .

(١٧٢) طيفور ٩٨ .

(١٥٩) الطبري ١٢٣١/٣ .

(١٦٠) الطبري ١٥١٠/٣ .

(١٦١) الطبري ١٦٦٥/٣ .

(١٦٢) الطبري ٢١٢١/٣ .

(١٦٣) الطبري ١٧٢٧/٣ .

(١٦٤) الطبري ٢١٨٥/٣ .

(١٦٥) الوزيد للصابي ٢٦ .

(١٦٦) الطبري ٤٧١/٣ .

ان المأمون بعد ذلك « امر بانزالهم ، وكانوا مصلبين على الجسر الاسفل » (١٧٣) .

وورد في المصادر ذكر « الجسر الاول » فقد ذكر الطبري « الجسر الاول من الجانب الشرقي من الدار التي لعبيد الله بن عبدالله » (١٧٤) الا ان المصادر لم تذكر موقع هذه الدار مما كان يعيننا على تحديد موقع الجسر .

وذكر اليعقوبي في كلامه عن الطرق الخمسة في الجانب الشرقي « وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتى الجانب الذي يأخذ على دجلة الى باب القير والمخرم وما اتصل بذلك » (١٧٥) ، ويفهم من هذا النص ان الجسر الاول يقع عند باب القير والمخرم ، فهو بعيد عن الجسر الاعلى المشهور بين باب خراسان وباب الطاق ، فيكون موقعه اقرب الى موقع الجسر الذي اقامه المنصور سنة ١٥٧ هـ والذي كان بين باب الشعير ومشرة الروايا .

يتبين مما تقدم انه كان في بغداد في القرن الثالث الهجري جسر مشهور فكان يسمى في المصادر « الجسر » او « الجسر الاعلى » ، وهو يقع بين درب سليمان في الجانب الغربي ودار خزيمة في الجانب الشرقي . ولهذا الجسر اهمية كبيرة لوقوعه قرب دور آل طاهر ، ولاة بغداد ، والحريم الطاهري الذي استوطنه اولاد الخلفاء بعد عودتهم من سامراء ، ولانه كان بقربه مجالس الشرطة ، وكذلك لانه يقع في الجهات الشمالية فهو اقرب الى الحرية والى طريق سامرا .

وبالقرب من الجسر الاعلى كان يقع جسر اخر هو الجسر الاسفل ، وهو اقل شهرة وذكر من الاعلى . ومن المحتمل ان هذين الجسرين كان احدهما للذهاب والاخر للاياب . وقد انشأ هذين الجسرين ابو جعفر المنصور الذي كان قد انشأ جسرا ثالثا للنساء ثم بطل استعماله في زمن المأمون لسبب لا نعلمه .

وكان في بغداد جسر اخر سماه اليعقوبي « الجسر الاول » ويبدو انه هو الذي عقده المنصور بين باب الشعير ومشرة الروايا . ولكن لم تكن له شهرة الجسر الاعلى .

ويتكرر في المصادر ذكر « الجسرين » والراجح ان المقصود بذلك مجموعة جسر باب الطاق ، وجسر باب الشعير ، وان قول الخليل ان الجسور ببغداد عطلت بعد مقتل الامين وبقي منها ثلاثة الى ايام المأمون ، ثم عطل منها واحد ، ينبغي ان يفهم منه انه بقيت منها مجموعة من ، وليس جسران .

ويذكر الصولي ان الرازي عمل الجسر الفوقاني بعالم اوصى به ابو الوليد من ثلثه ؟ واوصى بان يعمل به الجسر « (١٧٦) » ، وابو الوليد هو ناصر الدولة ابن حمدان الذي توفي سنة ٣٢٧ هـ ولما كان الرازي توفي سنة ٣٢٩ هـ ، فيكون هذا الجسر قد عقد بين سنتي ٣٢٧ هـ ، ٣٢٩ هـ . وتدل صفته « الفوقاني » على ان موقعه فوق ، او شمالي الجسر المعروف آنذاك ، وهو الجسر الاعلى عند باب الطاق ، وهذا يقتضي ان يكون موقعه عند باب الشماسية .

ويذكر مسكويه انه في سنة ٣٦٣ « انتقل المطيع لله ووالده بختيار وجماعة من الحرم والاولاد الى القصر (الذي) بناه معز الدولة بباب الشماسية على طريق التحصن ، وعقد ابو اسحق جسرا في هذا الموضع على دجلة » (١٧٧) ولابد ان هذا الجسر كان صغيرا ومحدود الغرض .

ويقول ابن مسكويه في كلامه عن اعمار عضد الدولة بغداد سنة ٣٦٩ « وكذلك جرى امر الجسر ببغداد ، فانه كان لا يجتاز عليه الا المخاطر بنفسه ، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه ، فاختر له السفن الكبار المتقنة وعرض حتى صار كالشوارع الفسيحة ، وحصن بالدربزينات ووكل به الحفظة والحراس » (١٧٨) . ويتبين من هذا ان عضد الدولة لم ينشئ في بغداد جسرا ، بل اصلح الجسر القائم ، دون ان يحدد مسكويه موقع هذا الجسر .

يظهر نصا الصولي ومسكويه انه انشئ في سنة ٣٢٨ جسر فوقاني ، ثم انشئ في سنة ٣٦٣ جسر عند الدار المعزية ، وانه كان في سنة ٣٦٩

(١٧٦) اخبار الرازي والمتقي ١٢٨ .

(١٧٧) تجارب الامم ٣١٧/٢ .

(١٧٨) تجارب الامم ٤٠٦/٢ .

(١٧٣) طيفور ١١٣ .

(١٧٤) الطبري ٢٢٥٢/٣ .

(١٧٥) البلدان ٢٥٣ .

بعد ان بنى داره المشهورة ، ولكنه لم يبق طويلا
لانه لم يكن يؤدي خدمات عامة واسعة للناس .

اما الجسر المحاذي لسوق الثلاثاء فليس في
المصادر اشارة تساعدنا على تحديد موقعه بدقة ،
لان سوق الثلاثاء كان يقع جنوب المخرم ويمتد
موازيا للنهر ، ولا نعلم فيما اذا كان الجسر يقع في
اول ، او وسط او نهاية سوق الثلاثاء .

ويلاحظ ان بغداد تعرضت منذ اوائل الربيع
الثاني من القرن الرابع الهجري الى فتن واضطرابات
واسعة ادت الى تدهور احوال كثير من المناطق
التي كانت مزدهرة من قبل .

فاما في الجانب الغربي فقد جفت كثير من
الانهار التي كان يعتمد عليها السكان ، واخليت كثير
من المناطق ، وخاصة مدينة المنصور المدورة ، التي
صارت تدعى « باب البصرة » كما عم الخراب كثيرا
من المناطق على شاطئ النهر .

واما الجانب الشرقي فقد وصف ياقوت ما
آلت اليه الرصافة وما حولها بعد ان كانت من اكبر
مراكز الحيوية والنشاط الاقتصادي ، فقال :
« وخربت تلك النواحي كلها ولم يبق الا الجامع
وبلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليهم وقوف
وفرأشون برسم الخدمة ، لولا ذلك لخربت
وبلصقها محلة ابي حنيفة الامام وبها قبره ، وهناك
محلة وسويق وبلاصقها دار الروم ، ولم يبق شيء
غير هذا » (١٨١) .

والواقع انه جرت محاولات لاعادة اعمار
بغداد ، ومن ابرزها ما قام به عضد الدولة عند
قدومه بغداد سنة ٣٧٢ (١٨٢) ، غير ان هذه المحاولات
لم تغلح في اعادة المناطق المخربة الى ما كانت عليه
من اعمار .

فلما عاد الانعاش الى بغداد في اواخر القرن
الخامس ، صار الازدهار مركزاً في الجانب الغربي
على المحلات الواقعة في اقصى الشمال كالحريم
والمارستان والعناية ودار القز ، وكذلك الواقعة

جسر واحد مشهور ببغداد ، وهذا يعني اما ان
الجسرين الآخرين قد زالوا ولم يعد لهما وجود في
زمن عضد الدولة ، او انهما كانا صغيرين وغير
مهمين ، وان الشهرة تركزت في جسر واحد كان
هو العلم « الجسر » . والواقع ان نص مسكويه عن
الجسر زمن عضد الدولة لا يقطع بعدم وجود
جسور اخرى في بغداد .

ويروى الخطيب عن ابي علي بن شاذان
(٣٣٩ - ٤٢٦ هـ) انه قال : « ادركت بغداد ثلاثة
جسور : احدها يحاذي سوق الثلاثاء ، واخر
بباب الطاق والثالث في اعلى البلد عند الدار المعزية
يحاذي الميدان » (١٧٩) وكلمة « ادركت » قد تدل
على ان زمن وجود الجسور الثلاثة كان في ايام صبا
ابن شاذان ، اي حوالي سنة ٣٦٠ ، وان الوضع
قد تبدل في زمن قوله . وهو يذكر ثلاثة جسور
رئيسة دون ان يحدد اهمية كل منها .

وقد تابع الخطيب بعد ما رواه عن ابن شاذان
كلامه فقال : « فذكر لي غير ابن شاذان ان الجسر
الذي كان يحاذي الميدان نقل الى الفرضة بباب
الطاق فصار هناك جسرا يمشي الناس على احدهما
ويرجعون على الآخر » (١٨٠) ، اي ان الجسر الذي
عند الشماسية نقل الى باب الطاق التي صارت
فيها مجموعة مكونة من جسرين ، احدهما للذهاب
والآخر للاياب . والذي يفهم من النص الاخير ان
جسر سوق الثلاثاء ظل باقيا في مكانه . غير ان
هذا النص لا يذكر التاريخ الذي نقل فيه جسر
الشماسية الى باب الطاق ، ومن المحتمل ان ذلك
تم بعد زمن عضد الدولة ، وعلى اي حال فلا بد
ان يكون قسدا تم قبل سن ادراك الخطيب
(ت ٤٦٣ هـ) .

ويلاحظ ان موقع الشماسية متطرف نسبيا
في الشمال ، وان جسورا اقيمت فيها قبل زمن
معز الدولة ، ولكن ايا منها لم يبق مدة طويلة لان
فائدته للناس محدودة بسبب تطرف موقعها ،
ولعل هذا الجسر شيده معز الدولة للافادة منه

(١٨١) ياقوت ٧٨٣/٢ .

(١٨٢) مسكويه ٤٠٦/٢ ، وسنفرذ لتطور اعمار بغداد بحثا
مستقلا شاملا .

(١٧٩) الخطيب ١١٥/١ .

(١٨٠) الخطيب ١١٥/١ .

قرب نهر عيسى ، أي في أقصى الجنوب . أما الجانب الشرقي فقد تركز الاعمار على المناطق الممتدة من المحرم الى باب الازج ، أي جنوبي المنطقة التي كانت معمرة في القرون الثلاثة الاولى .

أما جسور بغداد بعد عضد الدولة فقد أجمل ذكرها الخطيب نقلاً عن هلال بن الحسن حيث قال :

« عقد جسر بمشرعة القطانين في سنة ٣٨٣ فمكث مدة ثم تعطل . ولم يبق ببغداد بعد ذلك سوى جسر واحد بباب الطاق الى ان حول في سنة ٤٤٨ هـ فعقد بين مشرعة الروايا من الجانب الغربي وبين مشرعة الحطابين من الجانب الشرقي . ثم عطل في سنة ٤٥٠ ثم نصب بمشرعة القطانين » (١٨٢) .

فأما جسر مشرعة القطانين فان ابن الجوزي يذكر في حوادث سنة ٣٨٣ « وفي يوم الاربعاء لاربع بقين من جمادي الاولى وقع الفراغ من الجسر الذي عمله بهاء الدولة في مشرعة القطانين بحضرة دار مؤنس ، واجتاز عليه من الغد ماشيا وقد زين بالمطارد » (١٨٤) . ويلاحظ انه في تلك السنة تقدم القادر بالله « بعمارة مسجد الحربية وكسوته واجرائه مجرى الجوامع في الصلاة » (١٨٥) ، وانه في السنة السابقة كان ابو الحسن بن المعلم الذي كان قد استولى على امور السلطان « شرع في حفر الانهار المخترقة لاسواق الكرخ وما يتصل بها وجبى من ارباب العقار مالا جزيلا » (١٨٦) ، وهذا يدل على ان تشييد الجسر المذكور هو جزء من خطة عامة لاعادة اعمار الجانب الغربي الذي كان قد انهكته الاضطرابات والفتن الطائفية .

فأما موقع الجسر فيوضحه قول ابن الجوزي انه في « مشرعة القطانين بحضرة دار مؤنس » ، وكانت دار مؤنس تقع في سوق الثلاثاء (١٨٧) ، وقد

صارت المدرسة النظامية فيما بعد « من جملة دار مؤنس » (١٨٨) وكانت هذه الدار من اشهر دور بغداد في القرن الرابع الهجري ، فقد كان ينزلها ابن رائق ، وبجكم ، والبريدي ، وتوزون ، ومعر الدولة ، وعميد الدولة (١٨٩) ، وقد اعاد بهاء الدولة تعميرها بعد ان هدم الدار المعزية واستعمل اجرها في البناء الجديد (١٩٠) ، وتقع دار مؤنس بالقرب من دار الخلافة ، وعلى مسافة من جنوبي النقطة المقابلة لمصب نهر عيسى ، أي ان الموقع التقريبي لهذا الجسر ، هو عند جسر الشهداء الحالي .

فهذا الجسر يربط طرف دار الخلافة بالجانب الغربي .

لم تذكر المصادر سنة تعطل جسر مشرعة القطانين ، ولكن النص يظهر انه عند تعطله وحتى سنة ٤٤٨ لم يكن في بغداد جسر في اسفل بغداد ، وان الاتصال الوحيد بين جانبي بغداد كان عن طريق جسر باب الطاق الذي يقع في جهة متطرفة في الشمال ، فيزيد من العزلة بين دار الخلافة والجانب الغربي .

ويلاحظ ان المقدسي الذي ألف كتابه في اواخر القرن الرابع الهجري ذكر في كلامه عن بغداد « الجسر عند باب الطاق الى جانبه بيمارستان بنه عضد الدولة » (١٩١) .

أما الجسر الذي عقد في سنة ٤٤٨ ، فان هلال بن الحسين يذكر انه نقل من باب الطاق ، أما ابن الجوزي فيذكر ما يدل على انه جسر قائم بذاته حيث يقول في حوادث سنة ٤٤٨ « وفي المحرم ابتدى بعقد الجسر من مشرعة الحطابين الى مشرعة الروايا ، زيد في زوارقه لعلو الماء ، فعصفت ريح شديدة فقطعت الجسر ، فأنحدرت زوارقه الى

(١٨٨) تكملة الطبري ١٤٨ .

(١٨٩) عن نزولهم انظر بالتتابع : تكملة الطبري ١١٠ ، ١٢٧/١١٠ ، ٢٢٤/١٢٤ ، ٢١٤/١٢٤ وانظر ايضا من نزول بجكم بها : مسكويه ١٩٦/١ وعن نزول معز الدولة انظر ايضا رسوم دار الخلافة ١٣٦ المنتظم ١٣٦/٧ وعن نزول ابن رائق فيها مسكويه ٢٥/٢ وعن نزول البريدي مسكويه ٢٥/٢ .

(١٩٠) المنتظم ٣١/٨ .

(١٩١) احسن التقاسيم ١٥٠ . ويلاحظ ان البيمارستان المصدي بني على موقع الخلد قرب درب سليمان .

(١٨٣) الخطيب ١١٦/١ .

(١٨٤) المنتظم ١٧١/٧ ، والراجع ان هذا الجسر هو الذي ذكره ابن الجوزي في ترجمته فخر الملك وزير بهاء الدولة انه « عمل الجسر ببغداد وكان قد نسي وبطل وعمل له درابزينات » (المنتظم ٢٨٦/٧) .

(١٨٥) المنتظم ١٧١/٧ .

(١٨٦) المنتظم ١٦٨/٧ .

(١٨٧) مسكويه ٣٩٦/١ تكملة الطبري ١١٠ .

الدراعين ؟ « (١٩٢) ، ويلاحظ انه في السنة السابقة قدم طغرل بغداد ، واتخذ مقامه بدار المملكة عند المخرم ، وان هذا الجسر يقع فيما يظهر جنوبي المخرم .

لم يذكر ابن الجوزي مصير الجسر بعد ان عصفت به الريح ، ولكن يبدو انه اعيد تشييده ، فكان الجسر الوحيد الذي يربط الجانبين .

يذكر هلال ان الجسر عطل في سنة ٤٥٠ ، اما ابن الجوزي ، فيذكر انه في سنة ٤٥٠ زادت دجلة زيادة كبيرة (١٩٣) ، ولعل هذه الزيادة هي التي ادت الى قطع الجسر ، ولكن في تلك السنة شرع البساسيري « في اصلاح الجسر فعمدة بباب الطاق وعبر عسكره » (١٩٤) ، اي ان البساسيري نقل الجسر الى باب الطاق . ويلاحظ ان البساسيري كانت داره في الحرم الطاهري ، وان الجانب الشرقي كان قسمه العلوي قد خرب آنذاك ، فاعادة الجسر الى باب الطاق كان بدافع شخصي وعسكري من البساسيري .

وفي سنة ٥٢٥ قام السلطان داود « بقطع الجسر من راس نهر عيسى ، ونصب بباب الغربية يوم الاحد ٢٣ ذي القعدة ، فكثرت الازاجيف لنقله وصار متنزها مليحا يجتمع الناس بعد العصر تحت الرقة كما كانوا يجتمعون في الرجة » (١٩٥) وهذا معناه ان الجسر الذي كان عند نهر عيسى قد نقل فلم يبق مكانه جسر . ومصب نهر عيسى عند ثانوية الكرخ حاليا .

ويذكر سبط ابن الجوزي انه في سنة ٥٤٣ قطع الجسر ببغداد ، ويقال ان شحنة مسعود قطع الجسر ، وكان الغزنوي الواعظ تولى عمله ، وعمل له درايزينات من الجانبين (١٩٦) ، وهو يذكر « المشهور في الوعاظ ان الغزنوي الذي يعظ ببغداد هو ابو الحسن علي بن الحسين الغزنوي ووعظ بها ونصر مذهب الاشعري » (١٩٧) ، ولم اجد في المصادر

ذكر لزمن تجديد الغزنوي ، ولا ما يدل على المقصود من القطع ، وهل هو دائمي ام مؤقت .

وفي سنة ٥٥٢ توترت العلاقة بين الخليفة ومحمد شاه ، واستعد الطرفان للقتال « وضرب محمد شاه بالدحلة لقطع الجسر ، وجيء به الى التاج » (١٩٨) اي انه نقل الى جنوب باب الضربة ، ويلاحظ انه في خلال هذه الحوادث عاد اصحاب محمد شاه « ونصبوا الجسر وعبر اكثر العساكر » (١٩٩) ثم « قطع كوجك الجسر وقلع الخيم وضرب النار في زوارق الجسر » (٢٠٠) وعلى اي حال فهو غير الجسر الذي نقل الى التاج ، ويلاحظ ان قصر التاج من قصور دار الخلافة التي تقع عند شارع البنوك وشارع النهر ، اي ان الجسر نقل من موقعه عند مصب نهر عيسى (قرب جسر الشهداء الحالي الى موقع قرب السفارة البريطانية الحالي .

ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٧٠ « نصب جسر جيد امرت بعمله جهة من جهات المستضيء بأمر الله تلقب بنفسه وكتبت اسمها على حديدة في سلسلة ، وجعل تحت الرقة مكان الجسر العتيق ، وحمل الجسر العتيق الى نهر عيسى الى ان حول في هذه الايام نحواً من خمسين سنة ، فوجد الناس له راحة تامة بوجود جسر » (٢٠١) ، ويقول ابن الكازروني انه في ايام المستضيء « عمل جسر ومد على دجلة مع الجسر العتيق ، وعبر الناس عليه في اواخر المحرم سنة ٥٧٠ » (٢٠٢) ، ويذكر ابن الساعي ان بنفسه امرت بعمل جسر على دجلة (٢٠٣) .

ولما زار ابن جبير بغداد سنة ٥٧٩ نزل المربعة « على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمدها السيلي ، فعاد الناس يعبرون بالزوارق . والعادة ان يكون لها جسران : احدهما

- (١٩٨) المنتظم ١٦٩/١٠
- (١٩٩) المنتظم ١٧٤/١٠
- (٢٠٠) المنتظم ١٧٥/١٠
- (٢٠١) المنتظم ٢٥٠/١٠
- (٢٠٢) خلاصة الذهب المسبوك ٢٣٩
- (٢٠٣) الجامع المختصر ٨٥

- (١٩٢) المنتظم ١٦٩/٨
- (١٩٣) المنتظم ١٩٨/٨
- (١٩٤) المنتظم ١٩٢/٨
- (١٩٥) المنتظم ٢١/١٠
- (١٩٦) مرآة الزمان ١٩٦/٨
- (١٩٧) مرآة الزمان ١٤/٨ ، وانظر عن وعظه ١٨٤

مما يقرب من دور الخليفة والآخر فوقه ، لكثرة الناس ، والعبور في الزوارق لا ينقطع « (٢٠٤) .

ومن الواضح ان الجسر الذي يذكر ان مد دجلة جرفه ، هو الذي عند الرقة التي تقابل دار الخلافة غير انه لم يذكر موقع الجسر الاخر الذي اشار اليه ، ولا فيما اذا كان هذا الجسر المجروف قد اعيد تصليحه .

ويذكر ابن الطقطقى الذي الف كتابه سنة ٧٠٠هـ « ان الظاهر (٦٢٢ - ٦٣٦) هو الذي عمل هذا الجسر الجديد الموجود الان ببغداد « (٢٠٥) غير ان ابن الطقطقى لم يذكر موقع هذا الجسر الجديد ، ولا الجسور الاخرى ، ان وجدت .

ولما حاصر هولاءكو ببغداد امر بانشاء جسرين واحد اعلاها والاخر اسفلها (٢٠٦) بالطبع ان هذين الجسرين انشأا لغراض عسكرية مؤقتة ولا علاقة لهما بالجسور الاخرى القائمة ، ان كانت موجودة .

ولما زار ابن بطوطة العراق كان « ببغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة ، والناس يعبرونهما ليسلا ونهارا رجالا ونساء ، فهم في ذلك في نزهة « (٢٠٧) غير انه لم يذكر موقع اي من هذين الجسرين .

المشارع :

من ابرز الخصائص التي تميزت بها منطقة بغداد التي اختارها المنصور لتشييد عاصمته فيها هو انها تتصل بمختلف المراكز الفنية في الدولة عن طريق المواصلات النهرية . ورغم كثرة الترع والانهار التي تجري فيها الزوارق ، فان دجلة هو الشريان الرئيس الذي تعتمد عليه ببغداد في المواصلات النهرية . وهو نهر يتميز بعرضه ووفرة مياهه ، وخاصة في فصول الشتاء والربيع واولائل الصيف ، وقاعه غير عميق ، وشواطئه مكونة من تربة رسوبية رخوة ، ومجراه غير مستقيم او ثابت ،

(٢٠٤) الرحلة ٢١١ طبعة حسين نصار .

(٢٠٥) الفخري ٢٨٧ طبعة علي الجارم .

(٢٠٦) العراق في عهد الفول الايلخانيين للدكتور جعفر خصبك نقلا عن نصير الدين الطوسي ٥٢ .

(٢٠٧) تحفة النظار ١٤٠/١ طبعة الازهرية .

كما ان فيه عددا من الجزر . وقد بنيث على ضفتيه قصور لم تكن كثيرة العدد بالنسبة الى سعة بغداد وازدهار حضارتها وطول بقاء الخلافة فيها . ويلاحظ ان القليل من هذه القصور والدور الشاطئية كانت لها مسنيتات قوية وكبيرة .

وبالنظر لقلّة الجسور في بغداد ، فقد اعتمد السكان في تنقلهم بين الجانبين على الزوارق ، وقد روت المصادر كثرة الزوارق في بغداد فيروى الخطيب عن هلال بن الحسن انه « احصيت السميريات المعبرانيات بدجلة في ايام الناصر لدين الله وهو ابو احد طلحة الموفق ، فكانت ثلاثين الف ، قدر من كسب ملاحيتها في كل يوم تسعون الف درهم « (٢٠٨) . ومن المعلوم ان استعمال السميريات يتطلب وجود مشاريع ، اي مناطق منخفضة ومستوية تصلح لوقوف الزوارق واستخدام الناس لها .

وتتطلب المشاريع اماكن ملائمة لوقوف الزوارق بحيث يستطيع الناس الركوب فيها او النزول بسهولة ويسر ، وقد ذكرنا ان انبساط مجرى دجلة وتربة شواطئه الرسوبية وقلّة المسنيتات عليه توفر اماكن كثيرة لهذا الغرض .

وتتوقف اهمية المشرعة على مدى حاجة الناس الى العبور من منطقة معينة دون اخرى ولذلك تزداد اهمية المشاريع في المناطق القريبة من الاسواق حيث تزداد الحاجة الى نقل السلع او اهل الاعمال والمصالح بين الجانبين . فظهرت المشاريع وانتعاشها او انحطاطها يرتبط الى حد كبير بمدى ازدهار الحركة الاقتصادية . غير ان المشاريع تحتفظ عادة باسماءها القديمة التي كانت تسمى بها عند بدء استعمالها . ومعظم معلوماتنا عن المشاريع مستمدة من اخبار القرن الرابع الهجري فما بعد . غير ان كثيرا من المشاريع التي ذكرت خلال ذلك او بعدها كانت مستعملة قبل ذلك التاريخ ولكننا لا نستطيع الجزم بتحديد الزمن الذي بدء فيه استعمالها ، رغم ما لهذا التحديد من اهمية لمعرفة بداية وتطور الازدهار الاقتصادي والحضاري في مناطق بغداد .

(٢٠٨) الخطيب ١١٧/١ .

وتكون المشارع عادة متقابلة بين الجانبين ، أي أن كل مشرعة تقابلها أخرى في الجانب الآخر ، ولكن ليس من الضروري أن يكون التقابل تاما أو دائما ، لأن وجود المشرعة يتوقف على طبيعة الشاطئ وعلى منافذ المسالك العامة .

فاما مشارع الجانب الغربي فقد ورد في الاخبار ذكر عدد منها :

١ - مشرعة باب البصرة وقد ورد ذكرها حيث نزلها قريش بن بدران عندما كان يقابل البساسيري الذي كان في مشرعة الروايا (٢٠٩) . وباب البصرة كان يطلق في الاصل على الباب الجنوبي الشرقي من مدينة المنصور المدورة ، وموقعه على مسافة من شاطئ النهر ، ثم صار الاسم يطلق منذ اواسط القرن الخامس الهجري على محلة واسعة تشمل كل المدينة المدورة . فموقع هذه المشرعة اما قريب من باب البصرة الاول ، او في الطرف الشرقي من المدينة المدورة ، أي انها عند مكان سايلو الحبوب حاليا او في شماليه .

٢ - مشرعة المارستان التي نقل اليها البساسيري عسكره (٢١٠) ولعلها كانت عند المارستان العضدي الذي شيد في مكان قصر الخلد .

٣ - مشرعة الرباط ، وقد ورد ذكرها في حوادث القرن السادس (٢١١) ولكن لم اجد اشارة تساعدني على تعيين موقعها ، والراجع انها قرب مصب نهر عيسى حيث توجد عدة ربط .

٤ - مشرعة الساج . وقد ذكرت في اخبار اوائل القرن الرابع الهجري حيث استتر عندها سلامة سنة ٣٢٢ (٢١٢) ، وكان فيها دار ابن (٢١٣) عبدون وكذلك الدار المعروفة بالموزة (٢١٤) ، كما دفن عندها علي بن محمد بن بشار (٢١٥) الذي لا

- (٢٠٩) المنتظم ١٩٢/٨ .
- (٢١٠) المنتظم ١٩٦/٨ .
- (٢١١) المنتظم ١٤٦/٩ ، ٢٤٩ .
- (٢١٢) مسكويه ٢٨٨/١ .
- (٢١٣) الصابي . الوزراء ١٥٧ .
- (٢١٤) تكملة الطبري ١٩٥ .
- (٢١٥) الخطيب ٧/٦ المنتظم ١٩٩/٦ .

يزال قبره معروفا اليوم وهو جامع الشيخ بشار ، فالمشرعة تقع اذا قرب الشيخ بشار .

٥ - مشرعة الروايا وكانت تقع عند باب الشعير ، وهي من اشهر المشارع واقدمها ، فكانت معروفة منذ الازمنة الاولى لتأسيس بغداد . وهي في الاصل « المشرعة التي كان يصعد منها اصحاب الروايا » (٢١٦) ، وكان يقعد في طريقها وكيع بن الجراح (٢١٧) . وقد دفن فيها ابو الحسن الاشعري « في تربة الى جانبها مسجد وبالقرب منها حمام . وهي عن يسار المار من السوق الى دجلة » (٢١٨) غير ان قبره اصبح « عافى ال اثر لا يلتفت اليه » في اواخر القرن السادس الهجري (٢١٩) . وفي مشرعة الروايا عند قبر الاشعري دفن احمد بن محمد الفوري (٢٢٠) ولما سيطر البساسيري على بغداد دخل مرة الكرخ « وخرج الى مشرعة الروايا » (٢٢١) .

وفي سنة ٤٤٨ عقد جسر من مشرعة الحطابين الى مشرعة الروايا ، غير ان الرياح عصفت بالجسر فقطعته وحددت زوارقه (٢٢٢) .

لعل الجسر الذي عقده ابو جعفر المنصور في سنة ١٥٧ عند باب الشعير (٢٢٣) كان موقعه عند مشرعة الروايا .

اما في الجانب الشرقي فقد ذكرت فيه عدة مشارع :

١ - مشرعة الصخر ، وقد ذكرت فيها عدة دور منها دار سليمان بن وهب (٢٢٤) ودار نقل منها بهاء الدولة اخته زوجة الطائع لله حيث بقيت حتى وفاتها (٢٢٥) . ولما كانت دار

- (٢١٦) الخطيب ٤٧/١٣ .
- (٢١٧) الخطيب ٤٧/١٣ .
- (٢١٨) الخطيب ٢٤٧/١١ .
- (٢١٩) المنتظم ٣٢٣/٦ .
- (٢٢٠) المنتظم ١٧/٩ .
- (٢٢١) المنتظم ١٩٢/٨ .
- (٢٢٢) المنتظم ١٤٩/٨ وانظر الخطيب ١١٦/١ .
- (٢٢٣) يعقوب بن يوسف . المعرفة والتاريخ ١٢٤/١ .
- (٢٢٤) الخطيب ١٥٧/١ .
- (٢٢٥) عريب ٦٥ .
- (٢٢٥) المنتظم ١٦٣/٧ وقد وردت في الروايات « مشرعة الصحراء » (ذيل تجارب الامم ٢٠٨/٣) وهو خطأ .

سليمان بن وهب بالمخرم (٢٢٦) ، وهي التي أصبحت في اول القرن الرابع الهجري دار الوزارة ، فتكون مشرعة الصخر عند المخرم ، اي قرب مدينة الطب حاليا .

٢ - مشرعة باب البستان (٢٢٧) ، والراجع انها كانت قرب بستان الزاهر ، كما سنتحدث فيما بعد عن الجسور .

٣ - مشرعة دار الملك (٢٢٨) ولعلها قرب دار الملكة اي قرب المشرعتين السالفتين حيث تقع عندها دار الملكة اي قرب وزارة الدفاع حاليا .

٤ - مشرعة باب الطاق (٢٢٩) وهي كما يدل اسمها ، تقع في باب الطاق الذي ينتهي عنده الجسر الاعلى في بغداد .

٥ - مشرعة باب الازج (٢٣٠) ، ولا بد ان موقعها في الجهات الجنوبية من بغداد حيث يقع باب الازج .

٦ - مشرعة الصباغين ، وقد ورد ذكرها في اخبار حريق شب سنة ٥٥٨ وامتد اليها من باب درب فراشة (٢٣١) .

٧ - مشرعة القصب وقد ذكرت ان فيها دار ابي

(٢٢٦) سنفردها بحثا خاصا ، وانظر عن موقعها في المخرم تكملة الطبري ٥ ، ٨ الوزراء للصابي ٢٨ - ٩ .

(٢٢٧) المنتظم ١٧٧/٨

(٢٢٨) المنتظم ١٢٧/٧

(٢٢٩) المنتظم ٦٩/٨

(٢٣٠) المنتظم ١٦٢/٨

(٢٣١) المنتظم ٢٠٥/١

الحسن بن الشيب العلوي (٢٢٢) ودار شفيع اللؤلؤي المجاورة لدار ابن الصريفيني (٢٢٣) .

٨ - مشرعة الحطابيين وكانت في الجانب الشرقي (٢٢٤) ، امام المعترض (٢٢٥) ، وكان عندها على شاطئ دجلة مسجد (٢٢٦) ، ولعله المسجد الذي عمرته ام الخليفة « بمشرعة السقائين على شاطئ دجلة بمشرعة (٢٢٧) الحطابيين وفي مشرعة الحطابيين كان طرف الجسر الذي نصب سنة ٤٤٨ وطرفه الاخر في مشرعة الروايا من الجانب الغربي (٢٢٨) ، فهي اذا تقابل مشرعة الروايا ، اي ان موقعها قرب وزارة الدفاع الحالية .

٩ - مشرعة القطانين ، وكانت « بحضرة دار مؤنس » (٢٢٩) ، وعندها الجسر الذي عقده بهاء الدولة سنة ٣٨٣ فلم يلبث الا قليلا ثم تعطل (٢٤٠) ، ولما كانت دار مؤنس عند النظامية ، فالراجع ان موقع هذه المشرعة عند شارع المأمون وفي اول جسر الشهداء الحالي .

(٢٢٢) تكملة الطبري ٢٢٥ .

(٢٢٣) الوزراء للصابي ٢٣١ .

(٢٢٤) الخطيب ٢٨/٣ ، ١٨٦/١٠ .

(٢٢٥) الخطيب ٢٨٦/١ ، ٧٥/١٤ . المنتظم ١٣٨/٨ .

(٢٢٦) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٢٦ ب .

(٢٢٧) مضمار الحقائق ٧٨ .

(٢٢٨) الخطيب ١١٦/١ والمنتظم ١٤٩/٨ .

(٢٢٩) المنتظم ١٧١/٧ .

(٢٣٠) الخطيب ١١٦/١ والمنتظم ١٧١/٧ .

الدواوين في العباسية

مركزها في العهد العباسي .

الإدارة هي الوسيلة التي تعتمد عليها الدولة في السيطرة على رعاياها وتنظيمهم وتقديمهم ، وهي بدورها تقوم على النظم والاساليب المستقرة ، وعلى الموظفين المتفهمين لهذه الاساليب والقائمين بتطبيقها ، وكذلك على السجلات التي تدون فيها المعلومات التي تقتضيها الإدارة . ويطلق على الأماكن التي تحفظ فيها السجلات وتقوم فيها الأعمال المتعلقة بها « الديوان » وهو تعبير فارسي تظهر فارسيته أنه يرجع إلى عهد ما قبل الإسلام .

وقد حرص المسلمون منذ الفتح الإسلامي على إبقاء الدواوين وتنظيمها وحفظ سجلاتها فلما ولي العباسيون الخلافة زادت عنايتهم بالدواوين وتنظيمها ، وفي السجلات وحفظها وفي الكتاب وتنظيمهم ، وكان الوزير هو المسؤول الأول عن الإشراف عليها .

ومن العلوم أن عدد الدواوين وحجم كل منها واختصاصه وعلاقته بالدواوين الأخرى لم يبق ثابتاً ، بل تعرض إلى تطورات كثيرة ، غير أن معلوماتنا عن تطوراتها غير كاملة بالرغم من العدد الكبير من المؤلفات العربية القديمة فيها ، وكثرة الإشارات إليها في الكتب ، وبالرغم من الدراسات الحديثة العميقة عنها . غير أنه من المؤكد أن الدواوين في العصر العباسي كان بعضها مقتصرًا على الخليفة والبلاط ، وبعضها يتصل عمله بالناس عموماً ، كما أن بعضها يقتصر عمله على بغداد وحدها ، وبعضها يمتد عمله إلى كل العراق ، وبعضها يتصل عمله بأقاليم بعيدة عن بغداد أو يعم عمله الدولة كلها .

ولا ريب في أن أهم الدواوين هما ديوان

(٢٤١) الطبري ٥٢٤/٣ .
(٢٤٢) الوزراء للصابي ١٤٨ - ٩ .

أحترقت فيها السجلات فأما أولها ففي فتنة الامين سنة ١٩٨ حيث « أحترقت الدواوين » (٢٤٢) .

وفي سنة ٣١٦ حيث يقول حمزة الاصفهاني « ورد بغداد اهل قصر بن هبيرة ، فضجوا من الاسواق ، واستنفروا الناس ومنعواهم من فتح حوانيتهم ، فانضم اليهم الخلق من العامة ، فمضوا الى المستغل الذي بازاء مجلس السلطان واحرقوه ، وهذه مراقبة كانت هناك ... وعدلوا من هناك الى ديوان بادوريا فاحرقوا ما كان فيه من الحسابات من لدن صدر الدولة الخليفة وعدلوا الى باب السلطان يضجون ويبيكون » (٢٤٤) ولم اجد في المصادر الاخرى ذكرا لهذا الحادث رغم ما ذكر من اضطرابات في بغداد وما حولها في تلك السنة والسنة التي تلتها .

وفي سنة ٣٨٩ « احرق العامة دار الحمولى فمضت بأسرها ولم يبق فيها جدار قائم ، واحترق ما كان فيها من حسابات الدواوين » (٢٤٥) وقد حدثت هذه الحادثة على اثر محاولة ابي نصر سابور وضع العشر على ما يعمل من الثياب الابريسمات والقطنيات بمدينة السلام فثار اهل العتابين وباب الشام من ذلك ثم « صاروا الى دار ابي نصر سابور بدرب الديزج ، فمنعهم احدث العلويين منها ، وخرجوا من درب الديزج الى دجلة ، وطلبوا من جرى رسمه بالكون في دار الحمولى من الكتاب والمتصرفين فهربوا من بين ايديهم ، وطرخوا النار في الدار ، واهمل اطفالها ، فانت على جميعها » (٢٤٦) .

اما سجلات القضاء فيذكر ابن الجوزي انه في سنة ٤٥٠ عندما نشب الخلاف بين الخليفة

والساسيري اضطربت بغداد « ونهبت دار قاضي القضاة ابي عبدالله الدامغاني وهلك اكثر السجلات والكتب الحكمية فبيعت على العطارين » (٢٤٧) ولا نعلم هل كانت السجلات والكتب الحكمية قد وضعت في دار الدامغاني مؤقثا ، ام انه كانت التقاليد ان توضع في دار قاضي القضاة ، وفي هذه الحالة فهل ان كل السجلات ام بعضها كان يوضع ، ومن الطبيعي ان هذا يقتضي نقل السجلات الى دار قاضي القضاة الجديد عند تعيينه .

ان المصدرين الاساسيين اللذين حوى كل منهما اوسع المعلومات عن خطط بغداد هما الخطيب البغدادي ، واحمد بن واضح اليعقوبي . فاما الخطيب فانه لم يذكر عن موقع دواوين بغداد في عهد المنصور سوى اشارة عرضية جاءت عند كلامه عن توسيع مسجد المنصور حيث قال « وكانت الصلاة في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتى زيد فيه الدار المعروفة بالقطان ، وكانت قديما ديوانا للمنصور ، فامر مفلح التركي ببنائها على يد صاحبه القطان ، فنسبت اليه وجعلت مصلى للناس ، وذلك في سنة ستين او واحد وستين ومائتين » (٢٤٨) ويفهم من هذا النص ان الديوان كان ملاصقا لمسجد المنصور وانه الفى في وقت مبكر فصار دارا للقطان صاحب مفلح الذي يذكر الطبري انه ولي خراج الموصل ، ثم قتل في طريق عودته منها سنة ٢٦٢ (٢٤٩) ولا بد ان هذه الدار كانت في الاصل احد الدواوين الكبيرة في زمن المنصور ، غير انها اصبحت جزءا من الجامع فيذكر ابن الجوزي انه « قرأ ابو عبدالله البهلول يوما في دار القطان في الجامع بعد الصلاة يوم الجمعة » (٢٥٠) .

اما اليعقوبي فقد قدم تفاصيل اوفى عن دواوين المنصور وموقعها حيث انه بعد ان ذكر قصر المنصور والرحبة التي حوله قال « وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده ، وبيت المال ، وخزانة السلاح ، وديوان الرسائل ، وديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الجند ، وديوان الحوائج ، وديوان الاحشام ، ومطبخ العامة ، وديوان النفقات » (٢٥١) . ويلاحظ ان معظم هذه الدواوين تتصل بالخليفة شخصا ، غير ان

(٢٤٣) كتاب الخراج لقدامة ٢٢٧ رسوم دار الخلافة ٢٩ ، ٣٩ .

(٢٤٤) تاريخ سنى ملوك الارض والانباء ٥٥ .

(٢٤٥) تاريخ هلال المنشور بديل تجارب الامم ٣٣٥/٣ .

(٢٤٦) كذلك ٣٣٦/٣ .

وقد ورد في المصادر شخصان يلقبان حمولى ، اولهما ابو علي احمد بن موسى صاحب معز الدولة (تشوار الحاضرة ٣٠٩/١ طبعة الشالجي) وقد ارسله معز الدولة سنة ٣٥٢ الى الوزير المهلبسي عندما سمع بعرضه من عمان (مسكويه ١٩٧/٢) واما الثاني فهو ابو الحسن علي بن موسى حمولى الذي لقب على ابي الحسن بن ابي الطيب وولده من الطالبين (المنتظم ٢٣/٧) ، وقد ذكر بوسه ان قصر عضد الدولة في الخرم قرب الديوان ويعرف بقصر حمولى (الخلافة والسلطنة ١٩٧ (بالامانية) ولم يذكر بوسه مصدره ، كما لم اجد في الكتب العربية التي قرأتها اشارة الى ذلك .

(٢٤٧) المنتظم ١٩٢/٨ .

(٢٤٨) الخطيب ١٠٨/١ .

(٢٤٩) الطبري ١٩٠٧/٣ .

(٢٥٠) المنتظم ٢٢٨/٧ .

(٢٥١) البلدان ٢٤٠ .

بعضها كبيت المال ، وديوان الخراج ، وديوان الجند تتصل اعمالها بالناس .

وذكر اليعقوبي بعض الدواوين خارج المدينة المدورة ، فقد ذكر ان المنصور « اقطع المهاجرين عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب الكوفة ، فهناك ديوان الصدقات ، وبازائه قطيعة ياسين صاحب التجانب وخان التجانب » (٢٥٢) . وقد ذكر ديوان للصدقات في العصر الاموي ، ثم اختفى ذكره في العصر العباسي ، ولعل عمله يتعلق بالضرائب المحلية المفروضة على اهل بغداد ، وان دواوين اخرى حلت محله في عملها .

ان النص الانف الذكر يظهر ان احد الدواوين كان يقع قرب قطاع صاحبه ، غير ان هذا لم يكن قاعدة عامة ، فقد ذكر اليعقوبي قطائع لاصحاب بعض الدواوين التي ذكر موقعها حول الرحبة ، ومن ذلك « رضى ابي الورد كوثر بن اليمان خازن بيت المال » وموقعه قرب القنطرة العتيقة (٢٥٣) و « قطيعة سليم مولى امير المؤمنين باب الكوفة في الشارع الاعظم » كما ذكر « قصر وضاح صاحب خزانة السلاح » كما ذكر « مسجد الانباريين كتاب ديوان الخراج » وموقعه قرب مسجد ابن رغبان (٢٥٤) .

ولما ولي المهدي الخلافة اتخذ مقامه في الجانب الشرقي ، في الرصافة اولاً ثم في عيساباد التي اتخذها ابنه وخلفه موسى الهادي ايضاً . وقد وافق انتقال الخليفة الى الرصافة نقل الديوان اليها ، فيذكر الطبري ان عيسى بن موسى عندما فاوضه المهدي على عزله من ولاية العهد في سنة ١٦٠ « بقى (عيسى) منذ فاوضه المهدي على الخلع الى ان اجاب محتسباً عنده في دار الديوان من الرصافة الى ان صار الى الرضا بالخلع والتسليم » (٢٥٥) .

وقد تردد من المصادر ذكر درب الديوان « بالجانب الشرقي بالقرب من جامع المهدي » (٢٥٦) وانه كان في الرصافة (٢٥٧) وكان عند بابه مسجد (٢٥٨) . وذكرت المصادر ممن سكن في هذا الدرب محمد بن علي بن بكر ابن العلاف وبجواره ابو القاسم بن بشران (٢٥٩) ومحمد بن عمر بن بكر

التجار (٢٦٠) وابو القاسم عبد الملك بن محمد (٢٦١) وعبد الخالق بن عيسى الهاشمي (٢٦٢) وابراهيم بن الحسين الخزان الذي كان اول من لقن ابا الوفاء بن عقيل القرآن (٢٦٣) .

ومن الواضح ان هذا الدرب سمي درب الديوان لانه كان يوصل الى الديوان ، اي ان الديوان كان في الجانب الشرقي بالرصافة وبالقرب من جامع المهدي ، ويدل نص الطبري على ان الديوان كان في الرصافة في اول سني خلافة المهدي ، غير اننا لا نعلم كم من الزمن بقي الديوان في هذا المكان ، خاصة وان المهدي نفسه نقل مقره الى عيساباد ، كما ان الرشيد والامين اتخذا مقامهما في الجانب الغربي .

ذكر اليعقوبي قطائع عدد غير قليل ممن ولي بعض الدواوين في خلافتي المهدي والهادي ، وكلها في الجانب الشرقي . فمما ذكر « قطيعة ابان بن صدقة الكاتب » و « قطيعة سلمة الوصيف صاحب خزانة سلاح المهدي » و « قطيعة ثابت بن موسى الكاتب على خراج الكوفة وما سقى الفرات » و « قطيعة عبدالله بن زياد بن ابي ليلى الخشمي الكاتب على ديوان الحجاز والموصل والجزيرة وارمينيه واذريجان » و « قطيعة عبدالله بن محمد بن صفوان القاضي » و « قطيعة سلام مولى المهدي بالمخرم وكان يلي المظالم » و « قطيعة نازي مولى امير المؤمنين صاحب الدواب واصطبل نازي » (٢٦٤) ان مواقع هذه القطائع في الجانب الشرقي قد تضيف دليلاً على ان الدواوين نقلت الى الجانب الشرقي قريباً من قطائع ولائها ومن مقام الخليفة .

اما الرشيد فقد اتخذ مقامه في بغداد بالجانب الغربي حيث كان يسكن الخلد (٢٦٥) . ومع انه لا توجد اشارة الى مكان الدواوين في زمنه ، الا ان الأرجح انها جعلت في الجانب الغربي ، ومما يؤيد ذلك ان عدداً من ولاة الدواوين في زمن الرشيد كانوا يسكنون الجانب الغربي ، فيذكر الخطيب « واما مسجد الانباريين فينسب اليهم لكثرة من سكنه منهم ، واقدم من سكنه منهم زياد القندي ،

- (٢٦٠) الخطيب ٢٩/٣ .
- (٢٦١) المنتظم ١٠٢/٧ .
- (٢٦٢) المنتظم ٢١٦/٨ .
- (٢٦٣) المنتظم ٩٨/٩ .
- (٢٦٤) البلدان ٢٥٢ - ٣ .
- (٢٦٥) لقد بحثت مقام الخلفاء وتنقلهم في مقالتي « قصور الخلفاء ومنازلهم في العهود العباسية الاولى » المنشور في سومر (٨) .

- (٢٥٢) كذلك ٢٤٣ .
- (٢٥٣) كذلك ٢٤٤ .
- (٢٥٤) كذلك ٢٤٥ .
- (٢٥٥) الطبري ٤٧٢/٣ .
- (٢٥٦) الخطيب ٤٣٣/١٠ المنتظم ١٠٢/٧ .
- (٢٥٧) المنتظم ٢١٦/٨ ، ٩٨/٩ .
- (٢٥٨) المنتظم ٢١٦/٨ .
- (٢٥٩) الخطيب ١٠٤/٣ .

« مضيت في يوم من الايام على الرسم الى الديوان بالثريا » (٢٧٢) .

يذكر الصابي ان الديوان كان « في الدار المعروفة بفتح القلائس » (٢٧٢) ولم اجد في المصادر اشارة الى موقع هذه الدار غير ان الديوان نقل بعدئذ الى دار الخلافة ، اذ يذكر ابو القاسم عن ابيه انه قال « كنت يوما بحضرة ابي العباس بن الفرات في الديوان في دار السلطان اذ جاءه خادم . » (٢٧٤) ثم نقل الديوان الى دار الوزارة بالمخرم ، كما سنذكر فيما بعد .

اما في الازمنة المتأخرة فيذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٥٦ هـ « كان الديوان بجنب الدار التي يسكنها الوزير ابن هبيرة قبل ان ينتقل هذا الوزير ابن صدقة » (٢٧٥) ويذكر ايضا انه على اثر فيضان سنة ٥٦٩ كثر النزير بدار الخلافة ، فكان الخليفة يخرج من باب الفردوس الى ناحية الديوان ويمضي الى الجامع (٢٧٦) .

الوزارة :

انشأ العباسيون في بداية توليهم الخلافة منصب الوزارة وجعلوها اعلى مؤسسة ادارية في الدولة بعد الخلافة . وكان اختيار الوزير وعزله بيد الخليفة ، وقد اختلفت المدة التي قضاها كل منهم في الوزارة ، فبعضهم اشغلها لمدة قصيرة نقل عن السنة ، وبعضهم ظل يشغلها عدة سنوات ، كما ان بعضهم اعيد الى الوزارة اكثر من مرة . وكانوا يختارون من حيث العموم من ذوي المكانة في الادارة والبلاط وقد نكب بعضهم بعد عزله ، ولكن اغلبهم كان يمتلك ثروات كبيرة وضياع واسعة .

ولم تكن سلطات كافة الوزراء واحدة ، فبعضهم تمتع بسلطات ادارية واسعة وبعضهم لم يعط الا سلطات محدودة ، حتى ان الماوردي ، وهو من اعظم من بحث النظم الادارية العباسية ، صنف الوزارة صنفين رئيسيين ، اولهما وزارة التفويض التي يمارس فيها الوزير كافة سلطات الخليفة في الادارة ، ما عدا حق تعيين ولي العهد او عزل الخليفة ، والثاني وزارة التنفيذ الذي تقتصر سلطته فيها على تنفيذ اوامر الخليفة وقراراته .

وكان يتصرف في ايام الرشيد ، وكان الرشيد ولي ابا وكيع ، الجراح بن حكيم ، بيت المال ، فاستخلف زيادا ، وكان زياد من الغالية ، فاختان هو وجماعة من الكتاب ، واقتطعوا من بيت المال (٢٦٦) ويقول اليعقوبي في وصفه قطائع تلك المنطقة « ومسجد الانباريين كتاب ديوان الخراج » (٢٦٦) ويلاحظ ايضا ان الخطيب يذكر ان منازل البرامكة كانت بالقرب من قطيعة الانصار (٢٦٨) وهذه القطيعة تقع في هذه المنطقة ايضا . ومن الصعب ان نتصور ان كتاب الخراج في زمن الرشيد يقيمون في جنوبي المدينة المدورة ، في حين ان الديوان وهو محل عملهم ، يقع في الجانب الشرقي .

والراجح ان الدواوين ظلت في الجانب الغربي من خلافة الامين الذي كان مقامه في ذلك الجانب .

ولما قتل الامين ، ارسل المأمون الحسن بن سهل واليا على بغداد ، وكان فيما يظهر يقيم في القصر الحسيني الذي اصبح مقر الخلفاء بعد عودتهم من سامراء ، وقد اقام المأمون في هذا القصر ، ثم في قصر المأمون بقربه ، ولا تعلم مكان الدواوين في زمن المأمون .

وفي اوائل خلافة المعتصم بنيت سامرا وانتقل اليها الخليفة ، واصبحت دار الخلافة لسبعة خلفاء متتابعين ، ويبدو ان الدواوين الرئيسية في الدولة نقلت الى سامراء ، حيث يذكر اليعقوبي الذي يعتبر كتابه اوسع ما وصلنا عن سامراء ، ان ديوان الخراج الاعظم كان في الشارع الكبير المسمى بالسريجة (٢٦٩) ، وان الخزائن الخاصة قرب دار العامة (٢٧٠) ، اما المتوكل فانه لما بنى مدينته في شمالي سامرا نقل اليها « ديوان الخراج ، وديوان الضياع ، وديوان الزحام ، وديوان الجند والشاكرية ، وديوان الموالي والفلمان ، وديوان البريد ، وجميع الدواوين » (٢٧١) .

ولما عاد الخلفاء العباسيون الى بغداد بنى المعتضد قصر الثريا واتخذة مقرا له قبل ان يبنى التاج ، ويبدو انه جعل الدواوين في الثريا ، فيروي الصابي عن ابي القاسم ابن الزنجي الذي يروي عن عمه ابي الطيب احمد بن اسماعيل الذي قال

(٢٦٦) الخطيب ٨٩/١ .

(٢٦٧) البلدان ٢٤٥ .

(٢٦٨) الخطيب ٨٩/١ .

(٢٦٩) البلدان ٢٦٠ .

(٢٧٠) البلدان ٢٦١ .

(٢٧١) البلدان ٢٦٧ .

(٢٧٢) الوزراء للصابي ٢٠٤ وانظر ايضا ١٠٦ .

(٢٧٣) كذلك ١٣٧ .

(٢٧٤) كذلك ٢٠٦ .

(٢٧٥) المنتظم ١٩٩/١٠ .

(٢٧٦) المنتظم ٢٤٥/١٠ .

ولكنه حتى في هذه الحالة كان يتمتع بسلطات واسعة . ومن حيث العموم فان مدى سلطات الوزير تتوقف على شخصية الخليفة ومقدار ما يمنحه للوزير من الحقوق .

وكانت الوزارة منذ بداية نشأتها وثيقة الصلة بالدواوين ، لان الوزير هو المسؤول الاول عن ادارتها كما ان كثيرا ممن وليها ، وخاصة في القرن الثالث واولئل القرن الرابع ، كانوا في الاصل من كتاب الدواوين .

وكان الوزراء في خلافة ابي جعفر المنصور ذوي سلطة سياسية وادارية محدودة في الدولة ، وكان معظمهم يتحاشى ان يلقب بالوزير ، كما ان الكتب كثيرا ما كانت تطلق عليه لقب « الكاتب » ثم ازدادت اهميتهم منذ ان ولي المهدي الخلافة ، واستمرت هذه الاهمية عموما حتى سنة ٣٢٤ حين انشئ منصب امير الامراء « وبطل منذ يومئذ امر الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شيء من امر النواحي ولا الدواوين ولا الاعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط ، وان يحضر في ايام المواقب دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكنا ، وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الامر كله ، وكذلك كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق الى هذه الغاية ، وصارت اموال النواحي تحمل الى خزائن الامراء فبأمرهم وينهون فيها وينفقون كما يرون ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون ، وبطلت بيوت الاموال » (٢٧٧) .

لم تذكر المصادر مركز عمل الوزير او من يقوم بعمله ، في زمن كل من ابي جعفر المنصور ، والمهدي ، والهادي . ولكنها ذكرت اماكن سكن معظم من اشغل منصب الوزارة او الاشراف على الدواوين ، ففي خلافة المنصور اشغلها كل من خالد بن برمك وعبد الملك بن حميد وابو ايوب الورياني ، والربيع بن يونس ، فاما خالد بن برمك فان الخطيب يذكر ان « منازل البرامكة بالقرب من قطعة الانصار » (٢٧٨) . ويذكر الجهشيارى « كان خالد بن برمك ينزل بالشماسية في الموضع المعروف بسويقة خالد ، وهو اقطاع من المهدي (٢٧٩) ويذكر اليعقوبي الطرق التي تتفرع من الجسر في الجانب الشرقي ومنها « طريق ذات اليسار الى باب

البردان ، وهناك منزل خالد بن برمك وولده » (٢٨٠) ومن الواضح ان الجهشيارى واليعقوبي يشيران الى اقطاع واحد هو الذي في الجانب الشرقي ، وهو الذي يذكر الجهشيارى انه اقطاع من المهدي . اما الاقطاع الذي ذكره الخطيب ، وموقعه جنوبي المدينة المدورة وخارجها وبالقرب من اقطاعات معظم اصحاب الدواوين في زمن المنصور ، فهو فيما يظهر اقطاع من المنصور .

اما ربض عبد الملك بن حميد (٢٨١) وربض اي ايوب الانصاري (٢٨٢) فيقعان في شمالي المدينة المدورة خارجها . ولا بد ان منازل كل منهما كانت تقع في ربض .

اما الربيع بن يونس فان قطيعته كانت في الكرخ وهي مشهورة (٢٨٣) .

ويتبين من هذا ان قطائع الدين اشغلوا منصب الوزارة او قاموا بعملها في زمن ابي جعفر ، كانت كلها في الجانب الغربي وبالقرب من المدينة المدورة وخارجها .

اما في خلافة المهدي ، فقد اشغل منصب الوزارة او عملها كل من ابي عبيد الله معاوية ، ويعقوب بن داود ، وعمر بن تهمان ، والربيع بن يونس ، والفيض بن صالح فاما عمر بن تهمان والفيض بن صالح فلم اجد ذكر اقطاع لاي منهما ، واما الربيع بن يونس فقد ذكرنا قطيعته في الجانب الغربي ، اما ابي عبيد الله فكانت له سويقه في الجانب الشرقي (٢٨٤) ولعلها نشأت في اقطاعه وان مسكنه كان هناك .

واما يعقوب بن داود فكانت له في الجانب الشرقي (٢٨٥) قطعة ورحبة (٢٨٦) .

ويلاحظ ان المهدي جعل مقره ودواوينه في الجانب الشرقي .

اما في خلافة موسى الهادي القصيرة الابد ، فقد كان الوزير هو الفيض بن صالح الذي اشرنا من قبل الى عدم ذكر المصادر محل سكنه .

وفي زمن الرشيد هيمن على الوزارة يحيى

- (٢٨٠) البلدان ٢٥٤ .
- (٢٨١) الخطيب ٨٥/١ .
- (٢٨٢) البلدان ٢٤٨ .
- (٢٨٣) الخطيب ٨٨/١ .
- (٢٨٤) الخطيب ٩٣/١ .
- (٢٨٥) البلدان ٢٥٢ .
- (٢٨٦) الخطيب ٩٣/١ .

- (٢٧٧) تجارب الامم ٣٥٢/١ .
- (٢٧٨) الخطيب ٨٩/١ .
- (٢٧٩) الوزراء والكتاب ١٨٩ .

البرمكي واولاده . فاما يحيى فكان له قصر الطين الذي بناه بباب الشماسية (٢٨٧) ، واما جعفر بن يحيى فكانت داره في سوقه جعفر (٢٨٨) وهي بالقرب من باب الطاق واما الفضل بن يحيى فلم اجد في المصادر ذكراً لمكان مسكنه . ويلاحظ ان يحيى بن خالد كان يقيم في اول خلافة الرشيد في قصر الخلد مع الخليفة .

ولما نكب الرشيد البرامكة ولسى الوزارة الفضل بن الربيع الذي ظل يشغلها طوال خلافة الامين . ولم تذكر المصادر محل سكناه ، ولعله كان يسكن في قطعة الربيع .

اما في خلافة المأمون فقد اشغل الوزارة ببغداد كل من الحسن بن سهل واحمد بن ابي خالد ، واحمد بن يوسف بن القاسم ، وابو عباد ثابت بن يحيى بن يسار وابو عبدالله محمد بن يزدا . ولم اجد ذكراً لمنازل هؤلاء الا الحسن بن سهل الذي سكن القصر الحسيني الذي اصبح فيما بعد من ابنة دار الخلافة .

ولما اعاد العباسيون مقر خلافتهم الى بغداد تعاقب على الوزارة حتى سنة ٣٣٤ ست وعشرون وزيراً ، فمنهم عدد ينتمي الى اسرة واحدة ، فقد ولي من آل وهب كل من سليمان بن وهب (٢٥٥ ، ٢٦٣ - ٥) وعبدالله بن سليمان بن وهب (٢٧٧ - ٢٨٨) والقاسم بن عبيدالله (٢٨٨ - ٢٩١) ومحمد بن القاسم بن عبيدالله (٣٢١) .

وولياها من آل مخلد كل من الحسن بن مخلد (٢٦٤) وابنه سليمان (٣١٨ - ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ - ٣٢٩)

وولياها من آل الفرات كل من علي بن محمد بن الفرات (٢٩٦ - ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣١١ ، ٣٢٤) والفضل بن جعفر بن الفرات (٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧) .

وولياها من آل الخاقاني كل من محمد بن عبيد الله الخاقاني (٢٩٩ - ٣٠١) وابنه عبيدالله (٣١٢ - ٣١٣) .

وولياها علي بن عيسى الجراح (٣٠١ - ٣٠٤ ، ٣١٤ - ٣١٦) واخوه عبد الرحمن بن عيسى (٣٢٤) .

وولياها كل من احمد بن صالح بن شيرزاد (٢٧٧) والحسن الجرجاني (٢٩١ - ٦)

(٢٨٧) معجم البلدان ١١٤/٤ .

(٢٨٨) الوزراء والكتاب للجيشياري ٢٤١ .

وحامد بن العباس (٣٠٦ - ٣١١) واحمد بن عبيد الله الخصيبي (٣١٣ - ٤) (٣٢١ - ٢) ومحمد بن علي بن الحسن بن مثقال (٣١٦ - ٨ ، ٣٢٠ - ١ ، ٣٢٢ - ٤ ، ٣٢٦ - ٧ ، ٣٣١ - ٢) واحمد بن محمد البريدي (٢٢٧ - ٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠) وكذلك كل من اسماعيل بن بلبل (٢٦٥ - ٢٧٧) وعبيدالله بن محمد الكلواذاني (٣١٩) والحسين بن القاسم (٣١٩ - ٢٠) ومحمد بن القاسم الكرخي (٣٢٤ ، ٣٢٩) واحمد بن محمد بن ميمون (٣٢٩) ومحمد بن احمد الاسكافي (٣٢٩ ، ٣٣٠) وابو عبدالله الكرخي (٣٢٩ - ٣٠) ومحمد بن علي السامري (٣٣٣ - ٤) (٢٨٩) .

لم اجد في المصادر ذكراً لمنازل الثمانية الاخيرين اما الذين قبلهم فان دار البريدي كانت بسوق يحيى (٢٩٠) ودار ابن مثقال في الزاهر (٢٩١) ودار الخصيبي في قنطرة الانصار (٢٩٢) ودار حامد بن العباس في المخرم (٢٩٣) ودار العباس بن الحسن الجرجاني « الى دجلة وظهرها الى البستان المعروف بالزاهر » (٢٩٤) ودار احمد بن صالح بن شيرزاد بالدور مما يلي قصر جعفر بن يحيى بن خالد (٢٩٥) وهي قرب دار طازاد التي في قصر فرج على شاطئ دجلة (٢٩٦) ودار علي بن عيسى بسوق العطش (٢٩٧) ودار الخاقاني بباب الشماسية (٢٩٨) ودار ابن الفرات بسوق العطش (٢٩٩) ودار سليمان بن الحسن بباب المحول (٣٠٠) .

دار الوزارة :

يتردد في المصادر ان الوزارة وخاصة في عهد خلافة المقتدر كان مقرها في دار سليمان بن وهب الذي كان ينحدر من اسرة تتابع افرادها في الكتابة في العصرين الاموي والعباسي . وقد اصبح سليمان

(٢٨٩) اعتمدت في هذه القائمة على كتاب « المؤسسات الادارية » لعسامة الدين قوام الدين .
(٢٩٠) الصولي : اخبار الرازي والتمني ١٤٠ تجارب الامم ١٧/٢ ، ٢٠ ، ٢٤ .

(٢٩١) الصولي ٨١ تكملة الطبري ١٠٥ ، ١١٧ .

(٢٩٢) الصولي ١٥٢ مخطوطة الزهر .

(٢٩٣) تكملة الطبري ٣٠ .

(٢٩٤) الصولي ١٦ .

(٢٩٥) الطبري ١٠٦٣/٢ .

(٢٩٦) تجارب الامم ٧٨/١ .

(٢٩٧) تجارب الامم ٧١/١ المنتظم ١٢٨/٦ .

(٢٩٨) الصولي ٥٧١ مخطوطة الزهر .

(٢٩٩) تجارب الامم ٧/١ ، ٩١ .

(٣٠٠) الصولي ٨١ .

سليمان لم يسكن فيها كثيراً لأنه خدم وأستوزر للخلفاء العباسيين في سامراء الذين لم يعودوا الى بغداد الا سنة ٢٧٨هـ ، اي بعد وفات سليمان بعدة سنوات .

لم تذكر المصادر مصير دار سليمان بعد حبس صاحبها ، ولعلها عادت اليه بعد مصالحته ، ولعله اشغلها من بعده ابنه عبيدالله بن سليمان بن وهب الذي ظل في الوزارة من سنة ٢٧٧ الى سنة ٢٨٨ ، اي طوال السنوات العشر الاولى من عودة الخلفاء الى بغداد واتخاذهم مقراً في قصر الحسن بن سهل . والراجح ان هذه الدار انتقلت الى القاسم بن عبيد الله اعقب اباه في الوزارة وظل فيها الى وفاته سنة ٢٩١ ، ولعلها كانت خلال وزارة سليمان وابنه وحفيده مركز الوزارة .

وقد صارت هذه الدار للعباس بن الحسن الذي اعقب القاسم بن عبيدالله في الوزارة وظل فيها من سنة ٢٩١ - ٢٩٦ ، فلما عزل المقتدر العزلة الاولى سنة ٢٩٦ انصرف العباس بن الحسن «الى المخرم وجلس في دار سليمان بن وهب» (٢٠٥) ، ويبدو ان هذه الدار قد اصبحت دار الوزارة ، اذ ان الهمداني يذكر ان العباس عاد الى «دار الوزارة بالمخرم» (٢٠٦) .

ولما ولي ابن الفرات الوزارة بعد العباس ، اقطعه المقتدر هذه الدار ، فيذكر الصابي «وانتقل ابو الحسن (علي) بن الفرات من بعد ذلك الى ما اقطعه المقتدر بالله من دار سليمان بن وهب بباب المخرم على دجلة وما يجاورها من دار ابراهيم بن سليمان ، والاصطبل الذي كان للسلطان ، والدور التي كانت في يد داية المكتفي بالله ، ومساحة ذلك مائة الف وثلاثة وسبعون الفا وثلاثمائة وستة واربعون ذراعاً ، وغير ذلك وجدده ، وانشأ المجالس الجليلة والابنية الحسنة ، وعمل للدار مسكنة مشرفة على دجلة» (٢٠٧) .

ويتبين من هذا ان رقعة دار الوزارة اصبحت ٤٠.٢ x ٤٠.٢ ذراعاً اذ افترضنا انها كانت مربعة المساحة ، وانها كانت تشمل دور كل من سليمان ، وابراهيم ، وداية المكتفي بالاضافة الى اصطبل السلطان ، اي ان دار سليمان بن وهب صارت بعض دار الوزارة ، غير ان المصادر لا تذكر موقع دار سليمان من دار الوزارة الجديدة .

(٢٠٥) تكملة الطبري ٥ .

(٢٠٦) تكملة الطبري ٦ .

(٢٠٧) الوزراء للصابي ٢٨ - ٢٩ .

بن وهب كاتباً للحسن بن سهل وللمأمون ثم ولي الوزارة للمهتدي في سنة ٢٥٥ ثم عزل واعيد تعيينه سنة ٢٦٣ - ٢٦٤ ، ثم عزله الموفق واعاده بعد فترة فظل في الوزارة سنة ٢٦٤ - ٢٦٥ وقد ساهم في الاحداث في زمنه ، وقد غضب عليه المعتمد في سنة ٢٦٤ وحبسه ثم اطلق سراحه ، ولكنه في السنة التالية «امر ابو احمد بحبس سليمان بن وهب وابنه عبيدالله ، فحبسا وعده من اسبابهم في دار ابي احمد ، وانتهت دور عدة من اسبابه ووكل بحفظ داري سليمان وابنه عبيدالله ، وامر بقبض اموالهما واموال اسبابهما وضياعهم خلا احمد ابن سليمان ، ثم صولح سليمان وابنه عبيد الله على تسعمائة الف دينار ، وصيرا في موضع يطل اليهما» (٢٠١) وقد ظل سليمان في حبس الموفق حتى توفي سنة ٢٧٢ (٢٠٢) .

وقد ذكر الخطيب اصل هذه الدار حيث قال نقلاً عن ابن عرفة «واما شاطيء دجلة من الجانب الشرقي فاوله بناء الحسن بن سهل وهو قصر الخليفة في هذا الوقت .

ودار دينار

دار رجاء بن ابي الضحاك

ثم منازل الهاشميين

ثم قصر المعتصم وقصر المأمون

ثم منازل آل وهب ، الى الجسر كانت اقطاعاً

لناس من الهاشميين ومن حاشية الخلفاء» (٢٠٣) .

ومن الواضح ان الجسر المذكور في هذا النص هو الذي يتصل بباب الشعير في الجانب الغربي (٢٠٤) ، وان هذه المنازل تقع جنوبي الجسر ، وانها كانت قرب قصري المعتصم والمأمون ، وهي تبعد مسافة عن دار الخلافة ، حيث تقع بينهما عدة دور . ومع ان نص الخطيب لا يذكر صراحة دار سليمان بن وهب ، الا ان سياق الكلام يقتضي ان هذه الدار هي المقصودة ، او هي الرئيسة من دور آل وهب .

ويتضح من نص الخطيب ان منازل آل وهب كانت في الاصل اقطاعاً لبعض الهاشميين ، ولعل آل وهب حصلوا عليها في خلافة المأمون ، ولا بد ان

(٢٠١) الطبري ١٩٢/٣ .

(٢٠٢) الطبري ٢١٠/٣ .

(٢٠٣) الخطيب ٩٨/١ ويلاحظ ان رجاء بن ابي الضحاك

هو ابن عم الحسن بن سهل (الطبري ٩٩٢/٣) وكان

مقرباً الى المأمون (الطبري ٩٩٥/٣ ، ١٠٠٠) .

(٢٠٤) اوردنا لجسور بغداد بحثاً خاصاً نرجو ان ننشره قريباً .

ويبدو ان حامداً بن العباس اشغل هذه الدار في وزارته ، ثم اقطعها المقتدر بالله ابنه ابا العباس (٢٠٨) ، غير ان ابن الفرات لما عاد الى الوزارة « سأل ان يعاد الى داره بالمخرم ، وكانت اقطعت للامير ابي العباس ، فاذن له المقتدر في ذلك ، وكان ذلك في سنة ٣١١ (٢٠٩) ، ويدل هذا النص ان هذه الدار كانت ملكيتها للخليفة ، وان اقطاعها لابنه لم يقصد منه نقل ملكيتها الى ابي العباس . غير ان المصادر لم تذكر كيف آلت ملكية هذه الدار الى الخليفة .

ويروى الصابي عن ابي القاسم بن زنجي « سمعت ابا الحسن بن الفرات يقول في وزارته الثالثة في سنة ٣١١ انه اتفق على الدار التي كان ينزلها في ذلك الوقت وفيها قبض عليه ، وهي دار سليمان بن وهب ، وموقعها في المخرم ، وفي يد الحاجب الكبير ابي منصور سبكتكين الان شيء منها ، وفي يد ابن لشكرون شيء آخر ، وفي ايدي قوم من قواد الديلم الباقي « ثلاثمائة الف دينار » (٢١٠) .

وقد ظلت هذه الدار تحتفظ بنسبتها الى صاحبها الاول فتسمى دار سليمان ابن وهب (٢١١) . ونظرا لطول اقامة ابن الفرات فيها وما ادخله من تعميرات عليها ، فقد سميت ايضا في بعض المصادر دار ابن الفرات (٢١٢) ثم انها باعتبارها مقر الوزارة ، كانت تسمى ايضا دار الوزارة (٢١٣) .

وتقع هذه الدار بباب المخرم (٢١٤) على دجلة (٢١٥) ، عند الجسر . ويذكر ابن عرفة ما يدل على ان الجسر كان شماليها (٢١٦) . غير ان الصولي يذكر انها « فوق الجسر » (٢١٧) وهذا النص الغامض قد يدل على انها في جنوبي الجسر ، او انها في شماليه ، فان كان الاخير فانه يدل على ان الجسر قد حول بعد ابن عرفة الى الجنوب وعند هذه الدار

تقع مشرعة الصخر (٢١٨) . ولما كانت هذه الدار اصبحت لسبكتكين ، ثم صارت دار المملكة ، كما سنذكر فيما بعد ، ولما كانت دار المملكة « محاذية للفرضة » (٢١٩) فتكون الفرزة قرب مشرعة الصخر او لعلها هي نفس المشرعة .

ولما كانت هذه الدار مقر الوزارة ، فقد كان يمارسون اعمالهم فيها ، وقد تردد ذكر ذلك في المصادر ، فيذكر مسكويه ان علي بن عيسى في وزارته سنة ٣٠٣ « صار ينظر في الاعمال في دار الوزارة بالمخرم » (٢٢٠) ويذكر ايضا ان ابا القاسم الكلوذاني لما ولي الوزارة « صار ينظر في الاعمال في دار الوزارة بالمخرم » (٢٢١) ويذكر الصابي ان علي ابن عيسى في وزارته الثانية سنة ٣٠٣ صار الى « دار الوزارة بالمخرم وقد جعلها ديوانا » (٢٢٢) كما يقول انه لما وزر سنة ٣٠٣ « اقام في هذه الدار ثم نقل الدواوين اليها » (٢٢٣) ويبدو من هذا النص ان الدواوين لم تكن في دار الوزارة حتى نقلها اليها علي بن عيسى .

يذكر مسكويه (٢٢٤) والصابي (٢٢٥) ان ابن الفرات اقطع هذه الدار ، غير ان المعلومات المتوفرة في المصادر تدل على ان هذه الدار كانت مقر الوزارة ويسكنها الوزراء خلال اشغالهم ذلك المنصب فحسب ، وان ملكيتها تعود الى الدولة .

كانت دار الوزارة بالمخرم واسعة ، فيها عدة بيوت ، ذكرت المصادر منها « بيت يعرف بالدمشقي » كانت فيه سجلات بلغت حتى السقف (٢٢٦) ، كما كانت فيها دار للمستخرج ابن بعد شر (٢٢٧) ، وفيها ايضا الدار الجديدة (٢٢٨) .

وفي دار الوزارة ايضا كانت دار البستان التي يذكر الصابي ان ابن الفرات في وزارته الثالثة (سنة ٣١١) « اشتمى في وزارته هذه ان يجمع

(٢١٨) الصولي ١٥٢ ويقول ابن الجوزي ان بهاء الدولة نقل اخته زوجة الطائع الى دار في مشرعة الصخر (المنتظم ١٦٤/٧) ولعله نقلها الى هذه الدار .

(٢١٩) المنتظم ٧٧/٧ .

(٢٢٠) تجارب الامم ٢٧/١ .

(٢٢١) كذلك ١٤٩/١ .

(٢٢٢) الوزراء ٤٦٨ .

(٢٢٣) كذلك ٣٦٨ .

(٢٢٤) تجارب الامم ٤١/١ ، ٥٣ .

(٢٢٥) الوزراء ٢٨ .

(٢٢٦) الوزراء ٢٣٠ .

(٢٢٧) تكملة الطبري ٤٥ .

(٢٢٨) الوزراء ٢١٤ .

(٢٠٨) تكملة الطبري ٢١ ، ٣٢ .

(٢٠٩) تكملة الطبري ٦٩ .

(٢١٠) الوزراء للصابي ١٩٩ .

(٢١١) الوزراء ٣٦ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٠٦ تجارب

الامم ه الصولي ١٥٢ (مخطوطة الازهر) .

(٢١٢) الصولي ١١٥ ، ١٢٣ ب ، ١٥٢ ب (مخطوطة

الازهر) تجارب الامم ٤١/١ ، ٩١ .

(٢١٣) تجارب الامم ٢٧/١ ، ٥٩ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٩

الوزراء للصابي ٦٩ ، ٣٦٨ .

(٢١٤) تجارب الامم ٥/١ ، ٥٩ ، ١٢٢ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ،

٢٧١ .

(٢١٥) الوزراء للصابي ٢٨ .

(٢١٦) الخطيب ٩٨/١ .

(٢١٧) الصولي ١٢٣ ب (مخطوطة الازهر) .

حرمة وبنات اخوته واصاغر ولده في الدار المعروفة بدار البستان المعروفة بدار سليمان ابن وهب ، فتقدم باصلاحها وتنظيفها واتفاق ما يحتاج اليه من تبييضها ، فبلغت النفقة خمسين الف دينار ، وجلس وهم فيها يوما واحدا ، ولم يعد بعد ذلك الى الجلوس معهم فيها « (٢٢٩) » .

وكانت نفقات « من يرسم دار الوزارة من خلفاء الحجاب والبوابين واصحاب الرسائل وانزال الفرسان والرجالة عشرين الف دينار » (٢٣٠) .

ظلت دار الوزارة هذه حتى سنة ٣٢١ حين « خرج امر القاهر ببيع دار المخرم التي كانت برسم الوزارة ، وكانت قديما لسليمان بن وهب ففقطعت وبيعت من جماعة من الناس لان ذرعها يشتمل على اكثر من ثلاثمائة الف ذراع ، وصرف عنها من مال الصلة لبيعة القاهر » (٢٣١) .

ويذكر الصابي في كلامه عن هذه الدار « وفي يد الحاجب الكبير منصور سبكتكين الان شيء منها وفي يد ابن لشكره شيء آخر ، وفي ايدي قوم من قواد الديلم الباقي » (٢٣٢) .

ولما دخل البويهيون بغداد ، صاروا يمارسون الحكم والادارة بانفسهم فلم يعد للخليفة الا الاسم ، ثم انهم وزعوا العراق اقطاعات ، فبطلت العمارات واغلقت الدواوين ومحي اثر الكتابة والعمالة (٢٣٣) .

دار الملكة :

وقد شيد معز الدولة له قصرا في اعلى الشماسية ، اما عز الدولة فبنى له قصرا في الحريم الطاهري ، فلما جاء عضد الدولة اعاد تعمير المكان الذي كانت فيه دار الوزارة قديما وسماها دار الملكة .

ويقول الصابي « طورد عضد الدولة والامر جار على ذلك لعز الدولة ، فسأل الطائع لله الاذن له في ضرب الطبل على باب داره بالمخرم التي هي اليوم دار الملكة وكانت من قبله لسبكتكين الحاجب ، ففعل ذلك » (٢٣٤) .

اما دار الملكة فالمقصود بها ما بناه المعتضد ، وقد وصفها هلال بن الحسن حيث قال : كانت

(٢٢٩) الوزراء ١٩٩ .

(٢٣٠) تجارب الامم ١٥٦/١ .

(٢٣١) تجارب الامم ٢٥٨/١ تكملة الطبري ٧٥ .

(٢٣٢) الوزراء ١٩٩ .

(٢٣٣) تجارب الامم ٩٨/٢ .

(٢٣٤) رسوم دار الخلافة ١٣٧ .

دار الملكة التي باعلى المخرم محاذية الفرضة قديما لسبكتكين غلام معز الدولة فنقض عضد الدولة اكثرها ، ولم يستبق الا البيت الستيني الذي هو في وسط اروقة من ورائها اروقة ، في اطرافها قباب معقودة ، وتفتتح ابوابه الغربية الى دجلة وابوابه الشرقية الى صحن من خلفه بستان ونخل وشجر . وكان عضد الدولة جعل الدار التي هذا البيت فيها دار العامة ، والبيت برسم جلوس الوزراء وما يتصل به من الاروضة والقباب . مواضع للدواوين ، والصحن مناما لديلم النوبة في ليالي الصيف .

قال هلال : وهذه الدار وما تحتوي عليه من البيت المذكور والاروقة خراب ولقد شاهدها مجلس الوزراء من ذلك ومحفل من يقصدهم ويحضرهم ، وقد جعله جلال الدولة اصطبلا اقام فيه دوابه وسواسه . واما بناء عضد الدولة وولده بعده في هذه الدار فهو متماسك على تشعبته (٢٣٥) .

وينقل الخطيب عن القاضي ابي القاسم التنوخي عن ابيه « حاشيت الملك عضد الدولة في دار الملكة بالمخرم التي كانت دار سبكتكين حاجب معز الدولة من قبل ، وهو يتأمل ما عمل وهدم منها ، وقد كان اراد ان يترك في الميدان السبكتكين اذرا ليحمله بستانا ويرد بدل التراب رملا وي طرح التراب تحت الروشن على دجلة ، وقد ابتاع دورا كثيرة كبارا وصغارا وتقضها ورمى حيطانها بالفيلة تخفيفا للمؤنة ، وازاد عرصتها الى الميدان ، وكانت مثل الميدان دفعتين ، وبنى على الجميع مسناة .. فلما فرغ من ذلك وصار البستان ارضا بيضاء لا شيء فيها من غرس ولا نبات : قال : « قد انفق على هذا حتى صار كذا اكثر من الف الف درهم صحاحا ، ثم فكر في اذ يجعل شرب البستان من دواليب ينصبها على دجلة ، وعلم ان الدواليب لا تكفي ، فاخرج المهندسين الى الانهار التي في ظاهر الجانب الشرقي من مدينة السلام ليستخرجوا منها نهرا يسبح ماؤه الى داره ، فلم يجدوا ما اراده الا في نهر الخالص ، فعلى الارض بين البلد وبينه تعالية امكن معها ان يجري الماء على قدر من غير ان يحدث به ضرر ، وعمل تلين عظيمين يساويان سطح ماء الخالص ، ويرتفعان عن ارض الصحراء اذرا ، وشق من وسطهما نهرا جعل له خورين من جانبيه ، وداس الجميع بالفيلة دوسا كثيرا حتى قوى واشتد وصلب وتلد ، فلما بلغ الى منازل البلد واراد سوق النهر الى داره ، عمد

(٢٣٥) الخطيب ١٠٥/١ المنتظم ٧٨/٧ .

وفي سنة ٢٧٠ « نهب الجند دار الملكة وابوابها وساجها ، ورتبوا فيها حفلة فكانت الحفلة تخربها نهارا ، وتنقل ما اجتمع من ذلك ليلا » (٢٤٦) .

ولما توفي جلال الدولة ، « دفن في بيت دار الملكة في بيت كان قد دفن فيه عضد الدولة وبهاء الدولة قبل نقلهما ، ثم نقل تابوته الى تربتهم في مقابر قريش » (٢٤٧) .

ولما ورد طغرل بك بغداد نزل دار الملكة وتفرق عسكره في دور الاتراك (٢٤٨) .

دار الملكة في العهد السلجوقي :

يذكر الخطيب « ولما ورد طغرل بك الفزى بغداد واستولى عليها ، عمر هذه الدار (دار الملكة التي بناها عضد الدولة) وجدد كثيرا مما كان ، وهي منها ، في سنة ٤٤٨ » (٢٤٩) .

واورد ابن الجوزي عن عمل طغرل بك تفاصيل اوفى حيث ذكر في حوادث سنة ٤٤٨ « وفي هذه السنة ابتدا السلطان طغرل بك ببناء سور عريض دخل فيه قطعة كثيرة من المخرم ، وعزم على بناء دار فيها وجمع الصناع لتجديد دار الملكة العضدية ، وخرب الدور والدروب والمحال والاسواق بالجانب الشرقي وجميع ما يقارب الدار واخذت الانهار للاستعمال ، ونقضت دور الاتراك وسلت احشائها بالجانب الغربي ، وقلع الفقراء اخشاب الدور وباعوه على الخبازين والفراشين » (٢٥٠) .

وقد نقل سبط ابن الجوزي رواية جده مع بعض الاختلافات حيث قال في حوادث سنة ٤٤٨ « ابتدا طغرل بك بعمارة سور عريض على داره ، دخل فيه قطعة كبيرة من المخرم ودار الفيل ، وجمع الصناع لتجديد دار الملكة العضدية ، وبنى عليها ابراج ، وخرب الدور والاسواق المجاورة لها بالجانب الشرقي ، وقلعت اخشاب دور الاتراك في الجانب الغربي وحملت اليها » (٢٥١) .

الى درب السلسلة فذلك ارضه دكا قويا ، ورفع ابواب الدور واوثقها ، وبنى جوانب النهر طول البلد بالاجر والكلس والنورة ، حتى وصل الماء الى الدار وسقى البستان .

قال ابي وبلغت النفقة على عمل البستان وسوق الماء اليه على ما سمعته من حواشي عضد الدولة خمسة الاف الف درهم . ولعله قد انفق على ابنية الدار على ما اظن مثل ذلك ، وكان عضد الدولة عازما على ان يهدم الدور التي بين داره وبين الزاهر ، ويصل الدار بالزاهر ، فمات قبل ذلك » (٢٢٦) .

ويقول ابن الجوزي انه في سنة ٣٧١ امر عضد الدولة بحفر نهر من عمود الخالص وسياقه الماء الى بستان داره فبدى في ذلك ، وحشر الرجال لعماله » (٢٢٧) .

ويقول ايضا انه في سنة ٣٧٢ « في المخرم فتح الماء الذي استخرجه عضد الدولة من الخالص الى داره وبستان الزاهر » (٢٢٨) ويذكر ايضا ان عضد الدولة « غرس الزاهر وهو دار ابي علي بن ملفه وكانت قد صارت تلا » (٢٢٩) .

وفي سنة ٣٧٩ توفي شرف الدولة ، فركب « الطائع لله الطيار وسار الى دار الملكة بالمخرم لتعزية ابي نصر (بهاء الدولة) ، وقد رد بهاء الدولة الزيارة للخليفة ثم عاد الى دار الملكة » (٢٤٠) . ولما عزل الطائع « اصعد به الى الخزنة في دار الملكة » (٢٤١) ويلاحظ ان بهاء الدولة نقل اخته زوجة الطائع لله الى دار بمشرفة الصخر القريبة من دار الملكة (٢٤٢) .

ولما جاء جلال الدولة بغداد سنة ٤١٨ دخل دار الملكة (٢٤٣) ، وفي السنة التالية حاصرها الجند (٢٤٤) ، ثم لما اضطربت بغداد على جلال الدولة « نقل السلطان ماله من كراغ الى دار الملكة ، وعملت هناك المعالف » (٢٤٥) .

(٢٢٦) الخطيب ١/١٠٦ - ٧ المنتظم ٧٨/٧ .

(٢٢٧) المنتظم ٧/١٠٧ .

(٢٢٨) المنتظم ٧/١١٢ .

(٢٢٩) المنتظم ٧/١١٤ .

(٢٤٠) المنتظم ٧/١٤٨ .

(٢٤١) المنتظم ٧/١٥٦ .

(٢٤٢) المنتظم ٧/١٦٣ .

(٢٤٣) المنتظم ٨/٢٨ .

(٢٤٤) المنتظم ٨/٣٥ .

(٢٤٥) المنتظم ٨/٥١ .

(٢٤٦) المنتظم ٨/٨٩ .

(٢٤٧) المنتظم ٨/١١٨ .

(٢٤٨) المنتظم ٨/١٦٥ .

(٢٤٩) الخطيب ١/١٠٦ .

(٢٥٠) المنتظم ٨/١٦٩ .

(٢٥١) مرآة الزمان ٣ (طبعة سويم ، ولعل الجسر الذي عقد في هذه السنة بين مشرفة الحطابين ومشرفة الروايا هو عمل مكمل لاعمار هذه المنطقة) .

ويذكر الخطيب بعد النص الذي اوردناه اعلاه « .. فمكثت كذلك الى سنة خمسين واربعمائة ، ثم احرقت و سلب اكثر الاتها ، ثم عمرت بعد واعيد ما كان اخذ منها » (٢٥٢) .

لم يذكر ابن الجوزي في حوادث ٤٥٠ احتراق دار المملكة ، غير انه ذكر الحوادث الجسام التي حدثت في تلك السنة ببغداد ، فقد كان طغربك غائبا عنها ، وقد بدأت السنة بالخلل الامن في بغداد وانقسام السلاجقة فيها ، وقطع الجسر وهو يقول « وركب رئيس الرؤساء وعميد العراق الى دار المملكة واخذ ما يصلح من السلاح ، وضربا باقي الباقي النار » ، ثم اعقب ذلك دخول البساسيري بغداد ، وعقده الجسر بباب الطاق ونزوله الزاهر ، ومحاولة الخليفة مقاومته (٢٥٢) .

اما اعادة تعميرها فلا بد انه تم قبل سنة ٤٦٠ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها الخطيب .

يذكر ابن الجوزي انه في سنة ٤٨٥ هـ تقدم السلطان ملكشاه « ببناء سوق المدينة المقاربة داره التي بمدينة طغربك ، وبنى فيها خانات الباعة وسوقا عنده دروب . . والجامع الذي تسم باخره على ايدي بهروز في سنة ٥٢٤ ، وتولى السلطان تقدير هذا الجامع بنفسه . . وجلبت اخشابا من جامع سامراء ، وكثرت العمارة بالسوق واستأجر نظام الملك بستان الجسر وما يليه من وقوف المارستان مدة خمسين سنة ، واستأجر لعمارة ذلك دارا ، واهدى اليه ابو الحسن الهروي خانه » (٢٥٤) .

فاما السوق فانه لم يبق طويلا اذ ان السلطان محمد في سنة ٤٩٦ « تقدم بنقض السوق التي استجدها جلال الدولة ملكشاه بالمدينة المعروفة بطغربك ، وكانت مرسومة بالصباغين بعد خروجه ، والسوق التي كان بها البزازون ايام دخوله ، والمدرسة التي بنتها ترکان خاتون ، وكانوا قد انفقوا على ذلك الاموال الجمة ، فنقض ذلك كله » (٢٥٥) . ولم تذكر المصادر تجديد السوق ، غير ان ابن الجوزي يذكر انه في سنة ٥٥١ وقع حريق في سوق السلطان (٢٥٦) .

اما الجامع فان ابن الجوزي يذكر ان « ملكشاه

بنى الجامع الذي يقال له جامع السلطان ببغداد » (٢٥٧) ويذكر انه في سنة ٤٩٤ « في يوم الاضحى بعث الخليفة للسلطان منبرا فنصب في دار المملكة » (٢٥٨) والمفروض من ارسال المنبر وجود جامع في دار المملكة ، غير ان ابن الجوزي نفسه يذكر انه في سنة ٥٠٢ « شرع من عمارة جامع السلطان ، واتمه بهروز الخادم » (٢٥٩) ، وكان هذا الجامع على دجلة (٢٦٠) وتقام فيه صلاة الجمعة (٢٦١) ، وله خطيب (٢٦٢) ، وفيه مقصورة (٢٦٣) .

يقول ابن الجوزي انه في سنة ٥٠٢ « شرع في عمارة جامع السلطان ، واتمه بهروز الخادم » (٢٦٤) ، ولما كانت الدلائل تشير الى وجود جامع قبل هذا التاريخ ، فالراجح ان المقصود بالنص هو اعادة تعميره ، ولعل الجامع القديم هدم سنة ٤٩٦ وأشار اليه النص الذي ذكرنا باسم المدرسة التي بنتها ترکان خاتون .

ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٠٢ ايضا فوض السلطان بهروز عمارة دار المملكة (٢٦٥) . وفي سنة ٥٠٩ « تكملت عمارة الدار التي استجدها بهروز الخادم من الدار السلطانية ، وحمل اليها اعيان الدولة الفروش الحسنة والكسي الرائقة ، واستدعى القراء والفقهاء والقضاة والصوفية ، فقرأوا فيها القرآن ثلاثة ايام متوالية » (٢٦٦) .

ويذكر سبط ابن الجوزي ان هذه الدار « بناها بهروز الخادم من انقاض دور الناس واستعجل في عمارتها اهل بغداد ، حتى القضاة والاشراف والاعيان ، وكانوا ينقلون الانقاض في طباستهم ، ولما كملت امرهم بهروز ان يحملوا اليها الفرش والبسط والانية وغيرها ، فحمل الناس اليه ذلك » (٢٦٧) .

وذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥١٥ « وقع الحريق في دار المملكة ، فاحترقت الدار التي استجدها بهروز الخادم . . وذهب من الفرش

(٢٥٧) المنتظم ٦٩/٩ .

(٢٥٨) المنتظم ١٢٤/٩ .

(٢٥٩) المنتظم ٢٥٩/٩ .

(٢٦٠) المنتظم ٥٧/١٠ .

(٢٦١) المنتظم ١٤٢/١٠ .

(٢٦٢) المنتظم ٢٤٦/١٠ .

(٢٦٣) المنتظم ١٧٩/١٠ .

(٢٦٤) المنتظم ١٥٩/١٠ .

(٢٦٥) المنتظم ١٥٩/١٠ .

(٢٦٦) المنتظم ١٨٢/١٠ مرة الزمان ٥٦/٨ .

(٢٦٧) مرة الزمان ٩٦/٨ .

(٢٥٢) الخطيب ١٠٦/١ .

(٢٥٣) المنتظم ١٨٩/٨ - ١٩٧ .

(٢٥٤) المنتظم ٦٠/٩ .

(٢٥٥) المنتظم ١٢٩/٩ .

(٢٥٦) المنتظم ١٦٥/١٠ .

عنده بدار المملكة « (٢٧٢) ان عباس شحنة السدي
« استدعى الى دار المملكة » في سنة ٥٤١ (٢٧٢) .

غير انه منذ ذلك التاريخ ينقطع ذكر دار
المملكة ، ويذكر مكانه دار السلطان ، فيذكر ابن
الجوزي ان عباس شحنة « قتل في دار
السلطان .. ودفن في المشهد المقابل لدار
السلطان » (٢٧٤) ، ويذكر ايضا انه في سنة ٥٤٤
عاد مسعود الى بغداد « ودخل دار السلطنة (٢٧٥)
ويذكر انه في سنة ٥٥٢ قرر الخليفة مقاومة
السلطان شاه محمد واستعد لذلك ، وسارت بعض
جنوده « فقصدوا تحت الزاهر ليدخلوا دار
السلطان (٢٧٦) ، ثم « ضربت الرجال الى دار
السلطان فنهبوا وكان فيها اموال كثيرة ، ونهبوا
الابواب والاشباب واخذوا الاطيار والغزلان » (٢٧٧) ،
ولم يعد لها ذكر بعد هذه الحوادث التي يبدو انها
ادت الى تدميرها ، اذ ان البنداري يقول عن مدينة
طغربك « وهي التي جامعها اليوم باق ، وكانت
حينئذ ذات اسوار واسواق » (٢٧٨) .

ولا يخفى ان سلطان آل سلجوق زال من
بغداد بعد هذه الحوادث ، وزال معه الحكم المزدوج ،
واصبح الحكم للخليفة وحده ، ومقره في دار الخلافة
حيث كان يقيم وزراءه ويمارسون الحكم فيه وكانت
دار الوزارة فيه في اواخر القرن السادس الهجري
مقابل باب النوبي (٢٧٩) .

- ٢٧٢) المنتظم ٨٥/١ .
- ٢٧٣) المنتظم ١٢٣/١ .
- ٢٧٤) المنتظم ١٢٣/١ .
- ٢٧٥) المنتظم ١٢٨/١ .
- ٢٧٦) المنتظم ١٧٠/١ .
- ٢٧٧) المنتظم ١٧٥/١ .
- ٢٧٨) دولة ابي سلجوق ١ .
- ٢٧٩) الجامع المختصر ٩٩ ، ٢٢١ ، ٢٨٦ .

والالات والوانى واللؤلؤ والجوهر ما يزيد قيمته
على الف الف دينار وغسل غسالون التراب فظفروا
بالذهب والحلي سبائك ، ولم يسلم من الدار شيء ،
ولا خشبة واحدة .

وعاد السلطان الى دار المملكة وتقدم ببناء
داره على المسناة المستجدة وان تعمل ازاجيا
استظهارا ، واعرض عن الدار التي احترقت وقال
ان ابي لم يتمتع بها ولا امتد بقاءه بعد انتقاله
اليها ، وقد ذهبت اموالنا فلا اريد عمارتها » (٢٦٨) .

ونقل سبط ابن الجوزي خبر هذا الحريق
بالنص تقريبا في قسمه الاول الى كلمة « ولا خشبة
واحدة » ولكنه اورد القسم الثاني من النص كما
يلي « وقال السلطان لا حاجة لنا الى بناء هذه الدار
التي لم يتمتع بها ابي ولا طال بقاءه ، وذهبت
اموالنا وارزاقنا فيها ، يكفيننا دار المملكة
العتيقة » (٢٦٩) .

اما المسناة المستجدة التي بنيت الدار عليها
فلم اجد عنها معلومات محددة ، ولعلها هي التي
اشار اليها ابن الجوزي في كلامه عن حوادث سنة
٤٨٠ حيث قال ان فيها « جددت على الزاهر مسناة
كان لها اساس قائم وغرس فيه نخل وشجر ،
وسور عليها ، وذلك بأمر السلطان ملكشاه » (٢٧٠) .

وظل اسم « دار المملكة » يتردد بعد حريق
٥١٥ ، فيذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٣٠ « دخل
داوود المملكة » (٢٧١) ، وفي سنة ٥٣٤ وصلت خاتون
بنت محمد زوجة المقتدى مع اخيها مسعود « واقامت

- ٢٦٨) المنتظم ٢٢٢/٩ .
- ٢٦٩) مرآة الزمان ٩٦/٨ .
- ٢٧٠) المنتظم ٣٩/٩ .
- ٢٧١) المنتظم ٥٥/١ .

بَغْدَادُ فِي عَهْدِ الثَّوْرَةِ

بقلم

جواد كاظم التلياني

ديوان وزارة الري - بغداد

مقدمة

المحتوى والمضمون الحضاري للعصر الذي راح يسابق في النهوض نحو الامام ارقى عواصم ومدن العالم ، سيما وان أحد عشر عاما لا تعد زمنا الى جانب العشرات من السنين التي وصلت فيها العواصم والمدن المتقدمة الى ما هي عليه الآن .

وخطا نقول اننا نستطيع حصر كلما تحقق لبغداد خلال عهد الثورة لاننا مهما حاولنا فسنغفل الكثير منها ، لأن ثورة ١٧ - ٣٠ تموز منذ قيامها كان لها في كل زاوية وفي كل لحظة « بصمة » جميلة فاعلة وحضارية على وجه بغداد ، اقتصاديا ، ثقافيا ، اجتماعيا ، تخطيطيا ، تجميلا ، صحيا ، وخدميا . وعلى ذلك فنستطيع قارئنا عذرا اذا ما فاتنا شيء من ذكر بعض مكتسبات بغداد .. وابن بغداد .

زيادة النفوس - واتساع الارض

بين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٩ اختلاف كبير جدا وان اعطاء نسبة لهذا التغيير عما كانت عليه بغداد قبل الثورة هو ضرب من ضروب الوهم ، لقد ارتفع عدد نفوس بغداد خلال الاعوام الاحد عشر السابقة فتشير احصاءات التعداد العام الاخير للسكان عام ١٩٧٧ الى ان عدد سكان بغداد قد وصل الى (٣٠٠٠٠٠٠) مليون نسمة عما كان عليه في تعداد ١٩٦٥ الذي اظهرت نتائجه بان نفوس بغداد (٣٧٥٠٠٠٠) مليون نسمة واذا ما اخذنا نسبة الزيادة الحاصلة في سكان بغداد خلال هذه الفترة يمكننا طبعاً ان نتصور نسبة الزيادة الحاصلة في عدد السكان في بغداد خلال اعوام ١٩٧٨ و ١٩٧٩ آخذين بنظر الاعتبار التطور الشامل

في الزنانة المظلمة كانت هناك كوة ضيقة تطل على صباح ربيعي ممطر ، في تلك الزنانة كان هناك سجينان ينظران من خلال تلك الكوة الضيقة ، نظر الاول نحو الاسفل فلم ير غير الطين والاوhal وعبوس الارض فابتأس ، نظر الثاني نحو الاعلى فرأى السماء زرقاء صافية ندية تطرزها هنا وهناك جزئيات الغيوم القطنية المتقطعة وطيور سنونو وعصافير تمرح في فضاء ضاحك ، فابتسم ابتسامة الأمل البعيد نحو الافق .

وهكذا فعلت بغداد عندما كانت تمر في عهود الجهل والتخلف كانت دائماً تحمل الأمل في احشائها ، كان لديها شيء كبير تحتفظ به لتلده يوما وكان هذا اليوم .. الأمل .. هو يوم السابع عشر - الثلاثين من تموز الخالد ، كان هو تلك السماء الزرقاء الندية التي تطرزها الغيوم القطنية البيضاء المتقطعة وهو نفسه طير السنونو وعصافير الفرح ونسائم الخير والمكاسب العظيمة .

حديث الوجه المشرق

رغم ان الحديث عن التغيير في شكل ومحتوى خارطة بغداد لا يحتاج الى ايضاح شفهي او مدون ، لما للتغيير هذا من شواهد واضحة وملموسة يقرها القريب والبعيد والاعداء قبل الاصدقاء الا اننا لا نستطيع ان نتجاوز فرصة صدور العدد الخاص ببغداد لجلتنا دون ان ندون شيئا اعترى وجه المدينة من ابتسام ومشاهد حضارية ليس على صعيد الشكل والمظهر حسب وانما ايضا في

محاكاة المسيرة الحضارية للثورة لتضفي علامات مضيئة على وجه بغداد في كافة جوانبها. وسنحاول الإشارة الى أبرز نشاطات واعمال امانة العاصمة وبصماتها الحضارية على وجه بغداد .

التصميم الاساسي لبغداد

في عام ١٩٧١ صدر قانون تحت رقم (١٥٦) هذا القانون حمل صفة الالتزام والتقييد بمضامينه ومقترحاته ، انه قانون التصميم الاساسي لمدينة بغداد ويعني مجموعة السياسات الخاصة بتنظيم شكل وتطور المدينة على أسس علمية وفنية وتخطيطية سليمة . ويعتبر هذا التصميم من اهم منجزات الامانة في عهد الثورة باعتباره الاساس الذي من خلاله يعاد النظر في التخطيط العام للمدينة ، وهو ايضا يسهم بجدية واضحة الى الحد من زحف وتوسيع المدينة الذي اخذ يسير بشكل افقي رهيب يكلفه الكثير من النفقات والخدمات والوقت والجهد الذي نحن بحاجة اليها في مشاريع اخرى اكثر أهمية في مسيرة التنمية القومية ، وعلى ضوء نتائج البحث والتحليل التي توصل اليها المهندسون والاستشاريون والتي شملت كافة نواحي الحياة الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسكانية . فيمكن القول ان التصميم الاساسي اصبح دليلا ومرشدا لنمو واعمار مدينتنا الخالدة بغداد حتى عام (٢٠٠٠) ومنظما لكل نشاطاتها لآمد طويل واطارا عاما وشاملا للتطوير والتمدن بحيث يؤمن اعمارا صحيحا للمدينة مع الحفاظ على عناصرها وسماتها الاساسية وتاريخها واثارها وملامحها العمرانية المميزة .

نظام ترقيمي جديد

كانت بغداد قبل الثورة تعتمد نظاما ترقيميا مشوها لا ينسجم وضرورات التطور السريع للمدينة ، لذا بات من الضروري اعتماد أسس سهلة وبسيطة لمعرفة أي موقع أو شارع في المدينة ، فقد وضعت أسس جديدة ومتطورة للتعامل بأرقام مبسطة وثابتة وضعت على خرائط تفصيلية واضحة لكل قطاع ومحلة يضاف الى ذلك محافظته على التسميات التاريخية لآحياء المدينة وشوارعها المهمة . وقسم هذا النظام المدينة الى (٩) قطاعات أربعة منها في جانب الكرخ وخمسة في الرصافة أخذت الاولى أرقاما زوجية والثانية أرقاما فردية واعتبرت الشوارع التي تقع على يسار الشارع الرئيس الذي يخترق القطاع ذات أرقام

الذي حصل في الجوانب الاجتماعية والصحية لأهالي بغداد وأثر ذلك في زيادة السكان .

ولابد لهذه الزيادة في عدد سكان بغداد - لكي تبدو الحياة طبيعية وبدون ارباك - أن ترافقها زيادة أو تطور في كافة مرافق الحياة لذا نجد ان رقعة بغداد زادت بالنسبة لحدود امانة العاصمة حيث شملت قصبة المدائن ايضا التي مساحتها بحدود (٣٣٧٥) كلم^٢ مضافة الى حدودها الاصلية لما قبل الثورة والتي مساحتها (٨٦٥) كلم^٢ ، وإذا ما أضفنا اليها مساحات الارض الممتدة بين حدود بغداد القديمة وحدود قصبة المدائن فسيرتفع عدد الكيلومترات المربعة المضافة الى مساحة العاصمة.

وخلال عمر الثورة انشأت في بغداد عددا كبيرا من المناطق السكنية الحديثة تركز اغلبها في جنوب المدينة مثل حي العامل والسيدية والحي الدبلوماسي وراحت تمتد رقعة السكن باتجاه مطار بغداد الدولي وفي شمال بغداد ايضا اخذت المناطق السكنية تزحف نحو حدود محافظة ديالى ، وحسب احصاءات امانة العاصمة فان المباني للدور الحديثة التي انشأت خلال العشر سنوات الماضية من عمر الثورة بلغت (١٠٢٦٤٨) دارا حديثة ويتجاوز هذا العدد الـ (١٠٣٠٠٠) خلال هذا العام ، كما تشير هذه الاحصاءات ايضا الى أن عدد العمارات المعدة لأغراض السكن والتي انشأها الاهلون بلغت (١٤٤٦) خلال نفس الفترة المذكورة ، ويعتقد انها قد تجاوزت هذا العدد خلال هذا العام . كما أن زيادة عدد أفراد العائلة البغدادية ذات الامكانيات المادية المحدودة حدا بها الى اعادة بناء دورها بشكل يتلائم وروح العصر والزيادة الحاصلة في العائلة فوصل عدد هذه الدور الى ما يقارب (٥٠٠٠) دار . وهناك الكثير من العوائل اضافت مرافق جديدة الى بناء دورها الاصلية حتى بلغت بحدود (١٠٢٥٠٠) دارا ، وشمل الترميم زهاء (٨٣٠٠٠) دارا من قبل اصحابها(١) .

وباعتبار أن امانة العاصمة الجهة الاساسية المسؤولة عن تخطيط المدينة وتوسعاتها وتغيير خارطتها وفقا للتطور الذي أحدثته الثورة في كافة المجالات ، فقد دأبت هذه المؤسسة الخدمية على

(١) هذه الاحصاءات اخذت عن النشرات الاحصائية لقسم الاحصاء في امانة العاصمة خلال السنوات العشر الاولى من عمر الثورة مضافا اليها نسبة تقديرية للفترة اللاحقة .

فيلغ عددها (١٣٧) أبرزها دور الضيافة ومجمع المرور .

هذا وقد قامت الامانة ايضا ببناء (٢٧٠) دارا للايتام والارامل والشهداء .

كازينوهات ومطاعم عصرية

افتقرت بغداد قبل الثورة الى الكثير من اماكن الراحة العصرية لذلك جاء اقدامها على انشاء عدد من المطاعم والكازينوهات الحديثة التي جاءت ولادتها ملازمة جنباً الى جنب مع اقامة المتنزهات والحدائق الكبيرة في العاصمة والتي يبدو انها كانت من ضرورتها . وقد آثرت امانة العاصمة كما يبدو ان تكون لهذه المطاعم والكازينوهات تصاميم حديثة وجميلة وبعضها يحمل التصاميم الاسلامية العربية وهي على درجات مختلفة لتفسح المجال امام جميع المواطنين لارتياحها كل حسب رغبته ومزاجه وقد بلغ عدد هذه الكازينوهات والمطاعم (٥٥) موزعة على متنزهات وكورنيشات العاصمة ومناطقها المختلفة نذكر منها على سبيل المثال مطعم اللؤلؤة والمجمع الاندلسي والبغدادى والياباني في الزوراء والكواكب في المسبح ، والخورنق والسدير في الاعظمية والعالم في ابي نؤاس وتلك المنتشرة على ضفاف قناة الجيش .

الاسواق وعلاوي المخضرات

انشأت مجموعة من الاسواق العصرية والشعبية في مناطق مختلفة من بغداد وبلغ عدد دكاكينها ومخازنها (٢٥٠٦) دكانا ومخزنا وهدفها حصر الباعة المتجولين الذين كانوا يفترشون الارصفة والساحات العامة والتي كانت سلعهم بعيدة عن الرقابة والاشراف الصحي وكما تهدف المؤسسات المسؤولة القضاء على ظاهرة الفوضى والتجاوز التي تسود شوارع العاصمة وساحاتها كما استطاعت بذلك تأمين حاجة المواطنين من السلع والحاجيات اليومية الضرورية ومن جهة اخرى لم يعد من المناسب بقاء امكنة علاوي المخضرات والخضر في قلب المدينة نظرا لما تسببه من زحام وعرقلة لحركة المرور والتنقل لذا فقد خصصت الامانة اماكن معينة ومناسبة تتوفر فيها شروط التنظيم الصحيح والصحي وانشأت (١٠٦) علوة شعبية أبرزها (علاوي جميلة) وعلوة الكاظمية والسيدية وقد روعي في اختيار مواقعها البعد عن مركز العاصمة وقربها من مناطق جمع الخضار والفواكه لتوفر على الفلاحين والبقالين الوقت والجهد ونفقات النقل .

روحية وتلك التي تقع على يمينه تأخذ أرقاما فردية وهكذا يستمر النظام بنفس الطريقة في ترقيم الدور والمحلات والعمارات الاخرى . وقد ألزمت كل الدوائر والمؤسسات ذات العلاقة اعتماد هذا النظام الجديد اساسا في معاملاتها وتعاملها .

عمارات سكنية وتجارية

للمرة الاولى في تاريخ القطر وبعد ثورة ١٧ - ٢٠ تموز الخالدة تبادر امانة العاصمة في تنفيذ عدد من مشاريع السكن للمواطنين اسهاما منها في حل مشكلة السكن التي يعاني منها بعض المواطنين ، فانشأت عددا من العمارات السكنية ذات الطوابق المتعددة والتصاميم الحديثة والمناسبة لسكن العوائل البغدادية المحافظة وقد بلغ عدد هذه العمارات (٣٥) موزعة على مناطق الزعفرانية وشارع حيفا في الكرخ وحي الرياض وحي ٧ نيسان في بغداد الجديدة وعمارة لدوي الكفاءات في منطقة العطيفية واخرى ايضا في جانب الرصافة وتتراوح عدد طوابقها بين ٣ - ٦ طوابق .

كما ساهمت الامانة ايضا بانشاء عدد من العمارات والاسواق التجارية ذات التصاميم الحديثة التي تميزت معظمها بالطابع البغدادى والرياسة الاسلامية . وتفي هذه المشيدات بمتطلبات المواطنين في سد احتياجاتهم . فقد قامت بانشاء اسواق تجارية نذكر منها على سبيل المثال السوق المركزي الكبير في المنصور (السوبرماركت) الذي يضم عددا كبيرا من المرافق التكميلية كمحطة تعبئة بنزين وساحات لوقوف السيارات وحدائق ولعب الاطفال ودار للحضانة المؤقتة للصغار وصالونات لحلاقة الرجال والنساء اضافة الى السوق المجمع الذي يتكون من طابق واحد وطابق ارضي يضم المراكز الرئيسية لمعارض القطاع الاشتراكي ، وبيعاز من الأب المناضل احمد حسن البكر فقد انشأت امانة عددا من الشقق السكنية للمواطنين لتكون الطابق الثاني للمجمع . وهناك اسواق اخرى لا تختلف عنه في الطبيعة ولكنها تختلف في الشكل كالسوق العباسي في الاعظمية والسوق العربي في الشورجة وسوق المدائن الذي يضم مخازن وشقق سكنية ، وهناك سوقا اخرى يجرى العمل على انشائها في منطقة قناة الجيش . يضاف الى ذلك العمارات التجارية التي قامت بانشائها هذه المؤسسة كعمارة الرشيد والمستنصر والغريبي . اما المباني الاخرى التي انشأتها الامانة

مناطق متخصصة

شمال بغداد بجنوبها والذي يمر بمحاذاة السدة الشرقية في الرصافة ويتقاطع مع الطرق الرئيسية التي تعترضه بواسطة جسور معلقة ويلتقي بها بواسطة طرق مساعدة تربط الشارع الرئيس بالشوارع التي تعترضه وفق مسارات وأشكال تخطيطية حديثة .

كما انتهت المسوحات الجيولوجية والطوبوغرافية لمشروع الكورنيش المعلق الذي سيربط الاعظمية بأبي نؤاس وسيقام هذا الكورنيش على اعمدة معلقة داخل نهر دجلة في ضفته اليمنى بطول (٣٢٠٠) كلم ويتكون من ممرين بسعة ٢٣ مترا تتوسطهما جزرة وسطية ورصيفين جانبيين بعرض متر واحد لكل منها وستشيد على الكورنيش عمارتان لوقوف السيارات الاولى في المنطقة المقابلة لشارع السموال والاخرى في منطقة السنك وتستوعب هاتان العمارتان لـ (٢٤٠٠) سيارة .

اما الانفاق فابرزها (نفق التحرير) الذي يربط شارعي الجمهورية بالسعدون والذي خفف من ضغط المركبات على الساحة بحدود ٦٠٪ استنادا الى تخمينات الخبراء يحاط النفق بسوق يحتوي على اكثر من (٤٠) دكانا تؤدي اليه ستة انفاق من كل اتجاهات الساحة مزودة بالسلاسل الكهربائية . اما (نفق الشرطة) فيربط بين الشارع المؤدي الى الكاظمية وذلك المؤدي الى المطار الدولي ويشيد حاليا نفق ثالث في ساحة الطيران وهو اضخم نفق يشيد لحد الآن وسيحتوي على شبكة من الانفاق والجسور للسابلة وللسيارات وسيعمل كثيرا على تخفيف الزحام في ساحة (يونس السبعائي) ، وسيبدأ قريبا العمل في تنفيذ جسر دمشق الذي تنفذه وزارة الاسكان والتعمير وصممه امانة العاصمة وهو بكلفة (٥٦٤٣ر٤٩٣) مليون دينار لمعالجة اختناقات المرور في الساحة والمشروع عبارة عن جسر يربط ساحة حلب بشارع المحطة العالمية بطول (٣٧٥)م وعرض (٢١) مترا ، ذو اربع ممرات للسيارات اضافة الى معاش جانبية وكذلك هناك نفق رئيس يربط ساحة المتحف بساحة الفارس العربي ، اضافة الى ساحة بمستوى الارض تحكم فيها الاشارات الضوئية .

ومن اجل انسيابية السير في الشوارع الرئيسية انشأت امانة العاصمة عددا من انفاق السابلة في شارع المأمون والشورجة والوئبة والسعدون وينفذ في المستقبل القريب نفق في بداية شارع الرشيد باعتباره من اضمادات نفق التحرير

تنفيذا لما اقره التصميم الاساسي للمدينة وعلى سبيل التنظيم المهني للقطاعات الخدمية لانباء بغداد فقد كانت هذه القطاعات مبعثرة هنا وهناك بشكل تسوده الفوضى والانظام تتداخل ضمن المناطق السكنية في الشوارع العامة والازقة مؤثرة بشكل مباشر أو غير مباشر على راحة المواطنين وحركة المرور بالاضافة الى ما تحمله من اضرار صحية وتشويه لمنظر العاصمة . الامر الذي جعل المسؤولين يسارعون الى نقل محلات تصليح السيارات وادامتها الى مناطق محددة لها تؤدي فيها وظائفها بعيدا عن مركز العاصمة . وكذلك شملت هذه الخطة كل المصانع والمعامل الاهلية والمطابع والورش الكبيرة بنقلها الى المناطق الصناعية كم منطقة جميلة والبياع وكسرة وعطش والمنطقة الصناعية في الكاظمية .

ومن جهة اخرى تم ترحيل معارض بيع وشراء السيارات الى مجمعاتها الجديدة في البياع وخلف السدة الشرقية .

طرق معلقة .. انفاق ..

من علامات التحضر والمدينة في عصرنا الراهن هي طرق المواصلات وبقدر ما للانهار من اهمية بالنسبة للدولة ورفيها الزراعي والاقتصادي ، كذلك الطرق فهي احدى عوامل قوة الدولة . اما في المدن فهي علامة من علامات رقي المدينة ، وفي بغداد وخلال عهد الثورة كان لابد من تنفيذ الطرق والشوارع لاستيعاب الاعداد الهائلة من المركبات التي ازدادت بشكل متوازٍ مع ارتفاع المستوى المعاشي للمواطنين اضافة الى ما يقع ضمن مؤسسات القطاع الاشتراكي من هذه المركبات .

وعليه فكان لزاما على الدوائر المختصة وعلى راسها امانة العاصمة ان تقوم بشق عدد كبير من الطرق والانفاق والجسور وتقوم بتحويل الساحات وتطبق نظام الاشارات الضوئية (الترافكلايت) من اجل تسهيل حركة المرور وانسيابيتها في الشوارع وكذلك لمعالجة الاختناقات المرورية في بعض مراكز المدينة . فقامت بتبليط (١٥٠٠٠٠ر١٥٠٠٠) مليون متر مربع من الشوارع اهمها شارع حيفا وشارع الزيتون وشارع مستشفى اليرموك في الكرخ وشوارع الثورة وسواها من المناطق الكثيرة الاخرى كما بدأت بتنفيذ مشروع طريق المرور السريع الذي يربط

وللغرض نفسه أنشأت أيضاً جسوراً لعبور السابلة كجسر الجامعة المستنصرية وساحة المتحف وشارع دمشق ومستشفى اليرموك .

جسور على دجلة

ضمن التصميم الاساسي لبغداد فانه يجب ان يصل عدد الجسور فيها حتى عام (٢٠٠٠) ، (١٣) جسراً لمواجهة ضغط المركبات وتوقفا للاختناقات المرورية ، فانشئ (جسر المثنى بن حارثة الشيباني) شمالي بغداد ، افتتح في ١٥ آب ١٩٧٩ ، وكذلك (جسر الدورة) الذي يجري العمل فيه حالياً ، كما سيبدأ بتنفيذ (٢١) جسراً لمرور السيارات والسابلة على قناة الجيش في نهاية العام الحالي بهدف تسهيل حركة المرور عبر القناة بما يتلائم والحركة المتوقعة بعد افتتاح جسر المثنى والدورة .

وسيتيم في المستقبل القريب (جسر الاعظمية المعلق) بطول (٤٠٠) م وعرض (٣٠) متراً وبمقتربات طولها (٥٧٠) متراً ، كما انجزت تصاميم (جسر السنك) بطول (٢٧٦) متراً وعرض (٣١٥) متراً وبمقتربات (٢٥) متراً ويهدف الى تخفيف ضغط المركبات على جسر الاحرار والجمهورية ، وسيشهد العام المقبل المباشرة بانشاء (جسر الجادرية) في بغداد بطول (١٥٠٠) على النهر وبمقتربات (٢٥٠٠) متراً ويمتد على جزيرة ام الخنازير السياحية ويحتوي على (٦) ممرات ثلاثة منها للذهاب والاخرى للاياب بهدف ربط المنطقة الممتدة من ساحة جامعة بغداد حتى طريق بغداد - حلة عند نقطة السيدة وبمستوى على ممرات نزول الى جزيرة ام الخنازير دون استعمال أي طريقة مائية .

اشارات مرور متطورة

وفقاً لمتطلبات العصر بادرت امانة العاصمة بتنفيذ مشروع تحويل الساحات ونصب اضوية المرور الالكترونية ، يشمل هذا المشروع تقليص بعض الساحات وتغيير مقتربات لاستيعاب اكبر عدد ممكن من المركبات يراعى في ذلك الحفاظ على جمالية المدينة ونصبها وتمثيلها فشمّل هذا المشروع (٣٤) ساحة نذكر منها ساحات الوثبة وزبيدة وباب المظم والجمهورية والمنصور والفارس العربي والفتح وغيرها كما استحدث مبدا نظام الاتجاه الواحد للمرور في الشوارع الرئيسية الذي شمل شوارع الكفاح والرشيد وحيفا والنصر في

الكرخ وجمال عبدالناصر وجسري الشهداء والاحرار وبعض الشوارع العمودية وقد شملت معظم الساحات والتقاطعات بنصب اضوية المرور المتطورة وباشكال وحجوم مختلفة رئيسية وثانوية وصغيرة داخل تلك الساحات والتقاطعات بالإضافة الى الاشارات الضوئية لمناطق عبور المشاة ترتبط هذه الاشارات بمحطة سيطرة مركزية لتوجيه هذه الشبكة الضوئية مركزياً ، كما شمل المشروع أيضاً نصب العلامات المرورية وفق مقاييس دولية اضافة الى تخطيط التقاطعات بالاشارة البلاستيكية التي تستعمل لأول مرة في القطر .

هدم من اجل البناء

وضعت تصاميم تفصيلية حديثة لمنطقتي الكرخ والسنك في الرصافة بما يكفل اظهارهما بشكل يقضي على الفوضى في التخطيط وضمن مساحات معينة باعتبار ان هاتين المنطقتين تمثلان قلب المركز . وان وصفهما بشكل عصري يتلائم وتطور الحركة العمرانية التي تحيط بهما أو ملح جداً ..

نهر الخير

نهر الخير كان فيما مضى واحداً من شبكة اروائية تحيط ببغداد في جانبها الغربي ، وقد اختفى بمرور الزمن ولم يعد الا مستنقعا لمياه آسنة تحمل الامراض الفاتكة للمناطق السكنية المحاذية له ، ولكن بعد ثورة ١٧-٣٠ من تموز العظيمة وضعت امانة العاصمة كل ثقلها لحيائه والاستفادة منه اقتصادياً وسياحياً وفعلما فقد عاد من جديد قناة تخترق الجانب الغربي من بغداد تحيط به المنتزهات ، يبلغ طوله (١٩) كلم ، يأخذ مائه العذب من دجلة شمال الكاظمية بواسطة مكائن ضخمة ويمر بمناطق كثيرة كالدولمي ويكون بحيرة سعتها (٦٠) ألف م^٢ عند حي العدل ويقطع حي المعري فالمنصور ويصب في دجلة أيضاً عند منطقة القادسية ، يتلوى قاطعاً (١٩) جسراً لعبور السيارات والسابلة وبذلك يتم احياء اكبر مشروع اروائي تاريخي لبغداد .

خدمات ليس لها حدود

قد يكون من قبيل (الحكيم) حين تقول « لا قيمة لشارع بدون مجار » لذلك ولكل ذكرى المعاناة التي لم ينج منها مواطن في بغداد عند الشتاء في العهود الماضية ، نجد ان شبكات المجاري راحت

كما تم إنشاء (٣) مجازر عصرية أوتوماتيكية داخل بغداد في منطقة الكاظمية والكرخ والشيخ عمر ، يتم فيها نحر المواشي على الطريقة الاسلامية بعد فحصها من قبل اطباء بيطريين للتأكد من سلامتها من الامراض ، ثم توزع على الاسواق بواسطة سيارات مكيفة استقدمت لهذا الغرض ، وتم ايضا انشاء حضائر خاصة لتجمع المواشي بجوار هذه المجازر وبذلك يقضى على الاساليب غير الانسانية في نحر المواشي .

ومن الخدمات الانسانية الاخرى التي شهدتها بغداد في عهد الثورة هي اقامة اربع مقابر حديثة يسودها التنظيم في دفن الموتى بما يتناسب وقيمة الانسان وهذه المقابر تقع في اطراف بغداد على طريق ابي غريب وعلى طريق سامراء ومقبرة السيد محمد السكران على طريق بعقوبة الجديد واخرى على طريق بعقوبة القديم تتوفر في هذه المقابر كل الشروط الصحية والمفاسل والمساجد ذات هبة كبيرة لاداء الطقوس التي ترافق دفن الموتى وتتخلل هذه المقابر الحدائق والاشجار والطرق المعبدة والمرافق الضرورية الاخرى .

ومن مرافق الخدمات الضرورية الاخرى هي انشاء عمارات متعددة الطوابق لوقوف السيارات وكانت عمارة السنك هي التجربة وتكون من ستة طوابق تستوعب لـ (٦٣٦) سيارة وطابقها الارضيخصص كمخازن ومحلات تجارية و (ورشة) للفصل والتشحيم وصيانة العتوب البسيطة في السيارات . وسيتم تنفيذ عمارتين لهذا الغرض في المستقبل القريب الاولى قرب جسر الجمهورية والثانية في ساحة الامين واخرى في بداية شارع الجمهورية .

مساح للصيف

بالاضافة للمسبح القديم الذي تأسس عام ١٩٤٦ انشيء مسبح اولمبي في متنزه الزوراء وهو مسبح كبير يحتوي أيضا على حوضين احدهما للاولاد والاخر للاطفال وهو ذو قياسات اولمبية لاقامة السباقات فيه والى جانبه مسبح بلاستيكي يجري العمل على اصلاحه الآن بالاضافة الى العمل حاليا في انشاء مسبحين قياسييين احدهما في مدينة الضباط والاخر قرب الجامعة المستنصرية وهما من ضمن عدد من المساح سيصار الى انشائها مستقبلا ، هذا بالاضافة الى انشاء المساح داخل

تحتبىء داخل الارض لامتناس ما يقع على الشوارع من مياه الامطار وقد وضعت الخطط لاقامة شبكات مجاري للشوارع الرئيسية والفروعية والمناطق السكنية وقبل المباشرة بتبليط اي شبكة شوارع . . وقد خصت المنطقة المركزية ببغداد جميعها تقريبا سواء كان ذلك في الكرخ او الرصافة بشبكة مجاري ، وقد انشأت من اجل هذه الاعمال الشركة العامة لمقاولات مشاريع المجاري والماء التي قامت بمشاريع كبيرة اهمها مشروع ربط مجاري مياه المناطق السكنية في بغداد الجديدة بالمجرى الرئيسي وقيامها ايضا بانشاء خطوط واسعة للمجاري في بعض انحاء العاصمة لاستيعاب افرازات دور السكن والمعامل وغيرها .

وهناك مشروعان كبيران للمجاري بدأ الاول بتنفيذه في مدينة الثورة بكلفة (٣٠) مليون دينار لانشاء شبكة مجاري وتبليط الطرق الرئيسية في مدينة الثورة (٢) ، كما وقعت امانة العاصمة مؤخرًا عقدا مع احدى الشركات العالمية لتنفيذ مجريين رئيسيين لمياه الامطار في بغداد بكلفة (١٦) مليون دينار في الكرخ والرصافة . بالاضافة الى بدء المباشرة بمشروع مجاري جانب الكرخ بكلفة مليون دينار وتقوم بتنفيذه الشركة العامة للمقاولات .

الماء والمجاري

ومن الخدمات التي تطورت في عهد الثورة هي خدمات التنظيف فقد تخطت الطرق المتخلفة القديمة في تنظيف الشوارع والازقة بواسطة سيارات حديثة كابسة للنفايات واخرى لفصل الشوارع بصورة أوتوماتيكية ، كما استحدثت طريقة تمميم استخدام اكياس النايلون في جمع النفايات من الدور والمحلات العامة التي تأخذها سيارات جمع النفايات الى معمل الاسمدة العضوية على بعد كيلومتر واحد من شمال غربي مدينة الثورة . وهو معمل واسع اقيم لاستقبال النفايات من مناطق العاصمة وتحويلها الى أسمدة عضوية صالحة كسماد للمزارع والحدائق والبساتين ويؤمل أن ينصب معمل آخر على غرارها في منطقة الكرخ .

(٢) يتكون المشروع من ثلاثة اجزاء الاول : شبكة مجاري بطول (١٢٥) كلم وباقطار من (٢٥ - ٨٠) سم . الثاني : انشاء المجرى الرئيسي بطول (١٦) كلم من الكونكريت المبطن بالصفايح البلاستيكية اقطاره بين (١٨٠ - ٢٠٠) سم ، الثالث : انشاء (١٥) مضخة .

القومية ، مبنى وزارة الخارجية ، مبنى مجلس الوزراء ، ومبنى دار الثورة ومشروع قاعة الألعاب المغلقة في المدينة الرياضية . وكلها مباني ضخمة وذات تصاميم ومواصفات متطورة جدا .

قصر المؤتمرات

على مساحة (٦٥) ألف متر مربع وفي المنطقة الواقعة بين ساحة عمان وساحة حلب س يرتفع شامخا في احتفالات الثورة لعام ١٩٨١ بناية تعتبر من اضخم المباني في الشرق تصميما وعمرانا هي بناية « قصر المؤتمرات » وسيستقبل هذا القصر الكبير ملوك ورؤساء المؤتمر السابع لدول عدم الانحياز عام ١٩٨٢ .

بدا العمل في هذا المشروع الكبير في تموز عام ١٩٧٨ وسيحتوي على قاعة رئيسية تسع لـ (١٦٠٠) شخص في حالة الجلوس كأعضاء مشاركين في مؤتمر واكثر من (٢٠٠٠) شخص في حالة الجلوس بشكل قاعة للمحاضرات أو الاحتفالات . بالإضافة الى عدد من القاعات الثانوية التي تستخدم كقاعات للمحاضرات والمناقشة وكذلك قاعة للمؤتمرات الصحفية وقاعة صغيرة لمراقبة البرامج التلفزيونية بالملفات المتعددة .

كما يضم المبنى اجهزة (تليكس) اذاعية وتلفزيونية بقنوات متعددة داخلية وعبر الاقمار الصناعية . كما يحتوي على مطبعة ومكاتب سكرتارية وفروع للمصارف والسياحة والخدمات . وسيربط طرفي الشارع نفق داخلي ، وفتح شارع بين ساحة عمان والساحة المجاورة لمبنى اتحاد نقابات العمال للحد من اختناقات المرور انشاء انعقاد المؤتمرات ، وقد اعتمد المشروع الذي تزيد كلفته على (٣٠) مليون دينار في تصاميمه على طرز الهندسة العربية والاسلامية والسومرية العريقة ، وسيكون احدي العلامات العمرانية المميزة لبغداد الثورة (٢) .

المطار الكبير

في الاول من آب الماضي وضع النائب الاول لرئيس الوزراء السيد طه ياسين رمضان حجر الاساس لأكبر مطار دولي في العراق بـ (٢٤٥) مليون دينار .

مراكز الشباب ، ومساح شعبية في حوض قناة الجيش غلفت بالأجر لخدمة اولاد المناطق السكنية الواقعة على القناة .

مشاريع سكنية وعمرانية كبيرة

بموجب قانون خاص انشأت الثورة المؤسسة العامة للاسكان ، كما اصدر مجلس قيادة الثورة في اواخر شباط ١٩٧٩ خمسة قرارات مهمة تستهدف حل ازمة السكن بقصد دفع وتعزيز وتنظيم قرارات وامكانات الاجهزة المعنية بتقديم الخدمات السكنية في وزارة الاسكان والتعمير والمؤسسة العامة للاسكان والمصرف العقاري والاتحاد التعاوني الاسكاني فيما تتولى وزارتي التخطيط والمالية تخصيص المبالغ ، واكدت القيادة مرارا على ضرورة متابعة مشاريع الاسكان حقليا .

مشروع الثورة الاسكاني : تتم التهيئة حاليا في هذا الموقع على مساحة (١٢٨) دونم لاقامة (١٠٠٠) شقة عليه وكذلك بناء (٣) مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية وروضتين للاطفال وداري حضانة وبريد ومركز طبي وآخر للشباب اضافة للمرافق الحيوية الاخرى .

ويتواصل العمل بانجاز (٣٠٠٠) شقة سكنية في منطقتي السيدة وزبونة وبناء (١٤٥٠) شقة في الدورة ، كما سيتم انشاء المجمع السكني في كرادة مريم بـ (٣٤٢٠٠٠٠) مليون دينار وعلى مساحة (٢٥٨٨١٢) م^٢ ويحتوي على (٢٤) عمارة تضم (٢٣٠٠) وحدة سكنية ، اضافة الى (٤) مدارس ثانوية ومتوسطة وابتدائية مع مركزين طبي وشبابي ورياض للاطفال وملاعب رياضية ومسبحين ومركز اجتماعي واسواق ومحلات تجارية .

وفي منطقة الدورة ينفذ مشروع سكني لبناء (١٤٤٨) وحدة سكنية تحتوي على (٣٤٠٠) شقة سكنية بـ (١٠٠٠٠٠٠) مليون دينار وعلى مساحة (٩٦) هكتار . يضاف الى ذلك بناء (٣٨٢٣) دارا جاهزة و (٣٠٠) دارا للعمال في السيدة ، وتجري حاليا المسوحات لمشروع انشاء (٢٠٠٠) وحدة سكنية قرب محطة شرقي بغداد .

ومن معالم العمران في المدينة الذي تقوم به المؤسسة العامة للاسكان : مبنى القيادة

(٢) عن مجلة وعي العمال العدد ٥٢٥ ٤ آب ١٩٧٩ .

مليون دينار وسيكون بإمكان هذا المطار الذي سيواكب التوسعات المستقبلية حتى عام (٢٠٠٠) استقبال (٩) ملايين مسافر في العام . وسيضم هذا المطار الذي قامت بتصميمه المؤسسة العامة للطرق والجسور بالتعاون مع بعض الخبراء العالميين (١٨) موقفا للطائرات ترتبط بأبنية المسافرين وأربعة مواقف احتياطية للاستعمالات الضرورية وقاعة للشرف ، وجناحا خاصا للسيد الرئيس وآخر خاص للاجتماعات القصيرة للسادة الرؤساء وقاعة كبار المسؤولين .

كما تشتمل منشآت المطار الجديد على بناية للاتصالات للمراقبة وبناية للشحن الجوي والملاحاة وطرق مؤدية الى اماكن الصيانة وساحة لخدمة الطائرات .

اما المنشآت الأخرى فتضم مطعما يسع ل (٥) آلاف مسافر يوميا وابنية للبضائع ومركزا لاطفاء الحريق ومحطة لوقود الطائرات ، وبناية لوقوف السيارات بثلاث طوابق تتسع ل (٣٠٠٠) سيارة . ويؤمل انجاز هذا المشروع الكبير في نهاية عام ١٩٨١ (٤) .

اوقاف للبناء والاعمار

صارت الاوقاف في عهد الثورة مؤسسة للبناء والاعمار ، متجاوزة بذلك وظائفها التقليدية بعد ان دعمتها الثورة بكل الوسائل فساهمت بتطور الجانب العمراني في بغداد الى حد كبير وكذلك في حل ازمة السكن وتتلخص نشاطاتها في هذا الجانب بما يلي :

١ - مشروع مدينة الاوقاف في السبع ابكاري يتألف في مرحلته الاولى من (١٠) عمارات تحتوي على (٢٤٠) شقة ، وتتألف المرحلة الثانية من (٧) عمارات تحتوي على (٨٤) شقة ويشمل المجمع بناء المدارس ورياض الاطفال ودور الحضانه والاسواق .

٢ - عمارة العلوية الثالثة بارتفاع (١٤) طابق الى جانبها عمارة من (٨) طوابق مع المرافق

(٤) من جريدة الثورة الصادرة يوم ١٩٧٩/٧/٢٦ ، كتاب الثقافة والفنون في عهد الثورة ، صادر عن وزارة الثقافة والفنون .

الخدمية الضرورية .. وتقع في منطقة العلوية .

٣ - عمارة سكنية من (١٤) طابق في منطقة العلوية ايضا .

٤ - عمارة المنصور في المنصور وتتكون من (٨) طوابق .

٥ - عمارة هيبب خاتون السكنية في الاعظمية تتألف من (٤) طوابق .

٦ - عمارتي العلوية الاولى والثانية في العلوية .

٧ - عمارات الخيرات وهو اضخم مجمع عمراني تقوم به الاوقاف في شارع السعدون .

٨ - عمارة المديرية العامة للتخطيط والانشاء التابعة للاوقاف وتتألف من (٥) طوابق .

٩ - مجمع سكني للوزارة يتألف من (١٠) طوابق على شارع الامام الاعظم في دور الاعلان .

١٠ - عمارة نائلة خاتون في منطقة الحيدرخانة (٦) طوابق .

١١ - عمارة وقف الطبجلي وتتألف من (٥) طوابق في الحيدرخانة .

١٢ - عمارة وقف الشيخ قادر في شارع الرشيد تتألف من (٦) طوابق .

١٣ - عمارتي البر واحسان مقابل المركز المدني وساحة النافورة .

١٤ - العمارة البغدادية في دور التصميم والاعداد وستقام في منطقة الجندي المجهول .

١٥ - بناية ذات طابقين في الكاظمية لاستقبال حجاج بيت الله الحرام الوافدين من الاقطار المجاورة .

ان هذه النشاطات تضاف الى واجبات الوزارة الاصلية في بناء وصيانة المساجد الدينية .

اعمار اجتماعي

على المستوى المهني والاجتماعي فقد ولدت بعد ثورة ١٧ - ٣٠ تموز الكثير من المؤسسات لتاهيل العمال وتدريبهم ومكاتب التشغيل ومعاهد اجتماعية لخدمة بعض الشرائح الاجتماعية من المواطنين ذوي العاهات وغيرهم وفيما يلي جدول يبين نوع وعدد هذه المؤسسات :

اسم المؤسسة	عددها قبل الثورة	بعد الثورة
١ - مكاتب التشغيل	٢	٢٢
٢ - مراكز التدريب المهني	-	٤
٣ - مراكز التأهيل المهني والورش الحمية	-	٤
٤ - مؤسسات العمل الصحية	-	٦
٥ - دور حضانة واجنحة ملحقة بالمراكز الاجتماعية	١	٥٠
٦ - المراكز الاجتماعية	٨	٣١
٧ - دور رعاية المسنين والمقعدين	٤	٩
٨ - دور رعاية الاحداث والبنات	١٠	٢٣
٩ - معاهد الصم والبكم والمتخلفين عقليا	-	٨
١٠ - معاهد المكفوفين	١	٤
١١ - رياض الاطفال	-	٤

- ٤ - انشاء سكن للعمال في بغداد .
٥ - انشاء سكن للفلسطينيين .
٦ - انشاء مستشفيات ومراكز طبية للعمال .
٧ - تطوير السجون والاصلاحيات .
٨ - انشاء دور لرعاية البنات .
٩ - انشاء فنادق عمالية ودور سياحية ونوادي ومكتبات للعمال .

شواهد الثورة الفنية على وجه بغداد

انتشر في شوارع ومنتزهات العاصمة عدد من الانصاب والتمائيل تخلد مشاهير رجالات العلم والادب والفن والسياسة بلغ عددها (٥٠) نصبا وتمثالا (كالرصافي) و (الكاظمي) و (ابو نؤاس) و (الفسارابي) و (الواسطي) و (شهريار) و (ابي جعفر المنصور) والنصب الكبير (مسيرة الحزب ..) و (جدارية التأميم) اللذين يجسدان بطولة الحزب والثورة (٥) . وانتشرت في ساحات وحدائق ومنتزهات بغداد نافورات ملونة زاد عددها على المائة موزعة على (٥٠) موقعا . كما تخللت معظم الساحات والحدائق اكثر من (٢٠) ساعة مختلفة الاشكال والتصاميم والابرار فمنها الجدارية والبرجية وساعات الزهور .

كما شهدت بغداد خلال عهد الثورة الزاهر عددا من المؤتمرات والاحتفالات والمعارض الفنية

كما قامت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية خلال عهد الثورة بانشاء (٨١٧) دارا اضافة الى (٤٠) عمارة كل منها يحتوي على (١٢) شقة ، كما انشأت (١٣) عمارة يحتوي كل منها على (٤٨) شقة . وهناك قيد الانشاء (٣) عمارات سكنية ، اما عدد الدور التي شيدت والتي تحت الانشاء فيبلغ (١٣٠) دارا .

وتضع المؤسسات الاجتماعية في تصوراتها عن الافاق الحالية والمستقبلية لبرامج عمل مؤسساتها على الصعيدين الاجتماعي والعمالي على المؤشرات الاساسية للسياسة الاجتماعية التي حددها التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن للحزب اطارها المرحلي كي تتمكن من اداء دورها على نحو يتناسب مع مسيرة التحولات ، ولا شك ان الحاجة ستتعاظم مستقبلا الى بعض النشاطات الخدمية المعينة كدور الحضانة وذلك بسبب اتساع ممارسة المرأة لنشاطات خارج المنزل . ولا ينس دور مراكز التنمية الاجتماعية المهم في عملية التغيير بسبب تعدد وظائفها وتنوع ادوارها . كما تجري تنفيذ مشاريع الرعاية الاجتماعية في اطار مؤسسات متخصصة .

ان مؤشرات التطور المستقبلي للمشاريع التنموية تعكس اهتمام الثورة بالحاجات المتعاظمة لعملية تغيير البناء الاجتماعي والاقتصادي وانعكاس ذلك على السلوك الانساني ومن هذه المؤشرات :

- ١ - انشاء دور الحضانة ومستلزماتها .
- ٢ - انشاء مراكز التنمية الاجتماعية .
- ٣ - انشاء ابنية للمعوقين .

(٥) وتم لافراض صناعة التماثيل انشاء مصهر البرونز التابع لامانة العاصمة . اضافة الى تاليف لجنة وطنية من كبار المسؤولين المتخصصين بالثقافة والفنون لاختيار النصب والتمائيل وتحديد اماكنها في القطر .

معركة القادسية التي انتصر فيها العرب على الفرس وهي عبارة عن مشاهد منظورة هي اقرب الى الواقع - لدى مشاهديها - الى الخيال وسينتهي العمل فيها قريبا وهي من مشاريع امانة العاصمة السياحية .

المتنزهات والحدائق : ظلت بغداد تعاني من شحة الحدائق والمتنزهات وظل مواطنها يحلم بحديقة او متنزه يقضي فيه وقت فراغه ويشم نسائتها مع عائلته ، وبقيت اغلب المناطق الشعبية تغلف نفسها بغلاف الحركة الآلية المتكررة بعيدة عن التغير وبقيت عيون ساكنيها لا تصطدم الا بجدران عتيقة وازقة ضيقة ونفس ثقيل فقد كانت كل المساحات المزروعة في بغداد قبل الثورة هي (٢٥) الف متر مربع ، الا انها وصلت بعد قيام ثورة ١٧ - ٣٠ تموز المجيدة الى (١٤٥٢٨٧٩٠) مليون ٢م موزعة على (٥٩١) متنزها وحديقة ابرزها متنزه الزوراء وحدائق قناة الجيش وبحيرة الثورة وابي نؤاس والمسبح . وينتشر فيها عشرات الاكشاك لبيع الاطعمة الجاهزة والمربطات ، وكذلك ينتشر على ضفاف النهر (٢٠) كشكا لبيع السمك المسقوف .

متنزه الزوراء : او ما يطلق عليه المدينة الخضراء والذي يضم على كل ما يصبو اليه المرء من وسائل الراحة واللهو البريء ، فهو مدينة سياحية قائمة يقع ضمن مساحته (١٢٠٠) دونم في جانب الكرخ نظمت خارطته بشكل جميل وفريد تتوزع على جوانب شوارعه وممراته الكثير من وسائل الراحة فهنا وهناك تنتشر الحدائق وملاعب الاطفال والمتاحف كمتحف السيارات والعربات الملكية ومتحف التاريخ الطبيعي وابراج الطيور والشلالات والبحيرات ذات السحر اللذيذ التي تطفو على مسطحاتها زهور اللوتس ، وناحور يرقد على ضفاف احدها لرسم مشهدا من اعالي الفرات وعلى قبائله نصبت خيمة الشعر الواسعة تعيد للزائر حلم الصحراء العربية وعلى بعد غير قليل ارتفعت الجنائن المعلقة بتشكيلها الجميل تطل على المسلة والاسود البابلية وشارع الموكب والى مسافة غير بعيدة يرتقي مصباح علاء الدين وحدائق الابراج والتمائيل ومن جهة اخرى يرتفع برج الزوراء مظلا على حديقة الحيوانات التي ضمت عشرات الانواع من الحيوانات يتمتع برؤيتها الكبار والصغار ، وفي مدينة العباب الزوراء ترفرف ضحكات الفرح . ويضم المتنزه مسرحا وسينما صيفيان وانصاب وتمائيل وساعات والمسبح

عكست الوجه الحقيقي لنشاطات الثورة ومكاسيها وجسدت مبدا الفن في خدمة الثورة ويمكن تلخيصها بما يلي :

- (١) ١٩٧٤ اقيم معرض السنتين العربي الاول في بغداد .
- (٢) ١٩٧٤ انشأت فرقة التراث الموسيقي للمقام والبستات في بغداد .
- (٣) ١٩٧٤ انعقاد المؤتمر الرابع للمجمع العربي الموسيقي في بغداد .
- (٤) ١٩٧٥ انعقاد المؤتمر الدولي الثاني للموسيقى في بغداد .
- (٥) ١٩٧٥ بدأت احتفالات القطر باليوم العالمي للموسيقى واصبح تقليدا فنيا جميلا .
- (٦) ١٩٧٦ انعقاد الاجتماع (٣٣) للهيئة التنفيذية لرابطة الفنون الدولية التشكيلية في بغداد .
- (٧) اقامة معارض الحزب السنوية بمناسبة ذكرى احتفالات القطر في السابع من نيسان من كل عام .
- (٨) ١٩٦٨ تشكيل الفرقة القومية للتمثيل في بغداد .
- (٩) ١٩٧١ تشكيل فرقة الفنون الشعبية في بغداد .
- (١٠) اقامة مسرح الاطفال والاهتمام بكتابة نصوص مسرح الطفل .
- (١١) انشاء داري سينما للاطفال في الاعظمية وابي نؤاس .
- (١٢) انشاء المسرح الجوال .
- (١٣) تكوين اكثر من (٢٠) فرقة مسرحية للشباب .

مشاهد العصر السياحية ببغداد

لم تغفل القيادة دور السياحة في استقطاب السواح والوافدين وما تحققة من سمعة دولية للقطر ، فكانت رعايتها غير المحدودة ودعمها المتواصل لهذا الجانب ايا كانت الجهة المنفذة له وبخاصة المؤسسة العامة للسياحة . وفيما يلي اهم المرافق التي ولدت مع الثورة :

البنوراما : مشروع سياحي يقع على بعد (٧٥٠) مترا من طاق كسرى ويعتبر الاول من نوعه في الشرق الاوسط والرابع في العالم ، يحكي قصة

الشرقي مع تكملة الحلية المزخرفة التي تعلو موضع
الاطار الكتابي وجرت عملية تخفيض مستوى
الارض المحيطة بالمدرسة الى عمق مترين لتكون
بمستوى الارض الاصليّة . ثم جرى تبليطها
وتصريف المياه المتجمعة وما تزال اعمال الصيانة
مستمرة في هذه المدرسة .

(٦) القصر العباسي : شملت الصيانة الاثارية
معظم اقسام هذا القصر التاريخي وتم صيانة واعادة
بناء مدخل القصر المطل على دجلة وفق تصميم
خاص واستنادا الى بقايا المعالم الاثارية المستظهرة
وبالاسترشاد بمعالم بوابة المدرسة المستنصرية .
وقد تم تشييد بوابة بارتفاع (١٣٨٠) م
واعادة بناء الواجهات الداخلية المطلة على صحن
القصر وكذلك جميع المرافق الداخلية منه واعادة
تركيب الزخارف .

(٧) خان مرجان : استطاعت الآثار انقاذ هذا
البناء التاريخي من خطر السقوط بفعل تسر المياه
الجوفية الى هذا البناء الفريد والذي يمثل طرازاً
معمارياً خاصاً وهو من بقايا ابنية القرن الثامن
الهجري يتألف من طابقين من الغرف حول بهو كبير
مسند باقواس واقبية وشملت اعمال الانتقاذ
والصيانة جميع القاعات والمرافق والواجهة
الخارجية والبوابة الرئيسية .

(٨) منارة سوق الفول : انجزت صيانة
القاعدة في هذه المئذنة وهي فريدة في تصميم بنائها
وتعود الى جامع القصر او مسجد دار الخلافة الذي
شيده الخليفة العباسي المكتفي بالله (٢٨٩ -
٢٩٥هـ) اما المئذنة نفسها فيعود تاريخها الى عام
٦٧٨هـ وشملت اعمال الصيانة في هذه المئذنة
اكمال الزخارف الاجرية واعادتها الى شكلها
الاصلي .

(١٠) الباب الوسطاني : وهو الباب الوحيد
المتبقي من ابواب بغداد القديمة ، تواصل الهيئات
الاثارية من صيانتته وترميمه وصيانة برج البوابة
وبناء العقود بعد ازالة الاجزاء المتصدعة ، والاعمال
تجري على اعادة القنطرة وبناء جدران السور
الخارجي المحيط بالخندق لاعمارة هذا الموقع وابرار
معالمه .

(١١) مرقد الست زبيدة : وهو مرقد زمرد
خاتون تمت صيانة الاجزاء المتهرئة من المقرنصات
الداخلية والزخارف الاجرية في واجهة القبة وتم
صيانة المدخل الرئيس للمرقد وتسيجه وانارته
باساليب فنية .

الاولمبي والمعارض وقطار الزوراء والمضارب العربية
والاكشاك واجهزة التلفزيون الملون ، وعدد كبير من
المطاعم والكازينوهات السياحية . هذا وتنظم الى
هذا المتنزه السفرات من جميع المحافظات وتقام
فيه الحفلات والمعارض الفنية والنوعية
المتخصصة .

معارض الزهور

وقد اتبعت الجهات ذات الاختصاص في امانة
العاصمة تقليداً جديلاً منذ عدة سنوات على اقامة
معارض ربيعية وخريفية للزهور تكون بمثابة
تظاهرات جميلة تتخللها الفعاليات الخفيفة كاختيار
ملكة جمال الزهور واجمل سلة زهور تصنعها
الايدي الناعمة ، كما يستعرض اطفال بعض الرياض
خلال هذه المهرجانات البسيطة بعض اناشيدهم
الناعمة للحب وللوطن وللزهور وللناس .

الآثار السياحية

تعتبر المواقع الاثرية والتاريخية في بغداد من
اهم عوامل جذب السواح بالاضافة الى انها تمثل
علامات تاريخية مميزة لطابع المدينة ، ومن اهم
الاكتشافات وصيانة المواقع الاثرية ما يلي :

(١) المدائن : عثر خلال التنقيبات على ابنية
تعود الى العهود العربية الاسلامية ، كما شملت
اعمال التحري الجناح الشمالي فابرزت الواجهة
المتساقطة ، وقامت مؤسسة الآثار بصيانة الايوان
وتروم اعادة بنائه القديم .

(٢) موقع عقرقوف : (مدينة دور كاريكالزو)
على بعد (٣٠) كلم الى الغرب من بغداد ، كانت
عاصمة الكيشيين منذ القرن (١٥ - ١٢ ق. م) وقد
اكمل الجدار الخارجي للزقورة .

(٣) تل حرميل : يقع في بغداد الجديدة ،
ما زالت البعثات الاثرية تحاول حماية الآثار
الموجودة هناك خوفاً عليها من زحف الطفيلان
المعماري الحديث الذي اخذ يهددها .

(٤) منطقة تل ابو صخير : ما زالت البعثات
الاثارية تزاوّل اعمال التنقيب وقد كشفت عن
منشآت اسلامية مهمة تعود الى العهود الاسلامية .

(٥) المدرسة المستنصرية : بقرار من مجلس
قيادة الثورة تحت رقم (١١٥) في ١٩٧٣/٢/١
حولت ملكيتها الى الآثار مع جميع الابنية المضافة
في واجهتها ، وقد تم قيام الهيئات الفنية بصيانة
الواجهة ، كما انجزت صيانة الضلع الجنوبي

المتاحف الجديدة

(١) قاعة المسكوكات في المتحف العراقي : اضيفت الى قاعات العرض في المتحف العراقي ، ضمت مجاميع نفيسة ونادرة من المسكوكات الاسلامية والعربية يبلغ عددها (١٥٩٣) نقدا منها (٤٣٦) ذهبا و (١٠٩١) فضة والباقي نحاسا افتتحت في العيد الاول للثورة .

(٢) متحف حزب البعث العربي الاشتراكي : انشيء في بيت الاب المناضل احمد حسن البكر الذي تبرع به سيادته ليكون متحفا للحزب يضم تراث الحزب اثناء النضال السلمي مع نماذج من آلات وادبيات الحزب وصور شهدائه ومكتبة الاب المناضل وشهاداته .

(٣) متحف الازياء : انشيء في بناية الكمرك القديم وهي ذات طراز معماري بغدادى اصيل تم ترميمها وتطويرها ، عرضت في قاعاته نماذج من الازياء والمآثورات الشعبية .

(٤) متحف المدائن : اقيم في المدائن يضم نماذج مختلفة من الاثار المكتشفة في المنطقة .

(٥) متحفان للتاريخ الطبيعي : احدهما يتبع لجامعة بغداد يضم نماذج ومشاهد لبعض الاحياء المنقرضة والمحنطة وهياكل متنوعة . والاخر تابع لامانة العاصمة في متنزه الزوراء يضم بعض الحيوانات والطيور المحنطة عرضت بشكل يلائم موقع المتحف .

(٤) المتحف الطبيعي : تابع لامانة العاصمة ، انشا في بداية السبعينات يضم تماثيل واشكال تصور العادات والمهن والتقاليد البغدادية القديمة ، وتقام في المتحف حفلة للجالي البغدادى عصر كل يوم جمعة .

(٥) متحف الطفل : يمثل احدى قاعات المتحف الوطني ، ويعتبر الاول من نوعه في منطقة الشرق الادنى وهو نموذج لمتحف اكبر ومتطور تنوي الجهات المسؤولة اقامته ضمن البوابة الاشورية الواقعة في مقدمة المتحف .

(٦) متحف الاثار العربية والاسلامية : اعدت الدراسات لاقامة هذا المتحف وذلك ضمن البناية لمؤسسة الاثار ورصدت لذلك المبالغ اللازمة .

دار الازياء

تأسس عام ١٩٧٠ بموجب قرار مجلس قيادة الثورة الرقم (٥٧) ، راعت الدار في منهاجها التنفيذي تحقيق الاهداف الحضارية لعملها وهي

وضع اسس جديدة للزي العراقي ، ولم يقتصر عملها على ابتكار اشكال موسمية للملابس كما هو الحال مع المؤسسات التجارية وانما تركز عملها الاساس في توجيهها الاعلامي ذو المضمون الثقافي وتشكيل تيار ثقافي في الذوق الخاص وتقدم الخبرة والمشورة للمدارس والجامعات ومصانع الملابس في تصميم الازياء .

الجندي الجهول

مشروع كبير خصصت له امانة العاصمة مبالغ معينة قام بتصميمه وعمل نماذجه الفنان خالد الرحال وخصصت له المنطقة الواقعة في جهة ام العظام من متنزه الزوراء وسيكون بديلا عن النصب القديم الذي اصبح موقعه لا يتلائم والمراسيم التي تقام عنده في المناسبات الوطنية . لما لذلك من تأثير على حركة السير في الشوارع المحيطة .

وللسياحة ايضا

خلال عهد الثورة اتجهت المؤسسة العامة للسياحة الى بناء الفنادق والمجمعات السياحية وفق طرز العمارة البغدادية العريقة ووجهت جهودها بالتعاون مع المؤسسات ذات العلاقة للعناية بانبية بغداد القديمة لابرازها سياحيا كمعالم جمالية حضارية ثمينة . ومن هذه المشاريع :

(١) المجمع السياحي في المدائن : يحتوي على (٣٥) غرفة اضافة الى (١٧) شقة سكنية .
(٢) فندق القناة : ويحتوي على (١٤١) غرفة ومسبح .

(٣) مطعم خان مرجان السياحي في الشورجة الذي قامت باستصلاحه الاثار .

(٤) المطعم الصيني والاطالي في الجادرية يقدم المأكولات الصينية والاطالية فقط .

(٥) فندق الكاظمية الجاهز : يحتوي على (٥٠٠) غرفة مخصصة لزوار العتبات المقدسة .

(٦) مرسى الزوارق : يقع على شارع ابو نؤاس يقدم الجولات النهرية للمواطنين ويحتوي المرسى على مطعم ممتاز وحدائق .

(٧) مطعم الشموع ويقع في شارع السعدون وهو من الدرجة الممتازة .

(٨) فندق عباس بن فرناس : يقع على طريق

المطار الدولي يحتوي على مسبح ومطعم ويحتوي على (١٠٠) غرفة .

(٩) فندق ميليا المنصور في الصالحية : يحتوي على (١٢٨) غرفة ومسبح وصالة مؤتمرات وساحات ألعاب وسينما ومكاتب للبريد والخطوط الجوية ، والحقيقة ان معظم الفنادق السياحية ذات الدرجة الاولى تتوفر فيها الصالات والنوادي الليلية وساحات وقوف السيارات .

(١٠) تطوير اماكن الاثرية في بغداد لاستخدامها لاغراض السياحة كدار النقيب في السنك ودار الاستريادي في الكاظمية .

(١١) تطوير جزيرة ام الخنازير وتحويلها الى منطقة سياحية حيث انشأت فيها الشقق وملاعب ومسبح ونادي ليلي ومختلف الخدمات السياحية وتصل الجزيرة بالساحل عبارات لنقل المواطنين « فقط » من الساحل الى الجزيرة .

اما الفنادق السياحية الكبيرة التي تحت الانشاء والتي ستكون علامات واضحة للتطور العمراني والسياحي في بغداد هي :

- (١) فندق نوفوتيل قرب ساحة الاندلس .
- (٢) فندق شيراتون : مقابل الجندي المجهول الذي يحتوي على كل ما يحتويه ميليا المنصور .
- (٣) فندق ميريديان : يقع في نفس المنطقة ويحتوي على (٤٠٠) غرفة وكل المرافق المهمة .
- (٤) فندق بابل : يقع في الجادرية يحتوي على (٥٠٠) غرفة مع مرافقه الاخرى .

كما تقوم المؤسسة بانشاء مكاتب وطنية للسياحة وتقدم التسهيلات للمواطنين للمساهمة في الحركة السياحية .

الصحة في ظل الثورة

لكي يكون المواطن مؤهلا صحيا ونفسيا للمساهمة في عملية بناء الوطن ، يجب ان توفر له اسباب الصحة ، وهذا ما خططت له الثورة منذ لحظاتها الاولى فعمدت على تطور مستوى الطب بما يوازي التطور العلمي الحاصل في العالم فتحققت المكاسب الصحية وتطورت طرق الفحص والمعالجة ومن ابرز ما حصل في هذا المضمار :

- (١) مؤسسة مدينة الطب : بعد شهور من قيام الثورة اطلت مدينة الطب بوجهها الجديد واقسامها المتعددة المتكاملة توفر خدماتها الصحية لكل مواطن . وجهزت باحدث ما توصل اليه العلم

من اجهزة ومعدات . فقامت بفتح مركزا خاصا لرعاية المعوقين من الصمم والبكم سمي (مركز السمع والتخاطب) جهاز باحدث المعدات العلاجية والمختبرية المتطورة ، كما تم استخدام الحاسبات الالكترونية في المؤسسات لتوظيفها في الامور الطبية والادارية ، كما تم زيادة عدد الجراحين والاختصاصيين في مختلف الامراض من ذوي الامكانيات الكبيرة للقيام بأدق العمليات الجراحية والطبية .

(٢) مستشفى العلوية للولادة : افتتحت في ١٧ تموز ١٩٦٩ لتقديم الخدمات الطبية للنساء الحوامل ورعاية الأسرة وزودت بالكوادر المتخصصة وجهزت باحدث الالات والاجهزة المتطورة وتضم شعبة لمعالجة حالات العقم افتتحت عام ١٩٧٥ ، كما التحقت بالمستشفى عيادة خارجية تعمل لمدة (٢٤) ساعة لاستقبال المرضى .

(٢) الجمعيات الطبية الاستشارية المتخصصة :

اول تجربة في القطر قامت في مستشفى الفردوس عام ١٩٧٧ لكي يمارس فيها (٥) اطباء اختصاصيون مسؤولياتهم تجاه المواطنين في كافة الامراض وجهاز هذا المجمع بكل الاجهزة الطبية المتطورة وطرق العلاج الذي يقدمه مجانا للمواطنين وسيتم شمول حوالي سبعة مناطق بمثل هذه المجمعات ، هذا اضافة الى ان السلطات الصحية راحت تستدعي مشاهير الاطباء في العالم لالقاء المحاضرات الطبية والتدريب في المؤسسات الصحية وفحص المرضى وتقديم العلاج لهم .

(٣) العيادات الطبية الشعبية : في عام (١٩٧٠) صدر قانون العيادات الشعبية واست اول عيادة من هذا النوع في مدينة الثورة ، انتشرت بعد ذلك في اغلب المناطق السكنية وتعتبر هذه كغيرها من ثمرات جهود الحزب والثورة لتأمين الطب الاشتراكي . ثم اصبحت بنوعين الاول عام لكل فروع الطب والثاني مختص بعمل فيه اطباء اختصاصيين . وقد اصبح عددها حاليا (١٣٢) عيادة شعبية .

(٤) الاسعاف الفوري :

تطورت الخدمات الصحية في هذا الجانب بشكل كبير في عهد الثورة حتى اصبح لها (٣٤) مركزا تؤدي خدماتها للمواطنين المحتاجين لخدماتها بصورة سريعة جدا بواسطة سياراتها المتطورة المجهزة بالاسلوكي وباجهزة حديثة ، وكوادرها المدربة على وسائل الطوارئ وسيتم ادخال

طائرات الهليكوبتر في الاسعاف الفوري وتطوير
وتوسيع شبكة اتصالاتها ..

التأمين الصحي : جاء استنادا للقانون رقم
(١) لسنة ١٩٧٥ الذي اعطى المقومات الحقيقية
لهذه المؤسسة لتأمين الصحة الى كل المواطنين من
خلال شبكة المراكز الصحية الرئيسية والفرعية
التي يبلغ عددها حوالي (١٠٦٥) مركزا وعيادات
التأمين الصحي وصيديات التأمين الصحي وكذلك
فان مؤسسة التأمين الصحي قامت بانشاء
المستشفيات والعيادات الطبية المركزية وتنفيذ
المشاريع الصحية الكبرى .

ان وزارة الصحة قامت في ظل الثورة بفتح
(٣٥) مركزا صحيا (٤٥٦) عيادة نسائية لم يكن لها
وجود في العهود السابقة كما زادت عدد المستشفيات
من (١٤٩) الى (٢٠٠) والعيادات الطبية المركزية
من (٣٤) الى (٥٨) . ومراكز رعاية الامومة
والطفولة من (٥١ - ٧٨) وكذلك (١٧٩) مستوصف
سيار و (٤١٠) عيادة وطبابة اسنان .

هذا ولا بد لكل مواطن منا يشاهد وهو يسير
في الشارع لافتة على محل مغلق مكتوب عليها
(اغلق لمخالفته تعليمات وزارة الصحة) وهذا يدل
على مدى النشاط والمتابعة والرقابة على هذه
المحلات لحماية صحة المواطنين من الامراض .

النقل بعد ١٧ - ٣٠ تموز في بغداد

ان نظرة بسيطة مقارنة لواقع النقل في الوقت
الحاضر عما كان عليه قبل الثورة يجعلنا نشهد
بساطة الفرق الشاسع بين الحالين فقد شهدت
شوارع العاصمة ضغطا كبيرا من وسائل النقل
العامة والخاصة ، الامر الذي حدا بالمؤسسات
الرسمية الى تنظيم نشاطاتها بشكل يكفل توفير
خدمات افضل للمواطنين ، حتى ان الزيادة
الحاصلة في عدد السيارات الاهلية او تلك الخاضعة
للقطاع الاشتراكي اصبحت لا تتناسب وكثافة
السكان الامر الذي خلق أزمة في مضمار النقل ،
وعليه كان لزاما على المؤسسات ذات العلاقة اتخاذ
الاجراءات المناسبة للتخفيف من الازمة فبادرت
الى استيراد عدد كبير من باصات النقل وسيارات
الصالون المجهزة بالعدادات ثم ادخال وضع
ضوابط للنقل الاهلي بالاضافة الى طرح عددا من
المشاريع التي يؤمل ان تحد من تفاقم الازمة في
نقل المواطنين .

المنشأة العامة لنقل الركاب في مدينة بغداد :

بعد ثورة ١٧ - ٣٠ تموز المجيدة تم منح
مصلحة نقل الركاب مساعدات مالية عاجلة لتمكينها
من الخروج من ازمته المالية وشكلت لجنة بموجب
قرار مجلس قيادة الثورة الصادر بتاريخ
١٩٧١/١٠/٣ لتتولى دراسة وضع المصلحة
فوضعت اللجنة توصياتها لمعالجة ذلك ، منها الغاء
المصلحة وقيام المنشأة العامة لنقل الركاب في
بغداد تتولى شؤون النقل العام والاهلي للركاب
في العاصمة ، فبادرت المنشأة الى استيراد (٢٠٠)
حافلة نوع ايكاروس كما تم شراء (٤٠٠) حافلة
نوع ليلاند ذات طابقين بالاضافة الى (٣٠٠) حافلة
ريم ، كما اعيد تخطيط مسارات خطوط الحافلات
تعديلا وتمديدا وتقليصا استنادا الى المسوحات
الميدانية وبما يتلائم والكثافة السكانية لقطاعات
بغداد ، كما تم ادخال العنصر النسائي لأول مرة
للقيام بدور المحصل ، بالاضافة الى انه تم اعتماد
تشغيل الحافلات بدون محصلين وذلك عن طريق
الحافلات المزودة بمكائن التسقيط او بمكائن طبع
البطاقات او سائق الحافلة يقوم بواجب المحصل
ايضا ، كما تم نصب اكشاك في مناطق انطلاق
الباصات لبيع التذاكر وتوفير دفاتر بـ (٢٥) بطاقة
وسعر (٥٠٠) فلسا وذلك تسهيلا لامور المواطنين
وعدم التبذير في الوقت والطاقات .

النقل الخاص :

اسند تنظيم هذا القطاع الكبير في البداية الى
مؤسسة ادارة شؤون محلات النقل التي كانت
تابعة لامانة العاصمة وتحولت تبعيتها الى المنشأة
العامة لنقل الركاب في بغداد ، وكان من اولى
واجباتها هو تنظيم النقل داخل بغداد ، ووضع
ضوابط لعمل هذه السيارات ضمن خطوط محددة
وفقا للكثافات السكانية وتحديد اجورها وخطوطها
واصبحت لقرارات المنشأة صفة ملزمة على نشاطات
هذه السيارات عن طريق اتخاذ الاجراءات المناسبة
ضد المخالفين . كما تم تثبيت خط واجرة ورقم
الخط في جوانب السيارة بشكل ظاهر للحيلولة
دون ارتكاب المخالفات . ومن جهة اخرى قامت
المنشأة بتوزيع سيارات الصالون المجهزة بالعدادات
وبشكل واسع يساهم كثيرا في الحد من مشكلة
النقل داخل العاصمة . ويؤمل العمل في العدادات
قريبا .

قطار الثورة :

تجربة رائدة ولدت في عهد الثورة لحل ازمة

من الشبكة الرئيسية مستمرا بشارع الجمهورية
- باب المعظم - شارع الامام الاعظم - جسر
الصرافية - منتها بساحة عنتر .

وهناك اربع توسعات في هذا الخط للمستقبل
حيث يصل الاول الى حي الشرطة في الكرخ والثاني
الى نهاية مدينة الثورة والثالث الى بغداد الجديدة
والرابع الى نهاية الكاظمية .

وفي عام ١٩٩٠ سيبلغ عدد القطارات العاملة
على الشبكة الرئيسية في بغداد (٦٢) قطارا وفي
عام (٢٠٠٠) سيبلغ طول شبكة سير المترو (٤٠)
كلم وعدد القطارات (١١٩) قطارا تتوقف في (٥١)
محطة في مختلف الاتجاهات . وقد روعي في مد
هذه الشبكة الحفاظ على طابع المدينة العمراني
والاثري والتاريخي .

نقل الركاب النهري :

ومن وقت لآخر نسمع او نقرا اخبارا عن
نية المؤسسات ذات الاختصاص بالنقل اقامة خط
لنقل النهري في نهر دجلة داخل بغداد بربط
الكاظمية بالكرادة الشرقية ولكننا لم نعر على اجابة
واضحة لاستفسارنا عن هذا الموضوع ، ففضلنا
الصمت .

خاتمة

ان بديهة واحدة تكفي لتكون الخاتمة ، وهي
ان انتطور في كل زاوية وفي كل وقت لا يعرف
حدودا له ما دام هناك اناس مؤمنون باوطانهم
وشعوبهم وبحق الاجيال في العيش من بعدهم ضمن
مبادئ حقيقية لا تعرف الخمول ، فاذا كانت
بغداد خلال هذه الاعوام القصيرة من عمر الثورة
قد وصلت الى ما هي عليه الآن من تقدم وتطور
فانها وبظل قيادتنا الرائدة سوف تتطور تطورا
كبيرا بعد عشر سنوات اخرى فتسير نحو الاحسن
والارقى واذا لم ينتج لجيلنا ان يرى ما ستؤول
اليه بغداد في الاعوام اللاحقة من جمال وحضارة
فهنيئا لابنائنا واحفادنا ببغداد المستقبل .. بغداد
الازل .. بغداد الحضارة .. والتقدم والحرية .
والامل .

النقل بين مركز بغداد وبين اكثر مناطق العاصمة
كثافة في السكان وهي مدينة الثورة ، يبدأ الخط
من ساحة المتحف عبر جسر الصرافية فمحطة
غربي بغداد - الحبيبية - نهاية مدينة الثورة
فمعامل الطابوق وله مواقف لصعود ونزول الركاب
عبر طريقه ولكن لم يقدر لهذا المشروع ان يستمر
فالفي في شهر حزيران الماضي نظرا لاجراء
التحويلات على ساحة بضائع الخط المتري
وتحويلها الى ساحة لنفاض بضائع الخطوط
الرئيسية .

مشروع المستقبل الكبير

بعد اعداد الدراسات الجيولوجية والبيئية
والاقتصادية والاجتماعية استقر راي الخبراء
واختصاصيد النقل على اعتماد مشروع (المترو)
الارضى لحل ازمة النقل داخل مدينة بغداد
وضواحيها واقترحت الدراسة استعمال قاطرات
كهربائية تسير على قضبان حديدية خالية من
التقاطعات مع بقية وسائل النقل الاخرى ، وقد
اثبتت الدراسة ايضا ضرورة انشاء خطين للنقل
السريع حتى نهاية عام (٢٠٠٠) مع خطة بعيدة
المدى لانشاء خط ثالث في فترة لاحقة .

وتوصي هذه الدراسة بانشاء خطوط يبلغ
طولها (٢٢) كلم وتشغيلها قبل نهاية (١٩٩٠) تمثل
الشبكة الرئيسية وهي عبارة عن خطين يسير الاول
منهما تحت الارض في شارع السعدون مبتدا من
ساحة الفتح فساحة عقبة بن نافع - الجندي
المجهول - ساحة النصر - التحرير فساحة
الخلائي - شارع الرشيد مارا تحت نهر دجلة من
ضفته الشرقية وحتى ساحة المتحف - المحطة
العالمية - شارع دمشق وحتى نهايته في ساحة
الفارس العربي .

اما الخط الثاني من الشبكة الرئيسية فيسير
بخط مرفوع عن سطح الارض مبتدا من قنصة
الجيش - محطة شرقي بغداد - ساحة بورسعيد
حيث يبدأ بالنزول الى مستوى تحت الارض مارا
بساحة السبعواوي - الخلائي ملتقيا بالخط الاول

مصادر

- ١ - مجلة امانة العاصمة الامداد ٨ ، ٩ لسنة ١٩٧٧ و ١٩
- ٢ - كراريس التصميم الاساسي لمدينة بغداد .
- ٣ - المجاميع الاحصائية لقسم الاحصاء بامانة العاصمة .
- ٤ - ارشيف امانة العاصمة .
- ٥ - المجموعة الاحصائية للجهاز المركزي للاحصاء لعام ١٩٧٨ .
- ٦ - مجلة النقل والتنمية ، ايلول ١٩٧٩ .
- ٧ - مجلة رسالة النفل ، تموز ١٩٧٧ والعدد ٧ ، ١٩٧٨ .
- ٨ - مجلة الاعلان الحديث ، تموز ١٩٧٩ .
- ٩ - مديريات الاعلام في وزارات : النقل ، العمل والشؤون الاجتماعية ، الاوقاف ، الصحة ، المؤسسة العامة للاسكان - المؤسسة العامة للسياحة/ادارة المرافق السياحية .
- ١٠ - وزارة الاسكان والتعمير/مديرية الاعلام/الارشيف .
- ١١ - مجلة وهي العمال ، العدد ٥٢٥ في ٤ آب ١٩٧٩ .
- ١٢ - جريدة الثورة ، العدد الصادر بتاريخ ١٩٧٩/٧/٢٦ .
- ١٣ - الثقافة والفنون في عهد الثورة/صادر عن وزارة الاعلام .



تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد

بقلم الدكتور

عماد عبد السلام روضي

كلية التربية - جامعة بغداد

مقدمة

سواء . ويمكننا القول ، بهذا الصدد ، ان معظم هذه المجالات المفيدة في الدراسة التاريخية لم يأخذ مجاله من اهتمام الباحثين ، ربما بسبب ان « اعتيادية » هذه الخدمات ، لم تلفت أنظار المؤرخين المعاصرين لها الا نادراً ، وفي مناسبات فريدة ، رغم ان أي من تلك « الخدمات » كان يمكن ان يسبب مشاكل غير اعتيادية لو انه توقف أو أهمل ولو الى حين .

ولا نشك في ان امر مياه الشرب ، كان يعد من الأمور بالغة الأهمية في حياة هذه المدينة العريقة ، ولعله كان مشكلة من مشاكلها الدائمة عبر العصور ، فهذه المدينة التي اتسعت على نحو سريع ، منذ تأسيسها في منتصف القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) لتغطي مساحات واسعة من الأرضين ، تربو على مساحتها الأصلية يوم تأسست بأضعاف عديدة ، وتشمل خلال مدة تقل عن قرنين ، أنحاء مترامية الأطراف على جانبي نهر دجلة ، وفي اتجاهات متباعدة ، لا شك انها كانت تستهلك كميات ضخمة من مياه الشرب كل يوم ، ولا شك - أيضاً - في انها كانت تعاني من مشكلة نقل هذه المياه الى سكانها وايصالها الى دورهم ومساجدهم واسواقهم وسككهم لاستعمالها في حياتهم اليومية .

ان البحث في تاريخ مشاريع مياه الشرب في بغداد خلال عصورها المتعاقبة ، لهو امر تكتنفه صعوبات جمة ، اذ ليست ثمة اجابات كافية لما

اذا كان البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمدن يعد من المجالات الحديثة للدراسات التاريخية في بلادنا ، فان دراسة تاريخ « الخدمات » أو المرافق المدنية - فهي من اكثر الدراسات التاريخية حداثة ، ولعلها في الوقت نفسه ، من اشدها طرافة وأهمية ، وذلك من ناحيتين ، اولاهما الصلة الوثيقة بين هذه الخدمات ، وبين تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة ، لان وجود « الخدمات » يوجب - في احيان كثيرة - انشاء مؤسسات رسمية ، أو غير رسمية ، تختص بادارتها ، والعناية بمرافقها .

ومن الناحية الاخرى فان دراسة هذه الخدمات تكشف ، على نحو فريد ، عن الصلة بين التاريخ الاجتماعي ، وبين التاريخ العلمي والتقني . وبمعنى آخر ، فان الخدمات هي احدى أهم المجالات الرئيسة لتطبيق المعرفة النظرية بما يخدم مصالح الشعب ويرفده عنه ويحمي بيئته ويسر له العيش في مدينته ، اذ ليست المدينة ، في احدى وجوهها على الأقل ، الا المكان الذي تتوفر فيه الخدمات للناس .

ومن هنا اذن تبرز أهمية دراسة « الخدمات » ومشاكلها في مدينة كبرى ، ومركز حضاري رئيس كمدينة بغداد ، تقلبت بين عصور الازدهار والحيوية ، وعصور الانحطاط والتخلف على حد

يمكن ان يطرحه هذا البحث من اسئلة ، وقد يعجب الباحث ، أول الأمر ، حينما يلحظ ان مشكلة كهذه لم تلق من المؤرخين القدامى أي اهتمام يذكر ، فعلى الرغم من الارقام الكبيرة ، والمبالغ بها جداً ، عن عدد الحمامات ببغداد في العصر العباسي ، وما تستهلكه من الصابون ، ومن يعمل في خدمتها^(١) ، فاننا لم نعثر على ما يوضح السبل التي كانت متبعة في تزويد هذه الحمامات العديدة بما تحتاجه من مياه نظيفة تصلح للفسل . ومثل هذا يقال أيضاً عن مساجد المدينة وربطها ومدارسها ، وكلها مما يحتاج فيه الى المياه الصالحة للوضوء والشرب .

ويزداد الأمر صعوبة ، عندما نلاحظ انه لم تكن ثمة فروق واضحة بين وسائل نقل المياه المختلفة ، فلا استطاع التمييز - على وجه التحديد - بين انواع المياه الخاصة بالشرب ، او المستعملة للفسل والاستعمال اليومي الآخر ، او المستخدمة في سقي الحدائق والبساتين والحيوان ، كما ليس من اليسير - في اغلب الاحيان - التفرقة بين وسائل نقل هذه المياه ، ووسائل تصريف المياه المستعملة . فقد وصف لنا المؤرخون شبكة من الانهار الصغيرة مما كان يخترق مدينة بغداد بجانبها الشرقي والفسري ، ويتخلل الاحياء السكنية والبساتين ، ولكننا لا نعلم كم من مياه تلك الانهار كان يستخدم للشرب ، وكم منها كان يستعمل كمبزل للمياه الفائضة عن الحاجة ، او المستعملة لأن استقبال المدينة للعدد الضخم من الانهار التي تجري بين دروبها ودورها ، كان يستلزم بطبيعة الحال عدد آخر من مصارف المياه ، وبما ان احداً لم يشر الى تلك المصارف ، ومن المستبعد جداً ان تستخدم هذه الانهار للغرضين في وقت واحد ، فمن الضروري للباحث اذن ان يعيد النظر في طبيعة عملها ومهمتها ، بحسب تعاقب العصور .

وعلى الرغم من ان العرب عرفوا سبل تنقية

(١) بالغ المؤرخون في عدد الحمامات ببغداد مبالغ كبيرة ، حتى قيل انها بلغت مائتي الف حمام ، الى الضعف ، وأكد بعضهم العدد الاول ، بينما قال آخرون انها مائة وثلاثون الفا ، أو مائة الف ، واقل تقدير لها كان ستين الفا . انظر : هلال بن الحسن الصابي : رسوم دار الخلافة ص ١٩ تحقيق ميخائيل عواد (بغداد ١٩٦٤) والخطيب البغدادي ١١٧/١ (القاهرة ١٩٣١) .

(٢) البيروني : الصيدنة في الطب ، تحقيق محمد سميسد ورائنا احسان الهي (كراتشي ١٩٧٣) ص ٣٩١ وداود الانطاكي : تذكرة اولي الالباب (بيروت د. ت) ٢٠٩/١ .

المياه من الشوائب وجعلها رائثة صافية ، عن طريق استخدام مادة « الشب »^(٢) ، الا اننا لم نعثر على ما يفيد باستعمال هذه المادة بشكل واسع لتنقية مياه الشرب . ونحن نميل الى ان استعمالها لبث حبيس مختبرات العلماء والاطباء للافادة منها في تجاربهم المختلفة ، دون ان تجد لها تطبيقاً في مشاريع مياه الشرب العامة ، اذ ليست ثمة نصوص تدل عليه ، الا اذا استخدم ذلك في نطاق ضيق ، وفي دور بعض ذوي الشأن ، مما لم يلفت نظر المعاصرين .

ومع ان اخباراً دلت على وجود أحواض كبيرة في الجانب الشرقي كانت تصب فيها فروع بعض الانهار الآخذة من الخالص^(٣) ، الا انه ليست ثمة ما يفهم منه ان تلك الاحواض كانت تستخدم لترسيب المياه من شوائبها ، ومن المحتمل جداً ان تكون عملية ترسيب المياه مما يجري في نطاق الدور والمحلات الخاصة ، عن طريق وضعها في « الأزار » العادية قبل شربها ، وهي الطريقة التي لبثت معروفة ببغداد حتى فترة متأخرة .

ونحن نحسب ان مشكلة مياه الشرب ببغداد ، لم تكن تتجاوز أمرين ، احدهما رفع المياه من المواضع الملوثة على شاطئ دجلة ، وثانيهما نقلها بمختلف الوسائل لتجد طريقها الى سكان المدينة .

الفصل الاول

مشاريع مياه الشرب في العصر العباسي

١ - المدينة المدورة :

انشأ أبو جعفر المنصور مدينته المدورة على الضفة الغربية من نهر دجلة ، في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة غرباً ، ومجرى دجلة شمالاً ، وسماها « مدينة السلام » . وكانت حوالها مجموعة من الأنهار والجداول القديمة التي تصل نهر دجلة بالفرات في اقرب نقطة يقتربان فيها من بعضهما . وكان واضحاً ان من أهداف المنصور الرئيسية ، ان لم يكن أهمها ، ان تكون مدينته هذه في موقع عسكري منيع ، يسهل على سكانها الدفاع عنها^(٤) ، ويجعل من الصعب اقتحامها ، فصارت

(٣) الخطيب ١١٤/١ .

(٤) لا نميل الى الأخذ بالرأي القائل بان اختيار المنصور لوقع بغداد ، بين نهري دجلة والفرات للتمتع بحمايتها الطبيعية ، كان يدل على فكر ستراتيحي حصيف ، اذ سرعان ما اثبتت هذه الزبة تهايتها بمد نحو أربعين عاماً

« المدينة المدورة » بذلك قريبة لأن تكون « قلعة » أو « حصناً » منها الى المدينة السكنية ، فأقيمت الابواب المحكمة العديدة ، وحفرت الخنادق ، وانشئت ثلاثة نطاقات من الاسوار ، ثم لم يكتف بذلك وحسب ، بل اُخليت - بعد وقت قليل من تاريخ انشائها - من عامة الشعب ، وهم البساعة والتجار واصحاب الحرف ، الا القلة منهم ، ثم منع الدخول اليها ركوباً ، وحتم على الجميع ان يمشوا فيها راجلين .

وكان من الطبيعي ان تنال مشكلة نقل مياه الشرب الى المدينة الجديدة جزءاً من اهتمام الخليفة المنصور وعنايته ، ففضية كهذه كانت عظيمة الخطورة عند مخططي المدن والحصون ابان تلك العصور ، لانها تتعلق بصفة مباشرة بمدى امكان ثبات المدينة أو الحصن في الحصار التي تفرض عليها في أثناء الحروب .

ويبدو ان تفكير المنصور بهذا الأمر جاء متأخراً على قيامه بانشاء المدينة ، فقد لبث طيلة الشهور الاولى لسكانه فيها^(٥) لا يدري بالوسيلة التي تنقل بواسطتها المياه الى قصره ، بل يبدو ان الأمر لم يستلقت نظره البتة ، تاركاً له ان يسير بحسب الطرق المألوفة في عصره ، فكانت مياه الشرب تنقل الى قصره وسائر أنحاء مدينته بواسطة سقائين يحملونها على ظهور البغال المعروفة بـ « بغال الروايا » وهي معبأة - على ما كان معروفاً - في أوان خاصة ، أو « قرب » من الجلد .

وأول مشروع هندسي أمر به المنصور لتوفير

من انشاء المدينة ، ولم يكن السلاح والعكر العسكري قد تطور في هذه المدة القليلة ، ففي أثناء فتنة الامين والمامون ، نفذ الامين خطة المنصور العسكرية بدقّة ، فقطع الجسور التي تربطه بالجانب الشرقي ، وتحصن بالمدينة المدورة ، ولكن الجيش القادم بقيادة طاهر بن الحسين تجنب العبور من النواحي القريبة من المدينة ، والتف عليه بمد عبوره دجلة على جسر موقت اقامه في الشماسية اعلى بغداد ، فادت حركة الالتفاف هذه الى انهيار مقاومة جند الامين ، ولم تثبت المدينة المدورة الا قليلاً اذ تهاوت بسرعة امام جيش طاهر ، وبذلك اثبت هذا الحادث تهافت فكرة الموقع المتحصن بالحواسر المائية التي انشا المنصور على هداها مدينته .

(٥) كان الفراغ من بناء بغداد ونزول المنصور بها ، ونقل الخزان والدواوين وبيوت الاموال اليها . سنة ١٤٦هـ / ٧٦٣م وكان استتمامه بناء السور والخندق واحكام أمر المدينة سنة ١٤٩هـ / ٧٦٦م . ابن الفقيه : بغداد مدينة السلام ٣٩ تحقيق د. صالح أحمد العلي (بغداد ١٩٧٨) والخطيب البغدادي ٦٧/١ .

مياه الشرب لسكان مدينته كان انشاء قناة (أو قناتين) من خشب الساج ، ترفع اليها المياه من دجلة بواسطة دولااب نصب هناك ، والظاهر ان هذه القناة كانت مرتفعة عن الارض بما يكفي لانحدارها التدريجي حتى تجتاز باب خراسان (وهو اقرب الابواب الى شاطئ دجلة) وتخترق المدينة حتى تصل رحبتها ، ومنها الى قصر المنصور . ولا يعلم على وجه التحديد ما اذا كان هذا الماء مخصوصاً بقصره وحده ، أم انه كان يجري لغيره من دور المدينة وسككها ، كما ليس من المستطاع معرفة مدى سعة هذه القنى من الماء . ولكن يبدو انها كانت من المثانة والاحكام بحيث استمرت قائمة تؤدي مهمتها حتى النصف الاول من القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد)^(٦) .

ويفهم من رواية نقلها الطبري عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق خال الفضل بن الربيع^(٧) ، والخطيب عن عياش بن القاسم^(٨) ان انشاء المنصور للقنى الخشب الخاصة بمياه الشرب كان بعد فترة قصيرة من انتقاله الى المدينة المدورة ، وخلاصة الخبر ان عملاً للمنصور ، هو عيسى بن علي^(٩) في رواية الطبري ، وهو عبدالصمد بن علي^(١٠) في رواية الخطيب والاول أرجح ، شكاً الى المنصور كبر سنه وضعفه وصعوبة وصوله الى قصره (اي قصر المنصور المسمى بباب الذهب) ماشياً ، واستأذن منه ان يسمح له بركوب بعض بغال الروايا التي تخترق الرحاب وتغذي القصر بالماء ، فقال المنصور ، فيما رواه الخطيب ، « يا ربيع ! بغال الروايا تصل الى رحابي ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : تتخذ الساعة قنى بالساج من باب خراسان حتى تجيء الى قصري ، ففعل » ويشير الطبري ، فيما نقله عن خال الفضل بن الربيع ، الى أن المنصور أمر عند علمه بوصول بغال الروايا الى رحابه ، بتحويل ابواب الدور الى فسلان الطاقات ، بعد ان كانت تؤدي الى الرحاب ، لكنه لا يشير الى أمره بمد قنى الساج ، مع أن طبيعة الخبر تستلزمه ، لعدم العلاقة بين تحويل ابواب الدور ، ووصول بغال الروايا الى الرحاب . فهذا الخبر ، على الاختلاف الطفيف في رواته واسماء

(٦) ابن الفقيه ٣٨ .

(٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٢٢/٣ (ط . لندن) .

(٨) الخطيب ٧٨/١ .

(٩) توفى سنة ١٦٤هـ / ٧٨٠م .

(١٠) توفى سنة ١٨٥هـ / ٨٠١م .

فاذا ما رأينا ان هذا النهر كان محمولا على الخشب ، ويجرى على ارتفاع معين ، بميل محسوب الى الاسفل ، لمسافة لا تقل عن كيلومترين (١٧) ، لاحظ لنا جسامه هذا المشروع ، واتقان مهندسيه في تصميمه وعمله .

بيد ان تصميم هذا المشروع وطريقة عمله ان كانت تلائم ظروف السلم ، فما كانت لتلائم اية ظروف غير عادية ، وبخاصة حالات الحروب والحصار التي لم تكن بعيدة عن تفكير المنصور (١٨) ، ذلك انه من اليسير على اي جيش غاز ان يقطع هذه القنى الخشبية المرفوعة ، او ان يعطلها . فيقضي على اهل المدينة عطشا ، ولعل هذا ما قصده سفير الروم حين لاحظ « ان ليس لها نهر يخترقها » (١٩) . فكان ان قام المنصور بتصميم مشروعه الآخر في مد مدينته بمياه الشرب ، فيذكر الخطيب انه مد « قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات ، وجرحهما الى مدينته في عقود وثيقة من أسفلها ، محكمة بالصاروج (٢٠) والاجر من اعلاها . وكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرياض ، وتجري صيفا وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت » (٢١) فهاتان القناتان كانتا مشيدتين تحت مستوى سطح الأرض لا فوقها كما في المشروع الأول ، والظاهر انهما كانا من السعة والارتفاع ما يصلح لسير انسان ، على ما يفهم من قول المنصور « في بنائي هذا ما أن اخذني فيه الحصار خرجت خارجا منه على فرسخين » (٢٢) وعقب ابن الجوزي على ذلك بقوله « ولعله أشار الى القنات » (٢٣) فيكون طول القناة التي قصدها نحو ١٢ كيلومتر (٢٤) .

(١٧) كان قصر المنصور يتوسط مدينته ، وبما ان قطر المدينة كان يبلغ ، في اوسط المقادير ، ميل عربي ، أي ٢ كم ، تكون المسافة بين القصر وباب خراسان نحو كيلومتر واحد ، ولا تعرف المسافة بين هذا الباب وشاطئ دجلة ، ومن المحتمل ان تكون مثل ذلك .

(١٨) الخطيب ٧٧/١ ومناقب بغداد ١٩ .

(١٩) ادمج ابن الجوزي في مناقب بغداد ١٢ خبري هذين المشروعين المتباينين ، كما نقلهما من الخطيب ، في خبر واحد ، مما اظهر ان قيامه بانشاء القناتين كان بسبب اكتشافه وصول بغال الروايا الى قصره .

(٢٠) الصاروج : النورة واخلاطها .

(٢١) الخطيب ٧٩/١ ومعجم البلدان ٤٦٠/١ .

(٢٢) الخطيب ٧٧/١ .

(٢٣) مناقب بغداد ١٩ .

(٢٤) يبلغ طول الفرسخ الواحد ٣ أميال ، وكل ميل ١٠٠٠

شخصه ، يدل على أن بغال الروايا ، المخصصة لنقل مياه الشرب ، كانت تصل - قبل الحادثة المذكورة - الى قصر المنصور ، مجتازة الأبواب والفصائل فالرحبة ، وهي الساحة الكبيرة التي تتوسط المدينة ، وفيها قصر المنصور وجامعه ، فتروي بذلك جميع الدور في الدروب والسكك . وبينما يحدد الطبري تاريخ هذه الحادثة ، سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م ، أي بعد بضعة شهور من انتقال المنصور الى مدينته الجديدة ، نجد أن في رواية أخرى نقلها ابن الفقيه عن الشروي (١١) ، والخطيب عن أبي العيناء عن جده (١٢) ، ما يفهم منه ان ذلك جرى نحو سنة ١٥٦هـ أو ١٥٧هـ/٧٧٢ - ٧٧٣م ، أي بعد عشر سنين من التاريخ المتقدم . وخلاصة ما ذكرنا ان وفداً رومياً قدم الى بغداد في تلك الآونة ، وأخبر المنصور بأن من عيوب مدينته « أن ليس لها نهر يخترقها » وانها بعيدة عن الماء « ولابد للناس من الماء لشفاهم » فما كان من المنصور الا ان عمل « لها دولاباً اجري ماء الى القصر ، فكان يخترقها حتى يوافي القصر ، قال : هذا يقوم مقام النهر ، فلم يزل ساج ذلك النهر والدولاب يصب فيه الى أيام محمد بن عبدالله بن طاهر (توفي سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م) ثم قلع وعطل » واذ قرنت الرواية هذا الحادث بحادث آخر مهم ، هو قيام المنصور بنقل الاسواق الى الكرخ ، خارج المدينة المدورة ، اثر نصيحة اخرى مشابهة اسداها سفير الروم المذكور ، يكون انشاء هذا الدولاب وما يستتبعه في حدود سنة ١٥٦هـ أو ١٥٧هـ/٧٧٢ - ٧٧٣م ، وهو التاريخ الذي امر فيه المنصور بنقل الاسواق بعد اضطراب حدث هناك (١٣) .

وتتفق روايات المؤرخين على جسامه هذا المشروع ، فقد نقل عن عياش بن القاسم ان المنصور امر بمد قناتين من دجلة (١٤) بينما أشار آخرون الى كونها « قنى » دون تحديد لعددتها (١٥) . ووصف المنصور لها بأنها تقوم مقام نهر ، يدل على انها كانت كبيرة ، عظيمة السعة ، وأشار اليها بعض المؤرخين بأنها كانت نهر (١٦) .

(١١) ابن الفقيه ٢٨ .

(١٢) الخطيب ٧٨/١ .

(١٣) الطبري ٣٢٤/٣ .

(١٤) الخطيب ٧٨/١ .

(١٥) الخطيب ٧٨/١ وابن الجوزي : مناقب بغداد ١٢ (نشر محمد بهجة الانري) وياقوت : معجم البلدان ٤٦٠/١ (ط. دار صادر ، بيروت ١٩٥٥) .

(١٦) ابن الفقيه ٣٧ .

الآخري الآخذة من دجيل بشيء ، ولكن يفهم من كلامه ان عمل تلك القناة كان في اثناء بناء المدينة لغرض عمل المواد اللازمة للبناء وشرب الفعلة القائمين عليه . قال « وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا ، وهو النهر الآخذ من الفرات فأثقت القناة ، وأجريت الى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين » (٢٨) . ويلاحظ ان احداً من المؤرخين لم يشر الى وجود هذه القناة في داخل ارض المدينة قبل رفع قواعدها ، كما ان ملاحظة السفير الرومي بأن « ليس لها نهر يخرقها » تكشف عن عدم وجود هذا النهر حتى بعد انتقال المنصور اليها ، على ان من المحتمل جداً ان يكون مجرى هذا النهر قد استغل فيما بعد بأن انشئت فيه القناة المحكمة المذكورة .

٢ - الجانب الغربي

اتسع العمران ، بسرعة كبيرة ، حوالي اسوار المدينة المدورة ، وازدادت كثافة السكان في الاحياء السكنية والتجارية الجديدة مما امر المنصور ببنائه ، او انشاء غيره من الامراء والقواد وعامة الناس ، وتزايد السكن في الرض الكائن خارج المدينة المعروف بالكرخ ، بين نهر الصراة ونهر عيسى ، من انهار الجانب الغربي ، فكان ان نشأت محال جديدة هناك ، عرف بعضها بالشرقية لانها شرق الصراة ، بينما كانت المدينة المدورة في غربها . ونجد في كتب التاريخ والتراجم ، والخطط بخاصة ، اسماء اعداد كبيرة من الاحياء والسكك والاسواق والدروب مما انشئ في تلك النواحي في خلال عهد قصير ، مما دل على ان مشكلة مياه الشرب مالبثت ان ظهرت ، وبالسعة نفسها ، لتواجه اهل تلك المواطن الجديدة .

ويظهر ان حجم هذه المشكلة لم يكن بعيداً عن تقدير المنصور ، رغم ان نهري رئيسيين ، هما الصراة وعيسى ، كانا يأخذان من الفرات ويقطعان الجانب الغربي ليصبيا في دجلة ، فعمد منذ اخراجه اهل الاسواق الى الكرخ ، الى حفر شبكة من الانهار الصغيرة تأخذ من هذين النهرين الكبيرين وتمر بين الدروب والاسواق ، وتسمى باسمائها وبذلك امسى لاهل الجانب الغربي نوعين من مصادر المياه ، الاول : الانهار الرئيسية القديمة التي كانت تخترق المنطقة منذ فترة تسبق فترة انشاء المدينة المدورة ، والثاني : الانهار الفرعية الجديدة التي استحدثها المنصور على ماتقدم .

وأغلب الظن ان المقصود بنهر دجيل ، النهر المتفرع عنه المسمى بنهر بطاطيا ، أو أحد فروعه ، فقد ذكر الخطيب انه كان لهذا النهر ، اي بطاطيا ، ثلاثة فروع في عهده (توفي سنة ٦٦٣هـ / ١٠٧٠م) سماها انهار الحربية ، وقال « انها قنوات تحت الارض واولها مكشوف » وكونها تجري تحت الارض ، يشير الى انها كانت تستعمل للشرب ، ولكننا لانعلم اي من هذه الانهار كان الذي مده المنصور ، وذلك لان مفهوم « بغداد » توسع في عهد الخطيب حتى صار يشمل منطقة تبلغ اضعاف مساحة المدينة المدورة (٢٥) وتسميتها بأنهار الحربية يعني انها كانت تسقي الحي الواسع الذي عرف بهذا الاسم ، وكانت الحربية « محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة بشر الحافي وأحمد بن حنبل » (٢٦) أي انها كانت تقع خارج اسوار مدينة المنصور ، في شمالها ، حيث تلك المواضع . وليس بعيداً ان يكون نهر المنصور المذكور هو أول تلك الانهار عهداً ، ثم زيد عددها فيما بعد نظراً لعمران تلك النواحي .

اما القناة الآخري الآخذة من نهر كرخايا ، فنرجح انها كانت تتفرع من النهر المعروف بنهر رزين ، عند باب سويقة أبي الورد ، فمن هناك « يحمل منه نهر يعبر على عباره على قنطرة العتيقة ويمر الى شارع باب الكوفة ، فيدخل من هناك الى مدينة المنصور ، ويمر النهر من باب الكوفة الى شارع القحاطبة ثم الى باب الشام ، ويمر في شارع الجسر الى الزبيدية فيفنى هناك » (٢٧) ودخول النهر من باب الكوفة ، وخروجه من باب الشام يدل على انه كان يتخذ شكل زاوية قائمة تقريباً ، ولكننا لانعلم ماذا كان قد لبث مجراه معقوداً بالصاروج والاجر على صفته في أيام المنصور لان الخطيب لم يفرد بملاحظة خاصة بهذا الشأن ، في حين افرد انهار الحربية بملاحظته السابقة على ما مر بنا .

وقد ذكر اليعقوبي ان المنصور مد لمدينته قناة تأخذ مياهها من كرخايا ، ولم يشر الى القناة

باع ، وكل باع ٤ اذرع شرعية (الدراع ٩٨٧٥ سم) فيكون طول الفرسخ حوالي ٦ كم . فالتر هنتس : الكايل والأوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ٩٤ (ترجمة كامل الصلي ، عمان ١٩٧٠) .

(٢٥) انظر عن مساحة بغداد في القرون التالية : ابن القتيه ٦٠ والخطيب ١١٧/١ .

(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٣٧ .

(٢٧) الخطيب ١١٣/١ .

(٢٨) اليعقوبي : البلدان ٨ (النصف ١٩٥٧) .

والقصابين وغيرهم ، من العسير التصور بانسه يبقى - بعد ذلك كله - صالحاً للشرب ، ولو تخيلنا كم من فضلات هذه المهن وقاذوراتها من ريش الدجاج وبقايا الزيوت والشوك وقشور الرمان ومخلقات النحر يمكن ان يطرح في هذه الأنهار ، للاح لنا ما يؤكد ما ذهبنا اليه تأكيداً تاماً . ويظهر ان مهمة هذه الشبكة من الانهار تحولت تدريجياً وخاصة في العصور العباسية الاخيرة لتسمي شبكة تصريف للمياه القذرة ، وسقي الزروع ، وتحريك الأرحاء ، وتركت استعمالها الحيوية الاخرى . وليس من شك في ان تحول مهمة هذه الانهار على ذلك النحو كان سبباً رئيسياً في ترك السكن في تلك المحلات البعيدة عن دجلة ، ومن ثم خرابها . وهكذا ، فان حفر الانهار الجديدة في الكرخ ، واستخدام القديم منها ، لم يحل مشكلة نقل مياه الشرب الى احياء الجانب الغربي ، كما فكر المنصور . ولعله لو عقد تلك الانهار بالأجر والصاروج ، كما فعل بالأنهار التي مدها الى مدينته المدورة ، لكانت قد أدت مهمتها ، وحققت الغرض من انشائها .

٣ - الجانب الشرقي

كان الجانب الشرقي من أرض بغداد ، يسقى قبل انشاء بغداد نفسها ، من مياه نهر الخالص ، عن طريق شبكة متقنة من الانهار القديمة تتوزع في مختلف انحاء . وعندما أنشأ المهدي الرصافة ، مقابل المدينة المدورة ، من الجانب الشرقي ، حدود سنة ١٥٩هـ / ٧٧٦م ، أصبحت بعض فروع الانهار التي تصب هناك ، تجري في وسط « الرصافة » فتخترق شوارعها وقصورها حتى تصب في دجلة ، وكان اهم تلك الفروع نهر الفضل الاخذ من نهر الخالص ، فمنه يتفرع نهر آخر سمي بنهر المهدي يسير الى شرق الرصافة ، ثم ينقسم هناك الى فرعين صغيرين اولهما يصب في الجعفرية (شرقي الرصافة) وثانيهما يتحد الى قصر المهدي وجامعه فيجري في بركة داخل القصر ومنها ينتهي الى دجلة (٢٠) .

وكان اتساع بغداد جنوباً ، وبخاصة في العهدين البوغي ثم السلجوقي ، يزيد من أهمية الانهار الآخذة من الخالص والمختصة بربى تلك

ويعتبر نهر عيسى اهم انهار الجانب الغربي لاروائه عدداً هائلاً من المحلات والسكك ، فكان يخترق احياء الجانب الغربي السكنية ، فيفضي الى محلة الزياتين (باعة الزيت) فباعة الاشنان وباعة الشوك ، فباعة الرمان . ويظهر ان مياهه - رغم اجتيازها كل تلك المحال - كانت من الاندفاع بحيث تكفي لتشغيل عدد من الارحاء ، بعدها ، حتى تصب في دجلة اسفل قصر عيسى (٢٩) .

اما نهر الصراة ، فكان يسقى مناطق زراعية في طسوج بادوريا ، قبل ان يجتاز محلات الجانب الغربي ، ويظهر ان هذه المحلات لم تكن مكتظة كالتي على نهر عيسى ، بسبب ان المنصور جعل هذا النهر فاصلاً بين التجمعات السكنية في الكرخ وبين مدينته المدورة .

وبالإضافة الى هذين النهرين القديمين ، فقد أمر المنصور بجر عدة أنهار صغيرة من نهر كرخايا المتفرع أصلاً من نهر عيسى ، لارواء ما تكاثر عليها من دور واسواق ، فكان منها نهر الدجاج ، ونهر القلائين ، ونهر طابق ، ونهر البزازين ، وغير ذلك ، فكان نهر كرخايا اذن مسقى أهل كرخ بغداد القديم من ناحية الجنوب ، ومسقى المدينة المدورة من ناحية الشمال ، الا انه في الكرخ مكشوف بفروعه المذكورة ، على خلاف فرعه الذي كان يأخذ الماء الى المدينة المدورة فانه كان معقوداً بالأجر والصاروج على ما ذكرنا . فليس ثمة ما يدل على ان انهار الكرخ هذه كانت تستعمل لغرض الشرب ، ونحن نميل الى القول بان هذه الانهار كانت لاجل توصيل مياه الاستعمال اليومي ، من غسيل وسقي ، وربما لتصريف المياه المستعملة ايضاً ، اذ ليس من المتصور ان تبقى مياه هذه الانهار نظيفة صالحة للشرب ، وهي تجري في مجار ضيقة مكشوفة لعوارض الطبيعة وتلويث السكان ، فنهر يجري بين محلات مكتظة بباعة الدجاج والزيت والاشنان والشوك والرمان

(٢٩) الارحاء جمع رحي ، وهي طاحونة الماء ذات الدولاب الأفقي ، وتعد أقدم آلة استخدمت فيها طاقة الماء . وفي اسفل محور الحركة يوجد دولاب مغمور في تيار الماء وعلى محيطه مجموعة من الفراشات ، ويرتفع المحور للأعلى ماراً بحجر الطحن السفلي . ويرتبط المحور بالحجر العلوي ارتباطاً وثيقاً وبذلك يدور الحجر العلوي مع دوران دولاب الماء بواسطة المحور الواصل بينهما ، وهذه الدواليب المائية الأفقية هي الاصل الذي تطورت منه المنفات المائية الحديثة . د. احمد يوسف الحسن : تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية (حلب ١٩٧٦) ص ٥٢ .

مياه الشرب كانت من الخطورة بحيث تعجز عن سدها فروع نهر موسى الصغيرة الواصلة الى تلك الانحاء .

وثمة فرعان آخران من فروع نهر موسى ، لها أهمية خاصة تزايدت في العصور العباسية المتأخرة ، وهما نهر الملعى ، ويمر بين الدور والسكك حتى يصل قصر الخلافة المسمى بالفردوس فيدور فيه ويصب في دجلة ، ونهر آخر في أسفله مواز له تقريباً يخترق بغداد من شمالها الى جنوبها ، حيث يدور في القصر الحسيني (قصر التاج فيما بعد) على دجلة ثم يصب فيها . وكان هذان النهران يأخذان مياههما من مقسم المياه اسفل قصر الشريا المذكور . وزادت خطورة هذين الفرعين بسبب تزايد كثافة السكان حواليهما وتكون الاحياء والمحلات في القسم الجنوبي من الجانب الشرقي حيث كانا يجريان (وهو القسم الذي استقرت عليه بغداد في العصور التالية) .

وليست ثمة نصوص تدل على ان هذه الانهار كانت تجري في قنوات معقودة بالأجر والصاروج ، ومن المحتمل جدا ان تكون قد استخدمت في العصر العباسي الاول كمورد لمياه الشرب ، عندما كانت الارض هناك قليلة السكان ، بيد اننا نستبعد بقاءها كذلك في العصور العباسية المتأخرة ، وذلك للأسباب نفسها التي قدمناها عند حديثنا عن انهار الجانب الغربي ، فكان نهر الملعى يخترق في طريقه الى دجلة محلة باب أبرز ، وفيها احدى كبريات مقابر بغداد ، ثم قراح ظفر ، وهو بستان تحول الى محلة سكنية ، فسوق الثلاثاء ، فدرب دينار والمنطقتان الاخيرتان من اكثر المحلات ببغداد ازدهاما وكثافة في السكن ، وفيهما الاسواق والخانات والمتاجر ليصب بعد ذلك في دجلة عند المدرسة المستنصرية . وكان النهر الآخر يخترق قلب بغداد الشرقية ، فيجتاز محلة المختارة ، فقراح ابن رزين ، وهو بستان كبير تحول الى محلة (٢٤) ، فالمنطقة المزدهمة حوالي دار الخلافة ، فدار الخلافة العباسية نفسها ، ليصب عند القصر الحسيني ، وقصر التاج فيما بعد (٢٥) . وانهار صغيرة مكشوفة تجري وسط هذا الحشد الهائل من الاحياء والدور والاسواق ، لا يمكن ان تكون مياهها صالحة للشرب ، واغلب الظن ان مهمتها لم تكن تتجاوز كونها مصارف للمياه

(٢٤) انظر عن زحمة هذه المحلات وكثرتها ياقوت : معجم

البلدان ، مادة قراح ، ٢١٥/٤ .

(٢٥) معجم البلدان ٢/٢ .

الانحاء (٢٦) . وعندما تم عمران الجانب الشرقي في القرنين الخامس والسادس للهجرة (١١ و ١٢ م) وتحولت بساكناته وجنائه الى احياء سكنية واسواق تجارية ودروب ، تحولت مهمة تلك الانهار من سقي الزروع ، الى تيسير الحياة اليومية لسكان بغداد الشرقية ، فكان نهر موسى يأخذ مياهه من نهر بين الكبير الاخذ من الخالص والماضي بمياهه حتى مصبها عند قرية كلواذي جنوب بغداد . ويصل نهر موسى الى قصر « الثريا » الذي بناه المعتضد (خارج اسوار بغداد الشرقية) المتأخرة « فيدخل القصر ويدور فيه ويخرج منه » ليصل منطقة مهمة عرفت بمقسم المياه ، حيث تنقسم مياهه الى ثلاثة شعب (٢٧) ، الاول بباب سوق الدواب ، فالعلافين فيصب في نهر كان المعتضد حفره ، ويمر شيء منه الى باب سوق الغنم ثم الى خندق العباس بباب الخرم ويبز في دجلة . بينما تتفرع من نهر موسى ايضا ثلاثة فروع صغيرة كانت تصب في ثلاثة احواض بنيت في القرن الثاني للهجرة . ويمضي نهر موسى حتى قصر المعتصم ، ومنه يتفرع نهر يمر الى سوق العطش حيث يفنى بعده في دار الوزير ابن الفرات ، ويسقى فرع آخر منه بستان الزاهر على دجلة ، ويصب - من ثم - فيه . فهذه الانهار كما يتضح لنا كانت تستخدم لسقي الزروع والجنائن اكثر من استخدامها للشرب ، كما ان سعتها من المياه لم تكن تكفي لان تصل ، في معظمها ، الى دجلة وانما كانت تفني في طريقها اليه ، مما دل على ضيق مجاريها وقلة مائها . ويظهر ان تجميع مياهها في احواض خاصة صناعية كما مر بنا ، كان يهدف الى تيسير استعمالها للشؤون اليومية ، ولكننا لانعلم نوع تلك الشؤون ، اهي للشرب ، ام غيره (٢٨) . وعلى اية حال فان تسمية احد الاسواق الكبيرة في هذا الجانب بسوق العطش ، يدل على ان مشكلة

(٢٦) انظر أحمد سوسة ومصطفى جواد : دليل خارطة بغداد الفصل ص ١٠٦ .

(٢٧) فصل القدامى وبعض المحدثين في وصف هذه الانهار وتبع مجاريها وما تمر به من نواح ، ولا يهمنا منها في بحثنا هذا الا ما له صلة بمشكلة مياه الشرب .

(٢٨) اشارت المصادر الى ثلاثة احواض ، هي حوض داود ، وحوض هيلانة ، وحوض الانصار ، ولكن ليست ثمة ما يدل على حجم ما تسعه من المياه ، وتدل اسماء من نسبت اليهم ، الى انها انشئت في فترة لم تتجاوز اوائل القرن الثالث للهجرة (٩ م) وهي الفترة التي لم تكن هذه الانحاء قد اكتظت فيها بالسكان بعد . ومن المحتمل ان تكون هذه الاحواض نوعا من مشاريع مياه الشرب ، لكننا نجهل فائدتها وطريقة عملها على وجه التحديد .

القدرة التي تطرحها الدور والقصور ومئات الحمامات الموجودة هناك (٢٦) .

٤ - السقايات والسقاؤون :

ان تلوث مياه الأنهار المخترقة مدينة بغداد ، بجانبها الشرقي والغربي ، كان إحدى أهم المشاكل التي واجهتها هذه المدينة في العصور العباسية الأخيرة ، ونحن نرى أن هذه المشكلة كانت وراء تغير حدود المساحات السكنية في خارطة بغداد أبان تلك العصور ، ففي الجانب الغربي أدى افتقاد ماء الشرب في الانحاء القاصية عن دجلة ، الى هجرة مستمرة من تلك الانحاء الى المحلات الشاطئية أو القريبة من مجرى النهر ، فبادت محلات باب التبن واعتابيين وباب البصرة وباب الكوفة ، والتستريين والكرخ القديم وغيرها من محلات طسوجي قطربل وبادوريا الزاهرة ، ليركز السكن في المحلات الشاطئية الجديدة ، مثل الرملة والقرية والنجمي والركة ، وهي المحلات التي كونت فيما بعد الكرخ الحديث ، بمحلاته المعروفة منذ العصر العثماني .

وتعرض الجانب الشرقي الى الظاهرة نفسها ، فقد تركت المحلات البعيدة عن دجلة ، كسوق العطش وسوق الدواب وغيرها ، بينما توسعت المحال القريبة منه ، مثل المخرم وسوق الثلاثاء وسوق السلطان ودرب دينار وحريم دار الخلافة وباب الازج ، وعلى ذلك استقرت بغداد الشرقية منذ أواخر العصر العباسي ، وحتى الثلث الاول من هذا القرن .

وكان السقاؤون يقومون بسد حاجة اهل بغداد الى المياه النظيفة نسبياً ، المأخوذة من نهر دجلة مباشرة ، فكان أولئك ينقلون مياه الشرب من دجلة الى دواخل المحلات بواسطة بغال الروايا ، وكانت لهم على شاطئ دجلة مشاريع مخصصة ، تسمح لهم - فيما يبدو - بأخذ الماء نظيفاً الى حد ما ، غير ملوث بما يلقيه الموج على الشاطئ من شوائب وأقذار (٢٧) . وقد

(٢٦) انتقد بعض مثقفي بغداد في القرن الرابع الهجري طبقة اهل الاسواق وارباب الحرف بانهم « يكدرون المياه » ابن عبد ربه : العقد الفريد (القاهرة ١٩٥٦) ٢/٢٩٣ . (٢٧) ذكر ابن بسام المحتسب انه « لما كانت الامواج تجيب الاوساخ والاقذار الى الشطوط ، وجب أن يكون السقاؤون يدخلون في الماء الى ان يبعدوا عن الاوساخ ، والا يستنقوا من مكان يكون قريباً من سقاية ولا مستحم ولا مجرة حمام » (نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، حققه حسام الدين السامرائي ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٢٥) .

اشتهرت في بغداد الغربية ، منطقة على شاطئ دجلة ، قرب باب خراسان ، اسمها « مشرعة الروايا » بأنها الموضع الذي ينقل منه السقاؤون الماء الى المدينة ، وكان في هذه المشرعة مسجد وحمام (٢٨) ، وفيها دفن الامام الاشعري سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م (٢٩) فنالت بذلك شهرة دامت حتى أواخر العصر العباسي (٤٠) . وعرفت في الجانب الشرقي مواضع نسبت الى اهل هذه الحرفة ، منها موضع اشتهر باسم « درب السقاين » كان قريباً من انشارع الأعظم (٤١) .

وتبارى السقاؤون في كل ما يتصل بنظافة مياههم ، وحسن عرضها ، بل عمد بعضهم الى تطبيقها بالعطور الزكية ، كالسك ، لتكون أحسن مذاقاً وأطيب طعماً . من ذلك ما نقله محمد بن عبيدالله التميمي عن ذي النون ، حين قال بمصر : من اراد المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد . فقليل له : وكيف ذلك ؟ فقال : لما حملت الى بغداد رمي بي على باب السلطان مقيداً ، فمر بي رجل متزر بمنديل ديبقي (٤٢) بيده كيزان خرف رقاق وزجاج مخروط ، فسألت : هذا ساقى السلطان ؟ فقليل لي : لا ، هذا ساقى العامة ، فأومأت اليه : اسقني ، فتقدم وسقاني ، فشمتت من الكوز رائحة مسك فقلت لمن معي : ادفع اليه ديناراً فأعطاه فأبى ، وقال : لا آخذ منك شيئاً . فقلت له : لم ؟ فقال : انت اسير ، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً . فقلت : كل الظرف في هذا (٤٣) !

وليست لدينا معلومات توضح ما يمكن أن تدره حرفة السقاية من مال ، الا أنها كانت - كما يبدو - حرفة العوام ، أو حرفة من لا حرفة له ، نظراً لعدم تطلبها خبرة معينة ، أو رأسمال

(٢٨) الخطيب ٢٤٦/١ .

(٢٩) الهمداني : تكملة تاريخ الطبري (تحقيق البرت كتمان ١٢٠/١ وابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ٣٢٢/١ .

(٤٠) المنتظم ١٦٩/٨ .

(٤١) الجعشيري : الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٢٨) ص ٢٨٩ .

(٤٢) الديبقي : نوع من القماش الفاخر ينسب الى « ديبق » وهي بلدة كانت بين الفرما وتيس من أعمال مصر (معجم البلدان ٢/٢٨) ، والمنديل هنا بمعنى حزام أو منطقة . انظر دوزي : المعجم المفصل باسماء اللباس عند العرب (ترجمة اكرم فاضل ، بغداد ١٩٧١) ص ٣٣٥ .

(٤٣) ابن الجوزي : أخبار الظراف والمتاجنين (القاهرة ١٩٧٨) ص ٣١ ومناقب بغداد ٣١ .

خاص (٤٤) . وكان السقاؤون يؤلفون صنفاً من الاصناف المهمة في التنظيم الحربي في بغداد في العصور العباسية ، ولهم ولي خاص بهم ينتسبون اليه ، هو سلمان الكوفي ، أو محمد بن عبدالله (٤٥) .

والنصوص التي توضح طبيعة اشراف الدولة ببغداد على هذا الصنف المهم غير كافية وان كان مؤلفو كتب الحسبة قد قدموا لنا معلومات ذات قيمة وبصفة عامة ، عن العلاقة بين الطرفين . ففرقوا بين صنفين رئيسيين يتصلان بمهنة السقاية ، أولهما صنف السقائين ، وثانيهما صنف الروايا ، وهم صانعو قرب السقائين والاتهم ، وبينما يوصى الفريق الاول « بنظافة ازيارهم ، وصيانتها بالاغطية ، وتغطية قربهم التي يسقون منها في الاسواق بالميازر ، ويمنعهم ان يسقوا بكيزانهم المجذوم والابرص واصحاب العاهات والامراض الظاهرة ، وجلاء الكيزان النحاس كل ليلة وتطيب شبابيكها بشمع المسك والالادن (٤٦) الطيب العنبري واقتصاد الخواوي (٤٧) بالبخور والغسل كل ثلاثة ايام » (٤٨) يوصي الفريق الاخر بان « يعرف عليهم عريفا ثقة عارفا ، ويأمره ان يمنعهم ان يعملوا شيئا من هذه الاوقات والالات الحافظة للمياه التي فيها مادة الحياة الا من الجلود المدبوغه بالقرض اليماني التي قد استحکم دباغها وطال مكثها في الدباغ (٤٩) » وشرط على عريفهم ان يتفقد دكاكينهم كل وقت وهذا كله يدل على ادراك الدولة خطورة هذه الحرفة لتأثيرها الشديد على صحة الناس .

وتفيدنا كتب الفقه بأن الحصول على الماء النقي الصالح للشرب ، لم يكن ميسراً للفقراء في معظم الاحوال ، فقد تشدد نفر غير قليل من الفقهاء في التأكيد على ان مياه السقايات العامة الشديدة على صحة الناس .

عرف عن بعض اهل التصوف والزهد احترامهم هذه الحرفة ، ومن مشاهيرهم الشيخ الصوفي الزاهد ابي النجيب عبدالقاهر بن عبدالله السهروردي الصديقي الشافعي (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٧م) فقد لبث « عدة سنين يستقي بالقربة على ظهره بالاجرة ويتقوت بذلك ومن عنده من الصوفية » . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة ١٣٢٤هـ) ٢٥٦/٤ .

(٤٥) ابن العماد البغدادي : كتاب الفتوة (حققه مصطفى جواد وآخرون ، بغداد ١٩٦٠) ص ٩٢ .

(٤٦) اللادن : نبات تستخرج منه مادة زكية الرائحة .

(٤٧) الخواوي : القرباب .

(٤٨) ابن بسام : نهاية الرتبة ٢٥ - ٢٦ .

(٤٩) نهاية الرتبة ٢٠٣ .

وعلى الرغم من أهمية هذه المرافق الحيوية في حياة مدينة كبغداد ، فاننا لم نعر الا على وصف القليل منها ، ويظهر ان معظمها كان يعتمد على السقائين أيضاً ، يملؤون احواضها كل يوم بأجر معلوم . بيد ان هذا لا ينفي اعتماد بعضها طرقاً هندسية متقنة ، والأخبار القليلة التي وردت عن هذه السقايات تفيد بانها كانت تأخذ مياهها من دجلة عن طريق قنوات تحت الأرض . ولكن ليست ثمة معلومات عن طريقة عملها ، والأسلوب المتبع في انشائها . وقد سبق ان ذكرنا بان قنوات المنصور كانت ، فيما روته المصادر ، مبنية على شكل عقود وثيقة من اسفلها ، محكمة بالصاروج ، وان اشارات مختلفة تدل علي اتباع هذه الطريقة في بناء الانفاق تحت الارض بوجه عام (٥٢) .

(٥٠) انظر محمد بن ولي القرمشهري الأزميري : رسالة في شؤون السقايات ووقفها (مخطوط في المكتبة القادرية ببغداد) الورقة ٦ و ٨ .

(٥١) ذكر بعض الكتاب ان عدد سقايات بغداد بلغت في آخر العصر العباسي (١٠٢٥) سقاية من النوع المسمى « مزملات سبيل » اعتماداً على احصاء نقله الاب انستاس ماري الكرمل من كتاب الدر المكنون لياسين العمري الموصلية ونشره في مجلة المشرق (مج ٤ [بيروت ١٩٠٨] ص ٢٠٤) وأعيد نشره في دليل خارطة بغداد الفصل للدكتورين احمد سوسة ومصطفى جواد (ص ١٩٤) وعند رجوعنا الى مخطوطة الدر المكنون (نسخة باريس ٤٤٤٩) تبين ان مصدر هذا الاحصاء هو ابن الجوزي في بعض كتبه ، وانه يخص مدينة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ لا بغداد ، وان العدد الصحيح لسقايات الموصل هو ١٢٥ لا ١٠٢٥ كما تسربت اخطاء مشابهة لفردات الاحصاء الاخرى .

(٥٢) الأزميري . الورقة ٧ .

(٥٣) ومن تلك الانفاق المعروفة ، نفق كان يصل بين قصر الثريا (موقعه خارج سور بغداد الشرقية المنشأ بعده) وقصر التاج على شاطئ دجلة ، وبينهما مقدار ميلين على ما قدر ياقوت ، بناء المعتضد (معجم البلدان ٧٧/٣) ومن ذلك ما رواه لي السيد عبدالهادي المختار ، من انه عثر ايام كونه مديراً للمدرسة المامونية القديمة (في

الشرب من دجلة الى تلك المناطق المرتفعة ، فليس لنا الا ان نستدل من اوصاف سقايات بغداد في العصر العباسي ، الى ان الامر كان يجري على اساس الزيادة في علو مأخذ القناة من الدولاب الذي يمدّها بالماء ، الى حد يعلو على ارتفاع الارض المنشأة فيها السقاية ، فينبثق الماء من نهاية القناة عند السقاية ، بقوة عمود الماء النازل في الطرف الاخر من القناة عند مأخذها من النهر . وهذا ما يفسر سبب ابتكار المهندسين البغداديين في العصر العباسي الاخير ، دوليب متعددة العلو ، تستطيع اصعاد الماء الى علو شاهق ، يبلغ اربعة اضعاف ما يستطيع اصعاده دولاب واحد (لاحظ ماسياتي عن سقاية دار الخلافة) . ومن الطبيعي ان يُمكن نزول الماء من هذا العلو وصوله الى اي نقطة في المدينة مهما ارتفع مستوى ارضها ، لينبثق من سقايتها باندفاع على هيئة « الفوارات » المذكورة آنفاً ، على حسب قاعدة « الاواني المستطرقة » (انظر الشكل ١ و ٢) وعلى اية حال ، فان وصف دوليب دار الخلافة العباسية ببغداد يقدم احتمالاً قوياً بأنه كانت ثمة وسائل متنوعة لرفع المياه وتوزيعها ليست معروفة لنا الآن . وفي الحقيقة فان معلوماتنا عن الوسائل الميكانيكية التي كانت تتبع في تزويد تلك المنشآت الحيوية بالماء ليست كافية لدراستها من هذه الناحية (٥٨) .

(٥٨) اهتم المهندسون العرب بابتكار او تطوير طرق ميكانيكية متقنة لرفع المياه بالكميات الكافية والسرعة الكبيرة ، وصمموا انواعاً بارعة من الآلات الخاصة بهذه الامور ، بلغ بعضها شأواً بعيداً من الاتقان في الصنعة ، والبراعة في التصميم ، مما سجل احياناً سبقاً علمياً لهم في هذا المضمار ، تقدموا به علماء اوربة بشروط غير يسر ، مثل اختراعهم المضخة ذات الاسطوانتين وذات الاسطوانات الستة ، والمضخة الحلزونية . وبما ان تصميمات هذه الآلات كانت مما حفظته لنا كتب التراث العلمي العربي ، ولعل من أهمها كتاب ابن الجزري المعنون « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » وكتاب تقي الدين محمد بن معروف المعنون « الطرق السنية في الآلات الروحانية » فقد ساد الأوساط العلمية اعتقاد بان هذه الآلات المتقدمة لم تخرج من نطاق النظرية الى واقع التطبيق ، الا انه تم العثور أخيراً على آلة ما تزال في حالة جيدة تقوم برفع الماء من نهر يزيد الى المسجد بالمرستان القيرواني (في سفح قاسيون بدمشق) وهي مبنية على اساس بعض التصميمات المعقدة لكتاب ابن الجزري ، فأثبت ذلك ان عبقرية المهندسين العرب لم تكن حبيسة الكتب والمعرفة النظرية حسب ، وانما وجدت لها تطبيقات عملية نافعة في الحياة العامة . وليس بعيداً ان يكون بعض تلك الآلات التي وصفها مؤلفو الكتب المذكورة ، وجد طريقه الى التنفيذ في بغداد ، وهي ←

ومن ناحية اخرى ، فان الكرخي (٥٩) وصف ، فيما رآه من « حال العراق » طريقة توصيل المياه الى المواضع البعيدة بواسطة استخدام « البرايخ » وهي انابيب الفخار المتألفة من قطع عديدة ، توصل ببعضها بطريقة محكمة . ويبدو ان هذه الطريقة كانت أكثر اتباعاً في شؤون السقايات ، نظراً لقلّة كلفتها ، وسهولة مدها (٥٩) .

وتختلف اطوال هذه القنوات بحسب بعد السقاية عن شاطئ دجلة ويظهر ان انشاءها كان يجري وفق خطة هندسية وقياس دقيق لمستوى ارتفاع الأرض (٥٩) حتى يكفل ذلك للماء الخروج من السقاية على هيئة فوارة متدفقة - على ما وصفها المؤرخون - ، ويزداد ادراكنا لصعوبة العمل اذا لاحظنا ان مستوى الارض ببغداد الشرقية لم يكن على ارتفاع واحد ، فهو في الجنوب يقل ارتفاعاً كلما شرّق مبتعداً عن شاطئ دجلة (٥٧) . وهذا يسهل مهمة مد القنوات تحت الأرض او فوقها وانسياب الماء فيها الى اي بعد مطلوب . بيد ان الامر في المناطق الوسطى والشمالية من المدينة أكثر صعوبة ، حيث يزداد مستوى الأرض ارتفاعاً كلما اتجه شرقاً (وهو امر يؤكد انسياب فرعي نهر بين الأخذ من الخالص من الشرق الى الغرب وصبهما عند قصر التاج ، والمدرسة المستنصرية) . واذ لم يصلنا خبر الطريقة الهندسية المتبعة في اصال مياه

الميدان (على نفق معقود بالاجر والنورة ، عريض عال ، ظاهر القدم ، عند حفر (بالوعة) للمدرسة ، وهو يتجه مشرقاً الى موقع مدخل شارع الرشيد تقريباً . ولكن ظروف العمل السرعة أدت الى ردم هذا الجزء منه ، فصاعت آثاره .

(٥٩) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي : انباط المياه الخفية (حيدر آباد الدكن ١٣٥٩) ص ٣٣ .

(٥٥) ذكر الكرخي ان « البرايخ تنصب في الماء لأميرين ، اما ان تكون ساقية ناشئة له يمح (كذا) الماء أو لصيانه من حلول التجاسات فيه اذا كان جريه على وجه الأرض في ساقية غير قعيرة ما بين العمارة » .

(٥٦) وهو ما تعرفه كتب التراث العلمي العربي بوذن الأرض ، ويعرفه المساحون المحدثون ب « التسوية » ويريدون به اعمال رصد ارتفاعات الاراضي ، وذلك بالنسبة لمستوى سطح البحر أو لنقطة معينة على الأرض . وعرفه الكرخي بأنه « معرفة مقدار صعود مكان على مكان بينهما بعد قليل أو كثير ، وعلم ذلك بالموازين » (انباط المياه الخفية ص ٢٥ - ٥١) .

(٥٧) يبلغ ارتفاع مستوى الأرض عند مدخل شارع الكيلاني في السنك (قرب نهر دجلة) ٣٥٤٥ متر فوق مستوى سطح البحر ، وارتفاعه عند نهايته (عند السدة الشرقية) ٣٢٦٦ .

فمن السقايات العامة التي انشئت في العصر العباسي ، نذكر :

١ - سقاية الرازي .

انشأ هذه السقاية الخليفة الرازي بالله (٣٢٢-٣٢٩ هـ / ٩٣٤-٩٤٠ م) في جامع المنصور في المدينة المدورة بغربي بغداد ، ولا نعلم ما اذا كان ثمة اتصال بينها وبين تلك القنوات التي كانت تنقل الماء تحت الارض الى قصر المنصور في العهد الاول للمدينة . واول اشارة الى هذه السقاية ما جاء في حوادث غرف بغداد سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م . فقد ذكر ابن الجوزي ان المشرف على اليمارستان العضدي اضطر الى ان يبعث المرورين الى « سقاية الرازي بجامع المنصور » (٥٩) وآخر اشارة اليها ما جاء في ترجمة الشيخ عبد الله الرومي الحنفي سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م . قال ابن الساعي البغدادي في ترجمته « شيخ زاهد عابد منقطع في سقاية الرازي بالله بجامع المنصور » (٦٠) وهذه النصوص توحى للمرء باتساع السقاية المذكورة بحيث يمكن ان تتخذ مأوى للمرضى ومتعبداً للزهاد ، وانها استمرت قائمة بمهمتها في ارواء اهل تلك الناحية مدة لا تقل عن ثلاثة قرون .

٢ - سقايات جامع الرصافة

كانت هذه السقايات في طريق جامع الرصافة ، في اعلا بغداد الشرقية ، اشار اليها هناك ابو الوفاء علي بن عقيل البغدادي (ت ٥١٣ هـ / ١١١٩ م) عند وصفه احياء الجانب الشرقي من بغداد ، وما فيها من القصور والدور والدروب والأسواق ، في حديث طويل ، منه قوله

حاضرة العالم الاسلامي ، ومبارة الخلافة العباسية ، الا ان زوال تلك المشاريع منذ عهود بعيدة ، وعدم تفصيل المؤرخين في شأنها ، يجعل من المتعذر تصور طريقة عملها من الناحية الفنية ، وان كان من المحتمل انها من نوع السواقي (أي المضخات ذات الزناجير والدلاء) المعروفة والمتنشرة في العالم الاسلامي وهي التي تدور بواسطة الحيوانات وليس بقوة الماء (نشر د. أحمد يوسف الحسن الفصل الخاص بالآلات المائية من كتاب ابن الجزري في مجلة تاريخ العلوم العربية التي يصدرها معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، مجلد ١ عدد ١ [أيار ١٩٧٧] ص ٢٠ - ٤٠ ونشر كتاب تقي الدين مع دراسة تحليلية بعنوان تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية ، حلب ، ١٩٧٦) .

(٥٩) المنتظم ٢٤٥/١ .

(٦٠) الجامع المختصر في عيون التواريخ وامين السير ج ٩ (بتحقيق مصطفى جواد بغداد ١٩٣٤) ص ٢٤٥ .

« ثم سوق الرصافة وجامع الرصافة ودرب الروم ، وشارع عبدالصمد ، والسقايات العجيبة في طريق الجامع ذات الأجراس الكثيرة » (٦١) . وبما اننا لا نعلم طريقة عمل هذه السقايات ، فليس بالامكان تصور وجه العجب فيها ، وليس في النص المقدم ما يفيد بتاريخ انشائها اول مرة .

٣ - سقايات جامع القصر

انشأ هذا الجامع الخليفة المكتفي بالله اثناء فترة حكمه (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م) فكان ثالث الجوامع ببغداد ، بعد جامع المنصور في المدينة المدورة وجامع المهدي في الرصافة . ثم تولاها بالاصلاح والتوسيع الخلفاء من بعده لاتصاله بدار الخلافة العباسية من جهة ، ووقوعه في قلب بغداد الشرقية من جهة اخرى (٦٢) .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة (١١ م) انشأ الوزير ابو نصر محمد بن جهر ، فخر الدولة (٦٣) ، سقاية في هذا الجامع « وأجرى فيها الماء من داره في قنى تحت الأرض ، وجعل لها فوارات فانتعف الناس بذلك منفعة عظيمة » (٦٤) . وقد ذكر المؤرخون ان دار الوزير ابن جهر كانت تقع في محلة باب المراتب (٦٥) ، في اسفل حريم دار الخلافة ، على شاطئ دجلة (٦٦) ، في فيكون مأخذ هذه القنى من الشاطئ المذكور ، في موضع يبعد بما يزيد على كيلومتر واحد ، عن

(٦١) مناقب بغداد ص ٢٦ ولا ندرى أية علاقة بين السقايات والأجراس ، ولعل ذلك من قبيل الطرق التي شرحها تقي الدين في كتابه «الطرق السنية في الآلات الروحانية» عند وصفه مجموعة من « الفوارات » المائية ، ذات تصميمات تصدر أصوات « الزمر الدائم والنقارات » (تقي الدين : مصدر سبقت الاشارة اليه ، الباب الرابع ص ٣٩ - ٤٨) .

(٦٢) عماد عبدالسلام رؤوف : جامع الخلفاء قديما وحديثا . مجلة الرسالة الاسلامية ٧٠/٢ - ٧٨ .

(٦٣) تولى الوزارة للقائم والمقتسدي في السنوات ٤٥٠ و ٤٥٤ و ٤٦٠ - ٤٦٧ هـ . زامباور : معجم الأساب والاسرات الحاكمة (القاهرة ١٩٥١) ص ٩ .

(٦٤) المنتظم ٣/٩ .

(٦٥) وموقع هذه المحلة اليوم في ارض شريعة السنك وحواليها .

(٦٦) استملكت هذه الدار السيدة بنفشة حظية المستضيء بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥) المتوفاة سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م ، ثم حولتها لتكون مدرسة للحنابلة ، وافتتحتها سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م ، وكان اول من تولى التدريس بها ابو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) انظر : كتابنا مدارس بغداد في العصر العباسي (بغداد ١٩٦٦) ص ١٨٤ - ١٩٠ .

بالبطرق الاعتيادية . وقد لاحظ الرحالة المغربي ابن بطوطة ذلك عند زيارته بغداد سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م فقال « وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة ، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ، وهو جامع كبير فيه سقايات ، ومظاهر كثيرة للوضوء والغسل » (٧٢) .

٤ - سقاية دار الخلافة

من المشاريع الهندسية البديعة التي شهدتها بغداد في اواخر القرن السادس للهجرة (١٢م) ، انشأتها السيدة بنفشة بنت عبدالله الرومية حظية الخليفة المستضيء (توفيت سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) . وكانت تأخذ مياهها بطريقة فريدة ، لم يرد ما يشبهها في غيرها من السقايات المختلفة ، وقد وصف ابن الساعي البغدادي هذا المشروع بأنه « أربعة دواليب ، تستقي الماء من دجلة الى دار الخلافة العظيمة ، كل واحد منها أعلى من الآخر ، فيأخذ الأول من دجلة ، والثاني من الأول ، والثالث من الثاني ، والرابع من الثالث » (٧٣) وقد بحثنا في كتب الآلات المائية ، على ما ينطبق عليه هذا الوصف ، فلم نعثر على بغيثنا ، وانشاء مثل هذا المشروع يستلزم بناء دار عالية ذات أربعة طوابق ، في كل منها دولاب يدور . ولا نعلم وجهاً لا يصل الماء الى هذا الارتفاع الشاهق ، سوى الاستفادة القصوى من ضغط الماء النازل لاحداث فوارات عالية (شاذروانات) واصل المياه الى مواضع مختلفة من دار الخلافة العباسية ، على ما اشرنا اليه من قبل (انظر الشكل ١ و ٢) .

٥ - سقاية تربة احمد بن حنبل بالجانب الغربي

انشأ هذه السقاية سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م الخليفة المستنصر بالله ، اظهاراً لتأييده لمذهب الحنابلة الذي كان يميل اليه (٧٤) . ويفهم مما ذكره صاحب كتاب الحوادث ان أخذ السقاية للماء اعتمد على طريقة السقائين ، لا على حفر القنوات

(٧٢) رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٢٨) ١/ ١٤٢ .

(٧٣) ابن السامي : جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والاماء (تحقيق مصطفى جواد ، القاهرة) ص ١٢٦ .

(٧٤) دفن احمد بن حنبل في مقبرة باب حرب ، وهي من أشهر مقابر بغداد في العصور العباسية ، وكان موقعها في خارج عمارة البلد ، الى الشمال من مقابر قرشي (الكاظمية) وقد زال قبر ابن حنبل نتيجة لتحويل نهر دجلة مجراه .

مصبتها في الجامع ، والظاهر ان مدها لتصل شاطئ دجلة مباشرة ، في اقرب مسافة بين الجامع والشاطئ على خط مستقيم ، كان يعد من الأمور المتعذرة أو العسيرة ، بسبب وقوع قصور دار الخلافة في هذه المنطقة ، واشغالها طراز دجلة الشرقي ، فلم يكن بالإمكان اذن مد هذه القنى الا من منطقة اقل ازدحاماً في السكن ، هي باب المراتب ، حيث تنتهي قصور الخلافة ومرافقها .

ولقد استمرت هذه السقاية تؤدي عملها زمناً طويلاً على الرغم من موقعها البعيد عن مصدر مياهها ، وطول القنوات التي تمدها بالمياه من دجلة ، فوصف الرحالة ابن جبير هذا المشروع المهم بعد نحو قرن من الزمن بقوله « جامع الخليفة (٦٧) متصل بداره (٦٨) ، وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والظهور » (٦٩) .

وفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م أمر الخليفة المستنصر بالله بانشاء سقاية أخرى في جامع القصر ، وكانت هذه السقاية الجديدة تأخذ مياهها من حباب تملاً بالماء في مواعيد منتظمة ، والظاهر ان قنوات الوزير ابن جبير الأرضية لم تعد تكفي لايصال مياه الشرب والوضوء والغسل للجامع المذكور ، فاستعين بهذا المشروع الجديد لسد الحاجة المتزايدة . قال صاحب كتاب الحوادث في حوادث السنة المذكورة « وفي آخر شعبان ، انتهى من عمارة باب جامع القصر مما يلي الرحبة ، وفتح ، وفتح المزملة (٧٠) التي عملت بالجامع المذكور أيضاً » (٧١) .

يتضح لنا مما تقدم ان جامع القصر احتوى لأهميته على عدة سقايات كبيرة ، لا سقاية واحدة ، وان بعض تلك السقايات كان يأخذ مياهه من دجلة بطرق هندسية ، والبعض الآخر يأخذها

(٦٧) تسمية جامع القصر بجامع الخليفة متأخرة نسبياً ، وفي العصور الأخيرة شاعت تسميته بجامع الخلفاء ، ثم عرف بين العامة باسم جامع سوق الفزل حتى ازالته عند فتح شارع الجمهورية سنة ١٩٥٧ ، وقد قامت « الاوقاف » اخيراً بانشاء مسجد جامع كبير حوالي مئذنته القديمة (وهي كل ما تبقى منه) واطلقت عليه اسم « جامع الخلفاء » .

(٦٨) يريد بدار الخلافة العباسية وفيها قصور الخلفاء .

(٦٩) رحلة ابن جبير (بغداد ١٣٥٦هـ) ص ١٨٢ .

(٧٠) انظر ما تقدم عن معنى هذا اللفظ .

(٧١) كتاب الحوادث المسمى بالحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١هـ) ص ١٠٣ .

أو رفعها ، قال في حوادث السنة المذكورة (٧٥) « وفيها أمر الخليفة بعمل زملة عند قبر الامام احمد بن حنبل - رضى الله عنه - لأجل الزوار والواردين فلما تكامل بناؤها فتحت ، وجعل فيها الحباب وملئت من الجلاب . ورتب فيها قيّم يقوم بمصالحها ، ونظم الشعراء في ذلك قصائد ، منها ما قاله جعفر بن مهديوه الكاتب من قصيدة يمدح بها الخليفة :

وقبر احمد قد طرز
بحلية زينت منه مبانيه
ثم اتخذت لنا فيه زملة
تدل انك يوم الحوض ساقيه
فاسلم فدتك الرايا يا امام الهدى
تهدى الى الحق من ضل في التيه «

٦ - سقاية المدرسة المستنصرية

احتوت المدرسة المستنصرية منذ افتتاحها سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م على سقاية تزود طلبتها ومدرسيها والقائمين عليها وغيرهم بمياه الشرب والوضوء ، وكان لهذه السقاية موظف خاص ، يسمى « زملائي » نسبة الى « المزملة » وهي حباب الماء المخصصة للشرب . فقد ورد في شروط الخليفة المستنصر على مدرسته ، انه شرط أن يكون فيها « زملائي » ، وقرر له ما لغيره من الجرايات والمشاورة (٧٦) (٧٧) .

ويفهم مما جاء في ترجمة ابن الحشاش ، انه كان للزملائي هذا مظهراً يوحى بالهيبة ، وان راتبه كان يبلغ خمسة دنائير كل شهر . حكى شمس الدين الجزري انه « دخل بغداد ، ودخل المستنصرية ، فشرب من المزملة ، فلما فرغ ، قال للذي فيها ، وكان عليه بزة : حاشاكم ، أو ما هذا معناه . فقال شخص : لا تقل له هكذا ، هذا له خمسة دنائير على سقي الناس ، أو ما هذا معناه » (٨٧) .

(٧٥) الحوادث ص ٩١ .

(٧٦) ابن السامي : التاريخ المرتب على السنين (في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ٤ ج ١ ص ٤٢ ، ١٩٢٤) .

(٧٧) الجراية : ما يجسرى على ارباب الوظائف من المواد العينية ، كالخبز والسمن وغيره ، والمشاورة راتبهم الشهري .

(٧٨) التقي الفاسي : منتخب المختار من تاريخ ابن رافع السلامي المذيل به على تاريخ ابن التجار (نشره عباس المزوي ، بغداد ١٩٢٨) ص ٢١٣ .

وفي سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م انشأ صاحب ديوان العراق علاء الدين عطا ملك الجويني (٧٩) مشروعه الكبير لتزويد المدرسة المستنصرية والمنطقة المجاورة بمياه الشرب . فكان المشروع يتألف من دولاب على شاطئ دجلة المجاور ، يصب الماء في قناة محكمة ، مبنية تحت الارض ، فتزود القناة زملة المدرسة ، ثم بركة صنعت في وسطها ، ثم تخرج من المدرسة لتمد بمائها زملة أخرى عملت تجاه ايوان الساعات (وهي مائة ايضاً) التابع لمدرسة الطب ، مقابل بابها الرئيس (٨٠) . قال صاحب كتاب الحوادث ، في احداث السنة المذكورة « تقدم علاء الدين صاحب الديوان بعمل دولاب تحت مسناة المدرسة المستنصرية يقبض الماء من دجلة ويرمي الى زمملتها ، ثم يجري تحت الارض الى بركة عملت في صحن المدرسة ، ثم يخرج منها الى زملة عملت تجاه ايوان الساعات خارج المدرسة ، وجدد تطبيق صحنها ، وتبني حيطانها » (٨١) .

وبما ان انشاء هذا المشروع كان تالياً لانشاء المدرسة ذاتها ، فمن غير المتصور انه غير في تصميمها العام . والظاهر لنا ان مهندس الجويني عمدوا الى مد القنوات من خلال المواضع التي يمكن تقبها والتغيير فيها ، لذا فمن الراجح ان تكون القنوات قد اجتازت احد بابي المدرسة المطلين على ضفة النهر ، الواقعين في مسجدها ، فزودت المزملة الاولى هناك ، ثم قطعت صحن المدرسة ، بخط مستقيم ، لتمد البركة في وسطه ، ومنها خرجت من تحت باب المدرسة الرئيس ، الى المزملة الثانية ، وذلك لاستحالة مد اية قناة من تحت مباني المدرسة الضخمة فيما عدا المواضع المذكورة . ويلاحظ ايضاً ان وجود البركة ، والمزملتين ، وجريان الماء فيها على الدوام ، يوجب وجود قناة أخرى لتصريف المياه الفائضة ، ولكن النصوص لا تكشف لنا شيئاً عن هذا الامر .

(٧٩) حكم العراق ، بعد وفاة ابن العلقمي الوزير السابق ، من سنة ٦٥٧ الى ٦٨١هـ/١٢٥٧ - ١٢٨٢ . عماد عبدالسلام رؤوف : حكام العراق وموظفوه في عهد المغول الايلخانيين مجلة المؤرخ العربي (يصدرها اتحاد المؤرخين العرب) العدد ١١ ص ٦٠ .

(٨٠) اي في سوق الهرج الحالي ، عند جامع القبلانية . وكنا قد اثبتنا بان هذا الجامع ورث ارض مدرسة الطب والايوان التابع لها في مجلة الرسالة الاسلامية (بغداد ، تصدرها وزارة الاوقاف) الاعداد ٢٣ و ٢٨ - ٣٩ و ٤٣ (سنة ١٩٧٢) .

(٨١) الحوادث ص ٣٦٥ .

الفصل الثاني

مشاريع مياه الشرب في العصر العثماني

١ - مشكلة مياه الشرب

توالى احتلال القبائل الغازية لبغداد منذ سقوطها الأول على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ، وتقلبت بأيدي دول قبلية متخلفة مدة تزيد على ثلاثة قرون حتى دكت معالمها الحضارية، وتعرضت الحياة فيها الى خطر التخريب والتدمير ، وهجرها الكثير من اهلها ، بينما قضت النكبات على قسم غير قليل منهم . وكان من نتائج هذه الاوضاع ، ان سرعت عملية انكماش المساحة المسكونة من بغداد ، وهي العملية التي بدأت بعض ملامحها تظهر منذ اواخر العصور العباسية، فانحصر السكن داخل اسوار الجانب الشرقي على ما استقرت عليه في اخر القرن الخامس للهجرة (١١١م) . ثم استمرت عملية الانكماش السكني ، كمظهر من مظاهر الانكماش الحضاري العام ، فخلت اماكن واسعة داخل الاسوار ذاتها ، كانت قد وصفت بانها محلات مكتظة شبيهة بالمدينة المستقلة . وتحولت محلات مثل باب الأزج وباب المراتب والبصلية وقطية العجم والريان وغيرها، الى صحراء قاحلة لا نبت فيها ولا ماء ، وكانت الانهار التي وصفناها فيما سبق ، قد أهملت تدريجياً ، حتى اندثرت تماماً في خلال القرنين الثامن والتاسع (١٤ و ١٥م) ففقدت بغداد بذلك ما كان يحيط بها من نبات وخضرة ، وبخاصة في الاقسام المحصورة بين سورها الشرقي والمناطق السكنية ، وهي الاقسام التي كان يسقيها نهر بين الاخذ من الخالص بفروعه العديدة في العصور السابقة ، مما ادى الى ازدياد تجمع السكان في المحلات القريبة من دجلة ، والى ان تتخذ مشكلة نقل مياه الشرب - من ثم - شكلاً آخر يقوم على اساس التغير الجديد .

ومن الجدير بالملاحظة اننا لم نعد نسمع في هذا العصر ما يشير الى انشاء قنوات محكمة تحت الأرض توصل مياه الشرب الى السقايات العامة ، بل اننا لا نعلم الفترة التي استمرت فيها هذه المشاريع قائمة بمهمتها ، فقد انطوت اخبار المشاريع المذكورة بانقضاء صفحة العصر العباسي نفسه . واقرب الى الاحتمال ان بغداد اكتفت في الفترة السابقة على العصر العثماني ، بما يحمله اليها السقاؤون من مياه دجلة في « قِرْبِهِمْ » ، ولا

شك انه كانت هناك سقايات عامة موزعة في ارجاء المدينة يملؤها السقاؤون لتبقى في خدمة السكان بقية اليوم . بيد ان معلوماتنا لا تكفي لتصور مدى نجاح هذه السقايات في سد حاجة أولئك السكان من مياه الشرب فضلاً عن توفير مياه الاستعمال . ومن الراجح ان تكون الآبار قد اتخذت مورداً للنوع الأخير من المياه .

ولقد شهدت بغداد ، منذ استقرار الحكم العثماني فيها في بدايات القرن الحادي عشر للهجرة (١٧م) ، تطوراً ملموساً في تصميم مشاريع دائمة لنقل مياه الشرب ، تعتمد على انشاء قنوات محكمة ، مرفوعة على عقود عالية مبنية بالآجر والنورة واخلطها ، ويرفع الماء اليها بواسطة الدواليب ، فتجري المياه في القنوات المطلية بطبقة من القار ، مجتازة بذلك الدروب والمحال ، بانحدار محسوب ، حتى تصل الى المواضع المهمة ، او الأكثر ازدحاماً في السكن ، فتتفرع منها في قنوات اخرى لتصب في السقايات المشيدة هناك ، بينما تحمل القنساء الرئيسة الفائض من الماء الى مناطق بعيدة نسبياً ، لتغذي بعض السقايات في تلك النواحي ، وليفنى ما يتبقى في الاراضي القاحلة حوالها . وهذا النوع من مشاريع مياه الشرب يذكرنا بمشروع قنوات الساج الذي اقامه المنصور لمدينته بالمياه من نهر دجلة ، الا ان المشاريع العثمانية تميزت بساتها ودوام عملها ، وهي في الواقع لم تكن الا تقليداً لامثالها من المشاريع التي انشأها العثمانيون في بعض المدن الكبيرة ، متأثرين بعمارة القنوات اليزنطية العالية التي كانت تزود مدن الاناضول بالماء منذ عهود قديمة (انظر الشكل ٤) .

بيد ان استخدام هذا النوع من السقايات ، لم يقض على النوع الآخر الذي يعتمد على انشاء احواض كبيرة ، او حباب ، تملأ بالماء كل يوم بواسطة سقائين لهم اجر معلوم . فقد ميز الفقهاء العثمانيون بين هذين النوعين ، فاعتبروا النوع الأول من المشاريع الخيرية العامة ، الموقوفة لنفع الجميع بلا ادنى تمييز ، ويظهر انهم اعتبروا حكمها كحكم العيون الطبيعية المسماة « چشمه » . اما النوع الآخر ، فانهم سمحوا بوضع بعض الشروط عليه ، كتخصيص مائه للفقراء بالدرجة الاولى (٨٢) ، وترتيب قيم مسؤول عن ادارته ،

(٨٢) يذكر محمد بن ولي الازمري (ت ١١٦٥هـ / ١٧٥١م) ان « الماء مشترى بقلات الاوقاف المعينة له ، ومتخذ بطريق الاجارة وبعطى الاجرة من تلك القلات ، لذا فلا يستوى

ياخذ راتبه من غلة الوقف ، وما الى ذلك من أمور (٨٣) .

ويذكر الرحالة محمد ظلي المعروف بأوليا جلبي الذي قدم ببغداد سنة ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م وسنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م انه كان فيها نحو مائة سقاية يسميها « سبيل » ومائتي « چشمه » من النوع الذي يملؤه السقاؤون بقربهم من النهر (٨٤) . هذا في حين اعتبر الآقشيري (٨٥) السبيل (أو السبيل خانة) ما يملأ بالقرب بالأجرة ، و « چشمه » عيون الماء النضاحة ، ويقرب منها ما تحمله القنوات من مياه دافقة متصلة تصب في سقايات عامة .

ويستفاد مما ذكره أوليا جلبي أيضاً ، ان صعوبات جمة كانت تكتنف عمل السقائين في نقل المياه من النهر ، الى درجة ان حاجة المدينة لم تكن تسدها الا مياه الآبار التي يقدرها ب (٦٠٠٠) بئر . ونحن نعتقد بأن وجه الصعوبة التي اشار اليها أوليا جلبي هو ان شواطئ بغداد في عهده كانت مغلقة في وجه السقائين الا من مكان واحد فحسب ، قرب الميدان ، اشار اليه هو ، اما سائر الشواطئ فكانت مسورة بسور عال ليس له من باب سوى باب الجسر . وقد وردت صورة هذا السور في صورة ببغداد التي رسمها نصوح السلاحي الطراقي سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م ، وخارطة بغداد من عمل تافرنبيه سنة ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م (٨٦) ، ومنها يظهر انه لم تكن لبغداد مشاريع على دجلة ، ولعل هذا هو ما دفع حكام المدينة الاوائل الى مد القنوات على عقود الأجر لتزود سقاياتها الداخلية . ويؤكد هذا القول ان دواليب هذه القنوات لم تكن تأخذ مياهها

الفني والتقدير بالارتفاع به ، والقول بان الفلة تصرف على مصارف التولي وعمارة السقاية لا الماء غير صحيح ، كيف ولا يحمل الماء الى السقاية مجاناً بل بثمان او اجرة يعطى من الفلة » . رسالة في شؤون السقايات ووقفها (مخطوط) الورقة ٨ وانظر عبدالرحمن بن شيخ محمد : مجمع الانهر في شرح ملتقى الأبحر (المطبعة العثمانية ١٣٠٥) ص ٣٢٦ .

(٨٢) ومن تلك الشروط انه يصب فيها الماء بالجرة للشرب أو الوضوء ، ولا يجوز استعمال مائها لغيرها ، ويكون لها قصب وكيزان .

(٨٤) أوليا جلبي سياحنامه سي استانبول ١٣١٤هـ (٤٢٠/٤) .

(٨٥) رسالة في شؤون السقايات ووقفها الورقة ٨ (مخطوط) .

(٨٦) انظر اطلس بغداد للدكتور أحمد سوسة (بغداد ١٩٥٢) ص ١٢ و ١٣ .

من دجلة رأساً ، وانما من آبار عميقة حفرت خصباً بها . ويدل بشر قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وهو آخر ما بقي من هذه الآبار ، على ان مواقع الآبار كانت بعيدة عن دجلة بمسافة كافية لاقامة الأسوار والحصون (٨٧) . واذ بقيت هذه الأسوار قائمة الى نهاية القرن الثاني عشر على اقل تقدير ، فان بإمكاننا ان نتصور بقاء مشكلة ايجاد موارد كافية لمياه الشرب ، عدا الآبار ، حتى ذلك التاريخ ، حتى ان عدداً من السياح الذين اقاموا ببغداد أو مرو بها ، نوهوا بهذه المشكلة ، ووصفوا متاعب البغداديين في الحصول على ماء الشرب . فاشار الرحالة الإيطالي الاب فنشنسو (Vincenzo) الذي زار ببغداد سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م الى ان الماء الذي يباع ببغداد ، يأتي ملوثاً بالقار - وان كان لا ضرر في هذا التلوث - ووصف طريقة جلبه الى المدينة ، بانه كان ينقل على ظهور الثيران والجياد ، في قرب كبيرة من الجبل (٨٨) . والمعروف ان جلب الماء الى المنازل بالقرب المدبوغة لا يؤدي الى ما لاحظته من تلوث الماء بالقار ، فالظاهر ان الماء الذي شربه كان من مياه السقايات العامة التي تبطن مجاريها واحواضها بطبقة كثيفة من القار لحفظها من الضياع ، وليس من مياه القرب المحمولة على الطريقة التي وصفها . ولم ينتبه سائح آخر هو البريطاني جاكسون في رحلته الى بغداد سنة ١١٨١هـ/١٧٦٧م الى وجود قنوات عامة لنقل الماء في المدينة ، وانما اشار الى ان كثيراً من الفقراء كانوا يستخدمون لنقل الماء من النهر في ظروف من الجدل يحملها البعض منهم على ظهورهم ، بينما يحملها البعض الآخر على الحمير والبغال (٨٩) . ومثل ذلك ما وصفه الرحالة البريطاني بكنكهام (Buckingham) عند قدومه الى بغداد سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م حيث ذكر ان المدينة تزود بمياه الشرب من نهر دجلة في قرب من جلود المعز تنقل على ظهور الدواب وتصل باب منزل كل عائلة ، اذ ان وسائل نقل الماء ، والصحاريح والاحواض غير معروفة فيها (٩٠) .

(٨٧) انظر ما سيأتي عن هذه السقاية . والشكل (٤) .

(٨٨) رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد المصد ٣ ، المجلد ٥ (بغداد ١٩٧٦) ص ٧٧ .

(٨٩) مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٦٧٦ ، ترجمة سليم طه النكريتي ص ٧٥ .

(٩٠) بكنكهام : رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه النكريتي (بغداد ١٩٦٨) ٢٠٦/١ .

٢ - قنوات المياه المرفوعة

ساقية (قناة) الشيخ عبدالقادر الكيلاني .

ليس من المحدد تاريخ انشائها ، واول اشارة الى وجودها كانت سنة ١٠١٣هـ/١٦٠٤م ، حين وصفها الرحالة البرتغالي بيدرو تكسيرا Pedro Texeira اثناء زيارته بغداد . قال واصفاً جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وان لم يسمه ، انه واقع في طرف المدينة عند بساتين النخيل ، وان الماء ينقل اليه من فوق قناطر خاصة ، على نمط بديع (٩٢) .

واشار اليها السائح الدانمركي نيبور C. Niebuhr عند قدمه بغداد سنة ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م ، وذلك في اثناء وصفه التكية القادرية . قال « ولتكنيته واردات مالية وقفية تغتوت اكثر من ثلثمائة انسان ، ولاكثرهم فيها حجر وغرف يسكنونها بالمجان ، ولها كرد (دولاب) يساق ماؤه اليها من دجلة في ساقية » (٩٢) .

كما اشار اليها سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م الكوماندور فيلكس جونز F. Jones فذكر ان من عقود محلة رأس الساقية « عقد الساقية » وعد من معالم محلة «باب الشيخ» ، قهوة «المزلة» (٩٤) على انه لم يشر اليها في خريطة التي رسمها ، وكولنكوود ، لمدينة بغداد ، وان كان رسم الدرب الذي تجري فيه .

بلغ طول هذه القناة ما يزيد على كيلومتر . وتبدأ من شاطئ دجلة في محلة السنك ، قرب قصر السيد عبدالرحمن الكيلاني تقيب الاشراف الأسبق (بستان محمد اكريوز) ثم تمتد فوق جدار عال يبلغ ارتفاعه ٣٠ متراً عند حديقة (بقجة) كان قد وقفها محمد بن جواد اوطه باشي سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م ، ومن هناك تنعطف فتعبر على عقد كان فوق باب حديقة عبدالجبار غلام ، وتمضي مشرقة في شارع الكيلاني ، فتعبر الطريق الذهاب الى الباب الشرقي عند جامع النعماني على عقد ، ثم تجتاز الطريق الذهاب الى مرقد الخلاني على عقد آخر ، وتمضي فتعبر الدرب المتجه الى محلة الصدرية ، عند مسجد رأس الساقية ،

(٩٢) Texeira, P. : The Travels of Pedro
Texeira, P. 64 (London 1902).

(٩٣) بغداد في رحلة نيبور ، ترجمة د. مصطفى جواد (مجلة
سومر المجلد ٢٠ الجزء ١ - ٢ (بغداد ١٩٦٤) ص ٥٢

(٩٤) Jones, F.: Selections from the record
of Bombay Government., P. 327.

ونظراً لما كان يكتنف عملية نقل مياه الشرب من صعوبات ، وما يكلفه شراءها من مال ، فقد نالت شؤون السقايات العامة ببغداد اهتمام الولاة وارباب الدولة والأعيان وأهل الخير ، وشارك عدد من السيدات المحسنات بانشاء جملة من السقايات المهمة . ووقف الجميع عليها الوقوف الدارة بموجب وقفيات وحجج شرعية رسمية ، وثبت بعضهم عدد العاملين على خدمة الساقية ، وحدد رواتبهم بدقة . وصار للسقائين الذين ينقلون الماء الى الساقية راتب معلوم . واحتاط بعض الواقفين فحدد عدد « قرب » الماء التي يحملها السقاء كل يوم ، فنص والي بغداد داود باشا على ان تكون عشر قرب يومياً ، لقاء راتب قدره ٣٦٠ قرشاً ، وجعلت السيدة نازدة خاتون لسقايتها ١٨٠٠ قرشاً رائجاً (٥٠ قرشاً صاغاً) بينما حدد تقيب الاشراف سليمان القادري راتب من يقوم بخدمة سقايتها ب ٤٥ قرشاً صاغاً كل شهر .

ومثلما اهتم اولئك الموسرين بالانفاق على هذه المشاريع الحيوية ، فقد تغنن المهندسون والنقاشون في تصميم عماراتها ، وتزيينها بالواح الرخام المنقوش والقاشاني الملون وبشبايك النحاس الفاخر ، وسجلت على معظم السقايات ، بخطوط بديعة ، آيات قرآنية ، وأبيات شعرية تؤرخ انشاءها ، وتذكر اسم صاحبها أحياناً ، وزاد آخرون بأن اقاموا حولها حدائق صغيرة ، وزرعوا فيها اشجاراً تظلل الشاربين .

فكان من نتائج هذا الاهتمام ان زاد عدد السقايات العامة التي يملؤها السقاؤون بسرعة منذ مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) الى الحد الذي اصبح انشاؤها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية في المدينة ، وامتدت خدماتها لتشمل محلات عديدة من بغداد (٩١) .

اما القنوات الآجرية المرفوعة على العقود ، فقد توصلنا الى ثلاثة مشاريع منها ، وهي تغطي مساحة كبيرة من بغداد الشرقية ، لكننا لا نقطع بعدم وجود غيرها في اجزاء أخرى من المدينة . ويرتقي انشاء هذه المشاريع الى عهود مختلفة من القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (١٧ و ١٨ م) . اما السقايات الآخذة منها فهي عديدة ومتنوعة ، وفيما يأتي من البحث عرض تفصيلي عن هذه المشاريع .

(٩١) انظر الخارطة .

وانساب بها كعبة للأئدين بها
لقد صفا زمزم الجدوى ومرواها
تطوعاً واحتساباً من فواضله
تجددت وسمت اركانه عليها
فيا لها نية لله خالصة
تفتر عن شنب الحسن ثناياها
صح القبول جرى فوراً فأرخه
« تجرى فينبوع بسم الله مجراها »

١٢٤٧

ونظراً لأهمية جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ومدرسته ، وسعة محلته ، وكثافة السكن في تلك الناحية ، فقد حظيت هذه القناة وسقياتها بعناية فائقة . وأوكل أمر التولية على أوقافها والانفاق على مصالحها من تجديد وصيانة السادة نقباء الاشراف ومتولو الاوقاف القادرية ، وذلك بموجب الحجج الشرعية التي كان يصدرها ولاية بغداد ، وتحتوي كل حجة - عادة - على وصايا بشأن وجوب الاهتمام بالقناة والعناية بمرافقها (٩٨) .

وقد وصفت السقاية في مطلع هذا القرن بانها بناية كبيرة لها حوض ، وفيه ثلاث حنفيات وامام الحوض طارمة ذات ثلاثة اطواق متصلة على شكل ثلاثة اضلاع مثنى (٩٩)

وفي حدود سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م قام احد الاغنياء الهنود بتثبيت انبوب حديد في داخل قناة الاجر ، ورفع العقود القديمة التي كانت القناة تجتاز عليها الدروب والطرق الجانبية ، ووضع بدلا منها انايب . فكان الانبوب ينزل الى الارض عمودياً ، حيث يتصل بانبوب افقي مدفون تحت الارض باستقامة الساقية ، ثم يتصل بانبوب آخر

(٩٨) انظر مثلا الوثيقة الشرعية المتضمنة تولية السيد محمود الفندي بن ذكيا القادري على ساقية الماء العائدة لجامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني (سجل المحكمة الشرعية ببغداد ، عدد ١٥٨ ص ٥٩ بالتركية ، وتذكر ان والي بغداد سليمان باشا الصغير اصدر بيوراوولي (امر رسمي) سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م يقضي بتسليم التولية الى السيد حبيب سنه بك ، وذلك لتدهور العلاقات بينه وبين متوليها السابق السيد رمضان القادري ، وبقي الوضع كذلك حتى استعاده السيد محمود الكيلاني سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨١٧م باعتبار ان القناة المذكورة موضوعة اصلا لخدمة جامع الشيخ عبدالقادر ، وبما انه يتولى اوقافه فمن الاولى والارجح ان يتولى ساقيته ايضا .

(٩٩) محمد رؤوف الشيكلي : المعجم الجغرافي لمدينة بغداد (البصرة ١٩٧٧) ص ١٢٢ .

والدرب الواقع قرب حوض سقيتها ، على عقود مشابهة . وتنتهي عند جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حيث تملا حوض سقيته بالماء المخصص للشرب . وقد عرفت هذه السقاية بـ (المزملة البرانية) لوقوعها خارج اسوار الجامع لا داخله (٩٥) ، كما سميت المنطقة التي في غرب محلة باب الشيخ ، بمحلة (رأس الساقية) نسبة اليها ، وما تزال تعرف بهذا الاسم (٩٦) .

وكان مأخذ هذه القناة من دولاب يرفع الماء من بئر عميقة واسعة عند شاطئ النهر ، وما تزال هذه البئر موجودة الى يومنا هذا ، وعندها آخر بقايا القناة المذكورة .

والظاهر ان هذه السقاية بقيت على وضعها القديم دونما تغيير حتى سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م ، وهي سنة تولى علي رضا باشا الاز ولاية بغداد ، فقد ذكر السيد محمود شكري الالوسي ان هذا الوالي امر بانشاء سقاية في جوار جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وصفها بانها « غزيرة الماء » كثيرة الارواء » وقال انه أجرى اليها جدولا من نهر دجلة وأوقف عليها عقارا لتبقى على مر الايام وتعاقب الاعوام (٩٧) . ونحن نرجح ان تكون هذه السقاية هي نفسها سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وانما قام علي باشا الاز بتجديدها ، او اضافة اشياء اليها . وليس بعيد ان يكون تجديد القناة وترميمها هو ما دفع السيد الالوسي الى ذلك القول ، مستنداً الى ما كان مدونا على رخامة السقاية من أبيات ، مع ان البيت الخامس منها يدل صراحة على انها جددت ، لا انشئت انشاء . وفيما يأتي هذه الأبيات :

لله ساقية قد شاد مبناها
والي العراقي اقصاها وأدناها
اعني علي رضا بل حيدري وغي
سميه لجميع الناس مولاها
من ماء دجلة أجرى سلسبيل ندى
يروى العطاش من الرمضاء اصفها

(٩٥) كان موقعها عند الزاوية الجنوبية من مقبرة الجامع .
(٩٦) عماد عبدالسلام رؤوف : متى تم أول مشروع لاسالة الماء في بغداد . جريدة النأخي البغدادية بتاريخ ١٢/٨/١٩٦٨ .
(٩٧) محمود شكري الالوسي : مساجد بغداد ص ٦٠ . مخطوطة المتحف العراقي الرقمة ١٠٦٢ (وقد نشر السيد محمد بهجة الانري هذا الكتاب ، بتغييرات رأها ، تحت عنوان « مساجد بغداد وآثارها » (بغداد ١٢٤٦) واشارتنا ، في هذا البحث ، الى المخطوط .

عمودياً ، فيربط بالانبوب الذي في الساقية من
الجهة الأخرى

وفي سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م ألغي العمل
بالدولاب ، واستعيز عنه بمضخة حديثة وقام
السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب الاشراف برفع
قناة الماء تماماً (١٠٠) ، ومدت الانابيب المعدنية تحت
الارض ، بخط مستقيم ، الى جامع الشيخ
عبدالقادر الكيلاني . وعند فتح جادة خليل
باشا (الشارع العام ، ثم شارع الرشيد كما سمي
فيما بعد) زمن ولاية خليل باشا سنة ١٣٣٤هـ /
١٩١٥م قضى على آثار القناة المرفوعة ، فدخل
جدارها وقسم قليل من حديقة اوطله باشي (المقدم
ذكرها) في الشارع المذكور . ولم يبق من آثارها
سوى ذلك الجزء الواقع عند البئر الشاطئية .
وهو - على الحقيقة - آخر ما تبقى من آثار قنوات
مياه الشرب القديمة ببغداد كلها (انظر الشكل ٧) .

تبعد البئر عن شاطئ دجلة بأكثر من عشرين
متراً ، وكان جزء من هذه المسافة مشغولاً بسور
بغداد وحصونه المظلة على دجلة ، ثم شغل في بداية
القرن الحالي بقصر السيد عبدالرحمن
الكيلاني (١٠١) . وكانت مسناة السور لم تزل مرئية
عند هذا القصر عندما رسم جونز وكولنكوود
خارطة بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع
عشر للميلاد) (١٠٢) .

تتخذ البئر شكلاً بيضوياً يبلغ محيطه
١٦٨٧ متراً ، وأطول قطريه ٤٩٢ متراً ،
واقصرهما ٣ أمتار . وهي مسورة بسور من الآجر
عرضه ٣٥ سنتمتراً ، تعلوه حافة عرضها ٤٥
سنتمتراً . ويرتفع السور عن الارض ب (١٢)
متراً ، ويبلغ عمق البئر حالياً من حافة سورها
٣٥٥ متراً . ومن المعتقد ان عمقها الأصلي كان
يزيد على ذلك بأربعة أمتار أخرى على الأقل .
ويزين الجدار الداخلي للبئر (بعمق ٢٦٠ متراً)
زخرفة بقطع الآجر مرتبة عمودياً (يعرفها البنائون

(١٠٠) وقد تبرع لغرض اذابة القار الذي في القناة المرفوعة
بالف اوفية من الحطب ، ثم تبعه السيدان فيات الدين
آل جميل وداود الكيلاني ، ف تبرعا بمبلغ خمسمائة اوفية
أيضاً ، على ما نشرت الخبر في حينها جريدة الزوراء
ونقلته جريدة صدى بابل البغدادية الصادرة في ١١ ذي
القعدة سنة ١٣٢٨هـ .

(١٠١) من القصور الفخمة ، البديعة المنظر ، ببغداد . وقد
قامت المؤسسة العامة للسياحة أخيراً بترميمه ، واعادته
الى وضعه القديم أيام كونه عامراً .

(١٠٢) انظر اطلس بغداد ص ١٥ .

المحليون باسم سكة) تعلوها زخرفة بالآجر أيضاً
بارزة وغائرة على شكل خمسة متوازيات اضلاع
متجاورة (ويعرفها البنائون المحليون باسم بقلادة)
انظر الشكل (٦) .

ويتصل بحافة البئر من ناحية الجنوب
الشرقي (بشكل يوازي مجرى نهر دجلة) بناء
متين من الآجر والجص ، كان قد ثبت في اعلاه
دولاب الدلاء . وهو يتخذ شكلاً هندسياً غير منتظم
(الشكل ٥) . ويبلغ ارتفاع هذا البناء ٢٣٠
متراً ، ويتخذ عند البئر هيئة قوس يتم الشكل
البيضوي لها . وكانت على سطحه أسكلة من
الخشب مهمتها استقبال المياه المرفوعة اليها
بالدولاب . ثم يضيق عرض البناء بعد مسافة ٢٣٠
متراً ليصبح عرضه متراً واحداً ، بطول قدره
٣٨٢ متراً . وكان على هذا الجزء مجرى يأخذ
الماء من الدولاب ويصبه في الحوض التالي الذي
يتصل به .

رأى في هذا الحوض شكلاً هندسياً غير منتظم
الزوايا . كانت مهمته تجميع المياه الآتية من المجرى
المذكور ، لتصب بعده في قناة الشيخ عبدالقادر
المتدة الى جامع . وقد بطنت أرضية المجرى
وانحوض والقناة بطبقة كثيفة من القار ، يبلغ
ثخنها نحو ستة أو سبعة سنتمترات ، وذلك منعاً
من تسرب الماء اثناء جريانه وضياعه بحد (١٠٣) .
(الصورة رقم ٥) .

يعمل الدولاب (الكرد) بقوة الدواب ، حيث
تدور الدابة محركاً ذراعاً قد ثبتت نهايتها بمحور
رأسي ، وبدوران هذا المحور يدور مسنن أفقي ثبت
في اعلاه ، وينقل المسنن الأفقي العلوي المذكور
الحركة الى مسنن رأسي يتصل به محور أفقي ،
وينقل الأخير الحركة الى دولاب الدلاء فيرفع الماء
بذلك الى القناة (انظر الشكل ٣) .

ويختلف اسلوب عمل هذا الدولاب عن
الدواليب العادية الأخرى الموجودة على شواطئ
الأنهار بان في مقدوره رفع المياه رأساً الى ما يزيد
على المترين فوق مستوى سطح الأرض ، في حين
ترفع الدواليب الأخرى الماء الى سطح الأرض
فحسب . ومنشأ هذا الاختلاف ان المسنن الرأسي
المحرك لمحور دولاب الدلاء ، يعلو على المسنن الأفقي
بخلاف الدواليب الأخرى ، التي يكون المسنن
الرأسي فيها في الأسفل . وهذا الوضع يفسح المجال

(١٠٣) قامت المؤسسة العامة للسياحة بترميمه ترميماً حسناً ،
ورفع ما كان في داخل بئر من انقاض .

للمحور الأفقي أن ينقل الحركة إلى دولا ب الدلاء بالارتفاع نفسه ، دون أن يشكل عائقاً لدوران الدابة تحته (الشكل ٣) .

ويمكن القول - بناء على ما تقدم - أن هذا التصميم هو الذي كان متبعاً في جميع الدواليب التي ترفع مياه الآبار إلى قنوات عالية ، كساقية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، ومنها قناة الشيخ عمر السهوردي ، وقناة الشيخ سراج الدين الآتي ذكرهما .

ساقية (قناة) الشيخ عمر السهوردي

أنشأ هذه القناة والي بغداد الوزير حسين باشا السلاحدار (محرم ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م - ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م) ووقف عليها الأوقاف الكثيرة لإدامتها والعناية بمرافقها . منها سوقاً كبيرة أنشأها عند باب المدرسة المستنصرية ، وعقارات أخرى اشتراها ، منها دكاكين متفرقة في جانبي بغداد ، ومقهى كان يعرف بقهوة مراد ، وبستاناً قرب مرقد الشيخ عمر السهوردي (١٠٤) فكانت تلك الأوقاف سبباً في استمرار عمل المشروع مدة تقرب من ثلاثة قرون (١٠٥) .

وكانت هذه القناة تأخذ مياهها بواسطة دولا ب يرفع الماء من بئر عميقة عند شاطئ دجلة ، في شريعة الميدان ، بين مبنى المتحف العسكري السابق ، ونادي الضباط الحالي ، ثم تمتد من هناك مرفوعة على عقود عالية بنيت بالأجر والجص على صفة قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حتى تصل إلى منطقة « الميدان » قرب جامع الأحمدية ، فتجتازه مشرفة في درب طويل تقع عليه معظم محلات القسم الشمالي من بغداد الشرقية ، فتمد بمياه الشرب محطة الصابونجية ، ثم محطة ايلان دلي ، فمحطة الفضل ، والجلالي ، ثم تمتد باستقامة حتى تصل إلى غربي جامع الفضل ، فتجتاز الدرب الذي يقع عليه فوق عقود (١٠٦) وتمضي مخترقة

(١٠٤) مجموعة من وثائق بغداد (مخطوط) .

(١٠٥) حكم هذا الوالي سنتين فقط ، وقام خلالها بمشاريع كبيرة ذكرها مرتضى نظمى زاده في كتابه كلشن خلفا (ترجمة موسى كاظم نورس ، بغداد ١٩٧١) ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ومن غير التصور أن تكون هذه الأوقاف كلها من ماله الخاص ، وإنما هو قد اشتراها من واردات الولاية ، وربما من الجزء المخصص لإرساله إلى الدولة (وغالباً ما يجرى هذا بعلم الدولة فهذا المشروع وغيره من الأعمال الكبيرة التي يقوم بها الولاة ، هي في الحقيقة أعمال حكومية عامة ، وإن ظهرت بمظهر الأعمال الخيرية لأفراد .

(١٠٦) في أرض شارع الكفاح اليوم .

محلة خان لاوند ، ثم تتجه في أرض قاحلة حتى تصل إلى جامع الشيخ عمر السهوردي ، حيث تصب هناك في سقايتين كبيرتين ، ويجري الفائض من مائها ليسقي بستان السلاحدار الموقوفة عليها ، ترفيها للمارة في تلك النواحي النائية الموحشة (١٠٧) .

استمرت هذه القناة البديعة بأداء مهمتها حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) فقد وردت في خارطة بغداد التي رسمها الكوماندر فيلكس جونز وكولنكود سنة ١٢٦٣هـ / ١٨٤٦م على نحو يظهر امتدادها إلى جامع الشيخ السهوردي . وذكر جونز أن من عقود محلة « ايلان دلي » عقداً سماه « عقد الساقية » (١٠٨) .

ولقد تعطلت أجزاء من هذه القناة في عهد والي بغداد نامق باشا الكبير (من ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م إلى ١٢٦٨هـ / ١٨٥١م) (١٠٩) ، وهي الأجزاء التي تصل بين محلة خان لاوند ، وبين جامع عمر السهوردي . أما الأجزاء الباقية ، فقد بقيت سليمة تؤدي مهمتها في نقل مياه الشرب إلى المحلات السكنية . ولم تندثر تلك الأجزاء أو تتعطل إلا في عهد والي بغداد مدحت باشا (١٢٨٦ - ١٢٨٩هـ / ١٨٦٨ - ١٨٧٢م) .

ويبدو أن تخرب هذه الأجزاء من القناة ، هو ما دفع ببعض أعيان بغداد وأهل الخير منهم إلى إنشاء عدة سقايات جديدة تأخذ مياهها من الأجزاء السليمة الباقية منها ، وقد وقفنا على ثلاثة من تلك السقايات ، تقع الأولى في « الميدان » والثانية في محلة « البارودية » أما الثالثة فتقع في محلة « خان لاوند » إلى الشرق من محلة الفضل . فكانت هذه السقايات تشكل بمجموعها مشروعاً واسعاً - نسبياً - لإيصال مياه الشرب إلى محلات بغداد في تلك الجهات . ويلاحظ أن تواريخ إنشاء السقايات المذكورة كانت ترقى إلى عهود مختلفة . كما يتضح لنا من تتبع أخبارها .

(١٠٧) عماد عبدالسلام رؤوف : سقاية الشيخ عمر السهوردي . جريدة التأخي البغدادية بتاريخ ١٩٦٨/٩/٢٢ .

(١٠٨) Jones, F. : Op. Cit., P. 320. واعيد نشر الخارطة ، في « اطلس بغداد » من وضع الدكتور أحمد سوسة (بغداد ١٩٥٢) ص ١٥ .

(١٠٩) على ما إحدانيه الشيخ كمال الدين أمام جامع عمر السهوردي عن أبيه الشيخ عبدالحسن السهوردي ، في صيف سنة ١٩٦٥ .

أ - سقاية شوكت بك

مؤسسها الأول شوكت بك ، فقد جاء في ترجمة الشيخ محمد الأمين بن الشيخ عبدالرحمن السهروردي (ت ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م) انه كان « متولياً على أوقاف سبيل خانت (كذا) شوكت بك » (١١٣) .

ب - سقاية البارودية

لا يعلم تاريخ انشائها ، اذ لم تكن على جذرها وشباكها شيء من الكتابات الدالة على ذلك ، وكان موقعها في محلة البارودية ، في موضع مظل على شارع الفضل ، متصل بقناة الشيخ عمر السهروردي . ووصفها بعض من عاصرها بانها كانت تتألف من طابقين ، على اسفلهما شبابيك من نحاس ، على هيئة متينة بديعة ، وفي داخلها حباب كبيرة تملأ بمياه الشرب . وبعد انقطاع تزويدها بالماء من الساقية المذكورة ، أصبحت تملأ كل يوم بواسطة السقائين .

ج - سقاية سري باشا

انشأها والي بغداد سري باشا (١٣٠٧ - ١٣٠٨هـ / ١٨٨٩ - ١٨٩٠م) على انقاض مبنى خان لاوند العتيق ، وجعل ما حولها بستاناً غرس فيه انواع الشجر . وصمم السقاية على هيئة حوض كبير من الرخام المتين ، ووضع في وسطه نافورة تقذف الماء في الهواء .

وقد اطرى العلامة عبدالوهاب النائب (ت ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م) هذا المشروع الخيري بقصيدة ، منها قوله (١١٤) :

هذي العدالة لا عدمتك منصفاً
تسقى العطاش اذا اتوك نعيمها
ان النفوس لمثل ذاتك ترتجى
لتكون في زمن الاياس بشيرها

ولما انتقل المشروع الى البلدية لادارته ، اصابه الاهمال ، فتلقت منشأته ، وصارت حفرة من الحفر ، واخيراً اشترى العلامة عبدالوهاب النائب أرضه وقسمها الى دور وحوانيت وخانات ، منها المدرسة التي عرفت بالحميدية وهي اليوم مدرسة الفضل الابتدائية .

وبهذا انتهى تاريخ آخر سقاية من سقايات هذا المشروع الكبير ، بعد ان لبث يزود اهل بغداد بحاجتهم من مياه الشرب نحو ثلاثة قرون .

(١١٣) محمد صالح السهروردي : لب الالباب (بغداد ١٩٣٣)

٢٥٩/٢ .

(١١٤) لب الالباب ١/٢٤-٢٥ .

انشأها دفتر دار بغداد شوكت بك سنة ١٢٧٢هـ / ١٨٥٥م في « الميدان » الى الشرق قليلاً من جامع الاحمدية (مدخل شارع الرشيد حالياً) ولكنها لم تلبث ان عطلت بعد مضي عهد قصير من انشائها ، ثم قام حفيد مؤسسها قدرت بك بن عصمت بك ، بتعمير سقاية جده سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م ، وكان يومذاك مديراً للأموال الاجنبية ، فطلب من المهندس الفرنسي غودارد Godard ان يصمم بناءها على هيئة بديعة ، ففعل ، وأجرى لها الماء من تلك القناة ، وبلغت كلفة المشروع كله (١٠٨) ليرات عثمانية (١١٠) .

وكان للسقاية واجهتان ، على الاولى منها ابیات عربية ، وعلى الأخرى ابیات فارسية وتركية ، وكلها مكتوبة على الآجر القاشاني ، وتحيط بالكتابة صور لأغصان مورقة ، وثمار ملونة ، ونقوش . أما الأبيات فهي هذه (١١١) :

ناظر اوقاف العراق الفتى
شريف رب الحسب الطاهر
في البلدة الزوراء قضى نجبه
وفاز بالفقران من غافر
فسخر الباري له صاحباً
كان له في الزمن الغابر
محمد شوكت اقلامه
تفنى عن الذابل والباتر
انشأ له هذا السبيل الذي
ايبح للوارد والصادر
أصفى من الدمع على فقده
ما قد جرى أرخ من الناظر
١٢٧٢

وانشئت حوالي السقاية حديقة نزهة غناء ، دامت أمداً من الدهر ، ثم اندثرت عند فتح جادة خليل باشا (شارع الرشيد الحالي) قبيل الاحتلال البريطاني لبغداد (١١٢) (انظر الصورة رقم ١) .

ويبدو ان لهذه السقاية أوقاف ، اوقفها

(١١٠) وهم الاستاذ يعقوب سركيس في امر هذه السقاية ، وسقاية الشيخ عمر السهروردي نفسها ، وحقيقة القناة الموصلة بينهما ، والاخذة من دجلة ، فقال في مجلة البيان النجفية (عدد ١٥ شباط ١٩٤٦) « هل يمكن ان تكون سقاية في الميدان لمدرسة في جامع السهروردي والمسافة بينهما لا تقل عن كيلومترين ؟ » (١١١) مجلة لغة العرب ٢ (بغداد ١٩١٢) ص ٢٩ - ٤٠ .

(١١٢) رسمها السيد رشيد الخوجة في خارطة بغداد التي وضعها سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٨م (انظر احمد سوسة : اطلس بغداد ص ١٦) .

سقاية (قناة) الشيخ سراج الدين

انشأها والي بغداد الوزير حسن باشا (١١١٦ - ١١٣٦ هـ / ١٧٠٤ - ١٧٢٣ م) عند تعميره جامع الشيخ سراج الدين في محلة الصدرية (جزء من محلة سراج الدين حالياً) سنة ١١٣١ هـ / ١٧١٨ م ، وذلك لمد الجامع والاسواق المزدهمة حوله بمياه الشرب (١١٥) .

ولقد اتبع في تصميم هذه القناة ، وضع قناة الشيخ عبدالقادر وطريقة عملها . فكانت تأخذ مياهها من دولا ب عند شاطئ دجلة ، في شريعة السيد سلطان علي ، وتمتد من هناك الى شارع السيد سلطان علي ، فتدخل يمينا في الدرب المعروف بطرف حاج فتحي ، وتخرج منه لتجتاز محلات السويديان والعوينية والصدرية ، حتى تصل الى سقاية الشيخ سراج الدين (١١٦) ، فتزودها بالماء ، اي انها كانت تبلغ طولاً قدره نحو ٧٠٠ متر تقريباً .

تقع سقاية الشيخ سراج الدين في الجهة المقابلة للجامع من جهة الشمال ، وكان فوق شباكها لوح من الرخام والحجر القاشاني ، عليه آيات لامية تؤرخ لهذا العمل النافع ، منها (١١٧) :

أجريت للناس سبيلاً لهم

فيه سبيل الخير في كل حال

قد نزل الناس بساحاته
واجتدبوا الماء بدون الجبال

للشرب والطهر ورفع الأذى

حباك ربي نعمة لا تزال

هذا الذي فيه ينال الرضا

في عطش المحشر يوم السؤال

(١١٥) قال الرحالة الدمشقي ، مصطفى بن كمال الدين الصديقي البكري ، عند قدومه بغداد سنة ١١٢٩ هـ / ١٧٢٦ م « ولما وصلت جامع الشيخ سراج الدين - قدس الله سره - التي - الذي بناه المرحوم حسن باشا .. وقفت لدى الشباك ، والاسواق في اشتباك » (كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان الورقة ٣٣ مخطوط) .

(١١٦) أشار السيد محمد رؤوف الشيعلي الى جزء من هذه القناة ، وهو الواصل من دجلة الى جامع الحاج فتحي ، ولكنه خلط بينها وبين سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حين ظن انها تمضي من هناك الى جامع الشيخ الكيلاني فتزود سقايتها بالماء . والصواب انها تنتهي الى جامع سراج الدين اما سقاية الشيخ الكيلاني فلها قناة مستقلة غيرها على ما قدما (الدليل الجغرافي لمدينة بغداد ص ٥٧ و ١٤١) .

(١١٧) مساجد بغداد ص ٥٨ (مخطوط) .

الله قد يسر تاريخه

أجرى لك الكوثر ماء زلال

١١٣١

قال السيد محمود شكري الألوسي في وصفه هذه القناة « وأوصل أيضاً (يريد : حسن باشا) الى هذا المسجد ساقية من ماء دجلة . وانشأ سقاية يشرب منها المار وابن السبيل (١١٨) . وذكرها الشيخ عباس بن رجب البغدادي بصفقتها « سقايات » لا واحدة (١١٩) ، مما دل على سعتها ووفرة مياهها .

وكانت تتشعب من القناة ، فروع تزود سقايات أخرى ، موزعة على طول مجراها ، وقفنا منها على :

أ - سقاية الشيخ عبدالكريم الجيلي

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت عند جامع الشيخ عبدالكريم الجيلي (١٢٠) ، في الدرب المسمى بطرف الحاج فتحي (١٢١) ، المتفرع من شارع السيد سلطان علي . وزالت هذه السقاية عند نقض الجامع المذكور قبل سنين .

ب - سقاية الحاج فتحي

لا يعلم تاريخ انشائها ايضاً (١٢٢) ، ولعلها ترقى الى عهد سقاية الشيخ عبدالكريم الجيلي المتقدمة لتقارب الموضعين ، وكانت تقع في جامع الحاج فتحي ، في آخر الدرب المنسوب اليه .

ولقد استمرت هذه القناة بالعمل ، حتى استبدلت ، في مطلع القرن الحالي ، بانابيب معدنية دفنت تحت الأرض ، ثم زالت سقاياتها تدريجياً ، أو انقطع مأوها ، بعد انتشار استخدام الانابيب الحديثة في تلك الناحية من بغداد .

(١١٨) مساجد بغداد ص ٥٦ .

(١١٩) نيل المراد في أحوال العراق وبغداد (نشرنا بعض فصوله في مجلة الرسالة الإسلامية) العدد ١١٧-١١٨ (بغداد ١٩٧٨) ص ٢٧ .

(١٢٠) مسجد عامر قديم ، فيه قبر الشيخ عبدالكريم بن ابراهيم الجيلي (ت ٨٢٢ هـ) .

(١٢١) رقم باب ١٩٧ وبعد نقضه لبث سنين ساحة خالية ، الا من القبر ، ثم قامت الاوقاف ببناء مدرسة في ارضه ، تحولت الى مدرسة ثانوية للبنات ، وما يزال القبر قائماً .

(١٢٢) جامع قديم كان يطل على شارع الجمهورية ، ينسب الى أحد صلحاء الموصليين وقد انشاه سنة ١١٦٩ هـ / ١٧٥٥ م . وكنا قد شاهدناه وقرأنا ماعليه من كتابات اثرية قبل نحو عشر سنوات ، الا انه هدم وازيلت انقاضه ، ومنها تلك الكتابات ، وهو اليوم ساحة خالية .

٣ - السقايات العامة

سقاية حسب الله الشابندر (١٢٣)

أشار إليها أوليا جلبي في رحلته إلى بغداد سنة ١٠٥٨هـ/١٦٧٤م وسنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م ، وذكر أن لمؤسسها حسب الله قصراً عده بين قصور المدينة البارزة ، وحمائماً عاماً ذكره في موضع آخر من رحلته (١٢٤) .

سقاية أبي بكر خواجه

أشار إليها أوليا جلبي ، وعد مؤسسها من أعيان بغداد في أيامه ، أي في تضاعيف القرن الحادي عشر للهجرة (١٧م) (١٢٥) .

سقاية سمير موسى باشا

أنشأها والي بغداد موسى باشا الملقب بـ « سمير » أي السمين (١٠٥٧هـ/١٦٤٧م - ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) (١٢٦) وأشار إليها أوليا جلبي في رحلته (١٢٧) .

سقاية حسين باشا

أشار إليها أوليا جلبي في رحلته ، ولعل منشؤها والي بغداد حسين باشا (١٠٦٠هـ/١٦٥٠م) .

سقاية مراد باشا

أنشأها والي بغداد مراد باشا (٩٧٧هـ/١٥٧٠م - ١٥٧١م) عند جامع الميرزا بالمرادية ، في محلة الميدان ، قبالة قلعة بغداد (وزارة الدفاع حالياً) . أشار إليها أوليا جلبي في رحلته .

سقاية حيدر جلبي الشابندر

أنشأها حيدر جلبي شابندر التجار في بغداد

(١٢٣) الشابندر تخفيف لـ (شاه بندر) شاه ، ملك بندر ميناء ، أو فرصة (أو مدينة تجارية) وفي الاصطلاح : الشاهبندر ، هو كبير تجار المدينة ورئيس طائفتهم . وشيخ بندر قريبة من شاهبندر بالمعنى والمبنى ، وبخاصة أن الأتراك يلفظون الشاء هاء ، وقد أوردها على هذا الشكل مرتضى نظمى زاده : كلشن خلفا ص ٢٥١ .

(١٢٤) أوليا جلبي سياحته عامه سي ٤٢٠/٤ و ٤٢١ .

(١٢٥) المصدر نفسه ٤٢٠/٤ .

(١٢٦) كلشن خلفا ٢٤٢ وتاريخ نعيما (استانبول ١٢٨٠) ٤٣٠/٤ والآثر الوحيد الذي ما يزال قائما من آثار هذا الوالي ، لوحة رخام مثبتة على المرقد المنسوب لابن الجوزي في محلة السنك ، قرب بئر ساقية الشيخ عبدالقادر الكيلاني .

(١٢٧) أخباره في كلشن خلفا ص ٢٥٢ .

في القرن الحادي عشر للهجرة ، وكان من أعيان بغداد وسرايتها (١٢٨) ، وهو صاحب الحمام الشهير بأسم « حمام حيدر » في شارع النهر ، أشار إلى ذلك أوليا جلبي في رحلته ، وذكر أن له قصراً أيضاً .

سقاية آل مدلج

أنشأها الشيخ مدلج الصغير بن الشيخ ظاهر ابن الشيخ أحمد الرحبي ، مفتي بغداد ، والمدرس في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني (توفي سنة ١٠٨١هـ/١٦٧٠م) والحقها بمسجد ابتناه باتصال الشارع الذي يمر على مرقد الخلاني ، قرب زاوية العيدروسي ، في محلة الشيخ عز الدين الجديداوي (قسم من محلة السنك فيما بعد) .

وقد تعهد آل مدلج هذه السقاية والمسجد بالعناية المستمرة ، ففي سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م حبس الشيخ عبدالقادر مدلج عليهما الدار العائدة له والمتصلة بجامع النعماني ، مقابل مسجد العلامة محمد بن عبدالرحمن الرحبي مفتي الشافعية ببغداد ، بموجب الوقفية المؤرخة في السنة نفسها .

وفي سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م وقفت السيدة عائشة خاتون بنت الشيخ عبدالقادر مدلج بستان في قصبة الكاظمية على مصالح المسجد والسقاية بموجب الوقفية المؤرخة في ٢٧ ذي القعدة من السنة المذكورة (١٢٩) .

سقاية أبي سيفين

شيدها والي بغداد حسين باشا السلاحدار (١٠٨٣ - ١٠٨٥هـ/١٦٧٢ - ١٦٧٤م) عند المرقد والمسجد المنسوبين إلى « أبي سيفين » (١٣٠) الواقعين في محلة الطاطران ، وهي آخر المحلات العمورة من بغداد الشرقية في العصر العثماني . وقد وردت الإشارة إليها في وقفية حسين باشا المذكور ، المؤرخة في سنة ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م (١٣١) .

(١٢٨) أوليا جلبي سياحته عامه سي ٤٢١/٤ .

(١٢٩) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٣٠) ورد اسمه في قائمة أولياء بغداد (مخطوط كتب في القرن الحادي عشر للهجرة) على النحو الآتي « الشيخ محمد أبو سيفين في محلة الطاطر » وذكر عباس بن رجب البغدادي أنه أحد « المجاهدين الذين أتوا مع المرحوم السلطان مراد خان الرابع » . نيل المراد في أحوال العراق وبغداد ، (مخطوطة نشرنا بعض فصولها في مجلة الرسالة الإسلامية ، العدد ١١٧ - ١١٨ ، ١١٩ - ١٢٠ ، و ١٢١ - ١٢٣) (بغداد ١٩٧٨) .

(١٣١) مجموعة وفيات بغداد (مخطوط) .

سقاية مرقد الفزالي

وشرطت للاول يومياً خمس آقجات وللثاني ست آقجات ، وثبتت ذلك في نص الوقفية . وقد بقيت هذه السقاية قائمة حتى هدمها في ايام ولاية مدحت باشا (سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٦٨م) وقيل ان كتابات اثرية كانت عليها حطمت في اثناء هدمها (١٢٥) .

سقاية كنج عثمان

كانت تقع عند قبر كنج عثمان ، احد المحاربين العثمانيين الذين اسهموا في فتح عدد من المدن العراقية ، قبل قدوم السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م . وليس من المعروف تاريخ انشاء هذه السقاية عند قبره . ومن المرجح انها انشأت سنة ١١٣٣هـ / ١٧٢٠م عند قيام والي بغداد حسن باشا بتجديد قبة قبره ، ومصلاه وتزيينه بقطع القاشاني وفيه مايسجل المناسبة ويؤرخها . وقد لبثت هذه السقاية قائمة حتى مطلع هذا القرن ، وقامت دائرة الاوقاف بتعميرها ، وما حولها من آثار ، سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م ، ولكنها هدمت وسويت بالارض سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م ، ولم يبق منها سوى القبر وحده في الطريق . وفي ٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م قام المحتلون الانكليز بأزالته وتسويته في الطريق ، ونقلت بقايا رفاة كنج عثمان الى مقبرة الشهداء خارج سور بغداد (١٢٧) .

سقاية جامع النعمانية

انشأتها السيدة فاطمة خاتون بنت بكتاش بن ولي سنة ١١٨٥هـ / ١٧٧١م والحقتها بالمسجد الذي ابنىته في محلة الشط (جزء من محلة الميدان حالياً) ووقفت على المسجد والسقاية اوقافاً كثيرة ، وجعلت التولية من بعدها لزوجها نعمان آغا بن الحاج ابراهيم آغا (ومنه اكتسب الجامع اسمه) ومن بعده لاولاده (١٢٨) . وكان موضع السقاية من المسجد قرب بابه ، يطل شباكها على الطريق (انظر الصورة رقم ٢) وفي سنة ١٣٢٢هـ / ١٩٠٢م أعاد من اسمه عبد الحميد تعمير السقاية . فكتبت عليها ستة أبيات دالية ، على ثلاثة أسطر ، تؤرخ ذلك . هي (١٢٩) .

(١٢٥) محمد صالح السهرودي في جريدة العراق البغدادية ، بتاريخ ١٥ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ .

(١٢٦) أخباره في تاريخ نعيم ١٩/٣ ومحمد نريا : سجل عثماني ٤١٨/٣ .

(١٢٧) رزوق عيسى في مجلة لغة العرب ٢٣٢/٤ وعباس الغزاوي تاريخ العراق بين احتلالين ١٨/٥ .

(١٢٨) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٢٩) نقلتها من على شباكها مباشرة في صيف سنة ١٩٦٧م . وكانت قد فقدت معالمها تحت طبقات من الاسمنت في اثناء بعض اصلاحات الجامع ، فلم تدر تقرا . فقامت بحكها وازالة مايشوهها ، فظهرت جلية الى العيان .

شيدها والي بغداد حسين باشا السلاحدار ، عند القبر المنسوب الى الامام أبي حامد محمد بن محمد الفزالي (المتوفى في طوس سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م) وقد اشير اليها في الوقفية المتقدمة (١٣٢) .

سقاية مرقد ام موسى الكاظم

شيدها والي بغداد حسين باشا السلاحدار ، في ناحية قاحلة خارج المنطقة المأهولة من بغداد الشرقية . وقد وردت الإشارة اليها في الوقفية المشار اليها آنفاً (١٣٣) .

سقاية جامع علي افندي

انشأ هذا الجامع الحاج علي افندي بن مراد من اهالي القرن سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م ، وموقعه في محلة رأس الكنيسة (جزء من محلة الميدان حالياً) . وانشأت سقايته السيدة امينة ، احدي المحسنات ببغداد في العصر العثماني . وكتبت على جدار السقاية الأبيات الآتية (١٣٤) :

ذا سلسبيل مأؤه سلسل
راق ومنه طاب نفساً وارده
زلاله عذب فرات سائغ
شرابه يروي العطاش بارده

عين الرضا قد سلسله صافياً
موصولة لشارب عوائده
خيراته امينة من ربيبة
نافعة والخير طاف شاهده
مرصعاً بجوهر العقد أتى
تاريخه حوض صفت موارده

وقد زالت هذه السقاية عند هدم الجامع وشق شارع الجمهورية ، ثم قامت الاوقاف باعادة بنائه على صورة حديثة لا صلة لها بشكله القديم .

سقاية السيدة سكيئة العباسية

شيدتها السيدة سكيئة بنت محمد العباسية ، في المسجد الذي كانت أسرته تتولاه منذ سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م ، وموقعه في ارض « سراي بغداد » . وكان موضع السقاية منه مما يلي باب الجامع عن شرقيه في السوق ، ورتبت للسبيل مسبلاً وسقاء ماء النهر الى حوض السبيل .

(١٣٢) المجموعة نفسها .

(١٣٣) وقد وقف عليه عقارات جمة ، فصلها في وظيفته المؤرخة ٨ جمادي الاولى سنة ١١٢٣هـ / ١٧٢٠م .

(١٣٤) محمود شكري الألوسي : مساجد بغداد ص ٧٠ (مخطوط)

باب الشيخ في شرقي بغداد ، وهو المعروف بمسجد التسابيل . وكان افتتاح السقاية سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٢م ، وقد كتبت على شباكها خمسة آيات لامية هي :

إباح لوراد من الماء صافيا
وأوردهم عذبا فراتاً وأنهلأ
وصيره وقفاً على كل وارد
أراد وضواً أو تطلب منهلاً
فحاز ثواباً كالذي صام دهره
وصلى دوام العمر طولاً وهلاً
تري زمر الورد تأتي صوادياً
وترجع من ري من الماء عللاً
لذلك أضحو قائلين وارخوا
سقى زكريا ليوم يبعث سلسلاً
١٢٢٨

وعند وفاة الواقف سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م ، دفن في مسجده ، قرب السقاية المذكورة .

وعلى الرغم من جسامه الاوقاف التي حبسها الواقف (١٤٢) ، أهمل مسجده وترك . وافرزت مديرية الاوقاف محل السقاية واقتطعت قطعة من ساحة الجامع ، فأدخلتها ضمن أرض السقاية ، ودفعته إلى وزارة المعارف يومذاك بالإجارة الطويلة فأنشأت عليها الأخيرة مدرسة ابتدائية تسمى بمدرسة الدسابل ، فكان هذا آخر العهد بالسقاية .

سقاية خضر بك

أنشأها خضر بك بن عبدالله جليبي بن أمير الحاج محمد ياسين جليبي ، أحد أمراء الحلة في القرن الثاني عشر (١٤٢) ، في جامع الذي شيده في محلة أمام طه من شرقي بغداد سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م ، وخصص لها شيئاً من الاوقاف ، وشرط أن يشتري الماء من شاطئ دجلة ب (١٢٠) آقجة يومياً . وخصص رواتب ثابتة للعاملين فيها وفي سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م وقفت السيدة رحمة خاتون بنت عبدالكريم جليبي بن محمد ياسين جليبي ، من أسرة الواقف الاول ، عدداً من البساتين على مصالح الجامع وسقاياته (١٤٤) .

(١٤٢) الوقفيتان المؤرختان ٢٥ ذي الحجة ١٢١١هـ و١٧ شعبان ١٢١٧ الصادرتان من المحكمة الشرعية ببغداد .

(١٤٣) توفي سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م وهو من الأسرة التي عرفت فيما بعد بال عبدالجليل وحكمت الحلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة .

(١٤٤) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .

هذا السبيل على تقى حوض أجر
حميد السجاي قد بناه جديداً
وهذب بالطبع السليم نميره
فأصبح عذباً للشفاء مفيداً
وراق به الماء الزلال كخلقه
من الطبع أن تجني الورود وروداً
له الطالع السعد المنور بالهدى
أبى الله إلا أن يعيش سعيداً
إلا أيها الظامي لك الشرب سائغ
هنيئاً مريئاً أن قضيت وروداً
تسرى الكوثر الصافي عليه مؤرخاً
ورودك حوض السلسيل حميداً

سقاية مسجد الست نفيسة

ترقى إلى القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) . أنشأها بعض أهل الخير في مسجد الست نفيسة في الجانب الغربي من بغداد (١٤٠) . ونالت أهمية خاصة نظراً لموقعها في آخر عمران هذا الجانب . وقربها من خط الترامواي الذي أنشأه مدحت باشا والي بغداد . ولبثت هذه السقاية موجودة حتى توسيع الشارع الذي تطل عليه (شارع موسى الكاظم) سنة ١٩٥٤ ، فنقضت ، مع قسم من المسجد ، وعند إعادة بناء المسجد لم تبني السقاية المذكورة (١٤١) .

سقاية زكريا الخضيري

أنشأها الحاج زكريا بن عبدالوهاب بن ملا خضر المعروف بالخضيري ، أحد وجهاء بغداد وتجارها في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر للهجرة (١٨ و ١٩) الحقها بمسجده الذي شيده في محلة التسابيل ، القريبة من محلة

(١٤٠) ينسب إلى السيدة نفيسة القشطيني من فضليات بغداد في القرن الثاني عشر للهجرة ويرى بعضهم أن مؤسسه هو محمد سعيد القشطيني الاول ، عمره بغالض ماله ، في حين يرى آخرون أنه محمد سعيد المشهور بالحاج اسعودي التكريتي . ووصفه محمد افندي الناصري التكريتي فقال « فيه غرفة تحتانية فيها قبور عديدة ، منها قبر الرجل الصالح المشهور بالكرامات الشيخ موسى الجبوري (توفي سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣١م) وقبر الشيخ عبدالغفور أحد خلفاء الشيخ خالد النقشبندي (توفي سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٥م) . . ولم اف على تاريخ تأسيسه ، وفيه قبر بجانب البئر عن يمين غرفة القبرة للداخل فيها يقال أنه هو محمد سعيد افندي الحاج اسعودي والله اعلم ، أما اليوم فالأوقاف قائمة بمصارفه وفيه خطيب وامام ومؤذن وخادم ، تقام فيه الجمع والاعياد والجماعات » ذيل مساجد بغداد (مخطوط) .

(١٤١) الآلوسي : مساجد بغداد ص ٥٦ (مخطوط) .

رجب البغدادي سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م (١٥١) .
وبقي حوض السقاية موجوداً في موضعه ، وهو
من حجر الحلان المنقور ، المتوفر في نواحي
الموصل ، وله ثلاث فتحات لصب الماء منه ، وعند
تعمير الجامع مؤخراً أزيل هذا الحوض الأثري
وكسر فلم يبق للسقاية اي اثر .

سقاية نابي خاتون

انشأتها السيدة نابي خاتون بنت عبدالله ،
زوج والي بغداد سليمان باشا الكبير (١١٩٤ -
١٢١٧هـ/ ١٧٨٠ - ١٨٠٢م) ووالدة والي بغداد
سعيد باشا (١٢٢٨ - ١٢٣٢هـ/ ١٨١٣ -
١٨١٦م) (١٥٢) باتصال مدرستها التي شيدتها في
السوق الجديد من « الميدان » بالجانب الشرقي
من بغداد سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م ووقفت عليها ،
وعلى مدرستها ، عقارات عديدة ، اثبتتها في
وقفيتهما المؤرخة في ٢٨ رجب ١٢٣٧هـ/
١٨٢١م (١٥٣) .

سقاية السيف

انشأها والي بغداد داود باشا (١٢٣٢ -
١٢٤٧هـ/ ١٨١٦ - ١٨٣١م) عند جامع
السيف (١٥٤) ، حين قام بتعميره تعميراً شاملاً في
السنين ١٢٣٦ - ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٠ - ١٨٢٤م
« ليستقي منها الناس ويشرب من مائها أبناء
السبيل » (١٥٥) وقد امتدحها الشيخ محمد صالح
التميمي بآيات بائنة كتبت على جدرانها ، هي :

(١٥١) مجلة الرسالة الاسلامية العدد ١٢١ - ١٢٢ (بغداد
١٩٧٨) ص ٨٦ .
(١٥٢) شاركت هذه السيدة في الحكم واسهمت في توجيه سياسة
زوجها وولدها ، وبعد مقتل الأخير ، اعتكفت عن الناس ،
وتركت الحياة العامة ، ثم شرعت بجملة اعمال خيرية نافعة
منها هذه السقاية . انظر : سليمان فائق : مرآة الزوراء
في اخبار الوزراء (المسمى تاريخ بغداد) ترجمة موسى
نورس ص ٥١ وتاريخ المالك الكولة مند في بغداد ، ترجمة
نجيب الارمنازي ص ٤٩ .

(١٥٣) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .
(١٥٤) مسجد قديم كان على شاطئ دجلة الغربي ، قريباً من
جسر الشهداء الحالي ، كنا قد رجحنا ان اصله في العصر
العباسي دار القرآن البشرية المشيدة سنة ١٢٥٢هـ/ ١٢٥٤م
وعمر في عهد السلطان سليم الثالث سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨م
ومن المؤسف ان ينقض هذا الاثر المهم ويحطم ما عليه من
كتابات اثرية ، ليمسي ساحة لوقوف السيارات ! عماد
عبد السلام رؤوف: دار القرآن البشرية وهل هي مسجد
السيف القديم . جريدة البلد البغدادية بتاريخ
١١-١١-١٩٦٦ .

(١٥٥) ديوان محمد صالح التميمي .

بيد ان الخراب لم يلبث ان استولى على هذه
المنشآت الخيرية حيناً من الدهر ، وعند قيام المتولي
بتعمير الجامع وتجديده ، اهتمت السقاية فانقطعت
اخبارها منذ ذلك الحين (١٤٥) .

سقاية اسماعيل الشطي

انشأها الحاج اسماعيل جلبي بن عبدالرحمن
جلبي الشطي البغدادي من التجار البارزين ببغداد
في القرن الثالث عشر للهجرة (١٤٦) ، سنة ١٢٠٧هـ /
١٧٩٢م وكان موقعها قرب جامع القزازة في محلة
الفناهرة من شرقي بغداد (١٤٧) .

سقاية عادلة خاتون

انشأتها السيدة عادلة خاتون بنت والي
بغداد أحمد باشا (توفيت سنة ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م)
سنة ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م ، في مسجد المعروف
بجامع العادلية الصغير (١٤٨) على طريق الجسر
القديم (جسر الشهداء حالياً) (١٤٩) . وكان على
باب المسجد لوحة من الرخام عليها ستة أبيات
دالية فيها اشارة الى السقاية ، وتاريخها ، منها :

فلما زها بنيسان باب دخوله

وجلّت ماء الظمان من الصلدى

هناك اقتباسيانه (كذا) الذكر أرخوا

لرب السماء الهادي ادخلوا الباب سجدا

١١٦٠

سقاية جامع السراي

لا يعلم منشؤها ، وكانت تقع في جامع
السراي (١٥٠) ، وبطل شباكها على الطريق المؤدية
الى ساحة مديرية الشرطة . أشار اليها عباس بن

(١٤٥) يقع الجامع اليوم قريباً من شارع الجمهورية ، مجاوراً
لمركز شرطة المهديّة .

(١٤٦) ولد سنة ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م ولاعلم تاريخ وفاته .

(١٤٧) نقض هذا الجامع وادخلت أرضه في شارع الجمهورية
عند فتحه .

(١٤٨) ويعرف باسم جامع الدنكجية نسبة الى (العقد) الذي
يقع فيه .

(١٤٩) نقض هذا الجامع وادخلت أرضه في شارع الامون ،
وشيدت الاوقاف جامعا كبيرا باسمه على يسار الازهار الى
الاعظميّة .

(١٥٠) ويسمى جامع جديد حسن باشا، وكان يسمى قديماً بالجامع
السليمانى نسبة الى السلطان سليمان القانوني الذي
عمره سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ثم جده والي بغداد الوزير
ابراهيم باشا سنة ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٢م واعاد بناءه ووسعه
والى بغداد حسن باشا (المتوفى سنة ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م)
ولبث جامعا خاصا بالولاة والوزراء طيلة العصر العثماني .

أرى كل مكرمة في الوردى
الى غير داود لا تنسب
حبي الكرخ من بركة سيدها
إذا نضب البحر لا ينضب
وما يبتغي الناس من صيب
ونائل راحته صيب
إذا ذقت من مائها فاستعن
بآخر ري به يعذب
وارخ وناد بواردها
هنيئاً مريئاً لمن يشرب
واندثرت هذه السقاية عند نقض الجامع
نفسه سنة ١٩٦٦م ، فلا أثر لها اليوم .

سقاية جامع الأزبك

أنشأ هذه السقاية أو جددها والي بغداد
داود باشا سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٨م ، وكانت تطل
بشباكها من جامع الأزبك ، على الطريق العام ، فهي
قريبة من باب المعظم ، الى يمين الداخل منه الى
بغداد . وبقيت موجودة حتى الربع الأول من هذا
القرن (١٥١) .

سقاية جامع الحيدرخانة

أنشأها والي بغداد داود باشا سنة ١٢٤٣هـ/
١٨٢٩م في جامع الحيدرخانة الذي عمره ، أو أتم
تعميره في تلك السنة (١٥٧) . وكان لها شباك مطل
على سوق الحيدرخانة ينهل منه المارون (١٥٨) .
وشرط مؤسسها في وقفته « لمن يتناول الماء
للشاربين من الماء المسبل للشرب خمسون قرشاً ..
وللسقاء الذي يأتي بماء الجامع في كل يوم عشرة
قرب ، ثلثمائة وستون قرشاً » (١٥٩) .

سقاية خاتون بنت عبدالله

شيدتها السيدة خاتون بنت عبدالله وزوجها
أحمد آغا بن اسماعيل آغا سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ،
وكانت تقع في محلة الميدان ، ببغداد اشرقية ،

(١٥٦) انظر عن هذا الجامع : عباس الغزاوي : تاريخ
العراق بين احتلالين ٢٥/٥ ودبوان محمد صالح التميمي
ص ٧٩ .

(١٥٧) اسامة النقشبندی : جامع الحيدرخانة ، عمارته
وموضعه . مجلة سومر مجلد ٢٩ جزء ٢-١ (بغداد ١٩٧٢)
ص ٢٤٥ .

(١٥٨) زال هذا السوق ، وكان يقع في ارض شارع الرشيد ،
ويتصل بالواجهة الحالية للجامع بمقود .

(١٥٩) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

مظلة بشباكها على الشارع العام (١٦٠) . ووقفت
عليها أربعة دكاكين في المحلة نفسها ، وشرطت ان
تصرف الفلة على لوازم السقاية والفضلة تكون
لدريتها ، وبعد انقراضها تصرف جميع الفلة على
السقاية وتعميرها . وسجلت هذه الوقفية في ٧
صفر من السنة نفسها (١٦١) .

سقاية عاتكة خاتون

أنشأتها السيدة عاتكة خاتون بنت السيد
علي القادري الكيلاني نقيب الأشراف (توفيت سنة
١٢٤٥هـ/١٨٢٩م) في مدرستها التي شيدتها قرب
جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ببغداد سنة
١٢٢٦هـ/١٨١١م وعرفت بالمدرسة الخاتونية (١٦٢) .
وقد وقفت على مدرستها هذه وسقايتها أوقافاً
جمة ، وشرطت للسقاية كل يوم مبلغاً قدره (٢٤)
آقجة (١٦٣) . ولكن خراباً أصاب جميع هذه
المنشآت نتيجة الطاعون الجارف والفرق الذي ألم
ببغداد سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ، فاندست ومحي
أثرها (١٦٤) .

سقاية نازدة خاتون

أنشأتها السيدة نازدة خاتون بنت مصطفى
آغا (توفيت سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م) زوج علي
باشا والي بغداد (١٢١٧ - ١٢٢٢هـ/١٨٠٢ -
١٨٠٧م) وافتتحتها سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م (١٦٥) .
وكانت تقع في الجامع الذي شيدته في محلة
الحيدرخانة ، قريباً من شارع الرشيد ، يطل
شبكها على الطريق ، وخصصت لها منشأتها من
الأوقاف العديدة التي وقفتها مبلغاً قدره (١٨٠٠)
قرشاً رائجاً ، للانفاق على صيانتها ، ومدها بالماء
على الدوام (١٦٦) .

وقد تعطلت هذه السقاية منذ ان لحق
الخراب الجامع نفسه ، في أوائل القرن
الحالي (١٦٧) .

(١٦٠) في نص الوقفية انها تقع بين الشارع العام وملك عبدالكريم
النفطجي .

(١٦١) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٦٢) عماد عبدالسلام رؤوف : الآثار الخطية في المكتبة القادرية
(بغداد ١٩٧٤) ٢٩/١ .

(١٦٣) وقفية المدرسة الخاتونية مؤرخة في ٢٠ جمادى الاولى
سنة ١٢٣٥هـ . المحكمة الشرعية ، سجل ١١ ص ٢٠٧ .

(١٦٤) ابراهيم الدروبي : البغداديون ، اخبارهم ومجالسهم
(بغداد ١٩٥٨) ص ٢٣٤ .

(١٦٥) البغداديون ص ٢٤٠ .

(١٦٦) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٦٧) اعادت الاوقاف بناء ليكون مدرسة دينية باسم (مدرسة
نازدة خاتون) .

سقاية دكان شنأوه

لا يعلم مؤسسها ، وكانت تقع في محلة « دكان شنأوه » بين محلة الحيدرخانة جنوباً ، والقراغول شرقاً والصابونجية شمالاً والميدان غرباً .

ذكرها فيليكس جونز سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م ، اذ اشار الى ان عقداً من عقود هذه المحلة يسمى « عقد السبيلخانة » (١٦٨) . ولا ندري الى اي عهد بقيت .

سقاية صبغة الله الحيدري

انشأها السيد صبغة الله بن ابراهيم الحيدري البغدادي ، مفتي الشافعية ببغداد (توفي سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م) (١٦٩) سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م وكان موقعها قرب جامع الخلفاء (جامع القصر قديماً) ببغداد الشرقية . وكتب على جدارها ، بالرخام ، خمسة ابيات حائية ، تضمنت اسم المنشئ ، وتاريخ انشائها . وكان السيد محمود شكري الآلوسي (توفي سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م) قد سجل هذه الأبيات ، قبل نقضها ، وهي (١٧٠) :

ذي بركة يرتوي منها بضحضاح
كادت تؤلف أبدانا بأرواح
فصبغة الله أجرى ماءها غدقا
للواردين بتبريد واصلاح
يرجو الثواب من الرب الكريم بها
يوم الحساب وان يسقى باقتداح
بشراه قد ربحته فيها تجارتها

وفاز في خير محصول وارباح
ان جئت ضمان قلب يا مؤرخها
اشرب هنئاً مريئاً بارد الراح

وعند هدم الجامع سنة ١٩٥٨ لشق شارع الجمهورية ، زالت هذه السقاية وفقدت الرخامة المذكورة ، وبقيت كذلك ، حتى اسمعدي الحظ بالعثور عليها ، واذا بها ما تزال في حالة جيدة ، يبلغ طولها ٣٦ سم وعرضها ٣٥ سم وثخنها ٥ سم . وقرأت عليها ، بعد حكها وتنظيفها ، الأبيات الخمسة المذكورة ، وهي مكتوبة بخط النسخ البديع ، ومنقوشة باتقان وعناية .

(١٦٨) Jones, F., Op. Cit., P. 314.
(١٦٩) ترجم له ابنه ابراهيم فصيح في كتابه « عنوان الجدي بيان احوال بغداد والبصرة ونجد » (بغداد ١٩٦١) ص ١٢-١٢١
(١٧٠) مساجد بغداد ص ٦٧ (مخطوط) .

ومما يلفت النظر ان الآلوسي سجل تاريخ شطر الشعر في الرخامة (١٢٦٠) رغم ان المكتوب على الرخامة نفسها (بالارقام اضافة الى مجموع الحروف) هو ١٢٦٧ وعليه جرى الاستاذ يعقوب سركيس في بحثه عن « منارة جامع سوق الغزل » (١٧١) والاستاذ عباس العزاوي في مقاله « جامع الخلفاء » ، لعدم اطلاعهما على النص الوارد فيها عياناً (انظر الصورة رقم ٣) .

سقاية خلف اغا

انشأها خلف اغا ، قائم مقام الحلة (١٧٢) في عهد والي بغداد نامق باشا الكبير سنة ١٢٧٧هـ/١٨٥٣م قرب حديقة له ظاهر سور الكرخ ، في الجانب الغربي من بغداد وكان « يبرد فيها الماء العذب لشرب أبناء السبيل » . وكتب على جدار السقاية قصيدة بائية ، فيها تاريخ انشائها ، وهي (١٧٣) :

هذا سبيل لا عيب فيه قد
راق لأبناء السبيل مشربا
كوثر ماء في رياض جنة
يجنى جنى الجود منها رجبا
رق لظمان الحشا سلساله
رقى سلسال زلال الصهبا
مدى عليه للقري قصر علا
طال الزمان في علاه الشها
أكرم به من « خلف » سلسيله
أوقفه لله منه حسبا
وراح كل وارد وصادر
يشكره شكر الرياض السحبا
وكم وري قلباً به لحاسد
وكم به روى لصاد قلبا
ومن تكن عقباه مثل هذه
فلا يخف يوم المعاد العقبا
يا حبذا سيب سبيل ورده
فأرخت شراباً عذبا
١٢٧٧

سقاية نائلة خاتون

انشأتها السيدة نائلة خاتون بنت عبدالرحيم سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م ظاهر اسوار الجانب

(١٧١) مباحث عراقية (بغداد ١٩٤٨) ٢٤٦/١ وفيه ماوافق السنة (١٢٦٠هـ) حسب التاريخ البيلادي ، وهو (١٨٤٤م) (١٧٢) يوسف كركوش : تاريخ الحلة (النجف ١٩٦٥) ١٤٣/١ .
(١٧٣) مساجد بغداد ١٣١ (مخطوط) .

بالنسي يمناه أجرت موردا
جلة الوارد منه تشرب
فاذا قلت لعمرى دجلة
ماؤها عذب فرات طيب
قلت بانواحد لطفأ أرخوا
سلسيل القادري اعذب
١٣٠٠

وما تزال هذه السقاية قائمة ، وعليها ما
نقلناه من أبيات ، الا ان الماء انقطع عنها منذ عهد
بعيد (الصورة ٤) .

سقاية عبدالرزاق الخضيري

انشأها الحاج عبدالرزاق جلبي بن ياسين بن
عمر الخضيري سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م عند مسجد
الشيخ عبدالعزيز الانصاري في محلة الشيخ سراج
الدين من شرقي بغداد ، وذلك بمناسبة تعميره
للمسجد المذكور في تلك السنة . ووقف عليها بعض
الأوقاف ضماناً لدوامها (١٧٩) .

سقاية عطية خاتون

انشأتها السيدة عطية خاتون بنت محمود
اغا بن عبدالله سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م باتصال باب
جامع العاقولي (١٨٠) في شرقي بغداد ، ووقفت عليها
داراً في محلة جديد حسن باشا ، وشرطت صرف
غلقتها على اصلاح السقاية وترميمها . واوكلت امر
توليها الى اسماعيل افندي بن الحاج سليم بن
امين بن شعبان ، وجعلت النظارة عليها للعلامة
السيد نعمان خير الدين الالوسي (توفي سنة
١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م) (١٨١) . ولم يبق للسقاية اليوم
اثر ، وقد علمت ممن عاصرها انها زالت في
الأربعينات من هذا القرن .

سقاية صالح بن محمد

انشأها الشيخ صالح بن محمد بن فتاح في
محلة (فضوة عرب) التي هي جزء من محلة باب
الشيخ ، ووقف على ادارة مصالحها دار سكناه
وكانت تقع بقربها بموجب الوقفية المؤرخة في ٧ ذي
القعدة سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م (١٨٢) .

الشرقي من بغداد ، على الطريق المؤدية الى قسبة
الأعظمية ، ضمن البستان المعروف ببستان
الوقف ، قريباً من سقاية الحجية (١٧٤) . ووقفت
عليها اوقافاً دارة ، وشرطت ان يصرف عليها من
غلتها ، وما يتبقى يصرف على المدرسة التي
انشأتها قبالة جامع الحيدرخانة ببغداد (١٧٥) . كما
جعلت هذه السقاية مدفناً لزوجها مراد أفندي
المتوفى سنة انشائها ، ثم مدفناً لها بعد وفاتها
سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م . وقد بقيت السقاية قائمة
للنفع العام حتى ازلتها عند توسعة الشارع سنة
١٩٣٥ وتقل رفاة دفنيتها الى مقبرة الامام الاعظم .
ولما بنى السيد عبدالحميد الدهان جامعاً على
قطعة ارض تعود الى هذه الواقفة ، بنى فيه
سقاية ، وهي موجودة الى اليوم (١٧٦) .

سقاية سلمان القادري

انشأها السيد سلمان بن علي بن سلمان
القادري الكيلاني ، تقيب الاشراف ببغداد (توفي
١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م . وتقع
باتصال المسجد الذي شيده في السنة نفسها ،
والواقع في محلة السنك من شرقي بغداد (١٧٧) .
وقد وقف على مصالح سقايته ومسجده اوقافاً
جساماً ، فصلها في نص وقفته ، وشرط « ان
يكون الماء جارياً بلا انقطاع شتاء وصيفاً يستقى كل
من اراد من ابناء السبيل والمترددين ، ومن اراد
حمل الماء بالوانني المخصصة الى بيته من الحوض
المعد لذلك فلا يسوغ لاحد منعه ، ومن منعه وقطعه
فعلية ما يستحق من الله تعالى ! » وشرط ان
يعطى لمن يقوم بخدمة السقاية ٧٥ قرشاً صاغاً كل
شهر ، اضافة الى مخصصات مالية عديدة لتغطية
مصارف السقاية الاخرى (١٧٨) . وثبتت فوق
شباكها لوحة رخامية نقشت عليها خمسة أبيات
بائية ، فيها تاريخ انشائها . وهي :

سيد القوم وفخر النجا
من له فوق الثريا نسب
رضى الله على أفعاله
وبه يعلو العلى والرتب

(١٧٤) سيأتي الكلام عليها في هذا البحث .

(١٧٥) الوقفيات المؤرخات ٩ ربيع الاول ١٢٩١ و ١٦ ذي الحجة
١٢٩١ و ٦ ربيع الاول ١٢٩٢ .

(١٧٦) البغداديون ٣٠٦ وهاشم الاعظمي : تاريخ جامع الامام
الاعظم (بغداد ١٩٦٥) ١٩٠/٢ .

(١٧٧) محمد صالح السهروردي : لب الالباب ١٢١/٢ .

(١٧٨) وقفية السيد سلمان القادري ، مؤرخة في ١٧ رمضان
١٣١٢هـ . المحكمة الشرعية السجل ٤٤ .

(١٧٩) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط)

(١٨٠) جامع قديم كبير في محلة العاقولية التي نسبت اليه ،
كان في الاصل داراً للشيخ جمال الدين عبدالله بن محمد بن
العاقولي مدرس المستنصرية ، وبعد وفاته سنة ٧٢٨هـ/
١٢٢٧م تحول الى مسجد . وقبره فيه ظاهر الى اليوم ، وجرى
تعميره غير مرة آخرها سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م .

(١٨١) مجموعة من وقفيات بغداد (مخطوط) .

(١٨٢) المصدر نفسه .

سقاية جاسم الحجية

شيدها جاسم الحاج محمد خلف الحجية سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٤م في الحديقة (البقعة) المحاذية لبستان الربع التي ورثها عن والده الحاج محمد الحجية متعهد ارزاق الجيش العثماني في بغداد في عهد مدحت باشا . على الطريق العام المؤدي الى جامع الامام الاعظم ، حيث كان المارة وعابرو السبيل يستريحون هناك ويتوضؤون ان كان وصولهم اليها في اوقات الصلاة ، حيث كان في الجهة المقابلة لدخلها مصلى واسع .

ولضمان تزويد السقاية بالماء ، فقد مد منشؤها اليها قناة من شاطئ دجلة ، يرفع اليها الماء بواسطة دولا ب كان يسقى ايضاً بستان الربع ، ويصب في حوض كبير ، مطلى داخله بالقرار ، موضوع داخل مبنى السقاية ، مما يلي شباكها مباشرة ، وفي هذا الحوض يترسب الماء ، ويتعمده بالماء والتنظيف عامل خاص له مرتب شهري . وكانت ساحة السقاية ١٥٦ متراً مربعاً ، اضافة الى مصلى مقابلها ، وبئر لاستعماله عند انقطاع مياه القناة .

وكتبت فوق محل شرب المياه ثلاثة ابيات للعلامة عبدالوهاب النائب (توفي ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) فيها تاريخ انشائها . ومنها (١٨٣) :

جاسم قد بنى واحسن متناً

لايبسه محمد خير منهيل وبعد انتفاء الحاجة الى هذا المشروع الخيري، بوصول العمران بين الاعظمية وبغداد ، واستعمال وسائل النقل الآلية ، هدم جاسم الحجية سقايته، الاّ جداراً واحداً كان يشتمل على المدخل ومحل شرب الماء وفوقه الرخامة المذكورة ، وبقيت هذه الآثار حتى باعها الورثة سنة ١٩٥٩م ، فهدم من اشتراها محل الشرب وأدخله في بيته .

سقاية كامل الزند

انشأها كامل بك بن الحاج أمين الزند سنة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م ، عند المسجد الذي شيده على قسم من دار ابيه مفتي بغداد ، في محلة البارودية، من محلات شرقي بغداد . وكتب فوق باب المسجد خمسة ابيات تشتمل على تاريخ العمارة ، وفيها اشارة الى السقاية المذكورة ، هي (١٨٤) :

(١٨٣) عزيز جاسم الحجية : بغداديات (بغداد ١٩٦٧)
١٦٩/١ - ١٧١ .
(١٨٤) مساجد بغداد ٩٧ (مخطوط) .

ذا جامع فيه رياض التقى
مزهرة فليعمل العامل
مكتبة فيه لاهل الهدى
ينال من جوهرها السائل
وماؤه العذب غداً كثرأ
فليس يحكيه الحيا الهائل
شيده محتسباً موقناً
سليل صدر العلما الكامل
على التقى مذ تم أرخته
قد نار هذا المسجد الكامل
١٣٢١

وقد هدم هذا المسجد في تموز سنة ١٩٦٤ فضاع اثر سقايته .

سقاية سالم الحيدري

انشأها السيد سالم الحيدري سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م في محلة النص ، على طريق الاعظمية . اشترى أرضها لتكون مقبرة له ، وكانت قبل ذلك قسماً من بستان (يقال بكر) (١٨٥) . ثم شيد عليها مسجداً صغيراً ، دفن فيه قريبه السيد صالح الحيدري المتوفى في السنة المذكورة ، والحق به سقاية ذات طابقين ، وجعل فوق شباكها لوحة رخام كتب عليها بخط بارز جميل سطرين ، يؤلفان العبارة الآتية « قد انشأت هذه السبيل خانة الى المرحوم الشهيد حيدري زادة صالح أفندي سنة ١٣٣٠ » . تلي ذلك قصيدة عينية من عشرة ابيات، كتبت على ستة أسطر ، وهي في رثاء السيد صالح الحيدري .

وما تزال بناية هذه السقاية قائمة ، وهي تقع بلصق دائرة البريد في الاعظمية .

سقاية هيب خاتون

انشأتها السيدة الحاجة هيب خاتون سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦ في محلة النص من محلات قصبة الاعظمية . عند المدرسة التي شيدها هناك . ووقفت عليها أوقافاً بموجب الوقفية المؤرخة في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م (١٨٦) .

سقاية مسجد آل جميل

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت تقع عند مسجد آل جميل في محلة قنبر علي شرقي بغداد ، وفي سنة ١٣١٥هـ/ ١٩٠١م وقفت السيدة صفية

(١٨٥) تاريخ جامع الامام الاعظم ١٩٢/٢ .
(١٨٦) البغداديون ٣٤٤ وتاريخ جامع الامام الاعظم ٥٨/٢ .

على المحلات ، او ادخال فكرة تنقيتها من شوائبها او تعقيمها ، فلم تتجاوز تلك المشاريع ، في اغلب الأحيان ، رفع القنوات الاجرية القديمة ، واستبدالها بانابيب معدنية لتعمل على الاسلوب القديم نفسه ، ولتزود سقايات المدينة العامة بالطريقة المتبعة سابقاً .

ولعل اول محاولة من هذا النوع ، هي التي جرت في آخر عهد الولاية المماليك (١٩٢) ، ففي سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م عرض مهندس ايراني يدعى (ميرزا عبدالمطلب) كان قد قدم بغداد آنذاك على والي بغداد داود باشا (١٢٣٢ - ١٢٤٧هـ / ١٨١٦ - ١٨٢١م) ان يقوم بصنع مضخة (طلمبة) تسحب الماء الى أي مكان مرتفع على أن تتعهد الحكومة بدفع ما يلزم من النفقات . فوافق داود باشا ، بعد أن درس المشروع بعناية ، وخصص له عدداً من الحدادين والعمال للعمل معه ، وسهل له كل الوسائل التي تعينه على انجازه المشروع ، فتم صنع المضخة في خلال مدة قصيرة ، ونصبت على دجلة ، وأخذت بضخ الماء بكثرة هائلة ، فكانت موضع اعجاب الناس على اختلاف طبقاتهم (١٩٣) . وسميت بـ (چرخ يوسف) اي دولاب يوسف ، نسبة الى ابن اللوالي يدعى طورسون يوسف .

ورغم ان داود باشا طلب من المهندس المذكور الاقامة ببغداد « ليتعلم سائر الناس منه » وأجرى له راتباً (١٩٤) ، فاننا لا نجد في اخبار السنين التالية على هذا الحادث ما يدل على انشاء مشاريع أخرى من النوع المذكور اذ بقيت الدواليب القديمة مستمرة في عملها في مد اهل بغداد بمياه الشرب حتى فترة متأخرة من القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) واغلب الظن ان خراباً لحق بمشروع داود باشا نفسه بعد سنوات قليلة من تأسيسه اذ خلت المصادر ، وبخاصة اخبار المشاريع التالية ، من ادنى اشارة اليه .

وفي عهد والي بغداد المصلح مدحت باشا (١٢٨٦ - ١٢٨٩هـ / ١٨٦٨ - ١٨٧٢م) بدأ التفكير جدياً بانشاء مشروع دائم لربط دور بغداد وسقاياتها العامة بانابيب ، وتضخ اليها المياه بواسطة مكائن حديثة تنصب في أماكن مختلفة من شاطئ دجلة . وتكون تحت ادارة بلدية بغداد

(١٩٣) دام حكمهم من ١١٦٢ الى ١٢٤٧هـ / ١٧٤٨ - ١٨٢١م .
(١٩٣) رسول حاوي الكركوكلي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع الزوراء (ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت) ص ٢٩٤ .
(١٩٤) عباس الغزوي : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦ (بغداد ١٩٥٤) ص ٢٦٨ .

خاتون بنت محمد افندي بن السيد عبدالغني آل جميل مفتي بغداد بعض الدكاكين على هذا المسجد ، وعلى السقاية ، وشرطت ان يعطى (٣٥٠) قرشاً لتصرف على لوازم السقاية (١٨٧) .

سقاية حاجبة خاتون

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت تقع في مسجد حاجبة خاتون ، في محلة الامام طه بشرقي بغداد ، ذكرها الشيخ محمد بهجة الاثري سنة ١٩٢٥م (١٨٨) ونقضت ، والمسجد ، عند توسعة شارع الرشيد .

سقاية الملا حمادي

انشأها شاعر الملا حمادي سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م في المسجد الذي جدد عمارته قرب جامع السيد سلطان علي في شرقي بغداد . واثار اليها عباس بن رجب البغدادي سنة ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م (١٨٩) .

سقاية سيد محمد

اشار اليها السيد رشيد الخوجة في خريطته لبغداد (١٩٠) . وموقعها - كما تظهر فيها - خارج باب المعظم ، في ارض المدرسة الغربية المتوسطة اليوم ، وفيها قبر صاحبها .

سقاية الشيخ معروف الكرخي

لا يعلم تاريخ انشائها ، وموقعها عند جامع الشيخ معروف الكرخي ومقبرته في الجانب الغربي من بغداد (١٩١) .

خاتمة

شهدت بغداد ، في اواخر العصر العثماني ، محاولات متفرقة لتحسين الوسائل القديمة المتبعة في رفع مياه الشرب ونقلها الى محلاتها . ولقد انصبت تلك المحاولات ، بالدرجة الاولى ، على استبدال الآلات القديمة التي تعمل بقوة الحيوانات بالآلات ذاتية الحركة ، اكثر حداثة ، دون ان تستهدف انشاء نظام جديد لتوزيع مياه الشرب

(١٨٧) البغداديون ص ٣٦٠ .
(١٨٨) مساجد بغداد واثارها ، الفوائد ، ص ١٤٠ .
(١٨٩) مجلة الرسالة الاسلامية ، العدد ١١٧-١١٨ (بغداد ١٩٧٨) (١٩٠) خارطة بغداد كما مسحها ورسمها السيد رشيد الخوجة عام ١٩٠٨ ص ١٦ .
(١٩١) محمد رؤوف الشيشلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها (البصرة ١٩٧٢) ص ٨٢ .

دولاب الشيخ عبدالقادر الكيلاني فامست تزود سقايته بالماء (١٩٧)، بيد ان اشراف البلدية بقى قاصرا على المشروع الحكومي الوحيد ، وهو المنشا عند شريعة الميدان . وعند سقوط بغداد على يد المحتلين البريطانيين تولت سلطات الاحتلال ادارة المشروع ، ثم عهد به بعد تأسيس الحكومة العراقية الى ادارة « البلدية » فبقي تحت ادارتها حتى انشاء اول هيئة عامة لمياه الشرب في بغداد والعراق باسم « لجنة اسالة الماء لمدينة بغداد » سنة ١٩٢٤ . ورغم ان حالة الاسالة والتوزيع كانت في هذه الفترة بدائية للغاية (١٩٨) ، الا انها كانت بداية لاعمال عديدة نشطة ، ذات صفة علمية وتقنية حديثة (١٩٩) ، وبذلك ينتهي تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة ببغداد ، ليبدأ بعدها تاريخ مشاريع حديثة ، اخذة باسباب التطور والتقدم .

(١٩٧) انظر ماتقد م عن هذه السقاية .

(١٩٨) كان طول الانابيب الموصلة لمياه الشرب في الايام الاولى لتسلم المشروع سنة ١٩٢٤ ٣.٠٠٠ متر ، وكانت ميزانية المشروع تحوم ارقامها حول مايقارب ١٧٠٠٠ دينار اما عدد المشتركين فلم يزد على ٧٠٠ مشترك . ولم تكن هناك عملية ترسيب او تصفية ، وكانت الانابيب ترفع غالبا من امكانها لتنظيف مافي داخلها من الاطيان والرواسب ، ولم تكن هناك مقاييس البتة ، وانما تستوفى الاجور بالتقدير .

(١٩٩) في سنة ١٩٢٥-١٩٢٦ ابتدا الاهتمام بالتصفية ، والحق بعد ذلك مركز الكراة بالمشروع ، وكان بمهدة وزارة الطيران وفي سنة ١٩٢٧ وضع منهج انشاء مركز تصفية جديد لمنطقة الكرخ تضم اليه منطقة الكاظمية ، وقد صدر بالفعل سنة ١٩٢٩ قانون بتشميل اعمال اللجنة على منطقة الكاظمية وكمل المشروع في اواسط ١٩٣٠ . وفي الوقت نفسه كانت اعمال التصفية قد بدأت بالتحسن ، واستعملت احواسي الترسيب وبدا بتفقيم الماء بالكلوورين ، وفي اواخر سنة ١٩٣٠ استقرضت اللجنة اول قرض من البنوك ، وفي سنة ١٩٣١ صدر قانون تأسيس لجنة اسالة الماء لمنطقة بغداد رقم ١٠٤ لسنة ١٩٣١ واصبح للجنة شخصية حكومية ، وزيد عدد اعضائها ، وفي اواسط ١٩٣٤ تم لأول مرة تزويد جهتي الرصافة والكرخ الماء لمدة ٢٤ ساعة متصلة . وفي ايلول ١٩٣٥ افتتح مركز التصفية في الرصافة الذي اعتبر بداية لضخ الماء النقي لجانب الرصافة وكانت مراكز المشروع في هذا التاريخ هي ثلاثة الصرافية والشالجية والكراة وفي اواخر ١٩٣٥ عدل قانون اللجنة بحيث اصبح مرجعها الاعلى وزارة الداخلية وفي اواسط ١٩٣٩ ادمج مشروع الاعظمية باعمال اللجنة وادخلت عليه تحسينات شاملة ومنع صاحب الامتياز تعويضا عن ممتلكاته . وفي حزيران ، ١٩٥٣ اضيف مركز ضخ وتصفية جديد الى مراكز اللجنة هو مركز المسبح وبصدر القانون رقم ٥٤ لسنة ١٩٥٥ اصبح اسم المشروع (مصلحة) ثم زادت اعمال هذه المصلحة وتوسعت بتوسع مدينة بغداد نفسها في الستينات والسبعينات .

المنشأة حديثا . وقد اوصي لهذا الغرض على خمسة مكائن من لندن ، قوة كل منها ١٢ حصانا ، ووضعت واحدة منها في مشرعة (شريعة) الميدان على سبيل التجربة ، الا انه لا دليل على اتمام المشروع على ما وعدت به جريدة الزوراء الرسمية في حينه . وكانت هذه الجريدة قد نشرت في ٧ ربيع الاول سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) خبراً يبشر البغداديين بانتهاء مشكلة مياه الشرب في مدينتهم على النحو الآتي :

« لا يخفى ان سطح بلدة بغداد بحسب ارتفاعه مقدار ذراعين ثلاثة اعشارية عن سطح نهر الدجلة ، فلهذا لا يمكن دخول الماء الى دار من الدور اصلاً ، والماء الذي تشربه الاهالي ينقل بواسطة سقاقي الحمر وسقاقي الظهر ، فالمشقة الحاصلة للخلق من هذه الجهة وعلى الخصوص لبعض العجزة من النساء ، فحوصلة البيان لا تسع ايضاح ذلك . بناء على هذا لاجل دفع احتياج اهالي مملكتنا من جهة الماء ، وان الذين يرمون (يرومون) ادخال الماء الى دورهم يعطى في بعض الامكنة حياض فيها زمملات يأخذ بواسطتها الماء . كان قبل هذا قد اوصى على جلب خمسة ماكينات لاجل الماء من لوندرة ، وقوة كل منها في قوة اثني عشر حصان ، وان تدخل تحت حساب دائرة البلدية . وبهذه الدفعة قد وردت تلك الماكينات ووضعت واحدة منها بحذاء مطبعتنا لاجل التركيب والتجربة . فهذه المادة ما عدا انها تكون دافعة للضرورة العارضة للخلق من جهة تصل الماء ، فكذلك يكون الماء الجاري دائماً في كل دار . وحيث ان هذه الفائدة هي موجبة لكسب معمورية البلدة درجة اخرى ، فالحق انها لا يقى بالتشكر والامتنان ، وانها لطف من الماء الزلال لدى الظمان » (١٩٥) .

وفي سنة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م أمر والي بغداد حازم بك (١٣٢٥ - ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٧ - ١٩٠٨ م) بنصب ماكينة اخرى في مشرعة الميدان وأجرى الماء بالانابيب الى داخل بغداد ، فكانت تمد بمياه الشرب محلات الميدان وبعض الحيدر خانه والصابونجية وجديد حسن باشا والطوب ، وبلغ مجموع الدور التي يوزع عليها الماء ٣٦٠ داراً حسب (١٩٦) . وفي سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م نصبت مائه مشابهة عند

(١٩٥) جريدة الزوراء نمر ١٤٧ ، ٧ ربيع الاول ١٢٨٨ ، (١٩٦) محمد رؤوف الشيعلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها (البصرة ١٩٧٢) ٩٨/١ ومما يذكر ان اجرة الماء الشهرية لكل دار كانت تبلغ عشرة قروش صحيحة ، اي مايعادل ١٠٠ فلس . عبدالكريم العلاف : بغداد القديمة (بغداد ١٩٦٠) ص ٧٥ .

دليل

خارطة سقايات بغداد في العصر العثماني

- | | |
|------------------------------------|-------------------------------|
| ٢٢- سقاية ابي سيفين | ١ - سقاية جامع الازبك |
| ٢٣- سقاية صبغة الله الحيدري | ٢ - سقاية مراد باشا |
| ٢٤- سقاية ام الكاظم | ٣ - سقاية جامع علي افندي |
| ٢٥- سقاية عبدالرزاق الخضيري | ٤ - سقاية البارودية |
| ٢٦- سقاية الشيخ سراج الدين | ٥ - سقاية سري باشا |
| ٢٧- سقاية جامع الحاج فتحي | ٦ - سقاية الشيخ عمر السهروردي |
| ٢٨- سقاية جامع عبدالكريم الجيلي | ٧ - سقاية دكان شناوه |
| ٢٩- سقاية الملا حمادي | ٨ - سقاية نابي خاتون |
| ٣٠- سقاية آل مدلج | ٩ - سقاية خاتون بنت عبدالله |
| ٣١- سقاية اسماعيل الشطي | ١٠- سقاية جامع النعمانية |
| ٣٢- سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني | ١١- سقاية كنج عثمان |
| ٣٣- سقاية عائكة خاتون | ١٢- سقاية جامع السراي |
| ٣٤- سقاية صالح بن محمد | ١٣- سقاية نازنده خاتون |
| ٣٥- سقاية سلمان القادري | ١٤- سقاية جامع الحيدر خانه |
| ٣٦- سقاية الغزالي | ١٥- سقاية سكيئة العباسية |
| ٣٧- سقاية كامل الزند | ١٦- سقاية حاجبة خاتون |
| ٣٨- سقاية زكريا الخضيري | ١٧- سقاية عطية خاتون |
| ٣٩- سقاية جامع السيف | ١٨- سقاية خضربك |
| ٤٠- سقاية معروف الكرخي | ١٩- سقاية جامع الاصفية |
| ٤١- سقاية شوكت بك | ٢٠- سقاية عادلة خاتون |
| ٤٢- سقاية سيد محمد | ٢١- سقاية مسجد آل جميل |
| ٤٣- سقاية الست نفيسة | |

بيت الحكمة في بغداد

وازدهار حركة الترجمة في العصر العباسي

بقلم

سليم طه التكريتي

بغداد - الجمهورية العراقية

العرب بقوله « ما عرف التاريخ ارحم فاتحا من العرب » (٢) .

وما ان استقر الامر للمسلمين في عهد بني امية ، حتى ظهرت اول حركة لترجمة العلوم الاخرى استهدفت نقل ما يتوفر نقله من العلوم عن اللغات الاجنبية ، كال يونانية ، والفارسية ، والهندية وغيرها الى اللغة العربية . ولقد اشرف بعض خلفاء بني امية وامرائهم على رعاية حركة الترجمة هذه وتشجيعها وكان من بينهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي يعتبره معظم المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين في الاسلام .

وكان الامير خالد بن يزيد بن معاوية اشهر من رعى حركة النقل ، وبذل لها العون والتشجيع ، فجلب لها النقلة والعلماء ، وخصص لها كل وقته واهتمامه . ذلك ان خالدا هذا قد عشق علم الكيمياء منذ الصغر ، وكان من بين الذين صحبوا « مسلمة بن عبد الملك بن مروان » الى بلاد الروم لحاصرة القسطنطينية ، فلما ارتد المسلمون عنها ، ولم يستطيعوا افتتاحها ، حصل خالد في هذه الغزوة على كثير من كتب اليونان .

ما ان خرج الاسلام من بطن الجزيرة العربية الى الاطراف المحيطة بها ، حتى بدأت في الحال اضخم عملية تزواج فكري وحضاري في تاريخ البشرية جمعاء ، انها عملية الامتزاج بين ثقافة العرب الذي حملوا راية الاسلام ، وبين الشعوب التي اعتنقت هذا الدين الحنيف الذي انقذها من الظلم والاستعباد ، واخرجها من الظلمات الى النور .

لقد كانت عملية التزاوج هذه ، اوسع انطلاقة فكرية عمت البيئة الجديدة التي خلقها الاسلام ، وصبغ الحياة الفكرية والاجتماعية فيها بالصبغة العربية الاسلامية . والواقع ان العرب المسلمين كانوا ، وهم في غمار الزحف المقدس لنشر الاسلام ، وترسيخ قواعده بين الشعوب الاخرى ، يعملون في ذات الوقت على نشر العلم والمعرفة في كل صقع يحطون فيه ، ويضعون اسس نهضة علمية وفكرية مزدهرة في كل بلد كانوا يصلون اليه . وهذا ما دفع المؤرخ الانكليزي « هربرت جورج ولز » الى القول بان « العلم كان يشب على قدميه وثبا في كل موضع وطأته قدم الفاتح العربي » (١) وكيف لا وقد وصف المفكر الفرنسي الشهير « غوستاف لوبون » الفاتحين

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعير ط ١٩٤٥ .

(١) هـ. ج. ولز : موجز تاريخ العالم ص ٢٠٦ ترجمة عبدالعزيز جاويد .

به مكتبة ومرصدا ، وصار بيت الحكمة مركز
نشاط علمي دائب» (٥) .

ومنهم الدكتور « ماكس ما يرهوف » أحد
واضعي «كتاب تراث الاسلام» الذي اصدرته
جامعة اكسفورد سنة ١٩٣٦ ، فقد قال « وقد انشأ
المأمون في بغداد دارا رسمية للترجمة مجهزة
بمكتبة» (٦) .

ومنهم « الفريد غيوم » من المشاركين في كتاب
تراث الاسلام ايضا والذي ذكر بان المأمون قد انشأ
مدرسة للعلماء في بغداد ، نشطت فيها دراسة
الكتب الاغريقية وترجمتها نشاطا عظيما (٧) .

ولكن الذي نتصوره هو ان بيت الحكمة قد
انشيء في عهد هرون الرشيد لا في عهد الخليفة
المأمون ، ونستدل على ذلك بما ذكره كل من « ابن
النديم » « وابن القفطي » في كتابيهما ، عند الحديث
عن ترجمة كتاب « المجسطي » من اليونانية الى
العربية (٨) فقد ترجم هذا الكتاب الذي يتحدث عن
علم الجغرافيا مرات عديدة ، ونقحت ترجماته عدة
مرات . وكان اول من عنى بتفسيره واخرجه الى
العربية يحيى بن خالد البرمكي . فقد « فسر له
جماعة فلم يتقنوه ، ولم يرض بذلك . فندب
لتفسيره «ابا حسان» و « سلما » صاحب بيت
الحكمة فاتقناه ، واجتهدا في تصحيحه ، بعد ان
احضرا النقلة المجودين ، فاختبرا نقلهم ، واخذوا
بافصحها واصحها» (٩) .

وهذا ما يؤكد ان بيت الحكمة كان موجودا
قبل ان ينتفض الرشيد على آل برمك ، ويقضي
على نفوذهم الواسع ، اذ لم يعد لهم أي أثر بعد
تلك النكبة .

كان الرشيد ، قبل ان ينشئ بيت الحكمة ،

(٥) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج ٤ ، ص ٩١ ترجمة د.
السيد بكر يعقوب و د. رمضان عبدالنواب ط.
١٩٧٥ .

(٦) تراث الاسلام : ترجمة جرجيس فتح الله ج ١ ص ١٧٤
ط. ١٩٥٤ .

(٧) تراث الاسلام : ج ١ ص ٢٥٠ ترجمة توفيق الطويل
ورفاقه ط ١٩٣٦ .

(٨) اصل كلمة « المجسطي » هي « ميجال » في اللغة
اليونانية وتعني « المجموعة » وقد حرف الاوربيون هذه
الكلمة في القرون الوسطى الى ماجستي Magastii
فنقلها العرب باسم « مجسطي » ويذكر اليعقوبي المؤرخ
ان معنى المجسطي هو الكتاب الاعظم وانه يقع في ثلاث
عشرة مقالة . اليعقوبي ج ص ١١٥ .

(٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧ - ٢٦٨ وابن القفطي :
تاريخ الحكماء ص ٩٨ .

ولم يقف شغف خالد بالعلم والكيمياء بصفة
خاصة عند هذا الحد ، بل استقدم عددا من العلماء
العاملين في مدرسة الاسكندرية ، وامرهم بنقل علوم
الكيمياء ، التي كان العرب يطلقون عليها اسم
« الصنعة » ، الى اللغة العربية وقد تكفل أحد
اولئك العلماء بهذا العمل وهو « اصطفن القديم (٢) » ،
وكانت تلك اول عملية نقل في الاسلام» (٤) .

واذ توقفت عملية نقل العلوم اثر الصراع
الدامي على السلطة بين الامويين والعباسيين ، والذي
انتهى بزوال حكم بني امية ، وانتقال زعامة العالم
الاسلامي الى بني العباس ، فانها ما لبثت ان عادت
الى الظهور مرة اخرى ، وانتعشت في زمن المنصور
ثم بلغت اوج ازدهارها في عصر الرشيد والمأمون
والتوكل ، ويعود الفضل في ازدهارها الى التشجيع
المقرون بالبذل المديد الذي سار عليه الخلفاء
العباسيون ، والاخذ بيد المترجمين الذين نبغوا
من بين العلماء .

ومع ان حركة الترجمة كانت في الاصل
بمبادرة من الخلفاء ورعاية منهم ، سواء في ذلك
الامويون او العباسيون ، الا ان هذه الحركة كانت
في الواقع تجري على نطاق فردي محدود ، ومن
دون ان تكون لها مؤسسة تتولى شؤونها ، وتنهض
باعتنائها . ذلك لان كل قادر على النقل من لسان
ما الى لسان آخر سواء بدافع من خليفة أو امير ،
أو راغب في العلم ، كان يعكف على ترجمة ما يراه
منه ان يترجمه ، أو ما يريد هو ان يترجمه حسب
رغبته الخاصة .

غير ان تطورا كبيرا وخطيرا قد حدث في هذا
الموضوع في عصر هرون الرشيد ، فالرعاية الفائقة
التي اولاهها هذا الخليفة للعلوم وللعلماء على حد
سواء ، قد دفعت به الى ان يخصص موضوع الترجمة
بعناية فائقة لم تحظ بها قبلا ، وان ينشئ لها
مؤسسة خاصة قائمة بذاتها ، عرفت باسم « بيت
الحكمة » .

يعتقد كثير من المؤرخين ، ولا سيما الغربيين
بان « المأمون » هو الذي اسس بيت الحكمة . ومن
هؤلاء المستشرق الالماني « بروكلمان » الذي يقول
عن المأمون بانه « اسس ببغداد (بيت الحكمة) والحق

(٢) اصطفن القديم واحد من العلماء الاسكندرنيين السبعة
الذين عكفوا على دراسة مؤلفات جالينوس وكان من
بينهم الراهب مريانوس الذي درس خالد على يديه في
دير خارج دمشق .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٢١١ .

غير اننا لا نعرف السند التاريخي الذي اعتمد عليه « أوليري » في تحديد مثل هذا التاريخ .

x x x

كان بيت الحكمة مقسما الى عدد من الاقسام والقاعات والغرف . . فهناك غرف كثيرة للتدريس يحضرها الطلاب من مختلف انحاء العالم لتلقي العلوم فيها على ايدي اساتذة منتدبين لتدريس تلك العلوم ، اما المكتبة فكانت تتألف هي الاخرى من عدد من الغرف ، مزودة برفوف تصف عليها الكتب .

والى جانب المكتبة وغرف التدريس توجد قاعة واسعة مخصصة لالقاء المحاضرات ، وعقد المناظرات العلمية ، وفي هذه القاعة كان النقاش والجدل يطرح علانية ، وبمنتهى الحرية ، حول شتى الموضوعات المختلفة بما في ذلك الموضوعات التي تخص العقيدة الاسلامية .

وهناك غرفة خاصة معدة للاستراحة يؤمها الدارسون والمدرسون والمطالعون والعاملون في المكتبة ، ليستريحوا فيها من عناء العمل ، ولكي يشنفوا اسماعهم بالاستماع الى الانغام الشجية التي يعزفها جوق موسيقي في القاعة ذاتها (١١) .

وافردت في بيت الحكمة غرف اخرى للمترجمين ، واخرى غيرها للذين يقومون بمراجعة تلك الترجمات وتنقيحها ، واصلاح كل خطأ فيها ، في حين تقوم غرف خاصة بالنساخين الذين يقومون بنسخ الكتب اما لانفسهم ، او لحساب الغير ، كذلك توجد غرف معدة لعمل المجلدين الذين يتولسون تجليد كل كتاب يدخل الى بيت الحكمة ، بالإضافة الى الغرف المهيأة للوراقين ، وخازني الكتب والمناولين ، الذين ينقلون الكتب من الرفوف الى المطالعين والنساخين والمجلدين وما سواهم .

وقد اشتهر عدد من المجلدين والعاملين في بيت الحكمة من اشهرهم المجلد «ابن ابي الحريش» وكانت النساء يزاولن اعمالا في بيت الحكمة بصفة مناوبات . وقد اشتهرت من بينهن « توفيق السوداء » التي كانت مناولة للكتب في عهد ابي منصور بن محمد الخازن (١٢) .

ولم يكن العمل في بيت الحكمة وقفا على طائفة

(١١) من روائع حضارتنا : الدكتور مصطفى السباعي ص ١٨٠ .

(١٢) سليم طه التكريتي : مصادر الفكر العربي الاسلامي ص ٧٤ مخطوط

قد جلب الكثير من المؤلفات اليونانية من بلاد الروم ، ففي الحملة التي استولى فيها على مدينتي « عمورية » و « انقره » امر الرشيد عماله هناك بالمحافظة على ما فيهما من مكتبات ، ثم لم يلبث ان انتدب بعد ذلك طائفة من العلماء الذين يعرفون اليونانية ، والارامية ، والسريانية ، للقيام بفحص ما تحويه تلك المكتبات من مؤلفات تتحدث عن الطب ، والفلك ، والرياضيات ، والحكمة ، والفلسفة ، وغيرها .

وقد اختار اولئك العلماء النفيس والنادر من تلك المؤلفات ، وعادوا به الى بغداد ، فاودعها الرشيد بيت الحكمة ، واوكل امر العناية بها الى الطبيب يوحنا بن ماسويه الذي اصبح رئيسا لبيت الحكمة ذاته فيما بعد .

كذلك اختلف الباحثون والمؤرخون في الموضوع الذي كان يقوم فيه بيت الحكمة ، ولكن الشيء المؤكد هو وجوده في جانب الرصافة من بغداد لان الخلفاء العباسيين ما لبثوا بعد وفاة المنصور ان انتقلوا الى الرصافة وهجروا المدينة المدورة التي بناها المنصور في جانب الكرخ .

ولقد كانت نواة بيت الحكمة من الكتب ، هي الخزانة التي جمعها ابو جعفر المنصور ، وافرد لها جناحا خاصا في قصر الخلد الذي كان يسكنه في المدينة المدورة ، وقد انتقلت هذه الخزانة بحكم الارث الى هرون الرشيد ، فنامها ووسعها بما اضاف اليها من الكتب التي جلبت له من البلدان الاخرى .

وقد تساءل بعض المؤرخين عما اذا كان بيت الحكمة جناحا من اجنحة احد قصور الرشيد او المأمون ، ام انه كان يقوم في بناية خاصة به ، منفصلة عن بقية القصور ، والذي يتراءى لنا ان بيت الحكمة كان يقوم في بناء خاص ، كما نستدل على ذلك من الوصف الذي سنورده له فيما بعد .

وكان من نتائج اختلاف المؤرخين حول الخليفة الذي انشأ بيت الحكمة ، ان اختلفوا اختلافا شديدا حول تحديد التاريخ الذي انشئت فيه هذه المؤسسة ، فالاستشرق الانكليزي « دبلاسي ادليري » وهو من القائلين بان المأمون هو الذي انشأ بيت الحكمة ، يذكر في كتابه « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » ان بيت الحكمة قد انشئ في عام ٢١٧ هـ ٨٣٢ م (١٠) .

(١٠) De Lacy Oleary: Arab Thought its Place in History P. 112.

وأخرون يكتب الطب ، وغيرهم بمصنفات الفلك والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم .

وكان الأسلوب الذي يعتمد المترجمون في ذلك الوقت يستند إلى اتباع واحدة من طريقتين ما تزالان شائعتين لدى المترجمين حتى الوقت الحاضر .

فالطريقة الأولى تعتمد الترجمة الحرفية الدقيقة ، أي ترجمة العبارات كلمة فكلمة ، والتقيد بالألفاظ الأصلية تقيدا تاما ، وعدم التصرف أو الخروج على هذه القاعدة .

أما الطريقة الثانية فإنها تعتمد على ترجمة معنى العبارة دون التقيد باللفظ الأصلي ، وذلك بأن يقرأ المترجم الكتاب الذي يريد ترجمته ، بامعان وبعد أن يستوعب معناه في ذهنه يشرع بنقله إلى اللغة التي يحسنها .

وقد أتى على وصف هاتين الطريقتين في الترجمة « بهاء الدين العاملي » صاحب كتاب « الكشكول » المتوفى سنة ١٠٣١هـ ١٦٢٢م فقال « قال الصلاح الصفدي (١٢) وللترجمة في النقل طريقان : أحدهما طريق « يوحنا ابن البطريق » و « ابن الناعمة الحمصي » وغيرهما ، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية ، وما تدل عليه من المعنى ، فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى ، فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة ردية .

والطريق الثاني في التعريب ، طريق حنين بن اسحق والجوهري (١٤) وغيرهما ، وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ، ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها ، سواء ساوت الألفاظ أم خالفها ، وهذا الطريق أجود (١٥) .

ولقد أدى اتباع المترجمين للطريقة الأولى إلى ظهور ترجمات ضعيفة ومفككة ، على ما نشهد أمثاله في وقتنا الحاضر الذي تعيش فيه الآن ، وقد أشار « ابن النديم » إلى أمثال هؤلاء المترجمين منهم « ابن شهيد الكرخي » ومنهم « لاحبي » الذي قال عنه « أنه جيد المعرفة بالسريانية ، عفاي الألفاظ

(١٢) صاحب كتاب « فوات الوفيات » وهو تكملة لكتاب ابن خلكان « وفيات الأعيان » وقد طبع مؤخرا في ثمانية مجلدات

(١٤) هو ابن سعيد الجوهري من كبار المترجمين في عصر المأمون .

(١٥) نقل ذلك العلامة « كزولنيلينو » الاستاذ بالجامعة المصرية سابقا ومؤلف كتاب « علم الفلك تاريخه عند العرب في القرن الوسطى ص ٢٢٦ »

معينة من العلماء فقد كان في مستطاع كل حاذق باحدى اللغات الأجنبية ، وقادر على النقل عنها ، أن ينضم إلى زمرة النقلة كما كان في مقدور كل من يعرف القراءة والكتابة باحدى اللغات أن يؤم قسم المكتبة ، ويطلب أي كتاب متوفر فيها ليقرأه لكنه كان يحظر على المطالع حظرا باتا أن يكتب أية تعليقات أو تفسيرات ، بل وأية تصحيحات على هوامش الكتاب الذي يطالعه .

كذلك كان باستطاعة أي شخص أن يستعير من المكتبة أي كتاب يشاء ، فيخرجه منها إلى مقره ، وقد تطول مدة الاستعارة هذه شهرا كاملا .

× × ×

كان العمل في بيت الحكمة منسقا تنسيقا بديعا . فقد كان المترجمون ينقسمون إلى عدة أصناف . صنف ينقل من اللغة الأجنبية التي يحذقها إلى اللغة العربية رأسا . وصنف لا يحذق اللغة العربية لكنه يحذق لغتين أجنبيتين أو أكثر ، وكان يعرف اليونانية والسريانية ، أو اليونانية ، والسريانية ، والفارسية في وقت واحد . فمثل هذا الصنف قد ينقل عن اليونانية إلى السريانية ، أو عنها إلى الفارسية .

حتى إذا ما انتهى من عملية النقل هذه ، تولى مترجمون من الملمين باحدى هذه اللغات ترجمة ما تم نقله إلى اللغة العربية . ولذلك فإن كثيرا من المصنفات اليونانية في الدرجة الأولى ، لم تترجم إلى اللغة العربية مباشرة ، وإنما جرت ترجمتها إلى السريانية أو الفارسية ، ثم نقلت مجددا عن هاتين اللغتين إلى اللغة العربية . وكانت الترجمة في بيت الحكمة تتم عن ست لغات هي اليونانية ، والسريانية ، والفارسية ، والهندية ، والعربية ، والقبطية . وقد جرت ترجمة بعض الكتب عن اللغة النبطية أيضا .

وكثيرا ما يحدث أن تكون بعض هذه النقول غير دقيقة ، وركيكة العبارة ، أو « عفاطية اللفظ » حسبما يسميه « ابن النديم » عند تقييمه لبعض المترجمين . ولذلك يتولى مترجمون آخرون من المتضلعين باللغة العربية ، مراجعة أمثال هذه الترجمات ، وتصحيحها ، وتقويمها وكان على رأس هؤلاء الفيلسوف الكندي .

وكان قسم الترجمة في بيت الحكمة مصنفا حسب موضوعات الكتب التي يراد ترجمتها . فهناك مترجمون مختصون بترجمة كتب الفلسفة ،

بالعربية» ، ومنهم «قويري» أيضاً الذي قال عنه ان «كتبه مطرحة مجفوة لان عبارته كانت عطفية غلقة» .

x x x

اتسع نطاق العمل في بيت الحكمة اتساعا كبيرا نتيجة ما جمعه فيه الرشيد والمأمون من خزائن الكتب القديمة التي جلبت من الاقطار الاخرى . فكانت هذه الكتب تجلب من اسيا الصغرى ، ومن الهند ، وايران ، وجزيرة قبرص ، بالإضافة الى ما كان يجمعه السريان من كنائسهم واديرتهم في الشام وبلاد الجزيرة (١٦) (*) .

كانت اول مجموعة من الكتب العلمية باللغات اليونانية والسريانية ضمت الى بيت الحكمة ، هي الكتب التي استجلبها هرون الرشيد من عمورية وانقره ، كما اشرنا الى ذلك قبلا .

وجلب المأمون مجموعة من الكتب اليونانية من جزيرة قبرص . قال «ابن نباته المصري» في كتابه «سرح العيون في شرح قصيدة ابن زيدون» ان المأمون جعل «سهلا بن هارون» على خزانة الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وذلك ان المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها احد فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوي الرأي عنده ، واستشارهم في حمل هذه الخزانة التي المأمون ، فكلهم اشاروا اليه بعدم الموافقة ، الا مطران واحد فانه قال «الرأي ان تعجل بانفاذها اليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية في دولة شرعية الا افسدتها ، واوقعت بين علمائها» . فارسلها اليه ، واغتبط بها المأمون (١٧) .

واستجلب المأمون من القسطنطينية مجموعة اخرى من هذه الكتب ايضا ، تحدث عنها «ابن النديم» في فهرسته فقال «ان المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد

(١٦) سعيد الديوهجي : بيت الحكمة من ٢٥

* المقصود ببلاد الجزيرة هي المنطقة المحصورة بين الفرات ودجلة في كل من العراق وسوريا ومنها ديار بكر وجزيرة ابن عمر وغيرها

(١٧) ابن نباتة المصري : سرح العيون في شرح قصيدة ابن زيدون ص ٢٢٦ ، والدكتور احمد الشبلي في كتابه «تاريخ التربية الاسلامية ص ١٥»

الروم ، فاجابه الى ذلك بعد امتناع ، فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم «الحجاج بن مطر» و «ابن البطريق» و «سلم» صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فاخذوا منها مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنقل ، وقيل ان «يوحنا بن ماسويه» كان ممن انفذ الى بلد الروم (١٨) .

كذلك ذكر ابن النديم ان ممن عنى باخراج الكتب من بلد الروم هم محمد ، واحمد ، والجنس بنو «شاكر النجم» (١٩) .

وهناك مجموعة اخرى من الكتب القديمة جيء بها من مدينة اصفهان . وقد ذكر «ابن النديم» هذه المجموعة فقال «والذي رأيته انا بالمشاهدة ان «ابا الفضل بن العميد» انفذ الى ها هنا في سنة ، نيفا واربعين كتابا اصيبت في اصفهان في سور المدينة ، فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل «يوحنا» (٢٠) .

والى جانب نفائس الكتب ، كان بيت الحكمة يضم مجموعة من الخرائط والمصورات البلدانية ، وقد ذكر «المسعودي» المؤرخ في كتابه «التنبيه والاشراف» هذه الخرائط والمصورات فقال عنها «رأيت هذه الاقاليم مصورة في غير كتاب بانواع الاصباغ ، واحسن ما رأيت ... في «الصورة المأمونية» التي عملت للمأمون ، اجتمع على صنعها عدة من حكماء اهل عصره ، صور فيها العالم بافلاكه ونجومه ، وبره وبحره ، وعامره وغامره ، ومساكن الامم ، والمدن ، وغير ذلك . وهي احسن مما تقدمها من جغرافيا «البطليموس» وجغرافيا «مارتيوس» وغيرها (٢١) .

و «الصورة المأمونية» هذه عبارة عن خارطة مصورة للارض ، انتدب لها المأمون طائفة من علماء عصره ، فوضعوا له صورة الارض فنسبت اليه ودعيت بالصورة المأمونية وقد ذكر الكاتب الاندلسي «محمد بن ابي بكر الزهري» صاحب «كتاب الجغرافيا» ان «الصورة المأمونية» قد اجتمع عليها وعلى عملها سبعون رجلا من فلاسفة العراق ، فوضعوها على صفة الارض ، وان كانت على غير الحقيقة من ذلك ، لان الارض كروية والجغرافيا بسيطة (٢٢) .

(١٨) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٢

(١٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٤

(٢٠) ذات المصدر من ٣٥٠

(٢١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٦٦ .

(٢٢) الدكتور احمد سوسة : الشرف الادريسي في الجغرافيا العربية مجلد اول ص ١١٢

الملك بن الزيات « ، فقد كان يقارب عطاؤه للنقلة وللنساخ الفني دينار في الشهر » (٢٨) .

وكان من المشجعين لحركة الترجمة ايضا « علي بن يحيى » المعروف بالمنجم الذي نقل له كثيرا من الكتب الطبية ، و « ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب » وكان حريصا على نقل كتب اليونانيين الى لغة العرب ، كثير البذل في سبيلها ، ومنهم ايضا « عيسى بن يونس الكاتب الحاسب » من اهل العراق ، وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية (٢٩) .

وظلت حركة تشجيع الترجمة والمترجمين سارية المفعول حتى الى عصور ملوك الطوائف . فقد كان لدى « سيف الدولة » طبيب اسمه « عيسى الرقي » ينقل له من السرياني الى العربي (٣٠) .

ولقد راجت الكتب المترجمة رواجاً منقطع النظير في كل ارجاء العالم الاسلامي ، ونفقت سوقها ، وكانت تباع باغلى الاثمان . ذكر العالم المنطقي والمترجم « يحيى بن عدي التكريتي » ، وهو من تلامذة « حنين بن اسحق » ، « ان شرح « الاسكندر » « للسماع » كله ، وكتاب « البرهان » (٣١) رايت في تركة « ابراهيم بن عبد الله » الناقل النصراني ، وان الشرحين عرضا علي بمائة وعشرين دينارا . فذهبت لاحتال في الدنانير ، ثم عدت فاصبت القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل من خراسان بثلاثة الاف دينار (٣٢) .

ويذكر يحيى بن عدي ايضا انه التمس من ابراهيم بن عبدالله نص « سوفسيطا » ونص « الخطابة » ونص « الشعر » (٣٣) بخمسين دينارا ، فلم يبعها له واحرقها وقت وفاته (٣٤) .

× × ×

ما ان تم انشاء بيت الحكمة ، ووضعت خزائن الكتب التي جمعت في عهد المنصور والرشيد فيه ، حتى عين له رئيس يعني بشؤونه ، ويشرف على

(٢٨) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٧٠ ط ١٩٥٨

(٢٩) المصدر السابق .

(٣٠) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ١ ص ١٤٠ .

(٣١) هذان الكتابان من كتب « ارسطو » وقد فسرهما « الاسكندر الافروديسي » .

(٣٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٨ .

(٣٣) هذه الكتب الثلاثة من مؤلفات ارسطو ايضا .

(٣٤) ابن النديم ص ٢٦٨ .

وبلاضافة الى الصورة المأمونية وضع علماء الهيئة والجغرافيا للمأمون كتابا في وصفها اعان عمال الدولة على التعرف الى البلاد والامم التي كانت خاضعة للدولة العباسية (٣٥) .

وكذلك كان بيت الحكمة يحتوي على كتب كتبت بخطوط قديمة من امثال الخط الحبشي ، والخط الحميري ، الى جانب الكتب المكتوبة بالخط الارامي ، والسرياني ، والعبري ، واليوناني ، والنبطي وغيرها ، كما اشار الى ذلك ابن النديم . كذلك ذكر ابن النديم نفسه عن وجود كتاب في بيت الحكمة ، مكتوب على جلد ادم بخط عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول عليه الصلاة والسلام (٣٤) .

× × ×

كان من بين الاسباب التي شجعت المترجمين على نقل الكتب القديمة ، ما كانوا يحصلون عليه من اموال وهبات ، من الخلفاء العباسيين ، ومن الاشخاص الذين كانوا يهتمون بهذه العلوم ، من امثال بني برمك ، وبني شاعر المنجم ، وغيرهم . فقد كان المأمون مثلاً يدفع الى « حنين بن اسحق » زنة ما يترجمه ذهبا . ولذلك كان « حنين » يعتمد الى الكتابة على ورق سميك وثقيل ، وباحرف كبيرة ، لكي ترتفع زنتها ، فتزداد مكافأته (٣٥) .

وكان اولاد « موسى بن شاعر » ممن عنوا باخراج الكتب من بلاد الروم « وبذلوا الرغائب » ، وانفذوا حنين بن اسحق « وغيره الى بلد الروم ، فجاؤوهم بطرائف وغرائب المصنفات في الفلسفة ، والهندسة ، والموسيقى ، والارتماطيقي ، والطب قال « ابو سليمان المنطقي السجستاني » ان « بني المنجم » (٣٦) كانوا يرزقون جماعة من النقلة ، منهم « حنين بن اسحق » ، و « حبش بن الحسن » ، وثابت بن قرة « وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة » (٣٧) وكان من بين الذين شجعوا حركة الترجمة ، وبذلوا الاموال في سبيلها ، الوزير « محمد بن عبد

(٣٥) نفس المصدر

(٣٦) ابن النديم : الفهرست ص ٢٩

(٣٧) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٦١ ط ١٩٥٨ .

(٣٨) يقصد بهم اولاد موسى بن شاعر الملقب بالمنجم : انظر مقالاتنا عنهم في مجلة العربي « الكويتية سنة ١٩٧١ »

(٣٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٤ وابن القفطي ص ٣٠-٣١

أعمال الترجمة فيه ، ويساهم نفسه في تلك الأعمال ، وكان يطلق عليه اسم « صاحب بيت الحكمة » .

كان « سلم » ، ولم يذكر المؤرخون سوى اسمه هذا مجرداً ، أول من تولى رئاسة بيت الحكمة في عصر هرون الرشيد ، وكان حاذقاً في اللغتين الفارسية واليونانية بدليل أنه كان من بين الذين اختارهم كل من الرشيد والمأمون لجلب الكتب العلمية من بلاد الروم .

وكان « سلم » هذا يشرف في الأصل على ترجمة الكتب الفارسية التي تجمعت في بيت الحكمة ، وذكر عنه « ابن النديم » بأنه كان ينقل من اللسان الفارسي إلى العربي ، غير أن ابن النديم لم يذكر له أي كتاب مترجماً كان أم موضوعاً .

ومن الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة « يوحنا ابن ماسويه » ، الذي أدخلناه ضمن كبار المترجمين ويرى بعض المؤرخين أن « يوحنا » هذا كان أول رئيس لبيت الحكمة ، وأنه كان بالإضافة إلى ذلك يشرف على ترجمة الكتب التي جلبها الرشيد من عمورية وأنقرة ، وكان يعمل تحت يده عدد من المترجمين ، والكتبة ، والنساخ .

ومن الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة في عهد المأمون : « سهل بن هارون » وهو فارسي شديد التعصب لقومه الفرس ، مقذع الهجاء للعرب ، وكان « سهل » هذا يشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمأمون من جزيرة قبرص .

وكان سهل بن هارون قد انتقل أول الأمر من فارس إلى البصرة ، ومن ثم جاء بغداد والتحق بخدمة المأمون . وكان حكيماً وفصيحا وشاعراً ويقول « ابن النديم » عنه أنه « فارسي الأصل » شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب . وله في ذلك كتب كثيرة ، ورسائل في البخل ، وعمل للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ، ويرغبه فيه ، ويستميحه في خلال ذلك ، فاجابه الحسن على ظهر رسالته « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك ، وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام... » (٢٥) .

ومن ثم تولى « حنين بن اسحق » رئاسة بيت الحكمة طيلة عهدي المأمون والمعتصم وحتى عصر المتوكل ، وقد نهض بهذه المهمة على أحسن وجه ، واحاط نفسه بعدد من المترجمين الذين درّبهم على هذه الصنعة خير تدريب .

(٢٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٨٠ .

كان من نتائج الاضطراب الذي أعقب وفاة المأمون ، وتعاضل نفوذ الجند الاتراك ، وتدخلهم في شؤون السلطة أيام المعتصم ، ثم انتقال مركز الخلافة من بغداد إلى سامراء ، أن قلت العناية ببيت الحكمة ، وانقرض عقد العلماء والدارسين فيها ، وسرى الخراب إليها ، حتى تولى « المتوكل على الله » الخلافة (٢٣٣هـ - ٨٤٧م) ، فقد كان المتوكل - مع ما اشتهر به من الشدة والقسوة - محبا للعلم ، وراعيا للعلماء ، أعاد فتح بيت الحكمة وبذل له الهبات ، ولذلك أتت حركة الترجمة خير ثمارها في عهده ، ذلك لأنه عهد برئاسة بيت الحكمة مجدداً إلى « حنين بن اسحق » فنهض حنين بهذه المهمة خير نهوض ، واحاط نفسه بعدد من خيرة المتدربين على أعمال الترجمة أحسن تدريب ، وبقي بيت الحكمة قائماً إلى أن داهم الغول بغداد « فذهبت خزانة الكتب فيما بعد ، وذهبت معالمها ، وعفيت آثارها » (٢٦) .

x x x

لقد كان انشاء بيت الحكمة فتحاً مبيناً للعرب المسلمين في ميدان العلم والمعرفة ، يضاهي فتوحاتهم الكبرى في ميادين السياسة . يقول المستشرق الإنكليزي « ديلاسي أوليري » « لقد أنشأ الخليفة المأمون مدرسة سماها بيت الحكمة ، وجعلها معهداً تعد فيه الترجمات لكتب علماء اليونان ، ليتم تداولها بين العرب ومنذ ذلك الوقت سارت الترجمة قدماً . ولم يمض وقت طويل حتى وجد الطلاب من العرب ، أن قد تيسر لهم الاطلاع في العربية على الشطر الأكبر من مؤلفات جالينوس ، وابقراط ، وبطليموس ، واقليدس ، وارسطو ، وغيرهم من فطاحل المؤلفين في اليونان » (*) .

ويعتبر الدكتور فيليب حتي بيت الحكمة « أهم مجمع علمي تم تشييده منذ أن انشئت مدرسة الاسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد . وكان هذا المعهد في الوقت ذاته من أهم خزائن الكتب في الاسلام ، على اختلاف دولته وعصوره » (٢٧) .

x x x

(٢٦) ماكس مايرهوف في « تراث الاسلام » ج ١ ص ١٧٧ ترجمة جرجيس فتح الله .

(*) ديلاسي أوليري : كيف انتقلت علوم اليونان إلى العرب ص ٢٢٧ .

(٢٧) Ph. Hitti : History of the Arabs P. 316

عدي التكريتي ، ويوحنا بن يوسف الكاتب ، وأيوب الرهاوي ، وآخرون غيرهم ممن أورد ابن النديم اسماءهم في كتابه « الفهرست » .

أما الذين اشتهروا بالنقل من الفارسية فهم آل نوبخت ، وعبدالله بن المقفع ، وموسى ويوسف ولدا خالد ، وعلي بن زياد التميمي ، والحسن ابن سهل ، وأحمد بن يحيى البلاذري ، وجبله بن سالم ، واسحق بن يزيد ، ومحمد بن الجهم البرمكي ، وموسى بن عيسى الكردي ، وهشام بن القاسم وغيرهم .

وكان النقلة من اللغة الهندية الى العربية يؤلفون فريقا كبيرا ايضا من أشهرهم أبو الريحان البيروني ، ومن أقدمهم منكة الهندي ، وابن دهن الهندي الذي كان يشرف على بيمارستان البرامكة ، وصالح بن بهلة ، وسواهم .

وكان كل من « ابن وحشية » و « ابن العوام » ينقلان عن اللغة النبطية ، وقد تخصصا في نقل كتب الفلاحة والنبات .

ولقد تناولت حركة الترجمة سواء في العصر الأموي أم في العصر العباسي ، سائر العلوم والمعارف ، وعلى الأخص علوم الطب والفلسفة والفلك والكيمياء والحركات والهندسة ، وذلك لأنه لم يكن للعرب في جاهليتهم سوى المأم بسسيط وبدائي بهذه العلوم .

وبلغ اندفاع العرب في نقل العلوم القديمة أقصى مداه في عصري الرشيد والمأمون بصفة خاصة ذلك لأنه ما يكاد يصل كتاب الى يد الخليفة أو سواه من المعنيين بهذه العلوم ، حتى يقبل القوم على ترجمته واستنساخ تلك الترجمة بأعداد كبيرة ، ووضع الشروح والتفاسير له والتعليقات عليه في كتب خاصة ومطولة أحيانا .

وأكثر من هذا أن كثيرا من الكتب ، وعلى الأخص مؤلفات أرسطو وأفلاطون وإبقراط وجالينوس وبطليموس وأقليدس وغيرهم ، قد ظهرت عدة ترجمات لها ، وأقبل أكثر من مترجم على نقلها ، وأكثر من شارح على شرحها والتعليق عليها .

ولنأخذ على ذلك مثلا كتاب « المجسطي » فقد ترجم هذا الكتاب عدة ترجمات على أيدي مترجمين مختلفين ، كما نقحت بعض هذه الترجمات ، وصححت مرات عديدة . فقد كان من بين الذين ترجموا المجسطي ، الحجاج بن مطر ، وسهل بن ربن الطبري ، وحنين بن أسحق ، وأبو الريحان

شارك عدد كبير من العلماء والمترجمين في النهوض بأعمال الترجمة في بيت الحكمة وفي خارجها . فمن بين الذين عملوا بصفة مترجمين « سلم » صاحب بيت الحكمة الذي كان يترجم عن الفارسية وكان في الوقت ذاته يشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمأمون من الأستانة ، وكان يشاركه في ذلك سهل بن هارون بن رافوي الفارسي ، وهو ينقل عن الفارسية ، وقد أشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمأمون أيضا من جزيرة قبرص . وعمل سعيد بن هارون الكاتب في بيت الحكمة أيضا وكان ينقل من الفارسية الى العربية .

واشتغل يوحنا بن ماسويه الى جانب رئاسته لبيت الحكمة في ترجمة كتب الطب التي جلبت للرشيد من بلاد الروم . وتولى أبو بكر يحيى ابن البطريق ترجمة كتب أرسطو في الفلسفة ، وإبقراط في الطب .

وعمل حنين بن أسحق العبادي مترجما في بيت الحكمة ورئيسا لها ، فقام بترجمة كتب الطب والفلسفة والفلك وغيرها وسار على منواله كل من ولده أسحق بن حنين ، وابن أخته حبش بن الحسن الأعمش ، وكانا من المترجمين في بيت الحكمة .

ومن المترجمين الذين عملوا في بيت الحكمة أيضا ، وكانوا ينقلون عن اليونانية والسريانية ، كل من يحيى بن أبي منصور المنجم الموصلي ، وحبيب ابن بهريز مطران الموصل ، والعالم الرياضي ثابت بن قرة الصابي ، وقسطا بن لوقا البعلبكي . كما كان من مشاهير المترجمين في بيت الحكمة ، الحجاج بن مطر ، وعمر بن الفرخان الطبري .

وبالإضافة الى أعمال الترجمة اشترك عدد من هؤلاء المترجمين في البعثات التي أرسلت الى بلاد الروم وغيرها للبحث عن الكتب العلمية فيها ، وجلبها الى بغداد .

وقد شارك معظم هؤلاء المترجمين في ترجمة كتب اليونان ، أما عن اللغة الإغريقية رأسا ، أو عن الترجمات السريانية التي وضعت للكتب اليونانية ، وكان هذا الفريق وفير العدد ، نذكر منهم غير الذين وردت اسمائهم في سياق البحث ، « البطريق » والد « يحيى ابن البطريق » ، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي ، وهلال الحمصي ، وسلام الأبرش ، وزوربا ابن ماجوه الناعمي الحمصي ، وباسيل المطران ، وأصطف بن باسيل ، وأبو نوح بن الصات ، ويحيى ابن عدي التكريتي ، وأخوه أبو الفضل جرير بن

البيروني . وكان ثابت بن قرة الصابي على رأس الذين أصلحوا ترجمة المجسطي ، وتوجد الآن نسخة خطية من ترجمة الحجاج بن مطر لكتاب المجسطي . في مكتبة « ليدن » بهولندا (٢٨) .

ومثل هذا القول يصدق أيضا على كتاب « السند هند » الشهير الذي وضعه العالم الرياضي الهندي « براهمفت » في سنة ٦٢٨م بعنوان « براهمست سندھانت Brahma Shopta Sind Hanta » ومعناه « كتاب الهيئة المصحح المنسوب الى براهمفت » .

وكان الخليفة ابو جعفر المنصور قد امر بترجمة هذا الكتاب الى العربية ، فاقبل على ترجمته غير واحد من المترجمين ، كان اولهم ابراهيم بن حبيب الفزاري ، ثم ترجمه من بعده يعقوب بن طارق المنجم ، وآخرون غيره .

× × ×

كان الطب والفلك من اول العلوم التي اشتغل العرب المسلمون بنقلها الى اللغة العربية ، وذلك يعود في الدرجة الاولى الى الاهتمام الكبير الذي يوليه العرب لهدى العلمين . فقد ذكر الاستاذ « كرونليني » في كتابه « علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » ان « اول ما اشتغلت به البلاد الاسلامية من العلوم ، هي العلوم العملية ، وخصوصا الطب والكيمياء ، واحكام النجوم » (٢٩) .

في حين يذكر دبلاسي اوليري في كتابه « كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب » ان « هناك من الاسباب ما يدعو الى الاعتقاد بان بعض الترجمات الاولى التي نقلت عن اليونانية مباشرة ، كانت تخص الفلك والرياضيات » (٣٠) .

وهذا الاهتمام بعلوم الطب والكيمياء والفلك قد برز حتى في عهد الامويين ، وكان من العوامل التي وجهت انظار العرب الى نقل كل ما تيسر لديهم نقله من الكتب التي تبحث هذه العلوم ، والعمل على نشرها قبل المبادرة بنقل غيرها من المصنفات .

فقد ثبت ان اول كتاب في الرياضيات ترجم الى اللغة العربية هو كتاب « السندھانتا » الذي اشتهر لدى العرب باسم « السند هند » الذي

سبقت الاشارة اليه . فقد جلب هذا الكتاب احد اعضاء الوفد الهندي الذي قدم الى بغداد سنة ١٥٤هـ ٧٧١م ، وحظي بمقابلة الخليفة ابي جعفر المنصور (٤١) . وكان من اوائل الكتب الطبية التي ترجمت الى العربية كتاب « شاناق » عن السموم وقد ترجمه « منكه » الهندي ، كما نقل « كنكه » الهندي ، وهو من كبار علماء الهند ، كثيرا من الكتب الطبية والفلكية الى اللغة العربية .

× × ×

كانت غالبية الكتب التي جرت ترجمتها من اللغة اليونانية ، سواء في بيت الحكمة ام خارجه ، من الكتب اليونانية . وكانت هذه الكتب المترجمة تؤلف قائمة ضخمة يصعب تعدادها ، ذلك لان ما ذكره كل من ابن النديم ، والقفطي ، وابن ابي اصيبعة ، وابن جليل ، وحاجي خليفة ، وغيرهم ممن عنوا بجمع اسماء المصنفات واصحابها ، لا يؤلف في الواقع سوى نسبة ضئيلة مما تمت ترجمته من هذه الكتب . ذلك لان عدد الكتب اليونانية المترجمة قد تجاوز الخمسمائة كتاب بل اكثر من ذلك بكثير .

وكانت معظم الكتب التي ترجمت عن اللغات الهندية تبحث في الطب والفلك والرياضيات من امثال « السند هند » وكتاب « ارياهيت » وكتاب « كهند كهاديك » وكتاب « شاناق » في السموم والتدبير ، وكتاب « روسا » - وهي امرأة هندية - في امراض النساء وعلاجها ، وكتاب « شارك سھتيا » في الطب الهندي ، وكتاب « شارك سھتيا » في الطب ، وكتاب « بيدبا » في الحكمة ، وكتاب « اسرار المسائل » وكتاب « سير » الذي ترجمه « منكه » ، وكتاب « عشر مقالات » لمنكه ايضا وكتاب « سدستاق واستانكي » الجامع وقد ترجمهما « ابن دهن » . وترجم البيروني كتاب « بانفسل سوترا » ، وكتاب « الكسوفين » عند الهند ، وكتاب « لكهرجانكم راشاكات هند » (٤٢) .

ومن مؤلفات ومترجمات « كنكه » كتاب « اشودار » في الاعداد ، وكتاب القرائات الكبير ، وكتاب القرائات الصغير ، وكتاب في التوهم ، وكتاب في احداث العالم ، وكتاب الدرر في القرآن (٤٣) .

- (٤١) كرونليني : علم الفلك تاريخه عند العرب ص ١٤٩ .
(٤٢) مهيش برشاد : بين اللغتين العربية والسنسكريتية مجلة « ثقافة الهند » الجزء الاول ص ٩٥ مارس ١٩٥٠ .
(٤٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٧٧ .

- (٢٨) جرجي زيدان : تاريخ ادب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٢٩) كرونليني : علم الفلك ص ١٤٣ .
(٤٠) De Lacy Oleary : How Greek Sciences Passed to the Arabs P. 175.

ترجما كتاب « خدائناك » . ولعل موسى بن عيسى هو الذي ترجم قصة السندباد التي بقيت منها ترجمة يونانية (٤٦) .

وترجم ابان بن عبد الحميد اللاحقي كتاب سيرة اردشير ، وكتاب سيرة انوشروان ، وكتاب « بلوهر وبوداسف » وهذا الكتاب حكاية بوذية ترجمت للمانويين في « السند » فاعجبوا بها ، وعكفوا على قراءتها ، والى هذه الترجمة ترجع صياغتها الحالية (٤٧) . كما ترجم « ابان » ايضا كتابا في الرسائل ، وكتاب حلم الهند ، وغيرها . وقيل انه ترجم هذه الكتب شعرا .

وترجم « علي بن زياد » كتاب زيج الشهر ، في حين ترجم اسحق بن يزيد كتاب « اختيار نامه » واثبت ابن النديم في كتابه طائفة كبيرة باسماء الاشخاص الذين قال انهم كانوا يقومون باممال الترجمة من الفارسية الى العربية ، من امثال آل نوبخت ، والحسن بن سهل ، وعمر بن المفرخان وجيلة بن سالم ، واحمد بن يحيى البلاذري .

وكان من بين المترجمين المشهورين عن الفارسية ابو العباس الدميري ، ومحمد بن خلف بن الرزبان الذي قيل عنه انه ترجم اكثر من خمسين كتابا (٤٨) .

وتبدو اهمية بيت الحكمة فيما هياه من اجواء وامكانيات لذوي المواهب من العلماء والمفكرين ، الذين عكفوا على وضع مختلف المؤلفات في شتى اصناف العلوم العقلية منها والعملية . فقد استفاد من بيت الحكمة ، ومواظبة البحث والتأليف فيه ، عدد كبير من مشاهير العلماء والمؤرخين ، على راسهم العالم الرياضي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي مؤسس علم الجبر والمقابلة ، والذي اشتهر لدى الغربيين باسم « اللوغارتمي » فاصبحت هذه الكلمة تعني « الجبر » ونقلت بشكلها المحرف حتى الى كتب الرياضيات التي تدرس في كل مدارس العالم العربي في الوقت الحاضر .

فلقد استطاع الخوارزمي بما اطلع عليه من الكتب المحفوظة في مكتبة بيت الحكمة ، ان يضع كتبه الرياضية هذه ، وان يؤلف الزيج الشهير بالاضافة الى كتبه التي تبحث في الاسطرلاب وغيره .

وبامر من الخليفة هرون الرشيد ، وفي بيت الحكمة نفسه ، وضع « الاصمعي » اللغوي الشهير

وهناك كتب هندية اخرى ترجمت الى العربية ايضا منها كتاب سيرك الهندي ، وكتاب علامات الادواء ، وكتاب الحار والبارد ، وكتاب المواليذ من تأليف الطبيب الهندي جواد ، وكتاب سرور في الطب نقله منكه ، وكتاب عقاير الهند من نقل منكه ايضا ، وكتاب « مختصر الهند في العقاير » ، وكتاب علامات الحبالى ، وكتاب السكر ، وكتاب راي الهند في اجناس الحيات وسمومها .

وترجم البيروني ، الى جانب ما ذكرناه قبلا ، كتابا عن طرق الحساب ، ومقالة في الامراض العفنة ومقالة في الجوايات الواردة من منجمي الهند ، كما اصلح ترجمة كتاب « اريابهت » .

ومن كتب الحكم والادب والاساطير التي نقلت من الهندية الى العربية كتاب كليله ودمنة ، وكتاب السندباد الكبير والسندباد الصغير ، وكتاب « بوداسف » وكتاب « بوداسف مفرد » ، وادب الهند والصين ، وكتاب « هایل » في الحكمة ، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم ، وكتاب « دبك » الهندي وكتاب حدود الهند ، وكتاب « ساديرم » ، وكتاب ملك الهند القتال والسباح ، وكتاب « بيافر » عن اصول الالحن (٤٤) .

بدأت حركة النقل عن الفارسية الى العربية في عصر ابي جعفر المنصور كما اسلفنا ذكر ذلك وكان ابن المقفع في مقدمة الذين نقلوا عن الفارسية فقد ترجم ، الى جانب كليله ودمنة ، كتاب سيرة ملوك العجم وهو الكتاب الفهلوي المعروف باسم « خدای نامه » وكتاب « الاثين » وكتاب « الين نامه » عن انظمة الدولة ، وكتاب التاج الذي قيل انه كان في سيرة انوشروان و اردشير ، وكتاب مزدك وهو قصة روائية ، وعن الفارسية ايضا ترجم ابن المقفع بعض كتب ارسطو وفروريوس .

وفي زمن ابن المقفع على وجه التقريب اشتغل بعض معاصريه من العجم ايضا في ترجمة كتب من الادب الفارسي الى العربية ، منهم محمد بن جهم البرمكي ، وزارويه بن شاهويه الاصفهاني ، ومحمد ابن بهرام بن مهيار الاصفهاني ، وهشام بن القاسم الاصفهاني (٤٥) .

ومن الذين ترجموا عن الفارسية ايضا بهرام ابن مردانشاه ، وموسى بن عيسى الكردي ، اللذان

(٤٤) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وابن النديم : الفهرست ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٤٥) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج ٢ ص ١٠٢ .

(٤٦) ذات المصدر .

(٤٧) نفس المصدر ص ١٠٣ .

(٤٨) نفس المصدر .

اصبح كاتباً لدى عيسى بن علي العباسي عم الخليفة
ابي جعفر المنصور ، وعلى يده اعلن اسلامه ، وان
ظل يخفي عقيدته المانوية والزرذشتية .

وكان ابن المقفع كاتباً مجيداً وشاعراً بليفاً
وهو من خيرة الذين نقلوا عن الفارسية الى العربية
لكنه كان في الوقت ذاته شديد التعصب لقومه
الفرس ، مقدح الهجاء للعرب . فقد كان في مقدمة
الادباء الذين سعوا الى نشر الاداب الفارسية في
العصر العباسي ، والمفاخرة بما كان عليه ملوك فارس
من ابهة وفخفة ، ومن الذين عمدوا الى نشر الافكار
المانوية والزرذشتية في المجتمع الاسلامي آنذاك .

كان اول ما ترجمه ابن المقفع عن الفهلوية ،
اللغة الفارسية القديمة ، هو كتاب « كليلة ودمنة »
وهو مؤلف هندي الاصل يدعى « بنجه تتر » اي
« الكتاب الخمس » (٤٩) ، كما عرف ايضا باسم
« اساطير بيدبا » وقد ترجمه ابن المقفع ترجمة
بليغة تعد نموذجاً بارزاً من روائع النشر العربي .
ولا عجب في ذلك فقد ذكر ان ابن المقفع قد تفقه في
العربية على يد « الخليل » (٥٠) . وقد ضاع الاصل
الفارسي والسنسكريتي لهذا الكتاب ، ولم تبق
سوى ترجمته العربية التي ذاعت ذيوها منقطع
النظر في العالم الاسلامي . واعتمد الاوربيون على
الترجمة العربية هذه فنقلوا كتاب كليلة ودمنة الى
مختلف لغاتهم منذ اوائل القرن التاسع عشر .

وقد بقيت للكتاب ترجمة سريانية وضعها
الداعية النسطوري « بود » في حدود سنة ٥٧٠م
وتم نشرها على يد كل من « بيكل » و « بنفي » سنة
١٨٧٦ (٥١) .

وترجمت كليلة ودمنة الى الفرنسية على يد
المستشرق سلفستر دي ساسي ، ونشرت في باريس
سنة ١٨١٦ . وترجمها « فولف » الى الالمانية
ونشرها في شتوتغارت سنة ١٨٣١ . ونشرت لها
ترجمة انكليزية في اكسفورد سنة ١٨١٩ ، وترجمة
ايطالية في سنة ١٩١٠ ، وترجمة روسية سنة
١٩٣٤ (٥٢) .

وترجم ابن المقفع - كما اشرنا الى ذلك قبلاً - كتاب

(٤٩) دي بوير : تاريخ الفلسفة في الاسلام : ترجمة
عبدالهادي ابو ريذة ص ١٢ .

(٥٠) المصدر نفسه ص ٢٩ .

(٥١) دبلاسي اوليري : الفكر العربي مكانته في التاريخ
ص ١٢٢ .

(٥٢) بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ج ٢ ص ٩٢ - ٩٥ .

كتاباً عن تأريخ الملوك الفابرين ، كما وضع « الفراء »
العالم النحوي المعروف ، وبامر من المأمون ، كتابه
في اصول النحو ، حيث افردت له غرفة خاصة في
بيت الحكمة .

وفي بيت الحكمة وضع العالم محمد بن اسحق
ابن النديم كتابه الشهير « الفهرست » كما وضع
« المسعودي » المؤرخ مؤلفاته « مروج الذهب »
والاشراف والتنبية وغيرها في ذلك المعهد العظيم
وفي بيت الحكمة ايضا وضع « حمزة الاصفهاني »
كتاب « تاريخ الملوك والانبياء » معتمداً على المصادر
التي توفرت له في تلك المؤسسة .

× × ×

الان وقد انتهينا من ابراز اهمية بيت الحكمة
وما احدثه من ثورة في حركة الترجمة ، وفي نشر
العلوم في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، لا بد لنا من
التحدث ، ولو بايجاز ، عن كبار المترجمين في ذلك
العصر الزاهر ، سواء منهم الذين عملوا في بيت
الحكمة ذاته ، او الذين ساهموا مساهمة حميدة
فعالة في نقل التراث العلمي والفكري ، ذلك التراث
الذي كان له اثره الكبير في تطور الفكر العربي
الاسلامي ونضوجه ، وفي ازدهار الحضارة العربية
الاسلامية التي كانت بحق وحقيقة ، المصدر الرئيس
للمدنية العالمية الحاضرة .

١ - عبدالله بن المقفع

يقول العالم الفلكي الكبير « ابو معشر الفلكي »
في كتاب « المذكرات » الذي ألفه لحساب « شاذان
ابن بحر » ان « حذاق الترجمة في الاسلام اربعة .
حنين بن اسحق العبادي ، ويعقوب بن اسحق
الكندي ، وثابت بن قرة الحرائي ، وعمر بن الفرخان
الطبري . ونفهم من كلام « ابي معشر » هذا ، ان
هؤلاء المترجمين اكثر حذاقاً في عمل الترجمة ، واوفر
دقة واصالة من سواهم من المترجمين الآخرين .
غير اننا نود ان نبداً بعبدالله بن المقفع لانه من اوائل
المترجمين الحذاق والبلغاء . فقد باشر عمله في
الترجمة في عهد ابي جعفر المنصور .

يكنى ابن المقفع ، وهو فارسي ، بابي عمرو
واسمه الاصلي « روزيه » وقد ابدله الى « عبدالله »
بعد اعلان اسلامه . ويدعى ابوه « داؤديه » ولقب
بالمقفع لمال احتجته من بيت المال فضربت يده
وتفقتا وكان ابن المقفع في اول امره كاتباً لدى
« داود بن عمر بن الحسن » آخر ولاية بني امية في
ولاية « كرمان » وقد جمع اموالاً كثيرة ، ومن ثم

التاج ، وكتاب «الائين» وكتاب « ائين نامه » وكتاب « مزدك » ، وكتاب « تسر » وغيرها .

وعن اللغة الفارسية أيضا ترجم ابن المقفع ثلاثة من كتب ارسطو هي « قاطيغورياس » ، « وباراميناس » و « انا لوطيقا » كما ترجم كتاب « ايساغوجي » لفرفوريوس (٥٣) .

والى جانب هذه الترجمات وضع ابن المقفع عدة كتب منها كتاب « الادب الكبير » الذي سمي في بعض الاوقات باسم « الدرة اليتيمة » ، والادب الصغير ، وكتاب رسالة الصحابة ، وكتاب الدرة الصغيرة او الثانية ، وحكم ابن المقفع التي نشرها العلامة « محمد كردعلي » في « رسائل البلغاء » . ولان المقفع قصيدة في الشهور المسيحية محفوظة في مكتبة جامع اياصوفيا باسطنبول وقد نشرت مع ترجمة المانية لها ، كما ان له رسالة في معارضة القرآن يقول بروكلمان عنها « فلم نعرفها الا من الرد عليها الذي كتبه الامام الزيدي القاسم بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ٢٤٦هـ ٨٦٠م (٥٤) .

٢ - يوحنا بن ماسويه ١٩٧-٢٤٣هـ ٨٠٩-٩٥٧م

من اوائل المترجمين في العصر العباسي، ورئيس بيت الحكمة ، ومن المعنيين عناية فائقة بالعلوم الفلسفية والطبية ، كما كان من الاطباء المشهورين في طب العيون .

كان ابوه ، وهو نستوري ، يدق الادوية في مستشفى جنديسابور . واستطاع بفضل ممارسته وخبرته هذه، ان يعرف كثيرا من الامراض وعلاجها، رغم انه لم يكن يعرف الكتابة والقراءة . ولقد جاء ماسويه الى بغداد ، وحاول الاتصال بطبيب الخليفة الرشيد ، جبرائيل بن بختيشوع ، غير انه لم يفلح في ذلك ، بسبب كلام قيل انه صدر عنه في حق جبرائيل . وعندئذ اخذ ماسويه يبيع الادوية في صندوق يحمله معه ، ويجلس به عند باب الحرم في قصر « الفضل بن الربيع » وزير الرشيد . واستطاع ماسويه ان يشفي خادم « الفضل » من رمد اصاب عينها ، فاستأنس به الفضل بن الربيع ، واجرى له في كل شهر ستمائة درهم ، وعلوفة دابتين ، ونزل خمسة غلمان، وامره ان يحمل عياله من جنديسابور ، واعطاه نفقة واسعة فحمل عياله و « يوحنا » حينئذ صبي صغير (٥٥) .

وقد ذكر ابن القفطي ، واعاده ابن ابي اصيبعة رواية عن جبرائيل بن بختيشوع يفهم منها ان ماسويه تزوج في بغداد جارية « داود بن سرافيون » انجبت له ولديه « يوحنا » و « ميخائيل » .

كذلك ذكر « ديلاسي اوليري » في كتابه « كيف انتقلت العلوم اليونانية الى العرب » ان يوحنا بن ماسويه تولى مدرسة جنديسابور ومستشفاهما حين انتقل جبرائيل بن بختيشوع الى بغداد . على ان معظم الذين ترجموا ليوحنا يتفقون على انه قد تثقف في بغداد .

نشأ يوحنا ببغداد ، وبها نال تعليمه واشتهر بالطب وبالنقل من السريانية الى العربية حتى ذاع صيته ، فاتخذ الرشيد طبيبا خاصا له ، وقلده رئاسة بيت الحكمة ، وعهد اليه بالاشراف على الكتب التي جلبها من بلاد الروم .

وقد نال يوحنا الحظوة البالغة ليس لدى الرشيد حسب ، بل ولدى الخلفاء الذين اعقبوه ، وكان مجلسه في بغداد امر مجلس لمطبيب او متكلم او متفلسف ، لانه كان يجتمع فيه كل صنف من اصناف اهل الادب (٥٦) . ولم يقتصر عمله في بيت الحكمة على الرئاسة والاشراف حسب ، وانما كان يعمل في نقل الكتب وقد ترجم كثيرا منها (٥٧) .

وقد تلمذ يوحنا على جبرائيل بن بختيشوع في اول الامر . ثم على يد « عيسى بن نون » الذي صار بطريركا للنساطرة سنة ٨٣٢م وكان يوحنا طبيبا فاضلا ، ومؤلفا بالسريانية والعربية ، ومتمكنا من الاغريقية ، وجاء الى بغداد باشارة من جبرائيل بن بختيشوع ، وقدم الى بلاط الرشيد باعتباره طبيبا حاذقا ، واحد الذين يشتغلون بالطب اليوناني (٥٨) .

قال عنه « جمال الدين ابن القفطي » صاحب كتاب « تاريخ الحكماء » ، « كان يوحنا من اجل علماء عصره ، متضلعا في الترجمة ، عالما بالعلوم التي يقوم بترجمتها . كما كان يعقد مجلسا للنظر ، ويعمر ذلك المجلس بعلم هذا الشأن اتم عمارة ، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة باحسن عبارة . واجتمع اليه اهل العلوم والادب وكان يجتمع اليه تلاميذ كثيرون » (٥٩) .

- (٥٧) صاعد الاندلسي : طبقات الامم ص ٥٥ .
(٥٦) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٢٢ .
(٥٨) ديلاسي اوليري : العلوم اليونانية وسبل انتقالها الى العرب ص ٢٢٣ الترجمة العربية .
(٥٩) ابن القفطي : تاريخ الحكماء ٢٨٢ - ٢٨٣ .

- (٥٣) نفس المصدر ص ٩٨ .
(٥٤) نفس المصدر ص ١٠١ .
(٥٥) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ١١٨ - ١١٩ .

وكان الواثق شغوفا به وقد اهداه في يوم واحد ثلثمائة الف درهم ... وذكر يوحنا عن نفسه انه اكتسب من صناعة الطب الف الف درهم ، وعاش بعد قوله هذا ، ثلاث سنين آخر (٦٥) .

وكانت وفاة يوحنا بن ماسويه « بسر من رأى » يوم الاثنين لاربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين ومائتين في خلافة المتوكل (٦٦) .

x x x

٣ - ثابت بن قرّة الصابي

يعد ثابت بن قرّة من أشهر المترجمين وأكثرهم دقة ، وذلك بشهادة العلماء من غير العرب . فقد كان يحسن السريانية والعبرية ، واليونانية الى جانب العربية ، جيد النقل عن هذه اللغات ، الامر الذي جعل « العالم الانكليزي » جورج سارطون « يعتبره من اعظم المترجمين ، واعظم من عرف في مدرسة « حران » في العالم العربي » (٦٧) .

ولد ثابت بن قرّة بمدينة حران يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر صفر سنة ٢١١ هـ ٨٢٦ م ونشأ على دين آباءه وهو الوثنية التي تحولت الى الصبئية (٦٨) وحين اصطدم مع رئيس كنيسة حران اصدر هذا الرئيس قرارا بحرمانه حوالي سنة ٢٥٩ هـ ٨٧٢ م وارسله الى « كفر توثا » بالقرب من « دارة » (٦٩) .

وبعد ان جال ثابت في بلاد كثيرة التقى باحد اولاد موسى بن شاكر وهو « محمد » (٧٠) عند انصرافه من بلاد الروم حيث كان يفتش فيها عن كتب الاغريق . وقد اعجب « محمد » بفصاحته فاصطحبه معه الى بغداد . وقيل ان محمد هذا قد قرأ على ثابت ، وتعلم في داره ، وانه هو الذي اوصله بالخليفة المعتضد ، فادخله في جملة

(٦٥) ابن ابي اصيبعة : ج ٢ ص ١٢٢ .
(٦٦) نفس المصدر السابق .

(٦٧) و (٦٨) قدرى حافظ طوقان: العلوم عند العرب ص ١٢٧ .
(٦٩) ذكر ابن النديم ص ٢٩٤ وابن القفطي ص ١١٥ ان ولادة ثابت كانت في سنة ٢٢١ هـ وذلك خطأ لان ابن النديم قال عنه انه توفي في سنة ٢٨٨ هـ وعمره سبع وسبعون فيكون مولده الصحيح في سنة ٢١١ .

اولري : علوم اليونان . ص ٢٣٨ وابن خلكان .
(٧٠) وقع الباحث العلامة المرحوم قدرى حافظ طوقان واخرون غيره في خطأ فاضح حين ذكروا ان الذي اتصل بثابت بن قرّة هو محمد بن موسى الخوارزمي ، في حين ان الذي اتصل به في كفر توثا هو محمد بن موسى بن شاكر النجم انظر ابن القفطي ص ١١٥ وابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٩٣ واولري علوم اليونان ص ٢٣٨ .

وكان الى جانب حذقه السريانية والعربية ، والتأليف بهما ، متمكنا من استخدام الاغريقية(*) . كما انه كان من الذين اوفدوا الى بلاد الروم للبحث عن كتب العلوم اليونانية فيها (٦٠) .

لا مجال للتفريق بين الكتب التي تركها يوحنا ابن ماسويه ، وما اذا كانت موضوعة ام مترجمة . ذلك لان الذين ترجموا له لم يفعلوا ذلك ، ومنهم « ابن ابي اصيبعة » صاحب كتاب « طبقات الاطباء » الذي ذكر له اربعة واربعين مؤلفا (٦١) .

وقد ظفرت بعض كتب يوحنا بالشهرة الواسعة حتى في اوربا . ومن هذه المؤلفات ، كتابه عن « الحميات » الذي اشتهر زمنا طويلا ، وترجم الى اللاتينية والعبرية (٦٢) . ومن كتبه الشهيرة ايضا كتاب « دغل العين » في طب العيون الذي اهداه الى تلميذه حنين بن اسحق . وبلغ من شهرة هذا الكتاب انه كان من بين الكتب الطبية المقررة في الامتحان الذي اجراه الخليفة العباسي « القاهر » (٩٣٢ - ٩٣٤ م) للحصول على اجازة الطب (٦٣) .

وبعد كتاب « دغل العين » اول كتاب في طب العيون يصل الينا . ذلك لان الكتب اليونانية والسريانية ، وما صنف باللغات الاخرى في هذا الفن ، قد ضاعت ، وتوجد مخطوطة كاملة من هذا الكتاب في مكتبة « احمد تيمور باشا » في القاهرة ، واخرى في مكتبة لينينغراد (٦٤) .

وذكر « جرجي زيدان » في كتابه « المختصر في آداب اللغة العربية » ان ما بقي من كتب يوحنا ابن ماسويه هو :

- ١ - كتاب « نوادر الطب » وفيه ترجمة لاتينية وشروح .
- ٢ - جواهر الطب .
- ٣ - كتاب ماء الشعر .
- ٤ - كتاب الادوية المسهلة وغيرها .

بقي يوحنا بن ماسويه يخدم خلفاء بني العباس حتى عهد الخليفة « الواثق بالله » (٨٤٢ - ٨٤٧ م)

(*) اولري : الفكر العربي مكانته في التاريخ ص ١٢٦ الترجمة العربية .

- (٦٠) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٢ .
(٦١) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ١٢٦ - ١٢٧ .
(٦٢) اولري : الفكر العربي ص ١٢٧ .
(٦٣) اولري : كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب ص ٢٢٤ الترجمة العربية .
(٦٤) اولري : المصدر السابق .

المنجمين عنده ، وذكر عن ثابت انه هو الذي ادخل رئاسة الصابئة الى العراق ، فتثبتت احوالهم ، وعلت مراتبهم ، وبرعوا (٧١) وقد اكرم المعتضد وفادته ، واجرى له معاشا شهريا قدره خمسمائة دينار ويعد ثابت اعظم هندسي عربي على الاطلاق (٧٢) .

وروى « ابن ابي اصبعة » كيفية اتصال ثابت بن قررة بالخليفة المعتضد بالله ، فذكر ان الخليفة « الموفق » حين غضب على ولده المعتضد ، امر بحبسه في دار اسماعيل بن بلبل ، واوكل به « احمد » الحاجب . وقد طالب اسماعيل بن بلبل الى ثابت ان يدخل الى المعتضد في سجنه ليرفه عنه ، ففعل ذلك ، فأنس المعتضد به ، اذ كان ثابت يدخل عليه ثلاث مرات في اليوم يحادثه ويسليه ، ويعرفه احوال الفلاسفة ، وامر الهيئة والنجوم وغير ذلك ، فشفف به ولطف منه محله (٧٣) .

ولما تولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩ هـ ٨٩٢ م زاد اهتمامه بثابت بن قررة واکرامه له ، فقربه اليه ، واقطعه ضياعا جليلة . وكان يجلسه بين يديه بحضرة العام والخاص . وقد حدث ذات مرة ان كان المعتضد يتمشى مع ثابت في « الفردوس » - وهو بستان في دار الخليفة - للرياضة فاتكا على يد ثابت وهما يتمشيان ، فنثر الخليفة يده بشدة من يد ثابت وقال له « يا ابا الحسن سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون ، فان العلماء يعلون ولا يعلون » (٧٤) .

وثابت بن قررة واحد من العلماء الموسوعيين لدى العرب والذين تعددت نواحي عبقريتهم . فقد نبغ في الطب ، وفي الفلسفة ، والفلك ، والرياضيات (٧٥) . ولم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ، ولا في غيره من جميع اجزاء الفلسفة ، وحسن التخرج والتمهر في العلوم (٧٦) وقد قطع شوطا بعيدا في الرياضيات وفي الفلك ، وازاد اليها ومهد في ايجاد اهم فرع من فروع الرياضيات هو التكامل والتفاضل (٧٧) .

- (٧١) ابن القفطي ص ١١٥ وابن النديم ص ٢٩٤ وابن ابي اصبعة ج ٢ ص ١٩٣ .
(٧٢) البارون كارادي فو في « تراث الاسلام » ج ١ ص ٢٤١ .
(٧٣) ابن ابي اصبعة ج ٢ ص ١٩٤ .
(٧٤) ذات المصدر ج ٢ ص ١٩٤ .
(٧٥) قدرى حافظ طوقان : الخالدون العرب ص ٥٨ .
(٧٦) ابن ابي اصبعة ج ٢ ص ١٩٣ .
(٧٧) نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٤ .

ولثابت بن قررة ارصاد حسان لتمس ، تولاهها ببغداد ، وجمعها في كتاب بين فيه مذهبه في حركة الشمس (٧٨) . كما اشتغل في التحليلات الهندسية واجاد فيها اجادة عظيمة . وله ابتكارات سبق بها الفيلسوف والعالم الرياضي الفرنسي « ديكارت » (٧٩) .

وحل ثابت بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية ، استعان بها بعض العلماء الغربيين في بحوثهم الرياضية خلال القرن السادس عشر من امثال « كارودان » وغيره من كبار الرياضيين (٨٠) . واستخرج ثابت حركة الشمس ، وحسب طول السنة النجمية فكانت اكثر من حقيقتها بنصف دقيقة ليس الا . كما حسب دائرة البروج ، وقال بوجود حركتين ، مستقيمة ومتقهقرة لقطبي الاعتدال (٨١) .

والشيء المؤكد ان ثابت بن قررة هو الذي وضع دعوى « متلاوس » حول استعمال الجيوب بدلا من الاوتار في شكلها الحاضر . فضلا عن ذلك حل بعض المعادلات التكعيبية بالطرق الهندسية (٨٢) .

كان ثابت من الذين مهدوا السبيل لظهور علم التكامل والتفاضل ولهذا العلم شأن خطير في الاختراع والاكتشاف ، فقد ذكر العالم الرياضي الانكليزي « سميث » في كتابه « تاريخ الرياضيات » يقول « يجدر بنا ان نذكر ثابت بن قررة الذي اوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره » (٨٣) .

ويظهر تفوق ثابت بن قررة في الطب ، بارزا من قصة القصاب الذي مات فجأة ، وكيف شرع اهله ينوحون عليه ، وكيف اسرع ثابت اليه ، فعالجه وانقذه من موت محقق (٨٤) .

x x x

وضع ثابت بن قررة ترجمات لعدد من كبار علماء الرياضيات والطب اليونانيين من امثال بولونيوس ، وارخميدس ، واقليدس ، وبطليموس ، وثيودوسيوس ، وجالينوس ، بالاضافة الى اصلاحه

- (٧٨) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب ص ١٢٧ .
(٧٩) نفس المصدر ص ١٢٨ .
(٨٠) المصدر السابق والخالدون العرب لطوقان .
(٨١) طوقان : العلوم عند العرب والخالدون العرب ، وعمر فروخ : عبقرية العرب ص ٥٢ .
(٨٢) قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمي ص ٩٨ .
(٨٣) نفس المصدر ص ١٩٩ .
(٨٤) انظر القصة مفصلة في طبقات الاطباء لابن ابي اصبعة ج ٢ ص ١٩٥ وابن القفطي تاريخ الحكماء ج ١٢١ .

رأيتها بخطه مما عمله ثابت للفتيان إبقاهم الله ،
واظنه يعني بهم اولاد محمد بن موسى بن شاذان ...
واما نقله من لغة الى اخرى فكثير» (٨٨) .

ومما ترجمه ثابت ايضا كتاب «اثافروديطوس»
الذي فسر به كلام «ارسطو» عن الهالة وقوس
قزح . وكذلك كتاب «النسبة المحدودة»
لابولونيوس ، وشروح «أوطوقوس» لمقالة
ارخميدس في الكرة والاسطوانة ، وكتاب «اصول
الهندسة» لثالوس ، وكتاب الجغرافيا وصفة
الارض لبطليموس ، وكتاب «بيس» الرومي عن
تفسير كتاب بطليموس في تسطيح الكرة .

ضاعت كل مؤلفات و مترجمات ثابت بن قرة
التي ناهزت المائتين ، ولم يبق منها في وقتنا الحاضر
سوى قلة احصى منها بعض المتبعين الكتب
والرسائل التالية .

- ١ - كتاب الكرة والاسطوانة .
- ٢ - كتاب المأخوذات ، وكلاهما لارخميدس
ويوجد الاول في مكتبة خراجي زادة بيروسة ،
والثاني في مكتبة فاتح باسطنبول ، ومنه
نسخة في طهران .
- ٣ - كتاب المعطيات في مكتبة نور عثمانية .
- ٤ - كتاب الاصول في مكتبة فاتح .
- ٥ - عمل الدائرة المرسومة بسبعة اقسام متساوية
وهذه الكتب الثلاثة من بعض ما ترجمه ثابت
من كتب اقليدس وما ترجمه عن اوطولوقس
بقي .
- ٦ - كتاب الكرة المتحركة وهو محفوظ بصورته
الاصلية في مكتبة اياصوفيا باسطنبول .
- ٧ - كتاب في الطلوعات والغروبات منه نسخة في
اياصوفيا واخرى في طوبقبوسراي باسطنبول .
- ٨ - كتاب في حكاية ما استخرجه القدماء من خطين
بين خطين حتى يتوالى الاربعة متناسبة
لاوطرقيوس ، منه نسخة في باريس .
- ٩ - المطالع ترجمه في الاصل حنين بن اسحق
واصلحه ثابت وهو لابسقلاوس منه نسخة
في باريس .

١٠ - المخروطات لابولونيوس صححه اولاد موسى
منه نسخة في مكتبة ليدن بهولندا .

١١ - تسهيل المجسطي لبطليموس منه نسخة في

(٨٨) المصدر السابق .

كثيرا من الترجمات التي نقلت في زمانه . فالشهور
عنه انه اصلح الترجمة التي عملها حنين بن اسحق
لكتاب «المجسطي» اصلاحا جيدا . ولم يكتف
بذلك بل قام هو نفسه بترجمة المجسطي ترجمة
جيدة ، واصلحه ، ووضعها ثم اختصر ذلك الكتاب
اختصارا نافعا لم يوفق اليه احد غيره (٨٥) .

بلغت مؤلفات ثابت بن قرة في اللغة العربية
بين موضوع و مترجم مائة وخمسين كتابا .
وبالاضافة الى ذلك وضع باللغة السريانية ستة عشر
كتابا في الهندسة والحساب ، والفلك ، والفيزيقي ،
وقد ذكر كل من ابن القفطي ، وابن ابي اصيبعة
اسماء مؤلفات ثابت ، غير انهما لم يفصلا الكتب
الترجمة منها عن الموضوع .

فما نقله عن جالينوس ، كتاب الادوية المفردة
وكتاب المرة السوداء ، وكتاب سوء المزاج المختلف ،
وكتاب القصد ، وجوامع كتاب الامراض الحارة ،
وجوامع كتاب الكثرة ، وجوامع كتاب تشريح الرحم ،
وجوامع كتاب المولودين لسبعة اشهر ، وجوامع
تشريف صناعة الطب ، تفسير جالينوس لكتاب
ابقراط في الاهوية ، والمياه ، والبلدان ، اختصار
كتاب النبض ، جوامع كتاب النبض ، جوامع كتاب
النبض الكبير ، اختصار كتاب قوى الاغذية ، حيلة
البرء ، اختصار كتاب ايام البخران ، اختصار كتاب
الاسطقات ، جوامع كتاب الادوية النفسية ، جوامع
كتاب الاعضاء الالهة ، وكتاب الكيموس .
كذلك ترجم ثابت بن قرة «الكتب السبعة
الاولى» وهي ثمانية كتب من اجزاء المخروطات
لابولونيوس (٨٦) .

ومما ترجمه عن بطليموس - بالاضافة الى
كتاب المجسطي - كتاب وجه مسيرات القمر
الدورية ، وجوامع المقالة الاولى كما ترجم رسالة
في الحجة النسوبة الى سقراط ، وجوامع كتاب
نيقوماخوس في الارتماطيقي ، اي الحساب ، وكتاب
بار ارمنياس وجوامع كتاب انالوطيكا لارسطو ، ونقل
كتاب اقليدس في الهندسة واصلحه اصلاحين (٨٧) .

وهناك ترجمات مختصرة ذكرها ابن القفطي
فقال عنها «وله عدة مختصرات في النجوم والهندسة

(٨٥) ابن القفطي ص ١٢٠ .

(٨٦) يقول كارادي فو ان ثابت قد حفظ لنا ثلاثة كتب من
مخروطات ابولونيوس ضاعت اصولها اليونانية انظر تراث
الاسلام ج ١ ٢٤٣ الترجمة العربية .

(٨٧) ابن القفطي : ص ١١٩ .

- ١٥- كتاب في ان الخطين اذا خرجا على زاويتين قائمتين التقيا توجد منه نسخ في باريس ، واياصوفيا ، والقاهرة .
- ١٦- كتاب في الاعداد المتحابة منه نسخة في اياصوفيا .
- ١٧- رسالة في استخراج عمل المسائل الهندسية منه نسخة في باريس .
- ١٨- قسمة الزاوية بثلاثة اقسام متساوية موجود في باريس .
- ١٩- المسائل التي سأل عنها علي بن اسد منه نسخة في المتحف البريطاني .
- ٢٠- كتاب في حساب رؤية الاهلة ، في المتحف البريطاني .
- ٢١- نيل المطلوب من المعاني الهندسية منه نسخ في القاهرة واياصوفيا .
- ٢٢- كتاب الروح لافلاطون منه نسخة في ميونيخ واخرى في لندن .
- ٢٣- قطوع الاسطوانة منه نسخة في اياصوفيا واخرى في القاهرة .
- ٢٤- كتاب عن المثلث قائم الزاوية في الاسكوريال .
- ٢٥- حجة سقراط في المربع وقطره ، في اياصوفيا والقاهرة .
- ٢٦- كتاب في عمل شكل مجسم ذي ١٤ قاعدة في مكتبة كوبري .
- ٢٧- كتاب في الات الساعات (الرخامات) . مكتبة كوبري .
- ٢٨- كتاب في الكرة في الاسكوريال .
- ٢٩- كتاب في ايضاح الوجه الذي ذكره بطليموس ، مكتبة كوبري .
- ٣٠- كتاب ارتعاش النجوم الثابتة .
- ٣١- كتاب في حركة الفلك في باريس وفلورنس .
- ٣٢- في البياض الذي يظهر في البدن : اياصوفيا .
- ٣٣- مساحة الاشكال المسطحة والمجسمة : اياصوفيا .
- ٣٤- النسبة المؤلفة : طوبقوسراي .
- ٣٥- ذكر الافلاك وخلقها : اياصوفيا .
- ٣٦- السبب في ملوحة مياه البحر : طوبقوسراي .
- ٣٧- كتاب في الهيئة : اياصوفيا (٨٩) .

(٨٩) المصدر السابق ص ١٨٣ - ١٨٧ .

- مكتبة المتحف البريطاني .
- ١٢- في اقتصاص جمل حالات الكواكب المتحيرة لبطليموس ايضا منه نسخة في المتحف البريطاني واخرى في لندن .
- ١٣- تصحيح كتاب الطلوع والغروب لبطليموس كذلك ، منه نسخة في اياصوفيا واخرى في طوبقوسراي .
- ١٤- باري ارميناس لارسطو ويتهذيب نيقولاوس .
- ١٥- مقالة لارسطو لكتابه فيما بعد الطبيعة منه نسخة في مكتبة اياصوفيا .
- ١٦- جوامع لكتب جالينوس منها نسخة في اياصوفيا (١٨٨) .
- اما الباقي من مؤلفات ثابت فقد احصاه « بروكلمان » على النحو التالي .
- ١ - كتاب الروضة في الطب منه نسخة في بودليان .
- ٢ - جوامع من كتاب جالينوس في الذبول منه نسخة في بودليان .
- ٣ - رسالة في تولد الحصاة عن حصاة المثانة والكلبي في مكتبة برلين .
- ٤ - كتاب البيطرة في مكتبة كوبري منه نسخة .
- ٥ ، ٦ - كتابان في الفلك منهما نسختان في مكتبة الاسكوريال بمدير .
- ٧ - كتاب الشكل والقطاع منه عدة نسخ في لندن وباريس ومدير واسطنبول وغيرها .
- ٨ - كتاب المفروضات منه نسخ في القاهرة وباريس واسطنبول ولندن وفلورنس .
- ٩ - رسالة في الفرستون : نظرية ميزان الذهب منها نسخ في برلين وبيروت والهند .
- ١٠- كتاب في ابطاء الحركة في فلك البروج وسرعتها منه نسخة في باريس .
- ١١- كتاب سنة الشمس والارصاد منه نسخة في الاسكوريال .
- ١٢- كتاب في تأليف النسب .
- ١٣- كتاب في مساحة المجسمات المكافئة . منه نسخ في اياصوفيا ، والقاهرة ، وباريس .
- ١٤- كتاب في مساحة قطع المخروط منه نسخ في باريس والقاهرة واياصوفيا .

(١٨٨) بروكلمان تاريخ الادب العربي ج ٤ ص ١٧١ - ١٧٢ .

الطريق ، وضع الفلوس الجيدة للصدقة والنفقة ،
وبع الفلوس فانه اعود عليك من هذه الصناعة » ثم
امر به فاخرج من داره ، فخرج حنين باكيا
مكروبا « (٩٣) .

بعد تلك الحادثة مباشرة وطد حنين عزمه على
ان يتقن صناعة الطب ، ويتعلمها بلغتها الاصلية
وهي اليونانية ، ولذلك شد الرحال الى آسيا
الصغرى لتعلم اللغة الاغريقية ، واتقان صناعة
الطب ، حتى اذا ما اكمل هناك ثلاث سنوات ، عاد
الى بغداد متخفيا في زي كاهن ، وقد اطلق شعر
راسه ولحيته ، وراح يتردد على بيت « اسحق بن
الخضى » وهو من الملمين باليونانية الماما جيدا ،
حتى اكتشف امره يوسف بن ابراهيم الطبيب ، اذ
سمعه ذات مرة يترنم باشعار هوميروس كبير
شعراء الاغريق ، فعرفه من نعمته ، وقد اسر حنين
الى يوسف هذا بان لا يفضح امره ، لانه يريد ان
يحكم اللسان اليوناني قبل ان يتعلم الطب (٩٤) .

انصل حنين بعد عودته الى بغداد باولاد
موسى بن شاكر المنجم ، فعهدوا اليه بمهمة السفر
الى بلاد الروم على نفقتهم الخاصة ، وجلب كل ما
يعثر عليه من كتب اليونان في الفلسفة والفلك
 والرياضيات ، وقد سافر حنين الى بلاد كثيرة
ووصل الى اقاصي بلاد الروم ، ثم عاد الى بغداد
فامضى فيها فترة ، رحل بعدها الى البصرة حيث
تعلم العربية على الخليل بن احمد . وكان حنين هو
الذي ادخل كتاب « العين » للخليل بن احمد
الفراهيدي الى بغداد (٩٥) .

بعد ان اكمل حنين تمكنه من اللغة العربية
اقبل على ترجمة الكتب اليونانية ، واتصل خلال
وجوده في بغداد بجبرائيل بن بختيشوع . ويذكر
يوسف بن ابراهيم الطبيب انه دخل يوما على
جبرائيل فوجد عنده حنيئا وقد ترجم له اقساماً
من كتب جالينوس في التشريح . وكان جبرائيل
يخاطب حنيئا بكلمة « المعلم » فاستعظم يوسف ما
سمع وما رأى ، فرد عليه جبرائيل يقول « لا
تستكثر ما ترى من تبجلى هذا الفتى فوالله لئن
مد له في العمر ليفضحن » (سرجيس) وكان جبرائيل
يقصد بذلك سرجيس الراسعيني ، وهو اول من
نقل علوم اليونان الى اللغة السريانية (٩٦) .

وقد ذكر ابن القفطي ان ثابت بن قرّة وضع
كتاباً كبيراً في الموسيقى يقع في خمسمائة ورقة (٩٠)
كما عمل ارساداً فلكية في بغداد ، حول ارتفاع
الشمس ، وطول السنة الشمسية .

وقد توفي ثابت بن قرّة في السادس والعشرين
من شهر صفر سنة ٢٨٨ هـ الموافق ١٨ شباط ٩٠١ م
وكانت ولادته في حدود منه ٢١١ هـ ٨٣٤ م .

حنين بن اسحق العبادي

١٩٤ - ٢٦٠ هـ ٨٠٩ - ٨٧٢ م

ولد حنين بن اسحق العبادي بالحيرة في عائلة
مسيحية نسطورية النحلة . كان أبوه يبيع العقاقير
في الحيرة ، وقد عمل حنين معه وهو فتى غير ان
مطامحه التي كان يحلم بها لا يمكن ان يتسع لها
حانوت صغير في بلدة صغيرة . فقد كانت بغداد
مطمح انظاره ، ومحط اماله ، حتى لقد كان ، وهو
في صغره ، يسأل رجال القوافل عن المسافة بين
بغداد والحيرة .

وحدث ذات مرة ان تضرع الى مرشد احدى
القوافل فقبل هذا بان يأخذه معه الى بغداد مقابل
قنينة من مرهم الكافور ، وقد وافق حنين على ذلك ،
وطار فرحاً ، ولم تغمض له عين تلك الليلة من شدة
الفرح (٩٠) . وراح حنين يحضر مجلس ابن ماسويه
رئيس بيت الحكمة ، وجعل يخدمه ويقرا عليه (٩١)
وقد اعجب ابن ماسويه بنباهة الفتى وذكائه ،
وصار يعتمد عليه في تحضير بعض العقاقير امامه ،
ويقرا له كتاب « فرق الطب » الموسوم باللسان
الرومي والسرياني « بهراسيس » (٩٢) .

كان اهل جنديسابور ومتطببوها بصفة خاصة
يكرهون ان يدخل ابناء التجار في صناعة
الطب وهذا ما كان يباعد حنيئا عن ابن ماسويه ،
وفضلاً عن ذلك كان حنين كثير السؤال الامر الذي
لم يحتمله ابن ماسويه . فقد حدث ان سأل حنين
حين كان يقرأ عليه سؤالاً في قضية « فجرد يوحنا
وقال : ما لاهل الحيرة وتعلم الطب ؟ سر الى فلان
قرايتك حتى يهب لك خمسين درهما تشتري منها
قفاً صغيرة بدرهم ، وزرنيخاً بثلاثة دراهم ،
واشتر بالباقي فلوساً كوفية وقادسية ، وضع
زرنيخ القادسية في تلك القفاف ، واقعد على

(٩٠) ابن القفطي ص ٨٣ .

(٩١) ابن القفطي ص ٨٤ .

(٩٢) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٣٩ .

(٩٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤١ والقفطي ص ٨٤ .

(٩٤) ذكر ابن ابي اصيبعة نقلاً عن سليمان بن جلجل ان حنيئا
تعلم لسان اليونانيين في الاسكندرية وهذا قول مشكوك فيه .

(٩٥) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٦ - ١٤١ .

(٩٦) المصدر ذاته ص ١٤١ .

ويستطرد « يوسف بن ابراهيم » في حكايته فيقول « وخرج حنين ، واقمت طويلا ، ثم خرجت فوجدت حنيئا في الباب ينتظر خروجي ، فسلم علي وقال « قد كنت سألتك ستر خبري ، والان فانا اسالك اظهاره واظهار ما سمعت من ابي عيسى وقوله في . فقلت له « وانا مسود وجه يوحنا بما سمعت عن ابي عيسى لك » فاخرج من كمه نسخة مما كان دفعه الى جبرائيل وقال لي « تمام سواد وجه يوحنا يكون بدفعك اليه هذه النسخة ، وسترك عنه علم من نقلها ، فاذا رأيته قد اشتد عجبه بها ، اعلمه انه اخراجي » . ففعلت ذلك من يومي وقبل انتهائي الى منزلي .

فلما قرأ يوحنا تلك الفصول ، وهي التي يسميها اليونانيون « الفاعلات » ، كثر تعجبه وقال: اترى المسيح اوحى في دهرنا هذا الى احد ؟ فقلت له في جواب قوله : ما اوحى في هذا الدهر ولا في غيره الى احد ، ولا كان المسيح الا احد من يوحى اليه « فقال « دعني من هذا القول . ليس هذا الاخراج الا اخراج مؤيد بروح القدس ! » فقلت له « هذا اخراج حنين بن اسحق الذي طردته من منزلك ، وامرته ان يشتري فلوسا » فحلف بان ما قلت له محال ، ثم صدق القول بعد ذلك ، وسألني التلطف لاصلاح ما بينهما ، ففعلت ذلك ، وافضل عليه افضالا كثيرا ، واحسن اليه ، ولم يزل مبعجلا له ، حين فارقت العراق في سنة خمس وعشرين ومائتين (٩٧) .

ومنذ ذلك الوقت لازم حنين يوحنا بن ماسويه وتلمذ له ، واشتغل عليه بصناعة الطب ، كما نقل له نقولا كثيرة وخاصة من كتب جالينوس ، بعضها الى السريانية وبعضها الى العربية (٩٨) .

ونظرا لما لمسه اولاد موسى بن شاكر من عبقرية حنين في ترجمة الكتب التي جلبها لهم من بلاد الروم وغيرها ، قدموه الى الخليفة المأمون سنة ٨٢٨م باعتباره من خيرة المترجمين ولم يلبث المأمون بعد ان ذاع صيت حنين ونبه ذكره ، ان اختاره رئيسا لبيت الحكمة ، واولكل اليه الاشراف على ترجمة كتب الطب والفلسفة والمنطق .

وكانت الدائرة التي يعمل بها حنين في بيت الحكمة واسعة ضمت عددا كبيرا من المترجمين الذين كانوا يعملون تحت امرته . فكان يختار لكل واحد

من اولئك المترجمين نوع الكتب التي يترجمونها ، ثم يفتح ما استغلق عليهم من الفاظها ، ويصحح ما يجده في ترجماتهم من اخطاء . وكان من اولئك المترجمين ابن اخته حبش بن الاعسم ، وموسى بن يحيى بن ابراهيم ، واصطف بن باسـيـل ، وموسى بن خالد الترجمان ، ويحيى بن هارون ، وغيرهم (٩٩) .

وذكر جرجي زيدان ان الحاج بن مطر ، وابن البطريق وسلمة صاحب بيت الحكمة قد عملوا تحت امرة حنين ليصلح ما يترجمونه (١٠٠) .

وكذلك نبه ذكر حنين في الطب الى جانب نبوغه في الترجمة ولذلك اختاره الخليفة المتوكل طبيبا خاصا له ، بعد ان امتحنه امتحانا عصيبا اذاقه فيه سوء العذاب ، ذلك لان المتوكل كان يخشى ان يكون حنين مدسوسا عليه من ملك الروم . وقد سرد كل من ابن ابي اصيبعة ، وابن جليل ، والقفطي ، ذلك الامتحان في مؤلفاتهم . وخلاصة ما ذكره هؤلاء هو ان المتوكل بعد ان اقطع حنيئا اقطعا يدر عليه خمسين الف درهم في السنة ، طلب اليه بان يهيء له دواء يقتل به الاعداء ، فرفض حنين ذلك الطلب فامر المتوكل بالقائه في السجن ، فمكث فيه سنة كاملة كان خلالها ينقل ، ويفسر ، ويصنف ، وهو غير مكترث بما هو فيه (١٠١) .

وبعد انقضاء السنة اخرجته المتوكل من السجن واحضره امامه ، واحضر اموالا طائلة يرغب فيها ، كما احضر سيفا ونظما وسائر ادوات العقوبات ، وخيره بين ان يقبل بطلبه فيه تلك الاموال ، وبين ان يرفض فيقتله . فاصر حنين على الرفض ، واذاك ابتسم المتوكل وقال « يا حنين طب نفسا وثق بنا . فهذا الفعل منا كان لامتحانك ، لانا حذرنا من كيد الملوك ، واعجبنا بك ، فاردنا الطمأنينة اليك ، والثقة بك ، لنتنفع بعلمك (١٠٢) .

وحين سأل المتوكل عما منعه من تلبية طلبه ، اجاب حنين يقول « منعني شيئان يا امير المؤمنين هما الدين والصناعة . فالدين يأمرنا باستعمال الخير والجميل مع اعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء ؟ والصناعة تمنعنا من الاضرار بابناء الجنس ، فانها موضوعة لنفعهم ، مقصورة على معالجتهم . ومع هذا فقد حصل في رقاب الاطباء عهد مؤكد بايمان

(٩٩) ابن القفطي ص ١٧١ .

(١٠٠) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٦٢ .

(١٠١) ابن ابي اصيبعة : ج ٢ ص ١٤٤ .

(١٠٢) ذات المصدر ص ١٤٥ .

(٩٧) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٩٨) المصدر السابق .

مغلظة بان لا يعطوا دواء قتالا . فلم ار ان اخالف
هذين الامرين الشريفين « (١٠٣) » .

x x x

خلف حنين بن اسحق وراءه ثروة فكرية
هائلة تمثلت في مترجماته التي بلغت مائتين وستين
كتابا ، وفي مؤلفاته التي وصلت نحو مائة وخمسة
عشر كتابا (١٠٤) كما تمثلت في العدد الوفير من الرجال
الذين تتلمذوا على يديه وقد بلغ عددهم حوالي
تسعين تلميذا « (١٠٥) » .

ونظرا للمكانة الرفيعة التي كان يحتلها حنين
في دنيا الفكر والعلوم ، فان الكثيرين من تلامذته
ترجموا بعض الكتب ووضعوا اسمه عليها ترويجا
لها . ولذلك توجد عدة كتب منحولة له .

ترجم حنين كل مؤلفات جالينوس في الطب
والفلسفة بالإضافة الى مؤلفات اخرى لابقراط ،
واوريباسوس ، ويولس الاجانيطي ، ودسقوريدس
وافلاطون ، وارسطو ، والاسكندر الافروديسي
وغيرهم .

نقل حنين مائة كتاب من مؤلفات جالينوس
الى اللغة السريانية ، وتسعة وثلاثين كتابا آخر الى
اللغة العربية . والى حنين وحده يرجع الفضل في
تبوء جالينوس اسمى مقام في الشرق خلال العصور
الوسطى ، وفي الغرب الوسيط بصفة غير
مباشرة « (١٠٦) » .

ولم يقف حنين عند كتب جالينوس وحدها ،
بل نقل ايضا الى اللغتين السريانية والعربية ، كل
الشروح التي وضعها جالينوس على مؤلفات ابقراط
وافرد حنين كتابا في تعداد ما ترجمه من مؤلفات
جالينوس . وهذا الكتاب عبارة عن رسائل بعث بها
حنين في سنة ٨٦٥م الى « علي بن يحيى » المشهور
بابن المنجم ، احد المولعين بالترجمة ، وصاحب
مكتبة ضخمة وشهيرة في بغداد ، وقد عثر المستشرق
الالماني « يوغشتراسر » على هذه الرسائل في
مخطوطتين بمسجد « ايا صوفيا » فترجمها الى
الالمانية ونشرها في « لايزرغ » سنة ١٩٢٥ (١٠٧) .

كانت نقول حنين عن « ارسطو » كثيرة .

(١٠٣) نفس المصدر السابق .

(١٠٤) احمد سوسه : الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية
ج ١ ص ١١٨ .

(١٠٥) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٧ .

(١٠٦) نفس المصدر السابق ص ١٧٥ .

(١٠٧) ابن النديم : الفهرست ص ٤٢٤ .

فقد نقل عنه كتاب « قاطيغورياس » اي « المقولات »
كما ترجم مختصر هذا الكتاب وترجم « بارارمنياس »
اي « العبارة » الى السريانية ونقل جزءا من كتاب
« انالوطيقيا » اي « القياس » الى السريانية ايضا ،
واصلح الترجمة العربية التي وضعها له « تبادورس »
كما ترجم كتاب « طوبيقا » اي « الجدل » الى
السريانية وشروح كل من امونيوس والاسكندر
الافروديسي لهذا الكتاب . وترجم المقالة الثانية من
كتاب « السماع الطبيعى » الى السريانية ، واصلح
ترجمة ابن البطريق لكتاب « السماء والعالم » وترجم
بعضا من شرح ثامسطيوس لهذا الكتاب ، ونقل
كتاب « الكون والفساد » الى السريانية .

وترجم الى السريانية ايضا كتاب « الحروف »
اي الالهيات وعددا من شروح ثامسطيوس لهذا
الكتاب ، وتفسير فرفوربيوس لكتاب ارسطو في
الاخلاق (١٠٨) .

وعن افلاطون ترجم حنين كتاب « النواميس »
وكتاب طيماوس في ثلاث مقالات ، وكتاب الجمهورية
وكتاب السياسة وكتاب القوانين . ويقول الدكتور
احمد شلبي ان حنين ترجم كتب اقليدس الى
العربية (١٠٩) .

وكان حنين شديد التمحيز والتدقيق في
اعمال الترجمة ، لا يكتفي بالاعتماد على نص واحد .
وكان يكرر قوله « وددت دوما لو كانت لدي ثلاث
نسخ يونانية من كل كتاب الثقلة ، ليتسنى لي ان
اقابل فيما بينها واستخرج الاصل الصحيح
منها » (١١٠) .

وكان حنين من المجدين في طلب العلم والبحث
عن نوادر كتب الطب والفلسفة والمنطق ، قام
باسفار ورحلات واسعة في اسيا الصغرى واليونان
وفارس والشام وفلسطين ومصر ، لتعلم اللغتين
اليونانية والفارسية ، وللتنقيب عن كتب العلوم في
تلك الاقطار .

ومما رواه عن نفسه في هذا الصدد انه احتاج
ذات مرة الى نسخة من كتاب « البرهان » لجالينوس
فراح يبحث عنه بنفسه في عدد من البلدان « وطلبته
انا ، وجلت في طلبه بلاد الجزيرة والشام كلهما
وفلسطين ومصر الى ان بلغت الاسكندرية ، فلم
اجد منه شيئا الا بدمشق نحو من نصفه » (١١١) .

(١٠٨) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٦ .

(١٠٩) احمد شلبي : الفكر الاسلامي ص ٤٤ .

(١١٠) ابن النديم : ص ٢٥٨ .

(١١١) ابن ابي اصيبعة : ج ١ ص ١٥١ - ١٥٢ .

ويظهر فضل حنين على التراث الفكري اليوناني بارزا ، اذا ما علمنا بان سبعة من كتب جالينوس في علم التشريح قد ضاعت أصولها اليونانية ، ولكن ترجمة حنين هي التي حفظت هذه الكتب واعادتها الى الظهور (١١٢) .

والى حنين ايضا يعزى الفضل في وضع المنهج الكامل للمدرسة الاسكندرية الطبية في تناول الطلاب العرب ، وكان هذا المنهج يشمل طائفة مختارة من مقالات جالينوس وهي الكتب التي عرفت لدى المؤلفين العرب باسم كتب جالينوس الست عشرة (١١٣) . وكانت بعض هذه الكتب قد ترجمت ، قبل حنين ، الى السريانية والعربية على يد بعض المترجمين من امثال سرجيس الراسعيني ، وموسى بن خالد الترجمان وغيرهما ، الا ان الترجمة الدقيقة الصائبة هي ترجمة حنين وحدها . ويقول ابن ابي اصيبعة عن مترجمات حنين من كتب جالينوس « وغالب الامر لا يوجد شيء من كتب جالينوس الا وهي بنقل حنين او باصلاحه لما نقل غيره » (١١٤) .

× × ×

كانت نهاية حنين مفاجئة ، مثل نهاية غيره من المفكرين وذوي العقيدة الثابتة في كل الازمان . فقد دفعت الغيرة منه ، حساده الى الوشاية به وايفال صدر الخليفة المتوكل عليه ، وكان على رأس أولئك الحساد بختيشوع بن جبرائيل ، واسرائيل بن زكريا الطيفوري وهما من النساطرة ايضا .

لقد لفق الطيفوري حكاية مفادها ان حنيناً لم يبصق على صور الذين صلبوا السيد المسيح ، الامر الذي اثار غضب الجاثليق رئيس الكنيسة الشرقية فلعن حنيناً بحضرة الملائكة من النصارى سبعين لعنة ، وقطع زناره ، وامر المتوكل ان لا يصل اليه دواء من قبل حنين حتى يشرف على عمله الطيفوري . وانصرف حنين الى داره فمات من ليلته (١١٥) .

لم يمت حنين من ليلته تلك كما ذكر ذلك خطأ ابن ابي اصيبعة . لان المتوكل امر بالقائه في السجن وصادر املاكه وفيها مكتبته . وقد سرد حنين

تكتبته تلك في رسالة نقلها ابن ابي اصيبعة وفي هذه الرسالة يقول حنين ان المتوكل « احضر السوط والحبال ، وامر بي فشددت مجردا بين يديه ، وضربت مائة سوط ، وامر باعتقالي والتضييق علي . ووجه فحمل جميع ما كان لي من رحل واثاث وكتب وما شاكل ذلك ، وامر بنقض منازلتي الى الماء ، واقمت داخل داره معتقلا ستة اشهر في اسوا ما يكون من الحال ، حتى صرت رحمة لمن رأني . وكان ايضا في كل سير من الايام يوجه من يضربني ويجدد لي العذاب » (١١٦) .

غير ان الخليفة اطلق سراح حنين فيما بعد ، ورد اليه امواله ، وافرد له ثلاثة دور ، واطلق الف الف الف درهم في الشهر الواحد ، كما فرض غرامة على الذين رشوا به زادت عن مائتي الف درهم (١١٧) وعاش حنين بعد تلك النكبة عشرين سنة اخرى ، حتى توفي - باتفاق معظم المؤرخين - يوم الثلاثاء لست خلون من صفر سنة ٢٦٠ هـ ٨٧٣ م .

لم نشأ ان نذكر بالتفصيل مترجمات ومصنفات حنين بن اسحق وذلك لكثرتها كما اننا لم نرد ان نذكر ما بقى من تلك المترجمات والمصنفات . فقد تكفل المستشرق الالماني المعروف «بروكلمان» بسرد كل ما عثر عليه من اثار حنين في مختلف اقطار العالم وذلك في الجزء الرابع من كتابه « تاريخ الادب العربي » فليرجع اليه من اراد الافاضة في ذلك .

٤ - قسطا بن لوقا البعلبي

٢٠٥ - ٣٠٠ هـ - ٨٢٠ - ٩١٢ م

ولد قسطا بن لوقا بمدينة بعلبك في لبنان وهو من سلالة يونانية مسيحية (١١٨) وقد نبغ في علوم كثيرة . فهو الى جانب حذقه اللغات اليونانية والسريانية والكلدانية والعربية ، وجودة النقل عنها ، كان فيلسوفا وطبيبا ورياضيا وفيزيائيا ، مشهور التحقيق بالعدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية والموسيقى (١١٩) .

وكان ابن النديم يفضل على حنين بن اسحق لانه « كان بارعا في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة

(١١٦) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٨ .

(١١٧) نفس المصدر .

(١١٨) صاعد الاندلس ص ٢٤٢ ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٤

هنري كوربان تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٩ وغيرهم .

(١١٩) ابن النديم ص ٤٢٤ .

(١١٢) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٧ .

(١١٣) اولري : علوم اليونان وسجل انتقالها الى العرب ص ٢٢٨ .

(١١٤) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٦ .

(١١٥) نفس المصدر ص ١٤٨ .

والهندسة والاعداد والموسيقى ، لا مطعون عليه ، فصيحاً باللغة اليونانية ، جيد العبارة بالعربية (١٢٠) ولذلك كان قسطا يشرف في ايام المأمون على قسم الترجمة من اليونانية والسريانية والكلدانية الى العربية ، كما كان من البرزين الذين عملوا في بيت الحكمة (١٢١) .

ويبدو ان شهرة قسطا قد ذاعت بعد ان رحل الى بلاد الروم وحصل على شيء كثير من تصانيفهم حتى اذا عاد الى مستقره استدعاه الخليفة المأمون ، واوكل اليه امر الاشراف على ترجمة الكتب اليونانية والسريانية وغيرهما في بيت الحكمة . فكان « يترجم كتباً ويستخرجها من لسان يونان الى اللسان العربي » (١٢٢) .

وكان قسطا ذائع الصيت واسع المعرفة في العالم العربي الاسلامي ، وعالم الفرنجة لما كان يتحلى به من سعة المعرفة (١٢٣) ولذلك قال عنه « ابو الفرج اللطفي » ، « لو قلت حقاً لقلت انه افضل من صنف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل ، وما رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني » (١٢٤) .

برع قسطا في الجغرافية والفلك وعلم الرصد ، وكان من اوائل العلماء العرب الذين بحثوا في تأثير الطبيعة ، من حرارة ، وامطار ، وبحار ، وجبال وسهول ، على عادات الانسان ونشاطه الاقتصادي بل حتى على لون بشرته ، كما هو مدون في كتابه المعروف « العلة في اسوداد الاحباش » (١٢٥) .

وقد اعتبره المستشرق الفرنسي « هنري كوربان » من علماء النفس فقال عنه « وكذلك بعض ابحاثه في العلوم الخفية حيث تشبه شروحاته ، بشكل مثير ، ابحاث علماء النفس في ايماننا هذه » (١٢٦) .

ويبدو لنا ان كل ما كان يتمتع به قسطا من شهرة ، ويظفر به من مكافأة وتقدير ، لم يكن يتناسب مع سعة علمه وفضله . ولذلك فضل ان يهجر العراق الى ارمينيا ليعيش فيها بقية حياته ، وليموت هناك ويدفن فيها . والظاهر ان اضطراب

الاحوال في العراق بعد اغتيال المتوكل كان هو الدافع الاول لذلك النزوح عن العراق .

وقد ذكر كل من ابن القفطي ، وابن ابي اصيبعة ، ان شخصاً يدعى « سنحاريب » - ولا نعرف من امره شيئاً سوى اسمه هذا - هو الذي حجب لقسطا القدوم الى ارمينيا وكان فيها آنذاك مولى الخليفة المعروف باسم « ابو الفطريف البطريق » وهو من اهل العلم والفضل ، فحمل اليه قسطا كتباً كثيرة جليظة في اصناف من العلوم » (١٢٧) .

ولم يورد المؤرخون الذين كتبوا عن قسطا اسم المدينة التي استقر فيها ومات في ارمينيا ، وانما اكتفوا بالقول انه ارتحل الى ارمينيا ، وبها مات ودفن ، وبنيت على قبره قبة ، واكرم قبره كاكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع (١٢٨) .

كذلك لم يفرق المؤرخون بين الكتب المترجمة وتلك التي وضعها قسطا . فابن النديم مثلاً لم يذكر من كتبه المترجمة سوى كتاب « السماع الطبيعي » لارسطو ، وكتاب « اصول الهندسة » لافلاطون ، وكتاب الاراء الطبيعية لفلو طرخس ، وتفسير الاسكندر الافروديسي لكتاب ارسطو عن الكون والفساد « علماً بان قسطا ترجم لطائفة كبيرة من اطباء اليونان وعلمائهم من امثال ايرن وجالينوس ، واقليدس ، وثيوفراسطوس ، وفيلوبونيوس ، وتيودوس وغيرهم ، كما ورد ذلك في بعض الكتب الحديثة من امثال تراث العرب العلمي لقـدري حافظ طوقان ، وتاريخ الفلسفة الاسلامية لهـنري كوربان ، وسبل انتقال العلوم اليونانية الى العرب لديلاسي اوليري وغيرها .

والمتفق عليه لدى المؤرخين القدامى ان قسطا وضع اكثر من مائة كتاب ورسالة ، وانه بقسي يواصل الترجمة والتأليف حتى بعد ان انتقل الى ارمينيا حيث ذكر ابن ابي اصيبعة ان قسطا الف كتباً كثيرة للفطريف البطريق (١٢٩) ومن بين هذه الكتب ثبت بالمؤلفات التي ترجمها عن اليونانية او التي صنفها بنفسه .

فمن مؤلفاته الطبية اوجاع النفوس ، الروائح وعللها ، احوال الباه ، المدخل الى علم الطب ، القوة والضعف ، الاغذية ، النبض ، الحميات ،

(١٢٧) ابن القفطي ص ١٦٢ .

(١٢٨) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٥ وابن القفطي ص ١٦٣ .

(١٢٩) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(١٢٠) الجغرافيون العرب محمد صبري حسن ج ١ ص ١٢٢ .

(١٢١) ابن القفطي ص ٢٦٢ .

(١٢٢) ابن القفطي ص ٢٦٢ .

(١٢٣) محمد صبري حسن . الجغرافيون . ج ١ ص ١٢٣ .

(١٢٤) جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٦٥ .

(١٢٥) محمد صبري حسن ج ١ ص ١٢٣ .

(١٢٦) هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٨ - ٥٩

ترجمة نصير مروة وحسن قليبسي .

الخدّر ، الأمراض الحادة ، الكبد ، تدبير الإبدان
بالسموم ، تولد الشعر ، حركة الشريان ، الدم ،
الصفراء ، السوداء ، الفصد وغيرها .

ومن كتبه في الفلسفة والرياضيات كتاب
« برقنطس » في المسائل القدرية ، استخراج
مسائل عديدة من مقالة أقليدس ، كتاب شكل الكرة
والاسطوانة ، الهيئة وتركيب الأفلاك ، كتاب حساب
الثلاثي في الجبر والمقابلة ، كتاب العمل بالكرة
النجومية كتاب الأوزان والمكاييل ، الآلة التي
ترسم عليها الجوامع ، كتاب المدخل إلى الهندسة
ومن كتبه المترجمة والموضوعة في الحيل
والميكانيك ، كتاب المرايا المحرقة ، وكتاب الفرستون
وعدة كتب في عمل الاسطرلاب وفي الأرصاد الفلكية ،
وكتاب الفلاحة اليونانية .

أما كتبه ومترجماته في الفلسفة والمنطق فمنها
كتاب المدخل إلى المنطق ، شرح مذاهب اليونانيين
الفصل في بيان النفس والروح ، كتاب الجزء الذي
لا يتجزأ ، كتاب النوم والرؤيا ، المدخل إلى كتاب
« إيساغوجي » مسائل في الحدود على رأي الفلاسفة
وغیرها .

بقي عدد من مؤلفات ومترجمات قسطنطين
عدد من المكتبات في العالم وقد ترجم العديد منها
إلى عدة لغات عالمية . فرسلاته الفلسفية المعنونة
« الفرق بين النفس والروح » قد ترجمت إلى
اللاتينية منذ القرن الثاني عشر على يد يوحنا
الاسباني ، كما نشر نصها العربي الأب لويس شيخو
في مجلته « المشرق » سنة ١٩١١ (١٣٠) .

وقد أحصى بروكلمان طائفة من كتبه الموجودة
في المكتبات العالمية منها .

- ١ - رسالة في اختلاف الناس في سيرهم وأخلاقهم
منها نسخة في برلين .
- ٢ - رسالة في السهر وأسباب الأرق فيها لأبي
الفطريف منها نسخة في مكتبة برلين .
- ٣ - في تدبير الإبدان للسفر للسلامة من المرض
والخطر . ألفه لأبي محمد الحسن بن مخلد .
منها نسخة في المتحف البريطاني .
- ٤ - كتاب في البلغم وعلة الفه لأبي الفطريف
الفصل الأول منه موجود في ميونيخ .
- ٥ - كتاب في علل الشعر ألفه لابن مخلد موجود
في المتحف البريطاني .

(١٣) دي يور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ترجمة أبو ريدة
ص ٢٤ .

- ٦ - رسالة في العمل بالكرة ذات الكرسي منها
نسخ في برلين والمتحف البريطاني وباريس .
 - ٧ - كتاب العمل بالاسطرلاب الكرسي منه نسخة
في ليدن وأخرى في طوبقوسراي باسطنبول .
 - ٨ - رسالة في الكرة الفلكية موجودة في برلين
ولندن وإياصوفيا .
 - ٩ - كتاب العمل بالكرة الفلكية موجودة في
بودليان .
 - ١٠ - كتاب البرهان على عمل حساب الخطأين منه
نسخة في المكتب الهندي .
 - ١١ - هيئة الأفلاك منه نسخة في بودليان .
 - ١٢ - رد قسطا على « ابن المنجم » في مكتبة عيسى
اسكندر الملوّف بدمشق .
 - ١٣ - كتاب الوباء في مكتبة بنكهور .
 - ١٤ - كتاب في الأدوية المسهلة في إياصوفيا .
 - ١٥ - كتاب في العياء في إياصوفيا .
 - ١٦ - كتاب في غلة طول العمر وقصره ، إياصوفيا .
 - ١٧ - كتاب في الضرس منه نسخة في إياصوفيا .
 - ١٨ - كتاب في ذكر إصلاح الأدوية المسهلة ،
إياصوفيا .
 - ١٩ - كتاب في صفة الجذري وأسبابه ، إياصوفيا .
 - ٢٠ - في الوزن والكيل منه نسخة في إياصوفيا .
- ومن كتبه المترجمة الموجودة في الوقت الحاضر

ما يلي

- ١ - كتاب الأصول لأقليدس في مكتبة أوبسالا وفي
مكتبة جامع فاتح باسطنبول .
- ٢ - كتاب المطالع لاسقلاوس . منه نسخة في
برلين وأخرى في مشهد بايران .
- ٣ - كتاب الأكر لثيودوسيوس ، منه نسخة في
برلين ، وكمبردج ولنفرد واسطنبول
وغیرها .
- ٤ - كتاب المساكن لثيودوسيوس في طبقوسراي .
- ٥ - كتاب الأيام والليالي لثيودوسيوس في برلين
واسطنبول .
- ٦ - كتاب شيل الأثقال لايرن . ليدن والقاهرة
وإياصوفيا .
- ٧ - كتاب الطلوع والغروب لأطراوقس في ليدن .
- ٨ - فهرس مصنّفات جالينوس في مدريد
واسطنبول .

بأنه « كان من أكبر فلاسفة القرن الرابع الهجري » (١٢٤) .

ولا غرو في ذلك فقد تتلمذ يحيى على الفارابي ولازمه زمنا اثناء وجوده في بغداد ، واطلع على الكثير من آرائه ومؤلفاته ، بالإضافة الى ما اطلع عليه من الكتب الاخرى التي توفرت له في بيت الحكمة عن الفلسفة والمنطق .

كان يحيى منهمكا في عمله اشد انهماك ، جم النشاط في اعمال الترجمة والتأليف ، منقطعا اليهما فكان يمضي جل اوقاته اما في الترجمة او التأليف او التصحيح والنسخ ايضا وقد تحدث ابن النديم عن يحيى ، وكان معاصرا له وذا معرفة وعلاقة قوية به ، فقال « قال لي يوما في الوراقين ، وقد عاتبته على كثرة نسخه فقال : من اي شيء تعجب في هذا الوقت ؟ من صبري ؟ قد نسخت يخطي نسختين من تفسير الطبري (١٢٥) وحملتهما الى ملسوك الاطراف » (١٢٦) وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ، ولعهدي بنفسه وانا اكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقل (١٢٧) .

ولم يقف نشاط يحيى بن عدي عند الفلسفة والمنطق حسب ، بل اشتغل بالعلوم الرياضية ايضا كما اعتبره ابن ابي اصيبعة من الاطباء وادخله في كتابه الشهير « طبقات الاطباء » (١٢٨) .

كان يحيى في وقته من اشهر المترجمين ، وقد اعاد النظر في العديد من الترجمات التي تمت قبله ، واجرى عليها التصويبات اللازمة ، كما قام بعدة ترجمات جديدة لبعض الكتب الهامة (١٢٩) .

عكف يحيى على ترجمة ومراجعة كثير من الترجمات لكتب ارسطو ، وافلاطون والاسكندر الافروديسي ، وثيوفراستوس ، وامونيوس ، وفرفوريوس واثافروديطوس وغيرهم ، فقد ترجم من كتب افلاطون كتاب النواميس ، وكتاب طيمائوس وكتاب سوفسطس وكتاب المناسبات (١٤٠) .

وعن ارسطو نقل يحيى كتاب طويقا . كما

(١٢٤) آدم متر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد عبدالهادي ابي ريدة ج ١ ص ٢٤٢ .
(١٢٥) يقصد به تفسير القرآن الكريم للطبري وهو من خيرة التفاسير .

(١٢٦) ابن النديم ص ٢٨٢ .

(١٢٧) نفس المصدر .

(١٢٨) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٢٧ .

(١٢٩) احمد شلبي : الفكر الاسلامي ص ٤٦ .

(١٤٠) ابن النديم ص ٢٨٢ .

والملاحظ ان عددا كبيرا من مؤلفات قسطا ومترجماته قد ترجمت الى لغات عديدة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر بصفة خاصة ، ومنها اللاتينية والعبرية والفرنسية والانكليزية والالمانية (١٢١) .

٥ - يحيى بن عدي التكريتي

توفي سنة ٣٦٤هـ - ٩٧٣هـ

ابو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي . ولد في تكريت وكان نصرانيا يعقوبي المذهب ، ومن اصحاب عقيدة « الطبيعة الواحدة » وهؤلاء يعتقدون ان للمسيح طبيعة واحدة . ولذلك اقر المؤتمر الذي عقده « فلافيان » بطريرك الاسكندرية في « خلقدونية » مقاومة عقيدة الطبيعة الواحدة . وكان نصارى تكريت في مقدمة الذين عاضدوا هذه العقيدة ، وتحمسوا لنشرها ، حيث اصبحت تكريت مقرا لهم ، واصبح الاسقف « ماروثا » في سنة ٦٢٩م يلقب باسم « مفران » تكريت ، وكان يرأس اثني عشر اسقفا (١٢٢) .

وبعد ان تلقى يحيى علومه الاولى في تكريت انتقل الى بغداد فاشتغل مترجما في بيت الحكمة ، وتعرف في الوقت ذاته على ابي بشرمى بن يونس - وهو من كبار مترجمي بيت الحكمة - وتتلذذ على يديه ، ثم اوصل بالفيلسوف الكبير ابي نصر الفارابي فدرس عليه المنطق والفلسفة ، ونبغ في هذين العلمين نبوغا عظيما اكسبه لقب « المنطقي » في زمانه ، حتى قال عنه ابن النديم ، وابن القفطي بانه انتهت اليه رئاسة اهل المنطق في زمانه (١٢٣) .

كان يحيى يحذق اللغتين السريانية والعربية ، ويجيد النقل عنهما ، وربما عرف اللغة اليونانية ايضا . ولكن الشيء الذي اشتهر به هو نقله عن السريانية الى العربية في بيت الحكمة . كما انه كان يقوم بتصحيح ما يقوم به غيره من مترجمات ، وذلك لسعة اطلاعه على علوم الفلسفة والمنطق . وهذا ما جعل بعض المستشرقين يعدونه في جملة الفلاسفة ومن هؤلاء المستشرق « آدم متر » صاحب كتاب « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » الذي قال عنه

(١٢١) بروكلمان تاريخ الادب العربي الجزء الرابع الصفحات

٩٨ - ١٠٢ .

(١٢٢) ديلاسي اوليري : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ص ٢٦٠ .

(١٢٣) ابن النديم ص ٢٨٢ وابن القفطي ص ٢٦١ .

ترجم تفسيرات هذا الكتاب التي وضعها كل من الاسكندر الافروديسي ، وامونيوس . ويقع هذا التفسير في الف ورقة (١٤١) .

ومن كتب ارسطو ايضا ترجم كتاب سوفسطيكا من السرياني الى العربي ، وترجم له كتاب ايوطيكا ، ونقل بعض مقالات كتاب السماع الطبيعى ، كما ترجم تفسير ثامسطيوس لكتاب ارسطو عن السماء والعالم ، واصلاح ترجمة متى بن يونس لكتاب الكون والفساد وترجم كتاب طوييكا ووضع تفسيراً له ، وترجم شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب ارسطو عن الآثار العلوية ، ومختصر نيقلولاوس لكتاب الحيوان وترجم كتاب الالهيات المعروف بالحروف كما ترجم كتاب « ما بعد الطبيعة » الذي وضعه ثاوفرسطس احد تلامذة ارسطو .

وفي مجال العلوم الرياضية وضع يحيى بن عدي عدة كتب ورسائل منها كتاب « ان القطر غير مشارك للضلع » ، وكتاب « ان العدد غير متناه » ، وكتاب « ان كل متصل ينقسم الى متصل » ، وكتاب « في استخراج العدد المنظم » وغيرها (١٤٢) .

وقد ذكر له ابن القفطي زهاء اربعين كتاباً ورسالة عدد اسماءها ، في حين ذكر له ابن ابي اصيبعة سبعة كتب ، وابن النديم ستة كتب ، وذلك بالإضافة الى ذكر الكثير من ترجماته وتفسيره لكتب جالينوس ، وارسطو ، وافلاطون وغيرهم .

وقد اشتهر عن يحيى بن عدي انه كان حسن الحظ ، وفي غاية الجودة والصحة . وقد توفي يحيى ببغداد يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة سنة ٣٦٤ هـ وكان عمره احدى وثمانين سنة ، ودفن في بيعة « مار توما » بقطيعة الدقيق في بغداد (١٤٣) .

وذكر ابن ابي اصيبعة نقلاً عن الامير بشر بن فاتك ما سمعه عن ابي الحسين المعروف بابن الامدي انه سمع من ابي علي اسحق بن زرعة - وهو من المترجمين ايضا - ان « ابا زكريا يحيى بن عدي وصى اليه ان يكتب على قبره حين حضرته الوفاة ، وهو في بيعة « مار توما » بقطيعة الدقيق هذين البيتين (١٤٤) .

(١٤١) نفس المصدر .

(١٤٢) ابن القفطي ص ٢٦٣ .

(١٤٣) ابن ابي اصيبعة ٢٢٨ .

(١٤٤) ذات المصدر .

رب ميت قد صار بالعلم حياً
ومبقي قد مات جهلاً وغياً
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً
لا تعدوا الحياة في الجهل شياً

احصى بروكلمان في كتابه تاريخ الادب العربي ما عثر عليه من نتاج يحيى بن عدي منه :

- ١ - احدى الترجمات العربية الثلاث لكتاب سوفسطيكا لارسطو في مخطوطة بياريس .
- ٢ - ترجمة المقالة الثالثة من كتاب النفس لارسطو الى العربية نقلاً عن السريانية في مكتبة مديتش .
- ٣ - كتاب تهذيب الاخلاق طبع في بيروت سنة ١٨٢٦ وفي القاهرة سنة ١٨٩١ .
- ٤ - شرح فلويونوس على كتاب الترياق لجالينوس منه نسخة في بيروت .
- ٥ - الاحتجاج للمسيحية ضد عيسى بن هارون الوراق ، بيروت .
- ٦ - فلسفة الحب الالهي .
- ٧ - تفسير مقالة ارسطو في علم ما بعد الطبيعة في مكتبة باتنه .
- ٨ - المسائل الفلسفية .
- ٩ - مقالة في الموجودات مكتبة باتنه .
- ١٠ - رسالة في الكل والجزء مكتبة باتنه (١٤٥) .

٦ - متى بن يونس

توفي سنة ٢٣٨ هـ ٨٤٩ م

نشأ ابو بشر متى بن يونس (يونان) في دير « قنى » ويقع هذا الدير على الجانب الشرقي من نهر دجلة ، وبمسافة زهاء تسعين كيلو متراً جنوبي بغداد ، وكانت في هذا الدير مدرسة تدرس فيها اللغات اليونانية والسريانية والعربية (١٤٦) .

وبمرور الزمن نشأت قرية عرفت باسم « قرية دير قنى » لان هذا الدير كان قد بنى في المائة الاولى للميلاد . وفي هذا الدير درس متى بن يونس على طائفة من العلماء والمترجمين من امثال ابي يحيى الروزي الطبيب ، وابن قوبري المترجم ، وابن كرنيب ، وروفييل ، وبنيامين (١٤٧) .

(١٤٥) بروكلمان ج ٤ ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(١٤٦) الديارات للشابشتي تحقيق كوركيس عواد الطبعة الثانية ص ٢٩٤ .

(١٤٧) ابن النديم الفهرست ص ٢٨٢ .

توفي سنة ٣٣٨ هـ ٩٢٩ م ، بينما ذكر في كتابه الآخر « كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب » ان وفاته كانت في سنة ٩٤٠ م (١٥٤) .

ترجم متى عن ارسطو كتاب ابوديطيقا وقد نقله عن اللغة السريانية الى اللغة العربية ، وكانت الترجمة السريانية من عمل اسحق بن حنين ، كما ترجم كتاب الشعر من السريانية الى العربية ، وترجم جزءا من كتاب السماء والعالم ، وبعضا من كتاب الحس والمحسوس ، وجزءا من كتاب الحروف (الالهيات) كما نقل نص كتاب البرهان .

اما الشروح التي وضعت لكتب ارسطو فقد نقل متى منها شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب الكون والفساد ، وشرح ثامسطيوس لكتاب الحكم والمواضع ، ولقسم من كتاب الحروف ، وترجم شرح امقيدوس لكتاب الكون والفساد ، وكتاب ايساغوجي لفرفوربوس ايضا .

وفضلا عن ذلك وضع متى شروحا لبعض مؤلفات ارسطو وبعض الشروح التي وضعت لها فوضع تفسيرا لكتاب انالوطيكا الاولى ، وتفسيرا لكتاب بارارميناس ، وفسر شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب قاطيفورياس ، وشرح ثامسطيوس لكتاب ابوديطيقا . وذكر ابن النديم والقفطي له كتاب المقياس الشرطية ومقدمات كتاب انالوطيكا .

احصى بروكلمان بعض مترجمات ومؤلفات متى بن يونس في كتابه تاريخ الادب العربي ومنها

١ - كتاب البرهان (انالوطيكا الثانية) لارسطو الذي نقله الى العربية عن الترجمة السريانية التي وضعها اسحق بن حنين فذكر ان نسخة من هذا الكتاب موجودة في باريس ، واخرى في رامبور ونكيور في الهند .

٢ - كتاب الشعر لارسطو توجد نسخة منه في مكتبة الاسكوريال بمدريد .

٣ - مناظرته مع ابي سعيد السيرا في موجودة في كتاب معجم الادباء لياقوت الحموي الجزء الثالث .

(١٥٤) اولري الفكر العربي ص ١٢٨
وعلم اليونان ص ٢٢٣ .

وقد انفرد ابن النديم بين المؤرخين العرب في دعواه بان متى بن يونس كان يونانيا ، في حين اكتفى غيره بقولهم انه كان نصرانيا . وقد وفد على بغداد وشارك في حركة الترجمة والنقل في عهد الخليفة الراضي بالله ، واشتهر بعلم المنطق ، والنقل من السريانية الى العربية واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره (١٤٨) .

وعرف عن متى بانه كان فصيح العبارة جيد النقل الى العربية ، ولذلك وصفه ابن القفطي بانه « عالم المنطق » شارح ، مكثر ، وطيب اللسان ، قصده التعليم والتفهم ، وعلى كتبه وشروحه اعتماد اهل هذا الشأن في عصره ومصره (١٤٩) .

والى جانب ذلك كان متى بن يونس فقيها في اللغة العربية . وقد جرت له مناظرة في هذا الشأن وفي مجلس عام مع ابي سعيد السيرا في النحوي يحضره الفضل بن الفرات (١٥٠) .

ولم يكتف متى بترجمة عدد من كتب ارسطو ، والاسكندر الافروديسي ، وثامسطيوس ، وفرفوربوس ، وغيرهم ، بل وضع تعليقات اصيلة على كتبهم وشروحهم وتفسيراتهم ، ومنها تعليقاته على مقولات ارسطو ، وعلى كتاب ايساغوجي لفرفوربوس (١٥١) وقال عنه ابن النديم انه فسر الكتب الاربعة في المنطق بأسرها ، وعليها يعمل الناس في القراءة (١٥٢) .

ولقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة متى بن يونس . فقد ذكر ابن ابي اصيبعة انه توفي ببغداد يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، في حين قال ابن القفطي ان وفاته كانت بعد سنة عشرين وثلاثمائة وقبل سنة ثلاثين (١٥٣) .

اما المستشرق الانكليزي ديلاسي اوليري فقد اورد تاريخين مختلفين لوفاة متى بن يونس . فذكر في كتابه « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » انه

(١٤٨) ابن النديم ص ٢٨٢ وابن القفطي ص ٢٢٣ ، وابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٢٧ وبروكلمان ج ٤ ص ١٢٠ .

(١٤٩) ابن القفطي ص ٢٢٢ .
(١٥٠) نفس المصدر .

(١٥١) اوليري : الفكر العربي ومكانته في التاريخ ترجمة تمام حسان ص ١٢٨ .

(١٥٢) ابن النديم ص ٢٨٢ .

(١٥٣) ابن القفطي ص ٢٢٣ .

بَغْدَادُ فِي دَوَائِلِ الْمَعَارِفِ الْعَالَمِيَّةِ

ترجمة وتعليق

سليم طه الشكري

بغداد في دائرة المعارف البريطانية(*)

بغداد اعظم مدينة في بلاد الرافدين القديمة . وهي اكبر مدينة وعاصمة للعراق الحديث ، وللمحافظة بغداد ذاتها . وتقع على نهر دجلة في القسم الاوسط الشمالي من العراق ، على بعد زهاء ثلثمائة وخمسين ميلا (خمسمائة وستون كيلومترا) شمالي الخليج العربي (١٥٥) .

ومنذ الاطاحة بالنظام الملكي في سنة ١٩٥٨ ، أصبحت العاصمة بغداد مسرحا لصراع سياسي ، حيث حاول القطر ان يجعل من نفسه دولة اشتراكية وحدوية . وقد بلغ عدد سكان المدينة في اوائل سني السبعينات اكثر من مليونين ومائة ألف نسمة (١٥٦) .

تاريخ بغداد

تقع في محافظة بغداد كثير من العواصم القديمة من امثال « اكد » وبرج عقرقوف العاصمة الكشية الواقعة الى الغرب ، وسلوقية وطيسفون

(*) دائرة المعارف البريطانية الحديثة

New Encyclopaedia Britannica

طبعت سنة ١٩٧٤ في ثلاثين مجلدا المجلد الثاني صفحة ٥٨٥ - ٥٨٧ ، ومجلد ٣ ص ٦٢٥ - ٦٢٧ .

(١٥٥) ما يزال معظم الكتاب الغربيين الى الان يطلقون على الخليج العربي ما اطلقه الاستعمار الاوربي الفاشم عليه منذ مطلع القرن الخامس عشر .

(١٥٦) اظهر الاحصاء العام الذي اجري في سنة ١٩٧٧ ان عدد سكان بغداد بلغ ثلاثة ملايين وستمائة الف نسمة . وربما ارتفع هذا العدد الى زهاء اربعة ملايين نسمة في الوقت الحاضر .

تمهيد

مما تفخر به الامم الغربية ، وتعدده مظهرها اساسيا من مظاهر حضارتها ، وازدهار العلوم والفنون فيها ، اقدام بعض هذه الامم على تدوين الموسوعات التي تضم مختلف البحوث والموضوعات التي تهتم البشرية جمعاء ، مما عرف باسم « الانسكلوبيديا Encyclopaedia واصطلح على تسميته لدى العرب باسم « دائرة المعارف » او « المعلمة » .

ومما يحز في نفوس المخلصين من ابناء العروبة والاسلام ، ان نجد الامة العربية ذات التاريخ المجيد ومن ورائها العالم الاسلامي برمته ، ما تزال متخلقة حتى الان عن هذا المضمار ، على الرغم من توفر الامكانات المادية والادبية للنهوض بمثل هذا العمل المفيد .

ومما يزيد النفس ايلاما ان تعجز الحكومات العربية والمؤسسات العلمية فيها حتى عن ترجمة واحدة من هذه « المعلمات » ترجمة كاملة فلقد انبرى بعض من الشباب المصري في سنة ١٩٣٣ لترجمة « دائرة المعارف الاسلامية » وهي من اشهر هذه الموسوعات ، لكنهم لم يكملوا - مع الاسف - هذا العمل الجليل ، ووقفوا عند حلد الاجزاء القليلة التي اصدروها من هذه الترجمة ، ونفضوا ايديهم من المشروع نهائيا .

ولما كانت « المورد » قد خصصت هذا العدد للتحدث عن « بغداد » فقد آثرنا ان ننقل ما ورد عن هذه المدينة العظيمة فيما تيسر لنا الاطلاع عليه من دوائر المعارف هذه ، واجراء بعض التعليقات والتصويبات الضرورية لذلك .

تلك الفترة ، كما ورد ذلك في قصص الف ليلة وليلة .

اعقبت وفاة هرون الرشيد قيام حرب اهلية بين ولديه ، خربت خلالها المدينة المدورة تخريبا فظيعا ، لم تقم لها قائمة بعدها . وفي الفترة بين سنتي ٨٣٦ و ٨٩٢م هجر الخلفاء مدينة بغداد لان حرسهم الخاص من الاتراك اصبح مقبلا ، فانتقلوا الى عاصمة جديدة هي « سامراء » (١٥٨) . وما لبثوا ان اقاموا ، بعد عودتهم الى بغداد في نهاية القرن التاسع الميلادي ، في « المخرم » على الضفة الشرقية من دجلة .

وفي سنة ١٠٩٥م تم انشاء سور جديد حول بغداد وقد بقي هذا السور مع كثير من المستودعات فيه قائما حتى القرن التاسع عشر حين اصابه التخريب على نطاق واسع . ولقد نسف احد البابين الباقيين من ابواب ذلك السور ، وهو « باب الطلسم » عند انسحاب الاتراك من بغداد سنة ١٩١٧ اما الباب الثاني ، وهو « الباب الوسطاني » فما يزال قائما وقد اعيد ترميمه واتخذ متحفا للأسلحة .

وعلى الرغم من انحطاط سلطة الخلفاء الآخرين بقيت بغداد مركزا عظيما للتجارة والثقافة ، ما دام الرخاء الزراعي متواصلا في العراق . وجاء سقوطها الحقيقي عندما اجتاحت « هولوكو » المغولي بلاد الرافدين ، واستولى على بغداد سنة ١٢٥٨م ، وقتل الخليفة « المعتصم » مع ثمانمائة الف من سكان المدينة ذاتها ، كما ذكر ذلك .

نجم عن القضاء على الحكومة العباسية ، انتقال السلطة التي استطاعت ان تحافظ على صيانة نظام الري ، وحماية الاراضي المزروعة من القبائل البدوية المغيرة . واذا ذهبت الاهمية السياسية لمدينة بغداد ، هبط عدد سكانها الى حد العشر ، فلم تنهض بعد ذلك ، ولم تبلغ اكثر من مرتبة مدينة اقليمية ، الى ان ظهر العراق كدولة مستقلة بعد الحرب العالمية الاولى . لقد ظلت بغداد تخضع لسلطة « الخانات » الذين اعقبوا هولوكو في الحكم حتى سنة ١٣٠٤م ، حين حققت الاستقلال المحلي

(١٥٨) تؤكد الشواهد التاريخية والاثنية القديمة ان سامراء كانت مستوطنة حضارية قبل فجر التاريخ وانها كانت معروفة باسم سامارا Samara حتى في العهود الاكدية والبابلية والاشورية . انظر كتابنا مع الدكتور عيسى سلمان عن سومر الذي ترجمناه عن الاناري الفرنسي اندريه بارو والذي صدر مؤخرا .

اللتين تقعان على بعد حوالي عشرين ميلا الى الجنوب . وفي سنة ٧٥٠م قامت الخلافة في العراق وذلك بانشاء السلالة العباسية الحاكمة على يد « ابي العباس السفاح » . وفي سنة ٧٦٢م قرر خلفه واخوه ابو جعفر الذي اشتهر باسم المنصور ، ان يبني لنفسه عاصمة جديدة في موقع قصرية ساسانية قديمة ، هي مدينة بغداد (١٥٧) .

وقد سميت مدينة المنصور « المدورة » باسم مدينة السلام ، وكانت تقوم على الضفة الغربية من نهر دجلة ، غير انه لم تبق اية اثار من هذه المدينة ، وغدا موقعها الصحيح غير معروف .

كان قطر المدينة المدورة ثلاثة الاف ياردة (٢٧٠٠ متر) . وكان لها ثلاثة اسوار موحدة المركز ، لكل واحد منها اربعة ابواب ، تمر خلالها طرقات تبدأ من قصر الخلافة في وسط المدينة ، وتتجه نحو الاطراف الاربعة للامبراطورية العباسية ولم يسمح باقامة الاسواق داخل المدينة المدورة ، وقد نشأ حي التجار « الكرخ » خارج باب البصرة .

ومن الباب الشرقي الشمالي يمر طريق خراسان عبر نهر دجلة فوق جسر عائم . وخلف هذا الطريق ، وعلى الضفة الشرقية من النهر ، كان يقوم قصر « المهدي » الذي خلف المنصور في الحكم ، وقد قامت وتعاظمت حوله الضواحي الثلاث وهي « الرصافة » و « الشمامسية » و « المخرم » وهي اقدم المستوطنات السابقة لمدينة بغداد الحديثة .

ولقد بلغت بغداد ذروة رخائها في القرن الثامن واوائل القرن التاسع الميلادي . وذلك في عهد الخليفة هرون الرشيد بن المهدي ، الذي جمع في عاصمته الثروات وعلوم العالم المعروف آنذاك . وقد وردت حكايات كثيرة تحدثت عن مجد بغداد في

(١٥٧) كشفت التنقيبات الاثرية في السنوات الاخيرة عن شواهد تؤكد ان بغداد كانت معروفة بهذا الاسم وفي موضعها الحالي منذ العصر البابلي وربما قبله . فقد اشارت احدى الوثائق من عصر حمورابي (سنة ١٨٠٠ ق . م) الى مدينة بغداد وهذا يشير الى ان الاسم كان مستعملا قبل عصر حمورابي وعلى وجه التحديد قبل اي نفوذ فارسي محتمل .

كما عثر على حجر حدود من عهد الملك البابلي مردوك - ابال - ابدن (١٢٠٨ - ١١٩٥ ق . م) يشير الى مدينة بغداد وعثر على حجر من احجار « ادنيراي الثاني الاشوري ٩١١ - ٨٩٢ ق . م » ذكر فيه اسم « بغدادو » كما ذكر الملك الاشوري ايضا « تفلان بلسر الثالث ٧٤٥ - ٧٢٧ ق . م » اسم بغداد في بعض مدوناته (دائرة معارف الاسلام طبعت ١٩٦٠ المجلد الاول ص ٨٩٤ النص الانكليزي)

في عهد « الجلأريين » الذين حاولوا استعادة رعاياها .

في سنة ١٤٠١م تعرضت بغداد لآخر موجة اجتاحتها من الغزاة المغول تحت امرة «تيمورلنك» وفي سنة ١٤١٠م سقطت تحت حكم « قره قوينلو » أي «الاغنام السوداء» ، وهم من «التركمان» الذين افسحوا الطريق في سنة ١٤٦٩م امام «آق قوينلو» أي « الاغنام البيض » .

ولقد اخرج هؤلاء « آق قوينلو » في سنة ١٥٠٨م من بغداد على يد الشاه اسماعيل الصفوي . وفي سنة ١٥٣٤م استولى العثمانيون على بغداد لأول مرة في عهد السلطان سليمان الفاتح وما لبث الشاه عباس الفارسي ان استعادها تحت حكمه في سنة ١٦٢٣م لكن اعيدت تحت حكم الاتراك على يد السلطان مراد الرابع في سنة ١٦٣٨م .

كان هذا التبدل المستمر في ولاء بغداد يعود ، في ناحية منه ، الى موقعها الجغرافي ، ووقوعها بين امبراطوريتين عظيمتين ، كما يعود ، من ناحية ثانية ، الى الخلاف بين ابنائها .

وفي اثناء القرن السابع عشر الميلادي ، لم يعمل الحكام الاتراك الذين كانوا يتعاقبون بسرعة ، سوى الشيء الضئيل لاستعادة الرخاء في بغداد . على ان بداية القرن الثامن عشر ، شهدت تعيين حاكمين « واليين » متعاقبين ، هما حسن باشا وولده احمد باشا (١٥٩٠) اللذين اصلحا ادارة الحكومة وذلك عن طريق ادخال طبقة من الموظفين من الارقاء القوقاز المدنيين والعسكريين ، الذين عرفوا باسم « الممالك » ، الذين رفعوا من منزلة العاصمة بغداد ، فاستطاعت ان تسيطر على كل بلاد الرافدين من البصرة الى ماردين ، ومن دون ان يدينوا الا بولاء شكلي لاسطنبول .

ولقد اعقبت هؤلاء طائفة من الحكام الممالك الى ان تم الغاء حكم الممالك على يد السلطان محمود الثاني في سنة ١٨٣١م . وفي عهد الحكم المملوكي أصبح النفوذ الاجنبي ، وعلى الاخص النفوذ البريطاني ، ملحوظا بصفة اكثر في بغداد ، فقد انشئت في المدينة مقيمة بريطانية في سنة ١٧٩٨م . وفي سنة ١٨٠٢م منح المقيم البريطاني في بغداد رتبة قنصل .

(١٥٩) الصواب اواخر القرن السابع عشر حيث حكم حسن باشا خلال الفترة (١٦٨٩ - ١٦٩٠ م) وحكم احمد باشا في الفترة مابين سنتي ١٦٩٣ - ١٦٩٥ م .

ولقد كانت منزلة المقيم البريطاني في بغداد تأتي في الدرجة الثانية بعد الوالي ، وذلك في عهد المقيم « كلوديوس جيمس ريج » (١٨٠٨-١٨٢١ م) وعهد المقيم « رولنسون » (١٨٤٣-١٨٥٥م) (١٦٠) .

استولت القوات البريطانية على بغداد سنة ١٩١٧/١١ ، ثم اصبحت عاصمة لمملكة العراق المستقلة سنة ١٩٢١ .

ولقد كانت المدينة مهدا لثورة عارمة اثارها الشعور المعادي للانكليزي في سنة ١٩٤٢/١٢٢) . وبعد انقلابات متعاقبة ، قام الجيش بانقلاب في سنة ١٩٥٨ تم به القضاء على الملكية . وحدثت ثورة اخرى في بغداد سنة ١٩٦٣/١٢٢) جاءت بحزب البعث الى الحكم لكنه لم يدم فيه سوى فترة قصيرة ، ومن ثم استعاد البعثيون الحكم في سنة ١٩٦٨ .

بغداد المعاصرة

موقع المدينة ومخططها

يكون موقع مدينة بغداد على نهر دجلة ، في اقرب نقطة تفصل بين دجلة والفرات ، وهي لا تزيد عن خمسة وعشرين ميلا . وعلى مسافة ستة وعشرين ميلا يلتقي نهر دجلة باكبر رافد له هو نهر ديالى وتقع المدينة في سهل مستو يرتفع بمقدار مائة واثني عشر قدما (اربعة وثلاثون مترا) عن مستوى البحر .

كانت المدينة قد بنيت في الاصل على الضفة الغربية من نهر دجلة . ولكن في خلال اكثر من الف سنة اصبح القسم الاعظم منها يقع على الضفة الشرقية من النهر . ومع ذلك توجد ضاحية واسعة متعاطمة في الجانب الغربي ، تضم « الكرخ » و « كراة مريم » و « المنصور » . وترتبط الضفة

(١٦٠) اكملنا ترجمة رحلة « ريج » الشهيرة المعنونة « حديث القامة في كردستان سنة ١٨٢٠ » بجزيئها وعلقنا عليها تعليقات وتصويبات ضافية وهي معدة للطبع الآن . اما « رولنسون » فهو الى جانب قيامه بوظيفة المقيم البريطاني في بغداد ، كان من اشهر علماء الاسار في ذلك الوقت ولقد قام باكتشافات عديدة في كل من نينوى ، وتلو ، وغيرها .

(١٦١) وقع الاحتلال البريطاني لمدينة بغداد في الحادي عشر من شهر اذار سنة ١٩١٧ .

(١٦٢) اخطأ الكاتب في تحديد التاريخ فالصواب هو سنة ١٩٤١ التي قامت في الشهر الخامس منها ثورة ايار المجيدة .

(١٦٣) يقصد بها ثورة الثامن من شباط ١٩٦٣ .

الشرقية مع هذه الضواحي بجسور ، يمتد فوق واحد منها خط حديدي .

وهناك جسر آخر يصل الى الكاظمية شمالي الكرخ ، وهي عبارة عن بلدة شهيرة اتسعت وتعاظمت حول قبري « موسى الكاظم » و « محمد الجواد » الامامين السابع والتاسع المنحدرين من نسل الرسول . ومع ان التمييز بين منطقة المدينة القديمة وحاضرها يبدو غير دقيق ، فان المنطقة الاولى تبلغ زهاء اربعة عشر ميلا مربعا ، والثانية خمسة وسبعون ميلا مربعا .

المنساج

تكون اشهر الصيف (من شهر ايار الى شهر تشرين الاول) جافة ، وشديد الحر . ذلك ان المعدل اليومي لدرجة الحرارة خلال شهري تموز وآب ، يصل الى حد ثمانين درجة فهرنهايت (سبع وعشرون درجة مئوية) قبل غروب الشمس ، ومن مائة وخمسة درجات فهرنهايت الى مائة وعشمر درجات فهرنهايت (من احدى واربعين الى ثلاث واربعين درجة مئوية) وذلك في منتصف النهار ، غير انها ما تلبث ان تهبط الى ما دون ست وسبعين درجة فهرنهايت (اربع وعشرون درجة مئوية) اثناء الليل .

وتكون ايام الشتاء اكثر بردا ، اذ ان معدل درجة الحرارة فيها يكون حوالي خمس وخمسين درجة فهرنهايت (ثلاث عشرة درجة مئوية) .

ويؤدي هبوب الرياح الشمالية الغربية الجافة الشاملة والمعروفة باسم « رياح الشمال » الى التخلص من شدة الحر ، لكنها تثير الزوايع الترابية ايضا ، وعلى الاخص في شهر تموز ويكون معدل سقوط الامطار في حدود خمس بوصات (مائة وثلاثون ملمترا) في السنة .

بغداد وما جاورها

تم استبدال الدور والحوانيت المزدحمة في المدينة القديمة ، والتي لم تكن لمعظمها اية اهمية اثرية ، وكذلك الازقة والممرات الضيقة ، بشوارع عريضة ، ودوائر ، ومخازن ، وفنادق حديثة ، وهكذا اخذ مظهر المدينة القديمة يتغير تدريجيا خلال سني السبعينيات ولقد بقيت اسواق النحاس والفضة ، والملابس وغيرها على حالتها ، كما بقيت كثير من المساكن والمقاهي والجوامع والمساجد القديمة المميزة ، على ما كانت عليه قبلا .

فعلى الجانب الغربي من النهر تقوم بنائية البرلمان ، وكذلك السفارات الاجنبية في العاصمة (١٦٤) . واصبح للضواحي الرئيسة في هذا الجانب من امثال الكرخ ، وكرادة مريم ، والمنصور (١٦٥) اسواقها وحوانيتها الخاصة بها . كما قامت الانحاء السكنية وحدائقها على ضفتي النهر .

وقد ادى انجاز سد سامراء في سنة ١٩٥٦ الى انقاذ مدينة بغداد من خطر الفيضانات المدمرة . والتي كانت تسبب الدمار الشديد في كثير من المناسبات خلال التاريخ . كذلك ادت السيطرة على الفيضان الى اتساع المدينة فاصبح مخططها الجديد دائري الشكل ، يشمل كلا الجانبين من النهر .

وسائط النقل

تتألف وسائط النقل داخل بغداد من سيارات الاجرة و « الباصات » وقد ازدادت وسائط النقل الالية زيادة حادة منذ سنة ١٩٥٠ فالمدينة التي توسعت عند ملتقى طرق التجارة القديمة الالية من ايران وبلدان الشرق الاقصى عبر وادي نهر ديبالى الى بغداد ، وعبر وادي نهر الفرات نحو سوريا والبحر الابيض المتوسط ، او عبر وادي دجلة الى ارمينيا والبحر الاسود ، هذه المدينة ما تزال مركزا للمواصلات عبر هذه المناطق .

ولقد وضعت خلال القرن التاسع عشر عدة مشاريع لتحسين المواصلات مع بغداد . فقد اجري مسح كامل لحوض نهر الفرات ، وللقسم الادنى من حوض نهر دجلة في سنة ١٨٣٦ . وفي سنة ١٨٦٠ تم تأسيس مصلحة بواخر اعتيادية في نهر دجلة بين بغداد والبصرة . وفي اواسط القرن الحالي تدنت اهمية النقل بالنهر ، وان بقيت في سني السبعينات بعض وسائل النقل العاملة في نهر دجلة بين بغداد والبصرة (١٦٦) .

(١٦٤) كانت معظم السفارات الاجنبية تحتشد في منطقة كرادة مريم بصفة خاصة منذ اواخر سني الخمسينات واول سني الستينات لكن هذه السفارات انتقلت الان الى اماكن اخرى في الجانبين الغربي والشرقي من بغداد .

(١٦٥) مع ان الكرخ كانت من ضواحي بغداد عند انشائها على يد المنصور ، الا ان الكرخ كان يقصد به على الدوام الجانب الغربي كله من بغداد .

(١٦٦) تقتصر هذه الوسائط في الوقت الحاضر على بعض الزوارق البخارية التي تنقل الحمولات ، في حين بقيت بعض السفن الصغيرة التي كانت تنقل الركاب في دجلة بين بغداد والبصرة حتى اواخر سني العشرينات .

الاسكان والعمارة

ادى الانفجار السكاني في بغداد ، كما هو الامر في بقية المدن الاخرى التي تتعاظم بسرعة ، الى حدوث نقص في بناء بيوت السكن . ولم تعد مشاريع بناء المساكن تتماشى مع الحاجة الى توفير السكن . فضلا عن ذلك فان المشاريع السكنية واسعة النطاق ، من امثال توسيع واستقامة الشوارع ، وانشاء الدوائر الكبيرة والمتوسطة ، واقامة المنشآت التجارية ، لم تؤد الى نقص عدد المساكن في بعض المناطق حسب ، بل انها اجتذبت ايضا عددا كبيرا من العمال الذين كانوا يبحثون عن العمل .

وكان من حسن الحظ ان سمحت السيطرة على الفيضان بحدوث التوسع في المدينة .

يتراوح فن العمارة في بغداد بين البيوت والازقة الشرقية القديمة ، والبيوت والفنادق والمستشفيات الحديثة التي تبني بالحديد والزجاج والحجر . وهناك امثلة من فن العمارة في القرن الثالث عشر الميلادي ما تزال باقية من العصر العباسي ، وهي تشتمل على « القصر العباسي » و « المستنصرية » وهي كلية كبيرة للفقه شيدها وانفق عليها الخليفة المستنصر بالله سنة ١٢٣٢م ، وقد اعيد استخدام هاتين البنائتين بمثابة متحف .

وهناك مجموعة اخرى شهيرة من الابنية باقية من القرن الرابع عشر تشتمل على جامع وكلية شيديا على يد « مرجان بن عبدالله » حاكم بغداد الجلثري في سنة ١٣٥٨م ، بالإضافة الى خان جميل معقود (كروان صاري او نزل) يستعمل الان متحفا للآثار العربية .

اما الجوامع والمساجد التي تزيد على مائة ، ومن بينها القباب المذهبة في الكاظمية ، والتي كمل بناؤها في القرن التاسع عشر ، فانها تضيف المزيد من الاهمية العمرانية للمدينة .

وتشتمل المباني الحديثة على البلاط الملكي للملك فيصل الاول مؤسس الملكية (١٩١٨) و « القصر الابيض » (مقر ضيوف الحكومة) وقاعة المدينة (١٩٦٩) وبنية وزارة الدفاع ، والبلاط الملكي

تلتقي طرق السكك الحديدية الكبرى الثلاثة التي تمتلكها الدولة وتديرها في مدينة بغداد . فهناك خط يسير شمالا الى الموصل . وحتى سنة ١٩٤٠ لم تكن العاصمة قد ارتبطت نهائيا باوروبا ، عن طريق القطار ، وذلك عندما كمل مد سكة حديد بغداد عبر الاراضي السورية الى اسطنبول (١٩٦٧) .

وهناك خط ثان يربط بغداد مع البصرة ، وخط اخر يربطها مع الانحاء الشمالية الشرقية الى اربيل عبر مدينة كركوك .

وقد تأسست مصلحة نقل منتظمة بالسيارات بين بغداد ودمشق في سنة ١٩٢٣ ، اما في النصف الثاني من القرن الحالي فقد اصبحت المدينة تحتفظ بطرق خارجية تتعقب الطرق التقليدية ، وتربطها بكل المدن الرئيسية في العراق . وغدت سيارات النقل المجهزة بالات تكييف الهواء تجلب الكثيرين من الزوار الاجانب .

وافتح خط لنقل البريد بين القاهرة وبغداد في سنة ١٩٢١ ، واعقبه خط لنقل المسافرين بينهما في سنة ١٩٢٩ . واصبح للمدينة مطاران مديان ، وقد كمل بناء مطارها الدولي في سنة ١٩٧٠ .

احصائيات السكان

بلغ عدد سكان مدينة بغداد في سنة ١٩٧٠ اكثر من مليونين ومائة الف نسمة ، وذلك بالمقارنة مع مليون وستمائة الف نسمة في سنة ١٩٦٥ .

ولقد ادى هذا النمو السريع في المدينة الى نقص عدد المساكن التي تفي بحاجة القادمين الجدد ، على الرغم من انخفاض كلفة المشروعات العامة ، والاعلبية الساحقة من سكان المدينة هم من العرب وهناك عناصر اقلية تشمل الاكراد ، والاسر ، والافغانيين ، والارمن ، واليرانيين ، والصائبة ، وغيرهم .

واللغة الرئيسية في المدينة هي اللغة العربية ، وهي اللغة الرسمية في العراق . والدين الاساس هو الاسلام . وهناك عدد واسع من المسيحيين . اما اكثرية افراد العائلة اليهودية السابقة فقد هاجروا الى بلدان اخرى .

(١٩٧٠) كان خط سكة الحديد بين بغداد والموصل ينتهي عند قرية بيجي (فضاء بيجي الان) وقد بوشر بايصال الخط الى الموصل ابتداء من سنة ١٩٣٦ وحين كمل انشاء هذا الخط في اواخر سنة ١٩٣٩ ثم ربطه بالخط الحديدي الذي يربط سوريا مع تركيا واوروبا .

(١٩٦٨) نقض البلاط الملكي القديم في سنة ١٩٧٢ .
(١٩٦٩) عرفت باسم قاعة الملك فيصل في العهد الملكي ، وقد استبدلت باسم قاعة الشعب منذ ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ .

(القصر الجمهوري) ، وبنائات جامعة الحكمة في
الزغرافية ، والمتحف العراقي الحديث (١٧٠) .

الحياة الاقتصادية

ازدادت عائدات العراق من النفط بعد الحرب
العالمية الثانية زيادة كبيرة جدا وقد انعكست الثروة
التي اصابتها البلاد في وفرة رأس المال ، فشرع
التجار يهتمون بالاستيراد والتوزيع ، كما اخذوا
يهتمون - ولو على نطاق ضيق لكنه متعاظم - في
انشاء صناعات السلع الرأسمالية والاستهلاكية .

وتتركز معظم الصناعات العراقية في بغداد .
وهي تشمل صناعة الجلود والاقمشة الحريرية
والقطنية ، والاجر ، والسمنت ، ومنتجات التبوغ،
وتقطير المواد الكحولية من التمور والاعناب . وهناك
معامل لسبك الحديد ومصنع للفولاذ (١٧١) .

كذلك تركزت الخدمات الحالية هي الاخرى
في العاصمة ايضا ، وهي تضم المصرف المركزي في
العراق والذي له وحده حق اصدار العملة .

الحكومة والخدمات

يدير المدينة امين العاصمة وهو عسكري (١٧٢)
كما ان للمحافظة محافظ . ويقوم في بغداد مقر
الحكومة القومية ومركز مؤسساتها الرئيسية
وفروعها .

ولقد اتسعت تسهيلات التعليم بعد الثورة
اتساعا سريعا جدا ، وتم انجاز التعليم الجامعي
الاجباري في بغداد تقريبا ، واصبح التعليم العالي
مجانيا ، وهو متوفر في جامعة بغداد التي تأسست
في سنة ١٩٥٨ . وتوجد في بغداد جامعة الحكمة
التي تأسست سنة ١٩٥٦ ، وجامعة المستنصرية
التي انشئت في سنة ١٩٦٣ ، واربع كليات من بينها
المعهد التقني العالي الذي انشئ في سنة ١٩٦٠ ،
ومعهد الفنون الجميلة الذي اسس سنة ١٩٣٦ .

وكانت بغداد اول من استفاد من مشروع
توفير السكن للفقراء ، ومن التوسع في الخدمات

(١٧٠) امنت جامعة الحكمة التي تملكها وتديرها طائفة من
البشرى الامريكان في سنة ١٩٧٢ فاصبحت الان مقرا لمعهد
التكنولوجيا .

(١٧١) لا توجد معامل للسبك الحديد سوى معامل التصليح وصنع
الموارض الكونكريتية في الشالجية . اما معمل الصلب
فيجري العمل في انشائه الان .

(١٧٢) استبدل امين العاصمة العسكري في اوائل هذه السنة
بامين مدني .

والتسهيلات الصحية والاجتماعية ، بما في ذلك
انشاء المستشفيات والعيادات الطبية الحديثة .
اما مشاريع القوة الكهربائية ، وتوفير اسالة الماء في
المدينة ، فانها ملك للدولة ، وتدار من قبلها مباشرة .

الحياة الثقافية

يستدل من تاريخ المدينة ، ومن كثرة الجوامع
والمساجد فيها ، ان الكثير من نواحي الحياة
الثقافية فيها كانت متركزة لدى الطوائف الدينية .

فمرقد الامامين ومسجد الكاظمية السدي
يضمهما ، من اهم الاماكن التي يقصدها الزوار .
وتشتمل المكتبات الموجودة في بغداد على مكتبة
الاقواف التي تأسست سنة ١٩٢٩ ، وهي تضم
مجموعة من كتب التاريخ والاداب العربية . وتعتبر
المكتبة المركزية التابعة لجامعة بغداد ، والتي
تأسست سنة ١٩٦٠ ، مستودعا للمطبوعات
العراقية وتستخدم بمثابة مركز للتبادل
الدولي (١٧٣) .

وهناك معاهد ثقافية اخرى منها متحف القصر
العباسي ، ومتحف الاسلحة الذي انشئ في سنة
١٩٤٠ ، ومتحف الازياء الذي افتتح في سنة ١٩٤١ .
اما المتحف العراقي الذي تأسس في سنة ١٩٢٣ فقد
جدد في سنة ١٩٦٦ ، ومتحف التاريخ الطبيعي
الذي انشئ في سنة ١٩٤٦ ، والمتحف الوطني
للفن الحديث المؤسس سنة ١٩٦٣ ، ومتحف الآثار
العربية الذي انشئ سنة ١٩٣٧ وهناك ايضا عدد
من الجمعيات المروقة في العلوم والفنون .

وسائل التبادل

كانت توجد في بغداد خلال سني السبعينات
اكثر من ست صحف يومية . وكانت جريدة
« الزمان » تعتبر اكثرها اهمية بصفة عامة (١٧٤) .

(١٧٣) نسي الكاتب المكتبة الوطنية التي تأسست سنة ١٩٢٥
وهي من اهم المكتبات العامة واقدمها في العراق . كما نسي
الكاتب ان يشير ايضا الى مكتبة الآثار العامة التي نقلت
مجاميع الصحف والمجلات منها مؤخرا الى المكتبة الوطنية
ولم يذكر المجمع العلمي العراقي ومكتبته ، وغير ذلك من
المكتبات الملحقة بالكليات والمعاهد وغيرها .

(١٧٤) هذا خلف فاضح ومشين من كاتب المقال . ذلك ان جريدة
« الزمان » قد عطلت منذ صبيحة اليوم الثامن من شباط
سنة ١٩٦٣ ولم يسمح لها بالصدور بعد ذلك ابدا . اما الصحف
التي صدرت خلال سني السبعينات الحالية فهي الثورة
والجمهورية ، والتاخي ، وطريق الشعب ، والعراق .

منظمة التنمية الاقتصادية للشرق الاوسط

E. E. D. M. O.

بغداد في اوج ازدهار الامبراطورية العباسية

بلغت بغداد اوج ازدهارها في عصر الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) فاذا كانت اية خلافة تستحق بان توصف بانها العصر الذهبي للمدينة العربية ، فان تلك هي خلافة المأمون .

فلقد قام المأمون الذي اُتسم بالشجاعة بعدة حملات ضد البيزنطيين ، وقضى على الثورات التي حدثت في مصر ، وسوريا وارمينيا ، وخراسان ، على ان انتصار المأمون على اخيه الامين كان ينظر اليه دوماً بأنه انتصار فارسي موجه ضد المصالح العربية التي كان يمثلها اخوه الخليفة المنذر ، وهذا الاعتقاد مصيب على نطاق واسع . ذلك لان المأمون جلب معه الجيوش الفارسية ، والوزراء الفرس ، وافسح المجال امام الاتجاهات الفارسية ، في التطبيق الاداري التي كانت مستترة اثناء الحكم السابق ففقدت الان ظاهرة بشكل متشدد كذلك كان المأمون صاحب ذهنية وقادة استفاد من الخلافات القائمة بين اصحاب العقائد ، فقد انشأ المراصد وشجع دراسة علم الفلك والهندسة ، كما أسس « بيت الحكمة » في بغداد ، وكرسه لترجمة المؤلفات العلمية والفلسفية عن الاصل اليوناني .

ويبدو ان المأمون كان يحمل في ذهنه تصميمًا عظيمًا لصورة اسلامية موحدة ، تراب الصدع العميق بين المسلمين . فبمثل هذه الطريقة يمكن ضمان الوحدة السياسية للخلافة ، وتحقيق السلام الداخلي والرخاء . وقد ادى عطفه على المفكرين من جماعة « المعتزلة » الذين كانوا يركزون الدفاع عن الاسلام بالجدل العقلاني ضد الهرطقة والكفر ، الى تقارب قوي من الشيعة الذين كانوا يشاركون المعتزلة في بعض مواقفهم .

وطبقا لذلك تميز القسم الاوسط من عهد المأمون باختياره الامام « على الرضا » ورثا له وذلك في سنة ٨١٧ م . لكن حدث ان مات الامام بعد ذلك بوقت قصير . ولا يعني هذا بالضرورة ان المأمون كان يخطط بصفة دائمة لتحويل الحكم الى العلويين ، لكنه ربما كان يعتزم ان يوسع قاعدة الترشيح امام القادرين من المرشحين العباسيين والعلويين الذين قد ينجحون في ذلك طبقا المواهب الشخصية . ولقد جرت مثل هذه المحاولة من قبل خلفاء عباسيين آخرين خلال القرن

وبالاضافة الى هذه توجد صحف اسبوعية سياسية ودوريات فنية ، ونشرات حكومية عن شؤون التعليم والموضوعات الاخرى .

واللغة الانكليزية من اوسع اللغات الاجنبية الشائعة . وكانت الصحف والمجلات البريطانية والامريكية مقروءة في العاصمة .

اصبحت الاذاعة والتلفزيون ملكا للحكومة منذ سنة ١٩٦٧ (١٧٥) واذاعة بغداد هي اذاعة الاممة الوحيدة ، وهي تذيع بعدة لغات في كل انحاء القطر . اما محطة تلفزيون بغداد - وهي اول محطة من نوعها انشئت في أي بلد عربي - فانها قد بدأت البث في سنة ١٩٥٦ .

ما تزال المصادر الحديثة عن بغداد متفرقة ، رغم وجود عدد من المؤلفات التي تشمل تاريخ المدينة من امثال كتاب « لي سترانج » المعنون « بغداد اثناء الخلافة العباسية من المصادر العربية والفارسية » الذي صدر لأول مرة سنة ١٩٠٠ ثم اعيد طبعه سنة ١٩٢٤ (١٧٦) وكتابي « سستيفن همسلي لونغرينغ » وهما « اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » و « العراق من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ » (١٧٧) وكتاب « نابيا ابوت » المعنون « ملكتان في بغداد » عن ام الرشيد وزوجته (١٧٨) ، وكتاب طه باقر عن بغداد (١٧٩) .

اما تاريخ المواصلات فيتمثل في كتاب « ميتيل ريبكا جابمان » المعنون بريطانيا العظمى وسكة حديد بغداد ١٨٨٨ - ١٩١٤ الصادر في سنة ١٩٤٨ ، وكتاب « روبرت . م . ادمز » المعنون « ارض فيما وراء بغداد » هو دراسة فنية تتركز حول الاتجاهات المتغيرة في شؤون الري ، والزراعة ، والمستوطنات المدنية . وهناك معلومات قيمة عن بغداد وردت في كتاب « فرياستارك » الموسوم « صور من بغداد » والصادر في سنة ١٩٣٧ .

(١٧٥) هذا قول خاطيء لان الاذاعة منذ ان انشئت في سنة ١٩٣٦ كانت ملكا للحكومة ، ومثل ذلك حصل لمحطة التلفزيون ايضا (١٧٦) ترجمة الاستاذ بشير فرنسيس ونشره في سنة ١٩٣٦ . (١٧٧) ترجم الاستاذ جعفر خياط كتاب اربعة قرون وطبع اربع طبعات اخرها في سنة ١٩٧٤ اما الكتاب الثاني من مؤلفي لونغرينغ فلم يترجم حتى الان . (١٧٨) ترجم السيد عمر ابو النمر هذا الكتاب ونشره في بيروت سنة ١٩٦٦ . (١٧٩) كتيب صغير اصدرته مديرية الانار العامة .

التاسع ، وعلى الاخص على يد كل من « المنتصر » و « المعتضد » .

مدرسة بغداد للتصوير

تعتبر هذه المدرسة ، على اوسع احتمال ، اول مدرسة تعنى بتصوير المنمنمات الاسلامية . وقد تأسست هذه المدرسة في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي (ولو ان اقدم النتائج الفنية الباقية لا يمكن ان يعزى تاريخها الى ما قبل القرن الثالث عشر) .

لقد انشئت المدرسة اول الامر في عهد الحكام الاتابكيين ، وهم الاوصياء المحليون الذين استولوا على الحكم بعد سقوط حكم الاتراك السلجوقيين في منتصف القرن الثاني عشر . وبقيت هذه المدرسة قائمة حتى بعد تدمير بغداد على ايدي المغول سنة ١٢٥٨م ، واستمرت موجودة الى حدود سنة ١٣٠٠م .

ولقد اظهرت مدرسة بغداد هذه مقاومة واستقلالا مدهشين ، وبقيت متحررة من التأثيرات المغولية ، والسلجوقية التي تغلغت في معظم الاساليب المحلية للتصوير . كانت المميزات الشهيرة لفن مدرسة بغداد تتمثل في تصوير الوجوه الفردية المعبرة بدلا من الانماط الظاهرية ، وذلك بالتعبير عن الحركة ، والاهتمام بتفاصيل الحياة اليومية .

من الامثلة الاولى لمنمنات مدرسة بغداد ، هي الصور التي رسمت لترجمة عربية من كتاب « دسقوريدس » المعنون « الاقرباذين » (١٨٠) المؤرخة بسنة ١٢٢٤م . وهذه المخطوطة موزعة الان في جملة من الجامعات الخاصة والمتاحف . فهناك رسم محفوظ في معرض « فريز » بمدينة « واشنطن » يصور احد اطباء اليونانيين وهو يفسر وصفة طبية لاحد الكتب . فهذا الرسم يكشف عن عناصر تقليدية لمدرسة بغداد ، تلك العناصر التي تتميز بالالوان القوية ، والاحساس الحسن المتطور للتصميم ومظاهر الوجه المعبرة .

ومع ان صور الاشخاص قد رسمت بشكل

De Materia Medica (١٨٠)

مادة تستعمل في تركيب الادوية وهذا الكتاب من وضع احد علماء النبات والطب لدى الاغريق . وقد اهتم العلماء العرب به اهتماما كبيرا وترجم عدة مرات الى اللغة العربية [انظر كتابنا فن التصوير عند العرب الذي ترجمناه بالاشتراك مع الدكتور عيسى سلمان عن المؤلف الامريكي ريجار رانفهاوزن ، ونشرته وزارة الاعلام في سنة ١٩٧٤] .

بسيط ، وعلى اساس البعدين ، الا ان هنالك واقعية تنبعث من الاهتمام بالتفصيل .

وتبين فاتحة كتاب « رسائل اخوان الصفا

The Epistles of the Sincere Brethren

التي يعود تاريخها الى سنة ١٢٨٧م ، ان عناصر الاسلوب الاساسية لمدرسة بغداد قد بقيت حية حتى النهاية . فهذه الصورة المحفوظة في مسجد « سليمانية » باسطنبول تبين ايضا واقعية في التفصيل ، في ذات الوقت الذي تحتفظ فيه بصفة زخرفية طاغية .

لقد صور مؤلفو الكتاب مع كتبهم ، وركز الاهتمام على الوحدة . ولم يكن استعمال الالوان - مع التركيز على اللونين الابيض والذهبي - اقل اثارة من الالوان التي احتوتها النتائج الاولى لمدرسة بغداد ، ففي بداية القرن الرابع عشر الميلادي ماتت هذه المدرسة ، وبدأ التصوير في المنطقة باخذ الكثير من مميزات المدارس المغولية .

x x x

دائرة المعارف الدولية (١٨١)

بغداد عاصمة العراق ، واكبر مدينة فيه ، تقع في القسم الشرقي المركزي من لقطر ، على ضفتي نهر دجلة . وليست بغداد هي مقر الحكومة حسب ، بل هي المركز التجاري ، والصناعي ، والثقافي للعراق . وهي تستخدم اكثر من خمس اليد العاملة في البلاد ، والذين يسكنون بكثرة عند الجانب الغربي من النهر (١٨٢) .

وتشتمل المشاريع فيها على سكك الحديد ، والمشاغل ، ومحلات التصليح ، ومعامل الزيوت والاسفلت ، ومعامل تكرير النفط ، والمواد الانشائية بالاضافة الى معامل صغيرة وكبيرة لصنع الاقمشة والملابس ، وكثير من الصناعات الانشائية .

وتتلقى بغداد من المطر ايام الشتاء ما معدله ست بوصات ويكون الجو بهيجا تماما ، ولكن في معظم

(١٨١) المجلد الثاني صفحة ٢١٦ - ٢١٧ اصدرتها مؤسسة شركة غولير الكندية المحدودة .

Golier of Canada Ltd.

وقد طبعت في الولايات المتحدة الامريكية في عشرين مجلدا سنة ١٩٦٦ .

(١٨٢) انتشرت الطبقة العاملة التي هجرت الريف بعدما اجتذبتها المشاريع في بغداد ، في كل انحاء العاصمة الغربية منها والشرقية ولم يعد هناك اي تمييز لها عن بقية سكان المدينة .

وموظفو الحكومة ومستخدموها ، وعدد من أفراد الطبقة المتوسطة المتنامية .

ولقد انشئت جملة من المباني العامة . غير ان الانفجار السكاني الناجم عن الهجرة من الريف الى المدينة بحثا عن العمل فيها ، يعتبر من اعظم المشاكل القومية ، ذلك لان الالوف من الناس قد ارغوا على العيش في اكواخ فقيرة من الحصر (١٨٢) .

اسست جامعة بغداد في سنة ١٩٥٦ لكي تضم عددا من الكليات التي كانت قائمة آنذاك والتي كانت تحتوي على ستة آلاف طالب وطالبة ، بالاضافة الى جملة من المدارس والمعاهد الحكومية التدريبية من بينها كلية العلوم الدينية .

ولا توجد في بغداد سوى مناظر قليلة يهتم بها الزائر ، وهي نقطة البداية لسفارات الى المواقع القديمة من امثال سامراء ، وبابل وطيستون . ويضم المتحف العراقي الفخم مجموعة متألقة من مواد التقطت من هذه المواقع وغيرها من المواقع الاخرى ، وعلى الاخص من المواقع التي كانت مقرا لعصور السلالات الحاكمة الاولى .

لم يبق اي شيء من اثار المدينة المدورة التي انشئت في عهد المنصور . ونتيجة للفزو المغولي المدمر فلم يبق في بغداد سوى بضعة من المباني التي شيدت في العصور الاسلامية الاولى ، وتشتمل هذه على كليتي الفقه «النظامية» و «المستنصرية» (١٨٤) .

تقع الى شمالي المدينة ضاحية الكاظمية المكتظة بالسكان ، وبمراقب الأئمة ، والتي لا يسمح لغير المسلمين بالدخول اليها وهناك اجزاء قليلة من الاسواق القديمة المسقفة تزود المتسوق باشياء كثيرة من المواد والحاجات النحاسية والبرونزية ، والفضية والسجاد ، والملابس الداخلية والمجوهرات القديمة .

تقع بغداد في سهل بين النهرين العظيمين دجلة والفرات ، وفي منطقة يسهل تطوير وسائل الري فيها . وتقوم بغداد في الموقع الذي كانت تحتلته المدن المهمة في العصور القديمة والتي تلقت التجديد في العصر الاسلامي .

(١٨٣) ازيلت المرافق والاكوخ من بغداد في اوائل الستينات غير ان تعاظم الهجرة الى بغداد من مختلف أنحاء القطر في السنوات الاخيرة قد احدث مشكلة سكن معقدة .

(١٨٤) لم يبق للمدرسة النظامية اي اثر . اما المدرسة المستنصرية فقد تم ترميمها في السنوات القلائل الماضية وكان المقرر ان تتخذ دارا لحفظ المخطوطات المكسدة في صناديقها وبلا نظام حتى الان في مؤسسة الآثار العامة .

ايام السنة تطفئ الحرارة المربعة ، حيث ترتفع درجات الحرارة اثناء النهار الى مائة وخمس عشرة درجة فهرنهايت ، ولو ان درجة الحرارة اثناء الليل قد تهبط الى ثلاثين درجة .

وتبدأ مياه دجلة بالهبوط ابتداء من شهر تموز حتى شهر كانون الاول ، لكن مستوى النهر يرتفع بسرعة في موسم الربيع . وفي معظم ايام السنة تتألف وسائل النقل التجاري في النهر ، من مراكب تسير في المياه الضحلة .

وتشتمل تسهيلات النقل على سكك الحديد وجملة خطوط جوية دولية ، وطرق معبدة تتفرع من المدينة . ويقع مطار بغداد الدولي في الجانب الغربي من النهر . وتبدأ الخطوط الحديدية الكبرى من ذات المنطقة ايضا .

ويسير احد خطوط سكك الحديد ، ذي العرض القياسي ، الى الموصل ، ثم يجتاز الاراضي التركية الى اوربا ، ويمتد فرع منه جنوبا نحو ميناء البصرة . ومن بغداد يمتد خط حديدي ، بعرض متر واحد ، الى كركوك واربيل . . ويوجد طريق للسيارات يقطع الصحراء السورية الى البحر الابيض المتوسط ، ويمتد طريق اخر داخل تركيا ، وثالث نحو الشمال الشرقي من ايران .

ولا تحمل بغداد الحديثة سوى مشابهاة ضئيلة لنفس المدينة التي كانت قائمة قبل ربع قرن مضى من الزمن . فلقد استبدل الجسران العائمان فوق نهر دجلة بجملة من الجسور الفولاذية الثابتة وذلك الجو النعسان الذي كان يطفئ على الضفة الشرقية للنهر بشارعه التجاري الصغير ، وسوقه المسقف ، واحيائه السكنية المزدحمة التي لا يمكن الوصول اليها الا عبر اذقة ضيقة ، كل هذه قد اختفت الان عن الانظار نهائيا .

فلقد شقت شوارع وساحات واسعة معبدة بالحصى ، تكتظ بسيول من سيارات الاجرة ، والنقل ، والسيارات الخاصة .

وتعج الساحة الرئيسة الموازية للنهر بفنادق مجهزة بادوات تكييف الهواء ، وبالمخازن والابنية الحكومية الحديثة ، وتمتد نحو الجنوب الى الاحياء السكنية الواسعة التي تحتل قسما منها بعض السفارات الاجنبية .

وقد ادى تيسير وسائل النقل الى توسيع المدينة توسعا هائلا ، وقيام الضواحي الجديدة التي يسكنها على نطاق واسع عمال الصناعات ،

دائرة المعارف الأمريكية (١٨٥)

بغداد (العراق) عاصمة المملكة ، واعظم مدينة في بلاد الرافدين على نهر دجلة . وقد ذكر ان بغداد القديمة مقر الخلافة ، والتي كانت تضم حوالي مليوني نسمة ، كانت تقوم على الجسائب الغربي من النهر ، وكانت من اعظم مدن العالم الاسلامي .

اما بغداد الحديثة فتقوم على ضفتي النهر غالبا في وسط جغرافي للقطر . وكانت قديما محاطة بسور دفاعي من الاجر في شكل دائري ، يبلغ طوله زهاء ستة اميال . غير ان هذا السور في الوقت الحاضر متهدم بصفة عملية (١٨٦) . والمساكن مبنية من الاجر بصفة رئيسة وهي على النمط الاوربي بشكل عام . وهناك شبكة من الشوارع المعبدة بالاسفلت تربط كل انحاء المدينة ، وتؤلف واحدا من المظاهر الحديثة .

ومن المساجد التي يبلغ عددها زهاء مائة مسجد ، بقي عدد جدير بأن يستحق المشاهدة ، ويمكن ان يجتذب الزائر اليه اما الكثير منها فهي مخربة ، وطرز عمارتها مغاير لطرز ما هو موجود منها في المدن الاسلامية الاخرى . غير ان لها مظهر مزوق عظيم من القاشي المزجج الذي يغطي قبابها ومنايرها ، وهي مرتبة في شكل نتاجات من الفسيفساء بمختلف الالوان .

والاسواق واسعة تعج بالسلع . وما تزال الاسواق التي بناها « داود باشا » (١٨٧) تعتبر من اشهر المباني الفخمة في العالم .

كانت بغداد منذ عهد طويل تهيم على جزء كبير من وسائل النقل بينها وبين اوربا من ناحية ، ومع ايران والهند من ناحية اخرى . وما تزال التجارة الايرانية والهندية على نطاق واسع ، كما هو الامر ايضا مع اوربا ، حيث يتم نقل جزء كبير

The Encyclopedia Americana (١٨٥)

صدرت طبعتها الجديدة في سنة ١٩٤٨ في ثلاثين مجلدا
اما طبعتها الاولى فكانت في سنة ١٩٢٩ نقلنا هذه المعلومات
عن بغداد من المجلد الثاني ص ٨١ - ٨٢ .

(١٨٦) لم يبق من هذا السور الذي كان يحيط بمدينة بغداد منذ عهد الخليفة الناصر لدين الله سوى باب واحد هو المعروف بالباب الوسطاني .

(١٨٧) داود باشا الكرجي اخر الحكام الماليك في العراق حكم في الفترة ١٨١٦ - ١٨٣١ م حيث استورد العثمانيون سيطرتهم على العراق بعد مقتله . ويعزى الى داود باشا بناء السوق المسقف المعروف باسم سوق السراي .

وفي سنة ٧٦٢م أمر المنصور ثاني خلفاء بني العباس ببناء مدينة مدورة ، كمل بناؤها مع حصون واحياء واسعة على الضفة الغربية من النهر .

وفي نهاية ذلك القرن ، واثناء حكم هرون الرشيد ، اصبحت المدينة المدورة ، مقرا متألعا للعلوم والاداب ، اضافة الى كونها عاصمة للعالم الاسلامي ، وفي خلال القرن التاسع اصبحت سامراء التي تقع شمالي بغداد ، عاصمة للعباسيين زهاء نصف قرن من الزمان ، قبل ان تستعيد بغداد شهرتها .

ولقد اتسعت بغداد بامتداد الضفة الشرقية للنهر ، وبقيت المركز الروحي والديني للعالم الاسلامي حتى سنة ١٢٥٨م ، حين اجتاحت قطمان المغول القادمة من الشرق المدينة وقضت على الاسرة العباسية الحاكمة ، وبعد ذلك الوقت بحوالي ثلاثة قرون ، تدهورت المدينة تحت امرة حكام متعاقبين الى ان تمت سيطرة الاتراك عليها في القرن السادس عشر ، ثم اصبحت خلال القرن التاسع عشر احدي الحواضر الاقليمية في الامبراطورية التركية ، وبدأت تنتعش .

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى استولى البريطانيون على بغداد في شهر اذار سنة ١٩١٧ . ثم اصبحت في سنة ١٩٢١ عاصمة لدولة العراق الحديثة . وفي سنة ١٩٤١ احتلت القوات البريطانية مدينة بغداد مرة اخرى ، بالتعاون مع الحكومة العراقية في هذه المرة ، وذلك لاختتام ثورة مؤيدة للامان (*) .

كان التقدم المعتدل الذي شرع به بعد الحرب العالمية الاولى ، قد وصل الى درجة الشلل في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية . يؤلف المسلمون الاكثرية الساحقة من السكان ، وهناك حوالي عشرين الف مسيحي . اما اليهود الذين كانوا يؤلفون في وقت من الاوقات اكبر طائفة يهودية فقد هاجروا الى فلسطين المحتلة وكان عددهم ٥٥٨٢٠ نسمة . (دونالد والاس ، جمعية بحوث الشرق الاوسط) .

(*) لم تكن ثورة العراق في ١٩٤١ كما تزعم دائرة المعارف الدولية فهي ثورة قومية تحررية ، اعلنتها العراق شعبا وجيشا على الوجود الاستعماري (المورد) .

منها بالمراكب في النهر . وكانت التجارة مع اوربا سابقا واسعة كثيرا بطريق البر ايضا ، وذلك عبر الصحراء السورية الى دمشق ، وعبر طريق ارمينيا شمالا .

ومنذ ان فتحت قناة السويس غدت الطرق البحرية اكثر اهمية ، فانحط النقل عبر الهند بعض الشيء . غير ان تطور تسهيلات النقل بالسكك الحديدية جعل منها السوق التي يمكن الاستيراد منها من منطقة البحر الابيض المتوسط والتصدير اليها .

كانت الاصواف هي الصادرات الرئيسة الى اوربا ، بالإضافة الى الشعير والحنطة والصفغ والجلود والعفص ومصنوعات الجلود ، اما المستوردات فكانت تشمل الحديد والنحاس والسكر والقهوة . وكانت توجد في بغداد عدة مصنوعات من ادوات نحاسية ، ومن الملابس ، والاصبغ وغيرها .

تكون درجة الحرارة في بغداد خلال الصيف شديدة جدا . ولكن الشتاء فيها بارد ايضا ، الى درجة يصبح استعمال النار امرا ضروريا . والمناخ فيها مقبول ، وصحي بوجه عام . ويسكن المدينة العرب والاكرد والأتراك والفرس والارمن واليهود . ويؤلف العرب المسلمون اقلية سكان المدينة . ومع ذلك فان جميع الاقليات العرقية والدينية تشترك على قدم المساواة بكل الحقوق التي تتمتع بها الاغلبية العربية . وطبقا لتخمينات سنة ١٩٤٨ بلغ عدد سكان بغداد حوالي ستمائة وستين ألف نسمة .

x x x

اسست بغداد سنة ٧٦٢م على يد الخليفة المنصور . وبلغت درجة رفيعه من المجد في القرن الثامن الميلادي على يد الخليفة هرون الرشيد الذي شخصته قصص ألف ليلة وليلة . وقد أصبحت آنذاك المدينة الرئيسة في العالم الاسلامي كله ، ومركزا عظيما للثقافة والعلوم .

وتعظم هذا التقليد الثقافي للمدينة بعد ان تطورت كمركز تهيدي ومقر للعراق الحديث حيث انشئت كليات تدريب المعلمين ، والصيدلة ، والهندسة ، والمدارس العسكرية . وتشتهر المدينة ايضا بانها المركز المهم للصناعة والتجارة والمواصلات في العراق . وبرهنت المناظر الجميلة على امتداد شاطئ النهر بانها كانت المغناطيس الذي يجتذب السواح .

في القرن الثالث عشر الميلادي اجتاحت حفيد جنكيزخان مدينة بغداد ففضى على الخلافة وذبح آخر الخلفاء منها وطردها الفاتح هولاكو على يد تيمورلنك . وفي القرن الخامس عشر استولى الشاه اسماعيل اول حاكم من البيت الصفوي الفارسي على بغداد . ومنذ ذلك الوقت أصبحت المدينة عرضة لحروب مدمرة بين الاتراك والفرس . وبعد حصار واسع افتتحت المدينة على يد الامبراطور التركي مراد الرابع . وحاول « نادر شاه » بلا جدوى ، خلال القرن الثامن عشر استخلاصها من ايدي الاتراك .

وفي سنة ١٩١٧ خلال الحرب العالمية الاولى ، افتتحتها القوات البريطانية بعد هزيمة الجيش التركي الذي كان يدافع عنها . ثم أصبحت بعد عقد معاهدة السلام عاصمة للعراق ، ووضعت تحت الانتداب البريطاني بقرار من عصبة الامم ، واستمرت عاصمة قومية بعد توقيع معاهدة ١٩٣٠ .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية احتل العراق مرة اخرى من قبل القوات البريطانية وذلك في شهر تموز سنة ١٩٤١ للقضاء على ثورة عسكرية فيه ، وفي سنة ١٩٤٥ منحت الحكومة حق نقل العاصمة في حالة الضرورة ، من بغداد الى أي مكان اخر من الاراضي العراقية .

x x x

سكة حديد بغداد

اسم شهر لخط حديدي يمتد الى الكويت قرب رأس الخليج العربي في الجنوب ، ومن هناك يصعد عبر العراق الى البصرة وبغداد والموصل ، ومنها عبر اراضي سوريا الى الحدود التركية ومن هناك يسير داخل سوريا الى نقطة تقرب من حلب . ثم يسير شمالا ليتفرع منه فرع يمتد الى اسطنبول ، في حين يسير الفرع الثاني جنوبا نحو حلب ليربطها مع طرابلس وحيفا ، ثم ينتهي في القاهرة .

ولقد اصاب هذا الخط اهمية دولية في اواخر سني ١٨٩٠ عندما أصبح يعرف باسم طريق القيصر فلهم الثاني امبراطور المانيا ، وذلك على اثر زيارة قام بها لسلطان تركيا ، وحصل خلالها على وعد بمنحه امتياز لبناء سكة حديد يمتد من «قونية» الى الخليج العربي .

وكان الالمان قد حصلوا قبلا ، وعن طريق الجهود التي بذلها الدبلوماسي الالمانى البارون

الى الموصل ، حتى يصل الضفة الغربية من بغداد ،
ومن هناك يسير الى الخليج العربي (١٨٨) .

ولقد افتتح خط (قونية - اوغلي - بلغاريا) ،
والبالغ طوله مائة واربعة وعشرين ميلا ، في شهر
تشرين الاول سنة ١٩٠٤ . وعند اندلاع الحرب
العالمية الاولى كان حوالي الفا ومائتي ميل من
مجموع طول الخط البالغ الفا وخمسمائة وخمسين
ميلا ، قد كمل بناؤه ما عدا بعض الثغرات في بعض
الاقسام المهمة .

كان اول قطار بين البصرة وبغداد قد غادر
مدينة البصرة في اليوم الثالث عشر من شهر كانون
الثاني سنة ١٩٢٠ . وفي سنة ١٩٣٦ قررت الحكومة
العراقية ربط الموصل بكل من تل كوجك وبغداد
من النقطة التي كانت ينتهي بها في « بيجي » وقد
كمل بناء هذا الخط وبكلفة ثلاثة ملايين باون ،
وافتح في السابع عشر من شهر تموز سنة
١٩٤٠ .

(١٨٨) بدا الالمان العمل في مد سكة حديد بغداد برلين في جانب
الكرخ منطقة السكك الحالية في سنة ١٩١١ واعدوا لذلك
عمارتين هدمت احدهما ومانزال الاخرى قائمة بجوار دار
الاذاعة وياحبذا لو حوفظ عليها كانه له اهميته التاريخية
وحين اندلعت الحرب العالمية الاولى كان الخط قد وصل
الى سامراء فتوقفت الاعمال فيه ، ثم استأنف الانكليز
بعد احتلالهم بغداد مدة فاوصلوه الى قضاء الشرافات اول
الامر لكنهم مالبثوا ان ارجعوه الى بيجي الى ان شرع
باكماله مجددا في عهد حكومة حكمة سليمان ١٩٣٦ .

ماوشل فون بير شتاين ، على امتياز امده تسع
وتسعون سنة لبناء خط حديدي من انقرة الى
ازمير ، ويتصل بالخط الحديدي القائم هنالك
انذاك . وقد مول هذا المشروع من قبل « شركة
سكة حديد الاناضول » التي كان يسندها البنك
الالمانى Deutsche Bank .

اثار الامتياز الذي ظفر به القيصر شكوك عدد
من الدول الاوربية وعلى الاخص بريطانيا العظمى ،
التي اعتبرته مشروعا يهدف الى قطع شريان حياة
بريطانيا في الهند . وسرعان ما اصبح الطريق
يعرف باسم « سكة حديد برلين - بغداد
Berlin - Bagdad Bahn » وقد جسد الخطة
الالمانية الرامية الى اقامة خط مباشر عبر اوربا
واسيا الى الخليج العربي .

وفي سنة ١٨٩٩ ، وبعد وقت قصير على زيارة
القيصر لاسطنبول منح سلطان تركيا امتيازا الى
شركة سكة حديد الاناضول لبناء خط واحد (من
قياس عرض اربعة اقدام وثمانى بوصات ونصف)
يبدأ من قونية حتى النهاية الشرقية لسكة حديد
الاناضول ، ويمتد الى الكويت على الخليج العربي ،
مارا ببغداد ، ويبلغ طوله الفا وخمسمائة وخمسين
ميلا .

كان الطريق المقرر ان يسير الخط فيه ، ابتداء
من قونية الى ادنه ، ومن هناك يتجه جنوبا الى
حلب ، ومنها الى طرابلس ، ثم يجتاز نهر الفرات

الجند الأموي والجيش العباسي

• دراسة في تطور المؤسسة العسكرية في العصرين الأموي والعباسي

بقلم الدكتور

فاروق عمر فوزي

كلية الآداب - جامعة بغداد

عن بعضها البعض وتحتوي على قبائل معينة واطلق على هؤلاء القبائل اسم جند (جمع اجناد) . على ان خلفاء بني امية في بلاد الشام انتهجوا سياسة معينة في سوريا بحيث جعلوا في كل مصر من بلاد الشام قبيلة معينة ، فكان جند قنسرين في غالبيتهم قيسية اما حمص فكانت غالبا يمانية وكانت كلب وجذام غالبية على دمشق . (٢) وقد نجحت هذه السياسة في بلاد الشام وابعدت القبائل العربية الى فترة ما عن الحزازات والصراعات القبلية وسهلت على الخلفاء الامويين الاوائل ان يحفظوا التوازن بينها .

وقد كانت السلطة المركزية تدمو القبائل من اقاليم مختلفة عند الحاجة او الضرورة لقمع تمرد داخلي او لمواجهة خارجية ، وبقي اصطلاح (الاجناد) يستعمل للدلالة على هؤلاء القبائل ، ولكن ظهرت اصطلاحات جديدة ذات دلالات مترادفة مثل الجيش والعسكر . وكانت نفس التنظيمات القبلية تحفظ اثناء القتال ، ففي رواية تاريخية :

« وقد دعا عدى اهل البصرة فبعث على خمس من اخماسها رجلا ، فبعث على خمس الازد الغيرة بن زياد العتكي وعلى خمس بني تميم محرز بن حمران السعدي وعلى خمس بكر بن وائل عمران بن عامر ... ودعا مالك بن الجارود فمقد له على عبيد القيس ودعا عبدالاعلى بن عبدالله فمقد له على اهل العالية .. » (٣)

ولما كانت القبيلة تلعب دورها في تعبئة القبائل فمسن الطبيعي ان اهم عامل لتحقيق النصر على الاعداء هو مهارة القائد وحذقه في ترتيب الجند وتنظيمهم في ساحة المعركة ، ذلك ان العصبة القبلية كانت تعمل عملها بين الجند ، واذا ارتكب القائد خطأ استراتيجيا بان وضع قبيلة ما في المقدمة لتتحمل وحدها ضربات العدو ويقع عبء المعركة عليها ، بينما تبقى قبيلة اخرى في الجناح او المؤخرة لتنتفض في نهاية المطاف وتقتطف ثمرات النصر وتدعي انها هي التي حققتة ... اذا ارتكب القائد مثل هذا الخطأ فقد يفقد سيطرته على الجند .

في البدء لابد لنا ان نشير بان استعمالنا لاصطلاح « الجيش » للدلالة على الجند او القبائل العرب في العصر الأموي يعتبر استعمالا مبالغاً فيه الى حد ما ، بل انه غير وارد تاريخيا ، ذلك لان العرب المسلمين في صدر الاسلام وردحا من العصر الأموي لم يعرفوا الجيش المنظم الدائم ، وان المؤسسة العسكرية العربية لم تتبلور وتأخذ ابعادها وسماتها الحقيقية الا في العصر العباسي .

حين جاء الاسلام غدت الامة كلها مقاتلة ، والامة المقاتلة تعني ان كل القادرين على حمل السلاح من الرجال ينفرون للحرب عند الحاجة ، ولكن لم يكن هناك تنظيم عسكري يربط هؤلاء القبائل ولم تكن هناك مؤسسة عسكرية تضمهم . وحين بدأت حروب التحرير والفتح الاسلامي اشترك فيها القبائل من مختلف القبائل ولكن هؤلاء القبائل لم يشكلوا جيشا نظاميا بالمعنى الدقيق المتعارف عليه .

لانهم لم يكونوا تحت السلاح على الدوام بل انصرفوا الى اعمالهم الخاصة ومشاكلهم في اوقات السلم ، ولم يسكنوا في ثكنات عسكرية ويتدربوا على السلاح بصورة مستمرة . كما لم تكن تربطهم رابطة قوية واحدة فيما بينهم من جهة او مع الدولة من جهة اخرى خاصة عند حدوث الفتن او الازمات الداخلية .

تطور معنى الجند :

دل اصطلاح الجند في البداية على وحدة من القبائل العرب من قبيلة او قبائل معينة وربما كانت لا تتجاوز في عددها الكتيبة . وبمرور الزمن تطور اصطلاح الجند فاصبح ذا مضمون جغرافي يعني الاقليم او المنطقة التي يحكمها اداريا وعسكريا قائد يترأس مجموعة من القبائل ويعتمد على واردات الاقليم في التكوين والعتاء . (١)

ولم يسكن القبائل العرب في البداية المدن في البلاد المفتوحة بل بنوا لانفسهم مدنا جديدة بدأت على هيئة معسكرات استقروا فيها مع عوائلهم وسميت الامصار . وقد قسم القبائل في الامصار الجديدة الى ارباع او اخماس منفصلة

ومن أجل ضمان عدم الوقوع في مثل هذه الأخطاء كان القائد يعتمد على رجل ذي خبرة ، معروف بحنكته في التعبئة وله تجارب في هذا الباب . وفي مصادرها روايات تاريخية تشير الى هؤلاء نقول احداها مثلا :

« وكان عبدالرحمن بن ابي نزل الامر العظيم في الحرب لم يكن لاحد مثل رايه وكان عبيد الله ابن جبيب على تمينة القتال ، وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الرأي والمشورة والعلم بالحرب فمنهم الافضل بن بسام مولى بني ليث وعبدالله بن ابي عبدالله مولى بني سليم والبختري ابن مجاهد مولى بني شيبان » (٤)

وهناك العديد من المقاتلة الذين تصفهم المصادر بعبارة « صاحب رأي في الحرب » ولا شك فهو يختص بوضع الاستراتيجية ويقابل مدير الحركات العسكرية .

مزايا المقاتل العربي :

وكان المقاتل العربي يتمتع بمزايا وصفات حققت له انتصارات فذة ومن هذه المزايا : (٥)

اولا - روح الجماعة والاصرّة التي تربط المقاتلة ببعضهم وخاصة اثناء تعرضهم لخطر خارجي على الحدود الشرقية او الشمالية .

ثانيا - الثقة بغالبيتهم والاعتداد بشجاعتهم فقد كان عدد العرب مجتمعين اقل بكثير من عدد سكان اي اقليم من الاقاليم المفتوحة . واذا كان سكان البلاد المفتوحة قد فاقوا العرب بالعدد فان العرب فاقوهم بالكيفية وبالقدرة القتالية . لقد كان العربي فارسا يشار اليه بالبنان يرمي وهو على ظهر فرسه . لقد امتلك العربي روح البداوة بكل ما فيها من جرأة واقدام وعنف واعتماد شديد على النفس .

ثالثا - كان المقاتل العربي يتمتع بروح قتالية عالية وفذة ، بينما كانت هذه الروح قد خبت منذ زمن بين سكان البلاد المفتوحة الذين استخدموا المرتزقة والعبيد للقتال بدلهم وكانت الدنيا ومتاعها والتعلق بالحياة ولداتها شغلهم الشاغل .

رابعا - اعتقاد العربي بان الله معه في قضيته العادلة وانه سينصره على عدوه وهذا اعطاه ثقة متزايدة بالنصر .

خامسا - كانت القوة العربية تتكون من قبائل خفيفة الحركة ، اكثر خفة من الاعداء . وقد حافظت الدولة الاموية على هذه الصفة طالما بقيت سياستها هجومية توسعية ونجحت في توسيع حدود الدولة وفي مجابهة الاعداء وخاصة الترك على الحدود الشرقية في بلاد ما وراء النهر .

الموالي والقتال :

لقد غالى بعض المستشرقين ومن اتبع رايهم من المؤرخين (٦) في تصوير التمايز الاجتماعي بين العرب وغير العرب من سكان البلاد المفتوحة ووقعوا في تفاسير عنصرية ليست من مفاهيم العصر الذي ظهر فيه الاسلام . واذا كان هنالك بعض الحالات الاستثنائية التي تدل على التنافر فان هناك امثلة عديدة على الامتزاج والتعاون والاشراك في السلطة . وليس يهنا في هذا المجال ان نفصل في الامثلة ولكننا نقول

بقدر ما يتعلق الامر بالجند بان السلطة العربية اشركت مقاتلة من المرتزقة من الموالي فهناك الارمن في ارمينيا والفرانجة والبخارية والسمرقندية والاشروسنية في الساحة الشرقية ، ففي رواية من الطبري ان هناك ما لا يقل عن ٢٠ ألفا من سكان الاقاليم الشرقية استخدمهم نصر بن سيار في حملاته في الجبهة الشرقية (٧) . وقد وصل بعض هؤلاء الى مراتب عالية في القيادة .

كما كان الامويون يستخدمون الرقيق في القتال ، هذا مع تأكيدنا بان القوة الضاربة والرئيسية كانت تتكون من المقاتلة العرب .

وحدات شبه نظامية :

رغم اعتماد الامويين على المقاتلة العرب من القبائل المختلفة باعتبارهم جند الدولة فقد برزت بوادر وحدات نظامية دائمية . فاذا استثنينا الشرطة ، التي تعتبر خارج نطاق هذا البحث ، ابتدع معاوية بن ابي سفيان نظام الحرس وهي كتيبة خاصة بحماية الخليفة وحذا حذوه امراء الاقاليم . وكان قائد هذه الوحدة يسمى (صاحب الحرس) واطلق معاوية على كتيبته اسم القمامة .

ولم يكن صاحب الحرس شخصا عسكريا بالدرجة الاولى بل قد تناط به واجبات اخرى مثل الحجابة اوديوان الرسائل او الخاتم (٨) .

وكانت هناك وحدات شبه نظامية اخرى مثل حاميات الثغور وكذلك الروابط على الحدود التي تعتبر وحدات متحركة وخفيفة من الخيالة . كما نظم الامويون المسالحيين في الداخل وخاصة في المدن غير المستقرة او الهمة من الناحية الاستراتيجية مثل مسلحة واسط في العراق ومسلحة الحيرة التي تسيطر على الكوفة . وكانت هذه المسالحيين تحت قيادة (صاحب السلحة) (٩) .

المقاتلة العرب :

وفيما عدا الحرس ووحدات الثغور والروابط والمسالحيين التي لم تكن باعداد كبيرة وتقوم بواجبات محددة ، فان القوة العسكرية الرئيسية في الدولة الاموية كانت من المقاتلة العرب من القبائل الشامية والعراقية والمقاتلة العرب من اهل خراسان .

وقد اشرنا فيما مضى بان هؤلاء المقاتلة العرب كانوا يعيشون في وقت السلم حياة عادية يزعمون اراضيهم او يتاجرون ببضائعهم او يمتنون حرفة معينة وقد زاد ولعهم بالتجارة والهن بعد ان اختلطوا بسكان البلاد المفتوحة . ولكن ما ان يستدعي الامر بسبب ازمة داخلية او خطر خارجي كان الجميع ينغرون للحرب وعليهم يعتمد الخليفة الاموي في درء الخطر .

ان هذا الوضع الذي كان عليه الجند في العصر الاموي يحتوي دون شك على نقاط ضعف رئيسية نذكر منها : (١٠)

١ - فقدان عنصر الضبط والربط والنظام بين صفوف المقاتلة تلك الصفات العسكرية التي تعلم المقاتل الطاعة لرؤسائه . ان فقدان هذا العنصر كان يعني عدم تواجد تلك الروابط التي تعلم الطاعة والولاء والمسؤولية تجاه الخليفة الاموي باعتباره رأس الدولة .

محاولات للإصلاح :

وازاء هذا الوضع حاول بعض الخلفاء أو الولاة محاولات جادة لتغيير الوضع وإصلاحه وذلك عن طريق مزج القبائل وربطها برابطة جديدة أكثر قوة من رابطة القبيلة . ففي سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م حاول أسد القسري نقل الجند من البروقات إلى بلخ . وقد كان الجند في الأولى منقسمين إلى أخماس ، أما في بلخ فقد خلطهم وأسكنهم دون أخذ التقسيم القبلي بنظر الاعتبار . (١٣) كما حاول الخليفة هشام بن عبد الملك أن يخفف من أثر النفوذ القبلي بأن اختار نصر بن سيار وهو حياذي ليس له نفوذ قبلي في خراسان واليا على إقليم خراسان . واتخذ نفس الخليفة موقفا عمليا حين أمر واليه الجنيد بن عبد الرحمن بأن يسقط من الديوان (العطاء) أسماء المقاتلة الذين يرفضون الجهاد وأمره ألا يضغط عليهم لأنه سيرسل له مقاتلة جدد ممن يرغبون في القتال . أن هذا الموقف من السلطة المركزية يدل على إدراك الخليفة بأن هناك بعض المقاتلة لا يرغبون بالاستمرار في القتال ولا يمكن للسلطة الأموية أن تجبرهم على ذلك . (١٤)

ألا أن إرسال عناصر عربية جديدة من البصرة والكوفة أو إرسال الجند السوري أدى إلى حدوث شقاق وتصادم بين القادمين الجدد وبين العرب القدماء من أهل خراسان . وبرزت كتلتان : المقاتلة من أصحاب الامتيازات والنفوذ السياسي والمستقرين المحرومين ولم يكن في مقدور السلطة إلا أن تعتمد على المقاتلة من أصحاب السلطة والنفوذ .

لقد أدت هذه الحالة إلى استمرار الحركات المعارضة للدولة وأبانت أكثر من أي وقت مضى مدى حاجة الدولة الأموية إلى جيش نظامي دائم قوي . ذلك لأن الثوار رغم قلة عدد المتخربين تحت لوائهم استطاعوا تحدي الدولة وتمكنوا من مطاولتها مدة ليست بالقصيرة لا بسبب ضعف الدولة بل بسبب عدم اعتمادها على جيش دائم ومنظم . ولعل في حركة يزيد بن المهلب (١٥) في خلافة يزيد الثاني ما يوضح ذلك أحسن توضيح . تشير مصادرها التاريخية بأن يزيد بن المهلب حين بدأ حركته لم يكن معه أكثر من سبعين شخصا ، وقد أصر والي البصرة عدى بن أرطاة المقاتلة من الأخماس بالخروج للتصدي ليزيد بن المهلب ولكن أزد البصرة انشقوا عن والي الأموي والتحقوا بيزيد بن المهلب لأن المهالبة من اليمانية والأزد من اليمن كذلك . على أن عدى بن أرطاة ربما توقع ذلك ، إلا أنه لم يتوقع الموقف الذي وقفته تميم وعبد القيس وهما من مضر . ذلك أن كليهما انتهزتا الفرصة وقررتا الطلب من والي زيادة العطاء الذي كان ٦٠ درهما شهريا . ولما امتنع والي من أجابة هذه المطالبات بحجة أن زيادة العطاء من اختصاص الخليفة امتنعت القبيلتان عن مساعدة والي في محنته هذه .

ولم يبق أمام والي الأموي إلا الاعتماد على الشرطة وبعض والي للدفاع عن البصرة ولكن مقاومته لم تستمر وأجبر على الاستسلام . وقد استولى يزيد بن المهلب على بيت المال في البصرة حيث كان فيه ٩ ملايين درهم استطاع بها أن يجمع عددا كبيرا من الاتباع ولم تخمد حركته إلا بعد أن أرسلت السلطة المركزية في دمشق ٨٠ ألفا من المقاتلة من بلاد الشام .

أن حركة يزيد بن المهلب لم تكن حالة استثنائية أو

٢ - كان المقاتلة مشدودين بروابط القبيلة ولذلك لم يكن لديهم حافظ محرك واحد للقتال بل كان المحرك يختلف من فئة مقاتلة إلى أخرى فمنهم من يقاتل مندفعاً بعوامل دينية ومنهم من يقاتل من أجل الغنائم أو لأسباب سياسية أو قبلية كما وإن قتالهم ضد الأعداء الخارجيين كان للدفاع عن أنفسهم وحمايتهم . وفي كل الحالات كانوا يتوقعون من الدولة أن تدفع لهم عطاء جيداً مقابل القتال .

٣ - في كل المعارك التي خاضها المقاتلة العرب في العصر الأموي لم يقاتلوا كجند للدولة بل كأفراد في قبائل . ومعنى ذلك أن وحدة الهدف أو الغاية كانت تنقصهم . بل تحكمت أحيانا المصالح الخاصة بالقبائل أو بزعامة القبائل في الاشتراك بالقتال أو عدمه .

٤ - لم يكن هناك من رادع يمنع المقاتلة من الاشتراك في الصراع السياسي الداخلي ومعنى ذلك الاشتراك في ثورات أو تمردات سياسية ضد الدولة أو التناحر بين القبائل نفسها . وهذا دون شك له آثاره السلبية على الحياة العسكرية والاستعداد الحربي الذي كانت الدولة تريد من المقاتلة . وفي مثل هذه الظروف فقد لا يواجه الخليفة صعوبة في قيادة المقاتلة ضد عدو خارجي ولكن في حالة حدوث تمرد داخلي فإن المقاتلة من القبائل المختلفة ينشقون على أنفسهم بين مؤيد للدولة ومعارض لها . والمقاتلة في كلا المصيرين لهم نفس التدريب والاستعداد والسلاح والتكتيك . وكان حسن تصرف الخليفة واستغلاله لمثل هذه الحالة يعتمد على قابليته وذكائه فقد أرسل عبد الملك بن مروان إلى الحجاج الثقفي رسالة يقول فيها : (١١)

« ... فإنما أمر المؤمنين أمين الله وسيدان عنده منع واعطاء باطل ... وسياتيك من أمر المؤمنين امران : لين وشدة فلا يؤنسك إلا الطاعة ، ولا يوحشك إلا المعصية .. »

أن الأمر الأخير الوارد في الرسالة آنفة الذكر يعتبر أكثر أهمية والحاحا . فقد استطاع الخليفة الأموي أن يربط مصلحة القبائل العربية في بلاد الشام بمصلحة الدولة ولذلك فقد كانت الثقة متبادلة بين الطرفين ، ولكن في الأقاليم الأخرى البعيدة عن مركز الدولة فإن نجاح السلطة المركزية كان يعتمد إلى حد كبير على خلق وضع يكون مفيدا لأكبر عدد ممكن من المقاتلة من أجل ضمان مساعدتهم لسياسة الدولة الأموية . وكان على والي الأموي أن يجمال ويداهن شيوخ القبائل والمتنفذين فيها والذين يتحكمون بولاء القبائل ويدهم زمام قيادتها وتوجيهها . ففي رواية للطبري أن ابن هيرة سأل يوما من سيد قيس ؟ قالوا الأمير ، قال :

« ادعوا هذا ، سيد قيس الكوثر بن زفر لو بوق بليل لوأفاه عشرون ألفا لا يقولون لم دعوتنا ولا يسألونه .. » (١٢)

ولا شك فإن هذه الرواية توضح نفوذ رؤساء القبائل . وقد كان في الأقاليم أكثر من واحد من أمثال الكوثر بن زفر !!

اول جيش نظامي :

وحين انتصرت الثورة العباسية كان هؤلاء المقاتلة العرب من اهل خراسان جند العقيدة العباسية اول جند للدولة الجديدة . وقد استفاد العباسيون من اخطاء الامويين ولذلك سجلوا هؤلاء المقاتلة في (ديوان شيعة بني العباس) حسب فرائهم ومدنهم واقاليهمم التي عاشوا فيها بخراسان لاحسب قبائلهم وانسابهم .

ان هذا الاجراء انبغى العباسيون يعتبر منعطفًا جديدًا مهما في تاريخ الجيش العربي الاسلامي في العصر الوسيط ، ذلك ان الدولة العباسية ارادت ان تزيل كافة العوامل التي نخرت في كيان الجند الاموي حتى غدا قوة منهكة لا يمكن الاعتماد عليها . لقد شعرت الدولة العباسية باهمية وجود الترابط القوي بين المقاتلة الذين يدعمون نظام الحكم الجديد ويكونون كتلة واحدة صلبة وراء الدولة الجديدة . ومن هذا المنطلق فاننا نعتبر الجيش العباسي اول جيش منظم في تاريخ الدولة العربية الاسلامية . فالجند الهاشمية كانوا نواة اول جند نظامي بالمعنى المتعارف عليه في التنظيمات العسكرية لانهم كانوا ينتظمون كافراد لا كقبائل وكان ولاؤهم للدولة التي تعني بتدريبهم وتموينهم المستمر وتجهيزهم شهريا بعتانهم .

ورغم ابقاء الدولة العباسية على اهل خراسان ، وغالبيتهم من العرب ، في وحدة عسكرية واحدة ترتبط بالولاء للدولة التي كانت تسمى بدولة اهل خراسان . فانها نظمت تشكيلات عسكرية اخرى تستند على القبائل فكان هناك فرق قلبية يمانية ومضربة وربيعية . وهذا يشير بوضوح الى ان الجيش العباسي في عصره الاول كان جيشا عربيا - لا كما يقال فارسيا - كما وان قيادة الجيش ظلت في ايدي عربية .

وحين بنى الخليفة المؤسس ابو جعفر المنصور (١٢٦هـ - ٧٥٤هـ / ٧٧٥) مدينته المدورة بغداد كان هدفه الرئيس ايجاد مركز اداري وعسكري جديد ولذلك كانت مدينة السلام في بدايتها وكأنها قلعة عسكرية دائرية يسهل الدفاع عنها . ولم يسمح بالسكنى فيها وما حولها الا للشيعة العباسية من جند خراسان من المقاتلة . ثم بنى الرصافة على الجانب الشرقي لدجلة ووضع فيها حامية عسكرية تحت قيادة ولي عهده المهدي يساعده في ذلك بعض القادة العرب . وكان لهذا التدبير براعة سياسية وعسكرية ، وذلك لغرض ضرب احد العسكريين في حالة تمرد المعسكر الاخر .

عناصر الجيش العباسي :

حين يتكلم الجاحظ (١٧) عن تنظيمات الجيش العباسي يقسمه الى العناصر التالية :

(١) العرب (٢) الخراسانية (٣) الموالي (٤) الاتراك (٥) الابناء . ورغم ان الجاحظ عاش في اواخر العصر العباسي الاول (القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) فان تقسيمه هذا يصدق الى حد كبير على جيش المنصور وخلفائه .

ويتفق المؤرخون الآخرون (١٨) مع الجاحظ في تقسيمه هذا ويضيفون وحدات عسكرية جديدة مثل : الغلمان ، الشاكبة ، المغاربة ، الصعاليك . والملاحظ ان هـسـده الوحدات الجديدة لم تكن وحدات رئيسية .

وفي اواخر العصر العباسي الاول اعيد تشكيل الجيش

معزولة بل ان حالات مشابهة لها حدثت المرة تلو الاخرى وفي كل مرة يقف الوالي مكتوف اليدين ويظهر عجزه عن التصدي لها حتى تسعفه السلطة المركزية بارسال القبائل السورية الموالية لها .

الخاتمة :

ان عدم قدرة الخليفة على خلق جيش نظامي دائم مرتبط بالدولة وموال لها ومدافع عن قضيتها ، كان من اهم نقاط الضعف في الخلافة الاموية بحيث جعل السلطة المركزية عرضة لاهواء وميول شيوخ القبائل والمتنفذين في اقاليم الدولة الواسعة .

ان الازمة التي حدثت في خراسان في اواخر العصر الاموي (١٦) كشفت عن نقاط الضعف هذه بوضوح ولم يكن هناك من شيء يمكن عمله لانقاذ الموقف ، فكان الخليفة مروان ابن محمد ، رغم قابليته الفذة ، الضحية . ويسقطه سقطت دولة الامويين .

الجيش العباسي في عصره الاول ١٣٢هـ - ٢١٨هـ :

تمهيد :

في صدر الاسلام كانت الامة كلها مقاتلة مستعدة للجهاد تنفر للحرب اذا دعت الضرورة ذلك ، ولم يتغير الحال كثيرا في العصر الاموي حيث كان العرب المستقرون في الامصار يزاولون اعمالهم وحرفهم في اوقات السلم وينفرون للحرب حين تعلن الدولة للنفر العام لقمع حركة داخلية او مواجهة عدو خارجي .

والذي يبحث في اسباب سقوط دولة الامويين سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م يجد ان السبب الرئيسي هو فشل الخلفاء الامويين في انشاء جيش نظامي ثابت واستمرار اعتماد الدولة الاموية على مبدا الامة المقاتلة . فلما ضعف المقاتلة وضعف تماسكهم من جراء العصبية القبلية او الطامع الشخصية او غيرها وفقدت رابطة الهدف المشترك الذي يربطهم بالدولة انهارت الدولة الاموية .

لقد استغللت الدعوة السرية العباسية في خراسان اسباب تذمر المقاتلة العرب من اهل خراسان الذين نفروا من سياسة التجبر الاموية التي تقضي ابقاء المقاتلة على الحدود شتاء وعدم السماح لهم بالرجوع الى الامصار . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فكان للعرب من اهل خراسان مقاتلة او مستقرين اسباب اخرى للتذمر من السياسة الاموية التي كانت تقطع اعطياتهم احيانا او تسلبهم فيهم وغنيمتهم او تقتطع نسبة اكبر مما تستحقه من هذه الغنائم بينما كان الواجب ان تاخذ الدولة الخمس وتترك الباقي يوزع على المقاتلة .

وقد زاد من اسباب استياء العرب من اهل خراسان في اواخر العصر الاموي هو ارسال ديع خراسان من الضرائب الى بيت المال المركزي في الشام بينما طالب اهل خراسان بضرورة صرفه على اقليم خراسان نفسه . واكثر من ذلك كان الوالي الاموي يسلط احيانا الدهاقين الفرس على المستقرين العرب لعجاية الضرائب منهم وتقدير نسبتها . وهكذا استطاعت الحركة العباسية (الهاشمية) ان تجذب اليها الكثير من هؤلاء العرب المتمردين في خراسان وغيرها .

العباسي فقد جعل الترك وحدة عسكرية منفصلة عن الموالي . وادمجت السلطة العباسية وحدات من الازد والارمن والزواقل والصاليك والابناء ضمن فرقة الموالي وجعلها تحت قيادة واحدة (١٩) .

وليس يهنا ان نتبع تطور الجيش العباسي عبر العصور وانما سنركز في هذا البحث على الجيش العباسي في عصره الاول . وفي اعتقادنا بان الجيش العباسي في عصر الخلفاء الاوائل كان يتكون من الوحدات التالية :

(١) العرب :

لقد بان اهمية العرب للعباسيين منذ ايام الثورة وزادت اهميتهم اثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي ضد الجند الشامي في العراق . فخلال تقدمه في العراق ساعدت عناصر قبلية مختلفة الجيش الخراساني . ثم ان سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق كان نتيجة مساعدة شيوخ القبائل الذين انضموا الى العباسيين .

وتورد الروايات التاريخية (٢٠) المتفرقة الكثير من الامثلة الاستدلالية فقد عملت اخذ من طي كدليل للقوة الخراسانية المتقدمة نحو الكوفة حيث دللتها على احسن الطرق واسلمها . والمعروف ان الكوفة سقطت على يد محمد بن خالد القسري زعيم اليمانية الذي احتلها باسم الجيش العباسي قبل ان يدخل هذا الجيش المدينة . كما وان محاولة القائد الاموي استعادة الكوفة فشلت بسبب انسحاب اليمانية من صفوف جنده وخاصة بجيلة وبعجل . كما وسقطت مدينة الموصل بيد الخراسانيين نتيجة تعاون زعماء القبائل في المدينة مع الخراسانيين حيث اغلقوا الابواب في وجه مروان وجنده . وقد اجبر يزيد بن هبيرة والي العراق الاموي على طلب الامان بعد ان ضعفت مقاومته بسبب تخاذل العناصر اليمانية في جيشه حيث اغراه ابو جعفر (المنصور) قائلا : « السلطان سلطانكم والدولة دولتكم » (٢١) . ويعود فشل العباسيين في احتلال البصرة في البداية الى كون والي البصرة الاموي مسلم بن قتيبة الباهلي كان يتمتع بنفوذ كبير في المدينة لكثرة اتباعه وانصاره من القبائل . اما دمشق فلم يفلح عبدالله بن علي العباسي بدخولها الا بعد وقوع الفتنة بين اليمانية انصار العباسيين وبين المضرية انصار الامويين حيث استغاث عبدالله العباسي باليمانية قائلا : « انكم واخوتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وانصارنا وانتم دفعتم اليها مدينة دمشق وقتلتهم الوليد بن معاوية وانتم منا وبكم قوام امرنا فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر (٢٢) » .

ان الحوادث الفاصلة التي وقعت في بداية نشوء الدولة العباسية تشهد على الاهمية الكبرى والدور الفاصل الذي لعبته القبائل العربية . فالطبري يشير الى ان هذه القبائل كانت تشكل اقلية الجيش العباسي الذي كان يتكون من مضر واليمن والخراسانية وربيعية . ولذلك كان اكثرية قادة الجيش في تلك الفترة من العرب الذين لم يقودوا الحملات فقط ضد الثوار ولكنهم لعبوا ايضا دورا مهما في الصراع السياسي وبصورة خاصة فيما يتعلق بمشكلة ولاية العهد .

ولقد ادرك العباسيون مدى التأثير البالغ الذي يمارسه شيوخ القبائل على قبائلهم ولذلك عاملوهم معاملة طيبة ومحترمة . وكان الاحترام والود يتناسب مع عدد اتباع الشيخ . فقد رفض ابو العباس معاوية اسحق بن مسلم

القبلي بحجة ان ذلك سيسيء الى قيس . « اترى قيسا ترضي بان يضرب سيدها حدا ، لو دعوته بالبينة لجاء مئة من قيس يشهدون ان القول قوله » . وقد منح نفس الخليفة الامان الى مسلم بن عقبة الباهلي رغم انه تحدى العباسيين في البصرة ولم يطلب العفو . وقد كان مسلم الباهلي طرفا في نزاع حدث في البصرة الا ان الموالي سليمان بن علي العباسي سامحه نظرا لنفوذه القبلي قائلا : « ما كان مسلم ليقول شيئا الا شهد له الف نزاری » (٢٣)

ومن المهم ان نلاحظ ان المنصور ترك في الهاشمية خازم ابن خزيمه التميمي نائبا عنه ومسؤولا عن الجيش والميرة حينما حج سنة ٧٦١/١٤٤ - ٧٦٢ .

على ان رواية ابن عساکر تظهر مقدار القوة التي لم تزل كامنة في ايدي شيوخ القبائل حتى زمن الامون العباسي . وفي الرواية يتهم عبدالله بن طاهر احد شيوخ القبائل محمد ابن صالح بن يهس لتفاخره بمساعدة الامون وكان قد اصبح مساويا لطاهر بن الحسين ولكن محمد بن صالح اجاب قائلا : « لقد حارب طاهر من اجسل سلطان امير المؤمنين بمال امير المؤمنين ورجاله ، اما انا فحاربت بمالي ورجالي !! »

وعلى الرغم من ان الدولة حاولت منذ عهد الامويين ان تنمي بين القبائل العربية شعور الولاء والاخلاص للدولة لا للقبيلة ، فان هذه المحاولات زادت في المصدر الاول من عهد العباسيين . فالمنصور مثلا أكد على الولاء للنظام العباسي اكثر من تاييده على الولاء القبلي ، ومع ذلك فان الضرورة السياسية جعلته يضرب التكتلات القبلية الكبيرة بعضها البعض الاخر مستهدفا في ذلك تحقيق اهداف سياسية ليس الا . ولقد شهد عهده الكثير من هذه المناورات . وقد نجح المنصور بكسر الحلف القديم بين ربيعة واليمن وذلك بتحريض والي اليمن معن بن زائدة الشيباني بالتشديد على اهل اليمن المتمردين ثم شجع نفس الخليفة والي اليمامة والبحرين عقبة ابن مسلم الهنائي للثار من ربيعة (قبيلة معن الشيباني) التي كانت جزءا كبيرا من سكان اليمامة والبحرين .

(٢) اهل خراسان :

ليس لدينا في هذا المقام مجالا لمناقشة طبيعة القوة المضاربة الخراسانية التي حققت النصر العباسي والتي كانت تتكون بصورة رئيسية من العرب من (اهل خراسان) . على اننا يجب ان نشير الى ان هؤلاء العرب الخراسانية الذين عاشوا في خراسان لفترة طويلة تكلموا الفارسية اضافة الى العربية وتزوجوا نساء فارسيات ولبسوا اللباس الفارسية وتكيفوا للبيئة الفارسية بتقاليدها العريقة واحتفلوا بالاعاد الفارسية .

ان (اهل خراسان) ، بعد زحفهم الى العراق خلال الثورة ، مروا بعملية (تعريب) جديدة خاصة وان الخلفاء العباسيين الاوائل كانوا انفسهم يشجعون الثقافة العربية والروح العربية في البلاط والمجتمع .

كانت الفرقة (الخراسانية) واحدة من اربعم فرق في جيش المنصور . اما الثلاثة الباقية فهي : ربيعة ومضر واليمن . وهذه دلالة واضحة على نسبة العرب الكبيرة في الجيش العباسي في المصدر الاول من الدولة . وحين يتكلم الجاحظ (٢٤) عن فترة ابعد قليلا عن عهد المنصور يصنف الجيش العباسي كالآتي :

- (١) الخراسانية
- (٢) الترك
- (٣) الموالي
- (٤) العرب
- (٥) الأبناء

٤ - وان يعتني بتثقيفهم وتعليمهم الكتاب والسنة لينتجبوا الامواء والمعاصي والفرقة .

٥ - ان يكون الخليفة مثلاً أعلى لهم في تجنب الترف والاسراف والمبالاة في اللبس والعطر والنساء والظهور بمظهر المتواضع المعتدل .

٦ - ضرورة تعيين وقت ثابت لازاقهم كل ثلاثة أو أربعة اشهر . وتسجيل اسمائهم في السجلات والقضاء على اسباب شكواهم . وربما كان من الاحسن ان يكون نصف بزرهم عينا والنصف الآخر نقداً .

٧ - على الخليفة ان يستقصي اخبارهم ويستعين بالثقات في معرفتها . « وان لا يخفي (عن الخليفة) شيئاً من اخبارهم وحالاتهم وباطن امرهم بخراسان والعسكر والاطراف . وان يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيه الا بالثقات النصحاء فان ترك ذلك واشباهه احزم بتاركة من الاستماتة فيه بغير الثقة فتصير مقبته للجهالة والكذب » .

ولقد دافع الخراسانية في فترات الازمات العادة عن النظام العباسي ضد الثوار . كما وان العباسيين اعتادوا ارسال قوات خراسانية لمد طويلة او قصيرة في المناطق المضطربة او التي كانت معروفة ببعيولها المضادة للعباسيين مثل البصرة والموصل وكذلك الشام وافريقيا . كما واشترك الخراسانية في الجهاد ضد البزنطيين . واستغل الخلفاء اسم اهل خراسان ووقوفهم باخلاص وراء الخلافة العباسية في سبيل تنفيذ مآربهم او مشاريعهم وخاصة فيما يتعلق بولاية العهد . ويذكر في هذا الصدد ما قاله المنصور لمعسى ابن موسى حين حثه على التنازل لولاية العهد الاولى الى محمد المهدي « ليعلم انصارنا من اهل خراسان انك اسرع الى ما رجوا » (٢٧) وحينما اراد المهدي من عيسى ان يتنازل عن ولاية العهد اخبره بان هذا الطلب نابع من اجماع « اهل بيته وشيعته وقواده وانصاره وغيرهم من اهل خراسان » (٢٨) . وحين خطط الهادي لتنحية اخيه هارون الرشيد ساعده بعض القواد فخلعوا هارون وبايعوا لجعفر « ودسوا الى الشيعة فتكلموا في امره وتنقصوه في مجلس الجماعة » (٢٩)

على ان الخراسانية لم يكونوا الفرقة الوحيدة في الجيش العباسي فقد شكل العباسيون وحدات اخرى - كما ذكرنا ذلك - على اساس قبلية . وكذلك اشركوا القبائل في حملاتهم العسكرية . وعلى هذا فان الخلفاء طبقوا الاسس القبلية فيما يخص الفرقة الخراسانية . فسياسة عدم الاعتراف بالقبيلة ضمن تشكيلات الخراسانية كانت موافقة تماماً لفترة الدعوة العباسية ، وما ان حقق العباسيون النصر حتى وجدوا من الضرورة ضرب القبائل ببعضها البعض ، وعلى هذا نظم العباسيون فرقاً جديدة على اساس قبلية . ثم ان العباسيين ، رغم ثقهم بالخراسانية واهتمامهم برعاية امتيازات هذه الفرقة ، فقد وضعوا امامهم احتمال حدوث تمرد او انحراف من جانبها وبهذا شكلوا فرقاً جديدة لتأمين جانبهم من هذه الناحية . يقول الطبري بان تمرد الراوندية سنة ١٢١هـ/٧٥٨م اشعر المنصور بضرورة تقسيم جيشه الى قسمين ووضع بعضه في بغداد والاخر في الرصافة . وبهذا يستطيع ان يضرب احدهما بالآخر في حالة حدوث تمرد من جانب ما .

ويظهر من ذلك انه حتى في فترة الجاحظ كان العرب والخراسانية والابناء الذين « استعربوا » لا يزالون موجودين في الجيش . والواقع ان عملية ادخال الاتراك في الجيش من قبل الخليفة المعتمد لاقت معارضة قوية من العرب والخراسانية .

لقد حافظ العباسيون على وحدة الفرقة الخراسانية . وبلاحظ بان الخراسانية منذ الايام الاولى للدعوة سجلوا حسب قراهم ومدنهم لا حسب قبائلهم وهذا مما يؤكد حرص العباسيين على الابقاء على تماسك الفرقة الخراسانية وعدم السماح للمصيبة القبلية بتفكيك وحدتهم . ويصف ابن المقفع الخراسانية فيقول : « فمن الامور التي يذكر بها امير المؤمنين امر هذا الجند من اهل خراسان فانهم جند لم يدرك مثله في الاسلام وفيهم صفة بها يتم فضلهم انشاء الله . اما هم فاهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس وكف عن الفساد وذل للولاة . فهذا حال لا تعلمها توجد عند احد غيرهم » . ويذكر ابن المقفع الخليفة بضرورة ضبط امر جند خراسان ورعايتهم ويشير الى الانتباه الى الامور التالية :

١ - تنظيم امور الضبط والربط والنظام عن طريق اصدار الخليفة لنشور يعين فيه واجبات القادة ومسؤولياتهم وواجبات الجند وحقوقهم . « ... ومن كان انما يصول على الناس يقوم لا يعرف منهم الموافقة في الراي والقول والسيرة فهو كراكب الاسد الذي يوجل من رآه والراكب اشد وجلاً . فلو ان امير المؤمنين كتب اماناً مصروفاً محيطاً بكل شيء يحفظه رؤساؤهم ويؤدوا به دهماءهم » (٢٥)

ويشير ابن المقفع بصراحة الى اصل اهل خراسان العربي من اهل العراق وارتباطهم التين باهل الكوفة والبصرة فيقول : « ويذكر امير المؤمنين باهل هذين المهرين (البصرة والكوفة) فانهم بعد اهل خراسان اقرب الناس الى ان يكونوا شيعة وحقيته مع اختلافهم باهل خراسان وانهم عامتهم » (٢٦)

٢ - على الدولة الا تسلم القادة العسكريين اموراً مالية كجباية الخراج لان ذلك يفسدهم ويلهيهم عن واجبهما الاصلي . « واذا اريد صلاح هذا الجند فيجب الا يولي احداً منهم شيئاً من الخراج . فان الخراج مفسدة للمقاتلة . وان جبوا الدراهم اجترأوا عليها واذا وقعوا في الخيانة صار كل امرهم مدخولاً . مع ان ولاية الخراج داعية الى ذلّة وتحقير وهوان وانما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللفظ » .

٣ - الاستعانة بلوى القدرة والكفاءة والنزاهة منهم . « ومما ينظر في امرهم ان منهم من الجهولين من هو افضل من بعض قادتهم فلو التمسوا واصطنعوا كانوا اعمدة وقوة . وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة » .

خراسان وغيرهم انك اسرع الى ما اصبو مما عليه رايبهم في صلاحهم منهم الى ذلك من انفسهم» .

وقد حصل الخراسانية ، افرادا وجماعات ، على ارباض واراض داخل المدينة المدورة وفي ضواحيها . وقد سكن نسبة كبيرة منهم في الشمال من بغداد وخاصة في الحربية حيث استقروا تبعا للمدن والمناطق التي قدموا منها في خراسان . وبمعنى آخر كان سكانهم على اساس اقليمي لا عنصري .

(٣) الموالي :

ان اصطلاح « الموالي » مثل غيره من الاصطلاحات في هذه الفترة ، اصطلاحا مرنا وغير محدود . وعلى الرغم من ان « الولاء » كان علاقة اجتماعية وقانونية فان موالي الخليفة تمتعوا بمنزلة خاصة في علاقتهم بالخليفة الذي خدموه ضمن اختصاصات مختلفة .

ولقد كان بين « الموالي » نسبة كبيرة من العبيد المحررين من مختلف العناصر والاجناس . كما وان عددا من « الموالي » كانوا عربا اسروا في الحرب .

ليس من اختصاص هذا البحث ان يتعقب محتوى اصطلاح « الموالي » ولا يهتما ماهية الاعمال المتنوعة التي كان يقوم بها الموالي في المجتمع الاسلامي . على ان ما قصدها من اصطلاح الموالي في هذه الدراسة لا يشير الى كتلة عنصرية مكونة في الاغلب من الفرس ولكن كتلة مزيجية من اجناس عديدة يربطها بالخليفة ولاء الاخلاص الذي تضمنه فوق كل اعتبار ، كما وان ارتباطها بالباط العباسي كان اقوى من اي ارتباط آخر .

لقد شعر المنصور منذ بداية حكمه بالحاجة الى مثل هذا السند سواء في البلاط او في الادارة او في الجيش . وقد عزم على خطة من شأنها جمع هذه العناصر المختلفة ، التي جلبت بطريق الحرب او التجارة وانها جذبت انتباه الخليفة بطريقة او باخرى ، في جسم صلب واحد يستطيع ان يعتمد عليه كليا . وحالما دخل الموالي في ممية الخليفة اصبحوا مرتبطين به كليا وبالتالي مطيعين له طاعة عمياء .

يقول الجاحظ : « وكان المنصور ومحمد بن علي وعلي ابن عبيدالله يخصصون مواليهم بالمواكلة والبسط والابناس لا يهرجون الاسود لسواده ولا الاعمى لدمايته .. ويوصون بحفظهم اكابر اولادهم ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاة على جنازتهم وذلك بحظوة من العمومة وبين الاعمام والاخوة » (٣٢) .

وقد اعتنى المنصور بتدريب البعض من « احداث مواليه » على السلاح وتطورت هذه الكتلة فاصبحت وحدة كبيرة في الجيش .

ويؤكد ابن خلدون في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم فيقول : « فاذا اصطنع اهل العصبة قوما من غير نسبهم واسترقوا العبدان والموالي والتحموا بهم كما قلنا ، ضرب معهم اولئك الموالي والمصطفون بنسبهم في تلك العصبة وليسوا جلدتها كانوا عصبيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبة مساهمة في نسبها كما قال رسول الله (ص) « (مولى القوم منهم) ، وسواء كان مولى رقي او مولى اصطناع او حلف » (٣٣) ولقد ظهر في الدولة العباسية نوع جديد من الولاء سمي « بولاء الاصطناع » ،

لقد استعمل المنصور البازئين من اهل خراسان في مناصب عالية ، وكان يحرص على الاحتفاظ بولائهم للنظام السياسي . وفي رأينا فان تعيين المنصور لخازم بن خزيمة التميمي الروزي الخراساني نائبا عنه في الهاشمية على « السكر والميرة » (٣٠) حينما ذهب للحج سنة ١٤٤هـ له دلالة الكبيرة من حيث ثقة الخليفة باهل خراسان . فقد استغاث المنصور بهم في اثناء ثورة الحسين الخظرة . « يا اهل خراسان انتم شيعتنا وانصارنا واهل دعوتنا » (٣١) . واوصى ابنه المهدي بهم خيرا حيث قال :

« واوصيك باهل خراسان خيرا فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم في دولتك ودمائهم دونك ومن لا تخرج مجبتك من قلوبهم ان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في اهلهم وولده » .

وحين حضرت المنصور الوفاة دعا بني هاشم والشيعة من خراسان ان يتحدوا وراء المهدي ولي العهد ويساعدوه على تسيير امور الدولة . « واسأل الله ان لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيئا ولا يذيق بعضكم بأس بعض يا بني هاشم ويا اهل خراسان ثم اخذ في وصيتهم بالمهدي واذكارهم البيعة له وحضهم على القيام بدولته والوفاء بعهده » .

على ان قلة استعمال اصطلاح « اهل خراسان » في المصادر التاريخية بعد الانتصار العباسي قد يدعو الى استنتاج خاطيء فيما يتعلق بدورهم ككتلة سياسية في البلاط العباسي . فالاعتقاد بضعف قوتهم او تلاشيتها ليس له صحة ذلك لاننا يجب ان نلاحظ بان اصطلاح (اهل خراسان) لم يكن الاصطلاح الوحيد الذي عرفت به هذه الكتلة السياسية ، فقد كان يطلق عليهم اسم (الشيعة) و (انصار الدولة) و (ورؤساء الشيعة) و (القواد) . وبما انهم سجلوا منذ البداية باسماء مدنهم وقراهم ولذلك كان يطلق عليهم كذلك اسم (المروزية) و (البصين) و (اهل بلخ) و (اهل بخارى) و (اهل فرغانة) والى آخره .

وعلى ذلك فان الكثير من ابرز رجالات اهل خراسان لم يكونوا يعرفون باسم الخراسانية بل باسم قراهم او مناطقهم التي عاشوا فيها . والامثلة على ذلك كثيرة ومتفرقة في الروايات التاريخية منها :

خازم التميمي (الروزي)

قحطبة الطائي (الجرجاني)

الفصل التميمي (الطوسي)

جديع الازدي (الجرجاني)

عبدالمك العتكي (الجرجاني)

ومن هذا المنطلق يمكن الاستنتاج بانه من غير المعقول ولا من الدقة في شيء ان نعت المروزية اتباع خازم التميمي او الجرجانية اتباع عبدالمك العتكي على انهم فرس .

وهناك امثلة كثيرة اخرى في مصادرنا التاريخية لتأثير (اهل خراسان) في سياسة الدولة وكذلك في مشكلة ولاية العهد . فقد تميز المنصور باهل خراسان حين كتب الى عيسى بن موسى سنة ١٤٧هـ/٧٦٤م يسأله لاتنازل لولاية العهد الاولى لمحمد المهدي . « ليعلم انصارنا من اهل

قضية عربية تحمل فيها العنصر العربي المسؤولية على عاتقه حتى بدأت تفلت من يديه بصورة تدريجية .

لقد بدا (الموالي) بالنمو من حيث الاهمية في البلاط والادارة منذ عهد الخليفة المنصور . ويجوزنا ان نعزو بقائمة من اسماء الموالي الذين اختصهم المنصور ووثق بهم ، ومن بينهم : عمارة بن حمزة ، مرزوق ابي الخصيب ، واضح ، منارة ، الصلاء والربيع بن يونس . ويقول ابن قتيبة بان المنصور غضب غضبا شديدا لما سمع ان والي البصرة سلم بن قتيبة الباهلي عاقب احد موالى الخليفة واعتبر ذلك تجاوزا على الخليفة نفسه كما وان المنصور اوصى ولي عهده المهدي بالموالي قائلا انه ترك له ثلاثة اشياء مهمة هي : المال ، الموالي ومدينة السلام .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان هذه الرابطة القوية والولاء استمر فشمّل الجيل التالي من الموالي . فقد قيل عن حاتم بن هرثة بن اعين مولى الرشيد « فانه ممن لا يعرف الا باطاعة ولا يدين الا بها بما قدر من الله مما قدم له من حال ابيه المحمود عند الخلفاء » . (٢٤)

ويظهر ان تأثير الموالي قد تعدى الحدود في عهد الخليفة المهدي . فقد حذر عبدالصمد بن علي ، خال المهدي ، الخليفة - على ما يذكره الطبري - بان علاقته الودية بالموالي سوف تبعث اهل خراسان عته . ولكن المهدي اجاب بان الموالي يستحقون كل هذا التقدير ذلك لانهم يظلمون باى عمل سيطلبه منهم مهما كان ذلك العمل لا يتناسب مع منزلتهم او قد يعتبر تحقيرا لهم ، بينما يتعرض الآخرون من غير الموالي على مثل هذه الطلبات من قبل الخليفة متملنين باصلهم ومنزلتهم وسابقتهم في الدعوة العباسية .

وفي رواية للخطيب البغدادي عن الربيع بن يونس ان المهدي حين تبوأ الخلافة وزع محتويات احدى خزائن بيت المال بين « مواليه وغلماؤه وخدمه » (٢٥) .

ويقول الجهشيارى بان المهدي اظهر احتراماً كبيراً لعمارة ابن حمزة لدرجة ان القرشيين الذين كانوا يزورون البلاط في ذلك الحين استقربوا من شخصية القادم ، فاجاب المهدي « انه عمارة بن حمزة مولاي » . وتذكر المصادر التاريخية الموالي جنباً الى جنب مع العباسيين واقرباء الخليفة القرين في قوائم الهبات والهدايا التي يعطيها الخليفة . كما وان اهمية الموالي تظهر من الرواية التي تشير بان المهدي حين رحل الى جرجان سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م ترك مولاه الربيع بن يونس لينوب عنه في بغداد .

ولقد كان عدد الموالي الذين تقلدوا مناصب سياسية وعسكرية او اظهروا براعة في المجال السياسي في عهد المهدي واولاده الذين خلفوه كبيراً ، على ان بعض المؤرخين الذين اعتبروا الموالي كتلة عنصرية (جنسية) لا كتلة اجتماعية سياسية، يدعون بان اختيار الخلفاء العباسيين لوزرائهم من (الفرس) كان خطة مدروسة ومصممة تصميماً جيداً من قبل الخلفاء كدليل على ان العهد العباسي الجديد شركة بين العرب والفرس . ونستطيع ان نؤكد بان ليس هنالك في مصادرنا التاريخية ما يشير الى ان المناصب في الدولة العباسية في عصرها الاول كانت توزع حسب اعتبارات او مقاييس عنصرية. وقد اظهرنا سابقاً بان الموالي لم يعتبروا انفسهم فرساً كما وانهم لم ينظر اليهم كفرس من قبل الآخرين . وكان وزراء العصر العباسي الاول اما ذوي اصول غامضة غير معروفة تماماً

وعني هذا اختيار الخليفة لافراد او جماعات بغض النظر عن اصلهم العنصري حيث يمنحهم الخلع والرتب ويعهد اليهم بالاعمال المهمة . وعلى هذا فيلاحظ ظهور شخصيات متنوعة في اصلها ولكنها تحس بنفسها كتلة منفصلة عن غيرها وتجمعها مصالحها واهدافها المشتركة ، كما وان المهم في الامر ان الخليفة نفسه كان يعود الى هذه الكتلة حيث ان بعض الخلفاء العباسيين يرجعون الى اصول عربية من جهة الام .

ومما لا شك فيه فان كتلة الموالي في الدولة العباسية اعتبرت نفسها كتلة مستقلة ومختلفة عن كل من العرب وغير العرب . ويقول الجاحظ في هذا الخصوص بان الموالي ادعوا بانهم افضل من العرب بسبب روابتهم الجديدة بالعرب . ان مضمون مقالة الجاحظ واضح فالموالي كانوا كتلة متميزة من عرب وغير العرب تجمعهم صفة واحدة الا وهي انهم اعتبروا انفسهم كتلة معينة تختلف عن العرب والعجم . وقد وصف الجاحظ منزلة الموالي بالمقارنة مع العرب والعجم ، وظهر ، وهذا امر مهم ، دعواهم بانهم افضل من العرب والعجم . ان هذه النظرة الى الموالي يؤيدها اشارة الجاحظ الى ان كتابه (العرب والموالي) يختلف عن كتابه (العرب والعجم) . وحين يدافع الجاحظ عن نفسه تجاه احد نقاده الذين اتهموه بالتكرار فيقول بان الفروق بين العرب وغير العرب هي ليست كالفروق بين العرب والموالي . من المحتمل ان الجاحظ يشير هنا الى تلك الكتلة من الموالي الذين طفت روابتهم بالخليفة على الروابط العنصرية (الجنسية) اذا كان هناك رابطة جنسية ذات بال في تلك الفترة المبكرة من عهد العباسيين ، كما وان منزلتهم (اي الموالي) في البلاط والادارة والجيش ميزتهم تماماً عن كل من العرب والعجم الذين كانوا منافسيهم في كسب رضا الخليفة والحصول على الرايز الجيوية .

على ان الجاحظ يعترف بان الموالي حصلوا على تلك المنزلة الرفيعة بسبب رعاية الخلفاء العباسيين الذين اهتموا غير عربيات على الاغلب ، وادركوا مدى الاستجابة القويمة والرابطة المشتركة التي تربطهم بكتلة الموالي من السكان . وبهذا فالجاحظ يرفض رفضاً باتاً فكرة العنصر كعيار لتصنيف المجتمع ويعتبر البيئة والثقافة عوامل رئيسية في قياس الشخص وفي تربيته . ومن هنا المنطلق فان الموالي ثقافياً ولغوياً وبنيئاً كانوا عرباً كما يمثلهم الجاحظ .

يشير الجاحظ واليعقوبي بان الخليفة المنصور كان اول خليفة عباس استعمل مواليه وغلماؤه في اعماله . على ان السعودي والقرنزي يدعيان بان المنصور لم يستخدمهم فقط بل فضلهم على العرب ايضاً . ويظهر ان الراي الاخر راى اعتباطي لا يستند دليل ثابت . واذا كان الخليفة قد وثق بمواليه وقدمهم فان ذلك لم يكن بالتاكيد على حساب العرب الذين استمروا يحتفظون بمراكز رئيسية وخطيرة . ويمكن القول بان ادعاء السعودي والقرنزي ينطبق على فترة متأخرة (في حوالي منتصف القرن الثالث الهجري) من العصر العباسي ويؤيد ذلك المؤرخ النافذ ابن خلدون الذي يظهر بوضوح نفوذ العنصر العربي خلال العصر العباسي الاول دون ادنى شك . ويحدد ابن خلدون بدقة الى ان العرب فقدوا السلطة حين تسلم ابناء الرشيد العرش وانهارت العصبة العربية في عهد المعتصم . وينظر ابن خلدون في تحليله لهذه الفترة المتقدمة من التاريخ الاسلامي ، الى ان القضية كلها

توَعَرُوا فِي الْبُلَاطِ الْعَبَّاسِيِّ أَوْ مَوَالِي جَرَبُوا لَمَدَةً طَوِيلَةً فَكَانُوا مَوْضِعَ نَقَّةٍ وَابْتُغُوا كِفَاءً عَالِيَةً . وَقَدْ عِينُوا فِي مَنَاصِبِهِمُ الْعَالِيَةِ بِسَبَبِ مَهَارَتِهِمُ الْإِدَارِيَّةَ وَوَلَانَتِهِمُ السِّيَاسِيَّةَ لِلْعَبَّاسِيِّينَ . وَجِبَتْ أَنْ نَضِيفَ بَانَ الْخَلِيفَةِ كَانَ بَوَسْعِهِ دُونَ أَيْةِ صَعُوبَةٍ أَنْ يُقْصِيَهُمْ مِنْ مَنَاصِبِهِمْ أَمَّا لَشُكُّهُمْ فِيهِمْ أَوْ لاعتبارات يعتقد أنها ضرورية .

وفي المدينة المدورة استوطن الموالى قطاعا خاصا بهمسم سمي (درب الموالى) ، كما وان موالى آخرين منحوا قطائع اما افرادا او على شكل جماعات مثل عباد الفرغاني والفرغانية ، حسن الشروي والشروية ، والربيع بن يونس ، سليمان وسويد الخ ... على اننا يجب ان نشير بان الشروية هم موالى محمد بن علي ابن عبدالله العبّاسي ثم موالى للخلفاء العبّاسيين من بعده . وكان للموالى ديوان خاص بهم في بغداد يسمى « ديوان الموالى والفلمان » .

(٤) الابناء :

في اواخر عهد المهدي وفي ايام الهادي وهارون الرشيد بدأ يظهر اصطلاح جديد بين كتل البلاط وفي تشكيلات الجيش العبّاسي الا وهو (الابناء) . ويذكرهم ابن سعد في طبقاته باسم (ابناء اهل خراسان) حيث يشير الى ابي نصر التمار على انه من ابناء اهل خراسان من نسا . وتؤكد رواية اخرى الاصل الخراساني لكتلة الابناء هذه في مناقشة بين الرشيد واحدهم الذي قال يتحدث عن نفسه بانه « من ابناء هذه الدولة ، اصله من مرو وولادته في بغداد » . ويذكر الدينوري ان الرشيد حين زار سنة ١٨٠هـ مدينة الهاشمية التي بناها ابو العباس قرب الانبار وجد فيها عددا من « ابناء اهل خراسان » لا يزالون يقطنونها . ويشير الدينوري نفسه الى ان ثورة رافع بن ليث الليثي في خراسان كان سببها سياسة الوالي عيسى بن ماهان التعسفية تجاه اهل خراسان ، كما وان فشلها يعود الى انحياز بعض السذجين كانوا مع رافع الليثي مثل عفيف بن عنبسة والاحوس بن مهاجر الى الجيش العبّاسي . وفي رواية للطبري يسمي هذه الكتلة « معشر الابناء واهل السبق الى الهدى » والهدى هنا معناه الانضمام الى الدعوة العبّاسية . كل هذه الروايات التاريخية تؤكد دون شك الاصل الخراساني للابناء . وبمعنى آخر ان الابناء هم ابناء واحفاد اهل خراسان جند العقيدة العبّاسية الذين تاروا في وجه السلطان الاموي وزحفوا نحو العراق والشام فحطموا الدولة الاموية واقاموا الدولة العبّاسية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م .

وفي العراق مركز السلطة العبّاسية الجديد استوطن اهل خراسان محافظين على وحدتهم غير متناسين اصلهم ولذلك برزت كتلة الابناء من كتلة اهل خراسان كتلة واحدة منسجمة تآثرت بالتطورات الجديدة السياسية والثقافية والحضارية الا انها لم تنس اقليم آبائها الاول حيث ولدت الدعوة العبّاسية وتفرجت .

وكما ان اهل خراسان كانوا عربا وعجماء فالابناء دون شك سيكونون مزجاء من الجنسين ولذلك يصدق ابن طيفور حين يسميهم « ابناء خراسان المولدون » . فمن ابرز العرب من الابناء هو عبدالله بن حميد بن قحطبة الطائي حيث يشير اليه الخليفة وداود بن عيسى بن موسى الخراساني ومحمد ابن ابي خالد الروزي .

اما ابرز المعجم من الابناء فهو يحيى بن خالد البرمكي الذي يشار اليه كواحد من « اهل الدولة » .

ومما يدل على الصلة القوية والترابط الوثيق بين (اهل خراسان) و (الابناء) هو اشارة الروايات التاريخية لهم جنبا الى جنب ، فيذكر الجاحظ على لسان الخراساني « اننا النقباء وابناء النقباء » ويدعي البنوى الاصل الخراساني دائما فاصله في خراسان وفرعه في بغداد . ويؤكد الجاحظ في مناسبة اخرى في مناقب الترك بان « البنوى خراساني » . يقول البنوى « انا اصلي خراسان وهي مخرج الدولة ومطلع الدعوة ... وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة والقرار بعد الحولة وفيها بقية رجال الدعوة وهي خراسان العراق وبيت الخلافة وموضع المادة » . (٣٦)

ويستطرد البنوى فيفخر بنفسه قائلا : « وانا اعرق في هذا الامر من ابي واكثر تردادا فيه من جدي واحق في هذا الفضل من المولى والعربي . ولنا بعد في انفسنا ما لا ينكر من الصبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال ... ولنا الصبر على الجراح وعلى جر السلاح اذا طار قلب الاعرابي وساء ظن الخراساني » (٣٧) .

وقد اثبتت التجارب السياسية وقوف الابناء الى جانب اهل خراسان في فترات الشدة والازمات . فقد وقف الابناء مع اهل خراسان ضد اهل الشام كما وقف الابناء مع الجرمية (وهم من خراسان) ضد اجراءات المعتصم بادخال الترك في الجيش العبّاسي .

ولكن الابناء لم يكونوا قوة كبيرة في عهد الخلفاء العبّاسيين الاوائل ويزداد ذكرهم في عهد الرشيد ثم لعبوا دورا مهما في النزاع بين الامين والامون .

وسكن الابناء في بغداد الارياض وكانوا يسمون (اهل الارياض) او (ابناء الارياض) . على ان الفرق بين الابناء واهل خراسان هو ان اهل خراسان من العرب تاروا بالبيئة الفارسية وتقاليد حضارتها لاستقرارهم هناك ردحا من الزمن اما الابناء فتاروا بتقاليد الخلافة العبّاسية في العراق الذي كانت بيئته تختلف تماما عن بيئة خراسان الاعجمية .

(٥) السودان والزواج والعبيد :

لقد تقربت الدعوة العبّاسية الى المستضعفين في المجتمع الاسلامي فدعت العبيد الى الانخراط في صفوف الثوار وعتق كل عبد ينضم اليها . ولم يكن وجود العبيد في الجيش العبّاسي شيئا مبتدعا فقد كان العبيد يرافقون الحملات العسكرية منذ العهد الاموي .

وتذكر المصادر التاريخية وجود العبيد والزواج كشكيلة في الجيش العبّاسي فكان هناك وحدة مكونة من ٤ الاف زنجي في جيش يحيى بن محمد العبّاسي والي الموصل حين وصوله سنة ١٣٣هـ / ٧٥١م كما ورافق السودان الجيش العبّاسي الذي ارسله المنصور الى البصرة لاصعاد ثورة ابراهيم الحسني . والمعروف انه كان يوجد في بغداد دار خاصة بالرقيق تسمى (دار الرقيق) (٣٨) . وكان الرقيق يستوردون من مصادر مختلفة منها الشراء او السبي او هدايا او جزء من ضرائب اقليم من الاقاليم ..

(٦) الاعراب :

وكما ادخلت السلطة العباسية انصعاليك في الجيش ضمت كذلك الزواويل لضبطهم وحل مشكلتهم المعاشية ويجاد عمل مفيد لهم .

(١٠) عناصر أخرى :

وقد انضم الى الجيش العباسي بمرور الزمن عناصر اخرى وخاصة في اواخر العصر الاول (٤١) مثل الفراغة والزلط والارمن وغيرهم على ان اغلب هذه العناصر لم تتبلور في فرق عسكرية في الفترة موضوعة البحث وربما دخلت ضمن المتطوعة والقوات النظامية .



الهوامش :

- ١ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ٢٠٢ - اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ص ١٧٦ طبعة ليدن .
- ٢ - دنيث ، مروان بن محمد (اطروحة دكتوراه) جامعة هارفرد ١٩٣٩ ص ١٢٢ .
- ٣ - الطبري ، تاريخ ، الطبعة الاوربية ، القسم الثاني ، ١٣٨١ - ١٣٨٢ .
- ٤ - المصدر السابق ، ص ١٥٤٤ .
- ٥ - راجع دنيث ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ فما بعد .
- ٦ - فان فلوين ، السيادة العربية ، القاهرة ١٩٣٤ - ولهاوزن ، الدولة العربية القاهرة ١٩٥٨ ، جرجي زيدان التمدن الاسلامي ، ج٢ ص ١٨ - ٢٨ د عبد الامير دكسن الخلافة الاموية ١٠١ - ١٠٤ (بالانكليزية) .
- ٧ - الطبري ، تاريخ ، ص ١٦٩٠ .
- ٨ - المصدر السابق ، ص ١٦٤٩ ، ١٦٥٠ .
- ٩ - دنيث ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
- ١٠ - المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
- ١١ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٥ ص ٢٧٦ . وقد خطب الحجاج الثقفي في المقاومة فقال : « .. الا وان امير المؤمنين امرني اعطاكم اعطياتكم واشخاصكم الى محاربة عدوكم (الخوارج) مع المهلب وقد امرتكم بذلك واحلت لكم ثلاثا واعطيت الله عهدا بواخذني بخي ويستوفيه مني ان لا اجد احدا من بعث المهلب بعدها الا ضربت عنقه وانتهت ماله . » مروج الذهب ، القاهرة ج ٣ ص ١٣٥ .
- ١٢ - الطبري ، تاريخ ، ص ١٤٥٥ .
- ١٣ - المصدر السابق ص ١٤٩٠ .
- ١٤ - د . فاروق عمر فوزي ، العباسيون الاوائل ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٧٠ .
- ١٥ - الطبري ، ص ١٢٧٩ .
- ١٦ - د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت ١٩٧٠ .
- ١٧ - الجاحظ ، الترك (في ثلاث رسائل) ١٩٠٣ ص ٨ .
- ١٨ - الطبري ، تاريخ القسم الثالث ، ١٣٨٠ - ١٣٨٤ .

ولقد كان من عادة قادة الجيش العباسي من اصحاب النفوذ القبلي امثال خازم بن خزيمة التميمي ومعن بن زائدة الشيباني وعقبة بن مسلم الهنائي وعبدالله بن شهاب المسمي ويزيد بن مزيد التميمي ان يصطحبوا جزء من قبائلهم مع الجيش النظم عند انتدابهم للفرز او لقمع ثورة وبهذا يستطيع القائد ان يعتمد على تفانيهم له في فترات القتال الحرجة ثم انهم سينتفون بالقوائم والاسلاب ويتيسر للسلطة اشغالهم لفترة مع الزمن . ولقد استعمل ابو جعفر (المنصور) نفس هذه السياسة مع قبائل الجزيرة حين كان واليا عليها في خلافة اخيه ابي العباس .

(٧) الشاكرية :

المعروف ان اصطلاح شاكرية يعني بالفارسية الخدم . وهؤلاء من المرتقة المرتبين بالوالي او القائد ويعتبرون جزءا من مواليه وقلمانه . وكانت الشاكرية في الجيش تستخدم في الخدمات بالدرجة الاولى والحراسة . وقد ربطوا في اواخر العصر العباسي الاول بالمؤسسة العسكرية فسجلوا في ديوان واحد مع الجند سمي ديوان الجند والشاكرية (٢٩) .

(٨) الصعاليك :

وتعني كلمة « صلوك » الفقر الضعيف الحال وان انغراطهم في الجيش العباسي في اواخر العصر الاول يعني دخول عناصر من الطبقات الضعيفة والكادحة في الجيش . ولا شك فان قبول هؤلاء في الجيش يدل على سياسة حكيمة للدولة العباسية فقد انضم هؤلاء الفقراء والمحرومين الى حركات التمرد ضد السلطة وسبوا قلاقل كثيرة في اقاليم عديدة مثل اذربيجان وارمينية وغيرهم فكان حلا معقولا من قبل الدولة ان تقبلهم في الجيش فقصت بذلك على اسباب تدمرهم وحلت مشكلة بطالتهم . وكان الصعاليك يتواجدون بين الجند الرابط في الثغور .

(٩) الزواويل :

يرد هذا الاصطلاح عند الكلام عن النزاع بين الامين والمامون . وكان الزواويل كجماعة وقفت الى جانب الامين ، وغالبية هذه الكتلة تتجمع من اقليمي الشام والجزيرة وتذكر المصادر بعض زعمائهم امثال نصر بن شيب العقيلي والعباس ابن زفر الهلالي وقد حار المؤرخون في تمييز هذه الجماعة (٤) ونحن نعتقد بان الزواويل في غالبيتهم عرب من القبائل القيسية المستوطنة في بلاد الشام والجزيرة . يشير الطبري الى ان الخليفة هارون الرشيد ارسل جعفر البرمكي سنة ١٨٠هـ/٧٩٧م لوضع حد للمصبات القبلية بين القيسية واليمانية « وقتل زواويلهم ومنصلصتهم » وقد اشرنا بان زعماءهم كانوا عربا .

ولهذا نرى بان الزواويل عربا قيسية نصروا الامين وبقيوا بعد انتصار المامون ضد السلطة العباسية ولذلك نعتهم السلطة « باللمصوية » وكان لهذا النعت ما يبرره لان هؤلاء البدو كانوا محرومين من العطاء وربما عمدوا الى النهب لاقامة اودهم وبمرور الزمن اصبح اصطلاح الزواويل اصطلاحا اجتماعيا يدل على الضعفاء من البدو العرب وخاصة من القيسية .

- ٢٩ - المصدر السابق ، ص ٥٧٢ - الجعشيري ، الوزراء والكتاب ١٧٤ ، اليعقوبي تاريخ ٤٨٩ - ٤٩٠ .
- ٣٠ - الطبري ، ص ٦٠٠ - ٦٠١ اليعقوبي ، تاريخ ، ص ٤٩٠ .
- ٣١ - الطبري ، ص ١٤٣ (القسم الثالث) الطبعة الاوربية .
- ٣٢ - الجاحظ ، رسائل ، (مناقب الترك) تحقيق عبدالسلام هارون ، ص ٢٣ - ٢٤ .
- ٣٣ - ابن خلدون ، مقدمة ، ج ٢ ص ٤٢٣ - ٤٣٤ .
- ٣٤ - الطبري ، تاريخ ، ص ٧٦٦ .
- ٣٥ - الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٥ ص ٣٩٣ .
- ٣٦ - الجاحظ ، رسائل (مناقب الترك) ، ص ٢٩ .
- ٣٧ - المصدر السابق ، ص ٢٦ .
- ٣٨ - المقرئ ، المغنى ورقة ٩١ ب .
- ٣٩ - الكوفي ، الفتوح ورقة ٢٣٥ ب - الطبري القسم الثالث ص ٤٣٩ - تاريخ طبرستان ج ٢ ص ١١٨ .
- ٤٠ - راجع ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٨ (المقدمة) .
- ٤١ - Miah, The Reign of Al - Mutawakkil, PH. D., London 1963.

- ١٤٠٠ ، ١٤٣١ - الكامل لابن الاثير ج ٧ ص ٢٩ ، ٤٤ ، ٦٤ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٧ ص ٢٥٨ ، ٢٧٣ - ٢٧٧ .
- ١٩ - ميا ، عصر المتوكل ، اطروحة (بالانكليزية) ، جامعة لندن ١٩٦٣ .
- ٢٠ - راجع د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج ٢ ، الفصل الاول ، دمشق ، ١٩٧٣ .
- ٢١ - راجع مقالنا
- The Composition of Abbasid Support:**
- في مجلة كلية الاداب سنة ١٩٦٨ ففيه معلومات اكثر عن مصادرها الاصلية والحديثة .
- ٢٢ - الازدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٢٤ .
- ٢٣ - د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج ٢ ، ص ٢٨ .
- ٢٤ - الجاحظ ، الترك ، ١٩٠٣ ص ٨ .
- ٢٥ - ابن المقفع ، رسالة في الصحابة ، ص ١١٩ فما بعد .
- ٢٦ - المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
- ٢٧ - الطبري ، تاريخ ، القسم الثالث ، ص ٣٣٨ - ٣٤١ ، اليعقوبي ، التاريخ ج ٢ ، ٤٥٦ - ٤٥٧ .
- ٢٨ - الطبري ، ص ٤٧١ - ٤٧٦ (القسم الثالث) .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بغداد مركز العلم والثقافة العالمية في القرون الوسطى

بقلم الدكتور

جليل كال الدين

كلية الاداب - جامعة بغداد

الواسعة ، الظروف الضرورية لتجديد
الحضارة ، ولتجديد شباب العالم «

(روجيه غارودي)

« الغرب وليد الشرق ، ولا يزال مفتاح ماضي
الحوادث في الشرق ، فعلى العلماء ان
يبحثوا عن هذا المفتاح فيه »

(غوستاف لوبون)

« إن العلم الغربي ... يدين بوجوده
للحضارة العربية »

(برينفو)

« فنحن في الغرب مدينون للعرب بكل علمنا »

(ج . د . د . برنال)

« إن الاسلام ... قد خلق ، بفتوحاته

- ١ -

لم تستطع معه حضارة إسلامية أخرى أن
تنافسها ، تستوي في ذلك سامراء (العاصمة
العباسية الشهيرة الثانية) ، ودمشق (عاصمة
الأمويين) ، والقاهرة (عاصمة الفاطميين
والأيوبيين ومماليكهم) . ولعل قرطبة في الأندلس
كانت بالنسبة إلى المغرب العربي ، الإسلامي
مثلاً كانت بغداد بالنسبة للمشرق العربي -
الإسلامي . على أن قرطبة وأشبيلية ، وفاس ،
والقيروان كانت تنباري ، فيما بينها ، أو ، كلا
على حدة ، لتقول شيئاً « بغدادياً » ، أو لتروي
شعراً أو حديثاً أو تاريخاً بغدادياً ، حتى أن
بعض المغاربة والأندلسيين نفسوا ذلك على
بغداد ، وعزلوا أهل عصرهم في هذا « التبغدد » ،
والهيام بكل شيء بغدادى ، وشرقي !

وهكذا ، فإن من الغريب ، على ضوء مثل
هذه الخلفية ، أن تأتي « الموسوعة الميسرة »
(١٩٦٥) ، في باب « بغداد » ، على ص ٣٨٣ ،
بتعريف بئس ، حقاً لها . ولعل اقليمية كاتب
فقرة « بغداد » ، في احسن الاحوال ، أو جهله ،

لقد اهتم العرب ، مبررين تمام التبرير ،
بدار السلام ، بغداد ، اهتماماً ليس له مثيل .
فألفوا فيها الكتب ، وصنفوا المصنفات ، ونظموا
الشعر وكتبوا الحكايات والقصص والاساطير ،
والأزجال ، والمواليا والرسوم والتصاوير
الملهثة . ولم يكن كل ذلك دون سبب وجيه ،
فالحق أن بغداد كانت بعظمتها ، وهيبتها ،
ومركزها العلمي والثقافي والتجاري ، ومكانتها
الجغرافية والستراتيجية والعسكرية ، معقد
آمال العرب والمسلمين ، على حد سواء . وكان
كثيراً ما يقال أن من لم ير بغداد لم ير الدنيا .
ولهذا كان العلماء والفقهاء والشعراء ، من جهة ،
والتجار والباحثون عن الثروة والعمل ، من جهة
أخرى ، يشدون الرحال ، جميعاً إلى بغداد
ليستقروا فيها بقية حياتهم ، أو ليتزودوا بالعلم
والثقافة ويعودوا إلى أوطانهم مجازين في
التدريس ، أو الفقه ، أو الافتاء .

وبلغت عظمة بغداد ومكانتها الراسخة حداً

في أسوأ الأحوال ، هو الذي دفع الكاتب الى هذا « البؤس العلمي » ، إذا أمكن التعبير وصح .

يقول الكاتب ، بعد ان يذكر بغداد هي عاصمة الجمهورية العراقية ، ويشير الى عدد سكانها ، يقول :

« المدينة الحالية أسسها المنصور الخليفة العباسي ، على الضفة اليمنى لنهر دجلة في ٧٦٢ م ، وتقع على خط عرض (١٨ ، ٢٦ ، ٢٣) درجة شمالاً ، وعلى خط طول (٩ ، ٢٣ ، ٤٤) درجة شرقاً ، ومنذ ذلك الحين أصبح مركزها التجاري عظيماً لا ينافسه موقع ، وبقيت مركزاً مهماً للعالم الاسلامي لقرون عديدة ، وتحيط بها البساتين والحدائق الفناء ، وبلغت أوجها في زمن الخليفة هارون الرشيد ، وهي ، بالإضافة الى ذلك ، مواطن لعدد من العلماء والمفكرين والفنانين ، تمتعت بمركز مالي هام ، واشتهرت بمنتجاتها كالحرير والفيفساء ، وخلدتها في العالم الغربي قصص (الف ليلة وليلة) . ضعف شأنها بعد انتقال مقر الخلافة العباسية فيها الى سامراء ، ولكن مالبث ان عاد إليها مقر الخلافة ، ثم جاءت فترة ركود بسبب الصراع الداخلي في الدولة العباسية ، وتعرضت المدينة لغزو المغول (١٢٥٨) ، فدمرت معالمها الرئيسية ومكتباتها ودور العلم بها . ثم بدأت تسترجع مكانتها ، ولكنها دمرت ثانية من قبل تيمورلنك (١٤٠٠ م) ، وغزاها الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠٨ م) ، ومرت فترة تناوب فيها الفرس والأتراك حكم بغداد ، وكان تعدادها حينذاك (١٤٠٠) نسمة . ولم يبق من آثارها واثرواتها إلا القليل .. » .

إن مثل هذا التعريف محدود جداً ، وهو لا يفي بالحد الأدنى من متطلبات التعريف العلمي الموسوعي لمدينة كبيرة ، شهيرة ، مثل « بغداد » ، ناهيك عن كونه قاصراً في الإحاطة بأبعاد عظيمة ومكانتها ودورها الكبير في نشر العلم والثقافة ، وأهميتها العربية والاسلامية والعالمية .

ولعل خير من كتب عن بغداد ، في معرض التفصيل في مكانتها العلمية ودورها الثقافي والحضاري الاساتذة الأجلاء : محمد كرد علي (في كتابه « الاسلام والحضارة العربية ») ، وطه الراوي (في كتابه « بغداد - مدينة السلام »)

وناجي معروف ومصطفى جواد وأحمد سوسة ومحمد طاهر مكية وشاكر حسن آل سعيد (في كتاب « بغداد ») الذي نشرته (نقابة المهندسين العراقيين) ، بغداد ، (١٩٦٩) ، وطاهر مظفر العميد (في كتاب « بغداد » ، مدينة المنصور المدورة) ، ورمزية الاطرقجي (في كتابها عن بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور) ، وبدرى محمد فهد (في كتابه « العائمة ببغداد في القرن الخامس الهجري ») ، وعبد اللطيف الراوي (في كتابه « المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة ») ، وحكمت نجيب (في كتابه « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، منشورات جامعة الموصل) ، وفدري طوفان في كتبه (العلوم عند العرب ، الخالدون العرب ، مقام العقل عند العرب ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك) ، ومحمد عبدالغني حسن (في كتابه « ملامح من المجتمع العربي ») وعبد الحميد العلوجي (في كتابه « تاريخ الطب العراقي ») ، ومصطفى ليبب (في كتابه « الكيمياء عند العرب ») ، محمد مفيد الشوباشي (في كتابه « العرب والحضارة الاوربية ») ، وغيرهم بالإضافة الى كوكبة لامعة من المستشرقين في شتى انحاء العالم .

وعقد لوبون بحثاً طريفاً عن بغداد ، ضمن كتابه الشهير « حضارة العرب » . وكتب كثير من المستشرقين عن بغداد ، في تضايف كتاباتهم وكتبهم عن الحضارة العربية ، الاسلامية ، والخلافة العربية ، والدولة العباسية ، والتمازج الثقافي الاسلامي . (١)

ومن المهم ان نشير الى بحث لوبون عن بغداد ، ونجترىء منه شيئاً . يقول لوبون :

« دور الخلافة في بغداد بآسية ودورها في قرطبة باسبانيا انضر ادوار الحكم العربي ، ولما استقلت تانك الدولتان بسرعة ، وفصلت بينهما مساقو عظيمة ، كان لهما اصل واحد ودين واحد ولغة واحدة ، تقدمتا تقدما متوازيًا عدة قرون ، وكانت المدينتان الكبيرتان ، بغداد وقرطبة ، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للاسلام من مراكز الحضارة التي أضاءت العالم بنورها الوهاج ايام كانت اوربا غارقة في دياجير الهمجية » . (٢)

ويفيض لوبون في التفصيل في مكانة بغداد

الحضارية ، ودورها العلمي والثقافي ، مما سنعرض له ، لاحقاً . وبإمكان المرء ان يقارن بين ما كتبه المستشرق الفرنسي لوبون عن بغداد وبين ما كتبه كاتب فقرة « بغداد » في « الموسوعة العربية الميسرة » ، ليلمس الفرق في التوجه والمنهجية والموضوعية بين الكاتبين .

- ٢ -

من اين جاء اسم « بغداد » ؟ وماذا يعني ؟
تلكم أسئلة خطرت وتخطر في بال كثير من الباحثين ، والمؤرخين ، ولا بد من البحث عن جواب شاف عنها . وسنستعرض ، فيما يلي ، بعض أهم الآراء في التسمية ، وأصلها ، ومغزاها .
يقول الباحثان العراقيان المعاصران ، الاستاذان : د . مصطفى جواد ، و د . أحمد سوسة ، في بحثهما المشترك « تخطيط بغداد في مختلف عصورها » ، في كتاب « بغداد » ، وفي فقرة أولى تحمل عنوان « بغداد في أدوارها الأولى » :

« اختلف المؤرخون ، قديماً وحديثاً ، في بيان اسم « بغداد » ، وتعيين معناه ، فمنهم من قال ان أصله « بعل جاد » باللغة البابلية ، ومعناه « معسكر بعل » ومنهم من قال انه (بعل داد) ، أي الاله الشمس ومنهم من قال انه كلداني ، وان أصله « بلداد » ، و « بل » ، اسم الاله الكلداني ، و « داد » كلمة آرامية معناها « الفتك » . ويذهب هؤلاء الى انه حدث على عهد (بختنصر ٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م .) ملحمة عظيمة ظفر فيها بأعدائه ، فأنشأ هذه القرية تخليداً لظفره ، وسميت باسم الضم « بل » . ومنهم من يقول بان الاسم بابلي من عهد حمورابي في القرن الثامن عشر ق.م . ، وان أصله « بيت كدادا » ، أي بيت الغنم ، ويرى بعض الباحثين ان كلمة بغداد آرية الأصل ، وان الكيشيين استعملوها أول مرة في مستهل الألف الثاني ق.م . ، ومعناها « عطية الاله » . والفرس يفسرونها على عاداتهم ويرجعونها إلى أصل فارسي هو (باغ داد) أي بستان (ذا دويه) ، أو « بغ داد » أي الضم (بغ) أعطاني ، أو « باغ اي داد » وهو اسم بستان ، أنشأه كسرى انوشروان (٥٣٢ - ٥٧٩ ق.م .) في هذه البقعة ،

فسميت القرية باسمه ، وقيل : كان اسم ملك الصين « بغ » فكان تجار الصين اذا انصرفوا الى بلادهم بأرباحهم الوافرة من سوق بغداد ، قالوا « بغ داد » ، أي هذا الربح من عطية الملك ، وهو اضعف الأقوال وأبعدها عن الاحتمال . وقد ورد اسم بغداد في أخبار فتح العرب للعراق في الثلث الأول من القرن السابع للميلاد وأخبار الدولة الأموية ، وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب حملت أبا جعفر المنصور على تأسيس مدينته المعروفة بمدينة السلام ، والذي يهمننا في هذا البحث الموجز هو انه عزم عزمًا أكيداً على إنشاء مدينة حصينة بين عدة قرى مسكونة مزدهرة - وهي بغداد العتيقة البابلية ، وسونايا الآرامية ، التي من بقاياها الاسلامية اليوم مسجد المنطقة بين بغداد والكاظمية ، والخطابية ، وشرفانية ، وبنائورا ، وورثاء ، وبرائا ، وقطفتا (التي هي اليوم « محلة المشاهدة » ، بالجانب الغربي من بغداد) ، والوردانية ، وقد اختير لموضع المدينة مزرعة تعرف (بالمساركة) ، تيمناً باسمها على عادة العرب في التفاؤل بالأسماء ، وكانت المزرعة ملكاً لستين شخصاً من أهل بغداد فعوضهم المنصور عنها بالنقد ، وكانت هذه المزرعة في موضع البساتين المنسوبة في أيامنا الى المرحوم عبدالحسين الجليبي بين المنطقة والكاظمية في الجانب الغربي من بغداد . . . » (٣)

وهكذا يتبين ، مما كتبه باحثا بغداد ، المعاصران : جواد وسوسة ان اسم (بغداد) لا زالت تحوطه الشكوك أصله وانحداره ، وان كانا يكادان يقطعان بان الاسم غير عربي ، ويمكن ملاحظة هذا من ذكر الباحثين لبغداد العتيقة البابلية ، وورود اسم بغداد في أخبار فتوحات العرب للعراق ، مما يعني ان التسمية موجودة ، أو شبيه بها أو قريب منها موجود ، قبل تأسيس مدينة المنصور المدورة باسم بغداد ، الذي اشتهر في التاريخ ، والعلم والثقافة ، على مدى الأزمان ، ومختلف العصور ، والانظمة الاجتماعية - الاقتصادية - السياسية .

إن ما يهمننا هو ان بغداد ، في التاريخ والسياسة والعلم والثقافة والتقدم الحضاري ،

قرية من قرى (المنوفية) ويقال في النسبة اليه (القصري) . (٤)

ويمكن ان نضيف الى ذلك ، ان اسم بغداد معروف في جورجيا بالاتحاد السوفيتي ، فقد اطلق اسم (بغداد) على احدى مدن جمهورية (جورجيا) السوفيتية ، وهذه المدينة شهيرة في عالم الادب والتاريخ ، لانها موطن الشاعر السوفيتي الكبير فلاديمير ماياكوفسكي ومسقط رأسه (فقد ولد ماياكوفسكي في (بغداد) بجورجيا في ١٨٩٣ وتوفي عام ١٩٣٠ .

- ٣ -

تقترن بغداد بعظمة الحضارة العربية - الاسلامية ، واكبر دور لها في القرون الوسطى ، على صعيد العلم ، والثقافة ، والفنون ، والعمارة ، والازدهار الحضاري ، عموماً .

إننا نكاد نستطيع الجزم ان مدرسة بغدادية متكاملة قد شكلت في الفكر العربي - الاسلامي ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه ، والفنون ، والعلوم الطبيعية ، والاداب .

ويقرن المؤرخون ، والباحثون ، والمتابعون مدرسة بغداد هذه بعصر الرشيد والمأمون . حتى ان احمد الرفاعي ، الباحث العربي البارز، ألف كتاباً ، بعدة أجزاء ، عن « عصر المأمون » . أما لوبيون (الذي لم ينصف العرب بدواعي المجاملة ، التي لا حاجة لها ، طبعاً - ، بل بدواعي الموضوعية ، وبالضرورات التي أمثلتها إنجازات الحضارة العربية (الاسلامية الكبيرة) فهو أيضاً يقرنها بعصر هارون الرشيد ، والمأمون إذ يؤكد في الفصل الثاني من كتابه المشهور « حضارة العرب » ، الذي أسلفنا الإشارة اليه ، ان بغداد بلغت ذروة الرخاء في عصر هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩ م) ، وابنه المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) وصارت أهم مدن الشرق ، وذاع صيت الرشيد ، وطبق الافاق ، فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رسلاً الى بلاطه ، وأرسل عاهل الفرب الحقيقي ، وصاحب الحول والشوكة ، الامبراطور شارلمان ، الذي كان يملك ما بين المحيط الاطلسي ونهر الالب ، وهو الذي لم يملك غير أناس من الهمج ، وفداً ليلبغ الرشيد أطيب تحياته ، ويلتمس الحماية

أقترنت دائماً بالعرب ، وبمؤسسها أبي جعفر المنصور ، وبالحضارة العربية ، الاسلامية ، في عصرها الذهبي (عصر الرشيد والمأمون) ، وعصورها الأخرى .

لقد كانت روما موطناً للبرابرة قبل ان يحضرها الرومان ، مثلما كانت أثينا وكريت قبل ان يحضرها اليونان . وهكذا ، فان بغداد ، سواء كانت بابلية أم فارسية ، في سحيق الأزمان ، فانها عربية منذ أسسها المنصور ، واستوطنها الشعب العربي الذي أنشأ أضخم حضارة في القرون الوسطى ، يوم كانت أوربا غارقة في سباتها .

ولشهرة اسم بغداد ، والعظمة التي اقترنت بها ، سعى الكثير في المشرق والمغرب العربي ، على حد سواء ، للتيمن به ، مسمين عديداً من مدنها به . يقول ناجي معروف ، كاتب المقدمة ، لرسالة الماجستير لطاهر مظفر العميد (بغداد - مدينة المنصور المدورة) ، ما يصلح ان نقتبسه ، هنا ، على سبيل الاستشهاد :

- « ويظهر تأثير بغداد واضحاً في تسمية بعض المدن والأماكن باسمها ، فقد سميت مدينة فاس بـ (بغداد المغرب) ، وهي المدينة التي تتكون من مدينتين مسورتين هما (عدوة القرويين) و (عدوة الأندلسيين) ... أما المدن والأماكن التي سميت (بغداد) فكثيرة منها - (بغداد) التي أنشأها (زيري بن عطية) في المغرب . ومنها الأسماء التي أطلقت على أماكن مختلفة في العالم القديم والعالم الجديد . فقد أطلق اسم (بغداد) في الولايات المتحدة الأمريكية على مدينة في (أريزونا) وفي (فلوريدا) ، وفي كانتاكي ستي ، وعلى قريتين من قرى الولايات المتحدة أيضاً ، وسميت إحدى مدن بولونيا في أوربا باسم (بغداد) ، كما سميت إحدى مدن أستراليا باسم (بغداد) ، أيضاً وفي تانزانيا بأفريقيا أطلقت كلمة (دار السلام) على عاصمتها . وسمى المغاربة بعض مدنها بأسماء المدن الشرقية ، متأثرين بزيارة تلك الديار ، أو ورودهم منها . فوجد اسم (بغداد) يطلق على مكان في مدينة (مكك) لما يتوفر فيه من نخل . وفي مصر أطلق اسم (قصر بغداد) على

لحجيج القدس ، فأجابه الرشيد الى سؤاله ، ورد اليه وفده مع هدايا عظيمة ، ومن بينها فيل مجهز بأفخر جهاز ، والفيل كانت تجهله اوريا تماماً ، ولاليء وجواهر وحلي وعاج وعطور ونسائج حريرية وساعة دقاقة تدل على الوقت. وقد قضى امبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبربرون الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها - والذين حاول شارلمان عبثاً ان يحملهم على إحياء حضارة الرومان » . (٥)

ومع ذلك فقد أعطى لوبون حيزاً اكبر للرشيد (مقابل المأمون) ، وفعل فعله نيكولاي غوغول ، القاص الروسي الشهير في القرن التاسع عشر ، في محاضراته عن الرشيد والمأمون في جامعة سانت بطرسبورغ ، فقد أكد غوغول ان الرعاية والدولة ، معاً ، انتفعت بالرشيد وحزمه وحديه وحكته في السياسة وإدارة شؤون الدولة ، اكثر مما انتفعت بعلم المأمون وثقافته وبيت حكمته . (٦)

ورأينا ، ان الرشيد مهد للمأمون ، وانهما يتكاملان ، ويرفد إنجاز أحدهما إنجاز الآخر ، أما مقابلتهما ، الواحد بالآخر ، فهو ليس أمراً صائباً . لقد كان المأمون يمنح المترجم زنة الكتاب الذي ترجمه ذهباً ، وكان يشرف على أعمال بيت الحكمة ، والتأليف والترجمة ، وكان يعقد المناظرات في ديوانه ، وينتصر أحرار الرأي والفكر ، ويضع كل ثقله في جانبهم ، رغم ان ذلك قد جر عليه كثيراً من ألوان المعارضة الدينية المتزمتة ، والخلاف العقائدي غير ان المأمون ما كان يستطيع ان يفعل كل ذلك ، دون الاستناد الى تخصيصات مالية ضخمة ، وإدارة مالية دقيقة ، واستقرار وازدهار اقتصادي ، تحمل العبء الأكبر فيه أبوه وسلفه هارون الرشيد .

لقد كانت الجبابة موكولة إلى لجنة سميت « الديوان » ، وكان هذا الديوان حازماً ، دقيقاً في عمله . ويمكننا ان نستشير المؤرخ والمفكر العربي الشهير ، ابن خلدون ، صاحب المقدمة الشهيرة (مقدمة ابن خلدون) ، وتاريخه ، لنسمع عنه شيئاً عن فعاليات هذا الديوان الرشيدي البغدادي . يقول ابن خلدون :

« إن ديوان الأعمال والجبائيات من الوظائف الضرورية للملك وهي ، القيام على

أعمال الجبائيات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف اعطياتهم في إبانيتها والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال وقهارة الدولة ، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان .. » . (٧)

وإذا عدنا الى لوبون ، وجدناه يفصل في تأثير القاعدة المادية - الاقتصادية على ازدهار العلم والثقافة في بغداد الرشيد والمأمون ، بخاصة . والحق ، ان شهادة لوبون ، المفكر الأوربي الغربي النزيه جديرة بان تدرس ، وتحلل ، وتستلهم أيضاً . فقد طالما ظلم العرب اناس محسوبون على العلم ، والعلم منهم براء . إن عقدة « الأوربية » ، و « التفوق الأوربي » ، و « عبء الرجل الأبيض » ، و « رسالة التمدن » قد تركت أثرها البالغ ، إضافة الى العقلية الإمبريالية ، في طريقة تفكير هؤلاء « المؤرخين » و « المفكرين » الأوربيين الاستعماريين . ومن هنا تبدو شهادة لوبون ، ودرابر ، وهولبارد ، وهولبدت ، وسارطون ، وأضرابهم ، في مقابل هذا الهذر الإمبريالي الذي لا يجمعه جامع مع العلم ، والتاريخ العلمي ، موضوعية ، منصفة ، ناهيك القول عن ان الأدلة والوثائق تدعمها ، دعماً أكيداً .

فلننظر ، إذن ، ما يقوله لوبون ، بخصوص الازدهار المادي - الاقتصادي ، والقاعدة المادية التي كونها ، وعلاقة كل ذلك بالازدهار العلمي - الثقافي في بغداد الحضارة العربية الاسلامية ، وبالثقافة العالمية ، عموماً .

يقول لوبون (في ذات الكتاب المشار إليه آنفاً) :

« كان انتظام مالية الخلفاء سبباً في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير ، كتعبيد الطرق ، وإنشاء الفنادق والمساجد والمسافي والمدارس في جميع نواحي الدولة ، ولاسيما بغداد والبصرة والموصل الخ . واتسع نطاق الزراعة والصناعة ... وأنشئت مصانع للنسائج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق ، وصار العرب يستغلون الممالح ، ومناجم الكبريت ، والرخام ، والحديد ، والرصاص ، الخ ،

« كان حب العرب للعلم عظيماً ، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها ، ومن ذلك أن شهر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد . وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل ، من يونان وفرنس وأقباط وكلدان ، يتقاطرون الى بغداد ، ويجعلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا ، وقال أبو الفرج عن المأمون إنه « كان يخلو بالحكماء ويأنس بمنابرتهم ويلتذ بمذاكرتهم ، علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده ... فهذا السبب كان أهل العلم مصاييح الدجى وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم » . وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغداد ، وكان يمكن هؤلاء الخلفاء أن يعدوا قصرهم أول قصور العالم وأنضروها » . (٩)

لعل لوبون قد وضع يده على السر في تقدم العرب الحضاري ، وفي عظم إنجازات بغداد الثقافية العربية - الإسلامية ، ودورها العالمي ، في ما اصطلاح عليه ، خطأ ، بالقرون الوسطى (بمعنى التخلف والهمجية ، وهو شيء يصح على الشعوب الأوروبية في القرون الوسطى ، وليس على شعوب الشرق ، وعلى الخصوص ، شعوب الدولة العربية - الإسلامية) .

إن من المهم أن نشير الى أنه حتى الكتب الدينية المقدسة ، وبخاصة - القرآن الكريم تؤكد على وجوب طلب العلم ، وانتهال موارد المعرفة . بل إن أحد ألوان القسم في القرآن ، هو القسم بالقلم ، كما إن عديداً من السور القرآنية ورد فيها الفعل « اقرا » ! وثمة حديث نبوي مشهور ، كثيراً ما يورد في معرض الحث على العلم والدراسة ، وهو يقول : « اطلب العلم ولو في الصين » . وهذا الحديث مشهور شهرة حديث آخر ، بليغ الدلالة ، يقول : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . ولعل هذين الاقنومين الجوهريين : العلم والعدل ، هما الأساس في تقدم العرب المذهل ، وازدهار الحضارة العربية ، الإسلامية ، وقتذاك .

وليس الأمر مقتصر على القرآن ، والحديث النبوي ، فإن نهج الخلفاء الأربعة مضى على ذات المسار . إن الخليفة الرابع ، مثلاً ،

بطرق فنية . ووسعت دائرة التعليم العام ، واستدعى الأساتذة من مختلف أقطار العالم ، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم ، وانتهى الى نتائج لم ينته إليها الأوروبيون الا في العصر الحاضر ، كقياس دائرة نصف النهار ، ونقلت الى الفلسفة العربية كتب علماء اليونان واللاتين ، ولا سيما كتب الفلسفة والرياضيات ، وصارت تدرس في جميع المدارس ، وبحث العرب في آثار القدماء ، فسبقوا الأوروبيين الى ذلك ببضعة قرون . وأقدم العرب على تلك المباحث ، التي لم يكن لهم عهد بها ، بشوق ونشاط ، واكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان ، وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم .. » (٨)

وبالطبع ، ليس للازدهار الاقتصادي وحده أن يصنع الازدهار في العلم والثقافة . إن الثقافة الامريكية المعاصرة لازالت قاصرة امام الثقافة الأوروبية ، مع أن الولايات المتحدة الامريكية تملك من ذهب العالم الراسمالي ورؤوس أمواله ما يفوق ما لأوروبا كلها ، بل والعالم الراسمالي كله ، عدة مرات .

إذن ما الذي صنع هذا الازدهار الثقافي والعلمي العربي - الإسلامي في القرون الوسطى ؟ ولماذا تفوقت بغداد على سواها من الحواضر ؟ ولماذا بز العرب والمسلمون المشيعون بالثقافة العربية (حتى أنهم ليعيدون مجداً لهم انهم يتقنون العربية ويكتبون بها ، كما يقول البيروني) سواهم من الشعوب ، في تلك العصور ، في حقول العلم والثقافة والمعرفة ؟

أسئلة مشروعة لابد من الاجابة عنها بشكل واف ، أو محاولة ذلك على الأقل ، قبل الدخول في تفاصيل إنجازات بغداد الثقافية والعلمية والحضارية .

مرة اخرى ، نستشير لوبون ، مؤرخ وباحث ثقافة العرب ، على الطبيعة (ونحن نعني بذلك - أن لوبون لم يكتف بالثقافة النظرية ، وباستشارة العديد من الكتب والمراجع الهامة ، بل طاف في رحلات عديدة بلاد الشرق العربي ، من مراكش الى دمشق والقدس ، وقد استعان بعديد من رجال العلم والثقافة الفرنسيين ، والاسبان ، والبرتغاليين) .

يقول لوبون (وكأنه ينتظر أمثال هذه الاسئلة) ، في بحثه المشار اليه :

الإمام علي ، نذر نفسه للعلم وتعليمه . ويحفل « نهج البلاغة » - كتاب الإمام علي (ع) - ، وديوانه المنسوب إليه ، بكثير من المغالات البليغة في الدعوة للعلم والمعرفة والتنوير (١٠) .

ونجد مثل هذا لدى الإمام الغزالي ، وكثير من مفكري العرب والمسلمين .

إن مقومات الروح العلمية متكاملة لدى علماء بغداد والمدرسة البغدادية ، والعلماء العرب والمسلمين عموماً . ولعل من الظلم أن نسميها روحاً علمية فحسب ، فهي منهجية علمية حقيقية ، سبقت المنهجية العلمية الأوروبية ، وتقاليدها البحث العلمي الباكونية (نسبة إلى بايكون) ، وإن كان البعض من مؤرخي الأوروبيين وباحثيهم ، البرجوازيين ، لازالوا لا يريدون أن يعترفوا بذلك . ودواعي عدم اعترافهم بالسبق العربي ، والشرقي في المنهجية العلمية والتقاليد العلمية معروفة ، وهي متصل ، أوثق الاتصال ، بعقيدة التفوق الأوربي ، و « رسالة الرجل الأبيض » ، وما إلى ذلك من خرافات ، واعتبارات لا موضوعية ، تقوم عليها العقلية الإمبريالية ، والبرجوازية الأوروبية ، عموماً .

إن المنهجية العلمية في الفكر العربي - الإسلامي ، في بغداد (وفيما بعد) ، في سائر أرجاء الدولة العربية - الإسلامية المترامية الأطراف ، أي من جابر بن حيان العراقي إلى ابن خلدون التونسي إلى ابن رشد وابن ماجة وابن طفيل في الأندلس) تقوم ، في جوهرها على الأسس التالية :

١ - **التجربة ، والروح التجريبية :** وتتجلى هذه ، بشكل خاص ، واستثنائي لدى جابر بن حيان « مؤسس علم الكيمياء » ، والرازي - انعقل العلمي العالمي « الفذ » ، والجاحظ ، الأديب العالم المشهور . يقول هوليارد : « إن التأمل غير المفيد والبعد عن الملاحظة لم نشهدهما في عبقرية جابر ، الذي كان يفضل العمل داخل العمل ، تاركاً مجال الخيال . لقد كانت وجهات نظره واضحة ومتقنة ، وبسبب أبحاثه الدقيقة الشاملة استحق لقب « المؤسس الأول للكيمياء » ، على قواعد سليمة وأسس راسخة » (١١) . وقريب من ذلك ما يقوله پول كراوس ناشر مختارات رسائل جابر بن حيان : « إن جابر بن حيان قد سار بالتراث الشرقي - اليوناني في الكيمياء في اتجاه أكثر تجريباً وتنظيماً ، وبعد به عن السرية والرموز » (١٢) .

وبالتأكيد ، فإن جابر بن حيان ، العالم العربي الفذ ، تلميذ أحد الأئمة المسلمين المشهورين « جعفر الصادق » أو زميله ، كان عالماً تجريبياً ، ليس له نظير في عصره ، فهو يؤكد في كتاب « التجريد » : أن « ملاك كمال هذه الصنعة (يقصد الكيمياء) العمل والتجربة ، فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً » (١٣) وهو يضع التجربة قبل كل شيء « لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل حتى إلى أدنى مراتب الاتقان . فعليك يا بني بالتجربة لتحصل على المعرفة » (١٤) . كما أنه لا يقوم بالتجربة لأجل التجربة ، فالتجربة من أجل المعرفة ، والتجربة مسببة ، ولا بد من التسبب والغاية في كل عمل علمي ، وهكذا يقول جابر ، في إحدى تجلياته العلمية الفذة :

- « يجب على المشتغل بالكيمياء أن يعرف السبب في إجراء كل عملية ، وأن يفهم التعليمات جيداً لأن لكل صنعة أساليبها الفنية ، كما يجب عليه ألا يحاول عمل شيء مستحيل أو عديم النفع » (١٥) .

كما كان جابر يفهم ، فهماً استثنائياً ، القوانين الموضوعية للطبيعة ، ويطالب باحترامها ، واستغلالها . فهو يقول في « كتاب الرحمة الصغير » :

- « واقتف أثر الطبيعة فيما تريده من كل شيء طبيعي فاعتمد عليه » (١٦) .

وهكذا ، فإن جابر ، هذا العالم المختبري الأول في التاريخ ، كان نتاجاً للبيئة العلمية - الثقافية العربية - الإسلامية ، وهي بيئة متفردة في أصولها العلمية وعطائها ، في عصر العرب الذهبي ، العصر العباسي الأول . وينظر لجابر هذا عالم خطأ خطاه العلمية الأولى في البصرة ، وأتمها في بغداد ، وهو الجاحظ . وكان يقول بالتجربة ويعتمدها اعتماد العالم المختبري ، المسلح بنظرية علمية متكاملة نسبياً ، فذة بالنسبة إلى عصرها ، وبالنسبة إلى الشعوب الأخرى المعاصرة للشعب العربي والشعوب المسلمة .

فإن الجاحظ ، الأديب الذي كتب « البيان والتبيين » في النظرية الأدبية والبحث الأدبي والبلاغي ، كتب ، كما فعل العلماء الموسوعيون في عصره - كتاب « الحيوان » ، الذي نقل لنا فيه كثيراً من آرائه العلمية الفذة ، وإيمانه بالتجربة والتجريب سبيلاً إلى المعرفة العلمية اليقينية .

يقول قدرتي حافظ طوقان (وهو من أوائل

من بحث العلوم عند العرب بحثاً موضوعياً () ، في مبحثه عن الجاحظ ، وفي معرض الحديث عن كتابه « الحيوان » ، أقوالاً بليغة الدلالة :

- « وفي هذا الكتاب الجامع تتجلى دقة الملاحظة والتمحيص عند « الجاحظ » ، فهو يلجأ إلى التجربة ليتحقق من صحة نظرية من النظريات أو رأي من الآراء ، فقد جرب في الحيوان والنبات ، وفي كل تجربة كان يسير على نهج خاص ، ففي بعضها « ... كان يقطع طائفة من الأعضاء ، وفي بعضها كان يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وحيناً كان يرمي بتجربته إلى معرفة بيض الحيوان والاستقصاء في صفاته ، وكان حيناً يقدم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته . ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان . وكان في أوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفي أوقات كان يجمع أضداد الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاطعها . وكان يلجأ في بعض الأحيان إلى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم تأثيرها في الحيوان . ولم يقف الجاحظ عند التجارب بنفسه ، واتباع منهاج خاص لكل منها ، بل كان في كثير من الأحيان يشك في النتائج التي يتوصل إليها ويستمر في الشك وتكرار التجربة ، بل ويدعو إلى ذلك كله حتى تثبت صحة النظريات والآراء ، وتتجلى له الحقيقة ، ويتعرف على مواضع اليقين والحالات الموجبة لها . وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً . فلولم يكن ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه » (١٧) .

كما قال جابر بن حيان مقولات أخرى سنعرض لها فيما بعد . ويمكننا أن نقول ، بثقة ، أن هذا العالم المعتزلي كان قمة من قمم الثقافة البغدادية ، ومفخرة من مفاخر الثقافة العربية - الإسلامية ، في عصر بغداد الذهبي . وكانت كثير من مقولات وتطبيقات جابر بن حيان والجاحظ (اللذين أشرنا إليهما ، على سبيل المثال) ، علمية متكاملة ، تقوم على التجربة ، وتعتمد التجريب ، سبيلاً للبحث العلمي ، وصولاً إلى الحقيقة العلمية ، والمعرفة .

٢ - **مشاعية العلم وديمقراطيته** : وخير من يمثل ذلك ، ويقول به العالم الموسوعي العربي ، والأديب

الناقد ، أبو عمرو بن عثمان الجاحظ . يقول قدري حافظ طوقان ، في كتابه « العلوم عند العرب » ، المشار إليه آنفاً ، في بحثه عن الجاحظ وروحته العلمية :

- « ... كان الجاحظ يؤمن بأن العلم « مشاع » ليس ملكاً لأمة دون أخرى ، وأنه إنما وضع ليستفيد جميع الناس على تعدد أهوائهم واختلاف نحلهم . جاء في مقدمة كتابه « الحيوان » ما يلي : « ... وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً وإسلامياً جماعياً ، فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الفريضة ... » . وأدرك الجاحظ ما في الإنسان من مزايا تدفعه إلى التقدم ، جاء في كتاب « الحيوان » قوله « ... وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا ... » . ومن هنا يتجلى إدراك الجاحظ لما أدركه بعض الفلاسفة في هذا العصر ، فقد سبقهم في ملاحظتهم الدقيقة عن الإنسان ومزاياه التي أدت إلى التقدم والارتقاء . فالإنسان يأخذ ما عمله غيره ويضيف إليه » (١٨) .

ويقول طوقان ، أيضاً ، في موضع آخر من بحثه المشار إليه : « ولقد جاء في كتاب الحيوان للجاحظ ما يؤيد أخذه ونقله قال :

- « ... وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً ، وبعضها ما انتقص شيئاً .. وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ، ومن قرية إلى قرية ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ، ونظر فيها ... » . والثالث أن الجاحظ لم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر ... » (١٩) .

ومن المشهور عن الجاحظ ، أنه صاحب مقولة أن المعاني مشاعة مرمية في الطريق . والجاحظ يهدف ، بذلك ، إلى القول بأن العلم ليس حكراً على أحد ، وأن بإمكان أي عقل بشري ، وأي

٣ - ابتغاء الحقيقة الموضوعية قبل أي شيء :

اشتهرت مدرسة بغداد ، بين مدارس الفكر والثقافة العالمية ، بريادتها واصلتها في نشدان الحقيقة الموضوعية ، والسعي من أجلها ، واتخاذها ملهماً أساساً ، وفيصلاً ، ونبراساً في كافة فعاليات البحث العلمي .

وكان العلماء العرب والمسلمون ، في مدرسة بغداد في العصر العباسي الأول ، وما تلتها من مدارس الأمصار العربية ، صعوداً في التاريخ إلى مدرسة ابن خلدون ، وقبلها مدرسة ابن رشد وابن ماجة وابن طفيل (وابن حزم لحد كبير ، أيضاً) في الاندلس ، كانوا يطلقون على الحقيقة الموضوعية مصطلحاً آخر يسمونه : الحق (في مقابل الباطل) ، والعدل (مقابل الهوى والتعصب) وذلك لا يضير شيئاً ، لأن الجوهر واحد ، فالحق والعدل هما الحقيقة الموضوعية ، في الأساس ، وان اختلف المصطلح شيئاً ، باختلاف العصر .

وكان توجه علماء المدرسة البغدادية في ابتغاء الحقيقة الموضوعية محكوماً بضرورات ودوافع تتعدى الدوافع الدينية والأخلاقية ، وتكون شيئاً هو من صلب التفكير العلمي - العقلاني - المنطقي - الفلسفي لدى هؤلاء العلماء ، وعلماء الحضارة العربية ، الإسلامية عموماً . ومن المهم ان نشير الى ان معظم هؤلاء العلماء ، إن لم يكن كلهم ، قد اشتغل بالفلسفة ، وانطلق منها ، كإطار عام ، وخلفية متكاملة ، إلى بحوثه العلمية . وحسبنا ان نشير إلى جابر بن حيان ، والكندي ، والرازي ، وابن سينا ، والبيروني وغيرهم .

قال الكندي ، فيلسوف العرب ، واحد « الاثنى عشر عبقرية الذين هم من الطراز الاول في الدكاء » ، كما يقول كاردافو (٢٢) ، والذي يقف مع الحسن بن الهيثم «في الصف الاول مع بطليموس» ، على حد قول باكون (٢٣) ، في رسالته الى المعتصم بالله في الفلسفة الاولى ، « فقد جاء في هذه الرسالة ان اعلى الصناعات الانسانية واشرفها مرتبة صناعة الفلسفة . ولماذا ؟ لان حردما علم الاشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان ، ولان غرض الفيلسوف في عمله إصابة الحق ، وفي عمله العمل بالحق » (٢٤) . كما أكد في هذه الرسالة ذاتها ، أيضاً ، وجوب إعلاء راية الحقيقة والحق ، وتغليب كلمة الحقيقة على كل ما عداها ، وان جيش الحقيقة وطلاب الحقيقة العلمية الموضوعية واحد ، وان حلقات الحقيقة مترابطة جديلاً مثلما هي مترابطة ، جديلاً ، أيضاً ، مساعي العلماء والبحث

انسان ، ان يكشف كشفاً علمياً ، وان يأتي بجديد في العلم . ان هذه النظرة الديمقراطية إنما هي أقنوم أساس لمنهجية الجاحظ وامثاله من علماء المدرسة البغدادية العباسية .

ولابد من القول ان الجاحظ اثر فيمن جاء بعده ، فالبيروني ، مثلاً ، الذي يتمجد به العرب ، وآسيا الوسطى ، على حد سواء ، والذي يعده سخاو ، العالم الألماني البارز ، وليس دون أسباب وجيهة ، « اعظم عقلية عرفها التاريخ » ، كما يقول جورج سارطون فيه ، انه « ... من أعظم عظماء الاسلام ومن اكابر علماء العالم » ، ان البيروني هذا يقول ، منصفاً كل الامم ، في التراث العلمي العالمي ، ومنحازاً للعرب ، واللغة العربية ، والثقافة العربية ، الإسلامية التي تشربها :

« ... كل واحدة من الامم موصوفة بالتقدم في علم ما او عمل . واليونانيون قبل النصرانية موصوفون بفضل العناية في المباحث وترقية الاشياء إلى اشرف مراتبها وتقريبها من كمالها ... وأما ناحية المشرق فليس فيها من الامم من يهتزل لعلم غير الهند . ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على اصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغريين ... ديننا والدولة عريبان وتوأمين يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية . وكما احتشد طوائف من التوابع في لباس الدولة جلايب العجمة فلم ينفق لهم في المراتد سوق ... وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة ، وان كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعمتها في مآربها مع آلفها وأشكالها ، وأقيس هذا بنفسه وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة في المكرب ، ثم منتقلة إلى العربية والفارسية ، فأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية ... » (٢٥) .

إن طوقان على حق كبير في استنتاجه من مقولات البيروني الدالة ، هذه ، الاستنتاج التالي : « ويمكن الخروج من أقواله ورسائله انه يؤمن بانسانية العلم ، وبالوحدة الشاملة التي يؤدي إليها العلم ، فيوحد بني العقل ويزيل التنافر بينها ، ويقرب بعضها بعض ، ويدعو إلى التفاهم على أساس المنطق والحقيقة » (٢٦) .

ينبغي بحس الحق ولا تصغير بقائله ولا بالآتي به ، ولا أحد بحس بالحق ، بل كل يشرفه الحق « (٢٦) » .

إن تعليق طوقان ، الباحث العربي المعاصر ، على مقولة سلعه العربي العظيم - الكندي - قويم ، في أساسه ، وإن كان يلمح نحسب إلى المغزى العالمي لهذه المقولة ، وارتباطها الجدلي بحرية الرأي ، التي تعتبر حجر الزاوية في كل نشاط علمي أصيل . يقول طوقان ، في معرض الاستنتاج : « ... يرى الكندي أن معرفة الحق ثمرة لتضامن الأجيال الإنسانية ، فكل جيل يضيف إلى التراث الإنساني ثمار أفكاره ويمهد السبيل لمن يجيء بعده ، ويدعو إلى مواصلة البحث عن الحق ، والمثابرة في طلبه ، وشكر من يشغل نفسه وفكره في ذلك ، وهو يعتبر طالبي الحق شركاء ، وإن بينهم نسباً ورابطة قوية هي رابطة البحث عن الحق والاهتمام به ، وقد دفعه اهتمامه بالحق وطالبه إلى الشعور بمسؤوليته ، وإن عليه أن يساهم في بناء الحقيقة ، ويدعو إلى الحذب على طالبها والتفاني في أسعافه ... » (٢٧) .

إن منهج المدرسة البغدادية العلمي في الفكر والثقافة والبحث العلمي الموضوعي يظل يفرض نفسه حتى على علماء متأخرين ، نسبياً ، في الحقبة الزمنية . فإن البيروني ، مولود القرن العاشر الميلادي (ولد في خوارزم عام ٩٧٣ م ، ووافاه الأجل عام ١٠٤٨ م) ، يوصي في مقدمة كتابه القيم « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، بوجوب نبذ التعصب ، والتحامل ، والأهواء ، والتكريس للعلم والحقيقة العلمية ، وبضرورة « تنزيه النفس عن العوارض المرددة لأكثر الخلق ، والأسباب العممية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة ، والتعقب والتظاهر والتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك ... » (٢٨) .

ولعل الدكتور شاخت لم يبالغ في تبيان عظمة خريج المدرسة البغدادية في العلم والثقافة ، العالم الخوارزمي ، البيروني (الحريص على الكتابة بالعربية وحتى على أن يهجي بها ولا يمدح بلفظة أخرى () ، حين أكد يقول :

« ... والحق أن شجاعة البيروني الفكرية وجهه للاطلاع العلمي وبعده عن التوهم وجهه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه - كل هذه الخصال - كانت عديمة النظر في القرون الوسطى ، فقد كان البيروني في الواقع عبقرياً مبدعاً ذا بصيرة شاملة نفاذة ... » (٢٩) .

العلمي ، فقضية الحقيقة العلمية والبحث العلمي في سبيلها واحدة لا تتجزأ ، والشعوب جميعاً تتبارى وتتكامل جهودها في سبيلها . وبذلك ضرب الكندي المثل ، حقاً ، في الانتصار للحقيقة العلمية الموضوعية وجيشها العالمي ، مبرهنه ، بذلك ، على طليعية مركز بغداد العلمي ودوره العالمي في العلم والثقافة العالمية ، وأصالته وعظمته في ذلك العصر بقول الكندي :

« ... ومن أوجب الحق أن لا تدم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزلية ، فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية ، فإنهم وإن قصروا عن بعض الحق فقد كانوا لنا أنساباً وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم التي صارت لنا سبلاً وآلات مؤدية إلى علم كثير مما قصروا عن نيل حقيقة ، ولا سيما إذا هو بين عندنا وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا من غير أهل لساننا . إنه لم ينل الحق - بما يستأهل الحق - أحد من الناس بجهد طلبه ، ولا أحاط به جميعهم ، بل كل واحد منهم ، أما لم ينل منه شيئاً ، وأما نال شيئاً يسيراً بالإضافة إلى ما يستأهل الحق . فإذا جمع يسير ما نال كل واحد من النائلين الحق منهم اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل . فينبغي أن يعظم شكرنا للآتين بيسر الحق ، فضلاً عما أتى بكثير من الحق ، إذا أشركونا في غمار فكرهم وسهلوا لنا المطالب الحقيقة الخفية بما أفادونا من المقدمات المسهلة لنا سبل الحق ، فإنهم لو لم يكونوا ، لم يجتمع لنا من شدة البحث في مددنا كلها هذه الأوائل الحقيقة التي بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية . فإن ذلك إنما اجتمع في الأعصار المتقدمة ، عصرًا بعد عصر ، إلى زماننا هذا ، مع شدة البحث ولزوم الداب وإيثار التعب في ذلك ... » (٣٥) .

وتكاد مقولات الكندي الثاقبة في ابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية أن تكون دستوراً ، ينبغي استلزامه ، واعتباره نقطة الانطلاق دائماً إن إحدى هذه المقولات ، العظيمة الدلالة ، والخالدة ، بالضرورة ، نقول :

« وينبغي أن لا نستحي من الحق واقتناء الحق من أين يأتي ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا ، والأمم المبينة لنا ، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ، وليس

وينبغي القول ان ابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية كان سنة يقول بها كل العقليين التنوريين في الاسلام ، وخصوصاً المعتزلة (مدرسة النظام بخاصة) ، الى علماء المدرسة البغدادية جميعاً ، دون استثناء ، الى علماء الأندلس والمغرب ، حتى ابن خلدون .

فان صاحب « الرسالة العذراء » ، ابراهيم بن المدبر ، انتصر للحقيقة العلمية انتصاراً لفت نظر معاصريه ، فقد جاء في مفتتح رسالته : « ... فتق الله بالحكمة ذهنك وشرح بها صدرك ، وانطق بالحق لسانك وشرف به بيانك » (٢٠) .

اما الجاحظ المعتزلي ، الموسوعي ، عالم بغداد والبصرة معاً ، والمكافح البارز في سبيل العروبة والاسلام ، فقد ابتدأ كتابه المشهور « الحيوان » بدستور بليغ الدلالة في تقاليد البحث العلمي في المدرسة البغدادية الرائدة في العلم والثقافة العالمية ، وكل مدرسة عربية - إسلامية احتذت حذوها ، أو طورت تقاليدها ، فيما بعد (كمدرسة ابن رشد وابن باجة) ومدرسة (ابن سينا) ومدرسة (ابن خلدون) . يقول الجاحظ :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سبباً ، وبين الصدق سبباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينيك الانصاف ، واذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك البر واليقين ، وطرده عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الدلة ، وما في الجهل من القلة ... » (٢١) .

وجاء ابن الهيثم بذات الدستور ، ولكن بمصطلحه الخاص ، فقد صرح في مدخل كتابه (المناظر) ، بان هدفه في جميع مساعيه العلمية (استعمال العدل لا اتباع الهوى) ، وانه يتوخى في كافة مقولاته وتجاربه (طلب الحق لا الميل مع الآراء) (٢٢) . وكان ابن الهيثم متواضعاً ، نصيراً فذاً للحقيقة العلمية ، فقد ذكر عالم عربي مشهور يدعى البيهقي ، ان ابن الهيثم قال : « اذا وجدت كلاماً حسناً لغيرك فلا تنسبه الى نفسك واكتف باستفادتك منه » (٢٣) .

وانعكس الانتصار للحقيقة العلمية أولاً وقبل كل شيء ، حتى في كتابات بعض علماء الحديث ، فقد اكد معاصرنا الباحث العربي ، قدرتي حافظ طوقان ، في كتابه المشهور « العلوم عند العرب » ، مثل ذلك ، حين قال : « وما دمنا في صدد

الاخلاص للحق وتوخي الحقيقة والدقة العلمية ، لابد لنا من الاشارة هنا الى الطرق التي اتبعها علماء الحديث في الوصول الى تمييز الحديث الموضوع من الحديث الصحيح . فقد وضع جماعة منهم طرقاً وقواعد للتوصل الى الحقيقة في الحديث « تتفق في جوهرها واتجاهها والانظمة التي كشفها علماء أوربا فيما بعد في بناء على الميثودولوجية » وللقاضى (عياض) رسالة في علم المصطلح ، هي انفس ما صنف في مجموعها وقد سماها القاضي الى اعلى درجات العلم والتدقيق ، ويعترف الدكتور رستم بفضلها ، فيقول : « ... وعلى الرغم من مرور سبعة قرون عليها ، فانه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوربا وأمريكا ان يكتبوا أحسن منها في بعض نواحيها . وان ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج تحت عنوان تحري الرواية والمجئ باللفظ يضاهي ادق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الافرنج في المانيا وفرنسا وأمريكا وانكثراً .. » . وقد ثبت ان المسلك الذي اتبعه العرب في تنقية الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه ، قد اثر الى حد في أساليب العلماء ، إذ ابان لهم أهمية اتباع الطرق التي تؤدي الى الحق ، كما أوضح لهم منهاجاً دقيقاً للسير بموجبه للوصول الى الحقيقة وإلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال ، وكذلك كان للأساليب التي اتبعها علماء الحديث فضل كبير على التاريخ . وأصبحت القواعد التي ساروا عليها في تحري الحقيقة هي المعول عليها لدى المؤرخين المعاصرين ومحل تقديرهم واعجابهم » (٢٤) .

وربما يبدو طوقان مبالغاً ، ولكن الوقائع التاريخية تؤيد دعواه ، فقد دفع بعض علماء الحديث ، والمتكلمين ، والفلاسفة ، والمناطق ، ضرائب ثقيلة في غمرات مساعيهم في سبيل الحقيقة العلمية ، والعدل ، والصدق ، والأصالة .

٤ - تغليب سلطان العقل والاستهداء بالحكمة العقلية :

ان مما يتصل اوثق الاتصال بالمقومات الثلاثة للمنهجية والتقاليد العلمية للمدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي (وهي ما سبق ان اشرنا اليه ، التجربة والتجريب ، ومشاعية العلم وديمقراطيته ، وابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية) هو الانصياع الى سلطان العقل الانساني وإرادته ، والاستشهاد بمعطيات المحاكمة العقلية . وفي هذا إعلاء ، ولا شك ، لشأن الانسان ، وعقله ، وإرادته ، وتغليب لها ، على ارادة كل القوى

الاشتراكي وسواه) بحث هذه الموضوعة الحضارية الهامة .

إن معاصرنا ، الباحث العربي الذي أكثرنا استشارته ، بصفته مختصاً في بحث أصول البحث العلمي ، والعلوم عند العرب ، قدرني حافظ طوقان ، بدلي بدلوه ، ويقدم كثيراً مما هو مفيد وقيم ، حقاً ، في هذا الخصوص . لقد ألف عدة كتب يكمل أحدها الآخر ، وإن كانت بعض الموضوعات والمضامين تتكرر فيها (وليس دون جدوى) ، أن كتبه الأربعة :

— (العلوم عند العرب ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة) .

— و (مقام العقل عند العرب) ، دار القدس ، بيروت) ،

— و (الخالدون العرب) ، دار القدس ، بيروت) ،

— و (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، دار القلم ، القاهرة) ،

قيمة تعالج كثيراً من المشكلات ، والموضوعات الحضارية والثقافية العربية — الإسلامية في عصر العرب الذهبي ، والعصور التي تلتها وهي لازمة ، لا غنى عنها لكل باحث في الحضارة العربية — الإسلامية ، ومدرستها البغدادية .

أن كتاب (الإسلام والحضارة العربية) لمحمد كرد علي ، لا يرقى ، على صعيد العطاء ، إلى مستوى كتب طوقان ، ولعل مصادره التي استشارها ، والفترة المبكرة التي جرى تأليفه فيها ، إضافة إلى منطلقات ومنهجية المؤلف ذاته ، قد أضعفت ، في مجموعها ، نسبياً من مردود الكتاب الفكري والعلمي ، قياساً إلى كتب طوقان .

يفصل طوقان في كتابه القيم (مقام العقل عند العرب) في أصول العقلية والدعوة العقلانية أو المذهب العقلاني لدى العرب ، وفي الدين الإسلامي عموماً . ومن هذا التفصيل نفهم أن جذور المدرسة العقلية المعتزلية ، في المدرسة البغدادية في العلم والثقافة والبحث العلمي ، تمتد إلى عقلية العربي نفسه ، وإلى أصول الدعوة الإسلامية ذاتها .

ويسوق طوقان كثيراً من الآيات القرآنية في التدليل على المقام الكبير للعقل في الدعوة الإسلامية .

وهكذا ، فإن العقلين العرب والمسلمين ، من

الخارجية ، بما فيها قوى السلطة الفاشية ، والاستبداد ، والخرافة ، والغيبيات .

ولعل من تحصيل الحاصل أن يؤمن علماء المدرسة البغدادية العربية — الإسلامية في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، بالعقل ، والتنوير ، والشك ، والمحاكمة العقلية ، والتمحيص . فإن كل هذه المقومات الأربعة التي أشرنا إليها (أي مضافاً إليها الإيمان بالعقل) مترابطة جدلياً ، ملتحمة غفويًا إذ صبح التعبير ، يؤدي أحدهما إلى الآخر ، ويشترط أحدهما الآخر ، ويتكامل الواحد منهما بالآخر . فالتجربة والتجريب بحد ذاته هو تغليب لسلطان العقل ، وابتغاء الحقيقة العلمية بعيداً عن التعصب والأهواء هو من صلب ما يقول به العقليون المسلمون وغير المسلمين ، ومثل ذلك القول بمشاعية العلم وديمقراطيته .

إن العقلين العرب كانوا رائدين أفاضاً ، وقد شقوا الطريق لغيرهم من عقليي أوروبا . ويشير الفيلسوف جون لويس ، كما يشير المستشرق السوفييتي البارز ، براغينكي إلى ريادية عقليي الشرق ، والحضارة العربية — الإسلامية ، والمدرسة البغدادية في هذه الحضارة ، بصفة خاصة . وليس هنا مجال التفصيل في كل هذا ، فهو موضوع ينبغي أن يوفى حقه من البحث والتدقيق ، لأنه يجلو أموراً كثيرة ، غمط حق الشرق العربي — الإسلامي ، فيما أعلي شأن اليونان ، وعقليي أوروبا المتأخرين ، دون وجه حق . إن كل ذلك مرتبط ، ولا شك بعقده التفوق الأوروبية ، التي تغذيها الدعاية الامبريالية ، والعنصرية والفاشية والصهيونية .

لقد ولدت العقلية أو العقلانية ، والانسانية في الشرق ، وفي أحضان المعتزلة والرازيكالين العرب والمسلمين ، في صفوف مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي . ولم يستطع الغرب الأوربي المناداة بذلك إلا في عصر النهضة ، مقتبساً كثيراً من أصول دعوته من الحضارة الشرقية ، والعربية — الإسلامية ، بخاصة .

إن المستشرق السوفييتي غريغوريان قد أماط اللثام عن بعض هذه الأمور في كتابه عن الفلسفة العربية — الإسلامية (الذي ترجمنا فصلاً منه لمجلة « المورد » العدد الخاص بالفارابي) ، وجاء مستشرق سوفيتي آخر هو شيرويان (وكلا المستشرقين من أرمينيا السوفيتية) ، بإضافة جدية في هذا الصدد . ويوالي كثير من المستشرقين والباحثين السوفييت (وغير السوفييت في المعسكر

المعتزلة وغيرهم ، في العصر العباسي الاول (عصر العرب الذهبي) ، كانوا يرتكزون إلى خلفية غنية من اصول العقلانية ، خصوصاً أيام الدعوة الإسلامية الاولى ، وأيام الخلفاء الراشدين .

إن طوقان على مطلق الصواب ، في تأكيده ، في تضاعيف هذا الكتاب ، (في فصل : الاجتهاد في الاسلام) ، على أن صاحب الدعوة الإسلامية ، محمداً ، نفسه ، كان قد وقف بجانب الاجتهاد رافعاً الشعار (اجتهدوا) فكل ميسر لما خلق له ، وتأكيده أن « سد باب الاجتهاد والتمسك بالتقليد الأعمى » هو من جملة أسباب ما أصاب العرب والمسلمين من تأخر ونكبات . ويقف طوقان مع جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، والمصلحين الاسلاميين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وينقل نصاً للافغاني يقول فيه « ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سد ؟ ومن قال لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ويهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم الحديثة وحاجات الزمن وأحكامه ؟ إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا . ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » (٢٥) .

وإذا ما عدنا إلى العصر الذهبي للخلافة العربية ، نعني العصر العباسي الاول ، وازدهار المدرسة البغدادية في العلم والثقافة والبحث العلمي ، فإننا سنجد أن هذا العصر كان رائداً حقاً في إعلاء شأن العقل والعقلانية والاجتهاد وحرية الرأي .

وحسبنا نقراً ما كتبه طوقان ، بهذا الخصوص ، في كتابه « العلوم عند العرب » ، لنطلع على الانجازات الرائعة ، الرائدة ، حقاً ، للتقدم الحضاري الانساني ، لبغداد العصر الذهبي في الفكر والثقافة والبحث العلمي .

يقول طوقان : « سار المعتزلة في أسلوبهم على اساس العقل - وكان العقل مقياسهم - وهذا ما جرد كتاباتهم وآراءهم من الأساطير الخرافية ، وفي أقوال بعض المتكلمين من المعتزلة نجد ما يدل على أنهم قد وضعوا الاسس التي بني عليها - فيما بعد (علم البحث والمناظرة) . روى الاصفهاني قال : « ... أجمع متكلمان فقال أحدهما : هل لك في المناظرة ؟ فقال على شرائط ألا تغضب ، ولا تعجب ،

ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيري وأنا اكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلاً ، ولا تجوز لنفسك تأويل مثلها على مذهبي ، وعلى أن تؤثر التصديق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلامنا يبقى مناظرته على أن الحق ضالته والرشد غايته ... » ليس في هذه الأقوال الجامعة ما يتجلى الروح العلمي الصحيح الذي كان له أكبر الأثر في أسلوب الكثيرين من الفلاسفة والعلماء مما جعل هؤلاء يتوخون في كتاباتهم الحقيقية ، والوصول إلى الحق ، وبلجأون ، في سبيل ذلك إلى السير على أساس علمي دقيق . لقد سار النظام (وهو ذو عقلية قوية سابقة لزمانها) كما يقول الاستاذ أحمد أمين - في كتاباته عن الشك والتجربة . وهما الركنان اللذان سببا النهضة الحديثة في أوروبا ، فاعتبر الشك أساساً للبحث . وقد قال في هذا الشأن : « الشك أقرب إليك من الجاحد . ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك . ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك ... » . وعلى ذكر الشك ، نذكر قولاً لأبي هاشم البصري وهو (الشك ضروري لكل معرفة) . واستخدم النظام التجربة كما يستخدمها الآن الطبيعي والكيميائي في مختبره . وجاء في كتاب الحيوان للجاحظ ، ذكر تجارب كثيرة للنظام في الحيوان وغير الحيوان لا يتسع المجال لعرضها . وقد عرضناها بشيء من التفصيل في بعض مؤلفاتنا . وهذه التجارب هي أمثلة على البحث العلمي والتجربة الصحيحة القائمة على الدقة والمنطق . ووضع النظام منهجاً بديعاً للدرس ، فهو ينقد من يسير في تعلمه على طريقة حشو المعلومات في الذهن ، وأنه ينبغي على طالب العلم أن يتخير من الكتب الجيد المنتقى ، لأن العلم ليس في جمع الكتب وحفظ ما فيها وإنما هو بالتفكير . وجاء الجاحظ بعد النظام ، وسار على غراره في منهج البحث وتحرير العقل وفي الشك والتجربة قبل الإيمان واليقين . قال الجاحظ : « تعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه ... » . ويأتي بعد ذلك التفريق بين العوام والخواص . لأنهم لا يتوقفون في التصديق ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الأقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد . قال بسلطان العقل ، لا يسلم بشيء إلا إذا استساغه العقل ، فالأدب عنده خاضع للنقد ، وكذلك فلسفة أرسطو ، وغيره من فلاسفة اليونان . حتى الحديث نقده ، ولم يقبل الأخذ به إلا على أساس العقل . وإذا اختلف

الناس فالحكم للعقل لا لغيره . ومن يطلع على كتابه الشهير (الحيوان) يتبين له صحة ما ذهبنا إليه ، وأنه هاجم رجال الحديث ، لأنهم على رأيهم جماعون لا يشغلون عقولهم . وقد قال عنهم : « ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤونة ، ولكن أكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الإخبار عن البرهان ... » . وفي هذا الكتاب دقة الملاحظة والتمحيص ، فهو يلجأ إلى التجربة ليتحقق من صحة نظرية أو رأي من الآراء . يجرب بنفسه في الحيوان والنبات ، ويشك ويستمر في الشك ، بل ويدعو إليه حتى تثبت صحة النظريات والآراء . وكان يفضل التجربة على كل نقل ، ولا يأخذ بقول أحد حتى يتحقق من ذلك بنفسه ، والأمثلة على ذلك عديدة في كتاب الحيوان . وكان يجري في تفسيره للظواهر والطبائع حسب العقول وطبائع الأشياء . و أبان صراحة بأن العقل الصحيح يجب أن يكون أساساً من أسس التشريع » (٢٦) .

إن مما يدعم طوقان ، وزملاءه في هذا الانتصار لتقاليد ومنهجية البحث العلمي في عصر ازدهار العباسي النموذجي ، العصر العباسي الأول ، وعلو كعب المدرسة البغدادية في العلم والثقافة ، أن مما يدعمهم هو سيل لا ينضب من مقولات علماء بغداد ، والمدرسة البغدادية ، وتلامذتها في كل مكان ومختلف الأزمان ، تقريباً ، في إعلاء سلطان العقل والاحتكام العقلي ، كسبيل أساس ، من بين السبل الجوهرية التي لا بديل لها ، نحو الحقيقة العلمية الموضوعية ، والكشف العلمي ، والفتوحات الفكرية .

فان الرازي ، شيخ العقليين من علماء المدرسة البغدادية ، والسائر على تقاليد المعتزلة العلمية وفي أطوارها الرحب ، يعتقد فصلاً خاصاً ، من كتابه (الطب الروحاني) ، في فضل العقل ومدحه ، تقتطف منه هذه المقتطفات ، البليغة والدالة والمفزة :

« ... فبالعقل فضلنا على الحيوان - غير الناطق - حتى ملكناها وسسناها وذلناها وصرفناها في الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها ... وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل إلى بغيثنا ومرادنا ... » (٢٧) .

« ... فانا بالعقل أدركنا صناعة السفن واستعمالها ، حتى وصلنا بها إلى ما قطع

وحال البحر دوننا ودونه ... وبه نلنا الطب الذي فيه الكثير من مصالح أجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا النافعة لنا . وبه أدركنا الأمور الفاضلة البعيدة عنا والخفية المستورة عنا ... وبه عرفنا شكل الأرض والفلك ، وعظم الشمس والقمر ، وسائق الكواكب وأبعادها وحركاتها ... » (٢٨) .

« ... وبالعقل وصلنا إلى معرفة الباري عز وجل الذي هو أعظم ما استدركنا وأنفع ما أصبنا ... وبالجمل ، فانه الشيء الذي لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين .. والذي به نتصور أفعالنا العقلية قبل ظهورها للحس » (٢٩) .

« ... وإذا كان هذا مقداره ومحلّه وخطره وجلاله فحقيق علينا أن لا نحطه عن رتبته ، ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله - وهو الحاكم - محكوماً عليه ، ولا - وهو الزمام - مزموماً ، ولا - وهو المتبوع - تابعاً ، بل نرجع في الأمور إليه ونعتبرها به ونعتمد بها عليه ... فنمضيها على إمضائه ، ونوقفها على إيقافه ، ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ومكدره والحائد به عن سننه ومحجته ، وقصده واستقامته ، والمانع من أن يصيب به العاقل رشده وما فيه صلاح عواقب أمره ، بل نروضه ونذله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيهِ . فانا إن فعلنا ذلك صفاً لنا غاية صفائه ، وأضاء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به ، وكنا سعداء بما وهب الله لنا منه ومن علينا به ... » (٤٠) .

وإذا كان الرازي يقول مثل هذه المقولات ذات الدلالة العميقة في الانتصار للعقل ، وحرية الرأي ، والاجتهاد ، فيجعل العقل حاكماً وزماماً ، ومتبوعاً ، ونبراساً ، فان تلامذة آخرين للمدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي يرفدون مقولات الرازي بمقولات أخرى ليست أقل أهمية أو أضال دالة . فالفارابي يكرس للعقل رسالة خاصة ، بل يبنى مدينته الفاضلة على العقل النقدي الواعي وبه (٤١) ، وابن سينا يمجّد العقل في كافة مؤلفاته الفلسفية ، والعلمية ، و « القصصية » (بما فيها « حي بن يقظان ») ، و « قصة سلامان وإسبال » ، و « قصة رسالة الطير » (٤٢) ، وأبو العلاء المعري يترجم كثيراً من تعاليم المعتزلة ، والمدرسة البغدادية ، والحركات

الراдикаلية الفكرية في الاسلام ، شعراً بليغاً ،
نقتطف منه هذه الأبيات (٤٢) :

أيها الفر إن خصصت بعقل
فاسألنه فكل عقل نبي
كذب الظن لا إمام سوى
العقل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحمة
عند المسير والأرساء
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل
اللب قطب والأمور له رحي
فيه تدبر كلها وتدار
تفكر فقد حار هذا الدليل
وما يكشف النهج غير الفكر
فاحذر ولا تدع الأمور مضاعة
وانظر بقلب مفكر متبصر
فكروا في الأمور يكشف
لكم بعض الذين تجهلون بالتفكير
فشاور العقل واترك غيره هدرأ
فالعقل خير مشير ضمه النادي
عليك العقل وافعل ما رآه
جميلاً فهو مشتار الشوار
إذا تفكرت فكراً لا يمازجه
فساد عقل صحيح هان ماصعباً
خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه
ولا يرجون غير المهيمن راجي
إذا رجع الحصيف الى حجاه
تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما آداه لب
ولا يغمسك جهل في صراها
سألت منجمها عن الطفل الذي
في المهد كم هو عائش من دهره
فأجابها مائة ليأخذ درهماً
وأتى الحمام وليدها في شهره

بل ان هذا الشاعر الراديكالي المتطرف (٤٤)
يمضي في النهج العلمي حتى نهاية الشوط ، أحياناً
فيقول بما يقوله العديد من العلماء المعاصرين الآن:
انه لا يقين مطلق ، ولا إطلاق ، بل هو الاجتهاد .
وكل شيء نسبي :

أما اليقين فلا يقين وإنما
أقصى اجتهادي ان أظن واحداً

ولعل طوقان كان محقاً ، تماماً ، حين قرر ،
بخصوص اشعار أبي العلاء العقلانية الناقدة هذه ،
فقال : « ويرى أبو العلاء أن سبب الفساد في
مجتمعه يعود الى عدم الاصفاء الى العقل ، وإلى
إهماله وسيطرة المصالح الخاصة والأهواء . ولقد
تدبرنا عيوب المجتمع في القرن العشرين فوجدنا
انها لا تختلف كثيراً عن عيوب عصر أبي العلاء ،
والسبب في الحالين وفي أسباب الفساد واحد -
هو عدم الرجوع الى العقل وغلبة الغايات
والأغراض » (٤٥) .

أما إخوان الصفا فاعتبروا العقل أشرف
الموجودات ، بل جعلوه رئيسهم وإمامهم الذي به
يأتون ويهتدون ، فهم يقولون :

« واعلم انه ما من جماعة تجتمع على أمر من
أمور الدين والدنيا وتريد ان يجري أمرها
على السداد ، وتكون سيرتها على الرشاد ،
إلا ولابد لها من رئيس يرأسها ليجمع شملها ،
ويحفظ نظام أمرها ، ويراعي تصرف
أحوالها ، ويرم على الانتشار جماعتها ،
ويمنع من الفساد صلاحها ، ذلك ان الرئيس
ايضاً لابد له من اصل يبنى عليه أمره ويحكم
به بينهم . وعلى ذلك الأمر يحفظ نظامهم -
ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة
إخواننا ، والحكم بيننا بالعقل الذي جعله
الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه ...
ورضينا بموجبات قضايا على الشرائط الذي
ذكرناها في رسائلنا وأوصينا بها إخواننا ..
فمن لم يرض بشرائط العقل وموجبات
قضاياها ، ولم يقبل تلك الشرائط التي
أوصينا بها إخواننا أو خرج عنها بعد
الدخول فيها ، فعقوبته في ذلك ان نخرج من
صداقته ونبترا من ولايته ولا نستعين به في
أمورنا ولا نعاشره في معاملتنا ولا نكلمه في
علومنا ونطوي دونه أسرارنا ونوصي بمجانبتها
إخواننا ... » (٤٦) .

ومع ذلك ، فان طليعية أفكار إخوان الصفا
إنما تستمد أصولها من تعاليم مدرسة المعتزلة
البغدادية . فان طوقان يروي في كتابه (مقام العقل
عند العرب) ، الذي أسلفنا الإشارة إليه ان تمجيد
المعتزلة للعقل بلغ حداً « دفعهم الى محاولة إخضاع
النقل للعقل ، وتحوير العقائد الدينية بحيث توافق
التعاليم الفلسفية وقالوا : « اذا تعارض النقل
والعقل وجب تقديم العقل لأنه أساس النقل » (٤٧)
وروى في موضع آخر ، من كتابه الانف ذكره ، ان

القول : إن أحياء روح المعتزلة في اعزاز العقل وتمجيد ، والرجوع إليه واعتباره الحكم والدليل - نقول إن إحياء هذه الروح يوجد الجراة ويفتح الآفاق أمام الفكر ويدفع الى أعمال العقل وتحريكه ، فلا تقوم مع هذه حركات رجعية ولا تنجح محاولات لايقاف مجرى التقدم . ذلك أن هذه المحاولات وتلك الحركات لا تثمر إلا في مجالات كبت الفكر وتجميده وتقديس التقليد «(٥١)» .

٥ - ملاحمة التنظير بالتطبيق :

إن الأقنوم الخامس من أقانيم منهجية وتقاليدي مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي هو - ملاحمة التنظير بالتطبيق ، أو الفكر النظري بالممارسة العملية . إن كافة هذه الأقانيم (التجربة والتجريب ، مشاعية العلم وديمقراطيتها ، ابتغاء الحقيقة الموضوعية ، الإيمان بالعقل والعقلانية وحرية الرأي ، وملاحمة النظر بالعمل) تتلاحم ، معاً ، مترافدة ، متكاملة ، لتكون صلب المنهجية والتقاليد التي عملت بها المدرسة البغدادية العلمية - الثقافية ، بهذه الدرجة أو تلك ، وبهذا الشكل أو ذاك .

إن جابر بن حيان أول ، وأبرز من قال بوجوب ملاحمة الفكر النظري بالممارسة العملية . فهو في كتاب الميزان - أحد أقيم كتبه وأخطرها - يقول :

- « إن كل نظرية تحتل التصديق والتكذيب لا يصح الأخذ بها إلا مع الدليل القاطع »(٥٢)

ويقول في كتاب آخر له ، هو (كتاب الخواص الكبير) ، المقالة الأولى ، مقولة عظيمة المغزى ، بهذا الخصوص :

- « إننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط ، دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه ، بعد أن امتحناه وجربناه فما صح أوردناه وما بطل رفضناه وما استخرجناه نحن أيضاً . قايسناه على أحوال هؤلاء القوم »(٥٣) .

كان جابر ، عالم بغداد المبرز ، يعرف ، جيداً ، العلاقة العضوية بين « العلم » و « العمل » في العملية الكيميائية ، والفعالية العلمية ، و « الصناعة » ، أي التكنولوجيا ، عموماً . فهو لا يوصي بالعمل للعمل ، أو التجريب للتجريب ، بل يلاحم بينهما بذكاء ووعي ، فكل « صناعة » في رأيه لا بد لها من سبق العلم في طلبها للعمل ، لأن

أبا هذيل العلاف ، أحد أبرز رجال المعتزلة (واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد) ، وكان يقول : « إن الإنسان مكلف بالأشياء التي يستطيع العقل التمييز فيها بين الخير والشر ولو لم تصل إليه أوامر الشرع ، وإن قصر في ذلك استوجب العقوبة فيجب عليه الصدق والعدل والأعراض عن الكذب والجور ولو لم يصله شرع في ذلك لأن العقل يستطيع أن يدرك حسناتها وقبحها لما فيها من صفات حسنة أو قبيحة »(٤٨) .

وقد درس الباحثون العرب المعاصرون وغيرهم تعاليم المعتزلة ، إلا أنهم لم يفوها حقها ، فلا زال المجال متسعاً لكثير من الدراسات الميدانية المدققة .

وقد روى طوقان أن الباحث العربي المعاصر شفيق جبري قارن تعاليم الجاحظ بديكارت ، ووجده - وهو محق في ذلك - رائداً للشك سبيلاً للوصول إلى يقين المعرفة ، وقال في ذلك : « ... فالأدلة والبراهين من أعمال العقل ، وهذه الطريقة إنما هي طريقة ديكارت ملاكها العقل ومدار طريقته على هذه الكلمة : لا تصدق إلا ما كان واضحاً ، صدق ما كان واضحاً » . فالوضوح إنما هو أصل الأمر في اليقين . فما ينبغي القوة من القوى الظاهرة أن يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا . وما القوى الظاهرة إلا السلطة والأوهام والمصلحة والأحزاب ... فما أشبه قول ديكارت لا تصدق إلا ما كان واضحاً بقول الجاحظ « لا أجعل الشيء الجائر كالشيء الذي تثبته الأدلة »(٤٩) .

وفيما يبدو ، فإن كلا من طوقان ، وشفيق جبري ، على حق ، فإن الجاحظ كان إماماً من أئمة العقليين العرب ، وأحد أكبر رادة العقليين في العالم ، وحسبنا أن نشير (إضافة إلى ما أسلفنا الإشارة إليه من مقولاته) إلى هذه المقولة الجاحظية الحاسمة :

- « فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل . وللأمر حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقل . والعقل هو الحجة »(٥٠) .

ولعل طوقان مصيب في فذلكته ، حين قرن التراث التقدمي عند العرب والمسلمين بالمعاصرة ، مستنتجاً مثل هذا الاستنتاج البليغ ، الذي نقططه بنصه :

- « والان ... وقد أشرف موضوع (سلطان العقل عند المعتزلة) على ختامه لا بد لنا من

العمل إنما هو إبراز ما في العلم من قوة الصانع الى المادة المصنوعة لا غير «(٥٤)» .

وأوصى جابر بمراعاة القوانين الموضوعية ، وباحترام الواقع والوقائع المادية ، والحقائق المموسة ، فان « جهل الجاهل بأمر من الأمور ليس سبباً لارتفاع ذلك الأمر من العالم ، فانه ليس لأن كثيراً من الناس لم يسمعوا ولم يعرفوا كيف السبب في أمور ، فاذن لا يكون لهذه وجود فيكون جهل الجاهل سبباً لعدم الشيء الكائن فان هذا جهل وأول في العقل »(٥٥) .

وبالطبع ، كان جابر لا يتلهى بالتجربة والعمل ، بل هو يقوم بذلك ، ضرورة ، وتطبيقاً لأفكار ونظريات سابقة ، فالنظر أولاً ، والعمل ثانياً . وهو يقول في ذلك :

« العلم سابق . وكل من لم يسبق الى العلم لم يمكنه إتيان العمل ، وذلك لأن العلل إنما تبرز الصورة في المادة على قدر ما تقدم من العلم وإلا فمال العمل ياليت شعري »(٥٦) .

إن جابر ، ومن ورائه مدرسة بغداد العلمية ، كلها ، ضد العشوائية والأهدار ، فالتطبيق هو اختبار لفروض ونظريات ، ولكنه ، أيضاً ، ضد احتقار العمل اليدوي ، والاستنكاف عن الممارسة (كما كان يفعل علماء اليونان) . من هنا تنطلق نصيحة جابر بن حيان (مجسداً في ذلك طليعية وريادية المدرسة البغدادية العلمية) الى الكيميائي : « اتعب أولاً تعباً واحداً ، وانظر واعلم ثم اعمل – فانك لاتصل أولاً – ثم تصل الى ما تريد »(٥٧) .

هكذا ، إذن ، « انظر واعلم ثم اعمل » ، هذا هو شعار جابر ، وعلماء بغداد ، مركز العلم والثقافة العلمية ، في عصرها ، بحق .

إن العالم في العلوم الطبيعية ينبغي ان يقيم في المختبر ، وبذلك يكون التطبيق لفروضه ونظرياته ، كما يكون الربط للعلوم النظرية بالتكنولوجيا . هذا هو ما انتهى اليه علم جابر ، والعلماء البغداديين ، والعلماء الذين سيتعلمون على أيديهم وعلى كتبهم وتعاليمهم ، في الأجيال والعصور اللاحقة . يقول جابر في ذلك :

« من كان درباً كان عالماً حقاً ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً ، وحسبك بالدرجة في جميع الصناعات إن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل »(٥٨) .

ومؤدى ما يقوله جابر ، ان النظرية بلا

تطبيق ، والفكر بلا ممارسة ، أمر عقيم ، مثلما يكون التطبيق او التجربة دون نظرية امراً عقيماً ، وأهداراً ، هو الآخر ، وهذا بعينه ما يقوله علماء اليوم ، سواء كان ذلك في العلوم الطبيعية ، أم العلوم عامة ، أم السياسة ، والعلوم الادارية ، والاجتماعية ، جميعاً .

إن النظريين من أرسطراطي الفكر ، على الطريقة اليونانية ، ممن يستنكفون عن الممارسة والعمل اليدوي والاختبار ، يظلون قاصرين ، محبطين ، ويكون انتفاع المجتمع بهم معدوماً أو كالمعدوم . يقول جابر ، ملخصاً بعض معطيات الحياة العلمية وجدليتها :

« كم من دارس إذا بلغ الى العمل وقف ، فيكون أصحاب الصناعة أنفذ في ذلك الأمر من العالم الفائق »(٥٩) .

كما يقول ، على صعيد آخر ، متمماً مقولاته هذه :

« ما افتخرت الحكماء بكثرة العقاقير ، وانما افتخرت بجودة التدبير . فعليك بالرفق والثاني وترك العجلة » .

لقد كان جابر بن حيان ، والجاحظ ، والرازي ، وسواهم من علماء مدرسة بغداد العلمية ذوي منهجية علمية متكاملة ، نسبة الى عصرهم ، ورائدين أفذاذاً في علومهم وتجاربهم ، وفي فلسفة علومهم أيضاً . يصف جابر منهجه فيقول قولاً ذا دلالة بليغة :

« ... وقد علمته بيدي وعقلي من قبل ويحث عنه حتى صبح وامتحنته فما كذب »(٦٠) .

هذا هو دستور جابر : نظر وعمل .

فصل بين الاثنين ، ولا تغليب لاحدهما على الآخر إنها جدلية العلم والعمل الذي أنت بهما مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، وكانت رائدة فيها ، سابقة لكافة المدارس الأوروبية اللاحقة .

ومن المهم ان ننقل الاستنتاجات التي تطلع بها أخلاف جابر بن حيان وعلماء المدرسة البغدادية ، نعني – علماء العرب المعاصرين ، من دراستهم لجابر ومعطيات علومه . يقول زكي نجيب محمود ، في كتابه « جابر بن حيان » : « إن من حق جابر ان نسجل له ، في موضوع الاستقرار ، وانه يؤدي الى الحكم الاحتمالي

فقط ، دون اليقين ، سبقاً لرجال المنهج العلمي في العصور الحديثة الذين أوشكوا اليوم ، منذ ديفيد هيوم ، ان يكونوا على اجماع في هذا حتى أصبح من أبرز الخصائص التي تميز العلم اليوم انه احتمالي النتائج ما دام قائماً على أسس استقرائية» (٦١) .

أما مصطفى ليب ، دارس جابر وعلماء المدرسة البغدادية في الكيمياء وتلامذتهم ، عموماً ، فإنه يسجل جابر « في ميدان الاهتمام بالبحث التجريبي وتفصيل شروطه وتحديد إمكانياته ومداه سبقاً لأعلام البحث وفلاسفة العلم في أوروبا وسبقاً للمحدثين والمعاصرين المهتمين بمفاهيم البحث والقياس الكمي في العلوم الطبيعية » (٦٢) .

كما يسجل الباحث لجابر ، طبيعة ونطاق مدرسة بغداد العلمية ، في أن واحد معاً ، تواضعه ، تواضع العلماء الحقيقيين ، وتقديسه حرية الرأي والكلمة ، وولعه بالمنظرة في سبيل الاقناع . فقد قال جابر في كتاب البحث وهو يستعرض نظرية الميزان :

« انا نحن قد اخترنا لانفسنا نوعاً من الاوزان ممن اخترنا ان يعمل به فهو له وان اخترنا ان يرسم لنفسه رسماً آخر فذلك إليه . وليس ترتيبنا لذلك أمراً ضاراً لابد منه بل ذلك لكل أحد إذا علم القياس بين افعال الطبايع يرتبه على اختياره كيف ما شاء » (٦٣) .

ويقول باحثنا في الختام « ان العالم المنصف في رأي (جابر) - « إذا ذكر شيئاً احتج عليه وله وأخذ حقه من خصومه ووفاهم حقهم وإلا فقد وقع العناد حماقة وجهلاً » (٦٤) . . . ولم يكن جابر عالماً محققاً فحسب بل كان فيلسوفاً للعلم ، وكان بالإضافة الى ذلك ذا نظرة جوانية عميقة تقدر إمكانية الواقع وتحترم حدود التجربة المحسوسة ومع ذلك فهي تتطلع دائماً الى « الماوراء » وتناهض كل دعوى قطعية « دجماطيقية » ، ومن أبى ذلك لزمه ، على حد تعبيره ، ان ينكسر وجود أشياء كثيرة وهي موجودة » (٦٥) .

ونعتقد ان مصطفى ليب و طوقان وأضرابهما ممن درسوا جابراً بن حيان ، مثل هذه الدراسة الموضوعية ، وانتهوا الى مثل هذه الاستنتاجات (التي عرضنا لشيء منها) ، نعتقد انهم مبررون بالوقائع ، والأدلة المادية الملموسة .

ان التجريب ، وربط النظر بالعمل لدى جابر يخضع لضوابط صارمة ، وهالك مثلاً لما يقوله جابر متمماً مقولاته السابقة :

« إياك ان تجرب أو تعمل حتى تعلم ويحق ان تعرف البيان من أوله الى آخره بجميع تنقيته وعلله ثم تقصد لتجرب » (٦٦) .

وينضم الى جابر ، على هذا الصعيد ، الجاحظ معلم العقل والأدب ، عالم بغداد المعتزلي الكبير ، وخصوصاً في كتابه الشهير « الحيوان » .

فان الجاحظ يجابه زعماء المدرسة الفكرية اليونانية ، من أرسطو والفكر النظري ، أمثال أرسطو ، ويساجلهم ، ويحاورهم ، و « يقاتلهم » بكل فنون المقاتلة ، بما في ذلك التهكم والسخرية المتبنية على المحاكمة العقلية . ان الجاحظ يأخذ على هؤلاء (رغم جلالهم العلمي وسبقهم وفضلهم) ولوعهم النظري ، واستبعادهم عن التجربة ، والعمل ، مما يضع مقولاتهم موضع الأحكام الاعتبارية ، بل يضع بعضها في مصاف الخرافة ، والمستحيل .

يلقى الجاحظ على مزاعم أرسطو في « ان أصنافاً من السباع المتزوجات المتلاقيات ، مع اختلاف الجنس والصورة ، معروفة النجاس » ، فيقول مقولة ذات دلالة بليغة ، مشدداً على ضرورة اقتران النظر بالعمل ، وجعل التطبيق (التجربة) المحك الأمثل للنظريات :

« وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل ، وما نظن بمثله ان يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء ، وما عندنا في معرفة ما ادعى الا هذا القول » (٦٧)

على ان الجاحظ الناقد العلمي يواجه أرسطو (وهو « المعلم الأول ») بالسخرية لأنه يزعم شيئاً هو خرافة أو كالتخرافة ، ولا يمكن للجاحظ ، وهو العالم التجريبي البغدادي ، الذي يقدم التجربة والاحتكام والعقل والتطبيق على كل شيء ، ان يتقبل مثل هذه الخرافة . فأرسطو زعم ان ثوراً القح فور إخصائه ، فتناول الجاحظ هذا الزعم ، بجديته الثابتة :

« فإذا أفرط المديح ، وخرج من المقدار ، أو أفرط التعجيب ، وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه الى ان يشبهه بالعيان ، أو بالخبر الذي لا يكذب فعله وإلا فقد تعرض للتكذيب » (٦٨) .

واسلوب ابن الهيثم ، لكنه يحمل جوهرًا عمومياً ، استثنائياً .

فان ابن الهيثم وصف ، في كتاب (المناظر) ، منهجه في البحث العلمي ، والابداع الفكري ، على النحو الآتي :

- « ... ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس . ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق الذي يثلج الصدر ، ونصل بالتدرج واللطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين ، وتظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات ... وما نحن مع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية . ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ... » (٧١) .

وفي ضوء مثل هذا « الدستور العملي » في منهجية البحث العلمي ، لدى عالما ابن الهيثم ، والتي وضعت اسسها المكيعة مدرسة المعتزلة الفكرية في بغداد ، في مثل هذا الضوء يبدو ما يقوله مصطفى نظيف ، الباحث المصري المعاصر ، في منهجية ابن الهيثم ومساره البحثي ، ودلالته ، ورئيه المعاصر ، مبرراً تمام التبرير :

- « ... ان ابن الهيثم قد عمق تفكيره الى ما هو ابعد غوراً مما نطن أول وهلة ، فأدرك ما قال به من بعده (ماك) و (كارل بيرسون) وغيرهما من فلاسفة العلم المحدثين في القرن العشرين . أدرك الوضع الصحيح للنظرية العلمية ، وأدرك وظيفتها الحققة بالمعنى الحديث ويمكن القول انه من نصوص أقوال ابن الهيثم ، ان تفكيره اتجه الى الوجهة التي يتجه اليها التفكير العلمي الحديث ... وانه ليس من المفالة أيضاً القول انه قد أدرك عن بينة الطريقة الحديثة في البحث العلمي ، وأدرك الأوضاع الصحيحة الى تسمية الحقائق العلمية » (٧٢) .

ولا يلبث ان يضيف الى ذلك مفذلكاً : استنتاجه الحاسم :

- « والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل » (٦٩)

تري ، هل كان هناك دستور للبحث العلمي محدد لدى مدرسة بغداد العلمية ؟

لقد تحدثنا عن هذا الدستور ، مسمين بعض مقولات علماء بغداد من العرب والمسلمين فقرات في هذا الدستور العلمي . الا ان اخوان الصفا كفونا المؤونة ، فطلعوا علينا ، منذ وقتهم الرائد ذاك ، والسباق في كثير من المآثر العلمية والبحثية والفكرية والفلسفية والمنطقية ، بشيء يمكن تسميته دستوراً متكاملًا لمدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي .

فقد جاء في إحدى رسائل اخوان الصفا (٧٠) ، ان هؤلاء الاخوان أوصوا باتباع الدستور الآتي في البحث العلمي ، وهو منهج متكامل ، بحد ذاته ، رائد في كثير منه . إنها تسعة أحكام ، كما وردت في الجزء الأول :

السؤال الأول : هل هو ؟ يبحث عن وجدان الشيء أو عدمه ، والجواب : نعم أو لا .

السؤال الثاني : ما هو ؟ يبحث عن حقيقة الشيء .

السؤال الثالث : كم هو ؟ يبحث في مقدار الشيء .

السؤال الرابع : كيف هو ؟ يبحث عن صفة الشيء .

السؤال الخامس : أي شيء هو ؟ يبحث عن واحد من الجملة أو عن بعض من الكل .

السؤال السادس : أين هو ؟ يبحث عن مكان الشيء أو رتبته .

السؤال السابع : متى هو ؟ يبحث عن زمان كون الشيء .

السؤال الثامن : لم هو ؟ يبحث عن الشيء المعلوم .

السؤال التاسع : من هو ؟ يبحث في التعريف للشيء .

اما ابن الهيثم ، تلميذ المدرسة العلمية البغدادية ، فهو يتم مقولات اخوان الصفا ، فيقدم دستوراً عملياً ، يتفق ، في الجوهر ، مع دستورهم ، ومع كل الدساتير العلمية لعلماء مدرسة بغداد الفكرية وامتداداتها (كجابر والجاحظ والكندي والخوارزمي والرازي وثابت بن قرة ، وابن سينا وتلامذته ، فيما بعد) ، ويضيف شيئاً مهماً هو من خصوصيات منهج

وقد انضمت الى هذه الخزانة ، خزائن اخرى ، في العصر العباسي اللاحقة، منها خزانة عضد الدولة البويهى ، وخزانة الوزير ابي نصر ، التي يذكر ابن الجوزي بخصوصها « ... ان ابا نصر ابتاع في سنة ٢٨١ هجرية داراً بالكرخ ... وعمرها وبيضاها وسماها « دار العلم » ، وحمل اليها كتب العلم من كل فن حتى بلغت اكثر من عشرة آلاف مجلد . وعمل لها فهرستا ، ووقف عليها الوقوف . ورد النظر في امورها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى أربعة من كبار علماء بغداد » (٧٦) . ومن هذه الخزائن ، أيضاً ، خزانة الوزير ابي منصور بن فنه ، وخزانة ابي الحسن محمد بن هلال الصايي ، وخزانة الناصر لدين الله العباسي ، وخزانة المستنصر بالله « وهي الخزانة التي نقل منها فيما ذكره المؤرخون نحو (٨٠) الف كتاب الى خزانة المستنصرية » (٧٧) .

هل عرفت بغداد ، في حياتها العلمية المواردة ، « الجامعة » ، بالمعنى المتعارف عليه ، إضافة الى المراكز العلمية والثقافية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت من سمات العصر العباسي الاول ؟

إننا نجد الجواب الشافي ، عن هذا السؤال ، لدى الاستاذ المرحوم ناجي معروف ، أحد أبرز باحثي بغداد المعاصرين .

يقول ناجي معروف ، في بحثه الذي اسهم به في كتاب « بغداد » ، الذي أسلفنا الإشارة إليه :

« يمكننا ان نطلق لفظ « الجامعة » على آخر مرحلة وصلت اليها الدراسة عند المسلمين في الفرون الوسطى ، إذا أردنا بالجامعة المؤسسة العلمية التي تحتوي على عدد من الكليات والمعاهد والأقسام العلمية التي تحتوي على عدد من الكليات والمعاهد والأقسام العلمية بهيئاتها الخاصة بها ، ووسائل ايضاحها ، وأموالها المرصدة لها ، وما تقوم به من بحوث وتحريات في مختلف ميادين المعرفة النظرية والتقاليد التي كانت تأخذ بها ... وقد ثبت لنا بعد تحرياتنا فيما انشأه المسلمون في بلادهم الواسعة من معاهد العلم ومن مدارس احادية وثنائية وثلاثية ورباعية ومن دور القرآن ، ودور العلم ، ومدارس للطب الخ .

ان المستنصرية ببغداد ، كانت أول جامعة عراقية بل أول جامعة اسلامية في العالم الاسلامي،

أما قدرتي طوفان فقد ذهب الى ان ابن الهيثم ، تلميذ المدرسة البغدادية ، قد كان سابقاً فذاً في الطريقة الاستقرائية العلمية ، فهو يقول: « ... وابن الهيثم في طريقته العلمية التي اتبعها في بحوثه وكشفه الضوئية قد سبق بكون في طريقته الاستقرائية ، وفوق ذلك سما عليه » (٧٣) ، « وكان اوسع منه افقاً وأعمق تفكيراً » (٧٤) .

- ٤ -

فلنلق نظرة خاصة ، الآن ، على مراكز بغداد العلمية والثقافية والفكرية ، التي اهلتها لانجازاتها الضخمة ، الفريدة في عصرها ، والرائدة بالنسبة للآزمان والعصور التي تلتها .

إن المنهجية والتقاليد العلمية التي طلعت بها المدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، في العصر العباسي الأول ، كان لابد ان تتبلور في مراكز علمية وثقافية . وإذا ما انعمنا النظر في جامعة بغداد « المستنصرية » ، وفي أنظمتها وبحوثها وجهودها العلمية ، فإننا سنجد انها تطوير لجهود علماء المدرسة البغدادية ومراكزها العلمية والثقافية. لقد وضع الرشيد، والمأمون ، بخاصة ، حجر الأساس للصرح العلمي والثقافي في بغداد ، وهو الصرح الذي سيتوج ، في قمته ، بالجامعة المستنصرية ، والبشرية ، والعصمتية ، والمسعودية .

إن دار الحكمة ، ومراكز الترجمة ، والحلقات والمدارس العلمية والفكرية المبثوثة في زوايا بغداد ، والكوفة ، والبصرة ، كانت ، ولا شك ، أصولاً لجامعة المستنصرية ، فيما بعد ، ومراسد بغداد الفلكية ، وسواها من مراسد الحواضر العربية والاسلامية .

فقد كانت (دار الحكمة) أو (خزانة الحكمة) أو (بيت الحكمة) ، خزانة الرشيد والمأمون ، الخليفين العربيين اللذين أسسا أمجاد ومآثر عصر العصب الذهبي ، العصر العباسي الأول . وكانت هذه الدار حافلة بالخزان ، والكتاب ، والمترجمين اللامعين ، « امثال بني موسى بن شاكر المنجم ، وهم ثلاثة إخوة : محمد وأحمد والحسن ، ثم يحيى بن أبي منصور المنجم المأموني ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون الكاتب ، وحنين بن اسحق العبادي ، وابنه اسحق ، وابن اخته حبيش بن الحسن الأعسم ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الفرخان الطبري » (٧٥) .

كما تبين لنا من دراسة الجامعات الأوربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين وما بعدهما أنها قد سبقت كل الجامعات الأوربية أيضاً .

« وقد جعل المستنصر لمدرسته هذه ميزة أخرى على المدارس الإسلامية . وذلك أنه شرط أن يضاف إلى مدرستي الفقه والطب ، فيما ذكر ابن الساعي ، داران آخران لعلمين مهمين من علوم الشريعة الإسلامية : أولاهما ، دار القرآن ، والثانية دار السنة ، وبذلك يمكننا أن نقول : أن المستنصر بالله أول خليفة في العالم الإسلامي ، جمع في آن واحد المذاهب الفقهية الأربعة وعلوم القرآن ، والسنة النبوية ، وعلم الطب ، والعربية ، والرياضيات ، والفرائض ... وجعلها في مكان واحد يتألف من مبان عديدة متصابقة ، أو متجاورة ، أطلق عليها اسم (المستنصرية) بعضها باق ، وبعضها درس ، وعض عليه الزمن . ولم تكن المدارس قبل المستنصرية كذلك . فقد كانت مدارس الطب تبنى مستقلة عن مدارس الفقه ، أو دور الحديث ، أو دور القرآن ، كالبيمارستان العضدي بالجانب الغربي من بغداد ، ومدرسة الطب التي أنشأها أبو المظفر باتكين بالبصرة سنة ٦٢٩ هجرية في خلافة المستنصر ، ومدارس الطب في دمشق ، كالمدرسة الدخارية سنة ٥٦٥ هجرية ، والبلودية سنة ٦٦٤ هجرية ، والربيعية سنة ٦٨٦ هجرية ... » (٧٨) .

ويشير ناجي معروف إلى ميزات أخرى امتازت بها المستنصرية هي « تعيين المشاهرات النقدية ، وإجراء الجرايات العينية الدارة يومياً على أرباب المستنصرية من فقهاء وطلاب ، ومدرسين ، وموظفين ومستخدمين ، وكانوا نحو خمسمئة شخص » (٧٩) ، و « تأسيس حمام في المستنصرية رتبته المستنصر بالله لجميع أرباب المشاهرات ، ويدخلون إليه متى احتاجوا ، وفيه من يقوم بخدمتهم » ، « وهو أمر لم يسبق إليه » ، كما يقول أحمد بن عبدالله البغدادي في كتابه (عيون أخبار الأعيان) « (٨٠) .

ومن كل هذا يتضح أن المستنصرية كانت ، بالفعل ، أول جامعة عربية - إسلامية في الشرق ، بل وفي العالم ، أيضاً ، وأن ما كان فيها من أنظمة ،

وامتيازات ، وميزات ، جعلها ، بالفعل ، جامعة حقيقية . وتلكم ، ماثرة كبرى أخرى من مآثر مدرسة بغداد العلمية ، الثقافية ، كان لها امتداداتها وتأثيراتها اللاحقة ، في إنشاء جامعات إسلامية أخرى ، كالجامع الأزهر الذي أنشأه الفاطميون في القاهرة وجامعة القيروان في تونس ، وعديد من الجامعات الأندلسية . ولعله من المفيد أن نشير ، مرة أخرى ، إلى ما كتبه ناجي معروف ، استطراداً ، بصفته المصدر المعاصر الوحيد حتى الآن (مما تيسر بين يدينا) في الحديث عن المستنصرية . يقول ناجي معروف :

« ولما كانت بغداد قد سبقت جميع البلاد العربية والإسلامية ، وسنت لها بناء المدارس الرباعية على المذاهب الأربعة ، فقد تتبعنا أخبار المدارس في البلاد الإسلامية التي انتشرت فيها المذاهب الفقهية ، فوجدنا أن بغداد احتوت على أربع جامعات . كما وجدنا أن مصر أول بلد عربي حذا حذو بغداد ، حيث أنشأت فيه أول مدرسة على المذاهب الأربعة ، بعد عشر سنوات من افتتاح المستنصرية . وتكاثر هذه المدارس بالقاهرة حتى أننا عثرنا على أخبار سبع جامعات فيها . وكانت حلب البلد العربي الثالث الذي أنشأت فيه مدرسة واحدة على المذاهب الأربعة بعد مضي أكثر من قرن من الزمن على افتتاح المستنصرية . وكانت مكة البلد العربي الرابع الذي أنشأت فيه ثلاث مدارس رباعية في القرن التاسع الهجري » (٨١) .

إن المدارس (الجامعات) البغدادية الأربع هي ، على حد ما يقول الاستاذ ناجي معروف ، المستنصرية ، والبشرية ، والعصمتية ، والمسعودية . فاما المستنصرية فقد جرى الحديث عنها ، وأما البشرية فهي ، وفقاً لما يقوله الاستاذ معروف ، أيضاً ، كانت قد استقت اسمها من السيدة « باب بشر » ، زوجة الخليفة العباسي المستعصم . وأما العصمتية (٦٧١ هجرية - ١٢٧٢ ميلادية) ، فهي كما يقول أستاذنا الفقيه معروف ، قد شيدت بعد الغزو المغولي لبغداد بخمس عشر سنة « أمرت بإنشائها في ظاهر بغداد بجوار مشهد عبيد الله بن عمر العلوي السيدة « شمس الضحى » شاه لبني بنت عبد الخالق بن ملكشاه ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهي أم رابعة العباسية حفيدة

المستعصم ، وقد وفتها على الطوائف الأربع « (٨٢) . وأما المسعودية فتنسب الى « خواجه مسعود بن سديد الدولة » ، وهو من اكابر بغداد ... جعلها وفقاً على المذاهب الأربعة على صفة المستنصرية ، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة « (٨٣) .

لقد كان لعلماء مستنصرية بغداد دور كبير في نشر الثقافة العربية - الإسلامية ليس في بغداد فحسب ، بل وفي سائر أرجاء الدولة الإسلامية ، وخارج حدودها أيضاً . يقول باحثنا معروف : « نستطيع ان نؤكد ان علماء المستنصرية كان لهم الفضل الأكبر في نشر الثقافة الإسلامية في أحلك الصعور وأشدّها ظلاماً . فقد كانوا خلال فترة الحكم الفولي ، أي منذ سقوط بغداد بيد هولاكو سنة ٦٥٦ هجرية حتى تدميرها بيد تيمور لك سنة ٧٩٥ هجرية وسنة ٨٠٣ هجرية ، يحملون مشاعل العلم ، وينشرون نتاج الفكر الإسلامي مدة قرن ونصف القرن « (٨٤) .

ويذكر معروف ، مستنداً ، فيما يبدو ، إلى أوثق المصادر الأصلية ، انه كان من بين كبار مدرسي جامعة المستنصرية ورجالها أساتذة مشهود لهم بالفضل مثل جمال الدين العاقولي وابنه وحفيده ، وآل الجوزي ، ومؤرخون بارزون كالقطيبي وابن النجار ، وابن الساعي ، وابن الفوطي ، والداهلي ، وفقهاء معروفون كابن السباك الحنفي « وهو الذي اطلق عليه لقب (أستاذ) وانتهت اليه الرياسة بالمستنصرية » ، وجغرافيون كعبد المؤمن بن عبدالحق المعروف بكتّانه « مرآة الاطلاع » ، وأطباء « مشهورون كانوا ماهرين في الطب ولهم فيه مصنفات قيمة كشمس الدين ابن الصباغ وربيبه مجد الدين المعروف بسنجر ، وعلاء الدين الاربلي الكتبي الشافعي ، والبرزبي الذي كان رأساً في الطب « (٨٥) ورياضيون وفرضيون كقمر الدين الحاسب الرياضي الفرضي ، وصفي الدين بن عبد الحق « وكان إماماً في علم الفرائض والجبر والمقابلة والهندسة والمساحة . ومهندسون كهبة الله الداهلي الشهير بابن المهندس وغيرهم ممن ظهرت فضائلهم في العقلية « (٨٦) ، ومقرئون ووعاظ ومفسرون مشهورون ، وشعراء وقصصيون ، ونحويون « انتهت إليهم مشيخة الأدب العربي كابن الانصاري الخزرجي ، وابن القواس الوصلي ، وابن الصيقل الجزري ، وابن الفصيح الكوفي شيخ نحاة بغداد ، ومفتون « أصدرت الفتاوى والأقضية والأحكام كنور الدين

البدياني ، وابن مقبل الواسطي ، والمحّب بن نصر الله البغدادي ، وجمال الدين العاقولي الذي درس بالمستنصرية نحواً من خمسين سنة ، وأفتى سبعين سنة أو أكثر « (٨٧) ، وخطاطون لامعون ، و « منهم من لبس لباس الفتوة كعبد الله الشار مساحي ... مدرس المالكية فيها ، وعبدالرحمن التكريتي الناظر الأول في مصالح المستنصرية « (٨٨) ، ومن مدرسيها أيضاً ، محتسبون ، وقضاة ، وسفراء « بين المستنصر بالله وبين الملوك والأمراء ، فقد أرسل المستنصر محي الدين بن فضلان برسالة الى ملك الروم . وأرسل محي الدين يوسف ابن الجوزي الى ملك الروم أيضاً « (٨٩) .

ويؤكد الاستاذ ناجي معروف ، أيضاً ، ان عديداً من علماء المستنصرية ترك « عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة ، منها المطبوع ، ومنها مالا يزال مخطوطاً في امهات المكتبات العالمية ، ومنها ما لم يبق إلا أسماؤها أو ما نقل منها « (٩٠) ويشير ، كذلك ، الى رحلات بعض علماء هذه الجامعة البغدادية وأسفارهم العلمية ، وعلاقات هذه الجامعة الثقافية ، ومكانتها العالمية ، وخدماتها الجليلة في نشر العلم والثقافة ، بما أتاحته العصر وسمحت به الظروف ، « فقد رحل بعض علماء المستنصرية رحلات طويلة للتحري والبعث عن الحقائق العلمية ، في الأقطار العربية والإسلامية ، كرحلة ابن فضلان ، و ابن النجار وغيرهما . كما قصد هذه الجامعة عدد كبير من العلماء والأدباء للدرس والتدريس فيها . وقد حدث كثير من رجالها في أغلب البلاد الإسلامية ودرسوا في مدارسها « (٩١) .

إن من أهم مآثر جامعة المستنصرية ، في تضاعيف أنشطة المدرسة البغدادية الكبرى في العلم والثقافة والبحث العلمي ، هو انها حولت العلم الى عمل ، وترجمت الكلمة والفكرة الى واقع نضالي اجتماعي - سياسي ، ذي دلالة عظيمة . وبالطبع ، ينبغي ان نفهم هذا ، نسياً ، وبمواصفات العصر ، وإطاره .

فقد درست النساء - في شبه مساواة عملية - عديداً من رجال المستنصرية ، ودرسن هن بدورهن على أيدي اساتذة فضلاء في المستنصرية . يقول معروف : « وكان لكثير من النساء العالمات فضل كبير على رجال المستنصرية فقد درسوا عليهن ، وحصلوا على الاعازات

العلمية منهم ، كما كان لمدريسيها فضل عليهم اذ درس عليهم ، ولنن الاجازات منهم « (٩٢) . إن المرء ليسر ، حقاً ، إذ يسجل مثل هذا المعطى القيم لجامعة المستنصرية البغدادية ، ولكننا كنا نود لو طلع علينا ، باحثنا البغدادي المعاصر ، معروف ، ببعض الأمثلة لبعض الشخصيات النسائية .

ومن مآثر مستنصرية بغداد في حرية الفكر، وتمثل حسن المواطنة ، باعتبار ان العالم مواطن أولاً وقبل كل شيء ، وقوف العديد من علماء هذه الجامعة البغدادية ، سوية مع زملائهم العلماء الآخرين ، ومع المواطنين ، جميعاً ، في وجه الغزاة الاجانب ، زياداً عن شرف الوطن ، والعلم ، والاسلام ، واستشهادهم في سبيل الحرية . إن علماء المقاومة الأجلاء هؤلاء استحقوا ويستحقون التكريم ، والتخليد ، فقد قرنوا شرف الكلمة ، وكرامة العلم ، بشرف البلاد ، وكرامة الوطن ، وحرية أبنائه . ولنا هنا أن نسمع هذا من باحثنا البغدادي المعاصر الاستاذ ناجي معروف ، تفصيلاً :

— « ويمكننا ان نذكر من بين علماء المستنصرية من أودى ، ومن أسرى في وقعة بغداد ، وذهبت مؤلفاتهم ، واثباتهم ، واجازاتهم ، ومن نفي أو اعتقل وسجن ، أو هرب من بغداد في اثناء الفتن والاضطرابات ، أمثال: ابن المحيا العباسي ، وابن عكبر العكبري ، والبلالي الأموي ، وغياث الدين ابن العقاولي ، وقوام الدين ابن الجوزي ، ونجم الدين خواجه امام ، والمحب بن نصر الله البغدادي ، وابيه نصر الله ، وابن الفوطي ... كما يمكننا ان نذكر من بين علمائها وفقهائها الذين استشهدوا في واقعة بغداد سنة ٦٥٦ هجرية ، صبراً بسيف التتر وهم يذودون عن دينهم وبلادهم ، كلا من كمال الدين الحموي ، وعلي ابن النيار ، ومحبي الدين ابن الجوزي ، وابنه جمال الدين ابن الجوزي ، ومحمود الزنجاني ، وابن القصاب البغدادي ، وابن البديع التكريتي ، وفخر الدين الأمدي « (٩٣) .

كما ان عديداً من علماء مستنصرية بغداد لم يكتفوا بمقاومة الظلم والغزو الخارجي ، بل قاوموا الظلم الداخلي ، أيضاً ، ونافحوا الاستبداد، واجتهدوا في آراءهم، ولم يألوا شيئاً،

وكافحوا الجور والظلم من أي جاء . يقول ناجي معروف : « ونستطيع ان نذكر ان من بين المدرسين علماء أحراراً كانت لهم آراؤهم الخاصة بهم فلم يقلدوا غيرهم من العلماء . وكانوا يقولون ان المشايخ قبلنا كانوا رجالاً ، ونحن رجال ، أمثال محمود الزنجاني الشافعي ، وقاضي القضاة ابن اللمعاني ، الحنفي ، وسراج الدين الشارمساحي المالكي ... وكان كثير من علماء المستنصرية من ذوي المكانة العالية لا يغشون الاكابر ولا يخالطونهم . وكان من علمائهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويواجه الكبراء بما يكرهون « (٩٤)

وفيما يبدو ، فان المستنصرية باتت موضع احتذاء وتقليد ، على نطاق واسع ، ولعل ذلك يعود لنجاحها الباهر في أداء مهماتها ورسالتها ، يعود لمكانة بغداد العلمية الراسخة ، وكل ما يتصل بها من مراكز علمية وثقافية . يقول الاستاذ ناجي معروف : « ويظهر ان المستنصرية ببغداد أصبحت قدوة لمؤسسي المدارس من الرجال والنساء ليس في العراق فحسب ، بل وفي مصر والشام والحجاز حيث شرعوا ببنون مدارسهم على صفتها من حيث الدراسة على المذاهب الأربعة ، أو احتواؤها على دروس الطب والتفسير والحديث والعربية ، وعلى مخازن ودور للكتب ، وعلى بقية المرافق الأخرى . وربما نافسوها في الرياسة فبنوها على غرارها من حيث هندسة البناء والزخرفة واحتواؤها على الأواوين « (٩٥) .

- ٥ -

إن من القصور ان نتحدث عن مراكز بغداد العلمية ومدارسها الفكرية والعلمية والثقافية ، وجامعاتها ، ولا نتحدث عن مراكز بغداد الفلكية التي اشتهرت في عالم القرون الوسطى ، أجمع ، وترسخت مكانتها وتوطدت قدمها ، بصفتها ، في الاساس ، إنجازاً هائلاً لمدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي في العصر العباسي الأول ، وتطويراً وتكميلاً متقناً لهذا الانجاز ، فيما بعد .

وعلى العموم ، فان للعرب فضلاً كبيراً في علم الفلك ، كعلم طبيعي مستقل عن الشعوذة والتنجيم . ويحمل صاحب كتاب « العلوم عند العرب » ، قدرتي حافظ طوقان ، ذلك ، فيما يلي : (وبالجملنة ، فان للعرب فضلاً كبيراً على الفلك : (أولاً) لان العرب نقلوا الكتب الفلكية عن

اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان وصححوا بعض أغلاطها وتوسعوا فيها . وهذا عمل جليل جداً ، لاسيما اذا عرفنا أن اصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها في العربية ، وهذا طبعا ما جعل الأوربيين يأخذون العلم عن العرب ، فكانوا (أي العرب) بذلك أساتذة العالم فيه . (ثانياً) - في اضافاتهم الهامة واكتشافاتهم الجلييلة التي تقدمت بعلم الفلك شوطاً بعيداً (ثالثاً) - في جعلهم علم الفلك استقرائياً وفي عدم وقوفهم فيه عند النظريات . (رابعاً) - في تطهير علم الفلك من أدران التنجيم » (٩٦) .

إن الاستاذ ناجي معروف ، الباحث البغدادي المعاصر ، الذي تطوع باضاعة الحياة الثقافية في بغداد ، من وجهة نظره ، يسلط ضوءه ، كذلك ، على علم الفلك في بغداد . وهو لا يعدو الحق ، حين يصرح بان بغداد كانت مركز علم الفلك في زمانها . ولعل من الخير لنا وللقارئ أن نطلعه على وجهة نظر هذا الباحث ، التي تبدو معززة بالوثائق والادلة التاريخية والوقائع المادية ، التي ذكرها أكثر من باحث عربي ، وأوربي ، بهذا الصدد

يقول معروف : « إن أول من عني بعلم الفلك أبو جعفر المنصور ، فقد قرب المنجمين وشجع المترجمين والعلماء ، وأغدق عليهم العطايا ، وأحاطهم بعنايته ورعايته ، واقتدى بالمنصور الخلفاء الذين ولوا الحكم بعده في نشر العلوم وتشجيع المشتغلين بها فترجموا كتب الأمم التي سبقت العرب ، وصححوا كثيراً من أغلاطها وأضافوا إليها مما ابتكروه أو اكتشفوه الشيء الكثير وأصبحت بغداد مركزاً لهذا العلم مدة خلافة العباسيين ، فانشئت فيها الأرصاد ، ودونت الأزياج ، وتنوعت آلات الرصد ، وظهر كبار الفلكيين الذين نهت أسماءهم واشتهرت أعمالهم ، وقد اعتمدت دار الرصد المغولية ، التي انشئت سنة ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩ ميلادية) ، أي بعد سقوط بغداد بسنة واحدة ، على علماء بغداد وفلكيها ، وعلى ما ألف ببغداد من كتب في هذا العلم ، وعلى الكتب التي جمعها نصير الدين الطوسي من بغداد والموصل وواسط والبصرة ، وكانت تبلغ نحو (٤٠٠) ألف مجلد . ويعتبر من جاء بعد العباسيين نقلة ومقلدين يوضحون ما ابتكره العباسيون ببغداد ويختصرون المطول من علم الفلك ويفصلون المختصر منه . » (٩٧) .

وكان من أشهر الأزياج الفلكية العربية - زيج

أبي بكر محمد الخوارزمي ، وزيج ابراهيم الفراري ، وزيج البتاني ، وأزياج المأمون ، وأزياج - ابن السمع ، وابن الشاطر ، وأبي حماد الاندلسي ، وابن يونس ، وأبي حنيفة الدينوري ، وأبي معشر البلخي ، والإيلخاني ، وعبدالله المروزي البغدادي ، والصفاني ، والبوزجاني ، والطوسي . وشمس الدين ، وملكشاهي ، والمقتبس وغيرها .

لقد كانت مدرسة بغداد الفلكية المتميزة وثيقة الاتصال بعلم الرياضيات عند العرب ، وبكل ما أنجزه العرب والمسلمون من إنجازات في العلوم الطبيعية ، والمنهجية العلمية ، عموماً . وكانت قدم العرب في علم الفلك راسخة ، لحد أنه لا زال أكثر من نصف أسماء النجوم عربياً ، ولحد أن خليفة جليلاً كالمأمون كان يشرف بنفسه على مراصد بغداد وسواها ، ويتابع ، بنفسه الدراسات الفلكية في البلاد ، ولحد أن كثيراً من معطيات علم الفلك المعاصرة ذات أصل عربي . فان اكتشاف بعض أنواع الخلل في حركة القمر يعود الى أبي الوفاء البوزجاني (وليس الى تيخوبراهي الانماركي ، كما يزعم بعض متعصبي الغرب) ، كما ان آلة الاسطرلاب المشهورة ، والرابع ذا الثقب هي مبتكر عربي صرف ، والى ذلك يمكن أن نضيف إصابة الفلكيين العرب (وخصوصاً البتاني) في حساب ميل فلك البروج على فلك معدل النهار ، وتدقيقهم (البتاني أيضاً) في حساب طول السنة الشمسية . وتحقيقهم مواقع كثير من النجوم ، ورصدهم الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وإشاراتهم الى كلف الشمس ، ووضعهم الجداول الدقيقة لبعض النجوم الثوابت ، واتقانهم بناء المراصد الفلكية وصنع آلاتها (التي منها ، اللبنة ، والحلقة الاعتدالية ، وذات الأوتار ، وذات الحلق ... ، وذات السميت والارتفاع ، والآلة الشاملة ، وذات الشعبتين ، وذات الجيب ، وذات المشتبهة بالناطق ، والاسطرلاب وأنواعه المختلفة) (٩٨) .

وبهذا الصدد يؤكد طوقان « أن المأمون أول من اثار باستعمال الآلات في الرصد وقد ابتنى مرصدين على جبل قيسون في دمشق وفي الشماسية في بغداد . وفي مدة خلافته وبعد وفاته انشأت عدة مراصد في أنحاء مختلفة من البلاد الإسلامية ، فلقد ابتنى بنو موسى مرصداً في بغداد على طرف الجسر وفيه استخرجوا حساب العرض الأكبر من عروض القمر ، وبنى شرف الدولة أيضاً مرصداً في سستان دار الملكة . ويقال ان الكوهي

الفريغوري الذي تم بعد (٦٠٠) سنة . كما ذكر لوبون ، أيضاً ، ان هولاء نقل افضل علماء العرب الى المرصد الذي انشأه بمرافة . كما نقل اخوه كويلاي الى بلاد الصين كتب علماء بغداد والقاهرة في علم الفلك . وقد استنبط هؤلاء معارفهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب ولذا يقول لوبون « ان العرب هم الذين نشروا هذا العلم في العالم كله بالحقيقة » . وجمع تيمورلنك بمدينة سمرقند التي اتخذها عاصمة لامبراطوريته المشتعلة على بلاد التركستان وفارس والهند فريقاً من علماء العرب . واقبل حفيده أولوغ بك على علم الفلك بنشاط عظيم . ويمكن عد أولوغ بك ، الذي لا يفصله عن كبلر ، سوى قرن ونصف القرن ، آخر ممثل لمدرسة بغداد الفلكية « (١٠٠) » .

وبهذا الخصوص ، تؤكد المعطيات ، والمصادر الروسية والسوفييتية صحة تأثر مدرسة سمرقند الفلكية بمدرسة بغداد الفلكية ، وقيامها على المعارف العلمية الأساسية المستقاة منها .

ولعل من أمجاد مدرسة بغداد العلمية الكبرى ، التي وضعت أصولها ، ونواتها الضخمة مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي ، انها انتقلت الناس من الخرافة والشعوذة ودجل التنجيم ، وانها قالت « باستدارة الأرض وبدورانها حول محورها » ، وضبطت حركة أوج الشمس « بينما لم ينتشر تعليم حركة الأرض الدورية عند الفرنج الا بعد سنة ١٥٢٣م ، عندما وضع ذلك كوبرنيك ، الذي يذكر ان كثيراً من كتب انفلك العربية نقلت الى اللاتينية والفرنسية والايطالية » (١٠١) .

اما أشهر مرصد بغداد الفلكية ، على مختلف عصورها ، فهي - المرصد المأموني في الشماسية ببغداد ، (وكان موقعه في أعلى بغداد الشرقية ، عند محلة الصليخ إحدى محلات الأعظمية اليوم) ، على حد ما يقول الاستاذ ناجي معروف (١٠٢) . ومن مرصد بغداد الفلكية أيضاً ، مرصد بني موسى بن شاعر ، ومرصد بني الأعلم ، والمرصد الشرقي ببغداد (وهو المرصد المنسوب الى شرف الدولة بن عضد الدولة البويهى ، وقد بناه في حديقة قصره المعروفة بدار الملكة ببغداد على نهر دجلة ... ويرجح ان موقع دار الملكة في أعلى محلة « العيواضية » ، ببغداد اليوم) (١٠٣) .

اما أشهر رصد بغداد الفلكيين ، فهم ، ابراهيم بن حبيب الفزاري ، « الامام العالم المشهور ، المذكور في حكماء الاسلام ، وهو اول من

رصد فيه الكواكب السبعة ، وانشأ الفاطميون على جبل المقطم مرصداً عرف باسم المرصد الحاكمي ، وكذلك انشأ بنو الأعلم مرصداً عرف باسمهم ، ولعل مرصد المراغة الذي بناه نصير الدين الطوسي من أشهر المراصد واكبرها ، واشتهر بالآلة الدقيقة وتقوم المشتغلين فيه . وقد قال الطوسي عنهم من زيج الإيلخاني : « اني جمعت لبناء المرصد جماعة من الحكماء منهم المؤيد العرضي ، والفخر الرازي الذي كان بالوصل ، والفخر الخلاطي الذي كان بتفليس ، ونجم الدين بن دبيران القزويني ، وقد ابتدأنا في بنائه سنة ٦٥٧ هجرية » . واشتهرت أرصاد هذا المرصد بالدقة ، حتى لقد اعتمد عليها علماء أوروبا في عصر النهضة وما بعده في بحوثهم الفلكية « (٩٩) » .

إن سؤالاً قد ينشأ : ما هي العلاقة بين مرصد الشماسية المبكر في بغداد العصر العباسي الاول ، ومرصد مراغة للطوسي المبني بعد سقوط بغداد ، وما تأثير ذلك على انتشار العلوم الفلكية في العالم ؟

ولعل ناجي معروف ، باحث بغداد المعاصر ، أولى الباحثين بالاجابة عن مثل هذا السؤال المشروع . وها هو الاستاذ معروف يوضح ذلك في مبحث صغير له بعنوان « مدرسة بغداد الفلكية » ، فيقول : « لقد ازدهرت مدرسة بغداد الفلكية سبعة قرون منذ تأسس مدينة السلام سنة ١٤٥هـ - ٧٦٢ ميلادية حتى سنة ٨٥٤هـ - ١٤٥٠ ميلادية وقد أدت هذه المدرسة في خلافة الرشيد والمأمون الى أعمال مهمة . وادمجت مجموعة الارصاد التي تم امرها في المراصد ببغداد ودمشق في كتاب « الزيج المصحح » . وقد عين العرب فيه مدة السنة بالضبط . وأقدم فلكيو بغداد على قياس خط نصف النهار ، الذي لم يوفق له الاوربيون الا بعد ألف سنة ، كما يقول العالم الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون ... ويرى الدكتور لوبون ان عمل العرب في حقل الحضارة قد دام الى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمان طويل . ودام بفضل ذلك تقدم بغداد العلمي ، حتى بعد ان صارت في قبضة الأجانب . وقد ظلت مدرسة بغداد الفلكية على ازدهارها الى واسط القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) ولم تنقطع عن نشر رسائل مهمة في الفلك فالبيروني علم الهند ما انتهت اليه مدرسة بغداد ، وملكشاه السلجوقي امر في سنة ٥٧٢ هجرية (١٠٧٩ ميلادية) بالقيام بأرصاد أدت إلى إصلاح التقويم السنوي بما هو أفضل من التقويم

مهت هذه الحلول السبيل أمام علماء أوربا ليتقدموا بالهندسة التحليلية خطوات واسعة ادت الى التكامل والتفاضل ، الذي يعتبر من أهم ما وصل اليه العقل البشري . ويقول غوستاف لوبون : ان ابا الوفاء هو الذي عرف الاختلال القمري الثالث ... ويرى لوبون ان هذا الاكتشاف عظيم للغاية لان مسيو سيديو استدل به على وصول مدرسة بغداد في اواخر القرن العاشر إلى اقصى ما يمكن علم الفلك ان يصل إليه بغير نظارة ومربع .. (١٠٨) .

وكذلك اشتهر من رصاد بغداد الفلكيين - عبدالرحمن الصوفي (القرن العاشر الميلادي) ، وهو الذي بنى المرصد الشرقي ، « وكان عضد الدولة يفخر بعبد الرحمن الصوفي لأنه كان معلمه في الكواكب الثابتة وسيرها » (١٠٩) ، وابراهيم بن هلال بن ابراهيم (ابن زهرون) ، وقد خدم ملوك العراق من بني بويه ، والبدیع الاسطرابي (عبد الله بن الحسين أبو القاسم البغدادي) ، « وكان وحيد زمانه في عمل الآلات ، وقام بأمر عجز عنها المتقدمون ، وقد عاش في زمن المسترشد بالله » (١١٠) .

ان الاسطراب العربي قد لعب دوراً كبيراً في تقدم علم الفلك العربي - الاسلامي ، والعالمي عموماً . ويذكرنا ناجي معروف ان العرب انقوا في بغداد وغيرها مؤلفات كثيرة في صنع الاسطراب والعمل به خلال اثني عشر قرناً ، « وقد احصي منها اليوم نحو (٢٠٠) مؤلف ما بين كتاب ورسالة في هذا العلم » (١١١) .

وتتوسع البروفسورة الدكتورة زيفرد هونكه ، المستشرقة الألمانية البارزة (التي زارت بغداد صيف ١٩٦١ ، كما زارت الجمهورية العربية المتحدة صيف ١٩٦٢) ، في كتابها الشهير الذي ترجم الى العربية تحت عنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » ، تتوسع في وصف آلة الاسطراب العربية ، ذات الأصل البغدادي ، وساعات العرب الشمسية ، وساعاتهم « التي تسير على الماء وعلى الزئبق وعلى الشمع المشتعل ، او التي تعمل بواسطة الاثقال المختلفة او ساعات تحمل فتحات منسقة الواحدة تلو الاخرى في شكل نصف دائري ، وما تلبث ان تبرق كلما جاوزت الساعة الثانية عشرة ليلاً في حين يمر فوقها هلال وضاء » .

فتقول :

- « وفي عام ٨٠٧ قدم عبدالله رسول هارون

عمل في الاسلام اسطراباً ، وله كتاب في تسطيح الكرة أخذ منه كل الاسلاميين » (١٠٤) ، ومحمد بن ابراهيم الفزاري وكان في حاشية المنصور ، و « الفزاري هو الذي اختار للمنصور الوقت المناسب للبدء ببناء بغداد » (١٠٥) ، وموسى بن شاكر وبنوه الثلاثة ، والحسن بن محمد الطوسي التميمي ، وحش الحاسب المروزي البغدادي ، وأبو معشر البلخي ، ومحمد بن جابر البتاني ، « أحد عظماء العرب المشهورين برصد الكواكب ، والمتقدمين في علم الافلاك وحساب النجوم ... ولا يعلم أحد في الاسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها . ابتداء في الرصد من سنة ٢٦٤ هـ الى سنة ٣٠٦ هجرية ... وهو فلكي شامي جاء الى بغداد مع بني الزيات من أهل الرقة ، فلما رجع مات في طريقه بقصر الجص في سامراء سنة ٣١٧ هجرية . وقد عده الفلكي الفرنسي لالاند واحداً من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله . وقالت هونكه : لقد كان تأثير هذا العربي النابغة على بلاد الغرب عظيم الشأن فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الأوربية حتى أيامنا هذه » (١٠٦) ، ويعقوب الكندي العالم الفيلسوف المشهور عدو الخرافة والتنجم ، وهو من الاثني عشر عبقرية الذين ظهروا في العالم ... لأنه كان عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم وتأليف اللوحات وطبائع الأعداد ، وقد انتخبه المأمون ليكون أحد الذين يعهد اليهم في ترجمة مؤلفات أرسطو (وله) آراء خطيرة وجريئة عن نشأة الحياة على الأرض دفعت العلماء الى الاعتراف بأنه مفكر عميق من الطراز الحديث . وكان لمؤلفاته في البصريات تأثير كبير في العقل الأوربي ... وقد وضع عدداً كبيراً من الكتب بلغ فيها في النجوم تسعة عشر كتاباً ، وفي الفلك ستة عشر كتاباً ، وثمانية كتب في الكريات ، كما وضع رسائل في بعض الآلات الفلكية حتى قيل ان دولة المعتصم كانت تتجمل بالكندي وبمصنفاته ... » (١٠٧) .

ومن رصاد بغداد المشهورين ، كذلك ، ويعجن بن رستم أبو سهل الكوهي ، واحمد بن محمد الصاغاني (أبو حامد الاسطرابي) ، وأبو الوفاء البوزجاني الحاسب ، الذي انتقل الى بغداد من بلدته بوزجان (بين هراة ونيسابور) ، « وقد قضى أبو الوفاء حياته ببغداد في التأليف والرصد والتدريس ، وقد انتخب ليكون أحد أعضاء المرصد الشرقي ، الذي أنشأه شرف الدولة . وقد استطاع ان يجد حلولاً تتعلق بالقطع المكافئ ، وقد

عند العرب » ، الذي أسلفنا الإشارة إليه ، ان « من هؤلاء العلماء العرب الذين توصلوا الى حلول هذه المسائل الصعبة ثابت بن قرة ، وأبو جعفر الخازن ، وعمر الخيام ، والخجندي ، وابن الهيثم وغيرهم » (١١٥) .

إن ثابت بن قرة ، الحراني الأصل ، هو أحد علماء المدرسة البغدادية اللامعين ، ويقال في مجيئه بغداد ، انه التقى بمحمد بن موسى الخوارزمي ، عند رجوعه من أرض الروم ، فاعجب الخوارزمي بذكائه ووقدة فكره ، فاستصحبه الى بغداد ، ووصله بالخليفة العباسي المعتضد ، وصار يعمل في معية علمائه (١١٦) وقد حظى ثابت بن قرة بتكريم لا نظير له من جانب خليفة بغداد ، بل ان الخليفة اعتذر منه ، يوماً ، حين « تزیده من يد ثابت ، وقال له : يا أبا الحسن سهرت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون ، فان العلماء يعلون ولا يعلون » (١١٧) .

وكان ثابت بن قرة ، الذي يتقن السريانية والعبرية واليونانية ، ويجيد النقل عنها ، عالماً موسوعياً ، كعادة علماء المدرسة البغدادية ، جميعاً ، فقد نبغ في الرياضيات ، والفلك ، والطب ، والفلسفة ، إضافة الى كونه قطب مدرسة الترجمة عن السريانية واليونانية في بغداد ، في عصره .

ويؤكد قدرتي طوقان ، انه جاء في كتاب « تاريخ الرياضيات » لسمث ما يلي « ... كما هي العادة في احوال كهذه يتعسر ان نحدد بالتأكيد إلى من يرجع الفضل في العصور الحديثة في عمل أول شيء جديد بالاعتبار في حساب التكامل والتفاضل . ولكن في استطاعتنا ان نقول ان ستيفن يستحق ان يحل محلاً هاماً من الاعتبار . اما مآثره فتظهر في تناول موضوع ايجاد مركز الثقل لأشكال هندسية مختلفة اهتدى بنورها عدة كتاب اتوا بعده . ويوجد آخرون ، حتى في القرون الوسطى قد حلوا مسائل في ايجاد الحجم والمساحات بطرق يتبين منها تأثير نظرية إفاء الفرق ، اليونانية . وهذه الطريقة تنم نوعاً على طريقة التكامل المتبعة الآن . ومن هؤلاء يجدر ان نذكر ثابت بن قرة الذي وجد حجم الجسم المتولد من دورات القطع المكافئ حول محوره ... » (١١٨)

اما محمد بن موسى الخوارزمي فهو أحد أبرز كوكبة العلماء الذين استظلوا بظل الخليفة البغدادي العالم ، المأمون . ويذكر ابن النديم ، في (الفهرست) ، ان الخوارزمي هو أبو عبدالله محمد

الرشيد الى القيصر شارلمان ، في مدينة (آخن) ، من أعمال المانيا ، ساعة من هذا النمط ، وقد علق مؤرخ القصر (انيارد) على هذا الحدث في يومياته قائلاً : « كانت ساعة من النحاس الأصفر مصنوعة بمهارة فنية مذهشة ، وكانت تقيس مدة اثنتي عشرة ساعة وفي حين إتمامها لذلك كانت تسقط الى الأسفل اثنتي عشرة كرة صغيرة ، محدثة لدى اصطدامها برقاص معدني مثبت ، دويًا ايقاعياً جميلاً بالإضافة الى عدد مماثل من الأفراس الصغيرة التي كلما دارت الساعة دورتها الكاملة قفزت من فتحة اثنتي عشرة بوابة وأغلقتها بقفزاتها هذه . وهناك أشياء أخرى كثيرة تسترعي الانتباه في هذه الساعة تدعو الى العجب والدهشة ... » . نحن ما زلنا حتى يومنا هذا نقف فاغري الأفواه دهشة وأعجاباً ، كلما رأينا ساعة كبيرة في مبنى البلدية ، وما يرافق دقائقها من ظهور شخص صغرة متحركة ، تذكرنا بما فعله العرب ، في الماضي البعيد » (١١٩) .

- ٦ -

إن لعلوم بغداد الفلكية صلتها الوثقى ، والتي تكاد تكون عضوية ، بعلومها الرياضية ، خاصة ، وببقية العلوم الأخرى ، عامة .

لقد قدمت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي رياضيين ممتازين ، كانت لهم مكانتهم العالمية ، في العلوم الرياضية ، فقد طوروا ، وأضافوا ، وابتكروا ، واستنبطوا كثيراً من الجديد والأصيل في الرياضيات عموماً .

إن علم الجبر ، مثلاً ، لم يصبح علماً متقناً إلا على يد العرب ، وأصبح جزءاً من مآثرهم على الحضارة الانسانية ، وكفي للدلالة على فضلهم فيه ، انهم مهروه بلفظ من لغتهم ، فانتقلت كلمة « الجبر » الى جميع اللغات الحديثة » (١٢٠) . وقد أكد العالم الغربي (كاجوري) « أن حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب ، ويكون العرب بذلك قد اشتغلوا بهذا المجال قبل غيرهم من علماء الغرب ، وبهذا قد سبقوا ديكارت وبيكر ، وتوصلوا الى حلول بعض المسائل التي يؤدي حلها الى معادلات تكعيبية » (١٢١) . ويضيف الأستاذ حكمت نجيب ، في كتابه القيم ، حقاً ، « دراسات في تاريخ العلوم

الحسابية (الجمع وانطرح والقسمة والضرب
واخذ الجذور) على العمليات الجبرية ، وتمكنوا
بذلك من تعميم علم الجبر تعميماً لم يكن مستطاعاً
لو بقي الجبر هندسياً فقط ، مما ساعد كثيراً على
تطور علم الجبر الحديث (١٢٤) .

ويوضح طوقان ، أكثر من ذلك كله ، ان عالم
بغداد الخوارزمي وضع كتاباً في الحساب كان الأول
من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد
نقله ادلارد أوف باث الى اللاتينية تحت عنوان
Algoritmi de Numero Indarum ، وهذا
الكتاب هو أول كتاب دخل أوروبا . وقد بقي زمناً
طويلاً مرجع العلماء والتجار والحاسبين ، والمصدر
الذي يعتمدون عليه في بحوثهم الحسابية . وقد
يعجب القارئ إذا علم ان الحساب بقي عدة قرون
معروفاً باسم (الفورتمي) نسبة الى الخوارزمي .
ومن هذا الكتاب وغيره من الكتب العربية التي
دخلت أوروبا - فيما بعد - عرفت أوروبا الارقام
العربية والهندية (١٢٥) .

وتوالت مع كتاب الخوارزمي الشهيرة
« الجبر والمقابلة » وبعده كتب أخرى في ذات
الموضوع لتلاميذة الخوارزمي المختلفين في شتى
أصوار الدولة العربية - الاسلامية ، منها كتاب
أبي كامل شجاع بن أسلم (كتاب كمال الجبر
وتمامه والزيادة في أصوله) ، وكتاب الجبر والمقابلة
لأبي حنيفة أحمد بن داؤد الدينوري ، وكتاب
الارتماطيقي في الأعداد والجبر والمقابلة لأبي العباس
أحمد السرخسي (من تلاميذ الكندي) ، وكتاب
تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة لأبي
الوفاء البوزجاني ، وكتاب الجبر والمقابلة لسند
بن علي (معاصر المأمون) ، وكتاب في تصحيح
مسائل الجبر بالبراهين الهندسية لثابت بن قرة ،
وكتاب الفخري في الجبر والمقابلة لأبي بكر فخر
الدين محمد بن حسن الكرجي ، وكتاب « الجبر
والمقابلة » لعمر الخيام ، ألفه باللغة العربية ،
وكتاب في الجبر والمقابلة (كتاب الظفر) لنصير
الدين الطوسي (١٢٦) .

أما في علم الحساب فقد قدمت مدرسة بغداد
العلمية الكثير ، فقد كان علماء بغداد وسواها
يعتبرون ، الحساب ، على حد ما يقول أبو بكر
محمد بن حسن الكرجي « أرفع الصناعات درجة
وأعماها مصلحة وأتمها فائدة » فصناعة الحساب
« يحتاج إليها جميع الناس على طبقاتهم واختلاف
أديانهم ولغاتهم لما فيه صلاح الجمهور وسداد
الأمور » (١٢٧) . ويؤكد الاستاذ حكمت نجيب انه

بن موسى ، رياضي فلكي ومؤرخ من أهل خوارزم ،
ينعت بالأستاذ ، ولاء المأمون العباسي منصب بيت
الحكمة ، وعهد اليه بجمع الكتب اليونانية
وترجمتها وأمره باختصار كتاب المجسطي (١١٩) .
بيد ان الخوارزمي نبغ في الرياضيات ، واشتهر
بكتابه « الجبر والمقابلة » ، الذي ألفه بتكليف من
المأمون ، فقد قال الخوارزمي في مقدمته : « وقد
شجعني ما فضل الله به الإمام أمير المؤمنين مع
الخلافة التي حاز له إرثه وكرمه بلباسها وحلاه
بزينتها ، من الرغبة في الأدب وتقريب أهله وإدنائهم
وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان
مستهماً وتسهيل ما كان مستوعراً » (١٢٠) .

ويؤكد قدر طوقان في كتابه (تراث العرب
العلمي) المكانة العلمية الراسخة لكتاب عالم بغداد
الخوارزمي ، هذا ، فيشير الى ان روبرت أوف
جستر **Robert of Chester** قد نقله الى
اللاتينية ، وأفاد منه ليونارد أوف بيزا ، وكاردان ،
وتار تاكلي ، ولوقا باصولي ، وفيراري
وغيرهم (١٢١) . ويشير رومر لاندو الى تأثير هذا
الكتاب في أعمال ليوناردو فيوناتشي البيزوي (هو
نفسه ليونارد أوف بيزا) ، والمعلم يعقوب
الفلورنسي ، وأعمال ليونارد دافنشي أيضاً (١٢٢)
ويمجد ريسلر ، في كتابه (الحضارة العربية)
أعمال الخوارزمي وفكره الرياضي ، ويعتبره أعظم
رياضي في ميدان علم الجبر ، ومن أكبر علماء العالم
الذين أجتروا مآثر عظيمة في علوم الرياضة
والفلك خدمت الثقافة العالمية والحضارة الإنسانية

ولا عجب في ذلك ، فان الخوارزمي كان عقلية
فذة حقاً ، فهو ، فيما يشته طوقان ، « واضع علم
الجبر في شكل مستقل منطقي ، وهو المبتكر لكثير
من بحوث الجبر التي تدرس الآن في المدارس
الثانوية والعالية ، وإليه يرجع الفضل في تعريف
الناس بالارقام الهندسية وفي وضع بحوث
الحساب بشكل علمي لم يسبق اليه ، بحيث يصح
انقول ان الخوارزمي وضع علم الجبر وعلمه ، وعلم
الحساب للناس أجمعين . . وخلق في سماء
الرياضيات ، وكان نجماً متألقاً فيها أهدى بنوره
علماء العرب وعلماء أوروبا ، وكلهم مدين له ، بل
المدينة الحديثة مدينة له بما أضاف من كنوز
جديدة الى كنوز المعرفة الثمينة » (١٢٣) .

إن من أفضال الخوارزمي العلمية انه مهد
السبيل لتيار رياضي في علم الجبر أساسه علم
الحساب لا علم الهندسة ، وقام بعض علماء العرب
ومنهم الكرجي والسموال بتطبيق العمليات

السابع عشر الميلادي حيث ظهر بهاء الدين العاملي الذي اشتهر بكتابه « الخلاصة في الحساب » ، الذي يعتبره جلال شوقي دارس رياضياته « عرضاً دقيقاً لعلوم الحساب والجبر والمساحة » ، كذلك لمفاهيم العلماء العرب في الرياضيات وطرق حلولها في القرن الاخير من الحضارة العربية .. » (١٢٠) .

★ ★ ★

ويؤكد قدرتي طوقان ، ومن بعده حكمت نجيب ان الأوربيين أخذوا علم الهندسة اليونانية من العرب دون اليونان ، فقد « نقلوها من العربية الى اللاتينية مباشرة وظلوا يتدارسونها كما عرفوها من العرب إلى أواخر القرن السادس عشر حين عثر الباحثون (٩٩١هـ / ١٥٨٣م) على مخطوط من كتاب اقليدس باللغة اليونانية ، فقد وجد أحد علماء الانكليز في أوائل هذا القرن (حوالي عام ١٩١٠) ، مقالتين قديمتين في الهندسة في مكتبة ويستستر ، الأولى كتبها جربيرت الذي صار بابا سنة ٩٧٩م ، باسم البابا سلفستر الثاني ، ولم يكن اقليدس في الهندسة معروفاً حينذاك إلا في العربية ، والمقالة الثانية تاريخها بداية القرن الثاني عشر ، وكتبها راهب اسمه « ادلارد اوف باث » كان قد تعلم العربية ودرس في مدارس غرناطة وقرطبة واشبيلية ، والمقالتان كتبتا باللغة اللاتينية من نسخة ترجمت عن ترجمة اقليدس في اللغة العربية ، وبقيت هذه الترجمة تدرس في المدارس الأوربية الى سنة ١٥٨٣م » (١٢١) .

وقد تركز اهتمام مدرسة بغداد العلمية بالهندسة في الناحية العملية (اكثر من الناحية النظرية) ، ولذلك برزت إنجازاتها وإنجازات تلامذتها فيما بعد (وخصوصاً ابن الهيثم) في الهندسة المعمارية ، وأعمال الري وتوزيع المياه ، والاقنية ، وبناء المباني المختلفة ، بما فيها الجوامع والقصور . إن هندسة الري كانت أبرز وجوه « التنمية » في المجتمع العربي - الإسلامي في بغداد ، والشام ، ومصر ، والمغرب ، والاندلس ، ومختلف الحواضر الإسلامية في فارس وأفغانستان وآسيا الوسطى . وذلك مبرر ومفهوم « لأن تنظيم الري يتطلب معرفة دقيقة بمستوى الأرض وانحدارها وبكمية المياه وسرعتها ومجراها ، وبمواد البناء لاختيار الأنسب منها ، ومعرفة طرق البناء التي تؤمن السكور ، والسدود ، والمسكنيات والشاذروانات والبزندات ، ووقوفها بوجه المياه الزائدة القوية الجريان وضبط توزيعها » (١٢٢) .

قد كان « للمؤلفات التي وضعها العرب تأثير كبير على الحركة العلمية في الغرب ، وان من أهم الكتب التي أثرت في هذه النهضة كتاب في علم الحساب لمحمد بن موسى الخوارزمي ، ضاع أصله العربي ، إلا ان ترجمته اللاتينية بقيت واثرت على بعض علماء الرياضيات في الغرب كرجيو مونتanos ١٤٣٦ - ١٤٧٦م (١٢٨) .

إن من أهم علماء الغرب في الحساب من تلامذة المدرسة البغدادية وسواها علماء اهتموا بالجبر والهندسة أيضاً ، فكانوا علماء ذوي تخصص رياضي عام . ومن أبرزهم سنان بن الفتح الحراني الذي « اشتغل في العلوم الرياضية ولا سيما في الحساب والأعداد وبرع فيها وألف في ذلك كتباً مشهورة منها : التخت في الحساب الهندي وكتاب الجمع والتفريق الذي شرح فيه طريقة إجراء الأعمال الحسابية بواسطة الجمع والطرح عوضاً عن الضرب والقسمة وهي الأساس الذي قامت عليه فكرة اللوغاريتمات » (١٢٩) .

ومن علماء بغداد المبرزين في الحساب علماء موسوعيون اقلاد يعرفهم العالم اجمع ، ومنهم الكندي (أبو يوسف يعقوب بن اسحق) وأبو الوفاء البوزجاني . ويضيف مؤرخو العلم الإسلامي والعالمي أساندة عرباً آخرين في الرياضيات هم : الكرابيسي ، ويعقوب الرازي ، وأحمد بن الطيب (من تلامذة الكندي) ، وأبو حنيفة الدينوري ، وسند بن علي ، والكوازي البغدادي ، وأبو برزة الجيلي ، وأبو بكر الكرجي صاحب كتاب (الفخري) المشهور الذي يعتبره علماء أوربا « وثيقة فائقة الأهمية في تاريخ الرياضيات » ، والقاضي النسوي الذي يلقبه نصير الدين الطوسي بـ « الأستاذ » ، وعبدالقادر التميمي البغدادي . وثمة علماء آخرون برزوا في الحساب والرياضيات ، وكانوا موسوعيين كعلماء بغداد الأوائل ، ومن هؤلاء ابن الهيثم ، وأبو الريحان البيروني . كما كان لمدرسة بغداد في الحساب والرياضيات تلامذة عابرة في المغرب والاندلس ومنهم ابن اللبودي ، وابن البناء المراكشي ، وأبو الحسن الفصاوي . كما كان لهذه المدرسة البغدادية ابن بار هو قاضي زادة - الذي أفاد من معطيات العلم العربي - الإسلامي وكان هو وغيث الدين الكاشي من أبرز العلماء الذين عهد اليهم أولوغمك في إنشاء مرصد سمرقند ، في بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى) وقد امتدت تأثيرات مدرسة بغداد الرياضية حتى القرن

ومع ذلك فان إخوان الصفا أولوا الهندسة النظرية جل اهتمامهم ، لان إتقانها « يؤدي الى الحذق في الصنائع العلمية ، لان هذا العلم هو أحد الابواب التي تؤدي إلى معرفة جوهر النفس التي هي جذر العلوم وعنصر الحكمة ، وأصل الصنائع العلمية والعملية ، أعني معرفة جوهر النفس » (١٢٢)

واهتم علماء بغداد ، أوسع الاهتمام ، بكتاب اقليدس ، لانه الباب الرئيس للعلوم الهندسية في ذلك العصر ، ومن هنا كثرت الشروح والتلخيصات العربية لهذا الكتاب . وطلع الكندي فيلسوف بغداد الموسوعي بكتابه الشهير (أغراض كتاب اقليدس) ، ولكنه طلع بكتب عديدة أخرى ، من ابتكاره الاصيل ، في مختلف علوم الهندسيات (ومنها كتاب اختلاف المناظر ، كتاب في تقريب وتر الدائرة ، كتاب في تقريب وتر التسع ، كتاب في شروق الكواكب وغروبها بالهندسة ، كتاب في البراهين المساحية لما يعرض من الحسابات الفلكية ، كتاب في تصحيح قول ابقلاوس في المطالع ، كتاب في صنعة الاسطرلاب بالهندسة ، كتاب في استخراج نصف النهار وسمت القبلة بالهندسة وكتب أخرى) .

وكتب علماء بغداد الآخرون عديداً من الكتب الهندسية ، منها ما كتبه **أولاد موسى بن شاكر (محمد واحمد والحسن)** : ومن هذه الكتب « كتاب الشكل الهندسي » لمحمد بن موسى ، وكتاب الشكل الدور والمستطيل للحسن بن موسى . كما كتب ثابت بن قرة كتابه المشهور (كتاب في استخراج المسائل الهندسية) ، اضافة الى أعمال عديدة أخرى . واشتهر ابو الوفاء البوزجاني بـ « كتاب في الأعمال الهندسية » . ويرى ابن خلكان ان البوزجاني كان أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة ، وله فيها استخراجات غريبة لم يسبقه اليها عالم آخر .

وهناك كتب عديدة أخرى الفها تلامذة مدرسة بغداد العلمية ، في مختلف العصور ، والأمصار الاسلامية (منها ، مثلاً لاحصاء ، شرح كتاب اقليدس في أصول الهندسة » للثيريزي ، و « تحرير اقليدس » لنصير الدين الطوسي وكتاب « التجريد في الهندسة » المنسوب للطوسي أيضاً ، وكتاب مختصر اقليدس لابن سينا ، وكتاب أشكال التأسيس في الهندسة لشمس الدين السمرقندي ، وكتاب المدخل الى الهندسة لأبي العباس المكناسي المتوفى سنة ١٦١٦ م) (١٢٤) .

★ ★ ★

أما علم المثلثات فقد تحول علماً مستقلاً على ايدي علماء بغداد ، ويعتبره الكثير علماً عربياً . يقول طوقان : لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن . فاليهم يرجع الفضل الاكبر في وضعه بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك وفي الاضافات الاساسية الهامة التي جعلت الكثيرين يعتبرونه علماً عربياً كما اعتبروا الهندسة علماً يونانياً ومما يزيدنا اعتقاداً بهذا كله ، اعتراف كاجوري بأن هناك أموراً كثيرة ، وبحوثاً عديدة في علم المثلثات كانت منسوبة الى (ريجيو مونتانوس) ، ثبت انها من وضع المسلمين والعرب ، وانهم سبقوه اليها ، وكذلك وجد غير كاجوري (امثال سمث ، وسارطون ، وسيديو ، وسوتر) ممن اعترفوا بأن بعضاً من النظريات والبحوث نسبت في أول الامر الى ريجيو مونتانوس وغيره ، ثم ظهر بعد البحث والاستقصاء خلاف ذلك (١٢٥) .

ان العرب هم أول من استعمل مبدأ الجيب والمماس ، والظل تمام ، وتطور علم المثلثات نوعياً بابتداع الجيب ، والجيب تمام ، والظل . وقد « اعتبر العالم الفرنسي شاسل استعمال العرب للمماس انقلاباً هائلاً في العلوم ، اذ سهل حل الكثير من المسائل الرياضية . وقام علماء الغرب بنشر أول كتاب علمي في المثلثات سنة ١٤٦٤ ميلادية ونقلوا اكثر ما جاء فيه عن تأليف عربي ، الا انهم لم يذكروا فيه شيئاً عن استعمال المماس ، بينما استعمل العرب المماس قبل ذلك بخمسة اجيال » (١٢٦) .

لقد كان علماء بغداد ابرز العلماء العرب الذين عملوا على تحويل علم المثلثات علماً مستقلاً ، وكان البتاني (ابو عبدالله محمد بن جابر بن سنان) في المقدمة . فقد أدخل الجيب ، كما أدخل الظل والظل تمام ، وابتكر الجداول الرياضية لنظير المماس ، واليه تنسب معادلات المثلثات الكروية الاساسية . « ويعتبر احد مؤسسي المثلثات الحديثة باكتشافه غالبية النسب المثلثية الاساسية كما تستخدم في الوقت الحاضر . ومن أهم مؤلفاته في هذا المضمار رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات » (١٢٧) .

أما البوزجاني (ابو الوفاء) عالم بغداد البارز فباسمه يقترن تطور حساب المثلثات ، وكذلك القول عن أبي اسحق ابراهيم الصايي (ابن زهرون) ، الذي نشأ في بغداد ودرس فيها ، ومن مصنفاته (كتاب في المثلثات) وله عدة رسائل في أجوبة مخاطبات لأهل العلم بهذا النوع (١٢٨) وجاء نصير الدين الطوسي (المتوفى ١٢٧٤ م) بابتكارات

اصيلة من علم المثلثات ، وحسبه انه ألف رسالته في الشكل الرباعي (الشكل القطاع) . ويقول الاستاذ حكمت نجيب فيه ، مستنداً الى بحوث طوقان والى دراسته المدققة هو ، ان علم المثلثات المستوي والكروي اصبح علماً راسخ الدعائم بفضل الطوسي ، أساساً ، « فقد عرف الطوسي قانون الجيب في المثلثات المستوية وشرحه . أما في المثلثات الكروية ، فقد عرف وشرح المعادلات الست الخاصة بالمثلث القائم الزاوية ، وبحث جميع الحالات الخاصة بالمثلث الحاد الزاوية ، واستنتج من ذلك العلاقة بين زوايا المثلث وأضلاعه ، وبذلك يكون الكتاب (الشكل القطاع) اول كتاب يفصل المثلثات عن الفلك وأصبح له الاثر الكبير في جعل علم المثلثات علماً مستقلاً . وترجم هذا الكتاب الى اللغات اللاتينية والفرنسية والانكليزية ، وبقي قروناً عديدة مصدراً لعلماء أوربا في المثلثات الكروية والمستوية » (١٢٩) .

وكان لمدرسة بغداد الرياضية في المثلثات تلامذتها ومطوروها في شتى أصقاع الدولة العربية - الاسلامية ، فقد كان ثمة جابر بن أفلح ، وابن يونس المصري الذي أسهم في تقريب الطريق الى اكتشاف اللوغاريتمات ، وابو علي المراكشي صاحب كتاب (جامع المبادئ والغايات في علم الميقات) ، واولوغ بك السمرقندي المتوفى (في ١٤٣٧ ميلادية) .

★ ★ ★

وحسبنا بعد هذا ان نستشهد ، في معرض فذلكة الاستنتاج اللازم من انجازات مدرسة بغداد العلمية وتلامذتها ومطورها في الرياضيات ، ان نستشهد بالمستشرق الالماني زيفريدهونكه ، التي تبدو ، في كل الأحوال ، اكثر موضوعية بكثير من غيرها . تقول هونكه في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب ، اثر الحضارة العربية في اوربا » :

« والعقل العربي الدقيق في تفكيره ، السريع في استيعابه للمسائل التي يغلب عليها الجفاف والخشونة ، كان اول من القى على القصائد وضوحاً ناصعاً في وضوح الماس . وكان الخوارزمي ، كذلك ، اول من طور فن الحساب ، وجعل منه فناً صالحاً للاستعمال اليومي العملي ومفيداً بقية العلوم ، بعد ان وسع فيه ونظمه تنظيمًا دقيقاً . وهكذا أصبح فن الحساب هذا ، بالاضافة الى ما زاد عليه العلماء العرب وعلماء الفرس ،

خاصة في القرون التي تلت ، الركيزة الاساسية لفن الحساب في بلاد الغرب . ولا ننسى علم الجبر الذي يعود الفضل الى العرب ، وفي طليعتهم الخوارزمي ، في وضعه وسكبه بقالب ترتيبى نظامي ، وجعله علماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ... ان اسلوب الرياضيات الذي عرفه الغرب عن طريق العرب ، كان في حقيقة امره ، فتحاً مبنياً جديداً . ذلك لان الزري الهندسي الذي كسا الاغريق الرياضيات به هذا العلم ترعه العرب وعوضوا عنه بأخر جبري حسابي . ان علم الجبر لا يزال حتى هذا اليوم يحتفظ بطابع عربي ... وكما فعل العرب كل هذا ، كذلك فانهم يعتبرون المؤسسين الحقيقيين لعلم المثلثات ، وهذا لعمري ، ميدان لم يخضه الاغريق البتة ولم يعرفوا عنه شيئاً وبهذا يكون العرب قد خلقوا ميداناً فسيحاً من العلوم ، كان من قبلهم مجهولاً ، صارت له أهمية كبرى في علم الفلك ، والابحار ، ومسح الاراضى إن ارقام العرب وآلاتهم التي بلغوا بها حداً قريباً من الكمال ، وحسابهم وجبرهم وعلمهم في المثلثات الدائرية ، وبصرياتهم الدقيقة ، كل ذلك أفضال عربية على الغرب ارتقت بأوربا الى مكانة ، مكنتها عن طريق اختراعاتها واكتشافاتها الخاصة من ان تتزعم العالم في ميادين العلوم الطبيعية منذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه » (١٤٠) .

إن هونكه على مطلق الحق ، فان عقلية العرب (كما تبرزها مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي وتلامذتها فيما بعد) عقلية رياضية ، تعتبر الرياضيات ركناً أساسياً في كل العلوم (بما فيها علم الفلسفة) ، وحسبنا الإشارة الى الكندي والرازي وجابر والخوارزمي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم .

- V -

لقد أنجزت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي إنجازها الهائل ايضاً في حقل علوم الطب والصيدلة والكيمياء والأحياء . ولقد عرضنا ، شيئاً ، لانجازات هذه المدرسة في الكيمياء والتجارب الكيميائية ، حين تحدثنا عن منهجية وتقاليده مدرسة بغداد العلمية .

ونود الآن ان نعرض ، ولو بشكل سريع ومركز ، لانجازات بغداد وتلامذتها في حقل الطب والصيدلة .

لقد نقل طوقان إلينا في كتابه « العلوم عند العرب » ، مقولة للدكتور سارطون ، تقول : « .. ان بعض الغربيين الذين يجربون ان يستخفوا بما أسداه الشرق الى العبران يصرحون بان العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً .. هذا الراي خطأ .. لو لم تنقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية ، ولولا إضافات العرب الهامة ، لتوقف سير المدنية بضعة قرون » (١٤١) . كما نقل إلينا مقولة وليم أوسلر التي تقول - « ان العرب أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية ، وبلغت مهنة الطب عندهم اثناء القرن الثامن الى الحادي عشر للميلاد من المكانة والاهمية مالا تكاد نجد له مثيلاً في التاريخ » (١٤٢) .

وواضح من هاتين المقولتين المكانة التي بلغها الطب العربي - الاسلامي عموماً (بما فيه الطب العراقي) ، والدور العالمي الذي لعبه في تطوير المعرفة الطبية . ان القارئ يستطيع الاستزادة من كتابين غاية في الاهمية هما « الطب العربي - لامين شكر الله » (١٩٤٦) ، و « تاريخ الطب العراقي - لعبد الحميد العلوجي » (١٩٦٧) . وثمة كتب اخرى تضيف الكثير الى هذين الكتابين ، رغم انها تستند ، في معطياتها الاساسية ، اليهما .

لقد افردت المستشرقة الالمانية زيفريد هونكه الكتاب الرابع في موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب » لبحث « الطب العربي - الاسلامي ، تحت عنوان « الأيدي الشافية » . ومن الصعب ، حقاً ، الاتيان على كل ما جاءت به هذه الباحثة الالمانية الموضوعية المعاصرة بحق إنجازات طبنا العربي - الاسلامي ، ومدرسته البغدادية ، بخاصة . غير اننا سنشير الى بعض المقولات التي جاءت بها ، لانها ذات صلة وثيقة جداً بالموضوع .

لقد اختارت الرازي ، شيخ اطباء العرب دون منازع ، وقطب المدرسة البغدادية الطبية العلمية ، فقالت ، فيما قالت :

- « قبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية اصغر مكتبة في العالم ، لاحتوي إلا على مؤلف واحد ، وهذا المؤلف كان لعربي كبير . وكان هذا الاثر العظيم ذا قيمة كبيرة ، بدليل ان ملك المسيحية الشهير ، لويس الحادي عشر ، اضطر الى دفع اثني عشر ماركا من

الفضة ومئة تالر من الذهب الخالص لقاء استعارته هذا الكنز الغالي ، رغبة منه في ان ينسخ له أطباؤه نسخة ، يرجعون إليها إذا ما هدد مرض او داء صحته وصحة عائلته . وكان هذا الاثر العلمي الضخم يضم كل المعارف الطبية منذ ايام الاغريق حتى عام ٩٢٥ بعد الميلاد . وظل المرجع الاساس في أوروبا لمدة تزيد على الأربعمائة عام بعد ذلك التاريخ ، دون ان يزاحمه مزاحم او يؤثر فيه او في مكانته مخطوطة من المخطوطات الهزيلة التي داب في صياغتها كهنة الاديرة قاطبة ، وهو العمل الجبار الذي خطته يد عربي قدير . ولقد اعترف الباريسيون بقيمة هذا الكنز العظيم وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالاً . فقاموا له نصباً في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم ، وعلقوا صورته وصورة عربي آخر في قاعة اخرى كبيرة تقع في شارع سان جرمان ، حتى اذا ما تجمع فيه اليوم طلاب الطب وقعت ابصارهم عليها ورجعوا بذاكرتهم للوراء يسترجعون تاريخه ... فمن هو ؟ إنه **الرازي** ، او رازاس (Rhases) كما سمته بلاد الغرب ، وأما اسمه الحقيقي فهو أبو بكر محمد بن زكريا . ولد في مدينة الري في خراسان ... كان اعتيادياً كالبقية دون ان تبرق بارقة تنبئ بنبوغه الفذ ، واهتم كغيره بالدراسات الفلسفية واللغوية والرياضية . ثم تعاطى الموسيقى فبرع فيها نوعاً ما ، وأصاب شهرة محلية كمفمن وعازف ، وظل على هذه الحالة حتى الثلاثين من عمره ، ثم ضاق ذرعاً بهذا الفراغ الدائم وبهذه الرتابة ، فعزم على تغيير حياته جذرياً ، فأدار ظهره لمدينته الأم وانطلق سعيّاً وراء تحقيق آماله وطموحه الى اين ؟ ... الى مدينة الشفاء ومدينة السلام، الى **بغداد عاصمة الدنيا قاطبة وكعبة كل ذي قلب كبير يبغي الرفعة والسمو !** (١٤٣) .

وتستطرد هونكه في الحديث عن طبيب بغداد الاشهر ، ومعلمها **الطبي الاكبر** ، معرجة على بعض إنجازات وأسانيد الطب العربي - الاسلامي في بغداد ، قبل الرازي :

- « وبكل قواه وتصميمه الاكيد اندفع في دراسة الطب فتعلم على يد تلميذ من تلامذة **حنين بن اسحق** ، رئيس مترجمي ابن موسى

فيه الكثير من مصالح أجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا النافعة لنا . وبه أدركنا الأمور الفامضة البعيدة منا والخفية المستورة عنا ... وبه عرفنا شكل الأرض والفلك وعظم الشمس والقمر وسائر الكواكب وأبعادها وحركاتها .. وإذا كان هذا مقدار ومحلله وخطره وجلاله فحقيق علينا أن نحطه عن رتبته ، ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله وهو الحاكم محكوماً عليه ، ولا وهو الزمام مزموماً ، ولا وهو المتبوع تابعاً ، بل نرجع في الأمور اليه ونعتبرها به ونعتمد بها عليه ... فنمضيها على إمضائه ، ونوقفها على إيقافه ، ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ومكده والحائد به عن سننه ومحجته ... بل نروضه ونذله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه . فانا إذا فعلنا ذلك صفاً لنا غاية صفائه ، وأضاء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به » (١٤٥) .

وبالفعل ، فقد أضاء العقل للرازي غاية إضاءته ، فقرن النظر بالتطبيق ، ووضع لنفسه منهجية علمية صارمة ، ووضع كثيراً من أجهزته وأدويته بنفسه (أو أشار الى صنعها) ، ولاحم الكيمياء والصيدلة بالطب ، حتى قال فيه بعض الباحثين « ان الرازي مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب معاً » ، وهو في الحقيقة المعلم الثاني في الكيمياء بعد جابر بن حيان ، والمعلم الأول في الطب العربي ، أو أبو الطب العربي بحق وحقيق . و « أحد أعظم أطباء الانسانية إطلاقاً » على ما تقول هونكه .

إن عالم بغداد الكبير ، خريج ونتاج ومطور مدرسة بغداد العلمية ، الرازي ، قد بهر الجميع ، في الشرق والغرب ، بكتابه (الحاوي في الطب) ، مثلما بهرهم بكتابه (المنصوري) ، « الذي يحتوي على وصف دقيق لتشريح أعضاء الجسم كلها ، وهو أول كتاب عربي وصل اليها في هذا البحث . ترجم الى اللاتينية وكانت له أهميته في أوروبا ، وبقي معمولاً به عند الأطباء وفي الجامعات حتى القرن السابع عشر للميلاد » (١٤٦) . وللرازي كتاب الاسرار في الكيمياء « ترجمه كريمونا في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد ، وكان الكتاب المعول عليه والمعتمد في مدارس أوروبا مدة طويلة . وقد رجع اليه باكون واستشهد بمحتوياته . وكذلك للرازي كتاب نفيس في الحصبة والجذري ، وهو من روائع الطب الاسلامي عرض فيه للمرة الأولى تفاصيل هذه الامراض وأعراضها والتفرقة بينها ،

وكثير من الخلفاء ، وتعلم فن العلاج الاغريقي والفارسي والهندي والعربي الحديث العهد ، وعب منه عباً ، حتى إذا ما ارتوى قفل راجعاً الى بلده الأم ليعمل كمدير للمستشفى هناك ، ولكن ليس لمدة طويلة ، اذ ما لبث أن سعى الى الحصول على منصب رئيس الطبابة في المستشفى الكبير في العاصمة ، وفاز بمطلبه من بين الكثير من منافسيه وبهذا تفتحت أمامه أبواب قصور الخليفة ليعمل فيها كطبيب خاص . ولم يمض وقت طويل حتى ذاعت شهرته في طول البلاد وعرضها ، فزحف طلاب العلم من كل أطراف الامبراطورية رغبة في تلقي المعرفة على أيدي الرازي العظيم وتعلم فنون المعالجة والكشف ، والمعاينة الطبية كلما سار بين مرضاه في مستشفاه الكبير . فكان أن ازدحمت قاعات التدريس « بالأطباء وتلاميذهم وتلامذة غيرهم » ، وكان هذا حدثاً جديداً . وأصبح الرازي حجة في علم الطب وأي حجة ، ومرجعاً أخيراً لكل الحالات المستعصية ومعائنا لا يعرف الخطأ ، ويسمى وراءه الجميع من كل حذب وصب » (١٤٤) .

لانتقد انه ثمة حديث أفضل موضوعية ، وتديقاً ، من حديث عالم أوربي بارز معاصر في فضل الثقافة العربية على الثقافة العالمية كهذا الحديث (ناهيك عن طلاوته ، وعناصر التشويق العلمي والروائي فيه) .

لقد اكدت هونكه ، فيما بعد ، مثلما اكد كثير من المفكرين والباحثين العالميين من فردينالد ، ووستنفلد ، وكارادي فو ، وكارل بروكلمان ، وماكس مايرهوف ، ورونالد كامبل ، وغاريسون ، وادوارد براون ، وباكون الى غريغوريان ، وبارتولد ، ورمضانوف ، وشاه محمديف وغيرهم ، اكدت أصالة علم الرازي ، كبير اطباء بغداد ، وابتكاراته الفذة . فباسم الرازي تقتزن مقدمات الطب النفسي - الجسمي ، والطب الشعبي (طب الفقراء ، أو كما سماه الرازي نفسه في كتابه : « كتاب من لا يحضره الطبيب » ، وباسم الرازي تقتزن حرية الفكر وتمجيد العقل ، فهو القائل (ويسمح لنا القارئ في تكرار مقولته العظيمة) : « ... فبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل الى بغيتنا ومرادنا ... وبه لنا الطب الذي

وقد أدخل فيه ملاحظات وآراء لم يسبق إليها .
وقد ترجمه الأوربيون الى اللاتينية وغيرها من
اللغات » (١٤٧) .

ومن مآثر الرازي قوله بالعدوى ، وبموائل
البيئة المادية في المرض ، وبتجربة العقاقير على
الحيوانات قبل تجربتها على الإنسان (وكان يجربها
على القردة ، بصفة خاصة ، باعتبارها الأقرب الى
الإنسان) ، وبوجوب استئصال الخرافة والشعوذة
في الطب والمعالجة الطبية ، وبضرورة التدقيق في
الصناعة الطبية واحترام خصوصيتها وقوانينها
تنظيراً وتطبيقاً . تقول هونكه : « كان الرازي
طبيباً عن اقتناع داخلي ، وكان له اقتناع تام
بقدسية مهنته وبرسالته في المجتمع . وشعر
بمسؤولياته تجاه طبقة الأطباء ، ورأى في الشعوذة
وتجار الطب مضار وتدنيهاً للرسالة المقدسة ،
فحمل عليهم حملة شعواء كشفت النقاب عن
وجوههم أمام الجماهير ، واضطر المسؤولون فيما
بعد ، كنتيجة لهذه الحملات ، ان يزدادوا صرامة
في تعليم النشء الجديد . ثم ادخلت الامتحانات
وإعطاء الاجازات بعد ست سنوات من موته » (١٤٨) .

ومن مآثر الرازي الطبية العلمية ، إلى ما
تقدم كله ، قوله بوجوب إيلاء الاهتمام الى المراقبة
السريية ، وبالمعالجة بالأغذية دون الأدوية إن أمكن
ذلك فقد قال : « ان استطاع الحكيم ان يعالج
بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة » (١٤٩) .

وتنسب للرازي كتب أخرى (اضافة الى ما
ذكرنا : الحاوي ، والمنصوري ، ورسالة في الجدري
والحصبة ، والأسرار وكتاب (الى من لا يحضره
طبيب)) ، هي : سر الأسرار (الذي ضمنه منهجه
الطبي والعلمي ، و (الكتاب الفاخر) ، وكتاب
(براء الساعة) ، والكتاب الجامع أو « حاضر
صناعة الطب » بل ان ابن أبي أصيبعة ذكر له في
كتابه (طبقات الاطباء) : (٢٣٢) مؤلفاً ، فقد
اكثرها .

يقول الدكتور أمين أسعد خير الله ، في كتابه
« الطب العربي » (الموضوع بالانكليزية ، والمغرب
بقلم الدكتور مصطفى أبو عز الدين ، والمنشور في
بيروت ، عام ١٩٤٦) ، يقول في وصف الرازي ،
انه كان شغوفاً بالقراءة والمطالعة والكتابة وهمه
الاكبر في الحياة ان يطالع كل الكتب الطبية ، وانه
اشتهر بدقة الملاحظة ، وهو الذي اختاره عضد
الدولة لبناء المستشفى العضدي في بغداد (فقد
اختار المكان الذي تأخر فيه تعفن اللحم عن غيره)
« وانتخب من بين مئة طبيب لرئاسة ذلك

المستشفى ، وكان بعد فخصة مرضاته ومراقبتهم
يدون الاعراض وسير المرض والعلاج الذي
استعمل . وكانت هذه القيودات اساس كتابه
« الحاوي » . . . (كما) كان الرازي محباً لتلامذته
ومرضاه وخصوصاً الفقراء منهم الذين لا يكتفي
بعلاجهم بل يسعفهم بالمال أيضاً » (١٥٠) .

ان قطب مدرسة بغداد الطبية وفيلسوفها
وكيميائها التطبيقي الأكبر والأشهر ، الرازي ،
قد حاز بجدارة ، شهرة علمية عالمية ، وصيتاً
مستطيراً ، سواء كان ذلك في عصره ، أم في عصرنا
بعد ألف عام ونيف . وها هي البروفسورة
الدكتورة هونكه تختتم فصلها الخاص بطبيب بغداد
الاكبر ، هكذا :

« في شخصية الرازي الطبيب تتجسد ، كما
في المرأة ، كل ما امتاز به الطب العربي وما
حققه من فتوحات علمية باهرة . فهو
الطبيب الذي عرف واجبه حق المعرفة ،
وقدس رسالته كل التقديس ، فملأت عليه
نفسه وجوانب قلبه وهو يتقذ المعوزين
ويساعد الفقراء ! وهو الموسوعي الشمولي
الذي استوعب كل معارف سالفه في الطب
وهضمها وقدمها للإنسانية أحسن تقديم !
وهو الطبيب العملي الذي يعطي للمراقبة
السريية أهميتها وحققها ! وهو المراقب
المفكر والباحث الكيميائي المستقل والمجرب
الناجح ! وهو أخيراً المنهج في عمله الذي
اضفى على الطب في عصره نظاماً رائعاً
ووضوحاً يثير الإعجاب . » (١٥١) .

وبالفعل ، فان العالم الاكاديمي والطبي ، في
كل أنحاء العالم ، وجد في الرازي عملاقاً لا يغال ،
فخلده في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ،
على حد سواء ، وفي العديد من أقطار العالم ،
بالتماثيل ، والنصب ، والأجنحة ، والمدارس
والجوائز باسمه .

لقد فصلنا ، بعض الشيء ، في الرازي
وعقليته ومنهجيته وطبه النظري والتطبيقي
وشخصيته العلمية ، ضاربين به المثل لاقطاب
مدرسة بغداد الطبية العلمية .

ولم يعش الرازي في معزل عن سواه ، كما لم
تكن بیمارستانات (المستشفيات) البغدادية
وسواها من بیمارستانات الدولة العربية -
الاسلامية في العصر العباسي الكبير تزدهر بالرازي
وحده ، فقد كان ، إلى الرازي ومعه وقبله :
أساتذته ، وتلامذته ، ومعاصروه ، وأخلافه .

وكان المرجع الرئيس لعلم التشريح في سائر
إيطاليا (١٥٦) .

أما **ابن سينا** الذي تمتجد به بغداد، وإيران،
وتركيا، وآسيا الوسطى (بخارى أوزبكستان
السوفيتية وغيرها) ، فهو أسطع نجم في الطب
العربي بعد الرازي . ويقدمه البعض عليه ، والحق
أن العصر الذي جاء فيه ابن سينا لابد أن يكون
متقدماً في معطياته العلمية والطبية عن عصر الرازي
الرائد ، إضافة إلى خصوصيات شخصية وإبداع
ابن سينا الفذ . كان ابن سينا ، تلميذ ومطور
المدرسة البغدادية في الطب ، والصيدلة والكيمياء
الطبية ، عالماً عبقرياً ، موسوعياً . وقد اشتهر
بكتابه (**القانون في الطب**) ، الذي ترجم الى اللغة
اللاتينية واللغات الأوروبية عديداً من المرات ،
« وبالنظر لأهميته العلمية كان الكتاب المدرسي في
الطب في جامعتي مونبليه ولوفان في أواسط القرن
السابع عشر » (١٥٧) . ابتداء ابن سينا كتابه
(القانون) بالتشريح ، فعلم وظائف الأعضاء ، فعلم
طبائع الأمراض ، فعلم العلاج . ولابن سينا كتاب
آخر هو (الأدوية القلبية) ، كما له عدد من
الأراجز الطبية .

أن من مآثر ابن سينا ، مطور مدرسة بغداد
الطبية وقطبها الثاني بعد الرازي ، هي دقته في
تشخيص ووصف التهاب السحايا ، واكتشافه
(الدودة المستديرة) - الانكلستوما - قبل أن
تعرف أوروبا ذلك بتسعمائة عام (وقد اعترفت
مؤسسة روكفلر أن ابن سينا عرف مصدر هذا
المرض قبل أن يعرفه الطبيب الإيطالي الذي نسب
إليه هذا المرض) (١٥٨) ، ومن مآثره ، إلى ذلك ،
اكتشافه ووصفه عضلات العين الداخلية ،
والأمراض التي تنقلها مياه الشرب ، واستخدامه
العلاج النفسي في التطبيب .

ومن تلامذة مدرسة بغداد الطبية أيضاً **أمين
الدولة بن التلميز** (أبو الحسن هبة الله بن أبي
العلاء صاعد ، المتوفى عام ١١٦٤ م) ، وكان رئيساً
لليمارستان العضدي ، واشتهر بشروحه للكتب
الطبية اليونانية والعربية .

وبرز في مختلف الأمصار الإسلامية أطباء
اختصاصيون ، ومؤرخون طبيون أفادوا ، كثيراً ،
من مدرسة بغداد الطبية الرائدة وإنجازاتها
الضخمة . ومن هؤلاء عمار بن علي الموصلي ، الذي
اشتهر بكتابه « المنتخب في علاج أمراض العين » ،
ويعتبر « من أعظم أطباء العيون في عالم
العرب ومن أكثرهم ابتكاراً وأصاله » (١٥٩) ،

فقد استفد المنصور ، مؤسس بغداد عام
(١٤٥ هـ / ٧٦٥ م) جورجيس بن بختيشوع
النسطوري من جنديسابور ، لطيبه ، وكلفه
بتعريب العديد من الكتب الطبية . واشتغل ابنه
بختيشوع وجبريل بتطبيب المهدي والهادي
والرشيد . وجعل الرشيد جبريل طبيباً الخاص
ورئيساً للأطباء ، واشتهر بمؤلفه (الروضة
الطبية) . (١٥٢)

والى جانب آل بختيشوع ، برز في الطب
يوحنا بن ماسويه الذي اشتهر بالترجمة ، وتأليف
العديد من المؤلفات الطبية (كتاب البرهان ،
وكتاب البصيرة ، وكتاب الكمال والتمام ، وكتاب
في الحميات ، وكتاب في الأدوية ، وكتاب في
الجذام ، وكتاب في الأغذية) . وكان **حنين بن
اسحق** أحد تلاميذه . كما اشتغل بالطب ثابت بن
قرة (الذي ذكرناه غير مرة في غير موضع لموسوعيته
وتعدد اهتماماته) ، وقسطا بن لوقا (١٥٢) .

واشتهر في الطب البغدادى، نظيراً وتطبيقاً،
الطبري « أستاذ أبي بكر الرازي » ، واشتهرت
كتبه (مثل كتاب تحفة الملوك ، وكتاب منافع
الأطعمة والأشربة والعقاقير ، وكتاب ترتيب
الأغذية) . وقد ذكر علي بن سهل الطبري -
(المتوفى بعد ٨٥٠ م) في كتابه « فردوس الحكمة » ،
وهو أشهر كتبه ، أن مصادره وشيوخه هم
إبقرات ، أرسطو ، جالينوس ، يوحنا بن
ماسويه ، حنين بن اسحق . وقد ثار الطبري
على المختصرات ، فألف كتاباً جامعاً « ليكون زمناً
لها وإماماً محيطاً » (١٥٤) .

أما تلامذة مدرسة الطب البغدادية فعمل
أشهرهم ابن سينا ، ولكن علياً بن عباس سبقه
زمنياً . وقد ألف علي بن عباس ، طبيب القرن
العاشر الميلادي ، كتابه « الملكي » (كامل الصناعة)
وقد انتقد فيه أسلافه من أطباء اليونان ، ونصح
معاصريه بملاحمة للنظر بالعمل والإفادة من
الملاحظة السريرية ، وقال في ذلك : « ومما ينبغي
لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات
ومواضع المرضى كثير المداولة لأموهم وأحوالهم
مع الاستاذين الحذاق من الأطباء ، كثير التفقد
لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم ، متذكراً لما كان
قد قرأ » (١٥٥) . وقد ترجم هذا الكتاب الى
اللاتينية مرتين عام ١٤٩٢ (بفينيسيا) وعام ١٥٢٣
(بمدينة ليدن) . ويذكر كاريون أن قسطنطين
الافريقي قام بترجمته بين عامي (١٠٧٠ - ١٠٨٠ م)

في معرفة الادوية سواء كانت من الاصل النباتي أو المعدني أو الحيواني . فهم أول من ألف الاقرباذين وكان يوحنا بن ماسويه السابق في هذا المضمار ثم تبعه سابور بن سهل من مستشفى جنديسابور الذي ألف الاقرباذين الكبير المؤلف من سبعة عشر فصلاً والذي بقي مستعملاً حتى ظهور اقرباذين ابن التلميذ « (١٦٥) » .

وكان ابن التلميذ هذا « عميد اطباء بغداد ، ومؤلف الاقرباذين الكبير الذي كان يحتوي على عشرين فصلاً ، والذي بقي كتاب التدريس في البلدان العربية عدة قرون . وقد ألف الاقرباذين الكبير الذي وضع لاستعمال المستشفيات » (١٦٦) .

وكان لاطباء بغداد فضل اكتشاف ادوية جديدة كثيرة ، منها ، مثلاً لا حصراً ، الكافور ، والسنامكة ، والصندل ، والمسك ، والراوند ، والمر ، والتمر هندي ، والحنظل ، وجوز الطيب ، وخانق الذئب (اكونيت) ، والقرفة . ومن مآثرهم ، أيضاً ، اكتشاف الاشربة والكحول والمستحلبات وخلاصات العطور . وقد أشار مارتن ليفي ، العالم الأمريكي المعاصر ، الى فضل علماء بغداد الكبير في صنع العطور الطبية وغيرها ، وفي الاستخلاص والتقطير ، وأبرز دور الكندي وكتابه في التصعيدات وكيمياء العطور ، كما أشار الى الرازي ، وأثنى على المدرسة الطبية - الكيميائية - الصيدلانية العربية ، وأبرز دور رجالها في العلوم الطبية العالمية (١٦٧) .

ولم يكن مارتن ليفي الوحيد في ذلك ، فقد انضم اليه وسبقه علماء أوريون وأمريكيون ، واشتراكيون عديدون . (١٦٨)

ويؤكد الدكتور أمين أسعد خير الله أن ابن سينا توصل الى تغليف الحبوب الموصوفة للمرضى ، وأن اطباء العرب استنبطوا الترياق « المؤلف من عشرات بل مئات الادوية » ، وحسنوا تركيب الافيون والزئبق وتوسعوا في استعمالها ، وهم أول من استعمل الحشيش والافيون والزوان للتخدير « (١٦٩) » .

واهتم الكيميائيون البغداديون والعرب عموماً . بتحضير العقاقير ، وكانت طرقهم في ذلك علمية متقدمة ، بل رائدة لعصرها وعصور كثيرة تلتها ، ومن طرقهم أو (تدابيرهم) : التكتيس ، والتشميع ، والتحلليل (كتحلليل ماء الاملاح ، وتحليل الزئبق الحي وغيره) ، والتصعيد ، والتقطير ، والتنقية ، والاستنزال . وبرز الرازي

ومنه ، أيضاً علي بن عيسى الكحال الذي اشتهر بكتابه (تذكرة الكحالين) وقد توفي سنة ١٠٣٩ م . « واكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة في أوروبا فترجم الى اللاتينية والعبرية » (١٦٠) . أما اعظم مؤرخي الطب العربي فهو ابن ابي اصيبعة (موفق الدين) المتوفى سنة ١٢٦٩ م وكان « من اطباء الصرب المعروفين ، ترجم في كتاب واحد اطباء العالم المشهورين منذ بدء التاريخ حتى يومه ، ألفه لأمين الدولة وزير الملك ، الصالح ، وهو احسن كتب التراجم ، لا يضاهيه كتاب الا كتاب اخبار الحكماء لابن القفطي . فقد قضى سنين طويلة مدققاً ومحققاً حتى تمكن من تأليفه وأسماء اطباء عيون الأنباء في الاطباء » (١٦١) .

وبرز أيضاً خلف بن عباس الزهراوي ، اعظم الجراحين العرب ، واشتهر بكتابه (التصريف) الذي ضم أقساماً في الطب والصيدلة والجراحة ، واستمر أكثر من خمسة قرون ، العمدة في الامور الجراحية في أوروبا ، وترجم الى اللاتينية مرات عديدة . (١٦٢)

أما ابن النفيس الدمشقي ، عالم القرن الثالث عشر الميلادي ، فقد كان إماماً في الطب ، اشتهر (بكتابه الشامل في الطب) ، وهو أول من وصف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يكتشفها العالم الانكليزي وليم هارفي في القرن السابع عشر .

★ ★ ★

ولعل من أهم ابتكارات مدرسة بغداد العلمية في الصيدلة والكيمياء الطبية ، هي إفادتها من الأعشاب الطبية ، وكان الرازي يقول : العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات الأرض فعليك بالاشهر مما أجمع عليه . (١٦٣)

وقد وظفت مدرسة بغداد الطبية معارفها الكيميائية في خدمة الطب ، واشتهر في ذلك الرازي وابن سينا . وعلى العموم فإن الكيمياء ، كما سبق ان تطرقنا الى ذلك في مفتتح البحث ، كانت ، وخصوصاً قسمها العملي (التطبيقي) علماء عربياً . « وقد عاشت تعاليم العرب في الكيمياء حتى القرن الثامن عشر » (١٦٤) .

ويؤكد الدكتور أمين أسعد خير الله ، صاحب كتاب « الطب العربي - مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به » (الذي سبق أن أشرنا اليه) ، يؤكد أن العرب كانوا رواد علم الصيدلة ومؤسسيه ، « وكل صيدلية أو مخزن عقاقير في زمننا هذا يشير الى عبقريتهم فقد برعوا

غاية في الاهمية ، وفي الدلالة العالمية للمستشفيات العربية في بغداد وسواها وعلم الطب والعلاج العربي - الاسلامي في القرون الوسطى ، فتقول (في الفصل الثاني ، من كتاب « الايدي الشافية » ، في موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب » ، وعنوان هذا الفصل وحده دال بذاته « مستشفيات مثالية وأطباء لم ير لهم العالم مثيلاً » :

« ... كان ثمة مستشفى عضد الدولة في بغداد بأقسامه الواسعة ، ومستشفى النوري في دمشق مع مبانيه المخصصة لكل الفروع ، وجوهرة المستشفيات المستشفى النصوري بالقاهرة ، وقد اعتبرت كل هذه المستشفيات أشهر المؤسسات الطبية في العالم العربي ... ولم يكن تأسيس المستشفيات وقفاً على الخلفاء والسلاطين أو الرجال الأغنياء ، وإنما دأب أيضاً على تأسيسها الأطباء ، من أمثال سنان بن ثابت ، وثابت بن سنان ، ابن ثابت بن قرة وحفيده ... كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب . وكان يتلقى الطلاب فيها علومهم . ويتعلمون كل ما قاله إبقراط وجالينوس وما جاء به أساتذتهم العرب الكبار أنفسهم . وكانوا يستمعون إلى كل هذا أيضاً في باحات الجوامع وفي مدارس خاصة طبية كان يديرها أطباء معروفون . هذا وبينما طلاب العلم في بلاد الغرب يسهرون الليالي درساً وحفظاً على ضوء الشموع في قاعات الاديرة كانت التجربة العملية هنا تسير مع العلم جنباً إلى جنب ، وتجاوب النظريات ، على أسرة المرضى ، حقائق المعاينة والكشف وحقائق التجارب . فتتفد الظواهر تفيداً علمياً وتشبع الحالات المستعصية بحثاً ونقاشاً ، وعلاجها تفصيلاً وشرحاً ، بعكس ما كان يجري في بلاد الغرب حيث كانت النظريات الجافة تملأ عقول رجال الاكليروس وتحول دونهم والاحتكاك بال مخلوقات ذات الدماء الحارة ! » (١٧٤) .

هكذا كانت هي الحال ، إذن ، في الدولة العربية - الاسلامية ، وهكذا كانت (بالمقابل) في اوربا التي كانت تفت في دياجير القرون الوسطى ! ولعل شهادة المستشرقة الالمانية هونكه هذه ، في غنى عن التعليق .

ابتدأت بغداد تقاليدھا العلمية الراسخة في

في ذلك فهو أول من أدخل المستحضرات الكيميائية في الطب لاعتقاده الجازم بأن تأثير الادواء إنما يكون نتيجة « عمليات حيوية تجري بين العقار وخلايا الجسم ، وهذا ما يؤيده العلم الحديث من ان الادوية تتفاعل في جسم الانسان تفاعلات كيميائية وفيزيائية ، مما يؤكد ان الرازي خطأ خطوة كبيرة نحو علم الصيدلة أيضاً » (١٧٠) .

ولعل من ابرز مآثر العرب في مدرسة بغداد الطبية - الصيدلانية - الكيميائية ، بخاصة ، ادخالهم « نظام الحسبة ومراقبة الادوية » ، « اذ ان بعض الصيادلة لم يكونوا امينين ومخلصين في أعمالهم ، فكان قسم منهم لا يكتفي بالتدليس والغش ، بل كانوا من الاستهتار بدرجة انهم يدعون بأن لديهم جميع اصناف الادوية ويعطون لمن طلب منهم اي دواء آخر ... فامر المأمون بامتحان امانة الصيادلة ، ثم امر المعتصم ان يمنح الصيدلي الذي ثبتت امانته شهادة تجيز له العمل ، ثم أدخلت الصيدلة تحت مراقبة الحسبة . وانتقل نظام الحسبة الى اوربا ، ولا تزال كلمة « محتسب » تستعمل في اللغة الاسبانية بلفظها العربي حتى الوقت الحاضر » (١٧١) .

ويفيدنا الدكتور امين اسعد خير الله ، انه منذ زمن المأمون كان الصيادلة خاضعين للامتحان ، والحصول على إجازة الممارسة ، وكانت صيدلياتهم خاضعة للتفتيش المنظم ، وكان يوجد في كل مدينة كبيرة عميد للصيادلة الذين كانوا يدعون عطارين (١٧٢) .

★ ★ ★

بيد ان عبقرية مدرسة بغداد الطبية - العلاجية ، لم تقتصر على التفوق والريادة العالمية في الطب النظري والتطبيقي ، والصيدلة ، والكيمياء الطبية ، بل تجاوزتها الى السبق في فن العلاج والتطبيب أو ما يسمى الاشفاء في البيمارستانات (المستشفيات) ، والصحة العلاجية والوقائية ، والصحة العامة عموماً .

تقول المستشرقة الالمانية البارزة ، زيفرد هونكه ، مقولة ذات دلالة خطيرة حقاً :

« إن كل مستشفى ، مع ما فيه من ترتيبات ومختبر ، وكل صيدلية ومستودع أدوية في أماننا هذه ، إنما هي في حقيقة الامر نصب تذكارية للعبقرية العربية » (١٧٣) .

ولا تلبث تعلل مقولتها هذه بحديث آخر

مفخرة من مفاخر الطب العربي ، فقد كان له ساعوره (عميدة) ، كما كان له معاونوه من رؤساء الأقسام الأكفاء . وكان فيه أربعة وعشرون طبيباً يتوزعون في اختصاصاتهم بين الأمراض الداخلية ، والجراحة ، وأمراض العيون ، والتجبير ، وغيرها . وقد تولى عمادة أطبائه أطباء مشهورون مثل جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع ، وابن التلميذ ، وثابت بن سنان بن ثابت بن قرة ، وأبو بكر الرازي (الذي اختار موقعه) ، وصاعد بن بشر ، ونظيف النفيس الرومي ، وأبو الخير بن أبي الفرج الجرائحي . وأبو الحسن بن سنان الصايي ، « وكان ساعوراً في البيمارستان ، وله إصابات في الطب ، وتقدمه المعرفة والتوفيق في العلاج عجيبة » (١٧٦) .

لقد زار ابن جبير ، الرحالة العربي الكبير ، بغداد ، عام ١١٨٤ ، ووصف المستشفى العضدي بأنه أشبه بالقصر ، يضم عدة أجنحة ، وعدداً كبيراً من الغرف . ويحتوي جيد الفراش ، واللوان الراحة ، وفي كل قسم من أقسامه ماء جار من مياه دجلة . وقال في ذلك : « ... وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد ، وهو على دجلة ، وتتفقد الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطلبون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قومة يتولون طبخ الأدوية والأغذية وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق السكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة » (١٨٠) .

وقد تحدث ابن الجوزي في تاريخه المنتظم ، وابن خلكان ، وأبو المظفر في مرآة الزمان ، والعماد الإصفهاني في كتابه « نصره الفترة » أحاديث مستفيضة عن المستشفى العضدي .

★ ★ ★

ويحدثنا الأستاذ ناجي معروف عن مدرسة الطب المستنصرية (أي - مدرسة الطب في جامعة المستنصرية البغدادية) ، فيقول - كان علم الطب من العلوم التي تدرس بالمستنصرية في بناية خاصة تقع تجاه المدرسة المستنصرية أي مقابل باب المدرسة الرئيس . وهي صفة فاخرة تحت الإيوان الذي تكامل سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ ميلادية) ، وقد اتخذت هذه الصفة مكاناً لتدريس الطب ، ومداداة مرضى المستنصرية على اختلافهم . وذكر ابن العبري - أن طبيب المستنصرية كان يتردد إلى مرضاه في بكرة كل يوم يتفقدهم . وكان يطلق على

العلاج والاستشفاء في بيمارستاناتها الشهيرة . وكانت أول البيمارستانات التي بناها العرب ... قد أقيمت على يد الوليد بن عبد الملك ، إلا أن المنصور والرشد أنشأ هذه البيمارستانات ، على تقاليد علمية ، فقد أنشأ الرشيد بيمارستاناً في بغداد سماه باسمه ، وعهد لما سويه (من أطباء بيمارستان جنديسابور) برئاسة ، كما تولاه جبريل بن بختيشوع أيضاً . وأقام البرامكة في بغداد بيمارستاناً تولاه ابن دهنبي (١٧٥) أما البيمارستان الثالث فهو بيمارستان علي بن عيسى (الوزير) - عام ٩١٤ م . والبيمارستان الرابع ، هو بيمارستان المقتدر بنأه الخليفة المقتدر عام ٩١٨ م . وهناك البيمارستان الشهير بالبيمارستان العضدي ، بناه عضد الدولة عام ٩٨١ م . وثمة بيمارستانات أخرى (مثل بيمارستان ابن الفرات ، أنشأه ابن الفرات وزير المقتدر ، و « بيمارستان بدر غلمان بنسي على طلب سنان بن ثابت » و « بيمارستان السيدة بناه سنان بن ثابت » (١٧٦) .

وانتشرت البيمارستانات ، بعد ذلك ، على طريقة بيمارستانات بغداد (أو حتى بشكل أكثر تطويراً) في سائر أرجاء الامبراطورية الإسلامية (وذلك مثل بيمارستان حران ، وبيمارستان مجاهد الدين في الموصل ، وبيمارستان الرقة ، وبيمارستان ميفارقين ، والبيمارستان التوري في الشام ، وبيمارستان المجدومين في الشام ، والبيمارستان الجديد في حلب ، وبيمارستان القدس (بناه صلاح الدين) ، وبيمارستان حماه ، وبيمارستان مكة ، وبيمارستان المدينة ، وبيمارستانات شمالي أفريقيا والاندلس) (١٧٧) .

ويؤكد الدكتور أمين أسعد خير الله أن العرب في بغداد كانوا أول من بدأ التدريس في المستشفيات بطريقة علمية ، وأول من أقام العيادات الخارجية ، وأول من اهتم بإدارة المستشفيات وضبط حساباتها ، وأول من أوجب فحص الأطباء قبل الترخيص لهم بمعاينة الطب . كما كانوا أول من الحق بالمستشفيات الصيدليات القانونية . وأكثر من ذلك فإنهم أوجبوا على الاخصائيين أن يقدموا امتحاناً خاصاً ويحصلوا على ترخيص خاص بالفرع الذي تخصصوا به . ويعلق الدكتور خير الله ، في الختام على تقديم الترخيص في التخصصات والفروع ، مذ أنذاك ، أن هذا أمر « لم ندرك شأوه حتى يومنا هذا رغم تكرار الطلب والإلحاح » (١٧٨) .

لقد كان المستشفى العضدي في بغداد ، مثلاً ،

الجسمي ، والتفاعل الكيميائي للعقاقير ،
والإضافات في التشريح والجراحة ، وطب العيون ،
وطب الأطفال ، والصحة الوقائية ، والصحة
العامة .

لقد أدت بيمارستانات بغداد وسواها ،
الثابتة والمحمولة (المتنقلة) ، والمستشفيات
الحربية ، والمستشفيات المتخصصة (كمستشفيات
الجذام ، ومستشفيات المجانين) ، وماوي العميان
والإيتام والنساء العاجزات (التي أنشأها المأمون
في المدن الكبيرة) ، ومستشفيات السجون .
ومحطات الأسعاف (بالقرب من الجوامع) .
ومدارس الطب المحقة بالمستشفيات ، لقد أدت
كل هذه المؤسسات الطبية البغدادية وما مثلها
في الأمصار العربية والإسلامية دورها في حفظ
الصحة العامة ، وفي « تقويم الأبدان » ، وتنشئة
المواطن في الدولة العربية الإسلامية تنشئة صحية
سليمة ليسهم بدوره في العمل والبناء والإنتاج
واسع النطاق ، في الميادين الحياتية المختلفة .

ومن جملة تقاليد مستشفيات بغداد
ونظيراتها في الحواضر العربية والإسلامية تكريس
أقصى الاهتمام الرسمي والشعبي للمستشفيات ،
وتخصيص الإيرادات الدائمة لها ، وتجهيزها
بأحسن الأثاث (حتى لقد قيل أن بعض أثاثها كان
بمائل أثاث قصور الخلفاء والأمراء) ، وبالغذاء
الصحي اللازم (بما فيه لحوم الأبقار والإغنام
والطيور) ، والتطبيب المجاني ، والتخصص في
الطب والمعالجة (الأبدان ، والعيون ، والأسنان ،
والجراحة ، والأمراض العقلية وغيرها) ، والفحص
الطبي العدلي (في العصر العباسي ، « عند حدوث
بعض الوفيات الغامضة أو الاغتيال ») (١٨٢) ،
واستحداث أجنحة خاصة للرجال ومثلها للنساء ،
والحاق بعض مدارس الطب بالمستشفيات ،
وتواجد صيدليات دائمة في المستشفيات ، إلى
جانب العيادات الخارجية ، والمتابعة الدائمة .

وقد أورد الدكتور أمين أسعد خير الله ، في
كتابه : « الطب العربي » ، (الذي أشرنا إليه غير
مرة) ، أن المرضى كانوا يفحصون في مستشفيات
بغداد وما مثلها ، أولاً في القاعة الخارجية فمن كان
منهم بحالة مرض خفيف يكتب له العلاج ويصرف
من صيدلية المستشفى . أما الذي هو بحاجة إلى
المعالجة في المستشفى فكانوا يدخلونه إليه . وبعد
قيد أسمائهم يعطون حماماً وثياباً نظيفة وكانت
ثيابهم القديمة ترسل إلى المخزن . ويبقى هؤلاء
المرضى في المستشفيات حتى الشفاء التام ...

هذا المكان اليمارستان أو المارستان (أي
المستشفى) . وذكر ابن العبري وابن واصل
وغيرهما أنه كان في المستنصرية مخزن فيه أنواع
الأشربة والأدوية والعقاقير . ولا شك في أن هذا
المخزن كان بمثابة المدخر الطبي أو الصيدلية
فيها ... ومما يحسن ذكره ، في هذا الصدد ، أن
بناء مدرسة الطب المستنصرية بجوار مدرسة
الفقه ، ودار السنة ، ودار القرآن الخ كان أمراً
ضرورياً وذلك لتسهيل معالجة المرضى في تلك
الجامعة الواسعة وللإستفادة من الامتحانات
الأخرى التي امتازت بها المستنصرية كالإستفادة
من دار الكتب ، ومن المخزن ، ومن المطبخ الذي
كان الطعام يهياً فيه ويوزع على الطلاب وغيرهم .
ومما يتصل بمدرسة الطب ما ذكره عبد الرحمن
الأربلي بصدده ما كان يدرس بالمستنصرية ، فقد عد
حفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان من الأمور التي
كانت تحظى بعناية هذه المدرسة وأطبائها . وينبغي
أن نذكر أن كثيراً من علماء المستنصرية اشتهروا
بالطب والتأليف فيه ، فقد كان البرزبي رأساً في
الطب ... وإليك ما وجدناه من أسماء أطباء هذه
المدرسة : ١ - شمس الدين ابن الصباغ ٢ -
سنجر الطبيب ٣ - علاء الدين الأربلي ٤ - ابن
الكتبي الشافعي ... (١٨١) .

واتفق معظم باحثي الطب العراقي ، والعربي
- الإسلامي ، عموماً وخصوصاً أبرزهم :
(الدكتور أمين أسعد خير الله ، وعبد الحميد
العلوي ، والدكتور مصطفى شريف العاني ، ود .
أحمد شوكت الشطي ، ود . محمود دياب) وعديد
من المستشرقين (بينهم لوبون ، وبراون ، وكارا
دوفو ، وجاك بيرك ، وآدم مترز ، وهونكه ،
وغريغوريان ، ونيكولسكي) ، إضافة إلى قدرتي
طوقان ، وحكمت نجيب ، وناجي معروف ، وجلال
مظهر (ممن بحثوا الطب العربي - الإسلامي ضمن
بحوثهم في الحضارة العربية - الإسلامية والعلوم
عند العرب) ، يتفق كل هؤلاء ، وعديد سواهم
على أن علم الطب عند العرب ، وخصوصاً في
مدرسته الأولى الأساس ، المدرسة البغدادية ، لم
يتحدد بالنقل والترجمة من الأمم الأخرى ، بل
تجاوز ذلك إلى الابتكار ، والتطوير ، فقد تقدم ،
نوعياً ، وكمياً ، بشكل استثنائي ، جراء المنهجية
العلمية التي اتبعتها مدرسة بغداد في العلم والثقافة
والبحث العلمي ، على صعيد الملاحظة والتجربة
والتابعة السريرية ، وربط النظر بالعمل والنظرية
بالممارسة ، ناهيك عن الابتكارات الأصلية في القول
بالعدوى ، وأثر البيئة ، وبالطب النفسي -

للأمراض من جديد ، فقد ذكر د . خير الله (يؤيده العديد من المستشرقين والباحثين) :

- « في هذا التاريخ كانت المستشفيات في أوروبا مثل أوكار للأمراض والجراثيم . وهالك ما قاله ماكس نوردو عن مستشفى « أوتيل ديو » في باريس الذي كان معاصراً لمستشفيات العرب ، والذي كان يعد حينئذ من أحسن المستشفيات في أوروبا ، قال : « في الفراش الواحد من الحجم المتوسط كان يرفد أربعة الى ستة أشخاص الواحد جنب الآخر وأرجل أحدهم فوق رأس الآخر . وكان الأطفال يرقدون بجانب الرجال المسنين والنساء والرجال معاً ... وفي الفراش الواحد امرأة في دور المخاض وبجانبها طفل بحالة التشنج ومصاب بالتيفوس في حالة الهذيان من ارتفاع الحرارة ومريض بالسل يسعل سعالاً متواصلًا وبجانب كل هؤلاء شخص مصاب بمرض جلدي يحك جلده حكاً شديداً بأظفاره الطويلة ... أما الأكل فكان من أردأ الأصناف وقليل الكمية ويعطي بأوقات غير منتظمة ... والبنية نفسها تعج بالحشرات الدنيئة . وكان هواء قاعات المرضى فاسداً كريهاً لا يجبراً الخدم ان يدخلوها إلا اذا سدوا أنوفهم بالقطن المبلول بالخل ... وكانت جثث الموتى تترك أحياناً (٢٤) ساعة أو أكثر قبل ان ترفع من فراش المرضى وكانت تتصاعد منها الروائح الكريهة ويحوم فوقها الذباب » (١٨٤) .

بل ان الدكتور خير الله يمضي أكثر من ذلك ، فيستلهم تراث بغداد الطبي العربي من منظور مقارن معاصر ، ويقول في ختام استنتاجاته ، مبرراً كل التبرير : « **لذلك فالمستشفيات العربية تعطينا دروساً مفيدة حتى في أيامنا هذه** » (١٨٥) .

ولم يكن الدكتور خير الله بالوحيد في استنتاجاته بخصوص التفوق العربي (البغدادي) الحاسم للطب العربي في تلك العصور على سواه (من طب أوربي وغيره) ، فان الباحث الموصلي المعاصر الاستاذ الفقيه حكمت نجيب عبدالرحمن يستنتج مثل ذلك (في كتابه « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » منشورات جامعة الموصل ، ١٩٧٧) ، فيقول :

- « استمر الطب مزدهراً عند العرب طيلة فترة القرون الوسطى ، وأصبح فناً وعلماً تخصص

وكانوا عند خروجهم من المستشفى يعطون بدلة من الثياب ومبلغاً من النقود يكفيهم العوز الى ان يصبحوا قادرين على العمل ... وكانت صيدلية المستشفى في عهدة صيدلي كفاء ... تضاهي في حسن ترتيبها صيدليات هذا الزمن ... وفي المستشفيات العمومية كان الساعور (أي عميد المستشفى) مسؤولاً عن علاج المرضى ويعاونه رؤساء الأقسام الأكفاء . وكان المرضى رجالاً ونساء يقومون بخدمة المرضى بعناية متصلة . وفي كل مستشفى كان يوجد أطباء مختصون بالأمراض الداخلية أو الجراحة أو أمراض العيون ... وكان يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب فكان الطلبة يجتمعون في القاعة الكبرى من المستشفى حيث كانوا يراجعون دروسهم وينسخون المخطوطات الطبية التي راجعها أساتذتهم وأصلحوها لهم . وكان هؤلاء الأساتذة يلقون عليهم الدروس من مؤلفات جالينوس والرازي وعلي بن عباس الجوسي حتى ظهر قانون ابن سينا الذي كشف التعاليم السابقة له . وكان المساعدون والطلبة يفحصون المرضى في العيادة الخارجية ويعرضون الحوادث الصعبة على رئيس العيادة وكانت الحوادث المهمة تشرح لهم شرحاً وافياً ويوصف لها العلاج اللازم ... وعدا المحاضرات التي كانت تعطى للطلبة على المرضى كانت تكتب التعليمات اللازمة لكل مريض وتنفذ بدقة وتدون الملاحظات عن كل مريض متتبعه سير المرض . وقد قيل ان الرازي بنى كتابه « الحاوي » على هذه الملاحظات . وكان للأطباء الحرية بالتجربة للأدوية الجديدة التي كانت تدون معلوماتها في كتاب خاص تنشر تحت عنوان « التجربات » ... ولم يكن يصرح لأحد بتعاطي الطبابة إلا بعد الفحص القانوني ... وكان أطباء المستشفيات يختارون بعناية دقيقة فالرازي انتخب لرئاسة المستشفى العضدي في بغداد من بين مائة طبيب ... (وكان الأطباء) يتعاطون ما هو ضمن اختصاصهم فقط وذلك بعد الامتحان والترخيص الخاص ... اما المشاورة بين الأطباء فيما يختص بالمرضى فكانت تحدث كلما دعت الحاجة اليها ... » (١٨٦) .

إن الدكتور خير الله (وهو من أوائل من كتب عن الطب العربي في بغداد وغيرها ، إن لم يكن أولهم) يستنتج من كل ذلك ، محققاً ، انه لا مجال للمقارنة والحالة هذه بين طب بغداد ، مركز العلم والثقافة العالمية في عصرها - وبين « الطب » الاوربي في القرون الوسطى ، وهو شيء أشبه بالشعوذة والدجل والفوضى ان لم يكن نشراً

المسيحيين الذين تشهد « أوراد القديسين » أن البابا فيليكس الرابع قد خصهم بكنيسة قديمة في « الفوروم » الروماني ، نقول ، أليس بشيراً للخير ان يكون أساتذة هؤلاء الأطباء المسيحيين قد ولدوا عرباً ؟ » (١٨٧) .

وبالمثل ، كانت باحثتنا الألمانية الكبيرة ، في تمام موضوعيتها العلمية ، حين قررت ، في ختام كتابها « الأيدي الشافية » (أحد كتب موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب ») ، وبكل ثقة :

« إن كل حبة من حبوب الدواء ، مذهلة أو مسكرة ، إنما هي كذلك ، تذكر صغير ظاهر ، يذكرنا باثنين من أعظم أطباء العرب ومعلمي بلاد العرب » (١٨٨) .

وهي تقصد بذلك الرازي طبيب بغداد الرائد الكبير ، وابن سينا خليفة الرازي ومطور تعاليمه الطبية في بغداد والدولة العربية - الإسلامية .

وإذا كان هذا رمزاً للتأثير العميق النافذ لمدرسة الطب العربية الإسلامية ، ذات المنبع البغدادي ، وإذا كان التأثير العربي قد عاصر في ميدان علم العقاقير في أوروبا فترة ما قبل النهضة ، والنهضة نفسها ، وتعداها حتى وصل إلى القرن التاسع عشر (ففي عام ١٨٣٠ استعملت مصادر عربية في تصنيف الأقراباذين الأوربي) (١٨٩) ، إذا كان هذا قد تم ، بهذا الشكل ، فإن بغداد ، كمركز للعلم والثقافة العالمية ، تكون قد بسطت تأثيرها العلمي والمعرفي ، إذا صح التعبير ، على الحضارة الأوربية في شتى عصورها ، بصفتها منبع وأساس ازدهار العلم العربي والثقافة العربية - الإسلامية التي أضلت بنفوذها أوروبا والعالم كله ، خصوصاً في القرون الوسطى وعصر النهضة أيضاً .

- ٨ -

إن تراث العلم والثقافة في بغداد لا يتحدد بما سبق أن بحثنا لحد الآن (الرياضيات ، والعلوم الفلكية ، والطبية) ، فثمة العلوم الطبيعية ، وثمة الجغرافيا ، والتاريخ ، والعلوم الاجتماعية أو الانسانية ، ولكن إيفاء كل ذلك حقه ، بالتفصيل ، امر يكاد يكون مستحيلاً ، في مثل هذا الحيز . وحسبنا أننا أشرنا بتفصيل نسبي إلى الأساس والجوهر - نعني بذلك المنهجية العلمية ، وتقاليده البحث العلمي في المدرسة البغدادية ، وهي التي كانت سر نجاح

له المعاهد الدراسية بحيث عرفوا عنه كل شيء قبل اختراع المجهر ... ولقد ذكر فرانك آدمز أن الأطباء العرب الذين أعطوا حياة جديدة لدراسة العلوم الطبيعية في أوروبا وقدموا خدمات جلى للأوربيين ، ليس فقط عن طريق حفظ أعمال فلاسفة اليونان وعلمائها ، وإنما عن طريق ابتكاراتهم العلمية والتي قدمها علماؤهم ، ومن بينهم في الطب والعلوم الطبيعية ابن سينا ، في الوقت الذي لم تكن فيه أوروبا تعرف الطب بالمعنى الحقيقي وكانت متأثرة الى درجة كبيرة بالتعاون والاحجية والتمائم ، مع الاستسلام لأقوى أنواع الدجل والشعوذة بالإضافة الى التعصب الديني . يورد الاستاذ درابر في كتابه The Intellectual Development in Europe

« بأن الفلاح الأوربي إذا أصابته حادثة وفاجأته الحمى يسرع الى ضريح قرب قديس انتظارا لحثوث معجزة تشفيه ، وأما العربي الأسباني فكان يعتمد على تعليمات طبية ومشروط وتضميد جراحي » انتقل الطب العربي مبكراً الى الغرب فانشأت المدارس الخاصة بالطب في مدن مونبلييه ، ونابلي ، وبولونيا ، وبادوا وأوراليان ، واوكسفورد ، وكمبريدج وغيرها . وكانت هذه المدارس تستخدم كتب الطب العربية المترجمة الى اللاتينية ، متخذة إياها أساساً لتدريس الطب » (١٩١) .

ويبدو ان المستشرقة الألمانية المعاصرة ، هونكه ، على تمام الحق ، حين اكدت تقول : « كان هناك رجل تغنى بعظمة الطب العربي وبراعة أساطينه فقال : « لقد برع العرب في علم الشفاء الى حد اعتقد المرء فيهم أنهم مؤسسوا هذا الفن . وقد كان بإمكانهم ان يدعوا ذلك بسهولة لولا أنهم لم يكتروا من إيراد الأسماء والكلمات اللاتينية واليونانية ، ولهذا فان كتب ابن سينا والرازي وابن رشد قد استقبلت بالثقة نفسها التي استقبلت بها كتب ابوقراط وجالينوس ، ونالت ثقة كبيرة ، حتى ان كل من حاول التطبيق بدون الاستناد عليها كان يتهم بسهولة انه يهدم المصلحة العامة » . هذا الرجل هو أجريافون ناتسهايم ، « الابن الرهيب » بين رجال الثقافة والعلم . ليس بشيراً للخير ان يكون أساتذة الأطباء والصيادلة

العلوم العربية والثقافة العربية - الإسلامية في بغداد ، سواء كانت علوماً رياضية ، أو فلكية ، أو طبية ، أو طبيعية ، أو اجتماعية وإنسانية .

إن هذه المنهجية العلمية التي قامت ، أساساً ، بالروح العلمية والتقاليد العلمية ، والأخلاق العلمية أيضاً (تقاليد وأخلاق البحث العلمي) التي طلعت بها بغداد الحضارة العربية - الإسلامية ، هي التي تقف وراء كل نجاحات علماء بغداد والدولة العربية - الإسلامية في مساعيهم وبحوثهم وإنجازاتهم العلمية الجبارة .

ولعلنا مدعوون هنا الى إيضاح حقيقة طالما ثار حولها الجدل ، وهي حقيقة ابتكار وأصالة الفكر العلمي العربي ، والثقافة العربية الإسلامية . فكثيراً ما تهجم المتعصبون والمتحاملون والمتمزتون من أعداء العلم ، وأعداء العرب (عرب بغداد وغيرهم) ، وأعداء الشعوب والثقافة الإنسانية ، على العرب وعلى الثقافة العربية - الإسلامية ووصفوها ظلماً وعدواناً ، بالخواء والهزال ، وبأن دورها في التاريخ لا يعدو أن يكون دور الناقل والمترجم لفلسفة وثقافة اليونان .

ويؤكد رينان ، مثلاً ، أن الساميين (ومنهم العرب) - بل هو يقصد العرب بالذات - لا يعرفون الثقافة والعلم والفلسفة الا تقليداً . وقد ناصر العنصريون ، والأمبرياليون ، والصهاينة ، في كافة أنحاء المعمورة ، هذه المقولة الباطلة ونشروها في كل مكان ، وبشتى السبل (خصوصاً أيام الانتكاسات العربية وبعدها) .

وبالطبع ، فإن الأغراض التي تختفي وراء هذه المقولات واضحة تلخص في طمس الحقيقة العربية وتشويه علوم العرب وثقافتهم ، والخروج من ذلك الى القول بأن العرب أمة تابعة ، من حيث العلم والثقافة لغيرها ، وأنه لا جديد لديها ولا غناء ، وأن التخلف فيها سمة عريقة ثابتة .

على أن الحقيقة العربية في بغداد العلم والثقافة والبحث العلمي ، بغداد الحضارة العربية - الإسلامية ، وفي كافة الأمصار في الدولة العربية - الإسلامية الواسعة ، إنما هي أمر لا يمكن له (كأي حقيقة موضوعية ، تاريخية ، مادية) أن يخفى أو يطمس . فالعلم العربي والثقافة العربية - الإسلامية والروح العلمية عند العرب هي من الضخامة والجلال والسطوع بحيث لن يقوى على طمسها أي تزوير أو تزيف ، رجعيًا ، كان أم امبرياليًا ، أم صهيونيًا .

فهذا هو البروفسور برنارد لويس يشهد ، في جملة من شهدوا للعلم العربي والعقل العلمي العربي فيقول :

- « إن أوروبا تحمل ديناً مزدوجاً للعرب : أولاً ، محافظة العرب على وقدة الفكر الإنساني ، والميراث العلمي والفكري لليونان وتوسيعهم فيه ، وثانياً : في تعليم أوروبا طريقة جديدة للبحث بوضع العقل فوق السلطة » .

ويؤكد الباحثون المتصفون ، من ذوي النظرة الموضوعية في البحث والتحليل ، أن الفكر العربي - الإسلامي كان ، من حيث الجوهر ، **فكراً تجريبياً** . ويضيف هؤلاء قائلين أن ذلك لا يعني أن هذا الفكر كان ضد القياس ، ذلك أن التجربة ذاتها تتضمن القياس وتنص عليه ، وتتطلبه عضوياً . ويريدون ، أيضاً ، قائلين ، وللقول دلالة بالغة ، أن الفكر العربي - الإسلامي قد تجاوز الأطر الصورية لمنطق أرسطو ، وتثبت بالتجربة العلمية متخذاً إياها ، في أكثر الأحيان ، مصدراً للعلم والفلسفة . ويستنتجون من كل ذلك ، محقّين ، أن الفكر التجريبي العلمي العربي - الإسلامي يلاحم بين الدراسة والتأمل النظري والممارسة العملية ، أي ما نسميه نحن بالتطبيق ، ويتجه ، بصورة أساسية ، الى التحديد الكمي . وهكذا ، فهو ليس تقليداً للفكر العلمي اليوناني ، بل هو ، كما يقول هؤلاء الباحثون بالحرف « صفحة جديدة كل الجدة بالنسبة للفلسفة الأرسطوطاليسية والأفلاطونية » (١٩٠) .

وبالفعل ، فإن الاتجاه الى الكم والتجريبية هو خروج مباشر على مفهوم جوهري في منطق أرسطو هو التعريف . والتعريف أو الحد الأرسطوطاليسي بالنوع والفصل مثلاً هو تعريف يوافق النظرة الكيفية الى الأشياء .

وإذا كان رجال الفقه والأصول هم أول من خرجوا على منطق أرسطو ، فإن الفلاسفة والعلماء العرب والمسلمين كانوا المطورين لهذا الخروج العلمي الجليل ، الذي أدى ، في مراميهِ البعيدة ، الى تثبيت عملية التجريب العلمي وليس الاستخلاص المنطقي الشكلي نهجاً لاكتساب المعرفة ، وإدراك الحقيقة .

ويؤكد ذلك ، مثلاً لاحصراً ، ابن خلدون (العالم العربي الكبير الذي يشهد له علماء العالم

**فالعرب ، في الواقع ، هم الذين ابتدعوا
طريقة البحث العلمي الحق ، القائم على
التجربة (١٩١) .**

وتعلل البروفسورة هونكه مقولتها هذه
بشكل تستشهد ، في تضاعيفه بالبحث العلمي
العربي في بغداد ، أساساً ، وفي سائر الحواضر
العربية - الإسلامية ، فيما بعد ، وتذكر ، ضمناً
بالنظام ومدرسته المعتزلية الفكرية ، التي قامت
على الشك سبيلاً الى التثبت ، والتجربة
والبرهان (مما عرضنا له آنفاً في فصل سابق من
بحثنا هذا) ، فتقول :

« ... لقد سرت بين العلماء الاغريق ، الذين
لم يكونوا جميعاً بالاغريقين بل كان أغلبهم
من أصل شرقي ، سرت بينهم رغبة في
البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات ،
ولكنهم تقيّدوا دائماً بسيطرة الآراء النظرية
ولم يبدأ البحث العلمي الحق القائم على
الملاحظة والتجربة إلا عند العرب . فعندهم
فقط بدأ البحث الدائب الذي يمكن الاعتماد
عليه ، يتدرج من الجزئيات الى الكليات .
وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية
السليمة للباحثين . وبرزت الحقائق
العلمية كثمرة للمجهودات المضنية في
القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الملل .
وبالتجارب العلمية الدقيقة التي لا تحصى ،
اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء
العلمية مراراً وتكراراً ، فاثبتوا صحة الصحيح
منها ، وعدلوا الخطأ في بعضها . ووضعوا
بديلاً للخطأ منها متمتعين في ذلك بحرية
كاملة في الفكر والبحث ، وكان شعارهم في
أبحاثهم - الشك هو أول شروط المعرفة -
تلك هي الكلمات التي عرفها الغرب بعدهم
بثمانية قرون طوال . وعلى هذا الأساس
العلمي سار العرب في العلوم الطبيعية شوطاً
كبيراً ، أثر ، فيما بعد ، بطريق غير مباشر ،
على مفكري الغرب وعلمائه ، أمثال روجر
باكون ، وماجنوس ، وفيتليو ، وليوناردو
دافنشي ، وغاليلو (١٩٢) .

وتعلل هونكه بذلك قد قالت القول الفصل ،
وحسمت هذه المسألة التي طال فيها الأخذ
والرد ، وبودنا ان نعلق على مقولتين وردت في
رايها هذا :

جميعاً بالريادة والسبق في علم الاجتماع ،
والاقتصاد ، والنظرة العلمية ، وإعادة كتابة
التاريخ بروح علمية ، نسبة لمواصفات العصر)
نقول ، يؤكد ذلك ابن خلدون في نقده لمنطق
ارسطو حيث يقول : « إن الأقيسة المنطقية احكام
ذهنية ، والموجودات الخارجية متشخصة ،
فالتطابق بينهما غير يقيني . لأن المادة قد تحول
دونه ، اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك فذليله
شهوده لا تلك البراهين المنطقية » . وينبغي ان
نسارع للقول ، ان مقولة ابن خلدون هذه لا تعني
القضاء التام على القياس المنطقي ، ذلك ان
عمليات التجريب تتضمن في جوهرها عمليات
قياسية جزئية .

**وتدل أبحاث الجاحظ في الحيوان ، وأبحاث
الكندي الفلسفية ، ودراسات وأبحاث وكشوف
جابر بن حيان ، والكندي ، والرازي ، وابن
الهيثم ، وابن رشد والبيروني وابن سينا وابن
باجة وابن خلدون وغيرهم ، على ان الروح العلمية
العربية ، كما بدأها مصدر الإشعاع الفكري
والحضاري العربي - الإسلامي ، بغداد ، روح
أصيلة غير مستوردة ، أو مقلدة . كما تدل ، فيما
تدل عليه ، على ان المنهج التجريبي العربي ،
والتوحيد الجدلي بين النظرية والتطبيق ، والنظرة
الشمولية للمادة والانسان والكون ، والاتجاه
الكمي ، والقيم التجريبية والحسية إنما كان
مصادقا لهذه الروح العلمية الأصيلة لدى العرب ،
وشهادة بليغة على عمق وضخامة الاضافة العربية
- الإسلامية (بالشكل الذي بداته بغداد - المنبع ،
والرائد) الى العلم والثقافة العالمية .**

واذا كان لنا ان نستشهد ، هنا ، بشيء
فاننا نشير الى مقولة البروفسور برنارد لويس ،
التي ذكرنا توأ ، وهي تعليم العرب أوروبا طريقة
جديدة للبحث . وهذه الطريقة الجديدة في
البحث إنما هي طريقة البحث العلمي الموضوعي
الجدلي ، وهي نفسها ما تشير إليه مستشرقتنا
الالمانية البروفسورة هونكه حيث تقول (وكأنها
تجيب عن التساؤلات حول دور العلم العربي
والثقافة العربية - الإسلامية ، في العملية
الحضارية والثقافية العالمية) ، وذلك في ختام
مبحث لها بعنوان « هدايا العرب للغرب »
(في كتابها المشار اليه آنفاً) :

« ... لقد طور العرب ، بتجاربههم وأبحاثهم
العلمية ، ما أخذوه من مادة خام عن
الاغريق ، وشكلوه تشكيلاً جديداً .

- « إن العرب لم ينقذوا الحضارة الاغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها ثم اهدوها إلى الغرب فحسب ، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع . وبالإضافة الى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سرق أغلبها ونسب لآخرين ، قدم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهتد امام الغرب طريقه لمعرفة اسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم » (١٩٥٠) .

إذن فهدية العرب العظمى الى الغرب (وكل شعوب المعمورة) هي طريقة البحث العلمي الصحيح . وهنا هو سر مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، فهي التي اكتشفت هذه الطريقة ، وهي التي اتبعت هذه المنهجية ، وقد اتضح لنا ذلك ، في كل تضاعيف بحثنا ، ومقتطفاتنا .

★ ★ ★

لقد نشرت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي طريقة البحث العلمي الموضوعي ، ولكنها نشرت الى جانبها ، بالضرورة ، وفي تفاعلية جدلية ، الكتاب ، والثقافة . فقد كانت بغداد عاصمة الثقافة في العالم ، ومنجم الفكر فيها . حسبنا ان نستشهد بمقتطف صغير من أستاذتنا البروفسورة هونكه (وهو مقتطف تعززه كافة كتابات الباحثين العرب والمسلمين ، ومؤرخي الفكر والثقافة العربية - الاسلامية ، ويكفي ان نشير الى كتب الاساتذة الاجلاء : طه حسين ، واحمد أمين ، وعبد الحميد العبادي في دراساتهم الاسلامية (فجر الاسلام وظهره وضحاها) ، والى كتب لوبون ، ومنتز ، وجاك بيرك ، وجب ، وارنولد ، وآربري ، وكراجكوفسكي ، وغريغوريان ، ورمضانوف ، وشاه محمديوف وغيرهم) . تقول هونكه (في كتابها : شمس العرب ص ٣٨٥) :

- « ... وكما يقاس ثراء الناس اليوم بمدى ما يملكون من عربات فاخرة مثلاً ، قدر الناس - في ذلك العصر الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر - الثراء

١ . ان العناصر الشرقية ، غير الاغريقية (بين العلماء الاغريق) كانت ذا أصل سامي (عربي) . ويمكن الإشارة هنا الى أحدث البحوث في هذا الباب (حول عروبة الساميين ، والهجرات العربية من الجزيرة ، وعروبة الحضارات القديمة في وادي الرافدين : البابلية ، والاكديّة ، والآشورية وغيرها) - ، وخصوصاً بحث الاستاذ الدكتور مصطفى شريف العاني « الطب العربي بين التراث والمعاصرة » ، مجلة « المورد » ، العدد الخاص (بالتراث والمعاصرة) ، العدد الثاني ١٩٧٨ (١٩٣) .

٢ . إن الشك الذي يبرزه بعض الباحثين الأوروبيين غربياً أوروبياً ، هو مذهب عربي ، معتزلي ، قال به النظام والجاحظ (من مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ، وقال به ابن الهيثم والبيروني (من تلامذة هذه المدرسة ومطوري تعاليمها ، فيما بعد) .

وقد عرضنا سابقاً لمقولات النظام المعتزلي ، كما عرضنا لمقولات الجاحظ في الشك والتجريب ، ونورد الان مقتطفاً لابن الهيثم ، يقول فيه (مبيناً قيمة الشك والتجريب والبحث وصولاً الى الحقيقة العلمية الموضوعية) .

- إنني لم أزل منذ عهد الصبا مروياً في اعتقادات الناس المختلفة ... فكنت متشككاً في جميعه ، موقناً بان الحق واحد ، وان الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك اليه - فلما كملت لادراك الأمور العقلية انقطعت الى طلب معن الحق ... فخفضت لذلك ضروب الآراء والاعتقادات ... فرأيت اني لا اصل الى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الامور العقلية .. » (١٩٤) .

ومن هذا المقتطف يتبين شيئان - أولهما ربط التجربة الحسية بالتأمل العقلي الفلسفي عند ابن الهيثم ، والثاني هو التحويل على طريقة التناول (اي المنهجية ، التي يسميها ابن الهيثم ، جهة السلوك الى الحق) .

وتختتم هونكه رأيها السابق (المشار اليه آنفاً) باستنتاج حاسم للغاية ، تقول فيه :

الكتاب وصنع البارود وعمل إبره السفينة ،
فعلينا ان نفكر ماذا كانت نهضتنا او لم يكن من
ورائها هذه المخلفات التي وصلتنا من المدنية
العربية « (١٩٧) » .

وفي التأكيد على الكتاب والثقافة ، كمؤشر
اكبر على المدنية العربية في بغداد والحواضر
العربية والاسلامية الاخرى ، يطالعنا البروفسور
آدم متز ، في كتابه (الحضارة الاسلامية في القرن
الرابع الهجري - من ترجمة محمد عبد الهادي
أبو ريده) ، بمقارنة طريقة ، عميقة الدلالة :
« ... كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانر
في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون
كتاباً ، وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢ م ما
يزيد على المائة بقليل ... » (١٩٨) ومقابل ذلك
« ... عمل علي بن يحيى المنجم ، وكان ممن
جالس الخلفاء ، حوالي منتصف القرن الثالث
الهجري خزانة كتب عظيمة في ضيعته ، وسماها
خزانة الحكمة ، وكان يقصدها الناس من كل بلد
فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ،
والكتب مبدولة لهم والصيانة مشتملة عليهم ،
والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فقدم ابو
معشر المنجم من خراسان يريد الحج ...
فوصفت له الخزانة ، فمضى ورآها وهاله
امرأها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ... وفي
٣٥٧ هـ - ٩٦٧ م صودر حبشي بن معز الدولة لانه
اراد عصيان أخيه أمير بغداد ، فكان من جملة ما
أخذ منه خمسة عشر ألف مجلدًا سوى الاجزاء
وما ليس بمجلد ... » (١٩٩) . وينقل آدم متز
من ذلك الى المكتبات العامة - التعليمية ، فيقول:

« على انه قد ظهرت الى جانب دور الكتب
مؤسسات علمية اخرى تريد على دور
الكتب بالتعليم ، او على الأقل باجراء
الأوراق على من يلزمها ، فيحكي عن أبي
القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي
الفقيه الشافعي المتوفى عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م
انه أسس داراً للعلم في بلده ، وجعل فيها
خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل
طالب علم ، لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا
جاءها غريب يطلب الادب ، وكان معسراً
أعطاه ورقاً ورقاً ... وفي سنة ٣٨٣ هـ
أسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بني
بويه داراً للعلم في الكرخ غربي بغداد ونقل
اليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها ، وكان
بها مائة نسخة من القرآن بأيدي أحسن

بمدي ما يفتنى من كتب او مخطوطات ...
ونمت دور الكتب في كل مكان نمو العشب
في الأرض الطيبة . ففي عام ٨٩١ م يحصى
مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد
بأكثر من مئة . وبدأت كل مدينة تبني لها
داراً للكتب يستطيع عمرو او زيد من الناس
استعارة ما يشاء منها ، وان يجلس في
قاعات المطالعة ليقرا ما يريد ، كما ويجتمع
فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات
خصصت لهم ، يتجادلون ويتناقشون ،
كما يحدث اليوم في أرقى الأندية العلمية
فمكتبة صغيرة كمكتبة النجف في العراق ،
كانت تحتوي في القرن العاشر أربعين ألف
مجلد ، بينما لم تحو اديرة الغرب سوى
اثنى عشر كتاباً ربطت بالسلاسل ، خشية
ضياعها . ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة
في مدينة الري الى عشرة فهارس كبيرة .
وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة ، بل انه
كان لكل مستشفى يستقبل زواره ، قاعة
فيحكة صفت على رفوفها الكتب الطبية
الحديثة الصدور ، تباع لتكون مادة
لدراسة الطلاب ومرجعاً للأطباء ، يقفون
منه على آخر ما وصل إليه العلم
الحديث . ولقد جمع نصير الدين الطوسي
لمرصده في مراغة (٤٠٠.٠٠٠) مخطوطة .
وحذا حذو الخليفة في بغداد في مختلف
أنحاء العالم العربي ، فأربرت ، مثلاً ، مكتبة
أمير عربي في الجنوب على (١٠٠.٠٠٠)
مجلد » .

هكذا كانت بغداد ، وهكذا كان إشعاعها
العلمي والثقافي في سائر أرجاء الدولة العربية -
الاسلامية الواسعة .

وإذا كان هذا هو ما تقرره باحثة اوربية
موضوعية معاصرة ، مثل البروفسورة هونكه ، في
القرن العشرين ، فان لفوستاف لوبون فضل
السبق ، فقد أشار الى ذلك إشارة مفصلة ، في
كتابه « حضارة العرب » ، في القرن التاسع
عشر (١٩٦) . وإذا كنا نشير الى الباحثين
الاوربيين ، فاننا نريد بذلك تعزيز مقولاتنا
بشهادات موضوعية لعلماء همهم كشف الحقيقة،
ونشرها .

يحدثنا الأستاذ الراحل محمد كرد علي ، في
كتابه « الاسلام والحضارة العربية » (الذي أشرنا
اليه آنفاً) ان فوته قال : « ان العرب علمونا صنع

ويقرر كراجكوفسكي ، وهو ناشر ومحقق كتاب (البدع) لابن المعتز ، والاعتبار (لأسامة بن منقذ) . والمتحدث عن الأدب العربي في بغداد والدولة العربية الأندلسية ، يقرر أن تأثير بغداد ودولتها العربية - الإسلامية ، على مختلف العصور ، ظل بارزاً ، أبداً ، في جنوبي روسيا ، وآسيا الوسطى (الإسلامية ، بلاد ماوراء النهر) ، بل أن القرآن الكريم والعملية البغدادية وسواها (في عهد الرشيد والمأمون وخلفاء بغداد ، والخلفاء الآخرين في الأمصار الإسلامية) بلغت البلطيق ، وتجاوزته إلى فنلندا (٢٠٢) .

أما الاديب المؤرخ الفرنسي روبر بريفو ،

فيقرر في كتابه « الشعراء التروبادور » - وفقاً لما ينقله الأسناذ محمد مفيد الشوباشي ، في كتابه « العرب والحضارة الأوربية » ، أن « أوروبا كانت في القرن الحادي عشر ، والقرن الثاني عشر تتجه إلى العرب باحثاً عما استجد عندهم من صناعات وعلوم ... ومن فنون خاصة بالملاحة كانت السبب في تطورها وتبدل حالها ... كانت أوروبا تتجه إليهم منقبة عن كشوفهم في علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، بل كانت تبحث عندهم عن آثار أرسطو ، وابن سينا ، وابن رشد . وكان علماءنا من أمثال (دانيال دي موري) و (ميشيل سكوتوس) و (دي جريمون) و (دوريلاك) و (ريمون لول) يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم . ووجد (ريجيو مونتانيوس) عندهم المعارف التي مكنت (هنري الملاح) و (فاسكو دي جاما) و (خرستوف كولبس) من ارتياد المحيطات ، والوصول إلى أطراف العالم وبحث كل من (البير الأكبر) و (توماس لين) عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها في بلنسية ، وعن الفارابي ... وفي الوقت الذي أنشد الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة إسبانيا العربية صرح (روجر بيكون) في أكسفورد بأن وجود الفكر الأوربي ، والعلم الأوربي كان مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية . لقد دعيت أوروبا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت غارقة في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهي مدينة بكل مقوماتها إلى العالم الإسلامي » (٢٠٣) .

إن هذه الشهادة العلمية من روبر بريفو ليست بالوحيدة ، وقد شهدنا لها مثيلات كثيرات ، عرضنا لبعضها ، وقد نعرض غيرها . وبالطبع ، فإنه ليس كل المفكرين الفرنسيين مثل غوستاف لوبون ، أو بريفو ، أو غارودي ، أو

النساج ، هذا إلى عشرة آلاف وأربعمئة مجلدة أخرى معظمها بخط أصحابها أو من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون ... وكذلك اتخذ الشريف الرضي (المتوفى عام ٤٠٦هـ - ١٠١٥م) نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها دار العلم وفتحها لطلبة العلم وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه . ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ، فكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة الحكمة ، وهي خزانة كتب ليس غير ، أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها ... » (٢٠٠) .

إن كل هذا الذي يقرره البروفسور متر وينقله لنا يبدو صحيحاً في خلفية فكرية تقول أن حضارة العرب في بغداد كانت شاملة ، متلاحمة ، بحيث يبلغ عدد الأطباء مثلاً ثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلاً في جاني بغداد « سوى من كان في خدمة السلطان » . وبحيث تضم سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد أكثر من مئة متجر ... لقد كانت حضارة متكاملة حقاً ، وكانت بغداد قلبها النابض .



وبكلمة ، كانت بغداد الحضارة العربية - الإسلامية ، منبع الفكر والعلم والثقافة العالمية في القرون الوسطى ، والقنديل الوهاج للمعرفة لأمد كبير من الزمن ، وقد امتدت تأثيراتها إلى سائر أرجاء الامبراطورية العربية - الإسلامية ، وإلى عديد من الدول والمناطق الأخرى في العالم (من الفولغا في روسيا ، وبحر الخزر وداغستان ، والصين والشرق الأقصى ، إلى المغرب الأقصى . والأندلس حيث كان لا يعترف بالفضل العلمي والثقافي والفني إلا لما هو مشرقى ، وبغدادى ، بخاصة) .

يتحدث الأكاديمي البروفسور الراحل كراجكوفسكي في فصول عديدة من أحد مختارات كتبه عن التأثير الثقافي العربي في داغستان ، وجنوبي روسيا . وقد ضمت مجلة « المورد » البغدادية بين جوانبها (في العدد الثاني ١٩٧٩) مقال كراجكوفسكي عن داغستان واليمن ، وهو يتحدث فيه ، عن تأثير الثقافة والأدب العربي ، وأصوله البغدادية في داغستان (والترجمة لكاتب السطور) (٢٠١) .

جاءه بيرك . فهناك رينان الذي أنكر على الساميين الشرق . في حين قدر للبصرة ان تغدو على مر الزمن أبرز الموانئ العربية ، ومحط رحال التجار ومركز تبادل الصادرات والواردات ، ومخزن البضائع المستوردة من الهند والصين ومصر وأفريقيا الشرقية . وكانت البضائع المصدرة تنقل من البصرة الى سيراف (على الخليج العربي) ، ومنه تشحن على السفن الكبيرة الى الهند والصين . وفي الوقت نفسه لم تفقد موانئ مصر والبحر الاحمر اهميتها ، فقد ظلت تمارس دورها في التجارة العالمية ، واعتبر ميناء مخا في اليمن وميناء مكللا في حضرموت وعمان على الساحل الجنوبي للخليج العربي ، من أنشط الموانئ العربية والمعها ذكراً في التجارة العالمية القديمة والوسيلة مع الشرق الأقصى «(٢٠٥) .

يتبين من حديث الأستاذ السامر ان بغداد أصبحت بالفعل قلب التجارة العالمية في القرون الوسطى . ودون شك لا يمكن ان تؤخذ بغداد لوحدها - كمدينة - بل ان بغداد كانت عاصمة دولة واسعة (هي اكبر الدول في تلك الحقبة الزمنية : تمتد من الصين الى الأطلسي) ، كما ان بغداد كانت عاصمة حضارة ناشطة تمثلت حضارات سابقة وابتكرت إضافاتها الكبيرة الجديدة ، الخاصة بها ، وعاصمة ثقافية للدين فيها ، اكثر الاحيان ، مقام أول .

وبالطبع ، فان التجار العرب لم يكونوا سواحاً ، كما ان التجارة في ذلك الوقت لم تكن بالشكل الذي هي عليه الان ، فالتجار العرب كانوا يقيمون مستوطنات خاصة بهم ، في كل مكان يحلون به ، وكل قطر يتجرون معه ان انتشار المستوطنات العربية ، وما تبعه من انتشار الجاليات العربية (٢٠٦) ، استتبع ، بالضرورة ، نشر الثقافة العربية - الاسلامية ، التي تستمد معينها الأول من بغداد قلب الدولة العربية - الاسلامية ، ومركز ثقافتها النابض الموار .

وإذا ما استشرنا الأستاذ السامر ، مرة أخرى ، فانتا سنفهم ان للتجارة العربية «وجهاً» علمياً ، ثقافياً القأ ، من العبث ان يطمس ، ومن المستحيل ان يحجب . يقول السامر : « ... يجب ان نقرر حقيقة ذات أهمية كبرى ، هي ان كثيراً من منجزات العرب والمسلمين في حقول الحضارة والثقافة والآداب والفنون ، ذات علاقة مباشرة بحمية المسلمين في نشر دينهم في كل بقعة يستطيعون الوصول إليها ، باعتبار ذلك جزءاً من

ودارين التي استمرت تلعب دورها في التجارة مع (بمن فيهم العرب) العلم والحكمة والفلسفة . وثمة عقدة لدى بعض المؤرخين والمفكرين الفرنسيين تكمن في عدم رغبتهم في الاعتراف بتفوق التراث الاسباني الاندلسي ، أو في الاقرار بأن حضارة فرنسا المعاصرة وثقافتها وعلومها أخذت الكثير من أصولها من الحضارة والعلم العربي الاندلسي المنتقل الى فرنسا عن طريق اسبانيا ، أو عن طريق جنوبي فرنسا ، التي حل العرب في اجزاء عديدة منها ، امداً من الزمن (٢٠٤)

وبالنسبة للتراث العلمي - الثقافي العربي - في بغداد ، بخاصة ، فان انتقاله إلى العالم اجمع (بما فيه القارة الأوروبية) ، تم بعدة طرق منها المباشرة ومنها غير المباشرة . فمن الطرق المباشرة الانتقال بواسطة التجارة ، فقد كانت بغداد مركزاً تجارياً ناشطاً ، بل لعلها كانت قلب التجارة العالمية في القرون الوسطى (لتوسطها بين آسيا وأفريقيا وأوروبا) ، كما كانت مركز القوافل المختلفة ، وملتنقى الطرق التجارية ومنطلقها الى الشرق والغرب ، على حد سواء .

يحدثنا الأستاذ الدكتور فيصل السامر
في كتابه القيم « الأصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الأقصى - منشورات وزارة الاعلام في بغداد ، ١٩٧٧ » حديثاً ذا قيمة استثنائية ، بهذا الصدد ، نستطيع القارئ الكريم عذراً في اقتطافه ، للتوثيق والتعميق يقول السامر : « كانت التجارة عاملاً مهماً من عوامل انتشار الاسلام والثقافة العربية في مناطق وأقاليم قاصية . ذلك ان العرب حلوا سياسياً وعسكرياً محل الامبراطوريتين السامانية والبيزنطية . ومن ثم قبضوا على أمنة التجارة العالمية في العصور الوسطى ... إن تطور التجارة العربية مع الشرق ارتبط بقوة الدولة العربية الاسلامية وامتدادها إلى أقاليم شاسعة ممتدة من جزر الكناري على ساحل افريقيا الغربي غرباً وحدود الصين شرقاً وبين القوقاس شمالاً وسواحل البحر العربي جنوباً . وقد ادى ضم بلاد السند الى الدولة العربية إلى تنشيط التجارة العربية البحرية مع الشرق ، وبخاصة مع الهند . ويعتبر بناء بغداد من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور حدثاً مهماً وخطيراً في النشاط التجاري مع الشرق . إذ ربطت عاصمة الدولة العربية لأول مرة مباشرة وبطريق المواصلات المائية بالبحر العربي عبر موانئ الخليج العربي كالابلّة وصحار

والصين ، وآسيا الوسطى ، والملايو ، واندونيسيا وغيرها) .

وتشهد ألف ليلة وليلة ، التي تقترب دائماً باسم بغداد ، والتي تركت دويلاً كبيراً في مملكة الفكر والأدب العالمي (بحيث أن العديد من أدباء العالم يعترفون بتأثيرها على إبداعاتهم القصصية والشعرية والفكرية والفنية وحتى الفلسفية ، وذلك كقولتيروسودي وبايرون ، وتولستوي ، وجيرنيشيفسكي وعديد غيرهم) ، تشهد على مدى سعة التأثير الأدبي العربي، المنطلق من بغداد الدولة العربية - الإسلامية ، بدءاً وأساساً ، في الأدب الأوربي بخاصة ، والأدب العالمي عامة . وإذا ما عدنا إلى السامر ودراسته التاريخية - الحضارية (عن الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى) ، الكتاب الذي استشرناه توما ، فإننا سنجد أن (ألف ليلة) استمدت بعض أصولها القصصية - الأسطورية . متبادلة التأثير والتأثر مع القصص الملاوية والفيليبينية ، وهو يقول في ذلك : « إننا لانريد هنا أن نستعرض القصص والحكايات الأسطورية التي رواها الرحالة العرب والمسلمون ، فهي كثيرة ومدونة في بطون الكتب ، وما على القارئ إلا أن يرجع إليها في مظانها . لكنني أردت أن أشير إلى ناحية مهمة هي أن حكايات ألف ليلة وليلة (وخاصة رحلة السندباد البحري) تشبه القصص الملاوية والفيليبينية التي وجدت في تلك البلاد منذ العصر الخرافي » (٢٠٩) .

وقد ساحت (ألف ليلة) في بلدان العالم طراً ، وترجمت مئات المرات إلى كثير من لغات العالم ، وكانت ملهماً فذاً لخيال كثير من الشعراء ، والقصصيين ، والفنانين ذوي الموضوعات الشرقية ، ولرومانتيكية خصوصاً وللأساتذة فاروق سمع ومحمد مفيد الشوباشي ، وعبد الجبار السامرائي ، والدكتور محسن جاسم الموسوي والدكتور سهر القلماوي ، وغيرهم من الباحثين العرب المحدثين ، ولكاتب السطور أيضاً ، دراسات في هذا الموضوع الهام في العلاقات الأدبية العربية - العالمية والأدب المقارن (٢١٠) .

وعلى صعيد آخر ، انتشرت الأمثال والمأثورات العربية في سائر أرجاء الدولة العربية - الإسلامية ، وتجاوزتها إلى كثير من أقطار الشرق والغرب . ويمكن للقارئ أن يتتبع ، مثلاً لا حصراً ، دراسة كاتب السطور « دراسة مقارنة في الأمثال الروسية والعربية » ، ليلمس تأثير

رسالة الإسلام في أن يغدو ديناً للبشرية جمعاء . هذا النشاط بحد ذاته دفع بالكثيرين من المسلمين : تجاراً وعلماء وفقهاء ورحالة وبحارة إلى أن يسبحوا في دنيا الله الواسعة ، وفي أذهانهم هدف نشر الدعوة الإسلامية . كما أن هذه المنجزات ارتبطت بهدف ثان هو النشاط التجاري والاقتصادي الذي صاحب توسع الدولة العربية وامتدادها إلى أقاليم شاسعة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وهنا يجب أن نضع في أذهاننا حقيقة أساسية ، هي أن التاجر العربي المسلم ، في سعيه لاقتناء الربح في البيع والشراء ، كان دائماً يبذل جهده في نقل عقيدته وأبصالها إلى جميع أولئك الذين يقدر له أن يتعرف عليهم في رحلاته في الأقاليم التي يذهب إليها . (٢٠٧)

وقد نشأت عن هذه التجارة الناشطة ، المتسعة باطراد ، والمرتبطة ، جدلياً ، باشتداد شوكة الدولة العربية - الإسلامية الواسعة ، نشأت عنها جملة عوامل ، ساعدت كلها في نشر تأثير بغداد العلمي - الثقافي (الذي كان يمثل ، بجدارة ، جوهر التأثير الفكري والحضاري العربي - الإسلامي ، خصوصاً في عصور ازدهار الحضارة العباسية) .

ومن هذه العوامل ، الاستيطان والتزاوج ، ومنها الرحلات العلمية (الجغرافية - التاريخية) ، ومنها كذلك السفارات والإيفادات وتبادل الهدايا إن هذه العوامل غير المباشرة التي ارتبطت بالتجارة ، ارتبطت ، في ذات الوقت ، بالفتوح والحروب ، وقد تفاعلت كلها ، جدلياً وعضوياً ، لتؤدي ، في نهاية المطاف ، إلى نشر الدين الإسلامي ، وبسط لواء الثقافة العربية - الإسلامية بأوسع نطاق ممكن . ويصح هذا على التوسع الثقافي ، الحضاري العربي - الإسلامي في الشرق ، كما يصح على هذا التوسع والامتداد في آسيا الوسطى والقفقاس وحوض بحر الخزر ونهر الفولغا ، وفي أفريقيا . (٢٠٨)

إن التلاحق والتفاعل الحضاري الذي اشتد أواره في عهد الدولة العربية - الإسلامية ، في العصور العباسية الأولى ، وإبان ازدهار العربي - الإسلامي في بغداد ، قد أدى ، في ذات الوقت ، إلى إغناء الفكر العربي ، وتعميق الثقافة العربية - الإسلامية ، مثلما أدى إلى نشر هذه الثقافة في الأقطار المفتوحة ، والأقطار المتأخر معها ، والأقطار التي كانت تقيم فيها جاليات عربية كبيرة (كالجاليات العربية في الهند ،

ورحلته الى الشمال ، والفولغا والروسيا ، وعن رحالة آخرين ، بحيث ان مؤلفات هؤلاء الرحالة العرب والمسلمين تعتبر الان مصادر لدراسة تاريخ روسيا ، وشعوب آسيا الوسطى والقفقاس وما وراء القفقاس في القرون الوسطى (٢١٤) .

إن سفارات ووفود العرب الى الصين (خصوصا في العصر العباسي) ، والترحيب العظيم الذي لقيته هناك ، ثم إقامة المستوطنات العربية ونشوء الجاليات العربية في الصين ، إنما يشهد لعظمة الدولة العربية - الاسلامية ورسوخ حضارتها . ويذكر الاستاذ السامر انه « جاء في التواريخ الصينية : أشار الوزير (ليمي) على امبراطور الصين بضرورة إقامة امتن الروابط مع العرب . فتساءل الامبراطور : ولم ؟ فاجاب الوزير : ان العرب هم أقوى الامم في هذه الايام » (٢١٥) . ويؤكد السامر انه بعد عديد من الاحتكاكات العدائية بين الدولتين الكبيرتين العربية والصينية ، استقرت العلاقات وتحولت ودية ، خصوصا بعد تدخل العباسيين ، أيام المنصور لصالح أسرة (تانغ) الصينية الحاكمة . ويقول السامر : ظلت السفارات العباسية تترى الى عاصمة الصين وكانت أهمها تلك التي أرسلها المنصور والمهدي والرشد (الذي سماه الصينيون « ألون ») . ذلك ان بناء بغداد أدى الى ازدهار الحركة التجارية مع الشرق الأقصى بحيث ارتبطت عاصمة العباسيين ارتباطا وثيقا بالطرق التجارية البرية والبحرية مع تلك الجهات . ويظهر من المصادر العربية ومؤلفات ابن خرداذبة والمسعودي وابن بطوطة ، ان العلاقات التجارية بين العباسيين وبلاد الصين أصبحت منتظمة منذ القرن الثاني وزادت انتظاما في القرن الثالث الهجري . وكان من نتيجة هذه المصالح التجارية ان اهتم العباسيون بتقوية العلاقات الدبلوماسية مع بلاد الصين ، كما اهتموا بتقوية الاسطول الحربي لحماية التجارة القادمة من الصين والهند ... » (٢١٦) . ان هذه العلاقات العربية - الصينية الوطيدة ، اسفرت ، في تضاعفها ، عن علاقات ثقافية وعلمية وطيدة ، هي الاخرى (وان لم تبلغ شأوا العلاقات الثقافية العربية - الهندية) .

ويشهد الفارابي ، وابن سينا ، والبخاري ، وابن المقفع ، والبيروني ، وعديد من علماء اللغة ، والآداب ، والتاريخ . والجغرافية ، والفلسفة ، والاسلاميات (بكل علومها) ، من أبناء شعوب

المآثورات العربية العميق في آداب شعوب الاتحاد السوفييتي ، وتأثير الاسلام ، والرحلات ، والتجارة ، والجاليات العربية ، والتفاعل الثقافي المتبادل وغير ذلك من العوامل في ذلك . (٢١١)

إن كراجكوفسكي ، شيخ المستعربين السوفييت ، واحد اكبر المستشرقين في العالم ، يؤكد ، في كتابه تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ان الرحلات والرحالة ، وأسفار التجار قد أثرت كثيراً في نشر القصص والحكايات والاساطير والأمثال والإبداعات الثقافية العربية في أصقاع كثيرة في العالم بل ان كراجكوفسكي قد تحدث عن ادب عربي المضمون والشكل في أرجاء عديدة في الجنوب السوفييتي ، خصوصا في القفقاس ، وقد عقد حول ذلك دراسات قيمة (ترجمنا اثنتين منها لمجلة « المورد » الغراء هما : داغستان واليمن ، والادب العربي في القفقاس الشمالي) (٢١٢) . وفي تضاعف ذلك يؤكد كراجكوفسكي ان عديداً من الحكم والأمثال والأشعار العربية قد خلدت في اعمال فنية ، وعلى واجهات المباني والبيوت ، والحلى ، والصناديق ، وحتى على نصال الخناجر والسيوف (٢١٣) .

ودون شك ، قدمت شعوب الامبراطورية الاسلامية افواجا من المثقفين والمفكرين ، الذين كتبوا ابداعاتهم وكتبهم باللغة العربية (واحيانا بلقنين - كفضولي البغدادي ، وعمر الخيام ، وجلال الدين الرومي) ، ويمكن الإشارة ، هنا ، الى مثال ساطع جداً ، هو ابو الريحان البيروني (الذي مر بنا ذكره ، وكيف انه كان يؤكد ان هجوه بالعربية أحب إليه من مدحه بلغة اخرى) . ان استكمال فتح السند في عهد المنصور والمأمون والمعتصم ، وسيادة اللغة العربية والثقافة العربية في بلاد فارس والافغان وبلاد ما وراء النهر وطاجيكستان ، وانتشار الثقافة العربية في الهند ، قد أهل البيروني ان يدرس الهند دراسة مدققة ، وان يطلع ببحوث علمية رصينة اكد فيها منهجيته العلمية التي تستمد أصولها من مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي . وقد ساعد الرحالة العرب وكتبهم (كابن خرداذبة في « المسالك والممالك » ، وسليمان السيرافي ، والمسعودي في « مروج الذهب ومعادن الجواهر » ، وابن بطوطة في « عجائب الاسفار ») ساعد كل هؤلاء وغيرهم في تقديم أدق المعطيات ، نسيبا ، عن الهند وشعوبها .

ومثل ذلك يمكن قوله عن ابن فضلان

التأثير هو الطريق غير المباشر الذي سلكته الحضارة العربية - الإسلامية في ترسيخ جذورها في التربة الأوربية .

لقد امتد تأثير الحضارة العربية - الإسلامية الى أوربا عبر صقلية ، والاندلس ، وجنوب فرنسا . كما كان للحروب الصليبية دور في ذلك . ولكنه كان دوراً ضئيلاً نسبياً . أما التأثير الأهم فقد جاء عن طريق الاندلس . ولا يهم ولا يضر كون حكام الاندلس كانوا أمويين ، فيما كان حكام بغداد عباسيين ، فالحضارة العربية - الإسلامية هي ذات الحضارة ، والشعب العربي هو ذات الشعب العربي ، وقد تمثل البربر حضارة العرب ودينهم ، فأسهموا ، في العهد التي حكموا الاندلس فيها ، في ترسيخ قيم الحضارة العربية - الإسلامية ومنجزاتها .

يرى الرحالة الاسباني (بنيامين التيطلي) ، الذي زار بغداد عام (١١٦٠ م) ، في عهد الخليفة العباسي (المقتدي بالله) ، ان بغداد والقاهرة وطيطة وقرطبة (تضم جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل شيء يساعد على البحث العلمي ، ومن الصعب تقدير عدد الكتب التي كانت في مكتبات بغداد العامة والخاصة ، وذلك لكثرتها وتشعب مواضعها ، وقد كان للعرب في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان في مكتبة الحكم الثاني في قرطبة (٦٠٠) ألف كتاب ، وفيها أكثر من (٤٠) مجلداً من الفهارس فقط (٢٢٠) .

وواضح من هذا ان الحديث يدور عن مستوى متماثل ، ان لم يكن واحد في الحضارة العربية - الإسلامية ، وينبغي هنا ، أن نذكر ، ان الاندلسيين استمدوا حضارتهم من المشرق العربي ، فكانوا لا يعترفون بأصالة العطاء الثقافي أو العلمي المعين ، ان لم توثقه شهادات و « تركيات » مشرقية (بغدادية) . ولا نريد بهذا ان نفرض أو نقلل من مستويات الحضارة العربية - الإسلامية في الاندلس ، أو المغرب ، وانما الحضارة الأم ، والحضارة - المركز هي التي تفرض التأثير الأساس ، وتشكل أقوى التيارات في الرافد الواحد .

إن صاحب (نفع الطيب) يشير الى كثير من القصص والتواريخ عن مئات من علماء الاندلس كانوا يشدون الرحال ، باستمرار ، الى المشرق العربي لاوتشاف مناهل العلم ، ولاقتناء امهات الكتب ، وجديدها ، كما كان حكام

الدولة العربية - الإسلامية الواسعة ، وتشهد إبداعاتهم القيمة المختلفة باللغة العربية على تأثير الحضارة العربية ، وقلبها بغداد ، على هذه الشعوب ، التي دخل معظمها في دين الاسلام طوعاً ، بل حتى قاهرو بغداد ، دخلوا فيما بعد في الدين الاسلامي ، وابدع علماءهم باللغة العربية ، شاهدين ، بذلك ، شهادة يندر مثيلها ، حقاً ، على عظمة الثقافة العربية ، وتسامح الدين الاسلامي وتقدميته (بالنسبة الى معتقداتهم الوثنية ، والمتخلفة) . يقول لوبون : « استولى المغول على بغداد (سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) ، وخرّبوها تماماً ... ولكن أولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني وأحرقوا الكتب وخرّبوا كل شيء نالته أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغوليين بدورهم ، حتى ان هولاء الذين خرب بغداد وأمر بجر نخبه آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره ، فلم يلبث ان صار من حمايتها ، وفي المدرسة العربية تمدن المغول واعتنقوا دين العرب وحضارتهم ، وشملوا متفني العرب وعلماءهم برعايتهم ، وأقاموا في بلاد الهند دولة قوية عربية من فورهم كما يمكن ان يقال وذلك لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة ، ولأن سلطان حضارة العرب لا يزال مسيطراً هناك حتى اليوم » (٢١٧) . كما يقول « ان حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت ان تهيم به على البرابرة الذين حاولوا هدمها ، وقد ظهر لنا ان جميع أمم المشرق الكثيرة التي ساعدت على قهر العرب ، ومنها الترك ، اعانت بلااستثناء على نشر نفوذ العرب ، وان امماً قديمة قدم العالم ، كالمصريين والهنود ، اعتنقت ما جاءها به العرب أو ورثتهم من الحضارة والدين واللغة » (٢١٨) .

إن لازمة لوبون التاريخية ، كاستنتاج علمي حاسم هي :

إن « خلفاء بغداد ملكوا العالم بحضارتهم على الخصوص » (٢١٩) .

ولعل هذه اللازمة - الاستنتاج البليغ تجيب ، بشكل واف ، على التساؤلات التي تدور حول تأثير حضارة بغداد (ومدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ، بالذات ، على الشعوب الاوربية وحضارتها . ولقد فصلنا ، ما استطعنا ، بحثاً وتوثيقاً ، في تأثير الحضارة العربية - الإسلامية المشعة من بغداد . ان هذا

الاندلس ، على اختلافهم ، في شبه مباراة دائمة ، في تجميع او استنساخ (على الأقل) ذخائر الكتب والمصنفات من حواضر المشرق العربي المختلفة ، وبغداد ، بخاصة . وبالمثل ، فان عددا من أبرز علماء وفناني المشرق العربي شدوا الرحال الى الاندلس ، ولعل زرياب يشخص هنا مثالا ساطعا . ولعل الدكتور خير الله يسهم ، ابلغ الاسهام ، في حسم مسألة التبادل الثقافي والعلمي بين جناحي الحضارة العربية المشرقية والمغربية ، حين يقول ، في ختام بحثه القيم عن (الطب العربي ، الذي أشرنا اليه غير مرة) ، ان « تيار العلم كان متبادلا بين الشرق والغرب بتبادل السياحات من الغرب الى الشرق وبالعكس . فانكرماني سافر من بغداد الى الاندلس حاملا معه رسائل إخوان الصفاء ، وابن البيطار أدخل للشرق اقرباذين الغرب » (٢٢١) .

والأهم من كل ذلك ، هو ان تيار الحضارة العربية - الاسلامية فرض نفسه في أوروبا : الفارقة في البربرية آنذاك ، فساعدتها ، مع الزمن ، على بلوغها عصر نهضتها ، عصر الاحياء (الرينسانس) ، وبذلك تكون بغداد قد أسهمت ، لا بالسيف ، بل بالثقافة ، وعن طريق الفكر والبحث العلمي ، ومقومات الحضارة الأساس ، في نقل عصا الحضارة العالمية الى أوروبا ، لتسهم إسهامها المتميز في مواصلة المدنية الانسانية وتطويرها . يقول الاستاذ الدكتور عبدالواحد لؤلؤة في بحثه (ملامح عربية في بواكير الشعر الانكليزي) : « ... لقد نقل زرياب حضارة بغداد العباسية في أوجها ، ثقافة بلاط الرشيد والمأمون ، بعد ان أدرك ان ليس في القمة متسع لأكثر من عظيم واحد ، وقد سبقه الى تلك القمة اسحق الموصلي . وكما دخل قرطبة يحمل عوده معه ، وجد في المحيط الجديد من الحرية ما جعله يزيد في أوتار عوده وترأ خامسا ، يتخذها من أمعاء السباع ، ومن قوادم النسر ريشة يضرب بها فيخرج ما لا عهد للموصلي به من الحنان . وكان زرياب شاعرا وقد تغذى بشعر أبي نؤاس وأبي العتاهية ومن سبقهما . وأنشأ زرياب مدرسة للفناء والشعر في قرطبة ، وأقام مدرسة في القيافة وآداب الطعام ، شاعت تعاليمها في طول البلاد وعرضها ... » (٢٢٢) إن أمثال زرياب من الشرقيين ، وتلامذة مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، ومطوري تعاليمها ومنهجيتها العلمية في الاندلس قد ساعدوا في خلق أجيال عالمة ، فنانة ، مثقفة ، اضطلعت

بترسيخ القيم الحضارية الجديدة ، التي انتقلت الى الاسبان والفرنسيين ، دون جواز سفر ، فحقائق العلم والثقافة ومعطيات الفن والفكر لا تحتاج هذا الجواز ، وقد أسهم جيل المستعربين والمذجنين ، حتى بعد خروج العرب من اسبانيا ، في نشر القيم الحضارية العربية ، رغم محاكم انتفتيش ، وكان ان اصبحت اسبانيا الاندلسية ، في تلك الحقبة الزمنية ، في قمة الحضارة الأوروبية . منها نهل الشعراء التروبادور ، وفيها ترجمت كتب العرب وفلسفتهم ومنطقهم ، واقتبست حضارتهم ، وفنونهم ، وفيها (وفي جنوبي فرنسا لحد اقل) نشأت بذور الحضارة الجديدة ، ممهدة لعصر النهضة العظيم ، وكما يقول د . لؤلؤة ، مرة أخرى : كانت بغداد في القرن التاسع الميلادي ذروة الحضارة العربية ومنها انتقل زرياب الى قرطبة فكان ، مثل هاملت مرآة الذوق وقالب الأناقة ، وما كان زرياب غير واحد ممن حمل مرآيا الذوق الشعري الفناني وقوالب الحضارة الجديدة من بغداد العربية العباسية الى قرطبة العربية الاندلسية فكان بعض من ساعد أوروبا في تلك « الولادة الجديدة » (٢٢٣) .

إن هذه « الولادة الجديدة » هي ما كان قد تحدث عنها ، منذ عام ١٩٤٧ ، المفكر الفرنسي الكبير المعاصر روجيه غارودي ، واسماها مساهمة العرب في تجديد شباب العالم ، باعتبار ان عصر النهضة الأوروبية جدد شباب الحضارة العالمية ، وأحيائها . يقول روجيه غارودي (في دراسة له ، نشرت في آذار ١٩٤٧) :

- « إن أحد مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التي يتبعها المستعمرون هي إنكارهم الدور الذي لعبته الحضارة العربية في تكوين العالم الحديث ... فمؤامرة الصمت والتشنيع المنظم على هذه الحضارة إنما تهدف الى تجاهل هذه الحقيقة الواقعية ، وهي ان الاممة العربية ساهمت ، في ظروف تاريخية معينة ، بين العصر القديم وعصر النهضة ، مساهمة غنية في التقدم الانساني في كل ميادين الفكر والفن ولكن ... إذا نحن طرحنا جانبا ذلك التحيز الاستعماري والعنصري بدت لنا هذه الحقيقة الأولية ، وهي ان الاسلام ... حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصة ... قد خلق بفتوحاته الواسعة ،

الظروف الضرورية لتجديد الحضارة ، ولتجديد شباب العالم (١٢٤) .

ولكيلا يتهم غارودي بالتعصب للعرب ، وهو الفكر الفرنسي الحر ، فانه يعمل (ويحيث) مقولاته الحاسمة هذه (والتي كانت لطمة مدوية في وجوه العنصريين والامبرياليين والصهاينة وكل من « ابتلى » بلمعة عقدة « التفوق الأوربي » ورؤية كل حضارة ، وكل شيء ، من خلال أوروبا فقط !) ، فيقول :

- « بين عامي ٨١٣ - ٨٢٣ م ، وبينما كانت أوروبا تجهل القراءة ، كان الخليفة المأمون يؤسس في بغداد « بيت الحكمة » الذي اشتمل على مكتبة وجامعة ومكتب ترجمة ، والذي أصبح التراث اليوناني بواسطته في متناول جميع الذين يتلون القرآن ... وبعد زمن قليل ، كان الخليفة الحكم الثاني في قرطبة يملك (٦٠٠) ألف مجلد ، بينما لم يستطع ملك فرنسا « شارل الحكيم » ان يجمع ، بعد ذلك بأربعمئة سنة ، اكثر من (٩٠٠) مجلد . لقد ظل إنتاج الكندي (٨٥٠ م) والذي ترجمه جيرار دي كريمون الى اللاتينية يثقف الغرب خلال قرون عدة . لقد اتسمت الثقافة العربية بأول مظهر من مظاهر النهضة الأوربية ، مظهر الاحاطة بالاصول الثقافية القديمة والعمل على إحيائها ، فكانت اشبه برباط وثيق يصل بين الثقافة القديمة والحضارة الحديثة .. فهي لم تقتصر على إحياء الحضارات البائدة التي سبق ان ازدهرت في العراق ومصر واليونان وروما ، بل قامت أساساً بتطوير تراث القدماء واجتازتهم في عصرها الذهبي الذي امتد من عام ٩٠٠ م الى عام ١١٠٠ م . لقد وثب الشعب العربي ، بزولته النظام الاقطاعي ، وثبة جبارة بالعلوم ، وثبة تلاءم مع الأهداف العلمية التي حددها لها ... لقد كانت الجغرافيا ، ولاسيما الفلكية ، ضرورة حيوية لدى أولئك الرجال الذين دأبوا على اجتياز الصحارى والبحار ، وان مرادد سمرقند وبغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة ، وهي المرادد الأولى في العالم ، كانت من صنع أيديهم ... وكان الجغرافيون والفلكيون العرب ، اثناء وضعهم ، عملياً أدلة الطرق وبيان مراحلها ،

يحافظون على جوهر الفكرة القائلة بكروية الأرض ، هذه الفكرة التي كان ينكرها رجال اللاهوت المسيحيون ... وحوالي منتصف القرن العاشر استطاع المسلمون ان يبلغوا شواطئ كانتون في الصين ، ولعلمهم بلغوا كوريا واليابان أيضاً .. وبعد خمسمائة سنة ، كان الملاح الذي ارشد فاسكو دي جاما الى طريق الهند .. ملاحاً عربياً ... لقد ادت ضرورات التجارة الى قلب علم الحساب رأساً على عقب ، فكان اكتشاف الأرقام العربية ، واخترع الصفر الذي يرتكز عليه نظام التعداد العشري كله ، الثورة الثانية في العلوم الرياضية منذ عهد الفينيقيين الذين قاموا بالثورة الأولى ... ولم تعرف أوروبا هذه الاكتشافات إلا عن طريق العرب .. عرفت بها بعضهم بمائتين وخمسين سنة ... في علم الجبر وفق الخوارزمي الى إعادة وضع المنهج الذي كان يعرفه اليونان لحل المعادلات ذات المجهولين ... واستطاع الشاعر الرياضي عمر الخيام حل المعادلات ذات الثلاث مجهولات بواسطة المنهج الذي استخدمه ديكارت بعده بخمسة قرون ، فوضع أسس الهندسة التحليلية . وفي حساب المثلثات اكتشف ابو الوفا وليس كوبرنيك الخط القاطع ... واكتشف الفارابي اللوغاريتمات .. ودرس ابن سينا الكميات غير المتناهية ... وفي الطب ، ولن نذكر الا الرازي ، وحده هذا المبكر بين الملاحظة والتجربة فوضع بذلك تصنيفاً منهجياً للأمراض ... وقد أعيد طبع موسوعته الطبية التي ترجمها فراجوت الى اللاتينية ، أربعين مرة من ١٤٩٨ - ١٨٦٦ ، وفي عصر النهضة أعيد طبعها في فينا عام ١٥٢٠ ، وفي فرانكفورت عام ١٥٨٨ ... اي أنها ظلت خلال ألف سنة ، حتى ظهور كلود برنار ، توجه الأبحاث الطبية لدى كل الشعوب . ان ابن سينا الطبيب والفيلسوف ، وابن رشد الفقيه المجدد والعالم الطبيعي الفذ ، قد اعلنا قبل ديكارت بخمسة قرون ، حق إخضاع كل شيء ... الى حكم العقل ... كانا رائدي الفكر النقدي والمذهب العقلي الحديث .. لقد أدرك ذلك الشاعر دانتى فأنسى على ابن رشد ثناءً عظيماً في النشيد

**بالهرب من معتزك الحياة او الانفصال عنها ...
والتي أوجدت الظروف الاقتصادية والاجتماعية
الملائمة بازالة الفوضى الاقطاعية وطبقاتها
الطفيلية» (٢٢٨) .**

من هنا ... تأتي بغداد المعاصرة ، بغداد
سبعينات القرن العشرين ، لتكمل رسالة بغداد
الرشيد والمأمون ، بغداد بيت الحكمة ، وحضارة
العقل والمنطق والموضوعية وحرية الضمير
والتقدم ، لتقول باعادة كتابة التاريخ بشكل علمي
ولتنتصر لانجازات العرب الحضارية ، وفي
مقدمتها طريقة البحث العلمي أو المنهجية العلمية،
وهي أجود ما جاد به العقل العربي في بغداد
وسواها . يقول الرفيق رئيس مجلس قيادة
النورة في الجمهورية العراقية ، الأستاذ صدام
حسين : « هناك نقطة يركز عليها أعداء العرب
وهي ان العقل العربي ليس من النوع الذي
يحسب التعقيدات ، أي انه عقل غير مركب ،
متهمين إياه بأنه عقل ذو صفحة واحدة في
الحساب وهو لا يحسب الصفحات المحتملة
الأخرى بطريقة مركبة . في حين تؤكد الحضارة
أو الحضارات العربية بشواهد لا تقبل الدحض
ان الأمة العربية قد حسبت أدق الصفحات
والاحتمالات في كافة شؤون الحياة والعلم في
الوقت الذي كانت جميع الأمم تعيش في دياجير
الظلام والتخلف » (٢٢٩) .

إن متهمي العقل العربي بالقصور ، وهم
المبتلون بعقدة التفوق الأوربي، وبعقدة (الاغريقية)
بالتالي ، أي ان الحضارة البشرية المعاصرة أوربية
بداتها اليونان واثمتها شعوب أوروبا الحديثة ،
وليس لأمة أخرى فضل في الحضارة العالمية ! إن
هذه العقدة الأوربية التي تمثل أسوأ ما في بعض
العقول الأوربية والغربية عموماً من تخلف وبربرية
معاصرة هي التي جعلت البروفسور خالدوف
يقول : « إن الاسس المتبعة في طرق البحث
التاريخية تجد صعوبة في إزالة الخرافة التي
تعتبر أوروبا في كل العصور ، تمثل تلك الأهمية
سياسياً وحضارياً كالتى تتمتع بها الآن » (٢٣٠)
وقد استعرضنا ، في تفصيل نسبي ، الرد العلمي
المفهم على هذه الخرافة الأوربية المعاصرة ،
واعتمدنا ، أكثر ما اعتمدنا ، على مقولات المفكرين
الأوربيين الأحرار ، من لوبون ، الى درابر ، الى
هوليامر ، الى سيدو ، الى بريفو ، وهونكه ،

الرابع من كتاب الحجيم في الكوميديا
الالهية ، كما أدرك ذلك روجر بيكون اكبر
مفكر غربي في القرن الثالث عشر ، فقال :
إن الفلسفة مستمدة من العربية .. وليس
من لاتيني واحد يستطيع أن يفهم ..
الفلسفة .. كما ينبغي .. ان لم يكن يجيد
اللغات التي نقل عنها ... » (٢٣٥) .

إن غارودي يتمم ، هنا ، من منظوره
الخاص ، مقولات المفكرين الفرنسيين الكبار
غوستاف لوبون ، وماسينيون ، وبريفو ، وهو
ينطلق من مفهوم علمي متكامل ، درس به
الحضارة العربية - الإسلامية ، في سائر إنجازاتها
العظيمة ، خصوصاً في عصرها الذهبي (عصر
مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ،
ويتوصل الى هذه الاستنتاجات مرتاح الضمير .
فهذه الحقيقة التي انتهى اليها ، يشاركه فيها
العديد من مفكري أوروبا الأحرار ، « دوزي »
الذي يقول « لقد كان الفتح العربي نعمة بالنسبة
لاسبانيا ، فقد أدى الى ثورة اجتماعية هامة ،
وأزال قسماً كبيراً من المساوىء التي كانت
اسبانيا تئن تحت عبئها منذ قرون » (٢٣٦) و
« أناطول فرانس » الذي يأسف لانكسار العرب في
معركة بوآيته عام ٧٣٢م ، ولترجع العلم والفن
والحضارة أمام البربرية الفرنسية (ويشاركه في
هذا الأسف غارودي وعديد من مفكري أوروبا
الأحرار) ، وبلاسكو أيبانز ، المفكر الاسباني الذي
يقول بالحرف ، حاسماً (بلغة صاحب الدار وهو
أدري بالذي فيها) مسائل الفتح العربي لاسبانيا ،
وعلى نحو غاية في الموضوعية والتجرد العلمي :

« إن تجديد شباب اسبانيا لم يصلنا عن
طريق الشمال مع القبائل البربرية وإنما من
الجنوب مع العرب الفاتحين .. لقد كان
الفتح العربي بعثة حضارية أكثر مما كان
فتحاً ... عن هذا الطريق وليس عن
طريق آخر ... دخلت الى بلادنا هذه
الثقافة الفنية القوية الیقظة ، التي تبعت
على الدهشة لتقدمها السريع ، والتي ما
كادت تولد حتى انتصرت » (٢٣٧) .

إذن ... فالسر في هذه الحضارة الجديدة
التي أتى بها العرب ، حضارة العقل ، وحرية
الرأي والضمير ، والموضوعية ، والتقدم ،
الحضارة التي بداتها بغداد ، عاصمة دولة هذه
الحضارة العربية - الإسلامية . وطورتها بعض
الحواضر العربية ، الحضارة التي « لاتوصي

الهوامش

(١) الاشارة الى كتاب « حضارة العرب » ، للدكتور غوستاف لوبون (وقد ألفه عام ١٨٨٤) ، ونقله الى العربية الاستاذ الفقيه عادل زعير (من نابلس ، بفلسطين) ، وطبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . اما الذين كتبوا عن بغداد واسهامها في الحضارة العربية والعالية فهم من الكثرة بحيث لا يطالهم الحصر ، وتكفي الاشارة الى ابراهيم ، لوبون ، ماسينيون ، عبدالكريم جرمانوس ، يفييني بيليف ، كراچوفسكي ، بارتولد ، كريمسكي ، غريغوريان ، شيرويان ، شاه محمود ، بريفو ، درابر ، هوليارد ، بول كراوس ، مينسكي ، كوفالسكي ، بولديريف ، سيمينوف ، يوشمانوف ، غرانده ، بارانوف ، تيخو ميروف ، تسيريلي ، سلطانوف ، دولينا ، سولوفيوف ، بولجاكوف ، غفوروف ، شاربانوف ، بيلكين ، كوفاليوف ، كامينكي ، ساغال ، كراسنوفسكي ، بوريسوف ، ايفاتوف ، غوته ، بيرك ، ديفو ، ليفي ، بروفتسال ، ماسه ، رودنسون ، غارودي ، كايانو ، نلينسو ، دوزي ، كارليل ، ارنولد ، آربري ، تومبسون ، ستينوارت ، مرجيوت ، نيكولسن ، رمضانوف ، نيكولايسكي ، براون ، مينورسكي ، فيليبي ، لاندوا ، غومس ، نوجاليس ، كرايمر ، شتراوس ، اراغون ، سنوك ، هرجونجة ، فلهوزن ، كيرن ، نولدكه ، بروكلمان ، جب ، جروهان ، كاله ، شاخت ، برنال ، كومب ، غولديهر ، فؤاد سزكين ، كاظم مرزا بك ، جوزي ، كوفاليسكي ، كاشتايفا ، شميدت ، فينيكوف ، اليسيف ، زويمر ، نيكل ، روزنتال ديچا ، جرنوم ، جيرنيشيفسكي ، تولستوي ، غوغل ، مواله ، جويار ، بالغريف ، ستكوفسكي ، ليديفا ، بيكون ، ريسان ، كازانوا ، لامنس ، جونتالت ، باتسيفا ، يوشين ، بيساريفسكي ، كوزمين ، فيتزجرالد ، أوليري ، آدم متر ، روزين ، شوموفسكي ، كور دويوف ، ليفين ، كريموف ، ستينيانوف ، دلتوفسكي ، لوتسكي ، لوتسكايا ، عثمانوف ، غالان ، سدبو ، بارتلمسه ، برناردلويش ، شولتز ، بيبل ، ساله ، سارطون ، مايرهوف ، كاربنسكي ، غريغوريف ، روكيرت ، كولوف ، لودفيج ، لورنس ، محمودوف ، حميدوف ، ميخايلوفسكي ، هاملتون ، هولبوند ، ويلسون ، يوسوبوف ، ريستلر ، مهديف ، سعديف ، سميلانسكايا ، ديمجنكو وغيرهم كثير .

(٢) لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعير ، فصل « العرب في بغداد » ، ص ١٧١ .

(٣) ينظر كتاب « بغداد » ، (قامت بنشره - نقابة المهندسين العراقية ، على نفقة مؤسسة كولبنكيان) ، ١٩٦٩ - (البحوث من اعداد د . مصطفى جواد ، و د . احمد سوسة ، د . محمد مكية ، الاستاذ ناجي معروف) - (اشرفت على التنفيذ لجنة مؤلفة من الاستاذ المهندس سعيد علي مظلوم ، والدكتور المهندس رمزي سليمان - اخرج وطبع مؤسسة رمزي للطباعة ، بغداد) . [فصل - « تخطيط بغداد في مختلف

وغارودي ، واناتول فرانسس ، وبلاسكويانز وغيرهم . واليوم ، يتفق كل الباحثين العلميين الموضوعيين ، اوروبيين كانوا ام عرباً ، اشتراكيين كانوا ام غير اشتراكيين ، على المقولة التي انتهى اليها الفكر المصري التقدمي المعاصر الدكتور محمود امين ، حين اكد يقول : « ان الفكر العربي العلمي هو جوهر الفلسفة الاسلامية . وان الفلسفة الاسلامية بهذا ليست امتداداً للفكر اليوناني بل كانت إضافة جديدة اليه ذات طابع تجريبي كمي ، كما كانت نقطة انطلاق ، عبر روجر بيكون ، وديكارت ، وفرانسيس بيكون ، وجاليليو ، الى نشأة العلم التجريبي الحديث » (٢٣١) .

وليس لنا ، في ختام بحثنا المتواضع هذا ، إلا ان نقول ، مع البروفسور ج.د. برنال ، العالم البريطاني الكبير ، والشخصية العلمية العالمية الشهيرة في حركة السلام ، (في معرض تبيين الانجازات الحضارية لمدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، واستخلاص ، الاستنتاجات اللازمة من دروس الحضارة العربية في ضوء النهضة العربية المعاصرة اليوم) :

- « ان العلم باعتباره وجهاً من أوجه النشاط الانساني ليس قائماً بذاته ، بل هو جزء من الثقافة الانسانية ، ولعل هذا الاعتبار لم يتحقق في الماضي قط باكثر مما كان في الدول العربية ، فنحن في الغرب مدينون للعرب بكل علمنا ، وهم لم ينقلوا إلينا تراث الاغريق فحسب ، بل أضفوا على هذا التراث أحكاماً أدق وروحاً عملية ، لم تكن ظاهرة في عمل الاغريق ، وقد اضاف العرب في الرياضيات والكيمياء إضافات لا تنكر في تاريخ العلم ... ولم يكن العلم عند العرب يعتبر متفرداً قط ، فقد عرف رجاله الفطاحل مثل جابر والخوارزمي وابن سينا وابن رشد بالثقافة العامة واتساع الافق الفكري .. فلنامل اذن ، عندما تقوم الأمة العربية ، مرة أخرى ، باداء نصيبها كاملاً في التقدم العلمي ، ان يكون ذلك بنفس الروح التي كانت تميز العلم العربي ابان ازدهاره » (٢٣٢) .

أجل ، لقد نهضت بغداد اليوم ، منطلقاً من روح البحث العلمي ، اعظم هدية جادت بها على الثقافة العالمية ، لتكمل مسيرة الاسلاف العظام .

- (٣٥) نفسه ، ص ٦٦ - ٦٧ .
- (٣٦) قدري حافظ طوفان ، ذات المصدر « فصل » سلطان العقل عند المعتزلة .
- (٣٧) ذات المصدر ، مقام العقل عند الرازي [تنظر ، كذلك ، رسائل الرازي] .
- (٣٨) نفسه .
- (٣٩) نفسه .
- (٤٠) نفسه .
- (٤١) الفارابي ، « رسالة في العقل » . [تنظر ، كذلك ، مجلة « المورد » ، العدد الخاص بالفارابي ، ١٩٧٥ - عدة بحوث ، منها البحثان المترجمان لكاتب السطور] .
- (٤٢) ابن سينا - (عدد خاص) - مجلة « العلوم » البيروتية ، ١٩٥٧ .
- [تنظر كذلك مجموعة الابحاث الصادرة بمناسبة المهرجان الالفى لابن سينا ، وكتاب البروفسور غريغوريان ، بالروسية ، عن الفلسفة العربية - الاسلامية .]
- (٤٣) مجلة الاديب البيروتية ، العدد الخاص بأبي الصلاء المصري ، ١٩٤٤ . [تنظر كذلك دواوين المصري ، والدراسات الصادرة حوله ، خصوصا الدراسات التالية للدكتور طه حسين : « مع أبي الصلاء في سجنه » ، وللدكتورة بنت الشاطئ « رسالة الغفران » ، وللأكاديمي البروفسور كراچوفسكي - « متنبينا » ، و « المعري والمنتبه » - وهما دراستان سنترجهما مجلة « المورد » الفراء - ، وكتاب البروفسور شيرويان عن أبي الصلاء المصري - بالروسية - ، وكتاب البروفسور غريغوريان (المار ذكره) . بالروسية حول الفلسفة العربية - الاسلامية] .
- (٤٤) هكذا تدعوه معظم الدراسات الاستشراقية المعاصرة .
- (٤٥) قدري حافظ طوفان ، مقام العقل عند العرب (مصدر سابق) .
- (٤٦) اخوان الصفاء ، الرسائل ، الرسالة السادسة من العلوم الناموسية والشرعية .
- (٤٧) قدري حافظ طوفان ، مقام العقل عند العرب ، فصل « سلطان العقل عند المعتزلة » .
- (٤٨) نفسه .
- (٤٩) نفسه .
- (٥٠) نفسه ، فصل ، « سلطان العقل عند المعتزلة » . [ينظر كذلك « الجاحظ » لمحمد عبد المنعم خفاجي ، و « الجاحظ » لشارل بلا ، وكتاب البروفسور غريغوريان ، بالروسية ، عن الفلسفة العربية - الاسلامية] .
- (٥١) المصدر السابق ذاته (مقام العقل عند العرب - طوفان) .
- (٥٢) « مختار رسائل جابر بن حيان » (عني بتصحيحها ونشرها بول كراوس) ، مكتبة الخانجي ومطبعها ، القاهرة ، ١٢٥٤ هجرية . [أعادت طبعه بالأوقسييت مكتبة المثني ببغداد] . - (كتاب « الميزان ») .
- (٥٣) المصدر ذاته ، « كتاب الخواص الكبير » ، ص ٢٣٢ .
- (٥٤) جابر بن حيان ، كتاب البحث (أورده مصطفى لبيب ، « الكيمياء عند العرب » ، مصدر سابق) .

- عصورها » للدكتور مصطفى جواد ، والدكتور أحمد سوسة ، - بغداد في أدوارها الاولى ، تسمية بغداد ، ص ١٦] .
- (٤) ينظر - كتاب « بغداد - مدينة المنصور المدورة » ، تأليف - طاهر مظفر العميد (الدكتور) - رسالة مقدمة الى جامعة بغداد للحصول على الماجستير بالانار الاسلامية ، من منشورات المكتبة الاهلية ، بغداد ، ١٩٦٧ . [المقدمة - للاستاذ ناجي معروف] .
- (٥) لوبون ، « حضارة العرب » ، ترجمة عادل زعيتير ، « العرب في بغداد » ص ١٧١ - ١٧٢ .
- (٦) نفسه . كذلك ينظر - غوغول ، المؤلفات الكاملة (بالروسية) :
Gogol, N. V. Sobranie Sochineivie, tom 6, "Al-Mamyn", p. 62.
[وسنترجم البحث القيم هذا ، قريبا ، لمجلة « المورد » الفراء] .
- (٧) ابن خلدون ، المقدمة . [كذلك ينظر : لوبون ، حضارة العرب ، مصدر سابق ، ص ١٧٢] .
- (٨) لوبون ، حضارة العرب (مصدر سابق) ، ص ١٧٣ .
- (٩) المصدر ذاته ، ص ١٧٤ .
- (١٠) ديوان الامام علي (ع) ، دار كرم ، بيروت .
- (١١) مصطفى لبيب ، « الكيمياء عند العرب » ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٥٩ .
- (١٢) نفسه .
- (١٣) نفسه ، ص ٨٣ .
- (١٤) نفسه .
- (١٥) نفسه ، ص ٨٢ .
- (١٦) نفسه ، ص ٨٣ . [أورده هولبارد في « مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان »] .
- (١٧) قدري حافظ طوفان ، « العلوم عند العرب » ، (الألف كتاب - ٤) ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧ ، ص ٨٢ .
- (١٨) نفسه ، ص ١١٣ .
- (١٩) نفسه ، ص ١١٢ .
- (٢٠) نفسه ، ص ١٦٨ .
- (٢١) نفسه .
- (٢٢) نفسه ، ص ١٠٤ .
- (٢٣) نفسه .
- (٢٤) نفسه ، ص ١٠٩ .
- (٢٥) نفسه ص ١٠٩ - ١١٠ .
- (٢٦) نفسه ، ص ١٠٩ .
- (٢٧) نفسه .
- (٢٨) نفسه ، ص ١٦٥ .
- (٢٩) نفسه ، ص ١٦٦ .
- (٣٠) ينظر كتاب د . داود سلوم « النقد الادبي » ، وكتاب د . احسان عباس « تاريخ النقد الادبي عند العرب » .
- (٣١) ينظر كتاب د . داود سلوم ، النقد الادبي وكتابه : النقد المنهجي عند الجاحظ وكذلك « الجاحظ » لمحمد عبد المنعم خفاجي .
- (٣٢) قدري حافظ طوفان ، « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ، ص ١٦٠ .
- (٣٣) نفسه ، ص ٧٩ .
- (٣٤) نفسه ، ص ٨١ .

- (١٠٠) بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر مرت الإشارة إليه) .
- (١٠١) نفسه .
- (١٠٢) ١٠٣ ، ١١١ الى (١١١) نفسه (بحث ناجي معروف المشار إليه آنفاً) .
- (١١٢) زيفريد هونكه - « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٢ .
- (١١٣) « الموجز في تاريخ العلوم عند العرب » ، محمد عبد الرحمن مرحب ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .
- (١١٤) « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » قدري حافظ طوقان ، ص ٧٦ ، ٧٩ .
- (١١٥) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، حكمت نجيب ، منشورات جامعة الموصل ، ١٩٧٧ .
- (١١٦) و (١١٧) « العلوم عند العرب » ، قدري حافظ طوقان (مصدر سابق) .
- (١١٨) نفسه ، ص ١٢٠ .
- (١١٩) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٩٧ .
- (١٢٠) كتاب « الجبر والمقابلة » ، للخوارزمي (تحقيق د . علي مصطفى مشرفة ، و د . محمد مرسي أحمد . مطبعة فتح الله الياس ، القاهرة) ، ص ٥ .
- (١٢١) « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » ، طوقان (مصدر سابق) ص ١٥٩ - ١٦٠ .
- (١٢٢) « الاسلام والعرب » لروم لاندو ، ترجمة منير البعلبكي ، بيروت ، ص ٢٥٢ .
- (١٢٣) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ١٠٣ .
- (١٢٤) نفسه [ينظر كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب »] .
- (١٢٥) « العلوم عند العرب » ص ١٠٢ .
- (١٢٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .
- (١٢٧) - (١٢٨) (١٢٩) (١٣٠) - المصدر ذاته (علم الحساب عند العرب) .
- (١٣١) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، فصل « علم الهندسة عند العرب » ، « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » لوطوقان .
- (١٣٢) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » [الاصل هو بحث الاستاذ الدكتور صالح احمد العلمي ، « دراسة العلوم الرياضية ومكانتها في الحضارة الاسلامية » ، مجلة « المورد » ، مج ٣ ، العدد ٤ ، ١٩٧٤ ، ص ٤٥) .
- (١٣٣) رسائل اخوان الصفاء ، القسم الرياضي ، ص ٩٧ ، و ١٠١ .
- (١٣٤) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .
- (١٣٥) « العلوم عند العرب » ، ص ٥٩ .
- (١٣٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ص ١٦٩ .
- (١٣٧) (١٣٨) (١٣٩) نفسه ص ١٧٠ - ١٧٢ .
- (١٤٠) زيفريد هونكه ، « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية (مصدر سابق) ص ١٥٨ - ١٦٣ .
- (١٤١) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ٤ - ٥ .

- (٥٥) مختار رسائل جابر بن حيان (مصدر سابق) ، كتاب « التصريف » . [ينظر كذلك كتاب « الكيمياء عند العرب » ، مصدر سابق ، (ص ٨٤ - ٨٥)] .
- (٥٦) جابر بن حيان ، كتاب البحث ، ص ٣١٠ (الكيمياء عند العرب ، مصدر سابق ، ص ٧٦) .
- (٥٧) مختار رسائل جابر بن حيان ، « كتاب الخواص الكبير » ، ص ٢ - ٤ . (مصدر سابق) .
- (٥٨) المصدر السابق ذاته ، « كتاب السبعين » ، ص ٤٦٤ .
- (٥٩) جابر بن حيان ، « كتاب البحث » ، ص ٣٠٨ (الكيمياء عند العرب ، ص ٨٤) .
- (٦٠) د . زكي نجيب محمود ، « جابر بن حيان » ، ص ٥٨ .
- (٦١) نفسه ، ص ٧٥ .
- (٦٢) و (٦٣) و (٦٤) و (٦٥) « الكيمياء عند العرب » (مصدر سابق) .
- (٦٦) جابر بن حيان - كتاب التجريد ، ص ١٢٧ - ١٢٨ - نشر هولبارد .
- (٦٧) الجاحظ ، كتاب « الحيوان » ، ج ١ ، ص ١٨٥ .
- (٦٨) المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٥٠ .
- (٦٩) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٠٣ .
- (٧٠) رسائل اخوان الصفاء ، الرسالة السابعة .
- (٧١) كتاب المناظر لابن الهيثم . [كذلك : الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية ، لمصطفى نظيف] .
- (٧٢) مصطفى نظيف : المصدر ذاته .
- (٧٣) قدري حافظ طوقان ، « العلوم عند العرب » ، (مصدر سابق) ، ص ٨٦ .
- (٧٤) نفسه . [كذلك ينظر كتاب « مقام العقل عند العرب ، لنفس المؤلف ، الباب الخامس] .
- (٧٥) كتاب « بغداد » ، (نشرته نقابة المهندسين العراقية) ، مصدر سابق - (ص ١٤٥) .
- (٧٦) نفسه .
- (٧٧) نفسه .
- (٧٨) ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ - ٩٥) نفسه .
- [بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » ، تنظر ايضا ، دراسات طه حسين ، واحمد امين ، وعبد الحميد المبادي عن الحياة العقلية والعلمية والثقافية في فجر الاسلام ، وضحاها وظهره ، وكذلك كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » ، للمستشرقة الالمانية زيفريد هونكه - الترجمة العربية ١٩٦٩ ، وكتاب « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » لحكمت نجيب الموصل ، ١٩٧٧] .
- (٩٦) قدري حافظ طوقان ، « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .
- (٩٧) بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر مرت الإشارة إليه) .
- (٩٨) ينظر (« طوقان - « العلوم عند العرب ») و (حكمت نجيب - « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ») و (د . امام ابراهيم ، « تاريخ الفلك عند العرب » ، القاهرة ، ١٩٧٥) .
- (٩٩) قدري حافظ طوقان - « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) - ص ٦٤ .

(١٨٠) تنظر رحلة ابن جبير . [وكذلك بحث « بيمارستانات بغداد » لناجي معروف في كتاب « بغداد »] .
 (١٨١) [تنظر مبحث ناجي معروف « مدرسة الطب المستنصرية » ، في كتاب « بغداد » - (مصدر سابق)] .
 (١٨٢) [بحث « بيمارستانات بغداد » لناجي معروف ، في كتاب « بغداد » (مصدر سابق)] .
 (١٨٣) « الطب العربي » ، للدكتور أمين أسعد خير الله ، (مصدر سابق) ، الفصل السادس] .
 (١٨٤) و (١٨٥) المصدر ذاته ، ص ٧٥ .
 (١٨٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، حكمت نجيب (مصدر سابق) ، ص ٧٧ - ٧٨ .
 (١٨٧) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، كتاب « الأيدي الشافية - الفصل الاول ، والفصل الثاني . والمقصود بالحجة المسكرة (اي المغلفة بالسكر) والمذهبة (المغلفة بالذهب) ، وهذا تدبير كان يلجأ اليه ابن سينا مع مرضاه ، تسهلاً لتناول الدواء .
 (١٨٩) نفسه .
 (١٩٠) ينظر كتاب د . محمد أمين ، « مواقف فكرية » ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١١٢ .
 (١٩١) و (١٩٢) [« شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، (الكتاب الخامس « سلاح المعرفة »)] .
 (١٩٣) تنظر مجلة « المورد » العدد الثاني ١٩٧٨ (عدد خاص بالتراث والمعاصرة) ، بحث الاستاذ الدكتور مصطفى شريف العاني « الطب العربي بين التراث والمعاصرة » ص ٩٥ - ١٢٢ . [وتنظر دراسات الاستاذ طه باقر واطروحة حول التراث العربي ، مجلة آفاق عربية ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، وكتاب « محاضرات في التاريخ القديم » للدكتور عامر سليمان واحمد مالك الفتیان ، ١٩٧٨] .
 (١٩٤) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ١٦٢ .
 (١٩٥) « شمس العرب تسطع على الغرب » ص ٤٠١ - ٤٠٢ .
 (١٩٦) يكرس غوستاف لوبون ، لهذه الموضوع ، فصولاً عديدة في كتابه « حضارة العرب » ، خصوصاً (الباب الخامس) و (الباب الثالث) .
 (١٩٧) « الاسلام والحضارة العربية » ، محمد كرد علي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص (٢١٥) .
 (١٩٨) و (١٩٩) و (٢٠٠) « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » ، آدم متز ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، (القسم الاول) ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، الفصل الثاني عشر « العلماء » .
 (٢٠١) تنظر ، مجلة « المورد » ، المجلد الثامن ، العدد الثاني ، صيف ١٩٧٩ ، (ص ١٠٩) ، « داغستان واليمن » للاكاديمي البروفسور كراجكوفسكي ، ترجمة كاتب السطور ، ويتصل بذلك بحث آخر لكراجكوفسكي ، أيضاً ، عن (الادب العربي في القفقاس الشمالي) ، وقد ترجمه كاتب السطور للمورد أيضاً .

(١٩٢) المصدر السابق ، ص ١٤ (والاشارة الى كتاب « تطور الطب » للسير وليم أويسلر) .
 (١٩٣) و (١٩٤) زيفريد هونكه ، « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية (مصدر سابق) ، [كتاب « الأيدي الشافية » ، فصل « أحد أعظم أطباء الانسانية اطلاقاً » ، ص ٢٤٣ فصاعداً] .
 (١٩٥) رسائل الرازي [كذلك « العلوم عند العرب » (مصدر سابق)] .
 (١٩٦) و (١٩٧) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) [كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب »] .
 (١٩٨) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، ص ٢٥٢ .
 (١٩٩) نفسه ، ص ٢٥٠ [كذلك : « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، ص ٤٦] .
 (٢٠٠) الدكتور أمين أسعد خير الله ، « الطب العربي - مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به » ، تعريب الدكتور مصطفى أبو عز الدين ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .
 (٢٠١) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، ص ٢٥٧ .
 (٢٠٢) و (٢٠٣) - (١٦٢) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ، فصل « الطب في عصر الدولة العباسية » . [كذلك « الطب العربي » للدكتور أمين خير الله ، الفصل السابع] .
 (٢٠٣) و (١٦٤) و (١٦٥) و (١٦٦) « الطب العربي » (مصدر سابق) الفصل العاشر [كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، الفصل الثالث عشر] .
 (٢٠٤) Chemistry and Chemical Technology in Ancient Mesopotamia, By Martin Levey, Elsevier Publishing Company (Amsterdam, London, New York, Princeton), 1959.
 (الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين ، للبروفسور مارتن ليفي ، من جامعة تمبل (فيلادلفيا - الولايات المتحدة ، ١٩٥٩) - وقد ترجمناه لحساب وزارة الثقافة والاعلام (بالمشاركة مع د . محمود فياض و د . جواد البديري) .
 (١٦٨) يمكن الاشارة الى هوليارد ، وهامرن ، وهوز ، ومور ، وبارتنجن ، وأوليري ، وكراوس ، ونيكولاسكي ، وايفانوف ، وستابلن ، وتيلر ، وتومسون ، وفون لبيان ، وهاوفر ، وفرجاسون ، وبرتلو ، وفون ماير ، وبيتروف كأمثلة على ذلك .
 (١٦٩) (١٧٠) (١٧١) (١٧٢) « الطب العربي » ، للدكتور أمين أسعد خير الله (مصدر سابق) ، الفصل العاشر .
 (١٧٣) [« شمس العرب تسطع على الغرب » ، مصدر سابق ، « الأيدي الشافية » ف١ و ف٢] .
 (١٧٤) (١٧٥) (١٧٦) « الطب العربي » (مصدر سابق) - [كذلك بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » عن بيمارستانات بغداد (مصدر سابق)] .
 (١٧٨) « الطب العربي » (مصدر سابق) ، الفصل السادس [بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر سابق) - فصل « بيمارستانات بغداد »] .

- (٢٠٢) تؤكد ذلك اللقي والتنقيبات الأخيرة في شمال الاتحاد السوفيتي ، وثمة دراسات عديدة حول ذلك .
- (٢٠٣) تنظر ، كتاب محمد مفيد الشوباشي « الصرب والحضارة الأوربية » ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٣٩ - ٤٠ .
- (٢٠٤) يشار الى ذلك ، في كتاب « تاريخ الفكر الاندلسي » ، اشارات مفصلة .
- (٢٠٥) الدكتور فيصل السامر - « الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى » ، منشورات وزارة الاعلام في بغداد ، ١٩٧٧ ، (ص ١٣ فصاعداً) .
- (٢٠٦) و (٢٠٧) نفسه ، ص ١٤ ، ٢٧ .
- (٢٠٨) يفسر هذا سر وجود جاليات عربية في عديد من بلدان الشرق ، بمن فيهم عرب آسيا الوسطى .
- (٢٠٩) « الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى » (مصدر سابق) ، ص ٢٤ .
- (٢١٠) بلغت البحوث المدة في انتشار وتأثير الف ليلة في الادب العالمي أكثر من خمسمائة بحث ، يشتمل اللغات
- (٢١١) « دراسة مقارنة في الأمثال الروسية والعربية » لكاتب السطور ، بغداد ، ١٩٧٨ .
- (٢١٢) و (٢١٣) تعتبر دراسة (الادب العربي في القفقاس الشمالي) للاكاديمي البروفسور كراچوفسكي مكملة لدراسة (داغستان واليمن) وهي تستند الى معطياتها ، وتطورها . اما انتشار الحكم والمأثورات العربية في المناطق المسلمة في الاتحاد السوفيتي (وخصوصاً داغستان) فهو نظير لانتشار هذه المأثورات في الشرق الاسيوي (الهند والملايو واندونيسيا وبعض مناطق الصين والفلبين) .
- (٢١٤) ثمة كتب عديدة حول معطيات المؤلفات العربية (للرحالة العرب أو للكتاب العرب والمسلمين عموماً) ، وأهمية هذه المعطيات في دراسة تاريخ شعوب الاتحاد السوفيتي ، والمنطقة .
- (٢١٥) و (٢١٦) ينظر كتاب الدكتور فيصل السامر - « الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى » ، الفصل الخامس « السفارات العربية الى الصين في العصور الوسطى والإسلامية » (٢١٧) « حضارة العرب » (مصدر سابق) ص ١٧٨ .
- (٢١٨) المصدر ذاته ، ص ١٨٠ .
- (٢١٩) المصدر ذاته ، ص ١٨٠ .
- (٢٢٠) أورده د . جابر الشكري في بحثه « المآثر العربية في دراسة المنتجات الطبيعية » ، مجلة (آفاق عربية) ، آب ١٩٧٩ ، ص ٨٦ .
- (٢٢١) « الطب العربي » (مصدر سابق) ص ٢١٧ .
- (٢٢٢) و (٢٢٣) تنظر مجلة « آفاق عربية » ، تشرين الاول ١٩٧٧ ، ص ٧٩ .
- (٢٢٤) و (٢٢٥) و (٢٢٦) و (٢٢٧) و (٢٢٨) ينظر « دفاع عن الثقافة العربية » ، فتحي خليل ، ١٩٥٩ ، (ص ٩ - ١٢) .
- (٢٢٩) صدام حسين ، حول كتابة التاريخ ، نشرته مجلة

- « المورد » في افتتاحيتها للعدد الثاني ، المجلد الثامن ، ١٩٧٩ (صيف ١٩٧٩) ، وكان هذا النص معقد الدرس والتأمل في الاجتماع الموسع لمكتب الاعلام بتاريخ ١٩ ايلول ١٩٧٧ . ونشرت « المورد » أيضاً ، دراسات لبعض الاساتذة استلهاماً للنص .
- (٢٣٠) أورده الدكتور فاروق عمر فوزي، في دراسته المنشورة في المورد (صيف ١٩٧٩ - المصدر السابق) بعنوان : « آراء خاطئة في تفسير التاريخ العربي » . وقد تحدث بهذا الخصوص د . صالح احمد العلي ، أيضاً ، في دراسته « أصول ومقومات الحضارة العربية . حاجتها الى اعادة التقييم » ، (انظر دراسة د . فوزي ص ٢٦ ، ودراسة د . العلي ص ١٩) .
- (٢٣١) ينظر كتاب « معارك فكرية » ، للدكتور محمود أمين (مصدر سابق) ص ١٢٢ - ١٢٣ . [من المهم هنا ان ننقل رأي لوبيون في ما حققه العرب وما حققه الاغريق ، وفي اضافة العرب العلمية الى الحضارة العالمية . يقول لوبيون ، على ص ٤٢٣ في كتابه المشهور « حضارة العرب » ، وبعبارة « مناهج العرب العلمية » : « ليست الكتب والمختبرات والآلات غير وسائل للدرس والبحث ، وتكون قيمتها في معرفة الاستفادة منها . وقد يستطيع المرء ان يكون مطلعاً على علوم الآخرين ، وقد يبقى عاجزاً عن التفكير وابتداع أي شيء مع ذلك ، فيظل تلميذاً غير قادر على الارتقاء الى درجة أستاذ ... لم يلبث العرب ، بعد ان كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، ان أدركوا ان التجربة والرصد خير من افضل الكتب ، وعلى ما يبدو من ابتداء هذه الحقيقة جد علماء القرون الوسطى في اوربا الف سنة قبل ان يعلموها . ويعزى الى بيكون ، على العموم ، انه اول من اقام التجربة والترصد ، اللذين هما ، ركن المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ ، ولكنه يجب ان يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولاسيما هنبولد ، فبعد ان ذكر هذا العالم الشهير ان ما قام على التجربة والترصد هو ارفع درجة في العلوم قال : « ان العرب ارتقوا في علومهم الى هذه الدرجة التي كان يجعلها القدماء تقريباً » . وقال ميسيو سيديو : « ان اهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لاعمالها ، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقاً مؤدياً الى استنباط الملل من المعلومات وعدم التسليم بما لاثبتت بغير التجربة مبادئ قال بها اساتذة العرب ، وكان العرب ، في القرن التاسع من الميلاد ، حائزين لهذا المنهج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول الى ادوع الاكتشافات » . (لقد انتقل) تراث اليونان العلمي الى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل ، ولما آل الى العرب حولوه الى غير ما كان عليه فتلقاه ورثتهم وخلقوه خلقاً آخر » . [.
- (٢٣٢) ينظر ، (« رسالة العلم الاجتماعية » ، للبروفسور ج . د . برنال ، ترجمه د . ابراهيم حلمي ، ص ٤

التأثيل والانصباب في بغداد

بقلم

عادل العزكوي

بغداد - الجمهورية العراقية

● مدخل :

● مع دخول الثورة عامها الحادي عشر ، مليئة بانتصاراتها ونجاحاتها مع الجماهير ، تكون بغداد عاصمتنا الزاهرة ، قد تغيرت ملامحها نحو الموقع الابهي والافضل والاجمل .. وهذا ما حدث بالفعل .. ما دامت هذه المدينة العربية العريقة تحمل بين ثناياها ارث الماضي المشرق الذي عاشته قبل عدة قرون .. وما دامت هي هي بغداد الاولى تبعث حضارتها المجيدة من جديد في زمن ثورة السابع عشر من تموز القومية الاشتراكية .

● فمع كل اطلالة فجر باسم جديد يمر بهذه المدينة العامرة .. تكتسب فرحا جديدا ومكسبا عظيما وتغيرا شاملا في هذا الموقع او ذاك .. وتشهد ايضا اجتثانا من الاساس لبقايا التخلف والاهمال الذي عانت منه بغداد ابان العهود الرجعية المندثرة . من بين تلك الملامح الجديدة والاصيلة التي اكتسبتها بغداد في السنوات الاخيرة ظاهرة النصب والتماثيل واللوحات الجدارية الرائعة التي زرعت في ساحاتها ومنعطفاتها ومتنزهاتها الخضراء الفسيحة ، والتي اضفت عليها مسحة جمالية اخاذة ذات جذور حضارية عريقة تمتد الى عصور هذه المدينة الزاهرة وايامها الذهبية .. يوم كانت موئلا لبلاد العرب والمسلمين .

● وكما في المدن المتقدمة في ارجاء العالم ، فقد تكاثرت هذه النصب والتماثيل بشكل يشير الفخر والاعتزاز بماضي الامة ، وما قدمته من ابداعات في شتى حقول المعرفة والفكر والحضارة .. فانتصبت تماثيل عديدة تمجد البطولة وملاحم الشعب ونضالاته .. كذلك تماثيل تذكارية للشهداء

والادباء والفنانين والعلماء والقادة التاريخيين وغيرها من الرموز العربية المستمدة من تاريخ وتراث امتنا العربية وامجادها الفذة ، والتي ساهمت مدينة بغداد عبر تاريخها الطويل بصنعها .

● ليس غريبا على بغداد العربية ان تحتضن هذه المجموعة الكبيرة من التماثيل والانصباب التذكارية الجميلة ، لان هذه المدينة هي عاصمة بلاد الرافدين العريقة بحضارتها وآثارها المنتشرة في كل مكان ، والتي تحكي للاجيال قصة الحضارة الانسانية ، وفجر السلالات البشرية التي سكنت وادي الرافدين قديما وتركت للاجيال التي تلتها موزونا حضاريا وآثاريا عظيما ملا قاعات المتاحف العراقية والعالمية الشهيرة .. ومنها ما زال مطمورا تحت التراب ، لم تصله يد البحث والتنقيب بعد .. !!

ان حضارات ومخلفات البابليين والاشوريين والسومريين وغيرهم من الاقوام الاخرى .. ما تركته لنا من آثار وشواخص عديدة خير شاهد لهذا الامتداد الحضاري المشرق .. الذي عاشته ارض الرافدين منذ بدء البشرية وحتى يومنا الحاضر .

وما التماثيل والانصباب المنتشرة هنا وهناك في ارجاء العاصمة ومتنزهاتها الاغرض من فيض ذلك الدفق الحضاري الاصيل .. الذي حبي الله به هذه التربة المباركة ، التي شهدت عصر النهضة والانبعث العربي الاسلامي خاصة في زمن العباسيين .. وتشهد حاليا انتصارات الثورة العملاقة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي .

● هذه المقالة المتواضعة التي اتناول من

وضل هذا التمثال منتصبا في مكانه متحديا مشاعر وأرادة أبناء الشعب .. حتى يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ، حيث سارعت الجماهير الى تهديم حجارته وتحطيم قاعدته من الاساس .. وهكذا قضت على هذا الرمز الاستعماري البغيض .

● عبدالحسن السعدون :

● يعتبر تمثال المرحوم عبدالحسن السعدون رئيس الوزراء العراقي في اواخر العشرينات ، من اقدم تماثيل العاصمة اليوم .. فقد اقيم التمثال عام ١٩٣٣ ، وهو من عمل النحات الايطالي (بياترو كانونيك) وهو من خيرة الفنانين الايطاليين آنذاك ، حيث سبق له ان نحت تمثالا لمصطفى كمال اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة في انقرة .

وياتي اقامة تمثال للسعدون ، بمثابة تكريم من الحكومة العراقية له ، ولوقفه من الاستعمار البريطاني المتحكم حينها في شؤون البلاد ، مما دفع بعبد المحسن السعدون الى الانتحار برصاصة من مسدسه اطلقها على نفسه اثر خلافاته مع المستعمرين الانكليز حيث ترك وصية قال فيها مخاطبا ولده علي : « الشعب يريد الخدمة والانكليز لا يوافقون .. » .

ومن الطريف ان هذا التمثال تنقل مرتين من مكانه ، قبل ان يستقر اخيرا في ساحة النصر .. فعند نصبه اختير له مكان يقع اليوم في رأس جسر الجمهورية من جانب الرصافة .. بعدها تم تحويله من مكانه الى مدخل شارع السعدون الذي اطلق اسم عبد المحسن السعدون على هذا الشارع تخليدا له ايضا .. وذلك لتعارضه مع موقع الجسر المذكور .. وقبل (٧) سنوات وعند المباشرة بمشروع نفق ساحة التحرير ، ولتعارض موقعه مع هذا المشروع نقل مرة ثالثة الى ساحة النصر وما زال في مكانه .

والسعدون من مواليد مدينة الناصرية عام ١٨٨٩م ، وتعلم في المدرسة الحربية في (استنبول) وتخرج ضابطا منها وعمل في الجيش العثماني ، وانتخب في مجلس النواب .. وبعد الحرب الاولى عاد الى العراق ، حيث تقلد منصب وزير العدلية لأول مرة عام ١٩٢٢ ثم اصبح وزيرا للداخلية ، ثم رئيسا لمجلس الوزراء اربع مرات للفترة من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٩ حيث حادثة انتحاره المعروفة .

والتمثال مصنوع من مادة البرونز يرتفع على قاعدة من الرخام يمثل السعدون واقفا وهو يرتدي ملابس الاعتيادية (زي الافندية) ويعتمر السدرة

خلالها موضوعا فنيا ذا ابعاد جمالية ، وجذور تاريخية مستمدة من تاريخ هذا القطر وحضارته ، الا وهو موضوع « النصب والتماثيل في بغداد » ليس بالضرورة ان يكون دراسة فنية اكااديمية ، من حيث حرفية النحت والرسم .. ولكنه موضوع استعراض شامل لمعظم ما موجود من تماثيل في العاصمة حاليا او حتى تلك التماثيل الملقاة منذ معرفة بغداد لهذه الظاهرة اي منذ عشرينات هذا القرن حيث انتصب اول تمثال الى يومنا الحاضر .

● المرحلة الاولى :

● نبدا اولاً بالمرحلة التي سبقت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .. اي منذ العشرينات وحتى عام ١٩٥٨ .. حيث ان بغداد لم تشهد شوارعها وساحاتها آنذاك سوى (٣) تماثيل كبيرة وتمثال آخر صغير .. وربما تكون هناك بعض التماثيل الجبسية الاخرى التي تناثرت هنا وهناك بين البيوت والقصور الفخمة حينها .. ومنها العديد من تماثيل الاسرة المالكة في العراق والتي تقبع الان في متحف الازياء والمآثورات الشعبية الكائن في شارع الرشيد / السنك والعائد لوزارة الثقافة والاعلام حاليا .

● « مود » فاتح بغداد :

● الجنرال الانكليزي « مود » الذي فتح بغداد في ١١/آذار/١٩١٧ بجيوشه الجزاراة بعد هزيمة الاتراك في الحرب العالمية الاولى .. والذي اشتهر بوعده لاهل بغداد « ان جيوشه دخلت العراق محررة لا فاتحة » ! والذي لم يتحقق من وعده شيء يذكر ، بل بالعكس كانت جيوشه غازية ومعتدية وليس محررة للعراق كما ادعى .. ! !

ولاجتياح مرض (الهیضة) بغداد آنذاك ، وما اكثر الامراض والطواعين التي كانت تجتاح بغداد والعراق وتحصد ارواح البشر بلا رحمة .. فقد خطفت الهیضة حياة الجنرال « مود » في بغداد ودفن في مقبرة الانكليز الواقعة الان في الكرنتينة .

وقد اراد المستعمرون والسائرون في ركا بهم تخليد هذا الجنرال المتفطرس ، باعتباره منقذا لبغداد ، وممثلا لجيوش الامبراطورية العظمى ..!! فقد تقرر ان يقام له نصب تذكاري يخلده وبالفعل فتح باب الاكتتاب والتبرع لاقامة هذا النصب البغيض الذي يمثل الاستعمار .. حيث اقيم هذا النصب المشؤوم ونصب في منطقة الشواعة في جانب الكرخ في الساحة المقابلة للسفارة البريطانية.

الوطنية فوق راسه متأبطاً في يده اليمنى ملففة اوراقه .. بينما ازدانت واجهة القاعدة التي يقف عليها التمثال بجدارية تحمل بعض التماثيل .

● فيصل الاول :

● وفي نفس الفترة التي صنع فيها النحات الايطالي (كانونيك) تمثال محسن السعدون ، باشر بعمل تمثال آخر للملك فيصل الاول تخليداً له ، حيث تم نصب هذا التمثال على قاعدة رخامية مرتفعة في ساحة جمال عبدالناصر - حالياً - في الصالحية ، والمواجهة لجسر الاحرار والمعروفة تفاصيل انجاز هذا التمثال يمكن الرجوع الى ما ذكره امين الريحاني ، الرحالة والاديب اللبناني المعروف ، الذي كان يزور العراق آنذاك ، في كتابه (فيصل الاول) حيث يصف وبشيء من التفصيل الساعات الطويلة التي كان يقضيها الملك واقفا امام النحات الايطالي لاكمال ملامح وجهه وتقاسيم جسمه الاخرى .

والتمثال يمثل فيصل الاول بملابسه العربية (الكوفية والعقال والعباءة) وهو يمتطي ظهر جواده ..

وقد ازيل هذا التمثال في صبيحة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .. وظلت قاعدته فارغة الى ان ازيلت بعد حين .. حيث بادرت امانة العاصمة الى تحويل الساحة الى حديقة جميلة ونصبت فيها ساعة للزهور ..

وقبل فترة قصيرة ازيلت هذه الساحة وساعتها الارضية تمثيلاً مع مشروع تحويل الساحات والشوارع الذي طبق مؤخراً .. وحلت مكانها ساحة صغيرة انتصبت فيها ساعة حديثة من جهاتها الاربعة .

● لجنم .. فوق المنارة

● وكما اقيم للاستعماري « مود » تمثال في الشواكة .. صنع الاستعماريون تمثالا صغيراً آخر لاستعماري آخر له دور كبير في الجاسوسية البريطانية ، التي مهدت للقوات الغازية من احتلال العراق والسيطرة عليه ..

انه القائد الانكليزي «لجنم» الذي قتله المناضل الوطني الشيخ ضاري المحمود في منطقة خان النقطة قرب مدينة القلوجة .. في احداث ثورة العشرين المجيدة .. والتمثال يجسد شخصية لجنم بالملابس العربية (ملابس البدو) ، وهو على ظهر جمل دلالة على ان لجنم كان يجوب الصحاري

على ظهر هذا الجمل ، ويعرف مسالكها وتقديرها من الاستعماريين ، والسائرين في ركبهم من رجالات العهد المباد ، فقد تم نصب هذا التمثال البغيض في اعلى منارة القشلة التاريخية .. وظل هكذا حتى عام ١٩٥٨ حيث انزل من مكانه واتلف الى الابد .

● المرحلة الثانية :

● بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .. وبعد ان الغيت كل التماثيل البغيضة .. التي كانت ترمز للاستعمار والظلم والتسلط ، لم يبق في بغداد سوى تمثال واحد هو تمثال عبدالمحسن السعدون في بداية شارع السعدون ..

● الجندي المجهول :

● لم يسبق لبغداد ان شهدت نصبا تذكاريًا للجنود المجهولين ، الذين سقطوا دفاعاً عن حياض الوطن عبر الشدائد والملمات .. فكان لابد من تخليد هؤلاء الشهداء الميامين الذين رفعوا اسم الوطن والامة عالياً بنصب تذكاري يخلدهم مدى الازمان ..

فكان عام ١٩٥٩ حيث اقيم نصب الجندي المجهول الحالي تخليداً وعرفانا لدور الجندي العراقي الذي بذل روحه في سبيل تربة هذا الوطن ..

وقد اختيرت الساحة الحالية التي يربض فيها هذا النصب الجميل بالذات تخليداً لدخول قوات جيشنا الباسل من هذه الجهة ، لانهاء الحكم الملكي العميل وعلان الجمهورية صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ..

النصب شارك بتصميمه وعمله ثلاثة مهندسين عراقيين هم : عبدالله احسان كامل ، ورفعت الجادرچي واحسان شيرزاد .

ويقسم هذا النصب الى قسمين الشمالي والجنوبي ، يتوسطه قوس كبير على شكل (طاق) طوله ١٤ متر وارتفاعه ١٨ متر حيث يرمز الى الاقواس التي بناها العراقيون القدامى .. مقارنة بالنهضة العلمية في الهندسة المعمارية في قطرنا ، بينما ترمز الفتحتان في الطاق الى هلالين عربيين .

ويتوسط الطاق من الداخل قبر الجندي المجهول المربع الشكل الذي يتكون من (٤) قطع حجرية بحجم (٩) امتار مربعة تعلوه شعلة من اثار متوهجة رمزا لخلود هذا الجندي المجهول ..

ويزور هذا النصب كل الرؤساء والملوك الذين يزورون قطرنا حيث يؤدون مراسيم الزيارة له ،

● نصب الحرية .. ملحمة الشعب :

● من الانصاب الكبيرة التي شهدتها سنوات ما بعد الثورة ، نصب الحرية الشامخ في الباب الشرقي في قلب بغداد .. حيث ساحة التحرير اكبر ساحات العاصمة بينما تقبع خلفه حديقة الامة من أولى الحدائق الكبيرة في بغداد .. والذي غدى سمة مميزة وعلامة بارزة من ملامح هذه المدينة .

وهذا النصب العملاق ملحمة نضالية خالدة تمثل المراحل النضالية التي مر بها شعبنا العراقي منذ العهود المظلمة ، وثوراته وانتفاضاته ، وحتى ثورة تموز ١٩٥٨ .. وقد نفذه وصممه الفنان العراقي جواد سليم ، الذي وافته المنية قبل ازاحة الستار عنه بفترة قصيرة .. حيث افتتح في عام ١٩٦١ .

تجسد في هذا النصب ، شخوص واشكال عديدة تكمل بعضها الآخر ، لا مجال لذكرها هنا بالتفصيل .. وسأكتفي بتعدادها للتعريف فقط فهي : (الحصان .. ورواد الثورات .. الباكية .. ام ترثي ولدها .. ام وطفلها .. المفكر السجين .. الجندي .. الحرية .. الدعة والاستقرار .. دجلة والفرات .. الزراعة .. الثروة الحيوانية .. الصناعة .. شموخ العامل ..)

انها بحق ماثرة فنية خالدة تعتبر من المع والابرز الاناث المعاصرة التي تعتز بها مدينتنا الحبيبة بغداد .. صنعها لنا واحد من رواد النحت في قطرنا العراقي .. الفنان جواد سليم رحمه الله ..

● الام :

● من التماثيل التي شهدتها تلك الفترة ايضا تماثل (الام) من عمل النحات خالد الرحال والذي ازيع الستار عنه عام ١٩٦١ في حديقة الامة .. حيث يحيط قاعدة هذا التماثل حوض دائري للماء انتشرت على جانبيه من الداخل النافورات والاضوية الملونة .. وقد نقل هذا التماثل قبل سنوات قليلة الى متنزه الزوراء ..

التماثل يمثل الام وهي تنظر الى مستقبل الجيل الذي يعبر عنه بالطفل الواقف الى جنبها والذي وفرت له الثورة كافة المقومات التي تجعله يقف على ارض صلبة .. يبلغ طول التماثل (٤) امتار ونصف المتر ، وهو منحوت من حجر الحلان .

ويضعون على القبر باقات من الزهور ، كذلك تقام فيه الاحتفالات الرسمية مثل اعياد تموز وعيد الجيش العراقي وغيرها من المناسبات الوطنية الاخرى ..

● نصب جديد للجندي المجهول في بغداد

● وما دمنا بصدد الحديث عن هذا النصب .. فان نصبا جديدا سيقام قرب ساحة عمان في الكرخ للجندي المجهول .. من تصميم النحات خالد الرحال .. حيث وضع حجر الاساس لهذا النصب في ٦ كانون الثاني عام ١٩٧٦ ..

اذ يعتبر تشكيل نصب الجندي المجهول مثالا لنماذج الهندسة المعمارية الحديثة وتجسيدها لفكرة التصميم والتشكيل التي خلقت مفاهيم وتعبيرات غاية في الروعة والابداع .

ونقدم للقارئ العزيز تعريفا سريعا عن ما يحتويه هذا التصميم الذي لم ينفذ بعد ..

« القبة المائلة تمثل ترسا عربيا اثناء سقوطه على الارض مضجعا بالدماء التي تمثلها بدورها الوان القاعدة .. وهذا يعني سقوط الشهيد دفاعا عن ارض وطنه .. اما العلم داخل القبة فهو يبدأ من القاعدة الداخلية الى نهاية محيطها الامامي ممثلا للعلم العربي الذي يبرقع به الضريح والذي تتجلى الوانه بوضوح .

اما جوانب العلم ، فتمثل جناحي الصقر وتحلى بالزخارف العربية والاسلامية المصنوعة من مادة الماري (المعدن اللامع) . اما القاعدة بشكلها البيضوي الاحمر ومدرجاتها ، فانها تمثل صدى وقع الترس على الارض ، وهي باللون الاحمر الذي يرمز لدم الشهيد .

اما العمود المخروطي الطويل الشكل ، فانه يمثل صعود الروح الى خالقها .. وفي ذات الوقت تستعمل كسارية للعلم .

والضريح المكعب الشكل بطبقاته يمثل اكفان الشهيد الذي يشع من داخله الضياء الازرق الذي يعطي الرهبة والسمو للضريح » .

وعندما سيكمل بناء هذا النصب الكبير ستتحول الاحتفالات والمراسيم والزيارات اليه بدلا من النصب الذي سيصبح - قديما - في شارع السعدون .. والذي سيظل نصبا قائما في نفس الساحة ..

● ١٤ تموز :

بمرور الايام تحتل لها مكانا في ساحات وشوارع العاصمة ..

واكمالا لتنظيم هذا الجانب الجمالي فقد شكلت لجنة عليا لاختيار موضوعات هذه التماثيل واقرارها نهائيا سواء منها التي في بغداد او محافظات القطر الاخرى ..

وامام هذه الاجراءات العديدة التي اتخذت لصالح هذا التوجه ، بدأنا نلمس اثار هذا الدعم الذي توليه قيادة الحزب والثورة لهذا التوجه .. وبدأنا نرى بين آونة واخرى ان تماثلا نصب في هذه الساحة .. وان نصبا اقيم هناك .. وهكذا هي عطاءات الثورة زاخرة مستديمة ..

● اربعة تماثيل .. لاربعة اعلام :

من بين التماثيل التي شهدتها بغداد في عام ١٩٦٨ خمسة تماثيل في آن واحد تم نصبها في متنزه (الاوبرا) سابقا - (الوحدة) حاليا .. وقد ظلت هذه التماثيل ردىءاً من السنوات هناك ولكن المسؤولين عنها قرروا نقلها الى متنزه المسبح في الكرادة على شاطئ دجلة .. فزادها المكان الجميل الجديد روعة وجمالا .

وهذه التماثيل هي (المنصور .. المتنبى .. الرازي .. الفراهيدي .. الكندي) .

● ابو جعفر المنصور :

● الخليفة المنصور ، ثاني خلفاء بني العباس وهو الذي شيد مدينة بغداد المدورة .. واسمه (عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس) ولد عام (٧١٣) م وتوفي عام ٧٧٥ م .. وقد عرف المنصور بالرجل الاداري الحكيم والسياسي المحنك والقائد المقتدر .. حيث تولى الخلافة بعد اخيه ابي العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية عام (١٣٦ هـ) .. وشهدت مدينة بغداد في عصر المنصور ازدهارا عظيما ، كما تطورت الدولة العربية الاسلامية على يده ، واشتهر عهده بالرخاء والامن وازدهار العلوم والاداب .

التمثال .. يمثل الخليفة العباسي واففا نحو الامام ، بينما ارتفعت عمامته نحو الاعلى بعض الشيء .. يبلغ طول التمثال الذي صنعه النحات العراقي محمد غني حكمت في عام ١٩٦٨ .. (٦) أمتار وهو من الحجر .

● ومن النصب التي يعود تاريخها ايضا الى تلك الفترة نصب ١٤ تموز .. الذي ازيح الستار عنه في عام ١٩٦٣ .. وفي موقعه الحالي مقابل القصر الجمهوري بكرادة مريم في الساحة المواجهة لبداية الجسر المعلق .. وهو من عمل الفنان ميران السعدي .. يظهر في النصب اربعة من جنودنا الابطال يشقون طريقهم نحو النصر .. وقد رفع احدهم راية النصر عاليا بينما مسك في يده الثانية بندقية .. بينما استشهد آخر وهو في طريقه الى المعركة .. فكرة النصب عموما تركز على صلابة الجندي العراقي وقوة بأسه في ساحات الوغى والقتال .

وعند هذه التماثيل تنتهي مرحلة .. وتبدأ مرحلة اخرى بالنسبة لتماثيل بغداد .. هي مرحلة العطاء الفني الكبير .

● مرحلة الثورة .. والعطاء الفني الكبير :

● بعد ثورة ١٧ - ٣٠ تموز القومية الاشتراكية عام ١٩٦٨ والتي فجرها وقادها حزب البعث العربي الاشتراكي .. تفجرت ايضا طاقات الفنانين وامكاناتهم ومواهبهم ، وتوفرت امامهم الفرص للبروز والابداع .. حيث شهدت بغداد تغييرات شاملة على صعيد التنظيم والتجميل وتزيين الساحات والشوارع بالنصب والتماثيل والجداريات المستمدة من تاريخ وتراث امتنا العربية المجيدة .. فكان ان انتصبت عشرات التماثيل ، واجزل العطاء لمن ابدع من صناعة وتجسيد هذه الانصاب التذكارية لمسيرتنا المعطاءة ..

من ابرز تلك المنجزات في ازدهار الجانب الجمالي والفني لمدينة بغداد .. ان انيطت مهمة اقامة التماثيل والانصاب بامانة العاصمة باعتبارها الجهة الرسمية المسؤولة عن تنظيم وتجميل العاصمة بما يتلائم ومكانتها السياسية والاجتماعية والحضارية والتاريخية وامام هذا الوضع انشأت الامانة مصهرا متكاملا لمادة (البرونز) بدلا من صب (قوالب) التماثيل في الخارج ، واختير له مكان ثابت في شارع الشيخ عمر .. وتأسست ايضا في عام ١٩٧٤ مديرية عامة تابعة لامانة العاصمة تتولى تنفيذ هذه الامور يديرها الفنان خالد انرحال .

وهذه المديرية التي "فدت عشرات التماثيل تنهكم الان بتنفيذ اعمال فنية اخرى سنشاهدها

● رأس المنصور :

بأخباره وأشعاره ومغامراته وأسفاره .. وما تركه
للأجيال العربية من قلائد شعرية رضية .. ما
زالت تحمل سر حياتها الى يومنا هذا ..

هو ابو الطيب احمد بن الحسين الجعفي
المعروف بالمتنبي ولد في رحاب محلة كنده في الكوفة
عام ٩١٥م وتوفي عام ٩٦٥م - وترعرع في الكوفة
وتنقل بين الشام ومصر ويران وتنقل في البوادي
والاقطار العربية الاخرى .. وقد قتل عند رجوعه
من بلاد فارس هو وولده (محمد) وعبد ..
وقبره الان قرب قضاء النعمانية في محافظة
واسط .. يبلغ طول التمثال الذي نفذه الفنان
العراقي عبدالرحمن الكيلاني - (٥) امتار من
الحجر ، ويمثل المتنبي واقفا وكأنه يلقي احد
قصائده حيث يؤشر بيده اليمنى .. بينما قبض
بيده اليسرى على السيف ..

تم نصب التمثال عام ١٩٦٨ ..

● نصب جديد للمتنبي :

● في عام ١٩٧٧ شهدت بغداد مهرجانا
تكريما كبيرا للشاعر المتنبي شاركت به العديد من
الشخصيات الاوروبية الالامعة في الوطن العربي وعدد
من المستشرقين الاجانب .. المهرجان امتد لاسبوع
كامل .. اشرفت على تنظيمه وزارة الثقافة
والفنون .. تضمن اماسي شعرية والقاء عدد من
البحوث والدراسات الخاصة بأسرار حياة وشعر
المتنبي .. وقامت الوزارة بطبع العديد من الكتب
القيمة التي تتعلق بهذا الشاعر الفذ .. وتضمن
المهرجان ايضا تشييد ما هدم من قبر المتنبي قرب
النعمانية وتأسيس مكتبة باسم المتنبي في مدينة
الكوفة .. مدينة الشاعر الاولى .. وما يهنا في
هذا الصدد .. هو تمثال الشاعر المتنبي الذي
ازيح الستار عنه خلال ايام المهرجان حيث انتصب
التمثال على قاعدة حجرية مرتفعة في حديقة بناية
المكتبة الوطنية مقابل وزارة الدفاع .. وهذا
التمثال الثاني ، في بغداد .. !!

وهو من عمل الفنان محمد غني حكمت ..
وهو يمثل ابا الطيب واقفا .. بينما اخذت الرياح
العالية تتلاعب بشيابه الغضفاضة .. بينما مد يده
اليمنى على قبضة سيفه .. وقد لبس المتنبي على
راسه غطاء اشبه بالعمامة متصلة مع ملابسه .. في
حين ظهر وجه الشاعر مرتفعا نحو الاعلى متطلعا
للسمو والانطلاق في الصحراء العربية التي جابهها
اكثر من مرة عبر سهول ووديان وجبال العراق

● وما دمنا نتحدث عن ابي جعفر المنصور ،
فقد خلدت بغداد مؤسسها مرة ثانية من خلال
النصب التذكاري الجميل لرأس الخليفة المنصور
الذي انجزه الفنان خالد الرحال والذي نصبه في
ساحة الحي العربي بالمنصور .. وازيح الستار عنه
في ٦/ كانون الثاني/ عام ١٩٧٦ بمناسبة الذكرى
السادسة والخمسين لتأسيس الجيش العراقي
الباسل - النصب يتكون من رأس الخليفة بارتفاع
(٣) امتار ونصف وينصب فوق قاعدة طولها (٦)
امتار ونصف .. وفكرة النصب تمثل قاعدة لاحد
ابراج سور مدينة بغداد القديمة على شكل دائري ..
حيث ان هذه القاعدة مزخرفة من الخارج بنقوش
من فن الرياضة الاسلامية البديعة .. وبداخل هذا
البرج غرفة على شكل متحف صغير يضم نحتا
يمثل الخليفة ، وهو يمتطي جواده برفقة نخبة من
علماء الفلك والمهندسين ، وهو يؤشر الى المنطقة التي
اخترها موقعا لمدينة بغداد ، اضافة الى صور
قديمة للمدينة وما تبقى من اثارها مثل خان مرجان
والمدرسة المستنصرية وغيرها من المعالم .

● الكندي :

● وثاني تلك النصب التي يحتضنها متنزه
المسبح حاليا .. نصب للفيلسوف الكندي الذي
احتفلت بغداد بذكره قبل (٢٠) عاما ، عندما
احتفلت ببيدها الالفى ..

وهو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ،
وهو عراقي عربي من منطقة (كنده) في الكوفة قضى
معظم ايام حياته في مدينة بغداد والبصرة ، وبرع
في العلوم خصوصا الفلسفة والرياضيات والطب
والموسيقى والفلك ..

وقد قام الكندي بشرح ، وتأليف كتب يزيد
عدها على (٣٠٠) كتاب كان لها الاثر البالغ في
التراث العالمي ، كما قام المترجمون بترجمة
عدد منها الى شتى اللغات الاجنبية ، حيث
استفادت منها اوربا ، ايام عصورها المظلمة وحملت
اليها افكاره مشاعل العلم والمعرفة .. وفي عام ١٩٦٨
تم نصب هذا التمثال الذي نفذه النحات العراقي
محمد الحسني ، اذ يبلغ طوله (٦) امتار وهو
مصنوع من الحجر .

● المتنبي :

● من منا لا يعرف ابا الطيب المتنبي ..
الشاعر العملاق الذي (ملأ الدنيا وشغل الناس)

والشام ومصر وبلاد فارس .. وغيرها من الامصار التي استقر فيها ردحا من الزمن .

● الرازي :

● رابع هذه الانصاب .. نصب ابو بكر بن محمد بن زكرياء الرازي .. من مواليد مدينة الري في فارس عام ٨٦٥م ، اقام في بغداد حتى وفاته عام ٩٢٣م - وكان فيلسوفا نابغا في الطب والموسيقى والغناء والكيمياء .. ولكن شهرته برزت اكثر في مجالي الطب والهندسة ..

وقد الف في حياته (٢٣١) كتابا منها - الحاوي في الطب - .. وكان الرازي يؤمن بالعلاج السريري .. حيث اصبح في فترة من فترات حياته مديرا لاحدى مستشفيات مدينة القاهرة بمصر .. وقام بطبع قسم من مؤلفاته ، وترجم بعضها الى اللغات الاجنبية . من المآسي التي مرت بهذا الرجل .. انه فقد بصره في اواخر ايام حياته ومات في بغداد ..

تمثال هذا العلم الرائد نفذه الفنان العراقي صالح القرهغولي عام ١٩٦٨ ، ويبلغ طوله (٦) امتار من الحجر الجبسي .. موقعه في متنزه المسبح .

● الفراهيدي :

● التمثال الخامس .. هو لعالم الفقه الشهير ابن البصرة الفيحاء الخليل بن احمد الفراهيدي ، الذي ولد عام ٧١٨م وتوفى فيها عام ٧٨٦م .. وقد عرف الفراهيدي اماما في الفقه والنحو .. وواضعا لعلم العروض ومؤسسا لعلم الاصوات ومخارج الحروف العربية .. ومؤلفا لاقدام معجم عربي - كتاب العين - .

كما يعتبر هذا العالم الجليل في طليعة من الف في النغم والايقاع اذ لا زالت اثاره مرجعا للباحثين .

تمثاله هو الاخر يقبع في متنزه المسبح انجز عام ١٩٦٨ من قبل الفنان ميران السعدي يبلغ ارتفاعه (٥) امتار ، وهو يرتكز على قاعدة كونكريتية .

ومن المفيد ان نشير الى ان مدينته البصرة قد اقامت له تمثالا اخر نصبته في احدي ساحاتها العامة قبل سنوات تخليدا لابنها البار .. عندها يكون الفراهيدي قد خلد بتمثالين الاول في بغداد والثاني في البصرة ..

● النصور :

● نعود مرة اخرى الى شوارع العاصمة وساحاتها .. وجولة اخرى لمعرفة ما موجود من آثار فنية فيها .. فهذه ساحة النصور قرب جسر (الخير) في الكرخ يتوسطها تمثال جميل عرف ايضا باسم « النصور » تحيط به الاشجار والزهور من كل جانب .. والنصور .. عند العراقيين الاقدمين تعني رمز القوة والجبروت .. وقد عبرت فكرة التمثال بطريقة المقصود منها ، اظهار التلاحم العربي بالشكل الواقعي المنشود .. فالوجه التي تبرز بين ثنايا هذا التمثال الدائري توضح الالتحام العربي .. اضافة الى النصور التي تمثل الجيل المعاصر واندفاعه الى امام بخطى ثابتة لتحقيق اهداف الامة .. يرتكز هذا النصب على قاعدة نصف كروية يبلغ ارتفاعها (٢) متر تعلوها كتلة حديدية يبلغ ارتفاعها (٥) امتار ، تمثل وجه رجل عربي ملثم ، اما الوجه الثاني ، فيمثل وجه فتاة عربية تعلوها مجموعة من النصور التي ترمز للجيل العربي الجديد ويعلو هذه النصور هلال ..

ازيح الستار عن نصب النصور عام ١٩٦٩ ، في نفس الساحة الحالية وهو من عمل ميران السعدي .

● الشاعر الكاظمي :

● اهتمت حكومة الثورة بالادب والادباء والشعراء وكرمتهم في اكثر من مجال .. ومن ذلك التكريم والرعاية المتواصلة لحملة الفكر .. تأسي مبادرة امانة العاصمة في اقامة نصب تذكاري كبير للشاعر العراقي عبدالمحسن الكاظمي في احدي الساحات الجميلة عند مدخل مدينة الكاظمية من جهة الكرخ ..

وللتعريف بهذا الشاعر الرائد .. نقول هو : عبدالمحسن بن محمد بن علي بن محسن الكاظمي ولد عام ١٨٦٦م في مدينة الكاظمية .. حيث نشأ وترعرع فيها ، بعدها هاجر الى مصر وبقي فيها حتى وفاته عام ١٩٣٥م - والكاظمي يلقب بشاعر العرب .. وهو شاعر غزير الانتاج .. وكان في طليعة الداعين الى وحدة واستقلال الامة العربية .. وكان لقصائده كبير الاثر في تحريك مشاعر الجماهير واثارتها بوجه المحتلين والغاصبين ..

من اهم اثاره .. ديوانه المعروف بـ (ديوان الكاظمي) .

وقد ازيح الستار عن هذا التمثال يوم

يبلغ طوله (٣٥٠) متر للفنان اسماعيل فتاح الترك .. وهو اول تمثال عراقي من البرونز يتم صب قوالبه في العراق .

● الجرار :

● منذ عام ١٩٧٢ .. انتصب نصب الجرار حيث يلاحظ ابن بغداد أو زائر المدينة عند وصوله الى ساحة المتحف مجموعة من الجرار الشعبية المرتكزة واحدة فوق الاخرى .. بشكل مخروطي بدیع .. حيث تتحول الجرة العليا الى نافورة من الماء تقذفه بالحوض الذي يحيط بالنصب ..

وهذا النصب الذي صنعه ميران السعدي يمثل فكرة قديمة لازمت حياة الاجداد الاقدمين اذ ان لهذه الجرار علاقة حياتية وثيقة بالفرد العراقي خلال معيشته اليومية ومنذ اقدم العصور وما زالت .

يرتفع النصب حوالي (٦) امتار .. وهو عبارة عن مجموعة جرار متلاصقة .. ولا بأس من الاشارة .. ان الاشجار التي تحيط بهذا النصب غطته اكثر من مرة حيث يجري تشذيبها بين آونة وأخرى ..

● كهروانة والاربعةين حرامي :

● هذا النصب الشامخ في شارع السعدون - ساحة علي بابا عند مفرق الكرادة .. حيث يروي حكاية الجارية كهروانة وعلي بابا والاربعةين حرامي .. انها حكاية الف ليلة وليلة التي ولدت في بغداد .. والنصب يجسد هذه الحكاية الشعبية او يروي جزءاً منها .

وكهروانة تلك المرأة الذكية التي استطاعت ان تكتشف الاربعةين حرامي المختبئين في الجرار .. وذلك بسكبها الزيت على رؤوس هؤلاء اللصوص الواحد تلو الآخر .. النصب مصنوع من مادة البرونز .. طول تمثال كهروانة (٣٢٠) متر اما الجرار فهي بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة .

ازيح الستار عن هذا النصب الجميل عام ١٩٧١ وهو من عمل النحات محمد غني حكمت .

● حمورابي .. ومسلاته :

● الملك البابلي القديم حمورابي ابن الرافدين .. هو اول مشرع للقوانين خلده الثورة ايضا بثلاثة انصاب احتلت لها مواقع متميزة في عاصمتنا الحبيبة ..

١٠/ نيسان/ ١٩٧٢ ضمن احتفالات القطر باليوبيل الفضي لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي ، وقد سميت الساحة التي تم فيها نصب التمثال باسمه ايضا تكريما له .. وهي الساحة الواقعة عند التقاء شارع الامام موسى الكاظم بشارع عبدالمحسن الكاظمي .. وقد حضرت حفل الافتتاح كريمة الشاعر السيدة رباب الكاظمي .. التي رافقت عملية صنع تمثال والدها .. حيث نفذه الفنان اسماعيل فتاح الترك .. ويبلغ طوله (٤) امتار وارتفاع قاعدته (٥) امتار ظهر فيه الكاظمي بملابسه التقليدية (الجبة والعمامة) وهو يلقي احدی قصائده ..

● الرصافي :

● الثورة التي كرمت الكاظمي .. كرمت مرة اخرى شاعرا عراقيا بارزا في تاريخ العراق الحديث .. الا وهو الشاعر المشهور المعروف الرصافي ذو المواقف الوطنية الصلبة بوجه الاستعمار واذنابه ..

والرصافي هو معروف بن عبدالفني البغدادي الرصافي .. ولد ببغداد عام ١٨٧٧م وتوفي فيها عام ١٩٤٥م وقبره الان في الاعظمية .. ولا مبالغة اذا ما قلنا ان الرصافي هو شاعر كبير لا تستغني عنه مكتبة الشعر العراقي والعربي مطلقا .. فقد نظم اروع القصائد في الاجتماع والحث على الثورة ورفض التسلط الاجنبي .

وقد ايد ثورة مابس / ١٩٤١ التي قادها المرحوم رشيد عالي الكيلاني .. ونظم العديد من اناشيدها .

وبعد فشل الثورة انتقل الى بغداد .. وعانى من شظف العيش ما عانى وبقي كذلك منزويا في بيته في الاعظمية حتى وفاته .. في ١٦ آذار ١٩٤٥

ومن اثار هذا الرجل .. ديوان شعر شهير يعرف بـ (ديوان الرصافي) .. وتخليدا لذكرى شاعر العراق الكبير معروف الرصافي .. فقد اقيم له هذا التمثال الكبير في واحدة من اهم ساحات العاصمة هي ساحة المأمون .. حيث انها تعتبر ملتقى لشارع الامين بشارع المأمون بشارع الرشيد .. ونظراً لشهرة الرصافي فقد طفي اسمه في السنوات الاخيرة على اسم الساحة .. حيث نسي الناس « المأمون » وعرفت باسم ساحة « الرصافي » ..

التمثال يمثل الرصافي واقفا بملابسه العصرية متطلعا نحو الامام .. ازيح الستار عنه عام ١٩٧٠

ففي شارع كرادة مريم و قبالة المجلس الوطني .. انتصب هذا الملك العظيم الذي اسهم بحكمته وذكائه وشدة بأسه في تكوين وإدارة اعظم امبراطورية عرفها تاريخ العراق القديم .. تلك هي دولة البابليين .

وحمورابي يعتبر المشرع الاول للقوانين التي بسطت نفوذها على الارض .. حيث نظمت حياة الافراد .. واشاعت العدل والنظام بين الناس .. وهذه القوانين تدل في جوهرها على التطور السريع في الفكر الانساني والقانوني والاجتماعي والسياسي ايام البابليين ان نصب الملك حمورابي ومسلاته .. بما يحمله من سمات فنية رائعة .. وما يعكسه من ادراك وحس متدقق ويجسد عظمة العطاء الذي منحه ثورة السابع عشر من تموز القومية الاشتراكية لتراث هذه الامة وابنائها المبدعين .. واعترافا صريحا بالحرية والعدالة التي تمنحها للمواطنين ، والرغبة الصادقة في الذود عنها وحمايتها ..

يبلغ طول تمثال حمورابي (٢٣٠ سم) فيما يبلغ طول القاعدة التي يستند اليها (٢٣٠ سم) وبمناسبة الذكرى الاولى لتأميم النفط فقد ازيح الستار عنه في الاول من حزيران عام ١٩٧٣ م وهو من عمل محمد غني حكمت .

● مسلة حمورابي :

● كما اقيم تمثال آخر لمسلة القوانين التي شرعها حمورابي .. فقد اقيم هذا التمثال الذي يجسد مسلة حمورابي المشهورة التي دونت عليها تلك القوانين والانظمة التي شرعها هذا الملك العظيم لكي يطلع عليها شعبه ويعمل بموجبها .. منها هذا النص :

« من احرق احدا احرقناه .. ومن قطع يدا قطعنا يده .. والعين بالعين والسن بالسن ، ومن يسرق من اموال الالهة يقتل .. ويقتل معه من تكون الاموال بحيازته .. » الخ من التفاصيل الاخرى .

وهذه المسلة تمثل جزءا من التراث العربي القديم ونموذجا رائعا لابداعات ابن الرافدين آنذاك .

ومعروف ان النسخة الاصلية من المسلة منحوتة من الحجر الاسود (اللديورايت) يبلغ ارتفاعها (٢٤٥ سم) وهي الان تقبع في متحف اللوفر بباريس .. سرقت في حينها من العراق موطنها الاصلي مع عشرات القطع والتحف الفنية والاثارية التي سرقها المستعمرون قبل قرن من الزمن .

وهي الان موزعة على اكبر المتاحف في العالم ولمسلة حمورابي الاصلية نسخة جسية مماثلة وضعت في المتحف العراقي ببغداد ..

ويشاهد في اعلى المسلة (التمثال) الاله « شمس » على عرشه وهو اله العدل والحكمة - بينما يقف حمورابي في حضرنه وقفة المتعبد .. ليستلم الشرائع المقدسة منه .

تتألف المسلة من (٤٤) بندا قانونيا .. وتقسم الى ثلاثة اقسام اولا المقدمة وثانيا المواد القانونية وهي (٢٨٢) مادة وثالثا الخاتمة .

والمسلة (التمثال) من نحت الفنان صالح القرهغولي وهي مصنوعة من البرونز وارتفاعها (٤٥) مترا .. وهي الان في ساحة قحطان السامرائي قرب جامع ام الطبول في الكرخ .

● مسلة اخرى :

● وما دام الحديث متواصلا عن حمورابي ومسلته وقوانينه .. فان نصبا اخر لمسلة حمورابي تم تشييده في متنزه الزوراء قبل (٥) سنوات وموقعها بالقرب من الجنائن المعلقة .. حيث انتصبت هذه المسلة على قاعدة رخامية زينت جدرانها بنصوص مختارة من شرائع حمورابي تتعلق بالزواج والدين والموت والحياة .. يحيط بقاعدة هذا النصب المرتفع نسبيا عن الارض (٤) تماثيل لاسود متوثة من الجهات الاربع طليت باللسون الاسود ..

● الفارس العربي :

● في الساحة المقابلة لمعرض بغداد الدولي .. انتصب تمثال الفارس العربي ، حيث ازيح الستار عنه يوم ١٩٧٢/٥/٩ ضمن احتفالات القطر باليوبيل الفضي لحزب البعث العربي الاشتراكي .

التمثال يجسد شغف العرب بالفروسية .. حيث اشتهر الفارس العربي بصفات الكرم والشهامة والشجاعة والبسالة .. ولا زالت تلك الصفات الحميدة متغلغلة في اعماق مجتمعا العربي منذ اقدم العصور .

يبلغ ارتفاع التمثال (٥) امتار .. ووزنه (٤) اطنان من البرونز .. حيث يمثل فارسا عربيا بملابس القتال شاهرا بيده السيف ، وهو على ظهر حصانه الذي رفع قوائمه الامامية الى الاعلى توثبا للقفز .. والتمثال من عمل الفنان ميران السعدي .

● عباس بن فرناس :

ويرمز بالاطباق الى يوم ٧ نيسان عيد ميلاد الحزب القائد .

هذا العمل العملاق (المسيرة) يمثل ملحمة تاريخية عريقة تمتد منذ اقدم الازمنة وحتى يومنا الحاضر ، حيث مسيرة الثورة المظفرة التي حولت القطر العراقي الى نموذج اصيل لخلق المستقبل الافضل من اجل الوصول الى المجتمع العربي الاشتراكي .

والنصب بمجموعة تماثيله الكثيرة يشكل كلمة (لا) كرمز دائم لرفض التسلط الاجنبي .. ورفض واقع التجزئة والتخلف .. يبلغ طوله (٩) امتار وعرضه (٣) امتار وهو من مادة البرونز والسمنت . وربما ازيح الستار عن هذا النصب في الفترة التي استغرقها نشر هذا الموضوع في هذا العدد الخاص من مجلة المورد الزاهرة عن مدينة بغداد .

● ابو نواس :

● عندما نذكر بغداد .. يتبادر الى الذهن « ابو نواس » شاعرنا الخمري المشهور الذي كرمته بغداد اليوم .. بتخصيصها لاسمه واحدا من اجمل شوارعها الرئيسية الذي يقع على شاطئ دجلة والذي يبدأ من جسر الجمهورية وينتهي عند الجسر المعلق في الكرادة الشرقية ويمتاز بمناظره السياحية الخلابة ولياليه النواسية الساحرة .. حيث ينتصب فيه ابو نواس تمثالا رائعا وسط حديقة غناء من حدائق هذا الشارع الطويل ..

وابو نواس هو الحسن بن هاني بن عبدالاول بن صباح الحكمي .. شاعر عراقي معروف ولد في الاحواز عام (٧٦٣م) وتوفي في بغداد عام (٨١٤) .. ونشأ في البصرة ثم رحل عنها الى بغداد .. وهو اول من اسس للشعر طريقته الحضرية .. واخرجه من اللهجة البدوية التي كانت سائدة آنذاك .. واشتهر هذا الشاعر بقصائده الخمرية الكثيرة التي بز بها كافة شعراء عصره وزمانه .

يظهر ابو نواس في هذا النصب الذي يقع في منتصف شارع .. وهو جالس على اريكة .. ماسكا بيده كأسا للشرب - بينما ارتدى زيا وعمامة تمثل الترف الاجتماعي الذي عاشه خلال معاصرته للخليفين العباسيين الرشيد والمأمون .. تمثال الشاعر من عمل الفنان اسماعيل فتاح الترك .. افتتح في ١٩٧٢/٩/٢٦ وقد اعتبر من اجود التماثيل التي انجزها هذا الفنان ..

يزن التمثال (طن ونصف الطن) من مادة

● ما دمنا في جانب الكرخ فلا بأس ان نخرج على شارع المطار الدولي .. وفي منتصف الطريق نلتقي مع اول عربي حاول الطيران بواسطة جناحين .. هو عباس بن فرناس هذا المخترع الاندلسي والفيلسوف الشاعر الذي عاش في عصر الخليفة الاموي عبدالرحمن الثاني في القرن التاسع للميلاد .. حيث استطاع من خلال ما يتمتع به من مواهب فكرية فائقة وقدرات عقلية نادرة ان يهب الحضارة العربية والاسلامية ائمن عطاء .. وكان من شدة طموحه وثقته بنفسه قد عمد الى الطيران رغم خطورة التجربة .. وعلى الرغم مما اصابه حيث ذهبت حياته ضحية لهذه المحاولة لكنها تبقى محاولة جريئة مهدت الطريق امام العلم لاختراق الفضاء والطيران والتحليق فيه ..

وابن فرناس يعتبر اذن اول طيار عربي .. ولاشك انه اصبح رائدا من رواد الطيران .. والذي لا يمكن نسيانه أو تجاوزه على مر العصور .

يزن تمثاله حوالي (٦) اطنان بارتفاع (٦) امتار .. اما فتحة الجناحين ، فيبلغ طولهما حوالي (١٠) امتار .. وتم نصب التمثال فوق قلعة من الحجر ذات جدارين بارتفاع (٧) امتار ، نفذه الفنان العراقي بدري السامرائي ، وافتتح في الاول من كانون الاول ١٩٧٢ .. لمناسبة انعقاد الدورة الحادية عشرة لمؤتمر الطيران المدني للدول العربية في بغداد .

● « المسيرة » النصب العملاق :

● لعل آخر نصب تم نصبه في شوارع العاصمة النصب الكبير الذي انجزه الفنان خالد الرحال (المسيرة) الذي مضى على البدء به حوالي الخمسة سنوات تقريبا .

والنصب يمثل مسيرة شعبنا منذ اقدم العصور ، وحتى قيام ثورة ١٧ تموز القومية الاشتراكية .. حيث يضم النصب مجموعة من التماثيل المتداخلة التي تتخذ في النهاية شكل ملحمة تظهر فيها بداية الحضارة في بلاد وادي الرافدين والتطورات التي طرأت عليها عبر مراحل الزمن .. من هذه التماثيل المتداخلة شخوص مثل (كلكاش .. عشتروت .. البراق ..) ورموز تاريخية متوجة بانتصارات الفلاح واندحار الاقطاع .. ثم الانجازات الهائلة التي حققها حزب البعث العربي الاشتراكي .

قاعدة النصب التي ضمتها ساحة المتحف في الكرخ .. فهي تشبه سفينة ذات سبعة اطباق

تتوسطه نافورة تقذف المياه الى الاعلى بارتفاع (٨) امتار ..

تحيط بهذا الحوض (٩) تماثيل من الجبس تجسد الالعاب الرياضية المختلفة مثل (كرة المضرب .. الطائرة .. رمي الرمح .. رمي القرص) وغيرها من الممارسات الرياضية الاخرى قام بعملها الفنان ميران السعدي .

● وعلى ذكر التماثيل الرياضية .. فان مجموعة اخرى من هذه التماثيل المشابهة التي تم نصبها في ابي نواس .. انتصبت في بداية شارع كورنيش الاعظمية في الساحة القريبة من بناية المتحف العسكري .. حيث توسط هذه التماثيل نصب صغير ايضا للملوية سامراء .. ازدانت اركانه بالاضوية الملونة ..

● وفي باب ملعب الكشافة الرياضي في الكرة انتصبت تماثيل شامخ لاحد لاعبي كرة القدم المشهورين في قطرنا .. والذي عرفته الملاعب والمبارات الرياضية الدولية والمحلية بقدرته الفائقة وفنونه في هذا المجال انه تماثيل اللاعب الشعبي « جمولي » جميل عباس .. الذي تقاعد عن الرياضة منذ سنوات .. حيث اصبح هذا التماثيل المصنوع من مادة البرونز والمركز على قاعدة طولية .. رمزا لتخليد وتكريم هذا الرياضي من قبل وطنه وجمهوره الرياضي .

● وعلى ذكر الرياضة والرياضيين .. فان ساحة الطلائع التي تقع في بداية جسر باب المعظم (جسر ١٧ تموز) من جهة الكرخ ، قد ضمت هي الاخرى (٦) تماثيل لعدد من الرياضيين والرياضيات في مجال رمي القرص .. والرمح .. وغيرها ..

● وفي باب نادي الصيد في المنصور .. نصب صغير لصياد هو وكلبه متوثبين لقنص صيدهما في الصحراء ..

● تماثيل في « الزوراء » :

● المتنزه الجميل الذي يشع بالخضرة والمطر والضياء .. « الزوراء » الذي يعتبر رئة تنفس منها بغداد وزوارها .. في هذا المرج الاخضر .. شمخت في كل زاوية منه العديد من الانصاب والتماثيل والحدائق الجميلة البديعة اضافة الى عشرات النافورات والبحيرات الصناعية التي امتاز بها هذا المتنزه الكبير .. ومن تلك التماثيل :

البرونز ، ويبلغ ارتفاعه (٢٥) متر فيما يبلغ ارتفاع قاعدته المرمية حوالي الـ (٢) متر .. والتي احتوت على ثلاث لوحات برونزية جدارية لتضفي على جوانب التماثيل اشراقا .. وهي تمثل مراحل حياة ابي نواس .. والذي تحول نصبه في هذه الايام الى ملتقى الاحبة والخلان .. ومكانا لتجديد الذكريات وتسجيلها بالصور الفوتوغرافية .

● شهر يار وشهر زاد :

● حكايات « الف ليلة وليلة » ترعرعت واشتهرت في بغداد .. حيث تقول الاسطورة : ان الملك شهر يار كان يقتل كل ليلة فتاة عذراء .. وهو اذ يفعل هذا العمل فانه ينتقم من خيانة زوجته له .. ولما عجز وزيره عن ايجاد الفتاة المناسبة التي تليق كزوجة لهذا الملك .. وامام حيرة والدها تطوعت ابنة الوزير « شهر زاد » للزواج من شهر يار الملك ولتثنيه من فعله المتكرر الذي ذهبت ضحيته عشرات الفتيات البريئات من بغداد ..

ولما اصبحت « شهر زاد » في عصمة « شهر يار » اخذت تسليه بان تقص عليه في كل ليلة حكاية جديدة تقطع نهايته عند فصل مشوق لها علاقة بحكاية اليوم التالي .. حيث « تسكت شهر زاد عن الكلام المباح .. بعد ان يدركها الصباح .. » وهذه هي قصة الف ليلة وليلة الحقيقية وباختصار .

التماثيل الذي انتصب ايضا في حدائق كورنيش ابي نواس يخلد هذه الاسطورة الشعبية .. وقد اضفى (الصوت والضوء) من حول التماثيل رونقا جديدا لم يعهده اي نصب آخر في بغداد من قبل .. حيث تروي للزوار بعض قصص الف ليلة وليلة .. ارتفاع التماثيل (٤) امتار و (٣٠سم) ، ويبلغ طول تماثيل (شهر يار) (٤) امتار وارتفاعه (٣) امتار حيث يشاهد الملك جالسا ومستمتعا بحكايات شهر زاد بينما وقفت هي بين يديه تقص حكاياتها المشوقة .. يرتكز التماثيلان فوق (٧) مدرجات من الحجر بارتفاع مترين .

نقذه الفنان محمد غني حكمت .. وافتتح يوم ١٩/٥/١٩٧٥ في موقعه الحالي على شاطئ دجلة قرب مرسى الزوارق .

● تماثيل رياضية :

● ونحن ما زلنا في شارع ابي نواس .. وقبالة وكالة الانباء العراقية .. انشء قبل (٣) سنوات حوض كبير على شكل هندسي رائع ،

● الواسطي :

أزبح الستار عنه عام ١٩٧٥ .. بمناسبة مهرجان الفارابي الذي انعقد ببغداد في تلك السنة ..

نفذه الفنان اسماعيل فتاح الترك .. ويبلغ طول الفارابي فيه (٢٧٥٠) متر وارتفاع قاعدته (١٦٠) متر .

● المرأة العربية :

● من التماثيل الأخرى التي يضمها هذا المتنزه .. تمثال المرأة العربية الذي يصور امرأة عربية تحمل أكليلا من الزهور لتقدمه هدية الى الجيل الجديد .. جيل المستقبل وصانعي الحياة .. ودلالة هذا التمثال تنطوي على تكريم قيادة الحزب والثورة للمرأة واحترام دورها في عملية البناء والتحول الاشتراكي في قطرنا العراقي المناضل .

حيث انتصب هذا التمثال الجميل الذي ابدعه الفنان العراقي نداء كاظم عام ١٩٧١ .. ويبلغ ارتفاعه ثلاثة امتار والتمثال يستقر فوق قاعدة عمودية وسط حوض ماء تتدفق منه المياه عبر نافورات جميلة ..

● حاملات الجرار :

● حيث المجمع الاندلسي وسط الزوراء .. انتصبت (٤) (كازينوات) سياحية جميلة شيدت على طريقة الطراز الاسلامي الاندلسي .. يفصل بين كل اثنين منهما جدول صغير تجري فيه المياه سمي بالنهر العباسي تخليدا لواحد من انهر بغداد القديمة وهذه الكازينوات هي (اشبيلية ، قرطبة ، طليطلة ، غرناطة) حيث انتصبت في الحديقة الغناء المواجهة لهذا المجمع (٤) تماثيل لنساء قرويات يحملن الماء .. وهذه الجرار صنعت على شكل نافورات يتدفق منها الماء حيث البحيرة الصغيرة التي انتصبت عليها هذه التماثيل الاربعة التي تشكل مجموعة فنية متكاملة ، ذات ميزة ترائية عريقة .. وتوسط البحيرة نافورة مثمثة الاضلاع ترتفع مترا ونصف المتر ويبلغ قطرها (٢٠) مترا .

ازبح الستار عن هذه التماثيل التي صنعها الفنان ميران السعدي ، عام ١٩٧٥ حيث اضى على هذه التماثيل مسحة فنية ساحرة خاصة لوجوه هؤلاء النسوة الاربعة واجسامهن وملابسهن القروية البسيطة .

● هو يحيى بن محمد الواسطي ، الفنان ، الرسام ، الخطاط .. الذي اشتهر بتزويقه لمقامات الحريري التي ذاع صيتها في الادب العربي منذ القرن السابع للهجرة .. القرن الثالث عشر الميلادي .. اذ يروي الحريري قصصه باسم الحارث بن همام وهي تشمل نوادر ابي زيد السروجي .

ويعتبر الواسطي فنان عصره .. حيث اصبحت له مدرسة خاصة في الرسم العربي لاقت نجاحات عديدة .. وجسد حياة مجتمعه انذاك خير تجسيد ، وظلت اعماله خالدة الى يومنا هذا .

والادوات التي استخدمها الواسطي في رسوم الحريري ، وغيرها من الاعمال الاخرى فهي ما زالت محفوظة الان في المكتبة الوطنية بباريس .

يوضح التمثال الذي انجزه اسماعيل فتاح الترك .. يحيى الواسطي جالسا على مقعد ويده مخطوطة مقامات الحريري الشهيرة ..

والتمثال اقيم عام ١٩٧٢ في متنزه (الزوراء) بمناسبة مهرجان الواسطي الذي عقد في بغداد انذاك .. وهو مصنوع من البرونز ويبلغ ارتفاعه (٢) و (٣٠) سم .

● ومن المناسب ان نشير ان هناك تمثالا للواسطي في مدخل الاكاديمية الفنون الجميلة في الوزارة (من داخل بناية الاكاديمية) .. صنع من الجبس الابيض صنعه طلاب الاكاديمية قسم النحت ووضعوه في مدخل كليتهم تخليدا لهذا الرائد العربي الفنان في مجال الرسم ..

● الفارابي

● ونحن ما زلنا نتجول في « الزوراء » وبالقرب من تمثال الواسطي .. ونحن متجهين الى منطقة المتاحف وخيمة الشعر .. لابد ان يلفت نظرنا الفارابي الفيلسوف الذي يعد من اعظم فلاسفة العرب والمسلمين .. ولقبه المعلم الثاني .. باعتبار ان (ارسطو طاليس) كان يعرف بالمعلم الاول .. !!

وللفارابي مؤلفات عديدة .. لا تعد ولا تحصى في الفلسفة والمنطق والموسيقى وغيرها من الموضوعات ..

في النصب يظهر الفارابي جالسا على اريكة وبين يديه كتاب ، وبجانبه آلة العود الموسيقية ..

● مراحل الحياة :

● وانت تدخل الزوراء من باب ساحة حلب وتسير قليلا حيث تدلف يسارا وعلى يمين الشارع ، وبالقرب من متحف التاريخ الطبيعي ، انتصبت (٥) تماثيل صنعت من مادة الجبس الابيض .. وانتصبت على قاعدته مرتفعة نوعما .

هذه التماثيل التي نحتها ميران السعدي ايضا تمثل مراحل حياة الانسان منذ ولادته وحتى شيخوخته ، بدأ من مرحلة الولادة .. ثم مرحلة التلمذة والتعلم ، .. ومرحلة الشباب ثم مرحلة الزواج والانجاب ، واخير مرحلة الشيخوخة ونهاية العمر ... كانت شخوص هذه التماثيل تمثل المرأة والرجل والطفل .

● العربة الاشورية .. ومنطقة المتاحف :

● وفي منطقة المتاحف في هذه الجنيحة الفسيحة .. حيث يقبع متحف السيارات الملكية القديمة .. والبيت البغدادي الذي بني على طراز بيوت بغداد القديمة وخيمة الشعر التي تطل على بحيرة كبيرة تحوي صنوفا عديدة من الاسماك العراقية الاصيل ، ونصب على جانبها الثاني احد نواعير الفرات والتي تشتهر في مناطق اعالي الفرات (هيت وعنه) .. وفي جانب آخر اقيم المضيف العربي المشهور في احوار الجنوب - حيث رابطت بجانبه العديد من (المشاحيف) والزوارق النهرية .. وكذلك ابراج الحمام والبلابل .. وغيرها من المرافق السياحية الممتعة التي يعج بها هذا البستان البغدادي (متنزه الزوراء) .

● بالقرب من بيت الفنانين .. حيث انتصب تماثيل « العربة الاشورية » التي يظهر فيها الملك الاشوري (اشور بانيبال) .. حيث اشتهرت هذه العربة ايامهم وفي عاصمتهم العتيدة نينوى ..

● بالقرب من تماثيل العربة الاشورية ، وفي الشارع المؤدي الى « الجنائن المعلقة » انتصبت على جانبي الشارع عشرات التماثيل الجميلة لعدد من انواع الطيور البرية الكبيرة وبوضعية مختلفة .. مثل الصقر .. العقاب .. الفراب .. البوم وغيرها .

● وعلى مقربة من هذا الشارع نصب تماثيل صغير لرأس ثور يقذف الماء من فمه .. وهذا النصب واحد من مجموعة انصاب ابراج الحظ .. حيث ستقام انصاب اخرى للجوزاء والميزان والجدي وغيرها في المستقبل .

● وخلف خيمة الشعر بامطار معدودة وعلى

مرتفع ترابي ، تقع مجموعة من النافورات التي هي عبارة عن مجموعة من التماثيل لعدد من الحيوانات البرية مثل : الاسد ولبوة الاسد ، والدب ، وكلب البحر ، والقط الوحشي وغيرها من الحيوانات الاخرى .. حيث يندفع الماء من افواهها بقوة حيث تتجمع في حوض متدرج ذي سواق متعرجة تحيط به شتلات وسنادين الورد من كل جانب ..

عام ١٩٧٧م تم نصب هذه المجموعة من التماثيل التي نفدها عدد من طلاب وطالبات معهد الفنون الجميلة بطلب من امانة العاصمة .

● تماثيل اخرى في الزوراء :

● ومن التماثيل الاخرى التي تضمها « الزوراء » تماثيل لاسدين ينتصبان في مدخل حديقة الحيوانات .

وتماثل آخر للفارس العربي (عنتربن شداد) المعروف ببطولاته واشعاره الحماسية .. اذ كان التماثل الذي صنعه ميران السعدي في بداية السبعينات ينتصب في ساحة عنتربن في الاعظمية .. بعدها نقل الى متنزه الزوراء واستقر في منطقة مخصصة للاعب الاطفال .

وفي المتنزه ايضا هناك نصب آخر يدعى (الحضارة) لعبد الكريم القرغولي والذي نقل هو الآخر من ساحة الجمهورية في الباب المعظم الى الزوراء ..

ونصب برونزي غريب الشكل اطلق عليه اسم (فتاتان) للفنان نداء كاظم يقبع في الحديقة المحصورة بين ساعة الزهور واذاعة الزوراء ..

وهناك مجموعة من التماثيل الصغيرة التي نصبت في بحيرة الزوراء .. وهي تمثل حورية البحر .. والجاموس .. وغيرها من الاشكال الفنية الاخرى .

● انصاب وتماثيل متفرقة :

● ولغرض الالام بمعظم الانصاب والتماثيل التي تضمها بغداد .. خاصة تلك الانصاب غير المعروفة او غير المهمة .. فهناك في جانب الجدار الخارجي لمتنزه الزوراء في شارع دمشق بادر معهد الفنون الجميلة الى نصب العديد من التماثيل التي انتجها طلاب المعهد في ربيع عام ١٩٧٩ .. وذلك لتجميل الشارع .. وهذه التماثيل التي صنعت

من الجبس الأبيض تمثل الطلائع .. والمرأة والثورة العربية والمستقبل .. وانتصار الخير على الشر وغيرها .

● وفي حدائق المعهد وقاعاته انتصبت عشرات التماثيل الكبيرة والصغيرة وهي من انتاجات طلابه .. حيث ظلت هذه التماثيل منتصبة هناك وما زالت حتى ضاقت بها حدائق المعهد .. وكذلك الحال في بناية اكااديمية الفنون الجميلة التي تضم هي الاخرى مجموعة كبيرة من التماثيل من انتاج الطلبة ايضا .. لعل ابرزها تمثال « الواسطي » الرسام المعروف الذي تحدثنا عنه قبل قليل .

● هناك عدة تماثيل تضمها اروقة وقاعات المتحف الوطني للفن الحديث اكثرها بين (نصفي او راسي) لعدد من مشاهير الفن والادب في قطرنا

● وفي منزله ١٤ تموز في الكاظمية قرب جسر الائمة .. هناك نصب شahuq متكون من جداريتين متلاصقتين ذات ارتفاع عال .. كتب في اعلى وجهتي هاتين الجدارتين المصنوعتين من الموزائيك عبارة (١٤ تموز ١٩٥٨) اشارة الى تخليد الثورة المذكورة .

● وبالقرب من المتحف العراقي في الصالحية ينتصب (اسد بابل) رمزا للشموخ .. وكذلك انتصب تمثال آخر لملك آشوري ..

● ولا يفوتنا ونحن في هذا الاستعراض ان نذكر ان المتحفين العسكري التابع لوزارة الدفاع والازياء والمآثورات الشعبية في السنك تضم قاعات العرض فيهما مجموعة من التماثيل التاريخية التي تمثل مراحل من تاريخ العراق الحديث ..

● بينما ضم المتحف البغدادي التابع لامانة العاصمة عشرات التماثيل التي تجسد حياة البغداديين وطقوسهم اليومية في الزمن الغابر .. حيث غدى هذا المتحف مكانا ترويحيا وسياحيا معروفا في بغداد وبفضل ما يضمه من هذه التماثيل الشعبية .. !!

● تماثيل في الطريق :

● في مصر البرونز يجري العمل حاليا لانجاز تمثال كبير لمؤسس مدينة بغداد (الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور) حينها يكون للمنصور ثلاثة تماثيل في مدينته بغداد .

● بينما العمل يتواصل لاكمال تمثال الخليفة - العباسي (هرون الرشيد) الذي عاشت بغداد

في أيامه عصرها الذهبي ومجدها التليد ونهضتها العمرانية والحضارية .. هذين التمثالين يضطلع بعملهما الفنان النحات خالد الرحال .

● هناك نصب آخر يصنع حاليا في ايطاليا .. يمثل شخصية (السندباد البحري) وحكاياته وسفرائه الطريفة التي تتعلق بمغامراته ورحلاته الخطيرة التي انطلق فيها من بغداد حيث جاب ارجاء المعمورة .. وسينصب هذا العمل بعد اكماله في عرض نهر دجلة في مكان بارز يمكن مشاهدته ..

● « نبوخذنصر » حامي الحدود :

● لعل ابرز التماثيل التي ستنصب مستقبلا في بغداد ، وتنفيذا لتوجيهات السيد الرئيس المناضل صدام حسين ، تمثال كبير للملك البابلي (نبوخذنصر) الذي تربع على عرش مملكة بابل في الاول من شهر ايلول عام ٦٠٤ ق.م ، واستمر حكمه (٤٣) عاما قضاها بالحروب والعمران حيث حرر هذا الملك العراقي الاراضي السورية والفلسطينية اكثر من مرة وخلصها من ايدي الغزاة والاحتلين الاجانب .

ويعني اسم (نبوخذنصر) (الاله تايو) اي حامي الحدود ..

يتولى انجاز هذا التمثال المهم الفنان خالد الرحال - الذي ينهمك حاليا في دراسة ملامح شخصية هذا الملك العملاق ، وتحديد الفترة الزمنية التي حكم بها ، والانجازات الكبيرة التي حققها لملكه بابل العظيمة ، والانتصارات الباهرة التي احرزها على اعدائه .

● جداريات بغداد :

● وقبل ان نختم هذا البحث الفني التاريخي عن الانصاب والتماثيل في بغداد ، لابد لنا من تعريف المواطن بعدد من الجداريات الفنية الجميلة التي تشكل هي الاخرى مظهرا جماليا وسياحيا رائعا في عاصمتنا بغداد الحبيبة ..

● جدارية « فائق حسن » :

● في عام ١٩٦٠، تعرفت بغداد لأول مرة على هذا الفن واعني به (الجداريات) . حيث انتصبت في ساحة الطيران وفي مؤخرة حديقة الامة جدارية جميلة من عمل الفنان العراقي فائق حسن وتعتبر اول عمل جداري يقام في العاصمة ..

يبلغ طول الجدارية (١٠) امتار وعرض ارضها (٤) امتار ، وهي مصنوعة من الموزائيك الملون وفي

من نص قرار التأميم الخالد الصادر من مجلس قيادة الثورة والذي اعلنه الاب القائد عشية يوم الاول من حزيران .. مكتوب بالخط الكوفي البارز الرسوم على الموزائيك نفذه الخطاط العراقي الدكتور سلمان الخطاط .

ولا بد من الاشارة الى ان هذه الجدارية ، وقبل ان تستقر في مكانها الحالي سبق لها ان شاركت في معرض الحزب الذي اقيم لمناسبة الذكرى السابعة والعشرين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٧٤ .

تنصب الجدارية على قاعدة دائرية الشكل بارتفاع متر واحد .. اما ارتفاع الجدارية فيبلغ (١٤) مترا اما عرضها فيبلغ (١٢) مترا و (٦٠) سم وهي من الموزائيك الملون .

● جدارية القادسية :

● على جانبي باب « القادسية » في متنزه الزوراء المواجه لشارع الزيتون .. انتصبت جداريتان من صنع الفنان غازي السعودي في بداية عام ١٩٧٨ ، تمثلان معركة القادسية الشهيرة التي تم النصر فيها للجيش العربي بقيادة سعد بن ابي وقاص ، على الجيش الفارسي .. وعلى اثرها تم تحرير العراق من الحكم الاجنبي .

تصور الجدارية الاولى ، الجيش العربي .. والثانية الجيش الفارسي .. وقد بذل الفنان السعودي جهودا بارعة في تجسيد احداث هذه المعركة الفاصلة في التاريخ العربي .

● « بانورما » القادسية في المدائن :

● ما دمنا نتحدث عن معركة القادسية المشهورة .. لابد ان نعرف شيئا موجزا عن موقع « القادسية » التي حدثت فيه تلك المعركة .. فهي في موقع في الصحراء المحيطة بمدينة النجف الاشرف .. والوصول اليها اما عن طريق بحر النجف او عن طريق مدينة ابي صخير التي تقع بالقرب منها اطلال مدينة الحيرة عاصمة دولة المناذرة العبرية . وبالبسيط فان موقع المعركة الان في وسط الصحراء قرب ناحية (الرحبة) ويمكن الوصول اليها عن طريق الحج البري الذي يربط العراق بالسعودية .

● العمل الكبير الذي تتولى انجازه حاليا امانة العاصمة هو انشاء رابع (بانوما) في العالم وهي بانورما القادسية التي يجري العمل فيها في منطقة المدائن (سلمان باك) قبالة طاق كسرى .

اسفلها نصبت العديد من النافورات الملونة تحيط بحوض من الماء .. حيث تحيل الازوية الملونة السلطة على الجدارية ليلا الى آية من السحر والجمال .

● جدارية بغداد قديما وحديثا :

● هذه الجدارية عبارة عن لوحين الاولى تكمل الثانية تنتصبان في باب ساحة « حلب » عند مدخل متنزه الزوراء من جهة الباب الشرقي صنعهما الفنان العراقي غازي السعودي عام ١٩٧١ .

تمثل الاولى نماذج رائعة للمعمار البغدادي القديم والحديث ، مثل بنايات الجوامع والكنائس والقباب والمناظر البغدادية ، اضافة الى البنايات الحديثة الاخرى .. فيما تمثل الجدارية الثانية المقهى والجالفي البغدادي ، وشارع ابي نؤاس ، وصيادي الاسماك ، وطريقة « السمك المسكوف » المشهورة في بغداد .. حيث تظهر في الجدارية فرقة للموسيقى الشعبية التي تعزف في حفلات الاعراس والختان الشعبية ..

يبلغ طول كل جدارية (١٠) امتار والارتفاع مترا واحدا .. وصنعت من مادة الموزائيك الملون .. وهي اول جدارية موزائيك تصمم وتنفذ داخل القطر .

● جدارية التأميم :

● انتصار التأميم العظيم والاعلان التاريخي الذي بشر به الاب المناضل احمد حسن البكر في الاول من حزيران عام ١٩٧٢ .. جسده جدارية كبيرة انتصبت في شارع المطار الدولي عام ١٩٧٧ .

الجدارية تروي تاريخ العراق قديما وحديثا منذ عهد السومريين والاشوريين والاكديين ، وحتى الفترة المعاصرة ..

وهي تعتبر من اكبر الجداريات في الوطن العربي .. ويعود كبير حجمها الى عظمة قرار التأميم الخالد وسيطرة الشعب على ثرواته النفطية التي كانت نهبا مشاعا للشركات الاحتكارية .

وجه الجدارية الاول المقابل لمدينة بغداد ، نفذه الفنان العراقي نزار الهنداوي .. وفيه تظهر جماهير الشعب وهي تعلن فرحها بالحلم الاتي على شكل طير في السماء .. وهذا الطير يرمز الى حلم التأميم والانتصار العظيم ، حيث بذل فيها الفنان الهنداوي جهودا كبيرة .

اما الوجه الثاني للجدارية فقد تضمن مقاطع

● خاتمة المطاف :

● من هذا يتضح ان بغداد اليوم في زمن الثورة الزاهرة .. أصبحت بالفعل مزرعة خصبة للتماثيل والانصاب التذكارية .. وهي دليل جميل وعرفان لتاريخ هذه المدينة العظيمة ولابنائها من الشعراء والادباء والمؤرخين ورجال السياسة والمجتمع .. كذلك غدت هذه الانصاب مصدر تقييم وتكريم لحضارات وادي الرافدين القديمة والعريقة والفنية بوافر عطاءاتها الفكرية والحضارية والثقافية منذ فجر السلاسل البشرية .. باعتبار ان ارض الرافدين مهد البشرية الاولى .

● في خاتمة هذا المطاف .. لا يفوتني الاعتذار عن الهفوات التي ربما وردت في هذا المقال .. او نسيان بعض التماثيل والانصاب الاخرى التي فاتني ذكرها في هذا العرض السريع .. وامل ان يبادر ذوو الاختصاص في هذا الجانب الحضاري المتع واغنائه بما يستحق من مكانة فنية وجمالية وتاريخية تتوافق والمكانة العظيمة التي تحتلها عروس الرافدين الحبيبة بغداد عاصمة قطرنا العراقي المناضل وامل كل العرب في كل مكان .. والله الموفق وبه نستعين .



● مصادر المقال :

- ١ - كراس (من اجل بغداد اجمل - التماثيل والانصاب) اعداد فاروق بطرس اصدار امانة العاصمة .
- ٢ - ارشيف امانة العاصمة من الصحف والمجلات العراقية (اضمارة النصب والتماثيل) .
- ٣ - اعداد من مجلة امانة العاصمة للاعوام ١٩٧٧ و ١٩٧٨ .

وهي عبارة عن بناية كبيرة على شكل (زقورة) قاعدتها السفلى (٢٥٠٠) متر مربع وقاعدتها العليا (١٦٠٠) متر مربع ، حيث تضم هذه البناية من الداخل شاشة دائرية (البانورما) حيث ستجسد هذه الشاشة معركة القادسية ، بشكل تفصيلي يشبه الفلم السينمائي (الصوت والصورة) وتمثل عظمة وانتصار العرب على اعدائهم بقيادة القائد العربي سعد بن ابي وقاص زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عام (٢٢) هجرية ..

وتضم كذلك بناية البانورما متحفا عسكريا تعرض فيه ابرز الاسلحة المستعملة في تلك الحقبة التاريخية من الزمن .. اضافة الى الملحقات الخدمية الاخرى باعتبار ان هذا المرفق واحدا من اكبر المرافق السياحية والتاريخية في القطر .

وكما قلت فان هذا المشروع العراقي هو رابع مشروع من نوعه في العالم حيث سبقتنا في هذا المجال اربعة دول . وهي تمثل وقائع ومعارك تاريخية معروفة في تلك البلدان سجلت شعوبها فيها انتصارات عظيمة على الاعداء فاستحققت هذا التخليد والتبجيل .

● بدء العمل في مشروع بانورما القادسية عام ١٩٧٥ .. ومن المؤمل الانتهاء منه عام ١٩٨٠ .. ويعمل على تنفيذ رسم تفاصيل المعركة عدد من الفنانين الكوريين الذين سبق لهم خوض مثل هذه التجربة ..

ومما لا شك فيه ان هذا النصب العملاق سيضفي على منطقة المدائن ذات الآثار والشواهد العريقة ، موقعا سياحيا جديدا ، لما يمثله هذا الاثر الكبير من خصائص تاريخية واثارية وترفيهية لكل المواطنين الذين يؤمون هذه المنطقة السياحية المعروفة ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَكَاذِبُهَا الرَّبُّ الْكَذِبُ يُفَوِّقُ الْعَرَبَ عَلَى الْيُونَانِ فِي مَجَارِ الْطَبِّ

بقلم الدكتور

خليل مبارك

الجامعة اللبنانية - بيروت

يعرفون التخدير ، ويجرون العمليات الصعبة ، والعرب اول من جعل احتراف الطب ، تابعا لامتحان ، واول من افتتح الصيدليات المجانية . وهكذا وفق علم الامراض العربي ، ان يتعدى حدود العلم الاغريقي ، ويسبق في فتوحاته ، ما جاء بعد جالينوس نفسه ، الذي وان اشتهر بتحليلات رائعة صائبة ، الا انه صرف طاقاته الجبارة في تسخير الحقائق لخدمة نظرياته وصبها في بنائه الضخم مهما كان السبب .

حتى جاء الرازي ، فعلم العرب التفكير الطلق والنظر الحر ، فرسالته عن الحصبة والجذري ، ظلت المرجع الاول والآخر في اوربا ، حتى القرن الثامن عشر . ثم فرق مرض النقرس عن الروماتيزم وكان ابن سينا اول من وضع تشخيصا دقيقا عن التهاب الاضلاع ، والرئة وخراج الكبد ، ثم فرق بين الالتهاب الرئوي والبلوري ، وبين التهاب السحايا الحاد والثانوي ، وبين عوارض المفص المعوي والمفص الكلوي ، وتعرض لشلل الوجه واسبابه ، ففرق بين الشلل الناتج عن سبب مركزي في الدماغ والناتج عن سبب محلي ، ووصف تشعب الاعصاب في القفص الصدري ، ومن المعروف ان الاغريق قد عالجوا الشلل بوسائل حارة ، فجاء العربي ابن بشر وادخل كعلاج للشلل ، الادوية المبردة وعنصر الماء الرطب وحقق به نجاحا هائلا ، ووضع حدا لاستعمال الوسائل الحارة ، وعالج مرضاه بماء الشعير وبغيره من النباتات .

ويدرس علم الطب لابن زهر باول تشخيص سريري لالتهاب الالهاب (الجلد الخام) الوسطي

كانت بغداد في العصور العباسية ، مدينة الطب والاطباء ، يرنو اليها العربي والاعجمي ، على حد سواء ، ان لجهة الاختصاص في هذا الميدان ، وان لجهة طلب الشفاء من مرض عضال ، اما النهضة الطبية الرائدة ، فان هذه المدينة الخالدة حملت اعباءها حقبة طويلة من الزمن ، حتى تجاوزت الطب اليوناني اشواطا بعيدة .

فهارون الرشيد اول من شجع ترجمة كتب اليونان الطبية ، وكانت مجموعته في هذا الميدان ، مقتطفات من كتب اخبار اليونان ، ولاسيما جالينوس ثم ترجمت كتب ابوقراط وسواه ، ولقد عمل العرب على تنمية تلك العلوم ، وقد بلغ العلم العربي قمة عصره الذهبي بين القرن الثامن والتاسع ، وكان مركزه الاساسي ، بغداد .

ولقد اشتهر من الخلفاء العباسيين ، المنصور والمأمون بحبهما للتوسع العلمي بحيث اولع هذان الخليفتان بالعلوم اليونانية ، فاشترى مخطوطات كثيرة ، من يونانية وغيرها ، وحفظها في « بيت الحكمة » وامرا بترجمتها الى العربية .

فالطب العربي ، بفضل مدينة بغداد خاصة ، وبعض الحواضر العربية عامة ، سبق الطب الغربي بمئات السنين . . وكانت في بغداد والبصرة والكوفة ودمشق وقرطبة مدارس جامعة ، يقصدها الطلاب من الشرق والغرب ، ويتفق العلماء ، على ان العرب بلغوا شأوا فاقوا فيه اليونانيين بكثير . فدرسوا علم وظائف الاعضاء ، وعلم الصحة وكانت طرق طبهم العلمية ، نظير طرقنا الحاضرة ، ولا نزال حتى اليوم نستعمل كثيرا من ادويتهم وكان جراحوهم

وقد درس ابو القاسم علاج تشويهاات الفك . ونجح في عملية شق القصبه الهوائية ، وقد اجري هذه العملية على خامة . ووفق ايضا في ايقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة محسناً بذلك عملياته الجراحية ، ومسهلاً بقطع الاعضاء ، وهو فتح علمي كبير حققه وعلمه ابو القاسم العربي ، كما انه علم تلامذته كيفية تخطيط الجروح بشكل داخلي لا يترك شيئاً مريضاً منها ، والتدريز الثمن في جراحات البطن ، وكيفية التخطيط بآبارتين وخيط واحد مثبت بهما ، واستعمل الخيطان المستمدة من امعاء القطط في جراحات الامعاء ، وهو اول من اوصى في كل العمليات الجراحية في النصف السفلي من الانسان ، ان يرفع الحوض والارجل قبل كل شيء . وهذا الجراح العربي هو اول من اوجد طريقة فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة ، واعد الجراحين واطباء العيون والانسان ، بالالات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي وضعها .

اما في طب العيون ، فقد بلغ العرب شأوا عظيماً ، تفوقوا فيه على اليونان واول كتاب في هذا الموضوع كان كتاب اسحق بن حنين (العشر مقالات عن العين) وقد بقي مع مؤلفات علي بن عيسى وعمار من الموصل ، المرجع الاول لطب العيون حتى القرن الثامن عشر .

كذلك ، فان العرب برعوا في معالجة تشويها المفاصل والعظام ، وادخلوا طريقة جديدة لمعالجة خلع الكتف . وقد زاد ابن سينا على المداواة بالحمامات الباردة او الساخنة الموروثة عن القدماء علاجاً يقضي بجمع الاثنى في آن واحد ، يفصلهما تراوح زماني بسيط . كما انه اوجد الحقنة الشرجية او كيس الثلج . اما استعمال خيط الشعر للعمليات الجراحية في القرون الوسطى ، فيرجع الى الرازي والعرب هم اول من استخدم المرقد (المخدر) العام في العمليات الجراحية ، وكان التخدير العربي فريداً من نوعه ، يختلف عن المشروبات المسكرة التي كان الهنود والرومان واليونان يجبرون مرضاهم على تناولها كلما ارادوا تخفيف آلامهم .

لقد اعتقد ابوقراط اليوناني بان تقيح الجروحات ما هو الا عملية طبيعية مرغوب فيها جداً ، وذلك لعملية التطهير التي يقوم بها في الجسم ولكن ابن سينا ، عارضه في هذا ، بنظريته عن الجروح الخالصة من القيح . وكان نجاحه هائلاً ، والسر في ذلك يرجع الى انه قد تخلى عن نظرية القيح القديمة ، وعمل ما يوسعه لتجنب اي عامل

وللالتهايات الناشفة والانسكابية لكيس القلب ، وقد فرقها عن امراض الرئسة . ويدان له باكتشاف الحقنة الشرجية المغذية والغذاء الاصطناعي لمختلف حالات شلل عضلات المعدة ، وبوصف كامل لسرطان المعدة ، في الوقت الذي اكتشف فيه ابن سينا ان سرطاناً موضعياً يعطي عوارض السرطان العام في الجسم ، واكد امكانية عدوى داء السل وخطر الاشعة الشمسية على المصابين به .

اما ابن رشد فقد اكتشف المناعة التي يتركها داء الجدري الاسود لدى اصابته الاولى ، كما ان مبدأ التطعيم يتم بواسطة جراثيم ضعيفة ، وذلك بان نجرح اليد ما بين المعصم والابهام ، وبوضع قليل من بثور غير ملتهبة فوق الجرح ، بينما كان الصينيون ، يضعون ضمادة مبلولة بقيح الجدري فوق انف الولد .

وفي النصف الاول من القرن التاسع صور ابن مسكويه صورة شاملة للجذام (البرص) وقال انه مرض معد ، ولقد اهتم به كثيرون غيره كابن الجزار الذي كتب مفصلاً اسبابه وطرق علاجه ، وكذلك عندما انتشر مرض الطاعون انتشاراً هائلاً ، نشر الطبيب الاندلسي ابن الخطيب ، رسالة علمية منطقية عن العدوى بواسطة الاتصال بالمرض ، ومن المؤكد ان اكتشاف العدوى وخطورها والوقاء من الهلاك ، الذي كانت تزرعه بين افراد الشعب ، اعتبراً من اعظم الفتوحات العلمية التي حققها الفكر العربي الخلاق .

وكما وفق العرب في الطب ، كذلك وفقوا في فن الجراحة ، واسدوا له خدمات جليلة ، فالجراح الاندلسي الزهراوي ، ادخل تجديدات في مداواة الجروح ، وفي تفتيت الحصاة داخل المثانة ، وفي التشريح واجراء العمليات . وقد اهتم هذا الجراح العربي ايضا بالالتهايات المفاصلية ، وبالسلس في خرزات الظهر ، الذي سمي فيما بعد باسم الانجليزي بوت ، الداء المبوتي ، وكذلك طور فرع الامراض النسائية بان ادخل عليه طرقاً في البحث والمداواة جديدة ، والات حديثة ، بعد ان كان على يد الاغريق في مستوى غير لائق . كما اوجد لمسات جديدة للولادة في حالة سقوط يد ، او ركبة الجنين او وضعه المسمى بوضع الارجل (تقدم الارجل من باب الرحم على الرأس) او الوضع الوجهي ، وهو اول من عالج هذا الوضع الاخير واول من اوصى بولادة الحوض ، وعلم القيام بعمليات في المهبل والية لتوسيع باب الرحم .

كيماوي ، مع الخمرة المعتقدة القوية ، واثبت قوة مفعول الخمرة الفاتكة للجراثيم التي توازي قوة البنسلين ، وفي مداواة الجروح تقليد عربي قديم ، ذلك ان عرب الجاهلية قد ابدعوا في مداواة الجروح المعديّة ، ووجدوا لها وسيلة ، نعني بها مضادات الجراثيم ، فمن سروج حميرهم ودوابهم حصلوا على المواد المضادة للجراثيم (البنسلين) وعلى دواء الهليون ، وضعوا منها مراهم وعالجوا بها جراحاتهم الملتهبة ، كما انهم نفخوا غبار العفن في الحلق لدى التهابه ، كما هو المعهود لدى البدو حتى ايامنا هذه .

والعرب هم اول من عالجوا الامراض العقلية والعصبية بالافيون ، كما هو متبع حديثا ، كما انهم ابدعوا في المعالجة النفسية التي مثلت دورا مهما في مداواتهم بالموسيقى ، ووضعت كتب خاصة بهذا الموضوع ككتاب (تأثير الموسيقى في الانسان والحيوان) لابن الهيثم . ولقد نادى ابن سينا بضم الوسائل النفسانية ، الى التداوي بالعقاقير لزيادة مفعولها وازالة الخوف عن المريض قائلا بما معناه علينا ان نعلم ان افضل العلاجات وانجعها ، هي العلاجات التي تقوم على تقوية قوى المريض النفسانية والروحية ، وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض ، وتجميل محيطه ، وسماعه ما عذب من الموسيقى ، وجمعه بالناس الذين يحبهم .

ولم يجهل العرب حفظ الصحة ، فكانوا يعرفون

جيّدا ، ان علم الصحة ، يعلمنا طرق الوقاية من الامراض التي لا يستطيع الطب شفاءها . وكانت مناهجهم الصحية . طبية منذ القديم ، وما سار عليه ابناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني غاية في الحكمة . وكان من عادة مؤلفي العرب ان يوجزوا وصاياهم الصحية ، في كلمات جامعة يسهل حفظها ، ويظهر ان مشافي العرب التي انشئت فيما مضى ، افضل صحيا من مشافينا الحديثة ، فقد كانت واسعة ذات هواء كثير وماء غزير ، ولما عهد الى الرازي في اختيار حي في بغداد لاقامة مشفى عليه ، التجأ الى طريقة لا ينكرها عليه اصحاب نظرية المكروب الحديثة ، وذلك انه علق قطعة لحم في كل حي من احياء المدينة ، واعلن ان اصلح حي يقام عليه المستشفى هو الحي الذي يتأخر فيه فساد قطعة اللحم المعلقة .

وكانت مشافي العرب ، ملاجئ للمرضى ، وامكن لدراسة الطلاب بحيث كانوا يتلقون دروسهم في المشافي ، اكثر مما يتلقونها في الكتب ، وانشأ العرب مشافي للمصابين ببعض الامراض العقلية ، ولم يجهلوا تأثير الجو الصحي ، ومن ذلك نص ابن رشد في شروحه لكتب ابن سينا ، على تأثير الاقليم في داء السل وايضاؤه المصابين به بان يقضوا فصل الصيف في جزيرة العرب وبلاد النوبة . وكان العرب يعتمدون كثيرا على علم الصحة في معالجة الامراض ، وعلى الوسائل الطبيعية ، ولا يختلف لذلك عن الطب الحديث .

الظرف البغدادي

بقلم

فاطمه حمزة الرضوي

كلية التربية - جامعة بغداد

ومن المحدثين صلاح الدين المنجد في كتابه (الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) وقد استفاد من كتاب الموشى كما افدنا منهما في بحثنا هذا ، اما اخبار الظرفاء فقد غصت بها كتب الاخبار والادب والتاريخ وابثت نصوصها في تأليف كثيرة ككتاب الديارات للشابشتي ، والاغانى لابي الفرج ونهاية الارب للدينوري وبيتيمة الدهر للشعالبي ، وكتب الجاحظ ، وتاريخ الطبري ، والكمال في التاريخ والمنتظم . ومؤلفات السيوطي وغير ذلك كثير .

على اننا وجدنا ان في البحث في موضوع (الظرف البغدادي) اطلاق واسع على معرفة الاحوال الاجتماعية في العصر العباسي ولا سيما ان دراسة الاحوال الاجتماعية هي محك أو وسيلة من انجع الوسائل التي تكشف الاحوال الثقافية ، والعلمية بضروبها المختلفة - والنصوص دالة عليها - وبالتالي اظهار الجانب الحضاري للمجتمع وما بلغه من سمو وعلاء .

ولقد كان (الظرف البغدادي) سمة حضارية لانه يتصل كل الاتصال باسباب حضارتها (**) ، فبغداد - التي خلدها الشعراء في اشعارهم يومذاك استوت فيها الحضارة الاسلامية ونضجت ومال الناس فيها الى كثير من مظاهر الترف والاناقة والتزين بل التنافس في هذا السبيل وكانوا في بحبوحة من العيش وسعة الرزق وتعدد اسبابه وسبله ولا غرو في ذلك ، فقد عم الامن ،

لا ننكر ان البحث في موضوع (الظرف البغدادي) ، شيق ممتع ، فضلا عن انه يشير فينا نزوعا نفسيا للاطلاع على جوانب كثيرة مهمة لصيقة بواقع الحياة الاجتماعية للانسان العربي في بغداد العصر العباسي ، فالظرف بوصفه ظاهرة حضارية قد سادت المجتمع البغدادي ، وفي هذا القول شمولية وسعة تعم المجتمع العربي ، لان بغداد يومذاك مثل يحتذى ومنار يشع بكل مقومات الحياة المشرقة ، فحين يبحث الدارس في (الظرف البغدادي) ، وممارسات الظرفاء ، فكأنه يتحسس ويلمس الصورة الطبيعية للحياة الاجتماعية المتوازنة للانسان ، في جدها وهزلها في تعقلها ، وعواطفها ، وفي حكمتها . ما لزم حد المعقول وما تجاوزه . وقد عاشت الحضارة الاسلامية زمن النضج يعلو مجتمعا دماثة في الخلق ، وحكمة في الرأي منبثة في انتاج العصر على أسنة الظرفاء شعرا ونثرا ، وقد صور هذا الجانب من الحياة بصراحة وجراحة بلغت حدا بعيدا ، واننا نجد ان الذي ساعد على ذلك هو : الظروف الثقافية وامتلاك وعي الواقع والنضج الحضاري والا لسا استسيغ ، وسجل ، ونقل ذلك الادب الظريف بكل انواعه ، لكثير من ظرفاء العصر .

ولقد كان لبعض الدارسين القدامى قصب السبق في التأليف في هذا الموضوع ، وفي مقدمتهم الوشاء (**) في كتابه (الموشى) . واخبار الظرفاء والمتماجنين ، واخبار الاذكاء ، لابن الجوزي .

(*) هو ابو الطيب محمد بن اسحاق عاش في بداية القرن الرابع للهجرة (٨٦٠ - ٩٢٦م) .

(**) ظرفاء المنجد ص/٢ .

وكثر الخير ، وتفرغ القوم للتمتع وافتنوا في ترف العيش والتنعم بأسباب الدنيا وحب كل ما هو طريف ظريف ، (وهذه عناصر تتصل بالفن اتصالا وثيقا) (١) .

وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية اضحى المجتمع الاسلامي - بسبب الفتوحات وسعة الرقعة الاسلامية - خليطا اجتماعيا الفه الاسلام من عناصر شتى ذات طبائع واخلاق واذواق وبيئات وعادات مختلفة بكل موروثها ، الحضاري ، والثقافي المختلف ، فكان من اغزر المصادر واعجبها (٢) وساعد على خلق نموذج للانسان ، الذي تفاعلت ، وامتزجت في نفسه وروحه كل عوامل المجتمع الجديد ، فكان انسانا متحضرا دمثا ، في سماحة وظرف وذكاء وهي سمة حضارية استمدت مقوماتها من ذلك المزيج .

ومما افاء به الفتح الاسلامي على بغداد ، وغيرها من عواصم الدولة العباسية كثرة الاسرى من الجواري الفارسيات ، والروميات - وهو سبب نضيفه الى ما ذكرنا آنفا - ، وبذلك دخل - في المجتمع البغدادي - لون جديد ادخل مظهرا جديدا في المجتمع والجديد بطبيعة الحال يلفت النظر ، ويستدعي الاهتمام ، ومن هنا كان للمرأة الاسلامية الجديدة اثرها في مجتمع بغداد (فسعى نحوها الرجال ، وسعت القيان اليهم وتبودلت المشاعر ، وكان نتيجة ذلك التطرف والتزين والارضاء) (٣) .

وراجت سوق الجواري ، وقد افتن النخاسون (٤) في تعليمهم وتأديبهم الشعر ، والغناء فضلا عن حفظ القرآن الكريم ومأثور القول ، كل ذلك لان هؤلاء النخاسين وجدوا فيهن تجارة مربحة رائجة ، وانتشرت تجارة الرقيق في بغداد وعنى بها هؤلاء على اكمل وجه . وكان في بغداد شارع يسمى شارع (دار الرقيق) وقد بكاه الشاعر بقصيدة طويلة آخرها :

(١) الظرفاء / صلاح الدين المنجد طبعة الرسالة ص/٢ .

(٢) نفسه / المقدمة . وانظر تاريخ الادب العربي : العزاوي ص/٦٠ وتاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : ابراهيم ابو الخشب ص/مقدمة .

(٣) المنجد في الظرفاء ص/١٠ .

(٤) بانعو الرقيق ، واحده نخاس . اللسان / نخس . وانظر مليحة رحمة الله : الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجري ص/٨٥ حول الشعر والغناء .

ومهما انس من شيء تَوَلَّى
فاني ذاكر دار الرقيق (٥)

واشتهر منهم كثير كأبي عمير الذي كان له جوار قيسان لهن ظرف ، منهن (عبادة) التي هَوَّيها عبدالله محمد بن البواب . يقول فيها :

لو تَشَكَّى (ابو عمير) قليلا
لا تيناه عن طريق العيادة
فقضينا من العيادة حقاً
ونظرنا في مقتلتي (عبادة)

ومنهم (الخطاب) كانت له جارية تُعرف (بذات الخال) التي كان يهواها ابراهيم الموصلی ، وغيرهم كثير (٦) . وقد كان الشعراء يأوون اليهم بسبب ذلك .

وقد احسنت الجواري اساليب المطارحة الشعرية والمنادمة وسبل المجالسة والمسامرة ، وتطارح الرجال من الشعراء الشعر معهن (٧) ، وكانت بغداد والعصر العباسي عصر هذه المطارحة والمعارضة على الوزن والروي الواحد وبقيّة المعنى ، واكثر ما تكون الغلبة فيها لهن (فقد كن اسرع بديهة ، وارق طبعا) (٨) .

ومن ذلك ما جرى بين الشاعر السلولى وعنان (جارية الناطفي) وصاحبة ابي نواس بعد أن طلبت أن يبدأ السابق في المعارضة (٩) :

قال السلولى :

لقد جدّ الفراق وعيّل صبري
عَشِيَّةَ عِرْهم للبين زُفَّتْ
فقالت عنان :

كتمت هواكم في الصّدْر مني
على أنّ الدّموع عليّ نَمَّتْ
فكانت اشعر منه .

وقد عجت قصور الخلفاء والوزراء وذوي الجاه والمال منهم بهن ، ظريفات وظرفاء وكانت مجالس سمرهم ومنادمتهم وامكن لهوهم وبساتينهم مكانا لحضورهن ومصاحبتهن .

(٥) الموشى : الوشاء ، مقدمة ص/د .

(٦) نفسه .

(٧) نمار القلوب في المصاف والمنسوب : الثعالبي ص/١٧٧ .

(٨) قول الجاحظ في المصدر السابق نفسه .

(٩) المرأة في ادب العصر العباسي : واجدة الاطرقي ص/٣٠١ .

السابقة ، الا وهو دور التديم لدى قصور الخلفاء والوزراء ومن هم في عدادهم ، وتغنى المغنون ، والمغنيات باشعارهم ، والناس في بغداد في هذا العصر يتغنون بالشعر الفصيح ، والجواري والقيان يحفظن بل يحرصن على حفظه وروايته وغنائه ، وبرزت ، كثيرات ، ومنهن (عريب) (١٥) ، التي عرفت بجمال صوتها وانه من أجمل الأصوات بين المغنين والمغنيات وكن يغنين من وراء الستائر (١٦) ، مما يوقع الكثير من المستمعين بهواهن ، والحرص على لقائهن لمعرفة صاحبة ذلك الصوت الرخيم .

اسباب نشوء الظرف البغدادي

ان اسباب نشوء الظرف على ما بدا لنا سابقا كثيرة وقد مهدت لها عوامل عدة تضافرت وبلغت ، اوجها زمن الترف ، زمن المهدي (١٥٨هـ) ووصلت حد الانبهار ، زهو في العيش ، تمتع باللذات ، تألق في كل شيء ميل الى الطرافة والجدة ، والفن ، ترف فائق في الحياة ، توفرت في بغداد فزهوا بذلك كله ، وقد اشار ابو حيان الى ان البغدادي (١٧) ميل بطبعه الى الظرف والتظرف .

وقد كان للفنى وكثرة الاموال عن طريق الجباية والخراج عاملا مهما ولما نقل وترجم بنشاط اثر عقلي فالتأثر الفكري الجديد في الفلسفة وعلم المنطق وما ألف ادباء بغداد المعاصرين - كان من العوامل الاخرى المؤثرة في زيادة التظرف ، ولقد ألف الجاحظ كتاب (التاج) (١٨) .

الظرف ظاهرة ومذهب

تعريف الظرف ومدلولها :

تناولت مراجع اللغة دلالة (الظرف) واتفقت على مدلولات كثيرة تشتملها الظرافة ، ويتصف بها الظرفاء (١٩) ، فالظرف عندهم : البراعة ، وذكاء القلب ، يوصف به القتيان الازوال (٢٠) ، وهم الفلماني

(١٥) شاعرة ومغنية ذات فصاحة وبلاغة ، قيل انها ابنة جعفر البرمكي ، ولها مراسلات مع ابراهيم بن المدير وغيره وكان المامون يشقها . توفيت سنة ٢٧٧هـ . انظر : المستطرف ص/٣٧ - ٢٨ وطبقات ابن المعتز ص/٢٥ . (١٦) راجع حول الستائر ، مجلة الجمع العلمي بدمشق . مجلد/٢ ، لسنة ١٩٢٢ ص/٣٩١ (مقالة احمد تيمور ، الالفاظ العباسية) .

(١٧) انظر كتاب الصداقة والصديق ص/٢٢ .

(١٨) ظرفاء النجد ص/٢ .

(١٩) اللسان / ظرف ، والتاج كذلك .

(٢٠) البستاني : محيط المحيط مكتبة لبنان ١٨٣٠/ظرف

←

وفي ذكر انتشار الجواري والفلماني افادنا كتاب ابي حيان التوحيدى (ت ٤٠٠هـ) : الامتاع والموانسة بنص (١٠) ينير ذلك . قال : (فقد احصينا في بغداد سنة (٣٦٠هـ) : (٤٦٠) اربعمائة وستين جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ، ولا نصل اليه) . وابو حيان هذا شاهد معاصر واديب حضارة القرن الرابع يدلي لنا بدلو بهذا الصدد .

قلنا ان الحضارة طفت في بغداد (مدينة السلام) وانغمس الناس في الترف ، ورقت الطبايع ، والاذواق واخذ اهل ومجتمع بغداد العادات الفارسية ، وتأثروا بتقاليدهم ايما تأثر ، وكان اثرهم هذا اكثر من اثر اليونان ظهورا ، فقد كان اثر هؤلاء في الحياة العقلية في الفلسفة ، والجدل والمنطق (١١) . ولذا فقد كان تبدل المجتمع في بغداد تبدا جذريا (١٢) . وهذا ما يكاد يجمع عليه المؤرخون في الادب والتاريخ ، وقد كثر التسري والجواري ، ويكفي ان نشير هنا ان ستة وثلاثين خليفة من العباسيين امهاتهم من الجواري (١٣) .

وفوق ذلك فان الروح الدنيوية سادت قصور الخلفاء ، والوزراء ومجالسهم ، كالرشيد ، والوائق وامثالهما وقد عدت قصورهم ، وما بذخوا عليها ، وما ضمت عليه من فرش وثيرة ، طنافس ورياش ، وازاهير وتحف ، وسرر وما فيها من حدائق وبرك والوان مما دعا الشعراء ونخص منهم الظرفاء الى وصفها باجمل الابيات وأرقها ظرفا ، مما يعد من اعجب آيات الفن والعمران حتى انه ليسك (١٤) في انها من الحقائق الواقعة في بغداد وغيرها لولا ما تؤكد عليه النصوص الادبية المتواترة ، ونقول المؤرخين ومعاصري ذلك الترف مما اعتمد عليه البحث في (الظرافة البغدادية) .

ولقد كان الظرفاء من الرجال والنساء يتنادمون وهؤلاء اعطوا أيضا صورة او وجها جديدا للشاعر ودوره لانه كان يحمل طابعا تصح تسميته في عصرنا هذا بالمدافع (السياسي) في مراحل الاسلام

(١٠) ١٨٣/٢ .

(١١) ظرفاء النجد ص/١٠ .

(١٢) الحالة الاجتماعية في العراق : مليحة رحمة الله ص/١٠٧ - ١٠٩ وانظر اعلام النساء ٤١٧/١ .

(١٣) مقدمة الموشى ص/د .

(١٤) انظر مقدمة الموشى ص/و .

فأنت تجد مدلولات مترابطة المعاني لاينفك بعضها يشد أزر بعض ، فالذكاء وبراعة اللسان ، والبداهة وتعدد الجواب والبلاغة والتورية منها دائرة في فلك واحد على التوسع في المعنى الذي وصل اليه الظرف بعدئذ .

صفة الظريف وسنن الظرافة :

لأدب لمن لامرودة له ولا مروءة لمن لاظرف له ، ولاظرف لمن لاأدب له . فالوشاء (٢٨) هنا يجعل للظريف من الخلال ما يلزم به فهو اديب متأدب تحمد خلاله ذو مروءة ، وليس هذا فحسب فقد نعتته بنعوت كثيرة ، فالفصاحة ، والبلاغة ، والعفة والنزاهة ، فضلا عن انه حسن الوجه . رضي الهئية ، قد اخذ من العلوم ، فصار وعاءا لها ، رقيق الطبع . صادق اللهجة . كاتما للسر . هذا هو سلوك الظريف ولا يكون بخلافها ممن يعد منهم . كما ان للظرفاء البغداديين سلوكا اجتماعيا يكن عن مبلغ الكمال في حسن السيرة والسلوك . منها حفظ ذمار الجار والوفاء له ، والانفة من العار ، وطلب السلامة من الاوزار ، والوشاء حين ينقل لنا ماذكرناه قد استشفها من واقع ممارسات الظرفاء في بغداد من ذلك انه (الوشاء) سأل ظريفا عن الظرف : (فقال : التودد الى الاخوان ، وكف الاذى عن الجيران) (٢٩) . فالظرفاء في بغداد لهم ميزات تنبى عنهم لما فيهم من لطف في الشمائل ، ورهافة في الحس ، وتتبع الجمال والتائق في الملبس ، والتطيب ، والزينة ، والهيام بالرياض ، والازهار والولوع بالظريف الذي لم تعرفه العوام ، واللباقة في التعبير عن الاحساس بالافكار والمتطرفات لهن زهو حلو وعناية بالشعر الغنائي العربي الذي يترجم العواطف والهوى (٣٠) . وفوق ذلك لا تخلو حياتهم من بساطة في جمال . وقد تجاوز هذا الى فوضى لدى بعضهم : وفيه يقول الوشاء : (سألت بعض متطرفات القصور عن ظرفهن فقالت من كان فصيحاً عفيفاً كان عندنا ظريفاً متكاملأ ، ومن كان غنيا عاهراً كان ناقصاً) (٣١) ، والصراحة من شؤونهم وبلغوا مبلغ عمر بن ابي ربيعة ، من ذلك شعر ابن المعتز ومسلم بن الوليد ، قال مسلم :

انسي احبك فاعلمي

ان لم تكوني تعلمينا

الظراف ، وذكروا انه لا يوصف به الشيخ ولا السيد فكانه من لوازم الشباب لدواع كثيرة فيه . وما يقرب من هذا المعنى في الدلالة انه اي الظرف : حسن العبارة ، والهئية ، وهو مصدر الظريف . وقد ظرف يظرف ، وهم ظرفاء ورجل ظريف من قوم ظراف ، وظرروف وظراف على التخفيف من قوم ظرفاء . وظراف بتشديد الراء من قوم ظرافين ...

ويتظرف : يتكلف الظرف .

والظرافة قليلة في غير الشعر (٢١) . قال ابن الاعرابي : الظرف في اللسان ، والحلاوة في العنين ، والملاحة في الفم . والجمال في الانف . قال : كانه جعل الظريف وعاء للادب ومكارم الاخلاق (٢٢) .

وفي حديث ابن سيرين : الكلام اكثر من ان يكذب ظريف ، اي ان الظريف لاتضيق عليه معاني الكلام ، فهو يكتفي ويعرض ولا يكذب . والظريف يملك تلك الملكة التي تكون مبدا لصدور الالفاظ التي لا تخلو من ظرافة والهام (٢٣) .

وابن الجوزي (٢٤) يذكر للظرافة والظريف مدلولاً يقرب من مفهومنا للظرافة اليوم ، فقد نقل قول الحسن البصري .. كانه وعاء كل لطيف .

والتورية تدخل في معاني الظرف ، فما يوجب خجل المذنب فيورى عنه هو من الظرف كذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام « اذ اخرجني من السجن » (٢٥) ولم يذكر (الجب) لئلا يستحي اخوته .

واحسب ان ما ذكره ابن الجوزي ممهدا للتوسع في بعض معاني ومدلول الظرف الذي فيه حلاوة النكتة (٢٦) .

وقيل : ان الظرف لا يكون الا في اللسان (٢٧) يقال : فلان ظريف اي هو بليغ جيد المنطق ومنه حديث عمر (رض) : اذا كان اللص ظريفا لا يقطع اي ان له لسانا يتحجج به فيدفع عن نفسه .

قال : هو الخفيف الظريف يعجب من ظرفه ، والجمع :- ... ، وفي حديث النساء : (بزولة وجلس) ، هي الغفلة الداهية ، وقيل : الظرفية ، وتزول : تنهى ظرفه ، وانظر اللسان / ذول .

(٢١) اللسان / ذول .

(٢٢) اللسان / ظرف وذول .

(٢٣) البستاني / ظرف ، والسابق نفسه .

(٢٤) الظراف والمتماجنون ص/٢ .

(٢٥) الآية ١٠٠ يوسف .

(٢٦) الظراف والمتماجنون ص/٣ .

(٢٧) الاصمعي وابن الاعرابي : الموشى ١٥٩/٢ - ١٦٠ .

(٢٨) الموشى ٥٠/١ .

(٢٩) الوشاء ص/٥٢ .

(٣٠) التجذ في الظرفاء ص/٣ .

(٣١) الوشاء ص/٥٢ .

حبا أقل قليله

كجميع حب العالمينا

وتفانوا في حبه كقول قائلهم :

انا الذي لم تدع فيه محبتكم

فضلا لغيرك من انس ولا جان

سلبت روحي واسكنت الهوى بدني

فصار فيه مكان الروح في الجسد

ولا يفوتني هنا ان اذكر شيئا من فطنة ظرفاء بغداد مما ذكره ابن الجوزي في اخبار الظرفاء (٢٣) وذلك : (ان المأمون غضب يوما على طاهر بن عبدالله فأراد طاهر ان يقصده فورد كتاب له من صديق له ليس فيه الا سلام وفي حاشيته : (يا موسى ، فجعل يتأمله ولا يعلم معنى ذلك . وكان له جارية فطننة فقالت : (يا موسى ان الملائكة ياتمرون ليقتلوك) (٢٣) .

وفيه ايضا : (قال المأمون لزبيدة لما قتل ابنها : لن تعدمي الا عينيه ، وأنا ولدك مكانه فقالت : ان ولدا افادنيك جدير ان اجزع عليه) (٢٤) .

وفي صدد سنن الظرفاء وما عليهم من شرائع قول الوشاء : فيما نصه :

(واعلم ان للعشق سنة مقصودة ، وللظرف شرائع محدودة وراينا اربابه واهله وطلابه متبعين لسبلها ، متمسكين بحبلها ، متى حالوا عنها سموا بغير الظرفاء عند اهل الظرف ودعوا الى غير سنة العشاق والادباء ولهم فيما استحسناه من الزي والطيب والثياب ، والهدايا والطعام والشراب حد محدود ، مستحسن معلوم ، وزى بين الطائفتين مقسوم ، لا الرجال يتجاوزون الى ما حد لهم الى حد متظرفات النساء ، ولا النساء يتجاوزن حدهن الى حد الرجال الظرفاء ..) (٢٥) .

الظرف مذهب

غدا الظرف مذهبا واستوى وله سنن وعادات زمن المهدي (١٥٨ هـ) زمن الترف في بغداد (٢٦) ، واعتنقه كثير منهم وبعد ان كان في بغداد ظرفاء

(٢٢) ص/ ١٤٨ .

(٢٣) القصص : ٢٠ .

(٢٤) الظرف والتماجنون ص/ ١٥٩ .

(٢٥) الوشاء ص/ ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢٦) ظرفاء المنجد / ١ .

أخذ الآخرون من البغداديين وغيرهم يتظرفون ، قاصدين اليه ، ومنتقين اياه .

وقد نما الظرف والتظرف في وقت شاعت فيه الزندقة بين الناس ، واحب الظرفاء رقعة الزنديق ولطفه وصراحته فضلا عن انهم نشدوا العلم والعقل والادب فاصبحت الزندقة مدعاة الى الظرف وعبر الناس عن ذلك فقالوا في المثل : (اظرف من زنديق) (٢٧) (٢٨) .

وانتحل كثير من الظرفاء الزندقة منهم محمد بن زياد ، قيل انه تزندق تظارفا فقال ابن منادر فيه :

لست بزنديق ولكنما

أردت ان توسم بالظرف (٢٩)

وقد تزندق المتظرفون حتى قيل انهم تزندقوا وغلبت عليهم هذه الصفة او لضيغوا الى الظرف زندقة . كما في قول الشاعر :

فقد بقي التزندق فيه وسما

وما قيل الظريف ولا الخفيف

تزندق معلنا ليقول قوم

من الادباء زنديق ظريف

واستقطب الظرف الناس فصار مدعاة للفخر والاعتزاز ، ونظر له العوام طموحا يسعون اليه ولا سيما ، بعد ان كانت للظرفاء حظوة لدى الخلفاء والامراء .

وقد افادنا الثعالبي في ذلك فأورد في كتابه ثمار القلوب (٣٠) نسبة الظرف الى الزنديق فقال : اما قولهم : اظرف من الزنديق فقد صار مثلا في زمان كثير ظرفاؤه وهو زمان المهدي ، وكانوا يرمون بالزندقة كأبي العتاهية ، وبشار بن برد ، ومطيع بن اياس .. وغيرهم ثم قال وما منهم الا

(٢٧) قال الجواليقي في المغرب ص/ ١٦٦ - ١٦٧ ليس في كلام العرب « زنديق » والجمع زنادقة . والهاء فيها مزيدة عوض عن الياء في زنديق . وهو فارسي مغرب . والزنديق : القاتل ببقاء الدهر ، وزندفته انه لا يؤمن بالآخرة ووحداية الخالق .

(٢٨) انظر اللسان زنديق .

(٢٩) ثمار القلوب في المصاف والمنسوب للثعالبي ص/ ١٧٧ .

(٣٠) ظرفاء المنجد / ٧ - ٩ .

(٣١) الثعالبي / ١٧٧ .

لظيف البزة ، جميل الشكل ، ظاهر المروءة ، فصيح
اللهجة وكان أبو نواس يعد فيهم :

وصيف كأسٍ مُحدثه مَلِكٌ

فيه مُعْنٌ وظرفٌ زنديقٌ (٤٢)

ظرف العامة :

ولقد كان هذا الظرف الذي تحدثنا عنه يمثل
الطبقة الارستقراطية في المجتمع لانه ظرف
المترفين في القصور وتأثرت العامة بذلك فنشأ هناك
ما يسمى بظرف العوام وتذكر هنا خبرا يمكن ان
يعطينا ولو صورة بسيطة عن هؤلاء ويوضح الفرق
بينهما جاء عن ابي الفرج الاصفهاني ان محمد
ابن ذي السيفين ارسل طعاما الى (عريب) يوما
فلما رآته امرت فانهب ، فأرسلت إليه طعاما ،
ورقعة فيها : يا عجمي يا غبي ظننت انني من
الانراك وحشرش من الجند ، فبعثت الي بخبز
ولحم وحلواء ، يا فدتك نفسي قد وجهت اليك
زلة من حضرتي فتعلم ذلك اخلاق العامة في
الظرف فيزداد العيب والعتب عليك فكشف محمد
المنديل ، فاذا طبق ومكبة من ذهب وفيه زبيبة
فيها لفتان من رفاق قد عصبت طرفيهما وقطعتان
من صدر دراج مشوي (٤٣) .

اثر الظرف في المجتمع البغدادي

لقد كان للظريفات خاصة والظرفاء عامة
اثر في المجتمع البغدادي ، من بينهم الجوّاري فقد
كان لهم بليغ الاثر في التمدّ به بمذهب (الظرف)
وتبلوره ، فقد تفتّن الظرفاء في التقرب اليهن ،
واخذ ظرفاء العوام يقلدونهن ، زد على ذلك ما لهم
من الاثر السياسي في الدولة فقد برعت منهن
شخصيات عرفت في الميدان السياسي وذلك برجاجة
عقولهن وصواب آرائهن الى جانب اجادتهن الشعر
والادب والغناء ، والمنطق .

وممن اشتهر من الجوّاري (ام المقتدر) (٤٤)
فقد برزت وكانت صاحبة نفوذ وقوة ، وسلطنة
وبقيت في العصر العباسي الثاني ، ودام ذلك امدا .

وام المعتز (٤٥) : جارية رومية رائعة الجمال

(٤٢) ديوان ابي نواس ص/٤٥١ ط. بيروت .

(٤٣) ظرفاء المنجد ص/٢٦ - ٢٧ .

(٤٤) انظر ابن الاثير في الكامل ١٣٩/٨ حوادث سنة (٣١١ هـ)
والمنتظم : ابن الجوزي ١٧١/٦ ، ١٧٤ - ١٨٥ .

(٤٥) اعلام النساء ١٨٤/٤ ، نساء الخلفاء / ٨٤ ، المستظرف
٥٧/ .

سميت (فبيحة) من باب تسمية الشيء بضده ،
وكان المتوكل يفضلها على جواريه واصبحت بعدئذ
سيدة البلاط العباسي . وكانت وفاتها سنة
(٢٦٤ هـ) بسامراء .

ومنهن القهرمانات (الحاكمات) اللواتي لهن
ادوار سياسية كأم موسى الهاشمية وحسن
الشرازية وزيدان الشيرازية ونظم فالاولى وصيفة
ام المقتدر كانت تشرف على حبس رجالات الدولة
قيل ان المستكفي كان عبدا لها (٤٦) .

والخيزران زوج المهدي وام الرشيد كانت
ذات نفوذ وسلطان (٤٧) ، فاحشة الثراء سعت في
قتل المهدي وتولية الرشيد مكانه .

وبذلك اصبحت الظريفات شغل المجتمع
الشاغل مع الظرفاء ، وخاصة في قصور الخلفاء
وتجلت مطارحاتهن ومعارضاتهن في الشعر وما
وقع لهن من اخبار مع عشاقهن من الخلفاء والوزراء
كان موضع اهتمام ادباء وكتاب العصر فسجلوا
كل ذلك ، واختصت به مؤلفات تناقلتها اسفار
مهمة من المظان المختلفة ، فقد المّت بكل طريف
ظريف نذكر بعضها ، وقد احتوى بعضها على قسم
من طرائف وملح الظرفاء :

رسالة القيان (ثلاث رسائل) للجاحظ .

اشعار النساء للمرزباني .

اخبار الظرفاء والمتماجنين لابن الجوزي .

المستظرف من كل فن مستظرف : للابشيحي

المستظرف من اخبار الجوّاري للسيوطي

جلال الدين .

نساء الخلفاء لابن الساعي . تحقيق مصطفى

جواد .

اخبار النساء لابن قيم الجوزية .

الاذكياء لابن الجوزي .

بين الخلفاء والخلفاء في القصر العباسي

صلاح الدين المنجد .

الموشى للوشاء .

اعلام النساء عمر كحالة .

ومن المعاصرين صلاح الدين المنجد في كتابه

(الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) .

وادب المرأة في العصر العباسي

لواجدة الاطرقجي (٤٨) ومقالات الدكتور مصطفى

(٤٦) الخلفاء والخلفاء / ١٧ .

(٤٧) المستظرف / ٢٤ .

(٤٨) رسالة دكتوراه لم تطبع بعد / ١٩٧٨ .

جواد والمنجد وغيرهم في المجلات . هذا وكل
المراجع المذكورة في ثبت المراجع ، وغيرها مما لم
تصل اليه ايدينا كثير .

ولمكانتهن والاعتزاز بهن كن يرثن ننقل اليك
من قول ابي احمد يحيى بن علي المنجم يعزي ولد
(اسحاق جارية المتوكل وام المؤيد والموفق) الموفق
بوفاتها فيقول (٤٩) :

لقد اظلمت بغداد عند وفاتها
كاظلامها للشمس ساعة تغرب
فولت وولى الحمد يتبع نعشها
ويصدق من يثني عليها ويندب
وما مات من ابقى الامير ومن له
من الفضل ما يُعزى اليها وينسب
تقدمها اياك بعد بلوغها الـ
منى فيك ما كانت من الله تطلب
فقد اعطيت في ذاوذلك سؤلها
وباتت كما بات الحيا المتحلب
فأحسن عزاء وابق فينا مسلما
مفدى من الاسواء ترجى وترهب

وقد اعتزت الظريفات باسيادهن فرثينهن
وهذه (تيماء) جارية ابي العباس خزيمة بن خازم
النهشلي فقالت ترثيه (٥٠) :

ان ابا العباس خدن العللى
خزيمة الياس فتى الجود
والمثل المخلف رب الندى
اودى فما جود بموجود
لئن حواه القبر ميتا فقد
تضييق عنه سعة اليد
كانه لم يغن يوما ولم
يَعُدْ على الشم الصناديد

ولما ماتت (شاجي) وهي محسنة مبرزة
مقدمة في الفناء (ت ٣١٩/٥١) - جارية علي عبيدالله
ابن عبدالله بن طاهر - حزن عليها حزنا شديدا
وانشد :

زرعت وشاجي بيتنا من شبيبي
غراس الهوى فاعتم بالثمر العذب
فشاب بنو شاجي نظري وادركوا
وشاب بنوهم وهي مالكة قلبي

وفي كثير من الأحيان كان المظريفات أنداد
يعارضوهن الشعر ويهاجونهن كالذي جرى بين
ابي نواس ودنانير (٥٢) وما جرى بين العباس بن
الاحنف وعنان فقد كان يهواها فجاء ابا جعفر
النخعي يوما فقال : امضي بنا الى عسان ، فكانت
كالهجرة له فجلسا قليلا فابتدأ العباس فقال :

قال عباس وقد اجهد في وجد شديد
ليس لي صبر عن الهجر ولا لدع الصدود
لا ولا يصبر للهجر فؤاد من حديد
فقلت عنان :

من تراه كان اغنى
منك عن هذا الصدود
بعد وصل لك مني
فيه ارغام الحسود
فاتخذ للهجر ان شئ
ت فؤادا من حديد
ما راينالك على ما كد
ت تجني بجليد
فقال العباس :

او تجودين بصفح
عن اخي وجد شديد
واخي جهل بما كا
ن يجني من صدود
ليس من احدث هجرا
لصديق بسديد
ليس منه الموت ان
لم تصليه ببعيد

قال : فقلت : ويحك ما هذا الامر ؟ فقال :
انا جنيت على نفسي بتتياهي عليها ، فلم ابرح حتى
ترضيتها له .

الحب عند الظرفاء

الم تعلم فذاك ابي وامي
بأن الحب من شيم الظراف
هذا البيت للشاعر محمود الوراق ، وقد
ذكره الوشاء (٥٣) مشيرا الى أن الحب من صفاتهم ،

(٥٢) جارية اديبة ، شاعرة ، مغنية ، راوية للشعر والفناء .
حكى غناء ابراهيم الوصلي . اعلام النساء ١٧/١
والمستطرف / ٢٨ .
(٥٣) الوشاء ٥٩/١ والوراق هذا كان نخاسا يبيع الجوازي .

(٤٩) انظر المستطرف / ١٠ - ١١ ونساء الغلاء / ٨٢ .
(٥٠) المستطرف / ١٦ - ١٧ .
(٥١) المستطرف / ٣٥ ، ونشوار المحاضرة ٦٣/١ - ٦٤ .

وغدوم الوفاء أو السقي وراء لذة دنيوية مؤقتة ،
نعم لقد هاموا عشقا :

بي اليأس' أو داء' الهيام أصابني
فإنيك عني لا يكن بك ما بي

والهيام' داء يأخذ الأبل فتشرب فلا تروى ،
ولم يكن ببعيد موت بعض العشاق بسبب هيامهم .

لان (العشق يحسن باهل العفة والوفاء ،
ويقبح اهل العهر والخنا) ، وعاب على الظرفاء
المتماجنين ومبازلهم ، لانه كما يقول : (ما وجدنا
احدا من العرب يفعل ذلك ، وقد كان الواحد
منهم يعشق من اول دهره الى آخره ، لا يحاول
فسقا ، ولا يقرب رفث(٥٩) .

اقول هنا ان الوشاء بصفته اول من كتب
عن الظرفاء بهذا الشكل الموسع انكر الماذل
واحسب ان عبارة ابن سيرين الواردة في كتاب
الامتناع والموانسة نافعة بهذا الصدد حيث يقول :
(كانوا يعشقون في غير ريبة وكان لا يستنكر من
الرجل ان يجيء الى اهل البيت ثم يذهب ، قال
هشام ، ولكنهم اليوم لا يرضون الا بالمواقعة) (٦٠) .

وقد حمل الوشاء(٦١) على القيان والجواري
فقال : (اعلم انه لم يبتل احد من اهل المروءات ،
والادب ، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هي اعظم
من هوى القيان ..) .

اود ان اقف عند مقولة الوشاء هذه ومن
شايعه الراي من معاصري هذه الحقبة ولم يثبتوا
عنده بل سرعان ما خالفوا ما ذكروا ، والجاحظ
منهم(٦٢) فاقول :

١ - ان الجواري والقيانات كانت مهماتهن بقدر
ما وجهن اليه ودربن عليه مثل حفظ الشعر
والمطارحة والغناء ، والتزين واطهار الفنج
وما يلحق به .

٢ - انهن على ما بدا لنا قد وقعن فريسة بيد
النخاسين ومن هم دون ذلك .

٣ - انهن وما بنين من العلاقات المستهجنة وما
اخذ عليهن من الممارسات لهن دور مبادلة
طرف آخر .

وقد حفل أدب الظراف به . وللظرفاء حب ووفاء
للاصدقاء قبل حب العشاق والمعشوقات فهم اوفياء
اشد الوفاء ، وهذا التزام لا خروج عنه عند
الظريف وله حدوده المعقولة المطلوبة دون افراط
واستهانة ، والنصوص شاهدة على ما ذكرنا شعرا
ونثرا ومنها ان بعضهم سئل :

(اخوك احب اليك ، ام صديقك ؟ فقال :
اخي اذا كان غير صديق لم احبه .) (٥٤) .

ولهم ملاحظات ذكية ، وحدود في حب
الاصدقاء وقول الشاعر في ان حب الصديق للصديق
دون افراط جميل محبب ، مفضل ، حذر انكشاف
الضد : دليل ذلك قول الشاعر :

فهيونك في حب وبعض فربما
يُرى جانب" من صاحب بعد جانب(٥٥)

ولا ينكر ان حب الحبيب والمحبوب هو
الجانب الذي طغى على ظرف الظرفاء فقد طغت
عليه المشاعر ، واليه انست نفوسهم ، وانبعثت
فيها كل انواع المسرة والعوامل كثيرة كنا قد ذكرناها
من اول هذا البحث .

وفيما رأى الوشاء(٥٦) انما هو اشارة الى
مصاحبة عفة النفس وعدم التبذل والترفع عن
الدنيا ، وهو حب لا يدعو الى ريبة ، ولا سيما
وان كمال الظرف ان (يكون عن الحرام عفيفا) (٥٧) ،
ويبدو ان الوشاء وقد عاش عصر الظرافة وسجل
لنا سننهم وشرائعهم التي لا تتجاوز ولكن الذي
وضح لدينا ان النصوص الواردة والجزء الاول
خاصة كان لظراف عشقوا واحبوا حبا عذريا عفيفا
في زمن كان فيه ما يزال السلطان للدين قائما .
ولكن الظريف لابد ان يكون قد عانى في هذا السبيل
فهو لا يخلو من هوى ، (ولا يعرى من ضنى ، لان
الهوى كما وصفه العلماء ، وكما قال فيه الحكماء :
انه اول باب تفتق به الازهان ، وتنفسح به الجنان ،
وله سورة في القلب ، يحيا بها اللب ..) (٥٨) .

ولقد اقر مسألة الحب والعشق عند
الظرفاء ، ولكنه ابتعد بهم عن التبذل والترخص

(٥٤) نفسه .

(٥٥) نفسه .

(٥٦) ظرفاء المنجد ص/٢٨ ، وانظر قول ابن سيرين في الامتناع
والموانسة ٥٦/٢ .

(٥٧) الوشاء ٥٩/١ .

(٥٨) نفسه .

(٥٩) انظر في هذا الموضوع الوشاء ٩٩/١ .

(٦٠) التوحيد ٥٦/٢ .

(٦١) الوشاء ١١٦/٢ .

(٦٢) ثمار القلوب ص/٤٩٠ . ورسالة القيان للجاحظ

ص/٨٣ .

٤ - لقد وقعن - في الغالب - تحت قهر وضغط من ملكن من الاسياد . وهذا لا يحتاج الى بيان لان النصوص الادبية والتاريخية شاهدة عليه وهي كثيرة .

٥ - وحقيقة اخرى اسوقها هنا وهي : انهن لم يكن عربيات .

اضيف الى ما ذكرت ان روح العصر ، وظروفه الثقافية والاجتماعية توحى للباحث وتبدي له ان الكلام عن الجنس والتحدث بذلك كان مباحا لا يتحرج منه بدليل النصوص الكثيرة الظريفة الشعرية وغيرها . والمتداول منها في مجالس السمر ، والندمان والشرب اكثر ، مما يجعلنا نقول ان ما نستعججه اليوم في التحديث بمثلها كان يجري جريانا طبيعيا ويأخذ طريقه في حياتهم .

ومن الجوارى من لم يعد من اخلاصا ووفاء ، فهذه (دنائير) ابنت علي الرشيد ان تغني بعد نكبة جعفر البرمكي فغضب الرشيد وصفعها وجعلها تقيم على رجليها ، واعطيت العود فأخذته وهي تبكي أمر البكاء واندفعت تغني :

يا دار سلمى بنازح السند
بين الثنايا ومسقط اللبد
لما رايت الدار قد درست
ايقنت ان النعيم لم يعد

فرق لها الرشيد وأمر باطلاقها .

ثم التفت لابراهيم بن المهدي فقال : كيف رايتها ؟ فقال رايتها تختله برفق وتقهره بحذق . خطبها عقيل مولى صالح بن الرشيد والح فلم تجبه . . واقامت على الوفاء لولائها فكتب لها عقيل :

يا دنائير قد تنكر عقلي
وتحيرت بين وعد ومطل
شغفي شافعي اليك والا
فاقتليني ان كنت تهوين قتلي
انا بالله والامير وما
آمل من موعد الحسين وبذل
ما احب الحياة يا اخت ان لم
يجمع الله عاجلا بك شملي
وفاء (محبوبة) (٦٤) جارية المتوكل التي

نسبت دون الجوارى حتى توفي المتوكل واقامت في بغداد على وفائها له حتى مات .

وفاء (هند) (٦٥) جارية ابي محمد بن مسلمة الشاطبي الكاتب التي ظلت على وفائها للفتح بن خاقان ورثته بقولها :

قلت للموت حين نازلته
والموت مقدامة على البهيم
لما تبينت ما فعلت اذن
قرعت سنا عليه من الندم
فاذهب بمن شئت اذ ذهبت به
ما بعد فتح للموت من الم
ولم تول تبيكه وتنوح عليه حتى مات .

وفي اخبار النساء ووفائهن روى ابن قيم الجوزية (٦٦) هذه الرواية : (قال الاصمعي : قال الرشيد : امض الى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم . فاندحرت ، فنزلت على صديق لي بالبصرة ، ثم بكرت انا وهو الى المقابر ، فلما صرت اليها اذا بجارية نادى اليها ريح عطرها قبل الدنو منها ، عليها ثياب مصبغات وحلي ، وهي تبكي احر بكاء . فقلت : يا جارية ما شأنك ؟ فانشأت تقول :

فان تسألني فيم حزني ؟ فاني
رهينة هذا القبر يا فتيان
اهابك اجلالا ، وان كنت في الثرى
مخافة يوم ان يسؤك مكاني
واني لاستحييك ، والترب بيننا
كما كنت استحييك حين تراني

فقلنا لها : ما رأينا اكثر من التفاوت بين زيك وحزنك فاخبري بشأنك ؟ فانشأت تقول :

يا صاحب القبر ، يا من كان يؤنسني
حيّا ويكثر في الدنيا مواساتي
ازور قبرك في حلي وفي حلل
كانني لست من اهل المصيبات
فمن رأني ، رأى عبرة مفجعة
مشهورة الزي تبكي بين اموات

(٦٥) المستطرف ص/٧٤ .
(٦٦) ص/١٢٦ - ١٢٧ .

(٦٢) اعلام النساء ١/٤١٨ - ٤١٩ .
(٦٤) انظر المستطرف ص/٦٧ .

فَقُلْنَا لَهَا : وما الرجل منك : قالت بعلي ،
وكان يحب أن يراني في مثل هذا الزي ، فقلت
على نفسي أن لا أغشى قبره إلا في مثل هذا الزي
لأنه كان يحبه أيام حياته وانكرتماه عليّ .

ولما سمع الرشيد خبرها خطبها من أهلها
وحملوها إلى الرشيد وهي لا تعلم ثم علمت الخبر
فشهقت شهقة فماتت .

وفيه أيضاً (٦٧) عن أبي بكر الأنباري
- اللغوي المشهور - عن أبي اليسر قال : دخلت
منزل نخاسي لشراء جارية ، فسمعت في بيت
بازاء بيت جارية تقول :

وكنا كزوج من قطا في مفازة

لدى خفض عيشٍ معجبٍ مونقٍ رغد
أصابهما ريب الزمان فافردا

ولم أر شيئاً قطُّ أوحش من فرد
فقلت للنخاس : أعرض عليّ هذه المنشدة .

فقال : أنها حزينة . قلت : ولم ذلك ؟ قال
اشتريتها من ميراث ، فهي باكية على مولاهما ثم لم
البث أن انشدت :

وكنا كفصني بانة وسط دوحه

نشم جنا الجنات في عيشة رغد
فافرد هذا الفصن من ذاك قاطع
فيا فردة باتت تحن إلى فرد

قال أبو السمرء : فكتبت إلى عبدالله بن
طاهر (قائد وسياسي وشاعر) فكتب إليّ : أن
القي عليها هذا البيت ، فإن أجازته فاشترها ولو
بخراج خراسان . والبيت :

قريب صدّ ، بعيد وصل

جعلت منه لي ملاذا
فقلت مسرعة :

فعاتبوه ، فزاد شوقا ،

فمات عشقا ، فكان ماذا
قال أبو السمرء : فاشتريتها بالف دينار
وحملتها إليه ، فماتت في الطريق فكانت إحدى
الحشرات .

وكانت الجارية (ريم) قد أحبت (أشجع بن

عمرو السلمي) (٦٨) وكان يبادلها آياه ويجذبها
وجداً شديداً . وكانت تحلف له أنها إن بقيت بعده
لم يحكم عليها رجل أبداً فقال يخاطبها :-

إذا غمضت فوقي جفون حفيرة

من الأرض فابكيني بما كنت أصنع
تعزيك عني بعد ذلك سلوة

وان ليس فيمن وارث الأرض مطمع

فاجابته ريم تقول :-

ذكرت فراقاً والفراق يصدع

وأي حياة بعد موتك تنفع

إذا الزمن الفدار فرق بيننا

فمالي في طيب من الخيش مطمع
فلو أبصرت عيناك عيني أبصرت

شآبيب جدر غيشتها ليس تقشع

وقال فيها أيضاً (٦٩) :

وليس لآخوان النساء تطاول

ولكن آخوان الرجال يطول

فلا تبخلي بالدمع عني فان منّ

يضمن ، بدمع غير ذا لبخيل

فمالي إلى برد الشبيبة حيلة

ولا لي إلى دفع المنون سبيل

وان لداني قد مضوا لسبيلهم

وان بقائي بعدهم لقليل

فاجابته ريم :-

بكي من صروف خطبهن جليل

ومن ذا به عُمرُ الحياة يطول ؟

ومنّ ذا الذي ينعي على حدث الردى

وللموت في أثر النفوس رسول

وكل جليل سوف يلقي حمامه

وكل نعيم دائم سيزول

لي الويل ، إن عمّرت بعدك ساعة

وان كثير الويل لي لقليل

وتزعمُ اني لا أجود بعبرة

إذا نجمته قد حان منه أفول

(٦٨) من بني سليم . انظر طبقات ابن المعتز ص/٢٥١ - ٢٥٢ .

(٦٩) انظر اخبار النساء ص/١٤١ - ١٤٢ .

(٦٧) اخبار النساء ص/١٢٧ - ١٢٨ .

وَمَنْ ذَا الَّذِي ابْغَى لَه ، إِنْ فَقَدْتَهُ

سواك ، ومن دمعِي عليه يسيل
فلا وقيت ريم ، إذا ، ما تخافه

إذا ناب خطبٌ للزمان جليل
ولا لقيت يوم القيامة ربها

وميزانها بالصالحات ثقیل
إذا ما سخا قلبٌ امرئ بمودة

فقلبي بودٍ عن سواك بخيل

ولما مات اشجع ، آلت على نفسها ان لا تأكل
طعاما ، ولا تذوق شرابا ، فعاشت بعده أياما ثم
توفيت ودفنت الى جانبه .

وما ورد من امثال ذلك كثير في مظان الكتب
التي تحدثت عن وفاء النساء وتكتفي بما ذكرنا ،
ولعله يفي بالفرض .

وقد جاء في النصوص التي اوردها الوشاء
ما يشير او يرد على الوشاء قوله السابق في القيان
منها الابيات الآتية :

زعموا خلة القيان غرور

كل زعم من المقالة زور

قسما للقيان بالعهد اوفى

من جوار تضمهن الخيدود

انما زخرف المغاليس هذا

حين قلت صحاحهم والكسور

اهل هذا الزمان اطرى من الآ

س وكل مشوه مستور

ولا ينكر ان دواعي الظرافة والحب في بغداد
زمن العباسيين كانت كثيرة ، فقد حفل العصر بكل
مظاهر الحضارة ، فن وادب وعلم وتأنق وجمال ،
وجوار حسان وترف عيش ، ثم صار مغالاة في
التزين والتأنق ظهر على رقة الناس في خلقهم
وظرفهم مما لا يخطر ببال في العصور الاسلامية
السابقة .

ولكن الذي وجدنا فيما اطلعنا عليه البحث
من سيرة الظرفاء والظريفات ان فيهم غالبية
تبذلت في الحب في زمن انطلاق وحرية وترف
عيش ، ولربما كان بعضها يقتصر على التعبير عن
مواقف كان القصد من ورائها حسن المجالسة ،
واللطف والمجاملة بسبب روح التحضر ، والثقافة
التي سادت بغداد وعواصم الدولة العباسية

الاخرى وما نهى عن أسباب الاختلاط بعادات
شعوب اخرى والفارسية ، خاصة ، والا فيم
تعلل النقول الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى مما
ذكرته كتب الاخبار والتاريخ ، والادب والفن
واخبار النساء وأدبهن ١٨

والذي بدا لنا ان ادب المرأة (٧٠) (الجواري
والقيان) وان بدا عليه المجون في قسم منه فهو
من المصادر التي شاركت في ادب العصر آنذاك
وازدادت مع توغل الحضارة وكان له الاثر الكبير
في نظرف المجتمع البغدادي .

والى جانب ما ذكرنا فقد كن عاملا مهما في
الاحساس الفني ونشر الشعور به وبذلك ساعدن
على بعث حركة فنية في الفناء والتصوير
والرقص . فالتجمل والتأنق في المنس وتزين
الوجه والتفنن بتسريح الشعر وما يلحق ذلك من
ادوات الزينة والحلي يبعث على الاحساس بفن
التجمل . وقد تمتعت كثير منهن باصوات جميلة
كعريب وفريدة ودنانير وغيرهن . وبذلك بلغن
غاية في الملاحاة والظرف والفن .

وفي صفة العاشق من الظرفاء ذكر قول
المأمون في ابراهيم المهدي (٧٢) :

وجه الذي يعشق معروف

لأنه اصفر منحوف

والعرب تمدح الضمر وتذم السمن ،
وتنسب اهل النحول الى المعرفة والادب ، وأهل
السمن الى الحمق والفدامة وقلة الفهم (٧٣) .

وفي ذكر علامات العشق والتوالة بالحبوب ،
قال الوشاء (٧٤) انشدني بعض الادباء ولم يذكر
اسمه :

علامة من كان الهوى في فؤاده

إذا ما لقي احبابه يتحيرا

ويصفر لون الوجه بعد احمراره

فان حرّكوه للكلام تشورا

ويحسن هنا ان نذكر ابيات ابن الرومي ابي
الحسن في وصف ما يختلج نفس العاشق إذ
يقول :

(٧٠) الوشاء ١٢٧/٢ .

(٧١) ادب المرأة في العصر العباسي ص/٢٣٦ .

(٧٢) الموشى ٦٢/١ .

(٧٣) اخبار النساء ٦٢/١ .

(٧٤) الموشى ٦٦/١ .

أرى ما بي عطش شديد
ولكن لا سبيل إلى الورود
أما يكفيك أنك تملكيني
وأن الخلق كلهم عبيدي
وانك لو قطعت يدي ورجلي
لقلت من الهوى أحسنت زيدي
وقال ابن الرومي في فتاة (٧٥) :

غيداء من ماء الشباب الأغيذ
كأنما ترنو بعيني فرقد
تضرب متنيها بوحف أسود
دافعتها فما اتقتني باليد
وقد تطارح الظراف والظريفات الشعر في
مجالس اللهو والطرب متغزلات متوجدات . ومنه
قول عنان :

وما زال يشكو الحب حتى رأته
تنفّس في أحشائه وتكلّمها
قالت :

ويبكي فابكي رحمة لبكائه
إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
وجرت معارضات بين الشواعر والشاعرات
الظريفات نورد منها هنا :
ما ذكره ابن الجوزي (٧٦) : قال العتبي :
سمعت الفضل بن إبراهيم يقول : مرّ شاعر
بنسوة فأعجبه شأنهن فجعل يقول :

إنّ النساء شياطين خلقن لنا
نعوذ بالله من شر الشياطين
قال فأجابته واحدة منهن تقول :

إنّ النساء رياحين خلقن لكم
وكلكم يشتهي شم الرياحين
وقد عشق أكثر العرب (٧٧) وكتبوا في ذلك
أروع المعاني والطف الشعر وأرقه وفي عصر
الظرافة والتظرف في بغداد كان منهم كثير ، ومن

عرفوا به العباس بن الاحنف عشق (فوز) وأبو
العتاهية عشق (عتبة) وأبو الشيص عشق
(امامة) :

ومن قول (قبيحة) (٧٨) بخط (فضل) في
هذا الباب (٧٩) :

لأصبرنّ على ما بي من المصّض
حتى أموت ولا يشعّر بي الناس
ولا يقال شكا من كان يعيشه
إنّ الشكاة لمن يهوى هي اليأس
ولا أبوح بسرّ كنت اكتمه
عند الجليس إذا ما دارت الكأس
والحب فيه عند الظرفاء مرارة وحلاوة وهو
مع ذلك مستحسن عندهم قال الكميّ بن
زيد (٨٠) :

الحُب فيه حلاوة ومرارة
سائل بذلك من تطاعم أو ذُق
ما ذاق بؤس معيشة ونعيمها
فيما مضى أحد إذا لم يعشق

وقد أدلى الجاحظ بدلوه في حب القيان
والاماء فقال : انما هو (طمع وعرض) (٨١) ، ولكنه
عاد في موضع آخر إلى اقرار بالواقع فذكر :
(وليس هذا مما يذمّ لهن ولكنه من فرط المدح ،
فليس بحسن هاروت وما روت ، وعصا موسى ،
وسحرة فرعون الا دون ما يحسنه) (٨٢) .

والعبارة فيها بيان كبير لا تحتاج إلى
تفصيل .

وقد قال بعض الظرفاء في ذم هوى القيان :
فهذه فضل تقول (٨٣) :

يا حسن الوجه سيء الادب
شبّت وانت الغلام في اللعب
يا ويل ان القيان كالشرك الـ
منصوب بين الفرور والعطب

(٧٨) هي ام المعتز جارية المتوكل وزوجه . عاقلة ، فاضلة .
شاعرة سميت قبيحة لشدة جمالها توفيت ٢٦٤ للهجرة .

(٧٩) ستاتي ترجمتها في (ادب الظرفاء) .

(٨٠) الوشاء ٨٧/١ .

(٨١) الوشاء ١١٦/٢ .

(٨٢) رسالة القيان للجاحظ ص/٦٣ .

(٨٣) الوشاء ١٢٢/٢ .

(٧٥) الظرفاء ص/٥٠ .

(٧٦) الاذكياء ص/٢٢٠ ، بيروت .

(٧٧) ذكر الوشاء ٦٩/١ انه افرد كتابا لذكر العشاق والتيمين
واخبارهم وملحهم واشعارهم وصفاتهم اسماء (المقتفي)
ولا ندري ما تزال نسخه موجودة ام لا .

وقول أحمد بن غزال لنفسه (٨٤) :

إذا تعرضت للقيان
فمِثْلُ الْفَقْرِ بِالْعِيَانِ
واعزم على فلة أسافا
أَمْضُ مِنْ طَعْنَةِ السَّنَانِ
وابيات أخرى كثيرة .

ويبدو أن الظرفاء فضلوا حب الجواري
من غير الإماء المقدمات (٨٥) على القيان كثيرا
لأننا لم نجد من النصوص في ذم حب الجواري
فيما وقعنا عليه ما بلغ من التعرض والانتقاد كحب
القيان والإماء فإنه كثير ونصوصه الشعرية
كذلك .

والذي يبدو أن التدرج من البساطة إلى
التكلف ومن الأناقة إلى التائق رافقه تحول من
الظرافة إلى التطرف والحرية والانطلاق ولقد كان
خلفاء بني العباس كلهم (٨٦) يحيون مجالس المنادمة
والطرب والغناء . وأن تباينوا نسبيا ، وكانت
القيان يدخلن متزينات إلى الدواوين وليس هناك
من منكر ولا عائب (٨٧) . وشاعت الزينة والتزويق
في كل شيء .

ولذا يمكن القول أن من بين هؤلاء الظراف
من التزم بسنن الظرافة الأولى أو في بدايتها
ونشوتها واختار البعض الآخر الانغماس والانغماس
فيما هيأ له العصر من ملذات وغلب عليه ذلك فلم
يقنع بالبسمة والنظرة والحديث والنجوى فتحوّل
إلى القبلية واللهو والاجتماع في النوادي والمقاصف،
والاديرة متنادمين سامرين ساهرين شاربين عابثين
ولسان حالهم يقول (٨٨) :

وكلنا من طرب
يطير أو يكاد
ولهونا لذيد
لم تلهه العباد

(٨٤) الوشاء ١٢٢/٢ .

(٨٥) الجارية : الشمس والسفينة : واستعير مجازا إلى
الجواري من النساء / اللسان / جرى القينة : العبد
والألة غنت أم لم تغني ، ويقال في جمها قيان وقينات
اللسان : قين .

(٨٦) التاج في أخلاق الأمم والملوك ص/٢٣ - ٢٨ .

(٨٧) رسالة القيان ص/٦٢ .

(٨٨) ظرفاء المنجد ص/٢٩ .

ومنه : ما جرى بين حماد وسعاد (٨٩) :

قبّلني سعاد ، بالله قبله
واسأليني لها ، فديتك ، نحلّه
فيدفع حماد سعاد هذه ، ويقول :
فأجيبني والعيمى وخذ البذل
ل واطفي بقبله منك نحلّه
ومما ذكره الاصفهاني (٩٠) :

كان لابي الشيخ (٩١) جارية سوداء اسمها
(تبر) (٩٢) وكان يعشقها وفيها يقول :
لم تنصفي باسميّة الذهب
تتلف نفسي وانت في لسع
يابنة عم المسك الذكي ومن
لولاك لم يتخذ ولم يطب
نأسبك المسك في السواد وفي الرب
ح فأكرم بذال من نسب
وكان الشاعر ابن المعتز من بين الشعراء الذين
انطلقوا أو فازوا باللذات وعبروا عن مشاعرهم في
ذلك .
أذ يقول :

فقد كان دأبي جنة اللهو والصبأ
وما زلت باللذات والعيش لعبا (٩٣)
ولقد سحر الحب هذا الأمير وصرعه الهوى
والشباب . ولصرع الغواني : مسلم بن الوليد دلاء
ذكرها لا يتسع له المجال نذكر قليلا من قوله :
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا
صرع حُمَيّا الكأس والأعين النجل (٩٤)
وله أيضا :

إن شئت غاداني صبح من الهوى
وإن شئت ما ساني غبوق من الخمر

(٨٩) ظرفاء المنجد ص/٤٠ .

(٩٠) الاغانى ٢٠/٢٢٠ - ٢٢١ .

(٩١) محمد بن رزين ويكنى بابي جعفر ، وقد عاصر ابا نواس .

الافغانى ٢٠/٣١٩ ، اعلام النساء ١/١٦٤ .

(٩٢) اعلام النساء : ١/١٦٤ .

(٩٣) ديوانه / ٩ . الظرفاء ص/٤١ .

(٩٤) الظرفاء ص/٤٢ .

وعرب لها في هذا الشعر ضلع كبير فقد قيل فيها(٩٥) :

قاتل الله عرييا

فَعَلَّتْ فَمَلًّا عَجيبًا

صبرت حتى إذا ما

اقصد النوم الرقيبًا

فتدلَّتْ لمحِبٍّ

فتلقاها حبيبًا

جدلا قد نال في الد

نيا من الدنيا نصيبا

وقول مسلم بن الوليد(٩٦) :

إنَّ ورد الخدود والاعين النج

ل وما في الثفور من اقحوان

واسوداد الصدغين من واضح الخ

د ، وما في الصدور من رمان

تركتني لدى الفواني صريعا

فلهذا ادعى : صريح الفواني

وفي قصور الخلفاء والوزراء كانت دواعي الحب واللهو كثيرة لدى الظرفاء مما جعلهم يولعون بالاقبال عليها اكثر فقد لونت الحياة امامهم وبدت لهم بحلة قشبية مغرية فأقبلوا يردون من مناهل البهجة ما شاءوا وقد تملقت بذلك مظاهر كثيرة تبدو ليست جوهريية ولكنها ذات اثر فعال في الظرفاء البغداديين نذكر منها .

ازياء الظرفاء :

(احسن الزي عندهم ما تشاكل وانطبق وتقارب وأتفق) (٩٧) . هذا يعني أن لهم ذوقا فيما يلبسون ، وانهم متمدنون متحضرون ، ذلك ان ، انسجام الالوان وعدم تنافرها يوحى للناظر راحة في النفس وطمأنينة ، وهو دليل اناقة وحس ذواق سليم وميل فني .

والرجال من الظراف يلبسون من الالوان نقيها ناعمتها ، مثل الدبقي . منسوب الى دبيق قرية من دمياط بمصر(٩٨) وهو المثلث من الثياب ، والغلائل وهي شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع(٩٩)

(٩٥) الظرفاء ص/٤٣ .

(٩٦) الظرفاء ص/٤٣ .

(٩٧) الوشاء ١/١٦١ .

(٩٨) معجم البلدان ٢/٤٨٨ طهران .

(٩٩) انظر نشوار المحاضرة الجزء الاول .

والسفاق الكثيف . ودراريع البرد جرد هي بلدة بين الكرخ وهمدان والاردية المحشاة العدنية ، والجباب والطيايسة التيسابورية والاكسية الفارسية الخروز الكوفية وكل ما اشبه ذلك وقاربه(١٠٠) .

وفوق هذا فهم نظيفون وهذا عنوان الظريف ودليل مظهره الانيق اذ لا يلبسون من الثياب المغسول الوانها بل النقية الصافية غير مصبوغة بالزعفران ولا مغموسة بالطيب لان هذا من لبس القيان والاماء .

وهم يلبسون من النعال الزيجية والمشعرة اليمانية والمختمة بالخفاف ويشرك فيها الاسود بالاحمر والاصفر بالاسود ، والجوارب الخز المرعزي والقز ويعيبون لبس الاحمر منها .

ومن النعل يلبسون الابريسمية والخزية ، ومن المطارف القطنية والمنقوشة الاردنية .

ويتختمون بالعقيق الاحمر ، والفيروزج ، الاخضر ، والفضية المحرقة ، واليمانية السود . والمضروبة المتوكلية . ولا يتختمون بالذهب لانه من لبس النساء ، والصبيان والاماء .

ويتعطرون بالطيب والمسك المسحوق المحلول بماء الورد . ويستعملون العود المعنبر بماء القرنفل والعنبر البحراني والكافور المحرق المخلوط بعير المسك ويتجنبون طيب النساء .

ولا يستعملون من الطيب ، ما كانت رائحته شديده السطوع .

ولهم في اساليب اكلهم نظام خاص فكانوا ، يتبعون نظام الاطباق كل لون في صفحة خاصة ويرفع الطبق ، ويؤتى بغيره . وقد اترفوا في استعمال الملاعق حتى كانت من الفضة البلور . وقد تكون من الزبرجد(١٠١) ولا تستعمل الا في لقمة واحدة .

ولوائدهم كما يبدو آداب واصول فاذا قاموا الى الطعام غسلوا ايديهم بالماء والطيب ، وربما مسحوها بالادهان العطرية لئلا يتمكن الزفر من مسامها . وهم لا يضحكون ولا يثرثرون في اثناء الطعام ، ويصغرون لقمهم ويبعدون عن الشره والنهم . ولا ياكلون القديد ولا يتبعون مواضع الدسم ولا يمششون (يمسون) العظام ولا يلطعون

(١٠٠) الوشى ١/١٦٠ - ١٦١ .

(١٠١) قال الجاحظ في التبصرة ص/١٤ : خير الزبرجو ، الشدب الخضرة الصافي .

ولبس الارديسة الرشيدية . والفلائل
الدخانية والعصب الملون والحريير المعين الموشى
بالذهب قيل ان (زبيدة) كانت تلبسه . ومن
السراويل يلبس الطويلة البيضاء ، والكمام
المفتوحة . ويتمنطق بمنطقة من ذهب ، وبعضهن
يتنقبن ، قيل ان (متيم) (١٠٧) الهاشمية لا تخرج
الا متنقبة وانها اول من عقد من النساء في طرف
الازار زنارا وخيط ابريسم .

وما تنقله وتصفه المراجع من زركشة الالوان
وحسن صنيع الملابس يوحى بصور فنية جميلة
فكن ينقشن عليها ابياتا شعرية يخترنها ولهن مراد
من ورائها .

ومما زاد ظرفهن ظرافة انهن تغنن في انواع
الملابس ، فقد لبس العصائب وكانت آية في الفن
والنقوش وكتابة رقيق الغزل والتوجد ، عليها .
وكانت (عليّة) بنت المهدي ، قد ابتدعت هذه
البدعة الحسنة فقد كان في جبينها فضل سعة
تسمح به فأخفته بلبس العصائب المكلفة بالدر
والجواهر ، فقلدتها الظريفات في ذلك فصار تقليدا
(تقليعة وموضة مما يدعوه الناس اليوم) وينقش
عليها الشعر وينشر اللؤلؤ ، وانواع حجوم الدرر
وغیره .

حدث علي بن الجهم قال : حضرت مجلس
الظرفاء فخرجت علينا جارية كأنها تمثال ، وعليها
عصابة قد ارسلت طرفين في صدرها مكتوب :
من يكن صباً وفيّاً

فزمامي في يديه

خذ مليكي بعناني
لا انازعك عليه

فوثب ابن الجهم حتى اخذ بطرفي العصابة
وقال : انا والله صبا ، واوفى خلق الله
لحب (١٠٨) .

وكتبت اخرى على وشاح (١٠٩) :

اغيب عنك بوداً لا يفيره
نأي المحل ولا صرف من الزمن
تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا
الشغل للقلب ، ليس الشغل للبدن

اصابعهم ولا يعجلون في مضغهم ، ولا بجانب
الشدقين ، ولا يجاوزون ما بين ايديهم ولا يأكلون
شيئا من الكواريج والصحناء (السمك الصغير
الملوح) ، ولا شيء من الكواميخ (المخللات من
الطعام) ، وقد تأكل ذلك المتظرفات ولا يأكلون في
النهار اكثر من اكلة ، ولا يتحفزون لمجيء المائدة
قبل ان توضع ولا يكثرون من اكل النقل (١٠٢) .
ويتجنبون الاكل البارد كالغجل والحرف والكراث
والهندبا (بقل يؤكل) . ولا يأكلون ما يغير لون
الاسنان او ما يحدث رائحة وتغيير كالثوم
والبصل .

ومن الفاكهة يأكلون انواعا كثيرة من التمر
كالارطاب ، والمشمش والنبق والعناب والخوخ
والاجاص .

وكان الخلفاء والظرفاء يحلون مواعدهم
(بالزماورد) (١٠٣) اي لقمة الخليفة كما كان
يسمى في العصر العباسي ولقمة القاضي .

والزماورد يتخذ من اللحم والبيض في بغداد
وذكر الجاحظ (١٠٤) انه مما يعجب به اهل
خراسان ويتخذونه من فراخ الزنابير .

ويرغبون في السكباج ويسمونه مخ الاطعمة ،
وسيد المرق يؤكل حارا وباردا ويتزود منه في
السفر . وفي الشتاء والصيف .

وكان السمك مرغوبا فيه وكبود الدجاج
كذلك (١٠٥) .

زي الظريفات (١٠٦) :

اما زي الظريفات فالحديث عنه يطول
نحتزي بعضه من بعض فنذكر انهن لا يقلن اناقة
وترفا وظرفا في لبسهن بل كان ما يلبس مميزا
عن الظرفاء في اللون والنوع فمن الالوان الاسود
والاصفر وما لا يصبغ الا ما ازرق واخضر ،
والمورد والاحمر ، يتخذن ذلك من الحرير والقز
والديباج .

والحمرة والسواد والزرقة عندهم من لبس
الارامل والحداد والاحمر عندهن دليل الفرح
والسرور .

(١٠٢) انظر الدبارات ١٦٧ - ١٧١ ، وقد اورد الوانا كثيرة .

(١٠٣) الحيوان ٤/٤٤ ، شفاء الغليل / ٩٨ .

(١٠٤) الخلفاء والخلفاء (مآكل الخلفاء) ص/ ٨١ .

(١٠٥) ثمار القلوب ص/ ٤٩٠ .

(١٠٦) الوشاء / ١٦٢ - ١٦٣ ، وظرفاء المنجد ٥٢ - ٥٤ .

(١٠٧) المستطرف ص/ ٦٢ .

(١٠٨) الظرفاء ص/ ٥٨ .

(١٠٩) الظرفاء : ٥٩ .

وعلى طراز الرداء (١١٠) :

أقل الناس في الدنيا نصيبا

محب قد نأى عنه الحبيب

واتخذن القلائس والتيجان ونقشن عليها
أبياتا من الشعر أيضا وصفن التيجان من الذهب
على شكل نرجس مشوب بالفضة . كتبت
(عكل) على قلنسوة من ديباج (١١١) :

ما يَمَلُّ الحبيب طول التجني

لبلائي به ، ولا الصد عني ؟

ولبس الزناير والنعال والخفاف ونقشن
عليها طرائف . كتبت (طريفة) على نعلها
بالذهب (١١٢) :

لم الق ذا شجن يبوح بحبّه

إلا حسبتك ذلك المحبوبا

حذراً عليك ، وانني بك واثق

الا ينال سواي منك نصيبا

وقد افتتن في تصفيف شعورهن وتسريحها
وترجيلها وكن يضعن المسك والعنبر ، ولهن
وصيفات تزينهن وتمشط شعورهن . وجدائهن
كن يتركنها تتدلى على اكتافهن . وهؤلاء
هن (الغلاميات) . وقد رؤي المأمون يوم
الشعائين (١١٣) ، وبين يديه عشرين وصيفة مزريات
تزين بالديباج وزر من الاصداغ فقال أحمد بن
صدقة فيهن :

ظباء كاللنانير

ملاح في المقاصير

وقد زرّفن اصدافا

كاذناب الزرازير (١١٤)

وربما جمن شعورهن كالجمّة السكينة
نسبة الى سكينة بنت الحسين - اي جمعه الى
الخلف - وكانت العباسة اخت الرشيد تفعل
ذلك ، وهو مستملح . وقد يجعلن الجمّة مرصعة
بالماس والزمرد .

اما الطيب فقد تطيبن بانواع منه كثيرة
منها : العطور البرمكية وعطور الازهار كالزنبق

(١١٠) نفسه .

(١١١) نفسه .

(١١٢) الظرفاء ص/ ٦٠ .

(١١٣) عيد من اعياد النصارى .

(١١٤) الظرفاء ص/ ٦٢ .

والبنفسج ولا يتعطرن بعطور الظرفاء من
الرجال . ولهن الزعفران والقرنفل والكافور
وعطور الورد (١١٥) .

اما الحلي فهي من الجواهر والدر ومخاقق
القرنفل تجلب اليهن من كل حدب وصوب .
والقلائد الذهبية . واللؤلؤ والحب الاصفر ،
واصناف الياقوت (١١٦) .

اما الخواتيم فمن الماس والعقيق ولا يصنعها
من الفضة . وكانت تقدم اليهن الهدايا ما غلا منها ،
ويتقرب بها اليهن ، الخلفاء والظرفاء ، من الجواهر
وانواع غريبة من الحلي والجواهر فقد اشترى
الرشيد جوهرا بمائتي الف دينار لدنانير البرمكية
لاسترضائها .

واغضب الواثق (فريدة) فاسترضاهها بحق
فيه عقد جوهري ما رؤي مثله لخليفة (١١٧) .

اما الازهار فقد اهتمن بها وفضلنها ،
وتزين بها فجعلنها اكاليل ، وقد أعجب بالبنفسج ،
والورود خاصة ، يؤثرنه على غيره من كل ريحان
وطيب واعجبت (متيم) بالبنفسج حتى انها من
شدة اعجابها ، كان لا يخلو من كمها ، وافرطوا في
نعت انواع الورود ووصفها وتهادبها وزهت
مجالسهم بها ، وغطيت برك قصور الخلفاء بها
في اوقات الاعراس والافراح ، وتزين البيوت بها
وعنوا بالورد عناية خاصة وشبهوا الخدود به .
قال الشاعر (وهو خالد بن يزيد الكاتب المتوفى
- ٢٦٢ هـ) :

عشيّة حيّاني بورديّ كأنه

خدود" اضيفت بعضهن الى بعض

ودلى وفعل الخمر في حركاته

فعال نسيم الريح بالغصن الغض

وقال آخر :

يضحك الورْدُ الى ورّ

دٍ بخدّيك مقيم

جمّعاً شكلين وقفّياً

نِ لالحاظِ النديم

غير انّ المسك اولى

بك في كل نسيم

(١١٥) آدم منظر الحضارة الاسلامية ٣٠٥/٢ .

(١١٦) انظر الجماهر في معرفة الجواهر : البيروني . ص/ ٢٢ .

(١١٧) المحاسن والمساوي ٥٤٢/٢ .

وتطير بعضهم . قال الوشاء : (خبرت أن
قينة اهدت الى ربيط لها غصن آسر فسر به
فقال :

والآس يبقى وان طال الزمان به
والورد يَفْنَى ولا يبقى على الزمن

واهدت له وردا فتطير منه وقال :

انتِ وردٌ وبقاء الـ

ورد شهرٌ لا شهـور

يذهب الوردُ وَيَفْنَى

والى الآس نصير

فكتب اليه بعض اخوانه :

وسرّ بالآس الذي اهدت له

ثم لما اهدت الوردَ جَزَع
ذاك انّ الآسَ باقٍ دائِمٌ

ولأن الوردَ حيناً ينقطع

والسواك استعملوه لتنظيف اسنانهم
وتبييضها بالغدو والعشي على الريق وقبل النوم
(وهو من شجر الاراك ، واصول السوس)
واعتنوا به وحافظوا عليه في اباريق خفاف وابعده
عن كل ما يفسد من غبار . فالسواك عند الظرفاء
مطهرة للفم مرضاة للرب (١١٩) .

وقد تهادوا بالمساويك وكانوا يتخذون
العصائب لحفظها ، قال العباس بن الاحنف (١٢٠) :

طال ليلى بجانب الميـدان

مع جَوَارِي المهدي والخَيْرُ ران
ارسلتُ باللبان قد مَضَعْتُهُ

بين تفاحتين في ريحان

وبمسواكها الذي اختاره الا

نة لعينها من طيب الاغصان

فكأنني وَجَدْتُ ريحاً من الفِرِّ

دَوْسَ فاحَتٍ من ريح ذلك اللبـان

ومن قول بشار بن برد في المسواك :

يطيب مسواكها من طيب نكهتها

وإنّ أَلَمَ بجلدٍ جلدُها طابا

وقال ايضاً :

تَسَوَّكتُ لي بمسواك لِتُعَلِّمَني

ما طَعَمَ فيها وما هَمَّتْ باصلاح

لما أتاني على المسواك ريقها

مثلوجّة كزلالِ الماء بالراح

قَبَلْتُ ما مَسَّ فاهاً ثم قلتُ له

يا ليتني كنت ذا المسواك يا صاح

اقول لقد بلغ فن التجميل عندهم حداً بعيداً،
والظريفات اختصن به اكثر . ولنكتفِ عن ايراد
التفاصيل بذكر نص من رسالة لابن عبيدون
البغدادي (١٢١) تبين ما بلغته من تأنق وبراعة في هذا
الجانب يقول : (وكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء
مذهبة ، وكم جعلوا العين زرقاء كحلاء ، وحمروا
الخدود المصفرة وسمنوا الوجوه المقعقة . وكبروا
الفقاح الهزيلة ، واعدموا الخدود شعر اللحي ،
واكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا
الشعور البسيطة وبيضوا الوجوه المسمرة ،
ودملجوا السيقان المعرقة ، ورطلوا الشعور
الممرطة ، واذهبوا آثار الوشم والنمش والحكة . .
وطولوا الشعور بوصلها من اطرافها بشعور من
جنسها . وكانوا يزيلون روائح الانف بالسعوط
بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما . ويجلون
الاسنان بالسواك بالاشنان السكر وسحق الصيني
او الفحم او الملح المدقوق وكانوا يزيلون الشعث
من اصول الاظفار بغسلها بالخل والعسل او دهن
الورد واللوز المر .

« وكن يخضبن حواجبهن واطرافهن ،
ويصبغن بصيغ احمر شفاهن فان كانت الجارية
بيضاء ، فبالخضاب الاحمر ، وان كانت صفراء
فبالاسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في
كشف الضد بضده . »

الهدايا وقد عنوا بها وكانت من سجاياهم
وكانوا بها ظرافاً ، واهدى العشاق لمعشوقاتهم
واهدين كل معجب اتيق جميل ، فالثياب والازر
والعصائب المرسعة وخواتيم الاقاوت المنقوشة منها
بالشعر وعود الهندي والنسد والمسك والعنبر
ونضود الرياحين والقواكه وصنوف الطعام
واستخدم الخلفاء الظرفاء الهدايا سبيلاً لاسترضاء
جواريه ومن لقين الحظوة لديهم من الجوّاري
بتقديم ائمن انواع الجواهر والدرر (١٢٢) .

(١٢١) الظرفاء ص/٦٦ - ٦٧ .

(١٢٢) انظر ص/٥٢ من هذا البحث ص/٥١ .

(١١٨) الوشاء في الموشى ١٨٢/٢ .

(١١٩) الوشاء ١٨٤/٢ .

(١٢٠) الابيات من الموشى ١٨٤/٢/١٨٥/١٨٦ .

وعنده يضعون اسرارهم (١٢٧) ، وليس في هداياهم
ما يعادله ، قال الحكمي :

تفاحنة جاءت وقد علقت
وركتبت بالورد والآس
اشرب من كاسي على ريحها
بالرغم من اهلي وجلاسي
وقال آخر :

تفاحنة من عند تفاحنة
قريبة العهد بكفيتها
احب بها تفاحنة اشبهت
حمرتها حمرة خديها
وقال آخر :

تفاحنة حمراء منقوشة
ركتبتها في خضرة الآس
فلم تزل في كف ندمانينا
تدور من كأس الى كأس

وقد يكتبون بماء الذهب كالاتي (١٢٨) :

قبل أن تهدوني فخطوا
في سطرأ من ذهب
انني اعطف من صـ
لد ليصفي ذا كرب

وكتبوا عليه ونقشوا كثيرا من لواجمهم وقد
طاوعتهم طبيعة التفاح . قال شاعرهم على لسان
تفاحنة حمراء :

انا حمراء دعوني
لحب وجيب
وكلوا ذات بياض
اكلها غير معيب
وكتب على اخرى :

لي طراوات وريح
ثم ماء ونضاره
ليس للياقوت فضل
كل ياقوت حجاره

ومن ظريف ما كان يهدى نروي لك هذه
الهدية الطريفة التي اهدتها (شجرة الدر) وقد كان
المتوكل يميل اليها كثيرا فهي من حظاياها المقربات فلما
كان يوم المهرجان جاءته بعشرين غزالا تربية ، على
كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك
والعنبر والغالية واصناف الطيب ، ومع كل غزال
وصيفة بمنطقة ذهب ، وفي يدها قضيب ذهب في
رأسه جوهرة . فقال المتوكل لحظاياها : ما فيكن
من تحسن مثل هذا وتقدر عليه) فحسدتها وعملن
على قتلها بشيء سقيته لها فماتت (١٢٣) .

ومن الهدايا الطريفة ايضا ما حدث في سنة
(٣١٠ هـ) (١٢٤) ان هدية وصلت الى ابن المادرائي
الحسين بن احمد من مصر وهي بغلة ومعها فلو ،
وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه انفه .

واهدى ابو دلف الى عبدالله بن طاهر يوم
(الفصد) هدية فجمع ما في السوق من الورد
وارسله له (١٢٥) .

وكانت (محبوبة) جارية المتوكل قد قدمت
له هدية من ابن طاهر (١٢٥) .

ولعل في ذكر ألوان الهدايا بيان لاحوال
الظرافة وتعدد سبلها وانعكاس لاحوال اجتماعية
كثيرة .

وتطيروا من بعض الاشياء أو من اسمائها أو
معانيها . فقد تطيروا من : الاترج لان باطنه خلاف
ظاهره مختلف الطعم والرائحة .

السفرجل لانه يبدأ بالسفر
الشقائق لانه يبدأ بالشقا
والياسمين لانه يبدأ بالياس والآس كذلك .
والسوسن اسمه السوء . ومن الجوز
والموز . والبطيخ اذا انصدع وانكسر واحبوا :
الرمان لان معناه الوصل قد آن ، وانبتفسج لان
معناه فداء النفس . وبالفوا في تفضيل التفاح
وكانت (محبوبة) ترسل التفاح الى حبيبها وعليها
اثر عضتها وهي علامة حب . قال ادم متر في هذا
انه من عادات الرومان (١٢٦) .

واعجبوا بالخوخ وشبهوا الخدود به ، ولكن
لا يعدل التفاح عندهم شيء فيه تهدا اشجانهم

(١٢٣) الخلفاء والخلاء ص/٧١ .

(١٢٤) المنتظم ١٦٧/٦ .

(١٢٥) انظر الخلفاء والخلاء ص/٧٠ .

(١٢٦) ادم متر : ١٦٨/٢ .

(١٢٧) الموشى ٢١٨/٢ .

(١٢٨) النصوص مختارة من الموشى في الجزء الثاني .

ما ينشدون من التأليف التي تتناول مواضيع دينية وادبية ، وعلمية مختلفة ، كالكتب المقدسة وتفسيرها والفلسفة واللاهوت وسير الشهداء والقديسين ، والادب والشعر وغير ذلك فهي حافلة بالكثير الوفير زد على ذلك ان فيها دور ضيافة وبيوتا واسعة الرقعة حتى ان بعض الخلفاء والملوك والاعيان كانوا ينزلون بها فيثنون عليها . وتحيط بها بساتين الكروم والرياحين مما يبهج النفس ويسرها ويشرحها .

ادب الظرفاء

زهت بغداد في العصور العباسية وتطافرت كل الاسباب لما يسمى بـ (ادب الظرفاء) فقد شملت الحضارة في بغداد ، وسما العمران ، وعجت بالعلماء والشعراء وتنادى هؤلاء في كل حذب وصوب ، وكان بين الادباء الظرفاء ، والشعراء الخلفاء والوزراء ، وكثر الندامى في قصورهم وشهد هذا العصر وجه الشاعر (النديم) الذي لم يكن عرف سابقا ، .

وهذا الشاعر النديم الظريف شاركته الظريفات من الجوّاري المتأدبات في قصور منعمة ، مترفة يعجز الوصف عن بيان آيات الفن في رياضتها ، فمن برك ، وحدائق زاهية ، وابهاء مفروشة بكل غال انيق ، وتحف عجيبة غريبة مجلوبة ، وجدران مكسوة مزوقة وشذروانات افستت فيها يد ، المفتنين فجعلتها من آيات الفن تبهر الناظرين .

وتناثرت التماثيل في كل مكان ، من ستور حمر ومصفرة ، ومجالس وازاهير مشرقة ، وابواب عظام مسمرة بالذهب والفضة . ونفيس الجواهر وفرش مختلفات الانواع والاصناف وامتدت على الارض فرش زركشت وطرزت بالحريز ، واذا ، فرحوا فلا تسئل عن البدخ ولا تحفل بالدنانير ولا تشدهك الاناقة (١٢٣) ، وغيره مما يروع القاري حتى لنظن ذلك الترف ، وذلك البدخ ضرابا من الخيال (١٢٤) اولا ما يؤكد ذلك ويقطع الشك باليقين مما تدعمه وتتناقله المراجع والشروح في بيان دقائق كل شيء .

كل ذلك جعل ادب الظرفاء وهم يمثلون الطبقة الارستقراطية يعلوه الترف والرقعة في التعبير ، والسلاسة في الطبع ، فكان شعرهم رقيقا ونثرهم عذبا منسجما مع ما طبعوا عليه من ظرف الروح ،

(١٢٣) الظرفاء ص/٢ .

(١٢٤) انظر تاريخ الادب العربي في العصر العباسي ، ابراهيم

ابو الخشب ص/٦٩ .

وانظر ادم متر في الحضارة الاسلامية ١٩٢/٢ . وتاريخ

الادب العربي : عباس العزاوي ص/٦ .

ولقد امر عضد الدولة ان تنقش على خواتيم الجوّاري ابيات السلامي (١٢٩) :

مرقومة الجنبات بالبدع التي
لم يهْد قط من الربيع لروضة
كتمت روائحها ، فلما عذبت
بالنار فاح نسيمها فأقرت

اما شرابهم (١٣٠) : لا يشربون من الشراب الا أجوده ، مثل الشمس والزبيبي ، والمعسل ، والطيوخ ، ولا يشربون ما ثخن وما اشتد ولا مكدر منه الا ما صفا شرابه ، ويرفعون عن شرب العامة والرعا ، وشرب السوق ، والاتباع ، ولا ينتقلون على شرابهم بالاشياء الرذلة . بل ان الظرفاء ينتقلون بالبندق ومقشر الفستق والملح النفطي والعود الهندي والتفاح الشامي ويضعونها في اجمل الاواني الزجاجية النقية . ولهم زي خاص في مجالس الشراب فالألوان الزاهية والتي لا يلبسونها في الغالب تلبس عند الشراب زيادة في الظرافة وتحلية لمجلس الشراب ، ولكي يزدادوا انساً على انس ومرحاً على مرح .

الظرف والاديرة (١٣١)

كان للاديرة اثرها في ظرافة الظرفاء من الادباء والشعراء فقد اتاحت لهم فرصا واجواء ذات فضل ، في العصر العباسي ، فقد وجدوا في ابنتها العامرة ، رياضا ترتاح اليها نفوسهم ، ففي مواقعها طبيعة جميلة مؤنقة ، وهواء عذب ، وماء زلال ، وشراب ميسور وخدمات جلييلة من الديرائين ، ويبدو ان الاديرة في داخل بغداد او حوالها او في خارجها اختير لها جميعا من الطبيعة اجملها واحسنها (١٣٢) .

والاديرة هذه منها الصغير البناء ومنها العالي العمران الواسع الكبير ويشترط فيها او في كل منها ان تكون منه كنيسة يصلي بها (الديرائيون) وفيها صوامع تستوعب الرهبان .

وهذه الاديرة لا تخلو ، والكثيرة منها على وجه الخصوص ، من (خزانة كتب) يجد فيها الرهبان

(١٢٩) انظر : المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع :

(رسالة ماجستير) ص/٢٤٥ .

(١٣٠) الموشى ١٧٢/٢ .

(١٣١) واحدة الدير : وهو خان النصارى . اللسان

والناج / دير .

(١٣٢) يراجع كتاب الديارات ففيه تفصيل كثير .

وملاحة اللسان ، وشعرهم رشيق الاوزان خفيفها
مفنى صالحا لذلك في اغلب الاحيان ، معبرا عن
المناسبات التي قيل فيها خير تعبير ، واصفا لواعج
من احب منهم بصدق .

هذا الى جانب ما اتفق فيه ادبهم مع شعراء
العصر كافة ان نظرنا الى كونه جزءا من ادب العصر
متصفا في ميل الظريف البديع كالطباق والجناس
والمقابلة ، والتورية وغيرها ، وانت تجد مصداق
ما قلنا في الامثلة الشعرية والنثرية متناثرة في اجزاء
البحث .

وفي ذلك من قول فضل . الشاعرة الظريفة :
يَصْدُ وادنو بالودة جاهداً
ويبعد عني بالوصال واقرب (١٣٥)

ورصد الشاعر الظريف المعاني طريفا ولطيفها
وربما يبدو غريبا ، وفيه صور حسية واضحة ،
وفيه الانفعالات والعواطف وكل ما هو منسجم مع
التظرف بعدئذ .

واللفظ عند الظرفاء مختار ، رقيق ، معبر ،
موظف بذكاء وفطنة يشد ازر المعنى العام ويبين
المراد .

واغراضهم فيما نظموا وترسلوا دائرة في
فلك ليس يبعد عن الشعر من حيث العموم ، ففي
الغزل لهم قصب السبق لركة عواطفهم وانهم غزلين
دعته كل دواعي هذا الغرض من المعاني الطريفة ،
الظريفة مثل قول الشاعر (١٣٦) .

واني لاخلو مذ فقدتك دائبا
فانقش تمثالا لوجهك في التراب
فأسقيه من عيني واشكو تضرعا
إليه بما القاه من شدة الكرب
فوالله ما أدري بما انا مذنب
إليك سوى الافراط في شدة الحب

ومن المديح لهم طرف كبير ، ولابن سكرة
الهاشمي (١٣٧) دلو في هذا الباب وفي غيره من ظريف
الشعر .

قال في أبي الحسن بن عمرو بن يحيى
(من العراق) (١٣٨) .

(١٣٥) نساء الخلفاء / ٩١ .

(١٣٦) الظرفاء ص / ٧٤ - ٧٥ .

(١٣٧) قال الثعالب في البيعة ٣/٣ كان فاتقا في قول الملح
والظرف .

(١٣٨) الثعالب ٢٧/٣ .

لقد امسكت من عمرو بن يحيى
بجبل لا اخاف له انبتانا

حباني في الحياة ورم حالي
واوصى بي ابا حسن وماتنا
فكنت مجاوراً للبحر منه

فلما مات جاورت الفراتنا
فقد قيل : (ان زمانا جاد بابن سكرة وابن
الحجاج لسيء جدا) (١٣٩) .

والمدح عند الظرفاء كثير كان فيه متنفسا لملاحة
السننهم :

ومن مليح شعر ابن أبي سكرة اخترت هذا
البيت :

هو البحر' الا' إته' عَذِبَ مَوْرِدٍ
ومَنْ عَجَبَ انَّ العُدْوَةَ في البحر (١٤٠)

وجعلوا من الرثاء وسيلة يتظرفون من خلالها
رغم ان الرثاء كما عهدناه تتفجر فيه الام الرائي على
المرئي :

كقول ابن الحجاج في رجل سقطت امراته من
السطح فماتت (١٤١) .

عفا الله عنها انها يوم ودعت
اجلٌ فقيد في التراب مفئب
ولو انها اعتلت لكان مصابها
أخف على قلب الحزين المعضب

واهوت إليه من يفاع ودوته
ثمانون باعا في علو مصوب
فصارت حديثا شاع بين مصدق
تحققه' علما وبين مكذب
الى ان قال :

فاعظم يا هذا لك الله ربها
وربك اجرَ الثكل في شاة اشعب
وعشق الظرفاء الطبيعة ووصفوها باشعارهم
ففي وصف بستان قال أحدهم (١٤٢) .

(١٣٩) نفسه ٢/٣ .

(١٤٠) الثعالب ٢٩/٣ .

(١٤١) الثعالب ٩/٣ ، وفيه غير ذلك من شعر ابن سكرة
فعد اليه في الفزل والتسيب والخمرات ، وماجني
الشعر .

(١٤٢) ظرفاء المنجد ص/ ٧٥ .

إذا لم يزرني ندمانيه
 خلوت فنادمتُ بستانيه*
 فنادمته خَصِرًا مؤثماً
 يَهَيِّجُ لي ذكر اشجانيه*
 يُقَرِّبُ لي فرحة المستلذ
 وَيُبْعِدُ همي وآحزانيه
 ارى فيه مثل مداري الطبي
 تَظَلُّ لاطلائها حانيه
 ونورُ اقحاح شتيت النبا
 ت كما ابتسمت عجا غانيه
 ونرجسة مثل عين الفتاة
 الى وجه عاشقها رانيه
 وفي وصف البدر قال بعضهم (١٤٣) :

والبدر في افق السماء كدرهم
 ملقى على ديباجة زرقاء
 وفي ليلة قمرء قال آخر (١٤٤) :
 هل لك في ليلة بيضاء مقمرة
 كأنها فضة ذابت على البلد

اما في العشق ، والحب ووصف لواعج
 الشوق واحوال الحبة قالوا الكثير ما لا يحصى
 ولا يعد ، وقد مر بعضه في اثناء البحث ، نذكر
 بعضاً آخر :

من قول العباس بن الاحنف (١٤٥) :

اغيب عنك بود لا يغيره
 نأي المحل ولا صرف من الزمن
 تعتل بالشفل عنا ما تكلمنا
 الشغل للقلب ليس الشغل للبدن
 وقال آخر ، من قصيدة طويلة ، هذه بعض
 ابياتها (١٤٦) :

يا ايها العمود
 قد شقك الصدود
 فأنت مستهام
 حالفك السهود

يا عاذلي كفا
 فأنني معمود
 قد أقصدت فؤادي
 خصاصة خريد

واني لواجدة في ادب الظرفاء انسجاما مع
 طبيعة الحياة المترفة التي كانوا يحيونها فهم
 راغبون في الحرية والانطلاق ، والتحدث عن
 ذكرياتهم والاعتراف برغباتهم ، وما تهفو اليه
 نفوسهم ، ولذا فلقد كانت صور شعرهم - في كثير
 منها - زاخرة بمعان حسية واضحة .

ومن قول ابن سكرة (١٤٧) :

في وجه انسانة كلفت بها
 اربعة ما اجتمعن في احد
 الخد ورد ، والصدغ غاليه
 والريق خمر ، والثغر من برود
 لكل جزء من حسننها بدع
 تودع قلبي بدائع الكمند

ومن ظريف ادب الظرفاء انهم يختارون من
 الفاظ الادياء في مكاتباتهم الحسن المليح ومعاتباتهم
 التي كانوا يضمنونها مآثور القول والشعر :

(اخبرني الوضاح بن ثابت الكاتب قال :
 كنت عند بعض الكتاب اذ دخلت عليه وصيفة
 كأنها قمر ، تتثنى في مشيتها كأنها جان ، او كأنها
 غصن بان ريان ، حتى وقفت بين يديه ، فقالت :
 مولاتي تقرا عليك السلام وتقول لك : يا أخي
 جفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت اليه غير
 مذاهب الظرفاء ، واني لم ازل واثقة باخائك ،
 راجية لحسن وفائك ، وتحقيق مؤملك اولى من
 الوقوف على تجنيك .

فقال لها : اقربي عليها السلام ، وقولي لها ،
 يا اختي انا من ودك على احسن عهدك ، ومن الامل
 لك اضعاف ما عندك ، ولقد استوحشنا من فقدك
 فاجعلي لنا حظاً من انسك (١٤٨) .

وكتب بعض الكتاب (١٤٩) الى صديق له : ما
 زال ما احمد من عواقب رايك واشبه من وفائك ،
 حتى وثق في ضميري من مودتك ما استجدني
 لطاعتك واستوى علي من موافقتك ، ما سهل علي

(١٤٧) الثعالبي ص/ ٧٣ .
 (١٤٨) الوشاء ١٩٩/٢ .
 (١٤٩) نفسه .

(١٤٣) نفسه .
 (١٤٤) نفسه .
 (١٤٥) ظرفاء النجد ص/ ٧٢ .
 (١٤٦) نفسه ص/ ٧٣ .

سبيل عتبك ، فما أسألك بغلبة الهوى طريقا الا
رضاك الى ان قال :

عليّ رقيب من هـواك يقودني
إليك على الحالات في السخط والرضا
وليس هـواي حيث لا يستحقه
ولكن هـواي حيث كان لك الهوى
لساني رهين" بالذي انت فاعل

ورأيي موصول" بما كنهه يرى
وما زلت لي عوناً برأي موفّق
على صلة القربي يهدي اولى النهى

ولعل اظرف ما كان يجري في المجالس ادب
المنظرات والمعارضات والمطارحات الشعرية نذكر
من ذلك من قول عنان(١٥٠) : جارية الناطقي الذي
كان يدعو الشعراء لمطارحتها في المجلس في بيته : من
ذلك دعوته (ابا حنش) فقال له : هلم الى عنان
فطارحها . قال ابو حنش : فعزمت على الغدو
فبت ليلي اقول بيتين ثم غدوت عليها فقلت :

احب الملاح البيض قلبي وربما
احب الملاح الصفر من ولد الحنش
بكيت على صفراء في الدهر مرة
بكاء اصاب العين مني بالعمش
وكانت عنان ذات وجه جميل ، صفراء
اللون .

فقلت :

بكيت عليها ان قلبي يحبها
وان فؤادي كالجنّاحين ذو ريش
تعيننا بالشعر لما اتيتنا
فدونك خذه محكما يا ابا حنش
وكانت عنان هذه تفحم الشعراء معارضة
ومنهم ابو نواس شيخ الماجنين ومما جرى بينهما
انه قال :

عنان لوجدت لي فاني
عمري في آمن الرسول بما
عنى بذلك انه في آخر العمر .
فردت عليه قائلة :

فإن تمادى ولا تماديت في
قطمك حبلي اكن كمن ختما

فردت عليها :

علّقت منّ لسو اتى على انفس
الماضين والفابرين ما ندما

فردت عليه :

لو نظرت عينها الى حجر
ولد فيه فتورها سقما

ومن طريف ما رواه صاحب الاغانى(١٥١) عن
ابي نواس ، وجنان جارية آل عبدالوهاب عبدالمجيد
الثقفي المحدث قال : (كانت جنان قد شهدت
عرسا في جوار ابي نواس ، فانصرفت وهو جالس
معنا ، فراها فأنشدنا بديها قوله :

شهدت جِلوة العروس جنان
فاستحالت بحسنها النظارة
حسبوها العروس حين راوها
فإليها دون العروس الاشارة
قال اهل العروس حين رواها
ما دهانا بها سواك عُمارة
قال : وعمارة زوج عبدالرحمن الثقفي ،
وهي مولاة جنان .

وفي خبر آخر قيل انها(١٥٢) (أي جنان)
غضبت (من كلام كلمها به ابو نواس فأرسل يعتذر
اليها ، فقالت للرسول : قل له : لا برج الهجران
ربك ولا بلغت املك ممن أحبتك ، فرجع الرسول
اليه ، فسأله عن جوابها فلم يخبره ، فقال :

فديتُك فيم عتبُك من كلام
نطقت به على وجه جميل
وقولك للرسول : عليك غيري
فليس الى التواصل من سبيل
فقد جاء الرسول له انكسار
وحال" ما عليها من قبول
ولو ردت جنان مردّ خير
تبين ذاك في وجه الرسول

فردت عليه .

فأنشأ يقول(١٥٣) :

ياذا الذي عن جنان ظلّ يخبرنا
بالله قتل وأعيد يا طيّب الخبر

(١٥١) ٦/٢٠ الاغانى .

(١٥٢) نفسه .

(١٥٣) الاغانى ٨/٢٠ .

(١٥٠) المرأة في الادب العربي ص/٢٠١ .

مراجع البحث

اخبار بغداد - مخطوطة المكتبة المركزية رقم ٩/ محمود شكري
الالوسي .

اخبار الظراف والتماجنين - ابو الفرج عبدالرحمن الجوزي
(ت - ٥٩٧هـ) تقديم وتعليق محمد بحر العلوم .
النجف الحيدرية .

اخبار النساء - ابن قيم الجوزية (٦٩١هـ - ٧٥١هـ) . تحقيق
نزار رضا . منشورات دار مكتبة الحياة -
بيروت .

الاذكياء - ابن الجوزي ، ط . بيروت .

اساس البلاغة - الزمخشري : جاز الله محمود بن عمر .
مطبعة الشعب ، القاهرة ١٩٦٠ .

اشعار النساء - المرزباني : ابو عبدالله محمد بن عمران
(ت ٣٨٤هـ) . تحقيق سامي مكي العاني وهلال
ناجي . الرسالة - بغداد ١٩٧٦/١٩٩٦ .

اعلام النساء - عمر كحالة ، ط : ٢ ، دمشق ، الهاشمية .
الاغاني - الاصفهاني : ابو الفرج : تحقيق عبدالستار فرج ،
دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ .

الامتناع والموانسة - التوحيد : ابو حيان . ضبط وتصحيح
وشرح احمد امين واحمد الزين . دار مكتبة الحياة
في بيروت .

بين الخلفاء والخلفاء - صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب
الجديد .

التاج في اخلاق الامم والملوك - الجاحظ : ابو عمرو بن بحر ،
الامرية ، القاهرة ١٣٣١هـ/١٩١٤م .

تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي : محمد مرتضى :
منشورات مكتبة الحياة ، لبنان .

تاريخ الادب العربي - عباس المزاري . المجمع العلمي ،
بغداد ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول - ابو الخشب
ابراهيم ، ١٩٦٦م .

التبصر بالتجارة - الجاحظ : ابو عمرو عثمان . الطبعة
الثانية / الرحمانية ١٣٥٤/١٩٣٥ . القاهرة .

ثمار القلوب في المصاف والمنسوب - الثعالبي : ابو منصور
عبدالله بن محمد . مطبعة الظاهر ، ١٣٢٦/١٩٠٨ .

الجماهر في معرفة الجواهر - البيروني ابو الريحان محمد بن
احمد (٤٢٠هـ) ١٣٥٥هـ حيدر آباد / المعارف
المثمانية .

الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد
الهجرة - ابو ريده بغداد ، مطبعة الزهراء /
١٩٧٠ .

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع للهجرة - آدم متر .
ط : ٢ ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م .

الحيوان - الجاحظ . تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ،
١٣٥٩هـ/١٩٤٠م ط : ١ .

قال اشتكتك ، وقال ما ابتليت به
اراه من حيث ما اقبلت في اثري

ويُعملُ الطرف نحوي إن مررت به
حتى ليخجلني من حدة النظر

وإن وقفت له كيما يكلمني
في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر

ما زال يفعل بي هذا ويدمنه
حتى لقد صار من همي ومن وطري

ويطول ذكر مثل هذه المعارضات والمطارحات
الرقيقة التي تنم عن القدرة والبراعة وسرعة
'البديهة لديهن' .

وابدين ظرافة في ادب المراسلات كذلك من
ذلك ان الشاعرة عنان كتبت الى الفضل بن الربيع
كتابا تستحثه فيه ان يشفع لها عند الرشيد
ليشتريها وقالت (١٥٤) :

كن لي هديت الى الخليفة شافعا
بوركت يا ابن وزيره من معلم
حُثَّ الامام على شرائي وقل له
ريحانة ذخرت لانفك فاشمم

وكتبت عنان الى ابي النضير وكان قد كتب
يدعوها للقاءه بقوله :

إن لي حاجة فرايك فيها
لك نفسي القدا من الاوصاب
وهي ليست مما يلفه غيري
ولا أستطيعه بكتاب

فقلت :

انا مشغولة بمن لست أهوى
وقلبي من دونه في حجاب
فاذا ما اردت امرأ فأسرر
ولا تجعلنه في كتاب

ومثل هذه المراسلات كثيرة مما جرى بين
الظريفات والظرفاء (١٥٥) . وقد مرت منها امثلة .

(١٥٤) الحاسن والاضداد ص/١٥٦ .

(١٥٥) انظر التزيد في المرأة في ادب العصر العباسي ص/٣٢٧ -
٣٣٥ .

المستظرف من أخبار الجوالي - السيوطي : جلال الدين ،
تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٧٦ / بيروت .

مطالع البدور في منازل السرور لابن عبدالله البهائي الغزالي
ط : ١ ، ١٣٠٠ ، مطبعة الوطن .

معجم الفاظ القرآن الكريم - عبدالباقى . القاهرة .

معجم البلدان - الحموي : ياقوت ، ط : طهران .

المعرب - الجواليقي : ابو منصور : موهوب بن احمد
(٥٤٠ هـ) تحقيق احمد محمد شاكر ، ١٣٠٩
(بالانست) طهران ١٩٦٦ .

المنتظم في تاريخ الامم والملوك - ابو الفرج عبدالرحمن بن
الجوزي . حيدرآباد / الدكن ، ١٣٥٩ .

الموشى - الوشاء : ابو الطيب محمد بن اسحق . تحقيق كمال
مصطفى ط : ٢ / الخانجي القاهرة ١٣٧٣/١٩٥٣ .

نساء الخلفاء - ابن الساعي : علي بن انجب . تحقيق :
مصطفى جواد .

نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة - دار المعارف / مصر .

الوافي بالوفيات صلاح الدين ايبك ١٣٨١ - ١٩٦١ .
ط : ٢ .

الورقة لابن الجراح : ابو عبدالله محمد بن داود تحقيق
عبدالوهاب عزام طبعة المعارف/مصر .

وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان - ابن خلكان ت (٦٨١ هـ)
تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد . النهضة/
مصر ، ١٩٦٧/١٩٤٨ . ط : ١ .

يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر لابي منصور عبدالملك بن
محمد الثعالبي (ت - ٤٢٦) حققه محيي الدين
عبدالحميد .

المجلات :

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٣م / ٣ ، مقالة

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٢م / ٢ .

مجلة الرسالة لسنة ١٩٤٠ / ٨ مقالة ميخائيل عواد .

مجلة لغة العرب ١٩٣٠ مقالة انتاس الكرملي .

الديارات - الشافعي : ابو الحسن علي بن محمد (ت
- ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة
المعارف / بغداد ١٩٥١ .

ديوان ابي نواس - تحقيق وضبط احمد عبدالمجيد الغزالي .
دار الكتاب العربي / بيروت ، لبنان .

رسائل الجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون . مطبعة
الخانجي - القاهرة / ١٩٦٤م / ١٩٦٥م .

شفاء الغليل - الخفاجي : شهاب الدين . ط : ١ ، ١٣٧١ هـ ،
١٩٥٢م النورية / الازهر . القاهرة .

الصداقة والصدق - ابو حيان التوحيدي - تحقيق ابراهيم
الكيلاوي - دار الفكر بدمشق / ١٩٦٤ .

طبقات الشعراء لابن المعتز - تحقيق عبدالستار احمد فراج ،
مطبعة المعارف ، مصر .

طبقات النحويين واللغويين لابي بكر الزبيدي ، تحقيق محمد
ابو الفضل / المعارف ، مصر .

الظرفاء والشعاعون في بغداد وباريس - صلاح الدين المنجد .
الرسالة ، بيروت .

الكامل في التاريخ - ابن الاثير : محمد بن محمد (٣٦٩ هـ) ،
بيروت ١٣٨٦/١٩٦٦م دار الثقافة . صادر وبيروت .

لسان العرب - ابن منظور : جمال الدين محمد ، ١٩٥٦ /
١٣٧٥ .

المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري : (رسالة
ماجستير) لعبداللطيف عبدالرحمن / ١٩٧١م .

الحاسن والمساوي - ابراهيم بن محمد البيهقي - تحقيق
محمد ابو الفضل القاهرة / ١٢٨٤ .

الحاسن والافساد - الجاحظ / دار مكتبة العرفان ، مطبعة
الساحل الغربي .

محيط المحيط - بطرس البستاني .

المرأة في الادب في العصر العباسي - واجدة الاطرجي (رسالة
دكتوراه) حتى نهاية القرن الرابع الهجري .
١٩٧٨/١٣٩٨ .

المستظرف في كل فن مستظرف - شهاب الدين احمد الابشيبي
(ت ٨٥٠ هـ) ١٣١٤ .

سِفَانَةٌ مَرْفُوعَةٌ كَذَا إِلَى الْإِمْبَرَاطُورِ الْبِيزَنْطِيِّ بِاسْمِهِ الثَّانِي

بقلم

أميدروز (١)

ترجمة

يعقوب أفندي منصور

بغداد - الجمهورية العراقية

مؤخرا الى عضد الدولة ، ومنها اوفد شقيقه (قسطنطين) رسولا عنه الى بغداد ، مناشدا اغاثته (٤) ، وعارضا له الولاء . في ذات الحين ، قدم الى بغداد رسول من الامبراطور (باسيل) مع تعليمات بالظفر ، مهما كلف الامر - بتسليم (سكليروز) الذي يبدو انه كان رهانا ثميناً في لعبة العاهل السياسية . عليه ناصر عضد الدولة قدمه الى بغداد سريعا مع اتباعه ، وابتدأت اللعبة .

لقد عولج تاريخ الامبراطورية البيزنطية في هذه الحقبة من قبل المؤرخ شلمبرغر (٥) في مؤلفين فرنسيين موسومين : (امبراطور بيزنطي في القرن العاشر) (٦) بمجلد واحد يغطي فترة حكم (نيسيفوروس فوكاس) (٧) و (الملحمة البيزنطية في ختام القرن العاشر) (٨) في ثلاثة مجلدات ، الاول يشتمل على فترة حكم (جون زيميسكس) (٩) ، وعهد

تشتمل الصفحات التالية على عرض تفصيلي نوعا ما ، بمفاوضات خاصة بين عضد الدولة البويهى وبين الامبراطور (باسيل) - ذابح البلغاريين - جرت في اعقاب وجود (برداس سكليروز) (٢) - المنافس المفلوب للامبراطور باسيل - في بغداد اسيرا معززا . ان اندحاره في بانكاليا (٣) عام ٩٧٩ كان قريب العهد جدا باحتلال العراق نهائيا من قبل عضد الدولة ، تلاه اقضاء ابي تغلب الحمداني قسرا عن الموصل . لقد جمعت المصلحة الذاتية بين عضد الدولة وبين (برداس سكليروز) ، وقد عززت تلك المصلحة رابطة تجلت في مؤازرة احدهما الاخر لمجابهة خصمي كل منهما ، وقد تم قهرهما . كان اندحار ابي تغلب الحمداني نهائيا عندما تم لعساكر عضد الدولة البويهى اخراجه من ديار بكر ، وفر الى سوريا حيث قضت عليه يد غادرة ، لكنه حتى آنئذ لم يقم اي عائق منيع حال دون مطمح (سكليروز) . لقد فر الى ميفارقين التي آلت

(٤) استعمل صاحب البحث كلمة (Succour) وهي تعني الاغاثة او اللجوء .

(٥) M. Schlumberger

(٦) Un Empereur Byzantin au Xe Siecle

(٧) الذي ذكرته المصادر العربية Nicephorus Phocas التي اعتمدها صاحب البحث باسم (نفور) .

(٨) L'Épopée Byzantine a la Fin du Xe Siecle

(٩) John Zimisce

(١) والبحث منشور بمجلة الجمعية - H. F. Amedroz الآسيوية الملكية

Journal of The Royal Asiatic Society

لعام ١٩١٤ - الصفحات ٩١٥ - ٩٤٢ .

(٢) الذي تذكره المصادر العربية التي Badras Scleros اعتمدها صاحب البحث باسم (ورد) .

(٣) لم اهد اليها في معجم ياقوت Pancalia

أعده (ناو) (١٦) للنشر استنادا الى مخطوطين سريانيين مشتملين على أسماء لقديسين مختلفين تظهر بشكل مترجم (١٧) ، حيث نفس القديس في احد المخطوطين يدعى (فوكاس) ويدعى في المخطوط الآخر (نوهرا) التي تعني الضوء بالسريانية .

ان مبعوث الامبراطور باسيل الى بغداد يعرف عند المؤرخ يحيى بن سعيد الانطاكي بـ (نيسيفوروس اورانوس) الذي غدا فيما بعد قاضيا وواليا لانطاكية (١٨) بينما كتاب (تجارب الامم) في ص ٥٠٠ يذكر فقط ان المبعوث كان شخصا ذا منزلة متميزة ، ويؤكد على الحقيقة انه وشقيق (سكليروز) كانا سوية في بغداد يخطبان ود عضد الدولة ابان العام ٣٦٩ هـ باكملة كظرف يفضي كثيرا الى اجلال ذلك العاهل . ونص (ذيل التجارب) المشار اليه آنفا ، الذي اورده ابن الاثير (١٩) ، يذكر اندحار

Nau (١٦)
Patr. Or. الجزء العاشر ص ٥٢ .

(١٨) في ص ١٥٨ ، ١٥/١ ثم في ص ١٨٤ ، ٤/١ ويدعى Magister و Kuntus وفي ص ١٦٧ ، ٦/١ نقف على امر فراره من بغداد بعد اطلاق سراح (سكليروز) والتحق نانية بباسيل . في العام ٩٩٦ دحر البلغاريين (الملحمة ١٢٤/٢ - ١٤٢) وفي عام (١٠٠٠) أضحى واليا على انطاكية خلفا لـ (دميانوس دالاسينوس) الذي اندحر وقتل في (افاميا) - انظر (ابن القلانسي ص ٥١ - ٥٢) و (الملحمة ص ١٥٨) - اميدروز .

(١٩) اكتشف (فون روسن) من دراسته لشطر يتعلق بـ (يورليان) في كتاب (تجارب الامم) المخطوط ، ص ٣٥٧ ، انه المصدر الذي اعتمدته رواية ابن الاثير (الملحمة ٢١/١ رقم ٤) . كما ان ابن الاثير استفاد من (ذيل التجارب) وفي الجزء ٨/ص ٥١٧ ود ذكر وفاة زيميسكس بفعل السم الذي دسه له الشقيق الخصي لثيوفانو ، وهو الشقيق « الذي كان وزيرا منذ وفاة (رومانوس) ، والذي كان لقبه باركاموس (**) » - او باراكوي مومينوس (**) - وبهذا الشكل توصل الى السلطة « . ان الخصي السالف ذكره كان (باسيل) ، الابن الطبيعي (غير الشرعي) لرومانوس ليكابينوس (**) الذي أعان نففور (نيسيفوروس) في اعتلائه العرش ، وأقصى برنجاس (**) . لكن في فقرة أخرى يورد ابن الاثير رواية أخرى . في استعراضه التاريخ البيزنطي حوالي ٤٢٣ هـ ، منذ مولد باسيل فصاعدا (الجزء ٩ ص ٣٤٠ - ٣٤٢) يعزو دس السم الى كاهن حرسته « ثيوفانو » (**) من مناهها في

(باسيل) (١٠) وحتى عهد يعدو اوان تلك الاحداث . لهذه الحقبة بالذات ، انتفع المؤلف بالمقتنيات ، المعلق عليها بالحواشي ، من تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي المكتوب حوالي عام ٤٠٦ للهجرة (الموافق ١٠١٥ م) والذي هو تنمة لكتاب (يوطيخوس) المعروف بسعيد بن البطريق الاسكندري ، اللذين نشرهما عام ١٨٨٣ من قبل فون روسن (١١) .

ان (شلمبرغر) يذكر ان عرض يحيى بن سعيد الانطاكي للاحداث يتسم بكونه اكثر استفادة كما هو اكثر اتساقا مع الارجحية مما هو مستقى من المصادر البيزنطية ، ولذا فقد عدها اساسا لسرده الاخباري . كما ان عرض يحيى الانطاكي يتفق تماما مع نصوص تاريخ (تجارب الامم) لابي علي مسكويه ، التي تم الوقوف عليها مؤخرا ، وتمتها (ذيل تجارب الامم) لابي شجاع (١٢) ، طبعة جب ، المجلد السادس ، ومنها تم استقاء تفصيل هذه المفاوضات .

ثمة بعض الالتباس في التواريخ الاسلامية بشأن اسمي برداس : فوكاس وسكليروز . فيحيى بن سعيد الانطاكي يميز بينهما بشكل صحيح . والآخر (١٣) مشار اليه في (تجارب الامم) ص ٤٨٨ فيما يتعلق بابي تغلب ، بكونه الحاكم البيزنطي المعروف بـ (ورد) الذي استبدلته العساكر الناقمة بالحاكمين (باسيل) و (قسطنطين) ، كما ورد ذكره ثانية في ص (٥٠٠) فيما يتعلق بايفاد اخيه كرسول الى بغداد باسم « سكليروز المعروف باسم ورد » ، وفي فقرة من (ذيل تجارب الامم) الذي هو العماد في رواية ابن الاثير ، المجلد ٨ ص ٥١٦ - ٥١٧ ، يدعى (فوكاس) باسم (ورد) و (ورديس) بن لاؤون ، بينما (سكليروز) يدعى (ورد بن منير) . هذه التسمية الاخيرة عسيرة على الفهم ، ولو انها استعملت للدلالة على (فوكاس) بدلا من (سكليروز) لكانت اقل غموضا ، اذ ادى هذا اللبس في اسمه الى ان يدعى (فوتيوس) (١٤) . فان السيد (بروكس) (١٥) يفيدني بان نصا سريانيا

Basil (١٠)

Von Rosen (١١) في كتابه الموسوم :

Zapiski Imp. Ak Nauk Vol. XLIV,

Appendix I.

(١٢) تم العثور على مخطوطته في استانبول من قبل احمد زكي باشا (اميدروز) .

(١٣) يقصد سكليروز (Scleros)

Photius (١٤)

Mr. E. W. Brooks (١٥)

- * Barkamus
- ** Parakomomenos
- *** Romanus Lecapenus
- **** Bringas
- ***** Theophano

ما يلي ترجمة نص (ذيل تجارب الامم)
- النسخ المصورة ٤٤ - ٦٦ - التي يعود الفضل
فيها كثيرا الى الاستاذ مرجليوث (٢٠) .

بيان بالمفاوضات التي جرت بين عهد البولة وبين الحاكم البيزنطي بتبادل الاتصالات شفاهها

ان الباعث على هذه الاتصالات ، هو الحقيقة
التي سبق ذكرها ، الا وهي ان (برداس) قد نفذ
الى الامصار الاسلامية ، وكان ذلك بمثابة نذير
للكام البيزنطي ، فافد مبعوثا الى عهد الدولة .
وارسل الرد بواسطة ابي بكر محمد بن الطيب
الاشعري ، المعروف بابن الباقلاني (٢١) ، الذي آب
مع مبعوث يعرف بابن قونس الذي ، عند رجوعه ،
مضى برفقة ابي اسحق بن شهرام بطلب عدد من
الماعل من العاهل البيزنطي . فوصل ومعه رسول
يدعى نيسيفوروس الكانكلي (٢٢) وهو يحمل هدية
سنية .

خلاصة بكل ما جرى حسب اقوال ابن شهرام نمت عن حصافته وحيطته وحزمه

تقول الخلاصة : « عند وصولي خرشنة ،
علمت ان الخسيس (٢٣) (يقصد برداس فوكاس)
قد غادر القسطنطينية ، وشرع في اعداد استعداداته
وان معه مبعوثا من حلب يعرف بابن (مامك) ،
وكذلك كليب ، حمو ابي صالح السديد . وكان
كليب احد مناصري (برداس) وضمن المتمردين
الذين صدر الصفح عنهم ، واقاموا في ارض بيزنطية
بعد تفريمهم . لقد اعتزم البيزنطيون تفريمه سوة

(٢٠) Professor D. S. Margoliouth
(٢١) انظر ابن خلكان ٦٧١/٢ - اميدروز
(٢٢) هذا المامور هو نيسيفوروس

Nicephorus the Kanikleios

(نقفور) اورانوس وقد نعت في (ذيل التجارب)
بالكانكلي الماخوذة من (كانيكليوس) الرومية التي تعني
حامل الدواة (الحبرة) .

(٢٣) استنادا الى بعض القواميس أستطيع ان ادل على كلمة
(Domesticus)

بمعنى (خسيس) وهي في اعتقادي توازي رتبة مدير
المكتب الخاص في عهدنا وقد دل عليها (ذيل تجارب
الامم) بـ (الدمستق) .

(ورد بن منير) امام (ورديس بن لاؤون) بعهد
منازلتهما منفردين (انظر الملحمة ٤٢٣/١ - ٤٢٤)

ان الخطوة الثانية في اللعبة السياسية كانت
ارسال مبعوث مسلم الى بيزنطية في عام ٣٧١ هـ ،
هو القاضي ابو بكر الباقلاني (ابن الاثير الجزء ٩
ص ١١ - ١٢ ، وقد ترجم له ابن خلكان في الجزء
٢ ص ٦٧١) . ويذكر المؤرخ يحيى الانطاكي
(ص ٣/١/١٥٩) ان ارسال مبعوث بخصوص
(سكليروز) الذي يدعوه (ابن سهره) - وفي احد
مخطوطات الكتاب يرد ذكر الاسم صحيحا بانه ابن
شهرام - وعد فون روسن هذا تحريفا لاسم القاضي
وهذا من دواعي استغراب شلمبرغر (ص ٤٤٢ رقم
٢) نظرا لعدم المامه بالاحتمالات التي يعطيها الحرف
الشرقي ، ويلوح ان استغرابه له ما يبرره . ان
المهمة ، التي من اجلها ارسل القاضي ، لم تؤد الى
نتيجة ملموسة ، هذا اذا تركنا جانبا الرواية
الدرامية لتملصه من تقديم الاجلال الى (باسيل)
كما سردها ابن الاثير ، وكذلك السمعاني في ملاحظته
عن القاضي في (الانساب) - طبعة جب ٤/١/١٦٢ -
وافاد فضلا عن ذلك - كما يفيد فون روسن -
بايفاد رسول عن عبدالرحمن القرطبي الى احد ملوك
النورماند . اما انطلاق ابن شهرام في مهمته ، فقد
جرى في تاريخ لاحق ابان عام ٣٧١ هـ ، وكانت
تعليماته - كما اورد يحيى بن سعيد الانطاكي -
تتفق تماما مع نص (ذيل تجارب الامم) ، بيد ان
نصا لاحقا اورده يحيى الانطاكي بشأن احتجاج
(نيسيفوروس اورانوس) في بغداد بباعث من
الارتياب في تدبير مكيدة القضاء على (سكليروز)
بدس السم له (وهذا يتكرر في «المكين» و «الملحمة»
٤٤٣/١ رقم ٥) ، ليس ما يؤيده في كتاب (تجارب
الامم) ولا في (ذيله) ، ويبدو انها في الحقيقة تتعارض
كلها مع التفاصيل التالية بصدد المأمورية التي من
اجلها اوفد ابن شهرام .

* * *

دير ناء ، ومنه عادت في اليوم الذي قضى فيه زيمسكس ،
بينما ورث باسيل العرش وهي وصية عليه بسبب
هدائته . وتاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ص ١/١/١٤٧
يذكر فقط وفاته عام ٣٦٥ هـ ، ويقول ان باسيل
وقسطنطين ولدي (رومانوس) اصبحا الحكام
الحقيقيين ، لكن الحكومة اديرت من اكبرهما (باسيل)
فقط . وكانت سنة ذلك ١٨ عاما ، وانه اعتمد على
(البركاموس) واستدعى والدته (نيوفانو) من المنفى
- اميدروز .

إبان عن لطفه ، وارتضى المصالحة المعروضة مع
الاعراب عن شكره .

ثم استفهمني الغرض من قدومي ، فاوقفته
على ذلك بشكل واف . واسترعى (ابن قونس)
انتباهه الى الصيغ المشتركة ، فلما اطلع عليها ،
قال : لو افلح الرؤساء في جعلنا نتخلى لهم وديا عن
المناطق والحصون التي يرومون ، لشرع كل منهم في
التخطيط لتحاشي ضرورة الابقاء على قوة من
الرجال ، والقيام بتسديد الاموال . فاجبت : انه
حيث تم دعم التدبير بالقوة والمقدرة ، فهذا برهان
على نبل المسلك ، ويجب ان يجابه بالقبول .
فاستفسر : « لكن ماذا بشأن حلب ؟ فهي ليست
شظرا من منطقتكم (يقصد ملك عضد الدولة) ،
وحاكمها لا يهتم بكم ، ومبعوثه هنا وكليب يعرضان
علينا خراج ارضها ، وينشدان حمايتنا ، اما
بخصوص الحصون ، فقد ضبطت في عهد عمي
نيسيفوروس(٢٦) وملوك آخرين ، ولسنا احرارا
في التخلي عنها . لذا ان استطعت ان تقدم اي
اقتراح عداه ، فافعل ، والا فوفر على نفسك مشقة
الرحلة الطويلة » . اجبت : « ان حزت ايعاز مليكك
بمفادرتي ، فاني سابارح ، لكن اذا قلت ذلك من
تلقاء ذاتك فقط ، فالمليك يجب(٢٧) ان يصفي الى
ما اقول ، واسمع رده كي اعود بمعلومات موثوقة » .
فاجاز سيري . فانطلقت نحو القسطنطينية ،
ودخلتها بعد ان استقبلني ورافقني مأمور البلاط
بمنتهى اللطف . وانزلت باعزاز في جوسق
نيسيفوروس (حامل الدواة) - المبعوث الذي
معي - وكان من اعوان العاهل . ثم استدعيت
للمشول امام الحاجب (اي باسيل المخصي) الذي
قال : « قد وقفنا على المخاطبات التي حملت على
ارسالك ، لكن افصح عن مراميك » . آنذاك ،
ابرزت الاتفاق الحقيقي(٢٨) الذي تفحصه ، ثم قال
« ألم يتم حسم التخلي عن خراج بلاد ابي تغلب(٢٩) ،
سابقا ولاحقا ، مع الباقلائي وفقا لرغباتكم ؟ ألم
يرتض شروطنا لارجاع الحصون التي قد

بالاخرين ، وليخسر الاملاك التي وهبت له عندما
استنبط وسيلة لتسليمهم حصن (برزويه)(٢٤) .
لكنه الفى وسيلة لارضاء الحاجب(٢٥) والخصيص ،
واستطاع الحصول على تعهدات للعاهل البيزنطي
بخصوص حلب وغيرها ، كانت كافية أن تدفع
خطرا عاجلا ، مع العرض بضمان دفع فوري لما
يتعلق بخراج حلب وحمص لان قريبه هو الذي وعد
وما كان ليعارضه . فتخلص منه بهذا الشكل . اما
المبعوث من حلب ، فلم تتم تسوية اي شيء معه ،
لكنه طوالب بتراكمات خراج السنين السالفة .

وعند وصول الخصيص الى موضع ينأى عن
طريق البريد ، انطلق نحوه ابن (قونس) وانا معه ،
فالفيته حدثا مزهوا بنفسه ، وكارها اتمام المهادة
لعوامل مختلفة ، أحدها انه يستطيع الاستغناء
عنها في الوقت الراهن ، وانها ستضر بسمعته ،
وثانيها ان الحاكم البيزنطي كان تواقا اليها ،
معبرا : « ونحن في خشية من ايداء يلحقنا منه » ،
وثالثها : آماله وامنياته الذاتية . لكن في ذات الوقت

(٢٤) استنادا الى ياقوت الحموي : « حصن قرب السواحل
الشامية على سن جبل شاهق ، يضرب بها المثل في
جميع بلاد الافرنج بالحصنة ، تحيط بها اودية من
جميع جوانبها ، وذرع علو قلعها (٥٧٠) ذراعا ،
كانت بيد الافرنج حتى فتحها الملك الناصر صلاح الدين
يوسف بن ايوب في سنة ٥٨٤ هـ . ويقول اميدروز
صاحب البحث انها كانت على الطريق التي سلكها
(زيمسكس) في آخر حملة على سوريا عام ٣٦٤ هـ ،
وان وصف يحيى الانطاكي في تاريخه بشأن التسليم وتسمية
كليب حاكما على انطاكية (ص ١٤٦/٥) وارد في الملحة
(٢٩٩/١) ، وقد سلم كليب نفسه وانطاكية ايضا فيما بعد
الى (سكليروز) الذي جعله واليا على (ملاطية) ص
٨/١/١٤٧ و ٦/١/١٤٨ - و (الملحة ٢٧٦/١-٢٧٧) ،
وان سيف الدولة ضبط (برزويه) من البيزنطيين عام
٣٢٧ كما ورد في كتاب موسوم (امبراطور بيزنطي ص
١٢٢/رقم ١) .

(٢٥) استنادا الى القواميس تعني هذه الكلمة
(Chamberlain) :

« الحاجب » كما تعني أمين الخزنة أو المال ، والمعنى
الاول اقرب الى المراد في اعتقادي ، وقد أوردتها كتاب
(ذيل تجارب الأمم) بصيغة (البركموس) وهو المخصي
(باسيل) الذي أعلن عن موالاته لنيسيفوروس فوكاس ،
وعند فوزه حل محل برنجاس(*) كرئيس المستشارين ،
وابت كذلك حتى طرده (باسيل) عام ٣٧٥ هـ (عام
٩٨٥ م) استنادا الى تاريخ يحيى الانطاكي (ص ١٦٥/١
١٢) والى (الملحة ٥٧٣/١) - اميدروز والمترجم .

(*) Bringas

- (٢٦) كان المتكلم نجل ليون فوكاس ، شقيق نيسيفوروس -
اميدروز .
(٢٧) استعمل صاحب البحث معنى الوجوب بكلمة (Ought)
بينما صاحب (ذيل التجارب) استعمل معنى الجواز
بكلمة (يجوز) .
(٢٨) ان النص الانكليزي للبحث نعت الاتفاق بكونه (الحقيقي)
بينما نص (ذيل التجارب) نعته بكونه (الظاهر) .
(٢٩) ابن ووريت حكم ناصر الدولة في الموصل - اميدروز .

ضبطناها(٢٠) ، وفي القبض على برداس (ورد) ؟
لقد ارتضى سيدك هذا الاتفاق ، وعمل وفقا
لرغباتنا ، اذ لديكم تصديقه على المهادنة بخط
يده «(٢١) . فأجبت : « لم يتوصل الباقلاني الى
أي اتفاق قط » . فأجاب : « انه لم يغادر الا بعد
ان سوى شروط الاتفاق الذي مصادقة مولاه عليه
كانت ستوصل إلينا ، وقد سبق ان ابرز خطابه
بشأن الموافقة على الشروط باكملها » . لذا ارغمت
ان اجد وسيلة لجابهة هذا الوضع(٢٢) .

فكرة رائعة عنت لابن شهرام لرد حجة الخصم

فقلت : « لم يتوصل ابن الباقلاني الى أي
اتفاق معكم . ان ابن قونس هو الذي صاغ هذا
العهد واخذ نصه الاغريقي » . عندئذ استشاط(٢٣)
الحاجب واستفهم ابن قونس : « من خولك بهذا ؟ »
فأجاب انه لا هو ولا ابن الباقلاني قد سويا اي شيء ،
وانسحبت .

وغب ايام استدعائي الحاجب ، واعاد قراءة
الاتفاق ، فتوقف حيث تطرق الموضوع الى « ما
يجب حسمه مع ابن شهرام على اساس ما تضمنته
النسخة الثالثة » . فقال بان هذه إحدى النسخ :
فان النسختان الاخيران ؟ لدى مراجعتي تلك
الفقرة ، الفيت السهو قد وقع في ترك ذلك ، وقلت :
« معنى الفقرة هو ان يكون الاتفاق بثلاث نسخ :
احداها تكون لدى الحاكم البيزنطي ، والثانية تكون
في حلب ، والثالثة في العاصمة - بغداد » فدحض
ابن قونس ذلك ، قائلا ، ان تعليماته كانت ان يدون
المعنى الحقيقي للاتفاق وقال الحاجب ان هذه

(٢٠) نص البحث يفيد قول الحاجب البيزنطي بموافقة
الباقلاني على شروط البيزنطيين لاعادة الحصون التي
قد ضبطوها :

“The Fortresses we had taken...”

بينما نص (ذيل التجارب) يفيد النقيض : « رد الحصون
التي أخذت منا » .

(٢١) نص البحث يعطي المعنى الذي ترجمته للعبارة :

“For you have his ratification of the
truce under his own hand”

بينما نص (ذيل التجارب) فاسد المعنى : « وطلبنا ان
خطك معك بتمام الهدنة » .

(٢٢) نص (ذيل التجارب) لهذه الجملة متسم بالضعف
والغموض : « فاحتجت الى أن أطلب مجالا أقام به
مجالهم » .

(٢٣) في (ذيل التجارب) وردت هذه الكلمة (اشتط)
وصحیحها اشتط أو اشتط .

النسخة كانت الموعول عليها(٢٤) ، وان النسخة الثانية
اتت على ذكر لتخلي عن الحصون ، بينما النسخة
الثالثة لم تتطرق الى أي ذكر لحلب ، وان الاتفاق
تم توقيعه بمقتضى الشروط المتفق عليها مع ابن
الباقلاني ، والفرض الوحيد من ارسال هذه النسخة
هو استحصال توقيع الملك وختمه عليها . فكان
ردّي على ذلك : « يستحيل ان يكون الامر كذلك ،
فتعليماتي هي مجرد ما ذكرت بشأن حلب
والحصون ، وفقا للاتفاق الذي شاهدت » .
فأجاب : « لو كان برداس (ورد) - أي سكلروز -
هنا في العسكر ، وضبطتمونا جميعا اسرى ، ما كان
في مقدورك ان تطالب باكثر مما طلبت . فكيف
و (ورد) هو في الواقع اسير ؟ » .

رد حصيف لابن شهرام

أجبت : « لا اهمية(٢٥) لافتراضك : « لو كان
(ورد) في العسكر » ، لانك تعلم جيدا(٢٦) ان ابا
تغلب (الذي لا يرقى الى مصاف ادنى اتباع عضد
الدولة) عندما اعان وردا ، الحق الهزائم(٢٧) بالملوك
البيزنطيين طيلة سبعة اعوام . فكيف كانت الحال
ستفدو لو ان عضد الدولة اعانه بجيشه ؟ ومع ان
(وردا) اسير في قبضتنا ، فهو ليس عرضة للتمثيل
كما تفعلون باسراكم . ووجوده في العاصمة افضل
لنا(٢٨) ، اذ اننا لم نجعله مقيدا . ولو فعلنا ، لربما
ضاق صدره بصدده عنا ، ويئس منا مستوحشا ،
وتخلى عنا . بيد انه يعمل الان برفقتنا ، ومطمئن
الى الابهة والامن اللذين يشاهدهما في العاصمة .
والحقيقة اننا نمسك بكل الحبال » .

لقد اثرت فيه كلماتي ، واريكته كثيرا ، لانه
ادرك صحتها ، فقال : « ليس في الوسع تلبية
مطلبك . ان اردت ، سنوقع على ما اتفق عليه مع
الباقلاني ، والا فانصرف » فأجبت : « ان شئت
انصرافي بدون الاستماع الى العاهل ، فسأفعل »
أجاب : انه تكلم نيابة عن العاهل ، لكنه سيأذن لي
في المشول امامه .

في غضون ايام قلائل استدعيت فحضرت .

(٢٤) في النص الاتكليزي ورد هذا اللفظ (Ruling) وهو
مرادف للفظ الدارج (يحكم أو ياكل) بينما نص (ذيل
التجارب) يذكر (النسخة الظاهرة) .

(٢٥) نص (ذيل التجارب) يذكر « غلط » هذا القول المفترض

(٢٦) نص (ذيل التجارب) يذكر (تعلم) فقط .

(٢٧) نص (ذيل التجارب) يذكر (اهلك ملك الروم) .

(٢٨) نص (ذيل التجارب) يذكر (احوط لنا) .

خراج سمند(٤٦) (تكتب كذلك اسمند - قرية قرب سمرقند - استنادا الى ياقوت الحموي) . ولما استفهموا معنى ذلك ، اجبت : « ان الاطراف القصوى فقط هي التي تحدد في الاتفاق كي يكون جليا ان كل ما هو ضمن الاطراف مشمول بالهدنة فحصى (كيفا) هو قبل آمد (ديار بكر) بخمسة ايام . فكيف تذكرونه ؟ » .

اما الخلاف بشأن حلب ، فظل قائما حتى قال المشير (او القيم) : « ان سدد حاكم حلب الخراج الينا ، فسنعلم ان اقوالك باطلة ، وانه يفضلنا عليكم » . فاجبت : « وما هو الانبات الذي نملك بانكم لم تستميلوا كاتبه وحماه كليباً ليؤدي لكم شيئا ، فتتخذوه حجة ؟ فيغير حيلة ، اعلم ان ذلك لا يصح » ثم انصرفت .

ثم استدعاني العاهل ، وكان خراج حلب قد وصل آنذاك ، فالفيت لهجتهم قد تغيرت في الحدة والحزم ، اذ قالوا : « ها قد اتى خراج حلب ، وقد طلب الينا حاكمها التوصل الى اتفاق معه بشأن بلدي (حران) و (سروج) وفي مؤازرته لمهاجمتكم وقوى اخرى » . فقلت : « انا اعلم ان استلامكم الخراج بحيلة ، اذ ان عضد الدولة لم يتصور انكم ستحجزون لانفسكم القيام بما اقدمتم عليه ، والا كان في مقدوره ان يجرد جيشا لايقاف عسكركم . اما الذي تروونه عن حاكم حلب ، فانا اعلم منكم بافكاره ، وكل ما بلغكم عنه عار عن الصحة ، والدعوة فيها (حلب) قائمة لعضد الدولة(٤٧) . فسالوا ان كان لدي ما اضيف ، وعند اجابتي « كلا » ، اجابوا بان استاذن الملك بالانصراف مصاحبا بالحماية . فقلت : سافعل ذلك فورا . واستدرت نحو العاهل للاستئذان منه .

تحليل سليم لابن شهرام في هذا المازق

ان تعليله كما يلي : « تأملت الحال ، مدركا ان الحاجب والمشير (او القيم) والباقيين معهما يعارضون الهدنة المقترحة (فرجال الجيش يخشون الاستفناء عن سيوفهم ، والنقص في ارزاقهم كما كانت الحال عندما تعقد الهدنة في بيزنطية) ،

(٤٦) يلاحظ التضمن اللبيب انطواء هذا القول على سخرية بدلالة السطور التي ليه .

(٤٧) عندما وصل الى بغداد سعد الدولة ، نجل سيف الدولة ، قدم خضوعه الى عضد الدولة ، وادخل اسمه في الدماء بعد اسم الخليفة (يحيى بن سعيد الانطاكي ص ١٨/١٥٧) - اميدروز .

وطلب العاهل البيزنطي (باسيل) اعادة ما سبق ان تم التذاكر بشأنه في حضوري ، فقال : « لقد جئنا برسالة تستحق الشجب(٢٩) ، فرسولكم جاء واستحصل قبولنا بشروط معينة ، تضمنت اعادة الحصون التي ضببت ابان العصيان ، وانت الان تطلب التخلي عن حصون اخرى استولى عليها اسلافي . فاما ان ترتضوا ما تم عليه الاشتراط اولا ، او انطلق بسلام » . فاجبت : « لكن الباقلائي لم يتفق على شيء ، اذ فيما يتعلق بالصك الذي جلبه معه ، لقد جردتمونا - وفق شروطه - من نصف اراضينا . فكيف نقر شيئا كهذا ضد انفسنا ؟ فالحصون في ديار بكر(٤٠) لا تضبطون منها شيئا ، وديار بكر الان تؤول الينا(٤١) . كل ما تستطيع ان تفعل هو ان تنازعنا اياها ، وتجهل ما سيعقد مصير الصراع . آتخذ تدخل الحاجب(٤٢) قائلا : « هذا السفير متفنن في الجدل ، وفي مقدوره ان يزبن الكلام(٤٣) ، والموت افضل لنا من الاذعان لهذه الشروط . دعه ينصرف الى سيده » . فنهض العاهل ، وانصرفت .

انصرم شهران على مكوثي في القسطنطينية ، فاستدعاني الحاجب ، وكان برفقته المشير(٤٤) - وهو والد الخصيص - الذي الحق به العمى(٤٥) ، وعدد من البطارقة وتداولنا في امر الحصون . فعرضوا التخلي عن خراج حصن (كيفا) في حوزة والدة ابي تغلب التي كانت تستلم الخراج ، فكان جوابي عن ذلك : « وانا بدوري ساتنازل لكم عن

(٢٩) نص (ذيل التجارب) يذكر : (يا هذا قد جئت بامر منكر) .

(٤٠) في نص (ذيل التجارب) ورد هذا النص كالاتي : « فالحصون التي في ديار بكر منها شيء في قبضك » واعتقد ان النص يجب ان يكون : « ... ليس منها شيء » .

(٤١) لا يشتمل نص (ذيل التجارب) على هذه العبارة « وديار بكر الان تؤول الينا » .

(٤٢) لا ينعت (ذيل التجارب) مقال الحاجب بالتدخل بل يذكر : « فقال البركموس » .

(٤٣) نص (ذيل التجارب) يذكر : « هذا رجل ذف جسد ونمويه للاقوال » .

(٤٤) النص الانكليزي يذكر (Marshal) بينما نص (ذيل التجارب) يذكر (القربلاط) وهي تعني كذلك القيم على البلاط او الراسيم او التشرفات .

(٤٥) هذا المشير او القيم هو ليون فوكاس ، وقد الحق به العمى بسبب تسره على عصيان نجله برداس (ورد) على جون زيميسكس . لكن التمثيل به في هذه المسرة اجري قصدا برفق . انظر (الملحق ١ / ٦٦) - اميدروز

والسبيل الوحيد الذي تبقى هو استمالة المليك واسترضائه (٤٨) ، فخطبته قائلا : « ايها العاهل الا تتأمل مسلك عضد الدولة تجاهك في عدم مناصرته عدوك ، وفي عدم مهاجمته بلادك عندما كنت منشغلا مع العصاة ضدك ، اذ انك تعلم ان ارضيته لوحده ، وهو مليك المسلمين ، فذلك امر جيد وخير ، وخلافا لذلك يتحتم عليك ارضاء الالوف من مشايكتك ، ورضاهم غير موثوق منه ، واذا اخفقت في الحصول عليه ، فربما عليك ان تسترضي عضد الدولة فيما بعد . كما تعلم ان جميع من حوله يعارضون الهدنة المطروحة ، اذ هو فقط يميل اليها ، فهو قادر ان يفعل ما يريد ، اذ لا يجزؤ فرد ان يحاججه في ذلك . ارى انك تحبذ المهادنة معه ، لكن قد تكون رغبتك غير مدعومة من قبل اولئك المحيطين بك » . فانفعل بحديثي ، ولاح عليه الهم (٤٩) من جراء علمسي بمعارضة مستشاريه ، فنهض وغادر .

ان الشخص الخصيص بالعاهل ، والذي يقف حياله ، ويوقع نيابة عنه باللون الارجواني ، والملم بكل شؤونه الرسمية ، كان نيسيفوروس (نقفور) الكانكلي (حامل الدواة) الذي رافقني مبعوثا ، فسألته الانصراف معي ، ففعل .

الترتيب الذي توصل اليه ابن شهرام مع المستشار الخصيص بالعاهل ، وبه اصاب غرضه

عندما انفردت به ، تكلمت : « اروم ان تبلغ عني رسالة الى المليك . لقد طال مقامي هنا ، فعرفني بقراره النهائي . ان لبي مطالبي ، فهذا حسن ، والا فلا وجه لمقامي بعد الان » . وقدمت الى هذا الخصيص هدية تكريمية مما قد جلبته معي ، مشفوعة بوعود حسنة نيابة عن عضد الدولة . كانت رسالتي كالتالي : « ايها المليك : الاهتمام الاول هو ان تصون نفسك ، ثم ملكك ، ثم اتباعك عليك الا تشق بفرد ، مصلحته في اضرارك ، فبعون ابي تغلب نجم ما جرى في بلادك . اذا ماذا سيحدث لو ان عضد الدولة آزر القوات المعادية ضدك ؟ ان التوصل

(٤٨) يذكر نص (ذيل التجارب) : « الرق به » وهذه كلمة كبيرة في صدورنا عن رسول يتعامل مع عاهل ، وقد استعمل صاحب البحث كلمة (Conciliate) التي تعني (يسترضي) وهي انسب في اعتقادي .

(٤٩) استعمل صاحب البحث كلمة (Concern) وهي تعني الهم هنا ، بينما مؤلف (ذيل التجارب) اورد (الامتعاض) .

الى المهادنة بينك وبين اول الرجال (٥٠) وحاكم الاسلام ، لا اراه موافقا لهوى مستشاريك . لا يدرك الانسان الا ما لم يجرب ، ولقد حصلت لديك تجارب سبع سنين من العصيان عليك وعلى سلطتك فضلا عن ذلك ، ان دوام الدولة لا يعني دوام بقائك فالبيزنطيون لا يبالون بمن يكون عليها امبراطورا (النص هنا محرف) (٥١) . هذا على افتراض ان عضد الدولة باق في السلطة ، لقد اسديت اليك حسن المشورة ، لعلمي بميل صاحبي وتقديره نحوك . لذا تأمل خطابي ، وافعل كما تراه الافضل » فعاد (نقفور) قائلا : « الجواب هو ان الامور كما ذكرت ، لكن ليس في مقدوري مقاومة الجماعة ، وهم يحماون عني فكرة من غشهم وآذاهم . مع ذلك ، سامضي في الامر ، وافعل بقدر ما استطيع »

ومن حسن الطالع ، صادف ان الحاجب (باسيل المخصي) مرض مرضا شديدا ، وعجز عن الخروج ، واستمر تراسلي مع العاهل ، ومثلت امامه في ايام متوالية ، وخطبني بنفسه ، وآزرني الخصيص (حامل الدواة) بدافع من البغض والحسد اللذين يكنهما للحاجب ، حتى تم الاتفاق على الهدنة وفقا لجميع الشروط في الاتفاق ، ولم تلق المحاولات لاجراج حلب قبولا . وعند الحاجب على هذه النقطة بعزم قائلا : « بدون حلب لا يمكن ان يتم هذا » ، قال : « اقلع عن الاصرار ، فاننا لن نتخلى اكثر مما تخلينا عنه ، كما لن نخلي منطقة نستلم خراجها الا قسرا . لكنني سأنفذ معك خطابا الى صديقي مولاك ، لاني واقف على نبلة ، ولانه متى عرف الحقيقة ، فان يجانبها » . ثم طلب الى الذين حوله ان يبتعدوا ، وسرني قائلا : « قل لمولاك اني انشد حقاً رضاه ، لكن يجب ان املك برهانا عليه . ان شئتم ان نحول اليكم خراج حلب او ان اترك لكم جبايته شريطة ان يطرد ابن حمدان من حلب ، فانجزوا ما وعدتم عن لسان ابن قونس » - ملحما الى تسليم بدراس « ورد » - فقلت : « لم اسمع بذلك ، ولم اكن حاضرا آنذاك ، لكنني احسب فعله مستبعدا » . فانكر ذلك قائلا : « اقلع عن هذه الاطالة ، فلم يبق لديك شيء آخر تحاورني بشأنه » . ثم اوعز بتحرير الردود ، وكتبت جوابي ، وحضرت للاستئذان بالرحيل .

(٥٠) هكذا جاء في نص البحث "First of Men" بينما في (ذيل التجارب) وصف باوحد الدنيا .
(٥١) هذه ملاحظة صاحب البحث .

حادثة سعيد لابن شهرام

ولعدم رغبتني في وقوع مقدور يؤدي الى موت من راموا تسليمه ، كما يقع في نظير هذه الاحوال (النص هنا يبدو محرفاً) (٥٢) ، وكى تكون الهدنة مشتملة على جميع امصارنا حتى دون الفرات وبلاد باد (٥٣) بدون حلب ، قلت : « تعلم اني عبد مأمور ولست ملكا ، وعلي الا اتخطى التعليمات التي نقلتها اليك بصدق . اما شروطك بشأن حلب ، فقد اقسمت لك بانني لم اسمع شيئا بخصوصها في بغداد . لكن هل جلالتك مستعد للنظر في تدبير خطر لي بانه من الصواب ان تقره ؟ فاستفهم : « ما هو ؟ » واجبت : « ان تنص على الهدنة بيننا وبينك لتتضمن كل اقاليمنا من حمص الى منطقة باد بدون اي ذكر لقضية التسليم التي تنشدون ، فقط ولا شيء عداه ، وتقسم عليه بدينك ، وتوقعه بامضائك ، وتختمه بختمك في حضوري ، ومبعوثك سيوصله الى العاصمة معي ، حيث اما ان يقر واما ان يعيده مبعوثك » فسؤلت : « وهل ستعطي تعهدا خطيا مماثلا ؟ » فاجبت : « اجل ، عند تسليمي شروطك التي تبغي » فاجاب : « ولكن هل ستذكر في صكك تسليم الرجل ؟ » فقلت : « لا يسعني ذكر ما هو خارج تفويضي » . فقال : « اذا ساهي اتفاقين ، احدهما لما يتعدى الفرات ومنطقة باد ، والاخر بشأن حمص وحلب كما قد اشترط . عندئذ ، اذا اختار مولاك الاتفاق الذي يتخطى تخوم الفرات شريطة اقصائه (بدراس) ، فيستطيع ان يبقيه لديه ، وان آثر الاتفاق الاخر ، فبمقدوره ان ينفذه » . فاقترحت تحرير الاتفاق بدون اي ذكر لهذه المسألة ، فقال : « اذا ، دون ذلك ، اذ لن اعطي أي شيء مكتوب بدون ان استلم الشيء

(٥٢) هذه ملاحظة صاحب البحث ، واعتقد انه محق في ذلك فنص (ذيل التجارب) يذكر : « ما يعرض مثله فيخرج من الجميع بغير مية (كذا) » . فالتشويش والقموض هنا جليان .

(٥٣) أورد صاحب البحث هذه الملاحظة بشأن (باد) : « هو الجد الأعلى لسلالة بني مروان الحاكمة في (ميفارقين) قام (باد) بمحاولة جريئة ضد الموصل بعد وفاة عضد الدولة ، لكنه أخفق وخر صريعا في المعركة . ولم يتسن لي التثبت من صحة هذه المعلومات .

المكتوب » . فقلت : « اذا ، دع ترجمانك ينشئ نسخة من اقوالي ، فان اقرتها عضد الدولة ، امكن نسخها في حضوره ، وتوقيعها من قبله » فوافق على هذا . استنادا الى ذلك ، حررت الشروط ، وجعلت الهدنة لعشر سنين . وعند الفراغ من هذا ، قلت : « لا تجعل رسولك كمجرد فيج (٥٤) ، لكن اطلعه على ما تروم منه ان يفعل طبقا لما اتفقنا عليه ، ووفقا لما يرتئيه ، وصادق على كل ما يقره » . فارتضى ذلك ، وحررت الصكوك بمقتضاه .

وعند مبارحة الحاجب داره غب ابلاله ، هاج لاسباب منها تفرد الخصيص (حامل الدواة) بمليكه ، ومنها انجاز الامر في غيبته ، والسبب الثالث هو مسألة حلب وحمص والضمانات التي قدمها اليه كليب .

حديث ملك بيزنطية ، به استمال

مشاعر الحاجب

حسبما افادني به بعض خواصهم ، قال العاهل مخاطبا حاجبه : « ليس حولي ، كما تعلم يا حاجبي ، من يشفق علي نظيرك ، ولا من يحتل موقعك عندي ، اذ انت مني في ادنى نسب وصله (٥٥) ، اما الباكون ، كما قال السفير ، فقير مبالين ان كان الامبراطور انا أم غيري . يجب ان تصون نفسي ونفسك ، ولا تصفي الى قول المشير (ليون فوكاس) ، ولا تشق به او بمشورته ، اذ انت تعلم ما رواه ابراهيم عنه وعن ابنه (ورد) حول اضمارهما الفش للكننا وخبث نيتهما نحونا » . فسالت محدثي : من يكون ابراهيم ؟ اجاب : « انه رسول الخصيص اليكم ، وهو الذي اعلن للعاهل ناصحا ان الخصيص (اي برداس - ورد) قد انفذه

(٥٤) بفتح الفاء وتسكين الياء وتعني رسول السلطان ، الذي يسعى على رجليه ، وهي من الدخيل وقد اوردها صاحب (ذيل التجارب) فينصه حول الموضوع وترجمها صاحب البحث الى (Courier) ، ومن معانيها الساعي او رفيق السياح .

(٥٥) باسيل المخصي كان الابن الطبيعي (غير الشرعي) لرومانوس ليكابينوس والد هيلين قرينه قسطنطين پورفيروجينيتوس جد الامبراطور (باسيل) - اميدروز .

اليكم (يقصد المسلمين) ناشدا منكم معاضدته على العصيان» .

فتقبل الحاجب مقالة المليك ، وعندما استدعاني ، لاحظت فيه لهجة وانبساطا خلافا للسابق ، لكن نظراته ، في ذات الوقت ، ابانت عن عدم موافقته على الشروط التي حصل الاتفاق عليها . وتم ترشيح حامل الدواة ليكون رسولا معي بعد رفضه المهمة ، لكن العاهل الح عليه بذلك بعد ان لم يجد عده في اهليته ، واعانه الحاجب قائلا : « انت وانا اهم شخصيتين في البلاط ، وانا ينبغي ان يذهب » . وبلغ من جده في الامر حدا عزوته الى رغبة في اقصائه ، والى حسد لما رأى من منزلته الحيمة لدى العاهل .

هذا هو موجز معاني الفاظ ابن شهرام . آنذاك كان عضد الدولة عليلا ، ودخول الناس عليه كان محظورا ، فاعز ان يقدم اليه تقرير عما جرى . تلك العلة اودت بحياة عضد الدولة ، وبعد وفاته ، مثل المبعوث البيزنطي امام صمصام الدولة ، وتسلمت الهدايا منه ، وانجز المهمة التي قدم من اجلها ، فتم تحرير اتفاقين : احدهما الاتفاق الذي حصل مع ابن شهرام على اساس كونه كاملا ودائما والاخر الاتفاق المسبق الذي عقد مع تقفور (٥١) .

الاتفاق بشأن ورد واخيه ونجله

ان المداولات اسفرت عن ان تقفور سيمكت في بغداد ، ويوفد مندوبا عنه برفقة آخرين من بغداد لاستحصال توقيع العاهل وختمه لشقيق (ورد) - المعروف عند الروم باسم سكليروز - وابنه ، والامان والتوثقة لهما بضمان احسانه ، واعادتهما الى منصبيهما السابقين ، والى وضعهما المستقر . وعند وصول ذلك ، كان على تقفور ان يرسلهما الى العاهل البيزنطي ، بينما على ورد (سكليروز) ان يلبث في البلاد الاسلامية ، وان يمنع من التوجه نحو البلاد البيزنطية بغرض الاضرار ، وانه عند انضاح حسن معاملة الاثنين

(٥٦) أي عندما كان في بغداد رسولا من باسيل بعد فرار سكليروز (ورد) الى بلاد الاسلام - اميدروز .

الآخرين وفقا للتعهد ، عندئذ يجب ارسال (ورد) ايضا في غضون العام الثالث ، بعد استحصال التوثقة بمقتضى شروط على غرار ما تم مع ابنه واخيه ، وان المبلغ المدفوع كجزية (٥٧) عن حمص وحلب من ابن حمدان الى العاهل البيزنطي ، ينبغي - اعتبارا من ارسال ورد الى بيزنطية - تسديده الى خزنة صمصام الدولة ، واذا تأخر ابن حمدان عن التسديد ، فملك بيزنطية يرغمه آنذاك ، كي يوفر على صمصام الدولة ضرورة تجريد حملة عليه اما امر بلاد (باد) ، فيجب ان يتعين على ما كان من هدايا المجاملة (٥٨) الى الملك البيزنطي ، على اساس من المفهوم ان الاخير (٥٩) ان يعين (بادا) او يجيره ان اعتمد بالبيزنطيين . لقد ارسل الاتفاقان سوية وتم توقيعهما .

اما بخصوص ما جرى بشأن اطلاق (ورد) من محبسه ، فسيلي ذكره بعدئذ .

* * *

ان اعطاء الامان المقترح الى سكليروز (ورد) واقربائه لم يحصل ، واطلاقه من قبل خلف عضد الدولة جرى بعد انصرام عدة اعوام فقط عند اخفاق (باسيل) في حملته البلغارية ، وبسبب قيام (ورد) بالعصيان عليه بالاشتراك مع (فوكاس) - استنادا الى (المحمة ٦٧٥/١) وتاريخ يحيى الانطاكي (١٤/١/١٦٦) ، كان نجل سكليروز ، المدعو (رومانوس) قد تخلى آنذ عن قضية والده ، فاصاب حظوة رفيعة عند باسيل (المحمة ٦٩٤/١ ، ٦٩٦ ، ٧٧٢) . هذه الرواية لا تدعم حكاية احتجاج (اورانوس) في بغداد بسبب تدبيره قتل سكليروز (ورد) بدس السم له ، ولا تعطي دليلا ما ان باسيل

(٥٧) وصف صاحب (ذيل التجارب) هنا المبلغ بكونه (مال المفارقة عنهما) ، بينما عبر عنه صاحب البحث بالجزية (Tribute) كما تعني الاثاوة او الضريبة الثقيلة .

(٥٨) نص (ذيل التجارب) يقول : « على ما كان عليه من اللطافة » وهذا غير مفهوم في زماننا وقد ترجمه اميدروز الى (Complimentary Presents)

(٥٩) يقصد صاحب البحث البحث العاهل البيزنطي .

كان ساخطا على حكم وزيره (٦٠) ، باسيل المخصي ،
الذ كان سقوطه مقبلا في عام ٣٧٥هـ (٩٨٥م) وهو
التاريخ الذي حدده يحي بن سعيد الانطاكي (الملحمة
٥٧٣/١) .

كما انها تبين ان القيمة التي علقها باسيل على
تسليم سكليروز (ورد) كانت كما لو انه على
استعداد لثرائها على حساب الخراج بأكمله او
الجزية ، الواجب دفعهما اليه من حلب بمقتضى
شروط استسلامها الى (پيتر فوكاس) في عام
٣٥٩هـ (يحيى الانطاكي ١٣٤/١/١٥ و « امبراطور
بيزنطي » ص ٧٣٠) . ان هذا الشرط من المعاهدة
قد ابطال ، واستمر دفع المبالغ من حلب ولو بمقادير
اقل (يحيى الانطاكي ١٦٥/١/٢ و ١٦٦/١/٢٢
والملحمة ١/٥٥٠ ، ٥٧٠ - ٥٧١) ، ومرة واحدة
سددت كاملة « يحيى الانطاكي ١٧٦/١/١٢ والملحمة
٩٢/٢) . ان (شلمبرغر) يفترض ارسال المبالغ
بانظام (ص ٤٣٥) ، ومن المؤكد ان قسطا كان في

(٦٠) لأول مرة يذكر صاحب البحث بان باسيل المخصي كان
وزيرا ، بينما في المواضع السالفة ذكر « العاجب » .
وحتى صاحب (ذيل التجارب) ذكر الصيغة الرومية
« بركموس » ولم يذكره كوزير مطلقا .

سبيله الى بيزنطية عندما اعترضه سكليروز (ورد)
في الايام الاولى لتمرده (٣٨٣/١) . ويهمنسا ان
نعرف مدى اهمية هذه الجزية في بيزنطية كمال
مضمون للدولة ، وبتعبير اخر : ما كانت عليه قيمتها
الشرائية في السوق . ثمة كشف دقيق في كتاب
(الفرج بعد الشدة) ١٣٢/٢ و ١٢/١ ، انه قبل
زهة نصف قرن من ذلك التاريخ ، كانت قيمة
قطعة ارض في سواد بغداد شروى اربعة اعوام ،
بعد خصم الخراج وحقوق الدولة الاخرى . كما
يتضح ان ما متوقع استلامه من ضرائب الاراضي ،
احرزت قيمة مبيع عالية ، لانه هكذا كان المعول على
الواردات المالية للوزيرين (ابن مقلة)-تجارب الامم
الجزء ٥/٣٢٧ - ٣٢٨ - والمهلي (الجزء ٦/١٦٨ -
١٦٩ - وقارن هذا بما جاء في ص ٨٢٩ و ٨٣٦ من
مجلة الجمعية الاسيوية الملكية لعام ١٩١٣) . لكن
من ناحية ثانية ، كانت اهمية ما يتوقع الخليفة
من الجزية من حاكم خاضع له ، باعتبار ما جرى
بين رسول الخليفة وعم عضد الدولة وسلفه
(الجزء ٥ ص ٤٦٥ - ٤٦٦) تعتبر قليلة جدا في
سوق بغداد ، ومن الجائز ان ذات الافتراض سيكون
صحيحا فيما يتعلق بجزية حلب في سوق بيزنطية .

حَدَائِقُ الْحَيَواناتِ فِي بَغْدَادَ

بِقلم

عبدالمحمد علي

وزارة الشباب - بغداد

بابل المعلقة الشهيرة كانت تضم بين ما تضم من حدائق غناء جناحا كبيرا من انواع الحيوانات والطيور ولا سيما التي تعيش في المناطق الجبلية . في حين لم يبق الاكديون ببناء مثل هذه الصيغ من حدائق الحيوان ! .

والشكل الثاني هو احاطة مناطق تواجد الحيوانات بقوانين صارمة لحمايتها لا من منطلق الحفاظ عليها واتما من اجل توفيرها لاغراض الصيد مثل هذا النوع من القوانين كان واضحا ايام الملك الاشوري (آشور ناصربال الثاني) .

واحتوت مسلة الملك الشهير حمورابي في احدى موادها مواصفات للرقع الارضية وغطائها النباتي وامكن اختباء الحيوانات وكانت كلها تهدف الى حماية تواجد الحيوانات البرية في مناطق الامبراطورية البابلية وهي اشبه ما تكون حدائق حيوانات مفتوحة اي ما يسمى الان بالمحميات الطبيعية .

وقد انقرضت كثير من الحيوانات في تلك الفترة نتيجة الصيد المستمر ، ويبدو ان حيوان البيسون الذي كان يرتاد سهول امريكا بصورة خاصة كان نوعا منه على ما يظن موجودا في العراق وكان يعرف بالسومرية بكلمة « الم » وكانت له قدسية في العصر الكلاسيكي ، ولما انقرض (في الالف الرابع ق. م) استمر السومريون على تمثيله في فنونهم برأس عجل تشد عليه لحية متعارفة لان البيسون يتميز عن الثور بلحيته ، وهذا ما نشاهده في القيثارة الذهبية المعثور عليها في اور التي تبعد ١٥ كم عن مدينة الناصرية حيث

فتلكة عن فكرة انشاء حدائق الحيوان في وادي الرافدين

لقد كان العرب سباقين في كل شيء طرقوه من اركان الحضارة الانسانية في الابتكار والاختراع والتطوير ، فهم اسياذ افكارهم وبناء العلوم التي اصبحت فيما بعد اهم اساس بناء الحضارة العلمية العالمية . وقد يندهش اكثرنا اذا علم ان الاقوام العربية القديمة كانت هي اول من عرف اقتناء الحيوانات وبناء اماكن شبيهة بحدائق الحيوانات الحالية ، ويشير المؤرخون الى ان عملية انشاء او اقامة حدائق الحيوان في العصور القديمة في العراق مرت بثلاثة اشكال من الحدائق ، الشكل الاول مناطق الصيد المتواجدة ضمن الرقعة المملوكة لهذا الامير او ذلك وهذا ما شهدته على وجه التحديد فترة السومريين فقد كان ملوك هذه الدولة يمتلكون حدائق مسورة تضم كثيرا من الحيوانات لاغراض الاحتفالات التي كانت تعد لكهان وقادة الشعب والملوك (الذين يسهمون في خدمة آلهة القوم) وحاشيتهم فيرخي في اثناء مسيرته الدرج الثلاث لبلوغ قمة برج المعبد . ومن هذا المطاف السامق يتاح للمحتفلين ان يشاهدوا دخان الضحايا منبعثا من مزارات بعيدة ، وبعدئذ يهبون الآلهة الضحية التي تطلبها من المخلوقات الحية والتي تقضي بها الطقوس المقدسة (١) . ويؤكد المؤرخون على ان جنائن

(١) المعرفة/المجلد الاول - بيروت/ص ١٦٥ .

نرى اللحية مثبتة بشريط على انف العجل في مقدمة القيثارة (٢) .

ويذكر لنا الملك الاشوري تغلات بلاصر الاول (١١١٢ - ١٠٧٤ ق.م) بانه بعد ان طارد قبائل احلامي في حملته العسكرية الخامسة عبر نهسر الخابور قتل في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة حران عشرة فيلة واصطاد اربعة احياء نقلها الى بلاده ليحتفظ بها في الحديقة التي نظمها ليشاهد الحيوانات بصورة حية .

ويبدو من هذه الاشارة ان عدد الفيلة اخذ يقل في هذه الفترة . وظلت اعداد منها ترتاد الفرات في زمن اشور ناصربال الثاني الى ان انقرضت باصطيادها من قبل الاشوريين انفسهم في القرن الثامن قبل الميلاد . اما الاسود فقد كانت منتشرة في شمال العراق وجنوبه وظلت تذكر في الكتب العربية ، واخر اسد ذكر اصطياده كان عام ١٨٩٦ (٣) .

ومثلما انقرض البيسون والفيل والاسد ، كذلك انقرضت الخيول البرية والتمور والفهود والقطط وبقر المهاة وحمير الوحش والايال واليحمور والضباع والضان البرية ، ومن الطيور النعام وغيرها .

وينقل لنا زينفون صورة للبيئة التي شاهدها بنفسه عندما رافق في حدود عام ٤٠٠ ق.م الحملة التي سار بها كورش الامير الاخميني الثائر من آسيا الصغرى الى طيسفون (المدائن) . ويقول زينفون : البلاد سهلة منبسطة كالبحر مكسوة بشجيرات الافستين وبكل ما ينبت من الاعشاب والشجيرات ذات الرائحة العطرة ، الا انه لا توجد اشجار . ومن الحيوانات البرية الكثيرة الانتشار الحمار الوحشي والنعام ، وبلي ذلك كثرة الجباري ثم الغزالان التي طاردها فرساننا . والحمير الوحشي لما طوردت سبقت الخيل (لانها اسرع منها) ، ثم وقفت ولما اقتربت منها خيولنا ركضت ثائية ثم وقفت ، وهكذا لم يتمكن فرساننا من اصطيادها الا بعد ان انقسموا الى زمر فتمكنوا من ملاحقتها من جميع الجهات واستطاعوا اصطياد الواحد منها بعد الاخر . ان لحم الحمير المضطادة يشبه في طعمه

لحم الغزال الا انه اكثر طراوة . وظل هذا الحيوان يرتاد بادية جزيرة العراق الى زمن حديث . يذكر لنا المنقب المشهور ليارد بانه شاهد قطعيا من حمير الوحشي في طريقه من سنجار الى تلعفر في عام ١٨٤٦ (٤) .

اما الشكل الثالث فهو اقامة حدائق حيوانات حاوية على حضائر او بيوت من الاسلاك المشبكة ضمت الطيور بشكل اساسي ، وبطمنها الطيور التي كانت تأتي كهذا . وفي عهد ظهور الاسلام والدولة العربية اخذت حدائق الحيوان شكلا مميزا يتسم بالروعة والبهجة حيث احتوت قصور الخلفاء على نوادر الطيور والحيوانات الوحشية ، وفي نفس الوقت ومع بداية التطور العلمي في العصر الذهبي للعرب كانت حدائق الحيوانات والنباتات تتخذ كمراكز للتزود العلمي للفقهاء والعلماء في ذلك العصر . يقول الاب انستاس ماري الكرمليني « ان العرب سبقوا غيرهم من الامم في انشاء حدائق الحيوانات وانهم كانوا يسمون حديقة الحيوان (حيرا) ، وجمعه (حيران) ، ومنها القصور الشهيرة التي بناها الامويون في اطراف الجزيرة العربية مما يلي الاردن وسوريا من امثال قصر الحير الشرقي والحير الغربي وغيرها » .

ويقول الاستاذ ميخائيل عواد : (اتخذت الحيوانات الكاسرة في بدء الامر للهو فقط ، ثم جاء خلفاء بني العباس فاتخذها الاوائل منهم لاقامة الهيبة وحفظ نظام المملكة وحراستها من اطماع الرعية ، فارتبطوا بالاسود والفيلة والتمور . ذكر المؤرخون ان الخليفة المنصور عني بجميع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها واقتنائها لها واعدادها للحروب والزينة في الاعياد وغيرها ، انها اوطأ مراكب الملوك وامهرها . وكان للرشيدي اقفاص فيها الاسود والتمور وغيرها . ثم تطور الامر من بعد ذلك فعنى الخلفاء والامراء والملوك واعيان القوم بتخصيص محل واسع الارزاء يضم جملة كبيرة من مختلف اصناف الحيوان الكاسرة والداجنة والطيور والهوام والحشرات ويطلق على ذلك المكان « حير الوحش » فالحير : بستان واسع فيه انواع الحيوان وهو المسمى بالانكليزية (Zoo) ، والعرب سبقوا الامم المتقدمة . الى اتخاذ تلك الحضائر لحبس الوحش والحيوان فيها ، ودرس اخلاقها وعاداتها ، مع التفرج على ما هنالك من عجيب المخلوق (٥) .

(٢) البيئة الطبيعية القديمة في العراق/سومر ، الجزء

١ و ٢/ص ٥ .

(٣) المصدر السابق/ص ٧ .

(٤) المصدر السابق/ص ٧ .

(٥) حدائق الحيوان في العصور الاسلامية/ص ٢٠ .

بغداد أسبق العواصم في إنشاء حدائق الحيوان

لقد ولع الخلفاء العباسيين باقتناء أنواع الحيوانات والطيور والاسماك ، وذلك لحبهم للطبيعة وما يتعلق بها ، وبالنظر لان بغداد كانت عبارة عن غابة متشابكة الاشجار والنخيل مما جعلها تعج باصناف كثيرة من الطيور والحيوان وهذا كان يدفع الخلفاء والامراء والناس الى التمثل بهذه الغابة الكبيرة بحيث يجعلوا بعض الاماكن في دورهم او بقرىها غابات مصفرة لذلك .

ويشير الاستاذ سليم طه التكريتي الى ذلك فيقول : (بغداد سبقت غيرها من عواصم العرب والشرق في إنشاء حدائق الحيوانات وان تلك الحدائق لم تكن من معالم الابهة والزينة التي اغرق فيها بعض الخلفاء العباسيين ومن جاء بعدهم من السلاطين حسب ، وانما شاركهم في هذه الهواية انشاء حدائق الحيوان عدد كبير من الهواة الذين بزوا البعض من الخلفاء والوزراء في هذا المضمار) .

واشهر من استأنس الحيوانات وانشا لها الحدائق والمرابي ، وعهد الى ذوي الاختصاص رعايتها والقيام على شئونها الخليفة هارون الرشيد ففي عام ٧٩٧ م ارسل الخليفة نفسه الى الملك الفرنسي شارلمان هدية تتكون من فيسل وبعض النسايس اخرجها من حديقة حيوانات بغداد آنذاك . ولما افضت الخلافة الى الامين وجه الى جميع البلدان في طلب الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك . ولشدة ولعه بجمع الحيوان امر بعمل خمس حراقات في دجلة . والحراقات : (جمع حراقة وهي ضرب من السفن) وجعلها على شكل حيوان (اسد ، فيل ، عقاب ، حية ، فرس) . وكان الامين يتردد كثيرا على حير الوحوش ومعه ابراهيم الموصللي المغني الشهير - قال شاهد عيان ان ابراهيم غنى في احد الايام اشد طبقة يتناهى اليها في العود .

قال : وما سمعت مثل غنائه يومئذ قط ، ولقد رايت منه شيئا عجيبا لو حدثت به ما صدقت كان اذا ابتدا يغني اصغت الوحوش اليه ومدت اعناقها ولم تزل تدنو منا حتى تكاد ان تضع رؤوسها على المحل الذي كنا عليه ، فاذا سكت

وقد تجدد الاهتمام بانشاء حدائق الحيوانات في العراق في العهد العباسي لان انشاء مثل تلك الحدائق كان من مظاهر الترف الكبرى التي تفنن العراقيون في تنظيمها وتزيينها ، ومن هنا راح بعض الخلفاء وغيرهم من الموسرين والهواة يقبلون على انشاء حدائق الحيوانات في قصورهم وحدائقهم ويبدلون الاموال لجلب مختلف انواع الحيوانات من اقصى بقاع الارض .

وكانت حدائق الحيوانات لدى العراقيين تصمم على اشكال متباينة فالبعض من الهواة كانوا يجمعون الحيوانات والطيور في اقفاص وحظائر بين اشجار الفاكهة والكروم والاوراد . وكان بعض الناس يجمع بالاضافة الى الطيور والحيوانات المختلفة انواع الافاعي والحيات والعقارب والضبية (مفردة ضب ، نوع من الزواحف) والقطايا وما شاكلها في اقفاص خاصة بها في تلك الحدائق ايضا . وكان البعض الاخر يقيم حديقة منفصلة او يقطع ركنا واسعا من احدى حدائق قصره ليجمع فيه ما يستطيع جمعه من كل زوجين اثنين ويجعل لكل زوج منها قفص خاص به . وهناك من يفرد لكل زوج من الحيوان او الطير جناحا خاصا واسعا يكون مسورا تسويرا قويا وعاليا بحيث تستطيع الحيوانات ان تتحرك فيه وان تحلق الطيور في اجوائه بكل حرية ، فالحيوانات في مثل هذه الاجنحة لا تقيد بالسلاسل ولا تحتجز داخل الاقفاص وانما تترك حرة طليقة داخل تلك الاجنحة (٦) .

وكان لهذه الحيوانات رجال مواظبون يعنون باطعامهم وتنظيفها ويتحققون من نظافتها ونظافة الاماكن التي تعيش فيها .

وكان جمع هذه الحيوانات وجلبها من اقاصي المعمورة يكلف اموالا طائلة ، فالبعض من الخلفاء والموسرين لم يكن ليكتفتي بارسال المبعوث والرسول الى مختلف الاقطار لجلب اندر الحيوانات والطيور فحسب وانما كانوا يستخدمون امهر القناصة والصيادين لاصطياد الطيور والحيوانات المتوحشة ايضا .

فقد كان لدى الخليفة الامين جماعة من اصحاب اللبايد والحراب (وهي العدة الخاصة باقتناص الحيوانات الضارية) يركبون البغال ويصطادون له الاسود ويضعونها في اقفاص ثم يجلبونها الى قصر الخليفة (٧) .

(٦) حدائق الحيوانات في العراق/ص ١٧ .
(٧) المصدر السابق/ص ١٨ .

نشرت وبعثت عنا حتى تنتهي الى ابعد غاية يمكنها التباعد فيها عنا . وجعل الخليفة الامين يعجب من ذلك (٨) .

ويقول الدكتور احمد سوسة في كتابه (ري سامراء في عهد الخلافة العباسية) : (ويستدل بما ذكره المؤرخون ان المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٢ م) قد انشأ حير للوحوش حيث جاء في معجم ياقوت ان الحير كان قد انشئ من قبل المأمون قبل توليه الخلافة ، وقد انشأ بجواره ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوالجة وقد الحق الميدان والحير بالقصر المعروف بالجعفري وهو القصر الذي بناه جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك قبل ان اوقع الرشيد بالبرامكة ، ثم سمي هذا القصر بالمأموني ثم الحسيني عندما وهبه المأمون الى عمه حسن بن سهل وذلك بعد ان تزوج المأمون بنت نبوران بنت الحسن بن سهل ، واليك ما كتبه ياقوت في مادة التاج ، قال : « وكان قصر الجعفري احب المواضع الى المأمون واشهاها لديه واقتطع جملة من البرية عملها ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوالجة وحيرا لجمع الوحوش وفتح له بابا شرقيا الى جانب البرية واجرى فيه نهرا ساقه من نهر الملعى وابتنى مثله قريبا مثل منازل برسم خاصته واصحابه سميت المأمونية » (٩) .

وكان في قصر الخليفة المقتدر بالله ببغداد حوالي عام (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) حيرة بها قطعان من اصناف الوحش ، وصار يغنيها بكل غريب من الحيوان من جميع العالم وخاصة الاسود ، ولم تكن السباع في ذلك العصر نادرة بالشام ولا على شواطئ نهري دجلة والفرات ، بل كانت اجيالا تدنو قريبا جدا من بغداد ، حتى انه في عام ٣٣١ هـ - ٩٤٣ م خرج الخليفة المقتدر الى الشامية بجوار بغداد لصيد السباع (٩) . وجاء ذكر هذه الحدائق التي تقع في مدينة بغداد الشرقية باسم الحير ايضا اذ ذكر ابن مسكويه في كتابه (« تجارب الامم » ان بعض جند المقتدر شق عصا الطاعة (٢٩٥ - ٣١٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م) فنهب قصر التريا وذبح الوحش الذي في الحير وذبحوا البقر التي لاهل القرى التي حوله وخرج اليهم مونس وضمن لهم ارزاقهم فرجعوا الى منازلهم (١٠) .

(٨) حقائق الحيوان في العصور الاسلامية/مجلة هذا بغداد/ص ٣١ .

(٩) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ص ٢٦٢ .
(١٠) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/ص ٢٩٦ .

ولعل الحيوانات التي في هذه الحير هي من جملة الوحش الذي نقل من (سر من رأى = سامراء الحالية) الى حير بغداد ، وذلك بعد ان تم ارجاع مقر العاصمة الى مدينة السلام في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٣ - ٩٠٢ م) وفي عام ٣٠٥ للهجرة (٩١٧ م) وصل الى بغداد سفراء من القسطنطينية للتفاوض للصلح بين الخليفة المقتدر وعاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فشهدوا في بغداد ما وصفه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد بقوله : « ولقد ورد رسول لصاحب الروم في ايام المقتدر بالله ، ففرشت الارض بالفروش الجميلة وزينت بالالات الجليلة . . ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة ، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، وبين ايديهم الجنايب (هي الخيل ، جمع جنيبة ، وهي الفرس تقاد ولا تركب) ، على مثل هذه الصورة » .

« وادخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الاعظم الى الدار المعروفة بخان الخيل، وهي دار اكثرها اروقة باساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الايمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهب وفضة بغير اغشية ، ومن الجانب الايسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج (جل الدابة ، كتوب الانسان يقيه البرد) بالبراقع الطوال ، وكل فرس في يدي شاكرى بالبزة الجميلة » .

« ثم ادخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش (الحير : الحظيرة او الحمى) . وكان في هذه الدار من اصناف الوحوش التي اخرجت اليها من الحير قطعان تقرب من الناس وتشتمهم وتأهل من ايديهم . ثم اخرجوا الى دار فيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزرافين بالنار . . . فقال الرسل امرها » .

« ثم اخرجوا الى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يسره ، في رؤوسها واعناقها السلاسل والحديد ، وشاهدوا الزرافة والفهود وحيوانات اخرى كثيرة » (١١) .

(١١) حقائق الحيوان/دائرة معارف الشعب/ص ١٩٧ - ١٩٨ .

في بغداد أيضا « أبو جعفر محمد بن جعفر القوملي » وكان من السراة المترفين ، ابتنى له في بغداد دارا فسيحة يحيط بها بستان واسع يضم مختلف اشجار الفاكهة والورود وافرد في تلك الدار حديقة خاصة بالحيوانات التي كانت تضم اندر الطير والغزلان والسباع وغيرها . وقد تحدث « أبو عبد الرحمن العتبي » انه دخل ذات يوم على محمد القوملي وهو جالس على ضفة تقع على بركة ماء ويشرف منها على البستان وحير الغزلان وحظيرة القماري واشباهها ، فقلت له : « يا ابا جعفر انت والله جالس في الجنة ! » ، فقال : « فليس ينبغي لك ان تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها ! » .

سامراء تتوج بهاءها ببناء حدائق حيوانات كبيرة فيها

وكان يقصر الخليفة بسامراء على عهد المعتصم ، مكان يحفظ به الحيوان ، وهو يسمى « حير الوحش » ، ويحكى عن المعتز حوالي منتصف القرن الثالث الهجري انه اطلع عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نزل ضيفا عنده على عراك بين اسد وفيل ، وكان ذلك احد العجائب التي اطلعه عليها (١٢) .

وقام الخليفة المتوكل ، بانشاء حير للحيوانات: وتقع هذه الحدائق خارج مدينة سامراء ومشتملاتها من جهة الشرق بين القاطولين ، القاطول الاعلى الكسروي وبين القاطول الاسفل (نهر القائم) وهي مسورة بسور من الطين يحيط بها من جميع اطرافها ويستدل من آثار هذا السور على ان الحديقة كانت مستطيلة الشكل يمتد ضلعها الجانبيان باتجاه الشمال ، اما الضلعان الاخران فان الضلع الشمالي الذي يمتد من الغرب الى الشرق يتصل بكل من الضلعين الجانبيين في ركنيهما بزاوية قائمة . اما الشرقي فيسير على محاذة نهر القاطول الاسفل (مجرى القائم) على مسافة ٦٥٠ مترا تقريبا من منفته اليسرى ، ويتصل الضلع الاخير هذا بالقصر الذي بالمشروعات حيث يقع في منتصف هذا الضلع تماما . وبلغت مساحة الحير حوالي ٢٠ الف مشارة وجاء ذكر حير الحيوانات التي ابتناها المتوكل عند اليعقوبي قال : « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائط غيره وخلف الحائط الوحش من الضياء

واشتهر عضد الدولة البويهى بتربية الحيوانات وافرد حديقة خاصة بها في قصره . وكان مما اعتاده عضد الدولة انه اذا جلس على كرسيه يأمر باحضار النمر والسباع وغيرها من الحيوانات المفترسة فتحضر اليه مقيدة بالسلاسل ثم توضع في حواشي مجلسه ، وكان يفعل ذلك بغية ارباب الناس واخافتهم وكان للخليفة القاهر بالله ببغداد بستان للطير ، كانت لذته من الدنيا . وصفها المؤرخ والرحالة العربي المسعودي صاحب كتاب « مروج الذهب » بقوله : « كان نحو جريب (فدان) قد غرس فيه النارج وحمل اليه من البصرة وعمان مما حمل من ارض الهند ، وقد اشتبكت اشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من احمر واصفر ، وبين ذلك انواع الفروس والرياحين والزهر ، وقد جعل في ذلك الصحن انواع الاطيار مما قد جلب اليه من الممالك والامصار ، وكان في غاية الحسن » .

واشتهرت حديقة الحيوان للوزير ابن مقلة (عاش في اواخر القرن الثالث واول القرن الرابع الهجري) في منطقة الزاهي من شمالي بغداد الحالية على نهر دجلة وخبرها طريف للغاية لما كانت عليه من النظرة والبهجة والبهاء . حكى شاهد عيان انه رأى شبكة الابريسسم التي كان افرخ فيها ابن مقلة الطيور الغريبة قال : فعمد الى مربع كبير فيه بستان عظيم عدة اجربة (اي فدادين) فقطع منه قطعة من زاوية ، فكان مقدار ذلك جريبين بشباك ابن ابريسم ، وعمل في الحائط بيوتا تأوى اليها الطيور وتفرخ فيها . ثم اطلق فيها القماري والدباس والقبج والفواخت والطيور التي التي من اقاصي البلاد من المصونة ومن المليحة الريش فتوالسدت وجاءت بأجناس غريبة ، ثم عمد الى باقي الصحن فطرح فيه الطيور التي لا تطير كالطواويس والبط وعمل منطقة اقفاص فيها فاخر الطيور وجعل من خلف البستان الغزلان والنعام والايائل والارانب والابل والبقر البدوية وحمر الوحش . ولكل صحن ابواب تفتتح الى الصحن الاخر فيرى من مجلسه سائر ذلك . ويقول ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في التاريخ » ان ابن مقلة كان يحاول ان يجسرب التزاوج بين الحيوانات المختلفة . وحدث ذات مرة ان وقع طائر بحري في حديقته تلك على طائر بري فازدوجا وباضا وافقا فلما بشر بذلك اعطى من بشره به بهدية مائة دينار على ذلك .

ومن الذين اشتهرت حدائق الحيوان لديهم

والدين فقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وغمهم ببره وكان يقول يا بني هاشم دعوني حتى أسلك ملك عمر بن عبدالعزيز فأكون فيكم مثل عمر بن عبدالعزيز في بني أمية . وقلل من الباس والفرش وأمر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنائير ودراهم وعمد الى الصور التي كانت في المجالس فمحييت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين ايدي الخلفاء ، والديوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته» (١٤) .

ويمكن ان نستخلص ان الحير المذكور كان يضم عددا كبيرا من الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية ، وكانت هذه الضواري في الاقفاص وضمن الجدران الداخلية وكان قسم آخر منها وهو القسم الاكبر طليقا وسط الحير الواسع ، وكانت مساحة الحير من السعة بحيث يسهل معها الصيد والقنص .

حدايق الحيوان والصيد

بعد مجيء خلفاء بني العباس الى الحكم وبناء المدينة المدورة بغداد ، اقبل الحكام والمتنفذون والمحكومون على الترف وكانت متعة الصيد وجمع الحيوانات في اقفاص ولذاذاته في طليعة ما اقبلوا عليه ، فجعلوا يقضون في حفلاته ورحلاته اجمل ايام العمر ، وينفقون على جوارحه وضواربه انفس المال . فكان المهدي محبا للصيد مشغوقا به حتى انه لا يكاد يغلبه (من اغب القوم : اي اناهم يوما وتركهم يوما) او يصير عنه ، وقد اكثر من رحلات الصيد ورويت له فيها طرائف وحوادث منها ما نقله المسعودي وغيره عن الفضل بن الربيع انه قال : خرج المهدي متنزها ومعه مولاة عمرو بن ربيع وكان شاعرا فانقطع عن المعسكر والناس في الصيد فانتاب المهدي جوع شديد ، فقال لعمرو : ويحك الا اسانا عنده ما نأكل !! فما زال عمرو يطوف الى ان وجد صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له فقعد اليه ، فقال هل عندك شيء يؤكل ؟ قال : نعم ، رفاق من خبز شعير وزبيب وهذا البقل والكراث ، فقال له المهدي : ان كان عندك زيت فقد اكملت ، قال : نعم عندي فضلة منه ، فقدم اليهما ذلك فأكلا أكلا كثيرا . واوفى المعسكر ولحقته الخزائن والخدم والوكب ، فامر لصاحب المبقلة بثلاث بدر دراهم (١٥) .

والحمير الوحش والايائل والارانب والنعام ، وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة» (١٣) .

ومما يدل على ان الساحة التي تقع فيها حديقة المتكل للحيوانات كانت تسمى بالحير ، وانها كانت الى جانب القاطول ، وصف للبحثري لهذه الحديقة في شعره فقد سماها بالحير اي بمعنى الحديقة او البستان ، فقال يخاطب المتوكل مشيرا الى حيوانات الحديقة .

يرعن منك الى وجهه يرين له
جلالة يكثر التسبيح رائيتها
حتى قطعت بها القاطول واخترقت
بالحير في عرصة فسح نواحيها
ويشير البحثري كذلك في اشعاره الى ان عدد الحيوانات التي كانت في الحير الذي انشأه المتوكل ، يقدر بألفي وحش وفي ذلك قال وهو يخاطب المتوكل .

الفان واخت على قدر مسارعة
الى قبول الذي حاولته فيها
وهذه الابيات مما انشده البحثري يصف بها حديقة حيوانات المتوكل وصفا رائعا :
ولم انس وحش القصر إذ ريع سربه
واذ ذعرت اطلاؤه وجأذره
واذ صيح فيه للرحيل فهتكت
على عجل استاره وستائره
ووحشته حتى كان لم يقم به
انيس ولم تحسن لعين مناظره
كان لم تبت فيه الخلافة طلقه
بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها
وبهجتها والعيش غض مكاسره
ومما يؤيد وجود السباع في حير المتوكل ما ذكره المسعودي عن قتلها على عهد المهدي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م) وهذا نصه :
« وقد كان المهدي بالله ذهب في امره الى القصد

(١٤) المصدر السابق/ص ٢٩٦ .

(١٥) الصيد عند العرب/ص ٤٤ .

(١٣) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/الجزء ٢/ص ٢٩٤ .

وقد عرف ملوك البلاد المجاورة ولع المهدي بالضواري وشدة شغفه بالصيد وجمع الحيوانات حتى ان « ميخائيل بن ليون » عظيم الروم لما وقف على ذلك اهدى اليه كتابا في دفن البيزرة كان لاوائل الروم . وقيل ان المهدي كان يحتفظ بانواع عديدة من الحيوانات التي كان يصطادها في مكان ملحق بقصره على شكل حديقة حيوانات صغيرة .

وكانت للرشيدي رحلات صيد صاخبة يقوم بها ومعه رجال دولته وبعض شعرائه من امثال ابي نواس ، وكان الخليفة يتخلى في هذه الرحلات عن وقاره . وكان اذا نمي اليه خبر متفنن في الصيد استقدمه اليه واتخذ لنفسه ، فقد روى صاحب (انس الملا) انه كان في زمن الرشيد رجل من اهل البصرة اسمه ابراهيم البازيار يصيد جميع الطير وكان له كتاب في البيزرة ، وكان من ادوات صيده التي استحدثها قصب الدبق ، فاستدعاه الرشيد اليه واحله عنده منزلة عالية لمعرفته بالضواري وبالدبق ، وتفرغ التدبيق من ابراهيم البازيار ، ودبق الناس بعده بخمس قصبات او اكثر زمن المأمون . وكما عرف عن المهدي في الافاق ولعه بالصيد وادواته فقد عرف مثل ذلك عن الرشيد فاغتنم « نقفور » ملك انروم باحدى المناسبات الطبية واهدى الرشيد اثني عشر بازيا واربعة اكلب من كلاب الصيد ليتقرب اليه بها (١٦) . وقد ضمها الرشيد السى حديقة حيواناته بعد ذلك .

وبعد ان آل الامر من بعد الرشيد الى ابنه محمد الامين فقد كان اشد حبا للصيد واحرص عليه من كل من تقدمه . فقد روى المسعودي ان الامين اصطحب يوما وكان اصحاب اللبابيد والحرا ب قد خرجوا على البغال الى سبع كان بلغهم خبرة بناحية (كوثي) (والقصر) فاحتالوا عليه الى ان اتوا به في قفص من خشب على جمل بختي فحط بباب قصر الامين وادخل عليه فلما مثل في صحن القصر والامين مصبح قال لهم : خلوا عنه وافتحوا باب القفص ، فليل له : يا امير المؤمنين ، انه سبع هائل اسود وحشي . وقد قال « ابراهيم بن المهدي » استأذنت

على الامين يوما وقد اشتد عليه الحصار من كل وجه فاذا هو قد طلع الى دجلة بالشباك ، وكان في وسط قصره بركة عظيمة وفي المخترق شبك حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والفلمان قد انتشروا يفتشون الماء وهو كالواله ، فقال لي وقد ثنيت بالسلام وكررت ، لا تؤذوني فمقرطتي ذهبت في البركة مني الى دجلة ومقرطته هذه سمكة كانت صيدت له وهي صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در ، قال فخرجت وانا يائس من فلاحه ، وقات : او ارتدع من وقت لكان هذا الوقت « (١٧) » .

وورث المتوكل عن اجداده الولع بالصيد من اجل اشباع رغبته في اكلار حيوانات حيرة التي كانت من اعظم حير الحيوانات في ذلك الوقت . وشغف المعتضد بالله بالفهود والاستكثار منها واربى عليه في ذلك حتى قال صاحب الجمهرة « واكثر من اشهر باللعب بالفهود من العباسيين المعتضد ، فانه كان شديد الغوايه بها » (١٨) .

والحقيقة ان الصيد الذي مارسه خلفاء بني العباس وغيرهم من الوزراء والامراء يكن لمجرد الاستمتاع واللهو كما يظن الكثيرون وانما كان في اكثر الاحيان لغرض تزويد الحدائق التي ابتناها لهم بالحيوانات المختلفة وارسال قسم منها كهدايا للملوك وامراء الدول المجاورة لهم لتقوية مركزهم الدولي .

بغداد تعيد مجدها من جديد في انشاء حدائق الحيوانات

وبعد مرور حقبة تاريخية طويلة اندثرت فيها فكرة انشاء حدائق الحيوانات بسبب الحروب والغزوات المتتالية التي تعرض لها العراق ومن بينها بغداد . الا انه كانت هناك محاولات شخصية قام بها ولاة وحكام مناطق وشخصيات كبيرة ووجهاء في اقامة حدائق للحيوانات المختلفة وللطيور او لحيوان معين فقط ، في قصورهم او اراضيهم

(١٧) المصدر السابق/ص ٤٩ .

(١٨) المصدر السابق/ص ٤٩ .

(١٦) المصدر السابق/ص ٤٨ .

الحديقة في عام ١٩٧١ . وقامت بتحويل اقسام هذا الموقع الذي يضم بحيرة وجزيرة ومضيفا للراحة داخل الجزيرة ، الى اجنحة لجميع عديدة من الحيوانات في بيئات مختلفة من بينها حيوانات من البيئات العراقية ، وضمت هذه المجموع الكثير من الحيوانات والطيور من مختلف قارات العالم مثل الاسود والنمور والذئاب والضباع والديبة والكركدن والحمار الوحشي والفهود والقردة بانواعها والخنازير والنعامة والزرافة والفلان بانواعها ومجموع عديدة من انواع واصناف الطيور والاسماك وغيرها .

وزودت الحديقة بالمشرفين والمروضين والاطباء لرعاية الحيوانات ومعالجتها ، كما زودت الحديقة ببنادق خاصة لاطلاق الابر المخدرة في اجسام الحيوانات الضارية لدى معالجتها او الحيلولة دون هربها . ويقصد حديقة حيوانات بغداد عشرات الالوف من المواطنين سنويا . واعادت امانة العاصمة النظر في الحديقة الرئيسة لتعدها اكثر عصية وتطورا واوفى غرضا من حيث بيئتها وتشكيلها العلمي وشروطها الصحية ، فقامت بانشاء عديد كبير من بيوتات الحيوانات الحديثة التي تتوفر فيها كافة الشروط المتكاملة لاي حديقة حيوان حديثة وهي بمواصفات بديعة من حيث الشكل والمحتوى وقامت الامانة باستيراد اعداد كبيرة من انواع الحيوانات التي تدخل الحديقة لاول مرة كالقروود العليا (انسان الغاب والغوريلا) والفيلة وافراس النهر وكلاب البحر الخ . . وقد استغلت الجزيرة الوسطية للحديقة لانشاء حديقة طلقية للقروود تحاكي بيئتها الاصلية .

واتجهت نية امانة العاصمة الى اقامة العديد من حدائق الحيوان الصغيرة والمتوسطة في متنزهاتها المختلفة مثل الحديقة التي تنوي الامانة اقامتها ضمن مشروع نهر الخير ، حيث انتهت من تحديد العمل في انشائها في كورنيش الاعظمية وابي نواس .

وسبق ان انتهت الامانة من انشاء ثلاث متنزهات هي الف ليلة والفردوس والرياحين وتضم هذه المتنزهات حدائق صغيرة - تتراوح مساحتها بين ثلاثة الاف الى خمسة الاف متر مربع فيها عددا من انواع الطيور والفلان والقردة وغيرها من الحيوانات النادرة .

الزراعية . وفي هذا الصدد يقول الاستاذ سليم طه التكريتي : (ولقد ظل العراقيون سائرين منذ ذلك الوقت على هذه الهواية اللطيفة الغريبة ، هواية اقامة حدائق الحيوانات في بيوتهم وبساتينهم وفي اوائل القرن الحالي اشتهرت دار محمد فاضل باشا الداغستاني وكانت تقع مقابل وزارة الدفاع الحالية وبجوار جامع المرادية بوجود حديقة فيها تضم الاسود والفهود والنمور والديبة وغيرها . واذكر حادثة وقعت في دار محمد باشا الداغستاني مؤادها ان طفلا من احد الاقفاص التي وضعت فيها الاسود وسرعان ما اخرج اسد كفه من بين القضبان وامسك بالطفل وسحبه واطبق على اطرافه بفكيه . واذعلا صراخ الطفل واكتشف امره استدعي محمد باشا على عجل الى مكان الحادث فاسرع بفتح باب القفص وتوجيه لكمة قوية الى رأس ذلك الاسد الذي اطلق الطفل من بين فكيه وتم بذلك انقاذه من موت محقق) .

وفي عام ١٩٥٧ بدأت فكرة انشاء حديقة حيوان بغداد اسوة بباقي العواصم العربية والعالمية وتوجيا لحضارة وادي الرافدين العريقة فاتخذ من المنطقة المجاورة للمحطة العالية لسكك حديد الجمهورية العراقية في منطقة علاوي الحلة كنواة لحديقة حيوانات ، فضمت هذه الحديقة الصغيرة بعض انواع من الفلان العراقية والطيور المتنوعة عراقية وغير عراقية وبعض انواع من الضياع والثعالب والذئاب والنمر العراقي الذي يعيش في شمال القطر جلبت على شكل هدايا قدمت من قبل اشخاص كانوا يحتفظون بها في بيوتهم وحدائقهم حصلوا عليها عن طريق الصيد او الشراء . وبعد ان ضاقت هذه الحديقة بالحيوانات التي جلبت لها وعدم ملائمة موقعها كحديقة وصغر مساحتها ، فكرت الجهات الرسمية بنقلها من هذا المكان الى متنزه حدائق الزوراء وتوسيعها لتصبح احدي الحدائق الكبيرة في المنطقة العربية .

فقامت امانة العاصمة بانشاء حديقة الحيوانات باعتبارها مرفق ترويح تمثل احدي مظاهر وسمات التطور التي تنطوي عليها مجالات التسلية في المدن العصرية .

ومن اجل ذلك خصصت الامانة موقعا كبيرا وسط متنزه الزوراء الفسيح لانشاء مثل هذه

المراجع

- (١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/آدم منز ،
ترجمة : محمد عبدالهادي أبو ريده . القاهرة -
١٩٤٧ .
- (٢) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/د. أحمد سوسة/
الجزء الثاني ، مطبعة المعارف - بغداد ، ١٩٤٩ .
- (٣) الصيد عند العرب/د. عبدالرحمن رأفت الباشا/دار
النفائس ، بيروت - ١٩٧٤ .
- (٤) مروج الذهب/للمسعودي . طبع القاهرة .
- (٥) حقائق الحيوانات في العراق/سليم طه التكريتي/مجلة
السياحة (مصلحة السياحة العامة) ، بغداد -
١٩٧٤ ، العدد (٥) .
- (٦) حقائق الحيوان في العصور الاسلامية السالفة/ميخائيل
عواد ، مجلة هنا بغداد - ١٩٥٧ ، العدد (١٥٣) .
- (٧) حقائق الحيوانات التي انشأها فيروز باشا شاه/مجلة
المقتطف/المجلد ٣٩ ، القاهرة .
- (٨) حقائق الحيوانات في التأريخ / عادل محمد علي الشيخ
حسين/مجلة السياحة العدد ٧٥ ، السنة (٢) ، بغداد
١٩٦٧ .
- (٩) تطور علم الحيوان في الحضارات القديمة/عصام الملايكة،
مجلة سومر ، الجزء (١ و ٢) ، المجلد (٣٠) ، بغداد -
١٩٧٤ .
- (١٠) البيئة الطبيعية القديمة في العراق/فؤاد سفر ، مجلة
سومر ، الجزء (١ و ٢)/المجلد (٣٠)/بغداد - ١٩٧٤ .
- (١١) حقائق الحيوان/د. حسين فرج زين الدين وسعيد
محمود محمد (دائرة معارف الشعب) القاهرة -
١٩٦١ .
- (١٢) الحقائق في العصور القديمة/المعرفة/المجلد الاول ،
بيروت . لم يذكر التأريخ .
- (١٣) البركة الجعفرية في سامراء/د. أحمد سوسة/مجلة
بغداد ، العدد ٨ - بغداد ١٩٦٣ .
- (١٤) مديرية الاعلام في امانة العاصمة - بغداد .
- (١٥) مجلة امانة العاصمة ، العدد ٥ - ١٩٧٧ . بغداد
(عن حقائق حيوان الزوراء) .
- (١٦) معلومات شخصية عن حقائق الحيوانات .
- (١٧) دائرة المعارف الانكليزية/المجلد (١٩)/١٩٦٧ - لندن
(عن حقائق الحيوانات في العالم -) .



مركز تحقيقات كميبيوتر علوم إسلامي

حسرة بغداد

بقلم الدكتور

جليل كريم ابوالحب

وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي

مقدمة

٧٠٪ ، انخفضت هذه النسبة في اواسط واواخر الخمسينات ولكنها عادت فارتفعت في اواخر الستينات واول السبعينات . ليس لدينا الا القليل من المعلومات عن سبب انخفاضها كما ان معلوماتنا عن عودة ارتفاع نسبة الاصابة ليست تامة .

يعتقد البعض ان انخفاضها كان بسبب استخدام المبيدات الحديثة ضد بعوض الملاريا وبصورة غير مقصودة ضد الحرمنس الواخر ، وانخفاض مستوى الماء الجوفي الذي ساعد في التقليل من تكاثر الحرمنس في البيوت والذي يكون عادة في عمق لا يزيد عن سنتيمتر او اثنين عن سطح الارض . ان عودتها ، اي عودة ارتفاع نسبة الاصابة وان كانت على مستوى اقل من الماضي ، قد يكون بسبب نشوء المقاومة في الحرمنس الواخر الناقل ضد المبيدات . فالحرمنس لم يعد يموت بنفس السهولة التي كانت في اواخر الاربعينات واول الخمسينات .

ان شهرة الاخت البغدادية والاثر الذي تتركه جعل من الصعب على أي سائح لبغداد في القرون الخمسة الماضية ان لا ينتبه لها ويذكرها في كتاباته .

الحبة او الاخت ليست في الحقيقة خاصة ببغداد كما قد يتبادر الى الذهن من اسمها ، بل انها توجد في محلات كثيرة اخرى في العالم وتسمى باسماء مختلفة هناك . فهي حبة حلب في سوريا ، وحبة ارمينيا في القفقاس وايران وحبة دلهي في

كما تشتهر بغداد بترائثها العلمي والادبي وبدجلتها ونخيلها وبشهرزادها والـف ليلتها ورشيدها وسندبادها ، فانها تشتهر بحبة بغداد او اخت بغداد ، واخت بغداد ندبة واسعة او صغيرة ولكنها واضحة تبقى على الجلد لاسيما الوجه نتيجة الاصابة بمرض جلدي يسمى الليشمانيا الجلدية ، وبالرغم من الشفاء فان الاثر يبقى ولا يزول مع العمر وتسمى اخت بغداد لانها دائما لا توجد منفردة بل هناك نديتان او اكثر ، الواحدة اخت الاخرى او ان التسمية بالاخت نتيجة ملازمة هذا المرض البغداديين دون او اكثر من غيرهم في العراق ، فهناك تلازم بين الندبة والبغدادية كما يوجد تلازم بين الاخت والانح برعاية ابهم .

لا يكاد يخلو فرد بين سكان بعض مناطق بغداد من اجيال الاربعينيات وما قبلها من الاخت . فقد كانت الاصابة عامة بحيث كانت بين اطفال الاعظمية والجدرخانة والسنك والكرخ وبعض المناطق الاخرى تصل الى ١٠٠٪ ، اي انك اذا دخلت اي بيت في هذه المحلات وكان فيه لنفرض خمسة اطفال فان الخمسة مصابون بالاخت بادوار مختلفة من المرض بالاضافة الى الوالدين . كان من الشاذ جدا ان يصل البغدادية سن الرشد بدون ان تظهر عليه اخت واحدة او اكثر ويتساوى بذلك الاولاد والبنات والفقراء والاغنياء وحتى في زمن متأخر كانت الاصابات في الاعظمية قد تصل ، الى نسبة

حبة بغداد عبر العصور :

بعد هذه المقدمة عن شهرة حبة بغداد وانتشارها في البلدان العربية ، فان من المناسب ان نعود الى التاريخ لتتحرى عن حبة بغداد عبر العصور القديمة في العراق والمناطق المجاورة . ان طبيعة المرض واعراضه تساعد على دراسة المرض تاريخيا وعلى تتبع انتشاره عبر القرون . فالقرحة تستمر لمدة طويلة وتشفى ولكنها تترك اثرا دائما في محل بارز ، ويميل المرض ان يتركز في مناطق معينة من البلاد دون غيرها حيث يستمر بترك الندب والاثار والتشوهات بين عدد كبير لا بأس به من سكان تلك المناطق . هذا الاثر والتشويه واضح ويجلب النظر بسهولة بحيث كان من السهل على الناس ولا سيما المتطبين منهم تشخيص واعطاء الاسماء المختلفة حسب المناطق كما ذكرناها في المقدمة . كما ان هذه الاعراض تمكن الطبيب والسائح في تلك البلدان من ملاحظتها وتسجيلها بدون ادنى شك او تردد .

لقد استطاع Pringle (1957) وبمساعدة بعض الكتب في تاريخ الطب وملاحظات السواح الأجانب ، ان يعطينا فكرة جيدة (وهو يستميتها سطحية تواضعا منه) عن تاريخ هذا المرض في الشرق الاوسط ، وفي بحثنا هذا اعتمدنا كثيرا على دراسة Pringle المشار اليها اعلاه مع الرجوع الى الكتابات العربية مباشرة والتي يشير اليها Pringle وقد اخذها من المؤلفين الغربيين الذين كتبوا عن هذا المرض .

العراق القديم :

ينقل الاب انستاس الكرمللي انه جاء في كتاب « وقائع السحرة والمنجمين » في الرقم ٢٥ ما تعريبه : « اما ما يتعلق بداء الجلد فان الملك لم يكلمني عنه صريحا ، فهذا الداء يدوم سنة واحدة وكل من يصاب به لن يشفى منه ، وعليه فقد شاع الان ان الحبة تدوم سنة واحدة » . والكتاب يتحدث عن عهد الاشوريين ، وقد اورد الاب الكرمللي هذا النص ليجيب عن سؤال اتاه من احدهم وهو هل ان حبة بغداد كانت معروفة في العراق القديم؟ لم يذهب الاب الى ابعد مما اورده اعلاه .

لم يعثر المنقبون والاثاريون حتى الان على تمثال او رسم شخص يظهر على وجهه او اطرافه الندب او التشوهات التي قد تعزى الى حبة بغداد .

والبحوث التي اجراها - Campell Thompson (1936) وكتبا الدكتور عبداللطيف

الهند ، كما ان لها اسماء عامة اخرى مثل القرحة الشرقية وحبة بسكرة ، وحبة البلاد الحارة ومسمار بسكرة وحبة النيل وحبة السنة وقرحة الصحراء وقرحة النيل ... الخ ...

المرض متوطن في كثير من الاقطار الاستوائية وشبه الاستوائية ، ويشمل وجودها في غرب آسيا ، بالإضافة الى العراق ، تركيا وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية وايران وقفقاسيا وارمينيا والجزء الجنوبي من روسيا وفي تركستان ، ويمتد وجودها جنوبا الى البنجاب وبمباي في الهند وفي الصين توجد حوالي منطقة هيونان . كما انها توجد في جميع البلدان التي تحيط بالبحر الابيض المتوسط وجزره ، فهي موجودة في مصر وتونس ومراكش والجزائر وفي قبرص وكريت وسردينيا وفي اليونان وايطاليا واسبانيا . وفي افريقيا تصل الى الصحراء الغربية والسودان واثيوبيا والتشاد والنيجر حتى انغولا جنوبا .

ويجب ان لا ننسى ان هناك مرضا مشابها لحبة بغداد بل وافضع منه في امريكا اللاتينية يترك تشوينا على الوجه ويعيش مسببه في المناطق الغضروفية في الوجه ويسمى هذا المرض الليشيمانيا البرازيلية .

حبة بغداد في المدن العربية الاخرى :

قبل حوالي ستين سنة كان المرض محدودا في مناطق معينة من سوريا وفلسطين ، وبالذات في منطقتي حلب واريحا على التوالي . كانت اول حالة للمرض في مصر قد ظهرت عام ١٩٢٠ وبعد سنتين ثبت وجودها في القنطرة (قناة السويس) . وفي عام ١٩٢٤ ظهرت في الاسكندرية وفي عام ١٩٢٥ ظهرت بين يافا والقدس وفي القدس نفسها سنة ١٩٢٦ وفي عام ١٩٢٧ ظهر المرض في دمشق . وفي سنة ١٩٢٤ ظهرت الحبة في منطقة تبعد ٣٠ - ٤٠ ميلا الى الشمال الشرقي من القاهرة على طريق قناة السويس . ثم ظهر المرض عام ١٩٣٦ في حيفا . وفي عام ١٩٤٠ ظهر المرض في عشر مناطق في مصر حتى مدينة المنيا التي تبعد ١٥٠ ميلا جنوب القاهرة وفي عام ١٩٤٥ ظهرت حالات كثيرة في فلسطين قرب بيت لحم ، حتى انه ظهر عام ١٩٤٧ في النقب .

وفي هذه الفترة ظهرت حالات المرض في افريقيا العربية وغربي السودان . قد يكون تسجيل هذه الحالات في هذه الفترات المتأخرة يعود الى سبب التعرف والتشخيص الاحسن للمرض اكثر منه بسبب وقت الغزو الفعلي .

البديري عن الطب الاشوري والاكدى اعطتنا صورة عن الادوية التي استعملها الاطباء القدماء والتي وردت اسمائها في بعض الرقم والكتابات المسمارية. ندل هذه الدراسات على ان الادوية كانت في تلك العهود متقدمة فيما يخص محلات استخدامها ولكنها كانت بسيطة وكانت تهدف الى ازالة الاعراض والقرح بدلا من مداواة المرض ولم يكن من الممكن تشخيص الامراض التي كانت تستعمل لها تلك الادوية حتى ان الدكتور البديري ترك فهم وتشخيص الامراض الى القاري.

وعلى هذا فلم يمكن تشخيص حبة بغداد بين الكثير من القروح والدمامل التي وصفت ووضعت لها الادوية. في الحقيقة كانت الوصفات المخصصة للقرح والدمامل الجلدية قليلة مما يدل على عدم توطن اي مرض يتصف بالقرح المستديمة في بلاد الرافدين قديما ، ومثل هذه القرح هي الصفة الرئيسية والمهمة في حبة بغداد .

وقد عثر (Bray et al., ١٩٦٧) على ترجمة قام بها فيرولود عام ١٩٠٧ لرقم مسماري من مكتبة آشوربانيبال في نينوى وقد كان هذا الرقم قد طبع بصورته الاصلية من قبل بواسير (١٨٩٤) .

تسجل الكتابة على هذا الرقم تنبؤات وتكهنات (فتح فال) عن المستقبل للشخص الذي تظهر عليه بعض القرح او الندب وهذه التكهنات تعتمد على موقع الندب او القرح في الجسم . فالقرح او الخراجات قد تقع على الوجه والرأس مثل الجبهة والخذ والشفة او على الرقبة والايدي والبطن والركبة والقضيب او على كل انحاء الجسم . يظهر ان القرحة تحدث بصورة اعم على الوجه اذ ان هناك تنبؤات كثيرة عن موقعها على الشفة العليا او السفلى ، على الخد الايمن او الايسر . اما مواقعها على المحلات الاخرى في الجسم فلم تلاق نفس الاهتمام .

لم يوجد في هذه الكتابات اي تشخيص او معالجة او سبب مع ان مثل هذه الامور كانت تذكر بكثرة في الكتب الطبية الاكدية والتي وجدت بنفس المكتبة . طبعا ان المعلومات الطبية التي وردت في الكتب لا تعني انها تخص العراق ، بل انها انحدرت من اصول اقدم ومن مناطق اخرى .

من الظريف ان نذكر ان المريض سوف يواجه مصائر مختلفة حسب هذه التنبؤات المعتمدة على موقع القرحة ، فانه قد يصبح غنيا او معدما قد

يموت اطفاله او اعداؤه ، قد يكون قانعا او حزينا قد يموت بالتدردن الرئوي او يعيش طويلا .

يستنتج (Bray et al., ١٩٦٧) من هذه الكتابة انه قد لا يكون خيالنا لو اعتقدنا ان حبة بغداد كانت موجودة في العراق قبل ٢٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة .

ان هذا الاستنتاج لا يؤيده الكتب الطبية التي كتبها فطاحل الاطباء في الفترة العربية - الاسلامية حتى اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، مما اوحى الى (Elgood, ١٩٣٤) ان يفترض ان حبة بغداد دخلت العراق مع جيوش هولاكو التي جاءت من اسيا الوسطى والتركمانية وايران .

ان دراسة الاثار والكتب الطبية التي تركتها مراكز تعليم الطب والمستشفيات مثل جنديسابور وبغداد تؤيد وجهة النظر المشار اليها اعلاه وهي عدم توطن اي نوع من القرح المستديمة في العراق القديم . هذه المراكز والمدارس الطبية بلغت شهرة واسعة من تعليم الطب وممارسته من خلال دمجها الاسس اليونانية والاعمال الطبية البابلية والفارسية والبيزنطية في المنطقة . ان العلوم الطبية التي انتقلت الى جنديسابور وبغداد جاءت من منطقة حران والرقه والرها في مناطق اعالي الفرات ، ولو كانت هذه القرحة موجودة في العراق لما فات الاطباء ملاحظتها ، مع العلم ان هذه المنطقة اصبحت فيما بعد مشهورة بهذا المرض .

مصر القديمة :

لقد ورد ذكر ، وجود دملة مصر او قرحة مصر في الكتابات المصرية القديمة التي عثر عليها في اوراق البردي ، ويعود تاريخها الى ما قبل ٢٠٠٠ سنة ق.م . ، منذ عصر السلالات الحاكمة الاولى . قد تكون هذه الدمامل مشابهة لحبة بغداد كما نعرفها اليوم .

كما ان هناك اشارات متعددة في التوراة الى بعض الامراض الجلدية وردت فيها كلمات دمل وقرح وبثور وهذه ايضا قد تعني اولا تعني حبة بغداد ، ففي كتاب الخروج (Exodus) ، الاصحاح التاسع الايات ٨ - ١٢ ورد ما يلي :

« ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملء ايديكما من رماد الاتون (التنور) وليذر موسى نحو السماء امام عيني فرعون ليصير غبارا على كل ارض مصر . فيصير على الناس وعلى البهائم دمل طالعة بثور في كل ارض مصر ، فاخذوا رماد الاتون

ان اشارة التوراة الى القرحة حتى بعد الخروج ب ٣٠٠ عام تدل على ان هذه القرحة ظلت تخيف اليهود الذين هربوا من مصر . ان هذه الاستنتاجات قد تكون برهانا على ان «قرحة مصر» هي نفسها دملة النيل التي ورد ذكرها في الكتابات المصرية على البردي قبل التوراة . ولكن يبدو ان هذه الدملة كانت مميتة و رهبة اكثر من حبة بغداد التي لا ينظر لها الناس في اماكن تواجدها بهذه الرهبة .

الحبة في العصور الوسطى :

لقد شهد الشرق الادنى عصرا زاهرا بالعلم والطب وقد ترك لنا العلماء المسلمون والعرب موسوعات ضافية عن الطب ظلت لفترة طويلة هي المعول عليها حتى طل علينا عصر الطب الحديث . ولكن مع الاسف لا يوجد في اعماق الموسوعات الطبية الاسلامية العربية المبكرة اية اشارة الى مرض جلدي يمكن مقارنته بحبة بغداد ، فمثلا كتاب « الذخيرة في الطب » الموسوعي الذي وضعه ثابت ابن قرة ، والذي يضم قسما كبيرا عن امراض الجلد ، لا يشير ابدا الى اعراض او حالة تشبه حبة بغداد بالرغم من ان هذا الطبيب جاء من منطقة حراء والرقعة والرها - اعالي الفرات - وليس بعيدا عن حلب . فلو كانت حبة بغداد موجودة حينذاك في هذه المنطقة او في بغداد فانه بدون شك كان سيطلع عليها اذ انه كان ذا اطلاع واسع على الامراض الجلدية في وسط العراق .

يقول Pringle ان ابن قرة وضع كتاب الذخيرة حوالي عام ١٢١٠م وهذا غير صحيح لانه اي ابن قرة ، كان قد توفي سنة ٩٠١م وقد يكون المستشرقون الذين اخذ عنهم Pringle قد اختلط عليهم اسم هذا الطبيب الذي تعاقبت اجيال من ذريته في الطب واستعمال هذه الاسماء .

لقد حاول المؤرخ الطبي Elgood (١٩٣٤) ان يبرهن ان مرض حبة بغداد بدأ بالظهور والوجود في البلدان الاسلامية الشرقية في بلاد ما وراء النهر . وقد تبعه بعد ذلك Pringle في هذا الاتجاه كما سيأتي فيما بعد . لقد ذكر Elgood ان اعراض حبة بغداد كانت موجودة في منطقة بلخ منذ وقت بعيد ، وبلخ هذه هي القصة السياسية لولاية خراسان ثم أصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة طخارستان . وهي الان ضمن مناطق تركستان السوفيتية المتاخمة لحدود افغانستان .

ووقف امام فرعون وذراه موسى نحو السماء قصار دماملا وبثورا طالعة في الناس وفي البهائم ، ولم يستطع العرافون (السحرة) ان يقفوا امام موسى من اجل الدمامل ، لان الدمامل كانت في العرافين وفي كل المصريين .

لقد كتب كتاب الخروج حوالي ٩٠٠ سنة ق.م وقد تشير هذه الحادثة الى ما قبل الخروج بقليل اي حوالي ١٢٣٠ سنة ق.م . بعهد حكم قرايين بتنا .

كذلك ورد ما يلي في كتاب التثنية (Deuteronomy) في الاصحاح ٢٨ وفي الايات ٢١ - ٢٧ :

« يلصق بك الرب الوباء حتى يببلك عن الارض التي انت داخل اليها لكي تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول ، فتتعمك حتى تفنيك ، يضربك الرب بقرحة مصر والبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء » .

وقد كتب كتاب التثنية بعد كتاب الخروج بحوالي ٣٠٠ سنة ولغرض غير الغرض الذي كتب من اجله كتاب الخروج . فقد كان في كتاب الخروج الدعوة على مصر والمصريين اذا هم لم يسمحوا لموسى ان يأخذ اصحابه .

اما في كتاب التثنية فقد كان هناك تهديد لليهود انفسهم لانهم راحوا يخالفون تعاليم الرب . وعلى اية حال تظهر الاشارة الى نفس المرض الذي بقي عالقا في الاذهان جيلا بعد جيل بحيث يمكن تهديدهم به اذا هم خالفوا ولم يطيعوا تعاليم وشريعة موسى . وفي كتاب التثنية ورد ذكر المرض باسم « قرحة مصر » .

وقد علق Millington (١٨٧٣) على هذه القرحة بقوله : « انها تختلف عن جميع الانواع الاخرى من الدمامل والقرح من حيث الاصل ومن حيث تأثيرها ، كما تختلف عن الاوبئة الاخرى اذ انها توقفت عند حدود ارض معينة وانها لم تصب اليهود وان كانوا يعيشون في المدن المصرية . وقد علق Pringle (١٩٥٧) عدم اصابة اليهود بها الى احتمال انهم قد بداوا من مجتمع ديني غير مهم وكانوا يعيشون حياة البداوة في الصحراء على حواف الدلتا مما ساعد على تخلصهم من الاوبئة الحضارية في المدن . وقد يكون تعليل Pringle هذا معقولا لان اليهود بعد ان عاشوا في المدن كانوا ممن تنغشى بينهم حبة بغداد بكثرة .

السكان في قسبة بلخ اسم غضة البعوض (بيش غاز بيداجي) على الحبة . ان من المناسب ان ننتبه هنا الى ان الناس في بلخ ربطوا بين المرض وبين غضة البعوض ، وقد يكون ذلك من اقدم الاشارات الى حدوث او انتقال مرض ما مستديم ومتوطن بعد غضة البعوض او بكلمة اعم حشرة ما . طبعا نحن نعرف الان ان الحرمس وليس البعوض هو الناقل لطيفلي حبة بغداد ولقد اطلق اهالي منطقة داهستان اسم «ساخك» على حبة بغداد الذي يعني البعوض او غضة البعوض .

وفي اوائل القرن الخامس عشر كانت لاتزال الحبة موجودة بنفس المنطقة حيث اطلق عليها الطبيب منصور بن محمد بن احمد بن يوسف بن فقيه الياس اسم البلخية وهذا يؤيد ما ذهب اليه الاب الكرمللي من انها البلخية وليس البلحية كما ذهب اليه الدكتور داود الجليبي ويعتقد المؤرخ الطبي Elgood (١٩٣٤) ان المرض دخل مدن السرى ومشهد في شمال شرقي ايران في هذه الفترة .

تاريخ حبة بغداد في بغداد :

ان اول اشارة الى وجود هذا المرض في بغداد والشرق الاوسط هو ما ذكره الطبيب بهاء الدولة ابن مير قوام الدين قاسم نور بخش الرازي (وهذا ليس الطبيب محمد بن زكريا الرازي الشهير) في كتابه « خلاصة التجارب » والذي وضعه حوالي عام ١٥٠٠م من ان الحبة لا تزال متوطنة في بلخ وانها منتشرة بكثرة في بغداد وقد اسماها بعض الناس لوجودها بكثرة في بغداد « لوزينج بغداد » . ويذكر بهاء الدولة الرازي انها تكثر بين الفقراء ، وقد تستمر لمدة سنة اذا بقيت بدون مداواة ، قد يكون كتاب « خلاصة التجارب » هو اقدم كتاب ذكر وجود حبة بغداد في بغداد والعراق . وفي هذه الاثناء ذاع صيت المرض بين الايرانيين وقد اسموها « حبة ارمينيا » وبقي هذا الاسم حتى العصور الحديثة . لقد ذكر وجودها لأول مرة في اصفهان عام ١٨٣٠ وفي طهران عام ١٨٤٠ بالرغم من وجودها في شمال شرقي ايران منذ مدة طويلة .

ان كتب بعض السواح الذين زاروا بغداد في القرون الاخيرة لا سيما القرن التاسع عشر ، تشير الى حبة بغداد ، فقد ذكرها Dupre الذي زار بغداد عام ١٨٠٨ ومكث فيها مدة طويلة ، فقد جاء في كتابات Dupre حسب ترجمة سعاد العمري في كتاب « بغداد كما وصفها السواح

من اقدم الاطباء الذين وصفوا حبة بغداد واعطوا اعراضها بصورة دقيقة وواضحة جدا من بلخ هو ابو منصور حسن بن نوح القمري البخاري الذين كان في بخارى ، ومات عام ٩٩١م . كان ابو منصور احد اساتذة ابن سينا ، ألف كتاب «غنى ومنى» وهو كتاب « الحياة والموت » وهو مقسم الى ثلاثة اقسام : الامراض الباطنية ، الامراض الظاهرة ، والحميات . كما ان لابي منصور مقالة في الطب .

ومن اشار الى حبة بغداد الطبيب والفيلسوف الاسلامي العالمي الشهير ابن سينا المتوفى ١٠٣٤م ، وقد ذكرها باسم قرحة او حبة بلخ في كتابه المشهور « القانون في الطب » ويظهر انه اسماها ايضا البلخية . ومن الممتع ان نذكر انه جرى جدل علمي طريف بين المرحومين الكرمللي وداود الجليبي في الثلاثينات من هذا القرن على صفحات لغة العرب . فقد اورد الكرمللي اسمها مرة البلخية ، فاعترض عليه الجليبي قائلا انها البلحية « بالحاء » لانها تتواجد دائما حيث يوجد البلح وان ابن سينا اسماها البلحية . فاجابه الكرمللي انها لا ترتبط بوجودها بالبلح واحسن دليل على ذلك وجودها في محلات لا يوجد فيها البلح « التمر » وان ورودها في القانون باسم البلحية قد يكون تصحيف النساخ لان هناك نسخا من الكتاب تذكرها باسم البلخية ، ونظرا لورودها باسم البلخية في كتب اخرى قديمة من المنطقة «انظر ادناه» وللحجج التي ساقها واوردها الكرمللي فان الكلمة الصحيحة هي البلخية ، وقد يكون قد حدث تصحيف في الكلمة في نسخة القانون للمخطوطة التي كانت لدى الجليبي .

وايضا ممن اشار الى هذا المرض الطبيب ابو الفضائل اسماعيل بن الحسن زين الدين الجرجاني والذي يسمى غالبا سيد اسماعيل . كان هذا الطبيب يكتب بالعربية والفارسية وتوفي عام ١١٣٧م (٥٣١هـ) واهم كتبه الكتاب المعروف « ذخيرة خوارزمشاه » بالفارسية . والكتاب دائرة معارف طبية الفه للشاه قطب الدين محمد ، كما ألف ايضا لوزيره العزيز كتاب «اغراض الطب» وهو صغير الحجم ، ملخص للذخيرة . وقد ورد اسم كتاب الذخيرة في مقالة Pringle (١٩٥٧) باسم System of medicine . وللسيد اسماعيل كتاب الطب الملوكي وكتاب زبدة الطب وتدير يوم وليلة وهو في الطب ايضا . يذكر الجرجاني ان حبة بلخ - أي حبة بغداد - كانت لا تزال متوطنة في بلخ وانها كانت موجودة في خانات دهستان . يطلق

اصفرها كسعة نصف راحة السيد تتيبس اعتياديا بعد ثلاثة أو أربعة شهور فتصبح بشكل قشرة فظيعة تدوم هي نفسها ثلاثة اشهر قبل ان تسقط . وقد اكد لي مختلف اطباء الذين استشرتهم بان مرضي يشارف على نهايته وان هذه الخراجات ستجف بعد فترة قصيرة من تلقاء نفسها وهو كل ما اشتبهه ، يا سيادة الوزير ، بغية التخلص بسرعة من حالتي التعمية التي اتخبط في احوالها ذلك لان الامي هائلة » .

وفي سنة ١٨٨٣ ياتي ذكر حبة بغداد في كتاب « رحلة مدام ديولافوا الى كلده العراق » والذي نقله الى العربية عن الفارسية على البصري عام ١٩٥٨ ، فقد جاء في الصفحة ٧٩ ما يلي :

« ولكن من المؤسف انهن (اي النساء الكلدانيات في بغداد) مثل النساء الاخريات في هذه البلاد - اليهوديات والمسيحيات والمسلمات - مبتليات بعدو خبيث يسمى (الاخت البغدادية) يشوه جمال صورتهم بما يترك فيها من ندب ولم اجد حتى الان امرأة من هؤلاء النسوة تكون قد نجت من هذه الآفة اللعينة ، ويخيل للرأي انه قد رمي على صفحة وجه كل منهن اوكسيد السولفريك فشوهها هذا التشويه .. وهذه الاخت البغدادية اول ما تظهر تكون نقطة بيضاء على الخد او اي مكان اخر من الوجه ثم تحمر وتتورم بشكل ظاهر تظهر عليها بعد ذلك قشرة كبيرة كما هي الحال في الجدري وعندما تتيبس هذه القشرة وتسقط تتخلف عن ذلك ندبة صغيرة في الوجه تشوه جماله . ولقد علمت انه حتى الوافدين على بغداد من الخارج لا ينجون منها فان لم تكن اصابتهم بها حال قدومهم فلا محالة انهم يصابون بها بعد حين على ابعد الاحتمالات ولكن الذي يبعث على العجب ان هذه الآفة لا تصيب الا البلديات من اهل البلد اما الاوربيات فان اصبن بها فيكون ذلك على ابدانهم لا على وجوههم مع علمنا بان اصابتهم جد قليلة .

اغرب من ذلك ان اطباء لم يستطيعوا ان يجدوا دواء يعالجون به هذه الآفة حتى الان » .

وعلى الصفحة ١٢١ من نفس الرحلة تعود المدام فتقول :

« مخاطر مرض الطاعون والاخت البغدادية .. ولا يفوتني ان اقول ان البلايين الاخيرين عنسدي هما اسهل تحملا - اي الطاعون والاخت البغدادية - من وجود الموظفين العثمانيين » .

الاجانب في القرون الخمسة الماضية » عام ١٩٥٤ ، ص ٤٣ - كما يلي :

« ويوجد في بغداد ايضا كما يوجد في حلب وماردين وغيرها من المدن حبة بغداد (الاخت) . تكون جروح الوجه ذات الندب عند الناس بصورة عامة ولا ينجو منها حتى الاوربيين الذين يسكنون بغداد سنوات عديدة » .

ذكر القس Southgate ١٨٤٠ ، وجود الاخت في بغداد بنفس العام ، وقال عنها ما يلي :

« الاطفال الذين رأيتهم في الشوارع كأنهم مرضاء وكانت وجوههم مشوهة بندب قبيحة ، هذه الندب تظهر نتيجة القرحة والتي تظهر بادية الامر بشكل دملة على الجلد وتكون بعد ذلك وتنتزع منها القشور على التوالي . لم اتمكن من اكتشاف سببها . انها خاصة بالبلد واذا كانت مصادر اخباري صحيحة فانها تنتشر في محلات على الحدود الغربية الصحراوية في الجزء الشمالي من سوريا . الغريب الذي يعيش طويلا في بغداد لا ينجو منها ولكن تصيبه مرة واحدة واحيانا لا تظهر الا بعد شهور من وصوله . انها تصيب الحيوانات ايضا كما هي الحالة في الانسان » .

ومما جاء عن حبة بغداد في القرن الماضي ما ورد في كتاب نائب القنصل الفرنسي في بغداد الى وزير الخارجية الفرنسية عام ١٨٦٣ ، فقد جاء في تلك الرسالة ما يلي . (وانقل هنا نص الترجمة كما جاءت في كتاب الحياة في بغداد منذ قرن لمؤلفه بير دي نوصيل وترجمه د . اكرم فاضل عام ١٩٦٨) :

« منذ عودتي من طوافي بديار بابل زرئت بانثاق حبة بغداد ، فقد كان من سوء حظي ان اصاب بخمس وثلاثين حبة في كل انحاء جسمي ، ويقول اطباء هذا البلد ، يا سيادة الوزير ، انهم لم يشهدوا طوال اعمارهم طفحا بهذه الكثرة ، وقد انتشر بصورة خاصة وبكثرة على المفاصل الكبيرة ، لا سيما على الساعد الايسر ، بحيث يخشى طبيبي ان يظل متشنجا . وهذه القرحة التي ينساب من اوساطها وبدون انقطاع قيح اصفر نتن حاد يشير لدى حكات حادة متصلة اعاني من جرائها اوجاعا هائلة . والانكى من ذلك ، يا سيادة الوزير ، انني منذ ملازمتي الفراش قبل خمسين يوما لم اغمض جفني خلالها اكثر من ستين ساعة . وهذه اللبالي المؤرقة تكاد تقتلني ، وما قد انهارت قواي ، ولا يوجد دواء لهذا المرض وان جروحي التي سعة

الادوية المستعملة لا تعط أي نتائج . يقول ان حشرة ما تقوم بنقل المسبب ، وقد شك بالعوض وبقي الفراش ، ويضع الحرمن على راس القائمة . كما انه وجدها في الكلاب . كما انه يذكر ان بعض الناس يعتقدون فقط ان من يشرب ماء الفرات او دجلة يصاب بالمرض .

ومن المناسب ان نذكر هنا ، وسوف يأتي بعد ذلك بالتفصيل ، ان هذا العالم هو الذي اثبت بصورة قطعية بعد دراساته في حلب ان الحرمن هو الحشرة الناقلة لمسبب المرض .

وممن اشتغل علميا على حبة بغداد من الاجانب الدكتور غوردن جيري برنكل الذي جاء الى العراق عام ١٩٤٧ ليرأس معهد الامراض المتوطنة والذي كان قد انشأ حديثا لمكافحة الملاريا ، بقي برنكل بالعراق عشرة سنوات . لقد كان لهذا العالم البريطاني الفضل في وضع عدة دراسات عن الامراض المتوطنة في العراق مثل الملاريا وحبة بغداد والتلارازا وقد نشر جل بحوثه في مجلة الامراض المتوطنة التي لا تزال تنشرها وزارة الصحة منذ ١٩٥٤ . وسوف تأتي فيما بعد تفاصيل بحوث برنكل عن حبة بغداد .

اما العراقيون فقد اشتغل الكثيرون منهم حول هذا المرض . اول من اشتغل ، كما ذكرنا ، د . نابلون الماريني ، ثم نشر ادوارد بصمه جسي كتيب باسم « بعض الملاحظات عن حبة بغداد في العراق » (دار الطباعة الحديثة / بغداد ١٩٣٠) (مع الاسف لم يتمكن ان اجده او اعثر عليه) . كذلك اشتغل على الاخت الدكتور جورج فرج رحيم استاذ الامراض الجلدية في كلية طب بغداد سابقا والدكتور اسماعيل التتار الاستاذ في كلية الطب في الوقت الحاضر والدكتور المرحوم سلمان تاج الدين .

كما جرت دراسات كثيرة عن الحرمن الناقل لمسببات هذا المرض في العراق من قبل برنكل وجليل ابو الحب وزهير محسن وبدر العزاوي وسعد عبدالوهاب وفؤاد سكر وغيرهم . وسوف يجد القارئ في آخر البحث ثبوتا بالدراسات والبحوث عن الحبة والناقل (الحرمن) والحيوانات الخارئة في العراق وباللغة الانكليزية .

الحبة في حلب :

وما زلنا في صدد البحث عن حبة بغداد في بغداد ، فان من الملائم ان نذكر ما نعرفه عن تاريخ هذه الحبة في حلب ، محل اخر مشهور جدا بهذا

وحتى في وقت متأخر مثل عام ١٩٢٣ ، ذكرت الليدي دراور في كتابها « بلاد الرافدين ، صخور وخواطر » ترجمة فؤاد جميل عام ١٩٧١ على الصفحة ٣٣١ : « وقد يصاب الطفل بحبة بغداد (الاخت) عادة وما ان تتقيح الا وتعتمد الام الى طلائها بمستحضر قيري وعلى الرغم من ان هذا المستحضر غير ضار بحد ذاته ، لكن القيح قذارة والقذارة يقف عليها الذباب فتسوء حالة الطفل لذلك » وكما ترى لم تذكر الليدي دراور شيئا عن الاثر او الندبة التي تتركها القرحة .

الا ان من العجيب ان بعض الرحالة المشهورين مثل بنجامين التطلّي وبكنفهام وينبوروصون ورج لم يذكروا شيئا عن حبة بغداد ، كما ان الرحالة العرب المشهورين مثل ابن جبير وابن بطوطة ايضا لم يذكروا شيئا عن الاخت البغدادية ، قد يكون لعامل الزمن دخل بذلك لا سيما للاوائل من هؤلاء الرحالة .

اما بالنسبة للدراسات العلمية حول الحبة فقد بدأت منذ اوائل هذا القرن ، عندما نشر د . نابلون الماريني ، اخو الاب انستاس الكرملّي ، في الاعوام ١٩٠١ و ١٩٠٤ وفي مجلة المشرق البيروتية ، وقد عربها المرحوم الكرملّي عن الفرنسية . نشر الماريني دراساته وتجاربه وتصوراته عن هذه الحبة ، كما انه ذكر دراسات بعض الاطباء الفرنسيين عن هذه الآفة في حاب وفي عام ١٩١٠ جاء الى بغداد الاستاذ وپنن وقام بدراسات مطولة وسجل كثيرا من الملاحظات اجراها في آذار - تشرين الثاني من نفس السنة .

فقد ذكر انها عامة الوجود لذلك كان من السهل عليه دراستها . ان الاطفال معرضون ويتوقعون الاصابة بها كما يتوقع اطفال بريطانيا الاصابة بالحصبة ، الا ان الناس لا يخافون الاخت البغدادية . وقد ذكر انها تصيب الاطفال بين السنة والثلاثة واول ما تظهر على الاطفال ، والبدو غير مصابين كما هي الحالة بين سكان المدن . وتظهر في اي وقت من السنة ولكن اكثر ما تكون في الخريف في وقت نضوج التمر ، ولكنه يسرع ويقول ان هذا لا يعني ان هناك اية علاقة بين الاصابات والتمر ، اذ ان الاطفال الذين لا يأكلون التمر ايضا يصابون بها . يعتقد الناس ان هناك نوعين منها - ما يسمونه بالذكر والانثى - وقد وجد ذلك صحيح سريريا ، المتقيحة وغير المتقيحة وان كان الاثنان يبدها بنفس الشكل ، - لا يمكن الا القليل من المعالجة - وكل

حمراء ، وإذا لم يلعب بها المريض فانها نادرا ما تكون مؤلمة .

اما النوع الثالث من المرض والذي يسمونه وخزة خاتم سليمان ، فانه يبدأ مثل الآخرين ولكن نادرا ما ينمو ويتوسع الى اكثر من ضعف راس دبوس كبير ولا يبدل مظهره ابدا . يبقى المرض بشكل درينة صغيرة لعدة شهور وبدون ألم . بعد ذلك تتساقط منه بعض القشور الحرشفية ويختفى ولكن بعض الاحيان قد يبقى مدة اطول .

المرض يصيب الاهالي وهم اطفال وعادة على الوجه وان كان يصيب بعضهم على الاطراف وان اكثرهم يحمل نديتين او ثلاثة او اكثر والنادر منهم من يحمل ندبة واحدة . اما بين الغرباء ، فانه يظهر بعد بضعة شهور من دخولهم ولا يظهر بكثرة على وجوههم مثل الاهالي . قليل من الناس من ينجم من المرض ولكنه نادرا ما يصيب نفس الشخص اكثر من مرة واحدة . يصيب المرض الكلاب والقطط كما يصيب الانسان وعادة يظهر على الخطم (البوز) في هذه الحيوانات .

اما بالنسبة للعلاج فكما هي الحالة مع اوجاع الاسنان والزكام عندنا ، كل واحد يصف علاجا للمرض لكن الوجوه الجميلة والتي يشوهها المرض احسن دليل على عدم جدوى هذه الادوية . في الحقيقة ومن ملاحظاتي ، ان من الاحسن كثيرا ان لا نستعمل دواء وذلك خير من الادوية غير المجدية التي يستعملونها .

وممن كتب عن المرض في حلب من السواح Pecoche عام ١٧٦٥ وقد سجل الملاحظة التالية :

« ان للماء هنا خاصية معينة والتي تسبب بين الغرباء الذين يشربونه انتشار ثلاثة او اربعة قروح حول الايدي والعضد ، تستمر هذه القروح من مدة نصف سنة الى سنة وتكون مزعجة . بعض الغرباء لا تظهر عليهم هذه القروح الا بعد ان يعيشوا هناك عدة سنين ، ومن الملاحظ انها تصيب الاهليين مرة واحدة وعلى وجوههم عادة . ليس هناك اي دواء لها . يسميها الانكليز (مرض حلب) » .

الحبة في اعالي الفرات :

اوديسا (الرها) من المحلات الاخرى المشهورة بالمرض . وارتدت ان اذكر هنا ملاحظة احد السواح لهذه المدينة عن الحبة ، المهم في هذا هو ان هذا السائح نفسه كان قد بقى في بغداد والموصل لمدة لا بأس بها ، ضيفا على المقيم البريطاني كلود دوس رج

المرض في البلاد العربية ، اول من كتب عن حبة حلب كان الدكتور Russell (١٧٥٧) وقد يكون هذا الدكتور هو اول من وصف الحبة باللغة الانكليزية ومن حلب بالفرات . فيما يلي وصف الدكتور لهذه الحبة (نقل عن برنكل - ١٩٥٧ - والذي نقله بدوره ترجمة كاملة من الفصل المعنون حبة او مرض حلب Mal de Aleppo في كتاب « التواريخ الطبيعى لحلب » ونحن بدورنا نترجمه عن ترجمة برنكل المشار اليها اعلاه) :

« ينتشر بين الاوربيين اسم مرض حلب او شر حلب "Aleppo Evil" وهو مرض جلدي ، يعتقد البعض انه خاص بهذه المنطقة يسميه الاهالي حبة او قرحة السنة بالنسبة لفترة بقائه والتي تدوم سنة كاملة ، وتسمى بالتركية «طالب جويان» او قرحة حلب . ان هذا المرض في الحقيقة ليس خاصا بهذه المنطقة فهو يوجد في عنتاب والقرى الاخرى على نهر سيجور Sejour وسويك Coick وكما هو الحال في حلب ، وجوده في هذه المناطق يوحى بفكرة تسببه عن الماء .

يصف الاهالي نوعين من المرض ويميزون بينهما باسم ذكر وانثى وهناك نوع ثالث يعزى الى عضه خاتم سليمان او قملة الخشب ولكنه بالنسبة لي هو نفس المرض ولكن على درجة اخف . ان ما يدعوه الاهالي بالذكر يظهر في بادىء الامر بشكل دملة او درنة صغيرة وحمراء وقوية وتستمر لمدة اسابيع لا يكثرث لها الاهالي اذ انها لا تسبب اي ألم . ثم بعد ذلك تبدأ بالتوسع وعادة تصل الى حجم عملة الست عانات الانكليزية (Six pence) انها تبقى حتى تندمل ، اجزاؤها تحت الجلد ، هذا اذا لم يحاول المريض حلها واللعب بها ، تسقط القشرة العليا تاركة اثرا صغيرا . ان فترة هذه الحالة نادرا ما تزيد عن ثمانية شهور .

اما ما يسمونه بالانثى فانها تبدأ قبل حالة الذكر ولكنها تتأخر عنها بشهر او شهرين ، تصبح مؤلمة وتتوسع تقريبا الى ضعف حالة الذكر وتفرز كمية كبيرة من القيح تحت القشرة وتصير بشكل قرحة حرشفية تحيط بها دائرة فعالة ولكنها اعمق . تبقى على هذه الشاكلة لعدة شهور ، عادة الى حوالي السنة من بدء ظهورها ، قبل ان تشفى . ان هذه المدة ليست ثابتة ، كثير من الحالات تشفى وتزول لبضعة شهور قبل ذلك ، بينما تستمر حالات اخرى وتبقى لشهور اطول بعد ان تشفى ، تترك اثرا قبيحا مستديما مدى الحياة وتبقى لعدة شهور

ومع انه سجل ملاحظات عن المرض في اوديسا فانه لم يسجل اي شيء عنه في بغداد او الموصل مع ان المرض كان معروفا هناك . ان هذا السائح هو Buckingham وقد كتب سنة ١٨٢٧ يقول :

« لا ينجو واحد من خمسة من هذا المرض . كل السكان في اوديسا بمختلف طبقاتهم معرضين للمرض بشدة ويصيبهم على الوجه مثل المرض الذي ينتشر في حلب - لكن في هذه المنطقة يعم على درجة اكثر . لم ار واحدا من خمسة من سكان هذه المنطقة بدون المرض بينما يكون نصف الاهالي في حلب مصابين به . وهنا ايضا الاثر الذي تتركه القرحة اكثر عددا وتشويها ، يغطي جميع الوجه احيانا وغالبا ما يمنع نمو اللحي من بعض المناطق . وغير ذلك فان المرض يشوه الناس الذين هم من كل الوجوه ، اصحاء وذو جمال . يعتقد الاهليون في حلب ان القرحة تظهر بسبب الماء ، اما هنا فان الاهالي يعتقدون انها بسبب الهواء . من المحتمل ان الاثنين هما اسباب غامضة يعزى لها مرض غير معروف او مدروس جيدا » .

ويذكر نفس السائح Buckingham نفس الحالة في ماردن . فهو يقول انها توجد بنفسى مستوى وجودها في حلب . اما في ديار بكر فانها تصيب واحدا من اربعين فقط من سكان هذه المدينة .

ان اوديسا هنا هي الرها او اورفا وتكتب Edesse ، وليست المدينة التي هي مرفأ في غرب الاتحاد السوفيتي (اوكرانيا) ، كما ان Buckingham لم يكتب شيئا آخر في بغداد او الموصل لانه كان هناك في عام ١٨١٦ وزار الرها بعد ذلك ، ورجلته كانت قد نشرت عام ١٨٢٧ وان ما ذهب اليه Pringle من ان هذا السائح زار بغداد والموصل بعد منطقة اعالي الفرات يظهر انه خطأ ، لانه كان ضيفا على رج المقيم البريطاني والذي توفي بالكوليرا عام ١٨٢١ في جنوب ايران .

منشأ المرض

يورد برنكل نظرية ظريفة -وقد تكون اصيلة- عن منشأ المرض ووصوله الى الانسان ، اقدمها فيما يلي باختصار من اجل الفضول العلمي :

من الممكن القول ان حبة بغداد غزت الشرق الاوسط من بؤرة متوطنة قديمة في اواسط آسيا . ان قدم هذه البؤرة في هذه المنطقة واضح ليس فقط لان الاصابات كانت قد ذكرت هناك لأول مرة

بصورة اكيدة ، ولكن ايضا بسبب حقيقة هي ان ضربا من الطفيلي المسبب لا يزال يعيش ويوجد في نفس المنطقة بين قوارض الصحراء . فالحرمس الناقل يكون وسيلة لبقاء هذا الطفيلي في مستعمرات اليربوع وسنجاب الارض . من السهل اذن ان نفترض ان هذه البؤرة تمثل بقاء نمط الوبائية من عصور سحيقة وقديمة اقدم من تلك التي توجد في المدن وعلى الانسان . تحدث احيانا اصابات بهذا الضرب من الطفيلي للانسان الذي قد يوجد في وحول مناطق هذه القوارض البرية وعن طريق الحرمس ايضا . القرحة الجلدية الناتجة من الاصابة بهذا الضرب وان كانت تشبه من حيث الاساس حبة بغداد ، فانها تبقى لمدة اقصر ، ومن الصعب العثور على الطفيلي في منطقة القرحة على الانسان . ان هذا يعني صعوبة وقلة انتقال هذا الضرب من والى الانسان ولا سيما وان هذا الضرب لم يتكيف جيدا للتطفل على الانسان في قفقاسيا . ويوجد بالقرب من المحلات ، حيث يوجد المرض متوطنا بين القوارض ، عدد من مناطق حبة بغداد المتوطنة بين الناس . بعض هذه المناطق قريبة او بين اقدم المحلات التي عرف فيها المرض ، لكن المرض هنا ينتشر بصورة رئيسية في المدن ، والقرحة على الانسان لا تشبه تلك التي توجد في مناطق اخرى يتوطن فيها المرض في العالم القديم . تدل الدراسات الوبائية في هذه المناطق على ان القوارض وغيرها من الحيوانات لا تلعب دورا مهما في خزن او انتقال مسببات المرض . ان من المفري ان نفترض ان هذا الضرب من الطفيلي الذي ظهر لأول مرة على الانسان في قفقاسيا نشأ من ضرب تكيف للتطفل على الانسان وهو من نفس نوعية الضرب الذي يصيب القوارض . ان هذا لم يكن ليحدث الا بعد ان بدأ الانسان في اقتصاد الاستقرار والعيش في المدن . بعد ان وصل الانسان الى هذا الدور المتقدم فقط صار الحال مفتوحا لكي يتكيف الضرب المحلي (والذي كان على القوارض) على المعيل والبيئة الجديدة فانها اكتسبت الصفات الملائمة على الاقل قبل الف سنة .

لقد انتشر المرض الى محلات وجوده الان في الشرق الاوسط من منشئه في اسيا الوسطى وبصورة خاصة من منطقة جرجان وبلخ المعروفتين مستعينا بنوع معين من الحرمس ، الحيوان الناقل . فمن قفقاسيا وارمينيا الى الاناضول واخيرا الى العراق . ان بؤر تواجده الصغيرة في ارمينيا وجورجيا وداغستان والمعروفة اليوم ما هي الا بقايا

معزولة اثرية من الوجود الاصلى الواسع هناك ، حسب نظرية العالم Latyshev (١٩٥١) .

لقد اعتقد Elgood (١٩٣٤) ان المرض وصل العراق وبغداد عن طريق جيوش المفلول والتتر الغازية والتي كانت قد دمرت خراسان وايران قبل ان تصل وتدمر بغداد . اذا صحت هذه النظرية فانها « ماثرة وانجاز » اخر اسدتها جيوش جنكيزخان وهولاكو . وقد يكون عدم ذكر المرض من قبل بنجامين التطلّى وابن بطوطة وابن جبير في رحلاتهم ان المرض كان بعد لم يصل بغداد لانهم زاروا بغداد قبل جيوش هولاكو او بعده بقليل (ابن بطوطة في اوائل القرن الثامن وابن جبير في اوائل القرن السابع) .

لكن برنكل يعتقد ان المرض دخل العراق بالتسلل البطيء الطبيعي من الاناضول جنوبا ، مستفيدا من جيوب من الاصابات استعملها بمثابة « قناطر عبور » . في القرن الخامس عشر كانت بغداد قد دمرت جزئيا من قبل الجيوش الغازية والطاعون . وفي حالات مثل هذه تتوقف عادة الادارة والعناية وتتلّف الممتلكات . هذه الظروف شجعت على زيادة تكاثر الحرّمس في المدن ، لذلك فسان تمرّكز المرض في بغداد في القرن الخامس عشر صادف ظروف ملائمة .

قد يكون المرض ايضا منتشرًا في افغانستان وبلوچستان في نفس الوقت الذي كان ينتشر فيه في ارمينيا والاناضول وبغداد وقد يكون عن هذه الطريقة قد انتشر ضرب الطفيلي الشرقي .

وصف المرض :

يصف الدكتور فرج جورج رحيم والدكتور اسماعيل التتار (١٩٦٦) المرض كما يلي :

« حبة بغداد قرحة خاصة تظهر عادة على الاجزاء المكشوفة من الجسم في محل عضة حشرة الحرّمس المصابة . الدملة في البداية تكون صغيرة حمراء ، ولا تظهر الا بعد ٢ - ٨ اسابيع واحيانا اكثر ، بعد العضة المتعدية . تتوسع الدملة الحمراء المستديرة تدريجيا بالحجم وتبدأ بعد ٢ - ٦ شهور بالرخاوة والتلين في وسطها مكونة حراشف على السطح وبالنّهاية تتفّيح . يمكن تقسيم ادوار المرض الى الادوار التالية

- ١ - دور الدملة الصغيرة The Nodular stage
- ٢ - دور التحبب The granulomastous stage
- ٣ - دور الندبة The cicatrasation stage

موسم الاصابة :

يكاد يجمع كل من ذكر حبة بغداد في الكتابات القديمة على انها توجد على الانسان في جميع شهور السنة . وقد ذكر الدكتور نابليون الماريني بان فصلي الخريف والشتاء هما وقت ظهور الاصابة بسبب فترة الحضانة للميكروب المسبب . اما البحوث الحديثة فان دراسة رحيم والتتار (١٩٦٦) تحمل معلومات عن موسم الاصابة . فقد ذكرا ان الاصابات الجديدة تظهر وتبدأ بالزيادة في شهر ايلول وتشرين الاول وتصل حدها الاعلى في كانون الثاني وشباط ، ثم تنخفض الاصابات في آذار وتكون على اقلها في تموز وآب . وقد كان هذا النمط نفسه ثابتا ولمدة ثلاث سنوات من الملاحظة والدراسة .

علاقة العمر بالاصابة :

لقد لاحظ الاقدمون ان الاطفال هم اول من تحدث لهم الاصابة . وفي مسح شامل في البيوت بالاعظمية وجد برنكل (١٩٥٧) ان الاصابة تبدأ في وقت مبكر من عمر الطفل قبل السنتين وتزداد مع تقدم العمر كما يوضحها الجدول التالي :

جدول رقم (١)

علاقة العمر (بالسنين) بالاصابة بحبة بغداد

العمر بالسنين	عدد	نسبة الاصابة
المفحوصين (قديمة وحديثة)		
٢ - سنة	٣٥ فرداً	١٢٪
٢ - سنة	٦٥ فرداً	٣٠٪
٦ - سنة	٤٣ فرداً	٥٦٪
فوق الـ ١٢ سنة	١٦٩ فرداً	٨٠٪

طبعا ان هذه النسب لا تعني الاصابة بهذا العمر ولكنها تعني اصابة تجمعية (تكور) اي قد يكون الشخص المفحوص والذي كان مصابا قد اصيب بعمر قبل العمر الذي جرى فيه فحصه .

يؤيد ذلك رحيم والتتار (١٩٦٦) اذ يقولان ان الاصابة تحدث في أي عمر كان ، وقد كان اصغر مريض عالجه بعمر ستة شهور ، واكبر مريض عالجه كان بعمر ٥٤ سنة . وقد كانت الاصابة على اكثرها في العمر ٦ - ١٢ سنة .

مسبب المرض :

وبعد ذلك ظهر ان هذا الحيوان يعود الى الجنس **Leishmania** وهو من الابتدائيات السوطية يمت بصلة القربى ، بالدرجة الثانية ، الى سبب مرض النوم الافريقي . ونتيجة للدراسات ابدل اسم **Leishmania tropica** طفيلي : الحبة الى **Wright** . ومن المناسب ان نذكر هنا ان العالمين الروسيين **Borow** و **Marzinowsky** كانا قد اكتشفا ايضا عام ١٩٠٤ طفيليا من مريض بالقرحة الشرقية (حبة بغداد) من حالة مريض كان قد عاش في ايران وقد اعطى هذان العالمان للطفيلي الذي اكتشفاه الاسم العلمي **Ovoplasma orientale** وقد اثبتت البحوث فيما بعد ان النوع **O. orientale** هو نفسه **L. tropica** اي انهما اسمان لحيوان واحد لذلك اطلق عليه الاسم **Leishmania tropica Wright** لانه اقدم الاسمين وحسب نظام او قانون الاسبقية في التسمية .

وبائية حبة بغداد :

كانت هناك عدة آراء للاقدمين عن سبب حبة بغداد وعن كيفية انتقال المرض وقد مرت بنا هذه الآراء . لكن من المهم ان نذكر ان الاقدمين قد ربطوا بين المرض والحشرات وانها تلعب دورا مهما بنقله ومنذ ان اكتشف الانسان علاقة الحشرات ومفصلية الارجل في انتقال وانتشار مسببات الامراض وكذلك اكتشاف ان المسبب من الحيوانات الابتدائية ، اتجهت الافكار نحو الحشرات واهميتها في نقل وانتشار مسببات هذا المرض . فقد اعتقد البعض بان بقة الفراش هي الحشرة الناقلة وكان من هؤلاء باتن ، لكن هذا العالم ترك هذه النظرية بعد ان جاء الى بغداد اثناء الحرب العالمية الاولى ووجد ان حبة بغداد منتشرة في بغداد ولكن بقة الفراش اما قليلة الوجود جدا او معدومة كليا مما يدل على عدم اهميتها في نقل هذا المرض . وقد توصل وينيون الى نفس الاستنتاج قبل باتن بسنين طويلة . وقال البعض باهمية الذباب الماص للدم ، مثل ذباب الاسطبل وذباب الكلب ، ولكن ايضا لاسباب عديدة وبعد تجارب كثيرة اضطر اصحاب هذه النظريات الى تركها ، كذلك كان الامر بالنسبة للبعوض .

ثم اتجهت الانظار نحو الحرمس . في الحقيقة لم يكن هذا امراً جديداً ، فقد ذكر بعض الاطباء الاقدمين البعوض والجرجس (الحرمس) من مسببات هذا المرض .

كان بريسات وسرجنتس من اوائل من نادى

لقد مر بنا اعلاه ان الناس في بعض البلدان حيث يتوطن المرض قد ربطوا بينه وبين عضّة البعوض أو بعض الحشرات ، كما جاء عن اهل بلخ وجرجان . كما ان بعض الناس ربطوا بين حبة بغداد وبين الماء كما في حلب ، وكذلك بين الممرض والهواء كما في الرها . وقد ذكر الدكتور نابليون الماريني في مقالته الموسومة « الفوز بالمراد في تعريف حبة بغداد » والمنشورة في مجلة المشرق البيروتية عام ١٩٠١ وثانية عام ١٩٠٤ ، فكرة جيدة عن كل ما كان يعرفه العلم لحين كتابة مقالتيه . فقد ذكر انه لم يعرف بعد السبب المحدث لها . فقد يعتقد بعض الناس انها تعدي بينما يقول اخرون انها لا تنتقل بالعدوى . ولكن الدكتور نابليون الماريني يقول انها من الامراض العفوية تعدي الغير بنفسها وفيها ميكروب والعدوى فيها من جوهرها ، فعلها محصور في الجلد لا غير . وقد تكون الحشرات ناقلة للعدوى مثل البعوض او الحرمس وفي الغالب الذبابة او البرغوث . يبدو التقيح في الخريف والشتاء نتيجة الحضانة ، وقد ينقل التلامس او الادوات العدوى ايضا اذا وضعت على التقيح او جرح دام . ويعتقد احد الاطباء في حلب من الفرنسيين ان الجرثومة تأتي من نبات خاص موجود فقط في حلب ، تأخذ الحشرة الى الجسم الصحيح . وكذلك قد تنتشر الجرثومة في الهواء وتتساقط على الجرح او القيق ، وقد قام نابليون بتجربة ، فاخذ القيق في الماء المقطر وطعم احد المتطوعين فحدثت الاصابة ولكنها شفيت بوقت اسرع ، واخذ القيق ولقح به اربعة من الجيران فظهرت فيهم الحبة مع انهم كانوا مصابين بها من قبل ولكنها لم تبقى طويلا .

لقد اردت ان اخص هنا مع بعض الاطالسة النظرة العلمية التي اوردها طبيب عراقي عن سبب مرض حبة بغداد . قد تكون هذه النظرة ، وقد ظهر بعد ذلك فعلا ، غير صحيحة ، ولكنها بداية جيدة واهتمام بالمرض ، نحن نعرف الان ان السبب ليس جرثومة وليس هناك اي نبات او ما اشبه ذلك له علاقة بالمرض وان الناقل هو فقط انواع من الحرمس الواخر .

كان **J. H. Wright** اول من اكتشف ووصف طفيلي حبة بغداد عام ١٩٠٣ من طفل جاء من ارمينيا الى بوستن في الولايات المتحدة الامريكية وقد اعطاها الاسم العلمي **Helocosoma tropicum** وقال انه من الحيوانات الابتدائية .

القريبة منه ، وبحكم هذه العادة والطبيعة فان هذه الانواع هي المهمة والضارة واكثر هذه الانواع انتشارا هو النوع المسمى **Phlebotomus papatasi** الذي يعيش على الحيوانات الزراعية والقوارض وكذلك يدخل البيوت ويهاجم الانسان . يظهر هذا النوع باعداد كبيرة في الربيع ثم تقل اعداده في الصيف ويعود الى الارتفاع مجددا والى حد عال في ايلول وتشيرين اول . يقضي الشتاء بدور الاناث البالغة او بدور اليرقات في التربة . وتتكاثر انواع الحرمس في التربة الخفيفة الرطبة والتي تكون غنية بالمواد العضوية وتفضل المحلات المظلمة . تمر دورة الحياة باربعة ادوار هي : البيضة - اليرقة - الخادرة - البالغة ، وهذا ما يسمى « الاستحالة الكاملة » . ان الاناث وحدها تغذى على الدم وتهاجم الحيوانات اما الذكور فانها لا تعيش طويلا ولا تعتمد على الدم في غذائها .

تقوم الان في العراق عدة جماعات للدراسة والبحث في موضوع الحرمس الناقل والطفيلي المسبب للمرض .

قد يكون شهر ايلول واواخر آب واوائل تشرين الاول هي اوقات حدوث العدوى لان الحرمس يكون باعداد عالية في هذه الاوقات ، ولكن المرض لا يظهر الا في اواخر الخريف وفي الشتاء بسبب ان مدة حضانة الطفيلي في الانسان قد تطول بين ٣ - ٦ اشهر . ان هذا لا يعني انه ليس هناك حدوث عدوى وظهور اصابات في بقية ايام السنة ولكنها تكون بصورة اخف واطا .

حبة بغداد على الحيوانات :

لقد ذكر بعض الاطباء القدامى مثل Russell (١٧٥٧) في حلب ، والقس Southgate (١٨٤٠) في بغداد ان حبة بغداد توجد على الحيوانات الاخرى مثل القطط والكلاب .

تحدث اصابات الكلاب بهذه الحبة في المناطق التي يوجد فيها المرض متوطنا مثل قفقاسيا وايران والعراق وبعض المناطق مثل حلب . في العراق حبة بغداد تكون اعتيادية بين الكلاب وتنتشر كثيرا في بعض الفصول وقد تكون الكلاب هي الحيوانات الخازنة للطفيلي والذي يكون مصدر العدوى الى الانسان عن طريق الحرمس ، فقد ذكر Machattie و Chadwick (١٩٢٧) اصابات عالية بين الكلاب

باهمية الحرمس في نقل مسببات حبة بغداد في العصر الحديث ، لكن يظهر ان وبنون الذي اشتغل في حلب وبغداد كان اول من اقترح واثبت ان الحرمس هو الناقل وكان هذا الاكتشاف من حظ هذا الباحث . لقد برهنت تجاربه التي اجراها في حلب ان الحرمس هو الناقل ، ثم ايد هذا الاكتشاف Connor و Short (١٩١٨) ثم Acton (١٩١٩) فيما بعد ، في العراق حيث جرت بحوث عديدة من قبل اناس اجانب في بادئ الامر مثل Theodor و Adler (١٩٢٩) وبعد ذلك Pringle (١٩٥٢) - (١٩٥٧) ، وبعدها قام الكثير من العراقيين اطباء ومختصين بالحشرات الطبية بعمل ابحاث وتجارب في هذا المضمار .

قال Theodor و Adler (١٩٢٩) ان نوع الحرمس الناقل المهم هو **Phlebotomus sergenti** في منطقة بغداد ، اذ انهما جمعا ٦٨٤ نموذجا من انثى هذا النوع ، وبعد التشريح عثرا على اثنتين من هذه الاناث مصابتين . وقد ايد Pringle (١٩٥٧) هذا الرأي معتمدا على رأي هذين العاملين ، ولكننا نشك كثيرا بهذا الاستنتاج اعتمادا على دراستنا التي اجريناها مؤخرا . لقد اظهرت هذه الدراسات ان النوع المزعوم **Phlebotomus sergenti** قليل الوجود في بغداد واطرافها ، بل وحتى في جميع العراق . اما النوع الذي ينتشر بكثرة ويكاد ان يكون ٩٠٪ من مجموع افراد انواع الحرمس التي يجري جمعها في الحقل هو النوع **Phlebotomus papatasi** من المعروف ان هذا النوع ناقل مهم لطفيلي حبة بغداد في اماكن اخرى وانه بعد التشريح عثرا فيه على كائنات سوطية تشبه المسبب لمرض حبة بغداد . هذا وقلة وجود النوع الاول قادنا الى الاعتقاد ان الناقل المهم لمسبب حبة بغداد في العراق هو نوع الحرمس المسمى **Phlebotomus papatasi**

الهرمس في العراق :

يوجد في العراق ١٦ نوعا من الحرمس ، تنتشر في محلات مختلفة من العراق ، لكن بعضها موجود باعداد قليلة جدا وباوقات قصيرة ، وهناك بعض الانواع التي لا تقترب من الانسان بل تعيش برية على القوارض والزواحف والطيور او الحيوانات الزراعية . ان الانواع المهمة والضارة هي تلك التي تعيش على دم الانسان وعلى دم الحيوانات الاخرى

في بغداد والموصل وكركوك وخانقين والناصرية وبغقوبة والحلة والعمارة . وقد ثبت أن الطفيلي الذي يصيب الكلاب هو نفسه الذي يصيب الانسان او انه يمكن ان يصيب الانسان .

ظهرت في كتابات العديد من الباحثين اشارات الى حيوانات اخرى مصابة بالطفيلي مثل اليرابيع والقوارض البرية الاخرى والفئران البرية والجرذان البرية والسنجاب والديبة بل وحتى القطط . لكن دراستنا في العراق حتى الان لم تثبت الاصابة على أي من هذه الحيوانات ما عدا الكلاب ولم يثبت بعد ان الكلب هو الحيوان الخازن للطفيلي .

انتشار حبة بغداد في العراق :

ظهرت اثناء الحرب العالمية الاولى اصابات بين الجنود في منطقة شيخ سعد والبصرة ولكن اكثر المناطق شدة كانت بغداد والموصل . في عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥٠ أجرى معهد الامراض المتوطنة وبإشراف برنكل مسحا عاما لهذا المرض بين اطفال المدارس . والجدول التالي رقم (٢) يعطينا فكرة عن نتائج هذا المسح .

جدول رقم (٢)

نتائج مسح حبة بغداد في مناطق العراق عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠

المنطقة	عدد المدن المفحوصة	عدد المدن الموجبة	عدد المفحوصين	نسبة الاصابة
شط العرب وهور الحمار	٣٥	٢٩	١٩١٤	٤٠٪
سهول الفرات	٩١	٨٩	٤٩٠٨	٣٠.٦٪
سهول دجلة	٢٩	٢٧	١٨٥٧	٢٧٪
سهول ديالى	٤٤	٣٧	١٣٨٥	٣٠.٣٪
مناطق شمالية	٢٤	٢٠	—	—

وسط العراق :

المرض نادر الوجود . لم يسجل رحيم والتتار (١٩٦٦) اكثر من ١٨ حالة لفترة ٣٤ شهرا من الدراسة والملاحظة .

جنوب العراق :

ايضا يكون المرض هنا نادرا او غير موجود تقريبا او انه اختفى من محافظتي ذي قار والبصرة ولكنه يوجد في المناطق على الانهار في شمال محافظة ميسان . لقد ذكر رحيم والتتار (١٩٦٦) تسجيل ٢٢ حالة فقط من هذه المنطقة لفترة ٣٤ شهرا .

انتشار المرض في مدينة بغداد :

ان هذه البؤرة المشهورة بالمرض تهيء فرصة ثمينة لدراسة المرض . ففي عام ١٩٢٩ كانت الاصابة اعلى منها في عام ١٩٥١ ، فكانت الاصابة في الاعظمية والحيدرخانة والكرخ والسك تصل ١٠٠٪ بينما كان المرض نادرا في العلوية وكمب الارمن ومعسكر رشيد . اما في سنة ١٩٥١ فقد وجد برنكل (١٩٥٧) ان معدل الاصابة في الاعظمية

تحتل بغداد المركز في منطقة واسعة من الاصابة بين الناس بحبة بغداد ، وتمتد هذه المنطقة من الحدود الشمالية للسهول الرسوبية حتى القادسية وشمال ذي قار وميسان ، ويكون الانتشار في هذه المنطقة غير منتظم في المدن الكبيرة ونسبة الاصابة تكون عالية بينما قد تكون المناطق الريفية القريبة خالية من الاصابة . ولكن بعض القرى في ناحية الحسينية (كربلاء) وفي الحلة تعاني من الاصابة وكذلك على قنوات خريسان (بعقوبة) ومهروت (ديالى) وفي القرى على شواطئ دجلة .

شمال العراق :

المرض في الشمال يكون نادرا او غير موجود ولكن في السهول الشمالية حيث تقع الموصل وبعض المدن والقرى الاخرى تكون الاصابة عالية وهناك اصابة متوسطة في سنجار وعقرة والعمادية وشقلاوة ، اما في مدينتي اربيل وكركوك فيكون

حبة بغداد المعروفة بـ *Leishmania recidiva*

هذه الحالة الغريبة والتي تبقى لمدة طويلة ، تبدأ دائما من حواف حبة بغداد مندملة وتظهر عادة بشكل الذئبة العادية (وهي مرض جلدي يشبه بالذئب وقد سماها سندرسن بالاسم العلمي للذئب *Lupus vulgaris* . انها ندبات مسطحة حمراء تنتشر ضمن الاخت او القرحة الشافية . من الصعب العثور على الطفيلي في هذه الحالة الا اذا انتزعت جميع الندبة ثم زرعت . يعتقد برنكل انها تحدث في ١٥٪ من الحالات الشافية من حبة بغداد ، بينما رأى رحيم والتتار (١٩٦٧) اثنتي عشر حالة من بين ٢٧٨٨ حالة من حبة بغداد .

يسمى برنكل *Leishmania recidiva cutis* . قد تبقى الندب غير واضحة وقليلة الارتفاع او انها تندمج مع بعضها لتكون منطقة مرتفعة ملساء ، مع توسع بطيء بالحواف قد يمتد لعدة سنوات ، اما مركز القرحة فيصبح شاحبا ومغطى بطبقة حرشفية . قد تستمر الحالة لمدة خمس سنوات او اكثر قبل ان تندمل . وبنفس الوقت يكون لها مظهر منطقة حمراء واضحة المعالم عليها لطخات من لون اعمق ومغطاة وايضا عليها نديبات وطبقات سطحية من نسيج ندى حديث . ان هذه الحالة تشوه الوجه اكثر من حبة بغداد (وقد ذكر ذلك بكنغهام (١٨٢٧) في منطقة اورفا (الرها) قد تشمل نصف الوجه ولم يمكن علاجها بأي شيء ، مع ان هذه الحالة مرافقة لاصابة حبة بغداد سابقا ، الا انه لم يمكن عزل المسبب (*Leishmania*) منها . لا تختلف الندبة على الوجه عن حالة حبة بغداد من الناحية الباثولوجية والنسجية . ان وجودها في العراق محدود اكثر من وجود حبة بغداد فهي مثلا لم توجد بين مئات الاطفال المصابين بحبة بغداد والذين فحصوا من قبل برنكل (١٩٥٧) من منطقة الفرات الجنوبية ، في هذه المناطق تكون حبة بغداد ضحلة صغيرة ، واهليجية الشكل . يقول رحيم والتتار (١٩٦٦) انهما صادفا ١٢ مريضا من مجموع ٢٧٨٨ حالة حبة بغداد وعلى مدى ثلاث سنوات مصابين بهذه الحالة ان الندب المضاعفة من اثر حبة بغداد اما ان تحيط بها او في وسطها ، ويحدث التقيح وسقوط الحراشف بعدها وقد تتوسع الندبات .

يستنتج الباحثان ان *Leishmania* الدائرية نادرة الوجود في العراق .

كان ٦٩٪ اي اقل مما كانت عليه عام ١٩٢٩ . اما في الوقت الحاضر والسبعينات من هذا القرن ، فلا يوجد لدينا احصائيات مماثلة للمقارنة ، ولكن وكما ذكرنا في المقدمة فقد هبطت لاصابات في الخمسينات وعادت الى الارتفاع في الستينات ولكن ليس بالمستوى القديم . ثم ان الهجرة الى بغداد تجعل من الصعب اجراء مسح يعطي فكرة صحيحة عن الاصابات في بغداد لان الناس تقاطروا على العاصمة من جميع الجهات . ان الجدول رقم (٣) يعطينا المحلات البغدادية التي سجلها برنكل في مسح ١٩٤٩ - ١٩٥٠ .

جدول رقم (٣)

محلات بغداد المصابة بحبة بغداد
(١٩٤٩ - ١٩٥٠)

المحلة	عددالمفحوصين	نسبة الاصابة
شيوخ	١٣٨	٣٧٪
نصّة	٤٣	٧١٪
حرة	٢٧	١٠٠٪
راغبة خاتون	٨٠	٤٧٪
هيبت خاتون	٢٨	٦١٪
سفينة	١٥١	٧٤٪
كاظمية	٥٢	٦٩٪
عيواضية	٥٠	٣٤٪
وزيرية	١٠٠	٥٠٪
شالجية	١٨٦	٤٥٪
كرخ	٥٠	٦٢٪
كرادة مريم	٥٠	٥٢٪
باب الشيخ	٥٠	٣٤٪
بتاوين	٥٠	٣٠٪
علوية	٢٠	صفر
كرادة (برة)	٩٩	٤٩٪
كرادة (جوة)	٥٠	٣٦٪
حي دراغ	١٠	صفر
حارثية	٢٥	٢٠٪
صليخ	١٨٤	٥٨٪
فحامة	٥٠	٥٠٪
زعفرانية	٥٠	٣٦٪
تل محمد	٥٠	١٦٪
رستمية	٣٢	١٦٪
دورة	٢٥	٣٠٪
وشاش	٩٢	٥٠٪
غرب الكاظمية	٢٥	٢٠٪

Abul-hab, J. K. and R. al-Baghdadi, 1972.
Seasonal occurrence of man-biting **Phlebotomus** (Diptera, Psychodidae) in Baghdad area; *Annals of Trop. Med. and Parasitology*, 66 (1) : 165-166.

Acton, H. W. 1918.
A study of the distribution of the Baghdad boils on the body made with view to the discovery of the transmitting agent; *Indian Jour. Med. Res.* 6 : 202.

Adler, S. and O. Theodor, 1929b.
The distribution of sandflies and Leishmaniasis in Palestine, Syria and Mesopotamia. *Ann. Trop. Med. Parasitology*, 23 : 269 - 306.

Adler, S. and O. Theodor, 1930.
The Inoculation of Canine Leishmaniasis into man. *Ann. Trop. Med. Parasi.*, 24 : 197 - 210.

Ahmad, S. A., 1976.
A revision of the Phlebotomidae (Diptera) sandflies in Iraq. A thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the Degree of M. Sc.

al-Azzawi, B. M. 1975.
Vector potential of **Phlebotomus papatasi** Scopoli (Diptera, Psychodidae) to kala azar in Baghdad area. Thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.

al-Azzawi, B. M and J. K. abul-hab, 1977.
Vector potential of **P. papatasi** Scopoli (Diptera, Phlebotomidae) to kala azar in Baghdad area; *Bull. End. Dis. Baghdad*; XVIII (1-4) : 35-45.

al-Adhami, B. H. 1974.
Protozoal parasites of blood of Muridae (rats and mice) in Baghdad area. A thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.

Bashir, Y. 1954.
A pre. note on Occ. kala azar in No. Iraq. *Bull. End. Dis.*, 1 : 77-80.

Boissier, A. 1894.
Doc. Assy. Presage, Vol. 1, Lib. Emile Boui. Paris (Cited by Pray et al., 1967.

بعض المصادر العربية

التي ورد فيها ذكر حبة بغداد

١ - ابن سينا ، ابو علي . توفي ١٠٣٤ هـ ، كتاب القانون في الطب .

٢ - العرجاني ، اسماعيل بن حسين (السيد اسماعيل) . توفي ١١٣٧ هـ . كتاب « خوارزمشاه » حوالي ١١٢٠ هـ .

٣ - الرازي ، بهاء الدولة . خلاصة التجارب حوالي ١٥٠٠ م .

٤ - الكرمل ، انتاس . مجلة لغة العرب . مجلد ٨ ، ص ٦٢٤ و ٧٧٧ - ٧٨٣ سنة ١٩٣٠ .

٥ - الجلي ، داود . مجلة لغة العرب . مجلد ٨ ، ص ٧٧٧ - ٧٨٣ ، سنة ١٩٣٠ نقاش مع الاب انتاس .

٦ - العمري ، سعاد . بغداد كما وصفها السواح الاجانب ص ٤٣ ، (مترجمة عن "Dupre" مطبعة دار المعرفة .

٧ - الكتاب المقدس (كتاب العهد القديم والعهد الجديد) المطبعة الامريكية في بيروت سنة ١٩٢٩ . كتاب الخروج ، اصحاح ٩ ، آية ٨ - ١٢ ، وكتاب التثنية اصحاح ٢٨ ، آية ٢١ - ٢٧ .

٨ - بصمهجي ، ادوارد . « بعض الملاحظات عن حبة بغداد في العراق » . دار الطباعة الحديثة بغداد ١٩٣٠ (لم اطلع عليه) .

٩ - فوصيل ، بدير دى . الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤ - ١٩١٤) ، ص ٥٤ - ٥٥ . ترجمة اكرم فاضل ١٩٧٤ .

١٠ - ديو لافوا ، مدام . رحلة الى كلدان - العراق . ترجمة علي البصري عام ١٩٥٨ دار منشورات البصري . بغداد .

١١ - ماروني ، نابليون . مجلة المشرق . رقم ٤ ، ص ٣٥٤ - ٣٦١ ، سنة ١٩٠١ ، ورقم ٧ ص ٦٥٣ - ٦٦١ ، سنة ١٩٠٤ .

١٢ - دراور ، ليدى . « في بلاد الرافدين ، صور وخواطر » ترجمة نؤاد جميل ١٩٦١ .

*

المصادر باللغة الانكليزية

عن الحرمس وحبة بغداد في العراق : -

Abul-hab, J. K. and M. T. Mehdi, 1970.
Seasonal occurrence of Phlebotominae (Diptera, Psychodidae) sandflies of Baghdad area, *Bull. End. Dis. Baghdad*, XII (1-4) : 81.

Abul-hab, J. K. and R. al-Baghdadi, 1972.
Seasonal occurrence of five species of **Phlebotomus** (Diptera, Psychodidae) in Baghdad area; *Ibid.*, XIII (1-4) : 55-75.

- Lamborn, W. A. 1955.
The Haematophagous fly as a possible vector of *Leishmania*. Bull. End. Dis. Baghdad, I : 239 - 249.
- Ledingham, J. C. G. 1919.
Kala azar in Mesopotamia. British Med. Jour., 2 : 88. (Cited by Bray et. al., 1967).
- Machattie, C. and C. R. Chadwick, 1920.
Notes on cutaneous Leishmaniasis of dogs in Iraq; Trans. Roy. Soc. Trop. Med. Hyg. 20 (7) : 422-432.
- Machattie, C., E. A. Mills and C. R. Major, 1931.
Naturally occurring oriental sore of the domestic cat in Iraq. Ibid., 25 : 103.
- Marinkelle, C. J., 1975.
Visceral leishmaniasis control, Iraq, WHO, Reg. Office Eastern Med. an assignment report., pp. 13.
- Millington, H. 1873.
Signs and wonders in the Land of Ham, John Murry, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Mills, E. A., Machattie, C. and C. R. Chadwick, 1930.
A preliminary note on the relationship of the parasites of human and canine dermal leishmaniasis. Trans. Roy. Soc. Tro. Hyg. 23 : 413-416.
- Mohsen, Z. H. 1973.
Lab. Studies on the Bio. and Vec. Pot. of man-biting *Phlebotomus* sandflies (Diptera, Psychododae) in Baghdad area; a thesis to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.
- Mohsen, Z. H. and J. Abul-hab, 1975.
Lab. studies on the biology of *Phlebotomus papatasi* Scopoli (Diptera, Psychododae); Bull. End. Dis. Baghdad 16 : 33-56.
- Patton, W. S. 1919. Notes Epid. Oriental Sore in Meso. Bull. Soc. Path. Exot. 12: 500-504.
- Pecocke, R. 1765.
A description of East. Vol. II, Bowyer, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Bray, R. S., G. F. Rahim and S. Taj el-Din. 1967.
The present State of Leishmaniasis in Iraq; Protozoology, 11 : 171-186.
- Buckingham, J. J. 1827.
Travels in Mesopotamia, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Budge, E. A. Wallis, 1920.
By Nile and Tigris. John Murray, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Campell-Thomson, R. 1936.
A dictionary of Assyrian Chemistry and Geology. Clarendon Press. (Cited by Pringle, 1957).
- Candler, E. 1919.
The long road to Baghdad. Cassel & Co. London (Cited by Bray et al, 1957).
- Chadwick, C. R. and C. Machattie, 1927.
Cutaneous Leishmaniasis in Iraq; Trans. Roy. Soc. Trop. Med. Hyg., 20 : 422-432.
- Connor, R. and H. E. Short, 1918.
Dermal Leishmaniasis in Iraq. Indian Jour. Med. Res., 6 : 162.
- Corradetti, A. 1965.
Informations on Leishmaniasis collected in Lebanon, Syria, Iraq, Iran and Turkey. WHO Pub. PA/66. 80.
- Elgood, C. 1934.
The early history of the Baghdad boil. Jour. Roy. Asiatic Soc., III : 519-533.
- Elgood, C. 1951.
A med. Hist. of Persia and E. Caliphate, Univ. Press, Cambridge.
- Kirchmair, H. 1954.
Kala azar in North Iraq. Jour. Med. Prof., 2 : 50-55.
- Kultz, L. 1916.
Pathologische und theapeutische Beobachtungen aus Niedermesopotamien. Arch. Schiffs. Tropenhyg. 20 : 487-502. (Cited by Bray et. al., 1967).
- Labat, R. 1951.
Traite Akkadien de Diagnostics et prognostics medicaux. Vol. 1, E. J. Brill Ed., Leiden, p. 75. (Cited by Bray et. al., 1967).

- Sprawson, C. A. 1919.
Kala azar in Mesopotamea and its incubation period. *British med. Jour.* 2 : 667-6668.
- Sukkar, F. 1972.
Visceral leishmaniasis in Iraq; *Bull. End. Dis. Baghdad*, 13 : 77-83.
- Sukkar, F. 1974.
Study on sandflies as vectors of kala azar in Iraq; *Ibid.* 15 : 85-104.
- Sukkar, F. 1976.
Some Epid. Information from annual rep. on kala azar in Iraq during 1974. *Ibid.* 17 : 119-127.
- Taj el-Din, S. and K. al-Alousi, 1954.
Kala azar in Iraq; Report of four cases; *Jour. Fac. Med. Baghdad*, 18 : 15 - 19.
- Taj el-Din, S. and M. H. al-Hassani, 1961.
Kala azar in Iraq, Analysis of 100 cases : *Jour. Fac. Med.* 3 (New Series) : 1-9.
- Virolleaud, Ch. 1907.
Pronostics sur l'issue de diverses maladies avec 2 planches. *Babyloniaca* 1 : 1-103. (Cited by Bray et. al., 1967).
- Wenyon, C. 1911. Oriental sore in Baghdad; *Parasitology*, 4 : 273-344.
- Zein el-Din, K., 1973.
Visceral leishmaniasis in Iraq, in search of a reservoir host and a vector; *Jour. Egypt. med. Assoc.* 56 : 689.
- Pringle, G. J. 1952.
The sandflies (Phlebotominae) of Iraq; *Bull. Ent. Res.*, 43 : 707-734.
- Pringle, G. J. 1956.
Kala azar in Iraq : Preliminary epidemiological consid., *Bull. End. Dis. Baghdad*, 1 : 275-294.
- Pringle, G. J. 1957.
Oriental Sore in Iraq, Historical and Epidemiological Problems; *Ibid.*, 2 : 41-70.
- Rahim, G. F. and I. H. Tatar 1966.
Oriental Sore in Iraq. *Ibid.*, 8 : 1 - 4.
- Rahim, G. J., 1967.
Present Problems of Oriental Sore in Iraq, *Ibid.*, 9 : 48-58.
- Russel, Alex., 1756.
The Nat. Hist. of Aleppo and parts of Adjacent. Millar, London, (Cited by Pringle, 1957).
- Salim, H. H., Z. Hayatee and A. Awaness, 1966.
Dehyd. Resi. for oriental sore. *Lancet*, 1 : 1428.
- Sinderson, H. 1931. Lupus vulgaris and oriental sore. *Trans. R. Soc. Trop. Med. Hyg.* 25 : 75-76.
- Southgate, Rev. H., 1840.
Narrative of a tour through Armenia Kurdistan, Persia and Mesopotamea. Appleton & Co., New York. (Cited by Pringle, 1957).

قبتان محزوتان من بغداد

بقلم
عطاء محمد صالح الحارثي

الدار الوطنية للتوزيع والاعلان - بغداد

نبذة تاريخية

الميزة لابنية وادي الرافدين عن سواها « فابتداع التاريخ في البناء وحز الحناجر كان فتحا عظيما في الفن العماري فهو يساوي اختراع العجلة في آلاته وادواته مع اشتهار الرومان ببناء القناطر التي هي حناجر وبيضاء عقود الظفر المعروفة باقواس النصر . فأول من ابتدع الحفر والتاريخ والتقويس في البناء هم سكان وادي الرافدين القدامى » (٢) .

فقد هدتنا التنقيبات الاثرية الى نمط التسقيف في ابنية مرحلة القرى الزراعية المتطورة « الالفين السادس والخامس قبل الميلاد » (٣) ، فحفرات تل حسونة أثبتت لنا ان السقف كان مسلما بينما ظهر في عصر حلف (٤) على شكل قبة (٥) .

وقد دلت الحفريات التي اجريت في موقع الاربيجة (٦) عن بناء القبة واورد الاستاذ ملوان

ان دراسة الطبيعة الجغرافية لوسط وجنوب العراق توضح لنا ان هناك ثمة عوامل طبيعية وبيئية قد تحكمت في اساليب البناء نتيجة لندرة مسواد انشائية معينة ووفرة اخرى وفي دراستنا للقباب وما لوفرة مادة الطين بكميات هائلة في هذا الوسط وندرة مادة مهمة كالخشب والحجر دفعت المعمار العراقي القديم الى ابتكار فنون معمارية جديدة في تسقيف الابنية وذلك باستخدام العقود والاقبية عوضا عن السطوح المستوية والاستغناء عن استخدام الاعمدة والدعائم طالما ان مادة الطين بطبيعتها مادة مرنة تعطي البناء القدرة والكفاءة في التحسين والتحكم ، ان هذا العامل لعب دورا كبيرا في تحديد انواع وفن العمارة في العراق .

لذلك فان دراسة مراحل التطور الثقافي والحضاري لوادي الرافدين الذي كان له اوفر نصيب في بلوغ النضج الحضاري واقامة حضارة اصيلة في تاريخ البشرية مقارنة بالحضارات الاخرى التي قامت الى جانب حضارة وادي الرافدين ، توضح لنا ان الانسان في هذه المنطقة ابتدع كل ما هو جديد في الفنون المعمارية وعلى ذلك يمكن ان نجد اصول الابنية المقببة في العمارات القديمة التي شيدت في بلاد وادي الرافدين ومنها انتشرت الى العالم القديم .

فالقبة اذن عنصر عماري محوري عن فنون الازج (١) المعمارية التي تعد من اهم الخصائص البنائية

(١) الازج : ضرب في الابنية ومصطلح عماري للدلالة على كل بناء شيد مقوسا . « الفيروز ابادي القاموس المحيط

- ج ١ ص ١٧٧ - دار الفكر - بيروت » والدكتور مصطفى جواد ، سومر م ٢٥ ص ١٦٤ بغداد - ١٩٦٩ .
- (٢) الحنيرة : عقد الطاق الميني والقوس او بلاوتر والمقد المضروب ليس بذلك العريض . « الفيروز ابادي القاموس المحيط ج ٢ ص ١٤ - دار الفكر - بيروت » د . مصطفى جواد ، سومر م ٢١ ص ١٦٤ بغداد - ١٩٦٩ .
- (٣) فؤاد سفر سومر ج ١ ص ٢١ بغداد - ١٩٤٥ .
- (٤) تقع قرية حسونة على نحو ٥ كم في الضفة اليمنى لدجلة وعلى ٣٥ كم جنوب الموصل ، نقت فيها مديرية الآثار العراقية في عامي ١٩٤٣ - ١٩٤٤ وهي قرية كبيرة في العصر الحجري الحديث يقدر تاريخها بنحو (٥٨٠٠ - ٥١٠٠ ق . م) .
- (٥) يقع تل حلف في شمال سوريا على ٥ كم جنوب غربي راس العين قرب منبع الخابور نقت فيها بعثة المانية عن متحف برلين سنة ١٩١٠ . ١٩١٣ ، ١٩٢٩ .
- (٦) الاربيجة : موقع اثرى يقع بالقرب من اطلال نينوى ويرجع تاريخه الى (٤٩٠٠ - ٤٢٠٠ ق . م) .

نماذج مختلفة لها وأشار الى ان الطراز ، اي بناء القبة يختلف من مكان لآخر فهناك نموذج يشكل قبة دائرية واخر يشكل قبة مخروطية (٧) .

وقد وجد الاستاذ ليونارد ولي في المقبرة الملكية بـ أور في العهد السومري «الالف الثالث.م» نماذج لسقوف معقودة بشكل اقبية وقبـاب مخروطية .

اما في العصر الاسلامي فان اقدم مثال عراقي للقباب ما زال قائما فيه هو قبة قصر الاخضر التي تعود الى النصف الاول من القرن الثاني للهجرة . . اما اقدم قبة اسلامية في بغداد ذكرها لنا المؤرخون العرب فهي : قبة قصر المنصور ، الخضراء

ان خير من وصف قصر المنصور وقبته الخضراء هو الخطيب البغدادي حيث روى انه : « كان في صدر قصر المنصور ايوان طوله ثلاثون ذراع وعرضه عشرون ذراع وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه الى حد عقد القبة عشرون ذراعا تصار من الارض الى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراع » ويضيف انه كان على رأس القبة الخضراء تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يتجه مع الريح ، وكانت ترى من اطراف بغداد .

ويذكر لنا الخطيب ان قبة المنصور بقيت قائمة حتى سقط رأسها في يوم الثلاثاء لسبع خلون من جماد الآخر سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وكان ليلائد مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد وكانت هذه القبة تاج بغداد وعلم البلد ومآثرة من مآثر بني العباس ، بنيت اول ملكهم وبقيت الى هذا الوقت « الى آخر امر الواثق » (٨) .

ويذكر لنا ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٥٣ ان سبب سقوط القبة الخضراء هو الفرق العام الذي خرب مدينة بغداد ، حيث كانت تتعرض لفيضانات مستمرة وبالتأكيد ان تأثير المياه على العمران كان كبيرا (٩) .

ان ما يعنينا من هذا الموضوع هو دراسة قبتي زمرد خاتون والسهرووردي وهما « وامثالهما من القبب المخروطية تكاد تكون خاصة بمشاهد

M.E.L. Mallawan and Jerviklovnd (٧)
Rose, Excavations at Tell Arpa-
chiyah Iraq Volc. 11, Part LPP,
25 Lonlan 1935.

(٨) الخطيب ج ٧٢/١ طبع المكتبة السلفية - الرياض .
(٩) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٧٠٢ .

الائمة والكبراء والكبيرات منذ زمن العباسيين » ، وقد انتشرت في العراق في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن السابع الهجري ومما بقي منها في العراق قائما حتى الان ثمان عشرة قبة وفي الغالب تكون قبة الضريح منفردة وقد تكون ملحقة بمدرسة أو جامع ، وتكون شرفة الضريح على الاكثر ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تعني غالبا قيام بناء مخروطي وتأتي بعدها الشريحة الرابعة الاضلاع .

والقباب المخروطية انواع منها ذات المقرنصات من داخل البناء وخارجه وهو السائد ويكون هذا المخروط صفوفا من المقرنصات تستمر حتى نهاية القبة ويكون الشكل الخارجي مشابها للشكل الداخلي ومن القباب ما تكون مخروطا من الداخل وهي مضلعة من الخارج وهذا النوع يكون على شكل قبتين داخلية وخارجية بينهما فراغ . كما في قبة يحيى ابي القاسم في الموصل .

قبة السيدة زمرد خاتون

تقع قبة السيدة زمرد خاتون في الجنانب الغربي من مدينة بغداد « جانب الكرخ » الى الجنوب الغربي من ضريح الشيخ معروف الكرخي في وسط المقبرة المعروفة باسمه (١٠) .

يعرف الضريح - عند العامة - باسم الست زبيدة ولا زال . وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الضريح واغلب الاراء لا تنسبه الى السيدة زبيدة - بنت ابي جعفر المنصور ، فقد رأى الرحوم الاستاذ عباس العزاوي في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين ان الضريح يعود الى زبيدة بنت هارون الجويني المتوفاة سنة ٧٠٦هـ (١١) في حين يذكر لنا الاب انستاس الكرمل في ان الضريح تعود نسبته الى زبيدة خاتون ابنة السلطان بركياروق زوجة السلطان مسعود بن السلطان ملكشاه المتوفاة سنة ٥٣٢هـ ويؤيد هذا الرأي الاستاذ عبدالرزاق الحسني (١٢) .

(١٠) تسمى المقبرة التي دفن فيها الشيخ معروف الكرخي بمقبرة باب الدير . ثم بنيت له تربة واحتفرت عام ٤٥٩هـ ثم امر الخليفة القائم بامر الله بعمارة المكان . « د . مصطفى جواد ، العمارات الاسلامية العتيقة سومر م ٣ سنة ١٩٤٧ » .

(١١) عباس العزاوي / تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٠٦ .

(١٢) الاب انستاس ماري الكرمل في لغة العرب مج ٦ ص ٧٥٥ . دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ص ١٧ (حاشية) .

ويرى السيد محمود شكري الالوسي انه ربما كان يمثل ثرية لزوجته او بنت احد الامراء او ملك من الملوك اي لا صلة له بالسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد (١٣) .

اما الدكتور مصطفى جواد فينسب الضريح الى السيدة زمرد خاتون ام الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩ هـ وهو الرأي الراجح الذي تؤكد الروايات التاريخية (١٤) .

تقوم قبة السيدة زمرد خاتون على قاعدة تتكون من ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تساعد كثيرا على قيام بناء مخروطي عليها اي قيام دوائر في البناية متضائلة شيئا فشيئا حتى تنتهي بسماوته اي بنقطة اعلاه (١٥) انظر صورة رقم (١) .

يتوسط احد اضلاع القبة مدخل تتقدمه غرفة مربعة تعود الى فترة متأخرة من العهد العثماني كما يدل على ذلك طرازها المعماري حيث سقفت بقباب نجمية الشكل عرفت بالصينية ، وهو طراز شائع في بغداد في تلك الفترة (١٦) .

تقوم القبة على جدران صلبة ثمانية الاضلاع مبنية بالاجر والجص ، اما خارجها فتزينها زخارف اجرية بسيطة محفورة حفرا قليل الغور ومكونة من نجوم وبعض الاشكال الهندسية والزخارف النباتية . انظر صورة رقم (٢) .

وشكل رقم (١) الذي يمثل نماذج لحشوات زخرفية اجرية .

وفي ظاهر كل وجه من اوجه القاعدة الثمانية بابان معميان وفي صورتها التي صورت قبل سنة ١٨٥٠ اربعة ابواب معمأة اثنان من فوق واثنان من تحت ولم تحافظ هذه العمارة على شكلها القديم نتيجة الترميمات الحاصلة عليها ولعدة مرات (١٧) . اما ظاهر القبة فقد غطي بالجص .

(١٣) محمود شكري الالوسي : تاريخ مساجد بغداد واثارها ص ١٢٩ .

(١٤) د . مصطفى جواد : سيدات البلاط العباسي ص ١٨١ . د . مصطفى جواد : العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢ سنة ١٩٤٧ .

(١٥) د . مصطفى جواد / العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢ سنة ١٩٤٧ .

(١٦) عطا الحديثي / هناء عبدالخالق - القباب المخروطية في العراق ص ٢٩ .

(١٧) د . مصطفى جواد العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢ سنة ١٩٤٧ .

تتراوح اطوال اضلاع المثلث ما بين ٢/٧٢ م - ٢/٩٣ م وهذا الاختلاف في الاطوال متأت من الترميمات العديدة التي اجريت عليها خلال الازمان . يتوسط الضلع الشمالي الشرقي مدخل القبة الاصيلي والى يساره درج البناء قد فتح من صلب الجدار يؤدي الى سطح البناء .

يبلغ ارتفاع اضلاع الشكل المثلث اي الجدران الحاملة للقبة ٤/٨٠ م وهي قائمة ليس بها اي عيب .

تقوم في اعلى زاوية المثلث مقرنصات معقودة ومركبة لتكون منطقة الانتقال من الشكل المثلث الى القاعدة الدائرية . وتتكون من ثلاثة صفوف متتالية الواحد فوق الاخر تنتهي بقاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا . انظر صورة رقم (٣) .

هناك اختلاف واضح في مقرنصات منطقة الانتقال عنها في مقرنصات انحاء القبة وهذا الاختلاف متأت من الغرض المعماري في احداثها .

فمقرنصات منطقة الانتقال هو تحويل القاعدة المثلثة الى قاعدة ذات ستة عشر ضلعا كما ان التثبيت على قواعد ذات ستة عشر راسا تبدأ من ارتفاع ٩/٥ م ففي هذه الحالة يكون ارتفاع منطقة الانتقال ٤/٧٠ م .

تكون مقرنصات القبة الدائرية عشرة صفوف متتالية يحوي كل صف من الصفوف السبعة الاولى ستة عشر مقرنصا (١٨) .

بينما تحوي الصفوف الثلاثة الاخرى ثمانية مقرنصات لكل منها .

يتم الانتقال من السابع الى الثامن بعقود صغيرة تجمع رؤوس كل مقرنصين متجاورين ويفصل بين كل ضلعين من صفوف مقرنصات القبة قاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا في الصفوف السبعة الاولى وذات ثمانية رؤوس في الصفوف الثلاثة الباقية ، حيث ينتهي الصف العاشر بقبة صغيرة نجمية ذات ثمانية رؤوس (١٩) .

ومن دراسة العناصر المعمارية والزخرفية للقبة اضافة الى الروايات الاستطردية نستطيع تنسيب تاريخ بنائها الى القرن السادس الهجري . هذا وان المرقد يحتوي على خمسة قبور اضافة الى قبر السيدة زمرد خاتون .

(١٨) عطا الحديثي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

(١٩) عطا الحديثي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

قبة ضريح السهروردي

تقع في الجانب الشرقي من مدينة بغداد « الرصافة » بالقرب من الباب الوسطاني احد ابواب مدينة بغداد الذي لا يزال قائما (٢٠) وفي المحلة التي تنسب اليه وهو الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهروردي المدفون في المقبرة الوردية (٢١) .

في الاصل يتكون البناء من غرفة الضريح والحق بها مؤخرا مسجد يعود تأريخ بناءه الى سنة ٩١٧ هـ ، لها مدخلان الاول وهو الباب الرئيس من داخل المسجد تعلوه كتابة تحمل تاريخ اصلاح القبة ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، جدد هذه العمارة المباركة الشريفة لضريح الشيخ القدوة الرباني خطب الاولياء والعارفين شهاب الدين عمر ابن محمد السهروردي روض الله مرقده محمد ابن رشيد اصلح الله شأنه وذلك في شهور سنة خمس وثلاثين وسبعمائة والحمد لله وحده وصلواته على نبيه محمد واله) انظر صورة رقم (٤) .

والثاني يدخل من مجاز اضيق الى البناء سنة

٧٣٥ هـ

(٢٠) الباب الوسطاني : ويسمى قديما باب الظفيرة وهو احد ابواب سور الجانب الشرقي الاربعة . وظل معظم هذا السور قائما مع ابوابه الى عهد قريب حيث اندثر على عهد الوالي مدحت باشا . ثم زالت القسامة الباقية منه مع الابواب بعد ذلك ولم يبق منه غير باب واحد في جهته الشمالية الشرقية وهو الباب الوسطاني الذي رقمته مديرية الآثار واتخذت منه متحفا للأسلحة القديمة في سنة ١٩٢٩ .

(٢١) ابو حفص عمر بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عمويه واسمه عبدالله البكري الملقب بشهاب الدين السهروردي . ويصل نسبه الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان خطيبا شافعي المذهب شيخا صالحا ورعا كبير الاجتهاد في العبادة والرياضة وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية وصحب عنه ابا النجيب وعنه اخذ التصوف والوعظ والشيخ ابا محمد عبدالقادر صالح الجبلي وغيرهما من الشيوخ وعقد مجلس الوعظ سنين ، وكان شيخ الشيوخ ببغداد ، وتوفي سنة اثنين وثمانين ببغداد ودفن بالوردية . ابن خلكان / وفيات الاعيان ج ٣ ص ٤٤٦ . دار الفكر - بيروت .

تقوم القبة على غرفة مربعة الشكل ابعادها ٧/٤ م ٤/٩ م خالية جدرانها من الزخرفة على علو ٦/٥ م حيث تزين الجدران دخلات عددها اثنتا عشرة دخلة تلف مع جدران الغرف تحيط بها اعمدة خمسة من هذه الدخلات تتوج قسماتها عقود مفصصة والاخر عقود مدببة . يعلوها صفان من المقرنصات يقوم فوقها غطاء القبة تزينه كتابة حديثة العهد . انظر الشكل رقم (٢) .

ومن الخارج فان ظاهر القبة مكون من احد عشر صفا من فوق المنحني الذي تقوم عليه القبة . فهناك اختلاف في مقرنصات القبة الخارجية عنها في الداخلية . صورة رقم (٥) .

فتكون قبة السهروردي مكونة من قبتين الاولى وجه المخروطية وهي الاصلية والثانية اضيفت فيما بعد وهي في باطن القبة الاولى وبينهما فراغ .

وفي سطح المسجد وعلى الواجهة الخالية للقبّة من الخارج شريط كتابي :

فانظر الى اثار رحمة ربك كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير . امر بتجديد بعد ثورة... صورة رقم (٦) .

اما تاريخ بناء القبة استنادا الى الرواية التاريخية حيث ذكر د . مصطفى جواد ان احمد ابن عبدالله البغدادي ذكر في كتاب اصول الادب والتاريخ ١٦ ص ٢٢ عن حوادث سنة ٦٣٢ وفيها توفي الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهروردي . ودفن قريبا من الباب الوسطاني داخل بغداد وعقد على قبره اضافة الى هذا وعلى ضوء الصيانة التي اجرتها دائرة الآثار مؤخرا حيث اظهرت لنا زخارف بنائية (٢٢) ملونة وصفوف المقرنصات فاستنادا الى اسلوب رسم الزخارف البنائية وطريقة تصفيف المقرنصات يمكن نسبة بناء القبة الى سنة ٦٣٢ هـ وهي سنة وفاة الشيخ السهروردي (٢٣) .

(٢٢) د . مصطفى جواد : العمارات الاسلامية المتينة سومر ٣ م سنة ٤٧ .

(٢٣) عطا الحديشي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

الخطيب البغدادي و تاريخه

بقلم المرحوم

عباس العزاوي

اخراج

فاضل عباس

بغداد - الجمهورية العراقية

وكشف عن اكابر سلفوا وأئمة مضوا واصحاب نحل
درجوا ... ابان عنهم وأوضح مناهجهم وسجل
آراءهم وما قيل فيهم ...

كان موضع الاخذ والرد ، والنقد والتمحيص ،
والجدل والمناظرة ... في عصور مختلفة وازمان
عديدة ومتوالية ... فكان لنقوله ، ولآرائه الاثر
الجليل في احتكاك المقالات وايجاد النقول على
اختلافها ... فلم يكن مداحا . وانما اورد ما اعتمد
مما قيل للمرء وعليه ... وهو في كل هذه وغيرها
مرجع العام والخاص ، ومدار النقل والاستدلال
... ولا نغالي اذا قلنا انه لم يسد مسده تاريخ بل
لم نر في موضوعه ما هو خير منه ، او ان يكون اولى
بالاخذ دونه ... فهو يستحق كل تقدير ، واهل
لكل مدح واطراء ... ولسان القلم عاجز ان يقوم
بهذه الخدمة نظرا لعظم العمل الجليل الذي زاوله
فقام به ، وتم على يده ...

وللخطيب مكانة علمية مرموقة تتمثل في هذه
الشهادات سلبا وايجابا :

١ - قال المؤتمن الساجي : « ما اخرجت بغداد
بعد الدارقطني احفظ من الخطيب »

٢ - وقال ابن الجوزي : « من نظر في تصانيفه
عرف قدر الرجل وما هيء له مما لم يهيا لمن
كان احفظ منه كالدارقطني وغيره » وقال .
« كان حريصا على علم الحديث . كان يمشي
في الطريق وفي يده جزء يطالعه وكان حسن

يعتبر القرن الخامس الهجري من خسير
العصور الاسلامية وارقاها حضارة وتقدما علميا .

ففيه نضجت العلوم المختلفة وازدهرت بل
تكاملت حيث نالت حظا وافرا من العناية والرعاية
فلا غرو اذا عد هذا العصر من العصور الذهبية للأمة
الاسلامية ... كما برزت فيه الآراء والنحل وانجلي
ما غمض منها وابهم .

في هذا العصر الزاهر ظهر مؤرخنا فابرز اعظم
اثر في تاريخ بغداد ، ولم يكن مبرزاً فيه وحده وانما
الف في موضوعات اخر ولم يقصر همته وجهده عليه
وانما كان كما وصفه ياقوت في معجمه ارشاد
الاربيب :

« الخطيب ابو بكر احمد بن علي بن ثابت بن
احمد بن مهدي البغدادي » ، الفقيه الحافظ احد
الائمة المشهورين المصنفين الكثيرين ، والحفاظ
المبرزين ومن ختم به ديوان المحدثين .

ولد يوم الخميس لست بقين من جمادى
الاخرة سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠١ م وتوفي سنة ٤٦٣ هـ -
١٠٧٠ م) .

ان العراق يفتخر بمؤرخه العظيم هذا ولا يزال
شاكرا لصنيعه ومعجبا بعظيم ما قام به فقد خلد
ذكرى جليلة ومنقبة فائقة لا تقدر بثمان ولا يوازها
عمل تاريخي الى اليوم ... ولم تقف فائدة تاريخه
عند العراق وحده وانما لهج به واثنى عليه اكابر
علماء العالم الاسلامي فقد جلا صفحات غامضة

القراءة ، فصيح اللهجة ، عارفاً بالادب يقول الشعر الحسن .

٣ - وقال اسماعيل بن ابي الفضل القومسي - وكان من اهل المعرفة بالحديث - . « ثلاثة من الحفاظ لا احبهم لشدة تعصبهم وقلة انصافهم . الحاكم ابو عبدالله . وابو نعيم الاصبهاني ، وابو بكر الخطيب . قال ابو الفرج . وصدق اسماعيل وكان من اهل المعرفة فان الحاكم كان متشيعاً ظاهر التشيع ، والاخران يتعصبان للمتكلمين والاشاعرة ...

٤ - وقال السمعاني في المذيل . « والخطيب في درجة القدماء من الحفاظ والائمة الكبار كيجي بن معين ، وعلي بن المديني واحمد بن ابي خيثمة وطبقته . وكان علامة العصر . اكتسب به هذا الشأن غضارة وبهجة ونضارة . وكان مهيباً وقوراً نبيلاً ، خطيراً ، ثقة ، صدوقاً ، متحريراً ، حجة فيما يصنفه ويقولها وينقله ويجمعه . حسن النقل ، والخط ، كثير الشكل والضبط ، قارئاً للحديث ، فصيحاً . وكان في درجة الكمال ، والرتبة العليا خلقاً وخلقا وهيئة ومنظراً ، تنتهي اليه معرفة الحديث وحفظه ، وختم به الحفاظ رحمه الله .

٥ - كتب ابو بكر البرقاني الى ابي نعيم الاصبهاني يوصيه بالترجم . (منه)

« ... وقد نفذ الى ما عندك عمدا متعمدا اخونا ابو بكر ... ليقتبس من علومك ويستفيد من حديثك . وهو عبدالله ممن له في هذا الشأن سابقة حسنة ، وقدم ثابت وفهم به حسن . وقد رحل فيه وفي طلبه وحصل له منه ما لم يحصل لكثير من امثاله الطالبين له . وسيظهر لك منه عند الاجتماع من ذلك مع التورع والتحفظ وصحة التحصيل ما يحسن لديك موقعه ، ويجعل عندك منزلته . وانا ارجو اذا صحت منه لديك هذه الصفة ان يلين له جانبك ، وان تتوفر له وتحتل منه ما عساه يورده من تثقيل في الاستكثار ، او زيادة في الاصططبار فقديمنا حمل السلف عن الخلف ما ربما ثقل . وتوفروا على المستحق منهم بالتخصيص والتقديم ما لم ينله الكل منهم . » اهـ .

ونحن لا نستطيع في هذه العجالة ان ننقل اسماء كافة من اطروه ، واثنوا عليه او اقتبسوا منه ، واخذوا عنه جميعا ... فضلا عن ايراد ما قالوه فيه او في مؤلفه ... ولا تسل ايها القارئ

عما عاناه في وضع مؤلفه من الاتعاب . والسياحات والاسفار ، وما استند اليه من المنقول وما راعاه من العنعنات ، والتواريخ التي اعتمد عليها او عول على صحتها فنقل عنها ، او اخذ منها ، وصرح باسمها ... فهو لم يقل قولاً فينسبها لنفسه وهو يعلم انه لغيره وهذا غاية التوقي في النقل ... فلم يغمط حق احد او يسرق قوله ...

فهو المؤرخ الصادق ، والخبير المطلع ، الذي لا نرى في عياره غيره في مختلف العصور ولا يضيع قولاً لقائل . ولا يتأخر عن الجهر به ونقله كما وصله ... في حين اننا لا نراه اعتمد كذاباً ، ولا اخذ عن مفتر ولا مجهول ... وانما تلقى عن المشاهير الاكابر في سائر الاقطار الاسلامية لا في العراق وحده وان كان العراق مركز الثقافة ، ونقطة دائرتها اذ ذاك ... مما حجب مؤلفه للناس .

لا نرى ان نأتي هنا على كافة المعدلين له والواقفين به ... وانما الطاعنون كما نقل في الفقرة الثالثة مما جاء في الاقوال فيه انه من المتكلمين وانه يتعصب للاشاعرة منهم فاذا كان هذا مذهبه فلم يكن مضطراً لتحجيد الاراء الاخرى المخالفة له وهل هذا يعد تعصبا ... اما رجال الشافعية فيعدونه من اكابر ائمتهم والمحدثون يعتبرونه من اساطينهم ، وسائر علماء الاسلام يشنون عليه ...

ويكفي للبرهنة على الوثوق منه ان مؤلفه من حين انتشر وتداولته الايدي انصرفت اليه الانظار ، وصارت تفكر في الاستفادة منه والاستقاء من معينه والاعتماد على ما جاء فيه ... او افراغه بقوالباخرى بان تراعى نسقا اخر لعرضه الى العموم ... بوضع آثار خالدة مقتبسة في الحقيقة منه ، ومستنبطة نصوصها من اثره الجليل النفيس ... او راعت اسلوبه وطريقة سيره ... فهذا السمعاني قلب تاريخه الى قاموس وجعله بشكل آخر (الانساب) كما انه ذيله ، وهذا ابن الاثير راعى تاريخ الحوادث فقلبه الى شكله وصار خير مرجع له ... وغيرهما ممن كتب في الرجال مال اليه واخذ عنه ، او اختص ، او اضاف ببعض زيادات ... وهكذا . اما الديول عليه والتتمات له سواء من قبل السمعاني ، او ابن النجار او غيرهما فكثيرة ... وتدل على شدة الرغبة فيه والاعتناء بموضوعه ... وعلى كل لم يظهر في الاسلام مؤرخ بلغ درجته ، او حاول ان يحصل على منزلته من الشهرة والثناء ، والوثوق ، والصدق ، والاخلاص ...

والبهنادي - كما مر - تعرض الى صنوف

متعددة من اهل العلم وارباب نحل عديدة . . . ومنها ما يخالف خطته ، ويعارض مذهبه . . . وفي كل هذه التزم الحياد ، وراعى الحيطة بكل معناها ، ولم يتحامل لمخالفة في النحلة ، ولم يرم لزيف كان قد رآه في عقيدة الخصم . . .

ولا ادل على ذلك اكثر مما نقله صاحب (السهم المصيب في كبد الخطيب) عن البغدادي حيث قال :

« قد سقنا عن ايوب السختياني ، وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وابي بكر ابن عياش ، وغيرهم من الائمة اخبارا كثيرة تتضمن تقريب ابي حنيفة والمدح له والثناء ، والمحفوظ عند ثقلته الحديث عن الائمة المتقدمين وهؤلاء المذكورين منهم في ابي حنيفة وكلامهم فيه كثير لامور شنيعة حفظت عليه يتعلق بعضها بأصول الديانات وبعضها بالفروع ، نحن ذاكروها بمشيئة الله ومعتدرون الى من وقف عليها وكره سماعها ، بان ابا حنيفة عندنا مع جلالة قدره اسوة بغيره من العلماء الذين دونوا ذكرهم في هذا الكتاب واوردنا اخبارهم وحكيما اقوال الناس فيهم على تباينها (١) . » ا هـ .

وبهذا هدم اقوال من تحامل عليه واجابهم عما كان يأمل ان يتقولوا به ولا عجب ان يؤيد نراهته وينقل الاقوال على تباينها فيه وفي غيره ولم يشأ ان يخرج عن الخطة القويمة وان يتعداها في بعض دون بعض . . . وانما ترك حق التقدير للقارىء .

وما نقول في الردود الا ان الرجل نقل ما وصل اليه مما قيل لمن ترجمه او عليه وبعضها ناشيء عن مخالفة في المعتقد ، او تخالف في الفقه والتفريع او تحامل من جراء واحدة من هاتين . . . ولا يسلم امرؤ من مبغض او محب . . . وقد قيل من الف فقد استهدف . . . والذي يريد معارضة البغدادي في هذا فانما ينبغي ان يصب معارضته في صحة النقل فيطلب التصحيح والا فلا يهدم نقله بأدلة اوردها عقلية ، او عقائدية او ما مائل من نحل وآراء او تحاملات . . . فهذه ليست من شأن المتناظرين في القول وامر تصحيحها او طلب مستنداتها . . . في حين اننا لا نرى من كذب النقل لا في حياة الخطيب ولا بعد وفاته فهذا هو الذي يجب ان يلاحظ في النقل . . .

والخطيب مع هؤلاء المتحاملين عليه اسوة بغيره من الصحابة واهل العلم من التابعين

وتابعيهم . . . وكذا يقال في ابي حنيفة والطاعين فيه . . . والرجل العظيم لا يدقق من ناحية المدح والذم وانما ينظر اليه من جهة اعماله التي قام بها ومبادئه التي بثها والخطة التي نهجها . . . فاللوم الشخصي لا قيمة له ولا اعتبار . . . ومن غلبت حسناته على سيئاته رجح وكل احد يؤخذ من قوله ويرد الا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

ويصدق هذا على الكل فقد اورد الذهبي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه انه انفرد في امور حفظت عليه خالف بها الجمهور وقال : ان هذه مما لا تطعن في مكانته ولا تنقل من منزلته . . . وكل احد يؤخذ من قوله ويرد الا الرسول صلى الله عليه وسلم . . . والمنقول عن الامام مالك رضي الله عنه مثل هذا او هو المنقول عن اصل هذا القول :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

ان المدونات التاريخية لا يصح الاكتفاء ببعضها عن بعض بان يقال هذا اجمع ويغني عن غيره وما مائل وانما يلاحظ في كل مؤلف ما صرف نظره للبحث فيه وما حاول الكلام عليه وجعله مدار بحثه ، ومركز اهتمامه ، وذلك ان من كان يميل الى الحوادث لا يستغنى بما يكتبه عن العلاقات السياسية او العلمية او الصناعية ، او الشرعية وهكذا . . . لم نجد تاريخا يبحث في هذه الامور ، او يتكلم عليها بسعة وكذا ما كان قبلها او جغرافيا لا يغني عنه غيره . . . وهكذا .

ولذا ينبغي ان نعقب كل جهة من جانب ليتيسر لنا الجمع ، والاخذ بكل الجهات ، ومن كان همه المذاهب السياسية فلا يكتفي بكل ذلك وانما جل ما يجب الاطلاع عليه مجرى السياسة والطرق المتبعة فيها ، والوسائل التي راعاها كل سياسي .

وهذه لا نراها صريحة في كتاب ، او نعلمها من تاريخ . . . وانما ذلك مواهب تستفاد من مجرى الحوادث واتصالها وسائر حوادثها فلا يمكن العثور عليها مجموعة . وما وجد كان بالنسبة لراي شخص او استنتاجا فرديا يصح ان يصيب شاكلة الحق في امر ويخطيء في امر . . . وهكذا وانما نرى بصيص نورها في مؤلفات ذلك العصر ، وآثاره ووضع الجغرافي ، والاقتصادي ، والمدني . . .

والهم هنا البيان عن تاريخ عرك صاحب الامور وما هذبته السياحات ، وراعى البصيرة في بحوثه التي سقلتها التجارب . فهو وان لم يتعهد

٢ - المشاهدات :

عاش ببغداد وعاد اليها ورأى آثارها ودخل جوامعها ومساجدها وفاضل مثل هذا لا يكذب بصره ما رأى ... وترى ذلك واضحا فيما حكا عن مسجد براءا وما ناله من التقلبات .

٣ - العلماء والصلحاء :

يحكي عنهم ويتكلم معهم وينقل ... وبوسعنا ان نقول ان المترجم وضع مؤلفه في تراجم علماء كثيرين مختلفي النزعات والمذاهب ، فأنطب في تراجمهم ونقل ما قيل فيهم وتبسط في القول حتى بلغ غايته ...

٤ - التراجم :

ترجم لكثيرين من العلماء والفضلاء . ومن اراد ان يترجم لمن يتعصب عليه بعضهم نقل ما اسند روايته ، وحكى ما قيل فيه على لسان غيره وراعى حقيقة صفته ولم يبد رأيا ، ولا تكلم عن محاكمة له وهكذا ... وترى ذلك واضحا في ترجمة معاوية ...

ظهر تاريخ بغداد مطبوعا سنة ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م وكان الناس يسمعون به ولا يرونه فهو اشبه بعنقاء مغرب ، ولم يصلنا خبر المباشرة في طبعه حتى وافى الكتاب .

يعود لمصر الفضل في المبادرة الى طبعه وان كان احد العراقيين قد اشترك في ذلك وهو صديقنا الاستاذ نعمان الاعظمي الكتبي وكذا لها الفضل الاكبر في احياء تراثنا الفكري الخالد .

وكيف لا تحرص على ذلك وهي اهم قطعة في البلاد الاسلامية العربية التي تقدمت بل عرفت ان تحيي المدنية الغابرة وتضيف اليها حضارة عصرية جديدة نافعة فتفيد الثقافة العربية والاسلامية ...

واني الان في معرض ذكر التاريخ المبين في صدر هذا المقال .

ان هذا التاريخ منذ تأليفه الى اليوم ينقل عنه السياح لوصف ما جاء فيه والمؤرخون يتناولون منه اقتباسا واختصارا وتوسعا وهكذا ... فكان - ولا يزال - معينا لا ينضب وبحرا لا يفور ولا ينفد ... وكل هذه لم تف بالحاجة او لا تخلو من تكرار ، وقد مللناها وسئملناها وضجرنا من تقولها واسترربنا في صحتها لتفاوت النقل بين السعة والاختصار .

السياسة ، ولم يجرب الإدارة ففي البصيرة ، والتجوال ما يلفت النظر ويدعو لجمع معلومات جيدة ، واحوال طيبة من شأنها ان توقف المتتبعين على بعض المجاري ، وقد يرى منها ما يشفي غليله وفي الإشارة ما يدعو الى ان يوضح له في طريقه ...

وهذا التاريخ لا كبر مؤرخ نال في عصره مكانة ، وحصل على رضا الناس وكسب رغبة تامة اعني به ابا بكر البغدادي .

لا يمكن الوقوف على غالبية البحوث السياسية الا من طريق التاريخ ولكن يجب استنطاق مؤرخين كثيرين ومجاورين لمعرفة حقيقة الواقعة ، وماهية الوضع .

اما البحوث العلمية والادبية فانهما تابعاان للجهود التي بذلها القوم ، والآثار التي خلفوها ... على عكس تلك ... وقد تغيب من البين وتنعدم ولكن عزاءنا عن ضياعها كثرة امثالها وتكررها ... الا ان من يهمه احوال محيطه يأسف لضياع ما وقع وما جرى حكمه عليه ...

وقد كتب مؤرخون عن هذا المحيط وعلاقته بالاقوال والممالك الاخرى او بصورة منفردة واوضحوا ما شاهدوا وقرروا ما راوا ... الا ان مؤرخنا ممن حاز قصب السبق وحصل على الشهرة الفائقة ... فوقف المؤرخون عنده فلم يجتازوه ولكنهم حوروا وغيروا فوصلوا الى اغراضهم استقاء من تاريخه ...

وآخرون اقتفوا طريقته ومشوا مشيته فذيلوا من حيث وقف وانتموا ما وصل عندهم الى ما وصلوا اليه ، او عقبوا الاثر ومضوا من حيث وصل السابق وهكذا ...

واني اذكر هذا المؤرخ ، وتاريخه ، ونهجه بالنظر لعصرنا والنقد الموجه عليه من كل وضع ... وليعذر القارئ العصر والتفاوت فيه واختلاف النهج التاريخي ...

وهنا مجمل ما يقال انه كتب تاريخه بعد ثلاثة عصور مضت عن تاريخ بناء بغداد وراعى فيها المصادر التالية :

١ - الروايات :

ولما كان من المحدثين فانه يعول على روايته ويؤخذ بسنده ويسمع قوله ، وقد اخذ عن الثقات ومؤلفاته في الرواية كثيرة ، وقد محص الروايات وقرر رايه الاخير فيها (راجع الاحاديث المروية عن بغداد) .

١ - الكتاب

ان هذا التاريخ لم يوصف اصله، ولم يتحر عن نسخه ولا روعي قدمها في خزائن الكتب العامة المتفرقة في انحاء المعمورة ، وللطابعين العذر اذ لم يروا مساعدات مشجعة ولم ينالوا ترغيبا ولا انعامات ليراعوا شروط الطبع بحيث يضارع طبع المطابع المصرية التي في حوزة الحكومة وكان ذلك يقتضي قيام تعاون ثقافي بين مصر والعراق ، لتحقيق هذا المشروع كما يوجب ذلك قيام لجنة علمية لتقابل النسخ المختلفة والتعليق عليها ، واتخاذ فهارس نافعة توفر على القارئ كثيرا من الجهد والوقت .

٢ - الورق المطبوع عليه الكتاب :

لم يلاحظ الورق وجودته الامر الذي شرحناه .

واذا تعذر على الحكومة النهوض بهذا العمل الشاق فلا تعذر في المعاونة والشروط على الطابعين لفرض ابرازه بشكل كامل بعيد عن عيوب الطبع واخطائه .

ان الكتاب لا يخلو من اغلاط مطبعية واغلاط آخر تظهر للرأي فهذه - للاسف - لم تلاحظ

٣ - الاعلام الواردة فيه :

لقد ذكرت في كتب اخرى ان الواجب كان يقتضي ان ينبه الى مواطن الاختلاف في النسخ المعتمدة في الطبع لتبصير القارئ المتتبع والباحث المتخصص .

ملاحظة اخيرة :

اذا فات الجهات الرسمية عندنا المساهمة في طبع جزء من هذا الكتاب فبوسعها ان تتلافى ذلك في الاجزاء التالية ، او اذا كانت لا تستطيع الاشتراك في هذا الكتاب فبوسعها ان تعقب ذيول هذا التاريخ وتتخذ الاهبة اللازمة لطبعها وتقوم بعمل كبير وخدمة نافعة ... ولتبرهن على حبها لتاريخنا القومي بعمل ما فاذا كانت تتحرى الآثار القديمة وخدمتها للحضارة والاحتفاظ بها فقصورنا ومنشأتنا العربية والاسلامية اولى بالاحتفاظ ، خصوصا انها لم تقطع علاقة معها ولا تزال ذات صلة دينية ووشائج قومية فهي منها واليها .

وقد برز اليوم هذا التاريخ الى الوجود فزال ما ران على البحوث من الابهام وكشف الحجاب فلم يبق بيننا وبينه حاجز ولا حائل ، فهو بين ايدينا نقرؤه ونتدبره ونأخذ عنه مباشرة ولا شك انه سوف ينسخ الاراء التي لا قيمة لها ويبطلها مما قد شاع وانتشر بين ظهرانينا او اساطير بقيت في عماء بسبب قلة نسخه وندرته .

فلا يسعنا الا ان نرجي الشكر والثناء للقائمين على طبعه والساعين في نشره فلم فضل السبق والمبادرة وينبغي الا نقف عند التحصيل الابتدائي وتكثير مدارسه وما مائل من الامور الاولى فقط وانما نحتاج الى الثقافة العليا والتربية الراقية واهمها المكتبات العامة وتاريخ القطر ومعرفة اهليه وطبع آثار اسلافه مما يخدم العلم الصحيح والامم المتقدمة اليوم لم تكف بالتحصيل الابتدائي ولا الثانوي بل ولا العالي ، وانما نلاحظ الجامع العلمية ، واحياء الآثار التاريخية ، والتسرية الاسلامية ... لتوليد الاختصاص وكل هذه لم تحل عندنا المحل اللائق بها اذ كان ينبغي لها ان تجلب المؤلفات النادرة وتمهد به الى بعض الفضلاء ليتولوا تحقيقها بل انها لم تحصر على آثارنا الفكرية ونفائس المخطوطات فتسربت الى الخارج واصبحتنا نتلمس وجودها في عواصم أوروبا وأمريكا عندما نريد التأليف أو الاستشهاد ببعض ما ورد فيه مما له علاقة بتاريخنا أو حياتنا العقلية .

يتميز كتاب (تاريخ بغداد) بمزية واحدة وهي انه عرف بمحيطنا في ايام قليلة لا ندري ما جرى وراءها ، او انه ذكر صفحة تمكن من ذكرها ولكن وراءها كثير من الامور التي اغفلها ، فهذه يجب ملاحظتها ودراستها ، وهذا لا يتيسر ما لم تعد المادة وتحفز الهمم للقيام بهذا العمل .

لقد سلخ هذا القطر اياما سعيدة في الادارة ، واصابته نكبات وبيلة ، او كان بين هاتين الفترتين مدهوشا ومتحيرا لا يدري اين يتوجه فكشف هذه الحالات يحتاج الى سهر دائم ، وشغل مستمر ... والا فلا تكفينا نبذ مبتورة ، ووثائق مختزلة ، واشارات مبهمه ...

واعمالنا الفردية لا تفي بهذه الحاجات وانما نحتاج الى مجامع علمية وجمعيات تاريخية ، وبعثات نافعة ...

ولنرجع الى التاريخ :

اعلام من الاندلس في بغداد

بقلم الدكتور

محسن جمال الدين

كلية الاداب/جامعة بغداد

مقدمة

ان خطة البحث تدور في مجملها حول النقاط الآتية : -

- ١ - بين بغداد وقرطبة .
- ٢ - أثر بغداد في الاندلس : في النواحي : الثقافية ، ولادبية ، والفنية .
- ٣ - أثر المعاهد العراقية ، والعلماء العراقيين على الحركة العلمية ، والادبية ، والفكرية في الاندلس .
- ٤ - أثر النتاج العراقي في حركة التأليف الاندلسي .
- ٥ - أثر العلماء والفنانين العراقيين الذين رحلوا الى الاندلس ، واثروا في حياتها الادبية والاجتماعية .
- ٦ - اعلام من الشخصيات الاندلسية التي درست في بغداد ، وعادت تحمل العلم للاندلس .

١ - بين بغداد وقرطبة

تلك شهادات صادقة عن عاصمة العراق ، في ماضيها التليد ، وحاضرها المجيد .
وذكر ايضا فقال : (٤)

كان (ابن العميد) اذ طرا عليه احد من منتحلي العلوم والاداب ، واراد امتحان عقله سألته عن (بغداد) فان فطن بخواصها ، وتنبه على محاسنها ، واثنى عليها جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله ثم سألته عن (الجاحظ) فان وجد اثرا لمطالعة كتبه ، والاقتباس من نوره ، والاعتراف من بحرته ، وبعض اقيام بمسائله ، قضى له بانه غرة شاذخة من اهل العلم والاداب .

وان وجده ذاما لبغداد غفلا عما يجب ان يكون موسوما به من الانتساب الى المعارف التي يختص بها (الجاحظ) لم ينفعه شيء من المحاسن !

قال (الحموي) في معجم بلدانه : « بغداد ام الدنيا وسيدة البلاد » (١) .

ووصفها ابن زريق الكوفي الشاعر بقوله : (٢)

سافرت ابغي لبغداد وساكنها

مثلا ، قد اخترت شيئا دونه الياس

هيئات بغداد ، والدنيا بأجمعها

عندي وسكان بغداد هم الناس

وقال (ياقوت) (٣) . نقلا عن بعض الافاضل :

« بغداد ، مدينة السلام ، وجنة الارض ،

وقبة الاسلام ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ومجمع

المحاسن والطيبات ، ومعدن الطرائف واللطائف ! »

ولما رجع (الصاحب) عن بغداد سأله (ابن العميد) فقال: بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد فجعلها مثلاً في الغاية في الفضل (٥).

ان السر الذي يكمن في (بغداد) كعاصمة للخلافة العباسية، في انها جمعت بين حسن الموقع، واعتدال الطبيعة، وتباين المجتمع، وعمارة الاسواق، وتصارع الافكار، وتصادم الآراء، وتمازج العقول، وتقبل الغرباء، والترحيب بالاصدقاء، ومحاربة الاعداء. الى ندوات العلم العامرة، ومناظر الدين الشامخة، ومعاهد المعرفة السامقة، ومساجد التقوى الواسعة، وجوامع الفضيلة الهادية، وخزائن الكتب المزدحمة، واسواق الوراقين المتعددة. الى مستشفيات، ومصحات، ومنزهات، وفنادق، وحمامات. كلها تدعو للعلم والايمان والفضيلة والصحة والرعاية بالمرض والعجزة والمنقطعين والبائسين. يقابل ذلك حب الخلفاء والامراء والقادة والحكام، للعلم والمعارف والعناية، والرعاية بالعلماء والادباء والشعراء. وكان من ابرزهم. المنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد، والمأمون، والناصر لدين الله. هذا في الطرف الشرقي من العالم الاسلامي. وفي العراق، وعاصمته بغداد.

اما في الطرف الغربي من العالم الاسلامي فتطل علينا (قرطبة) الاندلسية عاصمة الامارة والخلافة الاموية، وما حل بها من امراء الطوائف، ومن المنتزين على الخلافة من المرابطين والموحدين قال: صاحب (الروض المعطار) في موسوعته الجغرافية (٦) عن (قرطبة):

« وقاعدة الاندلس، وام مدنها ومستقر خلافة الامويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل (قرطبة) ومناقب خلفائها اشهر من ان تذكر. وهم اعلام البلاد، واعيان الناس. اشتهروا بصحة المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزي، وعلو الهمة، وجميل الاخلاق.

وكان فيها اعلام العلماء، وسادات الفضلاء. وآجارها مياسير، واحوالهم واسعة وهي في سفح جبل مطل عليها يسمى (جبل العروس). »

واستمر يصفها ويصف جامعها الكبير فقال: « وبها الجامع المشهور امره، الشائع ذكره. من اجل مصانع الدنيا كبر مساحة، واحكام صنعة وجمال هيئته، واتقان بنية. صار يحار فيه

الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف. وليس في مساجد المسلمين مثله تميقاً وطولاً وعرضاً!! ».

ومثلما تنافس الشعراء البغدادية من المشاركة في وصف مدينتهم (بغداد) رأينا الاندلسيين اخذوا يجارون اهل المشرق، في وصف (قرطبة) ومدحها قال الشاعر عبدالحق بن عطية الغرناطي يصفها مادحاً: (٧)

باربع فاقت الامصار (قرطبة)
وهن قنطرة الوادي، وجامعها
هاتان ثنتان، والزهراء ثالثة
والعلم اكبر شيء، وهو رابعها
وقال احد الشعراء في وصف (قرطبة) (٨):

دع عنك خضرة (بغداد) وبهجتها
ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الارض قطر مثل (قرطبة).
وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

والف (ابن سعيد المغربي) كتاباً اسماه (الشهب الثاقبة، في الانصاف بين المشاركة والمقاربة) (٩). وبه يتحدث عن مدن الشرق والاندلس ويقارن بينها. اقتبس منه (ابن فضل الله العمري) في كتاب (مسالك الابصار).

وزارها (ابن حوقل الموصلي) ووصفها في (رحلته) وقارن بينها وبين بغداد. فقال: (١٠)

« هي اعظم مدينة بالاندلس وليس بجمع المغرب لها عندي شبيه في كثرة اهل، وسعة محل. وفسحة اسواق، ونظافة محال، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق.

ويتعدد الكتاب والمؤرخون الاندلسيون الذين امتدحوا بلادهم، كابن سعيد المغربي، وابن حيان، والرازي، والحجازي وغيرهم. »

ومما قاله (الحجاري) عن (قرطبة) (١١):

« منتهى الغاية، ومركز الراجية، وام القرى، وقراره اولي الفضل والتقوى، ووطن اولي العلم والنهي، وقلب الاقليم، وينبوع متفجر العلوم، ودار صوب العقول، وبستان ثمر الخواطر، وبحر درر القرائح، ومن افقها طلعت نجوم الارض، واعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها انشئت التأليف الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة. »

وهذه شهادات لها قيمتها في عالم التاريخ!

٢ - أثر بغداد في الاندلس ، في النواحي الثقافية ، والادبية ، والفنية .

ان نظرة عامة على العاصمتين العباسية ،
والاندلسية نجد ان (بغداد) هي صاحبة الفضل
والايادي السابغة على (قرطبة) . فلقد كان العالم
في الاندلس لا يجد له منزلة بين قومه حسب - قول
المصادر الاندلسية - القديمة . ما لم يكن قد زار
بغداد . واتصل بالمشرق عن طريق الرحلة والدراسة
والتحصيل والزيارة .

واذا استعرضنا جمهرة العلماء الوافدين الى
المشرق عامة ، وبغداد خاصة كما ذكرهم اصحاب
المكتبة الاندلسية B.A.H. ، كبن الفرضي وابن
بشكوال ، وابن الابار ، والحميدي ، وابن خير
الاشبيلي ، وابن سعيد المغربي ، والمقري لدهشنا
من كثرة عددهم ، واختلاف طبقاتهم ، وثمرات
عقولهم ، وعظيم نتاجاتهم ، العلمية ، والادبية ،
والفكرية ، واللغوية ، والفقهية .

ولقد قمنا بدراسة منذ سنوات عنهم بعنوان
(الاندلسيون الاوائل من حملة الثقافة العراقية)(١٢)
ونشرناها في (مجلة كلية الاداب) (جامعة بغداد) .

ومثلما كان خلفاء بني العباس يشجعون العلم
والعلماء . كان خلفاء بني امية في الاندلس يدعون
الى ذلك ، ويبدلون الاموال في سبيله . ففي (قرطبة)
كانت اسواق الكتب رائجة ، ومنتديات العلم
منتشرة .

ومن اعظم اولئك الامراء والخلفاء ياتي في
المقدمة (سقر قريش) الامير عبدالرحمن الداخل ،
والامير عبدالرحمن الثاني (الاوسط) ، وعبدالرحمن
الناصر ، والحكم المستنصر(١٣) .

ونلاحظ ان صاحب الفضل الكبير في فتح
ابواب الاندلس امام الثقافة البغدادية العراقية .
كما اجمعت عليه المصادر القديمة ، والمراجع
الحديثة . انما هو عبدالرحمن الاوسط الذي تولى
السلطة عام (٢٠٦ هـ - ٨٢٢ م) واتسع مجال
النشاط الفني والادبي في عهده ، لانه كان مثقفا ،
شاعرا ، محبا للفلسفة والشريعة . (١٤) ورحب
بالوافدين اليه من (بغداد) واستقبلهم خير
استقبال وافاد مما حملوه معهم من طرز الحياة ،
وانماط الحضارة ، وتعدد الثقافات .

وان التأثيرات البغدادية على الحضارة
الاندلسية ، لم تكن مقتصرة على الفن وطرز العيش ،
بل رأينا تأثير الشعر العباسي والنثر ، يبدو واضحا

على الادب الاندلسي ، في بداية مدرسته المحافظة ،
وفي حركة مدرسته المجددة .

واصابت اهل الاندلس من الشعراء والمؤلفين
غيرة التقليد والمعارضة . يسيرون فيها على شاكلة
البغاددة واهل العراق .

فابو تمام المغرب ، ومتنبي المغرب ، وبحري
المغرب . وغير هذه الالقاب والمظاهر !! كما عورضت
قصائد أبي تمام ، والبحري ، وابي نواس ، والمتنبي
والمعري ، والشريف الرضي .

ونقد بعضها ودرسه دراسة محايدة (ابن
بسام) في (ذخيره) (١٥) كما اخذ على بني قومه
تقليدهم للمشاركة . - ولكنه - قد نسي نفسه يوم
تأليفه لكتاب (الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة)
الذي سار به على غرار (يتيمة الدهر) للثعالبي (١٦)
ولقد قال حاثا قومه ، ومشيئا لتقليدهم :

.. « الا ان اهل هذا الافق ، أبو لا متابعة
اهل المشرق ، يرجعون الى اخبارهم المعتادة ، رجوع
الحديث الى قتادة . حتى لو نطق بتلك الآفاق غراب ،
او طن باقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا
صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما » (١٧) .

وهذا برهان ساطع على تأثر اهل الاندلس
بالمشرق ، واهتمامهم بما تبذره القرائح العراقية في
بغداد .

٢ - أثر المعاهد العراقية والعلماء العراقيين على الحركة العلمية والادبية في الاندلس .

كانت ابواب دار الحكمة ، والنظامية ،
والمستنصرية مشرعة امام الوافدين اليها من الاندلس
وبقية الاقطار الاسلامية شرقا وغربا . وفي (تاريخ
بغداد) للخطيب البغدادي .

وكتب البلدان ، والمدن ، والرجال ، والتراجم ،
الامثلة التي لا يحتاج لها دليل وبرهان على عظمة
الحركة العلمية في العراق .

ومن الطبيعي ان الطلبة الوافدين من الاندلس
شأنهم ، شأن الآخرين ، يتلقون العلم على جلة العلماء
المشهورين ، في مختلف حقول الثقافة ، واللغة ،
والفقه ، والادب . وغيرها من فنون المعرفة الانسانية
والعلمية .

وقد وجدنا منهم طبقة درست على الامام
(الفزالي) كالمهدي بن ثومرت رئيس حركة الموحدين
الذي جاء من المغرب ، وادخل مباديء حركته

الدينية والسياسية في عقول انصاره الذين أسسوا دولتهم في المغرب واحتلوا بعدها الاندلس (١٨) .

ووجدنا القاضي (ابا بكر ابن العربي) يصاحب العالم العراقي ابا بكر الشاشي (١٩) ووجدنا الحُمَيدِي يعيش في بغداد ويتلمذ على الخطيب البغدادي ، ويتلقى العلم على طبقة اخرى من مشاهير العلماء ، ويؤلف كتابه الشهير (جذوة المقتبس) (٢٠) في بغداد ، ولم يغادرها وفضل البقاء فيها حتى مات ودفن في تربتها .

وهناك عالم الاندلس المعروف (ابو الوليد الباجي) الذي قضى شطرا من حياته في بغداد تلميذا وعاد لبلده عالما ، وقد تتلمذ على ابي الطيب الطبري في بغداد ، وعلى ابي اسحق الشيرازي .

والملاحظ - مع الاسف - ان اغلب هؤلاء العلماء الذين استوطنوا (بغداد) زمننا ثم عادوا لوطنهم ، لم يضعوا لنا كتباً عن انطباعاتهم ، وقضايا حياتهم ، وتراجم علمائهم ، الذين تلقوا العلم عنهم ، الا فئة قليلة من اصحاب (الرحلات) الذين زاروا البلاد ووصفوها وصفا يختلف اختصارا وشمولا ، وعمقا وسطحية .

ومن هؤلاء الرحالة الاندلسيين (بنيامين التيطلي) الذي جاء ليستطلع احوال اليهود في الشرق الاسلامي والف رحلته المعروفة باسمه (٢١) .

وكذلك الرحالة الكناني (ابن جبير الاندلسي) الذي وصف الاقطار الاسلامية التي مر عليها ومن ضمنها العراق (٢٢) .

اننا اذا اردنا ان ندرس الخطى الاندلسية التي جاءت من ديار الاندلس باصحابها الى (بغداد) نجدها قد مرت على بلاد متعددة برية ، وبحرية ، ومغربية ، وشرقية .

وقد سلكت في سيرها طريق البحر والبر . طريق البحر في العبور من الجزيرة الخضراء ، و (جبل طارق) ، ومواني الاندلس الجنوبية والدخول الى (سبته) ومن ثم السير براً في سواحل الشمال الافريقي . والوصول الى (مصر) والبحر الاحمر ، وزيارة الديار المقدسة ، وبيت المقدس ، وبلاد الشام ، والعراق . ومنهم من يجعل السفر بالسفن التي تمخر في البحر المتوسط وينزل في بعض جزره ، ثم يواصل الرحلة حتى ترسوا به باحدى المواني العربية . وبعدها يسلك طرق البر كي توصله الى (دار السلام) !!

وفي رحلة (ابن جبير) المثال على ذلك !!

وكان من الطبيعي ان تجذب بغداد اليها العديد من الناس من هنا وهناك . من اقاصي المشرق الاقصى ، وما وراء النهر ، الى سواحل الاطلسي ، واطراف المغرب ، وكل هؤلاء كانوا يفسدون اليها للعلم ، والتجارة ، والسياحة ، والاطلاع ، والمراقبة ، ورصد المعلومات ونقل الاسرار ، وفي رحلة (التطيلي) ما يدل شاهدا على ذلك الامر ، ومثالا على الغرض الخفي لتلك الرحلة ؟ .

كما ان الامر يكون معكوسا احيانا للغرض نفسه من العراق الى الاندلس . كما وجدناه في رحلة (ابن حوقل) الموصل ، الذي زار تلك البلاد ، وصور واقعها الاجتماعي ، والسياسي ، والعلمي . وقد اتهم بان زيارته ورحلته كانت بدافع سياسي ، من الخلافة العباسية !! ؟ (٢٣) .

٤ - أثر النتاج العراقي في حركة التأليف الاندلسي

مما لا شك فيه ان مدرسة بغداد العلمية ، كانت هي الرائدة في حقل الترجمة ، والتأليف . من طب ، وفلسفة ، وحكمة ، ومنطق ، وكلام ، واداب ، وتاريخ ، وجغرافية ، وعلوم ، وفنون .

وكان العراقيون هم الاساتذة في مختلف هذه الميادين ، لما ترجموه ، ودرسوه ، واخذوه ، وهضموه ، من الامم الاخرى وما ابتكروه بانفسهم . بحيث امتزجت تلك الثقافات في بوتقة الفكر العربي ، واصبحت ذات طابع عراقي عربي معروف .

وفي اي ميدان من الميادين العلمية ، والادبية ، والثقافية . كان لبغداد الحصة الكبيرة ، والريادة الهادفة النافعة .

فاذا الف (الجاحظ) مثلاً رسالة التربيعة والتدوير ، سار على خطاها في النقد والفكاهة (ابن زيدون) في رسالته الهزلية .

واذا الف (ابن داود الظاهري) كتابه (الزهرة) الف هناك (ابن فرج الجياني) كتابه (الحقائق) واذا صنف (الثعالبي) يتيمة الدهر ، راينا (ابن بسام) يؤلف الذخيرة في محاسن (اهل الجزيرة) .

واذا الف (ابن سينا) (حي بن يقظان) في المشرق ، راينا (ابن طفيل) يؤلفه في الاندلس . واذا صنف (ابن قتيبة) كتابه (عيون الاخبار) في بغداد . وجدنا (ابن عبد ربه) يؤلف (العقد الفريد) . وهكذا تستمر هذه الصورة في مختلف الاطارات التي تحيط بها (٢٤) .

(البغدادي) (٢٨) الذي هاجر إليها أيام الامير عبدالرحمن الثاني (١٧٦ - ٢٣٨ هـ) والشاعرة المغنية (قمر البغدادية) (٢٩) التي جلبها واشتراها الامير ابراهيم بن حجاج الاشبيلي وهي التي حنت لوطنها العراق ، ولايام (بغداد) فقالت: (٣٠)

آهاً على بغدادها وعراقها
وظبائها والسحر في احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو اهلتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنما
خلق الهوى العذري من اخلاقها

نفسى الفداء لها فاي محاسن
في الدهر تشرق من سنا اشراقها
والعالم الشاعر (ابو الفضل البغدادي) الذي ترجمه (ابن بسام) في (ذخيرته) ونقل لنا طائفة كثيرة من اشعاره والتي منها يتشوق لبلاده حيث قال: (٣١) وكان ذلك في عصر الطوائف :-

أهيم بذكر الشرق والغرب دائباً
وما بي شرق للبلاد ولا غرب
ولكن أوطاناً نأت وأجبة
فقدت متى أذكر عهودهم أصب
إذا خطرت ذكراهم في خواطري
تنائر من اجفاني اللؤلؤ الرطب
ولم أنس من ودعت بالشط سحرة
وقد غرد الحادون واستعجل الركب
اليغان هذا سائر نحو غربة
وهذا مقيم سار عن صدره القلب
وقال (ابن بسام) في القسم الرابع من (ذخيرته)
عن هؤلاء الوافدين (٣٢) .

« أفردته لمن طرا على هذه الجزيرة في المدة
المؤرخة من اديب شاعر ، واوى الى ظلها من كاتب
ماهر ، واتسع فيها مجاله ، وحفظت في ملوكها اقواله
ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهوري اهل تلك
الافاق ، ممن نجم في عصرنا بافريقية والشام
والعراق » .

وقد عد في مقدمتهم (صاعد البغدادي) اللغوي
وتلاه (بأبي الفضل الشاعر البغدادي) اما صاحب
(النفح) فقد اشار في مقدمة تراجم الوافدين الى
الاندلس بقوله: (٣٣)

« اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق
قوم كثيرون لا تحصر الاعيان منهم ، فضلا عن غيرهم ،

وقد نقلت روائع العراق الى الاندلس عن طريق
طلبة العلم ، والمسافرين ، والرحالة ، والتجار ،
والوسطاء ، والوافدين ، والمهاجرين الى هناك .
وتشجيع الخلفاء الامويين في قرطبة ، والامراء في
اشبيلية ، وبقية مدن الاندلس السامرة . لنقل تلك
الروائع . كما حدث ذلك في زمن الناصر والحكم
المستنصر في (قرطبة) وابراهيم بن حجاج في
(اشبيلية) (٣٥) والمثال على ذلك كتاب (الآغاني)
الذي انتشر في قرطبة قبل ان يقرأ في (بغداد) .
لكن يا ترى ، ما هو المعيار الفني ، والنقدي ،
للمقارنة بين هذين النتاجين ، العراقي ،
والاندلسي ؟؟

ان لتلك البلاد نتاج له خصائصه ، وله روعته .
ولكن يبقى اثر العراق هو البارز ، وثمرات اقلام
ابناء الرافدين هي المتميزة على غيرها . اللهم الا
باختراع الفنين الشعريين (الموشحات) ، و
(الازجال) . اللذين تميزت بهما العبقرية العربية
في الاندلس !! .

٥ - اثر العلماء والفنانين العراقيين الذين رحلوا الى الاندلس ، واترو في حياتها الادبية والاجتماعية

في بعض ظروف لم يكن معلوما لدينا سرها الان ،
بوضوح ، عن اسباب هجرة من العلماء ، وارباب
الفن العراقي ، للاندلس في عصر كان مزدهراً ،
حسب قول المؤرخين العرب ، فمنهم من كان يعزي
هجرتهم الى اضطهاد فكري ، ومنهم يرجعها الى
فقر مادي ، ومهم من يعللها الى حب الفسامة
والاستطلاع . ومهما كانت الاسباب . فقد حفلت
كتب التراجم الاندلسية بطائفة من اخبار (الغربة)
الذين وفدوا على الاندلس و (الطارئين) عليها . وفي
مجموعة (المكتبة الاندلسية) B. A. H. الكثير منهم ،
وفي (الذخيرة) لابن بسام ابرزهم ، وفي (نفح الطيب)
اشهرهم .

ومن هؤلاء من دخلها في عصر الامارة ، ومنهم
ايام الخلافة ، ومنهم في عصر الانحدار والتأخر
والفتنة ، وعصر الطوائف ، وايام المرابطين والموحدين
ونهاية مملكة غرناطة .

وكان من ابرزهم دون منازع العالم العراقي
(ابو علي القالي البغدادي) (٣٦) الذين ذهب اليها
ايام الناصر لدين الله (٣٠٠ هـ - ٣٥٠ هـ) و (صاعد
البغدادي) (٣٧) الذي قصدتها ايام المنصور بن ابي
عامر (٣٢٦ هـ - ٣٩٢ هـ) و (زرياب المغني

والاندلس هي التلميذة النابغة ، التي تخرجت في جامعة (بغداد) وافادت من ثقافة اساتذتها ، وتاليف علمانها بحيث انها لم تستطع يوما ان تنكر هذا الفضل ، او تجحد ذلك العلم ، او تتناسى تلك الروابط العربية والاسلامية .

* * *

والغريب في تأثير العراقيين على الاندلسيين ان الخلفاء انفسهم هناك اصابتهم حرارة الغيرة من بني العباس في بغداد . فترصدوا اخبارهم ، وتشبهوا بطرز الحياة ، وانماط العيش ، التي كانت تدور في قصورهم ، وفي جنبات جنائهم . وفي اروقة مجالسهم الخاصة والعامة . فاذا نظم خليفة عباسي ابياتا يتغزل بها بجارية من جواريه ، جرى على نمطها ، وسار على غرارها امير او خليفة اموي اندلسي .

ولم يكتفوا بهذا بل رايانهم يؤلفون فرقا من الجند والحرس (٢٧) المرتزة على غرار ما كان يفعله المأمون والمعتصم في العراق . ويبدون في المجتمع وهم بابهي زينة ، وبمختلف الالقاب . كما حدث ذلك ايام اماره (الحكم الربضي) في حوادث الثورة والفتنة التي قامت في عهده .

ولم يرتج الامير (عبدالرحمن الثاني) الاوسط الا بشراء التحف العباسية ، التي تناثرت بعد مقتل (الامين) ومنها العقد النفيس المسمى (بعقد الشفاء) الذي كانت تمتلكه (السيدة زبيدة) والذي وصل بعد ذلك الى (قرطبة) لتتحلى به (طروب) محظية الامير عبدالرحمن الاوسط !!!

٦ - اعلام من الشخصيات الاندلسية التي درست في بغداد ، وعادت تحمل العلم للاندلس .

لا نريد في هذه الدراسة ، ان نعدد ونذكر جميع من دخل (بغداد) من الاندلسيين ، ودرس فيها ، وتعلم في معاهدها ، فذاك امر تصعب الاحاطة به ، والتتبع لدقائقه . لاسباب لا يمكن حصرها الان . منها ان بعضهم لم يكن بالعالم الشهير ولا بالذكي المتميز ، ولا بالمؤلف البار ، ولا بالشاعر المعروف .

ومنها ان بعضهم لم يستوطن (بغداد) زمنا طويلا ، صابرا على طلب العلم ، متحملا لآلام الغربة ، وقساوة الفاقة !!! والطبيعة !!!

غير اننا نقتصر الان على البارزين منهم ، والذين عادوا لبلدهم فاثروا في حركته العلمية ، والادبية ، والفكرية . على ان لنا عودة - ان شاء الله - في تأليف

ومثلهم من اتخذها وطنا ، وصيرها مسكنا ، الى ان وافته منيته ، ومنهم من عاد الى المشرق بعد ان قضيت بالاندلس امنيته . « وترجم لبعض هؤلاء البغداديين وذكر مجموعة من اشعارهم ومنهم .

(ابو الحسن البغدادي الفكيك) (٢٤) . وكان كما قال حلو الجواب ، مليح التندر ، يضحك من حضر ، ولا يضحك هو اذا ندر . عاش في عصر الامير (المعتمد بن عباد) صاحب (اشيلية) ومما قاله في مدح (المعتمد) وبه اشارة لطيفة للحنين الى الوطن ، ولحبته الى (بغداد) ، والى كرم الممدوح وجوده .

.. ولي بحياك الريع عاما واشهرها
ازخرف اعلام الثناء وارقم
وانفقت ما اعطيتني ثقة بما
أؤمل فالدنار عندي درهم
وقلبي الى (بغداد) يصبو وانسي
لنشر صباها دائما اتنسم

وذكر لنا من الوافدين على الاندلس من اصحاب الخط والضبط (ظفر البغدادي) (٢٥) الذي قصد الحكم المستنصر ، وعاش في (قرطبة) وكان من رؤساء الوراقين المعروفين في عصره كعباس بن عمرو الصقلي ، ويوسف البلوطي . وجعله الخليفة الاندلسي (الحكم) في مقدمة خطاطي قصره ، وفي خزائن مكتبته الشهيرة !!

* * *

وهناك ايضا من الراحلين العراقيين الذين لعبوا دورا في الحركة الادبية والفنية في الاندلس .

الشاعر (سعيد البغدادي) (٢٦) (وابو محمد العذري) النحوي ، وكل هؤلاء الذين ذكرناهم منعوا ابناء الاندلس الكثير من ادابهم ، وعلمهم ، وفنونهم وكانوا حركة دائمة ، ونشاطا مستمرا ، في خلق الجو الادبي والفني هناك ، وفي تأثيرات (القالي البغدادي) وما القاه من محاضرات ، وما ألفه من كتب ، وما بعثه من حياة فكرية . لخير دليل على اثر العراقيين في ديار الاندلس النائية .

ناهيك بأثر (زرياب) الفني والاجتماعي وما قدمه للمجتمع الاندلسي من عطاء لا ينكر فضله ، ومن فنون لا تجحد قيمتها . كان من أبرزها التطور الموسيقي والفناني الذي ساعد وخلق فيما بعد الجو المناسب لانتشار الموشحات ، وتقبل وجودها ومزاحمتها لمدرسة الشعر العربي الخاضع للروي والقافية والبحر الواحد .

كتاب يضم شملهم ، ويجمع شتاتهم . ويدرس أهم مظاهر حياتهم ، وما خلفوه لنا من آثارهم .

* * *

هناك سؤال يتبادر الى الذهن ، ويلح على الفكر . وهو كيف عاش اهل الاندلس في بغداد ؟ وكيف كانوا يتحملون طبيعة المناخ العراقي ؟ وهل اختلطوا في المجتمع العباسي ؟ . وهل جمعوا بين العمل والعلم ؟ وهل سكنوا جانب الرصافة - لكثرة المعاهد العلمية فيها ، اكثر من جانب الكرخ ؟ وهل كان يشملهم نظام الاعطيات ، والرواتب ، والمنح المالية ، التي يعطيها اصحاب الخير ، والهبات ، والاموال ، والدولة ، لطلبة العلوم ؟ وهل تقرب بعضهم لدور الخلافة العباسية ، واحتلوا منزلة مرموقة فيها ؟ وهل منهم من فضل البقاء في (بغداد) وعدم العودة الى اهله ووطنه ؟

اننا لم نجد - مع الحسرة والاسف - من الف لنا منهم تاريخا وسجلا لرحلتهم الى العراق . او كتب لنا وصفا لما كان يحيطهم يومذاك ولعل الايام القابلة تكشف لنا مخطوطا لمؤلف اندلسي - صور لنا فيه حياة العلماء الاندلسيين في (بغداد) ، وليس في الحياة شيء غريب ، ولا في الوجود امر مستبعد !

نعم ! وجدنا وصفا مفيدا لحياة (الحميدي) ولابي الوليد (الباجي) ، الذي كان يشتغل حارسا في الليل ، ويدرس في النهار ، وقد صبر فظفر ، ورجع الى الاندلس يحمل معه ثروة علمية وخطة من آثار العراق الثقافية . ومنهم من اسمى نفسه (بالبغدادي) لطول اقامته في (بغداد) وجهه لها ! امثال ابي عبدالله محمد بن احمد بن ابراهيم الخزرجي (٣٨) ومنهم من اسماء العراقيون لعلمه وبراعته في الطب (بحكيم الزمان) وهو ابو الفضل محمد بن عبد المنعم الجلياني الطبيب (٣٩) الذي درس في (النظامية) .

ومنهم من قضت عليه همجية التتر ووحشيتهم فمات شهيدا غريبا محتسبا ، امثال ابي عبدالله محمد بن احمد الزهري الاشبيلي (٤٠) .

* * *

وقد اخترت لهذه الدراسة مجموعة من اولئك الاعلام ، واقتصرتهم على (عالم) و (اديب) ، و (شاعر) ، و (رحالة) . ولم ارد الشمول والاطالة . ومن هؤلاء الخالدين فئة كان لها مقامها ، ولها علمها ، ولها اثرها الطيب ، في دنيا العلوم والمعارف ، وفي ميدان التأليف والتدريس ، وفي رياض الشعر والادب ! !

ابو الوليد الباجي (٤١)

(٤٠٣ هـ - ٤٧٤ هـ)

(عالم من الاندلس)

التعريف به :

ابو الوليد سليمان بن خلف بن وارث الباجي . اصله من مدينة (بطليوس) Badajoz وانتقل اباؤه الى (باجه) Baje واليها نسب .

عالم جليل من الاندلس ، درس في بلده على نخبة من العلماء منهم : ابو الاصمغ ، ومحمد بن اسماعيل ، وابو محمد مكى بن حموش ، وابو شاكر وغيرهم ...

قصد المشرق عام ٤٢٦ هـ ، وجاور بمكة المكرمة ، ودخل الموصل ، واستوطن بغداد زمنا ، وكان من زملائه واساتذته المشهورين الخطيب البغدادي .

صفاته :

يتميز عن سواه ، في انه كان صلب العود ، فقيها ، شاعرا ، ناثرا ، مفسرا ، اديبا . ثارت عليه العامة يوم ان عاد الى وطنه وناظر ابا بكر الصائغ في قضية امية الرسول الاعظم (ص) في حديث الكتابة يوم (الحديدية) الذي ورد في البخاري . وقال ابو الوليد (الباجي) بظاهر لفظة . وصنف ابو الوليد رسالة بين فيها ، ان ذلك غير فادح في المعجزة (٤٢) .

روى عنه حافظ المشرق والمغرب . ابن عبد البر في الاندلس ، والخطيب البغدادي في العراق . وكان يسمى (بشيخ الاندلس) .

قال عنه (ابن بسام) في ذخيرته : (٤٣)

« غنى الزمان بغرائب شعره ، حتى جن الاحسان بذكره ، واستغنت مصر والقيروان بخبره عن خبره . ولم تزل تلك الافاق تراسله ، وعجائب الشام والعراق تفاضله » .

« دخل (بغداد) والحرمان قد كساه سراويل ، ورماه بطير ابايل » .

ووصفه ابن خاقان في (قلائده) (٤٤) فقال :

« كان امام الاندلس الذي تقتبس انواره ، وتنتجع نجوده واغواره ، رحل الى المشرق فعكف على الطلب ساهرا ، وقطف من العلوم ازاهرا . »

وذكر صاحب (النفح) (٤٥)

بانه كان يؤجر نفسه ببغداد لحراسة الدروب ، لفقره وحاجته .

وفي هذه المناسبة جرت بينه وبين (ابن حزم)
الظاهري (مناظره . حول همة كل واحد منهما في
طلب العلم ، وما وصل اليه من منزلة ومقام (٤٩) .

قال (الباجي) يخاطب (ابن حزم) :

« انا اعظم منك همة في طلب العلم ، لانك طلبته
وانت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب . وطلبته وانا
اسهر بقنديل بائت السوق .

فقال (ابن حزم) .. هذا الكلام عليك لا لك ،
لانك انما طلبت العلم ، وانت في تلك الحال رجاء
تبدليها بمثل حالي ، وانا طلبته في حين ما تعلمه وما
ذكرته ، فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا
والآخرة . فافحمه !! » .

لله درهما ! ودر اصحاب الهمم العالية في
طلب العلم ، والسعي وراء المجد ! !

من ازاخير شعره .. (٤٧)

قال (الباجي) من قصيدة رائعة يمدح بها
قاضي القضاة ببغداد (ناصح الدين وتاج الاسلام)
السمناني جاء منها .

ما طال عهدي بالديار وانما
انسى معاهديا اسى وتبلد
.. لله ايام الشباب وحسنها
وغصونهن المائسات المييد
ايام انقض للمراح ذؤابتي
بين الشباب ودرع بردي مجسد
اتقنص الطيبات في سبل الصبا
فيصيدهن لي العذار الاسود
حتى علاني الشيب قبل تحلم
وابر ما سبق المشيب المولد

ومنها :

ما هالني صعب المرام ولا الذي
تستبعد الايام عندي يبعد
استقرب الفوز البعيد بهمة
ادنى منازلها السها والفرقد
اسري اذا عتكر الظلام وقادني
امل ، مطالبها العلا والسود

مؤلفاته : (٤٨)

له آثار عديدة المناحي ، ومختلفة المواضيع .
ولكنها في الغالب تدور حول فقه المذهب المالكي .
سردها (ياقوت) في معجم ادبائه (٤٩) ونذكر الان
ابرزها اثرا ، واغلبها شهرة :

- ١ - الاستيفاء في شرح الموطأ .
- ٢ - المنتقى .
- ٣ - الايماء .
- ٤ - السراج .
- ٥ - التعديل والتجريح .
- ٦ - احكام الفصول .
- ٧ - المعاني .
- ٨ - تفسير القرآن .
- ٩ - المقتبس في علم مالك بن انس .
- ١٠ - الناسخ والمنسوخ .

القاضي ابو عبدالله محمد بن ابي عيسى الليثي (٥٠)

(٢٨٤هـ - ٣٣٧هـ)

(اديب من الاندلس)

التعريف به :

هو ابو عبدالله محمد بن ابي عيسى من بني
يحيى بن يحيى الليثي . اديب ، قاض ، شاعر . من
اسرة عرفت بالعلم ، والوجاهة ، والادب .

جعله الناصر لدين الله قاضي الجماعة بقرطبة
سنة ٣٢٦هـ . وقدمه على الآخرين ، وجعله كذلك
سفيرا بين الامراء ، ومشاورا في شؤون الحرب
والقضاء .

صفاته :

لطيف المعشر ، سمح الخلق ، طيب النفس ،
رقيق الحاشية ، يهتز للشعر ، ويرتاح للجميل ،
له ثقافة عالية . في قضايا الشعر ، ومعانيه ، وفي
اللغة ، ومشاكل الاعراب . وصفه (ابن خاقان) في
مطمح الانفس فقال : عنه « ثينة علم وعقل ،
وصحة ضبط ونقل » . وأشار عنه صاحب (النفع)
وذكر صفاته « كان له نصيب وافر من الادب ،
وحظ من البلاغة اذا نظم او كتب » .

من لطائف اخباره واشعاره : (٥١)

ذكر (الحميدي) في (جذوة المقتبس) رواية
عن ابي محمد علي بن احمد . قال : اخبرني القاضي
ابو الوليد يونس بن عبدالله عن ابيه . انه شاهد
قاضي الجماعة محمد بن ابي عيسى في دار رجل من
بني حدير مع اخيه ابي عيسى . في ناحية مقابر
قريش ، وقد خرجوا لحضور جنازة ، وجارية
للحديري تغنيهم هذه الابيات : (٥٢)

طابت بطيب لثاتك الاقداح
وزهى بحمرة خدك التفاح

وشعره ، ورحلته الشهيرة . وبكتابه المعروف
(العواصم من القواصم) .

زار المشرق مع والده ، وكان صغيراً ولاقى
الشدة والعذاب ، في مطلع حياته ، واوان شبابه ،
وبداية سفره زار المغرب ، ومصر ، والقدس ،
والديار المقدسة ، والعراق . واتصل بالعالم
الزاهد ابي بكر الطرطوشي صاحب كتاب (سراج
الملوك) . وقصد دمشق واخذ عن عالمها ابي الفتح
نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي .

ودخل (بغداد) مع والده ايام الخليفة
المقتدى بالله . (٥٦٠) ومن اساتذته في دار السلام .
ابو الحسين المبارك ، وابو الحسن علي بن ايوب
البراز والقاضي ابو البركات الحنبلي ، وابو بكر
محمد الشاشي الشافعي . واتصل بالامام حجة
الاسلام (الغزالي) في المدرسة النظامية ، وفي
دمشق ، ولازمه زمناً ، وكان من تلامذته المقربين .
اضافة لاساتذته في الاندلس كالسرطسي .
وغیره ..

صفاته :

امتاز (ابن العربي) ، بالجرأة في القول ،
والصراحة في الرأي ، والصبر على المكاره ، وعاش
في عصر الطوائف . وفي اعماله القضائية عرف
بالصرامة ، والشدة في الاحكام . مع الرفق بالضعفاء
والمساكين . ووصلت اليه الرياسة الدينية ايام
المرابطين .

وصفه ابن سعيد المغربي بقوله (٥٧) « طبق
الآفاق بفوائده ، وملأ الشام والعراق بأوابده ،
وهو امام في الاصول والفروع » .

اما ابو نصر الفتح بن خاقان فقد وصفه في
(المطمح) (٥٨) حيث قال عنه : « علم الاعلام الطاهر
الاثواب ، الباهر الالباب . . سقى الله به الاندلس
بعدما اجذبت من المعارف ، ومد عليها منه الظل
الوارف . فكساها رونق نبلة ، وسقاها ريق
وبله » . هذا وقد عرف بالقضاء ، كما عرف
بالشعر ، وعقدت عليه دراسات ، ونشرت عنه
ابحاث ، واحيا المحققون رحلته .

من ازاهير شعره : (٥٩)

حاولت ان اقدمه (شاعراً) واترك امره
(قاضياً) . وابتمد في بحثي هذا عن نهج التقليد ،
واثر الاعداء والترديد .

قال رحمه الله تعالى - دخل عليّ الاديب

واذا الربيع تنسجت ارواحه
طابت بطيب نسيمك الارواح
واذا الحنادس البست ظلماءها
فضياء وجهك في الدجى المصباح
قال : وكتبها قاضي الجماعة في يده ، ثم
خرجوا ،

قال : فلقد رايتك يكبر للصلاة على الجنائز ،
والابيات مكتوبة على باطن كفه !!

ومن شعره :

بعد ان عاد الى وطنه ، من غربة شاقة ،
ونوى مؤلم : - (٥٢)

كان لم يكن بين ولم تك فرقة
اذا كان من بعد الفراق تلاق
كان لم تترك بالعراقين مقلتي
ولم تمر كف الشوق ماء ماقي
ولم ازر الاعراب في جنب ارضهم
بذات اللوى من راقعة وبراق

ولم اصطحب بالبيد من قهوة الندى
وكاس سقاها في الازاهر ساق
ومن شعره في الحنين الى (قرطبة) قوله : (٥٤)

ماذا اكابد من ورق مفردة
على قضيب بذات الجزع مياس
رددن شجوا شجا قلب الخلي فهل
في عبرة ذرفت في الحب من باس
ذكرنه الزمن الماضي بقرطبة
بين الاحبة في امن وايناس
هم الصباة لولا همة شرفت
فصيرت قلبه كالجنديل القاسي

هذه شخصية من شخصيات الاندلس ،
امتازت بصفات العلم والادب ، وافادت من ثقافة
العراق والمشرق . وعادت تحمل لوطنها الظرف
العراقي ، والاخلاق البغدادية . وامثالها الكثيرون
في سجل التاريخ ! .

ابو بكر بن العربي (٥٥)

(٤٦٨ هـ - ٥٤٣ هـ)

(شاعر من الاندلس)

التعريف به :

هو ابو بكر محمد بن عبدالله بن العربي
المعافري من اشبيلية . اشتهر بأدبه « وعلمه ،

(ابن صارة) وبين يدي نار علاها رماد . فقلت له :
قل في هذه ، فقال : (٦٠)

شابت نواصي النار بعد سوادها
وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لي : أجز ، فقلت :

شابت كما شبتنا وزال شبابنا
فكانما كنا على ميعاد

ومن رائق نظمه : (٦١) ومن رقة شعره :

اتنسي تؤنسي بالبكاء
فأهلا بها وبثانيهها

تقول وفي نفسها حسرة :

اتبكى بعين تراني بها ؟

فقلت : اذا استحسنت غيركم

امرت جفوني بتعذيبها

ومن شعره وهو في شوق الى (بغداد) (٦٢) :

امنك سرى والليل يخدع بالفجر

خيال حبيب قد حوى قصب الفخر ؟

جلا ظلم الظلماء مشرق نوره

ولم يخط الظلماء بالانجم الزهر

ولم يرض بالارض البسيطة مسحبا

فسار على الجوزا الى فلك يجري

وختمها بقوله :

سقى الله مصرأ والعراق وأهلها

وبغداد والشامين منهمل القطر

ومن طرائف ما رواه في (رحلته) للعراق .

قال : (٦٣)

انه كان بمدينة السلام امام من الصوفية واي
امام يعرف بابن عطاء . فتكلم يوما على يوسف
واخبره حتى ذكر تبرئته مما ينسب اليه من مكروه
فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخلقة
من كل طائفة . فقال يا شيخ ، يا سيدنا ، فاذن
يوسف هم وما تم ، فقال نعم ، لان العناية من ثم
فانظروا الى حلاوة العالم والمتعلم ، وفطنة العامي
في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه .

آثاره ومؤلفاته : (٦٤)

ترك (ابن العربي) آثاراً كثيرة ، منها قد طبع
وانتشر ومنها لا زال مخطوطا . ومن مؤلفاته
المعروفة :

١ - انوار الفجر في تفسير القرآن . وهو من اكبر
آثاره .

٢ - قانون التأويل .

٣ - احكام القرآن .

٤ - القبس في شرح موطأ مالك بن انس .

٥ - عارضة الاحوذى .

٦ - حديث الاءفك .

٧ - ترتيب الرحلة .

٨ - نواهي الدواهي .

٩ - العواصم من القواصم .

١٠ - الناسخ والمنسوخ .

الطبيب ابو الفضل محمد بن عمر الجلياني (٦٥)

(٥٣١ هـ - ٦٠٢ هـ)

(حكيم من الاندلس)

طبيب ، اديب ، رحالة ، سائح ، مؤلف ،
شاعر ، أصله من (وادي آش) . ولد بقرية
(جليانة) التابعة (لفرناطة) . وصل في رحلته الى
القاهرة ، ودمشق ، ودخل بغداد سنة ٦٠١ هـ .
وسكن المدرسة النظامية .

صفاته :

اشتهر بأدبه ، وشعره ، وحكمته ، وطبه ،
وبراعته في الرياضيات ، وادب النفس مع حسن
في الاخلاق ، ولطف في المعاشرة ، وحضور في الاجابة
ولقبوه (بحكيم الزمان) . وسافر الى دمشق ،
وحضر مجلس السلطان (صلاح الدين الايوبي)
واتصل بحاشيته . وكان من معاصريه القاضي
الفاضل ، وترجمه صاحب (خريدة القصر) واشاد
بشاعريته وفنون ادبه .

أزاهير من شعره : (٦٦)

ترك الشاعر دواوين شعر عديدة ، ذكرها لنا
صاحب (فوات الوفيات) ابن شاعر الكتبي (٦٧)
وتغلب على شعره الحكمة ، والكرامة ، وعزة
النفس ، واستعمال الحسنات البديعية ، اسوة
ببعض شعراء عصره .

ومن جيد شعره :

فأبخس شيء حكمة عند جاهل

واهون شيء فاضل عند ظالم

فلو زفت الحسناء للذئب لم يكن

يرى قربها الا لاكل المعاصم

ومن لطيف وجدانياته :

أؤمل لقياكم وان شطت النوى
وأزجر قريبا في مرور السوانح
ويذكي اشتياقي زند تذكاري عهدكم
وما الشوق الا بعض نار الجوانح

ومن حكمه :

قالوا ترى نفراً عند الملوك سموا
وما لهم همّة تسمو ولا ورع
وانت ذو همّة في الفضل عالية
فلم ظمئت وهم في الجاه قد كرعوا ؟
فقلت : باعوا نفوسا واشتروا ثمنها
وصنت نفسي فلم اخضع كما خضعوا
قد يكرم الفرد اعجابا بخسسته
وقد يهان لفرط النخوة السبع

ومن شعره :

لا بد للجسم من قوام
فخذه من جانب اعتدال
واقرب من العز في اتضاع
واهرب من الدل في المعالي

ومن بديع قوله : (٦٧)

الا انما الدنيا بحار تلاطمت
فما اكثر الفرقى على جنبات
واكثر من لاقيت يفرق الفقه
وقل فتى ينجلي من الغمرات
وقال من اشعاره الحكمية : (٦٨)

قالوا نراك عن الاكابر تعرض
وسواك زوار لهم متعرض
قلت الزيارة للزمان اضاعة
واذا مضى زمن فما يتعوض
ان كان لي يوما اليهم حاجة
فبقدر ما ضمن القضاء تقيض

ومن اشعاره الدالة على عزلته ، وبعده عن
المشاكل . قوله : (٦٩)

خبرت بني عصري على البسط والقبض
وكاشفتهم كشف الطبائع بالنبض
ارى الشخص من بعد فاغضي تغافلا
كمشوده بال في مهمته يمضي
ويحسبني في غفلة و فراستي
على الفور من لمحي بما قد نوى تقضي

اجانبهم سلما ليسلم جانبي
وليس لحقد في النفوس ولا بغض
تخلت عن قومي ولو كان ممكن
تخلت عن بعضي ليسلم لي بعضي
ومن شعره في مدح السلطان صلاح الدين
الا يوبي قوله : (٧٠)

ايا ملكا افنى العداة حسامه
ومنتجعا افنى العفاة ابتسامه
لقاؤك يوما في الزمان سعادة
فكيف بشاؤ في حماك حمامه
.. اتينا لما عودتنا من مكارم
يلوذ بها الراجي فيشفى غرامه
فرحمالك غوث لا يغيب نصيره
ونعمالك غيث لا يغيب انسجامه

آثاره ومؤلفاته : (٧١)

- من آثاره الشعرية .
- ١ - ديوان الحكم وفنون الحكم .
- ٢ - ديوان المشوقات .
- ٣ - ديوان السلوك .
- ٤ - ديوان نوادر الوحي .
- ٥ - ديوان تحرير النظر .
- ٦ - سر البلاغة وصنائع البديع .
- ٧ - ديوان المشرقات .
- ٨ - ديوان الفزل والتشبيب والموشحات والدوبيت .
- ٩ - ديوان تشبيهات والغاز ورموز واحاجي واوصاف وخمريات .
- ١٠ - ديوان ترسل ومخاطبات .
- ١١ - منادح المادح وروضة المائر والمفاخر ، في خصائص الملك الناصر .
- ١٢ - جامع انماط المسائل في العروض والخطب والرسائل .

سعد الخير بن محمد الانصاري البلسني (٧٢)

(توفي - ٥٤١ هـ)

(رحالة من الاندلس)

التعريف بشخصيته :

هو ابو الحسن الانصاري سعد الخير بن محمد بن سعد . محدث ، رحالة ، لم يترك ارضا الا

الهوامش

- (١) راجع / معجم البلدان المجلد الاول ص / ٤٥٦ .
- (٢) راجع / المصدر السابق ص / ٤٦١ .
- (٣) راجع / المصدر السابق ص / ٤٦١ .
- (٤) راجع / المصدر نفسه ص / ٤٦١ .
- (٥) راجع / المصدر نفسه ص / ٤٦١ .
- (٦) راجع / الروض الطيار ص / ٤٥٦ .
- (٧) راجع / نفع الطيب ج / ١ ص / ٦١٦ .
- (٨) راجع / المصدر نفسه ج / ١ ص / ٤٥٩ .
- (٩) راجع / المصدر نفسه ج / ١ ص / ٢١٠ .
- (١٠) راجع / المصدر ذاته ج / ١ ص / ٤٦٠ .
- (١١) راجع / المصدر ذاته ج / ١ ص / ٤٦١ .
- (١٢) راجع / مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد . العدد / ١١ سنة ١٩٦٨ . ص / ١٤٦ وما بعدها .
- (١٣) راجع / البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٣٦ . وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص / ٢٢٩ .
- (١٤) راجع / البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٣٥ وما بعدها . وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص / ٢٢٨ وما بعدها .
- (١٥) راجع / الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لابن بسلام القسم الاول - المجلد الاول . ص / ٢٩٧ وما بعدها .
- (١٦) راجع / المصدر نفسه - مقدمة الكتاب ص / ب وما بعدها . و ص / ٢٠ من مقدمة المؤلف .
- (١٧) راجع / الذخيرة - القسم الاول - المجلد الاول . ص / ٢ .
- (١٨) راجع / نفع الطيب ج / ١ ص / ٦٠٩ ج / ٢ ص / ٢٧ .
- (١٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٢٥ وما بعدها .
- وكتاب العواصم من القواصم ، لابن العربي ص / ٢٠ .
- (٢٠) راجع / دراستنا عن (الحميدي) في مجلة كلية الآداب - العدد / ١٠ ص / ١٧٩ وما بعدها - ١٩٦٧ م . جامعة بغداد .
- (٢١) راجع / عن رحلة بنيامين التيطلي ، كتاب تاريخ الادب الجغرافي ، للمستشرق كراشكوفسكي ج / ١ ص / ٢٢٨ والرحلة نفسها المطبوعة في بغداد سنة ١٩٤٥ م .
- (٢٢) راجع / عن ابن جبير ورحلته . نفع الطيب ج / ٢ ص / ٢٨١ . ورحلة ابن جبير بطبعات متعددة .
- (٢٣) راجع / عن رحلة (ابن حوقل) . تاريخ الادب الجغرافي . ج / ١ ص / ٢٠٠ ورحلة ابن حوقل في المكتبة الجغرافية .
- (٢٤) راجع / الشعر الأندلسي ، لفرسيبا غومز ص / ٢٨ ودراستنا (الأندلسيون الأوائل من حملة الثقافة العراقية) مجلة كلية الآداب العدد / ١١ ص / ١٤٦ / ١٩٦٨ م .
- (٢٥) راجع / البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٨٨ .
- (٢٦) راجع / عن أبي علي الغساني البغدادي - دراستنا عنه في كتابنا (أدباء بغداديون في الأندلس) بغداد . ط ١٩٦٢ ص / ١٢ .
- (٢٧) راجع / عن صاعد البغدادي . دراستنا عنه في مجلة كلية الآداب . جامعة بغداد . العدد / ٦ سنة ١٩٦٣ . ص / ٢٦٥ .
- (٢٨) راجع / دراستنا عن (زرياب المغني البغدادي) في (أدباء بغداديون في الأندلس) ص / ٤١ وكتاب (قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس) ج / ٢ ص / ٨٧ وما بعدها .

زارها في المشرق ووصلت خطواته الى (الصين) . وكان يسمى نفسه بالصيني البلنسي . وهو أشبه بأبي حامد الفارابي . صاحب (تحفة الالباب) . وابن جبير الكنايني ، وابن سعيد المغربي . إلا أنه اختلف عنهم وفاقهم جميعاً في الوصول الى (الصين) وسدها العظيم ! ! وتشابه مع (ابن بطوطة) . في حياته ، وزواجه ، غير أنه اكنز علماً ، ورواية ، وفقها ، منه .

صفاته :

كان من صفاته حب المفامرة ، والصبر على المشاق وركوب البحار ، وقطع الفيافي والقفار ، ومصاحبة العلماء ، ومجالسة الإدباء .

ومن أساتذته : أبو زكريا التبريزي ، وأبو حامد الغزالي . وروى عنه السمعاني ، والكندي ، وابن الجوزي ، وطوف بالبلاد ، ثم عاد مشتاقاً الى بغداد ومات فيها سنة ٥٤١ هـ . ودفن بحسب وصيته في تربة الإمام أحمد بن حنبل (رض) .

آثاره :

كان هذا الرحالة الأندلسي . كما يبدو محدثاً لا مؤلفاً ، ولعل له رحلة مخطوطة ، ومشاهدات طريفة عن البلاد التي زارها وسكنها في أقاصي المشرق . وفي وسط الجزيرة العربية . نأمل أن تكشف لنا الأيام القابلة ، والسنين الآتية ، عما خفي من آثاره ومولفاته .

لقد اخترته مثلاً للعالم المغامر ، والرحالة الرائد ، والمحب المعجب ببغداد ، بحيث أنه فضلها على البلاد التي زارها ، وعأوده الشوق إليها . ثم مات في تربتها ، بين اعلام العلم ورجال الفضيلة . واساطين السياسة ، ومشاهير الادب ! !

* * *

هذه دراسة أرجو أنني وفقت في عرضها ، وتقديم الصورة الواضحة ، عن مضمونها ، واعطاء النماذج من الشخصيات الأندلسية ، التي زارت (بغداد) وتعلمت فيها ، وتركت آثاراً في دروبها ، ونقلت العديد من تراثها الفكري والعلمي والأدبي لبلادها . فكم (لبغداد) من أياض لا تنسى على الناس ! ! وعلى (الأندلس) ، وكم لها من فضل لا تمحو آثاره أحداث الزمن ! !

- (٦٥) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦٢٥ و ج / ٢ ص / ٦١٤ وقد ترجمه مرتين ، راجع / الذيل والتكملة ج / ٥ ص / ٥٧ .
- (٦٦) راجع / مجموعة من اشعاره في (فوات الوفيات) ج / ٢ وقم ٢٦٣ . ص / ٣٥ .
- (٦٧) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦١٤ .
- (٦٨) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٦٣٦ .
- (٦٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٦٣٦ .
- (٧٠) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٦٣٧ .
- (٧١) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦١٤ وفوات الوفيات ج / ٢ ص / ٣٥ وما بعدها .
- (٧٢) راجع / قفح الطيب ج / ٢ ص / ٦٣٢ .

اهم المصادر والمراجع

المصادر القديمة :

- ١ - نفح الطيب - ط ١ / صادر - بيروت / ١٩٦٨ م .
- ٢ - فلاند المقيان - لابن خاقان - مصر ١٢٨٤هـ .
- ٣ - المغرب - لابن سعيد - ط ١ / مصر ١٩٥٣ م .
- ٤ - الذخيرة - لابن بسام ط ١ / مصر ١٩٣٩ م .
- ٥ - الذخيرة - لابن بسام ط ١ / مصر ١٩٧٥ م .
- ٦ - مطمح الانفس - لابن خاقان ط ١ / الاستانة ١٣٠٢هـ .
- ٧ - الرقبة العليا - للنباهي ط ١ / مصر ١٩٤٨ م .
- ٨ - البيان المغرب - لابن عذاري ط ١ / بيروت ١٩٥٠ م .
- ٩ - معجم البلدان - لياقوت ط ٢ / دار بيروت ١٩٧٧ م .
- ١٠ - معجم الادباء - لياقوت - دار المأمون - مصر ١٩٣٦ م .
- ١١ - فوات الوفيات - لابن شاعر ط ١ / مصر ١٩٥١ م .
- ١٢ - جذوة المقتبس - للحميدي ط ١ / مصر ١٣٧٢هـ .
- ١٣ - الذيل والتكملة - للمراكشي ط ١ / بيروت ١٩٦٥ م .
- ١٤ - المواعظ من القواصم - لابن العربي ط ٢ مصر ١٣٧٥هـ .

المراجع الحديثة :

- ١ - قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس . للدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، ج ١ / ط ١ / بيروت / ١٩٧١ .
- ٢ - قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس . ج ٢ / ط ١ / بيروت / ١٩٧٢ .
- ٣ - الشعر الاندلسي . غرسيا غومز (الطبعة العربية) ط ٢ / القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٤ - تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس . للدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، ط ١ / دار المعارف - بيروت ١٩٦٢ .
- ٥ - ادباء بغداديون في الاندلس . للدكتور محسن جمال الدين ، بغداد / ١٩٦٢ م .
- ٦ - تاريخ الادب الجغرافي . للمستشرق كراشكوفسكي ، الطبعة العربية - مصر ١٩٦٣ م .
- ٧ - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / ١٩٦٣ م .
- ٨ - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / ١٩٦٧ م .
- ٩ - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / ١٩٦٨ م .
- ١٠ - الاعلام - للزركلي ط ٢ / القاهرة ١٩٥٩ م .
- ١١ - معجم المؤلفين - لعمر كحالة ط ١ / دمشق ١٩٥٨ م .
- ١٢ - دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) مصر / ١٩٣٣ م .

- (٢٩) راجع / عن المغنية (قبر) البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٩٤ ونفح الطيب ج / ٢ ص / ١٤٠ .
- (٣٠) راجع / الابيات في نفح الطيب ج / ٤ ص / ١١٥ .
- (٣١) راجع / الذخيرة . القسم الرابع / المجلد الاول ص / ٧٧ .
- (٣٢) راجع / المصدر السابق . القسم الاول ، المجلد الاول ص / ١٨ .
- (٣٣) راجع / نفح الطيب ج / ٣ ص / ٥ وما بعدها .
- (٣٤) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ١١٩ .
- (٣٥) راجع / المصدر السابق ج / ٣ ص / ١١١ .
- (٣٦) راجع / قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس . ج / ١ ص / ٥٨ و ص / ٥٩ .
- (٣٧) راجع / المصدر السابق ج / ١ ص / ٥٥ .
- (٣٨) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ١٥٦ .
- (٣٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٦٣٥ .
- (٤٠) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٢١٤ .
- (٤١) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٦٧ وبهامشه عدة مصادر عنه .
- (٤٢) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦٨ .
- (٤٣) راجع / الذخيرة لابن بسام - القسم الثاني - المجلد الاول ص / ٨٠ وما بعدها .
- (٤٤) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٧٤ ولم اجد النص هذا في القلائد .
- (٤٥) راجع / عن الباجي وحياته معجم الادباء ج / ١١ ص / ٢٤٦ . والرقبة العليا ص / ٩٥ . ونفح الطيب ج / ٢ ص / ٧٧ .
- (٤٦) راجع / المناظرة في نفح الطيب ج / ٢ ص / ٧٧ .
- (٤٧) راجع / الذخيرة . القسم الثاني - المجلد الاول ص / ٨٢ . وله اشعار في نفح الطيب ج / ٢ ص / ٧٥ وما بعدها .
- (٤٨) راجع / مؤلفاته في نفح الطيب ج / ٢ ص / ٦٩ .
- (٤٩) راجع / معجم الادباء ج / ١١ ص / ٢٦٤ وما بعدها .
- (٥٠) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ١٢ . والرقبة العليا ص / ٥٩ . وجذوة المقتبس ص / ٦٩ .
- (٥١) راجع / جذوة المقتبس ص / ٦٩ وما بعدها . ونفح الطيب ج / ٢ ص / ١٣ وما بعدها .
- (٥٢) راجع / الابيات في المصدرين السابقين (الجذوة) ص / ٧٠ والنفح ص / ١٤ .
- (٥٣) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ١٣ .
- (٥٤) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ١٣ وفي الجذوة ص / ٧٠ رواية اخرى للابيات مع زيادة .
- (٥٥) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٢٥ . والعواصم من القواصم ص / ١٠ .
- (٥٦) راجع / العواصم من القواصم ص / ١٧ .
- (٥٧) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٢٦ .
- (٥٨) راجع / مطمح الانفس ط ١ / الجوانب - الاستانة ١٣٠٢ م . ص / ٦٢ . وكذلك قفح الطيب ص / ٣٣ - ج / ٢ .
- (٥٩) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٣٠ .
- (٦٠) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٣٠ .
- (٦١) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٣٠ .
- (٦٢) راجع / نفح الطيب ج / ٢ ص / ٣٤ .
- (٦٣) راجع / المصدر ذاته ج / ٢ ص / ٤١ .
- (٦٤) راجع / العواصم من القواصم ص / ٢٧ وما بعدها . ونفح الطيب ج / ٢ ص / ٣٥ .

مقدمة حكايات أبي القاسم البغدادى

بقلم المستشرق

آدم ميتز

ترجمة

طارق حليم البغدادى

بغداد - الجمهورية العراقية

والتعبير ابتداء من ابن المعتز وانتهاء بابن الحجاج .. وظهرت لعبة الشطرنج ، لأول مرة ، أداة بلاغية ، وحلية للحوار الفني الذي كان يرافق كل نقلة أسوة بالملوف في المسرح الآسيوي الشرقي . لقد وزع الشاعر رغباته بين (نعم) و (لا) .. ولكنه أهمل نسق الأضداد التي انحدرت مادتها المدرسية ، في ذلك الوقت ، عن طريق كتاب الثعالبي (مدح الشيء وذمه) . و (الشيء) عنده لم يكن الفكرة ، بل الشيء المجرد نفسه .. فهو لا يذكر السبب وضده في بناء البيت ، وإنما يصف لنا البيت أما بالجودة أو بالسخافة (١) . ولم يعر المؤلف أية أهمية للاقبال على الطعام أو الامتناع عنه .. بل أبان لنا كيف يتناول البغدادي الثري طعامه ، وكيف يأكل الفقير في أصفهان ، هذه المفارقة لا وجود لها في الكتب القديمة - بما فيها البلاغة - لأنها منتزعة من المشاهدة ، وربما أغنت الحركة التوفيقية بين العقائد المتعارضة فن الوصف الذي ضمن لهذه الحكاية اتجاهاً أدبياً ذا منحنى واقعي . ولهذا تعتبر حكاية أبي القاسم عند (دي غويه) و (كرابجك) من المصادر القيمة . ومن هنا استقلالها عن الأدب المدرسي بصورة جلية : فلنوادير الملاحين مكانها الثابت في المصادر المعروفة ، ومن يقارن نماذج (الراغب الإصفهاني) أو نماذج (المستطرف) بنماذج أبي القاسم (ص ١٠٧ والتي تليها) (٢) يقع على الشمولية في مكان ، والاستبصار في مكان آخر ، دون أن يعي الأشكال المألوفة ، رغم أن القيمة التاريخية الأدبية للانتاج

لو طرح على مؤلف « الحكاية » ما قاله أحمد بن أبي طاهر في سعيد بن حميد* (فهرست ابن النديم ، ص ١٢٣) ولو طبقنا هذه المقولة « أرجع الى أهلك » لما وجدنا عنده من الجيد الا القليل ، ومن غير المحمود ربما الكثير . لقد استطعت أن أرجع أغلب المواد الى أصولها ، ولكنني اصطدمت بـ « أصول » غريبة في جوانب أخرى من « الحكاية » والمؤلف نفسه يصف عمله أساساً بأنه مجموع أدبي مختار ، فقد برزت في حكاياته أشياء كثيرة كانت ذات أهمية في عهده ، كالأوطن والبيت والحصان والحمار والخمر والكأس وحفلات المائدة والنديم والراقصة والفسلام والجارية والمغني والموسيقي والخطيب والمستمع والمتطفل والمتفاخر ، وقد اقتبست بعض الأبيات الشعرية ، مباشرة ، من مؤلفات مرتبة تاريخياً (كما في الصفحتين ٥١ و ١٢٩) ومفعمة بالاحساس

* حقق الاستاذ آدم متر حكاية أبي القاسم البغدادي ، ونشرها في هايدلبرج سنة ١٩٠٢ ، وصدرت عن مطبعة كارل ونتر (وأعاد طبعها بالادفست مكتبة المثنى في بغداد) . وقد الحق ا . ميتز بالنص العربي مقدمة نفيسة باللغة الألمانية ، ووجدنا بعضها جديراً بالنقل الى اللغة العربية ، وهو هذا الذي بين يدي القارئ [رئيس تحرير المورد] .

* عبارة ابن النديم وردت هكذا : « لو قيل لكلام سعيد وشعره أرجع الى أهلك لما بقي معه منه شيء . هذا لفظ أحمد بن أبي طاهر » . ويفهم من النص ان الشاعر سعيد بن حميد كان مشهوراً بالسرفه [رئيس تحرير المورد] .

والاذن المتعبد علامة مميزة لكل الادب الحضري والاجتماعي الذي لم يتلاءم - لا خلال الحرب ولا في مواسم الزرع - مع لحن الطبيعة الموصول ، وبات كل مباح - من الآن فصاعداً - لامصدر له - سوى الأقوام الدخيلة المزججة .. ففي ذلك الوقت احتل الفعل (مل) مكان الصدارة في النقد (قال أحد اصداقاء جعفر البرمكي للشاعر : قل آياتاً ولا تطل ، فانه يمل الاطالة . فقلت : لست بصاحب اطالة - الأغاني ١٧ : ٣٣) . وكذلك القصة النثرية ، فانها لم تستعمل الا في (رداء الایجاز) ولم يكن المرء يمقت - اكثر مما يمقت - القصص الطويلة (حلبة النكيت ، ص ٣٠ . طراز المجالس ، ص ٦٦) ولا بد أن يكون ذلك من دواعي القضاء على الشكل الطويل للقصيدة .

هذا العالم المصغر الذي لم تنقصه غير الصحراء (٧) كان بالنسبة للعرب (كالأخيلة الكنائسية بالنسبة للفن التشكيلي) ان (ما) أو (ماذا) كانت موجودة دائماً فالامر متعلق فقط بـ (كيف) . ولم يثقف هذا العالم الصحراوي الفنانين فقط بل ان جمهور أيضاً ، وهذا ما لا يجب ان نطمح اليه قصص أخرى ، وهكذا اجاد الجمهور سماع مصطلح جميل ، وحكاية صورية رمزية جديدة ، وانتقالة موفقة ، وتقسيم مثير جداً . كما حافظت القصيدة التي كانت بحاجة الى المحسنات البديعية على الطراوة والتجريد وعلى العامية التي كادت تختفي في صراع الكلم ، واللغة مدينة قبل كل شيء الى ملكية القصيدة . وقد اعتاد المأمون حينئذ ان يسمع منها التشبيب والوصف فقط ويبتين او ثلاثة من المديح (الأغاني ٨ : ٩٢) ولم يسمح ابراهيم بن العباس المتوفى في سنة (٢٤٣ م) عند التلاوة ، الا بقراءة أبيات قليلة من القصيدة ولم يرو الا بيتاً او بيتين أحياناً (الأغاني ٩ - ٢١) وقد تبع هذا التدهور تحلل كامل فقد كانت السنوات الاربعون قبل وبعد عام ٢٠٠ عهد اضطراب شديد في الادب وعهد بحث عن اسلوب جديد . اذ كانوا ينتقلون وبسرعة من اسلوب الى اسلوب ومن صيغة الى صيغة . قال الجاحظ (البيان ٢ : ١٦٤) لا يعتبر الراوي في وقته راوياً اذا لم يحفظ قصائد المجانين واللصوص والعشاق واشعار الرجز القصيرة عند البدو (٨) والاشعار المنصفة ، ثم وجدوا ذلك مملاً فتمسكوا بالنوادر والمقاطع والحكم والاقوال الماثورة والمختارات البراقة ثم انقض كل شيء على الشعر الوجداني العاطفي للعباس بن الاحنف (٩) الى ان جاء خلف الاحمر بنصيب البدو

استقرت في الشكل لا في المضمون . كانت المائة والخمسون سنة الاولى من عمر الاسلام مثقلة بتنوع مثير ذي جانب واحد من ادب الحرب ، ولم يستطع عصر الرشيد والمأمون ان يجودا باسلوب موحد للحياة ، وكان على المرء ان يقاسي كثيراً لكي يتلاءم اجتماعياً وفكرياً مع الحياة الجديدة . فلا غرو اذا انطلق الادب الرفيع - وبصورة أساسية - صدى واسعاً للشكل القديم ، فاسحاق الموصلي عكف على المعرفة التاريخية العميقة للأغاني الحضرية ، فضلاً عن النقد الفني الرائع في كتابه (الأغاني والشعراء) الذي بز به أباه المشهور ، وأدهش الآخرين (الأغاني ٦ : ١٧ و ١٨ : ١٧٦) حتى ان ابا نواس لم يسلم منه (الأغاني ٧ : ٢١) .

.. كما ان الزمن العصيب الذي اطمأن للانواع الجديدة لم يكن ، عهد ذلك ، حديثاً ، ومع ذلك استعين به ، وبفخر ، في الهجوم على القديم . لقد كان جديده نزرأ ، ولكنه مشبع بالموروث العتيق . وقد قورن عدي بن زيد بابي نواس ، وابن الاحنف ومسلم وكشاجم بعمر بن ابي ربيعة وبشار بن برد (رائد الجديد) الذي يقال انه نظم (١٢٠٠) قصيدة (راجع : الحصري ، والعقد الفريد ٢ : ٢٠) . ولم يغير فيض المادة الجديدة الادب (كما يزعمون) فقد كانت للادب حصانة غير حضرية ، فهو لم يعتن الا بأراجيز القتال بعهد ازدهارها في حرب الخوارج واثناء قيام الدولة العباسية (٤) وليس لذلك أية علاقة بشعر الحرب الذي قيل في بلاط الحمدانيين .. ولكن شيئاً واحداً كان جديداً ، هو : ان بغداد باعتبارها أول حاضرة اسلامية لم تكن معسكراً حربياً بالمعنى الحقيقي ، ولذلك خفت من غلواء المشاكل السياسية الداخلية ، ومن الاهتمام بالانساب والتقاليد . ففي هذه المدينة ترعرعت برجوازية جديدة عن طريق قوة التمركز التي عمت أرجاءها (٥) ، وثبتت الحياة الدنيوية ، وطورت الحقبة منذ الحروب الصليبية ، وحولتها الى عصر حضارة التجار (٦) . لقد سبب ازدهار التجارة ذات الامتيازات القوية (لم تفرض ضريبة على اسواق بغداد الا في عصر الخليفة المهدي لأول مرة - اليعقوبي ٢ : ٤٨١) والاقبال على الفنون حركة شعرية ناشطة ، فكانت تدرس ، عند ابراهيم الموصلي ، أحياناً ، ثمانون مقنية (الأغاني ٥ : ٦) كلهن من الفتيات الجميلات الكريمات ، وممن يهوين تلقى فنه الذي يحكره السودان والروم (الأغاني ٥ : ٩) . فلقد أصبح التمتع بالفن باهض الثمن ، كثير المتطلبات ، وأضحى الملل ،

الطبقات في طراز المجلس (ص ٦٧ والصفحات التي تليها (١٤) كل شيء كان متعاً ومهما بالنسبة له ابتداء من بني هاشم (للحصري مقالة حول هذا الموضوع ، العقد - ١ - ص ٥٦ والصفحة التي تليها) الى قوامي المدارس (المستطرف ٢ - ١٩٩) والصفحة التي تليها وكان قوامو المدارس اكثر اهمية من الاوائل (بني هاشم) . لقد كان طفلاً مدلاً حقيقياً (١٥) اذ أصبح اديبه في تناول الجميع كفلسفة سقراط القبيح (١٦) وينزل اديبه الى الشارع حصلت لغته على دم حار ونشوة وديناميكية .

وهكذا يعود للنثر الحضري الجديد المنشئت بعض الشيء والمطول ذا حيوية وبارعاً ومليئاً بجيد المعاني (١٧) وهذا ما كان يعرفه الشعالي عندما أطلق على الجاحظ اسم (ابو النثر) (اليتيمة ٣ : ٢٣٨) وهذا ما عرفه ابن العميد مستشار ركن الدولة وواحد من اكبر كتاب النثر في القرن الرابع (١٨) ، عندما كان يسأل كل من يريد ان يختبره عن رايه بيفداد والجاحظ (لطائف المعارف ص ١٠٥ ياقوت ١ : ٦٨٦) ، حتى انه سمي بالجاحظ الثاني (اليتيمة ٣ : ٣) ولهذا السبب أطلق الهمداني اسمه على احدى مقاماته واستطاع ابن عرب شاه وهو من المتأخرين ان يستقي لعبة الكلمة القديمة « كنية البحر ابو الجاحظ » (عمرو بن بحر) (فاكهة الخلفاء ، ص ٢٥) .

يبدو ان المدرسة القديمة قد شعرت بالهزة القادمة ولهذا ثبتت في القرن الثالث اهراماتها في المؤلفات الرائعة التي وضعها ابن قتيبة (١٩) والمبرد والبلاذري والطبري - حتى ان العقد قام بسرقة خزانات الجاحظ بالاضافة الى غزواته على ابن قتيبة . ان هذا الاكتشاف الحاصل من قبل ذوى الخبرة اثار الاهتمام الفضولي بالعالم البعيد واخذت مواد المقارنة تصب من جميع الجهات لفتح الافاق . لقد حكى الجاحظ عن الزنجي الذي قلد كل الشعوب المعروفة (البيان - ١ - ٣١) ومثل زميله المتأخر المغازلي بين يدي الخليفة المعتضد (المسعودي ٨ : ١٦١) وكما يقول لنا كتاب (عجائب الهند) فقد كانوا يرسلون الى الخليفة الكتب الضخمة في مختلف مجالات الفاعرة بينما لم يكن يخطر من قبل على بال احد ان مثل هذه الامور ستجد عند البلاط اهتماماً .

فمن فهرس عجائب القصور الذي عرض على الاغريق في عام ٣٠٥ تظهر اشياء تنطوي على

في الصيغة (١٠) وارتد كل شيء عن ابن الاحنف . وما كاد خلف يجمع كل شيء باعتناء حتى نسي الجميع قصائده وجلسوا ينصتون الى النحاة ولا يهتمون الا بالقصيدة ذات التعبير النادر (١١) والمعنى الدقيق الذي يحتاج الى تأويل وكذلك بالقصيدة ذات التركيب المتع ، وهذا يعني : ان الشاعر كان متوقفاً تماماً بينما كانت الطريق مفتوحة للنثر وكان الخطيب دائماً خصماً للشاعر والخرافة القائلة بان في العائلة لا يمكن ان يصبح الصغير خطيباً قبل ان يموت الخطيب الكبير تبرهن على ان الخطيب نفسه يشارك في رسم الهالة الالهية حوله (الاغاني ١٨ : ١٧٣) ويقول البيان (١ : ١٨) انه ارتفع عندما انحط الاخر . ان اسباب النمو الادبي للنثر كثيرة ، فالتدريس الفني للخطيب (ابحاث كولد زهر - ١ - ٦٦ والصفحة التي تليها) الا تقوية الكلام التي يرجعها الفهرست بصورة رئيسية الى حركة المعتزلة (W. Z. K. M - ٤ - ص ٢١٧ والصفحات التي تليها) والاسطورة التي رعاها واهتم بها القاص والتي تسلق عليها فن الرواية (١٢) ، وشكل الحكومة البيروقراطية بمأثوراته (١٣) المعايير تماماً للنظام الاقطاعي الاموي ، ولكن الاخلاص المألوف آنذاك والذي كان يبدأ عادة بالاشياء الصغيرة بدلا من التوسعة وكذلك الاهتمام بالمحيط هما من اهم عوامل نمو الادب النثري وكان الاخلاص يظهر على شكل سرور وانسباط عند مختلف طبقات الشعب .

صحيح ان لهارون رغبة في مرددات الملاحين والبنائين والسقائين ولكنها كانت على الاغلب رغبة السادة الكبار من رجال البلاط ويتمثل ذلك في الاديبي الذي جلس على احد جسور بغداد واخذ يدون حديث المارة (ورد ذكره في فهرس ابواب كتاب الاغاني) ولكن « علم نفس الجماعات » قام بعمله مسبقاً ، فابعد الادب عن العنصرية باتجاه التصنيف الاجتماعي وفي نفس المعنى توجد رسالة في فصول الجاحظ (لندن ، شرقيات - ٣١٣٨) كتبها الجاحظ نفسه الى المعتصم ولكنها لم تصل الى الخليفة لاسباب لم يود المؤلف التطرق اليها . وتعتبر هذه الرسالة مهمة جداً من الناحية الموضوعية وجاء على وجه الورقة (٨٢) ما يلي : لا يتعلق الامر بالعرق ، بل ان كل حلاق مهما يكن اصله وموطنه يحب عرق التمر وكل رقاع وسماك ونخاس وحائك مهما يكن اصله وموطنه فهو احقر ما خلق الله في الحياة العامة . ان الاسم الذي يتعلق به هذا التغير هو اسم الجاحظ ، فلا يقرأ المرء غير ديوان اوصاف

كمادة وقيمة وما تزال اللغة البدوية اظهر بكثير من لغة الحضر (Landberg proverb P. 16) ويشكل هذا الفرق القمة في قصة ابنة القاضي الفنية في البصرة والبدوي الذي اراد ان يتوج اسمه بها (ان يذهب نبلة بها) (العقد ٣ : ٢١٦) انها احدى اروع القصص التي عرفتها . ان اهل المجون (٢١) لابد انهم كانوا طبقة مستقلة متميزة تابعة لجماعة اردشير السكيرة (قطب السرور ، ظهر الورقة ١٠٥ والورقة التي تليها) . اقام ابو العبر في عصر المتوكل مدرسة للشعر في سامراء حيث يلتقي المجان ويستنسخون (الاغاني - ٢٠ - ٩١) وتظهر اليتيمة ان لابن الحجاج الكثير من المرافقين على هذا الدرب وربما يمكن ان يذكر بعده « صريع الدلاء البغدادى » (المتوفى في ٤١٢ م) والذي كتب قصيدة طويلة بأسلوب ماجن (الدميري - ٢ - ٢٣٣) ، لقد حافظ هذا الاسلوب الذي له كغيره وقته الخاص به على نفسه كرد فعل للشعر المغالي بالفحش . وهكذا فرح ابو نواس والذي يعتبر بجانب المتأخرين ماجنا بسيطا باغاظته لابن الاحنف (حيث سخر شعره الوجداني العاطفي - مصارع العشاق ، ص ٣٠٦) وفرح ابن الحجاج باغظة البستي الورع حيث قال ابن الحجاج (ص - ٣) .

بشرين هرون حين يسمعها
يعجب منها ويضحك البستي
يا سيدي فاستمع لنادرة
غريبة قد مشى بها وقتي

واكثر اصابة هو ما تعكسه نادرة العاشق الذي يتوسل بالرسائل وفق الاسلوب القديم من محبوبته ان تظهر له ولو في الحلم فترد عليه بانها تأتيه بنفسها حية بدرهمين (ابو القاسم ص ٧٣)

ارشدني الى خيالك حتى
اتقاضاه موعدا لي عليه

قال فقالت لجاريتها : ويحك قل لي لهذا الرقيق يا مدبر انا اعمل بك ما هو خير لك من ان يترك خيالي احمى دينارين في قرطاس حتى اجيبك انا بنفسى .. الخ » .

ان شاعرنا ابو المظهر محمد بن احمد الازدي هو من اتباع مدرسة ابن الحجاج ويستشهد في المقدمة به وبالجاحظ ولم يذكر اي مرجع ادبي اسمه او اسم كتابه . ولما كان في نهاية كتابه (ص ١٠٥ والصفحات التي تليها) يهجو بفداد ويمدح اصفهان فانه يكتب اذا لصفهان وهذا

اكثر من التبجح العادى حتى ان المسعودي يذهب في عام ٣٠٤ الى الصين ويذهب ابن فضلان الى روسيا في عام ٣٠٩ . كان ذلك الوقت حسيما جاء في عجائب الهند العصر الذهبي للبحارة المسلمين المغامرين ومن ثم فان كتاب « مغامرات البحار » المدون بجدية لم يكن ممكنا في السابق ولم نستطع بعد ان نلاحق بالتمام كيف تطور الادب الرفيع في هذا الوقت الجديد .

فالخوارزمي يأتي بفهرس المؤلفات الادبية والمثالية على الاقل بالنسبة لاتجاهه (الرسائل ص - ٣٦) والتي تظهر كما تظهر رسائله بانه بقدر ما كان ممكنا في ذلك الوقت رجلا من رجال المدرسة القديمة - انه استاذ علم البلاغة الجمالي - كان طريق الجاحظ يؤدي الى الهمداني وبينهما يقف الاحنف (من عكبرا) شاعر المكدين الاكبر حسبيما جاء في اليتيمة (٢ : ٢٠٥) وقام باتمام الموضوع الذي بداه الجاحظ (كتاب البخلاء - ص ٤٧ والصفحات التي تليها) وعلى ما يبدو انه اوجد الطراز الذي اوصل الهمداني الى شكل جديد واعطى اهتماماته الى الرحالة ابي دلف الذي كتب قصيدته الساسانية والتي مده الاحنف بمادتها (اليتيمة - ٣ - ١٧٥) وتبعه الهمداني في المقامية الرصاصية (يقرأ ذلك فقط في طبعة بومباي او القسطنطينية) ولكنه تجنب ان يعيد فيها ما كان واردا ولكن اقتباسه لبعض ابيات ابي دلف (اليتيمة - ٣ - ١٧٦) جعله يشعر بانه من اتباعه . وقف الجاحظ والاحنف وابو دلف الى جانب الشكل الواسع الجديد للمقامة المجموعة وان كانت ما تزال مفككة - على ما يبدو وقد نشأت مختارة من ٤٠٠ مقولة مدرسية من الهمداني تدور حول شخص واحد . ان المعلم الكبير لهذه الحضارة الجديدة والذي قدم بحرية وثقة معطيات واسعة وحكيمة مصحوبة بالفطرة لما هو حي وبالنظرة للشكل ، هو ابن الحجاج ... انه احد القلائد في الادب العالمي على الاطلاق ممن جمعوا بين الحماس والروعة وكل ذلك كان بلغة تمتلك طلاقة اسلوب الجاحظ وتكتسب شكلا قويا بعد قرن من التمرين وغلفها برداء الحياة اليومية الملون (مصبوغة بصبغة الحياة اليومية) (٢٠) .

لقد اراد ابن الحجاج ان يمرغ اسلوب الجاحظ في الوحل وفي عمله هذا تلبية قوية لمساعي سابقيه ، حيث ان البدايات الاولى للشعر الحضري عند بشار بن برد كانت تتعامل بالفحش

يعني أنه عاش في أصفهان . وليس من السهل تحديد وقت التأليف على الرغم من أن بعض التواريخ قد وردت في الكتاب . ففي ص ٨٧ يحصي أبو القاسم جوارى بغداد في عام ٣٠٦ .

« ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين والاغاني من الرجال والصبيان والجواري والحرائر لطال ومل وكنت كالمزاحم لمن صنف كتاب الفناء والالخان ولعهدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد احصيت أنا وجماعة في الكرخ اربعمائة وستين جارية في الجانبين وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ما يفوت حدود الوصف هذا سوى من كنا لا نظفر بهم ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالفناء والضرب الا اذا نشط في وقت أو ثمل في حال وخلع العذار في هوى قد حالفه واضناه وترنم واوقع وهز راسه وصعد انفاسه واستكتم جلase وكشف حجابيه وادعى الثقة بالحاضرين » .

وفي ص ٢٤ يذكر دار المعز التي بنيت في عام ٣٥٠ وفي ص ٢٣ يرد ذكر جامع برائنا الذي هجر في عام ٤٥١ .

« ربي بحق امام صلى الضحى في برائنا »
ووصف الباذنجان في ص ١٠٠ .

وتذكر أبو القاسم في ص ٨٨ حفلة في قرية مع ابن الحجاج واصدقائه (بين عام ٣٦٦ وعام ٣٩١) وقد ورد في ص ٧٨ ذكر طرب أبي عبدالله المرزباني المتوفى في (٣٨٤) وفي صفحة ٧٩ جاء ذكر طرب القاضي بن صبر (المتوفى في عام ٣٨٨) وطرب قاضي القضاة ابن معروف (المتوفى في عام ٣٩٠) وفي صفحة ٨٠ ذكر طرب الشاعر ابن نباتة (المتوفى في عام ٤٠٥) وجاء ذكر طرب ابن غيلان البراز (المتوفى في عام ٤٤٠) في صفحة ٨١ وفي هذا تناقض اذ لا يتطابق ما ورد ذكره عن عام ٣٠٦ بصورة معقولة مع ما ورد ذكره مؤخرًا . لقد اخذ المؤلف مادته من مراجع أخرى عندما استنسخ ديوان الطرب ، ولكنه اراد عندما اخذ ذلك التاريخ ان يضع الحديث في القرن الرابع (٢٢) وتظهر قصص الطرب مستقاة على اى حال من احاد الدواوين ويظهر من الرجوع الى الهمداني أن تأليف الكتاب جاء بعد عام ٤٠٠ . كما وان نهاية عهد سلطة السلجوقيين في بغداد مع ما حدث من تبديلات في ذلك العصر لم يذكر عنها شيء ولم

يمجد كذلك جامع برائنا بعد أندثاره . فاذا كان أبو المطهر قد كتب في أصفهان في النصف الاول من القرن الخامس وأن الباخريزي (المتوفى عام ٤٦٧) قد زار كاتبا في أصفهان يدعى أبو المطهر (الدمية - لندن ٩٩٩٤ وجه الورقة ٤ - ملحق ٢٢ - ٣٧٤ ظهر الورقة ٣) فلا بد ان يكون هذا هو كاتبنا ، ويقال انه كتب بعد ذلك « طراز الذهب على وشاح الادب » ولكن الباخريزي يسكت عن هذه الحكاية .

تبين المقدمة القيمة ان ابا المطهر كان على يقين بانه قد اعطى للأدب شكلا جديدا ويستشهد فقط بالقدوة العملية لابي ربويه الذي يحكي عنه الجاحظ ان التقليد مع المبالغة المضحكة قد استعمل فعلا في الثقافة العربية (وهو بالتأكيد أحد الانتصارات القديمة لشخص على آخر) ياقوت (بوركات) لقد أدى فن النقل (من جبل الى جبل) القوي عند اللاهوتيين وعلماء فقه اللغة الذين ادخلوا كلمة حكاية في الادب بعد فترة قصيرة الى حمل المحاكاة على محمل الجد بينما بقى تأثيره في اوروبا مضحكا دائما (وهكذا رويت كلمات الحجاج بصوته الخافت) عيون الاخبار ، بروكلمان ص - ١٢٩) واعيدت حكاية مغن وكأنه حي (الاغاني - ٨ - ١٦٢) . كان التقليد يعتبر دائما تدريبا فنيا يسمى القائم به باسمه ويستمتع اليه باهتمام يكاد يكون علميا ، مثل ابي ربويه ومن ثم ابن المغازلي وفي القرن الرابع الشاعر الأبيوردي (اليتيمة - ٣ - ١٤١ والصفحات التي تليها) ولدينا من لدن المؤرخين العرب الكثير مما يعكس صورة الزمن ولا يمكن التفكير بان مثل هذه الحكاية هي من الاعمال الفنية الادبية الا بعد ان يكون للحياة اليومية نصيب في الادب ، وهكذا تكون حكاية ابي المطهر (٢٢) قد وقعت في نهاية القرن الثاني عندما بدا الادب العربي يغزو مملكة هذا العالم .

انتصرت مع الحريري المدرسة القديمة ثانية والتي كانت الى هذا الوقت ممثلة بالخوارزمي وأبي العلاء ، فالمادة بالنسبة للحريري كانت فقط ذلك الخيط الرفيع جدا الذي يرقص عليه واذا قورن بالهمداني يبدو كمن يعمل بلا كواليس . لقد اثقل بكتابت كلاسيكي على القرون اللاحقة ولم يفت الكاتب ان يذكر بفخر بان اداة الشاعر لم تكفه في عمله امثل ابن الاثير المثل (السائر - ص ٥) . لقد شكل أبو المطهر المادة في ادبه منذ بناء القصيدة بقوة تنظيمية هائلة حيث يقدم البطل اولاً ثم يوصف وهذا ما لم يفكر به الهمداني ، وهذه بداية ظاهرها ديني :

بسم الله الرحمن الرحيم كان هذا الرجل
المحلى يعرف بابي ... الخ ثم يصفه مدحا وذما
... الخ ويصف عاداته وأعماله ... الخ .. ص ٣
والصفحات التي تليها ..

ثم يتم تغيير الموقف عن طريق ضحكة ضيف
يتعرف من خلالها على الحاضرين بصورة سيئة
كان يشتم جوانب المجتمع مثلا . وفي ص ١٧
يؤخذ الضيف نفسه بعين الاعتبار « فيقول صاحب
الدار يا ابا القسم ما بقى في المجلس احد لم تذكره
غيري فيقول يا سيدنا وما عسى ان اقول فيك الا
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على دين
خليله فلينظر احدهم من يخالل وكما قال الشاعر:

الى المرء لا تنظر بل انظر خليله

فكل امرئ يصبو الى من يجانسه

من يكون هولاء السادة ندماؤه واصفياؤه
واخلاءه ايش يقال فيه . وحياتي ما الف الداماني
مثلكم : في السماء ملك اسمه العنندر يؤلف بين
الاشكال ابصر بعضهم ببغاء وغرابا وبوما في موضع
واحد فعجب من انفاقهم وتأملهم فاذا الغراب
اعور والبغاء اعرج واليوم مكسور الجناح فقل
انما جمعتكم العاهة ويحدق النظر الى اثنين منهم
وهما صديقان فيقول لا اله الا الله ينضاف الثوم
كما ينضاف البصل الى الثوم اطلع القرد في
الكنيف قال ما تصلح هذه المرأة الا لهذا الوجه
... الخ » .

وتنهي محاكاة الواصف الوقور القسم
الاول بعد ان تقاطع بمفاخرة قصيرة عن طريق تهكم
احد السامعين :

« فيضحك واحد ممن في المجلس فيقول
ذبحه ذابحه .. الخ نبشت القبر نصبت
المجانيق على الكعبة .. الخ يا مدبر من ايش
تضحك انما قلت :

كل دجاجا وفراخا وجدا

واشو حملانا صفارا رضعا

واشرب الراح التي في دنها

شاهدت عادا ولاقت تبععا

ويبدأ القسم الثاني بشرب نخب اصفهان
وهو عبارة عن مقارنة بين بغداد واصفهان تمتد من
ص ٢١ الى ص ٩١ . وتعطلي المسمة الفنية
الفرصة لوصف بغداد بالركة والمذوبة ولدفع
آلات الطرب الرئيسية في ذلك الزمان الى الامام
ولسلب الفضائل والتعصب الواسع الانتشار .
انها المناظرة القديمة وكيف انتقلت من القبائل الى

المدن كما عند ابن الفقيه - ١٦٧ والصفحات التي
تليها (والاغاني ٥ - ١٥٧) بين الكوفة والبصرة
(ابن الفقيه - ٢٢٧ والصفحات التي تليها وياقوت
: ٤ - ٩٨٤ والصفحة التي بعدها) بين همدان
والعراق (المقدمة - ١١٧) بين بغداد والبصرة
(حلبة الكميت - ٩٦) بين العراق واصفهان (٢٤) .

كانت اصفهان تسمى في القرن الثالث بغداد
الثانية (ابن الفقيه - ٢٥٤) ففي عام ٣٢٠ تجمع
المقيمون في بغداد واعاقوا الخطبة في الجامع الغربي
وضربوا المحافل في قصر الخلافة بالحجارة وانزلوا
الخطيب من على ظهر حماره وهو في طريقه الى
البيت واخذوا منه عمامته (حمزة - ٢١٥) .

ثم يسأل ابو القاسم عن الطعام وبه يبدأ
القسم الثالث : انه حفلة السمر تتخلل طعام
الفطور المختصر المصحوب بكلمات الاسكندري
الوقحة (مقامات الهمداني - ٨٩ والصفحة التي
بعدها) والوجبة الاساسية لعبة شطرنج هزلية
وتصحب كل نوع من الطعام في الوجبة الرئيسية
نادرة لطيفة وتعطي جرعة ماء المناسبة الاولى
للتفكير باصفهان بصورة احسن (ص ١٠٢
[ويستدعي في خلال ذلك ماء ويشربه ويقول والله
اني اظلم اهل اصفهان في احوال : عمر الله
اصفهان ماؤها الماء العذب وجليدها البلور الرطب
وفي خلال ذلك يكون الشيخ قد انشغل بالسؤال
عن اثنين من اهل بغداد بتحفظ بلاغي محبب ..
ثم تبدأ المحاوراة المتضاربة بما تشتهر به بغداد
من الخمور المعتقة من عرق الدندى الى الداذي
المركز وعن المصطلحات العجيبة عند السباحين
واللاحين [ص ١٠٧-١٠٨] فيقال له في اثناء
المحاوراة يا ابا القاسم تعرف شيئا من السباحة
فيقول يا احمق وسوادي لا يحسن ان يركب البقر
وتركي لا يحسن ان ينزع في القوس انا والله اسبح
من الضفدع ومن التين اعرف من السباحة انواعا
لم يحسنها قط سمك ولا بط .. الخ » . ينتقل
بعدها الى سكة الجوهرى حيث يسكن في بغداد
وعن الوصف المختصر لادارته البيتية الاخلاقية
وعن سعر الخمر ومدح المضيف الذي سرعان ما
يتراجع عن مدحه له بصوت خافت (ص ١١١) .

« احمد الله على نعمه

قد انجز الدهر بها وعده

نلت الذي مازلت اغرى به

على طريق الفأل مذمده

والمن للمولى على عبده

في فعله لما اشترى عبده

الموصل ونبى الاهواز وزيتون فلسطين .. الخ لم يكن للفخر في خصومات الجاهلية مكانة دينية الى جانب اهجاء وقد انحصر فعله بصورة رئيسة في كسب العروس (الاغاني - ١٨ - ١٦٦) . ان الانعطاف نحو الخيال الغريب الشاذ جاء عن طريق وعاظ الصدقة والادباء المتجولين كما يبين كتاب البخلاء في (ص ٤٩ - والصفحات التي تليها) حيث كان المواطنون رحلا وتنقل معهم الاسفار والاخبار بسرعة الحصان الجامح .

ينعكس كل رد الفعل ضد المجتمع الاموي في (ارلندو) العاشق للفضب وفي (رابلياس) في قصص الفرسان [ارلندو فوروزو - ديوان الشاعر الايطالي ، اروستو رابلياس كاتب فرنسي نقد الحكم بنوادره - ١٤٩٤] . كان القرن الرابع مرة غريباً عن هذا النوع من السخرية ، فالخوارزمي يستعمل عباراتها مبتسماً (الرسائل ص - ١٠٦) والعجوز السكران الذي يرتعش امامه الاسكندر ونمرود الشيطان والذي يتبجح باصدقائه ذوي الاسماء غير المحببة كالمكاري والارمني والصقلي كان بالنسبة لابي المظهر تمثيلاً هزلياً .

ان نقل المفاضلة الذي تم اولا في القرن الثالث على المادة والمعنى والذي اعتاد ان يتعامل مع التقاليد في استعمال الازداد كالربيع والخريف ، البخل والكرم ، الشعر والنثر لم يتوضح الا عن طريق تأثير مذهب التوفيق اليوناني وخلال ذلك يكون ابو القاسم قد غط بفعل الخمرة في نوم عميق واول شيء يسمعه المرء في الصباح الثاني هو صلاته ثم يبدأ بفنائه الاستهلاكي وياخذ طيلسانه ويقول : السلام عليكم ..

هذا تظهر ايضاً بوضوح المقولة القائلة « لا تكون البداية في المادة بارعة » فالفن القصصي العربي لم يعرف نهاية هذا الوقت بغير المنولوج والحوار ، فبينما ياخذ الهمداني احياناً نماذج قصيرة للمحادثات العامة يعذب ابو المظهر نفسه بشدة لي طرح اسئلة وليضع محادثة . انه ياخذ احياناً مع العبارة ملحقها الذي لا يلائمها مثل مقارنة ابن الرومي ص - ١٠٠ . وحيث وجب عليه تغيير المنشأ بسبب العلاقة المحلية فانه فشل في تحقيق ما يمد به بصورة غير مرضية مثلما ورد في ص ٥٩ . وفي ص ٢١ حيث ايد اصفهان في القصيدة الساخرة بينما يصبح الشيخ العجوز والذي لابد ان يكون نموذجاً للبغدادي ، في البيت الثالث اصفهانيا بالولادة

ولا يزال يتلقاه بهذه المادح التي ينبئ بها عن صدق الولاء وحسن العهد والعشرة والوفاء الى ان يتفرس في بعضهم سوء اعتقاد في هذا صاحب الذي يقرظه بامثال ذلك فيقول له - را يا سيدنا من ذا ما هو الا طاعون في مجرى النفس ليتني حممت سنة ولم اعرفه ما هو والله يا سيدنا الا كما قال الشاعر :

انفاسه كذب وعقد ضميره

دجل وطلعته سقام الروح »

ومن ثم ينصت الى جاره على يمينه ويمدح مجالسته ثم يذمه عند الذي على يساره .. (ويتكرر مدح الحديث وذمه عدة مرات) (١٢) والصفحات التي تليها) الى ان تسكت الموسيقى ويحصل الطنبوري والعود والمغنية على الثناء المعتاد ١١٥ والصفحات التي تليها) واخيراً تأتي لعبة العريضة وعندما تفعل الخمرة فعلها وتقترب ابو القاسم من المغنية ويده قدح شراب وهو يلاطفها بابيات من الغزل ولما يضحك علماً بالقرب منها يطره الشيخ بوابل من سباب القرن الرابع المختار لكونه رقيباً مفسداً للحب (ص - ١٨ والصفحات التي تليها) وغالباً ما تؤخذ المادة من الخوارزمي والهمداني وابن الحجاج كما تظهر الهوامش لقد قام هؤلاء الثلاثة بتطوير هجاء القرن الرابع . تراجع المستطرف (٢ : ٣) وعند ابن سبام المتوفى في عام ٣٠٣ يمكن البحث عن الانتقال من هجاء القرن الثالث الذي وصف تطوره (٢٥) كولدسيهر (المستشرق البلغاري) (البند - ٤٦ ZDMG) .

يود الحاضرون الاسراع بتصعيد النسوة عنده فيزيدون له من الشراب ليتخلصوا منه فيلاحظ الهدف حيث يتوضح له اكثر فاكسر ليقفوا فيغني ويرقص ويترنح الى ان يتعب المغني ويسخط فيعزاي ابو القاسم ذلك بالشكل القديم في سبب الغنين ١ ص - ١٣٤ والصفحة التي تليها)

من استخف بقدري

فسم يا مخنث غني

وعندما يدافع ثالث يبدأ هجاء قاس مع فخر نافذ (ص - ١٣٧ والصفحة التي تليها) [إلي بعينيك واصغ الى باذنك لا تحرك يدك ولا منكبيك نبه مستضعفاً واولئك اصدقائي اكثر من خوص البصرة وبلوط الجبل وخردل مصر وعدس الشام وحصا الجزيرة وشوك القاطول وحنطة

يا سائلي عن اصفهان واهلها
حكم الزمان بنحسهم وخرابها
شبانها ككهولها وكهولها
كشيوخها وشيوخها ككلابها

الاضداد للجاحظ يظهر بالمقارنة مع ما في كتاب ابي
المطهر في ثقافة هذا الحقل الخاص (٢٦) . فالاسلام
لا يتحدث بالسوء عن عاصمته . واذا كان ابن جبير
يشكو غرور البغداديين فان ذلك لا يعني كثيرا
بالنسبة لفخره المتعصب . ويرى ياقوت - ٦٩٠ -
ان بغداد عاصمة الاغنياء بينما يجد الفقير نفسه
فيها كالقرآن في بيت الكافر .

ان اصدار مثل هذا الكراس من مخطوطة
فريدة متأخرة يحتاج الى الثقة فيجب قبل كل
شيء ان يعامل كتاب الادب الرفيع في القرن
الخامس بطريقة تختلف تماما عن التي يعامل بها
كتاب القرن الثالث او الكتاب اللغوي .

ولوصف مخطوطة الفهرس لابد من القول
ان توابع ٥٢ ، و ٥٣ مربوطة ومرقمة خطأ وان
بعض العبارات تشكل تشويشا (لغزا) لا يمكن
حله الا بصعوبة بالغة جدا وبهذا اسعدتني كثيرا
مساعدة البروفسور هورن وانا مدين ايضا الى
السيد البارون فون روزن لتفضله بوضع نسخة
المخطوطات تحت تصرفي .

الهوامش

- (١) كانت الهندسة المعمارية من المواضيع المحببة في الحادثة
(قارن « القامة الموصلية للهمداني » و « قواعد الموائد »
مخطوطة الفاتيكاني ، رقم ٣٥٦ ، ظهر الورقة ١٧٤) من
الناس من يدخل النار فيبتدىء بالهندسة فيقول كان
المجلس يصلح بابي من هنا والايوان ان يكون مقابلا لهذا
الباب وهذه الخزنة ما كان يليق ان تكون ها هنا .
(يبرز كتاب العيون خصائص عصور الخلفاء ، في
نهاية القرن الاول : ففي عصر الوليد تكلم الناس على
البناء وفي عصر سليمان على النساء وفي عصر عمر الثاني
على الدين (Fragm. hist. S. 11) .
- (٢) ان ما يذكره (قرب السمارية) يناسب بصورة خاصة
ما هو اشبه باللامع (قطب السور - فينا - الجزء
الثاني - ظهر الورقة ١٩٦٠) .
- (٣) ومع ذلك فهو يحمل هذا اللقب بحق . انه رائد
الواقعية في الحياة الحضرية .
- (٤) الدولة هي الانقلاب ، والثورة و « الواحد بعد الآخر »
وتعني في احدي قصائد العصر الاموي (الافاني ١٠ : ١١٣)
سخط الافخاذ الحكومة على العائلة الحاكمة . ولم يد

وبالعكس من ذلك فلا بد من الاعتراف بان
الشاعر قاوم ظاهرة التبغدد التي جاءت اليه
بالتأكيد بعد دراسة العكبري وابي دلف . كان من
الممكن ان يلقي تاليفه ترحابا عند علماء اللغة ولكنه
اصبح غير ادبي حيث ان الادب والشعب لا يمكن
ان يلتقيا الا وفق قوانينهما وذلك اهم ما في تاريخ
الادب . ان بغداد ابي القاسم ليست بغداد
القدسسي (ص - ١١٩) الذي قال ان بغداد في
طريقها الى السقوط (ص - ١٩٣) وعلى الرغم
من ورود ذكر المستشفى فلا بد انه قد رأى
المدينة قبل ان تزدهر على يد عضد الدولة (ابن
الاثير - ٥١٨) . لقد كان المرض كامنا ثم انفجر
بعندئذ وكان من الممكن ان يقضي على حروب
الشوارع المستمرة منذ عام ٣٠٨ ولكن الشؤم كان
في اسكان معز الدولة لاتباعه وجنوده في العراق
وهؤلاء نشروا الفوضى ولم يدعونا لموظفي الدولة
(ابن الاثير - ٨ - ٣٤٢) وهكذا اصبحت المدينة
معتمدة كلياً على الواردات وعندما حوصرت المدينة
في اوقات الحرب بيع لأول مرة كل شيء في
العاصمة من اجل لقمة العيش (المصدر نفسه ،
ص ٣٤٩) وابتدأت في نفس الوقت الضائقة المالية
بسبب تناقض الدخولات العراقية ولهذا بيع
كرسي القاضي لأول مرة في عام ٣٥٠ وتبعه بيع
شرطة المدينة والبلاط (شرطه وحسبه - ص
٣٩٩) ولكن المواقب ظهرت اولا في العصر
السلجوقي . يظهر ابو المطهر المدينة الكبيرة البراقة
المتوهجة مع غواية محلات الموضة (مودة) وفناني
الموضة (كذلك مقامات الهمداني - ص - ١٠٥)
والمحضيات المستهترات تارة والعاطفيات تارة
اخرى واللواتي يتم تصديرهن حتى الى مصر .
(الاضداد الجاحظ - ١٨ - ومصارع العشاق ص
١٠٨) .

ان كلام النساء في كتاب لب اللباب وفي كتاب

أبن المقفع مع الأسف أي راي (الدرة اليتيمة ، بيروت ، ص ١٤) : « اذا كان سلطانك عند جدة دولة ... » .
 ويبدو ان هذه الكلمة كانت مصطلح الدعاية المهدية القديمة (انظر : بيت ابي دلالة في عيون الاخبار ، بروكلمان ، ص ٤٤) وعند ابن ابي اصيبعة (٢ - ٢٧) لذكره كتاب اخبار الدولة كانت بداية حكم عبيدالله المهدي . لقد عمل دعاة العباسيين كما هو معروف بمثل هذه المصطلحات وهكذا فان الدولة هي انتفاضتهم او كما تسمى في الاغانى (٣ : ٥٨) في موضوع قديم : دولة اهل خراسان . وفي خراسان تم تحديد معنى الدولة ويستشهد ابن الفقيه (٥ : ٦٥) بكتاب الدولة العباسية وامراء خراسان - وتسمى باب خراسان في بغداد استنادا الى المسعودي في وقت سابق بباب الدولة (ص - ٢٤ (La Strange Bagd.)
 وانه معروف ان ابا مسلم غالبا كان يسمى بصاحب الدولة وصاحب الدعوة ويشهد البيان (١ : ١٢٨ و ١٢٩) بانه عالم بالدولة وبرجال الدعوة . وبذلك تكون الدولة مرادفة لهذه « الدعوة » في رسائل الجاحظ (لندن ، رقم ٢١٢٨ الورقة ٦٤) « كهول من ابناء رجال الدولة » . انها تلك التي اسمي فهمها بمباراة (ابناء الدولة) كما في فهرست (WZKM - الجزء الرابع - ٢٠٤) حيث ان الراوندين الاوائل كان قد اطلق عليهم (ابناء الدولة) وهم يؤلفون بجانب الهاشمين في بغداد طبقة من النبلاء تهيمن على امور الدولة حتى قيل (المصدر نفسه ص ٧٠٦) : في مدينة بغداد بيت الخلافة وفيها بقية رجال الدعوة . ان اول تحويل لمعنى الدولة وجدته في الاغانى (١٥ : ٣٦) في صيغة : دولة برمك وفي (عيون الاخبار ، بروكلمان ، ص ١٢١ حيث قيل للخليفة المأمون : انا سليل نعمتك وابن دولتك) وبنفس المعنى في نفس الوقت (الاغانى ١٨ : ٥ و ١٦ : ٣١ و ٧٢) والكندي (الابحاث الشرقية ، ص ٢٧٧) : ونقل الملك والدولة الى العراق . اذا كان المرجع صحيحا وقد يدور الحديث على الدولة الاموية ولهذا كان ابو مسلم ناقد الدولة (حمزة الاصفهاني ، ص ٢١٨) . اما الدولة اليوم فتعني حكومة وفي اليمن سمي والي المدينة في عصر نيبور بالدولة
 (Kop. 1774, P. 295 -

(٥) كان الهاشميون يتواجدون سوية في مقر باب البصرة (ابن الاثير ٩ : ١٤٦) واعلنوا معارضتهم الدائمة لدار الخلافة ولاهل الكرخ (٩ : ٢٨٦) حتى ان ياقوت ذكر تحت كلمة (كرخ بغداد) انه كان هنا بعض الطوائف لم تكن لهم أية جدوى في الحياة الفكرية حتى ان المنصور قد شكى قلة احتلالهم بالادب (الاغانى ٦١ : ٦) وكذلك (الحجازيون المقيمون في سامراء بامر من المتوكل) لم يقدموا ايضا شيئا يذكر . وهكذا

كان البلاط المتعشش للادب ضعيفا على الرغم من ان الشعراء في عصر هارون الرشيد كانوا يملكون رغبة خاصة في طاق اسماء (ياقوت : ٣ - ٨٩) وكان الكثير منهم يجتمعون في حلقات خاصة في الكرخ (٩ : ١١٢) وخصصوا ساعات الفناء والخطابة عند النخاسين الكبار (الاغانى ٢٠ : ٤٣) .

(٦) تشهد على ذلك ، في عام ٤٠٠ ، رسالة المعري (ص ٦٩ وما بعدها) .

(٧) للريف معنى عند الشرقيين لا يتعدى كونه قطعة صغيرة بحجم السجادة : واجهة محدودة بدون ساحة . وهذا يمكن الوقوف عليه في كتاب الديارات للشابشتي .

(٨) وكانت تغنى في الحرب والحدا عند المخر (الاغانى ١٨ : ١٦٤) .

(٩) سخر منه ابو نواس (مصارع العشاق ص ٣٠٦) .

(١٠) رواية في ديوان ابي نواس (ظهر الصفحة ٢٥ - ٢٢٣٥ Gotha) جاء الشاعر الى خلف الاحمر ليتعلم عنده الشعر ، فحفظه في بادئ الامر الف قصيدة بدوية وطلب منه ان ينساها ثم سمح له ان يبدأ بنفسه .

(١١) استعمل راس المعتزلة البصري ابن ابي داود (المتوفى في عام ٢٤٠) الاغراب حتى في اسم وكنية اطفاله العديدين (الفهرست WZKM ٤ - ٢٢٣) .

(١٢) وفي اسطورة « ولد التين » يرد موضوع في قصة علاء الدين يشبه ما جاء في قصص الانبياء (القاهرة - ١٣٠٨ - ص ٢٦١) .

(١٣) ان الرسالة حسبما هو معترف عليه هي من اصل فارسي (٣٦٨-٣٨٨) . اما مجموعة رسائل المستشار الاموي عبد الحميد التي ذكرها المسعودي فكانت تزويرا وغالبا ما يقيم التأثير الفارسي على الادب بصورة معكوسة فتشذيب الاسلوب المشبوه غير صحيح وتبدو الرسائل وكأنها واقعة تحت تأثير ان اسلوب ابن المقفع طفولي وبكل بساطة ضد انجازات « بني الاهتم » القدماء وكذلك تبدو رسائل ابي يوسف الكندي فهي تأخذ مع الشكل الصيغة الجامدة من هناك .

(١٤) استعمل هذا مؤخرا في الحسنات البلاغية - إلحصري (العقد ١ : ١١٢ والصفحات التي تليها) .

(١٥) وحسبما جاء في غرر الفوائد للمرتضى (طهران ١٢٧٢ - لم استطع الاستشهاد الا بنسخة المكتبة غير المرقمة) كان ابو نواس شاعره المحبب . اما اقوى سابقة فهو عدي بن زيد الذي لم يؤخذ به كليا كحضري (الاغانى - ١٥ - ١٧ و ١٧ - ١٢) . لم يصر للفلاحين اهتماما وهؤلاء ظهروا في الادب اولا في كتاب « هز الخوف » .

(١٦) هكذا كان تصرفه تجاه السلف في كتب البخلاء متميزاً، رغم كل حبه للكتب وجمعها (الفهرست ص - ١١٦ وغرر الفوائد) .

(١٧) اشتهر الجاحظ بأنه صانع القول البارع (الملاحظة الطريفة) (الاغانى ١٨ : ٤٥) .

(١٨) حسب كتاب المرقصات (ص ٨) استاذ ابن عباد .

(١٩) الذي اقترف عند اختيار الشعراء ما سمي اخيراً في مواجهة الموضة بمفهم (انتهازي) (تولديكه - محاضرة ص - ٦ ، البيان - ٢ - ص ١٦٤) .

(٢٠) يعتبر ابو العلاء بجانبه نموذجاً للمتأقلم (بالإضافة الى ذلك فقد انتقل رواد مدرسة الصنوبري الشعرية الى مدرسة المهلبى . انهم الفنانون الذين يمكن ان يصبحوا في ، حضارة اخرى ، رساميه .

(٢١) الترجمة الحرة لكلمة ماجن هي في احسن الاحوال تقابلها في الفرنسية كلمة (الفاجر) ومعناها في الاغانى (٥ : ١٧٥) متهور ، وهي في الاغانى (٤ : ٦٤) تعني بدون حكم سابق متساو في الحقوق . وكذلك في ديوان مسلم ص ١٤١ و (اخبار الهند ، ص ١٤٩) فالماجس هو المازح او الهازل او المرح بكل ما تعنيه الكلمة .

(٢٢) حسبما جاء في الصفحة الاولى : في الوقت الذي كان

فيه هو في بغداد (يذكر ابن الحجاج في ديوانه اسم مطهر من بين اصدقائه انني اجد على اى حال مثلاً آخر لاختصار الاسماء في بيت الشعر بمثل هذه الصورة :

وصلوا بمولاهم ركوعاً وسجداً

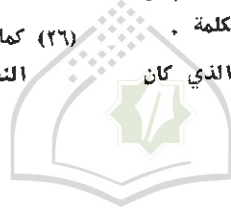
يوم ابن هرون بهم والمظهر

(٢٣) العنوان لا يكون « تاريخ ابي القاسم » بل « مائورات ابي القاسم » ... الخ . يؤخذ في الالمانية المعنى المجازي للعنوان فيكون « ابو القاسم - صورة اخلاق بغدادية . »

(٢٤) كلها وضعت اما سجعا او في قافية بينما كانت المناظرة الشخصية القديمة بلا قافية . نقطة التباين : الحسن ضد عمرو بن العاص ومروان في بلاط معاوية (مثلاً الجاحظ - كتاب الاضداد - ١٤٠ وما بعدها) . لقد كانت بلا قافية نهائياً .

(٢٥) جاءت ملاحظات خلف ربما خلف الاحمر بصورة غير مرئية واليه ترجع المقامات (رقم - ٤ - ١٢٧) وكذلك ابن بسام المتوفى في عام (٥٤٢ م) وللمقارنة يرجع الى ابن خلكان ، طبعة باريس (سلين - ٢ - ٣٠٤) .

(٢٦) كما جاء في ص ٧٥ كانت صناعة مثل هذه النوادر عند النخاس .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم اسلامی

بَعْدَ الدُّفْعَةِ لِلْخَطِّ الْعَرَبِيِّ مَقَابِلَتُهُ

بقلم

محمّد شكر الجبوري

وزارة التربية - بغداد

الكريم ، كان نتيجة لدرائته العظيمة في نشر المعرفة والاهمية القصوى في الكتابة في تحديد علاقات الناس بعضهم ببعض وتثبيت ما لهم وما عليهم اضافة الى اهميتها في تدوين آيات القرآن المجيد . (وجاء في المدونات التاريخية الاسلامية ، ان النبي الكريم قد ارسل عددا من الرسائل الى الملوك وامراء الدول المجاورة يدعوهم فيها الى الاسلام) .

وقد وردت اشارات عن الذين كتبوا عند رسول الله ومنهم علي بن ابي طالب (رض) وعثمان ابن عفان (رض) وزيد بن ثابت ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهم .

وقد وصلتنا من عصر الخلفاء الراشدين وثائق تبدأ من زمن خلافة عمر بن الخطاب (رض) (١٣-٢٣ هـ) اقدمها يرجع الى سنة (٢٠ هـ) واخرها يرجع الى اواخر عصر خلافة الامام علي بن ابي طالب (رض) (٤٠ هـ) وتشمل تلك الوثائق المكتوبة مسكوكات ولفائف بردي واحجار .

وان دراسة الخط على المسكوكات على درجة كبيرة من الاهمية لكونها وثائق رسمية تصدرها الدولة . فالخط فيها معتنى به عناية كبيرة .

وتلك المسكوكات لها ولاشك اهمية كبيرة في دراسة تطور الخط العربي (١) .

(١) انظر :

الفلقشندي : صبح الاعشى (مطابع كوستانتينوس ،

١١/٣) .

ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية (سلسلة اقرا ،

٢١ - ٢٥) .

سهيلة ياسين الجبوري : اصل الخط العربي وتطوره

حتى نهاية العصر الاموي (٧٨ - ٩٨) .

الكتابة العربية قبل الاسلام وبعد ظهوره

قيل ان الخط العربي اصله من اليمن وهو (المسند الحميري) الذي كتبت فيه دولتا سبأ وحمر ودونت به الكتابات المعينية والسبائية والحميرية .

وقيل ان اصل الخط العربي من الحيرة والانبار وهو الخط السمي بالحميري او الانباري . والذي نشأ في ارض العراق .

وقيل ان اصل الخط العربي هو (الفنيقي) نسبة الى فنيقيا ارض كنعان .

ورويت عن الاصل آراء كثيرة واخيرا قيل استنادا على ما اعتمد عليه المؤرخون والباحثون من خلال نقوش الاحجار التي وجدت في الاثار النبطية والتي تبين (ان الخط النبطي اخذ عن الخط الارامي والخط العربي اخذ عن الخط النبطي دليل وجوده في كتابات المصاحف التي دونت في العهد الاول للاسلام) .

(ونحن هنا لا نريد الخوض في بحث هذا الموضوع ، ربما يتطلب مجالا قد يطول فيه الكلام)

وقد وصلت الكتابة العربية الى الحجاز بعدة طرق سواء اكانت التجارية منها او الصلات الاخرى ونستخلص من ذلك ان الكتابة العربية موجودة قبل ظهور الاسلام وفي قريش من يقرأ ويكتب .

ولقد ادرك النبي محمد (ص) ان للكتابة اثرا عظيما وعونا كبيرا في نشر الدعوة الكريمة : وكان اقرب الناس اليه الكتاب . وخاصة كتاب الوحي .

ان ذلك الحرص الشديد من لدن الرسول

البدايات الاولى في التحسين

بعد مقتل الامام علي بن ابي طالب (رض) في سنة ٤٠هـ ، انتقلت الخلافة بعد ذلك بقليل الى معاوية بن ابي سفيان مؤسس حكم الاسرة الاموية (٤٠-١٣٢هـ / ٦٦٠-٧٤٩ ميلادية) .

وكان من اول اعمال معاوية ان نقل مركز الخلافة في الكوفة الى دمشق ببلاد الشام . وفي العصر الجديد اتسعت رقعة الدولة العربية كثيرا ... ولقد تميز هذا العصر بانصراف المسلمين بشكل عام الى الحياة الدنيوية عكس ماكان عليه الحال في عصر الراشدين حيث تجنب العرب الى درجة كبيرة البسوخ والترف - فتقدمت الفنون المعمارية كما مال العرب الى الخط والنحت والتصوير والزخرفة ...

ومن المعروف ان الخلفاء الامويين قد اولوا الخط عناية بالغة وذلك لحاجتهم الماسة اليه سواء في الكتابة على العماير ولتحف ام في استعماله في كتابة المصحف الشريف والمراسلات والنقود ... ان لكثرة النقوش الكتابية التي وصلتنا واختلاف المواد التي دونت عليها تساعد ولاشك في تتبع تطور الخط العربي في العصر الاموي (٢) .

ولقد اشتهر في هذا العصر خطاطون منهم خالد ابن الهباج وشعيب بن حمزة الكاتب المتوفى ١٦٢هـ ومالك بن دينار المتوفى سنة ١٣٠هـ . اما قطببة المحرر المتوفى سنة ١٥٤هـ فقد كان « اكتب الناس على الارض في العربية » . (ويقال انه هو الذي بدأ في تحويل الخط الكوفي وهو الذي اخترع القلم الطومار والقلم الجليل) . وقد اصبح للمشق في العصر الاموي اصوله وقواعده يميل اليه الكثير من الخطاطين .

واخيرا فقد ظهر على الخط في العصر الاموي بوادر زخرفية جديدة (٣) .

بغداد تجود الخط العربي

لقد زاد تطور الخط العربي في اوائل الدولة العباسية على يد رجل من اهل الشام في خلافة

محمود شكر الجبوري : كتاب نشأة الخط العربي وتطوره (ص ٢٨) .

مجلة آفاق عربية (المجلد ٣ - ١٩٧٧ ، ٦٤ - ٦٩) .

مجلة آفاق عربية (المجلد ٦ - ١٩٧٩ ، ٩٠ - ٩٧) .

(٢) سهيلة ياسين الجبوري : اصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الاموي (ص ١١٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٢ - ١٣٧ .

السفاح اول خلفاء بني العباس ، يقال له (الضحاح بن عجلان الكاتب) ، فزاد على (قطبة) ، فكان بعده اكتب الخلق ثم كان بعده (اسحاق بن حماد الكاتب) في ايام خلافة المنصور والمهدي ، فزاد على (الضحاح) .

وكانا هذان الكاتبان يخطان (الجليل) . وكانه يراد به الطومار او قريب منه .

ثم ازدهر عصر المأمون بتلامذة اسحاق بن حماد ، الذين كتبوا « الخطوط الاصلية انوزونة » التي لا يقوى عليها احد الا بالتعليم الشديد ، وعدتها اثنا عشر قلما يخرج منها اثنا عشر قلما (٤) . وهذه الاقلام هي

- ١ - قلم الجليل ٧ - قلم المفتح
- ٢ - قلم السجلات ٨ - قلم الحرم
- ٣ - قلم الديباج ٩ - قلم المؤامرات
- ٤ - قلم الطومار الكبير ١٠ - قلم العهد
- ٥ - قلم الثلثين ١١ - قلم القصص
- ٦ - قلم الزنبور ١٢ - قلم الخرفاج (٥) .

و (ابراهيم الشجري) ، وكان اخط اهل دهره . اخذ عن اسحاق (الجليل) ، واخترع منه قلما اخف منه سماه (قلم الثلثين) ثم اخترع من قلم الثلثين قلما سماه (الثالث) .

واخوه (يوسف الشجري) . . اخترع من القلم الجليل قلما ادق منه . . فاعجب به الفضل بن سهل وزير المأمون . . وسماه (القلم الرئاسي) وقيل ان الاصول المحرر استنبط من الثلثين والثلث فتي سماه (النصف) ، وقلما اخف من الثلث سماه (خفيف الثلث) ، واقلام اخرى مثل (السلسل) و (غبار الحلبة) و (خط المؤامرات) و (خط القصص) و (الحوائجي) الا ان خطه مع حسنه وبهجته كان غير محكم ولا متقن (٦) .

وكان ينافس في عصره (وجه النعجة) محمد بن معدان المعروف بابي ذرجان وكان مقدسا في

(٤) الدكتور سهيل انور : الخطاط البغدادي علي بن هلال . ٤٤ .

(٥) عبدالله المشهور يحاجي خليفة : كشف الظنون (طهران) ٧١٠ - ٧١١ .

(٦) القلقشندي : صبح الاعشى (١٤/٣) . د . سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ٤٥) .

البطيوسي : الاقتضاب (٨٧ - ٨٩) .

محمود شكر الجبوري : نشأة الخط العربي وتطوره (ص ٥٨) .

يوم الخميس لتسع بقين من شوال سنة ٢٧٢ هجرية (١٠) .

انه كان « مقلدة حدقة الزمان ياقوت العرفان ، مصور النقوش القدسية بالصور الروحانية ، وحضر الخطوط الهندسية بالادوات الجسمانية ، عليه الرحمة والرضوان ما كتب القلم وظهر الرقم » وهو بغدادى ، يكنى بابي الصدر محمد بن علي بن حسن بن مقلدة الوزير (١١) رغب عن عمل ابيه ، وانصرف الى الدرس ، ويقول مؤلف كتاب (تحفة الخطاطين) ان (اباه) كان زياتا ، يبيع الزيت ، .. وكان ابوه كاتباً مليح الخط ، وعلى خطه كتب ولداه : ابو علي ، وابو عبدالله . بلغ مرتبة عالية في علم الاعراب ، وحفظ اللغة ، وبلاغة البيان منثورة ومنظومة ، كما شهد له الصولي بذلك وغضائل اخرى ايضا تميز بها على اقرانه في اهل عصره (١٢) .

ومن المحقق ان ابن مقلدة الذي عد (انسان عين الاعيان ، واستاذ اساتذة الزمان ، ووزيرا ذا شأن) ، كان اكبر معرفته هذا الانقلاب السذي احداثه في الخط . وهو لم يقتصر على الخط وحده كأمثاله من ارباب المعرفة ، بل لقد قرض الشعر ايضا ، ومن شعره في ابن خلدون قصيدة رأيته في الخط (١٣) .

وقد افاض العلماء المعنيون ببحوث - الخط العربي ، من القدماء خاصة في شرح قوانين الكتابة المنسوبة ، وما تعارف عليه الخطاطون من تناسب الحروف ومقاديرها في كل قيم ، ونسبة بعضها الى بعض ، مما توجه به قوانين الهندسة والنسبة الفاضلة ، وكتبوا رسائل كثيرة . ونجد مثالا لذلك مختصرا وواضحا في كلام صاحب (رسائل اخوان الصفا) في رسالة اوسيقى منها ، وفي (الفية زين الدين شعبان الاثاري) ، وكلام شرف الدين ابن عبدالسلام في (صبح الاعشى) ، وغيرهم (١٤) . ومما اورده في قواعد تتعلق بالكتابة التي لا يستغنى الكاتب المجيد عن معرفتها) . (في هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها ونحن نذكرها على ترتيب الحروف) (ومما قاله الوزير ابو علي بن مقلدة : عنها :

(الجليل) ، واحمد بن محمد بن حفص المعروف بـ (زاقف) وكان اجل الكتاب خطا في (الثلث) .

وكان ابن الزياد في ايام ابن طولون وزير المعتصم يعجبه خطه ولا يكتب بين يديه غيره .

وانتهت رياسة الخط بمصر الى طبطب المحرر جودة واتقاناً (٧) ثم انتهت جودة الخط وتحريره على راس الثلثمائة الى الوزير ابي علي محمد بن مقلدة واخيه عبدالله (٨) .

ثم اخذ عن ابن مقلدة محمد بن السمسامي ومحمد بن اسد ، وعنهما اخذ الاستاذ ابو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب ... ومن اخذ عنه محمد بن عبد الملك ، وعن محمد بن عبد الملك اخذت الشيخة المحدث الكاتبة زينب الملقبة بشهادة ابنة الابري ، وعنها اخذ امين الدين ياقوت ، وعنه اخذ ولي العجمي ، وعليه كتب العفيف ، وعن العفيف اخذ ولده الشيخ عماد الدين ، ويقال ، انه كان كابن البواب في زمانه ، عن الشيخ الدين بن العفيف اخذ الشيخ شمس الدين بن ابي رقيقة محتسب الفسطاط ، .. واخذ عنه الشيخ شمس وصنف مختصرا في قلم الثلث مع قواعد ضمها اليه في صنعة الكتاب ، احسن فيه الصنيع ، وبه تخرج الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الاثاري محتسب مصر ، ونظم في صنعه الخط الفيه وسمها بـ (العناية الربانية في الطريقة الشعبانية) ، لم يسبق الى مثلها ، ثم توجه بعد ذلك الى مكة ، ثم الى اليمن والهند ثم عاد الى مكة فاقام بها ونبغ (٩) .

نستخلص من العرض اعلاه ان مناخ بغداد كان ظرفا مناسباً مما جعل الخط يتطور ويجود وتتغير اوضاعه وتصبح له اشكال خضعت الى قواعد ومقاييس كانت الاساس المتين لهذا الفن الرفيع .

(اللوحات التالية تمثل انواع الخطوط العربية في العصر العباسي والتي جودها الخطاطون الاوائل عبر العصور) .

ابن مقلدة هندس الحروف العربية وقدر مقاييسها

ولد ابو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلدة

(١٠) وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بفسداد المعاصرين (ص ١١٠) .

(١١) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ١٤) .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(١٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥ .

(١٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٧) الفلشندي : صبح الاعشى (١٣/٣) .

د. سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ٤٥) .

(٨) الفلشندي : صبح الاعشى (١٣/٣) .

(٩) المصدر السابق (١٤/٣) .

الالف : هي شكل مركب في خط منتصب ، يجب ان يكون مستقيما غير مائل الى استلقاء ولا انكباب : قال : وليست مناسبة لحرف في طول ولا قصر .

الباء : هي شكل مركب من خطين : منتصب ومنسطح . قال ونسبته الى الالف بالمساواة ثم قال وهذا الحرف وما يجري مجراه من يمنة الى يسره ، وكل ما كان كذلك فينبغي ان يمال القلم فيه نحو اليسرة قليلا . ولا يخفى ان التاء والتاء في معنى الباء في ذلك جميعه .

الجيم : هي شكل مركب من خطين : منكب ونصف دائرة ، وقطرها مساو للالف .

وقال ايضا : واعتبار صحتها ان نخط عن يمينها وشمالها خطين فلا تنقص عنهما شيئا سيرا ولا تخرج . ولا يخفى ان الحاء والخاء في معنى الجيم من جميع ما تقدم .

الدال : هي شكل مركب من خطين : منكب ومنسطح مجموعهما مساو للالف وقال ايضا : واعتبار صحتها ان نصل طرفيها بخط فنجدده مثلثا متساوي الاضلاع .

ولا يخفى ان الدال في معنى ما تقدم .

الراء : وهي شكل مركب في خط مقوس هو ربع الدائرة التي قطرها الالف وفي راسه سنه مقدرة في الفكر .

وقال ايضا : واعتبار صحتها ان تصلها بمثلها فتصير نصف دائرة . ولا يخفى ان الزاي في معناها .

السين : وهو شكل مركب في خمسة خطوط : منتصب ، ومقوس ، ومنتصب ، ومقوس ومنتصب .

وقال ايضا : واعتبار صحتها يعني صحة راسها ان تمر بأعلىها وأسفلها خطين فلا تخرج عنهما ولا تنقص .

ولا يخفى ان حكم الشين ايضا كذلك .

الصاد : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوس ، ومنسطح ومقوس وقال : اعتبار صحتها ان يكون راس النون مشرفا على اخرها . ولا يخفى ان الصاد كذلك .

الطاء : قال ابن عبدالسلام : هو شكل مركب من ثلاثة خطوط : منتصب ، ومقوس ، ومنسطح يبدأ اوله بنقطة واخره بنقطة . قال : ومساحة ضوء الطاء في الطول كثلي الف خطه .

قال ابن مقلة : واعتبارها كاعتبار (الصاد) وقال ابن عبدالسلام : اعتبار صحتها ان يكون المنتصب كالف في خطه في الانتصاب والطول ، والمقوس كراء معلقة ، والمنسطح كباء مرسله . ولا يخفى ان حكم الطاء في ذلك كالطاء .

العين : وهي شكل مركب من خطين : مقوس ومنسطح ، احدهما نصف دائرة .

قال : واعتبار صحتها كاعتبار الجيم . ولا يخفى ان العين في الحكم كذلك .

الفاء : هي شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومستلق ومنتصب ومنسطح .

وقال : واعتبار صحتها ان نصل بالخط الثاني منها خطا فيصير مثلثا قائم الزاوية .

القاف : هو شكل مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومستلق ، ومقوس .

وقال : واعتبار صحتها كاعتبار النون ، وسيأتي ذكره .

الكاف : شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومنسطح ، ومنتصب ومنسطح .

قال : واعتبار صحتها ان ينفصل منها بءان :

قال ابن عبدالسلام : يعني مستقيمة ومقلوبة .

اللام : هي شكل مركب من خطين : منتصب ، ومنسطح .

قال : اعتبار صحتها ان تخرج من اولها الى اخرها خطا يماس الطرفين فيصير مثلثا قائم الزاوية .

قال : وتكتب على الانواع الثلاثة التي تكتب عليها الباء .

الميم : هي شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومستلق ، ومنسطح ومقوس .

وقال : واعتبارها كاعتبار الهاء . وسيأتي .

ابن البواب بين الصياغة والقاعدة

الاستاذ علي بن هلال ، بغدادي ، اشتهر باسم « علاء الدين بن البواب » وكنى بابي الحسن . وكان ابوه يعرف بابن سري ، وكان في دولة آل بويه بوابا عند ملوكهم .

توفي في بغداد سنة ٤٢٣ هـ ودفن بجوار الامام بن حنبل (على ما رواه ابن خلكان) .

كان علي بن هلال يحفظ القرآن الكريم ، وقد اخذ الخط في حديثه من محمد بن اسد ، ثم من محمد بن السمساني صاحب محمد بن اسد وتلميذه علي قوله ، ثم جمع خطوط محمد بن مقله في النسخ والتثالث اللذين قلبهما من الخط الكوفي ، واذهبها ، ونفحها ، وصححها ، وروجها ، فاستقام بفضلها اسلوب بن مقله في كل الوجوه ، وخلص اسمه ونال شهرة عظيمة باقية الى يوم الدين ، حتى اطلق عليه لقب « الناقل الاول » . ولكن الحقيقة ان ابن مقله ليس هو الناقل الاول ، وانما الناقل ابن ابي طالب علي ما اوضح ذلك « مستقيم زاده » في بحثه في محمد بن الحسن بن مقله (١٧) .

ولقد نشأ ابن البواب محبا لفن الخط العربي وما اليه بكلته وكان في شبابه مزوقا يشغل بتصوير الدور والكتب والدواوين ثم تعشق فن الخط والتمتع نبوغه . واتقن قاعدة ابن مقله ثم جودها وحسنها وابدع في اوضاع الحروف العربية وابعادها (١٨) ومن اعظم اعمال ابن البواب وسبب شهرته انه اكمل اسلوب الكتابة الذي ابتداه قبل قرن من الزمان الوزير ابن مقله .

وهو الذي وضع المقوقات الفنية التي كان الخط المنسوب لابن مقله بحاجة اليها وقد كان ابن البواب فنانا بالفطرة وله نظرة فنية وهذا يبدو جليا في انتظام وحركة خطوط الاقواس العظيمة التي انشاها ويمكن ان ندعوه حقا مؤلف الخط المنسوب المنسجم دون منازع ودون الحاجة ان نخلط معه ابن مقله او تذهب بعيدا الى اصل من بدأ بهذا الخط (١٩) .

وقد نظم علي بن هلال قصيدة رائية جلية ضمنها قواعد الخط ، وشرحها كثير من العلماء ،

(١٧) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي ، ص ٦ - ٧ .

(١٨) الخطاط وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين (ص ١١٥) .

(١٩) سهيلة ياسين الجبوري : الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق ، ص ٧٥ - ٧٦ .

النون : هو شكل مركب في خط مقوس ، هو نصف الدائرة وفيه سنة مقدرة في الفكر .

وقال : واعتبار صحتها ان يوصل بها مثلها فتكون دائرة .

الهاء : شكل مركب في ثلاثة خطوط : منكب ، ومنتصب ، ومقوس .

قال : واعتبار صحتها ان تجعلها مربعة الزاويتين السفلاوين .

الواو : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : مستلق ، ومنكب ، ومقوس .

اللام الف : (قال ابن عبد السلام) : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومنسطح مستقيم ، ومستلق ، طول المنكب كطول الف من قلم الكتابة وطول المنسطح كثلثي الف الكتابة ، وطول المستلق كطول الف الكتابة ، تبدأ أول المنكب بنقطة ، وكذلك المستلقي .

قال : ومنها نوع اخر مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومستدير يقارب الف ، ومستلق يقابل طرفه المنكب .

الياء : شكل مركب من ثلاثة خطوط : مستلق ، ومنكب ، ومقوس .

قال : واعتبارها كاعتبار الواو (١٥) .

ويتضح لنا : (ان للحروف العربية حيوية شديدة ناشئة من مطاوعتها واستدارتها وانبنائها جميعا ، على اصل هندسي ثابت وقاعدة رياضية معروفة ، فاصل الحروف العربية « الالف » التي هي خط مستقيم جعلوه قطر الدائرة ، اما بقية الحروف فهي اجزاء من الدائرة المحيطة بهذا القطر منسوبة اليه ، او اعيدت الى التسطيح وازيل تقوسها لكانت كلها من الالف بنسبة معينة ثابتة) .

لكل حرف من حروف العربية هندسته الخاصة ، والحروف كلها باجزائها وطلبتها مردودة الى نسبة ثابتة ، عرفت بالنسبة الفاضلة (١٦) .

(١٥) القلقشندي : صبح الاعشى (٢٢/٢ - ٢٤) .

(١٦) محمود شكر الجبوري : نشأة الخط العربي وتطوره ، ص ١٢ .

لأنها تشتمل على قواعد علم الخط . وقد ذكرها ابن خلدون في تاريخه ، وعدتها ثمانية وعشرون بيتا ومطلعها :

يا من يريد اجازة التحرير

ويروم حسن الخط والتصوير

وعد أكبر كتاب الخط بعد ابن مقلة ، لأنه - في حقيقة الامر - استطاع ان يقلب الخط على وجه يسترعي الانتباه ، وان يستنبط منه اسلوب التث والتسخ ، ويعلو بهما الى مرتقى رفيع من الكمال .

وتدرج خط علي بن هلال في مدارج على مر الايام ، وارتقى كثيرا من بعد على يد ياقوت المستعصي . لكن الفرع الذي استمر الى القرن الخامس عشر في مصر ، متبعا لطريقة علي ابن هلال اتباعا تاما ، لم يستطع في استمراره ان يبلغ مرتبة مدرسه (٢٠) .

والخطاط العظيم ابن البواب ، قد ارسى قواعد الخط العربي ، وهذب حروفه ، واجاد في تراكيب السطور ، وبقيت قاعدته ثابتة الى اليوم ، ولم يصل الى مرتبته أحد ، حتى برز الخطاط البغدادي ياقوت المستعصي فجود طريقة ابن البواب وحثها ، وهذبها في القرن السابع الهجري (٢١) .

ياقوت المستعصي قبله الكتاب

هو ابو الدر جمال الدين ياقوت المستعصي الرومي الكاتب . اشتراه الخليفة العباسي المستعصم بالله وهو آخر الخلفاء العباسيين . ونشأ ياقوت في دار الخلافة ، (واصل ياقوت رومي وكان من مماليك المستعصم فأنسب اليه . تميز بالادب ، والشعر ، وجودة الخط . وهو آخر من انتهت رئاسة الخط المنسوب اليه) .

اعتنى بتعليمه فنون الخط الشيخ صفى الدين عبدالمؤمن احد فقهاء المدرسة المستنصرية واشهر كتاب زمانه .

وقد عشق ياقوت فنون الخط العربي منذ صباه ، حتى برع فيه ، وظهر من الماهرة ما جعله في مصاف عظماء الخطاطين . وبقي ياقوت يتحلى خطوط الائمة المجودين ممن سبقوه في هذا المضمار

(٢٠) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي ، ص ٨ .

(٢١) الخطاط وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ص ١٢٢ .

حتى بلغ الغاية في حسن الخط ، وضبط قواعده واصوله وفاق ابن البواب في جمال الخط وحسن تنسيقه والابداع في تراكيبه فلقب بـ (قبله الكتاب) وتصدر ياقوت لتعليم فنون الخط ، وبلغت شهرته الافاق وقصده الناس ، وبالغوا في اقتناء خطوطه (٢٢) .

كان ياقوت المستعصي خازنا بدار الكتب في المدرسة المستنصرية باشراف المؤرخ الكبير ابن الفوطي .

وقد افاد ياقوت من دار الكتب كثيرا ، وكان يجتمع بالادباء والعلماء والشعراء والوزراء ، فعرفوا فضله ، وقدروا فنه ، ونال رعايتهم وتشجيعهم ، حتى بلغ القمة وترجع على عرش الخط العربي ، وصار مضرب المثل في حسن الخط .

حتى كان الناس اذا استحسنا خطا قالوا : خط ياقوتي . وبرع في تجويد الخط كثيرا وهذب اوضاع الحروف ، وحوار في انكباب واستلقاء بعضها ، وصارت مدرسة بغداد الخطية هي السائدة في العالم الاسلامي بفضل جهوده حيث سعى الخطاطون في الافاق يقلدون خطوطه ويمشقون على قاعدته التي لا تزال الى يومنا هذا تمتاز بخصائصها عن المدرسة العثمانية التي اعقبتها . وعند سقوط بغداد على يد هولاء ، عزل ياقوت عن خزانة كتب المستنصرية وفوض امر خزائن الكتب الى موفق الدين ابن ابي الحديد واخيه عز الدين (٢٣) .

ويقال انه انتقل الى المدرسة المستنصرية قبل احتلال بغداد . . واخذ يقرأ ويتعلم وينهل من العلوم والكتب الموجودة فيها تارة يدرس اللغة العربية ويتعرف على اسرارها وقواعدها وتارة يتعلم اصول الخط .

ويقال ان هذه المدرسة لم يصلها الدمار مثل ما اصاب الامكنة الاخرى . ولم تعطل فيها الدراسة الالمدة وجيزة من الزمن (٢٤) .

وقال فيه صاحب كتاب الاعلام باللغة الفارسية (ان في يده سرا من اسرار الله) (٢٥)

(٢٢) المصدر السابق : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ، ص ١٣٢ - ١٢٤ .

(٢٣) المصدر السابق نفسه : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ، ص ١٢٦ .

(٢٤) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ص ٤٢ .

(٢٥) شمس الدين سامي : قاموس الاعلام ، ٤٧٨٦/٦ .

فسخر كل طاقاته وملكانه بالابداع بالخط وبالغ
برخرفته ، واصبحت تلك الوسيلة التي كتبت بها
آيات القرآن الكريم فنا رفيعا ، وبالخط العربي
كتبت مؤلفات ائمة المفكرين المسلمين ، وعد هذا
الفن من اسمى الفنون العربية والاسلامية .

والمتمعن لتطور الحروف وتجويدها يجد
بفите بيد الكتاب الاوائل النابغين الذين عسوا
بتحسينه والابداع به .

وفي بغداد هندست الحروف العربية وقدرت
مقاييسها واجيد تحريرها على يد ابن مقلة وابن
البواب وياقوت المستعصمي وهؤلاء الرواد جهابذة
الخط سعوا الى نشر قواعده واشاعته في مشارق
الارض ومغاربها . وشغف الناس بتعلمها والاحتفاظ
بالمخطوطات النادرة الثمينة . وضمت المكتبات منها
ما حوت من العلوم والفنون نماذج منها كانت رائعة
وجميلة شكلا ومضمونا .

وكان ياقوت المستعصمي يكتب على طريقة
ابن البواب الخطاط الا انه قطع راس قصب
الطيب (الريشة) بصورة مائلة ونتيجة لذلك
كان خطه رفيعا من جهة وغليظا من جهة اخرى
وبهذا اصبح اكثر اناقة (٢٦) .

الخلاصة

يرى المتتبع لتطور الخط اهتمام
الكتاب به باعتباره الوسيلة التي كتبت به آيات
القرآن الكريم . وبرزت أهمية تجويد الكتابة
والعناية بها لقدسيتها ومكانتها العظيمة عند
المسلمين . وليس من شك ان الفنان المسلم ابتعد
عن رسم كل ما فيه روح ، نبع ذلك من عقيدته ،

(٢٦) سهيلة ياسين الجبوري : الخط العربي وتطوره في
العصور العباسية في العراق ، ص ٦٤ .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم اسلامی

مَقَامَتِي فِي قَوَاعِدِ بَغْدَادَ

في الدولة العباسية

تأليف : ظهير الدين الكازروني (ت : ٦٩٧هـ = ١٢٩٨م)

تحقيق

كوركيس عواد وميخائيل عواد

تمهيد :

- ٣ - صفة عمل الجبن المقلوب وغير ذلك (تمة الورقة ٤٦) .
- ٤ - رسالة في تفسير قول النبي : تفرق امتي على ثلاث وسبعين فرقة (الورقة ٨٩ - ١٩٧) .
- ٥ - نبذة من تذكرة الكحالين (٢) (الورقة ٩٧) .
- ٦ - فصل في معرفة صوم النصارى (الورقة ١٠٣ - ١٠٥) .
- ٧ - من كلام ما شاء (٤) الله (الورقة ١٠٥ ب) .
- ٨ - دلائل الشهور الرومية والعربية : جمّمع الحسن بن البهلول الكاتب النصراني (٥) . تاريخ النسخة ٦٧٩هـ = ١٢٨٠م (الورقة ١١٣ - ١١٣٧) .
- ٩ - من كتاب الموالي : لابن أبي الخصيب الكاتب (الورقة ١٣٧ ب) .

في خزانة كتب السلطان محمد الفاتح بجامع السلمانية في استانبول ، مجموع خطي نفيس كبير ، برقم ١٥٤١١ (١) ، كتب بخطوط مختلفة وأزمنة متفاوتة ، يرقى بعضها الى المئة السابعة للهجرة . ولعل تلك الاعلاق كانت متفرقة متبعثرة ، حتى عمد بعضهم في زمن مجهول لدينا ، الى جمّع شملها بين دفتي هذا المجلّد .

وفي ما يأتي ثبت بأجل ما ينطوي عليه هذا المجموع من كتب ورسائل ونبذ (٢) :

- ١ - كتاب مفرّج النفس : لشرف الدين أبي نصر محمد بن عمر بن أبي الفتوح البغدادي ثمّ المارديني المعروف بابن المراه . تاريخ النسخة ٦٨٨هـ = ١٢٨٩م (الورقة ١ - ٣٣) .

- ٢ - مقامة أنشأها ظهير الدين أبو الحسن علي بن محمد الكازروني ، في قواعد بغداد في الدولة العباسية (الورقة ٣٥ - ٤٦) .

- (٣) تذكرة الكحالين : من أشهر كتب التراث العربي في طب العيون . ألفها علي بن عيسى الكحال ، المتوفى سنة ٤٣٠هـ = ١٠٣٩م .

- (٤) وقد طبعت في حيدر اباد سنة ١٩٦٤ ، في ٤٠٠ ص . هو المنجم اليهودي ما شاء الله ، كان في زمن المنصور وعاش الى أيام المأمون . ترجمته في (« الفهرست » لابن النديم ، ص ٢٧٣ ؛ طبعة ليبسك) ، (« اخبار الحكماء » للقفطي ، ص ٣٢٧ ؛ طبعة ليبسك) ، (« تاريخ مختصر الدول » لابن العبري ، ص ٢٤٨) .

- (٥) من أهل المئة الرابعة للهجرة (= العاشرة م) . وهو صاحب « المعجم السرياني » الذي طبع في باريس .

- (١) صور بعضه بالمكروفلم ، صديقنا المرحوم يوسف يعقوب مسكوني ، وقد وقفنا على ما صورته ، فاذا به ينتهي عند الورقة ١٧٢ من المخطوط .

- (٢) أشار مؤلف « فهرست خزانة فاتح » الى ثلاثة تأليف فقط مما يحتويه هذا المجموع الخطي الواسع ، وهي ذوات الأرقام ١ و ٦ و ٨ . أما الباقي وهي ١٨ مؤلفاً ، فقد أغفل ذكرها .

٢١- نبذة في كيفية الأذان عند الشيعة (الورقة ١١٧٢) .

المخطوط الذي ننشره :

يتضح من هذا السرد ، أن المخطوط الذي ننشره اليوم ، هو ثاني ما في هذه المجموعة ، وقوامه إحدى عشرة ورقة ، تقع في هذا المجموع بين الورقة ٣٥ و ٤٦ على ما أسلفنا .

وكان معهد المخطوطات العربية في القاهرة ، قد صَوَّر هذه « المقامة » في جملة ما صَوَّره من مخطوطات خزائن كتب استانبول (١١) .

وخط هذه « المقامة » فيما يبدو ، من خطوط المئة الثامنة للهجرة ، وهو ، على ما يراه القارئ في النماذج المنشورة هنا ، من المخطوط الوعرة التي تصعب قراءتها . ذلك أن النسخ ، ولم يرد لإسمه ذِكر في المخطوط ، قد اغفل تنقيط بعض الحروف المعجمة ، كما وقع له في أثناء النقل تصحيفات تباينت في مواطن مختلفة منها .

تنطوي هذه المخطوطة على « مقامة » أدبية تاريخية عمرانية ، تتناول بالوصف مدينة بغداد في أواخر أيامها العباسية ، ويُعيد سقوطها بأيدي الفول .

أَنشأ هذه « المقامة » ظهير الدين الكازروني البغدادي الشافعي ، أحد علماء المئة السابعة للهجرة . وسيأتي الكلام عليه .

ونسخة هذه « المقامة » فيما بدأ لنا ، فريدة لا يُعرف لها نظير . فهي أكثر ألف يحسن إحياءه بالتحقيق والنشر .

وقد سبق لنا أن حققنا هذه « المقامة » ، سنة ١٩٦٢ ، بمناسبة إحتفالات بغداد والكندي . ونَشَرَتها حينذاك « وزارة الإرشاد » . ولكن نُسَخها المطبوعة لم يتم توزيعها يومئذٍ لأسباب لا محلّ لذكرها ، فبقيت مطمورة . وهذا ما حدا بنا إلى إعادة تحقيقها وإخراجها اليوم بهذا الوجه الجديد ، على صفحات مجلة « المورد » الزاهرة .

(١١) راجع في ذلك : « فهرست المخطوطات المصورة » الجزء الأول . لفؤاد سيد . القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٢١ ؛ الرقم ٧٩٩ .

وانظر : « تاريخ الأدب العربي في العراق » لعباس الغزالي ١ [بغداد ١٩٦١] ص ٢٦١ .

١- رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي في أحداث الجوّ (٦) (الورقة ١١٤٨ - ١٤٩ ب) .

١١- كلام لابن وحشيبة (٧) (الورقة ١٥٠ - ١٥٤ ب) .

١٢- فَصَّل في معرفة أعياد اليهود (الورقة ١٥٤ - ١٥٨ ب) .

١٣- فَصَّل في شرح أعياد اليهود (الورقة ١٥٨ ب - ١٥٩ ب) .

١٤- فَصَّل في صفة الأرغنون (٨) (الورقة ١١٦٠ - ١١٦١ ب) .

١٥- آلات الروم [الموسيقية] (الورقة ١١٦٣ ب) .

١٦- صفة عمل بَرّ شَعَثَا (٩) : ترجمة الحكيم أبي البركات أُوحد الزمان (٩) . منقول من السرياني . (الورقة ١٦٣ ب) .

١٧- فائدة في معنى لفظة « العراق » (الورقة ١٦٤ ب) .

١٨- تقويم فلكي (الورقة ١٦٥ ب) .

١٩- في تأثيرات الكواكب وحلولها البروج (الورقة ١٦٧ ب - ١٧٠ ب) .

٢٠- الحكيم والأمثال (قصيدة نونية) لأبي الفتح علي بن محمد البُسْتي (١٠) (الورقة ١٧٠ ب - ١٧٢ ب) .

(٦) حققها ونشرها : يوسف يعقوب مسكوني (بغداد ١٩٦٥) .

(٧) هو أبو بكر أحمد بن علي ، المعروف بابن وحشية الكلداني ، العالم العراقي بالفلاحة ، المتوفى سنة ٢٩٦هـ = ٩٠٩م . له تصانيف كثيرة في الزراعة والكيمياء ، أشهرها كتاب « الفلاحة النبطية » في أجزاء . ولم يطبع . وقد نشر عادل أبو النصر ، خلاصته في بيروت .

(٨) آلة موسيقية قديمة . تعرف اليوم ب (الأرغن) .

(٩) لفظة سريانية بمعنى « ابن الساعة » ويراد به الدواء الذي يفعل فعله في ساعته . ونظير هذه اللفظة ما اتخذهُ أبو بكر الرازي عنواناً لأحد تأليفه وهو « برء الساعة » . راجع : « تذكرة داود الأنطاكي » ١ : ١٠١ - ١٠٢ ؛ بولاق ١٢٨٨هـ) .

(٩) هو أبو البركات أُوحد الزمان بن ملكا (أو : ملكان) ، الطبيب الفيلسوف العراقي ، ت ٥٤٧هـ = ١١٥٢م ، مؤلف كتاب « المعتبر » وغيره من التصانيف . راجع ترجمته في « تاريخ حكماء الإسلام » للبيهقي . تحقيق : محمد كرد علي (دمشق ١٩٤٦ ؛ ص ١٥٢ - ١٥٤) .

(١٠) توفي سنة ٤٠١هـ = ١٠١٠م . له ديوان شعر . حققه : د. محمد مرسي الخولي . وسينشر قريباً .

المقامات البغدادية :

ولنا أن ننوّه بأنّ غير واحد من منشئي المقامات ، قد افرد مقاماً اسمها بـ « المقامة البغدادية » ، من ذلك :

انّ المقامة الثانية عشرة من مقامات بديع الزمان الهمداني (المتوفى سنة ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م) ، عُرِفَتْ بِـ « البغدادية » .

وانّ المقامة الثالثة عشرة من مقامات الحريري (المتوفى سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) ، عُرِفَتْ ايضاً بِـ « البغدادية » .

وانّ المقامة الاولى من المقامات الزينية لابن الصيّقل الجزري (المتوفى سنة ٧٠١ هـ = ١٣٠١ م) ، عُرِفَتْ بِـ « البغدادية » ايضاً .

وقد خصّ الشيخ ناصيف اليازجي (المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ = ١٨٧١ م) ، بغداد ، بالمقامة الثامنة من مقاماته الموسومة بِـ « مجمع البحرين » .

وافرد الشيخ عبدالله بن مصطفى الفيضي الموصلّي (كان حيّاً سنة ١٢٩٣ هـ = ١٨٧٦ م) مقاماً بعنوان « المقامة البغدادية » . لم تُطْبِعْ منها نسخة لدى حفيده نشأة الفيضي في الموصل . ذكرها الدكتور داود الحلبي (« مخطوطات الموصل » ص ٢٩٩ ؛ الرقم ١٥) .

المؤلف :

١ - مراجع ترجمته :

في كثير من المؤلّفات القديمة والحديثة ، ذكّر " لظهر الدين الكازروني . وقد رجعنا إليها ومَحَصَّنّاها ، فاذا بترجمته واخباره في جميعها محدودة ضيّقة النطاق لا تتعدى في جملتها كلمات معدودات .

وفي ما يأتي ثبت بهذه المراجع ، وقد رتبناها فيه وفق السياق الهجائي لعنواناتها :

الاعلام : لخيراندين الزركلي (٥ : ١٥٥) .
إيضاح المكنون في الدليل على كشف الظنون :
لاسماعيل باشا البغدادي . (١ : ٣٢٨ ؛ ٢ : ٧١٤ - ٧١٥) .

تاريخ الادب العربي في العراق : لعباس العزّاوي (١ : ٣٥ - ٣٦ ، ٩١ ، ٢٦١ ، ٢٦٧) .

تاريخ العراق بين احتلالين : لعباس العزّاوي (١ : ٣٤١ ، ٣٨٠ ، ٤٣٣ ؛ ٢ : ٦٨) .

تاريخ علم الفلك في العراق : لعباس العزّاوي (ص ٦٧ - ٦٨) .

التعريف بالمؤرّخين : لعباس العزّاوي (١ : ١٢٧ - ١٢٩) .

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة (١٢) : لابن الفوطي (ص ٤٩٧) .

الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة : لابن حجر العسقلاني (٣ : ١١٩) .

دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً : للدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسه (ص ٢٢٦ ، ٣٢٣) .

طبقات الشافعية الكبرى : للسكي (٦ : ٢٤٢) .

غاية الإختصار في اخبار البيوتات العلوية المحفوظة من القبار ، المنسوب الى ابن زهرة الحسيني الحلبي (بولاق ١٣٠٩ هـ ، ص ١٢) .

فهرس المخطوطات المصورة في معهد المخطوطات العربية : لفؤاد سيّد . (١ : ٥٣١ ؛ ٢ : [التاريخ : القسم الثاني] ص ١٣٤) .

كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة . (١ : ٩٢٣ ؛ ٢ : ١٠١٣ ، ١٩٢٣ ، طبعة استانبول الثانية) .

مختصر التاريخ للكاظمي ، تحقيق : د . مصطفى جواد . (مقدّمة المحقّق . ص ٣ - ٢٢) .
اسمه ونسبه - مذهبه - ولادته وثقافته - وفاته . مؤلّفاته .

معجم المؤلّفين : لعمر رضا كحّالة (٧ : ٢٣٢) .

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي : لابن تفرّي بردي :

عمد المستشرق الآثاري جاستون قبيّت ، الى

(١٢) نشره الدكتور مصطفى جواد ، في بغداد سنة ١٣٥١ هـ .
وقد ذهب حينذاك الى انه لابن الفوطي (المتوفى سنة ٧٢٣ هـ) . ثم تحقّق له بعد ذلك ان كلا العنوان والمؤلف غير ثابت لديه .

محمود بن أبي العزّ بن أحمد بن إسحاق بن إبراهيم الكازروني^(١٢) ، ثمّ البغدادي ، الشافعي .

وُلد سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م) . وسمع الحديث من الأمير أبي محمد الحسن بن عليّ ابن المرتضى ، وأبي عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الديبشي الواسطي (المتوفى سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م) وغيرهما .

كان الكازروني من رجال العصر الفولفي في العراق ، من أهل بغداد . خدم الديوان في الأعمال الجليلة . وكتب خطاً جيداً .

كان مؤرخاً ، حَسْبُوباً ، فَرَصِيّاً ، لغوياً ، فقيهاً ، شاعراً . قال السبكي : له شعر حسن . واورد له ابن حجر العسقلاني هذين البيتين :

زارني في الظلام اهيف كالبدر
بوجهٍ منه يلوح النور
قلتُ أهلاً لو كنتَ زرتَ نهراً

قال مهلاً في الليل تبدو البدور
لقد كان الكازروني شيخ ابن الفوطي المؤرخ البغدادي الشهير (المتوفى سنة ٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م) ، وليس بمستبعد أن يكون ابن الفوطي قد خَصَّ استاذَه بترجمة في كتابه الموسوم بـ « تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب » . ولكن الجزء الذي فيه حرف « الظاء » ضائع لا يُعرف له وجود اليوم .

ويؤخذ من ترجمة حياة البرزالي المؤرخ الشهير ، أن الكازروني كان قد أجازَه بإجازة علمية^(١٤) .

ولنا أن تقول أن مؤلف « الحوادث الجامعة » كثيراً ما ينقل عن تاريخ الكازروني ومثله الذهبي^(١٥) .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاة الكازروني ، على ما سبقت الإشارة إليه . ولكن أغلب الروايات تقول أنه توفي سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) .

(١٢) نسبة إلى كازرون . بفتح الزاي وضم الراء . مدينة في إيران في غرب شيراز .

(١٤) عباس الغزالي : مؤرخ الشام أو البرزالي وتاريخه : (« مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق » ٢٠ [١٩٤٥] ص ٢١) .

(١٥) (« تاريخ العراق بين احتلالين » ١ : ٢٨٠) ، و (« التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٨) .

وَصُغَّ فهرس شامل بأسماء المترجمين فيه ، ونشره بالفرنسية - في القاهرة سنة ١٩٣٢ - بعنوان :

Wiet (Gaston) : Les Biographies des Manhal Safi.

وقد اشار (ص ٢٤٠ : الرقم ١٦٣٩) إلى ورود ترجمة الكازروني في هذا الكتاب .

طُبِعَ الجزء الأول من « المنهل الصافي » : (القاهرة ١٩٥٦) وفيه تراجم من اسمه (إبراهيم ، وأحمد) فقط .

مؤرخ العراق ابن الفوطي : لمحمد رضا الشيببي (٢ : ٩٧) .

هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : لاسماعيل باشا البغدادي (١ : ٧١٥) .

* * *

وهناك مراجع مخطوطة ، نوهت بالكازروني ، لم يتسَنَ لنا الوقوف عليها . قال صاحب « الدرر الكامنة » في أثناء ترجمة الكازروني : « مات بعد السبعمئة فيما ذكره البرزالي . وقال الأدفوي : في ربيع الأول سنة ٦٩٧ . وقال الذهبي : كتب إليّ بمروياته سنة ٦٩٧ » .

ففي هذا الكلام دليل على أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة قد ذكروه في مؤلفاتهم .

أمّا المراجع الافرنجية الإستشراقية ، فإن نصيب الكازروني منها ، الإهمال والافغال . فهذا (بروكلمان) لم يذكر الكازروني بكلمة في كتابه « تاريخ الأدب العربي » ، لا في الأصل ولا في الذيل . ومثله « دائرة المعارف الإسلامية » .

٢ - ترجمته :

لم نجد المؤرخين القدامى والمحدثين الذين افردوا ترجمة لظهير الدين الكازروني ، من أطال القول في تلك الترجمة ، أو أسهب فيما كان عليه من مقام في العلم والأدب ، ومنزلة في المجتمع . وغاية ما ذكروه فيه كلمات معدودات ، على ما أسلفنا ، في وسعنا أن نجملها بما يأتي :

هو الشيخ ظهير الدين عليّ بن محمد بن

٣ - مؤلفاته :

إن كانت الخسارة بضالة وقوفنا على ترجمة الكازروني كبيرة ، فإن الخسارة بضياع مؤلفاته أدهى وأفدح من تلك ، ذلك أن مترجميه ذكروا له جملة مؤلفات لم ينته إلينا منها ، فيما نعلم سوى ثلاثة ، هي : هذه « المقامة » التي نشرها اليوم ، و « مختصر التاريخ » ، و « الإختيارات » . أما سائر مؤلفاته فقد امتدت إليها يد الضياع وأصبحنا لا نملك من أمرها أكثر من أسمائها .

وفي ما يأتي ثبت بهذه المؤلفات ، وقد رتبناها على السياق الهجائي :

١ - الإختيارات : في علم النجوم واختيار اوقات الأعمال والأفعال والحركات للإنسان :

جاء في (« الحوادث الجامعة » ص ٤٩٧) : أن الكازروني « عمل كتاباً في الإختيارات سلك فيه طريقة ابن حَرَاز في الإختيارات التي عملها لشرف الدين إقبال الشراي » (١٦) .

٢ - تاريخ المعدلين عند قاضي القضاة [سراج الدين] الهنيسي :

ذكره ابن الفوطي (« تلخيص معجم الألقاب » ج ٤ : القسم الأول ، ص ٢٢٩ ، ٢٦٦ ، ٦٥١) . ولا نعرف لهذا الكتاب نسخة مخطوطة في زماننا .

٣ - التذييل :

قال عباس العزاوي : « هذا الكتاب جاء ذيلاً على تاريخ العمراني في الدولة العباسية من أولها إلى أيام المستنجد بالله (١٧) . وهو تأليف الشيخ الثقة محمد بن علي بن محمد ابن العمراني ، ابتداء في الذيل في أول ولاية المستنجد ، وختمه بآخر إمامة المستعصم بالله (١٨) . عثرت على تاريخ العمراني (١٩) ولم أعثر على التذييل . وجاء ذكر الأصل والتذييل

(١٦) عنوان هذا الكتاب « الإختيارات الزمانية للأعمال الكلية » . وقد علمنا أن نسخة الأصل التي كتبت لخزانة الأمير إقبال الشراي . وهي نسخة خزانة نفيسة ، في مكتبة عثمان فوزي في استانبول . (١٧) دامت خلافته من ٥٥٥ هـ إلى ٥٦٦ هـ (١١٦٠ - ١١٧٠ م) . (١٨) دامت خلافته من ٦٤٠ هـ إلى ٦٥٦ هـ (١٢٤٢ - ١٢٥٨ م) . (١٩) عنوان هذا التاريخ : « الإنباء في تاريخ الخلفاء » . وقد حققه وقدم له : د. قاسم السامرائي (مطبعة بريل - لينن ١٩٧٣ ، ٣٦٧ + ١٥ ص) .

في كتابه (مختصر التاريخ) عند الكلام على خلافة الناصر لدين الله . فكان لإشارته قيمتها » . (٢٠) . وانظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد ، على (« مختصر التاريخ » ص ٢١ - ٢٢) .

٤ - التنزيلات (٢١) :

٥ - روضة الأريب (٢٢) :

في التاريخ (٢٣) : في سبعة عشر سفر (٢٤) . قال الدكتور مصطفى جواد ، في مقدمته على كتاب (« مختصر التاريخ » ص ١٨ - ١٩) : بصدد هذا الكتاب ، ما يأتي : « روضة الأريب ، بالراء كما جاء في كشف الظنون ، وتصحفت في أكثر الكتب الأخرى إلى (روضة الأديب) بالدال المهملة ... ، وهو كتاب في التاريخ جليل كبير ، لم نعثر إلا على نقول منه تدل على جزالة فوائده ... ، وطريقته كانت على حسب استمرار السنين » .

٦ - السيرة النبوية (٢٥) :

سمّاها صاحب (« هدية العارفين » ١ : (٧١٥) ب « الذروة العليا في سيرة المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم » . ولعل هذه « السيرة » من ضائعات الكتب .

٧ - كنز (٢٦) الحُساب في الحِساب :

في مجلد (٢٧) . ولا نعرف له نسخة خطية .

٨ - مختصر التاريخ : من أوّل الزمان إلى منتهى دولة بني العبّاس :

منه نسخة فريدة ، بخط قديم ، في خزانة

- (٢٠) (« التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٩) .
- (٢١) (« إيضاح المكنون » ١ : ٢٢٨) ، (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) .
- (٢٢) (« طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢) ، (« الدرر الكامنة » ٣ : ١١٩) .
- (٢٣) في (« كشف الظنون » ١ : ٩٢٣) : في التاريخ ، أي تاريخ بغداد .
- (٢٤) في (« كشف الظنون » ١ : ٢٨٨ و ٩٢٢) ، و « هدية العارفين » ١ : ٧١٥ : في سبعة وعشرين مجلداً .
- (٢٥) (« الدرر الكامنة » ٣ : ١١٩) ، (« الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسخاوي ، ص ٨٩) ، (« كشف الظنون » ٢ : ١٠١٣) .
- (٢٦) في (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) ، و « إيضاح المكنون » ٢ : ٧١٤ : تصحف اسمه إلى « وكسر الحساب » . وفي (« معجم المؤلفين » ٧ : ٢٢٢) : كسر ...
- (٢٧) (« الدرر الكامنة » ٣ : ١١٩) .

جار الله باستانبول برقم ١٩٢٥ ، كتبت سنة ٦٦٢ هـ ، مكتوب بأولها أنها بخط المؤلف . وهي في ٩٧ ورقة ، بحجم ١٤ × ١٨ سم . وعنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (٢٨) . وأخرى كانت في خزانة عباس العزاوي ببغداد . أوله بعد البسملة : ذكر مدة الزمان وما مضى منه . وآخره : وانقضت الدولة العباسية فسبحان من لا ينقضي ملكه ولا يزول سلطانه .

وقال عباس العزاوي فيه : « في سنة ١٩٣٩ ، وقفت عليه بخط مؤلفه . كتبه بعد سقوط الخلافة العباسية بنحو سبع سنين . وكنت أظن أن آثاره طمست ولم يبق ما يشير الى مكانته التاريخية . وفيه مطالب مهمة عن الآثار العراقية ، وتوضيح لمشاهدات في عمارات خيرية ، وكلام في الأسرة العباسية لا نجدها في غيره . فكان عظيماً في اختصاره وهو صفوة تاريخ العراق ، ومتن متين فيه ، يغني على اختصاره عن مطالعة أسفار . وهو زبدة التصانيف وروح المطالب . وهذا المؤرخ ممن له أصعب في الإدارة أو علاقة في الدولة ، ويستفاد من صحته نقله لبصره في شؤونها ، وكتب كما يريد ولم يكتب كما يراد » (٢٩) .

حقق هذا الكتاب الجليل وعلق عليه : الدكتور مصطفى جواد . ولكنه توفي قبل أن يطبع . فنشرته وزارة الإعلام . وقد وضع فهارسه وأشرف على طبعه : سالم الألوسي : (مطبعة الحكومة - بغداد ١٩٧٠ ؛ ٤٣٣ ص) .

(٢٨) « فهرست المخطوطات المصورة » : الجزء الثاني - القسم الثاني : لفؤاد سيد ، ص ١٣٤ : الفلم ٨٣٢ .
(٢٩) « التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٨ - ١٢٩ .

راجع بسانه ، ما كتبه :

د. قاسم السامرائي : « مجلة مجمع اللغة العربية » ٤٨ [دمشق ١٩٧٣] ص ٤١٢ - ٤٢٨ .

صبحي البصام : « مجلة مجمع اللغة العربية » ٤٩ [دمشق ١٩٧٤] ص ١٦٩ - ١٨١ .

٩ - مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية :

وهي هذه التي نشرها اليوم . ولم نجد بين المؤرخين الأقدمين من ذكرها .

١٠ - الملاحه في الفلاحه (٢٠) :

وهو من التصانيف الضائعة .

١١ - المنظومة الأسدية (٢١) :

في اللغة العربية . نظم فيها رسالة « أسماء الأسد » للصغاني .

١٢ - النبراس المضيء (٢٢) :

في اللغة .

(٣٠) « الدرر الكامنة » ٣ : ١١٩ ، « هدية العارفين » (٧١٥ : ١) .

(٣١) « طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢ ، « هدية العارفين » ١ : ٧١٥ ، « تاريخ الادب العربي في العراق » ١ : ٢٥ .

(٣٢) « طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢ ، « الدرر الكامنة » ٣ : ١١٩ ، « هدية العارفين » ١ : ٧١٥ . وفي « كشف الظنون » ٢ : ١٩٢٣ : « نبراس المفتي » . وهو وهم . وفي « الاعلام » للزركلي ، ٥ : ١٥٥ : « في فقه الشافعية » .

مقامة

أنشأها الشيخ العالم العدل ،
 ظهير الدين أبو الحسن علي بن محمد بن
 محمود بن الكازروني ، تغمدہ اللہ برحمته ،
 في قواعد بغداد في الدولة العباسية

بسم الله الرحمن الرحيم

• عليه توكلت •

حدثنا قاضي تبريز ، وهو من ثقات المحدثين وسادات المحدثين ، قال : كنت
 لا أريم^(٣٣) عن بلدي المألوف ولو رغبت بالألوف • وكنت ضنينا أن أفارق بلدة بتربتها
 نيطت علي التمام • إلا أنني كنت أسمع من جوارب الأقطار وطراق البلاد والأمصار ، أن
 دار السلام هي كعبة الاسلام وحرم الإمام ومعدن الكرام ودار الخلافة ومحل الأمن من المخافة •
 وبها مقر الملك وسريه وإمام العصر وأميره ، خليفة^(٣٤) الله وابن عم نبيه الأواه • تدعن
 الملوك بالطاعة لسلطانها ، وتتدأك^(٣٥) على أبوابه لتقبل أركانها • والعدل بها ممدود الرواق ،
 والعلم مديد الاطناب في الآفاق • والدين منشور اللواء ، والاسلام محروس الجناح بالخلفاء •
 وقطانها أعذب الناس أخلاقاً [٣٦ أ] وأكثرهم حياء واطراقا ، وأثقب العالم بصيرة ، وأعدلهم
 سيرة ، وأصفاهم سريرة ، وأدمتهم للصديق ، وأحناهم على الصاحب والرفيق • وزاهدتهم العلم
 المشهور ، والقذوة المشار إليه في الأمور • وعوامها السوقة تغتنم مفاكهم وتروق
 مجالسهم • أخلاقهم عذبة للصاحب ، وخواطرهم من أعجب العجائب • يسبق ادراكهم البرق
 اللامع ، ويدهش ذكاؤهم الرائي والسامع • قد اعتدل هواؤها ، وطاب فناؤها ، وعذب ماؤها ،
 ورقت أسجارها ، وورفت^(٣٦) أشجارها • فهم في خفض من العيش يتقلبون • « لهم دار
 السلام عند ربهم ، وهو وليهم بما كانوا يعملون »^(٣٧) •

(٣٣) المخطوط : لا ارم • والوجه ما في اعلاه •

(٣٤) المخطوط : وفيها خليفة •

(٣٥) المخطوط : وتتباك • يقال : تذاك عليه القوم بمعنى ازدحموا •

(٣٦) المخطوط : وزفت •

(٣٧) سورة الانعام • الآية ١٢٦ •

فخطر ببالي في بعض الليالي ، أن ألبس سربالي البالي وأفارق أشبالي ، وأجعل على الله
اتكالي ، في قطع فيافي البيداء ، ورفض الدعة للحث [٣٦ ب] الى الزوراء^(٣٨) . فرأيتُ في المنام
قائلاً أسمع نداءه ولا أتحقق مرآه ، ويملاً سمعي صوته وإن كنتُ لا أراه ، يقول :
يا عبدالله « فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »^(٣٩) .

فنهض بي عزمي لإجابة الداعي ، وقعد أطفالي ينتحبون لوداعي ، وأنا أعدُّ للرحلة
زادي ، وأملأ بالماء ، لبُعْد المسافة ، مزادي^(٤٠) . فلما اقتعدت راحتي وأنضيتها في قطع مسافتي ،
وافيتها بلدة خالية ، وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جاثمة^(٤١) ، وقصوراً خاوية ، وعراصا باكية .
قد رحل عنها سكانها ، وبان عنها قطّانها ، وتمزّقوا في البلاد ، ونزلوا بكلّ وادٍ . وقصورها
المشيّدة مهدومة ، ونعماؤها مسلوبة معدومة ، موحشة لفقد قطانها ، باكية بلسان الحال على
سكانها . عظام العظام بالية تسفي عليها الرياح السافية . « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ »^(٤٢) .
فوقفتُ أبكيها وأندب ربوعها ومن كان فيها .

[٣٧ أ] وأندب أطلالها تارة وأبكي على فرقة الظاعينا
فلو ذهبت مقلّة بالبكاء لفرط الغرام لكنّا عينا

وهناك شخص قد بصر بحالي وهو يذري^(٤٣) دمه لسماع ارتجالي . فقلتُ له :
ما جلاؤك فقد أعجبني حالك . فقال : إليك عنّي واذهب لسبيلك ودعني . فاني أتمتع بالبكاء
وأسح^(٤٤) الدمع على هذه الأصلاء ، وأقيم مأتم العزاء . فلو رأيتَ من هذه البلدة ما رأيتُ .
لأذريت معي الدمع ولأسمع بكاؤك الجمع . فقلتُ له : حدّثني كأني أشاهد ، وصف لي ما
كان بها من المشاهد . فقال : يتصدّع قلبك ويظير لسماع ذلك لبّك . وإذا شئت فاتبعني وحدث
عن نفسك ولا تروغني . فأسرعتُ خلفه أقص أثره ، حتّى وقف بي على عبرة ما^(٤٥) اعتبره .

(٣٨) من أسماء بغداد .

(٣٩) سورة آل عمران . الآية ١٥٨ .

(٤٠) المزاد : قرية الماء .

(٤١) المخطوط : جائلة .

(٤٢) سورة الحاقة . الآية ٧ .

(٤٣) أذرت العين دمعها : صبّته .

(٤٤) سح الدمع : نزل بغزارة .

(٤٥) المخطوط : من .

فرايتُ حرم الخلافة مهانا ، بعد أن كان كعبة وأمانا . فطاف [٣٧ ب] بي ببعض قصوره^(٤٦) واعتذر عن الباقي لقصوره ، وقال : يكفيك ما الملحك وأريك . هذا رواق^(٤٧) عزيز ، الرفيع البناء ، وهو سرير ملك الخلفاء ، ومحلّ أنس السادة الأمراء ، ومهبط الخول^(٤٨) والحشم ، ومقرّ الحور والخدم ، يسرح النظر منه في أنضر مقام ، وترتع العين منه في أبهى خليفة وإمام .

مقام عليه للنبوّة هية وفيه من الركن العتيق ملامح
يودّ بسيط الجوّ لو أنّه له بساط وانّ الشهب فيه طرائح^(٤٩)

كانت تبرز منه الأوامر الشريفة الى الديوان بعلم الخليفة ، تارة بجزيل الصلات ، وتارة بالمعروف وإقام الصلاة ، وتارة بالنهي عن المنكرات ، وتارة بالقصاص من أهل الجنيات ، وتارة الى الملوك بالتقدمات ، وتارة بالتخويف من التبعات . ترعد فرائص الملوك لورودها ، وينزل بها الرعب في صدورهم ، فتقابلها بالامثال [٣٨ أ] وامضاء مراسمها في الحال بعد التبرّك بها ، وامرارها على نواظرها . طوبى لمن كانت تصل إليه ، ويا حسرة من فاته ثقيلها^(٥٠) ، وواها لمن^(٥١) كان يصل الى هذا المقام أو يتمناه أو يبلغ درجة المثل به ، أو يراه . فذ تبدّل بعد الأنس بالكتابة ، حتى صار بهذه المثابة يستوقف بلسان حاله ، ويستبكي على تغيّر أحواله . فسبحان من له الدوام والبقاء والعظمة والكبرياء . « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّهُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّهُ مَنْ تَشَاءُ »^(٥٢) .

ثمّ قال : وهذا باب الحجّرة^(٥٣) الشريفة المشار إليه ، وعنده كانت تقف^(٥٤) دابة

(٤٦) راجع بشأن قصور دار الخلافة العباسية ببغداد ، ما كتبه : د. مصطفى جواد بعنوان « دار الخلافة العباسية : تعيين موضعها وأشهر مبانيها » : (« مجلّة المجمع العلمي العراقي » ١٢ [بغداد ١٩٦٥] ص ٩٨ - ١١٥) .

(٤٧) من أروقة دار الخلافة ببغداد . كان قائما في أواخر أيام الدولة العباسية ، وبعد انقراضها . راجع : مقالة « عثور الجدود على النقود » لكوركيس عواد : (« مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق » ٢٠ [١٩٤٥] ص ١٥٤ - ١٥٦) . وانظر (« دليل خارطة بغداد » ص ٢١٦ - ٢١٩) .

(٤٨) الخول ، محرّكة : جمع خولي . العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية .

(٤٩) المخطوط : طلايح . والطرائح جَمْعُ طرحة ، وهي ها هنا بمعنى الطيّلسان .

(٥٠) المخطوط : فضيلتها .

(٥١) المخطوط : وواها عليه من كان .

(٥٢) سورة آل عمران . الآية ٢٥ .

(٥٣) راجع (« معجم البلدان » ١ : ٤٤٤ ، طبعة وستنفلد . ليبسك ١٨٦٦ م) .

(٥٤) المخطوط : يقف .

النوبة والمعوّل من الأبواب عليه ، لأثّه باب أمّ الخليفة ، فلذلك فضلها . وعنده كان ينادي بالصلاة لكلّ فريضة افترضها . فلو سمعت ترجيع القراء به من الأذان واختلاف الأصوات [٣٨ ب] بضجيج الألحان ، لأنسيت مطربات القيّان . ولو عاينت وقوفهم بهذا المكان يودّون لو صافحوه بالأجفان ، لعلّمت موضع هيئته ، ولظهر^(٥٥) لك حقيقة حرّمته . ولكن أنت تشاهد الآن أصداء بالية وربوعاً خالية .

ثمّ استدبره وتعدّاه ومضى عنه وخلاه ، وأنا أتبع ظلّه أينما ذهب ، وأقفو^(٥٦) أثره لأنظر العجب .

فجنح الى بعض الأماكن ، وقال : وهذه دار الطبل ، ولكن أين الساكن ؟ كانت أهلة بالمبنيّين^(٥٧) ، عامرة بالساعاتيّة لإدراك وقت التّأذين . فاذا دخل وقت الصلاة ، ضربت النوبة في جميع الأوقات .

وهذه القصور التي تراها ، والنعمة الظاهر أثرها ، أين من بناها ؟ كانت الجهات^(٥٨) بها محمية الجانب الى أن حكم فيها الأجانب ، فاسترقوا كالإماء ، واستهينوا كالعبيد ، بعد الملك والثراء والنعيم والضوضاء والصيّبة [٣٩ أ] والعلاء والمنزلة الرفيعة العليا .

ثمّ هرول قدّامي وأنا أنقل خلفه أقدامي ، حتى خرج من الدار ، وقال قد وقفت على الآثار ،

(٥٥) المخطوط : وظهر .

(٥٦) المخطوط : واقفوا .

(٥٧) هم الذين إليهم النظر في البنكومات . والبنكومات آلات يقدر بها الزمان . وهي أصناف : رملية ، ومائية ، ودورية اي معمولة بدواليب يدير بعضها بعضاً . انظر : (« كشف الظنون » ١ : ٢٥٥ ؛ طبعة استانبول ١٩٤١) .

وراجع في هذا الشأن :

يوسف غنيمّة : « صناعات العراق في عهد العباسيين : البنكومات والآلات المتحرّكة » : (« مجلّة غرفة تجارة بغداد » ٤ [بغداد ١٩٤١ ج ٨ ؛ ص ٥٧٥] .

د. مصطفى جواد : « البنكومات والساعات المائية » : (مجلّة « العلم والحياة » بغداد - آذار ١٩٦٩) ، و (جريدة « الثورة » بغداد ٢٢ - ١٢ - ١٩٦٩ ، ع ٤٠٤ ، ص ٦) .

ولشمس الدين محمد بن عيسى بن أحمد الصوفي ، رسالة تقع في مقدّمة وخمسة أبواب وخاتمة ، عنوانها « الإعلام بشدّ البنكام » ألّفها سنة ٩٤٣ هـ = ١٥٣٦ م . ذكر فيها طريقة آلة الساعة من الرمل في القارورة . انظر : (« كشف الظنون » ١ : ١٢٧) . ومنها نسخة خطيّة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب من جامعة بغداد .

(٥٨) الجهات واحدها الجهة . وهي كناية عن المرأة السيدة الجليلة القدر . انظر : (« صبح الأعشى » للقلقشندي ٥ : ٥٠٢) ، و (« الألقاب الإسلامية » لحسن الباشا ، ص ٢٤٨) .

فقلت : بالذي حكم بما نحن فيه ! اجعلني ممن تصطفيه ، فقد أنست بصحبتك نهاري ،
ورحضت^(٥٩) فكاهتك تعبي وأفكاري . فقال : سمعاً لك وطاعة ، فقد وجب حقك في هذه
الساعة . فمن صحّ قصده إلينا وجب حقّه علينا ، وسأنكفئ بك إلى داري ، وأسهمك
درهمي وديناري . فشكرت له عن صالح ما نواه ، وقطعت أمني عمّن سواه . فلمّا صرت
معه إلى داره ، فصرّت^(٦٠) بوجهي إليه لاستماع أخباره . قلت له : غرضي ، حيث ند فاتني العيان
أن أعرف ما كانت عليه بغداد^(٦١) ، فابسط لي بالحديث ولا تبسّ^(٦٢) من قديم ولا حديث .
فقال : أمّا الدولة الإمامية فمن ينتهي إلى وصفها ؟ ، وكيف أبلغ إلى حقيقة نعتها ؟ . كانت
دار الوزراء ينزلها الأمراء ، لأنّها باب الخليفة الظاهر ، وإليها التقدّمات لشريف الأوامر .
والصدور تختلف إليها ، وتراجع الديوان فيما يعتص عليها [٣٩ ب] ، وحاجب المجلس بصد
إنفاذ التقدّمات وامضاء المراسم وإبرام المهمات . والحجّاب على اختلاف طبقاتهم بين يديه ،
[والنقباء في أماكنهم إلاّ أنّهم أهون عليه . فحجّاب المناطق^(٦٣) كالعراس في صدور
المجالس ، أو الأقمار في الليل الدامس ، والقيام قياماً لا يزالون ، والنقباء بعدهم في الخدمة
يقفون]^(٦٤) . والمركوب يقف عند ستر الباب الثاني على أجمل هيئة وأحسن معاني . وبعده
الدار الوسطى . وبها دست^(٦٥) الوزارة في الإيوان . وكاتب السلّة [ونوّاب الديوان
وكتّابه على صفّة وتجاههم عارض الجيوش ومسومها^(٦٦) على صفّة]^(٦٧) . وبوّاب العرض
في ذلك المكان ، كلّ منهم يختصّ بقطر منها ، وله مقام لا يحول عنها . والوزير منها بعد الستر

(٥٩) رحضت : غسلت .

(٦٠) من صار يصور : بمعنى أمال يميل .

(٦١) بغداد لغة في بغداد . وفي (« معجم البلدان » ١ : ٦٧٨) : سبع لغات وردت في اسم بغداد .

(٦٢) المخطوط : تبقي .

(٦٣) المناطق ، واحدها المنطقة : ما يشكّد في الوسط . وعنها يعبر أهل زماننا بـ « الحياصة » .

(٦٤) ما بين المربعين يعتوره غموض فيما نرى .

(٦٥) الدسّت . جمّعها : الدسّوت : لفظة معرّبة بمعنى الديوان ، ومجلس الوزارة . أو

ما يهيئاً لجلوس الخليفة أو الأمير أو الوزير أو كبار الناس .

راجع : (« رسوم دار الخلافة » لـهلال بن المحسن الصابئ . حققه وعلّق عليه ونشره :

ميخائيل عوّاد . مطبعة العاني - بغداد ١٩٦٤ ؛ ص ١٣) ، (« شفاء الغليل » للخفاجي ،

ص ٩٧ ؛ طبعة الوهبة - مصر ١٢٨٢ هـ) .

(٦٦) التسويم : التعليم ، أي وَضَعَ العلامات .

(٦٧) ما بين المربعين ورد في هامش الصفحة .

الثاني تحفّه ولدانه المعوذون بالثاني • فمن ورد من الصدور وذوي المراتب جلس الى أن يأذن له الحاجب • وإنّ قدم رسول ، تأهّبوا للخروج وجعلوا صدر الموكب من يليق بحاله للتسليم عليه حبراً^(٦٨) لمرسله وتشريقاً لمنفذه ومحمّله ، فيدخل والدعاة بين يديه والجاووشية^(٦٩) تصيح بالتطريق^(٧٠) ، والجاندارية^(٧١) الى جانبيه ، والمماليك في طريقه صفوفاً وعلى الخدمة عكوفاً [٤٠ أ] ، فاذا وصل باب النوبي^(٧٢) ، عضّدوه وفسحوا له فخطوه ، فصلّى به ركعتين ، وقبل مرة بعد مرتين ليحصل له بذلك كمال الدخول في طاعة الديوان والتشرف^(٧٣) بالمشول في ذلك المكان • ثمّ يحسّل الى دار خدمته وتدرّج عليه الإقامة^(٧٤) من ساعته كذلك ثلاثة أيام • ثمّ يستدعى للكلام • فاذا نجزت أشغاله وآن ارتحاله ، كتب له الجواب ، وشرف بأفخر الثياب •

وكانت البدرية أحد أبواب الخليفة^(٧٥) العلية ، يسكن بها الشرابي أحد خدمه وصاحب^(٧٥) الحكم في داره وحرمه ، وخاصّ الخواص وسيّد العام والخاص وزعيم الجيوش والقواد ومالك الأمر في البلاد ، وإليه ترجع المماليك والخدم ، وعلى يده تفضّص الأموال والنعم • فمنها أنّه في (٦٨) يقال حبره حبراً : سره وابهجه •

(٦٩) الجاوش والجاوش والشاوش : لفظ تركي • جمعه جاوشية وجاوشية • وهم جنود وظيفتهم السير أمام السلطان في مواكبه للنداء وتنبئيه المارة • راجع (« معجم الأدباء » ٧ : ١٩٩ ، طبعة مرجليوث) ، و (« السلوك » للمقريزي ، ١ : ٨٧٠ ، الحاشية ٢ ، تحقيق : د. محمد مصطفى زيادة) و (Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes. I, 169.) وما كتبه الأب أنستاس ماري الكرملّي ، في « لغة العرب » ٤ [بغداد ١٩٢٧] ص ٦١١-٦١٢ ، و (« الرتب والألقاب المصرية » لأحمد تيمور • القاهرة ١٩٥٠ : ص ٥٥ - ٥٦) •

(٧٠) طرق له بتشديد الراء : جعل له طريقاً •

(٧١) الجاندارية : فئة من ممالك السلطان أو الأمير • واللفظة فارسية من : « جان » بمعنى سلاح ، و « دار » بمعنى ممسك • راجع : (« السلوك » للمقريزي ١ : ١٣٣) ، و (« دائرة المعارف الإسلامية » : الترجمة العربية ٦ : ٢٤٧ ؛ مادة « جاندار ») •

(٧٢) باب النوبي : من أبواب دار الخلافة العباسية ببغداد • كان يدعى بباب العتبة أيضاً ، فقد كانت فيه العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا ببغداد • انظر : (« دليل خارطة بغداد » ص ١٥٨) •

(٧٣) المخطوط : والتشريف •

(٧٤) الإقامة وجمعها : الإقامة : يراد بها انواع المؤن •

(٧٥) لعلّ الأصل : أحد أبواب دار الخليفة ، أودار الخلافة •

(٧٥) المخطوط : فصاحب •

كلّ عام يجلس للخاصّ والعام ، ويفض من المبار ما يجاوز حدّ الإكثار ، فيشمل بعبائه الداني والفاصي ، ويعمّ بنائله المطيع والعاصي ،

شعر :

يكاد يحكيه صوب الغيث منهمرا لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا

[٤٠ ب] فيستمر على ذلك أياماً ، يعطي فيها أموالاً جساماً ، نيابة عن مولاه ، إذ هو أجلّ من أن يتولاه ، إلاّ أنّه يشاهد فضّ الأموال من وراء الحجاب ، ويسمع ابتهاج المخلصين بالدعاء المجاب ، فإذا انقضت أيام العطاء ، انتصب لتدبير ملك الزوراء مشيراً بالمصالح ، ومنبهاً على الخير اللائح . وله مركوب يوقف^(٧٦) بها إلى الليل^(٧٧) ، ثمّ يحمل إلى مقام الحيل ، تحفّه غلمان كالقبان ، وتزفّه في مركب من العقيان . وكانت الصدور كالأهلة لا [بل]^(٧٨) كالبدور . فصاحب ديوان الزمام^(٧٩) هو صدر صدور الإسلام وخالصة

(٧٦) المخطوط : يقف .

(٧٧) كذا ورد في النصّ . والظاهر أنّ المقصود أنّ له محفّة يطوف بها على المصالح .

(٧٨) زيادة اقتضاها المقام .

(٧٩) عُرِف أيضاً بـ « الديوان » و « ديوان العزيز » و « ديوان زمام الأزمّة » . لم يكن موجوداً في عهد بني أميّة . انشئ في سنة ١٦٢ هـ . والمراد به : الديوان الأعلى المشرف على دواوين الدولة . قال الطبري (في حوادث سنة ١٦٢ هـ) : « وفيها وضع المهدي دواوين الأزمّة ، وولّى عليها عمر بن يزيع مولاه ، فولّى عمر بن يزيع ، النعمان بن عثمان أبا حازم زمام خراج العراق » .

وذكر الطبري أيضاً (حوادث سنة ١٦٨ هـ) : « وفيها ولّى المهدي ، عليّ بن يقطين ديوان زمام الأزمّة على عمر بن يزيع . وذكر أحمد بن موسى بن حمزة ، عن أبيه ، قال : أوّل من عمل ديوان الزمام عمر بن يزيع في خلافة المهدي ؛ وذلك أنّه لما جمعت له الدواوين ، تفكّر ، فإذا هو لا يضبطها إلاّ بزمام يكون له على كلّ ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمّة ، وولّى كلّ ديوان رجلاً ، فكان واليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صبيّح ، ولم يكن لبني أميّة دواوين أزمّة » .

وراجع بشأن هذا الديوان : (« الوزراء والكتّاب » للجهشياري ، ص ١٦٧ - ١٦٨ ، تحقيق : مصطفى السقا وزملائه . القاهرة ١٩٣٨) ، (« تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » لهلal الصابئ ، ص ١٢٤ ، ١٨٣ ؛ طبعة آمدرورز . بيروت ١٩٠٤) ، (« تكملة تاريخ الطبري » لمحمد ابن عبد الملك الهمداني ، ص ٢٠٥ ، الطبعة الثانية - بيروت ١٩٦١ ؛ بتحقيق : البرت يوسف كنعان) ، (« الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير » لابن الساعي ، ٩ : ١٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٨٠ ، بتحقيق : مصطفى جواد . بغداد ١٩٣٤) .

وانظر أيضاً : (« الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية » : لمحمد ضياء الدين الرئيس ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ؛ القاهرة ١٩٦١) .

الإمام وسيّد أصحاب الأقاليم ، وصاحب البلاد ، والمؤتمن على الطارف والتلاد . الحاكم في السهل والجبل ، المطاع الأمر ان قال أو فعل ، لا يدرك شأوه أصحاب المراتب ، ولا ينال درجته أرباب المناصب ، لقربه من الخليفة ، ومثوله عند السدة الشريفة ، في حالتي السفر والحضر ، إن غاب شخصه عنه أو حضر . يتخصّص بذلك عنهم ، فإن جحدوه فضله ، فانه تنزل لركوبه أرض الزوراء ، وترعد لهيبته فرائص الكبراء ، وتنشر خلفه [٤١ أ] أعلام المشاد ، وتضرب له الطبول في سائر البلاد ، وفي خدمته النظار والصغار والكبار ، والأترار والأمرار والسادة والعظماء . حتّى انّ الخليفة جلس يوماً عند عوده من البلاد ، والسادة ولده الأجواد ، لينزههم في موكبهم ويشاهد ركوبه في منصبه . وكفى بذلك شرفاً ، فأها على المثلّك كيف قد عفا .

وأستاذ^(٨٠) الدار بصدد مصالحها ، وله منصب شريف بها ، يتولّى أمور الأمراء ، وديوان الأبنية ، وأبواب الخلفاء ، وخزائن السلاح وأمرنوا بها ، ورجال الأبواب وما يتعلّق بها ، وخزانة الفرش للاستعمال ، وإليه في الكلّ المرجع والمآل .

وقاضي القضاة لمصالح المسلمين وتشديد قواعد الدين ، واثبات الحقوق الشرعية والعمل بالشرعية المحمدية ، يسجّل بشهادة المعدّين^(٨١) ، ويعقد الأئمة بين المسلمين . يكتب له تقليد عند ترتبه ، وتقوِّض إليه الأمور ليعني منار الشرع بعزّه [٤١ ب] وعزّمته . ومال الأيتام إليه ومعوّلهم في حفظ أموالهم عليه .

وصاحب المخزن أحد الصدور المنصوص عليه ، وصاحب الرأي المشار إليه ، يتولّى أعمال المخزن ونواحيه ، وتدير كثير من مصالح الديوان وإليه . فطوبى لمن أهمل لمقامه . وشرف بما فوّض إليه في اهتمامه .

والنقيان ، فأحدهما ينظر في مصالح الطالبين الأكرام ، والآخر يلي أمر الأسرة^(٨٢) من بني هاشم . وكلّ منهما عالي الدرجة والمكان ، عظيم القدر جليل الشأن .

وحاجب الباب هو صاحب سيف الإمام ، المتفرّد بالسياسة في العوام بالعدل في الأحكام .

(٨٠) ويقال فيها استدار واستادار وأستاذ الدار . وهي مركبة من لفظين فارسيين : أستاذ أو استذ بمعنى « الأخذ » ، ودار بمعنى « المسك » . وهو لقب من يتولّى قبض مال الخليفة أو السلطان أو الأمير ، وصرفه . وتمثّل فيه أوامره .

(٨١) هم الذين ثبتت لهم العدالة في الديوان الشرعي .

(٨٢) يقصد الأسرة العباسية .

فَمَنْ سَرَقَ قِطْعَةً ، وَمَنْ اَتَهَكَ المَحْرَمَاتِ رَدْعَهُ ، وَمَنْ قَتَلَ قَتْلَهُ ، واَقْتَصَّ لِلْمَظْلُومِ مِنْ ظُلْمِهِ •
وبين يديه النواب والأعيان ، والحجّاب يتقلّدون ذلك أجمع ويقتصّون في ملأ ومجمع •

وعارض الجيوش بصدد مصالحهم والعرض في الديوان لتخير صالحهم ، واعتبار^(٨٤) الأسلحة
والدواب [٤٢ أ] واصطفاء الأكفاء والشباب •

إلاّ أنّ سبحانه وتعالى ، لما أرسل عذابه سلب كلّاً منهم عقله وصوابه • فنفذ سهم القضاء ،
وانتشرت جناح الحِمَامِ في الفضاء ، فلم تنفع الجنّة ولا السلاح ولا البواتر ولا الرماح •
فوقع الفشل وعمّ الكسل وساء العمل وكثر الزلل ، وبَطُلَ التدبير وحار الوزير : فنزل بهم
العدو حين اختلّوا ، و « ما غزّري قوم » في عثّردارهم إلاّ ذلّوا^(٨٤) •

ولقد كانت الملوك كالأسود الضواري ، أو كالعقبان على ظهور المهاري • والممالك كالبدور
والبُرْزاة والصقور • والمثلك على سوقه قائم ، ورواق المملكة رفيع الدعائم • والأيام أعياد
وأفراح ، والليالي أعراس ومراح ، ورياض الزمان متفتّحة الثوّار ، وساعات الأيام مشرقة الأنوار •
وشخص العطاء مهزوز الأعطاف ، وسحائب الإلّعام غدقة النّطاف • وبروق الآمال ممطرة الأنواء ،
وأقطار المواهب عبقة الأرجاء • وأفنان الأفراح خضرة الأغصان ، وأطيّار [٤٢ ب] المسارّ خاطبة
على منابر الأفنان^(٨٥) • ففي كلّ وقت تضرب طبول الهناء على أبواب الأمراء ، وتخفق بوقات
السّراء مؤذنة بدوام النعماء • فلا وحقّك لا والله ، ما نظرت عيني الى أحسن^(٨٦) منها
بلدّة أبداً • وكيف يمثّل بها أو يقاس ، أو يشبّهه بالقدم ، الرأس •

وقد كانت تمضي لأهلها الأوقات والأيام والساعات كاملة المسار والذّات ، ولهم فيها من
كلّ الثمرات • والمواسم تجلّى في حلي النضارة ، وتلذّ أيامها للنظّارة •

فمنها موسم الحاج ، وهو أعظم مواسم السنة التي تكلّ عن وصف حسنه الألسنة ، وتفتح
فيه أدّثر المضيف لكلّ بائس من الحاج وضعيف • وتضرب على دجلة الحياض والروايا ،
ويؤذن بالحجّ في سائر الرعايا • ثمّ يهرع الناس الى الفرجة على التبريز في حثل الإبريز ، ما بين

(٨٣) اعتبر الشيء : اختبره •

(٨٤) من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في « نهج البلاغة » (١ : ٦٤) ، من طبعة محمد محيي

الدين عبد الحميد - في القاهرة) •

(٨٥) في أعلى هذه الكلمة : جمع فَنَسَ •

(٨٦) المخطوط : بأحسن •

فتى وفتاه ، وشاب قد فتن بحسنه فتاه . يرتعون في رياض الجانب الغربي ، ما بين ماشٍ أو متطرٍ صهوة عربي . فلا يزالون كذلك أياماً يمرحون وحناناً [٤٣ : ١] وفثاماً^(٨٧) . والسبل تجلى في المواكب الى الخيام ، وتزف الى منازلها بالعبيد والخدام . فأول ما يقدر منها العلكم ، وهو محمل الخاص . وبعده الكؤوس^(٨٨) ، وجند السفر ، والنوبة المكينة في الأثر ، تنهادى بين الحجاب والدعاة ، والقرءاء في أحسن الصفات . ثم يتوالى في كل يوم سبيل بعد سبيل ، ورحل كل جهة^(٨٩) محمل جميل ، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج ، فيخلع على الأمير ويككل ، ويُنعم عليه ثم يُحمل ، فيخرج من ساعته ويدخل الحاج في طاعته .

فاذا رجعوا سالمين ، فهو موسم ثانٍ للمتفرجين ، يقص فيه من التشريفات^(٩٠) على الحاشية والولاة ، ما يدهش الناظر ويجلو النواظر . وما منهم إلا من قد بخبج^(٩١) بسلامة أهله ، مرجين « بما آتاهم الله من فضله »^(٩٢) .

(٨٧) الفثام : الجماعة من الناس .

(٨٨) الكؤوس : بضم أوله ، جمعه الكؤوسات . وقد ورد ذكره في كثير من المراجع العربية القديمة . ويؤخذ مما جاء فيها أن له مدلولتين :

الأول : الطبل الذي يتخذ في أيام الحروب لتنبية الناس ، وقد يتخذ لغير أوقات الحرب ، كتنبية الناس الى بدء الصيام أو نحو ذلك . انظر : (« مقدمة ابن خلدون » طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٥٦ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦) ، « تاج العروس » [القاهرة ١٣٠٦ هـ] ص ٢٣٦ .

الثاني : الصنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص . راجع : (« صبح الأعشى » ٤ : ٩) .

وقد عقد هلال بن المحسن الصابئ ، فصلاً بعنوان « ضرب الطبل في أوقات الصلوات » : راجع كتابه (« رسوم دار الخلافة » ص ١٣٦ - ١٣٧) ، وما ذكر من مراجع في حواشيهما .

(٨٩) الجهة : كناية عن المرأة السيدة الجليلة القدر . وقد سبقت الإشارة إليها في الحاشية (٥٨) .

(٩٠) التشريفات جمع « التشریف » . وقد وردت في (« صبح الأعشى » ٤ : ٥٢) بصورة « التشاريف » ويراد بها : الخلع والهدايا التي يشرف بها بعض الناس .

وراجع الفصل الموسوم بـ « خلع التقليد والولاية والتشريف والمندمة » في كتاب (« رسوم دار الخلافة » ص ٩٣ - ٩٩) .

والفصل الذي يليه ، بعنوان « ما يُخدم به الخليفة عند التقليد والتشريف بالتكنية واللقب » (ص ١٠٠ - ١٠٣) .

(٩١) بخبخ الرجل قال له : بخ بخ . وهي تنقل للمدح وإظهار الرضى بالشيء .

(٩٢) سورة آل عمران . الآية ١٦٩ و ١٧٩ ، سورة النساء . الآية ٣٦ و ٥٣ .

ومنها شهر الصيام ، المختص بالعبادة والقيام ، المفتوح بالصدقات ، المنوّر الليالي بالصلوات . ففي أول يوم منه يُفَضُّ على العلماء والمتصوّفة [٤٣ ب] والتبلاء من بدّر الإنعام وبدّن الإنعام ما يجاوز حدّ الإكثار . ويثغني وقت الإفطار . ثمّ تفتّح آدُر المضيف للعوام والفقراء والأيتام ، فلا يبقى من لا^(٩٣) يشمله الإنعام ، ويحصل له القوت في الصيام . وما من الملوك إلّا من عليه راتب ، وكذلك الصدور وأصحاب المراتب ، يثفّطِر على أطباقهم الأمائل ، وأطياب الألوان تصل الى الفقير والسائل . ولياليه مشرقة بالمصاييح ، والمساجد منيرة بالصلوات والترابيح . والعوام ملتئمة بالملاذ والغناء والفرح الى منتهى وقت العشاء . ثمّ ترفع قناديل السحير ، وتتناغى شحارير التذكير . وأيامه كلّها عبادة ، وأوقاته طاعة وزيادة . فاذا بقي من الشهر أربع ليال ، وعاد جديده كالأسمال ، خلع المخزن تشريفات الخليفة على صدور الدولة الشريفة ، ثمّ بعده الملوك وأرباب المراتب والسادة ولّده الأطياب ، حتى يصل الإنعام الى الخاص والعام . فقلّ من لا ينال منها نصيباً ، وفي البعيد من لا يكون منها قريباً .

ثمّ يتهيأ الناس للعيد المشهود والمجمع المحشود الذي تكلّ عن حسن رصفه ألسنة البلغاء ، وتعجز عن ادراك وصفه عقول الألباء ، فلا ينتهي الى نعمته [٤٤ أ] قول قائل ، ولا يصل الى مثله الأواخر ولا الأوائل ، ولا رئي لأحد من الملوك ما يناسبه ، ولا حكي انّ لهم مثله أو ما يقاربه . فيباكر إليه في أحسن زينة ولباس ، ويجتمع لرؤية الموكب أكثر الناس . ثمّ يجلس الخليفة في داره ويعرض الموكب بأهله وصغاره . والملوك في أحسن زينة وأبهى حلية ، وأعظم سكينة . فلا يزال الموكب والعساكر تجري كالسيل في جمع كنجوم الليل ، كذلك ثلاثة أيام حتى ينقضي منقضاء ، ويصل آخره ومنتهاه ، وقد تكاملت للعالم المسارّ في آناء الليل والنهار .

فإن كان الأضحى نحر الخليفة في أبوابه ، وكذلك أهل بلده ، رغبة في ثوابه . فيمتار الفقراء ، ويؤجر الأغنياء .

ومنها موسم التّربّ^(٩٤) ، وإنيها المنقلب . فيركب الوزير في أرباب الدولة والأمراء والصدور والكبراء ، في موكب مشهّر الى الرصافة ، وهي مدفن ولاية الخلافة . فيجتمعون بها للقراءة والدعاء

(٩٣) في المخطوط : فلا يبقى الا من يشمله . والوجه ما في اعلاه .

(٩٤) القبور .

وإهداء الثواب للخلفاء ، كذلك أياما يُشْرِقُ [فيها]^(٩٥) وَيُغْرِبُ^(٩٦) ، وقرءاء المواكب تشوِّق وتطرب . فإذا كان الليل اجتمع المتصوفة والفقهاء ، وأوقدت الشموع ، وقرأ القرءاء ، وشرع الوعظ في الكلام [٤٤ ب] والاحياء الى آخر الظلام . فإذا أسفر الصباح وبادر المؤذن بالفلاح ، فضَّ على المذكورين من الحلواء وأطيب الطعام والغذاء ما يستغرق حدَّ الإكثار ، ويعمُّ ذوي الاقتار . على أنَّ الأيام كلّها كانت تضي أفراحاً ومواسم يرتاح إليها الناس ارتياحاً . ففي كلِّ سبت^(٩٧) عيد جديد وموسم سعيد ، يخرج الناس الى الرياض والأزاهر لسماع أصوات الشحارير ، والعلمان كالولدان^(٩٨) ، والجواري كالخور الحسان ، ما بين أهيف وأحور وأكلج وأغيد وأعطر^(٩٩) .

في البدر من وجنته نكتة وفرة في العين من طرفه
إذا مشى جاذبه ردفه كأنه يشي الى خلفه

وظلة تكامل شبابها ، وطاب عرفها ، وعذب رضاها ، ترمي عن قسي الحواجب بسهام الفنج
الصواب .

شعر :

وتنال منك بحدٍ مقلتها ما لا تنال بحدِّها النصل
وإذا نظرت الى محاسنها فلكل موضع نظرة نبّل

والناس في أرغد عيش ، وأطيب زمان ، وأعدل وقت ، وأصفى أوان .

وأما زمان الربيع وأيام الوشي البديع ، فاتهم كانوا [٤٥ أ] يصطحبون ويتجمعون وينثالون « كأنهم إلى نصبٍ يوفضون »^(١٠٠) . فينزلون الجواري في رهط من

(٩٥) زيادة اقتضاها المقام .

(٩٦) أي يحضر وقت الشروق والغروب .

(٩٧) راجع : ١ - حبيب زيات : (« أيام السبت في دمشق في عهد العباسيين » : مجلة « المشرق » ٣٦ [بيروت ١٩٣٨] ص ٤١ - ٤٦) .

٢ - ميخائيل عواد : (« العطلة الأسبوعية في الدولة العباسية » : مجلة المجمع العلمي العربي » ١٨ [دمشق ١٩٤٣] ص ٥٨) .

(٩٨) يقصد الولدان المخلدين .

(٩٩) كذا . ولعلها : وأقمر ، ما لونه لون القمر .

(١٠٠) سورة المعارج . الآية ٤٢ .

الجواري ، ويدخلون نهر^(١٠١) عيسى ، ويباكرون نحو قصده تغليسا^(١٠٢) . فيجتمعون بالحوّل^(١٠٣) ، إذ عليه في الحسن المَعْوَل . فيخترفون^(١٠٤) أشجاره ، ويقطفون ثماره ونوَّاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره ، وينزلون غيطانه وأنهاره . ثمَّ تعزف القيان ، وتضطخب العيدان ، وتصفق الغدران ، وترقص الأغصان ، وتميد الأفنان . وكلَّما دسع^(١٠٥) الراووق^(١٠٦) طاب المشوق ، وكلَّما بكى السحاب ضحك الحَبَّاب^(١٠٧) . وكلَّما طرب العود زمجرت الرعود ، وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة . كذلك أياماً لا يطعمون مناماً . إلاَّ اتَّهم اتَّهكوا المحارم وارتكبوا المآثم ، وأصرَّوا على الفجور وسفك الخمر . ولا جرم أنَّ العرش اهتزَّ غضباً ، وسعرت جهنم حصباً^(١٠٨) ، وازدادت لهباً ، فأخذهم الله تعالى إليه « أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ »^(١٠٩) ، « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ »^(١١٠) . فأين المثلَّك الباذخ [٤٥ ب] والشرف الشامخ . ذهبت والله الشهوات ، وبقيت التبعات ، وخشعت الأصوات ، وسقيت الرفات من أعظم العظا . فالرجع الى الله تعالى في الملمات، فأنه « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ »^(١١١) ، وهو الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ »^(١١٢) .

(١٠١) نهر كان يروي منطقة بغداد الغربية . عُرف في العصر العباسي بهذا الإسم نسبة الى عيسى بن عليّ عمّ المنصور .

(١٠٢) غلَّس : قام عند الغلَّس ، وهي ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .

(١٠٣) المخطوط : بمحول . والمحوّل على ما ذكر ياقوت (« معجم البلدان » ٤ : ٤٣٢ ، طبعة وستنفلد) : « بلدة حسنة طيبة نزهة كثيرة البساتين والفواكه والأسواق والمياه . بينها وبين بغداد فرسخ . وآثارها عند التلول المعروفة اليوم باسم « المضيق » ، على الطريق بين بغداد وأبي غريب على بُعد زهاء ستة كيلومترات من جسر الخرّ . انظر : (« دليل خارطة بغداد » ص ٤٧) .

(١٠٤) اخترف الثمر : جناه .

(١٠٥) دسع الإناء : ملأه .

(١٠٦) الراووق : الكأس ، أو الإناء يروق فيه الشراب .

(١٠٧) الحَبَّاب : الفقايص التي تعلو الماء والخمر .

(١٠٨) الحصب : ما هبَّء للوقود من الحطب .

(١٠٩) سورة القمر . الآية ٤١ .

(١١٠) سورة القمر . الآية ١٤ .

(١١١) سورة غافر . الآية ١٤ .

(١١٢) سورة الشورى . الآية ٢٤ .

فما رأيك أيها العبد الصالح ، في الإشتغال على المصالح . ورفض الدنيا والإقطاع ، والتطبع بأحسن الطباع . فقلتُ : نعم ما رأيته والبشرى لك في ما نويت . فعاهدني على الزهادة والتخلي لنوافل العبادة . ودع عنك الأباطيل « واللَّهُ على ما نَقُولُ وَكِيلٌ » (١١٣) .

ثمَّ أكد بيني وبينه الميثاق وعزم على الإنطلاق فزودته بما حضر من العَيْنِ (١١٤) ، وودعته وعيني كالْعَيْنِ (١١٥) ، فلا أدري ، وأبيك ، أين سلك ، ولا أعلم أحي هو أم هلك .

تمت المقامة مُنْتَسَخَةً من خطِّ مصَنَّفها . والحمد لله ربِّ العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين وسلامته .



(١١٣) سورة القصص . الآية ٢٧ .
 (١١٤) الْعَيْنُ : النقد المضروب من المعدن ، نحاساً كان أم فضة أم ذهباً .
 (١١٥) الْعَيْنُ : ينبوع الماء .

بَغْدَادُ فِي الْكُتُبِ الْبُلْدَانِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ

اعداد

عَدْنَانُ مُحَمَّدُ الطَّعْمَرُ

غرناطة - اسبانيا

كانت فكرة صائبة وخطوة جلية والتفاته جميلة تلك التي دعت لها مجلة المورد باصدار عدد خاص عن (بغداد مدينة السلام) •

في البحث الذي أعدته وهو بغداد في الكتب البلدانية العربية ، توخيت فيه جمع ما كتبه الجغرافيون العرب عن مدينة دار السلام ، وكانت هذه الكتب قد تناولت بغداد طبوغرافيتها ، مساحتها وسكانها ، محالتها وبيوتها حالتها العمرانية ، الجداول والسواق والساتين والرياض ، الجوامع والاسواق وأبوابها المشهورة ، كلاً حسب منهجه في الكتاب ، وأرتأت أن أنقل النصوص كما هي دون تعليق مني على المادة ، واستصواب رأي • بل تركت النصوص كما هي مشيراً الى الطبعة التي أخذت منها النص • فليست وظيفتي في الجمع البلدانى أن أدقق في النصوص وأحققها ، بل هي من عمل محققي تلك الكتب ، ولا يجوز لي التجاوز على عملهم ، وإن يكن ثمة جهد لي ، فهو نقل النصوص فقط وترتيب المصادر حسب وفيات مؤلفيها كما استثيت كتاب الهمداني عن بغداد ذلك لأنه كتاب مستقل وقد أخرجه وزارة الثقافة والاعلام من سنتين • كذلك تركت ما يتعلق ببغداد في الكتب التاريخية من مواد جغرافية ، وكذلك كتب الموسوعات الأدبية ، مثل صبح الأعشى •

وأقول بتواضع إن العمل ليس لي ألبته ، إنما لأولئك العظماء من سلفنا الجغرافي ، كما اني لا أريد الإشارة الى ميزة كل كتاب عن بغداد فذلك ما يدعو القارئ أن يصرف نظره عن الاستفادة وعدم استمتاعه بقراءة النصوص ، فتركته له دون ما اشارة كي يلتمس متعته ويجد ضالته ويعفيني من الخطأ ويعذرني من السهو ، ومن الله التوفيق •

اليقوي : أحمد بن أبي يعقوب بن واضح
الكاتب ت/ ٢٨٤هـ (*)

- « بغداد » -

وانما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا
وسرة الأرض ، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق
والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق
الأرض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه
وصحة وهواء ولأنه سكنها من أصناف الناس
وأهل الأمصار والكور ، انتقل إليها من جميع
البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع أهل الآفاق
على أوطانهم ، فليس من أهل البلد إلا ولهم فيها
محلة ومتجر ومتصرف ، فاجتمع بها ما ليس في
مدينة في الدنيا ثم يجري في حافتيها النهران
الأعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات والمير
براً وبحراً بأيسر السعي حتى تكامل بها كل متجر
يحمل من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير
أرض الإسلام فإنه يحمل إليها من الهند والسند
والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحشمة
وسائر البلدان حتى يكون بها من تجارات البلدان
أكثر ممّا في تلك البلدان التي خرجت التجارات
منها ويكون مع ذلك أوجد وأمكن ، حتى كأنما
سيقت إليها خيرات الأرض . وجمعت فيها ذخائر
الدنيا ، وتكاملت بها بركات العالم ، وهي مع هذا
مدينة بني هاشم ودار ملكهم ومحل سلطانهم ، لم
يبتد بها أحد قبلهم ولم يسكنها ملوك سواهم ،
ولأن سلفي كانوا القائمين بها ، وأحدهم تولى
أمرها ، ولها الاسم المشهور والذكر الدائع ، ثم
هي وسط الدنيا ، لأنها على ما اجمع عليه قول
الحساب وتضمنته كتب الاوائل من الحكماء في
الاقليم الرابع ، وهو الاقليم الاوسط الذي يعتدل
فيه الهواء في جميع الازمان والفصول ، فيكون
الحر بها شديداً في أيام القيظ ، والبرد شديداً في
أيام الشتاء ، ويعتدل الفصلان الخريف والربيع
في أوقاتها ، ويكون دخول الخريف الى الشتاء
غير متباين الهواء ، ودخول الربيع الى الصيف غير
متباين الهواء ، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء
الى هواء ، ومن زمان الى زمان ، فلذلك اعتدل
الهواء ، وطاب الثوى ، وعذب الماء ، وزكت
الاشجار ، وطابت الثمار ، واخصبت الزروع ،
وكثر الخيرات ، وقرب مستنبط معينها ،

(*) كتاب البلدان ، منشورات المطبعة الحيدرية - النجف
١٢٧٧هـ/ ١٩٥٧م ، ص ٢ - ٢١ .

وباعتدال الهواء ، وطيب الثرى ، وعذوبة الماء
حسنت اخلاق اهلها ، ونضرت وجوههم ، وانفتحت
اذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم والفهم والادب
والنظر والتميز والتجارات والصناعات والمكاسب
والحذق بكل مناظره ، واحكام كل مهنة ، واتقان
كل صناعة ، فليس عالم أعلم من عالمهم ، ولا اروع
من راويتهم ، ولا اجدل من متكلمهم ، ولا اعرب من
نحويهم ، ولا اصحح من قارئهم ، ولا امهر من
متطبيعهم ، ولا احذق من مغنيهم ، ولا لطف من
صانعهم ، ولا اكتب من كاتبهم ، ولا ابين من
منطيقهم ، ولا اعبد من عابدهم ، ولا اورع من
زاهدهم ، ولا افقه من حاكمهم ، ولا اخطب من
خطيبهم ، ولا اشعر من شاعرهم ، ولا افتك من
ماجنهم ، ولم تكن بغداد مدينة في الايام المتقدمة ،
اعني ايام الاكاسرة والاعاجم ، وانما كانت قرية من
قرى طسوج بادوريا ، وذلك ان مدينة الاكاسرة
التي خاروها من مدن العراق المدائن وهي من بغداد
على سبعة فراسخ وبها ايوان كسرى ائو شروان
ولم يكن ببغداد الا دير على موضع مصب الصراة
الى دجلة الذي يقال له قرن الصراة وهو الدير
الذي يسمى الدير العتيق قائم بحاله الى هذا
الوقت ، نزله الجاثليق رئيس النصاري
النسطورية . ولم تكن ايضا بغداد في ايام العرب
لما جاء الاسلام لان العرب اختطت البصرة والكوفة ،
فاختط الكوفة سعد بن ابي وقاص الزهري في
سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب ،
واختط البصرة عتبة بن غزوان المازني - مازن
قيس - في سنة سبع عشرة وهو يومئذ عامل عمر
ابن الخطاب ، واختطت العرب في هاتين المدينتين
خططها الا ان القوم جميعا قد انتقل وجوههم
وجلتهم ومياسير تجارهم الى بغداد . ولم ينزل
بنو امية العراق لانهم كانوا نزولا بالشام وكان
معاوية بن ابي سفيان عامل الشام لعمر بن الخطاب
ثم لعثمان بن عفان عشرين سنة ، وكان ينزل مدينة
دمشق واهله معه ، فلما غلب على الامر وصار
اليه السلطان جعل منزله وداره دمشق التي بها
كان سلطانه وانصاره وشيعته ثم نزل بها ملوك
بني امية بعد معاوية لانهم بها نشأوا لا يعرفون
غيرها ولا يميل اليهم الا اهلها ، فلما افضت
الخلافة الى بني عم رسول الله (ص) من ولد العباس
ابن عبدالمطلب عرفوا بحسن تمييزهم وصحة
عقولهم وكمال آرائهم في فضل العراق وجلالته
وسعتها ووسطها للدنيا ، وانها ليست كالشام
الوبئة الهواء ، الضيقة المنازل ، الحزنة الارض ،
المتصلة الطواحين ، الجافية الاهل ولا كمصر المتغيرة

الهواء ، الكثيرة الوباء ، التي هي بين بحر رطب
عفن كثير البخارات الرديئة التي تولد الادواء
وتفسد الغذاء ، وبين الجبل اليابس الصلد الذي
ليبسه وملوحته وفساده لا ينبت فيه خضر ولا
ينفجر منه عين ماء . ولا كافريقية البعيدة عن جزيرة
الاسلام وعن بيت الله الحرام ، الجافية الاهل ،
الكثيرة العدو ، ولا كارمينية ، النائية الباردة ،
الصدرة الحزنة التي يحيط بها الاعداء . ولا مثل
كور الجبل ، الحزنة الخشنة الثلجة ، دار الاكراد
ولا كارض خراسان ، الطاعنة في مشرق
الشمس ، التي يحيط بها من جميع اطرافها
عدو كلب ، ومحارب حرب . ولا كالحجاز ، النكدية
المعاش ، الضيقة المكسب ، التي قوت اهلها من
غيرها ، وقد انبأنا الله عز وجل في كتابه عن ابراهيم
خليله عليه السلام فقال : « رب اني اسكنت من
ذريتي بواد غير ذي زرع » . ولا كالتبت ، التي
بفساد هوائها وغذائها تغيرت الوان اهلها ، وصغرت
ابدانهم ، وتجددت شعورهم فلما علموا انها افضل
البلدان نزلوا مختارين لها ، فنزل ابو العباس امير
المؤمنين وهو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله
ابن العباس بن عبدالمطلب الكوفية اول مرة ثم
انتقل الى الانبار فبنى مدينة على شاطئ الفرات
وسماها الهاشمية ، وتوفي ابو العباس (رض)
قبل ان يستتم المدينة فلما ولي ابو جعفر المنصور
الخلافة وهو ايضا عبدالله بن محمد بن علي بن
عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بنى مدينة بين
الكوفة والحيرة سماها الهاشمية ، واقام بها مدة ،
الى ان عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لفزو
الصقالبية في سنة اربعين ومائة ، فصار الى بغداد ،
فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ قيل له
بغداد . قال : والله المدينة التي اعلمني ابي محمد
ابن علي اني ابنها وانزلها وينزلها ولدي من بعدي ،
ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والاسلام حتى
يتم تدبير الله لي وحكمه في ، وتصح الروايات ،
وتبين الدلائل والعلامات ، والا فجزيرة بين دجلة
والفرات ، دجلة شرقها ، والفرات غربها ، مشرعة
للدنيا ، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة
والابلة والاهواز ، وفارس وعمان واليمامة
والبحرين وما يتصل بذلك ، فاليها ترقى ، وبها
ترسى . وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة
واذربيجان وارمينية مما يحمل في السفن في
دجلة . وما يأتي من ديار مصر والرقه والشام
والثغر ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في
الفرات ، فيها يحط وينزل ومدرجة اهل الجبل
اصبهان وكور خراسان ، فالحمد لله الذي ذكرها

لي واغفل عنها كل من تقدمني ، والله لابنيها ثم
اسكنها ايام حياتي ويسكنها ولدي من بعد ، ثم
لتكونن اعمر مدينة في الارض ، ثم لابنين بعدها
اربع مدن لا تخرب واحدة منهن ابدا فبناها ، وهي
الرافقة ولم يسمها ، وبني ملطية المصيصة ، وبني
المنصورة بالسند ، ثم وجه في احضار المهندسين
واهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة
وقسمة الارضين حتى اختط مدينته المعروفة
بمدينة ابي جعفر واحضر البنائين والفعلة والصناع
من التجارين والحداين والحفارين ، فلما اجتمعوا
وتكاملوا اجرى عليهم الارزاق واقام لهم الاجرة
وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا
من البناء فحضره مائة الف من اصناف المهن
والصناعات ، خبر بهذا جماعة من المشايخ ان ابا
جعفر المنصور لم يبتد البناء حتى تكامل له من
الفعلة واهل المهن مائة الف ، ثم اختطها في شهر
ربيع الاول سنة احدى واربعين ومائة ، وجعلها
مدورة . ولا تعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة
مدورة غيرها . ووضع اساس المدينة في وقت
اختاره نوبخت المنجم ، وما شاء الله بن سارية ،
وقبل وضع الاساس ما ضرب اللبن العظام . وكان
في اللبنة التامة المربعة ذراع في ذراع وزنها مائتا
رطل واللبنة المنصفة طولها ذراع وعرضها نصف
ذراع ووزنها مائة رطل وحفرت الآبار للماء وعملت
القناة التي تأخذ من نهر كرخايا ، وهو النهر الآخذ
من الفرات فانقنت القناة واجريت الى داخل
المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين وجعل
للمدينة اربعة ابواب ، بابا سماه باب الكوفة ، وبابا
سماه باب البصرة ، وبابا سماه باب خراسان ،
وبابا سماه باب الشام ، وبين كل باب منها الى
الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء من خارج
الخندق ، وعلى كل باب منها بابا حديد عظيم
جليلان ، ولا يفتح الباب الواحد منها ولا يفتح
الا جماعة رجال ، يدخل الفارس بالعلم والرامي
بالرمح الطويل من غير ان يميل العلم ولا يثني
الرمح ، وجعل سورها باللبن العظام التي لم ير
مثلا قط على ما وصفنا من مقدارها والطين ،
وجعل اساس السور تسعين ذراعا بالسوداء ثم
ينحط حتى يصير في اعلاه على خمس وعشرين
ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرفات ، وحول
السور فصيل جليل عظيم ، بين حائط السور
وحائط الفصيل مائة ذراع بالسوداء ، وللصيل
ابرجة عظام وعليه الشرافات المدورة ، وخارج
الفصيل كما يدور مسناة بالآجر والصاروج متقنة
محكمة عالية والخندق بعد المسناة قد اجرى فيه

الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا وخلف الخندق الشوارع العظماء ، وجعل لابواب المدينة اربعة دهاليز عظاما آزاجا كلها ، حول كل دهليز ثمانون ذراعا كلها معقودا بالآجر والجص فاذا دخل من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليزا على السور الاعظم عليه بابا حديد جليلان عظيمان ، لا يفلق كل باب ولا يفتحها الا جماعة رجال ، والابواب الاربعة كلها على ذلك ، فاذا دخل من دهليز السور الاعظم سار في رحبة الى طاقات معقودة بالآجر والجص فيها كواء رومية يدخل منها الشمس والضوء ولا يدخل منها المطر وفيها منازل الفلمان ، ولكل باب من الابواب الاربعة طاقات وعلى كل باب من ابواب المدينة التي على السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها مجالس ومرتفعات يجلس فيها فيشرف على كل ما يعمل به ، يصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام قد عملت آزاجاً بعضها اعلى من بعض فداخل الآزاج للرابطة والحرس ، وظهورها عليها المصعد الى القباب التي على الابواب على الدواب ، وعلى المصعد ابواب تغلق فاذا خرج الخارج من الطاقات خرج الى رحبة ثم الى دهليز عظيم ارج معقود بالآجر والجص عليه بابا حديد يخرج من الباب الى الرحبة العظمى وكذلك الطاقات الاربعة على مثال واحد ، وفي وسط الرحبة القصر الذي سمي بابيه باب الذهب ، والى جنب القصر المسجد الجامع ، وليس حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لأحد إلا دار من ناحية الشام للحرس وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص يجلس في احدهما صاحب الشرطة وفي الاخرى صاحب الحرس ، وهي اليوم يصلي فيها الناس وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الاحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات ، وبين الطاقات الى الطاقات السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وسكان كل سكة ، فمن باب البصرة الى باب الكوفة سكة الشرطة وسكة الهيثم وسكة المطبق وفيها الحبس الاعظم الذي يسمى المطبق وثيق البناء محكم السور ، وسكة النساء وسكة سرجس وسكة الحسين وسكة عطية مجاشع وسكة العباس وسكة غزوان وسكة ابن حنفية وسكة الضيقة . ومن باب البصرة الى باب خراسان سكة الحرس

وسكة النعيمية وسكة سليمان وسكة الربيع وسكة مهمل وسكة شيخ بن عميرة وسكة المرورودية وسكة واضح وسكة السقائين وسكة ابن بريهة بن عيسى بن المنصور وسكة ابي احمد والدرب الضيق . ومن باب الكوفة الى باب الشام سكة العكي وسكة ابي قره وسكة عبدويه وسكة السמידع وسكة العلاء وسكة نافع وسكة اسلم وسكة منارة . ومن باب الشام الى باب خراسان سكة المؤذنين وسكة دارم وسكة اسرائيل وسكة تعرف في هذا الوقت بالقواريري قد ذهب عني اسم صاحبها وسكة الحكم بن يوسف وسكة سماعة وسكة صاعد مولى ابي جعفر وسكة تعرف اليوم بالزيادي وقد ذهب عني اسم صاحبها وسكة غزوان هذه السكك بين الطاقات ، والطاقات داخل المدينة وداخل السور ، وفي كل سكة من هذه السكك جلة القواد الموثوق بهم في النزول معه وجلة مواليه ومن يحتاج اليه في الأمر المهم وعلى كل سكة من طرفيها الابواب الوثيقة ، ولا تتصل سكة منها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة لان حوالي سور الرحبة كما تدور الطريق وكان الذين هندسوها عبدالله بن محرز والحجاج بن يوسف وعمران بن الواضاح وشهاب بن كثير بحضرة نوبخت وابراهيم بن محمد الفزاري والطبري المنجمين اصحاب الحساب . وقسم الارباض اربعة ارباع وقلد للقيام بكل ربع رجلا من المهندسين واعطى اصحاب كل ربع مبلغ ما يصير لصاحب كل قطعة من الذرع ومبلغ ذرع ما لعمل الاسواق في ربض ربض ، فقلد الربع من باب الكوفة الى باب البصرة وباب الحول والكرخ وما اتصل بذلك كله المسيب بن زهير والربيع مولاة وعمران بن الواضاح المهندس . والربع من باب الكوفة الى باب الشام وشارع طريق الانبار الى حد ربض حرب بن عبدالله بن سليمان بن مجالد وواضح مولاة وعبدالله ابن محرز المهندس . والربع من باب الشام الى ربض حرب وما اتصل بربض حرب وشارع باب الشام وما اتصل بذلك الى الجسر على منتهى دجلة حرب بن عبدالله وغزوان مولاة والحجاج ابن يوسف المهندس ، ومن خراسان الى الجسر الذي على دجلة ماداً في الشارع على دجلة الى البغيين وباب قطربل هشام بن عمرو التغلبي وعمارة بن حمزة وشهاب بن كثير المهندس . ووقع الى كل اصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولمن معه من اصحابه وما قدره للحوانيت والاسواق في كل ربض ، وامرهم ان يوسعوا في الحوانيت ليكون في كل ربض سوق جامعة تجمع التجارات ، وان يجعلوا في كل ربض من السكك والدروب النافذة

وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل ، وان يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه أو الرجل النبيه الذي ينزله أو اهل البلد الذين يسكنونه ، وحدهم ان يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً بالسوداء ، والدروب سنة عشر ذراعاً ، وان يبتنوا في جميع الارياض والاسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفي بها من في كل ناحية ومحلة وامرهم جميعاً ان يجعلوا من قطائع القواد والجند ذراعاً معلوماً للتجار يبنونه وينزلونه والسوقه الناس واهل البلدان وكان اول من اقطع خارج المدينة من اهل بيته عبدالوهاب بن ابراهيم بن محمد بن علي بن العباس بأزاء باب الكوفة على الصراة السفلى التي تأخذ من الفرات ، فريضه يعرف بسويقه عبدالوهاب وقصره هناك قد خرب . وبلغني ان السوقه ايضا قد خربت . واقطع العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالطلب الجزيرة التي بين الصرائين فجعلها العباس بستاناً ومزروعاً وهي العباسية المذكورة المشهورة التي لا تنقطع غلاتها في صيف ولا شتاء ولا في وقت من الاوقات . واستقطع العباس لنفسه لما جعل الجزيرة بستاناً في الجانب الشرقي وفي آخر العباسية تجتمع الصرائان والرحا العظمى التي يقال لها رحا البطريق . وكانت مائة حجر تغل في كل سنة مائة ألف ألف درهم ، هندسها بطريق قدم عليه من ملك الروم فنسبت اليه . واقطع الشروية وهم موالي محمد ابن علي بن عبدالله بن العباس دون سويقه عبدالوهاب مما يلي باب الكوفة وكانوا بوابية رئيسهم حسن الشروي . واقطع المهاجر بن عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب الكوفة فهناك ديوان الصدقات وبأزائه قطيعة ياسين صاحب التجائب وخان التجائب ، ودون خان التجائب اصطلح الموالي ، واقطع المسيب ابن زهير الضبي صاحب الشرطة يمينه باب الكوفة للداخل الى المدينة مما يلي باب البصرة ، فهناك دار المسيب ومسجد المسيب ذو المنارة الطويلة واقطع ازهر بن زهير اخا المسيب في ظهر قطيعة المسيب مما يلي القبلة وهو على الصراة ، وهناك دار ازهر وبستان ازهر الى هذه الغاية . ويتصل بقطيعة المسيب واهل بيته قطيعة ابي العنبر مولى المنصور مما يلي القبلة ، وعلى الصراة قطيعة الصحابة وكانوا من سائر قبائل العرب من قريش والانصار وربيعه ويمن ، وهناك دار عياش المنتوف وغيره ، ثم قطيعة يقطين بن موسى احد رجال الدولة واصحاب الدعوة ثم تعبر الصراة العظمى التي اجتمعت فيها الصرائان

الصراة العليا ، والصراة السفلى ، وعليها القنطرة المعقودة بالجص والاجر المحكمة الوثيقة التي يقال لها القنطرة العتيقة ، لانها اول شيء بناه وتقدم في احكامه ، فتخرج من القنطرة ذات اليمين الى القبلة الى قطيعة اسحاق بن عيسى بن علي وقصوره ودوره شارعة على الصراة العظمى من الجانب الشرقي والطريق الاعظم بين الدور والصراة ومن قطيعة عيسى بن علي الى قطيعة ابي السري الشامي مولى المنصور ثم الطاق المعقود عليه الباب المعروف باب المحول فتصير منه الى ربض حميد بن قحطبة الطائي وربض حميد شارع على الصراة العليا ، وهناك دار حميد واصحابه وجماعة من آل قحطبة بن شبيب ، ثم يتصل ذلك بقطيعة الفراشين ، وتعرف بدار الروميين وتشرع على نهر كرخا ثم تعود الى الشارع الاعظم وهو شارع باب المحول ، وفيه سوق عظيمة فيها اصناف التجارات ، ثم يتصل ذلك بالحوض العتيق ، وهناك منازل الفرس اصحاب الشام ، ثم يستمر السير الى الموضع المعروف بالكناسة ، فهناك مرابط دواب العامة ، ومواضع نخاسي الدواب ثم المقبرة القديمة المعروفة بالكناسة مادة الى نهر عيسى بن علي الذي يأخذ من الفرات والديباغين ، وبأزاء قطيعة الروميين على نهر كرخا الذي عليه القنطرة المعروفة بالروميين دار كعبية البستانان الذي غرس النخل ببغداد ، ثم بساتين متصلة غرسها كعبية البصري الى الموضع المعروف ببرائنا ، ثم رجعنا الى القنطرة العتيقة ، فقبل ان تعبر القنطرة مشرقاً الى ربض ابي الورد كوثر بن اليمان خازن بيت المال وسوق فيها سائر البياعات تعرف بسويقه ابي الورد الى باب الكرخ وفي ظهر قطيعة ابي الورد كوثر بن اليمان قطيعة حبيب بن رغبان الحمصي وهناك مسجد ابن رغبان ومسجد الانباريين كتاب ديوان الخراج ، وقبل ان تعبر الى القنطرة العتيقة وانه مقبل من باب الكوفة في الشارع الاعظم قطيعة سليم مولى امير المؤمنين صاحب ديوان الخراج وقطيعة ايوب بن عيسى الشروي ثم قطيعة ربابة الكرمانى واصحابه وتنتهي الى باب المدينة المعروف بباب البصرة وهو مشرف على الصراة ودجلة وبأزائه القنطرة الجديدة لانها آخر ما بني من القناطر وعليها سوق كبير فيها سائر التجارات مادة متصلة ، ثم ربض وضاح مولى امير المؤمنين المعروف بقصر وضاح صاحب خزانة السلاح ، واسواق هناك واكثر من فيه في هذا الوقت الوراقون اصحاب الكتب فان به اكثر من مائة حانوت للوراقين ، ثم الى قطيعة عمرو بن سمعان الحرائي وهناك طاق الحرائي ثم الشرقية وانما

له طاهر بن الحارث ، ثم ربض الخليل بن هاشم البارودي ثم ربض الخطاب بن نافع الصحاوي ، ثم قطيعة هاشم بن معروف وهي في درب الاقفاص ، ثم قطيعة الحسن بن جعفرات وهي في درب الاقفاص ايضا متصل بدرب القصارين . ومن شارع طريق الانبار القطائع ، قطيعة واضح مولى امير المؤمنين وولده . ودرب ايوب بن المغيرة الفزاري بالكوفة ، والدرب يعرف بدرب الكوفيين ، ثم قطيعة سلامة بن سمعان البخاري واصحابه ، ومسجد البخارية والمنازة الخضراء فيه ثم قطيعة اللجلاج المتطبب ، ثم قطيعة عوف ابن نزار اليمامي ودرب اليمامية النافذ الى دار سليمان بن مجالد وقطيعة الفضل بن جعونة الرازي ، وهي التي صارت لداود بن سليمان الكاتب كاتب ام جعفر المعروف بـ داود النبطي ، ثم السيب ودار هبيرة بن عمرو ، وعلى السيب قطيعة صالح البلدي في درب صباح النافذ الى سويقة عبدالوهاب ، وقطيعة قابوس بن السميدع ، وبأزائه قطيعة خالد بن الوليد التي صارت لابي صالح يحيى بن عبدالرحمن الكاتب صاحب ديوان الخراج في أيام الرشيد ، فتعرف بدور ابي صالح ، ثم قطيعة شعبة بن يزيد الكابلي ، ثم ربض القس مولى المنصور ، وبستان القس المعروف به ، ثم ربض الهيثم بن معاوية بشار سوق (شهارسو) الهيثم ، وهناك سوق كبيرة متصلة ومنازل ودروب وسكك كله ينسب الى شار سوق (شهارسو) الهيثم ، ثم قطيعة المروذية آل ابي خالد الانباري ، ثم ابي يزيد الشوي مولى محمد بن علي واصحابه ، ثم قطيعة موسى بن كعب التميمي وقد ولي شرطة المنصور ، ثم قطيعة بشر بن ميمون ومنازله ، ثم قطيعة سعيد بن دعلج التميمي ، ثم قطيعة الشخير وزكريا بن الشخير ، ثم ربض ابي ايوب سليمان ابن ايوب المعروف بابي ايوب الخوزي المورياني (وموريان قرية من كورة من كور الاهواز يقال لها منادر) . ثم قطيعة رداد بن زاذان المعروفة بالردادية ، ثم الممدار ، ثم حدد ربض حرب . ودونه الرملية : وهذا الربع الذي تولاه سليمان ابن مجالد وواضح مولى امير المؤمنين والمهندس عمران بن الواضح . والربع من باب الشام فاول ذلك قطيعة الفضل بن سليمان الطوسي ، والى جنبه السجن المعروف بسجن باب الشام والاسواق المعروفة بسوق الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال أهلة عامرة الشوارع

سميت الشرقية لانها قدرت مدينة للمهدي قبل ان يعزم على ان يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي من دجلة فسميت الشرقية وبها المسجد الكبير ، وكان يجمع فيه يوم الجمعة وفيه منبر وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ثم اخرج المنبر منه ، وتخرج من الشرقية مارا الى قطيعة جعفر بن المنصور على شط دجلة ، وبها دار عيسى بن جعفر وتقرب منها دار جعفر بن جعفر المنصور ، ثم تخرج من هذه الطرق الاربعة التي ذكرنا الى شارع باب الكرخ فأولها عند باب النخاسين ، ثم الاسواق مادة في جانبي الشارع وتخرج من باب الكرخ متيامنا الى قطيعة الربيع مولى امير المؤمنين التي فيها تجار خراسان من البزازين واصناف ما يحصل من خراسان من الثياب لا يختلط بها شيء وهناك النهر الذي يأخذ من كرخايا عليه منازل التجار يقال له نهر الدجاج لانه كان يباع عليه الدجاج في ذلك الوقت وفي ظهر قطيعة الربيع منازل التجار واخلاط الناس من كل بلد يعرف كل درب بأهله وكل سكة بمن ينزلها . والكرخ السوق العظمى مادة من قصر وضاح الى سوق الثلاثاء طولا بمقدار فرسخين ومن قطيعة الربيع الى دجلة عرضا مقدار فرسخ فلكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراض ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه ، ولا يختلط اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم وكل سوق مفردة وكل اهل منفردون بتجاراتهم ، وكل اهل مهنة معززون عن غير طبقتهم وبين هذه الارياض التي ذكرنا والقطائع التي وصفنا منازل الناس من العرب والجنود والدهاقين والتجار وغير ذلك من اخلاط الناس ينتسب اليهم الدروب والسكك . فهذا ربع من ارباع بغداد وهو الربع الكبير الذي تولاه المسيب بن زهير ، والربيع مولى امير المؤمنين ، وعمران بن الواضح المهندس ، وليس ببغداد ربع اكبر ولا اجل منه . ومن باب الكوفة الى باب الشام ربض سليمان بن مجالد لانه كان يتولى هذا الربع فنسب اليه وفيه قطيعة واضح ثم قطيعة عامر بن اسماعيل المسلي ، ثم ربض الحسن بن قحطبة ومنازله ومنازل اهله شارع في الدرب المعروف بالحسن ثم ربض الخوارزمية اصحاب الحارث بن رقاد الخوارزمي وقطيعة الحارث في الدرب ثم قطيعة ... مولى امير المؤمنين صاحب الركاب وهي الدار التي صارت لاسحاق بن عيسى بن الهاشمي ، ثم اشتراها كاتب لمحمد بن عبدالله بن طاهر ، يقال

والدروب والعراض ، وتمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال ، كل درب ينسب الى اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبتيه جميعا الى ريبض حرب بن عبدالله البلخي ، وليس ببغداد ريبض اوسع ولا اكبر ولا اكثر دروبا واسواقا في الحال منه ، واهله اهل بلخ واهل مرو واهل الختل واهل بخارى واهل اسبشباب واهل اشتاخنج واهل كابل شاه واهل خوارزم ولكل اهل بلد قائد ورئيس . وقطيفة الحكم بن يوسف البلخي صاحب الحراب وقد كان ولي الشرطة . ومن باب الشام في الشارع الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال . ثم ريبض يعرف بدار الرقيق كان فيه رقيق ابي جعفر الذين يباعون من الآفاق وكانوا مضمومين الى الربيع مولاه ، ثم ريبض الكرمانية والقائد بوزان ابن خالد الكرمانى ، ثم قطيفة الصفد ودار خرفاش الصفدي ، ثم قطيفة ماهان الصامغاني واصحابه ، ثم قطيفة مرزبان ابي اسد بن مرزبان الفاريابي واصحابه واصحاب العمدة ثم تنتهي الى الجسر . فهذا الربع الذي تولاه حرب بن عبدالله مولى امير المؤمنين والمهندس الحجاج بن يوسف . والربع من باب خراسان الى الجسر على دجلة وما بعد ذلك بازائها الخلد وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض وقصر يشرع على دجلة لم يزل ابو جعفر ينزله وكان فيه المهدي قبل ان ينتقل الى قصره بالرصافة الذي بالجانب الشرقي من دجلة . فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة للجسر ، فاذا جاوزت ذلك فأول القطائع قطيفة سليمان بن ابي جعفر في الشارع الاعظم على دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان . والى جنب قطيفة سليمان في الشارع الاعظم قطيفة صالح بن امير المؤمنين المنصور وهو صالح المسكين مادة الى دار نجيج مولى المنصور التي صارت لعبدالله بن طاهر . وآخر قطيفة صالح قطيفة عبدالله بن يزيد الجرجاني المعروف بابي عون واصحابه الجرجانية ، ثم قطيفة تميم الباذغيسي متصلة بقطيفة ابي عون ، ثم قطيفة عباد الفرغاني واصحابه الفراغنة ، ثم قطيفة عيسى ابن نجيج المعروف بابن روضة وغلتمان الحجابة ، ثم قطيفة الافارقة ، ثم قطيفة تمام الديلمى مما يلي قنطرة التبانين ، وقطيفة حنبل ابن مالك ، ثم قطيفة البغيين اصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحاق بن ابراهيم ، ثم السوق على دجلة في الفرضة ، ثم قطيفة لجعفر ابن امير المؤمنين المنصور صارت لام

جعفر ناحية باب قطربل تعرف بقطيفة ام جعفر ، ومما على القبلة قطيفة مرار العجلي وقطيفة عبدالجبار بن عبدالرحمن الازدي وقد كان يلي الشرطة ثم عزله وولاه خراسان فعصى هناك فوجه اليه المهدي في الجيوش فحاربه حتى ظفر به فحملة الى ابي جعفر فضرب عنقه وصلبه . وفي هذه الارباض والقطائع ما لم نذكره لان كافة الناس بنوا القطائع وغير القطائع وتوارثوا . واحصيت الدروب والسكك فكانت ستة الاف درب وسكة . واحصيت المساجد فكانت ثلاثين الف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك . واحصيت الحمامات فكانت عشرة الاف حمام سوى ما زاد بعد ذلك . وجر القناة التي تأخذ من نهر كرخايا الآخذ من الفرات في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والأجر من اعلاها معقودة عقداً وثيقاً فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارع الارباض تجري صيفا وشتاء قد هندست هندسة لا ينقطع لها ماء في وقت ، وقناة اخرى من دجلة على هذا المثال وسماها دجيل . وجر لاهل الكرخ ومما اتصل به نهرا يقال له نهر الدجاج ، وانما سمي نهر الدجاج لان اصحاب الدجاج كانوا يقفون عنده ، ونهرا يسمى نهر طابق بن الصمية ولهم نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقعة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير الى فرضة عليها الاسواق وحوانيت التجار لا تنقطع في وقت من الاوقات فالماء لا ينقطع ، ولهم الآبار التي يدخلها الماء من هذه القنوات فهي عذبة شرب القوم جميعا منها ، وانما احتيج الى هذه القنوات لكبر البلد وسعته والا فهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تدفق عليهم المياه حتى غرسوا النخل الذي حمل من البصرة فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد وغرسوا الاشجار واثمرت الثمر العجيب وكثرت البساتين والاحنة في ارباض بغداد من كل ناحية لكثرة المياه وطيبها ، وعمل فيها كل ما يعمل في بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا اليها من كل بلد واتوها من كل افق ونزعوا اليها من الاداني والاقاصي ، فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب المدينة وجانب الكرخ وجانب الارباض ، وفي كل طرف منه مقبرة وقرى متصلة وعمارات مادة . والجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهو ولي عهد ابيه وابتدا بناءه في سنة ثلاث واربعين ومائة فاخطت المهدي قصره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي في

بالمخرم ، ثم قطعة معاذ بن مسلم الرازي جسد اسحاق بن يحيى بن معاذ ، ثم قطعة الغمر بن العباس الخثعمي صاحب الجر ، ثم قطعة سلام مولى المهدي بالمخرم وكان يلي المظالم ، ثم قطعة عقبة بن سلم الهنائي ، ثم قطعة سعيد الحرشي في مربعة الحرشي ، ثم قطعة مبارك التركي ، ثم قطعة سوار مولى امير المؤمنين ورحبة سوار ، ثم قطعة نازي مولى امير المؤمنين صاحب الدواب واصطبل نازي ، ثم قطعة محمد بن الاشعث الخزاعي ، ثم قطعة عبدالكبير بن عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب اخي عمر بن الخطاب ، ثم قطعة ابي غسان مولى امير المؤمنين المهدي وبين القطائع منازل الجند وسائر الناس من التناء ومن التجار ومن سائر الناس في كل محلة وعند كل رضى . وسوق هذا الجانب العظيم التي تجتمع فيها اصناف التجارات والبياعات والصناعات على رأس الجسر مارا من رأس الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من اصناف التجارات والصناعات . وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي خمسة اقسام ، فطريق مستقيم الى الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع ، وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضير وهي معدن طرائف الصين وتخرج منها الى الميدان ودار الفضل بن الربيع ، وطريق ذات اليسار الى باب البردان ، وهناك منازل خالد بن برمك وولده ، وطريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد ، والى الموضع المعروف بالدور الى باب بغداد المعروف بالشماسية ، ومنه يخرج من اراد الى سر من رأى ، وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتى من الجانب الغربي يأخذ على دجلة الى باب المقير والمخرم وما اتصل بذلك ، وكان هذا اوسع الجانبين لكثرة الاسواق والتجارات في الجانب الغربي كما وصفنا فنزله المهدي وهو ولي عهد وفي خلافته ، ونزله موسى الهادي ، ونزله هارون الرشيد ، ونزله المأمون ، ونزله المعتصم ، وفيه اربعة آلاف درب وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوى ما زاده الناس ، وخمسة آلاف حمام سوى ما زاده الناس بعد ذلك ، وبلغ اجرة الاسواق ببغداد في الجانبين جميعا مع رحا البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثني عشر الف درهم ونزل ببغداد سبعة خلفاء : المنصور ، والمهدي ، وموسى الهادي ، وهارون الرشيد ، ومحمد الامين وعبدالله المأمون ، والمعتصم . فلم يمت بها منهم واحد

الرصافة وحفر نهرا يأخذ من النهروان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي . واقطع المنصور اخوته وقواده بعدما اقطع من الجانب الغربي وهو جانب مدينته وقسمت القطائع في هذا الجانب وهو يعرف بعسكر المهدي كما قسمت في جانب المدينة ، وتنافس الناس في النزول على المهدي لمحبته له ولا تساعه عليهم بالاموال والعطايا ولانه كان اوسع الجانبين ارضا لان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الاسواق والتجارات ، فلما ابتدء البناء في الجانب الشرقي امتنع من اراد سعة البناء فأول القطائع على رأس الجسر لخزيمة ابن خازم التميمي وكان على شرطة المهدي ، ثم قطعة اسماعيل بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، ثم قطعة العباس بن محمد بن علي ابن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب لانه جعل قطيعته في الجانب الغربي بستانا ، ثم قطعة السري بن عبدالله بن الحارث بن العباس بن عبدالمطلب ، ثم قطعة قثم بن العباس بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب عامل ابي جعفر على اليمامة ، ثم قطعة الربيع مولى امير المؤمنين لانه جعل قطيعته بناحية الكرخ اسواقا ومستغلات فاقطع مع المهدي وهو قصر الفضل بن الربيع والميدان ، ثم قطعة جبريل بن يحيى البجلي ، ثم قطعة اسد بن عبدالله الخزاعي ، ثم قطعة مالك بن الهيثم الخزاعي ، ثم قطعة سلم بن قتيبة الباهلي ، ثم قطعة سفيان بن معاوية المهلبى ، ثم قطعة روح بن حاتم ، ثم قطعة ابان بن صدقة الكاتب ، ثم قطعة حمويه الخادم مولى المهدي ، ثم قطعة سلمة الوصيف صاحب خزانة سلاح المهدي ، ثم قطعة بدر الوصيف مع سوق العطش وهي السوق العظيم الواسعة ، ثم قطعة العلاء الخادم مولى المهدي ، ثم قطعة يزيد بن منصور الحميري ، ثم قطعة زياد بن منصور الحارثي ، ثم قطعة ابي عبيد معاوية بن برمك البلخي على قنطرة بردان ، ثم قطعة عمارة بن حمزة بن ميمون ، ثم قطعة ثابت بن موسى الكاتب على خراج الكوفة وما سقي الفرات ، ثم قطعة عبدالله ابن زياد بن ابي ليلى الخثعمي الكاتب على ديوان الحجاز والموصل والجزيرة وارمينية واذريجان ، ثم قطعة عبيدالله بن محمد بن صفوان القاضي ، ثم قطعة يعقوب بن داود السلمي الكاتب الذي كتب للمهدي في خلافته ثم قطعة منصور مولى المهدي وهو الموضع الذي يعرف بباب المقير ، ثم قطعة ابي هريرة محمد بن فروخ القائد بالموضع المعروف

الامحمد الأمين بن هارون الرشيد فانه قتل خارج باب الانبار عند بستان طاهر . وهذه القطائع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في أيام المنصور ووقت ابتدائها وقد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ثم اتصل بهم المقام في أيام الواثق والمتوكل ، ولم تخرب بغداد ولا نقصت اسواقها ، لانهم لم يجدوا منها عوضا ولانه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسر من رأى في البر والبحر اعني في دجلة وفي جانبي دجلة .

- ٢ -

عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة (١)

معرفة انهار مدينة السلام - في الجانب الشرقي

فاما انهار مدينة السلام الجارية فيها ومنها شرب من يقرب اليها فاول ما نبدا به من ذلك الانهار التي في الجانب الشرقي وهو عسكر امير المؤمنين المهدي من ذلك نهر يقال له نهر موسى اوله من النهرين في ظهر قصر المعتضد المعروف بالثرى ، واول النهرين من النهرين فوق الجسر بشيء يسير يمر جاريا ويتفرع منه انهار كثيرة تسقى سواد بغداد ويمر في شرقي الثرى وعليه قري وضياح ويسقى بعض طسوج كلواذي ويصب في دجلة اسفل من مدينة السلام بأقل من فرسخين . ويحمل منه أيضا النهر المعروف بنهر موسى واوله في الموضع الذي تقدم ذكره يمر فيدخل قصر الثرى ويدور فيه ويخرج منه ثم يصير الى موضع يقال له مقسم الماء ، فينقسم هناك ثلاثة اقسام فيمر الاول منها الى باب سوق الدواب ويجتاز بباب عمار ويحمل منه هناك نهر يمر الى دار البانوجة ويفنى هناك ويمر نهر موسى فيدخل من باب سوق الدواب ويمر الى باب مقبض الكبير فيحمل منه هناك نهر يمر الى دار ابن الخصيب في الشارع المعروف بسعد الوصيف ويخرج الى العتلافين فيصب في النهر الذي حفره المعتضد للبحيرة ويمر في الشارع المعروف خلف الحوانيت الى العلافين بباب المخرم

ويمر في قنطرة العباس التي في باب المخرم ويمر في الشارع الى المخرم ويفنى هناك . ويمر نهر موسى الى قنطرة الانصار فتحمل منه هناك ثلاثة انهار يصب احدها في حوض الانصار والثاني في حوض هيلانة والثالث في حوض داود ، ويمر نهر موسى الى شارع درب الطويل وقصر المعتصم بالله فيحمل منه هناك نهر يمر الى سوق العطش ماداً في وسط شارع كرم العرش ويصب في دار الوزير علي بن محمد بن الفرات ويفنى هناك ويمر نهر موسى ملاصقا لقصر المعتصم الى ان يخرج الى الشارع الاعظم ثم يخرج الى شارع عمرو الرومي ثم يدخل الى بستان الزاهر فيسقى ثم يصب في الدجلة اسفل البستان بشيء يسير ، ثم يمر النهر الثاني من المقسم الى باب أبرز فيدخل الى بغداد من هناك ويسمى نهر العلوى ويمر بين الدور الى باب سوق الثلاثاء ثم يدخل قصر المعتضد المعروف بالفردوس ويدور فيه ويصب الى دجلة مع القصر ، ويمر النهر الثالث من المقسم الى باب قطيعة موشجير ثم يمر الى باب العامرة ثم يدخل الى القصر المعروف بالحسني فيدور فيه ويصب في دجلة مع قصر المكتفي بالله المعروف بالثرى ويحمل من النهرين نهر يقال له نهر علي اوله فوق نهر موسى بشيء يسير يمر معترضاً بطريق خراسان الى قرية الائلة ويمر فيسقى طسوج نهر بوق ورستاق الأفروطر ويصب في نهر من الخالص ويحمل من نهر الفضل نهر يقال له نهر الجعفرية يمر بقرى وضياح ويصب في سواد بغداد الذي في شمالها ويحمل من نهر الجعفرية نهر يقال له نهر السور يمر مع سور بغداد اوله من نهر الجعفرية يمر بباب خراسان وباب البردان ويصب في نهر الفضل الذي يصب بباب الشماسية ، ويحمل من نهر الخالص الذي قلنا انه يصب اسفل الراشدية نهر يقال له نهر الفضل يجيء الى باب الشماسية يمر فيسقى ضياحا عليه وقرى ويصب في دجلة مع باب الشماسية ويحمل من نهر الشماسية وهو نهر الفضل نهر يقال له نهر المهدي اوله فوق الباب بشيء يسير يمر فيدخل الى مدينة السلام من باب الشماسية ويجيء الى سويقة جعفر ويمر في الشارع المعروف بشارع نهر المهدي ثم يجيء الى قنطرة البردان ويدخل في دار الروميين ثم يخرج الى سويقة نصر بن مالك ثم يدخل الرصافة في مسجد الجامع الى بستان حفص ويصب في جوف قصر الرصافة في بركة فيه ، ويحمل من هذا النهر نهر اوله في سويقة نصر مع

(١) تصنيف سهراب . اعتنى بنسخه وتصحيحه هانس فون مزيك ص ١٢٩ - ١٣٤ ط فينا ١٣٤٧ - ١٩٢٩ .

الأبواب الحديد يمرّ في وسط شارع باب خراسان
ماداً الى ان يصبّ في نهر السور بباب خراسان ،
فهذه انهار الجانب الشرقي ، وبقي انهار الجانب
الغربي وأنا أبينها ان شاء الله .

« معرفة انهار مدينة السلام في الجانب الغربي »

من ذلك نهر يُقال له الصراة أوّله من نهر
عيسى فوق قرية المحوّل الكبير بشيء يسير يمرّ
هذا النهر فيسقي ضياع وبساتين بادوريا ويتفرع
منه انهار كثيرة ويدخل بغداد فيمرّ بقنطرة العباس
ثمّ يمرّ الى قنطرة الصينيات ثمّ يمرّ الى قنطرة
رحا البطريق وهي قنطرة الزبد ثمّ يمرّ الى قنطرة
العتيقة ثمّ يمرّ الى قنطرة الجديدة ثمّ يصبّ في
دجلة أسفل الخلد بشيء يسير ويحمل من الصراة
نهر يُقال له خندق طاهر أوّله من نهر
الصراة أسفل من فوهته بفرسخ يمرّ
فيستقي الضياع ويدور حول مدينة السلام ممّا
يلي الحربية فيمرّ الى باب الانبار وعليه هناك
قنطرة ثمّ يمرّ الى باب الحديد وعليه هناك قنطرة
ويعبر الى باب حرب وعليه هناك قنطرة ويمرّ الى
باب قطربل وعليه هناك قنطرة رحا ام جعفر ويمرّ
في وسط قطعة ام جعفر ويصبّ في دجلة فوق
دار اسحاق بن ابراهيم الطاهري بشيء يسير ،
ويحمل من الخندق نهر يُقال له الصراة الصغيرة
يجيء قاطعاً للبساتين يمرّ ببعض بادوريا ويصبّ
في الصراة الكبيرة أسفل من رحا البطريق بشيء
يسير ، ويحمل من نهر عيسى نهر يُقال له كرخايا
أوّله أسفل المحوّل الكبير بشيء يسير يمرّ في وسط
طسوج بادوريا ويتفرع منه انهار تنبث في بادوريا
تسمى وتعرف وعلى جانبها قرى وضياع وبساتين
ماداً الى ان يدخل بغداد من باب أبي قبيصة
ويمرّ الى قنطرة اليهود ويمرّ الى قنطرة درب
الحجارة ويمرّ الى قنطرة البيمارستان وباب
محوّل فيتفرع منه هناك انهار الكرخ كلّها ، فمن
ذلك إذا جاوز كرخايا قنطرة البيمارستان فأول
الانهار نهر يُقال له نهر رزين يمرّ فيأخذ في ربض
حميد فيدور فيه ثمّ يمرّ الى سوقة أبي الورد
ثمّ يمرّ الى بركة زلزل فيدور فيها ثمّ يمرّ الى
باب طاق الحرّاني ثمّ يصبّ في الصراة الكبيرة
أسفل من القنطرة الجديدة مع القنطرة ويعرف
بنهر أبي عتّاب ، وإذا صار نهر رزين الى باب
سوقة أبي الورد يحمل منه نهر يُعبر في قورج على
قنطرة العتيقة فيمرّ ماداً الى شارع باب الكوفة
فيدخل من هناك الى بعض آثار مدينة أبي جعفر

المنصور وينقطع فيها ويمرّ النهر من باب الكوفة
ماداً الى شارع القحاطبة يمرّ الى باب الشام ويمرّ
في شارع الجسر الى طرف الزبيدية ويغني
هناك ، ثمّ يمرّ نهر كرخايا من البيمارستان فإذا
صار الى الدربّات يُسمى هناك العمود وهو
النهر الذي تتفرع منه انهار الكرخ الداخلة فيمرّ
النهر من هناك الى موضع قريب منه فيسمى هناك
رحا أبي القاسم ثمّ الى موضع يُعرف بالواسطيين
ثمّ يمرّ الى موضع يعرف بالخفّة فيحمل منه
هناك نهر يُقال له نهر البزازين يعطف فيخرج في
شارع المصور ثمّ يمرّ الى دار كعب ثمّ يخرج الى
باب الكرخ ثمّ يدخل البزازين ثمّ يمرّ الى الجزارين
ثمّ يدخل في أصحاب الصابون ثمّ يصبّ في دجلة
تحت دار الجوز ثمّ يمرّ النهر الكبير من الخفّة الى
طرف مربعة الزيات فيعطف منه هناك نهر يُقال
له نهر الدجاج يمرّ فيأخذ ماداً الى أصحاب الفنى
ثمّ يمرّ الى أصحاب القصب وشارع القياوين
ويصبّ في دجلة في أصحاب الطعام ثمّ يمرّ النهر
الكبير من مربعة الزيات الى دوايرة الحمار فيعطف
منه هناك نهر يُقال له نهر الكلاب يأخذ في شارع
قطيعة الكلاب ماداً حتى يصبّ تحت قنطرة الشوك
في نهر عيسى بن موسى ثمّ يمرّ هذا النهر الكبير
من دوايرة الحمار الى موضع يُقال له مربعة
صالح فيعطف منه هناك نهر يُقال له نهر القلائين
يمرّ ماداً الى السواقين ثمّ الى أصحاب القصب
ويصبّ هناك في نهر الدجاج ويصيران نهراً واحداً
ثمّ يمرّ النهر الكبير من مربعة صالح الى موضع
يعرف بنهر طابق ثمّ يصبّ في نهر عيسى في موضع
يعرف بمشرعة الآس بحضرة دار البطيخ ، فهذه
انهار الكرخ وبقي انهار الحربية وأنا أبينها ان شاء
الله تعالى .

من ذلك نهر يحمل من دجيل يُقال
له نهر بطاطيا أوّله من أسفل فوهة دجيل بسنة
فراسخ يمرّ فيسقي ضياعاً وقرى ويمرّ في وسط
مسكن ويصبّ في الضياع ويغني فيها ويحمل منه
نهر أسفل جسر بطاطيا بشيء يسير يجيء نحو
مدينة السلام فيمرّ على عبارة قورج قنطرة باب
الانبار ثمّ يدخل بغداد من هناك فيمرّ في شارع
باب الانبار ويمرّ في شارع الكباش ويغني هناك ،
ويحمل من نهر بطاطيا نهر أسفل من النهر الأول
يجيء نحو بغداد فيمرّ على عبارة يُقال لها عبارة
الكرخ بين باب حرب وباب الحديد ، ويمرّ فيدخل
بغداد من هناك ويمرّ في شارع دجيل الى مربعة
الفرس فيحمل منه هناك نهر يُقال له نهر دكان
الابناء ويغني هناك ويمرّ النهر الكبير من مربعة

الفرس الى قنطرة أبي الجون فيحمل هناك منه نهر الى كتاب اليتامى الى مربعة شبيب ويصب هناك في نهر الشارع سنذكره ، ثم يمر النهر الكبير من قنطرة أبي الجون الى شارع قصر هاني ، ثم يمر الى بستان القس ويصب في النهر الذي يمر بشارع القحاطبة ، ويحمل من نهر بطاطيا نهر أوله من قناة الكوخ يجيء الى بغداد ويمر على عبارة قورج على قنطرة باب حرب ويدخل بغداد من هناك ويمر في وسط شارع باب حرب الى شارع دار ابن أبي عون ، ويجيء الى مربعة أبي العباس ثم يجيء الى مربعة شبيب فيصب فيه النهر الذي ذكرناه ثم يمر الى باب الشام ، فهذه أنهار مدينة السلام قد بيناها ، وهذه الأنهار التي في الحربية من قنى تحت الأرض وأوائلها مكشوفة فافهم ذلك ان شاء الله .

- ٣ -

الاصطخري : أبو اسحق ابراهيم بن محمد
الفارسي الكرخي - المتوفى في حدود النصف
الاول من القرن الرابع .

المسالك والممالك (١)

وأما بغداد فإنها مدينة محدثة في الإسلام . لم تكن بها عمارة فأبنتى المنصور المدينة في الجانب الغربي ، وجعل حوالها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه ، مثل قطيعة الربيع ، والحربية وغيرهما ، ثم عمرت ، فلما كان في أيام « المهدي » جعل معسكره في الجانب الشرقي ، فسمى عسكر المهدي ثم عمرت بالناس والبنيان ، وانتقلت الخلافة الى الجانب الشرقي ، وهي اليوم أسفل هذا الجانب بالحريم ، ليس وراءها بتيان للعمامة متصل ، وتفرش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد حتى تتصل من نهرين الى شط دجلة ، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة الى الشماسية نحو خمسة أميال . وتحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربية ، فيمتد نازلاً على دجلة الى آخر الكرخ ويسمى الشرقي جانب الطاق (باب الطاق) وجانب الرصافة وعسكر المهدي ، فمن نسبته الى الطاق يعني أن أوله باب الطاق ، وهو موضع السوق الأعظم ومن نسبته الى الرصافة نسبه

(١) المسالك والممالك ، ٥٨ - ٥٩ ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبدالعال - ط . وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار القلم ١٣٨١هـ - ١٩٦١م القاهرة .

الى قصر كان الرشيد بناه بقرب المسجد الجامع بها ومن نسبته الى عسكر المهدي فإن المهدي كان عسكر من هذا الجانب بحذاء مدينة أبي جعفر ، ويسمى الجانب الغربي جانب الكرخ وبغداد مساجد جوامع في ثلاثة مواضع ، في مدينة المنصور ، وفي الرصافة وفي دار الخلافة وتتصل العمارة والبنيان بكلواذي وبها مسجد جامع فلو عد في جملة بغداد لجاز ، وقد عقد بين الجانبين على دجلة جسران من سفن ويكون من باب خراسان الى أن يبلغ باب الياسرية ، وذلك عرض الجانبين جميعاً نحو خمسة أميال ، وأمر بقعة منها الكرخ وبها اليسار ومساكن معظم التجار ، وأما الأشجار والأنهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة ، فإنها من ماء التهوران وتامر ، وليس يرتفع إليها من ماء دجلة الا شيء يسير يقصر عن العمارة وينضح بالدواليب ، وأما الجانب الغربي فإنه قد شق إليه من الفرات نهر عيسى من قرب الأنبار تحت قنطرة ديم ، وتتطلب من هذا النهر صلابات تجتمع فتصير نهراً يسمى الصراة ويتفرع منها أنهار ، وبها عمارات الجانب الغربي وتقع ما بقي من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة في دجلة . وينتهي آخر نهر عيسى الى دجلة في جوف مدينة بغداد ، وأما نهر عيسى فإن السفن تجري فيه من الفرات الى أن يقع في دجلة ، وأما الصراة فإن فيها حواجز تمنع من جري السفن ، فتنتهي السفن منها الى قنطرة الصراة ، ثم يحول ما فيها ويجاوز به ذلك الحاجز الى سفن غيرها (١) .

- ٤ -

ابن حوقل : أبو التاسم المتوفى بعد عام ٣٧٠ هـ .

صورة الأرض (١)

ومدينة السلام محدثة في الإسلام ابتناها أبو جعفر المنصور في الجانب الغربي من دجلة وجعل حوالها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه ،

(١) صورة الأرض ، ٢١٥ - ٢١٧ ، ط بيروت د . ت .
ويشير الناشر الى أن ابن حوقل هو من القرن العاشر الميلادي أي القرن الرابع الهجري وفي نصوص الكتاب اشارات صريحة في مواضع ذكرت في بغداد سنة ستين وخمسمائة أي أن تغييرات أساسية وإضافات زيدت على الكتاب . يراجع بشأن ابن حوقل كراتشكوفسكي (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) ٢٠٠/١ - ٢٠٥ .

كقطيعة الربيع والحريسة وغيرهما ثم عمرت وتزايدت . فلما ملكها المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسميَ عسكر المهدي وتزايد بالناس والبنيان وكثرت عمارتهم ، وانتقل اسم الخلافة الى الجانب الشرقي ، ودار من بيده حال من اسم المملكة وعمل الى اسفل هذا الجانب بالخرم واستحدث الدار التي في اسفلها للسلطان وليس بما وراءها بنيان للعامة متصل . ويتصل قصور السلطان وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد ، ثم يتصل من نهريين الى شط دجلة ، ويتصل البنيان بدار خلافتهم مرتفعاً على دجلة الى الشامية نحو خمسة اميال وتحاذي من الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلاً على دجلة البنيان الى آخر الكرخ . ويسمى الجانب الشرقي منها جانب باب الطاق وجانب الرصافة ، ويسمى عسكر المهدي لانه كان عسكر بحذاء مدينة أبي جعفر المنصور [ويبني هناك مسجد جامع حسن ، والآن فقد خرب ذلك المكان ولم يبق معمور غير الجامع ومقابر قرشي والمحلة المعروفة بقبر أبي حنيفة رضي الله عنه . وانتقلت العمارة الى نهر معلّى وقصد سور في زماننا هذا وهو عشر الستين وخمسمائة بسور حصين منيع ، وبين يديه خندق عميق محيط به يتخرقه ماء الدجلة [٢] ويسمى الجانب الغربي جانب الكرخ وبها مساجد للجمعة وصلاتها خاصة في اربعة مواضع منها فمناها في الجانب الغربي الذي بمدينة أبي جعفر ، وبالرصافة جامع آخر لاهل باب الطاق وفي دار السلطان ايضاً جامع يحضره الخاصة والعامة ومسجد برائنا في الجانب الغربي واستحدثه أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه وتتصل عمارة الجانب الشرقي في اسفل دار الخلافة بلكواذي، وهي ايضاً مدينة قصدة فيها مسجد جامع ولو عدّ في جملة بغداد لجاز لأن كثيراً من اهلها يصلون فيه . وبين الجانبين في وقتنا هذا جسر بقرب باب الطاق ، وكانا اثنين لعبير الجنازين ، ولما بان النقص عليهما عطل أحدهما لبيان الاختلال وهلك أكثر محالها وذلك انه كان من باب خراسان عمارة الى أن تبلغ الجسر وتمتد الى باب الياسرية من الجانب الغربي وعرضها فقد اختل ايضاً من الجانبين جميعاً نحو خمسة اميال، ونقص وهلك منه الكثير وأصمر بقعة بها اليوم الكرخ وجانبه لأن اهل الياسرية ومعظم مساكن

(٢) ما بين القوسين زيادة مقحمة في النص . وانبتها كما هي حفاظاً على الامانة العلمية .

التجار هناك وذكر بعض المؤلفين أن الموفق أمر بمساحتها فوجد الجانب الشرقي مائتي حبل وخمسين حبلاً وعرضه مائة حبل وخمسة احوال . ويكون ذلك ستة وعشرين ألف جريباً ، ومائتين وخمسين جريباً ، وهذا حساب لا اعرفه ووجد الجانب الغربي مائتين وخمسين حبلاً والعرض سبعين حبلاً ، سبعة عشر ألف وخمسين مائة جريب ، الجميع ثلاثمائة وأربعون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً . ويكون بفدان مصر حساب كل جريبين ونصف فدان سبعة عشر ألف فدان وخمسين مائة فدان ، وكانت هذه مساحة رقعها .

فاما الاشجار والأنهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة فإنها من ماء النهرين وتامراً ، ونيس يرفع إليها من دجلة الاشياء يقصر عن العمارة . واما الجانب الغربي فيشق إليه من الفرات نهر عيسى من قرب الأنبار تحت قنطرة ديمّا ، وتتخلّب من هذا النهر صبايات تجتمع فتصير نهراً يسمى الصراة يفضي ايضاً الى بغداد [عند المحلة المعروفة بباب البصرة] (٢) وعليه عمارات كثيرة للجانب الغربي وتنفجر منه أنهار كثيرة لعمارات الناحية ، ويقع ما يبقى من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة فيما يجاور نهر عيسى من بغداد في نحو نصف المدينة وعليها كثير من مساكنهم ودورهم وبساتينهم .

فاما نهر عيسى فإن السفن تجري فيه من الفرات الى أن يقع في دجلة والصراة فيها حواجز وموانع من جري السفن بسكور ودوال فيها ، فتنتهي السفن فيها الى قنطرتها ثم يحول ما يكون فيها فيجاور به ذلك الحاجز الى سفن غيرها . وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه أنهار من الفرات ، فأولها مما يلي بغداد نهر صرصر عليه مدينة صرصر تجري فيه السفن ، وعليه جسر من مراكب يعبر عليه ومدينة صرصر عامرة بالنخيل والزروع وسائر الثمار صغيرة من بغداد على ثلاثة فراسخ . ثم ينتهي على فرسخين الى نهر الملك وهو كبير ايضاً اضعاف نهر صرصر في غزر مائه ، وعليه جسر من سفن يعبر عليه ونهر الملك مدينة أكبر من صرصر عامرة بأهلها ، وهي أكثر نخلا وزرعا وثمرًا وشجراً منها . ثم ينتهي الى قصر ابن هبيرة ، وليس بين بغداد والكوفة مدينة أكبر منها وهي بقرب نهر الفرات الذي هو العمود ويطلع إليها هناك عن يمين وشمال أنهار مفترقة ليست بكبار ، الا انها تعمهم

طسئوج ممثا ذكرنا جامع وهي في كل يوم الى ورا ، واخشى انثا تعود كسامرا مع كثرة الفساد والجهل والغسق وجور السلطان اخبرنا ابو بكر الاسماعيلي بجرجان قال حدثنا ابن ناجية قال حدثنا ابراهيم الترجماني قال حدثنا سيف بن محمد قال حدثنا عاصم الاحول عن ابي عثمان النهدي قال كنت مع جرير بن عبدالله فقال اي شيء يدعى هذا النهر قالوا دجلة قال فهذا النهر الاخر قالوا دجيل قال فهذا النهر قالوا صرارة قال فهذا النخل قالوا قطربل قال فركب فرسه واسرع ثم قال سمعت رسول الله (صلعم) يقول تبني مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة تجبي اليها خزان الارض وجابرتها يخسف بهم فهم اسرع هويًا في الارض من الوند الحديد في الارض الرخوة ، وانهار الفرات تغلب في دجلة في جنوبيتها وما حاذى المدينة وما شماليها دجلة حسب وتجرى في هذه الشعب القرائسة السفن الى الكوفة وفي دجلة الى الموصل وذكر الشمشاطي في تاريخه ان المنصور لما اراد بناء مدينة السلام احضر اكبر من عرف من اهل الفقه والعدالة والامانة والمعرفة بالهندسة وكان فيهم ابو حنيفة النعمان بن ثابت والحجاج بن اربعة وحشر الصنائع والفعلة من الشام والموصل والجبل وسائر اعماله وامر بخططها وحفر الاساسات في سنة ١٤٥ وتمت في سنة ٤٩ وجعل عرض السور من اسفل خمسين ذراعًا وجعلها بثمانية ابواب اربعة داخلية صفار واربعة خارجية كبار باب البصرة وباب الشام وباب خراسان وباب الكوفة وجعل الجامع والقصر وسطها وقبلة جامع الرصافة اصح منه ووجدت في بعض خزائن الخلفاء ان المنصور انفق على مدينة السلام اربعة آلاف الف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً لان اجرة الاستاذ كانت قيراطاً والروزكاري حبتين .

- ٦ -

المنجم : الشيخ اسحق بن حسين المنجم ت/حوالي « القرن الخامس » .

آكام المرجان (١)

ذكر مدينة بغداد

وانما رجعنا الى ذكر مدينة بغداد بعد تقديم

(١) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ص ٤٠٥ طبعة بالافسييت د. ت .

لحاجتهم وتقوتهم وهي اعر نوأحي السواد ، ثم ينتهي الى نهر سورا وهي مدينة مقتعدة ونهر كثير الماء وليس للفرات شعبة اكبر منه وينتهي الى سائر سواد الكوفة ، ويقع الفاضل منه الى بطائح الكوفة وسورا هذه بين تلك النواحي اكثرها كروما واشربة ، وكربلا من غربي الفرات فيما يحاذي قصر ابن هبيرة ، وبها قبر الحسين بن علي صلوات الله عليهما ، وله مشهد عظيم وخطب في اوقات من السنة بزيارته وقصده جسيم .

- ٥ -

المقدسي : محمد بن احمد ، ت/٣٩٠ هـ

احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

بغداد في مصر الاسلام ، وبها مدينة السلام ، ولهم الخصائص والظرافة والقرائع واللطافة هواء رقيق وعلم دقيق ، كل جيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها وكل ظرف لها ، وكل قلب إليها وكل حرب عليها ، وكل ذب عنها ، هي اشهر من ان توصف واحسن من ان تنعت وأعلى من ان تمدح احدثها ابو العباس السفاح ثم بنى المنصور بها مدينة السلام وزاد فيها الخلفاء من بعده ولما اراد بناء مدينة السلام . سأل عن شتائها وصيفها ، والأمطار والبق والهواء وامر رجالاته ، حتى يناموا ، فيها فصول السنة حتى عرفوا ذلك ثم استشار اهل الرأي من اهلها فقالوا نرى ان تنزل اربع طساسيج في الجانب الشرقي بوق وكلواذي وفي الغربي قطربل وبادوريا فتكون بين نخل وقرب ماء فان اجذب طسئوج او تاخرت عمارته كان في الآخر فرج وانت على الصراة تجيئك الميرة في السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام في البادية وتجيئك آلات من الصين في البحر ومن الروم والموصل في دجلة فانت بين انهار لا يصل إليك العدو الا في سفينة او على قنطرة على دجلة وفرات فبناها اربع قطع مدينة السلام وبادوريا والرصافة وموضع دار الخليفة اليوم وكانت احسن شيء للمسلمين واجل بلد وفوق ما وصفنا حتى ضعف امر الخلفاء فاختلت وخف اهلها ، فاما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب اعمر موضع بها قطعة الربيع والكرخ في الجانب الغربي وفي الشرقي باب الطاق وموضع دار الامير والعمارات والاسواق بالغربي اكثر والجسر عند باب الطاق الى جانبه بيمارستان بناء عضد الدولة حصل في كل

ما وجب تقديمه لأنها أصل المدائن وأحسنها بنياناً وأطيبها هواء وهي في وسط الأقليم الرابع الذي هو أعز الأقاليم وأهلها أعظم الناس في ضروب اللب والفهم بناها أبو جعفر المنصور من بني العباس وأبتدأ بذلك في الأول سنة إحدى وأربعين ومائة ونقل إليها البناء والحدائق والصناعات من جميع البلدان وجعلها مدورة ووسع رياضها وأزقتها وكان الذي تولى ذلك من أهل الحساب والمهندسين الحجاج بن يوسف الحاسب والطبري وأبراهيم الفراري ولها درب بابواب في دورها عشرون ذراعاً ولها أربعة أبواب ما بين كل باب خمسة آلاف ذراع باب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان وباب الشام وعلى كل باب تلبس من الحديد لا يغلقتها إلا جماعة من الرجال ولكل باب منها دهليز وعلى كل باب منها قبة عظيمة مزينة بالذهب وحول القصر دور الأولاد من بني العباس ، وأهل الخدمة والقصر في وسط المدينة ، وإلى جانبه المسجد الأعظم وهي بين نهر الدجلة والفرات وكان بها من المساجد في القديم ألف مسجد وعشرون ألف حمام وبعدها عن خط المغرب سبعون درجة وذلك من الأميال أربعة آلاف وستمائة وعشرون ميلاً وبعدها عن خط الاستواء في الشمال ثلاث وثلاثون درجة وذلك من الأميال ألفان ومائة وثمانية وسبعون ميلاً وكان المنصور قد نقل إليها النخل والأشجار فأثبتت ونمت في مدة يسيرة وذلك لطيب مائها واعتدال هوائها وكذلك نقل إليها الرخام والاساطين والصناعات من كل بلد وأمر أهل الخدمة أن يقطع كل واحد منهم ويبنى فقطعوا وأكثروا البناء وقامت في أقل مدة وبساتينها تسقى بماء الدجلة والفرات في قنوات وكان سكنى المنصور قبل ذلك في مدينة الأنبار ثم نزلها السفاح أول خلفاء بني العباس .

- ٧ -

البكري :

معجم ما استعجم (١)

بغداد : فيها أربع لغات - بغداد بدالين مهملتين ، وبغداد معجمة الأخيرة وبغداد بالنون ، ومغداد باليم بدلاً من الباء ، تذكر وتؤثث .

(١) أبو عبيد عبدالله عبدالعزيز البكري الأندلسي ت/٨٧هـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، ٢٦١/١ تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الأولى - ١٩٤٥ القاهرة .

قال ابن الأنباري : أنبأنا أبو العباس ؛ قال : سمعت بعض الأعراب يقول : لولا أن تراب بغداد كحل لعلى أهلها . وأنشد :

ما أنت يا بغداد إلا سكرج وإن سكنت فتراب برح

وأنشد أبو بكر المخزومي في بغداد :

اقرأ سلاماً على نجر وساكين
وحاضر باللوى إن كان أو بادي
سلام مغرب بغداد منزله
إن أنجد الناس لم يهضم بانجاد

وأنشد صاحب العين شاهداً على بغداد :

لما رأيت القوم في اغداد
وإنه السير إلى بغداد
جئت فسأمت على معاذ

قال أبو حاتم : سألت الأصمعي كيف يقال : بغداد أو بغداد : أو بغداد ، أو بغدين ؟ فقال : قل مدينة السلام وأبغضه الي بغداد ، بالذال المنقوطة هكذا نقل عنه أبو حاتم قال أبو حاتم : وإنما كره الأصمعي هذه الأسماء لأن بغداد بالفارسية عطية الصنم ، لأن [بغ] صنم ، و [داد] عطية وكانت قرية من قرى الفرس فأخذها أبو جعفر غصباً فبنى فيها مدينته .

قال الجرجاني : باغ بالفارسية هو البستان الكثير الشجر وداذ معطى ، فمعناه معطى البساتين .

- ٨ -

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي ت/٦٢٦هـ

(١) المشترك وضعاً والمفترق صقلاً

بغداد البلد المشهور المعروف فيه لغات وله اشتقاق بسطت القول فيه في المعجم (معجم البلدان) . وبغداد حدثنني الحافظ أبو عبدالله محمد بن محمود ابن النجار قال : خرجنا من مكة نريد جدة فسمعناهم يقولون اللبلة نبيت في بغداد فباتوا في منزل قفر هناك ، لا أدري قال في

(١) تحقيق : فردناند وستنفلد . ط . جوتنجن ١٨٤٦ . ص ٦٠ .

رمضان سنة ٢٣٣ هـ ومات في جمادى الآخرة سنة ٣٣١ هـ والهيثم بن محمد الدوري .

باب دولاب : يروى بضم الدال وفتحها دولاب مبارك في شرقي بغداد ينسب إليها أبو جعفر محمد بن الصبّاح البزاز الدولاوي سمع إبراهيم بن سعد واسماعيل بن جعفر وشريكا وغيرهم ، روى عنه أحمد بن حنبل وابنه عبد الله وإبراهيم الحربي وأصله من هراة مولى لمزينة سكن بغداد وابنه أحمد بن محمد بن الصباح حدث عن أبيه وغيره .

باب ربض الأرباض كثيرة قلّ ما تخلو مدينة من موضع فيها يقال له الربض ، وأما المذكور منها ها هنا ما نسب إليه أحد أو ما لا يعرف إلاّ بأضافته إلى رجل ، والربض في الأصل حريم الشيء يقال انربض بالضم وتسكين الباء أساس المدينة والربض بالفتح والتحريك ما حوله من خارج وقيل هما لفتان ، وقد نسب إلى هذه الأرباض قوم يحتاج إلى التفرقة بينهم ، الأول ربض أبي حنيفة بالجانب الغربي من بغداد قرب الحريم الطاهري ينسب إلى قائد من قواد المنصور يقال له أبو حنيفة ، وربض أبي عون ببغداد وأبو عون من موالى المنصور . وربض أصبهان ينسب إليه أبو شكر أحمد بن محمد بن علي الربضي سمع الأصبهانيين روى عنه أبو مسعود سليمان بن إبراهيم الحافظ الأصبهاني ، وربض حرب وهو المحلة المعروفة اليوم بالحربية ببغداد ، وحرب من قواد المنصور وربض حمزة محلّة كانت في غربي بغداد خربت .

وربض حميد بن قحطبة الطائي ببغداد ومتصل بالنصرية .

وربض الخوارزمية ببغداد أيضاً يتصل بربض الفرس من الجانب الغربي .

وربض رشيد ببغداد متصل بربض الخوارزمية ، ورشيد من موالى المنصور وهو والد داود بن رشيد المحدث ، وربض زهير بن المسيب ببغداد متصل بربض سعيد بن حميد ، وربض سعيد بن حميد ، وربض سلمان بن مجالد مولى المنصور ببغداد .

وربض عثمان بن نهيك متصل بربض الخوارزمية .

وربض نصر بن عبد الله ببغداد يعرف اليوم بالنصرية .

وربض هيلانة بين الكرخ وباب مَحَوّل

المنزل الأول أو الثاني من مكة . وقال لي الشيخ الإمام أبو الربيع سليمان بن الريحاني جزاه الله خيراً اسم هذا الموضع بغيرديد بالتصغير وهو على ليلة من مكة (*) .

*** باب الحريم :** بفتح الحاء وكسر الراء ، وياء ساكنة الأول [وميم] حريم دار الخلافة ببغداد وهو مقدار ثلث مدينة السلام ببغداد ، وعليه سور ابتدأه من دجلة وانتهأه إلى دجلة كهية الهلال أو نصف دائرة وله أبواب أولها باب الغربية على دجلة ثم باب سوق التمر ، باب شاهق البناء وأغلق في أول أيام الناصر أبي العباس أحمد ، واستمر غلقه إلى الآن ثم باب البدرية ثم باب النوبي ، وفيه المئبة التي تقبلها الرسل والملوك وغيرهم ، إذا قدموا ببغداد . وهي قطعة من عمود رخام أبيض مطروحة أمام هذا الباب طولاً ، ثم باب العامة ويقال له أيضاً باب عمورية ، وبين هذين البابين محال يسكنها عامة الناس بينهم وبين دار الخلافة سور آخر فيه عدة أبواب منها باب الدوامات وباب عليان ، وباب الحرم وغير ذلك ، ثم يمتد السور من باب العامة نحو ميل لا باب فيه إلاّ باب بستان في آخر المأمونية تحت المنطرة التي تنحدر تحتها الضحايا في الأعياد ، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة من جهة باب الأزج نحو رميتي سهم وهو من ناحية الشرق وجميع ما يشتمل عليه هذا السور يسمى حريم دار الخلافة فيه محال وأسواق وخاناتها ودور كثيرة للرعية كأكبر مدينة وبين منازل الرعية وبين دجلة سور آخر من دونه دور الخلافة لا يشركه فيه شيء من منازل غيره وأما بسطنا القول في هذا ، وذكرناه لكثرة ما يجيء ذكره في التواريخ والأخبار ، وربما نسب إليه بعض الرواة . الثاني باب الحريم الطاهري في أعلا مدينة دار السلام ببغداد في الجانب الغربي كان منازل آل طاهر بن الحسين وكان من لجأ إليه آمن فسمي الحريم ، وقد نسب إليه جماعة من رواة الحديث منهم ... (*)

والدور محلّة في طرف بغداد بباب الطاق قرب مشهد أبي حنيفة الإمام خربت ينسب إليها أبو عبد الله محمد بن مخلد بن حفص الدوري العطّار ، سمع يعقوب الدوري والزبير بن بكار وغيرهما ، روى عنه الدارقطني وأبو الحسين الأجرى والجماني وغيرهم ، وكان ثقة ولد في

(*) في الأصل بياض ١٢٩ - ١٣٠ .

وهي لآنة قهرمانه المنصور أو حظية الرشيد والى أحد هذه الأرباض التي ببغداد ينسب أبو أيوب سليمان الرُبضي الضرير حدث عن داود بن المحبّر ابن محمد ، روى عنه إبراهيم بن الوليسد الحشاش .

(باب الرصافة)

بضم الراء رصافة بغداد محلة كبيرة بالجانب الشرقي عمرها المنصور لابنه المهدي وهي التي تعرف أيضاً بعسكر المهدي وقد حدثت من أهل هذه الرصافة جماعة منهم محمد بن بكر بن ريان أبو عبدالله الرصافي مولى بني هاشم وجمفر بن محمد بن علي أبو الحسن السُّمّار وغيرهما كثير .

الرملة محلة كانت ببغداد في مشرعة الكرخ الى دجلة ثم خربت وهي في الجانب الغربي .

روذبار من قرى بغداد ينسب إليها أحمد ابن عطاء الروذباري ابن اخت أبي علي الروذباري قاله أبو موسى الحافظ والنسوي ، والباطقراي الى روذبار بغداد .

الريان محلة ببغداد عامرة الى الآن بالقرب من باب الأزج ينسب إليها أبو المعالي هبة الله بن الحسين بن الحسن بن أبي الاسود الرياني يعرف بأبن التل حدث عن قاضي البمارستان وغيره .

باب الزبيدية : منسوبة الى زبيدة بنت جعفر بن المنصور أم محمد الأمين بن الرشيد ، والزبيدية محلة ببغداد بالجانب الغربي قرب باب التبن ، والزبيدية أيضاً محلة ببغداد من الجانب الغربي أسفل مدينة السلام .

باب الزعفرانية : والزعفرانية قرية قرب كلواذا تحت بغداد ينسب إليها الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني وإليه ينسب درب الزعفراني ببغداد وهو صاحب الشافعي قرأ عليه كتبه لما ورد الى بغداد فقال له الشافعي من أي العرب أنت فقال ما أنا بعربي وإنما أنا من قرية يقال لها الزعفرانية فقال له أنت سيد هذه القرية وسمع أيضاً ابن عيينة وغيره روى عنه أبو داود السجستاني والترمذي وغيرهما ، وتوفي سنة ٢٤٩ في ربيع الآخر وقد نسب جماعة الى درب الزعفراني هذا ، هكذا .

باب الزوراء بفتح الزاي وسكون الواو ، وراء والمد ، الزوراء اسم لدجلة ببغداد

سميت بذلك لميلها وانعراجها ، والزوراء مدينة المنصور ببغداد تسمى الزوراء (ايضاً) ، قالوا لأنه جعل أبوابها الداخلة مزورة عن أبوابها الخارجة .

باب الزهيرية : رضى كان ببغداد ينسب الى زهير بن المسيب في شارع الكوفة .

والزهيرية (ايضاً) محلة كانت ببغداد ايضاً يقال لها قطعة زهير بن محمد الأبيوردي وهو ازدي غامدي الى جانب قطعة أبي النجم .

الزبدية : قرية من سواد بغداد من اعمال بادوريا ، ينسب إليها أبو بكر محمد بن يحيى بن محمد الشوكي الزيدي سمع محمد بن اسماعيل الوراق وأبا حفص بن شاهين وغيرهما .

باب السلام بفتح السين مدينة السلام ببغداد ينسب إليها سلامي ، كما نسب إليها محمد بن عبدالله السلامي الشاعر مات سنة ٣٩٣ هـ وأبو الفضل محمد بن ناصر السلامي الحافظ ولد سنة سبع أو ثمان وستين وأربعمئة ومات في شعبان سنة ٥٥٠ وغيرهما وقصر السلام من ابناء الرشيد بالركة .

سوق الثلاثاء ينهر العلّى من محال مدينة السلام ببغداد كانت تقام فيه سوق في كل شهر مرة في يوم الثلاثاء فنسب إليه اليوم الذي كانت تقام فيه وذلك قبل أن يعمر المنصور ببغداد وهو الآن من أعمار محال بغداد وبه معظم سوق البزازين .

سوق السلاح محلة كانت ببغداد نسب إليها أبو الحسين محمد بن محمد بن المظفر بن عبدالله الدقاق السلاحي المعروف بأبن السراج بغدادى سكن سوق السلاح سمع أبا القاسم بن حبابة وعلي ابن عمر الحربي وأبا عبيدالله المرزباني سمع منه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ، وكان صدوقاً مولده سنة ٣٧٤ ، ومات سنة ٤٤٨ .

وسوق عبدالواحد كان ببغداد بالجانب الغربي عند باب الكوفة قرب باب البصرة ، وسوق العطش كان من أكبر محال ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر الملعلى بناه سعيد الخرسى للمهدي ، وقال له المهدي عند تمامه سمّه سوق الري فقلب عليه سوق العطش ، والخرسي نسبة الى خراسان وكان صاحب الشرطة ببغداد .

وسوق يحيى ببغداد بين الرصافة ودار الملكة منسوبة الى يحيى بن خالد البرمكي وإياها عنى ابن حنّاج بقوله [الى وطني القديم بسوق يحيى فقلبي عن هواه غير سالي] .

أبن ذكوان بن الفضل الحراني من موالي المنصور
ووزير الهادي موسى بن المهدي .

الطاهرة : من قرى بغداد يستنقع في موضع
من أرضها فضلات مياه الأمطار والأنهار فيتولد فيه
سمك كثير جداً يسميه أهل العراق البني أطيب ما
يكون من أنواع السمك فيضمنه السلطان بمال
وافر .

والطاهري بغير هاء الحريم الطاهري (محلة)
ببغداد (معروفة) تقدم ذكره في الحريم .

باب عسكر : عسكر أبي جعفر المنصور
أمير المؤمنين وهي مدينته المسماة اليوم
باب البصرة التي بها جامع المنصور ، وقصره
ببغداد .

باب القرية وهو تصغير القرية القرية
محلة كبيرة في حريم دار الخلافة ببغداد سكنها
وكان بها جماعة من أهل العلم ونسبوا إليها
والقرية أيضاً محلة كبيرة كالمدينة ذات أسواق
وجامع مفرد بالجانب الغربي من بغداد مقابل
سوق المدرسة النظامية كان بها جماعة ممن روى
الحديث .

باب القطيعة أربعة عشر موضعاً بفتح
القاف وكسر الطاء وياء ساكنة وعين مهملة وهاء
وجميعها محال ببغداد قد نسب إلى بعضها قوم
من المحدثين فذلك أوجب ذكرها كان أبو جعفر
المنصور لما عمر بغداد أقطع كل واحد من قواده
وأعيان أصحابه موضعاً ليعمره ويسكنه ، هو
واتباعه ففعلوا ونسبت كل قطعة إلى من عمرها
وأنا أذكر من أضيفت إليه القطيعة على حروف
المعجم ، قطيعة اسحق الأزرق انشروي مولى
محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو قرب
الكرخ ، وقطيعة أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن
المنصور كانت ببغداد قرب باب التين من الجانب
الغربي ينسب إليها اسحق بن محمد بن اسحق
القطيعي الناقد حدث عن الحسن بن عرفة وغيره ،
وقطيعة بني جدار بطن من الخزرج نسب إليهما
بعض الرواة جداري ، وقطيعة الدقيق ببغداد
بالجانب الغربي ينسب إليها أبو بكر أحمد بن
جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي وكان من
الكثيرين روى عنه الأئمة ، ومات سنة ٣٦٨ ،
وقطيعة الربيع بن يونس حاجب المنصور ، أقطعه
إياها المنصور ، وتعرف بالقطيعة الداخلة ينسب
إليها أبو معمر اسماعيل بن إبراهيم بن معمر بن
الحسن الهروي القطيعي بغدادى ثقة ، وقطيعة
الربيع أيضاً ، وتعرف بالقطيعة الخارجة أقطعه

سوق حجاج منسوبة إلى حجاج
الوصيف مولى المهدي كانت شرقي بغداد خربت .

سوق العباسية بنت الرشيد بن المهدي
ببغداد .

وسوق أبي عبيد الله بن معاوية بن عمرو وزير
المهدي كانت بين الرصافة ودار الملكة خربت .

وسوق عبد الوهاب محلة قديمة في غربي
بغداد تنسب إلى عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام بن
محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

وسوق خالد ببغداد تنسب إلى خالد بن
برمك كانت بباب الشماسية من شرقي بغداد .

وسوق غالب من محال ببغداد ينسب إليها
بعض الرواة .

وسوق نصر وهو نصر بن مالك الخزازي في
شرقي بغداد أقطعه إياها المهدي وهو والد أحمد
ابن نصر الزاهد المتحن في أيام الواثق في خلق
القرآن المصلوب فيه ولم يقل أنه مخلوق .

وسوق أبي الورد في غربي بغداد بين
الكرخ والرصافة تنسب إلى أبي الورد عمر بن المطرف
الخراساني صاحب المظالم في أيام المهدي .

وسوق الهيثم في غربي بغداد تنسب إلى
الهيثم بن سعيد بن طاهر مولى المنصور قرب مدينة
المنصور .

شارع الأنبار من محال ببغداد قرب
مدينة المنصور من جهة الأنبار فلذلك سميت
شارع الأنبار .

شارع الرقيق ببغداد أيضاً محلة متصلة
بالحريم الطاهري من الجانب الغربي عامرة إلى
الآن .

شارع الميدان من محال ببغداد أيضاً بالجانب
الشرقي بظاهر الرصافة ، وكان شارعاً ماداً من
باب الشماسية إلى سوق الثلاثاء ، ولهذه
الشوارع ذكر في الأخبار والأشعار كثير ، فذلك
الذي أوجب ذكرها .

باب طاق : طاق أسماء في شرقي بغداد
بين الرصافة ودار الملكة منسوب إلى أسماء
بنت المنصور وهو الذي يقال له رأس الطاق كان
طاقاً عظيماً يجلس إليه الشعراء . وطاق الحراني
محلة كانت ببغداد في الجانب الغربي قالوا هو من
حد القنطرة الجديدة . والحراني هذا هو إبراهيم

لفظها إذ لم يكن أصلها من كلامهم ولا اشتقاقها من لغاتهم .. قال بعض الأعاجم تفسيره بستان رجل ، فباغ بستان و داد اسم رجل وبعضهم يقول بغ اسم للصنم فذكر انه أهدي الى كسرى خشي من المشرق فأقطعه إياها وكان الخشي من عباد الأصنام ببلده فقال بغ داد اي الصنم اعطاني وقيل بغ هو البستان و داد أعطى وكان كسرى قد وهب لهذا الخشي هذا البستان فقال بغ داد فسميت به .. وقال حمزة بن الحسن ببغداد اسم فارسي معرب عن باغ داذوبه لأن بعض رقعة مدينة المنصور كان باغا لرجل من الفرس اسمه داذويه وبعضها اثر مدينة دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطها فاعتل فقالوا : ما الذي يأمر الملك ان تسمى به هذه المدينة فقال : هيلدوه وروز ، أي خلوها بسلام فحكى ذلك للمنصور فقال سميتها مدينة السلام . وفي بغداد سبع لغات - بغداد وبغدان وبأبي اهل البصرة ولا يجيزون بغداد في آخره المذال المعجمة وقالوا لأنه ليس في كلام العرب كلمة فيها دال بعدها ذال .. قال أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحق فقلت لأبي اسحق ابراهيم ابن السري فما تقول في قولهم خرداذ فقال هو فارسي ليس من كلام العرب قلت انا وهذا حجة من قال بغداد فإنه ليس من كلام العرب وأجاز الكسائي بغداد على الأصل وحكى أيضا بغداد ومغداد ومغدان وحكى الخارزنجي بغداد بدالين مهملتين ، وهي في اللغات كلها تذكر وتؤنث وتسمى مدينة السلام أيضا .. فاما الزوراء فمدينة المنصور خاصة وسميت مدينة السلام لأن دجلة يقال لها وادي السلام ، وقال موسى بن عبدالحميد النسائي كنت جالسا عند عبدالعزيز ابن أبي رواد فأتاه رجل فقال له من اين أنت فقال له من بغداد فقال : لا تقل ببغداد فان بغ صنم و داد أعطى ولكن قل مدينة السلام فإن الله هو السلام والمدن كلها له وقيل إن بغداد كانت قبل سوقا يقصدها تجار أهل الصين بتجاراتهم فيربحون الربح الواسع وكان اسم ملك الصين بغ فكانوا إذا انصرفوا الى بلادهم قالوا بغ داد اي ان هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك وقيل إنما سميت مدينة السلام لأن السلام هو الله فأرادوا مدينة الله .. وأما طولها فذكر بطليموس في كتاب الملحمة المنسوب إليه ان مدينة بغداد طولها خمس وسبعون درجة وعرضها أربع وثلاثون درجة داخلية في الاقليم الرابع .. وقال أبو عون

أيها المهدي بالله أمير المؤمنين ، وقطيفة ريسانة بعض القهارة محلة كانت بقرب مسجد رغبان في غربي بغداد قرب باب الشعير ، وقطيفة زهير قرب حريم بني طاهر بالجانب الغربي وهو زهير بن محمد الأيوبردي ، وقطيفة المعجم بالجانب الشرقي بين باب الحلبة و**باب الأزج** محلة كبيرة ينسب إليها جماعة منهم أبو العباس أحمد عمر القطيعي الحنبلي كان واعظا وابنه أبو الحسين محمد تركته ببغداد حيا سمع وروى وصنف ويرى انه من الحفاظ الأعيان ، وقطيفة العكي وهو مقاتل بن حكيم بن عبدالرحمن بن الحرث من قواد المنصور بين باب البصرة وباب الكوفة من مدينة المنصور ، وقطيفة عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس - عم المنصور - ببغداد ينسب إليها ابراهيم ابن محمد بن الهيثم القطيعي كان يسكن في جوار عبيد العجل بقطيفة عيسى حدث عن منصور بن أبي مزاحم وأبي معمر الهذلي وعمرو انقاد وغيرهم روى عنه أبو عبدالله المحاملي وغيره ، وقطيفة الفقهاء بالكرخ وقد فرق المحدثون بينها وبين قطيفة الربيع بالكرخ فنسبوا الى هذه أبا اسحق ابراهيم - بن محمد - بن منصور القطيعي الكرخي روى عن خديجة بنت محمد بن عبدالله الشاهجانية وأبي بكر الخطيب وغيره ذكره أبو سعيد في شيوخه وتوفي سنة سبع أو ثمان وثلاثين وخمسماية ، وقطيفة أبي النجم احد قواد المنصور متصلة بقطيفة زهير متصلة بالحريم الظاهري ، وقطيفة النصارى محلة متصلة بنهر طابق من محال بغداد .

المالكية قريبة على باب مدينة السلام - بغداد - مقابل باب الظفرية .

باب الحمديّة : والمحمديّة أيضا من قرى بغداد من ناحية نهر سلّ نسبوا إليها أبا علي محمد ابن الحسين بن أحمد بن الطيب الحمدي الأديب روى عنه هبة الله الشيرازي .

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ت/ ٦٢٦ هـ .

(ب) معجم البلدان (١)

بغداد أم الدنيا وسيدة البلاد .. قال ابن الأنباري أصل بغداد للأعاجم والمرب تختلف في

(١) معجم البلدان ١/ ٤٥٦ - ٤٦٧ ، ط . دار صادر بيروت ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

وغيره إنها في الأقليم الثالث . قال : طالعتها السَّمَاءُ الأعزَلُ بيت حياتها القوس لها شركة في الكف الخضيب ولها أربعة أجزاء من سرّة الجوزاء تحت عشر درج من السرطان يقابلها مثلها من الجدي عاشرها مثلها من الحمل عاقتها مثلها من الميزان ؛ قلت أنا ولا شك أن بغداد أحدثت بعد بطليموس بأكثر من ألف سنة ، ولكنني أظن أن مفسري كلامه قاسوا وقالوا ؛ وقال صاحب الزيج طول بغداد سبعون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاث وعديل نهارها ست عشرة درجة وثلاث درجة ، وأطول نهارها أربع عشرة ساعة وخمس دقائق وغاية ارتفاع الشمس بها ثمانون درجة وثلاث ، وظلّ الظهر بها درجتان ، وظلّ العصر أربع عشرة درجة ، وسمت القبلة ثلاث عشرة درجة ونصف ، وجهها عن مكة مائة وسبع عشرة درجة في الوجود ثلاثمائة درجة هذا كله نقلته من كتب المنجمين ولا أعرفه ولا هو من صناعتي . . وقال أحمد بن حنبل بغداد من الصّرة إلى باب التبن وهو مشهد موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن الإمام علي بن أبي طالب ، ثم زيد فيها حتى بلغت كلواذى والمخرم وقطربل قال أهل السّير ، ولما هلك الله مهران بأرض الحيرة ومَنْ كان معه من العجم استمكن المسلمون من الغارة على السّواد وانتقضت مسالح الفرس وتشتّت أمرهم وأجترأ المسلمون عليهم وشنوا الفارات ما بين سسورا وكسكرك والصّرة والفلايج والاستانات . . قال أهل الحيرة للمثنى إن بالقرب منّا قرية تقوم فيها سوق عظيمة في كلّ شهر مرّة فيأتيها تجار فارس والأهواز ، وسائر البلاد يقال لها بغداد وكذا كانت إذ ذاك فأخذ المثنى على البرّ حتى أتى الأنبار فتحصّن فيها أهلها منه فأرسل إلى سفروخ مرزبانها ليسير إليه فيكلمه بما يريد وجعل له الأمان فعبر المرزبان إليه فخلا به المثنى وقال له أريد أن أغير على سوق بغداد وأريد أن تبعث معي أدلاء فيدلّوني الطريق وتعقد لي الجسر لأعبر عليه الفرات ففعل المرزبان ذلك وقد كان قطع الجسر قبل ذلك لئلا تعبر العرب عليه فعبر المثنى مع أصحابه وبعث معه المرزبان الأدلاء فسار حتى وافى السوق ضحوة فهرب الناس وتركوا أموالهم فأخذ المسلمون من الذهب والفضة وسائر الأمتعة ما قدروا على حمله ثم رجعوا إلى الأنبار ووافى معسكره غانماً موفوراً وذلك في سنة ١٣

للهجرة فهذا خبر بغداد قبل أن يمصرها المنصور لم يبلغني غير ذلك .

[فصل] في بدء عمارة بغداد . . كان أول من مصرها وجعلها مدينة المنصور بالله أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ثاني الخلفاء وانتقل إليها من الهاشمية . وهي مدينة كان قد اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة وشرع في عمارتها سنة ١٤٥ ونزلها سنة ١٤٩ ؛ وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك من فعلهم فانتقل عنهم يرتاد موضعاً . وقال ابن عياش : بعث المنصور رواداً وهو بالهاشمية يرتادون له موضعاً يبني فيه مدينة ويكون الموضع واسطاً رافقاً بالعامّة والجند فنُصِبَ له موضع قريب من بارما وذكر له غذاؤه وطيب هوائه فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه فرأى موضعاً طيباً فقال لجماعة منهم سليمان بن مجالد وأبو أيوب المرزباني وعبد الملك بن حميد الكاتب ما رأيكم في هذا الموضع قالوا طيب موافق فقال صدقتم ولكن لا مرفق فيه للرعية وقد مررت في طريقي بموضع تجلب إليه الميرة والأمتعة في البرّ والبحر وأنا راجع إليه وبأنت فيه فإن اجتمع لي ما أريد من طيب الليل فهو موافق لما أريده لي وللناس ، قال فأتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر وذلك في صيف وحرّ شديد وكان في ذلك الموضع بيعة فبات أطيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلاّ خيراً فقال هذا موضع صالح للبناء فإن المادة تأتيه من الفرات ودجلة وجماعة الأنهار ولا يحمل الجند والرعية إلاّ مثله فخطّ البناء وقدر المدينة ووضع أول لبنة بيده فقال بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله ؛ وذكر سليمان بن مختار أن المنصور استشار دهقان بغداد وكانت قرية في المربعة المعروفة بأبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي وما زالت داره قائمة على بنائها إلى أن خرب كثير مما يجاورها في البناء فقال الذي أراه يا أمير المؤمنين أن تنزل في نفس بغداد فإنك تصير بين أربعة طاسيج ، طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي فاللدان في الجانب الغربي قطربل وبادوريا واللدان في الشرقي نهر بوق وكلواذى فإن تأخّرت عمارة طسوج منها كان الآخر عامراً وانت يا أمير المؤمنين على الصّرة ودجلة تجيئك بالميرة من القرب وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان وتحمل اليك طرائف

الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة
وتجيك ميرة أرمينية واذربيجان وما يتصل بها
في تامرأ وتجيك ميرة الموصل وديار بكر وربيع
وانت بين انهار لا يصل إليك عدوك الا على جسر
او قنطرة فاذا قطعت الجسر والقنطرة لم يصل
إليك عدوك وانت قريب من البر والبحر
والجبل ؛ فأعجب المنصور هذا القول وشرع في
البناء ووجه المنصور في حشر الصنائع والفعلية من
الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط فاحضروا
وأمر باختيار قوم من اهل الفضل والعدالة والفقہ
والأمانة والمعرفة بالهندسة فجمعهم وتقدم إليهم
أن يشرّفوا على البناء وكان ممن حضر الحاج بن اربعة
وابو حنيفة الامام وكان اول العمل في سنة ١٤٥
وأمر أن يجعل عرض السور من أسفله خمسين
ذراعاً ومن أعلاه عشرين ذراعاً وأن يجعل في البناء
جرز القصب مكان الخشب فلما بلغ السور مقدار
قائمة اتصل به خروج محمد بن عبدالله بن حسن
ابن حسن بن علي بن أبي طالب فقطع البناء حتى
فرغ من امره وأمر أخيه ابراهيم بن عبدالله بن
حسن بن حسن ..

وعن علي بن يقطين قال كنت في عسكر أبي
جعفر المنصور حين سار الى الصرة بلمس
موضعاً لبناء مدينة ، قال فنزل الدبر الذي على
الصرة في العتيقة فما زال على دابته ذاهباً جاثياً
منفرداً عن الناس يفكر قال وكان في الدبر راهب
عالم فقال لي لم يذهب الملك ويجيء قلت انه يريد
أن يبني مدينة .. قال فما اسمه ؟ قلت : عبدالله
ابن محمد .. قال أبو من ؟ قلت : أبو جعفر قال
هل يلقب بشيء قلت المنصور قال ليس هذا الذي
يبنيها قلت ولم ؟ قال لانا قد وجدنا في كتاب
عندنا توارثه قرناً عن قرن أن الذي يبني هذا
المكان رجل يقال له : مقلّاص .. قال فركبت من
وقتي حتى دخلت على المنصور ودنوت منه فقال
لي ما وراءك قلت خيراً ألقه الى أمير المؤمنين
وأريحه من هذا العناء فقال : قل ، قلت أمير
المؤمنين يعلم أن هؤلاء معهم علم وقد أخبرني راهب
هذا الدبر بكذا وكذا فلما ذكرت له مقلّاص ضحك
واستبشر ونزل عن دابته وأخذ سوطه وأقبل
يندفع به فقلت في نفسي لحقه اللجاج ثم دعا
المهندسين من وقته وأمرهم بخط الرماد فقلت
له اظنك يا أمير المؤمنين أردت معاندة الراهب
وتكذيبه فقال : لا والله ولكنني كنت ملقباً بمقلّاص
وما ظننت أن أحداً عرف ذلك غيري وذلك أننا
كنا بناحية السرة في زمان بني أمية على الحال

التي تعلم فكنت أنا ومن كان في مقدار سنّي من
عمومتي وأخوتي تتداعى وتتعاشر فبلغت النوبة
اليّ يوماً من الأيام وما أملك درهماً واحداً فلم
أزل أفكر وأعمل الحيلة التي أن أصبت غزلاً لداية
كانت لهم فسرقته ثم وجهت به فبيع لي واشترى
لي بثمانه ما احتجت إليه وجئت الى الداية وقلت
لها افعلي كذا واصنعي كذا قالت من أين لك ما أرى
قلت اقترضت دراهم من بعض اهلي ففعلت ما أمرتها
به فلما فرغنا من الأكل وجلسنا للحديث طلبت
الداية الغزل فلم تجده فعلمت اني صاحبه وكان
في تلك لئس يقال له مقلّاص مشهور بالسرقه
فجاءت الى باب البيت الذي كنا فيه فدعنتي فلم
أخرج اليها لعلمي أنها وقفت على ما صنعت فلما
الحت وأنا لا أخرج قالت أخرج يا مقلّاص ، الناس
يتحدرون من مقلّاصهم وأنا مقلّاصي معي في البيت
فمزح معي أخوتي وعمومتي بهذا اللقب ساعة ثم
لم أسمع به الا منك الساعة فعلمت أن امر هذه
المدينة يتم على يدي لصحة ما وقفت عليه ..
ثم وضع أساس المدينة مدوراً وجعل قصره في
وسطها وجعل لها أربعة ابواب واحكم سورها
وفصلها فكان القاصد إليها من الشرق يدخل من
باب خراسان والقاصد من الحجاز يدخل من باب
الكوفة والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام
والقاصد من فارس والأهواز وواسط والبصرة
واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة ..
قالوا فانفق المنصور على عمارة بغداد ثمانية عشر
الف ألف دينار ، وقال الخطيب في رواية أنه
أنفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها
والابواب والأسواق الى أن فرغ من بنائها اربعة
آلاف الف وثمانمائة وثلاثة وثمانين الف درهم
وذلك ان الاستاذ من الصنائع كان يعمل في كل
يوم بقرط الى خمس حبات والروز جاري بحبتين
الى ثلاث حبات وكان الكبس بدرهم والحمل بأربعة
دوانيق والتمر ستون رطلاً بدرهم ، قال الفضل
ابن دكين كان ينادي على لحم البقر في جبانة كندة
تسعون رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستون رطلاً
بدرهم والعسل عشرة ارطال بدرهم ، قال وكان
بين كل باب من ابواب المدينة والباب الآخر ميل
وفي كل ساف من أسواف البناء مائة الف لبنه
واثنان وستون الف لبنه من اللبن الجعفري ؛
وعن ابن الشروي قال هدمنا من السور الذي يلي
باب المحول قطعة فوجدنا فيها لبنه مكتوباً عليها
بمغرة وزنها مائة وسبعة عشر رطلاً ، فوزناها
فوجدناها كذلك . وكان المنصور كما ذكرنا بني

ومدينته مدورة وجعل داره وجامعها في وسطها
وبنى القبة الخضراء فوق ايوان وكان علوها ثمانين
ذراعاً وعلى رأس القبة صنم على صورة فارس في
يده رمح ، وكان السلطان إذا رأى أن ذلك الصنم
قد استقبل بعض الجهات ومدّ الرمح نحوها علم
أن بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة فلا يطول
عليه الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجياً
قد هجم من تلك الناحية ؛ قلت أنا هكذا
ذكر الخطيب وهو من المستحيل والكذب
الفاحش وانما يحكى مثل هذا عن سحرة
مصر وطلسمات بلبناس التي أوهم الأعمار صحتها
تطاول الأزمان والتخيل أن المتقدمين ما كانوا بني
آدم ، فاما الملة الإسلامية فانها تجلّ عن هذه
الخرافات فإن من المعلوم أن الحيوان الناطق
مكلف الصنائع لهذا التمثال لا يعلم شيئاً مما
ينسب الى هذا الجماد ولو كان نبياً مرسلًا وأيضاً
لو كان كلما توجهت الى جهة خرج منها خارجي
لوجب أن لا يزال خارجي يخرج في كل وقت لانها
لا بد أن تتوجه الى وجهه من الوجود ، والله
اعلم . . قال وسقط رأس هذه القبة سنة ٣٢٩ هـ
وكان يوم مطر عظيم ورعد هائل وكانت هذه القبة
تاج البلد وعلم بغداد ومآثرة من مآثر بني العباس
وكان بين بنائها وسقوطها مائة ونيّف وثمانون
سنة وتقل المنصور أبوابها من واسط وهي أبواب
الحجاج ، وكان الحجاج اخذها من مدينة بازاء
واسط تعرف بزنتد ورؤد ، يزعمون انها من بناء
سليمان بن داود عليه السلام واقام على باب
خراسان باباً جيء به من الشام من عمل الفراعنة
وعلى باب الكوفة باباً جيء به من الكوفة من عمل
خالد القسري وعمل هو باباً لباب الشام وهو
أضعفها وكان لا يدخل أحد من عمومة المنصور
ولا غيرهم من شيء من الأبواب الا راجلاً الا داود
ابن علي عمه فانه كان متفرساً وكان يحمل في
محفة وكذلك محمد المهدي ابنه ؛ وكانت تكنس
الرحاب في كل يوم ويحمل التراب الى خارج فقال
له عمه عبدالصمد يا امير المؤمنين انا شيخ كبير
فلو اذنت لي أن انزل داخل الأبواب فلم يأذن له
فقال يا امير المؤمنين عيّدني بعض بغال الروايا التي
تصل الى الرحاب فقال يا ربيع بغال الروايا تصل
الى رحابي تتخذ الساعة قني بالساج من باب
خراسان حتى تصل الى قصري ففعل ومدّ
المنصور قناة من نهر دجيل الأخذ من دجلة وقناة
من نهر كرخايا الأخذ من الفرات وجرهما الى
مدينته في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج

فلنذكر الآن ما ورد في مدح بغداد]

ومن عجيب ذلك ما ذكره أبو سهل بن
نوبخت قال : أمرني المنصور لما أراد بناء بغداد
بأخذ الطالع ففعلت فاذا الطالع في الشمس وهي في
القوس فخبّره بما تدلّ النجوم عليه من طول بقائها
وكثر عمارتها وفقر الناس الى ما فيها ثم قلت وأخبرك
خلة أخرى أسرك بها امير المؤمنين قال : وما هي ؟
قلت نجد في أدلة النجوم انه لا يموت بها خليفة أبداً
حتف أنفه قال فتبسم وقال الحمد لله على ذلك
هذا من فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو
الفضل العظيم ؛ ولذلك يقول عمارة بن عقيل بن
بلال بن جرير بن الخطفي :

عاشت في طول من الأرض أو عرض

كبغداد من دار بها مسكن الخفض

صفا العيش في بغداد واخضر عوده

وعيش سواها غير خفض ولا غص

تطول بها الأعمار إن غداها

مريء وبعض الأرض امرا من بعض

قضى ربها أن لا يموت خليفة

بها انسه ما شاء في خلقه يقضي

تنام بها عين الغريب ولا ترى

غريباً بأرض الشام يطعم في الغمض

فإن جزيت بغداد منهم بقرضها

فما أسلفت الا الجميل من القرض

وإن رميت بالهجر منهم وبالقلي

فما أصبحت اهلاً لهجر ولا بغض

وكان من اعجب العجب أن المنصور مات

وهو حاج والمهدي ابنه خرج الى نواحي الجبل

فمات بماسبذان بموضع يقال له الرذ والهادي

ابنه مات بعيساباذ قرية أو محلة بالجانب الشرقي

من بغداد والرشيد مات بطوس والأمين أخذ في

شبارته وقتل بالجانب الشرقي والمأمون مات

بالبدندون من نواحي المصيصه بالشام والمعتصم
والوائق والمتوكل والمنتصر وباقي الخلفاء ماتوا
بسامرا ثم انتقل الخلفاء الى التاج من شرقي بغداد
كما ذكرناه في التاج وتمطلت مدينة المنصور منهم .

وفي مدح بغداد قال بعض الفضلاء : بغداد
جنة الارض ومدينة السلام وقبة الاسلام ومجمع
الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة
ومجمع المحاسن والطيبات ومعبدن الظرائف
واللطائف وبها ارباب الغايات في كل من واحاد
الدهر في كل نوع وكان ابو اسحق الزجاج
يقول بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية ؛ وكان
ابو الفرج البغيا يقول هي مدينة السلام بل مدينة
الاسلام فان الدولة النبوية والخلافة الاسلامية بها
عشتا وفرختا وضربت بعروقهما وبسقتا
بغروعهما وان هواءها اغذى من كل هواء وماءها
اعذب من كل ماء وان نسيمها ارق من كل نسيم
وهي من الاقليم المعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة
ولم تزل بغداد موطن الاكاسرة في سالف الأزمان
ومنزل الخلفاء في دولة الاسلام ؛ وكان ابن العميد
إذا طرا عليه احد من منتحلي العلوم والآداب وأراد
امتحان عقله سألته عن بغداد ، فان فطن بخواصها
وتنبه على محاسنها واثنى عليها جعل ذلك مقدمة
فضله وعنوان عقله ثم سألته عن الجاحظ فان وجد
اثرا لمطالعة كتبه والانتباس من نوره والافتراف
من بحره وبعض القيام بمسائله قضى له بأنه غرة
شادخة في أهل العلم والآداب وان وجده ذاماً
لبغداد غفلاً عما يجب أن يكون موسوماً به من
الانتساب الى المعارف التي يختص بها الجاحظ لم
ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن ؛ ولما رجع
الصاحب عن بغداد سألته ابن العميد عنها فقَالَ
بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد فجعلها مثلاً في
الغاية في الفضل . . وقال ابن زريق الكاتب
الكوني :

سافرت ابغي لبغداد وساكنها
مثلاً قد اخترت شيئاً دونه الياس
هيئات بغداد والدنيا بأجمعها
عندي وسكان بغداد هم الناس
وقال آخر :

بغداد يا دار الملوك ومجتنى
صنوف المني يا مستقر المنابر
ويا جنة الدنيا ويا مجتنى الفنى
ومنهبط الامال عند المتاجر

. . وقال ابو يعلى محمد بن الهبارية سمعت
الشيخ الزاهد ابا اسحق ابراهيم بن علي بن
يوسف الفيروز ابادي يقول من دخل بغداد وهو
ذو عقل صحيح وطبع معتدل مات بها او بحسرتها ؛
وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين
على قلبها في كل ما حين
ما بين قطربل فالكرخ نرجسة
تندى ومنبت خيري ونسرين
تحيا النفوس برثاها إذا نفخت
وخرشت بين اوراق الرياحين
سقى لتلك القصور الشاهقات وما
تحفي من البقر الانسية العين
تستند دجلة فيما بينها فترى
دهم السفين تعالى كالبراذين
مناظر ذات ابواب مفتحة
انيقة بزخارف وتزيين
فيها القصور التي تهوي بأجنحة
بالزائرين الى القوم الزورين
من كل حراقة تعلو فقارتها
قصر من الساج عال ذو اساطين

وقدم عبدالملك بن صالح بن علي بن عبدالله
ابن عباس الى بغداد فرأى كثرة الناس بها فقال
ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت
ان الناس قد نودي فيهم ؛ ووجد على بعض
الاميال بطريق مكة مكتوباً :

ايا بغداد يا اسفي عليك
متى يقضي الرجوع لنا إليك
قنعنا سالمين بكل خير
وينعم عيشنا في جانبك

ووجد على حائط بجزيرة قبرص مكتوباً :
فهل نحو بغداد مزار فيلتقى
مشوق ويحظى بالزيارة زائر
الى الله اشكو لا الى الناس إنه

على كشف ما القى من الهم قادر
وكان القاضي ابو محمد عبد الوهاب بن علي
ابن نصر المالكي قد نجا به المقام ببغداد فرحل الى
مصر فخرج البغداديون يودعون وجعلوا يتوجعون

لفراقه فقال والله لو وجدت عندكم في كل يوم مداً
من الباقيلى ما فارقتكم ، ثم قال :

سلام على بغداد من كل منزل
وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها
واني بشطى جانبها لعارف
ولكنها ضاقت عليّ برحبها
ولم تكن الارزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت اهوى دنوه
واخلاقه تنأى به وتخالف
ولما حج الرشيد وبلغ زرود التفت الى ناحية
العراق وقال :

اقول وقد جئنا زرود عشية
وكادت مطايانا تجوز بنا نجدا
على اهل بغداد السلام فاني
ازيد بسرى عن ديارهم ببغدا

وقال ابن مجاهد المقرئ رايت ابا عمرو بن
العلاء في النوم فقلت له ما فعل الله بك فقال دعني
مما فعل الله بي من اقام ببغداد على السبيلة
والجماعة ومات نقل من جنة الى جنة وعن يونس
ابن عبد الاعلى قال : قال لي محمد بن ادريس
الشافعي رضى الله عنه ابا يونس دخلت ببغداد
فقلت لا فقال ابا يونس ما رايت الدنيا ولا الناس .
وقال طاهر ابن المظفر بن طاهر الخازن :-

سقى الله صوب الغاديات محلة
ببغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحناء خصت لاهلها
باشياء لم يجمعن مذ كن في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة
وماء له طعم الذئ من الخمر
ودجلتها شطآن قد نظما لنسا

بتاج الى تاج وقصر الى قصر
تراها كمسك والمياه كفضة
وحصباؤها مثل اليواقيت والدر
.. قال ابو بكر الخطيب انشدني ابو محمد
الباقي قول الشاعر :

دخلنا كارهين لها فلما
الفناها خرجنا مكرهيننا

فقال يوشك هذا ان يكون في بغداد ؛ قيل
وانشد لنفسه في المعنى وضمنه البيت :

على بغداد معدن كل طيب
ومغنى نزهة المتنزهيننا
سلام كلما جرحنا بلحظ
عيون المشتين المشتيننا
دخلنا كارهين لها فلما
الفناها خرجنا مكرهيننا
وما حب الديار بنا ولكن
امر العيش فرقة من هويننا
قال محمد بن علي بن حبيب الماوردي كتب
الي اخي من البصرة وانا ببغداد :

طيب الهواء ببغداد يشوقني
قدماً اليها وان عاقت معاذير
وكيف صبري عنها بعد ما جمعت
طيب الهوايين ممدود ومقصور
وقلد عبيدالله بن عبدالله بن طاهر اليمن
فلما اراد الخروج ، قال :

ابرحل الف ويقيم الف
وتحيا لوعة ويموت قصف
على بغداد دار اللهو مني
سلام ما سجا للعين طرف
وما فارقتها لقلبي ولكن
الا جار من الحدثنان كهف
لعل زماننا سيعود يوماً
فيرجع الف ويسر الف
فبلغ الوزير هذا الشعر فاعفاه ؛ وقال
شاعر يتشوق ببغداد :

ولما تجاوزت المدائن سائراً
وايقنت يا بغداد اني على بعد
علمت بان الله بالغ امره
وان قضاء الله ينفذ في العبد
وقلت وقلبي فيه ما فيه من جوى
ودمعي جار كالجمان على خدي
ترى الله يا بغداد يجمع بيننا
فالقى الذي خلقت فيك على العهد

وقال محمد بن علي بن خلف النيرماني :

فدى لك يا بغداد كل مدينة
من الأرض حتى خطى ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها
وسيرت خليي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلا
ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل اهليها ارق شاملا
واعذب الفاظا واحلى معانيا
وقائلة لو كان ودك صادقا
لبغداد لم ترحل فقلت جوابيا
يقيم الرجال الموسرون بارضهم
وترمي النوى بالمقترين المرامي

- ٩ -

القزويني : زكريا بن محمد بن محمود /

٦٨٢ هـ

آثار البلاد واخبار العباد

بيروت دار صادر

١٩٦٠ م ص ٣١٣

بغداد

أم الدنيا وسيدة البلاد وجند الأرض ومدينة السلام ، وقبة الاسلام ومجمع الرافدين ، ومعدن الطرائف ومنشأ ارباب الفايات ، هواؤها الطف من كل هواء ، وماؤها أعذب من كل ماء ، وتربتها أطيب من كل تربة ، ونسيمها ارق من كل نسيم ! بناها المنصور أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي ابن عبدالله بن عباس ، ولما أراد المنصور بناء مدينة بعث رواداً يرتاد موضعاً ، قال له : أرى يا أمير المؤمنين أن تبني على شاطئ دجلة ، تجلب إليها الميرة والامتعة من البر والبحر ، وتأتيها المادة من دجلة والفرات ، وتحمل إليها طرائف الهند والصين ، وتأتيها ميرة أرمينية واذربيجان وديار بكر وربيعة ، لا يحمل الجند الكثير إلا مثل هذا الموضع . فأعجب المنصور قوله وأخذ النجمين ، وفيهم نوبخت ، باختيار وقت للبناء فاختاروا طالع القوس الدرجة التي كانت الشمس فيها ، فاتفقوا على أن هذا الطالع مما يدل على كثرة العمارة وطول البقاء ، واجتماع الناس فيها وسلامتهم عن الأعداء فاستحسن المنصور ذلك ثم قال نوبخت : وخلة أخرى يا أمير المؤمنين قال :

وما هي ؟ قال : لا يتفق بها موت خليفة ! فتبسّم المنصور وقال : الحمد لله على ذلك . وكان كما قال ، فإن المنصور مات حاجاً ، والمهدي مات بماسبدان ، والهادي بعبساباد ، والرشيد بطوس ، والأمين أخذ في شبافته ، وقتل بالجانب الشرقي ، والمأمون بطرسوس ، والمعتمد والوائق والمتوكل والمستنصر بسامرا . ثم انتقل الخلفاء الى الساج وتعطلت مدينة المنصور من الخلفاء ! قال عمارة بن عقيل :

أعانت في طول من الأرض أو عرض
كبغداد من دار بها مسكن الخضر ؟
صفا العيش في بغداد واخضر عوده
وعيش سواها غير خضر ولا غض
قضى ربها أن لا يموت خليفة
بها ، إنه ما شاء في خلقه يقضي

ذكر أبو بكر الخطيب أن المنصور بنى مدينة بالجانب الغربي ، ووضع اللبنة الأولى بيده ، وجعل داره وجامعها في وسطها ، وبنى فيها قبة فوق ابوان كان علوها ثمانين ذراعاً . والقبة خضراء على رأسها تمثال فارس بيده رمح ، فإذا رآوا ذلك التمثال استقبل بعض الجهات ومدّ رمحه نحوها ، فعلموا أن بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة ، فلا يطول الوقت حتى يأتي الخبر أن خارجياً ظهر من تلك الجهة . وقد سقط رأس هذه القبة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة في يوم مطير ريح ، وكانت تلك القبة علم بغداد وتاج البلد ، ومآثرة بني العباس . وكان بجانبها شرقي محلة تسمى باب الطاق ، كان بها سوق الطير فاعتقدوا أن من تعسر عليه شيء من الأمور فاشترى طيراً من باب الطاق وأرسله ، سهل عليه ذلك الأمر . وكان عبدالله بن طاهر طال مقامه ببغداد ولم يحصل له أذن الخليفة ، فاجتاز يوماً بباب الطاق فرأى قمرية تنوح ، فأمر بشرائها وإطلاقها ، فامتنع صاحبها أن يبيعها إلا بخمسمائة درهم ، فاشترها وأطلقها وأنشأ يقول :

ناحت مطوقة بباب الطاق

فجرت سوابق دمي المهراق

كانت تفسرد بالأراك وربما

كانت تفسرد في فروع الساق

فترمتي العراق بها العراق فأصبحت

بعد الأراك تنوح في الأسواق

على وضع عجب ، يعرف منه أوقات الصلوات
وانقضاء الساعات الزمانية نهارة وليلاً ؟ قال أبو
الفرج عبدالرحمن بن الجوزي :

يَا أَيُّهَا الْمَنْصُورُ يَا مَالِكاً
برأيه صعب الليالي يهون !
شِدَّتْ لِلَّهِ رِضْوَانِيهِ
أشرفَ بنيانٍ يروقُ العيونُ
أيوانُ حُسْنِ وصفه مدهشُ
يَحَارُ في منظره الناظرون !
تهدي إلى الطاعاتِ ساعاته
الناس وبالنجم هم يهتدون
صُورَ فيه فلَك دائرُ
والشمس تجري مالها من سكون
دائرة من لا زور حلت
نقطة تبهر فيه سر مَصُونُ
فتلك في الشَّكْلِ وهذا معاً
كمثل هاء ركبت وسط نون
فهني لإحياء العلى والندى
دائرة مركزها العالمون

وأما أولو الفضل من العلماء والزهاد والعباد
والأدباء والشعراء والصناع فلا يعلم عددهم إلا
الله . ولندكر بعض مشاهيرنا إن شاء الله .
ينسب إليها القاضي أبو يوسف . ذكر أنه كان رآه
رجل يهودي وقت الظهيرة يمشي راكباً على بغلة ،
واليهودي يمشي راجلاً جائعاً ضعيفاً ، فقال
للقاضي : أليس نبيكم يقول الدنيا سجن المؤمن
وجنة الكافر ؟ قال : نعم . قال : فانت في السجن
وأنا في الجنة والحالة هذه ! فقال القاضي : نعم
يا عدو الله ، بالنسبة إلى ما أعد الله لي من
الكرامة في الآخرة في السجن ، وانت بالنسبة إلى
ما أعد الله لك في الآخرة من العذاب في الجنة !
وحكي أن الهادي الخليفة اشترى جارية فاستفتى
فقال الفقهاء : لا بد من الاستبراء أو الاعتاق والتزويج .
فقال القاضي أبو يوسف : زوجها من بعض أصحابك
وهو يطلقها قبل الدخول وحلت لك . وحكي أن
الرشيد قال لزييدة : أنت طالق ثلاثاً إن بت الليلة
في مملكتي ! فاستفتوا في ذلك فقال أبو يوسف :
تبعت في بعض المساجد فإن المساجد لله ! فولاه
القضاء بجميع مملكته . وحكي أن زييدة قالت
للرشيد : أنت من أهل النار . فقال لها : إن كنت
من أهل النار فانت طالق ثلاثاً ! فسألوا عنه فقال :

فجعتُ بِإِفْرَاجِ فاسبل دمعها
إنّ الدموع تبوحُ بالمشاقِ
تعسُ الفراقُ وتبُ حبلُ وتينه
وسقاه من سُمِّ الأساودِ ساقِي
ماذا أراد بقصده قمرية
لم تدر ما بغدادُ في الآفاقِ
بي مثلُ ما بكِ يا حمامة فأسألي
من فك أسرك أن يحلّ وثاقِي

هذه صفة المدينة الغربية ، والآن لم يبقَ منها
أثر . وبغداد عبارة عن المدينة الشرقية كان أصلها
قصر جعفر بن يحيى البرمكي ، والآن هي مدينة
عظيمة كثيرة الأهل والخيرات والثمرات ، تجبي
إليها لطائف الدنيا وظرائف العالم إذ ما من متاع
ثمين ولا عرض نفيس إلا ويحمل إليها ، فهي
مجمع لطيفات الدنيا ومحاسنها ، ومعدن لأرباب
الغايات وأحاد الدهر في كل علم وصنعة . وبها
حريم الخلافة ، وعليه سور ابتداء من دجلة
وانتهائه إلى دجلة كسبه الهلال ، وله أبواب : باب
سوق التمر باب شاهق البناء عال ، أغلق من أول
أيام الناصر واستمر إغلاقه . ذكر أن المسترشد
خرج منه فأصابه ما أصابه فتطيروا به وأغلقوه .
وباب النوبي وعنده العتبة التي يقبلها الملوك
والرسل إذا قدموا بغداد . وباب العامة وعليه
باب عظيم من الحديد نقله المعتصم من عمورية لم
ير مصرعان أكبر منهما من الحديد ، ومن عجائبها
دار الشجرة من ابنية المقتدر بالله ، دار فيحاء
ذات بساتين مؤنقة ، وإنما سُميت بذلك لشجرة
كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة
كبيرة أمام أبوابها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية
عشر غصناً ، ولكل غصن فروع كثيرة مكللة
بأنواع الجواهر على شكل الثمار . وعلى أغصانها
أنواع الطير من الذهب والفضة ، إذا هبّ الهواء
سمعت منها الهدير والصفير وفي جانب الدار عن
يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً ، ومثله عن
يسار البركة قد لبسوا أنواع الحديد المدبج
مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد يحركون
على خط واحد ، فيظن أن كل واحد قاصد إلى
صاحبه . ومن مفاخرها المدرسة التي أنشأها
المستنصر بالله . لم يبن مثلها قبلها في حسن
عمارتها ورفعة بنايتها ، وطيب موضعها على شاطئ
دجلة واحد جوانبها في الماء . لم يعرف موضع أكثر
منها أوقافاً ولا أرفه منها سكاناً . وعلى باب
المدرسة أيوان ركب في صدره صندوق الساعات

هل يخاف مقام ربّه ؟ قالوا : نعم . قال : فلا يقع الطلاق لأن الله تعالى يقول : ولمن خاف مقام ربّه جنتان . وينسب إليها القاضي يحيى بن اكثم . كان فاضلاً غزير العلم ذكي الطبع ، لطيفاً حسن الصورة حلوا الكلام ، كان المأمون يرى له لا يفارقه ، ويضرب به المثل في الذكاء . وُلّي القضاء وهو ابن سبع عشرة سنة فقال بعض الحاضرين في مجلس الخليفة : أصلح الله القاضي ! كم يكون سنّ عمره ؟ فعلم يحيى أنّه قصد بذلك استحقاقه لقلة سنّه ، فقال : سنّ عمري مثل سن عمر بن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله ، عليه السلام ، قضاء مكة ! فتعجب الحاضرون من جوابه . وحكى أنّه كان ناظر الوقوف ببغداد فوقف العميان له وقالوا : يا أبا سعيد اعطنا حقنا ! فأمر بحبسهم فقبل له : لم حبست العميان وقد طلبوا حقهم ؟ فقال : هؤلاء يستحقون البغ من ذلك ، إنهم شبهوني بأبي سعيد اللوطي من مدينة كذا ! وكان هذا قصدهم فما فات القاضي ذلك . وحكى انه اجتاز بجمع من ممالك الخليفة صبياناً حسناً فقال لهم : لولا انتم لكنّا مؤمنين . فعرف المأمون ذلك فأمر أن يذهب كل يوم الى باب داره اربعمائة مملوك حسن الصورة ، حتى إذا ركب يمشون في خدمته الى دار الخلافة ركاباً . وينسب إليها أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل - كان أصله من مرو وجيء به حملاً الى بغداد فنشأ بها - فلما كان أيام المعتصم وقع في محنة المعتزلة ، جمع المعتصم بينه وبين المعتزلة وكبيرهم القاضي أبو داود . قالوا : أن القرآن مخلوق . قال لهم أحمد : ما الدليل على ذلك ؟ قالوا : قوله تعالى : وما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث . فقال لهم أحمد : المراد من الذكر ههنا الذكر عند قوله تعالى : ص والقرآن ذي الذكر . فالذكر مضاف الى القرآن فيكون غير القرآن ، وههنا مطلق وفي ص مفيد ، فيجب حمل المطلق على المقيد . فانقطعت حجّتهم ، فقال المعتصم لأبي داود : ما تقول في هذا ؟ فقال القاضي : هذا ضالّ مضلّ يجب تأديبه ! وعن ميمون بن الأصبع قال : كنت حاضراً عند محنة أحمد ، فلما ضرب سوطاً قال : بسم الله ، فلما ضرب الثاني قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلما ضرب الرابع قال : لا يصيبنا الا ما كتب الله لنا !

وعن محمد بن اسماعيل قال : سمعت شاباً يقول ضربت لأحمد ثمانين سوطاً لو ضربت فيلاً لهدته فجرى دمه تحت الخشب . ثم أمر بحبسهم

فانتشر ذكر ذلك واستقبح من الخليفة . وورد كتاب المأمون من طرسوس يأمر باشخاص أحمد فدعا المعتصم عند ذلك أحمد وقال للناس اتعرفون هذا الرجل قالوا نعم هو أحمد بن حنبل قال انظروا اليه ما به كسر ولا هشم وسلّمه اليهم . وحكى صالح بن أحمد قال دخلت على أبي وبين يديه كتاب كتب اليه بلغني أبا عبدالله ما أنت فيه من الضيق وما عليك من الدين وقد بعثت اليك أربعة آلاف درهم على يد فلان لا من زكاة ولا من صدقة وإنما هي من إرث أبي . فقال أحمد قل لصاحب هذا الكتاب أما الدين فصاحبه لا يرهقنا ونحن نعافيه والعيال في نعمة من الله قال فذهبت الى الرجل وقلت له ما قال أبي والله يعلم ما نحن فيه من الضيق فلما مضت سنة قال لو قبلناها لذهبت .

وحكى أحمد بن حنبل قال كانت أمي زمينة عشرين سنة فقالت لي يوماً : اذهب اني أحمد بن حنبل وسله أن يدعو الله لي . فذهبت ودققت الباب فقالوا من ؟ قلت : رجل من ذاك الجانب ، وسألني أمي الزمينة أن أسالك أن تدعو الله لها . فسمعت قائلاً يقول : نحن أحوج إلى من يدعو الله لنا ! فوليت منصرفاً فخرجت عجوز من داره قالت : أنت الذي كلمت أبا عبدالله ؟ قلت : نعم . قالت : تركته يدعو الله لها فجئت الى بيتي ودققت الباب ، فخرجت أمي على رجلها تمشي وقالت : قد وهب الله لي العافية . وذكروا أن أحمد بن حنبل جعله المعتصم في حل يوم قتل بابك الخرمي أو يوم فتح عمورية . وتوفي أحمد سنة إحدى وأربعين ومائتين عن تسع وسبعين سنة . وحكى أبو بكر المروزي قال : رأيت أحمد بن حنبل بعد موته في المنام في روضة ، وعليه حلّتان خضراوان وعلى رأسه تاج من نور ، وهو يمشي مشياً لم أكن أعرفه . فقلت : يا أحمد ما هذه المشية ؟ قال : هذه مشية الخدام في دار السلام ! فقلت : ما هذا التاج الذي أراه فوق رأسك ؟ فقال : أن ربّي أوقفني وحاسبني حساباً يسيراً ، وجباني وقربني وأباحني النظر وتوجّني بهذا التاج ، وقال لي : يا أحمد هذا تاج الوفاق توجّتك به كما قلت القرآن كلامي غير مخلوق . وينسب إليها أبو علي الحسين ابن صالح بن خيران . كان عالماً شافعي المذهب جامعاً بين العلم والعمل والورع . طلبه علي بن عيسى وزير المقتدر لتوليته القضاء فأبى وهرب فختم بابه بضعة عشر يوماً ، قال أبو عبدالله بن الحسن العسكري : كنت صغيراً وعبرت مع أبي علي باب أبي علي بن خيران ، وقد وكل به الوزير علي بن عيسى .

وشاهدت الموكلين على بابه فقال لي أبي : يا بني ابصر هذا حتى تتحدث ان عشت ان انساناً فعل به هذا فامتنع عن القضاء . ثم ان الوزير عفا عنه وقال : واردنا بالشيخ أبي علي إلا خيراً ، واردنا ان نعلم الناس أن في ملكنا رجلاً يعرض عليه قضاء الشرق والغرب وهو لا يقبل . توفي ابن خيران في حدود عشرين وثلاثمائة . وينسب إليها أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي . كان عالماً بعلم التفسير والحديث والفقه والأدب والوعظ ، وله تصانيف كثيرة في فنون العلوم .

توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

وينسب إليها الوزير علي بن عيسى وزير المقتدر ووزير ابنه المطيع ، ركب يوم الموسم كما كان الوزراء يركبون في موكب عظيم ، فراه جمع من الغرباء قالوا من هذا ؟ وكانت امرأة عجوز تمشي على الطريق قالت : كم تقولون من هذا ، هذا واحد سقط من عين الله تعالى فابتلاه الله بهذا كما ترونه ، فسمع هذا القول علي بن عيسى فرجع الى بيته واستعفى من الوزارة ، وجاور مكة الى ان مات . وينسب إليها أبو نصر بشر بن الحارث الحافي ذكر أبواب العطار انه قال له بشر : إلا أحدك عن بدو امري ؟ بينا أنا أمشي إذ رأيت قرطاساً على وجه الأرض عليه اسم الله تعالى فأخذته وكنت لا أملك إلا درهماً واحداً اشتريته به الماورد والمسك ، غسلت القرطاس بالماورد وطيبته بالمسك ثم رجعت الى منزلي ونمت ، فأتاني أت يقول : طيب اسمي لاطيبين ذكرك وطهرته لاطهرين قلبك !

وحكي ان بشراً الحافي دعي الى دعوة ، فلما وضع الطعام بين يديه اراد أن يمد يده إليه فما امتدت حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال بعض الحاضرين الذي كان يعرف بشراً : ما كان لصاحب الدعوة حاجة الى إحضار من أظهر ان طعامه ذو شبهة .

وحكي ان احمد بن حنبل سئل عن مسألة في الورع فقال : لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد ! لو كان بشر بن الحارث حاضراً لأجابه فإنه لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد ! توفي سنة تسع وعشرين ومائتين عن خمس وسبعين سنة .

وحكى الحسن بن مروان قال : رأيت بشراً الحافي في المنام بعد موته فقلت له : أبا نصر ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ولكل من تبع جنازتي ،

وكانت جنازته قد رفعت اول النهار فما وصل الى القبر إلا وقت العشاء لكثرة الخلق . وقال لي خزيمة رأيت احمد بن حنبل في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وتوَجَّني والبسني نعلين من ذهب ! قلت فما فعل الله ببشر ؟ قال : بخ بخ ! من مثل بشر تركته بين يدي الخليل وبين يديه مائدة الطعام والخليل مقبل عليه ، وهو يقول له : كل يا من لم يأكل وأشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ! وقال غيره : رأيت بشراً الحافي في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وقال يا بشر اما استجبت مني وكنت تخافني كل ذلك الخوف ؟ ورآه غيره فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لي يا بشر لقد توفيتك يوم توفيتك وما على وجسه الأرض أحب إلي منك !

وينسب إليها أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي . كان عديم النظر في زمانه علماً وورعاً وحالاً كان يقول : ثلاثة أشياء عزيزة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الديانة ، وحسن الأجابة مع الأمانة ، مات أبوه أسد المحاسبي وخلف من المال أوفاً ما أخذ الحارث منه حبة ، وكان محتاجاً الى دائق ، وذلك لأن أباه كان رافضياً فقال الحرث : أهل ملتين لا يتوارثان !

وحكى الجنيد : إن المحاسبي اجتاز بي يوماً فرأيت أثر الجوع في وجهه ، فقلت : يا عم لو دخلت علينا ساعة ! فدخل فعمدت الى بيت عمي ، وكان عندهم أطعمة فاخرة فجئت بأنواع من الطعام ووضعت بين يديه فمد يده وأخذ لقمة رفعها الى فيه يلوكها ولا يزدريها ، ثم قام سريعاً ورمى اللقمة في الدهليز وخرج ما كلمني فلما كان الغد قلت : يا عم سررتني ثم نفست علي ! فقال يا بني أما الفاقة فكانت شديدة وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذي جعلته بين يدي ، ولكن بيني وبين الله علامة وهي أن الطعام إذا لم يكن مرضياً يرتفع منه الى أنفي زفر ! لا تقبله نفسي ! توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين . وينسب إليها أبو الحسن السري ابن الفليس السقطي ، خال أبي القاسم الجنيد واستأذه وتلميذ معروف الكرخي . دعا له استأذه معروف وقال له : أغنى الله قلبك ! فوضع الله تعالى فيه الزهد . وقيل إن امرأة اجتازت بالسري ومعهما ظرف فيه شيء فسقط من يدها وانكسر . فأخذ السري شيئاً من دكانه وأعطاهما بدل ما ضاع عليها فرأى معروف ذلك فاعجبه وقال له أبغض الله إليك الدنيا ، فتركها وتزهد كما دعا له .

فلما عدت الى بغداد ودخلت عليه مدّ يده وأخذ الدرهم .

وحكى بعض الهاريين عن ظالم قال : رايت الجنيد واقفاً على باب رباطه فقلت : يا شيخ أجرتني أجارك الله ! فقال : ادخل الرباط . فدخلت فما كان الا يسيراً حتى وصل الطالب بسيف مسلول ، فقال للشيخ أين مشى هذا الهارب فقال الشيخ : دخل الرباط ، فمرّ على وجهه ، وقال تريد أن تقويه عليّ ! قال الهارب : قلت للشيخ كيف دلّته عليّ ، أليس لو دخل الرباط قتلني ؟ فقال الشيخ : وهل نجوت الا بقولي دخل الرباط ؟ فما زال منا الصدق ومنه اللطف .

وحكى ان رجلاً اتى الجنيد بخمسائة دينار ، وكان هو جالساً بين اصحابه ، وقال له خذ هذا ، وانفق على اصحابك فقال له : هل لك غيرها ، قال نعم لي دنائير كثيرة قال : فهل تريد غيرها ؟ قال نعم ، قال خذها إليك فانت احوج إليها منّا .

قال أبو محمد الجزري : لما كان مرض موته كنت على راسه وهو يقرأ ويسجد ، فقلت : يا قاسم ارفق بنفسك . فقال : يا ابا محمد هوذا صحيفتي تطوى ، وأنا احوج ما كنت الساعة ! ولم ينزل باكياً وساجداً حتى فارق الدنيا سنة ثمان وستين ومائتين .

وقال جعفر الخلدي : رايت الجنيد بعد موته في المنام قلت : ما فعل الله بك يا ابا قاسم ؟ فقال : طاحت تلك الاشارات وغابت تلك العبارات ، ونفدت تلك العلوم وامّحت تلك الرسوم ، وما بقينا الا على الركيعات التي كنّا نصلّيها في جوف الليل .

وينسب اليها أبو الحسن علي بن محمد المزين الصغير . كان من المشايخ الكبار صاحب الحالات والكرامات . حكى أبو عبدالله بن خفيف قال : سمعت ابا الحسن بمكة يقول : كنت في يادية تبوك فقدمت الى بئر لاستقي منها ، فزلقت رجلي ، فوقعت في قعر البئر فرايت في البئر زاوية ، فاصلحت موضعاً وجلست عليه لئلا يفسد الماء ما عليّ من اللباس ، وطابت نفسي وسكن قلبي ، فبينما انا قاعد اذا انا بشخصة فتأمّلت فاذا حيّة عظيمة تنزل عليّ ، فراجعت نفسي فاذا نفسي ساكنة ، فنزات ولفّت ذنبها عليّ وأنا هاديء السر لا اضطرب شيئاً ، واخرجتني من البئر وحلّت عني ذنبها ، فلا ادري الارض ابتلعها ام السماء رفعتها ؟ فقمّت ومشيت الى حاجتي .

وحكى ان امرأة جاءت الى السري وقالت يا ابا الحسن انا من جيرانك وان ابني اخذه الطائف واني اخشى ان يؤذيه فإن رايت أن نجىء معي أو تبعث إليه أحداً فقام يصلي وطول صلاته فقالت المرأة ابا الحسن ، الله الله ، في ولدي ! اني اخشى ان يؤذيه السلطان فسلم وقال لها : انا في حاجتك فما برحت حتى جاءت امرأة وقالت لها : لك البشري فقد خلّوا عن ابنك . حكى الجنيد قال : دخلت على السري فاذا هو قاعد يبكي وبين يديه كوز مكسور ، قلت : ما سبب البكاء ؟ قال : كنت صائماً فجاءت ابنتي بكوز ماء فعلقتة حتى يبرد فافطر عليه ، فاخذتني عيني فتمت فرايت جارية دخلت عليّ من هذا الباب في غاية الحسن ، فقلت لها لمن انت ؟ قالت : لمن لا يبرء الماء في الكيزان الخضر وضربت بكمها الكوز ومرّت وهو هذا . قال الجنيد فمكثت اختلف إليه مدة طويلة ارى الكوز المكسور بين يديه ، وحكى ان السري كل ليلة اذا افطر ترك لقمة ، فاذا أصبح جاءت عصفورة واكلت تلك اللقمة من يده ، فجاءت العصفورة في بعض الايام ووقعت على شيء من جدار حجرته ثم طارت وما اكلت اللقمة فحزن الشيخ لذلك وقال بذنب مني نفرت العصفورة حتى تذكر انه اشتهى الخبز بالقديد فاكل ، فعلم ان انقطاع العصفورة بسبب ذلك ، فعهد ان لا يتناول ابداً شيئاً من الآدام فعادت العصفورة .

وحكى انه اشترى كراً لوز بستين ديناراً وكتب في دستورده ثلاثة دنائير ربحه فارتفع الربح وصار اللوز بتسعين ديناراً فاتاه الدلال واخبره انه بتسعين ديناراً فقال اني عقدت عقداً بيني وبين الله تعالى اني ابيعه بثلاثة وستين لاجله لست ابيعه بأكثر من ذلك فقال الدلال واني عقدت عقداً بيني وبين الله تعالى اني لا اغش مسلماً . توفي السري سنة احدى وخمسين ومائتين . وينسب ابو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد أصله من نهاوند ومولده بغداد ، كان أبوه زاجاً وكان هو خرازاً ، صحب الحرث المحاسبي وخاله السري السقطي وكان الجنيد يفتي على مذهب سفيان الثوري كان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثين الف تمبيحة ، وعن جعفر الخلدي ان الجنيد عشرين سنة ما كان يأكل في كل اسبوع الا مرة . حكى أبو عمرو الزجاجي قال أردت الحج فدخلت على الجنيد فأعطاني درهماً شددته في مئزري ، فلم أنزل منزلاً الا وجدت رزقاً فما احتجت إلى إخراج الدرهم

وحكى جعفر الخلدي : عزمت على السفر فودعت ابا الحسن الزين وقلت زودني شيئا . فقال : ان ضاع شيء واردت وجدانه او اردت ان يجمع الله بينك وبين انسان فقل : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد . رد الي ضالتي او اجمع بيني وبين فلان . قال : فما دعوت في شيء الا استجبت . توفي بمكة مجاورا سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

وينسب اليها محمد بن اسماعيل ، ويعرف بخير النسيج ، كان من اقران الثوري عاش مائة وعشرين سنة . كان اسود عزم الحج . اخذه رجل على باب الحرم وقال : انت عبدي واسمك خير ! فمكث على ذلك مدة يستعمله في نسج الخز ثم عرف انه ليس عبده ولا اسمه خير ، قال له : انت في حل من جميع ما عملت لك . وفارقه .

وحكى ان رجلا جاءه وقال له : يا شيخ امس قد بعث الغزل وشددت ثمنه في مئزرك ، وانما جئت خلفك وحللتك فقبضت يدي ! فضحك الشيخ واومى الى يده فحلّت وقال : اصرف هذه الدراهم في شيء من حاجتك ولا تعد الى مثلها . ورئي في المنام بعد موته ، قيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : لا تسألني عن هذا ، استرخت من دنياكم الوضرة !

وينسب اليها ابو محمد روثم بن احمد البغدادي . كان من كبار المشايخ وكان عالما بعلم القراءة والفقه على مذهب داود ، وكان يقول : من حكمة الحكماء الشريعة على اخوانه والتضييق على نفسه ، لان حكم الشريعة اتباع العلم وحكم الورع التضييق على نفسه .

حكي انه اجتاز وقت الظهيرة بدرج في بغداد وكان عطشان ، فاستسقى من بيت فخرجت جارية بكوز ماء فاخذ منها وشرب ، فقالت الجارية : صوفي يشرب بالنهار ! فما افطر بعد ذلك . توفي سنة ثلاث وثلاثمائة .

وينسب اليها ابو سعيد احمد بن عيسى الخزاز . كان من المشايخ الكبار . صحب ذا النون المصري والسري السقطي وبشرا الحافي ، وكان ابو سعيد يمشي بالتوكل .

حكى عن نفسه قال : دخلت البادية مرة بغير زاد فاصابني فاقة ، فرايت المرحلة من بعيد فسررت بان وصلت الى العمارة ثم فكرت في نفسي اني سلوت ، واتكلت على غيري فآليت الا ادخل المرحلة الا اذا حملت اليها ، فحفرت لنفسي في

الرمل حفرة وواريت جسدي فيها الى صدري ، فلما كان نصف الليل سمعوا صوتا عاليا : يا اهل المرحلة ان لله وليا في هذه المرحلة فالحقوه فجاءت جماعة واخرجوني وحملوني الى القرية .

وينسب اليها الاستاذ علي بن هلال الخطاط ، ويعرف بابن البواب . كان عديم النظر في صنعه ، لم يوجد مثله لا قبله ولا بعده ، فان الكتابة العربية كانت بالطريقة الكوفيّة ثم ان الوزير ابا الحسن ابن مقلة نقلها الى طريقته ، وطريقته ايضا حسنة ، ثم ان ابن البواب نقل طريقة ابن مقلة الى طريقته التي عجز عنها جميع الكتاب من حسناتها وحلاوتها وقوتها وصفاتها ، ولا يعرف لطافة ما فيها الا كبار الكتاب ، فانه لو كتب حرفا واحدا مائة مرة لا يخالف شيء منها لانها قلبت في قالب واحد ، والناس كلهم بعده على طريقته . توفي سنة ثلاث وعشرين واربعمائة .

وينسب اليها ابو نواس الحسن بن هانئ كان اديبا فصيحاً بليفا شاعرا اوجد زمانه . حكى ابن الرشيد قرا يوما : ونادي فرعون في قومه قال : يا قوم اليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون ؟ فقال : اطلبوا لي شخصا انذل ما يكون حتى اوليه مصر . فطلبوا شخصا مخبلا كما اراد الخليفة ، فولاه مصر وكان اسمه خصيبا . فلما ولي احسن السيرة وباشر الكرم وانتشر ذكره في البلاد حتى قيل :

إذا لم تزر أرض الخصب ركابنا

فاين لنا أرض سواه نرور
فتي يشتري حُسْنُ الثناء بماله
ويعلم أن الدائرات تدور

فقصده شعراء العراق وابو نواس معهم وهو صبي ، فلما دنوا من مصر قالوا ذات يوم : نحن من ارض العراق وندخل مصر فلا يأخذن علينا المصريون خطأ او عيبا ! ليعرض كل واحد منا شعره حتى نعتبره ، فان كان شيء منها محتاجا الى اصلاح اصلحناه . فظهر كل واحد ما معه على القوم فقالوا لابي نواس : هات ما عندك . فقال عندي هذا :

والليل ليل والنهار نهار

والبقل بقل والحِمَار حِمَار
والديك ديك والدجاجة زَوْجُه

والبط بط والهزار هَزَار

الابدال لا يدخل العمران ولا يختلط بأحد ، حكى
بشر الحافي قال لقيته على عين ماء ، فلما أبصرني
عدا ، قال بذنب مني رأيت اليوم انسياً فعدوت
خلفه ، وقلت أوصني فالتفت الي ، وقال عانق
الفقر وعاشر الصبر ، وخالف الشهوة واجعل بيتك
اخلى من لحدك يوم تنقل اليه على هذا طاب المصير
الى الله تعالى .

الطاهرية : قرية من قرى بغداد بها
مستنقع يجتمع فيه في كل سنة ماء كثير عند زيادة
دجلة فيظهر فيه السمك المعروف بالبني فيضمنه
السلطان بمال وافر ولسمكه فضل على سائر
السمك لطيب لحمه ، وانه غلة من حاصل هذه
القرية مع سائر غلاتها ، والله الموفق .

كرخ

**قرية فوق بغداد على ميل منها . وبها دكاكين
الكاغد والشياب الابريسمية .**

ينسب اليها أبو محفوظ معروف بن فيروز
الكرخي وكان من المشايخ الكبار مستجاب الدعوة
من موالى علي بن موسى الرضا ، كان استاذ السري
السقطي ، فقال له يوماً إذا كان لك الى الله حاجة
فاقسم عليه بي وأهل بغداد يقولون قبر معروف
ترياق مجرب . حكى أن زبيدة بنت جعفر عبرت على
معروف مع موالىها وخدمها ، فدعا عليها بعض
الحاضرين فقال له معروف : يا رجل كن عون
رسول الرحمن ولا تكن عون رسول الشيطان إن
رسول الرحمن يريد نجاة الخلق كلهم قال الله تعالى :
وما أرسلناك الا رحمة للعالمين . ورسول الشيطان
يريد هلاك الخلق كلهم قال الله تعالى مخبراً
عنه . بعزتك لأغوينهم اجمعين ، إن الذي أعطاهم
الدنيا على هوانهم قادر أن يعطيهم الآخرة على
مناهم .

وحكى ابراهيم الأطروش انه قال لمعروف :
أبا محفوظ بلغني أنك تمشي على الماء فقال ما
مشيت على الماء ولكن إذا هممت بالعبور يجمع
لي طرفها ، وحكى خليل الصياد قال : غاب ابني
الى الأنبار فوجدت أمه وجداً شديداً فذكرت ذلك
لمعروف فقال : ما تريد ؟ قلت أن تدعو الله ليرده
علينا فقال اللهم إن السماء سماؤك والأرض أرضك
وما بينهما لك فأت به !

قال خليل : أتيت باب الشام فإذا ابني قائم
متبهر يقول : الساعة كنت بالأنبار .

فضحكوا وقالوا : هذا أيضاً له وجه
للمضاحك ! فلما دخلوا على الخصيب وضعوا
كرسيًا كل واحد من الشعراء يقف عليه ويورد
شعره حتى اوردوا جميعهم . بقي أبو نواس فقال
بعض الشعراء : ارفعوا الكرسي ، ما بقي احد !
فقال أبو نواس : اصبروا حتى اورد بيتا واحداً
ثم بعد ذلك ان اردتم فارفعوا ، فانشأ يقول :

انْتَ الْخَصِيبُ وهذه مِصْرُ
فَتَسَابِهًا فِكِلَاهُمَا بَحْرُ !
فتحير الشعراء وانشد قصيدة خيراً من
قصائدهم كلها .

وحكى ان محمداً الامين امر بحبسه وامر
ان لا يترك عنده كاغد ودواة ، فحبس في دار ،
فدخل عليه خادم من خدام الخليفة ونام عنده
وعليه جبة سوداء ، فاخذ قطعة جص من الحائط
وكتب على جبة الخادم :

ما قَدَرُ عَبْدِكَ بِي نَوَاسٍ
وهو لَيْسَ بِذِي لَبَاسٍ
وَلَتَغَيِّرُهُ اَوْلَى بِهِيَ
إِنْ كُنْتَ تَعْمَلُ بِالْقِيَاسِ
وَلَيْنَ قَتَلْتَ اَبَا نَوَاسِكَ

قِيلَ مَنْ هُوَ نَوَاسٍ
فَقَرَأُوا وَفَرَجُوا عَنْهُ .

وذكر انه رئي في المنام بعد موته فقيل له :
ما فعل الله بك ؟ قال : قد غفر لي بابيات قللتها
وهي تحت وسادتي ، فوجدوا تحت وسادته رقعة
فيها مكتوب :

يَا رَبِّ اِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةُ
فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ عَفْوُكَ اعْظَمُ
اِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ اِلَّا الْمُحْسِنُ
فَمَنْ الَّذِي يَرْجُوهُ عَبْدٌ مُجْرِمُ
اَدْعُوكَ يَا رَبِّي اِلَيْكَ تَضَرَّعاً
فَاذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَالِي اِلَيْكَ وَسِيلَةُ غَيْرِ الرَّجَا
وَكَرِيمُ عَفْوُكَ ثُمَّ اِنِّي مُسْلِمُ

جرجرايا : قرية من اعمال بغداد مشهورة
ينسب اليها على الجرجرائي كان من

وحكى محمد بن صبيح انه مرء بمعروف رجل سقاء ينادي رحم الله من شرب ! فشرّب منه وكان صائماً وقال : لعل الله أن يستجيب منه .

وحكى عبدالله بن سعيد الانصاري انه رأى معروفاً في النوم واقفاً تحت العرش فيقول الله ملائكته : من هذا ؟ فقالت الملائكة : أنت أعلم يا ربنا ، هذا معروف الكرخي قد سكر من حبك لا يفيق الا بلفائك !

وحكى احمد بن أبي الفتح قال : رأيت بشراً الحافي في المنام قاعداً في بستان وبين يديه مائدة يأكل منها ، فقلت : أبا نصر ما فعل الله بك ؟ فقال : رحماني وغفر لي وإباحني الجنة بأسرها وقال : كل من ثمرها ، وأشرب من أنهارها وتمتع بجميع ما فيها لما كنت تحرم نفسك شهوات الدنيا ! قلت اين احمد بن حنبل ؟ قال : قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة ممن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق ! قلت : وما فعل معروف الكرخي ؟ فحرك رأسه وقال هيهات ! حالت بيننا وبينه الحجب إن معروفاً ما كان يعبد الله شوقاً الى جنته ولا خوفاً من ناره ، وإنما عبده شوقاً إليه ، فرفعه الله الى الرفيع الأعلى ووقعت الحجب بيننا وبينه ، ذاك الترياق المقدس المجرب ، فمن كانت له الى الله حاجة فليات قبره وليدع فإنه يستجاب له . وحكى انه قال : إذا مت تصدقوا بقميصي فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها ، توفي سنة إحدى ومائتين .

- ١٠ -

الحميري : محمد بن عبد المنعم ت/ ٧٢٧هـ

الروض المعطار في خبر الاقطار

بغداد : دار مملكة خلفاء بني العباس وفيها أربع لغات ، بغداد بدالين مهملتين وبغداد معجمة الأخيرة وبغدان بالنون ، وبغدان بالميم بدلاً من الباء ، وتذكر وتؤنث . قالوا : وبغداد بالفارسية عطية الصنم لأن يغ صنم ، وداذ عطية ، ولذلك كره الاصمعي هذه التسمية . وكانت قريبة من قرى الفرس فأخذها أبو جعفر غصباً فبنى فيها مدينة وقال الجرجاني باغ بالفارسية هو البستان

الكثير الشجر ، وداذ معطي . فممناه معطي البساتين ، قال أبو عثمان النهدي : كنا نسير مع جرير بن عبدالله البجلي حتى انتهى الى موضع فقال : أي موضع هذا ؟ قالوا : قطربل ، فحرك دابته ثم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : تبنى مدينة بين دجلة والديجيل والصراة وقطربل يجبي إليها خراج كل أرض وتجمع إليها جابرة الأرض ، وفي رواية يخسف بها كذا أحسب . وسميت بغداد لأنه أهدي الى كسرى خصي من المشرق ، وكان له صنم يقال له بغ ، فقال الخصي : بغداد اي اعطاني إلهي يعني الصنم ، ولهذا كان المتورعون يكرهون أن يسموا ببغداد بهذا الاسم ويقولون بغداد بالبدال المهمة .

وكان أبو جعفر المنصور بعث رجلاً سنة خمس وأربعين ومائة يطلبون له موضعاً يبنى فيه مدينة فطلبوا فلم يرضوا موضعاً حتى جاء موضعاً بالصراة وقال : هذا موضع أرضاه تأتية الميرة من الفرات ودجلة والصراة ، وكان أبو جعفر هذا وهو عبدالله ابن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، بنى مدينة بين الكوفة والجزيرة سماها الهاشمية ، فأقام بها مدة الى أن عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لغزو الصائفة في سنة أربعين ومائة فصار الى بغداد فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ فقيل : بغداد ، فقال : هذه والله المدينة التي أعلمني أبي محمد بن علي أنني أبنيتها وأنزلها وينزلها ولدي من بعدي ، ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والاسلام حتى يتم تدبير الله تعالى وحكمه في تصح الروايات وتبين الدلالات والعلامات تأتيتها الميرة في الدجلة والفرات من واسط والابلّة والاهواز وفارس وثمان واليمامة وما يتصل بذلك وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربعة وأذربيجان وأرمينية والرقّة والشام والشغور ومصر والمغرب وأصفهان وكور خراسان فالحمد لله الذي ذخرها لي وأغفل عنها كل من تقدمني والله لأبنيتها ثم أسكنها أيام حياتي ويسكنها ولدي من بعدي ثم لتكونن أمة مدينة في الدنيا ثم لأبنين بعدها أربع مدن لا تخرب واحدة منهن أبداً فبناها وبني

وحكى محمد بن صبيح انه مرء بمعروف رجل سقاء ينادي رحم الله من شرب ! فشرّب منه وكان صائماً وقال : لعل الله أن يستجيب منه .

وحكى عبدالله بن سعيد الانصاري انه رأى معروفاً في النوم واقفاً تحت العرش فيقول الله ملائكته : من هذا ؟ فقالت الملائكة : أنت أعلم يا ربنا ، هذا معروف الكرخي قد سكر من حبك لا يفيق الا بلفائك !

وحكى احمد بن أبي الفتح قال : رأيت بشراً الحافي في المنام قاعداً في بستان وبين يديه مائدة يأكل منها ، فقلت : أبا نصر ما فعل الله بك ؟ فقال : رحماني وغفر لي وإباحني الجنة بأسرها وقال : كل من ثمرها ، وأشرب من أنهارها وتمتع بجميع ما فيها لما كنت تحرم نفسك شهوات الدنيا ! قلت اين احمد بن حنبل ؟ قال : قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة ممن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق ! قلت : وما فعل معروف الكرخي ؟ فحرك رأسه وقال هيهات ! حالت بيننا وبينه الحجب إن معروفاً ما كان يعبد الله شوقاً الى جنته ولا خوفاً من ناره ، وإنما عبده شوقاً إليه ، فرفعه الله الى الرفيع الأعلى ووقعت الحجب بيننا وبينه ، ذاك الترياق المقدس المجرب ، فمن كانت له الى الله حاجة فليات قبره وليدع فإنه يستجاب له . وحكى انه قال : إذا مت تصدقوا بقميصي فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها ، توفي سنة إحدى ومائتين .

- ١٠ -

الحميري : محمد بن عبد المنعم ت/ ٧٢٧هـ

الروض المعطار في خبر الاقطار

بغداد : دار مملكة خلفاء بني العباس وفيها أربع لغات ، بغداد بدالين مهملتين وبغداد معجمة الأخيرة وبغدان بالنون ، وبغدان بالميم بدلاً من الباء ، وتذكر وتؤث . قالوا : وبغداد بالفارسية عطية الصنم لأن يغ صنم ، وداذ عطية ، ولذلك كره الاصمعي هذه التسمية . وكانت قريبة من قرى الفرس فأخذها أبو جعفر غصباً فبنى فيها مدينة وقال الجرجاني باغ بالفارسية هو البستان

الكثير الشجر ، وداذ معطي . فممناه معطي البساتين ، قال أبو عثمان النهدي : كنا نسير مع جرير بن عبدالله البجلي حتى انتهى الى موضع فقال : أي موضع هذا ؟ قالوا : قطربل ، فحرك دابته ثم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : تبنى مدينة بين دجلة والديجيل والصراة وقطربل يجبي إليها خراج كل أرض وتجمع إليها جابرة الأرض ، وفي رواية يخسف بها كذا أحسب . وسميت بغداد لأنه أهدي الى كسرى خصي من المشرق ، وكان له صنم يقال له بغ ، فقال الخصي : بغداد أي اعطاني إلهي يعني الصنم ، ولهذا كان المتورعون يكرهون أن يسموا ببغداد بهذا الاسم ويقولون بغداد بالبدال المهمة .

وكان أبو جعفر المنصور بعث رجلاً سنة خمس وأربعين ومائة يطلبون له موضعاً يبنى فيه مدينة فطلبوا فلم يرضوا موضعاً حتى جاء موضعاً بالصراة وقال : هذا موضع أرضاه تأتية الميرة من الفرات ودجلة والصراة ، وكان أبو جعفر هذا وهو عبدالله ابن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، بنى مدينة بين الكوفة والجزيرة سماها الهاشمية ، فأقام بها مدة الى أن عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لغزو الصائفة في سنة أربعين ومائة فصار الى بغداد فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ فقيل : بغداد ، فقال : هذه والله المدينة التي أعلمني أبي محمد بن علي أنني أبنيتها وأنزلها وينزلها ولدي من بعدي ، ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والاسلام حتى يتم تدبير الله تعالى وحكمه في تصح الروايات وتبين الدلالات والعلامات تأتيتها الميرة في الدجلة والفرات من واسط والابلّة والاهواز وفارس وثمان واليمامة وما يتصل بذلك وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربعة وأذربيجان وأرمينية والرقّة والشام والشغور ومصر والمغرب وأصفهان وكور خراسان فالحمد لله الذي ذخرها لي وأغفل عنها كل من تقدمني والله لأبنيتها ثم أسكنها أيام حياتي ويسكنها ولدي من بعدي ثم لتكونن أمة مدينة في الدنيا ثم لأبنين بعدها أربع مدن لا تخرب واحدة منهن أبداً فبناها وبني

ذئوبك دخلتها لا وقبل لرجل : كيف رايت بغداد ؟ فقال : الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها . وقال آخر : لو أن الدنيا خربت وخرج أهل بغداد لعمروها ، وكان فراغ المنصور من بنائها ونقل الخزائن إليها والدواوين وبيوت الأموال سنة ست وأربعين ومائة وكان استتمامه لجميع أمر المدينة سنة تسع وأربعين .

وقال أحمد بن أبي يعقوب : بغداد وسط العراق ، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ولا في مغاربها سعة وجلالة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء ، سكنها أهل الأمصار والكور وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم يجري في حافتيها النهران الأعظمان دجلة والفرات فتأتيها التجارات والميرة براً وبحراً بأسر السعي حتى تكامل فيها كل متجر من المشرق والمغرب من أرض الإسلام ومن غير أرض الإسلام فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان القاصية والدانية حتى يكون بها من التجارات أكثر مما في البلدان التي خرجت التجارات منها إليها، وهي مدينة بني هاشم ودار مملكتهم ومحل سلطانهم لم يستبد بها أحد قبلهم ولم يسكنها سواهم وهي وسط الدنيا لأنها من الأقليم الرابع وهو الأقليم الأوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول فيكون الحر شديداً في أيام القيظ ، والبرد شديداً في أيام الشتاء ويعتدل الفصلان الربيع والخريف . قال وباعتدال الهواء وطيب الشرى وعذوبة الماء حسنت أخلاق أهلها ونضرت وجوههم وانفتحت أذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم والفهم والنظر والتمييز والتجارات والحدق بكل مناظرة وإحكام كل مهنة واتقان كل صناعة ، فليس عالم أعلم من عالمهم ولا أروى من رواتهم ولا أجدل من متكلمهم ولا أعرب من نحويهم ولا أفصح من قارئهم ولا أضر من طبيبهم ولا أحقق من مغنهم ولا أطف من صانعهم ولا أكتب من كاتبهم ولا أبين من منطيقهم ولا أعبد من عابدهم ولا أروع من

الرافقة ولم يستتمها وبني مطية والمصيصة والمنصورة ، فوجه في حشر الصناعات والفعل من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والعفة والامانة والمعرفة بالهندسة وكان فيمن أحضر الحاج بن أرطاة وأبو حنيفة فكان أول ما ابتدئ ببنائها في سنة خمس وأربعين ومائة ثم قسم الأرض أربعة أقسام وقلد القيام بكل ربع رجلاً من قواده ورجلاً من مواليه ورجلاً من المهندسين ونظر عند بنائها من أخذ الطالع فكان المشتري في القوس فدلّت النجوم على طول ثباتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا إليها قال المخبر : ثم قلنا يا أمير المؤمنين وخلة أخرى فيها تدل النجوم على أنه لا يموت فيها خليفة ، فتبسم وقال : الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولذلك قال بعض مداح المنصور :

إن خير القصور قصر السّلام

إذ به حلّ سائس الإسلام
منزل لا يزال من حلّ فيه
أمناً من حوادث الأيام

ولهذا قالوا : نزل بغداد سبعة خلفاء : المنصور والمهدي وموسى الهادي وهارون الرشيد ومحمد الأمين وعبدالله المأمون والمعتصم فلم يمت بها واحد منهم إلا محمد الأمين فإنه قتل خارج باب الأنبار عند بستان طاهر ، وانتقل المعتصم سنة ثلاث وعشرين ومائتين إلى سر من رأى فهذا مصداق ما دلّت عليه النجوم . وانما سميت مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادي السّلام فقل لبغداد مدينة السّلام ، وقيل لأنهم أرادوا مدينة الله واسمها الأول عند الناس الزوراء لانعطافها بانعطاف دجلة . وتسمى القوس زوراء لانعطافها ، وكان بعضهم يسميها الصّيادة لأنها تصيد قلوب الرجال ، وقال رجل من أهل البصرة : مررت ببغداد في السّحر فأعجبني كثرة الأذان فيها فهتف بي هاتف : ما الذي يعجبك منها لقد فجر فيها البارحة سبعون ألفاً . ورأى أبو بكر الهذلي سفيان بن عيينه ببغداد فقال : بأي

زاهدهم ولا افقه من حاكمهم ولا اخطب من خطيبهم ولا اشعر من شاعرهم ولا افك من ماجنهم . وكانت بغداد في ايام الاكاسرة قرية من قرى طسوج بادوريا ومدينة الاكاسرة إذ ذاك [المدائن] من مدن العراق وهي من بغداد على سبعة فراسخ وبها ابوان كسرى انوشروان ، ولم تكن بغداد إلا ديراً على مصب الصراة ولم يكن ببغداد للملك اثر قديم ولا حديث ، اما ملك العرب فبدأ أولاً بالحجاز ثم استقر بدمشق من ايام معاوية رضي الله عنه لا يعرف بنو امية غيرها ، فلما جاء أبو العباس السفاح عرف فضل العراق وتوسطها في الدنيا وهو عبدالله بن محمد بن علي بن [عبدالله] العباس فنزل الكوفة أول مدة ثم انتقل الى الأنبار فبنى بأعلى شاطئ الفرات الهاشمية ، وتوفي قبل أن تستتم المدينة ثم كان من بنيان أبي جعفر لبغداد ما كان . ووضع الأساس وضرب اللبن العظام وحفرت الآبار وعملت القناة التي من نهر كرخايا وهو الآخذ من الفرات وأجريت الى داخل المدينة للشرب ونضرب اللبن ، وجعل للمدينة أربعة أبواب : باب الكوفة ، وباب البصرة وباب خراسان وباب الشام ، بين كل باب منها الى الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء ، وعلى كل باب منها بابا حديد عظيمان جليلان لا يفلق الواحد منهما ولا يفتحه إلا جماعة رجال يدخله الفارس بالعلم والرمح الطويل من غير أن يشنيه ولا يميله ، وجعل عرض اساس السور تسعين ذراعاً ثم ينخرط حتى يصير في اعلاه خمس وعشرون ذراعاً وارتفاعه ستون ذراعاً مع الشرفات ، وحول السور فصيل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع وبالفصيل أبرجة عظام وعليه الشرفات المدورة ، وحد لهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً وأن يبنوا في جميع الأرباض والدروب من الأسواق والمساجد والحمائم ما يكتفي به اهل كل ناحية ومحلة ، وأمرهم أن يجعلوا قطائع القواد والجند ذراعاً معلوماً وللتجار ذراعاً معلوماً يبنونه وينزلونه ولسوقه الناس واهل البلدان ، وآخر ما بنى القنطرة الجديدة وبها أسواق كثيرة فيها سائر التجارات

مادة متصلة ثم ربض وضاح مولى أمير المؤمنين المعروف بقصر وضاح حاجب خزانة السلاح وهناك أسواق واكثر من كان فيه في هذا الوقت القريب ، الوراقون اصحاب الكتب فإن به اكثر من مائة حائوت الوراقين ، والكرخ السوق العظمى مادة من قصر وضاح الى سوق الثلاثاء طولاً مقدار فرسخين ، وكل تجارة لها شوارع معلومة في تلك الشوارع حوانيت ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجاور تجارة تجارة ، وأحصيت الدروب والسكك فكانت ستة آلاف درب وسكة ، وأحصيت المساجد فكانت ثلاثين ألف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك وأحصيت الحمامات عشرين ألف حمام سوى ما زاد بعد ذلك ، وحفرت القناة التي تأخذ من الفرات في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والأجر من أعلاها ، فتدخل المدينة وتنفلد في اكثر شوارعها وشوارع الأرباض صيفاً وشتاءً قد هندست هندسة لا ينقطع الماء منها في وقت ، وقناة أخرى من دجلة على هذا المثال سماها دجيلاً ، وجر لاهل الكرخ وما اتصل به نهراً يسمى نهر الدجاج لأن اصحاب الدجاج كانوا يقعدون عنده ، ونهر عيسى الأعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة يحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر وتصير الى فرضة عليها الأسواق وحوانيت التجار لا تنقطع صيفاً وشتاءً ولهم الآبار التي يدخلها الماء من هذه القنوات وانما احتيج الى هذه القنوات لكبر البلد وسعته ، وإلا فهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تتدفق عليهم المياه حتى غرسوا النخل الذي حمل من البصرة وغيرها فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد ، وغرسوا الأشجار فأثمرت ثمرات عجيبة وكثرت البساتين والجنات في ارض بغداد من كل ناحية لطيب المياه وطيب الأرض وعمل فيها كل ما يعمل في بلد من البلدان لأن حذاق اهل الصناعات انتقلوا إليها من كل بلد وأتوها من كل اقلق ونزعوا إليها من الأذاني والأقاصي فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب الكرخ وجانب الأرباض ، وفي كل طرف منه

مقبرة وفري متصلة وعمارات مائة ، والجانب الشرقي من بغداد نزل المهدي بن المنصور وهو ولي عهد أبيه وأبتدأ بناءه سنة ثلاث وأربعين ومائة واختط المهدي قصوره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي بالرصافة وحفر نهراً يأخذ من النهر وان سَمَّاهُ نهر المهدي يجري في هذا الجانب واقطع المهدي اخوته وقواده بعد من اقطع في الجانب الغربي وهو جانب مدينته ، وقسمت القطائع في هذا الجانب وتنافس الناس في النزول مع المهدي لمحبته له ولتوسعته عليهم ولأنه كان أوسع الجانبين أرضاً . وفي الجانب الشرقي الذي نزل المهدي أربعة آلاف درب وسكة وخمسة عشر ألف مسجد سوى ما زاد الناس وخمسة آلاف حمام سوى ما زاد الناس بعد ذلك . وانتقل المعتصم الى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين واتصل مقامه بها مدة حياته وأيام الوائق والمتوكل ولم تخرب بغداد ولا نقصت أسواقها لأنهم لم يجدوا منها عوضاً ولأنه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسر من رأى .

قال أحمد بن أبي الطاهر : أخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد الأمير الناصر لدين الله عند دخوله مدينة السلام فوجد مائتي جبل وخمسين جبلاً ، وعرضه مائتي جبل وخمسة أحبل تكون ستة وخمسين ألف جريب ومائتين وخمسين جريباً ووجد طول الجانب الغربي مائتين وخمسين جبلاً وعرضه خمسين جبلاً يكون ذلك سبعة عشر ألف جريب وخمسمائة جريب فجمع ذلك ثلاثة وسبعون ألف جريب وسبعمائة جريب وسبعون جريباً .

وحكى الهيثم بن عدي أن المنصور لما جلس في قصره بباب الذهب أذن لرسول ملك الروم فدخلوا عليه فقال لرسول ملك الروم : هل ترى عيباً ؟ قال : نعم عيوباً ثلاثة ، قال : ما هي ؟ قال : النفس خضراء ولا خضرة عندك ، والحياة في الماء ولا ماء عندك ، وعدوك مخالطك ومطلّع على سرّك قال : أما الماء فحسبي منه ما بلغ الشفة ، وأما الخضرة فللجد خلقت لا للعب وأما السر فلا

أبالي علم بسري رعيتي أم ولدي وخاصتي ، فأمسك الرومي عن الكلام . ثم تعقّب أبو جعفر الراي فرأى أن القول ما قال فاتخذ العباسية وأجرى القناة من دجلة وأخرق السوق عن المدينة ، فلما فعل ذلك وجلس في قصره بالخلد نظر الى التجار من البزازين والصرفي والقصاب وطبقات السوق فتمثل بهذين البيتين :

كما قال الحمار لسهم رام
لقد جمعت من شتى لا مَر
جمعت حديدية وجمعت نصالاً
ومن عقب البعير وريش نسر

ثم قال : يا ربيع أن هذه العامة تجمعها كلمة وترأسها السفلة ولا أرينك معرضاً عنها فإن إصلاحها يسير وإصلاحها بعد إفسادها عسير فاجمعها بالرّغبة وأملأ صدورهم بالهبة وما استطعت من رفق بها واحسان إليها فافعل .

وفي هذا الذي ذكرناه من أولية بغداد كفاية وهي أعظم ممّا قيل وأشهر حالاً ممّا ذكر فلنقتصر على هذا القدر ثم إن دولة بني العباس استمرت بها من مبايعة السفاح بالكوفة يوم الخميس لثلاث عشرة خلون من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة الى أن ملكها الطّطر (التتر) حين دخلوا العراق واستولوا على تلك الآفاق ، وقتلوا الخليفة المستعصم .

(*) كتاب الروي المطار في خبر الأقطار ، ١٠٩ - ١١٢ تع : احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٥ .

- ١١ -

أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حمّاه ت/٧٣٢

تقويم البلدان (١)

قال في اللباب : وإنما سميت بغداد بهذا الاسم لأن كسرى أهدى إليه خصي من المشرق

(١) تقويم البلدان ٢٩٢ - ٢٩٣ ، تحقيق رينود ، والبارون ديسلان ، باريس ١٨٤٠ .

فأقطعه بغداد ، وكان لهم صنم يعبدونه بالمشرق يقال له البغ فقال ذلك الخصي بغ داذ يقول اعطاني الصنم ، والفقهاء يكرهون هذا الاسم من أجل هذا وسمّاها المنصور مدينة السلام لأن دجلة كان يقال له وادي السلام . قال وكان ابن المبارك يقول ، لا يقال بغداد يعني بالذال المعجمة ، فإن بغ شيطان وداذ عطية وأنها شرك ، وإنما يقال بغداد يعني بالدالين المهملتين وبغدان أيضاً وقال بعضهم إن بغ بالمعجمة البستان وداذ اسم رجل يعني بستان داذ ، والحريم ببغداد هو حريم دار الخلافة قال ياقوت الحموي في المشترك ، بفتح الحاء وكسر الراء المهملتين ، ثم مثناة من تحتها ساكنة وفي آخرها ميم ، قال ومقدار الحريم قريب من ثلث بغداد ، وعلى الحريم سور ابتدأه من دجلة وانتهأه الى دجلة من الجانب الشرقي كهيئة الهلال أو كنصف دائرة وله أبواب أولها باب القربة وهو على دجلة ، ثم يليه باب سوق التمر وهو باب شاهق وأغلق في أيام الخليفة الامام الناصر واستمر غلقه ، ثم باب البدرية ثم باب النوبي وفيه العتبة التي كان يقبلها الملوك والرسول ثم باب العامة ويقال له أيضاً باب عمورية ثم يمتد السور نحو ميل لا باب فيه إلا باب بستان تحت المنطرة التي تنحدر تحتها الضحايا ثم باب المرائب وبينه وبين دجلة نحو رميتي سهم قال وجميع ما يشتمل عليه هذا السور يقال له حريم دار الخلافة وفيه محال واسواق ودور كثيرة للرعية وهو كأكبر مدينة تكون ، قال وبين دور الرعية التي داخل هذا السور وبين دجلة سور آخر ، وداخل السور الثاني دور الخلافة لا يداخلها شيء من دور العامة . قال في اللباب والسندية بكسر السين المهملة وسكون النون وكسر الدال المهملة قال وهي قرية بنواحي بغداد ينسب اليها السندواني .

وبغداد على شطتي دجلة ، فالجانب الغربي يسمى الكرخ وبه كان سكنى أبي جعفر المنصور ولما بنى بغداد سميت الزوراء لأنه جعل أبواب المدينة الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة وأما الجانب الشرقي فيسمى عسكر المهدي لأن المهدي ابن المنصور أول من سكنه بعسكره ، ويسمى

أيضاً الرصافة لأن الرشيد بنى فيه قصراً وسمّاه الرصافة ويسمى جانب الطاق نسبة الى راس الطاق موضع السوق الأعظم قال في المشترك ونهر معلّى منسوب الى المعلّى بن طريف مولى المنصور قال وهو اعظم محلّة ببغداد من الجانب الشرقي وفيها الحريم ودور الخلافة (٢) .

قال في اللباب وكلوذا قرية مشهورة من قرى بغداد قال في العزيزي ومدينة كلوذا بينها وبين بغداد فرسخان ومن كلوذا الى النهران اربعة فراسخ .

(٢) تقويم البلدان ٣٠٢ .

- ١٢ -

البغدادى : صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادى ت/٧٣٩هـ

مراسد الاطلاع (١)

(بغداد) كانت أم الدنيا وسيدة البلاد ، فيها سبع لغات : بغداد ، وبغداد وبغداد ، وبغداد ، ومقداد ، ومقدان ، وبغدان ، وهي في اللغات كلها تذكر وتؤنث ، وكانت في زمن الفرس قرية تقوم بها سوق للفرس . فأغار عليها المثنى في أيام سوقهم ، فانتسفها . قال احمد بن حنبل : بغداد من الصراط الى باب التبن ثم انتقلت الى الجانب الشرقي من الشماسية الى كلوذى ، وكانت عظمة فخرت باختلاف العساكر إليها واستيلائهم على دور الناس وامتعتهم ، فلم يبق من الجانب الغربي إلا محال متفرقة ، اعمرها كان الكرخ وخرب من الجانب الشرقي من الشماسية الى المخرم ، وبني السور على ما بقى منه على جانب دجلة حتى جاء التتر اليها فخرّب اكثرها ، وقتلوا أهلها كلهم ، فلم يبق منهم غير آحاد كانوا أنموذجاً حسناً وجاءها أهل البلاد فسكنوها وباد أهلها ، وهي الآن غير التي كانت ، وأهلها غير من عهدناهم والحكم لله تعالى .

(١) مراسد الاطلاع على اسماء الامكنة والبغاة ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ١٩٥٢ . ٢٠٩/١

الباكوي : عبدالرشيد صالح بن نوري ، كان
حيًا ١٤٠٣/٨٠٦ - ١٤٠٤

تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار

بغداد سيّدة البلاد ومدينة السلام هواها الطف
من كل هواء ، وماؤها اعذب من كل ماء ، وتربتها
اطيب من كل تربة ونسيمها ارق من كل نسيم ،
بناها المنصور أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي
ابن عبدالله بن العباس على طالع القوس والشمس
في درجة الطالع ذكر انه بناها بالجانب الغربي ووضع
اللبنة الاولى بيده وجعل داره وجامعها في وسطها
وبنى فيها قبة فوق ايوان كان علوها ثمانين ذراعاً
والقبة خضراء على رأسها تمثال فارس بيده رمح
وقد سقط رأس القبة سنة تسع وعشرين وثلثمائة
والآن لم يبق منها اثر وبغداد عبارة عن المدينة
الشرقية كان أصلها قصر جعفر بن يحيى البرمكي

مخطوطة باريس الفريدة المرقمة Arab 585-945
نقلت من نسخة كتبت سنة ٨١٦ نقلها علي المصري نزيل
الاذقية .

وهي المدينة العظمى كثيرة الأهل والخيرات
والثمرات يجبي إليها لطائف الدنيا وظرائف العالم
لها سور ابتداءه من دجلة وانتهاءه إليها كشبه الهلال
بها دار الشجرة من أبنية المقتدر بالله دار فسيحة
ذات اشجار وبساتين مونقة وبها المدرسة التي
انشاها المستنصر بالله لم يبن مثلها قبلها في حسن
عمارتها ، وعلى باب المدرسة ايوان ركب في صدره
صندوق الساعات على وضع عجيب . وفي سنة
ست وخمسين وستماية سار إليها هولاء بجنوده
واخذها . وقيل الخليفة المستعصم بالله نسب
إليها القاضي يحيى بن اكثم كان فاضلاً عزيزاً (٢) العلم
ذكي الطبع وأبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل
كان أصله من مرو جيء به إلى بغداد فنشأ بها
توفي سنة احدى وأربعين ومائتين عن تسع
وسبعين سنة وينسب إليها أبو الحسن السري
ابن الغلس السقطي خال أبي القاسم الجنيد ، ابن
محمد واستأذه وكان أصل الجنيد من نهاوند
ومولده بغداد ، ومنها الاستاذ علي بن هلال الخطاط
يعرف بابن البواب كان عديم النظر في صنعته لم
يوجد مثله .

(٢) هكذا في الأصل ونقل « وينسب » . في الأصل عزيز .



بغداد في آثار المستشرقين الفرنسيين

ترجمة الدكتور

أكرم فاضل

مديرية التراث الشعبي - بغداد

- ١ -

بغداد في العهد العثماني

بقلم

روبير مانتوران



الصفويين في إيران . فهؤلاء لم يكونوا يمثلون
للعثمانيين خصوما سياسيين وسادة للأقاليم الممتدة
من شرقي آسيا الصغرى ، يهددون بشكل خطير
غالباً السيادة التركية فحسب ، وإنما كان هؤلاء
الصفويون كذلك من متحمسي المدافعين عن أحد
المذاهب ، وبهذه المثابة كانوا يؤلفون على الصعيد
الديني خصوما من الحمق أهمل شأنهم ، لأنهم
كانوا يستطيعون الاعتماد على جماعات ابتداعية
مبعثرة في شرق الإمبراطورية العثمانية . وعلاوة
على ذلك فإن أقاليم شاهات إيران كانت تشكل عائقاً
خطيراً بوجه الزحف التركي صوب الشرق ، ولا سيما
صوب آسيا الوسطى والمحيط الهندي .

في عام ١٥١٤ سحق سليم الأول الجيوش
الصفوية في جلدان واستولى على تبريز ، ولكن
مهما بلغت أهمية هذا الفوز فإنه لم يجلب حلاً
شافياً للمشاكل التي أجهد العثمانيون أنفسهم بحلها
لمصلحتهم . بالإضافة إلى أن الصفوي طهماز
(١٥٢٤ - ١٥٧٦) وضع للمرة الثانية بغداد في إطار

يوم دخل بغداد - قانوني سليمان - سليمان
القانوني - المعروف أكثر في الغرب باسم سوليمان
له مانيفيك Soliman le Magnifique

سلطان العثمانيين ، وذلك في ٢٤ جمادى الأولى
٩٤١ (١ كانون الأول ١٥٣٤) أكمل على هذه الصورة
التسلط التركي على الأقاليم العربية في الشرق
الأدنى واستطاع أن يفرض نفسه كوارث شرعي
للخلفاء العباسيين ، الذين وقع أخيرهم أسيراً بيدي
أبيه سليم الأول في القاهرة منذ سبع عشرة سنة
خلت . ولكن فتح العراق هذا واحتلال عاصمته يوافقان
في أذهان العثمانيين تاريخ مشاغل عديدة . فقبل
كل شيء أتاح غزو بغداد للأتراك وضع أيديهم على
جميع المراكز العمرانية الكبرى للعالم العربي
الإسلامي الشرقي ، وذلك ما ضمن لهم مكانة
سياسية غير منكورة وأكد لهم تفوق إحدى الفرق
الدينية الظاهرة ، الممثلة في شخص السلطان التركي
الذي أصبح خليفة منذ الاستيلاء على مصر . ومن
جهة أخرى فإن الاستحواذ على بغداد وضع حداً
للتناحرات الناشئة من مطلع القرن مع العواهل

الولاء الإيراني الوثيق بعد محاولة انفصال الوالي ذي الفقار (٩٣٥ - ١٥٢٩) .

واخيرا ، وهذه النقطة ليست النقطة الأقل أهمية ، فمذ نهاية القرن الخامس عشر نجحت اضطرابات اقتصادية . وعلى الأخص لدى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . فبالرغم من استغلاله استغلالا محدودا ، فسيأتي من جانبه خطر قريب او بعيد لتقويض دور الوسيط للشرق الأدنى بين اقطار المحيط الهندي والشرق الأقصى واقطار الغرب . وكان العثمانيون وهم سادة مصر والسواحل الغربية للجزيرة العربية ، يراقبون البحر الأحمر وشواطئه المباشرة ، وبالتالي حركة التجارة التي واصلت نشاطها . وسيكون وضعهم أفضل لو استطاعوا كذلك مراقبة الخليج العربي وبلاد ما بين النهرين ، وهي إحدى الطرق المعتادة التي تسلكها البضائع القادمة من الهند وآسيا الشرقية . وعلى هذه الشاكلة سيكون بمقدورهم حفظ التوازن بين تأثير تحول المسيرة التجارية من جنوب افريقية والسيطرة في الوقت نفسه ، أي بموجب ذات الانظمة ، على الوضع المنحاز للشرق الأدنى في التجارة الدولية ، التي كانت بعيدة عن هجر طرقها التقليدية من البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الهندي .

كل هذه الاسباب حملت سليمان القانوني على التحرك : ففي عام ١٥٣٤ شن على فارس « حملة العراقيين » (عراقيين سفري : عراقي عجم وعراقي عرب) تلك الحملة التي مكنته من الاستيلاء على اذربايجان ، في حين انحدر صدره الأعظم ابراهيم باشا الى بلاد ما بين النهرين ، فاحتل بغداد دون كبير عناء بعد أن غادرها واليها الصفوي ، فسلمه اعيانها مفتاحها في تموز ١٥٣٤ . وقد حدث دخول السلطان المهيبة الى بغداد المفتوحة في الأول من كانون الأول التالي . وباستثناء الفاصل الزمني الوجيز في القرن السابع عشر ، بين ١٦٢٣ و ١٦٣٨ ، الذي فيه خضعت مرة أخرى لحكم الصفويين ، فقد ظلت بغداد بأيدي العثمانيين حتى آذار ١٩١٧ ، التاريخ الذي احتلها فيه الإنكليز .

خلال هذه الفترة الطويلة التي تبلغ زهاء اربعة قرون ، ظل تاريخ بغداد بعيدا عن كونه خاليا من القلاقل خاويا من الحوادث . اذ يمكننا أن نميز فيه بين ثلاث مراحل :

- ١ - حكم العثمانيين المباشر (١٥٣٤ - ١٧٠٤) .
- ٢ - حكم الكولنديين او المماليك (١٧٠٤ - ١٨٣١)
- ٣ - عودة الإدارة العثمانية (١٨٣١ - ١٩١٧) .

١ - حكم العثمانيين المباشر .

ما ان وصل سليمان القانوني الى بغداد حتى عكف على تنظيم ادارة المدينة والاقاليم المرتبطة بها ، فقام بمسح الاقاليم وسجل الاراضي ووزع التيمارات والزيامات ونصب واليا يحمل عنوان باشا ، يساعده دفتر دار (ناظر الخزانة) مع قاض (حاكم) . وكان سليمان باشا الوالي الاول .

وانشئت حامية للانكشارية في المدينة لضمان الدفاع والامن . واخيرا ، لأجل اظهار استقرار الاسلام الحنيف ، شيد سليمان القانوني مقاما لأبي حنيفة (لا ننسى أن الأتراك كانوا على المذهب الحنفي) الذي بنيت بالقرب منه مدرسة ، واشاد ضريحاً ، واقام تكية للفقير الحنبلبي الشهير عبدالقادر الكيلاني ، وتم بناء مسجد الكاظمية ، الذي بدأ بنائه الشاه اسماعيل .

وقد اكمل فتح بغداد ، بعد ذلك بسنوات ، بفتح البصرة التي احتلها اياس باشا والي بغداد عام ١٥٤٦ . وكرست معاهده اماسيا المؤرخة في ٢٩ مارس ١٥٥٥ ، التي وضعت نهاية للنزاع الناشب بين العثمانيين والصفويين ، السيادة العثمانية الرسمية على العراق وبصورة أخص على بغداد .

ساد الهدوء في القطر حتى نهاية القرن السادس عشر ، وشرع عدة ولاة ببناء المساجد والتكايا والخانات والاسواق . وعمل حسن باشا على احاطة جانب الكرخ بسور وخذق ليحفظه في مأمن من غارات القبائل البدوية . وصينت المواقع الدفاعية احسن صيانة ورممت . فالقلعة الداخلية القريبة من دجلة تشتمل على عدة مهاجع للانكشارية وعلى مستودع للخبرة ومخزن للأقوات والاموال . وكان قصر الوالي يجاور كل هذا .

ظلت بغداد طوال هذه الفترة تمثل مركزا عظيما للقوافل . فنشطت فيها التجارة . وخف السواح الأوربيون لزيارتها في ختام القرن السادس عشر ، فوسفوا باعجاب ميادينها واسواقها ومتاجرها التي وجدوا فيها البضائع المقبلة من الشرق الأدنى او الأقصى ، وكذلك المنتجات المحلية : من اقمشة حريرية وقطنية واسلحة وامتعة معدنة

دمشقية كالسروج ومختلف أصناف السراجة .
ويلوح لنا أن عدد السكان آنئذ ، وهم مؤلفون
بصورة أساسية من العرب والآتراك والایرانیین ، لم
يتجاوز الأربعين أو الخمسين ألف نسمة .

بعد حكم أحمد الأول (١٦٠٤ - ١٦١٧) أدى
ضعف حكومة اسطنبول الى اضطرابات في الأقاليم
التي كانت فيها الإدارة المحلية أما محرومة من
وسائل الإدارة ، وأما أنها كانت تتمتع بنوع من
الاستقلال الذاتي لمصلحة الوالي أو لمصلحة من
يستطيع الانقضاض على السلطة . ففي بغداد تمرد
أحد ضباط الإنكشارية الشوباشي بكر مع أغا الأزاب
محمد قنبر وجرا معهما شطرا كبيرا من القسوات
المقاتلة ، ولم يستطع الوالي حافظ أحمد باشا قمع
التمرد ، الذي لعله استفاد من دعم شاه ایران ،
والتوقع أن الشاه عباس الأول كان يفكر ، وهو
يشهد مهزلة الفوضى العثمانية ، بسلب الآتراك
الأقاليم المضاعة في القرن السابق ، فاتصل ببكر .
وخلال بعض الوقت تفاهم بكر ومحمد قنبر ثم انتهيا
الى التصادم : فانتصر بكر وظل وحده سيد بغداد
التي اشاع فيها الإرهاب ، بحيث أن قسما من
السكان ولوا فرارا .

أرسل السلطان لمحاربة بكر جيشا بامرة حافظ
أحمد باشا الذي اقترب من بغداد . حينئذ استغاث
بكر بالشاه عباس ووضع نفسه تحت حمايته .
فاوعز الشاه عباس الى والي همدان صفي قلي خان
بالاستيلاء على المدينة . آنئذ أخذ حافظ أحمد
باشا على عاتقه مسؤولية تعيين بكر واليا على بغداد
لحساب العثمانيين . ولما لم يعد لدى بكر سبب
لتسليم المدينة للصفيين اعترض قوات صفي قلي
خان الذي شرع بمحاصرة بغداد دون تلكؤ . دام هذا
الحصار ثلاثة أشهر استسلمت المدينة في ختامها ، بعد
أن كانت الأهوال من الجوع . ورغم وعوده بالصفح ،
ذبح صفي قلي شطرا من السكان ، وعلى رأسهم بكر
والقاضي نوري أفندي ، في حين بيع السكان الآخرون
بوصفهم عبيدا . وخرب بعض قبور الصالحين ،
وأغلق عدد كبير من المساجد والمدارس . فهجر
المدينة الكثير من السكان (١٠٣٢ - ١٦٢٣) .

لقد اهتزت اسطنبول اهتزازا عنيفا لخسارتها
بغداد ، وكلفت حافظ أحمد باسترجاعها ، فحاصرها
من ١٣ تشرين الثاني ١٦٢٥ الى ٣ تموز ١٦٢٦ ،
ولكنه أخفق وانسحب لدى وصول الجيش الإيراني .
فحوصرت المدينة للمرة الثانية من قبل بوشناق
خسرو باشا طوال أربعين يوما في خريف ١٦٣٠ ،
ولكن دون جدوى . إذ مات صفي قلي خان بعد
ذلك بمدينة ، فعين بكتاش خان واليا على بغداد ،
وكانت أثناء ولايته فريسة لوباء عنيف : ذكر بعض
المؤلفين أن السكان تناقصوا آنئذ فاصبحوا يعدون
١٥٠٠٠ نسمة . وخلال هذه الفترة القصيرة كانت
العمارة الوحيدة الشامخة هي السراي ، أو دار
الحكومة ، التي بناها صفي قلي خان .

في عام ١٦٣٨ شرع السلطان مراد الرابع ، بعد
أن أصبح السيد المسود للسلطة في اسطنبول ،
باسترداد بغداد من أيدي الإيرانيين . فوصل على
رأس جيش جرار أمام المدينة في ١٥ تشرين الأول
١٦٣٨ وضرب حولها الحصار : دام التطويق ٤٠
يوما . وقد استفاد مراد الرابع من أيام الحصار
الآخيرة بوقوع الخلاف بين اثنين من قادتها ، فهاجم
النقاط الأضعف في السور ، لاسيما الباب الأبيض
(آق قابي) . فجرت معارك طاحنة ، لقي مصرعه
خلالها صدره الأعظم طيار محمد باشا . وانتهى الأمر
ببكتاش خان الى الاستسلام ، ولكن بعض ضباطه
واصلوا المقاومة ، فحدثت من جراء ذلك مجازر
وتخريبات هامة . وعين مراد الرابع واليا جديدا
هو كچك حسن باشا . ولخرب المدينة أمر
بينائها : فاعيد تشييد قبور أبي حنيفة وعبدالقادر
الكيلاني وشهاب الدين عمر السهروردي والشيخ
سراج الدين ، واعيد ترميم القلعة وامتدت الأسوار
الى الجانب الثاني من النهر لتقوية الدفاع عن
المدينة . وسور باب الطلسم وظل على هذه الحالة
حتى عام ١٩١٧ . وافتتحت مدارس ودور علم
وتكايا وحمامات بأعداد كبيرة .

أبرمت معاهدة قصر شيرين في محرم ١٠٤٩ -
مايس ١٦٣٩ ، بين العثمانيين والصفيين التي
نصت على عودة بغداد الى حوزة الامبراطورية

وكرديستان او سورية . وتؤلف بغداد كذلك بوقوعها على مقربة من الحدود التركية الايرانية موقعاً استراتيجياً تطاحن حوله العثمانيون والصفويون ، ففاز بالذلة العثمانيون . صحيح ان فترة السيادة الاولى العثمانية هذه لم تحمل على الدوام الى المدينة السلام والرخاء اللذين من حقها ان تنتظرهما من مالكيها الجدد . ومع ذلك بوسعنا القول انه بالنسبة للعصور المتقدمة مباشرة عرفت بغداد فورة شهره عادت عليها بمشيدات عديدة واسهمت على الاخص حتى مطلع القرن السابع عشر ببناء هذه السطوة العثمانية التي كانت عهدئذ اول سطوة للعالم القديم .

٢ - حكم الماليك .

لقد ادى تعيين ايوب حسن باشا واليا على بغداد عام ١٧٠٤ الى تحول عميق في ادارة المدينة والاقاليم : فالواقع ان حسن باشا ، الذي تلقى تربيته في سراي اسطنبول وامضى فيه يفاعته وشبابه ، تركت هذه التربية اثرا قويا في نفسه وطبعها بطابع سمح بتكوين شخص مخلص مقتدر ، متفرغ بكلية لخدمة السلطان . فوضع حسن ايوب باشا موضع التطبيق اساليبه الخاصة فانشأ في قصر الولاية غرفة خاصة (خاص اوده) ، غرفة للمال (خزينة اوده سي) ، وغرفة ادارة ومدرسة امر ان يربى فيها فتية من عبيد الاباز والجيورجيين والشركس ، وكذلك بعض ابناء ضباطه : كان اولئك الكولنديين (الماليك) . وعهد بهم الى معلمين ومربين ، فتلقوا من هؤلاء تعاليم الدين الاسلامي والمعلومات الثقافية التي لا غنى عنها ، ودربوا على استعمال الاسلحة ومروا تمرينات بدنية .

بعد ان ينتهي هؤلاء « الوصفاء » من تعليمهم ، وكان يصل عددهم احيانا الى ٢٠٠ ، يتلقون شهادة وراتبا ، ويدرجون لحظئذ في صنف اغوات الداخل (اغاياني اندرون) : على هذه الشاكلة تألفت طبقة متعلمة من الرجال وضعوا على راس الخدمات المدنية والعسكرية الرئيسية في بغداد والاقاليم ، فوازنوا سطوة الانكشارية باخلاصهم للبasha واطاعتهم له . وقد وصل بعض هؤلاء الكولنديين الى رتبة (كتحدا) او مساعد والي وثقلوا بعدئذ القضاء الأعلى في الاقليم .

العثمانية . وعرفت بغداد وارباضها حتى نهاية القرن السابع عشر قلاقل منشؤها فتن الانكشارية واضطرابات القبائل البدوية او الكردية ، ولكن الولاة (٣٤ واليا من ١٦٣٨ حتى ١٧٠٤) وصلوا الى قمع القلاقل الناجمة في كردستان او الخليج العربي . اذ سحق قره مصطفى تمرد والي البصرة حسين باشا (١٦٦٧) . وغب ذلك استولى الايرانيون على البصرة ، في حين ثارت عشائر المنتفك وشمر وبني دجيل والزبيد ، ولم يسمح الطرف بارسال قوات من اوربا الى العراق الا بعد توقيع صلح كارو لوفيز (١٦٩٩) فاستطاع والي بغداد الطبان مصطفى باشا انزال العقاب بالتوار واستعادة البصرة (١١١٢ - ١٧٠١) . خلال هذه الفترة التي تلت استرداد بغداد شيد الولاة العثمانيون العديد من العمارات واسهموا في تقوية المواقع الدفاعية للمدينة . فكجك حسن باشا بنى ثلاثة ابراج : آق قابي وبرجي عجم وقرانليق قابي (١٦٤٢) .

اعاد دلي حسن باشا ترميم جامع القرية (١٦٤٤) وسلا حدار حسين باشا ، جامع الفضل ، أصبح مسجد حسين باشا ، ورمم عبدالرحمن باشا (١٦٧٤) مسجد الشيخ معروف واثم السداد الذي يحمي حي الاعظمية . واصلح قبلان مصطفى مسجد الشيخ قدوري الذي اصبح يدعى مسجد القبلاية (١٦٧٦) . وكال عمر باشا نفس الكيل لمسجد ابي حنيفة (١٦٧٨) وقام بنفس العمل ابراهيم بالنسبة لمسجدي السلطان علي والسراي . وشيد احمد بوشناق خان بني سعد وسلا حدار حسين باشا سوقا جديدة قبالة المدرسة المستنصرية ، فعرفت المدينة نشاطا هائلا . ومحيت الاضرار التي خلفتها الحروب التركية الايرانية . وشرع الاهالي بالتكاثر ، وظلت حركة التجارة ، على وجه العموم ، ناشطة كنشاطها في العصر السالف . تعتبر بغداد اهم مدينة في الشرق العثماني . وتؤيد المنازعات التي كانت بغداد مسرحا لها بين الاتراك والايرانيين هذا القول بجلاء . اذ ليست المسألة مسألة استيلاء او محافظة - على مدينة تاريخية فحسب ، وانما بالاضافة الى ذلك ضمان السيطرة على طسرق موصلات خطيرة بين الخليج العربي وارمينية ،

وفي تنظيم الكولنديين كان يجيء بعد الكتخدا القابچطر كتخداسي المسؤول عن الخدمة الداخلية ، والخازندار ، قائد الممالك ، أما الشؤون الادارية الهامة التي تخص البلدة واقليمها فكانت تجري المناقشة بشأنها في الديوان المؤلف من السلوات الرئيسية في الولاية : الوالي . الكتخدا . القاضي . الخازندار ، الدفتر دار . الديوان افنديسي (رئيس الديوان) . وقد ظل هذا النظام ، الذي اقامه ايوب حسن باشا ، يتبعه ابنه احمد باشا وكذلك اعقابه حتى عام ١٨٣١ . واستفاد النظام خاصة من المدة الطويلة لولايتي حسن باشا واحمد باشا ، فضمن لهما وللولاة التاليين انصارا وهيئة من الاداريين اتاحوا لهم احيانا معارضة القرارات الصادرة من اسطنبول والسير بموجب سياسة شخصية .

لقد ظل ايوب حسن باشا واليا على بغداد مدى ١٩ سنة ، من ١٧٠٧ حتى ١٧٢٣ مستعينا بالقوة والدبلوماسية ، فنجح في اخضاع القبائل النائرة كردية ويزيدية . واستطاع نيل رضى الاهالي بالغاء الضرائب على المواد الغذائية والخشب الداخلى الى بغداد . وبفضله استتب الامن في العراق ، وتحسنت احوال الاقاليم بصورة ملحوظة . ومنح ولاية البصرة لمساعدة وصهره مصطفى آغا . وحين ادركته الوفاة عين ابنه احمد باشا واليا على بغداد وقائدا لجيش الاقاليم الشرقية : أصبح الحكم متزيبا بزي وراثي . واتبع احمد باشا نفس السياسة الحكيمة التي سار عليها والده فحكم من ١٧٢٤ حتى ١٧٤٧ (مع فجوة قصيرة من ١٧٣٤ حتى ١٧٣٦) .

وفي عام ١١٤٥ - ١٧٣٣ هاجم عاهل ايران نادر شاه بغداد وحاصرها مدى ٩ اشهر ، ولكن انتصار طوبال عثمان باشا على نادر شاه ، في ٧ صفر ١١٤٦ - ٢٠ تموز ١٧٣٣ انقذ بغداد . وغيب ذلك بعشر سنوات اعاد نادر شاه الكرة ، فاندحر مجددا ولم تقم له قائمة .

لقد اثار موت احمد باشا بعض القلاقل : ففي الواقع خلق الكولنديون متاعب للوالي الجديد محمد باشا ، الذي لم يكن ناجما من صفوفهم ، ولعل هذه القلاقل كان مصدرها سليمان باشا ، المملوك القديم

المعتوق الذي اصبح صهرا لاحمد باشا وواليسا لاطنة . وكان سليمان باشا يأمل في الحصول على ولاية بغداد ، ولكنه لم يفز الا بولاية البصرة ، ومحمد باشا ، الذي كان يحترس منه ، صوره بصورة المتمرّد لدى حكومة اسطنبول التي قامت بالتحقيق ، ولكنها تخلت عنه امام عداء الممالك ، وقلدت سليمان باشا ولاية بغداد بالاضافة الى ولاية البصرة (١١٦٣ - ١٧٤٩) فلبث سليمان باشا ١٢ سنة في هذه الوظيفة ، وعاش العراق خلال هذه الفترة في هدوء شبه شامل ، في حين كان يشتد عود نظام الكولنديين . وبعد رحيل سليمان فاز كتخدائيان بالولاية الواحد بعد الآخر ، وهما : على باشا وعمر باشا ، رغم عدم رغبة الحكومة المركزية في ذلك .

في عام ١١٨٦ - ١٧٧٢ انتشر طامون مروع عاث في المدينة طوال ستة اشهر ، وافضت المنافسات بين الكولنديين الى اضطرابات وفوضى وشغب ، واندلعت ثورات في كردستان ، في حين كان شاه ايران ، زند كريم خان ، يساعده متصرف البابانات ، يحاصر البصرة ثم يقتحمها ويبعد متسلمها (معاون الوالي) الى شيراز . وبعد موت زند ، عاد سليمان الى العراق واستولى على السلطة في بغداد : واعترف به السلطان واليا على المدينة وعهد اليه كذلك بولايتي البصرة وشهرزور (١٧٧٨) .

وقد حكم سليمان باشا الملقب ببيوك (الكبير) مدى ١٤ عاما : وامتدت سلطته من منطقة ماردين حتى الخليج العربي ، واعتبر بالتالي كأقوى شخصيات الامبراطورية العثمانية ، وفي اثناء ولايته تحتم عليه ان يخضع القبائل العربية والكردية النائرة وان يواجه هجمات الوهابيين ، ثم ، دسائس عاهل ايران فتح علي شاه . وعلاوة على ذلك اقض طامون مضاجع اهل بغداد في مطلع القرن التاسع عشر . وقد اعان بيوك سليمان باشا كثيرا على ازدهار التجارة والزراعة وشجع الاعمال العمرانية . ورمم هو بنفسه اسوار بغداد ، وحمى الكرخ بسور وخندق . وهدم السراي وبنى مكانه سرايا جديدا قدر له ان يحترق اثناء حوادث عام ١٨٣٠ - ٣١ . وبغداد مدينة له كذلك بالمدرسة السليمانية والمكتبة

١٢٢٨ - شباط ١٨١٣) الذي اعتقله أثناء فراره
وصب عليه الموت . فاعترف الباب آئذ بسعيد بك
بصفة وال على بغداد والبصرة وشهرزور . ولكنه
اثار نائرة الكولنديين ضده بأعماله الخرقاء ، وكذلك
سخط سكان المدن والأرياف . فجمع صهره الكتخدا
القديم داود باشا ضده المعارضين ، وباتفاق مع
حالت أفندي زحف على بغداد فاحتلها في ٥ ربيع
الثاني ١٢٣٢ - ٢٢ شباط ١٨١٦ ، وأعدم سعيد
باشا على الفور . فاعترف به الباب رسمياً والياً على
بغداد ، وهو المنصب الذي تمسك به ١٥ سنة .
وتشبث داود باشا في إحلال السلام في الأرياف .
وما لبث أن شيد ثلاثة مساجد ، ولا سيما مسجد
الحيدر خانة ، والمسجد والمدرسة الصافية والسوق
والقصر . ومن جهة أخرى افتتح مشاغل للنسيج
واستدعى الفنيين الأوروبيين ، فنهضت الصناعات
اليدوية نهضة جديدة ومثلها الزراعة . واستعان
بخبير عسكري فرنسي من مرافقي نابليون واسمه
دقو Devaux فدرّب جيشاً قوامه ١٠٠٠ رجل ،
بين مشاة ومدفعيين . وبهذا الجيش نفسه توصل
إلى دحر هجوم ابن شاه إيران محمد علي ميرزا ،
الذي تقدم حتى وصل إلى مقربة من بغداد
(١٢٣٦ - ١٨٢١) .

ولكن تجديد حكم الماليك في بغداد لم يتسق
مع سياسة الإصلاحات الإدارية والسياسية التي
شرع بها السلطان محمود الثاني . فعلى أثر رفض
داود باشا حمل معونة مالية إلى الحكومة العثمانية
أثناء الحرب التركية الروسية عامي ١٨٢٨ - ٢٩ ،
رفض السلطان استجابة طلب الباشا بأن يضم
إلى ولايته ولاية الموصل ، ثم أرسل إلى الموقع
الدفتردار الأول صادق أفندي لتوطيد هيبة السلطة
المركزية (ربيع الأول ١٢٤٦ - آب ١٨٣٠) . ولكن
داود باشا أعدم صادق أفندي ، فاضطر السلطان
إلى إرسال والي حلب علي رضا باشا لقمعه . فوافد
هذا إلى بغداد أحد مساعديه قاسم باشا ، مع بعض
القوات : فدارت رحى المعارك في المدينة ، والنهم
الحريق قصر الوالي . وأخيراً انكسر قاسم باشا
وقتل . حينئذ زحف علي رضا بنفسه على بغداد
وضرب حولها الحصار مدي ٩٠ يوماً . وفي ٩ ربيع

العامة وسوق السرايين ، بالإضافة إلى تعمير عدة
مساجد (القبلانية والفضل والخلفاء) . وقد توفي
بيوك سليمان في ٨ ربيع الثاني ١٢١٧ ٨ آب ١٨٠٢ .
أما خلفه فأبو غدار علي باشا ، الذي تلقى مهمة
عقاب الثوار الوهابيين ، ولكن رغم معونة والي
دمشق العظيم زادة عبدالله باشا ، لم يستطع
الوصول إلى نتيجة . إذ سرعان ما اغتيل . وقد
أسس أثناء ولايته المدرسة العلية ، التي اعتبر
المدرس فيها رئيس علماء بغداد . بعد وفاة أبي
غدار علي باشا ، صممت حكومة اسطنبول على
استئصال شافة نظام الكولنديين فعينت لبغداد
والياً من خارج صفوفهم هو يوسف زيا باشا ، ولكن
تجاه المقاومات التي جوبه بها ، وبناء على توصية
السفير الفرنسي ، سباستياني ، عينت أخيراً المملوك
كجك سليمان باشا . فآخف هذا في أعماله التي
مارسها ضد اليزيدية ، ولكنه نجح في قمع الوهابيين ،
إذ كسر شوكتهم وقهرهم وأخضعهم . وفي مجال
العدالة قام كذلك بمبادرات لم ترق حكومة اسطنبول
مثل : إلغاء عقوبة الإعدام (باستثناء العقوبات التي
جاءت بها المحاكم الدينية) . منع مصادرة الأموال ،
إلغاء رسوم المحاكم . تخصيص مرتب للقضاة .
فتذرعت اسطنبول بحجة رفض كجك سليمان باشا
دفع بعض المبالغ المطلوبة ، فقررت وضع نهاية لسلطته
وأرسلت إحدى شخصيات الباب العالي الرئيسية
بدله هو حالت أفندي . فاستعان هذا بمتصرف
البابانات والي الموصل ، فزحف على بغداد
(رمضان ١٢٢٥ - تشرين الأول ١٨١٠) . فاندحرت
قوات سليمان ، وفر هو نفسه ، فما لبث البدو
أن قتلوه .

عين حالت أفندي بصفة وال أحد الكولنديين ،
عبدالله باشا ، ودون أن يخطو خطوة إلغاء نظام
الماليك أعلن الاعتراف بسلطة حكومة اسطنبول .
فوجد عبدالله باشا نفسه حالاً تجاه معضلتين
أساسيتين : هجوم شاه إيران فتح علي باشا ، يدعمه
متصرف البابانات عبدالرحمن باشا ، وعمل سعيد
بك ، ابن كجك سليمان باشا ، الذي تساندته عشائر
المنتفك . فتوصل عبدالله باشا إلى التفاهم مع
عبدالرحمن باشا ، ولكن قهره سعيد بك (صفر

الثاني ١٢٤٧ - ١٧ أيلول ١٨٣١ فتح الاهالي الجياع الباب الشرقي ، فاستطاع علي رضا النفوذ الى المدينة . وسرعان ما اعدم جميع المماليك ودمر بهذه الصورة اوجاقهم . اما داود باشا فقد شمله العفو بفضل خدماته التي اداها سابقا ، فسلك طريق المنفى . وهكذا انتهى هذا النظام الذي بدأ في ١٧٠٤ ، والذي كان له مزية اعطاء بغداد اهميتها بوصفها مركزا سياسيا واداريا عظيما ، وذلك بترسيخ سلطة والي الاقاليم على القبائل البدوية او الكردية ، وباخضاع السناجق المجاورة للبصرة لهيمنة بغداد ، وكذلك شـهرزور والموصل . ومع ذلك كان يمثل خطـر تأليف اتجاه بالغ الوضوح في الاستقلال الذاتي في قلب الامبراطورية العثمانية ، وبهذا الشاكلة يشجع المطامع الايرانية في الاقاليم . ولكن رصيده على العموم ايجابي . فقد أسهم في تحسين الوضع السياسي والاقتصادي اسهاما لا ينكر ، وولد دفعا جديدا لتعمير المنشآت الدينية وذات المنفعة العامة . وقد تزايد عدد السكان بصورة ملموسة ، فوصل زهاء ١٠٠.٠٠٠ نسمة حوالي عام ١٨١٦ وعلى الأقل الى ١٢٠.٠٠٠ عام ١٨٣٠ .

كان هؤلاء السكان يؤلفون منطقيا عدة مجاميع: فالقادة والعسكريون كانوا اترাকা او ممالك، وكان التجار والصناع عربا لو فرسا او يهودا ، او مسيحيين احيانا . وقد لوحظ كذلك وجود اكراد وهنود . وكان الاوربيون اقل ما كانوا ، ولم يكن ديدنهم غالبا الا التجول في المدن دون الإقامة فيها طويلا . وكانت بغداد آنـذ تعد من بين مدن الامبراطورية العثمانية الكبرى .

٣ - عودة الادارة العثمانية الى الحكم .

في اعقاب انتصاره على داود باشا ، عين علي رضا باشا واليا على بغداد : فظل في هذا المنصب ١٦ سنة . ولكن ما ان تسلم زمام الحكم حتى نكبت بغداد بوباء فظيع اضيفت اليه فيضانات مدمرة . فسرعان ما اصبح الوضع مفعجا ، اذ هلك قسم من السكان او هرب : في عام ١٨٣٧ لم يبق من سكان بغداد اكثر من ٤٠.٠٠٠ نسمة ، ولم يرتفع هذا

الرقم الا ببطء شديد بعد ذلك : ٦٠.٠٠٠ نسمة عام ١٨٥٣ ، ٨٠.٠٠٠ نسمة تقريبا عام ١٨٧٧ ، ٩٠ الى ١٠٠ الف بين ١٨٩٠ و ١٩٠٠ ، ٢٠٠.٠٠٠ عام ١٩١٨ .

وقد انهمك الولاة ، الذين غدوا يرتبطون مباشرة بالسلطة المركزية، بمعالجة الوضع الاجتماعي والاقتصادي . واول من عقدت له صدارة حركة التجديدات هو محمد رشيد باشا ، الذي اسس عام ١٨٤٧ شركة ملاحية للنقل التجاري بين بغداد والبصرة . وامر نامق باشا ببناء مشغل للتصليح (دمرخانة) لسفن هذه الشركة (١٨٥٣) ، ولكن الفضل الاكبر يعود الى مدحت باشا ، الذي اقام اصلاحات على قدميها اثناء ولايته (١٨٦٩ - ١٨٧٢) وهي اعـمق اصلاحات ، وذلك بعد ان قمع ثورة بدوية واخضع نجدا ، الذي الحقه بولاية بغداد . وادخل في الاقاليم النظام الاداري الجديد ، معززا بموظفين يخضعون للسلم الوظيفي والخدمات المتخصصة (التعليم العام ، مسح الاراضي ، التسجيل ، المحاكم المدنية) . واسس مجلسا بلديا، نصف اعضائه منتخب ونصفه معين ، مع منتخبين اثنين يمثلان غير المسلمين . وافق عددا من الضرائب القديمة التي تشكل عقبات في سبيل التنامي الاقتصادي ، وانشأ مطبعة ودارا للنشر ، واصدر جريدة رسمية للاقليم باسم الزوراء ، الجريدة الاولى التي ظهرت في بغداد . وفتح مدارس عصرية ابتدائية وثانوية ومدرسة حكومية للصناعة (لم يكن يوجد آنذاك الا بعض المدارس الابتدائية التي يديرها المبشرون الفرنسيون) . وهدم اسوار المدينة ، وافتتح شارعا كبيرا يصل شمال بغداد بجنوبها ، ووسع الطرق، واستحدث عام ١٨٧٠ خط الترمواي الذي يربط بغداد بالكاظمية ، واتم بناء السراي ، الذي بدأ به نامق باشا ، وشرع ببناء مستشفى عصري - كمل عام ١٨٧٩ . ان الدفع الذي احـدثه مدحت باشا لم يحد حذوه خلفاؤه بحزم وقوة . ومع ذلك فتحة مدارس اخرى بنيت ، ولاسيما مدرسة البنات الاولى عام ١٨٩٩ ، ومدرسة دار المعلمين عام ١٩٠٢ . واقيم جسر جديد على دجلة استطاعت وسائل النقل المرور عليه . وفي عام ١٩١٠

منذ هدنة ١٩١٨ مملكة عهدا بها الى فيصل الاول ،
الذي تسنم العرش بصورة مهيبة ببغداد في ٢٣
آب ١٩٢١ .

واذا كانت بغداد احد المراكز الكبرى للفكر
والادب العربي في زمان الخلفاء العباسيين ، فانها
لم تشهد خلال الحكم العثماني الا ولادة او حياة عدد
محدود من رجال الادب البارزين . ومع ذلك فمن
المناسب ذكر بعض الاسماء : الشاعر فضولي ،
الذي عاش في فترة احتلال سليمان القانوني لبغداد ،
فكتب قصائد مدح للسلطان وبعض رجال الدولة
العثمانية . وكان ابنه فضلي كذلك شاعرا مطلقا ،
ومثله روجي البغدادي ، (مؤلف گلستاني شعراء) ،
ونظيره عهدي بغدادي وذهنى وعزيز وعلمي يحيى
دده . ومن المؤرخين : مرتضى (مؤلف گلستاني
خلفاء) وواصف افندي وشققة افندي (مؤلف
حديثه الوزراء) . ومن رجال القضاء : عبدالله
السويدي وابو الشناء الالوسي . ومن الكتاب المحدثين
تجمل الاشارة الى احمد هاشم ، المولود في بغداد
عام ١٨٨٩ ، والمتوفى عام ١٩٣٣ ، الذي اصهر الى
اسرة الالوسي ، صاحب مذهب الفن للفن .

ولنلاحظ اخيرا انه منذ عقود السنين الاخيرة
للقرون التاسع عشر كان شباب الاسر الكبيرة يرحلون
الى اسطنبول لاتمام دراساتهم فيها ، حيث الجامعة
الوحيدة العصرية للامبراطورية ، فيدخل الطلاب
ليختلطوا ليس بالشبيبة التركية المحلية فحسب ،
وانما كذلك بالمجتمع العالمي للعاصمة العثمانية .
فيتعرفوا على الافكار السياسية والتيارات الفكرية
الجديدة ، التي كانت ولا سيما بين عامي ١٨٨٠ و
١٩٠٨ ترج العقول رجا عنيفا وتأتي بتحولات عميقة
في امبراطورية السلاطين العتيقة ، واذا كان النظام
الجديد الذي انتصب في بغداد عام ١٩١٨ هو ثمرة
السياسة الانكليزية للشرق الادنى ، فقد وجد
لتحقيقه رجالا ، رجالا عراقيين لم تكن الثقافة
العثمانية لديهم كلمة عقيمة .

اقام ناظم باشا سدادا حول بغداد الشرقية لحماية
هذا الجزء من المدينة من الفيضانات . وشق شارع
كبير حين كانت حرب ١٩١٤ - ١٨ على الابواب : ثم
اتمه الانكليز .

في عام ١٨٢٧ اُضحت بغداد مقر قيادة الجيش
السادس التركي ، وبعد ذلك مقر الفيلق الثالث
عشر . واصبحت الموصل عام ١٨٦١ والبصرة عام
١٨٨٤ ولايتين مستقلتين ، فانقسمت ولاية بغداد
حينئذ الى ثلاثة سناجق : بغداد . الحلة . كربلاء .

وفي مستهل القرن العشرين اختلط حابل
السكان بنابلهم ، ولكن العنصر العربي - ظل فيها
يمثل الاكثرية وظلت اللغة العربية اللغة العامة .

وكان الاتراك يفضلون سكنى الاحياء الشمالية،
واليهود (الذين كان لهم ٦ كنائس) والمسيحيون
(٦ كنائس) سكنى الاحياء الشمالية والغربية ميسر
سوق الغزل . ويؤثر الفرس الاقامة في الجزء الغربي ،
والعرب في جانب الكرخ دون سواه . وكان موقع
المركز التجاري للمدينة في شرق الجسر وهو يؤلف
اساسا اسواق السراي والميدان والشورجة
وحوانيت الاقمشة .

جهز الانكليز خلال حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ حملة
عسكرية اخترقت اراضي العراق واحتلت البصرة في
٢٠ تشرين الثاني ١٩١٤ والقرنة في ٩ كانون الاول .
واستولى الجنرال الانكليزي طاوتسند على كوت
الامارة ، على طريق بغداد ، في ٢٨ ايلول ١٩١٥ ،
ولكن القوات التركية صدت تقدمه . فاضطر الى
التحصن بكوت الامارة وارغم على الاستسلام في ٢٩
نيسان ١٩١٦ . ثم حشد الانكليز قوات جديدة
فشنوا هجوما حاسما واعادوا احتلال كوت الامارة
في ٢٥ شباط ١٩١٧ ، ثم استولوا على بغداد في ١١
آذار التالي . وبالرغم من كون بغداد والعراق
يعتبران حتى معاهدة لوزان (تموز ١٩٢٣) جزءا من
الاقليم التركي ، فالواقع ان الانكليز جعلوا منهما

النثر العربي في بغداد

بقلم

شارل بيللا

الأعمال النثرية نادرة ، على الأقل الأعمال التي سجلت نثراً ، ذلك لأن الشطر الأعظم من الوثائق الدنيوية التي جمعها الأساتذة المعروفون تؤول موضوع المحاضرات العامة التي قبل أن تثبت مادتها بالكتابة ، كانت تروى شفاهاً في لغة عارية من كل زخرف ، خرقاء ، جافية ، ولا تشكل مطلقاً هذه المحاضرات في الواقع جزءاً من الأدب الخالص ، ولكن يجب أن نحسب حسابها لأنها تحتوي على وثائق أساسية اجتهد المتأخرون في استقلالها معتمدين على رواية شفوية ثم كتابية . ويجمل بنا أن نذكر أيضاً الأعمال التي حققها العلماء الأوائل في مجال العلوم الدينية ، ولكننا سنمك عن ذلك ، لأننا دون أن نرفض رفضاً باتاً كل قيمة فنية للأعمال الدينية الفزيرة ، أو للأعمال ذات الطابع الفلسفي أو الفني الذي يحمل تاريخ فترة الخلافة العباسية ، نرى من واجبنا ، في هذه المقالة الوجيزة قصر أنفسنا على الإشارة إليه إشارة سريعة ، لنشغل أنفسنا بالنثر الأدبي الخالص سواء كان مرسلاً أو مسجوعاً ، وبمختلف تفرعات الأدب الذي رفع مناره ابن المقفع .

على نهج التقليد الإيراني استوحيت الأعمال الأدبية الأولى من الاهتمامات التعليمية وتوجهت إلى عظماء العالم على وجه التخصيص والتقريب . وهي مع حرصها على أن تكون مسلية للقراءة عذبتها ، فإنها تعرض قواعد سلوك الملوك والأمراء . وهي تقص علينا أخبار الوزراء وعلية القوم ونوادرهم ، وتورد لنا كذلك مبادئ الأخلاق ، مع تعزيز كل ذلك بحكايات تهذيوية . وربما كان أول ممثل لهذا النوع كتاب ثعالة وعفراء لأمين بيت الحكمة سهل ابن هرون (م في بداية القرن الثالث) وقد فُضاع هذا الكتاب المشابه لكتاب كليله ودمنة ، كما اختفت كل

يتفق مؤرخو الأدب على الاعتراف بأنه إذا كان قد ولد نثر عربي متردداً وناقصاً ، في مطلع الإسلام ، ولكنه ترعرع واستوى على ساقه بعد ذلك ، بفضل جهود عدد متزايد من علماء تشبثوا بصورة رئيسية بالعلوم الدينية في تكوينهم ، فإن الفخر بخلق نثر أدبي حقيقي يعود إلى كتاب الدواوين الأموية الذين من بينهم يتالسق اسم عبد الحميد الكاتب (١٣٢ - ٧٥٠) . فهو مؤسس فن الرسائل ، وكذلك ابن المقفع ، صاحب المبادرات الفنية الجديدة في النوع المعروف باسم الأدب . لقد « حمل ابن المقفع إلى أعظم المثقفين من معاصريه تجديدات كبيرة للغاية من حيث المضمون والشكل . لقد اكتشف لهم في اللغة العربية يتابع لا يتطرق إليها الشك . فالحكم القصيرة الوعظية للسامية القديمة ، تخلت عن مكانها في كتاباتها ، إلى التنامي الواسع الدقيق للمفاهيم الجميلة العامة . فاحلت محل الجمل القصيرة المتزاوجة بسداجة لأرباب النثر ، مقاطع ذات مفاصل متعددة ، حاملة ، بيسرنسي ودون الإخلال بالتوازن ، حشداً من الأحداث المتنوعة » . ولكن بحكم هذه التصرفات الظالمة للقدر الشاخصة على مجرى التاريخ ، حدث بالضبط في مستهل سلطة السلالة العباسية ، خلال سنوات معدودات فقط (١٣٩ - ٧٥٧) قبل تأسيس بغداد (١٤٥ - ٧٦٢) أن نفذ حكم الإعدام بأمر المنصور بهذا المزدكي الذي اعتنق الإسلام ، في حين أصبح انتاجه مثلاً يحتذى ، أو على الأقل كنقطة انطلاق لأجيال النثرين التي بوسع عاصمة الخلافة الجديدة أن تزدهر بهم ، وهي على حق .

وإذا كان الشعر من النمط الكلاسيكي قد ازدهر في منتصف القرن الثاني للهجرة . والشعر « المحدث » في طريقه إلى التكوين ، فقد ظلت

أنار سهل الأخرى ، اللهم إلا رسالة في البخل أو ثأى الجاحظ ادراجها في كتابه البخل .

هذا الأدب ، من النسق الذي نريد ان ندعوه بالتقليدي ، سيدوم وسيتمقرط ، بهذا الاتجاه الذي سنرى منه في بغداد ازدهار سلسلة من الكتب الممتعة القراءة نوعا ما والمكرسة لتعليم الأخلاق والتكوين الفني للجماعات المتباينة والأصناف الاجتماعية التي أخذت بالاتساع شيئا فشيئا : كتاب الإدارة ، القضاء ، معلمو المدارس ، الخ . . . ويرينا ادب الكاتب او ما نسميه الرفيق الملازم او الكتاب المفضل vade mecum لكاتب ديوان الانشساء ابن قتيبة كيف يستطيع نوع ادبي اصل ان ينتهي الى كتاب مدرسي او مهني بسيط .

عبر تلك الفترة لم تنتشر انواع جديدة كالتاريخ والجغرافية بصورة محسوسة فحسب ، بل كذلك الأدب ذو الجذر الساساني الذي ، ولنكرر القول ، يهدف الى التعليم والاياناس معا ، وقد تفرع الى عدة فروع ، فالعصر المسلي انجب نوعا مستقلا ، والغاية التعليمية سمحت باحتضان عدة فنون مختلفة ، متسمة بسمة ايسر والطف واقل تعجها . فالبنية التحتية من النمط الجديد لهذا الأدب ، الذي تحول من ايراني الى عربي اسلامي ، وفرته التراجم من الفهلوية واليونانية ، وبدرجة عليا ، جمهرة المعارف ، التي جمعها العلماء المتبحرون في العلوم اللغوية ، من بداية الاسلام ، وذلك بلم اشقات تراث العرب القدماء ، فكانت هناك موروثات قبلية وامثال واشعار وتجارب شخصية . وعلى المستوى الثاني ، جمع المحققون نتاج جهودهم في كتب علمية قليلا أو كثيرا . وبانتشار صنع الورق ، بدأت هذه الأسانيد تأخذ طريقها الى التقييد كتابة . ونسخ النساخون منها أعدادا ، لأنها تهم جمهورا لا بأس بضخامته . وفي نهاية القرن الرابع استطاع الوراق ابن النديم ان يكتب فهرستا ، جزئيا دون شك ، ولكنه شق الطريق بسعته امام فهارس اخرى من هذا النوع . لم يحتفظ بها وجه العموم حتى يومنا هذا ، لأن كتبها اخرى اعم جعلت هذه عديمة الفائدة .

ومن هذه الكتلة المتناثرة اجزاؤها حتى اليوم ، والفوضوية والمفرطة في الضخامة والموسوعية ، التي لا تستطيع ارجع العقول هضمها ، من هذه الكتلة ستستخلص المعطيات التي ستتأسس عليها الثقافة العربية الاسلامية الدنيوية ، وفي كل مكان سيقوم عليها النشر الذي سيزدهر قبل كل شيء في بغداد ، وبصورة جوهرية .

اصبح الواجب الاول من ذلك الوقت للكتاب

المتنبهين الى حاجات الجماعة التي يعيشون بينها ، والحريصين على بناء روحها وذوقها ، ان يوجدوا مختارات وان يقدموا الى معاصريهم ، الراغبين في تثقيف انفسهم دون ان يتيهوا في التفاصيل العقيمة او الثانوية ، تأليفا بالغ الفنى نابها لللا يحددوا الافق ، مع تقديم الماهية .

واذا كانت الثقافة ما يبقى حين ننسى كل شيء ، فانها في بغداد ما يبقى عندما تطرح التوابع عن رضى وطوعية . والخطر يكمن في ان الجوهر يوشك في يد الاغرار ان يرفض لمصلحة التوابع ، وهذا ما لم يلبث ان وقع .

ومع ذلك فالفضل يعود الى الجاحظ (م ٢٥٥ ٨٦٨) في انجاز اول غزيلة ، واقامة معيار منصف عقلاني لمختلف العناصر الثقافية ، وتقديم توفيق بين المعارف المفيدة « للانسان المذهب » في عصره . . . لم يكن هذا الكاتب الموفق المرموق بغداديا . ولكنه عاش نصف قرن في العاصمة ، التي كانت الاوساط الثقافية فيها يتألف معظمها بالضرورة من اشخاص من الاقاليم جرهم القصر الذي جاءوا يبحثون فيه عن استثمار مواهبهم . كم من الشعراء ولدوا في البصرة او في دمشق جربوا فيه حظهم ، وكم من النحاة والمحدثين والفقهاء والمتكلمين هجروا واحدا بعد الآخر اريافهم وهي مساقط رؤوسهم ، في محاولة لاعلاء شأن اسمائهم ، وكسب اقواتهم بصورة وافرة - قرب السلطان - لاغربة في ذلك كله ، ولكن المغزى الأكبر يكمن في ان يدعى الجاحظ ، وكان مغمورا في البصرة ، الى تأليف كتاب عسى الامامة ، وان يستدعى بعد ذلك الى القصر لتلقي التهاني من المأمون ، واخيرا وضع مواهبه في خدمة العباسيين .

صحيح ان الشعراء لم يكونوا نادرين حول العواهل الذين يكرسون لهم اماديع من الطراز الكلاسيكي او المحدث ، ولكن الشعر لم يعد يمارس على انساميين وعلى رعايا الخليفة نفس التأثير الذي كان يحدثه في عهد الامويين . والان ، بعد استيلاء العباسيين ، ينبغي التوجه الى العقل اكثر من التوجه الى القلب ، والاقناع بواسطة الوثائق المشغولة باتقان وامعان ، ومهمة كهذه لا يمكن النهوض بها الا بالنشر . اذن فقد نصب الجاحظ من نفسه محاميا للسلالة وكتب كرايس صرح هو نفسه بانها انتشرت في انحاء الامبراطورية على الفور . ذلك لأن هذا النشر السياسي الذي يحمل طابعا جديدا كل الجدة هو في عقل السلطان ذو طبيعة تجمع المعارضين حول السلالة ، وهم الاكثرية . ولا بد اننا متشوفون الى

التي حفظ لنا الفهرست عناوينها ، ولكن ينبغي الاعتقاد بأنها كانت هدى تطبيقية عابرة ، لانه لم يبق منها عمليا الا بعض الشذرات الناجية ، ولا سيما ماصانه ابو الفرج الاصفهاني في كتاب الاغاني .

وعلاوة على قصص الحب ، فان الفهرست يعدد جمهرة من المكتوبات التي ، اذا حكمنا بعناوينها ، حملت على الضحك والاثارة الجنسية والادب البذيء في مقولات ادبية لاشك ان الجمهور البغدادي كان يستملحها ، وكانت كذلك عامرة بالحكايات الطريفة والاعخبار والنكت التي كان البغداديون المحترفون بارعون في تزويقها لابناس زبائنهم . وهنالك مجاميع فكاهية الفت في هذه الفترة ، ربما تكون المجموعة المنسوبة الى جحا الوحيدة التي صارت الزمن ، ولكن بعد مسوخات أو شك الا يبقى معها شيء ذو قيمة من المجموعة الأصلية ، ان معظم الآثار التي جئنا على الاشارة اليها غفل من اسماء مؤلفيها او هي منسوبة الى مؤلفين معروفين ، كابي العباس الصيمري ، ولكنها قبعته في الظلام بفعل الجاحظ الذي هيمن نشاطه على النصف الأول من القرن الثالث بأمره .

بعد موت الجاحظ ، نستطيع اعتبار النشر الادبي قد بلغ أشده وارتفع الى قمة بمستواها لن يقدر نثر العصور التالية بلوغها الا نادرا . والواقع ان فن الجاحظ يفلت من كل مقارنة ، والنقاد المظلمون على حقيقة الوضع قدروه فاحسنوا تقديره باتخاذ لقبه شعارا للعبقريّة الادبية ، دون ان يخبرونا مع ذلك بما أعجبهم في كتابته ، ذلك لأن الشعر (بالاستقلال عن القرآن بالبدئية) هو في نظرهم جدير بان يكون محل تحليل اسلوبي .

واذا كان ينبغي تشخيص اسلوب الجاحظ بكلمات معدودات ، فبوسعنا القول انه يتميز بسعة العبارة المؤلفة من جمل مقطعة او من تفريمات تبرز فيها لفظة ذات غنى خارق بشكل يتألف من امثالها وحدة كمية غالبا متساوية او متجاورة وبمعنى مماثل او مضاد ، دون ان تستعمل القافية الا عرضا ، ويحدث ان تغطي جملة صفحة كاملة ، وهذه التفحة غير المعتادة ما زالت الى الآن تشوش الناشئين الذين يقع لهم اما نسيان اداة لا غنى عنها لهيكل الجملة ، او وضع نقطة والمضي الى سطر في قلب العبارة . صحيح ان الجاحظ ليس مؤلفا سهلا وان الافكار ، المضطربة شيئا ، لا تتسلسل لديه دائما بشكل غاية في الوضوح . اذن نفهم من ذلك ان اجزاء دائرة الكلام تقلت احيانا من اولئك الذين لم يكرسوا انفسهم للتحليل المنطقي .

معرفة النتائج الواقعية لهذه الدعاية ، ولكن منا نعلمه هو ان الجاحظ اصطدم في احياء كثيرة بخصوص عنيد لم يترددوا بنقض كتاباته ، بنشر هو اقل مرتبة فنية من نثره . والاسفاه ! . والجاحظ هو نفسه يبلغ به الامر ان يؤلف اماديج نثرية ، واهاجي ومرائي ، وعلى هذه الصورة يبادي الشعراء على صعيدهم الخاص ، وهذا الانقلاب في مواقع الطريقتين الرئيسيتين في التعبير ذو طابع متميز ، بحيث ان الاستاذ هـ . ا . ر كيب جعل النشر في الصف الاول حين واجه الفترة التالية ، وكان اعطى الموقع الاول للشعر في القرن الثاني للهجرة ، وذلك في مقاله الجميل المكرس لتاريخ الادب العربي ، في دائرة المعارف الاسلامية .

لا نستطيع ، ونحن بصدد دراسة عن النشر في بغداد ، ردع انفسنا عن التوسع المطول في الجاحظ ، لا بسبب التأثير الذي أحدثه في خلفائه وهو ضئيل نسبيا ، لان اصلته وشخصيته كانتا قويتين بافراط بحيث استطاع انشاء مدرسة حقيقية لنهجه ، وانما لاقامة نوع رصيد لنشاطه وقد مارس على وجهه التقريب كل الانواع التي انتشرت في اتجاهات كثيرة اختلافها او قل .

لقد حافظ الجاحظ ، بوصفه ادبيا قبل كل شيء ، على طريقة الكتاب الى حد كبير ، فكتب عدة رسائل ذات طابع فضلي واضح ، ولكنه وسع افق الادب بمعناه العريض فجعله يشمل حتى العلوم ذاتها ، والنقد الادبي والجغرافية بل وعلم الحيوان ، وابتكر اخيرا ، بفضل عقله الملاحظ ، شكلا من الادب الشخصي الذي ينصب على تصوير الاخلاق والمجتمع ، دون الانقطاع عن تكريس جزء من نشاطه للمشاكل السياسية والدينية ، كما رأينا ، طالما هو مناصر متحمس لمذهب الاعتزال . وهنا لم يسلك الطريقة الادبية التي اختطها لنفسه بمزج الجد بالهزل ، ولكننا في كتاباته الاخرى نراه شديدا الحرس دوما على تعليم الناس وهو يمازحهم ويداعبهم ويباعثهم ، فيمزج الجد بالهزل ، ليس دون السقوط احيانا في وهدة الابتذال . وقد يفلح حينما يبت الانسجام في كتاباته المشوية باللونين ، وحينما آخر يصد منا باقواله ويخزنا .

ويعترف هو نفسه باستهائته بالمحاولات التي حاولها معاصرون له بهدف خلق ادب خيالي اصيل ومسل . وهو يقوم بشطره الأعظم على السوروث الديني الذي يظهر مشوحا ومزوقا في قصص الحب

ولو استطاع ضبط نفسه ، لكان من الصعوبة ضمان وارث له ، ولكن وجد من يضبط نفسه ، لاشغال واجهة المشهد ، بعقل منهجي متسق ، ونعني به ابن قتيبة (م عام ٢٧٦ - ٨٨٩) . فباستفادته من انعدام الثقة الذي غرق فيه المعتزلة منذ منتصف القرن ، فان « محدد الخلافات » هذا ، اذا سمح لي بهذا التعبير ، اجهد نفسه باحلال الوفاق في الصفوف المنتصرة ، ووضع القول المأثور موضع التطبيق « خالف تذكر » فنصب نفسه خصما للجاحظ بعد موته .

واذا كان ابن قتيبة فقيها ونحويا قلبا وقالبا ، فانه كان بعيدا ، كل البعد عن امتلاك الروح المفتحة واسلوب سلفه ، ومع ذلك فانه هو الذي ثبت حدود الثقافة العامة ، بتحديد حقلها ، مع همه في الوقت نفسه ، كما يبدو ، بتسمية قوامه الديني . والجاحظ بوصفه معتزليا صحيحا لم يفصل بطبيعة الحال الثقافة الدينية عن الثقافة الدنيوية ، ولكنه استعان بالعقل والمنطق لاستغلال المنابع الثلاثة الرئيسية للمعارف العامة : الانسانيات العربية ، المؤسسة بسعة على السنة البصرية ، الهلينية ، وبمقياس أضال ، الحضارة الهندية الفارسية ، فأحسسن الاستغلال .

ابن قتيبة ، بوصفه معتدلا قحاً ، وضع النقاط على حروف الشريعة السمحاء ، وفي المجال الديني اجتهد في تنسيق الأسانيد وتصنيفها ، وكانت مشوشة مبثورة ، واضاف اقساماً وفروع اقسام ، وبكلمة ، نظم واستأنس الثقافة العربية الاسلامية ، وفي الوقت نفسه وجهها ومهرها باطسار بالسفح الاستقرار . على انه نزر الحساسية تجاه التأثير الاغريقي ، اذ اعطى الاولوية للسنة الكوفية واخلي للثقافة الايرانية ، التي كان الجاحظ يرتاب منها ، وهو على حق ، موضعاً افسح ، ولم يسء بعمله هذا الى كتاب الدواوين الذين فقدوا بالتدرج ، خلال القرن الثالث ، تفوقهم في المادة الادبية .

ولم يكتف بجعلهم يلمسون بأصابعهم وبتأليف كتاب عملي لهم ، هو كتاب ادب الكاتب ، وانما قدم لهم ، صنع الرجل المهذب ، موسوعة ادبية ، هي عيون الاخبار ، على تقيض الجاحظ الذي حدد نفسه في حقل النقد بقذف افكاره في البيان والتبيين كيفما اتفق ، اذ كرس للشعر كتباً ضخمة بينها مختارات منسقة ، اعني كتاب الشعر والشعراء ، الذي ظل حتى يومنا هذا وثيقة مفيدة . ولكنه فرض مختارات تحكيمية بعض الشيء . ويكتب كذلك كتاباً يمكن ان نصفه بالادب التاريخي ، هو كتاب المعارف ، يجمع فيه المعطيات التاريخية التي برأيه

يجب ألا يجهلها مسلم مثقف . وهذه الكتب المدرسية لم تنقطع عن التمتع ، في الاوساط الناطقة بالعربية ، بثقة لم يعبر عنها تعبيراً جيداً ، ولكنها انالت مؤلفها شرف الاستشهاد به كثيراً في نفس مجال الجاحظ . ومع ذلك فان الرجلين مختلفان جذرياً كل الاختلاف ومتعارضان في كل النقاط . مقابل ذلك ، اذا لم نعتبر الا كتاب المعارف ، ثمة مقارنة ممكنة معقولة مع معاصر لابن قتيبة هو اليعقوبي (م حوالي ٢٨٨ - ٩٠١) . فان موازنة بين كتاب المعارف وتاريخ اليعقوبي - الذي هو ليس بمؤرخ - ولكنه ادب - تكشف على الفور لدى هذا الاخير عن سعة في النظرات وعن تطلع الى الشعوب القريبة عن الاسلام ، التي تحمل على التفكير بان المعتزلة وجدوا في بعض الفرق المعتدلة الورثة اللاتين بهم .

وفضلاً عن ذلك ، فقد حدث ان ذكر اليعقوبي في عداد « الجغرافيين » . ونحن نعلم ان الاعمال الجغرافية الاولى قد اوجت بها اهتمامات ادارية وسياسية ومالية ليس لها اي علاقة بالادب .

ومع ذلك فان الجاحظ ، الجاحظ ايضا ، مد الادب الى هذا العلم ، وألف كتاباً اسمه كتاب البلدان المفقود في يومنا هذا ، ولكن شذراته النادرة المحفوظة تحتوي على ماثورات وحكايات اسطورية عن عدة مدن ، وتضم كذلك ملامح يمكن ادراجها دون مشقة في دراسة عن الجغرافية البشرية .

في هذا الحقل يكون الوارث الحقيقي المحامي للجاحظ معاصراً لليعقوبي ويحمل اسم ابن الفقيه الذي يدخل كتابه البلدان في نطاق الادب الخالص ويتعد كثيراً عن الجغرافية العلمية . والخلاصة اننا لا نعلم على وجه اليقين ما اذا كان ابن الفقيه بغدادياً ، بل بوسعنا التردد في حسابان اليعقوبي في عداد كتاب العاصمة . وعلى كل حال فان كتاب البلدان لهذا الأخير هو من الجغرافية الوصفية ، وبهذه الصفة يبرز كوجه رائد . وسيمالح هذه الفترة من الجغرافية في القرن التالي مؤلفون أهمهم المقدسي الذي لم يكن بغدادياً (كتابه في ٣٧٥ - ٩٨٥) .

على ان الكاتب الذي يذكرنا مباشرة باليعقوبي مولود في بغداد ، اي المسمودي (م عام ٣٤٧ - ٩٥٨) ، الذي ارتأى ان يقدم التاريخ والجغرافية بصيغة لذيدة . وهو لا يفاي الى حد ترصيع كتاباته بالنوادر المسلية ، كما كان يصنع الجاحظ ، وانما يحرص على عدم الاملال فيطلع على الدوام تقريباً . وبما انه رحالة كبير وعقلية متشوفة فهو يلتقط من الاقطار التي يزورها معلومات اصلية يضيف اليها وثائق يستعيرها من اسلافه ، ويخرج هذه كلها

معشياً بأسلوبه ، بحيث أن غيرته على الأناقة تؤدي به إلى قلب معاني بعض النبد المنسوخة من كتب أخرى رأساً على عقب ، ولا يتردد في كتابه مروج الذهب عن إدراج فصول حول الأمم اللامسلمة ، وإنشاء ثبت بملوك فرنسا حتى عصره ، كما قام بنفس الصنيع لليعقوبي ولكن بتوسع أكثر ، أما عن التاريخ الإسلامي فلا يستبقي إلا التفاصيل التي يتصورها وأخره أكثر من سواها . ويبتعد عن إيراد كل الحوادث عن حكم إذا استوخم ظلها .

وعلى ذلك فإن مسألة معرفة ما إذا كان إنتاج المسعودي كما نعهده من التاريخ أو من الجغرافية أو مجرد كونه أدبياً ، فإننا نستطيع أن نجيب على ذلك بدقة : المسعودي أديب يعرف أن الضجر يتولد يوماً . . . من الرغبة في قول شيء ويجهد نفسه في شد قرأته إليه وهو يقص بلفة مستساغة وبصورة عامة واضحة ، الوقائع التي يحسبها الأهم والأجذب .

لم تكن حالة المؤرخين الحقيقيين بالتأكيد على هذه الشاكلة ، وهم الحريصون على أن يكونوا واضحين ، وعلى ألا يتركوا شيئاً في العماء ، فجمعوا الأحاديث وتركوا الصدارة للعلم لا للأدب ، مع أننا نستطيع أن نكتشف لديهم صفحات جميلة من المختارات : وعلى هذه الصورة البلاذري (م نهاية القرن الثالث) أو الطبري (م عام ٢١٠ - ٩٢٣) . وهما أعظم ممثلين لهذا العلم . ومع ذلك ، فبعد هذا بقليل كتب الصولي مذكرات شخصية عن التاريخ البغدادي الذي اتبعه بمختارات من القصائد نظمها أمراء عباسيون أو شعراء من حواشيهم ، والى ذلك لكتاب الدواوين كتاب أدب الكتاب المختلف بصورة محسوسة عن كتاب ابن قتيبة .

ثمة شكل آخر من التاريخ يمثل أبو الفرج الإصفهاني (م ٣٥٦ - ٩٦٧) في كتاب الأغاني ، حيث يجمع أشعاراً وأخباراً عن الشعراء والموسيقيين وشخصيات المجتمع الكبرى . هذا الكتاب الهائل ، الذي يمكن تصنيفه مع كتب الأدب ، له قيمة وثائقية عليا ، وهو يتحفنا بظائفة من المعلومات لا نستطيع العثور عليها في مكان آخر ، لأن الشطر الأعظم من مصادر أبي الفرج مفقود .

هناك وجهة نظر تقول أن كتاب الأغاني يعتبر كتاب نقد أدبي ، هذا العلم الذي احتل في تلك الحقبة منزلة رفيعة ، وكان مترجماً لدى الجاحظ وأكثر منهجية لدى ابن قتيبة ، فأصبح تقنياً فنياً عند ابن المعتز (م ٢٩٦ - ٩٠٨) الذي يفكر في كتابه البديع بتصنيف الصور البلاغية ، ولا سيما لدى قدامة (م نحو ٣٣٦ - ٩٤٨) الذي يؤلف فناً شعرياً

حقيقياً . وجاء بعده أبو خلّال العسكري (م بعد ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م) مستوحياً الجاحظ ، فعرض بطريقة منهجية قواعد البلاغة العربية ، في حين حرص معاصره الباقلاني (م ٤٠٣ - ١٠١٢) على إقامة الدليل على أعجاز القرآن .

لا نجد أي شيء ، في هذه الكتب ، حول نشر الكتاب العرب ، ولا نستطيع أن نكون فكرة عن الأذواق النقدية إلا في بعض المختارات والمجاميع . تلك الأذواق التي قصرت نفسها على إيراد المقتطفات التي استهوت مختاريها ، دون تبرير الاختيار .

زبدة القول أن الأدب استحلال بمعناه الصحيح ، بعد ابن قتيبة بالضبط ، إلى منتخبات ومجاميع تختلط فيها العناصر المختلفة للثقافة العربية الإسلامية ، حيث تجتمع المعطيات المتباينة عن الشعر والتاريخ والأخلاق والسياسة ، الخ . وبالإجمال فإن هذه المؤلفات النافعة لا تقدم أي أصالة ولا تعمل أكثر من صيانة التراث : الكامل في الأدب للنحوي المبرد (م ٢٨٥ - ٨٩٨) برهان ساطع على ذلك .

من النوع الترفيهي صدرت بعض المؤلفات القيمة ، وعلى سبيل المثال جمع التنوخي (م ٣٨٤ - ٩٤٤) أمثالا ونوادر ومأثورات وحكايات تناقلتها القضاة أكثر من سواهم ، عن موضوع الفرج بعد الشدة في كتابه المشهور ، وجمع من كل حديقة زهرة ليؤلف كتابه نشوار المحاضرة . أما ابن الجوزي (م ٥٩٧ - ١٢٠٠) فهو رغم كونه فقيهاً ، أديب كامل يخيل إلينا أنه لم ينصف حتى الآن .

إن ملاحظة البيئة الاجتماعية ، التي استمد منها الجاحظ بفزاره ، لم يتسع لها عدد صغير من المؤلفات ، التي تتميز مع ذلك بأصالتها وطابعها الشخصي عن بقية المؤلفات الأدبية التي قوامها الأعظم الشواهد . فالوشاء (م ٣٢٢ - ٩٢٤) يستلهم الجاحظ ولا سيما في كتابه الموشى ، الكتاب المغربي للفاية وموضوعه أحوال الأوساط المتميزة ومتانقي عصره . وابتكر أبو المظهر الأزدي (القرن ٤ - ١٠) نوعاً بالغ الجودة في رسم لوحة منتزعة من الحياة البغدادية وأخلاقها وفي جعله أحد الأشخاص يصف مشاهد حية من الواقع . والرابطة التي يمكن أن توجد بين إنتاجه ونوع المقامة منكور ولا يمكن مناقشته هنا ، ولكن مما لا مشاحة فيه أن أبا المظهر يحتل مكانة خاصة في نطاق تاريخ الأدب العربي . . .

بعد انقضاء بعض الوقت نجم بدوره ناثر آخر هو أبو حيان التوحيدى . فانتج بمهارة أحاديث تتسم على الأخص بالطابع الفلسفي ، ورسم لوحات

ساخرة لأذعة لمعاصريه (ولا سيما لأبن عباد وأبن العميد) والف رسائل تذكرنا بالجاحظ . ولا شك أن التوحيدي هو الممثل الأعظم والآخر في سلالة أكبر نائر للقرن الثالث ، الذي يدعي التوحيدي انتسابه الى طريقته ويعلن إعجابه به ، ويتفرد نثره اللامع جدا بمزية عدم الالتجاء الى الأسجاع ، في فترة أصبحت فيها هذه المحسنات اللفظية شبه إجبارية في أدب الرسائل وأعمال كتاب الدواوين ، فباتت سيدة الموقف في الأوساط التي كان يرقدها أبو حيان .

أن كتاب الدواوين الذين كانوا شبه محتكرين في أيام الأمويين وعهد العباسيين الأوائل لاستعمال النثر المسجوع ، جاء الجاحظ فاطفا نجمهم . وإذا كانوا استعملوا الرسائل ، كوسيلة للتقديم ، فعلى الأقل اضطروا للتكيف مع طريقة تلك الفترة وتحرير وثائقهم في نثر بسيط ، دون افتعال مفرط . ومع ذلك ، وبعد أن اتبعوا هذه القاعدة خلال القرن الثالث ، استدرجوا ، دون شعور منهم ، الى تزويق كتاباتهم . . . الى استعارة جزء من وسائل الشعر ، فاحبوا النثر المسجوع ، الذي لم يجرؤا على استعماله بصورة منتظمة ، احتراماً للنص القرآني ، فنشروا قابلية لم تلبث أن استحالت الى بهارج لفظية . وهكذا حين وضع كتاب الديوان في الدرجة الثانية أخذوا بثأرهم فذبجوا بتحدلق مقيت ليس المراسلات الرسمية فحسب ، وإنما رسائلهم الخاصة أيضاً وأعمالهم الأدبية . ودفاعاً عن بغداد ينبغي القول أن هذه البدعة الجديدة التي تفتشت في الإدارة عمت خارج مدينة الخلفاء ، التي أصبحت من ذلك الوقت محرومة من طابعها كعاصمة إمبراطورية ، فالوزيران البويهيان ، ابن العميد (م ٣٦٠ - ٩٧٠) الملقب ظلماً وعدواناً بالجاحظ الثاني ، وابن عباد (م ٣٨٥ - ٩٩٥) تمتعا بهذا الصدد بشهره يستحقانها . ومع ذلك فإن استاذ النثر المسجوع الكبير هو بديع الزمان الهمداني (م ٣٩٨ - ١٠٠٧) مبتكر نوع المقامة ، ولم يحظ أي بغدادي بالتسمي باسم هذا النوع الأدبي حقاً ، الذي توج في القرن التالي باسم نحوي من البصرة هو الحريري (٥١٦ - ١١٢٢) .

أن بغداد التي تالقت بشمع لا مثيل له أثناء ما ندعوه بـ « العصر العباسي الأول » ، الذي نهضت خلاله الحضارة الإسلامية ، قد مني بصدمة قاسية أيام حكم البويهيين . أما في عهد السلاجقة (من ٤٤٧ - ١٠٥٥) فقد اكتفت بالعيش على مجدها السالف . وعجل إنشاء المدرسة النظامية بالخطاطها وذلك بفرض مانعته بالمدرسية . وقد أتم استيلاء

المغول على بغداد (٩٥٩ - ١٢٥٨) خرابها ، ومن ذلك الوقت أصبح مركز النشاط الأدبي في اقطار ناطقة بالعربية ، ويقع أكثرها غرباً . وما يزال بعض البغداديين يرد ذكرهم في تاريخ الأدب ، ولا سيما النحوي عبدالقادر البغدادى (م ١٠٩٣ - ١٦٨٢) الذي أسهم في مجهودات مؤلفي الموسوعات ، بتأليفه فيما ألف ، كتاب خزانة الأدب ، ولكن في القاهرة ، لا في بغداد .

أن الحدود الضيقة التي ارتضيتها للمقالة الراهنة ، وإثارت كاتبها للنشر الأدبي الخالص ، فرضت استبعاد كل النشاط الديني والفلسفي والعلمي ، الذي كان أطاره عاصمة الخلافة ، والذي كان في القرنين الثالث والرابع خاصة على كفاية هائلة . وتاريخ بغداد للمحدث الخطيب البغدادى (م ٤٦٣ - ١٠٧١) المكرس ميدانيا لعلماء الدين الذين عاشوا فيها ينفج بذاته بوثائق واسعة لمن يريد أن يسطر بالتفصيل النشاط الفكري للعاصمة ، ويقيم مسرداً بالمؤلفات النثرية التي كتبت . ويتواضع أكبر ، لقد حاولنا متابعة خط الذرى ، مسدلين ستار الضمت على المؤلفين الذين نعتبرهم ثانويين ، بهدف إبراز الأسماء الأشهر والألمع . وهناك أربعة مؤلفين جوهريين : الجاحظ في عهد الاعتزال ، وابن قتيبة أثناء عصر الأحياء (الرئيسسانس) ، المسعودي في العهد الذي سماه لويس ماسينيون « العهد الإسماعيلي » ، وأخيراً التوحيدي الذي ظهر في أيام البويهيين كأحد الرماة الأحرار وأخيراً التوحيدي الذي ظهر في أيام البويهيين كأحد franc - tireur أو المناضلين ، ورأى نفسه متهمه ، خطاً ولاشك ، بالزندقة ، ولا نكاد نجد في تاريخ عام للأدب العربي ، أسماء لامعة كهذه الأسماء ، للفترة والأنواع المعتبرة . وهذا يثبت بجلاء تفوق بغداد الفكري خلال الحقبة الزاهية للخلافة العباسية .

ومع ذلك هناك احتراز يفرض نفسه . ففي تقييمنا للأدب نحن ضحايا الزمن والناس الذين اتلفوا - عمداً أو سهواً - جمهرة من المخطوطات . فان اختفاءها يحرمنا من مصطلحات مقارنة لا غنى عنها ، ويجعلنا نؤدي غرامة النقد العرب ، ولكن من المحتمل أن هؤلاء الآخرين لم يكونوا متوهمين في حكمهم ، وأنهم عرفوا الاعتراف بقيمة أعمال أجدادهم الذين استأهلوا الوصول الى الإبناء . ينبغي فقط تمنى أن يسمح اكتشاف المخطوطات الجديدة بتصليح بعض أخطاء المنظور ، وتوفير التكريم المستحق لكتاب ربما نسوا بدون حق .

تيمورلنك في بغداد

بقلم

جان أوبان

واحدة (٢) جعلته يقف امام بغداد وجها لوجه في ٢٩ اغسطس ١٣٩٣ (٣) في حين لم يكذب يبدأ مناخ بلاد ما بين النهرين الصيفي المتهب بالانخفاض والتلطف . لم يدع هذا الزحف الصاعق للعاهل الجلائري السلطان أحمد الوقت الكافي لاتخاذ اي اجراء كان . ومع ذلك فان هدف الحملة ، الذي انحصر في القاء القبض عليه حيا او ميتا ، لم يتحقق ، فقد أشعره الحمام الزاجل في العشية السالفة بخطر وصول العدو ، وعشا ارسل اليه تيمورلنك حماما آخر يحمل رسالة تصحيحية تعلن بأن سحب الغبار التي ظن الظانون ان الجيش التيموري قد اثارها ، لم تكن الا من آثار قطعان الماشية المتنقلة .

لقد انسحب السلطان أحمد الى الساحل الايمن من دجلة وجر معه كافة السفن والزوارق التي لم يقدر لها ان تفرق . اما الجيش التيموري فلم يتوقف تحت اسوار بغداد . بل اخترق النهر فطوق الاسوار من اعلى النهر واسفله . وسحب تيمورلنك النهر على يخته الملكي السذي يدعى الشمس ، وقد جلب اليه من الضفة اليمنى . فاضاع عليه الذهب والاياب بعض الوقت . فاعترف بعد ذلك لخلصائه بقوله : لو في اللحظة التي وصلت فيها اندفعت الى الماء واجتزت دجلة ، لكنك قبضت على السلطان أحمد . ولكن بما انني توقفت ، فقد فاز بهمة ، وبمضي الزمن الذي انفقته الجنود في العبور استطاع الابتعاد عنا مسافة « (٤) » . وقد ثناه الامراء عن قيادة حملة لتعقبه بنفسه ، وفي حين كانوا

لم تعد بغداد منذ الغزو المغولي عام ١٢٥٨ سوى عاصمة اقليمية . فليس من سافر للحجيج العراقي . وباحتفاظها بالمدارس التي بقي للتعليم الديني فيها بعض المنزلة ، ظلت بغداد ماثوى للحياة العقلية . ولكونها مرحلة على الطريق بين الخليج العربي والقفقاس ، لبثت كما كانت ، رغم مساحتها الضيقة ونشاطها العمراني المتخلق حول الجانب الشرقي من دجلة ، مركزا اقتصاديا له أهمية نسبية .

ان الامراء الجلائريين ، الذين اقتطعوا لانفسهم ، بعد سقوط الايلخانيين ، مقاطعات ذات تركيب اصيل شمل اذربايجان وبلاد ما بين النهرين ، فاتخذوا من بغداد عاصمتهم الصيفية ، استدرجوا الى قصورهم الادباء والفنانين . ولكن هذا الاشعاع الفني الوليد تبود من جراء تدفق غزو جديد آت من آسيا الوسطى ، هو غزو جغتاي تيمورلنك .

في عام ١٣٩٢ شـرـع تيمورلنك بضم ايران الغربية ، وبالتالي ، الدولة الجلائرية . وكانت الحملة على بغداد تحمل طابع العبقرية العسكرية للقائد الكبير . فالجيش الجغتائي ، الذي عسكر في الهضاب العليا لغربي ايران تلقى في منتصف اغسطس الامر بالتزود بالقطع الخشبية لعبور دجلة بوسائله الخاصة . وقد اعطيت اشارة الرحيل في ٢١ اغسطس . وكان تيمورلنك يقود الطليعة بنفسه وبسرعة غاية في الخفة ، بحيث انه ، كما قال أحد المؤرخين : « لم تستطع الخيالة الخفيفة اللحاق بغبار افراس الغارة له » (٥) وان الكيلومترات المائة والاربعين الاخيرة التي طار بها تيمورلنك مرة

(٢) خوانسمير ، حبيب السير ، ط خيام ، ٣ ، ص ٤٥٦ .

(٣) ٢٠ شوال ٧٩٥ ظفر نامه .

(٤) حافظ ابرو - زبدة التواريخ .

(٥) منتزعي ، طهران ، ١٩٥٧ ، ص ٢٥٦ .

يطاردون السلطان أحمد الذي أفلت منهم بأعجوبة ،
فقل تيمورلنك عائدا الى بغداد .

عامل تيمورلنك المدن العدو التي أبدت
مقاومة بشكل يختلف عن تلك التي استسلمت
لرحمته طبقا للقواعد المحددة . أما قضية بغداد عام
١٣٩٣ فخاصة : لم تكن ثمة مقاومة ، بواقع هروب
السلطان أحمد ، ولكن فراره سبق وصول قوات
الجفطاي بفترة قصيرة بحيث ان سرقة بغداد لم
يتوفر لهم الوقت الكافي لارسال وفد الى المعسكر
التيموري لطلب الغفران وطرح اقتراح اقتسداء
انفسهم .

ان نظام الدين الشامي ، الذي كان اول من
خرج من المدينة ذاهبا لتحية تيمورلنك ، رأى دجلة
مغطاة بالرجال الذين كانوا يعبرون الى الجانب
الايمن . وشاهد العيان هذا ، الذي دبح غب ذلك
بسنوات معدودات اول تاريخ رسمي لحملات الرجل
الكبير ، المسمى ظفر نامه ، لم يشر الى ماهية
التقارير الدقيقة للسلطات المحلية ولا الى كنه القيادة
الجفطائية .

وهناك شاهد آخر ، هو عزيز الاسترابادي ،
الذي احتفى بالنجف ، اذ يروي أن الجنود أوثقوا
بالاغلال كل من وجدوا من الرجال وعذبوهم ، وجرروا
الفتيات اليافعات الى حانات عربداتهم واعتدوا على
عفافهن ، وحطموا ثريات المساجد وعلقوا بها
الائمة ، وثلوا المحاريب ، واحرقوا المنائر ، وربطوا
خيولهم في المدارس ، ومشاهد الاغتصابات الجنسية
التي تشير اليها مصادر اخرى (٥) لا بد من حدوث
اشباهها في اماكن اخرى من العراق ، التي وطئتها
اقدام عصابات جفطائي بحثا عن الفنائم والنقود ،
وفي الضواحي خارج اسوار بغداد .

وبينما كانت هذه العصابات تعيث فسادا في
ارجاء القطر « كان أهالي بغداد ، ضنا بحياتهم
وبحياة اولادهم ، قد رضوا بتأدية فدية للمساهمة
في نفقات الجيش التيموري » . وقد فرضت هذه
الاتاة بسلطة مسؤول . وفي المدن الاخرى التي جبي
فديتها تيمورلنك ، لم تدخل الى قلب الاسوار
الا بعض الفصائل المكلفة بحماية جباة النقود
ومساعدتهم ، وظلت ابواب المدينة مغلقة بعناية
واحتراس لاجتناب ويلات نهب الاموال على ايدي
الجنود الاشرار . اما عن حالة بغداد في عام ١٣٩٣ ،
فرغم وصفها الشاذ الذي يعكسه تشوش المصادر

حول هذه النقطة ، بوسعنا ان نتصور ان سكان
المدينة القابعين داخل الاسوار كانوا محميين ، بصورة
نسبية على الاقل ، من التماس المباشر مع القوات
المسلحة . على ان هذا الواقع لم يخل من شروخ
التصرفات الهمجية التي انصبت على رؤوس الذين
اخفوا اموالهم ، او الذين حامت حولهم الظنون .
مكث تيمورلنك شهرين في بغداد ، وقال ابن عرب
شاه ، الذي صنف كتابا موتورا عنه ، انه امضى
اياما لذيدة في السراقات المقامة على ضفاف دجلة .
وعلى اقل تقدير فان هذه المباحج والمنع كانت
محفوفة بالحشمة والوقار . فقد اريق المخزون من
خمور الموصل وخمور ديار بكر التي اكتشفت في
مداخل السلطان أحمد في دجلة .

ويروي الرواة ان الاسماك الثملة طفت بطونها
مواجهة لهواء ، كتلك الاسماك التي هلكت ، والتي
اخذ الجنود يصيدونها بسهولة . وقد امر تيمورلنك
اثناء اقامته بترميم مرقد الامام أحمد بن حنبل ،
الذي اضررت به فيضانات دجلة .

غادر تيمورلنك بغداد في الرابع والعشرين من
ذي الحجة ٧٩٥ - ٣١ تشرين الاول ١٣٩٣ (٦)
مصطحبا معه الادباء والفنانين الذين زانوا البلاط
الجلانري مع عدد من اسرى الحرب واسيراتهما ،
الذين ما لبثوا ان بيعوا بصفة عبيد . وقد اثار
التوقف الطويل للجيش التيموري ، الذي عاش في
القطر ، القحط في بغداد بعد رحيله . وكان
تيمورلنك قد ترك في بغداد حاكما خراسانيا ، هو
الخواجه مسعود السبزواري ، الذي كان خبيرا
بشؤون الاقاليم العربية ، اذ سبق له ان تولى في
آذار ١٣٩٣ ادارة ولاية شستر . ويمتدح نظام
الدين الشامي طبعه الدمشك الكريم ، فيقول :
« لقد عكف على اسعاد من بقي من السكان » و
« بذل كل ما في مقدوره لتكريم العلماء واعالة الفقراء ،
ولم يفغل لحظة واحدة عن القيام بالتصدق على
المعوزين » .

ويقال ان اغلاق بيوت الدعارة ، الذي طبق
في ولايات تيمورلنك رغم الخسائر التي نجمت عنه
بالنسبة للخزانة العامة ، في تاريخ ، او في تواريخ
متلاحقة وفي ظروف غير معروفة لدينا ، قد اصاب
باضراره فيما اصاب بيوت سوق السلطان في بغداد ،
ومن حقنا ان نتصور ان الاجراء طبق بعد رحيل
الجيش ، في عهد ادارة الخواجه مسعود
السبزواري . . لقد كان الخواجه مسعود

(٥) المزوي ، تاريخ العراق بين احتلاين ، ج ٢ ، ص ٢٠٥
و ٢١٣ - وتاريخ الفياهي .

(٦) حبيب السير .

السبزواري ، ابن اخت الرئيس الاخير للسريدارية ووارثه ، وهم الذين اسسوا دولتهم المعروفة في سبزواري ، في خراسان . وحين هددتهم تطرف الطبقات الشعبية ، انضم زعماء السريدارية بحماس الى تيمورلنك ، الذي كانت معتقداته تغذيها ، قبل كل شيء ، المحافظة الدينية والاجتماعية . وعلى ذلك فينبغي ان نحترس فلا نعزو لتعيين اي حاكم في بغداد مغزى دينيا . وكل ما نستطيع ان نتصوره ان اختيار شخصية مخلصه للسلطة التيمورية املاء الحرص على تفادي تفشي اندفاعات الحمية التي كانت كامنة في الاوساط المتطرفة العراقية . وتعيين الخواجة مسعود السبزواري يثبت ، من جهته اخرى ، ان تيمورلنك كان يتوي توطيد سلطته بشكل دائم في العراق العربي . وهي النية التي تشير اليها بوضوح أعمال التقوية لاسوار بغداد وخنادقها ، التي عمل على تحقيقها الخواجة مسعود .

لم تسمح الثلاثة الاف من السريدارية من « جيش سبزواري » للخواجة مسعود بالدفاع عن بغداد ضد عودة هجومية جلاثرية . ففي خريف عام ١٣٩٤ ارغم على الانسحاب صوب شستر ، في حين كان السلطان احمد يدخل بغداد ، حيث استأنف عاداته من المرح والهلو والتدلب . وفي عام ٨٠٠ - ١٣٩٧ جمعت مؤامرة طبخت لقتله يقال ان تيمورلنك اوحى بها - كل سراة القوم ضده ، من الامراء الى بعض سيدات الحريم . فحطم المؤامرة بحيلة ، وقتل بيده عدة متآمرين ، تاركا بغداد خفية ، ماضيا الى طلب العون من زعيم التركمان قره قوينلو ، قره يوسف .

وكان سكان بغداد يجهلون الاحابيل التي تحاك وراء ابواب القصر المغفلة ، فلم يعملوا بغياب العاهل الا في لحظة ظهور تركمان قره يوسف على الساحل الايسر من دجلة . وقد اسال لعابهم مشاهد السلب والنهب . فرفض السلطان احمد بفتة اعطاء السفن الضرورية لاجتياز النهر ، وابعدهم في الختام بهدايا باهظة ، من النقوش والمنسوجات والخيول والنفائس الاخرى .

ويقال ان السلطان احمد عمل آنثذ بنجاح على استعادة شعبيته لدى رعاياه . وفي صيف ٨٠٠ - ١٣٩٨ هبط ميران شاه ، ابن تيمورلنك ، الذي

كان يحكم في اذربايجان ، وقد اصيب منذ فترة قصيرة باضطرابات عقلية ، على بغداد في حمارة القيقظ اللاهبة ، دون الاصاخة بسمعة الى تصانيع مستشاريه . اما السلطان احمد ، فلوثوقه بالمناخ ظل ساكنا خلف اسوار - بغداد . وبعد وصول ميران شاه بيومين استدعي الى تبريز لنشوب قلاقل مهددة له . وفي عام ١٤٠٠ ، وقد علم بنزول تيمورلنك في الاناضول الشرقي ، هجر السلطان احمد بغداد ولكنه جرؤ على الظهور فيها مرة اخرى مدى بضعة ايام في الشتاء التالي ، في حين كان الغازي مشغولا في سورية ، ثم عهد بالمدينة الى احد ضباطه الامير فرج ، فالتجأ الى الاقليم العثماني .

في مايس ١٤٠١ ارسل تيمورلنك الذي كان في الموصل - تشكيلة مؤلفة من خمسة آلاف رجل ليحمل البغداديين على تادية نفقات الحرب . ولكن خلاف كل توقع اصطدم الجفطاي بالتركمان على الجانب الايسر من دجلة ، وقد تضخم عددهم بالبدو الذين دعاهم فرج لنجدته . وقد اقام هذا جسرا من الزوارق لقلد الامدادات على مؤخرة الجيش . حمل الجفطاي على البدو فبددوا شملهم ونزلوا تحت اسوار بغداد تعوزهم الوسائل لتقويضها او تسلقها . فهبط تيمورلنك بشخصه ، من جهة التين كوبري «التون كوبري ؟» ، صوب بغداد التي حاصرها من جهة الشرق ، في حين شرعت قوات بعهدة ميران شاه بتمشيط الجانب الغربي من دجلة . وكانت عملية خطيرة حيث عشرات الالوف من الرجال ، في موسم الحرارة المحرقة ، يحلون في سهل بغداد . وعلى ذلك فلم يجلب تيمورلنك الا الحد الأدنى من القوات تاركا جماع جيشه مخيما في مخارم كردستان .

لقد انخدع فرج بضالة عدد المحاصرين ، فابى الاعتقاد بوجود خصمه المرعب بينهم . وقد اضطر تيمورلنك حيال المقاومة التي واجهها ، الى استدعاء قواته الاحتياطية ، فتم له بذلك اكتساح بغداد اكتساحا تاما . دام الحصار قرابة اربعين يوما . ويؤكد كتاب ظفرنامه ان تيمورلنك رفع الحصار عدة مرات على استسلام المدينة والحفاظ على محاسنها . ذلك الحصار الذي ظليه ضباطه . وفي المدينة التي عمها القحط هربت جموع من الجنود والسكان الذين انحدروا من اعالي الاسوار . ثم اعلن

الهجوم اخيرا في ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣/ - ٩ تموز ١٤٠١ ، عند الظهيرة . ونصب جسراً للقوارب في اعلى دجلة مزودة برماة قطعوا طريق النهر على من تسول لهم انفسهم محاولة الهرب مع مجرى الشط وروقت ضفاف المدينة من الجانبين . فذبح كل الناس المقيمين في بغداد ، ومن ضمنهم الاطفال ، مع سبق الاصرار . وفرض على كل جندي ان يقدم راسا الى المكاتب التي يقوم على حساباتها ضباط . فارتفعت اثر ذلك ابراج من الرؤوس المقطوعة في مختلف ارجاء المدينة . واختلف تقدير عدد الضحايا باختلاف المصادر . وعلى كل حال قدرت قرابين المجزرة بعشرات الالوف . اما الذين نجوا ، وهم قلة في تقدير ظفر نامة - واحد من مائة تقريبا - فقد بيعوا بصفة عبيد . ولم يستثن منهم الا الفقهاء والشيوخ والدرائش الذين افلحوا في الوصول الى سرادق تيمورلنك . فوزعت عليهم الاقنات والملابس ، وارسلوا الى مكان امين .

ترك الجيش بغداد ، بعد ان اصبحت مدافن ، حوالي ١٥ تموز ، قاصدا مراعي كردستان الممرعة . وعلى نقيض ما حدث عام ١٣٩٣ ، لم يمكث اي احد من ممثلي السلطة التيمورية في موضعه ، اذ لا جدوى في ذلك . وتذكر التواريخ ان تيمورلنك ساءى الاسوار بالارض ، اما العمارات ذات المنفعة العامة والاسواق والبيوت والمشيدات ذات الطابع الديني ، كالمساجد والمدارس والخانات ، فقد استثنيت لوحدها .

وهناك كما في كل مكان آخر حدثت فيه امثال هذه التخريبات لم يوفر شيء الا بتحفظ . فلم يكن للجيش التيموري في بغداد الوقت ولا الوسائل التقنية لتدمير مدينة من المدن ذات اهمية متوسطة ومواقع دفاعية تمتد الى عدة كيلومترات . وقد تأيد علاوة على ذلك ، خلال القرن الخامس عشر برمته ، ان الاسوار حمت الاهالي المتجمعين في موقع بغداد من غارات البداة الشعواء .

وبتشبث ليس له من نظير الاتهاونه ، عاد السلطان احمد الى بغداد فور انتشاع الغمة . فوصل اليها في مستهل عام ١٤٠٢ ، وحاول انهاض القطر من كبوته . فارسلت لحره تشكيلة من الجفطاي على وجه السرعة مخترقة بعتاء ومشقة

كردستان المغطى بالثلوج واثبتت وجودها على الفور امام المدينة . فانهزم السلطان احمد بقميصه . وعاد بعد ذلك بعدة اشهر الى عاصمته مصحوبا بقره يوسف وكان قد طرد منها على يد هذا الاخير ، الذي تمسك ببغداد حتى وصول احد احفاد تيمورلنك ، ابي بكر بن ميران شاه ، وذلك في خريف ١٤٠٣ .

ما كاد تيمورلنك يلفظ انفاسه عام ١٤٠٥ حتى اخذت الولايات التي اقتطعها لاحفاده في غربي ايران بالانهيار . فاغتسم السلطان احمد الفرصة لاحتلال بغداد مرة اخرى واعاده تشييد اسوارها . وخلال السنوات المحدودات لاستئناف الحكم الجلائري كانت بغداد بؤرة للمؤامرات ضد العاهل الخامل المنهمك باللاهي والملاذات . ففي عام ١٤١٠ نفذ فيه عملية الاعدام صاحبه القديم قره يوسف . . . في تبريز ، ومنح العراق العربي لولده شمس محمد . فصمد الاتباع الجلائريون بعض الاشهر في بغداد التي حاصرتها قوات قره-قوينلو . واخيرا اخترقها شمس محمد في الخامس من محرم ٨١٤ - ٢٩ نيسان ١٤١١ . فنهب رجاله المدينة طوال يوم كامل .

هكذا بدأت الفترة التركمانية من تاريخ بغداد ، التي قدر لها ان تدوم حتى الاحتلال العثماني عام ١٥٣٥ ، والتي كانت بالنسبة لعاصمة العالم الاسلامي فترة اندثار . وفي عهود حكم امراء اصدقاء للفنون والآداب واداريين مستنيرين ، استطاعت بغداد ان تنفض غبار الدل عن نفسها بعض الشيء ، وان تصحو من هول صدمة احتلال الجفطاي المضاعف . وكانت الفترة التركمانية . بمجموعها غير مؤاتية للحياة العمرانية ، وزاد الموقف المخوف من جراء الغزوات التيمورية تفاقم على تفاقم .

وبحكم كون بغداد مدينة صفري واقعة على منأى من الطرق الحيوية ومتروكة لصغار البيوتات الحاكمة او المقامات التي ينكر سلطتها المنكرون ، قدر لها ان تعيش خاملة . ويصف القريري وضعها عام ١٤٣٧/٨٤١ فيقول ان بغداد خربة . فليس ثمة من مسجد ولا من مصلين ولا من اذان ولا من سوق . جف فيها معظم النخيل ، وتعطلت القنوات ، فلا تستطيع تسميتها مدينة .

العلوم والفلسفة في حضارة بغداد

أيام العباسيين الاولى

بقلم

روجيه ارنالدينز

وبضروب المحاكمات العقلية . اما الطرق البرية والنهرية فكانت تتلاقى حول هذا المركز ، فالموقع سرّة الدنيا ، تجلب اليه كل الثروات المادية والروحية من جميع أرجاء العالم .

واذا أخذنا بنظر الاعتبار فخامة الاسلوب الشرقي فيظل صحيحا ان بغداد كانت في غاية حسن الموقع لاستقبال وجمع تأثيرات مختلف الاقطار المتعددة ولقطف ثمار الحضارة اليونانية-الاسكندرية مع ثمار الحضارة الفارسية أو الهندية بل حتى الصينية . وقد استطاع ما يرهوف ان يرسم المسار الذي هاجرت بموجبه الثقافة الهلينية والرومانية من الاسكندرية الى بغداد ، ونحن نعلم ، من جهة أخرى ، كيف جعل تأسيس أكاديمية العلوم على يد المؤمن من بغداد وريثة لمدرسة جنديسابور حيث النسطوريون ، المطرودون من الرها في القرن الخامس ، ثم فلاسفة مدرسة اثينا ، التي أغلقها جوستنيان عام ٥٢٥ ، كيف تواجد هؤلاء مجتمعين بعلماء قدموا من فارس والهند . وصحيح ان في بوتقة بغداد تألفت ، بالاختصاص المتبادل ، معارف من جميع الشعوب ، هي علم جديد أصبح ينبوع الرئيسي لعلمنا الغربي .

ولكننا لم نأخذ على عاتقنا معالجة فصل من فصول تاريخ العلوم والفلسفة الذي ، بكونه تاريخ تسلسل ونقل المذاهب ، والاكتشافات والاختراعات ، سيفتح منظورات واسعة عبر الأزمنة وسيهمّل السند القوي للأحداث الخاصة وبالتالي المحلية . وبالعلاقة مع بغداد ، وهي مدينة اسلامية ، وعاصمة الخلافة المتغمسة في مشاكل الملى والنحل والانتماء

حين عزم الخليفة المنصور على تأسيس بغداد ، جمع الفلكيين والاطباء والمساحين والمهندسين ، لدراسة الموقع والمناخ . لعمل كشوف . لاستخراج طوائع . لاعداد مخطط . لتقرير انسب لحظة البدء بالأعمال ، اذن لقد ولدت عاصمة الخلافة العباسية تحت رعاية العلماء وعنايتهم ، وربما ينبغي ان نرى في هذه علامة على الدور الذي سيلمعه في تنامي العلوم والفنون والفلسفة . ولكن اذا كانت العلوم ، كشأن السلطان القوام ، قد تراسست المشروع وتزعمت بناء بغداد ، فذلك لسبق وجودها . يذكر اليعقوبي ضمن هؤلاء العلماء الفزارى والنوبختي وما شاء الله والطبري . الاول حسبما يروي سوتر Suter ، هو ابراهيم بن حبيب بن سليمان بن سامور بن جندب ابي اسحق ، اول مسلم صنع الاسطرلاب السطحي أو المسطح ، وكان كتب عدة كتب لها اساس بالات الوزن والقياس والحساب ، وعن الاسطرلاب وعن مواقع الافلاك ، وتعيين الظهيرة الحقيقية (الزوال) والثاني كان فارسيًا ، منجما للخليفة المنصور . وكان ماشاء الله يهوديا ، وقد صنف عدة كتب في التنجيم . والمذكور الآخر هو عمر بن الفروخ بن ابو حفص الطبري ، الفلكي المنجم ، شارح المقالات الأربع لبطليموس ومترجم كتب فارسية .

اما الجغرافيون الذين اثنوا على بغداد ، ولا سيما المقدسي واليعقوبي ، فلا ينضب لهم معين . فالموقع مختار منذ الازل ، وقد كشف عنه القناع للرسول . والهواء كان نقيًا وصحيًا ، والأرض خصبة ، وطقوس مختلف الفصول متوازنة . وكان يسكنه ذوي عقول راجحة ، مشغوفين بالعلوم

القومي المحدد كل التحديد ، منفحص الافكار العلمية والفلسفية .

لا يجهل احد ان العباسيين ، بسبب ظروف دعائهم ، وكذلك بقله المحالفات التي مهدت لمجيئهم الى الحكم ، قد استداروا صوب البلدان المفتوحة وانسجموا مع اساليب تفكير ، انتشرت بتأثير المنازع العلوية بين الفرق الاخرى . فالتاريخ يعلمنا كم كان دقيقا وعويصا موقف خلفاء بغداد في مواجهة المشاغبين او المدعين المتطرفين الذين كانوا يتظاهرون بلا انقطاع تقريبا . ولم تكن سياسة الخلفاء تجاههم بمجموعها حازمة ولا محددة : فهناك اجراءات مشددة ، لا تتخذ الا في انسب الحالات ولكنها لا تصل الى حد النصر النهائي ، ويتلوها محاولات للتوفيق تذهب بعيدا في بعض الاحيان . ذلك لان الخلفاء في الحقيقة تواجدوا وجها لوجه مع قوة ثابتة للمعارضة ، هي قوة القومية اللاعربية التي تزيت بازياء دينية وفلسفية .

وقد استطعنا ان نلاحظ مثلا ان بعض الاطباء في القرن السابع والثامن ، كانوا من غير المسلمين . وقد ازداد عدد المسلمين من ممتنهي الطب خلال القرن التاسع واصبحوا الاكثرية في القرن العاشر . ويمكن تعميم هذه الملاحظة بسهولة على النشاط العلمي كله .

الواقع ان العرب جلبوا كنزا كان يمثل في اعينهم كل شيء : لغتهم ، تلك اللغة التي اقل فيها القرآن ، الوحي الحاسم ، وهم على شعور تام بهذه القيمة ، وقد نجحوا في اقناع الشعوب التي استولوا عليها بهذا الامر . ولكن هذه اللغة ، التي اختارها وامتدحها المفكرون غير المسلمين ، كأكمل لغة واوفاها بالتعبير عن الافكار العلمية والفلسفية الكبرى ، لم تكن الا جزئيا اللغة القرآنية . فقد اتقنت وعمقت ومطغت بصنع المترجمين ، وكانت تحمل في ذاتها طابع مختلف الحضارات التي ارتبطت بها المؤلفات المترجمة . وقد اصبحت اللغة التي بواسطتها استطاعت شعوب متميزة الانفتاح على بعضها والتفاهم والتوصل والتجمع . واستطاعت لعب دور اللغة الاغريقية في العصر الاسكندراني ، ولكن بشكل اتقن وعلى مقياس اوسع بكثير . فان فكرة يعبر عنها بالعربية ، مهما كان اصلها ، تصبح ميسورة التناول مباشرة لجمع كبير من الناس ، من اصول وتقاليد مختلفة ، وتسير جنبها الى جنب عالمية « العلم العربي » وعالمية اللغة العربية .

مما لا شك فيه مبدئيا ان هذه اللغة العربية المحدثة آنثد لم تكن بصورة اساسية لغة اخرى غير

لغة القرآن العربية ، ولكن بالتحديد هذا هو ما اوقع الدراما . لو كان ثمة ازدواجية واضحة فان النصوص المنزلة ستصير محمية ومحفوظة في امان بالطابع الخاص للغة خاصة . ولكن عربية العلماء والفلاسفة كانت ، بالقياس الى عربية القرآن ، مشابهة كل التشابه ، ومتباينة كل التباين . فلم يمكن تجنب جر قارئ الكتاب المقدس الى تداعيات افكار وطرق تفكير لم تكن قرآنية . لقد اتاحست تفسيرات تتعارض مع السنة لبعض الفئات ، نوعا من التشبث بافكار غير اسلامية . والخلفاء ، المدفوعون بالعقيدة الخاصة والشعائر الدينية الصحيحة ، ليس لهم الا ان يحولوا دون هذا الغزو الويل . ولكنهم لم يعمدوا يستطيرون ، لو فرضنا انهم ارادوا . لقد كانت الحركة بالغة السرعة ، بالغة العنف . والسياسة « الثقافية » لهذه الفترة ، حتى التدخل الحازم للاتراك ، يصادف نفس المشاكل الدقيقة وذات الصعاب كالسياسة تجاه العلويين . كان هناك بالنسبة للخلفاء العباسيين حد ادنى يجب اتقاؤه . كان ينبغي اخلاء مكان ، كبر او صغر ، ولكنه كاف ، للروح الجديدة . ولنلاحظ من جهة اخرى ان المع اللامعين من بيتهم قاموا بهذه المساومات تلقائيا وبطبيعة خاطر . كحالة المأمون . ولكن المنصور قبله كان كلف ابا يحيى بن البطريق بترجمة كتب قديمة ، مؤلفات ابو قراط وجالينوس ، وترجم محمد بن ابراهيم الفزاري ، ابن باني الاسطرلابات المذكور آنفا ، كتابا من الهندية الى العربية هو السد هانتا ، الذي ظل طويلا يستعمل كأساس لاقامة الزيج ، بالتعاون مع التراجم العربية للأزيواج الفارسية المؤلفة بالفهلوية ايام الساسانيين . فضلا عن ذلك ، لم يكن الخلفاء وحدهم الذين اهتموا بهذا بهذا العمل وشملوه برعايتهم ، ولكن هذا حذوهم كبار القادة من حاشيتهم مثل : الفضل بن سهل السرخسي ، وزير المأمون ، فقد كان من أوائل الفلكيين في عصره وكان ، مع يحيى بن خالد البرمكي ، صديق هذا المترجم العالم ، الطبري ، الذي سبق ان ذكرناه ، كان في خدمته ابو علي يحيى بن ابي منصور ، وابو عثمان سهل بن بشر بن هاني .

كان هناك عهد كامل مكرس للتراجم توزع على فترات . كان هائلا عدد المترجمين : يؤسفنا القول ان بعض العلماء والفلكيين والمهندسين والرياضيين والاطباء الذين لم يكونوا عربا اقحاحا والذين كانوا غير مسلمين يعرفون لغات اخرى غير العربية ، وكانوا يترجمون لانفسهم او لاحد المحسنين . ولكن هذه التراجم لم تكن كلها ذات قيمة واحدة . فالتراجم الاولى من حيث الزمان كانت مشحونة بالاغلاط او

غامضة لحرفيتها ، او لضعف في التفهم ، وكذلك لأن اللغة العربية لم تكن باللغة المرونة آنذاك ولم توهب مصطلحات تقنية كافية . ولهذا رأينا اجراء مراجعات للتراجيم المشغولة سالفا ، وذلك لتقويمها وتحسينها حتى يقر المترجمون الكبار بصلاحها بعد مراجعتها .

لقد كان بنو موسى ثلاثة اخوة ، محمد واحمد وحسن . وكلهم علماء متميزون في الفلك والميكانيكا والهندسة . وكانت لهم علاقات وثيقة مع مشاهير المترجمين : حنين بن اسحق ، المولود في الحيرة عام ١٩٤ - ٨٠٩ ، المتوفى في بغداد عام ٢٦٠ - ٨٧٣ ، وابن اخته او اخيه حبش بن الحسن وثابت بن قرة ، الصابئي من حران . وشجع بنو موسى هؤلاء مشاريع الترجمة وساندوها . ولأجلهم قام حنين برحلات الى الاقطار الرومية لجمع كتب قديمة : ونحن مع هذه الجماعة ، في اوج الفترة المزدهرة بالتراجيم : لقد ادخل كل هؤلاء تحسينات على جهود اسلافهم : هكذا راجع حنين ترجمة ارسطو ليحيى بن البطريق ، وترجمة مقالات بطليموس الاربعة (رابوعات) لابراهيم بن الصلت ، في حين يذهب ابن ابي اسبيعة الى ان ثابت بن قرة راجع ترجمة اوقليدس التي صنعها الحجاج (وطبقا لقول سوتر صنعها اسحق بن حنين) . ولكن التراجيم لم تستعمل ابدا دون نقد ، وسنرى الفلاسفة الكبار يغيرون هذا التعبير او ذاك في النصوص العربية لكتاب ارسطو في الطبيعة ، حيث يصحح ابن رشد غالبا تفاصيل في نص قسطا بن لوقا ، المسيحي من بغداد (المتوفى حوالي عام ٣٠٠ - ٩١٢) وكان مترجما ذائع الصيت وفيلسوفاً وفلكياً ورياضياً وطبيباً ، في آن واحد .

ينبغي التوقف ازاء هذا العمل الضخم الذي صنع من اللغة العربية لغة فلسفة وعلم . وبالنظر الضليل الذي قلناه لتحظون ان هذا العمل نفذ بعناية فائقة ومواظبة هائلة وحماس متقد . ولكن ماذا كانت النتيجة من وجهة نظر الفلسفة والعلم ؟ لا نستطيع الدخول في بحث عن اعداد مكتسبات الفلسفة والعلم العربيين ، فنحن منهمكون في تفهم وضع ، وليس في تعداد مذاهب وتحليلها . عندما نستعرض تاريخ الاسلام نوشك ان نقع ضحية وهم استكاري استعادي Retrospective

مسؤول عنه ولا شك مؤرخو البدع المتأخرون بعض التأخر : نحن نفكر بالسنة الاصلية المؤسسة اقوى تأسيس منذ البداية والتي تدور حولها الفرق ، من القريبين من العقيدة البدائية حتى اضل المعتقدات

ولكن بالنسبة للمسلمين الذين عاشوا فترات الاضطرابات التي تلت الفتنة ، لم يكن وضع الاسلام ومن بعيد ، واضح الملامح . لقد تحدد التمسك بالسنة لديهم شيئا فشيئا ، عبر معارك سياسية واجتماعية ودينية عديدة . وحتى حين كان أبو الحسن الأشعري يضع اساس السنة في مطلع القرن العاشر ، كانت الخلافات متصلة ، ليس بشكل هجمات خارجية آتية من الهراطقة المطرودين من جماعة الايمان . وانما على هيئة حركات متولدة من داخل اسلام كان يصارع ويكافح . واولئك الذين نرى فيهم حراسا اغيارا للغاية على السنة الصميمة الراسخة ، الذين انطلقا من القرن التاسع وجدوا تعبيرهم في المذهب الحنبلي ، كانوا يؤلفون معارضة صغرى رغم كوتها نشيطة جدا . وبالنسبة لهم لا توجد تعاليم مشروعة الا التعاليم التي جاء بها القرآن او التي ترشحت من العلوم القرآنية . وقد استنكروا كل الاستنكار ، لا الفلسفة والعلوم ذات الاصل الاجنبي والانساني فحسب ، وانما اضافوا الى ذلك استنكار كل لاهوت وكل اخلاقيات متأثرة بتأملات الكفار . ولكن تصلب موقفهم نفسه ومطالبهم حالت دون اقتداء الجماهير بهم : كما هي حالة الكثرة من المذهبيين ، فلم يستطيعوا العيش الا في حرم المعارضة .

وفيما عدا المذهب الحنبلي ، الذي كان بمقدوره تثبيت العقول لولا انه كان على درجة من العسر بحيث يصعب اتباعه ولا سيما تعميمه ، ينبغي ان نعترف ان حيرة عظمى سادت فتركت جميع الذين كانوا قادرين على الاطمئنان واليقين في ارتباك من امرهم . وتسبب الحياة الاخلاقية وانحطاط العادات ، والشواهد عليهما كثيرة ، كان لها اسباب عديدة . ولكن اضطراب العقيدة يعتبر من اهم الاضطرابات ، فالشاعر مطيع بن ابياس ، الذي عاش في كنف الخلافة العباسية ، يظهر عبر الاخبار التي يرويها عنه كتاب الاغانى ، ك نموذج من الرجال الذين يحبون الفضيحة والتجديف . فقد اتهم بالزندقة ، والمحدون من شاكلته ، ولو قامت القيامة ضدهم ، كانوا حينئذ عديدين ، وقضايا ابسى نؤاس معروفة كثيرا فلا حاجة للنص عليها . ومن طراز مختلف ، هناك شاعر آخر هو أبو العتاهية ، الذي يهينا شهادة هي كذلك مثيرة . انه صناجة اليأس والموت . ويروي كتاب الاغانى ان بعض معاصريه عزوه الى فريق الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالشور ، ذلك لأن اشعاره لا تتحدث الا عن الخراب والفتنة :

لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلكمو يصير الى التراب

أما مذهبه الصوفي فمستوحى من خبيسة
الأمّل ، والبارئ بالنسبة له هو الموت وليس
الحياة :

سكن يبقى له سكن
ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار يخبرنا
ببلاها ناطق لسن
دار سوء لم يدم فرح
لا مريء فيها ولا حزن
في سبيل الله أنفسنا
كلنا بالموت مرتهم
كل نفس عند ميتها
حظها من مالها الكفن
ان مال المرء ليس له
منه الا ذكره الحسن

الا كلنا بالند
واي بني آدم خالد ؟
وبدوهم كان من ربهم
وكمل الى ربه عائد
فياعجا كيف يعصى الاله (م)
أم كيف يجعده الجاحد ؟
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

حبك مما تبغيه القوت
ما اكثر القوت لمن يموت

الناس في غفلاتهم
ورحى المنيّة تطحن

وقد تمثل لتدهور الاخلاقي في تلك الحقبة
بعبادة رومانية للظرف . ففي معظم الأحيان تكون
القضية قضية سحر موسيقي ولحن عذب ، كما
هي الحالة لدى الشاعر ابن الاحنف . ولكن يلوح
ان في الاوساط المترخصة كان الباحثون يفتشون
عن استنارات اعنف واكثر افتمالا . وبوسسنا
تخمين هذا عبر الشعر الغزلي لامثال ابي نؤاس ،
حيث الخمرة بنشوتها ، تقارن بالمرأة . ودليل آخر
على الخلق المريض لهذه الانحلالات الخيالية تزودنا

بها قصة جعفر المحزنة ، ابن الخليفة المنصور
الذي . حسب رواية كتاب الاغاني ، اتخذ
مطيع بن اياس المتشكك نديما له . وقد وقع لهذا
ان احب حبا مذهلا امرأة من الجن ، وبذل كل ما
في طوقه لتزوجها عن طريق ممارسة السحر . ورافق
هذا الاضطراب العقلي ازمان صرع زاد تكرارها
الحالة سوءا على سوء حتى ادى الى وفاة المصاب
بها . في احوال كهذه ، كيف جرى تقديم العلوم
والحكمة الآتية من اليونان او من الهند ؟ ليس في
الاجابة غموض : لقد جلبت اليقين والطمأنينة الى
عالم مهدد بالرحيل الى المجهول .

ولكن ربما شعر الناس بهذه الطمانينة بشكل
مختلف فبالنسبة لهؤلاء ، هي مسألة تهدئة
الهواجس انوقية صرفا ، وكانوا يؤلفون الاكثرية
الكاثرة . حتى بين الرجال المتعلمين والشخصيات
الكبيرة . وهذا توضيح لوجه هذه العلوم التي مع
شمولها للعناصر التجريبية ظلت « علوما خفية »
قريبة من علوم السحر والتنجيم : التنجيم القضائي ،
علم الطلاسم . نوع طبي تجريبي ، السيمياء بأشكالها
السوقية . كانت في ممارستها تتعارض بصورة
مباشرة مع روح الاسلام . وقد شهر بها « السحر »
الفقهاء بوصفها من « العلوم المذمومة » تحت أسماء
عامة « السحر » السحر ولنفهم منه السحر الاسود ،
الطلاسم - الموجودة مع ذلك حتى في تصنيف العلوم
لابن سينا عالم الشعبة . كل هذه الممارسات كان
لها الصدارة ، والجزء الاعظم من السبب يكمن في
ازدياد انتشار الخرافة كلما تفكك المجتمع . ولكن
هذه الممارسات وجدت متجاوبين معها لدى الاقدمين
ولا سيما في مائزات اجل حران . ومع ذلك
فان معارضة الفقهاء ما لبثت ان وجدت حلفاء لها
بين الفلاسفة والعلماء انفسهم .

هناك آخرون انتظروا من الفلاسفة والعلم
يقينيات ارفع ونظريات جديدة او ما نسميه نحن
اليوم Weltanschauung جديدة بتوجيه
الناس ، ان في حياتهم المادية والاخلاقية الفردية ،
وان في حياتهم الاجتماعية والسياسية . وبرز الفكر
الاغريقي بوحدة العالم الاعتقاد الاساسي بنظرية
اتصال وثيق بين العالم الاكبر (الكون) والعالم
الاصغر .

الانسان في ائتلاف يجمع بين كافة اجزاء
العالم . ونتج عن هذا ايضا الاقتناع الفلسفي بوحدة
العلوم ، ومعنى ذلك ، في التحليل الأخير ، الاقتناع
بقيمة النظام الوحيد للمبادئ المطبقة على العالم

بأسره . وهذا ما يفسر قدرة التأملات التنجيمية على اجتذاب علماء اقحاح : قضية التنجيم هي ، في الواقع قضية تواصل شامل بين الكائنات . وعلى صعيد آخر ، ولكن بنفس الروح ، ما يفسر ما نلاحظه في كتابات المدونة الجابرية ، من الرابطة الوثيقة التي وجدت بالنسبة لمفكري هذه الحقبة ، بين التنجيم والسيمياء والطب : كل شيء يقوم في كل مكان على نفس النظام في تأليف الصفات الأولى : البرد والحر ، الجفاف والرطوبة . ومن هذه الأمشاج المختلفة تخرج العناصر ، ثم الاجسام الكيميائية المحمولة على الكواكب ، واخلط الجسم ، التي تحصل الصحة ويحدث المرض من توازنها وفقدان توازنها . والاخلط البسيطة التي هي في اساس العقاقير ، تعطى نفس التركيب ، وكذلك الاغذية والسموم . والطقوس والظواهر النونية بدورها تجيب على نفس النظام . ولذلك فان العالم بأسره ، من كواكب الى حيوانات ونباتات ومياه معدنية وخاصة الاراضي والمياه والهواء ، كلها يمكن ان تمديد المساعدة للطبيب الذي يريد ان يشفي المرض ، ما دامت المسألة دائما مسألة اما تغيير درجة الصفات السيئة التوازن في جسم الانسان ، واما بتحريكها من مواضعها . وبصورة مبدئية ستكون معرفة السماء له مفيدة كما هي مفيدة له معرفة الحقائق الأرضية والجسيم البشري .

ولكن عن هذه الوجهة نفسها ينبغي القول ان هذه التأملات ، المستوحاة من مثل عليا يونانية قديمة لا علاقة لها بالاسلام ، شأنها شأن كسل غنوص ، حتى حين تلبس لبوس الافكار الدينية المستعارة من كتب مقدسة ، تدبر ظهرها لما عليه الطابع الخاص للاديان السماوية : لعجز الانسان عن بلوغ حقيقة منقذة وخير حقيقي ، بعقله الخاص وبيحثه العلمي والفلسفي الخاص . وما كان خطيرا ، لم يكن بسبب تفصيل لمذهب ، كمسألة الخلق ، او مسألة بعث الاجساد ، او العقوبات والحسابات في الحياة الاخرى . فان فلسفة عارضت التعاليم الدينية .

ومقابل ذلك انطلقت هذه الغنوصية للأفلاطونية المحدثة لخدمة الفرق المتطرفة المعروفة ، التي كانت تبحث لا عن فهم النص القرآني كحقيقة مسلم بها ، وانما للاستعانة به وتفسيره ، في سبيل ايجاد افكار لم تكن مستوحاة منه بصورة مباشرة .

ستعرضون بان تفكير احدي الطوائف تمنح التفاؤل والصفاء للذين حسينا اننا لسناهما في الاساليب العلمية والفلسفية . لا ريب ان بعض الطوائف من وجهة النظر هذه أشد قلقا من الطوائف الاخرى التي لديها يقين دون مشاكل والتي وجدت للمرة الاولى حقيقة لا سبيل الى متافستها . ولكن كما رأينا ذلك ، ان منظري اهل السنة الرضية كانوا اناس ذوي ارادة محنكة ، وقد رفضوا بحزم الخروج من الكتاب الذي قالوا انهم وجدوا فيه كل شيء ، والذين قالوا لا لكل القضايا واستنكروا في الوقت نفسه جذريا حتى طرح هذه المشاكل . والفلسفة المظنة لم تكتب لامثال هؤلاء الناس ، وانما قدرت للذين شملهم الاضطراب والذين ، كأهل بعض الطوائف ، كانوا دون انقطاع مرهقين بنصيب تاعس ، وقد توقفوا في محاولاتهم وتحددوا بنجاحاتهم نفسها . اولئك كانت لديهم حاجة بالفلسفة كسلوى ، والغنوصية للأفلاطونية المحدثة كانت بالنسبة لهم فلسفة السلوان .

ولكن يبدو ان الفلاسفة بدورهم قد شعروا بالحاجة الى ضمان وحدة هذه الطريقة المنسجمة

وبالاجمال ، فان العالم ، بواقع وحدته ، هو ربما يمكننا ان نقول عنه انه عالم مكمل : كل شيء قائم فيه وفق نوع علاقات جبرية متبادلة ، وبموجب توازن اجزاء يحكمها المبدأ الاسمي ، وهو المبدأ الذي ينبغي كماله هذه الوحدة ويصونها ويضمنها . الانسان غير مسلم الصدفة . يمكنه ان يكون بمنحى من كل تغليات الزمان والافلات من كل خلق ، شريطة ان تكون لديه معرفة دقيقة بالواقع والتكيف لهذا الواقع . ليس امثل الاعلى الغنوصي هو تسوية كل شيء بالمعرفة واشاعة الامن بواسطة المعرفة والواقع ان غنوصية الافلاطونية المحدثة هي التي اختيرت . بالفريزة تقريبا ، لتأسيس هذا البناء المظنسين وتوجيه . وغب أعمال پول كراوس وريترو فالتزن ، ينبغي ان نسلم بان الافلاطونية المحدثة قد اثرت تأثيرا عميقا في الكندي ، « فيلسوف العرب » واول الفلاسفة . واذا كان الفارابي ، كما يؤيد ذلك كراوس ، « قد كشف القناع عن اتجاه مضاد للتصوف ونقاد بشدة ، لا تكاد تكون له علاقة بالتيار الافلوطيني » ، واذا كان أشد اخلاصا من المتصوفين الاستبطنيين للمثل الاعلى الافلاطوني بالرجوع الى الكهف لبناء المدينة الفاضلة فيه ، فانه يحتفظ في

التي اقاموها لمواطنيهم . لقد وجدوا هذا الضمان في وحدة العقل ، كما ينجم ذلك من منطق ارسطو . وقد عرفنا ولا شك مؤلفات الفلسفة الطبيعية وطبيعة ارسطو . وكانت ترجمت الى العربية ، ولكن ارسطو بالنسبة لمفكري هذه الفترة على الاخص هو استاذ المنطق

والفارابي حين وصوله الى بغداد عشر فيها على المنطيق الشهير ابي بشر متى بن يونس ، الذي تعلمنا ابن خلكان بنجاحه : مئات التلاميذ الذين كانوا يجتمعون كل يوم حوله ليسمعوه يقرأ الاورغانون - منطق ارسطو - ويشرحه . كان يملئ على طلابه الشرح . وكان اسلوبه واضحا . كان يستعمل البسط والتدليل . ولعل ذلك يرجع الى الثقة بالمنطق وبتناجه التي سرت فكره الوفاق بين المذاهب التي نادى بها حكيماء اليهود القديمة افلاطون وارسطو ، ذلك الوفاق الذي كرس له الفارابي مصنفا . هناك يعلن الفيلسوف بجلاء ووضوح ان غايته قطع جبل الشك في قلوب أولئك الذين يدرسون كتبهما . ويقول : لا يمكن ان تساور نفوسنا غاية اهم وانفع . انسان واحد يمكن ان يتوهم ، ذلك لان الاشياء تخامر ذهنه بصورة مفسرة لصورتها الحقيقية . بل احيانا يتوهم عدة اشخاص توهما موحدان : ذلك لانهم يتبعون عن طريق التقليد استاذ واحد هو نفسه واقع في الخطأ . ولكن عندما يتوافق عقلان نتيجة تأمل ، تدرب . بحث . تنقير . معاندة . تبكيث . حينئذ يمكن ان نطمئن على حقيقة مذهبهما . ما عسى ان نقول سوى ان الانسان الذي يبحث عن نفسه ، بعقله المنطقي وحده ، دون هوى او خيال ، سيتفق في مجال الحقيقة مع جميع الذين يتصرفون تصرفه ؟

وعلى هذا المتوال فان المنطق الارسطوطاليسي كان مفتاح قبة الفلسفة . ولكنه في الواقع ظل غريبا عن الاهتمامات العملية للعلوم . وفي هذا المجال نشهد تشكل حالة عقلية جديدة كل الجدة . فالعلماء الذين تعلقوا بفروع علمية خاصة استطاعوا اعلان نياتهم بأن يصبحوا نافعين لاناسي عصرهم ، ولا سيما لأولئك المكلفين بقيادة الآخرين . وفكرة المنفعة كثيرا ما تنساب على اللسان . وقد دأب العلماء على اثبات وجوب المأم الخلفاء والامراء واعوانهم ، لممارسة وظائفهم ممارسة جيدة ، بهذه العلوم وتلك ، أو ان يلقنهم اياها اختصاصيون . ولكن حدث ان ارتفع الباحثون - كما اراد ارسطو - الى درجة ارفع ، من وجهة النظر ، وتركوا انفسهم مقودة باغراضها . وكذلك المترجمون الذين انكبوا

دائما على النصوص القديمة والتصفوا بها ، ومثلهم العلماء الذين ارادوا تحقيق اقوال اسلافهم ، في حين انهم قبلوا دون مقاومة المذاهب العامة ، ولو بفهمها على طريقتهم وحسب حاجاتهم (على هذه الشاكلة الطبيب ابن الطبري ، في كتابه فردوس الحكمة ، فهو يعطي للافكار اللاهوتية والعمل والقوة والمادة والشكل ، معنى محسوسا طبيعيا محضا لا يوجد لدى ارسطو مثيله) .

لقد كانوا مستقلين اكثر في كل مكان سقطت فيه الافكار تحت نقد الملاحظة والتجريب . وقد احسوا ان بوسعهم تحسين المقاييس واتقان وسائل الحساب وتحديد التجارب .

لقد بزغت فكرة تقدم العلوم والحضارة : فهي لدى ابي بكر الرازي ، وظهرت لدى التوحيدي .

وهكذا . اصلحوا القدماء ، او اكملوهم ، بعد ان ترجموهم . وسنورد لاسناد رايانا ، الملاحظات المختلفة التي حدثت في مرصد بغداد في حي الشماسية عام ٨٢٩/٢١٤ ، ثم في دمشق عام ٨٣٢/٢١٧ في مرصد جبل قاسيون . كانت المسألة ، بين مسائل اخرى ، قياس ميلان الارض على صعيد الخسوف ، وتعيين الذروة وطول السنة الشمسية ، وظاهرة الاعتدالين .

وقد شارك في هذه الملاحظات حشد كبير من الفلكيين منهم ، ابو علي يحيى بن ابي منصور ، ابو عبدالله بن موسى الخوارزمي ، المشهور بجبره وأعماله الرياضية ، كشهرة في الزيج ، وخالد بن عبد الملك المرورودي وسند بن علي و علي بن عيسى والعباس بن سعيد الجوهري ، وآخرون غيرهم . وهذه الاعمال اتاحت اصلاح الالواح (الازياج) طبقا للسندهاننا ، والى اقامة الواح جديدة ينبغي ان نذكر من بينها (الزيج الممتحن) ، والواقعة الاخرى تحقيق طول قوس درجة نصف النهار الارضية . ويروي ابن خلكان قصة اجراء العملية ويعزوها الى بني موسى (ينكر سوتر هذه النسبة ويروي روايتين اخريين تتضمنان اختلافات في الاشخاص والاماكن . واليك رواية ابن خلكان :

(ابو عبدالله محمد بن موسى بن شاكر)

« احد الاخوة الثلاثة ، الذين ينسب اليهم جبل بني موسى ، وهم مشهورون بها ، واسم اخويه : احمد ، والحسن ، وكانت لهم هم عالية في تحصيل العلوم القديمة ، وكتسب الاوائل ، واتعبوا انفسهم في شأنها ، وانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها لهم ، واحضروا النقلة من

الأصقاع الشاسعة، والأماكن البعيدة بالبذل السني،
فاظهروا عجائب الحكمة .

وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة ،
والحيل ، والحركات ، والموسيقى ، والنجوم ، وهو
الأقل .

ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر ، يشتمل
على كل غريبة ، ولقد وقفت عليه ، فوجدته من
أحسن الكتب وامتعتها ، وهو مجلد واحد .

ومما اختصوا به في ملة الإسلام وأخرجوه من
القوة إلى الفعل — وأن كان أرباب الأرصاد المتقدمون
على الإسلام قد فعلوه ، لكنه لم ينقل أن أحدا من
أهل هذه الملة تصدى له وفعله ، إلا هم — وهو أن
المأمون كان مغرر بعلوم الأوائل وتحقيقها ، ورأى
فيها أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل كل
ثلاثة أميال فرسخ ، فيكون المجموع : ثمانية آلاف
فرسخ ، بحيث لو وضع جبل على أي نقطة كانت
من الأرض ، وأدونا الجبل على كرة الأرض حتى
انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض .
والتقى طرفا الجبل . فإذا مسحنا ذلك الجبل كان
طوله أربعة وعشرين ألف ميل ، فأراد المأمون أن
يقف على حقيقة ذلك ، فسأل بني موسى المذكورين
عنه ، فقالوا : نعم ، هذا قطعي . وقال : أريد منكم
أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر
هل يتحرر ذلك أم لا ، فسألوا عن الأراضي المتساوية
في أي البلاد هي ؟ فقليل لهم : صحراء سنجار في
غاية الاستواء . وكذلك وطأت الكوفة ، فأخذوا
معهم جماعة ممن يثق بالمأمون إلى أفوالهم ، ويركن
إلى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا إلى سنجار ،
وجاءوا إلى الصحراء المذكورة ، فوقفوا في موضع
منها ، فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي بيمصص
الآلات ، وضربوا في ذلك الموضع وتدا ، وربطوا فيه
حبلا طويلا ، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على
استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار
حسب الامكان . فلما فرغ الجبل نصبوا في الأرض
وتدا آخر ، وربطوا فيه حبلا طويلا ، ومشوا إلى
جهة الشمال أيضا كفعلهم الأول .

ولم يزل دأبهم : حتى انتهوا إلى موضع
أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور ، فوجدوه قد زاد
على الارتفاع الأول درجة ، فمسحوا ذلك القدر
الذي قدره من الأرض بالحبال ، فبلغ ستة وستين
ميلا وثلاثي ميل ، فعملوا أن كل درجة من درج
الفلك ، يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلا
وثلاثان .

ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه التود
الأول وشدوا فيه حبلا ، وتوجهوا إلى جهة
الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا
في جهة الشمال : من نصب الأوتاد ، وشد الحبال ،
حتى فرغت الحبال ، التي استعملوها في جهة
الشمال ، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب
الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة ، فصح
حسابهم ، وحققوا ما قصدوه من ذلك ، وهذا
أدلة وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقة
ذلك .

ومن العلوم ، أن عدد درج الفلك ثلثمائة
وستون درجة ، لأن الفلك مقسوم بانني عشر مرجا ،
وكل برج ثلاثون درجة ، فتكون الجملة ثلثمائة
وستين درجة ، فضربوا عدد درج الفلك في ستة
وستين ميلا — أي التي هي حصة كل درجة —
فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل ، وهي :
ثمانية آلاف فرسخ ، وهذا محقق لا شك فيه .

فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما
صنعوا ، وكان موافقا لما رآه في الكتب القديمة
من استخراج الأوائل ، طلب تحقيق ذلك في موضع
آخر ، فسيرهم إلى الكوفة ، وفعلوا كما فعلوا في
سنجار ، فتوافق الحسابان ، فعلم المأمون صحة
ما حرره القدماء في ذلك .

لقد روينا هذه القصة لأنها تحسن الإشارة
إلى الحرص على المنهج والبحث عن الدقة في جميع
مراحل التجربة .

ويوسفنا الأكثر من ضرب الأمثلة التي سترينا
أن العلماء العرب تحرروا في كل العلوم تدريجا من
أسانذتهم الإغريق في كل مكان على نطاق الملاحظة
والتجريب والقياس والطرق العملية في الحساب .
أما في الطب ، فإلى جانب المناقشات المدرسية
(الاسكولائية) كالمناقشات التي جرت بين رضوان
وإبن بطلان ، تنبغي الإشارة ، لدى أطباء أمثال
أبي زكريا الرازي ، إلى قيمة الملاحظات السريرية .

وعلى هذه الصورة هدف العلم عند العرب
إلى الحصول على بعض الاستقلال تجاه الفلسفة ،
لكي يصبح علما يقينيا غنيا بالتجارب والحسابات .
وأخيرا ، بالرغم من أن ممثليه بين المسلمين ظلوا
في معظم الأحيان متهمين بشيء من الزندقة ، فقد
تناقص أبحاؤه بالخوف لدى المؤمنين الحقيقيين بحيث
أنه استطاع بعد ذلك أحد قادة السنة الإقحاح ،
وهو الغزالي « الكتابة بأن الرياضيات ومن ضمنها
الطبيعة (أي بصورة يقينية) والطب لا تحمل أي

خطر بذاتها . وعلاوة على ذلك فان العديد من هذه العلوم قدم خدماته للدين : فالحساب والجبر تدخلتا في حساب حصة كل وارث في قسمة الموارث ، بقدر قرابته وموقعه من اصحاب الحق ، وعلى هذا كتب ابو حنيفة الدينوري في هذا الموضوع كتابين (حساب الوصايا وحساب الدور) .

واستعمل كذلك علم الفلك وعلم المثلثات (حيث كان العرب فيه مع ابي الوفاء من المخترعين) في تعيين اتجاه القبلة : وكتب الدينوري والبتاني وبعدهما ابن الهيثم عن هذه المسألة . واستخدم كذلك علم الفلك المسمى بعلم المواقيت . لتعيين ساعات النهار والليل ولضبط مواقيت الصلوات الخمسة التي فرضها الشرع .

ولكن ينبغي علينا كذلك ملاحظة ان العلوم الخاصة ، الدائرة في فلك ابحاثها الخاصة ، قد افضى بها الامر الى تبني فرضيات العمل وتخطيطات للنماذج لتمثيل الظواهر ، وبالنتيجة ، لاتباع طرق كان الاتفاق عليها بعيدا . والوحدة المنطقية للعلم والعقل التي اعتبرتها الفلسفة كشيء مسلم به وكمثل اعلى ، وجدت نفسها تقاثل بضراوة : ففي علم الفلك مثلا ، تبنى العلماء نظام بطليموس ، الذي سمح لهم بترجمة ملاحظاتهم بوضوح في لعبة هندسية .

وعلم الفلك الذي نستطيع ان نسميه طبيعة : ترك ايضا للفلاسفة الذين يدرسونه في منظور ما وراء الطبيعة عندهم . ولكن معارضة الطريقة الهندسية بالطريقة الفيزيائية ، ما تزال تبدو اكثر تميزا في المسائل البصرية . وهذا ما يبرهن عليه مايرهوف في مقال حول المذهب الارسطوطاليسي للضوء لدى حنين بن اسحق : حنين الذي بحث اثر ارسطو في تحديد او تعريف طبيعة الضوء ، كان عليه ان يواجه جميع اولئك الذين يحددون نشاطهم في دراسات هندسية للشعاع النضوي والمرايا ، حسب طريقة كبار الرياضيين القدماء ، اقليدس وبطليموس ، ونحن ندرك أهمية هذه المعارضة : انها هي نفسها التي نجدها ، على طول امتداد تاريخ العلوم ، بين الطبيعيات نفسها والظواهر ، بين الاسباب والقوانين . في هذه الحقبة ظل علم طبيعة الكائنات وعلم اسبابها ، في القالب الميتافيزيقي . وهذا هو العلم الذي لم يتقبله الاسلام ، نظرا لان فلسفته الغريزية التي تتعارض كل التعارض مع فكرة جبرية الطبيعيات ، بوصفها محددة للحرية المطلقة لله . وهذا ما يفسر الاستنكار الذي لا علاج له الذي انتهى بضرب مذهب الاعتزال :

هذا المذهب كان يقول ، في الواقع ، بان الله لا يخلق الا الوجودات وليس الماهيات . ولكن مقابل ذلك ، ان علم الظواهر المعطاة للحواس وعلم الشريعة المفهوم على هيئة مؤشرات لمجرد علاقة بين هذه الظواهر ، هما اللذان سمحا بان يروا فيهما عادة وسيره يسيرهما الله بحرية دون اي ضرورة من جانب الشيء . هذا العلم تقبله المتكلمون بسهولة ، وأدركوا ضرورة التزام الاسلام بعدم رفض كل ما تجلبه الحضارة « العصرية » .

اما الذي ظل عدوا للاسلام فهي الفلسفة ، هذه التليفية التوفيقية القائمة على الافلاطونية المحدثة المزعومة استنادها الى منطق ارسطو ، ومعنى ذلك على قانون العلة الوحيدة الشاملة .

اذا كان الفارابي قد ألف كتاب « الجمع » فانه كما قال هو نفسه ، لان بعض معاصريه فكروا بوجود خلاف وجهة نظر بين افلاطون وارسطو . اذن فالإيمان ووحدة العقل قد اهتزا . ومشكلة معرفة ما اذا كان العقل هو صاحب الضرورة قد طرحت على بساط المدرسة الاشعرية . وهناك مفكرون كبار امثال الجويني والغزالي يحددون مزاعم العقل (وبالتالي ادعاءات المنطق) بوصفها من مقومات الواقع . وسيكون ثمة نظام للمعرفة ، ولكنه نظام خاص بها ، ولن يهيمن ابدا على نظام الوجود .

ونحن واجدون لدى التوحيدي مناقشة طريفة . للغاية بين النحوي ابي سعيد السيرافي ومتى بن يونس... يرى متى ان المنطق يشبه ميزانا لوزن الحقيقة والخطأ ويخالفه ابو سعيد السيرافي مخالفة تامة : واليك بعض هذا الحوار :

« فقال ابن الفرات : انت لها يا ابا سعيد . فقال ابو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسمه هجئة . ثم واجه متى فقال : حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فانا اذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضي وطريقة معروفة .

قال متى : اعني به انه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فاني اعرف به الرجحان من النقصان ، والشاكل من الجانح .

فقال : ابو سعيد : اخطأت ، لان صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المؤلف والاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث بالعقل . وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن ، فمن

لك بمعرفة الموزون إنما هو حديد أو ذهب أو شبه
أورصاص .

قال متى : إنما ألزم ذلك لأن المنطق بحث عن
الأغراض المعقولة ، والمعاني المدركة ، ونصفتح
للخواطر السائحة والسوانح الهاجسة . والناس في
المعقولات سواء . ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية
سواء عند جميع الأمم ، وكذلك ما أشبهه .

قال أبو سعيد : لو كانت المطلوبات بالعقل
والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائفها
المتباينة إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة وانهما
ثمانية .

قال : نعم .

قال : أخطأت . قل في هذا الموضع : بلى .

قال : بلى . أنا أقتلك في مثل هذا ..

قال : إذا لست تدعونا إلى علم المنطق ، إنما
تدعوا إلى تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة
يونان ، فكيف صرت تدعوا إلى لغة لا تفهم بها ؟ على
أنك تنقل من السريانية ، فما تقول في معان متحولة
بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم
من هذه إلى أخرى عربية ؟

قال متى : يونان وإن بادت مع ثقتها ، فإن
الترجمة حفظت الأغراض ، وأدت المعاني ، وأخلصت
الحقائق .

قال أبو سعيد : إذا سلمنا لك أن الترجمة
صدقت وما كذبت ، فكأنك تقول : لا حجة العقول
يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما
أبرزوه .

قال متى : ولكنهم بين الأمم أصحاب عناية
بالحكمة والبحث عن ظاهر العالم وباطنه ...

قال أبو سعيد : أخطأت وتمصبت ومات مع
الهوى ، فإن علم العالم مبثوث في العالم بين جميع
من في العالم .

قال متى : هذا قد مر في جملة كلامك آنفا .

قال أبو سعيد : فهل وصلته بجواب قاطع ؟
أسألك عن حرف واحد وهو (الواو) ما أحكامه ؟
وكيف مواقفه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟

فبغت متى وقال : هذا نحو ، والنحو لم أنظر
فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقي إليه ، وبالنحوي حاجة
شديدة إلى المنطق .

قال أبو سعيد : أخطأت لأن الكلام والنطق
واللغة واللفظ من واد واحد بالمسألة والمائلة .

فقال متى : يكفيني من لغتكم هذا الاسم والفعل
والحرف . فاني أتبلغ بهذا القدر في أغراض قد
هدبتها لي يونان .

قال أبو سعيد : أخطأت ، لأنك في هذا الاسم
والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب
الواقع في غرائر أهلها ، وكذلك أنت محتاج بعد إلى
حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف .

قال متى : لو نثرت أنا أيضا عليك من مسائل
المنطق أشياء لكان حالك كحالي .

قال علي بن عيسى وتقوض المجلس وأهله
يتعجبون من جأش أبي سعيد الثابت ولسانه المتصرف
ووجهه المتهلل وفوائده المتتابعة . « .

والواقع أن منطق أرسطو هو عمل أحد
اليونانيين ، وضع حسب اللغة اليونانية فلا يلزم
العرب بشيء ولا الفرس ولا الهنود . ويحتج متى بأن
المنطق يحمل على حقائق واضحة ، وأن العقل واحد
طلما كان الناس متساوين أمام المفهومات ، وعلى
سبيل المثال أربعة وأربعة تساوي ثمانية بالنسبة
للجميع .

أنا لا نتحدث عن تراجم . حتى لو كانت
أمانة - ولا تستطيع أن تكون أمانة - أذن فلماذا
تهرع إليها ؟ لتبرير ذلك ، ينبغي افتراض كون
الأغريق هم الشعب الوحيد الذي وهب عصمة
لا تقتحم ، من ذكاء طبيعي متفجر ، إلى طبيعة خاصة ،
بحيث لم يقع في الخطأ ، حتى لو كان أراد . ولكنه
ككل الشعوب يصيب مرة ، ويخطئ أخرى . وعلاوة
على ذلك ، فالمسألة ليست مسألة الأغريق كافة ،
ولكن قضية أغريقي واحد ، هو أرسطو . كانت
قبله ، وبعده اختلافات بين الناس ذلك لأن التباين
في الآراء شيء من الصميم وطبيعي . فهل يوسع
فرد أن يلغيه بجلب منطق ، إذا كان ثمة اختلاف
طبيعي بين العقول ؟ على هذه الصورة لا توجد شمولية
العقل . بوسمه تحقيق إجماع بين الناس ، وبين
الشعوب والأفراد لا يستطيع أحد بصورة خاصة
ادعاء التمتع بامتياز في هذه المادة . وكما سيقول
الفراي ، لا يمكن للعقل أن يكون حكما أعلى . وليس
بمقدور عقل فاعل إضاعة فكر الحكماء أو تصور
الأنبياء . لا يستطيع الإنسان أن يكتسب بنفسه
أضال يقين يفرض نفسه . أنه لا يحصل على
انقياس إلا باتباع الشريعة التي تحكم العالم في كل
معارج الحقيقة ، الطبيعية والأخلاقية والسياسية
والدينية . ولكن إذا كان لابد من العثور على هذا
الشرع بجهد العقلاني الذاتي ، فينبغي ، ثلاثيته ،

اليوناني لحكم الصفة : س = ب ، وكل النظرية المنطقية النحوية للصفة ، اساس الميتافيزيقا التعقلية للصفات . وعلى الصعيد العلمي ، فان الاشعرية للباقلاني ستتمي هذه الاسمانية في مذهب الجوهر الفرد العرضي .

وعلى هذا المنوال اتسعت الوشائج بين العلم والفلسفة والوحي القرآني ، ايام العباسيين الاولى .

ان مقاومة الفلسفة للأفلاطونية المحدثة في خدمة الفرق المتطرفة ، والنضال ضد منطق ارسطو الذي قدر له ان يدوم حتى عهد ابن تيمية ، قد انتهيا بفتح الطريق الى كلامية سنية خالصة لم تستطع ان تشكل نفسها قبل ذلك ، لان الاسلام الحنيف بمؤمنيه الاصفياء وبتحفظه تجاه الحكمة الاجنبية للكفار وحيال اخطار معتزلية ، ورفض حتى فكرة ما وراء الطبيعة (الالهيات) وكذلك لان الكتلة الموحدة التي افها العلم والفلسفة لم تكن قد تفككت بعد ، فعارض دون مساومة ممكنة مذهب انصار الوحدة في السياسة والدين ، فظلت العقيدة الاسلامية راسخة البنيان .

ومن الجانب الآخر لابن سينا ، ادى هذا الطريق الى افكار الغزالي ، الركينة ، وافكار فخر الدين الرازي ، الرصينة .

ان يعرف جهده قبل كل شيء . اذن فهو حبيس في دائرة لن يخرج منها اذا كان قد اعطى الشرع مقدما .

اللفة التي خلقها الله ، والعالم المحسوس الذي خلقه كذلك ، هما معطيان بالنسبة للانسان . فالكلمات تعين معاني اذا فهمت ادت الى معرفة الاشياء ونظامها وصفاتها . انها تفتح كذلك على عالم اخلاقي وديني . اذن فهي مفتاح كل معرفة . والحقيقة هي ما ينبغي قوله وما قيل كما ينبغي . والكلام المنزل مكتوب في هذا المجموع من المعاني وسنده . وبالتالي ، فقد وجد الاسلام الصميم طريقه في اسمانية Nominalisme

عالمية ذات اساس الهي ، ولكنها استطاعت بسهولة ان تنسجم مع الاسمانية العلمية التي بدر الاسلام بذرتها الاولى دون ادنى ريب . وحين قال الاشعري ان الصفات الالهية ليست هي الله ، ولكنها ليست شيئا آخر سوى الله فان هذا اللفز ، من وجهة نظر المنطق الاغريقي سيكون مفهوما بهذا المعنى ، وهو اننا حين نقول ان الله عالم . مقتدر ، الخ ، فاننا نقول اكثر مما او حدثنا انفسنا بالنطق باسم الله وحده .

ومع ذلك ، فاننا لانسمي شيئا اكثر مما نسمي الله . اذن يجب ان يفهم هذا الامر بنسب ان التصور

★ ★ ★

تراث بغداد في اشرع عراق

تحقيق وتقديم

حميد مجيد هادي

معهد الفنون الجميلة / بغداد

توطئة

(السيل على الذيل) في ثلاثة مجلدات (هـ) . وغيرهم
كثيرون ذكرهم صاحب كشف الظنون .

اما من اهتم ببغداد من المتأخرين فهم كثيرون
ايضا نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

عبدالرحمن السويدي الف (حديقة
الزوراء) (١) ويسمى تاريخ بغداد ، وتاريخ بغداد ،
لسليمان فائق وضعه بالتركية وترجمه الى العربية
موسى كاظم نورس (٢) ودوحة الوزراء في تاريخ
وقائع بغداد الزوراء ، للشيخ رسول الكركوكلي
وضع بالتركية وترجمه الى العربية موسى كاظم
نورس وقد طبع في بيروت ولم يذكر تاريخ طبعه ،
وتاريخ بغداد للمرحوم العلامة طه الراوي وهو
مطبوع في مصر ضمن سلسلة اقرا ، وتاريخ بغداد ،
لعلي ظريف الاعظمي (طبع في بغداد سنة ١٣٤٤ هـ)
وحضارة الاسلام في دار السلام ، لجميل نخلة
المدور المتوفى سنة ١٩٠٧ . ايضا طبع في بيروت .

ويعتبر دليل خارطة بغداد الذي ألفه المرحوم
الدكتور مصطفى جواد ، والدكتور احمد سوسة
من خير ما كتب عن بغداد في العصر الحديث وقد
طبع في مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٨ .

وهناك كتب اخصت بجانب معين من بغداد
مثل : مساجد بغداد ، لعمود شكري الالوسي ،
وعمران بغداد ، لمحمد صادق الحسيني ، ومناقب

من اوائل الذين كتبوا عن بغداد احمد بن ابي
طاهر بن طيفور البغدادي (١) وتبعه احمد بن الطيب
السرخسي في كتابه (فضائل بغداد واخبارها) ،
ويزدجرد بن مهرداد في كتابه (فضائل بغداد
وصفتها) (٢) . ويعتبر الخطيب البغدادي ،
احمد بن علي المتوفى (٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م) في كتابه
تاريخ بغداد الملبسوع في ١٤ مجلدا أبرز من
تعرض الى بغداد في تأسيسها ، وسبب تسميتها ،
وانهارها وقصورها وخططها ومساجدها والاعلام
الذين درسوا فيها او مروا بها وراوها .

ولم يكتف المؤرخون من بعده بذلك بل
توسعوا في تراجهمهم وشروحهم ومتابعاتهم فالفوا
ذيو لا على تاريخ الخطيب منها : ذيل تاريخ مدينة
السلام ببغداد ، للحافظ ابن الدبيشي المتوفى
٦٣٧ هـ ، حقق المجلد الاول منه الاستاذ بشار
عواد معروف (٣) ، وكذلك التكملة لوفيات النقلة
لعبدالعظيم المنذري المتوفى ٦٥٦ هـ (٤) . ومن
الذبول على تاريخ بغداد ذيل للسمعاني صاحب
الانساب المتوفى ٥٦٢ هـ في خمسة عشر مجلدا ،
وجاء محمد بن محمد بن حامد الكاتب المتوفى
٥٩٧ هـ فكتب ذبلا على ذيل السمعاني سماه

(١) انظر كشف الظنون ١ : ٢٨٨ ، ومجلة لغة العرب السنة
٢ ج ٧ : ٢٢٨ .

(٢) بغداد مدينة السلام ، للهمداني ص ٦ .

(٣) صدر عام ١٩٧٤ عن وزارة الاعلام العراقية (الثقافة
والاعلام الآن) .

(٤) حققه بشار عواد معروف وصدر في اربعة مجلدات سنة
١٩٦٨ - ١٩٧١ .

(٥) كشف الظنون ١ : ٢٨٨ ، وشعراء بغداد ، للخاقاني
ج ١ : ١٥ .

(٦) حقق ج ١ منه الدكتور صفاء خلوصي وطبع سنة ١٩٦٢
ببغداد .

(٧) طبع في بغداد سنة ١٩٦٢ بمطبعة المعارف .

يقع في ٣٠٥ صفحة ، ناقصة الآخر ، وقد كتب بخط متوسط معنون بالحمري ولم يذكر عليه اسم الناسخ ولعله يكون المؤلف نفسه قد كتبه ، ولم اعثر على نسخة اخرى منه فعلى ذلك تكون نسخة المتحف هذه هي الممتدة والتي سندرسها ونحقق بعض فصولها .

اولها : الحمد لله الاتلي الضابط الكل ، الاله العلي الذي بوصفه نبي وتمل ونكل ... ويعبد فيقول ... جبرائيل يوحنا اصفر انه لما كان علم التاريخ كضربة لازب للخاص والعام . اذ كان فيه المرام نافعا للكبير والرفيع والصغير والوضيع ومفيدا للعالم والجاهل ... الخ (ص ٣ - من المخطوطة) .

آخرها : ترجمة محمود العمري بن يونس افندي العمري الموصللي المتوفى سنة ١٢٠٢هـ . ومن شعره :

سل الواجع عن كربى وتعلبي
في حب مرهفة بيضاء عيوب
(ص ٣٠٥) .

مباحثها وفصولها :

اما مباحثه فهي : بغداد ، الاصل في تسميتها تاريخها ، ذكر خلفائها من بني العباس حيث يذكر سبعة وثلاثين خليفة حكموها طيلة ٥٢٤ سنة . يبدأ بالسفاح وينتهي بالمستعصم بالله . ثم بعد ذلك يذكر من ملك بغداد من بعد بني العباس وكذلك اسماء ولاة بغداد من سنة (١٠٤٩هـ - ١٦٤٠م) الى سنة (١١١٥هـ - ١٧٠٣م) ومدة حكمهم فاولهم : كوجك حسن باشا سنة ١٠٤٩هـ ومدة حكمه سنة واحدة ، وآخرهم علي باشا ومدة حكمه سنة واحدة كانت سنة ١١١٥هـ - ١٧٠٣م (انظر ص ١٢٧ المخطوطة) .

ثم يستمر في سرد الحوادث واسماء الولاة من العثمانيين الى ان ينتهي برديف باشا الذي تولى بغداد سنة ١٢٩١هـ - ١٨٧٣م وحكمها سنة واحدة (انظر ص ١٥٤ المخطوطة) .

ثم يذكر محلات بغداد وقصورها وطاقاتها واسواقها وما كان في بغداد من البيع والديور ، والمدارس القديمة والحالية (التي عاصرها المؤلف) والحمامات والانهار (من ص ١٥٥ - ١٧٥) .

ولا يقتصر المؤلف في سرده وتفصيله عن بغداد

بغداد لابن الجوزي وشعراء بغداد لعلي الخاقاني ، وقيان بغداد لعبدالكريم انعلاف ، وفيضانات بغداد للدكتور احمد سوسة في ٣ مجلدات صدر الاول سنة ١٩٦٢ وغيرها الكثير مما لا يتسع المجال لذكرها (٨) .

اما الاثار المخطوطة للمتأخرين التي الفوها عن بغداد فهي ايضا كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : مزارات بغداد ، للاب انستاس ماري الكرمللي المتوفى سنة ١٩٤٨ ، ومجموعة تراجم علماء بغداد ، لعلي الالوسي المتوفى سنة ١٩٢١ ، وتاريخ قضاة بغداد ، لابراهيم الدروبي ، ونيل المراد في احوال العراق وبغداد ، لعباس البغدادي ومنتجع المرتاد في تاريخ بغداد وهو الكتاب الذي دققنا النظر فيه ووقفنا على مباحثه وموضوعاته ودرسناه دراسة منهجية علمية بعد ان حققنا فصولا منه .

الاختلاف في اسم الكتاب

اختلف في تسمية الكتاب فبعضهم يسميه منتجع المرتاد في تاريخ بغداد كما هو مكتوب على الكتاب (نسخة الكرمللي التي اعتمدها والتي لا ثابته لها) ويسميه رزوق عيسى في مقالته بمجلة لغة العرب السنة الثالثة ج ٧ : ٣٤٥ باسم : مختصر المستفاد من تاريخ بغداد ، والراجح ان الكتاب اسمه : (مختصر المستفاد في تاريخ بغداد او منتجع المرتاد في تاريخ بغداد) .

من هو المؤلف ؟

المؤلف هو الكونت جبرائيل حنوش اصفر (١٨٥٠ - ١٩٢٣) (٩) من اهل بغداد له مؤلف مطبوع اسمه : الابحاث العليا في علم الفلك ، مطبوع في بيروت سنة ١٨٧٥ .

وصف المخطوطة :

الكتاب في خزانة المتحف العراقي تحت رقم ١١٠٤ وهو ضمن المخطوطات التي كانت في دير الابهاء الكرمليين ببغداد وانتقلت الى الاثار بعد وفاة الاب انستاس ماري الكرمللي .

(٨) من اراد الوقوف على كل ما يتعلق ببغداد فليراجع جبهة المراجع البغدادية الذي ألفه الباحثان كوركيس عواد وعبدالحاميد العاوي ، مطبعة الرابطة - بغداد سنة ١٩٦٢ .

(٩) معجم المؤلفين العراقيين ١ : ٢٢٦ .

التاريخية نقلاً مباشراً دون إشارة إلى ذلك فالفصل المتعلق بالخلفاء العباسيين وتسمية بغداد وولاية بغداد في العصر العثماني كلها تقول لا فائدة ولا جدوى من تحقيقها لأنها تكرر لما هو معلوم فلم أجد إضافة ولو قليلة من لدن المؤلف فتركت ذلك وراء ظهري .

لذا انصب اهتمامي على الباحث الآتية : فاعدت النظر فيها وحققت اصولها وصححت ما امكن تصحيحه مما وقع فيه من الأوهام مستنداً إلى المراجع التاريخية ومشيئاً إلى ذلك كل في مكانه والمباحث هي : قصور وطاقات بغداد ، أسواقها مدارسها جوامعها ... الخ .

ختاماً : أرجو أن أكون قد ساهمت في إبراز معالم بغداد الأثرية ... بغداد الشامخة أمس واليوم .

وما يتعلق بها بل يتعداها إلى ما أضيف إليها من البلاد كالبصرة والكوفة والحلة والموصل فيتحدث عن تواريخها ولم أشر فيها على رأي جديد أو خبر طريف إذ هو عبارة عن نقولات حرفية من بعض التواريخ المعروفة دون أن يشير إليها المؤلف .

وفي الصفحة ٢٢٨ يبدأ بكتابة فصل جديد عنوانه : ذكر من طرق أرض بغداد من الصحابة ومن سكنها من العلماء والفضلاء والشعراء وأرباب القلم .

وفي الأخير يترجم لرجال الموصل من العمرين الذين مروا بالزوراء وبهذا يختم كتابه .

ماذا حققت من الكتاب ؟

بعد التدقيق والبحث في فصول الكتاب وجدت أن المؤلف نقل بعض الباحث من المراجع



ذكر أماكن وقصور وطاقات بغداد

قصر وضاح (١٥) : قريباً من الرصافة بنسب النصور لولده المهدي وزوجه وفيه يقول الشاعر (١٦) :

سقى الله باب الكرخ من متنزه
إلى قصر وضاح فبركة (١٧) زلزل

منازل لا يستتبع الفيتة أهلها
ولا أوجله اللذات عنها بمعزل

منازل لو أن أمراً القيس حلها
لأقصر عن ذكر الدخول فحومل

إذا الليل أدنى مضجعي منه لم يقل (١٨)
عقرت بعيري يا أمراً القيس قانزل

قصر التاج : اسم دار الخلافة بناء الخليفة المعتضد بالله ولم يتم عمارته ومات فائمه ولده المكتفي بالله (١٩) .

الحريم الطاهري : وهو قصر بالجانب الغربي في أعلى بغداد ينسب إلى الأمير طاهر بن الحسين الخزاعي (١٠) .

قصر أم حبيب : هو لبنت الرشيد ، وهو في الجانب الشرقي وكان من نزه الدنيا (١١) .

قصر السلام : بالرقعة (١٢) عمره الرشيد وصرف عليه أموالاً (١٣) كثيرة .

قصر عيسى بن علي بن عبدالله بن العباس : هو أول قصر عمر في بغداد وكان على شاطئ نهر الرافيل عند مصبه في دجلة وهو الآن وسط العمارة بالجانب الغربي ولم يبق له الآن أثر (١٤) .

(١٠) قائد جيش المأمون الذي أرسله لمحاربة أخيه الأمين في بغداد وذلك سنة ١٩٨ هـ (معجم البلدان ٤ : ٢٥٧ ، دليل خارطة بغداد ٧٨) .

(١١) معجم البلدان ٤ : ٢٥٥ .
(١٢) الرقة : تقع في الضفة الغربية من دجلة اشتهرت ببساتينها العامرة وكان الخلفاء من بني العباس ينتزهون فيها (دليل خارطة بغداد ٦٥) .

(١٣) في الأصل (أموال) .

(١٤) أنشأه عم النصور عيسى بن علي في موضع قصر سابور وهو في موضع مسجد قمرة الحالي (معجم البلدان ٤ : ٢٦١ ، دليل خارطة بغداد ١٦) .

(١٥) هو وضاح بن شيبا من موالى الخليفة النصور وكان أحد الرقباء على بناء المدينة المدورة وعين بعدئذ صاحب خزنة السلاح (دليل خارطة بغداد ٨٦) .

(١٦) الأبيات لعلي بن الجهم المتوفى ٤٢٩ هـ (ديوان علي بن الجهم ٥٥ ، معجم البلدان ٤ : ٢٦٤ - ٢٦٥) .

(١٧) في الأصل (وبركة) والصواب ما نقلناه من الديوان ص ٥٥ ومعجم البلدان ٤ : ٢٦٤ .

(١٨) في الأصل (أقل) والصواب ما أنبأناه من الديوان ص ٥٦ ، ومعجم البلدان ٤ : ٢٦٥ .

(١٩) وضع أسس هذا القصر المعتضد وأتم بناءه ابنه علي

قصر الإحمريّة (٢٧) : كان في أقصى كسورة
الخالص من الجانب الشرقي وهو نزهة .
خان وردان (٢٨) : أول خان عمر ببغداد .

الطاقات

طاقات أبي سويد (٢٩) : هي ما بين مقابر
باب الشام .

طاقات الراوندي (٣٠) : ينسب إلى محمد بن
الحسن صهر الوزير ابن ماهان .

طاقات الهكي (٣١) : بالجانب الغربي بالشارع .
طاقات القطريف (٣٢) :

طاق اسماء : بالجانب الشرقي بين الرصافة
ونهر الملعى . ينسب إلى اسماء بنت المنصور (٣٣) .

طاق الحراني (٣٤) : بالجانب الغربي وشارع
ذلك إلى شارع باب الكرخ .

قنطرة البردان (٣٥) : في شارع بغداد .

قنطرة بني زريق (٣٦) : على نهر الرافيل (٣٧) .

(٢٧) عمر أيام الخليفة أحمد بن المستفيء (معجم البلدان
٤ : ٣٥٥) .

(٢٨) نسبة إلى وردان بن سنان من قواد المنصور (معجم
البلدان ٢ : ٣٩٤) .

(٢٩) في الاصل (أبو) .

(٣٠) واسمه : الجارود (الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد
١ : ٧٩) .

(٣١) هو مقاتل بن حكيم . أصله من الشام (تاريخ بغداد
١ : ٨٣) .

(٣٢) هو القطريف بن عطاء ، أخو الخيزران خال الهادي
والرشيد ، ولي اليمن ويقال أنه من بني الحصارث بن
كعب (تاريخ بغداد ١ : ٨٣) .

(٣٣) كان طاغا عقيماً وكان في دارها التي صارت لملي بن
الجهشيار (بمشرفة الصخر) وعند طاق اسماء كان
مجلس الشعراء وهناك كانوا يجتمعون في أيام الرشيد
(بغداد مدينة السلام ٥٥) .

(٣٤) نسبة إلى بانيه رجل من حران كان مولى للخليفة
المنصور ، ووزيراً له ، أما المؤرخ اليعقوبي فيذكر أن
الحراني هو رجل آخر يسمى عمرو بن سمعان وكانت له
قطيعة في هذا الموضع . وموقعه على الطريق النازل من
باب البصرة (معجم البلدان ٤ : ٤٠٥) ، دليل خارطة
بغداد ٨٦) .

(٣٥) انظر معجم البلدان (٤ : ٤٠٥) .

(٣٦) قنطرة مشيدة بالرخام نسبة إلى بني زريق وهي أسرة
فارسية من البنائين (معجم البلدان ٤ : ٤٠٦) ، دليل
خارطة بغداد ٨٥) .

(٣٧) عرف على عهد المنصور بن نهر عيسى نسبة إلى عيسى بن
←

قصر الخلد (٢٠) : بناه الخليفة المنصور بعد
تمام بناء بغداد على شاطئ الدجلة وكان موضعه
دير فيه راهب وكان من اشرف المواضع (٢١) .

قصر الخيل : هو دار الخيل أحد دور
الخلافة وكان صحنها ألف ذراع في ألف ذراع
وكان يوقف بها في الأعياد وعند ورود الرسل من
البلاد في كل جانب خمسمائة فرس ملبسة بالذهب
والفضة .

قصر الرياحين (٢٢) : أحد دور الخلافة
مشرف على سوق الرياحان أحدثه الخليفة
المستظهر (٢٣) وهو محل واسع غير أنه كغيره لم
يبق له ذكر ولا رسم .

قصر الخلافة : يعرف بـ الحريمي وهو دار
الخلافة وكان مقدار ثلث بغداد قائم في الوسط
ودور القامة محيطة به وله سور كأنه نصف دائرة
وله عدة ابواب .

دار الشجرة : داخل دار الخلافة بناه المقتدر
سمي بـ الشجرة لان فيه شجرة من فضة وذهب
فيها ثمانية عشر غصناً (٢٤) ، لكل غصن فروع
مكحلة بالجواهر على شكل الاثمار وعليها طيور من
ذهب فاذا هب الريح ظهر لها صفيح وهدب مختلف
كاصوات وتغريد الطيور ، وكان بها بركة ماء
عليها خمسة عشر فارساً (٢٥) مصورين من الذهب
وخيولهم من الفضة عن يمين البركة ومثلهم عن
الشمال (٢٦) .

دار الطواويس : وهو أيضاً بدار الخلافة بناه
الخليفة المطيع وكان اعجوبة الزمان الحسنة .

الكتفي ، ويقع على صفة دجلة تحت القصر الحسني وكان
يشرف على المسناة كأنه انتاج . وقد شب حريق في قصر
النتاج سنة ٥٤٩ هـ تحول فيها إلى ركام من الرماد الا أنه
اعيد بناؤه على عهد المستفيء (دليل خارطة بغداد
١٢٥ - ١٢٦) .

(٢٠) انظر : تاريخ بغداد (١ : ٨) .

(٢١) سمي بقصر الخلد نسبة إلى حدائقه الواسعة وتشبيها
بجنة الخلد . يقع شمال الدير المتين (دير مار فثيون)
بقليل . كمل بناؤه في حدود سنة ١٥٩ هـ - ٧٧٩ م ، وكان
الرشيد قد فصل الإقامة فيه بدلاً من قصر باب الذهب .
(تاريخ بغداد ١ : ٧٥) ، دليل خارطة بغداد ٥٦) .

(٢٢) ويسمى بـ دار الرياحين نسبة إلى سوق الرياحين
الواقع على مقربة من الدار (دليل خارطة بغداد ١٥٨) .

(٢٣) انشاء المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) - (١١٦٠ -
١١٧٠ م) (دليل خارطة بغداد ١٥٨) .

(٢٤) في الاصل (فغن) .

(٢٥) في الاصل (فارس) .

(٢٦) حذفنا لفظة (من) في الاصل لعدم جدواها .

ابراهيم الفيروز آبادي(٤٧) بناها تاج الملك ابو الفنايم
المرزبان خسرو(٤٨) . قيل دخل شاعر على الرئيس
ابي الفنايم يمدحه بابيات فقال الشاعر(٤٩) :

فبحسان الذي اعطاك ملكاً
وعلمك الجلوس على السرير
أتذكر أن فراشك جلد شاة
وأن خفالك من جلد البعير

فقال له بعض من حضر : لا أم لك تقول هذا
في الرئيس والله ما ظننت أني قلت عيباً غير اني
مدحته فضحك منه ووصله .

المدرسة المستنصرية : في الجانب الشرقي
من بغداد وهي التي تكلم عنها كثيرون من العرب
بانها كانت زمنا طويلا تقبل التلامذة ارا الآن فقد
هُجر(٤٩) هذا المحل وقد ملئ(٥٠) بالالات الحديدية
التي جلبتها الحكومة من اوربا فترى كل قاعاتها

(٤٧) الصواب هو ابراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي
الفيروزآبادي المتوفى ٤٧٦هـ - ١٠٨٢م ويعرف ب ابي اسحق
الشيرازي وهو من مدرسي المدرسة النظامية . (الاعلام
٤٤ : ١) ، معجم البلدان ٢ : ٥ ، دليل خارطة بغداد
١٥٥ ، العبر في خبر من غير ٢ : ٩٩ .

(٤٨) وزير السلطان ملكشاه توفي سنة (٤٨٦) . تم انشاؤها في
حدود سنة ٤٨٢هـ - ١٠٨٩م (دليل خارطة بغداد
١٥٦) .

(٤٩) المشهور ان هذه الابيات قالها اعرابي أراد أن يشير غضب
معن بن زائدة الشيباني المتوفى ١٥١هـ وكان معروفا
بالعلم والكرم ، فانشد الاعرابي هذه الابيات بين يديه :

أتذكر إذ لحافك جلد شاة
وإذ نعلك من جلد البعير
فبحسان الذي اعطاك ملكاً
وعلمك الجلوس على السرير
فلست مسلماً أن عشت دهرًا
على معسن بتسليم الأمر
سارحسل عن بلاد أنت فيها
ولو جاز الزمان على الفخير

... الخ .

فلم يستطع هذا الاعرابي اذارة (الشيباني) فآكرمه ودعا له
وتعجب الاعرابي باناته وحلمه وكرمه (قصة الابيات
كاملة في قصص العرب ج ٣ ص ٢٤٣ تأليف محمد احمد
جاد المولى وجماعة) .

(٤٩) في الاصل (انهجر) والصواب ما اثبتناه : محيط المحيط
٢ : ٢١٥٨ .

(٥٠) في الاصل (وقد املوه من الالات) والصواب ما اثبتناه
(محيط المحيط ٢ : ١٩٩٩) .

قنطرة الشوك : على نهر عيسى غربي بغداد .
قنطرة المعبد(٢٨) : بالجانب الغربي على
النهر ، وكانت اشهر القناطر في بغداد .

ذكر اسواق بغداد

سوق الثلاثاء(٢٩) : كان قبل ان تعمّر بغداد ،
وسمي كذلك لان كان يباع فيه نهار الثلاثاء فقط .
سوق السلاح(٤٠) الى الآن . سوق حجاج(٤١)
مولى . سوق يحيى(٤٢) . سوق الرياحين(٤٣) يباع
فيه الازهار والمطريات . سوق العطارين(٤٤) الى
الآن . سوق البزازين الى الآن يباع فيه الخبز
والحرير . سوق الحدادين(٤٥) . سوق النجارين .
سوق الصياغ (سوق الذهب) . والمشهور الآن من
الاسواق : سوق دانيال . سوق باعة الاجواخ .
سوق الهرج(٤٦) ... الخ .

ذكر مدارس بغداد القديمة

لهذه المدارس اسم لا رسم ، فالتاجية كانت
مدرسة جليلة العلم تلاقي قبر العلامة اسحق بن

علي عم المنصور الذي جدد انشاءه وشيد عند مصبه في
دجلة قصرا في موضع قصر سابور العتيق سمي باسم :
قصر عيسى ولكن التسمية القديمة ظلت مستعملة عند
بعض المؤرخين كابن الجوزي ، وياقوت الحموي .
والرفيل الذي ينسب اليه هذا النهر اسمه - دهقان -
من الفرس . (تجارب الاصل ٦ : ٩ ، ودليل خارطة
بغداد ٦٤) .

(٢٨) دعيّت بذلك نسبة الى عبدالله بن محمد المعبدى وقصد
بنى تلكم القنطرة على نهر عيسى (معجم البلدان ٤ :
٤٠٧ ، دليل خارطة بغداد ٨٧) .

(٣٩) سمي بذلك لانه كان يقوم عليه سوق لاهل كلواذا واهل
بغداد في كل شهر مرة يوم الثلاثاء فنسب الى اليوم الذي
كانت تقوم فيه السوق واليوم سوق باب الاغا (دليل
خارطة بغداد ٣٤ ، معجم البلدان ٣ : ٢٨٢) .

(٤٠) (معجم البلدان ٣ : ٢٨٤) .

(٤١) نسبة الى الحجاج الوصيف مولى المهدي (بغداد مدينة
السلام للهمداني ٥٨ ، تاريخ بغداد ١ : ٩٦) .

(٤٢) نسبة الى يحيى بن خالد البرمكي ، موضع السوق كان
مجاورا لمشهد ابي حنيفة (انظر دليل خارطة بغداد
١١٤ - ١١٥ ، معجم البلدان ٣ : ٢٨٤ ، تاريخ بغداد
١ : ٩٣) .

(٤٣) الصواب سوق الرياحيين .

(٤٤) بالجانب الشرقي وهو سوق الشورجة اليوم .

(٤٥) اسواق قائمة الى اليوم في محلة باب الاغا بجانب
الرصافة .

(٤٦) في محلة باب الاغا من الجانب الشرقي لبغداد قرب باب
المدرسة المستنصرية (دليل خارطة بغداد ١٧٥) .

مغلقة (٥١) بعد ان كانت تسكنها العلماء في ذلك العصر المجيد (٥٢) . هذا ومن الجهة المشرقة على الدجلة تقرا الكتابة الآتية : (ثم يترك المؤلف بيضا بقدر صفحة لم يكتب فيها) .

ذكر مدارس بغداد الحالية

ابن الآن (٥٣) بغداد من عظمتها السالفة فقد اندرس رونقها السالف تحت برقع الجهل والغباء فما فيها مدارس تستحق الذكر مع انك اذا اعتبرت مدارس الاسلام تراها عديدة وربما وجدت لكل جامع قاعة انزوى فيها معلم انحصرت وظيفته على تعليم الشبان مبادئ القراءة (بالقرآن) واصول الكتابة لا غير لكن هذه ماذا تكون في هذا العصر عصر التمدن والتقدم هذا مع قطع النظر عن البعض الذين يدرسون على علماء افاضل في بغداد وفي اماكن معدة لهم ولكن هؤلاء قليلون . اما مدارس النصارى قليلة واحسنهن مدرسة اللاتين للاباء الكرملتانيين المحترمين يدرس فيها الفرنسية والعربية باصولهما مع العلوم ، والتركية قليلا وانا افتخر بكوني احد تلامذتها ولكني ارى انها الآن ليست على ما كانت عليه قبل ثلاث (٥٤) سنين غير ان حضرة رئيسها المحترم قد قال لي غير مرة : انه مهم في امر تنشيطها وترقيتها لدرجة عالية من الاتفاق فوق الله مقاصده ونجح اعماله .

ثم لليهود ايضا مدرسة يدرس فيها الثلاث لغات المذكورة مع العبرانية . ثم لطائفة الكلدان مدرسة يدرس فيها العربية باصولها ثم الكلدانية والفرنساوية قليلا وقد اعتنى بها معلموها (٥٥) كثيرا وكذلك لطائفة السريان مدرسة قفي هذه لا يدرس الا العربية فقط ويا حبذا لو اعتنى القوم في امر المدارس فانها لا غرو الواسطة لاسترداد ما سلبته منا ايدي الزمان وطوارق الحداث .

(٥١) في الاصل (مغلقة) والصواب ما ائتناه ، قال ابو الاسود الدؤلي :

ولا اقول لقد القوم قد غليت
ولا اقول لكتاب الدار مفلوق

(محيط المحيط ٢ : ١٥٤٦) .

(٥٢) اما اليوم فقد اهتمت بها المؤسسة العامة للآثار فجددت بناءها وفتحت ابوابها للزائرين .

(٥٣) الآن يقصد به تاريخ التأليف اي مطلع القرن العشرين اما اليوم فقد عادت عظمة بغداد ومكانتها بين عواصم العالم المتحضر .

(٥٤) في الاصل (ثلاثة) .

(٥٥) في الاصل (معلية) .

ذكر جوامع وبيع وحمامات بغداد

الحالية

وفي بغداد جوامع كثيرة لكن المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة اثنا عشر مسجدا منها ثمانية بالجانب الغربي واربعة بالجانب الشرقي ، وللنصارى اربع (٥٦) كنائس لكل طائفة منهم واحدة اعني كنيسة البواتر الكرملتان ، وكنيسة لطائفة الكلدان ، وكنيسة للسريان ، وكنيسة للأرمن القاثوليك ، وكنيسة للأرمن القدماء ، وتورا لليهود ، واحسن هذه البيع بيعة اللاتين فانها حسنة البناء جميلة المنظر واسعة المكان .

وفي بغداد حمامات كثيرة مسطحة بالقرار ولكن بين اتقان ونظافة غيرها من البلدان المتقدمة بون عظيم (٥٧) وقد عرف ذلك من اختبر المحليين .

ذكر بغداد القديمة

لا يخفى ان بغداد التي (كان) (٥٨) عمرها الخليفة ابو جعفر المنصور (٥٩) كانت على الغرب من الدجلة ليس كما هي الآن فانها على يمينه نظرا لخراب الجانب الغربي وعمار الجانب الشرقي غير انه بني على الساحل الغربي حارة برانية حيث اقام قلعة ولكن لم يبق من هذا البناء شيء الا قرية المعظم (٦٠) حيث دفن الامام ابي حنيفة ... الخ .

ذكر بعض عمارات بغداد الحالية

ومن العمارات الجميلة الشهيرة التي انشأها في بغداد سعادة مدحت باشا (٦١) في ايام اقامته فيها سراية الحكومة وقاعات العساكر ثم مدرسة عظيمة دعيت بالرشدية ثم مدرسة الصنائع ثم دار

(٥٦) في الاصل (اربعة) .

(٥٧) العبارة مرتبكة وغير مستقيمة وكان الاولى والاجدر ان يقول : ولو قارنا تلك الحمامات مع مثيلاتها في البلدان المتقدمة من حيث النظافة واتقان البناء لوجدنا بينهما بونا شامسا وعظيما .

(٥٨) (كان) زائدة حشرها المؤلف من دون مبرر .

(٥٩) بناء بغداد على يد الخليفة ابي جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ وارتفع بناؤها سنة ١٢٩ هـ (بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٢٨) .

(٦٠) وهي محلة الاعظمية اليوم .

(٦١) دامت ولايته من ١٢٨٥ هـ - ١٢٨٨ هـ (دليل خارطة

بغداد ٢٣٠) .

الطباعة والمكتبة ثم مستشفى في جانب الكرخ وكل هذه الابنية على جانب عظيم من النظام والاتقان والجمال على النسق الافرنجي اللطيف وفي بغداد جسر عظيم امر بتعميره الوالي الموما اليه قبل دخول ناصر الدين شاه لبغداد سنة ١٨٧٢م يمشون عليه نهارا وليلا رجالا ونساء فهم في ذلك في نزهة متصلة غير انه اذا زادت مياه الدجلة انقطع فتقوم عوضه القوارب وهي التي يعبرون عنها بـ القفف ... وبركها عشرة او خمسة عشر نفسا وقد تعمّر أيضا في بغداد طريق مركبات بين بغداد والكاظمية نظير الذي بين بيروت والشام وسلمت ادارته بيد الاهالي فانفقوا منه كثيرا . وبجانب الكرخ معملان واسمان جدا يشتغل فيهما الحديد والاخشاب مما يتعلق بتعمير المراكب وغير ذلك وبجانب الرصافة قرب المدرسة المستنصرية ترى مركز ادارة البواخر العثمانية وهو بناء جميل قد قام على شكل مستطيل على الدجلة .

ذكر ما كان في بغداد من الانهار

واكثرها الى الان

نهر الخالص (١٢) : هو شعبة من دجلة وهو نهر عظيم عليه زروع وقرى عامرة منها :
دوخلة وهي قرية كبيرة ثم يلكجه ثم سكران ثم لقمان ثم هيب .

نهر دجيل (٦٢) : نهر مشهور وهو شعبة من دجلة عليه قرى ومزارع كثيرة .

نهر موسى : هذا يأخذ من نهري الى ان يصل الى قصر الثريا (٦٤) ثم ينقسم الى ثلاثة انهار ويجري في الجانب الشرقي من بغداد .

(٦٢) يتفرع من النهرين ولا تزال آثار نهر الخالص الرئيسي القديم قائمة يمكن تتبعها في متجه النهر العتيق المعروف اليوم بنهر الوزيرية الذي يسير في جهة الغرب نحو تلّ باب الشام ومن ثم نهر دجلة فينتهي هناك في اسفل الراشدية (دليل خارطة بغداد ١١) .

(٦٢) في الاصل نهر الدجيل ، وكان هذا النهر يروي القسم الاعلى من الجانب الغربي من بغداد (مختصر التاريخ ٧٩) .

(٦٤) انشاء المعتضد ويعتبر من القصور الفخمة فقد جعل حوله جنائن زاهرة وساحات واسعة وظل القصر قائما حتى فاضت دجلة فيضانا شديدا فاحدثت خرابا عظيما في بغداد وكان من جملة ذلك خراب الثريا ولا سيما فيضان سنة ٤٦١هـ (المنتظم ٨ : ٢٥٤ ، تاريخ بغداد ١ : ١١٤ - ١١٥) .

نهر الملك (٦٥) : وهو نهر عظيم عليه (كان) (٦٦) ثلثماية وستون قرية على عدد ايام السنة وعليه مزارع غزيرة ويجلب منه الى بغداد قواكه وحبوب كالارز والماش والعنبر وامثال ذلك .

نهر الملقى (٦٧) : هو أشهر الانهار وانفعها واعظمها . مجراه في دار الخلافة وهو مستمد من الخالص ونهر موسى .

نهر القلايين (٦٨) : يجري في بغداد في (محلها اهلها ...) كذا في الاصل .

نهر عيسى (٦٩) : عليه قرى في غربي بغداد ، وماخذه من الفرات عند القنطرة ويصب في دجلة عند قصر عيسى .

نهر طابق (٧٠) : في محلة تسمى به بالجانب الغربي قرب نهر القلايين شرقا واصل اسمه نهر بابك (٧١) وماخذه من كوخايا ويصب في نهر عيسى .

نهر الرفيل (٧٢) : هو نهر كبير يأخذ من نهر عيسى ويصب في دجلة عند بغداد وهو الذي عليه قنطرة الشوك .

نهر الدجاج (٧٣) : عند محلة تسمى به وهو قرب الكرخ من الجانب الغربي .
نهر الصراة : هو نهران في بغداد الواحد يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة المحول يسقي قرى بادوربا (٧٤) ويتفرع منه انهار الى ان يصل الى بغداد ويصب في دجلة .

(٦٥) ويسمى نهر ملكا فرع من الفرات وكان من السعة بحيث اعتبره البعض عمودا للفرات وقد عد القسم الذي يسير نحو الجنوب من الكوفة فرعا من الفرات (وادي الفرات ٢ : ٧٨ - ٨٥) .

(٦٦) لفظة (كان) زائدة لا مبرر لاقحامها .
(٦٧) نهر يسير باتجاه الجنوب الغربي خارج سور المستعين حتى يدخل المدينة ويدخل قصر الفردوس الذي انشاه المعتضد ويدور حوله حتى يصب في دجلة عند القصر (دليل خارطة بغداد ١٢٢) .

(٦٨) الفرع الرابع الايسر الذي يتفرع من نهر كرخايا وتوسع عند هذا النهر محلة نهر القلايين (دليل خارطة بغداد ٨٢) .

(٦٩) سمي بهذا الاسم نسبة الى عيسى بن علي عم المنصور .
(٧٠) في الاصل محلة بالالف واللام (الطابق) والصواب ما انتشاه (بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٤٢) .
(٧١) هو بابك بن بهرام بن بابك (بغداد مدينة السلام ٤٣ ، ودليل خارطة بغداد ٧٩) .

(٧٢) الأشهر نهر دجيل (بغداد مدينة السلام ٤٤) .
(٧٣) تاريخ بغداد ١ : ١١٢ .
(٧٤) في الاصل (قرابابادربا) وتقع على يمين نهر الصراة

ذكر من سافر الى بغداد

من فضلاء الامصار الاجواد

اهل العلم والعمل والراي والسداد

الشيخ ابراهيم بن ادهم بن منصور بن بكر بن وايل :- مولده في مدينة بلخ (٧٥) ساله يوما ابراهيم بن يسار عن امره فقال : كان ابي من ملوك خراسان فخرجت للصيد وتبعني صيدا فسمعت قائلا ما لهذا خلقت فوقفت ولم ار احدا فلعنت ابليس ومن بعدها تركت اهلي وقدمت لبغداد وقال ايضا عن نفسه : انه رحل الى طرسوس وصار بستانيا فلما اشتهر هرب منها ، توفي سنة ١٦٢هـ (٧٦) .

الامام محمد بن ادريس الشافعي : مولده بمدينة غزة اخذ العلم عن مالك (٧٧) ومسلم بن خالد وسفيان بن عيينة وقدم الى بغداد (٧٨) وسمع الحديث من محمد بن الحسن الشيباني وعبد الوهاب الثقفي واسماعيل بن علية وغيرهم وكان قدومه سنة ١٧٥هـ ثم رحل عنها سنة ١٧٨هـ لما امتلئت العلماء بالقبول في خلق القرآن وقد ناظر فيها بشر المعتزلي وحقق وافحهما وخرج من بغداد وقدم الى الموصل ثم رحل الى مصر وتوفي بها سنة ٢٠٤هـ ومن نظمه قوله :

واحق خلق الله بالهم امرؤ (٧٩)

ذو همّة يبلى يعيش ضيق

وقوله :

اكل العقاب بقوة جيف الفلا

وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

في القسم الاسفل والوسط من منطقة بغداد وكما يدعى عند العرب ما كان من شرقي الصراة (تاريخ بغداد ١ : ١١١ ، دليل خارطة بغداد ٢٠) .

(٧٥) فيه اختلاف فبعض المؤرخين قال في غزة ، والاخر في اليمن وآخر في الشام والاشهر في غزة (الاعلام ٢ : ٥٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٢٥٠ ، تاريخ بغداد ١ : ١٨٥) .

(٧٦) اختلف في وفاته ففي البداية والنهاية (١٠ : ١٢٥) ، وتهذيب ابن عساكر ٢ : ١٦٧ أن وفاته سنة ١٦٠هـ ، وفي الاعلام ١ : ٢٤ وفاته ١٦١ ، ولي دائرة المعارف الاسلامية ١ : ٢٣ وفاته ١٦٢ .

(٧٧) مالك بن انس ، ومسلم بن خالد الزنجي ، وعبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفي (تاريخ بغداد ٢ : ٥٦) .

(٧٨) قدم الى بغداد مرتين الاولى سنة ١٩٥ ، والثانية سنة ١٩٨ (تاريخ بغداد ٢ : ٦٨) .

(٧٩) في الاصل امرؤ (طبقات الشافعية الكبرى ١ : ٢٠٥) .

الامام عبدالله بن محمد السمناني (٨٠) : مولده في خراسان وسمع بها ثم رحل الى بغداد وسمع بها الحديث ثم توجه منها الى الشام وتوفي سنة ٣٠٣هـ ومن شعره :

تري المرء يهوى (٨١) ان يطول بقاؤه
وطول البقا ما ليس يشفي له صدرا

ولو كان في طول البقاء صلاحا
اذا لم يكن ابليس اطولنا عمرا

ابو بكر محمد بن اسماعيل القفال الشافعي (٨٢) : قدم الى بغداد واخذ عن ابن سريج وروى عن الطبري ورحل الى الشام ثم الى الحجاز وتوفي سنة ٣٦٤هـ .

ابراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي : مولده (٨٣) في شيراز وقدم الى البصرة وتفقه بها ثم قدم الى بغداد (٨٤) وكان اماما في المذهب والاصول والخلاف وله تصانيف كثيرة منها : المذهب ، والمخلص (٨٥) ، والنكت ، واللمع ، والتبصرة ، ورؤوس المسائل و (قاموسه المشهور) (٨٦) . توفي سنة ٤٢٥هـ (٨٧) ومن شعره قوله (٨٨) :

سألت الناس عن خل وفي
فقالوا ما الى هذا سبيل

تمسك ان ظفرت بذيل حر
فان الحر في الدنيا قليل

امام الحرمين عبدالله (٨٩) بن عبدالله بن

(٨٠) ترجمته في هدية المارفين (١ : ٤٤٣) كما يلي : عبدالله ابن محمد بن عبدالله بن بونس بن عبدالله (ابو الحسين) السمناني (الانساب للسمعاني ٧ : ٢٤٠) .

(٨١) في الاصل (ان يهوى) والصواب ما ذكرناه ، انظر البيت في (معجم البلدان ٣ : ٢٥٢) .

(٨٢) هو محمد بن علي بن اسماعيل القفال ، وفاته ٣٦٥هـ (وفيات الاعيان ٤ : ٢٠٠ ، الاعلام ٧ : ١٥٨) .

(٨٣) سنة ٢٩٣هـ وفيه اختلاف (الاعلام ١ : ٤٤) .

(٨٤) كان ذلك سنة ٤١٥هـ (وفيات الاعيان ١ : ٢١) .

(٨٥) في الاصل (التخليص) (الاعلام ١ : ٥) وابن خلكان في وفيات الاعيان ١ : ٢٩ سماه : التخليص في علم الجدل .

(٨٦) هذا وهم من المؤلف حيث خلف بين المترجم له وبين مجتهد الدين الفيروز آبادي المتوفى ٨١٧هـ صاحب القاموس المحيط .

(٨٧) وهم المؤلف فوفاته المترجم له سنة ٤٧٦هـ (الاعلام ١ : ٤٤) ، وفيات الاعيان ١ : ٢٩ .

(٨٨) وفيات الاعيان (١ : ٢٩) .

(٨٩) الصواب عبدالله بن عبدالله (الاعلام) : ٢٠٦ ، وفيات الاعيان ٣ : ١٦٧ .

يوسف الجويني : إمام العلماء وصاحب التصانيف منها : نهاية المطلب . قدم إلى بغداد وأخذ عن مشايخها وأخذوا عنه الكثير ثم رحل إلى الحجاز وأقام بمكة والمدينة أربع سنين يدرس ويفتي ويصنف ثم توجه إلى نيسابور ومات بها سنة ٤٧٨ هـ . وعند موته أغلقت الأسواق (وسكرت) (٩٠) الحوانيت وكان (٩١) تلامذته نحو أربعمئة فكسروا محابرهم وأقلامهم حزنا .

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي : مولده بمدينة طوس (٩٢) قرأ على إمام الحرمين وقدم إلى بغداد ودرس بالانظامية ثم تزهّد وحج ، ومن تصانيفه : البسيط ، والوسيط ، والخلاصة ، والوجيز ، والمنحول ، والمتحل في علم الجدل . توفي سنة ٥٠٥ هـ .

القاضي حسين بن محمد المعروف بـ ابن سكرة : ـ مولده بالاندلس ، قدم إلى بغداد وسمع من البانياسي وأخذ عن أبي بكر الشاشي (٩٣) وذهب إلى دمشق وحج وعاد إلى الاندلس ومات بها سنة ٥٢٤ هـ (٩٤) .

أبو بكر بن الوليد الأندلسي : ـ مولده (٩٥) في مدينة طرطوشة بلد أقصى بلاد الاندلس سافر إلى بغداد وتفقه على الشاشي والجرجاني (٩٦) ثم رحل إلى الشام وسكنها ودرس بها . توفي سنة ٥٢٠ هـ ، وله شعر منه :

إذا كنت في حاجة مرسلًا
وانت بانجازها مفرم
فارسل بأكمه خلابه
به صمم اغطس أبكم

(٩٠) في الأصل و (تسكرت) والصواب ما أثبتناه (يراجع معاجم اللغة مادة سكر) .

(٩١) في الأصل (وكانوا) وهذا لا يجوز إلا على لغة اكلوني البراغيت .

(٩٢) ولادته سنة (٥٠٠ هـ - ١٠٥٨ م) (الاعلام ٧ : ٢٤٧) ، وفيات الاعيان ٤ : ٢١٦ .

(٩٣) محمد بن أحمد الشاشي التوفي سنة ٥٠٧ هـ (الاعلام ٦ : ٢١٠) .

(٩٤) وفاته في الاعلام ٥١٤ هـ (الاعلام ٢ : ٢٧٩) .

(٩٥) هو محمد بن الوليد بن محمد القرشي الفهري الأندلسي الكني بـ أبي بكر الطرطوشي مولده سنة ٤٥١ هـ - ١٠٥٩ م ، واختلف في وفاته ، ففي وفيات الاعيان سنة ٥٣٠ (٤ : ٢٦٤) أما الزركلي في الاعلام (٧ : ٢٥٩) فقد

ثبت وفاته سنة ٥٢٠ إلا أنه ذكر مصادر الاختلاف فيها .

(٩٦) هو أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي المعروف بـ المستظهري ، والجرجاني هو علي بن أحمد (وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .

ودع عنك كل رسول سوى

رسول يقال له درهم (٩٧)

محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي : أصله من خوارزم وكان حنفي المذهب له تصانيف منها : الكشاف ، والمفصل في النحو ، و (المطول) (٩٨) في البيان ، وكان أماما في الاعتزال . قدم إلى بغداد وأخذ عن مشايخها الكثير وأخذوا عنه الوفير والغزير ورحل إلى مكة وجاور فيها (٩٩) فسمي جارا لله ثم رجع عن الاعتزال آخر عمره . توفي سنة ٥٣٨ هـ ، ومن نظمته :

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقتها (١٠١) من لحمها
والخ في تلك العظام النحل
أمن عليّ برحمة معهودة
لك يا الهي في الزمان الأول (١٠٢)
وله أيضا (١٠٣) :

وقائلة : ما هذه الدرر الني
تساقط من عينيك سمطين سمطين؟
فقلت : لها الدر الذي كان قد حشا
أبو مضر أذنني تساقط من عيني

(٩٧) الأبيات منسوبة إلى الطرطوشي (وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .

ولابن فارس اللغوي بيتان يشتملان على أكثر ألفاظ هذه الأبيات وهما :

إذا كنت في حاجة مرسلًا
وانت بها كلف مفرم
فارسل حكيمًا ولا توصه
وذاك الحكيم هو الدرهم

(انظر وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .

(٩٨) ابن أحمد في الاعلام ٨ : ٥٥ .

(٩٩) لم يؤلف الزمخشري مثل هذا الكتاب .

(١٠٠) في الأصل (بها) .

(١٠١) في وفيات الاعيان (٥ : ١٧٢) ويرى عروق نياطها في نحرها .

(١٠٢) ويرى البيت في وفيات الاعيان (٥ : ١٧٣) بالصورة الآتية :

أغفر لعبد تاب من فرطاته

ما كان منه في الزمان الأول

(١٠٣) في رثاء شيخه أبي مضر منصور (وفيات الاعيان ٥ : ١٧٢) .

علي بن أبي الوفا ابن مسهر (١٠٤) الموصلية -
كان شاعرا أدبيا رئيسا مقدا سافر إلى بغداد
وامتدح الخلفاء وعاد إلى الموصل وتوفي بها سنة
٥٤٣ هـ . ومن شعره (١٠٥) :

ولما اشتكيت اشتكى كلما
على الأرض واعتلّ شرق وغرب
لأنك قلب لجسم الزمان
وما صحّ جسم إذا اعتلّ قلب

أحمد بن محمد : وقيل ، سعد بن محمد
المشهور بـ الحيص بيص - مولده بالري (١٠٦)
وتأدب وتفقه بها قدم إلى بغداد وكان يلبس زي
العرب ويتقلد بالسيف وفيه طيش وتيه حتى قال
فيه ابن أبي الفضل (١٠٧) شعر :

كم تبارى وكم تطول طرطورا
وما فيك شعرة من تميم
فكلّ الضب واقرض الحنظل اليا
بس واشرب ماشيت بول الظليم
ليس ذا وجه من بضيف ولا يقر
ي ولا يدفع الأذى عن حريم

فاجابه :

لا تضيع من عظيم قدرتي وان كذ
بت مشارا اليه بالتعظيم

(١٠٤) هو علي بن سعد بن علي المعروف بـ ابن مسهر الموصلية
(الاعلام ٥ : ١٠١ ، وفيات الاعيان ٣ : ٢٩١) .
(١٠٥) الابيات في وفيات الاعيان (٣ : ٢٩٢) .
(١٠٦) ولادته في بغداد سنة ٤٩٢ هـ (ديوان حيص بيص ١ :
٣٧) .

(١٠٧) الصواب هو : هبة الله بن الفضل المعروف بـ ابن
القطن المتوفى سنة ٥٥٨ هـ والابيات ترد في ديوانه المذكور
اعلاه (الديوان ١ : ٤١) :

كم تبارى وكم تطول طرطو
ولا ما فيك شعرة من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل اليا
بس واشرب ماشيت بول الظليم
ليس ذا وجه من يجبر ولا يقسر
ي ولا يدفع الأذى عن حريم

فاجابه حيص بيص :

لا تضيع من عظيم قدر وان
كنت مشارا اليه بالتعظيم
فالشريف الكريم ينقص قدرا
بالتعدي على الشريف الكريم
(الديوان ١ : ٤٢) .

فالشريف الكريم ينحط وزرا
بالتجري على الشريف الكريم
حكي ان الحيص بيص سكر يوما في بغداد
وقتل جرو كلب فاخذ ابو القاسم بن أبي
الفضل (١٠٨) كلبة وعلق في عنقها قصبة واطلقها
عند باب الوزير (١٠٩) فاخذت القصبة من عنقها
فوجد فيها ورقة مكتوب فيها هذه الابيات (١١٠)
شعر :

يا أهل بغداد ان الحيص بيص أتى
بخزية اورثته العار في البلد
ابدى شجاعته في الليل مجتريا
على جري ضعيف البطش والجلد
فأنشدت امه من بعد ما احتسبت
دم الايلق عند الواحد الصمد
اقول للقلب تأساة وتعزية
احدى يدي أصابتنى ولم ترد
كلاهما خلف من بعد صاحبه
هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي
توفي سنة ٥٧٤ هـ (١١١) .

علي بن القاسم بن علي بن الحسن المعروف
بـ ابن عساكر (١١٢) : مولده بدمشق وقرأ بها وتعلم
العلم الوافي ثم جاء إلى بغداد وأخذ عن علماءها
ثم راح إلى خراسان وسمع الحديث ورجع فجرحه
اللصوص في الطريق وعند وصوله إلى بغداد مات

(١٠٨) هو ابن القطن المار ذكره .
(١٠٩) يقصد به : علي بن طراد الزنبي .
(١١٠) وردت الابيات في الديوان المطبوع (١ : ٤٢) بالصورة
الآتية :

يا أهل بغداد ان الحيص بيص أتى
بفلة اكسبته الخزي في البلد
هو الجيسان الذي ابدى تشاجمه
على جري ضعيف البطش والجلد
وليس في يده مال يديه به
ولم يكن ببوء عنه في القود
فأنشدت جمدة من بعد ما احتسبت
بت دم الايلق عند الواحد الصمد
(القول للنفس تأساء وتعزية
احدى يدي أصابتنى ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه
هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي)
(١١١) ودفن في مقابر قرش بالكاظمية اليوم (ديوان حيص
بيص ١ : ٤٨) .
(١١٢) امرأة الجنان ٤ : ٢٥ ، النكتة لوفيات النقلة ٤ :
٢٨٤ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٢٤٦ .

سنة ٦٠٦ هـ وفيه يقول ابن عنين (١١٢) يهجو مع فرط علمه وذكائه . شعر :

يا ابن العساكر ان صح انتسابك ذا

فانت من امم صوّرت مسبوکا

يا ابن الدجاجة كل الناس كان لها (١١٤)

اب (١١٥) فانت ابن من حتى اناديتا

فلما راي الاديب الاريب امين العمري (١١٦)

الشاعر الموصلّي هذين البيتين قد اثبتهما في ديوان قال مجيباً عن ابن عساكر :

يا من كمتين له نسبة

ما هذه النسبة امر حسن

تعبّر الناس بانسابهم

ابوك عنيّاً فانت ابن من ؟

عبدالله الكردي : علامة العلوم ، مولده في

جبال الاكراد سافر الى بغداد واخذ عن علمائها

الاجواد ثم سافر الى دمشق وسكنها ثم غلب عليه

الحال فالتقى كثيراً في الماء ، توفي سنة

١٠٠٣ هـ (١١٧) .

صفي الدين بن محمد الكيلاني : نزيل مكة

مولده في كيلان اتقن فيها العلوم ثم قدم الى بغداد

وصاحب علمائها وقرأ الطب وبرع فيه ثم عاد الى

الحج وسكن مكة ومن فراسته مرت عليه يوماً

جنازة فقير فدعي به فنظر اليه واخذ شيئاً من

العطار ونفخ في أنفه ففاق البيت وجلس فسألوه

كيف عرفت ذلك قال : نظرت اقدامه واقفة فعلمت

انه حي وطالما صدر مثل ذلك ولم يستحسن به

الناس (فلذلك عند الافرنج عادة) (١١٨) لا يرفعون

الميت قبل مرور اربعة وعشرين ساعة وناهيك

(١١٢) توفي سنة ٦٢٠ هـ (ديوان ابن عنين ٣) .

(١١٤) في الاصل : له ، (ديوان ابن عنين ٢٠٩) ومحقق

الديوان يترجم ابن عساكر غير الذي نحن بصدد

فيقول : ابن عساكر تاج الامناء ابو الفضل احمد بن

محمد بن الحسن بن هبة الله ولد ٥٢٢ هـ وتوفي ٦١٠

وهذا وهم من المحقق (ديوانه ٢٠١) .

(١١٥) في الاصل (ديكا) (الديوان ٢٠١) .

(١١٦) محمد امين بن خيرالله بن محمود بن موسى الخطيب

العمري ولد ١١٥٦ هـ وتوفي ١٢٠٣ هـ . (الاعلام ٦ :

٢٦٧ ، منهل الاولياء) مقدمة المحقق سعيد الديوهجي .

(١١٧) ترجمته في خلاصة الانر ، للمجيب (٣ : ٨٥) .

(١١٨) العبارة مضطربة وكان الاولى به أن يقول : والافرنج

عادة ... الخ .

انها عادة مفيدة وحميدة . توفي سنة ١٠١٠ هـ (١١٩) .

الوليد بن عبادة (١٢٠) البحتري : الشاعر

المشهور صاحب الديوان الموفور مولده بمدينة

منبج وتادب بها وسافر الى بغداد وامتدح الخليفة

المتوكل ومولده سنة ٢٠٦ هـ ومات بها سنة

٢٨٣ هـ (١٢١) . حكى عنه قال : صرت في اول امري

الى ابي تمام في مدينة حمص وعرضت عليه شعري

فأقبل عليّ وترك الناس وسألني عن حالي

فشكوته الفاقة فكتب الى اهل المعرفة وشهد لي

بالحداقة والفهم فلما وصلت الى المعرفة وامتدحتهم

فاكرموني واقاموا لي ياربعة آلاف درهم فكانت

اول مال اصبته . قيل ان البحتري شرب يوماً

مع ابي (١٢٢) هفان عند بعض الرؤساء فلما خرجا

ركب البحتري فرسه وأردف وراءه ابو هفان ،

فانشد هذا ارتجالاً . يقول : شعر :

تلبس للحرب اثوابها

وقال انما الشاعر البحتري

فلما راي الخيل قد اقبلت

اذا هو في سرجه قد خرى (١٢٣)

فغضب البحتري ودفعه فرماه الى الارض .

ومن شعره في المتوكل (١٢٤) :

اخفي (١٢٥) هوى لك في الضلوع واظهر

والام في كمدك عليك واعذر

بالبر صمت وانت افضل صائم

وبسنة الله الرضي فطر

فانعم بيوم الفطر عيداً (١٢٦) انه

يوم اعز من الزمان مشهر

اظهرت عز (١٢٧) الملك فيه بجفيل

لجب يحاط الدين فيه وينصر

(١١٩) ترجمته في خلاصة الانر (٢ : ٢٤٤ - ٢٤٥) .

(١٢٠) الوليد بن عبيد وكنيته (ابو عبادة) (ديوان البحتري

ص ٢) .

(١٢١) الاشهر انه ولد ٢٠٤ هـ وتوفي ٢٨٤ هـ (الاعلام ١٤١ : ٩

تاريخ بغداد ٤٩ : ١٢) ، المنتظم لابن الجوزي (١١ : ٦)

(وفيه وفاته ٢٨٥ هـ) .

(١٢٢) في الاصل مع (ابو)

(١٢٣) الابيات في وفيات الاعيان (١٧٥ : ٢) ، تاريخ بغداد

(٤٩ : ١٢) ، معاهد التنصيص (٢٢٤ : ١) .

(١٢٤) ويذكر خروجه يوم الفطر (ديوان البحتري ١٠) .

(١٢٥) في الاصل (اخف) .

(١٢٦) وقع المؤلف في نفس القلق الذي وقع فيه جامع الديوان

حيث ذكر (وعينا) والصواب ما بينناه (عيدا) .

(١٢٧) في الاصل (عن) (١٢٨) في الديوان (فالخيل) ص ١١ .

والخيل (١٢٨) تصهل والفوارس تدعى
والبيض تلمع والاسنة تزهر
والشمس طالعة توقد (١٢٩) في الضحى
طوراً ويطفئها العجاج الاكدر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلي
ذلك الدجى وانجاب ذلك العثير (١٣٠)
وافتن منك الناظرون فاصبح (١٣١)
يؤمى اليك بها وعين تنظر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابساً
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع
لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما (١٣٢)
في وسعه لسمى إليك المنبر
أيدت من فصل الخطاب بحكمة
تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في برد النبي مذكراً
بالله تذكر تارة وتذكر (١٣٣)
وهي طويلة وفي هذا كفاية اشارة لفضله وعلو
نهاه .

ابو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي : الشاعر
المشهور صاحب الفضل الموقور مولده بالكوفة في
محلة (كندة) ولذلك نسب اليها . كان أبوه سقاء
بالكوفة ولذلك قال فيه الشاعر (١٣٤) :
اي فضل لشاعر يطلب الفضل
معن الناس بكرة وعشياً
عاش حيناً يبيع بالكوفة الماء
وحيناً يبيع ماء الحسين
ولما كبر وانتشى سولت له نفسه عصيان
ربه فادعى النبوة في بركة السماوة (١٣٥) وتبعه بنو

(١٢٩) في الديوان (والشمس مائة) ص ١١ .

(١٣٠) البيت في الديوان ص ١١ :

حتى طلعت بفسوء وجهك فانجلت

تلك الدجى وانجاب ذلك العثير

(١٣١) في الاصل (فاصبح) والصواب ما اثبتناه (الديوان ١١) .

(١٣٢) في الديوان (غير ما) ص ١١ .

(١٣٣) في الديوان (وبشر) ص ١١ .

(١٣٤) البيتان في مقدمة ديوان المتنبي - شرح البرقوقي ص ٥ ،

في وفيات الاميان (١٢٤ : ١) .

(١٣٥) في الاصل (سماوة) .

كلب فخرج اليه نائب حمص (١٣٦) وقبضه وهرب
امته وجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب
الصفصاف ، فأنشد المتنبي :

زعم المقيم بكوتكين بانه
من آل هاشم ابن عبد مناف
فأجبتة مذ صرت من ابنائهم
صارت قيودهم من الصفصاف (١٣٧)

وخل عليه ابن والي حمص وهو
محبوس فوجده منزعاً فقال له : اصبر كما صبر
اولوا (١٣٨) العزم من الرسل فقال له المتنبي : وما
كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم
يستغفرون ثم تاب وحسن اسلامه فاطلقه .

وديوانه مشهور وقد طبع في مصر وبغروت
واشعاره فايقة على كل شعر .

سافر الى بغداد وامتدح بها ثم خرج منها فلما
وصل الى دبر العاقول خرج عليه : فالك بن ابي جهل
ابن فارس من بني اسد ومعه جماعة فعرفوه وتذكروا
هجاءه الشنيع لضبة الاسدي وهو هجاء لا ذكره
لاخراجه عن دائرة الادب فلما عرفوه حملوا عليه
فعزم على الهرب فذكره غلامه قوله :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والطعن والضرب والقرطاس والقلم (١٣٩)

فقال له قتلتنى لانه عرف اذا رجع يقتل وهكذا
جرت فانه لما كر راجعاً اخذ يحاربهم حتى قتل
وذلك سنة ٣٥٤ هـ .

بركة بن ابي يعلى الضرير (١٤٠) : مولده بالانبار
وبها تعلم وتادب ثم قدم الى بغداد ونظم فيها الاشعار

اغالب وجدي فيهم وهو غالب
واحبس دمي وهو في الخد ساكب
وقد عيل صبري واعترتني وساوس
تمانعني طيب الكرى وهو آيب

(١٣٦) هو لؤلؤ بن علي الهاشمي ، وكان قد قبض عليه في قرية
يقال لها : كوتكين (العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب
٦٣٦) .

(١٣٧) البيتان في العرف الطيب ٦٣٦ .

(١٣٨) في الاصل (صبروا اولوا) .

(١٣٩) يروي البيت في العرف الطيب ٦٣٦ بالصورة الآتية :

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(١٤٠) هو بركة بن ابي يعلى بن ابي الفخار الانباري الضرير ،

من رجال القرن السادس الهجري (نكت الهميان في نكت

العميان ١٢٥) .

وقد حرت لما أصبح الركب راحلاً
وقد قوضت نيرانهم والمضارب
حدا بهم الحادي فاضحيت بالحمى
كثيباً وقد ضاقت علي المذاهب (١٤١)
توفي سنة ٥٧٠ هـ .

الفضل بن جعفر المعروف بالبصري (١٤٢) .
مولده الكوفة وبها تأدب ونظم الأشعار .

قدم إلى بغداد وامتدح الخليفة المعتصم ،
والتوكل ووزيره الفتح بن خاقان . . . وكان يجلس
مع اخوانه للشرب فيقوم لحاجته ويتخطى الزجاج
والكأس ويعود ، واختل عقله قبل موته فكان ينشد :

خباً مصباح عقل أبي علي
وكانت تستضيء به العقول
إذا الإنسان مات الفهم منه
فإن الموت بالباقي كليل (١٤٣)
توفي سنة ٢٥٥ هـ .

الحسين بن أحمد الهمداني المعروف بابن
خالويه (١٤٤) : مولده بمدينة همدان وبها تأدب وتعلم
ونظم الشعر . قدم إلى بغداد وقرأ على السيرافي
ورحل إلى الشام وسكن حلب . كان اماماً في النحو
له تصانيف منها : الجمل في النحو ، وأعراب ثلاثين
سورة من القرآن ، كتاب الاشتقاق ، وكتاب المقصور
والممدود ، والمذكر والمؤنث ، ومن شعره :

إذا لم يكن صدر المجالس سيداً
فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم (١٤٥) قيل لي مالي رأيتك راجلاً
فقلت له : من أجل أنك فارس (١٤٦)
توفي سنة ٣٧٠ هـ .

ابراهيم بن عثمان بن محمد الفزي : مولده
بمدينة غزة (١٤٧) . وبها درس وتعلم جاء إلى بغداد

(١٤٨) الابيات ذكرها الصفدي الموما اليه في نفس الصفحة من
نكت الهميان .

(١٤٩) هو الفضل بن جعفر بن يونس النخعي توفي سنة ٢٥٥ هـ
٨٦٩ م (الاعلام ٢٥١:٥ ، معجم الشعراء ٢١٤ ، نكت
الهميان ٢٢٦ .

(١٥٠) نكت الهميان ٢٢٦ .

(١٥١) ترجمته في الاعلام (٢ : ٢٤٩) ، وفيات الاعيان (٢ : ١٧٨)
طبقات الشافعية (٢ : ٢١٢) .

(١٥٢) في وفيات الاعيان ١٧٩:٢ (وكم قائل) .

(١٥٣) البيهقي في وفيات الاعيان (٣ : ١٧٩) .

(١٥٤) ولادته سنة ٤٤١ هـ (الاعلام ٤٤١) .

واقام بالمدرسة النظامية سنين وأياماً ورحل إلى
خراسان وظهر بها فضله إلى أن توفي سنة ٥٢٤ هـ .
وله ديوان اشعار ما يزيد على ألف بيت ، منه :

حملنا من الأيام مالا نطقه
كما حمل العظم الكبر العصايا (١٤٨)
وليل رجونا أن يدب عذاره
فما اختط حتى صار في الفجر شايباً (١٤٩)
وقوله :

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة
باب البواعث والدواعي مفلق (١٥٠)
خلت الديار فلا كريم يرتجى
منه النوال ولا مليح (١٥١) يعشق
ومن العجائب أنه لا يشترى
ويخان (١٥٢) فيه مع الكساد ويسرق

قيل أنه قبل مماته هجر الشعر وغسل كثيراً
من نظمه بعد أن نظم هذه الثلاثة أبيات التي ذكرناها .

محمد بن يوسف موفق الدين الأربلي : مولده
بمدينة أربل (١٥٣) وبها تأدب وتعلم ونظم الأشعار الرائقة
كان بارعاً بالمعروض والشعر واللغة وكان له يد بكتاب
أقليدس بالهندسة . سافر إلى بغداد وامتدح بها
الأجواد وحظي منهم بنعمة وعاد إلى بلده وامتدح
صاحب أربل زين الدين يوسف ، منه (١٥٤) :

رب دار بالحمى طال بلاها
عكف الـركب عليها فبكاهـا
كان لي فيها زمان وانقضى
فسقى الله زمانني وسقاها
قل لجسمان مـوائـيـقـمـهم
كلما أحكمتتها (١٥٥) رك قواها
كنت مشغوفاً بكم إذ كنتم
شجراً لا يبلغ الطير ذراها

(١٥٨) وفيات الاعيان ٥٨:١ .

(١٤٩) في المصدر السابق نفس الصفحة يروي الشطر الثاني :
فما اختط حتى صار بالفجر شايباً .

(١٥٠) المصدر السابق أيضاً (٥٨:١) ورد الشطر الثاني :
باب الدواعي والبواعث مفلق .

(١٥١) في الأصل (مليح) المصدر السابق ٥٨:١ .

(١٥٢) في الأصل (ويخاف) المصدر السابق ٥٨:١ .

(١٥٣) ولادته في البحرين سنة ٥٨٥ هـ (الاعلام ٢٣:٨) .

(١٥٤) الابيات في وفيات الاعيان (١٠:٥) .

(١٥٥) في وفيات الاعيان ١٠:٥ (رنت) .

وأذا ما طمع أغرى بكم
عرض اليأس لنفسي فثأها
فصايات الهوى أولها
طمع النفس وهذا منتهاها
لاتنظروا بي (١٥٦) اليكم رجعة
كشف التجريبه عن عيني غطاها (١٥٧)
إن زين الدين أولاني بدأ
لم تدع لي رغبة فيمن سواها
توفي سنة ٥٨٥هـ .

(١٥٦) في وفيات الاعيان ١٠:٥ (له) .
(١٥٧) في وفيات الاعيان ١٠:٥ (عماها) .

★ ★ ★

مصادر التحقيق والتقديم

- ١ - الاعلام - لخير الدين الزركلي - ط ٢ المصورة - بيروت ١٩٦٩ .
- ٢ - الانساب - لعبد الكريم بن محمد السمعاني - ط ١ - حيدر آباد الدكن - الهند ١٩٧٦ .
- ٣ - البداية والنهاية : لعبد الدين أبي القداء اسماعيل ابن عمر المعروف بـ ابن كثير - ط السعادة - مصر .
- ٤ - بغداد مدينة السلام - لابن الفقيه الهمداني - تحقيق : الدكتور صالح احمد علي - ط ١ دار الطليعة للطباعة والنشر - باريس ١٩٧٧ .
- ٥ - تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي - الطبعة المصورة - دار الكتاب العربي بيروت .
- ٦ - تجارب الامم - لابي علي احمد بن محمد ، ابن مسكويه - ط مصر .
- ٧ - التكملة لوفيات النقلة - لابي محمد عبدالمعظم المنذري - تحقيق : بشار عواد معسوف - ط الاداب - النجف ١٩٦٨ - ١٩٧١ .
- ٨ - تهذيب ابن عساكر : لابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله - ط الشام ١٣٣٠هـ .
- ٩ - جهمرة المراجع البغدادية - لكوركيس عواد ، وعبد الحميد القملوجي - ط الرابطة - بغداد ١٩٦٢ .
- ١٠ - خلاصة الانر - لمحمد المحبي - ط الوهبيية - مصر ١٢٨٤هـ .
- ١١ - دائرة المعارف الاسلامية - لجماعة - القاهرة ١٩٢٣ .
- ١٢ - دليل خاوية بغداد - للدكتور مصطفى جواد ، والدكتور احمد سوسة - ط المجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٥٨ .
- ١٣ - ديوان ابن عني - تحقيق : خليل مردم - دمشق ١٩٤٦ .
- ١٤ - ديوان البحرري - ط ١ - الجوانب - القسطنطينية ١٣٠٠هـ .
- ١٥ - ديوان حيص بيص - تحقيق : مكي السيد جاسم ، وشاكر هادي شكر - مطبوعات وزارة الاعلام (الثقافة والفنون) بغداد ١٩٧٤ .

- ١٦ - ديوان علي بن الجهم - تحقيق : خليل مردم - مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .
- ١٧ - شرح ديوان المتنبي - لعبد الرحمن البرغوثي - ط ٢ - الاستقامة - القاهرة ١٩٢٨ .
- ١٨ - شعراء بغداد - للشيخ علي الخاقاني - ط اسعد بغداد ١٩٦٢ .
- ١٩ - طبقات الشافعية الكبرى - لشيخ الدين السبكي - تحقيق : محمود الطناحي ، ومبد القناح الحلو - ط ١ - عيسى الياحي الحلبي - القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢٠ - العبر في خبر من غير - للحافظ الذهبي - تحقيق : فؤاد سيد - ط الكويت ١٩٦١ .
- ٢١ - العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب - للشيخ ناصيف البارجي - ط الادبية - بيروت ١٣٠٥هـ .
- ٢٢ - قصص العرب - لمحمد احمد جاد المولي وجماعة - ط ٣ - دار احياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٦ .
- ٢٣ - كشف الظنون - لحاجي خليفة - النسخة المصورة التي نشرتها المكتبة الاسلامية بطهران ١٩٦٧ .
- ٢٤ - مجلة لغة العرب - للاب انستاس ماري الكرمل - السنة ٢ ، ج ٧ ، ص ٢٣٨ مقال : رزوق عيسى .
- ٢٥ - محيط المحيط : لبطرس البستاني - النسخة المصورة - بيروت ١٨٧٠ .
- ٢٦ - مختصر التاريخ : لطهير الدين البغدادي المعروف بـ ابن الكاذروني - تحقيق : الدكتور مصطفى جواد - ط الحكومة - بغداد ١٩٧٠ .
- ٢٧ - مرآة الجنان : لعبد الله الياضي - الطبعة المصورة - منشورات مؤسسة الاعلمي - بيروت ١٩٧٠ .
- ٢٨ - معاهد التنصيص : لعبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي - ط البهية - القاهرة ١٣٠٤هـ .
- ٢٩ - معجم البلدان : لياقوت الحموي - ط دار صادر - بيروت ١٩٥٧ .
- ٣٠ - معجم الشعراء : لمحمد بن عمران المرزباني - تحقيق : عبد الستار احمد فراج - دار احياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٣١ - معجم المؤلفين العراقيين : لكوركيس عواد - ط الارشاد - بغداد ١٩٦٩ .
- ٣٢ - المنتظم : لابن الجوزي - ط دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٥٧هـ .
- ٣٣ - منهل الارلياء - لمحمد امين العمري - تحقيق : سميد الدبوهجي - ط الجمهورية - الموصل ١٩٦٧ .
- ٣٤ - النجوم الزاهرة - لابن تغري بردي - الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب القاهرة .
- ٣٥ - نكت الهميان في نكت العميان - لصلاح الدين خليل الصفدي - تحقيق : احمد زكي - القاهرة ١٩٦١ .
- ٣٦ - هدية الصارفين - لاسماعيل باشا البغدادي - الطبعة المصورة - طهران ١٩٦٧ .
- ٣٧ - وادي الفرات - للدكتور احمد سوسة - ج ١ ط الحكومة - بغداد ١٩٤٤ ، ج ٢ ط المعارف - بغداد ١٩٤٥ .
- ٣٨ - الوافي بالوفيات : لصلاح الدين خليل الصفدي ، ج ١ ط ٢ باعتناء هلموت ريش ١٩٦٢ .
- ٣٩ - وفيات الاعيان - لابن خلكان - تحقيق : الدكتور احسان عباس دار الثقافة - بيروت .

أقدم وثيقة عثمانية عن بغداد

تعريب وتعليق وتحشية :

عطاء ترزي باشي

تركوك - محافظة التاميم - الجمهورية العراقية

كثير من المعلومات التي اوردها المؤرخون في مؤلفاتهم الحديثة (٢) .

ان هذه الوثيقة تلقي الضوء على الحياة الاجتماعية والسياسية في العراق ، ليس في العهد العثماني فحسب ، وانما في عهود دولتي الـ (آق قويونلي) و (الصفويين) ايضا . وقد عثر عليها ناشرها في مكتبة بايزيد العامة (٣) باستانبول فنشرها ضمن مجموعة كبيرة من الوثائق المماثلة والخاصة بسائر انحاء الامبراطورية . وقد قدم تلك المجموعة بدراسة عامة مسهبة عن ماهية وتاريخ هذا النوع من الوثائق . الا ان الوثيقة المتعلقة بالعراق منها لم تحظ بعناية الناشر ، فجاءت خالية عن اي تعليق يذكر . ومهما يكن من شيء فان الفضل في هذا الشأن يعود له لعرضه اياها لأول مرة في عالم النشر .

ويرجع تاريخ هذه الوثيقة الى سنة ٩٤٣ هـ . وهي صادرة من السلطان سليمان القانوني الى والي ولاية بغداد وقاضيهما . وهي تعد اقدم وثيقة عثمانية معروفة لدينا عن العراق ، وان كان قد ورد في صلبها اشارة الى وثيقة اخرى من نوعها صادرة من نفس السلطان بعد استيلائه على بغداد مباشرة في سنة ٩٤١ هـ . ولكننا نجهل نصها .

واما الوثيقة التي نحن بصدد موضوعها فهي مؤرخة في ٤ رمضان ٩٤٣ هـ . وبذلك يكون هذا التاريخ موافقا لتاريخ ١٤ شباط ١٥٣٧ الميلادي حسب ما ذكره ناشر الوثيقة ، و ١٩ شباط ١٥٣٧ وفق

ان الوثائق التاريخية المتعلقة بالعراق في ايام العهد العثماني والموجودة حاليا في مكتبات استانبول وفي ارشيف المستندات الخطية هناك تشكل عددا هائلا لا يستهان به ، ومن المؤسف ان الباحثين لم يبدلوا جهدا يذكر في تدقيق هذه الوثائق وترجمتها الى اللغة العربية للافادة منها في قفطونا . ويعود السبب في ذلك الى العناية والمشاق التي يتحملها الباحث في الكشف عن تلك الوثائق وتحقيق محتوياتها وترجمتها بشكل علمي صحيح ، فان الامر يتطلب جهدا متواصلا في البحث والتحري وعناء كبيرا في قراءة النصوص قراءة سليمة اذ هي مكتوبة على الاغلب بخط ديواني معقد او بما يشابهه من خط عربي قديم تصعب على الشخص العادي قراءته ، بالإضافة الى صعوبة فهم لغتها التركية الممنقة المليئة بالكلمات الفارسية والعربية المولدة ، وبالمصطلحات التاريخية المستعملة في ذلك العهد .

ولذا فان عدد ما نشر من هذه الوثائق لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة . . ومن ضمن هذه المنشورات اطلعت على اقدم وثيقة وصلتنا حتى اليوم وتهم تاريخ العراق في العهد العثماني . هي تلك التي نشرها السيد خليل اينالجي في مجلة « بلكه لر » (١) التي يصدرها مجمع التاريخ التركي بأنقرا . وهي وثيقة ذات قيمة تاريخية كبرى تهم الباحثين والمؤرخين في العراق لاحتوائها على معلومات جديدة وطريفة عن التاريخ الضرابي والمالي في العراق خلال حقبة من الزمن . وهي توجب تصحيح

(٢) ولا سيما ما ورد في كتاب « تاريخ المراتب العراقية » للمرحوم عباس الغزالي ، المطبوع في سنة ١٩٥٨ .
(٣) خزنة ولي الدين الفندي ، الرقم ١٩٧ .

(١) بعدديها الرقمين ٣ و ٤ من المجلد الثاني الصادر في عام ١٩٦٥ .

ما ينطق به « دليل تحويل التواريخ الهجرية الى الميلادية » (٤) .

ويستبان من فحوى الوثيقة انها تسمى بـ « امر » و « حكم » . فهي قرار بمثابة قانون . وتسمى بـ (عدالتيامة) أي كتاب العدل لانها تتضمن الامر برفع الحيف الذي يلحق بالمواطنين من جراء فرض ضرائب ورسوم باهظة عليهم . . .

وتتميز هذه الاوامر السلطانية عن (الفرامين) و (البراءات) بكونها لمصلحة الشعب وليس لمصلحة فرد أو اشخاص معينين . فلا يرد فيها ذكر لاسم الشخص الثالث أو للمصلحة المقررة له كما هو الحال في الفرامين والبراءات التي تصدر باسماء اصحابها ، وتتضمن ماهية المصلحة المخصصة لهم كما في تعيين زيد بوظيفة معينة أو كمنح مقاطعة لعمره . . . وبذلك يمكن عد الاوامر السلطانية بمثابة قوانين تشرع لمصلحة المواطنين كافة أو لمصلحة فئات تقطن بمنطقة معينة من البلاد كما هو الحال في الوثيقة موضوعة البحث حيث ان احكامها تسري على سكان ولاية بغداد التي كانت تشمل آنذاك على كل ارجاء العراق تقريبا . ويتحتم على المسؤولين في المنطقة المشمولة باحكامها . وهم كل من والي الولاية وقاضيا ورؤساء الوحدات الادارية الاخرى التابعة لها في ذلك العهد وقضاتها ، تنفيذ محتوياتها فوراً . .

وبلاحظ من نص هذه الوثيقة ان السلطان يأمر والي والقاضي بوجوب الاعلان عنها في الاماكن العامة المكتظة بالجماهير ، وتفهم صيغتها وفحواها لهم . وكان المنادون يدعون الناس للتجمع في تلك المحلات للاصغاء الى اوامر السلطان التي يتلوها عليهم قاضي البلد علنا ويوضح لهم ما فيها من الاحكام .

وكان السلطان يتحقق عن صحة نشر الاعلان لاوامره وعن سير العمل في تنفيذها بوسائل عديدة منها التقاؤه بالناس عند تجسواله في الولايات أو اجتماعه بهم متنكرا في زي رجل معتاد . وكان يرسل بين حين وآخر اعدائه وجواسيسه خفية الى جميع انحاء الامبراطورية للفرص نفسه . كما ان هيئات التفتيش للدولة كان لها دور بارز في هذا الشأن . وبالإضافة الى كل ذلك ديوان خاص للمظالم ، ينظر في شكاوى المواطنين ضد المسؤولين من الولاة والقضاة وغيرهم . وكان السلطان يشرف

(٤) للاستاذ فايق رشيد اونات . والكتاب هو من منشورات مجمع التاريخ التركي بأنقرة وقد طبع في سنة ١٩٧٤ .

بنفسه على هذا الديوان ، وينزل العقوبات الصارمة بحق المقصرين من المسؤولين في تنفيذ اوامره .

ويقصد من اصدار هذه الاوامر تحقيق العدل بين المواطنين وتوفير الامن لهم . وكذلك الحيلولة دون استغلال المتنفذين والمسؤولين في الدولة مراكزهم الحساسة وسلطاتهم الواسعة في منافع واغراض شخصية .

ويتضح من مضمون هذه الوثيقة ان كاهل المواطنين كان قبل مجيء السلطان سليمان القانوني الى العراق مثقلا بعبء كبير من الضرائب والرسوم التي فرضتها عليهم حكومة الصفويين . فقد ألغى القانوني بهذا الامر اكثر من خمسة عشر لونا من الوان الضرائب والرسوم الباهظة التي كانت تستوفي من المكلفين عينا أو نقداً (٥) . . . وقد تقرر بموجب هذا الامر اعفاء جميع المكلفين ممن يشيدون ابنية حديثة على العرصات من الضريبة لمدة سنة كاملة وذلك تشجيعا للحركة العمرانية في البلاد كما جاء في اسبابه الموجبة . وهذا المبدأ الذي أحدثه القانوني قبل اكثر من اربعة قرون قد أقره المشرعون المعاصرون ايضا . فاخذ مكانه اللائق في القوانين الحديثة التي تنظم احكام الاجار .

ويفهم من فحوى الوثيقة التي نحن بصددنا ان السلطان سليمان القانوني كان ينظر الى اهل العراق نظرة حب ومودة . وهو يرجع سبب ذلك الى كونه قد انقذهم شخصا من ظلم الصفويين وان مؤسس دولتهم الشاه اسمعيل الخطائي (٦) كان شاعرا من الغلاة الباطنيين . وله ديوان شعر كبير متداول بين الناس ، وقد كتبه باللهجة التركمانية . . وكان القانوني بدوره شاعرا مجيدا وصاحب ديوان شعر باللغة التركية ، وكان الصراع المذهبي عنيفا بينهما . ولعل مرد ذلك هو التنافس على السلطة . . . وتنطق هذه الوثيقة عن قيام القانوني بالغاء جميع الضرائب والرسوم الاضافية التي كان الصفويون قد فرضوها على

(٥) يلاحظ ان هناك فرقا بين الرسم والضريبة هو ان الرسم يستوفي من الافراد كمقابل لما يبذله المستوفي من خدمة خاصة يقدمها لهم . في حين ان الضريبة تستوفي دون اداء خدمة خاصة وانما لتغطية بعض النفقات العامة للدولة . على ان تداخل المصالح المالية والادارية وتضاربها مع بعضها جعل تمييز الرسوم عن الضرائب أمرا صعبا في تلك العهود . ولكن الرسوم كانت لها الصلة الغالبة .

(٦) خطائي هو اللقب الشعري له .

العراقي ، وثبت ما كان مثلاً مقررًا في عهد الأتق
قونيلية .

ويتضح من اجراء الموازنة بين اصناف الضرائب
والرسوم ومقدارها المستوفى من المواطنين ان هناك
تفاوتا كبيرا بينها في العهدين العثماني والصفي .

وتكشف لنا هذه الوثيقة عن اسم قاض عينه
القانوني على قضاء ولاية بغداد وهو (قاضي زادة
شيخ محمد) . وربما كان وكيلًا للوالي ايضا
حيث لم يذكر اسم الوالي في تلك الوثيقة إضافة
لوظيفته . ولم يكن لنا علم بالقاضي المشار اليه قبل
اطلاعنا على هذه الوثيقة . وقد وهم المرحوم عباس
الغزاوي فيما ذكره من ان المولى مصلح الدين
مصطفى النيكساري كان اول قاض بغداد في العهد
العثماني . اذ كان حسب قول الغزاوي مدرس
مغنيسيا واعيد لقضايتها سنة ٩٤٧هـ (٧) . ونعتقد
ان القاضي الذي ورد ذكر اسمه في الوثيقة هو نفس
قاضي بغداد الذي مدحه الشاعر محمد فضولي
البغدادى (المتوفى سنة ٩٦٣هـ) في احدى قصائده
حيث سماه بـ (مير سيد محمد غازي) (٨) .

وهناك جوانب اخرى يمكن للباحثين الافادة
منها عند دراسة هذه الوثيقة التي ترجمناها الى
اللغة العربية . . ولقد راعيت في التعريب اسلوب
الترجمة الحرفية نصا ومعنى وذلك باستعمال
نفس الكلمات العربية الموجودة فيها اصلا ، وبترجمة
الكلمات والعبارات الاخرى بما يقابلها في العربية مع
المحافظة التامة على المعنى بحيث يشعر القارئ
العربي انه يطالع الاصل التركي للوثيقة . فيستفيد
منها كما يستفيد من النص الاصلي تماما . وما
اضفته من عندي الى الترجمة من الكلمات والعبارات
اكمالا للمعنى ، فقد وضعتها بين قوسين () لكي
لا تفقد الوثيقة قيمتها التاريخية . فاسلوب ترجمتنا
هو اقرب الى الاسلوب العلمي منه الى الاسلوب
الادبي .

واما اسلوب الوثيقة نفسها فهو اسلوب صعب
ولكنه واضح وجميل . فبالرغم من ان الجمل مرتبطة
ببعضها ارتباطا مسلسلا بحيث تتكون كل جملة من
عشرات الكلمات ، الا ان معناها مفهوم لنا باستثناء

(٧) الغزاوي ، القضاء في العراق في ايام العهد العثماني ،
مجلة « القضاء » التي تصدرها نقابة المحامين العراقيين
ببغداد ، العدد ٥ ، السنة ٩ ، تموز ١٩٥١ . وانظر
في كتابه « تاريخ العراق » ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ ، بغداد
١٩٤٩ .

(٨) ديوان فضولي المطبوع في الاستانة سنة ١٩٢٤ ، ص ٦٥
- ٦٧ منه .

موضعين ، نعتقد بسقوط بعض الحروف والكلمات
عنهما اثناء طبع الوثيقة ، وقد اشرنا الى ذلك في
الحاشية . وكانت الدقة العلمية تفرض علينا وجوب
مراجعة اصل المستند ، الا ان ذلك لم يتيسر لنا في
الوقت الحالي . . واما التكرار الذي نلاحظه في بعض
العبارات من النص المطبوع فان مرده الى التأكيد على
فحوى الموضوع وتذكير بالمعنى لطول العبارة الذي
اقتضاه اسلوب كتابة الوثيقة . ولقد اقيمت العبارات
او الجمل المكررة في الترجمة ايضا وذلك حرصا مني
على صون قيمة الوثيقة التاريخية .

x x x

وفيما يلي تقدم الترجمة الكاملة للوثيقة مع
الحواشي اللازمة :

« حكم (٩) (موجه) الى امير امراء (١٠) بغداد وقاضيهما:
لقد سبق صدور امر (١١) بوجوب مسك سجل
تدون فيه مجددا الاحوال التفصيلية لولاية بغداد دار
السلام المحمية . فقدم الينا [من بغداد] في الوقت
الحالي من هو فخر الاماجد والاكارم (الشيخ محمد
قاضي زادة) زيد مجده ، وحل في عتبة دارى العلية
العالية الشمول ، وتيمن بسدي السنية المباركة .
وعرض على مقامي المعزز والموفور بالحضور ،
المستوجب للسرور انه بمقتضى امرى الجليل القدر ،
قد مسك سجلا حرر فيه بالتفصيل شئون الولاية
المشار اليها ودون فيه القواعد والقوانين التي كانت
مقررة للرعايا (١٢) والبرايا (١٣) في السنين الماضية من
عهد السلاطين المعروفين بعدالة اجراءاتهم . ثم شرح
ما كان قد شرعه من بعدهم القزلباش (١٤) الاوباش (١٥)
من المظالم والبدع (١٦) . وبما ان تلك الولاية قد

- (٩) أى قرار بمثابة قانون .
(١٠) وفي النص المطبوع (بكثر بكي) ؛ وهو وال بدرجة وزير ،
وكان يتمتع بصلاحيات واسعة لا يمتلكها غيره من الولاة .
(١١) أى حكم أو قرار بمثابة قانون كما ذكرناه .
(١٢) الرعايا لغة جمع رعية بمعنى القوم ، واصطلاحا هم
المواطنون الخاضعون للرسم او القرية .
(١٣) البرايا لغة جمع برية بمعنى الخلق ، واصطلاحا : الناس
الفقراء الذين يشكلون سواد الشعب .
(١٤) طائفة معروفة من الفلاة .
(١٥) أى سفهاء الناس وأراذلهم .
(١٦) جمع بدعة بكسر الباء ، لفظة مولدة تعني الضلالة او
الباطل ، ولعلها محرفة من فعل بدع بمعنى افزع .
 واصطلاحا تطلق على التشريعات الجائرة .

فُتحتْها بحد سيفي الظافر ، المقرون بعلو عناية الله سبحانه وتعالى ، وظهور معجزة هدى سيد الكائنات عليه افضل الصلوات ، وبقدسية ارواح الخلفاء الراشدين العظام رضوان الله عليهم اجمعين ، فان رعية تلك الولاية يجب ان ينالوا وافر عطفسي واهتمامي وكامل شفقتي وعدلي . لذا فقد امرت ان تظل جميع العادات [اي الرسوم] المعروفة التي كانت سائدة في عهد المرحوم حسن باشا (١٧) غفرالله له [ذنوبه] ونور مرقده مرعية (في الوقت الحالي) والفيت كليا جميع المظالم والبدع التي احدثت في عهد القزلباش . فمئذ اليوم يجب ان لا يحصل أي ظلم او اعتداء على اهالي تلك الولاية او على احد افراد رعاياها وبراياها ، خلافا للشريعة الطاهرة وللقانون المرعي . ويجب السير وفق النسق الذي امرت به . وقد ارسلت هذا الامر الملزم [للمسؤولين] والواجب الاتباع [من قبلهم] وقضيت انه عند وصوله [اليك] ان شاء الله الاعز ، وهو (امر) مقبول في نطاق العالم وواجب الاتباع ، ان يقرأ بالتام علنا في جميع الممرات الواقعة في مدن الولاية وقصباتها والاماكن التي يجتمع فيها الناس . وان عليك ان تعلن [للملا] القوانين والقواعد المقررة [من قبلي] بعد انفاء البدع الحادثة ومنعها [من النفاذ] بصدر امرى العادل (هذا) فيطلع الرعية على [ماهية] التكاليف المفروضة عليهم . فيؤدون [رسوما وضرائب عن] حاصلاتهم بموجبها . وينبغي ان لا يتوقع احد [بعد اليوم] حصول اي اعتداء عليه او الظلم به من قبل شخص ما [من المسؤولين والمتنفذين] . ويجب عليك ان تتصف بالعدل المتواصل الذي يرضيني . وان تقوم بالاشراف على اموال الرعية والبرية بصورة دائمة . وان لا تسكت على استيفاء قرش (١٨) واحد من أي فرد يزيد على الحد المقرر في القانون القديم (١٩) . وعليك ان لا تضيع دقيقة واحدة [من وقتك] في

(١٧) هو (اوزون حسن) اي حسن الطويل ، سلطان الاق قويتلية الذي استولى على بغداد سنة ٨٧٤هـ (١٤٧٠م) ، وتوفي سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧ م) .
(١٨) ورد في النص (آقچه) . انظر الحاشية رقم ٢١ ادناه .
(١٩) ويقصد به قانون السلطان حسن الطويل .

ابداء المسامي الحميدة بشأن اعانة المظلومين ، وأهانة الظالمين . وعلى سبيل المثال (نقول) انه كانت تستوفى (من المواطنين) في الولاية المشار اليها ما يسمى ب (چهار ماهه) (٢٠) و (رسم استيفاء) وكانت تستوفى من المحصولات التي تبلغ قيمتها الفى آقچه (٢١) (مبلغ قدره) مائتان وثمانى عشرة آقچه بالاضافة الى مائة واربعين منا من الشعر . وكانت تستوفى من مجموع الحاصلات ثلاثة طغارات من كل مائة طغار من (التركية) (٢٢) تحت اسم (صديه) (٢٣) . وبما ان هذه التكاليف مظلمة وجور محض فانني الفيتها ايضا . وعليك منذ اليوم عدم افساح المجال لاستيفاء حبة واحدة مما يسمى بچهار ماهه ورسم استيفاء وصديه خلافا لأمري . ويجب عليك ان تعتبر هذه التكاليف ملفية ومرفوعة وان تزيل هذه الاسماء (او المصطلحات) عن تلك الولاية . . لقد كان في ايام عهد المرحوم حسن بك المشار اليه (اعلاه) يستوفى من اصحاب الجواميس اثنان و عشرون آقچه من كل شخص ، ولم يكن يستوفى اكثر من ذلك . الا انه في ايام القزلباش اخذوا يستوفون عشرين الف آقچه والفى من من الدهن باسم (ضريبة او رسم) (پيشكش) (٢٤) وبلاضافة الى ذلك صاروا يستوفون اثنى عشرين آقچه عن كل واس من الجاموس وما مقداره خمس آقچات باسم (ميرانه) (٢٥) فضلا عن استيفاء (عشر) عن هذا المبلغ . فقد الفيت هذه (الرسوم او الضرائب) ايضا . فعليك عدم افساح المجال لاستيفاء هذه البدع (اي الرسوم او الضرائب

(٢٠) لفظة فارسية مكونة من كلمة چهار بمعنى الاربعة وكلمة ماه بمعنى الشهر فيكون معنى اللفظة مع الهاء الملحقة بآخرها « الاربعة اشهرية » ان صحت التسمية . ولعلها كانت ضريبة تستوفى من الحاصلات الموسمية القصيرة المدة .

(٢١) آقچه ، لفظة تركية تعني السكة البيضاء وبالأحرى الفسادية للبياض . وهي تطلق على نقد ففى كان وزنه في عهد القاتوني ثلاث قراريط ونصف القيراط . وكان يسك آنذاك في بغداد أيضا بغير ٨٥ در. من الفضة . .

(٢٢) التركية اصطلاحات هي الغلال كالقمح والشعير .

(٢٣) لفظة محرفة حسب اعتقادنا من (صديق) الفارسية بمعنى الواحد بالمائة .

(٢٤) لفظة فارسية بمعنى الهدية او (بالمرغمة) العامة .

(٢٥) وتعني الامرية أى حصة الامر .

الجاترة (المسماة بـ (بشكش) و(ميوانه) و(عشر) . .
وهناك في نواحي مهروود (٢٦) وطريق خراسان (٢٧)
والخالص مهنة « السكارية » ، وان النصف (من
الناتج) خاص والنصف الآخر يعطى الى من يقوم
بعمل السكر . عليك ان تثبت هذا الخصوص بحسب
العادة القديمة وذلك بتخصيصه الى القائم بالعمل المذكور
عن طريق (التيمار) (٢٨) . فيكون القائم والمشراف
على العمل متصرفا وفق العرف المعتاد قديما . .
وهناك في كل قرية (كارخ) (٢٩) يقوم منذ قديم الايام
بزراعة ارض بمقدار طغار واحد يتصرف بالحاصل
لنفسه . واما اليوم فان الكارخين قد تركوا زراعة
الارض واخذوا يستوفون من رعايا كل قرية ستة
طغارات من المحصول ظلما . لقد رفعت هذه المظلمة
فيمنع الكارخون منذ اليوم عن استيفاء اي شيء من
الرعية . ولهم ان يزرعوا حسب العادة القديمة
ارضا تخصص لهم من قبل (الامارة) (بمساحة
تكفي للزراعة) بمقدار طغار واحد لكل كارخ ،
فيتصرف بمحصولها لنفسه .

وعليهم (اي على الكارخين) ان يمارسوا عملهم
دون استيفاء اي شيء من الرعية . . و (علمنا)
ان القائمين على (شؤون) الحصاد يستوفون
كميات من الفلال باسم (عليق) (٣٠)
و (زكار دسته) (٣١) فأنني ألغيت ذلك

(٢٦) ورد هذا الاسم الجغرافي في النص المطبوع على شكل
(مهزود) . وورد في الكتب القديمة على صورة (مهروود) ،
وفي التاريخ الفيني على شكل (مهروود) . ويسمى في
الوقت الحالي (مهروت) . ويطلق على منطقة تشكل مع
خراسان والخالص صدور جداول دبالى حيث يسمى
الجدول الذي يمر من مهروت بثلى الاسم .

(٢٧) طريق خراسان هي محافظة دبالى الحالية باستثناء
الخالص ومهروت حيث انهما كانتا ناحيتين مستقلتين .

(٢٨) التيمار هي الارض الاميرية التي كانت تمنع من قبيل
السلطان الى رؤساء الخيالة وكبار موظفي الدولة كحصاة
من بيت المال لقاء مشاركتهم في الحروب والفتوحات
باسلحتهم ومعداتهم الخاصة لهم .

(٢٩) هو القائم بعملية توزيع المياه على البساتين .

(٣٠) أي الشمر وتحده مما تملكه الدابة .

(٣١) لفظة فارسية تكون من اداة (ز) بمعنى من وكلمة
(كار) بمعنى العمل وكلمة (دسته) بمعنى الباقية
او الحزمة . وبذلك يكون معنى اللفظة الظاهري
« من عمل الباقية » .

أيضا . عليك ان لا تسمح (لاحد) باستيفاء ما ذكر
(من الضريبة او الرسوم من المواطنين) . . و (علمنا)
انه تستوفى من اصحاب الاغنام شاة واحدة من كل
ثلاثمائة شاة باسم (چوبان بكي) (٢٢) وان
المباشرين (٢٣) لهذا العمل يستوفون ثلاث آقچات من
كل قطيع ظلما ، ومن كل ثلاثمائة غنم ما يسمى بـ
(كرو) (٢٤) وبعد استيفاء هذه الرؤوس الستة (٢٥) فان
المباشرين يأخذون شاة اخرى . وان الكاتب
والمحصل (٢٦) يأخذان غصبا من كل عشرة بغلا
وشركا (٢٧) . لقد الفيت (كل هذه الرسوم اي)
رسم چوبان بكي ورسم كرو والعشر آقچات
الاضافية من چوبان بكي ورسم الغنم من كرو
والبغل وشرك للكاتب والمحصل . فعليك ان لا تدع
مجالا لاحد في استيفائها بعد اليوم . . وان نا (٢٨)
التواجدات في مركز بغداد المحمية (٢٩) بداخل
السور ، وفي الجانب الغربي من الجدول (اي
الساقية) ، وفي مركز الحلة كانت معفاة (من
الرسوم) ، فلم يكن يستوفى منها شيء . فأنني
بكامل شفقتي وعظفي (على اهالي محافظة بغداد)
أمرت بان يكون الاعفاء المذكور ساري المفعول
(في عهدي ايضا) . فعليك ان لا تسمح لاحد
باستيفاء اي شيء (بهذا الشأن) . . وهناك في الولاية

(٣٢) لفظة تركية تتكون من كلمتين هما (چوبان) بمعنى
الراعي و (بك) بمعنى الأمير ، والياء المحقة بأخر
كلمة بك هي للاضافة . فيكون معنى اللفظة اللغوي
« أمير الراعي » .

(٣٣) ورد في نص الوثيقة لفظ (وارنار) ومعناه الواصلون
اي المباشررون المستوفون للضرائب والرسوم .

(٣٤) وردت هذه اللفظة بكسر الكاف وفتح الراء وسكون الواو،
ولعلها (كره) المحرفة من (الكراء) العربية بمعنى
أجرة الدابة .

(٣٥) يبدو أن هناك عبارة ساقطة أثناء الطبع ، او أن (كرو)
الأنف الذكر هو مصطلح مالي يطلق على ضريبة عينية
مقدارها ستة رؤس من الاغنام تستوفى من المكلفين .

(٣٦) المحصل هو الموظف المكلف بجباية اموال الدولة .

(٣٧) لم أشر في المعجمات التركية على كلمة شرك وهي بالكاف
التونية ، ولعلها محرفة من (ششك) بمعنى الجذع
من الغنم .

(٣٨) لم أفهم معناها ، ولعلها صدر للفظ (ناعور) وقد
سقط عجزها أثناء الطبع .

(٣٩) أي المحفوظة من الافات والمصائب .

يدخلون البيوت ويعتدون على أهلها ويأخذون منهم غصبا وظلما العلف والمأكولات والدجاج والاعناب والخرفان باسم (آفجه سوز) (٤٢)، وأن المواطنين متسجرون من هذا العمل تماما . فعليك أن لا تسمح بعد اليوم (لاحت) بالاعتداء على أهل أحد وعياله وأرغامهم على دفع أي شيء من قبيل آفجه سوز .. و (علمنا) أنه تفتصب مزارع النخيل والبساتين من بعض الأشخاص كرها ، ويعتدى عليها بزراعتها بالمحصولات . عليك أن تمنع هذا العمل أيضا .. ويجب أن تكون على علم من أن جميع المظالم والمخاوف التي حلت بالولاية المشار إليها في عهد القزلباش الأوباش قد أزيلت (بهذا الأمر) .. وفي ضوء ذلك يجب أن تكون مجدا وساعيا مقداما ومهتما بخصوص طمأنينة (أهل) الولاية ورفاهية المواطنين وأمنهم وراحتهم واستقرار أمورهم ..

في ٤ ن سنة ٩٤٣ (٤٢) بمقام أدرنه « .

(٤٢) تكون هذه اللفظة من آفجه التركية بمعنى النقد وسوز الفارسية بمعنى الحارق ، فيكون معنى اللفظة الحرق هو حارق النقد أي مبلره .
(٤٣) يلاحظ أن حرف النون في التقويم الهجري رمز لشهر رمضان .

المشار إليها (بغداد) من يمتلك حق (المالكاته) (٤٠) فقررت لهم ذلك . فإنهم يستمرون على تصرفهم القديم بالشكل المتعارف عليه . ويجب أن لا يعارضهم أحد في ذلك خلافا للشرع الشريف والقانون ما دام هذا الحق مخصصا لهم منذ قديم الزمان .. وأن هناك في الولاية المشار إليها عرصات خالية ، وأن أشخاصا يأتون من الخارج (أي من خارج المدينة) ويرغبون في عمارتها ، فأنني أمرت بأن لا يدفع هؤلاء أي شيء (من الضرائب) لمدة سنة واحدة . وبعد ذلك يستوفى منهم خمس مجرد (٤١) فعليك السير على هذا النوال وأعفاء من يعمر الخربات (من الضريبة) وعدم استيفاء أي شيء منهم لمدة سنة واحدة . وبعد ذلك يستوفى منهم خمس مجرد فقط دون مطالبتهم بآية زيادة . وذلك لكي تعمر الخربات وتزدهر في أيام دولتي .. و (علمنا) أنه في بغداد المحمية والأماكن الأخرى التابعة لها (أن بعض الأشخاص من المتنفذين /

(٤٠) المالكاته هي الأراضي أو المزارع التي كانت تمنح للعسكريين والمدنيين ممن يسدون خدمة للدولة ، وكان لهم حق استقلالها والتصرف بها تصرف المالك المطلق على قيد الحياة .

(٤١) خمس مجرد ، لفظة مولدة ، والظاهر أنها ضرب من تعادل خمس الضريبة التي يسدها غير المتزوجين للدولة .

فصول من كتاب نيل المراد في أحوال العراق وبغداد

تأليف

عباس بن جواد بن رجب البغدادي

تحقيق

عبد الحسين مجيد

متوسطة حي الحسين - كربلاء
الجمهورية العراقية



أما ترجمة المؤلف فلم اعثر عليها في المراجع الحديثة لذا اعتمدت على ماكتبه عباس العزاوي في صدر مخطوطة الكتاب التي كانت بحوزته وهي مختصرة جدا لم تزد على ايراد اسمه واسم ابيه وجده وثقه أما سنة وفاته فلم اعثر عليها .

للبيدادي مؤلفات وآثار غير هذا الكتاب هي :

١ - الروض النضر في اسماء السادة اهل بدر . قصيدة طويلة نظمها وضمنها اسماء اهل بدر ، انتهى من نظمها في شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٣ هـ . تقع في ٦٨ بيتاً وفي ثنايا هذه المنظومة تعرض الى حال الناس في عصره وما هم عليه من بؤس وشقاء وكذلك رجع الى الوراء الى ايام بني العباس كيف كان حال العراق وبغداد وساكنيه وابدى تدمره وشكواه من اوضاع بغداد ايام زمانه .

مطلع القصيدة :

اقول بعد البدء بسم الله

حمداً لمن جل عن الاشياء

وفيها يقول :

فكيف كانت اولاً ببغداد

وما الذي كان بها يراد

من الآثار المخطوطة المؤلفة عن بغداد في العصر الحديث كتاب نيل المراد في أحوال العراق وبغداد للسيد عباس بن جواد بن رجب بن عبدالله البغدادي انتهى من تأليفه في الخامس من شهر شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة والى للهجرة .

عثرنا على نسختين مخطوطين من الكتاب . الاولى في خزانة المتحف العراقي ببغداد تحمل الرقم ٩٠٩٣ وهي ضمن المخطوطات التي ابتاعها المتحف من وثيقة عباس العزاوي .

تقع هذه النسخة في ٥٠٥ ص مكتوبة بخط جميل جدا ومعنونة بالحمري ، كتبها : عبدالرزاق الملا محمد الحاج فليح البغدادي في ٦ محرم ، ١٣٥٥ هـ .

أما النسخة الثانية فهي نسخة الباحث الاستاذ كوركيس عواد والتي هي اليوم ضمن مخطوطات مكتبة الدراسات العليا في كلية الاداب ببغداد تحمل رقم (٩٥) وهي بخط المؤلف وتقع في ٣٣٥ صفحة تمت كتابتها في ٥ شعبان ١٣٣٣ هـ وقد اشار اليها الاستاذان عبدالحميد العلوجي وكوركيس عواد في كتابهما : جمهرة المراجع البغدادية ص ٢٣٥ .

وقد اعتمدنا في استخراج هذه الفصول على هاتين النسختين .

كانت عروس الملك في الاقطار
مصونة عن وصمة الاكدار

آخرها :

نجزت والله الحمد في شهر ربيع الآخر من عام
ثلاث وثلاثين وثلثمائة .

٢ - مجموعة شعرية تحوي بعض القصائد ،
والمقطوعات .

ونيل المراد يبدأ اوله : بعد البسمة والحمد .
أما بعد : فهذه نبذة يسيرة تتعلق بذكر أحوال العراق
من القرى والبلاد سيما عن قلاذته بغداد فقد صرفت
أكثر البحث إليها لأبين ما جرى عليها من الحوادث
والعواصف ... أما آخره : وهذا مائسر للضعيف
جمعه على حسب الطاقة والامكان وتعاقب
مصائب هذا الزمان واستحالة الحال وتشويش
البال فالمرجو ممن وصل هذا المختصر اليه ووقع
شريف نظره عليه أن يصفح عما فيه من الخطأ

والنسيان وأنا لم آل جهداً في صحة التبيان فإن
مقام العصمة عظيم لم يثبت لغير القرآن
الكريم ... الخ .

أما فصوله ومحتوياته فالقسم الأول منه
يبدأ بدراسة المدن والقصبات العراقية دراسة
واقية تنسم بالطابع التاريخي العام ، أما القسم
الثاني من الكتاب ففيه ذكر بغداد قبل المتغلبين
واسمائها ، محلاتها ، مقابرها ، أنهارها ،
حدائقها ، قصورها ، نباتاتها وزهارها . ومقالة
لما جرى على بغداد من المحسن والمصائب والفتن
حيث يترجم لخلفاء بني العباس . وبعدها يتعرض
لمساجد بغداد الحالية ومشاهدها ومدارسها
الحديثة والفتن التي حدثت في عصره . أما ما
اخترته من موضوعات الكتاب فهي :

اسماء بغداد وما قيل فيها ، متنزهات وقصور
بغداد ، جوامعها ، محلاتها ، جسورها ، مدارسها
بساتينها ، بغداد الحديثة ، اخلاق أهلها .



« ذكر ما قيل في أسماء بغداد وأوصافها »^(١)

ومن اسمائها الزوراء قيل لا زوراء قبلتها أي لانحرافها^(٢) ، وقيل لان المنصور لما بناها جعل ابوابها الداخلة مزورة أي منحرفة عن ابوابها الخارجة . وقيل لازورار دجلتها وفي الخبر قال علي بن أبي طالب (ع) : سمعت النبي (ص) يقول : تكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها ملك بني العباس وهي الزوراء يكون فيها حرب مقضعة تسبى فيها النساء وتذبح فيها الرجال كما يذبح الغنم .

ومن اسمائها : دار السلام^(٣) وفي سبب تسميتها بذلك قولان : الأول : السلام اسم لدجلة^(٤) ، والثاني انه يسلم فيها الخلفاء .

ويقال ان اسمها بك دار ، ومعنى بك بالتركية : الرب ودار : العادل . وقيل غير ذلك . وهي مدينة عظيمة تذكر وتؤث . وكانت من القرى القديمة اختارها ابو جعفر وبنى فيها مدينة فكانت ام الدنيا وسيدة البلاد ومدينة السلام^(٥) وقبة الاسلام حتى قيل : بغداد في البلاد كالاستاد في العباد^(٦) هواها ألطف من كل هواء وماؤها أعذب من كل ماء وتربتها أطيب من كل تربة . ومن أوصافها انها لم يمت فيها خليفة^(٧) ولذلك قيل فيها^(٨) :

قضى ربنا ان لا يموت خليفة بها انه ما شاء في خلقه يقضي
وقال آخر^(٩) :

طيب الهواء ببغداد يشوقني قريبا اليها وان عاقت مقادير^(١٠)
وكيف ارحل عنها اليوم اذ جمعت^(١١) طيب الهوائين ممدود ومقصود

- (١) ص ١٣٦ من مخطوطة الدراسات العليا ، ص ٢٠٧ من مخطوطة المتحف العراقي .
- (٢) الحموي ، معجم البلدان ٣ : ١٥٦ ، ١ : ٤٥٦ .
- (٣) نفس المصدر ٢ : ٤٢١ .
- (٤) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ١ : ٥٨ ، معجم البلدان ٥ : ٧٩ .
- (٥) البكري ، معجم ما استعجم ١ : ٢٦٢ .
- (٦) الصمري ، غاية المرام ١٧ .
- (٧) إلا الخليفة الامين فانه قتل في شارع باب الانبار وحمل رأسه الى طاهر بن الحسين وهو في معسكره (تاريخ بغداد ١ : ٦٨) .
- (٨) البيت من قصيدة لعمارة بن عقيل بن بلال الخطفي المتوفى ٢٣٩ هـ مطلعها :
اعاينت في طول من الارض او عرض كبغداد دارا انها جنة الارض
(ديوان عمارة ٩٧ ، تاريخ بغداد ١ : ٦٨ وفيها ينسب هذه الابيات لمنصور النمري) .
- (٩) البيتان في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ رواهما علي بن محمد بن حبيب الشافعي البصري المعروف بـ الماوردي صاحب الاحكام السلطانية رواهما عن اخيه الذي كان بالبصرة وهو ببغداد . وذكرهما ياقوت ، معجم البلدان ١ : ٤٦٣ .
- (١٠) الشطر الثاني في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ قدما اليها وان عاقت معاذير .
- (١١) الشطر الاول في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ فكيف صبري عنها الآن إذ جمعت .

وقال انقاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالكي (١٢) :

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني السلام المضاعف (١٣)
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليّ برحبها (١٤) ولم تكن الاقدار (١٥) فيها تساعف
وكانت كخل كنت اهوى دنوه واخلاقه تنأى به وتخائف
والطف من ذلك قول ابن الرومي (١٦) :

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تشل في الضمير رأيت وعليه اغصان الشباب تמיד

ولبعضهم وقد اجاد :

أها على بغدادها وعراقها وضبائها والسر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه تبدو أهنتها على أطواقها
متبخرات في النعيم كأنما خلق الهوى العذري من اخلاقها
نفس الفداء لها فاي محاسن في الدهر تشرق من سنا اشراقها
والطف من ذلك قول القاضي أبي الحسن علي بن النيه من قصيدة :

أنست بالعراق بذر أميرا فضوت غيما وخاضت هجيرا
واستظابت ريا سائم بغداد فكانت لولا البرا أن تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضاً لم يزل ناظراً وماءً نسير
واجتنت منه ريا المحلول نورا واجتلت من مطالع التاج نورا

وقال آخر :

لهفي على بغداد من بلدة كانت من الاسقام لي جنة
كأنني عند فراقها لها آدم لما فارق الجنة

(١٢) ترجمته في وفيات الاعيان ٣ : ٢١٩ - ٢٢٨ وفيه توفي ٤٢٢ هـ ، والابيات في ص ٢٢٠ منه ، ومعجم البلدان ١ : ٤٦٢ .

(١٣) في وفيات الاعيان ٣ : ٢٢٠ سلام مضاعف .

(١٤) نفس المصدر السابق : بأسرها .

(١٥) نفس المصدر السابق : الارزاق .

(١٦) الابيات في ديوان ابن الرومي ٢ : ٧٦٦ والبيتان فيه :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست فيه العيش وهو جديد
فاذا تمثّل في الضمير رأيت وعليه افنان الشباب تמיד

وقال ابو العلاء المعري^(١٧) :

بث الزمان حبالى من جبالكم أعزز عليّ بكون الوصل مبنوتا
ذم الوليد ولم اذمم جواركم فقال ما انصفت ببغداد حوشيتا

والزوراء^(١٨) من اسماء الجانب الشرقي خاصة بخلاف بغداد فانه اسم للجانبين وقد ذكروا ان المنصور أنفق على بنائها أربعة آلاف دينار^(١٩) ونقل ابواب مدينة واسط^(٢٠) وجعلها عليها وجعل عليها سوراً محكماً عظيماً ابتداءً من الدجلة وابتهاؤه الى الدجلة وهو محيط بها كشبه الهلال وهذه المدينة التي في الجانب الغربي فصارت كما قيل في وصفها بلدة تكل عن حسن وصفها الالسن كأنها الفردوس فيها ما تشتهيهِ الانفس وتلذذ الاعين ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء لم تزل معرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة القرشية والجانب الغربي منها هو الذي عمر أولاً . وفيل لرجل كيف رأيت بغداد ؟ فقال : الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها^(٢١) . وقال : ابن جبير^(٢٢) في وصف دجلتها التي بين شرقيها وغربيها هي كالمرآة المجلاة بين صفحتين^(٢٣) ، والعقد المنظم بلبتين فهي تردها فلا تظماً وتطلع في مرآة صقيلة فلا تصدأ والهواء المنتظم يتولد بين هوائها ومائها فهي معروفة بفتن الهوى إلا ان يعصم الله منها . وقال وكنا نسمع ان هواء بغداد ينبت السرور في النفس ويبعث دائماً على الانبساط والانس فلا نكاد نجد فيها إلا جذلان طربا وان كان نازح الديار مغترباً حتى حلت بقرية وزيران وهي على مرحلة منها فلما تفحصنا نوافح هوائها ونفحصنا العلة ببرد مائها احسنا من انفسنا بالرغم على وحشة الانفراد دواعي من الاطراب واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالاياب وهتفت بنا محركات من الانس ذكرتنا معاهد الاحباب في عصر الشباب وهذا للغريب النازح الوطن فكيف الوافد فيها على اهل وسكن :

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورد الى الاوطان كل غريب^(٢٤)

وقال الخطيب البغدادي^(٢٥) : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلاله قدرها وفخامة

(١٧) شروح سقط الزند - القسم الرابع ١٦٠١ .

(١٨) ص ١٣٨ من مخطوطة الدراسات العليا .

(١٩) في تاريخ بغداد (١ : ٦٩) أربعة آلاف وثمانمائة وثمانين درهماً ، وفي معجم البلدان (١ : ٤٥٩) انه أنفق عليها ثمانية عشر ألفاً دينار .

(٢٠) تاريخ بغداد ١ : ٧٥ .

(٢١) تاريخ بغداد ١ : ٤٥ ، بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٤٢ .

(٢٢) هو ابو الحسين محمد بن احمد بن جبير الاندلسي المتوفى ٦١٤ هـ (رحلة ابن جبير ص ١١) .

(٢٣) رحلة ابن جبير ٢١٨ .

(٢٤) باب الطاق محلة كبيرة ببغداد في الجانب الشرقي تعرف بطاق اسماء (معجم البلدان ١ : ٣٠٨) .

(٢٥) تاريخ بغداد ١ : ١١٧ - ١١٩ .

أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطوارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها^(٢٦) ومجالها وأسواقها وأشكالها^(٢٧) وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها^(٢٨) وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد انزالها وأفنائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من سكانها » .

وقال أيضاً : « كان ذرع بغداد الجانبين ثلاثة وخمسين ألف جريب وسبعمائة والغربي سبعة وعشرين ألف جريب والقرى تسعة آلاف وثلاثمائة جريب^(٢٩) » .

قال^(٣٠) وعدد الحمامات في بغداد ستون ألف حمام^(٣١) وقيل غير ذلك ثم قال : وأقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقا فيكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل وذكر بعضهم أن بازاء كل حمام خمسة مساجد وعلى ذلك فهي ثلاثمائة ألف مسجد وعلى الأقل أن يكون بكل مسجد من الموظفين خمسة نفر فيبلغ عددهم في الحمامات والمساجد ألف ألف وخمسمائة ألف رجل . قلت : فإذا كان فعلة الحمامات والمساجد بهذا عددهم فالساكنون لا يحيط بهم إلا الذي احصاهم عدداً .

جسورها^(٣٢) :

ويقال لما بنى المنصور قصره عقد الجسر على باب الشعير^(٣٣) ثم عقد بباب البستان ثلاثة جسور^(٣٤) وعقد الرشيد جسرين وكان لابن جعفر جسر عند مربعة فكانت الجسور بها سبعة ما عدا القنطرات التي على سائر الأنهر وأن قصور الخلفاء ودورهم كانت بشرقي الرصافة كما تقدم وأظهر بقاع القصور الخطة التي فيها مشهد السيد السلطان علي ويؤيد ذلك أن مربع أبي جعفر المنصور كان هناك وإلى اليوم تعرف تلك الخطة بالمربعة تفرعاً على اسم القصر المذكور ومن

(٢٦) في تاريخ بغداد ١ : ١١٩ (وشعوبها) .

(٢٧) نفس المصدر السابق (وسككها) .

(٢٨) نفس المصدر السابق (وطرزها) .

(٢٩) في هذه الأرقام التي أوردها المؤلف اختلاف بين المؤرخين ، فإذا رجعنا إلى تاريخ بغداد ١ : ١١٧ وجدناه يقول : « أن ذرع بغداد الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً ، منها الجانب الشرقي ستة وعشرون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً ، والغربي سبعة وعشرون ألف جريب » . وحتى في هذا اختلف المؤرخون (التفاصيل في المصدر السابق ١ : ١١٧) .

(٣٠) ص ١٤٠ من نسخة الدراسات العليا .

(٣١) وهناك اختلاف في تحديد عدد الحمامات (الحافظ الذهبي ؛ تاريخ الإسلام ٦ : ٢١ ، تاريخ بغداد ١ : ١١٨) .

(٣٢) ص ١٥٤ من نسخة الدراسات العليا .

(٣٣) باب الشعير محلة ببغداد فوق مدينة المنصور قالوا كانت تراف إليها سفن الموصل والبصرة ، والمحلة التي ببغداد المعروفة بباب الشعير هي بعيدة عن دجلة (تاريخ بغداد ١ : ١١٥ ، دليل خارطة بغداد ٩٢) .

(٣٤) تاريخ بغداد ١ : ١١٦ .

المعلوم ان قصور الخلفاء كانت متصلة بقصور البرامكة كما في كتب التاريخ وذكر بعضهم ان ارض بغداد كانت قبل ان تحتل بحمل الاسلام متنزهاً لملوك بابل لاعتدال هوائها وعذوبة مائها وكثرة بساتينها وحيطانها وبعد انقراض البابليين اتخذها ملوك فارس متنزهاً وقد اعطاها احد ملوك الفرس لبعض المرازبة ، وفي زمن الاكاسرة كان فيها أسواق كبار يقصدها التجار من الاقطار لكن قد بلغت الغاية القصوى والدرجة العليا في العمارة والحضارة والصناعة والتجارة في ايام الرشيد والمأمون حتى يقال أن خارجها كان من معامل القوارير أربعة آلاف معمل ومن معامل الفخار ثلاثون ألفاً ومن الجسور خمسة وخمسون جسراً وكان ريعها ونمو فواكهها وينعما من نهري دجلة والفرات .

محلات بغداد في عصر السلطان محمد رشاد خان العثماني (٣٥)

ولم تزل تأخذ بغداد بالترقي حتى طار صيتها في البلاد ، وربما فضلها بعض الناس على حالها يوم بني العباس ، فاتصل عمران جانبها الغربي من نحو الشريعة البيضاء الى قرارة ، وعمران جانبها الشرقي من موضع مشهد الامام احمد بن حنبل (٣٦) الى النهر المعروف بديالة وبلغت محلات الجانب الشرقي مما تحت السور فقط اربع عشرة محلة من ذلك : محلة حضرة الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، ومحلة الشيخ سراج الدين (٣٧) ، ومحلة جامع الخلفاء ، ومحلة المربعة ، ومحلة السبع ابكار ، ومحلة راس القرية ، ومحلة بني سعيد ، ومحلة المهديّة ، ومحلة قنبر علي ، ومحلة باب الاغا ، ومحلة الحيدر خانة ، ومحلة محمد الفضل (٣٨) ، ومحلة الميدان ، ومحلة جديد حسن باشا .

وهذه المحلات هنّ الامهات ويتشعب من كل منهن محلة أو محلتان حسب اصطلاح الوقت .

واما محلات الجانب الغربي مما تحت السور أيضاً فقد بلغت احدى عشرة محلة من ذلك محلة

(٣٥) ولد هذا السلطان في ٢٠ شوال ١٢٦١ هـ وهو ابن السلطان عبدالجيد جاء بعد خلع السلطان عبدالحميد الثاني في ٧ ربيع الثاني ١٣٢٧ ، توفي ١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ . تاريخ العراق بين احتلالين ١٧٦ .

(٣٦) توفي الامام احمد بن حنبل ٢٩٠ هـ - ٩٠٣ م ودفن في مقبرة باب التبن التي تقع في الشمال من مشهد الكاظمين إلا أن توغل نهر دجلة في الجانب الغربي من هذه المنطقة وفيضان المياه أدّى الى انهيار قبره في الماء وكان ذلك في حدود منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ولم يعد له اليوم أي اثر (دليل خارطة بغداد ١٠٢) .

(٣٧) نسبة الى الشيخ عمر بن علي بن عمر الحسيني القزويني ، جاء الى بغداد سنة ٧٠٠ هـ وتوفي سنة ٧٥٠ هـ (دليل خارطة بغداد ٢٣٧) .

(٣٨) هو محمد بن الفضل اسماعيل بن الامام الصادق وتنسب اليه المحلة الا ان هذه النسبة يطعن فيها حيث يقول الدكتور مصطفى جواد انه غياث الدين محمد بن الفضل وزير السلطان ابي سعيد بهادر خان أو الفضل الاسفرائيني المتوفى ٥٤٨ هـ . وهذه المحلة كانت تسمى باب ابرز (دليل خارطة بغداد ٢٣٨) .

الكريمات ، ومحلة باب السيف ، ومحلة علاوي الحلة ، ومحلة الشيخ بشار^(٣٩) ، ومحلة الشيخ صندل^(٤٠) ، ومحلة الفلاحات ، ومحلة المشاهدة ، ومحلة الست نفيسة ، ومحلة الشيخ علي ، ومحلة الدهدوانة ، ومحلة الجعيفر ، ويتشعب أيضاً من بعضهن محلة أو محلتان .

مساجد بغداد^(٤١) :

واما مساجد بغداد فقد بلغت عدداً كبيراً يؤدي ذكر جميعها الى السآمة فمن مساجد جانبها الشرقي : مسجد السيد سلمان افندي ابن السيد علي افندي النقيب^(٤٢) وهو بالجادة النافذة الى الباب الشرقي ويحتوي على سقاية طيبة الماء وان هذه العائلة تنتسب الى حضرة الشيخ عبدالقادر الجيلاني وبمقربة من المسجد المذكور مشهد الشيخ الزهري ، والعلامات ونقل الثقات يدلان على ان هذا المشهد كان من اكبر المساجد هدمه الفرق ايام داود باشا^(٤٣) ولم يعمر بعد وبمقربة منه المسجد المعروف بـ مسجد السادة^(٤٤) وهو وان كان صغيراً إلا انه مسجد قديم يجد المصلي فيه خشوعاً وعلى القرب منه المسجد المعروف بـ مسجد النعماني^(٤٥) له مئذنة وتقام فيه الجمعة ولم يبق منه الا الان إلا المئذنة لانه تهدم نتيجة الفرق وقريباً من المسجد المدفون فيه الشيخ العيدروسي^(٤٦) وكان رحمه الله من مشاهير العلماء واكابر المشايخ الصالحاء .

ومن المساجد أيضاً مسجد التسابيل^(٤٧) ، ومسجد راس الساقية ، ومسجد الشيخ الالفي^(٤٨) ، ومسجد آل الخضير وهو مسجد قديم كان قد اندثر فعمره الحاج عبدالرزاق

(٣٩) نسبة الى الشيخ علي بن محمد بشار المدفون هناك (دليل خارطة بغداد ٢٤٦ ، ٣٢٥) .
(٤٠) نسبة الى عماد الدين صندل بن عبدالله الحبشي المعروف بـ المقتفوي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٦) .

(٤١) صفحة ٤٦ من مخطوطة المتحف العراقي .

(٤٢) تاريخ بنائه ١٣١٢ هـ وتاريخه :

فعلى نهج الهدى قد ارخو (وعلى تقوى اقامت المسجدا)

وكانت وفاة المؤسس سنة ١٣١٥ هـ (تاريخ مساجد بغداد واثارها للالوسي ٨٠) .

(٤٣) تولى ولاية بغداد ١٢٣٢ هـ - ١٢٤١ هـ المصادف ١٨١٧ م - ١٨٢٦ م (دليل خارطة بغداد ١٨١) .

(٤٤) ويسمى مسجد السادات ويقع في محلة السنك (تاريخ مساجد بغداد ١٤١) .

(٤٥) جدده داود باشا سنة ١٢٣٩ هـ (تاريخ مساجد بغداد ٧٦) .

(٤٦) يقع في محلة راس الساقية على الشارع الذي يؤدي الى جامع الشيخ عبدالقادر الجيلاني أو الجيلاني وقد جدد سنة ١٣٢٤ هـ (تاريخ مساجد بغداد ١٤٢ ، دليل خارطة بغداد ٣٠٧) .

(٤٧) ويسمى مسجد التسابيل نسبة الى اقامة اهل دسبول فيه والصواب دسبول من اعمال ايران الجنوبية يقع في محلة باب الشيخ هدم ولم يبق له اثر (تاريخ مساجد بغداد ٧٨) .

(٤٨) هو محمد الالفي (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٤٩) يقع في محلة الصدرية ، عمره عبدالرزاق الخضير سنة ١٣٠٣ هـ ، كما ذكر في ابيات تاريخه :

ولما استتم بناؤه قد ارخسوا (اسست في ثغواك يوماً مسجداً)

توفي بانيه ١٣١٥ هـ (تاريخ مساجد بغداد ٧٨) .

الخضيري^(٤٩) ، ومسجد الحاج فتحي^(٥٠) ، ومسجد السيد سلطان علي^(٥١) وهو مسجد حافل معصور بالجمع والجماعات وله مدرستان مخصص عليهما مبلغ وافر لطعام الطعام .

وبمقربة من مسجد السيد سلطان علي المسجد المنسوب لآل الباجهجي^(٥٢) وهو مسجد معصور في الاوقات الخمسة وقريباً منه مسجد جمعة يعرف بـ جامع بنات الحسن^(٥٣) وفيه مشهد يزار وله مئذنة ويليه مسجد قديم جددته أحد التجار . ومسجد رأس القرية الشهير بـ جامع محمد امين وهو مسجد جمعة وفيه مدرسة ولها مدرّس^(٥٤) وقريباً منه المسجد الشهير بـ التكية الخالدية وهذا المسجد من المساجد المعلومّة المعمورة فيه رواج للجمعة والجماعات وزحام للمصلين في اوقات الصلاة وفيه مدرسة ومكتبة فيها الكتب النفيسة الثمينة^(٥٥) وقريباً من هذا المسجد مسجد عادلة خاتون^(٥٦) من بنات وزراء بغداد السابقين وهو جامع جمعة وفيه مدرسة ومئذنة .

ومن المساجد جامع الخلفاء^(٥٧) وشأن هذا الجامع عظيم في زمن بني العباس وكانت له مئذنة

- (٥٠) جددته الاوقاف عام ١٣٤١هـ (تاريخ مساجد بغداد ٥٦) .
- (٥١) هو علي بن الامام موسى الكاظم (ع) ، ويشكك الدكتور مصطفى جواد في نسبة الجامع المذكور الى هذا الرجل حيث يقول : (ونحن لم نجد في رجال العراق من تسمى بالسيد السلطان علي إلا السلطان علي بن محمد بن فلاح المشمشي المقتول سنة ٨٦١هـ ثم يستمر في السرد ويقول : اننا لم نجد فيما بين ابدنينا من التواريخ ان الشيخ علياً توفي ببغداد فانه قتل في وقعة بينه وبين اخيه احمد في بلاد ايران ولا يزال الاختلاف في تاريخ القبر قائماً ايضاً (دليل خارطة بغداد ٣٠٤ ، تاريخ العراقيين احتلالين ، ٢ : ١٧٣) .
- (٥٢) يقع هذا المسجد في محلة العمار يتصل من جهة شارع الرشيد بمحل المصور ارشاك والمسجد من اوقاف امينة خاتون بنت عبدالرحمن الباجهجي وقد شيد هذا المسجد نعمان جليبي الباجهجي سنة ١٢٣٦هـ (البغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٣٥) .
- (٥٣) يقع في محلة القاطر خانة وقد جدد من قبل الاوقاف سنة ١٢٨١هـ - ١٩٦٢م والآن مغلق (تاريخ مساجد بغداد الحديثة ٢٦٧) وهناك مسجد صغير في سوق الشورجة في الرزاق الذي يسبق سوق الصابون واليوم يقع خلف السوق العباسي الجديد يعرف بجامع بنات الحسن ايضاً .
- (٥٤) شيدته الحاج امين جليبي الباجهجي سنة ١٢٣٧هـ (البغداديون اخبارهم ومجالسهم ٣٢٥) .
- (٥٥) ويسمى بـ جامع الاحسائي نسبة الى قبر الشيخ محمد بن احمد الاحسائي المتوفى ١٠٨٣هـ . يقع في قلب الرصافة وبالضبط في شارع المستنصر (النهر) ، ولما اقام فيه الشيخ خالد النقشبندي بعد هودته من الهند سنة ١٢٣١هـ عمره له والي بغداد واصلحه فسمي بـ التكية الخالدية (تاريخ مساجد بغداد ٢٢٦ والبغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٢٣) .
- (٥٦) انشأته عادلة خاتون بنت احمد باشا الذي تولى ايلة بغداد من سنة ١١٤٩هـ - ١١٦١هـ . (تاريخ مساجد بغداد ٤٣) .
- (٥٧) انشأه الخليفة العباسي علي المكتفي بالله خلال ست سنوات من حكمه ٢٨٩ - ٢٩٥هـ (٩٠٢ - ٩٠٨م) وكان يعرف في اول تاسيسه بـ جامع القصر نسبة الى القصر الحسيني ثم اطلق عليه اسم جامع الخليفة ثم جامع الخلفاء وكان الجامع الرسمي للدولة العباسية ففيه تقرا عهود القضاة ويصلى على جنائز الاميان والعلماء وتعقد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين والمحدثين . ومئذنته الحالية شيدت سنة ٦٧٨هـ - ١٢٧٩م واليوم تعرف بـ منارة سوق

لم يسبق بمثلها ولم يحدث بعدها على شكلها يصعد عليها من مسلكين مستقلين قد انشأوا فيها للمؤذن موضعين أحدهما في ربعا السفلي والاخر في العلوي يشير لسان حالها وبديع شكلها الى عظم رجالها وشوكة اهلها ومن غريب ما فيها من حسن الصنعة ان محيط قطرها يستوعب طولها ومع ما مرّ عليها من العصور واعتورها من الاحقاب والدهور فهي الآن في بهجتها البهية كالعادة المجلية غير ان مقداراً يسيراً من ثوبها الاعلى أخلفه أحد المتغلبين حين استولى حتى قيل فيها :

لم ندر أنتِ منارة أم آية قامت على علينا بني العباس
هذا الزمان على تنوع غدره لا سيما بالسادة الاكياس
ما ان أغار على جمالك عاديا إلا وعاد بخيبة واياس

وهذا الجامع لما استولت التتار على بغداد تسببوا في خرابه ولما استوزر سليمان باشا ابو سعيد ببغداد (٥٨) عمّر بدله الجامع الموجود الآن واكتفى بهذه المئذنة عن انشاء مئذنة فيه وان كانت خارجة عنه نحو سبعين ذراعاً وجعل هذا الوزير لهذا المسجد مدرسة مدرستها الحالي ملا عبدالله افندي الموصللي وفي هذا الجامع سقاية أحدثها صبغة الله الحيدري (٥٩) .

وعلى القرب من هذا : المسجد المعروف بقاضي الحاجات (٦٠) ومسجد جادة بني سعيد ، ومسجد قنبر علي (٦١) وهو مسجد جمعة معمور الجماعة وبمقربة منه مشهد قنبر علي المذكور ويقال هذا هو مولى علي بن ابي طالب (ع) .

ويوجد ببغداد بعض مساجد لم يبق منها إلا آثارها وقد خربت بواسطة استيلاء اليهود على تلك الجهة بالسكنى والاستيطان .

وهناك مساجد ومدارس دينية كثيرة لازالت قائمة الى الآن .

أما مساجد الجانب الغربي من بغداد فمنها مسجد مشهد الامام موسى الكاظم بن الامام جعفر الصادق (٦٢) وهو مقابل لمشهد ابي حنيفة (٦٣) ، وهذا المشهد كبير جداً ليس له نظير

الفضل واما في الوقت الحاضر فيطل على شارع الجمهورية وهو بهيئة جديدة مشيدة حديثاً (دليل خارطة بغداد ١٢٥) مباحث عراقية ١ : ١٣٢ - ١٥١) اما الألوسي في تاريخ مساجد بغداد ص ٣٩ ذكر ان هذا الجامع انشئ على عهد الخليفة المهدي سنة ١٥٩ هـ والصواب ما ذكرناه .

(٥٨) تولى ولاية بغداد سنة ١١٩٣ هـ توفي سنة ١٢١٧ هـ (تاريخ مساجد بغداد ٤) ومباحث عراقية ١٥١ ، ودليل خارطة بغداد ١٢٥) .

(٥٩) مؤلف كتاب : عنوان المجد في احوال بغداد والبصرة ونجد ، توفي ١١٨٧ هـ . (غاية المرام ٢٦٢) .

(٦٠) يقع في محلة القشل (دليل خارطة بغداد ٣٠٧) .

(٦١) نسبة الى قنبر علي وهذه التسمية مزورة لان قنبراً قتل قبل بناء بغداد بسنين كثيرة (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٦٢) توفي سنة ١٥٠ هـ ، وفيه أيضاً مشهد حفيده الامام محمد الجواد المتوفى ٢٢٠ هـ .
(٦٣) يفصل بينهما نهر دجلة .

ببغداد وأكثر جدران الروضة مظلة بالذهب وله أربع مآذن وقبتان والكل مطلي بالذهب أيضاً وللروضة أربعة ابواب مصفحة بالفضة الخالصة ويحيط بالقبر الشريف شبكان متلاصقان الخارج من النضة الخالصة والداخل من القولاذ وفي هذا المشهد جامع جمعة كبير وفيه أيضاً قبة فيها مشهدان لابنية الامامين ابراهيم واسماعيل^(٦٤) وعلى اثرهما مشهد ابي يوسف^(٦٥) صاحب ابي حنيفة وبمقربة من مشهد الامام موسى الكاظم مشهد المرتضى^(٦٦) وقريباً منه مشهد يقال له الرضى^(٦٧) وهما من العلويين وعلى مسافة نحو ميل من مشهديهما مسجد براء^(٦٨) ويعرف بـ المنطقة وبمقربة منه مسجد وفيه مشهد يقال له والله اعلم مشهد نبي الله يوشع^(٦٩) وقيل هو مشهد فتى نبي الله موسى بن عمران وعلى اثره مسجد فيه قبر يقال انه قبر البهلول^(٧٠) وقريباً منه مشهد داود الطائي^(٧١) وتليه قبة (ابي الحسين) الحلاج^(٧٢) وعلى اثرهما مسجد وفيه قبة تحتها قبر رئيس الطائفة الصوفية الجنيد البغدادي^(٧٣) ويقابله قبر العارف بالله مولانا

(٦٤) لم يبق اليوم من اثر لهما حيث هدم المشهدان في سنة ١٣٧١ هـ والمؤرخون يختلفون في صحة المدفن ومن اراد التوسع فليراجع (تاريخ المشهد الكاظمي للشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٢٠٧) .

(٦٥) هو قاضي القضاة يعقوب بن ابراهيم توفي في عهد الرشيد سنة ١٨٢ هـ ، وان المؤرخين القدامى لم يذكروا موضع دفن ابي يوسف وبعضهم شكك في قبره الحالي (تاريخ المشهد الكاظمي ٢٥٥) .

(٦٦) هو الشريف علي بن الحسين المتوفى ٣٦٤ هـ والقبر موضع شك لان معظم المؤرخين يذكرون ان المرتضى توفي ببغداد ودفن في داره ثم نقل بعد ذلك الى كربلاء ليدفن فيها (تاريخ المشهد الكاظمي ٢١٢ ، دليل خارطة بغداد ١٠١ ، عمدة الطالب ١٩٤ ، وغيرها من المراجع ، واما هذا القبر فهو لابراهيم الاصغر ابن الامام موسى بن جعفر (ع) .

(٦٧) توفي الشريف الرضي ٤٠٦ هـ وهو جامع نهج البلاغة ونقيب الطالبين وامير الحاج . ويشكك المؤرخون كذلك في صحة قبره الحالي في الكاظمية اذ المشهور والمحقق انه مع اخيه دفن في حائر الحسين بكربلاء (دليل خارطة بغداد ١٠١ ، الاعلام ٦ : ٢٢٩ ، تاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦) .

(٦٨) ان مسجد براءا الحقيقي هو غير هذا المعروف اليوم في المنطقة بين الكرخ والكاظمية ومكانه الاصيل جنوبي بغداد وقد عفا وزالت آثاره بعد القرن السابع للهجرة او الثامن (دليل خارطة بغداد ٩١) اما جامع براءا اليوم فهو جامع المنطقة وكان يعرف بمشهد العتيقة (سونايا) (دليل خارطة بغداد ٢٩٧) .

(٦٩) غاية المرام ٣١ .

(٧٠) وبهلول هذا يقال انه كان نديم هارون الرشيد المقرب وعلى لوح القبر تاريخ سنة ٥٠١ هـ ولكن الدكتور مصطفى جواد وزميله في دليل خارطة بغداد ص ٢١٤ يكذبان هذا الادعاء لانه لم يرد ذكر لذلك في اي مصدر تاريخي سوى خارطة نيبور وهذه متأخرة لان هذا الرحالة زار بغداد ١١٨٠ هـ - ١٧٦٦ م .

(٧١) هو داود بن نصير الطائي الزاهد المشهور (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٧٢) كنيته ابو مغيث واسمه : الحسين بن منصور الحلاج ، فيلسوف متعبد زاهد نشأ بواسط وانتقل الى البصرة ودخل بغداد وعاد الى تستر . امر المقتدر العباسي بالقبض عليه فسجن وعذب وضرب وقطعت أطرافه ثم حزن رأسه واحرق جثته ولما صارت رمادا القيت في نهر دجلة وكان ذلك سنة ٣٠٩ هـ (الاعلام ٢ : ٢٨٥) .

(٧٣) هو الشيخ جنيد بن محمد بن الجنيد القواريري الخزاري ، من الزهاد توفي سنة ٢٩٨ هـ (دليل خارطة بغداد ٩٠) .

السري السقطي^(٧٤) وبمقربة من ذلك جامع جمعة فيه مشهد الشيخ معروف الكرخي^(٧٥) وقريباً منه مشهد الصالحة العابدة الست زبيدة^(٧٦) وعلى ضريحها المنور قبر مفتول محكم البناء كانه من اثار الخلفاء وبهذه المقبرة اعني الشونيزية^(٧٧) مشاهد كثيرة للعلماء العاملين والاولياء الكاملين غفي رسمهما واندثر لمرور الاعوام وتبدل الايام وفي هذه المقبرة تربة الشيخ الحريفيشي^(٧٨) صاحب الدراالنيس في المواعظ وقبره معلوم يزار .

وفي الجانب الغربي من جهة الدجلة مقام من آثار الخلفاء العباسيين يقال انه مقام سيدنا الخضر وقد استولت دجلة عليه فلم يبق إلا الاسم وبعض اصول الجدران وقريباً منه المدرسة المعروفسة بمدرسة خضر الياس وبمقربة منه مسجد يعرف بجامع القمرية^(٧٩) وهو مسجد معمور وفيه مئذنة وباتصاله مدرسة العمرية^(٨٠) ومنذ زمن غير يسير اهلكت عن التدريس وقريباً منها مسجد الحنان^(٨١) وهو مسجد جمعة وفيه مئذنة ثم مسجد الشيخ صندل^(٨٢) ثم مشهد مولانا حبيب العجمي^(٨٣)، ثم مسجد الشيخ موسى الجبوري^(٨٤)، ومسجد الست نفيسة^(٨٥)، ومسجد السيف^(٨٦)

(٧٤) هو خال الشيخ جنيد توفي سنة ٢٥١هـ - ٨٦٥م وفي (غاية المرام ص ٣٥ انه توفي سنة ٢٥٣هـ . (انظر دليل خارطة بغداد ٩١) .

(٧٥) دفن الكرخي سنة ٢٠٠هـ - ٨١٦م ، وفي سنة ٤٥٩هـ - ١٠٦٧م احترق المقام الذي شيّد فوق القبر فأعاد الخليفة القائم بناءه (دليل خارطة بغداد ٩٠) .

(٧٦) هذا وهم من المؤلف اذ ان الست زبيدة زوج هارون الرشيد دفنت في مقابر قرش بالكاظمية واما القبر المعروف اليوم باسمها هو قبر زمرد خاتون زوج الخليفة المستضيء بأمر الله وام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة ٥٩٩هـ - ١٢٠٢م (دليل خارطة بغداد ١٧٠) .

(٧٧) يعني مقبرة الشيخ جنيد اليوم (دليل خارطة بغداد ٩١) .

(٧٨) هو شعيب بن عبدالله بن سعد المشهور بالحريفيش المتوفى ٨٠١ (معجم المطبوعات العربية والمصرية ٧٥١) ولكن لم نعثر في الكتب التي ترجمت له من انه جاء الى بغداد (انظر شذرات الذهب ٧ : ٧ ، وهدية العارفين ١ : ٤١٨ وسماته : شعيب بن عبدالعزيز وقال انه توفي ٥٩٧هـ وهذا وهم منه .

(٧٩) سمي نسبة الى الموضع الذي بني عليه ، وقمرية من اهل بيت الناصر لدين الله الخليفة العباسي او احدي حظاياه ، وقد شيّد هذا الجامع سنة ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م في عهد الخليفة المستنصر بالله (تاريخ مساجد بغداد ١١٤ - ١١٥ ، والبغداديون اخبارهم ومجالسهم ٣٤٢) .

(٨٠) اقامها عمر باشا أحد ولاة بغداد سنة ١٠٨٨ - ١٠٩٢هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٠) .

(٨١) يقع في ساحة جسر الشهداء في الكرخ وهو من المساجد القديمة (البغداديون ٣٤٥) .

(٨٢) نسبة الى صندل بن عبدالله الحبشي المتوفى ٥٩٣هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٥) .

(٨٣) وهو قريب من دجلة في محلة الشيخ بشار والصواب ان حبيب العجمي توفي بالبصرة وقد زار قبره ابن بطوطة سنة ٧٢٧ (الرحلة ١ : ١١٧) وعلى هذا كما جاء في دليل خارطة بغداد ٢٩٩ : أن قبر العجمي اقرب الى قبر ابي القائم : عمر بن مسعود البزاز المتوفى ٦٠٨هـ ، اما الآلوسي فقد ذكر وفاته ١٤٠هـ اي قبل تأسيس بغداد (تاريخ مساجد بغداد ١٢٤) .

(٨٤) يقع قرب جامع معروف الكرخي في آخر المدينة جدده الشيخ موسى الجبوري سنة ١٢٩٤هـ فنسب اليه (تاريخ مساجد بغداد ١٢٠) .

(٨٥) في محلة الست نفيسة من محال الكرخ الغربية على طريق الكاظمية (يسمى اليوم شارع الامام موسى الكاظم) (تاريخ مساجد بغداد ١٤٥) .

(٨٦) هذا المسجد واقع على شاطئ دجلة في الجانب الغربي ، من المساجد القديمة وفي سنة

وجملة مساجد ذكر مفرداتها يجر الى السامة وفيما ذكرناه لك من المساجد برهان قاطع على ان بغداد قد بلغت في هذه الايام الاخيرة من العمارة وكثرة الدور والقصور ما تحاكي به حسناتها وفضارتها في زمانها القديم .



أما بساكنها^(٨٧) في الحال الحاضر فهي متصلة على حافتي دجلة من الجانبين ولبغداد اليوم اربعة جسور احدها محطة الامام الاعظم^(٨٨) ، والثاني تحت باب المستنصرية من جهة دجلة^(٨٩) ، والثالث في الموضع المعروف بقرارة ، والرابع معقود على النهر الشهير بنهر الخر^(٩٠) .

وللحكومة فيها ما بين دار إماره ومستشفى ومكتب ومخفر ومخزن اسلحة ومربط دواب وقلعة جند وميدان تعليم وقاعة مجلس ما يتجاوز المئات واما دورها وقصورها فانها تتجاوز على ألفي الف موضع .

واما نفوسها فمن المعلوم انها اصعاف الدور والقصور .

اخلاق البغداديين (٩١) :

كانت أخلاق اهل بغداد قبل انهم يعظمون الكبير ويرحمون الصغير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يرعون الجوار ويحفظون الدمار حتى ان احدهم اذا رأى من جاره ادنى مثلبة سارع في تأديبه وبالنح في ترهيبه فاذا سمع رب بيت ذلك المنيء قابل جاره بالشكر والثناء وانواع الدعاء غيبة وحضوراً فينزل كل أحد منهم غيره منزلة الاخ والأب أو الأخت أو الوالد وكان من اخلاقهم انهم يحملون السيف ويكرمون الضيف ويفشون السلام ويطعمون الطعام ويأوون الغريب ويشفقون على القريب ويكثر في صحة العلماء ويتربحون لذكر الكرماء ومنها انهم يعودون المرضى ويشيخون الجنائز ويألفون في اعطاء الجوائز . . ومنها انهم يألفون من عشرة من لا يؤمن بيوم الحساب ولا يرغبون في وظائف الحكومة ويعدون الاعراض عنها اكرامة ومنها انهم يقرضون المحتاج ويصبرون على المعسر ويتعوزون من العقوق ويبادرون لايفاء الحقوق ويواسون البائس العديم ويرحمون الأرملة واليتيم يؤدون

١٢٣٦هـ جدد عمارته داود باشا والي بغداد، ولكنه هدم أخيراً ولم يبق له اثر (تاريخ مساجد بغداد الحديثة ٢٩٢) .

(٨٧) صفحة ٤٦٥ من مخطوطة المتحف العراقي للكتاب .

(٨٨) وهو جسر المعظم الخشبي الذي كان يربط الكاظمية ببغداد ونقل سنة ١٩٥٧ الى النعمانية حيث حل محله جسر ثابت حديث يقع الى شماله بقليل يعرف اليوم بـ جسر الائمة .

(٨٩) كان يسمى جسر المأمون ثم غير الى جسر الشهداء وهو يربط الكرخ بالرصافة .

(٩٠) وهي قنطرة كبيرة وليست جسراً .

(٩١) صفحة ٢٨٦ من نسخة الدراسات العليا ، ويتحدث المؤلف عن اخلاق اهل بغداد في زمانه .

الأمانات إلى أهلها ويمدّون في القضايا وفصلها الظالم عندهم مخذول وإن كان من القروع أو الأصول لا تأخذهم في الله لومة لائم وكلهم أماجد أكارم يتحرون أكل الحلال ولو في رؤوس الجبال ويهربون من الحرام - كما يقال - مسيرة عام لا يشقّون عصا المسلمين ولا يركنون إلى الظالمين • ومنها أنهم يحافظون على العبادات ويغضون من اجترم السيئات • لباسهم التقوى والشّامة وفاكهتهم البحث في أحوال القيامة • يعرضون عن الملاهي والملاعب إلا ما قلّ منهم والحكم للغالب • يتوسعون في اللطائف والمكاملة ويتعاطون الظرائف والمنادمة يتواضعون ولكن للمتواضع وينخدعون ولكن من طيب المراضع يقول واعظمهم اذ ينصفهم :

خدع جعلناها إليك وسيلة إنّ الكريم بكل شيء يخدع

وأما الآن فعلى عكلاتهم فقد ثبت بالسمع والعيان أنهم اعدل الناس سيرة واسلمهم سريرة وما ذاك إلا لكون اناء العطر اذا نفدت غالبه بقيت رائحته ، وجودة الاصل تنتج حسن الفعل •

مراجع التحقيق

- ١ - ديوان عمارة بن عقيل : تحقيق وجمع شاكرا العاشور - مطبعة البصرة ١٩٧٢ •
- ٢ - رحلة ابن بطوطة : محمد بن ابراهيم المعروف ب ابن بطوطة المتوفى ٧٧٩ هـ دار صادر - بيروت ١٩٦٠ •
- ٣ - رحلة ابن جبير : محمد بن احمد بن جبير الاندلسي المتوفى ٦١٤ هـ - ط لندن ١٩٠٧ •
- ٤ - شذرات الذهب في اخبار من ذهب : لعبدالحى بن العماد الحنبلي المتوفى ٨٩٠ هـ - مكتبة القدسي - القاهرة ١٢٥١ هـ •
- ٥ - شروح سقط الزند : تحقيق مصطفى السقا وجماعته - النسخة المصورة على طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٦٤ •
- ٦ - عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب . لاحمد بن علي الداوري المعروف ب ابن عتبة المتوفى ٨٢٨ هـ - النجف - الطبعة الحيدرية ١٢٣٧ هـ •
- ٧ - غاية الزمان في تاريخ محاسن بغداد : للشيخ ياسين العمري الموالي - مطبعة دار البصري - بغداد ١٩٦٨ •
- ٨ - مباحث عراقية : ليعقوب سركيس - مطبعة شركة التجارة - بغداد ١٩٤٨ •
- ٩ - معجم البلدان : لياقوت بن عبدالله الحموي الرومي ت ٦٢٦ هـ - دار صادر بيروت •
- ١٠ - معجم ما استعجم : لعبدالله بن عبدالمعز البكري المتوفى ٤٨٧ هـ - القاهرة ١٩٤٥ •
- ١١ - معجم الطبوعات العربية والمصرية : ليوسف اليان سركيس - القاهرة ١٩٢٨ •
- ١٢ - هدية العارفين : لاسماعيل باشا البغدادي - الطبعة المصورة - طهران ١٩٦٧ •
- ١٣ - وفيات الاعيان : لاحمد بن محمد ، ابن خلكان المتوفى ٦٨١ هـ - تحقيق الدكتور احسان عباس - دار الثقافة - بيروت •
- ١٤ - تاريخ مدينة السلام : لابن الفقيه الهمداني - تحقيق الدكتور صالح احمد علي - مطبعة دار الطليعة - باريس ١٩٧٧ - مطبوعات وزارة الثقافة والفنون - بغداد •
- ١٥ - تاريخ الاسلام : للحافظ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ - مكتبة القدسي - القاهرة •
- ١٦ - تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ، احمد بن علي المتوفى ٤٦٣ هـ - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة المصورة •
- ١٧ - تاريخ العراق بين احتلالين : لعباس الزاوي - بغداد ١٩٢٥ - ١٩٥٦ •
- ١٨ - تاريخ مساجد بغداد واثارها : لعماد شكري الالوسي - تحقيق محمد بهجة الاتري - مطبعة دار السلام - بغداد - ١٢٤٩ هـ •
- ١٩ - تاريخ مساجد بغداد الحديثة : يونس الشيخ ابراهيم السامرائي - مطبعة الامة بغداد ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م - منشورات وزارة الاوقاف العراقية •
- ٢٠ - تاريخ المشهد الكاظمي : للشيخ محمد حسن آل ياسين - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٦٧ •
- ٢١ - جمهرة المراجع البغدادية : كوركيس عواد ، وعبدالحاميد العلوي - مطبعة الرابطة - بغداد ١٩٦٢ •
- ٢٢ - دليل خارطة بغداد : للدكتور مصطفى جواد ، واحمد سوسة - مطبعة الجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٥٨ •
- ٢٣ - ديوان ابن الرومي : تحقيق الدكتور حسين نصار - مطبعة دار الكتب ١٩٧٤ القاهرة •

مِنْ أَفْئُونِ وَالبَعْدَاءِ

بقلم
صَادِقُ مُحَمَّدٍ الْجَيْلِي

مدرسة الولاء - الكرخ - بغداد

- ١ -

قِصَّةُ السَّاعَاتِ فِي بَغْدَادِ

مركز تحقيق كاسمير علوم إسلامي

المزولة الشمسية

في عراقنا الحبيب في اللقاء الذي أجرته معه مجلة آفاق عربية الغراء ، فيقول : « .. فللمرة الاولى ظهرت المزولة الشمسية في الآثار العراقية .. كان ذلك في سامراء ، وقد اعلنت استعدادي لاعادة نصبها وتشغيلها ، ومن المؤسف ان الساعة ارسلت الى البصرة حجرا عام ١٩٧٥ .. ان هذه الساعة اثر علمي مهم في دراسة الحضارة العربية الاسلامية وهناك ايضا عدة مزاوِل في بلدان المغرب العربي في تونس والمغرب ..

انني ادعو الى تعميم اعتماد الساعات المزولية في كل مدينة عربية ، ولقد صممت مزولة افقية لبغداد واهديتها الى امانة العاصمة وانا بانتظار الموافقة على نصبها ، ولا احد سواي يهتم بهذا القدر بالمزاوِل الشمسية ، وقد سمعت من اناس اعدوا ساعات اعتيادية ، وهي ساعات بإمكان اي ميكانيكي ان ينصبها على غرار ساعة الاعظمية للسيد عبدالرزاق محسوب .

وبالنسبة للساعات المزولية العربية فانا الان اعمل على حل رموز مزاوِل الجامع الاموي في دمشق ، وجامع عقبة بن نافع في القيروان بتونس ، فقد بعثوا الي بتخطيطات هذه المزاوِل لدراستها ..

اختلف الباحثون في تعيين أي من بلدان الشرق مهد الحضارات كان له فضل الاسبقية في ابتكار الساعة بانواعها ، ولا احد يستطيع ان يقرر من هو اول من أدرك فكرة استعمال الساعة لقياس الوقت ، ولكننا نعلم بان الانسان القديم استعمل الساعة الشمسية منذ زمن بعيد يرجع تاريخه الى العصر الحجري ، وقد سميت ساعة الشمس بـ « المزولة » واقدم ساعة شمسية عثر عليها المنقبون هي المزولة المصرية التي يحتفظ بها اليوم متحف برلين والتي يعود تاريخها الى القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد شاع استعمال المزولة في جميع انحاء العالم الاسلامي وفي مساجده المختلفة لمعرفة اوقات الصلاة فهي بمثابة ساعة التوقيت المحلي وقد وجدت قبل اختراع الساعات الميكانيكية الحديثة والتي تعتمد بصورتها البسيطة على ملاحظة ظل العصا ، وهناك شواهد كثيرة في العراق القديم وفي مدينة سامراء بالذات تدل على وجود مثل هذه الساعات في العراق ، ومن ذلك ما ذكره الدكتور محمد صديق الجليلي المتخصص بشؤون المزولة الشمسية واقتراحاته في تعميمها كوسيلة للتوقيت

وأنا اليوم أدعو إلى اعتماد التوقيت الشمسي الظاهري المحلي إلى جانب التوقيت الاعتيادي ، وهو توقيت كان معروفا منذ القدم ولعلنا نعلم ان هناك من المزاويل ما تكون احيانا بصورة ضخمة جدا يمكن ان تشاد امام البنائات والمؤسسات العلمية أو في الحدائق والساحات العامة الواسعة وفي هذه الحالة تكون لوحة المزولة هي الساحة نفسها ..

وقد ادركت معظم الدول الكبرى اهمية مثل هذه الساعات كآثر تراثي اقامتها في ابرز مياديتها العامة ، من ذلك ساعة الشمس « المزولة » التي تنتصب اليوم في حديقة لندن وفي ابرز مكان فيها ، لا لتستعمل لغرض معرفة الوقت وإنما نصبت كآثر تاريخي تزين به هذه الحديقة الجميلة .

الساعة المائية

لم يشأ الانسان المبدع بعقليته ، والطموح بفطرته ان يقف الى الحد الذي يعين به نهاره بالساعة التي عرفها نقيس وقته منذ شروق الشمس وتنتهي مهمتها بغروبها ، بل ولا بد وأن يندفع نحو الامام ليبتكر مقياسا آخر يواكب سير حضارته يعين به وقته في الليل وفي النهار فاوجد بذهنية متفتحة « ساعة الماء » .. ويجعل بنا ان نبسّط هذه الفكرة التي قامت على اساسها هذه الساعة والتي كان لاكتشافها اثر كبير في سير ركب المدنية نحو التقدم . كما جاء وصفها في كتاب « قصة الوقت » للمحامي ناجي جواد : « ان فكرة ساعة الماء كانت بدائية تماما اذا ما قيسست بعصرنا الحاضر ولكنها اكتشاف عجيب اذا ما قيسست بأزمان ما قبل التاريخ .. فساعة الماء عبارة عن وعاء من حجر مثقوب من الاسفل يطفو عائما على سطح الماء ، وعندما يتصاعد الماء مترشحا الى داخل الوعاء فالنسبة التي يستوعبها الوعاء حتى اول اشارة تعتبر ساعة ، واذا ارتفع الماء الى الاشارة الثانية تعتبر ساعتين وهكذا .. فالفترة التي يستغرقها الوعاء حتى يفرق تعتبر المدة الزمنية المقصودة على وجه التقريب .. ومن عيوب هذه الساعة من جهة التفاوت للضغوط ، الناتج من عدم تناسب ترشيح الماء حينما يكون الوعاء مقاربا للامتلاء أو عندما يقارب النضوب من جهة ، ومن جهة اخرى فان لتقلبات الجو تأثيرا مباشرا على سيرها بانتظام ، فان اختلاف درجة الحرارة مثلا ، ارتفاعا وهبوطا ، لما يؤثر تأثيرا مباشرا على سيرها بالدقة المطلوبة » ..

وكان لوادي الرافدين افضلية السبق في اكتشاف واستعمال مثل هذه الساعات على ارجح

الأراء ، وبالاخص في عهد البابليين ، فقد ارتبط الابتداء والابتكار في شتى ميادين الحياة بالحضارات الانسانية وسيرها على مدى فترات التاريخ ، ولما كان الشرق والعراق جزء منه مهد الحضارات فلا غرابة ان يكون اختراع الساعات على اختلافها من بنات افكار ابنائه ومن ابتكارهم ، فالساعة الشمسية وهي ساعة النهار فقط قال عنها هيرودتس : ان الاغريق استعاروها من البابليين .. وكذلك الساعة المائية وهي ساعة اليوم ليله ونهاره قد عرفها البابليون قبل غيرهم من الاقوام الاخرى .. وكان العراقيون القدماء يقيسون ساعات اليوم بهذين النوعين من الساعات ، وحجة القائلين باسبقية البابليين في اختراع هذه الساعات تستند على سبقهم تقسيم الوقت الى ايام وساعات ومن مجموع هذه الايام تكون السنة الواحدة .

فكانت السنة السومرية والبابلية تتألف من اثني عشر شهرا قمريا وكل شهر يساوي ثلاثين يوما ولذا اصبح عدد ايام السنة السومرية لا يطابق عدد ايام السنة الشمسية .. وقد قسم البابليون اليوم الفلكي الى اثني عشر قسما وكل قسم يساوي ساعتين من توقيتنا الحالي .. والساعة الى ثلاثين جزءا اي ان يومهم الفلكي كان مقسما الى (٣٦٠) قسما متساويا وكما ان في السنة الواحدة (٣٦٠) يوما فكانت الدقيقة عندهم تساوي اربع دقائق من دقائقنا ، وقد جاء هذا التقسيم منذ السلالة الاكدية .. وتلافيا للفرق الحاصل بين عدد ايام السنة السومرية وعدد ايام السنة الشمسية ، وما دامت الفصول تتوالى حسب السنة الشمسية فقد اقتضت العادة من اجل ضبط الفصول ان يلحق شهر اضافي (كبيس) الى اشهر السنة الاعتيادية بعد مرور عدد من السنين لتعويض الفرق الحاصل بينهما ..

وقد عثر على ساعة الماء في معبد « الكرنك » في عام ١٩٠٤م ، وهي الآن معروضة في متحف القاهرة ، وتوجد نسخة عنها معروضة في متحف العلوم في لندن .. وقد دل تأريخها الى عهد الملك امنحوتب الذي حكم مصر في الفترة الواقعة خلال (١٣٨٠ - ١٤١٥) قبل الميلاد ، وهي عبارة عن وعاء من حجر يؤشر عليه من الداخل بخطوط أفقية ومثقوب من الاسفل ..

وهناك انواع اخرى من الوسائل الطبيعية والساعات البدائية لمعرفة الوقت كالساعة الرملية التي جاء وصفها في كتاب « قصة الوقت » : « فالشمس والماء والنار قد لعبت دورا مهما في علم

قياس الوقت .. واخيرا ظهرت الساعة الرملية فاخذت مكانها بين الساعات الاخرى في قياس الوقت ، فزجاجة الساعة الرملية اصبحت رمزا للوقت وكانت دقة قياسها للوقت موضعاً لثقة الاقدمين في هذه الفترة الزمنية بينما اصبحت هذه الساعة الرملية تستعمل اليوم في المطابخ حيث يستفاد منها لتمييز وقت نضج البيض على النار .

ساعة الرشيد لشارلمان العجيبة

ساهم العرب في عصر الدولة العباسية في تطور فن صناعة الساعات واخصها الساعة المائية ، وكانت الصناعة والابتكار والترف الفكري والحضاري من ابرز حضارة العرب المسلمين في العصر العباسي الاول حتى سمي بحق عصر الرشيد الزاهر بكل فنون العلم والمعرفة بـ «العصر الذهبي» في وقت كانت اوربا المسيحية غارقة في ظلام من الجهل قاتم اسود ..

لقد بلغت بغداد على عهد هارون الرشيد أوج عزها ومجدها واصبحت محط انظار طلاب العلم والمعرفة ، ويقصدها الداني والقاصي ليتزود من معارفها ويرتوي من عذب مائها وصفائه ، وباتت للناس من كل فج عميق لتعطيهم الشيء الكثير دون ان تأخذ منهم شيئاً ، فكانت بغداد العباسية تزدهر بعلمائها الافذاذ ورجال الفكر فيها ، فمنها انطلقت الحركات الفكرية لتصارع الافكار الاخرى وتنازعها السيادة والسلطان فكان على رأسها اشهر فلاسفة التاريخ : منهم الفارابي والكندي وابن سينا والغزالي ، وفي بغداد مدارسها الفقهية وعلى رأسها وفي مقدمتها مدرسة الرأي والقياس وسيدها الامام الاعظم ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي .. وفيها المصانع الفخمة والمعامل التي تنتج للعالم كله ، واصبحت جوامع بغداد وقصورها واسواقها ومدارسها من ابرز مظاهر حضارتنا .. لذا ليس بالغريب ان تصل الساعة المائية والتي صنعتها وصممها الايدي العراقية الماهرة في زمن الرشيد الى غاية الابداع في الفن ودقة العمل .

وكانت هذه الساعة مفخرة ما توصل اليه العلم في مجال الابتكار والاختراع في عراقنا الحبيب .. في بلاد الف ليلة وليلة العباسيين ..

اما قصة هذه الساعة فهي : لقد اراد شارلمان ملك الافرنج الذي عاصر الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد ان تتوثق العلاقة بينه وبين الرشيد بعد ان علم بقوته وعظمة دولته وسلطانه ليتسنى

للمسيحيين الاوربيين زيارة بيت المقدس وليحيمهم في ذهابهم وايابهم .. لذا ارسل اليه السفراء يحملون اليه الهدايا الفاخرة استرضاء له وكسبا لمودته ، فرد عليه الرشيد هديته باحسن منها فكانت قصة الزمن ظلت مع الزمن خالدة تروي للاجيال مظاهر حضارتنا واصالة مدنيتنا .. وكانت من هذه الهدايا ساعة مائية دقاقة مصنوعة بمهارة عظيمة اعجب بها شارلمان ودهش رجاله ، حتى زعم ان بعضهم هرب من المجلس عند سماع دقاتها ظناً منه بأن شيطاناً يختفي في داخلها ..

وذكر فولتير المؤرخ الفرنسي : ان اول ساعة عرفت في اوربا هي الساعة التي اهداها هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا سنة ٨٠٧ م . وكانت بدعاً في ذلك العصر ، حتى انها اورثت رجال الديوان حيرة وذهولاً .. كان لها اثنا عشر باباً صغيراً بعدد الساعات ، فكلما مضت ساعة فتحت باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيقرع ويطن بعدد الساعات ، وتبقى الابواب مفتوحة ، وحينئذ تخرج صور اثني عشر فارساً على خيل تدور على صفحة الساعة (*) .

ساعة المستنصرية في بغداد

لقد برع العرب في صناعة الساعات المائية الروحانية ، فكانت هذه الساعات عربية صميعة في صنعها .. ويراد بالساعات الروحانية - كما كانت تسمى - هي التي يحركها شيء خفي يشبه الروح في تحريك الاجسام بحسب رأي كثير من الناس ، والساعات الروحانية فرع من فروع علم « البنكام » وهو علم صناعة الساعات لمعرفة الاوقات وقد صنف العرب المصنفات في هذه الصناعة ومنهم بديع الزمان او المعز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري (نسبة الى جزيرة ابن عمر) الذي ألف كتاب « الآلات الروحانية » في ذلك . وقد طبع قسماً منه بعض المستشرقين ، الفه بديع الزمان لقره ارسلان التركي الارمني ملك ماردين « ٦٥٨ - ٦٩١ هـ » وجعله ستة انواع : الاول في الساعات ، والثاني في الاواني العجيبة ، والثالث في الآلات الزامرة ، والرابع في آلات اخراج الماء من المواضع العميقة ، والخامس في الاباريق والطسوت ، والسادس في صور واشكال تختص بذلك .. ونقل هنا صورة شبيهة بساعة المستنصرية نشرها صاحب كتاب « قصة الوقت » في كتابه منقولة عن كتاب « معرفة

الحيل الهندسية» لبدیع الزمان الجزري . .
وسبق ان نشرتها مجلة اهل النفط في بحث الدكتور
مصطفى جواد - رحمه الله - عن مجلة « الادب
والفن » التي كانت تصدر في انكلترا باللغة العربية
والتي اعدنا نحن بدورنا نشرها في هذه المجلة
لنفاستها الا ان ناشرها الاول في مجلة الادب والفن
ظنها « صورة لموسيقارين لبعض السلاطين في مدخل
قصره » وفي الحقيقة ما هي الا صورة ايوان
الساعة . . ومن اشهر الساعات الروحانية المائية
الساعة التي وصفها ابن جبير الرحالة الاندلسي ،
وكانت في مسجد دمشق في القرن السادس للهجرة
وما بعده وصفا رائعا دقيقا ، وقد رأى ابن جبير
هذه الساعة العجيبة سنة « ٥٧٩هـ / ١١٨٣م » . وقد
انشئت بعدها ببغداد سنة « ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م »
ساعة مثلها قبالة باب المستنصرية التي لا تزال
بفخامة بنائها تعد فخرا لفن العمارة العربي ، قال
ابن الفوطي في احداث سنة « ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م »
بصد هذه الساعة ما نصه : « وفيها تكامل بناء
الايوان الذي انشئ مقابل المدرسة المستنصرية ،
وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعة
الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى
فيداويهم . . وبني في حائط هذه الصفة دائرة
وصور فيها الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لها
ابواب لطيفة ، وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين
من ذهب وراءهما بندقتان من شبه لا يدركهما
الناظر ، فعند مضي كل ساعة يفتح فما البازين
ويقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح
باب من ابواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب ،
فيصير حينئذ مفضضا ، واذا وقعت البندقتان في
الطاستين تذهبان الى مواضعهما ، ثم تطلع اقمار
من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع
الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع
غيوبتها - كذا . . فاذا جاء الليل فهناك اقمار طالعة
من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء
في دائرة القمر ، ثم يتبدى في الدائرة الاخرى الى
انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك اوقات
الصلاة . . وجاء ذكر هذه الساعة في كتاب
« خلاصة الذهب المسبوك » لعبد الرحمن الاربلي
المتوفى سنة ٧١٧هـ ما نصه ايضا : « . . . وبني في
حائط هذه الصفة دائرة عجيبة وصورتها صورة
الفلك وجعل فيها طاقات صغار لها ابواب كلما
سقطت بندقة انفتح باب من ابواب الطاقات وهو
مذهب نضار مفضض ومضت ساعة من الزمان
والبندقتان من شبه يقمان من فم بازين من ذهب
في طاستين من ذهب ويذهبان الى مواضعهما وتطلع

شموس من ذهب في سماء زرقاء في ذلك الفلك ومع
طلوع الشمس تدور دورانها وتغيب مع غيوبها فاذا
غابت الشمس وجاء الليل فهناك اقمار طالعة من
خلفها كلما مضت ساعة تكامل الضوء في دائرة القمر
ثم تبدو بالدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع
الشمس فيعلم بذلك اوقات الصلاة . . وقد نقل
التقي الفاسي المكي في ترجمة احمد بن علي بن تغلب
ابن ابي الضياء البعلي الاصل ، البغدادي الولد
والمنشأ المعروف بابن الساعاتي ، ان اياه هو الذي
عمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد
لانه كان مشتهرا بعلم الهيئة والنجوم وعمل
الساعات . . وقد عين ابن الفوطي سنة ولادة هذا
الرجل ووفاته بقوله : « وفيها اي في سنة
٦٨٣هـ / ١٢٨٤م توفي نور الدين علي بن تغلب
الساعاتي وكان يتولى الساعات المشهورة تجاه
المستنصرية ، وكان مولده سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م » .

وقد اشتهرت جماعات بحرفة هذه الساعات
فعرفوا بالساعاتيين والواحد « ساعاتي » وعرف كل
من ابنائهم بابن الساعاتي ذكر منهم الدكتور مصطفى
جواد عن كتاب تكملة اكمال الاكمال « ص ٢٢٧ » طبعة
المجمع العلمي العراقي : « . . ومنهم ابن الساعاتي
الشاعر المقندر المشهور (بهاء الدين علي بن رستم)
واخوه الحكيم الطبيب (فخر الدين رضوان رستم) و
(نور الدين علي بن تغلب الساعاتي) وكان يتولى
تدبير الساعات التي كانت تجاه المدرسة المستنصرية
وابنه (مظفر الدين بن علي المعروف بابن الساعاتي)
وحفيده (محمد بن احمد بن الساعاتي) و (محمد
ابن احمد بن الساعاتي) و (ابن عمرو عثمان برمكي
السعدي) قال جمال الدين بن الصابوني عنه : وهو
كثير المحفوظ ، وله اليد الطولى في عمل الساعات
ومعرفة الاضطراب . .

وممن الف في صناعة « البنكام » تقي الدين
محمد المعروف بالراصد المتوفى سنة ٩٩٣هـ فله
كتاب « الطرق السنوية في الآلات الروحانية » وكتاب
« الكواكب الدرية في البنكامات الدورية » . . ومن
الكتاب الاخير نسخة محفوظة بدار الكتب الوطنية
بباريس .

وقد تغنى الشعراء بساعة المستنصرية ونظموا
القصائد في وصفها وعجيب صنعها ، منها قول
ابي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي يمدح الخليفة :

يا ايها المنصور يا مالكا

برايه صعب الليالي يهون

تهدي الى الطاعات ساعاته الـ

ناس وبالنجم هم يهتدون
صور فيه فلك دائر

والشمس تجري ما لها من سكون
دائرة من لازورد حكت

نقطة تبر فيه سر مصون
فتلك في الشكل وهذي معا

كمثل هاء ركبت وسط نون
فهي لآحياء العلى والندى

دائرة مركزها العالمون
وفيها يقول ذو الملكتين النائر الشاعر عز الدين

عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني :

ما مثل الفلك العظيم لبصر
في الارض قبل ايلة المستنصر

هذا بناء معرب عن قدرة
رفعت قواعده بفعل مطهر

حدث به الارض السماء ولم يزل
حسد الفضائل في طباع العنصر

انظر تجد نظم الثريا في ذرا
شرفاته وضياء نور المشتري

فالافق بين مفضض ومذهب
والجو بين مكوفر ومعنبر

والارض حاسرة القناع كأنها
خسود تبرج في رداء اخضر

وقال كشاجم الاديب الشاعر يصف «البنكام»
الذي معناه بالفارسية (آناء مثقوب لقياس الاوقات)

فعر به العرب بصورة « بنكام » وجمعوه على
« بنكامات » :

روح من الماء في جسم من الصفر
مؤتلف بلطيف الحس والنظر

تنشأ له حركات في اسافله
كأنها حركات الماء في الشجر

ان ساعة المستنصرية التي تعد من بدائع
الصناعة ونفائس الآثار ، لم يبق لها اليوم اثر ما

لذا كانت دعوة بعض الباحثين لانشاء ميدان فسيح
امام المستنصرية وازالة المباني المستحدثة حولها

دعوة صادقة ومنهم الدكتور ناجي معروف - رحمه
الله - الذي دعا الجهات المختصة الى صيانة حرمة

تراثنا الحضاري البغدادي ، وذلك فيما يخص اول
جامعة عربية كبرى وهي مباني المدرسة المستنصرية

.. وقد استعرض الدكتور معروف هذه القضية
باسهاب طالب باستخدام الاماكن التي تقع قرب

المدرسة للاغراض السياحية في القطر وللصورة
والصوت وهي كلها تمثل طرازا بغداديا اصيلا ،

ورضع مخططا لذلك اثبت فيه اهم المواقع والمنشآت
التابعة لهذه المدرسة ومنها موقع الساعة المائية

وقبتها الجميلة والتي عينها قبالة الباب الرئيسي
بمسافة عشرات الامتار وبعدها يأتي موقع مدرسة

الطب المستنصرية والمستشفى ونشر هذه الدعوة
في جريدة الجمهورية البغدادية الفراء في عدد يوم

الجمعة ٣١-٣-١٩٧٢ .. ونحن بدورنا نثبت هذا
المخطط على صفحات هذه المجلة لتغطي صورة

واضحة عن هذا المشروع المقترح ، نقتطف شيئا مما
ذكره الدكتور معروف فيما يخص ساعة المستنصرية

« .. ولم تعول هذه المدرسة (أي المستنصرية)
على الدراسات النظرية فقط ولم تكن في معزل عن

المجتمع بل عقدت فيها مجالس المظالم والمناظرات
والندوات الادبية والعلمية واستخدمت الكثير من

الاعراض الاجتماعية فذاع صيتها في العالم وقصدها
العرب المسلمون والاجانب للدراسة والمناظرة

والتزود من علوم اساتذتها والتفرج على بناياتها
حتى كان من اغلى امانى الملوك والسلاطين والوزراء

والاعيان والعلماء عندما كانوا يفدون الى بغداد
بصورة رسمية او غير رسمية ان يؤذن لهم يومئذ

في زيارتها وحضور الحفلات التي تقام فيها
والاستماع الى البحوث والمحاضرات العلمية التي

يلقيها كبار رجال العلم من اساتذتها والاطلاع على
خزائنها التي كانت يومئذ اعظم خزانة للكتب في

العالم اذ وضع فيها مؤسستها المستنصر بالله عند
افتتاحها ثمانين الف مجلد من المخطوطات ، والتفرج

على ساعتها العجيبة التي كانت من المآثر الجليلة لبني
العباس ببغداد ...

فقد اصبح من حق المستنصرية العناية
بابرازها للزوار والسياح والعلماء والدارسين

والباحثين في حضارة بغداد . ولا تتحقق هذه
العناية الا بازالة جميع ما حولها من مباني مستحدثة

مشوهة واسواق مغطاة بصفايح « الجينكو » وانشاء
ميدان فسيح امامها يمتد من بابها الشاهق حتى

شارع الرشيد وشارع المأمون واعادة ساعتها
العجيبة .. » ..

الساعات البغدادية الحديثة

فتح دواوين الحكومة في الساعة السابعة صباحا الى الساعة الثانية عشرة والنصف وحفظا لمصالح موظفي الحكومة وحرصا على اوقاتهم اقيمت ساعتان عند باب دار الحكومة الواحدة لاوقات العبادة والثانية لاوقات الشغل . مما يدل على اهتمام الناس بقيمة الوقت وضرورة ضبطه لتحديد اوقات العبادة والعمل ! ! .

الساعات البغدادية ذات الابراج

وعرفت بغداد الساعات الكبيرة ذات الابراج العالية على غرار المنائر أيام حكم الوالي العثماني المصلح مدحت باشا حيث شيد لأول مرة في تاريخ بغداد هذا النوع من الابراج لينصب في اعلاه ساعة القشلة الشهيرة ، وكان ذلك حدثا مهما في تاريخ عاصمة العراق حضارة في التاريخ وتم ذلك عام ١٨٦٩م اي بعد عشرة اعوام من نصب ساعة (بكبن) الشهيرة والتي تعلو مبنى مجلس العموم البريطاني في العاصمة لندن وتذاع دقاتها من الاذاعات البريطانية الى جميع انحاء العالم ويعود لها الفضل في ضبط الساعات وتوقيتها في بقية اقطار الدنيا . ثم توالى نصب الساعات ذات الابراج في بغداد بعد ساعة القشلة فكانت ساعة الكاظمين عام (١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م) ، ثم ساعة الحضرة الكيلانية عام (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) ، فالساعة الاعظمية عام (١٣٥٠هـ / ١٩٣٠م) ، ثم ساعتا المحطة العالمية عام ١٩٥٥م في بغداد . . وسنين تاريخ كل منها على التوالي :

ساعة القشلة (١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م)

ارتبط تاريخ هذه الساعة الاثرية ببناء القشلة (الثكنة العسكرية وسراي الحكومة فيما بعد) التي ما زالت قائمة ومائلة امام انظارنا تحكي قصة الزمن في فترة من فترات التاريخ وبقيت وستبقى لتكون احد معالمنا الاثرية في بغداد . . وكان الشروع في بناية هذه القشلة سنة (١٢٧٨هـ / ١٨٦١م) أيام الوالي نامق باشا الكبير وفي عهده لم يكمل بناؤها وقد اكمله مدحت باشا (١٨٦٨-١٨٧١) واقام في ساحتها برجا نصب عليه الساعة المذكورة لغرض ايقاظ الجنود الى اوقات التدريب العسكري حيث اتخذ القشلة مركزا لقواته الخيالة وكذلك مقررا لولايته ، ومن ثم اشغلت من قبل بعض الوزارات في العهد الملكي الفابر . . وساعة القشلة تدق الساعة فقط وكان رنين صسوتها تسمعه بغداد كلها - بجانبها الرصافة والكرخ - وخاصة في اوقات

عرف البغداديون الساعة الحديثة منذ القرن الثامن عشر ، وكان التاجر البغدادي من انشط تجار العالم تنافسا في استيرادها من مواطن صنعها في المانيا . . وكان الموسرون من ابناء بغداد وحتى متوسطي الحال مولعين في اقتناء ساعات الجيب والساعات الجدارية لتزين جدران بيوتهم ودواوينهم وما زال بعض هذه الساعات في حوزة اصحابها حيث تعمل بدقة دون ان تتأثر بمؤثرات الزمن . . فمن هذه الساعات الساعة التي يحتفظ بها احد المواطنين والتي اشارت الى ذكرها مجلة «الفباء» في عددها (٤٦٨) تحت عنوان «اقدم ساعة في بغداد» والتي يعود تاريخ صنعها الى عام ١٨٠٠م حين دخلت بغداد ضمن اول وجبة ساعات استوردت إبان العهد العثماني من المانيا عام ١٨١٠م والتي ما زالت صالحة تعمل بدقة لحد الان . . وبرز مواطن ببغدادى آخر يعقب على هذا الخبر في المجلة المذكورة بعددها اللاحق (٤٧١) : ينفي فيه ان تكون تلك الساعة هي اقدم ساعة في بغداد بل ان التي اقدم منها هي الساعة التي يمتلكها هو والتي آلت من جده الى والده ومن ثم اليه ، وهي من الساعات المعروفة بـ (أم الطمعة) يرجع تاريخ صنعها الى سنة ١٧٤٩م كما هو مثبت في داخلها وهي بحالة جيدة وتشير الى الوقت بدقة حتى هذه اللحظة ! ! .

يا ترى كم من هذه الساعات الاثرية يحتفظ بها البعض ولا نعلم عنها شيئا ! ! ! .

ماذا لو دعت جهة من الجهات المختصة ولتكن امانة العاصمة الى تملك امثال هذه الساعات التي كانت تزين جدران البيت البغدادي أيام زمان والتي يحتفظ بما تبقى منها بعض المواطنين والمودع بعضها الاخر وقفا في بعض المساجد والجوامع الكبيرة خاصة بعد ان أصبحت نادرة وتمتاز بمسحة اثرية ووضعها في جناح خاص من المتحف البغدادي لتمثل جانبا من مخلفات المجتمع البغدادي في القرن الماضي قبل ان تختفي وتزول ويمحى اثرها ؟ لاشك انها ثروة تراثية لا تعوز ! ! .

ومن طريف الاخبار ما ذكرته مجلة لغة العرب في مجلدها الثاني - العدد ١ عن تموز ١٩١٢ في باب (تاريخ وقائع الشهر) . . وهو خبر الساعة الزوالية الذي يقول : «اتخذت الحكومة في دواوينها العسكرية والملكية الساعة الزوالية (الفرنجية) مع بقاء الساعة القروية للصلاة والاذان وعليه فيكون

الانكليز بغداد عام ١٩١٧ مع التاج وتمثال الجمل وبعض الاصلاحات والاضافات الاخرى على البرج .

وكان تمثال الجمل الذي وضع فوق مرتكز الرمح قد صنع من البرونز للقائد الانكليزي «لجمن» الذي جاب الصحراء العراقية وهو يركب الجمل فاسقط هذا التمثال مع التاج من فوق برج الساعة بسقوط النظام الملكي في العراق في تموز عام ١٩٥٨ م .

وكانت تعترض ساعة القشلة مشاكل بسيطة وسببها المطر والغبار اللذان يدخلان الساعة عبر الشبابيك فيؤديان الى تعطيلها عن العمل مما يستوجب مسحها وتنظيفها وطلاءها بالدهن باستمرار . . وكان الرجل المسؤول عن كل ذلك وعن توقيتها وضبطها وادامتها يدعى السيد عبداللطيف احمد الساعاتي وهو في العقد السابع من العمر عايش هذه الساعة وظل يعمل معها قرابة النصف قرن ، وقد توفي رحمه الله في مطلع عام ١٩٧٨ م . . وقد خلفه في هذه المهمة المدعو السيد جبار وهو شاب في مقتبل العمر فتمنى له العمر المديد ومزيدا من الاهتمام في رعاية اقدم ساعة في بغداد . .

ساعة القشلة وتجربة التوقيت في الاذاعة والتلفزيون

ثبت ان ساعة القشلة من الساعات المضبوطة في توقيتها لان حركتها (ميكانيكيها) مؤسسة على اجود وادق النظريات في صناعة الساعات ولهذا السبب ومنذ تأسيسها كان اعتماد الكثير عليها في توقيت ساعاتهم . . لذا يجب ان تنال هذه الساعة قسطا كبيرا من الاهتمام والرعاية لادامة ضبطها للوقت . وبهذه المناسبة نطرح وسبق ان طرحنا اكثر من مرة تجربة مهمة تهم الجميع لعل المؤسسة العامة للاذاعة والتلفزيون ان تفيد منها في ضبط الوقت داخل المؤسسة على الاقل فيكون بإمكان اذاعة بغداد وصوت الجماهير وتلفزيون بغداد ان ينهوا الخلاف والاختلاف الذي لا يزال مستمرا بل صار مزمن . . فتدق الساعة في احدى هذه المحطات في الوقت الذي نسمع فيه نشرة الاخبار قد بدأت تداع من محطة اخرى ، والبرنامج المقرر لم ينته بعد في المحطة الثالثة وهكذا يقع المواطن في حيرة من امره وهو ممسك بزمام ساعته يريد ضبط الوقت فيها وتوقيتها ! ! . .

والجربة تتلخص في شروع الاذاعات البريطانية

الليل والفجر حيث يستيقظ على دقاتها العمال والموظفون ليذهبوا الى اعمالهم اضافة الى انها كانت تزينا المصاييح مما يساعد على رؤيتها من مسافات بعيدة في الليل . . اما اليوم فان البنايات العالية حجبتها عن الانظار كما حجبت صوتها عن الاسماع وكان الناس قد اعتادوا ان يضبطوا ساعاتهم والموظفون ان يتبينوا بها مواعيد بدء الدوام الرسمي وانتهائه من دواوين الحكومة فهي الحكم الفصل في كل اختلاف بالزمن .

بنيت القشلة وبرج ساعتها وبعض ابنيّة مدحت باشا التي تميز بها عهده من حجارة سور بغداد الشرقية حيث كان قائما يومذاك ، وقد هدمه الوالي المذكور على اعتبار ان بغداد ليست في حاجة له بعد استعمال المدافع كاسلحة حديثة في الحروب وذلك الحصون .

انتصب برج ساعة القشلة الذي يطل على شاطئ دجلة الشرقي على مساحة مربعة الشكل طول ضلعها اربعة امتار يضيق كلما ارتفعنا عن الارض شبيها بالهرم وكان في تصميمه ايضا يشبه الى حد بعيد المذنة ، وارتفاعه ثلاثون مترا ، وبداخله سلم حلزوني يحتوي على (٧٢) درجة ، وفي نهايته حوض كبير يضم مكائن الساعة ذات الجهات الاربع ، كما يوجد ايضا جرس الساعة الذي يبلغ ارتفاعه مترا واحدا وقطره ثلاثة امتار وهو منفصل عن الساعة وعند عملية التشغيل تتصل الساعة بالجرس بواسطة جسر صغير ، وتتم عملية النصب بواسطة مفتاح يشبه الى حد كبير « هندر السيارات » لتعطي الساعة قوة تشغيل لمدة عشرة ايام والجرس لمدة سبعة ايام . ولهذه الساعة اربعة اوجه فالوجهان الجنوبي والغربي على التوقيت الفرويبي (العربي) وتشير عقاربها الى الزمن بالرقم العربي المألوف ، اما الوجهان الاخران وهما الشمالي والشرقي فعلى التوقيت الزوالي (الافرنجي) وتشير عقاربها الى الزمن بالرقم اللاتيني القديم . .

ويعتلي برج الساعة سهم حديدي قائم يرتبط في منتصفه بسهم حديدي بشكل افقي متحرك يؤثر هذا الرمح حركة الرياح واتجاهاتها . . ويوجد سهم آخر تحت السهم المتحرك رسم فيه الحروف (N) بالانكليزية ويعني اتجاه الرياح الشمالية ، والحرف (S) ويعني اتجاه الرياح الجنوبية حيث يؤثر السهم المتحرك عند هبوب الرياح على واحد من هذين الحرفين لمعرفة اتجاه الرياح ، وقد صنع مؤشر الرياح هذا عند دخول

في التوقيت على ساعة (بكين) الشهيرة في لندن وكذلك الاذاعات والتلفزيون في الشقيقة جمهورية مصر العربية في التوقيت على ساعة جامعة القاهرة، فحين تدق الساعة في الجامعة تكون قد دقت في داخل الاذاعة والتلفزيون معا في اللحظة ذاتها وهذا مما يجنبها الاختلاف في ضبط الوقت ، وسوف لن تكون هذه التجربة بأقل نجاحا مع ساعة القسلة اذا اريد لها ان تكون اساس التوقيت لمدينة بغداد !! .

ساعة الكاظمين (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م)

ومن ساعات بغداد القديمة ذات الابراج ساعات المشهد الكاظمي الذي يضم قبري الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام ، فكانت الاولى على الباب الشرقي مقابل ساحة النافورة ، والثانية على الباب القبلي ، وكان قد اهدى الساعة الاولى وهي من الساعات الكبيرة الوزير الايراني « دوست محمد خان » عام زيارته للعراق بصحبة ملك ايران ناصر الدين شاه سنة (١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م) ولما لم يكن لها موضع تنصب فيه فقد بقيت في مخزن الهدايا العائد للمشهد الكاظمي الى حين شيدت قاعدة وبرج تنصب عليه ، وتم ذلك في حدود سنة (١٣٠١هـ / ١٨٨٣م) وهي قائمة الى اليوم تعمل بانتظام ..

اما الساعة الثانية وهي اكبر واضخم من الاولى فقد وضعت على الباب القبلي وقد اهدى هذه الساعة احاج محمد مهدي ابوشهري الايراني بعد تشييد القاعدة الثانية والبرج وكان ذلك سنة (١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م) .

وقد ارتبط تاريخ هاتين الساعتين بالمشروع الضخم لتجديد عمارة المشهد الكاظمي والذي تطوع على الانفاق عليه الامير (فرهاد ميرزا القاجاري) عم ناصر الدين شاه عام (١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م) . وقد اوكل على ذلك اثنين من كبار تجار الكاظمية وهما الحاج عبدالهادي والحاج مهدي الاسترياديان للقيام بهذه المهمة واذن لهما التصرف المطلق والانفاق بالمبلغ غير المحدود ، فكان بدء العمل بالعمارة يوم (١٧-ذي القعدة- ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٨م) والانتهاء منه بجميع ما فيه في (١٧- ربيع الاول - ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م) واحتفل بهذه المناسبة لمدة ثلاثة ايام ، ويقال ان مجموع نفقات هذه العمارة بلغ مائتي الف ليرة عثمانية .. وقد اشتمل هذا التعمير على بناء سراديب منظمة

لدفن الموتى في ساحة الصحن وازوايه وحجراته ، وتذهيب المنائر الاربع الكبرى من حد ووقوف المؤذن الى قمته ، وتشيد سور مرتفع للصحن يتكون من طابقين بالاجر بعد ان كان من اللبن ، ثم تأسس قاعدتين ضخمتين في سطح الطابق الثاني من الصحن فوق البابين الرئيسيين في جانبي الشرق والجنوب لتقوم عليهما ابراج الساعتين ، وقد استغرق هذا البناء الضخم اربع سنوات ، ومن ثم تم نصب الساعتين المذكورتين عليهما .

وقد امتازت الساعة التي نصبت على الباب القبلي بفخامتها اضافة الى قدمها وجمال برجها ، فكان بداخل البرج سلم خشبي ذو عشرين درجة . اما آلة الساعة فقد ركزت في الطبقة الثانية وهي ذات اربعة اوجه مدورة ، تدق الساعات والانصاف والارباع وتحتوي على جرس ومطرقة فخمين .. وكان الصوت المنبعث منها عاليا جدا يصم الاذان فافرغت في الجرس كمية من الرصاص للتخفيف من حدة الصوت .. ويبلغ ارتفاع البرج اعتبارا من سطح الباب الى القمة - وهي على شكل خوذة ذهبية الطلاء - ستة عشر مترا ونصف المتر ، كما بلغ عرض الكتابة ثلاثة امتار ، وغرفة الآلة خمسة امتار .. وقد زاد في روعة منظرها ذلك الكاشاني الجميل النقش والزخرفة البديعة اللذان يكسوان جدرانها ..

ومن اهم المشاكل التي كانت تعترض الساعة آنذاك انها حين تتوقف عن العمل ويعجز المصلحون المسلمون عن تصليحها يتخرج اوقف بدخول المصلحين الاجانب الى المشهد المقدس بدافع الاضطراب .. ومن طريف ما يروى عن تصليح هذه الساعة يوم توقفت ما ترويه السيدة « مدام ديولافوا » الادبية والمؤرخة الفرنسية يوم زارت العراق برفقة زوجها المهندس « مارسل ديولافوا » ودونت مشاهداتها في رحلتها المشهورة سنة (١٨٨١م/ ١٢٩٩هـ) .. وفي رحلتها من بغداد الى الكاظمية بالكاري برفقة خادم القنصلية الفرنسية تذكر انهم تعرفوا في بغداد على مهندس فرنسي خبير في تصليح الساعات يعمل في بغداد ويدعى « المسيو موكل » فزودهم بتوضيحات كافية عن المشهد الكاظمي المقدس ، واعطاهم صورة موضحة للمقبرة بكافة مرافقها بعد ان نقلوا اليه تفاصيل سفرتهم غير الموفقة هذه ، وحدثوه بما راوه من صعوبات ومضايقات في زيارتهم لهذا المشهد ، ولم يستطع هو ايضا الدخول اليه في مبدأ الامر لكونه نصرانيا ، لكن الساعة الكبيرة في الصحن توقف دقاقتها الكبير في يوم من الايام وتعرض تصليحه فترع

هو لاصلاحه وتشغيل الساعة ، فحمل ادواته الهندسية ، وآلة التصوير الدقيقة في الوقت نفسه واستطاع ان يلتقط عدة صور من فوق السطح والبرج ومن الجوانب المختلفة . وتذكر السيدة مدام ديولافوا : ان الدليل خادم القنصلية الفرنسية وهو مسلم هندي وكان يلبس الطربوش ويجيد اللغة العربية المحلية - قد اكد انه لم يسبق لاحد الا فرنج ان دخل هذا المشهد المقدس ابدا . . . ! !

ساعة الحضرة الكيلانية (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م)

وبعد بضع سنوات من نصب ساعة الكاظميين اهديت من المسلمين بالهند ساعة كبيرة ذات وجهين تدق الساعات وانصاف الساعات فقط الى الحضرة الكيلانية المقدسة في بغداد ، وفلا تم نصبها في الحضرة المذكورة وكانت تعمل بانتظام حتى حلت محلها ساعة ضخمة اخرى ذات اربعة اوجه كبيرة وهي الساعة القائمة اليوم في صحن الحضرة الكيلانية ، ورفعت الساعة القديمة من محلها وقدمت هدية الى مديرية الاوقاف لتنصب في جامع الامام الاعظم في الاعظمية . . اما الساعة الجديدة فهي ذات اربعة اوجه مدورة كبيرة وتحتوي على ثلاثة اجراس احدها للساعات والاخر لتصف الساعات والثالث للارباع . . وقد تم صنع هذه الساعة الفخمة في معامل (بونه) الشهيرة في مدينة بومبي بالهند . وقد شيد لها المرحوم عبدالرحمن النقيب ، نقيب اشرف بغداد الاسبق المتوفى سنة ١٣٤٥هـ ، برجاً عالياً يبلغ ارتفاعه (٣٠) متراً ، وكان الانتهاء من تشييده في سنة (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) كما هو مدون على واجهة البرج الشمالية بالكاشاني الازرق البديع ، ونقشت طغراء السلطان عبدالحميد خان بالكاشاني الازرق ايضا وتحتها سنة ١٣١٧هـ على واجهته الغربية ، وثبت لوح من الرمر كتب عليه اطراء وثناء ودعاء للسلطان عبدالحميد الثاني على واجهته القبلية وكانت هذه الكتابات بخط السيد عبدالجبار آل خان زاده رئيس كتاب مديرية اوقاف بغداد سابقا والمتوفى سنة ١٣٣٤هـ . وكان البرج من صنع المعمار البغدادي الحاج اسطه درفي الذي حاكى في بنائه برج ساعة القشلة وكان لا يخلو من بعض الاضافات منها المحجران السفلي والعلوي فوق حجرة الساعة واللذان يحيطان بالبرج من جهاته الاربع ، ويرتقى الى الساعة من داخل البرج بسلام خشبية .

وقد قام هذا البرج على قاعدة ارضية طول ضلعها ثلاثة امتار ونصف المتر ثم يرتفع البرج

هرميا حتى يصل عرض ضلعه المترين ونصف المتر وهي شبيهة بساعة القشلة الشهيرة في كثير من الوجوه . . وتعرض هذه الساعة من المشاكل ما تعرض ساعة القشلة من مطر وغبار مما يستوجب مسحها وتنظيفها وطلاءها بالدهن باستمرار ويقوم بكل ذلك وعن توقيتها وضبطها وادامتها رجل في العقد السابع من العمر وهو من الهنود المسلمين الذين نذروا انفسهم لخدمة الحضرة الكيلانية المقدسة ويدعى هذا الرجل (غلام دستكير) الذي ظل يزاول خدمته هذه منذ اربعين سنة ونيف والى يومنا هذا . .

الساعة الاعظمية (١٣٥٠هـ / ١٩٣٠م)

يحق لكل عراقي ان يتيه فخرا واعتزازا بكل ما ابدعته اليد العراقية الماهرة في الحقل الصناعي على مر العصور ويزهو بنفسه على ذلك العطاء الثر الذي قدمه للانسانية مساهمة منه في كثير من مجالات الفكر والعلم والفن والصناعة . وقد اثبتت الايام بان كثيرا من القابليات والكفاءات ظلت فترة من الزمن مطوية في عراقنا الحبيب حتى اذا ما تهيأت لها الفرص المسعفة برزت للوجود فبرهنت للملا على نبوغ العراقي وابداعه في جميع المجالات وكشفت عن قابلياته وجلت مواهبه ونهضت دللا على ان النبوغ والابداع لا يختصان ببلد دون اخر وينفرد بهما شعب دون سائر الشعوب . وكان من هؤلاء النوابغ المبدعين الذين تهيأت لهم فرص العمل بعصامية فذة وب عقلية مبدعة متطورة المرحوم الحاج عبدالرزاق محسوب الاعظمي منشيء الساعة البغدادية المشهورة باسم « ساعة العرض » او الساعة الاعظمية نسبة الى الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي - رحمه الله - .

وتبدأ قصة هذا الصانع الموهوب مع الساعة الاعظمية في عام (١٣٣٧هـ / ١٩١٩م) يوم اهديت الساعة الكبيرة ذات الوجهين والتي كانت منصوبة في الحضرة الكيلانية كما قدمنا الى جامع الامام الاعظم لتصليحها ونصبها فيه غير ان هذه الساعة كانت قديمة وقد تلف الكثير من اجزائها اثناء رفعا ، وقد طلب ناظر الاوقاف في حينه الى سلطات الاحتلال البريطاني ارسال خبير لتصليحها ، كما كتب الى الدوائر المختصة للقيام بذلك ، غير ان النتيجة كانت سلبية مما اضطر دائرة الاوقاف الى الاعلان عنها في جريدة العراق الصادرة في (١٧ شباط ١٩٢١) تطلب من بعض المتعهدين من ذوي الاختصاص في موضوع تصليح تلك الساعة مراجعتها

وكان ذلك الاعلان بتوقيع الحاج حمدي الاعظمي (العالم الفقيه والاستاذ في تدريس الشريعة الاسلامية في كليات بغداد ومؤسس المكتبة المعروفة باسمه والكائنة في محلة السفينة بالاعظمية) . وكان آنذاك مديراً للاوقاف ، فلم يلب الطلب احد .

وفي (١٩ آذار ١٩٢١) تقدم اليها الحاج عبد الرزاق محسوب الاعظمي متعهدا بتصليحها ، فلما فحصها وجدها غير صالحة ، فراودته فكرة القيام بصنع ساعة مثلها ، فأعلن تعهده على انشاء ساعة جديدة بعد ان ذكر ان الساعة القديمة لا يمكن اصلاحها .. وقد وافقت مديرية الاوقاف على الطلب بتاريخ (٢٠ آذار ١٩٢١) وكتبت له بتاريخ ٢٤ منه بموافقتها على قيامه بصنع ساعة جديدة بدلا عن تلك الساعة التالفة .. وفي ٢٥ منه بدأ المشروع ينفذ في معمل محسوب في الاعظمية (ولا تزال بناية المعمل قائمة حتى اليوم في محلة الشيوخ قرب جامع ملا خطاب) ..

وكانت فكرة رائعة تحكمت في احساسه ومشاعره حتى اقضت مضجعه في الليل واستنزفت الكثير من وقته في النهار ، فراح يرسم خطوطها الرئيسية منذ تلك اللحظة ودب نشاط غير اعتيادي في معمل السيد محسوب الذي راح يوزع الاعمال بين عماله باهتمام بالغ وجدية ملحوظة وفي ذهنه تصميم لصنع ساعة كبيرة مع هيكلها الخاص ذات اربعة اوجه بدلا من تلك الساعة ذات الوجهين ، وهكذا واصل السيد محسوب عمله المضني في صنع هذه الساعة بهمة لا تعرف الكلل والملل وبمساعدة ولديه السيدين محمد رشيد وعبد الهادي حتى افرغ في سبيل ذلك كل جهد وانفق كثيرا من المال فاتم صنعها بتاريخ (٢٨-١٢-١٩٢٩م / ١٣٥٠هـ) وبعد الانتهاء من صنعها وتنظيمها واجراء بعض الفحوص والتجارب عليها امام جمهرة من اهل الخبرة وشاهدي العيان طلب من ادارة الاوقاف تسلمها هبة منه وبدون عوض بدلا من تلك الساعة التالفة لتقوم بنصبها في جامع الامام الاعظم متبرعا بها لوجه الله تعالى ، وطلب اليها القيام ببناء البرج المناسب لها وارفق طلبه بمخطط لذلك البرج . الا ان العقليات القاصرة وغير المدركة التي كانت تسيطر على شؤون الاوقاف حينذاك تشككت في صنعها فأخذت تماطل في ذلك . واخيرا رفضت تسلمها فاحتفظ بها واقام لها برجا حديديا في جانب من

معمله الكائن في الاعظمية وقد تجاوزت آفاقه بأصداء دقائق تلك الساعة وهي تعلن عن الوقت بانتظام وتبارك جهود السيد محسوب وعمله المبدع في خدمة بلاده .. ومما هو جدير بالذكر ان جميع اجزاء هذه الساعة وآلاتها كانت عراقية الصنع مائة في المائة بحيث لم يستورد اي جزء لها من الخارج اذ قامت بصنعها وهندستها الايدي الفنية العراقية في معمل محسوب وبإشرافه .

ولما اقيم المعرض الزراعي الصناعي في حدائق بيبان المعظم في بغداد والذي افتتح في (٧ نيسان - ١٩٣٢م) في عيد الملك فيصل الاول ، نقلت اجزاء هذه الساعة الى حدائق المعرض في الفترة ما بين (١٠-١ آذار-١٩٣٢) لتتنصب على ارضها ، فكانت هذه الساعة الشامخة - والتي فازت بحق وجدارة بالجائزة الاولى - من ابرز المعروضات واجدرها باهتمام الجمهور . واخيرا وبعد هذا الفوز الساحق على غيرها من المعروضات وافقت الاوقاف على تسلمها وتسليمها بالفعل لا لتوضع في جامع الامام الاعظم وانما لتوضع رهن التوقيف والحجز في احد مخازنها فداهمها الصدا وكادت ان تتلف لولا ان تداركها قرار مجلس الوزراء الصادر بعد ثورة تموز المجيدة عام ١٩٥٨م والقاضي بالافراج عنها ونصبها على برج يناسبها في جامع الامام الاعظم ..

بقيت الساعة تعمل بانتظام في حديقة المعرض حتى اواخر شباط من سنة ١٩٣٣ حيث طلبت السلطات المختصة من صاحبها رفعها من مكانها فاعيدت الى المعمل في الاعظمية .. وهناك وضعت آلاتها بعد تفككها في صناديق انتظارا لنصبها في جامع الامام الاعظم .. وقد استمرت دائرة الاوقاف تماطل في بناء البرج متعللة بشتى المعاذير بالرغم من الحاج صاحبها الذي توفاه الله في (٧-١١-١٩٥٣) وفي نفسه حسرة لانه لم يشاهد ساعته فوق برجها الذي صممه وفقا لذلك حتى هيا الله لها ان تنصب اخيرا في اواخر عام ١٩٥٨ في مكانها الحالي في ساحة جامع الامام الاعظم بجهود نجل صانعها الدكتور صالح عبدالرزاق (عضو محكمة تمييز العراق سابقا) وبمساعدة اخوته ..

ومن طريف ما يروى ان السيد فؤاد حفيد الحاج عبدالرزاق محسوب كان تلميذا في مدرسة الاعظمية الثانية للبنين واحتاجت مدرسته الى جرس لتنبيه الطلاب الى مواعيد الدروس والفرص

المشهد الرائع والحدث المهم في تاريخ النهضة العراقية : « .. وكان الناس محتشدين حول الساعة العظيمة - الاعظمية - التي صنعها احد ابناء البلدة المشرفة باسم الامام الاعظم وبهجرته لتعرض في معرض الزراعة والصناعة ببغداد . وكانت الساعة قائمة في باحة المعرض الكبرى فوق قاعدة عالية من الحديد ، وهي تردد نبا الزمان - ايامه وساعاته ودقائقه - وتبشر العراق بعهد جديد . والناس متلعون ، والعيون منهم محدقة بهذا الاثر الصناعي العربي البغدادي الاعظمي ، والكل معجبون به - هذه الساعة مفخرة المعرض ، والله بل مفخرة للعراق - ومن ذا الذي يقول ان العقل العربي عقيم لا يحسن الاختراع - انها بيت القصيد في هذا المعرض - وقد قال احدهم : قد يكون صانعها من سلالة ذلك العربي الذي صنع الساعة التي اهداها الخليفة هارون الرشيد الى اهل الفرنجة الامبراطور شارلمان .

ترجمة الحاج عبدالرزاق محسوب

وجدير بنا هنا ان نتعرض لحياة الحاج محسوب ومواهبه وخبرته الغنية الصناعية في غير مجال عمل الساعات ونلقي بعض الضوء على فترة من فترات التاريخ مرت على عراقنا الحبيب من خلال حياة صانع الساعة الاعظمية :

ولد الحاج عبدالرزاق محسوب في بلدة الاعظمية يوم كانت قرية من قرى بغداد سنة ١٢٩٢ هـ ، وقد دخل المدرسة الابتدائية ولم يتمها بعد ان تعلم مبادئ القراءة والكتابة فيها فتركها وانصرف ينمي رغبته الى تعلم احدي الحرف الصناعية فاختر حرفة النجارة فأبدى فيها براعة متناهية ، وقد مارس هذه المهنة حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى حيث ارسل كجندي اجباري مع القوات العثمانية لمحاربة الانكليز في جنوب العراق ، واشترك في معركة « الحويزة » .. وعندما انتصر العثمانيون في هذه المعركة وغنموا من الانكليز مدفعين كانت القوات البريطانية قد جردت احدهما من جميع آلاته الدقيقة ومنها (القامة) ..

وبالنظر لعدم توفر الاسلحة الحديثة لدى القوات العثمانية فقد حاولت الاستفادة من هذا المدفع ولذلك عرضته على مهندسيها المختصين

فوعد التلميذ معلمه المرشد بتهيئة جرس للمدرسة المذكورة وفعلوا بر التلميذ بوعده فجلب جرسا من اجزاء ساعة جده المفككة وكان بحجم جمع الكف ولما استعمل كان له رنين واضح يفوق حجمه بكثير وكانت تلك بداية معرفة تلاميذ مدرسة الاعظمية بتلك الساعة العربية ..

وبعد ثورة تموز ١٩٥٨ عهد الى وزارة الاسكان بناء الابواب الرئيسية وسياج الجامع مع برج الساعة ، وبعد وضع التصميم والخرائط بوشسر بالعمل ونفذ بناء برج الساعة بالكونكريت المسلح وعلى شكل اسطواناني وبارتفاع (٢٥) مترا ومحله قرب الباب الرئيسية من جهة الشرق ثم كسي البرج بالفيسفساء الايطالي ذي اللون الازرق والابيض ، كما بنيت الابواب على شكل اقواس ثلاثة بالكونكريت المسلح ايضا كما كسيت بنفس النوع من الفيسفساء . وبعد اكمال بناء البرج سنة (١٣٨١ هـ / ١٩٥٨ م) نصبت الساعة المذكورة اعلاه وهي قائمة تعمل بانتظام ودقة ..

وفي سنة ١٩٧٣ م قامت الاوقاف باكساء البرج بصفائح من معدن الالمنيوم المضلع ذي اللون الذهبي فزاد ذلك من روعة منظره ..

اما عن وصف هذه الساعة : فقد بلغ ارتفاعها ثمانية اقدام ، وهي ذات وجوه اربعة مدورة ، وقطر كل منها متران ، وعلى كل وجه ثلاثة عقارب ، اثنان منها يشيران الى الدقائق والساعات والثالث يشير الى الايام ، وصممت هذه الساعة على مبدأ الثقل حيث يتدلى منها ثلاثة اثقال تحرك ثلاث مكائن ويقع موقع الثقل الأول في الوسط وهو الذي ينظم حركة العقارب ، وموقع الثاني من الجهة اليمنى وهو الذي ينظم دقات اربع الساعة ، وموقع الثالث في الجهة اليسرى وهو الذي يعلن بدقات قوية عن الوقت ، ويبلغ وزنها ثمانية اطنان من الحديد ..

وليس ادل على مبلغ ما استأثرت به هذه الساعة من اهتمام رواد المعرض الزراعي الصناعي عراقيين واجانب مما اورده (امين الريحاني) خطيب المعرض المذكور عند افتتاحه فقال يصف

بصناعة الاسلحة فقرروا عدم صلاحه وعدم امكن
تصليحه لتعذر توفير الآلات المفقودة وعدم تمكن
المعامل العثمانية من صنعها .

وقد دفعت الحمية الدينية المرحوم عبدالرزاق
فطلب الى السلطات العسكرية قبول استعداده
بصنع نواقص المدفع المذكور على مسؤوليته
الخاصة واحتماله عقوبة الاعدام في حالة فشل
المهمة ، وبعد مراجعات طويلة ومتعددة والحاج
متزايد وافقت السلطة العسكرية على طلبه في تصليح
الادوات المفقودة على ان يباشر عمله هذا في معمل
(العباخانه) ببغداد ، وبعد عراقيل كثيرة وضعها
في طريقه المهندسون ومدراء المعمل يدفعهم لذلك
عامل الحسد والفيرة اتم بنجاح صنع جميع الآلات
الناقصة في المدفع ، واجريت تجربته بنجاح قرب
الاعظمية خلف ثكنة الخيالة وبحضور القائد يوسف
ضياء بك وغيره من كبار العسكريين وجمع غفير من
الاهالي . . ومن اطرف ما يروى عنه : ان شركة
انكليزية معينة افتتحت لها فرعا في بغداد ابان
الاحتلال الانكليزي وحصرت استيراد الادوات
الحديدية والاحتياطية بها وراحت تفرض على
سلمها اسعارا خيالية لا يقبلها العقل فكان الحاج
عبدالرزاق محسوب يذهب لمقر الشركة ويتناول
الاداة التي يحتاجها ويبدأ يتفحصها بدقة اثناء
المساومة حتى يتأكد من شكلها وابعادها ومقاييسها
ثم يقفل راجعا لمعمله لينتج اشباها لها يبيعها باثمان
زهيدة حتى ضج منه مدير الشركة بعد ان علم بحاله
فاصدر تعميما يقضي بمنع دخوله الى مقر الشركة
.. هذا هو الصانع البغدادي الموهوب الحاج
عبدالرزاق محسوب رحمه الله وجعل مثواه فسيح
جناته . . ! ! .

ساعتنا المحطة العالية

وجدير بالذكر في معرض هذا البحث ان نذكر
ساعتي محطة السكك العالمية وقد نصبت هاتان
الساعتان على برجين شامخين يرتفعان على واجهة
الباب الشرقي من ابواب هذه المحطة التي اكمل
بناؤها عام ١٩٥٥ ، وما اروع وازهى منظر البرجين

وهما يحتضنان القبة الزرقاء ذات الطابع الشرقي
الاسلامي . . وقد علت كل برج منهما ساعة كبيرة
ذات الوجه الواحد المدور ، فالساعة الجنوبية منهما
تعلن عن الوقت بالتوقيت الغروي (العربي) ،
والساعة الشمالية تشير الى الزمن بالتوقيت
الزوالي (الافرنجي) .

الساعات وامانة العاصمة

ان امانة العاصمة كدائرة من دوائر الدولة
وجهاز حيوي انيطت به مسؤوليات جسيمة تتجلى
بالخدمات الاجتماعية المتنوعة لسكان العاصمة
وتحقيقا لشعار « من اجل بغداد اجمل » ادركت
مهماتها وعملت وما تزال وبشكل مستمر من اجل
اضفاء المسح الجمالية لوجه مدينة بغداد . . ومن
هذه المهمات ادراكها لاهمية الوقت بالنسبة
للمواطنين واعترافا منها بقيمته حيث اصبح ضبط
الوقت حاجة اجتماعية عامة لذا اهتمت بتوفير
امكانيات معرفة الوقت بنصب الساعات الزمنية
الجدارية وساعات الزهور الناطقة والساعات
البرجية . .

ساعات الزهور

وكانت ساعة الزهور التي نصبت في احدى
ساحات متنزه الزوراء باكورة اعمالها في هذا
المجال . . وبعد ذلك عمت الفكرة بشكل اوسع
فنصبت ساعة زهور ثانية ذات الوجه الواحد في
« متنزه الاعظمية » الكورنيش . وساعة ثالثة ذات
الوجه الواحد ايضا في « ساحة النصر » في الكرادة
الشرقية ، وساعة زهور ناطقة رابعة في « متنزهات
شارع ابي نواس » مقابل مديرية الحفر والآلات
الزراعية ، كما نصبت ساعة زهور ذات الوجه
الواحد في « ساحة الامام الجواد » المقابلة لمركز
شباب الكاظمية ، اما الساعة السادسة والاخيرة فهي
ساعة زهور ناطقة ذات الوجهين نصبت في الساحة
التي يلتقي عندها شارعا حيفا بموسى الكاظم في
منطقة الجعفر في الكرخ وهي « ساحة الشهيد
حماد شهاب » .

اما الآن فقد رفعت من مكانها بعد ان عبثت
بها يد الاطفال فخربتها وعطلتها عن العمل . .

الساعات البرجية

والى جانب الساعات الزمنية الجدارية وساعات الزهور الناطقة قامت امانة العاصمة مجموعة من الساعات المتعددة الوجود والمعلقة على ابراج ذات تصاميم متنوعة ومتعددة الاشكال . فقد نصبت ساعة برج ذات اربعة وجوه في «ساحة الشواف» في كرادة مريم في الكرخ .. وساعة برج ثانية في «ساحة يونس السبعائي» ساحة الطيران سابقا وهي ذات وجهين احدهما باتجاه شارع بور سعيد والاخر باتجاه شارع بي تمام وهناك ساعة برج ثالثة ذات اربعة وجوه في «ساحة الفتاح» مقابل متنزه الاوبرا في منطقة الكرادة الشرقية ، اما الساعة الرابعة فهي ذات وجهين نصبت في « المدخل الرئيسي لمتنزه الزوراء » .. والساعة الخامسة ذات الاربعة وجوه في «ساحة باب المعظم» . وقد رفعت الان بسبب مقتضيات تنظيم الشوارع المؤدية الى جسر ١٧ تموز في الباب المعظم على ان تعود في موقعها المناسب بعد اتمام العمل ..

وفي سنة ١٩٧٣ تم نصب ساعة برج الجامعة في «ساحة الحرية» على شارع الجامعة المؤدي الى رئاسة جامعة بغداد في منطقة الجادرية ، وهي ذات اربعة وجوه تقوم على برج يبلغ ارتفاعه خمسة امتار ويرتكز على قاعدة مساحتها حوالي اثنين مربعين ، وتعلن الساعة عند الاشارة بثلاث لغات هي العربية والانكليزية والفرنسية . والساعة الاخيرة تم نصبها سنة ١٩٧٤ في الساحة التي يلتقي عندها شارع سعد بن ابي وقاص بشارع المثني بن حارثة الشيباني في منطقة العلوية قرب مصلحة المجاري وهذه الساعة ذات الاربعة اوجه وتقوم على برج ذي شكل هندسي جميل ارتفاعه ستة امتار تحيط به ثلاثة احواض كونكريتية دائرية متباينة السعة والارتفاع لاستخدامها في زراعة بعض النباتات المناسبة .. كما قررت امانة العاصمة توسيع شبكة نصب الساعات ذات الابراج في مختلف انحاء بغداد وضمن حدودها وقد شرع العمل لاختيار الاماكن المهمة والمناسبة لذلك في مدينتي الثورة والشعلة وغيرهما من المدن والضواحي ..

وقد تم اخيرا نصب مثل هذه الساعات في

«ساحة كمال جنبلاط» في الكرادة الشرقية - الزوية - واخرى في «ساحة جمال عبدالناصر» في الصالحية واخرى في «ساحة النهضة» على شارع الجمهورية ..

والجدير بالذكر ان جميع هذه الساعات تشغل ودار بواسطة التيار الكهربائي ، ومن عيوب ذلك ان اصبح الخطأ مرضا مزمنيا فيها وذلك يحصل بسبب انقطاع التيار الكهربائي عن بعضها فتتوقف عن العمل لحين عودة التيار الكهربائي اليها وحين يعود تكون الساعة قد اشارت الى الوقت بشكل خاطيء عن الوقت الصحيح مقدار الفترة الزمنية التي قطع فيها التيار عنها ، وتلافيا لثل هذه الحالات وغيرها فقد خصصت امانة العاصمة كادرا متخصصا من العمال والمهندسين الكهربائيين لصيانة وادامة تلك الساعات والاشراف عليها بصورة مستمرة من حيث نصب وضبط وقت تلك الساعات واصلاحها في حالات الخلل الذي قد يطرا عليها . وهذه الكوادر المتخصصة لديها الاجهزة واللوازم الخاصة بذلك ، علما بان اصلاح الساعة لا يمكن ان يتم بشكل فوري بل يحتاج الى الوقت الذي يتم فيه التبليغ حيث تنقل فيه وحدة صيانة اليها لتقوم باصلاحها ..

وقد روعي في توزيع هذه الساعات المكان المناسب لنصبها وتحقيق اوسع خدمة للجمهور لذا فقد وضعت في التقاطعات المهمة وبعضها باربعة وجوه بينما البعض الاخر بوجهين او وجه واحد فقط .. اما ساعات الزهور الارضية فقد اختير لنصبها بعض الساحات المهمة تحقيقا لغرضين في آن واحد : اضعاف مساحة جمالية على المدينة وضبط الوقت فيها .

ان الاهتمام بتوفير هذا العدد من اجهزة التوقيت في الشوارع والساحات العامة والمتنزهات يدلل بوضوح على تزايد الادراك بقيمة الوقت في حياة الشعوب المتطلعة الى حياة افضل .. وان فكرة تعميم هذه الساعات وهذا الاهتمام بالوقت جاء في وقت متأخر من قبل المسؤولين في امانة العاصمة حيث كانت البداية في نصب الساعات المذكورة آنفا في سنة ١٩٦٨ وما زالت الجهود متظافرة لتعميمها على المناطق المهمة في مدينة بغداد وضواحيها ..

مراجع البحث

- ١ - ارشيف أمانة العاصمة .
- ٢ - البار الأشهب - إبراهيم الدروبي .
- ٣ - بغداد القديمة - عبدالكريم العلاف .
- ٤ - تاريخ المشهد الكاظمي - الشيخ محمد حسن ال ياسين .
- ٥ - جامع الامام الأعظم - الشيخ هاشم الأعظمي .
- ٦ - رحلات الى العراق - سرواليس بيج ، ترجمة فؤاد جميل .
- ٧ - رحلة مدام ديولانوا - ترجمة ونشر علي البصري .
- ٨ - فيصل الاول - أمين الريحاني .
- ٩ - قصة الوقت - ناجي جواد الساعاتي .
- ١٠ - مجلة أمانة العاصمة - العدد (١٤) تحقيق عن بمناسبة القشلة ، عادل المرادوي .
- ١١ - مجلة أمانة العاصمة - العددان (١٧ و ١٦) الساعات البغدادية ذات الأبراج ، صادق الجميلي .
- ١٢ - مشاهدات ومقابلات شخصية .
- ١٣ - موسوعة العنبات المقدسة (الجزء الاول) - ترجمة جعفر الخياط .
- ١٤ - جريدة الجمهورية البغدادية - عدد يوم الجمعة في ٢٠-٢-١٩٧٣ .
- ١٥ - تاريخ العصور القديمة - للصف الاول المتوسط الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ .
- ١٦ - مجلة افاق عربية - السنة الرابعة تششرين الثاني ١٩٧٨ :العدد ٢ بحث للدكتور محمد صديق الجليلي عن (المذولة) .
- ١٧ - خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك - هيد الرحمن سبط الأربلي المتوفى سنة ٧١٧هـ - طبع مكتبة المثنى - سيرة المستنصر بالله العباسي .
- ١٨ - مجلة اهل النفط - (العدد ٧٥) السنة السابعة كانون الثاني ١٩٥٨ . مقال بقلم الدكتور مصطفى جواد بعنوان « الساعات العربية الروحانية » .
- ١٩ - مجلة لمة العرب - المجلد الثاني - صحيفة (٢٨) .
- ٢٠ - مجلة سومر - بحث عن المدرسة المستنصرية بقلم الاستاذ كوركيس عواد - السنة الاولى، الجزء الاول، والجزء الاول والثاني للمجلد الثالث عشر .
- ٢١ - الحوادث الجامعة - لابن الفوطي تحقيق الدكتور مصطفى جواد .
- ٢٢ - تكملة اكمال الاكمال - جمال الدين بن الصابوني - طبعة الجمع العلمي العراقي .
- ٢٣ - نشرة مملحة نقل الركاب - (العدد ١٥٨) كانون الثاني ١٩٦٥ . من موضوع تحت عنوان « ساعة عربية تتحدى الزمن » للسيد طارق عيسى حسن .
- ٢٤ - رحلة ابن جبير .
- ٢٥ - دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً - الدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة .
- ٢٦ - مجلة الوعي الاسلامي الكويتية - العدد السابع والثلاثون - السنة الرابعة : غرة محرم ١٢٨٨هـ / مارس ١٩٦٨م ، ص ٩٥ .

مذكرات بغداد

من دفتر مذكرات المرحوم محمد رؤوف السعودي

(ابو عطف) كتبها في عام ١٩٦٩ م ...

اطلعتني الاستاذ يحيى السعودي على سجل كتب بخط اخيه المرحوم محمد رؤوف السعودي يتضمن مجموعة خواطر ومقتبسات في شتى الموضوعات .. ووصف شيق لبعض محال رصافة بغداد وتدوين صادق لبعض المشاهدات التي بقيت عالقة في الذاكرة عن بغداد الامس القريب .. فاجاز لي نشرها بعد تهذيبها وتصحيح الاخطاء النحوية فيها ..

★ ★ ★

ترجمة كاتب المذكرات

يقوم مقام العبادة تلبسه المرأة ايام الاعياد والاعراس» كسدت هذه الصناعة وهجرها اهلها ومنهم ابو عطف .. وفي سنة ١٩٣١ م استطاع ان يستاجر الحانوت العائد لدائرة البرق المركزي في محطة السنك بالباب الشرقي ويعمل فيه بتواضع بقية حياته التي امتدت الى اوائل السبعينات حتى توفاه الله في بغداد في ٦-٥-١٩٧١ ..

قصة السبع ايكار وتحديد مركز الرصافة

في بغداد محلة كبيرة قديمة تسمى (محلة السبع ايكار) (٢) في جانب الرصافة .. وقصة السبع ايكار وتسميتها كما سمعتها وشاهدتها بعيني في طفولتي سنة ١٩٠٤ .. كانت هناك قطعة من الارض تشرف على دجلة وتظلها بضعة شجيرات باسقات سامقات ترتفع عاليا مما يدل على قدمها منها شجرة النبق (السدر) ومنها شجرة التكي (التوت) ومنها شجرة التين ومن بينها شجرة واحدة هي (الصفصاف) .. وكانت تقدر مساحة هذه العرصة زهاء الالف والخمسمائة مترا مربعا وبنيت امامها على الشط مسناة على عرض ارضها سميكة وواسعة وقوية وعميقة الفور اتخذت بئرا ، ولها فتحات بعمق اربعة امتار متصلة بنهر دجلة الى داخل البئر ، ونصبت على حافة البئر سبع بكرات من جهتها العليا لجلب الماء من النهر الى البئر اولا بواسطة الادلاء جمع دلو وسوقه وتوزيعه بواسطة السواقي الى المسافات البعيدة

هو محمد رؤوف السعودي ويكنى بابن عطف .. وابو عطف هذا رجل عركته الحياة واكسبته خبرة وتجربة ، عاش حياته بعصاميية فذة واجتازها بسلام ولم يترك لاسرته من متاع او نشب وانما ترك لها دفتر مذكراته وهو مثخن بشتى الموضوعات الاجتماعية والفلسفية والتاريخية والدينية ، كما دون فيه وصفا دقيقا لبغداد القديمة وما جرى فيها من احداث عاصرها وشاهدها بنفسه وكتب فيها بأسلوبه الشيق الجذاب .. يسرد فيه القصص والحوادث التي لم يسمعها او يقرأها المواطن في مكان اخر ، انها جلاء للقامض والمجهول من تلك الفترة التي عاشها .. ونظرا لاهميتها آثرنا ان نجتزىء من هذه المواضيع ما يختص ببغداد واحداثها وشخصياتها ونشرها على صفحات هذه المجلة علها تعطي الصورة الحقيقية عن بغداد ايام زمان والتي يجهلها الكثير من اهل بغداد اليوم بعد ان طرا على هذه المدينة العريقة من تغير وعمران كبيرين ..

ولد ابو عطف في بغداد سنة ١٨٩٣ وعاش فيها ولم يدرس بمدرسة ولم يتخرج في معهد بل كانت مدرسته الحياة كلها ، اخذ عنها الكثير وكتب فيها .. كانت مهنته حياكة الازر ويزاولها في معمل والده علوان في محلة « صبايغ الال » (١) في رصافة بغداد .. ولما ذهب الزمان بهذه المهنة بزوال لبس الازر « والازر لباس خاص بالمرأة المسيحية في بغداد

ثانيا - حديقة دار القنصلية الروسية (القيصرية) والتي هي اليوم مجموعة المباني والمخازن والعمارات التي تحيط بكازينو شط العرب . . وقد اتخذت دار القنصلية هذه فيما بعد فندقا كان يسمى منذ عهد الاحتلال الانجليزي لمدينة بغداد بـ (اوتيل مود) الذي نقل فيما بعد الى البناية الفخمة على دجلة في محلة السنك والذي هو اليوم (فندق السندباد) . . ويدخل ضمن هذه المجموعة المذكورة أيضا مiazza مسجد آل الباجهجي (٤) وحوضه الكبير والذي ما زال موجودا يصلى به حتى الآن ويقع اليوم في الشارع الغربي الذي يصل بين شارع الرشيد وشارع النهر وعند مدخله من جهة الرشيد استوديو المصور ارشاك .

ثالثا - تم توصيل الماء الى نكية سيدي البدوي (٥) ومسجده وحديقته الفناء الواسعة والتي كانت تتوسط شارع الرشيد ثم بناية شركة (اسطين لنج) (٦) على شارع النهر في راس القرية (٧) . . ولكن عندما فتح خطيل باشا (٨) جادة بغداد (جاده سي) من الباب لشمالي (باب المعظم) الى الباب الشرقي منها (٩) ذهب معظم هذه النكية ومسجدها وحديقته ضمن الجادة المذكورة وذلك سنة ١٩١٥م ولم يبق منها اليوم الا هذه العمارة المسماة « عمارة السيد البدوي » وقبة وضريح الصقفا بناية العمارة ، والضريح هو لاحد اولياء الطريقة البدوية في بغداد والذي اكتشف في اوائل الستينات باسم الولي (ابو شيبة) .

رابعا - وكانت تسقي أيضا دار القاصد الرسولي الذي موضعه الآن مقر شركة (حافظ القاضي) وبضمنها حديقتها المقابلة لها والتي هي الان مجموعة المباني والمخازن والفنادق ودور السكن وعيادات الاطباء والصيدالة ومحال الاعمال والمتاجر ضمن نصف الدائرة المحيطة من شارع الرشيد الى نفاذ شركة حافظ القاضي قبالة جسر الاحرار المؤدي الى ساحة الوثبة بالتقائه بشارع الرشيد شمالا ويتبعها سينما الرشيد وسينما الوطني وما حولهما من المتاجر والمخازن ودور الاعمال وما حولها من دكاكين البقالة واصحاب المهن من محال ومطاعم وما يعلوها من فنادق ومكاتب وشقق ودور سكن الى غير ذلك مما يرى ويشاهد وكلها كانت حديقة كبيرة وواسعة جدا يحوطها سور عال من الطين زرعت بانواع الفاكهة والحمضيات على اختلاف انواعها وتعلوها النخيل الباسقة ودوالي الاعناب وقد تعددت وانتشرت فوق الفسقيات والشدروانات المظلمة بعناقيد الاعناب على اختلاف طعومها واشكالها

في الحدائق والبساتين القريبة من النهر وخزانات المياضي - اي احواض الوضوء في الجوامع والمساجد والتكايا - وتوفير المياه الصالحة لها ، وهذه الادلاء مصنوعة من جلود الجاموس المدبغة السمينة والقوية والتي تربط وتدلى من اللولب الكبير الحجم الى عمق البئر تسحبه احدى الدواب فتنزل في مدرج او منحدر حتى يلامس الدلو سطح الماء ثم يغمر فيه ويمتلئ الدلو بالماء ثم يسحب الى الاعلى ويسكب الماء في حوض واسع بأعلى حافة البئر لتوزيعه الى الجهة المراد توجيهه اليها ثم تكرر عملية الصعود والنزول في هذا المنحدر الواسع الذي يستوعب الحيوانات السبع التي تتناوب الصعود والهبوط جملة او فرادى حتى تسقى الحدائق والبساتين وتزود الجوامع والقصور بالماء الكافي ويخزن بعضه بالاحواض والمياضي . . وكان موقع هذه (السبع ايكار) وبشرها الكبير الواسع : البناية المتخذة اليوم (نادي نواب الضباط العسكري) والبناية المجاورة لها والتي هي (فندق جبهة النهر) عند مدخل جسر الاحرار من جانب الرصافة والتي كانت تسمى في العهد العثماني بـ (شريعة بيت الباجهجي) الذين كانت بيوتهم وقصورهم تحيط بمدخل ومنافذ هذه الشريعة وتكتنفها من كل الجهات . .

اول اسالة ماء بدائية في بغداد بواسطة (الكرد) (٣) والاماكن السبعة التي تستفيد من مياه السبع ايكار

وكانت هذه السبع ايكار تسقي وتوفر الماء لسبعة اماكن او اكثر على طريقة السقي والارواء القديمة حيث لم يكن هناك آلة ولا ساحة ولا آلة ماصة ولا دافعة ولا ضاغط بخارية او ميكانيكية غير بشر (الچرد) حتى ولا اسالة مطلقا كما نعرفها الآن من السهولة واليسر بفضل التكنيك والالات التي اخترعها واوجدها العقل البشري في كل مجالات الحياة الانسانية . . وهناك وسائل اخرى لجلب الماء وتوفره في البيوت وذلك بواسطة الادلاء من البئر المألحة والموجودة في كل بيت من البيوت البغدادية او بواسطة السقائين الذين يجلبون الماء من النهر مباشرة في قِرب من الجلد محملة على ظهور الدواب للشرب والغسيل والطبخ او يجلب الماء من السواقي التي يجري فيها الماء بواسطة الكرد او الناعور من نهر دجلة ان وجد بالقرب منها . . وكانت سواقي السبع ايكار تسقي وتمون وتوزع المياه الى الاماكن التالية :

اولا - دور ومنازل وقصور آل الباجهجي القريبة منها مع حدائقها .

وخجومها .. وكانت من موقوفات السيد عيسى ابن السيد مصطفى بن السيد محمد الشهير بالعطار البغدادي (١٠) وقد جاء شارع الرشيد فسطرها الى قسمين شرقي وغربي وذلك سنة ١٩١٦ م ..

خامسا - تسقي هذه السبع ابار بستان (عدول) التي هي اليوم الشارع المسمى بـ (شارع عرصات النعمان) الواقع بين (عقد الجاموس) وبين مصلحة توليد القوة الكهربائية القديمة (العباخانة) (١١) حتى جامع الحاج فتحي (١٢) في العوينة على شارع الجمهورية اليوم ، وكانت هذه بستانا كبيرة تتفرع منها ساقية يدخل اليها الماء الى تكية ومسجد الامام عبدالكريم الجيلي (١٣) احد ائمة الصوفية والذي ذكره كثيرا المرحوم الدكتور زكي مبارك في كتابه «التصوف الاسلامي» .. وكانت له باب يقع مدخلها من (عقد الجاموس) قرب حمام تاجة من محلة الحاج فتحي وله حديقة كبيرة ذات نخيل واشجار يابعة مثمرة .

سادسا - وتنشعب من هذه السبع ابار ساقية سادسة لارواء وتسقي جامع السيد سلطان علي (١٤) وحديقته الواسعة وتسقي بجواره ايضا مرقد احد السادة العلوية الذي موضعه اليوم وسط شارع الرشيد ، ومسجده الذي خربه خليل باشا عند فتحه جادة (خليل باشا جادة سي) كما كتبت قطعة مربعة تحت الجدار مما يلي قاعدة المنارة القديمة من جامع السيد سلطان علي بقدر متر ونصف المتر من القاشاني الملون خط فيها بخط فارسي (خليل باشا جادة سي) وفي اوائل العهد الملكي ازيلت هذه القطعة وجددت عمارة المسجد وكتبت على لوح معدني بدلها عبارة (شارع الرشيد) واما ما بقي من حديقة وبستان نخيلة فقد شيدت فوق ارضها العمارات والفنادق والمتاجر الكبرى المهمة ومخازن وشركات عالمية اشهرها شركة باتا للاحذية الجلدية ، وسينما الشعب حتى ملتقى محلة المربعة واول واكبر محل تجاري شيد على ارض هذه البستان هو (بناية شركة سيارات فورد) ومخازنها ومحلات تجارية ومعارض سياراتها ومكاتبها وكلاؤها ومحلات لبيع المحركات والمكائن الزراعية والصناعية وتجار الجملة والمفرد وغيرها من الاماكن المحيطة بجامع السيد سلطان علي ..

سابعا - وهناك تختم السبع ابار عملية توزيع المياه بالساقية التي تروي دار (آل الاصفر) وحديقته المشرقة على النهر والتي هي ملاصقة لدار القنصلية الروسية في العهد العثماني الحميدي (وعائلة بيت اصفر هي من العوائل العراقية)

التجارية التي توكلت في بغداد منذ قرنين فاكثر لعدة شركات انكليزية واوربية وكانت لها اليد الطولى في ارتباط الوثائق والتعهدات التجارية ليس في بغداد والعراق فحسب بل في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية في الصادرات والاستيرادات والاسواق التجارية والمالية والبورصة والمصارف والبنوك) . ومن جوار حديقة بيت اصفر تجتاز عبر الحائط ساقية خاصة لارواء مسجد وتكية وحديقة وميضأة آل (قره علي) وكانت تقوم على قطعة ارض واسعة وقد اتخذتها شركة (اورزدي باك) قبل اكثر من عشرين سنة (أي في الخمسينات) وقد امتتها اليوم الحكومة وسمتها شركة الاسواق والمخازن التجارية العراقية وهي المركز الرئيسي في بغداد ..

هذه هي قصة السبع ابار كما اوردناها هنا .. وقد اشترت عائلة الباجهجي العرصة التي كانت تقوم عليها السبع ابار وضممتها الى ممتلكاتها عند نهاية العهد من القرن التاسع عشر .. وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى شيدت على ساحتها القصور والفنادق كما اخذ اصحاب الكروود المحتاجة الى الماء بنصبها في غير هذا المكان من بغداد ومن هذا التاريخ اهملت واندرست معالمها ثم قضت على البقية الباقية منها مكائن اسالة الماء الحديثة التي عمت كل محلات بغداد منذ سنة ١٩٠٨ م ..

● مدحت باشا واصلاحيته الادارية في بغداد

وقد اشتهرت المنطقة باسم (السبع ابار) في زمن الوالي المصلح المجدد (مدحت باشا) الذي وضع مجالس الولايات ومجالس البلديات والمجالس الخاصة بالمتصرفيات ، وقسم بغداد الى محلات واطراف وجعل لكل محطة اسما وعين لها مختارا ومعاون مختار ، ورقم ابواب الدور وغير ذلك من الاصلاحات البلدية من توسيع الادارة وتشكيل المحاكم واصلاح السجون وتوسيع المعامل الميكانيكية

اما فيما يخص بحثنا الان من توزيع البلدية الى محلات فقد عرفت هذه المنطقة بالسبع ابار من قديم واضيف اليها فيما بعد سكنة محلة العمار والجنايبين وهما من قبيلة (زبيد) اللتان حلتا في بغداد قبل قرون كما حلت اخواتها بقربها (العاجليين) وهم من بني عجيل وبني سويدان وبني سمييد وغيرها من قبيلة زبيد التي تقطن في المحلات التي اشتهرت باسم قبائلها في بغداد لحد الآن قبل زمن داود باشا والي بغداد اي قبل اكثر من ثلاثة قرون مضت ! ! .. وكما قلنا ان المنطقة غلبت عليها لفظة

(سبع ابكار) وتنبعها للزيادة والتوسيع البلدي (عمار جنابيين) فصارت كلمة (عمار سبع ابكار) هي الغالبة اليوم ، اما (الجنابيين) فبقيت ملحقة بزقاق الجنابيين في راس القرية ..

● سبع ابكار الصليخ او كرود خليل باشا

وهناك سبع ابكار اخرى شمالي بغداد في منطقة الصليخ في قضاء الامضية وقصتها :

في اواخر سنة (١٩١٥ م) عينت امرية القيادة التركية في العراق القائد التركي (خليل باشا) ولما وصل هذا القائد الشاب بغداد ، هيات له الحكومة مسكنا وقصرا منيفا فخما جوار بستان ومزرعة كانت تسقى وتروى من بئر عليها (سبع ابكار) في شمالي الصليخ .. ثم ابدلت السقاية والارواء بالمكائن الزراعية واسالة الماء الحديثة وهدمت السبع ابكار ، ولكن المنطقة بقيت تسمى بـ (السبع ابكار) ولجل الفارق والتمييز بين سبع ابكار العمار في بغداد وسبع ابكار الصليخ ان اطلق على هذه الاخيرة سبع ابكار خليل باشا او كرود خليل باشا حتى يومنا هذا ..

الست سكيئة حسن المصرية في بغداد

وصف لمدينة بغداد سنة ١٩٠٦

كانت بغداد عند اعلان الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ حتى نهاية سنة ١٩١٥ كما شاهدها وانا صبي يافع لم اتجاوز السن الثانية عشرة من عمري ليس فيها شوارع كالتي نراها اليوم طويلة ومستقيمة تخترقها من الشمال الى الجنوب .. ولكن كان فيها عندما ندخلها من الباب الجنوبي الذي نسميه (الباب الشرقي) حسب الاصطلاح البغدادي (١٥) وبعد ان تترك خلفك المعمل الحكومي المسمى (الدباغ خانة) وهو اخر ما بقي من سور بغداد الذي شيده ابو جعفر المنصور سنة ١٥٠٥ هـ (١٦) واتخذة الوالي مدحت باشا معملا لدباغة الجلود الخاص بصنع احذية الجنود وحقائبهم واحتياجاتهم ولوازمهم الحربية الاخرى من هذه الجلود وهو من جملة اصلحاته المهمة في بغداد سنة ١٨٦٩ واليوم لم يبق اي اثر من ذلك المعمل ببنائه العباسي وقاعاته وعمده وعقاداته وعرض اسسه التي تبلغ في بعض قلاعه وركائزه حوالي العشرة امتار حيث هدم هذا المعمل واسس في موقعه محطة نقل الركاب الذي يمتد من ساحة التحرير عند مدخل شارع الجمهورية حتى نهر دجلة في ساحله الذي كنا

نسميه بشريعة (القوله) والذي هو الان مدارج جسر الجمهورية عندما يعلو فوق شارع الرشيد ويلتقي بشارع ابي نواس المشرف على نهر دجلة من جانب الرصافة في الباب الشرقي ..

وكان طول مدينة بغداد من جهة جانب الرصافة من شريعة القوله (بتفخيم اللام) ومن باب الدباغ خانه في الباب الشرقي حتى منتهاها في الباب الشمالي الذي هو باب المعظم ، وكما نسميه نحن بالباب الغربي .. وعلى هذا الاساس تقدر مساحة جانب الرصافة بثلاثة كيلو مترات طولاً في زهاء الكيلو مترين عرضاً ، ويقدر نفوس مدينة بغداد آنذاك بجانبها بربيع مليون نسمة ، وليس في مدينة بغداد كما شاهدها من وسائل النقل الحديثة الا عدة عربات فخمة (١٧) تجرها الخيول الاصيلية والجياد المظلمة احداها خاصة بالوالي العثماني واخرى للسيد نقيب اشراف بغداد من اسرة آل الكيلاني والتي يجرها حصان واحد ، وثالثها وكنت اراها افخم العربات من حيث اناقتها وما فيها من ابهة ومهارة في الصنع حيث رصعت بالمسامير الدقيقة المصنوعة من الذهب والفضة والظاهرة على فوانيسها وطاقم سيور عدتها ولجام حصانها انجملين الاصيلين ، وكانت هذه العربة خاصة بالسيد داود نجل السيد سلمان نقيب اشراف بغداد وهو عم السيد عبدالرحمن النقيب على بغداد عصرئذ ! ! وهناك عربة رابعة تخص المرحوم العلامة عبدالوهاب النائب ، وما عدا هذه العربات كانت وسائل نقل الركاب كافة من الحمير والخيول الكدش والبغال في داخل البلد .. والسقينة والمهايل الشراعية للمسافات البعيدة بين المدن والقصبات في نهري دجلة والفرات خارج مدينة بغداد .. اما في داخلها من وسائل النقل النهري الزوارق (البلام) جمع البلم (والبلم تركيبة الاصل دخلت في العامية البغدادية وتعني الزورق) والتي تجذف باليد ، والقفف الكبيرة والصغيرة و (الشخاتير) والرمث (الكلك) .. اما (البواخر) وهي الزوارق البخارية فكانت تحمل البضائع التجارية والمسافرين والتي تمر عبر دجلة (دون الفرات) بين بغداد والكوت والعمارة والبصرة ..

اما البضائع التجارية التي تجلب من انحاء اسيا واوربا وبلدان الغرب الاخرى فكانت تحمل بواسطة البواخر التجارية الكبرى والتي تمتلكها شركتان تجاريتان اجنبيتان ، الاولى تخص بيت اسطيقان انج المحدودة والثانية شركة (يلوكي كرى

وشركاء) وكلا الشريكتين مؤسستان في لندن وهما من الشركات البريطانية العاملة في العراق ، وكانت بواخرها لا تتجاوز العشر بواخر ..

ولما اعلنت تركيا الحرب ضد الحلفاء وانضمت الى جانب الالمان اخرجت رعايا الدول التي كانت تشكل تضامنا وهو ما يسمى بالحلفاء من كافة الامبراطورية العثمانية ووضعت يدها على ممتلكاتها وبالاخص الممتلكات الانكليزية والفرنسية وغيرهما من دول الحلفاء ، ومنها البواخر التي كانت تعود الى بيت اللنج ويلوكي كرى واستعملتها لاغراض الدولة الحربية والعسكرية وكان في بغداد جسر واحد نقلته الدولة الى الجهات الجنوبية بين الصويرة والكوت .. وظلت بغداد بلا جسر حتى سنة ١٩١٨ وكان يتم العبور بين جانبي بغداد الكرخ والرصافة بواسطة (البلام والقفف) ما يقارب الثلاث سنوات ! ! ..

وكان في بغداد عشرات الطرق والدروب الضيقة والعقود والاطراف والمحلات التي تخترقها طولا من جنوبها الى شمالها بباب المعظم ، وكذلك مئات الدروب التي تتفرع من طولها عرضا والتي تصل بعضها ببعض بطريقة حلزونية متداخلة متلازمة لا تنفك ولا تنفذ الى غيرها وكان شبكة هذه الطرق الخلية المحكمة الصنع .. وكانت هذه الطرق والدرايين تضم في منعطفاتها المئة دار او اقل او اكثر .. ومن هذه الطرق الزقاق الصغير (الدربونة) تصفير وتأنيث الدرب الذي جمعه الدروب او الدربونات وتضم مجموعة من الدور المتلاصقة والصغيرة والتي تعد بالعشرات حتى تصل المئة دار ومن عدة دراين تتكون المحلة الواحدة والتي يقطنها غالبا ابناء العشيرة الواحدة وتسمى المحلة بأسمها ...

اما الشوارع والازقة التي تنفذ اليها في جميع مناطق بغداد فلم يكن لها اسماء خاصة بها بل تسمى وتعرف باسمائها الشعبية المعروفة او تسمى باسماء المحلات والاطراف التي تقع فيها او تسمى باسماء الاسواق او اسماء ذوي المهن والحرف واماكن الاخذ والعطاء والبيع والشراء او باسماء ابرز معلم اثري اشتهرت به المحلة ..

فمثلا عندما تصل محلة (الفناهرة) من شارع الدباغخانة وهي اول حي من احياء بغداد عند مدخلك من الباب الشرقي وتتوغل في محلة السنك تتشعب امامك عدة طرق ودروب وازقة ضيقة كما وصفناها تعقدت عليك مداخلها ومخارجها فاذا

وجدت نفسك في شارع الشيخ عبدالقادر الكيلاني وانت خارج من فسحة جامع الشيخ الخلاني المتصل به من محلة الساقية ، فمن هذا الشارع العرضي تتفرع كل مداخل الطرق والمحلات الطولية لمدينة بغداد وكلها تصلك الى مجمعها الرئيسي في الباب المعظم .. وكان شارع الكيلاني العرضي يبتدىء من شريعة بيت النقيب على نهر دجلة في السنك ويمتد حتى يصلك بجامع الحضرة الكيلانية فمقبرة الشيخ الغزالي وهذا الشارع ما زال قائما ..

والان نقف برهة عند الباب الشمالي من صحن جامع الحضرة الكيلانية المقدسة لننظر على ذلك المشهد الرائع حيث جموع النسوة والبنين والبنات والمجانز والشيوخ والاطفال وكلهم تجمهروا بحفل كبير يتطلعون الى تلك اللحظات التي تخرج فيها عليهم الملاية والقارئة المصرية الست سكيئة حسن حديث الساعة في بغداد ، وقد ضاق المكان بتلك الحشود من الناس على سعة تلك الساحة الفسيحة الواسعة امام مخفر شرطة باب الشيخ قبالة الحضرة الكيلانية والذي كان يسمونه اهل بغداد بـ (القلغ) وهي كلمة تركية والتي تجمهروا فيها ، ولم تبدر اية بادرة من رجال (الضابطة) الجندرية فتقوم بتفريقهم او التدخل في شؤونهم .. وكانت الست سكيئة قد اتخذت من احدى الغرف والاواوين في صحن جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني منتجعا لها ومقر سكنها حيث حلت في الجامع المذكور من بضعة اشهر ، وقد اعتادت أن تخرج منه الساعة التاسعة صباحا وتعود اليه الساعة الرابعة مساء تجوب ارجاء بغداد واسواقها تنشد القصائد الدينية والمدائح النبوية بصوتها الساحر الاخاذ فتنهال عليها هبات المحسنين من اهل الخير والجود ..

وقد اذنت ساعة الخروج فطلعت الست على عاداتها فاستقبلتها الجموع الحاشدة بالتهنئات والصلوات والتكبير والتهليل ، وتهاوت عليها النسوة والبنات والفتيات والصبيان يقبلون يديها ووجهها ورأسها ويتمسحون بشياها تبركا بها وقد احاطوها بهالة من حب وتقدير واحترام .. فنظرت اليها فاذا هي امرأة في سن الشباب لم تتجاوز الثلاثين من عمرها ، ربعة القامة معتدلة الجسم ، سمراء ادمة الوجه على وجهها سمة البداوة واصالة العرب ، اغمض الله جفניה واخذ منها نور عينيها ، وبدت لنا غير مبصرة ولا ناضرة (عمياء) .. وتقدم نحوها رجل يربو عمره على الاربعين فوقف امامها فرفعت يدها اليمنى فوق كتفه وسار بها يهديها السبيل لتمضي ببطء ثقيل تشق زحام الناس

المزجاة من انغام ولحن وسحر وبيان وبلاغة عربية وكلام فصيح بحروف ابداعية لا يتداخلها حرف (الكيم) بدل الجيم ولا كلمة (برئوء) بدل كلمة (برقوق) اي (الكوجة والعنجاص) على طريقة الرطانة العامية المصرية .. والست سكيئة حسن مصرية من عرب الصعيد ، واهل صعيد مصر من قبيلة كنانة المصرية الذين نزحوا من الجزيرة العربية ناشرين الاسلام تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيادة القائد العربي عمرو بن العاص في الفتح الاسلامي الاول واستقر اكثرهم في ارض الصعيد جنوب مصر .

اما السبب المباشر لوجودها في بغداد بين سنة ٩١٤ - ٩١٥ ومن جاء بها فذلك اجهله ولعلها قد نظمت سفرات لبعض الاقطار العربية لتمنح ابناءها بعض ما تمنحنا به وتثير في نفوسهم المشاعر والعواطف الدينية بما تشده من قصائد صوفية في ذكر الله ومدح رسوله وتصف مناقب آل بيته وصحابته .. وعلى كل حال لا يهمني من كل ذلك سوى انني احضر كل يوم وفي وقت الضحى لاستمتع وامتع نفسي بصوت الست سكيئة واهيم كما يهيم غيري بما ترسله من انغام والحن شجية تهز بها اوتار القلوب فتوقظ في النفس الاحاسيس وتحيي القلوب بذكر الله .. والحقيقة اقولها : كنت بواسطة اوتار حنجرة الست سكيئة القوية المنعشة بدات استشعر حلاوة الايمان وافهم معنى الحياة الروحية .

وانتظمت الموكب وسار من الحضرة الكيلانية فسوق الصدرية فالهيتاويين فجامع المصلوب حتى سوق الدهانة !! (ومن اول هذه السوق تبتدىء اول سلسلة مسقفة بالجمالون (الجمالي) المتخذ من الخشب المغطى بالبوارى والحصران والقصب الملوج بالطين الاحمر حتى اذا ما هطل المطر انحدرت مياهه الى المجاري (المرايب) ثم تنساب الى الارض خارج السوق .. والقسم الاخر من السوق بني سقفه بالجص والطابوق بشكل معقود على الطراز العباسي القديم على اعمدة حجرية قوية) وتقع هذه السوق في النصف الجنوبي من بغداد حتى منتهى جامع الحيدرخانة في النصف الشمالي من بغداد ثم يتجه الموكب وقد ازدحم اكثر فاكثر نحو سوق السراي فسوق خان الرماح فسوق المغازبية الذي يشمل سوق الهرج القديم وسوق (خان جفان) وسوق الخفافين الذي يحيط بالدرسة المستنصرية التي اتخذتها الحكومة العثمانية دائرة كمارة ومكوس ثم سوق الحصران والمدات

وثبعتها الحشود تتخاطف امامها وعن ميمتها وعن ميسرها ومن خلفها كموج البحار يتدافع ويتراطم مع بعضه ، والعم المغربي الدليل كما عرفناه يسير الهويئا وهو متأزر وملتف بعباءته السوداء (تخته وتخته) اي تخته بيضاء وتخته سمراء وبرية وعلى راسه عمة بيضاء بحجم العمامة المصرية ، يمشي وقد الف الصمت والسكون وكان على راسه الطير ، وكأنه اخرس ابكم لا يكلم ولا يتكلم واتجه الموكب كمادته تسوده السكيئة والمهابة من محلة باب الشيخ نحو ازقة بغداد ومحالها واسواقها تنشد للناس وتمتعهم بصوتها الساحر وتستيقظ بغداد كل يوم على انغام انشادها ومدائحها النبوية فتحيي القلوب بذكر الله .. واتجه الموكب من محلة باب الشيخ الى سوق الصدرية ، ثم وقف الموكب الفخم عند باب جامع الشيخ سراج الدين في محلة الصدرية ، وهنا ساد صمت عميق والعيون ترو وتطلع الى الست واذا بصوت سكيئة حسن تنشد بيتين من قصيدة للشيخ محمد البوصيري شيخ اهل الطرائق الصوفيين الرمزيين وسيد شعراء الغزل الالهي وذات النبي الكريم :

كيف ترقى رقيق الانبياء

يا سماء ما طاولتها سماء

قد يساورك في علاك وقد

حال سنا منك دونهم وسناء

وتعالت اصوات المعجبين بالتهليل والتكبير والصلوات على خير البشر، حتى وجدت بعض النسوة يترنحن يمينا وشمالا ويرددن (لا اله الا الله .. لا اله الا الله) على طريقة الدراويش في اذكارهم وقد اخذتهن سورة السمو الروحي فتدروشن على الطريقة المشيخية ..

اما انا فقد سحرني صوت الست سكيئة الملائكي وصعقني صعقة مذهلة اثارت في كل احاسيسي وشجوني وانساب لحن صوتها الشجي وانغامه العذبة الرقيقة مع دمي في عروقي . وكان لترنيمها ذي المقاطع الموسيقية الهندليبية ذات الصدى الصداح اشعرتني وكان نفسي تطير من بين جوانحي وترفرف باجنحة خافتة ساكنة هادئة كرفيف جناحي الخفاش في الليل البهيم تعلو بي سعدا في اجواء السماء ، في عالم الغيب ، في ملكوت الصفاء والنقاء والخيال ، من هنا عرفت السر في تقدير الناس ومحبتهم وشدة احترامهم للست سكيئة حسن وتعلقهم باذيالها تبركا بنفحات صوتها وعذوبة الفاظه ، فكانت دائما تمنحهم بضاعتها

او « الفربيل ») . وفي نهاية سوق الشورجة الكبير ينتهي عنده سوق البقال خانة وفيه تباع اصناف البقالية والفواكه والاعناب الصيفية والشتوية الطازجة المحلية والجافة المستوردة من الهند وايران وتركيا ومن عمان وبقية امسارات الخليج العربي والاحواز ويكون من ضمن هذه السوق سوق اخر هو سوق المواعين والفرفوري والواني الزجاجية والفخارية المستوردة من الصين واليابان وروسيا على اختلاف اشكالها واحجامها وكانت تصنع خصيصا لتلائم الذوق البغدادي ومقتضياته الضرورية) ويختم سوق الشورجة بسوق المعاضد والاسوار وادوات الزينة النسائية كالودع والدهش والمسابيح والقلائد المصنوعة من الزجاج الملون الرخيص ، وما اشتهرت به هذه البضائع الزجاجية فرع من السوق (دربونة) العلامة حسين بن روح احد الفقهاء والعلماء البارزين من ائمة المذهب الاثنى عشرية الامامية والذي توفي في القرن الثالث الهجري ودفن في داره في الشورجة وقد اقيم له مسجد في العهد العثماني وقد تجدد عدة مرات وما زال عامرا تؤمه الناس للصلاة) . . ومن هذا الحد يبدأ سوق العطارين (سوق العطاطر) حسب الاصطلاح البغدادي . .

والناظر الى الست سكيئة حسن وهي بملاءتها اي ازارها او عباؤها يتبادر الى الذهن لاول وهلة انها مصرية تسير في شارع سيدي الحسين من ازقة وسكك القاهرة بانشادها وطاخمها البشري من المحبين والمريدين وكان بغداد بمن فيها صارت القاهرة حيث لم تألف مثل ذلك من قبل . .

وعند بداية سوق العطاطر الى جامع مرجان (وهو السوق الكبير الذي يباع فيه كل شيء تحتاجه العائلة البغدادية المتحضرة وفيه عدة مخازن وانابر اي خانات وعنابير خاصة بالتجار المستوردين والمصدرين وباعة المفرد والجملة من السكر والشاي الحديث العهد في بغداد والبهارات والافاوية والصابون والعقاقير والاعشاب النباتية الطبية التي تجلب من الصين والهند والافغان وبلاد بخارى وما وراء النهر ومن بلاد سمرقند وطاشقند ومرو) ، وكنا نرى في هذه السوق التجار والباعة واصحاب الدكاكين والعمال والحمالين وعيونهم محدقة واعناقهم مشرّبة وانتباههم مرهف الى صسوت مدائح وموالات وموشحات وارجيز وقطع الابيات الشعرية من تلاحين وترانيم الست سكيئة حسن (الأوكسترا) العظيم عدا الموكب الشعبي الذي

المصنوعة من ورق البردي فسوق الازر فسوق الصفافير فسوق الجوخجية فسوق الحيص والهميانان فسوق الابريسسم وخان الزرور والقياطين وسوق الجايف وخان دلة للتجارة والقومسيون وسوق البزازين واسواق لم نذكرها وسنأتي على ذكرها فيما بعد ! ! فهذه الاسواق كلها كانت مسقفة بالجمالون في الوقت الذي لم يكن في بغداد شارع حديث كشوارعنا الحالية ، ففي ذلك الزمن لم يكن في بغداد لا شارع الرشيد ولا غيره من الشوارع الطولية والعرضية المنظمة العصرية .

وعادت الست سكيئة للقراءة والانشاد بنغم الحجاز موالا . . مدائحيا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من نظم مطلعته :

يا حادي العيس يا لسي للنبي رايح!!
خذني معاك ازور قبر النبي واشتم الروائح!!

وظلت تردد هذا الموال عدة مرات حتى خرجت من سوق لحم البقر في الدهانة وسوق الفزل والقطن وسوق علاوي الحبوب نهاية سوق الدهانة وعند مدخل سوق الشورجة حتى انشدت هذه الارجوزة المدائحية ! !

صلوا على احمد يا الحاضرين
خير البرايا في العالمين

فيردد الجمهور الدور : صلوا عليه وسلموا تسليما ، بلحن ايقاعي ، وهي مستمرة بالقائنها وانشادها وحماسها الدينني الصوفي العذب المتسق: حليلة لما رات انواره قد اشرقت . . مالت اليه وعانقت وقالت : هذا . . هذا نبينا !! خير البشر نبينا : صلوا على من جاءنا بالحق اظهر ديننا ! !

والجمهور يردد الدور : صلوا عليه وسلموا تسليما

وسار الموكب وقد وصل علاوي التمور والفاكهة في الشورجة وسوق الكوازين (الحباب والخناب والبساييق والمشارب الفخارية الطليبة بخليط القاشاني) والمواد الزجاجية « السيراميك » وسوق الفرابيل والمناخل (وهي المصنوعة من اوتار امعاء الحيوانات « المصارين » المنسوجة منها والمحبوك الناعم الدقيق ومنها المخرم الواسع ويسمى واحده منخلا وغالبا ما يستعمل لنخل اي تصفية الدقيق من مطحون حبوب القمح وغيره لعمل الخبز منه ، والمخرم الواسع يسمى بـ « الفربال »

عرب وما اليها وكل هذه الاسواق تمتد في ما يقارب الى نصف بغداد القديمة من ناحية الرصافة ولها مداخل ومخارج وتكون غير مستقيمة متعرجة وضيقة جدا في بعضها .

وتستمر الست سكينة حسن في انشادها ومدائحها والجموع وراءها تردد دور انشادها وهي مارة امام جامع العدلية الكبير والمحكمة الشرعية وحمام القاضي وشريعة الوالي وشريعة النواب من محلة رأس القرية وسوقها وحمام حيدر المقابل لمحلة الجنابيين ومركز شركة اسطيفن لنج التي اتخذتها الحكومة العثمانية مركزا للشرطة (البوليس) لانضباط قانون البوليس النظامي ثم تعرج شطر جامع امين الهاجهجي ومنازل آل الهاجهجي وبيت الزبيق في محلة العمار وسبع ايكار ومدخل معامل النسيج والخياطة ومعامل الحدادة والنجارة الحكومية في العباخانة (اعمال خانة فابريقهسي) التي هي مدخل محلة القاطرخانة وسوقها الكبير .. وهنا ياخذ الموكب بالسير السريع وتنشد الجموع اناشيد ايقاعية فترقص لها الصبية والاولاد والبنات ويتوقف الانشاد قليلا حين تمر الست سكينة حسن المربعة ومنها نحو شارع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ثم في طريقها تمر بساحة الخلافي في محلة رأس الساقية وتسلك سبيلها حتى تغيب عن الانظار في فناء جامع سيدنا الشيخ عبدالقادر الكيلاني قدس الله سره وعطر الله ضريحه واعلا مقامه حيث دلفت الى حجرتها لتستريح من عناء رحلتها اليومية المتعبة في اسواق بغداد وطرقاتها التي تستغرق في الغالب السبع ساعات كاملة ويتجدد الموكب ضحي كل يوم حتى تعود اهل بغداد التجمع حول بيوتهم ومنازلهم ومحال اعمالهم ومهنهم وحرفهم ليشنفوا اسماعهم بمدائح وانشاد وقصائد الست سكينة ويمتعوا انفسهم بعذوبة الالفاظ وسحر البيان ورخامة الصوت الذي تسحرهم به دائما ..

والحق انني سمعت كثيرا من اصوات النساء اللائي وهبن الله قوة الحناجر وعذوبة ورقصة الصوت وفن اداء الترانيم والفناء الذي يسمو بالارواح نحو اللطف والكمال وتهذيب المدارك والافهام لم اناثر بشيء من هذا ما تأثرت به من صوت ومهارة غناء الست سكينة حسن .. فقد سمعت صوت منيرة المهدي ومولاتها وقصائدها المفناة وسمعت وانا طفل غناء الست طيرة المصرية واغانيها وصوتها العذب الذي سحرت به عقول واذاق الشباب البغدادي وذلك سنة ١٩٠٦ ..

صحبها من الحضرة الكيلانية المقدسة والذي قادته سكينة وشدته اليها بما تملك من مواهب نادرة كانت تفتقر اليها بغداد .. ومن هنا بدأت تنشد بعض الابيات الشعرية من نظم شاعر الرسول حسان ابن ثابت ومن قصيدة طويلة صدحت بها من نظم الصبا جعلت الناس هادئين تسودهم الدهشة ولا تسمع منهم إلا نبرات الاعجاب ورنات وآهات انتزعتها من صدورهم المكلومة وهي تفرد وليس تفريد العنديل وهي تسجع وليس سجع الحمام وتقرأ من هذه القصيدة :

الم تر يا ان الملامنة نفمها

قليل اذا ما الشيء وثى وادبرا

تهيج البكاء والندامة ثم لا

تغير شيئا غير ما كان قدرا

اتيت رسول الله اذ جاء بالهدى

وبتلسو كتابا كالمجرة نيرا

اقم على التقوى وارضى بفعلها

وكنت من النار المخوفة احذرا

وظلت تردد هذه الابيات بعذوبة وموسيقية مدهشة من جامع مرجان حتى سوق البزازين وسوق الوفاية (الكبيجية) حتى قهوة العنبار في المصبغة وخان الدفتر دار وسوق السرچية وخان الشاندر المجاور للمحكمة الشرعية .. وتنهل عليها الهبات والعطاءات والهدايا النقدية من قبل جمهور المستمعين واهل الخير والصلاح فيأخذها شيخنا الدليل المغربي وهذا الحد هو اخر الاسواق المسقفة الكبيرة التي ابتدأناها من سوق الدهانة حتى جامع الحيدرخانة وسوق الميدان وسوق السراي كما قدمنا وذكرناه سابقا بما فيها الاسواق الفرعية كسوق الحدادين والتنجية والتكمجية والاسكجية (بياعة الاحذية القديمة المستعملة) وسوق باب الاغا ومدخل العاقولية وسوق المولى خانة براس الجسر من جانب الرصافة ولو ان في بغداد كثيرا من الاسواق المهمة في انحاءها الاخرى ومحللاتها القديمة الا انها ذات جماليات ومعقودات قصيرة غير متصلة بمجموع الاسواق الكبرى ذات السقوف الجمالية مثل سوق الفضل وسوق قمرالدين والصابونجية وسوق قنبرعلي وسوق حنون وسوق ابو سيفين وسوق ابو دودو وسوق رأس القرية وسوق الصدرية وسوق القاطرخانة وسوق العويينة وغيرها من الاسواق الصغيرة وهناك اسواق صغيرة ومحلية اخرى الا انها مكشوفة غير مسقفة مثل دكاكين حبوب وسوق التسايل وسوق قهوة شكر وفضوة

كما سمعت صوت وغناء السيدة ام كلثوم سنة ١٩٢٢ اميرة الطرب والغناء ، ثم سمعت غناء (نادرة) وغيرها من شهيرات المغنيات والمطربات المحترفات فتلاشت هذه الاصوات كلها امام صوت الست سكيئة فلم يستهوني ولم يؤثر في اعماق احاسيسي وشعوري ولم يسحرني ويثير حماسي الى الفن والترنيم في تلاوة السيرة النبوية ومناقبها مثلما اثر في من صوت وغناء الست سكيئة الفاضلة الكريمة والمرأة الزاهدة المؤمنة والتقية الورعة .. جاءت بغداد فلم تغني لاحد ولم تحضر حفلة طرب من الحفلات الخاصة ولم تحترف الغناء ليدر عليها المال من كل جانب وان ما تحصل عليه من هبات المعجبين يوزع الى فقراء بغداد وبالاخص منهم فقراء الحضرة الكيلانية بعد ان تقتات بشيء يسير منه ولو فعلت لكانت من اثرى المغنيات في العالم العربي .. ولم اكن مغاليا اذا قلت اني افضل حنجرة الست سكيئة على حنجرة ام كلثوم على ما عرفت به من موهبة خارقة في فن الغناء ومكانة وشهرة في المجتمع العربي والشرقي .. بل كرسست الست سكيئة حياتها وفنها وانشادها لخدمة مدح الرسول والترانيم والموشحات الدينية والعناية الفائقة في تلحين وانشاد السيرة النبوية الخالدة ..

ومرت الايام وتوالت السنون وبدا القىالم ينفض ما عليه من غبار الحرب العالمية الاولى وبدأت الامور تعود الى مجاريها الطبيعية وبدا اهل بغداد يستعيدون ذكرياتهم مع الست سكيئة حسن المصرية وبدا النشاط يدب في اسواق بغداد ومحالها التجارية ..

وفي ذات يوم استهواني حب الاستطلاع فدخلت محل شركة (بيضافون كمپنى) لبيع الات الحاكمي (فونوغراف) والاسطوانات المتنوعة وذلك سنة ١٩٢٥ وكان ذلك في سوق راس القرية وطلبت فهرسا ودليلا باسماء ما موجود لدى الشركة من الاسطوانات .. وبينما انا اقلب صفحات الكراس وما فيه من اسماء المغنين العرب على اختلاف اقطارهم اذ وقع نظري على اسم عابر اعرفه جيدا فدققت النظر وحدثت فيه بملء بصري ونظرت اليه بدقة وانتباه اثار شعوري وهزني كما هزني اول انشاد سمعته من الست سكيئة فاذا انا باسطوانات الست سكيئة حسن المقرئة الحافظة وعددها اربع اسطوانات من سورة يوسف ، فتقدمت نحو بائع الشركة وطلبت منه الاربعة اسطوانات دفعة واحدة وساوته قيمتها فطلب مني (ثلاثين روبية) وهي العملة الهندية الانكليزية المتداولة في العراق بعد

الاحتلال فانقذته المبلغ ورقا بنكنوت واخذت اسطواناتي وحظيت بترتيل اعظم مجودة وقارئة للقرآن الكريم من النساء بصوت عذب شجي والقاء صوفي الهامي وحنجرة قوية ونغم مرخم ذات مقاطع موسيقية وهي تتصرف بادائها الترتيلي مما ياخذ بمجامع القلوب المستأنسة بذكر الله من كلامه الكريم .. وهل كنت اصدق بانني في يوم من الايام ساسمع ذلك الصوت الذي فقدته بغداد ، صوت الست سكيئة واسمع منها ترتيل القرآن الكريم .. كم تملكني من شعور واحساس حين قبضت على الاسطوانات الاربعة وتملكنها فوالله كاني تملك الدنيا كلها .. وبقيت سنوات وانا اسمع ترتيل القرآن من هذه الاسطوانات ومن الاكرامافون الذي بحوزتي حتى عفى عليها الزمن وامحت آثار الصوت من تلكم الاسطوانات حتى بطل مفعولها .. وذهب الزمان بالاكرامافون وحل محله الراديو في الثلاثينات وسمعت من اذاعة مصر ومن مقرئي القرآن الكريم فلم اسمع في يوم ما صوت الست سكيئة حسن مع ان لها تسجيلات كثيرة على الاسطوانات .. ودخلت سنة ١٩٤٠ وبينما انا انصفح احدي المجلات المصرية فقرات نعي المرحومة الست سكيئة حسن رحمها الله فحزنت على موتها حزنا عميقا .. ولا تزال تتردد على مسامعي اصدااء ترتيلها وانشادها كلما سمعت صوت ام كلثوم يصدح على امواج الاثير . وفي يوم ما ذهبت الى السينما لمشاهدة احد افلام مطربة الشرق والامة العربية السيدة ام كلثوم وهو فلم (سلامة) وهي ترتل بعض آيات القرآن الكريم فاستبان لي الفارق بين الترتيلين فكان البون شاسعا وكبيرا بين الادائين بصوت السيدتين المذكورتين .

ذكرياتي عن الحرب العالمية الاولى وما صاحبها من احداث في بغداد

وقد حدثت احداث زمنية قبيل سنة ١٩١٥ منها الطبيعية ومنها الاخطاء في القيادة العسكرية : فمن هذه الاخطاء العسكرية التي اثرت فينا اي تأثير : انه في سنة ١٩١٤ اعلنت الحرب العالمية ودخلتها الدولة العثمانية بجانب المانيا ضد الحلفاء وجردت لها حملة عسكرية قوامها عشرون الف جندي مقاتل من لواء بغداد وقضاء الكاظمية وقضاء سامراء وبعض الاقضية التابعة لبغداد والاقضية التابعة الى لواء ديالى وسفرتهم الى شمال شرقي تركيا وعلى سفوح جبال القفقاس المتاخمة لتركيا لمجابهة القوات الروسية المهاجمة على حدود تركيا

ولم تكذ كارثة الفرق ان تهدأ بعد هبوط مناسيب نهر دجلة وروافده الا وفوجئنا بخطر الحريق(١٩) الذي التهم محطة العوينة وقسما من محطة المربعة وقسما من محطة الصدرية ومحطة الشيخ سراج الدين وقسما من محطة الحاج فتحي .. اما كيف حدث هذا الحريق المروع الهائل فاليك بيانه : لما اعلنت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ وضعت الدولة العثمانية يدها على الاموال الاجنبية التابعة لاشخاص وشركات دول الحلفاء امداء الدولة فسفرتهم الى خارج ممالكها وكانت شركة (لنج) وشركة (بلوكي كرى ومكنزي وشركاهم) البريطانيتين والتي تمتلك في بغداد كثيرا من محلات التجارة والاستيراد وبواخر كما بينا ، فكان لهما كذلك مستودعات بترولية وغازية ونفطية جمعتها الدولة في علوة المخضرات في العوينة لسعتها وكبر فنائها الذي استوعب اكبر كمية من صناديق النفط والمواد الاخرى القابلة للاشتعال السريع وفي صبيحة يوم من ايام شهر ايار سنة ١٩١٥ علا الجو دخان قاتم ساخم انتشر بسرعة هائلة فعم سماء بغداد واعقبه ضرام نار حادة وحدث بعدها دوي مخيف امتدت على اثره السنة النيران الى عنان السماء وظلت النيران تضطرم خمس عشرة يوما بلياليها .. وفي خلالها دعا داعي الحمى ليقوم الاهلون بواجبهم فهبوا شبيبا وشبانا نساء ورجالا فاقتحموا النيران المستعرة وخاضوا ماء النيزج حول العلوة وانتشلوا البقية الباقية من صناديق الوقود وصفائح النفط التي لم تصلها النار بعد .. وقد التهمت النيران خلال الاربعة عشرة يوما زهاء الثلثمائة دارا وخانا ودكانا الامر الذي جعل اهل بغداد يقعون في ضيق وحر ج سبب بعض المجاعة من جراء هذه الحرائق والفيضانات وانتشرت الاوبئة في انحاء بغداد كالطاعون والتيفوئيد .

وفي خضم هذه المكاره والنوازل المحقة فتح الحلفاء الجبهة الشرقية في العراق واحتل الانكليز البصرة والعمارة حتى وصلوا الى الكوت .. واخذ الاتراك يجندون الشباب والصبيان ممن لم يجند من قبل لان جميع ابناء بغداد جندوا وارسلوا الى القفقاس وهلكوا جميعا الا ما ندر كما قدمنا وذكرناه من قبل .. حتى انا وان سلمت من الموت فلم اسلم من مرض التيفوئيد لمدة اكثر من سنة حيث لا طبيب ولا دواء ولا معالجة في المستشفيات ولا رجال ولم يبق في بغداد بعد هذا التجنيد غير الاطفال والنساء والشيوخ والامراض والقحط والمجاعة وتوالت علينا الفواجع المتوالية فانستني حتى نفسي واوجاعي

وحدودنا الشمالية في مناطق الاكراد .. فصادف ان تساقطت الثلوج بكثرة هائلة على جبال القفقاس واشتد البرد وانهالت القطع الكبيرة من الثلوج على مخيمات الجنود العراقيين الذين لم يالفوا برد الطبيعة وثلوجها فدفنتهم تحت هذا الركام من الثلج فماتوا الا قليلا وهذا القليل الذي نجا من الموت وفر من هول الكارثة وقع اسيرا في قبضة الجيش الروسي ، وعلى اثر ذلك تجمدت بحيرة (وان) (١٨) وصدرت اوامر احد القادة الاتراك - وتحت امرته كثير من الجنود العراقيين - الى قطع جيشه بالسير فوق البحيرة المنجمدة فلما منه انها تحملهم وعنادهم وخيولهم لانها متجلدة صلبة فما اجتازوا واوغلوا في منتصفها الا وانفجرت وغاص الجيش تحتها بما فيه من رجال وسلاح ومؤن وخيول وقد غمرتهم مياه البحيرة غرقا والذين لا يزالون يسرون خلفهم على ارض منجمدة تماما لما شاهدوا ما حل باخوانهم من الفرق والدمار اخذهم هول المصيبة وسادهم الفزع والخوف والهلع فهاموا على وجوههم تيه في تلك الاكسام والجبال والثلوج فماتوا من شدة البرد والجوع والتعب وفشت الاوبئة المختلفة بالبقية الباقية من الجيش ولم ينج من تلك الحملة والتي يقدر عددها بعشرين الف جندي عراقي الا المائة او المائتين منهم على اكثر تقدير .. وتوالت اخبار النكبة على بغداد الثكلى فجعلت في كل بيت من بيوتها مناحة وعزاء وجزع نساؤها على ابنائها فلطمن الخدود وشققن الجيوب ونثرن الشموع واكتست بغداد ثوب الحزن وظلت هذه الفاجعة ذكرى مؤلمة ترونها الاجيال بعد الاجيال ..

والامر الطيبي : هو الفيضان الهائل الذي اغرق بغداد ودمرها برمتها ولم ينج منه الى بعض المحلات العالية المرتفعة التي لم يصلها الماء . امسا الاطراف والاماكن السكنية المنخفضة فقد غمرتها المياه وفر اهليها الى الاماكن المرتفعة حيث بيوت الاقرباء والاصدقاء والجوامع والكنائس يحتمون بها وينجون بانفسهم من طغيان دجلة الذي داهم بغداد على حين غرة فكنت ترى البيت الذي كان يستوعب عائلة او عائلتين قد ازدحم ببضعة عوائل بما فيهم دوابهم وانعامهم ، والدار الذي لم تفرقه المياه فقد هدمته الرطوبة وحالته خرائب تنعق فيها البوم .. انها لمصيبة وما اكبرها واعظمها من مصيبة شاهدها وانا صبي وما ازال اتذكرها فتشير في نفسي مكانم اللوعة والاسى .. وكان ذلك في ١٥ و ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ .

والآلام التي بقيت اعاني الامرين منها وما ان نقهت من مرضي حتى تم تسفيري الى جسر ديالى في الزعفرانية لحفر الخنادق (السويرات) للدفاع عن بغداد ضد الانكليز المستعمرين .. ولاول مرة بعد ابلالي من مرضي في اوائل سنة ١٩١٦ بوشر بشق شارع جديد طويل يبدأ من باب المعظم الى الباب الشرقي وفي مطلع سنة ١٩١٧ تم افتتاح الشارع من قبل والي بغداد خليل باشا وثبتت بعض الكتابات على جدران جامع السيد سلطان علسي بالخط الفارسي (خليل باشا جادة سي) وجاء الانكليز ودخلوا بغداد بدعوى انهم جاءوا محررين لا فاتحين، وكان يوما مشؤوما هو يوم ١١/٣/١٩١٧ الذي دخل فيه الانكليز بغداد وكان حالهم اسوا على العراقيين فقد لا قوا منهم ما لا قوا من عننة ومجرفة وكبرياء مما لا يطاق مما عجل بالثورة العراقية سنة (١٩٢٠ - ١٩٢١) وانتهت بقيام الحكم الاهلي الملكي في العراق .. وهكذا اسدلت صفحات سوداء تحت ظل الاحتلال العثماني وظروف الحرب العالمية وسيطرة المستعمرين الانكليز .. !!

ذكرياتي مع مريم نرمه من اوائل الصحفيات في العراق

معرفتي بالسيدة الفاضلة مريم نرمه سنة ١٩٢٤ اذ كانت تسكن دارا في محلتنا (القاطرخانة) مقابل شرطة العباخانة التي هي اليوم بناية الثانوية الجعفرية في شارع الوثبة وبحكم الجوار دعتنسي السيدة لزيارتها في بيتها فلبيت الدعوة ، وشربنا القهوة وجرى بيننا الحديث عن الصحافة والادب والكتاب والضجة التي بدأ يثيرها بعض الشباب المتطرف حول سفور المرأة وتبرجها ومناصرة الدعوة الى تحرر المرأة وسفورها متأثرين ببعض الكتاب في مصر حيث الدعوة بدأ لها رواج من بعضهم وكانت السيدة مريم متأثرة اشد التأثر من حملتهم الشعواء على الحجاب والدعوة الى التبرج والسفور المطلق في بلد لا تسمح ظروفه الاجتماعية ان تروج فيه مثل هذه الدعوات ودون ان تسبق ذلك دعوة الى تعليم المرأة وثقيفها وكان من هؤلاء الشباب الاساتذة مصطفى علي وحسين الرحال وعوني بكر صدقي واخوه لطفي ومحمود السيد ، اذ اصدروا صحيفة يحررون فيها ما يلائم فكرتهم ويروج لدعوتهم .. وكانت السيدة مريم كلها ثورة ونقمة على هؤلاء الشبان ، وكلها نار حامية على الاوانس والسيدات اللواتي انسقن وراء هذه الدعوات من غير تبصر وروية وفي نظرها ان تكون مرحلة تعليم

المرأة الخطوة الاولى لتحريرها من كل الافكار والادهام التي تسيطر على عقليتها وبعد ذلك فعلى المرأة هي التي تقرر مصيرها بنفسها ، فالجهل آفة من الافات الاجتماعية الخطيرة التي يجب القضاء عليها بكل ثمن وعلى هؤلاء الشباب ان يصرفوا الجهد الى ذلك .

وكانت السيدة مريم امرأة جاوزت العقد الثالث ، متزوجة ولكنها عقيم لا تنجب ، محافظة ومتدينة ملازمة البيعة في الكنيسة تصلي بكرة واصيلا ، ترتدي الملابس الطويلة ، وتلتفح بازار يضم اطراف جسمها ولا يظهر منها الا الوجه والكفان ولباسها شبيه باللباس الشرعي الاسلامي العربي الذي كانت ترتديه المرأة المسلمة في الحواضر والبادي والارياف .. وكانت تصب جام غضبها على (...) وعلى شقيقها (...) ، لانها اول فتاة عربية مسلمة نزلت حجابها واسفرت سفورا مطلقا .

وكانت السيدة مريم تكره قاسم امين صاحب هذه الدعوة في مصر وتعتبره اصل البلاء لانه اول من نادى بحقوق المرأة وتحررها من القيود ودفعها الى اوضاع المجتمع الممزق المتفري من الاداب تقليدا للمرأة الغربية ... والمرأة المثالية عندها هي الكاتبة والشاعرة والادبية « ملك حفني ناصيف » المرأة المثقفة ثقافة عالية ولكنها في نفس الوقت غير متبرجة ولا سافرة سفورا مطلقا متحجبة حجابا معتدلا ، فكانت ملك تكتب وتنظم القصائد وتدبج المقالات في الفضيلة والحشمة والاخلاق في مجلة « المقتطف » المصرية باسم « باحثة البادية » بمقالات متسلسلة تباعا ، وهي المرأة التي وضعت الخطة الناجحة والقذوة الحسنة لتحرير الفتاة والمرأة العربية وذلك عن طريق التحلي بالاداب والفنون والمثل والتعلم .

وكانت السيدة مريم تنظر الى السفور كقضية ثانوية فاللباس لا يغير شيئا من طبيعة المرأة اذا عرفت نفسها وما لها وما عليها .. الا انها اي السيدة مريم لا تؤمن بالظفرة والقفرة السريعة التي تحركها الاهواء .

وكانت السيدة مريم ذات نزعة اصلاحية اجتماعية متأثرة ببعض الكتاب الغربيين ومنهم الكاتب الاجتماعي « جون سيمون » ونقده حالة المرأة الاوربية والغربية على تنكرها وتمردها على واقع الحياة الزوجية .

وفي عام ١٩٢٨ م اخبرتني السيدة مريم بانها

الفتها فتفرستها ودققت النظر فيها فاذا بي امام تلك اللوحة التي تحمل ادارة مجلة فتاة العراق والتي طالما كنت اراها مثبتة فوق باب دار السيدة مريم بعقد العريض لم تتغير ولم تتبدل هي نفسها ماثلة امام عيني ، فسالت عن صاحب الدار ، هل هي السيدة مريم نرمة ؟ ! فاجبت بالاجاب الا انها الان غير موجودة واظن ان اللوح موجودة الى الان ولكنني لا استطيع الوصول اليها لمرضي الذي اعاقني واقعدني فاصبحت رهين المحبين ، المرض والشيخوخة ..

والذي علمته من السيدة انها تعلمت في مدرسة الراهبات القديمة واشتغلت بالتعليم الخصوصي لتدريس بنات ذوي الوجة ورجال الحكم في بيوتهم ، وكان زوجها (العم منصور) موظفا في الكمارك والمكوس وهو رجل طيب القلب ، دمث الاخلاق ، هادئ النفس ..

هذا كل ما اعرفه وذكرايتي عن السيدة المحترمة مريم نرمة وعن انتاجها وتاريخها الادبي والصحفي والعلمي ، وقد ذكرني به بعض ما كتبه عنها السادة الافاضل : عن اقدم صحيفة عراقية مريم نرمة ام پولينا حسون ؟ ! ! (٢١) .. وكتاهما قد اشتغلتا بالكتابة والصحافة في آن واحد الا انه صدرت مجلة « ليلي » لپولينا حسون في اعداد ستة ١٩٢٤ او ١٩٢٥ وصدرت منها بضعة اعداد ثم احتجبت عن الصدور ، وپولينا كانت على نقبض السيدة مريم ، فكانت عصرية في زيا ونشاتها . متحررة في تطورها واشتغلت في التعليم النسوي في المدارس الرسمية العراقية ، وبعد هذه السنوات لا اعلم عن السيدة مريم شيئا حتى يومي هذا (٢٢) .. واما الذوات الافاضل الذين وردت اسماءهم في هذا البحث فعلى ما اعلم : فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر فنرجو المعذرة عما بدا منا تجاههم من هفوات .. وما ذكرناه للتاريخ والتاريخ فقط ..

الدكتور داود الجبلي (٢٣)

بمناسبة اهتمام محافظة الموصل (نينوى) بافتتاح مكتبة المرحوم الدكتور داود الجبلي الذي خصص من املاكه وجعلها وقفا خاصا لهذه المكتبة التي تضم الاف المجلدات ومنها المخطوطة النادرة والكتب المطبوعة النفيسة القيمة وبمختلف اللغات (٢٤) .. وجعل هذه المكتبة (٢٥) بما فيها من

عزمت على اصدار مجلة ادبية عنوانها « فتاة العراق » (٢٠) .. وفي عام ١٩٣٣ زرتها في دارها الجديدة التي اشترتها في عقد العريض من المحلة ذاتها ، وقرأت لوحا من الخشب على واجهة باب دارها عليها (ادارة مجلة فتاة العراق) فاستبشرت خيرا ، فطرقت الباب واستأذنت بالدخول فاستقبلتني السيدة مريم بالترحاب الحار والاستئناس وقدمتني الى شخص لم اكن اعرفه من قبل وقالت له : اقدم لك (أخي) وقالت لي : اقدم لك صديقي الاستاذ الكاتب الاديب (يونان عبو يونان) فرحبت به وفرحت بلقائه لاني كنت كثير الاعجاب بكتابات ومقالاته في الصحف والمجلات عن الاصطيف في ربوع الشمال الحبيب وعلى الاخص عن « سر عمادية » و « زاويته » و « بامرني » و « تل اسقف » و « بعشيقا » ومصيف « ديرمتي » وغيرها من المصايف العراقية .. وفي الحقيقة كانت كتابات الاستاذ يونان شيقة وممتعة ومحببة للنفوس وترغبها لزيارتها والاستمتاع بجمال الطبيعة فيها .

وفي نظري ان يونان اول داعية اعلامي ومرغبت للمصايف العراقية منذ سنة ١٩٢٦ حتى اواخر الثلاثينات عند بدء الحرب العالمية الثانية .. واردفت السيدة قولها : ان الاستاذ عبو سيكون رئيس تحرير مجلتي .. وفي سنة ١٩٣٤ صدر العدد الاول من مجلة « فتاة العراق » وفي العدد الثاني ساهمت بتحرير مقالة بقلمي عنوانها « وجوب العناية باللغة العربية في المدارس الاهلية » واقتصد بها المدارس المستقلة عن المنهج الوزاري وعلى الاخص المدارس الاجنبية والطوائف الدينية منها .. وصدر العدد الاخر ولم يصدر عدد رابع حتى كتابة هذه السطور اي في سنة ١٩٦٩ ، واخبرتني السيدة مريم انها خسرت مائة دينار بسبب اصدار هذه المجلة التي لم يكتب لها الرواج والتوفيق وظلت اللوحة في مكانها تعلق باب دارها الى ما بعد انتهاء الحرب تحمل اسم المجلة ! ! ..

وغمرتنا الحرب العالمية الثانية بما تحمل من مآسي وويلات ، وتبدل الزمن وتغيرت الدنيا وحدثت احداث وانقطعت علاقتي بالسيدة مريم فلم اسمع عنها شيئا .. وفي يوم من ايام سنة ١٩٤٧ بينما كنت اسير في شارع « حافظ القاضي » في الكرادة الشرقية لفت نظري لوح قديمة عتيقة سبق ان

بنايات وقاعات واثاث ورفوف ومناضد ومقاعد خاصة للمطالعة وسجلها وقفا رسميا خصصت لخدمة المواطنين من ابناء الموصل الحذباء والحق بها بعض المسقفات والمقارنات يصرف ريعها وعوائدها على شؤون هذه المكتبة وعلى ما تحتاجه من كتب وموسوعات وتوسيعات في ملاكها في المستقبل ، وهي واقعة في محلة باب الدواصة في مدينة الموصل الفيحاء .. ووجود مثل هذه المكتبة مفخرة من مغاخر ابناء العراق في هذا القرن الذين يجعلون الثقافة للجميع ويرصدون لها الاموال من اجل نشر العلم والثقافة بين ابناء الجيل وفي مثل هذه المدينة العريقة الطبية ..

وجدير بنا ان نلمح ولو باختصار واقتضاب عن ترجمة حياة المرحوم داود الجلبي .. ولد داود الجلبي في مدينة الموصل في اواخر سنة ١٨٧٩ (٢٦) من سلالة اشتهرت بحرفة الطب والتطبيب قبل قرنين من الزمان او اكثر في مدينة الموصل ، ولاجل المهنة .. وبعد ان اكمل الدراسة الاولى ومبادئ العلوم في مدارس الموصل والمكتب الامدادى الملكي دراسته في اللغات في مدرسة الرسالة (الدومنيكية) وبعدها رحل الى الاستانة فدرس الطب في المدرسة الطبية العسكرية فيها ، وخدم في الجيش التركي الى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ثم عاد الى العراق بعد الهدنة وبعد الثورة العراقية وتشكيل الحكم الملكي في العراق عاد الى الجيش واشتغل في مديرية

الامور الطبية في وزارة الدفاع برتبة زعيم ، وكان احد الاعضاء في لجنة تدقيق المعاهدة العراقية - البريطانية .. ثم عين مديرا للصحة العامة ، وبعد احالته على التقاعد سنة ١٩٣٣ اشتغل بالطب في عيادة اهلية في الموصل خاصة به .. نال وسام الرافين من النوع العسكري وشارك في جمعيات خيرية وطبية واجتماعية .. يتقن كثيرا من اللغات الاجنبية الى جانب اللغة العربية كالفارسية والتركية والفرنسية وشيئا من اللغة الانكليزية .. وكان ولما بافراط في جمع الكتب واقتناء النادر والنفيس منها منذ شبابه حتى استطاع ان يكون من هوايته المفضلة مكتبته العامرة الذي نحن بصدد ذكرها .. وقبل سنوات من وفاته اقعدته واوهنته الشيوخوخة فلازم بيته حتى اسلم الروح الى بارئها في مدينة الموصل مسقط راسه في ٢٨ ايار ١٩٦٠ .. وقد عاش الدكتور المرحوم داود الجلبي عمرا مديدا كريما نيف على التسعين عاما ..

وله من التأليف : (٢٧) (مخطوطات الموصل) وكتاب (الآثار الآرامية في العامية الموصلية) ، وكتب الموضوعات ونشر المقالات في مجلة لغة العرب لانسئاس الكرمللي ، وله بعض التصانيف غير المطبوعة للجاحظ وكتب أخرى لابن فارس وبعض المقالات والبحوث في مختلف المجالات والصحف المحلية والعربية في مصر ، ومراسلة الصحافة العربية والاجنبية بمختلف اللغات ..

الهوامش والتعليقات

من وسطها .. وفي هذه المحلة مسجد آل الباجهي الذي ذكره المرحوم العلامة محمود شكري الالوسي في « مساجد بغداد » : ان هذا المسجد في محلة نهر الملى الشهيرة اليوم بمحلة سبع ابيكار .. كما جاء في ذكر جامع السيد سلطان علي قوله : واقع على دجلة من نهر الملى .

(٣) البكرة والكرد بمعنى واحد ، والكرد لفظة فارسية وتعنى آلة رفع المياه من الاتهار والآبار واستخدامه لسقي المزروعات والبساتين .. وقوام الكرد بكرد واحدة او اكثر حسب الحاجة وكانت شائعة الاستعمال في شرائع بغداد بمثابة اسالة ماء بدائية ، اما طريقة سحب الماء وتوزيعه بواسطة الكروود فيتم بأن يصب الماء بواسطة دلو في حوض اعد له على شريعة من شرائع دجلة فيذهب الماء بالساقية المحفورة تحت الارض والمرفقة ترافيتا متقنا ولقد كان جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني

(١) صبايغ الآل - محلة من محلات الجانب الشرقي في بغداد (الرصافة) .. ويحدها من جهة الشمال محلتا القشل والدهانة ، ومن الشرق محلتا الشيخ سراج الدين والحاج فتحي ، ومن الجنوب محلة القاطرخانه ، ومن الغرب محلة السبع ابيكار .. ويعني هذا اللفظ في اللغتين الكردية والتركية اللون الاحمر او الصبغ الاحمر ، وتنسب هذه المحلة الى جماعة من الصباغين سكنوا هذا الموضع من بغداد القديمة ومارسوا فيها مهنة صبغ الخيوط والافمشة المختلفة بالالوان وخاصة اللون الاحمر ، فنسبت المحلة اليهم واشتهر الاسم بهم .

(٢) محلة السبع ابيكار احدى محلات الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) . ويحدها من جهة الشمال محلتا صبايغ الآل والقاطرخانه ، ومن الجنوب نهر دجلة ومن الغرب محلة رأس القرية ويخترقها شارع الرشيد

واللغة والتأريخ والأدب والفلسفة وغير ذلك من العلوم» .

(٥) لم تنسب هذه التكية الى السيد أحمد بن علي بن إبراهيم الملقب بالسيد البدوي صاحب الطريقة المعروفة باسمه والمتوفي في مصر في مدينة طنطا سنة (١٢٧٥هـ / ١٢٧٦م) . وإنما نسبت هذه التكية لشيخ آخر من شيوخ السادة الرفاعية في بغداد اسمه (الشيخ بدوي) وله ترجمة وألفية في كتاب « تنوير الأبصار » لشيخ الاسلام أبي الهادي الصيادي الرفاعي .. وفي سنة ١٩٦٠م هدمت إدارة الأوقاف هذه التكية وقد نسجت كثيراً من الكرامات حول تهديم قبره مما كانت حديث أهل بغداد وعوامه حينذاك ، وأقامت على أنقاض التكية عمارة ضخمة ذات عدة طوابق تصرف اليوم بعمارة البدوي على شارع الرشيد في رأس القرية وأبقت القبر في حجرته أرضاء لمواظف العوام وتهلة لثودتهم ولم ينقل الرفاة الى المقابر العامة بعد ان جديت عمارة الحجرية والصفت بالعمارة ويميزها باب من الحديد على شارع الرشيد ..

(٦) لا تزال هذه البناية قائمة اليوم وتمتاز بمارتها بالرياسة البغدادية ، وتقع على شارع الرشيد جهة شارع النهس قرب جسر الاحرار مقابل عمارة كاظم مكية وهي تصبوا الى شركة (لنج) التي أسسها هنري لنج . وكانت شركة للنقل النهري في نهر دجلة وتعتبر بالنسبة للعراق بمثابة شركة الهند الشرقية بالنسبة للهند ، وعرف هنري لنج الشيء الكثير عن حوض نهر دجلة حيث قام بمسحها وتخطيطه ودراسته من عدة وجوه .. وكان هنري لنج هذا الساعد الايمن لـ (جيسني) في مفاخراته الفاشلة في الفرات وأصبحت شركة لنج من أربح الشركات ، وكانت على صلة بشركة الهند الشرقية ، وقامت هذه الشركة أخيراً بالأضافة الى النقل النهري بأعمال تجارية واستيراد المكنات الزراعية .. وقد أقيمت أعمال هذه الشركة في العهد الجموري ولم يبق لها كيان يذكر ..

(٧) رأس القرية : إحدى محلات بغداد الرئيسية في الجانب الشرقي (الرصافة) والقرية من شارع الرشيد قامت في وسطها اليوم ساحة عبدالوهاب الفريحي التي انطلت فيما بعد موقفا للسيارات تكتنفها عمارات حديثة وأسواق عصرية .. وهناك من يلفظ الاسم بالتصغير وهذا هو الأشهر وتسميها العامة (رأس القرية) .. أما الأتراك فكانوا يقولون (قرية باشي) بدون تصغير وقد ذكرها رحلتهم أولياجلبي بصورة (قورنه باشي) .. وسوق رأس القرية واقع تحت شريعة خان التمر وهو يمتد من الشمال الى الجنوب وبه تتصل محطة رأس القرية من جهة الشرق وهو قسم من الشارع المسمى اليوم بشوارع النهر (شارع المستنصر) ..

والمحلة هذه شأنها شأن أية محلة من محلات بغداد القديمة تتكون من مجموعة عقود ودوابين وهي طرق مترجعة غير مستقيمة وضيقة جداً لعدم وجود التنظيمات البلدية في تخطيط المدن حينذاك فالطريق النافذ كانوا يسمونه عقد وغير النافذ يسمونه دربونة طالت أم قصرت .. فمن عقود محلة رأس القرية في

وجامع الشيخ عمر السهروردي قبل مشروع أسالة الماء الحديث يجهز لهما الماء من ساقية يجري فيها بواسطة (كرد) الأول منها نصب في شريعة الشيخ بالسكنك والثاني في شريعة الميدان .. وقد سميت محطة رأس الساقية نسبة الى تلك الساقية الممتدة من نهر دجلة الى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني .. أما ارواد البساتين والحدائق المحيطة ببغداد فكانت تسقى بواسطة (التواعير) جمع ناعور والتي تسحبها الخيول أو البغال .. أما بقية محلات بغداد فكانت تشتري الماء من السقائين وكانت طبقة السقائين منتشرة في كل مكان من بغداد وموزعين على محلاتها يستقون الماء من دجلة ومن الشرائع المشهورة عليه ، ثم ينقلونه الى البيوت في قرب كبيرة على ظهور الحمير أو البغال أو الخيول فكانت توضع على جانبي كل دابة قربتان وفي سنة ١٢٢٥هـ يقابلها سنة ١٩٠٧م أيام الوالي حازم بك أنشئت مائدة أسالة الماء في بغداد بواسطة مضخة نصبت في شريعة الميدان وأجري الماء بواسطة أنابيب ، وكان موضع هذه المائدة في البوخذانة (محلة البقجة) امام مدرسة الصنائع التي هي اليوم قصر الثقافة والفنون في الميدان .. وكانت هذه المائدة تسحب الماء من دجلة وترسله الى المحلات القريبة منها وهي : الميدان وبعض الحيدرخانة والصابونية وجديد حسن باشا والطوب وكان مجموع البيوت التي يوزع اليها الماء في هذه المحلات ٣٦٠ داراً مشتركاً لقاء اجرة شهرية لكل دار وهي عشرة قروش وهو مبلغ زهيد جداً وهو ما يساوي بعملة اليوم مئة فلس فأرتاحت بغداد من عناء الأرواء ونجت الجوامع والحمامات من مياه الآبار المالحة .. وفي السنة التي تلتها أي في سنة ١٩٠٨م نصبت مضخة أخرى في شريعة المصبة قريب من قهوة الشط نهاية شارع السموول من جهة نهر دجلة ومدت الأنابيب لتوزع المياه الى المحلات القريبة منها ، ثم أشيع استعمال المضخات وتقلص مهام السقة في بغداد حتى أزيل بالرة بعدئذ ..

(٨) ومن ذكر هذا المسجد (مسجد ال الباجهجي) السيد إبراهيم الدروبي في كتابه (البغداديون) ضمن مدارس بغداد فقال : « هذا المسجد واقع في محلة العمار سبع ابتكار يتصل به من جهة شارع الرشيد محل ارتباك المصور ، وهو من أوقاف صاحبة الخيرات أمينة خاتون بنت عبدالرحمن الباجهجي .. شيد هذا المسجد الحاج نعمان جلبي الباجهجي ابن عثمان جلبي سنة ١٢٢٦هـ .. وكان سابقاً مدرسة علمية يدرس فيها العلوم العقلية والنقلية ثم أعاد الحاج نعمان بناء هذه المدرسة المذكورة وأوقف عليها وعلى المسجد المذكور أوقافاً معلومة وشرط صرف غلتها على لوازم المسجد والمدرسة بموجب الاعلام الصادر من محكمة شريعة بغداد المؤرخ ١٠ شوال سنة ١٢٥٣هـ . وقد درس في هذه المدرسة علماء اعلام منهم العلامة غلام رسول الهندي والعلامة الملا مصطفى امام وخطيب جامع السيد سلطان علي ومدرسها الحالي الفاضل عمر مولود الديهكي الكردي . وفي هذه المدرسة مكتبة قيمة تضم نواذر الكتب المخطوطة في التفسير والحديث والفقه

نشأ منهم علماء اعلام ذكرهم الحيدري في كتابه (عنوان المجد) . وهذه الاسرة عريقة ببغداد ... وكان لآل السيد عيسى مجلس علمي ببغداد يتردد اليه العلماء الاعلام من آل النقيب والالوسي والجميل والالسويدي وال كبة ، وكانت لهذا البيت مكتبة حافلة بشتى العلوم وتضم نواذر المخطوطات ..

(١١) العباخانة - محلة من محال بغداد القديمة في الجانب الشرقي منها وتحيط بها المحلات التالية : السيد سلطان علي او المربعة من الجنوب والعمار سبع ايكار من الغرب والفاطرخانة وصبايغ الال من الشمال ومحلة الحاج فتحي من الشرق وكان موضع هذه المحلة يسمى سابقا (حمام الراعي) .. وفي عام ١٨٦٤م أسس الوالي نامق باشا اول معمل حديث للنسيج في العراق ، وهو الذي اطلق عليه البغداديون اسم (العباخانة) او (الفاطرخانة) وبه عرفت المحلة المحيطة به . وكان يدار بقوة البخار وينتج بعض حاجيات الجيش من البسة وخيام ، وحين جاء مدحت باشا عمل على تطوير المعمل وتوسيعه حتى وصل انتاجه في اليوم الواحد الى ثلثة مائة متر من الاقمشة الصوفية وأربعمائة متر من الاقمشة القطنية السمكة ..

(١٢) جامع الحاج فتحي - احدى محلات الجانب الشرقي من بغداد وسميت بهذا الاسم نسبة الى هذا الجامع الذي آل اليوم الى خربة تصود ملكيتها الى الاوقاف ويطل على شارع الجمهورية .. وقد ذكره العلامة محمود شكوي الالوسي في « تاريخ مساجد بغداد » عند الكلام عن الحاج فتحي فقال : « سالت بعض من في الجامع الشيوخ والكهول عن الحاج فتحي الذي ينسب اليه المسجد والمحلة التي حوله فقالوا : كان على ما سمعنا درويشا جاء من الموصل واقام في المحل وصار له اتباع ومريدون في هذا المسجد ، ولما توفي دفن عند الباب من شمال الداخل ، وقد جعلت الاوقاف قبره في عمارتها الاخيرة حائوتا .. عرفت ان هذا المسجد كان قفرا فاتخذته الحاج فتحي مسجدا عام ١١٦٩هـ » .

(١٣) من مذكرات السيد محمد رؤوف السيد طه الشبيخي والتي دونها في كتابه « مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها » يقول أثناء الكلام عن تعلمه في الكتاتيب في عهد الطفولة ، وكان الكتاب الذي تعلم لديه القرآن الكريم هو عمه السيد عبد الحميد الذي كان يباشر تعليم الاطفال مع شقيقه : فتعلمت لديه القرآن الكريم والكتابة وشيئا يسيرا من الحساب وكان للاخوين المذكورين وظيفة اخرى في جامع السيد عبد الكريم الجيلي وهو واقع في الطريق الذي بين جامع الحاج فتحي وجامع السيد سلطان علي وكان يسمى (عقد الجاموس) فكانت اذهب مع عمي السيد عبد الحميد عصر كل يوم الى جامع السيد عبد الكريم الجيلي فيتفقد نظافة المحل وحالة الاشجار من نخيل وغيرها لان الجامع المذكور كان متصلا ببستان صغيرة او قل الجامع هو داخل البستان ..

وكان في شريعة السيد سلطان علي كرد خاص يرفع الماء من دجلة بواسطته فتؤمن حاجته من الماء أولا ثم تستمر الساقية في طريقها تحت الارض الى جامع السيد

القرن الماضي ولا يزال آثارها باقية الى وقت من هذا القرن وهي : عقد السقاقي ، عقد الخاصكي ، عقد الكاوري ، عقد القصيف ، عقد الرواق ، عقد حاجي امين ، حمام حيدر ، الجنابيين ، العمار ، تكية البدوي ، المقعد الفسيق وعقد ابو يعقوب .. واسم رأس القرية هذا في رأي بعض الباحثين يعني بداية الاراضي السهلة او الواطئة المنخفضة ..

(٨) و خليل باشا هذا عرف ب (خليل بك) ايضا : تولى ولاية بغداد وقيادة الجبهة في ١٢ كانون الثاني ١٩١٦م الموافق ٦ ربيع الاول ١٣٣٤هـ وفي ايامه الاولى اندحر الجيش البريطاني في معركة سلمان بلاد ، وحوصر في الكوت ، وفي عهد ولايته فتحت ببغداد اول (جادة) برمهي ١٦ مترا سميت ب (جادة خليل باشا) .. وكان افتتاحها في ٢٣ تموز ١٩١٦م الموافق ٢٢ رمضان ١٣٣٤هـ . وهذا الشارع سماه البريطانيون بمسند احتلالهم لبغداد (الشارع الجديد) وهو المسمى اليوم بشارع الرشيد نسبة الى الخليفة العباسي العظيم هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) ..

وقد وصف المؤرخون « خليل باشا » هذا بأنه كان من اعظم القادة العسكريين حنكة ومقدرة حربية وهو من كبار الاتحاديين الا أنه بالرغم من ذلك كن منهمكيا باللدائن مستسلما للنساء رغم اعاصير الخطر التي كانت تعصف بالبلاد من جميع اطرافها .. وقد هاجم وجدا باحدى المؤسسات في بغداد ، فاستولت عليه واستبدت بعقله والتهمة عن الامر المهم الذي انيط به ، حتى أنه كان يقول لها وهو في لحظات نشوته : انا قائد الجبهة وانت الحاكم المطلق علي ! وما كان يعلم هذا المسكين ان هذه الومس التي حكمتها حكما مطلقا هي الجاسوسة الانكليزية « فلكم » ..!

(٩) المقصود بهذه الجادة هو شارع الرشيد الحالي ولم يكن من الباب العظيم الى الباب الشرقي في عهد خليل باشا بل امتد من الباب العظيم الى الكرك في السنك ، بسبب ان بناية الكرك التي اتخذت اليوم متحفا للآراء العراقية كانت في عهد الدولة العثمانية دار القنصلية البريطانية وتسمى عند العامة (القنصلخانة) وكانت البناية تمتد الى استقامة شارع الرشيد وقسما منها في دائرة البرق المركزية فامتد الشارع الى سور القنصلية وتوقف العمل فيه اذ اعترضت الحكومة البريطانية ان يهدم قسم من فنصليتها في بغداد واصر خليل باشا على هدمها وكادت ان تحدث أزمة سياسية بين بريطانيا والدولة العثمانية بسبب ذلك لولا اشتغال نيران الحرب المالية الاولى وانشغال الدولتين بها فاهمل المشروع وتوقف الشارع الى هذا الحد وخسرت الدولة العثمانية الحرب وخرجت من العراق وحلت الدولة البريطانية محلها في احتلال العراق وفي عهدها امتد هذا الشارع الى الباب الشرقي عند الدبابخانة العسكرية وبمحاذاة نهر دجلة من جانبه الشرقي ...

(١٠) عرف ابناء الواقف السيد عيسى بعلوية السيد عيسى وقد ذكر مجلسهم ضمن المجالس البغدادية السيد ابراهيم الدروبي في كتابه (البغداديون) فقال : هذا البيت من ارفع واجل بيوتات بغداد وال السيد عيسى سادة حسنية وقد

عبدالكريم الجيلي فتسقى البستان ومن هناك إلى جامع الحاج فتحي فتؤمن حاجة السبيل الموجود فيه ..

(١١) جامع السيد سلطان علي - هذا الجامع مظل على دجلة من نهر الملى من انهار بغداد القديمة وموضعه اليوم بمحلة سبع أيكار أو المربعة بلصق شركة المخازن العراقية المركز الرئيسي على شارع الرشيد في بغداد.. يقول الدروبي في بناء الجامع : ولا يعلم بالتحقيق تاريخ بناء هذا الجامع الا انه يصادف العصر الذي بنى فيه المدرسة المرجانية والنظر الى مثذنة كل منهما تجعلنا نقطع بان البناء متقارب في الزمان ان لم يكن مماثلا ومثذنة جامع التيماني لا تختلف عنهما .. وقد ذكر العلامة الحاج علي الالوسي القاضي في تعليق له على كتاب كلشن خلفا عند ذكر الشيخ علي ما نصه : والظاهر ان الشيخ علي هذا هو المنسوب اليه جامع السيد سلطان علي فانه ولي بغداد وتولي فيها وموضوع الجامع من مرافق دار الخلافة العباسية كما اكد ذلك الاستاذ المرحوم عباس الزاوي في تاريخه .. والحقيقة ان السيد علي هو والد الصوفي الشهير السيد احمد الرفاعي صاحب الطريقة المعروفة باسمه وله ترجمة وافية تؤكد الموضوع الذي دفن فيه في كتاب « روضة الناظرين وخصاصة مناقب الصالحين » للعلامة الكبير الشيخ احمد بن محمد الوترى ، الوصلي الاصل ، البغدادى الدار ، المصري الوفاة الذي توفي في سنة ٩٨٠هـ .. وفي سنة ١٣١٠هـ جدد عمارة الجامع السلطان عبدالحميد خان العثماني وانشأ فيه مدرستين لتدريس العلوم العقلية والنقلية وبنى فيه حجرا لطلاب العلم .. واما الكتابات التي على باب الجامع كما يذكر الدروبي فهي بخط عثمان ياور الخطاط المشهور ، عثمان ياور هذا خطاط معروف من تلاميذ الخطاط الشهير بسامي بك ومن آثاره الخطية ما كتب على الكاشاني الازرق في مشهد الامام الاعظم والشيخ معروف الكرخي والواح خطية ، وكان حسن الخط دعاه من الاستاذة الى بغداد الحاج حسن باشا والي بغداد ايام ولايته وفي ايامه عاد الى استانبول وتوفي هناك سنة ١٣٢٢هـ وفي هذا الجامع تكية للسادة الرفاعية من ال رجب الراوي وكان عميدها الشيخ ابراهيم الراوي ومجلسه الادبي والديني فيه يذكره اهل بغداد في جملة مجالسهم ولا تزال هذه التكية عامرة بروادها وتكون بنايتها في القسم العلوي من الجهة الشمالية من هذا الجامع ولها مكتبة قيمة تضم نوادر المخطوطات والكتب المطبوعة النفيسة ، والذي يقوم الان برعاية هذه التكية ومكتبتها الاستاذ الحامي جمال بن اسماعيل الراوي بمسند وفاة الاستاذ الشاعر خاشع الراوي - رحمه الله - .

(١٥) جادت تسمية (الباب الجنوبي) من جريان نهر دجلة من جهة الشمال الى الجنوب فيشطر مدينة بغداد الى قسمين ، فالجانب الغربي منه ويسمى (الكرخ) ، والجانب الشرقي ويسمى (الرصافة) .. اما تسمية (الباب الشرقي) فمن مدار الشمس فيكون موقع الباب في الجهة الشرقية من بغداد وهي جهة شروق الشمس وتنطبق التسميتان (الشمالي أو الغربي) على الباب العظيم وفقا لذلك .

(١٦) لم يكن الكاتب دقيقا من الناحية التاريخية لانه ليس من الباحثين ، فقد انشأ هذا السور في زمن الخليفة العباسي انناصر لدين الله سنة (٦١٨) هجرية كما تدل على ذلك الكتابة التي كانت على موضع من أحد ابواب السور المسمى ب (باب الطلسم) وقيل ان تاسيسه يسبق ذلك بزمان غير يسر وان الخليفة الناصر انشأ بعض اقسامه وبالأخص ابوابه !! وعلى كل حال فان السور لم يكن في زمن ابي جعفر المنصور بل ولم تكن الرصافة معروفة في زمنه ، فالول ما بنى من بغداد الجانب الغربي ومن بعده بنيت الرصافة . وقد هدمه الوالي مدحت باشا بدافع عدم فائدته ولأجل توسيع بغداد ..

وما كان للسور اثر او معالم ظاهرة في بغداد سوى ابوابه الأربعة وضلعي القلعة الخارجيين من جهة المجيدية (المستشفى الجمهوري ومدينة الطب) ومن جهة دجلة باعتبارهما من السور لانه كان متصلا بهما وكذا ضلعي الدباغخانة أي من الباب الشرقي الى دجلة ومن هناك ينطفئ على زاوية قائمة بامتداد النهر الى شريعة الفناهرة وبعض الأسس في محال أخرى متفرقة.. اما الآن فلم يبق من هذا وذاك سوى الباب الوسطاني القريب من مقبرة الشيخ عمر السهوردي وجامعه ..

(١٧) وذكر ايضا السيد محمد رؤوف الشيلخي في مذكراته مثل ذلك فقال : وكان يوجد في بغداد من العربات الخصوصية ثلاث أو أربع عربات فقط وهي : عربة النقيب وعربة ابن جميل وعربة الوالي وعربة نصرت باشا مفتش الجيش .

وكان لبعض القناصل عربات ذات دولابين فقط ويجرها حصان واحد ويجلس فيها القنصل وهو سائقها وبجانبه زوجته فيخرجون للنزهة الى الباب الشرقي ثم يعودون من حيث أتوا ..

(١٨) تقع بحيرة « وان » في تركيا الشرقية بين جبال طوروس ، وعلى ضفتها الشرقية تقع مدينة « وان » المشهورة بساتينها وتنوع ثمارها .

(١٩) سميت علوة المخضرات التي وقع فيها هذا الحريق الهائل ب « خان النفط » بعد خزن صفائح النفط فيها وذكر السيد عبدالكريم العلاف في « بغداد القديمة » هذا الحريق بالتفصيل فقال : وفي مساء يوم السبت ٢٣ جمادي الأولى سنة ١٢٣٠هـ ويقابلها سنة ١٩١٢م أيام الوالي جمال باشا حدث حريق هائل في بغداد بخان النفط الواقع في محلة العويطة العائد الى السيد محمد السيد محسن آل العطار وهم من السادة الحسينيين المعروفين في بغداد ودام هذا الحريق الى يوم ٢٠ من الشهر أي الى يوم السبت وكان ما التهمته النيران يربو على ثلاثة عشر ألف صندوقا من النفط ومائتين وخمسين صندوقا من الكحول (اسبرتو) ومائتين صندوقا من البانزين ، وقد كنا نشاهد صفائح النفط تتطاير بعد الانفجار في الجو ، وهذا اعظم حريق في بغداد عرفته الحكومة العثمانية .. ولعل هذا الحريق أول حريق في بغداد وعقبه حريق ثان هو الذي ذكره صاحب المذكرات لاختلاف الروايتين في تاريخ وقوعه وكمية الخسائر وأن اتحد الكتان في كلا الروايتين

أن حدثاً في علوة المخضرات التي هي خان النفط في مجلة الميونة في بغداد .. ورواية الصلاف هذه تطابق ما أوردته الأستاذ عباس العزاوي في تاريخه ج ٨ ص ٢٤٠ .

(٢٠) ورد اسم المجلة « فتاة العرب » في كتاب «أول الطريق» لمؤلفته صبيحة الشيخ داود ، حيث ذكرت فيه : « أصدرت السيدة مريم نرمة مجلة « فتاة العرب » في ٦ أيار ١٩٢٧ ، وهي (مجلة أدبية نسائية اجتماعية غايتها خدمة الفتاة العراقية) . وكانت السيدة نرمة في طليعة الكاتبات اللواتي ساهمن في معالجة الشؤون الأخلاقية والاجتماعية في الصحافة على عهد الثورة العراقية ، إلا أنها لم تصدر مجلة باسمها قبل سنة ١٩٢٧ ..

ولدت السيدة مريم نرمة في بغداد في ٢ نيسان ١٨٩٠م ، ووالدها المرحوم روفائيل يوسف رومانيا ، ولقبت باسم « نرمة » وهي كلمة كلدانية فارسية ومعناها « لطيفة » وقد أقيم لها في ١٩ أيار ١٩٤٥م احتفال تكريمي بمناسبة ذكرى اليوبيل الفضي لمشاركتها في النشاط الأدبي عن طريق الصحافة ، وكان عزم نرمة معقوداً على إصدار مجلة باسم « فتاة العراق » عدلت عنها إلى « فتاة العرب » بعد أن صدرت مجلة تحمل نفس العنوان (وكانت صاحبة امتيازها حسيبة قاسم راجي) . وقد عاشت « فتاة العرب » ستة أشهر واضطرت صاحبها إلى إيقافها بسبب الخسران المادي الذي لحقها ، وقالت : إنه بلغ ٥٠ ليرة ذهباً ..

(٢١) كان ذلك بمناسبة العيد المؤي للصحافة العراقية (١٨٦٩ - ١٩٦٩) والذي دعت إلى الاحتفال به وزارة الثقافة والأعلام لتكريم أولئك الذين وضعوا اللبنات الأولى في صرح الصحافة في القطر العراقي ومنهم السيدة مريم نرمة وقد شاركت في هذا الاحتفال ، وقد صدرت بالمناسبة كراس عن لجنة الاحتفال يعرف بهذه الصحيفة ويترجم حياتها بسطور * اسمها الكامل « مريم نرمة » . عمرها ٧٩ عاماً .. ولدت في بغداد .. ثم انتقلت إلى البصرة .. وعادت إلى بغداد حيث لا زالت تعيش الآن .. إنها عراقية .. عربية .. بدأت أول كتاباتها الصحفية في الأول من أيار سنة ١٩٢١ . وذلك في مجلة « دار السلام » الأدبية التي كان يصدرها المرحوم الأب أنستاس الكرمل . وكان عنوان المقال : « ثقفوا أولادكم وبناكم لكافة الاستعمار » .. ثم نشرت سلسلة من المقالات والمواضيع في صحف عراقية عديدة كان منها : جريدة « العالم العربي » ومجلة « الصباح » وجريدة « الأحد » وغيرها .. ناقشت الكثير من الكتاب العالميين في أمور وطنية واجتماعية .. فقد ناقشت « الفرد كروس » الأستاذ بجامعة كاليفورنيا بأمريكا وهاجمته لأنه هاجم المرأة العربية في مقالات نشرها في الصحف الأمريكية .. وفي سنة ١٩٢٧ أصدرت جريدة « فتاة العرب » وجعلت شعارها « بلاد العرب للعرب » !! ورغم كل كتاباتها عن المرأة ووجوب تثقيفها وتحررها فإنها هي نفسها كانت محجبة حتى إلى ما قبل بضع سنوات !! ..

وأخر ما قالته في عيد الصحافة هذا : « انني جداً سعيدة لأن تأتي حكومة وطنية ولأول مرة في تاريخ عراقنا الحبيب لتعطي الصحافة حقها .. وتحتفل بميذها .. إنها أمنية غالية كانت تعتمل في صدري .. وفق الله العاملين للخير والصفاء !!

(٢٢) أنها توفيت بعد كاتب المذكرات بسنوات .. في حدود سنة ١٩٧٣ والكاتب توفي في ٦ أيار ١٩٧١ ..

(٢٣) انظر ترجمته بتوسع وتفصيل فيما يلي : ١ - اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث : لمير بصري . الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ . ٢ - الرسالة الإسلامية - مجلة ديوان الاوقاف في العراق / العددان : ٧٠ و ٧١ ص ٦٤ . ٤ - الدكتور داود الجلبي حياته ومخطوطاته وخزائنه : فيصل دبوب ..

(٢٤) بلغت الكتب عند انضمام مكتبة الدكتور داود الجلبي إلى خزان مكتبة الاوقاف في الموصل من المخطوطات (٢٠٩) ومن المطبوعات (٧١٤٤) ..

(٢٥) انشئت مكتبة داود الجلبي عملاً بوصيته لتكون مكتبة عامة في الموصل تضم كتبه ومخطوطاته .. وتم تشييدها وافتتحها في حزيران سنة ١٩٦٨ .. وظلت تزاوّل هذه المكتبة عملها في خدمة المواطنين حتى انضمت خزائنها إلى مكتبة الاوقاف العامة في الموصل في أيار سنة ١٩٧٣ .. ويبيت قسم من هذه الكتب إلى مكتبة المتحف العراقي في بغداد من قبل ورثته ..

(٢٦) هو الدكتور داود بن محمد سليم بن أحمد بن محمد الجلبي الموصل . ولد في الموصل في ١٦ كانون الأول سنة ١٢٩٧/١٨٧٩هـ .

(٢٧) وهذه تأليفه على سبيل الحصر : مخطوطات الموصل (١٩٧٢) ، كتاب الطبيب ل محمد بن الحسن الكاتب البغدادي (حققه ونشره سنة ١٩٣٤) ، الآثار الارامية في لغة الموصل العامة (١٩٣٥) ، اقتراح وهو بحث موسع مرفوع إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة عن تيسير القراءة والكتابة العربية (١٩٤٤) ، كلمات فارسية مستعملة في عامية الموصل (١٩٦٠) ، قاموس فرنسي عربي للاصطلاحات الطبية الخاصة بأمراض الجلد (١٩٤٦) ، الفندياد - وهو من كتب المجوس المقدسة - ترجمه عن اللغة الفرنسية (١٩٥٢) الطبيب محمد بن زكريا الرازي (١٩٤٨) ، الموصل - مجموعة محاضرات - (١٩٤٩) .. وله عدا ذلك مقالات وبحوث كثيرة نشر معظمها في مجلة لغة العرب والمقتطف ومجلات الجامع العلمية في دمشق وبغداد والقاهرة ومجلة غرفة تجارة بغداد .. وكان داود الجلبي فيما كتب عالماً واسع الافاق ، ذوّباً على العمل ، حريصاً على تنظيم وقته ، حتى شملت بحوثه وكتاباته مواضيع متعددة في شتى ميادين العلم والمعرفة ..

كشف المراجع

- ١ - البغداديون : ابراهيم الدروبي .
- ٢ - بغداد القديمة : عبدالكريم الملا .
- ٣ - دليل خارطة بغداد : الدكتور مصطفى جواد واحمد سوسة .
- ٤ - تاريخ بغداد : سليمان فائق ترجمة موسى كاظم نورس .
- ٥ - قلم وزير : من آثار ابراهيم صالح شكر تعليق خالد محسن اسماعيل .
- ٦ - مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها : السيد محمد رؤوف الشيعلي .
- ٧ - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث - الدكتور علي الوردي .
- ٨ - تاريخ العراق بين احتلالين : الاستاذ عباس الراوي .
- ٩ - آفاق مربية العدد / ١٠ / حزيران / ١٩٧٩ . محلات بغداد لجمال بابان .
- ١٠ - لب الالباب : محمد صالح الهروردي .
- ١١ - مكتبة الاوقاف العامة تاريخها ونواذر مخطوطاتها : عبدالله الجبوري .
- ١٢ - تاريخ مساجد بغداد : محمود شكري الالوسي العلامة
- ١٣ - روضة الناظرين وخلاصة مناقب السالحين : الشيخ محمد بن احمد الموترى .
- ١٤ - المنجد في الادب والعلوم : فردينان تول .
- ١٥ - اول الطريق : صبيحة الشيخ داود .
- ١٦ - كراس بمناسبة العيد الثوي للصحافة العراقية (١٨٦٩ - ١٩٦٩) صادر عن وزارة الثقافة والاعلام .
- ١٧ - اعلام البقعة الفكرية في العراق الحديث : مير بهري .
- ١٨ - مجلة الرسالة الاسلامية / المعدادان : ٧٠ و ٧١ .
- ١٩ - الدكتور داود الجلبي حياته ومخطوطاته وخزانته : فيصل ديدوب .
- ٢٠ - الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ .



مركز تحقيق كاميونير علوم اسلامي

بغداد من خلال المقامات

صبيح صاريق

القسم الثقافي - جريدة الجمهورية - بغداد

تم ترتيب النصوص حسب التدرج الزمني لصاحبها .. وفي أحيان كثيرة قد يكون هناك نص واحد فقط أو نصين يبتعد أحدهما بمدة قرون عن الآخر .

من الملاحظات المهمة حول المقامات انها ظهرت ابان انحلال الدولة العربية الاسلامية سياسيا ، اي ان بغداد كانت في بداية اضمحلال حضارتها ولهذا جاءت الكثير من مظاهرها وصف لحالة التدهور الذي تعيشه وليس وصف لحالة التمدن التي شهدتها بغداد ..

والمقامات التي عثرنا فيها على مادة الموضوع هي :

(١) مقامات بديع الزمان الهمداني المتوفى عام ٣٩٨هـ / ١٠٠٨م وقد طبعت طبعات عدة .

(٢) مقامات ابن ناقي (عبدالله بن محمد) المتوفى عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م المطبوعة في استانبول - مطبعة احمد كامل - سنة ١٢٣٠هـ .

(٣) مقامات الحريري المتوفى عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م المطبوعة طبعات عدة .

(٤) مقامات ابن ماري/ يحيى بن سعيد [المعروفة باسم المقامات المسيحية] المتوفى عام ٥٨٩هـ . وهي مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٣٢٠ ، وقد ورد نص المقامتين بمسند هذا البحث .

(٥) مقامات الكازروني علي بن محمد المتوفى عام ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م بتحقيق الاستاذين كوركيس عواد وميخائيل عواد . مطبعة الارشاد بغداد - ١٩٦٢ .

(٦) مقامات ابن الصقل الجزري المتوفى عام ٧٠١هـ / ١٣٠١م بتحقيق الدكتور عباس مصطفى

هذا البحث محاولة لاستشفاف الملامح العامة عن بغداد من خلال نصوص المقامات التي دارت احداثها فيها أو قيلت حولها .. ولا يتوقع القارئ اكثر من ذلك .. فخطة هذا البحث هي جمع كل المقامات التي قيلت في بغداد واستخلاص المعالم الاجتماعية والاقتصادية وسواهما من المتفرقات التي تخص الحياة البغدادية في بحث مستقل يمتد من القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي .

وبصورة عامة فان قلة عدد المقامات قد سببت إرباكاً في هذا الموضوع لتوفر نصوص عديدة في جانب من الجوانب وعدم توفرها في جانب آخر . ولم تكن جميع المقامات قد تحدثت عن بغداد فهناك من المقامات ما لم تكن لها علاقة ببغداد مثل مقامات الزمخشري والسيوطي وابن الوردي وغيرها .. ولكن المقامات المهمة مثل مقامات الهمداني والحريري والكازروني وغيرها تحدثت عنها . نغني مقامات الهمداني والحريري عدة مقامات منهما جرت احداثها في بغداد . ووردت في مقامات ابن ناقيسا وابن ماري مقامتين في كل منهما جرتا في بغداد . وجاءت مقامات الكازروني والالوسي كلها عن بغداد . بينما خصص الجزري مقامة واحدة عن بغداد ..

قسّم هذا البحث الى عدة اقسام ، فالقسم الاول يتحدث عن المواسم الاجتماعية والدينية كما صورتها المقامات ، ثم القسم الثاني عن الحالة الاقتصادية في بغداد . وفي القسم الثالث جوانب متفرقة مثل انطباعات اصحاب المقامات عن بغداد واهلها والوان الطعام والشراب عندهم والتعامل في السوق وبعض الفصول حول الحوادث التاريخية وغيرها ...

الصالحى (رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة
الكتابة في المكتبة المركزية - جامعة بغداد .)

(٧) مقامات الألوسي محمود بن عبدالله
الحسيني المتوفى عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م المطبعة
الحجرية في كربلاء . سنة ١٢٧٣هـ .

(٨) مقامات ناصيف اليازجي (مجمع
البحرين) المتوفى عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧١م المكتبة
التجارية بيروت .

المواسم الاجتماعية والدينية

كان الكازروني (القرن الرابع الهجري)
أكثر اصحاب المقامات وصفا للمواسم في بغداد
مثل مواسم رمضان والعيد والحج والربيع والترب
وغيرها . والنصوص التي تم جمعها حول هذا
الموضوع تعود الى القرن السابع الهجري - اي
عصر الكازروني - وهي فترة مهمة من حياة بغداد
لسقوطها بأيدي المغول ، ومصادر هذه الفترة أقل
بكثير من المصادر التي تؤرخ للفترة السابقة
عليها ، ولهذا يمكن اضافة هذه النصوص الى
نصوص كتب التاريخ في وصف بغداد .

شهر رمضان

يصف الكازروني ما يحدث ببغداد في شهر
رمضان حيث توزع الهدايا في أيامه الأولى على
العلماء والمتصوفة والنبلاء ، وفي وقت الفطور من
كل يوم كان الافطار يوزع على كل محتاج ، يقول
الكازروني :

« ... شهر الصيام ، المختص بالعبادة
والقياس ، المفتتح بالصدقات ، المتور
الليالي بالصلوات ، ففي أول يوم منه
يُفَضُّ على العلماء والمتصوفة والنبلاء
من يدرّ الأنعام ويُدُنّ الأنعام ، ما يجاوز
حد الاكثار . ويُفْنَى وقت الافطار ، ثم
تفتح آدُر المضيف للعوام والفقراء
والايتام فلا يبقى من لا يشملُه الأنعام
ويحصل له القوت في الصيام . وما من
الملك الا من عليه راتب ، وكذلك الصدور
 واصحاب المراتب يُفَطَّر على اطباقهم
الامثال ، واطياب الالوان تصل الى الفقير
والسائل » .

ثم ينتقل الى وصف ليالي شهر رمضان
حيث توقد المصابيح وينشغل الناس بالصلوات أو
بقضاء أوقاتهم في السمر حتى وقت انقضاء .
ويقرا آخرون القرآن . يقول الكازروني :

« ولياليه مشرقة بالمصابيح ، والمساجد
منسيرة بالصلوات والتراويح والعصوام
ملتية بالملاذ والغناء والفرح الى منتهى
وقت العشاء ثم تُرْفَع قناديل السحر
وتتناهى شحارير التذكير وایامه كلها
عبادة وأوقاته طاعة وزيادة » .

ثم يصف عادة توزيع الهدايا قبل حلول عيد
الفطر حيث يتم توزيعها على الجميع . .

« فاذا بقي من الشهر أربع ليال وعاد
جديده كالاسمال ، خلع المخزن تشریفات
الخلیفة على صدور الدولة الشريفة ثم
بعده الملوك وأرباب المراتب والسادة ولده
الاطاب حتى يصل الانعام الى الخاص
والعام فقلّ من لا ينال منها نصيباً وفي
البعيد من لا يكون منها قريباً . »

موسم العيد

وصفت مقامة الكازروني (القرن السابع
الهجري) موسم العيد في بغداد والتهیوء له ، وكان
نفسه - اي الكازروني - معجباً بمظاهر العيد
في بغداد ، فقال :

« يتهیئ الناس للعيد المشهود والمجمع
المحشود الذي تكلُّ عن حسن وصفه
السنة البلغاء وتعجز عن أدراك وصفه عقول
الالباء فلا ينتهي الى نعتة قول قائل ولا
يصل الى مثله الاواخر ولا الاوائل ، ولا
رُئِيَ لاحد من الملوك ما يناسبه ولا حكي
ان لهم مثله او ما يقاربه » .

ثم يصف الاحتفال الرسمي بهذه المناسبة
والاحتفال الشعبي فيها :

« يباكر اليه في أحسن زينة ولباس
ويجتمع لرؤية الموكب أكثر الناس ، ثم
يجلس الخليفة في داره ويعرض الموكب
بأهله وصغارَه ، والملوك في أحسن زينة
وأبهى حلية ، واعظم سكينة ، فلا يزال
الموكب والمساكر تجري كالسيل في جمع
كنجوم الليل ، كذلك ثلاثة أيام حتى
ينقضي منقضاه ، ويصل آخره ومنتهاه
وقد تكاملت للعالم المسار في آناء الليل
والنهار ، فان كان الاضحى نحر الخليفة
في ابوابه ، وكذلك اهل بلده ، رغبة
في ثوابه فيمتار الفقراء ويؤجر الاغنياء » .

موسم الربيع

كان أهل بغداد يخرجون في الربيع الى الحدائق والبساتين والانهار ويقضون أوقاتهم هناك بين الغناء والموسيقى .. وقد وصف الكازروني (القرن الخامس الهجري) خروج أهل بغداد في الربيع فقال في مقامته :

« وأما زمان الربيع ، وإيام الوشي البديع فانهم كانوا يصطحبون ويتجمعون وينشالون » كأنهم الى نَصَب يوفضون « فينزلون الجواري في رهط من الجواري ، ويدخلون نهر عيسى ويبكرون نحو قصده تغليسا . فيجتمعون بالمحَوَّل اذ عليه في الحسن المَحَوَّل فيخترقون اشجاره ويقطفون ثماره ونواره ، ويفترشون رياضه وازهاره وينزلون غيطانه وانهاره . ثم تعزف القيان وتصلخب العيبدان وتصفق الغدران وترقص الاغصان وتميد الافئنان وكلما دسع الراوق طاب المشوق وكلما بكى السحاب ضحك الحباب . وكلما طرب العود زمجرت الرعود وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة ، كذلك اياما لا يطعمون مناما . »

ثم يتحول الكازروني الى وصف ما آلت اليه بعد ذلك :

« الا انهم انتهكوا المحارم وارتكبوا المآثم واصروا على الفجور وسفك الخمر ، ولا جرم ان العرش اهتز غضبا ، وسُعيرت جهنم حصباً ، وازدادت لها ، فاخذهم الله تعالى اليه « اخذ عزيز مقتدر » ولقد تركناها آية فهل من مدكر » فاين الملك الباذخ والشرف الشامخ ذهبت والله الشهوات ، بقيت التبعات ، وخشعت الاصوات ، وسقيت الرفات من اعظم العظاات ... »

موسم الحج

ذكر الكازروني (القرن السابع الهجري) موسم الخروج للحج في بغداد فوصف مغادرة الحجاج بغداد وكيف يتم الاحتفال بهذه المناسبة على ضفاف دجلة ويكتظ الناس للمشاهدة ..

يقول الكازروني

« .. منها موسم الحاج وهو اعظم

مواسم السنة التي تكل عن وصف حسنه الالسنه ، وتفتح فيه آدُر المضيف لكل بائس من الحاج وضعيف ، وتضرب على دجلة الحياض والروايا ويؤذن بالحج في سائر الرعايا . ثم يهرع الناس الى الفرجة على التبريز في حلل الابريز ما بين فتي وفتاه وشاب قد فتن بحسنه فتاه . يرتفعون في رياض الجانب الغربي ما بين ماشر أو ممتطر صهوة عربي فلا يزالون كذلك اياما يمرحون وحدانا وفئاما (الجماعة من الناس) والسبل تجلى في المواكب الى الخيام وتُزَف الى منازلها بالعبيد والخدام . فاول ما يقدمها العلم وهو محمل الخاص وبعده الكوس وجند السفر ، والنوبة المكية في الاثر تنهادي بين الحجاب والدعاة ، والقراء في احسن الصفات ، ثم يتوالى في كل يوم سبيل بعد سبيل ورحل كل جهة محمل جميل ، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج ، فيخلع على الامير ويكتل ، وينعم عليه ثم يُحمل ، فيخرج من ساعته ويدخل الحاج في طاعته . »

يصف الكازروني بعد ذلك عودتهم بقوله :

« فاذا رجعوا سالمين فهو موسم ثان للمتفرجين ، يُفَض فيه من التشريفات على الحاشية والولاة ما يدهش الناظر ويجلو النواظر . ومامنهم الا من قد بَخْبَخ بسلامة اهله مرحبين (بما اتاهم الله من فضله) . »

التنزه

اعتاد اهل بغداد التنزه في العديد من الاماكن ، وقد وصفت المقامات تنزه اهل بغداد فيتحدث الهمداني (القرن الرابع الهجري) في مقامته القردية على لسان عيسى بن هشام اذ يقول :

بيننا أنا « على شاطئ الدجلة ، انامل تلك الطرائف واتقصى تلك الزخارف ، اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب اعناقهم ويشق الضحك اشداقهم فساقني الحرص الى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون مرأى وجهه لشدة الهجمة وفرط الزحمة فاذا هو قراة يرقص قرده ويضحك من عنده .. »

وهذا النص يوضح هواية أهل بغداد بالتنزه على نهر دجلة وأن بعض الناس كانوا يقومون ببعض الفعاليات كما هو الحال بالنسبة للفراد الذي يجتمع الناس عنده للترفيه والضحك ، وهذه القصة وأن كانت من اختراع الهمداني إلا أنه يبدو أنها كانت شيئاً عادياً آنذاك .

وفي القرن السابع الهجري وصف الكازروني خروج الناس للتنزه الى الحدائق والبساتين فقال :

« على أن الأيام كلها كانت تضي
أفراحاً ومواسم يرتاح إليها الناس
أرتياحاً ففي كل سبت عيد جديد وموسم
سعيد يخرج الناس إلى الرياض
والأزهار لسماع أصوات الشحارير
والغلمان كالولدان والجواري كالحيور
الحسان ما بين أهيف وأحور وأحمر
وأغيد وأعطر .

في البدر من وجنته نكتة
وفترة في العين من طرفه
إذا مشى جاذبه ردفه
كانه يمشي إلى خلفه

وظفلة تكامل شبابها وطاب عرفها وعذب
رضابها ترمي عن قسي الحواجب بسهام
الفنج الصوائب .

وتنال منك بحد مقلتها
ما لا تنال بحد النصل
وإذا نظرت إلى محاسنها
فلكل موضع نظرة تبذل
والناس في أرغد عيش وأطيب زمان وأعدل
وقت وأصفى أوان . »

موسم زيارة القبور

من المواسم التي سجلتها المقامات موسم زيارة القبور الذي تتم فيه مراسيم خاصة للترحم على الموتى بقراءة القرآن وإيقاد الشموع وتوزيع الطعام والحلوى .

يقول الكازروني (القرن السابع الهجري) :

ومنها موسم الترتب ، وإليها المنقلب .
فيركب الوزير في أرباب الدولة والأمراء
والصدور والكبراء ، في موكب مشهور
إلى الرصافة ، وهي مدفن ولاية الخلافة
فيجتمعون بها للقراءة والدعاء وأهداء
الثواب للخلفاء كذلك أياماً يشرق فيها

ويغرب . وقراء المواكب تشويق
وتطرب فإذا كان الليل اجتمع المتصوفة
والفقهاء ، وأوقدت الشموع وقرا القراء
وشرع الوعظ في الكلام والأحياء إلى آخر
الظلام فإذا أسفر الصباح وبادر المؤذن
بالفلاح ، فض على المذكورين من الحلواء
وأطابب الطعام والغذاء ما يستغرق حد
الاكثار ويعم ذوي الاقتار . »

حالة التعليم

لم نثر على نصوص كثيرة حول طبيعة التعليم من خلال المقامات باستثناء اشارتين وردت الأولى في مقامات يحيى بن سعيد والثانية في مقامات الألوسي .

في مقامات يحيى بن سعيد (القرن السادس الهجري) انتقاد للتعليم في مجال الطب حيث ورد في المقامة الخمسين التي تعرف بالدارية على لسان أحد أساتذة الطب عندما ناقشه الراوية يحيى بن سلام فيقول له الأستاذ :

« اقتصروا من العلم على جس العرق
بغير عرفان . ومن القارورة على الأصابع
والألوان وحوت نجوم أسرار جالينوس
وبقراط . ووهت عقود آراء أفلاطون
وسقراط . وصار من كبر العصبية وكثر
العصبية . يوماً إليه بمفرج الغم .
ومحي الريم . تالله أن تلك العمائم على
عقول البهائم ما حوت قشب الملابس
والبرانس غير أفهام الأنعام النسانس لو
سألت أحدهم مسئلة رأيت أرضاً ممحلة
ووجوها معبسة وأموراً ملتبسة ، ثم
أنشد :

ينمقون أحاديثاً لمكتسب
وفي السؤلات يبدون الماذيرا
وهل ينال علوماً جل موقعها
إلا فتى جلد تلقينا وتكريرا
واتلف النفس تدريساً أناط به
ركضاً إلى العلم حتى أذهب الزيرا

ومن هذا النص يتوضح أن دراسة الطب أخذت تتدهور إن صح ما يقوله صاحب المقامة !

أما الألوسي (القرن الثالث عشر الهجري) (التاسع عشر الميلادي) فقد وصف طبيعة تعليمه هو ، ومن خلاله يتوضح طبيعة تعليم الأفراد آنذاك فقال :

« قرأت على أبي علم النحر وطرفاً من
فقه الشافعية والفرائض وكان لي لمزيد
شفقتيه ومضاعف رافته بمنزلة ألف
رأئض ثم قرأت على زيد وعمرو ممن
في مصري من علماء العصر » .

وفي مقامات ناصيف اليازجي (القرن الثالث
عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي) جاء في المقامة
البغدادية :

« دخلت يوماً بعض المدارس وإذا
شيخنا الخزامي هناك جالس . والطلبة
قد اقبلوا عليه ، واحدقوا به واليه .
فسلّمت عليه تسليم المشقوق ،
وابتهجت به ابتهاج العاشق بلقاء
المعشوق . وجلسنا نتشاكى النوى
ونتباكى للجوى وإذا امرأة تنادي يا شاري
اللبن الرخيص الثمن . وهي في اثناء
الكلام تتلاعب في الاعراب على الثلاثة
الاحكام ... قال : والشيخ بين ذلك
يقلب وجهه في السماء ويقول سبحان من
علم آدم الاسماء ... قال : وما فرغ
الشيخ من الكلام حتى ابتدر القيام .
فتعلقوا به وقالوا : لات حين مناص فان
دواء الشق ان يحاص . ولقد أثبت
حيث أئس فلا تذهب من حيث ليس .
فعاد الى المقام وقال صبراً : على مجامر
الكرام . ثم اندفع في شرحه كاليعبوب
حتى ملا العيون . ولما قضى الوطر
نهض على الاثر فقام القوم يودعونهم وهم
يودون لو يتبعونه ... الخ .

الحالة الاقتصادية

ظهرت المقامات في القرن الرابع الهجري/
العاشر الميلادي اي في عصر الانهيار السياسي
لبغداد فتبع ذلك تدهور اقتصادي واضح حيث
تركزت الثروة بيد فئة معينة ، بينما عاشت الطبقة
العامة في فقر وحرمان ، وإذا ما عرفنا ان المقامات
وبالذات مقامتي الهمداني والحريري قد افتتا
لفرض الكدية والحيلة في الحصول على المال اتضح
مدى اثر التدهور الاقتصادي في كتابة المقامات .

لقد صورت المقامات حالة الفقراء والمسولين
بشكل دقيق ووصفت الاساليب التي يتبعونها في
الحصول على قوتهم ، وهي وان كانت قصصاً أدبية
إلا أنها تعكس وقائع حالة بغداد وانهيارها
الاقتصادي آنذاك .

ففي القرن الرابع الهجري يضع الهمداني
مقامة باسم المقامة (المجاعية) وهي انعكاس للفقر
والمجاعة آنذاك . يقول عيسى بن هشام :

« كنت ببغداد عام مجاعة فعلت الى
جماعة قد ضمّهم سيمط الثريا .
أطلب منهم شياً ... »
ثم يلتقى بغلام فيقول له :

« حالان لا يفلح صاحبهما : فقير كده
الجوع وغريب لا يمكنه الرجوع ففسال
الغلام : اي الثلمتين تقدّم سدّها ؟
قلت : الجوع فقد بلغ مني مبلغاً .

فيصف الغلام لعيسى بن هشام ثلاثة اشياء
الاولى طعام والثانية شراب والثالثة مجلس
مريح) .

« قال عيسى بن هشام . قلت : انا
عبد الثلاثة .

فقال الغلام : وانا خادمها لو كانت .
فقلت : لا حياك الله احييت شهوات قد
كان الياس اماتها ثم قبضت لهاتها فمن
اي الخرابات أنت .
فقال :

انا من ذوي الاسكندرية

من نعمة فيهم زكية
سخف الزمان واهله
فركبت من سخف مطية

وهذه المقامة لا تحتاج الى تعليق في بيان
انتشار الجوع فعيسى بن هشام الذي يتوقع ان
الغلام (ابو الفتح الاسكندري) سيقدم له الطعام
والشراب واذا به فقير مثله ! وهذه القطعة وان
كانت اقرب الى الطرفة ولكنها تعكس حالة من
الحالات التي عانتها بغداد .

ويحدثنا الهمداني كذلك في مقامته
(الازازية) عن حيلة طريفة وفيها وصف للحاجة
الى الطعام جاء فيها :

حدثنا عيسى بن هشام قال ..
« أخذت عيناى رجلاً قد لف رأسه
ببرقع حياء ونصب جسده وبسط يده
واحتضن عياله ، وثابط اطفاله ، وهو
يقول بصوت يدفع الضعف في صدره
والمرض في ظهره .

ويُلي على كفين من سويق
او شحمة تُضرب بالدقيق

يا رازق النعَّاب في عشته
 وجابرَ العظم الكسير المهيض
 اتح لنا اللهم من غير ضه
 من دتس الدَّم تقي رحيض
 يطفىء نارَ الجوع عتًا ولو
 بمدقة من حازر أو مخيض
 فهل فتى يكشف ما نابهم
 ويفتّم الشكر الطويل العريض
 فوالذي تعنو النواصي له
 يوم وجوه الجمع سود وبيض
 لولا هم لم تبد لي صفحة
 ولا تصدّيت لنظم القريض
 وفي نهاية القصة يظهر ان هذه العجوز هو
 ابو زيد . وهذه المقامة وان كانت تدل على حيلة
 طريفة ولكنها تعكس حالة التردّي في المستوى
 المعاشي آنذاك .

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن
 سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية
 عشرة وردت فيها قصة رجل يدخل المستشفى
 وهو شحيح البدن وعندما يسأله أحد اصدقائه
 بقوله :

« ما الذي دعاك الى هذا المقام والتردّي
 برداء السقام وانت صحيح البدن طليق
 الرسن لا مانع لك عن سجن .
 فقال :

لست من تذهب عليه اغلوطه وما
 عقالك بأنشوطه لولا غريم كدني تفاضيه
 ولم أجد ما يرضيه ما التجأت بهذه
 البقعة مع سعة الرقعة وها انا اكل
 اطايب ما يصنمه الطاهي ما يفاخر
 كسرى ويباهي من غير مشقة ولا تحفز
 لتعب وأنشد :

نيل من زمانك ادنى
 صفو ولو بالجنون
 ان المكاسب شتى
 والناس فيها فنون

والقصة واضحة في ان سبب دخوله
 المستشفى هو للحصول على الطعام مجاناً . وهنا
 لابد ان نشير الى ملاحظة مهمة هي بالرغم من
 الانهيار السياسي والاقتصادي فان التقدم العلمي

أو قصعة تملأ من خير ديق
 يفتّا عنا سطوات الريق
 يقيمنا عن منهج الطريق
 يا رازق الثروة بعد الضيق
 سهل على كف فتى لبيق
 ذي نسب في مجده عريق
 ثم يميظ لثامه فاذا به ابو الفتح
 الاسكندري) .

وفي المقامة (العراقية) يصف الهمداني حالة
 متسول شاب حزين يسأل الناس ..
 « حدثنا عيسى بن هشام قال : طفت
 الآفاق حتى بلغت العراق ... واصلتني
 بغداد فبينما انا على الشط اذ عن لي
 فتى في اطمأري يسأل الناس
 ويحرمونه » .
 واذا به ابو الفتح الاسكندري .

تدل هذه المقامة على انتشار عادة التسول
 حتى بين الشباب !

اما الحريري (القرن الخامس الهجري) فقد
 جاءت مقاماته في هذا المجال مشابهة لمقامات
 الهمداني وقد صورت حالة البؤس اكثر مما
 صورته مقامات الهمداني .. ففي المقامة البغدادية
 للحريري نلاحظ فقيراً يتمنى الموت .. ولا هم له
 سوى الحصول على لقمة تشبعه وكساء يغطي
 جسمه ..

جاء في هذه المقامة عندما تأتي عجوز الى
 مجلس فيه الحارث بن همام فتصف حالة فقرها
 بصايلي :

« فحبذا الموت الاحمر وتلوى من
 ترون عينه فراره (مثل يضرب لمن
 يدل ظاهره على باطنه) .

— وترجمانه اصفراره (اي تبيانه
 اصفراره) .

— قصوى بغية احدهم ثردة (اي نهاية
 ما يتفنيه احدهم تريد) .

— وقصاري اُمنيته ثردة (اي منتهى
 ما يتمناه كساء يلبسه) .

ثم تبدأ هذه العجوز بالانشاد فتقول هذه
 المقطوعة المركزة حول حالتها الفقيرة التي تدفعها
 لقول القريض أملاً في شيء من الطعام :

كان لا يزال مزدهراً بدليل العناية التي يلاقيها
المرضى في المستشفيات ..

وفي القرن السابع الهجري كتب ابن الصقل
الجزري في مقامته البغدادية حيث يقول أحدهم
لآخر حول ما يعانيه :

ولما وردت هذا القليب (البثر) وارتدت
في متجر الندامة التقلب ، بادرت لأيل
غائتي وأيل . من مرض هاتيك عيلتي
فشغلت لوجود الالتياح (الجوع) وعدم
الارتياح .. »

وبالرغم من أن ابن الصقل الجزري في مقامته
كان يركز على اللفظ أكثر من الحادثة إلا أن
الشكوى من الجوع تعكس هذه الظاهرة آنذاك .

كدية أصحاب العلم

حاولت المقامات إبراز أهل الكدية من العلماء
وأهل المعرفة والأدب اضطرتهم سوء حالتهم المادية
إلى الحيلة والكدية . وهي نتيجة طبيعية لاختلال
التوازن الاقتصادي وسوء توزيع الثروة . وقد
أبرزت المقامات هؤلاء بانهم من ذوي المكانة في
المجتمع ثم دار الزمن دورته كي ينزلهم من عليانهم .
وهي بذلك تعبر عن استياء أصحاب المقامات من
هذه الظاهرة التي استشرت آنذاك .

ففي مقامات الهمداني (القرن الرابع
الهجري) مثال لهذه الحالة في المقامة المجامية عندما
يسأل عيسى بن هشام الشخص الذي يناقشه
حول أنواع الطعام (أبو الفتح الاسكندري) يقول
له : من أي الخرابات أنت فقال :

أنا من ذوي الاسكندرية
من نبعة فيهم زكية
سخف الزمان وأهله
فركبت من سخفي مطية
وفي مقامته الازاوية ينشد أحد الفقراء
مقطوعة فيقول فيها :

سهل على كفة فتى لبيب
ذي نسب في مجده عريق

وهي اشارات واضحة ولا تحتاج الى تعليق .

وجاء في المقامة القردية حينما يسأل عيسى
ابن هشام أبا الفتح الاسكندري عما أوصله لحالته
في اشتاله قراداً ينشد أبو الفتح :

الذنب للايام لالسي
فاعتب على صرف الليالي

بالحمق ادركت المنى

ورفكت في حلل الجمال

وهنا يتضح أن أبا الفتح لم يرض هو نفسه
عن أسلوبه إلا أنه مضطر إليه اضطراراً بسبب فقره
وهو يعترف أن عمله أحق ولكن لا سبيل للحصول
على ما يريد ..

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث ابن نايقا
في مقامته الرابعة عن متسول فيقول :

« حدثني بعض الاصدقاء النازلين
بشرقي الزوراء قال أنصت ليلة من الليالي
وأنا في نقر من العيال قد ضم جمعنا
الطعام وايقظ مصباحنا الظلام الى سائل
بالباب يتوخي بكلامه الاعراب وينطق
بلسان الاعراب ويعتمد على غريب اللفظ
ويعمز سؤاله بالوعظ ... »

والعبارات الاخيرة تدل على أن المتسول
شخص من أهل المعرفة والثقافة .. اضطره الفقر
إلى التسول ..

وما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين
كتب الحريري عن هذه الظاهرة فجاء في المقامة
(البغدادية) عندما تأتي عجوز (أبو زيد بلباس
امراة) الى المجلس الذي فيه الحارث بن همسام
فقال :

« لأرينكم أولاً شعاري . ثم لاروينكم
اشعاري . فأبرزت رُدنَ درع دَريس .
وبرزت برزةَ عجوز دَرْدَيس وانشات
تقول :

اشكو الى الله اشتكاء المريض
ريب الزمان المتعدي البغيض
يا قوم انى من اناس غنوا
دهراً وجفن الدهر عنهم غضيض
فخارهم ليس له دافع
وصيتهم في ذا الورى مستفيض

(الى آخر المقطوعة ..)

ومن هذه المقامة نرى أن شاعراً قوياً ينتحل
شخصية امرأة كي يحقق غرضه . والقصة وأن
كانت تدور حول الحيلة إلا أنها تدل على أن أهل
المعرفة والعلم لم يكونوا بمنزلة يحسدون عليها ..

وفي مقامته (الشعرية) يتحدث عن شيخ
شاعر يرفع الدعوى ضد غلام سرق قصيدته وبعد

ذلك يتضح انهما متفقان كي يحصلوا من الوالي على الهدايا ..

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن سعيد في مقامته الخمسين حادثة عن طبيب لا يقبل عيادة مريض ، إلا انه يغير رأيه بسبب المال ، ويقوم بخدمة لاجل الاحتفاظ بالهدايا . تقول المقامة بعد ان يأتي غلام لاصطحاب الطبيب فيقول الطبيب :

« تالله ما ارجل حتى انحل . ولا اعود مريضاً ، دون ان اعطى عطاء عريضاً . ولا اعاني سقيماً ، حتى ارى امراً مستقيماً . فنقده الغلام بقرطاس ولم يبد وجه مكاس فحين قام امتزجت بديمه ودخلت دار السلطان مع خدمه . فلما مثل بحضرته ، والتحق بزمرته شاهد مدنفاً لم يبق منه الا لقا بانفاس ، متصعدة ونفس مترددة فقال : هذا ما كنا فيه ادعى الى من لا يمكن تلافيه . ثم حل جلاباً بماء الورد وسقاه فانتعش انتعاشاً ظن انه شفاه فافرغت عليه اكياس النصار انواعاً . وصار بينهم ملكاً مطاعاً فلما أبصر انخداعهم نهض . وقال في غد ينقض المرض . فقلت يا من يمد في العلم باعاً . ورفع في الفضائل شراعاً . اتزوج لمن عانيت انصلاً . اوتري لمزاجه صلاحاً فقال : سبحان من خلق الناس طباعاً .. »

وهذه القصة تدل على ان الطبيب يقبل بخدمة اهل المريض مقابل الاحتفاظ بالهدايا .. وهي دلالة على شيوع الحاجة حتى تولد هذا الجشع والتكالب على المال .

وفي القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي قال الالوسي في مقاماته بارتفاع شأن الجهال وهو اشارة ضمنية بانحدار شأن العلماء . يقول الالوسي :

« يا بني

بغداد لم تزل بملاً فيها ان دبدني ان اجعل زمام امري في كل وقت من يدي ديني فلا تستغربوا علو سافل وارتفاع دني جاهل فمن اخلاق الزمان انه ملول والباطل جولة ويزول .

يا بني

ان في سوقية بغداد المحترفين من هو احسن بكثير من بعض من اعيانهم وقد غدوا عن سبيل الرشد منحرفين فاذا

اضطرتهم الى مجالسة احد فاختاروه من اولئك السوقية وان خيراً من اعيان السوء الكلاب السلوقية

لا يفرنكم الاوجه العثر

فيارب حية في رياض

وهذا النص لا يثير الى كدية اهل العلم

وحاجتهم إلا انه يفهم منه من خلال ارتفاع شأن الجهال والذي يعني بدوره انحطاط شأن العلماء .

حيل اهل الكدية

وضعت المقامات الحيل التي كان يمارسها اهل الكدية للحصول على المال والطعام . فيصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في احدي مقاماته المتعلقة ببغداد قصة طريفة لشخص يريد ان ياكل مجاناً فلم تكن امامه سوى هذه الحيلة ..

تقول المقامة البغدادية للهمداني :

حدثنا عيسى بن هشام قال : اشتريت الازاد (نوع جيد من التمر) وانا ببغداد وليس معي عقد ، على نقد . فخرجت انتهر محالته [امكنة بيع هذا التمر] حتى احلني الكرخ فاذا انا بسوادي يسوق بالجهد حماره . ويطرف بالعقد ازاره فقلت : ظفروا والله بصيد وحيالك الله ابا زيد . من اين اقبلت . واين نزلت ومتى وافيت وهلم الى البيت . فقال السوادي : لست بأبي زيد . ولكني ابو عبيد . فقلت : نعم لعن الله الشيطان وابعد النسيان انسانيك طول العهد واتصال البعد ... فقلت هلم الى البيت نصب غداء او في السوق نشتر شواء . والسوق اقرب وطعامه اطيب ... ثم اتينا شواء (وبعد ان اكلا اطيب الاكل واحسن الشراب) ... خرجت وجلست بحيث اراه ولا يراني انظر ما يصنع فلما ابطأت عليه قام السوادي الى حماره فاعتلق الشاء بآزاره وقال : اين ثمن ما اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيفاً . فلكمه لكمة . وثني عليه بلطمه ثم قال الشواء : هالك . ومتى دعوناك زن يا اخا الفحه عشرين فجعل السوادي يبكي ويحل عقدة باسنانه ويقول : كم قلت لذلك القريد انا ابو عبيد وهو يقول انت ابو زيد فانشدت :

اعمل لرزقك كل آله

لا تقعدن بكل حاله

وانهض بكل عظمة

فالمرء يعجز لا محاله

وهذه القصة وان كانت تمثل قطعة ادبية

ولكنها تتحدث عن وقائع او حوادث قريبة منه .

ويورد الهمداني كذلك في مقامته الصربية

والتي تدور حوادثها في بغداد قصة توضح كيف

يمكن لاسنان ان يجمع المال عن طريق حيل

واساليب عديدة .. والقصة هي قصة غني يتعرض

لكارثة فيفقر ثم يقوم بأساليب وحيل عديدة حتى

يرجع غنياً .. ويصف لنا الهمداني كيف يرجع

هذا الشخص الى حالة الغنى وماذا عمل كي يصبح

غنياً ؟

يقول على لسانه :

« فجمعت من النوادر والاخبار

والاسمار والفوائد والآثار واشعار

المتطرفين ونواميس المتخرفين ونوادر

النادمين ورزق النجمين ولطف المتطبين

وكياد المخنثين ودخمة الجرايزة

وشيطنة الابالسة ما قصر عنه فتيا

الشعبي وحفظ الضبي وعلم الكلبني

فاستردفت واجتديت وتوسلت وتكديت

ومدحت وهاجيت حتى كسبت ثروة من

المال ... »

وهنا يتضح ان الحيلة والمراوغة احد اهم

الاساليب للكسب آنذاك .

ولابد من الاشارة كذلك الى ان جمع المال

من خلال « النوادر والاخبار والاسمار والفوائد

والآثار واشعار المستطرفين ... » وهي اشارة

الى ان اهل العلم اضطروا الى امتنان الحيلة

للحصول على المال ..

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث ابن نايقا

في مقامته الثالثة عن حيل بعض المتسولين

ومراوغتهم للحصول على ما يبغيون . تتحدث القصة

عن جماعة قدموا ببغداد فذهب احدهم ليشترى لهم

الغداء فيستغلهم احد المتسولين مدعياً انه من

موطنهم تقول المقامة : انه

« ... صادف شخصاً بالفناء عارياً

من البزة والحياء ، قد خلع أطماره ،

وبسط أزاره ، وأطلق يمينه ويساره وهو

يقتنص ويحبس ويجمع ويقصع وكأنهن

لدى دروز قميصه فدء وتوءم سمس

مقشور فقال لي هازياً يتشعث الجدار

وسوء الجوار وهو ينشر زاده ويحل

مزاده ، ما أشبه الجار بالدار ، فقلت من

لك بالوطن الخاص وجامع ، وجامع ولد

العاص ثم ذكرت الغوطة وابواب جيرون

وحنت حنين ميسون فرفع ذلك

الشخص رأسه وصاعد أنفاسه وانتزع

زفره من حيزومه الى خيشومه ثم قال

واني لك مقروع ... وجعل يفيض عبرته

ويبدي لوعته ويندب غربته ويقول

واشواقا اليكم ابدا ، وواحسرتا على شربة

من ماء يردا ... فيا لله فقد حزني مقاله

وسأني حاله فقلت له يا هذا البشر بقرب

الدار والرفيق السار والعود معنا الى

البلد والاجتماع بالاهل والولد ودعوانه

الى الطعام فتناقل عن المقام ، حتى اقسنا

عليه بحرمة البلدية فأسرع في الجية

فناولناه ذنوباً من الطعام ... ثم دخل

الامام ومن معه لصلاة الظهر ... فعجبنا

من هربه وهم القوم بطلبه فاذا هو

اليشكري فشكرنا الله على السلامة

منه ... »

اما الحريري (القرن الخامس الهجري)

فيصف في مقامته البغدادية حيل الشيخ الذي

يتقمص دور العجوز كي يصل الى مراميه ووضح

على الطريقة الشعرية كيف يستعمل الحيلة لتحقيق

مآربه . تقول القصة ان ابا زيد مثل دور عجوز

تلقى الشعر في احد المساجد ثم يكشف أمره

الحارث بن همام فينشد ابو زيد :

يا ليت شعري ادهري

احاط علماً بقدري

وهل درى كنه غوري

في الخدع ام ليس يدري

كم قد قمرت بنيه

بحيلتي وبمكري

... ..

... ..

ولو سلكت سبيلاً

مالوفة طول عمري

لخاب قدحي وقدحي

ودام عشري وخصري

فقل لمن لام هذا

عذري فدؤنك عذري

الفاظ التسول

حفظت لنا احدى المقامات - وهي المقامة الرابعة لابن نafia - الالفاظ التي يستعملها اصحاب الكدية وفيها من الادعاء بالمرض والجوع والغربة ، والافصاف التي يطلقونها على الاشخاص الآخرين .

جاء في المقامة الرابعة لابن نafia (القرن الخامس الهجري) على لسان أحد الفقراء الذي اخذ ينادي اهل الدار وقد تمعد واهم بعدم الجواب :

« يا اهل الدار اما تمون انا لله وانا اليه راجعون اتراهم شهود ام رقود عموا مساء اهل المنزل وحياكم الظلام المقبل وشهد لكم ضياء المحفل انا فقير المرميل (الفقير) وانا ذو الداء المفعل امينوا السائل المبلى والزمن الاعمى ولو بشفوق التمرة ثم غصة العبرة . كل ذلك ونحن لا نجيبه ولا نشنيه ثم غصة العبرة كل ذلك ونحن (اهل الدار) لا نجيبه ولا نشنيه ثم عاد الى ندائه واضرب عن بكائه فقال : يا اهل المنزل نعمتم مساء وطبتم ثناء ايا بني الانعام وبقيت الكرام اجيبوا سئالكم . عجلوا نوالكم . قد اكفهر الدججا ... واضطرم الجزع في قلبي والوطن في الجانب الغربي فامنا سمحتم بالرغد فصحتم بالرد . وانما اسأل تافها من الزاد لا يلثم اكالا ولا ينقص مكيالا ، ولو من نثاره الخوان كفتيل النواة او كابها القطاة اللهم ابعثها على يد نجيب منهم ولو كفسيط الطفر (قلامة الظفر) او كحية النثر (العصفور) يا اهل العطاء ويا ارباب الثناء اثبتكم طيئان الحشا بادى العشا (جوعان) عريان في سرباله الممزق اطوى اللثم ، واجمع اللثم (الطريق) ولا صبية كالبغات (صغار الطير) ولم يطعموا لماكا مذ ثلاث ... كاعواد البروق (نوع من النباتات) وكاسلال الشيريق (نوع من النباتات) شحنب' الالوان عجب' الابدان يقحمون الثرى ويتعاونون من الطوى وانا اليه وانا اليه راجعون انما يستجيب الذين يسمعون » .

الحفلات ومجالس اللهو

في مقابل هذا الفقير كانت هناك طبقة غنية مترفة صورتها المقامات من خلال مجالس اللهو

وهنا يمكن اضافة الملاحظة السابقة وهي كيف يحاول الشاعر والكدي من خلال شعره .

وفي مقامة اخرى للحريري وهي المقامة الشعرية عن قصة طويلة تقوم على الحيلة للحصول على الهدايا وهي تتحدث عن شيخ يحسج لدى الوالي للقصيدتين تجري مساجلة بينهما فيعجب بكليهما ويمنحهما الهدايا . وكانت الحقيقة ان الشيخ هو ابو زيد والفتى فتاة وقد اتفقا على هذه الحيلة .

وهذه القصة هي الاخرى تدل على ان الادباء قد اضطروا لممارسة الحيلة كي يحصلوا على الاعطيات والهدايا .

وكتب يحيى بن سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية عشرة (القرن السادس الهجري) قصة رجل يدخل المستشفى مدعياً المرض كي يأكل ويشرب فيها دون مقابل . . تقول المقامة :

« قال الراوي فرايت بين يديه رياحين وفاكهة كل حين وهو بهيئة من العيش معجونة بخرق وطيش وعليه الثوب مصبغة ومعضدة وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظر النقيب ومن خط له عن وجه الادب النقاب فحين لمحت اعجبني سمته فنوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو عمرو البصري واسطة الفريد فتصفحت انماطه فاذا هو شيطان الحماطة فعلمت ان سر جنونه من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك الى هذا المقام والتبردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق الرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب عليه اغلوطة وما عقالك بانشوطه لولا غريم كدني تقاضيه ولم اجد ما يرضيه ما التجأت بهذه البقعة مع سعة الرقعة وها انا اكل اطايب ما يصنعه الطاهي ما يفاخر كسرى وبياهي من غير مشقة لطلب ولا تحفز لتعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى صفور ولو بالجنون ان المكاسب شتى والناس فيها فنون

وهنا كذلك لابد من التنبيه الى ان صاحب الحيلة من العلماء !!

والشراب فصورت البذخ والترف في الحياة
البغدادية ..

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في
مقامته الصيمرية مجالس لهو وشراب في بغداد
فيتحدث عن شخص مترف كان ينظم المجالس
لخلانه فيتحدث عن نفسه فيقول :

« لم نزل في صبح وغبوق نتفدى
بالجدايا الرضع والطباهجات الفارسية
والمدققات الابراهيمية والفلايا المحرقة
والكباب الرشدي والحملان وشرابنا نبذ
العسل وسماعنا من المحسنات الحذاق ،
الموصوفات في الآفاق ونقلنا اثلوز القشر
والسكر الطبرزد ، وريحاننا الورد
وبخورنا الند .. »

وبعد افلاسه وبقعه ثم غناه مرة اخرى يرجع
له خلانه ويعود لحياة اللهو :

« وانتقلنا الى مجالس شراب فاحضرت
لهم زهراء خندريسية ومفنيات حسان
ومحسنات فاخلدوا في شانهم وشربنا .. »

هذا بالنسبة لما وصفه الهمداني في القرن
الرابع الهجري اما الحريري فقد وصف في القرن
الخامس الهجري مجلساً للهو والشراب في مقامته
(القطيعية) قال فيها :

« حكى الحارث بن همام عن جماعته .. »

اجتمعنا في يوم سما دجنه (ارتفع
غيمه) ونما حسنه وحكم بالاصطباح
مزنه (سحابه) على ان نلته بالخروج
الى بعض المروج لنسرح النواظر في
الرياض والنواظر وتصفل الخواطر .
بشيم المواطر (برؤية السحب المطرة)
فبرزنا ونحن كالشهور عيدة .
وكندماني جذيمة (الابرش) مودة ،
الى حديقة اخذت زخرفها وازينت ،
وتنوعت ازاهرها وتلونت ومعنا الكميت
الشمس (الخمر) والسقاء الشمس
والشاددي (المغني) الذي يطرب
السامع ويلهيه ويقري كل سمع ما
يشتهيه ، فكمنا اطمأن بنا الجلوس
ودارت علينا الكؤوس وغل علينا ذمير
(الشجاع) عليه طمير (ثوب خلق)
فتجهمناهم تجهم الفيد الشيب ووجدنا
صفو يومنا قد شيب ... الى ان غنى
شاديننا المترب ومغردنا المطرب :

الأم سعاد لا تصلين حبلي
ولا تاوين لي مما الاقي
صبرت عليك حتى عيل صبري
وكادت تبليغ الروح التراقي
وها انا قد عزمت على انتصاف
اساقى فيه خلي ما يساقى
فان وصلا الذ به فوصل
وان صرماً فصرم كالطلاق

ولم نثر على نص آخر يصف الحفلات في
بغداد باستثناء الالوسي الذي وصف لنا حفلة
اقيمت له بمناسبة اكماله التعليم على شيخه وهي
حفلة تختلف بالطبع عن حفلات اللهو .. ويمكن
اضافة نص للكازروني (القرن السابع الهجري)
في الحفلات المقامة بالمناسبات مثل شهر رمضان
والحج ويمكن مراجعتها في فصل المناسبات
الاجتماعية ضمن هذا البحث .

نعود الى الالوسي (القرن الثاني عشر الهجري)
الذي وصف حفلة تخرجه فقال في مقامته الثانية
فقال :

« كان ذلك في المدرسة الخاتونية المقابلة
مما يلي القبلية للحضرة القادرية وتفضلت
صاحبها السيدة عاتكة عابدة (كذا)
كانها زمن البرامكة ولقد رايت هناك دهماء
القدور تهدر كالفتيق وتفوح طيباً كالمسك
الفتيق ورايت هاتيك المائدة مثل عروس
مائدة لا عيب فيها سوى اشتغالها على
اصناف اطعمة تلذها الاعين وتميل اليها
الانفس وتشتتها ولم يبق في البلد عالم
الا اكل منها وروى احاديث الشفاء عنها
وانها بينهم كبد السماء الا من هالتها من
رقيق غمائم عمائم احرار العلماء .. »

ولا شك ان الحفلة التي يصفها الالوسي تختلف
في هدفها ونوعها عن الحفلات السابقتين . وايراد
نصها هنا للتمييز بين انواع الحفلات المقامة ببغداد
وانماطها .

انواع الشراب

وردت في المقامات العديد من الانواع الشائعة
للشراب في بغداد آنذاك . ففي المقامة الصيمرية
للهمداني (القرن الرابع الهجري) يصور مجلس
شراب وكان شرابهم « نبيذ العسل » .

ثم عندما يصف مجلساً آخر للشراب يقول :
« فاحضرت لهم زهراء خندريسية » [الزهراء :
الشرقة . والخندريسية : الخمر القديمة] .

(٢) وبقل قطيف الى خل ثقيف [اي بقل اضيف
اليه خل شديد الحموضة] .

(٣) ولون لطيف الى خردل حريف [يريد نبيد
تمر اضيف اليه الخردل لتقويته] .

(٤) وشواء صفيف الى ملح خفيف [يقصد
تنظيم قطع اللحم بشكل مصفوف في مشكة
من حديد ثم يستوى على النار] .

(٥) يقدمه اليك الآن من لا يملك بوعيد ولا
يعذبك بصبر . ثم يملك بعد ذلك باقداح
ذهبية من راح عنبية . اذاك احب اليك ام
اوساط محشوة واكواب مملوة وانتقال
معددة . وفرش منضدة وانوار مجوذة .
ومطرب مجيد . له من الفزال عين وجيد
فان لم ترد هذا ولا ذاك فما قولك في :

(٥) لحم طري [ويروى لحم طيري اي لحم
طيور] .

(٦) وسلك نهري .

(٧) وباذنجان مقلي .

(٨) وراح قطربلى [اي خمر مديسة قطربل
المعروف بجودته] .

(٩) وتغاح جني [الذي جني من قريب] .

ومضجع وطى على مكان علي . حذاء نهر
جرار وحوض ثرثار وجنة ذات انهار .

قال عيسى بن هشام فقلت : انا عبد
الثلاثة .

ومن خلال مقامة الهمداني الازادية تبين ان
البائع كان يصف الفواكه ويرتبها .

جاء في هذه المقامة :

« سرت غير بعيد الى رجل قد اخذ
اصناف الفواكه وصنفها . وجمع انواع
الرطب وصنفها فقبضت من كل شيء
احسنه » .

التعامل في السوق

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في
مقامته البغدادية الطعام الذي يصنع في السوق
ومن خلاله تبين العلاقة بين البائع والمشتري .
ومنها نفهم ان الزبون يطلب من الاكل احسن
ما يكون وفق مواصفات محددة ..

يقول عيسى بن هشام - عندما يلتقي بابي
عبيد - لصاحب المطعم :

« ... ثم اتينا شواء يتقاطر شواؤه
عرقا . وتتسائل جوذباته مرقا . فقلت

وبعد ذلك عندما يوجه في طلب احدهم
يقول :

« فاحضرته وقدمت اليه طعاما فاكل .
وسقيته من الشراب القطربلي فشرب
حتى ثمل . [القطربلي نسبة الى قطربل
موضع بالعراق لخمرة وشهره في الجودة
والطيب] .

وفي المقامة المجاعية للهمداني كذلك عندما
يبين عيسى بن هشام رغبة بالطعام وهو جالس
لسائل يسأله عن رغبته فيقول :

« لون لطيف الى خردل حريف [يريد
نبيد تمر اضيف اليه الخردل لتقويمه
وزيادة لذته] .

وفي القرن الخامس الهجري وصف الحريري
في مقامته القطيعية الشراب ومجالسه حيث يحكي
الحارث بن همام عن جماعته في ذهابهم للهو .
فيقول كانت : « معنا الكُمَيْتُ الشموس
[الخمر] . وهناك كانت حالة اخرى معاكسة هي
الامتناع عن الشراب يصف الحريري على لسان
أحد الشيوخ الذين حضروا مجلس شراب فراح
يصف امتناعه عن الشراب قائلا :

نهائي الشيب عما فيه افراحي
فكيف اجمع بين اراح والراح

وهل يجوز اصطباحي من معتقة
وقد انار مشيب الراس اصباحي

آليت لاخامر تشي الخمر ما عليقت
روحي بجسمي والفاظي بافصاحي

ولا اكتست لي بكاسات السلاف يد
ولا اجلكت قداحي بين اقداح

ولا صرقت الى صيرف مشمعة
همني ولا رحت مرثاحا الى راح

ولا نظمت على مشمولة ابد
شملي ولا اختيرت ندما سوي الصاحي

شملتي ولا اختيرت ندما سوي الصاحي

انواع الطعام

صورت المقامات انواعا من الاطعمة التي
كانت شائعة في بغداد فالهمداني (القرن الرابع
الهجري) يصف من خلال مقامته الجماعية انواعا
عديدة من هذه الاطعمة فعندما كان عيسى بن
هشام جائعا وجاء يطلب الطعام قابل شابا يسأله
عن حاجته فقال :

(١) رغيف على خوان نظيف [الخوان ما يوضع
عليه الطعام] .

أفرز لأبي زيد من هذا الشواء . ثم زن له من تلك الحلواء . واختار له من تلك الإطباق وانضد عليها أوراق الرقاق ورش عليه شيئاً من ماء السماق ليأكله أبو زيد هنيئاً .

ثم يقول لصاحب الحلوى :

« وقتلت لصاحب الحلوى : زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين فهو أجرى في الحلوق وامضى في المبروق . وليكن ليئلى العمر يومي النشر رفيق القشر كثيف الحشو لؤلؤي الدهن . كوكبي اللون يذوب كالصمغ قبل المضغ ليأكله أبو زيد هنيئاً .

ثم يصف بيع الماء الثلج من السقاء :

« ثم قلت : يا أبا زيد ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصّارة ويفثا هذه اللّحم الحارة إجلس يا أبا زيد حتى ناتيک بسقاء ياتيک بشربة ماء » .

ضرب البائع للزبون الذي لم يدفع

صورت المقامات في أحد المشاهد الطريفة كيف يتعامل البائع مع المشتري إذا امتنع الأخير عن الدفع ويبدو أن البائع آنذاك لم يكن يطلب الشرطة لتحل المشكلة بل كان كما يصفه الهمداني في مقامته البغدادية حيث يفطر البائع أخذ الحساب بالقوة . فبعد أن ورط عيسى بن هشام أبا عبيد بالدخول إلى المطعم ثم هرب منه تاركاً أياه كي يدفع الثمن . يصف ابن هشام الحالة :

« فلما أبطأت عليه قام السوادي إلى حماره فاعتلق الشواء بإزاره . وقال ابن ثمن ما أكلت . فقال أبو زيد : أكلته ضيفاً . فلكه لكمة . وثنى عليه بلطمّة ثم قال الشواء : هالك ومتى دعوناك . زن يا أخا القحة عشرين . فجعل السوادي يبكي ويحل عقده بأسنانه ويقول : كم قلت لذلك القريد . أنا أبو عبيد وهو يقول : أنت أبو زيد » .

وصف حادثة الطاعون

يصف الألوسي (القرن الثالث عشر الهجري / القرن التاسع عشر الميلادي) حادثة الطاعون التي عصفت ببغداد أيام داود باشا والي بغداد فقال :

« جرت حادثة الطاعون فأجرت العيون العيون وعظم الهم وربا . وبلغ السيل

الزبي فقلت في نفسي صبراً فهذا والله تعالى أعلم آخر السهام وهل بعد هذا الأمر الأمر المرمى لرام حتى إذا نضبت مياه العيون وخبت نيران الشجون جاء الوزير على رضى والي حلب فحاصر بغداد وجلب على واليها الوزير داود باشا ما جلب وكان نزول ذلك القضاء المحتوم في في أواخر سنة ١٢٤٦ رغوم فحيث خلا الكرخ ممن يهرع إليه ويقول في المهمات عليه اتخذي أهله سيّداً وملكوني منهم يدا وقلبا ابداً خلت النديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردي بالسود فلما غلا قدر القدر وعلا قدر علي بالغلبة على البلد وانتصر خرج على من نافقا الغدر أهل التفاق وبرز الي من زوايا المكر أهل الشقا والشقاق فجعلت اكفكف عني السهام بكف اخلطه مع بعض عظام مدينة السلام . »

عزل علي رضا والي بغداد وتولية محمد نجيب

وصف الألوسي (القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي) عزل الوالي علي رضا وتولية محمد نجيب فقال :

« وأول ما أحسست بالشر وبدو ما أضمره القدر وسر عند عزل نخبة الوزراء وروح جسد الزوراء الوزير الذي لم تسمع بمثله في حسن الاخلاق فيما مضى مولاي المرحوم المبرور علي رضا .. »

ويتضح من هذا ان الألوسي كان على صلة وثيقة مع علي رضا على عكس علاقته مع محمد نجيب يقول الألوسي حول تولية الأخير :

« ثم لما أقبل الوزير والدستور الكبير الحاج محمد نجيب باشا منفصلاً من وزارة دمشق وقعد على دست الوزارة في مدينة السلام جعل طفل ذلك الحال يشيب كل يوم ما لا يشبه الطفل في احوال حيث عكف على ذلك الوالي كل عدو ولى رخيص القدر لكن في العداوة غالي .. »

وصف اصحاب المقامات لبغداد

اختلف اصحاب المقامات في وصف بغداد . وقد وصف كل واحد منهم جانباً من الجوانب فمنهم من نظر إليها باعتبارها دار الخلافة بينما اتفق آخرون الى وصف اهل بغداد وقد تأثر اهل

وبعد ذلك جاء الجزري (في القرن الثامن الهجري)
فوصف بغداد :

« هذه دار سلام المؤمنين فادخلوها
بسلام آمنين » .

ويبدو من هذا ان بغداد كانت قد استعادت
بعض مكانتها بعد انتهاء الغزو المغولي لها . . أما
في القرن الثاني عشر الهجري اي في العصر العثماني
فان الالوسي قد وصف تخلف بغداد لانها لم تكن
سوى مجرد ولاية تابعة لا غير . . ويبدو ان
الالوسي كان متشائماً من بغداد بسبب المحن التي
تعرضت لها والتي كانت تسبب احياناً الاقتتال
بين اهالي بغداد ولما كان الالوسي قد عاصر هذه
الاحداث فقد تنبه الى بساطة وتفاهة الاسباب
التي يتصارعون من اجلها . . يقول الالوسي :

« وقد رايت اهل الزوراء لا يجمعون
على زور حق ولواضح كشمس الضحى
في الظهور بل يكونون طائفتين في كل حادثة
فان انتم المكروه فالواجب ان يكونوا مع
الطائفة المحقة والا فكونوا طائفة ثالثة .

وانحازوا عن الطائفتين بمعزل وابعدوا
عنها بالف الف منزل فذلك في هذه الايام
ابعد عن الوقوع في مهاوي الملام » .

وكانت ظاهرة التقرب الى السلطة قد لاحظها
الالوسي فثبتها في مقاماته قائلاً :

« يا بني

ان معظم اهل بغداد ليعظمون المتردد
الى السراي اكثر من تعظيمهم المتردد الى
الكمة ويعطون من عصي ربه في اطاعة
الوزير اكثر من اطاعتهم من اطاع في
عصيانهم ربه ويكاد يقول لسان حالهم
وانه لانصح من التقرير ان قبلتنا
السراي والهناء جل شأنه الوزير فتراهم
قد جعلوا معظم شغلهم انهم يطوفون
حوله وان لم يسامرهم طواف اصحاب
السراي حول عجلهم فان استطعتم ان
تترددوا احياناً الى الوزير فلا بأس ولكن
عليكم بالحنمة وقلة الكلام وقصر
الجلوس وعدم معارضة احد من
الجلوس » .

ولكن الالوسي بالرغم من ذمه لبعض الناس
في بغداد فانه كان متعلقاً بها محباً لها وقوله فيها
هو قول المخلص ويتوضح مدى حبه لوطنه بقوله :

« وحيث انكم لا تستطيعون فيما اظن
الهجرة ولا تطيقون ترك الاوطان وان

المقامات بارتفاع أو انهيار شأن بغداد السياسي ،
ففي القرن الخامس الهجري يصفها الحريري في
مقامته الشعرية بانها :

« حمى الخلافة والحرم العاصم
من المخافة » .

بينما وصفها يحيى بن سعيد المعروف بابن
ماري في القرن السادس الهجري في مقامته
الخمسين بانها :

« حمى الامام ونقطة الاسلام » .

وقد بقيت سمعة بغداد كبيرة حتى القرن
السابع الهجري حيث وصفها الكازروني في مقامته
بقوله :

« كنت اسمع من جواب الاقطار
وطرائق البلاد والامصار ان دار السلام
هي كعبة الاسلام وحرم الامام ومعدن
الكرام ودار الخلافة ومحل الامن من
الخلافة . . »

إلا ان هذه النظرة سرعان ما تغيرت عندما
راها الكازروني بنفسه فكانت مفاجئة له :

« وافيتها بلدة خالية وامة جالية
ودمنة حائلة ومحنة جائية وفصوراً خاوية
وعراضاً باكية وقد رحل عنها سكانها
وبان عنها قطانها وتمزقوا في البلاد وتزلوا
في كل واد . وقصورها المشيدة مهدومة
ونعماؤها مسلوقة معدومة موحشة لفقد
قطانها باكية بلسان الحال على
سكانها . . »

اما دار الخلافة فقال عنها :

« رايت حرم الخلافة مهاناً بعد ان كان
كعبة واماناً فطاف بي ببعض قصوره
 واعتذر عن الباقي لقصوره وقال : يكفيك
ما المحك وأريك . . »

وامام هذه الحالة لم يكن امام الكازروني إلا
رثاء بغداد :

« فوقفت ابكيها واندب ربوعها ومن
ومن كان فيها :

واندب اطلالها تارة

وابكي على فرقة الطاعنين
فلو ذهبت مقلّة بالبكاء
لفرط الغرام لكنا عميناً

ويبدو ان الكازروني كان يندبها مقارياً مجدها
الغابر بحاضرها الذي دمره الغزو المغولي . .

المقامة الثانية عشرة من المقامات المسيحية

ليحيى بن سعيد [عن مخطوطة المتحف العراقي
برقم ٣٢٠]

تنبيه : وردت في هذه المقامات عبارات وجمل
مرتبكة وغير واضحة ، وقد اثبتناها كما هي دون
تغيير أو حذف .

روى يحيى بن سلام قال : حملني شرح
الشبية وميعة اللهو والطبيرة الى التطوف في
البيهارستانات واعيان موارد الحانات فخرجت
يوماً في زمر من اقيال بني عامر بجناب فضل
عامر وجون جود ماهر بقرائع ارق من السلسل
واخلاق اعذب من الماء الزلال فنشطننا امراس
الاسراع ومددنا الى الفرحه باع الاطماع حتى
دخلنا الى احد البيمارستانات العضدية لنصقل
الافكار الصمدية لانها مجمع اصحاب العاهات
والموقظة من سنة الترهات فحين وطئنا ججيرة
وخرنا حجره (كذا) رأينا موسوساً وهو يقول
اعتبروا يا ذوي العقول بمن عاد يهرب من دأئه
بعد الاستنارة برأيه ويصقّد في السلاسل بعدما
كان يفوق كل باسل فما زلت به توالى الاعلال حتى
اودعته اكف الاغلال .

قال الراوي : فرأيت بين يديه رياحين
وفاكهة كل حين وهو بهيئة من العيش معجونة
بخرق وطيش وعليه اثواب مصبغة ومعضدة
وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظراً النقب
ومن حطّ له عن وجه الادب النقب فحين لمحته
اعجبني سمته فتوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو
عمرو البصري واسطته الفريد فتصفحت انماطه
فاذا هو شيطان الحماطه فعلمت ان سر جنونه
من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك الى هذا المقام
والتردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق
الرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب
عليه اغلوطة وما عقلك بأنشوطة لولا غريم كدني
تقاضيه ولم اجد ما يرضيه ما التجأت بهذه البقعة
مع سعة الرقعة وها انا اكل اطايب ما يصنع
الطاهي ما يفاخر كسرى وبياهي من غير مشقة
لطلب ولا تحفز لتعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى

صفو ولو بالجنون

ان المكاسب شتى

والناس فيها فنون

كانت مرة بالمرّة فعليكم بقلة الاختلاط
وكثرة الاحتياط فلعلكم تحفظون من الامر
الامر وتسلمون من ان ينطحكم ذو قرنين
وليس باسكندر .. »

العاب تسلية

من خلال المقامة القردية للهمداني (القرن
الرابع الهجري) يبدو انه من الشائع ترقيص
القروء على قارعة الطريق لجمع المال . جاء في
هذه المقامة :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا
انا بمدينة السلام قافلاً من البلد الحرام .
امس ميس الرجل على شاطئ الدجلة .
اتامل تلك الطرائف واتقصى تلك الزخارف
اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمين
يلوى الطرب اعناقهم ويشق الضحك
اشداقهم فساقني الحرص الى ما ساقهم
حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون
مراى وجهه لشدة الهجمة . وفرط
الزحمة فاذا هو قراد يرقص قرده ،
ويضحك من عنده . »

ورد هذا النص في مجال التنزه كذلك .
ولكننا نورد هنا لتوضيح لعبة شائعة في بغداد
هي القراد الذي يقوم بترقيص القرد ، ويبدو ان
هذه اللعبة كانت مشوقة ومسلية بدليل المزدحمين
حول القراد ..

الساعاتية

اول ذكر ورد للساعات ببغداد في المقامات
نجد في مقامة الكازروني (القرن السابع الهجري)
والنص وإن كان قصيراً إلا انه مهم بالنسبة لحقبة
الزمنية . قال الكازروني :

« وهذا دار الطبل ولكن اين
الساكن ؟ كانت آهله بالمبنكمين
[البنكمات آلات يقدر بها الزمان] عامرة
بالساعاتية لادراك وقت التأذين فاذا
دخل وقت الصلاة ضربت النوبة في جميع
الاقوات . »

والكازروني كما يتبين من نصه السابق
تحدث عن الساعاتية في وقت انحلال صناعتهم فهو
يقول « كانت آهله بالمبنكمين .. » . فضلاً عن
هذا النص يؤكد ان صناعة الساعات العربية
والاهتمام بها جاء لضبط وقت الصلاة وتحديد
مواعيدها ..

ذار الأنام بحمق
 ان الامام زبون
 بالنحل حيناً وحيناً
 بالخمرة الزرجون
 وان يقتلك بجد
 امر فتل بالمجون
 ان النفوس لدينا
 ياذا النهى في شجون
 فريما نلت مجدداً
 عن لفظه هي دون
 كم ساء امر قلوباً
 وقبل سر عيون
 وكم سر بنات
 وكم تفهم البنون
 اسفي على طيب عيش
 قد مزقه السنون
 وجونة الصفو تهمل
 فيه بغيث هتون
 ايام وعد الوطيان
 على البرايا ديون
 فكل مجمع شمل
 قد بددته المتون

وكل شيء سوى طارق المنون
 قال الراوي : فحين انكشف لأصحابي
 وانجاب ما نمق من لفظه العجائب قالوا ايها البارع
 في الاشعار الوحيد ابن لنا اي الشعراء المجيد .
 فقال : اما ابو نواس الفائق القياس فظهور آياته
 صدع في خمرياته ولقد كان مبرزاً في الانساب
 اذا رآه كل نصابة ينساب . ملك سلاسة اللفظ
 وضبط ازمة الحفظ تيه في الاراجيز عقل المجيز
 اتى باغراض المقيول وله عندهم المنزلة وفرط
 القبول . واما ابو تمام فجزل الكلام بعيد المرام
 يلتحق بالجاهلية قريضه ويبرز في نخلاتهم اغريضه
 له السبق في حسن الفراسة في انتقاد الحماسة
 واذا ذكرت ابا عبادة . فلما ترد زيارة صناجة
 العرب ومحدث الطرب اختيارات شعره كثيرة
 ومعانيه فايقة غزيرة تميل الى كوحه الكتاب من
 غير ارتياب . واما ابو الطيب ذو السحاب الصيت
 فناهيك باسمه عن اختيار اسمه صاحب الامثال
 متى حرك خفير فكره ينثال لوز قصائده وبراعة
 قلائده لم يضل من جمعنا حقير ولا فقد منها
 نقيير . فمد فرغ من الشرح بالغ في المدح قلنا له
 عرفنا عليك بمن شق الابحار وطيب نوم الاسحار
 إلا ما خبرت بين اللغة والنحو لنفرق بين الغيم
 والصحو فقال اما النحو في الكلام فكا للمح في الطعام

ربته يستصغر الانام ويرى بعين الاعضام كل شيء
 مهراق به لم يرقم الكبر صوابه واستهم به
 يقوم اللسان وتعرف قيمة الانسان فحين رأى
 بعضنا قد غضب كأنه قد غضب قال لكن خيرة
 ما يهذب القول ويصلحه ورفض رطبه واكل
 بلحه يكذ الفكر عويصه ويمنع السلوك عيصه
 وما ينفى في غريبه العمر غير المشوش الغمر
 وهل هو الا معان تفيد كلاماً وادواح تستحيل
 احساماً وكم شاعر لم يفتقر له حرفاً ولم يشربه
 ممزوجاً ولا صرفاً وهل ضح الا حين فسدت
 القرايح والطباع واقتاد السباع ضعاف الضباع
 الا فأتيت من العرب العرباء الذين هم عند اهل
 هذا الجيل كالغرياء واما اللغة والمصنعة فالاصل
 الثابت والعود ذو النشر الذي يفوق نشر العود
 ربها يصرف اعني البلاغة كيف شاء ويذل في
 رسائله الانشاء يجري في حلبة الرئصف ويمر
 النجم في الدم والوصف قلعه يحطم الاسل ويمزج
 الصاب بالعسل وينشط الكسلان ويمنع سيل
 العجلان ولاها لم تعرف حقايق الاسماء ولم يفريق
 بين البيضاء ولا دماء غير ان غريبها تاباه النفوس
 اذا اثبت في الطروس هل يولد الاطراب الشعر
 الغريب ولو شدت به غريب كم متقعر في كتابه
 لم يصل الى اسر آراه ثم دعني من هذا الشقاق
 والحجاج اما ترى نفاق ديوان ابن حجاج اما هو
 اسلس الدواوين شعرا وارفعها قيمة وسعراً

قال الراوي : فما في الحشاش الا من شحد
 له شباه ملام وراش حين ذم المغامس من العربية
 ووحشي الالفاظ اللغوية ومضى يكسر عليه ارعاف
 النبل ويحتقر طل فصاحته والوبل فكانما هي
 قلبه ولاط بلبه ما خالج الضمائر فقال يا اولي
 البصائر ما قلت الا ما يشير به الوقت وقد
 خشيت ان السب منكم يحطمه مقت ما جفى
 ما خشن وصعب ألف ما لان وعذب إلا حين
 قلت جهابذة المنثور والمنظوم ونقاد العلوم على
 العموم ثم انشد :

وتلك ليالي عيشه برد صفوها
 صقيل الحواشي والزمان مراهق
 تراوح فيها الصفو والصرف غافل
 فعاديه بالاخراج وهو موافق
 عشية افراس الشباب وروقه
 حبابس في اسر النهى وطلايق
 يهيم بوحشي الكلام أخو النهى
 كما هام ذو وجد اذا لاح بارق
 فكل باخبار البلاغة يقتدى
 وكل لاسباب البراعة عاشق

ولا يفيد معه العقاقير . ومنها ماشوطة يمتد ،
ويقوى ألمه ويستند ، فإذا بلغ الانتها . انقطع عقده
ووهي ثم لا يميزون بين من كد فكرة واتعب . وبين
من غنى فاطرب .

قال الراوي فأخذت بعض كتبه فلسفي بحمه
عنه . وقال احكمم يقدم اقدام الضرغام ولا يفرق
بين الشهد والسهام . ويقتنع بالقراءة تقليدا .
ويجد منه لنفسه توبيخاً وتفنيداً . لا يدري حدوداً
لتعاليم . ولا رسومها في الحد السليم . ولا الثمانية
الفوائد التي هي في صدور القراءة كالقلائد . بل ان
حضر مادة هتك حريمها وحلل تحريمها . واكل
اكل اكل من لا ينظر في مصلحته ولا يحفظ قوانين
صحته . وقدم من المظوم ما يبتغي ان يتأخر واخر
ما يجب ان يقدم ويفخر ثم انشد :

فقت الاولى فاقوا الوري بالفهم في سر الطبيعة
فغدوت اعرف نبض من يخفي التواصل والقطيعة
فبكل شخص لي على ما في بواطنه طليعة
ففضائي عند الاكابر والالى فاقوا ذريعة
ايام تأتي للورى بشراجم النعمى شريعة
ومرابع ماهولة بتواتر الجدوى مريعة
لا احتشي نوب الزمان ولا حوادثه القطعية
واوامري مسموعة تروي ومنزلتي رفيعة
قال يحيى بن سلام : فمالبث ان ورد خادم حصان .
واخذ يخدمه كما تخدم الحصان فقال تالله ما ارحل
حتى انحل . ولا اعود مريضاً . دون ان اعطى عطاء
عريضاً . ولا اعاني سقيماً حتى ارى امراً مستقيماً
فنقده الغلام بقرطاس . ولم يبد وجه مكاس فحين
قام امتزجت بديمة . ودخلت دار السلطان مع
خدمه . فلما مثل بحضرته والتحق بزرمرته شاهد
مدنفا لم يبق منه الا لقا بانفاس . متصعدة ونفس
مرتدة فقال :

هذا ما كنا فيه ادعى الى من الا يمكن تلافيه . ثم
حل جلابا بماء الورد وسقاه . فانتعش انتعاشه
ظن انه شفاه . فافرغت عليه اكياس النضار انواعاً .
وصار بينهم ملكاً مطاعاً . فمد ايس انخداعهم نهض .
وقال في غد ينقضي المرض . فقلت يا من يمد في العلم
باعاً . ورفع في الفضائل شراعاً . اترجو لمن عانيت
انصلاًحاً . او ترى لمزاجه صلاحاً . فقال : سبحان
من خلق الناس طباعاً . اما صاحبت من علاج وارعى .
فاستلنى استيلاء الخفوت ساعة الحضور . فاسرع
فقدان ان يبور وينادي بالويل والثبور .

فقال الراوي : فتفرقنا شجر بفر . وقد بلغت
الارواح النغر .

الرخيق . وهل دم الكبد غير دم العروق : أم ليس
بينهما فروق . وكيف دم الكبد غذاؤه وهو الته .
أم يقتدي به اذا اكملت في العروق استحالة وما
الذي تقتدي به الاعصاب واللطف . لبعدها جنسها
من جنس الدم واللطف . واي شيء اقدم الدم في
الشريان او الروح . والحركة أحدث او الجنوح .
وهل معما جعل من الاخلاط يرى لها في الدم
اختلاط . ولم من حماء ملازمه احر من الرمضاء
تبدي قارورته في حلة بيضاء . واني محل الحرارة
الغريزية عند حدوث الحرارة الغريبة . وههل
يستقران معاً وذلك باطل اذ لا يستقر الشيء
وشأنيه . او ينفر احدهما او يبيد وهذا مستحيل
عنده ينقص اصل البدن ومبانيه .

قال الراوي : فحرت بمعضلاته . وتقت الى
حل مشكلاته . فقلت : اكون مثلك في هذا الاقليم .
ولا يتصدى لهداية التعليم . فقال نوء الكرام
اخلف . وعرى الزمن حريف . وساد الطفهام .
فما يفرق بين الحكمة والمغام . احدهم يحكم على
الراوند بالبرودة وعلى الافيون بالحرارة . ويتناول
الاشياء على غرارة . يقتنع من الطبيب بسيرة .
دون سبره . وبطبيب ذكره . ولو افرط في ذكره .
واسعرك بحسار . ان عدلت جار . وان سكنت
ثار . ما استقمت الامال . ولا اعلت الاعمال .
بتعاطي ما اتعاطى . ويسرع الى مضرتي ولا
يتباطىء . ما عدت مريضاً الا كتب القصص .
ليفوز بالحصص فان جرت شدة عند بحران شبة
الي . ونبه اعين الجناية علي . فكم سترت غيبه
وحسنت عيبه . وهو لا يعبا باشفاقي . ويرى
احراقي . دابه تصفيف لحيته ومد سباله .
وتفويف سرباله . وتقذيف نباله . يحلب بسمنة
وخمرة . ويخلب بدا واجل وعميرة . ويخيل
للعنيف . القحاح البنين . ويصبع الخضاب لمن
شاب . ويرتب معاجين الباه للشباب . يعتب
بالحد بالحد . واسراج بالجد . ويعتب بالعدد .
ونعم بالعدد ان ناقضه نفر وصاح . وان جادلته
لم يصبر على الكفاح . يلسع ويصيء . ويظلم
واضيء . لو سال لم القى يحدث عقيب اختلاج
الشفة . خرج من عدم الجواب الى السفه . لكن
اداريه واماريه . ولا اباريه . لعدم من ينتقد .
ويوار المفتقد . ادعى الى مريض كاني صاحب
الوحي . ولم يبق في عبقة في النحي . يرمون
انقضاء المرض قبل اوانه وزواله دوين تمام بحرانة .
ولا يعلمون ان للأمراض مراتب . يسهل صعبها
القانون الراتب . ومنها ما يهلك المريض قبل التدبير

الفِئْلَةُ وَلَيْلَةٌ عِنْدَ تَرْجُمَتِهَا

الحياة العربية في العصور الوسطى دراسات من الفِئْلَةِ وَلَيْلَةِ

تأليف

أدوارد وليام لين (*)

ترجمة الدكتور

يحيى الجبوري

الإستاذ بجامعة قطر



السحر

الذرية ، وكسب المحبة وألف النساء ، وللتأثير في العلاج والشفاء ، وللحماية من أثر العيون الشيطانية الشريرة ، وإبتلاء أو قتل أي عدو أو منافس ، ولادراك مختلف الأغراض أو الرغبات الأخرى .

هناك وصفان للسحر : واحد روحاني ، وهو مبجل من قبل الجميع عدا المشككين بصدقه ، والآخر طبيعي ، وهو متهم ومفضوح من أكثر المتدينين الورعين والمثقفين على أنه غش وخداع .

أولاً - السحر الروحاني : ويعتمد بصورة رئيسة على تأثير أسماء الله الحسنى ، وقد ورد ذكره في القرآن ، ووسيلته الملائكة والجن . وهو على نوعين : علوي وسفلي ، أو رحمانى (أى نسبة إلى الرحمن) وشيطاني .

يعتبر السحر الرحمانى علماً سننياً ، ويدرس من قبل الناس الأخيار فقط ، ويستعمل لأغراض الخير وحسب ، أن القداسة في هذا الفرع من السحر متأية من معرفة اسم الله الأعلى (الاسم الأعظم) ، إلا أن هذه المعرفة لا تعطى لأحد إلا للخاصة من أحباب الله . وقد استطاع سليمان أن يسخر لسلطانه الجن والطيور والريح بقوة الاسم الأعظم المنقوش على فص خاتمه ، وكذلك وزيره

أن الاعتقاد الراسخ بالسحر مقبول من غالبية المسلمين ، والذي ينكر حقيقة السحر بينهم يعتبرونه متشككاً أو كافراً . أن بعضهم يرى أن السحر قد أبطل عند بعثة النبي ، ولكن هؤلاء قليلون نسبياً . لقد درس كثير من المثقفين المسلمين في العصر الحاضر السحر بتعمق واسعاً ، كما انفق عدد كبير من الناس من ذوي الثقافة الدنيا (وخاصة من معلمي المدارس) كثيراً أو قليلاً من وقتهم وذكائهم لمتابعة هذه المعرفة ، كي يستعينوا بها على اكتشاف الكنوز الدفينة ولأغراض السيمياء (**) ، ومعرفة أنباء الغيب ، والحصول على

(*) من اعمدة الاستشراق الإنكليزي . ولد سنة ١٨٠١ وتوفي سنة ١٨٧٦ . وخلال وجوده في القاهرة كان يدعى (منصور أفندي) . وفي مصر اتقن اللغة العربية . واشتهر بمجمعه الإنكليزي - العربي (مد القاموس) . وهو الذي ترجم إلى الإنكليزية ألف ليلة وليلة ترجمة كاملة اعتمد في طبعها الثانية على نسخة بولاق العربية ، وأقلها بتعليقات ضافية هدفها افادة القارئ الأوربي . وقد جمعت فيما بعد هذه التعليقات ، ونشرت في كتاب مستقل عنوانه The Arabian Society in the Middle Ages (المجتمع العربي في القرون الوسطى) وهو هذا الذي يجده القارئ نصب عينيه الآن (رئيس تحرير المود) . (***) الكيمياء القديمة .

أصف (عصف) الذي ما أن نطق بالاسم الأعظم حتى جاء في لمح البصر بعرش ملكة سبأ إلى القدس في حضرة الملك سليمان (١) . وتعد هذه معجزة هينة نسبة إلى ما في الاسم الأعظم من أسرار تبلغ إلى حد أحياء الموتى ، وكذلك الأمر في بقية أسماء الله إذ لها خاصيات أخرى حين ينطق بها أو يكتب ، وكذلك القول في أسماء النبي وأسماء الملائكة وأسماء صالحى الجن ، يقال أنها جميعا تستجيب لأغراض السحر الروحاني بواسطة ابتهالات معينة . ويكون السحر بتلاوة هذه الأسماء مع ابتهالات وذكر كلمات غامضة بالنسبة لغير المطلعين على هذا العلم وقراءة آيات من القرآن مع مجموعة أرقام مبهمه وأشكال هندسية غريبة وصور تكتب في الغالب مركبة على شكل رقية (حجاب) وتستخدم لأغراض الخير .

إن الرقية عندما تستعمل لأغراض الخير والاحسان ، فإنها تحترم من قبل العامة على أنها فرع حلال أو سحر رحمانى ، ولكنها ليست كذلك عند المتعلمين ، والملاحظة نفسها تطبق بالنسبة لعلم الغيب .

أما السحر الشيطاني ، فهو كاسمه يدل على علم يعتمد على وسيلة الشر وبإمرة أشرار الجن ، الذين تحصل خدماتهم باستخدام وسائل كذلك التي تستخدم بالنسبة لصالحي الجن . وقد حرم النبي هذا النوع من السحر ، وذمه كل أتقياء المسلمين ، لأنه يمارس لأغراض سيئة .

إن المسلمين يحترمون بابل على أنها مصدر علم السحر ، الذي كان ، وهو - على ما تظن العامة - ما يزال يعلم هناك للبشر من قبل ملكين هبطا من السماء أسمهما هاروت وماروت ، وهما محبوسان ومعلقان من قدميهما في بئر عظيمة أغلقت بكومة من الصخور ، وفي رواية حولهما تقبل بصورة عامة على أنها صحيحة ، أن هذين الملكين نتيجة لرغبتهما في الرحمة جعلهما الله سريعي التأثير بعواطف البشر ، واهبطا إلى الأرض لممارسة السحر ، وكلاهما مذنب وقد أذن لهما أن يختارا العقاب في الدنيا أو في الآخرة ، فاختارا الأولى . وقد أرسلوا إلى الأرض ليمارسا السحر ويفويا الآخرين أيضا بتعليمهم السحر ، إلا أنهما قد أمرا إلا يعلما هذا الفن لأي مخلوق إلا أن يخبراه بحقيقة هذا العمل ويحذراه منه « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر » (٢) . إن المحدث

المشهور مجاهدا يروى بأنه زارهما بدلالة شخص يهودي ، فانطلق به اليهودي حتى أتى موضعا فرفع صخرة فإذا هو شبه سرداب فقال اليهودي لمجاهد: انزل معي وانظر إليهما ولا تذكر اسم الله تعالى ، قال مجاهد : فنزل اليهودي ونزلت معه ولم نزل نمشي حتى نظرت إليهما وهما كالجبلين العظيمين منكوسين على رؤوسهما والحديد في أعناقهما إلى ركبتيهما ، فلما رأهما مجاهد لم يملك نفسه أن ذكر اسم الله تعالى ، قال فاضطربا اضطرابا شديدا حتى كادا يقطعان ما عليهما من الحديد فهرب مجاهد واليهودي حتى خرجا ، فقال اليهودي لمجاهد أما قلت لك لا تفعل كذا والله نهلك (٣) .

الرقية ، واسمها السحر ، غالبا ما عرفت بأنها فرع من السحر الشيطاني ، ولكن قسما قليلا من الناس يقول : لا بأس من ممارستها ، وهي عند بعض الناس تدرس مع الأمور الجيدة ، وتمارس بمعونة الجن الصالحين ، وبناء على ذلك فإن هنالك علما هو السحر الجيد الذي ينبغي أن يحترم على أنه فرع من السحر الإلهي أو السحر الحلال . يقال إن فاعلية هذا السحر تتم بواسطة التلطف والابتهالات الموجهة إلى الجن ويصاحب برش الماء أو التراب وغيره على الشيء المقصود حتى يتغير ، ويمكن أن يتم سحر الناس بعدة طرق ، منها أصابتهم بالشلل أو حتى بسلب الحياة منهم ، أو بتأثير عواطف وانفعالات لا تقاوم لأجل أغراض معينة ، وقد استطاع مسح بعض الناس إلى عقاريت ، وقد تحول آخرون إلى حيوانات متوحشة ، أو طيور ، أو ما شابه ذلك .

ويعتقد أن العين الشريرة تسحر بقوة شديدة وبطريقة تورث الغم والكرب . ونسب إلى النبي أنه ذكر أثر العين (٤) ، وقد يعزى أحيانا إلى تأثير السحر كثير من الأمراض أو حتى الموت ، أن التمايم (٥) التي كثيرا ما تكتب فيها التعاويذ ، من

(٣) القزويني ، رواية بشر بابل في كتابه عجائب المخلوقات .

(٤) انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٣٧٤ .

(٥) أن كلمة (Talisman) هو تحريف للكلمة العربية (طلسم) أنا أكتب هذه الكلمة الأخيرة وفق الطريقة التي ينطق بها العرب عامة ، وهي الطريقة التي يكتبها شيخني ، ويكتبها بعضهم : طلسم (بكسر الطاء) و : طلسم (بكسر الطاء واللام المشددة) ، أنها كلمة تستعمل للإشارات الخفية الغامضة ، وكذلك للاختام والصور وغيرها التي تنقش أو تكتب ، وهذه الرموز هي علم التنجيم أو نوع سحري آخر . إن الغاية المتوخاة من الطلاسم مختلفة ، أحدها أن يتولى المرء سحر الآخرين ،

(١) سورة النمل ٢٧ / ٤٠ وتفسير الجلالين .

(٢) سورة البقرة ٢ / ١٠٢ .

عند الفرس والآتراك . لقد ذكر النبي ان التنجيم ضرب من السحر (٩) .

والتنوع الآخر من الكهانة هو ضرب الرمل (١٠) واسلوبه ان ترسم علامات معينة على الرمل (الذي اشتقوا التسمية منه) او على الورق ، وقيل انه يعتمد بصورة خاصة على علم النجوم .

ان العلم المعروف بالزجر او العيافة ، هو الضرب الثالث من الكهانة ، يعرف علم الغيب او انفال بصورة رئيسية من حركات واحوال او هيئات الطيور والغزلان وبقية حيوانات الطرد . وذلك ما كان يطلق عليه كلمة السانح ، وهو الحيوان الواقف او المار من جهته اليمنى نحو المشاهد ، وهذا يعني عند العرب فلا حسنا ، اما البارح ، فهو حيوان من هذا النوع الذي يمر على جهته اليسرى بالنسبة للمشاهد ، وكانوا يعتبرونه نذير شؤم (١١) .

القيافة : تحت هذا الاسم تندرج معرفة الطالع من قراءة خطوط الكف والعلوم المتفرمة عنه ، وهو الضرب الرابع من الكهانة . اما التيمن او التفاؤل فهو بصورة خاصة نوع جيد ، ويكون التفاؤل من الاسماء او الكلمات التي تسمع مصادفة او تقرأ في كتاب .

ان اخذ القال او قراءة الطالع من القرآن يعتبر بصورة عامة أمرا حلالا . وقد تكون بعض الأحداث الطبيعية البسيطة مصدر تشاؤم ، ومثالا على ذلك ان أحد الخلفاء اراد الغزو فاستشار المنجمين فاخبروه ان ينتظر سقوط الثريا وتفرقها وكان الوقت شتاء وعليه ان ينتظر الى الصيف وقت تضج التين والعنب ويكون عندئذ النصر بهذه العلامات ، ولكن الخليفة خالفهم وتقدم وأحرز النصر (١٢) .

اما تفسير الأحلام ، والعبارة المستعملة (تعبیر المنامات) فيجب ان تصنف ايضا ضمن فروع هذا العلم . ووفقا لقول النبي ان الفرع

النوع الذي وصف سابقا ، يلبسها كثير من المسلمين لأجل ان تمنع او تحفظ لابسها من السحر ، وللغرض نفسه تمارس عدة احتفالات وطقوس سخيفة مضحكة (٥) .

اما علم الغيب الذي يطلق عليه اسم (الكهانة) نتذكره اوثق المراجع على انه فرع من السحر الشيطاني ، ولو ان بعض المسلمين لا يعتقدون به ، ووفق قول عن النبي ان ما يقوله المتنبئون يكون في بعض الاحيان صحيحا ، لان الجن تسترق السمع من السماء الدنيا لما يقوله الملائكة ويسمعون الاوامر التي قدرت في السماء ويحملونها الى المتنبئين ، وفي مثل هذه الحالات يرحم الشياطين بالشهب (٦) ، ويقال ان الكهنة تحصل على خدمات الشياطين هذه بفنون السحر ، وبواسطة اسماء يتوسلون بها ، وحرق البخور ، فيعلمون من الشياطين امورا غيبية ، لان الشياطين قبل بعثة رسول الله كانوا يصعدون الى السماء ويتسمعون الى كلام الملائكة خلصة (٧) . ويظن ان اشرار الجن ما زالوا يصعدون الى السماء الدنيا ويأتون بأخبار الغيب الى السحرة في الأرض .

ان اكتشاف الكنوز المخبأة المشار اليها سابقا ، هي إحدى الأغراض التي تدرس الكهانة لاجلها في الغالب ، ويتوصل اليها بأسلوب الكهانة التي تعرف بضرب المندل ، ويظن انها تؤثر بمساعدة اشرار الجن ، ولكن أكثر المتورين من المسلمين يحترمونها على انها فرع من السحر الطبيعي (٨) .

هناك علم آخر ليس من السهل ان يصنف مع السحر الروحاني ، ولكنه ينبغي ان يوضع في منزلة بين هذا العلم وبين السحر الطبيعي ، ان هذا الفرع المهم من فروع الكهانة هو علم التنجيم ، ويدعى علم النجوم ، ويدرس هذا العلم كثير من المسلمين في الوقت الحاضر ، ويستخدم في الغالب حين يتوون حسن الطالع كوضع أسس البناء او البدء بالسفر او ما شابه ، وأكثر ما يستعمل هذا

وبصورة خاصة يكون حزنا ضد الحوادث ، او نوعا من الشرور ، وثانيها ان يصون الكثر مع من اودعه ، وثالثها بواسطة فركه يحصل على حضور وخدمة الجنى .

(*) لعل المؤلف يشير الى احتفالات الزار عند عوام المصريين انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٢٨٤ .

(٧) رواية عن العرب الجاهليين في مراة الزمان .

(٨) بعض الاجراءات الغريبة لهذا النوع بواسطة مراة الحبر المسائلة ، وقد وصفت ذلك في كتابي (بيان اساليب وعادات المصريين الحديثين) فصل ١٢ ، وفي العدد ١١٧ من مجلة كوارترلي Quarterly review .

(٩) مشكاة المصابيح ٢ / ٢٨٥ .

(١٠) او ضرب الرمل (بفتح الميم) ويسمى ايضا علم الرمل ، هناك عدة وسائل في علم الرمل كتبها كتاب شرفيون ، ولكني لم اطلع على واحدة منها ، ولم ار رفعة النجوم ، وانما رايت فقط طريقة التنجيم تجري على الورق ، ان اختراع هذا العلم ينسبه بعضهم الى اديس ، وينسبه آخرون الى دانيال او الى حام بن نوح ، ويعزوه غيرهم الى هرمس المايجستي .

(١١) مراة الزمان ١ / ١ .

(١٢) الاسحاقى في روايته عن حكم المعتصم بن هارون .

هذه الليلة القادمة ، لذلك فأرجوكم بحق الله أن تأتوا غدا إلى بيتي مبكرين ، وفي صباح اليوم التالي والذي يعد للضرورة ، لتروا إذا كنت قد مت أم لا ، وعندما أموت ، فأني أريد أن أدفن دفنا لائقا ، ولأني وحيد ليس معي من يفلسني ويكفني ، فلا ترددوا في تقديم هذه الخدمة ، وستنالون ثواب ذلك في الآخرة . لقد اشترت كفني ، وستجدونه في زاوية الغرفة التي أنا فيها ، وإذا وجدتم باب البيت مقفلة وأنا لا أجيب إذا طرقتم الباب فاكسروا المزلاج وافتحوا الباب » .

وحالما غربت الشمس رقد في سريره وحيدا ، ولو أنه لا يتوقع أن تغمض عيناه ، لأن ذهنه كان مستغرقا في توقعات انتقاله الرهيب إلى العالم الآخر ، ومحاسبته على حياته السابقة ، وحين أحاط به ظلام الليل تصور على الأغلب أنه قبض ، وشيء خافت أو آخر في غرفته القائمة ، أنه شخص ملك الموت المرعب ، وقد شعر حقيقة بصوت انزلاق الباب وبشخص يتقدم نحو فراشه ، فتجمد من هول الرعب ثم هتف : « من هذا » فأجاب صوت عبوس مهيب : « اسكت ، أنا عزرائيل ملك الموت » فصرخ الرجل المفزوع : « ويلاه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أنا لله وأنا إليه راجعون » ، ثم غطى نفسه بلحافه يحتمي به ، وسكن دون حراك ، وقلبه يخفق ، يتوقع في كل لحظة أن تنتزع روحه من قبل هذا الملك الذي لا يرحم . ومرت لحظات ودقائق ، وساعات ، وهو على هذه الحال ، دون أي أمل في الخلاص من هذه التجربة ، لأنه تصور أن الملك ينتظره أن يسلم نفسه ، أو أنه تركه إلى حين ، وكان قد انشغل أولا بازهاق أرواح مئات البشر الذين حضر أجلمهم في تلك الليلة وفي المدينة نفسها ، وأرواح آلاف الذين عليه أن يقبض أرواحهم في أماكن أخرى .

وحان طلوع النهار قبل أن تنتهي معاناته . وقد جاء جيرانه وفقا لوعدهم ، دخلوا غرفته ، فوجدوه ما زال في فراشه ، وقد لاحظوا أنه قد تغطى وبلا حراك كأنه جثة ، وشكوا فيما إذا كان ما زال حيا ، فنادوه ، فأجاب بصوت خافت ضئيل : « انني لم أمت بعد ، ولكن ملك الموت جاءني في ظلام الليل ، واتوقع أن يعود في أية لحظة ليأخذ روحي ، ولذلك فلم تنته مشكلتي بعد ، فانتظروا لغسلي ودفني » فقال أصدقاؤه : « لكن لماذا ، هل تركت باب الدار مفتوحا » قال : « لقد أقفلته ، وربما فتحه ملك الموت » ، فقالوا :

أنوحيد من الكهانة الذي يستحق أن يوثق به هو الاحلام الصادقة ، وقال : أنها جزء من النبوة ، ولا شيء غيرها من النبوة ، الاحلام الصادقة من عند الله والفسادة من الشيطان ، عندما يجد أحدكم حلما رديئا ليبصق ثلاث مرات عن جانبه الأيسر وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا ، وينقلب من الجانب الذي كان عليه الحلم إلى الجانب الآخر (١٢) . وهذه القاعدة يتبعها كثير من المسلمين . وعلى العموم فإنهم يعتمدون على الاحلام تماما . فقد تكون في بعض الأحيان وسائل لحسم القضايا المتنازع عليها في التاريخ والعلم . أن رؤية أي شيء أخضر في الحلم أو أبيض أو الماء ، يعتبر مباركا ، وأي شيء أسود أو أحمر أو نار ، يعتبر مشؤوما منحوسا .

هذا الاعتقاد الراسخ بالاحلام ، ستوضحه الحكاية الآتية ، حيث حكاها لي في القاهرة الشيخ محمد الطنطاوي الذي استقصى حقيقتها وتأكد من صحتها بعد فترة قصيرة من الطاعون الفظيع الذي حل سنة ١٨٣٥م :

أن تاجرا يعيش في الربع الحنفي من القاهرة ، حلم أثناء ذلك الطاعون أن أحد عشر شخصا قد حملوا من بيته ليدفنوا في خارجه ضحايا لهذا المرض ، فاستيقظ في حال حزن شديد ورعب ، ففكر أن أولئك الأحد عشر شخصا هم مجموع عدد سكان البيت بما فيهم هو نفسه ، وسيكون من العبث أن يحاول إضافته واحد أو أكثر إلى أعداد الساكنين في بيته ليتفادى مشيئة الله ويعطي نفسه فرصة للهرب ، ولذلك دعا جيرانه جميعا ، وأعلمهم بالحلم الذي رآه ، وكانوا قد نصحوه بالرضوخ والتسليم للقدر المحتوم ببساطة ، وأن يشكر الله الذي أنذره في الوقت المناسب مع ما كان من فضل رحمته . وفي اليوم الثاني مات أحد أولاده ، وبعد يوم أو يومين ماتت زوجته ، واستمر الوباء يعيث في أسرته حتى لم يبق في البيت غيره . وكان من المستحيل عليه الآن أن يقبل بأقل شك في صحة الرؤيا وحتمية الإنذار ، ولذلك فبعد آخر وفاة من ساكني الدار مباشرة ، اجتمع إلى صديق في الدكان المجاور وقال له ولعدة أشخاص آخرين من الدكاكين المجاورة والمقابلة ، أنه ينبغيهم إلى الحلم الذي رآه ، وأخبرهم بتحقيق هذا الحلم كاملا ، وعبر عن اعتقاده بأنه هو الشخص الحادي عشر الذي يجب أن يموت قريبا جدا . وقال : « ربما سأموت في

والعشرون ارسلت فيه الريح المهلكة على قوم هود(١٤) .

ثانيا : السحر الطبيعي الذي يعرف بالسيما ، وهو موضع اهتمام اغلب الأشخاص من مثقي المسلمين ، كما يهتمون كذلك بفن الحيل وخفة اليد ، ويبدو هذا منسجما مع السحر ، لانه يؤثر في ظهوره كما يقولون ، ويشير خيالات ورؤى مبدعة مشيرة اقرب الى التخدير ، او تعاطي بعض المخدرات لانها وسيلة رئيسية في احداث التخيلات ، ولذلك كان البخور شيئا مهما عند اجراء هذه العمليات .

ومثل هذه الأشياء تستخدم في نوع آخر يعرف بـ (ضرب المنديل) ، ويجدر بنا ان نذكر ان هذه المهارات تعتبر عند الكثير مؤثرة بواسطة السحر الطبيعي ، ولو ان الذي ذكرناه سابقا كان ذا علاقة بأشهر الجن ، ويكون للبخور دور هام فيه . اما الكيمياء فانها فرع من السحر الطبيعي ، وان كثيرا من المسلمين في الوقت الحاضر يدرسونها ، وكذلك بفعل بعض النابهين والعلماء .

ان أشهر السحرة الذين حصلوا على سمعة واسعة في مصر خلال فترة المائة سنة الأخيرة كان الشيخ أحمد صادومة الذي عاش حوالي اكثر من سنة مضت(١٥) . روى لي عدة أشخاص من القاهرة ، اناس من النابهين وذوي التعليم الجيد مختلف القصص العجيبة لخوارقه ، يروون ذلك عن شهود عيان من ثقات الناس ، ولكن الرواية الأكثر تصديقا عن هذا الساحر تلك التي وجدتها عند مؤرخ ممتاز لتاريخ مصر الحديث ، يذكر هذا المؤلف ان الشيخ صادومة رجل مسن وقور المظهر ، تحدر أصله من مدينة سمود في الدلتا ، وقد اكتسب شهرة واسعة وعظيمة جدا لعلمه بالسحر الروحاني والطبيعي ، ولتمكنه من مخاطبة الجن وجها لوجه ، ولاستطاعته ان يظهر الجن للأشخاص الآخرين وحتى للعيان منهم ، والناس الذين اطلعوا عليه عرفوه مؤرخا ، يقول هذا الكاتب : ان معاصريه على اختلاف آرائهم يحترمونه ، ومن هؤلاء النحوي المشهور والعالم الشيخ حسن الكفراوي الذي كان يجله على انه ولي من الدرجة الاولى ، وكلام هذا الرجل له تأثيرات كأنها (البراعة والسحر الطبيعي) ووصف سمعته بأنها تزداد حتى كانت تستميل الذين يملكون بامتحان النحس .

(١٤) الاسحاقى ، انهى روايته في حكم الامين .

(١٥) كتبت هذا في سنة ١٨٢٧م .

« وكيف ، هل هو في ساحة الدار » قال : « اني اعرف ان لا احد في الدار ، ولكن ربما كان ملك الموت الذي ينتظر لأخذ روحي جعل نفسه مرثيا لكم واخطأتم في عتبة الفجر على انه رجل » . قالوا : « انه لص ، اللص الذي أخذ كل شيء استطاع ان يحمله ، وقد أصيب بالطاعون بينما هو يسرق ، وهو ساقط الآن ميتا في باحة الدار عند عتبة السلم ، ممسكا بيده الشمعدان الفضي » فلما سمع صاحب الدار هذا ، تأنى لحظة ، ثم رمى عنه لحافه وهتف : « الحمد لله رب العالمين ، ذلك اللص هو الحادي عشر ، وقد نجوت ، لاشك انه كان ذلك المحتال الذي جاءني في الليل وادعى انه ملك الموت . الحمد لله ، الحمد لله » .

لقد نجا هذا الرجل من الطاعون ، وكان مسرورا حين صار يقص هذه القصة . وان اللص استمع خلسة الى محادثته مع جيرانه ، وجاء الى بيته في الظلام ، ودفع الباب الخشبي بكتفه فازاح المزلاج من مكانه . ليس هناك شيء عجيب في الحلم ، ولا في نهايته ، فان طاعون سنة ١٨٣٥م قد قضى على كثير من البيوت وجعلها موحشة من أهلها ، وغالبا ما كان النحس على الصغار وكان سكان البيوت يتساءلون هل سيبقى الله احدا من الصغار .

ويحسن هنا ان نذكر التمييز بين الايام السعيدة المباركة وغير السعيدة المنحوسة . ان يومي الخميس والجمعة - وخاصة الجمعة - يعتبران مباركين ، الاثنين والاربعاء مشكوك فيهما الاحد والثلاثاء والسبت - وخاصة الاخير - ايام غير مباركة . يقال ان هناك سبعة ايام سيئة في كل شهر قمري ، وبصورة خاصة الثالث حيث قتل فيه قابيل اخاه هابيل ، والخامس الذي اخرج الله فيه آدم من الجنة ، واصيب فيه قوم يونس ، وقذف يوسف في البئر ، اما الثالث عشر ففيه اباد الله ثروة ايوب ، وامتحنه ، وازال الملك من سليمان ، وفيه قتل اليهود الانبياء . اليوم السادس عشر ، اهلك الله فيه ومحق قوم لوط ، ومسح ثلاثمائة من النصارى الى خنازير ومن اليهود الى قردة ، وفيه شطر اليهود زكريا بالشار الى شطرين ، اليوم الحادي والعشرون ولد فيه فرعون ، وفيه أغرق ، وفيه أصيب قومه بالطاعون . اليوم السابع والعشرون قتل فيه نمرود سبعين امرأة ، وفيه رمى ابراهيم الخليل في النار وفيه ذبحت ناقة صالح . اليوم الخامس

من المخلوقات العاقلة : الملائكة الذين خلقوا من النور ، والجن الذين خلقوا من النار ، والناس الذين خلقوا من التراب . الصنف الأول يدعى الملائكة (المفرد ملك) ، والثاني الجن (المفرد جني) والثالث الانس (المفرد انس) يعد بعض المؤلفين ان الشياطين هم صنف مختلف عن الملائكة والجن ، ولكن الرأي الأكثر انتشارا والذي يطمئن اليه في أوتق المراجع ، هو انهم جن متمردون .

يقول القزويني : « يعتقد ان الملائكة من جوهر بسيط وهوا مع الحياة النطق والعقل ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الجن والشياطين ، وهو فرق في المرتبة . » ويضيف : « اعلم ان الملائكة قد طهروا من الرغبة الجسدية والميل الشهواني ، ونوازع الغضب ، يطعمون الله فيما يأمرهم ، ولا يفعلون الا ما يؤمرون . طعامهم التسبيح بمجده ، وشرابهم بيان قدسه ، وأحاديثهم حمد الله سبحانه ، وفرحتهم في عبادته ، لقد خلقوا بأشكال مختلفة وبقوى متفارقة ان بعض الملائكة يوصف بأنه يتخذ شكل المخلوقات المريئة . أربعة منهم ملائكة الطبقة العليا ، هم : جبريل ، ملك الوحي ، وميكائيل (ميشيل) ولي الاسرائيليين ، وعزرائيل ملك الموت ، واسرافيل ملك النفير ، حيث ينفخ في الصور مرتين ، أو كما يقول البعض ثلاثا في نهاية العالم - نفخة واحدة ستمحق كل المخلوقات (بما فهم اسرافيل نفسه) ، ونفخة أخرى ، بعد أربعين سنة (ويبعث مرة ثانية لهذا الغرض مع جبريل وميكائيل) تبعث الموتى .

وتدعى هذه الطبقة من الملائكة أيضا ملائكة الرسل ، وهم أدنى مرتبة في المقام من الانبياء البشر والرسل ، ولو انهم أرفع منزلة من بقية الجنس البشري : ان الطبيعة الملائكية تعد أدنى مرتبة من الطبيعة البشرية ، لأن كل الملائكة قد أمروا أن يسجدوا لآدم . وكل مؤمن يلزم بملكين حارسين يسجلان أعماله ، الأول الذي عن يمينه يكتب أعماله الصالحة ، والآخر الذي عن شماله يكتب سيئاته ، وفي رأي ، أن عدد هؤلاء الملائكة هو خمسة ، أو ستون ، أو مائة وستون ، وهناك ملكان أيضا ، يقال لهما منكر (ناكر في العامية) ونكير ، اللذان يستجوبان كل الموتى ، ويعذبان الآثمين في قبورهم .

أما صنف الجن فيقال انهم خلقوا قبل آدم ببضعة آلاف من السنين ، ووفق حديث عن الرسول ان هذا الصنف يتكون من خمس طبقات ، هم : الجان (وهؤلاء أقل قوة من الجميع) ، والجن ، والشياطين ، والعفاريت ، والمردة ،

ان يوسف بك زعيم المماليك ، رأى بعض معالم السحر مكتوبة على جسم إحدى محظياته ، فملأه الغضب والحسد ، وأمرها ان تخبره عن فعل هذا بجسمها ، وهددها بالقتل ان لم تصدقه ، فاعتسفت له بأن امرأة أخذتها الى الشيخ صادومة ، وهو الذي كتب هذا الطلسم حتى يجذب لها حب سيدها ، وعندما سمع هذا ، أرسل على الفور بعض الحاضرين ليقبضوا على الساحر ويقتلوه ثم يرموه في النيل جزاء له على فعلته (١٦) . ولكن الطريقة التي قبض بها عليه ، كما رويت لي من قبل أحد أصدقائي ، تستحق ان تذكر ، فعده أشخاص يجازفون واحدا بعد الآخر ويحاولون ان يقبضوا عليه ، ولكن كل يد تمتد اليه لتمسكه تصاب بالشلل حالا ، لأن الشيخ يتلفظ بدمدمة من السحر ، حتى استطاع رجل كان يقف بجانبه ان يضع كمامة على فم الشيخ ، وعندها تعطل سحره .

من القصص التي رويت لي عن معجزات صادومة ، القصة التالية التي سنجعلها مثالا لسحره : لقد دعاه أحد أصدقائه ليخرجنا يتمشيان بعيدا ، فذهبا حوالي نصف ساعة مشيا في صحراء شمالي القاهرة ، وهناك جلسا سوية على أرض سهلية فيها رمل وحصى ، فتمتم الساحر بالفاظ ، فوجدا نفسيهما فجأة وسط حديقة ، كأنها من حدائق الجنة ، مشتملة على الازهار وأشجار الفاكهة من كل نوع ، واكنست الأرض بخضرة نضرة زاهية كأنها الترمدة ، وسيقت بمختلف الجداول العذبة الجارية ، ومدت لهما وجبة طعام من الد المأكولات من لحوم وفاكهة وشراب ، أعدتها أيد غير مرئية ، واكل كلاهما حتى شبعا ، وتناولوا جرعات وافرة من مختلف انواع الشراب . وأخيرا غرق ضيف الساحر في نوم عميق ، وعندما صحا وجد نفسه ثانية في الأرض الرملية ذات الحصى مع صادومة الذي ما زال الى جانبه .

من المحتمل ان القارئ سيعزو هذه الرؤيا الى فعل الافيون او بعض المخدرات المشابهة ، كما افترضت أنا ، لأنني لا أستطيع ان أشك في نزاهة الرواية ، لأنه لا يرضى بمثل هذا التفسير ، معتبرا كل الرواية قضية سحر من عمل وتأثير الجن .

الجن والشياطين DEMONOLOGY

المسلمون بعامة يؤمنون بثلاثة أنواع مختلفة

(١٦) تاريخ الجبرتي ، رواية موت يوسف بك في سنة ١١٩١ هـ ورواية موت الشيخ حسن الكفراوي في سنة ١٢٠٢ هـ .

في أحد الأحاديث يقال ان ابليس كان ابا لجميع الجن والشياطين (٢٢) ، والجان هنا مرادفة للجن ، وفي حديث آخر : ان الجان كان ابا لجميع الجن (٢٣) ، وقد استعمل الجان هنا اسما لابليس .

يقول القزويني ، مؤلف من القرن الثالث عشر : « لقد اعتبر ان الجن حيوانات هوائية بأجساد شفافة ، حيث تستطيع ان تتخذ اشكالا مختلفة ، والناس مختلفوا الرأي في احترام هذه الكائنات ، ان البعض يعتبر الجن والشياطين مخلوقات متمردة ، وهؤلاء هم المعتزلة (فرقة من المسلمين المتأثرين) (*) ويرى آخرون ان الله جل جلاله ، خلق الملائكة من ضوء النار ، والجن من لهيبها (الا ان هذا مخالف للرأي السائد) ، والشياطين من دخانها ، (ويختلف ايضا عن الرأي السائد) ، وكل هذه المخلوقات في العادة غير مرئية للناس (٢٤) ، ولكنهم قد يظهرون بأي شكل يريدونه ، وحينما يتجسدون بأشكال يصبحون عندئذ مرئيين » . هذه الملاحظة الأخيرة تصور أوصافا متعددة للجن في (الف ليلة وليلة) حيث شكل المارد أولا غير معين ، أو يشبه العود الهائل ، ثم بعد ذلك يظهر بالتدريج بهيئة انسان حجمه اقل ضخامة .

يقال ان الله سبحانه خلق الجان (او الجن) قبل آدم بألفين من السنين (او على ما يقول بعض الكتاب أكثر من ذلك) ، ولذلك فهناك مؤمنون وكافرون ، وفيهم فرق وطوائف كالذي عند البشر (٢٥) . هناك من يقول ان نبيا اسمه يوسف قد أرسل الى الجن ، وآخرون يقولون بل لديهم فقط وعاظ ومنذرون ، وقالوا ايضا ان سبعين نبيا قبل محمد قد أرسلوا الى الجن والانس على السواء (٢٦) . ان الاعتقاد العام بان الجن قبل آدم كانوا قد حكموا بأربعين (وفي رواية اثنين وسبعين) ملكا ، وقد أعطى الكتاب العرب لكل ملك اسم سليمان (Solomon) ، وقد اشتقوا تسميتهم

والآخرون هم الأعظم قوة ، والجان جعلوا جنا ، كما مسح بعض الناس قردة وخنازير (١٧) . وعلى أية حال يجب ان يلاحظ هنا بان لفظتي الجن والجان تستعملان بصورة عامة بدون تمييز كاسمين لكل الاصناف (بضمنهم الاصناف الأخرى المذكورة سابقا) سواء اكانوا صالحين أم اشرارا . والكلمة السابقة هي الأكثر شيوعا ، وان كلمة الشيطان كذلك تستعمل غالبا لتدل على كل جن شرير . والعفريت هو جن شرير قوي . والمارد جن شرير من طبقة أعظم قوة . ويدعى الجن (وغالبا ما يراد الأشرار منهم) في الفارسية : Dēvs والجن الأعظم قوة في الشر ناراس Narahs (حيث يعني « الذكور » ولو انهم يقولون يكونون ذكورا واناثا) ، أما الجن الصالح فهو بيريز Pērees وتستعمل هذه الكلمة على الأكثر للأناث .

وفي حديث للنبي يقول فيه (بما معناه) : لقد خلق الجان من نار غير ذات دخان (١٨) وتستعمل كلمة الجان في بعض الأحيان اسما لابليس ، كما في الآية الآتية من القرآن : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » (١٩) ، (الجان : ابو الجن اي ابليس خلقناه من قبل : أي من قبل خلق آدم ، سموم : نار بلا دخان) . وتعني كلمة الجان ايضا « الحية » كما في سورة أخرى من القرآن (٢٠) ، واستعملت كلمة الجان في القرآن كذلك مرادفة للجن (٢١) . وفي المعنى الأخير يعتقد غالبا بانها استعملت في الحديث استشهادا على أول هذه الآية . هناك عدة أحاديث ظاهرة الاختلاف عن النبي حيث توفق بين ما قرر اعلاه ،

(١٧) مرآة الزمان (مخطوط في حيازي) تاريخ كبير عاش مؤلفه في القرن الثالث عشر ، انظر ايضا القرآن سورة المائدة ٦٠/٥ قوله تعالى : « قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكانا واضل عن سواء السبيل » .

(١٨) مرآة الزمان ، وسورة الرحمن ١٤/٥٥ « وخلق الجان من مارج من نار » ، الكلمة التي تفيد (نارا بلا دخان) قد اسيء فهمها من قبل البعض على انها (شعلة من نار) ، وقد وضعها الجوهري (في الصحاح) بشكلها الصحيح ، وقال : ان هذه النار كانت هي التي خلق منها ابليس .

(١٩) سورة الحجر ٢٧/١٥ ، وتفسير الجلالين . (٢٠) سورة النمل ١٠/٢٧ « واتق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون » .

(٢١) سورة الرحمن ٢٩/٥٥ ، ٧٤ « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انسى ولا جان » ، « لم يطمئن انسى قبلهم ولا جان » ، وتفسير الجلالين .

(٢٢) حديث عكرمة عن ابن عباس في مرآة الزمان .

(٢٣) حديث مجاهد في المصدر نفسه .

* ان بعض ما بين قوسين ، من اضافات لين بول - Lane Poole حفيد المؤلف ، وبعضها الآخر للمؤلف نفسه . وما سبق بكلمة (قلت) في الهامش فهو من اضافات وتعليقات المترجم .

(٢٤) لهذا سموا (جانا) و (جانا) . قلت : يريد ان اشتقاق الاسم جاء من جن الشيء اذا ستره واخفاه فهو مستور عن الرؤية غير منظور .

(٢٥) حديث عن النبي في مرآة الزمان .

(٢٦) المصدر السابق .

اعين الملائكة الآخرين بسبب سمو مقامهم ، وكان ابليس واحدا من هؤلاء الجن . ويضيف بأنه كانت له السلطة على جميع من في السماء ومن في الأرض ، وكان يعرف بطاووس الملائكة ، وذلك انه لم يكن هناك موضع في السماء الا خاضعا له ، فلما تمرد الجن في الأرض ، ارسل الله فريقا من الملائكة فساوهم الى الجزر والجبال ، واصبح ابليس يتيه عجا ورفض ان يسجد لآدم ، فمسخه الله الى شيطان . ولكن هذا التعليل يتعارض مع آيات اخرى ، حيث يمثل ابليس قائلا : « خلقتني من نار وخلقته من طين » (٢١) ، ولذلك يناقش : « اذا كان قد خلق من النار أصلا كيف يكون قد خلق من نور ، لان الملائكة كلهم قد خلقوا من النور » (٢٢) ، ربما فسر الحديث الآية السابقة بأن ابليس كان قد أخذ اسيرا ، وقد سمت مكانته بين الملائكة ، او ربما كان هناك حذف بعد كلمة (ملائكة) لانه يجب ان يستنتج بأن الأمر الذي القى الى الملائكة كان من البديهي ايضا ان يطاع من قبل الجن .

ووفقا لرواية ، ان ابليس وكل الشياطين هم مميزون عن بقية الجن بوجودهم الاطول ، ويضيف : « ان الشياطين هم اولاد ابليس ، ولا يموتون الا معه ، بينما (بقية) الجن يموتون قبله » (٢٣) ولذلك فانهم يعيشون عدة قرون ، ولكن هذا لا يتفق مع اعتقاد العامة : بأن ابليس وعديد من اشرار الجن يقعون طيلة بقاء الجنس البشري ، الا انهم يموتون قبل النشور العام ، وكذلك الملائكة فان آخر من يموت منهم ملك الموت عزرائيل . وبعد فليس كل اشرار الجن يعيشون طويلا ، فان عددا منهم يقتلون بالشهب التي ترجمهم بها السماء ، ولذلك فان العرب عندما يرون شهابا منقضا غالبا ما يهتفون : « اللهم ارجم أعداء الدين » ، وكذلك يقتل بعضهم من قبل الجن نفسه ، وحتى البشر يقتل قسما من الجن . ان النار التي خلق منها الجن تجري في شرايينه مكان الدم ولذلك عندما يصاب الجن بجرح مميت ، فان هذه النار تخرج من شرايينه وغالبا ما تهلكه وتحيله الى رماد .

والجن ، كما رأينا فيما سبق ، غير معصومين عن الخطأ ، يأكلون ويشربون ، ويكثرون

من هذا الأخير الذي كان يدعى جان ابن جان ، وهو كما يقول بعضهم ، الذي بنى أهرامات مصر . وقد جاءت الرواية الآتية عن الجن قبل زمن آدم عند القزويني : « يروى في التواريخ ان سلالة الجن في الزمان القديم ، قبل خلق آدم ، قد سكنت الأرض وملأتها برا وبحرا ، سهلا وجبلا ، وكان فضل الله عليهم كثيرا ، وكانت لهم حكومة ونبوة ودين وشريعة ولكنهم خالفوا وأذنبوا وعصوا أنبياءهم ، وعثوا في الأرض مفسدين ، فأرسل الله سبحانه عليهم جيشا من الملائكة فملكوا الأرض وطردها الجن الى أماكن من الجزر وسجنوا كثيرا منهم ، ومن هؤلاء الذين سجنوا كان (عزازيل) (سمي بعد ذلك ابليس من ابلاسه اي يأسه) ، وقد أعمل الذبح فيهم . وكان عزازيل في ذلك الوقت صغيرا ، وشب وسط الملائكة (ومن المرجح لهذا السبب ان عد واحدا منهم) ، وأصبح متعلما بعلمهم ، وتقلد حكومتهم ، وقد امتدت أيامه حتى أصبح رئيسهم جميعا ، واستمر هذا زمن طويل ، حتى ظهرت القضية بينه وبين آدم ، كما قال الله سبحانه : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا » (٢٧) لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن » (٢٨) .

ويخبرنا مؤلف آخر بأن « ابليس قد ارسل سلطانا على الأرض ، وحاكما على الجن الكافر السنين ، بعد ان ارتقى الى السماء وبقي يتعبد حتى خلق الله آدم » (٢٩) وكان اسم ابليس في الاصل عزازيل (كما تقدم) او كما يقول آخرون (الحارث) ، وكنيته ابو مرة او ابو الفمر (٣٠) . انه من المختلف فيه كون ابليس من الملائكة او من الجن ، وهناك ثلاثة آراء حول هذه المسألة :

١ - انه كان من الملائكة ، من حديث عن ابن عباس . ٢ - انه كان من الشياطين (او اشرار الجن) كما ذكر في القرآن « الا ابليس كان من الجن » ، وهذا رأي الحسن البصري ، والمعتد به عموما . ٣ - انه لم يكن لا من الملائكة ولا من الجن ، بل خلق وحده من نار . لقد بنى ابن عباس رأيه على بعض الآيات التي ساقها الحسن البصري « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن » (المستشهد بها سابقا) ، حيث فسرها بقوله : ان أنبل وأشرف الملائكة يسمون (الجن) لانهم مجنونون (محجوبون) عن

(٢٧) السجود هنا ليس عبادة ، بل هو انحناء وخضوع لكائن متميز .

(٢٨) سورة الكهف . ٥ .

(٢٩) الطبري ، رواية عنه في مرآة الزمان .

(٣٠) مرآة الزمان .

(٢١) سورة الأعراف ١٢ ، وسورة ص آية ٧٦ .

(٢٢) مرآة الزمان .

(٢٣) الحسن البصري في مرآة الزمان . ان الزيادة التي أضفناها للنص (بقية) تستنتج من وجهة نظره دون ان يذكرها .

عائشة باثني عشر ألف درهم (حوالي ٣٠٠ باون) كفارة ، وهي دية دم مسلم (٤٠) .

يقال ان الجن يظهرون للناس على الاغلب على شكل حيات ، وكلاب ، وقطط ، واناس وفي الحالة الاخيرة ، حالة ظهورهم على شكل اناس فانهم احيانا يظهرون بهيئة رجال عاديين و احيانا بحجم مارد جبار . فاذا كان الجن من الصالحين ، فانهم يبدون بعمامة جميلين وضيئين ، واذا كانوا اشرارا يظهرون بشكل بشع مربع مخيف . وانهم يكونون مرئيين او غير مرئيين حسب رغبتهم ، وبسرعة خاطفة يمتد ويتسع ، او يتخلخل الى ذرات حيث يتكون شيئا آخر ، او يختفي فجأة في الارض او في الهواء ، او حتى في الجدار الصفيق .

يعترف كثير من المسلمين في هذه الايام (١٠) انه راي الجن وكان على صلة بهم ، والشاهد في الحكاية الطريفة الآتية التي حكاه لي شخص فارسي عرفته في القاهرة ، اسمه ابو القاسم من اهل جيلان ، ويعمل ملاحظا في مطبعة محمد علي بيولاقي .

ان احد مواطني هذا الرجل ، الذي أكد لي بانه رجل صادق دون شك ، كان يجلس على سطح بيته كان قد استأجره ، اطل على جماعة وقد أزقت ساعة انتهاء النهار ، وهو على عادته يدخل غليونه الفارسي ويمتع عينيه بالنظر الى مجموعة فتيات هنديات يسبحن في النهر . وحينما كان ينظر اليهن تعلق قلبه بواحدة جميلة جدا ، كان يتمنى بشدة ان يمتلكها وتكون زوجة له . وعندما حل الليل جاءت اليه تلك الفتاة وقالت له : انها قد عرفت عاطفته ، وانها ترضى ان تكون زوجة له ، ولكن بشرط ان لا يرضى لامرأة اخرى ان تأخذ مكانها او تشاركها ، وانها ستكون معه في الليل فقط . واخذ كل منهما عهد الزواج على الآخر ، ولم يشهد على ذلك الزواج الا الله ، وكانت سعادته عظيمة . حتى كان عصر احد الايام ورأى مرة اخرى جماعة من الفتيات يسبحن في النهر ، فاثارت احداهن فيه رغبة وهوى أشد قوة وما كان أشد دهشته حينما رأى هذه الحسناء الساحرة تقف امامه عندما اقترب الليل ، وقد قاوم الاغراء ما استطاع متنبها الى عهد الزواج الذي قطعه لزوجته ، وقد حاولت بكل وسائل الاغراء والغواية ان تفريه ، ولكنه أصر

نوعهم في بعض الاحايين بالاتصال بالجنس البشري ، وبالطريقة الاخيرة فان النسل يشترك بطبيعة كل من الوالدين ، وهم يختلفون عن الملائكة في كل هذه الصلات ، ويتميز من بين اشرار الجن خمسة اولاد من ابناء رئيسهم ابليس ، هم : تير ، الذي يجلب المصائب والخسائر والاضرار ، والاعور ، الذي يحرض على الدعارة والفجور ، وسوط ، الذي يحث على الكذب ، وداسم ، الذي يسبب الكراهية بين الزوج والزوجة ، وزلمبور ، الذي يشرف على اماكن الريبة والشبهة (٢٤) .

اما الاشكال الاكثر شيوعا ، والمساكن او الاماكن التي يلجأ اليها الجن ، فيجب ان نصفها الآن ، الاحاديث الآتية عن النبي هي التي تفسي بالفرض اكثر من غيرها مما رايت ، للجن اشكال وهيئات مختلفة ، فهم يتخذون شكل الافاعي ، والعقارب ، والاسود ، والدثاب ، والشعالب ، وغير ذلك (٢٥) . والجن ثلاثة انواع : نوع على الارض ، وآخر في البحر ، والثالث في الهواء (٢٦) . ويتألف الجن من اربعين فرقة ، كل فرقة تتألف من ستمائة الف (٢٧) . والجن ثلاثة اصناف ايضا : صنف له أجنحة ويطير ، والآخر الافاعي والكلاب ، والثالث ينتقل من مكان الى آخر كالناس (٢٨) ، ويؤكد المصدر نفسه ان الحيات المنزلية هي من الجن (٢٩) . لقد امر النبي اصحابه ان يقتلوا الافاعي والعقارب اذا دخلت على المصلين ، ولكن في حالات اخرى يبدو انه طلب اولاً ان تحذر الحيات بالابتعاد ، وبعدها اذا مكثت ان تقتل . وعلى اية حال فالعلماء يختلفون في الراي فيما اذا كان (كل) اصناف الحيات والافاعي يجب ان تحذر اولاً ، او ان (بعضا) منها يكون كذلك ، لان الرسول قال : عليهم ان ياخذوا ميثاق الجن (من الراجح بعد الامر المذكور سابقا) بان عليهم الا يدخلوا منازل المؤمنين ، لذلك يشترط عليهم اذا دخلوا فانهم ينقضون ميثاقهم ويكون قتلهم مشروعا بدون تحذير سابق . ومع ذلك فيروى ان عائشة زوجة النبي قد قتلت افعى في غرفتها ، وقد رأت في الحلم شيئا يخيفها ، فخشيت ان تكون هذه الافعى جنية مسلمة لانها لم تدخل غرفتها عندما كانت خالعة ثيابها ، فتصدقت

(٢٤) القزويني ، رواية عن مجاهد .

(٢٥) مجاهد عن ابن عباس في امرأة الزمان .

(٢٦) الحسن البصري ، المرجع السابق .

(٢٧) عكرمة عن ابن عباس ، المرجع السابق .

(٢٨) مشكاة المصابيح ٢/٣١٤ .

(٢٩) المصدر السابق ٢/٣١١ ، ٣١٢ .

(٤٠) امرأة الزمان .

* كتب المؤلف كتابه هذا في القرن التاسع عشر ١٨٨٣ م وهو تاريخ الطبعة الاولى .

ومفارق الطرق ، طعامه كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه ، شرابه كل ما يسكر ، أذانه المزمار ، قرآنه الشعر ، حروف خطه اشارات من ضرب الرمل (٤٤) ، كلامه الزور والبهتان ، أجولته النساء (٤٥) .

وفي اعتقاد العرب الأولين أن ذلك النوع المعين من الجن يشرف على أماكن بعينها ، وقد جاء في القرآن : « وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » (٤٦) ، وفي تفسير الجلالين وجدت التعليق الآتي على هذه الآية : « كانوا إذا اتوا واديا للجن نادى منادي الانس الى خيار الجن أن احبسوا عنا سفهاءكم ، فلم يفتهم ما وعظوا به فزادوهم رهقا » . ولايضاح هذا علي أن اذكر الحديث الآتي مقتبسا عن القزويني : « أنه مروى عن أحد رواة الحديث أنه ومن معه اضطروا الى البيت الى جوار راعي غنم في واد ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فاخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي انا جار دارك ، فنادى مناد لانراه : يا سرحان ارسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم » . ونفس هذا المعتقد موجود عند العرب المعاصرين ، ومن المرجح أنهم لا يستعملون مثل هذا النداء . وخرافة مشابهة تلك هي عادة مصرية قديمة سهلة التصديق ما تزال سائدة عند أهل القاهرة ، فهم يعتقدون بأن كل ربع من هذه المدينة له حارس نابغ خاص من الجن له شكل الأفعى

Agathodaemon (٤٧) .

لقد ذكر من قبل أن بعض الجن مسلمون ، وآخرين مشركون ، فالجن «الصالحون» يؤدون ما عليهم من فروض دينية ، وبخاصة إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصيام خلال شهر رمضان ، والحج الى مكة وصعود جبل عرفات ، إلا أنهم في أداء هذه الواجبات لا يظهرون للبشر ، فهم غير مرئيين (٤٨) .

ذكرنا أن بعض الناس يستطيعون أن يحصلوا على بعض الخدمات من الجن ، وذلك بواسطة الطلاس (التماس) وإبتهالات معينة ،

(٤٤) كذا ترجمت كلمة (خط) لكن عند السيوطي : نزهة التامل ومرشد المتأمل القسم السابع وجدت في موضعه كلمة (وشم) ، وهناك خلافا طفيفة أخرى وحذف من هذا الحديث المستشهد به .

(٤٥) القزويني : عجائب المخلوقات .

(٤٦) سورة الجن ٦/٧٢ .

(٤٧) المصريون المحدثون الفصل العاشر .

(٤٨) المصريون المحدثون ، فصل ٢٤ .

على التمتع . ثم قالت له زانرته الجميلة بأنها كانت زوجته نفسها ، وأنها جنية ، ولذلك فمن الآن فصاعدا ستزوره في صورة أبة انثى يرغب فيها أو يشتهيها .

إن الزوبعة التي هي أعصار يرفع الرمل والتراب على شكل عمود في علو هائل ، غالبا ما تكنس الصحارى والحقول ، ويعتقد أن هذه الزوبعة تثار بسبب طيران جني شرير ، ولكي يحمي العرب أنفسهم من هذا الجني الذي (يركب الريح) كثيرا ما يهتفون : (حديد ، حديد) أو (حديد يا مشؤوم) لأن الجن شديدو الخوف من هذا المعدن ، أو أنهم يكبرون : (الله اكبر) (٤٩) .

وخرافة مشابهة لهذه سائدة مع شعور بالهيبه لأعصار البحار الذي يسبب عمودا من الماء متجها نحو السماء كما يرى في منامرات الملك شهريار في مدخل « الف ليلة وليلة » .

إن الموطن الرئيس للجن ، كما يعتقد ، هو في جبال (القاف) ، حيث يفترض أنهم يحيطون بكل أرضنا ، ويعتقد كذلك أنهم يتفدون من خلال الأجسام الصلبة من أرضنا ومن الأجسام التي في السماء ، يختارونها مواطن أصلية يلجأون إليها ، أو مواضع يفزعون إليها بين حين وآخر كالحمامات ، والآبار ، والأفران ، والبيوت الخربة ، والأسواق ، ومفارق الطرق والبحار ، والأنهار . ولذلك فإن العرب حينما يسكبون الماء على الأرض ، أو داخل الحمام أو عندما يدلون الدلو داخل البئر ، وفي مختلف الحالات الأخرى ، يقولون : (دستور) ، أو (دستور يا مباركين) (٥٠) . يقال إن الأرواح الشريرة (أو أشرار الجن) ، كانت لهم الحرية لدخول أي من السموات السبع حتى ميلاد المسيح ، حينما طرد ثلاثة منهم ، وعند ميلاد محمد منع أربعة آخرون (٥١) . وعلى أية حال فقد استمروا يصعدون الى حدود السماء الدنيا ليسترقوا السمع الى حديث الملائكة وما قدر الله من أمور ليطلعوا على أمور الغيب ، ويطلعون أحيانا بعض الناس على ما يعرف بالطلاسم أو طلبات معينة يجعلونها تقي بانجازات سحرية . إن ما قاله النبي عن إبليس في الحديث الآتي ينطبق أيضا على أشرار الجن الذين يرأسهم : مسكن إبليس المفضل بين الناس في الحمام ، وأماكنه المفضلة التي يلجأ إليها هي الأسواق

(٤٩) المصريون المحدثون ، الفصل العاشر .

(٥٠) المرجع السابق .

(٥١) سأل في تعليقه على السورة ١٥ من القرآن .

والأمر الذي يساعد به الجن الناس والسحرة منهم خاصة هو ان يطلعوهم على معرفة احدث المستقبل ، كما وضع سابقا .

لم يعط أي انسان قوة وسلطان على الجن اطلاقا مثلما اعطى سليمان بن داود ، وذلك بفعل طلسم مدهش جدا يقال انه نزل عليه من السماء ، لقد كان خاتما نقش عليه (الاسم الأعظم) ، وكان يتكون من جزأين ، جزء من نحاس وجزء من حديد ، وكان يختم بالنحاس ما يكتب من أوامر الى الجن الصالح ، ويختم بالحديد ما يكتب من أوامر الى أشرار الجن والشياطين (للسبب الذي ذكر سابقا من ان الجن يخافون من الحديد) ، وأوامره في الناحيتين لها سلطان غير محدود ، وكذلك كانت أوامره تسرى على الطير والرياح (٤٩) ، ويقال كذلك ان سلطانه كان يشمل ضواري الوحش عامة . وكذلك كان وزيره عصف بن برخيا على علم بأسرار (الاسم الأعظم) فعندما ينطق به تتحقق أعظم المعجزات ، وتشتمل هذه المعجزات حتى على احياء الموتى ، وبموجب قوة هذا الاسم الأعظم المنقوش على خاتمه ، فقد ألزم سليمان الجن ان يعاونوا في بناء هيكل القدس ، وفي أعمال مختلفة أخرى . وقد جعل كثيرا من أشرار الجن يهتدون الى الايمان ، وأودع كثيرا غيرهم ممن تشبهوا بكفرهم في السجون ، ويقال ان سليمان كان ذا سلطان على كل الأرض ، لهذا ، ربما كان اسم سليمان قد اطلق على عموم ملوك الجسد في عهد ما قبل آدم ، عدا قصة سلطانه الشامل الذي نشأ من خصومته مع أولئك الملوك .

اما الأذى الذي يسببه أشرار الجن على الجنس البشري فهو على أنواع مختلفة ، فكثيرا ما يختطف أشرار الجن النساء الجميلات ويحتفظون بهن بالقوة ويتخذونهن زوجات لهم أو جوارى .

ويؤكد الكتاب المسلمون ان الجن المؤذنين أو المزعجين غالبا ما يتعلقون على سطوح أو على شبابيك البيوت ويرمون المارة من الناس بالحجارة ، وعندما يملكون بيتا مهجورا فهم نادرا ما يفشلون في إثارة الروع والفرع لأي شخص يذهب للاقامة فيه . وهم ميالون كذلك الى سلب المؤونة وغيرها ، ولكي يصون كثير من المتعلمين والورعين ممتلكاتهم من مثل هذه السرقات ، تراهم

يرددون البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) عندما يفتلون أبواب بيوتهم وغرفهم أو حماماتهم ، او عندما يفتلون سلة الخبز ، أو أي شيء يحتوي على الطعام (٥٠) ، وفي خلال شهر رمضان يعتقد ان أشرار الجن يجلسون في السجون ، ولذلك ففي الليلة الأخيرة من ذلك الشهر وبنفس الفكرة ترى النساء أحيانا يرددن البسملة ويذرن الملح على ارض غرف بيوتهن (٥١) .

ولاستكمال هذه الصورة عن اعتقادات العرب بعالم الجن والشياطين ، يجب ان تضاف رواية عن مخلوقات متعددة شاع الاعتقاد بانها مؤروسة من قبل الجن ومؤتمرة بأمرهم .

أحد هذه المخلوقات هو (الغول) ، حيث يعتبر في غالب الأمر نوعا من الشياطين أو أنه جنى شرير لانه يأكل الناس ، وقد وصف أيضا على أنه جنى أو ساحر لانه يتخذ اشكالا مختلفة ، ويقال ان الغيلان تظهر بصورة الكائنات البشرية وبصورة مختلف الحيوانات وبعدها اشكال أخرى غريبة الخلقة مفزعة ، تسكن المقابر والمواضع المهجورة ، وتتغذى بجساد الموتى من البشر ، وتقتل وتلتهم أي انسان يوقعه سؤ حظه في طريقها ، لذلك فكلمة (غول) تطلق على كل آكل للحوم البشر . هناك مؤلف مشهور يرى ان الغول حيوان ركبه عفريت ، فتراه يسكن في الصحارى وحيدا متخذا هيئة الانسان أو الحيوان الوحشي ، ويظهر للشخص المسافر وحيدا في الليل وفي المحلات المهجورة ، ويحسبه المسافر مسافرا مثله ، فيخدعه ويجعله يضل طريقه (٥٢) .

ويقرر المؤلف رأيا آخر هو : عندما تريد الشياطين ان تسترق السمع (من حدود السماء السفلى) ترجم بالشهب ، فبعضها يحترق ، وبعضها يسقط في البحر ، أو الأنهار ، فيتحولون الى تماسيح ، ومنهم من يسقط على الأرض فيصبح غولا . وقد اضاف المؤلف نفسه الرواية الآتية : « الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ويتلون في ضروب الصور والشياب ذكرا كان أو أنثى ، الا ان أكثر كلامهم على أنه أنثى » (٥٣) ، ويؤكد ان عددا من صحابة النبي رأوا الغيلان في أسفارهم ، وان عمر بن الخطاب من بين الصحابة رأى غولا حينما سافر الى سوريا قبل الاسلام

- (٥٠) المصريون المحدثون ، فصل ١٠ .
(٥١) المرجع السابق .
(٥٢) القزويني : عجائب المخلوقات .
(٥٣) الجاحظ : الحيوان ١٥٨/٦ .

(٤٩) سورة النمل ١٧ (وحشر لسليمان جنوده من الجن والناس والطير فهم يؤذون) وسورة ص ٣٦ (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) .

الشاطيء من حطام السفن . يقول البعض : أن الدلحان هاجم مرة سفينة في البحر ورغب أن يأخذ الملاحين ، ولكنهم قاوموه ، وعندئذ اطلق صرخة جعلتهم يسقطون على وجوههم ثم أخذهم (٥٩) .

الشق : مخلوقات شيطانية أخرى ، لها شكل نصف بشري (مثل انسان مقسوم بالطول) ، ويعتقد بان النسناس من تناسل الشق والبشر . والشق المذكور يظهر للمسافرين ، وقد قتل بعض الناس شيطانا من هذا النوع ، قتله علقمة بن صفوان بن أمية ، والمعروف أن احد الجن قد قتل صفوان هذا ، هكذا يقول القزويني .

النسناس (المذكور اعلاه) : يوصف بأنه يشبه في نصفه انسانا ، له نصف رأس ، ونصف جسم ، ويد واحدة ، ورجل واحدة ، بل يحجل بخفة سريعة جدا ، ويوجد هذا المخلوق في غابات اليمن . وينهي المؤلف حديثه بقوله : « ولكن الله أعلم بكل ذلك » ، ويقال أن النسناس يوجد في حضرموت اضافة الى اليمن ، وقد جيء بواحد من هذه النسناس حيا الى المتوكل . أنه يشبه الانسان في شكله الا أنه بنصف وجه ، وكان وجهه في صدره ، وله ذيل مثل ذيل الخروف ويقول : إن أهل حضرموت يأكلونه ، وإن لحمه حلو ، وأنه يتكاثر في منطقتهم فقط . إن رجلا يؤكد بأنه ذهب هناك ورأى نسناسا محبوسا وهو يصرخ طالبا الرحمة ، ويناشده بحق الله وبحقه (٦٠) . أن جنسا من البشر الذين رؤوسهم في صدورهم ، يوصفون بأنهم يسكنون في جزيرة تعرف بـ «جاية» (يظن أنها جاوة) في بحر الهند (٦١) ، وكذلك يصفون نوعا آخر من النسناس يسكن جزيرة (رائج) في بحر الصين له أجنحة كأجنحة الخفاش (٦٢) .

الهاتف : مخلوق يسمع ولكنه لا يرى ، وغالبا ما يذكره الكتاب العرب ، وهو بصورة عامة المرشد لبعض النابهين الى طريق الخير او الى الاتجاه الصحيح في السفر او ينذرهم بالخطر .

(٥٩) القزويني ، في مخطوطتي لابن الوردي وجدت الاسم مكتوبا (دحلان) يذكر جزيرة تسمى بهذا الاسم في بحر عمان ، ويصف ساكنيها بأنهم شياطين يأكلون لحم البشر ، شكلهم كالانسان ويركبون ظهورا تشبه النعام ، وهناك فصيلة كذلك تاتمر بأمر الجن تعرف بالغواصة يغوصون في البحار .

(٦٠) مرآة الزمان .

(٦١) ابن الوردي : خريدة المعجب ، مخطوط .

(٦٢) المصدر السابق .

وضربها بسيفه . يبدو أن كلمة (القول) تطلق على أنثى العقاريت فقط من الاجناس التي مر وصفها سابقا ، اما المذكر فاسمه (قطرب) . يقال أن هذه المخلوقات وكذلك الغدار او الفرار والمخلوقات الاخرى المشابهة التي ستذكر في الحال ، هي من نسل ابليس ومن امرأة خلقها الله له من نار السموم (حيث تدل هنا كما ذكرت سابقا على نار بلا دخان) وذلك انهم خرجوا من بيضة (٥٤) . ويضاف ان أنثى القول تظهر للرجال في البراري بأشكال مختلفة ، تتحدث معهم وفي بعض الاحيان تعرض نفسها عليهم .

الصعلة : مخلوق شيطاني آخر ، وصفه اكثر المؤلفين على انه من الجن ، يقال انه اكثر ما يوجد في الغابات ، وعندما تأسر الصعلة انسانا تجعله يرقص ، وتلعب معه كما تلعب القطعة مع الغار . ان رجلا من اصفهان يؤكد ان كثيرا من هذه المخلوقات متوافرة في بلاده ، وفي بعض الاحيان يتمكن الذئب من اصطياد واحدة منها في الليل ، ويفترسها ، ولذلك فعندما ينشب الذئب فيها مخالبه تصرخ وتستغيث (انقذوني سيهلكني الذئب) او انها تستنجد وتنادي : (من سيطلقني) الذي سينقذني اعطيه المائة دينار التي معي) ولكن الناس يعرفون ان ذلك هو صراخ الصعلة ، ولا ينقذها احد ، فياكلها الذئب (٥٥) . ان جزيرة في بحر الصين تعرف من قبل الجغرافيين العرب بجزيرة الصعلة ، سميت كذلك لان هذه المخلوقات الشيطانية تسكنها ، ويصفونها على انها مخلوقات قبيحة بشعة ، يعتقد انها شياطين من نسل البشر والجن ، وتأكل الناس (٥٦) .

الغدار او الفرار (٥٧) : مخلوق آخر من طبيعة مشابهة ، وصف على انه كائن يوجد على حدود اليمن ، واثيانا في تهامة ، وفي القسم العلوي من مصر . يقال انه يغوي الانسان ، ثم يعذبه بطريقة لا توصف ، او يروعه فقط ثم يتركه (٥٨) .

الدلحان : مخلوق شيطاني ايضا ، يسكن في جزر البحار ، له شكل الانسان ، يركب النعام ويأكل لحم البشر الذين يقدفهم البحر على

(٥٤) رواية من وهب بن منبه ، منقولة عن عرب الجاهلية في مرآة الزمان .

(٥٥) حديث لوهب بن منبه ، منقول من رواية حول العرب الجاهليين في مرآة الزمان .

(٥٦) ابن الوردي القرن الرابع عشر ، مخطوط .

(٥٧) كتب اسمه مختلفا في مخطوطتين في حيازتي .

(٥٨) القزويني ، و مرآة الزمان .

وهنا في نهاية هذا الفصل ، يجب على أن
أبني القارئ إلى أن التصورات الخرافية التي
وصفت هي عامة سائدة عند جميع فئات العرب
والمسلمين عامة ، سواء أكانوا من المتعلمين أم من
العوام .

النساء

الشائع أن العاطفة الجنسية الشهوانية هي
السائدة لدى العرب ، ولكنني اعتقد أن من الظلم
أن نفترض أنهم جميعا يخلون من الشعور البريء
النصافي الذي يستحق أن يطلق عليه الحب الصادق
حسبما صحت التجربة الكافية . ذلك أنهم ليسوا
كذلك كما يظهر جليا لكل شخص يخالطهم في
المجتمع العادي ، يجب أن تتاح الفرص لمثل هذا
الشخص ليطلع على من له صلة وثيقة بزوجات
عدد من العرب اللواتي لهن جاذبية وجمال
شخصي كان قد زال منذ وقت بعيد ، واللواتي
لا يملكن ثروة وليس لهن نفوذ ، وليس لهن أقرباء
ذوو مال وسلطان ، ليستميلوا أزواجهن فيحجموا
عن طلاقهن . وكثيرا ما يحدث أيضا ، أن العرب
يخلصون بعلاقاتهم للزوجة التي يمتلكونها ، حتى
عندما تكون في سن كبيرة وجمال ضئيل ، وذلك
بفضل العشرة الدائمة سواء للزوجة أو النسيب .
أكثر هذا الرأي أنني آسف أن لاحظته على خلاف
ما يتعلق بعرب المدن إلى حد ما ، وقد سلم بذلك
واحد من المع الرحالة المحدثين وأكثرهم خبرة ،
حيث أقام بين هؤلاء الناس وهو الرحالة المشهور
بركهاردت Burckhardt (١٢) وقد عزز هذا
برأي عدد من المؤلفين العرب الفضلاء (ولذلك فإنه
لا يعتبر كأنه عنصر لا يصدق) كما أنه يدخل ضمن
ملاحظتي الخاصة .

أن قصة ليلي والمجنون ، جوليت وروميو
العرب ، مشهورة جدا بحيث لا تحتاج إلى أعادتها
هنا ، إلا أن عدة قصص أخرى للحب القوي
الراسخ ينبغي أن تدون فيما يأتي :

أن الخليفة يزيد بن عبد الملك كانت له
جارتان ، واحدة تسمى حبابة ، والأخرى
سلامة ، وكان متعلقا بالأولى كثير الميل والغيرة
عليها ، كان قد اشتراها بمائة ألف درهم ،
واشترى الثانية بعشرة آلاف درهم . وكان
يحتجب عن الناس أحيانا ثلاثة أشهر منصرفا إلى
صحبتهم مهملا تماما أمور الرعية . وكان أخوه
مسلمة يؤنبه على سلوكه هذا ، وكان يزيد يعد أن

(١٢) روح الشرق ١/٤١٧ ، ٤١٨ .

يثوب إلى رشده ويعود إلى عمله ، لكن هاتين
المحظيتين كانتا تصرفانه عن غرضه ، وفي صباح
اليوم التالي حين هم أن يخرج إلى عمله سمع
الفناء فاستثير فانصرف إلى غنائهما وعناقهما
والشرب معهما ، وصار منتشيا فرقص وغنى
كالمجنون ، حتى حدث الحادث المشؤوم الذي
وضع حدا لسروره : لقد أكلت حبابة رمانة ،
فشرقت بحبة من الرمان فماتت فجأة .

كان حزن يزيد شديدا جدا ، فلم يفارق
جثتها بل استمر يقبلها ويعانقها حتى تغيرت
وانتنت ، وقد نبهه خدمه بأن أفضل احترام لها
أن يأمر بدفنها ، فرضى بعد ذلك أن يودعها
الأرض ، وبعد خمسة أيام اشتاقت نفسه أن يرى
حبيبته فأمر أن يفتح قبرها ، ومع أن جثتها قد
أصبحت بشعة ، فإنه كان يراها كأحب ما رأت
عينه ، إلا أن مسلمة أمر بحزم أن يفلق القبر
ثانية ، ولكن يزيد لم يكن قادرا أن يظل محروما
من النظر إلى جثة جاريته التي هي في الوقت
نفسه سيدته ، لقد سقط في الفراش لا يتكلم وبعد
مضي سبع عشرة ليلة لفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن
بجانب حبيبته حبابة . يقول الراوي : « اللهم
أرحمهما جميعا » (١٤) .

وفي الكتاب نفسه المقتبس منه الخبر
السابق ، رواية مفادها أن هارون الرشيد زار
سليمان بن أبي جعفر أحد قواده ، فرأى معه
جارية اسمها ضعيفة ، بارعة الجمال ، وقد بدا
أنه مبتلى بسحرها ، سأله أن يهبها له ، فأجابته
لذلك ، ولكن سليمان لحزنه الشديد على فقد
جاريته أحس بالمرض ، وكان خلال مرضه يسمع
وهو ينشد :

استجير بالله من المصيبة التي أصابتنني
بسبب الخليفة
الرحمة تشمل الناس والظلم من نصيب
ضعيفة (١٥)

أن حبها راسخ في قلبي كالحبر على وجهه
الصحيفة

وسأل الرشيد عن سبب مرضه فعرف أنه فراق
جاريته التي بها راحة باله . وتساق القصة دليلا
على الحب الصادق العنيف . وربما يظن أن ما

(١٤) كتاب العنوان في مكائد النسوان (مخطوط) .

(١٥) لقد تغيرت هذه الكلمة قليلا إلى (ضعيفة) بكسر اللام ،
تحمل معنى آخر تعني أحد ضعفائه ، حرف العلة الأخير
يكون ملفيا بسبب الوقف .

من لا يفهم بالفرض ، فالقصة التالية من الكتاب
نفسه اومى بالفرض .

ذكر ان معاوية بن ابي سفيان كان جالسا
ذات يوم بدمشق ، وكان المجلس مفتوح الجوانب
لدخول النسيم ، فبينما هو في مجلسه اذ نظر الى
رجل يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلا
حافيا ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، فتامله
معاوية وامر باحضاره وقال لئن كان هذا الاعرابي
فقيرا لاغتيته ، وان كان مظلوما لانصفه ، فلما مثل
بين يديه انشده قصيدة يتظلم فيها من جور
مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة (وقد
صار خليفة فيما بعد الخليفة الرابع من الامويين) ،
قال معاوية ما قصتك يا اعرابي ، قال : كانت لي
بنت عم خطبتها الى ابيها فزوجني منها ، وكنت
كلها بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها فبقيت
معها في اصلح حال وانعم بال مسرورا زمنا فزير
انعين ، وكانت لي صرمة من ابل وشويها فكننت
اعولها بها ، الا ان سنة من الجذب والمرض
جردتني مما املك فبقيت سبيء الحال فلما بلغ
ذلك اباها حال بيني وبينها فانكرني ودفعها عني ،
فاتيت عاملك مروان بن الحكم مشتكيا ، فاحضر
عمي وابنته فلما وقفت بين يديه ونظر اليها والى
حسنها وقعت منه موقع الاعجاب والاستحسان .
فصار لي يا امير المؤمنين خصما وانتهرني ، وامر
بي الى السجن فبقيت كاني خررت من السماء في
مكان سحيق ، ثم قال لابيها هل لك ان تزوجه
مني واتقدك الف دينار وازيدك عشرة آلاف درهم
وانا اضمن طلاقها ، فرضى عمي ، ثم احضرني
مروان فقال لي : يا اعرابي طلق سعدى ، قلت :
لا افعل ، فامر بضربي وكرر ذلك اياما فضربوني
ضربا لا يقدر احد على وصفه وعرضني على
السيف فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طلقة
واحدة ، وكان من العيب ان تحاول المرأة المقاومة ،
وهكذا اصبحت زوجة لمروان .

ان البدوي المظلوم حين روى ما مر عليه من
احداث سقط مغشيا عليه واستلقى على الارض
كانه حية ميتة ، فلما استعاد البدوي وعيه كتب
معاوية رسالة مع قصيدة شعر الى مروان يوبخه
على ما انتهك من حرمة الرجل وتجاوز في امور
الدين ، ويأمره ان يطلق المرأة ويرسلها مع رسوله ،
وان لم يفعل فسيكون جزاؤه الموت . ففعل مروان
وارسل الجارية مع قصيدة على روى قصيدة
معاوية مؤكدا له ان نظرة الى سعدى ستقنعه بان
جمالها لا يمكن ان يقاوم . فلما رآها معاوية
اشتهاها وطمع فيها ، وقال له معاوية : هل لك

عنها من سلو ، وأعوضك عنها ثلاث جوار أبكار فغ
كل جاريه مهن الف درهم على كل واحدة منهن
عشر حلق من الخز والديباج والحرير والكتان
وأجرى عليك وعليهن ما يجري على المسلمين .
واجعل لك ولهن حظا من الصلات والنفقات ، فلما
اتم معاوية كلامه غشى على الاعرابي وشهق شهقة
ظن معاوية انه قد مات منها ، فلما افاق الاعرابي
قال : يا امير المؤمنين لو اعطينني كل ما احتوته
الخلافة ما رضيت به دون سعدى ، فقال له
معاوية : يا اعرابي ، انك مقرر عندنا انك قد
طلقتها ، وقد بانت منك ومن مروان ، ولكن
نخبرها بيننا ، فوافق الاعرابي . وسال معاوية
الجارية : يا سعدى اين احب اليك ، امير المؤمنين
في عزه وشرفه وقصوره ، او مروان في غضبه
واعتدائه ، او هذا الاعرابي في جوعه واطماره ،
فاشارت سعدى الى ابن عمها وابت ان تخله
واختارت ان تصبر معه على السراء والضراء .
فعجب معاوية من عقلها ومروءتها فوهبها عشرة
الاف درهم ولحقت بابن عمها .

والامثلة كثيرة للحب الصادق العنيف وغير
المعقول ايضا دونها الكتاب العرب ، فيقال ان رجلا
وقع في حب سيدة من تاتير رؤية يدها على
الحائط . ولما لم يستطع ان يظفر بها مات . ويقول
كثير من الرجال انهم عانوا آلاما قاسية من عذاري
راوهم في الاحلام ، ويذكر آخرون انهم تأثروا
بالحب عن طريق السماع فقط ، ان مؤلفا يروي
انه كان يعرف معلما نابها قد شغف حبا بامرأة
اسمها ام عمرو لم يرها ولكنه سمع رجلا ينشد
شعرا فيها ، وقد حزن حزنا شديدا حين علم
بموتها فنزم بيته يومين وذلك عندما سمع ذلك
الرجل ينشد :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو

فما رجعت ولا رجع الحمار (٦٦)

وعلى القارئ ان يكون فكرة عن الصفات او
الحاسن التي يعتد بها العرب عموما في جمال
المرأة ، ينبغي الا يتخيل ان السمعة المفرطة احدي
هذه الصفات ، لانه يقال ان هذا هو الاعتبار
الرئيس للجمال في المناطق الواسعة من شمالي
افريقية ، بل على العكس ، فان الفتاة التي يلم
حسنها التعبير الأكثر انفعالا في الشعر والنثر ،
هو المشهور بالرشاقة ، انها تشبه عصا الخيزران ،
ولطيفة كأنها غصن صفصاف شرقي . وجهها
كالقمر المستدير ، ويتجلى التضاد بينه وبين لون

شعرها الفاخم بلون الليل وهو مرسل يمتد وسط ظهرها ، وحمرة الخجل الوردية المنتشرة وسط الخدين ، أما الخال (الشامة) فيعتبر زياده في الحسن ، والعرب بصورة خاصة مغالون في إعجابهم بهذه البقعة الطبيعية من الجمال ، فهي تشبه بالنسبة لمكانها نقطة عنبر على صحن مرمر أو على سطح ياقوت . ان الاناكرون Anacreon الفارسي اثر في تحبيب الخال على خد الحبيبة في مدينتي سمرقند وبخارى .

ان جمال العيون العربية في سوادها الشديد (٦٧) ، واسعة وطويلة ، على شكل لوزة ، مملوءة بالبريق ، يلينها جفن منخفض بخفة ، وبرموش حريرية طويلة ، تعطي رقة وحنانا وتعبرا بالضعف ، وهي مفعمة بالسحر ، ونادرا ما تكون محسنة بالخط الاسود الذي يرسم الكحل حدوده ، لأجل هذا فان الفتاة الجميلة تضيف الى ما يدعو العرب بالكحل الطبيعي كحلا أكثر من الضروري مجازاة لأسلوب الجمال . ان حواجب العين رفيعة ومقوسة ، والجبين عريض وصاف كالعاج ، والأنف مستقيم ، والفم صغير ، والشفاه حمراء مثلثة ، والاسنان « كالجمان موضوع في مرجان » . شكل الصدر مثل رمانتين ، الخصر أهيف ، الأرداف عريضة وواسعة ، القدمان واليدان صغيرتان ، الأصابع ومستدق الأطراف واناملها مخضوبة بلون برتقالي أحمر مستخلص من أوراق الحناء . ان الفتاة التي امتزجت فيها هذه المحاسن تعرض صورة زاهية من « شفق الأصابع الوردية » ، وان حبيبها لا يذوق النوم اذا حضر طيفها ، ويكون مرآها بديلا عن الثريا في الليل الطويل .

ان سن الفتنة ما بين الرابعة عشر والسابعة عشر ، ومن ثم فان أشكال الانوثة تظهر في جمالها الأروع ، ولكن كثيرا من الفتيات يحزن محاسن كافية لخلب الباب الرجال في سن الثانية عشرة . ربما يرغب القارئ تحليل أكثر دقة للجمال العربي ، والذي استطاع تقديمه هو الأكثر كمالا لديهم فيقولون : « أربعة أشياء في المرأة يجب ان تكون سوداء هي ، شعر الرأس ، والحاجبان ، ورموش العينين ، وسوداء العينين . وأربعة بيضاء : لون البشرة ، وبياض العينين ، والاسنان ، والساقان . وأربعة حمراء : اللسان ، والشفتان ،

(٦٧) العرب عموما يصفون التحامل على العيون الزرقاء ، يقال ان هذا التحامل ناشئ من الأعداد الكبيرة من ذوي العيون الزرقاء من أعدائهم الشماليين (الروم) .

ووسط الخدين ، واللثات ، وأربعة مدورة : أناس ، والرقبة ، والساعدان ، ورسفا القدمين ، وأربعة طويلة : الظهر ، والأصابع ، والذراعان ، والساقان (٦٨) . وأربعة واسعة : الجبهة ، والعيان ، والصدر ، والرذفان . وأربعة رقيقة : الحاجبان ، والأنف ، والشفتان ، والأصابع ، وأربعة ضخمة : الجزء الأسفل من الظهر ، والرذفان ، والفخذان ، والركبتان . وأربعة صفيرة : الأذنان ، والتهندان ، واليعدان ، والقدمان (٦٩) .

ان السيدات العربيات مفرمات جدا بالشعر الوافر الطويل ، ومع ذلك يتوسمن مع هذه الحلية الطبيعية بإضافة شعر آخر يتزين به ، الا ان النبي كره كل ما هو زائف تستميل به المرأة زوجها ومن ثم تخدعه وتخيب أمه « لعن الله الواصلة والمستوصلة » تلك التي تصل شعرها بدون إذن زوجها ، اما اذا عملته بموافقة فليس محرما ، الا اذا كان من شعر بشري فهذا محرم بصورة قطعية (٧٠) . ولذلك فان النساء العربيات يفضلن خيوطا من حرير تضاف الى شعورهن (٧١) . يفص الشعر فوق الجبهة وهو قصير نوعا ، وتسدل على جانبي الوجه خصلتان وافتتان ، وتكون هاتان الخصلتان مجمعتين في الغالب على شكل حلقات وحيانا على شكل ضفائر ، اما بقية الشعر فيصف ضفائر او جدائل تتدلى اسفل الظهر وهي على العموم من احدى عشرة الى خمس وعشرين ضفيرة ، ولكن غالبا ما تكون في عدد غير

(٦٨) في تحليل آخر من النوع نفسه ، يقال ان اربعة ينبغي ان تكون قصيرة : اليدان ، والقدمان ، واللسان ، والاسنان . ولكن هذا كلام مجازي ، والمعنى ان هذه الأعضاء يجب ان تحفظ داخل حدودها الثلاثة (كتاب العنوان) .

(٦٩) مؤلف لم يذكر اسمه القيس عنه الاسحاق في روايته عن التوكل الخليفة العباسي .

(٧٠) كتاب العنوان .

(٧١) ان ارسال خيوط الشعر الحريرية مع رسالة ، تعبر السيدة عن شدة خضوعها وأذعانها . والمعنى نفسه نقل بأسلوب أكثر عنفا بإرسال الشعر نفسه ، فحين حاصر الفرنجة القاهرة سنة ٥٦٤هـ ارسل العاضد آخر الخلفاء الفاطميين رسائل الى نور الدين محمود سلطان الشام يلتمس الافاتة ومع الرسائل شعر زوجته ليريهام اذعانها وأذعان خاصته (ابن الشحنة) . (القريري ايضا مع اختلاف طفيف كان هذا الحصار للمدينة القديمة التي تدعى الآن خطا مصر العتيقة كانت قد احرقت بأمر من الوزير شاور ، دام الحريق اربعة وخمسين يوما . الخطط ، رواية عن خراب القسطنطين وحكم العاضد) ستانلي بول .

أن مشية السيدات العربيات جذيرة بالملاحظة جدا ، انهن يجعلن الجزء الأسفل من الجسم يميل من جهة الى أخرى حسب الخطوة ، وتتحرك اليدان في مستوى الحضن حيث يمكن اطراف الرداء الخارجي (العباءة) ، خطواتهن بطيئة ، لا ينظرن حولهن ، ينظرن امامهن وبعيونهن متجهة نحو الأرض .

ان مكر النساء يمثل الخضوع للجنس الاقوى عند العرب مع تكلف الفضيلة السامية ، التي غالبا ما تتردد في المحادثات العامة ، ذلك ان النساء ناقصات في الحكم والرأي الحسن ، وقد قبل هذا الرأي كحقيقة لا جدال فيها حتى من قبل النساء انفسهن ، وكما نقلوا عن النبي في خبر يؤكدونه ، ان النساء يملكن قدرة عالية من المكر المؤكد مع الميل الى التشهير ونشر الفضائح . ان خطاياهن العامة واضحة في كونها اكثر خطرا من فسوق الرجال ، يقول النبي : « اطلعت في الجنة فرايت اكثر اهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرايت اكثر اهلها النساء » (٧٢) ، ويقول الخليفة عمر عن النساء ورايهم : « شاوروهن وخالفوهن » ولا يكون هذا لأجل المخالفة ولا عندما تكون لهن نصيحة أخرى ولكن لانهن يقنن بعواطفهن ، ويقول امام عالم : « من المرغوب للرجل قبل ان يشرع في امر مهم ، ان يشاور عشرة من الاشخاص النابهين من خاصة اصدقائه ، واذا لم يكن له اكثر من خمسة اصدقاء ، فعليه ان يستشير كلا منهم مرتين ، واذا لم يكن له اكثر من صديق ، فعليه ان يستشير عشرة مرات في عشر زيارات مختلفات ، واذا لم يكن لديه أحد يشاوره ، فعليه ان يرجع الى زوجته ويشاورها ، وان يفعل تقيض ما تشير به عليه ، وبذلك يهتدي الى الصواب ويحقق مقصده » (٧٤) . ان الزوجة البرة الصالحة مستثناة طبعاً من هذه القاعدة على انها امرأة يجلبها المسلمون ، ولكن هذه المرأة الصالحة (كما يقولون على الأقل) نادرا ما توجد . يقال : ان المرأة عندما خلقت فرح بها الشيطان وقال : « انت نصف اعواني ومستودع سري ، وسهمي الذي به ارمي ولا أخطيء » (٧٥) .

ماذا نسمي المروءة التي كانت شائعة جدا لدى عرب الجاهلية ، وقلما تقل عند ذريتهم المسلمين . على اية حال ان النساء مهجورات من

متساو ، تعتبر الأحدي عشرة قليلة ، الثلاث عشرة والخمس عشرة أكثر شيوعا ، وتكون ثلاث مرات عدد الشرائط الحريرية السوداء (شريط لكل ثلاث صفائر ، وكل ثلاث تتحد في الأعلى) ، الطول من ستة عشر الى ثمانية عشر انجا ، تضفر مع الشعر لحوالي ربع الطول ، او انها تربط بالشريط او تشد بشريط حريري اسود وتعصب حول الرأس . ينظم هذا سوية مع زينة معينة من الذهب وغيره ليؤلف ما يسمى ب (الصفا) . ان الشكل الشائع هو المستطيل ، ملتف الطرف الاسفل المتجه الى الأعلى ، او المعكوس ، توصل (كل واحدة بطبقة صغيرة من طرفها الأعلى) بحوالي انج ، او أقل قليلا ، على حدة ، وفي نهاية كل شريط قناة ذهبية صغيرة ، او خرزة ذهبية صغيرة متعددة الزوايا والاضلاع ، ومن المؤلف جدا ان يعلق من الأسفل بطبقة صغيرة ، عملة ذهبية (ليرة) قطرها اكثر قليلا من نصف انج ، هذا هو الوصف العام للصفا ، الا ان بعض السيدات يستبدلن بالليرة زينة زخرفية أخرى من الذهب ، اما وحدها او مع لؤلؤ في وسطها ، او يعلقن في هذا الموضع شرابة صغيرة من اللؤلؤ ، او يلحق معه لؤلؤ متناوب او زمرد في وسط شرائط ثلاثية ، ولؤلؤة مع كل حلقة صغيرة من الذهب المذكورة اولا . وتعلق احيانا خرز المرجان كذلك على الطريقة نفسها في نظم اللآلئ . اظن ان الصفا الاجمل هو الأكثر تفردا من كل الزينات التي تلبسها النساء العربيات .

ان تالق الحلي الذهبية الصغيرة ، وخشخشتها سوية عندما تمشي المرأة له تأثير حيوي خاص . اما التيجان فهناك نوع دائري الشكل مزين بالجواهر (حافته السفلى راسية ، والعليا مزخرفة ولها رؤوس اربعة او اكثر) على شكل قبة ، مزين اعلاه بالجواهر او بعض الحلي الأخرى ، هذا التاج كانت تلبسه النساء العربيات من الطبقات العليا او ذوات الثراء العريض ، وكان هذا منذ قرنين مضيا ، اما النوع الآخر من التيجان فهو الذي يلبس الآن ويعرف بالقرص ، وهو حلقة دائرية محدبة ، قطر القرص حوالي خمسة انجات مصنوع من الذهب ويرصف مع ماس كثير ، اول ما يصنع يكون على شكل اوراد واوراق وغيرها ، ثم يخطط فوق قمة الطربوش ، تلبسه اكثر سيدات القاهرة عند ارتداء الحلة الكاملة (٧٢)

(٧٢) ان نقش التاج في هذا الوصف ، وآخر من نوع اكثر شيوعا يمكن ان يشاهد في كتابي عن (المصريين الحديثين) الملحق ١ .

(٧٢) كتاب العنوان ، ومشكاة المصابيح ٦٦٢/٢ .
(٧٤) الامام الجرائي في كتابه (شرعة الاسلام) .
(٧٥) نزعة التامل ، القسم الثاني .

أخرى إلا بعد أن تتزوج من شخص آخر وتطلق ثم تعود إلى زوجها الأول بعقد جديد .

ليس من الشائع في الطبقات الوسطى أن يتزوج الرجل من زوجة واحدة في الوقت نفسه ، ولكن هناك قلة من الناس في العصر الوسيط لم يكن لهم زوجات متعددة ولكن يستعيضون عن ذلك بتغيير الزوجة الواحدة استسهالا للطلاق (٧٨) . هناك حالات كثيرة للزواج المتعدد الكثير ، فيقال إن المفيرة بن شعبة قد تزوج ثمانين امرأة خلال حياته (٧٩) . وهناك حالات أخرى دونها المؤلفون العرب تدل على تغير الحب ، أما الحالة الشاذة التي صادفتها ، فهي قصة محمد بن الطيب صباغ بغداد المتوفى سنة ٤٢٣ هـ من الهجرة عن خمس وثمانين سنة من العمر ، ويعزو إليه مؤلف جليل بأنه تزوج أكثر من تسعمائة امرأة (٨٠) ، ولنفترض لأجل ذلك أنه تزوج زوجته الأولى عندما كان عمره خمسة عشر عاما ، فسيكون قد تزوج بمعدل ثلاث عشرة امرأة في كل عام . والنساء بطبيعة الحال لا يستطعن الزواج بعدة أزواج متعاقبين ، ليس فقط لأن المرأة لا يحق لها أن تتزوج أكثر من زوج في آن واحد ، بل لأنها كذلك لا تستطيع أن تطلق زوجها ، وعلى أية حال فهناك عدة حالات لنساء عربيات تزوجن عددا مذهشا من الرجال بتوال سريع . وتذكر من بين هؤلاء أم خارجة التي أصبحت مضرب المثل في سرعة الزواج . كانت هذه المرأة من قبيلة بجيلة من اليمن ، وتزوجت أكثر من أربعين رجلا ، وأن ابنها خارجة لا يعرف من هو أبوه ، وقد اعتادت أن تعقد الزواج بأسرع طريقة ممكنة ، وذلك بأن يقول لها الرجل : « خطب » (أي اخطبك للزواج) ، فتجيب : « نكح » (أي موافقة) ، وهكذا تصبح زوجة له شرعا . إن لا خارجة أعدادا كبيرة من اللرية ، لقد نشأت عدة عشائر من ذريتها (٨١) .

ولأجل اختيار الزوجة ، فإن الرجل في الغالب يعتمد على أمه أو بعض النساء الأخريات

(٧٨) ومع ذلك وعلى سبيل الاستثناء من جانب المرأة ، فإن شيخ (محمد عباد الطنطاوي) يكتب : « يعتبر كثير من الأشخاص أن الزواج للمرة الثانية من الأعمال الشائنة جدا ، وهذا الرأي أكثر شيوعا في المدن والقرى ، وأن الرباء والذلي هم بهذه الصفات ، ذلك أن المرأة منهم إذا توفى زوجها وهي شابة ، أو طلقها وهي صغيرة ، فهي تلقى طول حياتها أرملة ولا تتزوج مرة ثانية » .

(٧٩) نزهة المتأمل ، القسم الأول .

(٨٠) امرأة الزمان حوادث السنة المذكورة أعلاه .

(٨١) أمثال العرب ومعجمي مادة (خطب) .

قبل كثير من القبائل البدوية التي استقرت منذ عهد قصير . أذكر أنني استيقظت مذكورا على صراخ امرأة شابة من الجيران وكنت استمتع بجوار قبر قديم حيث أقيم في طيبة Thebes وقد كان أحد الرجال البدو ينهال عليها ضربا شديدا لأمر شائن كانت قد اقترفته .

إن الزواج أمر محترم عند المسلمين عامة كعمل إيجابي ، والذي يفرط فيه بلا عذر مشروع يلام عليه بشدة ، يقول النبي : « إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين » (٧٦) وفي حديث آخر ما معناه : أنه سأل رجلا : هل أنت متزوج ، فأجاب بالنفي ، وسأل عن عافيته فكانت جيدة فقال ما معناه : أنت أحد انصار الشيطان ، لأن أكثر الشر الذي عليك من هجر الزواج ، وأكثر ما تلقاه من أثم بعد الموت من هجر الزواج ، فضلا عن ذلك فالمتزوجون يسلمون من قيل سوء ، وليس للشيطان من سلاح أكثر مضاء بالنسبة لعفة الرجال والنساء من هجر الزواج (٧٧) .

إن عدد النساء اللواتي يستطيع المسلم أن يتزوجهن ويجمع بينهن أربع نسوة ، له أن يتزوج المرأة الحرة ، أو يتخذ الجواري ، أو يتخذ هؤلاء وأولئك . إن رأي أكثر الناس ، كما اعتقد ، بالنسبة للتدين الصحيح أن المرء يتبغي ألا يتزوج أكثر من أربع نساء سواء كن زوجات أو جواري ، أو من النوعين سوياً أن عادة الاحتفاظ بعدد غير محدود من الجواري كان شائعا عند أثرياء المسلمين في القرن الأول الهجري ، واستمر كذلك . إن المؤلف المشهور المقتبس من كتابه في أعلاه ، يقدم المثل من سليمان ليبرهن بأن امتلاك عدد كبير من الجواري ليس متناقضا مع التقوى والصلاح ، غير معتبر بأن الله في البداية قد خلق ذكرا واحدا وأنثى واحدة فقط .

للمسلم أن يطلق زوجته مرتين ويرجعها في كل مرة خلال مدة معينة حتى لو كان ذلك ضد رغبتها بحيب لا تمتد المدة أكثر من ثلاثة أشهر ، ما لم تكن حبلى ، وفي هذه الحالة عليها أن تنتظر حتى مولد طفلها قبل أن تصبح حرة وترتبط بزواج آخر ، وأن الزوج في هذه الفترة ملزم بأعالتها . وإذا طلقها ثلاث مرات ، أو طلقها ثلاثا بعبارة واحدة ، فإنه لا يستطيع أن يرجعها مرة

(٧٦) مشكاة المصابيح ٧٩/٢ ، ١٦١/٢ طبعة جديدة المكتب الإسلامي ١٩٦١ .

(٧٧) نزهة المتأمل القسم الأول .

من قريباته ، او يعتمد على امرأة مختصة بذلك تعرف بـ (الخاطبة) ، وهناك عدة نساء ينجزن هذه الخدمة بالأجرة . ان الشرع يجيز للرجل ان يرى وجه الفتاة التي يريد ان يتزوجها ، قبل ان يعقد عليها ، ولكن في الايام الحالية فان هذه الحرية من النادر ان تذكر ، الا عند الطبقات الدنيا ، ولا يسمح للرجل في هذه الحالة ان يكشف قناع اية امرأة الا ان تكون زوجته او محظيته ، والا تلك النساء المحرمات عليه ان يتزوجهن شرعا ، وعند بعضهم لا يسمح للرجل ان يرى ابنة اخيه او ابنة اخته حاضرة وان كانت محرمة عليه (٨٢) ، ويجب ان يضاف بان العبد المملوك يجوز له ان يرى سيده ، الا ان هذا الحق نادرا ما يسمح به في الايام الحاضرة الا اذا كان المملوك مخصيا .

(٨٢) ان ما يفشى المرأة هو الازار او الازار (لان الكلمة تكتب بشكلين مختلفين) ، قطعة من قماش الجوخ تلبسه غالبا النساء العربيات عندما يظهرن في مكان عام ، وهو حوالي مترين او اكثر عرضا (حسب طول من ترتديه) وثلاثة امتار طولا ، يتدلى جانب منه من الخلف ، فوق الجزء الاعلى من الراس والجبين ، ويسقط بحزام يغطي من الداخل ، ويتدلى الباقي الى الخلف ومن كل جهة نحو الارض او قريبا من ذلك ، وفي الاكثر يغطي الشخص كلية ، ويمسك الطرفان ليلتصيا من الامام ، وهكذا يغطي كل الاجزاء الاخرى من اللباس عدا جزءا صغيرا من الرداء الفصافي غير المربوط (الذي هو صنف آخر للمشي او كساء متحرر) . اما برقع الوجه فانه في الغالب يصنع من شيت (خام قطني) ابيض ، الا ان برقاها مشابها من الحرير الاسود للمتزوجات ومن الحرير الابيض لغير المتزوجات ، وتلبسه الان نساء الطبقات العليا والوسطى ، ويعرف بالحبرة .

لقد ظهر نوع من غطاء الوجه يعرف بالعريسة بالقناع ، قطعة من الحرير الموشن ، حوالي ياردة او اكثر في الطول ، واقل قليلا في العرض ، يوضع جزء منه على الراس ، تحت الازار ، وتتدلى بقيته الى اسفل من الامام نحو الصدر او حوله ، ويغطي الوجه جميعه . اني ارى احيانا النساء العربيات وخاصة الوهابيات يلبسن قناعا من هذا النوع يتكون من الموشن المطبوع ، يغطي كل ملامحهن تماما ، وهو قماش واسع ففصافي بما فيه الكفاية بحيث يتيح لها ان ترى طريقها . لكن النوع الاكثر شيوعا من قناع الوجه العربي هو شقة طويلة من الموشن الابيض ، او نوع من الكريشة (قماش رقيق جعد) السوداء ، يغطي كل الوجه عدا العينين ، ويصل قريبا من القدمين . يعلق من الاعلى بشريط رفيع يمر من اعلى الجبهة حيث يخيظ كما تخيظ نهايتا القناع بحزام يربط حول الراس ، هذا القناع يسمى (البرقع) . النوع الاسود كثيرا ما يزين بنقود (ليرات) ذهبية ، ولأولى غير حقيقية وغير ذلك تتصل بالجزء الاعلى . انه ليس ظريفا مثل القناع الابيض ، ما لم تكن السيدة في حالة حزن او حداد .

ان مخالفة الشرع المذكور اعلاه يعتبر ذنبا كبيرا لكلا الجانبين ، قال الرسول : « لعن الله الناظر والمنظور اليه » (٨٣) ، ومع ذلك فكثيرا ما يتغاضى عن ذلك بالنسبة للنساء من الطبقة العليا .

ان الرجل محرم عليه بالقرآن (٨٤) والسنة ان يتزوج امه ، او سلفها الآخرين ، والاخت او نسلها الآخرين ، او اخته من احد الوالدين (غير الشقيقة) ، وعمته او خالته ، او اسلافهما وابنة اخيه او ابنة اخته او نسلهما ، وامه في الرضاعة التي ارضعته خمس مرات خلال السنتين الاوليين ، او امرأة تقرب له بالرضاعة من اية درجة حيث سيحرم زواجه منها اذا كانت قرابتها مشابهة له عن طريق الدم ، وام زوجته ، وابنة زوجته بشروط معينة ، وزوجة ابيه ، وزوجة ابنه ، ويمنع كذلك ان يتزوج اختين في آن واحد ، او العممة وابنة أخيها ، او الخالة وابنة اختها . ويحرم عليه ايضا ان يتزوج مملوكته غير المعتقة ، او مملوكة رجل آخر اذا كانت لديه في نفس الوقت زوجة حرة ، والاي تزوج اية امرأة الا اذا كانت على دينه ، او كانت نصرانية او يهودية . اما المرأة المسلمة فلا يجوز ان تتزوج الا رجلا من دينها . ان العلاقة الغرامية المحرمة مع اية امرأة تمنع الرجل من الزواج من اي من قريباتها التي ستحرم عليه اذا كانت زوجته .

غالبا ما تختار ابنة العم زوجة لابن عمها ، باعتبار رابطة الدم التي قد تجعل صلة الزوجية بالزوج قوية ، او بسبب العاطفة التي تتكون بينهما في السنوات الاولى .

ان كفاءة المنزلة الاجتماعية كثيرا ما تؤخذ بعين الاعتبار ، وان الرجل في كثير من الاحيان لا يستطيع ان يتخذ ابنة رجل من مهنة او تجارة اخرى زوجة له ، ما لم يكن ذلك الرجل أدنى مرتبة منه . ولا يستطيع ان يتزوج الابنة الصغرى اذا كانت الكبرى لم تتزوج بعد .

ان الفتاة تتزوج في العادة في سن الثانية عشرة ، وفي بعض الاحيان في العاشرة ، او حتى في التاسعة . وان العادة الشهرية تأتي عموما بين السنة الثانية عشرة والسادسة عشرة . وينبغي ان تصبح اما في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة . اما الشبان فيتزوجون بعد هذه السن بقليل .

ان المطلب الاساسي جدا في الزوجة هو

(٨٣) مشكاة المصابيح رقم الحديث ٢١٢٥ .

(٨٤) سورة النساء ٢٣ ، ٢٤ .

منزلة من منزلتهم ، ويفضل آخرون من هذه النظرة الجارية مكان الزوجة .

ان رضا الفتاة الصغيرة عند الزواج ليس مطلوباً ، فان الأب ، واذا كان متوفى فاقرب قريب راشد من الرجال ، او الوصي عليها بوصية ، او الموكل من قبل القاضي ، يكون وكيلها ، ويمضي عقد الزواج نيابة عنها . اما اذا كانت بالغة سن الرشد ، فانها هي التي تعين وكيلها . ان المهر المطلوب لتسجيل الزواج هو عشرة دراهم ، وهو الحد الأدنى المسموح به ، وقد تزوج النبي محمد بعض زوجاته بمهر قدره عشرة دراهم ، ولوازم البيت البسيطة ، من مثل طاحونة يدوية لطحن الحبوب ، وجرة ماء ، ووسادة من جلد محشوة بليف النخيل ، ولكنه قد تزوج بعضهن بمهر قدره خمسمائة درهم (٩٠) .

ومع ازدياد الثروة والترف ، زاد مبلغ المهر ، الا انه بالنسبة لراينا ما زال زهيدا ان مبلغا مساويا لحوالي عشرين باونا استرلينيا يكون متوسط المهر الشائع عند العرب في المجتمعات المتوسطة للبنات الباكر ، ونصف او ثلث او ربع هذا المبلغ للمرأة المطلقة او الارملة . ان ثلثي المبلغ يدفع في العادة قبل عقد القران ، والقسم المتبقى يؤجل ليدفع الى المرأة في حالة الطلاق او في حالة وفاة الزوج . ان والد الفتاة او الوصي عليها اذا لم تبلغ الرشد ، يتسلم المبلغ المؤجل من المهر ، ويعتبر ملكا لها ، وهو ينفقه في الغالب مع مبلغ اضافي من كيسه الخاص لأجل البنت في شراء الضروري من الأثاث والملابس وغير ذلك ، حيث ان الزوج لا يستطيع ان يأخذ منها شيئا ضد رغبتها .

ان عقد القران يكون عاما ، وفي الأيام الحالية يعقد بصورة شفوية فقط ، وفي بعض الأحيان تحرر وثيقة وتختم من قبل القاضي . ان احسن الاوقات لعقد القران والزواج هو شهر شوال ، اما الشهر غير المناسب فهو شهر محرم . ان الأشخاص الذين لابد من حضورهم لانجاز العقد هم : العريس (او وكيله) ، ووكيل العروس (الذي يكتب الكتاب) ، وشاهدان من الرجال ، والحصول على هذين سهلا ، والقاضي او معلم المدرسة ، او أشخاص آخرون لتلاوة الخطبة التي تتألف من كلمات قليلة في تحميد الله ، والصلاة على النبي . وآيات من القرآن تتعلق بالزواج . ويتلو الجميع سورة الفاتحة (او يفتحون سورة من القرآن) ، بعدما يدفع العريس النقود . ثم (٩٠) نزهة المتأمل ، القسم الرابع .

الدين ، فالنبي يقول ما معناه : الزوجة الصالحة خير من الدنيا وما فيها . ويقول لقمان : « الزوجة الصالحة كالتاج على رأس الملك ، والزوجة الشريرة كالحمل الثقيل على ظهر الرجل المعجوز » . والمطالب الرئيسية الأخرى هي انسجام الطباع ، وجمال الشكل (البرء من أي عيب ، او خلل في الشكل او عدد الأعضاء) ، والاعتدال في مقدار المهر المطلوب ، ومن أصل جيد . يقال : « اذا لم تستطع ان تتزوج عذراء (وهي المرغوبة جدا) فتزوج امرأة مطلقة ، وليست أرملة ، لان المطلقة ستتعلم بك وتحترم كلمتك فلن تطلقها ، بينما ستقول الأرملة في أي شيء يحدث : اللهم ارحم ذلك الشخص (تعني زوجها الأول) فقد تركني لمن لا يناسبني » ووفقا لمبدأ أناني آخر ، ان المرأة غالبا ما تتفادى الطلاق من الرجل اذا كان لها طفل ، لان قلبها على طفلها ، وتكون عدوة للرجل الذي يتزوجها فيما بعد (٨٥) .

ان العفة أمر ضروري ومؤكد عليه أيضا ولا يمكن ان يهمل ، ولكن هذا بالنسبة للقاريء الانجليزي يحتاج الى بعض التوضيح ، لقد سأل علي بن أبي طالب زوجته فاطمة : « من هي أفضل النساء » ، فأجبت : « تلك التي لم تر الرجال ولم يروها » (٨٦) فالعفة لذلك من وجهة نظري المسلمين ، سامية جدا ، بان تخفي المرأة نفسها ، وتحجب عينيها عن الرجال . قال النبي : « خير صفوف الرجال (في المسجد) أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها » (٨٧) ، ذلك لانهن أبعد عن الرجال ، الا ان الأفضل من هؤلاء وأولئك النساء اللواتي يصلين في بيوتهن (٨٨) .

ان المرأة الخصبة الولود مرغوبة كذلك عند اختيارها زوجة ، وتعترف خصوصيتها عن طريق اقربائها ، لان الاقرباء متشابهون في الاستعداد للنسل . واخيرا فان قناعة المرأة معدودة من الضروريات يروى عن النبي انه حين سئل : أي النساء خير ، قال : التي تسره اذا نظر ، وتطيعه اذا امر ولا تخالقه في نفسها ولا مالها بما يكره (٨٩) وللحصول على زوجة قنوعة ومطبعة فان كثيرا من الرجال يختارون زوجاتهم من الأوساط الأقل

(٨٥) نزهة المتأمل ، القسم الرابع .

(٨٦) المصدر نفسه ، القسم السادس .

(٨٧) مشكاة المصابيح ٢٢٩/١ .

(٨٨) المصدر السابق ٢٢٤/١ يريد المؤلف الحديث : (لا تمنهوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن) .

(٨٩) مشكاة المصابيح ٢٠٧/٢ .

ان العادة المتبعة عند اهل القاهرة ان يقيموا الوليمة في الليلة التي تسبق حفلات العرس (الزفاف) ، ووليمة اخرى في ليلة الزواج ، الا ان بعضهم قد يقيم ولائمه قبل ذلك . وقال النبي عن ولائم الزواج : « طعام أول يوم حق ، وطعام يوم الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به » ، وقد منع الاكل في الوليمة التي التي يراد بها التفاخر (٩٢) . ان من الواجب قبول دعوة وليمة الزواج ، او اي دعوة مشروعة اخرى، ولكن الضيف غير ملزم ان يأكل (٩٣) . ان الاشخاص المدعويين وكل الاصدقاء الحميمين غالبا ما يرسلون هدايا من بعض انواع المؤونة قبل يوم او يومين . لقد اوصى النبي بأن ولائم الزواج يجب ان تكون معتدلة بعيدة عن الاسراف ، وافضل وليمة اولها هي شاة واحدة (٩٤) . لقد رضى النبي عن مظاهر الفرح في احتفالات الزواج مع الفناء ، ووفقا لاحد الاحاديث اذن بالضرب بالدقوف ، وفي آخر ان الدف محرم (٩٥) . والطريقة المفضلة لتسليمة الضيوف هي باجراء الذكر .

في اليوم الذي يسبق زفاف العروس الى بيت العريس تذهب العروس الى حمام عام بصحبة عدد من جاراتها وصديقاتها . وتكون الزفة عادة على شكل دائري كي تكون اعظم مظهرا، وعندما تغادر العروس الدار تستدير نحو اليمين، وفي القاهرة تسير العروس تحت مظلة او سرادق من حرير يحمله اربعة رجال ، ومع العروس امرأتان من قريباتها واحدة عن يمينها واخرى عن يسارها ، وتمشي فتيات عذارى امام العروس ، ويتقدم على هؤلاء نساء متزوجات ، ويسير امام الزفة وخلفها مجموعة من الموسيقيين بالطبول والمزامير . تلبس العروس نوعا من التاج او الطاقة من الكرتون ، وتحجب كلية عن أعين الناس ، فتبرقع بشال من كشمير يوضع على تاجها وكل جسمها ، الا ان بعض الزينات الجميلة للرأس تربط من الخارج فتكون ظاهرة . وتلبس الاخريات أفخر ما لديهن من لباس وزينة . عندما تكون العروس من منزلة عالية او ثرية ، واحيانا عندما تنتمي الى أسرة متوسطة ، فان النساء

(٩٢) نزهة المتأمل القسم الثامن ، ومشكاة المصابيح ١٩٣/٢ .
(٩٣) المصدر السابق ، وفي مشكاة المصابيح ١٩٢/٢ (١٣١)
دعى احدكم الى طعام فليجب فان شاء طعم وان شاء ترك .

(٩٤) مشكاة المصابيح ١٩١/٢ (ما اولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على احد من نسائه ما اولم على زينب ، اولم بشاة) .

(٩٥) نزهة المتأمل .

يجلس العريس ووكيل العروس على الارض وجها لوجه ، ويمسك كل منهما بيد الآخر اليمنى ، رافعين الابهام ويضغط كل منهما على ابهام الآخر . قبل الخطبة يضع القاضي او الشخص الذي يعقد القران منديلا على يدي العريس ووكيل العروس المتشابكتين ، وبعد الخطبة يلقي كلا من المتعاقدين الكلام الذي يرددانه . والخطبة بعامة تستعمل صيغة الكلمات الآتية او ما يشابهها : « لقد زوجتك ابنتي (او التي يمثلها كوكيل لها) فلانة بنت فلان (ويذكر اسم العروس) الباكر (او العذراء الراشدة او غير ذلك) بمهر قدره » . ويجب العريس : « لقد قبلت منك زواجها من نفسي » . هذا كل ما هو ضروري ، الا ان الخطاب والجواب يكرر عادة مرتين او ثلاثا ، واحيانا يعبر بعبارات وصيغ كاملة ، ويختتم العقد بتلاوة سورة الفاتحة يتلوها كل الحاضرين . ان هذه الخطبة او عقد القران كثيرا ما تتم قبل الزواج بعدة سنوات ، عندما يكون العريسان طفلين صغيرين ، او خلال طفولة الفتاة ، ولكن الاكثر شيوعا انها لا تزيد عن ثمانية او عشرة ايام من الزواج . ان اهل البيت يجهزون الاناث والملابس للعروس ويرسلها اهل العروس الى بيت العريس ، وتنقل عادة على قافلة من الجمال ، قبل ان تصل العروس الى بيت العريس بيومين او ثلاثة ايام او اكثر .

ويحسن الآن ان نذكر الولايم ومواكب الزفاف ، وهي تشاهد في زواج الفتاة الباكر ، اما الارملة او المطلقة التي تزوج ثانية ، ففي طريقة خفية . اني اصف عادات الزواج هذه وفقا لعادات القاهرة خاصة ، حيث يظهر لي انها اكثر مطابقة بصورة عامة مع الاوصاف والاشارات الواردة في « الف ليلة وليلة » . ان الوقت المستحسن والشائع جدا للزواج (الدخلة) هو ليلة الجمعة او الاثنين . وقبل هذه الليلة يقيم العريس وليمة لأصدقائه وقد تتكرر هذه مرتين او ثلاث مرات . ويزين بيته لعدة ليال وكذلك بيوت الجيران القريبين بمجموعات من المصابيح المضيئة او الفوانيس ، تعلق في واجهة البيوت ، ويعلق قسم منها بحبل عبر الشارع . وتعلق في هذه الجبال او غيرها اعلام صغيرة ، او قطع من الحرير المربعة مختلفة الالوان ، وغالبا ما تكون حمراء وخضراء ، يقول بعضهم ان الوليمة يجب ان تقام عند عقد القران ، ويقول آخرون بل عند الزواج ، يقول غيرهم بل تقام عند عقد القران والزواج كذلك (٩٦) .

(٩٦) نزهة المتأمل ، القسم الثامن .

وكانت زفة غريبة الوضع لم يتفق مثلها بعدها « (٩٧) » .

وتكون العروس قد وصلت الدار ومن معها من النساء ، ويجلسن لتناول الطعام ، أما العريس فلم يكن قد شاهد العروس بعد . فهو الآن قد ذهب الى الحمام ، وعندما يحل الليل يذهب مع موكب من اصدقائه الى المسجد ، ليؤدي -

العشاء ، ويصحبه الموسيقيون والمغنون ، او يصاحب بالمنشدين بقصائد في مدح النبي ، ويرجال يحملون المشاعل لها قوائم مع اطر اسطوانية من حديد مملوءة من الاعلى بخشب مشتعل . وعند عودة العريس يسير بين يديه مجموعة من خدمه يحملون شموعا مضيئة وباقات من الورود .

وحين يصل الدار ، يترك اصدقاءه في باحة البيت ، ويصعد الى العروس في الطابق الاعلى عادة حيث يجدها جالسة ، وعلى رأسها وشاح يخفي وجهها كله ، وتخدمها امرأة او اثنتان ، فيعطي العريس لخدامة العروس بعض النقود فتسحب ، ثم يعطي العروس هدية نقدية (كشم لكشف الوجه) ، ثم يزيح الوشاح عن وجهها قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » وهو في الغالب يراها لأول مرة . ولأن هذا اللقاء هو الاول ، حيث يدعى (الدخول) او (الدخلة) فينصح بأن يعطر نفسه ، وان ينثر بعض السكر واللوز على رأس العروس ، وعلى كل امرأة معها (وهذه العادة تقليد متوارث وما زالت موجودة) ، وقبل ان يقترب منها يؤدي ركعتين من الصلاة ، وكذلك تفعل العروس ان أمكن ، ثم يمسك شعرها من ناحية جبينها ويقول : « اللهم بارك لي في زوجتي ، وبارك لزوجتي في ، اللهم انعم علي بذرية منها ، وانعم عليها بذرية مني ، اللهم وحدنا بالسعادة كما انت واحد ، وفرقنا عندما تفرق بالسعادة » (٩٨) .

غالبا ما يحسب نجم العروسين لمعرفة في أي برج هما وهل سيتفقان عندما يكونان زوجا وزوجة ، وكثيرا ما يحسب النجم في هذه الايام بجمع قيمة الحروف العددية التي تتكون من اسمه واسمها مع اسم الام سوية ، واذا تذكرت الصواب ، فيطرح المبلغ كله من العدد اثني عشر ، اذا كان اقل من اثني عشر ، او يقسم على اثني عشر اذا كان العدد كبيرا ، وهكذا يحصل على رقم البرج . ان العلامات الاثنتي عشرة تبدأ ببرج

(٩٧) تاريخ الجبرتي ١٢١/٢ - ١٢٢ رواية الامير محمد اغا البارودي المتوفى سنة ١٢٠٥هـ .

(٩٨) نزهة التامل ، القسم الثامن .

يركبن على حمير بسروج عالية ، بدون موسيقى او مظلة ، والعروس وحدها تميز بشال كشمير بدلا من الحرير الاعتيادي الاسود الذي تغطي به . ويركب احيانا طواشي (خصي) او اكثر في المقدمة . وفي الحمام ، بعد عملية الغسيل الاعتيادية وغيرها ، تقام وليمة ، وحيانا حفلة تقيمها النساء المغنيات .

ويكون الرجوع الى البيت بالطريقة نفسها ، ان صديقات العروس يشاركن في حفلة مشابهة مع العروس ، ثم يخضبون يدي العروس وقدميها بالحناء ، ويكحلون عينيها بالكحل ، وتقدم صديقات العروس هدايا صغيرة من النقود ، ثم يخرجن . « من السنة ان تفسل العروس قدميها في وعاء نظيف ، وترش الماء في زوايا الغرفة ، فتكون البركة في ذلك . وكذلك تصقل وجهها ، وتلبس احسن حطها ، وتزين عينيها وحاجبيها . وتخضب بالحناء ، ويجب عليها ان تمتنع خلال الاسبوع الاول عن اكل أي شيء يحتوي الخردل ، وتمتنع عن اكل الخل والتفاح الحامض » (٩٦) .

تزف العروس الى بيت العريس (في اليوم التالي) بالطريقة نفسها التي اتبعت في يوم الحمام ، وبأبهة اكثر . ان بعض مواكب الزفاف في القاهرة للأشخاص من الطبقات الثرية جدا تتميز بصفات فردية ، فان الموكب عادة يتقدمه بهلوانات وموسيقيون ، وسقاة الماء الذين يحملونه بالقرب وبعض الراقصين والراقصات والمشعوذين وما أشبه ، مع اعداد من العربات المكشوفة المزينة او السيارات حيث تحتوي كل واحدة على مجموعة من اصحاب المهن او الصناعات يمثلون مهنتهم . وقد وصف الجبرتي موكبا من هذا النوع حيث : « مشى جميع ارباب الحرف والصنائع مع كل طائفة عربية وفيها هيئة صناعتهم ومن يشغل فيها مثل القهوجي بآلته وكانونه ، والحلواني والفطاطري والحيالك والقزاز بنوله ، حتى مبيض النحاس والحيطان والمعاجيني وبياعين البز وارباب الملاهي والنساء والمغنين وغيرهم ، كل طائفة في عربة ، وكان مجموعها نيفا وسبعين حرفة ، وذلك خلاف الملاعب والبهالوين والراقصين والجنك ثم الموكب ، وبعده الاغوات والحريم والملازموه والسعاة والجاويشية ، وبعدها عربة العروس من صناعة الافرنج بديعة الشكل ، وبعدها ممالك الخزنة والملبسون الزروخ ، وبعدهم النوبة التركية والتفريات ،

(٩٦) نزهة التامل ١/١ ومشكاة الصايح ٨٩/٢ .

الحمل ، وهو يتوافق على التوالي مع عناصر : النار ، التراب ، الهواء ، الماء ، النار ، التراب ، وهكذا . وإذا كانت علامات كلا الطرفين تدل على العناصر نفسها ، فإنها تبشر بأنهما سينسجمان ، ولكن إذا اشرت الى عناصر مختلفة فان الاستنتاج سيكون بان احدهما سيؤثر في الآخر بالطريقة نفسها التي تؤثر العناصر في بعضها . وإذا كان جوهر الرجل هو النار ، وجوهر المرأة هو الماء ، فهذا يعني بان الرجل سيخضع لحكم المرأة . وفي حسابات أخرى : تؤخذ القيمة العددية للحروف التي تكون اسم كل من الشخصين ، ثم تطرح الواحدة من الأخرى ، فإذا كان الباقي رقما فرديا غير شفعي فان الاستنتاج يكون عدم التوافق لدرجة التضاد .

اما ما يخص واجبات الزوجة فاهمها خدمة الزوج او السيد ، والعناية بالأطفال والواجبات البيتية اللازمة . ان اهم اشغال الزوجة الأخرى هي الغزل او الحياكة أو شغل الإبرة ، يروى عن النبي انه قال ما معناه : ان جلوس ساعة في عمل المفزل خير للنساء من عبادة سنة ، ويؤجرن على كل قطعة من الملابس ينسجنها اجر الشهادة . ويروى عن عائشة أن النبي قال لها : قولي للنساء ما اقول لك ، ما من امرأة تغزل لتكسو نفسها فان الملائكة في السموات السبع تصلي ليفقر الله ذنوبها ، وستبعث من قبرها يوم الحساب مرتدية ثوبا من الجنة مع وشاح على رأسها ، وامامها ملك وعن يمينها ملك يحمل لها كأسا من ماء السلسبيل من حوض الجنة ، ويأتيها ملك آخر يأخذها على جناحيه ويحملها الى الجنة . وعندما تدخل الجنة تقابلها ثمانون ألف جارية ، كل جارية ، تجلب لها حلة مختلفة ، وسيكون لها مساكن من زمرد لها ثلاثة آلاف باب وعلى كل باب يقف ملك بيده هدية من اله العرش (٩٩) . ان المهنة المذكورة اعلاه تمارسها الاناث في الحريم في الطبقات الوسطى والعليا ، انهن يقضين معظم اوقات فراغهن في شغل الإبرة ، وبخاصة في تطريز المناديل ، وأوشحة الرأس وغيرها ، على اطار يسمى (المنسج) ، يطرزن بالحبر الملون والمذهب ، وحتى النساء في البيوت الموسرة ، يملأن كيسهن الخاص من تطريز المناديل وأمور أخرى بهذه الطريقة ، ويستخدمن (الدلالة) لتأخذ ما يعملن الى السوق أو الى النساء الأخريات لبيعه (١٠٠) .

لاشك ان الانفصال الجنسي (عدم الاختلاط

بين الجنسين) روج الاتصال الحر بين الأشخاص من نفس الجنس وبطرق فاسدة ، وقد مكثهم هذا من الاختلاط سوية بصرف النظر عن الثروة أو المركز ، ودون مجازفة بسبب عدم تكافؤ علاقات الزواج ، ولذلك لم يشعر بقسوة هذا الانفصال كل من الطرفين ولم يعتبروه أمرا تعسفيا ، وقد وجد مجتمع الرجال خاصة في هذا درجة عالية من الراحة المألوفة والحرية الواسعة ، وهذا يصدق على الجنسين ، وقد تسبب هذه العلاقات تعكيرا للسعادة الأسرية ، وتوثق العلاقات الشخصية بشكل ضيق طلبا للاستمتاع بحرية .

وعلى ان نلاحظ ان من آثار هذا النظام ان جعل تقييد العلاقات بين الجنسين قبل الزواج يؤدي فيما بعد الى ضرورة تسهيل أمر الطلاق ، فمن الظلم للرجل الذي يجد نفسه خائب الأمل في توقعاته عن الزوجة ، التي لم يكن قد رآها من قبل ، الا يستطيع استبعادها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فاحيانا تجعل الضرورة جواز تعدد الزوجات ، للرجل الذي يجد زوجته الأولى غير مناسبة له ولا يستطيع طلاقها دون أن يقهرها على القبول ، وابطاحة تعدد الزوجات في هذه الحالة تصبح ضرورة كبديل للطلاق . وثالثا : ان حرية تعدد الزوجات تجعل تسهيلات الطلاق مطلوبة أكثر لسعادة النساء ، حتى عندما يكون للرجل زوجتان أو أكثر ، وواحدة منهن غير راضية بوضعها ، فهو قادر على أن يخلي سبيلها . رابعا : ان جواز الطلاق يكون أحيانا وسيلة لضبط الزوجات ، خوفا من الوقوع تحت نفوذ الزوجة الأولى ، أو نفوذ أقربائها ، فيجبرونه على الطلاق اذا ما تزوج امرأة ثانية ، وكثيرا ما يكون هذا رادعا للرجل . وهكذا فكلاهاتين الاباحتين - الزواج بأخرى والطلاق - لهما أهمية كبيرة في تكوين المجتمع الاسلامي ، ولهما بعض المنافع الخلقية ، وباعتبار ما لهما من منافع مادية علينا ان نذكر ان الجذب والقحط أكثر شيوعا في الاجواء الحارة منه في الاجواء المعتدلة .

من الواضح ان النظام المسيحي يعارض تعدد الزوجات ، ولكن بالنسبة للطلاق فان بعضهم قد عارض فقط طلاق الزوجة ضد رغبتها ، الا بسبب واحد (١٠١) . غالبا ما يكون المسيحيون أكثر ظلما في حكمهم على الشريعة الاسلامية ومقائلدها ، وبخاصة الحكم الذي يتفق

(١٠١) لقد وافق بروستانت هنتاوية على الطلاق في قضايا

العار الذي لا شبهة فيه . انكهارت : روح الشرق

مع الديانة الموسوية ، واعمال الرجال الصالحين ، من مثل تعدد الزوجات ، والطلاق ، والحرب دفاعا عن الدين ، والختان ، وحتى القضايا الصغيرة (١٠٢) .

لقد اراد النبي محمد ان يستبعد احد الأسباب الرئيسية لتعدد الزوجات وهي عدم رؤية الرجل للمرأة ، فأوصى ان ينظر الرجل الى المرأة التي يريد ان يتخذها زوجة له (١٠٣) . وقد صارت هذه السنة اعتيادية اكثر مما هي الآن ، فقد رخص لاتباعه كثيرا فسمح للرجل ان يجتمع بشكل ما بالمرأة التي يختارها للزواج بحضور رجل او امرأة من الأقارب (على ان تكون المذكورة محجبة ، من غير مخالفة للنظام العام للفصل بين الجنسين ، ولكن نادرا ما يسمح أي من الوالدين من العرب الآن برخصة صغيرة كما أمر ، اللهم الا اولئك الذين من الطبقات الدنيا . وعلينا ان لانلوم المسلم بتعدد الزوجات وتكون اكثر اعتدالا اذا اوصينا بتحديد وتقليل العدد . واطن ايضا كما سمح موسى لقومه بسبب قسوة قلوبهم ان يطلقوا زوجاتهم ، وان الله اعلمهم ان لا يجمعوا بين الزوجات بينما يفعل ذلك البطاريك . وعلينا ان نكون اكثر موافقة كمؤمنين بالكتب المقدسة اذا سلمنا السماح بهذه الممارسة لتكون مؤدية الى الفضيلة اكثر من منعها ، بين الناس المشابهين من اليهود القدماء حيث سمح موسى بمثل هذه الحرية . وحقا ان محمدا قد اتخذ لنفسه عددا كبيرا من الزوجات اكثر من المسموح به للآخرين وقد لاحظت في مكان آخر (١٠٤) ان الدافع لهذا كان رغبته في النسل الى الاولاد الذكور اكثر من رغبته في متعة الزواج .

يقول كاتب درس الشريعة الاسلامية وآثارها بعمق : « في موضوع تعدد الزوجات ، فان اوريبا اتبعت له فرصة كاملة في مناقشة امرأة تركية ، لان مشاعرها حتما بجانب المعارضين

(١٠٢) سالتني سيدة متدينة مرة فيما اذا كنت موافقا على طرق الشرقيين في الاكل « باساليبهم الوحشية » ، فاجبت : « لا تسميها اساليب وحشية بل سميها اسلوب ربنا ورسله » ، وبعض التسامح هنا مطلوب . كنت مقرا عندما ذهبت للشرق اول مرة الا اوافق على طريقة الاكل بالاصابع عندما استطيع تجنبها ، ومع ذلك ، بعد ان رايت لأول مرة طريقة الاكل هذه ، استعملتها حالا وواظبت عليها .

(١٠٣) مشكاة المصابيح ١٦٣/٢ ، ١٦٤ . في الحديث : « اذا خطب احدكم امرأة فان استطاع ان ينظر الى ما يدعوه الى تكاثرها فليفل » .

(١٠٤) مختارات من القرآن ، الطبعة الاولى ص ٥٩ .

لتعدد الزوجات ، ولكنها بعد ذلك اجابت بقوة هائلة ، في مقارنة الآثار العملية للنظامين ، وفي نشر الاشاعات الواسعة عن قسوة وفجور اوربا . كل الاعتقادات بعاداتنا وقوانيننا تقف صفا معاديا ضد البلاد التي يقبل فيها مبدأ تعدد الزوجات ، ولكن بينما نحن نلوم الاسلام على تعدد الزوجات ، فان الاسلام يجب ان يلومنا على تعدد الزوجات الفعلي الذي لم يقره قانون وينكره العرف ، اضافة الى مهانة العقل بسبب الفساد الخلقي » (١٠٥) .

وينبغي ان يلاحظ اضافة الى ذلك ان السماح بتعدد الزوجات لم يؤذن به كممارسة عامة ، لا ، بل انه رخصة لقساة القلوب كي يعصمهم من السلوك السيئ ، وفي بعض الحالات كما لوحظ دائما ، يكون ذريعة لذوي القلوب الرقيقة في حالة الحب ايضا .

لقد لاحظت فيما سبق بان تعدد الزوجات « اكثر ندرة في الطبقات العليا والوسطى من المجتمع (في مصر واعتقد في الاقطار العربية الأخرى) منه في الطبقات الدنيا ، وحتى عند هؤلاء ليس شائعا جدا . ان الرجل الفقير يسمح لنفسه بزوجتين او اكثر لان كل زوجة تكون قادرة ، ببعض الصناعات او الحرف لتزود نفسها بمعاشها الخاص تقريبا ، الا ان اكثر الأشخاص من الطبقات العليا والوسطى يأنفون من هذا ، لأن العمل سيعرض الزوجة للكلفة والمضايقة . قد يتخذ الرجل زوجة ويكتشف انها عاقر ، ويكون متعلقا بها جدا فلا يطلقها ، ويرغب احيانا في الزواج من ثانية طلبا للذرية فقط ، ومن هذا الحافز قد يتزوج ثالثة ورابعة ، الا ان الرجل الهوائي المتقلب اكثر وضوحا ودافعه معروفة سواء بتعدد الزوجات او بتكرار الطلاق . وهؤلاء الذين يرضون هذه العاطفة بكثرة الزواج هم قلة بالمقارنة ، واني اعتقد ان ليس في كل عشرين رجلا ، الا رجلا واحدا له زوجتان » (١٠٦) . وأمل ان اكون قد اوضحت بأنني اعتبر تعدد الزوجات ضرورة في نظام المجتمع الاسلامي ، كي يمنع الدعارة التي ستكون اسوأ من تلك التي تسود الاقطار الاوربية وبشكل واسع وقطيع ، حيث ان الناس يرتبطون بالزواج بعد علاقات جنسية متبادلة ، اني اعتبر تعدد الزوجات (شرا) لا بد منه .

(١٠٥) اركهارت ، روح الشرق ٤١٥/٢ ، ٤١٦ ، انظر الفصلين (حياة الحريم) و (دولة النساء) حيث اثن انهما احسن ما في الكتاب .

(١٠٦) المصريون الحديثون ، الفصل السادس .

عمر الحلبي بمكة ، اوصى بان يشتري له جارية بيضاء تكون بكرا دون البلوغ ، وصفتها كذا وكذا ، فلما عاد من الحج طلب من البسرجية الجواوي لينتقي منهن المطلوب ، فلم يزل حتى وقع على الغرض فاشتراها ، وادخلها عند زوجته ، حتى يرسلها مع من اوصاه بارسالها صحبته . فلما حضر وقت السفر اخبرها بذلك لتعمل لهم ما يجب من الزاد ونحو ذلك ، ولكنها قالت له : « انني احببت هذه الوصفه جدا شديدا ولا اقدر على فراقها ، وليس لي اولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتي » . وكذلك بكت الجارية زليخة وقالت : « لا افارق سيدي ولا اذهب من عندها ابدا » . فقال : وما العمل ، قالت الزوجة : سادفع ثمنها من عندي ، واشتر انت غيرها . ففعل كذلك ، ثم انها اعتقتها ، وعقدت له عليها ، وجهازها وفرشت لها حجرة خاصة بها ، وبنى بها في سنة ١١٦٥ هـ ، وكانت الزوجة الاولى لا تقدر على فراق هذه الفتاة ساعة واحدة ، على الرغم من انها قد أصبحت ضررتها ، وولدت له اولادا .

فلما كانت سنة ١١٨٢ هـ مرضت الجارية ، فمرضت سيدتها ايضا لاجلها ، وانتشر المرض في الاثنين ، وفي صباح احد الايام قامت الجارية فنظرت الى مولاتها وكانت في حالة سيئة على وشك الموت ، فبكت وقالت : « يارب وسيدي ، اذا كنت قد قضيت بموت مولاتي فاجعل يومي قبل يومها » ثم سقطت ، وازداد بها المرض ، وماتت في الليلة الثانية ، فاضجعوها بجانب مولاتها ، فلما استيقظت مولاتها في آخر الليل ، وجستها بيدها ، وصارت تقول : (زليخة ، زليخة) ، فلما قالوا لها : انها نائمة ، ولكنها اجابتهم : ان قلبي يحدثني انها ماتت ، ورايت في منامي ما يدل على ذلك . ثم قالوا لها : (حياتك الباقية) (١٠٨) ، فلما تحققت مما قالوا ، قامت وجلست ، وهي تقول : لاحياة لي بعد موتها ، وصارت تبكي وتنتحب حتى طلع النهار وشرعوا في تشهيلها وتجهيزها وغسلوها بين يديها وحملوا جنازتها الى القبر . فرجعت عندئذ الى فراشها ، وصارت تحتضر ، فجاءتها سكرات الموت فماتت في آخر النهار ، وفي اليوم التالي خرجوا بجنازتها ايضا الى القبر بالطريقة نفسها « (١٠٩) » .

(١٠٨) هذه هي الطريقة المعتادة في اخبار الشخصى بوفاة شخصى آخر ، وكثيرا ما يقولون في العالة نفسها (البقاء في حياتك) ثم يبدأ السؤال (من الذي مات) فيذكر الاسم .
(١٠٩) تاريخ الجبرتي ، الجزء الاول ، وفيات سنة ١١٨٨ هـ .

عندما تعيش زوجتان او اكثر لرجل واحد سوية ، او عندما تزور كل منهما الاخرى ، فان الشعور بالفيرة ، هو شعور عام ، وغالبا ما يظهر ، وخاصة من قبل الزوجة - او الزوجات - التي لا تستطيع ان تزعم الاولوية بانها تزوجت قبل الاخرى او الاخريات ، او بسبب كونها اكثر حظوة عند زوجها من الاخريات (١٠٧) ، تتمتع الزوجة الاولى عادة بمنزلة اعلى ، لذلك فان الآباء غالبا ما يعترضون على اعطاء ابنتهم زوجة لرجل متزوج من زوجة اخرى ، وفي كثير من الاحيان يحدث بان المرأة التي تطلب للزواج تعترض على مثل هذه الشراكة . ان الشرع يجيز في بعض الحالات ، دفعا للمضايقات التي تنشأ من تعدد الزوجات ، باعطاء كل زوجة حق اثاث معين ملائم للنوم والطبخ وغيره ، وازضافة الى ذلك ، يشترط على الزوج ان يكون عادلا منصفيا بين زوجاته في كل علاقته . الا ان هناك بعض الصفات مثل الخصوبة وكثرة الولادة والجمال الفائق ، صفات تمكن المرأة الثانية او الثالثة او الرابعة ، من اغتصاب مكان الزوجة الاولى ، ومع ذلك ، وكما لاحظت دائما ، ان المحبوب الدائم ليس الاكثر جمالا .

وعلى أية حال فهناك عدة حالات من المحبة الخالصة موجودة في قلوب الضرات . والقصة التالية لزوجتي والد الجبرتي المؤرخ المصري الحديث ، يرويها بنفسه ، وهي بلا شك صادقة ومثال ممتع . يقول المؤرخ متحدثا عن اول هاتين الزوجتين :

« ومن جملة برها لزوجها وطاعتها ، انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها الخاص ، وتزينهن بالحلي والملابس الفاخرة ، وتقدمهن اليه ، وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك (في الجنة) . وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر ويشترى الجواوي فلا تتأثر من ذلك ، ولا يحصل عندها ما يحصل في النساء من الفيرة غالبا .

ومن الوقائع الغريبة الاخرى التي حدثت الحادثة التالية : انه لما حج (والد المؤلف الجبرتي) سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣-١٧٤٤ م) واجتمع به الشيخ

(١٠٧) الزوجة الاخرى تدعى باللغة العربية (ضرة) والكلمة مشتقة من (الضرب) اي الاذى لان الزوجة الاخرى عادة تقاسي المعاملة الضارة ، الواحدة تجاه الاخرى ، ان كلمة (ضرة) في العامية العربية (بتبديل اللين مكان الشدد ، الدال والضممة مكان الفتحة) تلفظ (ذرة) وفي المثل الشائع (عيشة الذرة مرة) « العنطاوي » .

تأملات في عالم الف ليلة وليلة :

البناء الفني للحكاية في الليالي

بقلم

ياسين النصير

بغداد - الجمهورية العراقية

لعمري وشكل الحكاية الذي اعتمدته الليالي ..
فاليالي ، اعتمدت لونين اساسيين من الحكاية .
الحكاية الطويلة الموزعة الى حكايات صغيرة
مرتبطة بها ومغذية لابعادها ، والحكاية القصيرة
التي تنفرع احيانا من الحكايات الطويلة ، ولكنها
تنتهي بانتهاء روايتها ، ولا يعود القاص الى بطلها
او معناها ، ومن الحكايات الطويلة ، حكاية حسن
البصري حكاية النعمان بن المنذر او حكاية ذات
الدواهي ، او حكاية مسرور السيف ، وكما
توضح لنا الليالي ان هؤلاء ليسوا الا ابطالا
ثانويين ، فهناك خلف كل واحد منهم ملك او امير ،
من الجن او من الانس يدير شؤون الدولة او
المملكة ، اما هؤلاء فليسوا الا اشخاصا مهمين
ولكنهم ثانويين في تاريخ ذلك الملك او الامير .

٢ - وما دمنا نقرا الليالي بطبعات منقحة ،
وموزعة حكاياتها على الف ليلة وليلة توزيعا
ذوقيا ، فان الزمن الداخلي لكل حكاية يبقى
مجهولا . فقد وجدنا ان بعض الحكايات تتوزع
على عدة ليالٍ ، ووجدنا عدة حكايات في ليلة
واحدة ، او ان تكتفي الليلة بحكاية واحدة . مثل
هذا التباين في الطول ، يلقي وحدة الزمن للحكاية
الواحدة ، الزمن الخارجي - الذي تستغرقه
شهرزاد للقص ، والزمن الداخلي ، الذي
تستغرقه الحكاية فعلا ، وما دمنا لا نستطيع
تحديد الزمنين من داخل الحكاية ، فان الليلة
الواحدة لا تعطينا كامل الزمن الفعلي للحكاية ،

بدءاً يمكن ايراد هذه الملاحظات العامة حول
الحكاية في الليالي ككل .

١ - لا تتشابه حكايات الليالي بعضها مع
البعض الآخر ، فبعض الحكايات يستمر لعدة
ليالٍ ، وبعضها يقتصر على ليلة واحدة (١) في حين
تكون عدة حكايات في ليلة واحدة ، ويعطينا حجم
الحكاية الشعبية والخرافية في الليالي مؤشرا
شكليا اوليا ، ومن ان الشكل الخارجي للحكاية
ليس هو المهم في البناء ، بل ان مضمون ومحتوى
الحكاية هو الذي يحدد حجمها وشكلها . فاذا كنا
نعتبر بعض الحكايات اشبه بالقصة القصيرة ،
فبعضها الآخر اشبه بالقصة القصيرة الطويلة ،
وتمكس مسألة الطول والقصر وضعا فكريا معقدا ،
فالحكاية الطويلة التي تنفرع منها حكايات قصيرة
عديدة ، تعتمد بطلا مركزيا واحدا ، كحكايات
حسن البصري ، التي يدور حولها ابطال ثانويين
يكونون رئيسيين في بعض الحكايات ، كحكاية
زوجته من الجان ، ثم تعود اليه الحكاية ثانية بعد
ان يكون قد تركه القاص ليوضح لنا حالات
الابطال الثانويين ، مثل هذه الحكاية الام ،
الحكاية الرحم ، تكاد تكون هي الاساس في الليالي ،
اذا ما اعتبرنا ان كل الليالي وحكاياتها اساسا ،
هي حكاية شهریار وشهرزاد وقد تفرعت الى
حكايات صغيرة وكبيرة توزعتها مدن وبحار ،
ملوك وامراء ، خاصة وعامة ، انس وجن .. الخ
ولكن مثل هذا الامتداد يسقط من الفهم البسيط

ولكن يصح اعتبارها - أي الليلة - معياراً نفسياً لوحدة الفن القصصى ، وهو معيار خارجي في كل الأحوال ، قد يساعدنا في فهم الوحدة الموضوعية للحالة التي كانت عليها شهرزاد وشهريار ، ولكنه لا يساعدنا في تكوين خصوصية معينة لمعنى وزمن الحكاية الواحدة .

الملاحظة الجوهرية ، أن الحكاية لا تنتهي كلها بانتهاء الليل ، بل بعض الحكايات القصيرة ينتهي قبل الفجر ، مما يستوجب على شهرزاد تغطية الوقت المتبقى بحكايات أخرى من ذات الجو نفسه ، أو من تلك التي تركت قبل هذه الليلة ، كما أن بعض الحكايات تعبر الفجر ، ليصبح الفجر أو الصباح حاجزاً طبيعياً ونفسياً لفعل القصة ، بمعنى آخر ، أن الحكايات محكومة بزمن طبيعي خارجي هو الصباح ، ويعكس هذا الوضع حالة لم تتطرق إليها الكتب التي الفت عن الليالي ، إلا وهي تأثير الطبيعة على النفس المشبعة بالظلام والموت ، وكان هذا الفعل هو جزء من حملة مسعى شهرزاد لازاحة القتل والامتهان الذي يمارسه شهريار ضد بني جنسها .

ويمكن الذهاب الى مدى أبعد في قضية الزمن في الحكاية ، فالحكاية ، تعتمد الوحيدة العضوية بين الزمان والمكان . إلا أن المكان فيها دائماً يكون أكثر كثافة ، وأقل محدودية . وهذا يعكس الوعي الذي كان عليه القاص الشعبي يومذاك ، أي محدودية المعرفة بالعالم الطبيعي الذي يحيط به ، وعندما كان يريد توسيعه حسب ما تتطلبه الحكاية ، جعل ذلك من جزر الجان ، وفي العالم السفلي تحت الأرض ، وفي البحار المجهولة والمجاهل غير المعروفة ، وابتكر لكل ذلك أسماء . أما الزمن الخاص بالحكاية ، فكان زمناً متعدداً أي أنه طويل ، يطوي القاص في داخله الليل ، النهار ، الفصول والسنوات ، وقلماً تتأثر عواطف الشخصيات بتغيرات الزمن ، وأن حدث وتغيرت تطلب من القاص مسعى لأن يوصل ما انقطع بالعودة ثانية الى المغامرة .

٣ - يمكن تقسيم الحكايات الى ثلاثة أنواع رئيسية ، حكايات عن الإنسان ، وحكايات الحيوان ، والحكايات المختلطة . علماً بأن الحيوان هنا ، ما يشتمل عليه عالم الجن والمسح وكل الأشكال غير الطبيعية ، ولكن الحكايات لا تكون صافية ، فقد تبدأ بالإنسان ، وفي استمرارها تدفع الى مجرى الحكاية أحياء أخرى ، طبيعية وغير طبيعية ، والحكايات الخاصة بالإنسان

وأفعاله ، هي تلك التي كتبت متأخرة ، وحاكت أحوال ومواضع الناس في العصر العباسي ، ويغلب عليها الطابع الاجتماعي - السياسي والديني ، وإبطالها ممن عرفنا بهم التاريخ وحكت لنا عنهم الكتب ، أما الحكايات الخاصة بالإنسان مع الحيوان أو الجن ، فهي من ابتداع خيال القاص الذي أراد أن يوسع مدى فاعلية الحكاية ويشمل بها عالمين ، عالم الخفاء وعالم العيان ، وهو ما يجعلنا تقترب من حكاياته من المعنى الحقيقي للحكاية الشعبية ، حيث امتلكت مقومات لم تكن موجودة في الحكايات التي اعتمدت الإنسان لوحده ، أما الحكايات الخاصة بالحيوان أو الجن على مختلف أشكالهم وأنهم ، فهي النوع الذي يقربنا من الحكاية الخرافية ، وفيه نجد ذلك العالم الخفى وقد تشكل بوضع متماسك وبدأ يمارس فعله وطقوسه بحرية تامة . وكما يبدو أن هذه الحكايات هي الأقدم في الليالي ، تليها الحكايات المختلطة ، ثم حكايات الإنسان .

٤ - يلاحظ قارئ الحكايات أن أسلوبها بسيط ، وتركيب جملها عادي وسهل ، وتكثر فيه السمات ، كصورة من الصور العامة اليومية المألوفة ، وكان الأسلوب بهذه الخصائص لا يمت من قريب أو بعيد الى ما تعارفنا عليه من فنون الأدب ، وصفاء العبارة وقوة المعنى ودقة التعبير . ويعكس هذا الوضع طابع العصر الذي كتبت فيه ، ولكن ليس كل العصر ، وإنما العصر الذي بدأ فيه الأدب الشعبي يدون ، ويصبح مادة للتداول والقص ، وانتقال الحكاية من مرحلة الشفاهة الى مرحلة التدوين يبرز هنا الطابع الذاتي والفردى للقاص ، رغم مجهولية القاص ورغم تعدده ، وهذا من جهة ومن جهة أخرى أن الأدب المدون في الليالي ، هو أدب العامة ، وأدب مجالس اللهو والطرب ، وأدب البيوت والعوائل البسيطة ، ولكونه مزج السحر بالواقع ، والخيال بالممكن ، وحكى عن الشاذ والمنطقي ، والمعقول واللامعقول ، وكان في تغطيته لهذا اللون من الاهتمام الشعبي يتقرب الى فهم العامة ، وإلى مداركهم البسيطة ، ويجعل من القص نفسه وسيلة لشيوع الأدب الشفاهي أولاً ثم تدوينه كما هو ثانياً ، ومما يؤكد هذه الحاجة ، أن الشعر الذي احتوته الليالي ، هو من النوع الساذج والتلفيقي ، والذي يجهد القاص نفسه لوضعه ضمن سياق الحدث القصصي تطعيماً بجو خاص ، وانتقاله بالسر من حالة السماع الى حالة التخيل ، وتحويل هم السامع الى ما يحضر به البطل لحظة تأزم الموقف ، والشعر

كما هو معروف ليس الا نظاماً عادياً ، لا روح فيه ولا قيمة متميزة ويستطيع القارئ ان يتصرف على الطريقة التي ادخل فيه الى مجرى الحكاية بسهولة ، فيشعر به وكأنه قطعة ملحقة من خارج المجرى النفسي والشعوري العام ، واطافه الى ركة كلماته ، وعبارته ، ركة في صوره ، وتدن في معانيه ، ويعكس بالطبع حال الشعر في تلك المرحلة ، حيث اكثر فيه اللحن ، وتدخلت كلمات واجواء غير عربية نتيجة تبدل الولاة ، وتغير الحالات الاجتماعية تمهيداً الى الانهيار التاريخي الكبير الذي حدث بسقوط بغداد .

كما احتوت الليالي على كل اساليب القص، الراوي ، والتكلم والمخاطب ، وكانت كل هذه الضمائر ، تسير تحت غطاء ضمير الراوي شهرزاد، مما يجعل فن القص نفسه مستوعباً للطرق الشائعة في الحكاية الشعبية والخرافية على حد سواء ، يضاف الى ذلك ان هذه الضمائر، تنوعت بتنوع الاشكال التي تجسد فيها الحكايات ، فهناك الحكاية التي تحكي حياة بطل ما ، ويكون السرد مصاحباً لهذا اللون ، وهناك المواعظ والنكت ، وهي من التي يتدخل الراوي في صياغتها كتعبير عن وضع ما داخل الحكاية ، وهناك الفنتازيا المتخيلة ، كقصص الجن والسحر ، ويكون الراوي هو الغالب في تجسيدها .. وباحتواء الليالي على هذه الاساليب ، تعرض لنا « وحدة » شاملة ، جامعة لاشكال السرد القصصي يومذاك فكانت بتعدد اشكاله تقرب الفهم بين العامة والخاصة وتوحد في المشاعر الاجتماعية العامة ، وتعطينا مؤشراً على طابع الحياة الثقافية في ذلك العصر .

« وتميل لغة الف ليلة وليلة عموماً الى النثر المسجوع وهي كثيراً ما تلائم بحق اناشيد الحب العاطفية التي كان عصر ازدهارها فيما بين القرن الثاني عشر ، حتى القرن الرابع عشر ، وهو نفس العصر الذي ازدهر فيه التروبادور في الغرب وشعراء الحب والافغنيات الشعبية ازدهاراً كبيراً وربما تأثر كذلك الادب الاوربي الذي تغنى بالحب، بفن الادب عند الاسبان العرب حينذاك » (٢) .

٥ - ويبقى بعد ذلك ما يسمى باسلوب الف ليلة وليلة الروائي ، الذي عد فتحاً في الاداب الاوربية يوم ترجمت بالفرنسية اليها قبل اكثر من مئتين وخمسين سنة خلت (٣) ويمكن ايجاز اسلوب الليالي الفني ، من انه ذلك التتابع الحدتي المتسلسل دون الوقوف عند حدث صغير معين

بل ربط جميع الاحداث بوحدة مركزية هي الحالة التي كان عليها كل من شهریار وشهرزاد ، الا ان هذا الاجاز يخل بالمعنى الاساسي للفن الروائي في الليالي . ولكن نعيد هنا بعض ما اشرنا اليه اثناء الحديث ، لا بد من البدء من اوليات هذا الاسلوب ، واقصد به بناء الحدث .

بدءاً ، نقول ان « الحكاية المتنوعة » الشعبية والخرافية والاسطورية ، قد اختلفت داخلياً في تركيبها الفني ، بمعنى ان هذه الحكايات لا تشابه فنياً لما تملكه كل واحدة منها بخصائص نوعية متميزة ، الا اننا نؤكد هنا ان هذا الاختلاف هو احد سمات فن الروائي ، اي ان تنوع اساليب القص جعل لاسلوب الليالي العام ميزة روائية خاصة بها .

وثانياً ، ان الابطال - وقد جرى بعض الحديث عنهم - كانوا من الثانويين ، والذين يطلق عليهم لوكاتش - البطل التاريخي العالمي - وهؤلاء يمثلون بوضعيتهم الطبقيّة والفكرية ، الشخوص الاكثر التحاماً بالاحداث الشعبية ، فهم نوافذ الخليفة او الامير على العامة ، وهم مجسات العامة لوضع الملكة او الخلافة ، ولكونهم كذلك احتلوا مساحة كبيرة من فن الرواية الخاص كذلك كانوا في الموقع الذي اتاح لهذا الفن من ان يتخذ جوانب خفية وعلمية من مسار التاريخ العام للدولة .

والخصيصة الثالثة ، ان الاحداث تتوالد ، بعضها من بعض ، ويحدث توالدها امتداداً ، فتتخلف شخوصاً واطعاً جديدة ، بحيث لا نستطيع القول ، ان هذا الحدث ينتهي عند هذه الشخصية او في هذا الموقع ، هذا التوالد الحي ، الغي بشكل او باخر مركزية البطل ، كما الغي وقوف مجرى التاريخ عند حدث معين ، بل كان ينساق وراء الانسياب العام للتاريخ ، ويستوعب وهو في طريقه حركته ونموه واتساعه ، فتجد ان الليالي في بدئها كانت محدودة الفعل ، ثم تتوسع لتشمل ممالك وامصار ، قديمة وحديثة ، في الواقع وفي الخيال . ويشبه الفن في داخلها اللعبة الصينية الكبيرة التي يمتليء جوفها بعلب اصغر متشابهة ، فكلما فتحت واحدة ادت الى اخرى ، الا ان الامر في الليالي عكس ذلك يبدأ من اللعبة الاصغر في الحلقة ، فما ان تضع اللعبة الصغيرة ، حتى تحتاج لان تضع حولها لعبة اكبر ، وهكذا تستمر العملية لتجد نفسك في اخر المطاف وقد استوعبت شمول الحياة والتاريخ الذي عاصرتة . بل ومازالت تتسع لتشمل اوضاعاً قائمة لحد الآن .

القرآن كان يواجه لدى المشركين بدعوى أنه ذا جذر خرافي ، إلا أن القرآن أثبت العكس من ذلك عندما ربط « كلية » الحياة الجديدة التي دعا إليها بتاريخ الإنسان ككل ، فكان يفرز بين حكايات الأنبياء والمرسلين ، وبين خرافات العامة ، فانتصر للأولى باعتبارها جزءاً من ترسيخ الفكر الديني - الفلسفي ، ورفض الثانية باعتبارها جزءاً من ترسيخ العقليّة الجاهلية . وقد نبذ النبي محمد (ص) حكايات « النفج » أو « القشور » (٧) ، كما نبذتها بقية الأديان السماوية ، وقديماً نبذها أفلاطون كذلك .

٧ - والحكاية ككل في الليالي ثلاثة أشكال متميزة ، الحكاية الخرافية ، والحكاية الشعبية ، والحكاية التي تجمع بين الاثنين ، ولهذا التنوع أسبابه الفنية التي نعت أساساً من محتويات الحكاية نفسها . وقد اشتهرت الكتب التي تحدثت عن أنواع الحكايات بالتعريف والتفسير وبرزت الخصائص العامة والخاصة لكل من الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ، ويمكن الرجوع إلى ذلك بسهولة (٨) ، إلا أن النوع الثالث من الحكايات ، لم تطرق إليه هذه الكتب إلا لماماً ، فالحكاية البين بين ، أو التي تجمع بطلاً وحدثاً خرافياً إلى جانب بطل وحدث شعبي ، تجعلنا نركز عليها هنا ، باعتبارها الشكل الذي أوجدته الليالي ، وغيرت به عن « كلية » الحس الشعبي العام الذي كان سائداً يومذاك ، والحديث عن « كلية » الحس الشعبي من خلال هذا النوع من الحكايات ، يقودنا إلى تأكيد نواح هامة من خصائص التاريخ العام يومذاك ، وهو ما تطرقنا إليه بعض الشيء خلال هذه المقالة .

إلا أن هذه الكتب تتحدث عن الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية من خلال الحكاية الأوروبية والشرقية القديمة ، وهذا ما يجعل الكثير من الخصائص التي توردها منطبقة على حكايات ألف ليلة وليلة ، ويبقى عدد آخر من الخصائص لم تشر إليه تلك الدراسات ، أو أشارت إليه ضمناً ، ونكتفي هنا بإيراد الفروق بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية التي كونها « ماكس لوتي » وأدرجها دير لاين في كتابه الحكاية الخرافية (٩) ، وأود هنا الإشارة ، إلى أن هذه الخصائص مبعثرة ، وموزعة على جميع صفحات الكتب ، ولذلك لجأت هنا إلى تلخيصها وأعدادها بشكل يوضح الفروق بين الحكاية الخرافية والشعبية بدقة .

وتأكدت أهمية الفن الروائي الليالي ، مما أثرته في الرواية الأدبية في فترة نشوئها ، ونهوضها ، فقد أمدتها بطاقة تعبيرية شكلية وفكرية ، وليس ما عرضته الليالي من حالات وأوضاع ، هو الذي أثار روائيو القرن التاسع عشر (١٠) إنما ما أمدتهم به من سعة الخيال وتوالد الأحداث ، وامتداد المشاعر ، وعدم الوقوف عند منعطف واحد من منعطفات التاريخ ، وكانت بذلك توازن الحياة الإقطاعية والارستقراطية الأدبية بشيء من الحياة العربية القديمة ، وكما أشرنا أن ترجمتها جاءت في نفس الفترة التي انتعش فيها الأدب الشعبي ، والأغاني ، وهذا يعكس في جانب منه الحاجة التاريخية إلى من يستوعب هذه الطفرات في حياة الشعوب ، فكانت الليالي النافذة الأكثر سعة للواقع الأدبي الجديد .

٦ - وتعمزو العديد من الكتب ، أن أصل الليالي هندي وأنها كتبت في القرنين التاسع والعاشر ، ويدل ذلك الكتاب على هذا الأصل من أن طبيعة « الحكاية الهندية تمزج حكاية باخرى ثم مزجها معاً في حكاية ثالثة ، وفي أسلوبها الذي يتوقف بالحكاية مرة ثم يصلها مرة أخرى .. » (١١)

إلا أن الليالي ليست كلها حكايات هندية ، وهذا يعني أن الحكايات العربية تلبست بالطريقة ذاتها التي اعتمدتها الحكاية الهندية .

وتؤكد كتب المستشرقين من أن العرب عرفوا أنواعاً عديدة من الحكايات ، الشعبية والخرافية ، وعدها بلاشير من ضروب النثر الأدبي . وأفردها فصلاً كاملاً في كتابه تاريخ الأدب العربي فعرّفنا على الأسطورة البطولية ، والقصص الطريفة وقصص الشطار والأذكى ، والقصص الغرامية والتعبير عن المثل الأخلاقية والحكمة والتجربة ، والأقوال الماثورة والأمثال والحكم ، والقصة على لسان الحيوان والحكمة المثلية والحكاية التقوية . وظهور حب الاستطلاع وحكاية البدو شبه التاريخية .. الخ (١٢) ، إضافة إلى ما يؤكد آدم ميتز من شيوع فن القصص في بغداد وغيرها من المدن ، يوضح لنا أن للحكاية الشعبية والخرافية جذوراً تمتد إلى القرنين الخامس والسادس استوعبتها الليالي ، كحكاية سليمان الحكيم ، وأثر السحر والقدرة الخفية التي أفردت لها الليالي الكثير .

وما يجعلنا نطمئن إلى أن الحكاية في الليالي ذات جذور عربية وأخرى فارسية وهندية هو أن الإسلام لم يقف بوجه هذا اللون من النثر ، بل أن

الحكاية الخرافية

الحكاية الشعبية

- ١ - لا تتسلسل الحوادث فيها ، وإنما تتكرر ، ولذلك فهي تصور الموضوع مرة واحدة وبطريقة أكثر تركيزاً بل أكثر اقتصاداً .
- ٢ - الحكاية الخرافية ذات بنية مركبة .
- ٣ - الحكاية الخرافية ذات بنية ملحمية مركبة .
- ٤ - تعطيك انطباعاً بأن ما تسمعه فيها ، سبق وأن سمعته أو هو من المعارف العامة .
- ٥ - تركز حدثها حول شخصية رئيسية مركزية
- ٦ - لا تبتدىء الحكاية الخرافية فجأة بالحركة كما لا تنتهي فجأة بنهاية محددة .
- ٧ - الإنسان في الحكاية الخرافية يتصل بمحض اختياره بقوى العالم الآخر .
- ٨ - الحكاية الخرافية ذات طريقة تجريدية في العرض .
- ٩ - لا تفصل كثيراً في العوالم الأخرى .
- ١٠ - الحكاية الخرافية تتحرك بين ما هو جاد وهزلي .
- ١١ - لا تتحدث الحكاية الخرافية عن مخلوقات العالم الآخر بتفصيل . تحكى فقط عن العفاريت والجن والمردة ولكنها لا تصفهم .
- ١٢ - التبعات التي تلحق بطل الحكاية الخرافية تتحدد بما يستقبله من هذه القوى والتي تكون إما مساعدة له ، أو معادية ، ولذلك فالمردة والجن وغيرهما لهم قوة محددة من قبل .
- ١٣ - الحكاية الخرافية تنتمي كلها الى الأدب
- ١٤ - تنتمي الحكاية الخرافية كلياً الى العالم الآخر ، الى الحقيقة الأخرية .
- ١٥ - عندما تتحدث الحكاية الخرافية عن الجنة مثلاً ، تفرد التناقض بين فقر الحياة الأرضية والحياة السماوية .
- ١ - الحوادث فيها تتسلسل تسلسلاً متصلاً والموضوع فيها يسير في خط مستقيم .
- ٢ - الحكاية الشعبية ذات بنية بسيطة .
- ٣ - الحكاية الشعبية لا تعتمد البنية الملحمية لأنها متسلسلة تسلسلاً متصلاً .
- ٤ - لا تقف كلياً عند هذا الشرط ، وإن اعتمدته جزئياً ، لأن الحكاية الشعبية مفتوحة أكثر على الحياة وعرضة لأن تزداد حجماً وفتناً .
- ٥ - لا تركز حدثها حول شخصية رئيسية دائماً ، بل إنها تصور الإنسان الوحيد .
- ٦ - بينما تعتمد الحكاية الشعبية وضوح البداية والنهاية .
- ٧ - الإنسان في الحكاية الشعبية ، وحيد ومتفرد .
- ٨ - الحكاية الشعبية ذات طريقة حسية من العرض .
- ٩ - تصور الحكاية الشعبية العوالم الأخرى بدقة وتفصيل ، مازجة كل ذلك بالطبيعة .
- ١٠ - الحكاية الشعبية جادة في طبيعتها .
- ١١ - تتحدث الحكاية الشعبية عن مخلوقات العالم الآخر بتفصيل ، عن ما ضيهم وعاداتهم اليومية .
- ١٢ - التبعات في الحكاية الشعبية هي الوفاء الذي هو نتاج للمواهب التي يستقبلها البطل من مخلوقات العالم الآخر . أي لا يكون دائماً مضاداً لها .
- ١٣ - أما الحكاية الشعبية فتعتمد مزجاً بالواقع الحقيقي ، وليس لها طابع أدبي صرف ، إنها تود أن تحكى عن غرائب عالم الواقع وغرائب العالم الآخر .
- ١٤ - تنتمي الحكاية الشعبية كلها الى الحقيقة الدنوية .
- ١٥ - تميل الحكاية الى تصور الفقر هذا أيضاً ولكن المستخلص من الحياة الأرضية فقط

الحكاية الخرافية

الحكاية الشعبية

- ١٦ - تعتمد الاحلام التي تصور المخاطر المفزعة والمواقف الصعبة .
- ١٧ - تعيش في جو من السحر الكامل .
- ١٨ - بطل الحكاية الخرافية مغامر في الاغلب .
- ١٩ - بطل الحكاية الخرافية كلي ، بمعنى ان الزمان والمكان عنده غير محسوسين .
- ٢٠ - لا تتحدد الحكاية الخرافية بالانتماء الاسري ، القبلي .
- ٢١ - مادة الحكاية الخرافية ورموزها تتلخص في انها صورة للشئ المحرم الذي لا يحق للبطل ان يقترب منه .
- ٢٢ - تصلح الحكاية الخرافية لما يمتلكه من رموز ومستويات غير واقعية ان تكون مادة لعلم النفس والاداب ، كما كانت رموزها منتشرة في العديد من النتاجات الادبية والفنية خلال القرنين الماضيين .
- ٢٣ - تعتمد الحكاية الخرافية على الاحساس الشعبي المتفائل .
- ٢٤ - يمكن اعتبار الحكاية الخرافية من اسمى صور الادب الرمزي .
- ٢٥ - الحكاية الخرافية ، هي نتاج قوى الانسان الشاعرية ، وعلى مدى حقبة عديدة من تاريخ الانسان وتتصل بتاريخها الى اقدم العصور .
- ٢٦ - تهتم الحكاية الخرافية بالمتعة الفطرية في تصوير الامور الخارقة للعادة . تلك التي لا يمكننا على الإطلاق ان نصدقها .
- ١٦ - تعتمد عليها ولكن بحدود .
- ١٧ - تعيش في جو واقعي ، ولكنها تعرف القليل من السحر واشكال العالم المجهول . الا انه ليس السحر الذي تعتمد عليه الحكاية الخرافية ويرجع ذلك الى اختلاف البطل بين الاثنين .
- ١٨ - بطل الحكاية الشعبية بالاضافة الى المغامرة الملازمة له ، يعيش الحوادث في العالم الواقعي ويصور المعاشة في العالم المجهول .
- ١٩ - بينما بطل الحكاية الشعبية ، يعيش الحاضر والماضي والمستقبل ولذلك تفعل الحكاية في الزمان وفي المكان .
- ٢٠ - تتحدد قيمة البطل في الحكاية الشعبية من انه ينتمى لهذه القبيلة او تلك ، وان للحكاية الناجحة هي التي تمجد القبيلة او الاسرة ، مؤكدة على الروح الشعبي العام .
- ٢١ - لا تتحدد دائماً بهذا الفهم وان استخدمته بعض الاحيان .
- ٢٢ - تعطى الحكاية الشعبية طاقة فكرية لخيال الادباء ، ولكنها لا تصلح ان تكون مادة للدراسة النفسية .
- ٢٣ - بينما تعتمد الحكاية الشعبية على الاحساس الذاتي .
- ٢٤ - لا ترتقى الحكاية الشعبية الى مثل هذا المستوى .
- ٢٥ - اما الحكاية الشعبية فهي اقصر زمناً ، ولكنها نتاج ايضاً لقوى الانسان الشاعرية والاجتماعية .
- ٢٦ - تبني الحكاية الشعبية بعض اجزائها على معتقدات الناس الحقيقية والبعض الاخر على المتعة الفطرية .

الهوامش

- (١) من الليالي القصيرة مثلاً الليالي بين ٨١٠ و ٨٢٠ ، طبعة بولاق - اوفسيت ومن الليالي الطويلة ليلة ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، . وعموماً نجد ان ليالي الجزء الاول اطول بعض الشيء من ليالي الجزء الثاني ، وسبب ذلك يعود الى التناثر والمعد .
- (٢) الحكاية الخرافية . فرديش دير لاين ، ترجمة الدكتور نبيلة ابراهيم ص ١٩٥ .
- (٣) المصدر السابق ص ١٩٠ ، حيث يعتبر عام ١٧٠٤ بداية لنقل حكايات الف ليلة وليلة الى اللغة الفرنسية .
- (٤) المصدر السابق ص ١٩٠ .
- (٥) المصدر السابق ص ١٩١ .
- (٦) تاريخ الادب العربي ، بلاشير ، ص ٤٠٤ - ص ٤٩٢ ، ترجمة د . ابراهيم الكيلاني ، دمشق ١٩٧٤ .
- (٧) الحكاية الخرافية ص ١٢٨ .
- (٨) بالاضافة الى كتاب الحكاية الخرافية ، كتاب اشكال التعبير الشعبي للدكتور نبيلة ابراهيم الذي استفادت من الحكاية الخرافية الشيء الكثير .
- (٩) الحكاية الخرافية ص ١٢٦ وما تلاها : وهناك مصادر اخرى استفدت منها في هذه المادة ، اذكر منها :
- ١ - الرواية التاريخية ، تاليف جورج لوكاتش . الدكتور صالح جواد كاظم ونشرتها وزارة الثقافة والفنون العراقية عام ١٩٧٨ .
- ٢ - الملامح السياسية في حكايات الف ليلة وليلة . للاستاذ احمد محمد الشحاذ منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية عام ١٩٧٨ م .
- ٣ - الطبعة التي اعتمدتها من الليالي ، هي طبعة بولاق ، اوفسيت مكتبة المثنى .
- ٤ - البطل في الادب والاساطير ، للدكتور شكري محمد عياد .
- ٥ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز .

وبالامكان ايراد عدد اخر من الفروق الثانوية فلقد حرصت هنا ان ادرج الفروق الجوهرية والاساسية بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ، وغايتي من وراء ذلك ليس البحث في هذه الفروق ، ولا محاولة وضع جدول تفصيلي لهما ، وانما اردت ان اوضح لقارئ الليالي قضية مهمة وهي :

ان الحكاية في الليالي لاتتشابه احياناً مع اي من ابعاد الحكايتين بالتمام ، فهي تحمل من خصائص الخرافة شيئاً ، ومن خصائص الحكاية الشعبية اشياء ، ولذلك يمكن ان نطلق عليها حكاية البين بين ، اي حكاية الليالي ذات الاجواء الاجتماعية الخاصة ، والتي تعبر عن مرحلة تاريخية مهمة من تطور المجتمع العربي ، عندما وجدت الحياة الشعبية مادتها الى جانب الموروث الحجمي الذي حملته الشعب من عادات وتقاليد واساطير ماضية ، ووضعت كل هذا المزيج الحضاري الجديد تحت سماء الدين الاسلامي فحذف وازاد ، وشذب واناظ ، فجاءت حكاية الليالي ذات خصوصية اجتماعية - تاريخية تحمل في بنيتها ما تعارف عليه الدارسون من خصائص للحكايات ، كما حملت كما يقول دير لاين وغيره خصائص الحكاية الهندية والفارسية والبابلية والفرعونية ، وتوسعت باعتبارها نتاج المجتمع العربي الواسع الذي يطل على بحار ثلاثة ، لتشمل الحس الشعبي الاوربي النامي في اغاني الرعاة والانايد والفنانيات التي بدأت تظهر في ربوع اوربا يومذاك ، غير عاداته النافذة الواسعة التي خلقها المجتمع العربي في اوربا ، الا وهي اسبانيا .



ومرة اخرى ، اعود لكرر القول ، ان الرحلة مع الليالي متعة لا تنتهيها ، نهاية صفحاتها ، والرحلة مع الليالي ، اكتشاف تستحق ان يعرف المرء الوقت الكثير للايفاء بها .

العجوز في ألف ليلة وليلة

بقلم

عبد الغني اللّاح

بغداد - الجمهورية العراقية

فها هي بغداد الاسطورة الى جانب الصين الاسطورة
وها هي جزر الاندونسيا و (واق الواق) الى جانب
جزر بحر الروم (الابيض المتوسط) . وها هي
مدن الفرنجة (اوربا) الى جانب مدن بلاد فارس
وها هي صور كسرى انوشروان وحكمته الى جانب
صور هارون الرشيد وعظمته وها هم حكماء الهند
الى جانب ابي حنيفة والنظام . وها هم الملوك
والوزراء يقفون الى جانب ملوك الجان وملوك القروء
وها هم الزهاد والفلاسفة الى جانب المجوس
والكفرة .

فاذن يضم كتاب ألف ليلة وليلة تجارب
الشعوب المختلفة والازمان المتعاقبة ، مطعمة بامال
النفس الانسانية والامها المتشبهة بالاحلام والاخليله
كما توحىها لها او تمنهاها الشعوب المظلومة لتجتاز
بهذه الاخيلة المطرزة بالاسماء الحقيقية في بعض
الاحيان والاحداث الواقعة فعلا عبر التاريخ في احيان
اخرى ، تجتاز النظم السائدة والمسيطرة على
الانسان بصورة عامة وتعمل على فضح حماقات
السلطان وابتعاده عن ادراك مصالح الفرد الذي لا
يقدر ان يصل الى مآربه بالمداينة والنفاق او بكنز
يعثر عليه في باطن الارض او بجني مطيع للطلاسم
والرموز او بمجوز تقوده الى تحقيق امنياته بالمر
والسحر والاحتيال .

وكانت الاوضاع السائدة والممارسات المعترف
بها في تلك الفترات الزمنية بصورة عامة قد جعلت
المجتمعات متلاطمة بالتناقضات الفكرية والاجتماعية
والسياسية ، مما حدا بالفنان العبقري ان يتذرع
بالتجربة ويسبغ عليها قليلا او كثيرا من الاخيلة لكي
ينزع الحسرة والالم من صدور الاكثري فتشعر
بالراحة النفسية الموقته او تتطور تلك الراحة الى

ليست المهمة التي انبسطت بالعجوز في قصص
ألف ليلة وليلة وحكاياتها مهمة مدانة اجتماعيا كما
يتصورها القارئ لأول مرة ، او انها مهمة اقحمت
لاسبغ روح الدعابة على الحكاية ، او محاولة
لتجسيد التفسخ الاجتماعي الذي حل بعد اتساع
الرقعة العربية والاسلامية اثر الفتوحات الكبيرة
في العهود المختلفة التي ابتدأت بعد الهجرة وانتهت
في اواخر العهد العباسي وما طرأ من تزواج
الحضارات القديمة الفارسية والهندية والرومانية
والصينية مع الحضارة العربية الفائرة بسرعة هائلة
من التطور البدوي الى الطور الحضاري وما تخلل
ذلك من تناقضات فكرية واجتماعية ونفسية ومد
وجزر بين الانشداد بالتراث الموروث المكتسب ، مما
جعل من الامور الطبيعية ان تسلك - العجوز -
وهي من ابطال الليالي الرئيسيين - مسلكا متميزا
وتتقمص الزهد تارة والسحر والاحتيال احيانا
وقيادة العشاق الى معشوقاتهم او العاشقات الى
عشاقهن لوجه الله تعالى او من اجل الكسب
والاثراء .

وقبل ان نصدر حكما ساذجا على مهمات
عجائز كتاب ألف ليلة وليلة ، علينا ان تلقى نظرة
سريعة بشيء من التأمل والمحاكمة العقلية على
العصور الطويلة التي تم خلالها جمع هذه الحكايات
في كتاب واحد ، وبصيغة اصح ، على العصور
المتداخلة ببعضها ضمن الحكاية الواحدة بالاضافة
الى تلمس المقدرة الفنية والبراعة التي مارسها
المؤلف او الحكواتي في جمع عدة مجتمعات ، مختلفة
النشأة ، ومتباينة الاعراف ، ومتضاربة المكان ،
ومتباعدة الزمان ، وأطيرها باطار واحد شفاف
نرى من وراءه كل هذه التناقضات الزمانية والمكانية

والاحاديث النبوية في المعاملات اليومية التي يمارسها الانسان ويرتبط بها .

ونموذج لهذا السلوك الانساني ما تطرقت اليه حكاية (تودد الجارية) اذ تحدثنا عن شاب كان (فريد دهره واحسن اهل زمانه وعصره ذا وجه مليح ولسان فصيح يتهادى تمايلا واعتدالا ويتراعى تدلا واختيالا بخد احمر وجبين ازهر وعذار اخضر) . ورث اموالا طائلة عن ابيه فبذرها في مصاحبة اصدقاء السوء ولم يبق لديه غير جارية اسمها (تودد) فنصحته ان يبيعها الى الخليفة هارون الرشيد بعشرة الاف دينار بشرط امتحانها قبل عقد البيع ، فظهرت براعة فائقة في علوم النحو والشعر والفقه والتفسير واللغة والموسيقى والفلك والفرائض والحساب واساطير الاولين واعراب القرآن والقراءات السبع والمساحة والرياضة والهندسة والفلسفة والحكمة والمنطق . وناظرت (النظام) شيخ المعتزلة فقلبته وناظرت غيره من العلماء والاطباء والمنجمين والمهندسين والفقهاء فانصرت عليهم جميعا وعزتهم من ثيابهم تحقيرا لجهلهم وربحت جائزة الخليفة وعادت الى حبيبها الشاب .

وعندما يقرأ الانسان المعاصر هذه الحكاية يلمس فيها روح الشماعة الموجودة لدى الطبقات الشعبية البعيدة عن السلطان ، بالعلماء المقربين من الخلافة كما يلمس العلوم الحقيقية ، ومناقشتها . ولكن الصواب في المناقشة جاء على لسان جارية عاشقة لشاب فقير معدم فاجتهدت عن طريق معرفتها العلمية للعودة الى المحبوب فافحمت بمنطقها وسعة معرفتها العلماء وظهرتهم امام الخليفة بمظهر الجهلة .

وتكرر في الليالي ظاهرة الجوالي البارعات في المعرفة وهن يناظرن في الشعر والفناء وغيره . وتسير هذه الظاهرة بخط مواز لظاهرة اخرى لاتقل اهمية عنها ، هي ظاهرة العجائز ودورهن الاجتماعي في فترة طويلة كانت فيها زحمة السبايا والرقيق واسواق النخاسة من العوامل المؤثرة في المجتمعات تحت نظام معترف به رسميا يعتمد بعمقه التاريخي الى عهد الحضارات الاولى في وادي الرافدين ووادي النيل والافريق والصين . ولكن تبلور هذا النظام في العهد العباسي بصورة خاصة دفع الحرائر الى الانزواء في دورهن بضغط من الرجل ، غير ان الانفعالات العضوية والنفسية لم تخب جذوتها فاحتاجت الى جني مطيع او مارد قدير او انسية متمرسة كاتمة للاسرار كي تصل

تصديق الحكاية ، وشفيح هذا التصديق الجهل العام في ادراك التجربة او مقارنتها فكريا بالموضوعية العلمية ، (فاذا تتبعنا تاريخ الاداب وجدنا ان الخيال يسبق الواقع في وجوده فيها مهما اختلفت الامم) (١) بل يطفئ عليه في كثير من الحالات ، وهذه الحقيقة التاريخية نابغة من المعاناة الانسانية المتلاحمة مع ازدواجية الخير والشر التي يتميز بها سلوك الانسان ومن التزاوج الفكري ما بين واقع الحال وبين الطموح نحو المركز والجاه والثروة والعيش الكريم بالنسبة للمفهوم العام . وكثيرا ما يكون هذا التزاوج نتيجة حتمية للتأمل بالفكر الموروثة المقدسة او الافكار الذاتية الواقعة تحت مفاهيم ما يسمح به وما لا يسمح به ، مما يضطر الانسان الرافض ان يدل على قدرته في ادراك ما هو مفلوط او ما هو غير عادل بافكار جديدة مختفية وراء الرمز في الحكاية او الاشارة في الاسطورة وذلك (بوصفه كائنا عضويا تخضع عملياته السلوكية والفكرية لعمليات عضوية تصبح شعورية ، يشكل مجموعها الكلي التصورات الذهنية للذات) (٢) وهذا القول ينطبق على كل المجتمعات غير المتجانسة بيئيا وغير المتجانسة فكريا فيكون للفرد حرية كاملة في الحركة الذهنية المكبوتة طالما لا توجد حواجز تعوق الاخيلة والاحلام بينما الحواجز متوفرة بقوة لاعاقة الطموح الانساني وامكاناته تحت شعار الحرام والحلال وما لم يسمح به التقليد او يسمح . وازاء هذه الحقائق البيئية في مجتمعات العصور الوسيطة وما قبلها نما سلوك انساني معبر بالحكاية وبالرواية انشدت اليه المجاميع البشرية في مرحلة من مراحل تطورها الفكري مزيجا عجيبا من الايمان بالخرافة والايمان بالتححرر الفكري في آن واحد . فيها هو الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور لا يضع الحجر الاساس لمدينة بغداد الا بعد ان يحدد له منجمه (نوبخت) (٣) ساعة المباشرة . وذلك عن قناعته بتأثير النجوم على اعمال اهل الارض بينما نجد في الفترة الزمنية نفسها الامام جعفر الصادق يؤسس قواعدا للفقه الاسلامي والامام ابو حنيفة يضع (نظرية المعاملات في الفقه الاسلامي) ومالك بن انس يفسف الفقه الاسلامي (٤) . وذلك بادق ما تقتضيه الحاجة الاجتماعية للتعامل ضمن النصوص القرآنية

(١) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٤٦ .

(٢) له . هول وج . لندي : نظريات الشخصية ص ١٦٦ .

(٣) الهمداني : بغداد مدينة السلام . تحقيق د. صالح احمد علي ص ٤٠ .

(٤) د. عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص ١٧٢ وما بعدها .

بوساطتها الى متطلبات الحياة المادية والحسية فجاءت حكايات الليالي تصور المرأة في تلك المجتمعات على اختلاف طبقاتها بهذا الاتجاه السلوكي ، وحتى سيدة القصر العباسي الاولى زبيدة زوجة هارون الرشيد لم تسلم من هذا السلوك فصورتها الحكايات تنامر على جاريتها (قوت القلوب) غيرة وحسدا وترسلها مع العبيد لتدفن حية كما جاء في حكاية (غانم ابن اوب) وقد سبغ الخيال رونقا جذابا على ذلك وصبغه (صبغا قويا بواقع هذه الحياة) (٥) المليئة بالعقد والتناقضات .

ويتميز مثل هذا الواقع المطرز بالخيال . او الخيال المبني على لمحات واقعية بحكاية تلك العجوز التي قادت شابا عاشقا الى دار قاضي بغداد للاتصال بابنته (الحرّة) المخجونة عن المجتمع وانشطته داخل الجدران ، ولكن (مزين بغداد) افسد تلك الخلوة الغرامية بثروته الموهودة . واهمية حكاية مزين بغداد - بنظري - تأتي من كونها الحكاية الوحيدة في حكايات الليالي التي تسجل لنا تاريخا ليكون بمثابة مؤشّر نبيها الى الفترة الزمنية التي تم فيها تأليف هذه الحكاية بالذات . فقد جاء في وصف المزين عندما اراد ان يطلق راس الشاب العاشق قبيل ذهابه الى دار القاضي حسبما ارشده العجوز على لسان العاشق نفسه ما يأتي : (ومد يده واخرج منديلا وفتحته واذا فيه اصطرلاب وهو سبع صفائح فاخذه ومضى الى وسط الدار ورفع راسه الى شعاع الشمس ونظر مليا وقال لي : اعلم انه مضى من يومنا هذا وهو يوم الجمعة ، وهو عاشر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام وطالعه بمقتضى ما اوجبه علم حساب الريح سبع درج وستة دقائق (كذا) واتفق انه يدل على ان خلق الشعر جيدا جدا (٦) . فهذا النص بالاضافة الى ما فيه من حضارة الاصطرلاب وحساب النجوم يحدد لنا ان هذه القصة كتبت في او بعد العاشر من شهر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة للهجرة . كما انه ينفي باصرار ما يظنه بعض الباحثين ان حكايات الليالي كانت قد اخذت صيغتها النهائية في عهد الدولة الفاطمية التي انتهى عهدها قبل هذا التاريخ . وهناك اكثر من حكاية تشير بشكل او باخر الى فترات تاريخية معلومة . كحكاية (الصعيدي وزوجته الفرنجية) التي تشير الى تحرير (عكا) (٧)

من ايدي الصليبيين في عهد صلاح الدين الايوبي وحكاية الخياط والاحدب واليهودي والمباشر (النصراني) التي ورد فيها اسم الخليفة (المستنصر بالله) (٨) وبهذه المؤشرات وغيرها تقدر ان تقرر ان مجموعة الليالي جاءت نتيجة للفكر الانساني من خلال عدة قرون اندمجت مع بعضها بازمان مختلفة كان لابطالها اوجه شبه بالنسبة للتطلعات العامة التي بقيت دوافع ظهورها لصيقة بالحرمان العام والقلق المستشري من اجل الثروة والجاه والعرض حيث (يوجه الراشدون سلوكهم في ضوء قواعد واضحة) (٩) وذلك يعني ان ظاهرة العجوز في الليالي تجسيد لمعاناة الجوّاري والحرائر على حد سواء بكل جوانبها المضطربة مما جعل سلوكها في الليالي امتدادا للذات المحرومة فراححت تخطط لتحقيق امال تعينها على سحق الحرمان بسلوك كان يعتبره المجتمع السائد مقبولا بالاضافة الى خضوعه للوقائع اليومية في ممارسات الحياة .

وتتميز عجوز الف ليلة وليلة بالمقدرة على التكيف الخلقي . فهي زاهدة تحمل سبعة لذكر الله وابريقا للوضوء وهي ساحرة تركب الزير وتطير به وهي فارسة شجاعة ومقاتلة بارعة وهي انسية خبيثة كمجوز الروم ذات الدواهي في (حكاية عمر النعمان) وهي جنية طيبة كمجوز (جزيرة واق) الواق) في حكاية (الحسن البصري) وهي عربية كمجوز (مزين بغداد) وهي (فرنجية) كمجوز اديرة بلاد الفرنجة في حكاية علاء الدين ومريم الزنارية . وهذا التحول يمثل تداخل الحضارات باوسع مظاهره من جراء سعة الرقعة الجغرافية للامبراطورية الاسلامية . ومن جهة اخرى ان هذا التداخل يشرح لنا بشكل مباشر او شكل مواسط العوامل الفريدة بالنسبة لهيكل كل حكاية من الحكايات على حدة . وهذه الادوار المختلفة لا يمكن فصلها عن حياة الفرد فهي (استمرار الطبيعة العضوية للسلوك من حيث انه لا يمكن فهم جزء منفرد منه بطريقة عزله عن بقية الشخص الممارس له) كما يقول (هنري موراي) وهذا السلوك مستمد من حاجة قاعدة الهرم الاجتماعي وتشابك اولياته الفكرية والبيئية ، فليس من حقنا ونحن نعيش مفاهيم القرن العشرين ، ادانة سلوك العجوز في

- (٨) ان كان المقصود بالمستنصر ابن الخليفة الظاهر بالله فانه تقلد الخلافة سنة ٦٢٢ للهجرة وان كان المقصود به المستنصر بالله الذي هرب الى مصر بعد سقوط بغداد على يد هولاكو في عهد سلطان مصر الملك بيبرس فقد بويع في مصر سنة ٦٥٨ للهجرة .
(٩) ل. هول . وج . لندي : نظريات الشخصية ص ٢٦٢ .

(٥) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٨ .

(٦) الف ليلة وليلة ج ١ ص ٩٠ بولاق .

(٧) حور صلاح الدين الايوبي عكا سنة ٥٨٣ للهجرة راجع ابن الاثير في الكامل ج ٩ ص ١٧٩ .

وضعها في حكاية الحسن البصري ، وعندما تكون (محتالة) (كدلية) تضطر الى الاستنجاد بابنتها الجميلة (زينب النصابة) لايقاع المسؤولين في الحب فتسلب اموالهم . بينما نجدها عندما تكون زاهدة تقوم بعمل لا اخلاقي فتفرق بين الزوجين (نعم ونعمه) طمعا بجائزة السلطان . وهذه الادوار المختلفة والمتباينة تجرنا جرا الى التفاصيل . فلنختار اربع عجائز لهذا التحليل الموجز .

اولا - عجوز جزيرة واق الواق :

قبل التطرق الى الحكاية لابد من الاجابة على سؤال كثيرا ما شغل فكر الباحثين وهو : هل جزيرة واق الواق خيالية اخترعها الحكواتي ام هي جزيرة حقيقية ؟ وان كانت كذلك ف اين موقعها ؟

يرى بعض الباحثين انها جزيرة (سيلان) وبعضهم قال انها جزر اليابان ومنهم من قال انها جزر الفلبين . ولكن شيئا واحدا كان يجب ان ينتبه له الباحثون وهو ان هذه اللفظة (واق الواق) لا تزال لحد الان اسما جغرافيا يقع في ساحل الجنوب الشرقي لآستراليا ويسمى (واغ واغ) او يلفظ بالكاف الفارسية (واك واك) . وقد ثبتت دائرة المصارف البريطانية في اطلسها بهذا اللفظ (Wagga - Wagga) (١٠) كما توجد في جزيرة (سايبس) الاندونسية هضبة اسمها (وا - وو) (Wa - Wo) (١١) وهناك جزيرة صغيرة قرب جزيرة (غينيا الجديدة) تابعة الى اندونيسيا ايضا اسمها (واك او) (Waig - Eo) (١٢) فهذه الاسماء الجغرافية المعروفة والتي ثبتت اسمائها حسبما يلفظها السكان المحليون تقودنا الى الظن بل الى الاعتقاد بان البحار العربي وصل هذه الجزر النائية وسمع اسماءها من اهلها (ويغ واغ) (واك واك) ونقلها الى عربيه (واق واق) . فتشبهت بها الحكواتي وسبغ عليها فنه الاسطوري وتحدث عنها باعتبارها من الجزر التي يسكنها الجن وذلك في حكاية (حسن الصائغ البصري) .

وتتلخص الحكاية بكون حسن البصري غادر البصرة مخدوعا على يد مجوسي طمعا بتعلم صناعة الكيمياء والحصول على المسحوق الذي يحول المعادن الرخيصة الى ذهب وبعد مغامرة بحرية مميتة اكتشف الخدعة ولكنه عثر قرب (جبل

حكاية تحمل الاسطورة والخيال بنفس كميات الواقع المستمد من طفرة نقلت البداوة بكل اعرافها الى موقع الحضارات المعقدة ، فلم تهضم اعرافها بالسرعة المطلوبة مما زاد المجتمعات تعقيدا وشذوذا ، فنتج من جراء ذلك حكايات ذات بناء خاص يعتمد على الجارية العاشقة والزوجة الخائنة والعجوز القوادة وصاحب الثروة الذي لا يعرف قيمة لثروته والفقير المعدوم الذي ينتظر كنوز سليمان بمعجزة والشيخ المجوسي الذي يؤذي المسلمين والتاجر المغامر والعفريت الذي يجوب السماء فيقطع ارجاء الكون بغمضة عين ولا يخشى من شيء سوى ذكر الله عندما يكون قريبا من السماء الدنيا .

فكل هذه الصور المعبرة عن تكوين شخصية مجتمعات الف ليلة وليلة تؤكد تآثر المتغيرات العقلية في تكوين الشخصية عبر تلك العصور وتبرير نموها ومراحل ذلك النمو . ولكن الحكاية المقبولة للتعبير عن تلك المتغيرات قفزت من اعماق النفس الانسانية كاتفعال حتمي شأنه تقل التراكمات المتفاعلة في اللا شعور الى السطح . اذ يقول علماء النفس انه ليس للمفاهيم السائدة جميعا ما يربطها بالشعور (الواعي) وانما بعضها وربما اكثرها مربوط بالشعور غير الواعي . فمن الطبيعي اذن ان تكون تلك الحكايات التي ليس لها رباط قوي بالمفاهيم المعلنة متولدة بشكل اخيلة يحدد صيغتها سلوك الفرد دون وعيه . ولا يكون الفرد في هذه الحالة ، فيما اذا كان حكواتيا او مستمعا ميالا الى التصديق فحسب وانما يكون ميالا ايضا الى تبرير ما يحكى او ما يسمع . لانه ينقلب من مدهوش الى توفيقى بين تناقضات الحاجات الكامنة في اعماقه وبين الحاجات الظاهرة وبذلك يضمن لنفسه رضا الاعراف السائدة من جهة ورضا الاحلام المرغوب فيها التي ترفض الاعراف السائدة وتضع الاخيلة بدلا عن طريق احلام اليقظة بقدر ما تتسع لذلك اعماق النفس المليئة بالتراكمات العضوية الخاضعة لسلطان الجهاز العصبي الذي كثيرا ما يتخبط في عزل ما هو معقول عن ما هو غير معقول ويعجز عن ذلك بتأثير الطموح للحصول على ما هو مرغوب دون ما هو غير مرغوب حتى لو كان ذلك عن طريق وسيط ساحر او مارد طائر او كنز وافر . او جارية جميلة او شمعاء مأكرة . ولكي نفهم دور عجوز البالي فهما موضوعا علينا ان نتحرى عنها بشيء من التفصيل ونعاملها بالتحليل والتعليل ، اذ اننا كثيرا ما نلاحظها عندما تكون قائدة لجيوش الجن والعفاريت تعجز عن ايصال المعشوق الى معشوقته الا بمساعدة غيرها كما كان

- (١٠) راجع اطلس دائرة المعارف البريطانية ص ٣٦٢ بالنسبة للفرست الجغرافي وص ٦٦ بالنسبة للموقع على الخريطة . طبعة ١٩٦٥ .
(١١) المصدر نفسه ص ٦٢ .
(١٢) المصدر نفسه ص ٦٢ .

السحاب) على (جنية جميلة) كانت هي وجنيات اخريات يأتين الى بحيرة بهيئة الطير وينزعن عنهن ريشهن ويلعبن داخل الماء ويسبحن . فتزوجها بعد ان احتال عليها بخطف ريشها المنزوع وعاد بها زوجة حليلة الى بغداد . وسمعت بجمالها السيدة زبيدة فارسلت تستدعيها للنظر اليها . وكان زوجها حسن البصري قد اخفى ثوبها الريش لئلا تلبسه وتهرب وذلك من شدة حبه لها . فاستغلت الجنية اعجاب السيدة زبيدة بها وطلبت ان تتدخل في احضار الثوب الريشي وتشاهدها وهي ترقص به . وحاولت ام حسن البصري ان تفهم السيدة زبيدة ان ابنها مسافر وزوجته تحاول الهرب فلم تقتنع بل ارسالت واحضرت الثوب الريش بالقوة فلبسته الجارية وطارت هاربة بعد ان قالت لحمايتها (اذا جاء ولدك وطالت عليه ايام الفراق واشتبهى القرب والتلاق وهزته رياح المحبة والاشتياق فليجئني الى جزائر (واق الواق) ، ثم طارت .

ويعود (حسن) فيكتشف هروب زوجته فيغامر في رحلة مليئة بالمتاعب ويجتاز (الجزر) الكثيرة بمساعدة شيوخ الجان والعفاريت حتى يصل الى جزيرة (الواق) . وهنا يبدأ دور المعجوز الكبير في ايصال حسن البصري الى زوجته . وقد ورد اسم (جزيرة الكافور) خلال رحلته . وكان قد اخبره المارد العفريت (ابو الريش) ان جزيرة (واق) لا يسكنها غير النساء فاذا طلع اليها عليه ان يخفي تحت احدى الدكاك الموجودة على الساحل حيث كل دكة تجلس عليها فتاة ثم يتشبث بصاحبة الدكة التي سيختارها في توصيله الى محبوبته . ولكن حظه سيكون ضعيفا لان ساكنات تلك الجزيرة يقتلن كل رجل . فعليه ان يكون حذرا ، فاختر دكة واختفى تحتها .

فلما اقبل الليل جاء خلق كثير من النساء مثل الجراد وسيوفهن مشهورة في ايديهن ثم جلسن على الدكاك للاستراحة فجلست واحدة منهن على الدكة التي تحتها (حسن) فاخذ طرف ثوبها وصار يقبل يديها وقدميها فقالت له (يا هذا قم واقفا ان تراك احداهن فتقتلك) فقال لها (يا سيدتي انا في جيرتك) وحكى لها قصته ثم رآها عجوزا كبيرة وعلم انها قائدة لجيش النساء في هذه الجزيرة واسمها (شواهي ذات الدواهي) . ثم علم بعد ذلك ان زوجته هي بنت ملك الجان . وعمت المعجوز جهدها لمساعدته ولكنها اخفقت تجاه عناد (نور الهدى) اخت زوجة حسن البصري الكبرى والتي كانت حاكمة على تلك الجزيرة .

وبعد عقبات وتعرض للهلاك يعثر حسن البصري على ولدين يتخاصمان في قسمة (طاقية الاخفاء) و (قضيب مسحور) تطيع الجان مالكة اذا ضرب به الارض كان قد خلفهما لهما والدهما . فيحصل حسن البصري على القضيب والطاقية وبهما يحصل على زوجته وينقذ المعجوز من غضب (نور الهدى) بعد ان علمت انها كانت السبب في حماية هذا الرجل الذي دخل جزيرة واق الواق التي لا يسكنها غير النساء ، وانها عرضت عليه جميع النساء ليتعرف على زوجته من بينهن غير مراعية للتقاليد العامة في الجزيرة .

هذا هو ملخص الحكاية . فاذا اردنا تحليل رموزها (بقدر ما يتعلق بموضوعنا في هذا البحث) فلا بد لنا من محاولة الاجابة على مثل هذه الاسئلة لفهم طبيعة الانفعالات التي كونت مجتمعات الف ليلة و ليلة في هذه الحكاية .

١ - لماذا لم تستجب السيدة زوجة هارون الرشيد الى توسلات ام حسن البصري في عدم تسليم ثوب الريش الى الجنية زوجة ابنها . وقد علمت مسبقا انها اذا لبسته يساعدها على الهرب ؟

٢ - لماذا كان سكان الجزيرة من النساء فقط ، ولماذا كانت زوجة البصري بنت ملك الجان ؟

٣ - لماذا اخفت الجنية المعجوز سر دخول حسن البصري الى الجزيرة المحرمة على الرجال وهي في مركز المسؤولية قائدة لعسكر النساء ؟

٤ - لماذا اختار الحكواتي جزيرة واق الواق النائية جدا لتكون اهم مسرح لاحداث حكايته ؟

اختار القاص او الحكواتي أشهر سيدة في دار الخلافة العباسي لتكون رمزا حقيقيا للتباعد بين واقع السلطان وبين واقع المجتمع العام وتمكن بهذه الحكاية ان يوضح ان السلطان لا تهمة معاناة الناس ومصالحهم بقدر ما تهمة رغباته . فمن اجل ان تستمتع السيدة الاولى في القصر العباسي برقص الجارية الجنية وتتمتع بفنونها فرقت بين زوجين سعيدين ضاربة بذلك عرض الحائط ما علمته مسبقا من انها بنزوتها الانانية هذه ستحطم قالب انسان من اجل الحياة . واختار القاص جزيرة واق الواق وجعلها مسكنا للنساء فقط للاعتراض على نظام الحريم المحاط بالاساطير الباهرة . فهذه الجزيرة بمثابة تعريض بالنظام الذي حول المترفين والسلاطين يملأون قصورهم بالحريم عن طريق الاسر أو سوق

النحاسين ويحيطون قصورهم بقليل أو كثير من القدسية . فكان لابد أن تراود مخيلة العامة ضرورة بطل يقتحم هذه القصور تحدياً لهذا النظام فكان (حسن البصري) هو البطل الذي تحمل المتاعب حتى اقتحم جزيرة واق الواق ولكي يسبغ القاص المتعة الذهبية . اختار اسم جزيرة حقيقية يتحدث عنها البحارة والتجار وجعل سكانها من بنات الجان لما في هذا الاختيار من توفيق بين التزاوج الفكري في تلك العصور بين الأسطورة وبين الواقع . وزيادة في تحدي نظام الحريم جعل القاص بطله القصة بنت ملك الجان نفسه وذلك كاعتراض سلبي يوضح أن المرأة نفسها حتى لو كانت أميرة هي في موقع الاعتراض على فقدان الروح الانسانية في ذلك النظام . ولكن قلة تجربتها كأميرة صبية مندفة بمواظفها في الرضا والغضب والاستكانة والهرب كان لابد من ظهور امرأة مجربة بلغت من العمر عتياً لتسهل المهمات الانسانية والحياتية . ومن هذه النظرة جاءت أهمية دور العجوز الجنية (ركانة الزير) التي وقفت الى جانب عاشقين (انسي وجنية) وخاصة السلطان وضحت بمركزها المرموق خارجة على قوانين تلك الجزيرة وانظمتها.

ثانياً - عجوز الروم .

وقد جاء ذكرها في حكاية (عمر النعمان) ولديه شركان وضوء المكان) التي تدور أحداثها حول الحروب الصليبية بدلالة وجود مثل هذا النص (فما مر ثلاثة شهور حتى تكاملت جيوش الروم ثم اقبلت الافرنج من سائر اطرافها كالفرنسيين والنيما ودبره وجورنه وبندق وجنوز وسائر عساكر بني الاصفر من القسطنطينية) (١٣) . او ورود هذا النص (فاستقبلهم الافرنج بقلوب اقوى من الصخر واصطدمت الرجال بالرجال ووقعت الابطال بالابطال) . او هذا النص (حتى برز له شركان وقلبه من الغيظ ملان وساق جواده حتى دنا الافرنجي في الميدان فكر عليه الافرنجي كالاسد الغضبان) .

(١٣) من الواضح ان المقصود بذلك وصول الجيوش الصليبية من فرنسا والنمسا ودبريه والبندقية وجنوة . ويبدو ان العرب كانوا يغلطون هذه الاسماء حتى وقت متأخر كما نلاحظها قاص الف ليلة وليلة . اذ قد ورد في كتاب (عجائب الانار في التراجم والاختصار) للجبرتي ، من احداث سنة (١٢١٤) للهجرة وهي السنة التي انسحب فيها نابليون بونابارت من حصار احمد الجزار في عكا كلمة (النيمسا) بدل النمسا والفرنساوية بدل فرنسا او الفرنسيين . راجع الجبرتي ج ٢ ص ٢٨٦ .

ويتخلل الحكاية وقائع فردية بين المسلمين والافرنج خلال الهدنة وهي كثرة الشبه بالهدنة التي اعلنها صلاح الدين الايوبي مع الجيوش الصليبية كما حدثنا عنها (مؤيد الدولة اسامة بن منقذ) وهو من امراء (شيزر) القلعة الاسلامية في سوريا ومن ضباط صلاح الدين الايوبي (١٤) . ومن خلال هذه الحكاية يبرز دور العجوز بصفتها املاً لآحد ملوك الصليبيين وقد تنكرت بزي الصالحات المسلمات وتحدثت في فقه الشافعي وغيره وروت الحديث ، كل ذلك حتى تتقرب من القائد الاسلامي وتدس له السم انتقاماً لما فعله بالجيوش النصرانية . واما خلال فترات الهدنة تتغير مهمة العجوز واذا بها تظهر بشكل قوادة تتصيد المعشوقين وتقودهم الى عاشقاتهم كما حدث لعزير وعزيرة (١٥) . ولو حققنا في اسباب تنكر عجوز الصليبيين بزي صالحات المسلمين وزاهداتهم لوجدنا ذلك مستمداً من الايمان العام الذي كان يغشى المجتمعات الاسلامية ويصدق بالخوارق والمعجزات على يد الصالحين والزهاد ولداووش والمتصوفة . فيروي لنا ابن الجوزي هذه الرواية قال (شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبدالله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة فقالت يا سيدي انك كنت ممن شهد في صداقي وقد فقدت كتاب المهر واسالك ان تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم . فقال ما افعل حتى تاتيني بحلاوة فوقفت المرأة وهي تظن انه يمزح بقوله لا تطيلي . لا امضي معك الا ان تاتيني بالحلاوة . فمضت ثم عادت فاخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاساً فيه حلاوة ياسسة . فتعجب اصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه فاخذ القرطاس وفتح ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس . ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته فقال (خذي صداقك فهذا هو) (١٦) فاستعظم من حضره ذلك واعتبروه كرامة .

وهناك مئات القصص التي تتناقلها ابناء الشعب دخلت كتب التراث عن الخوارق والكرامات التي لا يصدقها العامة فحسب بل يصدقها الخاصة بشكل يسهل مهمة عجوز الروم للتجسس على جيوش المسلمين وقتل قائد جيشهم مستغلة المزاج الشخصي في التشبث بالبقاء في قمة المجتمع ، والطريف في عجوز الروم ان اسمها ايضاً (شواهي ذات الدواهي) كعجوز الجن في جزيرة واق الواق .

(١٤) انظر كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ تحقيق فليب حتي سنة ١٩٣٠ .

(١٥) عبدالفتي الاصح . رحلة عبر الف ليلة وليلة ص ٢٧ .

(١٦) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٧٠ .

ثالثا - عجوز الحجاج بن يوسف الثقفي

وجاء دورها في حكاية (نعم ونعمة) الزوجين السعيدين ولكن الحجاج سمع بجمال (نعم) فرأى ان يسرقها من زوجها ويقدمها هدية الى الخليفة (عبد الملك بن مروان) باعتبارها جارية اشتراها له . ويحتال لهذا الامر بعجوز قامت بدور العابدات الصالحات المحافظات على الصلوات الخمس ودخلت دار (نعمة) في غيابه وخطفت زوجته وسلمتها الى الحجاج لقاء ثمن فارسلها بدوره الى الخليفة .

ونجد في هذه الحكاية مخيلة الحكواتي قد اختارت قصدا بطلا معروفا بالقسوة لتكون حكايته مقبولة وناجحة . واعطى في ذلك للعجوز دورها المقبول في تصوير الكيد غير الاخلاقي الذي تتردد في سلوكه الصبية الا اذا كانت ذات مصلحة مباشرة كماشة او مطلقة او ضرة او جارية مخطوفة . واما اذا كان الغرض هو التقرب من السلطان وخدمته ، فالعجوز هي المرشحة دائما لذلك .

رابعا - دليلة المحتالة

ودورها اكثر تعقيدا من غيرها لانها كانت تحتال لا لمجرد الاحتيال وانما لكي يصل خبرها الى السلطان فيخصص لها مرتبات وجوائز كما فعل لغيرها من المحتالين فحكايتها تصور بوضوح ان طريق المجد والوجاهة في تلك المجتمعات كان يتمثل بالاحتيال والسرقة وقطع الطرق ، واما المستقيمون في سلوكهم فليس امامهم غير الانكفاء على انفسهم .

ونجد دليلة المحتالة عندما عجزت عن مقاومة (علي الزبيق) استعانت بابنتها الجميلة (زينب النصابة) لتوقعه في حبالها وتسرق اشيائه . وبالإضافة الى كون هذه الحكاية تشدنا شدا الى فترة زمنية كان فيها للعيارين والفتوة القول الفصل في حسم الاحداث كما حدث في الصراع على السلطة بين الاميين والمامون وما تبع ذلك بعد مقتل المتوكل في تدخل الفتوة في تقرير مصير الحكام . بالإضافة الى ذلك فان الحكاية ذات ابعاد اجتماعية واقتصادية كحكاية البدوي الذي رضى ان يصلب بدل (دليلة) لقاء اكلة (زلابية بالعسل) او الصباغ الذي ذهبت ثروته الضئيلة لقاء وعد موهوم بالثروة الكبيرة .

من هذا نستدل ان اختيار العجوز لهذه الادوار المتناقضة في الليالي كان مستمدا من كون العجوز

بعد ذاتها لم تكن في وضعها العام الذي لم يخولها (ان تحب ونشقى بالحب) (١٧) . وهذه الادوار لم تخرج عن كون مثل هذا الامر (كان جارفا قويا فكثرت القصاص حتى افسد بعضها البعض) (١٨) بمجموع ابعادها وهذا الافساد ناتج عن الخوف من المستقبل والاعتراض على الحاضر . ويقول علماء النفس (١٩) ان استجابة الخوف يمكن ان ترتبط بأدلة او بمثيرات لا تسبب الخوف لدى الفرد الساذج (٢٠) وهذه المثيرات التي وجدناها في عجائز الف ليلة وليلة جزء لا يتجزء من شعور العسوام السذج تبعث في نفوسهم الامل في العثور على كنز او جارية جميلة او اقتحام قصور حريم الاكابر كما في حكاية (الحشاش مع حريم بعض الاكابر) وهذا الاطمئنان هو الجائزة الحقيقية للاستجابة النفسية في السلوك المركب الذي تتردد مقوماته بين واقع الحال وبين الامل .

وهذا الانفعال النفسي الذي يحدث في اعماق الانسان عندما يسمع قصص الف ليلة وليلة او يقرأها ناتج . قطعاً من (التفاعلات المباشرة التي يوجهها دليل منفرد او موقف لدليل منفرد) (٢١) . وليس بالضرورة ان يكون هذا الدليل منطقياً طالما مستمد من رغبة الفرد لا معرفته ومن نزوته لا عقلانيته . وهذا الاتجاه العام ، اعتبره من اهم دوافع انتشار حكايات الليالي وما شابهها من حكايات الفلكلور التي دائما ترد الاعتبار للانسان العامي تجاه الدور المسورة والقصور المخزونة بالكنوز والحريم ، واهمية العجوز في ارتياد تلك الدور بدون رقيب واقتحام تلك القصور من غير اعتراض حاجب ، ذات دلالة اجتماعية خاصة . وقد انتبه القدماء الى هذه الدلالة فقالوا في معرض الامثال : (اذا العجوز ارتجبت فارجبها) (٢٢) وارادوا بذلك اذا خوفتك العجوز نفسها فخفها لكي لا تذكر منك ما تكره .

(١٧) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٠٨ .

(١٨) المصدر السابق . ص ٢٠٨ .

(١٩) بالرغم من ان علم النفس اكتشفت قواعده متأخرة جدا بالنسبة لاختلاف الف ليلة وليلة فمن الممكن تطبيقها على كل الاحداث والمجتمعات ، التاريخية او الاسطورية او القصصية . وذلك لانها جميعها مترابطة ومستمدة بعضها من بعض .

(٢٠) نظريات الشخصية ص ٥٦١ .

(٢١) المصدر نفسه ص ٥٦٣ .

(٢٢) الميداني : مجمع الامثال ص ٦٨ المثل ٣٤٤ ط . الثانية .

الفلسفة والفلسفة

بقلم الدكتور

عَلِي شَلَق

بيروت - لبنان

العدد في الاسلام

هذا الرقم !

عرف المسلمون الاعداد كما عرفها سواهم من شعوب الدنيا ، وتميزوا بانهم مكتشفو الصفر الذي هو عدد متأهب للبدء ، ومخترعو علم الجبر الذي قفز بالرياضيات شوطاً بعيداً في مضمار البحث والكشف والتخطيط ، وحسبنا ان نقف على قيمة العدد في فكر الكيميائي ، الصوفي ، « جابر بن حيان » ، صاحب فكرة : « الاسم عين المسمى » وهو الذي أحل العدد محل الروح أو الهوية الداخلية ، ملتفتاً الى « فيثاغورث » « وهرمس » موطناً للسورالية التي رسم مذهبها « اندره بروتون » اليوم ، وعنى بها ابن خلدون عناية كبرى في مقدمته ، الثلث الاخير .

وتجيب حكايات « شهرزاد وشهريار » بالعربية مبهورة بهذا الرقم « ألف ليلة وليلة » مسبوقة بمثل نسقه ، متخطية كل ما عده ، وذلك على سبيل الايقاع من جهة ، وعلى سبيل التمام من جهة أخرى ، فالرقم « الف » محطة كمية ، ونفسية ، لدى العربي ، إذ ان المئة كانت اكثر ما يدور « العربي » في فلكها في طرق معيشتها المختلفة ، فحسبه من الابل مئة ومن الخيل مئة ، ومن القطع النقدية مئة ، أما ساعة يزيد ، ويتجاوز فالألف مدار أحلامه ، وتمام شؤونه .

لعل المئة في الاصل من الماء الذي به الحياة ، والالف من الألفة ، والتأليف ، والمادة لهذه

العدد رمز ، مصنف على رتبة ، بل هو جواهر .
درج المفكرون على اعتبار العدد رمزاً لما ينتسب الى الرقمية منذ الصفر حتى نهاية النهايات ، تلك التي عبر عنها الرياضيون العرب بالكرات ، والغربيسون ، بالترليون والكاترليون والبلليون .

بهذا العدد يتصنف كل موجود ، في رتبة من مراتب الوجود ، غير ان الفيلسوف اليوناني « فيثاغورث » يجد في العدد جوهر المعداد ، وانه بعد مذاهب طاليس ، وديموقريطس ، وهرقليطس ، وسواهم من الماديين الايليين ، أعلن أن الموجودات تتألف من اعداد ، وقد ذكر سابقوه انها تتألف تارة من الماء ، وتارة من النار ، أو من العناصر الاربعة : النار ، الماء ، الهواء ، التراب . وهل يجيب هذا العدد عرضاً ، أو جوهراً ؟

العدد من حيث كونه رقماً أو رتبة ، فهو عرض ، أما من حيث تألفه من عناصر ، أو وحدات ، تشكل مجموع كيانه فهو جوهر ، ومن هنا تبدأ الفلسفة مرحلة جديدة مهدت لسقراط وافلاطون وارسطو ومن هنا اكتسب العدد قيمته فوق ما للحرف ، والنوطة ، وسواهما من الرموز ، ووسائل الابانة .

أليس معقولا أن تكون أزمة الفاجعة دامت ألف يوم ، وتسميتها بالليلة نصف اليوم نظراً الى ظروف الحزن الاسود ، والظلام المخيم على النسوة الشهيديات وبؤسهن ، وبؤس عائلاتهم ، وأن تلك الليلة وحدها بعد الالف كانت مفتاح الفجر والخلاص ؟



أخيراً ، عصر ألف ليلة وليلة ، عصر عتمات ، واشباح ، وتخاريف ، الى جانب كونه عصر رحلات ، وترف يقابله بؤس ، وشموخ مفاجيء قد يؤدي الى سقوط فاجع ، وهذا ما يدفع الى الاستعاضة بالصور ، والاحلام ، والماورائيات ، ويؤدي الى عناية كبرى بالطلسمات ، والالغاز ، خاصة الأرقام ، والحروف ، والسميات ، تلك التي عرفها المجتمع الاسلامي قبل ذلك بكثير ، وذا مما يميل بنا الى أن التسمية رمز ، وليست رقماً مقصوراً لذاته ، الا اذا أرحنا أنفسنا من عناء الافتراض ، والتحمل وهذا ليس في يد من تعود على البحث والايغال ، وأخذنا التسمية على ظاهرها ، لنقر مع المؤلف أن شهرزاد بقيت تخرف شهریار ألف ليلة وليلة ، أي ما يزيد على ثلاث سنوات ، وأنها نجحت كزوجة ، وحبيبة فاتنة ، وأم ، ومخلصة بنات جنسها من موت متدرج ، وأنها كانت من الذكاء بحيث اعتمدت على عامل الزمن الذي به أنست شهریار حقه على بنات جنسها ، وتعهدت في نفسه شجرة الحب والثقة ، إلى أن مدت غصونها ، ومنحت براعمها زهراً وثمراً .

الليسل

الليل عابس الملامح ، غريق في عتمة ذاته ، يسكن الخفاء ليفتح كوة الصباح من بصيرته العميقة .

ما فيه من سر ، ووحشة ، وستر ، يجعله موضوع الفن ، والذكرى ، والتأمل ، والتأمر . الليل فيلسوف الزمن ، به تكتمل وتنوع مناسج الرؤيا ، وملاءات الخيال ، مثلما أن النهار مركبة الشمس ذات الحوافر اللاهبة ، والرين الأشقر .

فأي بحر لجي ، أمواجه تهدر صمناً ، وتبوح بأفصح صور ، ينبع منه خمر اسود يكحل جفون العالم ، ويمنح النشوة للأشياء ، فإذا بكل ما فيه تجدد ، يطفئ السأم ، وينفي الرتابة ، على نغم مسترسل للوجود !!!



اللفظة تفيد الجمع ، قل مثل ذلك في الألف الحرف الأول من الأبجدية ، حيث ترمز الى ما يتبعها من ابائها الحروف الاخرى ، اذ هي في الدرجة الاولى رمز للصوت الاول 1.1.1. وهو يخرج من فتحة الفم ، منطلق من سقف الحلق ، ولذا عده علماء التجويد من الحروف الحلقية ، وهي ذات مزاج حاد ، حار ، عاطفي .

الى ذلك ، قرنت الالف بالباء ، وأصبح هذا الاقتران عنواناً على الأبجدية كلها ، وهي تشكل المرحلة المقطعية من النطق « أب » مشيرة الى الرمز الاقوى والاعلى للعائلة ، وارتسمت الالف في معظم لغات العالم منتصبة إشارة الى علامة المذكورة المبدعة ، والباء مسطحة للإشارة الى الانوثة .

بقي أن ندرك السر في تسمية العربي حكايات شهرزاد لشهريار تسمية عددية لها مغزيان : الأول في كونها ألفاً كناية عن التمام ، والثانية في إضافة ليلة ، أو العدد الواحد الى الالف ، فهل أن ذلك جاء لتمكين الإيقاع من السمع ، أو للمبالغة في التمام والكمال ، أو أن بين الالف المرسومة كنهاية ، ومحطة ، جسراً ينقل من حال الى حال ، وعهد الى عهد ؟

ثم لماذا أورد اللفظ مؤنثاً فقال ليلة بليل ليل أو سمر ، أو هزيع ، أو ما شاكل ذلك ؟ ويهمننا ما في التأنيث ذاته من الولادة ، والتولد ، والخصب ، وهل أن التسمية جاءت على لسان شهرزاد وهذا من حقها ؟ أم أن التسمية من صنع المؤلف الذي راعى في التسمية ناحية الأنوثة ؟

الى ذلك فإن من شأن العربي أن يجيب على طالب العون منه بقوله : « لك ذلك وفوقه » . « لك ذلك وكرامة » . « لك ذلك وزيادة » « لك ذلك وواحدة » . أو أكثر إلى ما هنالك من صيغ القبول وتمكينه والتزيد فيه .



ثم اننا إذا روينا في هذه التسمية العددية لوجدناها تشير الى ثلاث سنوات ، وتزيد ، وأن الليلة لا تنفصل عن النهار من حيث انها به تشكل اليوم ، فهي نصفه والنهار نصف آخر ، وهذه المدة كافية لانجاب نسل ، وتبدل احوال ، وتركيز أمور جديدة ، ولعل الرقم ألف وليلة ، يشير الى عدد يتناول النساء اللواتي صرعن شهریار ، وأن الليلة الواحدة الأخيرة تميزت عنهن شهرزاد عن باقي النساء .

اليه عوامل الغفلة أو العصبية ، أو الرغبة في
نيس ثوب المكتشف أو العائد بالجديد .

فالعرب عرفوا من قبل بسنوات عدة كتاباً
على غرار ألف ليلة وليلة ، وبالايقاع الموسيقي
العددي للتسمية ذاتها ، الشيء الذي يشير إلى
مزاج خاص باستخدام العدديّة الفيثاغورية ،
ورموزها التي سحرت كثيرين من أقطاب الفكر
العربي ، من طراز ابن خلدون ، وقبله جابر بن
حيان .

« ألف عبد وعبد » و « ألف جارية وجارية »
كتابان من جملة كتب سبقت ألف ليلة وليلة ،
حسب الروايات العربية ، وإحصائيات « ليتمان »
Littman .

التسمية جارية على النغم الموسيقي ،
والايقاع العددي ، في تناغم الحروف والالفاظ ،
إذ أن المؤلفين العرب راعوا الناحية الجمالية في
التسمية ، وهم ولوعون بذلك ولوعهم بالأرقام ،
وقد جاء القياس مطابقاً لدى تسمية ألف ليلة
وليلة اقتباساً مما سلف .

ولكي نمتع القارئ بمضحكات أصحاب
الإحاجي ، والتكهنات بخصوص جسد الكتاب
ومؤلفه ، نعرض له طائفة منها . « ليتمان » ذاته
ينسب التسمية إلى واضع تركي . و « الشرواني »
في تقديمه للطبعة الفارسية يزعم أن مؤلفه رجل
سوري لا فارسي ليلقى في الدهن صدى للتجرد ،
والبعد عن العصبية ، وذا يزعمنا أذ ربما كان
هذا المؤلف حسب رأيه سورياً من لبنان ،
واللبنانيون مشهورون بكثرة الأسفار ، وبعد
مطرح الخيال ، وهم من سكان شاطئ المتوسط ،
بحر الحضارات القديمة الخصبة ، ولكي يرينا
هذا « الشرواني » سعة آفاقه يتصور أن الطبعة
السورية قد زيد فيها ، لينافس الفربي دسكاي
Descay في هذا المضمار .

أما « سكوت Scott » فيعلن ، وحسب
ما يحلو له ، أن مؤلفه أكثر من واحد ، والأغرب
ذلك أن « لنجلر » يقول : إن مؤلف هذه القصص
هندي ، وأناي لأعجب كيف أنه لم يصف : أو
صيني ، أو أسترالي أو ... إلى آخر الآراء .

ويعتمد هؤلاء الغربيون الذين فاتهم الفهم
الصحيح ، وأدراك سر التناغم في السبك العربي ،
على قولة للمسعودي في مروج الذهب ج ٤ ص ٨٩
الذي شكك ، وعدد ، مؤلفي الكتاب ، والمسعودي
من عرفناه مخرفاً في معظم ما سجل حول
مشاهداته ، وأسفاره في مروج الذهب ، وإن كان

في الليل جرت حوادث « ألف ليلة وليلة »
هذا الكتاب الذي عد من الصف الأول في مكتبة
العالم . محور شخصه المنمازين قبل الإسلام .
عهد تأليفه بعد الإسلام وفي مجرى عهود الانحطاط
السياسي بعد سقوط بغداد وأن أشرقت كواكب
الأدب الشعبي ، والموسوعات ، والمطولات الأدبية ،
والعلمية .

— من هو مؤلفه ؟

— سؤال جوابه الصمت ، وربما كانت الاسئلة
التي من هذا النسيج تحمل اجوبتها فيها ، أو أنها
أسئلة غنية بالايحاء ، تترك مجال الشوق منفتحاً ،
فكل إجابة تجيء أرخص من السؤال الذي لا
تطفئ رياحها وهجه السحري ، وإيقاعه الفاتن ،
كانه سر من أسرار الحياة ، وملامح الغيوب .

أحدية المؤلف

كاد الكاتبون عن ألف ليلة وليلة يجمعون
بعربهم ، وأعجميهم ، على أن المشتركين في تأليفه
كثيرون ، وهذا ضرب من العجز عن فهم السر
الأدبي في المؤلف ، وهامشية في الدراسة ، نجد
أننا ملزمون — بعد الروية ، والبحث ، أن « ألف
ليلة وليلة » كتاب عربي ، إسلامي ، لمؤلف واحد
وأن ذلك المؤلف غني الموهبة ، بعيد مطارح
الخيال ، كثيف التجارب في الأيام والليالي ، ذو
بع بالتراث العربي القصصي ، وسواه من مقابس
التاريخ الأدبي العام خاصة أدب الفرس والهند ،
واليونان ، وما اختلج في المنطقة العربية من موج
يحتضن بعضه بعضاً بحكايات وأقاصيص من
متنوع ذهنيات الشعوب .

كتاب ألف ليلة وليلة ذو المجلدات الأربعة
بالعربية له مؤلف واحد ، واسلوب متناغم منسق
مرسوم ، حامت حوله الاوهام مثلما حامت حول
« هوميرو » مؤلف ملحمتي الإلياذة والأوديسة .

الشبه بين الاثرين : العربي واليوناني قائم ،
كما أن الشكوك حول التأليف والمؤلف تكاد تكون
منسوجة على نول واحد ، وهذا يضفي على
الاثرين سرابية خيال فياض الألوان .



مما يرسخ الأحدية بصدد تأليف هذا
الكتاب المتع ، أنه جاء امتداداً لخط طويل
عريض في سياق القصص المنطلق من مناخ
الشعب ، وأنه منسوق على شبه بين الملامح
يلتفت إلى ما سبق ، ماحياً كل قول سواه دعت

عنقوان ادبي عربي يستطيل ادبياً استطالة العرب
سياسياً ؟

لعل ظهور ادب الموالي منذ بشار بن برد ،
وابن المقفع ، وابان اللاحقي ، كان مما يلقي شبهة
حول نسبة الكتاب الى مؤلف فارسي ، خاصة
انه مطبوع بملاحمهم ، ويدور حول بطلين هما
« شهرزاد وشهريار » وإن الآداب القديمة التي
خلدت على مر العصور وردتنا في صيغ : الملحمة ،
المرحبة ، القصص بانواعها .

وهنا لابد من سؤال ينبع من جسو البطلين
الذين تدور حولهما حوادث الكتاب ، وهو : الا
يمكن أن يجيء تأليف هذا الكتاب صدى لكليلة
ودمنة ، كرد عربي متخيل في الامتاع ، والتخريف
خاصة انه يقبس بعض نماذج كليلة ودمنة ؟
ويعارض اثر ابن المقفع باللون العربي الاسلامي
الصادق ؟

على أن ادب ابن المقفع المترجم على الاغلب ،
خلا كليلة ودمنة لا يبلغ مدى ادب الجاحظ العربي
الاصل ولا يزيد على ما عرفنا من ادب المقامات ،
وما على شاكلته من طراز ادب أبي حيان التوحيدي
في المقامات ، والامتاع والمؤانسة ، فالتحدي
العربي إذن أصيل فعال .

ثم اذا كان كتاب الف ليلة وليلة ذا منطلق
فارسي ، فهل هذا وحده كاف لتثبيته في
الفارسية ؟ علماً بأن مئات ، بل الاف الكتاب
يضعون لمؤلفاتهم تسميات غريبة عن لفهم ،
ومناخاتهم ، في كل العصور . مثل ذلك أن
« كليلة ودمنة » ذو اصول هندية ، كأصول الف
ليلة وليلة الفارسية ، فهل ان هذا يجعل من
كتاب ابن المقفع كتاباً هندياً ؟

هذا مالا يقول به منصف .

إن الذي يشبث ولادة الف ليلة وليلة بعد
العصر العباسي الرابع ، سيطرة اسمي بغداد
والبصرة ، على معظم مواقف الكتاب ، وهما
آنذاك كانتا في أوج عزهما الحضاري ، وكثافتهما
البشرية ، ولكي نصل الى ما نهدف اليه بالسياق
المنطقي ، نورد ما قاله ابن النديم في الفهرست
ص ٣٠٤ من طبعة ليبزك سنة ١٨٧١ لدى تحده
عن أصل « هزار افسانه » أي الف خرافة :

« ان ملكاً من الملوك كان اذا تزوج امرأة
وبات معها ليلة قتلها من الفد ، فلما تزوج بجارية
من اولاد الملوك ، لها عقل ودراية ، يقال لها

قد فتح باب الادب الرعلي ، وسن سنة شريفة ،
حلوة ، ممتعة لكتاب الرحلات ، بما وردنا من
ادبهم الانساني ، الكوني ، ذي الانطباعات العذبة ،
الطفلة أحياناً .

الى جانب هؤلاء المشككين ، الاحجويين ،
يؤكد الأب صالحاني اليسوعي أن مؤلف الكتاب
عربي ، انطلاقاً من آراء الجهشيارى ، وابن
النديم .

بينما يعتمد « مكدونالد » Macdonald
على الجهشيارى وابن النديم ، وسواهما ، ليعلن
أن مؤلف الكتاب هذه المرة فارسي ، لوجود
أصوله في التسمية التالية : « هزار افسانه » ،
ويشايحه كثيرون في هذا المجال .

لمحة من التاريخ

بعد ، أي شيء يكون كتاب الف ليلة وليلة ؟
— أول من ذكر كتاب الف ليلة وليلة من أدباء
العرب ، ومؤرخيهم الرحالين ، المسعودي ، وهو
من أعيان القرن الرابع الهجري ، بعد عصر
الدويلات ، وقفاه ابن النديم في « الفهرست » .

فمتى ظهر هذا المؤلف العظيم الى الوجود ؟
أفي القرن الثالث الهجري ، مطلقاً ؟
منتصفه ؟ أم ختامه ؟ أو أنه لمع في مطال القرن
الرابع ؟ علماً بأن المسعودي عاش في اطار سنة
٣٣٦ هجرية ، وهو يتحدث عن الكتاب حديثاً
يشير الى بعد مصدره وزمنه بهذه العبارة :

« وهو خبر الملك ، والوزير ، وابنته ،
وجاريتها دينارزاد ... »

هنا يبدو الخلاف واضحاً بين رواية
المسعودي ، وبين نص الكتاب الذي يطلق على
الفتاة اسم « دينارزاد » وأنها أخت « شهرزاد »
لا جاريتها .

الظاهر أن الكتاب ألف بعد عصر هرون
الرشيد ، المحتضن عصر كليلة ودمنة السلفي ،
وأن الرشيد سجل انتصار العنصر الخلافي العربي
على العنصر الوزاري الفارسي ، بينما انساق
بعده عهد الأمين الذي قتل بتدبير أعجمي ليستعين
أخوه المأمون بالسيوف التي مهدت للسفاح
والمصور ، وأجرى المأمون في خلافته ، وهو صهر
الوزير الحسن بن سهل الفارسي تعويضاً عن
قتل الرشيد وزراعه البرامكة .

أليس منطقياً أن يكون الكتاب صدى

وزكي نجيب محمود ، يقرران في مؤلفهما طبعاً
القاهرة سنة ١٩٤٣ صفحة ٤٢٢ ما يلي :

« فكان من القصص الشعبي « الف ليلة
وليلة » ثم ظلت تنمو مع الزمن . وأن قصة
السندباد البحري لم تكن ملحقة بالف ليلة وليلة ،
ويروى أن الجهنشياري ألف كتاباً على نسق ألف
ليلة وليلة ، واختار فيه أسماء من الأمم ، ومات
قبل أن يتمه . »

الكتاب أذن أحدث مدرسة لنا نحوها غير
أديب واحد ، مثلما فعل المتأدبون بصدد سالفه
كليلة ودمنة .

على الرغم من القول بإضافة أقاصيص
السندباد إلى الكتاب ، فإن هذا لا يقـدح في
وحدته ، وأن مؤلفه واحد ، إذ ليس بين أيدي
المقررين أي ثبت على صحة ما يقولونه أكاديمياً ،
ويبقى أن تناغم أجزاء الكتاب ، ووحدته أسلوبه ،
ونسقه المؤلف من ألفه إلى يائه ، وطابعه العام
المنير بنكهة القرابة ، والامتاع ، والجنس ،
يؤكد وحدة فـلذاته ، وأحدية القلم الذي به أشرق
على دهور الناس .

ثم ، أية مدعاة إلى نسبته في مصادر
مختلفة ، من تراث الشعوب القديمة ، وكل ما
فيه يشير إلى عروبه ، وإسلاميته ؟ إذ لا يتفق
عقلاً ولا زمناً أن يكون كاتبه قد جمع فيه مزقاً ،
ونشأ من مختلف آداب العالم ، فأدبه البحري
والبري من مصدر واحد ، بأسلوب متوحد ،
مبني على الطرافة والمغامرة ، اعتمد فيه مؤلفه
على منطلق فارسي للأغراب ، وأن الفرس كانوا
آنذاك مصدراً سحرياً للمؤلفين العرب ، خاصة
في الأدب وعلى الأخص القصص ، لما لهم من سابق
تاريخ مرتبط بأحداث العالم على مدى
إمبراطوريتي اليونان والرومان .

نحن اليوم نفعل في معظم ما نكتب من
القصص مستمدين من الغرب ما فعله العرب
بالنسبة إلى الفرس ، وذلك لم يجعل أدبنا
الراهن غربياً ، أو فارسياً ، على أن الأدب فن ،
والفن لغة الحياة والكون لكل البشر . كتب بديع
الزمان الهمداني مقاماته بالعربية ، وهو من أصل
فارسي فهل تراه صنف لدى تعداد الأدباء إلا في
الصف العربي ؟

وكتب جورج شحادة اللبناني العربي قصصه
بالفرنسية ، فهل نعدّه أديباً عربياً وقد سكن لغة
الآخرين ؟



« شهرزاد » ابتدأت تخرفه ، وتصل الحديث عند
انقضاء الليل بما يحمل الملك على استيقاظها ،
ويسألها في الليلة التالية عن إتمام حديثها في الليلة
السابقة ، إلى أن رزقت منه ولداً ، أظهرته للملك ،
وأوقفته على حيلتها وتدبيرها ، وبراعتها في «اللاهء
والتشويق فاستعقلها ، ومال قلبه اليها
فاستبقاها .» من هنا يبدو أن الكتاب ينطلق من
مناخ فارسي ، وأن مؤلفه يمكن أن يكون بصرياً
أو بغدادياً .

وقد يتراءى لبعض الباحثين أن مؤلف
الكتاب مسيحي ، أو يهودي ، نظراً إلى أن
قصاصين بارعين من المسيحيين واليهود اغتوا
التراث العربي الإسلامي بالقصص المستمدة من
التوراة والانجيل ، من طراز « وهب بن منبه » و
« كعب الأحبار » .

على أن الروافد اليونانية وسواها من
أصداء الوثنية ، تصب في بحر هذا الكتاب ، فهل
من الدواعي أيضاً أن يزعم زاعم أن مؤلفه يوناني ؟
ومن الزاعمين من يرى أن المسلمين يحرمون
التحدث بالخرافات ، وأن بعضهم كان يتوقع
إصابة المتحدث بشر عظيم ، ويفعل هؤلاء الزاعمون
من المستشرقين عن أن العرب عرفوا التخريف
قبل الإسلام وعرفوه في مجرى الإسلام ، وليست
قصيدة ذات القفا للنايفة ، وأخيلة عبقر ،
والاحقاف ، ويبرين ، ثم مادار في فلك التصور
وإن جاء في كتاب اليقين ، القرآن الكريم ، عن
أحوال الجنة والنار ، والجن ، والصور الأدبية
التي تبرز ما عرفنا لهومير ، وفيرجيل ، وفياسا
وقالمكي ، ثم ما شاع بعد ذلك عن أقاصيص
العشق ، وأموور المقامات ، وأخبار الشياطين ،
وكل رأي ، وطيف أو شبح ، مما يتسامح به لدى
الفالين ، ويبين مقدار أوهامهم .

ليس هذا كافياً لتتففيه آراء هؤلاء ؟

روافد الكتاب

أزاء ذلك فما هي أشهر الروافد في الف
ليلة وليلة ؟

جواباً ، يجد الباحث في دوحته جذوراً
هندية ، فارسية ، يونانية ، عراقية ، مصرية ،
شامية ، يهودية ، مسيحية ، ونوافح متنوعة ،
تهب من هنا ، وهناك . على أن مؤلفي كتاب
« قصة الأدب في العالم » الدكتورين أحمد أمين ،

البادية ، واسر ابن المدينة ، الى رحاب الانسنان المثقف الحر ثقافة انسانية متاملة في الكون ، يجد في هذه اللغة التي مدت رواقها على قارات ثلاث ، والامة التي بسطت نفوذها على سائر بقاع الارض المتمدينة مجالا للاستيحاء ، والبحث عن خيوط لنوله الكبير .

- وقد ظهر لي ايضا أن تأثر الف ليلة وليلة بكتاب كليلة ودمنة واضح ، وذلك في مثل حكاية « الحمار والثور مع صاحب الزرع » ج ١ ص ٥ ، و ج ٢ ص ٢٢ و ٣٠ ، و ج ٤ ص ١٣٦ ، كذلك .

- اللون المصري في مثل صفحات ٦ ، ٦٥ ، ٦٨ ، من الجزء الاول .

- اما اللون العراقي فهو يظهر في اكثر من حكاية واحدة ، وإن كان جاء أقل مما هو مشهور عن الكتاب . نظراً الى نسبة هذا المؤلف الى عصر الرشيد ، وتداعي اسم الكتاب واسم الرشيد . وبغداد التي هي بلد الف ليلة وليلة في كل ذهن لقد أحصيت ما يدور حول الرشيد في الكتاب ، فاذا هو نذر يسير لا يتلاءم مع تلك الشهرة الشائعة .

- ولدي تقصي الآثار اليونانية ، فقد وجدتها بينة الملامح في مثل حكاية « حاسب كريم الدين » من الجزء الثالث صفحة ٩٤ ، وذلك عند ذكر الغول الذي هو صدى لسيكلوب « عوليس » بوجه آخر في أوديسة هومير .

كما ان اصدااء حروب طروادة كما وردت في الاياداة ، تبدو في ج ٣ ص ٦٤ .

- الكتاب مملوء بالطابع الاسلامي في إظهاره العام ، غير متخل عن اللون المسيحي كما في ج ١ ص ١٣ .

- والمسحة الهندية تلوح في ج ١ ص ٣ . و ج ٣ ص ١٠٤ .

- على ان الصفة الشامية ، والوجه اليهودي ، يلوحان في ج ٣ ص ١٠ و ١٦ و ٢٧٤ .

- ثم أن الباحث يجد التماعات تشبه ما يجده في رسالة الغفران للمعري ، نلخصها في مثل قصة « بلوقيا » والحية ج ٣ ص ٣٦ .

- كما تظهر معرفة المؤلف بمواقع بلدان العالم القصي مثل القوقاز ، وسيبيريا وسواهما ، مما يشير الى شيوع الدراسات الجغرافية آنذاك ،

أدب البحر قليل في تراث ادبنا العربي ، بالنسبة الى تراث اليونان ، كما ان ادب الرمال قليل لدى ادباء الغرب قاطبة ، وذلك طبيعي . ولولا لمع من شعر امرىء القيس ، وطرفة ، وأدب القرآن الكريم ، وافاق الف ليلة وليلة ، ونسق مقامي من ادب « التحليبي » من اعيان القرن الرابع عشر ، لجاء الادب العربي قاحلا من البحريات وغرائبها .

مؤلف كتاب الف ليلة وليلة ، جسد اصدااء الحضارة باستقرارها واغترابها ، موغلا بين الامواج ، مبتعداً عن سكوت الصحراء ، مائلاً الفراغ بأمتع محتوى ، ولعل البصرة هي التي تلهث بين جفونه . إنه لمن الثابت حسب مجرى حكايات الكتاب ، وفصوله أن المؤلف واسع الخيال ، قوي الذاكرة ، دقيق الملاحظة ، كثير الاسفار ، من سكان الشواطىء ، زاخم الشباب ، خبير بتقاليد الشعوب ، والمجتمعات ، بصير بنوازع النفس البشرية ، واشواق اللحم والدم ، أيام كانت بغداد ، وبعد أن كانت كالعديسة البلورية تجمع ما تفرق من اشعة الشمس ، كجمع بغداد مختلف الامم ، وذوبان الجميع في اطرار واحد ، منسوق على حد قوله « بروكلمن » في كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » .

ملاححه العامة

وقعت عند دراستي الف ليلة وليلة ، طبعة صبيح ، أن المؤلف يعي في ذهنه حكايات لها اصول في تراث كثير من الشعوب القديمة ، كما يظهر اللون المصري ، الشامي ، العراقي واضحاً في معظم قصص الكتاب ، الى الاكثار من التحدث عن بحار الاهوال ، والجزر القريبة ، والقفاريت والظلام ، والسحر ، والفدر ، والمؤامرات ، والضياع ، واللقاء .

ذلك جميعه صدى لروح العصر ، والمجتمع الذي افرخ فيه ادب الف ليلة وليلة ، وتعبير عن أحلام الانسان ورغباته المكبوتة ، ومحاولة لردم الهوة بين الواقع المحروم ، والمؤمل المرتجى ، والتعويض عن السأم والدل ، تخلصاً من طبقة حاكمة مستغلة ، ومن فئة منهارة مهزومة ، الى عالم اللذة ، والاستعلاء ، والاستطالة ولو بالآوهام ... !

ذلك أدب شعب زهد من تقعر الفصحاء ، الى عفوية أدب الشعب ، ومن لغويات المتزمتين الى ادب الحياة المترع بالنعمة ، ومن تحجر ابن

يحقق كل صور الف ليلة ليلة في الواقع ،
واوهامه المنداحة الجميلة ، عدا عن جلالة
وجع الانسان من كونه ، ومختلف طبقات
مجتمعه ، في مجاحفها ، ومتارفها ، صعودها
وهبوطها .

آثره في الفن العالمي والعربي

تأثر بكتاب الف ليلة وليلة كثيرون من ادباء
الغرب وفنانيه ، وظهرت الاقتباسات منه في
القصص ، والمسرحيات ، والافلام ، والشعر ،
والمعارض اللاهية ، مثل ذلك إبحاؤه لازاميل
النحاتين ، وریشات الرسامين ، وتهاويل
الراقصين ، وحكايات الاطفال ، واصبحت ليالي
الف ليلة وليلة عنوانا على ظلال الشرق ، واطيافه
خيالا ، وعدوية ، وسحرا ، إلى مظهر للترف ،
والازمات ، والفواجع ، والمباهج . جميعها ذات
منازع انسانية في الصميم من مضامير الكائن
البشري .

قد تخيلنا اقصيص الكتاب فلا تتوفر في
معظمها الشروط التي تترسمها القصة الحديثة .
ومتى كانت هذه الشروط مقياسا نهائيا للقصص
الخلايا ؟ ومتى كان الفنان الاصيل ملزما بترسم
الخطوط ، والقيود التي يفرضها النقاد او
يفترضونها ؟ وهم إنما قعدوا ورسموا منطلقين
من آثار الفنانين المبدعين الذين هم وحدهم
يملكون المقاييس .

ثم هل في القصص العالمي ما يمنحنا المتعة،
والثقل من الواقع الى عالم الغبطة كالف ليلة
وليلة ؟

يعتبر « ولز » ان كتاب الف ليلة وليلة
أعجب وأطرب قصص البشرية ، كذلك « فولتير »
يعلم انه قرا الكتاب مرات ، وأنه لم يتعلم كتابة
القصة إلا منه ، على أن اقصيص « اندرسن »
وجزيرة « بيكون » السعيدة ، وفردوس « ملتون »
حملت اطياف الف ليلة وليلة .

ومن قيسوا منه ، وعنه « تشوسر » في
تابعه ، و « ديكاميون » في أيامه العشرة و
« بوكاتشو » و « غوليفر » وكثير من كتاب
الرحلات ، إلى جانب الصحف ، والحجاج ،
والتجار ، والمرسلين البشرين ، والصليبيين ، إذ
انهمروا عليه ترجمة ، وإذاعة ، واقتباسا ،
ودراسة ، وقد عنيت المطابع بإصدار أغلى ،
وأجمل النسخ التي بلغت أثمانا خيالية ، نظرا
لصورها ، وتنسيقها ، وإخراجها الرائع .

وأنساع رفعة العالم الاسلامي ، الذي اصطبغ
الكتاب بلونه .

— والمدهش حقا ، المرهص بما يشبه النبوءة ،
ان الكتاب يتحدث عن حروب تلتفت الى
حروبنا اليوم ، إذ استخدم فيها سلاح لا
يختلف عن سلاح عصرنا الذري ، والصاروخي ،
حيث يلوح هذا في ج ٣ ص ٧٢ .

— والجدير بالملاحظة أن في الكتاب لفتات
اشتراكية سبقت الماركسية بمئات السنين ،
هذا ليس عجيبا في عصور الفقر والحرمان ،
وبعد ان عرف الناس اشتراكية « افلاطون »
في الجمهورية ، ومن بعده « مزدك » الفارسي
— الجو العام المسيطر على الكتاب هو جو :
الماكل ، المشرب ، الملبس ، المسكن ، المتع
الجنسية بمختلف ضروبها ، وملاطف حرياتها ،
ثم الغرابة ، والمفاجأة ، والمصادفة .

أسلوب الكتاب :

— ينجح أسلوب الف ليلة وليلة إلى البساطة في
التعبير ، والوضوح ، والركة ، والعامية .

— كما يرسم ثقافة مؤلفه الادبية ، والتاريخية ،
والجغرافية ، منطلقة من موهبة غنية .

— يكثر من ترديد بعض الحكايات ، والحوادث ،
والصور ، والعبارات .

— لا يخلو من السقطات التاريخية مثل ذكره
الناطقة الديباني في عهد عبدالملك بن مروان ،
ج ٣ ص ١٢٣ ولعل الناسخ خلط بين الناطقة
الجاهلي ، وناطقة من النوايع الاسلاميين .

— يصل بعض القصص فيه إلى قمة الروعة ، من
حيث إحكام الحبكة ، وتآزم العقدة ، ولطف
الحل ، كما في الجزء الثاني صفحة ٢٥٨ وذلك
عند حكاية « فرس الآبنوس » ومثلها حكاية
« عبدالله فاضل » عامل البصرة واخويه
ج ٤ ص ٢٦٦ .

ولا تسل عن التفكك ، والسذاجة ، وضعف
النسج ، في كثير من القصص ، غير ناسين أن
المجموعة تتميز بالخيال الرحب ، المثير
للأشواق المهور بالغرابة ، الموشح بالمحال ،
منمازا بطائر الرخ ، وبساط الريح ، والخاتم
السحري (لبك) والقمقم السليماني ، موطن
لأروع اكتشاف في عصرنا الحاضر الذي لما

وقد وقعت على نسخ منه بالفرنسية والانجليزية ، والالمانية فاذا جميعها مظهر لروعة الطبع والاخراج والتصوير .

كثيرة هي الكتب التي سعد بها اطفال اوربا والعالم ، وهل من طفل في الدنيا يجهل حكايات السندباد ، وعلاء الدين ، وعلي بابا ؟

بيد ان الفضل في نقل هذا السفر النفيس الى الغرب يعود الى بعض المشاهير من طراز « جان انطوان غلان الفرنسي » Y. A. Galland الذي قدمه في اثني عشر مجلداً على مجرى القرن الثامن عشر ، كما قبس منه الانجليزي « إدورد وليم لاين E. W. Lane » ثلاثة مجلدات في القرن التاسع عشر ، وريتشارد رد بورتون R. Burten نشره في عشرة أجزاء في القرن التاسع عشر ايضاً .

يضاف الى هؤلاء ما تمادى منه فلذات ، وأساليب ، ومنطلقات ادبية وفنية لدى ادباء وفناني العرب والشرقيين .

إسلامية الكتاب :

كتبت أقاصيص الف ليلة وليلة بلغة عربية ، في حضن الاسلام .

الاديب الفاطمي « يوسف بن اسماعيل » ألف سيرة عنثرة وانطلق بها من الواقع الى آفاق الاسطورة ، مواكباً صوراً جلييلة من الايالة والاوديسة ، والمهابهاراته والراميانا . والانيادة .

لعل ادبياً من طراز يوسف بن اسماعيل ألف كتاب ألف ليلة وليلة في المناخ العربي والاسلامي ، فالخيال في سيرة عنثرة ، وأخوات لها من نسق « الملك سيف » و « البهلوان » ليس غريباً عن الخيال في قصص ألف ليلة وليلة وان كانت الموضوعات على تباين .

عنثرة الاسطوري تزوج امرأة من الجن فولدت له « الفضبان » وهذا كان يضرب بعموده الجبل فيشقه نصفين ، مثلما فجر « جوف » في الانبياءة الجبل فجرت رياح كالخيول مطلقة الأعنة ، وكذلك فإن الزواج بالجنيات في ألف ليلة وليلة كثير ، ومثله تعرف الفرسان بعناصر الطبيعة ، وقريب منه حب « نوسكا » جنينة البحر البطل عوليس .

كذلك فان المتاعم والمتارف لدى « السيرة » والف ليلة وليلة متشابهة ، وربما كان اختفاء

اسم المؤلف سببه ان الكتاب يحشد كثيراً من صور الوثنيات ، واللذائذ الحسية ، والدعارة الجنسية : تلك التي تلذ القارئ بمقدار ما تتجافى عن الصيانة الاسلامية ، ووقار العلماء ، لذا عمد المؤلف الى الانطلاق من موضوع نسبه الى « الفرس » ثم انساح في آفاق خياله .

الادب الشعبي البطولي جاء تعويضاً عن فقدان البطل ، أو المثل الاعلى ، وملاً لفرغ الحرمان ، وصدى للأحلام المستفيضة ، وإشباعاً لنهم أدبي يطلب صاحبه الإبداع والخروج بجديد على خط التقليد الملتزم ، الجاف ، في عصر فسدت امور السياسة ، وتفرقت أجزاء الامبراطورية العباسية مزقاً ، وتعرضت لهجمات مرعبات من مختلف الجهات .

الفاظ ألف ليلة وليلة ، جملة ، صوره ، اصطلاحاته ، فواتحه ، معارضه ، خواتمه ، من نسق واحد .

الدعوات ، التمنيات ، العصبية الاسلامية ، اللعب بالزمن ، تخطي حدود الامكنة ، ازدهار عالم الكتاب بالمتارف ، وانفجازه بالأساسي ، كل ذلك منسوق مرتسم على خارطة الجنة والنار واصداء البعث والقيامة ، لدى القرآن الكريم ، كذلك فإنه لهاث المجتمعات والمدن والتقاليد والاخلاق . كل ذلك ممهور بالطابع العربي الاسلامي ، بعيداً عن اجواء مدن الفرس وسواها ، بعداً قاصياً .

اذا كانت الاسماء في بعض الاحيان اجنبية ، فان المحتوى عربي اسلامي . ذلك لا ينقص من قدر الكتاب أو يزيده ، فحقيقة مقداره انه وجد ، وأنه كتاب عالمي .

معظم متارفه وتمعنه صدى لمتارف ومتاعم الجنة .

أكثر مظاهر العذاب فيه من اجواء جهنم ، والجانبان من مرسومات القرآن الكريم .

— السعلاة ، عيقر ، وبار ، الشيصبان ، الغول ، صور من الجاهلية .

— الجحيم ، الجنة ، الزقوم ، السندس الاخضر ، الانهار ، العسل ، من ادب الاسلام .

— صور المقامات (الهمداني ، الحريري ، الزمخشري) تلتفت إليه .

— خيال رسالة الغفران له إليه خيط .

الذي توقفت فيه عن الجري ، وقد يخلط الكتاب
أشياء التاريخ خطأ فلا يستبين صواب ، فما
العمل ؟

العبرة وحدها هي التي تشير الى الزمان
والمكان كما أسلفنا .

العبرة : كلمات فصيحة ، الى عامية ، سوقية ،
تسلك سبيل السجع ، والتكرار أحيانا وتجري
على التقليد الاسلامي في البدء والختام ، وفيها
من الدعاء ، والاستغفار ، أشياء عدة ، كما يكثر
فيها الالتجاء الى الفاظ : العدل ، الظلم ، الخير ،
الشر ، الخيانة ، الوفاء ، الحيلة ، اليأس ، المتع ،
البائس ، السحر ، الطلاس .

أما الكوكب الذي يدور في إطار تلك الليالي
فهو الجنس بكل أشواقه ، ومفاجاته ، ومكائده .
ذلك جميعه ملحوظ منذ عصر الدويلات
شائع زاهر في عصور سموها عصور الانحطاط ،
حتى آخر عهد المماليك .

لا يبعد ان تكون كتب القصص الشعبي لهت
في آفاق عصر الصليبيين ، وحوله ، حيث شاع
فكر المغامرة ، والبطولة ، طلباً للمثال النادر ،
وانتظاراً المخلص ، وتعويضاً عن واقع منسحق ،
أو تسلية للناس بعد أن شاع خيال الظل لابن
دانيال .

أبداع القصص سنّة درجت عليها الشعوب ،
ساعة تهرب النفوس من الواقع الملموس ، الى
داخل النفس ، فينطلق الخيال ، وتلتفت
الذاكرة ، شأنهم في ذلك شأن الذين الزمهم
الطبيعة القاسية بزهريرها ، وتلوجها أن
يوغلوا في سرايب الذات ، وينطلقون في آفاق
الخيال ، ليتدعوا في القص .

ثم إن الجمع ، والاقتباس ، والاخترع ، ثلاثة
وجوه تطل من جسد ألف ليلة وليلة ولكنها
بما فيها من جانب الاختراع وحده ، مدينة
بخلوها ، وروعة بنيانها ، واجمل ما فيها
قصة « عبدالله فاضل » .

تلك الاسماء : شهريار ، شهرزاد ، دنيازاد
لوسيقاها ، ولانتمائها الى لغة تداخلت في ادب
العرب منذ عهد الامويين ، واستطالت في عهد
العباسيين ، أصبحت في عهد الدويلات تجنح
نحو الذكرى من جهة ، ونحو التركيز من
أخرى ، مثلما دفعت العربية بالآلاف الكلمات في
بحيرة تلك اللغة ، فأغنتها ، ونسبتها .

— أسدء جمهوريّة أفلاطون وما ترمى الى
المسلمين من تراث الامم الاسطوري ، وبعض
الصور الفلسفية في خيال الاندلسيين
والمشاركة مما نشتم عبره فيه ، وكل ذلك
لعب دوره في تكوين جسد ألف ليلة وليلة .

إنه ادب الكادحين البائسين ، يتحدى ادب
الارستوقراطية المستلين لظلال القصور ، واسماع
السادة المتسلطين

هو ادب الحياة الصادق ، فوق ادب الصنعة
الموارب ، يعرض صوراً لقلب الانسان وأحلامه ،
ونوازهه ، على مشارف أبناء الدهور .

جسد الكتاب :

استهل المؤلف كتابه بتقليد جرى عليه
الاسلاميون ، فبسمل ، وصلعم ، ودعا للمؤمنين ،
ثم اشار الى غرضه من تأليف الكتاب ، وهو المائل
في العظة والعبرة ، بسرده الاخبار ، والحكايات
عن احوال الافراد ، والشعوب .

موضوع العبرة ، وبيان عجيب صنع الله
في خلقه ، درج عليه مؤلفو الاسلام ، وعلى الأخص
شيخ مفكرهم وادبائهم ، الجاحظ .
« حكي والله اعلم ، انه كان فيما مضى
من قديم الزمان ، وسالف العصر والاولان ، ملك
من ملوك ساسان ... »

— « والله اعلم » تقليد إسلامي شائع .

— أما السجع فهو من التزامات المتأخرين ، بدءاً بابن
العميد ، فالصاحب بن عباد ، فالهمداني ومن
جاؤوا بعدهم .

— « قديم الزمان ، وسالف العصر والاولان »
عبارة شاعت في مآثور الادب الشعبي .

— « ملك من ملوك ساسان » تحديد نسبة الكتاب
الى مرجع فارسي ، ومن هنا توهم المتوهمون
أن مجرد نسبة الملك الى اصل اجنبي يستلزم
أن يكون الكتاب كما نسب للناسب ، ولم يدر
في خلد الواهمين انها طريقة للكتابة ، ورغبة
شائعة ومن هنا اضطرب شأن الجهشياري
من القرن العاشر ، كما حدد بعضهم زمن
ظهوره في مطالع القرن السادس عشر ، وآخر
دولة المماليك .

الكتاب لا يعين زمن ظهوره ، أما حوادثه
فتبدأ في عهد الساسانيين ، ولا تحديد للزمن

قد لا يلتزم الشعر المخترع أشياء النحو والعروض شاعت في ثنائها مقابسات من أقاصيص الشعوب وملاحمها ، بدأت بتقليد درجت عليه : « بلغني أيها الملك السعيد ... » وأنهت كل حكاية ب : « وأدرك شهريزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . » تلعب خيانة المرأة فيها الدور الأهم ، إلى جانب شكوك الرجل وقسوته ، وتنتهي بتفاهم شهريار وشهريزاد .

الكتاب عربي إسلامي تميز بالقدرة على الامتاع ، وتخطي الزمان والمكان ، مؤلفه موهوب خصب ، ومثقف أريب ، وتأثر على أوضاع المتسلطين ، منهزم على أشياء الشعب والمحرومين لم تجر أقاصيص الكتاب على النسق الفني للقصة الحديثة التي شاعت في الغرب منذ القرن الثامن عشر ، واستعلت في التاسع عشر ، ولكنها تبقى رغم ذلك نموذجاً عالمياً للقصص الرائع ، لا تبلى ملاحظته ، وممتعته على توالي الدهور .



المراجع

- ١ - الف ليلة وليلة : مجلدات ، طبع صبيح - القاهرة .
- ٢ - الف ليلة وليلة : سهر القلماوي .
- ٣ - معجم المطبوعات العربية : خليل سركيس .
- ٤ - قصصنا الشعبي : دكتور فؤاد علي .
- ٥ - من أحوال الأدب : أحمد حسن الزيات .
- ٦ - القصة في الأدب العربي : محمد يوسف نجم .
- ٧ - فن القصص : محمود تيمور .
- ٨ - دائرة معارف البستاني . ف . أفرام .
- ٩ - دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية . E. D. l'Islam .
- ١٠ - قصة الأدب في العالم : للدكتورين أحمد أمين وزكي محمود .
- ١١ - الف ليلة وليلة : ميخائيل عواد - بغداد .
- ١٢ - الف ليلة وليلة : لفاروق سعد - الأهلية - بيروت .
- ١٣ - الف ليلة وليلة : القاهرة - الدراسات الأدبية .
- ١٤ - الف ليلة وليلة : تحقيق العدوي - بولاق .
- ١٥ - الف ليلة وليلة : المطبعة الكاثوليكية - بيروت .

معظم أبطال تلك الأقاصيص فرسان ، تتشوق النفوس إلى الفرح بمآتيهم ، وتترقب انتصاراتهم .

العبيد والجواري ، والاماء ، يلعبون دوراً هاماً في مجرى حوادث الكتاب وأخصها : الغدر العشيق ، والخدمة ، والفتك ، والسحر ، شأنهم قديماً كشأنهم اليوم ، فالأسود يختزن في جسده حرور شمس ، فهو لذلك مقصد المشتبهات .

العفاريت عنصر هام من عناصر الف ليلة وليلة ، فهم رمز الزمان الذي يتبدل ، ويبدل وهم مفاتيح الخرافة والأسطورة ، إذ أن العاجز عن وعي وجوده ، يلجأ إلى كل مغيّب وخفي ليحلّ عقد حياته .

الحقد ومظهره الغضب والانتقام ، حل شائع في الكتاب .

الخلاص خاتمة مبهجة لأقاصيص الف ليلة وليلة ، تأكيداً على أنها من بنات الاختراع مقصوبة على مد الأهواء ، والنوازع .

الموت وجه راصب ، يترصد تلك النفوس التي تتحرك شخصاً مع مسرح الكتاب ، وهو « هادم اللذات ومفرق الجماعات » وكثيراً ما ينتهي لتولد منه حياة جديدة .

طائر الرخ ، الجواهر الكريمة ، الأماكن الغريبة ، الجنيات ، التحكم بالزمان من روائعه السحرية .



« الف ليلة وليلة » مجموعة أقاصيص خيالية ، بعضها يلهث فيه الواقع ، مؤلفها واحد غير معروف ، وزمن ظهورها لا يبتعد عن فلك الماليك والصليبيين ، لغتها بين العامية والفصحى ، رصّعت بشعر مخترع ، ومروي ،

بغداد في مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام

بقلم

هدي شوكريه نعام

مجلة المورد - دار الجاحظ - بغداد

أما أقدم المخطوطات المصورة التي تنسب إلى مدرسة بغداد فهي :

كتاب البيطرة .

كتاب الترياق لجالينوس .

كتاب الحشائش أو خواص العقاقير لديسقوريدس .

كتاب الحيوان للجاحظ .

كتاب الحيل الميكانيكية أو « كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل » .

كتاب صور الكواكب الثابتة .

المدرسة البغدادية الحديثة .

يقع البحث في ٢٦ صفحة .

٣ - ملامح مدرسة بغداد لتصوير الكتاب للاستاذ نوري الراوي ويبحث في الموضوعات التالية:

أصول المدرسة العراقية لتصوير الكتاب .

معاني تصورات المصور البغدادية وخصائصها .

نظرة (عين الطائر) أو النظرة الشمولية عند

المصور البغدادية .

اللامح الرئيسة لمدرسة بغداد من خلال رسوم

الواسطي لمقامات الحريري .

بعض المخطوطات العراقية المصورة :

كتاب البيطرة ، كتاب خواص العقاقير

لديسقوريدس ، كتاب كليلة ودمنة .

يقع البحث في ١٨ صفحة وهو مترجم إلى

اللغة الانكليزية في خمس صفحات .

أسهمت وزارة الثقافة والإعلام في إصدار مجموعة طيبة من الكتب التراثية عن بغداد بين دراسة وتحقيق ، وقد رأيت أن أعرض للقراء طائفة منها .

مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي

تراث الرسم البغدادية

ملامح مدرسة بغداد لتصوير الكتاب

أقامت وزارة الاعلام مهرجانا للواسطي في نيسان سنة ١٩٧٢ صدرت خلاله سلسلة فنية خاصة ، اخترت منها البحوث التالية :

١ - مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي للدكتور زكي محمد حسن : تضمن بعد المدخل الموضوعات التالية :

تسمية هذه المدرسة .

عصر هذه المدرسة ومراكزها الفنية .

موضوعات التصوير في مدرسة بغداد ،

مخطوطات الكتب العلمية المزوقة ، مخطوطات

الكتب الادبية المزوقة .

خصائص الاسلوب البغدادية في التصوير .

مصادر الاساليب الفنية في مدرسة بغداد .

يقع البحث في ٣٨ صفحة .

٢ - تراث الرسم البغدادية للدكتور محمد مكية : ابتداء بمقدمة عن دراسة فن التصوير الاسلامي في مدرسة الرسم البغدادية وحوى الموضوعات التالية :

نشأة التصوير الاسلامي في بغداد .

مميزات فن التصوير البغدادية .

ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد

وقد صورت مكتبة الاوقاف العامة ببغداد نسخة من هذا المجلد ، وحفظ في خزانها بالرقم (٤٥) .

والمجلد الثاني من نسخة المنذري محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس تحت رقم (٥٩٢٢ عربيات) ويقع في ٢٤٦ ورقة وهذا المجلد هو تكملة للمجلد الاول المحفوظ في مكتبة (شهيد علي) ويشبهه بالوصف والخط والعنوان وملكية المنذري له المثبتة على طرة المجلد الذي يبدأ بحرف الحاء المهملة وينتهي بآخر الجزء الثالث والاربعين من الاصل ، فرغ من نسخه سنة ٦٣٦ هـ بمقصورة الخطابة من جامع دمشق .

واعتبر المحقق هذه النسخة اصلا لانها ادق النسخ في الخط واقدمها ، ولانها نسخة المنذري الرجل المليء بفن التراجم ، ولاحتوائها على قراءة بعض العلماء لها .

٢ - نسخة المكتبة الاهلية بباريس (رقم ٥٩٢١) ، وهي تتكون من (٢٩٩) ورقة ، في كل ورقة (٢٣) سطر وفي كل سطر ١٠ - ١١ كلمة وخطها تعليق (فارسي) . وهي منسوخة من الجزء الاول الذي في مكتبة شهيد علي ، لكن لا يعرف ناسخها ولا تاريخ النسخ ، وفيها خروم وسقطات .

٣ - نسخة المكتبة الاهلية بباريس (رقم ٢١٣٣) وهي تتكون من ٢١١ ورقة في كل ورقة ٢١ سطرا ، وفي كل سطر ١٠ كلمات ، والعناوين مكتوبة بخط اكبر وخطها واضح منقط لا يسير على نمط معروف من انواع الخطوط العربية لكنه شبيه بالنسخ .

وهذا المجلد هو المجلد الثاني من نسخة لا يعرف لها وجود ، واول هذا المجلد : ذكر من اسمه احمد واسم ابيه اسماعيل ، وينتهي بانتهاء الحاء المهملة . وهذه النسخة غير مؤرخة ، وقد استنتج المحقق بانها متأخرة نسبيا وليس لها فائدة لوجود تراجعها في نسخة المنذري .

٤ - نسخة كيمبرج (رقم ٢٩٢٤) وهي تتكون من ١٨١ ورقة في كل ورقة ٢٥ سطرا خطها مشق اعتيادي لا التزام فيه بقواعد الخط المعروفة ، وقد ذهب اولها وبقي من بدايتها عجز ترجمة ابي الخير عبدالله بن عبدالله الروحي الجوهري ، وينتهي المجلد بنهاية حرف العين من تاريخ ابن الديبشي ، وهذه النسخة هي المجلد الثالث من نسخة لا علاقة لها بالنسخ السابقة وهي تفيد في تكملة نسخة المنذري المشار اليها سابقا وتبدأ من ترجمة « علي

ضمن سلسلة كتب التراث (٣٦) قام الدكتور بشار عواد معروف بالتحقيق والتعليق على المجلد الاول من كتاب « ذيل تاريخ مدينة بغداد » تأليف الحافظ ابو عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الديبشي المولود في سنة ٥٥٨ هـ والمتوفى في سنة ٦٣٧ هـ ، تم الطبع ببغداد سنة ١٩٧٤م / ١٣٩٤ هـ ، في ٣٦٨ صفحة وقد ابتداء الكتاب بكلمات قالها المؤرخون في ابن الديبشي ثم مفاتيح الكتاب والملاحظات ، وتقديم للمحقق جاء في ٦٤ صفحة حوى الموضوعات التالية :

عناية العرب بتاريخ جماهير الامة .

تواريخ المدن .

تواريخ بغداد التراجمية .

سيرة ابن الديبشي .

سيرة موجزة جدا لحياته .

مكانته .

تاريخ بغداد لابن الديبشي .

موارد تاريخ ابن الديبشي .

اهمية تاريخ ابن الديبشي .

نسخ الكتاب .

المختصر المحتاج اليه : هل هو « كتاب » ؟

نهج العمل في التحقيق .

وقد اعتمد المحقق على اربع نسخ مخطوطة :

١ - نسخة المنذري : المجلد الاول موجود في مكتبة شهيد علي باستانبول يحمل الرقم ١٨٧٠ ويقع في ٢٤٦ ورقة من ضمنها طرة النسخة في كل صفحة منه ٢٢ - ٢٣ سطرا وفي كل سطر ١٠ - ١١ كلمة . اوله بداية الكتاب (وهي الخطبة) وآخره حرف الجيم ، وهذه النسخة مكتوبة بخط دقيق ، وعليها خط الامام زكي الدين ابي محمد عبد العظيم المنذري المصري المتوفى سنة ٦٥٦ هـ بملكية النسخة . ويشمل المجلد اثنين وعشرين جزءا حديثا وقد كتب سنة ٦٣٥ هـ بخط مشق اعتيادي لا التزام فيه بقواعد الخط المعروفة ، وفي اسفل الورقة الاخيرة من الجهة اليمنى على الحاشية كلمة « معارضة » للدلالة على ان النسخة مقابلة على الاصل المستنسخة منه ، وعلى النسخة ايضا قراءات لبعض العلماء مثبتة بخطهم ، منهم : ابن الصابوني المتوفى سنة ٦٨٠ هـ وصاحب كتاب « تكملة اكمال الاكمال » ، وفي النسخة خطأ في التجليد ادى الى تقديم تراجع وتأخير اخرى واختلاط بعضها ببعض ،

الاسماء المفردة في حرف الباء في آباء من اسمه محمد .

حرف التاء في آباء من اسمه محمد ،
٩٦- محمد بن تركانشاه ، ابو الوفاء
الحاجب .

حرف الشاء في آباء من اسمه محمد ،
٩٨- محمد بن ثابت بن يوسف بن عيسى ،
ابو بكر النحوي .

حرف الجيم في آباء من اسمه محمد ،
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه جعفر ،
٩٩- محمد بن جعفر بن عقيل البصري الاصل
البغدادي المولد والدار ، ابو العلاء .

حرف الحاء في آباء من اسمه محمد ،
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه الحسن ،
١٠٥- محمد بن الحسن بن علي الواعظ .
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه الحسين ،
١٢٧- محمد بن الحسين بن احمد بن
حمدون بن يحيى المقرئ ، ابو غالب العدل .
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حمزة ،
١٤٨- محمد بن حمزة بن محمد بن عبدالعزيز
ابن علي ، ابو عبدالله

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حامد ،
١٥٥- محمد بن حامد بن فارس بن الحسين
الذهلي ، ابو الحسين .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حمد .
١٥٩- محمد بن حمد بن اسماعيل الهمداني .
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حيدرة ،

١٦١- محمد بن حيدرة بن عمر بن ابراهيم
ابن محمد بن محمد بن احمد بن علي . . . ابو المعمر
ابن ابي المناقب العلوي الحسيني الزيدي .

الاسماء المفردة في حرف الخاء في آباء من
اسمه محمد ،

حرف الخاء في آباء من اسمه محمد ،
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه خلف ،
١٦٦- محمد بن خلف ابن الخشاب ، ابو
الحسن البزاز .

ان الحسن بن عبدالله بن هبة الله المعروف بابن
المسلمة « والى نهاية المجلد .

ومن مجموع هذه النسخ نحصل على تراجم
جميع « المحدثين » وباقي الكتاب الى نهاية حرف
العين ، ولعله يكون اكثر قليلا من ثلثي الكتاب .

وتنتهي المقدمة بخمس صور من مختلف النسخ
التي اعتمدها المحقق في تحقيقه .

ويبدأ الكتاب بمقدمة المؤلف ثم ذكر من اسمه
محمد واسم ابيه احمد ،
ويحوي تراجم :

١ - محمد بن احمد بن سليمان بن ابراهيم
الخطيب ، ابو الفنائم يعرف بابن القاري .

ويستمر الكتاب على هذه الطريقة :
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ابراهيم ،
٧٠- محمد بن ابراهيم بن عبيد الله الواعظ ،
ابو الفتح .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسماعيل ،
٧٨- محمد بن اسماعيل بن الحسن بن عبد
العزيز الضبي ، ابو عبدالله .
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسحاق ،

٨٢- محمد بن اسحاق بن محمد بن هلال
ابن المحسن بن ابراهيم بن هلال بن زهرون ، ابو
الحسن بن ابي نصر بن ابي الحسن بن ابي الحسين
ابن ابي علي بن ابي اسحاق الصائغ الكاتب .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسعد ،
٨٤- محمد بن اسعد بن محمد بن نصر
البغدادي ، ابو المظفر المعروف بابن حكيم الفقيه
الحنفي الواعظ .

الاسماء المفردة في حرف الالف من آباء من
اسمه محمد .

حرف الباء في آباء من اسمه محمد ،
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه بركة ،

٨٩- محمد بن بركة بن خلف بن الحسن بن
كرما الصلحي الاصل ، ابو بكر .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه بختيار .
٩١- محمد بن بختيار بن عبدالله ، ابو عبدالله
الشاعر المعروف بالابنكته .

حرف الدال في آباء من اسمه محمد ،

١٧٣- محمد بن دلف بن كرم بن فارس العكبري الاصل البغدادي المولد والدار ، ابو الكرم ابن ابي لفرج .

حرف الدال في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ذاكر ،

١٧٤- محمد بن ذاكر بن محمد بن احمد بن عمر الخرقى ، ابو بكر .

حرف الراء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ريحان ،

١٧٦- محمد بن ريحان بن عبدالله الثقتي ، ابو عبدالله .

الاسماء المفردة في حرف الراء في آباء من اسمه محمد ،

حرف الزاي في آباء من اسمه محمد ،

١٨١- محمد بن زيد بن ابي نصر ، واسمه احمد ، بن علي بن بارس ، ابو محمد ،

حرف السين في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعد ،

١٨٢- محمد بن سعد بن سعيد ابن التاريخ ، ابو البركات الفسال يعرف بالحنبلي .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعيد ،

١٨٩- محمد بن سعيد بن محمد بن عمر ابن الرزاز ابو سعد بن ابي منصور .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعد الله ،

١٩٤- محمد بن سعد الله بن محمد بن عمر ابن سالم ، ابو عبدالله .

حرف الصاد في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه صدقة ،

١٩٨- محمد بن صدقة بن محمد ابن البوشنجي ابو المحاسن الكاتب .

الاسماء المفردة في حرف الصاد في آباء من اسمه محمد .

حرف الطاء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه طاهر ،

٢٠٣- محمد بن طاهر الاندلسي ، ابو عبدالله .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه طلحة ،

٢٠٦- محمد بن طلحة بن علي بن احمد بن الحسين بن عمر العامري ، ابو احمد المالكي .

حرف الظاء في آباء من اسمه محمد ،

٢٠٨- محمد بن ظفر بن احمد بن ثابت بن محمد الطرقي ، ابو عبدالله بن ابي الغنائم بن ابي العباس .

وهذه الترجمة هي الاخيرة في الكتاب وبها ينتهي المجلد الاول ، يليه المجلد الثاني واوله حرف العين في آباء من اسمه محمد ، وهو قيد الطبع الان .

والكتاب مزود بفهارس عامة للمترجمين ، والاحالات ، والامكن ، والكتب الواردة في المتن ، والاحاديث النبوية ، والقوافي ، ونظم الدولة المباسية ، وجريدة المصادر والمراجع ، والمحتويات .

الدرس النحوي في بغداد

ضمن سلسلة الكتب الحديثة (٧١) نشر الدكتور مهدي المخزومي كتاب الدرس النحوي في بغداد ، ويتضمن الموضوعات التالية بعد المقدمة والتمهيد .

الكسائي ، علي بن حمزة (توفي سنة ١٨٩هـ) اصحاب الكسائي .

الفراء ، ابو زكريا يحيى بن زياد (توفي سنة ٢٠٧هـ) اصحاب الفراء .

ثعلب ، ابو العباس احمد بن يحيى (توفي سنة ٢٩١هـ)

خصائص المذهب البغدادي .

غلبة المذهب البصري ،

كوتولدايل ومدرسة الكوفة

بروكلمان ومدرسة الكوفة

شوقي ضيف ومدرسة الكوفة

تلاميذ ثعلب والمبرد .

الطائفة لاولى جماعة ثعلب

الطائفة الثانية جماعة المبرد

الطائفة الثالثة جماعة ثعلب والمبرد معا .

الدرس النحوي في القرن الرابع :

ابن خالويه

ابن فارس
ابو الطيب المتنبي

الدرس النحوي في الآفاق :

- ١ - الدرس النحوي في مصر
- ٢ - الدرس النحوي في الاندلس

شعوب البغدادية وتاريخه

التسمية بالكوفية

شوقي ضيف والمذهب البغدادي المزعوم
الانصاري والمدرسة البغدادية المزعومة

خاتمة البحث .

وقد زود الكتاب بفهارس عامة لاعلام الاشخاص والكتب الواردة في صلب البحث ، والآيات والاشعار ، وانصاف الابيات ، اضافة الى مصادر البحث ومراجعته وفهرست الموضوعات . وقد تم طبع الكتاب ببغداد سنة ١٣٩٥/١٩٧٥ ، وجاء في ٢٨٠ صفحة .

بغداد مدينة السلام

في سلسلة التراث (٦١) صدرت سنة ١٩٧٧
الطبعة الاولى من كتاب « بغداد مدينة السلام » لابن
الفقيه الهمداني : احمد بن احمد بن محمد بن
اسحق بن ابراهيم الاخباري ابو عبدالله . بتحقيق
الدكتور صالح احمد العلي حيث ابتداه بمقدمة عن
« كتاب ابن الفقيه الهمداني عن بغداد واهميته »
درس فيها الموضوعات التالية :

مكانة بغداد ، الكتب المؤلفة عن بغداد ، ابن
الفقيه الهمداني وكتابه في البلدان ، محتويات
الكتاب ، مصادره ، ابن الفقيه والخطيب ، ابن الفقيه
الهمداني وياقوت ، مدح بغداد وذمها ، يزديجرد
وكتابه في فضائل بغداد ، كتب الفضائل ، فضائل
مصر ، محتوى كتاب يزديجرد ، الحمامات .

وقد اعتمد المحقق على نسخة فريدة مصورة
عن مخطوطة مشهد اعارها له الاستاذ بول كاله ،
ونسخة اخرى مصورة عن الصورة التي اقتناها
معهد الدراسات الاسلامية اعارها له الدكتور
حسين محفوظ وهذه النسخة اوسع من المختصر
المطبوع لكتاب البلدان الذي نشره دي غويه ضمن
السلسلة الجغرافية العربية ، ومن المقتطفات التي
اقتبسها ياقوت من معجم البلدان والاشعري في
تاريخ قم . فهذه النسخة كثير من مادتها موجود
في المختصر ، الا انها تحوي مادة اضافية غنية عن

جباية العراق وسامرا وواسط ومفاخرة لاهل
البصرة وفصلا واسعا عن بغداد ، هو المقصود
بالنشر في هذا الكتاب . ثم طبع فصل بغداد من
كتاب الهمداني في باكو بالزنگراف مع مقدمة
بالروسية عن بغداد ، وهذا المطبوع نادر وخال من
التعليقات . وفي هذه المخطوطة الفريدة بعض
الثغرات سببها النسخ كالبتر في الكلام عن المقابر ،
وكذلك توزيع المادة المتعلقة بموضوع واحد على اكثر
من مكان ، وبعض النصوص المقحمة التي لا تنسجم
في مادتها مع ما قبلها او بعدها ، ويعود هذا
الاضطراب في توزيع المادة ايضا الى التجليد .

ثم ان هذا الفصل الخاص ببغداد ليس له
الا عنوان عام هو « القول في مدينة السلام » والكلام
بعده سرد متتابع غير مقسم الى فصول صفري او
 فقرات مميزة .

ويتضمن الكتاب الموضوعات التالية بعهد
العنوان العام « القول في مدينة السلام بغداد » .

- اسمها .
- تأسيسها .
- غارة المثنى .
- بحث المنصور عن عاصمة .
- اختيار الموضع .
- جمع العمال .
- استخدام ابي حنيفة .
- السور .
- موقعها .
- قصة المقلاص .
- التخطيط .
- اهمية التدوير .
- وصف المدينة .
- محاولة هدم ايوان كسرى .
- الاسواق
- ابنية اخرى .
- تاريخ اكمال البناء .
- بناء الرصافة .
- تكاليف البناء .
- النجوم .
- شعر في مدح بغداد .
- تاريخ التحول .
- الموكلون بالبناء .
- الابواب .
- القرى في موقع بغداد .
- القطائع .

- مقدار الاستهلاك من دهن البزر .
- استهلاك البقول .
- استهلاك الاعشاب .
- عدد المنازل .
- استهلاك اللحم .
- توفر المحاصيل .
- توفر الادوية .
- عود الى استهلاك اللحم .
- المحاصيل الاخرى .
- بيوت الشطرنج .
- اقوال في مدح بغداد .
- ما ذكر في ذم بغداد وكراهة نزولها .
- اقوال من ذم بغداد .
- نهر دجلة .

وجمع المحقق في نهاية الكتاب كلا من هوامش المقدمة والنص ويشمل : هوامش القول في مدينة السلام بغداد ، هوامش يزجرد ، هوامش رجع الى كلام يزجرد ، ثم وضع فهرسين للاعلام ، والامكنة والبلدان ، هذا والكتاب يقع في ١٩٢ صفحة وقد طبع في دار الطليعة بباريس .

تاريخ حوادث بغداد والبصرة

عن سلسلة كتب التراث (٧٣) صدر كتاب « تاريخ حوادث بغداد والبصرة من ١١٨٦ الى ١١٩٢ هـ / ١٧٧٢ - ١٧٧٨ م » تأليف عبدالرحمن بن عبدالله السويدي البغدادي المولود سنة ١١٣٣ هـ (١٧٢٠ م) في الفترة الاخيرة من حكم والي بغداد حسن باشا (تولى بغداد من ١١١٦ الى ١١٣٦ هـ / ١٧٠٤ - ١٧٢٣ م) والمتوفى سنة ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م) حقق الكتاب وقدم له وعلق عليه الدكتور عماد عبد السلام رؤوف وقد طبع ببغداد سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م في ١٦٨ صفحة .

ابتدا الكتاب بتمهيد للمحقق عن دراسة تاريخ العراق واهمية كتاب السويدي ومضمونه ومكانته ، والنسخة التي حقق الكتاب عليها ، ومنهج التحقيق ، ثم يقدم دراسة عن « مؤلف الكتاب عبد الرحمن السويدي » تتضمن الموضوعات التالية :

- اسرته ، سيرته ، آثاره :
- اولا - في التاريخ والسير .
- ثانيا - في الفقه .

- العباسية .
- معالم اخرى .
- رحا البطريق .
- الجسور .
- الجانب الشرقي .
- السويق .
- مساحة بغداد .
- مدح بغداد .
- عود الى الاقطاعات .
- نزول الخلفاء بها .
- سامرا .
- نص مقحم .

يزدجرد بن مهبنداد .

- مناخ بغداد .
- علماء بغداد .
- المنتجات الزراعية .
- الازدهار الصناعي .
- شهرة منتجات بغداد .
- منتجات مصر .
- تمور بغداد .
- القطن .
- النمو العمراني .
- مدح بغداد .

كلام السرخسي .

- اخطار توسع بغداد .
- خصائص مواقع مدن العراق الاخرى .
- ميزات بغداد .
- خصائص الموقع .
- دجلة والفرات .
- عود الى خصائص الاقاليم .
- العراق مركز الدول الكبيرة .
- خصائص الاقليم الرابع .
- من اسباب انهيار الامويين .
- خصائص المنصور .
- لم يمت ببغداد خليفة .
- النجوم .
- مدح بغداد .

رجع الى كلام يزجرد .

- الحمامات .
- هجرة الناس الى بغداد .
- سعة الجامعين .
- سعة المسجد الحرام .

ثالثا - في الحكمة والعقائد والتصوف .

رابعا - في النحو والبلاغة .

خامسا - في الادب والشعر .

سادسا - في علم الفلك .

وقد اعتمد المحقق على نسخة خطية فريدة ، بخط مؤلفها ، موجودة في خزانة كتب المدرسة القادرية العامة الكائنة في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ببغداد كتب عليها بخط متأخر العبارة « مؤلفه عبدالرحمن السويدي » وهي لا تؤثر في صحة نسبة المخطوطة الى مؤلفها السويدي .

تقع المخطوطة في (٥٦) ورقة ، مقياسها ٢٠×١٦ سم ، وفي كل صفحة ١١ سطرا ، مكتوبة بخط نسخ معتاد واضح ، وفيها شطب المؤلف على بعض العبارات مما رأى ان يغيره ، وكتب فوقها او بجوارها على الهامش عبارات اخرى بدلها وحرف بعض الاسماء احيانا ، ولغة الكتاب عربية بينة مسجوعة احيانا مع ابيات قليلة من نظم المؤلف ، ولا يخلو الكتاب من اخطاء املائية ونحوية لكنها قليلة واغلبها يتعلق بطريقة رسم الهزرة او الالف المقصورة .

والكتاب نموذج لفن كتابة « المذكرات الشخصية » التي يورخ اصحابها فيها لاحداث عصرهم من خلال تاريخهم لفترة معينة من فترات حياتهم ، لذا جاء الكتاب سردا متتابعيا خاليا من العناوين والتقسيم الى فقرات مميزة . وقد وصف فيه السويدي فترة مهمة من تاريخ العراق الحديث في اواخر القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) ، وهي فترة حافلة باحداث سريعة متتالية وبتفريات جسيمة ، حيث وفد الطاعون على بغداد فالحلة فالبصرة ثم الزبير وغيرها من المدن وخلف وراءه المآسي والالام ، كما حاصرت جيوش كريم خان البصرة ودخلتها بعد دفاع ومقاومة ، وفي بغداد طالب عمر باشا والي المملوكي بنجيدات عسكرية لمواجهة الموقف ، بينما اتهم باضاعته البصرة وايدت الدولة العثمانية هذه الدعوى لضرب الماليك والتخلص منهم ، ثم عزل عمر باشا وقتل ، ومن خلفه لم يستطع انقاذ الموقف في البصرة ، وفي الوقت نفسه نجحت المساعي لدى الباب العالي بالاعتماد على الماليك ، فعين عبدالله باشا واليا على بغداد ، وكان ضعيف الشخصية ، فاستغل الموقف احسد ذوي النفوذ في السراي وهو عجم محمد وجمع الى صفه المبعوث الرسمي للباب العالي في بغداد ، وعندما شك سكان بغداد بنوايا عجم تجمعوا ضده وقد تزعمهم مؤلف الكتاب ، ثم تزعم الموقوف ابناء قبيلة

العبيد العربية ، فلعبوا دورا كبيرا في قيادة البغداديين ودامت الفتنة اكثر من سنتين استعملت خلالها الاسلحة الثقيلة ، حتى اقر النظام احد القادة الماليك وهو حسن باشا ، لكن ضعفه ادى الى مرار عجم وتحالفه مع احد قطاع الطرق في شرق بغداد واعلن نفسه واليا وهدد بغداد ، وعجز الوالي حسن عن اتخاذ القرارات ادى الى فشل المحاولات المتكررة للقضاء على هذا الخطر وعندما شعرت القيادات المحلية بخطورة الوضع قامت سنة ١١٧٨م / ١١٩٤هـ بحركة تمرد ضده ، انتهت بخروجه من بغداد وتعيين سليمان باشا واليا على بغداد وتوابعها .

والكتاب مزود بشبث لمراجع التحقيق وفهارس للاعلام ، والامكنة والبقاع ، والوظائف والمؤسسات الاجتماعية ، والاسلحة والادوات والملابس والامتعة والمحتويات .

اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي

في سلسلة دراسات (١٦١) نشر كتاب « اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي ١٤٥ - ٣٣٤هـ / ٧٦٣ - ٩٤٥م » للدكتور حمدان عبدالمجيد الكبيسي ، تضمن بعد المقدمة اربعة ابواب وفي كل باب ثلاثة فصول :

الباب الاول : نشأة اسواق بغداد وتخطيطها

الفصل الاول : بناء المدينة المدورة .

ويتضمن الموضوعات التالية :

- ١ - اختيار موقع المدينة المدورة وتخطيطها .
- ٢ - تسمية المدينة المدورة .
- ٣ - موقع الاسواق في المدينة المدورة .

الفصل الثاني : انتقال الاسواق الى الكرخ

ويبحث الموضوعات التالية :

- ١ - دوافع نقل الاسواق من داخل المدينة المدورة .
- ٢ - مواقع اسواق الكرخ .

الفصل الثالث : اسواق الرصافة

ويبحث في :

- ١ - الدوافع السياسية والضرورات الاقتصادية .
- ٢ - مواقع اسواق الرصافة .

الباب الثاني : النشاط التجاري في اسواق بغداد

الفصل الاول : العوامل المؤثرة في النشاط التجاري بأسواق بغداد .

ويبحث في :

- ١ - تطور المجتمع واجراءات المسؤولين .
- ٢ - الزيادة في رواتب الموظفين .
- ٣ - زيادة ارزاق الجند .
- ٤ - منح الخلفاء والوزراء .
- ٥ - الاستقرار السياسي في بغداد .
- ٦ - معوقات النشاط التجاري في اسواق بغداد .

الفصل الثاني : تخصص الاسواق وتعددتها :

ويبحث في :

- ١ - تخصص اسواق الكرخ .
- ٢ - تخصص اسواق الرصافة .
- ٣ - الاسواق الجامعة .

الفصل الثالث : السلع الواردة على اسواق بغداد والصادرة عنها :

ويبحث في :

- ١ - الطرق المؤدية الى بغداد .
- ٢ - السلع الواردة على اسواق بغداد .
- ٣ - المعوقات التي قد تعرقل وصول السلع الى اسواق بغداد .
- ٤ - المواد الصادرة عن اسواق بغداد .

الباب الثالث : المعاملات المالية والتجارية

الفصل الاول : أسلوب التعامل في اسواق بغداد

ويبحث في :

- ١ - النظام النقدي .
- ٢ - استعمال الصك .
- ٣ - استخدام السفتجة .
- ٤ - دور الصراف في اسواق بغداد .

الفصل الثاني : الاسعار والاحتكار

ويبحث في :

- ١ - الزيادة المطردة في الاسعار .
- ٢ - الاحتكار .
- ٣ - موقف السلطة من زيادة الاسعار .

الفصل الثالث : الرقابة على الاسواق

ويبحث في :

- ١ - تطور وظيفة المحتسب .
 - ٢ - تعيين عرفاء على الاسواق .
- الباب الرابع : دور اهل السوق في الحياة العامة

الفصل الاول : العاملون في الاسواق

ويبحث في :

- ١ - اجناس العاملين في الاسواق .
- ٢ - دخل اهل اسواق بغداد .
- ٣ - مكانة اهل السوق الاجتماعية .

الفصل الثاني : اشتراك اهل السوق في الفتن والاضطرابات الداخلية

ويبحث في :

- ١ - موقف اهل السوق من النزاع بين الامين والمامون .
- ٢ - موقف اهل السوق من الاضطرابات الداخلية .

الفصل الثالث : المنازعات بين اهل السوق

ويبحث في :

- ١ - تكتل اهل الحرف .
- ٢ - المنازعات بين الاصناف .

والكتاب خانمة وفهارس للاعلام والاماكسن والمصادر العربية منها مخطوطة ومطبوعة ، والاجنبية والمحتويات ، مع خلاصة باللغة الانكليزية وعدة مخططات لبغداد في اول ادوارها العباسية ، وقد صدر الكتاب عام ١٩٧٩م / ١٣٩٩هـ في ٤٤٨ صفحة .

بغداد في بيلوغرافيا العمارة والفنون الإسلامية

بقلم

ل. أ. سي. كرزويل

ترجمة

سلمان فيق الزاوي

مكتبة المتحف العراقي - بغداد



هذه قائمة ذكرها كرزويل في كتابه «بيلوغرافيا عن العمارة والفنون الإسلامية الى سنة ١٩٦٠» مرتبة هجائياً حسب المؤلف ، تضم الكتب والمقالات المتعلقة ببغداد ، قمت بترجمتها الى العربية لينتفع منها الباحثون والمتخصصون ورواد التراث ، كما واشكر الاستاذ عبدالحميد العلوجي رئيس تحرير مجلة المورد على توجيهاته الجادة ، راجياً المولى القدير ان يوفقنا جميعاً لخدمة التراث .

*

من زمن الحرب هو القصر العباسي وطاق كسرى . مجلة اخبار لندن المصورة ، ١٥ نيسان ١٩٤٤ ، ص ص : ٤٤٤ - ٤٤٥ ، مع سبعة صور .

3. Asad Talas. L'Enseignement chez les Arabes. La Madrasa Nizamiyya et histoire. Paris, Geuthner, 1939. pp : XII (12) and 125, with 4 plates. see pp : 26-33, 53-54 and is aplan of the Madrasa Mirjaniya.

اسعد طلس . مدارس العرب ؛ المدرسة النظامية وتاريخها . باريس ، غوتنر ، ١٩٣٩ ، ١٢ ص و ١٢٥ مع اربع لوحات ثم ملاحظة الصفحات ٢٦ - ٣٣ ، ٥٣ - ٥٥ واللوحات

(A)

1. Anastase. Restes de monuments Abbassides á Baghdad. Al-Machriq, vol. 10, 1907 pp : 300-304 (in Arabic)

الاب انستاس ماري الكرمل . بقايا النصب العباسية في بغداد ، مجلة المشرق ١٩٠٧ ، المجلد العاشر ، ص ص : ٣٠٠ - ٣٠٤ (بالعربية) .

2. Anonymous. Wartime restoration of two famous building In Iraq - The Abbasid palace, Baghdad and the Arch of ctesiphon. The illustrated London news, 15th. April, 1944, pp : 444-45 with 7 illus.

مجهول المؤلف . احياء بنائين مشهورتين في العراق

مركزويل ، له . أ . سي . جامع المنصور الكبير في بغداد . مجلة العراق ، مجلد (١) ص ص : ١٠٥ - ١١١ ، ١٩٣٤ ، مع شكلين تختلف عما ذكره هيرتسفيلد .

(H)

9. Huart, Clement. Histoire de Bagdad dans les temps modernes. pp. 14 and 231 with 2 plates. Paris, Leroux, 1901. "Topographie de la ville de Bagdad" pp: VI - XIV.

هوار ، كليمان . تاريخ بغداد . ص ١٤ ، ٢٣١ مع لوحتين . باريس ، ليروكس ، ١٩٠١ ، طبوغرافية بغداد ص ٦ - ١٤ . عربيه وعلق عليه ناجي معروف . بغداد ، ١٩٦١ .

10. Iraq. Directorate of Antiquities. Remains of the Abbasid palace in Baghdad citadel. Baghdad, Government Press, 1935. illustrated with 7 figures and 47 plates. pp : 29 aniv.

العراق . مديرية الآثار العامة . بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد . بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٥ ، مصور مع (٧) أشكال و (٤٧) لوحة الصفحات ٢٩ ، ٣ .

11. ————. Dalil Mathaf al-Athar - Arabiya fi Khan Marjan bi Baghdad. (Guide to the Arab Museum at Khan Marjan at Bagdad) Bagdad, Government Press, 1938. pp : III and 47 with 47 plates see pp : 1-16 and plates 1-13 for the architecture of Khan Marjan and plates 14-20 for stucco dadoes, Mihrabs, etc. transported to the museum.

العراق . مديرية الآثار العامة . دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ببغداد . بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٨ ، ص ٣ ، ٤٧ مع ٣٨ لوحة انظر الصفحات (١ - ١٦) واللوحات (١ - ١٣) لعمارة خان مرجان واللوحات (١٤ - ٢٠) والمحراب الذي نقل الى المتحف العراقي .

12. Ishaq, Raphael Babu. Mahallat ash-shammasiya bi Baghdad fi Ahd al Khilafa al-Abbasiya (The Shammasiya quarter in Bagdad in the time of the Abbasid Khalifate) Sumer, 1953 vol. 9, No. 1, pp : 132-154.

٢ - ٤ (غير مرقمة) . اللوحة الثالثة هو تخطيط للمدرسة المرجانية .

(B)

4. Borghese, principe scipione. In Asia Siria - Euphrate - Babylonia. Con 235 illustrazioni da fotografie Large. Bergamo, 1904. Bagdad chapt. 10, 11.

يورغيس ، پرنسيب سيبون . في آسيا - سوريا - الفرات - بابل مع ٢٣٥ صورة برغاموا ، ١٩٠٤ . يضم الفصل العاشر والحادي عشر عن بغداد .

5. Bowen, Harold. The Nizamiya Madrasa and Bagdad Topography. Jour. Roy. Asiatic. socy., 1928, pp : 609-614, with a map. Adiscussion of the divergent views of Massignon and Levy.

بون ، هرولد . المدرسة النظامية وطبوغرافية بغداد . مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، ١٩٢٨ ص ص : ٦٠٩ - ٦١٤ مع خارطة وتعليق على الصور لمانسون وليفي .

6. Bukhsh, S. Khuda. Bagdad. Journal of Indian History, vol. 4 No. 2, pp : 44-70, see pp : 45-47 and 52 ff.

بخش ، إس . خدا . بغداد . مجلة تاريخ الهند ، مجلد (٤) عدد ٢ ، ص ص ٤٤ - ٧٠ . انظر الصفحات ٤٥ - ٤٧ و ٥٢ .

(C)

7. Coke, Richard. Bagdad, the city of peace. London Thornton Butterworth, 1927. see pp : 29-43. pp : 343, 12 plates and a map.

كوك ، ريتشارد . بغداد ، مدينة السلام . لندن ؛ ثورنتون بتروث ، ١٩٢٧ . ص ٣٤٣ مع (١٢) لوحة وخارطة ، انظر صفحة ٢٩ - ٤٣ . نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه مصطفى جواد وفؤاد جميل يقع في جزاين طبع في بغداد ، ١٩٦٧ .

8. Creswell, K. A. C. The great mosque of Al-Mansur at Bagdad. Iraq, vol. 1, 1934. pp. : 105-111 with 2 figs. Aproposed reconstruction different from that of Herzfeld.

17. Le Strange, Guy. Baghdad during the Abbasid Caliphate. Atopographical summary, with anoteice of the contemporary Arabic and persian authorities. Journ. Roy. Asiatic society, 1899. pp : 847-893, with 2 plates. Review p. schwarz, O.L.Z. vil. 28, cols : 931-2.

لسترانج ، غي . بغداد في عهد الخلافة العباسية ، موجز طبوغرافي مع ملاحظات وشروح بالعربية والفارسية . مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، ١٨٩٩ ص ص ٨٤٧ - ٨٩٣ مع لوحتين . وقد عرف بهذا الكتاب سفارتس في مجلة الأدب الشرقي التي تصدر في ألمانيا ، مجلد ٢٨ ، العمود ٩٣١ - ٩٣٢ . « ترجمه عن الانكليزية وعلق عليه بشير فرنسيس في جزاين . بغداد ، ١٩٣٦ » .

18. ————. Baghdad during the Abasid Caliphate, from contemporary Arabic and persian sources. with 8 plans., oxford; clarendon press 1900. pp : 31 and 381. Review by G. Kampffmeyer, O.L.Z., vol. 6, pp : 418-419.

لسترانج ، غي . بغداد في عهد الخلافة العباسية ؛ شروح من المصادر العربية والفارسية . اكسفورد ، مطبعة ملارندون ، ١٩٠٠ ، مع (٨) مخططات ص ٣١ ، ٣٨١ يذكر فيها بغداد كما وعرفه كمبماير في مجلة الأدب الشرقي التي تصدر في ألمانيا مجلد ٦ ص ص ٤١٨ - ٤١٩ .

« ترجمه عن الانكليزية وعلق عليه بشير فرنسيس في جزاين . ط ١ ، بغداد ، ١٩٣٦ » .

19. Levy, Reuben. The Nizamiya Madrasa at Baghdad. Journ. Roy. Asiatic socy., 1928, pp : 265-270.

ليفي ، روبين . المدرسة النظامية ببغداد ، مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، ١٩٢٨ ص ص ٢٦٥ - ٢٧٠ .

20. ————. A Baghdad chronicle. Cambridge, univ. press, 1929. pp : XII, and 279, with 4 plates see 1. The building of the city pp : 11-25

ليفي ، روبين . تاريخ بغداد . كمبرج ، مطبعة الجامعة ، ١٩٢٩ ، ص ١٢ ، ٢٧٩ مع أربع

أسحق ، رفائيل بابو . محلة الشماسية ببغداد في عهد الخلافة العباسية ، سومر ، مجلد ٩ ، الجزء الأول ، ١٩٥٣ ص ص : ١٣٢ - ١٥٤ .

13. Kühnel, Ernst. Drachenportale. Zeitsch. für Kunstwissenschaft, vol. IV, 1950. Berlin, pp : 1-18, with 21 illus. Includes the Talisman Gate of Baghdad.

كينل ، إرنست . باب الطلسم . مجلة علوم الفن . برلين ، مجلد ٤ ، ١٩٥٠ ص ص ١ - ١٨ مع (٢١) صورة يتضمن طلسم باب بغداد .

14. Kurkis, Awwad-Al-Madrasa al-Mustansiriya bi Baghdad. (The Mustansiriya Madrasa at Baghdad) Sumer, vol. 1, No. 1, 1945 pp : 76-130, with 12 plates and 3 figs. with a summary in English pp : 12-25.

كوركيس عواد . المدرسة المستنصرية ببغداد . سومر ، مجلد ١ ، الجزء الأول ، ١٩٤٥ ، ص ص : ٧٦ - ١٣٠ ، مع (١٢) لوحة وثلاثة اشكال مع موجز بالانكليزية ص ص ١٢ - ٢٥ .

15. ————. al-Madrasa al-Mirjaniya. (The Mirijaniya Madrasa), Sumer, vol. 2, No. 1, 1946. pp : 125-126.

كوركيس عواد . المدرسة المرجانية ، سومر ، مجلد (٢) ، الجزء الأول ، ١٩٤٦ ص ص ١٢٥ - ١٢٦ .

16. ————. ad-Dar al-Muizziya min Ashhur mabani Baghdad fi'l qarn ar-Ra'bil'l-Hijra. (The Muizziya palace : one of the most famous buildings of Baghdad in the fourth century of the Hijra) Sumer, vol. 10, No. 2, 1954 pp : 197-217.

كوركيس عواد . الدار المعزية من اشهر مباني بغداد في القرن الرابع الهجري . سومر ، مجلد (١٠) الجزء الثاني ص ص ١٩٧ - ٢١٧ .

مصطفى جواد . القصر العباسي في القلعة ببغداد وهو دار المسناة العتيقة من آثار الناصر لدين الله العباسي . سومر ، مجلد ١ الجزء الثاني ، ١٩٤٥ ص ٦١ - ١٠٤ ، مصور مع ٨ لوحات وثلاثة اشكال .

26. ————. Imárát al-Qarn as-Sadis ad-Dakhma fi Janib Sharqi min Baghdad Kharij Dar al-Khilafa (The great buildings of the sixth century on the eastern side of Baghdad outside the Dár al-Khilafa) Sumer, vol. 2, No. 1, 1946, pp : 55-76, with 2 illus. and a map.

مصطفى جواد . عمارات القرن السادس الضخمة في الجانب الشرقي من بغداد ، خارج دار الخلافة ، سومر ، مجلد ٢ ، الجزء الاول ، ١٩٤٦ ص ٥٥ - ٧٦ مع لوحتين وخارطة .

27. ————. Imárát al Qarn as-Sadis ad-Dakhma fi Dár al-Khilafa al-Abba-siya. (The glorious buildings of the sixth century in the Abbasid Dár al-Khilafa) Sumer, vol. 2, No. 2, 1946, pp: 197-213, 1 fig.

مصطفى جواد . عمارات القرن السادس الضخمة في دار الخلافة العباسية . سومر ، مجلد ٢ ، الجزء الثاني ، ١٩٤٦ ، ص ١٩٧ - ٢١٢ ، مع شكل واحد .

28. ————. al'Imárát al-Islamiya al-tiqiya al qáima fi Baghdad (The old Islamic buildings still existing in Baghdad) Sumer, vol. 3, No. 1, 1947, pp : 38-59, with 8 plates.

مصطفى جواد . العمارات الإسلامية العتيقة القائمة في بغداد . سومر ، مجلد ٣ ، الجزء الاول ، ١٩٤٧ ، ص ٣٨ - ٥٩ ، مصور مع ٨ لوحات .

29. ————. ar-Rubut al-Baghdadiya wa atharuhá fi'th-thaqafat al-Islamiya. (The Ribáts of Baghdad and their influence on Islamic Learning) Sumer, vol. 10, No. 2, 1954. pp : 218-249.

مصطفى جواد . الربط البغدادية واثرها في الثقافة الإسلامية ، مجلة سومر ، مجلد ١٠ ، الجزء الثاني ، ص ٢١٨ - ٢٤٩ ، ١٩٥٤ .

لوحات لاحظ الملحق الاول في بناء مدينة بغداد ص ١١ - ٢٥ . يتضمن الحياة الاجتماعية والسياسية في عهد الخلافة العباسية في بغداد .

21. Llyod, Seton. Discovery in the Madrasat al Mirjanía (Mirjan Mosque), Sumer, vol. 2, No. 1, 1946 pp : 10-12. Discovery of the fine carved brick decoration of the interior when acoating of plaster was stripped off.

لويد ، ستن . اكتشافات في المدرسة المرجانية (جامع مرجان) سومر المجلد الثاني ، الجزء الاول ، ١٩٤٦ ص ١٠ - ١٢ .

(M)

22. Massignon, Louis. Les saints musulmans enterres a Bagdad. Revue de L'Hi-stoire des Religions XXVIII, 1908, pp : 329 - 338.

ماسينون ، لويس . دخول رجال الدين المسلمين الى بغداد . مجلة اخبار تاريخ الديانات ، مجلد ٢٨ ، ١٩٠٨ ص ٣٢٩ - ٣٣٨ .

23. ————. Les Medresehs de Bagdad. Bulletin d' L'Institut francais d'Archeologie orientale, 1909 VII, pp: 77-86, with 2 plates.

ماسينون ، لويس . مدارس بغداد . مجلة المعهد الانثاري الشرقي الفرنسي مجلد ٧ ، ص ٧٧ - ٨٦ مع لوحتين ، ١٩٠٩ .

24. ————. Bagdad et sa topographie au moyen age : deux sources nouvelles. Comptes rendus de l'Academie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1911. pp : 18 - 24.

ماسينون ، لويس . طبوغرافية بغداد في العصر الوسيط . مجلة اكاديمية كتابات الفنون الجميلة ، ص ١٨ - ٢٤ ، ١٩١١ .

25. Mustafá Jawwad. al-Qasr al-Abbasi fi'l Qalah bi Baghdad wa-huwa Dár al-Musanná al-Atique min Athar an Nasirlidin Allah al-Abbasi, (The Abbasid palace in the citadel at Baghdad which is the ancient Dar al-Musanná, one of the monuments of the Abbasid an Nasirlidin Allah), Sumer, vol. 1, No. 2, 1945, pp : 61-104, with 8 plates and 3 figs.

سالون ، جورج . مقدمة طبوغرافية عن تاريخ بغداد لابي بكر احمد بن ثابت الخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ / ١٠٠٢ - ١٠٧١) باريس ، بولون ، ١٩٠٤ . ص ٤ ، ٢١٧ ، (٩٣) صفحة نص بالعربية وهو من بحوث هوتس ، تاريخ العلوم والفلسفة سلسلة ١٤٨ وقد عرّفه م. ج. دي فويه في المجلة الاسيوية مجلد ٣ ، سلسلة ١٠ ، ص ص ١٥٨ - ١٦٩ . وهو موجود في مكتبة المتحف العراقي - القسم العربي والذي يسمى بالمقدمة لسالون نص بالفرنسية والعربية تحت رقم (١٩٨) .

35. Shukri, Al-Alusi. La "Madrasah Mustansiriya à Bagdad sous les Califes. Al-Machriq ve annee, 1902, pp : 961-966 (in Arabic).

شكري الالوسي . المدرسة المستنصرية من كتاب مساجد بغداد ومدارسها . مجلة المشرق ، ١٩٠٢ ص ص ٩٦١ - ٩٦٦ .

(V)

36. Viollet, H. L'Architecture musulmane du XIII C Siecle en Irak. La Madrasa Mustansiriya à Bagdad. Revue Archeologique, 2 me serie, XXI, pp : 1-18, with 20 illus.

فايلت ، هـ . العمارة الإسلامية في القرن الثالث عشر في العراق . المدرسة المستنصرية في بغداد . مجلة الاخبار الأثرية ، مجلد ٢١ ، ص ص ١ - ١٨ مع ٢٠ صورة ، ١٩١٣ .

The Reference : المصدر

Creswell, K.A.C. A Bibliography of the Architecture, Arts and crafts of Islam to 1st. Jan., 1960. Cairo, The American univ. at Cairo press, 1961. pp : 202-204.

كرزويل ، ك. أ. سي . بيلوغرافية عن العمارة والفنون الإسلامية الى ١ يناير ١٩٦٠ ، القاهرة ، مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة ١٩٦١ . وقد وزع في لندن ، مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٦١ . ص ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

30. ———. al-Madrasa al-Mustansiriya. (The Mustansiriya Madrasa) Sumer, vol. 14, 1958, pp : 27-75.

مصطفى جواد . المدرسة المستنصرية . سumer ، مجلد ١٤ ، ١٩٥٨ ص ص ٢٧ - ٧٥ .

(N)

31. Naji Maruf. al-Madrasa al-Mustansiriya. Baghdad, Matbaât Dankur al-Haditha, 1935, pp. 88 and vi, with 18 illus.

ناجي معروف . المدرسة المستنصرية . بغداد ، مطبعة دنكور الحديثة ، ١٩٣٥ ، ٨٨ ص مع ١٨ صورة .

32. Nasir An-Naqshabandi - al-Madrasa al-Mirijania (The Mirijanyia Madrasa) Sumer, vol. 2, No. 1, 1946. pp : 33-54, with 12 plates.

ناصر النقشبندي . المدرسة المرجانية . سumer ، مجلد ٢ ، الجزء الأول ص ص ٣٣ - ٥٤ ، ١٩٤٦ مع ١٢ لوحة .

(P)

33. Pognon, H. Note. Journal Asiatique, serie, XIX, pp : 153-155; pp : 336-342. Notes, on Uigour, syrian and Arabic in scriptions found on the tomb of a saint in an ancient Jacobite convent, which convent he places in the XIIth. century.

بوينون ، هـ . ملاحظة ، المجلة الاسيوية ، مجلد ١٩ ، ص ص ١٥٣ - ١٥٥ ؛ ٣٣٦ - ٣٤٢ ، ملاحظات عن اويغور ، كتابات بانسريانية والعربية وجدت على ضريح القديس يعقوب في القرن الثاني عشر .

(S)

34. Salmon, Georges. L'Introduction to po-graphique a' L'histoire de Bagdad d' Abou Bakr Ahmad Ibn Thabit Al-Khatib al-Baghdadi (392-463H.) 1002-1771 J.C.) Paris, Bouillon, 1904. pp : IV, 207 and 93 (Arabic text) Bibliotheque de L'Ecole des Hautes Etudes. Sciences hist. et phil. fasc. 148. Review : M. J. de Geoe, Journ. Asiatique serie III, pp: 158-69.

بغداد في رحلات الأجانب

اعداد

سلمان وفيق الراوي

وهذه قائمة باسماء كتب الرحلات الموجودة في مكتبة المتحف العراقي والتي تبحث عن بغداد ،
قمت بجمعها وترجمتها لتكون في خدمة الباحثين ، وتحتوي هذه القائمة على (٧٦) عنوانا . مرتبة
هجائيا حسب المؤلف ثم يتبعها العنوان وبيانات النشر وبيانات التوثيق .



(A)

١٩١٧ . يقع في ١٦٨ ص ، يتضمن عن

بغداد والمواقع الاثرية في العراق ، فيه لوحات
تمثل المواقع الاثرية .

(B)

4. Bagdad. Leiden, E. J. Brill, 1962. 465 p.,
illus., 2 fold maps. volume special : publi-
lié A' L'occasion du Mille deux centième
anniversaire de la foundation.

بغداد . طبع ليدن ، ١٩٦٢ ، عدد خاص يضم
تاريخ ومدارس وفنون بغداد مزود بزخارف
معمارية يضم اربعة فصول . صدر بمناسبة
مرور الف عام على تأسيس مدينة بغداد .

5. Baghddad; Histoire, la province, Les Tri-
busnomades. Paris N. d. 358 p., illus.

بغداد ، تاريخها . مجهول المؤلف وسنة الطبع .
طبع باريس ، ٢٥٨ ص .

6. Bell, Gertrude Margaret Lowthian.
Amurath to Amurath. London, William
Heinemann, 1911. 370 p., illus.,

بل ، غرتروود مارغريت لوثيريان . عمورات الى
عمورات . طبع لندن ، ١٩١١ ، ٣٧٠ ص .
مزود بصور . يحتوي على ٩ فصول وان
الفصل السادس خاص ببغداد .

1. Alexander, Constance M. Baghdad in
bygone days; from the Journal and cor-
respondance of Claudius Rich, traveller,
artist, linguist, antiquary an British re-
sident at Baghddad, 1808-1821. London,
John Murray, 1928. XVI+336 p., illus.,
figs., map.

الكسندر ، كونستانس إم . بغداد في الايام الماضية
من خلال مراسلات كلوديوس ريج ، الرحالة ،
الفنان ، اللغوي ، الآثاري والمقيم ببغداد
١٨٠٨ - ١٨٢١ . طبع في لندن ، جون
ماري ، ١٩٢٨ ، ٣٣٦ ص مزود بصور
واشكال وخارطة .

2. D'Anville, M. L'Euphrate et le Tigre.
Paris, Impremire Royale, 1779. 147 p.,
illus., fold maps.

دي أنفيل ، إم . دجلة والفرات . باريس ، المطبعة
الملكية ، ١٧٧٩ ، ١٤٧ ص ، مصور مع
خرائط مطوية . يضم فصلا عن بغداد في
ص ١٢١ .

3. Auble, Emile. Bagdad, son schemin der
fer importance, son avenir. Paris, 1917.
168 p. illus., amap.

أوبل ، إميل . بغداد وأهميتها . طبع في باريس ،

11. Burckhardt, John Lewis. Travels in Assyria; Media and persia; Including a journey from Baghdad by mount Zagras. London, 1830. 2 vols., illus.

بوركهاردت ، جون لويس . رحلات في بلاد اشور وميديا وبلاد الفرس . يتضمن رحلة من بغداد عند جبال زاكروس طبع لندن ، ١٨٣٠ . يقع في مجلدين ، مصور .

(C)

12. Candler, Edmund. The Long road to Baghdad (Eye-witness) in Mesopotamia. London, Cassel & Co., 1919. 2 vols., illus., plates fold maps.

كنيلر ، ادموند . الطريق الطويل الى بغداد . (شاهد عيان) في بلاد ما وراء النهرين . طبع لندن ، كيسل ، ١٩١٩ ، يقع في مجلدين ، مزود بصور ولوحات وخرائط مطوية .

13. Carnegie, Alexander., My log' persian Gulf & turkish Arabia. Bombay, Education, society press, 1878. 48 p.

كارنيجي ، الكسندر . الخليج العربي وتركيا وبلاد العرب . طبع ومباي ، مطبعة جمعية التربية ، ١٨٧٨ ص ٤٨ . يصف بغداد ، والعراق .

14. Casey, Robert Joseph. Baghdad and points east. New York, J. H. sears & Co., 1931. 300 p.

كاسي ، روبرت جوزيف . بغداد ومفتاح الشرق . طبع نيويورك ، سيرز ١٩٣١ ، ٣٠٠ ص . يتضمن (٣٤) فصلاً تحتل بغداد الفصول (١٣ ، ٣١ ، ٣٤) .

15. Chapple, Joe Mitchell. To Baghdad and back. London, The century Co. 1928. 298 p.

چبل ، جوي ميتشل . الى بغداد واليه . طبع لندن ، ١٩٢٨ ، ٢٩٨ ص يتضمن (٢٤) فصلاً يصف الحياة في بغداد ، مزود بصور وفيه قائمة بالصور التي تمثل المناطق التي مر بها .

16. Chiha, Habib K. La province de Bagdad, son passe, son preast, son avenir, contenant aussi des notes ur le chemin de fer de Bagdad et une etude indite sur tribus namodes de la Mesopotaméa. Le Caire, Imprimeri El-Maaref, 1908. 358 p.

7. ————. The letters of Gertrude Bell; selected and ed. by Lady Bell. New York, Goni and Liveright, 1927. 2 vols.; plates, 2 maps.

بل ، جرتروود مارغريت لوثيان . رسائل المس بل طبع نيويورك ، ١٩٢٧ ، مجلدين ، مصور فيه لوحات مع خريطين .

8. Binder, Henry. Au Kurdistan; en Mesopotamie et en perse. Paris, Maison quantin, 1887. 453 p., illus. (200), 4 maps in cal.

بايندر ، هنري . كردستان وبلاد ما وراء النهرين وبلاد فارس . باريس ، ميسون ، ١٨٨٧ ، ٤٥٣ ص مع (٢٠٠) صورة واربعة خرائط . يتضمن (١٥) فصلاً ويذكر بغداد في الفصول: التاسع ، العاشر ، الحادي عشر .

9. Buckingham, J. S. Travels in Mesopotamia; including a Journey from Aleppo to Baghdad a cross the Euphrates to orfah (Theur of chaldees) through the plains of the Turcomans ... London, Henry Colburn, 1827. 2 vols.

بكنهام ، ج . اس . رحلات بلاد ما وراء النهرين يتضمن الرحلة من حلب الى بغداد عبر الفرات الى اور ثم الى سهول التركمان . طبع لندن ١٨٢٧ . يقع في مجلدين .

ترجمة سليم طه التكريتي تحت عنوان رحلاتي الى العراق سنة ١٨١٦ طبع بغداد ، ١٩٦٧ - ١٩٦٩ في جزأين ومزود بصور

10. Budge, E. A. Wallis. By Nile and Tigris; A Narrative of Journey in Egypt and Mesopotamia behalf of the British Museum between the years, 1886 and 1913. 2 vols.

بيج ، اي . ا . واليس . عند النيل ودجلة ، رحلات روائية في مصر وبلاد ما وراء النهرين لمصلحة المتحف البريطاني بين السنوات ١٨٨٦-١٩١٣ يقع في مجلدين . يذكر بغداد ص ١٢٣-١٨٥ و ٣١١ من المجلد الاول ، وص ١٤٣-٥٠ من المجلد الثاني يقع في كل مجلد (٤٥٦) ص مزود بصور .

ترجمه وعلق عليه فؤاد جميل طبع بغداد ، دار الزمان ، ١٩٦٦ في جزأين تحت عنوان رحلات الى العراق .

دينس دي ريفويه ، بارتلمي لويس . بغداد والفراة
طبع باريس ، ١٨٨٤ ٢١٨ ص ، مصور ،
لوحات .

22. Dickson, Mora. Baghdad and beyond.
London, Dennis Dobson, 1961. 191 p.,
illus.

دكسون ، مورا . بغداد وما ورائها . طبع لندن ،
١٩٦١ ، ١٩١ ص مصور .

23. Donbho, Martin Henry. With the per-
sian expedition. London, Edward Ar-
nold, 1919. 276 p., illus.

دنبهو ، مارتين هنري . مع البعثة الفارسية . طبع
لندن . ادورد آرنولد ، ١٩١٩ . ٢٧٦ ص
مزود بصور . يصف بغداد ودجلة والكوت .

(E)

24. Ellis, Tristram James. On a raft and
through the desert; the narrative of an
artist's Journey through northern syria
Kurdistan, by the Tigris to Mosul and
Baghdad and of areturn Journey ...
London, Field & Turb, 1881. 122+128 p.

إليس ، تراسترام جيمس . طوف خلال الصحراء،
رحلة روائية لفنان شمال سوريا وكردستان
عند دجلة الى الموصل وبغداد ، طبع لندن ،
سنة ١٨٨١ ، ١٢٢ - ١٢٨ ص .

25. Evers, Samuel. A Journal kept on a
Journey from Bassora to Eaghdad
In the year 1779. Horsham, Arthur Ree,
1784.

اينقرز ، صموئيل . رحلة من البصرة الى بغداد
سنة ١٧٧٩ طبع هورشام ١٧٨٤ .

(F)

26. Fogg, William Perry. Arabistan or the
land of the Arabian nights, being tra-
vels through Egypt, Arabia and persia-
Baghdad. London, Marston Law, 1875.
350 p.

فوك ، وليم پيري . عربستان او ليالي العرب ،
رحلة الى مصر وبلاد العرب وايران وبغداد
طبع لندن ، ١٨٧٥ ، ٣٥٠ ص .

يقع في ٢٨ فصلاً وقد ذكر بغداد في الفصول
١٨١ - ١٩٠ - ٢٧ - ٢٨) مزود بصور كثيرة .

شيبها حبيب ، ك . لواء بغداد ... طبع القاهرة ،
١٩٠٨ يقع في ٣٥٨ ص .

17- Coke, Richard. Baghdad; the city of
peace. London, T. Butter worth, 1927.
343 p., illus; a map.

كوك ، ريجارد . بغداد مدينة السلام
طبع لندن ، ١٩٢٧ ، ٣٤٣ ص مزود بصور
وخرطة نقله الى العربية وقدم له وعلق
عليه مصطفى جواد و فؤاد جميل في جزأين .
بغداد ، ١٩٦٧ .

18. Cooke, Nat and Alexander R. Cury.
Baghdad how to see it. Cairo, world
wide, N. d. 24 p., illus., 2 fold maps.

كوك ، نات والكسندر ر . كوري . بغداد كما تراها.
طبع القاهرة مجهول سنة الطبع يقع في ٢٢٤
ص ، مزود بصور مع خرائط مطوية . يتضمن
لمحة تاريخية مفصلة عن بلاد ماوراء النهرين .
بغداد ومواقعها الاثرية مزود بصور ملونة .

19. Cunliffe-Owen, Betty. Thro the gates of
Memary (from the Bosphorus to Bagh-
dad) London, Hutchinson, 1924. 267 p.

كنليف اوين ، بتي . من خلال بوابات الذاكرة
(من البسفور الى بغداد) طبع لندن ، ١٩٢٤
يقع في قسمين القسم الاول عن تركيا والقسم
الثاني عن بلاد ما وراء النهرين ويضم (٤٩)
فصلاً . يصف بغداد من الفصول ١٣ - ٢٠
مزود بصور .

(D)

20. De Gaury, Gerald. Arabian Journey and
other desert travels. London, George G.
Harrap, 1950. 190 p., illus, 31 pl., 3
maps.

دي غوري ، جيرالد . رحلة عربية ورحلات ،
صحراوية اخرى . طبع لندن ، ١٩٥٠ ، ١٩٠
ص مزود بصور مع ٣١ لوحة وثلاثة خرائط
مع النص يتكون من اربعة اقسام والقسم
الثالث يبحث عن العراق وبغداد .

21. Denis de Rivoyre, Barthelemy Louis.
Les rais Arabes et leur pays; Bagdad
et les villes ignorees d'I Euphrate.
Paris, Librairie plon, 1884. 318 p., illus.,
plates.

31. Hamid, Nawab Yar Gang. A trip to Baghdad. Bombay, The Bombay Gazette press, 1908. 61 p., illus. with an appendix at the end about of the Arab horse pp: 43 - 61.

حامد ، نواب يارغلنگ . رحلة الى بغداد . طبع بمباي ، مطبعة جريدة بمباي ، ١٩٠٨ ٦١ ص مصور يضم ملحق في آخر الكتاب عن الحصان العربي ص ٤٣ - ٦١ .

- 32- Harris, Walter Burton. From Batum to Baghdad via Tiflis Tabriz and persia, Kurdistan. Edinbourgh; W. Blackwood & sons, 1896. 335 p.

هرتز ، ولتربرتون . من باتوم الى بغداد . طبع ادنبره ، ١٨٩٦ ص ٣٣٥ . يتضمن رحلة من طنجة - تبريز - ايران - المنطقة الكردية كرمناشاه - بغداد وقد وصفها سنة ١٨٩٦ مزود بصور وخرائط .

33. Hedin, Sven Anders. Bagdad, Babylon, Ninive. Leipzig, F. A. Brockhans, 1918. 410 p.

هيدن ، سفين أندروز . بغداد ، بابل ، نينوى . بالالمانية طبع لينزج يقع في ٢٦ فصلاً يصف بغداد في الفصول (٩ ، ١٠ ، ١١) طبع سنة ١٩١٨ وصفحاته ٤١٠ صفحة مزود بصور .

34. Herchenbach. Bagdad; La reine du desert. Tours, 1884. 141 p.

هرشن باخ . بغداد . طبع طورس ، ١٨٨٤ ص ١٤١ . مقدمة من قبل سيمون .

35. Herzfeld, Ernst & Friedrich Sarre. Archacologische reise im Euphrat und Tigris Gebiet mit einem beitrage arabische Inschriften von Max von Berchem. Berlin, Dietrich Reimen, 1911. 4 vols, illus., plates.

هرتسفيلد ، ارنست وفريدريش سارة . الرحلة الآثارية الى منطقة دجلة والفرات . مع بعض الخطوط العربية من قبل فون ماكس برشم طبع برلين ١٩١١ ، يقع في اربع مجلدات يتضمن المجلد الاول : الرحلة الآثارية الى منطقة دجلة والفرات بالوصف الدقيق

27. Fraser, J. Baillie. Travels in Koordistan, Mesopotamia, including on account of parts of those countries hither to universited by Europeans with sketches of the character and manners of the Koordish and Arab tribes. London, Richard Bentley, 1840. 2 vols. illus..

فريزر ، ج بايلي . رحلات في بلاد كردستان وما وراء النهرين يتضمن بعض المخططات عن القبائل العربية ، طبع لندن ، ١٨٢٠ يقع في مجلدين : يضم المجلد الاول (١٥) رسالة ويضم بغداد في الرسالة الثامنة والتاسعة ، في حين يتضمن المجلد الثاني ١٩ رسالة يذكر بغداد في الرسالة الاولى والسابعة .

نقلها الى العربية جعفر خياط (القسم العراقي) ويعرف برحلة فريزر يصف العراق في الثلث الاول من القرن التاسع عشر .

(G)

28. Grant, Christina Phelps. The syrian desert, Caravans, travel and exploration. London, A. & C. Black, 1937. 410 p., illus., 16 pl., 4 maps.

غرنت ، كريستينا فيليبس . الصحراء السورية ، طبع لندن ، ١٩٣٧ ص ٤١٠ مزود بصور و١٦ لوحة واربعة خرائط . يتضمن جغرافية سوريا ، بلاد ماوراء النهرين ، دمشق ، بغداد .

29. Goold-Adams, Richard. Middle East Journey. London, John Murray, 1947. 1st. ed. 194 p.

غولد آدمز ، ريجارد . رحلة الشرق الاوسط ، طبع لندن ، ١٩٤٧ الطبعة الاولى ، ١٩٤ ص يقع في تسع فصول يضم الفصل الثالث ص ٣٨ عن بغداد .

- 30- Groves, A. N. Journal of Mr. Anthony N. Groves missionary during a Journey from London to Baghdad through Russia, Georgia and persia also a Journal of some months residence at Baghdad. London, James Nisbet, 1831. 215 p.

غروفس ، آنتوني . ن . رحلة غروفس خلال لندن بغداد ماراً روسيا ، جورجيا وايران وكذلك يتضمن تقرير عن بقاءه بعض الاشهر في بغداد طبع لندن سنة ١٨٣١ .

الى الانكليزية ر. ج. سي. برودهرست .
 طبع لندن سنة ١٩٥٢ يقع في ٤٣٠ ص يضم
 صوراً وخرائط مطوية . يصف فيها مصر -
 المدن المقدسة بغداد - القدس - صقلية .

(J)

41. Jastrow, Morris. The war and the Bagdad railway; the story of Asia minor and its relation to the present conflict. Philadelphia, J. B. Lippincott, 1917. 160 p., illus., plates.

جاسترو ، موريس . الحرب وسكة حديد بغداد
 قصة اسيا الصغرى وعلاقتها بالصراع الدائر
 طبع فيلادلفيا سنة ١٩١٧ مزود بصور ،
 ولوحات ويقع في ١٦٠ ص .

42. Jebb, Lousia. By the desert way to Baghdad. London, T. Fischer unwine, 1909. 318 p., illus.

جب ، لوسيا . في الطريق الصحراوي الى بغداد .
 ١٩٠٩ مكون من ثلاثة اقسام يضم بغداد ،
 القسم الثالث . مزود بصور وخرائط وملحقاً

43. Jones, James Felix. Memoires by Commander James Felix Jones. Bombay, Bombay Education Society press, 1857. 500 p., illus., 30 mays, plates, fold maps.

جونس ، جيمس فيلكس . مذكرات الجنرال ،
 جيمس فيلكس جونز . طبع بمباي ، ١٨٥٧
 ٥٠٠ ص مزود بصور ولوحات وخرائط
 مطوية . يتضمن رحلة بحرية بالباخرة ،
 ويصف بغداد في يناير ١٨٤٦ والمناطق التي
 مر بها . وقد ترجم القسم العراقي الاستاذ
 عبدالوهاب الامين في مجلة المورد مج ٣/ع ١
 ص ص ٣١ - ٤٥ ، م ٣/مج ٢ ص ص ٦٧ -
 ٨٠ تحت عنوان « بغداد في سنة ١٨٥٣ » ثم
 علق على المقال الاستاذ حميد مجيد هــدو
 فأبدى بعض الملاحظات والتصويبات في مجلة
 المورد مج ٤/ع ١ ص ص ٢٦١ - ٢٨٣ .

(K)

44. Keppel, George. Personal narrative of travels in Babylonia, Assyria, Media and Scythia in the year 1824. London, Henry Colburn, 1827. 2 vols. in one, fold maps.

كبل ، جورج . روايات شخصية لرحلات في بابل

المعماري بينما يتضمن المجلد الثاني عن
 الفنون الاسلامية مزود بخرائط والمجلد الثالث
 يضم ١٢٠ لوحة مستقل واما المجلد الرابع
 يتضمن صور ولوحات ٢٢ صورة و ٢٨ لوحة
 مع ٥٩ صفحة يعتبر هذا الكتاب من اشهر
 ماكتب عن المواقع الاثرية في منطقة دجلة ،
 والفرات وهو المرجع الدقيق في المعلومات عن
 المناطق الاثرية وهو بالالمانية .

36. Helfritz, Hans. Unter der sonne des orient. Berlin, die Buchgemeinde, N. d.

هليفريتس ، هنس . تحت شمس الشرق . طبع
 برلين ، مجهول السنة وهو بالالمانية . يصف
 بغداد واسواقها في ص ١٣٠ وطرق دجلة ،
 والفرات مزود بصور ولوحات رائعة .

37. Heude, William. A voyage up the [... gulf] and a Journey overland from India to England in 1817. London, Longmans, 1819. 252 p., illus.

هويدا ، وليم . رحلة الى اعالي الخليج العربي من
 الهند الى انكلترا في سنة ١٨١٧
 طبع لندن ، ١٨١٩ ص ٢٥٢ ص . مزود بصور

38. Hilmi, M. Kanuni Suleyman in Bagdat seferi; Yzam, Istanbul, Askeri matabaâ, 1932. 38 p., illus., maps.

حلمي ، م . سليمان القانوني في بغداد ، طبع
 استانبول سنة ١٩٣٢ باللغة التركية ، ٣٨ ص
 مزود بصور وخرائط .

39. Haurt, Clement. Histoire de Bagdad, dans les temps modernes. Paris, Ernst Leroux, 1901. 23 p. "Topographie de la ville de Bagdad" pp. VI-XIV.

هوار ، كليمان . تاريخ بغداد . ٢٣١ ص طبع
 باريس ، ١٩٠١ . عربية وعلق عليه ناجي
 معروف . بغداد ١٩٦١ .

(I)

40. Ibn Jubair, Muhammad Ibn Ahmad. The travels of Ibn Jubayr; being the chronicle of amedieval spanish Moor concerning his Journey to the Egypt of Saladi ... tr. from the original Arabic by R.J.C. Broadhurst. London, J. Cape, 1952. 430 p., fold maps.

ابن جبير ، محمد بن احمد . رحلة ابن جبير ترجمه

١٩٠٧ - ١٩٠٨ . القاهرة ، مطبعة المعهد
الشرقي الفرنسي الانثاري ، في مجلدين مصور
ومزود بلوحات .

50. Mignan, Robert. Travels in chaldaea;
Including a Journey from Bussorah to
Baghdad, Hillah and Babylon, perfor-
med on foot in 1827 with observations
on the sites and remains of Babel, Sele-
cia and Ctesiphon. London, Henry Col-
burn, 1829. 333 p. illus., fold maps.

ميگنان ، روبرت . رحلات في بلاد الكلدانيين يتضمن
رحلة من البصرة الى بغداد - حلة ، بابل على
القدم في سنة ١٨٢٧ مع بعض الملاحظات على
المواقع الاثرية وبقايا بابل وسلوقيا وطيسفون
(طاق كسرى) طبع لندن ، ١٨٢٩ يقع في ،
٣٣٣ ص ، مزود بصور مع خرائط مطوية .

51. Morton, H. V. Middle East; a record of
travel in the countries of Egypt, pales-
tine Iraq, Turkey and Greece. London,
Methuen, 1941. 326 p.,

مورتن ، هـ.ف . الشرق الاوسط . سجل لرحلات
الاقطار مصر ، فلسطين ، العراق ، وتركيا
واليونان . طبع لندن ، ١٩٤١ يقع في ٣٢٦ ص
يقع في اربعة فصول وهو مقسم حسب الاقطار
مصر - فلسطين - العراق - تركيا - اليونان
وتصيب بغداد في الفصل الثاني . مزود بصور
وخرائط .

52. Musil, Alois. The Middle Euphrates; a
topographical, Itinerary. New York,
1927. 426 p.,

موزيل ، الويس . الفرات الاوسط . رحلة
طبوغرافية . طبع نيويورك ، ١٩٢٧ من ،
سلسلة الجمعية الجغرافية الامريكية
للدراستات الاستطلاعية الشرقية رقم ٣ .
يقع في ٤٢٦ ص . مقسم الى قسمين ويقع
في (١٢) فصلاً تحتل بغداد الفصول (٣ و٤)،
(١٠) مع ملاحق مقسمة الى ٢١ قسماً . مزود
بصور عديدة مع النصوص ومخططات .

(P)

53. Platt, Thomas Comyn. Byrouth to
Baghdad via palmyra by the desert
route. Baghdad, the English press, 1927.
30 p.

بلات ، توماس كومن . من بيروت الى بغداد الى

اشور ، ميديا في سنة ١٨٢٤ . طبع لندن ،
١٨٢٧ . مجلدين في واحد ، يضم خرائط
مطوية . يصف بغداد وبابل ..

45. Kinneir, John Macdonald Journey
through Asia Minor, Armenia and Koor-
distan in the years 1813 and 1814, with
remarks on the marches of Alexander.
London, John Murray, 1818. 603 p.

كينر ، جون مكدونالد . رحلة خلال اسيا الصغرى
ارمينيا ، وكردستان في سنة ١٨١٣ و ١٨١٤
طبع لندن ، ١٨١٨ يقع في ٦٠٣ ص . يضم
فصل بغداد في ص ٤٧٦ ، ٦٠٠ .

(L)

46. Langengger, Felix. Durch verlorne La-
nde; von Bagdad nach Damaskus. Ber-
lin, verlag von wilhelm susserott, 1911.
408 p., illus.

لنجر ، فيلكس . خلال الارض المفقودة ، من بغداد
الى دمشق . طبع برلين ، ١٩١١ ، ٤٠٨ ص
بالالمانية .

47. Lloyd, Seton. Ruined cities of Iraq.
London, H. Milford, 1942. 111 p., illus.,
27 pl., maps.

لويد ، ستين . مدن العراق القديمة ، يصف المواقع
الاثرية في العراق وما وراء النهرين ، مصور
مع لوحات . طبع لندن ، ١٩٤٢ في ١١١ ص
مزود بصور و ٢٧ لوحة وخرائط .

48. Levy, Reuben. A Baghdad chronicle.
Cambridge, the university press, 1929.
279 p., pl.

ليفي ، روبين . تاريخ بغداد : ١٩٢٩ ، ٢٧٩ ص .
مزود بصور واربع لوحات وعلى ملاحق ويضم
الملحق الاول لمدينة بغداد ، ص ١١ - ٢٥ .
يضم الحياة الاجتماعية والسياسية في بغداد
في عهد الخلافة العباسية مزود بقائمة من
المصادر .

(M)

49. Massignon, M. Louis. Mission en Mes-
opotamie 1907-1908. Le Caire, Imprimerie
de l' Institut Francais d'Archeologie
orientale, 1910-1912. 2 vols., illus.,
plates.

ماسنيون ، م لويس . بعثة الى ما وراء النهرين ،

طبع لندن ١٨٣٦ ، يقع في مجلدين ، وترجمها
الاستاذ بهاء الدين نوري تحت عنوان (رحلة
ريج في العراق عام ١٨٢٠) الى العربية سنة
١٩٥١ .

59. Rohrbach, Paul. Um Bagdad und Baby-
lon; vom schauplatz deutscher Arbeit
und zukunft im orient. Berlin, Hermann
8, Daetel, 1909. 110 p., illus., plates.

رورباخ ، پاول . عند بغداد وبابل طبع برلين سنة
١٩٠٩ يقع في ١١٠ ص بالالمانية .

60. Rosen, Friedrich. Oriental memories of
a german diplomatist. London, Methuen,
1930. 295 p., illus. plates, ports.

روزن ، فريديج . مذكرات شرقية لدبلوماسي
الماني . طبع لندن ، ١٩٣٠ مصور ولوحات ،
ويقع في ٢٩٥ ص في وصف لبغداد .

61. Ross, Janet. Letters from the East by
Henry James Ross, 1837-1857. London,
J. M. Dent, 1902. 332 p., illus.

روز ، جانييت . رسائل من الشرق من هنري جيمس
روز ١٨٣٧ - ١٨٥٧ . طبع لندن ، ١٩٠٢ ،
٣٢٢ ص . يتضمن وصف بغداد في ص ٣٠ ،
٣٤ ، ٤٠ .

62. Rouwolf, Leendert. Seer A anmerkely
ke reysen no en door syrien ent Joodsche
Land, Arabian, Mesopotamie, Baby-
lonian, Assyrian, Armenien and Cut
Jaar, 1573. Leyden, pieter Vander, 1581.
598 p., illus., plates, fold maps.

راؤولف ، ليندريت . رحلة الى سوريا وبلاد العرب
وبلاذ ما وراء النهرين ، ارمينيا طبع لندن
سنة ١٥٨١ مزود بلوحات وخرائط . يقع
في ٥٩٨ ص ، نقلها الى العربية الاستاذ سليم
طه التكريتي عن النسخة الانكليزية تحت
عنوان « رحلة المشرق الى العراق وسوريا
ولبنان وفلسطين » من منشورات وزارة
الثقافة والفنون ، ١٩٧٨ ، ٢٣١ ص . كما
ونشر فصولا من الترجمة في مجلة المورد
مج ٥/٢ ص ٧٤ - ٨٢ .

بالمير على الطريق الصحراوي طبع في بغداد
١٩٢٧ ، يقع في ٣٠ ص .

54. Pionssot, Louis. Voyage de Bagdad
Alep, 1808. Paris, J. André, 1899. 165 p.,
illus.

بيونسوت ، لويس . رحلة من بغداد الى حلب سنة
١٨٠٨ . طبع باريس ، ١٨٩٩ يقع في ١٦٥ ص
مزود بصور يصف الجغرافية السياسية في
بلاد ما وراء النهرين .

(R)

55. Raswan, Carl Reinhard. Escape from
Baghdad. London, Hutchinson & Co.,
1938. 277 p., illus.

رسوان ، كارل راين هارد .

الهروب من بغداد . طبع لندن ، ١٩٣٨ يقع
في ٢٧٧ ص مصور يصف المآثر الذهبية في
بغداد يضم (٧٠) صورة وخريطين .

56. Reitlinger, Gerald. A tower of skulls;
a Journey through persia and Turkish
Armenia. London, Duckworth, 1930.

رايتلينجر ، جيرالد . رحلة خلال بلاد فارس وتركيا
وارمينيا . طبع لندن ، ١٩٣٠ ، ٣٢٦ ص
مزود بصور وخرائط ويضم بغداد في الفصل
الاول .

57. Reuther, Oscar. Das Wohnhaus in Bag-
dad und andren standten des Irak. Ber-
lin, Verlag von Ernst Wasmuth, 1910.
119. p., illus.

رويتير ، اوسكار . البيت البغدادي وبيوت مدن
العراق . طبع برلين سنة ١٩١٠ يقع في ١١٩
ص مزود بمخططات كثيرة للمدن العراقية .

58. Rich, Claudius James. Narrative of a
residence in Koordistan and on the site
of ancient Nineveh, with a Journal of a
voyag down the Tigris to Baghdad and
an account of a visit to shirauz and per-
sepolis. London, James Duncan, 1836. 2
vols.

ريج ، كلوديوس جيمس . رحلة الى بلاد كردستان
ومواقع نينوى ورحلة الى اسفل منطقة دجلة
الى بغداد وزبارة الى شيراز ولهرسبوليس ،

شتارك ، فريا . ماوراء الفرات ، سيرة ذاتية لرحلة المؤلف من ١٩٢٨ - ١٩٣٣ طبع لندن ، ١٩٥١ يقع في ٣٤١ ص ، مزود بصور يتحدث عن الصحافة في بغداد سنة ١٩٣٢ اواخر سنة ١٩٣٣ .

69. ————. Dust in the Lion's paw; Autobiography 1939-1946. London, John Murray, 1961. 297 p., illus.

شتارك ، فريا . وحل في مخلب الاسد . سيرة ذاتية للمؤلف ورحلته من ١٩٣٩ - ١٩٤٦ ، طبع لندن سنة ١٩٦١ ، يقع في قسمين ، ذكر بغداد في القسم الاول ، ص ٧٥ - ١٤٦ ، مزود بصور عن بغداد وجوامعها واسواقها .

70. ————. East is west. London, John Murray, 1945. 218 p., illus.

شتارك ، فريا . الشرق هو الغرب . طبع لندن ١٩٤٥ وهي الطبعة الاولى ، ٢١٨ ص مزود بصور يقع في اربعة فصول ، يضم الفصل الرابع عن العراق وبغداد ص ١٣٩ - ١٩٨ مع ملحق عن العراق .

71. ————. The valleys of the Assassins and other persian travels. London, John Murray, 1947. 319 p., illus.

شتارك ، فريا . اودية الحشاشين ورحلات فارسية اخرى طبع بغداد ١٩٤٧ ، ٣١٩ ص مزود بصور ، طبع لأول مرة ١٩٣٤ واعيد طبعه ، سنة ١٩٤٧ ، يقع في خمسة فصول ويتضمن الفصل الثاني عن بغداد ق ص ٤٨ .

72. Stevens, E. S. By Tigris and Euphrates. London, Hurst, 1923. 349 p., illus. (71 illus).

ستيغنس ، اي ، اس . عند دجلة والفرات . طبع ، لندن ، ١٩٢٣ ، ٣٤٩ ص يحتوي على خمسة فصول وملحقين يتحدث عن المناطق المقدسة في بغداد والمدن القديمة آشور وبابل والحالة السياسية في العراق مزود ب (٧١) صورة .

(W)

73. Warfield, William. The gate of Asia; a Journey from the [..... gulf] to the black sea. New York, (London) G. P. Putnam's Sons, 1916. 374 p., illus.

ورفيلد ، وليم . بوابة اسيا ، رحلة من الخليج

63. Sachau, Edward. Am Euphrat und Tigris reisenotizen aus dem winter, 1897-1898. Leipzig, J. C. Hinrichsche Buchhandlung, 1900. 160 p., illus.

زخو ، ادورد . رحلة لدجلة والفرات في شتاء سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨ ، طبع لينرج ، ١٩٠٠ في ١٦٠ ص - يتضمن رحلة من عدن - البصرة - بغداد - الموصل - الديبر - حلب - الاسكندر - مزود بصور (٣٢) صورة وخمس خرائط يضم في اخره فهرس بالاسماء الجغرافية .

64. Samuel, Jacob. Journal of missionary tour through the desert of Arabia to Baghdad. Edinburgh, 1844. 323 p.,

صموئيل يعقوب . رحلة خلال صحراء العرب الى بغداد . طبع ادنبرة سنة ١٨٤٤ يقع في ٣٢٣ ص

65. Sasson, Philip. The third route. London, William Heinemann, 1929. 291 p.

ساسون ، فيليب . الطريق الثالث . طبع لندن ، ١٩٢٩ ، ٢٩١ ص يضم (٢٠) فصلا يصف بغداد في الفصل التاسع .

66. Southgate, Horatio. Narrative of a tour through Armenia, Kurdistan, Persian and Mesopotamia. New York, D. Appelton, 1840. 2 vols.

سون كيت ، هوراثو . رحلة روائية الى ارمينيا كردستان - بلاد الفرس - وبلاد ماوراء النهرين ، يقع في مجلدين ، طبع نيويورك ، ١٨٤٠ . يتضمن المجلد الاول الوصف الدقيق لتركيا والمجلد الثاني يصف العراق وايران بغداد - كركوك - الموصل .

67. Stark, Freya. Baghdad sketches. London, John Murray, 1939. 269 p. illus., plates.

شتارك ، فريا . ملامح عن بغداد . طبع لندن ، ١٩٣٩ يقع في ٢٦٩ ص مزود ب (٣٥) صورة لمختلف الحياة الاجتماعية في بغداد والعراق طبع لأول مرة سنة ١٩٣٧ و ١٩٣٩ .

68. Stark, Freya. Beyond Euphrates; autobiography 1928-1933. London, John Murray, 1951. 341 p., illus.

ولستد ، ج . ريموند . رحلات الى مدينة الخلافة من ساحل الخليج العربي والبحر الابيض المتوسط ، يتضمن رحلة شرق بلاد العرب ، ورحلة الى جزيرة سوكاترا ، طبع لندن ، ١٨٤٠ ، في مجلدين (٤٠٥ - ٣٤٧ ص) ، يتضمن المجلد الاول عن الخليج العربي مع خارطة بينما يتضمن المجلد الثاني بلاد ماوراء النهرين وسواحل البحر الابيض المتوسط ، يضم ملاحق وفيه معجم في اخره باللغة العربية ومايقابلها في لهجة اهل الجزيرة .

76. Wiese, Ernst. 10,000 miles through Arabia. London, Robert Hale, 1968. 192 illus.

وينز ، ارنست . عشرة الاف ميل في بلاد العرب ، طبع لندن ، ١٩٦٨ ١٩٢ ص ، يذكر مدينة هارون الرشيد (بغداد) في ص ٤٣ . مزود بصور .

العربي الى البحر الاسود طبع لندن ، ونيويورك ، ١٩١٦ ، ٣٧٤ ص مزود بصور . يصف اسيا - اعالي نهر دجلة - بابل - كردستان - موصل ..

74. Webb, F. C. Up the Tigris to Baghdad. London, F. N. Spon, 1870. 66 p., illus. plates.

وب ، ف.س . من اعالي نهر دجلة الى بغداد . طبع لندن ، ١٨٧٠ ، ٦٦ ص مزود بصور ، ولوحات ، فيه وصف روائي تاريخي عن بغداد وعن طاق كسرى سنة ١٨٦٥ .

75. Wellsted, J. Raymond. Travels to the city of the Caliphs along the shores of the [..... gulf] and the Mediterranean including a voyage to the east of Arabia and a tour on the Island of Socatra. London, Henry Colburn, 1840. 2 vols., illus.



مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامي



اِسْتِدْرَاكَاتٌ عَلَى كِتَابِ «بَغْدَادُ مَدِينَةُ السَّلَامِ»

لابن الفقيه الهمداني
تحقيق الدكتور صالح احمد العلي

بقلم
عبد الشالحي

بغداد - الجمهورية العراقية

الاستاذ الدكتور صالح احمد العلي اشهر من ان يعرف وقد اعتاد على ان يتحف المكتبة العربية بين حين وآخر ببدايع من آثاره الدالة على فضله وكان آخر ما اتحف به المكتبة العربية كتاب بغداد مدينة السلام لابن الفقيه الهمداني فقد حققه وعلق عليه وشرح غامض الفاظه وقد تم اخراج الكتاب في مطابع باريس فاسبغ عليه الذوق ثوبا من الاناقة واللفظ اضافة الى ما في مادة الكتاب من فائدة ونفع .

وقدم الدكتور المحقق ، للكتاب ، بمقدمة جمعت فاوعت ، على ايجازها ، بحث فيها مكانة بغداد ، وما الف عنها من كتب .

والذي أخذه على الاستاذ المحقق ، انه - على ما يظهر لي - قد عهد بتصحيح الملازم عند اعداد الكتاب للطبع ، الى غيره ، فصدر الكتاب وفيه ما فيه من اغلاط كنت اتمنى لو انه خرج سالما منها وقد اثبت في الثبت المرفق ، ما عثرت عليه منهالكي يجري اصلاحها عند تقديم الكتاب من اجل طبعه طبعة ثانية .

ثبت الاستدراكات

الصفحة	السطر	
٥	٨	اتخاذ سبقه من الخلفاء مقرهم (من) سامراء صوابه : (في) سامراء
٦	٢	كتاب بغداد (الطيفور) صوابه : (ل احمد بن ابي طاهر طيفور)

الصفحة	السطر
٦	٤
	يزدجرد بن (مهنداد) اقول : سماه الاستاذ رضا تجدد ، محقق كتاب الفهرست المطبوع ب طهران « يزدجرد بن مهنداد » وتجدد اعرف بالاسم الصحيح ، والكلمة فارسية ، مهني : كبير ، رفيع . وداد : هبة . ذكر المحقق ان خطط بغداد اشتملت في الجزء الاول من كتاب الخطيب البغدادي على الصفحات من ٦٦ - ١٢٠ صوابه : من ٥٦ - ١٢٠
٨	٩
	مرة يزهد (من) الدنيا صوابه : يزهد (في) الدنيا يزدجرد بن (مهنداد) بالباء
١٧	١٦
	سماه المحقق هنا (مهنداد) بالباء ، وسماه قبلا (مهنداد) بالميم ، والصحيح كما اثبتنا من قبل (مهنداد) واسمها الاول عند (الزوراء) قال المحقق : لعلها عند (الناس) اقول : ان المؤلف اورد كلمة (الناس) في اخر السطر ، ويقتضي ان تكون الكلمة ، على ما احتمل : (المؤرخين) فتكون الجملة : واسمها الاول عند المؤرخين ، الزوراء . (في جانب الشرقي) صوابه : (في الجانب الشرقي)
٢٨	٣
	(فاطمعه) وخوفه واستكتمه صوابه : (فاطمعه) من الاطماع فقال : الله اكبر ، والله هو صوابه : الله اكبر ، (أنا) والله هو
٢٩	١١
٣٠	١٢
٣١	٣
	قال : (فأتي) موضع بغداد - بالياء صوابه : (فأتى) بالمقصورة ولا يحمل الجند والرعية (الامثلة) صوابه : (إلا مثله) وهؤلاء (ثناء) الناحية - بالشاء صوابه : (تناء) الناحية - بالثناء والنون المشددة نكل واحد منهم قال قولا (يقدر) بالياء صوابه : (بقدر) بالباء فيما قد عملت عليه من البناء (من) احد هذه المواضع صوابه : (في) احد هذه المواضع
٣٢	١
	فاللذان في الغربي (فهما) صوابه : (هما) يحذف الفاء (كلواذي) بالياء صوابه : (كلواذى) بالمقصورة

الصفحة	السطر	
	٧	(سامرا) بالسين
		صوابه : (تامرا) بالتاء
	٩	فاذا قطعت الجسر (و) اخربت القنطرة
		صوابه : (او) اخربت القنطرة
	٢٢	الحجاج بن (ارطاة) بهزتين
		صوابه (ارطاة)
٣٣	٤	فولاه (عدد اللبن)
		صوابه : فولاه (عدد) اللبن
	١٩	(كلواذي) بالياء
		صوابه : (كلواذي) بالمقصورة
	٢١	قصة (المقلاص)
		صوابه : قصة (مقلاص) لانه اسم علم
	٢٢	علي بن (بقطين) بالباء
		صوابه : علي بن (يقطين) بيائين
	٧	قد وجدناه في كتاب عندنا (يتوارثونه)
		صوابه : (نتوارثه)
	٧	قرن عن قرن الذي يبني مدينة
		صوابه : (ان) الذي يبني مدينة
	٩	واريحك هذا العناء
		صوابه : واريحك (من) هذا العناء
	١٣	فقلت في نفسي (لخفة) بالخاء والفاء
		صوابه : (لحقه) بالحاء والقاف
	١٦	كن بناحية (الصراة) بالصاد
		صوابه : بناحية (السراة) بالسين
	٢	الناس يتحرزون من مقلاصهم (ومقلاص) معي في البيت
		صوابه : (ومقلاصي) معي في البيت
	٧	وامر ان (يوقد) هناك
		صوابه : ان (يدق) هناك
	٩	ثم امر الرماد (فخرج)
		صوابه : (فطرح)
	١٣	مما يلي الخندق (الشرافات)
		صوابه : (الشرفات)
	٨	والطاقات الصفار التي تلي (المرحبة)
		صوابه : (الرحبة)
	١٠	الحجاج بن (ارطاة)
		صوابه : (ارطاة)
١٥ و ١٦		ورد ذكر (العقب ، الفزي ، الثنال) من دون ايضاح معانيها ومن دون اشارة الى المواضع التي يمكن التحقق من معانيها فيها

الصفحة	السطر	
٣٧	٨	فنتقض شيء من ذلك ، وحمل اجره الى بغداد ، والنفقة على هدمه وحمله صوابه : (وبلغت) النفقة على هدمه وحمله
٤٠	١٥	اعانيت في طول من الارض او عرض كبغداد من دار بها (مسكني) انخفض
		اقول : يقتضي ان ترفع كلمة (او عرض) من الشطر الثاني وتضاف الى الاول وان تحذف الياء من (مسكني) فتكون الجملة (بها مسكن انخفض)
٤١	١٦	وكل البناء قواده صوابه : (الى) قواده
٤٢	٦	خالد بن عبدالله (القشري) بالشين صوابه : (القسري) بالسين
٤٣	٣	رستاق (الفروسيج) صوابه : (الفروسيج) بحذف الثاء
٤٤	١٢ و ٩ و ١	
٤٤	١٣	(الرحا) المعروفة بام جعفر صوابه : (الرحي) بالمقصورة
	١٧	قنطرة (الجديد) صوابه : (القنطرة الجديدة)
٤٨	١٩	ربض عمرو بن (اسفندياذ) بالذال صوابه : (اسفنديار) بالراء
٤٩	٢١	مربعة شبيب بن (واج) قال المحقق : ان ياقوت سماه (شبيب بن راح) اقول : الاسم الصحيح : شبيب بن (واج) بالجيم
٥٠	٥	العلاء بن موسى (الجورجاني) بالراء صوابه : (الجوزجاني) بالزاي
	١٩	(وخرجت) منازلهم صوابه : (وخربت)
٥١	٥	ابن (ضيه) بالياء والهاء صوابه : (ضبة) بالياء المشددة والمقصورة
	٦	عامر بن دلجة ويحيى اخوهما عرقبا جمل عائشة صوابه : عامر بن دلجة (وبجير اخوه) وهما عرقبا جمل عائشة
	١٢	وكان باقلاها نهاية فليل له (الباقي) بالياء صوابه : وكان باقلاها نهاية (في الجودة) فليل له (الباقي) بالمقصورة
٥٢	٦	الساحة التي كانت مضربا (اللين) صوابها : مضربا (للين) باللام المشددة
٥٣	٨ و ١	مع (رحا) اتخذها هناك صوابها : (رحي) بالمقصورة
٥٦	١	وسويقة ابي عبيدالله منسوبة الى عبيدالله صوابه : منسوبة الى (ابي) عبيدالله

الصفحة	السطر	
	١٠٥٨	وسوق العطش بناها سعيد (الحرسي) بالحاء والسيف اقول : هو سعيد (الخرسى) بالحاء ، اى الخراساني ، والنسبة الى خراسان : خرسى ، وخراساني ، وكذلك سماه الخطيب في تاريخه ٩٤/١ وصاحب الباب ٣٥٤/١ واخطأ محقق تاريخ الطبري فسماه (سعيد الحرشي) واعتبر اخباره امتدادا لاخبار القائد العربي سعيد بن عمرو الحرشي الذي كان في السنة ٨٣ قائدا مظفرا ، وولي للامويين خراسان فلا يعقل ان يكون هو سعيد الذي وردت اخباره في خدمة العباسيين حتى السنة ١٨٩ ، وذكر الدوري في اخبار الدولة العباسية (ص ٢٠١) ان بكر ابن ماهان الداعية العباسي توجه في ايام يزيد بن عبد الملك الاموي الى خراسان مع سعيد الحرسي (بالحاء) وعلق الدوري على الخبر ، بانه لعله سعيد الحرشي ، وليس به
	١٦	ثم صار (ولاء) للرشيد صوابه : صار (ولاؤه) للرشيد
٥٧	٧	رأى فيها آزاجا (عتيقا) صوابه : آزاجا (عتيقة) لان الازاج جمع ازج ولا يجوز ان تكون الصفة مفردة والموصوف جمع
٥٨	٢	(كلواذي) بالياء صوابه : (كلواذى) بالمقصورة (وكان أحد طلب من الحاجات)
	١٢	صوابه : (وكانت احدى) ما طلب من الحاجات
٥٩	٢٠١	ان للدنيا وللزينة فيها والاثاث ... الخ اقول : هذان بيتان من الشعر ، اوردهما الخطيب في تاريخه ٩٧/١ وياقوت في معجمه ٣٦٣/٢ وكان المقتضي ايرادهما شعرا : اف للدنيا وللزينة فيها والاثاث اذ حشا الترب على هيب لان في التربة حاث
٥٩	٩	ابن (رابطة) بنت ابي العباس السفاح صوابه : ابن (ربيعة) شارع الزرادين (بباءين) صوابه : (الزرادين) بباء واحدة
	١٨	وكان اذا شرب دعا بالصورة (فيشرب) على هذه الشوارع صوابه : دعا بالصورة (فشرب)
	٢٣ و ٢٢	وكان ببغداد في شارع الثلاثة ابواب ثلثمائة مقل (للتسويق) صوابه : (للتسويق) بحذف التاء ، وما يزال هذا الاسم معروفا في بغداد ، وقد بحثت عنه بايجاز في الجزء الاول من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي
٦٠	١١	اخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد فوجد (ما بني) حبلا صوابه : (ما يتي) حبلا

الصفحة	السطر	
٦١	١٢	(كلواذي) بالياء صوابه (كلواذي) بالمقصورة
	١٢	(عمى) بالعين صوابه : (غمى) بالعين وبالميم المشددة والمقصورة
	١٣	(بزوعى) بالعين صوابه (بزوعى) بالعين
	١٥	الظرف (فيها) يقتبس صوابه : (منها) يقتبس
	١٨	(مربعة) الجنب - بالياء صوابه : (مربعة) الجنب - بالياء
٦٢	٢	ليس لها (مشاة كمشاة) الجبال صوابه : ليس لها (مشاة كمشاة) الجبال
	٥	من وجع (للطحال) صوابه : من وجع (الطحال)
	٦	ولا (رادع) الجحفة صوابه : ولا (رادع) الجحفة
	٨	و (شهرزور) بزاعين صوابه : (شهرزور) بزاي واحدة
	١٠	ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين على قلبها في كل ما حين اقول : صحة ترتيب الشطرين تحصل بان ترفع كلمة (الدين) من صدر الشطر الثاني وتلحق باخر الشطر الاول
٦٢	١١	ما بين قطربل والكرخ نرجسة (تندي) و (تنبت) خيري ونسرين صوابه : (تندي) بالمقصورة (ومنبت) خيري ونسرين
	١٣	سقى لتلك القصور (الشارعات) صوابها : (الشاهقات)
	١٣	(تخفى) بالحاء صوابها : (تخفي) من البقر الانسية العين
	١٦	فيها القصور التي (تهوى) بالمقصورة صوابها : (تهوي) بالياء
	١٧	من كل حراقة (تعلو) فقارتها قصر من التاج عال (ذي) اساطين صوابه : (يعلو) فقارتها قصر من التاج عال (ذو) اساطين
	٢٥	(حلفت ببغداد) التي لنسيمها صوابه : (خلفت ببغداد) بالحاء واللام المشددة
٦٣	٢	(وليس) فيها الف الف منعم صوابه : (وليس) فيها
	٨	ايا بغداد يا اسفي عليك متى (يقضي) الرجوع اليك صوابه : متى (يقضي) الرجوع (لنا) اليك
	٩	(قنعنا) سالمين بكل خير صوابه : (فنحيا) سالمين بكل خير اذ ان كلمة (قنعنا) لا تألف مع رغبته في السلامة والخير كله
	١١	(الا) ليت شعري عن الدين تركنا صوابه : حذف كلمة (الا) فيستقيم الشعر والمعنى

الصفحة	السطر	
	١٢	لعل المدى تطاول حتى
	١٥	اقول : لكي يستقيم الشعر يقتضي اضافة الواو على (لعل) على اهل بغداد السلام فاني (اريد) لبيري عن ديارهم بعدا صوابه : (ازيد) لبيري - بالزاي
٦٣	١٧	ايرحل (الف) ويقيم الف وتحيا لوعة ويموت (مصف) اقول : ان كلمة (وتحيا) التي اقحمت في عجز الشطر الاول هي من حصة الشطر الثاني . فيكون البيت بعد التصحيح ايرحل (الف) ويقيم الف وتحيا لوعة ويموت (مصف) لعل زماننا سيعود يوما صوابه : فيرجع (الف ويسر الف)
	٢٤ و ٢٣	وقال بعض الادباء : ببغداد يصفوا العيش ... الخ اقول : هذا شعر ، وكان المقتضي ان يكتب شعرا ببغداد يصفوا العيش للمتعبد وللقارف اللاهي وللمتودد وردت كلمة (دريزل) قال المحقق انه لم يعرف معناها اقول : لعلها (دريزك) فارسية ، اصلها (درزي كردن) اي الخياطة يريد انها افرغت افراغا كالخياطة التي تناسب البدن لم تر (عني) قنطرة (البردان) بالواو صوابه : قنطرة (البردان) بالراء (الحطيمية) صوابه : (الحطمية) بياء واحدة (واقطع عبدة)
٦٤	٤	
	٧	
	١١	
	١٢	
٦٥	١	
	٣ و ٦ و ٨	(سرمراي)
٦٦	١٠ و ١٧ و ١٨	اقول : الاسم اما سامراء او سر من رأى اما (سرمراي) بالياء فلم نسمع بها من قبل (سر من رأي) بالياء صوابه : (سر من رأى) بالمقصورة ثم قتل المتوكل بها . وانتقل (اليها) الناس عنها الى سر من رأى صوابه : ان نحذف كلمة (اليها) يزدجرد بن مهنباد (بالياء) صوابه : (مهنباد) بالياء وقالوا بها مقدمين لها ببغداد العراق صوابه : مقدمين لها (على) ببغداد العراق ولا (يتوقيان) على مقدار صوابه : ولا (يوفيان) بالفاء صوابه : (والحمام) والجماع صوابه : (والحجام) بالجيم
	٥	
	٦٦	
	٦٧	
	٩	
	١٠ و ١٧ و ١٨	
	٢١	

الصفحة	السطر	
٦٨	١٦	خطر عظيم (وعزر) جليل
	١٩	ومن يزيدك (بصرة)
	٢٢	ولا (اسيرهم) فهما
		وغلب عليها دون سواها « انا ربكم الاعلى »
		صوابه : (وقال :) انا ربكم الاعلى
٦٩	٧	(او) قاضيا بقاض
		صوابه : (و) قاضيا بقاض
	١١	(عدوا عداية وابن البهاليل من ابيه)
		صوابه : (عدو اعدائه وابن البهاليل من آبائه)
	١٢	عبيدالله بن عبدالله بن (الطاهر)
		صوابه : ابن (طاهر)
	١٣	(المنيقظ) الناشئ
		اقول : لم افهم معناها ، ولم استطع رد التصحيف الى اصله
٧٠	٢	(باغيان) السلطان
		صوابه : (باغيان) بباءين فارسية معناه : البستاني
	٨	(اللقاح) بالقاف
		صوابه : (اللقاح) بالفاء المشددة
	٨	(السبستان)
		صوابه : (السيسان)
٧٠	٩	(العضل)
		صوابه : (العض) وهو صغار العضاه
	١٠	(الاسقيل)
		صوابه : (اسقيلناس)
	١٠	(البسلخية)
		صوابه : (السليخة)
	١٠	(الزرين)
		صوابه : (الزرنب)
	١٣	(المشبر)
		اقول : لم اعثر على اصلها ولم استطع اصلاح التصحيف
	١٣	(التريد) بالدال
		صوابه : (التريد) بالدال
	١٣	(الخرئق) بالنون
		صوابه : (الخرفق) بالفاء
	١٤	(التيل) بالتاء
		صوابه : (الثيل) بالتاء المثناة
	١٤	(الافستين)
		صوابه : (الافستين) بزيادة نون
	١٤	(الجعد)
		صوابه : (جعده)
	١٤	(الفنجمشك)
		صوابه : (الفنجكشت)
	١٤	(القافت) بالتاء
		صوابه : (الخافت) بالتاء المثناة

الصفحة	السطر	
١٤	(الموقدة)	اقول لعله : (المرقد) أي البنج
١٧	(الماديان) بالدال	
	اقول : احسب ان صوابه : (الماديان) بالدال	
	والمادي : العسل	
٢١	(الامشرجات) بالميم	صوابه : (الافشرجات) بالفاء
٢٦		فانهم كانوا دون ملوك الروم والهند وسائر الاطراف (واعلم)
	صوابه : (الواو) من (واعلم) فتكون الجملة :	
	فانهم كانوا . . . (اعلم) بواقع الريف . . . الخ	
٧١	١	وهم كانوا الائمة في غرائب (الفاذايان)
		اقول : اعد المحقق موضعا في الحاشية للحديث عن هذه الكلمة ثم
		فانه ذلك ، وانا احسب - ولا اقطع - بانه ربما كان اصل الكلمة الماذيات
		- اي الخمور
٥		الخمرة (البالية)
		صوابه : (البابية) نسبة الى بابل
١١		(الفاذايات)
		اقول : لم افهم معناها
٧٢	٢	الشراب السودي
		قال المحقق : الراجع ان الشراب السوري هو المنسوب الى سورا ،
		بلدة بين الكوفة وبغداد ، لم تذكر المصادر شهرتها بالشراب
		اقول : جاء في معجم البلدان ١٨٥/٣
		ما زلت اشربها واسقي صاحبي حتى رأيت لسانه مكسورا
		مما تخيرت التجار ببابل او ما تعتقه اليهود بسورا
١٦		ثم اقبل (قينام) الحمام فغربلها صوابه : (قيّم) الحمام
٧٣	٤	السكاكين (الكناية) صوابه : (الكنباتية)
٨		كملك الديلم والطيلسان (وملك السوس)
		قال المحقق في الحاشية (ص ١٥٥) : انها قد تكون محرفة عن
		(السرير) او عن (السيسحان)
		اقول : احسب انها محرفة عن (سيس) بسينين بينهما ياء ذكرها
		ابو الفداء في تقويم البلدان (ص ٢٥٧) وقال عنها انها بلدة ملك الارمن
		وقاعدة ملكة وقاعدة الثغور الشمالية ، كما ذكرها ابن الاثير في اخبار
		السنة ٢٤٥
١٢		كما (يستقصون) على فقدانه
		صوابه : (يتنقصون) على فقدانه
١٣		يصلون بعد المجاهدة . . . الى غير (المنفيين) من الطباخين
		صوابه : الى غير (المتفتنين) من الطباخين

الصفحة	السطر	
٧٣	١٦	زامرة (زمامية) بميمين
		اقول : وردت في حكاية ابي القاسم بلفظة (زمامية) بنون وبالنظر لكثرة التصحيف في حكاية ابي القاسم فاني لا أرجح احدى اللفظتين على الثانية وارجو ان يوفق احد المطلعين فيرشدنا الى اللفظ الصحيح .
	١٧	(رحيب) صوابه : (عريب)
	١٧	(زاعم) صوابه : (ناعم)
	١٨	ماشطة طاهرية وخازنة حريمية
		اقول : افرد المحقق موضعاً في الحاشية لايضاح هذه الكلمة ، ثم فاته ذلك ، واحسب ان قوله طاهرية النسبة فيه الى آل طاهر بن الحسين ، وقوله حريمية النسبة فيه الى الحرير الطاهري
	١٩	(الدخائر المتهندات)
		صوابه : (الدخائر المتصيدات)
	٢٣	(الديقي)
		صوابه : (الديقي) الباء قبل الباء
	٢٣	فلعل القوم ان يفاخرونا بالمعادن ... (وكانوا) قد دلوا صوابه : (فكانوا) قد دلوا من انفسهم
	٥	وقد وجدنا نصيباً ابعدنا (من المعدن كنصيب اقربنا منه صوابه : وقد وجدنا (ابعدنا نصيباً) من المعدن
	٧	باقصى (حجر) بالبير والطيلسان
		صوابه : باقصى (حجر) بجيم ثم حاء
	٨	(الخليجي) بالياء
		اقول : ذكره المحقق في الشرح (١) فسماه الخليجي (بالنون) ولم يفسره ، ويظهر من سياق الكلام انه صنف من اصناف القماش الذي يصنع بمصر ، ولعل الاسم الصحيح (الخليجي) نسبة الى الخليج بمصر ، اما الخلنج فهو نوع من الخشب الذي يصنع من الصحاف والعساس ، قال الشاعر : ويسقي لبن البخت في عساس الخلنج
	١٢	وفي اقصى مكانته (من شأنه) صوابه : (وشأنه)
	١٧	ذلك هو القول (من) المجهزات (في) خراسان
		صوابه : (و) ذلك هو القول (في) المجهزات (من) خراسان
	١٨	ثم لا نجد (في) بغداد عند ذلك
		صوابه : ثم لا نجد (بغداد) - بحذف (في)
	١٩	لا قوام لها إلا ما هو اثبت بها
		صوابه : لا قوام لها إلا (بما) هو اثبت بها
	٥	بعلومه وآدابه وانسابه (واحسانه)
		صوابه : وانسابه (واحسابه)

الصفحة	السطر	
	١٢	اشرف من بلاد الري ونواحيها
		صوابه : (و) اشرف من بلاد الري
	٢٠	وهما شيخان مستوران قد (اسفنا) بالفاء المشددة
		صوابه : قد (اسننا) بالنون المشددة
٧٦	٤	وانشد لكاتب من اهل (البنديجين) بياء ثم نون
		صوابه : (البنديجين) بنون ثم ياء
	٥	هل غاية من بعد مصر (اجيبها)
		صوابه : (اجوبها)
	١٠	فعرش مصر هناك (فالفرما) بالفين
		صوابه : (فالفرما) بالفاء
		ولتمام البيت يقتضي ان تعاد الى عجز الشطر الاول كلمة (الى) التي
		اقحمت على صدر الشطر الثاني
	١٦	لمصارع لم يبق في اجداثها (منهم) صدى بر ولا صديق
		صوابه : رفع كلمة (منهم) من عجز الشطر الاول ووضعها في
		صدر الشطر الثاني
	١٧	ان (قال) فاعلهم فغير موفق
		صوابه : ان (هم) فاعلهم وقد اورد المحقق اللفظ الصحيح في
		الحاشية ، وكنت ارجح لو ان يضع اللفظ الصحيح في المتن ، وأشار الى
		الاصل الخطأ في الحاشية
٧٦	٢٠	لدعوت (بالتفريق) بالفاء
		صوابه : (بالتفريق) بالفين
	٢١	ودوام لوعة زفرتي (وشهيق)
		صوابه : (وشهيتي)
	٢٣	ونعيم دهر اغفلت ايامنا بالكسرخ في قصف وفي تغشيق
		اقول : لم افهم المعنى ، ولم استطع اصلاح المصحف .
	٤	فز بالرجوع الى العراق وخلها (بمصر) فريقا بعد جمع فريق
		اقول : لعل الصواب : (تمضي) فريقا
	١٣	مايح الحركات (طريف) الشمائل
		صوابه : (ظريف) بالطاء
	٧	احتاج هؤلاء الحفظة الى سبعة آلاف درهم ومائتي الف درهم
		صوابه : الى سبعة آلاف (الف) درهم ومائتي الف درهم
	١١	ونقض من الاحاطة شيء قدر
		صوابه : شيء (له) قدر
	١٣	وان (القطت) بالثناء الذي عليه المدار
		صوابه : (القطب) بالباء
	٢٢	وهم (مستلمون)
		صوابه : وهم (مستلمون)
٧٩	٨ و ١٤ و ١٧ و ٢٠	(سرمري)
		صوابه : (سرمري) بالتشديد
	١٣	وواسط (عل) حال
		صوابه : (على) حال
	٤	(يحوض) بريقه - بالحاء
		صوابه : (يجرض) بالجيم

الصفحة	السطر	
	١٢	فقد تركوا الرياسة للسلطان (ورمحوا) بالميم صوابه : (ورمحوا) بالباء
١٥ و ١٤		وعوملوا من التفتت وطلب الرشى (وما) لا يحتمله الا الدليل وذو (المدة) القليل
١٧		صوابه : (بما) لا يحتمله الا الدليل ، وذو (العدد) القليل عند خروجهم مع سهل بن سلامة في ارباض الحربية فانه اجتمع لما تطوع
٢٠		صوابه : اجتمع (اليه) لما تطوع (تهاجوا) من جانبي مدينة السلام
		صوابه : (تهايجوا)
٢٣	٨٠	(فهريهم) واحترست من الاسراف احسب ان صوابه : (فقدرتهم)
٣	٨١	اما (القطع) الذي مدينة السلام منه صوابه : (الصقع) وقد اورد المحقق الاسم الصحيح في الحاشية وكنيت ارجح له ان يورده في المتن ويشير الى الاصل في الحاشية
٨ و ٧		ان الفرات يسيل بجميع الشام وسواحل بحر الروم ومصر صوابه : يسيل بجميع (ما يرد من) الشام ... الخ
١٥ و ١٠		(قسطنطينية) صوابه : (قسطنطينية)
١٠		(الصقالية) بالياء صوابه : (الصقالبة) بالباء
٦	٨٢	(جنابا) صوابه : (جنابة)
٧		(اليمامة) بالهاء صوابه : (اليمامة) بالقصورة
١١		(ان افجر) صوابه : (ان افجر)
١٢		امرت الارض ان (تطيعه) صوابه : ان (تطيعك)
١٥		(قردي) بالياء صوابه : (قردي) بالمقصورة
١٧		(سرمري) صوابه : (سرمري) بشدتين
٢٥		الهواء (العدي) بالذال صوابه : (العدي) بالذال
٧ و ٤	٨٣	(الثبت) بشاء مثلثه صوابه : (الثبت) بتاءين بينهما باء
١٤		توسطوا (بصب) الفرات في دجلة صوابه : توسطوا (مصب) الفرات في دجلة
١٩		ومدينة (الصفد) بالفاء صوابه : (الصفد) بالفاء
٨	٨٤	(ذو الاكتاف) بالنون صوابه : (ذو الاكتاف) بالتاء
١٠		قدفع الى ايران هذا (القطع) صوابه : (الصقع)
٨	٨٥	(الديبل) بياءين صوابه : (الديبل) بباء ثم ياء
٤	٨٦	(المدير) الاكبر صوابه : (المدير) بياء مشددة

الصفحة	السطر	
	١٢	(والجزر) بالجيم
	١٥	لو دبرت مملكة بعد خراسان
٨٧	٩	ويكتب (ابا) هبيرة
	١١	ويوشك ان يكون لها (شرام) بالشين
	١٣	يخاطبه ابن هبيرة (نصر بن سيار)
		اقول : الارجح حذف الجملة الاخيرة (نصر بن سيار)
	١٧	(فبلغ) - بالعين - طنجة
	١٩	ازهر السمان (او)
	٢٠	اصحاب عبدالله بن عبدالله بن جعفر
		صوابه : عبدالله (بن معاوية) بن عبدالله بن جعفر .
	٢٢	ويدخل الكوفة فيقيم بها ايضا (وجول) بلدان الجزيرة
		صوابه : (ويجول)
	٢٣	وكان مع ابيه وعمومه (بالشرأة) بالشين
		صوابه : (بالسرأة) بالسين
٨٨	١	لم يشاور احد طوى كشحه عن كل مشورة
		صوابه : (و) طوى كشحه
	٥	اذا (انتفضت) بالاضعفين قوى (الجبل) بالجيم
		صوابه : اذا (انتقضت) بالاضعفين قوى (الجبل) بالحاء
	٧	على (طوف) البساط
		صوابه : على (طرف) البساط
٨٨	١٢	وفي (اكناف) الشام - بالتاء
	٢٠	(صائقة) الردم - بالقاف
	٢٢	وان يوجد المأمون (لعبد) الله بن طاهر
		صوابه : وان يوجد المأمون (عبدالله) بن طاهر
	٢٣	واخذ بابك من (البدء) بهمزة
		صوابه : من (البدّ) بالدال المشددة ، وهو حصنه
٨٩	٦	وتوفي المعتصم (بسرمرين)
	١٢	(طالع) الوقت
		صوابه : (سرمرى) أو سامراء
		صوابه : (طالع) الوقت
	١٦ و ١٥	وانشد دعبل (بمدح) بغداد (ويدم) (سرمرى)
		صوابه : (يمدح) بغداد (ويدم) (سرمرى)
	٢٠	ما سرمرى بسرمرى بل
		صوابه : قلع كلمة (بل) من عجز الشطر الاول ، واضافتها الى صدر الشطر الثاني ، فيكون البيت :
		ما سرمرى بسرمرى
		هي بؤس لمن رآها
	٢١	برغم (انت) الذي بناها
		صوابه : برغم (أنف)

الصفحة	السطر	
٩٠	٢	ايام اذ نحن جيرة خلط (نيام) قبل (العشا) سامرها صوابه : (ينام) قبل (العشاء) سامرها
	٣	(و) إذ هي مثل العروس باطنها صوابه : حذف (الواو) من اول الشطر
	٣	دل (بعيد) الهوى (و طاهرها) صوابه : دل (بعيد) الهوى (و طاهرها)
٩٠	٤	جنة (الدنيا) ودار مغبطة صوابه : جنة (دنيا) ودار مغبطة
	٤	قل من النايبات (و اثرها) بالشاء المثلثة صوابه : (و اثرها) من الوتر بالشاء
	٥	غالى باغلى (التلاد) بالشاء المثلثة صوابه : (التلاد) بالشاء المشاة
	١١	اهل القرى والسدى واندية (لمجد) اذا (عدت) مفاخرها صوابه : واندية الـ (مجد) اذا (عدت) مفاخرها
	١٢	(اتربنى) دنيا في عز مملكة صوابه : (ابناء) دنيا في عز مملكة (شدت) عراها لهم اكابرها
٩٠	١٤	(مهمنداد) الكسرى صوابه : (مهينداد)
	١٨	كما (لا) يزيدوا صوابه : كما (لم) يزيدوا
	١٨	على ان (يقولوا) صوابه : (يقولون)
٩١	١٠	ان ناخذ (بأوسط) صوابه : (بأوسطه)
	١٦	كل حمام يحتاج الى اربعة نفر لابد (لها) صوابه : لابد (له)
٩٢	٧	فاجتمع من ذلك (اثنى عشر الف فزل) صوابه : اثنى عشر (الف) الف فزل
	١٤	(فانه نصف قطر المنقلبين بامر الفروض) اقول : لم افهم هذه الجملة ، ولم استطع ردها الى اصلها
٩٣	٦	(جوخي) بالياء صوابها : (جوخي) بالمقصورة
	٦	(البندنجيين) بثلاثة ياءات صوابه : (البندنجيين) بياعين
٩٣	١١	فلم (يلبثوا) فيها صوابه : فلم (يلبثوا) فيها من لات فلان حقه : نقصه
	١٤	وساقتهم الاقدار مستجيرين (الى محل) لا (يضيق) بهم دياره ولا (يمتلىء) منهم اقطاره
		صوابه : مستجيرين (الى محل) لا (تضيق) بهم دياره ولا (يمتلىء) منهم اقطاره
	١٥	ولا يتحكم في اقواتهم (تجار) صوابه : (تجاره)
١٥ و ١٦		ولا (تعجز) عن (مهبرتهم ممتازة) صوابه : ولا (يعجز) عن (ميرتهم ممتازة)

الصفحة	السطر	
	٢٢	وامر (ظريف) بالظاء صوابه : (طريف) بالطاء
	٢٤	كما لا يذهبان عن عقول العامة يشتمل عليها البرهان صوابه : (و) يشتمل عليها البرهان
٩٤	١٦	وسجوده (وقيامه) بالباء صوابه : (وقيامه) بالياء
	١٧	وما زيد فيه (مايتي) ذراع صوابه : (مائتا) ذراع
٩٥	٤	بقدرته على (توسعه) ما لا سبيل الى اتساعه الا به صوابه : على (توسعة) بالقصرية
	٤	ولا حيلة في (خطه) بالخاء صوابه : في (خطه) بالحاء المهملة
	٨	ان الله يبسط (الاقرب) خلقه اليه صوابه : يبسط (لا قرب)
	١٤	الف الف وخمس مائة انسان صوابه : الف الف وخمس مائة (الف) انسان
٩٦	١٠	واذا جاز ذلك القول بفراسخ كثيرة صوابه : واذا جاز ذلك (جاز) القول بفراسخ كثيرة
٩٦	١١	الا ان الله عزوجل لم يعطنا القدرة على علم ذلك (ومعانيه) مثله صوابه : (ومعانيه) مثله
	٢٣	ان (في) هذه المنازل ما يوقد فيه (امنا) عراقية وارطالا صوابه : ان (من) هذه المنازل ما يوقد فيه (امنانا او امناء) والمن : الوزن المعروف
٩٧	٥	فحصل بمصاييح القناديل ... من دهن البزر (الف الف رطل) صوابه : (ألف) الف رطل
	٢٢	ثم (الثناء) - بالثاء المثناة - وارباب النعم صوابه : (التناء) بالثاء المثناة والتون المشددة
٩٨	٢	ما لا يحصى جرارا ولا يعد (رقاقا) بالراء صوابه : ولا يعد (زقاقا) جمع زق
	٢٣	فيكون حقها من الزيت (استظهار) الف الف رطل صوابه : (استظهارا) الف الف رطل
	٢٥	ولمصاييح المساجد ثلاثة (ألف) الف رطل صوابه : ثلاثة (آلاف) الف رطل
٩٩	١٥	فان اسقطناه (لخصومه) بالميم صوابه : (لخصوصه) بصادين
	١٩	استهلاك (الاعشاب) بالشين صوابه : (الاعناب) بالنون
١٠٠	١	والنهروانات (والزواي) بلا نقطة صوابه : (والزواي) بالباء
	٢	(جوخي) بالياء صوابه : (جوخي) بالمقصورة
	١٢	فكان مبلغ ما اجتمع من هذه الارطال على اقرب الاسعار المعتدلة في الاعناب العامة ، حساب اثني عشر رطلا بدرهم ، ستة عشر الف الف درهم في الشهر الواحد ، اربعمائة وثمانين الف الف درهم . اقول : الفائزة الاخيرة في الجملة ليست في مكانها الصحيح ، وقد ادى وضعها في غير موضعها ان تغير المعنى المقصود ، ويقتضي ان توضع الفائزة بين كلمة (درهم) وكلمة (في الشهر الواحد) ، فتكون الجملة : فكان مبلغ ... ستة عشر الف درهم ، في الشهر الواحد اربعمائة وثمانين الف الف درهم

الصفحة	السطر	
١٠٠	١٣	باسقاط الاطفال (والامراض) صوابه : (وذوي الامراض)
	١٨	وترى ان يقتنعوا من ذلك (ما لا يفي به) الا من هو في حكم القياس صوابه : (ما لا يفي به) بالفاء
١٠١	١	(والثناء) وارباب الضياع صوابه : (والثناء) بالهاء المثناة
	٥	ومن (لا تسع) يده (بغير) الميسور صوابه : ومن (لا تسع) يده (لغير) الميسور
١٠٢	٦	في ذلك اليوم الذي قلنا انه الاعياد صوابه : قلنا انه (من) الاعياد
	١٠	ان الله لا يلفظ (لامجاد) ما شاء من خلقه صوابه : (لانجاد) ما شاء من خلقه
	١٩	من انواع ما في البر (والفرائب) ما في البحر صوابه : (وغرائب) ما في البحر
١٠٢	٢٠	(والمارماس) صوابه : (والمارماهي)
	٢٣	ولا حيلة لنا (من) عدته واستيفائه صوابه : (في) عدته واستيفائه
	٢٤	او ظننت ان (قليلا) مات صوابه : (قليلا) بالعين
١٠٣	٤	(فيعذر) وجود ذلك عليه صوابه : (فتعذر) وجود ذلك
	٩	عظيم النصيب من (لطيف) الله صوابه : من (لطف) الله
١٠٤	٤	اربعة (الف) الف وثمان مائة فرخ ودجاجة صوابه : اربعة (آلاف) الف وثمان مائة (الف) فرخ ودجاجة
	١١	افحسبت انك اعتقدت ستين الف حمام صوابه : افحسبت انك (لو) اعتقدت ... الخ
١٠٦	١٦	وتسعة (الف) الف وخمس مائة ... الخ صوابه : وتسعة (آلاف) الف ... الخ
١٠٧	١	تسع مائة (و) الف واثنان وسبعون الفا صوابه : ان تحذف الواو فتكون : تسع مائة الف ... الخ
	١١	سبعة (الف) الف الف كر صوابه : سبعة (آلاف) الف ... الخ
	١٢	تسعة (الف) الف ... الخ صوابه : تسعة (آلاف) الف ... الخ
	١٤	بخمس مائة دينار صوابه : بخمس مائة (الف) دينار
	١٩	في الخمس مائة دينار صوابه : في الخمس مائة (الف) ...
	٢٢	تسعة (الف) الف الف صوابه : تسعة (آلاف) الف ...
	٢٣	تسعة (الف) الف ... الخ صوابه : تسعة (آلاف) الف ...
	٢٥	سبعة (الف) الف ... الخ صوابه : سبعة (آلاف) الف ...

الصفحة	السطر	
١٠٨	٢	سبعة (الف) ... الخ صوابه : سبعة (آلاف)
	٢٠	كنت مع (جريز) بالزاي صوابه : (جرير) براءين
١٠٩	٤	ولها أربعة ابواب . . . يظهر (فيه) الفسق صوابه : يظهر (فيها) الفسق
	٧	ما أسست بغداد إلا على (الغلا) مرة حرق ومرة غرق ومرة فتنة احسب ان الصواب : ما أسست بغداد الا على (ثلاثة)
	١٧	ولم (يثناها) اهلها عن منكر صوابها : ولم (يثناه) اهلها عن منكر
	٢١	تظهر (رايات السود) من خراسان صوابه : (الرايات السود)
١١٠	١	فكيف بكم اذا حشرتم ذات نخل وكرم صوابه : (في) ذات نخل وكرم
	٢١	يجتمع اليها كل بر وفاجر فقال بغداد صوابه : يجتمع اليها كل بر وفاجر (قالوا : وما هي ؟) فقال : بغداد
	٣٢	يقال له عبدالله يكون خلافته رخص (الشعر) بالشين صوابه : يكون (في) خلافته رخص (السع) بالسين
١١٠	٧	ودير في موضع العبقة وآخر يقابله (من) موضع الدعالجة صوابه : يقابله (في) موضع الدعالجة .
	٢٠	وافتنض (من) ذلك صوابه : وافتنض (في) ذلك
١١١	١	اما اسواقها (فكاذة) واما مساجدها فلافية صوابه : اما اسواقها (فكادية) ..
	٥	(وان ارادوا بك) ان يفرقهم (فما يضيع) اما (سمعت) يقول فلما (اسفونا) انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين .
		صوابه : (وان اراد ربك) ان يفرقهم (فما يصنع) ، اما سمعته يقول : فلما (آسفونا) انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين
	١١	كالمتعب في (الحشر) بالراء صوابه : كالمتعب في (الحش) وهو الكنيف
	١٦	فان في جوارهم (مشبه) لنار الحرص (وغصيص) الشهوات (معانيثهم) ذم القناعة (بصغير) النعم .
		صوابه : فان في جوارهم (مشبة) لنار الحرص (وغصص) الشهوات (معاشهم) ذم القناعة (وتصفير) النعم
	٢١ و ٢٠	فقال يقول لرجل يسكن بغداد لا بأس به صوابه : فقال لرجل يسكن بغداد لا بأس به ؟
	٢٢	قال ابو (الاحوص) بالصاد صوابه : (الاحوص) بالصاد
١١٢	٥	يجيء احدكم يسأل عن (المسكن) كانه من عمل الله صوابه : يسأل عن (المسألة) ... الخ
	٦	فاذا قيل له اين المسكن ، قال في (عشر) الظلمة صوابه : فاذا قيل له : اين المسكن ؟ قال : (في عش) الظلمة

الصفحة	السطر	
	٨	قل لمن اظهر التصوف للناس س وامسى (بعد) في الزهاد صوابه : وامسى (يعد) في الزهاد
١١٢	٩	ليس بغداد منزل (للعباد) صوابه : منزل (للعباد)
	١٣	ما انت يا بغداد الا سلح اذا اعتراك مطر او (نفج) بالفاء صوابه : (او نضح) بالضاد
	١٥	وان (جفت) فتراب (برخ) بالخاء اقول : اولا صوابه : وان (خفقت) فتراب (برح) بالهاء المهملة ثانيا - هذا السطر تنمة للبيت الذي سبقه في السطر ١٣
١٨-١٥		اقول : اورد المحقق في هذه الاسطر ثلاثة ابيات ، هي في الواقع بيتان اثنان اذ ان ما جعله السطر الاول للبيت الاول يقتضي ان يلحق بالبيت الذي سبقه في السطر ١٣ ، كما ان ما جعله السطر الثاني في البيت الثالث ، انما هو نثر يقتضي ان يلحق بما بعده من الحديث ، وسأبت الترتيب الصحيح لهذه الاسطر الحاقا بما قبلها وربطاً لما بعدها : سأل المعتصم أبا العيناء عن بغداد ، وكان سيء الرأي فيها ، فقال : هي يا أمير المؤمنين كما قال عمارة بن عقيل : ما انت يا بغداد الا سلح اذا اعتراك مطر او نضح فان خفقت ففبار برح وكما قال آخر :
		هل الله من بغداد يا صاح مخرجي فاصبح لا تبدو لعين قصورها وميدانها المنري علينا ترابها (اذا شجعت ابقالها) وحميرها فهي أم الوحول ، ومطرح النفل ، عذرتها في طرقها ، (وقدرها) في وسطها ، يموت اهلها في الصيف حرقا ، وفي الشتاء فرقا ... الخ
١١٢	٢١	(القريب) بها مكدر ، (والمقرب) بها اهل احسب ان صوابه : (القريب) بها مكدر ، (والمقرب) بها اهل
	٢٢	شبابها (يتناهدون) وصبيانها (يواجرون) صوابه : شبابها (يتناهرون) وصبيانها (يؤاجرون)
١١٣	٣	كنوز قارون ان (يكون) له صوابه : (ان تكون له) وعمر (هوج) وصبر ايوب وعمر (نوح)
	٥	خلوا سبيل العلى لغيرهم ونافسوا في الفسوق (والخوب) بالخاء صوابه (والحب) بالحاء المهملة
	٧	اقمت ببغداد اشهرها وكننت ببغداد ذا (غيره) احسب ان صوابه : اقمت ببغدادكم اشهرها وكننت ببغداد (ذاخبره)
	٨	فما ان قطعت بها شسعرة وما ان (فتننت بها حره) احسب ان صوابه : وما ان (فتت بها كسره)
	٩	وما ان (توفق لي) حاجة احسب ان صوابه : وما ان (توفقت في) حاجة

الصفحة	السطر	
١٠		وعاندني الخير مذ جئتها صوابه : معاندة الضرة (الضرة) معاندة الضرة (للضرة)
١١		(واني عاشق بها درهمها) الشطر الاول ، احسب ان صوابه : انا لم (اعان بها درهما) الشطر الثاني ، احسب ان صوابه : (ومن لي يا صاح بالنقرة) والنقرة : الفضة
١١٣	١٢	(فعجبي) بسري الى بلد احسب ان صوابه : (عجلت) بسري الى بلدة اقول : انا غير واثق من هذا التصويب كعجب الطفيلي بالسفرة
١٥		وعدت اليها فقرينتي احسب ان صوابه : طلّاق ثلاثا وجاريتي حره وعدت فصاحبتي طالق
١٧		لقد طال في بغداد ليلي ومن بيت صوابه : غير (راقد) وكنت ارجح لو ان المحقق وضع الكلمة الصحيحة في المتن ، وثبت الاصل الخطأ في الحاشية ببغداد يصبح ليله غير (واحد)
١٩		(ديارجة) شهب البطون صوابه : (ديارجة) بالزاي
٢١		زعم الناس ان (الليل) يا بغداد صوابه : زعم الناس ان (ليالك) يا بغداد سداد ليل يطيب فيه النسيم
٢٣		وقليل الرخا يتبع الشدة صوابه : وقليل (الرخاء يتبع) الشدة سدة عند العباد امر عظيم
٢٥		اقول : ان حذف البغداديين للهمزة ، لا ينبغي ان يسري على الشعر ، لان حذفها في الشعر قد يؤدي الى اخلال بالوزن ترحل في بغداد دار اقامة صوابه : ولا عند (ذي جاء) ببغداد طائل ولا عند (من جاء) ببغداد طائل
١١٤	٥	وسأله ايام الفتنة صوابه : في اضافة كلمة (فتى) فتكون الجملة : وسأله (فتى) ايام الفتنة وقال مكحول بن (جارية) احسب ان صوابه : ابن (حارثة)
١٨		ولم (اتواني) في بغداد حبا لاهلها صوابه : ولم (اتو) في بغداد حبا لاهلها
١٩		سأرحل عنها قاليا (لميراتها) صوابه : سأرحل عنها قاليا (لسراتها) واتركهم ترك (الملوك للخايب)
٢٠		في (حريم) التوائب صوابه : في (حرّام) التوائب

الصفحة	السطر	
	٢٣	تجدد من كان (ذا) جئته صوابه : (اذا) جئته
	٢٣	مستترا عنك (بافلاس)
		اقول : انا في شك من صحة وضع كلمة الافلاس هنا ولعل الاصل :
		مستترا عنك (باحباس)
١١٥	٨	محبوب بن ابي (العشط) النهشلي صوابه : ابن ابي (العشط)
	٩	لروضة من رياض او طرف
		اقول : فيه نقص كلمة وسوابه : لروضة من رياض (الحزن) او طرف
	١٣	انزو واخلط تسبيحا (بتلويث) - باللام
		صوابه : اخلط تسبيحا (بتغويث) بالغين
	١٧	فيا ليت شعري هل ازورن بلدة
		قليل بها (او بائها وسيدها)
		احسب ان صوابه : قليل بها (اوباؤها وببيدها)
١١٥	١٨	وهل (اسمعت) الدهر اصوات ضم
		تطالع بالركبان صعرا (حدودها) بالحاء المهملة
		صوابه : واهل (اسمعن) الدهر
		صعرا (خدودها) بالحاء
	١٩	وهل اربن الدهر (نار) بارضها
	٢٠	صوابه : (ناراً) بارضها
		مبتدا دجلة من تحت (حصر) في جبل بآمد
		صوابه : من تحت (حصن) في جبل بآمد .
	٢٢	ثم تخالطها انهار عظيمة منها الخابور (والزرر)
		صوابه : (والرزم)
١١٦	١	ومن تل (فما قان)
	٣	صوابه : ومن تل (قافان)
		حتى تعيد الى (البطليح)
	١٢	صوابه : (البطايح)
		ومقامها مقام (الشكور) بالشين
		صوابه : (السكور) بالسين مفردا سكر
	١٧	فاما ياخذ منها
	١٧	صوابه : فاما (ما) ياخذ منها
		(فالشافتان) الشتوية والصيفية
		اقول : لم اعثر على تفسير لهذه الكلمة ، وان كان وضعها في الكتاب
		يدل على انهما (قناتان) ولعل صوابها (فالشاختان) والشاخة : الساقية
		المتشعبة من النهر ، وما زال هذا اسمها ببغداد
	١٩	(وتنخلان) شوارع سامراء
		صوابه : (وتنخلان)
	٢٢ و ٢١	فلقصر ايامه لم يستو ذلك
		صوابه : لم يستو (له) ذلك
١٢٣	٢٥	(والحنادق) بالحاء المهملة
		صوابه : (والحنادق) بالحاء
١٢٥	٢٥	اورد الطبري خبر الراهب (والمقلاص)
		صوابه : (ومقلاص) لانه اسم علم
١٣٤	٢١	مربعة شبيب بن روح (المرحه وذوي)
		صوابه : (المروروذي)

الصفحة	السطر	
	٢١	(كما ذكرني) ابن مخلد
١٣٥	١٧	من ولد (اهبان لهن) صيفي
١٤٠	٢٦ و ٢٥	قنطرة (بن) زريق
	٢٧	قوم من (البناء) المشهورين
١٤٣	٤	سمي المخرم ببغداد (مخرجا) بالجيم
		صوابه : (مخرما)
	٢٣ و ٢٢	ان الصالحية نسبت الى صالح بن المعروف بالمسكين
		صوابه : الى صالح بن (المنصور) المعروف بالمسكين
١٤٤	٢٠	وانما يأكله (المتحملون) بالحاء
	٢٤	قال المحقق : لم اجد في المصادر ذكرا لشارع الثلاثة ابواب ولعله
		تحريف شارع الثلاثاء
		اقول : لم يرد في الخطط اسم لشارع اسمه (شارع الثلاثاء) وانما
		هو سوق الثلاثاء اما الموضع الذي سماه المؤلف بشارع الثلاثة ابواب ،
		فهو على ما وصفه في المنطقة التي تقع فيها سوقة نصر بن مالك وقنطرة
		البردان ، واين سوق الثلاثاء الواقع جنوبي المخرم من تلك المنطقة التي تقع
		غربي الرصافة ، والذي احسبه ان شارع الثلاثة ابواب هو الشارع الذي
		تقع في اطرافه الابواب الثلاثة : باب البردان ، وباب الطاق وباب الجسر
١٤٥	١٥	ماذا ببغداد من طيب (الافان)
١٤٦	٢١	اليلتنا بذى (حشم) انيري
١٥٠	٢١	احمد بن ابراهيم (الافليدس)
١٥٣	٤	بطسوج (في) بادوريا
	١٢	(والطيرزد) بالياء
		وهو التمر الذي يسميه البغداديون اليوم (تبرزل)
	١٢	(الخاستوي) بالمقصورة
		وهو التمر الذي يسميه البغداديون اليوم (الخستاوي)
١٥٥	١٩	(ماري) والله مغنية بفدادية
	٢٠	(ولازاجرة) زنامية ، كانها (مرآة محلية)
		صوابه : (ولا زامرة) زنامية ، كانها (مرآة مجلية)
	٢١	خريجة (سارية) بالسين
		صوابها : خريجة (شارية) بالشين
	٢٧	اورد المؤلف في الصفحة ٧٣ بعض الاسماء المشهورة في عالم الفناء والطرب
		فعلق المحقق بقوله : ان صاحب حكاية ابي القاسم البغدادى اورد اسماء
		عدد من المغنيات في بغداد « غير انه ليس فيها من الاسماء التي اوردتها
		المؤلف »
		اقول : السبب في ذلك بين ، فان حكاية ابي القاسم البغدادى من
		تأليف ابي حيان التوحيدى ، وقد ذكر في كتابه حكاية ابي القاسم البغدادى
		اسماء المغنيات اللواتي سمعهن في منتصف القرن الرابع ، في حين ان مؤلف
		كتاب بغداد من رجال القرن الثالث ، وهو يتحدث عن سبقه او عاصره
		من المشهورين .

الصفحة	السطر	
١٥٦	٣	يكنى ابا (دليجة) بالباء صوابه ابا (دليجة) بالياء المثناة
	٥	(وينان) هو صوابه : (وينان) بالياء
	١٢	(عربية وثارية) بالثاء صوابه : (وشارية) بالشين
	٢٦	ولعل منهم هو تحريف (ميتم) يياء ، ثم ثاء صوابه : تحريف (متيم) بتاء وياء مشددة
١٥٩	١٣	(السرخي) صوابه : (السرخسي)
١٦٠	٨-١	اورد المحقق في ترجمة علي بن الجهم : ان الواثق خصه بمكانة خاصة ثم غضب عليه فحبسه وصادره ونفاه الى خراسان الصواب : ان المتوكل هو الذي صنع به ذلك
	٩	يزدجرد بن (مهنداد) صوابه : (مهنداد) بالياء المثناة
١٦٧	٢	(ووحج مغلوقة مصدة) صوابه : (ودجج) (اي دجاج) مغلوقة مصدرة)
	٢٣	قال المحقق في بحثه عن (اللكاء) : لعله كان بلون اللك ، وهو احمر اقول : اصاب الاستاذ المحقق ، فان (اللكاء) تعريب الكلمة الفارسية (لك) وتعني : السخيتان ، والجلد غير المدبوغ ، او الورد الاحمر
١٦٨	١٣	قال : (دفعتنا) الضرورة الى المقام صوابه : (دفعته) الضرورة
	١٦	قل لمن اظهر التنسك في النسا س وامسى (بعد) في الزهاد صوابه : (يعد) في الزهاد
١٦٩	٦	سوى معشر (يحلو وحل) قليلهم صوابه : سوى معشر (قلوا ، وجل) قليلهم يضاف الى بذل الندى وهو باخل

تصويبات وأستدراكات على (بغداد في سنة ١٨٥٣) لفيلكس جونس

بقلم

مجلدات أحمد العزى

المؤسسة العامة للأنار - بغداد

عليه بعد انتزاعه من السيطرة العثمانية وذلك ما حدث فعلا سنة ١٩١٧ بعد الحرب العالمية الاولى ، وكان القائد فيلكس جونس من ضمن هؤلاء المساحين الذين ارسلتهم بريطانيا لهذا الغرض فكانت تقاريره هذه كتابا نشرته حكومة بومباي سنة ١٨٥٧ .

يقع الكتاب في خمسمئة صفحة ويحتل فصل اقليم بغداد الصفحات من ٢٠٤ الى ٤٠٢ اي مئة صفحة منه ويشمل ملاحظات ملحقة بخارطة بغداد تشمل تاريخ وموقع مدينة بغداد خاصة الشرقية منها بأسوارها وسكانها ومناخها ومزود بتسعة صور لتأخر مرسومة باليد لمدينة بغداد وفيها ايضا ما يلي :

- وصف الجانب الشرقي للمدينة مع جداول بالمحلات والابنية الرئيسية التي تنقسمها بقسمي بغداد الشرقي والغربي تحتل الصفحات من ٣١٢ الى ٣٣٩ .
- جداول باسماء المواد الغذائية من الص ٢٤٢ الى الص ٣٤٥ .
- جداول بأجور العمال والصناع والتجار من الص ٣٤٢ الى الص ٣٥١ .
- جداول بالأوزان والمقاييس والمكاييل السائدة في أسواق بغداد الص ٣٥٢ .
- جداول بأنواع واجناس الدراهم في سوق بغداد ، من الص ٣٥٣ الى الص ٣٥٥ .
- ملاحظات عامة حول اقليم بغداد ، الص ٣٥٦ .
- عشائر العراق من الص ٣٦٩ الى الص ٣٨٦ .
- اصول الخيل ، الص ٣٨٦ .
- جداول بالطيور والحيوانات الصغيرة من الص ٣٨٩ الى الص ٤٠٢ .

هذا ما تضمنه فصل اقليم بغداد من مواد متسلسلة حسب مواضيعها وصفحاتها كما هو مذكور اعلاه ، وفيما يلي بعض المآخذ التي وقعت عليها حول ترجمة السيد الامين لهذا الفصل :

قام السيد عبدالوهاب الامين بترجمة فصل من فصول كتاب المساح والقائد الانكليزي جيمس فيلكس جونس ، وقد بدأ ترجمته هذه بتقديم فيلكس جونس بمقدمة قصيرة هامة ، وأوضح ان من جملة فصول كتاب جونس ، فصل (اقليم بغداد) ثم استورد « وقد كان فصل اقليم بغداد من اهم فصول هذا السفر النفيس لما ضمه من معلومات ومشاهد لم يبق منها اثر الآن وهو مزود بالصور التسجيلية لمختلف أنواع المبانى وذلك عدا الخارطة النفيسة للمدينة وهي بذاتها تعد انجازا لا مثيل له من جميع الوجوه ولذلك أثريا نقله ونشره تباعا في المورد مع الخارطة اليتيمة وتصاويره المختلفة » .

لقد عكفت منذ مدة ليست باليسيرة على ترجمة هذا الكتاب الهام بالنسبة للعاملين في حقل الأنار وكذلك للمهتمين بشؤون التاريخ والخطط والجغرافية ، وقد قطعت فيه شوطا كبيرا هذا بالإضافة الى قيامي بترجمة فصل (اقليم بغداد) وتحقيق المعلومات الاثرية والتاريخية الواردة فيه ، لذلك وجدت العديد من المآخذ على ترجمة السيد الامين مع ما بذله من جهد مشكور بترجمة هذا الفصل ، فهو كما نرى مترجم وناقل للمادة الاجنبية الى اللغة العربية والترجمة أو النقل من لغة الى اخرى تستدعي الامانة ونقل افكار المؤلف والحفاظ عليها ، هذا وقد اعتمد الكثير من الباحثين في شؤون العراق الاثرية والجغرافية والمساحة والري على هذا الكتاب وقد اشار البعض منهم اليه كما افعل البعض الاخر الاشارة اليه ولكن مجهود السيد الامين بترجمة هذا الفصل مجهود واضح ومشكور وقد وجدت من الضروري ان ادون بعض الاستدراكات والتصويبات والاضافات التي سقطت من المترجم وتوخيت فيها استكمال الفائدة من ترجمة هذا الفصل .

هذا الكتاب هو مجموعة تقارير مقدمة الى حكومة بومباي التابعة لبريطانيا كما ذكر السيد المترجم ، وهذه التقارير بدأت بالتقديم متسلسلة بالزمن اولها كان سنة ١٨٤٦ وآخرها سنة ١٨٥٢ وكان تاريخ نشر هذه المجموعة كاملة سنة ١٨٥٧ اي في الوقت الذي كانت بريطانيا تتطلع فيه الى العراق لتقدير ما فيه من امكانيات عظيمة في جميع الميادين فارسلت مختلف البعث لمختلف الاغراض من رحالة وجوابين ومساحين ومهندسين وآثارين ودبلوماسيين لدراسة احوال العراق تمهيدا للسيطرة

أولاً : الخارطة - وقد وصفها السيد الأمين بـ (الخارطة اليتيمة) أو (الخارطة النفيسة) ، وهي بذاتها تعد إنجازاً لا مثيل له من جميع الوجوه ، وهي فعلاً كذلك فإن الخارطة هي أهم ما في فصل إقليم بغداد حيث أن هذا الفصل الذي يحتل مائة صفحة هو كما جاء في عنوانه ليس إلا شروح وملاحظات تكون ملحقاً بخارطة بغداد ، وقد نشرت هذه الخارطة قبل السيد الأمين في أبحاث أنثوية وخطية أخرى وأن السيد الأمين لم يعتني بنشرها وإنما نشرها بدون ترجمة وحذف أرقام الإحالة من الجداول الملحق بهذه الخارطة وتعتبر هذه الجداول مادة رئيسية في هذا الفصل فهي تحمل أرقاماً لكل محلة وعقد وبناء هامة ولم يبين وجه العلاقة بين الجداول والخارطة علماً بأن هذه الجداول كتبت باللغتين العربية والانكليزية مع ترجمة الى الانكليزية بالعاني الواردة فيها مثل ما يلي :

الرقم	المعنى
— No. I. Mahalat Suk al : Chazil	(محلة سوق الفزل) — Quarter in the town
— Suk	سوق — Bazar
— Jama	جامع — Mosque
— Aked	مقد — Aked is a term signifying a group or knot of houses between two streets.
— Kahweh	قهوة — Coffe house
— Hamam	حمام — Bath
— Khan	خان — Caravanseraï
— Jesser	جسر — Bridge
— Kishleh	قنصلا — Barrack
— Madrasseh	مدرسة — College
— Musjed	مسجد — Small hous for prager

ثانياً : تصويبات عامة في الترجمة ذاتها - قبل الإشارة الى بعض التصويبات في نصوص الترجمة ذاتها هنالك ملاحظات عامة كان من الواجب على المترجم الكريم اتباعها وهي :

ويترجم العنوان وهو عنوان مهم لعلاقته الكبيرة بخارطة بغداد كما يلي :

ملاحظات مختصرة تكون ملحقاً بخارطة بغداد ، وضعها فيليكس جونز القائد في البحرية الهندية والباحث في ما بين النهرين .

- ورد في نفس النص : (يمثل مخطط هذه الخارطة مدينة ... الخ) ، والصحيح (تمثل الخارطة التالية مخطط اقليدس لمدينة ... الخ) .

- ورد : (فبعد الهدم التام الذي احامه بسلوقية وقطيون حيث انشأ خمسة من الاباء البشرين الكرسي البابوي ، لجأ المتروبوليون الى هذا المركز وظل لقب (كبير اساقفة بابل لاصفاً بهذا البحر الخضم من البابويه ... الخ) والصحيح كان من ما يلي :

.. وبعد خراب مدينتي سلوقية (Seleucia) وقطيون (Ctesiphon) اللتين فيهما اسس الاباء البشرين الاوائل بيمة النصارى الشرقية الكبرى ، ظل لقب بطريرك بابل مرتبطاً بمقر البابوية ومعتبراً أكثر الألقاب فيها تشرافاً واحتراماً .

- ورد اسم دير بلوت في تاريخ الاسلام . وهو كما كتبه المؤلف كما يلي :

D. Herbelot's history of the Mahomedans.

١ - مقارنة التاريخ الهجري باليلادي ، وكان المؤلف قد ذكرها كلها حسب ورودها بالإشارة اليها اسفل الصفحة فكان المترجم الكريم يصفها احياناً واحياناً يغفل عنها .

ب - عدم تدقيق بعض أسماء الاعلام والاماكن والبقاع والمصادر العربية وبعض المصطلحات التي اوردها المؤلف مكتوبة بالحروف اللاتينية ، فكان من واجب المترجم تدقيقها مع بعض المختصين ووصفها بحروفها اللاتينية بين قوسين الى جانب العربية .

ج - عدم مراعاة التسلسل في الترجمة وسنأتي على ما فات المترجم الكريم بهذا الشأن .

وفيما يلي التصويبات في النصوص المترجمة :

- ذكر المترجم مدينة « أوينس » في المقدمة والصحيح هو (أوبس) (Opis)

- ورد في النص ٢٠٤ عنوان الفصل الذي ترجمه بـ (ملاحظات عن خارطة بغداد) وهو ما يلي :

D- Brief observation forming an appendix to the map of Baghdad, By Felix Jones, Commander Indian Navey, and Surveyor in Mesopotamia.

ص ٣٠٥ - في الحديث عن التلمذة حمام يشع الى هاشم
رقم (٢) وفيه (يراجع كتاب تاريخ بغداد وكتاب خريسة
المجانب حول هذا الموضوع) .

هاشمي (٢) - انظر في هذا الموضوع كتاب تاريخي بغداد
Tarikhi Baghdad وكذلك الرسالة المسماة بـ (خريسة
المجانب) Kharidat al Ajaib

- عند الحديث عن عصر المأمون ترجم ما يلي : (وشجع
العلوم والقضايا الفكرية العويصة ... الخ) وهي ترجم كما
يلي : (وشجع الحركة العلمية والترجمة والعلوم بقسميها
العلوم العقلية والعلوم النقلية .)

ص ٣٠٦ - (وفي تاريخ ابي الفدا نجد برنامجا من برامج
الفخلة في بلاط الخليفة المقتدر) الصحيح : - ويورد لنا ابو
الفدا Abulfida في تاريخه وصفا دقيقا لمجلس فخم في
بلاط الخليفة المقتدر جرى عند استقبال احدى سفارات
السرور) .

ص ٣٠٧ - (... واليد التي كتب بها هارون الرشيد الى
الامبراطور نيسفوس ودعاه فيها الكلب الروماني ... الخ) ..
الصحيح :

... ان الخليفة هارون الرشيد لما حرر رسالة الى
امبراطور الروم نيسفورس Nicephorus (او نيقفور
كما تسميه المصادر العربية) ، دعاه فيها بـ (كلب الروم) .

- (.. ثم استولت عليها تلك القبائل المعروفة باسم اق
قوينلو او الابيض والاسود من الماشية حتى سنة ٩١٤ هـ -
١٥٠٥ م عندما فتحها الماهر الفارسي الشاه اسماعيل
الصفوي) . والصحيح :

وتماقت الاسر التركمانية بالحكم عليها وهي المعروفة
بالاق قوينلو Ak Koyunlu (الخروف الابيض) القره قوينلو
Kara Koyunlu (الخروف الاسود) الى سنة ٩١٤ هـ -
١٥٠٥ م حينما استولت عليها جيوش الشاه اسماعيل الصفوي
(كذا) Shah Ismail Suli

- الرحالة الدانماركي نايبهر . وهو نيهور
(Niebhur) .

ص ٣٠٨ - ما بين السند وجبل طارق .. من جبل طارق
الى بلاد ما وراء النهر (Oxus)

ص ٣٠٩ - (ونجد في احدى الكتابات العربية البارزة
على الجدار اللولبي لباب الطلسم) . والصحيح :
(.. اعلى الوجه المنحني لبرج باب الطلسم الاسطواني ،
يوجد شريط من الكتابات الاجرية ..) .

- عند الحديث عن اسوار بغداد ورد ما يلي : (وللسور
عشرة ابراج نصف مغياه في السور الخارجي ... هاشم) نجد
في كتاب نشأة القلوب لعبدالله المصطفي ان سورا مبنيا بالكلس
والطابوق ... الخ) والصحيح :

وللسور عشرة ابراج نصف اسطوانية تندمج بجداره
الخارجي هاشم) .. ورد في كتاب نزهة القلوب لعمادالدين
المستوفي من ان سورا من الكلستان والاجر المحروق جعل
للخندق ... الخ .

Nushat al Qululo of Abdallah (كذا) Mustafi
لكنه يدره صحيحا في هاشم ص ٢١٠
Hamdallah Mustafa

ثالثا : ص ٢١٢ - الجداول الملحقة بخارطة بغداد - لم يهتم السيد الامين بالارقام الواردة في الجداول التي هي في
الحقيقة ارقام تخص الخارطة المذكورة لتعيين موقع كل محلة وجامع وعقد وقهوة . فكان على المترجم الكريم لكونه
ناقلا وليس محققا ان ينقلها كما هي ملحقة بالخارطة خاصة وان الخارطة كما ذكر المترجم ، اهم مالي الفصل وهي ،
(نفيسة) و (يتيمة) ، ولا شك في اهميتها ولكن المؤلف كتب الجداول باللغتين العربية والانكليزية وكتب الالفاظ والتسميات
كما تلفظ بالعربية بحروف لاتينية يقابلها معناها بالانكليزية ، وقد كتبها كما كانت تلفظ في حينها ويبدو انه اخذها عن الادارة
العثمانية في حينها ولكن المترجم تصرف ببعض الاسماء الواردة فيها وكتبها كما تلفظ في يومنا هذا وقد شرحت انما ما قام به
المؤلف من كتابة الاسماء والالفاظ بالعربية (انظر نموذج للجداول مرفقة مع هذه الفقرة) وفيما يلي ساذكر فقط ما فات
المترجم الكريم من ارقام الجداول والاسماء التي سقطت وتصحيح الالفاظ على جداول المؤلف فقط محتفظة بالجداول
المصححة لنشرها كاملة محققة مع فصل اقليم بغداد .

الارقام البناية او مجموعة البنائيات التي تضمها محلة واحدة اللفظ الصحيح وما فات المترجم من اسماء

No - Mahalet Suk al Ghazil

عقد دجلاوين

الكرية

عقد سقافي

واصله كنيسة قديمة .

عقد كاوير

عسقي

قزرة قلبي

حاجي نعمان

عجيلين

١ - محلة سوق الغزل

عقد الجيلاوين

٢ - محلة رأس القرية

عقد السقافي

جامع الخاصكي ما بين سنة ١٠٩٤ هـ

عقد الكاوير

العقد الفسيق

٣ - محلة سيد سلطان علي

كنيسة مرزة علي

جامع حاج نعمان

عقد المعجيلين

- ٤ - محلة آت الحاجي
- عقد اوينجي
- ٥ - /
- محلة قنبر علي
- ٦ - جامع مرجانية
- جامع المرجانية
- خان المرجانية
- خان الاورمة
- ٧ - محلة الهيدرخانة
- عقد الجامع - بناء داود باشا سنة ١٢٤٣ هـ
- جامع داؤد باشا ، وهو جامع الهيدرخانة السلي بني
سنة ١٢٤٣ هـ - ١٨٢٧ م
قهوة ايمشي
- ٨ - محلة الهيدرخانة
- جامع داؤد باشا ، وهو جامع الهيدرخانة السلي بني
سنة ١٢٤٣ هـ - ١٨٢٧ م
قهوة ايمشي
- ٩ - جامع احمد الكهيا
- محلة حسين باشا . ٧٢٨ هـ
- ١٠ - محلة الفضل
- عقد الشبانة
- قهوة التفتة بند (صاحبها ابو عصفور)
- عقد طاق ابو صلال
- التبانة
- مال ابو عصفور
- عقد دكان شلال
- عقد سيد عبدالله
- يقابله باليلادي ١٧٨٢ م
عقد جبجي
- تبانة
- ١١ - محلة باب الاغا
- عقد الدشتي
- عقد العلوية
- عقد النارة المقطوعة
- دشت
- علوية
- مينة مغطومة
- ١٢ - محلة العاقولية
- عقد العاقولية ... ١٠٩٥ هـ
- عقد محمود اسطة
- عقد الربيعي
- يقابله باليلادي ١٦٦٣ م
اصطة
- دويصي
- ١٣ - محلة جامع خضر بك
- عقد كمش حلقة ... ١١٢٣ هـ
- ١٤ - جامع العادلية
- قهوة جديدة
- خان التمر
- خان الدفتردار
- خان المصيفة
- خان الكمره
- سوق الصياغ
- سوق هرج
- سوق المولة خانة
- محلة صغافير
- جامع الوزير

الارقام	البنية او مجموعة البنيات التي تضمها محلة واحدة	اللفظ الصحيح ومفاتيح الترجمة من اسماء
٢٧ -	جسر وفشلا	الجسر والقشلة ويقعان جنوب المدرسة المستنصرية التي بنيت سنة ٦٢٠ هـ - ١٢٣٢ م وعليها كتابات بديعة .
٢٨ -	القشلا	البنية العسكرية ومعها المستشفى
٢٩ -	السراي	
٣٠ -	الحرم	
٣١ -	محلة باب المعظم جامع الباشا دافو (كذا) بناه حسين ... ١٧٢٩ م قهوة السقفة خانة	وهو جامع بناه حسن باشا سنة ١١٣٣ هـ - ١٧٢٠ م سقفة خانة
٣٢ -	محلة الميدان قهوة السقافي	سقافي
٣٣ -	محلة البلنجية - قهوة التختة بند قهوة آجق باشا	بلانجية عقد ريس بلانجية تختة بند باشي
٣٤ -	محلة ايلان ديلي قهوة ايلي ولي	- ايلان ديلي
٣٥ -	محلة المرادية جامع مراد باشا - - عقد مير البحر	وهو جامع يسمى جامع المرادية بناه مراد باشا ... الخ عقد المرادية خان المرادية مير بحر
٣٦ -	محلة الطوبجية - -	الطوبجية عقد مير اخور قهوة دودي
٣٧ -	محلة القراغول عقد افتر جبر عقد القراغول	قره اول افتر جبر قره اول
٣٨ -	محلة كولنظر - عقد فليح عبدالله	قهوة تختة روانجي عقد فليح
٣٩ -	محلة دكان شناوة عقد چوخدار	چوقدار
٤٠ -	محلة كنج عثمان عقد النعمانية عقد كنج عثمان	جامع نعمانية قهوة كنج عثمان
٤١ -	مدرسة علي باشا	
٤٢ -	جامع الاصفية	اصفية
٤٣ -	محلة المهديّة - -	عقد سيد هدبة عقد شراد

- ٤٤ - محلة عباس الهندي
٤٥ - محلة قاضي الحاجات
قهوة خان الميرة
٤٦ - محلة الطاطران
-
عقد شمسي
٤٧ - عقد شيخ سراج الدين
٤٨ - محلة الهيتاوين
٤٩ - محلة الفراشة
عقد منارة الكتوم
سوق البقال
سوق التماره
٥٠ - محلة الشيخ
جامع الشيخ ، مسجد وضريح
-
عقد الاغوات
-
-
عقد المتزلاوي
عقد الخندق
٥١ - -
-
جامع النعماني ... ٧٨٠ هـ
٥٢ - محلة السنك
عقد الشطية
-
٥٣ - محلة جميلة
عقد المجدية
٥٤ - محلة بنات الحسن
عقد الوزلي
عقد الكوليه
عقد كاتب الدية
٥٥ - محلة العوينه
عقد ريس العوينه
عقد الجنابين
عقد العوينه
-
٥٦ - محلة الدهانه
٥٧ - محلة صبايغ الال
٥٨ - محلة الرېمة
عقد حرموش
قهوة جوب
- الميوه
طهران
عقد دكرلليه
شمسي
محلة جامع شيخ سراج الدين
هيتاوين
فراشه
منارة الكتوم
البقال
عقد التماره
- جامع ضريح الشيخ ... الخ
عقد الحروف
الافسوان
عقد الف
الشيخ الف
المتزلاوي
الخناق
محلة راس السافيه
قهوة التسايل
- بناء الشيخ محمد النعماني سنة ٧٣٠ هـ
سينك
شطية
قهوة باب الشرقي
المجادية
الوزري
كوليه
العريسة
الميونيه (كذا)
الميونيه
الجنابيين
الميونيه
قهوة ريس الميونيه
دهانه
عقد طاق سقه
مربمة
حرموش
جوب

٥٩ - محلة شاه قولي

٦٠ - محلة دلال

٦١ - محلة جامع حمام المالح

-

٦٢ - محلة المفرج

عقد احمد حسني

٦٣ - محلة ابو شبل

-

سوق الجبجبية

سوق اليرغانجية

-

سوق الطغمة (كذا)

قهوة الطغمة (كذا)

سوق التنكجية

سوق الفريب

-

خان اندريه

جامع محمد بقال

عقد باب جامع صغيرة

حسن

عقدين غانجية

عقد الكسور

الجبوجبية

اليورغانجية

قهوة الخفافين

Suk Tumgheh

Kahwat Tumgheh

التكيةجية

Suk el Durib الفريب

خان الكتان

اندرية حنة

خان حاجي محمد بقال

محلات القسم الغربي من المدينة

- ١٧٠٦ م

- ... واسواق الحبوب

- القيميرية (كذا) Kimeriyeh

- دهامشي

- محلة سوق حمادة . وكذلك

كل الاسواق التي تتسلسل بعد سوق حمادة تسبقها كلمة

(محلة)

- ستة زبيدة

- ستة نفيسة ، جامع بني سنة ١١١٣ هـ

- ١٧٠٦ م

جامع الشيخ صندل ... ١٧٠٨ م

اوقفت عليه الدكاكين

٣- جامع القيميرية

٨- محلة دهامشي

سوق حمادة

٢٤ - الست زبيدة

- جامع الست نفيسة

والنصارى محلات مستقلة خاصة بهم ، اما غالبية السكان فهم المسلمون ويشغلون اغلب اقسام المدينة ولا مثيل للتسامح بين الاديان في اي مكان آخر في العالم الاسلامي كما في بغداد وبمقارنة اوضاعهم مع بقية المدن الاسلامية نلاحظ انهم يتمتعون بالكثير من الحرية حيث يمكن لليهودي او المسيحي ان يتمتعوا بظهور الكحل بينما لا يسمح بذلك لهم او لغير المسلمين في بقية المدن الاسلامية بل عليهم ركوب البغال فقط او عادة المشي على الاقدام للدلالة على الاختلاف الديني ، هذا ويمتنع اليهود مهنة الصرافة ويعاملون بكل ثقاة من قبل كافة الطبقات ويشغلون هذه الوظيفة بمهارة واستحقاق .

وينقسم سكان المدينة المكون من ١٥ الف عائلة كما يلي :

رابعا : هذا وقد اسقط المترجم من الترجمة من هذا الفصل في نفس العدد ترجمة الصفحات من ٣٣٩ الى ٣٤١ في الكتاب نفسه وهي تلي الجداول مباشرة ثم بعد ذلك يأتي المؤلف على ذكر عشائر العراق - والترجمة ما يلي : -

يمكن القول ان القسم الثالث من اسوار بغداد بني في الوقت الحاضر وكذلك ما تحتويه هذه الاسوار من ساحات وحدائق وانقاض .

هذا وتضم المدينة خليطا من السكان يبلغ عددهم ستون الفا بينما تتحمل مساحتها اربعة اضعاف هذا العدد ، ولاشك لهذا الخليط السكاني واللغوي في اي مكان آخر . والاتراك هم الطبقة الحاكمة ويشغلون الحيز الشمالي منها ولليهود

فالاتراك او من ينحدرون من اصل تركي ، ٤ الاف نسمة ويليهم
الفرس او المنحدرون من عوائل فارسية ويبلغ عددهم الفين
وخمسمائة وكذلك اليهود ، اما العوائل المسيحية فيبلغ عددهم
الف وكذلك الاكراد ، ويبلغ عدد العرب الفين وكذلك البدو
والغرياء ، ويبلغ مجموعهم خمسة عشر الفا وهم كما يلي :

الجنس	العدد مئة الف
الاتراك	٤٠٠٠
الفرس	٢٥٠٠
اليهود	٢٥٠٠
المسيحيون	١٠٠٠
العرب	٢٠٠٠
البدو والغرياء	٢٠٠٠
المجموع	١٥٠٠٠ خمسة عشر الف

اما اللغة السائدة بين السكان عامة فهي العربية العامية ،
هذا ويتكلم مسيحيوا بغداد نفس اللهجة بقليل من التحريف
واهمال بعض الحروف ، اما لغة الطبقة الحاكمة فهي التركية
وتليها الفارسية بين التجار ، وتشيع اللغات الكردية والانورية
(الكلدانية) والثرية (اللورستانية) بين الطبقات الدنيا والعمال
والعمالين . ويمكن سماع العربية في محلات بغداد القديمة
الخاصة باليهود اما المسيحيين الذين مع المذهب الروماني
فيتكلمون العربية العامية السائدة عند عامة بغداد ، هذا
ويمكن سماع ما يقرب من ثلاثة عشرة لغة في غرفة واحدة حينما
يجتمع الانكليز والفرنسيون والروس والهنود على مائدة المقيم
البريطاني .

وبالنسبة لمناخ بغداد ، فيعتبر مناخا صحيبا بصورة
عامة ، ولكن في فترات الادارة السيئة حينما اهلكت السدود
وغمرت مياه الفيضان المدينة تفشت الامراض الوبائية كالحميات
خاصة ايام الحر الشديد التي تستغرق الاشهر من ماييس
الى تشرين الاول وهذه لو كانت خاضعة الى طرق الوقاية
والحجر والحصول على الادوية لامكن القضاء على اغلب الامراض
الوبائية لكن اهمال هذه الوسائل ادى الى تاخير القضاء عليها
فاجتاح البلد وسببت كوارث عظيمة .

هذا وتباين درجات الحرارة تباينا شديدا حيث لاتطاق في

بعض الاوقات واذا صاحبتها الرطوبة والوخامة بسبب مياه
الفيضان التي تغمر الاراضي تفشت معها الامراض الوبائية .
وفيما عدا هذه الفترات تتميز بغداد بجو معتدل نسبيا ، هذا
ويجد العديد في بغداد جاذبيات مختلفة ، فقد فضل ملوك
فارس القدماء السهول الواقعة الى الجنوب منها لتكون مشفى
لهم ، كما يجد الهنود في جوها راحة كبيرة اما بالنسبة لطالبي
الاستجمام والانكليز فيجدون في جوها وتربتها الكثير من
الغريبات .

وهذا المناخ لا ينطبق على المناطق التي تبعد منه ميل
جنوبها حيث تصبح الحرارة قاتلة وتنتشر الحميات وتبلغ
درجات الحرارة شتاء ٥٠ ف وتنخفض في الصباح الى ٢٦ ف ،
وهذا الجو بارد بالنسبة للهنود الحجاج والزوار فهم الذين
يلبسون الملابس الثقيلة الى حد ما . اما في الصيف فتتراوح
ما بين ٩٠ ف الى ١١٧ ف وهذا المعدل الاخير نادر ، والمعدل
الاعتيادي هو ١٠٧ ف وفي الشتاء تتراوح ما بين ٢٩٥٠ ف
يصاحبها القبار عادة ، ويدوم ثلاثة ايام تنتهي بزوايع وامطار
وتتبعها رياح شمالية غربية منعشة وسما صافية مشرقة .

وبالاضافة الى الجداول السالفة الذكر نضيف ادناه
جداول باسعار المواد الغذائية والحبوب في اسواق بغداد وقد
وضعت بعناية السيد ريتشارد روجر امين الباخرة (كومييت)
ذو الخبرة الحلية في هذا المصمار . وقد اضفنا اليها جداول
مقارنة بالكايل والوازين والمقاسات ذات التسميات
الانكليزية . مع جداول بالعملة الدارجة في اسواق بغداد ، ومن
الجدير بالذكر ان هذه الاسعار واثمان التبادل النقدي
والعملات غير ثابتة بل تتغير بتغير وضعية مدينة بغداد
الاقتصادية ، ومدينة بغداد تعتمد في اقتصادياتها على مجاورها
من القرى وكذلك على الاماكن الاخرى التي تفصلها عنها
الصحراء وهذه غير ثابتة التجهيز حيث تنقطع اوقات عدم
الاستقرار والاضطرابات او بسبب تعرض القوافل العابرة
الصحراء للسلب والنهب . هذا وتتحدد الاسعار داخل المدينة
ايضا بنوعية المادة وهي اسعار جيدة ورخيصة الى حد ما ، ولو
اخذنا بنظر الاعتبار اسعار المواد الغذائية الاساسية في بغداد
لاعتبرناها مدينة رخيصة المعيشة الى حد كبير . هذا بالاضافة
الى ان المخزون من الحبوب في الاهراءات يكون كميات معقولة
تفي بتجهيز سكان بغداد اوقات الازمات . وهذه الحبوب تحصل
عليها الحكومة من مزارع الحبوب في السهول المنتشرة حول مدينة
الموصل وسهول الزابن بواسطة النقل النهري نزولا بنهر دجلة .

تعقيب على مقال «الربط البغدادي»

للاستاذ : عادل كامل الألوسي

بقلم الحاج

هاشم محمد الخب

بغداد - الجمهورية العراقية

نشر الاستاذ عادل كامل الألوسي في مجلة المورد العراقية (العدد الاول للمجلد السابع لسنة ١٩٧٨ من صفحة ١١٢ الى صفحة ١٢٢) بحثاً قماً بعنوان (الربط البغدادي في التاريخ والخطط) . وبالنظر لما تفرضه الامانة العلمية والتاريخية رأيت التعقيب عليه بالاتي : -

اولاً : - رباط السيد سلطان علي

الصوفية الا ابن الفارض (ت. ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) الذي لقب بسلطان العاشقين ولم يثبت عندي ان المرقد المذكور هو بيت مالك بن المسيب نفسه « انتهى .

واقول :- ان هذا المرقد هو مرقد السيد علي بن يحيى بن ثابت بن علي الرفاعي (٢) والد سيد احمد الرفاعي (٣) شيخ ورئيس الطريقة الصوفية الرفاعية المشهور . وليس مرقد السيد سلطان علي بن محمد بن فلاح المشعشع المتوفى سنة ٨٦١هـ / ١٤٥٦م وان المرقد هو بيت الامير مالك بن المسيب وذلك :-

قال ابن الساعي (٤) في ذكر من توفي في خلافة

(٢) الرفاعي :- نسبة الى جده السابع واسمه (الحسن المكي) ويعرف ب (رفاعه) توفي (اي الحسن المكي) سنة ٢٣١هـ / ٩٤٢م باشبيلية (تاريخ ابن الساعي ص ٧٧) .

(٣) هو سيد احمد بن علي بن يحيى بن ثابت بن علي بن احمد المرتضى بن علي بن رفاعه الحسن الاصغر المكي ابن ابي رفاعه المهدي ويتصل نسبه بسيدنا موسى الكاظم (رض) توفي سيد احمد الرفاعي سنة ٥٧٨هـ .

(٤) هو علي بن انجب الساعاتي البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤هـ / ١١٨٣م .

ذكر الاستاذ عادل في صفحة (١١٧ و ١١٨) ما يلي : - « وذهب مؤرخون معاصرون مثل الدكتور مصطفى جواد وعباس العزاوي الى رأي مخالف كما يكون المرقد يعود في الاصل الى السيد سلطان علي ابن محمد بن فلاح بن المشعشع (ت. ٨٦١هـ / ١٤٥٦م) (١) على اني لا اضيف شيئاً الى ما قيل سوى ما اعرفه من ان لقب (السلطان) لم يطلق على احد من

(١) قال الدكتور مصطفى جواد : - « ونحن لم نجد في رجال العراق من تسمى « بالسيد سلطان علي » الا السيد سلطان علي بن محمد بن فلاح المشعشع المتوفى سنة ٨٦١هـ قتل في ايام ير بوداق بن جهان شاه بن فره يوسف التركماني القره قوينلي في خوزستان وسلخ جلده وحشي تبنا وجه به الى بغداد في ١٦ جمادى الاخرة سنة ٨٦١هـ وارسل براسه الى جهان شاه كما في التاريخ الفيائي ص (٢٧٤) « انتهى . (دليل خارطة بغداد للدكتور مصطفى جواد واحمد سوسة حاشية ص ٣٠٤) .

وقال الاستاذ عباس العزاوي : - « من ولد السيد محمد المشعشع المولى علي حكم في زمانه وقتل بسهم في حصاره لقلمه بهبهان سنة ٨٦١هـ « انتهى (تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢ ص ١٤٩) .

ص ١٧٣ . ولا يزال الاختلاف في تاريخ القبر قائما « (١٠) . انتهى .

وقد عاد واستدرك الاستاذ العزاوي واكد ان هذا القبر هو قبر السيد سلطان علي والد السيد احمد الرفاعي وذلك في صفحة (٢٤١) من الجزء الثاني من كتابه (تاريخ العراق بين احتلالين) حيث قال : - « كنا قد تكلمنا على هذا الجامع بما وصل الينا والان بعد ان اوشك طبع الكتاب ان يتم عثرت على مجموعة عند بعض الاصدقاء الافاضل فرايت فيها ما ملخصه : السيد ابو الحسن علي بن يحيى ابن ثابت ابن حازم بن احمد بن علي بن رفاعه الحسن المكي نزيل اشبيلية الرفاعي الحسيني السيد الشريف سلطان العارفين ، ولد في البصرة عام ٤٥٩ هـ وتوفي ابوه السيد يحيى النقيب وله سنة واحدة وكفله اخواله الانصار وبنو خالته آل الصيرفي الامراء المشهورون في البصرة وشب على التقوى واخذ العلم والطريقة من جده لأمه الشيخ الكامل موسى ابي سعيد البخاري الانصاري شيخ الباطنيين . ولا زال يتردد الى البطائح لزيارة ابن خاله الشيخ الكبير السيد منصور البطايعي . وفي سنة ٤٩٧ هـ سكن البطائح بأمر الشيخ منصور وبذلك السنة زوجه باخته فاطمة الانصارية فاعقب منها اولادا مباركين اعظمهم السيد احمد الكبير الرفاعي . وكانت اقامة السيد ابي الحسن على صاحب الترجمة بقرية حسن من البطائح الى ان جاءت سنة ٥١٩ هـ ف وقعت الفتن الكثيرة بواسطه وكان الامام والمشار اليه بين طوائف الصوفية والزهاد ورجال العترة المحمدية فاجمع الناس على سفره لبغداد فتوجه ونزل بيت الامير مالك المسيب برأس القرية محلة ببغداد ، وقد كتب بشأنه للخليفة ما يلزم ان يكتب عماد الدين زكي صاحب واسطه فاعزه الخليفة ورفع مكانه (ثم مرض) وبعد اسبوع من مرضه توفي وعمل له الامير مالك مشهدا برأس القرية وهو الى الان يزار ويتبرك به وله منزلة في قلوب الناس » . انتهى .

وبعد هذا قال في نفس الصفحة : - « وهذه المجموعة تسمى « كتاب روضة الايمان في اخبار مشاهير الزمان » اولها : الحمد لله الاول والاخر . . الخ . للعلامة المحقق المدقق محمد بن ابي بكر بن علي بن عبد الملك بن حماد بن دكين . ولا ادري من هو مؤلفها . اما تاريخها فهو ٥ رجب سنة ١٣٠٥ هـ ولم يذكر كاتبها تاريخ نقلها . وفيها مباحث

(١٠) دليل خارطة بغداد حاشية ص (٢٠٤) .

الناصر لدين الله العباسي (٥) : - « وممن توفي بايامه وني الله تعالى العارف بالله الدال على انه السيد احمد بن السيد علي ابي الحسن الرفاعي . وكانت وفاته رضى الله عنه بام عبيدة قرية من اعمال واسط ولها شهرة في العراق . قدم ابوه سنة تسع عشرة وخمسمائة من واسط الى بغداد ليكتشف للخليفة المسترشد (٦) فتن الباطنية والفلاة من اهل البدعة وليحرضه على دفع تلك المفاسد فصار ضيفا ببيت الامير مالك بن المسيب ورفع المسترشد مكانه ولكن لم يقدر على ازالة فتنة الباطنية ودفع مفاسدهم وتعمل باستفحال امر السلطان محمود (٧) بالعراق فانزعج السيد علي الرفاعي لذلك وحم وبعد اسبوع توفي ببغداد وعمل عليه ابن المسيب مشهدا برأس القرية محلة بظاهر بغداد من جانبها الشرقي وفيه فقراء وله زوار ويؤثر عن السيد علي الرفاعي هذا من الكرامات اشياء كثيرة ويلقبه العامة بالسيد سلطان علي وله في قلوب الصالحين حرمة عظيمة » (٨) . انتهى .

وقد ذكر الاستاذ عباس العزاوي ان قبر سيد سلطان علي هذا هو قبر الشيخ علي الجلابري فقال : - « والظاهر ان شيخ علي هذا هو المنسوب اليه جامع سيد سلطان علي فانه ولي بغداد وتوفي فيها وموضع الجامع من مرافق دار الخلافة العباسية وهو الانسب بالسلطين . واما ما يقال من انه ابو الرفاعي فذلك من الموضوعات » (٩) . انتهى .

وقد علق الدكتور مصطفى جواد على قول العزاوي هذا فقال : - « لم نجد فيما بين ايدينا من التواريخ ان الشيخ عليا توفي ببغداد فانه قتل في وقعة بينه وبين اخيه احمد في بلاد ايران كما جاء في التاريخ الفياثي وتاريخ العراق بين احتلالين ج ٢

(٥) دامت خلافته من سنة ٥٧٥ هـ الى ٦٢٢ هـ (١١٨٠ م - ١٢٢٥ م) .

(٦) دامت خلافته من سنة ٥١٢ هـ الى ٥٢٩ هـ (١١١٨ م - ١١٢٥ م) .

(٧) هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي دامت سلطنته من سنة ٥١١ هـ الى سنة ٥٢٥ هـ (١١١٧ م - ١١٢١ م) .

(٨) مختصر تاريخ ابن الساعي ص (١١٢) مطبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ .

(٩) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢ ص ١٧٢ . وهذه المعلومات نقلها الاستاذ العزاوي عن تعليق للشيخ علي علاء الدين الاوسي (١٢٧٧ هـ - ١٣٤٠ هـ / ١٨٦١ - ١٩٢١ م) على كتاب « كلشن خلفا » المرتضى نظمى آل زاده عن ذكر وفاة الشيخ علي شاهزادة بن اويس الجلابري سنة ٧٥٢ هـ / ١٢٨٠ م .

تأريخية وأدبية وتعرض كثيراً للرفاعية ورجالها وتصل بهم إلى القرن العاشر ولم تتجاوز ذلك . وقد رايت عليها خط المرحوم شاكراً الألويسي في غرة شعبان من هذه السنة . ثم رايت (كتاب روضة الناضرين وخلاصة مناقب الصالحين) للشيخ أحمد ابن محمد الوتري المتوفى في عشر الثمانين وتسعمائة هجرية ينقل النص المذكور بعينه وكان قد اتم تلخيصه من كتابه (مناقب الصالحين وحجة اهل اليقين) سنة ٩٦٣ هـ . وطبع كتاب روضة الناضرين في مصر سنة ١٣٠٦ هـ . ونحن في حاجة ماسة إلى ما يؤيد هذا النقل أو يكشف غوامض تاريخنا ، ولعل القراء من له علم أو نص يصلح في هذا الجامع » . انتهى .

وعليه ومما تقدم فقد تأيد لنا بان القبر هو قبر السيد سلطان علي والد السيد أحمد الرفاعي

ثانياً : - رباط النظامية

ذكر السيد عادل في صفحة (١١٩) ما يلي :-
« يقع هذا الرباط عند (طولة الجندرية) فيما يلي مسجد النعماني قرب كنج عثمان ، أسس زمن سلطنة عبد المجيد (١١) سنة (١٢٦٥ هـ - ١٨٤٨ م) وقد أرخ نشأته الشاعر عبد الباقي (١٢) . وكان منقوشاً على رخامة موضوعة فوق باب الرباط المذكور ، وأمر خليل باشا (١٣) بهدمه وإضافته إلى الطريق وجعل قسماً منه تابعاً لدوائر الحكومة وأنشأ عن الأرض الباقية كما يقول صاحب العقد اللامع « روضة زاهية » ويضيف صاحب العقد أيضاً ان الترك بعد الاحتلال شنقوا في فناء هذه الأرض خلقاً كثيراً . وهذا الرباط وكنج عثمان كانا متصلين بسراي الحكومة » . انتهى .

وقد علق السيد عادل على مسجد النعماني في حاشية الصفحة نفسها تحت رقم (٨٥)

(١١) ولد السلطان عبد الحميد العثماني سنة ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١ م وجلس على العرش سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م وتوفي سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م .

(١٢) هو عبد الباقي بن سليمان بن أحمد العمري الفاروقي الموصلية ولد سنة ١٧٩٠ م وتوفي سنة ١٨٦٢ م .

(١٣) خليل باشا قائد الجيش التركي في جبهة العراق في الحرب العالمية الأولى بعد القائد نور الدين بيك . وهو الذي حاصر الجيش الانكليزي مع قائده العام (طاووزند) في الكوت وأسر مع جيشه سنة ١٩١٦ . وهو الذي خسر المعركة أمام القائد العام للجيش الانكليزي (الجنرال مود) وسلم بغداد للانكليز في ١١ آذار سنة ١٩١٧ .

فقال : - « او الجامع النعماني من مساجد بغداد القديمة فيه منارة مظلة على الطريق جدده الوزير داود باشا (١٤) سنة (١٢٣٩ هـ - ١٨٢٣ م) وكتب على احد جدرانها بعد الفراغ من عمارته ثلاثة ابيات من الشعر تجدها عند الألويسي (مساجد بغداد ص ٧٦) وكانت المحلة التي فيها المسجد تسمى قديماً بمحلة (رأس الساقية) لمرور ساقية الماء العائدة إلى جامع الشيخ عبدالقادر الجيلي التي فيها الماء من نهر دجلة والاتى منه بواسطة الكروود وكانت اكبر محلة في بغداد لوجود دار الخلافة فيها . » . انتهى .

اقول : - لقد حصل ارتباك عند الاستاذ عادل في تعيين محل وموقع هذا الرباط اذ اعتبر موقعه في محلة (رأس الساقية) وهذا غير صحيح والصحيح هو موقعه في محلة الميدان الحالية وذلك :-

١ - لما كان موقع هذا الرباط عند (طولة الجندرية) ومن المعلوم ان طولة الجندرية كان موقعها في مكان مديرية شرطة محافظة بغداد الحالية وبما ان مديرية الشرطة هذه تقع في محلة الميدان اذن فالرباط موقعه في محلة الميدان .

٢ - لم يكن في يوم ما سراي الحكومة في العهد التركي في محلة رأس الساقية وانما سراي الحكومة هو بناية القشلة الحالية ووزارة التربية (المعارف) سابقاً وايح قلعة وهي (وزارة الدفاع الحالية) وكل هذه البنايات تقع في وقرب محلة الميدان

٣ - لقد حصل اشتباه عند الاستاذ عادل في اسم المسجد اذ يوجد مسجداً هما مسجد النعماني ومسجد النعمانية . الاول يقع في محلة رأس الساقية والثاني يقع في محلة الميدان . وقد اعتبر الاستاذ عادل الرباط فيما يلي مسجد النعماني والصحيح هو فيما يلي مسجد النعمانية ، والدليل على ذلك هو ان الرباط وكنج عثمان كانا متصلين بسراي الحكومة وسراي الحكومة يقع في وقرب محلة الميدان كما ذكرنا ذلك (١٥) .

(١٤) داود باشا ولي على بغداد من سنة ١٢٣٢ هـ - ١٨١٦ م إلى ١٢٤٧ هـ - ١٨٣١ م . وهو آخر الولاة المماليك الذين توالوا على حكم العراق في العهد التركي .

(١٥) كثير من الناس موجودون الآن حالياً ممن شاهدوا قبر كنج عثمان مع السبيل خانة التي كانت بجنبه اذ لم يمض وقت طويل على ازالة القبر والسبيل خانة بعد ان

ومسجد النعمانية مجاور للمدرسة الإعدادية المركزية للبنين ومقابل دائرة البريد . بنته صاحبة الخيرات فاطمة خاتون بنت السيد بكتاش بن السيد ولي سنة (١١٨٥هـ - ١٧٧١م) والحقت به مدرسة علمية لتدريس العلوم الدينية ووقفت على لوازمها عقارات كثيرة وجعلت التولية من بعد لزوجها نعمان آغا (١٦) ابن الحاج إبراهيم آغا ومن بعده لأولاده (١٧) . وآخر من تصدر للتدريس في هذه المدرسة العلامة الشيخ قاسم البياتي وحامد الملا حويش ، وقد تخرج من هذه المدرسة علماء اعلام (١٨) .

ما جامع النعماني : - فيقع في محلة (رأس الساقية) وليس له أي صلة بهذا الموضوع والنعماني : - نسبة إلى حسام الدين النعماني

ثم نقل رفاته من قبره في محلة الميدان إلى مقبرة الشهداء في باب المعظم وكان ذلك سنة ١٩١٧م .

(١٦) واليه نسب المسجد (النعمانية) .

(١٧) والان التولية محصورة بالسيد عثمان نوري آل رئيس الكتاب الذي هو من احفاد نعمان آغا .

(١٨) البغداديون مجالسهم واندبستهم للمرحوم إبراهيم الدروبي (ص ٢٠١) .

وهو أبو الفرج أحمد بن عمر بن محمد بن ثابت بن عثمان بن محمد بن عبدالرحمن بن ميمون بن محمود بن حسان بن سماعيل بن يوسف بن ثابت الفرغانسي حماد بن أبي حنيفة النعمان بن ثابت الفرغانسي النعماني نزيل بغداد . اشتغل كثيرا وسمع الحديث من سراج الدين عمر القزويني (١٩) .

توفي حسام الدين سنة (٧٥٣هـ - ١٣٨١م) (٢٠)

(١٩) سراج الدين : - هو الحافظ الكبير محدث العراق سراج الدين عمر بن علي بن عمر الحسيني القزويني ثم البغدادى ولد سنة (٦٨٣هـ - ١٢٨٥م) وعنى بالحديث وسمع من الرشيد بن أبي القاسم ومحمد ابن عبدالحسن الدواليبي والنجم أحمد بن غزال وجمع جم . واجاز له النقي سليمان وغيره من دمشق وصنف التصانيف وعمل الفهرست واجاد فيه . روى عنه جماعة من آخرهم صاحب القاموس ، توفي سنة (٧٥٠هـ - ١٢٤٩م) .

وفي بغداد اليوم محلة تسمى باسمه (محلة سراج الدين) وقبره قائم إلى اليوم في الجامع المسمى باسمه أيضا . وقد عمر الجامع الذي يقع في نفس المحلة (سراج الدين) والي بغداد التركي حسن باشا الجديد سنة (١١٢١هـ - ١٧١٨م) .

ملاحظة : - ولي حسن باشا الجديد على بغداد من سنة (١١١٦هـ - ١٧٠٤م إلى سنة ١١٢٦هـ - ١٧٢٣م) .

(٢٠) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢ ص ١٦٢ .

المحتوى

٨- ٧	عبد الحميد العلوجي	هدية المنصور الى صدام
٢٠- ٩	الدكتور صبري فارس الهيتي	تخطيط مدينة بغداد
٢٦- ٢١	خالد خليل الاعظمي	عمارات بغداد في العصر العباسي
٢٨- ٢٧	برهان نزر محمد علي المياح	خانات بغداد
٥٩- ٢٩	عبدالله عبدالرحيم السوداني	اسوار بغداد
٦٤- ٦٠	د. رشيد عبدالله الجميلي	حملة هولاكو على بغداد
٧٢- ٦٥	نوري عبدالحميد خليل	حملات تيمور على بغداد
٧٨- ٧٢	د. حسين محمد القهواني	حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد
٩٥- ٧٩	د. صالح محمد العابد	حملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد
١٠١- ٩٦	د. علاء موسى كاظم نورس	حملة نادر شاه على بغداد
١٠٦- ١٠٢	د. محمد مظفر الادهمي	بغداد سنة ١٩١٧

ملاحم من الحفارة العربية في بغداد :
(١) المواصلات والجور في بغداد
(٢) الدواوين والوزارة

١٤٨-١٠٧	د. صالح احمد العلي	
١٦٤-١٤٩	جواد كاظم البياتي	بغداد في عهد الثورة
١٩٦-١٦٥	د. عماد عبدالسلام رؤوف	تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد

حول بغداد :

(١) بيت الحكمة في بغداد
(٢) بغداد في دوائر المعارف العالمية

٢٢٢-١٩٧	سليم طه التكريتي	
٢٤٤-٢٢٤	د. فاروق عمر فوزي	الجند الاموي والجيوش العباسي
٢٠٢-٢٤٥	د. جليل كمال الدين	بغداد مركز العلم والثقافة المالية في القرون الوسطى
٢١٨-٢٠٢	عادل العرداوي	التماثيل والانصاب في بغداد
٢٢١-٢١٩	د. خليل باز	بغداد ودورها الرائد في تفوق العرب على اليونان في منجزات الطب
٢٤٥-٢٢٢	فاطمة حمزة الراصي	الظرف البغدادي
٢٥٥-٢٤٦	ترجمة : يعقوب افرام منصور	سفارة من بغداد الى الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني
٢٦٤-٢٥٦	عادل محمد علي	حدائق الحيوانات في بغداد
٢٨١-٢٦٥	د. جليل كريم ابو الحب	حبة بغداد
٢٨٥-٢٨٢	عطا محمد صالح الحديثي	قبتان مخروطيتان من بغداد
٢٩٠-٢٨٦	اخراج : فاضل عباس	الخطيب البغدادي وتاريخه

٤٠٣-٣٩١	أعلام من الأندلس في بغداد ذ. محسن جمال الدين
٤١٣-٤٠٤	مقدمة حكاية أبي القاسم البغدادي ترجمة : طارق حيدر العاني
٤٢٠-٤١٤	بغداد وصمت للخط العربي مقاييسه محمود شكر الجبوري
٤٤٠-٤٢١	مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية تحقيق : كوركيس عواد وميخائيل عواد
٤٧٦-٤٤١	بغداد في الكتب البلدانية العربية عدنان محمد الطمعة

بغداد في آثار المستشرقين الفرنسيين :

- (١) بغداد في العهد العثماني روبير مانتران
- (٢) النشر العربي في بغداد شارل بيللا
- (٣) تيمودنك في بغداد جان اوبان
- (٤) العلوم والفلسفة في حضارة بغداد روجية ارتالدين

٥٠٤-٤٧٧	تراث بغداد في أثر عراقي ترجمة : د. اكرم فاضل
٥١٨-٥٠٥	القدم وثيقة عثمانية عن بغداد تحقيق : حميد مجيد هودو
٥٢٤-٥١٩	فصول من كتاب « نيل المراد في أحوال العراق وبغداد » ترجمة : عطا ترزي باشي
٥٣٨-٥٢٥	من الموروث البغدادي : تحقيق عبدالحسين مجيد

من الموروث البغدادي :

- (١) قصة الساعات في بغداد
- (٢) مذكرات بغداد

٥٧٠-٥٣٩	بغداد من خلال المقامات صادق محمود الجميلي
٥٨٨-٥٧١	الف ليلة وليلة عند مترجميها : الحياة العربية في المعصور الوسطى صبيح صادق
٦١٢-٥٨٩	البناء الفني للحكاية في الليالي ترجمة د. يحيى الجبوري
٦١٩-٦١٢	المعجوز في الف ليلة وليلة ياسين الناصر
٦٢٦-٦٢٠	الف ليلة وليلة عبدالفني السلاج
٦٣٦-٦٢٧	بغداد في مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام د. علي شلق
٦٤٤-٦٣٧	بغداد في أشهر المراجع : هدى شوكة بهنام

بغداد في أشهر المراجع :

- (١) بغداد في بليوغرافيا العمارة والفنون الإسلامية
- (٢) بغداد في رحلات الأجانب

٦٥٨-٦٤٥	استدراكات على كتاب « بغداد مدينة السلام » ترجمة واعداد : سلمان وفيق الراوي
٦٨٠-٦٥٩	تصويبات واستدراكات على (بغداد في سنة ١٨٥٢) عبود الشالحي
٦٨٨-٦٨١	تعقيب على مقال « الربط البغدادية » نجاة اسماعيل
٦٩٢-٦٨٩	هاشم محمد الرجب